تفسير الزهراوين

البقرة وآل عمران

١

محمد صالح المنجد

العبيكان
Obeikan

زاد

تفسير الزهراوين

تفسيرٌ أثريٌّ، تَرْبويٌّ، مُعاصِرٌ
تَسْهيلاً لِلتَّدَبُّرِ، والعَيْشِ مَعَ القُرآنِ

محمد صالح المنجد

مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

تفسير الزهراوين. / محمد صالح المنجد، ط١. - الرياض، ١٤٣٧هـ

٨٦٤ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥-٨٣-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. القرآن - تفسير أ. العنوان

ديوي: ٢٢٧,٣ ١٤٣٧/٤٧٠٥

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

الناشر

مجموعة زاد للنشر ZAD GROUP

المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

قصة كتاب: (تفسير الزهراوين)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلكلِّ كتابٍ قِصَّة، وقِصَّة كتابنا هذا تعود لأكثر من خمسة عشر عامًا؛ حيث بدأ الشيخ محمد صالح المنجِّد دروسَ التفسير بجامع (عمر بن عبد العزيز) بالخُبَر، شارحًا تفسيرَ الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ المعروف باسم (تفسير القرآن العظيم)، وانتظمَ في تدريسه لمدَّة تزيد عن ثلاث عشرة سنة.

ثم تطوَّر هذا الدَّرسُ إلى إملاء «تفسير» على الطلبة، مع الاعتِناء بجَمْع الفوائد، والنُّكَت، واللَّطائِف، والإشارات، من كُتُب التفاسير المختلفة، القديمة، والمعاصرة -والتي زادت عن الثلاثين- وترتيبها بأسلوبٍ سهلٍ، واضحٍ.

ومع اكتِمال تفسير سورة (الفاتحة) و(الزَّهْراوَين) -البقرة وآل عمران- ونظرًا لعموم الفائدة، وحاجة الناس إلى مثل هذا التفسير الذي سيكون فيه إثراءٌ للمكتبة الإسلاميَّة -بإذن الله-؛ فقد عكفَ الفريقُ العِلميّ بمجموعة زاد على مُراجعة التفسير، وإعادة صياغة المادة العلميَّة، وترتيبها، وتهذيبها، وزيادة بعض الفوائد والاستنباطات من الآيات، مع تخريج الآيات، والأحاديث النبويَّة المرفوعة، والآثار الواردة عن السَّلَف.

ونرجو من الله تعالى أن يكون (تفسير الزَّهْراوَين) باكورة إخراجِ هذا المشروع الكبير إلى النور (تفسير المنجِّد)، وأن يكون إسهامًا من الشيخ في هذا البَاب من أبوابِ العلم؛ ويكون تحقيقًا عمليًّا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ونسأل الله تعالى أن يوفِّقنا والمسلمين لِما يحبُّه ويرضاه، وأن يرزقَ الجميع الإخلاص والقَبول.

مجموعة زاد

المقـدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشـهد أن لا إله إلَّا الله، وحدَه لا شريك له، وأشـهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين. وبعد:

فـإنَّ شرفَ العِلْـم إنَّما يُنالُ بشَرَف ما يتعلَّـق به، وبموضوعه، وغايته، وشِـدَّة الاحتياج إليه.

ولـذا، فتفسـيرُ القرآن الكريـم، وتعلُّمه وتعليمـه؛ من أشرَفِ ما تُـصرَف فيه الأوقات، وتُبذَل فيه الأموال، وأصحابُه هم كالتاجِ على الرُّؤوس، وكالشمسِ للدُّنيا.

فالقرآن الكريم هو كلامُ الله تعالى، ووحيُه إلى نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسالتُه إلى خلقه.

وهـو هدًى، ورحمةٌ، ونورٌ، وبـلاغٌ، وبصائرُ، وذِكرٌ، وفرقانٌ، وموعظـةٌ، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وأهـلُ القـرآن -تعلُّمًا وتعليمًا- هـم خير الناس؛ كما ثبتَ في الحديـث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١).

ومـن المعلوم أنَّ كُتُب التفسـير قد كثُرَت، وبُسِـطَت، واختُصِرَت، وتنوَّعت مشـارِبُها، واختلفَت مناهِجُ أصحابِها.

وقد جرَت المحاولة في هذا التفسير أن يكون تفسيرًا قرآنيًا -يفسِّر القرآن بالقرآن- أثريًّا، تَرْبويًّا، دَعَويًّا، عَصْريًّا، واقعيًّا، يُسَهِّل تدبُّـرَ كتابِ الله، والانتفاعَ بآياتِه ومواعِظِه، والعيشَ

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

مـع القرآن، ويَرْبِـط القرآن بواقع الناس، ويكـون -مع كلِّ هذا- مُصاغًا بأسـلوبٍ سـهلٍ ميـسَّرٍ، يَجْمَع بين الأصالـة والمُعاصَرة -أصالـة القديم، وجِدَّة الحديث- ومناسِـبًا لعُموم الراغبينَ من طبقات المجتمَع المختلفة.

أهدافُ هذا التَّفسير:

* رَبْط الناس بكلام ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.
* إبراز هدايات القرآن المختلفة للتي هي أقوَم، في جميع المجالات: العقائد، الأحكام، المعامَلات، الآداب، الرَّقائِق، فِقه الواقع... إلخ.
* التربية على استِنباط الفوائد، والنُّكَت، والأحكام، واللَّطائِف، والإشارات القرآنيَّة من الآيات، ورَبْط القرآن بالواقع، بطريقةٍ سهلةٍ، من خلال الفوائد، والاستِنباطات، واللَّطائف المبثوثة في ثنايا التفسير.
* الاهتِمام بأسـباب النُّـزول، واختيار أصَـحِّ الرِّوايات الـوارِدة في الباب، واستِنباط الفوائد والعِبَر منها.
* الإشـارة إلى كثيرٍ من المسـتَجَدَّات؛ كربط القرآن بفِقه الواقع، والرَّدّ على الشُّـبُهات، ونحو ذلك.
* خِدمة الدُّعاة والمربّين من خلال ربط التفسير بالدعوة والتربية.

ونسأل الله تعالى التوفيق، والسَّداد، والقبول، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وآله، وصحبه.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

وهي سُورَة مكيَّة.

آياتها: سبعُ آيات -عند جميع علماء العدَد-؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجْر: ٨٧].

لكن اختلفَ العلماءُ: هل البسملةُ آيةٌ منها -فتكون الآية السابعة هي قولَه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾- أم ليست منها -فتكون الآية السابعة هي قولَه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾-؟[1].

أسماؤها: تُسَمَّى (أمَّ الكتاب)، و(أمَّ القرآن)؛ لأنَّها اشتملت على مقاصد القرآن كلِّه، ولأنَّ معاني الكتاب العزيز ترجع إليها. وتُسمّى أيضًا: (السبعَ المثاني)[2].

فَضْل سُورَة الفاتحة: هي السَّبع المثاني التي تُثنَّى وتكرَّر في كلِّ صلاة، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجْر: ٨٧].

وسمَّاها النبي ﷺ صلاة؛ كما في الحديث: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٦)، تفسير القرطبي (١/ ٩٢)، تفسير ابن عطية (١/ ٦١)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٧٥).

(٢) وأُطلق عليها عدّة أسماء أخرى، كالحمد، والصلاة، والشفاء، وغير ذلك، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠١-١٠٢).

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[١].

وهي أعظم سُورَة في القرآن، كما أخبر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سعيد بنَ المُعلَّى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بذلك، وقال له: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ»، ثم قال له: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[٢].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ»[٣].

والرُّقية بالفاتحة نافعةٌ، كما فعل أبو سعيدٍ الخُدريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأقرَّه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك[٤].

وقد فُتِحَ بابٌ من السماء، فنزل منه مَلَكٌ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[٥].

ولا تُجزئ الصَّلاة دون قراءتها؛ لِما في «الصحيح» عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ؛ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثلاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ»[٦].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»[٧].

مقاصد السورة:

جاءت السورة كالمقدِّمة لكتاب الله؛ فحَوَت جميع مقاصده وأغراضه على جهة الإجمال.

وهي منزَّلة من القرآن منزلة الدِّيباجة للكتاب، أو المقدِّمة للخُطبة.

ويحتوي أسلوب الفاتحة على ثلاث قواعد للمقدِّمة:

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٩١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٦٠).

(٤) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٥) رواه مسلم (٨٠٦).

(٦) رواه مسلم (٣٩٥).

(٧) رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

الأولى: إيجاز المقدِّمة؛ لئلَّا تملّ نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السُّوَر الطوال، مع أنَّها سُورَة قصيرة.

الثانية: أن تشير إلى الغرض المقصود، وهو ما يُسَمَّى «براعة الاستهلال»؛ لأنَّ ذلك يُهيِّئ السامعين لسماع تفصيل ما سيَرِد عليهم، فيتأهَّبوا لتلقِّيه.

الثالثة: أن تكون المقدِّمة من جوامع الكَلِم، وقد بيَّن ذلك علماء البيان، عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلِّم أن يتأنَّق فيها.

موضوعات السُّورَة:

الثَّناء على الله تعالى، والتوكُّل عليه، وتقوية الرجاء برحمته، والاستعانة به، واستمداد التوفيق منه سبحانه، وطلب الهداية والثبات منه وحدَه.

وترقُّب العبد للحساب والجزاء يوم القيامة.

وتخليص العِبادة مِن الشِّرك.

والاستقامة على الدِّين.

وطلب الأمان مِن غضب الله والضلال عن سبيله، ومجانبة اليهود والنصارى، وعدم التشبُّه بهم.

تفسير الاستِعاذة:

أَمر الله بها عند البدء بقراءة القرآن؛ فقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وكذلك أمر بها إذا نزغ الشَّيطان الإنسان بمعصية، وإذا خشي مِن حضوره، وإذا وسوس له في الصَّلاة، وعند الغضب، كما ثبتت بذلك السُّنة.

والأمر بالاستِعاذة قبل قراءة القرآن لتُدرأ وسوسة الشَّيطان؛ وذلك ليحصل التدبُّر والاستمرار في القراءة، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في استفتاح صلاته قبل أن يقرأ الفاتحة: «أَعوذُ بِالله السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»(١)، وهَمْزه: الجنون، ونَفْخه: الكِبر، ونَفْثه: الشِّعْر القبيح.

---

(١) رواه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٢/ ٥٤).

والاستِعاذة طهارة للفم مِن اللَّغو والرَّفَث، والتجاء إلى الله، وطلب الحماية منه، مِن شرِّ الشَّيطان؛ لأنَّه عدوّ باطن خفيّ، لا ينفع معه المداراة والمصانعة.

و(**الشَّيطان**): مشتقٌّ مِن «شَطَنَ» إذا بَعُدَ، وهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيدٌ بِفِسْقه وكُفره عن كلِّ خير.

وقيل: هو من باب «شاط»، وهو أصلٌ يدلُّ على ذَهاب الشيء، إمَّا احتراقًا وإمَّا غَيْرَ ذلك، ومنه: «استشاط الرَّجلُ» إذا احتدَّ غضَبًا، والنون في «الشَّيطان» زائدة، على وزن «فعلان»[(١)].

و(**الرَّجيم**): فعيل بمعنى مفعول؛ أي: المرجوم المطرود عن الجنَّة، وعن الخير كلِّه.

تفسير البسملة:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾:

افتتح الصَّحابةُ كتاب الله بالبسملة، واتفق العلماء على أنَّها بعض آية مِن سُورَة النمل، واختلفوا: هل البسملة آية مِن الفاتحة، أم لا؟

وثبت أنَّها نزلت للفصل بينَ السُّور، كما روى ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «كان لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ، حتَّى تَنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»[(٢)].

وقد ثبت أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يفتتح الصَّلاةَ بها؛ فقد سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، «يَمُدُّ بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، وَيَمُدُّ بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وَيَمُدُّ بـ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾»[(٣)].

وذهب كثيرٌ مِن العلماء -وهو الثابت عن الخلفاء الأربعة- إلى عدم الجهر بها قبل الفاتحة في الصَّلاة.

وقوله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي: أبتدئ قراءتي بـ(بسم الله)، أو: ابتداء القراءة بـ(بسم الله)؛ للاستعانة به عَزَّوَجَلَّ، والتماس البرَكة بتقديم ذِكْر اسمه قبل العمل.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٥)، تفسير القرطبي (١/ ٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٥٤).

(٣) رواه البخاري (٥٠٤٦).

﴿ٱللَّهِ﴾: لفظ الجلالة، اسم لا يُسَمَّى به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أكثر الأسماء ورودًا وتكرارًا في الكتاب والسُّنَّة.

وهو مشتقٌ مِن «أَلِهَ» يأْلَهُ، ومعناها: العِبادة بمحبَّة وذُلٍّ وخضوع، وأصل هذه اللفظة «الإلـه»، فلمَّا حُذِفت الهمزة والتقت اللام باللام؛ أُدغِمتا، فصارتا في اللفظ حرفًا واحدًا مشدَّدًا، وفُخِّم تعظيمًا.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، وكلاهما يدلَّان على ذاته، وعلى صفة الرحمة، وهي رحمة حقيقيَّة تليق بجلاله وعَظَمته.

وإذا اجتمع الاسمان -كما في هذا الموضع-؛ فـ«الرحمن» يدلُّ على الرحمة التي هي صفته، و«الرحيم» يدلُّ على فِعْله المتعدِّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

و(الرحمن) اسم مختصّ بالله سبحانه، لا يُسَمَّى به غيره، بخلاف «الرحيم».

وهذا الاسم: (الرحمن) هو الذي أنكره مُشركو العرَب؛ كما قال الله عنهم: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، لكنَّه إنكار جحود واستهزاء، لا جهالة واستبعاد، فقد كان الاسم معروفًا في أشعارِهم، كقول أحدهم:

عَجِلتم عَلَيْنا عَجْلَتَيْنَا عليكُمُ ... وَمَا يَشَأ الرّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾:

وقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: إثبات كلِّ المحامد لله. و(الحمد) وصف المحمود بالكمال مع المحبَّة والتعظيم، واللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاص والاستِحقاق.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الربُّ): هو الخالِق، المالِك، المُدبِّر.

و(العالمين): جمع عَالَم، وهو كلُّ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، مِن الملائكة والإنس والجنِّ والطير وغيرها.

وقد وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم عَلَم على خالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ففي كلِّ شيء من المخلوقات آية تدلُّ على الخالق: على قدرته، وحِكمته، ورحمته، وعِزَّته، وغير ذلك من معاني ربوبيَّته.

الفَرْقُ بين المدحِ والحَمْدِ:

المدحُ: وَصْفُ الممدوح بالصِّفات الحميدة، لكن لا يلزم منه أن يكون محبوبًا معظَّمًا،

فقد يمدحُه مِن أجل أن ينالَ غَرَضًا له، وقد يمدحُه مِن أجل أن يتَّقي شَرَّه، لكن الحمد لا يكون إلا مع محبَّةٍ وتعظيمٍ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّناء على الله، وأنه تعالى مستحقٌّ للحمد؛ لجليل صفاته، حتى قبل أن يخلق الخليقة.

وفيها: تحقيق التوحيد، بإثبات اختصاص الله بجميع المحامد، وهذا لا يُشارِكه فيه غيره.

وفيها: إثبات رُبوبيَّة الله تعالى لجميع أصناف الخليقة.

وفيها: تقديم وصف الله بالألوهيَّة على وصفه بالرُّبوبيَّة؛ تنبيهًا على أهميَّة هذا النوع مِن التوحيد الذي أنكره المشرِكون وأكثر الأُمَم الذين بعث الله إليهم الأنبياء.

وفيها: تربية الله لخَلْقه عُمومًا؛ بهدايته لهم لِـما فيه مصالحهم، وتربيته لأوليائه خصوصًا بهدايتهم، وتعليمهم وتوفيقهم لعبادته.

وفيها: أنَّ من أسماء الله (الربّ)، ولا يُطلَق على غير الله إلَّا بالإضافة -مثل: «رَبِّ الدار»-.

وفيها: إثبات عظمة الله بخَلْقه للعوالم المختلفة في السماوات والأرض، التي لا يحصيها ولا يعلمها إلَّا هو.

وفيها: ثناء الله على نفسه، وحمده لنفسه، أمَّا البشر: فإنَّهم لا يُزَكُّون أنفُسَهم.

وفيها: تعليم العِباد حمدَه بالاقتداء به عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: فَضْل افتتاح الكلام بحمد الله.

وفيها: فَضْل التحميد، وهو أفضل مِن التسبيح، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ للهِ»(١).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾:

وقوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، فـ(الرحمن) يدلُّ على الرحمة التي هي صفته، و(الرحيم) يدلُّ على فِعْله المتعدِّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يـدلُّ عـلى ذاته، ويدلُّ على صفة الرحمة، وهو رحمـن بجميع الخَلْق، وكلُّ النِّعَم مِن آثار رحمته، ولا يجوز أن يُطلَق هذا الاسم على غير الله.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: وهذه صيغة مبالغة، تُقال لِمن كثرت منه الرحمة، ويدلُّ على الرحمة المتعلِّقة بفعله، وهو رحيمٌ بالمؤمنين، بهدايته لهم ولُطفه بهم.

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

النوع الأول: رحمة ذاتيَّة، موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، كسائر صفاته.

والثانية: رحمة مخلوقة، أنزل الله عز وجل منها جزءًا يتراحم به الخلائق فيما بينهم.

وهذه الرحمة المخلوقة أثر من آثار رحمته، التي هي صفته الذاتيَّة الفِعليَّة.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إثبات هذين الاسمَين الكريمين لله تعالى.

وفيهما: بيان أنَّ ربوبيَّته عَزَّوَجَلَّ متضمِّنة ومبنيَّةٌ على رحمته الواسعة، وجارية على وَجه الرحمة والرفق واللِّيْن، لا على وجه الشِّدة والأذى والحَرَج.

وفي قوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **بعد قوله** ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: ترغيبٌ بعد الترهيب؛ لأنَّ الرَّب هو القادر القويّ، وهو السيِّد المالك المتصرِّف في خَلْقه من غير منازِع، وإتْبَاع الترهيب بالترغيب أعون على طاعته وعبادته.

وقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دُعاءٍ علَّمه صاحبَه معاذًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «رَحْمَنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا»[1].

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

وقوله ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: له المُلك التَّام في ذلك اليوم -يوم القيامة- لا يملك أحدٌ فيه حُكمًا مع الله.

وقراءة (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) صحيحة متواترة؛ فـ(مَلِكِ) صفة لذاته، و﴿مَٰلِكِ﴾ صفة لفعله.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٤)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٢١).

وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أنَّ مُلكه جلَّ وعلا مُلك حقيقي؛ لأنَّ مِن الخلق مَن يكون مَلِكًا، ولكن ليس بمالك؛ يُسَمَّى مَلِكاً اسمًا، وليس له من التدبير شيء.

ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون مَلِكًا، كعامَّة الناس.

ولكنَّ الرَّبَّ عزّ وجلّ: مَالِكٌ مِلِك.

و﴿ٱلدِّينِ﴾: هو الحساب والجزاء، بالعَدْل والقِسط.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

إثبات المُلك المطلق لله تعالى يوم القيامة، ومَن مَلَكَ الزمان فَقْد مَلَكَ ما فيه، وأمَّا مُلْكه للدنيا: فهو داخلٌ في قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وفيها: أنَّ من أسباب استِحقاق الله للحمد: مُلكَه التَّام يوم القيامة، وهو عَزَّوَجَلَّ يبعث كلَّ العوالم في ذلك اليوم -حتى الطير والدواب- ويكون القِصاص بينها مِن تمام الدِّين، وهو الجزاء وإقامة العَدْل.

وفيها: موعظة العِباد بِذِكْر يوم القيامة؛ ليعمل العبد بما يُنَجِّيه في ذلك اليوم، ويأخذ حذره ويحتاط ويستعدّ.

وفيها: ظهور مُلْك الله جليًّا لجمع الخلائق.

وفيها: زوال مُلْك جميع المخلوقين يوم القيامة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلَّا إيَّاك. و(العِبادة): كمال المحبَّة والخوف والذُّل والطاعة للمعبود.

والعبادة: اسم جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الباطنة والظاهرة.

وتُبنى على أركان ثلاثة:

كمال الحُبِّ، وكمال الرَّجاء، وكمال الخوف من الله تعالى، وقد جمع الله عز وجل هذه المقامات الثلاثة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلَّا بك على طاعتك، وعلى أمورنا كلِّها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إخلاص العِبادة لله، والاهتِمام بإفراده بالعِبادة، والاستعانة الكاملة به سبحانه.

وقد دلَّ على هذا تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ لأنَّ العِبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتِمام والحَزْم هو أن يقدِّم ما هو الأهمّ فالأهمّ.

وفيها: حَصْر العِبادة والاستعانة الكاملة بالله، كما دلَّ عليه تقديمُ ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفِعْل ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾.

وفيها: البراءة مِن الشِّرك.

وفيها: التبرُّؤ مِن حَول العبد وقوَّته، وإعلان توكلُّه واعتماده على ربِّه.

وفي تحوُّل الكلام مِن الغَيبة إلى المواجَهة بكاف الخِطاب: إشارة إلى اقتراب قارئ الفاتحة وحضوره بينَ يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ هذا الإقرار بالعبوديَّة لله والاستعانة به يؤهِّل العبد للطلب والدعاء؛ ولذلك يسأل بعدها ويقول: ﴿ٱهۡدِنَا﴾.

وقد قال الله تعالى في الحديث القُدْسِيّ: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

وفيها: تقديم الأهمِّ على المهمّ؛ لأنَّه قدَّم العِبادة -وهي المقصودة- على الاستعانة -وهي الوسيلة-.

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾: إشارة إلى اجتماع المؤمنين على ذلك، وأنَّ قارئ الفاتحة ليس وحدَه في هذا الأمر، فيأنس في الوَحْشة وغُرْبة الدِّين، وتسهُل عليه العِبادة إذا شعر باشتراك إخوانه الأوَّلين والآخِرين معه فيها.

وفي قراءة الإمام لها: معنى الإعلان بذلك هو والمأمومون.

وفي نون الجمع أيضًا: إشارة إلى أنَّ العبد تَعْظُم منزلته ويَشْرُف مقامه عند ربِّه بالعِبادة والاستعانة.

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾: إشارة إلى أنَّ عبادة الصَّلاة مبنيَّة على الاجتماع.

وفيها: أنَّ العبد لا يتمكَّن من عبادة الله إلَّا إذا أعانه الله على ذلك، وفي هذا منعٌ للعُجْبِ والغُـرور الـذي قد يصيب بعض المُكثرين من العِبادة؛ فإنَّه إذا علم أنَّ اجتهاده هذا لم يكن ليحصل لولا إعانة الله؛ فإنَّه لا يقع في العُجْبِ والغُرور.

وفي هذه الآية: شاهدٌ لمعنى الحوقلة (لا حول ولا قوة إلَّا بالله)؛ فالعبد يستعين بالله تعالى في إنجاح حوائجه وأموره.

وفيهـا: إشـارة إلى أنَّـه لا ينبغي التوكُّل إلَّا على مَن يسـتحقّ العِبـادة، كما قال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وفيها: ردٌّ على مذهبي الجبْريَّة والقدَريَّة الضالَّين؛ فإن قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾ يدلُّ على أنَّ للعبد اختيـارًا للفعـل وإرادة لـه في القيام بذلك، وهـذا ردٌّ على الجبرية الذين يقولـون: لا اختيار للعبد وأنَّه مجبور على أفعاله.

وقولـه ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيـه: بيـان أنَّ العبـد لا يمكـن أن يفعـل إلَّا بعـون الله ومشـيئته وتمكينه، وفي هذا ردٌّ على القدَريَّة الذين يقولون: إنَّ العبد يَخْلُق فِعْلَه بنفسـه، دون إرادة ومشيئة الله!

وفيهـا: حَصْر الاسـتعانة بالله فيما لا يقدِر عليـه إلَّا الله، وأنَّ اسـتعانة التفويض الكامل خاصةٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، وتجوز الاستعانة بالمخلوق فيما يقدِر على المعاونة فيه.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾:

وبعـد الثَّناء عـلى الله في الآيات المتقدِمة؛ نَاسَـبَ أن يَسـأل العبد حاجتـه؛ ولذلك قال: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي: أرشِدنا، ودُلَّنا، وألهِمنا.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريـق الواضـح ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي لا اعوِجاج فيه، وجاء تفسـيره بـ: كتاب الله أو القرآن، والإسلام، والنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والحقّ.

وكلُّ هذه التفسيرات ترجع إلى أمرٍ واحدٍ؛ وهو: طاعة الله، والمتابعة لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فمـن اتَّبـع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقـد اتَّبع الحقَّ، ومـن اتَّبع الحقَّ فقـد اتَّبع الإسـلام، ومن اتَّبع الإسلام فقد اتَّبع القرآنَ. فكلُّها صحيحة يُصدِّق بعضها بعضًا.

وقـال النبي ﷺ: «ضَرَبَ الله مَثَلًا صِراطًا مُسْـتَقيمًا»، ثم فسَّره فقال: «والصِّراطُ: الإِسْلامُ»(١).

وتَـكرارُ العبد للدُّعاء بطلب الهداية في قراءة الفاتحة في كلِّ صلاة -وإن كان مستقيمًا على الحـقِّ- ليـس تحصيل حاصل؛ فإنَّ تَـكرار طلب الهداية هو طلب الثبات عليها، والرسـوخ فيها، والازدياد منها، والاستمرار عليها، وزوال موانعها وصوارفها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المطلوب بعد العِبادة والاسـتعانة هو: اتِّباع الشريعة؛ ولذلك يَطلب العبدُ من ربِّه أن يدُلَّه عليها، ويوفِّقه إليها.

وقولـه ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ أَبْلَغُ مِن قـول (اهدنا إلى الصِّراط)؛ لأنَّ العبارة الأُولى تعني هداية التوفيق، وليس مجرَّد هداية الدلالة، وتتضمن معنى (ألهِمنا) و(ألزِمنا).

وفيها: التحذيرُ مِن البِدَع، واتِّباع السُّبُلِ المنحرِفة.

ويؤخَذ منها: إثبات النبوَّة؛ لأنَّ الصِّراط المستقيم لا يمكن معرفته إلَّا بالوحي.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: أهميةُ الثَّناء على الله قبل سؤالِه ودعائِه.

وفي تـلاوة المُصَلِّي لهـذه الآية عِدَّة فوائد؛ منها: طلب المقصود -وهو الهداية- وحصول أَجْرِ العِبادة باللجوء إلى الله بالدُّعاء، وأجرِ تلاوة القرآن (لكلِّ حرفٍ عَشْرُ حسناتٍ).

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾:

ثم بيَّن تعالى الصِّراط المستقيم؛ فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بطاعتك وعبادتك، وتفسـير هذا موجودٌ أيضًا في قوله تعـالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهـم: اليهـود، الذيـن علِمُـوا الحقَّ وكتمـوه وجحدوه، فاستحقُّوا غضب الله.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم: النصارى، الذين فقدوا العِلْمَ، فهامُوا في الضلالة وتِيهِ الجهالة.

---

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

فهذا دعاءُ المؤمنين أن يَسلُكَ الله بهم صراطه المستقيم، صراط النبي ﷺ والمؤمنين، لا صراط اليهود المغضوب عليهم، ولا النصارى الضالِّين.

وقد جاء في الحديث الصحيح، في بيان حال الربِّ مع العبد إذا قرأ الفاتحة في الصَّلاة: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

ولهذا يقول العبد في آخر مسألته هذه: «آمين»؛ أي: اللهُمَّ استجِب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ عقيدة المؤمنين واحدةٌ، وليست سُبُلًا متفرِّقة.

وفيها: أنَّ الجهل والعناد مِن أسباب الخروج عن الصِّراط المستقيم.

وفيها: أنَّ كُفرَ اليهودِ أشدُّ مِن كُفر النصارى؛ لأنَّهم عرفوا الحقَّ وخالفوه وحاربوه، أمَّا النصارى: فقد جَهِلوه وعادوه، ولذلك كان الغضبُ مِن أخصِّ صفات اليهود، والضلالُ مِن أخصِّ أوصاف النصارى.

وفيها: أنَّ طريقة أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم هي: الجَمْع بينَ العِلْم بالحقِّ، والعملِ به.

وفي هذه الآية: مثالٌ عظيمٌ لتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسُّنَّة، وهما أعلى أنواع التفسير:

فأمَّا تفسير القرآن بالقرآن؛ فهو ما تقدَّم مِن تفسير قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بقوله في سُورَة «النِّساء»: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وأمَّا تفسير القرآن بالسُّنَّة؛ فهو ما ورد مِن حديث عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ (المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ) اليَهُودُ، وإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

وفيهـا: إيناس أهل الحـقِّ وتثبيتهم في أوقات الغُربة؛ بالنصِّ على أنَّ طريقهم قد سـلكه ويسلكه وسيسلكه الّذين أنعم الله عليهم.

وفيها: بيان نِعمة الله على المؤمنين، بسـلوك الصِّراط المستقيم في الدُّنيا المُوصِل إلى جنَّته في الآخرة،وأنَّ مَن سلكه في الدُّنيا عبَر الصِّراط على متن جهنم سالمًا أيضًا.

وفيها: براءة أهل الإسلام -أصحاب الصِّراط المستقيم- مِن اليهود والنصارى.

وفي هذا: ردٌّ على القائلين بتقارب الأديان، أو إمكان الوَحدة بينَ الأديان؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ لا يمكن أن يقتربوا مِن أهل الغضب واللَّعنة.

ويؤخَذ منها: أنَّ العالِـم الفاجر فيه شَبَهٌ مِن اليهود، والعابد الجاهل فيه شَبَهٌ مِن النصارى.

وفيها: أنَّ الإنسان مهما بَلَغَ مِن مراتب الإيمان؛ فإنَّه لا يزال محتاجًا لطلب الهداية مِن ربِّه.

وفيها: تذكيرٌ بمُوالاة المؤمنين ومحبَّتهم، ومعاداة الكافرين وبُغْضِهم.

وفيها: تعليمُ العِباد الأدبَ مع الله، في عدم نسـبة الأشـياء المكروهة إليه مباشرة؛ مع أنَّه هو الذي شاءَها وقدَّرَها وخَلَقَها:

ففي قوله ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نَسَبَ الضلال إليهم؛ مع أنَّه قال في آية أخرى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف ١٨٦]، وقـال هنـا أيضًا: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، مع أنَّه قاله في آية أخرى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [المجادلة: ١٤].

وهذا كما في الحديث: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»[(١)].

وفيها: إشارةٌ إلى وجوب اتِّباع أهل الحقِّ، والحذر من اتِّباع أهل الضلال.

وفي ختـام هـذه السـورة، يُـشرع لتاليهـا في الصَّـلاة وغيرها أن يقـول بعدهـا: «آمين»؛ ومعناها: اللهُمَّ استجِب.

والسُّـنَّة الجهر بهـا إذا جهر بالقراءة؛ لحديـث وائل بن حُجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَـمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـرأ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقال: «آمين»، وَمَدَّ بها صَوْتَه[(٢)]، وفي رواية: «رَفَعَ بِها صَوْتَه»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٩٣٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٨٦٣).

وقد ورد في فَضْل التأمين:

حديث: «إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

وفي رواية: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ المَلائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَإِذَا قَالَ (يعني: الإمام) ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ؛ يُجِبْكُمُ اللهُ»(٣)، يعني: يستجِبْ دُعاءَكم.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»(٤).

وفيها: أنَّ اليهود مغضوبٌ عليهم مِن الله، ومِن عباده المؤمنين. وأنَّ غضب المؤمنين تَبَعٌ لغضب الربِّ.

وفيها: تقديم نِعمة الدِّين؛ وهي التي رزقها عبادَه المؤمنين.

وفيها: الحثُّ على الاطِّلاع على سِيَر الذين أنعم الله عليهم مِن الأنبياء والصالحين؛ لأجل الاقتداء بهم.

---

(١) رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

(٢) رواه البخاري (٧٨١).

(٣) رواه مسلم (٤٠٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٥).

سُورَةُ البَقَرَةِ

وهي سُورَة مدنيَّة -بلا خلاف- وهي مِن أوائل ما نزل بالمدينة، وقد تأخَّر نزولُ بعض آياتها.

آياتها:

ستٌّ وثمانون ومائتان -على خلافٍ بين علماء العدَد-.

قال بعضُ العلماء: «وهي مشتملة على ألف خبَر، وألف أمر، وألف نهي».

أسماؤها:

تُسَمَّى (البقرة) و(الزَّهْراء)؛ لحديث: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ...» الحديث[١].

وتُسَمَّى سَنَام القرآن؛ لحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ»[٢]. والسَّنام: الرِّفْعة.

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورَة: إقامة الدَّليل على أنَّ القرآن الكريم هُدًى للناس، ليُتَّبَع في كلِّ حال.

وأعظم ما يهدي إليه: الإيمانُ بالغَيب، ومجْمَعه: الإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٨)، مرفوعا، وموقوفا، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٥٨٨).

بالبعـث، الذي أعربَـت عنه قِصَّة البقرة، التـي مدارها الإيمان بالغَيب، فلذلك سُـمِّيت بها السُّورَة، وكانت بذلك أحقَّ من قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّها في نوع البشر.

من موضوعات السُّورَة:

مَدْح المتَّقين ومؤمني أهل الكتاب، وذَمُّ الكفَّار -ومنهم كفَّار مكة- والمنافِقين -ومنهم مُنافقو المدينة-.

والرَّدُّ على مُنكري النبوَّة، والتحدِّي بالإتيان بمِثل سُوَر القرآن.

وقصَّة خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعليمه وتلقينه.

وذمُّ علماء اليهود -في مواضع عِدَّة-.

وقصَّـة موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستسـقائه، ومواعدته ربَّـه، وقيادته لبني إسرائيل، وشـكواه منهم، وحديث البقرة.

وتحريم السِّحْر، وقِصَّة سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهاروت وماروت.

والرَّدُّ على النصارى.

وابتلاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبناء الكعبة، ووصيَّة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاده.

وتحويل القِبلة.

وبيان الصَّبر على المُصيبة وثوابها.

والأمر بالحَجِّ والعُمرَة، ووجوب السعي بينَ الصفا والمروة فيهما.

وبيان حُجَّة التوحيد.

والأمر بصيام رمضان.

وحُكم القتال في الأشهر الحُرُم.

وذِكر بعض أحكام الحَيْض، والطلاق، والأنكحة، والعِدَّة.

وذِكر الصَّدَقات والنَّفقات، والأمر بالإخلاص في الإنفاق وذِكر أجره.

وتحريم الرِّبا.

وبيان المُداينات.

واستِسلام النبي ﷺ وأصحابه لخبر الله، ونزول التخفيف في حديث النفس، والخطأ، والنسيان.

وغير ذلك.

فَضْل سُورَة البقرة:

سورة البقرة تمنع دخول الشَّيطانِ البيت، وتطرُده إذا كان في البيت؛ لحديث: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»[١].

والملائكة نزلت لسماعها؛ كما جاء في حديث أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنه: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، يقول: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا». وأنَّه لـمَّا حدَّث النبي ﷺ بذلك قال له: «تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[٢].

وقد أمر النبي ﷺ بتعلُّمها؛ فقال: «اقْرَءُوا -وفي رواية: تعلَّموا- سُورَةَ البَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»[٣]، والبَطَلَة هم: السَّحرة.

وتُظِلُّ صاحبَها يوم القيامة مع سُورَة «آل عمران»؛ كما في الحديث: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»[٤].

والمعنى: يأتي ثوابها كأنَّه سَحابتان تُظِلَّان صاحبَها عن حرِّ الموقف، أَوْ كَأَنَّهُمَا طائفتان من طَيْر واقفة على الصَّف، أو باسطة أجنحتها متصلًا بعضُها ببعض، تُدافِع وتُجادِل عن أصحابِها.

---

(١) رواه مسلم (٧٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

(٣) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٥٧).

(٤) رواه مسلم (٨٠٤).

وفي حديثٍ آخر: «يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآل عمران»[١].

وكان مَن يحفظها مع آل عمران يَعظُم في أعين الصَّحابة، كما قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: البَقَرَةَ وَآل عمران؛ جَدَّ فِينَا -يَعْنِي عَظُمَ-»، وفي رواية: «عُدَّ فينا ذا شأن»[٢].

وربما جُعِل أميرًا على البُعُوث بسببِ ذلك[٣].

وفي الحديث: «مَن أخذَ السَّبْعَ الأُوَلَ؛ فهو حَبْرٌ»[٤]؛ أي: عالِم.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ»[٥].

والسَّبْع الأُوَل هي: السَّبْع الطوال، وهي: البقرة، وآل عمران، والنِّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة.

﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾:

﴿الٓمٓ﴾: في هذه الأحرُف المُقَطَّعة أقوالٌ عِدَّة؛ منها: أنَّ لها معنى، فقالوا: أسماءٌ للسُّور، وقالوا: أسماءٌ لله تعالى، وقيل: مفاتيح لأسماء الله، وقالوا: أقسامٌ أقسم الله بها.

ومنها: أنَّ لها معنى لا يعلمه إلَّا الله. فتوقَّف بعض العلماء في هذه الأحرُف.

وقيل: لا معنى لها؛ لأنَّها ليست بكلمات، ولا تُقرأ على حسب الكتابة، ولكن على حسب اسم الحرف، فلا يقال «أَلَمَ»، وإنما يُقال: «ألف لام ميم»؛ فدلَّ هذا على أنَّه ليس لها معاني.

ولكن لها مَغْزَى؛ وهو: أنَّ الله تعالى لـمَّا تحدَّى العرَب بالإتيان بمِثل هذا القرآن؛ بيَّن أنَّه نـزل بلُغتهم، وبهذه الحروف التي يعرفونها من كلامهم، وليس بحروف خارجة عن نطاق البشر، فلم يأتِ القرآن بجديد من الحروف، فهاتوا مِثله -يا معشر كفَّار العرَب- لكن أهل اللُّغة البُلَغاء الفُصَحاء لم يستطيعوا الإتيان بمثله.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٥).

(٢) رواه أحمد (١٢٢١٥، ١٢٢١٦)، وابن حبَّان (٧٤٤ -إحسان).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٦)، وقال: «حسن»، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترغيب (٨٦٤).

(٤) رواه أحمد (٢٤٤٤٣)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٥).

(٥) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان (٢١٩٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٩).

وقوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هذا القرآن ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ لا شكَّ. و(الرَّيب): هو الشَّكّ المُقْلِق للنَّفْسِ.

﴿فِيهِۛ﴾ لا ريب في مصدره، ولا في أحكامه، وأخباره، فآمِنوا ولا ترتابوا.

﴿هُدٗى﴾ نورٌ وتِبْيان وهداية مِن الضلالة، وخروجٌ مِن الظُّلُمات إلى النُّور.

﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بفعل ما أَمَر به، واجتناب ما نهى عنه، واتقوا الشِّرك وما حرَّم الله.

والوَقف على قوله ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أَوْلَى وأَبْلَغ مِن الوقف على قوله ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾؛ لتكون ﴿هُدٗى﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وهو: القرآن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإشارة إلى الكِتاب بأداة البعيد؛ دالَّةٌ على عُلُوِّ مكانة القرآن، وشرف منـزلته.

وفي وصف القرآن بـ (الكتاب)، بمعنى: مكتوب؛ إشارة إلى العِناية به؛ لأنَّ الله كتبه عنده في اللَّوح المحفوظ، وجعله مكتوبًا في صُحُف الملائكة، وفي المصاحف التي بأيدي الناس كذلك.

وفيها: أنَّ القرآن هدايةٌ للمتَّقين، وليس للكفَّار المعاندين، والمنافِقين المرتابين؛ فإنَّ هؤلاء يكون القرآن عليهم عمًى، وربما ازدادوا به ضلالة، فَهُم في ريبهم يتردَّدون.

وفيها: أنَّ هداية القرآن تزداد بازدياد التَّقوى؛ لأنَّ الحُكم -وهو (الهداية)- إذا عُلِّقَ بوَصْفٍ -وهو (التَّقوى)- فإنَّه يزداد بازدياده؛ ففي الآية فضيلة التَّقوى.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾:

ثم ذكرَ تعالى صفةً عظيمةً للمتَّقين، وهي إيمانهم بالغَيب؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ يُصدِّقون ويعملون ويخشون ربهم ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بما غاب عنهم؛ ممَّا أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وقَدَرِه، وجنَّته، وناره، ونحو ذلك.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يُتِمُّونها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحبَّاتها، فرضًا ونفلًا.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، ووهبناهم، وأنعمنا عليهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ يُخرجون النَّفقات المستحبَّة والواجبة، كالزكاة، والإنفاق على الأهل والعيال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الإيمان بالغَيب ودرجته العظيمة؛ فإنَّ التصديق بالمُشاهَد المحسوس لا يحتاج إلى إيمان؛ لكونه لا يمكن إنكاره، أمَّا التصديق بما غاب: فيحتاج إلى قوَّة إيمان.

ولذلك أثنى النبيُّ ﷺ على قوم يأتون مِن بعد أصحابه يؤمنون به، فلمَّا سألوه: يَا رَسُولَ الله، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ، وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْنِي»[(١)].

ويمكن أن يؤخذ من الآية: أنَّ صدَقة الغاصِب والسَّارِق باطلةٌ؛ لأنَّه لا يملِك المال الذي تصدَّق به.

وفيها: أنَّ الإنفاقَ ليس له حدٌّ محدودٌ إلَّا ما عيَّنته الشريعة، وما لم تُعيِّنه يُرجَعُ فيه إلى العُرف، وكلَّما كان أكثر كان خيرًا وأطيب.

وفيها: ذمُّ البخل، وأنَّه يُنافي التَّقوى.

وفيها: أنَّ الأموال ودائعُ عند بني آدمَ، يوشك أن يدَعوها.

وفيها: أنَّه لا يجب إنفاق كلِّ المال؛ لأجل (مِن) في قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

وفيها: منع التبذير والإسراف.

وفيها: أنَّ من صفات المتَّقين: عبادة الحقِّ عَزَّوَجَلَّ، والإحسان إلى الخَلْق.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾:

ثم ذكَر تعالى صفةً رابعةً للمتَّقين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ ويوقنون ﴿بِمَآ أُنزِلَ

(١) رواه أحمد (١٦٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٩٠٧).

﴿إِلَيْكَ﴾ مِن عند الله، وهو القرآن والسُّنة ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على الأنبياء السابقين، كالتوراة، والإنجيل، والزَّبور، وصُحُف إبراهيم، وغيرها، يؤمنون بها إيمانا مجملًا، وإن لم يعلموا تفاصيلها.

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ﴾ سُمِّيت (الآخرة)؛ لأنَّها بعد الدُّنيا ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يؤمنون بلا ريبٍ ولا شكٍّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الإيمان بجميع كتب الله المنزَّلة، ومِن فوائد ذلك: إدراك أنَّ الله لم يترك البشريَّة هَمَلًا؛ بل أنزل عليهم كتبًا، وأنَّ البشرية لا تصلُح بغير حُكمٍ إلهيّ، يحكُمُ بينَهم.

ومِن فوائد الإيمان بما أُنْزِل على مَن قبلنا: استجلاب قُلُوب أهل الكتاب لهذا الدِّين، الذي يُوجِب الإيمان بما أُنْزِلَ على أنبيائهم.

وفي الآية مع ما سبقها: بيان أنَّ كلَّ صفة مِن صفات المتَّقين المذكورة تَستلزم الأخرى، وشرطٌ معها؛ فلا يصح الإيمان بالغَيب وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة إلَّا مع الإيمان بما أُنْزِل على النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وعلى الرُّسل مِن قبله، مع اليقين بالآخرة.

وفيها: فضيلةٌ للّذِين يدخلون في الإسلام من أهل الكتاب، ويؤمنون بما أُنْزِل إلينا، وما أُنْزِل إليهم، فَيُؤْتَونَ أجرَهم مرتين.

وفي الحديث: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ، وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»[١].

وفيها: فضيلةٌ وشرفٌ لكلِّ مؤمن عربيّ وعجميّ، وإنسيّ وجنيّ.

وفيها: أنَّ عدم معرفة تفاصيل كُتُب الله السابقة لا يمنع من الإيمان بها.

وقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ، وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآيَةَ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٥٤٢).

ويُؤخذ مِن الآية: أنَّ الّذِين يؤمنون ببعض الكِتاب ويكفرون ببعض، أو يُفَسِّرونه بغير المقصود منه، ويُحَرِّفُون الكَلِمَ عن مواضِعه: ليسوا مؤمنين حقًّا بما أنزل الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾:

ثم بيَّن تعالى جزاء مَن اتَّصَفَ بالصِّفات الخَمْس المتقدِّمة؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهذه إشارةٌ إلى البعيد؛ وذلك لِعُلُوِّ مرتبتهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ على عِلْم ونور وبصيرة وتوفيق ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ بيان مصدر الهُدى، وأنَّه مِن تسديد الله إيَّاهم، وتوفيقه لهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في الدُّنيا والآخرة. و(الفلاح): هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الهُدى الحقيقي مِن الله، لا مِن غيره.

وفيها: أنَّ الوسيلةَ لنيل الفلاح هو ما تقدَّم ذكرُه مِن الاعتقاد والعمل.

والتعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الذي فيه معنى الاستعلاء والفوقية: يُبيِّن تمكُّن هؤلاء من الطريق الذي يسيرون عليه، وهو طريق الهُدى الواضح المستقيم، وهذا يدلُّ على سلامة منهجهم.

وفيها: حَصْرُ الفلاح فيمَن اتصف بالصِّفات المتقدِّمة، وفي الثَّناء عليهم إظهارٌ لقَدْرهم، وترغيبٌ للاقتداء بهم.

وفيها: أنَّ غير المتَّصفين بهذه الصِّفات ليسوا على هُدًى، ولا ينالون الفلاح.

وفيها: أنَّ الفلاح غايةٌ، والاعتقاد الصحيح والعمل الصالح وسيلة للفوز به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾:

وبعد أن بيَّن تعالى حال المتَّقين المؤمنين، ذكَرَ ما يقابلهم -وهم الكفَّار- فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما يجب الإيمان به، وغطَّوا الحقَّ وجحَدوه ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يستوي الأمر عندهم ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ عذاب الله ﴿أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ ذلك. و(الإنذار): هو الإعلام المقرون بالتخويف.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك، ولا بما أُنْزِل عليك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله بنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتخفيفه عنه وتسليته؛ حتى لا تَذهب نفسه عليهم حسرات، ولا يهلك ويحزن من أجلهم، ولا يغتمّ إذا رآهم مُصِرِّين على الكُفر.

وفيها: أنَّ الدَّاعية إلى الله إذا بلَّغ الحقَّ، وقام بما يجب عليه من البيان والإنكار؛ فإنَّه لا يضرُّه إصرار مَن أصَرَّ على الباطل.

وفيها: أنَّ الدَّاعية مُكلَّفٌ بالبيان والدَّعوة، لا بالنتائج وهداية قُلُوب الخَلْق.

وفيها: أنَّ مَن كتبَ الله عليه الشقاء فلا فائدة تُرجى من إنذاره.

وليس في الآية تيئيس الدُّعاة، ولا أَمْر بتَرْك الدَّعوة؛ بل عليهم القيام بالواجب الشرعيّ في ذلك، فإذا أصَّر المدعُوُّون على الباطل: تولَّوا عنهم، ووكَلُوا أمرهم إلى الله.

ويؤخَذ من الآية: أنَّ مَن لا يشعر بالخوف عند الموعظة، فيه شَبَهٌ مِن الكفَّار مِن هذا الوجه.

وفيها: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره لا يعلمون ما هو مكتوبٌ على مَن يدعونهم، من الشقاوة والسعادة.

وليس معنى الآية: تَرْك دعوة الكفار؛ فإنَّه من فوائد دعوتهم إقامة الحُجَّة وبيان الحقِّ، وأجر الدَّاعية في الصَّبر على دعوتهم، وعلى الاقتداء بالأنبياء في ذلك -كنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ- ثم قد تكون هداية هؤلاء تدريجيَّة؛ فيتأثَّرون شيئًا فشيئًا، ثم يُسلمون.

وقد تأخَّر إسلام عدد مِن الكفَّار المُصرِّين على الكُفر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إنَّ الدَّاعية لا يَعلم ما جرى في عِلم الله السابق، ولا ما هو مكتوب على هؤلاء مِن الهداية أو عدمها؛ ولذلك فهو يقوم بالدَّعوة ويستمرُّ عليها، فإذا أصرَّ المدعُوُّون على الباطل وعاندوا: تولَّى عنهم، واشتغل بغيرهم.

وفيها: تزويد الدَّاعية بما يحتاج إليه مِن معرفة أحوال المدعُوِّين عند مواجَهتهم.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾:

ثم بيَّن تعالى سببَ إعراض المُعرضين وعناد المعاندين مِن الكافرين؛ فإنَّهم لـمَّا زاغوا وأعرضوا ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ فلا يدخل إليها خير، ولا يخرج منها خير.

﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ ختم عليها أيضًا؛ فلا تستمع خيرًا تنتفع به.

والوقف هنا تامٌّ؛ لتمام المعنى في الجملة السابقة.

ثم تبدأ جملة جديدة: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ أي: غطاء يَحُولُ بينها وبَيْن النظر إلى الحقِّ؛ فَهُم لا يرونه نتيجة ظُلُمات الكُفر التي يعيشون فيها.

﴿وَلَهُمۡ﴾ هؤلاء الكفَّار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ لأنَّه لا عذاب أشدّ منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة الخَتْم على القَلْب، والطَّبْع عليه، وأنَّه أخطر مِن الران الحاصل بتراكم الذُّنوب، فإذا طُبِعَ عليه صار لا يعقل الحقَّ ولا يقبله، والقَلْب مَلِكُ الأعضاء، وهي جنوده، وتَبَعٌ له.

وهؤلاء استحقُّوا الطبع على قُلُوبهم؛ لإعراضهم وتكبُّرهم على الحقِّ لـمَّا دُعوا إليه، وهذا جزاءُ الله العادلُ فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، فَقَلَبَها؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بالحقِّ أول مرة لـمَّا عُرِض عليهم.

وفيها: خطر الذُّنوب؛ فإنَّها إذا تتابعت على القَلْب أغلقته، فإذا أغلقته أتاها الطَّبْع والخَتْم مِن الله تعالى، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَكٌ ولا طريقٌ.

وفيها: شرف السمع؛ ولذلك قدَّمه على البصر، وهو مِن أحوج الحواس للتعلُّم.

وفيها: خطر القَلْب، وقد سُمِّيَ (قَلْبًا) مِن تقلُّبه، والخَتْم إحدى العقوبات الواقعة عليه إذا اتّبع هواه، فلا يَعْقِل الحقَّ ولا يقبله، وإذا قسا القَلْب وعلاه الران صار قَلْبًا مُنْكِرًا للحقِّ.

وفيها: خطر حميَّة الجاهليَّة والنِّفاق؛ فمَن ابتُلي به يصرفه الله عن الحقِّ، ويُزيغه، ويَحُول بينه وبين صاحبه، ويطبع عليه بخَتْم لا ينفكّ، فيموت القَلْب حينئذٍ -نسأل الله السلامة-.

وهذا الخَتْم عليه بسبَبِ كُفرهم، كما قال تعالى ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [النساء:

١٥٥]، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، فلم يكن الخَتْم من الله عليها بلا سبَبٍ منهم.

وفيها: ذِكْر العذاب العاجل -وهو ختمه والغشاوة- وذِكْر العذاب الآجل -وهو عذاب النَّار العظيم-.

وفيها: أنَّ عُقوبة الله للكفَّار في الدُّنيا شاملة؛ فعطَّل عليهم مركز الانتفاع وآلاته.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى في أول هذه السُّورَة المؤمنين الخُلَّص، ثم ذكرَ بعدهم الكفَّار الخُلَّص، ثَلَّثَ بذِكر المنافِقين الَّذِين وافقوا في الظاهر الطائفة الأُولى، وفي الباطن الطائفة الثانية؛ ولأجل خفاء أمرهم، زادت الآياتُ في وصفهم.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أربع آيات مِن سُورَة البقرة في نَعْتِ المؤمنين، وآيتان في نَعْتِ الكافرين، وثلاث عشرة في المنافِقين»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس، وأصلها «الأُناس» مِن «الأُنس»؛ لأنَّ بعضهم يأنس بعضًا ويركَن إليه، ويحبون الاجتماع.

﴿مَن يَقُولُ﴾ بلسانه: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ صدَّقنا وأيقنا، ولكنَّهم كاذِبون؛ ولأجل ذلك نفى الله عنهم هذه الدَّعوة، فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ في حقيقة الأمر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبيه على خطر المنافِقين، وفَضْحِهم، ووصفهم؛ ليكون المؤمنون على بيِّنةٍ مِن أمْرِهم.

وقد كان ذِكْرهم في القرآن المدنيّ مبكرًا جدًّا؛ فإنَّ سُورَة «البقرة» مِن أول ما نزل بالمدينة، وهذا أعون للمسلمين على معرفة أعدائهم، واكتشافهم مبكرًا للحذَر منهم.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٩).

والنِّفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشرّ، ومنه اعتقادي يُخَلَّدُ صاحبهُ في النَّار لكُفره، ومنه ما هو عمليّ من كبائر الذُّنوب.

قال ابن جُرَيج: «المنافِق يُخالِفُ قولُه فِعْلَه، وسِرُّه علانيتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه»(١).

وقد ذُكِرَ المنافِقون في السُّوَر المدنية؛ لأنَّه لم يكن بمكة نفاق؛ فالمؤمنون كانوا فيها مستضعَفين، والنِّفاق يوجد عادة في مكان قوَّة المسلمين.

فلـمَّا تمَّت الهجرة النبويَّة، وانتصر المسلمون في بدر، وأظهر الله كلمته وأعلى الإسلام وأهله؛ أظهر عبدُ الله بنُ أُبيٍّ -رأس المنافِقين- الدُّخول في الإسلام، وأبطن الكُفر، وصار معه عدد مِن أهل المدينة والأعراب على طريقته؛ لحفظ دمائهم وأموالهم، ولذلك لم يكن في المهاجرين منافِقٌ واحدٌ.

وفي الآية مع ما سبقها وما يليها من فوائد:

حُسن التقسيمِ في عرض أحوال الناس، وذِكرِ أنواعهم؛ لمعرفة كيف يكون التعاملُ معهم.

وفيها: أنَّ القول باللِّسان وحدَه دون اعتقادٍ بالقَلْب لا ينفع الإنسانَ، وأنَّ الإسلام الحقيقي: هو استِسلام الظاهر والباطن، وإسلام القَلْب والبدَن.

وفيها: أنَّ المنافِقين يُظهِرون الإيمان عند الناس، فإذا خلا بعضهم ببعض صار له شأنٌ آخر.

وفيها: لُطْفُ الله بالمؤمنين في كشف عدُوِّهم.

وفيها: نفي الإيمان بالجملة الاسميَّة في قوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، مع الإخبار عن ادِّعائهم الإيمان بالجملة الفعليَّة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ لأنَّ النفي بالجملة الاسميَّة أقوى وأبْلغ.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠).

وفي هذا تأكيدُ تكذيبهم، وعُمومه يشمل نفيَ إيمانهم بكلِّ ما يجب الإيمان به.

وفيها: ردٌّ على بعض المبتَدِعة، الَّذِين يقولون: إنَّ الإيمان قول باللِّسان فقط.

وفيها: أنَّ القول والفعل لا يكفيان للإيمان؛ بل لا بُدَّ مِن الأساس، وهو إيمان القَلْب.

وهذا معنى قول العلماء: الإيمان مُرَكَّبٌ مِن قول القَلْب (وهو التصديق الجازم)، وعمل القَلْب (من الخوف والرجاء والمحبَّة ونحوها)، وقول اللِّسان (وهو النُّطق بالشهادتَين)، وعمل الجوارح (كإقامة الصَّلاة وغيرها).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾:

ثم قال تعالى في وَصْفِ حال المنافِقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بإظهار الإسلام وإبطان الكُفر، ويظنُّون أنَّ هذا ينفعهم عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه يَخفى عليه أمرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُخادعون بذلك أيضًا، تقيَّة؛ للنَّجاة مِن القَتْل والسَّبْي والعذاب العاجل بأيدي المؤمنين، ولكي يعصموا دماءهم وأموالهم.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ في حقيقة الأمر ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنَّهم يَضرُّونها ويُورِدونها العذاب ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يَفْطِنون، ولا يُحِسُّون بأنَّ الضرر راجع عليهم، وأنَّ الله سيفضحهم في الدُّنيا قبل الآخرة.

وقد صحَّ عن قتادة قوله: «نَعْتُ المنافِق: خَنِع الأخلاق، يُصدِّق بلسانه، ويُنْكِر بقَلْبه، ويُخالِف بعمله، ويُصبح على حال ويُمسي على غيره، ويُمسي على حال ويُصبح على غيره، يتكفَّأ تكفُّؤَ السفينة، كلَّما هبَّت ريحٌ هبَّ معها»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقين أهل مكر وخديعة.

وفيها: أنَّهم لا يشعرون بأنَّهم يضرُّون أنفُسَهم بنفاقهم، ويحسبون أنَّهم على شيء، وليسوا على شيء.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٣).

وفيها: تنبيه المؤمنين بضرورة الحذر من المنافِقين، وعدم الاغترار بمخادعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون: ٤]، وأنَّ الحذَرَ منهم يكون بتتبُّع أقوالهم وأفعالهم، وموازنتها مِن حيث التطابق، والتناقض، والانتباه لسقطاتهم، وما يزلُّون به في لحن القول؛ لأنَّ الله أمر بذلك؛ بقوله: ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾، ولأنَّ في كشفهم فائدة عظيمة للإسلام والمسلمين.

وفيها: أنَّ المكر السيِّء لا يحيق إلَّا بأهله؛ فإنَّ مخادعتهم هذه رجعت عليهم.

وفيها: أنَّ النِّفاق يُعمي البصيرة، فلا يشعر صاحبه أنَّه يضرُّ بنفسه مِن حيث يظن أنَّه ينفعها.

وفيها: جهل المنافِقين بربِّهم؛ لأنَّهم لو قدَروه حقَّ قَدْره لعَلِموا أنَّ الخبير بالبواطن والنِّيَّات لا يمكن أن يُخدَع.

واستعمال صيغة المفاعَلة في قوله ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ يقتضي: الاشتراك في حصول الفعل مِن الطرَفَين، وهذا معناه: أنَّ الله يخَدع المنافِقين. وسيأتي ذِكر خداعِه لهم -إن شاء الله-.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾:

قوله ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: هذا الوَصف يدلُّ على تمكُّن المرض من قُلوبهم واستقراره فيها، وليس المقصود مرض الأجساد؛ وإنَّما هو مرضٌ مُركَّبٌ من الشُّبهةِ والشهوةِ، وهو شكٌّ، ورياءٌ، وجحودٌ، ونفاقٌ.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾: لـمَّا أرادوا الكُفرَ عاقبهم بزيادة مرضهم، وزيادتهم رِجسًا إلى رجسهم، وشرًّا إلى شرِّهم، وضلالة إلى ضلالتهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ مُوجِعٌ شديدٌ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ بسبَبِ كَذِبِهم فيما يدَّعونه من الإسلام، وتكذيبهم لله ولرسوله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ سبَبَ إضلال الله للعبد هو من العبد نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا عن الحقِّ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي المُقابِل: فإنَّ الله يزيد المؤمنين إيمانًا وهدًى بسبَبِ إيمانهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وفيها: أنَّ الكُفر والنِّفاق والفسوق يزيد وينقص؛ لقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

وفيها: أنَّ العقوبات لا تكون إلَّا بأسباب، ولا يُعَذِّب الله أحدًا إلَّا بذنب وسبَب؛ كما قال في آخر هذه الآية: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

وفيها: خطورة الكَذِب، والتكذيب للحقِّ، وأنَّه من أسباب العذاب الشديدِ.

وفيها: أنَّ مرض النِّفاق يُضعِف الدِّين؛ كما يُضعِف المرضُ البدَنَ.

وفيها: جواز الدُّعاء على المنافِقين، كما قال بعضُ المفسِّرين في قوله ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: أنَّه دعاءٌ عليهم.

وفيها: أنَّ كذِب المنافِقين متجدِّدٌ ومستمرٌّ؛ كما يدلُّ عليه قوله: ﴿كَانُواْ﴾.

وفيها: أنَّ المنافِق قد تتألم نفسُه بسبَبِ نفاقه؛ لأنَّ الله سمَّاه ﴿مَرَضًا﴾، وهذا مِن عاجل العذاب له في الدُّنيا.

وفيها: أهميَّة اعتناء المؤمن بقَلْبه، بحيث يكون عارفًا بالحقِّ، مُريدًا له، محبًّا له، وعاملًا به.

وفيها: أنَّ مرض المنافِقين يتجدَّد ويزداد كلَّما أنعم الله على المؤمنين بمزيد مِن النِّعَم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ القائل: اللهُ ورسولُه والمؤمنونَ الناصحونَ العارفونَ بهم.

﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكُفر والنِّفاق وموالاة الكفَّار، وإفشاء أسرار المسلمين إليهم، والتفريق بينَ المؤمنين، وتنفير الناس عن الحقِّ، وعمل المعاصي في الأرض، وإفساد أهلها.

﴿قَالُوٓاْ﴾ في ردِّ التهمةِ عن أنفُسِهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي: ليس حالُنا إلَّا

الإصلاحُ، وليس فينا فسادٌ ولا إفسادٌ إطلاقًا، وما غرضُنا إلَّا التقريبُ، وإزالةُ الخلافِ بينَ الفُرَقَاء المتخاصِمين مِن المؤمنين وأهل الكتاب وغيرهم، فنُدارِي الفريقين!

ودَعْواهم هذه تشتمل على الكَذِب من جهة، وعلى أنَّ بعض ما يظنُّونه إصلاحًا هو عينُ الفساد -من جهة أخرى-.

وجوابهم هذا هو من دعاواهم الكاذِبة الكثيرة؛ كقولهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

ولذلك كذَّبهم الله وردَّ دعواهم، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾؛ فكأنَّ الفسادَ مُنحصِرٌ فيهم؛ لشِدَّة ضررهم. أو لأنَّه لا فسادَ أعظم من فسادهم، فقد فاقوا كلَّ المفسِدين.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ مِن جهلهم وبَلادتهم، وغِلَظ حجاب قُلُوبهم، وانطماس بصائرهم، لا يشعرون بفسادهم، مع أنَّ الفساد أمرٌ حِسِّيٌّ يُدرَك بالشعور والإحساس.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أن النِّفاق من أعظم الفساد في الأرض.

وفيها: أنَّ من البلايا العظيمة: أن يُزَيَّن للإنسان سوءُ عمله فيراه حسنًا.

وفيها: خطورة انقلاب الأفهام، بحيث يظنُّ المفسِدُ أنَّه مُصلِح.

وفيها: قِصَر نظر المنافِقين، وأنَّهم لا يُدْرِكون الأبعاد الحقيقيَّة للأمور.

وفيها: أنَّ من سياسة المنافِقين وتلبيسهم وخداعهم: ادِّعاءَ الإصلاح، والتظاهُرَ برفع لوائه ورايته؛ فقد يُقرِّرون ويُنفِّذون أمورًا، في العمل بها إفسادٌ للدِّين والأخلاق، وإشاعةُ الفاحشة بينَ الناس، وإيقاعُ العداوة والبغضاء بينهم، وحصولُ الفساد الإداريّ والاجتماعيّ والنفسيّ.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى شيئًا يُصدَّق في دَعواه.

وفيها: أهميَّة الردِّ على أهل الباطل، وكَشف حقيقة ما هم عليه، وتبيين كَذِبهم، وقوَّة الرَّدِّ عليهم؛ كما يتضحُ في المؤكِّدات المتعدِّدة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾.

ويؤخَذ من الآية: أنَّه لا صلاح في الأرض إلَّا بطاعة الله.

وفيها: توعية المؤمنين بعدم الانخداع لدَعاوى المنافِقين العريضة، والجميلة في الظاهر.

وفيها: أنَّ المنافِقين قد لا يشعرون بانفضاح أمرهم، وانكشاف حالهم عند المؤمنين.

وفيها: أنَّ أهل الباطلِ يُسَمُّون الأشياءَ القبيحةَ بالأسماء الحسنة؛ لنشر الفساد وترويجه بينَ الناس، كما يُسَمُّون الشِّرك توسُّلا، والرِّبا فوائدَ، والغناء المحرَّم فنًّا، والمسكرات مشروبات روحيَّة، والرِّشْوة حلاوة وإكراميَّة، والتَبرُّج والاختلاط المحرَّم تحرُّرًا، وفِعْل المُنكَرات حريَّات شخصيَّة!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصحًا وموعظة: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر وقدَره، الذين صدَّقوا بالوحي، وأطاعوا وامتثلوا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ في ردِّ الناصحين: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ الاستِفهام للنفي والتحقير، والمعنى: لا نؤمن ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحابَ رسول الله ﷺ.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمع «سفيه»، وهو: الجاهل بلا رُشد ولا عقل، الذي لا يميِّز بينَ المصلَحة والمفسدة، ضعيف الرأي، قليل المعرفة.

فَرَدَّ الله عليهم، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ تأكيدًا وحصرًا للسفاهة فيهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مِن تمام جهلهم وعَماهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقين لا تنفعهم دعوة الخير غالبًا، وأنَّ إعجابهم بباطلهم يدعوهم إلى رفض الحقِّ.

وفيها: تنبيه المؤمنين على عدم التأثُّر بالدِّعايات الباطلة التي يُطْلقها المنافِقون.

وفيها: دفاع الله عن الصَّحابة والمؤمنين.

وفيها: إثبات جهل المنافِقين.

وفيها: عِناية الله بالمؤمنين؛ حيث أطلعهم على ما يقول المنافِقون في الخفاء.

وفيها: أنَّ كلَّ صاحب باطلٍ لا يُدْرِك بُطلان ما هو عليه: فهو سفيه.

وفيها: أنَّ من طريقة أهل الباطل رَمْي المؤمنين الصادِقين بالصِّفات السيِّئة؛ لتثبيط هِمَمِهم، وتنفير الناس عنهم، ومهاجمتهم بتشويه سُمْعَتهم؛ لإشغالهم عن فَضْحِ المنافِقين، والتصدِّي لهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾:

ثم قال تعالى في فَضْح المنافِقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قابلوهم أو جلسوا إليهم؛ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال المنافِقون للمؤمنين: ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وصدَّقنا، فأظهروا لهم الموالاةَ والمتابعةَ نِفاقًا وتَقيَّة، ولِيعصموا دماءهم، ويشاركوا المؤمنين في الغنائم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ انصرفوا، وانفردوا بسادتهم وكُبرائهم، وقادة الشرِّ والشِّرك المتعاونين معهم، من اليهود والمشرِكين. و(الشياطين): جمع «شيطان»، وهو المتمرِّد العاتي البعيد عن الخير، ويكون مِن الجِن والإنس.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على الكُفر وحَرْب المسلمين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نُظهِر ما نُظهِره؛ سخريةً وخديعةً ولَعِبًا بالمؤمنين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ ذُلَّ المنافِقين وخوفَهم، وطمعَهم في الدُّنيا، هو الذي يَحملهم على النِّفاق.

وفيها: أنَّ كلَّ مَن استعملَ التقيَّة وتَستَّرَ بغير حقٍّ؛ فهو ذليلٌ.

وفيها: تعاون المنافِقين مع بقيَّة أعداء الإسلام من الكافرين، واشتراكهم في المكر والحَرْب على الإسلام.

وفيها: حِرْصُ المنافِقين على طَمْأنة الكفَّار أنَّهم تَبَعٌ لهم، وأنَّ تظاهُرهم بالإيمان مزيَّفٌ، وفي هذا: تحقيق مُوالاة المنافِقين للكافرين.

وفيها: فضيحةُ الله للمنافِقين؛ بكَشف ما يقولونه في الخَلْوة والسِّرّ.

وفيها من بلاغة القرآن: استعمالُ الجملة الفعليَّة عند ذِكْر إيمانهم، وهي أضعف من الجملة الاسميَّة في التقرير والإثبات؛ حيث إنَّ إيمان المنافِقين مزيَّفٌ، بينما استعمل الجملة الاسميَّة في قوله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لتقرير مُوالاة المنافِقين للكفَّار، وإثبات استهزائهم بالمؤمنين.

وفيها: خطورة الاستهزاء بالمؤمنين، وأنَّه من صفات أهل النِّفاق والسخرية واللَّعِب.

ومن أنواع الكُفر المُخرجة عن المِلَّة: الاستهزاء بالله، أو برسوله، أو بشيء مِن دينه، أو بعباده المؤمنين لأجل إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾:

ثم قال تعالى في مجُازاتهم على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يسخر بهم؛ للانتقام منهم، واستهزاء الله بالمنافِقين صفة كمال لا صفة نقص؛ لأنَّها على سبيل الانتقام والمُقابَلة بالعَدْل والمجازاة، وليست لَعِبًا وعَبَثًا.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يزيدهم استدراجًا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ (الطُّغيان): مجاوزة الحدِّ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتمادَون في ضلالتهم، ويتردَّدون حيارَى في كُفرهم، لا يُبصِرون رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مُقابَلة الاستهزاء بمِثْله في المجازاة والمعاقَبة هو كمالٌ، وليس نقصًا، وكذلك يُقال في المكر، والخديعة، والكيد، والسخرية.

وفيهـا: أنَّ الجزاءَ من جِنس العمل؛ فكما يسـتهزِئون بعباد الله المؤمنين فإنَّ الله يسـتهزئ بهـم، وهـذا يدلُّ على عُلُوِّ شـأن المؤمنين، وعِظَـم قَدْرهم عند ربِّهم؛ حيث إنَّ الله يسـتهزئ بأعدائهم.

وفيها: أنَّ الله يمُلي للظالم؛ ليأخُذَه أخذًا أليمًا.

وفيها: أنَّ من الناس من يحُدِث الله لهم نِعمة كلَّما أحدثوا ذنبًا؛ لتكون نِقمةً عليهم.

وفيهـا: التحذيـر من الاغتِرار بالنِّعَم؛ لأنَّها قد تكون اسـتدراجًا لمزيد من الطغيان، وإذا كان الشـخص مسـتقيمًا كانت زيادة الله له في النِّعَم وتواليها عليه خيرًا، وجزاءً في الدُّنيا قبل الآخرة، وإذا كان مقيمًا على معصية الله كان توالي النِّعَم استدراجًا ونِقمة.

وفيها: أنَّ صاحب الطغيان يُعميه هواه، ويحْجبه طغيانُه عن معرفةِ الحقِّ.

وفي التعبير عن الاسـتهزاء بالفعل المضـارع ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾: إفادة لتَـكراره وتجدُّد حدوثه، وفي هذا زيادةُ عُقوبةٍ وإيلامٍ لهؤلاء المنافِقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾:

قولـه تعـالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنافِقون ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ اختاروا واسـتحبُّوا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ العمـى والكُفـر ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: بذلوا الهُـدى ثمنًا للضلالـةِ، فأخذوا الضلالة واسـتحبُّوها، وتركوا الهُدى وعَدَلُوا عنه.

فـإن قيل: وكيف اشـترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى، مع أنَّهـم إنَّما كانوا منافِقين، ولم يتقدَّم نِفاقَهم إيمانٌ، فيُقال فيهم: باعوا هُداهم الذي كانوا عليه بضلالتهم، حتى استبدَلوها منه؟

فالجـواب: أنَّ المـراد هنا: أنَّهـم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى؛ وذلـك أنَّ كلَّ كافر بالله فإنَّه مسـتبدِلٌ بالإيمان كُفرًا، باكتسـابه الكُفرَ الذي وُجِد منه، بدلًا من الإيمان الذي أُمِرَ به، وهذا هو معنى الشِّراء؛ لأنَّ كلَّ مشترٍ شيئًا فإنَّما يستبدل مكانَ الذي يُؤخذ منه -من البدل- آخرَ بديلًا منه.

فكذلك المنافِقُ والكافر، استبدلا بالهُدى الضلالةَ والنِّفاق، فأضلَّهما الله، وسلبَهما نورَ الهدى، فتركهم جميعًا في ظُلُمات لا يُبصرون.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾: ما زادت، ولا نجحت صفقتُهم في هذه البَيعة.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: ليسوا براشدين في صنيعهم؛ بل هم خاسرون في تجارتهم. ويدخل في هذا: المنافِقون الذين حصل لهم الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكُفر، وكذلك الذين استمرُّوا في الضلالة واستحبُّوها على الهُدى، ولم يدخلوا في الإيمان أصلًا، بل تظاهروا به نفاقًا.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد والله رأيتموهم خرجوا من الهُدى إلى الضلالة، ومِن الجماعة إلى الفُرْقَةِ، ومِن الأمن إلى الخوف، ومِن السُّنَّة إلى البِدعة»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان سَفَه المنافِقين بتقديمهم الضلالة على الهدى، ومن السَّفَه أن يدفع الإنسان الثمن النفيس ليقبض ويأخذ سِلْعة رديئة!

وفيها: شَغَف المنافِقين بالضلالة وتعلُّقهم بها؛ فإنَّ المشتري في العادة شغوفٌ بالسِّلعة محبٌّ لها، وقد مثَّلت الآيات حالهم بتجارة فيها بيع وشراء، وثمن مدفوع وسلعة مقبوضة.

والباء في قوله ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هي باء الثمن والعِوض، فالهُدى مبذولٌ مدفوعٌ، وهذا يدلُّ على كُرْههم له، والضلالة عندهم مرغوبة مطلوبة.

وفيها: أنَّ المنافِقين يظنُّون أنفُسَهم رابحين بهذه الصفقة، والتاجر يرجو الرِّبح من وراء تجارته، بينما هم في الحقيقة خاسرون أشدَّ الخَسارة!

وفيها: بيان أنَّ الهُدى هو الرِّبح الحقيقيّ، فالمهتدي رابحٌ، ومَن خالفه خاسرٌ، وبما أنَّ التجارة فيها ثلاثة احتمالاتٍ: أن يربح التاجر، أو يخسر، أو لا يربح ولا يخسر؛ فإنَّه بيَّن هنا أنهم لم يربحوا بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، وأكَّد خسارتهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٧)

ورأس المال الذي خسروه في تجارتهم: الفِطرة التي كانوا عليها قبل النِّفاق، والعقل الذي أُوتُوه.

وقيل: الأعمال الظاهرة، كالصَّلاة، والشهادتين اللَّتَين دخلوا بها الإسلام في الظاهر، أو الإيمان الذي بدءوا به إذا كانوا ممَّن أسلم ثم ارتدَّ.

وفيها: ضَرْبُ المَثَل بما يفهمه الناس ويتعاملون به، ويُقبِلون عليه ويَرْغبون فيه، وهو هنا البيع والشراء، والتجارة والرِّبح.

وفي الإشارة إلى المنافِقين باسم الإشارة المستعمَل للبعيد ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ** ﴾: تنبيهٌ على شِدَّة دونيَّتهم، والبُعد عنهم، والبراءة منهم.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يهتَدون غالبًا.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾:

ثم ذكرَ تعالى مَثَلًا ناريًّا للمنافِقين؛ فقال: ﴿**مَثَلُهُمۡ**﴾ وصفُهم وحالُهم ﴿**كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا**﴾ طلبَ والتمسَ إيقادَها في أرضٍ مُوحشةٍ مظلمةٍ، وهو خائفٌ ممَّا فيها.

﴿**فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ**﴾ وأنارت؛ انتفع بها، وأَنِسَ واطمأن برؤيةِ ما حوله؛ ﴿**ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ**﴾ وأطفأ ما يستفادُ منها، ﴿**وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ**﴾ شديدة في سواد اللَّيل، ﴿**لَّا يُبۡصِرُونَ**﴾ ممَّا حولهم شيئًا.

فشبَّه الله تعالى المنافِقين في محبَّتهم للضلال، وتقديمه على الهُدى، وكُفرهم بعد إيمانهم، بالذي استوقد نارًا، فاستفاد منها، وأنارَت طريقه، فهذا مَثَلُ المنافِق في حال إيمانه قبل أن يكفر.

فلمَّا كفرَ في الباطن، وبقيَ على الإسلام في الظاهر؛ ذهب النُّورُ، وبقيَ في ظُلُمات الشَّكِّ والكُفر والنِّفاق، لا يُبصِر حقًّا، ولا يهتدي سبيلًا.

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هذا مَثَلٌ ضربه الله للمنافِقين، أنَّهم كانوا يعتزُّون بالإسلام (يعني: يتظاهَرون بذلك)، فيُناكِحهم المسلمون، ويُوارِثونهم، ويُقاسِمونهم الفَيْء، فلمَّا

ماتوا سلبَهم الله ذلك العِزَّ، كما سُلِبَ صاحب النَّار ضوءَه، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ أي: في عذابٍ»[١].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذلك حين يموت المنافِق، فيُظلِم عليه عملُه -عملُ السوء- فلا يَجِد له عملًا من خيرٍ عَمِلَ به، يُصَدِّق به قول (لا إله إلا هو)»[٢].

وجاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا أنَّه قال: «ضرب الله مَثَلًا للمنافِقين، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: يُبصِرون الحقَّ ويقولون به، حتى إذا خرجوا به من ظُلمة الكُفر أطفأوه بكُفرهم ونفاقهم فيه، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾: الكُفر؛ فهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ هُدى ولا يستقيمون على حقٍّ»[٣].

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن بضرب الأمثال، للتفهيم وترسيخ المعاني.

وفيها: أنَّ المنافِق الذي كان مؤمنًا ثم ارتدَّ؛ قد ذهب نفاقُه بأثر إيمانه ومحاه، فلم يعُد لتلك المدة من حياته الأُولى فائدةٌ وأثرٌ بعد الرِّدَّة والنِّفاق.

وفيها: أنَّ المنافِقين يندَسُّون بينَ المؤمنين ويُظهرون الإسلام لمغانم الدُّنيا، ولِيدرءوا عن أنفُسِهم العذاب فيها، وأنَّ الموت يُذْهِب تلك العِزَّة والمصالح، ويرُدُّهم إلى عذاب أشنع ممَّا فروا منه في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يستفيدون شيئًا من ضوء الوحي، ونور نصوص الشريعة، وإذا حضروا مجلسًا يُرشدهم ويهديهم أذهبوا كلَّ فائدة فيه بكُفرهم ونفاقهم.

وفيها: أنَّ معرفة الحقِّ لا تُغني شيئًا إذا لم يحصل الإذعانُ والطاعةُ والاتِّباعُ والامتِثالُ.

وفيها: معاناة المنافِقين وتألُّمهم في الدُّنيا والآخرة، ولذلك قال الله في الآية: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (بنارهم)، فأَخَذَ الفائدةَ وترَكَ لهم الإحراق.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢١)
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩)
(٣) تفسير الطبري (١/ ٣١٢)

وفيها: عذابُهم أيضًا بالحَيرة، وأنَّ نفوسهم في ظُلُمات وليس في ظُلمةٍ واحدةٍ.

وفيها: أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، كما ذكره بصيغة المفرد في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، والباطل سُبُلٌ كثيرة ومختلفة، كما ذكره بصيغة الجمع في قوله: ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾.

وفيها: تخلِّي الله عن المنافِقين، وحرمانهم من مَعِيَّته وبركته وتأييده، كما يدُلُ عليه قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، ومَن تخلَّى الله عنه حُرم التوفيقُ والعودة إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ المنافِقين -وإن أوقَدوا نار الفِتنة بينَ المؤمنين-؛ فإنَّ الله يُطفئها ولو بعدَ حين، كما فَهِم بعضُهم من هذه الآية.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يستفيدون من مخالطة الصالحين؛ بل إنَّ نفاقهم يمنعُهم من التأثُّر بهم.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾: «أمَّا إضاءة النَّار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى»[(١)].

وفيها: أنَّ المنافِقين قد يميِّزون بينَ الحلال والحرام، والخير والشرّ، ويعرفون هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، لكن هذا العِلْم لا يُفيدهم.

وفيها: أنَّ الله ينتزع الفَضْل ممَّن لا يستحقُّه، كما قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

وفيها: أنَّ قول المنافِقين في الدُّنيا: لا إله إلَّا الله، لها إضاءة وفائدة، ويأمن بها على نفسه بينَ المؤمنين، لكن يُسْلَبُها عند الموت؛ لأنَّها لم يكن لها أصلٌ في قَلْبه، ولا حقيقةٌ في عمله؛ ولذلك فإنَّ نور الشَّهادة بالنسبة للمنافِق ليس أصليًّا داخليًّا؛ وإنَّما هو ظاهريّ خارجيّ، كما دلَّ عليه قوله: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، فالضوءُ عارضٌ والظُّلمة أصليَّة؛ ولذلك ذهب النُّور، ولو كان أصليًّا لَما ذهب ولبقيَ يُضيء.

وفيها: أنَّ الذي يعرف الحقَّ ثم يتركه، أسوأُ من الذي لم يعرفه أصلًا، كما أنَّ انطفاءَ الضوء بعد حصوله أسوأُ أثرًا على النفس ممَّا لو كانت معتادةً على الظلمة.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٣)

﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ ﴾:

ثم وصف الله هؤلاء المنافِقين بقوله: ﴿ صُمُّۢ ﴾ عن الحقِّ، لا يسمعونه سماعَ قَبولٍ واستجابةٍ.

﴿ بُكۡمٌ ﴾: لا ينطقون بالحقِّ؛ لكراهيتهم له، وعدم إقرارهم به.

﴿ عُمۡيٞ ﴾: لا يرَونه رؤية بصيرة وانتفاع.

فهؤلاء المنافِقين يملكون الحواسَّ، لكنهم لا ينتَفِعون بها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ عن غيِّهم، ولا يرجعون إلى الإسلام والحقِّ، ولا يتوبون، ولا هم يذكَّرون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عدم انتفاع المنافِقين بما وهبهم الله من الحواس.

وفيها: أنَّ عمى القَلْب والبصيرة أشدُّ من عمى البصر، وأنَّ المنافِقين لا يرجعون عن الباطل؛ لاستحسانهم له.

وفيها: جواز نفي الشيء لانتفاء الانتفاع به.

وفيها: أنَّ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات في الدُّنيا؛ عوقِب في الآخرة بعُقوبةٍ من جِنسها، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وفيها: أنَّ رجوع مَن ترك الحقَّ بعد معرفته، أبعدُ من رجوع مَن لم يعرِفه أصلًا.

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾:

ثم ضرب تعالى مَثَلًا آخر مائيًّا للمنافِقين في حَيرتهم وتردُّدهم وشكِّهم واضطراب قُلُوبهم، وهم صِنْفٌ آخر يظهر لهم الحقُّ تارةً، ويشكُّون تارةً أخرى.

فقال: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ أي: صِفتهم وحالهم في الترَدُّدِ والحَيرة كحال أصحاب صَيِّب.

و(الصَيِّب): هو المطر، وكان النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا رَأى المَطَرَ قال: «اللهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»(١).

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العُلُوِّ نازلٌ ومنحدِرٌ، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ﴾: ظلمة اللَّيل في إطباقه، وظلمة السحاب في تكاثُفه، وظلمة المطر في تتابعه، ﴿وَرَعۡدٞ﴾: الصوت القاصف الشديد، وهو صوت المَلك إذا زجر السَّحاب، ﴿وَبَرۡقٞ﴾: وهو النُّور الذي يلمع في السَّحاب.

وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَاللَّهُعَنۡهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبلوا إلى رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالوا: يَا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ واتَّبَعْناكَ.

فكان منها: قَالُوا: أَخبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: «مَلَكٌ من مَلائِكَةِ الله عَزَّوَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ -أَوْ فِي يَدِهِ- مِخْرَاقٌ من نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ»، قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «صَوْتُهُ»، قَالُوا: صَدَقْتَ(٢).

والمِخْراق: هُوَ فِي الأَصل عِنْدَ العَرَبِ ثَوْبٌ يُلَفّ وَيَضْرِبُ بِهِ الصبيانُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَراد أَنها آلَةٌ تزجُر بِهَا المَلَائِكَةُ السَّحَابَ وتسُوقه(٣).

فهذا مَثَلُ المنافِقين في ظُلُماتِ الشَّكِّ والكُفر والنِّفاق، التي أَظْلَمت منها قُلُوبُهم، ورَعْدِ الخوف من وعيد القرآن الذي يُزعِجهم من جهة السمع، وبَرْقٍ من وَعْدِ القرآن يلمع فيها، ويُخيفها من جهة البصر.

وهكذا المنافِق يخشى انكشاف أمره، فهو فَزِع خائف، كما قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤]، وكما قال ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم إنَّ هؤلاء القوم المُمَثَّل بهم، الذين أصابهم هذا الصيِّب بما فيه ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ المراد: يجعلون أناملهم ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ خوفَ الصواعق، و(الصواعق): جمع

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧٢).

(٣) لسان العرب (١٠/ ٧٦).

صاعقة، وهي: قطعة نار تنفصل من مخراق المَلَك، والمخراق: هي الآلة التي بيده يزجر بها السحاب، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مخافة الهلاك من صوتها.

وهذا المَثَل يبيِّن إصرار المنافِقين على إحكام إغلاق المنافذ التي يصل الحقُّ عبرها، كما قال تعالى عن الكفَّار من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعِلْمه وقُدرته، فلا يفوته منهم شيء، وهم تحت مشيئته وإرادته، ولن ينفعَهم الحذر.

و(الإحاطة): تأتي بمعنى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

ثم قال تعالى في تتمة المَثَل: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يقرب أن يختلسها بسرعة من شِدَّة ضوئه، وضَعف البصر؛ فتعمى.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ لأصحاب الصَيِّب، ولو شيئًا يسيرا؛ ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾: انتهزوا الفرصة وتقدَّموا على حَسَب الرؤية.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾: انطفأ الضوء، وأظلم الطريق؛ ﴿قَامُواْ﴾ أي: وقفوا في أماكنهم مُتحيِّرين.

وهذا مَثَل ضربه الله للمنافِقين في موقفهم من القرآن، الذي فيه وعيد وزَجْر كالرعد، وحُجَج تبهرهم كالبرق، فيكاد ضَوءُ الحقِّ يُذْهِب أبصارهم، ويكاد مُحكَم القرآن أن يدلَّ على عوراتهم.

وهؤلاء كلَّما أضاء لهم الحقُّ، وكلَّما تكلَّموا بما يُظهِرونه منه، وكلَّما أصاب أهل الإسلام عِزٌّ ونصرٌ؛ اطمأنوا ومشَوا مع المسلمين، وكلَّما نزلت تكاليف شرعيَّة يكرهونها -كالجهاد والزكاة- وكلَّما أتاهم ما لا يُوافِق هواهم، وكلَّما أصاب الإسلام نكبة، أو أصابتهم فِتنة وبلاء؛ قاموا متحيِّرين، ووقفوا يريدون الرُّجوع إلى الكُفر.

وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: لو أراد أن يأخذ أسماعَهم التي في الرأس، وأبصارهَم التي في العين؛ لأخذها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تركِهم، أو الانتقامِ منهم ﴿قَدِيرٌ﴾: ذو قُدرة عظيمة.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ مَن تَرَكَ الحقَّ بعد معرفته؛ استحقَّ ذَهاب سمعه وبصره.

وفيها: أنَّ الله قادرٌ على أن يأخذ السمع والبصر بدون أسباب، فَيُذْهِب السمعَ دون صواعق، والبصرَ دون بَرْق.

وفيها: تهديد الكفار.

وفيها: أنَّ من طبيعة الإنسان اجتناب ما يُهلكُه؛ لقوله ﴿قَامُوا۟﴾، ولقوله ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ﴾.

ولذلك قيل: ينبغي الحذَرُ من النظر إلى البَرْق الشديد؛ لئلَّا يخطف البصر.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويسألَه أن يُمتِّعه بسمعه وبصره، كما ورد في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا»(١).

وفي قوله ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُوا۟﴾: تذكرة بحال المنافِقين يوم القيامة، عندما يذهبون مع المؤمنين إلى الصِّراط، وتُقَسَّم الأنوار على المؤمنين على حَسَب أعمالهم، ولا يُعطى المنافِقون شيئًا من النُّور، فيسيرون وراء المؤمنين ليستنيروا بنورهم في عبور الصِّراط المظلِم، فيُقال لهم: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي قُسِّمت فيه الأنوار، فالتمسوا نورًا هناك، فيرجعون، فيضرب الله بينهم وبين المؤمنين بسُورٍ يحجزهم عنهم، ويمنعهم من اللَّحاق بهم، فيقعون في النَّار، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُوا۟ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُوا۟ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وفيها: شِدَّة ظُلْمة قَلْب المنافِق، وأنَّها ظُلُمات بأسباب متعدِّدة.

وفيها: أنَّ من المنافِقين مَن تكون فيه شعبة إيمان، وشعبةُ نفاق اعتقاديّ، فحُكمه بما غلب عليه منهما، وفرقٌ بينَ المنافِق الخالص، والمنافِق المتردِّد.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨).

وفيها: أنَّ من الناس مَن لا يرى نور الحقِّ بالرغم من قوَّته، وأنَّ نفسه لا تتحمَّل الحقَّ، كما أنَّ البصر لا يتحمَّل لمعانَ البرق الشديد.

وفيها: أنَّ نور العِلْم والإيمان للمؤمن ذاتيٌّ لا يفارقُه، فهو يُنير طريقَه، بخلاف المنافِق؛ فإنَّه لا يرى الطريق.

وفيها: أنَّ الإعراض عن سماع الحقِّ لا يُنجِّي، ولا يعني أنَّ صاحبَه معذورٌ في عدم إقامة الحُجَّة عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى أصناف الخَلْق، وبيَّن أنَّ منهم المؤمنين والكافرين والمنافِقين المذبذَبين بينَ هؤلاء وهؤلاء؛ دعا الناس جميعًا إلى توحيدِه، وعبادته وحدَه لا شريك له، وذكَّرهم ببعض نِعَمه عليهم؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المكلَّفون من الإنس والجن ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: تذلَّلوا له بالطاعة، امتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه، مع المحبَّة والتعظيم. و(الربُّ): هو الخالِق، المالِك، المدبِّر لشُؤون الخَلْق، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾: أوجدكم من العدَم، وابتدعكم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأُمَم الماضية.

فاعبدوه؛ لخَلْقه إيَّاكم ومَن سبقكم؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ فتجعلوا عبادته وقايةً لكم من عذابه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبيهُ بالنِّداء في تبيان المقاصد العظيمة.

وفيها: العِناية بالعِبادة؛ إذ كان النِّداء بها لجميع الناس.

وفيها: أنَّ الإقرار بالرُّبوبيَّة يستلزم توحيدَ الألوهيَّة؛ لقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾.

وفيها: بيان علَّة الأمر بالعِبادة؛ وهي أنَّه تعالى الربُّ والخالِق.

وفيها: أنَّ التَّقوى مرتبةٌ عاليةٌ، لا تُنالُ إلَّا بإخلاص العِبادة.

وفيها: أنَّ نِعمة الخَلْق أعظمُ النِّعَم الدنيويَّة، وكلَّ النِّعَم الأخرى مترتِّبة عليها.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى تَتِمَةً لبعض نِعَمه، وعلّة الأمر بعبادته، وبعض خصائص ربوبيَّته؛ فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ صيَّرَ ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: بساطًا، تقعدون وتنامون عليه، وسُمِّيت (الأرض) أرضًا؛ لأنَّها تَتَأَرَّض؛ أي: تأكل ما في بطنها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: سقفًا مبنيًّا فوق الأرض.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (السماء): كلُّ ما علاكَ وأظلَّك، من (السُّموِّ) أي: العُلُوّ، وهو المراد هنا، وتُطلق أيضًا على السماء المبنيَّة التي لها سُمْكٌ وأبواب وزينة وحرسٌ وسكانٌ. وهي السماوات السبع التي تقدَّم ذِكْرُها.

﴿مَآءً﴾: المطر النازل من السَّحاب من جهة العُلُوِّ.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ وأنبتَ بقُدرته ﴿بِهِۦ﴾ بسبَبِ ذلك الماء ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: المأكولات، من الحبوب والفواكه وغيرها ﴿رِزْقًا﴾: غذاءً وقوتًا ﴿لَّكُمْ﴾ من الله تعالى، أنعم به عليكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: لا تتخذوا شُركاء معه في عبادته، وعُدلاء ومشابهين بزعمكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ هذه الأنداد لا تَخْلُق ولا تَرْزُق، وأنَّ الله هو الخالِق الرَّازِق.

وفي «الصحيحَين»، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(١).

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: «الأنداد هو الشِّرك، أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء (الحجارة الملساة) في ظُلمة اللَّيل»(٢).

وقال أيضًا في معنى الآية: «لا تُشركوا بالله غيره من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضرُّ،

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه، وقد علمتُم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من توحيده هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله تعالى بخَلْقه، وبيان قُدرته العظيمة.

وفيها: إثبات الأسباب؛ كما دلَّت عليه الباء السَّبَبيَّة في قوله: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بسببِ ذلك المطر.

وفيها: أنَّ الأسباب لا تكون مُؤثِّرةً فاعلةً إلَّا بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾.

وفيها: بيان قُدرة الله تعالى في إحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

وفيها: أنَّ الله يرزق الناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم.

وفيها: تحريم اتِّخاذ الأنداد لله، وقد يكون شِركًا أكبر أو أصغر، جليًّا أو خفيًّا، بحَسَب اعتقاد صاحبه.

وقد قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الأنداد: «هو الشِّرْك، وهو أن يقول: والله، وحياتك يافلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البَطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان -لا تجعل فيهما «فلان»-؛ هذا كلُّه به شِرْك»[2].

وفيها: أدلَّة عظيمة لمواجَهة الملاحدة الذين يُنكرون وجود الله تعالى؛ فإنَّ الخَلق يدلُّ على الخالِق، كما أنَّ البَعَرةَ تدلُّ على البَعير، والأثر يدلُّ على المسير.

وفيها: دليلٌ على استعمال الحُجَج في المناظرات.

وفيها: ذمُّ مَن ارتكب الحرامَ وهو يعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بتوحيده، ونهى عن الشِّرك به؛ انتصر لوَحيه وكتابه ونبوَّة نبيِّه محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحدَّى الطاعنين في القرآن، والشاكِّين فيه؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾: في شكٍّ وقلق واضطراب عظيم ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وهو القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإضافةُ هنا للتشريف.

﴿فَأْتُوا﴾ هذا أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة، و(السُّورَة): الطائفة من القرآن، مأخوذة من «السُّور»؛ لأنَّها محيطة بآيات الله وما فيها، كما يحيط سُور المدينة بأبنيتها ومافيها ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: من مِثْل هذا القرآن الذي نزَّلناه على عبدنا، ﴿وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾: واستعينوا على ذلك بأعوانكم، وفصحائكم، وحُكمائكم الذين يحضُرون مشاهدكم، وآلهتكم التي تعبدونها ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. فتحدَّى العابدَ والمعبودَ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: إنَّ هذا القرآن مُفْترى، أو إنَّه كَذِبٌ، أو إنَّ نبيَّنا تَقَوَّلَه من عنده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قوَّة الحقِّ.

وفيها: تحدِّي صاحب الشريعة لفُصَحاء العرَب الكافرين.

وفيها: أنَّ أعظم معجِزة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدَّى بها المُعَانِدِين هو هذا القرآن.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا من الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وليس في الكتب السابقة كتابٌ مُعْجِزٌ غير القرآن، وليس هناك معجِزةٌ مستمرَّةٌ إلى قيام الساعة غير القرآن.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

وفي هذه الآية: الانتصارُ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: إشارةٌ إلى كلمة التوحيد الثانية (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله)، بعدما أشارت الآيتان السابقتان إلى كلمة التوحيد الأُولى (أشهد أن لا إله إلَّا الله).

وفيها: تشريفُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما تقتضيه الإضافةُ في قوله: ﴿عَبۡدِنَا﴾.

وفيها: شرفُ مرتبة العبوديَّة، ولذلك وَصَفَ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، وأضافه إليه في قوله: ﴿عَبۡدِنَا﴾.

وفيها: إثباتُ عُلُوِّ الله تعالى في قوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾؛ لأنَّ التنزيل لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفي هذه الآية: آخِر منزلة للتدرُّج في التحدِّي؛ فإنه قال لهم في مكة: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [القَصص: ٤٩]، ثم قال لهم: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣]، ثم قال لهم هنا: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾.

فتحدَّاهم أن يأتوا بسُورَة تُشبِه سُوَر القرآن في حُسنِ النَّظم، وجمالِ الأسلوب والبلاغة والفصاحة، وتفصيلِ أنباء ما قد سبقَ، والإخبارِ بالغَيب الذي وقع وسيقع، وحِكْمةِ التشريع من الأمرِ والنهيِ والأحكام، والوَعْدِ والوَعيدِ، والقَصصِ والأنباءِ.

فقال لهم: هاتوا سورةً مِثْلَ هذا، لا يقعُ فيها تحريفٌ ولا تبديلٌ إلى قيام الساعة!

وفي الآية: اضطرابُ الكفَّار في شأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُنزِل عليه، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿فِي رَيۡبٖ﴾؛ ولذلك اختلفت أقوالُهم وعباراتُهم فيه؛ فتارةً يقولون: ساحرٌ، وتارةً: كاهنٌ، وتارةً: مُعَلَّمٌ، وتارةً: به جِنَّةٌ، وتارةً: مجنونٌ، وغير ذلك.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾:

ولـمَّا عجزَ الكفَّار عن الإتيان بما تحدَّاهم به، رغم ما في التحدِّي من استثارة هِمَمهم؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ ما تحدَّيناكم به، من الإتيان بسورةٍ من مِثْله، ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ ذلك أبدًا في المستقبَل؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: اجعلوا بينكم وبين عذاب النَّار وقاية، بالإيمان بالله

وكتابه ورسوله، فقد أُقيمت الحُجَّة، وثبتَ عَجْزُكُم، فإن لم تؤمنوا: فالنَّارُ مصيرُكم، ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ تلتهب بهم، و(الوقود): ما يُلقَى في النَّار لإضرامها.

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هي حجارةٌ من كبريت، خلقَها الله يوم خلق السماوات والأرض، في السماء الدُّنيا، يُعِدُّها للكافرين»[1].

وهذه الحجارة العظيمة السوداء، الصَّلبة، المُنتنة، هي أشدُّ الأحجارِ جَمْرًا إذا حَمِيَت.

وقيل: المرادُ بـ(الحجارةِ): الأصنامُ والأندادُ التي كانوا يعبدونها من دون الله، وفي هذا خزيٌ لعابديها، إذا رأوْها تحترق معهم، ويحترقون بها.

﴿أُعِدَّتْ﴾: أُرصدت وهُيِّئت، و(الإعداد): التهيئة للشيء. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله وكتبه ورُسُله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإخبارُ بعَجْز الكفَّار عن الإتيانِ بمِثْل القرآنِ إلى يوم الدِّينِ، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وفيها: صِدْق خبر القرآن، ومعجِزةٌ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ كلَّ مَن حاول الإتيان بمثله فضحَه الله، وكان فِعْلُه سخريةً عليه.

وفيها: أنَّ النَّار مخلوقةٌ وموجودةٌ الآن، كما دلَّ عليه قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾، وكما ورد في الأحاديث، مثل: تحاجُج الجنَّة والنَّار، واستئذان النَّار، والإذن لها بنَفَسين في الصيف والشتاء، وصوت الحَجَر الذي أُلقيَ من شفير جهنم فوصل إلى قعرها في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع صوتَه الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ جميع سُوَر القرآنِ معجِزةٌ -طويلها وقصيرها- لايمكن الإتيان بمِثْلها.

وفيها: أنَّ المُعَانِد كافرٌ، وأنَّ جزاء المعاندين النَّار؛ لأنَّهم إذا عجَزُوا عمَّا تحدَّاهم به ثم لم يؤمنوا؛ فلا يكونون إلَّا معانِدين.

---

(١) رواه الطبري (١/ ٣٨١)، والحاكم (٣٠٣٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

ويؤخَذ من الآية: بقاء القرآن إلى آخر الزمان، حتى يأذن الله برَفْعه قُبيلَ قيام الساعة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ولـمَّا كانت طريقةُ القرآن الجمعَ بينَ الترغيب والترهيب، والوَعْد والوَعيد؛ فقد ذكرَ عَزَّوَجَلَّ جزاءَ المؤمنين بعد جزاءِ الكافرين؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البشارة): الإخبار بما يَظهر أثره على البشرة، ويكون غالبًا في الخبر السارّ، الذي يظهر أثرُه والسرور على صاحبه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَا كُلَّ مَن يصلُح له الخِطاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاء عن الله ورسولِه، تصديقًا وقَبولًا وإذعانًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليلًا على صِحَّة إيمانِهم، قاموا بالأعمال مخلِصين لله، متابعين لسُنَّة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ (الجنَّة): البستان ذو الأشجار المُثْمِرة الكثيرة، التي تَستر ما فيها.

و(الجنَّة): اسم دار الثواب التي أعدَّها اللهُ للمؤمنين، وهي مراتب ودرجات وجِنَان، وأعلاها وأوسطُها: «جَنَّةُ الفردوس».

﴿تَجْرِى﴾ تسيلُ ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: تحتَ أشجارها ومساكنها على وجه الأرض، من غير أخاديد، وجريان النهر من أسباب طيبِ طَعمه.

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنهارُ الجنَّةِ تَخْرُج مِن تَحْتِ تِلالِ -أو: من تحتِ جِبالِ- مِسْكٍ»(١).

وطِينُها المِسكُ الأذفرُ، ذو الرائحة الطيِّبة، وحصباؤها اللؤلؤُ والجوهرُ، وهي أنهارٌ متعدِّدةٌ، وقد جاء في القرآن ذِكرُ بعض أنواعها، من الماء العَذب، واللَّبَن، والخَمْر، والعَسَلِ.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ أُعطوا وأُطعِموا ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الجَنَّاتِ ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ من الأنواع المختلفة ﴿رِّزْقًا﴾ (الرِّزق): ما يُنتفعُ به.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٧٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٢١).

﴿قَالُواْ﴾ للملائكة والوِلدان: ﴿هَٰذَا﴾ الـذي أتيتمونا به ﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ مِثْلُه ويُشْبِهُهُ، هكذا يظنُّون أنَّ الذي أُتُوا به لاحِقًا كالذي أُتُوا به سابقًا، ولكنَّه في الحقيقة -وإن تَشابه اللونُ والشَّكلُ- فإنَّ الطعم مختلفٌ، والتنويع تكريمٌ، ونعيمُ الجنَّةِ متجدِّدٌ، يزيد باستمرار.

وما في الجنَّة من الثِّمار لا يُشبه ما في الدُّنيا إلَّا في الاسم، كما قال ابن عبَّاس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: «لا يشبه شيءٌ ممَّا في الجنَّةِ ما في الدُّنيا إلَّا الأسماء»(١).

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾: جيء به إليهم ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا، في اللون، والمنظر، والجودة، لكنَّه يختلف في الطعم، فإذا طَعِمُوه وجدوه ألذَّ وأطيبَ.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ في الجنَّة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: جَمْع «زوجٍ»، ويشمل: الحُور العِين، والمؤمنات من نساء الدُّنيا ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ قد جَمَعْنَ بينَ طهارة الظاهر -فلا بولَ ولا غائط ولا حَيض ولا قذر- وطهارة الباطن، من الغِلِّ والحقد والبغضاء والغَيرة المُؤْذِيةِ، ونحو ذلك.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ماكثون أحياء، وهذا من تمام النعيم، أنَّه لا ينقطع، ولا ينقضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة تبشير الإنسان بما يسُّره، والبِشارة من سُنن المرسَلين.

وفيها: أنَّ الجنَّات لا تكون إلَّا لمن جمعَ بينَ الإيمان والعمل الصالح.

وفيها: أنَّ جزاء أهل الجنَّة أكبرُ وأعظمُ من أعمالهم.

وفيها: كمال قُدرة الله.

وفيها: تمام نعيم أهل الجنَّة، بما جعل الله فيها من الأمور المتنوعة المتجدِّدة في زيادة.

وفيها: ذِكر ألوان من النعيم الحِسِّيّ في الجنَّة، من الأكل والنِّكاح؛ لتشتاق إليها نفوسُ أهل الدُّنيا.

وفيها: ترغيب النفوس بالجنَّة؛ لِيَسْهُل العمل، وتَخِفَّ مشقَّة التكاليف والعِبادات.

---

(١) رواه الطبري (١/ ٣٩٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، بإسناد صحيح.

وفيها: شرف الجنَّة؛ فإنَّ المُبشِّر بها هو: الله عَزَّوَجَلَّ، والمُبشَّر: عباد الله المؤمنون، وناقل البِشارة: أعظم رسول مَلكيّ، وأعظم رسول بشريّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: اجتماع نعيم أهل الجنَّة من جميع أطرافه؛ فلهم نعيم جسدي -ومنه الطعام- ونعيم نفسي -ومنه الأزواج- ونعيم القَلْب بما يعلمونه من الخلود وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

ولـمَّا ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ للمنافِقين في أول هذه السُّورَة، وردَّ على مَن طَعَنَ في الوحي، وحَصَلَ أنَّ بعض أهلِ الضَّلالِ استنكروا واستهزأوا من ضَرْبِ المَثَلِ في القرآن بالذباب والعنكبوت؛ ردَّ الله عليهم هنا وانتصر لكتابه؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ لا يمنعه الحياءُ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ من أن يضرب مَثَلًا، ولو بشيءٍ حقيرٍ ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما هو أكبر منها -كالذباب- أو ما هو أدنى منها وأصغر -كالذَّرِّ وصغار النمل- مادام في التمثيل بذلك فائدةٌ وعِبْرةٌ.

وكما أنَّه تعالى لم يستنكف من خَلْقِها، وفي خَلْقها فوائد، فكذلك لم يستنكف من ضَرْبِ المَثَل بها.

ويضرب اللهُ الأمثالَ لإيضاح المعاني والحقائق للناس؛ لعلَّهم يعقلون ويتفكرون فيها.

ولكن لا يَعْقِلُ هذه الأمثالَ إلَّا العالِمون، ولذا قال بعضُ السلف: «إذا سمعتُ المثَلَ في القرآن فلم أفهمه؛ بكيتُ على نفسي؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»[1].

والخلاصةُ: أنَّ الله تعالى يضرب الأمثالَ بالأشياء، صغيرها وكبيرها؛ فيؤمن المؤمنون، ويستهزيء المكذِّبون.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٨).

وينقسمُ النَّاسُ في هذا الأمر إلى قسمَين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المَثَل المضروب ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ فيعقلون، ويتفكرون، ويزدادون إيمانًا.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود والمشركين والكافرين وغيرهم، فإنَّهم يستهزؤن، ويستنكرون، ويقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾، فيُعْرِضُونَ، ويجادِلون بالباطل، وتنصرف قُلُوبهم عن الحقِّ.

وقد اقتضت حِكْمةُ الله أن يضرب المثَلَ؛ ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ من النَّاس، من أهل الكُفر والنِّفاق، ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ﴾ بهذا المَثَل ﴿كَثِيرٗاۚ﴾ من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدىً وإيمانًا.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾ بالمَثَل المضروب ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الخارجين عن الإيمان إلى الكُفر والنِّفاق، كما جاءت أوصافُهم في الآية التي بعدها.

قال قتادة: «فسَقوا، فأضلَّهم الله على فِسْقِهم»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثباتُ صفة (الحياء) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته، وحياؤه ليس كحياء المخلوق.

وفيها: خطورة الاستهزاءِ بكلام الله تعالى، والاعتراضِ عليه.

وفيها: أنَّ الله لا يخلق شيئًا عَبَثًا، حتى البعوضة مع كونها من أحقر المخلوقات، فلله في خَلْقها حِكَمٌ؛ فإنَّها تَقُضُّ مضاجعَ الجبابرة، ويُذِلُّ الله بها الظَّلَمَة، وتصلُح مَثَلًا لأهل الدُّنيا؛ فإنَّها تحيا إذ جاعت، وتموت إذا شَبِعَت! وهكذا أصحابُ الدُّنيا إذا استغنَوا طغَوا، فأخذهم الله.

والبعوضة من آيات الله في الخَلْق؛ فإنَّها على صِغَرِها يغوص خُرْطُومها في جلد الفيل والجاموس والجمل، حتى إنَّه ربما يموت من قَرْصتها؛ بما تنقلُه إليه من الوَباءِ بإذنِ الله.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٩).

وفي هـذا تقوية لِقُلُـوب ضُعَفاء الناس بذِكْـر ضُعَفاء الأجناس؛ فالبعوضـة تُدْمِي مُقلة الأسد، وهي -على صِغَرِها- أجرأ من الأسد!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الحقَّ الثابت من الله لا يجوز إنكارُه.

وفيها: أنَّ الشيء الواحد يكون سببًا لهداية أُناس، وسببًا لضلال آخرين.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار ومَـن شـابههم يَقِفون عنـد ظواهر الأشـياء، ولا يُدرِكـون الحقائق، ولا يعرفون الحِكَم.

وفيها: خطورةُ الجدال بالباطل؛ كما قال هؤلاء: ﴿**مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا**﴾.

وفيها: أنَّ فَهم أمثال القرآن من أعظم أسباب الهداية.

وفيهـا: أنَّ أهل الهدى -وإن كانوا قِلَّة- لكن كثرتهـم في خيرهم ونفعهم للناس، وأهل الضلال -وإن كانوا كثيرين في العَدد- لكنَّهم قليل من جهة الخير والبرَكة.

وفيها: فَضْل الإيمان، وأنَّه يمنع صاحبه من معارضة ما أنزل الرحمن.

وفيها: أنَّ الاعتراض على حُكمِ الله يُنافي الإيمانَ.

وفيها: أنَّ مَن فَسَقَ وخرج عن طاعة الله؛ استحقَّ الإضلال.

وفيها: أنَّ فِسْق الكافر هو خروجٌ كليٌّ عن طاعة الله، بينما يكون فِسْق العاصي خروجًا جزئيًّا.

وفيهـا: أنَّ عـلى الدَّاعيـة إلى الله ألَّا يمنعه الحيـاءُ مِن بيان ما فيه حـقٌّ وفائدة، ولو كان في ذلك مجالٌ لِطَعْن الطاعنين.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى صفات هؤلاء الفاسقين؛ فقال:

﴿**ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ**﴾: يُخَالِفون ويَتركون ﴿**عَهْدَ ٱللَّهِ**﴾: ميثاقَهُ المؤكَّد، و(النقض): هو حلُّ الشيء بعد إبرامه ﴿**مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ**﴾: توكيده وإيجابه.

و(عهد الله) يشمل: الأمرَ بطاعته، والنهيَ عن معصيته. ونَقْضُه: مخالفة ذلك.

ويشمل: ما أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من العملِ بما فيها، واتّباعِ محمَّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُعِثَ. ونَقْضهم: تركُهم العملَ وتكذيبُهم النبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكِتمانُ أمره.

ويشمل عهدُ الله أيضًا: ما أخذه على جميع العِباد من توحيده، وما جعل في فِطَرِهم من موافقة ذلك. ونَقْضه: الوقوعُ في الشِّرك.

ويشمل العهد كذلك: ما أخذه الله على ذريَّة آدم، من الإقرار بربوبيَّته. ونَقْض ذلك: تَرْك الوفاء بهذا الميثاقِ.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «هي ست خصال في المنافِقين، إذا كانت فيهم الظَّهَرةُ (الغلبة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وَعَدُوا أَخلفوا، وإذا ائتُمِنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصِل، وأفسدوا في الأرض.

وإذا كانت الظهرة عليهم؛ أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وَعدوا أخلفوا، وإذا ائتُمِنوا خانوا»[1].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من القرابات النسَبيَّة: بقطع الأرحام- والقرابات الدِّينيَّة: بِتَركِ نُصْرَةِ الرُّسُل، وإيذاء أهل الحقِّ بقطع الولاء للمؤمنين، وإيذاء آل بيت رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحو ذلك.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والفتن، والصدّ عن سبيل الله، وهذا من الفساد المعنوي. ويُفْسِدون كذلك إفسادًا حِسِّيا، بتخريب الدِّيار، وقَتْل الأنفس، ونحو ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: جمع «خاسرٌ»، وهو: الذي فاته الربح. والمراد به هنا: الذي فاتته المثوبةُ والجنَّةُ، وصار إلى العُقوبةِ والنَّارِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ الوفاء بعهد الله الذي أخذه على عباده، ووجوبُ الوفاء بما عاهد عليه العبدُ ربَّه من الطاعات، ووجوب الوفاء بالمعاهَدات المباحة مع الخَلْق.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١١)

وفيها: خطورة المعاصي، ومن أشدِّها: التي يتعدَّى ضررُها وينتشر أثرها.

وفيها: خطورة الفِسْق؛ لأنَّ الله حَصَرَ الخسارة فيه.

وفيها: التحذيرُ من كِتمان ما أوجبَ اللهُ بيانَه، وهذا من الميثاق الذي أخذه الله على العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفيها: الأمر بصلة الرحم، والإصلاح في الأرض؛ لأنَّ النهيَ عن الشيء وذمَّهُ يقتضي الأمرَ ووجوبَ العملِ بضِدِّه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

وقوله ﴿كَيْفَ﴾: استِفهامٌ للإنكارِ والتَّعجُّبِ ﴿تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾: تجحدونه، وتُكذِّبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتُنكرون بعثَه لكم يوم القيامة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ عدمًا أو ترابًا، أو في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئًا حتى خَلَقَكُم، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾: بإخراجكم إلى الوجود، وخَلْقِكم، ونَفْخِ الأرواحِ في أجسادكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ موتةَ الحقِّ، بِقبْضِ أرواحكم، وخروجكم من الدُّنيا، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بنفخة البَعْث، وعودة الأرواح في أجسادكم.

وهاتان الميتتان والحياتان في هذه الآية هما المذكورتان أيضًا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: بعد بعثِكم تُردُّون إليه للحساب والجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاستنكار والتَّعجُّب من كُفر مَن يعلم حاله ومآله.

وفيها: توبيخُ الكفَّار.

وفيها: أنَّ الموتَ يُطلَقُ على ما لا روح فيه، وإن لم يسبقه حياةٌ؛ ولذلك يَصِحُّ أن يُوصف الجمادُ بأنَّه ميِّتٌ، كما قال تعالى عن الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١].

ويؤخذ منها: أن الجنين إذا سَقطَ قبل نَفْخِ الرُّوح فيه فليس له حُكم الحيِّ، ولهذا لا يُغسَّلُ ولا يُكفَّنُ ولا يُصلى عليه، ولا يرث ولا يُورَث.

وفي الآية: تمامُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ البَعْث، وأنَّ مصير الخَلْق كلِّهم الرُّجوعُ إلى الله.

وفيها: أنَّ نِعمة الإيجاد من العدَم تستوجب شُكرَ المنعِم، بعبادته، لا بالكُفر به.

ويُستفاد من الآية: مُناظَرة الكفارِ، وتنبيهُ الجاحِدِين على أول نِعمة على الإنسان، وهي الإيجاد من العدَم.

وفي الآية: التنبيهُ على الاستعداد للرجوع إلى الله، وذلك بالتَّزوُّد بالصالحات، وتَرْك المعاصي.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى بعض آياته في الأنفُس؛ ذكرَ بعض آياته في الآفاق، ولـمَّا ذكَّرهم بنِعمة إيجادهم ذكرَ نِعمة خَلْقِ السماوات والأرض؛ فقال تعالى -ممتَنًّا على عباده-:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ لأجلِكم، ومنفعتكم ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يَعُمُّ كلَّ ما في الأرض من المخلوقات، من الأشجار، والزروع، والمعادن، والحيوانات، ونحو ذلك.

وهذا يدلُّ على أنَّ الأصل فيها جميعًا الحِلُّ والإباحة، حتى يَرِد الدليل على تحريم شيء منها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ قَصدَ وأراد ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وكانت دُخانًا، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: خَلقَهُنَّ وأتمَّهُنَّ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ طِباقا، مُحْكَمَة، متينة، لا شقوق فيها، ولا تفاوت.

﴿وَهُوَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: قد أحاط به، فلا يَخفى عليه منه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ خَلْقَ الأرض كان قبل خَلْقِ السماوات، كما دلَّت عليه الآية الأخرى في سُورَة «فُصِّلت»: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، إلى أنْ قال ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلت: ١١-١٢].

ولا يتناقض هذا مع قوله تعالى في سُورَة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]؛ لأنَّ الذي حَصَلَ بعد خلق السماوات والأرض هو دَحْي الأرض، وإخراج الماء والمرعى، وليس خلق الأرض وإيجادها؛ فإنه كان قبل خلق السماوات، كما جاء ذلك عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

وفي الآية: أنَّ الأصلَ في الأشياء الإباحةُ والحِلُّ، ولا يَحْرُم شيء ممَّا في الأرض إلَّا ما قام عليه الدليل، كما تقدَّم.

وفيها: التنبيه على أنَّ مَن سَخَّر الله له الدُّنيا، لا ينبغي له أن يُسَخِّرَ نفسه لها؛ فإنها جُعِلَت لتخدمَه لا ليخدمَها، ومَن كانت الدُّنيا أكبرَ همِّه هَلَكَ.

وفيها: التذكير بنِعَم الله؛ ليقومَ العِباد بشُكره.

وفيها: سَعَة عِلْم الله وعُمومه.

وفيها: تنبيه العِباد على التذكُّر والاعتبار بما خَلَقَه الله تعالى؛ ليستدلُّوا بذلك على عظمته ووحدانيته؛ فيطيعوه ويعبدوه لا يشركون به شيئًا.

ويُفهَم من الآية: تحريم الخبائث، وتناول منع كلِّ ما يضُرُّ؛ لأنَّ الله لا يمتنُّ على عباده بها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى خَلْقَ المسكنِ أرضًا وسماءً، أَتْبَعَ ذلك بذِكر خَلْقِ الساكنِ، وذِكرِ مِنَّةٍ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥)، (٨/ ٣١٦).

أخرى من نِعَمه على العِباد، وهي: خَلْقُ أبيهم آدم، واستخلافه في الأرض؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وَهُمْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُم الله من نورٍ، وَأَمَرَهُم بأعمالٍ، و(الملائكة): جَمْعُ «ملأك»، مشتقٌ من «الألوكة» وهي: الرسالة. ثم نُقِلَت حركةُ الهمزة إلى اللام، وحُذِفَت الهمزةُ تخفيفًا، فصارت: «مَلَك».(١)

﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ خالقٌ وَمُصَيِّرٌ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَيْ: قَومًا، يَخْلُفُ بَعضُهُم بَعضًا، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وقيل: يَخْلُفُون مَن سبقهم من المخلوقات التي كانت في الأرض مِن قبلهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكةُ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وهذا سؤالُ استعلامٍ واستكشافٍ عن الحِكْمة، وليس سؤالَ اعتراضٍ واستنكارٍ؛ فإنَّ الملائكةَ لا يعصون الله.

﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالشِّرك والمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فيقتلُ ظلمًا وعدوانًا.

وقولُ الملائكة هذا عن شيء لم يحدث بعد؛ إمَّا لأنَّ الله أطلعهم على شيءٍ ممَّا سيفعله البشرُ في الأرض من الفساد، فلذلك سألوا مستغرِبين.

أو أنهم قاسوا البشرَ على مَن كانوا يسكنون الأرض قبلهم من الجنِّ، الذين كانوا قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فظنَّت الملائكةُ أنَّ هؤلاء سيكونون مِثلَ أولئك.

وقال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: «كان اللهُ أعلَمَهم أنَّه إذا كان في الأرض خلقٌ أَفسدوا فيها وسفكوا الدماء؛ فذلك قوله ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾»(٢).

وقوله ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أي: والحال أننا نُنَزِّهك عن كلِّ ما لا يليق بك، وعمَّا افتراه عليك أهل الشِّرك، وعن كلِّ نقص.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٦٢)، تفسير النيسابوري (١/ ٢١٣)، الدر المصون (١/ ٢٤٩)، المصباح المنير (١/ ١٨).
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٦٤).

﴿بِحَمۡدِكَ﴾ أي: تسبيحًا مصحوبًا بالحمد، مقرونًا به، فيحمدونه على كماله، وجليل صفاته، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونُعَظِّمُك، ونُكبِّرُك، ونصلِّي لك، ولا نعصيك، ونَصِفُك بما يليق بك.

و(التقديس): التطهير، أي: نُطَهِّر أنفسنا لطاعتك، ولا يَعْلَق فيها شيء ممَّا لا يليق بك.

﴿قَالَ﴾ عَزَّوَجَلَّ جوابًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من الحِكْمة والمصلحة في خَلْقِ آدم وذريَّته، وما سأجعل منهم من الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصالحين، الذين يعبدونني في الأرض، ويجاهدون في سبيلي، ويعمرونها بشَرْع الله، وما سيكون من إبليس من المعصية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يبتلي مخلوقاته، وأنَّ الملائكة ابتُليت بخلق آدم، فتَبيَّن لهم بعد ابتلائهم عدمُ عِلْمهم بما عَلِمَه الله من المصلحة في خلق آدم وبَنيه.

وفيها: استِحقاق الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ للتقديس، كما تفيده «اللام» في قوله ﴿لَكَ﴾؛ فهو عَزَّوَجَلَّ أهل أن يُقدَّسَ.

وفي الآية: أنَّ الملائكة ذوو عقول، وأنَّهم سألوا ربَّهم؛ فأجابهم، وخاطبهم.

وفيها: حِكْمة الله في جَعْلِ البشر خلفاء يتناسلون؛ ليبقى جِنسُهم.

وفيها: الثَّناء على مَن يَستحقُّ الثَّناء، وإظهار فَضْل صاحب الفَضْل، وخصوصًا عند مَن لا يعرفه، كما أثنى الله تعالى على آدم.

وفيها: أنَّ مَن يُقدِّس الله لا يعترض على حُكمِه ويُسَلِّم لأمره.

وفيها: كراهة الملائكة للإفساد في الأرض.

وفيها: أنَّه يجوز أن يُخبِرَ الشخص عن نفسه بما يفعله من الخير للحاجة؛ إذا كان المقصود الإخبار وليس الافتخار، كما قالت الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وكما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]، وفي حديثٍ آخر: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ..»[٢].

وفيها: جواز السؤال عن حِكْمة الله في خَلْقه؛ إذا كان المقصود التَعَلُّمَ، وليس الاعتراض والاستنكار.

وفيها: إزالةُ حَيرَةِ المُحتارِ، وهدايةُ السائلِ إلى مايريدُ معرفَتَه.

وفيها: عدمُ انتهارِ السائل المستفيد.

وفيها: أنَّ الملائكةَ لاتعلمُ الغَيب.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى فَضْلَ آدم، وما شرَّفه به من العِلْم، وما فاق به الملائكةَ في هذا، وإخباره إيَّاهم بما لم يعلموه، وهذه الحادثةُ وإن كانت بعدَ أَمْرِ الله للملائكةِ بالسجود لآدم، لكنها قُدِّمت هنا للمناسبة؛ ولتعلُّقِها بعِلْم الله، وما خُتِمت به الآيةُ السابقةُ من قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ﴾ أي: الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ءَادَمَ﴾ اسمُ عَلَمٍ لأبي البشرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهو اسمٌ أعجميٌّ -كآزر- وقيل: هو مشتقٌّ من الأديم؛ فعن سعيد بن جُبَير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سُمِّي آدم؛ لأنَّه خُلِقَ من أديم الأرض»[٣]، وأديمُ الأرض: هو وجهُهَا. وقيل: من الأُدْمة، وهي السُّمرة.

﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماءَ الأشياء جميعًا، التي كانت موجودةً في العالَمِ في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: الأسماء والمسمَّيات، و(العرْض): إظهارُ الشي للغير.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى (١/ ٢٣).

﴿فَقَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأشياء الحاضرة، فإذا عجَزُوا عنها فهُم عن تسمية الغائبِ أعجزُ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّكم أفضل من هذا الخليفة، أو في ظنِّكم أنَّ هذا المخلوقَ لا يكون منه إلَّا الفساد.

وقوله ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ سؤالُ امتحانٍ، وتعليمٍ، وكَشْفٍ للحقيقة.

وقد أَخرج البخاريُّ ومسلمٌ، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ؛ حَتَّى يُرِيحَنَا من مَكَانِنَا هَذَا...» الحديث[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله علَّم آدمَ مباشرةً بلا واسطة، وهذا يدلُّ على شَرَفه، فآدمُ نبيٌّ مُكلَّمٌ، كما ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[2].

وعن مجاهدٍ رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله ﴿بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال: «بأسماء هذه التي حدَّثتُ بها آدمَ»[3].

وفي الآية: أنَّ أسماء الأشياء -وكذلك أصل اللغات- توقيفيَّة، من تعليم الله، وليست تجريبيَّة من اختراع البشر، ولكن وإن كانت اللغاتُ مبدؤها توقيفيّ، فإنَّ كثيرًا منها كسبيٌّ تجريبيٌّ يضعُه الناس، ويستعملونه ويشيع بينهم.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾:

فلمَّا تبين للملائكةِ عَجْزُهم، وتبيَّن لهم عظمةُ الربِّ وقُدرتُه وسَعةُ عِلْمه؛ ﴿قَالُواْ﴾ مُنزِّهين له عن النقائص: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ لااعتراض على حُكمك ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ اعترافٌ بالعَجْزِ، وثناءٌ على الله بما علَّمهم.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه ابن حبَّان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٨٩).

﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ أسلوبُ تأكيدٍ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: الذي أحاط علمُه بكلِّ الأشياء، فلا تخفى عليه خافية.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو الحِكْمـةِ البالغةِ، في شَرْعِه وقَدَرِه. و(الحِكْمة): وضعُ الشيء في موضعه اللَّائِق به.

و(الحكيم) أيضًا: ذو الحُكمِ، لامُعقِّبَ لِحكمه، يحكمُ ما يشاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

امتحانُ ادِّعاءات الأشخاص فيما يزعمون الإجادةَ فيه.

وفيها: جوازُ امتحان الإنسان بما لم يعلمه؛ ليتواضع ويتبيَّن له قدْرَ عِلْمه.

وفيها: أدبُ الملائكة مع الله وتعظيمهم له؛ حيث اعترفوا بعِلْمه وكماله، وأقرُّوا بأنَّ عِلْمَهم محدودٌ، وأنَّ الفَضْلَ فيما يعلمون لله وحده.

وفيها: الرُّجوعُ إلى الحقِّ، والاعترافُ بالعَجْز، وعدم المُكابَرة.

وفي تقديم العِلم على الحِكْمة: إشارةٌ إلى أنَّ الحِكْمة من آثار العِلْم، ومترتِّبةٌ عليه.

وفيها: أنَّ المسئولَ إذا سُئِلَ عن شيء لا يعرفه؛ فإنَّ عليه ألَّا يستحي من قول: الله أعلم، أو: لا أدري، أو: لا عِلم لي، ونحو ذلك؛ ولذلك قال العلماء: «لاأدري: نِصفُ العلم»(١).

وفيها: ردُّ العِلم إلى الله، وأنَّه لا يَحصُل عِلمٌ صحيحٌ إلَّا بما أتى منه عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ كل عِلْم لدى البشرِ هو من تعليم الله إيَّاهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

وفي الآية: دليلٌ لتفضيل الأنبياء على الملائكة.

وفيها: قُدرة الله تعالى على تعليم الشيء الكثير في الوقت اليسير.

وفيها: أنَّ من حُسن التعليم: أن يكون بالتدريج؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾، الذي يُفيد إعطاء العِلم على مراحلَ.

---

(١) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٣٦٨)، جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٤١).

وفيها: الاهتِمام بعِلْم اللُّغة؛ لأنَّه يحوي أسماء الأشياء.

وفيها: أنَّ الله عَلَّمَ آدمَ الاسمَ والمسمَّى، والربطَ بينهما، وأنَّ هذا الاسمَ لهذا المُسمَّى.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾:

ولـمَّا عجزَت الملائكةُ عن الإتيانِ بالأسماءِ؛ ﴿قَالَ﴾ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾ أخبِر الملائكةَ وأعلِمْهُم ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ التي عجَزُوا عن الإتيانِ بها.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، وسمَّى لهم كلَّ شيءٍ باسمه على التفصيل؛ تَبيَّن للملائكة فضْلُ آدمَ وشرفُه.

﴿قَالَ﴾ لهم ربهم عند ذلك: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، أي: قد قلتُ لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ ما تُظهرون، كقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ تُسرُّون في أنفسكم: أنَّ الله لن يخلق خلقًا أعلمَ ولا أكرمَ منهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله، وسَعةِ عِلْمه ببواطن الأمور وظواهرها.

وفيها: فَضْل آدمَ على الملائكة.

وفيها: شرفُ العِلْم، وارتفاعُ منزلة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: جواز عتاب مَن ادَّعى دعوى غيرَ مُتأهِّلٍ لها.

وفيها: امتِثالُ آدمَ لأمرِ الله وطاعتُه له.

وفيها: تقريرُ المخاطَبِ بما لا يمكنه دفعه.

وفيها: أنَّ الملائكة لها إراداتٌ، وأنها تُبدي وتُخفي.

وفيها: عِلمُ الله بالمكنونات، وما في الصدور.

وفيها: تبليغُ العِلْم ونشرُه.

وفيها: فَضْل العالِم العابد على الجاهِل العابد، وأنّ الجَمْع بينَ العِلْم والعِبادة هو المطلوب من المؤمن.

وفيها: اختصاصُ الله بعِلْم الغيب.

وفيها -مع ما قبلها-: عدمُ الاستعجال بالحُكم على الأشياء؛ حتى لا يقف المتعجِّلُ موقف النَّدَم.

وفيها: أنَّ فوق كلِّ ذي عِلْم عليمٌ، وأنَّ على الإنسان ألَّا يغترَّ بنفسه، ولا يزدري غيره؛ فلربما كان أعلمَ منه وأفضلَ.

وفيها: تبيينُ فَضْل صاحب الفَضْلِ، وإظهارُ شَرَفِه عند مَن انتقصه.

وفيها: أنَّ عِلْم الملائكة يقبلُ الزيادة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

ولـمَّا تبيَّن فَضْلُ آدمَ، وشَرَفُه، وعِلْمُه؛ أُمر الملائكة بالسجود له، كما قال بعض المفسِّرين.

وقال بعضُهم: إنَّ الأمر بالسجود بعد خَلْقِ آدمَ وقبل التعليم.

وقد وردَ في آياتٍ أخرى أنَّ الأمر بالسجود كان قبل خَلْقِ آدم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحِجْر: ٢٩، ص: ٧٢].

وقد ذكرَ تعالى هنا في سُورَة «البقرة» أَمْرَهُ الملائكةَ بالسجود لآدم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر يا محمَّد ﷺ إذْ قلنا، وضمير الجمع للتعظيم، والقائل: هو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ظاهرُه أنَّ الأمر لجميع الملائكة.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ (السجود): وضعُ الجبهة على الأرض ﴿لِءَادَمَ﴾ سجودَ تحيَّة وإكرام، وليس سجودَ عبادةٍ؛ فإنَّ سجودَ العِبادةِ لا يجوز لغير الله، وقد كان سجودُ التحيَّة جائزًا في الأُمَم قبلنا، كما فعل أهل يوسف له: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ثم صار في شرعنا ممنوعًا لغير الله على أيّ وجه كان.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ على الفور، من غير تأخيرٍ؛ امتِثالًا لأمر الله.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وهو الشَّيطان، سُمِّيَ بـ (إبليس)؛ لأنَّه أبلسَ؛ أي: أيس من رحمة الله.

﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾: امتنع معاندة، وأظهر كِبْره، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كما هو في عِلْم الله السابق. أو (كان) بمعنى: صار؛ فدخل في جملة الكافرين بسببِ إبائه واستكباره.

ومع أنَّ إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلَّا أنَّه أُمِرَ مع الملائكة بالسجود.

وقد جاء التصريحُ بأمره بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

كرامةٌ عظيمةٌ لآدم عَلَيۡهِ السَّلَامُ وذريَّته.

وفيها: بيان كُفر إبليس، واستكباره عن الحقِّ، وعلى الخَلْق.

وفيها: أنَّ بعضَ المعاصي قد يكون كُفرًا، وبعضَ الإباء والامتناع يُخرِج عن دائرة الإسلام.

وفيها: فَضْل الملائكة بالمسارعة إلى الامتِثال والطاعة.

وفيها: أنَّ الله يحكم ما يريد، فيأمر مَن شاء بالسجود لمن يشاء، ويمنع مَن شاء من السجود -كما منعَه في هذه الأُمَّة-.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على كُفْرِ تاركِ الصَّلاة، وأنَّ الذي لا يسجد لله البتة فهو من الكافرين الخارجين عن مِلَّة الإسلام.

وفي الآية: وجوب امتِثال أمر الله، عُرِفَت العِلَّةُ، أم لم تُعْرَف.

وفيها: وجوب اتِّباع أمر الله، سواءً وافق هوى النفس، أو خالفه.

وفيها: الإشارةُ إلى وجوب سُرعة تنفيذ أَمْرِ الله؛ اقتداءً بالملائكة.

وفيها: بيانُ فَضْل السجود، وأنَّه أفضلُ ما تُقُرِّبَ به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الكِبْرَ على طاعة الله سببٌ للكُفر.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾:

ثم أكرمَ اللهُ آدمَ بعدما خَلَقَ له زوجَه بكرامةٍ أخرى؛ وهي: إسكانُه الجنَّةَ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ وهذا يدلُ على أنَّ اللهَ كلَّمه بلا واسطة، وهذا شرفٌ عظيمٌ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد سأل رجلٌ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنبيٌّ كان آدمُ؟ قال: «نَعم، مُكَلَّمٌ»(١).

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾: أَقِم وامكُث، واتخِذ الجنَّةَ مَسكنًا. و(المَسكن): محلُّ السُّكون. والأمر؛ للإذن والإباحة، فأكرمَ اللهُ آدمَ وزوجه حوَّاء بالجنَّة.

وهذا السياقُ يقتضي أنَّ حواءَ خُلِقت قبل دخول آدم الجنَّة، وهذا من النِّعمة: أن يُدخِلَها معه لتؤنِسَه، فلا يَستوحِش.

وأكثرُ العلماءُ على أنَّ المقصودَ بالجنَّةِ: هي جنَّةُ الخُلدِ المعروفةُ، ودارُ ثوابِ المؤمنين.

وقد كان دخولُ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الجنَّةَ يومَ الجمعةِ؛ كما دلَّ على ذلك الحديث الصحيح: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»(٢).

﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، والأمرُ؛ للإباحة والإكرام ﴿رَغَدًا﴾: أكلًا واسعًا، طيِّبًا، هنيئًا، لا تنغيص فيه ولا عناء. وقال مُجاهِد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا حساب عليهم»(٣).

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: من أي مكانٍ من الجنَّةِ أردتُما، فوسَّعَ عليهما في الأكل، مكانًا، ومقدارًا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: نهاهما عن الأكل من شجرة معيَّنة، ومَنَعَهما من قُربانها، مبالغةً في اجتنابها.

ولا يضرُّ الجهل بنوع هذه الشجرة، ولو كان في تعيينها فائدة لنا، لبيَّنه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الَّذين يَظلمون أنفُسَهم بمعصية الله.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٥١٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مِنَّةُ الله على الأبوَين.

وفيها: سُنَّة الله في النِّكاح بينَ البشر.

وفيها: أنَّ ثمار الجنَّة موجودة في كلِّ وقت.

وفيها: ابتلاء الله لعباده بالممنوعات.

وفيها: أنَّ الأصلَ في النَّهي التحريم، ما لم تكن هناك قرينة تَصْرِفه إلى غيره.

وفيها: أنَّ الشريعة إذا حرَّمت شيئًا مَنعت كلَّ ما يُوصِلُ إليه، وهذا ما يُعْرف بـ(سدِّ الذرائع)، وهو من احتياط الشريعة، وكمالها، ومحاسنها.

فالنهي عن قُربان الشيء معناه: النهيُ عن تعاطيه وارتكابه، وتَرْكُ كلِّ سبَب وطريق يؤدِّي إليه.

وفيها: أنَّ على العبد أن يَحْذَرَ من المعصية، ومن أسباب الوقوع فيها.

وفي عدم تعيين الشجرة: الكفُّ عن البحث فيما لا فائدة منه، ولا طائل من ورائه، وفي الحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1].

وفيها: تساوي الذَّكر والأنثى في الخِطاب الشرعي، أمرًا ونهيًا، إلَّا ما دلَّ الدليلُ على التفريق بينهما فيه.

وفيها: أنَّ المسكنَ والمطعمَ من أعظم النِّعَم.

وفيها: أنَّ المباحات أكثر من المحرَّمات.

وفَهِمَ بعض العلماء أنَّ: في النهي عن شيء من الجنَّة إشارة إلى أنَّهما لا يُخَلَّدان فيها؛ لأنَّ المُخَلَّد فيها لا يُمنع من شيء منها.

وفيها: أنَّ المعصيةَ ظلمٌ للنَّفْس.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.

وفيها: ردٌّ على المُبتدِعة الذين يقولون: إنَّ الجنَّة غير موجودة، وسَتُخْلَق يوم القيامة.

وفي الآية: الترغيب في النِّكاح.

وفيها: أنَّ التّعيينَ يكون بالإشارة، كما يكون بالنَّصِ على اسم الشيء؛ لقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقعَهُما في الزَّلل، فأزالهما وأبعدهما ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

والشيطان فِي لُغَةِ العَرَبِ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ، إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ البَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ(١).

﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنَّةِ بوسوسته، وتزيينه للمعصية. ولا يمنعُ أن يقدِرَ على الوَسْوَسة لهما وهو خارجَ الجنَّةِ، وهما داخلَها.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم.

وقد ورد تفصيلُ هذه الوسوسة، واستدراج إبليس لآدم وزوجه، كما في سُورَة «طه» وغيرها.

وقد كان إخراجُ آدم من الجنَّة يومَ الجمعة، كما ثبت في الحديث: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»(٢).

﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وحواء وإبليس: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ انزلوا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي هذا: تقريرُ العداوةِ بينَ آدمَ وزوجِه من جهة، وإبليسَ من جهةٍ أخرى.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾: قرارٌ وتمتُّعٌ بالنِّعَم، لكنَّه مؤقتٌ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاءِ الآجالِ، بالموتِ، وقيامِ السَّاعة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١١٥).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحذرُ من الوقوعِ في المعاصي والزلل، وهذا ما يسعى إليه إبليسُ.

وفيها: تذكيرُ العِبادِ بعداوة الشَّيطان، وحِرْصِه على زوال النِّعمة عن ابن آدم.

وفيها: أنَّ الجنَّة أعلى من الأرض؛ لقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾، والهبوطُ: لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: أنَّه لا يمكن لبني آدم العيش إلَّا في الأرض، وأنَّ كل محاولات العيش على الكواكب الأخرى ستبوء بالفشل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾، ولقوله: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفي الآية: أنَّه لا دوام لبني آدم في الدُّنيا، وأنَّ عيشهم فيها مؤقَّت؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾.

وفيها: رحمة الله بأن أعدَّ السكن للساكن قبل إنزاله، وأنَّ آدم لـمَّا هبط إلى الأرض كانت جاهزةً لمعيشته عليها، بل قد ثَبت عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «إنَّ الله حين أَهْبَط آدمَ من الجنَّة إلى الأرض، علَّمه صَنْعة كلِّ شيء، وزوَّده من ثمار الجنَّة، فثمارُكُم هذه من ثمار الجنَّة، غير أنَّ هذه تتغيَّر وتلك لا تتغيَّر»[1].

وفي الآية: أنَّ الإخراج من دار الراحة -وهي الجنَّةُ- إلى الأرض؛ للعمل والتَّعَب.

وفيها: خطورةُ الذنب وعقوبتُه، وعدمُ الاستهانة بالمعصية؛ فإنَّ آدمَ وزوجَه أُخرجا من الجنَّة بذنب واحد.

وقد ورد في بعض الآثار: ذِكْرُ افتتان آدمَ بزوجته، واستمالة إبليس لحواء في إغواء زوجها.

ويؤخَذ منه: التحذير من فِتنة الزوجة، وأنَّ الشَّيطان يستعين بها على تزيين المعصية للرجل، وإذا زيَّنت المرأةُ المعصيةَ لزوجها فوافقها على ذلك واستجاب لها؛ عُوقِبا جميعًا، كما قال الله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٢)، بإسناد صحيح.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا جرى عليه قَدَرُ الله، بالانتقال من معيشةٍ رغيدةٍ، إلى معيشةٍ شاقَّةٍ؛ فإنَّه يُوطِّنُ نفسه على التعامل مع الواقع الجديد، ويَرضى بقضاء الله تعالى.

وفيها: أنَّ من شُؤْمِ المعصيةِ: الحِرمانَ من رَغَد العيش.

وفيها: أنَّ العداوةَ بينَ آدمَ وذريَّته مع إبليس هي عداوةٌ دينيَّةٌ، فلا ترتفع ما بقي الدِّينُ.

وفيها: تهييجُ النفوس لاسترجاع الإقامة في الجنَّة، بامتِثال أوامر الله، وهذا هو الطريقُ في دَفْعِ الحَسْرةِ الناتجةِ عن فُقدان الجنَّة؛ بسبَبِ ما حَصَلَ من إيقاعِ الشَّيطان بالأبوَين.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ
وَلكنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تُرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ[1]

ويؤخَذ منها: أنَّ هبوط آدم إلى الأرض، قَدَرٌ جَرَى عليه من الله، وليس أمرًا تكليفيًّا.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾:

ثم ذكرَ تعالى توبته على آدم، وكان ذلك بعد خروجه من الجنَّة، وبعد الأمر بالهبوط، وقبل أن يحدث الهبوط؛ فقال تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ أي: استقبل بالأَخْذ، والقبول، والعمل ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ هذه الرُّبوبيَّة الخاصة، الدَّالة على المحبَّة ﴿كَلِمَٰتٖ﴾ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ قَبِلَ توبته، ورجع عليه بالمغفرة والفَضْل والرحمة؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة على مَن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة الواسعة، الواصلة إلى مَن يشاء من عباده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مِنَّةُ الله تعالى على أبينا آدمَ، حين علَّمَه كيف يتوب، ووفَّقه للتوبة، ولم يتركه للذنب.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧١).

وكذلك مِنَّةٌ أخرى عندما قَبِلَ توبته؛ فكانت المِنَّةُ الأُولى قبل توبة آدم، والمِنَّةُ الثانية بعد توبته.

وفيها: أنَّ للكلمات التي يقولها العبد في التوبة أثرًا بالغا في قَبولها.

وفي الآية: أنَّ المذنِب إذا صدق في توبته قَبِلَ اللهُ منه ولم يؤاخِذْه بذنبه.

والتوبة الصادِقة: ندمٌ على ما كان، وتَرْكُ الذنب الآن، والعزمُ على عدم العودة إليه في مستقبَل الزمان، وردُّ مظالِمِ العِبادِ -إن كان الذنب متعلِّقًا بآدميّ- واستدراكُ ما فات.

ويؤخَذ من قِصَّة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إمكان وقوع الصغائر من الأنبياء، وذلك لا يَقدحُ في نبوَّتهم، بل يدُلُّ على بَشَريّتِهم.

وأمَّا عصمتُهم من الخطأ في تبليغ الوحي، وعصمتهم من الشِّرك والكُفر، وعِصمتهم من الكبائر؛ فهي باقية.

ثم إنَّ الذنبَ إذا حصل منهم فهو نادرٌ، وسَرْعان ما يستغفرون ويتوبون، وذُنوبهم مشمولةٌ بمغفرة الله، ويحتَفُّ بها ما يُخَفِّفها في حالة وقوعها منهم.

فمعصية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت مع النِّسيان، ولأنَّه لـمَّا سَمِع إبليس حَلَفَ له؛ ظنَّ أنَّه لا يمكن أن يحلف أحدٌ كَذِبًا، ولعلَّه أراد بالأكل أن يخلَّد أو يصبح ملَكًا، فيُقرَّب من ربِّ العالمين، واجتمع مع ذلك تزيينُ الزوجة، وربما ظن أنَّ مصلحة الأكل من الشجرة تزيد على المفسدة، ونحو ذلك من الأعذار.

وفي الآية: درسٌ للدُّعاةِ إلى الله في تعليم المذنِبين التوبةَ، ودعوتهم إليها، وهذا أعظم من التوبيخ.

وفي الآية: أنَّ التوفيق إلى التوبة مِنَّةٌ من الله، فيجب على التائب ألَّا يغترَّ ولا يُعجَب بنفسه؛ لأنَّه لولا توفيقُ الله لَـما تاب.

وفي هذه الآية: تقويةُ رجاءِ المذنِبين في الله، وحُسنُ الظَّنِّ به جلَّ وعلا إذا تابوا إليه؛ فإنَّه ذكر فيها توبته على آدم، ثم ختمها بتلك الجملة الاسمية الدَّالة على تحقيق حصول توبته: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أَيْ: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ.

وفي الجَمْعِ بينَ التوبة والرحمة، وضمير الفصل (هو) في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: دلالةٌ على اختصاص الله تعالى بالتوبة والرحمة العظيمتَين الشاملتَين، اللَّتين لا يقدِر عليهما غيرُه.

وفيها: إعانةُ الله للتائبين، وحفظُهم ورَفْعُ منزلتهم؛ فإنَّ آدم بعد الذنب والتوبة صار خيرًا وأرفعَ منزلةً ممَّا كان قبل الذنب، فما أهبطَه إلَّا ليرفعَه، وما كتب عليه الذنب إلَّا ليقرِّبَه، وما قدَّر عليه المعصية إلَّا ليرحَمَه، ولم يشأ له المُخَالفَة إلَّا ليعلِّمَه.

وفي الآية: أنَّ وقوعَ الشَّرِّ قد ينقلبُ إلى خير عظيم، وأنَّه قد يَحْصُلُ من الفوائد بعد المعصية ما لا يعلمه إلَّا الله.

ويؤخَذ من إغفال ذِكْرِ حواءَ: أنَّ المرأة تَبَعٌ للرجل، وأنَّ أمرها مبنيٌّ على السِّتر والحُرمة؛ ولذلك جاءت أغلبُ الخِطابات في القرآن بصيغةِ المُذَكَّرِ.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾:

تَكرار الأمر بالهبوط في قوله تعالى ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ يدُلُّ على تحتُّمِه وتحقيقِه لا محالة، واستبعادِ أمنيَّة العودة السريعةِ إلى الجنَّة.

كما أنَّ الأمرَ الأولَ مقرونٌ بِذِكْرِ العداوة بينَ آدم وإبليس، والاستقرار في الأرض، والهبوط الثاني مقرونٌ بما سَيحْصُلُ من التكليف، وثواب مَن أطاع، وعُقوبة مَن عصى.

﴿مِنْهَا﴾ من الجنَّة إلى الأرض ﴿جَمِيعًا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والذُّرِّيَّة.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الأنبياءُ والرُّسُلُ والبيان من الله تعالى.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: أطاعَ رُسُلي، وعمل بما أنزلتُ؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أيِّ مكروه في المستقبَل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء مضى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الهُدى من عند الله؛ ولذلك لا يُطلَب ولا يُسأل إلَّا منه سبحانه.

وفيها: أنَّ اتِّباع الهُدى يؤدِّي إلى حصول الأمن والطمأنينة النفسيَّة، فلا يَخشى مُتَّبعُ الهُدى المكروهات، وكذلك لا يحزن على ما مضى؛ لأنَّه اغتنمَه بالأعمال الصالحة، فلا يخاف ممَّا هو آتٍ، ولا يحزن على ما فاتَ.

وفيها: أنَّ الله تعالى ابتلى عباده بشَرْعِهِ؛ ليَظهر مَن يتبعه، ممَّن يَكْفُر به ويُكذِّب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾:

ثم بيَّن تعالى عاقبةَ المُعرِضينَ؛ فقال: **﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾** بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الشرعيَّة التي أنزلناها، فجمعوا بينَ الكُفر بالأمر، والتكذيب بالخبر.

و(الآيات): جمع «آية»، وهي: العلامةُ الظاهرةُ، والدليل البيِّنُ. وقد تكون شرعيةً، وهي: ما أَنزَل الله في كتبه، أو كونيةً، وهي: الدَّالةُ على ربوبيَّته وعَظَمته، ممَّا خلقَه في الكون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارةٌ إليهم باسم الإشارةِ الدَّالةِ على البعيدِ؛ لانحطاط رتبتهم **﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾** المُلازمون لها لا يفارقونها، و(الصاحب) لا بُدَّ أن يلازم صاحبه **﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾** ماكثون دائمًا وأبدًا، لا مَحيد عنها، ولا محيص.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ»[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أسباب الخلود في النَّار: التكذيب بآياتِ الله، والكُفر بها، ومَن كان كُفرُه كُفرًا أكبرَ فهو خالدٌ في النَّارِ، وأمَّا أصحابُ الكُفرِ الأصغرِ: فغيرُ مخلَّدين.

وفيها: أنَّ مَن كذَّب بآيات الله الشرعيَّة يَكْفُر، حتى لو آمن بآياته الكونيَّة؛ فإنَّ بعض الكفَّار يؤمنون بأنَّ من آيات الله: اللَّيل والنهار والشمس والقمر، ولا يمنع هذا من الحكم عليهم بالكُفر.

---

(١) رواه مسلم (١٨٥).

وفي الآية: سوءُ مَصير المُكَذِّبينَ بالقَلْب، والمُكَذِّبينَ باللِّسان.

وفيها -مع الآية التي قبلها-: ذِكْرُ مَصير الفريقين المتقابلَين؛ للجمع بينَ الترغيب والترهيب؛ وذلك أكثرُ أثرًا في النفوس، وأظهرُ في بيان المقصود.

وفي الآية: دليلٌ على بقاءِ النَّار، وعدمِ فنائها؛ لأنَّ الكفَّار إذا كانوا خالدين فيها فلا بُدَّ أن تبقى.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾:

ولـمَّا تقدَّمت دعوةُ النَّاس جميعًا للعبادة؛ بدأ بالتفصيل بدعوة بني إسرائيل بالإيمان بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث إنهم يعرفونه، ومكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل.

ولـمَّا كانت الحِكْمة في الدَّعوة تقتضي التلطُّفَ مع المدعُوّ، وحُسنَ مناداتِه، وذِكْرَ منزلتِه؛ ناداهم باسمٍ محبَّبٍ إليهم، وبيَّن نِعمته عليهم، وأنَّ لهم مكانةً تاريخيَّةً وشأنًا فيما مضى من الزمان. فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (إسرائيل): هو نبيّ الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والمقصود: يا أبناء العبد الصالح المطيع لله، كونوا مِثل أبيكم في اتِّباع الحقِّ.

وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ عصابةً من اليهود حضروا نبيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال لهم: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا...»، قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم»(١).

وقوله ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنَتكم ﴿نِعۡمَتِيَ﴾، وتدارَسوها، ولا تغفُلوا عنها. واذكروها بقُلُوبكم بالاستيقاظ والانتباه إلى المُنعِم؛ لتتنبَّهوا له سبحانه فتشكروه. واذكروها بجوارحكم؛ أي: قوموا بشُكرها عمليًّا.

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ مثل: تخليصِهم من فرعون وقومه، وبَعْثِ الأنبياء والملوك منهم،

---

(١) رواه أحمد (٢٥١٤)، وحسَّنه محقِّقو المسند.

وإنزال الكتب المعظَّمة عليهم، والتظليل بالغمام، والرزق بالمَنِّ والسَّلْوَى، وتفجير الحَجَر عيونًا لمشربهم، ونحو ذلك.

وقوله ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه النِّعم فَضْلٌ محضٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أتِمُّوا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ وهو ما عَهِدَ به إليهم، من الإيمان به وعبادته وحدَه لا شريك لـه، والقيام بما أمرهم به، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [المائدة: ١٢].

وقيل في (العهد): هو التوراة، وما أخذه الله عليهم من لزوم الإيمان بالنبي الذي سيبعثه، وهو محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وهـذا العهـد المجمَلُ هنـا، جاء تفصيلُـه في قوله تعـالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [المائدة: ١٢].

وفي قولـه تعـالى أيضًـا: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [المائدة: ١٨٧].

فـإذا قَبِلْتم هذا الميثاق، وأوفيتُم به، واتَّبعتُم محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي: أُتمم لكم جزاءكم بحسن الثواب والقبول، وتكفير السيِّئات، وإدخالكم الجنَّة.

و(العهد): هو الميثاق والوصيَّة، والوفاء به: حفظه ومراعاته في كلِّ الأحوال.

وبالجملة: فإنَّ قوله ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ أي: اُدخُلوا في الإسلامِ.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: فاخشوني وخافوني، ولا ترهبوا وتخافوا غيري.

وتقديـمُ لفظـةِ (إِيَّايَ) عـلى لفظة ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ يُفيد الحَـصْر؛ أي: لا ترهبـوا إلَّا إيَّايَ. والرَّهبة: شِدَّة الخوف، ورهبتُه تعالى عبادةٌ عظيمةٌ، فأمر الله بها وأمر بإخلاصها.

وهذا انتقالٌ من الترغيبِ إلى الترهيبِ، والجَمْع بينهما يؤثِّر في النفوس.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تذكير العبد بنِعمة الله عليه أَقْوَم للحُجَّة عليه، وأدعَى لاتِّباع الحقِّ.

وفيها: نِعمة الله العظيمة على بني إسرائيل.

وفيها: أنَّ النِّعمة على الأجداد هي نِعمة على الأحفاد. والخِطاب في الآية وإن كان لليهود المتأخِّرين، إلَّا أنَّ النِّعمة على أسلافهم وصلَ أثرُها إليهم، فلولا نجاة أولئك ما جاء هؤلاء.

وكذلك من نِعمة الله على بني إسرائيل المتأخِّرين: التاريخ الذي شرفوا به، من مجيء الرُّسُل من آبائهم المتقدِّمين، وإنزال الكتب عليهم، ولو أنهم آمنوا بمحمَّد ﷺ لاكتملت النِّعمة عليهم من كلِّ وجه؛ فالنِّعمة على هؤلاء المتأخِّرين ببعثة النبيِّ ﷺ عظيمة.

وفيها: وجوب إخلاص الرهبة لله، وأنَّها عبادة من عبادات القَلْب. وأمَّا الخوف الطبيعي الجِبلِّي -كالخوف من سبع وعدُوّ-: فلا يُنافي ذلك.

وفيها: نداء المدعُوِّين بالأسماء المحبَّبة إليهم، وإن كانوا كفَّارًا؛ استجلابًا لقُلُوبهم، وتأليفًا لنفوسهم.

وفي الآية: التذكيرُ بشُكر النِّعَم، فالذِّكْر شُكر، والنِّسيان كُفران.

وفيها: وجوبُ وفاء الإنسان بنذره، وبما عاهد الله عليه.

وفيها: الجَمْعُ بينَ الترغيب والترهيب في الدَّعوة.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾:

ولـمَّا أمرهم بالوفاء بالعهد، وأن يَرهبوه وحدَه عَزَّوَجَلَّ؛ أَمَرَهم بعد ذلك بالإيمان بالقرآن الذي أنزله؛ فقال:

﴿وَءَامِنُواْ﴾: صدِّقوا يا أهل الكتاب، واعملوا ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ من القرآن، الذي أنزلته

على محمَّد ﷺ، ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ومؤكِّدًا ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، المكتوب فيهما صفة محمَّد ﷺ، وبِعْثته، ووجوب الإيمان به، والأمر بالتوحيد، وشاهدًا بالصِّدق على نزول الكتب المتقدِّمة، وتحقّق بنزوله ما جاء فيهما من الإخبار عن صفةِ مبعَثه ﷺ.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ يا معشر أهل الكتاب ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ﴾ من الناس؛ أي: لا تُسارِعوا إلى الكُفر بالقرآن، ولا بالنبي ﷺ، ومَن كفرَ بالقرآن فقد كفرَ بالنبيِّ محمَّد ﷺ، ومَن كفرَ بمحمَّد ﷺ فقد كفرَ بالقرآن.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالنبي ﷺ، أو بهذا القرآن؛ لأنَّ الواجب عليكم أن تكونوا أول مؤمنٍ به، حيث إنَّ صفته ﷺ مكتوبةٌ عندكم في التوراة والإنجيل؛ فلا يليق بكم وأنتم تعلمون الحقَّ أن تكذِّبوا به؛ لأنَّكم إذا كفرتم كَفَرَ منَ بعدكم، وصِرتم قُدوةً سيِّئةً لذريِّتكم، فتبُوءوا بإثْمِكم وإثمِهم؛ فإنَّ وِزْر المقتدِي يكونُ مثله على المُبتَدي -بالاضافة إلى وِزْر المُبتدي-.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾: لا تأخذوا على كِتمانها وتحريفها ثمنًا قليلًا من الرياسة، أو المال، أو غير ذلك، ولو كان هذا الثمن هو الدُّنيا كلها؛ فإنَّها كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧].

أي: لا تكفروا بما أنزلتُ خشيةَ فواتِ عَرَضِ الدُّنيا الذي تأخذونه من أتباعِكم، وتخافون فَقده إذا آمنتُم، وتخافون على جاهكم ورئاستكم.

وقد كان رؤساءُ اليهود وعامَّتهم يُعطون أحبارهم نصيبًا من الزروع والثِّمار، ويُهدون إليهم الهدايا، وأحيانًا يكون ذلك مقابل الإفتاء بالباطل، وتغييرِ بعضِ الشرائع بتحريفِ الكَلِم، فخاف الأحبارُ إذا آمنوا بالنبي ﷺ أن يفقدوا ذلك المال، وتلك الرياسة والمكانة، فكتموا أمرَ النبي ﷺ، وحرَّفوا ما في كتبهم من صِفته ومبعثه؛ لئلَّا يفوتهم هذا النصيب من الدُّنيا!

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اتقوا عذابي، بالإيمان بما أنزلتُ، واتِّباع الحقِّ، وإظهاره، وعدم كِتمانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الكفَّار جميعًا مخاطَبون بالإسلام.

وفيها: أنَّ تصديق القرآن لِـما تقدَّم من الكتب كان بالموافقة والمطابَقة لـمَا فيها، وبتحقيق ذلك عمليًّا، وحصوله في الواقع.

وفيها: أنَّ مَن كَفَرَ أولًا صار قُدوةً سيِّئةً لذريَّته ولغيره، فيبوءُ بإثمِه وإثمِهم.

وفيها: أنَّ مَن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود.

ومَن قصد بتعلُّمِهِ العلومَ الشرعيَّة أو تعليمها المالَ ومتاعَ الحياة الدُّنيا؛ فإنَّه داخلٌ في الوَعيد الذي أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا من الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا[1].

فمن جعلَ تعلُّمه للدين لنيل شهادة يفتخر بها على الناس، أو جعل تعلُّم الدِّين وسيلة لتحصيل الدُّنيا فقط؛ فهو على خطر عظيم.

أمَّا إذا كان قصدُه نفعَ المسلمينَ، وخدمةَ الدِّين من خلال ما يكون فيه من المنصب الشرعيّ، وأنَّ ما يحصل له من المال إنَّما هو تبَعٌ وليس بأصل، وليتمكَّن به من التفرُّغ لتعليم الدِّين؛ فهذا مأجور على نيَّته، ولا يدخل في الوَعيد.

ومن أُعطِيَ من بيت المال ما يقوم بحاله وعياله، ليتفرَّغ للتعليم، ولا ينشغل عنه بالتكسُّب؛ فلا بأس عليه؛ لأنَّ قصده نشرُ العِلْم، وما يُعطاه وسيلة لتحقيق ذلك.

وعلى هذا، فيجوز أخذ الأُجْرة على تعليم القرآن، إذا لم يُفرض للمُعلِّم شيء من بيت المال، وكان التعليمُ يقطعُه عن التكسُّب، وكان ممَّن يتعيَّن عليه ويجبُ هذا التعليم، فمِثْلُه يدخلُ في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»[2].

ففَرْقٌ بينَ مَن يتعلَّم الشريعة ليأخذ عَرَضًا من الدُّنيا، وبين مَن يأخذ لأجل أن يتمكَّن

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٥).

(٢) رواه البخاري (٥٧٣٧).

من التعلُّم والتعليم؛ فالأولُ جَعَلَ الأَخْذَ من الدُّنيا هو الغايةَ وتَعَلُّمَ الدينِ وتعليمَه وسيلة، والثاني جَعَلَ خدمةَ الدِّينِ غايةً والأَخْذَ من الدُّنيا وسيلةً.

وفي الآيـة: وجوبُ بيان الحقِّ، وتحريمُ كِتمانِه، ويشتدُ التحريمُ إذا أَخَذَ على الحقِّ عَرَضًا من الدُّنيا.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾:

ولـمَّا نهاهم تعالى عن الكُفر المناقض للإيمان، وأن يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا، وهو يناقض الإخلاص؛ نهاهم عَزَّوَجَلَّ عن أمرَين عظيمَين، كلُّ واحدٍ منهما جريمة عظيمة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿**وَلَا تَلۡبِسُواْ**﴾: ولا تخلطوا ﴿**ٱلۡحَقَّ**﴾ المنـزَّل من عند الله ﴿**بِٱلۡبَٰطِلِ**﴾ المختَرَع من عندكم، والصِّدقَ بالكذب، ولا تستعملوا أساليب التمويه والتضليل لتحسين الباطل وتقبيح الحقِّ، وأدُّوا النصيحة لعباد الله، ولا تشوبوا الصِّدق بالكذب.

وصحَّ عن قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّه قال في الآية: «لا تَلْبِسوا اليهوديَّة والنصرانيَّة بالإسلام؛ إنَّ دين الله الإسلام، وإنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة بِدعة ليست من الله»[1].

وفي هذا: ردٌّ على بعض الخُبثاء في عصرنا، الذين يُنادون باحترام جميع أصحاب الأديان، والمساواة بينها، وأنَّ الأديان الموجودة اليوم كلَّها صحيحة!.

وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله ﴿**وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ**﴾ أي: لا تتعمَّدوا إخفاءَه، والسكوتَ عن تبليغه؛ بل عليكم البيان. ومن الحقِّ: نبوَّة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وصِفته التي يجدونها مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿**وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ**﴾: لا تقوموا بالتلبيس والكِتمان، وأنتم عالمون بالحقِّ.

أي: لا تكتموا نبوَّةَ محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنتم تعرفونه حقًّا، وتجدون وصفه مكتوبًا عندكم، وتعلمون أنَّه هُوَ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٨)، بسند صحيح.

فعليكم بالنصيحة وهي ضدُ التلبيس، وعليكم بالبيانِ وهو ضد الكِتمانِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ بيان الحقِّ، وتمييزه عن الباطل، وتحريمُ كِتمان الحقِّ.

وفيها: وجوبُ القيام بإزالة الإشكالات والشُّبُهات التي تُشَوِّش على الناس؛ لأنَّ هذا من لوازم البيان، وأنَّ مَن تَعَيَّنَ عليه أداءُ عِلْمٍ لحاجة الناس إليه، ولايستطيعه إلَّا هو؛ فإنه يجب عليه أداؤه.

وقد جاء الوَعيد على مخالفة هذا، فقال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وفيها: تحريم زخرفة الباطل بالقول لتحسينه، وتحريم إيراد الشُّبُهات على الحقِّ لتقبيحه.

وفيها: أنَّ من أساليب اليهود، خَلْطَ الحقِّ بالباطل؛ تلبيسًا على الناس، كما فعلوا في خَلْطِ صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بصفة المسيح الدَّجَّال.

ويؤخذ من الآية: النهي عن خَلْطِ أيِّ نوع من الحقِّ بأيِّ نوع من الباطل، كخَلْطِ العَدْلِ بالجَور، والصِّدقِ بالكذب، والحُكم بالرِّشْوة، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز الامتناع عن قول الحقِّ وكِتمانه، خوفًا أو هَيبة من أحد، ولا طمعًا في دُنيا.

وفيها: بيان الأثر السيء لعلماء الضلالة على الناس.

وفيها: أهميَّة إعلان الحقِّ وبيانه وتوضيحه؛ لهداية الضالِّين، وإقامة الحُجَّة عليهم.

وفيها: تحريم ترويج الباطل في صورة الحقِّ؛ لينخدع الناس ويأخذوا به، كما يُقَدَّم اليومَ كثيرٌ من المنافِقين والمفسِدين على أنَّهم من المُصلِحين المتنوِّرين، وكما تفعله وسائل الإعلام في إخفاءِ حقائقِ الحوادث، وتنفيرِ الناس عن الحقِّ وأهله، بنَعْتهم بالصِّفات القبيحة، وتزيين الباطل وأهله، بالثَّناء عليهم، وهذه طريقة اليهود المغضوب عليهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

ولـمَّا أَمَـرَ الله بالإيمان في قولـه ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾، ونهى عمَّا يناقضـه، وأَمَرَ ببيان الحـقِّ، ونهـى عـمَّا يناقضه؛ أَمَـرَ بلـزوم الشرائـع، وأداء العِبادات؛ فقـال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وإقامتهـا: باعتقادِ فَرْضِيَّتهـا، وإقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها، والاهتِمام بسُـنَنها وآدابها. والصَّلاة تشـمل: الفريضة والنافلـة، فيكون الأمر بها للفريضة للوجوب، والنافلة للاستحباب.

والمقصـود بأمـر اليهـود والنصارى بالصَّلاة، أي: صلاة المسـلمين التـي شَرَعَها في هذا الدِّين، لا صلاة اليهود والنصارى.

﴿وَءَاتُواْ﴾ أَعطـوا ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبـة في أموالكـم، وهـي النصيـب المُعَـيَّن في أمـوال مخصوصـة، وتُدفـع لأهلها ومسـتحقِّيها الذيـن عَيَّنَهُم الله. وسُـمِّيت (زكاة)؛ لأنَّهـا تُزكِّي النفس وتُطهرها.

ويدخل في الآية: زكاة الفطر أيضًا.

ولم يبـيِّن هنـا مقدار الواجب، ولا الأموال الزكويَّة، ولا أهل الـزكاة الذين تُدفَع إليهم، ولكنها مبيَّنة في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: كونوا مع المؤمنين في أفضل أعمالهم -وهي الصَّلاة- وصَلُّوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

وقد استدلَّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة.

وخصَّ الله سـبحانة وتعالى (الرُّكوعَ) بالذِّكر لفَضْله، ولأنَّ اليهود لا ركوع في صلاتهم، ولكونه ثقيلًا على أهل الجاهليَّة.

ولا يُتعبَّـد لله بالرُّكـوع المجرَّد، وإنَّما سُـمِّيت (الصَّلاة) ركوعًـا؛ لأنَّ الركوع من أفضل أركانها، وهو علامة خضوع لله؛ ولذلك جاء الأمر به.

فأمرَ في هذه الآية بالصَّلاة تطهيرًا للنفوس، وبالزكاة تطهيرًا للنفوس والأموال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان يَتْبَعه القيام بالعِبادات.

وفيها: أَمْر اليهود بالدُّخول في الإسلام، والصَّلاة مع المسلمين، مع أنَّ الصَّلاة التي فُرِضت عليهم في شريعتهم فيها ركوع وسجود، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وهذا يدلّ على أنَّ الإسلام ناسخٌ لِما قبلَه من الشرائع.

وفي الآية: كمالُ الشريعة وحُسنُها؛ بمجيئها بما يُطهِّر النفوس والأموال.

وفيها: امتحان الله لعباده، بإخراج بعض أموالهم، وعلاج بُخْلِ النفوس.

وفيها: جواز التعبير عن الشيء بذِكْر بعض أجزائه، كما وَصَفَ الصَّلاة بـ (الركوع).

وفيها: فَضْل صلاة الجماعة.

فيها: أنَّ العبد يُضَاعَف أجره بمشاركته لإخوانه المصلِّين، مع أنَّ صورة العمل واحدة، وأنَّ اجتماع المؤمنين بعضهم إلى بعض في العِبادة يُضاعِف أَجْرَ كلِّ واحد منهم.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾:

ولـمَّا أَمَرَ تعالى أهل الكتاب بإقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة، والصَّلاة مع الجماعة؛ وبَّخهم على ما كان منهم من أمرِ الناس بالبرِّ مع تركهم له، ونهيِ الناس عن المعاصي مع وقوعهم فيها؛ فقال:

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: وهذا الاستِفهامُ للإنكار والتقريع، والخِطاب لبني إسرائيل، وخصوصًا أحبارهم ورهبانهم؛ فقد كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه، و﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ وهو جميع خصال الخير.

وقوله ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾: تتركونها من الخير، ولا تحملونها عليه، ولا تمنعونها من المعاصي. أفيليق بكم أن تفعلوا ذلك، ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: حال كونكم تقرأون كتاب

الله، وهو التوراة التي كانت في أيدي أحبارهم ورهبانهم، الذين يأمرون وينهون، ويخالفون، مع أنَّ الواجب البدء بالنفس أولًا في إلزامها بالبرِّ ومنعها من الشرِّ.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢]، وقال نبي الله شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ من نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الخُطَبَاءُ من أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»(١).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ(٢) فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٣).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ العَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ ويَنْسَى نَفْسَهُ؛ كَمَثَلِ السِّرَاجِ، يُضِيءُ لِلنَّاسِ ويَحْرِقُ نَفْسَهُ»(٤).

وقال الشاعر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

ابدأ بنفسِكَ فانْهَها عن غيِّها ... فإذا انتهَتْ عنه فأنتَ حكيمُ

وقوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: الاستِفهام للتوبيخ؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تُدْرِكون بها خطأكم وضلالكم؟!

والعقل عقلان: عقل الإدراك: وهو فَهْم الأشياء، ويترتَّب التكليف عليه.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٧).

(٢) أي: تخرج أمعاء بطنه من مكانها.

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣١)، وأُعِلّ بالوقف.

وعقل الرُّشْد: وهو الذي يحمل صاحبه على ما ينفعه، ويحجزه عمَّا يضرُّه. وهو المقصود هنا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي على المسلِم أن يكون إمامًا بفِعْله قبل قوله.

ويؤخَذ من الآية: أهميَّة التربية بالقُدوة.

وفيها: خطورة مخالفة القول بالفعل.

وفيها: توبيخ علماء السوء.

وفيها: أنَّ المخالِف الذي يعلم الحُكم، أشدُّ في اللَّوم من الجاهل الذي لا يعلمه.

وفيها: أنَّ مراتب الناس في الأمر بالمعروف والعمل به متفاوتة:

فمنهم مَن يأمر بالمعروف ويعمل به، وينهى عن المُنكَر ويتركه، وهذا أشرف المنازل.

ومنهم مَن لا يأمر بالمعروف ولا يفعله، ولا ينهى عن المُنكَر ويقع فيه، وهذا أحطُّ المنازل.

وبينهما الذي يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المُنكَر ويأتيه، فهذا مؤاخَذٌ مذموم، ولكنَّه أقلُّ سوءًا ممَّن تحته؛ ولذلك يُقال له: مُر بالمعروف وجاهِد نفسك في فعله، وانهَ عن المُنكَر وجاهِد نفسك في تركه.

وفي الآية: أنَّ العقل يمنع صاحبه من إتيان القبيح، وهذا عقل الرُّشْد، وأنَّه إذا قويَ عوَّض بعضَ نَقْصِ العِلْم.

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾:

قوله تعالى ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ﴾ أي: على أمور الدُّنيا والآخرة، وما يحدث لكم.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة على مرضاة الله، واعلموا أنَّهما من طاعة الله»[1].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٥).

وهذا الخِطاب -وإن كان موجَّهًا لأحبار أهل الكتاب وبني إسرائيل-؛ فإنه عامٌّ لجميع الناس.

﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾: حَمْل النفس على الطاعة، وكفّها عن المعصية. والصوم من الصَّبر.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فرْضها ونفلها، و«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»[(١)].

ونُعِي إلى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق فأناخ راحلته وصلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[(٢)].

وغُشِيَ على عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غشية، حتى ظنُّوا أنَّه فاضت نفسُه فيها، فخرجت امرأته أمُّ كلثوم -وكانت من المهاجرات الأوائل- إلى المسجد، تستعين بما أُمرت بالاستعانة به من الصَّبر والصَّلاة[(٣)].

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصَّلاة، وقيل: الاستعانة، أو الوصيَّة بما تقدَّم ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقَّة ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين لله، الخاضعين لطاعته، الخائفين منه، المستكينين لأمره، المصدِّقين بما أنزل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِظَم قَدْر الصَّلاة، وأنَّها عظيمة لكنَّها يسيرة على مَن يسَّره الله عليه.

وفيها: أنَّ الصَّلاة شاقَّة صعبة الاحتمال، إلَّا على المُخبِتين لله، الخائفين من عقابه، فإنَّها سهلةٌ عليهم، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»[(٤)].

وفي الآية: أنَّ مَن كان لله أخشع، فهو له أطوع.

وفيها: الاستعانة بالعِبادات على شُؤون الحياة، وأنَّ ذلك لا يُنافي قصدَ وجه الله بهذه العِبادات، ورجاءَ ثواب الآخرة مع خير الدُّنيا.

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) شعب الإيمان (٩٢٣٣).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٨).

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

وفيها: أنَّ الصَّبر والصَّلاة يُسَلِّيان عند المصائب، ويخفِّفان الأحزان.

وفيها: أنَّ التصديق بوعد الله وخشيته والخوف منه، يخفِّف ثِقل العِبادة على النفس.

وفيها: أثر الخشوع في حصول لذَّة العِبادة، والاستمتاع بها.

وفيها: فضيلة الصَّبر، وهذا يشمل: الصَّبر على طاعة الله، والصَّبر عن معصية الله، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة.

وفسَّر مجاهد وغيره الصَّبر في الآية بالصوم(١)، فالصوم يزَهِّد في الدُّنيا، والصَّلاة تُرغِّب في الآخرة.

وفيها: أنَّ الصَّلاة لا تكمل إلَّا بالصبر.

وفيها: أنَّه ينبغي تحصيل الخشوع؛ لتحقيق ما أمر الله به.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾:

ثم بيَّن تعالى مَن هُم الخاشعون، الذين يَسهلُ عليهم الصَّبر والصَّلاة؛ فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يُوقنون، ويَعلمون، ويَعتقدون اعتقادًا جازمًا. و(الظَّن) يأتي بمعنى اليقين، ويأتي حاملًا لمعنى الشَّكّ، والمرادُ به هنا الأول.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بعد الموت، ويوم البَعْث، وسيرونه، وسيُحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم؛ ولذلك سَهُلت عليهم الصَّلاة، وتنفيذ الوصية.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: صائرون ومنقلِبون إلى الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اعتقاد ملاقاة الله، يجعل المسلِم يُحْسِن العمل الذي يَلقى الله عليه، ولا يسيء فيه؛ فيرضى الله عنه.

وفيها: أثر الاعتقاد بالرُّجوع إلى الله في جميع الأمور، وهذا يستلزم الخوف منه، والحياء، ومراقبته، بحيث لا يفقدُك حيث أَمَرَك، ولا يجدُك حيث نهاك.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥١).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾:

ثم أعاد تعالى تذكير بني إسرائيل بنِعمته عليهم؛ فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الخِطاب لليهود: ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنَتكم وقُلُوبكم، قولًا وعملًا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وتشمل: جميع النِّعم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، مثل: أن جَعَلَ فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكًا، وأنزَل عليهم كتبًا عظيمة، ونجَّاهم من عدوِّهم، وأطعمهم المنَّ والسَّلوى، وظلَّل عليهم الغمام، وفَجَّرَ لهم الماء من الحَجَر، وغير ذلك.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ (الفضْل): الزيادة في الخير، والمقصود: فَضَّلتُ آباءكم، أي: في ذلك الوقت -زمن آبائهم- حيث كانت أمَّتُهم أفضلَ الأُمَم في العالم، وأمَّا بعد بعْثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقد صارت هذه الأُمَّة أفضل من بني إسرائيل، ومن غيرهم ممَّن سبق، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ -وفي رواية: تُتِمُّون- سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله»(١).

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (العالمون): جَمْع عالَم، والمقصود: عالَم ذلك الزمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يجب على بني إسرائيل شُكر نِعمة الله عليهم، ومِن ذلك: أن يَتَّبِعُوا نبيَّنا محمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ تفضيل بني إسرائيل هو تفضيلٌ في زمن مخصوص؛ لِـما كان عليه كثير منهم وقتَ ذاك من العِلْم والإيمان والعمل الصالح.

ولـمَّا عصَوا وخانوا واحتالوا على شَرْع الله، وقتلوا الأنبياء، ونقَضوا العهد، ضرب الله عليهم الذِّلَّة، ولعنهم، وباءوا بغضب على غضب، وفضَّل غيرَهم عليهم، ونَقَلَ الرئاسة الدِّينية منهم إلى غيرهم.

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وفيها: أنَّ النَّاسَ يتفاضلون، وأنَّهم درجات، وأنَّ كلَّ سبَب مشروع من أسباب التفضيل هو نِعمة من الله.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾:

لـمَّا ذكَّرَ تعالى بني إسرائيلَ بنِعمه عليهم؛ حذَّرهم من يوم القيامة، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾: اتخذوا وقايةً من عذابِ ذلك اليومِ، بطاعةِ ربِّكُم ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾: لاتُغني، ولا تَدفعُ عنها شيئًا من عذابِ الله، ولا تَقضي عنها حقًّا من حقوقها، وتزولُ الأسبابُ وتنقطعُ العَلاقاتُ، ويأتي كلَّ واحدٍ ما يُشغِلُهُ عن ولدِه ووالدِه والنَّاسِ أجمعين.

﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ (الشفاعة): طلب الخيرِ للغيرِ، فلا يُقبَل يومَ القيامة من نفسٍ -ولو كانت مؤمنةً- شفاعةٌ، عن نفسٍ إذا كانت كافرةً.

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾: لا يُقبلُ منها فداءٌ من عذابِ الله.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ (النصر): الإعانة لِدفعِ الضرر. والمعنى هنا: لا أحد يُنقِذهم من عذاب الله، ولا يَدفعه عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ١٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

شِدَّة يوم القيامة، الذي تبطُل فيه منفعةُ الأنساب، وتتقطع فيه الأسباب -بمنع العذاب أو تخفيفه- وهي ثلاثة: الشفاعة، أو الفِدْية، أو النصر، وكلُّها ممنوعة في ذلك اليوم.

وفيها: بيان الفرق بينَ الدُّنيا والآخرة في أداء الحقوق؛ ففي الدُّنيا تجوز مجازاة الواحد عن صاحبه، أما يومَ القيامة فلا.

وفيها: نفي الشفاعة للكفَّار. أمَّا الشفاعة المقبولة فقد دلَّت الأدِلَّة على حصولها يوم القيامة بإذن ربِّ السماوات والأرض، لمن شاء سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

وفيها: تذكير الأحفاد بأنَّهم إذا كفَروا فلا ينفعهم صلاح الأجداد.

وفيها: بُطلان قياس أمور الآخرة على أمور الدُّنيا؛ فإن الدُّنيا يحصل فيها شفاعات وتَناصُر وفِدْية، بخلاف الآخرة، والدُّنيا يمكن فيها فِكاكُ الأسيرِ ومُستَحِقِّ القَتْل في القِصاص بالأموال -من ديَة وفِدْية- بخلاف الآخرة.

وفيها: بُطلان المحاباة يوم القيامة، وأنَّ الحُكم يصير إلى الجبَّار العَدْل، الذي لا ينفع لديه الشُّفَعاء والنُّصَراء.

وفيها: قَطْع الطريق على النفوس المراوِغة، التي تُؤمِّل إذا أساءت في الدُّنيا وفرَّطت، بأنَّها ستنجو في الآخرة، بمِثْل ما تستعمله في الدُّنيا من أسباب النجاة والفكاك.

وفي هذا: تحذيرٌ بليغ للعُصاة والمفرِّطين، وبيان أنَّه لن ينجو في الآخرة إلَّا مَن عمل صالحًا.

وفيها: عدم السكون إلى المخلوقين من نُصَراء وشُفَعاء؛ لأنَّهم لا ينفعون يوم الدِّين، والتوكُّل لا يكون إلَّا على القويّ المتين، وحدَه لا شريك له.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما أنعم به على بني إسرائيلَ في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ شَرَعَ بعدها في تفصيل ذلك؛ فقال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أنقذناكم، وخلَّصناكم، والمقصود: نجَّينا آباءكم، وإنجاءُ الآباء نِعمةٌ على الأبناء؛ لأنَّ ذلك سبَبُ وجودِهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يُذيقونكم، ويُورِدُونكم، ويُكلِّفونكم، ويُولُونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أشدَّه وأسوأه. وقيل: ما ساءَهم من العذاب.

فإن قال قائل: وما ذلك العذاب -الذي كانوا يَسُومونهم- الذي كان يسوؤهم؟

قيل: هو ما وصفه الله تعالى هنا وفسَّره بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ يُبالِغون، ويُكثِرون من قَتْلِ

﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ أي: الذكور من الأولاد. ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾: يتركونهنّ على قيد الحياة للخِدمة، ولِيَلِدْن الخدَم في المستقبَل.

وكان هذا التعذيبُ قَبْلَ بعْثة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبعده، كما قال تعالى على لسان قوم موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لكنَّه بعد بعْثته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أشدُّ؛ لقوله تعالى حكايةً عن فرعون وهامان وقارون: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ [غافر: ٢٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾: ابتلاءٌ بالمكروه بهذا العذاب، أو ابتلاءٌ بالخير في الإنجاء الذي حَصَلَ بعده، وفي تخليصِكم ممَّا كنتم فيه نِعمةٌ عظيمةٌ عليكم من ربِّكم.

و(البلاء): الاختبار والامتحان، وتارةً يكون بما يَسُرُّ؛ ليشكُرَ العبدُ ربَّه، وتارةً بما يضُرُّ؛ ليصبرَ، وتارةً بهما معًا؛ لِيَرغَبَ ويَرْهَبَ.

وقد كان في تعذيب قوم فرعون لبني إسرائيل ابتلاءٌ بالمكروه، وفي إنجائِهم وتخليصِهم بلاءٌ بالخير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الابتلاء بتسليط الأعداء، وأنَّ الإنجاء منهم نِعمةٌ عظيمةٌ.

وفيها: مَكْرُ قومِ فرعون؛ فإنَّهم أرادوا تحديد نَسْل بني إسرائيل، وتقليل عدَدِهم.

وفيها: أنَّ بقاءَ البنات في حال الامتهان، عذابٌ عظيمٌ على الآباء.

وفيها: أنَّ مِن شأن الطُّغاة إذلالَ الناسِ، وتسخيرَهم للخِدمة.

وفيها: قُدرة الله على تخليص الضُّعفاء والمظلومين، من الأقوياء الظالمين.

وفيها: أنَّ الرَّبَّ تبارك وتعالى له مُطلَقُ التَّصرُّفِ في خَلْقه بالخير والشرِّ؛ فلا اعتراضَ على حُكمِه وقَدَرِه.

وفيها: نسبةُ النِّعَم إلى مصدرها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

ولـمَّا ذكَّر أحفادَ الناجين بنِعمته على وجه العُموم؛ فصَّلَ بعد ذلك؛ فذكَّرهم بكيفيَّة إنجائهم؛ فقال:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾: شققنا، وفلقنا ﴿بِكُمُ﴾ لكم وبسبَبِكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ ليتيسرَ لكم سلوكُ الطريقِ فيه؛ ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ من فرعون وجنوده، وأخرجناكم إلى السَّاحل، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ في البحر ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وَقعَ هذا، وأنتم تُشَاهِدونَ وتُبْصِرُونَ آيَةَ الله البالغة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عظيـمُ فَضْلِ الله على بني إسرائيل، وأنَّه أقرَّ أعينهم بإهلاك عدُوِّهم، وقد كانت النِّعمةُ على بني إسرائيل مضاعَفةً.

وكذلك، فإنَّ رؤية عدُوِّهم يَهْلَكُ فيه شفاءُ صدورهم، وذهابُ غيظِ قُلُوبهم.

وكان ذلك يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدِمَ المَدِينَةَ، فَوَجَدَ اليَهُودَ صِيامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟». فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا؛ فَنَحْنُ نَصُومُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»؛ فَصَامَهُ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ(١).

وفيها: قُدرة الله العظيمة؛ حيث جَعَلَ البحرَ ينفلق إلى فِرْقَين، كلٌّ منهما كالجبل العظيم.

وفيها: بيانُ قُدرة الله تعالى على تغيير أحوال الطبيعة، وما اعتاده الناسُ؛ فقد سَلبَ الماء خاصِّيَّةَ السيلان، فتَجَمَّدَ على جانبي الطريق الذي سلكه موسى وبني إسرائيل؛ ليعودَ بعد ذلك وينطبق على فرعون وقومه، فالذي خلقَه أثبته ثم ردَّه.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) واللفظ له.

وفيها: بيانُ كيف سَخِرَ اللهُ من فرعونَ؛ حيث أَهْلَكَه بما كان يفتخر به، وهو الماء، كما قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وفي الآيـة: ردٌّ عـلى الذيـن بَهرتْهـم صنائعُ أعـداءِ الله اليومَ، حتـى ظنُّوا أنَّهـم لا يمكن الانتصارُ عليهم؛ فهذه الآية في إهلاك قوم فرعونَ دالَّةٌ على قُدرة الله في إهلاك الكفَّار، مهما كانت قوَّتهم.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾:

ولـمَّا أَغْرَقَ اللهُ فرعونَ وقومَه، ونجَّى بني إسرائيل؛ قادَهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتهيَّأوا لقَبول أوامرِ الله، في الموعـد الذي أخبر الله عنه، بقولـه: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ أي: واذكروا يابني إسرائيل قِصَّةَ وعدِنا ﴿مُوسَىٰٓ﴾؛ حيث صَدَرَ الوَعْدُ له من الله؛ ليوحي إليه بالأوامر إلى بني إسرائيل.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يكـون في نهايتهـا الموعد، وكانـت ثلاثين، ثم أتمَّها الله بعـشرٍ، تَفرَّغ فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للعبادة والتهيُّؤ لتلقِّي وحي الله والتوراة التي سَينـزِّلها عليه.

وقـد جاء بيـانُ المواعدة في سُـورَة «طه»؛ فقـال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]، وكان مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سبعون رجلًا منتخَبًا لحضور هذا الموعد.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: جعلتـم تمثـالَ الذَّهب الذي صنعه السـامريُّ إلهًا تعبدونه، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مـن بعـد ذهـابِ موسـى لميقـات الله. ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في حال كونكـم ظالمينَ لأنفسكم، بوضع العِبادة في غير موضعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التهيُّؤ لتلقِّي كلام الله، وما يأمر به من التكاليف.

وفيها: ضَرْبُ الموعِدِ لتلقِّي العِلْم.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا معذورين أبدًا في الشِّرك الذي وقعوا فيه، وأنَّ من سوءِ بني إسرائيل: انتهازَ فرصة غياب نبيِّهم؛ ليكفروا ويُفسِدوا في الأرض وينحرِفوا.

وفيها: أنَّ غيابَ العالِـم عن الناس من أسباب ظهور الشِّرك والبِدعة فيهم.

وفيها: افتتانُ بني إسرائيل بتماثيلِ الذَّهب.

وفيها: فِتنةُ الصُّوَرِ لذوات الأرواح؛ ولذلك حرَّمَ الشَّرْعُ اتِّخاذَها.

وفيها: أنَّ عبادة غير الله ظلمٌ عظيمٌ.

وفيها: اشتمالُ المواعدة بينَ موسى وربِّه على الوَعْد من الله، بإيتاء موسى التوراة وتكليمه، وَوَعْد موسى لربِّه بتلقِّيها وقَبولِها والعملِ بها.

وفيها: التأريخ بالليالي؛ لأنَّها تسبقُ الأيَّامَ، فتأتي ليلةُ اليوم قبلَه، ويبدأ الشهرُ باللَّيلة.

وفيها: أنَّ مواصلة العِبادة تُهيِّئ النَّفسَ لتلقِّي العِلْم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢﴾:

وبالرغم من قُبْح جريمة بني إسرائيل؛ فإنَّ الحليمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُعاجِلْهم بالإهلاك؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: تجاوزنا عن عقوبتِكم، وقَبِلْنا توبتكم، ومحونا عنكم جريمتكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الشِّرك الذي حَصَلَ منكم، باتِّخاذكم العجل إلهًا، وبقَتْل أنفسكم بعدها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تقومون بواجبِ شُكر النِّعمة، إيمانًا بالقَلْب، وتحدُّثًا واعترافًا باللِّسان، وقيامًا بالطاعة بالجوارح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظهورُ أثر اسمٍ من أسماء الله، وهو العَفُوُّ.

وفيها: سَعَة حِلْمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ العفوَ مُوجِبٌ للشُّكر، وكما أنَّ حدوثَ النِّعمةِ يستوجبُ الشُّكرَ، فكذلك زوال النِّقم.

وفيها: أنَّ الله يغفر الشِّرك لمن تاب منه.

وفي مجيء اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المستعمَلُ للبعيد: تنبيهٌ على الابتعادِ عن الشِّركِ.

وفيها: أنَّ العفو تأخَّر عن بني إسرائيل حتى قتلوا أنفُسَهم.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

ثم أَمَرَ تعالى بني إسرائيل أن يَذْكروا من نِعَمه عليهم أيضًا: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ أعطينا وأنزَلنا عليه، وأوحينا إليه ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: الفارقَ بينَ الحقِّ والباطل، والحلال والحرام.

والفرقانُ: الكتاب الذي فرّق اللهُ به بينَ الحقِّ والباطل، وهو نَعْتٌ للتوراة وصفة لها. فيكون تأويل الآية حينئذٍ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح، وفرَّقنا بها بينَ الحقِّ والباطل.

أو المراد هنا: الحُجَجُ والمعجِزاتُ التي أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، من العصا واليدِ وغيرهما.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لتهتدوا بما أَنزَلَ الله، من الضلالة إلى الحقِّ والهدى، وهذه هدايةُ العِلم والتوفيق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحِكْمةُ الإلهيَّةُ العظيمةُ في إيتاءِ بني إسرائيل التوراةَ، بعد النجاةِ من فرعونَ وقومِه؛ ليُقيموا مجتمعهم على الشريعة الإلهيَّة، وتكونَ لهم رسالةٌ يَحْيَونَ بها ويعملون بها.

وفيها: أنَّ الوحيَ بالكتب المُنَزَّلةِ نِعمةٌ عظيمةٌ من الله.

وفيها: فَضْلُ التوراة التي أنزَلها الله، هدىً ونورًا وفرقانًا.

وفيها: أنَّ إنزَالَ الكتب الإلهيَّة هو من أَجَلِّ هدايات البشريَّة، فلا تُطلَبُ الهدايةُ من الأساطير ومناهج البشر الوضعيَّة، وغيرها من الأباطيل.

وفيها: أنَّ إيتاءَ الشَّرْع -كقوله ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾- أفضلُ من إيتاء الدُّنيا، كقوله عن قارون ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ [القَصَص: ٧٦].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾:

ثم عاد السياقُ لتفصيلِ ماحصلَ بينَ الذنب والتوبة؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل قولَ موسى لقومه؛ تودُّدًا، أو تحبُّبًا ونُصحًا: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا أصحابي، ﴿إِنَّكُمْ﴾ للتأكيد ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: أنقصتم حقَّها، بإيقاعها في الشِّرك ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ -وهو ولدُ البقر- إلهًا يُعبَد من دون الله.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: ارجعوا من معصية الله إلى طاعته، ومِن الشِّرك به إلى توحيده. و(البارئ): الخالِق، الذي خلق جميع الموجوداتِ، وبرَأها، وأنشأها من العدَم إلى الوجود.

وفي هذا تنبيهٌ على عِظَم جُرمهم؛ أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتُم معه غيرَه.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: هذا تفسيرٌ لطريقة التوبة، فسلِّموا بذلك، وارضَوا به، واصبِروا عليه، فليقتُل بعضُكم بعضًا، ولتأخذوا أسلحتكم، فيقتُل كلُّ واحدٍ مَن يَلقاه -من قريبٍ وغيرِه-.

وقيل: البريءُ الذي لم يَعبد العِجل، يقتُل المجرِم الذي عبدَه.

وقد قيل: إنَّ الله ألقى عليهم ظُلمة ليحصلَ القَتْلُ فيها، وقيل: إنَّهم أُمِروا أن يَقتُلَ بعضهم بعضًا عِيانًا، وهذا أبلغ في صِدْق التوبةِ[1].

وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبةُ التي أُمِرْتُم بها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تَرْكِ التوبة، وتَرْكِ القَتْلِ ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لِما في تنفيذِ أمره من الثواب والتطهير، ولِما في الامتناع من العذاب والعقاب.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبِلَ توبتكم، وعفا عنكم؛ لـمَّا فعلتم ما أمركم به.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة، يُوَفِّق إليها المذنِبين، ويَتفضَّل بقَبولها منهم.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: واسعُ الرحمة، حيث تَقبَّل المقتولين شُهداء، وكفَّر عن القاتِلين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمالُ الدَّاعية لأسلوب التودُّدِ والتلطُّفِ، الذي يَستميلُ به نفوسَ الناس إليه؛ ليسمعوا كلامه.

وفيها: أنَّ عبادة الأصنام ظُلمٌ عظيمٌ للنفس.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).

وفيها: وجوب التوبة مباشرة بعد الذنب.

وفيها: أنَّ الأُمَّةَ كالنفس الواحدة، وكان مَن قتلَ من بني إسرائيل غيره في التوبة كأنَّما قتلَ نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

وفيها: أنَّ الله يتوب على التائبين مهما عَظُمَ الذنبُ.

وفيها: أنَّ الذي أنشأهم من العدَم يَحِقُّ له تشريعُ قَتْلِهم.

وفي ذِكْرِ اسمِ (البارئ) في الآية مرَّتين: تحذيرٌ لهم من كُفران نِعَمه، وعبادة غيرِه، وقد خلقَهم وأحسن صُوَرَهم.

وفيها: تذكيرُ المذنِب بما يُشْعِره بإساءته؛ فإنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكَّرهم بأنَّ الله بَرَأهم، فاعتنى بخَلْقِهم وجعلَهم في أحسن تقويم، ورزقهم العقول والحواسّ.

وفي الآية: تذكيرٌ لهذه الأُمَّة بوضع الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلا تَستلزمُ التوبةُ من الشِّرك في هذه الأمة قَتْلَ النفس؛ وإنَّما يكفي: صدقة التوبة والإنابة.

وفيها: أنَّ من علامات صِدقِ التوبة القيامَ بما تقتضيه، مهما كان شاقًّا على النفس.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى محاورةَ موسى لقومه، ودعوتَهم للتوبة من عبادة العِجل؛ أعقبَ ذلك بذِكْرِ محاورتِهم له؛ كِبْرًا وعنادًا، وطلبِهم ما لا يحقُّ لهم، ولا يمكن حصوله في الدُّنيا؛ فقال:

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ﴾ أي: واذكروا نِعمتي عليكم أيضًا، لـمَّا ذهب السبعون مع نبيِّهم موسى إلى الطور، للاعتذار إلى الله عن عبادة العِجْل.

والقول الآخر: أنَّ الذين طلبوا ما لا يحقُّ لهم وعاندوا هم قوم موسى، لـمَّا رجع إليهم بالتوراة من عند الله؛ فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ لن نُصَدِّقك بأنَّ هذا كتابُ الله، ولن نُقِرَّ بما تأمرنا به، ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ علانية عِيانًا، لا ساترَ بيننا وبينه!

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: صـوتٌ عظيـمٌ، وصيحةٌ من السـماء. وقيل: نـار، فماتوا جميعًا. ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾: ينظر بعضكم إلى بعض، تتساقطون أمواتًا. وكان ذلك عُقوبة لهم.

ثم بيَّن تعالى مِنَّته على بني إسرائيل - وهذا هو الإنعام السادس -؛ فقال:

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾: أحيَيْناكـم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ موتـًا حقيقيًّا بالصاعقة، فجعل بعضهم ينظرُ إلى بعض، وهو يحيا، وعاشوا بعد ذلك؛ ليستَوفوا بقيَّة آجالهم وأرزاقهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ربَّكـم على نِعمة إحيائِه لكم بعد موتكـم، فتؤمِنوا بما أُنزِلَ عليكم، وتشكروا نِعمةَ كتابه الذي أنزَله.

وفي الآيتين من الفوائد:

عُقوبـةُ الله لهؤلاء المتمرِّدين من بنـي إسرائيل، بالصاعقة المُميتة، ثـم بعثُهم ليرتَدِعوا، وليكونَ ذلك كفَّارة لهم.

وفيها: أنَّ مَن سأل ما لا يمكن، فهو حريٌّ بالعُقوبة.

وفَرْقٌ بينَ سـؤال هؤلاء العُصاة وبين سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾؛ لأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك شوقًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وليتلذَّذَ برؤية ربِّه، وليزدادَ إيمانًا. أمَّا هؤلاء: فقد جعلوا الرؤية شرطًا للإيمان، والفرق كبير بينَ الحالَين.

وفيهـا: أنَّ وَقْـعَ العُقوبة على النفس أشـدُّ إذا كانـت تنظر إليها، كما أنَّ وقـع النِّعمة على النفس أكثر تأثيرًا إذا حصلت وصاحبها ينظر.

وفيها: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى، وهو مثالٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة.

وهذا الإحياء أحد الأمثلة الخمسة المضروبة في سُورَة «البقرة»، وهي: إحياء القتيل ببعض البقـرة، وقِصَّـة الذين خرجوا مـن ديارهم وهم ألوف حـذر الموتِ فأماتهـم الله، ثم أحياهم، وقِصَّة الذي مَرَّ على قرية، وقِصَّة إحياء الطير لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا الإحياء لبني إسرائيل.

وفي قولهـم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾: أنَّ تَـرْكَ النِّعمـة لأجـل طلـب الزيـادة كُفرانٌ بها.

وفيها: أنَّ الله لا يُرى في الدُّنيا، ولذا أخذتهم الصاعقة لـمَّا سألوا ذلك عُقوبةً لهم.

وفيها: مكانة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ربِّه، لـمَّا أحيا قومه له.

ويؤخَذ من هذه المواقف لبني إسرائيل وما شابهها: فَضْل صحابة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحاب موسى؛ فإنَّ أصحابَ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسألوا ويتعنَّتوا ويُعانِدوا كهؤلاء، ولم يشترطوا للإيمان مِثل ما اشترط قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما دفع عن بني إسرائيل من العذاب، ذكرَ الإنعامَ السابعَ عليهم في هذه السُّورَة؛ فقال تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾: جعلناه ظلًّا عليكم من الشمس، يقيكم حرَّها. و(الغَمام): هو السَّحاب الرقيق الذي يُبرِّد الجو.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: جعلناه رزقًا نازلًا على محلَّتكم وأشجاركم ﴿الْمَنَّ﴾: طعامٌ حُلوٌ لذيذٌ، يسقط عليهم في كلِّ يوم ما يكفيهم. وقال بعضهم: إنه شرابٌ.

وقيل: كلُّ ما امتنَّ الله عليهم به، من طعام وشراب وغير ذلك، ممَّا ليس لهم فيه عملٌ ولا تعبٌ؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَمْأةُ من المنِّ»[1]؛ لأنهَّا تحصُل في الأرض بغير زرع ولا ماءٍ ولا تعاهُدٍ.

﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾: طائرٌ لذيذُ اللحم، يأتيهم سهلًا فيذبحونه، ويأخذون منه حاجتهم.

فَحَصَلَ لهم الظِّلُ والشراب، وكان ذلك في وقت التِّيه -ظلُّوا أربعين سنة يتيهون في الأرض- فرَحِمَهم ربُّهم، ورزقهم هذه النِّعَم.

﴿كُلُوا﴾ الأمر للإباحة والامتنان ﴿مِن طَيِّبَاتِ﴾ (الطيِّب): ما لا تعافه النفس طبعًا، وليس بمحظور شرعًا. ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم، وأنعمنا عليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

ولم يكونوا في حاجة للادِّخار، فلمَّا ادَّخروا اللَّحم صار ينتِن ويفسُد، ولذلك قال النبي ﷺ: «لَوْلا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ»(١)، أي: ينتِن.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: ما نقصونا شيئًا بمعصيتهم؛ لأنَّ الله لا تضرُّه معصيةُ العاصين، كما أنَّه لا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(٢).

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: يضرُّونها، بتعريضها لعذاب الله في الآخرة، وفي الدُّنيا بقطع الرِّزق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الظِّلَ البارد، والطعام المفيد، والشراب الهنيء، من أعظم نِعَم الله.

وفيها: أنَّ لحم الطيور من أفضل اللَّحم؛ ولذلك كان لحم أهل الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

وفي الأمر ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾: أنَّ مَن تعفَّف عن الشيء المباح الطيب، ومَن امتنع من أكل الطيِّبات من غير سبَب -كمرض-؛ فهو مذمومٌ.

ويُفهَم من الآية: تحريم أكل الخبيث؛ لأنَّ الأمر بالشيء ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ نهيٌ عن ضده -وهو تناول الخبائث- سواء كانت خبيثة في ذاتها -كالمَيتة والخنزير- أو خبيثة في كسبها -كمال الرِّبَا والمأخوذ بالغش-.

وفيها: كمال ذات الله، واستغناؤه عن مخلوقاته.

وفيها: كثرة ظُلْم بني إسرائيل لأنفُسِهم؛ لقوله ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، وهذا بخلاف أصحاب محمَّد ﷺ الذين صبروا وثبتوا، ولم يتعنَّتوا بسؤال نبيِّهم ﷺ المعجزاتِ وصرفَ العادات.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أنَّ مُقابَلة النِّعَم بالمعاصي ظُلمٌ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بالوحي الذي أوحيناه إلى النبيِّ الذي كان يقودهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: بيتَ المقدِس، وهي التي كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أمرَهم بدخولها، بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ الأمر للإباحة، أي: أبحنا لكم الأكل منها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: في أيِّ مكان كنتم من البلد، تأكلون ما تشاءون ﴿رَغَدًا﴾: هنيئًا مُطمئنين.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب البلد، وكانت المدن لها أسوار وأبواب لحمايتها. ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوها راكعين، أو: اسجدوا إذا دخلتموها سجودَ الشُّكر. أو: صلُّوا لله بعد دخولها، شُكرًا على نِعمة الفتح، والأول أصحّ.

فأُمِروا أن يتواضعوا بالفعل، كما أُمِروا بالخضوع لله بالقول أيضًا.

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنا ذُنوبَنا، واغفِر لنا خطايانا. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم به من الخضوع والتواضع، وطلب المغفرة، والشُّكر على النصر؛ فإنَّنا سنستُرُ ذُنوبكم، ونتجاوز عنها، ولا نعاقبكم عليها.

﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾: جمع «خَطِيئة»، وهي: ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عمدًا، فيكون خاطئًا، بخلاف ما يرتكبه خطأً دون عمدٍ، فيُسَمَّى مخطئًا.

﴿وَسَنَزِيدُ﴾ على المغفرة أجرًا وثوابا، ونِعَمًا أخرى، هؤلاء ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يُحْسِنون عبادة ربِّهم، ويُحسِنون إلى خَلْقه في المعاملة وبَذْلِ المعروف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله شكورٌ، يزيد عباده المحسِنين.

وفيها: وجوب شُكر النِّعَم بالقول والفعل.

وفيها: خضوع الفاتحين لله تعالى، وشُكره على نِعمة الفتح؛ ولذلك جاء أنَّ النبي ﷺ دخل مكة يومَ الفتح خاضعًا لربِّه، مطأطئًا رأسه، متواضعًا لله، حتى كادَت رأسُه أن تمسَّ رَحْلَه[1].

وفيها: الصَّلاة لله شُكرًا -أو سجود الشُّكر- عند فتح البلاد، والانتصار على الأعداء.

وفيها: أنَّ الجهاد مع التواضُع لله سببٌ للمغفرة.

وفيها: أنَّ الإحسانَ سببٌ للزِّيادة من الخيرات والنِّعَم.

وفيها: أنَّه يجب على المجاهدين في سبيل الله إذا انتصروا ألَّا يغترُّوا بأنفُسِهم، ولا يُعجَبوا بأعمالهم.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

ثم ذكر تعالى عن عنادِ بني إسرائيلَ ومعصيتهم، أنهم لـمَّا أُمِروا بالخضوع، بالقول والفعل عند دخول الأرض المقدَّسة، أَبَوا ذلك:

﴿فَبَدَّلَ﴾: خالف وحرَّف وغيَّر **﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾** بمعصية الله **﴿قَوْلًا﴾** آخر قبيحًا **﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾**.

وقد بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «قيلَ لبَنِي إسْرائيلَ: **﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾**، فبَدَّلُوا، فدَخَلُوا يَزْحفُونَ على أسْتَاهِهِمْ، وقالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَة»[2]، وفي رواية: «بَدَّلُوا فَقَالُوا: حِنْطَةٌ فِي شَعَرَةٍ»[3].

فبدلًا من أن يقولوا: «احطُط عنَّا ذُنوبنا»، استهزءوا، وبدّلوا ما أمرهم الله به.

ولـمَّا حصلت منهم هذه المخالفةُ والمعاندةُ في القول والفعل -استخفافًا بأمر الله تعالى-؛

---

(١) انظر: المستدرك (٧٨٨٨)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٠٥)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٣) رواه أحمد (٨١١٠)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

أنـزَل الله بهم بأسَـه؛ فقال: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ أي: بعـد التبديلِ والتحريـفِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهم، بِفِسْقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿رِجْزًا﴾: عذابًا وغضبًا وبلاءً، ومنه الطاعون، كـما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ، أُرْسِـلَ عَـلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ -أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ-»[(١)].

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من فوقهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: بسـبَبِ فِسْقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى. فهلكَ منهم العددُ العظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ظُلمَ بني إسرائيل كان كبيرًا؛ فقد وصفهم بالظُّلْم مرتين، وبالفِسْـق أيضًا؛ دلالةً على أنَّ مافعلوه هو من الكبائر، ولم يكتفوا بالتبديلِ والتحريفِ في ذلك الموقف؛ بل أضافوا إليه أيضًا فِسْقًا من قبلُ ومن بعدُ.

وفيها: قُبْح تحريفِ كلام الله، سواء كان بتحريف اللَّفظ، أو بتحريف المعنى.

وفيها: أنَّ تبديل كلام الله ظُلمٌ عظيمٌ.

وفيها: موعظة الذين يتلاعبون بكلام الله، وأنَّهم يستحقُّون عذابًا من السماء.

وفيها: عَدْل الله تعالى ورحمته؛ لأنَّ العذاب كان مخصوصًا بالذين ظلموا.

وفيها: خطورة الاستهزاء والاستخفاف بكلام الله، وأنَّ ذلك ظُلمٌ وفِسْقٌ عظيمٌ.

والفِسْـق نوعان: فِسْـق أكبر، يخرِج من الدِّين، ويوجِب الخلود في النَّار. وفِسْـق أصغر، وهو ما دون ذلك من أنواع المعاصي.

وفيهـا: أنَّ تبديل بني إسرائيل كان كليًّا غـيَّر المعنى تمامًا، وليس جزئيًّا؛ ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

ويؤخَذ من ذلك: أهميَّة الإتيان بالألفاظ كما هي، في العِبادات -من الأذكار والصلوات وغيرها-.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) واللفظ له.

وفيها: إثبات حِكْمة الله في العذاب؛ كما في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

وفيها: إثبات الأسباب، وتأثير السَّبَب في النتيجة، كما في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

ثم ذكَّرهم الله سبحانه بنِعمته عليهم في إجابة طلبِ السُّقيا؛ فقال:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب السُّقيا ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾. والمعنى: واذكروا نِعمتي عليكم في إجابتي لنبيِّكم موسى، حين استسقاني لكم.

وذلك أنَّهم عَطِشوا في التِّيه، فسألوا موسى أن يستسقيَ لهم، ففعل، وأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحَجَر، كما قال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: إمَّا حَجَر مخصوص معلوم عنده، وإمَّا اسم جنس، يشمل أيّ حجر كان.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، لكلِّ سِبطٍ منهم عَين، وكانت قبائل بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: كلُّ سِبطٍ من بني إسرائيل الاثني عشر ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مكان شربهم؛ لئلَّا يضايقَ بعضهم بعضًا.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الأمرُ للإباحة ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ وفَضْله وعطائه، يأتيكم من غير كدٍّ منكم ولا تعب.

ولـمَّا كان توفُّر الأكل والشرب قد يؤدِّي للطغيان والإفساد؛ نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: لا تعتدوا فيها بالمعاصي، وتنشروا فيها الفساد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء، وقد جاء شرعُنا بموافقة ذلك على صفة مخصوصة، بصلاة، أو دعاء .

وفيها: أنَّ السُّقيا تكون بما ينبع من الأرض، كما تكون بما ينـزل من السماء.

وفيها: أنَّ الله هو المَلجأ للخلق، إذا مسَّهم الضُّرُّ فإليه يجأرون.

وفيها: رحمةُ الرُّسُل بأقوامهم، ورأفةُ موسى بقومه بإجابة طلبهم.

وفيها: كرمُ الله تعالى وقُدرته؛ فإنَّ العاجز لا يسقي، والبخيل لا يُعطي.

وفي الآية: معجِزةٌ ظاهرةٌ لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بخروج الماء من هذا الحَجَر الأصَمِّ، من عدَّة وجوه:

أنَّه حجر يابس منفصل عن الأرض.

وأنَّه لا يمكن أن يكون الماءُ مخزونًا فيه عادة.

و أنَّه يخرج بمجرَّد ضربه بالعصا، لا يحتاج إلى حفرٍ ولا تنقيبٍ.

وأنَّه موزَّعٌ على هذه العيون الاثنتي عشرة -عدد قبائل بني إسرائيل-.

وأنَّـه يخرج منـه ماءٌ كثيٌر، يتدفَّق بقَـدْرِ حاجتهم، ويكفـي القوم جميعًا، ثـم ينقطع عند استغنائهم عنه.

وفي ذلك شاهدٌ عظيمٌ على قُدرة الله تعالى؛ فإنَّه أخرجه بهذه الكميَّة الكبيرة من غير حَفْرٍ ولا تعبٍ، فأين كان الماء مخزونًا؟!

وفيها: حُسنُ تنظيم القوم عند ازدحامهم، أو وجود العصبيَّة بينهم؛ لئلَّا يتنازعوا، ولئلَّا يَضِيعَ الوقتُ بالانتظار الكثير.

وفيها: اتِّخاذُ الأسباب التي تَدفعُ العداوةَ والنِّزاع.

وفيها: أنَّ من أعظم كُفرانِ النِّعَم مُقابَلتَها بإشاعة الفساد في الأرض.

وفي الآيـة: تعليـمُ العِبـاد الأَخْذَ بالأسـباب؛ فـإنَّ الله تعالى قـادرٌ على أنْ يُخـرج الماء من الحَجَر بغير ضربه بالعصا، ولكن أمرَ بضربه بالعصا -مع كونه سببًا ضعيفًا، ولا يُخرِج الماء في العادة-؛ تعليمًا للعباد، وربطًا للمسبّبات بالأسباب، وليكون ذلك على يد موسى -عبدِه وكليمِه- تكريمًا له.

وفيها: أنَّ من حُسنِ إدارة القوم وقيادتهم: تقسيمهم وتوزيعهم، وتعليم كلِّ فريق حِصَّته وما يخصُّه، وأنَّ التخصيص بالتوزيع يمنعُ التداخلَ المؤدِّي إلى الفوضى والاعتداء والظلم.

وفيها: أنَّ رزق الله قد يَحصل للعبد بغير عمل منه ولا تعب، وما كان بعملٍ وتعبٍ فهو من رزق الله أيضًا.

وفيها: اشتهار اليهودِ بالفساد في الأرض، ولا يزالون؛ ولأجل ذلك نهاهم عنه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

ولـمَّا كان بنو إسرائيل لا يشكرون النِّعَم؛ أصابهم البَطَر، وملُّوا من الطعام الطيِّب السهل -وهو المنّ والسَّلوى- وبَلَغَ من انحراف أمزجتهم أن يطلبوا من موسى الأطعمة الدَّنيَّة -من البقول وغيرها- ولعلَّهم تذكَّروا عيشَهم الأول بمصر، وقد كانوا في عهد فرعون يأكلون الثوم والبصل والعدس ونحوه؛ فطلبوا ذلك من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ**﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ كنتم في التِّيه، فقلتُم لنبيِّكم: ﴿**يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ**﴾ وهو المنُّ والسَّلوى.

﴿**فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾ اسأله ﴿**يُخْرِجْ لَنَا**﴾ يُوجِدْ ويُظْهِرْ ﴿**مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا**﴾: من النباتِ الذي ليس له ساقٌ، كالكرَّاثِ والسلقِ والفجلِ ونحوِها.

﴿**وَقِثَّآئِهَا**﴾: نبات معروفٌ، يشبه الخيار، وقيل: خضروات، كالبِطِّيخ والقرع ونحوِ ذلك. فالبقولُ: ما يُؤكَل ساقه، والقِثَّاءُ: ما يؤكَل ثمره.

﴿**وَفُومِهَا**﴾ (الثومُ) المعروف، وقيل: الحنطة، أو الحمّص. ﴿**وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**﴾: طعامان معروفان.

فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجَد في مكانهم.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستِفهامُ للإنكار، والمعنى: أتسألون تبديلَ ﴿الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي: أردأ، فتأخذونه لأنفسكم، وتختارونه وتفضِّلونه ﴿بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني: أحسنَ وأنفسَ. والمعنى: تأخذون الذي هو أدنى، بدلًا عن الذي هو خير؟!

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أيَّ مِصرٍ من الأمصارِ، وأيَّ بلدٍ من البُلدانِ. وقيل: هي مِصرُ فرعونَ. ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: يَحصُل لكم ما تطلبونه، فبيَّن لهم أنَّ طلبهم ليس بأمرٍ عزيزٍ، وإنَّما يكفي أن يهبطوا أيَّ بلدٍ؛ ليجدوا مطلوبهم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾: لزمت بني إسرائيل إلى قيام الساعة، وأحاطت بهم بلا انفكاك ﴿الذِّلَّةُ﴾: الهوان، فلا يُقاتِلون عدُوًّا إلَّا مع الخوف الشديد منه، والشقاق فيما بينهم، كما قال الله عنهم: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]. ومن الذِّلَّة: ما حَصَلَ من أخْذِ الجِزْية منهم.

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، سواء كان فقر النفس، أو فقر المال، فليس عندهم كرمٌ، حتى قيل: لا أبخل من يهوديّ؛ فإنَّه وإن كَثُرَ ماله فهو شديدُ الطمع لا يَشبع، فقير القَلْب، يده مغلولة.

ولزوم الذُّلِّ والصَّغار لهم حقٌّ على الحقيقة، وخبرُ صدق ويقين، ومَنْ أصدقُ من الله قيلًا؟ فإنَّهم كانوا عَبْرَ التاريخ مقهورين أذِلّاء -ولا يزالون- قد تسلَّطت عليهم الأُمَم، حتى أَخَذَ المجوسُ الجِزْيَةَ منهم!.

فإن قال قائل: فما بالهم اليومَ قد صارت لهم دولة وصَوْلة، وعِزٌّ وقوَّة؟!

فالجواب: أنَّهم وإن طَغَوا وبغَوا فهم غُثاء كغُثاء السَّيل، والذُّلُّ مكتوبٌ عليهم، ظاهرٌ لِمَن تأمَّله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ثم إنَّ العِبرة بالأعمِّ الأغلب؛ فإنَّ أكثر تاريخ اليهود حتى الزمن القريب ظاهرٌ فيه تشريدُهم في الأرض، وتقطيعُهم، وكُرهُ الأُمَم لهم، ومهما بَلَغَ اليهودي من مال وسلطان،

فإنَّه لا يزال عند أغلب أهل الأرض منبوذا مُحْتَقَرًا خبيثًا، بل إنَّ الشعوب من حولهم ترفض -في الجملة- مخالطتهم ومصادَقتهم والعيش معهم.

ومن جهةٍ أخرى: لايزالون جُبَنَاء، يبنون الأسوار، ولا يعيشون إلَّا في المستوطَنات المحُصَّنة -ولو كانوا أقوى سلاحًا- ولو صارت مواجَهة حقيقيَّة لفرُّوا؛ من ذُلِّهم، وجُبْنهم، وهوانهم عند أنفُسِهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: انصرفوا، ورجعوا، وتحمَّلوا غضب الله، كما وصفهم بـ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

وأمَّا عن سبَب حصول كلِّ ذلك لهم وتقديره عليهم: فقد بيَّنه الله تعالى؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ فيُكَذِّبُونَ بآياته الشرعيَّة، ويجحدون آياته الكونيَّة، وفيها: معجِزات نبيِّهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كيحيى وزكريّا وغيرهم، وقد حاولوا قَتْل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرفعه الله إليه، وتسبَّبوا في موت نبيِّنا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بدسِّهم السُّم له، في قِصَّة الشاة المعروفة، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا...»[(١)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجرائم السابقة، وسبَب ما نَزَلَ بهم؛ ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾: خالَفُوا ما نُهُوا عنه، ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ بتجاوزهم حدودَ الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهةُ بني إسرائيلَ؛ حيث اختاروا الأدنى، وفضَّلوه على الأعلى.

وفيها: جفاؤهم، في قولهم: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولم يقولوا: «ادعُ لنا ربَّنا».

وفيها: أنَّ مَن اختار الأدنى على الأعلى؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومِن ذلك: الذي يختارُ الحرامَ كالزِّنا ويسلُكُه سبيلًا، بدلًا من الحلال وهو النِّكاح.

---

(١) رواه أحمد (٣٨٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٠).

وفيها: أنَّ على المرء أن يرتفعَ بهمَّتِه ويَطلب معالي الأمور.

وفيها: إباحةُ التوسُّع في المآكل والمشارب، ما لم يؤدِّ إلى إسرافٍ أوضرَرٍ.

وفيها: حِلُّ البقولِ والبصلِ والثومِ ونحوِها؛ لقوله تعالى: ﴿**ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ**﴾.

وفيها: اتصافُ اليهودِ بفقرِ القُلُوبِ، وشدَّةِ الطمَع، وأنَّهم لايشبعون.

وفيها: أنَّ اليهودَ لايثبُتون أمامَ المسلمين، إذا حاربوهم بصدقٍ وإيمانٍ.

وفيها: أنَّ من صفات اليهودِ: تعدِّي حدود الله، والاعتداء على عباد الله.

وفيها: خطورةُ احتقارِ نِعَم الله، وأنَّ فاعلَ ذلك قد يُعَاقَبُ بالحِرمان منها.

وفيها: جوازُ التوسُّلِ بدعاء مَن تُرجى إجابته من الأحياء، كالصالحين والوالدَين.

وفي الآية: عدم الاغترار بما يَحْصُل لليهود من قوَّةٍ أوسلطانٍ في الظاهر؛ فإنَّ الذُّلَّ في قُلُوبهم، والهوانَ مضروبٌ عليهم.

وفيها: أنَّ تعدِّي حدود الله ومخالفة أوامره، يدلُّ على ضَعف هَيبته تعالى في قَلْب المعتدِي والمخالِف؛ فيكون أهلًا للعُقوبة بالذُّلِّ والهوان.

وفيها: تعويدُ النفس على تَرْكِ المألوفات؛ لتكون مستعدَّة لمواجَهة الطوارئ والأحوال المختلفة.

وفيها: أنَّ خِسَّة الطبع تؤدِّي إلى دُنُوِّ الهِمَّة، حتى في أمور الدُّنيا، كالمآكل.

﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢**﴾:

ولـمَّا ذكـرَ تعالى ما فعلـه باليهود من العقوبات؛ لـمَّا تعدَّوا حـدودَه، وعصَوا وخالَفوا أوامـره، وانتهكـوا حُرماتِه؛ رَغَّبَ تعالى في الإيمان به، وإحسـانِ العمـلِ، وبيَّن ما للمؤمنين عنده من الجزاء في الدُّنيا والآخرة؛ فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بـالله وكتبـه ورُسُـله، وصدَّقوا إيمانهـم بالعمل الصالـح. فقيل: هم مؤمنـو هذه الأُمَّـة، وقيل: مَن آمن بالأنبيـاء الماضين قبل بِعْثَةِ محمَّـدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان على التوحيد، كقُسِّ بن ساعدة، ووَرَقة بن نَوْفَل، وبَحِيرَى الراهب وغيرهم.

وقيل: هم الذين صدَّقوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتبعوه من أهل الدِّيانات الأخرى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيـل: مـن «الهـوادةِ»، وهي: المـودَّةُ. وقيـل: من «التهـوُّد»، وهي: التوبة. وقيل: نسبة إلى (يهودا) وهو أكبر أولادِ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمـع «نـصراني». وقيـل: «نـصران» -كـما في «سـكارَى» و«سـكران»، و«نشـاوَى» و«نشوان»-. سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم نصروا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو لأنَّهم كانوا معه في بلدةِ الناصرة. أوسُمُّوا بذلك؛ لتناصُرهم فيما بينهم[2].

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ «صبأَ»: خرج من دِينٍ إلى دِينٍ. وقيل: هم قومٌ على الفِطرة يعرفون الله، وليس لهم دِينٌ معيَّنٌ يتَّبعونه.

وقيل: إنَّ دينَهم مُرَكَّبٌ من أديانٍ أخرى كاليهوديَّة والمجوسـيَّة. وقيل: يقرَأون الزَّبُور. وقيل: يعبدون الملائكة. وقيل: يُصلُّون إلى غير القبلة. وقيل غير ذلك[3].

ويوجـد في العراق إلى اليوم فِرقةٌ تُسَـمَّى «الصابئة»، يعبـدون الكواكب، ويعتقدون أنَّ للنجوم تأثيرًا في الأرض، وفي حياة الناس!

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء جميعًا ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربًّا، واتَّبَعَ ما أنزله، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وما فيه من البَعْث والحساب والجزاء، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ خالصًا لله، وعلى سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين؛ صار عملُه مرضيًّا مقبولًا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابُ أعمالهم، مدَّخرا لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحفظه ويضاعفه لهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخـرة يومَ الفزع، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يـوم يَحزنُ المُقصِّرون

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥)، التبيان في إعراب القرآن (١/ ١٠٥).

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٧٣)، تفسير القرطبي (١/ ٤٣٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٦).

على تضييع العمر، وتفويت الثواب، فلا يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من الدُّنيا؛ لطيب عَيشهم، وما سيكونون فيه من النعيم المقيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتمام بدعوة أهل الأديان الأخرى.

وفيها: أهميَّة بيانِ حُكم الله تعالى في أهل المِلَل الأخرى من غير المسلمين.

وفيها: بيانُ مصير مَن بقيَ على التوحيد، ولم تَبْلُغْه دعوةُ النبيِّ الجديد.

وفيها: فَضْل الإيمانِ والعملِ الصالح، وأنَّ صاحبه يأمَن من الخوف ممَّا يكون في المستقبَل، والحزن على ما مضى.

وفيها: فَضْل مَن تَرَكَ دِينَه الباطل إلى دِينِ الحقِّ.

وفيها: بيانُ ضمان الأجر؛ ولذا أضافه إلى الله، في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: أنَّ مَن اتَّبَعَ الحقَّ فلا يضرُّه ما كان عليه في ماضيه من ديانةٍ باطلةٍ.

وفي الآية: طريقةٌ حسنة لمخاطَبة أهل الكتاب ودعوتِهم، بِذِكْرِ مَن هو أحسن منهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومَن هو أسوأ منهم: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾.

ويؤخَذ من الآية: أنَّ من اليهود والنصارى قومًا ناجينَ فائزينَ، سواء مَن آمنوا بالتوحيد الذي كان عليه أنبياؤهم، وعمِلوا بما وصل إليهم من شرائع أنبيائهم، وماتوا قبل بعثة نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الذين أدركوا الإسلام فدخلوا فيه، وتركوا دينَهم الأول.

وفيها: أنَّ العملَ الصالحَ شرطٌ للنَّجاةِ.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى جنايةً أخرى لأسلافِ بني إسرائيلَ؛ فقال مخاطبًا أحفادَهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾

أي: واذكـروا وقـتَ أَخْذِنا ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي: العهد على آبائكم بقَبـولِ التوراةِ، والعمل بما فيهـا، وعبـادة الله وحدَه لا شريك له، فأَبَيْتُـم الإقرارَ بذلك العهدِ الثقيـلِ المؤكَّدِ، فرفع الله الجبلَ على رؤوسهم؛ ليُقِرُّوا ويأخذوا العهدَ بقوَّةٍ وهِمَّةٍ وامتِثالٍ:

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهـو: الجبلُ المعـروفُ، حتى قَبِلْتُم وأعطيتُـم الميثاقَ؛ وذلك أنَّهم لـمَّا رفضوا قَلَعَ اللهُ الطورَ من أصله، وَجَعَله فوقهم، فعَلِموا أنَّهم إذا لم يمتثلوا فسيَهْوِي عليهم.

فلما رَأَوا أنَّه لا مهربَ لهم قَبِلوا وسجدوا، فرَحِمَهم الله وكشف عنهم، وقال لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ من الكتاب -وهو التوراة- واعملوا بما فيه ﴿بِقُوَّةٖ﴾: بِجدٍّ وعزيمةٍ واجتهادٍ، ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ ادرُسُـوا واقرَأوا ﴿مَا فِيهِ﴾ مـن المواعظِ والأحكامِ، ولا تنسـوه وتغفُلوا عنه؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: تنجون من العذاب.

ولكنَّهم لم يثبُتوا على ذلك؛ فقال الله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾: أعرضتم عن الميثاقِ العظيمِ، ونقضتموه، وتولَّيتم، بعدما رأيتم ما رأيتم!.

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بتأخـير العـذاب، وقَبولِ التوبة، ومُوالاةِ إرسـالِ النبيِّين عليكم؛ ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جميعًا في الدُّنيا والآخرةِ.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيانُ قُدرةِ الله العظيمةِ وقوَّته، بِقَلْعِ الجبل من مكانه، ورَفْعِهِ وإمسـاكه فوقهم مُعَلَّقًا، كما في الآية الأخرى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وفيها: أنَّ الواجبَ على المؤمنين العمل بغير ضَعْفٍ ولا مُداهنةٍ ولا فتُورٍ.

وفيها: أنَّ الفلاحَ والنجاحَ لا يَحْصُلُ إلَّا بتوفيق الله وفَضْله.

وفيها: استعصاءُ بني إسرائيلَ وتمرُّدُهم وعنادُهم؛ فإنَّهم لم يُعطوا الميثاق إلَّا مُكرَهين.

وفيهـا: لـؤمُ بني إسرائيل وخُبثُ نفوسـهم، فإنَّهـم تولَّوا وأعرَضوا بعـد أن رجع الجبلُ إلى مكانـه، ولم يعلمـوا أنَّ الذي رفع الجبلَ فوقهم ثـم ردَّه إلى مكانه، قادرٌ على أنَّ يرفعَه مرة أخرى ويهوِي به عليهم.

وفيها: محبَّة الله لهداية عباده؛ فإنَّه أراهم من آياته الشرعيَّة والكونيَّة ما يهتدون به.

وفيها: سَعَة رحمةِ الله تعالى، وأنَّه لم يُهلِك بني إسرائيل بالرغم ممَّا حَصَلَ منهم.

وفيها: توبيخُ اليهودِ في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما بعده؛ لسلوكِهم السَّبيلَ الذي سلكَه أجدادُهم، من الإعراض عن الحقِّ، والتولِّي عن العمل به.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾:

ثم خاطب الله تعالى اليهودَ، مذكِّرًا لهم بأمرٍ يعلمونه جيِّدًا، ممَّا فعله أسلافُهم، من الاحتيال على شَرْع الله؛ وذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كان قد حرَّم العملَ على اليهودِ يومَ السبتِ، ومِنْ ضِمنه الصيد؛ ليتفرَّغوا للعبادة.

فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾ والمعنى: لقد علمتُم عِلمًا يقينيًّا، بخبر أهل هذه القرية، ﴿ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ﴾ تجاوزوا حدودَ الله؛ ظلمًا وطغيانًا ﴿مِنكُمۡ﴾ يا بني إسرائيل ﴿فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ وهو اليومُ من الأسبوع الذي حرَّم اللهُ عليهم العملَ فيه؛ ليتفرَّغوا للعبادة، ونهاهم عن صيد الحيتان فيه، وابتلاهم بقدوم الأسماك إلى الساحل في هذا اليوم، ورجوعها في بقيَّة الأيَّام، فاحتالوا على شَرْعِ الله، فنصبوا الشِّباك وحفروا الحُفَر، وأخذوا ما علِق فيها من الأسماك يومَ الأحدِ، وقالوا: ما صِدْنا في السبت!

وقد فَصَّلَ الله قِصَّتهم في سُورَة «الأعراف»، في قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣].

فلمَّا فعلوا ذلك غضِبَ الله عليهم ولعنَهم، وقال: ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ﴾ قهرًا ورَغمًا عنكم، وهذا أمْرُ تكوين وتصيير، وليس أمْرَ إيجاب؛ أي: صِيروا رغمًا عنكم ﴿قِرَدَةً﴾؛ فتحوَّلوا من أشكال الآدميِّين، ومُسِخوا على أشكال القِرَدة، ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ ذَليلِينَ صاغرين.

وقد روى ابن مسعود، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أنَّه ذُكِرت عِندَه القِرَدَة والخنازيرُ من مَسْخٍ؛ فقال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ القِرَدَةُ وَالخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).

ويؤخَذ من هذا الحديث: أنَّه لا يُطلقُ على اليهود «أحفاد القِرَدة والخنازير»، ولكن يُقال لهم: «إخوانُ القردة والخنازير»، كما أطلَق عليهم الصَّحابةُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريمُ التحايلِ على شَرْعِ الله، وأنَّ هذه الحِيلَ اعتداءٌ، وهي أشدُّ تحريمًا من إتيان المُحَرَّمِ على وجْهٍ صريحٍ؛ لأنَّ فيها جمعًا بيْنَ المعصيةِ والخِداعِ.

كما أنَّ المنافِقين أشدُّ جُرْمًا من الكفَّار الصُّرَحاءِ.

وقد اشتهر اليهودُ بالحِيَل، كما فعلوا في أنواع الرِّبا وشحوم المَيتة؛ ولذلك قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ اليَهُودُ؛ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدْنَى الحِيَلِ»[1].

وفي الآية: مناسبةُ العُقوبةِ للذنبِ، فلمَّا كانت صورةُ ما فعلوه مباحةً، والحقيقةُ أنَّها غيرُ مباحةٍ، كذلك صارت صورتهُم الظاهرةُ قِرَدَةً، وفي الحقيقة لا يزالون آدميِّين.

وفيها: عظمةُ أَمْرِ الله؛ فإنَّهم تحوَّلوا إلى قِرَدَةٍ بمجرَّد قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾، وقد كان المسخُ حقيقيًّا، لا معنويًّا فقط.

وفيها: أنَّ من أنواع العذاب الأليم في الدُّنيا: أن يعيشَ الإنسانُ بصورةِ القِرْد القبيحة، ويَبقى معه عقلُ وإدراكُ الإنسان.

وفي الآية مع الحديث المتقدِّم: إبطالٌ لنظريةِ التطورِ والارتقاء، التي قال بها دارون وغيره -قاتلهم الله- حيث زعموا أنَّ جنسَ البشرِ متطوِّرٌ عن القردة!

ويكفي المسلِم أن يعلم أنَّ الله تعالى خاطبنا بـ(بني آدم)، وأخبرنا عن خَلْق آدم، وأنَّ آدم هو أبونا.

أما غير المسلمين فيُقال لهم: هذه نظريَّة قاصرة فاشلة؛ فهي لم تفسِّر جميع ظواهر الحياة؛ فلم تقدِّم تفسيرًا لأصل نشأة الحشرات، مع أنها تمثل ٨٠٪ من مجموع الحيوانات، فهل تطوَّرت الحشرات أم بقيَت على ما هي عليه؟ ولِمَ لم يجرِ عليها قانون التطور؟

---

(١) رواه ابن بطَّة في إبطال الحِيَل (ص٤٧)، وحسَّنه ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في تفسيره (١/ ٢٩٣)، والألبانيُّ في الضعيفة (١/ ٦٠٨)، لكنَّه مال إلى ضَعْفه في الإرواء (١٥٣٥).

ولذا: فقد ماتت هذه النظريَّة أو كادت، وتبيَّن للعالم أنها مجرَّد خدعة، لا حقيقة لها!.

وفي الآية: محُاجَّة أهلِ الكتابِ، ووعْظُهم بما يعلمونه من الحقائق.

وفيها: تحذيرُ الجيل اللاحق من مُشابهة الجيل السابق في التمرُّدِ، والعناد، والتحايل، والمعصية.

وفيها: أنَّ الذِّلةَ والصَّغارَ من عقوبات المتحايلين على شَرْعِ الله؛ لأنَّهم يُلَبِّسُون على الآخَرين، ويستهزِئون بالدِّين؛ ولذلك قال العلماء عنهم: «إنَّهم يُخادِعون الله كما يخادعون الصِّبْيان»[١].

وفي ذِكْرِ قَصصِ هؤلاء المتحايلين موعظةٌ لهذه الأُمَّة؛ حتى لا تَسلُكَ سبيلَهم.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما أنزل بأهلِ تلك القرية من العُقوبة البليغة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: صيَّرنا هذه القرية بعد مَسْخِ المعتَدين من أهلها قِرْدة ﴿نَكَالًا﴾: عِبْرَةً، تَرْدَعُ غيرهم من فِعْل مثل ما فعلوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لِـما حَوْلَها من القرى، الَّذِين وَصَلَ إليهم خبرهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ عِبرةً وتذكرةً لِمن يأتي بعدهم من الأُمَم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِين يخافون أن ينزِل بهم من عذاب الله مِثْلُ ما نَزَلَ بتلك القرية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ القَصصِ للاعتبار.

وفيها: أنَّ العقوبات الإلهيَّة تكون رادعةً لمن وقعت عليه؛ حتى لا يعود، ولغيره؛ حتى لا يتشبَّه به.

وفيها: أنَّ الذي ينتفع بالمواعظ هم المتَّقون.

وفيها: أنَّ المواعظ كما تكون شرعيَّةً -بالآيات، والأحاديث، والكلام النافع للقَلْب-؛ فمنها ما يكون كونيًّا قدَريًّا، كذلك منها ما يكون بعقوبات تقع، وعذاب ينزل.

(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٩٩).

فأمَّـا عبادُ الله المؤمـنـين: فإنَّهم ينتَفِعون بالمواعظ الشرعيَّة، وأمَّـا غيرهم: فقد لا يتأثَّرون إلَّا بالمواعـظ الكونيَّة؛ اضطرارًا، وإكراهًا، كما يحدث للكفَّـار إذا جاءهم قاصفٌ من الرِّيح في البحر.

وفيها: الاطِّلاع على أخبار الماضين؛ لأخْذِ العِبرة.

وفيهـا: أنَّ العُقوبـةَ تأتي على الذنب الجديد، وما تقدَّم مـن الذُّنوب، وأنَّ تراكم الذُّنوبِ سببٌ للعُقوبة عليها جميعًا.

وفيها: أنَّه يستفيد من المواعظ المتَّقون من كلِّ أُمَّةٍ.

وفيها: تحذيرُ هذه الأُمَّة من العقوبات الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ بعض مَن لم يُمْسَـخ جسـده من المذنِبين قد مُسِـخَ قَلْبُه، فصار مشـابهًا لبعض البهائم -كالكلب في الخِسَّـة، وكالخنـزير في عدم الغَيرة، ونحو ذلك- ومِن علامات مَسْخِ القُلُوب: ألَّا يجد حلاوةَ الطاعة، ولا يخاف من المعصية، ولا يعتبر بموت أحد.

وفيها: التحذيرُ لهذه الأُمَّة من التحايل على شَرْعِ الله، ومن ذلك:

التحايُـل عـلى الرِّبا، والتحايُـل في نـكاح التحليل إذا طَلَّـقَ ثلاثًا، والاحتيالُ لإسـقاط الشُـفعة، وإسـقاط صاحبِ الحقِّ في الميراث، وإسـقاط الحدودِ الشرعيَّـةِ، والاحتيالُ لأكلِ المال بالباطل، والاحتيالُ في الوصيَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٦٧﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعـالى قبائحَ بني إسرائيل، من نَقْضِ المواثيقِ والاعتـداء؛ أردفَه بنوعٍ آخرَ من مساوئهم، في تكذيبهم لأنبيائهم، ومخالفتهم لهم، وعدم مسارعتهم في امتِثال أوامرِ الوحي، مع كثرة اللِّجاجِ والعناد؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّةَ موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال لقومـه -وإذا كان الشـخصُ من قـومٍ؛ فإنه يَنصحُ لهـم أكثرَ ممَّا ينصـحُ لغيرهـم-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾، وسبَبُ هذا الأمرِ: أنَّه كان قد قُتِلَ قتيلٌ فيما بينهم، فتخاصَموا فيه وتدافَعوا، حتى كادت تثورُ بينهم فِتنةٌ.

فلـمَّا رجعوا إلى نبيِّهم يسألونه، ليخبرهم من الوحي عن القاتل؛ أوحى الله إليه أن يأمرَهم بذبحِ بقرة.

وقد جاء ذِكْرُ السَّبَبِ متأخِّرًا في قوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾؛ من باب التفنُّن في العرض، والتجديد، والتشويق، وشحذِ الذهن؛ لمعرفة السَّبَبِ الذي سيُذكَر لاحقًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ -جوابًا لنبيِّهم على أَمْرِه لهم-: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾: تجعلنا مكانًا للهُـزْءِ والسخريةِ، وتلعبُ بنا. وهذه جهالةٌ عظيمةٌ منهم، وسوءُ أدبٍ مع نبيِّهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

فأجابهم نبيُّهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾ من ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ فإن الجاهلَ هو الذي يتكلّم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزِئُ بالناس.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الأصلَ في الأمرِ الوجوبُ، وأنَّه يجبُ تنفيذُه فورًا، وأنَّ التراخي في التنفيذ معصيةٌ.

وفيها: أنَّ بعضَ الأوامر قد لا يعلم العِباد الحِكْمةَ منها، فعليهم الاستِسلامُ والتنفيذُ.

وفيها: أنَّ من حِكْمة الشَّرْع أن يأتيَ بما يقضي على المُخاصَمات بينَ الناس.

وفيها: بيانُ سوء أدبِ بني إسرائيل مع نبيِّهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الاستهزاء بالناس جهلٌ وسَفَهٌ وحماقة.

وفيها: التجاءُ موسى إلى ربِّه، محتميًا به من إيذاء قومه.

وفيها: صبرُ موسى على إيذاء قومه، وأنَّه لم يقابِل إيذاءَهم بالإيذاء؛ وإنَّما وعَظَهُم وذَكَّرَهم بالله لـمَّا استعاذ به.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يُضيفَ الأوامرَ والنواهي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا إلى نفسه، ليُبيِّن المصدَر، وليكون أقرب إلى قَبول الأمر والامتِثال له، واطمئنان النفوس له.

وفيها: الإشارة إلى أنَّ الإجابة على السؤال بما لا عَلاقةَ له به جهلٌ، وفي ردِّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تعريضٌ بجهل قومه.

وفيهـا: أنَّه يجب حَمْلُ أوامـر الأنبياءِ وأحوالهم على الجِدِّ، وفي هذا ردٌّ على بعض مَن يظنُّ في أحـكام الـشَّرْع وإطلاقاته أنَّها من المـزاح، قال الله تعـالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

وفيها: أنَّه لا يجوزُ المِزاحُ والهُزْءُ عند تبليغ أحكام الله.

وفيها: أنَّ على المدعو والمستفتي أن يستقبلَ أوامر الله بالإجلال والتوقير.

وفي الآية: أنَّ ذبحَ البقرةِ أفضلُ من نحرها، فالذبح يختصُّ بالبقر والغنم، والنحر يختصُّ بالإبل.

ولعلَّ في أمرهم بذبحِ البقرة؛ معالجةً لنفوسهم التي عظَّمت العجلَ بعبادته من دون الله.

وفي القِصَّـة: أنَّ مَرجِـعَ النَّـاسِ عند حدوثِ الإشـكالات إلى الأنبيـاء، وورثتِهم -وهم العلماء-.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ٦٨﴾:

ولـمَّا عَلِـمَ القومُ أنَّ ذَبْحَ البقرةِ عـزمٌ وجِدٌّ لا بُدَّ منه، ووحيٌ مـن الله؛ لجأوا إلى التعنُّتِ والتشدُّدِ، وهذا من كثرةِ سؤالهم المذموم، واختلافِهم على أنبيائهم.

﴿قَالُواْ﴾ يـا موسـى: **﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾** اسـأله لأجلنـا **﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾**: يُوضِّـح ويُعـيِّن **﴿مَا هِيَ﴾**، أي: ما سِنُّها؟ صغيرةٌ أم كبيرةٌ؟ وهذا تشـديدٌ منهم على أنفُسِـهم، فلمَّا شدَّدوا شدَّد اللهُ عليهم، ولـمَّا ضيقوا ضيَّق الله عليهم.

﴿قَالَ﴾ موسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **﴿إِنَّهُۥ﴾** أي: اللهُ عَزَّوَجَلَّ **﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾** أي: المأمـور بِذَبْحِهـا **﴿لَّا فَارِضٌ﴾**: ليسـت مُسِـنَّةً هَرِمَـة، انقطعـت عـن الولادة لكِـبَر سِـنِّها **﴿وَلَا بِكْرٌ﴾** وهي الصغـيرةُ التي لم تلدْ، أو التي ولدت مرةً واحدةً؛ بل هي **﴿عَوَانُۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾**: وسَـطٌ بَيْنَ الكبيرةِ والصغيرةِ، وهي أقوى ما يكون من الدوابِّ والبقرِ، وأحسنُه.

﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ من ذَبْحِها، ولا تُكثِروا السؤال ولا تتعنَّتوا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التنطُّعَ في الدِّين والتشدُّدَ يؤدِّي إلى التشديد على صاحبه في الأحكام.

وفيها: أنَّ الطبيعةَ السيِّئةَ لبني إسرائيل جعلتهم يسألون عن أمور لا وجه لها؛ فإنَّ البقرةَ معلومةٌ، واللفظ المُطلَق لا يحتاج إلى بيانٍ؛ لوضوحِ معناه، ولكنَّهم لم يكتفوا بما طلبه الله منهم.

وفيها: أنَّه لا يجوز البحثُ والسؤالُ عن قيودٍ في الأمور المُطلَقة، في وقتِ نزول الوحي؛ لأنَّ مَن شدَّدَ شدَّد اللهُ عليه، وقد يتَسبَّب في التشديد على باقي الأُمَّة، وهذا من أعظمِ الناسِ جُرْمًا عند الله؛ ففي الحديث: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ من أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[١].

أمَّا البحثُ عن قيودٍ للأمور المُطلَقة في النصوص الشرعيَّة بعد انقطاع الوحي؛ فلا بأس به؛ فإنَّ ما أُطلِقَ وأُجمل في مكانٍ، يمكن أنْ يُفصَّلَ ويُقيَّدَ في مكانٍ آخر.

وفيها: تذكيرُ المتعنِّتين المتنطِّعين بوجوب فِعْلِ ما أُمِروا به، وإعادةِ تذكيرهم بذلك، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أراد أن يبحث عن الأكمل في ذبحِ القرابينِ -كالأضحية والهَدي والعقيقة- وما يخُرجه للزَّكاة؛ فإنه يختار الأوسَط سِنًّا بينَ الهَرِمة والصغيرة.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾:

ولـمَّا كان القومُ أهلَ عنادٍ وتعنُّتٍ؛ لم يكفِهم ما تقدَّم من الوَصف، ولو أَخذوا أيَّ بقرةٍ لأجزأتهم، لكنَّهم جعلوا يزيدون في السؤال والاستفصال، فانتقلوا بعد السِّنِ إلى اللونِ:

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾، ولا وجه لسؤالهم هذا، ولو أنهم أخذوا بقرةً بأيِّ لونٍ فذبحوها لأجزأهم ذلك.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ المأمور بذبحها ﴿بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾: شديدُ الصُّفرةِ، صافٍ لونُها، لم يخالطْه لونٌ آخر؛ فهي ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: تُعجِبهم، وتُدخِلُ البهجةَ والسرورَ على نفوسهم؛ لِحُسنِ صورتها، وتمامِ خِلقتِها، وتَوسُّطِ سِنِّها، وصفاءِ لونِها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بعض ألوانِ القرابينِ أفضلُ من بعضٍ؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَمُ عَفْرَاءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن دَمِ سَوْدَاوَيْنِ»(١)، والعفراءُ من الغَنَم: البيضاءُ المائلة إلى حُمْرَة، والمراد: أنَّ التضحية بعفراء خيرٌ من التضحية بالسوداء.

وفيها: أنَّ الأصفرَ من الزينةِ؛ ولذلك تمنعُ المُحَادَّةُ من لُبْسه.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾:

وعلى الرُّغم من كلِّ هذا البيانِ في السِّنِّ واللَّون، لم يتوقَّف بنو إسرائيلَ عن تعنُّتِهم ومجادلتهم؛ فـ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما حالُها؟ هل هي عاملةٌ تَسقي وتَحرثُ، أم هي سائمةٌ كريمةٌ عند أهلها، لا يستعملونها في الأعمال الشاقَّة؟

﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ﴾ الموصوفَ سابقًا ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾: أَشْكَلَ، واشتبهَ أَمْرُها من كثرة البقر، فلم ندرِ ما هي المأمورُ بذبحها؟

وقد كذَبوا في هذا، فأين التشابُه وقد أخبرَهم عن سِنِّها ولونها؟! ولكن هذا من عنادهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى هذه البقرة، وسنعرفها في النهاية. وقيل: مهتدون إلى القاتل. وقيل: إلى الحِكْمة من وراءِ ذَبْحِ البقرة.

---

(١) رواه أحمد (٩٤٠٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٦١).

قال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أخذ بنو إسرائيل بقرةً لأجزأت عنهم، ولولا قولُهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لَمَا وجدوها»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بني إسرائيل لـمَّا زادوا نبيَّهم أذًى وتعنُّتًا؛ زادَهم الله تضييقًا وتشديدًا، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ السؤال عن الأمر الواضح الذي لا يحتاج إلى سؤالٍ، هو عَبَثٌ وتنطُّعٌ.

وفيها: أنَّ الاستثناءَ بذِكر المشيئة يُعِيُن على تحقيق المقصود.

وفيها: أنَّ الهدايةَ لا تحْصُلُ إلَّا بمشيئة الله.

وفي الآية: مثالٌ لِذِكْرِ معاناة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيلَ، وما لقيَه منهم من كثرةِ سؤالِهم واختلافِهم عليه، وهذا هو الاستِفهام الرابع لهم في هذه القِصَّة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾:

ولـمَّا زاد بنو إسرائيل نبيَّهم أذًى وتعنُّتًا؛ زادهم الله تضييقًا وتشديدًا؛ فـ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: ليست مُذَلَّلَةً عند أهلها بالعمل في إثارة الأرضِ، وتقليبها للزراعة. ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾: غيرَ مُعَدَّةٍ للسقي بالسواقي، وحَمْلِ الماء لسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٞ﴾: سليمةٌ من جميع العيوب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: لم يخالط لونَها الأصفرَ الفاقعَ لونٌ آخرُ، لا بياض، ولا سواد؛ بل هي صافيةٌ خالصةٌ، لا عيبَ فيها.

﴿قَالُواْ﴾ -عندما سمعوا هذه النعوت والتفصيلات-: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ في إجابتك هذه الأخيرة ﴿جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ والوَصفِ التامِّ، الذي يُوصِلُنا إلى البقرة المطلوبة.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٠٤).

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾: وقد كادوا ألَّا يذبحوها، وأوشكوا على المعصية والامتناع وعدم التنفيذ. فمع كلِّ البيانِ السابق والأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلَّا بعد الجَهْد!

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذمُّ بني إسرائيل؛ لسوء قَصْدِهم؛ فلم يكونوا يريدون ذبحها في الحقيقة؛ ولذلك تعنَّتوا وكَثُرَت أسئلتُهم؛ لأنَّهم كانوا يريدون الامتناع.

وذَمُّهم؛ لعدم مطاوعتهم نبيَّهم، واستعصائِهم عليه، ومراوغتِهم، وتسويفِهم، فلم يُطيعوه اختيارًا ورضًا، وإذا فعلوا فلا يكون إلَّا بعد رأيٍ وجَهْدٍ، فيُحمَلون على فِعْلِ الأمر قَصْرًا، فَهُم بطيئون في طاعة الله، سريعون في معصيته سبحانه.

وهذا أَولى من أن يقال: إنَّهم ما كادوا يذبحونها لأجل غلاء ثمنها، أو خشية الفضيحة بمعرفة القاتل.

وفي الآية: دليلٌ لِمن ذهب من العلماء إلى صِحَّة بيع السَّلَمِ في الحيوان، وهو تقديمُ الثمنَ كاملًا في مجلسِ العقدِ، لحيوانٍ يمكن وصفه وصفًا منضبطًا، يكون في ذِمَّةِ البائع، يُسَلِّمه في وقتٍ محدَّدٍ، فالآية تَدُلُّ على أنَّه يمكن وصفُ الحيوان وضبطُ صفاته وتعيينُه[(١)].

وفيها: أنَّ الدِّينَ الذي يُكَلِّفُ اللهُ به عبادَه يُسْرٌ، ولكنَّ عبادَه هم الذين يتكلَّفون ويتنطَّعون ويتشدَّدون.

وفيها: درسٌ للدُّعاةِ إلى الله؛ للتعرُّفِ على نفسيَّاتِ العُصاةِ المراوغين، وطرائقِهم في التهرُّبِ من القيام بالتكاليف الشرعيَّة.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يُنَفِّذَ أوامرَ الله عن رضا وطواعية، وإقبالِ نفسٍ، وأمَّا المنافِقُ: فإنه إذا رضخ فعلى مَضَضٍ وَكُرْهٍ؛ كما قال تعالى فيهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) انظر: الذخيرة للقرافي (٥/ ٢٤٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٠١).

وفيها: جَهْلُ بني إسرائيل، وسوءُ أدبهم مع نبيِّهم، عندما قالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فكأنَّه ما جاءهم بالبيان الشافي إلَّا الآنَ! مع أنَّه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد جاءهم بالبيان الشافي من البداية.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى سببَ الأمر بذبح البقرة. وهو أول القِصَّة؛ لأنَّ ترتيب أحداثها: أنهم وجدوا قتيلًا بينهم، لا يَدْرون مَن قَتَلَهُ، فأتَوا نبي الله موسى؛ ليكشفَ لهم القاتل، فأمرَهم بذبح البقرة؛ ليُضرَب القتيل ببعضها؛ فيَحيا بأمر الله؛ ليُخبِرَ عن قاتِله.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّة قَتْل بعض أسلافكم نفسًا محرَّمة ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾: تدافعتُم، واختلفتُم، واختصمتُم ﴿فِيهَا﴾: في شأن قتْلِها، وتحديد القاتل.

ولـمَّا تخاصَموا فيها؛ صار كلُّ واحد من الخُصَماء يدافع الآخر، فيدفع عن نفسه، ويرمي التهمة على غيره، ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾: مُظْهِر الحقيقة، ومُبيِّن مَن هو القاتل، لا محالة. ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: تُخْفُونه، وتَسترونه من تعيين القاتل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظُلْم بني إسرائيل بكَتم الحقائق.

وفيها: أنَّ تبادل الاتهامات يؤدِّي إلى الفِتنة، وتبيين الحقيقة يَقْطَع ذلك.

وفيها: أنَّ الله قادر على إظهار المكنونات، وكشف المخفيَّات.

قال المسيَّب بن رافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عمل رجلٌ حسنة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وما عمل رجلٌ سيِّئة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وتصديق ذلك: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾»[1].

وقد قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٤٤).

وفيها: إحاطة عِلْم الله بما يُظْهِره العِباد وما يُخفونَه على حدٍّ سواء، وفي ذلك التحذير من المعاصي الظاهرة والخفيَّة كلِّها.

وفيها: أهميَّة البحث والتحرِّي في الجرائم الغامضة لكشف الحقيقة؛ حتى ترتفع الفِتن، ولا يتفاقم الأمر.

وفيها: أنَّ التوصُّل إلى كشف أسرار الجرائم نِعمة من الله.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى فائدة ذبح البقرة، وعلاقته بكشف القاتل؛ فقال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ أي: اضربوا هذا القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: بجزء من أجزاء البقرة.

ولم يُبيِّن لنا ما هو: هل كان الرأس، أو الفخذ، أو اللِّسان، أو غير ذلك؟ ولو كان في تعيينه فائدة لنا لبيَّنه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه كريم، لا يُمسِك عن عباده ما يستفيدون منه.

ثم إنَّ المعجِزة حاصلة بإحياء القتيل عند ضربه بأيِّ جزء من أجزاء البقرة، وهذا يكفي للاعتبار.

وفي الكلام حذْف يُفهم من سياق الآية، تقديره: فضربوه ببعضها، فقام القتيل حيًّا بإذن الله، فأخبر عن قاتِله.

وقيل: إنه عاد وسقط ميِّتًا بعدها.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا هذا القتيل؛ فنبَّه تعالى على قُدرته على البَعْث، بما شاهده بنو إسرائيل من إحياء ذلك القتيل، وهو قادر على بَعْث الأموات بكلمة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُظهر لكم الدلائل البيِّنات على قُدرته؛ لأنَّ مَن أحيا نفسًا واحدة بعد موتها، قادرٌ على إحياء جميع النفوس.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لأجل أن تعقلوا عن الله آياته الكونيَّة والشرعيَّة، وتعلموا قُدرته سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تربية النفس على عدمِ التطلُّع والاشتغالِ بمعرفة ما لا فائدة لها من معرفته.

وفيها: أنَّ من التكلُّف والتعمُّق: البحث عن المسكوت عنه، والاستقصاء عن الأشياء الغامضة، وعمَّا لا فائدة من ورائه، وعمَّا لم نؤمَر به، كالسؤال والبحث عن اسم كلب أصحاف الكهف، ولونه، واسم الغلام الذي قتلَه الخَضِر، وخشب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: من أيِّ شجر هو، وكم طول السفينة، وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك ممَّا لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على قولٍ فيه.

يقول العلَّامة الأمين الشنقيطي: «ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبيِّنها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته، ولا فائدة فيه»[(١)].

وفي الحديث: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قالَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا[(٢)].

وفيها: حُجَّة على مُنكِري البَعْث.

وفيها: نقْل لمن حضر القِصَّة من بني إسرائيل من مرتبة عِلْم اليقين إلى مرتبة عين اليقين؛ فإنَّهم وإن كانوا يُقِرُّون بإحياء الموتى، إلَّا أنَّه أراد أن يُرِيَهم ذلك عِيانًا.

وفيها: التركيز على المعاني والمقاصد الأساسيَّة للقِصَّة، وعدم الاشتغال بتتبُّع الجزئيَّات التي تَصرف عن المقصود، وتُوقِع في التكلُّف، والكلام فيما لا دليل عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي إحياء القتيل بهذه الطريقة عِدَّة فوائد -وكان بالإمكان أن يحيا بأمر الله، دون حاجة إلى ذبح البقرة- فمنها:

أولًا: أنَّ ضرْب ميِّت بميِّت ليحيا بأمر الله؛ أبلغ في بيان قُدرته تعالى، وتوجيه الأمر لبني إسرائيل بذلك أبلغ في نفوسهم، وأقوى في إقامة الحُجَّة عليهم.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

ثانيًا: التقرُّب إلى الله بذبح القُربان؛ لزيادة الطاعة، والتوسُّل إليه بها.

ثالثًا: إزالة ما عَلِق في نفوس القوم من تقديس العِجْل الذي عبدوه.

رابعًا: في ذلك فائدة لأصحاب البقرة، إذا كانوا فقراء أو يتامى؛ بما حصل لهم من الغنى بشراء البقرة منهم؛ فقد ذُكر أنهم اشتروها منهم بمال كثير.

وفيها: بَركة تنفيذ أمر الله، ولو لم يُدْرِك العقلُ الحِكْمةَ منه؛ وذلك بحصول الفوائد المتعدِّدة، وظهور الأوامر الباهرة، وزيادة الإيمان، ورؤية العجائب.

وفيها: العمل بالأسباب المؤدِّية إلى ظهور الحقائق، وكشْف الجرائم.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

وعلى الرُّغم من ظهور آيات الله العظيمة، والحِكَم الباهرة، والمعجِزات الخارقة؛ فإنَّ بني إسرائيل لم تَلِن قُلُوبُهم، ولم تستقِم نفوسهم؛ فقال تعالى موبِّخًا لهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: صارت غليظة صلبة، لا تتأثر، ولا تُذعِن، ولا تقبل المواعظ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: ممَّا منَّ الله به عليكم من الآيات الباهرة في قِصَّة البقرة، وإحياء القتيل، وكذلك بعد نقْضِ الميثاق، وطول الأمد.

﴿فَهِىَ﴾ أي: قُلُوبكم ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾: مثلها في الشدَّة والقسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: أَزْيد قساوة وصلابة من الحجارة، فإن لم تكن أشدَّ منها، فهي مثلها، لا أقلَّ من ذلك. أو: إنَّ قُلُوبكم على الحالَين. أو: بعضكم قَلْبه كالحجارة، وبعضكم قَلْبه أشدُّ من الحجارة.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الحجارة خيرٌ من قُلُوب هؤلاء في الفائدة والخشية؛ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ في منفعته ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: يتدفَّق منه الماء بكثرة وسَعَة، فيسيل أنهارًا ينتفع بها الناس، فيشربون، ويَسقون زروعهم ودوابَّهم.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾: يتفتَّح، ويتشقَّق بالماء طولًا أو عرضًا، ولكن دون الأول،

﴿فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ أي: يَسيل، ولكن دون الأول، كالآبار والعيون والينابيع، ويُفيد الناسَ بعذوبة مائه.

﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾: ينزل ويتردَّى بسبَبِ خشية الله، وانقيادًا لأمره. و(الخشية): هي خوف مع عِلْم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: نفى عَزَّوَجَلَّ الغفلة عن نفسه؛ لكمال عِلْمه وإحاطته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال التشبيه لتقريب المعنى؛ فشبَّه قُلُوب بني إسرائيل في قسوتها وعدم تأثُّرها بالمواعظ، ورفضها للحقِّ، بالحجارة في صلابتها وغِلَظها وشِدَّتها.

وفيها: عَقد المقارنة بينَ القُلُوب القاسية والحجارة، وقُلُوب اليهود لا تلين ولا تخشع، ولا تتحرَّك من خوف الله، والحجارة تنزاح عن أماكنها من خشية الله وتتحرَّك، وتنقاد لأمره سبحانه!

وفيها: أنَّ الجمادات تنفعل وتتأثَّر بقُدرة الله، فتكون فيها الخشية كهذه الحجارة، ولو نزل القرآنُ على جبلٍ لظهر عليه الخشوع وتصدَّع من خشية الله، وهذه السماوات السبع والأرض وما فيها تسبِّح بحمد الله، وإن لم يفقه الناس ذلك.

وكان الإباء والإشفاق من السماوات والأرض والجبال عند عرض الأمانة عليها، وكان القول الصحيح: «أتينا طائعين» إجابةَ السماوات والأرض لنداء ربِّ العالمين.

والجمادات تسجُد لله، وتكون فيها المحبَّة لأولياء الله -كجبل أُحُد- ويكون فيها الحنين لفقد الذِّكر -كما حَصَلَ للجِذْع الذي كان يخطب عنده النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- وأنطق الله بعض الحجارة بالسلام على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وينطق الحَجَر الأسود يوم القيامة، فيشهد لمن استلمه بحقّ، والله يجعل ما يشاء من الصِّفات فيما يشاء من المخلوقات، وهو على كلِّ شيء قدير.

وفيها من بلاغة القرآن: تشبيه المعقول بالمحسوس.

وفي الآية: تهديد الغافلين؛ بأنَّه تعالى عليمٌ بما يفعلون، ومعنى ذلك: أنَّه سيُجازيهم على أفعالهم.

وفيها: أنَّ الحجارة أقصى شيء يُضرَب به المَثل في القسوة، فهي أقسى من الحديد الذي ينصهِر بالنَّار، والحَجَر يتفتَّت ولا ينصهِر.

وفيها: أنَّ إعراض القَلْب بعد رؤية الآيات، أسوأ من إعراضه قبل رؤيتها.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى عِناد اليهود، وعدمَ انقيادهم لأمره عَزَّوَجَلَّ، وتعنُّتهم مع أنبيائهم الذين مضَوا؛ أردف ذلك بذِكْر قبائح أخرى ارتكبوها مع رسوله محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، وخاطب تعالى الصَّحابة، يُيئِّسُهم من إيمان اليهود؛ فقال:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنت وأصحابك، وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شديد الحرص على هداية أهل الكتاب، فقصَّ الله عليه ما يُسلِّيه في إعراضهم عنه، وقلَّة قبولهم واستجابتهم. و(الطمع): هو الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة.

والاستِفهام في قوله ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إنكاريّ واستبعاديّ.

﴿أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾: يُصدِّقوكم، ويُقرُّوا لكم، وينقادوا معكم.

والمعنى: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، ثم تطمعون في إيمانهم؟!

وذَكَرَ الله تعالى بعض أحوال اليهود؛ فقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة، وهم علماؤهم، وأحبارهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ وهي: التوراة التي سمعوها من نبيِّهم موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ويتلونها فيما بينهم.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: يغيِّرونه، ويبدِّلونه، ويكتُمونه، وهذا يشمل تحريف اللفظ: بالزيادة والنقصان، وتحريف المعنى: بتفسيره على غير مراد الله.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: فَهِموه وضبطوه، ولم يبقَ لهم شُبهة فيه، ولا إشكال.

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّهم يفعلون الباطل، ويقولون الكَذِب، ويكتُمون الحقَّ، ويعلمون ما في تحريف الكلام من العُقوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَطْع أطماع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن إيمان اليهود، وكأنَّه قال لهم: لا تطمعوا فيما لا مَطْمَع لكم فيه؛ فإنَّ هؤلاء اليهود الذين معكم لن يُسْلِموا.

وفيها: بيان ما يَعْسُر على الدُّعاة؛ لئلَّا يُنفقوا فيه الجهود والأوقات، فيُصابوا باليأس والإحباط.

وفيها: أنَّ اليهود إذا كانوا يتعمَّدون تحريف كتابهم، فقيامهم بتحريف كُتب الأديان الأخرى من باب أَولى؛ فكم حاولوا تحريف القرآن، وهم المسئولون عن أكثر التحريف الذي حصل للإنجيل.

وفيها: أنَّ المعصية إذا ارتُكِبَت عن عِلْم وفَهْم؛ فإنَّها أخطر وأسوأ من المعصية التي تُرتكَب عن جهل.

وفيها: حِرْص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على هداية الخَلْق وأهل الكتاب -ومنهم اليهود-؛ ولذلك بيَّن الله لهم أنَّهم لا يستجيبون ولا يؤمنون؛ لقطع أطماعِهم في إيمانهم.

وفيها: جريمة أحبار اليهود الذين كانوا يحُرِّفون الكتاب، ويأخذون الرِّشْوَة، ويأكلون المال بالباطل.

وفيها: تسلية الدُّعاة بما يُذهِب عنهم الأسى والأحزان.

وفيها: أنَّ صاحب العِلْم لا ينفعه عِلْمه، ولا يمنعه من المحرَّمات، إذا لم يُؤتَ إيمانًا وزكاءَ نَفْسٍ.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾:

ثم قال تعالى عن مَكْر اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إذا قابلوا المؤمنين

واجتمعوا بهم؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال منافِقو اليهود بألسِنَتهم ﴿ءَامَنَّا﴾: دخلنا في الإيمان كما آمنتم، وصِرْنا مسلمين مثلكم. وهذا ادِّعاء كاذِب وخديعة.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾: رجع الذين نافقوا من اليهود إلى الذين لم يُنافِقوا منهم، وانفردَ الأتباع بأحبارهم ورؤسائهم؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لبعضهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ الاستِفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف تحدِّثون المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: بما بيَّنه لكم في التوراة من نبوَّة محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِفته، وبما قضى على أسلافكم من العذاب والعقوبات؛ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، فيلوم بعض اليهود بعضًا على كشف الحقِّ الموجود في التوراة للمسلمين؛ لا يستعمله المسلمون في مُخاصمة اليهود، وإقامة الحُجَّة عليهم، وإفحامهم؛ فيكونوا أولى بالله منهم، وينتصروا عليهم في المُخاصَمة عند الله يوم القيامة.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أين عقولكم، وأنتم تكشفون أمورًا ستُعين المسلمين عليكم؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ في اليهود منافِقين، وأنَّهم يتجسَّسون على المسلمين، وأنَّهم يَحذرون من اطِّلاع المسلمين على شيء يستخدمونه حُجَّة على اليهود، وأنَّهم يتواصَون بكَتْم الحقيقة.

وفيها: تآمُر اليهود على المسلمين في مجالسهم الخاصَّة، وعقد الاجتماعات لذلك.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود يُحاسِب بعضهم بعضًا على طريقتهم مع المسلمين، فإنَّ الدُّعاة إلى الله عليهم أن يتناقشوا فيما بينهم، ويُراجِع بعضهم بعضًا في طريقتهم مع المدعُوِّين.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود لديهم مرجعيَّة، برجوعهم إلى كبرائهم وأحبارهم؛ فالمسلمون أَولى بأن يرجعوا إلى علمائهم ودُعاتهم؛ للاستفادة منهم، والتشاور معهم.

وفيها: أنَّ البيان من الله يُسَمَّى فتحًا؛ لأنَّه قبل أن يُبيَّن كان مُغلقًا على الناس.

وفيها: تهرُّب اليهود من الحقيقة، وحَذَرُهم من استعمال أقوالهم في إدانتهم، وحِرْصُهم على عدم الإدلاء بأيِّ تصريح يُفيد المسلمين، وتوبيخ بعضِهم بعضًا لو حصل ذلك.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٧﴾:

ثم وعظ الله هؤلاء اليهود، وذكَّرهم بأنَّه يعلم ما يُظهِرونه وما يكتُمونه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: ما يُخفونه من النِّفاق، والكُفر بمحمَّد ﷺ، والكَيد للمؤمنين. وهذا يشمل ما يُسرُّه الواحد منهم في نفسه، وما يُسرُّه لأصحابه المقرَّبين منه.

والهمزة في قوله ﴿أَوَلَا﴾ للاستِفهام. وهو استِفهامٌ إنكاري، يتضمَّن توبيخ هؤلاء اليهود. وهو أيضًا استِفهامٌ تقريري؛ لحمل المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأنَّ الله يعلم السِّرَّ والعلَن.

والمعنى: إذا كان عِلْم الله محيطًا بالظاهر والباطن، فكيف يُنافِق هؤلاء، فَيُظهِرون شيئًا، ويُبطِنون ضدَّه، ثم يُؤنِّب بعضُهم بعضًا على كَشْف أشياء من التوراة؟!

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: يُظهرونه لأصحاب النبي ﷺ، من الموافقة والإيمان في الظاهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سَعَة عِلْم الله تعالى، وإحاطته بعالم السِّر والعلانية.

وفيها: تهديد المنافِقين، وأنَّ المنافِق بنفاقه يكون قد نزَّل نفسه منزلة الجاهل، فلو كان عالمًا باطِّلاع الله عليه ما نافق.

وفيها: لُطف الله بالصَّحابة والمؤمنين؛ فإنَّه أطلعَهم على ما يفعله عدوُّهم في الخفاء.

والمؤمنون في هذا الزمان يقيسون ما يفعله أعداء اليوم على ما فعله أعداء الأمس، فقد تشابهت قُلُوبهم، ويعرفون عن أهل النِّفاق ما تزِلُّ به ألسِنَتُهم، وما يكون من لحن قولِهم، ويكونون على حذر من هؤلاء، ويستعينون بالله عليهم.

وفيها: ذَمُّ الذين نافقوا من عامَّة اليهود، والذين لم يُنافِقوا من خاصَّتهم وأحبارهم؛ فالذي أسرَّه منافِقوهم: الكُفر، والذي أعلنوه قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، والذي أسرَّه وكتمَه أحبارُهم وخاصَّتُهم: هو صِفة محمَّد ﷺ ونبوَّته، والذي أعلنوه: جَحْدُهم بذلك، وتكذيبُهم به.

وفي تقديم لفظة ﴿يُسِرُّونَ﴾ على لفظة ﴿يُعْلِنُونَ﴾ في الآية: إيذان بفضيحتهم، وكَشْف أسرارهم.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى بعضَ جرائم كُبَرائهم وأحبارهم؛ قال عن عامَّتهم وجَهَلَتهم: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود، رهطٌ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يعرفون القراءة والكتابة.

و(الأُمِّيُّ): منسوب إلى أُمِّه؛ لأنَّ هذا في النِّساء أكثر من الرِّجال، وكذلك كانت حاله حين ولادتها له، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: لا يدرون ما في التوراة، وإذا قرأوا لا يفهَمون المعنى، ومَن كان كذلك كان بمثابة الأُمِّيّ.

وهؤلاء ليس عندهم إلَّا التقليد والأماني الكاذِبة؛ كما قال الله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وهو: الكلام الذي لا أساس له، والادِّعاء الكاذِب، كقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنَّ الله لا يعذِّبهم بذُنوبهم، وأنَّهم إذا دخلوا النَّار فلن يمكثوا إلَّا أيَّاما معدودات!

وقد ردَّ الله كلَّ ذلك بقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهؤلاء حظُّهم من كتابهم السماع، دون القراءة والفهم: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ غير الحقِّ، ويكذِبون.

وهذه الأماني التي يتمنَّاها هؤلاء الأميُّون قد تكون مِن تلقاء أنفُسِهم، وقد تكون من وحي أحبارِهم وعلمائهم، كما يَعِدونَهم بالمغفرة والعفو والجنَّة؛ ليبقوا ملتفِّين حولهم، سائرين خلفهم؛ ولذلك يَكثر في كلام هؤلاء الرؤساء والمضلِّين ذكرُ الأجور الخياليَّة لمن سلك طريقهم، واعتنقَ مذهبهم، وعمل به، ويفعلون ذلك ليبقوا منتفِعين من أتباعهم، بالمال والجاه والرياسة عليهم.

بينما علماء أهل السُّنَّة والتوحيد لا يُمَنُّون مَن حضر عندهم وجلس إليهم بالأمانيِّ

الكاذِبـة؛ وإنَّما يُعَلِّمونهم العيش بينَ الخوف والرجاء، وعدم الأمن من مكر الله، ولا اليأس من رحمته، ولا يقطعون لهم بالمغفرة والجنَّة، إنما يُعَلِّمونهم سُبُل تحصيلها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذَمُّ مَن لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله.

وفيها: أنَّ مَن لا يفهم المعنى فليس عنده إلَّا الظن، وأنَّ الظنَّ لا يُغنِي من الحقِّ شيئًا، والظنّ لا يُسَمَّى عِلْمًا.

وفيها: ذَمُّ الذين يُفَسِّرون الكتاب والسُّنَّة بآرائهم الشخصيَّة، ويخوضون في الأحكام الشرعيَّة دون الرُّجوعِ إلى العلماء، والأَخْذِ عنهم، ودون معرفةِ قواعد الدِّين، ودراسةِ ما يَلزم من علوم الآلة، ونحو ذلك.

وكلام مثل هؤلاء لا يعدو أن يكون ظنًّا، ولا يُطلَق عليه عِلْمٌ بحال.

ويُستفاد من ذلك: أنَّ القراءة والكتابة إذا لم يُصاحِبها فَهم وعقل ومعرفة للمعنى واستيعاب له، لا تكون مدحًا، ولذا نجد بعضَ مَن لا يقرأ ولا يكتب ربما يكون فَهمُه وعقلُه أحسنَ من غيره، ممَّن يقرأ ويكتب.

ولذا، فمكافحة الأميَّة لا تكون فقط بتعليم القراءة والكتابة؛ وإنَّما بتعليم المعاني وتفهيمها.

وفي الآية: أن المقلِّد ليس بعالم، قال ابن عبد البرّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقلِّد لا عِلْمَ له، ولم يختلفوا في ذلك»[1].

وفيها: أنَّ تعلُّم القراءة والكتابة من أهم الطُّرُق لنيل العِلْم، ويؤخَذ أيضًا بالسماع والمشافَهة.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: عَرْضٌ لأقسام اليهود، وهذا مفيدٌ في فَهْم القوم والتعامل معهم؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ ذكر علماءَهم وعوامَّهم، ومُنافقيهم ومَن لم يُنافِق منهم، ولذلك تختلف

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٩٢).

طريقة التعامل والأحكام مع كلِّ طائفة؛ فنفرِّق في المبتدِعة -مثلًا- بينَ أئمَّتهم وعوامِّهم، وبين الدَّاعية إلى البِدعة وغير الدَّاعية.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

ثم تهَدَّد الله الكَفَرة من أهل الكتاب -وهم اليهود- الذين حرَّفوا كتاب الله الذي نزَّله عليهم، وغيَّروا صِفة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكتوبة عندهم؛ ابتغاءَ عرضٍ من الدُّنيا، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَوَيْلٌ﴾: كلمة وعيد، ودعاء بالهلاك. وقيل: وادٍ في جهنم، أو: صديد، يسيل في أصل جهنم.

﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وهم: أحبار اليهود، الذين حرَّفوا التوراة، واختلَقوا مِن عندِ أنفُسِهم كلامًا موافقًا لهواهم، وكتبوه بأيديهم، وقدَّموه للناس على أنَّه كتاب الله.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لأتباعهم الجهلة، ومُشركي العرَب: ﴿هَٰذَا﴾ المُحرَّف المُبدَّل ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أنزلَه الله؛ ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ ليأخذوا مُقابِلًا عليه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عِوَضا زائلًا من الدُّنيا، من المال، أو الجاه.

وذلك أنَّ رؤساء اليهود لـمَّا قَدِمَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرَفوا نبوَّته؛ خافوا من زوالِ رياستهم، وانقطاعِ ما يأخذونه من أتباعهم من الأموال، إذا هُم اتَّبعوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعمِدوا إلى صِفته في التوراة فغيَّروها؛ حَسَدًا وبغيًا.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللهُ: «عمِدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نَعْت محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحرَّفوه عن مواضعه، يَبْتَغون بذلك عَرَضًا من عَرَض الدُّنيا»[1].

ثم أعاد تعالى تهديدَهم بالعذاب الشديد؛ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ وذلك لثبوت العُقوبة العظيمة عليهم يوم القيامة ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسببِ ما كتبته أيديهم من التحريف.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧١).

﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ أي: سيحصل لهم العذاب الشديد، من أجل أخذِهم الحرام، وكسبِهم له، وكذلك اكتسابهم السيِّئات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الوَعيد بالعُقوبة، والعذاب الشديد، والهلاك، والفضيحة، والحَسْرة، لمن بدَّل كلام الله، أو كـذبَ عـلى الناس، بتقديمه المُحرَّف لهـم على أنَّه كلام الله؛ ليأخذ عـلى ذلك نصيبًا من الدُّنيا.

ولذلـك كرَّر ذِكر (الويل) ثلاث مرَّات؛ ليُفيد استِحقاق العـذاب لمن فعل أيَّ فِعْل من الثلاث؛ وهي: تحريف الكتاب، والكذِب على الله، وأَخْذ الثمن على ذلك.

وفيهـا: أنَّه مهـما حَصَلَ لصاحب الباطل مـن العِوَض الدُّنيويّ -من مـال أوجاه- فهو قليـل، حتى لو أخذ الدُّنيا كلَّها عِوَضًـا؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]؛ أي: بالنسبة للآخرة.

وفيها: أنَّ حُبَّ الدُّنيا يحمل على الجرائم العظيمة، كتحريف كلام الله، وخِداع الناس به.

وفيهـا: أنَّ الجزاء من جِنس العمـل، وأنَّ العُقوبة نتيجة للمعصية، كما يُفيده قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾.

وفيهـا: أنَّ الرُّؤسـاء الدِّينيِّـين لأهـل الكتـاب لا يُؤتَمنون عـلى ما أنزل الله؛ فقـد حرَّفوه وبدَّلوه؛ ولذلك لا يجوز سـؤالهم بقصد الاستفادة ممَّا عندهم، بل سؤالهم على وَجْه الإنكار عليهم.

كما قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا مَعْشَرَ المُسْـلِمِينَ! كَيْفَ تَسْـأَلُونَ أَهْلَ الكِتابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْـلَ الكِتـابِ بَدَّلُوا كِتابَ الله وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِـمُ الكِتابَ، وَقالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْـتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلاَ يَنْهاكُمْ ما جاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مَسْـأَلَتِهِمْ؟ لاَ واللهِ ما رَأَيْنا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ»[١].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٦٣).

وفيها: أنَّ المُبتدِع في دين الله يشمله هذا الوَعيد.

وفيها: عُقوبة العالم المعانِد.

وفيها: أنَّ أخذ المال على تحريف الدِّين، أعظم إثمًا من السَّرِقة والغَصْب؛ لأنَّه حرامٌ من جهة أنَّه كَسْب محرَّم، ومن جهة مخادعة الناس والتلبيس عليهم وتضليلهم.

وأنَّ أخْذ المال بغير حقٍّ باسم الدِّين، أو لأجل المكانة والمرجعيَّة الدِّينيَّة هو من أعظم الباطل.

وفيها: أنَّ مَن عملَ عملًا محرَّمًا ترتَّب عليه كَسْب دُنيويّ؛ فإنَّ صاحبه يأثم على عمله، ويأثم على ما أخذه من الكَسْب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى بعض ادِّعاءات اليهود من الأمانيّ الكاذِبة؛ فقال:

﴿وَقَالُوا۟﴾ هؤلاء المحرِّفون من اليهود: **﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾** لن تصيبنا نار الآخرة **﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾** قلائل محصورة، قيل: بعدد أيَّام عبادة العِجْل.

وقيل: إنَّ اليهود كانت تقول: مدَّة الدُّنيا سبعة آلاف سنة، والعذاب يوم واحد في النَّار على كلِّ ألف سنة من أيَّام الدُّنيا، فإنَّما هي سبعة أيَّام، ثم ينقطع العذاب، كما رُوي عن ابن عبَّاس(١).

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرَّدِّ عليهم: **﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾**، وهو استِفهام تقريريّ؛ لإلجائهم إلى الاعتراف بأصدق الأمرَين.

و(العهد): هو الميثاق والالتزام المؤكَّد، و(الإخلاف): نقض العهد.

والمعنى: هل لكم مَوْثِق وأمان عند الله ألَّا يعذبكم إلَّا هذه الأيَّام المعدودة، بحيث لا يُخلِف وعده لكم بذلك؟!

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧٧)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٥).

وحيث إنَّ هذا ادِّعاء كاذِب، وأنَّهم ليس لهم عند الله أمان وعهد فيُنجِزه لهم، وحيث إنَّ هذا كذب وافتراء على الله؛ قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل تكذبون عليه.

ولذلك جاء في «الصحيح»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لليهود لـمَّا فُتحت خيْبَر: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَأُوا فِيهَا، والله، لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود يُقِرُّون بالآخرة، وأنَّ فيها النَّار، ولكن إقرارهم لا ينفعهم عند الله؛ لتكذيبهم بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: حُسن مجادلة القرآن لليهود.

وفيها: تحريم القول على الله بلا عِلْم، والقول على الله بلا عِلْم من شأن اليهود، فإنَّهم يفعلونه كِبْرًا أو جهلًا.

وفيها: أنَّ الله لا يُخلِف الميعاد، وهذا يتضمَّن صفتَين عظيمتَين؛ وهما: الصِّدق، والقُدرة.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾:

ولـمَّا ادَّعى اليهود ذلك الادِّعاء الباطل، من أنَّهم لن يُخلَّدوا في النَّار، وأنَّ عذابهم سيكون أيَّامًا معدودة؛ ردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا إثبات لِما بعد النفي؛ أي: بلى، ستمسُّكم النَّار، وتخلَّدون فيها أبدًا.

ثم بيَّن تعالى مَن الذي ستمسُّه النَّار، ومَن الذي لا تمسُّه النَّار؛ فقال:

﴿مَن كَسَبَ﴾ عمل وارتكب ﴿سَيِّئَةً﴾ المقصود بها هنا: الشِّرك أو الكُفر، كما جاء

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

عـن ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من أئمَّة التفسـير[١]؛ لأنَّ مَن وقع في ذلك يسـتوجب الخلود في النَّار.

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ﴾: صـارت كالحائط والسُّـور عليه، واكتنفته من كل جانب، واسـتولَت عليه في قَلْبه ولسانه ويده. و(الإحاطة): هي الشمول.

﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ (الخطيئة) هنا: ما دون الكُفر، من الكبائر الموجبة لدخول النَّار.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: يُلازِمونها وتُلازِمهم، كما يُلازِم الصاحب صاحبَه ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ماكثون فيها دائمًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الثـواب والعقاب لا يترتَّب على الأشـخاص بحَسَـب النَّسـب أو الانتـماء؛ وإنَّما هو بحَسَب العمل.

وفيهـا: أنَّ مَن ارتكب سـيِّئة دون الشِّرك ولم تُحط به خطيئتـه؛ فإنَّه لا يخلَّد في النَّار، وإنَّما يكون تحت مشيئة الله، إن شاء عذَّبه على سيِّئاته، وإن شاء عفا عنه.

وفيهـا: ردٌّ على اليهود الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾؛ فبيَّن لهم أنَّهم إذا بَقوا على سيِّئة الشِّرك فلن يخرجوا منها أبدًا.

وفيها: أنَّ مَن أحاطت به خطيئته ولم يكن له حسنة، فإنَّه يكون ممَّن لا يخرجون من النَّار.

وفيها: أنَّ بعض مرتكبي الخطايا تُوثِقهم خطاياهم، وتغشَـى قُلُوبهم، وتحيط بهم إحاطة العدو، وتسُـدُّ عليهم مَسـالِك النجاة، ويموتون مُصِرِّين عليها. فإنْ كانت خطاياهم شِركًا أو كُفـرًا؛ فخلودهـم دائـم في النَّـار، وإن كانت دون الـشِّرك فيكون خلودهـم في النَّار ـإن دخلوهاـ بمعنى: الإقامة واللُّبث الطويل، ثم يخرجون منها يومًا من الأيَّام.

وفي كلَّام أئمَّة التفسير -كابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره- في تفسير (السيِّئة) بالشِّرك: ردٌّ على الخوارج الذين احتجُّوا بهذه الآية على خلود صاحب الكبيرة في النَّار.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٨٠)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥).

وفي الآية: الرَّدُّ على المزاعم الباطلة للطوائف الضالَّة، وعدم السكوت عن ذلك؛ ليتبيَّن الحقُّ، ولا يغترَّ أهلُ الباطل بباطلهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾:

ثم قابل تعالى ذِكر أصحاب النَّار بذِكر أصحاب الجنَّة؛ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورُسُله، وقامت أركان الإيمان في قُلوبهم، فأدَّى إيمانهم وتصديقهم إلى الإذعان والتسليم والانقياد.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ العمل يُصدِّق القول، ولا يكون العمل صالحًا إلَّا بأمرَين: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: مُلازِموها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا بُدَّ من العمل الصالح لدخول الجنَّة، وأنَّ العمل وحدَه لا يكفي حتى يكون صادرًا عن إيمان.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾:

ثم بيَّن تعالى ما هي الأعمال الصالحة التي أعلَم بها بني إسرائيل؛ ليدخلوا الجنَّة؛ فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، و(الميثاق): هو العهد المؤكَّد باليمين، فهو يوثِق المُعَاهِد كما توثَق الأيدي والأرجل بالحبال؛ وذلك للزومه.

و(الميثاق) هنا: ميثاق النبوَّة والرسالة؛ وذلك تأكيدًا لعهد الخليقة والفِطرة الذي أخذه الله على بني آدم في عالم الذرِّ، وفطَرهم عليه.

ثـم فصَّل تعالى هذا الميثاق؛ فقـال تعالى: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مخلِصين له، لا تُشرِكون به شيئًا، و(العِبادة): اسم يجمع كمال الحبّ لله تعالى، مع كمال الذلّ[1].

ولـمَّا ذكرَ تعالى حقَّه؛ أتبعَه بذِكر حقوق عباده، وأولها: حقُّ الوالدَين، فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدَين، وهذا يشمل جميع طُرُق الإحسان، من القول، والفعل، والمال، والجاه، وكلّ ما يُسَمَّى إحسانًا.

فعَطْفُه تعالى حقَّ الوالدَين على حقِّه؛ يُعظِّم حقَّهما؛ فهما سبَب وجود الولد، ولهما الفَضْل عليه في التربية والعِناية والإنفاق.

ثم أتبعَ ذلك بالأمر بصِّلة الرحم وبقيَّة الأقارب؛ فقال: ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إليهم، وهذا يشمل القرابة من جهة الأب ومن جهة الأم، ويقدَّمون في البِرّ بحَسَب درجاتهم في القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: أحسنوا إليهم. و(اليتيم) من الآدميِّين: مَن فقد أباه قبل بلوغه، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»[2].

والإحسـان إليـه يكون بـ: كفالته، وحُسـن تربيتـه، والعطف عليـه، والرأفة به، وحفظ حقوقه؛ وذلك لضَعفه، وذهاب مَن كان يقوم عليه.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: أحسـنوا إلى المسـاكين. و(المسـكين): هـو الذي أَسـكنه الفقر، وقَعَدَت به الحاجة.

والإحسـان إليـه: يشـمل إعطـاءَه مـن الـزكاة والصَّدَقة، والسـعي في قضـاء حوائجه، ومواساته وتصبيره؛ ليرضى بالقضاء ويخفَّ ألـمُه.

وقد قال النبي ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ؛ كالمُجاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ»[3].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٤١)، (١٠/ ١٩)، (١٥/ ١٦٢)، مدارج السالكين (١/ ٩٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٢٤٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٠٦)، ومسلم (٢٩٨٢).

ولـمَّا أمر بالإحسان بالفِعْل؛ أتبعَه بالأمر بالإحسان بالقول؛ فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: ألينوا لهم القول، وتلطَّفوا معهم في الكلام.

ولـمَّا كان المال لا يسَع الكلَّ؛ كان من حُسن المعاملة ألَّا يُحرَموا منك قولًا جميلًا، وكلامًا طيِّبًا، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[١].

وقال أبو العالية في الآية: «قولوا للناس معروفًا»[٢]، ويدخل في القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر -كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-[٣].

ولـمَّا بدأ تعالى الميثاق بالأمر بعبادته على وجه الإجمال، وذكر الإحسان إلى الخَلْق؛ أتبع ذلك بذِكر أشرف العِبادات البدَنيَّة، وأشرف العِبادات الماليَّة، فقال:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدُّوها تامَّة، قويمة بلا نقص. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أعطوها لمستحقِّيها عن طِيب نفس؛ تبتغون الأجر من الله.

فكانت هذه التكاليف الثمانية هي مقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، ولكنَّهم لم يلتزموا بذلك، ولم يقوموا به، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بعد قَبولكم للميثاق. و(التولِّي): تَرْك الشيء وراء الظهر، علامةً على الاستخفاف والرفض. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ فإنَّهم قَبِلوا الحقَّ، وعملوا به.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: الذين تولَّوا كانوا في حالٍ من الإعراض، بالبدَن والقَلْب، فكيف يُرْجى أن يُقْبِل هؤلاء؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن الكلام مع الناس، حتى مع الكافر، لكن دون أن يُداهِنَه، أو يقرَّه على باطل.

وفيها: مراعاة الأَولى فالأَولى في المعاملة.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الترغيب (٣١٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٦١).

وفيهـا: أهميَّـة الإحسـان في التعامل مع الخَلْـق، وهذا يقتضي عدم الإسـاءة؛ لأنَّ الأمر بالشيء في القرآن والسُّنَّة يتضمَّن النهيَ عن ضِدِّه.

وفيها: انتقاء الكلام، واختيار الحَسَن منه، وأنَّ الأفضل تَرْك الكلام الذي ليس بحَسَن ولا سيء.

وفيهـا: أنَّ القواعـد العامَّة في المعاملة مع الله وخَلْقه موجودة في سـائر شرائع الأُمَم مِن قبلنا.

وفيهـا: تذكـير اليهود في زمن النبي ﷺ وما بعده، بما فعله أسـلافهم من السُّـوء؛ ليَحْذروا من متابعتهم في ذلك، وأنَّ الخَلَف لا يجوز له أن يتَّبِع مَن سَلفَه في الشرِّ.

وفيها: أنَّ مَن تولَّى بجسمه وأعرض بقَلْبه؛ فهو من شرِّ الخليقة.

وفيهـا: تقديـم حقِّ الوالدَين على حقوق سـائر النـاس، كما دلَّ على ذلك اقـترانُ حقِّهما بتوحيد الله؛ وذلك أنَّ النشأة الأُولى من الله، والنشأة الثانية- يعني في الدنيا- من الوالدَين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

ولـمَّا ذكـرَ تعالى طائفة من الأوامر التي أمر بها بني إسرائيـل؛ أتبعَ ذلك بِذكر طائفة من النواهي التي نهاهم عنها، وكان قد أمرَهم في الميثاق بصيانة حقوق الله، وحقوق عباده.

وكان ممَّـا أخـذه عليهم أربعة أمور: ألَّا يَسفِك بعضُهم دماء بعـض، ولا يُخرِج بعضُهم بعضًا من ديارهم، ولا يُعاوِن بعضُهم بعضًا على الإثم والعدوان، وإن وَجد بعضُهم بعضًا أسيرًا فدَاه -ولو بجميع ما يملك-.

فذكَّـر الله تعـالى اليهود بهذا الميثـاق، فقـال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا أيُّها اليهـود، وقـتَ أن جعَلْنا العهد عـلى آبائكم في التـوراة ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾: لا تُريقونها ظلمًا وعدوانًا. وهذا يشـمل نهي الواحد منهم عن قَتْل نفسـه، ونهيه عن قَتْل أخيه من أهل مِلَّته.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا يُخرِج بعضكم بعضًا من داره ووطنه. وكلُّ أهل دين كنَفس واحدة، فإذا أَخرج أخاه فكأنَّما أخرج نفسه.

و(الدِّيار): جمع دار، وهو منزل الإقامة، بخلاف منزل الارتحال. ويدخل في هذا: لا تُسيئوا جوار جيرانكم؛ فتضطروهم للرحيل.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق، وقَبِلْتموه، فلا يزال مأخوذًا عليكم، كما أُخِذ على أسلافكم. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليه.

ويدخل في هذا: إقرار مَن كان في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالميثاق الذي أقرَّ به أسلافُهم، وهم يشهدون على أسلافهم بهذا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل المِلَّة الواحدة كالنفس الواحدة، وهذا في المسلمين أيضًا، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»(١)، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ»(٢).

وفي الآية: أنَّ إخراج الإنسان لأخيه من داره ووطنه، فيه إيذاء عظيم، ومشقَّة على النفس؛ ولذلك حرَّمه الشَّرْعُ الحنيف.

وفي الآية: أنَّ مَن اعتدى على أخيه في الدِّين، فكأنَّما اعتدى على نفسه.

وفيها: تحريم الانتحارِ وقَتْلِ الإنسان نفسه، مهما أصابه من الشِّدَّة والبلاء.

وفيها: عِظَم جُرْم بني إسرائيل؛ لأنَّهم نقضوا عهد الله وميثاقه، بعد أن أقرُّوا على أنفُسِهم بالميثاق، وشَهِدَ بعضُهم على بعض بذلك.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٠)، ومسلم (١٣٧٠).

بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى كيف خالف بنو إسرائيل هذا الميثاق الذي أخذه عليهم؛ فقال:

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يا معشر اليهود ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ كما قاتل بعضهم بعضًا، قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾: تُجلُون إخوانكم عن ديارهم وأوطانهم. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾ مستعينين بحلفائكم من المشرِكين ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: متلبِّسين بالمعصية والذنب، ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: التجاوُز في الظلم، والاعتداء على الغير بغير حقٍّ.

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ﴾ أي: إذا جاء إليكم إخوانكم الذين اعتدَيتم عليهم ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: قد استولى عليهم حلفاؤكم من المشركين وأوثقوهم؛ ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾: تقومون بفكِّهم من الأَسر، بفِدية تدفعونها، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ أي: قد نصَّ كتابكم على تحريم إخراجهم من ديارهم، فأنتم تخالفون -من جهةٍ- بالاعتداء عليهم، وتوافقون -من جهةٍ- بفدائهم!

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾: وهذا الاستِفهام، للإنكار والتوبيخ، فكيف يسفِكون دماء إخوانهم، ويُخرجونهم من ديارهم، ثم يقومون بدفع الفِدية عنهم لفكِّهم من الأَسر؟!

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ بني قَيْنُقاع من اليهود كانوا حلفاء الخزرج، وبني النضير وقُرَيظة كانوا حلفاء الأوس، فإذا نشبت الحَرْب بينَ الأَوْس والخَزْرَج قاتل كلُّ فريق من اليهود مع حلفائهم، فيؤدِّي ذلك إلى أنَّ يقتُل اليهوديُّ أخاه في الدِّين، ويُخرِج بعضُهم بعضًا من بيوتهم، وينهبون ما فيها، وهم يعلمون أنَّ ذلك محرَّم عليهم في التوراة.

فإذا وضعت الحَرْبُ أوزارها؛ قام اليهود الذين قاتلوا مع الفريق الغالب بفَكِّ أسر

اليهـود الذين قاتلوا مع الفريق المغلوب؛ تطبيقًا لما في التوراة -بزعمهم-! فأنكر الله عليهم هذا التناقض، ووبخَّهم عليه؛ فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1].

وهذا من اتِّباع الهوى؛ لأنَّ الإيمان بالأحكام لا يجوز أن يتجزَّأ.

ثـم هدَّدهم عـلى هـذا؛ فقـال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: ليـس ثوابه ومُقابَلتـه عـلى عملـه ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾: ذُلٌّ وهـوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بـما يحصـل لهـم مـن الفضيحـة، والإجلاء، والقَتْل، وتسـليط العـدُوّ، وأخْذ الجِزْية، ونحو ذلك؛ بسـبَبِ مخالفة شَرْع الله وأمْره.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سُـمِّيَ بذلـك؛ لقيـام النـاس مـن قبورهم فيه لـربِّ العالمـين، ولقيام الأشـهاد فيه، ولأنَّه يُقام فيه بالعَدْل. ﴿يُرَدُّونَ﴾ من ذُلِّ الدُّنيا وخزيها، وعذابِ القبر ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وأعظمِه في نار جهنم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾: نفى عن نفسـه صفة الغفلة؛ لكمال عِلْمه وإحاطته ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح والمُنكَرات.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: اليهود الذين نقضوا العهد، ومَن شـابههم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: اسـتحبُّوها عـلى الآخرة، واختاروها، فالدُّنيـا مرغوب فيها عندهم -مع أنها دنيَّة- والآخرة مزهود فيها عندهم -مع أنها خيرٌ وأبقى-.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: لا يُهـوَّن عليهـم في الزمن، ولا في الشِّـدَّة، فلا ينقطع ولا يَقِلّ؛ مع كونهم يرجون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]؛ فَهُم يائسون من الخروج، ويائسون من التخفيف.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ليس لهم ناصرٌ، يدفع عنهم عذاب الله.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ الأمّة كالنفس الواحدة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩).

وفيها: أنَّ الكُفر ببعض الشريعة كُفر بجميعها.

وفيها: تحذير هذه الأُمَّة ممَّا وقع فيه اليهود.

وفيها -مع التي قبلها-: ذِكر الميثاقَين اللَّذَين أخذهما الله على بني إسرائيل، وفي الأول الأوامر، وفي الثاني النواهي؛ وذلك لأنَّ التكاليف الشرعيَّة مبنيَّة على الأوامر والنواهي.

وفيها: البدء في الدَّعوة بالأوامر -وهي تتضمَّن أفعالًا- ثم بالنواهي -وهي تتضمن تروكًا- والأفعال أشقُّ من التروك، وتُقَدَّم الأوامر لأنَّها أوجب.

وفيها: توبيخ مَن اختار الدُّنيا على الآخرة؛ لأنَّ مَن اختار الفاني على الباقي فهو مغبون.

وفيها: أنَّه يجب الأَخْذ بجميع الدِّين؛ لأنَّه حقٌّ وصدق.

وفيها: التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأنَّه إذا انتفى تخفيفُ العذاب، فانتفاء رفعه من باب أَولى.

وفيها: التحريم الشديد للاستعانة بأعداء الدِّين على الإخوان في الدِّين.

وفيها: أنَّ اتِّباع الهوى يؤدِّي إلى التناقُض، كما حصل لبني إسرائيل من مقاتلة إخوانهم، وإخراجهم، ثم افتدائهم!

وفيها: العذاب الشديد لمن جمع بينَ الإثم اللازم، والإثم المتعدِّي.

وفيها: وجوب صيانة دم المسلِم، وتأمينه في داره وبلده، وفكِّه من الأَسر، ولو بدفع المال الكثير.

وفيها: أنَّ بعض عقوبات المعاصي معجَّلة في الدُّنيا -كالخزي- وبعضها مؤخر في عذاب النَّار.

وفيها: أنَّ الله كتب على اليهود العذابَين، وضاعفَ العُقوبة عليهم، وجعلهم يوم القيامة في أشدِّ العذاب.

وفيها -مع التي قبلها-: أنَّ الإيمان يقتضي فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

وفيها: أنَّ مَن قام ببعض الشريعة فقط لا يستحقُّ المدح؛ بل يستحقُّ الذَّمَّ؛ فإنَّ الله قد أمر اليهود بتَرْكِ قَتْل إخوانهم، وتَرْكِ إخراجهم من ديارهم، وتَرْكِ المُظاهَرة بالآخَرين عليهم،

وافتدائِهم إذا وقعوا في الأَسر، فخالفوا ثلاثًا، وقاموا بالرابعة؛ فذمَّهم أشدَّ الذَّمِّ، وجعلهم في أشدِّ العذاب.

وفيها: أنَّ الاشتغال بالدُّنيا عن الآخرة يؤدِّي إلى تضييع الأوامر، وارتكاب النواهي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

ولـمَّا كانت مخالفة أمر الله ونهيه دَأْبًا وعادةً لازمةً لليهود؛ ذكَّرهم بذلك، وأنَّهم قد كفَروا نِعمة الله عليهم، بمخالفةِ وتحريفِ ما أُنزل عليهم من الكتب، وتكذيبِ وقَتْلِ من أُرسل إليهم من الرُّسُل؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا، وهذا يشمل: الإنزال، والتفهيم ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، التي أنزلها عليه جملة واحدة. وأكدَّ تعالى هذه النِّعمة بـ(لام التأكيد، و(قد)، والقَسَم المقدَّر.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبعنا وأردفنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ كيوشع، وداود، وسليمان، وزكريّا، ويحيى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: أعطيناه ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي: الآيات الظاهرات، الدالَّة على صدْقِه ونبوَّته. وهي شرعيَّة كالإنجيل، وكونيَّة كإحياء الطير والموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرَص، وتنبئة الناس بما يُخْفون.

وأُضيفَ (عيسى) إلى أمِّه (مريم)؛ لأنَّه ليس له أب، وردًّا على مَن يقول: إنَّه ابن الله.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قوَّيناه وأعنَّاه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ. و(القُدُس): الطاهر، وهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسَّان بن ثابت: «اللهُمَّ أيِّدْهُ برُوحِ القُدُسِ»[١].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

وكان تأييد عيسى بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمور؛ منها: حمايته من الشَّيطان عند الولادة، والنزول بالإنجيل عليه، وتلقينه الحُجَّة، ورَفْعه إلى السماء حين أراد اليهودُ قَتْلَه.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ﴾ من عند الله. والاستِفهام للإنكار والتوبيخ. ﴿بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾: لا تُريده، ولا يوافِق هواها. ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾: تعالَيْتم عليه. و(الكِبْر): رَفْض الحقِّ، واحتقار الناس.

﴿فَفَرِيقًا﴾ طائفة من الأنبياء ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾ كما فعلوا مع عيسى ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسلام. ﴿وَفَرِيقًا تَقۡتُلُونَ﴾ كما فعلوا مع زكريَّا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكذلك وضعوا السُّمَّ لمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمات متأثِّرًا به شهيدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُوالاة الأنبياء؛ لتثبيت الحقِّ.

وفيها: أنَّ الملائكة تؤيِّد مَن أمرهم الله بتأييده.

وفيها: استعمال المؤكِدات في مخاطَبة المنكِر والمتردِّد في تصديق الخبر ذي الأهميَّة البالغة.

وفيها: أنَّ مَن ليس له أب؛ فإنَّه يُنسَب إلى أمِّه.

وفيها: أنَّ الكِبْر يدفع إلى التكذيب.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا يريدون الحقَّ، وما كانوا يقبلون إلَّا ما وافق هواهم، وإنَّما سُمِّيَ الهوى بذلك؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل استمرُّوا في قَتْل الرُّسُل، حتى كان وضع السُّمِّ لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمات متأثِّرًا بذلك، حتى قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مرضه الذي ماتَ فيه: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي من ذَلِكَ السُّمِّ»[1].

وفيها: أنَّ كلَّ مَن استكبر عن الحقِّ؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٨) معلقا، ووصله الحاكم (٤٣٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٢٩). و(الأبهَر): عِرق متصل بالقَلْب، إذا انقطع ماتَ صاحبُه.

وفيها: أنَّ من أسباب التكبُّر عن الحقِّ: مخالفته لهوى المتكبِّر.

وفيها: أنَّ الناس لا يزالون يحتاجون إلى مواصلة تذكيرهم بالخير، ونهيهم عن الشَّرِّ.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤْمِنُونَ ٨٨﴾:

ثـم ذكـرَ تعالى ما قالته اليهـود، الذين رفضـوا دعوة النبـي ﷺ، مقتَدين في ذلك بأسلافهم، في إصرارهم على رَفْض الحقِّ:

﴿وَقَالُواْ﴾ لمـن دعاهـم للإسـلام: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ في غِطاء، وعليها طابع وغشـاوة، فلا تفقَه، وبعيدة عن الخير. وقيل: المعني: قُلُوبنا غُلُف، وأوعية مملوءة عِلْمًا، فلا تحتاج إلى عِلْم محمَّد، ولا غيره.

وكلُّ هـذا الـكلام حُجَّة باطلة عند رب العالمين؛ ولهذا قال ﴿بَل﴾ وهذا يدلُّ على إبطال حُجَّتهـم ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: طردَهـم، وأبعدَهـم عن رحمتـه ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسـبَبِ كُفرهم؛ لأنَّهم اختاروه وقدَّموه على الإيمان، فخذلَـهم الله تعالى، وتخلَّى عنهم.

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمـن منهـم إلَّا القليـل، أو: إيمانهم قليـل، وهو مع ذلك لا ينفعهم؛ لأنَّهم خَلَطوه بالكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

محاولة الكفَّار للإتيان بحُجَج لتقوية موقفهم، ولو كانت حُجَجُهم باطلة.

وفيهـا: أنَّ من أسـاليب العُتاة المتمرِّدين مـن المدعُوِّين: تيئيس الدَّاعيـة، وإخباره أنَّه لا فائدة من كلامه، وأنَّه مهما دعاهم فلن يستجيبوا ولن يتأثَّروا.

وقد استعمل أعداء الرُّسُل هذا الأسلوب؛ فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٞ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٞ﴾ [فُصِّلت: ٥].

وفيها: استكبار اليهود، وفرحُهم بما عندهم من العِلْم، حتى صرَّحوا أنَّهم مُستَغنون عمَّا عند النبي ﷺ من الهدى والعِلْم.

وفيها: أنَّ مَن أعرض؛ أعرضَ الله عنه، واستحقَّ اللَّعنة.

وفيها: تفنيد حُجَج الكفَّار وشُبُها تهم؛ ليَهْلِك مَن هلك عن بيِّنة.

وفيها: أنَّ القُلُوب في أصلها وفِطرتها تتقبَّل الحقَّ، ولكن أهل الباطل يُفسِدونها، ويُوجِدون فيها موانع التأثُّر.

وفيها: أنَّ الهداية لا تتمُّ إلَّا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

وفيها: أنَّ ممَّا أهلك اليهود: تزكية أنفُسِهم، ومدحها المدحَ المذموم، والاغترار بما عندهم.

وفيها: أنَّ الغُرور يمنع التعلُّم.

وفيها: تفنيد حُجَج المدعُوِّين من أهل الباطل؛ حتى لا ييأس الدُّعاة، ولا تلتبس عليهم الأمور.

وفيها: أنَّ اليهود أقلُّ الناس دخولًا في الإسلام، وأقلُّ الناس إيمانًا بما في أيديهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى تكذيبَ اليهود بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أُنزل عليهم؛ فقال: **﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ﴾** أي: اليهود في زمنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **﴿كِتَٰبٞ﴾** وهو القرآن **﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾** وصَفَه بذلك تشريفًا وتعظيمًا، وأنَّه كتاب جدير بالقَبول والعمل بما فيه؛ لأنَّه نازل من عند الله.

﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾: موافق لما معهم من التوراة، المذكور فيها صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك فإنَّ هذا القرآن يشهد بأنَّ ما أُنزِل على أنبياء بني إسرائيل -من التوراة والإنجيل والزبور- حقٌّ من عند الله.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: اليهود **﴿مِن قَبۡلُ﴾**: قبلَ البِعْثة النبويَّة ونزول القرآن **﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾**: يطلبون من الله الفتح والنصر على مُشركي العرَب، ويقولون في دعائهم: «اللهُمَّ انصرنا على أعدائنا، بالنبيِّ الأُمِّيِّ المبعوث في آخر الزمان».

وكانوا يقولون لأعدائهم العرَب، من الأوس والخزرج وغيرهم من المشرِكين قبل البِعْثة: «إنَّه سيُبعَث نبيٌّ في آخر الزمان، نقتُلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم».

وقال أبو العالية: «كانت اليهود تستنصِر بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُشركي العرَب، يقولون: اللهُمَّ ابعث هذا النبيَّ الذي نجده مكتوبًا عندنا، حتى يعذِّب المشركين ويقتُلهم»[(١)].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على الصِّفة المذكورة عندهم؛ ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: جحدوا نبوَّته؛ بغيًا وحَسَدًا.

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ وهي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحِلُّ عليهم اللعنة، وتنزِل بهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود كانوا يعرفون أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيُبعَث، وتكون له الغلَبة.

وفيها: أنَّ اليهود لم يخضعوا للحقِّ الذي أقرُّوا به سابقًا.

وفيها: شِدَّة كُفر اليهود؛ لأنَّهم كفروا وكذَّبوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع عِلمهم بنبوَّته.

وفيها: أنَّ الكافر مستحقٌّ للعنة الله، وأنَّها نازلة به لا محالة إذا مات على الكُفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١].

وفيها: جواز لَعْن جِنس الكفَّار، أو الكافر غير المعيَّن.

وفيها: أنَّه يجب على الإنسان أن يعرف الحقَّ بالحقِّ، لا بالرِّجال.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنتَ وحدَك»[(٢)].

وقال الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليك بطريق الحقِّ، ولا تستوحِش لقلَّة السالكين، وإيَّاك وطريقَ الباطِل، ولا تغترَّ بكثرة الهالِكين»[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٣٥)، هداية الحيارى (٢/ ٣٧١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائي (١٦٠).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٣٦)، مدارج السالكين (١/ ٤٦).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾:

ثـم ذمَّ الله تعـالى اليهود على ما فعلوه؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِئْسَمَا﴾، و(بئس): فِعْل يُستعمل للذمِّ.

﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ المعنى: قَبُحَ الشيء الذي اختاروه لأنفُسِهم؛ حيث دفعوا الإيمان وأخذوا الكُفر، ودفعوا الحقَّ وأخذوا الباطل، والذي يبيع الإيمان ويشتري الكُفر فهو مغبون؛ قد ضيَّع حقَّ نفسه.

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: أنَّ هؤلاء اليهود كفَروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدلًا من أن يؤمنوا به، وكفَروا بالقرآن الذي أنـزله الله.

﴿بَغْيًا﴾ أي: كان البغيُ سببَ كُفرهم، وهو: الظُّلْم والحَسَد والعدوان.

وكان الكِبْر أيضًا من أسباب رفضهم الحقَّ، والحاسد باغٍ وظالم؛ لأنَّه يريد أن ينتزع لنفسه ما آتى اللهُ المحسودَ من الفَضْل.

﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الفَضْل): هو زيادة العطاء، والمراد به هنا: الوحي والقرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فالمعنى إذن: بئس البيع عندما أَعطَوا الإيمان وأخذوا الكُفر؛ حَسَدًا للمسلمين على ما أنـزل الله إليهم من فَضْله.

﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم: الأنبياء، الذين يصطفيهم ويختارهم.

﴿فَبَاءُوا﴾: استوجب هؤلاء اليهود الجاحدون واستحقُّوا، ورجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ من الله ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ آخرَ فوق الأول؛ بسببِ توالي كُفرهم، من عبادة العِجْل، والكُفر بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والإنجيل، إلى كُفرهم بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن. فبهذا الكُفر اللَّاحق مع الكُفر السابق استحقُّوا لعنةً من الله وغضبًا، في إثر لعنةٍ وغضب.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة وإذلال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

العُقوبة الشديدة لمن كفرَ بنبوَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورفضَ وحيَ الله والقرآن.

وفيها: أنَّ الحَسَد والكِبْر من أعظم أسباب الكُفر، وأنَّ مَن ردَّ الحقَّ بسبَبِها فهو متشبِّه باليهود.

وفيها: معرفة نِعمة الوحي والنبوَّة، وأنَّها أعظم نِعَم الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: أنَّ مَن آتاه الله منه فَضْلًا، فينبغي أن يكون من أعبد الناس، وأكثرهم تواضعًا.

وفيها: أنَّ الله أعلَمُ حيث يجعل رسالته، وأعلَمُ بمَن يتحمَّل أعباءَها، ويصلُح لها.

وفيها: أنَّ توالي الذُّنوب وتراكمها يؤدِّي إلى لعنات الله وغضبه، على مُقترفيها.

وفيها: أنَّ المستكبِر يُعاقَب بنقيض حاله، وكما رفض الحقَّ تكبُّرًا في الدُّنيا، فإنَّ الله يُذيقه الهوان والصَّغار والذُّلَّ في عذاب الآخرة.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ المُتكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[1] فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ من كُلِّ مَكَانٍ»[2].

وفيها: أنَّ المراتب الدِّينيَّة من فَضْل الله تعالى، ولا يجوز الاعتراضُ على تفضيل الله، ولا حَسَدُ مَن فضلَّه الله، إلَّا من باب الغِبطة.

وفيها: إثبات الغضَب لله عَزَّ وَجَلَّ، على الوَجه اللَّائِق به سبحانه.

وفيها: أنَّ موافقة الجيل المتأخِّر للجيل المتقدِّم في الكُفر؛ يؤدِّي إلى اشتراكهم في العذاب، ونـزول اللَّعنة والغضب على الجميع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩١﴾:

ثـم قال تعـالى -في إفحام اليهود، وبيان تناقُضِهم، وكذبِهم، والرَّدِّ عليهم-: ﴿وَإِذَا قِيلَ

(١) أي: أمثال النمل الصغير، في الصِّغَر والحقارة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

﴿لَهُمۡ﴾ في دعوتهم ومجادلتهم: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يشمل القرآن الذي أنزله الله على محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا جميع الكتب الإلهيَّة.

﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾: نستمرُّ على الإيمان بالتوراة، ونكتفي بذلك، ولا نؤمن بسواها، ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: وحالهم أنَّهم يجحدون بما أُنزل بعد التوراة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي: مع أنَّه منزَّل من عند الله، وهو صِدْق يُوافق التوراة في أمور الإيمان والعقيدة وغير ذلك، وفي التوراة الإشارة إليه أيضًا.

﴿قُلۡ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ داعية يُجادِل اليهود بالحقِّ، فيُخاطِبهم إلزامًا وبيانًا: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادِقين في ادِّعائكم الإيمانَ بالتوراة التي أُنزلت عليكم، فلماذا قتلتُم الأنبياء الذين جاءوكم يحكمون بالتوراة؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان لا يَصِحُّ إلَّا بالإقرار بجميع ما أنزل الله من الكتب، وعدم التفريق بينها في الإيمان.

وفيها: أنَّ اليهود أهل بغي واعتداء، فيقتُلون مَن خالف هواهم، ولو كان من أنبياء الله، مع أنَّه مكتوبٌ عندهم في التوراة تحريمُ القَتْل بغير حقٍّ، ومكتوبٌ عندهم الإيمانُ بجميع أنبياء الله.

وفيها: بيان كذِب اليهود في قولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾؛ لأنَّه مكتوبٌ عندهم في التوراة صفةُ الرسولِ النبيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك كفَروا به.

وفيها: وجوب قَبول الحقِّ من كلِّ مَن جاء به.

وفيها: مثالٌ عظيم لإفحام اليهود، وإقامة الحُجَّة عليهم، وبيان تناقُض أصحاب الباطل.

وفيها: ذِكر حَيْدة اليهود عن الإقرار بالحقِّ، وإجابتهم المُلتويَة.

وفيها: أنَّ موافقة المتأخِّرين على جريمة المتقدِّمين، يُعتبَر مشاركة فيها.

وفيها: أنَّ مَن رضيَ بالمعصية فكأنَّما فعلَها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

ثـم ذكرَ تعالى أنَّ اليهود كفَروا مع وضوح الآيات أمامهم، وقيام المعجِزات فيهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: مصحوبًا بالدلائل القاطعة على أنَّه رسـولٌ من عند الله.

ومن هذه البيِّنات: الطُّوفان، والجرَاد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والرُّعاف بالدَّم، أو انقلاب الماء دمًا، والعصا التي تصير ثعبانًا، واليد التي تُنـزَع بيضاء من غير سُوء، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغَمام، وإنزال المنِّ والسَّلْوى، وتفجير العيون من الحَجَر، وغير ذلك ممَّا شاهدوه وعاينوه بأنفُسِهم.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودًا من دون الله، و(العِجل): ولدُ البقر، صنعه السَّامِريُّ الضالُّ المُضِلُّ من الحُليِّ والذهَب، على هيئة هذا الحيوان، ودعاهم لعبادته، فأطاعوه.

﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: اتخذوه إلهًا، من بعد أن ذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطُّور لمناجاة الله.

﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: والحال أنَّكم ظالمون لأنفسكم، بوقوعكم في الشِّرك، وبوضع العِبادة في غير موضعها. والشِّرك ظُلْم عظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهة اليهود الذين عبدوا شيئًا مصنوعًا بأيديهم.

وفيها: أنَّ طول العَهد وبُعد المدَّة من النبيِّ والعالِم والمربِّي، يُقَسِّي القَلْب، ويُوقِع في الشِّرك والبِدعة والمعصية.

وفيها: هَيبة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّهم لم يكونوا يستطيعون في وجوده وحضوره أن يُشرِكوا.

وفيها: أنَّه ينبغي على الدَّاعية أن يحرص على مُلازَمة المدعُوِّين ما أمكن؛ حتى تضيقَ فُرصة الشَّيطان في إضلالهم.

وفيها: أنَّه يجب التعلُّق بالحقِّ لا بالأشخاص، وأنَّه مهما غاب النبيُّ أو العالم أو القُدوة؛ فلا يجوز تَرك الواجبات أو فِعْل المحرمات في غيابه.

وفيها: أنَّ اليهود وقعوا في الشِّرك عن ظُلْم وعِلْم، وليس عن جهل وغفلة.

وفيها: بيان كذِب اليهود في ادِّعاءاتهم، ومنها قولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾.

وفيها: أنَّ من خصال اليهود: مُقابَلة النِّعَم بالشِّرك والكُفران.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى مثالًا آخر لمعاندة اليهود، وإصرارهم على الشِّرك، وكذِبهم في ادِّعائهم؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العَهد المؤكَّد للعمل بما في التوراة. ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: قلعنا ذلك الجبل، وحبسناه فوق رؤوسكم؛ تهديدًا بسقوطه عليهم، إذا امتنعوا عن الاستجابة للحقِّ، وأبوا اتِّباع ما أمرهم الله به.

وقال عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾: اعملوا بالكتاب الذي أعطيناكموه ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجِدٍّ واجتهادٍ، وعزيمةٍ ونشاط. ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: سماعَ قَبولٍ واستجابةٍ وطاعة.

فكان ردُّهم: الإعراض والتولِّي، فعلًا وقولًا: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سَمِعنا بآذاننا فقط، وعصَينا بأفعالنا، وخالَفْنا. و(العصيان): هو الخروج عن الطاعة، بتَرْك المأمور، أو فِعْل المحظور.

ولعلَّهم قالوا ذلك بعد رجوع الجبل إلى مكانه، وزواله من فوق رؤوسهم!

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: تَغَلْغَل حُبُّ العِجل في قُلوبهم، وامتلأت به.

قال قتادة: «أُشرِبوا حبَّه، حتى خلَصَ ذلك إلى قُلوبهم»(١).

﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي: بسبَبِ كُفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما بقيَ في قُلوبهم من الآثام السابقة، فُتِنُوا بالعِجْل لـمَّا صنعَه لهم السَّامِريُّ.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٠).

﴿قُلْ﴾ يـا محمَّـد ﷺ، ومَـن يجـادل هـؤلاء اليهـود: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ (بئـس): مـن أفعال الذَّم، أي: بئسـما يأمركم به إيمانكم عبـادة العِجل، فإذا كان مقتـضى الإيـمان عندكـم أن تعبدوا هذا العِجـل، فبئس هذا الإيـمان. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: صادِقـين في دعوى الإيمان، والمقصود: إن كنتم مؤمنين حقيقة، فكيف يأمركم إيمانكم بالعمل القبيح؟

و(الإيمان) في الأصل: ضدُّ الشِّرك والكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بنـي إسرائيـل ما آمنـوا إلَّا عن كُـره، وما أظهـروا الطاعة إلَّا حين صـار الجبل فوق رؤوسهم.

وفيها: عظيم قُدرة الله؛ بقَلْع الجبل من مكانه، وإمساكه في الهواء.

وفيها: وجوب تَلَقِّي شريعة الله بالنشاط والجِدِّيَّة، وليس بالكسل والفتور.

وفيها: وقاحة بني إسرائيل وعِنادهم، في قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وفيها: أنَّ سماع الإدراك لا يَعني الاستجابة، والمؤمن إذا سمع استجاب.

وفيها: أنَّ المؤمن الحقَّ لا يأمره إيمانه بالمعصية والشرِّ.

وفيهـا: أهميَّـة تطهير القَلْب من الأدران السـابقة، والآثام الماضيـة؛ حتى لا يُصبح قابلًا للافتتان.

وفيها: أنَّه ينبغي على مَن تاب إلى الله وأناب، أن يتخلَّص من كلِّ شوائب الجاهليَّة، سواءً كانـت كُفـرًا أو بِدعة أو معصيـة؛ حتى لا يعود إلى ما كان عليـه، ولا يَفْتَتِن بما يجِدُّ ويُعرَض عليه من أنواع الشِّرك والمعاصي.

وفيهـا: أنَّ مَن تشرَّب قَلْبُه حبَّ شيء؛ فإنَّه يُعميه عن رؤية عيوبه، ويُصِمُّه عن سـماع ما يَطعَن فيه، وهذا معنى قولِهم: «حُبُّك الشيء يُعْمِي ويُصِمُّ».

وفيها: أنَّه ينبغي تقوية إيمان مَن أسلم خائفًا؛ حتى لا يعود إلى الكُفر، بإزالة ما يُخيفه.

وفيها: التهَكُّم بمَن ادَّعى الإيمان وهو كاذِب؛ لينكشفَ أمرُه أمام نفسه، وأمام الآخَرين.

وفيها: أنَّ مريض القَلْب مهما رأى من الآيات، فإنَّه لا يؤمن حقيقة؛ بل تكون طاعته مؤقَّتة ظاهرة، حتى إذا زالت الآيات رجع إلى ما كان فيه.

وفيها: تعلُّم الأدب مع الله، في عدم نسبة فِعْل الشرِّ إليه مباشرة، مع أنَّه خالِقه ومقدِّره، كما يُفيده بناء الفعل للمجهول في قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾، والذي أَشربهم إيَّاه في قُلُوبهم حقيقةً: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[١]، وقول مؤمني الجنّ: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

ولـمَّا ادَّعى اليهود -عليهم لعنة الله- أنَ الجنَّة خالصة لهم من دون الناس، وأنَّ النَّار لن تمسهم إلَّا أيَّامًا معدودات، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه؛ بيَّن الله تعالى كذِبهم، وتحدَّاهم بهذه الآية؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء اليهود: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ المقصود: نعيم الآخرة، وهو الجنَّة ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي: خاصَّة بكم، وسالمة من مُشاركة غيركم لكم فيها، ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: بقيَّة الأُمَم، بما فيهم المسلمون.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: أَريدوه، واشتَهوه بقُلُوبكم، واطلُبوه وادْعُوا به بألسِنَتكم؛ لأنَّ مَن اعتقد أنَّه من أهل الجنَّة؛ كان الموتُ أحبَّ إليه من الحياة الدُّنيا.

ولذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ الجنَّة خالصة لكم.

ولم يجرؤ اليهود على ذلك، ولم يتمنَّوا الموت ولا سألوه، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوْا المَوْتَ لَمَاتُوا، ورَأَوا مَقَاعِدَهُمْ من النَّارِ»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٨٧١).

وقال بعض المفسِّرين: المقصود بالآية: المباهَلة، وهي أن يقوم اليهود بالدُّعاء على الكاذِب من الفريقين (أي: هم والمسلمون)، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

ولكنَّهم لم يستجيبوا لهذا؛ لأنَّهم يعلمون في قرارة أنفُسِهم أنَّهم هم الكاذِبون، والحياة عندهم عظيمة عزيزة، فكيف يَدْعُون بشيءٍ يكرهونه، وهم يعلمون أنَّه سيرجع عليهم، وينزل بهم، وليس بالمسلمين؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

تفنيد مزاعم الكافرين، وإفحام اليهود الملعونين، وتزويد المؤمنين بالحُجَج والبراهين، وطُرق مُناظَرة هؤلاء اليهود المُفسِدين.

وهذا من تَولِّي الله للمؤمنين، وتأييده لهم.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

ولـمَّا تحدَّى اللهُ اليهود أن يتمنَّوا الموت إن كانوا صادِقين؛ قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وفي سُورَة «الجمعة»: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ [الجمعة: ٧].

أي: لن يحدث ذلك منهم في المستقبَل كلِّه، وفي طول الدُّنيا؛ لأنَّهم يعلمون كذِبهم، وما لهم بعد الموت من العذاب.

وأمَّا في الآخرة: فإنَّ جميع أهل النَّار -بما فيهم اليهود- يتمنَّون الموت؛ لينتهي عذابُهم، وما هم بميِّتين، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبَبِ ما عَمِلته أيدي هؤلاء اليهود وأنفُسِهم، من المعاصي الموجِبة للخلود في النَّار، كالكُفر بمحمَّد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: محيطٌ عِلمُه بهم، وبالظَّلَمة من بني آدم -على اختلاف مِلَلِهم- وبما قالوه وفعلوه. وفي هذا تهديدٌ وتخويفٌ لهم؛ لأنَّه سيُجازيهم على أعمالهم التي أحاط بها علما.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مـن إعجاز القرآن الكريم: إخباره عن أمر مسـتمرٍّ في المستقبَل، وهـو أنَّ اليهود لن يتمنَّوا الموت، وهذا ما تراه فيهم حتى الآن.

وفيها: نِسبة العمل إلى الأيدي؛ لأنَّها أكثر ما تُكتسَب به الأعمال.

وفيها: أنَّ مَن ساء عملُه خاف من الموت، ومَن حَسُن عملُه لا يكون أمره كذلك.

وفيها: أنَّ سبَبَ عدم تمنِّي اليهود للموت، يختلف عن سبَبِ عدم تمنِّي المؤمن للموت.

فالمؤمن حالُه كما في الحديث: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»[1]، أي: يتوب ويرجع عن الإساءة، ويطلب رضا ربِّه بالتوبة.

أمَّا إذا قدِمت الفِتنة، وخشيَ المؤمنُ على دِينه؛ فإنَّه لا بأس أن يتمنَّى الموت حينئذٍ، كما في دُعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»[2].

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

ثـم قال تعالى في وصف هـؤلاء اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ متأمِّل في حالهـم إلى قيـام السـاعة ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾: أشـدَّ النـاس حِرْصًا، مؤمنهـم وكافرهم. و(الحِـرْص): الطمـع في الـشيء، مع الخـوف من فواته، مع بـذل الجهد في تحصيله، وشِـدَّة الطلب له.

﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: أيَّ حياة كانت، ولو لحظة!

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: أنَّ اليهود أحرص من المشرِكين على البقاء أحياء؛ وذلك لأنَّ المُـشرِك المنكِـر للبعث يحرص على هذه الحياة الدُّنيا؛ لأنَّها فرصته الوحيدة في اعتقاده، فهو يريد البقاء في الدُّنيا للاستمتاع أكثر ما يمكن.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٦٨٤).

وأمَّا حرص اليهود على الحياة -وهم يؤمنون بالبَعث والنشور، وحياة الآخرة-؛ فذلك لأنَّهم يعلمون في قرارة أنفُسِهم ما لهم من العذاب في الآخرة.

والذي يتوقَّع عذابًا بعد الموت، أشدُّ حرصًا على الحياة ممَّن لا يتوقَّع شيئًا أصلًا.

﴿يَوَدُّ﴾: يتمنَّى ويحب جدًّا. و(الود): خالص المحبَّة. ﴿أَحَدُهُمْ﴾: أحد هؤلاء اليهود أو المشركين. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أن يمتدَّ به العمر والبقاء في الدُّنيا هذه المدَّة.

﴿وَمَا هُوَ﴾: وليس تعميره وطول حياته ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾: بمُبْعِده ومانعه ومُنَحِّيه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: عذاب الله بعد الموت، وفي الآخرة ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ هذه المدَّة الطويلة.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ذو إبصار بما يعملون، عليمٌ بأعمالهم، في السِّرِّ والعلانية، لا يخفى عليه شيء من ذلك. و(البصير) بالشيء في لغة العرَب: المُبصِر، العالِم به، و(البَصَر): العِلْم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهودِيَّ يكره الموت؛ لِما يعلم من سوء العاقبة.

وفيها: أنَّ الناس يتفاوتون في الحِرْص على الحياة.

وفيها: أنَّ المسيء اللاهي يريد طول العمر؛ لمزيد من الاستمتاع بالدُّنيا، وخشية العقاب في الآخرة.

وفيها: أنَّ طول العمر لا يُفيد صاحبَه شيئًا، إذا كان في معصية الله.

وفي ذلك الإشارة إلى تقييد الدُّعاء بطول العمر والبقاء، بأن يقول -مثلًا-: «أطال الله عمرك وبقاءك في طاعة الله»، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ مَن أحبَّ اللُّبث في الدُّنيا لعمل الشرِّ، فتعميره وَبالٌ عليه. وقد سُئل ﷺ: أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[(١)].

وأمَّا مَن أحبَّ البقاء في الدُّنيا لعمل الصالحات، فنِعِمَّا هو.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

ثم قال تعالى في جواب اليهود الذين صرَّحوا للنبيِّ ﷺ بعداوتهم لمن يَنْزِل عليه بالقرآن، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: من أضمرَ عداوتَه؛ فليمُت غيظًا؛ لأنَّ مَن عاداه فقد عادى الله، وقد جعله الله واسطةً بينه وبين رُسُله. وقيل: معنى (جبريل): عبد الله.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: جبريل الأمين ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمَّد ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمره ومشيئته، فلا وجه للعداوة؛ لأنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مأمور.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ومطابقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهيَّة المتقدِّمة، ﴿وَهُدًى﴾ هاديًا ودليلًا إلى الحقِّ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بالجنَّة والنعيم. و(البِشارة): هي الخبر السارُّ. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه، وكلِّ ما يجب الإيمان به.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: ما رواه الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبَلوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يَا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ، واتَّبَعْناكَ.

فكان منها: فَإِنَّهُ لَيْسَ من نَبِيٍّ إلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالحَرْبِ وَالقِتَالِ وَالعَذَابِ، عَدُوُّنَا! لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالقَطْرِ؛ لَكَانَ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

دفاع الله تعالى عن عبده ورسوله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

وفيها: أنَّ القَلْب محلٌّ للحفظ؛ ولذلك كان نـزول القرآن عليه، كما في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

وفيها: الموالاة بينَ المؤمنين، ويدخل فيهم الملائكة، وعلى رأسهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموالاته تقتضي الإيمان به، ومحبَّته، ونصرته، وبيان منزلته، والدِّفاع عنه.

وفي الآية: بيان كُره اليهود لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه كان ينـزل بالقرآن المشتمل على فَضْحهم والرَّدِّ عليهم؛ ولأنَّه كان ينـزل مع الملائكة لنُصرة المؤمنين في قتال اليهود، وهو الذي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمضيَ بعد الخندق لقتال بني قُريظة.

وفيها: أنَّ الملائكة التي تنـزل بأمر الله وإذنه، بالوحي والعذاب وغير ذلك، لا وجه لبُغضهم؛ لأنَّهم إنَّما يتنـزَّلون بأمر ربهم.

وفيها: أنَّ القرآن بُشرى للمؤمنين؛ لأنَّهم قَبِلُوه وانتفعوا به.

وفيها: أنَّ مَن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرُّسُل. وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[(١)].

وفيها: أنَّ الملائكة لا تتنـزَّل إلَّا بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الآية مع الأدلَّة الأخرى: أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يتلو الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يسمعَه، فيَعْقِلَه بقَلْبه.

وفي الآية: فَضْل القَلْب؛ لأنَّه موضع العقل والعِلْم، وأشرف ما في الجسد.

وفيها: تأييد الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواجَهته مع اليهود، بتلقينه الحُجَج، وماذا يقول لهم عند مجادلتهم ومناظرتهم.

وقد قرأ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية على عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لـمَّا سأله عن أسئلة لا يعلمها إلَّا نبيٌّ، وأجابه عنها، وقال له: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا»، قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

«نَعَمْ»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ من المَلائِكَةِ. فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١].

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى حُكم مَن يُعاديه ويُعادي رسلَه -أو واحدًا منهم-؛ فقال:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾: بمخالفة أمره عنادًا، ومعصيته مكابرةً، والاستكبار عن عبادته، أو معاداة أوليائه، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾: عالَم غيبيّ، خلقَه الله من نور، يعبدونه ويطيعونه.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: صفوة الخَلْق، الذين أوحى إليهم بشَرْعه، وأمرهم بتبليغه، ويدخل فيهم الرسول الملكي، والرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾: أفردهما بالذِّكر -مع كونهما داخلين في (الملائكة)-؛ لبيان شَرَفِهما وفَضْلِهما، وعُلُوِّ منزلتهما عنده سبحانه.

وقرنَ (ميكال) بـ(جبريل) للرَّدِّ على اليهود، وبيان أنَّ مَن عادى أحدهما فقد عادى الآخر، وعادى الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا.

وجبريل موكَّل بإبلاغ الوحي من الله إلى أنبيائه ورُسُله، وميكال هو ميكائيل، وهو الموكَّل بالمطر والنبات، فجبريل موكَّل بما تحيا به القُلُوب، وميكائيل موكَّل بما تحيا به الأرض والأبدان.

وهما مع إسرافيل -الموكَّل بالنفخ في الصور- أفضل الملائكة، وقد ذكرَهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعائه في استفتاح قيام اللَّيل؛ فكان يقول: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ من الحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٠).

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط السابق؛ أي: مَن كان عدوًّا لله، فالله عدوٌّ له، ومَن عاداه وعادى رُسُلَه وملائكته، فإنَّه كافر بالله العظيم، وقد قال تعالى في الحديث القُدْسِيّ المتقدِّم: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

ارتباط أركان الإيمان بعضها ببعض، وأنَّ مَن كفرَ بواحد منها فقد كفرَ بالجميع.

وفي الآية: بيان تناقُض اليهود في زعمهم مُوالاةَ ميكائيل ومحبَّته، ثم كُرْه جبريل ومعاداته، مع أنَّهما ملَكان مأموران.

وفيها: إثبات صفة (العداوة) من الله لمن يُعاديه، أو يُعادي أولياءه.

وفيها: انتصار الله لأوليائه.

وفيها: أنَّ كلَّ كافر فالله عدوٌّ له.

وفيها: إشارة إلى أنَّ غذاء القَلْب مقدَّم على غذاء البدَن.

وفيها: التحذير من أن يتسبَّب العبد في معاداة الله له؛ لأنَّ مَن عادى الله فهو مخذول لا يُفلِح، وعذابه أليم، وعاقبته وخيمة.

وفيها: أنَّ مَن عادى رسولًا فقد عادى الذي أرسلَه، وما أُرسِلَ به.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾:

ولـمَّا زعمت اليهود أنَّ النبي ﷺ لم يأتِه من ربِّه آيةٌ بيِّنة دليلًا على صدقه، ليتبعوه؛ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ (اللام) في ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ للقَسَم، والمعنى: «وعزَّتي وجلالي، لقد أنزلنا» ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾: جمع «آية»، وهي: العلامة والدليل والبرهان، والمقصود: آيات القرآن العزيز. ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: واضحات في ذاتها، وفي دلالاتها، مفصَّلات بالحلال، والحرام، والأخبار، والعِظات، والأحكام.

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ﴾: يجحدها ويُنكِرها، ويكذِّب بها ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله. والمراد بـ(الفِسْق) هنا: الفِسْق الأكبر الموجِب للخلود في النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله تعالى لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الرَّدِّ على مزاعم اليهود.

وفيها: دليل على عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لأنَّ الإنـزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها: ذِكر أحد نوعي الآيات، وهي الآيات الشرعيَّة، وما أنـزل الله على أنبيائه. والنوع الآخر: هي الآيات الكونيَّة من مخلوقات الله، كالشمس والقمر واللَّيل والنهار، واختلاف الألسُن والألوان.

وفيها: أنَّ اليهود حاولوا إطفاءَ نور الله، والتنقيصَ من قَدْرِ كتابه؛ لأنَّه يكشف حقيقتهم، ويبيِّن مخازيهم، ولكن يأبى الله إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، وينتصرَ لكتابه.

وفيها: أنَّ من الفِسْق ما يكون سببا للخلود في النَّار، وهذا هو الفسق الأكبر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ فهذا من إطلاق الفاسق على الكافر.

وفيها: أنَّه كلَّما ازداد الإنسان طاعة لله، وابتعد عن الفِسْق؛ كانت آيات الله في قَلْبه أَبْيَن وأَوضَح.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾:

ثم ذكر تعالى خَصلة ذميمة في اليهود توجَد فيهم دائمًا؛ وهي الخِيانة، ونقض العهود والمواثيق؛ فقال تعالى:

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ (الهمزة) للاستِفهام، وهو إنكاري، و(الواو) للعطف على ما تقدَّم، و(كلَّما): أداة شَرْط تفيد التَّكرار.

﴿عَٰهَدُواْ﴾: أَعطوا الميثاق المغلَّظ المؤكَد باليمين ﴿عَهۡدٗا﴾ مع الله عَزَّوَجَلَّ، أو مع رُسُله، كما عاهدوا باتِّباع ما أنـزله الله، والإيمان بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُعِث، ونصرته، والقتال معه.

أو عهودهم مع الخَلْق، كالمعاهَدات التي أبرموها مع المسلمين في المدينة النبويَّة.

﴿نَّبَذَهُۥ﴾: طرحه ونقضه، وتَرَكَ العمل به، وخالفَ ولم يوفِّ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: طائفة وجماعة.

قال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الأرض عَهد يُعاهِدون عليه إلَّا نقضوه ونبَذوه، يُعاهِدون اليومَ، وينقُضون غدًا»[١]!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فلا يُرجى إيمانهم؛ لأنَّ الضلال قد استحوذَ عليهم، ولو كانوا يؤمنون ما نقضوا العَهد.

وقد قال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[٢].

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ مالك بن الصيف اليهوديّ، قال حين بُعِثَ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكرَ لهم ما أخذَ الله عليهم من الميثاق، وما عَهِدَ الله إليهم فيه: والله، ما عَهِد إلينا في محمَّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أخذَ له علينا ميثاقًا!.

فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[٣].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الغدر والخِيانة من طبيعة اليهود، وأنَّه لا بُدَّ أن يوجد فيهم مَن ينقض العهود، وأنَّهم لا يؤمنون حتى بكتابهم، وأنَّه لا يوثَق بهم في شيء، وأنَّهم ينقضون العهود حتى مع غير المُسْلمين.

وفي الآية: أنَّ المؤمن يفي بالعَهد، ولا ينقُضه.

وفيها: أنَّ من العَدْل أنَّه إذا حصل الإثم من بعض القوم، ألَّا يُعَمَّم جميعًا بالحُكم؛ لقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

وفيها: أنَّ المستخِفَّ بالعَهد مُشابهٌ لليهود.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٤).

(٢) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٠)، تفسير الطبري (٢/ ٤٠٠)، وإسناده ضعيف.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾:

ثم ذكر تعالى امتناعَ اليهود عن الإيمان بمحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالرَّغم من أنَّ العهد قد أُخِذ عليهم بالإيمان به، واتِّباعه ونُصرته إذا بُعِث؛ فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ﴾: أُرسل إلى اليهود وأتاهم ﴿رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مُصَدِّقٞ﴾ موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من التوراة وغيرها من كتبهم المذكور فيها صِفتُه، ووجوبُ الإيمانِ به واتِّباعِه.

﴿نَبَذَ﴾: ألقى ورمى ﴿فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: طائفة من هؤلاء اليهود، وهم أحبارهم وكبراؤهم ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي عندهم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾، وهذا يدلُّ على الإعراض التامِّ، وعدم الالتفات، والاستغناء، والكُرْه والإهمال، فجعلوه كالشيء المنبوذِ المرميِّ المُحتقَر.

قال الشَّعبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هو بينَ أيديهم يقرأونه، ولكن نبذوا العمل به»[1]، وقال سُفيان ابن عُيَينة رَحِمَهُ اللهُ: «أدرجوه في الحرير والدِّيباج، وحَلَّوْه بالذهب والفِضَّة، ولم يُحِلُّوا حلاله ولم يحرِّموا حرامه؛ فذلك النَّبْذ»[2].

﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: تظاهرًا بالجهل به، وكأنَّهم ليس عندهم عِلْم بصفة هذا النبيِّ، ومَبعثه، وحقِّه.

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «أي: أنَّ القوم كانوا يعلمون، ولكنَّهم أفسدوا عِلْمهم، وجحدوا، وكفَروا، وكتموا»[3].

وفي هذه الآية من الفوائد:

كُفر اليهود بالنِّعمة، فبدلًا من أن يؤمنوا بهذا القرآن -لأنَّه مؤيِّد لما معهم- كفَروا به.

وفيها: مثالٌ لكُفر الإعراض والتولِّي.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٤١).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٤٠٤)

وفيها: أنَّ الرسول محمَّدًا ﷺ قد أخبرَت به الكتب السابقة.

وفيها: شِدَّة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتِهم به.

وفيها: موافقة القرآن لما قبله من الكتب السماوية في أمور كثيرة؛ منها: توحيد الله، وأركان الإيمان، وذِكر اليوم الآخر، والمواعظ من الله لخَلْقه، والقواعد العامَّة للتشريع، والأمر بأعمال البرِّ والخير، ووجوب الإيمان بالنبيِّ محمَّد ﷺ، وصِفته، وصِفة أصحابه، وأخبار الأُمَم الماضية، وغير ذلك.

وفي الآية: قُبح التظاهر بالجهل مع كِتمان العِلْم.

وفيها: خطورة تَرْك العمل بكتاب الله.

وفيها: أنَّ تَرْك بعض الكتاب كتَرْكه كلِّه.

وفيها: سوء مَن ردَّ الحقَّ بعد العِلْم به.

وفيها: أنَّ مَن لا يعمل بعِلْمه؛ فهو كالجاهل، أو أشدّ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾:

ولـمَّا اتفقت التوراة والقرآن، وطابق وصفُ النبيِّ ﷺ ما هو مذكور عند اليهود في التوراة؛ نبذوا كتاب الله، وأخذوا بكتب السِّحْر، وأعرضوا عن كتاب الله الذي بأيديهم؛ وقد قال الله تعالى عنهم:

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: اليهود ﴿مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: ما تأخذ به، وتتبِّعه، وتقدِّمه، وما ترويه وتخبر به كاذِبة. ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: في زمنه وعهد مُلكه، وما أقحموه وزادوه من

السِّحْر والكُفر في الكتب التي كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يكتب فيها ممَّا نـزل عليه من الوحي، وما خلَطوه من الكَذِب، مع الأخبار التي كانوا يستَرِقُونها من السماء.

وقـد صَـحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّه كان لسـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كاتبٌ يكتـب كلَّ شيءٍ بأمر سـليمان، ويدفنه تحت كرسيِّه، فلمَّا مات سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أخرجته الشـياطين، فكتبوا بينَ كلِّ سطرَين سِحرًا وكُفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به. قال: فبرئ جهّال الناس من سليمان وأكفروه، حتى بعث الله محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه هذه الآيات(١).

ويُحتمل أن يكون هذا ممَّا أخذه ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أهل الكتاب.

وجاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا: أنَّ الشـياطين كان يستَرِقون السمع من السماء، فيأتي أحدُهم بكلمة حقٍّ قد سَمِعَها، ويَخْلِط معها سبعين كِذبة، فيُشرِبُها قُلُوبَ الناس؛ فأطلع الله عليها سليمان، فدفنها تحت كرسيِّه، فلمَّا مات سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ دلَّ شيطانٌ الناسَ عليه، وقال: ألَا أدُلُّكم على كنزِه المُمَنَّع الذي لا كنزَ مثله؟ فأخرجوه -وهم اليهود- وقالوا: هذا سِحْر، واتَّبَعوه وعَمِلُوا به، فأنزل الله عُذر سليمان في هذه الآية(٢).

فقـد ظـنَّ بعضُهم أنَّ سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأخذ بالسِّـحْر ويعمل به، وحيث إنَّ السِّـحْر كُفر لا يمكن لنبيِّ الله أن يعملَ به؛ لذا فقد برَّأ الله نبيَّه سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّا افتراه عليه هؤلاء الشياطين واليهود؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بتعلُّم السِّحْر، أو تعليمه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بتعليم السِّحْر، والإعانة عليه.

وبيَّن سـبَبَ كُفرِهـم بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، و(السِّـحْر) في اللُّغة: كلُّ شـيء خَفِيَ سـبَبُهُ. والسِّـحر المذموم شرعًا: هو العُقَد والرُّقى التي يَنْفُثُ فيها الساحر، فينتج عن ذلك تأثيرٌ في بدن المسحور، أو عقله.

ومنه ما يقتُل، ومنه ما يُمرِضُ، ومنه ما يُزيل العقل، ومنه ما يُغيِّر الحواس، فيرى الشيء المتحرِّك ساكنًا والساكن متحرِّكًا ونحو ذلك -وهو سِحْر التخييل والتمثيل-.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤١٥).

ومنه ما يغيِّر مشاعر الإنسان، فيقلب الحبَّ بُغضًا، والبُغض حبًّا -وهو الصَّرْف والعَطْف- فيصرِف الرجل عن أحبِّ الناس إليه كزوجته وأولاده وأبوَيه، ويُكرِّهه فيهم، ورُبَّما كَرِه نفسه، أو يحبُّ نتيجةَ السِّحْر شخصًا، ويميل إليه ميلًا قويًّا وينقاد له؛ حتى لا يستطيع الخروج عن أمره!

والسِّحْر قديم في البشر؛ فقد كان معروفًا في قوم صالح، وقوم فرعون.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾، قال كثير من المفسِّرين: (هاروت) و(ماروت): اسمان لملكَين أنزلهما الله في أرض بابل بالعراق؛ لـمَّا خلطت الشياطين الأمور على الناس، ونشروا السِّحْر والكُفر فيهم، فميَّز الملَكان للناس بينَ السِّحْر والنبوَّة؛ لتوضيح ماهيَّة السِّحْر، وصارا يُعَلِّمان الناس ذلك، ويحذِّرانهم من العمل به، وفي هذا ابتلاء وامتحان من الله، وكان تبيينُ الشرِّ لتوقِّيه، لا للعمل به[1].

ولكن هؤلاء اليهود صاروا يتَّبعون الشياطين فيما نشرته من السِّحْر، ويعملون أيضًا بما جاء الملَكان من التحذير منه.

ومن رحمة الله: أنَّه أمر هذين الملَكين ببيان حكم هذا للناس؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي: هاروت وماروت ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من الناس ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاءٌ واختبارٌ من الله؛ ليتبيَّن مَن يريد السِّحْر ويعمل به، ممَّن يَحذره ويرفضه.

ويحذِّرانه بقولهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلُّم السِّحْر، والعمل به.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ المعنى: أنَّ اليهود اتَّبعوا ما تتلو الشياطين من السِّحْر، وزعَموا أنَّ الملكَين قد نزلا بالسحر وَحْيًا من الله لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبرَّأ الله سليمان وبرَّأ الملكَين. ويكون المعنى على هذا: وما كفرَ سليمان، ولا أنزل الله السِّحرَ على الملكَين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾، ومنهم هاروت وماروت.

والقول الأول أَولى؛ لموافقته لظاهر الآية.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٢٠-٤٣٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٤-٣٦٥)، التحرير والتنوير (١/ ٦٤٣-٦٤٥)، تفسير ابن عثيمين (٣/ ٣٤٥).

وقـد وردت قصَـص كثيرة في افتتان هـاروت وماروت، ووقوعهـما في الكبائر، لكن لا يَصِـحُّ منها شيء عن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء عـن الصَّحابة والتابعـين في ذلك مصدره كتبُ بني إسرائيل، وما رواه كعب الأحبار وغيره منها، وهذه الإسرائيليَّات لا يحتجّ بها(١).

وقولـه ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي: فيتعلَّم الناس من هاروت وماروت ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: السِّحْر الذي يصرِف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، فيؤدِّي إلى التفريق بينهما، وهذا عند إبليس من أعظم إنجازات جنوده؛ كما في حديث جابر ابـن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عـن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَـهُ عَـلَى المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَـثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْـهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَـةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُـولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُـولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُـمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَـهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»(٢).

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾: ليس المتعاملون بالسِّحْر قادرين على إلحاق شيء من الضَّرَر بأحد من الناس، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته وإرادته.

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يضرُّ هذا السِّحْرُ إلَّا مَن دخل فيه»(٣).

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدُّنيـا والآخرة، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: هذا بيان بأنَّ السِّـحْر ضَرَر خالـص، ودليـلٌ عـلى أنَّ تعلُّم السِّـحْر ضررٌ لا منفعـة فيه أبدًا، فهو أسـوأ من الخمر والميسر، فقد قال الله عنهـما: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: علـمَ أهـلُ الكتـاب أنَّ مـن اختـار السِّـحْر وأخذَه ورَغِـبَ فيـه، رغبة المشـتري في السِّـلْعة، واعتمـده بدلًا مـن الإيمان والوحـي؛ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: ليس له حظٌّ ونصيب في الآخرة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٠)، البداية والنهاية (١/ ١٠٩)، السلسلة الضعيفة للعلاَّمة الألباني (١٧٠، ٩١٠، ٩١٢، ٩١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٩٣).

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد علم ذلك أهلُ الكتاب في عهد الله إليهم: أنَّ الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة»(١).

وقال: «ليس له في الآخرة جنَّة عند الله»(٢)، وقال الحسن: «ليس له دِين»(٣).

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: هذا الكلام يحمل معنى القَسَم المؤكَّد، والتقدير: «والله، لبئسَ ما شرَوا به أنفُسَهم». ومعنى ﴿شَرَوْاْ﴾ هنا: باعوا؛ لأنَّهم لـمَّا اشتَروا السِّحْر أُعطوا مقابِلَه خسارةَ أنفُسِهم، فباعوها بهذا الكُفر، فبئس البيع هو ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا يعلَمون مآل أمرِهم عِلمًا يقينيًّا؛ لَـمَا تعلَّموا السِّحْر ولا عَمِلُوا به، فهم لـمَّا لم يعمَلوا بما عَلِموا؛ فكأنَّهم لم يعلَموا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عمل اليهود بالسِّحْر، واتِّباعهم له، وتَرْك ما أنزل الله عليهم.

وفيها: سَعْي الشياطين في إضلال الناس.

وفيها: دفاع الله عن أنبيائه، وتبرئة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من السِّحْر.

وفيها: أنَّ السِّحْر من الكُفر، ومن أعمال الشياطين، وأنَّ تعلُّمه كُفر، وأنَّ الساحر كافر.

والتحقيق: أنَّ تعلُّمَ السِّحْر وتعليمه حرامٌ بإطلاق، فإن تضمَّن ما يقتضي الكُفر كفرَ، وإلَّا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكُفر؛ عُزِّر، واستُتيبَ منه.

وفيها: إرسال الملائكة لابتلاء البشر، وقد حصل مثل ذلك في قِصَّة الأبرص والأعمى والأقرع.

وفيها: أنَّ الله يبيِّن الحِكَم مع قيام الابتلاء؛ لينجوَ مَن يريد النجاة.

وفيها: أنَّ الله تعالى قد يهيِّئ لبعض الناس أسباب المعصية؛ فِتنةً وابتلاءً لهم وامتحانًا،

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٥١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

وهذا كما مرَّ أيضًا في قِصَّة أصحاب السَّبْت، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

فعلى المسلِم ألَّا يعصي ربَّه، ولو توفرت له أسباب المعصية.

وفيها: الإثم العظيم للإفساد بينَ الزوجَين والتفريق بينهما، بالسِّحْر، أو النَّميمة والتخبيب، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ سِحْر يضرُّ.

وفيها: أنَّه لا يحدث ضرَر إلَّا بإذن الله.

وفيها: تحريم تعلُّم العلوم التي تضرُّ ولا تنفع، ومثله ما كانت مفسدته أكبر من منفعته.

وفيها: أنَّ العِلْم النافع يأبى على صاحبه تعلُّم العِلْم الضارّ.

وفيها: وجوب النصيحة للناس وتبيين الحقِّ، كما قال الملَكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وفيها: أنَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا؛ فإنَّ إيمانه يصرفه عن الشرِّ.

وفيها: أنَّ السِّحْر من أعمال الشياطين.

وفيها: أنَّ اليهود يتلقَّون عن الشياطين، والعَلاقة بينهم وطيدة.

وفيها: خطورة عمل الساحر؛ ولذلك كان الراجح في حُكمه القَتْل، واختلف العلماء في قَبول توبته، والراجح: أنَّه إن صدق فيها تُقبل بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا في أحكام الدُّنيا: فيُرجَع في قَتْله إلى اجتهاد الحاكم -بناءً على القواعد الشرعيَّة-.

وفيها: أنَّ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق الأسباب.

وفيها: أنَّ الأصل في كُفر الساحر أنَّه كُفرٌ أكبر، مخرج من المِلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

والتحقيق: أنَّ في المسألة تفصيلًا: فقد يكون كُفرًا، وقد لا يكون كُفرًا -بل معصيته كبيرة-: فإن كان فيه قولٌ أو فِعْلٌ يقتضي الكُفر كفرَ، وإلَّا فلا.

وفيها: أنَّ الشياطين تآمرت بالسِّحْر في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصنعت الخُطَّة؛ ليفتنوا الناس بعد موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: اتِّهام اليهود لأنبيائهم بالباطل.

وفيها: أنَّ السِّحْر كُفرٌ، حتى في شريعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ السِّحْر له حقيقة وتأثير، وليس مجرَّد خداعٍ للبصر.

وفيها: تبرئة الملائكة من العصيان.

وفيها: أنَّ من العلوم ما يكون فِتنة للناس.

وفيها: أنَّ مَن فسد إيمانُه يشتهي ما يضرُّه.

وفيها: أنَّ اليهود جعلوا السِّحْر إمامًا يأتمُّون به، ويسعَون خلفه.

وفيها: أنَّ مَن ترك الاشتغال بما ينفعه؛ ابتُلِيَ بما يضرُّه.

وفيها: بيان الفرق العظيم بينَ معجِزات النبوَّة، وخوارق السَّحَرة.

وفيها: أنَّ الشياطين تُعاوِن مَن يتشبَّه بهم، بنجاسة القول والعمل والاعتقاد.

وفيها: أنَّ السحر مضرَّة في الدِّين والدُّنيا.

وفيها: تحريم أخذ المال أو دفعه من أجل السِّحْر.

وفيها: أنَّ من أثر السِّحْر على الزوجَين الانفصال التامّ، أو عدم القُدرة على الإتيان والوطء.

وفيها: وجوب التحقُّق فيما يُنسَب إلى الأنبياء، ونفي المسائل الباطلة عنهم.

وفيها: أنَّ الكتب الباطلة قد تُنسَب إلى بعض الصالحين زورًا وبهتانًا.

وفيها: أنَّه لا يجوز التعرُّض للفِتنة؛ بل على المسلِم أن يبتعد عنها، ويسأل الله العافية.

وفيها: الحذر من كتب الضلال والسِّحْر، ووجوب إتلافها، ومنع وقوعها في أيدي الناس.

وفيها: أنَّ المسلِم لا يحتاج إلى تعلُّم السِّحْر كي يتقيَه؛ لأنَّ عنده من المعوِّذات الشرعيَّة ما يكفيه.

وفيها: خطورة تَرْك الوحي، والاستعاضة عنه بالعلوم الأخرى.

وفيها: أنَّ غياب المُصلِحين سبَبٌ في انتشار البِدعة والفساد والشِّرك في الأرض؛ فقد نشطت الشياطين بعد وفاة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: مَكْر شياطين الإنس والجنّ.

وفيها: تحايل شياطين الجنّ؛ لإيقاع الناس في الشرِّ بكلِّ وسيلة.

وفيها: أنَّ من رحمة الله بعباده: أنَّه لم يسلِّط السَّحرة على الناس لتفعلَ فيهم ما تشاء، فقد يكيد سَحَرةٌ كثيرون بأسحار متعدِّدة لشخص واحد، لكن لا يضرُّونه بشيء.

وفيها: خطورة الميل ومحبَّة وتقديم علوم الكفَّار على عِلْم الوحي، ومن ذلك: افتتان بعض المسلمين في هذا الزمن المتأخِّر بنظريَّات الشرق والغرب، واتِّباعها بدلًا من الوحي.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: ولو أنَّ اليهود -الذين تركوا وحيَ الله، واتَّبعوا ما تتلو الشياطين، وتعلَّموا السِّحْر- ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما أُنزِل عليه، بقُلُوبهم، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرَّمه الله -ومنه السِّحْر- فآمَنوا بقُلُوبهم، واتقَوا بجوارحهم، واجتَنبوا الكُفر؛ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ أي: لأجرٌ وثواب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أضاف (الثواب) إلى نفسه ليطمئنَ العبد إلى حصوله، وليعلم أنَّه كثيرٌ وافرٌ؛ لأنَّ عطيَّة الكريم كثيرة. و(الثواب): هو الأجر والجزاء على العمل.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أنَّ ثواب الله في الآخرة خيرٌ لمن آمن واتقى في الدُّنيا، أو: خيرٌ من السِّحْر. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ عِلمًا ينفعهم. أي: لو كانوا من أصحاب العِلْم؛ ما قدَّموا السِّحْر على الإيمان بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتِّباعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَعْظ المذنِبين بعَرْض الإيمان والتَّقوى عليهم، وبيان أنَّهما سبَبان لنَيْل ثواب الله.

وفيها: أنَّ الشيء القليل من ثواب الله خيرٌ من الدُّنيا وما فيها.

وفيها: ضمان الثواب للمؤمن المتَّقي؛ لقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فيطمئن المؤمن لحصوله؛ لأنَّ الله لا يُخلِف الميعاد.

وفيها: أنَّ العِلْم النافع يحمل صاحبه على تَرْك المحرَّمات، وهو العِلْم المتصل بالقَلْب، وليس العِلْمَ النظريَّ المجرَّد.

وفيها: أنَّ مَن لا يعمل بما عَلِمَ فإنَّه جاهل، وأنَّ العِلْم الذي لا يَعمَل به صاحبه: وجودُه كعَدَمه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾:

وبعد تناولِ الآيات السابقة اليهودَ، وما قابلوا به نِعَمَ الله عليهم من أفعالهم القبيحة؛ توجَّه الخِطاب للمؤمنين، فنادى الله المؤمنين في **أول نداءٍ من نوعه في القرآن في ترتيب المصحف**؛ فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقد ورد هذا النِّداء في القرآن في تسعة وثمانين موضعًا.

وتصدير الحكم بالنِّداء دليلٌ على الاهتمام بهذا التوجيه وتنفيذ هذا الحكم؛ لأنَّ النِّداء يوجب انتباه المنادَى، وأنَّ صاحب الإيمان يتلقَّى أوامر الله تعالى ونواهيه بالطاعة والامتِثال.

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمعتَ الله يقول: (يا أيُّها الذين آمنوا)؛ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنَّه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه»[(١)].

فقال لهم -معلِّمًا إيَّاهم أدبًا من الآداب مع نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحذِّرًا لهم مشابهة الكفَّار واليهود في أقوالهم وأفعالهم-: ﴿لَا تَقُولُواْ﴾ لنبيِّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: أَرْعِنا سمعك، وراقِبنا، والتفِت إلينا، من (المراعاة)، وهي: العِناية بالشيء والمحافظة عليه. أي: تأنَّى بنا يا رسول الله، وأمهِل في الإلقاء حتى نفهَمَ كلامك.

وقد كان بعضُ المسلمين إذا أراد حاجة من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له هذه الكلمة، وكانوا أيضًا إذا ألقَى عليهم شيئًا من العِلْم، وتابع فيه، وصعُبَت عليهم الموالاة، وأرادوا الإمهال والتأنِّي في الإلقاء ليحفظوا؛ قالوا: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: أمهِلْنا وأنظِرْنا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد (٨٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠).

ومـع أنَّ هذا المعنـى جيِّد، والمقصود منه طيِّب، لكن جاء النهـيُ عنه؛ حذرًا وتلافيًا من الاستعمال السيِّء لهذه الكلمة، الذي كان يفعلُه اليهود بقَصْد سبِّ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم كانـوا يقولـون: «رَاعِنا يـا محمَّد»، ويريدون معنى فاسـدًا، مـن (الرُّعونة)، وهـي: الحُمْق والطَّيْش، وكانوا إذا أرادوا أن يحمِّقوا إنسانًا قالوا له: «راعِنا»، بمعنى: «يا أحمق». فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدًّا لهذا الباب.

وقيـل: إنَّهـا كانت كلمـة عِبرانيَّة، لها معنى عندهم في السبِّ والشتيمة، فاستعملوها قاصدين إيذاءَ النبيِّ ﷺ، فنهى الله المسلمين عنها تفويتًا للفُرصة على اليهود باستعمال هذه الكلمة بمقصودهم القبيح، وقد كان بعضُ المسلمين يظُنُّون أنَّ الأنبياء كانوا يُفَخَّمون بهذا، فنهاهم الله عنها.

وقيل: كانت لغةً في الأنصار في الجاهليَّة، فنهاهم الله عنها.

وأرشـد الله المسـلمين إلى كلمـة أخرى بديلة، تـؤدِّي المقصود المبـاح، دون أن يكون لها وجهٌ آخر قبيح؛ فقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ أي: انتظِرنا وأَمْهِلنا، حتى نفهم عنك ونعيَ كلامـك، وراعِ حالَنا، وتفَقَّدنا بنظرك، وانظر في مصالحنا، ونحو ذلك من المعاني والمقاصد التى كان المسلمون يَرْجُونها من النبيِّ ﷺ.

وأمـرَ الله المؤمنـين -في المُقابِـل- بالاسـتماع وحضـور الذهـن، حتـى لا يحتـاج النبيُّ ﷺ إلى إعـادة الـكلام، ولا تكثُـر مُراجعتُهـم لـه؛ فقـال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: سـماع استجابة وقَبول، بآذان واعية، وقُلُوب حاضرة، فأطيعوا، واستَجيبوا له.

ثم حذَّر مَن يخالف ذلك، وذَكَّر بعقوبته؛ فقال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء اليهود، وغيرهـم مـن الذيـن يـؤذون النبـي ﷺ ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عُقوبـة ﴿أَلِيمٞ﴾: مؤلِم مُوجِع.

ووَصْـف اليهـود هنـا بــ(الكافريـن) يدلُّ عـلى أنَّ تعمُّد سـوء الأدب في مخاطَبـة النبي ﷺ كُفرٌ، يستحقُّ صاحبه عليه العذاب الأليم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهى الشديد والتهديد والوَعيد للمتشبِّهين بالكفَّار، في أقوالهم وأفعالهم، ويدخل في ذلك: لباسهم وأعيادهم وعباداتهم.

وفيها: لُؤْم اليهود، وحِرْصهم على إيذاء النبي ﷺ، والتلاعُب بالألفاظ لأجل ذلك، كقولهم أيضًا عند التحية: «السام عليك» أي: الموت.

وفيها: استعمال الأدب في الألفاظ، خاصَّة في مخاطَبة الله ورسوله، وتَرْك الكلام الذي لا يناسب ذلك.

وفيها: استعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلَّا الحُسنَ وعدمَ الفُحْش، وتَرْك الكلام المُشْكِل الذي يحتمل معنًى سيِّئًا، أو يحتمل معنيَين أو أكثر، فيها الحَسَن، وفيها القبيح، أو الألفاظ التي فيها نوعُ تشويشٍ أو احتمالٍ لأمرٍ غير لائق، والعدول عن كلِّ ذلك إلى الكلام البيِّن الواضح، الذي لا يحتمل إلَّا وجهًا واحدًا صحيحًا حَسَنًا.

وفيها: تجنُّب الألفاظ التي تُوهِمُ سبًّا وشتمًا، خاصَّةً للكبراء والعلماء.

وفيها: النهي عن الأمر الجائز أو التوقُّف فيه، إذا كان وسيلةً إلى محرَّم.

وفيها: مراعاة الأخلاق الفاضلة.

وفيها: الإرشاد إلى البدائل الحسنة، وأنَّ الذي ينهى الناس عن شيء فإنَّ عليه أن يدُلَّهم على بدَله من المشروع والمباح قَدْرَ الطاقة.

وفيها: ارتباط الأخلاق الفاضلة بالإيمان.

وفيها: أنَّ مَن آذى النبيَّ ﷺ فهو كافر.

وفيها: إرشاد الطلاب إلى الانتباه للمعلِّم؛ حتى لا يَشُقوا عليه بكثرة طلبَ إعادة الكلام.

وفيها: أنَّ بعض الألفاظ العربيَّة قد تكون موجودة في لغات أعجميَّة، ولكن بمعانٍ مغايرة لها، فينبغي الانتباه لهذا عند الحديث مع أولئك القوم، أو تلقِّي حديثهم.

وفيها: العدول عن بعض الاستعمالات اللفظيَّة؛ تفويتًا للفرصة على الكفَّار والمنافِقين بالطعن في الدِّين، والاستهزاء بعباد الله المؤمنين، وحَسْمًا ومنعًا لطُرُق الشرِّ والفساد.

وفي الآية: دليلٌ لباب «سَدِّ الذرائع»، وهو من أبواب أصول الفقه المهمَّة.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾:

ولـمَّا نهى تعالى عن التشبُّه بالكافرين، ونهى عن تلك الكلمة التي استعملها اليهود قاصِدين بها معنى سيئًا؛ ذكر السَّبَب الباعث لهم ولغيرهم من الكفَّار على مثل هذا، فذكرَ عداوتهم للمؤمنين؛ ليأخذوا الحذرَ منهم، ويتنبَّهوا لكيدهم وشرِّهم، ولا يسلكوا مسلكَهم، أو يتشبَّهوا بهم.

فقال تعالى: ﴿مَّا﴾ نافية ﴿يَوَدُّ﴾ (الوُدّ): خالص المحبَّة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أُنزل على محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء به ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، من كفَّار العرَب وعبدَة الأوثان وغيرهم.

وكان بعض أهل الكتاب يزعمون أنَّهم يحبُّون المسلمين، ويوَدُّون لهم الخير، فبيَّن الله كذبَهم في هذه الآية، وأخبر أنَّهم لا يحبُّون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَّته ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يشمل: أيَّ خير، دينيّ أو دُنيويّ، قليلًا، أو كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (من) هنا لبيان مصدر النِّعمة وابتدائها، وأنَّها من الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

فهؤلاء اليهود والكفار يرَون أنفُسهم أحقَّ بالنبوَّة والوحي، وأحقَّ بالخير والثَّرْوات، فحسَدونا على ما آتانا الله من فَضْله، ولا يزالون يفعلون، ولا يتمنَّون الخير للمسلمين، وإن قالوا ذلك بأفواههم، ولو أمكنَهم أن يمنعوا القَطْر من السماء عن المسلمين لفعَلوا! ولذلك فهم يسعَون بكلِّ سبيل إلى نَهْب ثَرْوات المسلمين.

وكان اليهود قد حسَدوا المسلمين على هذا النبيِّ، وهذا القرآن، وكانوا لا يريدون أن تتعدَّى النبوَّة بني إسحاق، فلمَّا صارت النبوَّة والخير في محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -من بني إسماعيل- حسَدوا وبغَوا. وكذلك المشرِكون قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن ليس هؤلاء يَقْسِمون رحمة الله، وإنَّما الأمر كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فهو سبحنه يخصُّ بوَحيه ونبوَّته ورسالته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بحِكمته؛ أي: مَن يختار من عباده ويَصْطَفِي، ومشيئته سبحانه مقرونة دائمًا بالحِكْمة، فاختصاصه مَن يشاء بالرَّحمة مبنيٌّ على حِكمته سبحانه.

و(رحمته) تشمل رحمة الدِّين والدُّنيا.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: صاحب المَنِّ الكبير، والعطاء الواسع الكثير، فَضْله واسع غير محدود، وفَضْلُ غيرِه محدود.

وتُطلَق (الرحمة) على النبوَّة، كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وكما هو الراجح في قوله تعالى عن الخَضِر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات رحمة الله، ومشيئته، وإرادته، وفَضْله.

وفيها: أنَّ الذي لا يَوَدُّ الخير للمسلمين فيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى والمشرِكين.

وفي الآية: بيان عداوة صِنفَين من الكفَّار للمسلمين، وهما: أهل الكتاب والمشرِكين؛ حَسَدًا وبغيًا، ولا يزال الكفَّار إلى اليوم يحسُدون المسلمين على ما آتاهم الله من النِّعَم والثَّروات الدُّنيويَّة، ويَوَدُّون لو لم تكن بأيدينا، فيسعَون في نَهْبها بكلِّ سبيل.

وفي الآية: تحذير المسلمين من الاغترار بما يُطلِقه الكفَّار من العبارات المعسولة، التي يزعمون فيها إرادة الخير للمسلمين.

وفيها: أنَّ اختصاص شخص أو طائفة بنِعمة؛ من أسباب حَسَد الآخَرين له.

وفيها: أنَّ كلَّ خير ناله عبدٌ في دينه ودنياه؛ فمَصْدره من الله، وهو محضُ تفضُّلٍ منه تعالى ومِنَّة.

وفيها: أنَّ المتسخِّط على قِسمة الله تعالى للفَضْل والعطاء بينَ عباده، غير مؤمنٍ بحِكْمة الله ومشيئته، وهو في الحقيقة معترضٌ على قضاءِ الله وقدَرِه.

وفيها: التحذير من الثقة بالكفَّار؛ فلا يجوز تسليمُهم مُهِمَّات القيادة أو الريادة أو التخطيط للمسلمين؛ لأنَّ كُرْهَهم لنا يجعلُهم يمنعوننا من التقدُّم في أيِّ مجال.

وفيها: أنَّ فَضْل الله لا يمنعُه كُرْهُ كاره.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

ولـمَّا بيَّن تعالى حقيقةَ الوحي، وذكر تعالى الردَّ على اليهود في أمور متعدِّدة؛ أتبعَ ذلك بالـرَّدِّ على الطاعنين في الوحي والكارِهين له -ومنهم اليهود والمشرِكون- الذين كانوا يُثيرون الشُّبُهات حول القرآن وناسخه ومنسوخه، واغتاظوا من القرآن الذي نَسخ التوراة، وكانوا يقولون: ألَا ترون إلى محمَّد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولًا ثم يرجع عنه غدًا، ونحو ذلك من مقالات الطاعنين.

فقال تعالى -دفاعًا عن كتابه-: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، وقوله ﴿مَا نَنسَخْ﴾: أي ما نُبَدِّلْ ونمحُ.

و(النَّسْخ): رَفْع حُكم دليل شرعيّ متقدِّم، أو لفظه، بدليلٍ شرعيٍّ متأخِّر، وقد يكون الرفع للفظ النصِّ وحُكمه معًا، أو لأحدهما دون الآخر، وسواءً كان النَّسْخ من أثقل إلى أخفّ -كنَسْخ خمسين صلاة إلى خمس- أو من أخفّ إلى أثقل -كنَسْخ فرض صوم عاشوراء إلى فرض صوم رمضان- أو النَّسْخ إلى شيء مساوٍ في الثِّقَل والخِفَّة -كنَسْخ استقبال القبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة- أو كان نَسْخًا إلى بدلٍ -كالأمثلة السابقة- أو نَسْخًا إلى غير بدلٍ -كنَسْخ وجوب الصَّدَقة قبل مناجاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما يقول به كثيرٌ من العلماء.

فإنَّ كلَّ هذا النَّسْخ بجميع أنواعه صادرٌ عن مشيئة الله تعالى وحِكمته، وأنَّه إذا نسخ شيئًا أتى بخير منه، أو بمثله.

وقوله ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: من (النِّسيان)، وهو ذهول القَلْب عمَّا كان معلومًا. فمعنى ﴿نُنسِهَا﴾ أي: نُذْهِبها من قُلُوبكم.

وفي قراءة (نَنْسأها) أي: نؤخِّرها، ومعناه: تأخير إنزالها، أو تأخير حُكمها، أو إبقاؤه مع رَفْعِ تلاوتها ونَسْخِ لفظها.

وقولـه ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: مـا هو أفضـل للعباد وأرفق بهم وأسـهل عليهم، وأكثر أجرًا وثوابًا. ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: مثل المنسوخة في النفع والثواب والعمل.

وقوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ (الهمزة) للاستِفهام، والمراد به التقرير؛ أي: أنَّ الله يقرِّر المخاطَب بحقيقةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لقـد علمـتَ قُـدرة الله عـلى كلِّ شيء، ومن ذلك: قُدرته على النَّسْخ؛ فلا يُداخِلك شكٌّ ولا ريب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

قولـه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فمُلكهما ومـا فيهما وما بينهما له لا لغيره، يحكـم فيهما، وفيما بينهما، بما شـاء من أمرٍ ونهيٍ، ونَسْخٍ وتبديلٍ، فيفعل ما يشـاء ويحكم ما يريد، فالذي يملك الشيء يَقْدِر على التصرُّف فيه.

والنَّسْخ من أفعال الله، يفعله متى شاء، كيف شاء، وليس للعباد إلَّا السمع والطاعة.

وقولـه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مـا لكم سـوى الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر أو قريـب أو معـين، يتولَّاكم ويجلب لكـم خيرًا. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا نـاصر، يدفع عنكم شرًّا، ويقيكم عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها تقوية للمؤمنين في وَجْه شُبُهات اليهود حول النَّسْخ وغيره. فاعتصموا بالله أيها المؤمنون، ولا تَهُولَنَّكم شُبهات اليهود، وتوكَّلوا على الله؛ فهو وليُّكم من دونهم، وناصرُكم عليهم.

ومما يُرَدُّ به على هؤلاء اليهود أيضًا: أن يُقال لهم: إنَّ النسخ موجود عندكم في شريعتكم والشرائع السابقة، فلماذا تُنكِرون وجوده في شريعتنا؟!

ألم يكن تزويج آدم لبناته من بَنيه مباحًا، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

ألم يكن نكاح الأختَين مباحًا ليعقوب وبنيه، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

أَلَم يؤمَر إبراهيم بذَبْح ولده، ثم نُسخ هذا الأمر وجاء الله ببَدله، وهو الكبش العظيم؟!

إلى غير ذلك من الأمثلة.

وفي الآية: أنَّ القادر على تغيير الأمور الحِسِّيَّة في السماوات والأرض، قادرٌ على تغيير الأمور المعنويَّة في الأحكام والشرائع.

وفي النَّسْخ حِكَمٌ ومصالح؛ ومنها: اختبار امتِثال المكلَّف بهذه الأحكام.

ومنها: الترفُّق مع المكلَّفين، بالتدرُّج في فرض الأحكام عليهم، كما حصل في الصَّلاة والصيام وتحريم الخمر.

وقد يكون النَّسْخ جزاءً حَسَنًا من الله على الامتِثال والطاعة، كما حصل في قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما حصل في موقف الصَّحابة من قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلمَّا خضعوا لله وقالوا: ﴿**سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا**﴾؛ أنزل الله التخفيف في عدم المؤاخذة على الإكراه والنِّسيان والخطإ[1].

وقد يكون النَّسْخ عُقوبة، كما حصل مع بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿**فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ**﴾ [النساء: ١٦٠].

﴿**أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨**﴾:

وقوله ﴿**أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ**﴾ أي: محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخِطاب للمؤمنين والكافرين؛ فهو رسول الله إلى الجميع، من اليهود والنصارى والمشركين والمسلمين وغيرهم.

وقيل: المقصود بهذه الآية: اليهود، لـمَّا سألوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤال المذكور في قوله تعالى: ﴿**يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ [النساء: ١٥٣].

وقيل: المقصود: المشرِكون، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رافع بن حُرَيْملة

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

ووَهب بن زَيد وَوَهْبُ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ائتنا بكتاب تُنَزِّله علينا من السماء نقرأه، وفَجِّر لنا أنهارًا؛ نتَّبِعك ونصدِّقك»؛ فأنزل الله هذه الآية(١).

وقوله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾: إمَّا أن تكون ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى (بل)؛ أي: بل تريدون، وإمَّا أن يكون المراد بها الاستِفهام، والمقصود: الاستِفهام الإنكاري؛ أي: الإنكار على مَن يُكثِرون سؤالَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ورد أنَّ أصحاب النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتنعوا عن سؤاله، كما قال أنس ابن مالك: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ العَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ»(٢)، وورد أنهَّم سألوه عن مسائل.

والجَمْع بينهما: أنَّ ما سألوا عنه غيرُ الذي كَفُّوا عنه، فما كفُّوا عنه هو أسئلة التعنُّت والمعاندة، والتي يُقصَد بها ردُّ الحقِّ، والتلكُّؤ في تنفيذ الأمر، كما كان بنو إسرائيل يفعلون مع أنبيائهم.

ومثله: كَفُّ الصَّحابة عن السؤال عن الأُغْلُوطات، وعمَّا يُقصَد به إحراج المسئول لا الاستفادة منه. وكَفُّوا أيضًا عن السؤال عمَّا لا يقع عادة؛ لأنَّه تكلُّفٌ وإضاعة وقت.

وقد كَفُّوا أيضًا عن السؤال عمَّا سكت الله عنه؛ لأنَّ الله تعالى لا ينسى، وسكوته عن شيء يدلُّ على إباحته، ولذلك حذَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين في عَهْده من هذا النوع من الأسئلة؛ فقال: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ من أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»(٣). ونحو ذلك من الأسئلة المكروهة.

لكنَّهم كانوا يسألون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأمور التي تقع لهم، وما يُفيدهم في أمر دِينهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

والمقصود من هذه الآية: أنَّ الله ذمَّ مَن سأل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء على سبيل التعنُّت والاعتراض، واقتراح المعجِزات -فإنَّ أمرها إلى الله-.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٠).

(٢) رواه مسلم(١٢).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

وقوله ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: كما سـأله بنو إسرائيل أن يُريَهم الله جَهْرَة، وقد سأل كفَّارُ قُريش النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل الله لهم الصفا ذهبًا.

وقولـه ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: يأخذ الكُفر، ويختـاره بديلًا عن الإيمان؛ ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: انحرف وتاه ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الوسَـط المسـتقيم -طريق الحقِّ والهدى-.

والمقصـود: أنَّ مَـن ترك الثقـة والإقبال على الآيات البيِّنات المنـزَّلة، واسـتبدلها بأسـئلة التعنُّـت التي يُقصَد منها التكذيـب والمُعانَدة، وطلبَ حصـولَ معجِزات أخرى يقترحها على الله، وكأنَّ ما رآه لا يكفيه؛ فقد ضلَّ طريق الإيمان ووقع في الكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسـلِم في زمن الوحي مطالَبٌ بأن يسـكت عمَّا سـكت الله عنه؛ حتى ينـزِّل الله عَزَّوَجَلَّ ما أراد -من أمرٍ أو نهي-.

وفيها: النهي عن مشابهة اليهود والمشرِكين.

وفيها: أنَّه لا ينبغي إلقاء السؤال على العالِم إلَّا لمصلحةٍ أو فائدةٍ.

وفيها: أنَّه يجب على السائل أن يعملَ بما أُجيب به.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾:

قيل في سبَب نزول الآية: أنَّ عددًا من أحبار اليهود ورؤساءَهم -ككعب ابن الأشرف، وحُيَيِّ بن أخطَب، وأبي ياسر بن أخطَب -كانوا قد حَسَدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين على النِّعمـة العظيمة التي آتاهم الله، من الإسـلام والقرآن ونبوَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فصار هؤلاء اليهـود يتمنَّون ويـوَدُّون أن يرتدَّ هؤلاء المسـلمون، ويَرجعوا إلى الكُفـر، فصاروا يقومون بكلِّ ما يقدِرون عليه لصَرْف المسلمين عن التوحيد والإسلام؛ فأنزل الله هذه الآية[1].

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٩).

وقولـه ﴿حَسَدًا﴾ أي: الباعث لهم على هذا هو الحَسَـد، وهو الـذي حملهم على الكُفر بنبيِّنا وشريعتنا؛ فوبَّخهم الله عَزَّوَجَلَّ، وعيَّرهم، ولامَهم أشدَّ اللَّوم.

وقولـه ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: ليـس من عنـد الله؛ وإنَّما مـن قِبَلِ أهوائهـم وزَيْغهم وخُبْثِ نفوسهم، المنطوية على الحَسَد، وتمنِّي زوال النِّعمة عن الآخَرين.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: ظهـر بـما لا يَـدع مجـالًا للشـكِّ ﴿لَهُمُ﴾ أي: لهـؤلاء اليهود ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: دين الإسلام، الذي اشتمل على الصِّدق في الأخبار، والعَدْل في الأحكام. وقد تبيَّن لهم الحقُّ من خلال الأوصاف الموجودة في كتابهم، ومن خلال الآيات والمعجِزات البيِّنات الظاهرات التي حدثت للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامهم.

ولـمَّا بيَّن خُبثَ هؤلاء اليهود الذين لا يريدون اتِّباع الحقِّ، ولا يريدون لغيرهم الدُّخولَ فيـه، ولا الاستمرار عليه؛ ذكرَ تعالى طريقـةَ معاملة هؤلاء، في مرحلةٍ زمنيَّـةٍ معيَّنةٍ، فقال: ﴿فَٱعْفُواْ﴾ أي: اتركوهـم، ولا تنتقمـوا منهـم. و(العفـو): تَـرْك المؤاخـذة عـلى الذنـب. ﴿وَٱصْفَحُواْ﴾ أي: أَعْرِضـوا عنهـم، واتركـوا لومَهم، مـن غير رضا بفِعْلهـم، ولا حالهم. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: يأذن بقتالهم.

ومـن هنـا قـال ابـن عبَّـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغـيره مـن المفسِّريـن: إنَّ قـوله تعـالى ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ منسـوخٌ بآيـة السَّـيْف؛ وهـي قولـه تعـالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، ومـا شـابهها، كقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩][(١)].

وقـد روى البخـاري عـن أسـامة بـن زيـد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُـهُ يَعْفُـونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَـمَا أَمَرَهُمُ الله، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى... وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَـأَوَّلُ العَفْـوَ مَا أَمَرَهُ الله بِـهِ، حَتَّى أَذِنَ الله فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَـدْرًا، فَقَتَـلَ الله بِـهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْـشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَـلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِـنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَأَسْلَمُوا»[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٣)، تفسير القرطبي (٢/ ١٧).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٦٦).

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: عنده كمال القُدرة في الانتقام من هؤلاء الأعداء، بالقَتْل أو الإجلاء لو شاء، أو هدايتهم إذا أراد، لا يَعتَريه عَجْزٌ، ولا يَلْحَقه نقصٌ، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان شِدَّة عداوة اليهود والنصارى للمسلمين.

وفيها: أنَّ الكُفر بعد الإسلام يُسَمَّى (رِدَّة)؛ لقول الله تعالى: ﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾.

وفيها: تحريم الحَسَد، وأنَّ صاحبه متشبِّه باليهود.

وفيها: بيان خُبث طويَّة أهل الكتاب.

وفيها: مراعاة الله لأحوال المؤمنين.

وفيها: جواز مُهادَنة الكفَّار إذا لم يكن للمسلمين قوَّة.

وفي الآية: بِشارة للمؤمنين، أنَّ الله سيغيّر حالهم إلى حالٍ يستطيعون فيه الجهاد؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾:

قوله ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أدُّوها بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُننها، على وَجْه الكمال.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ادفعوها بطِيب نَفْسٍ إلى مصارفها. وسمِّيت (زكاة)؛ لأنَّها تزكِّي الإنسان وتطهِّره.

وقوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ (ما): أداة شرط، والمعنى: أيُّ شيء تفعلونه لمصلحة أنفسكم. ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أيّ خير وعمل صالح كان. ﴿تَجِدُوهُ﴾: جواب الشرط؛ أي: تجدون ثوابه وجزاءه، وتلقَونه يوم القيامة مدَّخرًا لكم، مضاعفَ الأجر.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: هـذا يبيِّن شَرَف هذه الأعمال؛ لأنَّها ما دامـت محفوظة عنده فلن تضيع، وسيُضاعَف لفاعلها الأجر؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ شكورٌ كريمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: مـن الخـيرات ﴿بَصِيرٞ﴾ أي: عليـم بنيَّاتكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان ما ينبغي أن يكون عليه حالُ المسلمين في زمن الاستضعاف، من الاهتِمام بالعِبادات، وإعـداد النفس بالطاعات، مع الاسـتعانة بالله والصَّبر، واسـتصحاب الأمـل بتغيُّر الحال، والقُدرة على جهاد الكفار.

وفي الآية: إقامة الفرائض والنوافل.

وفيها: أنَّ الصَّلاة آكد من الزكاة؛ لأنَّه قدَّمها عليها.

وفيهـا: أنَّ إقامة هاتَين الشـعيرتَين -الصَّـلاة والزكاة- من أسـباب النصر والتمكين في الأرض.

وفيها: أنَّه ينبغي للمسلم أن يشتغل بالأهمِّ فالأهمّ من الدِّين.

وفيها: أنَّ كلَّ عمل يعمله المسلِم -مهما كان صغيرًا- فإنَّه يُثاب عليه.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: أهـل الكتـاب، مثل: يهود المدينـة، ونصارى نَجْـران في العهد النبويّ: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: قالـت اليهـود: «لـن يدخـل الجنَّـة إلَّا يهوديّ»، وقالت النصارى: «لن يدخل الجنَّة إلَّا نصرانيّ».

وقوله ﴿تِلۡكَ﴾ أي: المقالة الباطلة، والزَّعم بغير مسـتنَد ﴿أَمَانِيُّهُمۡ﴾ جمع «أمنيَّة»، وهي: ما يتمنَّاه الإنسان بدون اتِّخاذ سبَبٍ يُوصِلُهُ إلى ما يتمنَّاه. فزَعْمُ اليهود والنصارى هذا تمنٍّ كاذِب، وشهوة باطلة، وغرور وضلال وأحلام.

ثـم قال تعالى في الـرَّدِّ عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يـا محمَّد ﷺ ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي: أحـضِروا دليلكـم، وحُجَّتكم على اختصاصكـم بالجنَّة ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: في مقالتكم وزَعْمكم، وهذا أسلوبُ تحدٍّ لهؤلاء من أهل الكتاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان تعصُّب اليهود والنصارى، وتحجيرهم رحمةَ الله الواسعة.

وفيهـا: أنَّ مَـن طمع في المنـازل العالية بـدون عمل؛ فهو مُغـترٌّ بالأمانيّ، وفيه شَـبَهٌ من اليهود والنصارى.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

وقولـه ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جـواب، يُفيد إبطالَ النفـيِّ المتقدِّم في قول أهـل الكتاب: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾. فكأنَّهـم لـمَّا قالـوا: لـن يدخـل الجنَّـة غيرنـا؛ أُجِيبوا: بلى يدخل الجنَّة غيركم، وزَعْمكم باطل!

ثم بيَّن تعالى صفات الذين سيدخلون الجنَّة؛ فقال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، و(إسلام) الشيء للشيء: جَعْلُه سالمًا له، بحيث لا يكون لأحدٍ آخر حقٌّ فيه، فمَن جعلَ اتجاهه وقصده وإرادته خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ كان مسلِمًا له.

وجاء التعبير بـ(الوجه)؛ لأنَّه يدلُّ على قصد الإنسـان. وهذا هو الإخلاص، الذي هو الركن الأول من رُكنَي العمل الصالح.

والركـن الثـاني هو: إحسـان هـذا العمـل، وهو جعلـه موافقًا لسُـنَّة النبي ﷺ، ولـذلك قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في حال كونه محسنا.

فإذا كان عمله خالصًا صوابًا؛ كان جزاؤه ما ذكره الله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ أي: ثوابه. وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يُفيـد تعظيـم هذا الأجر؛ لأنَّه من عنـد الله، وأنَّ هذا الأجر محفوظ لا يضيع؛ لأنَّه عند الله الحفيظ الكريم.

وقوله ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: في المستقبَل في الآخرة، فمَن خاف اللهَ في الدُّنيا أَمِنَ يوم القيامة.

والخوف إنَّما يكون ممَّا يُتوقع في المستقبَل، كما أنَّ الحُزن يكون على ما وقع سابقًا، ولذلك نفاه عنهم بقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم.

فلمَّا جمع هؤلاء بينَ الإخلاص لله واتِّباع شَرْعه؛ جمع الله لهم بينَ الأمن وعدم الحزن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ إخلاص النِّيَّة وحدَه لا يكفي، وأنَّ العمل إذا كان مُبتدَعًا لا يقبله الله، ولو كان العامل مخلِصًا لله، وهذا مِثل عمل الرُّهبان؛ فلا يُتقبَّل منهم.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾:

ثم بيَّن تعالى تباغُض أهل الكتاب فيما بينهم، وتعانُدَهم، ومُعاندةَ بعضهم بعضًا؛ فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي: من الحقِّ والصواب، ولذا: كفَروا بعيسى والإنجيل.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ فكفَروا بموسى والتوراة.

﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: قالوا قولهم هذا في حال كونهم يقرأون التوراة والإنجيل.

وقد قيل في سبَب نزول هذه الآية: أنَّ وفد نصارى نَجْران قد اجتمعوا مع أحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا، فقال رافع بن حُرَيْملة اليهوديّ للنصارى: «ما أنتُم على شيء»، وكفرَ بعيسى والإنجيل، فقال رجلٌ من أهل نَجْران من النصارى لليهود: «ما أنتم على شيء»، وجحدَ نبوَّة موسى، وكفرَ بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية[1].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٥١٣)، تفسير البغوي (١/ ١٣٨).

والحقُّ: أنَّ أوائل اليهود والنصارى كانوا على دين صحيح، ولكنَّهم ابتدعوا وتفرَّقوا بعد ذلك.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ يشمل: قولَ كلِّ جاهل، من اليهود، أو النصارى، أو مُشركي العرَب، أو غيرهم؛ فإنَّ بعض كفَّار العرَب قالوا: ليس محمَّد ﷺ على شيء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك القول الذي قالت به اليهود والنصارى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: من مُشركي العرَب وعَبَدة الأصنام، وطوائف أخرى من الجهلة والأُمَم السابقة ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يفصل ويقضي في هؤلاء المختلِفين، فيبيِّن عَزَّوَجَلَّ مَن هم أهل الحقِّ، ومَن هم أهل الباطل، ثم يجازيهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: وهو يوم الجزاء والفَصْل. وسُمِّي بذلك؛ لأنَّ الناس يقومون فيه من قبورهم لربِّ العالمين، ولقيام الأشهاد فيه، ويُقام فيه العَدْل.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمور الدِّين، وتعيين الحقِّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المِلَل الباطلة يُكفِّر بعضها بعضًا، وأنَّ الإسلام عدُوٌّ مشترَك لجميع الكفار.

وفيها: شِدَّة قُبْح مَن خالف الحقَّ وهو يعلم.

وفيها: إثبات الحُكم لله عَزَّوَجَلَّ.

وحُكم الله: منه ما هو شرعيّ -كأحكام الحلال والحرام- ومنه ما هو كونيّ -كما في قوله تعالى حكايةً عن أخي يوسف: ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]؛ فهو القضاء والقدَر- ومنه ما هو جزائي، وهو ثمرة الحُكم الشرعيّ، كما هو المقصود في هذه الآية.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾:

وقوله ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلم وأشدَّ تعدِّيًا ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾ أي: مِن الذي منع ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: أضافها إليه جلَّ وعلا تشريفًا لها؛ لأنَّها محلُّ عبادته.

﴿أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾: هذا يشمل كلَّ أنواع ذِكر الله، من الصَّلاة، والذِّكر، والأذان، والاعتكاف، ومُدارسة العِلْم، وتدريسه، ونحو ذلك.

﴿وَسَعَىٰ﴾ أي: جدَّ واجتهد ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ يشمل: التخريب الحِسِّي والمعنويّ.

والتخريب الحِسِّي مثل: هدمها، أو قَصْفها، أو إزالتها، أو تحريقها، أو تحويلها إلى متاحف أو دُور لَـهْو أو مستودَعات أو كنائس، ونحو ذلك.

والتخريب المعنويّ مثل: تعطيل الصَّلاة، ومنع الدُّروس، أو الاعتكاف، ونحو ذلك من أنواع ذِكْر الله.

وبعض الظلمة يبني المساجد وينقشها ويزيِّنها ويُطوِّل مناراتها -ابتغاءً للشهرة والمفاخرة والرِّياء والسُّمعة- ثم يجعلها خلْوًا من أنواع ذكر الله! وهذا تعطيلٌ لوظيفة المسجد، ونوعٌ من التخريب بلا شكٍّ.

ومن الظُّلْم: أن يُجعَل دَورُ المسجد قاصرًا على أنواعٍ من الذِّكر، دون أنواع أخرى مُهِمَّة.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هؤلاء الذين منعوا مساجدَ الله أن يُذكَر فيها اسمه:

فقيل: هم النصارى؛ فكانوا يطرَحون في بيت المقدِس الأذَى، ويمنعون الناس أن يُصَلُّوا فيه، وقد قام بُخْتَنَصَّر -الملك المجوسيّ- بتخريبِ مسجد بيت المقدِس وحَرْقِه، وقَتْلِ العُبَّاد فيه، وجعلَه محلًّا للجِيَف والقاذورات، في قِصَّة مشهورة حدثت في التاريخ.

وقيل: هم مُشركو قُرَيش؛ حيث منعوا رسول الله ﷺ من إتيان البيت الحرام، كما وصفهم الله بأنَّهم يصُدُّون عن البيت الحرام في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

والآية -على كلِّ حالٍ- تشمل بلفظِها كلَّ نوع من أنواع التخريب الحِسِّيّ والمعنويّ لبيوت الله، في كلِّ عصر ومصر.

ثم قال الله تعالى عن هؤلاء المانعين من ذكر اسمه في المساجد، الساعين في خرابها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وسعَوا في

خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي: من المسلمين أن يَبْطِشوا بهم. وقال قتادة: «لا يدخلون المسجد إلَّا مُسارَقة»[1].

وقيل: المعنى: ليس لهم حقٌّ أن يدخلوا المساجد إلَّا خائفين.

وقيل: إنَّ الخبر هنا يحمل معنى النهي، أي: لا تَدَعُوهم أيُّها المؤمنون أن يدخلوها -إذا تغلَّبتم عليهم- إلَّا خائفين.

وقيل: إنَّ هذه الآية بِشارةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، بأنَّهم سينتصرون على المشرِكين الذين منعوهم من دخول المسجد الحرام، فلا يدخل هؤلاء المشرِكون عندئذٍ المسجدَ إلَّا خائفين، ترجُف قُلُوبهم.

﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المانعين ﴿فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذُلٌّ وعار وهوان، بالقَتْلِ، والسَّبي، وضربِ الجِزية عليهم.

وقيل: الخزي بخروج المهديّ، ونزول عيسى ابن مريم؛ فإنَّ الشِّرك ودين أهل الكتاب سينتهي من الأرض.

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عُقوبة عظيمة أشدُّ ممَّا حصل لهم في الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إضافة المساجد إلى الله -تشريفًا لها- يقتضي تطهيرَها وتعظيمَها، وألَّا يُوضَع فيها ما يكون سبَبًا للشِّرك بالله -كضريح ونحوه-؛ لأنَّ في ذلك إخراجًا لها عن موضوعها، فلا تصبح لله حينئذٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨].

وفيها: أنَّ الناس في المساجد سواء؛ لأنَّه لـمَّا قال ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، والناس عبادٌ لله؛ فكلّ مَن أتى إلى هذه المساجد فلا فرق بينه وبين الآخَرين.

وبناء عليه؛ فلا يجوز حَجْزُ الأماكن في المساجد ليقضيَ أصحابُها الوقت الطويل خارج المساجد -لتجارة، أو نوم، أو طعام، أو استمتاع عند الأهل- فيكون قد منع ذِكر الله فيها، ومنعَ شخصًا أحقَّ منه بالذِّكر في تلك البُقعة المحجوزة.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٧).

ويمكـن أن يؤخذ مـن الآية: أنَّه كما يَحرم إغلاق المسـاجد في وجـه الذاكرين لله، ويَحرم منعهـم من الذِّكـر فيها، فإنَّـه في الجانب المقابِل يجـوز إغلاقها لمصلحة شرعيَّـة، كالمحافظة علـى مُقتنياتها الموقوفة من السَّرقة، وصيانة لأجهزتها من العَبَث، أو إغلاقها جزئيًّا أو مؤقَّتًا للترميم ونحوه، أو إغلاقها في أوقات الفِتَن إذا خُشِيَ عليها الاعتداء والتحريق ونحو ذلك.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى إثمَ تخريب المساجد، أتبعَه ببيـان أنَّ العِبادة تكون في كلِّ مكان -وإن لم يوجد مسجد- وأنَّ العِبادة ليست خاصَّة بالمساجد.

وهل هذه الآية منسوخة، أم مُحْكَمة غير منسوخة؟ قولان للمفسِّرين:

فقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أول ما نُسِخَ من القرآن فيما ذُكر لنا -والله أعلم- شأنُ القبلة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، فاستقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلَّى نحو بيت المقدِس، وتركَ البيت العتيق، ثم صرفَه الله إلى بيته العتيق، ونسخَها؛ فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]»[١].

والقـول الآخـر: أنهـا مُحْكَمة غير منسـوخة، وأنَّ المراد بهـا: صلاة النافلة علـى الراحلة في السفر؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ»، قـال: وفيه نزلَتْ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾»[٢].

ويدخل في هذا أيضًا: الصَّلاة إلى أيِّ جهة كانت، عند العَجْز عن استقبال القِبلة، كحال الالتحام بالعدوّ، واشتباك الجيشَين، وكذلك الأسير، والمريض الذي لا يستطيع التوجُّه إلى القِبلة، وليس هناك مَن يُوَجِّهه.

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) للاختصاص أي: أنَّ الله مختَصٌّ بمُلك المشرق والمغرب؛ فهما له وحدَه، لا لغيره.

---

(١) رواه النسائي (٣٤٩٩) مختصرا، والطبري (٣/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٢١٢) -واللفظ له-.
(٢) رواه مسلم (٧٠٠).

و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مكان شروق الشمس، ﴿وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾: مكان غروب الشمس؛ فله الأرضُ كلُّها؛ لأنَّ المشرق والمغرب يشملان جميع نواحي الأرض.

﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ أي: أينما توجَّهتم للصلاة، وذلك في حال عدم القُدرة على التوجُّه إلى القِبلة -كما تقدم-؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: هناك ﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾: قال بعض المفسِّرين: يعني: الجهة. وقال بعضهم: بل المراد: وَجْه الله الذي هو صفة من صفاته تليق بجلاله وعَظَمته.

والمعنى: أنَّكم في أيِّ مكان كنتم من الأرض، فتوجَّهتم في صلاتكم؛ فإنَّكم تتوجَّهون إلى الله.

وفي الحديث، في وصايا يحيى بن زكريّا عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل: «فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»[١].

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الإحاطة، وواسع العِلْم والقُدرة، وواسع الرحمة والفَضْل، يسَع خلقَه كلَّهم بجُوده وفَضْله.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو عِلْم، وعِلْمه محيط بكلِّ شيء، ومن ذلك: أعمال العِباد، لا يغيب عنه منها شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُموم مُلك الله تعالى للمشرق والمغرب وما بينهما، وانفراده بهذا المُلك، ولأنَّه يملك الجهات؛ فهو الذي يأمر باستقبال أيِّ الجهات شاء، لتكون قِبلةً في الصَّلاة، فلا يجوز لأحد الاعتراض على الله في هذا -كما فعلت اليهود-.

وفي الآية: إثبات (الوَجْه) لله تعالى، والوَجْه صفة عظيمة نعتقدها لله، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل.

وفي الآية: أنَّ لله تعالى مكانًا، كما دلَّ عليه قوله: ﴿فَثَمَّ﴾، وهي إشارةٌ إلى المكان، وهو عَزَّوَجَلَّ فوق سماواته على عرشه.

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٥٢).

ولـمَّا اختبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الجارية، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّـمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَـا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُـولُ اللهِ؛ قَالَ لمولاهـا: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1]، فصدَّقها وشـهد لها بالإيمان. وهذا يدلُّ على بُطلان قول مَن قال: إنَّ الله في كلِّ مكان.

وفي الآية: أنَّ مَن اشتبهت عليه القِبلة، ولم يجد مَن يسأله ممَّن يعرفها، فاجتهد وصلَّى؛ فلا إعادة عليه، وإن تبيَّن له أنَّه صلَّى إلى غير القِبلة.

وفيهـا: أنَّ العِبـادة والصَّلاة لا تختصُّ صِحَّتها ببقـاعٍ معيَّنة من الأرض؛ بل كلُّ الأرض شرقًا وغربًا تصلُح للصلاة.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾:

وقوله ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾: اشـتملت هذه الآية الكريمـة على الرَّدِّ على النصارى واليهود ومُشركي العرَب وغيرهم، ممَّن زعم الولدَ لله.

وهـذا الولـد المزعوم قد جـاء مفصَّلًا في آيـاتٍ أُخَر، كقولـه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ عن مُشركي العرَب: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧].

وقـد كذَّب تعالى هؤلاء في مَزاعِمهم، ونزَّه نفسـه عـن كُفرهم هذا، بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وهذه كلمة تنـزيه، فتعالى الله أن يكون له ولد؛ لأنَّه لا يحتاج إلى ولد كما يحتاج المخلوق، والولد يتولَّـد مـن ذكر وأنثى، والله ليس له نظير ولا زوجة، والولد يكون عادة من جِنس والده، والله أحـدٌ فردٌ لا يُشْـبِهه شيء؛ فكيف يكـون له ولد، وليس كمثلـه شيء؟! والولد يكون عادة عن جِماع بينَ الزوج والزوجة، وهذا يقتضي شهوة ووطأً، والله تعالى منزَّه عن كلِّ هذا.

ولهـذا كان من الشَّـتيمة العظيمة للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ: ادِّعاءُ الولـد له، ولأجل ذلك أوردَ الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيحه»، في تفسير هذه الآية، الحديثَ القُدْسِيَّ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ: فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»(١).

وقوله ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: يبيِّن أنَّ جميع الأشياء مربوبة مخلوقة، فكيف يكون منها ولدٌ لله تعالى؟ وهل الذي له مُلك السماوات والأرض يحتاج إلى ولد؟ فعُموم مُلكه يستلزم استغناءَه عن الولد، وكيف يكون المخلوقُ ولدًا للخالق؟!

وقوله ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: خاضعون ذليلون. و(القنوت): هو الطاعة والاستكانة لله.

والقنوت منه ما هو شرعيٌّ خاصٌّ، يفعله المؤمن اختيارًا وطاعةً لربه.

ومنه نوعٌ قدَرِيٌّ عامٌّ، قَهَرَ الله العِباد عليه، ومنه: قنوت الأشياء لله تعالى في هذا الكون، ومنه قنوتُ الكافرِ، بمعنى: الخضوع تحت أمر الله الكونيِّ، وعدم القُدرة على الخروج عن قضائه وأمره، إذا قال للشيء: «كُن»؛ فكلُّ ذرَّةٍ في بدن هذا الكافر وفي الكون تخضع لله عَزَّوَجَلَّ.

والكافر أيضًا تظهر يومَ القيامة طاعتُه لله وقُنوتُه وخضوعُه له.

وقوله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُبْدِع السماوات والأرض. والمُبدِع: هو الذي يأتي بشيءٍ لم يسبقه إليه أحد، أو يصنع شيئًا ليس له مماثل سابق، ولهذا سُمِّيَ المبتدِع في الدين مُبتدِعًا؛ لأنَّه أحدثَ قولًا وفعلًا لم يأتِ به أحدٌ سبقَه، ولا دليل عليه، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢).

والله تعالى أبدعَ الأشياء، وأحدَثها وأنشأها على شكل فائق، ليس له مثال سابق. وهو الأول في فِعْله، فلم يوجَد أحدٌ قبله ليفعلَ أو يخلقَ شيئًا أصلًا.

وإذا كان هو الذي خلق السماوات والأرض من غير أصل ولا مثال؛ فكيف يكون له ولدٌ؟ تعالى وتقدَّس سبحانه.

وقوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي: إذا قدَّر أمرًا وأراد أن يقضيَه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢)، باب: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٤٥٥).

وقوله ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُۥ﴾ أي: لذلك الذي أراد إيجادَه: ﴿كُن﴾ أي: أُحدُث، يقولها مرَّة واحدة؛ ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: يَحْدث ذلك الأمر كما أراد الله، من غير توقُّف ولا إباء ولا تأخُّر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

و(الفاء) في قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تدلُّ على الترتيب والتعقيب، وهو الحدوث الفوريّ، فعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -مثلًا- هو كلمة الله، أي: مخلوقٌ فورًا بكلمة «كُن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إبطال دعوى الكفَّار الكاذِبة بأنَّ لله ولدًا، من ستة أوجه:

١. أنَّه نزَّه نفسه عن النقص، بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، والولد في حقِّه نقصٌ.

٢. وأنَّه ذكر عُمومَ مُلكه، بقوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وعُموم مُلكه يستلزم استغناءَه عن الولد.

٣. وأنَّ الملك في قوله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يترتَّب عليه أنَّ المملوك لا يكون ولدًا للمالك.

٤. وأنَّ قوله ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ ما سوى الله خاضعٌ ذليلٌ له، فكيف يكون العبدُ الخاضع الذليل ولدًا للرَّبِّ؟!

٥. وأنَّ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي أوجدَها من غير مثال سابق، قادرٌ على أنَّ يخلق عيسى من غير أب.

٦. وأنَّ قوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يدلُّ على كمال قُدرته، التي لا يستحيل معها أن يُوجِدَ ولدًا بدون أب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾:

قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: هم النصارى، وقيل: هم كفَّار العرب.

﴿لَوۡلَا﴾ أي: هلَّا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: عِيانًا مباشرة، بأنَّك يا محمَّد رسولٌ من عنده. ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ أي: حُجَّة ومعجِزة، تدلُّ على صِدقك؟!

وقد اقترحوا وحدَّدوا أمورًا من ذلك؛ مثل: أن يَفْجُرَ لهم من الأرض ينبوعًا، أو يُسْقِط السماء عليهم كِسَفًا -أي: قِطَعًا- أو يأتيهم بالله والملائكة قَبيلًا -أي: مُجتَمعين- أو يكون له بيت من زُخرُف -أي: ذهب- أو يرقى بسُلَّم في السماء حتى يدخلَ فيها وهم يرونَه! ونحو ذلك مِن تقدُّمهم على الله بآرائهم واقتراحاتهم، وهذا من عِنادهم وتمرُّدهم وعُتُوِّهم.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا القول الشنيع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: من كفَّار الأُمَم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ أي: مثل هذه الاقتراحاتِ وطلبِ الآيات.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: تماثلَت وتوافَقت. والمعنى: أنَّ قُلُوب الكفَّار الأوَّلين والآخِرين متشابهة في رفض الحقِّ والعِناد والجحود، فَهُم -وإن اختلفت أساليبهم، والأشياء المطلوبة من قِبَلِ كلٍّ منهم- لكنَّ قُلُوبهم قد تواطأتْ واجتمعتْ على العمَى والعِناد ورفض الحقِّ.

وقوله ﴿قَدۡ بَيَّنَّا﴾ أي: أظهرنا ووضَّحنا ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الدالَّة على الحقِّ ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: يَطلبون اليقين. و(اليقين): هو أبلغ العِلْم وآكده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل الباطل يُجادِلون بالباطل.

وفيها: أنَّ الذي لا ينقاد للحقِّ فهو جاهل.

وفيها: إثبات المشرِكين لكلام الله، ومن العجيب أنَّ بعض المبتدعة من هذه الأُمَّة يُنكِره!

وفيها: أنَّ أقوال أهل الباطل تتشابه على مرِّ العصور.

وفيها: أنَّ تشابه القُلُوب يؤدِّي إلى تشابه الأقوال.

وفيها: أنَّه لا ينتفع بالآيات إلَّا الموقِنون، وأمَّا أهل الشَّكِّ والرَّيْب: فلا ينتفعون.

وفيها: أنَّ اليقين يزيد العِلْمَ، ويزيد بالعِلْم.

وفيها: مَدْح هذه المرتبة -وهي مرتبة اليقين- والحثُّ على بلوغها.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾:

وقوله ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: حقيقة مؤكَّدة بـ(إنَّ)، وهذه الحقيقة هي بِعْثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذَكَرَ المُرسِل والمُرسَل، ولم يذكر المرسَل إليه؛ لإفادة عُموم الرِّسالة، وأنَّ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرسَل إلى العالمَين، وإلى الناس كافَّة.

وقوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ (الباء) للمصاحَبة والملابَسة؛ أي: أرسلناك متلبِّسًا بالحقِّ، حاملًا له، مبلِّغًا إيَّاه، فبَعثتك حقٌّ في نفسها، ورسالتك مصحوبةٌ بالحقِّ، والدِّين الذي أُمِرتَ بتبليغه حقٌّ أيضًا؛ فهو حقٌّ، وصِدق في الأخبار، وعَدْلٌ وقِسْطٌ في الأحكام.

وقوله ﴿بَشِيرٗا﴾ أي: مبشِّرًا للمؤمنين بالثواب العظيم وجنَّات النعيم. ﴿وَنَذِيرٗا﴾ (الإنذار): الإعلام بالمكروه وبما يُخَافُ منه. والمقصود: أرسلناك مُنذِرًا ومخوِّفًا للكافرين من العقاب الأليم، وعذاب الجحيم.

وقوله ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: لا يسألك الله عنهم لماذا لم يؤمنوا، مادُمْتَ بَيَّنت وبلَّغتَ، فإنَّما عليك البلاغ، وعلى الله الحساب.

و﴿أَصۡحَٰبِ﴾: جمع (صاحب)، وهو الملازِم. و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: النَّار العظيمة، وهذا أحد أسمائها.

ووَصْفُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه بشير ونذير موجود في التوراة بالنصِّ، كما جاء في حديث عطاء بن يَسَار، قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قلتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: «أَجَلْ، والله، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢١٢٥).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾:

قوله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ٱلْيَهُودُ﴾، ولن يُحِبُّوا دينك ولو خليَّت شأنهم، ﴿وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ (لا) للتأكيد، أي: أنَّ كلَّ طائفة لن ترضى.

وهذا يُشبِه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ولعلَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما هاجر إلى المدينة كان يطمع في أهل الكتاب أن يوافقوه، وأن يرضَوا عن مِلَّته،ولذلك كان كثيرًا ما يتألَّفهم ويحاول استجلابهم، فأيأس الله نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رضاهم عنه وعن المسلمين، وما داموا لن يرضَوا عنه فليَتْرك محاولاتِ إرضائِهم، والطمعَ في موافقتهم، وليُقبِل على الاشتغال برضا الله عَزَّ وَجَلَّ.

لكن هذا الأمل المفقود في رضا الطائفتَين عُمومًا، ليس مفقودًا في هداية بعض أفرادهم؛ ولذلك فقد بقيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو أفرادهم، ولم يَعُد يطمع فيهم مجتَمِعين.

وستبقى عداوةُ اليهود والنصارى للمسلمين قائمةً في الأرض، حتى يتمَّ الخلاص منهم جميعًا على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: تدخل في دينهم، وتصلِّي إلى قبلتهم. وفي ذكر (المِلَّة) بصيغة المفرد دليلٌ على أنَّ الكُفر كلَّه مِلَّة واحدة، كما قال تعالى عن طوائف الكفَّار كلِّهم في سُورَة «الكافرون»: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾.

وهذا البيان من الله عن موقف اليهود والنصارى: أنَّهم لن يرضَوا عن أيِّ مسلِم حتى يُصبح يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ فيه ردٌّ على الذين يُحاوِلون التقريب بينَ الأديان، ويؤمِّلون الوصول مع اليهود والنصارى إلى حلٍّ وسَط، أو ميثاقٍ مشترَك يلتزم به الجميع؛ فالآية واضحة أنَّه لا سبيل إلى الاتِّفاق معهم أبدًا على شيء يُرضيهم، ويجعلُهم يكُفُّون عن عداوتنا وحَرْبنا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم مجيبًا يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: دين الإسلام الذي أُنزِل وخُتِمَ به ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: هو الصِّراط المستقيم والحقّ، وليس ما أنتم عليه يا أيُّها اليهود والنصارى.

ثـم قـال تعالى مخاطبًـا نبيَّـه ﷺ، خطابًا فيه تهديـدٌ ووعيـدٌ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ أي: على سـبيل الفرض والتقدير. وهذه جملة شرطيَّة فيها قَسَـمٌ؛ تقديره: «وعزَّتي وجلالي، لئن اتبعتَ»، أي: وافقتَ وسايرتَ.

﴿أَهْوَآءَهُم﴾ جمع (هوى)، وهو الرأي الصادر عن شـهوة، والخالي من الدليل، والمؤدِّي إلى الضلال، يهوي بصاحبـه إلى الهـاوية.

والإتيـان بصـيغـة الجمع في قولـه ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ لبيان أنَّ كل طائفة لهـا هوى غير هوى الأخرى؛ بل هم في أنفُسِهم مفترِقين مختلِفين!

وقولـه ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحـي الـذي أنزلـه الله عليـك، المتضمِّـن لدين الإسلام، وبيان بُطلان ما عليه أصحاب المِلَل والأهواء من هؤلاء.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (ما) نافية ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي: قريب يحفظك ويمنعـك، و(الولي): هو الـذي يتولَّى غيره بالحفظ والصيانـة، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر ينصرك ويَدْفَع عنك العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عِناد اليهود والنصارى، وأهميَّة الحذر منهم، وتحريم اتِّباعهم.

وفيها: القيام بالرَّدِّ على الكفَّار، وبيان أنَّ ما هم عليه ليس دينًا، وإنَّما هوى.

وفيها: أنَّ مَن اتبع الهوى بعد العِلْم أشدُّ ضلالة ممَّن اتَّبعه بغير عِلْم.

وفيها: وجوب طلب النصر من الله، والاعتماد عليه في الحِفظ.

والخِطاب في الآية -وإن كان للنبيِّ ﷺ- فإنه يشمل أُمَّته.

وقوَّة الأسـلوب في الآية -بما اشـتمل عليه من التهديد والوَعيد- مع أنَّ الخِطاب للنبيِّ ﷺ وهو لا يمكن أن يتَّبع مِلَّة الكُفر؛ **يؤخذ منه:** القوَّة في التحذير من الباطل، وعدم المجامَلـة في ذلـك، وإذا كان الله قـد هـدَّد نبيَّـه ﷺ -إن اتبع أهواءهـم- وهو أحبُّ الخَلْق إليه، ومعلوم أنَّه سـيثبُت على الحقِّ-؛ فكيف بهؤلاء المنحرِفين من أُمَّته اليومَ، الذين

يُطالِبـون بالتقريب بينَ الأديان، ويطمَعون في اسـترضاء الكفَّـار، والالتقاء معهم على حلٍّ وسَطٍ بزعمهم؟!

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى بعضَ قبائـح المُعانِدين من المغضوب عليهم والضالِّـين؛ أتبعَ ذلك بمدح مَن آمن بما أَنـزل الله واتبعَه؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهذا يشمل جميع المؤمنين، سـواءً من أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم ونبيِّهم، ثم آمنوا بكتابنا ونبيِّنا -كعبد الله بن سـلَام ووَرَقة بن نَوْفَل والنَّجاشيّ وغيرهم- وأيضًا أصحابَ رسـول الله ﷺ، وكلَّ مسـلِم من هذه الأُمَّة؛ فهم يؤمنون بالكتب المنـزَّلة على الأنبياء من قبل، وبالكتاب المهيمِن وهو القرآن.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: وهـذا يشـمل تـلاوة اللفـظ، وهي: القـراءة، فيقرأونه سـالمًا من تحريـف اللفظ والمعنى، ويعرفون تفسـيره، ويبيِّنونه لغيرهم. ويشـمل تلاوة الحكم، وهي: اتِّباعـه والعمل به، فيُحِلُّون حلاله ويحرِّمون حرامـه، ويتدبَّرون معانيه، ويقفون عند آياته، فيسألون ويستفيدون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بكتابهـم، المسـتلزِم بالإيمان بنبيِّنا وما أُنـزِل عليه، إن كانوا من أهل الكتاب. وإن كانوا من هذه الأُمَّة؛ فيؤمنون به: أي بالقرآن الذي أُوتوه.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي: يجحـد ويكذِّب بالكتب السـابقة، أو بهذا القرآن، والذي نُزِّل عليه -وهـو محمَّد ﷺ-؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: المنقوصـون المَغْبونون، الذين خَسِروا أنفُسَهم يوم القيامة، فصاروا هالِكين في النَّار.

وقـد ذكـر النبيُّ ﷺ هـلاك وخُسران مَن لم يؤمـن به مـن أهل الكتـاب؛ فقال: «وَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْـمَعُ بِي أَحَدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُـودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِـلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ من أَصْحَابِ النَّارِ»[1]، وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

(١) رواه مسلم (١٥٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكـر نِعمتـه تعالى ومِنَّته على أصحاب الكتب المنـزَّلة عليهـم، وأنَّه آتاهم إيَّاها لتلاوتها، والعمل بما فيها.

وفيها: أنَّ للإيمان علامة، وهي: العمل.

وفيها: التحذير من الكُفر الاعتقاديّ والعمليّ.

وفيها: أنَّ مَن خالف شيئًا من القرآن؛ فإيمانه ناقص.

وفيهـا: فَضْـل مُؤمني أهل الكتـاب، الذيـن يتبعون الرسـول النبيَّ الأُمِّـيَّ، وهو محمَّد ﷺ، المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل؛ فيؤتَون أجرَهم مرَّتَين.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب إذا أقاموا كتابهم الحقيقيَّ؛ فلا بُدَّ لِزامًا أن يؤمنوا بكتابنا ونبيِّنا.

وفيها: وجوب الإيمان بجميع الكتب، وجميع الرُّسُل.

وفيها: عُلُوُّ مرتبة المؤمنين؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وفيها: وجوب اتِّباع القرآن لفظًا ومعنى، وتحريم تحريفه لفظًا ومعنى.

وفيها: فَضْل الصَّحابة ومؤمني هذه الأُمَّة؛ لإيمانهم بجميع الكتب الإلهيَّة وجميع الأنبياء والمرسَلين.

وفيها: معرفة قَدْر هذا الكتاب المنـزَّل، وشُكر نِعمة الله، بتلاوته، والعمل به.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾:

ولـمَّا ابتدأ تعالى قِصَّة بني إسرائيل في هذه السُّورَة بتذكيرهم بنِعمته التي أنعم بها عليهم؛ ختم قَصصهم أيضًا بالتذكير بتلك النِّعمة، وذلك من تمام التذكرة والموعظة، وإيذانًا بنهاية القِصَّة.

فناداهم بنسبتهم إلى أبيهم إسرائيل -وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ- فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهـي نِعَـم كثيرة، دينيَّـة ودُنيويَّة، ومنها: إنجاؤهم مـن فرعون، وإيتاؤهم

التوراة، وغيرها كثير. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في ذلك الوقت؛ لتشكروا هذه النِّعَم، ومن شُكرها: الإيمان والعمل، والتصديق بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -المكتوب عندهم في التوراة-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أساليب دعوة المُعرِضين: تذكيرهم بنِعَم الله عليهم؛ لعلَّهم يرجعون، ويقومون بشُكر تلك النِّعَم.

وفيها: أنَّ مِن شُكر كُتُب الله المنزَّلة: الإيمان بنبوَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المذكور فيها، واتِّباعه.

وفيها: تذكير الدُّعاة بأهميَّة تذكير الناس بنِعَم الله عليهم؛ لترقيق قُلُوبهم، وكذلك تذكيرهم باليوم الآخر.

ولذلك قال تعالى بعدها:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

وقوله ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: خافوا عذابَ يوم رهيب، واجتنبوا عقاب الله فيه، وهو يوم القيامة.

﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ﴾: لا تدفع ولا تقضي ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ أُخرى ﴿شَيْـًٔا﴾ من الحقوق التي وجبَت عليها لله، وللمخلوقين في الدُّنيا، فلا تستطيع أن تتحمَّلها عنها يوم القيامة.

وكذلك لا تؤخَذ نفسٌ بذنبِ أخرى، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يؤخَذ منها فِدْية تنجو بها من النَّار، ولا تجد ما تفتدي به أصلًا. و(العدل) معناه: الشيء المعادِل.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ فتُنجيها من العذاب. و(الشفاعة): هي التوسُّط للغير؛ بدفع مضرَّة أو جلب منفعة. سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ الشافع إذا انضمَّ إلى المشفوع صار شَفعًا، بعد أن كان وِترًا.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمَن يمنع عنهم عذاب الله. وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «سَلِينِي مَا شِئْتِ من مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ من الله شَيْئًا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وفي هذه الآية من الفوائد:

موعظة المعانِدين بتذكيرهم باليوم الآخر، وبيان أنَّه لا يؤدِّي فيه أحدٌ عن أحد شيئًا، وإنَّما فيه أداء الحقوق ورَدُّ المظالم إلى أصحابها، والقِصاص فيه يكون بالحسنات والسيِّئات.

وفيها: أنَّ بعض الناس -كالخالِدين في النَّار- لا تنفعهم شفاعةُ الشافعين، ولا تنال الشفاعة إلَّا مَن أذِن فيه أرحمُ الراحمين، ولا يستطيع أن يشفع إلَّا مَن أذِنَ له سبحانه.

وفيها: أنَّ رأس جَلْب المنفعة في ذلك اليوم هو دخول الجنَّة، وأعظم دَفْع المضرَّة فيه هو النجاة من النَّار.

وفيها: أنَّه لا يجزي أحدٌ عن أحد، حتى الوالد لا يجزي عن ولده، ولا المولود يجزي عن والده شيئًا، وأنَّ كلَّ إنسان يؤدِّي بنفسه ما عليه من الحقوق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفيها: أنَّ أهل النَّار يريدون يوم القيامة النجاة بكلِّ وسيلة، فيطلبون تقديم الفِداء، ثم الاستنجاد بالشُّفعاء تارة، وتارةً يطلبون الشُّفعاء قبل الفِداء، إذا لم ينفع الأول.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حالَ أهل الكتاب؛ أشاد بذِكر عبدِه وخليلِه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، الذي يزعم أهلُ الكتاب محبَّته وتعظيمه، ويَنتَحِلون مِلَّته، مع أنَّهم ليسوا عليها.

فذكر تعالى حالَه ومنزلته؛ فقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لقومك المشرِكين، ولأهل الكتابَين، قِصَّة ابتلاء الله لإبراهيم. و(الابتلاء): الاختبار والامتحان.
﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ وفي قراءة (إبراهام)، وهو اسم أعجميٌّ، قيل معناه: الأب الرحيم.

﴿رَبُّهُۥ﴾ وهو المُبتَلِي عَزَّ وَجَلَّ. وهذا الابتلاء؛ ليظهَر عِلْمُه تعالى في الواقع، ولِتظهَر منزلةُ الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأحوالُه؛ فيَحصل الاقتداء به.

﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ شرعيَّة كلَّفه بها -من أوامر ونواهي- وقدَريَّة كتبَها عليه. فقام بالكلمات الشرعيَّة وأتمَّها ووفَّاها، وصبر على القدَريَّة واحتسبَ.

فمن الأمور الشرعيَّة: ما صَحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية، قال: «ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قصّ الشارب، والمَضْمَضة، والاستنشاق، والسِّواك، وفَرْق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإِبِط، وغَسْل أثرِ الغائط والبَول بالماء»(١).

ومن ذلك أيضًا: الإسلام، والحج، والإحرام به، والطواف، والسعي، ورمي الجمار.

وأمَّا ما ابتلاه به ممَّا كتبه وقدَّره عليه: فمخالفة أبيه وقومه، ومناظرته قومَه، ومحاجَّة النُّمْرُوذ، وإلقاؤه في النَّار، والهجرة من بلده العراق إلى الشام، وابتلاؤه بذبح ولده، ثم تركه مع أمِّه هاجر بوادٍ غير ذي زَرْع.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: أدَّاهُنَّ أحسنَ التأدية، وقام بهنَّ حقَّ القيام، من غير تفريط ولا تقصير ولا تأخير، فقام بالكلمات الشرعيَّة ووفَّى بها، وصبر على القدَريَّة واحتسب، وصبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله؛ ولذلك رفع الله منزلتَه، وكافأه على ذلك في الدُّنيا قبل الآخرة.

فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يأتمُّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون إلى يوم القيامة؛ فتكون قدوة لهم في الدِّين، يهتَدون بهديك، ويستنون بسُنَّتك. و(الإمام): هو مَن يُقتدَى به.

فلما رأى إبراهيمُ ما في ذلك من الخير العميم والثواب العظيم؛ رَغِبَ أن يكون هذا في ذريَّته أيضًا -وهذا من محبَّته الخيرَ لهم-؛ فقال طالبًا من ربِّه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل منهم أئمَّة.

فاستجاب الله دُعاء إبراهيم، مقيَّدًا ومشروطًا، فقال: ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي: لا يُصيب ولا يحصُل على ﴿عَهْدِي﴾ أي: النُّبوَّة، والإمامة في الدِّين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي: لأنفُسهم، ولغيرهم.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٩)، تفسير الطبري (٢/ ٩).

فدلَّت الآية على: أنَّ الظالمين لا يكونون أئمَّة وقدوةً للناس، وفي هذا تنفيرٌ من الظلم.

وفسَّر بعضُ المفسِّرين (العهدَ) في قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأنَّه: الأمان والأكل والعيش، كما صحَّ عن قتادة وإبراهيم، قالا: «لا ينال عهدَ الله في الآخرة الظالمون، فأمَّا في الدُّنيا: فقد ناله الظالم، فأمِنَ به، وأكَلَ، وأبصرَ، وعاش»[1].

وفسَّر بعضهم (العهد) بأنه: الدِّين، فقال الرَّبيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: «عَهْد الله الذي عَهِدَ إلى عباده: دينُه، يقول: لا ينال دينُه الظالمين»[2].

وقال بعضُهم: إنَّ معنى الآية: أنَّه لا عهد عليك لظالم أن تطيعَه في ظُلْمه، فلو عاهدتَ أميرًا أو إمامًا على السمع والطاعة، ثم أمرَك بمعصية؛ فلا يجوز لك أن تُطيعَه في ذلك؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالِق[3].

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

منزلة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أنَّه بالصبر واليقين والعمل بالشَّرْع المتين، تُنال الإمامة في الدِّين.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يدعوَ لذريَّته بالصلاح والهداية، وأن يكون منهم قادةً في الخير.

وفيها: أنَّ الظالم لا يصلُح أن يكون خليفة، ولا حاكمًا، ولا مُفتيًا، ولا إمامَ صلاةٍ، ولا راويًا للعِلْم والحديث.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ ذريَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الحقِّ؛ بل منهم ظالمون، كما قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقد استجاب الله بعضَ دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٣)

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٩٣)، تفسير الماوردي (١/ ١٨٥).

وفيهـا: فَضْـل الخليـل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعُلُـوُّ منـزلته، حتـى اجتمع أهـلُ الأديان على تعظيمه.

وفيهـا: مكافأة الله لأهـل الصَّبر واليقين، بأبواب الأجر التـي يكتبها لهم، بجعلهم أئمَّة يَقتدي بهم الناس.

وفيها: عاقبة الظُّلْم الوخيمة، وأنَّ الظُّلم ينـزل بأهله إلى أسفل سافلين.

وفيها: أنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

وفيها: أنَّ النَّسَب لا ينفع الظالم ولا يرفعه، فاستثنى الله من الخير الظَّلَمة، ولو كانوا من ذريَّة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾:

وقولـه ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ أي: واذكُر يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومك أنَّنا صيَّرنا ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ وهو: الكعبة، بيت الله عَزَّ وَجَلَّ. وقد أفادت (الـ) في قوله ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ أنَّه البيت المعهود الذي لا يُجْهَل.

جَعَلَه الله ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجِعًا ومعادًا، كلَّما انصرفوا منه اشتاقوا إليه، فعادوا وثابوا إليه في الحجِّ والعُمرة والعِبادة، فلا ينقضي منه الوطَر، ولا تشـبع منه النفوس. ويثوبون إليه أيضًا في الصَّلاة بقُلُوبهم، ويتوجَّهون إليه بأجسادهم، ويتذكَّرونه في كلِّ يوم وليلة.

وقوله ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: جعلناه آمنًا، يأمَن فيه الناس على دمائهم وأموالهم، ويأمَن فيه حتى الصيد والأشـجار أن تُقطع. وهو محلُّ أمنٍ لمن يسـكنه، وكان الرجل في الجاهليَّة يرى قاتل أبيه أو أخيه في الحَرَم فلا يتعرَّض له، وكانوا لا يُغِيرونَ على مكة مع شِرْكهم.

ولأجـل توفير الأمـن فيه؛ نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حمل السـلاح في مكّـة؛ فقال: «ولَا يُحْمَلُ فيها سِلاحٌ لِقِتالٍ»[1].

وقولـه ﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾ أي: اجعَلـوا ﴿مِن مَّقَامِ﴾ أي: مـكان القيـام، وهـو الحَجَـر الذي

(١) رواه مسلم (١٣٧٤).

قـام عليه نبـيُّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لبنـاء الكعبة ﴿مُصَلًّى﴾ أي: مكانًا للصـلاةِ، وأداءِ ركعتي الطواف خلفَه.

وقـد عَمِـلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهـذا؛ فلمَّا فرغ من الطـواف اتجه إلى مَقـام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وصلَّى ركعتَين[1].

وقيل: (مقام إبراهيم) هو الحَرَم كلُّه. وقيل: الحجُّ كله، أي: المشـاعر وأماكن المناسك، واتِّخاذها مصلًّى: يعني: الدُّعاء فيها.

قوله ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوصيناهما، و(العهد): هو الوصيَّة بما هو مُهِمّ. ﴿أَن طَهِّرَا﴾ هذا تفسير (العهد) ﴿بَيْتِىَ﴾ أضاف (البيت) إليه؛ لبيان شرفه.

فأمرهمـا الله وأوجـبَ عليهما أن يؤسِّسـا البيـتَ ويَبنيـاه على التوحيـد والإخلاص لله، ويُطهِّراه من الأوثان والأرجاس الحِسِّـيَّة والمعنويَّـة، وأن يحفظاه فلا يُنْصَب حولَه شيءٌ من الأوثان، ويُصان عن النجاسات، وعن اللَّغو والرَّفَث وقول الزُّور، والتنازُع عنده.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: حولَه، فيكون التطهير لأجلهم، ولإعانتهم على عبادتهم، وكثير منهم قد جاء من غُرْبةٍ، ومكانٍ بعيد.

وبدأ بـ (الطائفين)؛ لأنَّ عبادتهم خاصَّة بالمسـجد الحرام. ثم ثنَّى بـ ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ أي: المقيمين عندَه، المعتكِفين فيه، المجاوِرين له، لا يرتحلون منه ولا يذهبون. فالطائفون غرباء، والعاكفون أهل المكان.

ثم ثلَّث بـ ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلِّين، وهذا يشمل القريب والبعيد من الكعبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الـرَّدُّ عـلى مُشركي قُريـش والعرَب، الذين كانـوا يعبدون الأوثان عنـد الكعبة، بأنَّ الله تعالى قد أمر الخليل وابنه أن يؤسِّسـاه على توحيد وإخلاص، ابتغاءَ وَجْه الله، ويصونـاه عن الشِّرك، فخالفتُم ذلك أيُّها المشرِكون.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في وصف حَجَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: اشتراط طهارة مكان الطواف، واشتراط طهارة لباس الطائفين؛ فلا يجوز للطائفِ أن يطوفَ بثَوبٍ نَجِسٍ، كما لا يجوز أن يطوفَ في بُقْعَة نَجِسة.

واستفاد بعض العلماء من الآية: أنَّ الطواف لا يكون إلَّا حول الكعبة، وداخل المسجد الحرام، فلو طاف خارجَ المسجد لم يُجْزِئه.

وفيها: فَضْل الطواف، والاعتكاف، والرُّكوع، والسُّجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال إبراهيم، أي: في دُعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ أي: الوادي المهجور الخالي، الذي ليس فيه زرع ولا ماء ولا بناء ﴿بَلَدًا﴾ (البلد): اسم لكلِّ مكان مَسْكون، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا. ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن، يأمن أهله فيه من القَحْط، والخَسْف، والقَتْل، والسَّلْب، والنَّهب، والرُّعب والخوف، والمَسْخ، والجوع، ونحو ذلك.

وقد استجاب الله دعاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فجعل مكة بلدًا آمنًا، وهذا في الأعمِّ الأغلب على مرِّ العصور وكرِّ الدُّهور. ولا يُنافي ذلك ما وقع في مكة من حوادث قليلة تُعَكِّر هذا الأمن، والقاعدة تبقى قاعدة وإن وُجِد لها شواذّ؛ لأنَّ الحكم للأعمِّ الأغلب؛ فإنَّ مكة -شرَّفها الله- كانت آمنةً في غالب الأزمان التي مرَّت عليها. هذا من الناحية القدَريَّة.

وأمَّا من الناحية الشرعيَّة؛ فإنَّ الله أوجب علينا أن نحفظ الأمن في مكة، ولا نُخِلَّ به، ونعتنيَ به أكثر ممَّا نعتني به في الأماكن الأخرى.

﴿وَٱرْزُقْ﴾ أي: أعطِ ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أي: ساكِنيه والمقيمين فيه ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بأنواعها، فيؤتى بها إلى مكة من سائر أنحاء العالم.

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: أراد الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تكون هذه الدَّعوة للمؤمنين؛ ليستعينوا بالرّزق على طاعة الله.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: سأرزقه أيضًا، ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ أي: أمدُّ له من الدُّنيا ﴿قَلِيلًا﴾ أي: من الزمان، وهو مدَّة حياتهم، والمتاع -بل الدُّنيا كلُّها- لو حصلت لشخص فهي قليلة، كما قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي: أُلجئه وأسوقه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: الذي لا محيص له عنه، ولا منجَى له منه. وهذا جزاءً وِفاقًا على كُفره. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع الذي يصير إليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا غنى للإنسان عن دُعاء الله، مهما كانت مرتبته.

وفيها: أنَّ الدُّعاء سببٌ في حصول المقصود.

وفيها: رأفة إبراهيم الخليل بمَن يؤمُّ البيت الحرام.

وفيها: احتياطه في الدعاء؛ لـمَّا طلب أن يكون الرِّزق لمن آمن بالله واليوم الآخر.

وفيها: أنَّ الله يرزق المؤمن والكافر.

وفيها: أنَّه لـمَّا كانت الإمامة نِعمة دينيَّة استثنى الله الظالمين منها؛ لأنَّهم لا يستَحِقُّون هذا الشَّرَف. أمَّا الرِّزق: فنِعمة دُنيويَّة؛ فأعطاه الله المسلِم والكافر، ولم يستثنِ الكافر منه؛ لأنَّ متاع الدُّنيا قليل، ولا يُساوي عند الله جَناح بعوضة، فلذلك يُعطيه مَن يُحِبُّ، ومَن لا يُحِبُّ.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذ يرفع إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ في بناء البيت، وهي جمع (قاعدة)، وقاعدة الشيء: أساسه. ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: الكعبة.

﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ ابنه، يُشارِك أباه في رفع القواعد.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي: يدعو كلٌّ منهما الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ بقَبول عملهما، وأن يتلقَّاه بالرِّضا،

وهـذا كأنَّه اعـترافٌ من الخليل وابنه بقلَّـة العمل، والتقصير فيه. و(تقبُّـل) الله للعمل أي: تلقِّيه بالرضا والإثابة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي: لدُعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالنا، وتقصيرنا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعاونة في فِعْل الخير.

وفيها: بِرُّ الابن لأبيه.

وفيهـا: نظَر العبد المؤمن لعَمَله بعَـين النقص مهما كان؛ تواضعًا لله، وفِرارًا من الاغترار والعُجْب.

ومن فوائد الآية: أنَّ من إِحكام البناء تأسيسه على قواعد.

وقـد فَهِمَ بعض العلـماء من الآية: أنَّ أسـاس البيت كان موجودًا قبـل إبراهيم الخليل، فجاء فرفعَه. لكن لا يلزم من الآية وجود القواعد قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهو الذي وضعَها، وهـو الذي رفعَها، وقد كان تحديد مكان البيت وحدود البنيان بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: عيَّنا له محلَّه وعرَّفناه به.

وقـد روى البخـاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحـه»، عـن ابـن عبَّـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن إبراهيـم قال لإسـماعيل: «يَا إِسْـمَاعِيلُ، إِنَّ الله أَمَـرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَـعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَـالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ.

قَـالَ: فَـإِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِـيَ هَا هُنَا بَيْتًا -وَأَشَـارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَـا حَوْلَهَا- قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ من البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْـمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قَـالَ: فَجَعَـلَا يَبْنِيَـانِ حَتَّى يَدُورَا حَـوْلَ البَيْـتِ، وَهُمَا يَقُـولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[١].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤).

وقد رأت هذه الأُسسَ قُريشٌ لـمَّا بنوها، بعدما هدمَها السَّيْل، وكانت القواعدُ حجارةً خضراء متماسِكة.

وثبت في «صحيح مسلِم»[١] أنَّ عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لـمَّا أعادَ بناءَها كشف عن أساساتِها، حتى نظر إليها العُدولُ من أهل مكة، ثم بنى عليها البُنيان وجعلَها على قواعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أُعيدَت إلى ما كانت عليه بعد مقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾:

ثم قال تعالى في دُعاء الخليل وابنه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ أي: مُنقادَين لحُكمك ﴿لَكَ﴾ أي: مخلِصين بالتوحيد والعِبادة. ولا شكَّ أنَّهما كانا مخلِصَين مستَسلمَين، ولكنَّهما أرادا طلب المزيد والتثبيت.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ أي: واجعل من أولادنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي: جماعة مُنقادة لأمرك، مُخلِصة. و(ذريَّة) الإنسان: مَن تفرَّع منه.

ويدخل في دُعاء الخليل وابنه: العرَب؛ لأنَّهم من ذريَّة إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغير العرَب أيضًا، وَقدْ كَانَ فِي وَلَد إبرَاهِيم: العَرب وَغير العَرَب.

وقوله ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمنا مواضع نُسُكنا وعباداتنا، وبَصِّرنا بأفعال الحجِّ ومواقيته، ومواضع العِبادة فيه. و(المنسك): مكان العِبادة.

ويؤخَذ من هذا: أنَّ العِبادات توقيفيَّة، لا تَصِحُّ إلَّا بما شرَعَه الله، وتتوقَّف على الدليل الشرعيّ.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ أي: وفِّقنا للتوبة فيما فرطَّنا فيه، وسامِحنا فيما قصَّرنا فيه من طاعتك، وتجاوَزْ عنَّا. وفي هذا تواضُع الخليل وابنه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير الرحمة بمَن يشاء من عباده.

---

(١) صحيح مسلم (١٣٣٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريَّته بالدُّعاء.

وفيها: أنَّ الأصل في الإنسان الجهل، فيحتاج إلى تعليم من ربِّه.

وفيها: أنَّ الأصل في العِبادات المنع، حتى يأتيَ الدليل على مشروعيَّتها.

وفيها: أنَّ الناس مُفتقِرون إلى توبة الله، حتى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾:

ثـم قال تعالى في دُعاء الخليل أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ﴾ أي: أرسِـل ﴿فِيهِمۡ﴾ أي: في الأُمَّة المسلِمة من أولادنا، والمقصود هنا: العرَب ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من أنفُسِهم ونسَبهم ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقرأ عليهم ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ أي: يُملي عليهم آيات القرآن؛ ليأخذوها منه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: معاني القرآن، وما فيه من دلائل التوحيد، والنُّبُوَّة، والأخبار الصادِقة، والأحكام العادلة. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: السُّنة، وحقائق الشريعة، والفَهم في الدِّين.

﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: يُنَمِّـي فيهم طاعة الله، والإخلاص، والأخـلاق الفاضلة، ويطهِّرهم من دَنَس الشِّرك، وأنواع المعاصي والرذائل.

ولـمَّا دعـا إبراهيمُ الخليل بهـذه الدعوات الثـلاث؛ ختمها بالثَّناء عـلى الله؛ لأنَّه أرجى لقبـول الدُّعـاء؛ فقـال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالـب الـذي لا يُغلَـب، منيـع الجانـب. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: من له الحكمة التامة. و(الحِكْمة): وضع الأشـياء في مواضعها المناسبة لها، فتصدُر أفعاله عن حِكمتِه، ومراعاةِ مصالح عباده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حاجة الناس إلى الرُّسُل، وقيامهم بتعليم الوحي.

وفيها: أهميَّة تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

ثـم قال تعالى، ردًّا على الكفَّار فيما أحدثـوه من الشِّرك بالله، وعلى اليهود والنصارى فيما ابتدَعوه من الكُفرِ بالله، والمخالفةِ لِملَّة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء: ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾: وهذا استِفهام إنـكاري توبيخي، المراد بـه النفي؛ أي: لا يَرغـب ولا يُعرِض ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ (المِلَّة) هي: الدِّين والشريعة.

ومِلَّـة الخليـل عَلَيْهِ السَّلَامُ قائمة عـلى التوحيد، والبراءة مـن الشِّرك، وإخـلاص العِبادة لله، والـبراءة ممَّا يُعبَد من دون الله، والشُّـكر لنِعَم الله، والصـلاح في النفس، والإصلاح للغير، وإنـكار المُنكَـر، كـما جاء في آيـات كثيرة في وصـف مِلَّة الخليـل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ومنها: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقوله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (السَّـفَه): ضد الرُّشد. والمعنى: لا يترك مِلَّة إبراهيم إلَّا مَن أذَّل نفسه، وأهلكَها، وظلمَها، وضيَّعها، وأيُّ سَفَهٍ أعظم من الوقوع في الشِّرك؟!

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي: اخترنـاه، وجعلنـاه صفيًّـا من الخلـق ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اتخذناه خليـلًا، وبعثنـاه بحَمْـل أعبـاء الرِّسـالة، والقيام بالدَّعـوة والبـلاغ. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالرِّضا والكرامة يوم القيامة، المشـهود له بالخير والاسـتقامة على رؤوس الأشهاد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المخالِفـين لدعوة الرُّسُـل سـفهاء، وإن كانوا أذكيـاء في الدُّنيا، مهـما كان عندَهم من العِلْم بالصناعة، والخبرة بالسياسة والإدارة، ومهما أُوتُوا من قوَّة وهَيمنة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

وقولـه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ أي: واذكـر يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّتـك، إذ قال الله لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ﴾ أي: أخلِـص دينَـك وعملَـك لله؛ فاسـتجاب، وأجـاب قائـلًا: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلَصتُ ديني له، وفوَّضتُ أمري إليه. وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر.

وما أكثر الذين أُمِرُوا بالإسلام، ولم يُسْلِموا!

وقوله ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالِك الخلائق ومدبِّرها. وهذا يتضمَّن: توحيد الرُّبوبيَّة والأسماء والصِّفات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل إبراهيم الخليل؛ حيث لم يستكبر عن تنفيذ الأمر، بل أذعنَ وأقرَّ.

وفيها: أنَّ الذي يستحقُّ الاستِسلامَ له: هو الرَّبُّ الخالِق.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ (التوصية): هي العَهد المؤكَّد في الأمر الهامِّ ﴿بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة، وهي: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذه المِلَّة -وهي مِلَّة التوحيد والإسلام-. ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصَّى بهذه الكلمة يعقوبُ بَنيه، كما وصَّى بها جدُّه إبراهيمُ -من قبلُ- بَنيه.

والظاهر -والله أعلم- أنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلِدَ في حياة إبراهيم وسارَة؛ لأنَّ البِشارة به وبأبيه جاءت لإبراهيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، وهذا يقتضي أنَّ يعقوب وُجِدَ في حياة جدِّه.

﴿يَٰبَنِىَّ﴾ أي: يا أبنائي. وإنَّما ناداهم بهذا اللِّين؛ ليكون أقربَ إلى القَبول والاستجابة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام، اصطفاه لكم من بينَ سائر الأديان. و(الدِّين) أيضًا هو: العِبادة والعمل.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أي: لا يأتيكم الموت وينزل بكم ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: وحالُكم البقاءُ والاستمرارُ على الإسلام.

ومعنـى هـذه الوصيَّة: اثبُتوا على الإسـلام حتى تموتـوا عليه، وأحسِـنوا في حال الحياة، والزَمـوا هـذا الدِّيـن؛ ليرزقكـم الله الوفاة عليه؛ فـإنَّ المرء يمـوت غالبًا على مـا كان عليه، ويُبعَث على ما مات عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتِـمام بالأولاد، والحِرْص على صلاحهم، وأهميَّة الوصيـة إليهم قبل الموت، وحثُّهم على التمسُّك بالدِّين.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسـان أن يتعهَّد نفسـه دائما بالحقِّ والصَّبر؛ حتى لا يأتيَه الموت وهو غافل.

وفي الآية: أنَّ الأعمال بالخواتيم.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

ثـم بـيَّن تعالى تفصيلَ ما قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لبَنيـه؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ كُنتُمْ﴾ أي: يا أهل الكتاب، ويا أيُّها اليهود، ويا أيُّها المجادِلون في التوحيد، الواقعون في الشِّرْك، يا مَن تنسبون إلى الأنبيـاء أقـوالًا لم يقولوهـا. هـل ﴿كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾: جمع (شـهيد) أو (شـاهد)، بمعنى: حـاضر. أي: هـل كنتـم حاضرين وصيَّته؟! وهـم بالتأكيد لم يحضروا، فليَسْـمعوها من الله الشهيد، الذي يُخبِر بأنباء الغَيب، وما حصل في الماضي.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: أسـباب المـوت ومقدِّماتـه ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ الاثنـي عشر: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ أي: مَن هو إلهكم الذي تعبدونه من بعد موتي؟ وإنَّما قصد العِبادة الصحيحة المشروعة فقط.

وهـذا مـن باب أخْذ الميثاق عليهم؛ وليتأكَّد الأب من رسُـوخ ما ربَّى عليه أبناءه في حياته، وليؤكِّد عليهم عند مماته، وليكون ذلك ردًّا على مَن سيفتري عليه من أهل الكتاب بعد ذلك.

فكأنَّ في الآية محاجَّةً لليهود، مَفادها: إذا كنتم لم تحضروا وصيَّة يعقوب؛ فكيف تنسبونه إلى دينِ اليهوديَّةِ الباطل؟!

وقوله ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يشمل جميع أنواع العِبادة، من الأقوال والأفعال، التي يتوجَّه بها العابد إلى ربِّه.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ ربّ الأوَّلين والآخِرين. ثم بيَّنوا هؤلاء الآباء، فقالوا: ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، وإبراهيم هو الجَدُّ، ويُطلَق على الجَدِّ أب ولو كان بعيدًا، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقدَّموا (إسماعيل) على (إسحق) -مع أنَّه عم-؛ لأنَّه كان أكبر سنًّا من إسحق. وإطلاق الأب على العم من باب التغليب، كما تُطلق الأُمّ على الخالة.

﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾؛ للتأكيد على توحيد الألوهيَّة، وصرف العِبادات إلى الله وحدَه لا شريك له. ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُطيعون، خاضعون، مُنقادُون. فحَصروا العِبادة في ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التوحيد وصيَّة الأنبياء.

وفيها: أنَّ الموت حقٌّ على الأنبياء وغيرهم.

وفيها: أنَّ أبناء يعقوب -وهم إخوة يوسف- كانوا على التوحيد.

وفيها: أهميَّة الوصيَّة عند حضور الأجل، ومن شرْط صِحَّتها: أن يكون المُوصِي يَعي ما يقول.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾:

وقوله تعالى ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ﴾ أي: إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، وأبناؤهم، و﴿أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: مضت وسلفَت بالموت.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ أي: جزاء ما فعلته من الخيرات ﴿وَلَكُم﴾ أي: يا أيُّها المتأخِّرون، أو: يا معشر اليهود والنصارى ﴿مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ من العمل. ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا

تُؤاخَذون بسيِّئاتهم، ولا تُسألون عن أعمال مَن سبقكم، فلا تنالون ممَّا كسبوا شيئًا، ولا ينالون ممَّا كسبتُم شيئًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الاعتماد على أعمال الآباء لا يُجدي شيئًا، ومَن أبطأ به عملُه لم يُسْرِع به نَسَبُه.

وفيها: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأَول.

وفيها: إثبات سؤال الناس يوم القيامة عن أعمالهم.

ويُستفاد من الآية: الإمساكُ عمَّا حصل من الفِتَن بينَ الصالحين؛ لأنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى الوقيعة في بعضهم، ونقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، ولا نُسأل عمَّا عَمِلوه.

وفي الآية: إثبات عَدْل الله تعالى.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أنَّ مِلَّة إبراهيم هي الحنيفيَّة السَّمْحة؛ دعا أهل الكتاب إلى اتِّباعها، وردَّ على دعواهم: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهود والنصارى -يخاطِبون المسلمين-: ﴿كُونُوا هُودًا﴾ أي: على مِلَّة اليهود ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أي: على مِلَّة النصارى؛ ﴿تَهْتَدُوا﴾ أي: تكونوا مُهتَدين، وتصِلوا إلى الخير، وتظفَروا بالسعادة!

وقد ورَدَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال عبد الله بن صُوريَا الأعور لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الهُدى إلَّا ما نحن عليه، فاتَّبِعْنا يا محمَّد تهتدِ! وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية[1].

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جوابهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: لا نتبع إلَّا مِلَّة إبراهيم؛ فالهُدى فيها، ونحن أولى به.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٢)

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى دين الحقِّ، فهو مستقيم مخلِصٌ.

وخُصَّ إبراهيم بالذِّكر هنا دون غيره من الأنبياء؛ لمكانته عند أهل الكتابَين، وإمامته، ومنزلته من رب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: هذا تأكيدٌ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تبرئة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشِّرك الأكبر والأصغر.

وفيها: تعريض بأهل الكتابَين؛ للإشارة إلى ما هم عليه من الشِّرك.

وفي الآية: أنَّ أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع، يدَّعون دائمًا أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ اتِّباعهم يؤدِّي إلى الهداية.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدِّقوا بكُتُبه كلِّها، وبرُسُله، ويؤمنوا بما أَنزل على أنبيائه المتقدِّمين على وجه الإجمال، وألَّا يُفرقوا بينَ أحدٍ منهم في الإيمان، وأن يقولوا ذلك لليهود والنصارى؛ ردًّا على دعواهم المتقدِّمة.

فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ﴾ والخِطاب للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّته جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: تصديقًا بالقلْب، ونطقًا باللِّسان، وعملًا بما يترتَّب على ذلك. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: من القرآن، وبيانه -وهو السُّنَّة-. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: في صُحُفه -كما في سورة «الأعلى»- ومما جاء فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ فهو نبيٌّ منزَّل إليه قطعًا، ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كذلك، وإن لم نعلم ما أُنزِل عليهم بالتحديد والتفصيل.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع (سِبط)، وهو: ولد الولد، والقبيلة من اليهود، والمراد بهم هنا:

أولاد يعقوب -وهو إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ- وكان عددهم اثني عشر، منهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد خرجت منهم قبائلُ وشعوبُ بني إسرائيل.

وقوله ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ أي: من الآيات الشرعيَّة في التوراة، والآيات الكونيَّة -كاليد والعصا-. ﴿وَعِيسَىٰ﴾: الذي أوتي آيات شرعيَّة في الإنجيل، وآيات كونيَّة -كإحياء الموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرص بإذن الله-.

﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عُمومًا. وهذا من باب عطف العامِّ على الخاصّ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ فالجميع أنبياء الله، ولا نفرِّق في الإيمان بينَ أحدٍ منهم، كما فعلت اليهود والنصارى -فآمنوا ببعضٍ وكفَروا ببعضٍ- وهذا يُبيِّن فَضْلَ المسلمين على غيرهم.

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُستسلِمون، مُنقادُون ظاهرًا وباطنًا، له سبحانه، لا لغيره.

ومن فضائل هذه الآية: ما رواه مسلِم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)] عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الفَجْرِ، فِي الأُولَى مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآيَةَ الَّتِي فِي البَقَرَةِ، وَفِي الآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

وفي رواية: أنَّه «كان يقرأ في رَكْعتَي الفَجْرِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾»[(٢)].

وهذا الحديث يبيِّن سُنَّة أخرى في القراءة بعد الفاتحة، في ركعتَي الفجر، بالإضافة إلى سُورتَي «الكافرون» و«الإخلاص».

ومن فضائل هذه الآية أيضًا: ما رواه البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ

---

(١) صحيح مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٥٤٢).

أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ؛ فقال رَسُولُ الله ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ».

وفي هذه الآية من الفوائد:

تقديم الأهمِّ، وإن كان متأخِّرًا في الحدوث؛ فإنه قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ فقدَّم ذِكر (ما أُنزِل إلينا) على ذِكر (ما أُنزِل على إبراهيم وإسماعيل).

وفيها: أنَّنا أُمِرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل والكتب المتقدِّمة، مع أنَّنا لا نعمل بما فيها.

وفيها: الإشارة إلى رباط الأُخوَّة الإيمانيَّة بيننا وبين جميع المؤمنين المتقدِّمين.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾:

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ أي: الكفَّار -من أهل الكتاب وغيرهم- ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورُسُله، إيمانًا مماثلًا لإيمانكم.

﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ أي: فقد أصابوا الحقَّ والرُّشد، وسلكُوا سبيل التوفيق، فحَصَل بينكم الاتِّفاق، وصاروا مسلمين مثلكم.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: عن الحقِّ إلى الباطل، وأعرَضوا بعد قيام الحُجَّة عليهم؛ ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ﴾ أي: في الحقيقة ﴿فِي شِقَاقٖ﴾ أي: فراق وخلاف عظيم، وبُعد عن الحقِّ، وعداوة لكم. و(الشِّقاق): خلافٌ، مع ابتغاء المشقَّة على الخَصْم، وتباعُد كُلِّي، بحيث يكون أحد الطرَفَين في شِقٍّ، والثاني في شِقٍّ آخر.

و قوله ﴿فِي شِقَاقٖ﴾ يُفيد: أنَّ الشِّقاق محيط بهم من كل جانب، وهم مُنغَمِسون فيه.

وهذا يحسم الأمر في الموقف مع أهل الكتاب؛ فإمَّا أن يؤمنوا بمثل ما آمنَّا به فيكونوا مؤمنين مثلنا، وإمَّا أن يتولَّوا فيُصبح بيننا وبينهم عداوةٌ وتباعُدٌ، ممَّا يؤدِّي إلى المواجَهة.

وبما أنَّ هذا قد يُلقي في قُلُوب بعض المسلمين الرَّهبة من هؤلاء الكفار؛ فَقَد طمأن الله

المؤمنين بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيكفيك بأسَهم وشرَّهم، ويُبطِل مكرهم، ويخذُلهم، وينصرك عليهم عاجلًا غير آجل، كما تفيده (السِّين) في قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾؛ فإنَّها تفيد تحقُّق وقوع الكفاية والحماية، وقُرب الوقوع أيضًا.

وقد أنجز الله وعدَه؛ فكفى نبيَّه ﷺ شرَّ اليهودِ وأهلِ الكتاب، ونصر نبيَّه عليهم؛ فقتلَ بني قُريظة وسباهم، وأجلى بني النَّضير وأخرجَهم من ديارهم، وفتح خَيبر وانتصر على أهلها، وغَنِمَ المسلمون غنائم عظيمة منها، ومكَّن نبيَّه ﷺ من نصارى نَجْران وسلَّطه عليهم، وجعلَهم في ذُلٍّ، يؤدُّون الجِزْية إلى نبيِّه ﷺ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال الكافرين، ودُعاء المؤمنين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال الجميع، ونيَّاتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا يمكن أن يلتقي المسلمون وأهل الكتاب في منتصف الطريق، ولا أن يتَّفقوا.

وفي هذا: بُطلان دعوة التقارب بينَ الأديان، فإمَّا أن يُسلِموا، وإمَّا أن يتولَّوا، فتقوم العداوة، ثم المواجَهة، فيأتي نصر الله للمسلمين الصادِقين.

وهذا هو طريق الحقِّ، فلا تمييع لحقائق العقيدة، استرضاءً لهؤلاء الكَفَرة من أهل الكتاب، وهم لن يرضوا عنَّا أبدًا، مهما تنازلنا، حتى نتَّبعَ مِلَّتهم، ونكونَ على دينهم.

وفي الآية: أهميَّة التوكُّل على الله، وأنَّه يكفي المسلمين عدُوَّهم، ويحفظهم من شرورهم.

وفيها: موعظةٌ بمراقبة الله تعالى في السِّرّ والعلَن، وإصلاح الظاهر والباطن؛ لأنَّه سميع للأقوال، عليم بالبواطن والنِّيَّات.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: فسَّرها ابن عبَّاس رضي الله عنهما وغيره بـ: دين الله[1]. وسُمِّي الدِّين صِبغة؛ لظهور أثره على صاحبه، مثلما يَظهر أثر الصَّبغ في الألوان في الأشياء

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١١٨)، تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٤)، تفسير البغوي (١/ ١٥٧).

المصبوغـة، فكذلـك المتديِّـن بدين الله يظهر أثـر الدِّين عليه في صفحة وجهه، ومسـلكه، وسَمْته، وهيئته.

وبـما أنَّ الصِّبغة تَلزَم الشيء المصبوغ وتَبقَى عليـه؛ فكذلك المتديِّن يَثبُت على هذا الدِّين ويستمرُّ عليه، ويلزمه كلزوم اللَّون للشيء المصبوغ.

ومن جهة أخرى: فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صبغَ الأشـياء في الطبيعة بالألوان المختلفة، وشـتَّان بينَ اللَّون الطبيعيِّ الذي خلق اللهُ الأشياء عليه، وبين ألوان البشر الصناعيَّة.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾: استِفهام بمعنـى النفـي؛ أي: لا أحدَ أحسـن من الله صِبغة، ولا أحدَ أحسن منه دينًا وشِرْعة ومنهاجًا؛ لأنَّ دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد، بما لا يوجد مثله في أيِّ دين ومِلَّة أخرى من أهواء البشر.

والنفي بطريقة الاستِفهام أبلغ من النفي المجرَّد؛ لأنَّه يحمل معنى التحدِّي؛ فكأنه يقول: هاتوا أحسن من الله صِبغة، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغ في الإقناعِ.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (العِبادة): التذلُّل إلى الله بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه، فمَن كان على صِبغة الله ودينه لَزِمَ العِبادة، وزيَّن نفسه بطاعة الله.

وقوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ يدلُّ على حَصْر العِبادة واختصاصها بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾:

وقوله ﴿قُلۡ﴾ الخِطاب للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكلِّ مَن يقوم بدعوة هؤلاء الكفَّار من أهل الكتـاب: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ يا أيُّها اليهود والنصارى، تقولون -مثلًا-: إنَّ دينكم أقدم، وإنَّكم على الحقِّ، وإنَّ أكثر الأنبياء منكم، وإنَّ الأنبياء على دينكم، ولن يدخل الجنَّة غيركم، ونحو ذلك؟!

و(المحاجَّة): أن يُدْلي كلُّ خَصْم بحُجَّته؛ ليدحض حُجَّة الخَصْم الآخر.

فمعنـى قولـه ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أي: أتُناظِروننا في توحيـد الله والإخلاص له. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا

﴿وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالِقنا وخالقكم، والمتصرِّف فينا وفيكم، وهو أعلم في تدبير خَلْقه، وبمَن يصلُح للرِّسالة، وبما يَنسخ من الدِّين؟

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ أي: نُجازَى عليها -خيرًا أو شرًّا- ولا تُسألون عنَّا. ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: التي كَسَبتموها، وستُحاسَبون عليها، ولا نُسأل نحن عنها. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي: في عبادته والتوجُّه إليه. و(الإخلاص): تنقية الشيء من كلِّ شائبة. والمعنى: أنَّنا نُخْلِص العِبادة لله، ولا نشوبها بشيء من الشِّرْك.

ومن تعريفات الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شِرْك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء، والإخلاص: المعافاة منهما.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب البراءة من أعمال الكفَّار؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلِم أن يفتخر بالحقِّ؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾.

وفيها: أنَّه لا يجوز التشبُّه بأعداء الله، وأنَّه يجب التميز عنهم؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾:

وقد انتقل السِّياقُ القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يحاجُّون في الله ويجادلون في توحيده، إلى توبيخٍ آخر، وهو: دعواهم أنَّ رُسل الله هؤلاء كانوا هودًا أو نصارى، فزعَمت اليهود أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، وزعمت النصارى أنَّه كان نصرانيًّا!

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ (أم) هنا: للانتقال من موضوع إلى موضوع.

وقد نفى الله هذه المزاعم في سُورَة «آل عمران» بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وكانت الحُجَّة في إثبات بُطلان دعواهم هي استعمال التاريخ؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمَن، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمَن، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؟!

وقوله ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو: أكبر أولاد إبراهيم ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: أخو إسماعيل -الولد الثاني لإبراهيم- ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو: ابن اسحق، ويُسَمَّى إسرائيل أيضًا ﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ وهم: أبناء يعقوب الاثنا عشر.

وقوله ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: تزعمون أنَّ كلَّ هؤلاء كانوا على الدِّيانة اليهوديَّة أو النصرانية؟!

وبالإضافة إلى استعمال حُجَّة التاريخ في الرَّدِّ على مزاعمهم؛ فقد أبطل الله تعالى دعوى اليهود والنصارى هذه بطريق آخر؛ فقال هاهنا: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ولا يستطيعون أن يقولوا: إنَّهم أعلم من الله. فمن المعلوم أنَّه أعلَم. وهذا كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وهذا الاستِفهام من أجل إفحام الخَصْم وإلزامه، فإذا قال الله شيئًا، وقال هؤلاء شيئًا يُعارِضه، فكلام مَن المعتَبر والمصدَّق؟! لا شك أنَّه كلام الله. فكأنَّه يقول للمُجادِلين: أأنتم أعلم بدِين هؤلاء الرُّسُل، أم الله أعلم بدِينهم؟!

وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ﴾ أي: لا أحد أشدَّ ظلمًا في باب كِتمان الشَّهادة، ممَّن أخفى وستر عن الناس شهادةً ثابتةً عنده، في كتاب دِينه. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صادرة منه عَزَّوَجَلَّ.

قال قتادة وأبو العالية في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: «هم اليهود والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنَّه دين الله، واتخذوا اليهوديَّة والنصرانيَّة، وكتموا محمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهم يعلمون أنَّه رسول الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»[1].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٦).

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يغفل ولا يسهو سبحانه عن عمل هؤلاء الكاتمين المشرِكين؛ فهو عالِـم بهم، وسوف يحاسِبهم عليه.

وقوله ﴿تِلۡكَ﴾ الشخصيَّات المذكورة -من إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه- ﴿أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: مضت وسلَفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: من الأعمال -خيرًا أو شرًّا- ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: في الدُّنيا.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إبطال الدَّعاوى الكاذِبة، والرَّدُّ عليها.

وفيها: عِظم جريمة مَن كتم العِلْم.

وفيها: مسئوليَّة العامل عن عمله.

وفيها: وَعْظ اليهودِ وكلِّ مَن يتكل على فَضْل الآباء وشَرَفهم، وأنَّه لا ينفع الإنسانَ إلَّا عملُه.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾:

لـمَّا ذكَر تعالى في الآيات السابقة ادِّعاءَ اليهود والنصارى، أنَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه من الأنبياء هم على مِلَّتهم ودينهم، وكانت قِبلةُ اليهود على قِبلة الأنبياء، إلى بيت المقدِس، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مأمورًا بالتوجُّه إلى بيت المقدِس، وكان اليهود يُعجِبهم ذلك ويفرحون بهذه الموافقة في قِبلتهم، فلمَّا نزل الأمر بتحويل القِبلة؛ استاءَ اليهود، وقاموا بالطعن والتشكيك، وانطلقت ألسِنتُهم بإثارة الشُّبُهات، هم وأهل النِّفاق.

وكان من المعجِزات النبويَّة: أنَّ الله أخبر نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بما سيقوله اليهود قبل أن يقولوه، ولقَّنه الحجَّة الدامغة ليرُدَّ عليهم، بعد أن يُعِدَّ نفسه لتحمُّل أذاهم.

فقال عَزَّوَجَلَّ -مخبِرًا نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمسلمين بأقوالِهم-: ﴿سَيَقُولُ﴾ أي: سيقع هذا

القـول يقينًا عمَّا قريـب ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «اليهود»[(١)]، و(السُّـفهاء): جمع «سـفيه»، وهو: كلُّ مَن لا يُحْسِـن التـصرُّفَ ويُخالِف الحِكْمة فيه. فهؤلاء الكفَّار سُـفهاء في دينهم، وإن كانوا يُحسِنون التصرُّف في الأموال. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: بيان لنوع هؤلاء السفهاء.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: استِفهام للإنـكار، يعني: ما الذي صرفَ النبـيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمؤمنين إلى جِهـة الكعبة ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي: بيت المقدِس. و(قِبلة) المصلِّي: هي الجهة التي يستقبلها في صلاته، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُقابِله ويُقابِلها.

وجـاء في سـبَب نزول هذه الآيـة: عن ابن عبَّـاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «لـمَّا صُرِفـت القِبلة عن الشـام إلى الكعبـة، في رجـب على رأس سـبعةَ عشر شـهرًا من مَقدَم رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينـة؛ أتـى رسـولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جماعةٌ من اليهود -سـمَّاهم- فقالوا: يا محمَّـد، ما ولَّاك عـن قِبلتـك التي كنتَ عليها، وأنت تزعـم أنَّك على مِلَّة إبراهيم ودينـه؟! ارجِع إلى قِبلتك التي كنتَ عليها نتَّبِعك ونصدِّقك! وإنَّما يريدون فتنته عن دينه؛ فأنـزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾»[(٢)].

﴿قُل﴾ أي: يـا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، في إجابة هـؤلاء: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: الذي صرفنا هو الملِك القهَّار، مالِك جميع الجهات، ومنها المشرق والمغرب.

وقولـه ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يُفيـد الحَصْر، أي: أنَّ مُلك الجهات لـه، لا لغيره، لا يُشارِكه فيها غيره، وإذا كان مالكًا لها فإنَّه يتصرَّف في توجيه عباده لأيِّها شاء، ولا يحِقُّ لأحدٍ أن يعترِض عليه.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يدُلُّـه ويوفِّقـه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريـق واضـح قويـم واسـع، يَسـهُل سـلوكه، وتَظهر علاماته، وهو طريق الإسلام والقرآن. واسـتقبال الكعبة مَعلم من معالم هذا الطريق.

وقال أبو العالية رَحِمَهُٱللَّهُ: «يَهْدِيهم إلى المخرج من الشُّبُهات والضلالات والفِتَنة»[(٣)].

---

(١) وكذا قال البراء بن عازب ومجاهد والحسن، انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٣٠)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٨).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كلَّ مَن اعترض على حُكم الله؛ فهو سفيه.

وفيها: إعداد نفوس الصَّحابة للمواجَهة، وتجهيزهم بالرَّدِّ القويّ القاطع الذي سيَسْتَعمِلونَه في الرَّدِّ على الشُّبُهات.

وفيها: أنَّه يكفي للإيمان والانقياد معرفة أنَّ الحُكم الشرعيّ مِن عند الله، وإن لم تظهر عِلَّته وحِكمتُه للعَبْد.

وفيها: أنَّ الهداية بيد الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلناكم مُهتَدين إلى الصِّراط المستقيم، وهديناكم إلى هذه القِبلة العظيمة؛ فكذلك ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي: صيَّرناكم يا أُمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خِيارًا عُدولًا، ممدوحين بالعِلْم والعمل، مُؤهَّلين ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ﴾ أي: تشهَدون على الناس والأُمَم، بأنَّ رُسُلَهم قد بلَّغتهم رسالاتِ ربِّهم.

وقد روى البخاريُّ[1]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ! فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

وقوله ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٨٧).

بعدالتكم وصِدْقكم في شهادتكم على الأُمَم الأخرى، وكذلك يشهد على أُمَّته يوم القيامة بأنَّه بلَّغ البلاغ المبين، كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي: اتجاهك لبيت المقدِس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهَر عِلمُنا في الواقع، فيترتَّب عليه الجزاء، وتقوم الحُجَّة على الناس، والله يعلَم مَن يزيغ ومَن يثبت قبل تحويل القِبلة، وقبل أن يَخلُق العِباد أصلًا، فَشَرَعَ تحويل القبلة؛ ليتحقَّق عِلمُه في الواقع، ويظهَر للناس.

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ في التوجُّه إلى القِبلة الجديدة ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرجع كافرًا مرتدًّا شاكًّا في الدِّين، فيتميَّز أهلُ اليقين من أهلِ الشِّرك والرِّيبة، ويظهَر حال مَن يتَّبع ويُطيع ممَّن يزيغ وينقلِب.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: هذه التولية، وهي: صَرْف التوجُّه عن بيت المقدِس إلى الكعبة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: شاقَّة على النفوس، ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّها يسيرة خفيفة؛ لتوفيق الله لهم باتِّباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتثبيتهم على الإيمان.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ﴾ أي: يُذهبه سُدًى، ويتركه بدون جزاء ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم نحو بيت المقدِس، وتصديقكم بالقِبلة الأولى.

فسمَّى الله الصَّلاة (إيمانًا)، **وهذا يدلُّ على أنَّ العمل من صميم الإيمان.**

ولعلَّ مِن مَكْر اليهود: أنَّهم لـمَّا اغتاظوا من تحويل القبلة؛ صاروا يقولون للمسلمين: إنَّ الذين صلَّوا منكم إلى القِبلة الأولى، وماتوا قبل التحويل إلى القِبلة الثانية، ضاعَت صلاتهم، وليس لهم ثواب عليها! فجاءت الآية ردًّا عليهم.

وقد صحَّ في سبَب نزول هذه الآية: عن البَرَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّهُ مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ أي: كثير الرأفة ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة، فلا يمكن أن يُضيِّع إيمان مَن آمن، وثوابَ مَن عَمِلَ صالحًا.

و(الرحمة) أعمُّ من (الرأفة) -كما قال بعضهم-؛ لأنَّ الرأفة تختصُّ بدفع المكروه وإزالة الضرر، والرحمة تشمل -بالإضافة إلى ذلك- جلب المنفعة، وتحقيق المصلحة، والتفضُّل بالنِّعم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حَسَد اليهود لهذه الأُمَّة، ومِن ذلك: حَسَدُهم لنا على هذه القِبلة التي هدانا الله لها، وضلُّوا عنها.

وفيها: أنَّ الشاهد يجب أن يكون عدلًا، أي: مستقيمًا على دين الله.

وفيها: وجوب متابعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾:

صَحَّ في سبَب نزول هذه الآية: عن البَرَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ؛ فَأَنْزَلَ الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ»(١).

وقوله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: حقًّا نرى تحوُّلَ وَجْهك إلى السماء، وتَردُّدَ نظرِك فيها، طالبًا قِبلة تتمنَّاها.

ذلك أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرجو -وهو في المدينة- أن يُوحَى إليه بتحويل القِبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة؛ لأنَّها قِبلة أبيه إبراهيم، ولأنَّ هذا أقرب إلى استجابة العرَب من قُرَيش وغيرهم. ولِما في ذلك أيضًا من مخالفة اليهود، ولكنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كمال أدبه مع ربِّه انتظر ولم يسأل، فحقَّق الله رجاءه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: فَلَنُوجِهَنَّكَ، ولَنُحَوِّلَنَّكَ إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تحبُّها، وتطمئن إليها.

(١) رواه البخاري (٣٩٩).

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أنَّ الكعبة كانت أحبَّ القِبلتَين إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يُقَلِّب وَجْهَه في السماء، وكان يَهْوَى الكعبة، فولَّاه الله قِبلةً كان يهواها ويرضاها»(١).

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي: استقبِل بوَجْهك، وببَدنك أيضًا ﴿شَطْرَ﴾ أي: جهة ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: تلقاء الكعبة، فيستقبل ذاتَ الكعبة وعَينها إذا كان قريبًا منها، وجِهَتها إذا كان بعيدًا عنها.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: في أيِّ جهة من جهات الأرض، برًّا أو بحرًا أو جوًّا؛ ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: فاصرِفوا وجوهكم جهة الكعبة.

ولا يُستثنَى من هذا شيءٌ سوى: النافلة على الراحلة في السفر، وحال الالتحام في القتال مع الأعداء، ومُطاردة العدوّ والهرب منه، في صلاة الطالب والمطلوب.

وكذلك مَن جاز له الاجتهاد في معرفة جهة القِبلة فأخطأ، فصلَّى إلى غير جهتها؛ لا تجبُ عليه الإعادة.

وكذا مَن صلَّى داخل الكعبة؛ صلى إلى أيِّ جهة شاء.

ومَن عجَزَ عن استقبالها لحال مرض، أو توثيق بقَيْد، أو نحو ذلك من حالات العَجْز عن الاستقبال؛ صلَّى على حسب حاله.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن قَبلكم، من اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: استقبال المسجد الحرام بعد بيت المقدِس ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الأمر الثابت، والحُكم العادل، والخبر الصادِق ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ممَّا أوحاه الله إلى أنبيائهم، وما وجدوه في كتبهم، من صِفة نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخبره، وأنَّه يصلِّي إلى القبلتَين، وأنَّ آخرهما الكعبة.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ (الغفلة): هي اللهْو والسَّهْو عن الشيء -تعالى الله عن ذلك-. ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عن أيِّ عمل يعملونه، بجوارحهم أو بقُلُوبهم، وما قاموا به من التكذيب والتشكيك والكِتمان، وسيجازيهم عليه. وهذا تهديدٌ لهم بالعقاب.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٥٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات صفة (الرؤية) لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ النظر إلى السماء قد يكون عبادة، كما لو كانَ لتمييز القِبلة، أو للتفكُّر في خلق السماء، أو التماس الفرج من الله.

وفيها: أدبُ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع ربِّه؛ حيث إنَّه لم يسأله تغيير القبلة ولكنه انتظرَ الوحيَ.

وفيها: أنَّ الوجه أشرفُ الأعضاء؛ لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾.

وفيها: مظهر من مظاهر وَحدة المسلمين، في توجُّههم جميعًا إلى قِبلة واحدة.

وفيها: أنَّ مِن أسباب كُفر أهل الكتاب: معاندتهم الحقَّ، مع عِلْمهم بأنَّه حقٌّ.

وفيها: دليلٌ لصِحَّة تقسيم صفات الله تعالى إلى: صفات نفي وصفات إثبات، وأنَّ قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ مثالٌ للصفات المنفيَّة، وهذا كقوله: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن المواضع التي اجتمعت فيها صفةٌ مُثبَتة وأخرى منفيَّة: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن الفوائد التي تُؤخذ من قِصَّة تحويل القبلة أيضًا:

١. اهتمام الصَّحابة بتعليم إخوانهم.

٢. الحِرْص على نقل العِلْم.

٣. العمل بخبر الواحد الثقة.

٤. حُجيَّة خبر الآحاد؛ فالصَّحابة الذين كانوا يُصَلُّون بمسجد قُباء، عندما جاءهم الأمر بتحويل القبلة من شخص عَدْلٍ؛ نفَّذوا الأمر ولم ينتظروا خبرًا آخر.

٥. يطعنُ أعداءُ الله بالقول بالنَّسْخ في الدِّين.

٦. فِقه الصَّحابة، الذين داروا في الصَّلاة كما هم، حتى استقبلوا جهة الكعبة، وفي هذا سُرعة امتِثال الأمر، والاستجابة له.

٧. من رأفة الله ورحمته: تثبيت أجور مَن نفَّذوا الأمر الأول باستقبال بيت المقدِس، وعدم تضييعها عليهم؛ لأنَّه لاذنب لهم؛ بل هم ممتثِلون مخلِصون.

٨. كمال إيمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لـمَّا استمرَّ على تنفيذ الأمر بالتوجُّه إلى بيت المقدِس بعد الهجرة، مع أنَّه كان يهوى غيرَه.

٩. على المسلِم أن يعمل بالحُكم الشرعيِّ، ولوخالف هواه.

١٠. السفاهة في الدِّين أسوأ من السفاهة في المال؛ فقد يكون الشخص ذكيًّا في التصرُّف في المال، لكنَّه سفيه في أمور الدِّين -كاليهود-.

١١. شَفقة الصَّحابة على إخوانهم المسلمين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، وسؤالهم عن حالهم، واهتِمامهم بأمرهم.

١٢. في فَرَح أعداء المسلمين بموافقة المسلمين لهم في قِبلتهم قبل تحويلها؛ تأكيدٌ على أهميَّة مخالفة الكفَّار، وعدم التشبُّه بهم.

١٣. تزويد الدُّعاة بالحُجَج، وإعلامُ المسلِم بما يُتوقَّع ليكون مستعدًّا له؛ ومن ذلك: وصيَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا بعثه إلى اليمن، فقال له: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله...» الحديث[1].

١٤. الاحتجاج بمشيئة الله تعالى على مَن سأل: لماذا شرَعَ الله كذا؟ ولماذا أمر بكذا؟ فيُقال له: ربُّك يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد.

١٥. على الدُّعاة والعلماء استخدام الأساليب القرآنية في الرُّدود على الشُّبهات، والدِّفاع عن الدِّين.

١٦. مِن أشدِّ ما يغيظ أعداءَ الله: اجتماعُ المسلمين على شيء واحد، كاجتماعِهم على القِبلة، والتأمين، وصلاة الجماعة، والجُمعة، والعيدَين، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

١٧. مِنَّة الله تعالى على عباده المسلمين، بهدايتهم وتثبيتهم على الحقِّ، بخلاف غيرهم من المنافِقين وأهل الشَّكِّ والارتياب.

١٨. نَسْخ الحُكم الشرعيّ يزيد المؤمنين إيمانًا وتثبيتًا، ويزيد المنافِقين شكًّا وارتيابًا، فإذا كان في القَلْب إيمانٌ استقبل الحكمَ الجديد بالاستِسلام والامتِثال، وإذا كان في القَلْب مرضٌ استقبل الحكمَ الجديد بالاعتراضِ والارتيابِ والرفضِ والتشكيك.

١٩. أهميَّة اتِّباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتأسِّي بأفعاله وأقواله.

٢٠. خطورة وعِظَم شأن الثبات على الدِّين، وأنَّه لا يُرزَقُه إلَّا مَن وفَّقه الله وثبَّته وأعانَه.

٢١. ابتلاء الله للعباد بالأحكام والشرائع.

٢٢. الحذَر من حملات تشكيك أعداء الدِّين في أحكام الإسلام؛ فقد يتأثر بها بعضُ ضُعَفاء الإيمان، فيَزيغون ويسقطون.

٢٣. الحُكم الواحد قد يكون ثقيلًا على قوم، خفيفًا على آخرين، بحَسَب حال كلٍّ من الطرَفين.

٢٤. إنَّ الله يرزق أهل الإيمان قوَّة تُسَهِّل عليهم تنفيذَ أمره، فيصبح عليهم سهلًا ميسورًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٥﴾:

ثم أخبر تعالى عن مزيدٍ من كُفر اليهود ومُعاندتهم، بأنَّه لو أُقيمَت عليهم كلُّ الأدلَّة على نبوَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِحَّةِ ما جاء به؛ فلن يتَّبعوه، ولن يُسلِموا له.

فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ أي: جئتَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي: مصطحِبًا كلَّ حُجَّة ودليل وعلامة تدلُّ على صِدقك؛ ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ أي: الكعبة، ولا دخلوا في دينك؛ لعِنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

فيه: بيان استحالة اتِّباع النبي ﷺ لدين أهل الكتاب وقِبلتهم، وفي هذا قَطْعٌ لأطماعهم في استمالته.

والنفي في قوله ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يحمل معنى النهي؛ أي: ينهى الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين عن اتِّباع قِبلة اليهود والنصارى، ويطلب منهم الدوام والاستمرار بالبقاء على القِبلة التي وجَّههم الله إليها.

﴿وَمَا بَعْضُهُم﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: لن يتَّبع اليهود قِبلة النصارى -وهي مطلع الشمس- ولن يتَّبع النصارى قِبلة اليهود -وهي بيت المقدِس-.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾: هذا يحمل معنى القَسَم، وتقدير الكلام: «وعِزَّتي وجلالي، لئن اتبعتَ يا محمَّد ﷺ» ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما يشتهونه ويحبُّونه ويميلون إليه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحي بدين الإسلام، وتحويل القِبلة إلى الكعبة؛ ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسِهم، المعتَدين على حُكم ربِّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها تهديدًا عظيمًا، وزجرًا بليغًا، للمتَّبعين للهوى، فإذا خاطب الله نبيَّه ﷺ -وهو أحبُّ الخلق إليه- بهذا الأسلوب الشديد، مع كونه ﷺ من المحال أن يتَّبع أهواءهم؛ فكيف بمَن هو دونه ممَّن يتبعون الأهواء والبِدَع والضلالات؟

وفي الآية: حِرْص النبي ﷺ على هداية أهل الكتاب.

وفيها: أهميَّة عدم صرف الدَّاعية وقتَه فيما لا فائدة من ورائه، وحتى لا يُصاب بالإحباط.

وفيها: أنَّ الكُفر لو كان عن جهل أو شُبهةٍ؛ فيُرجَى زواله بالعِلْم والبيان، ولكن إذا كان كُفرَ عناد واستكبار؛ فليس لزواله رجاء، إلا أن يشاء الله.

وفيها: أنَّ اليهود لن يَتَنَصَّرُوا، وأنَّ النصارى لن يَتَهَوَّدُوا، إلى قيام الساعة.

وفيها: وجوب الانقياد للحقِّ إذا ظهرت دلائلُه.

وفيها: بيان استحالة خروج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن شريعة الإسلام.

وفيها: تحريم اتِّباع اليهود والنصارى في شرائع دينهم، وحرمة التشبُّه بهم.

وفيها: أنَّ الإنسان لا يؤاخَذ إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أنَّ أهل الكتاب كفَروا بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وبالقرآن وبالقِبلة -وهي الكعبة- وهم يعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّهم؛ زاد ذلك تأكيدًا بأنَّهم يعرفونه حقًّا لا شكَّ فيه عندهم ولا مِرية، كما يَعرف الواحد ولدَه، ويميِّزه مِن بين سائر أبناء الناس.

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أعطيناهم عِلْم التوراة والإنجيل ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ أي: يعرفون محمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأنَّه نبيُّ الله، معرفة جليَّة واضحة، ويميِّزونه عن غيره، وكذلك يعرفون القرآن، وأنَّ البيت الحرام هو القِبلة.

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ أي: الذين من صُلبهم، لا يلتبسون عليهم بغيرهم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: جماعة من أهل الكتاب، وهم: علماؤهم وأحبارهم ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ لَيُخفونه، ولا يُبدونه، ويتواصَون بذلك ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: كِتمانهم الحقَّ عن عِلْم، وليس عن جهل، فهُم يعلمون أنَّه من عند الله، ويعلمون تحريم كِتمانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معروفٌ عند أهل الكتاب معرفة تامَّة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي الآية: أنَّه لا عذر لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: العَدْل مع أهل الكتاب؛ فإنَّ الذين يكتُمون طائفة منهم، وقد يوجَد منهم -على قِلَّتهم- مَن لا يكتم، كعبدِ الله بن سلَام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ والنجاشيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾:

ثم أخبر تعالى بأنَّ ما أنزله على النبيِّ ﷺ، هو الحقُّ الذي لا مِرية فيه ولا شكَّ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الذي أنتَ عليه، وأُوحيَ إليك، ممَّا كتمَه هؤلاء، وكذَّبوا به، هو من الله حقًّا، ومصدره منه عَزَّوَجَلَّ. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ نهي مؤكَّد ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كلَّ ما جاء من عند الله فهو حقٌّ، وكلَّ ما خالفه فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وفيها: تقوية الله تعالى لإيمان نبيِّه ﷺ وتثبيته، وهذا ما يجب على الدُّعاة أن يفعلوه مع الناس.

وفيها: أنَّ على الإنسان أن يسعى في نفي الشَّكِّ عن نفسه، واستعمال ما يزيد الإيمان واليقين من التدبُّر في الكتاب العزيز، وقراءة كلام أهل العِلْم، ومجالستهم، ونحو ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ أي: لكلِّ أهل دِين، سواءً كان حقًّا أو باطلًا ﴿وِجْهَةٌ﴾ أي: جهة وقِبلة يستقبلها؛ فلليهودي قِبلة، وللنصراني قِبلة، وهدَى الله هذه الأُمَّة إلى القِبلة الحقِّ.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: هو تعالى موجِّهه إليها، أو: أنَّ لكلِّ صاحب مِلَّة قِبلة هو مُوَجِّهٌ نفسَه إليها.

وقوله ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: بادِروا إلى الطاعات، وسارِعوا في الأعمال الصالحة، وتسابقوا فيها، وقوموا بها وافعَلوها، من التوجُّه إلى القِبلة وغير ذلك.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ في أيِّ مكان تكونوا، من بَرٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ، تفرَّقت أجزاؤكم أو اجتمعَت؛ ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يبعثكم خلْقًا كاملًا، ويحشركم يوم القيامة؛ ليجازيَكم على أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أراده وشاءه، من جمعِكم وغيره ﴿قَدِيرٞ﴾ عليه، وعلى البَعْث بعد الموت، والإثابة على الطاعة، والعقاب للمسيء، وغير ذلك ممَّا أراد، يَقدِر عليه بلا عَجْزٍ سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ توجيه العِباد للأمور الحِسِّيَّة والمعنويَّة هو من الله، سواءً كان في أديانهم، أو قِبْلاتِهم، أو حِرَفِهم وأعمالهم، أو آرائهم ونظرياتهم، أو مجالات طاعاتهم وأنواع قُرباتهم.

وفيها: أنَّ الإيمان بالبَعْث والنشور يدفع للتسابُق في الخيرات.

وفيها: أنَّ التسابق في الخيرات لا بأس أن يكون بحَسَب ميول النفس في مجالات الطاعات؛ فهذا يجتهد في العِلْم، وآخر يجتهد في الجهاد، وثالث يجتهد في العِبادة، ورابع يجتهد في الدَّعوة وإنكار المنكر، وهكذا، مع قيام الجميع بفِعْل الواجب وترْك المحظور.

وفيها: إحاطة الله تعالى بخَلْقه أينما كانوا.

وفيها: أنَّ من الحِكْمة بَذْل الجهد، والعمل في الباب الذي يفتحه الرَّبُّ تعالى للعبد، ويهيِّئه وييسِّره له، ويوجِّهه إليه.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾:

وقوله ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾ الخِطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكلِّ مسلِم. والمعنى: من أيِّ موضع خرجتَ في أسفارك ومغازيك، من المنازل القريبة والبعيدة؛ ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ أي: في الصَّلاة ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا التوجُّه شَطْرَ المسجد الحرام ﴿لَلۡحَقُّ﴾ أي: هو حقيقة الأمر الموافِق للحِكْمة، الثابت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الصادر من الله، المُنَزَّلُ حُكمه من عند الله.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يا أيُّها المسلمون، من عباداتكم؛ فيثيبكم عليها.

ويا أيُّها الكفَّار: ليس الله بغافل عن شِرْككم، وظُلْمكم، وعداوتكم للمسلمين، وإثارتكم للشُّبُهات، وسوف يجازيكم بما تستحقُّون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأكيد حُرمة المسجد الحرام.

وفيها: وجوب التوجُّه إلى القِبلة حيثما كان الإنسان.

وفيها: أنَّ تغيير القِبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة هو حقٌّ ليس بباطل، وأنَّه من عند الله، وليس رأيًا ولا اجتهادًا من البشر.

وفيها: إشارة للبِشارة بفتحِ مكة، وانتشارِ الإسلام في الأرض.

وفيها: إضافة العمل والكسب إلى الإنسان -من خير أو شرٍّ- وأنَّ العبد ليس مجبورًا على فِعْله، وكذلك ليس مستقلًّا عن إرادة الله؛ فللعبد إرادة واختيار يُحاسَب عليها، وما أراده واختاره فهو مكتوبٌ وواقعٌ بأمر الله ومشيئته.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠﴾:

تكرَّرَ الأمر باستقبال المسجد الحرام في هذه الآيات ثلاث مرَّات؛ فقال بعض العلماء: إنَّه للتأكيد؛ لأنَّه أول نَسْخ وقع في الإسلام.

وقيل: التَّكرار لاختلاف الأحوال؛ فأمرٌ لُمشاهِد الكعبة، وأمرٌ لمن هو في مكة، وأمرٌ لمن هو في بقيَّة البلدان، وأمرٌ لمن خرج في الأسفار. وقيل: غير ذلك[1].

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان كنتم -يا أمَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الأرض، مقيمين أو مسافرين، في برٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ؛ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾: توجَّهوا إلى المسجد الحرام.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي: اليهود وغيرهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيَّتها الأمَّة المحمَّديَّة ﴿حُجَّةٌ﴾ أي: مجادَلة ومعارَضة، وشيء يحتجُّون به بالباطل.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الدمشقي (٣/ ٦٥)، تفسير القرطبي (٢/ ١٦٨)، تفسير الخازن (١/ ١٢٤)، تفسير النيسابوري (١/ ٣٦٧)، مفاتح الغيب (٤/ ١٢٥).

والمعنى: حولّنا قِبلتكم -يا أيُّها المسلمون- من بيت المقدِس إلى الكعبة؛ لئلَّا يحتجَّ اليهودُ عليكم بأنَّكم تابعون لهم في القِبلة، فانقطع الطريق عليهم في المجادَلة؛ لأنَّه قد صار لكم قِبلة مستقلَّة ومميَّزة عنهم.

ومن جهة أخرى: فإنَّ تحويل القِبلة منَع المشرِكين -ومنهم كفَّار قُرَيش- من الاحتجاج على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما كانوا يقولون: لماذا ترَكَ قِبلة أبيه إبراهيم؟ فلـمَّا صار تحويل القِبلة جهة الكعبة؛ انقطعت حُجَّتهم أيضًا؛ فلم يعودوا قادِرين على ادِّعاء اتباعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِلَّةَ أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم يخالِف قِبلته.

ولـمَّا سُدَّ الطريق على الأعداء في استعمال الحُجَج؛ لم يبقَ إلَّا المعانِدون والمكابِرون الذين ليس عندهم حُجَّة أصلًا؛ ولذلك قال الله عنهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، فبقيَ هنالك مَن يقول من الأعداء المعانِدين: تَرَكَ بيت المقدِس واتجهَ إلى الكعبة؛ حنينًا إلى بَلَده، ومحبَّة لقومه!

وهؤلاء المعانِدون -أصحاب الأقوال التافهة- لا يضرُّون المسلمين شيئًا، ولذلك نهانا الله عن خَشيتهم، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: مهما استعملوا من زخارف القول والظُّلْم في الكلام، ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ أي: احذروا عقابي، ولا تخالفوا أمري. و(الخشية): خوف من عظيم، مقرون بالعِلْم[1].

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ (إتمام) الشيء: بلوغ غايته وكماله. والمعنى: شَرَعْنا لكم استقبال البيت العتيق؛ لإتمام نِعمة الهداية عليكم إلى القِبلة الأعظم والأكرم، ولنُنعِمَ عليكم بقَطع حُجَج الأعداء.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى مزيد من العِلْم والعمل الصالح والعِبادة، جهة هذه القِبلة التي هديناكم إليها، وضلَّ عنها غيرُكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَكرار الأمر المُهِمِّ؛ لتثبيته والثبات عليه، ودفع الشُّبه المثارة حوله.

وفيها: تأكيد حُرمة المسجد الحرام.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٣).

وفيها: وجوب التوجُّه إلى القِبلة حيثما كان المصلِّي.

وفي الآية: أنَّ النِّعَم من عند الله لا من غيره؛ ولذلك أضاف النِّعمة إلى نفسه؛ فقال: ﴿نِعۡمَتِي﴾.

وفيها: إشارة للبِشارة بفتحِ مكة، وانتشارِ الإسلام في الأرض.

وفيها: دفاع الله عن المؤمنين وكَبْت الظالمين.

وفيها: بيان أنَّ من الحُجَج ما هو داحض وباطل.

وفيها: أنَّ على المسلِم أن يعمل بشريعة الله، ولا يخاف في ذلك لومة لائِم.

وفيها: أنَّ تنفيذ أوامر الله وخَشيته من أسباب الهداية.

وفيها: أنَّ أحكام الله وشَرْعَه فيها مصالح عظيمة للمسلمين، وقد ذَكَرَ الله تعالى في الآية ثلاث عِلَل في تحويل القِبلة، كلّها لمصلحة المسلمين، وهي: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى نِعَمه على المؤمنين في تحويل القِبلة، ذكَّرهم بنِعمته عليهم في إرسال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم وفيهم؛ فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ يعني: من أنفسكم، تعرِفون نَسَبه وحاله، فهو مفخرةٌ لهم؛ ولذلك عظُمت به المِنَّة عليهم.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾: يقرؤها عليهم، بما اشتملت عليه من الحِكَم والأحكام، مع كونه أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، فتكون معجِزته فيهم ظاهرة، وهي أيضًا باقية. ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ أي: يطهِّركم من الشِّرك والمعاصي، ويحملكم على محاسن الأخلاق، ويُنَمِّي فيكم الخصال الحسنة، والأفعال الجميلة.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، ويبيِّن معانيه لكم. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هي السُّنَّة والفقه في الدِّين، ووَضْع الأشياء في مواضعها.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أمورًا لم تكونوا عالمين بها قبل بِعْثته إليكم. وهذا يشمل: أخبار الأُمَم الماضية، والقرون الخالية، وشيئًا من حوادث المستقبَل، وتفصيل أمور الآخرة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ على المسلمين من الواجب في فَهم الدِّين، وتعليمه، ونشره، والدَّعوة إليه، أكثر ممَّا على غيرهم.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية ألَّا يكتفي بسَرْد المعلومات؛ وإنَّما يجب أيضًا أن يبيِّن المعنى، ويعمل على تزكية نفوس الناس.

وفيها: أنَّ زوال الجهل نِعمة؛ لقوله تعالى -مُمتَنًّا على المسلمين-: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾:

قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ أي: كما أنعمتُ عليكم بإرسال هذا الرسول، وبغير ذلك من النِّعَم؛ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ أي: باللِّسان، والقَلْب، وأفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله، ومحبته، وكثرة ثوابه[1].

﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ ذِكرًا حقيقيًّا، يكون رحمة لكم، ونِعمة عليكم، وإحسانًا إليكم.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ أي: قوموا بشُكري. و(الشُّكر): الثَّناء على المُنعِم، ويكون باللِّسان والقَلْب والجوارح. ومن ذلك: الاعتراف بالنِّعمة، ونسبتها إلى المُنعِم -وهو الله- لا إلى غيره، واستعمالها في طاعته، لا في معصيته. و(اللام) في قوله ﴿لِي﴾ للاختصاص، أي: اجعلوا شُكركم مختصًّا بالله.

﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ أي: لا تجحدوا نِعمتي عليكم؛ بل اعترفوا بها وأعلِنوها.

ومَن ذكرَ اللهَ فقد شَكَرَهُ، ومَن نسيَه فقد كفرَه، وعلى العبد أن يطيع ربَّه ولا يعصيه، ويذكره ولا ينساه، ويشكره ولا يكفره.

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيم (ص١٢٨)، تفسير السعدي (ص٧٤).

وفي الآيتين من الفوائد:

نِعمة الله العظيمة بإرسال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي عرَّفَنا كيف نعبدُ ربَّنا.

وفيها: أنَّ مِنَّة الله على قُرَيش -ثم العرَب- أعظم من مِنَّته على غيرهم؛ فعليهم من الشُّكر أكثر ممَّا على غيرهم.

وفي الآية: وجوب ذِكر الله في الجملة؛ لأنَّ الله أمر به، ثم منه ما يكون واجبًا ومنه ما يكون مستحبًّا.

وفيها: أنَّ مَن ذكرَ الله تعالى حصلت له منقبة عظيمة، ألا وهي ذكر الله له، كما جاء في الحديث القُدْسِيّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[(١)].

وقد صحَّ عن أبي عثمان النهدي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: «إنِّي لأعلم حين يذكرني ربِّي»، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: «إن الله يقول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، فإذا ذكرتُ الله ذكرَني»[(٢)].

وفي الآية: أنَّ معرفة النِّعَم تَدفع إلى مزيد من الشُّكر؛ ولذلك ينبغي التعرُّف عليها واستحضارها.

وفيها: الإخلاص في شُكر النِّعمة، بأن يوجَّه الشُّكر إلى الله؛ لقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالشُّكر -وهو نصف الإيمان- أمر بالصبر -وهو نصفه الآخر-؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والكلام إذا بدأ بالنِّداء فهو دليل على أهميَّته.

﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ أي: اطلبوا العَون من الله، باستعمال الصَّبر والصَّلاة. والصَّبر مرٌّ، ولكن عاقبته حميدة، وهو أنواع: صبر لله على طاعته، وصبر لله بالامتناع عن معصيته، وصبر له على قضائه وقدَرِه.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) مصنَّف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٦).

والصَّلاة داخلةٌ في الصَّبر؛ لأنَّها صبر على طاعة الله، وقد أرشد تعالى هنا إلى أنَّ أجودَ ما يُستعان به على المصائب هو: الصَّبر والصَّلاة، و«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»(١).

ثم ذكر تعالى معيَّته للصابرين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذه معيَّة إعانة وتأييد.

وقد عمل الصَّحابة بهذه الآيات:

فلمَّا نُعِيَ إلى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قُثَم وهو في سفر، استرجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ راحلته وصلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية(٢).

ولـمَّا غُشِيَ على عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غشية، حتى ظنُّوا أنَّه فاضت نفسُه فيها، خرجت امرأته أمُّ كلثوم -وكانت من المهاجرات الأوائل- إلى المسجد، تستعين بما أُمرت أن تستعينَ به من الصَّبر والصَّلاة(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكر معيَّة الله الخاصَّة للمؤمنين، وهي معيَّة النصر والتأييد، وهي غير معيَّة العِلْم والإحاطة، العامَّة لجميع الخلق.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾:

ولـمَّا قُتِلَ بعض المسلمين في سبيل الله، ووصَفَهم بعض الناس بأنَّهم أموات؛ نبَّه الله تعالى بأنَّهم ولو ماتوا، فهم ليسوا كسائر الأموات؛ وإنَّما لهم حياة خاصَّة، في غاية من النَّعيم، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ أيُّها الناس ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الذي يُقاتِل لتكون كلمة الله هي العليا ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾؛ فليسوا كسائر الأموات، ولو فارقَت أرواحُهم أجسادَهم. ﴿بَلْ

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) شعب الإيمان (٧/ ١١٤).

(٣) جامع معمر بن راشد (٢/ ٣٠٨).

﴿أَحۡيَآءٌ﴾ أي: لهـم حياة خاصَّـة؛ فمنهم مَن أرواحهم في جَوْف طير خُـضْر، لها قناديل معلَّقة بالعرش، تسرَح من الجنَّة حيث شـاءت[1]، ومنهم مَن رُوحه بنهر يُسَـمَّى «بارق» عند باب الجنَّة[2] -كما ثبت في الأحاديث الصحيحة- وهذا يختلف باختلاف مراتبهم في الجنَّة.

وحياتهـم هـذه حيَّـاة بَرْزخيَّـة، في عـالم الغَيب الـذي لا يعلمـه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ بحياتهم، ولا تُدرِكون ما هم فيه من النعيم والكرامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن وَصْف مَن قُتِلَ في سبيل الله بـ (الميِّت).

وفيها: التنبيه على الإخلاص في القتال.

وفيها: إثبات حياة الشُّهَداء.

وفيها: إثبات الحياة في البَرْزخ، بينَ الدُّنيا والآخرة.

وفيها: إثبات نعيم القبر والبَرْزخ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾:

ولـمَّا أمر تعالى عباده بالاستعانة بالصَّبر والصَّلاة عند المصائب؛ ذكرَ أنواع هذه المصائب، ومزيدًا ممَّا يقال عندها؛ فقال:

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: أقسـمَ تعـالى بأنَّه يختبرنـا ويمتحننا؛ ليَظْهـرَ الصابـرون وليتميَّزوا عن غيرهم.

وذَكـر خمـس مصائب، نفسـيَّة وبدنيَّة وماليَّـة؛ فقال: ﴿بِشَيۡءٖ﴾ أي: بقليـل، ومن رحمته تعالى أنَّه لا يأخذ كلَّ ما عند البشر؛ بل يترك لهم الأكثر.

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبَّان (٤٦٥٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ أي: الذُّعر، سواءً كان عامًّا -كعدوٍّ يهدِّد البلاد- أو خاصًّا -كالإنسان الذي يُبْتَلَى بمَن يخيفه ويُرَوِّعه-. ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ وهو: ما يكون نتيجة خُلُوِّ البطن من الطعام، وله أسباب؛ كقِلَّة الطعام - كالقحط- أو قِلَّة المال الذي يُشترى به، أو مرض يمنع من الأكل.

﴿وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ أي: ذهاب بعضها. و(المال): كل ما يتموَّله الإنسان -من نقود ومتاع وحيوان-. ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ والمراد: الأرواح التي تَذهب، بالأمراض أو القَتْل ونحو ذلك، فيفقد الإنسان بها الأصحاب والأقارب والأحباب. ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهو: ناتج الشجر، الذي يَذهب بالكوارث والآفات وعوامل التلَف.

وكلُّ هذا وأمثاله، ممَّا يختبر الله به عباده، فمَن صبر أثابه، ومَن قنط وتسخَّط أو اعترض: عاقبَه الله إن شاء.

وليس للعبد عند نزول المُصيبة إلَّا الصَّبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: أخبِرْهم بما يَسُّرهم ممَّا أعددناه لهم من جنَّات النعيم، والثواب العظيم.

ثم بيَّن تعالى مَن هم الصابرون، ثم علَّمنا تعالى ماذا نقول عند المُصيبة؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي: حلَّت بهم نائبة وشِدَّة؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بقُلوبهم وألسِنَتهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ (اللام) لام المُلك؛ أي: نحن وما عندنا مُلك لله عَزَّ وَجَلَّ، يفعل بنا ما يشاء ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى لقائه ﴿رَٰجِعُونَ﴾ أي: صائرون إليه لا إلى غيره، بالبَعْث والنشور.

وقد ورد في فَضْل هذه العبارة العظيمة أحاديث صحيحة:

منها: حديث أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْها».

قالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا ماتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ من أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هاجَرَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُها، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وفي الحديث: «إِذا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ الله لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ،

(١) رواه مسلم (٩١٨).

فَيَقُـولُ: قَبَضْتُـمْ ثَمَرَةَ فُـؤادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَـمْ، فَيَقُولُ: ماذا قـالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُـونَ: حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1].

وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الصابرون، المسترجِعون عند المُصيبة ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: أنَّ الله يُثني عليهم في الملإ الأعلى؛ إعلاءً لشأنهم ورِفعةً لذِكْرهم. ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ يُنعِم بها عليهم، ويُحسن بها إليهم، و(الصلوات) تدخل في (الرحمة). ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى الحقِّ والصواب، وطريق الجنَّة والفوز بالثواب.

وقيل: إنَّ الاسترجاع ذِكرٌ علَّمه الله هذه الأمة، لم تعلَمه الأُمَم من قبل؛ وإلّا لقالَه يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عند فَقْد ولدِه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

البُشرى للصابرين.

وفيها: انقسام العِباد إلى صابر وغير صابر عند المُصيبة.

وفيها: إثبات البَعْث والنشور.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بذِكْره وشُكره، ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة، وأثنى على الصابرين، وكان الحجُّ من الأعمال الشاقَّة التي فيها بذل المال والبدَن، ويحتاج إلى صبر؛ ذَكَره بعدما تَقدَّم، وأشار إلى بعض أركانه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

و﴿ٱلصَّفَا﴾: هو الصخر الصَّلْب الأملس، والمقصود به هنا: رأس نهاية جبل أبي قُبَيْس، وهو الحدُّ الأول للمَسْعى.

﴿وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾: الحجارة الصِّغار البيض، وهو هنا: رأس منتهى جبل قُعَيْقِعان، وهو الحدُّ المُقابِل للمَسْعى[2].

---

(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وحسَّنه الألبانيُّ بمجموع طرقه في الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٦٠)، لسان العرب (١٥/ ٢٥٧)

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من معالم الدِّين الظاهرة، والمقصود: أنَّ السَّعْي بينهما من أحكام دين الله وعبادته. وإضافة (الشعائر) إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي شرَعَها وجعلَها من دينه، فليست من أمر الجاهليَّة، وإنَّما هي من عبادة الله.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ أي: قصد الكعبة، بالعِبادة المخصوصة المعروفة في الشَّرْع، ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ أي: زار الكعبة لأداء عبادة العُمرة، المعروفة في الشَّرْع؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب ولا إثم على الحاجِّ أو المعتمر ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يَسْعى بينهما.

وسبَب هذا البيان من الله: أنَّ أهل الجاهليَّة كانوا قد نصبوا على جبلَي الصفا والمروة أوثانًا يعبدونها، ويطوفون بها، فتَحَرَّجَ المسلمون من السَّعْي بينَ الجبلَين؛ لأجل ما عليهما من الأصنام، فنزلت هذه الآية.

وفي «الصحيحين»(١)، عن عُرْوة، أنَّه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ فَوَالله، مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَلَّا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ!

قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي! إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا)، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا».

وعن عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ؛ فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ

---

(١) رواه البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧).

ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»[١].

وقوله ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: تبرَّع، وزادَ على الواجب، فأتى بحَجٍّ مستحَبٍّ وعُمْرة نافلة، فيهما سَعْي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: يُثيب العامل أكثر من عمله، ويقبل منه طاعته. ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بنيَّته، وقَدْر جزائه، وقد أحاط بكلِّ شيء عِلْمًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة الطواف بينَ الصفا والمروة، والراجح أنَّه رُكن؛ لقول النبي ﷺ: «اسْعَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»[٢].

وفيها: أنَّ بِدَع أهل الجاهليَّة ومُحدَثاتها لا تُلْغي شعائر الله.

وفيها: أنَّ التطوُّع بالعِبادة خيرٌ للعبد.

وفي مشروعيَّة الطواف بينَ الصفا والمروة: تذكيرٌ بسَعْي هاجَر عَلَيْهَا السَّلَامُ بينَ الجبلَين؛ لطلب الماء لولَدِها، وهي متذلِّلة فقيرة إلى الله. فعلى الساعي بينَ الجبلَين التفكُّر في فقره وذُلِّه، وحاجته إلى ربِّه في صلاح قَلْبه وغفران ذَنبه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾:

ثم قال تعالى في أحبار اليهود، ومَن فعل مثلهم من هذه الأُمَّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يُخْفون العِلْم في حال حاجة الناس إليه ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ أي: من الوحي ممَّا جاءت به الرُّسُل ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الآيات الواضحات ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ أي: العِلْم النافع الذي يهدي الخلق إلى ربِّهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا -مؤمنهم وكافرهم- ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جميع الكتب المُنزَّلة من عند الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الكاتمون ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يطردهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: من الملائكة، والمؤمنين، والبهائم، وجميع الخلائق.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٦)، ومسلم (١٢٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢٧٣٦٧)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٧٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَعيد مَن كتم عِلْمًا، وأنَّ ذنبه من الكبائر، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)].

ويَستحقُّ هذا الوَعيد: إذا كان عندَه عِلْمٌ يقينيٌّ، ليس بظنٍّ، وإذا احتاج إليه الناس -سواءً سألوا عنه بألسِنَتهم، أو احتاج حالُهم إلى بيانه- وإذا قَصد الإخفاء، وإذا لم يوجَد غيره يخبِر به.

وفيها: إشارة إلى ما كان يفعله أحبار اليهود من كَتْم العِلْم، كصفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُكم رَجْم الزاني المحصَن، وتحويل القِبلة، وغير ذلك.

وفي الآية: أهميَّة إبلاغ العِلْم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «والله، لَوْلا آيَتَانِ في كِتَابِ الله، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ إلى قوله ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾»[(٢)].

وفيها: أنَّ المطلوب من أهل العِلْم: التبيين والتوضيح، على النحو الذي يفهمه عامَّة الناس.

وفيها: إشارة إلى عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لقوله تعالى ﴿أَنزَلۡنَا﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها: خطورة المعاصي والإفساد في الأرض؛ لأنَّها من أسباب لعنة البهائم للمُفسِدين، كما أنَّها تستغفر للعلماء العاملين.

وفيها: أنَّ ما احتاج الناس إلى بيانه من الأحكام الشرعيَّة؛ يجب بيانُه بلا مُقابِل ولا أجرة.

وأنَّ ما يحصل الضرر بتعليمه من الأمور الشرعيَّة يجوز كَتمه أو يجب، مثل: تعليم المبتدِعةِ

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٠)، ومسلم (٢٤٩٣).

أصـولَ المُناظَرة، وتعليـمِ بعض الكفَّار والمنافِقـين أمورًا شرعيَّة يمكن أن يسـتعملوها في إثارة الشُّبُهات، وخداعِ العامَّة والبسطاء من المسلمين.

ومثـل: تعليم الكافر والفاسـق ما يمكِّنه مـن تولِّي منصب عند المسـلمين؛ ليتوصَّل من خلاله إلى الإفساد.

ومثل: نشر الرُّخَص للسُّفهاء، الذين يستعملونها في ارتكاب المحظورات.

ومثل: تعليم الظَّلَمة بعض النصوص الشرعيَّة التي يوردونها في خُطَبهم على المسـلمين، فيخدعونهم، أو يحتجُّون بها على ظُلْمهم.

ومثـل: إخبار بعض الناس بأمور شرعيَّة لا يفهمونها على حقيقتها، فيُفتَنون بها. ومثله: إخبـار المسلِم الجديد، أو الراغب في الإسـلام، بأمور تصعِّب عليه الإسـلام، فيُنتظَر حتى يحسُن إسلامه، ثم يُعلَّم تلك الأمور الشرعيَّة.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾:

ولـمَّا ذكـر تعالى جُرْم الذين يكتُمون العِلْم؛ اسـتثنى من ذلك أهـل التوبة منهم؛ فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي: رجعـوا مـن معصية الله إلى طاعتـه، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ عملهم وما بينهم وبين الله، ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ أي: فعلوا ضِدَّ ما كانوا يعملونه من الذنب، فبيَّنوا بعد الكِتمان.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذيـن قامـوا بهذه الأعمال الثلاثـة -التوبة، والإصـلاح، والبيان- ﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أقبَلُ توبتهم، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أُحسِـن إليهم بالرحمة، بعد دفع العُقوبة عنهم بالتوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كِتمان العِلْم يؤدِّي إلى حصول الفساد، وأنَّ الفساد لا بُدَّ من إصلاحه.

وفيها: معالجة آثار الجريمة، واستدراك ما فات.

ويؤخَـذ منهـا: أنَّ مَن نشَر باطلًا، أو روَّج بِدعة، أو أعلن كُفرًا، فإنَّ من شروط توبته أن يتبرَّأ ممَّا كان يُعلِنه على رؤوس الأشهاد، وأن يُبيِّنَ بُطلانه؛ لتنبيه مَن اغترَّ به، ولإظهار الحقِّ.

ولا يكفي لأصحاب المذاهب الهدَّامة إذا تابوا أن يجعلوا توبتهم سرًّا، ويسكتوا عمَّا فعلوه؛ فلا بُدَّ من البراءة ممَّا كانوا عليه، وبيان بُطلانه، وإعلان الحقِّ.

وفي الآية: إشارة إلى الحِمْل الثقيل والعبء العظيم الذي يتحمَّله العلماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾:

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا، كَذِبًا أو استكبارًا ﴿وَمَاتُواْ﴾ استمرُّوا على الكُفر حتى داهمَهم الموت ﴿وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي: على هذه الحالة من الكُفر، لم يتوبوا ولم يرجعوا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾: مطرودون من رحمته، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تلعنهم، ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يمقُتونهم، ويَلْعنونهم، ولا سيَّما يوم القيامة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة والنَّار. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لحظةً ولا طرْفةَ عَيْن، ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهَلون ولا يُؤجَّلون؛ بل يُؤخَذون إلى العذاب من حين الموت.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ الكافر يستحق اللَّعنة، وأنَّ هذا مشروطٌ ببقائه على الكُفر حتى الموت.

ولذلك فالأحوَط عدم لَعْن الكافر المُعَيّن؛ لأننَّا لا ندري على أيِّ شيء يموت. لكن يُشرَع لَعْنُ جِنس أصحاب الكُفر والمعصية، فنقول: «لعنة الله على الكافرين»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

ويجوز لعنُ مَن لعنه الله ورسوله، وجاء الخبرُ من الوحي بموته على الكُفر بعَينه، كإبليس، وفِرْعَون، وأبي جهل، ونحوهم.

وفي الآية: أنَّ الكافر يلعنه الكافر، وقد قال تعالى عن أهل النَّار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿إِلَٰهٌ﴾ أي: مَألوه، ومعناه: المعبود حُبًّا وتعظيمًا. ﴿وَٰحِدٌ﴾: لا شريك له في ألوهيَّته، وربوبيَّته، وأسمائه وصفاته.

وفي هذا: ردٌّ على المشرِكين الذين كانوا يعبدون أصنامًا كثيرة، ويقولون: كيف يسع الناس إلهٌ واحد؟

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: الذي يُوصِل رحمته إلى خَلْقه. وله رحمة عامَّة لجميع الخلق، ورحمة خاصَّة بالمؤمنين.

وقد جاء في حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفاتِحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾»(١).

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

ولـمَّا ذَكَر تعالى تفرُّده بالألوهيَّة؛ ذكَرَ دلائلَ على وحدانيَّته، لتكون بُرْهانًا؛ فقد ورد عن أبي الضُّحى رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لـمَّا نزلت ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ قال المشرِكون: إنْ كان هذا هكذا فليأتِنا بآية؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ أي: إيجاد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع (سماء)، ومن آياته فيها: أنَّه ابتدعَها على غير مثال سابق، وجعل لها سَمْكًا (سقفًا) وأبوابًا وسُكَّانًا وحَرَسًا، وزيَّنها بالنجوم، ورفعَها بغير أعمدة.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ في خَلْقها على غير مثال سابق، وفي مَدِّها وبَسْطها، وما فيها من الجبال والبحار والأشجار والمعادن والدوابِّ، وغير ذلك من المنافع المُعَدَّة لسكَّانها.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في الطول والقِصَر، والزيادة والنقصان، والنُّور والظُّلْمة، وتعاقبهما، وطلب أحدهما للآخر حثيثًا، وما يحصل فيهما من الحوادث التي لا يعلمها إلَّا الله.

﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ أي: السُّفُن ﴿ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: تسير طافيةً ولا تغرق. ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: من الأمتعة والأرزاق والتجارات، فلو لم يجعل الله قانونًا للطَّفْو؛ لتعطَّلَت أكثرُ تجارات الناس؛ فالشَّحْن البَحْري هو الأكثر شيوعًا في العالم في نَقل السِّلَع، ومنها النِّفْط. ومهما كانت الناقلات والحاويات ضخمة؛ فهي تسير بأمر الله فوق الماء ولا تغرق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن آيات الوحدانيَّة أيضًا: ما ينزل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من جهة العُلُوِّ. ﴿مِن مَّآءٍ﴾ أي: المطر، فيجتمع في السَّحاب، ويتكثَّف فيها، ويُنزله الله بقَدَر ليحصل الانتفاع. ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي: النبات الذي في الأرض ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد أن كانت يابسة هامِدةً، مُجْدِبة، فتُصبِح مخضَرَّة.

وقد جاء في حديث أبي رَزِين العُقَيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى؟ فَقَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحِلٍ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خِصْبًا -وفي رواية: ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ خَضِرًا-؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى»[1]، و(الوادي المُمْحِل) أي: المُجْدِب.

ففي إنزال المطر من السماء رحمة وحِكْمة، وآية على قُدرة الله تعالى على بَعْث العِباد بعد الموت.

﴿وَبَثَّ﴾ أي: نشر، وفرَّق ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهي: ما يدُبُّ

---

(١) رواه أحمد (١٦١٩٣، ١٦١٩٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٤).

ويتحرَّك على وَجْه الأرض من أنواع الحيوان، وهذا التنوُّع في الخِلْقة والشَّكل وطريقة الحركة آيةٌ تُبْهِر العقول، شاهدةً على قُدرته ووحدانيَّته تعالى.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: تنويعها، في اتجاهاتها وشِدَّتها ومنافعها، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، وتجمع السَّحاب، وتُفرِّقُهُ، وتَسُوقه.

﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَنْسَحِب انسحابًا في الجوِّ بإذن الله. ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾: المذلَّل لمصالح المخلوقين بقُدرة الله ﴿بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يحمل المطر، ويُظِلُّ الناس.

في هذا كلِّه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: دلائل وبراهين عظيمة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾: يتفكَّرون بعين العقل؛ فينتفعون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ على الفلاسفة الذين يقولون بقِدَمِ العالم وأزليَّته، وأنَّه ليس له بداية، وقد بَيَّنَ تعالى أنَّه خَلَقَهُ وابتدأه.

وفيها: أنَّ تنوُّع الخَلْق دليلٌ على قُدرة الخالِق.

وفيها: مَدْح العقل الذي يقود صاحبَه إلى الحقِّ.

وفيها: التفكُّر في آيات الله، وأنَّ ذلك يزيد الإيمان، ويهدي إلى الرحمن.

وفيها: أنَّ الازدياد من التفكُّر والتدبُّر في مخلوقاته وآياته؛ دليلٌ على زيادة العقل، ويقود لمزيد من الإيمان.

وفيها: تنويع ذكر الآيات ليتعظَ بها أنواعُ الناس، على اختلاف طبقات عقولهم.

وفيها: أنَّ المخلوقات لا تُدبِّر نفسها، ولكن الله يدبِّر أمرَها وشُؤونها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى التوحيد، وأنَّه لا إله إلَّا هو، وذَكَرَ آياتٍ بيِّناتٍ دالَّةً على وحدانيَّته؛ أعقب ذلك بذِكر الشِّرك، ومنه: شِرك المحبَّة، وذكرَ عاقبة المشرِكين ومصيرهم في نار جهنم؛ فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الكفَّار والمشركين ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يعبد ويجعل ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾غير الله ﴿أَندَادًا﴾: أمثالًا وأشباهًا ونظراءَ، من الأحبار والرؤساء والأصنام والأوثان. فقد كان أهل الكتاب يتخذون أحبارهم ورهبانهم أَنْدَادًا، يُحِلُّون لهم ويحرِّمون من دون الله. وكان المشرِكون من العرَب وغيرهم يتخذون الأصنام والأوثان أندادًا، يعتمِدون عليها في جَلْب المنفعة، ودفع المضرَّة.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يُودُّونهم ويعظِّمونهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: كحُبِّهم لله، فيُسَوُّون بين أحبارهم وأصنامهم وبين الله في المحبَّة.

وهذا شِرك؛ فلمَّا قال رجل للنبيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ! قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا -وفي رواية: ندًّا-؟ بَلْ: مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»(١).

وفي «الصحيحَين»، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: المؤمنون يحبُّون ربَّهم أشدَّ من حبِّ هؤلاء المشرِكين للأنداد التي اتخذوها؛ وذلك لأنَّ محبَّة المؤمنين لربِّهم خالصةٌ، ومحبَّة الكفَّار لربِّهم فيها شوائب، كما أنَّ محبَّة المؤمنين لربِّهم تكون في السرَّاء والضرَّاء، أما المشرِكون: فينادُونَ ربَّهم ويلجأون إليه في الضرَّاء دون السرَّاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾، والمعنى: ولو رأى وشاهد الذين ظلَموا أنفُسَهم بالشِّرك في الدُّنيا، عذاب الله يومَ القيامة؛ لعَلِموا وأيقنوا أنَّ القوَّة لله جميعًا، وأنَّ الله شديد العذاب، وأنَّ الأنداد عاجزة لا تنفع ولا تضرُّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ليس لله تعالى نِدٌّ في الحقيقة، وأنَّ اتِّخاذ المشرِكين للأنداد مبنيٌّ على تصوُّراتهم

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

الفاسدة واعتقاداتهم الباطلة، بأنَّ لله شبيهًا ونظيرًا، وإلَّا فلا يوجد في الحقيقة لله شبيهٌ ولا نظير ألبتة.

وفي الآية: بيان شناعة شِرك المحبَّة.

وفيها: أنَّ المحبَّة أساس العِبادة، وأنَّ عبادة الله مبنيَّة على الحبِّ والتعظيم؛ فبالحب يُفعَل المأمور، وبالتعظيم يُجتنَب المحظور.

وفيها: أنَّ مَن جعل لله ندًّا فهو ظالم؛ لقوله: ﴿**وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ**﴾.

وفيها: اختصاص الله بالقوَّة يوم القيامة؛ لأنَّ (اللام) في قوله ﴿**أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ هي لام الاختصاص.

وفيها: أنَّ عِلْم اليقين بالآخرة يدفع إلى تَرْك الشِّرك والمعصية في الدُّنيا.

وفيها: انكشاف أمر المعتقَدات الباطلة يوم القيامة، حينما يرى المشرِكون أنَّ الأنداد التي اتخذوها لا قوَّة لها ألبتة، بل تُجعَل في النَّار -مع هؤلاء المشرِكين- إذا كانت جماداتٍ، أو كانت أحياءً عُبِدَتْ من دون الله وهي راضية، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وفيها: أنَّ من طُرُق دعوة المشرِك: أن يبيَّن له عاقبة الشِّرك الوخيمة، في الدُّنيا والآخرة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾:

ثم أخبر تعالى عن كُفر المشرِكين بأوثانهم، وتبرُّؤ المتبوعين من أتباعهم؛ فقال: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ**﴾ أي: ولو يرى الذين ظلموا وأشركوا حالَهم، عندما يتبرَّأ الرُّؤساء من أتباعهم، وهكذا يكون حال رؤساء الكُفر والضلال -كفِرْعَون وغيره- مع جنوده وأتباعه: يَكْفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضُهم بعضًا.

وأمَّا مَن عُبِدَ مِن دون الله وهو كارِهٌ؛ فإنَّه يتبرَّأ ممَّن عَبَدَهُ، لكن لا يدخل النَّار معه، كما قال الله عن الملائكة: ﴿**تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ**﴾ [القصص: ٦٣]، وكما يتبرَّأ عيسى ممَّن عبده مع الله، كما قال تعالى -حاكيًا قولَه-: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ [المائدة: ١١٧].

والتعبير بالفِعْل الماضي في قوله تعالى ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، مع أنَّ الأمر في المستقبَل يوم القيامة؛ لبيان أنَّه واقعٌ لا محالة، فهم يرَون العذابَ بأعيُنهم.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، كما ينقطع الحبل بمَن تمسَّك به للنَّجاة من الغرق. و(السَّبَب): هو ما يتوصَّل به إلى غيره. فكلُّ عَلاقة كانت موجودة في الدُّنيا، وكلُّ سبَب كانوا يؤمِّلون أن ينتفعوا به في الآخرة، قد انقطعَ وزال، وانقلبت المودَّة عداوة، والعِبادة لعنة وبراءة، وانقطعت الأرحام التي كانت في الدُّنيا فلم تَعُد تنفع، وتقطَّعت أسبابُ الخلاص، فلم يجدوا عن النَّار محيدًا ولا مصرِفًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ رؤساء الضلال لا ينفعون أتباعهم يوم القيامة، بل يتبرَّأون منهم، ثم يُجمَع بينهم في النَّار؛ زيادةً لحَسَراتهم، حيث يُجمَع بينَ التابع والمتبوع، وجهًا لوجه، في نار جهنم!

وفيها: أنَّ جميع الأسباب الباطلة والمحرَّمة لا تنفع أصحابها يوم القيامة، وكلَّ عَلاقة لم تكن لله في الدُّنيا فستزول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾:

ثم ذكر تعالى جملةً من الحوار الذي يكون يوم القيامة بينَ الأتباع والمتبوعين؛ فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ وهم الأتباع: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا﴾ يا ليت لنا ﴿كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة وعودة إلى دار الدُّنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي: حتى نتخلَّص منهم، ونَلْزم سبيل الحقِّ في الدُّنْيا، أي: إذا رجعنا إليهم. ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ في هذا اليوم العصيب يومَ القيامة، ولكنَّ هذا التمنِّي لا ينفعهم؛ لأنَّ الله قضى ألَّا رجوع إلى الدُّنيا، فلم يبقَ لهم إلَّا النَّدَم والحَسْرة!

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أراهم شِدَّة عذابه ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الشِّرك والسيئات ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات شديدة، وحُزنًا، وخَيبة، وخسرانًا. ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بعد دخولها؛ بل هم فيها خالدون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تمنِّي الكفَّار في الآخرة الرُّجوع إلى الدُّنيا.

وفيها: أنَّ خلود الكفَّار في النَّار أبديٌّ. وهذا من أدلَّة بُطلان قول مَن قال بأنَّ النَّار تفنى وتزول؛ وذلك لأنَّ خلود الماكث فيها يعني خلودَه مكانه.

وفيها: قُدرة الله تعالى أن يقلب المعنويَّ في الدُّنيا حِسِّيًّا يوم القيامة، كما تصبح أعمال الكفَّار المعنويَّة حَسَراتٍ حِسِّيَّة مرئيَّة، وكما يأتي العمل الصالح في القبر على هيئة رجلٍ جميل المنظر طيِّب الرائحة، والعكس للكافر والفاجر، وكما يؤتَى بالموت يومَ القيامة على هيئة كَبْش أمْلَح، وكما تصبح الأعمال المعنويَّة كالخُشوع والنِّفاق ذات وزن حِسِّيّ في كِفَّتي الميزان يوم القيامة.

وفيها: أنَّ من حَسْرة الكفَّار يوم القيامة أن يرَوا أعمال الخير التي عَمِلوها في الدُّنيا -كبِرِّ الوالدَين، وإعانة المحتاج، وإطعام الجائع، والمساعدة بالشفاعة والجاه- كلّها تذهب وتَضْمَحِل، وتُصبح سرابًا لا يستفيدون منها؛ لأنَّ الأساس فاسِدٌ -وهو الشِّرك- كما قال تعالى فيهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى التوحيد ودلائله، والشِّرك وعاقبته؛ ذكر نِعَمَه على عباده وإحسانَه لجميع الخَلْق؛ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المراد: بنو آدم، ويشمل المؤمن والكافر ﴿كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أصناف الأطعمة التي خلقها الله لكم، ولا تحرِّموا منها شيئًا بأهوائكم. ﴿حَلَٰلًا﴾ أي في حال كونه حلالًا مباحًا. و(الحلال): هو ما أباحه الشَّرْع.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: في حال كونه طيِّبًا. و(الطِّيب): هو ما استطابه الشَّرْع والطبيعة السليمة، وما يُسْتَلَذُّ أيضًا. وقيل: هو الطاهر؛ لأنَّ النفس السليمة تكرَه النَّجِس وتَعافُه.

وقيل في معنى الآية: الحلال في الكَسْب الطيِّب، أي: في ذاته، وهو ضِدُّ الخبيث والرِّجْس.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ أي: لا تسلُكوا، وتقتدوا بـ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: طُرُقه، ووساوِسه، وأعماله، وهذا يشمل الشِّرك وما دونه، ومن ذلك: تحريم الحلال الطيِّب؛ فإنَّه من أعظم خُطُوات الشَّيطان. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة. وقد أكَّد عداوته لنا؛ للتنفير عنه، والتحذير منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إبطال ما كان عليه أهل الجاهليَّة من تحريم الحلال.

وفيها: أنَّ تحريم المباحات هو من القول على الله بغير عِلْم، ومن الكبائر العظيمة؛ لأنَّه اعتداء على حقِّ الله في الحُكم والتحليل والتحريم.

وفي الآية: النهي عن التشبُّه بالشَّيطان، ويدخل في ذلك: التشبُّه به في الأكل والشرب، والأَخْذ والإعطاء بالشمال، والمشي في النَّعْل الواحدة -لأنَّها مِشية الشَّيطان- ونحو ذلك.

ومن خُطوات الشَّيطان: ما يَحْمِل عليه بعضَ الناس عند الغضب، من تحريم زوجاتهم، وما أباحه الله لهم -من طعام وغيره-.

وفيها: بيان حقيقة العدُوِّ، والتأكيد على عداوته؛ ليُحذَر منه؛ فالعاقل إذا علم عداوة شخص فلا يمكن أن يتَّبعه.

وفيها: أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، إلَّا ما دلَّ الدليل على تحريمه.

وقد يكون محرَّمًا لذاته -كالمَيتة فلا تحلُّ إلَّا للمضطر- وقد يكون محرَّمًا لعارض، مثل: ما أُخِذ بالغَصْب والسَّرِقة والرِّبا والغش، فهو محرَّم -وإنْ كان في الأصل طيِّبًا- كالخُبز والماء واللَّبن ونحوها.

وفي الآية: أنَّه لا يجوز تناول الأشياء الضارَّة، ولو كانت حلالًا، كالتراب.

وفيها: وجوب أكل ما يُبقِي الإنسان على قَيد الحياة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾:

ثم بيَّن تعالى أفعال هذا العدُوِّ الشَّيطانيّ، وفصَّل لنا في كيفيَّة إفساده؛ فقال:

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ أي: الشَّيطان، والخِطاب للناس ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: ما يسوء من المعاصي والسيِّئات، ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي: الكبائر، كالرِّبا والزِّنا، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الكلام في الدِّين والأحكام، بغير عِلْم ولا يقين ولا ظنٍّ غالب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الشَّيطان لا يأمر بالخير؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾، ومن ذلك: وَسْوَسته في قَلْب العبد بالسيِّئة، فإذا هممتَ بشَرٍّ فاعلم أنَّه من أوامر الشَّيطان.

وفيها: أنَّه لا يجوز الكلام في الأحكام الشرعيَّة بغير عِلْم أو يقين أو ظنٍّ غالب مبنيٍّ على الاجتهاد السائغ شرعًا. فلا يجوز أن يَنْسِبَ العبد إلى الله أشياء بمجرَّد الظَّنِّ، فيحرِّم ويجوِّز بدون عِلْم ويقين.

ويدخل في القول على الله بغير عِلْم: الخوض في تفسير القرآن والسُّنَّة بلا عِلْم، وإثبات ما لم يُثْبِته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصِّفات، أو نفي ما أثبته لنفسه من الأسماء والصِّفات.

ويدخل في ذلك أيضًا: كلام المنجِّمين والكُهَّان.

وفيها: أنَّ على المفتي الحذر من الفتوى بغير عِلْم، وأنَّه لا تجوز الفتوى بالظنِّ إلَّا عند تعذُر اليقين، بشرط أن يكون مؤهَّلًا للنظر والاجتهاد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾:

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للكفَّار، الذين اتَّبعوا خطوات الشَّيطان: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: اعملوا بما أوحى الله إلى نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عقيدة وقولًا وفعلًا.

ولـمَّا كان الأمر بالشيء نهيًا عن ضده؛ كان قوله ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يتضمَّن: تَرْك ما يخالف وحيَ الله، من الشِّرك والضلال ومَوروثات الجاهليَّة.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: هـؤلاء المشركـون، في جوابهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ أي: لا نتبع وحيَ الله، بل نتبع ما وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: أسلافنا، من عبادة الأصنام وتحريم الطيِّبات ونحو ذلك.

وقـد أبطـل الله جوابهم هـذا، بقوله ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الذيـن يقتَدون بهم ويتَّبعونهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس عندهم عقلُ رُشْدٍ يهديهم إلى الحقِّ، ولا يعلمون ما أُنزِل إليهم، ولا يَعملون عملَ المهتَدين، فكيف يَستحقُّ مثلُ هؤلاء الاتِّباعَ؟!

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسـلام ورغَّبهم فيه؛ وحذَّرهم عقـابَ الله ونِقمته؛ فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فإنَّهم كانوا أعلمَ وخيرًا منَّا! فأنزل الله هذه الآية[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذَمُّ التعصُّب للآباء بغير هُدى من الله.

ويؤخَـذ منهـا: أنَّ مَن تعصَّب لمذهب أو شـيخ، مع مخالفة الدليل؛ ففيه شَـبَهٌ من هؤلاء المذكورين في الآية.

وفيها: أنَّ كلَّ مَن خالف الحقَّ فليس بعاقل.

والعقل عقلان: عقل إدراك وتدبير المعيشـة، وعقل رُشْـد يُهتدَى بـه للحقِّ. وقد يكون الرجل من الأذكياء، لكن ليس عنده عقل رُشْد يهتدي به للحقِّ.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

ثـم ضرب الله تعـالى مَثَلًا للكفَّـار، ودعاهم إلى الهـدى؛ فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في غيِّهـم وضلالهـم وجهلهم ﴿كَمَثَلِ﴾ الراعـي ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يَصيـح ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي: يَصيح بالبهائم التي لا تفهم ما يقول ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أي: يقتصر إدراكُه على مجرَّد سـماع الصوت، بلا فَهْم لمعناه. و(الدُّعاء) للقريب، و(النِّداء) للبعيد.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٠٥).

فالمعنى: أنَّ مَثَلَ ما هم فيه من الغيِّ والضلال والجهل، كالدوابِّ السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نَعَق بها راعيها وصاح بها وزجرَها، أي: دعاها إلى ما يُرْشِدها؛ لا تفقه ما يقول ولا تفهمه؛ بل إنَّما تسمع صوته فقط.

﴿صُمٌّ﴾: جمع (أصَمّ)، وهو الذي لا يسمع. ﴿بُكْمٌ﴾: جمع (أبكَم)، وهو الذي لا ينطق. ﴿عُمْيٌ﴾: جمع (أعمى)، وهو الذي لا يرى.

فهؤلاء لا يسمعون الحقَّ سماع قَبول واستجابة، ولا ينطقون به نُطق إذعان وقَبول، ولا يَرونه رؤيةَ المستَجيب الباحث عنه. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يفقهون أمر الله، ولا ينتَفِعون بعقولهم التي وهبَها الله لهم، فصاروا كمَن لا عقل له.

وقد ضرب الله تعالى هذا المَثَل للكفَّار في تقليدهم لآبائهم، وعدم استجابتهم للدَّاعي الذي يدعوهم إلى الحقِّ.

فشبَّههم بالراعي الذي يَصيح بغنَمه، يَدعوها ويناديها، وهي لا تعقل ما يقول، ولا تفهم معناه، وإنَّما تسمع أصواتًا تُقْبِلُ بها وتُدبِر، نتيجة التعويد والترويض، لا نتيجة الفهم والعقل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾:

ثم أكَّد تعالى أمرَه السابق بالأكل من الحلال الطيِّب، لكنَّه نادى المؤمنين هذه المرَّة؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتصدير الحكم بالنِّداء -كما تقدَّم مرارًا-؛ يدلُّ على الاهتِمام به، واسترعاءِ انتباه المُنادَى.

﴿كُلُواْ﴾: الأمر للامتنان والإباحة، ويكون للوجوب في حالة حِفظ النفس ﴿مِن﴾ وهي هنا لبيان جنس المأكول ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وهو: ما كان حلالًا في ذاته، ومكتسَبًا بطريقة شرعيَّة. ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ (الشُّكر): هو الثَّناء على المُنعِم، وقد أمر به هنا بعد ذِكر النِّعمة بالرِّزق. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تعبدونه حقًّا، فاشكروه على نِعَمه. و(العِبادة): هي التذلُّل لله بالطاعة -مع كمال الحبّ- بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمن ينتفع بالأكل أكثر من غير المؤمن؛ لأنَّه يستعين به على طاعة الله.

وفيها: أنَّ الخبائث محرَّمة؛ لأنَّه لـمَّا أمر بالأكل من الطيِّبات دلَّ ذلك بالمفهوم على تحريم عكسها -وهي الخبائث-.

وفيها: أنَّ كلَّ ما يحصل للإنسان من مأكول؛ فإنما هو من رزق الله، وليس للعبد فيه إلَّا السَّبَب فقط.

وفيها: طلب الرِّزق من الله؛ لأنَّه هو الذي يرزق.

وفيها: وجوب شُكر النِّعمة.

وفيها: الإخلاص في الشُّكر؛ وهو مأخوذ من (اللام) في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ الشُّكر من العِبادة، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»(١).

وفي الآية: رحمةُ الله للعباد؛ لأنَّه هيَّأ لهم الطيِّبات الكثيرة ليأكلوا منها.

وفيها: الرَّدُّ على من حرَّم الطيِّبات.

وفيها: تحريم الإضراب عن الطعام حتى الموت؛ لقوله: ﴿كُلُواْ﴾، والأمر للوجوب في حالة حِفظ النفس.

وفيها: أنَّ العبد يُؤجَر على الأكل بالنِّـيَّة الحسنة.

وفيها: الحذَر من الشُّبُهات في الأطعمة؛ لأنَّ الطيِّب هو الحلال الواضح البيِّن.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾:

ولـمَّا أباح تعالى لعباده الأكل من الطيِّبات -وهي كثيرة لا تنحصر-؛ بيَّن لهم المحرَّمات؛ لأنَّها قليلة محصورة؛ فقال تعالى:

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٥٥).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ (التحريم) هو: المنع، والمقصود منع الأكل. و(المَيْتة): ما مات حَتف أنفه من غير تذكية، والمقصود بها شرعًا: ما مات بغير ذكاةٍ شرعيَّة.

وفي الآية: تحريم المَيْتة، سواءً ماتت حتف أنفها، أو ذبحَها كافر ليس من أهل الكتاب، أو ذُكِر عليها غيرُ اسم الله، ونحو ذلك. والمشهور عند العلماء: أنَّ لبنها وبَيضها نَجِس.

وكلُّ ما قُطِعَ من حيٍّ فهو كمَيْتته، فإن كانت مَيْتته حلالًا -كالحوت- فهو حلال، وإن كانت حرامًا نَجِسًا -كبهيمة الأنعام- فهو حرام نَجِس.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ هو: المسفوح الجاري. واستُثني من ذلك: الكبد والطِّحال؛ لحديث: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: فَأَمَّا المَيْتَتَانِ: فَالحُوتُ وَالجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ»(١)، وكذلك بقايا الدم في عروق المذبوح؛ لأنَّ تصفيتَه بالكليَّة عسير، وفيه حَرَجٌ على العِباد.

وقوله ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهو: الحيوان المعروف القذِر، وجميع أجزائه محرَّمة، وأَكْلُهُ ضارٌّ، ويُصاب آكِلُه بالأمراضِ، وذَهابِ الغَيْرة.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذُكِرَ عليه اسمُ غير الله عند ذبحه، مثل أن يقول: «باسم اللَّات»، «باسم العُزَّى»، «باسم المسيح»، ونحو ذلك.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة للأكل، بشرط أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير مستَحِلٍّ، ولا يأكلها عن لذَّة، ولا خارج في معصية الله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوِز للحدِّ بالأكل أكثر من الضرورة، ومتعدٍّ الحلالَ إلى الحرام، وهو يجد بديلًا، وكذلك لا يكون متعدِّيًا على المسلمين بقطع الطريق. فإذا كان كذلك: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا عُقوبة. والأكل من المَيْتة للضرورة واجبٌ إذا كان يَهلك بدونه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يستر على العبد الذنب، ويقي من العذاب برَحمته التي وَسِعَت كلَّ شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الأكل من مَيْتة الآدميِّ عند الاضطرار.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٠).

وفيها: أنَّ الضرورة تُقَدَّرُ بقدَرها، فلا يجوز أن يأكل أكثر من القَدْر الذي يُزيل الضرورة، ويحمل منه معه ما يُوصِله إلى الطعام الحلال، فإذا بلغ الحلالَ ألقى الحرامَ.

وفيها: أنَّ التحريم حقٌّ لله تعالى.

وفيها: أنَّ جميع أجزاء المَيْتة والخنزير حرامٌ، شحمًا ولحمًا وعظمًا.

وفيها: تأثير الشِّرك في خُبْث اللَّحْم.

وفيها: أنَّ الضرورات تُبيح المحظورات.

وفيها: أنَّ صاحب سفر المعصية لا تُباح له المحظورات.

وفيها: عدم جواز الذبح تعظيمًا لأحد غير الله، فسواءً ذكرَ اسمَ الله على الذبيحة، أو ذكرَ اسمَ الله وغيره مقترنًا معه، أو ذبحَها تعظيمًا لشخص عند مروره -مثلًا-؛ فكلُّ ذلك حرام، ولا يجوز الأكل منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾:

ولـمَّا بيَّنت الآيات السابقة إباحة أكل الطيِّبات، على خلاف ما كانت عليه كثيرٌ من المِلَل الأُخرى التي تُحرِّم ما أحلَّ الله؛ عاد السياق مرَّة أخرى إلى ذِكر اليهود وأخبارهم، الذين حرَّموا ما لم يحرِّمه الله افتراءً عليه، وكتَموا شَرْعه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم: علماء أهل الكتاب، وعلى رأسهم: أحبار اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله عليهم في كتابهم من صِفةِ النبي ﷺ، وأمرِ نبوَّته.

وقوله ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: ويأخذون على كِتمانه عِوَضًا حقيرًا من حُطام الدُّنيا، فقد كانوا يأخذون من العرَب الهدايا والأموال؛ معاونةً لهم على حَرْب النبيِّ ﷺ بكَتْم شأن نُبُوَّته، وحتى لا تضيع رئاستُهم إذا اعترفوا به نبيًّا؛ لأنَّه سَتلْزَمُهُم متابعتُه حينها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون، البُعداء، لانحطاط مرتبتهم وسفولها ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: هذا الحرام والسُّحْت الذي أخذوه، يكون نارًا تتأجَّج في بطونهم يوم القيامة.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامَ رضا وتَلَطُّفٍ ورحمةٍ، وإنَّما يكلِّمهم كلامَ الغضبان الساخط عليهم، وهذا نوع من العذاب ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُعْرِضُ عنهم في ذلك اليوم ويغضب عليهم، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُثني عليهم بخير، ولا يطهِّرهم من الذُّنوب، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد الألم، يصل ألَمُهُ إلى قُلُوبهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب نشر العِلْم الذي تتوقَّف عليه حياة الناس.

وفيها: وجوب معرفة الحقِّ.

وفيها: أنَّ عُقوبة الذين يكتُمون العِلْم، ويشترون به متاع الدُّنيا، أعظم من عقوبة الذين يكتُمونه فقط. وقد مضى في آيات سابقة عقوبة الكاتمين، وأنَّ الله تعالى يلعنهم ويلعنهم اللَّاعنون. وذكر في هذه الآية عقوبة الذين يكتُمون ويأخذون على كِتمانهم ثمنًا وعَرَضًا من الدُّنيا.

وفيها: فَضْل مَن بذل العِلْم لله دون مُقابِل، وهذا بخلاف مَن يكتمه بُخلًا به، أو لا يبذله إلَّا بمُقابِل دُنيويّ.

وفيها: العَدْل في الجزاء؛ لأنَّ عقوبة الآخِذين على الكِتمان بالنَّار بقَدْر ما أكلوه في الدُّنيا، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ هناك مَن يُزَكِّيه الله يوم القيامة، ويُثني عليه قولًا بمَدْحه، وفِعْلًا برَفْعه، وإظلاله، وإيتائه كتابَه بيمينه، وجَعْله على مِنبر من نور، ونحو ذلك من التكريم.

وفيها: غِلَظ عقوبة مَن كتم الحقَّ واشترى به ثمنًا قليلًا، وأنَّ إعراض الله عنه أمر شديد.

وفيها: أنَّ الإعراض وتَرْكَ كلامِ الرضا من الله تعالى يكون على الذُّنوب العظيمة، ومِن هؤلاء: مَن حلف على سِلعة كاذِبًا، ومَن حلف على يمين كاذِبة بعد العَصْر ليقتطع بها

مـال مسلِم، ومَن مَنَعَ المحتاج ممَّا زاد عـن حاجته من الماء، والمُسْبِلُ إزارَه خيلاء، والمنَّان بـما أعطى، والشـيخ الزاني، والمِلك الكـذَّاب، والفقير المُختال المستكبِر، والعاقّ لوالدَيه، والمـرأة المتشـبِّهة بالرِّجـال، والدَّيوث الذي يُقِـرُّ الخبث في أهله، وغيرهـم ممَّـن جاء ذِكرُه في الأحاديث الصحيحة.

ومـن فوائد الآية: أنَّ مِن عذاب الكافريـن ما هو نفسيٌّ -كالإعراض- ومنه ما هو بدنيٌّ -كاحتراق الجلود بالنَّار-.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾:

ثـم قال تعـالى -مخـبرًا عـن الكاتمـين للحـق-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: أخذوهـا واختاروهـا، ورَغِبـوا فيها، وكذلك يفعل المشـتري مع السِّـلعة. و(الضلالة) هنا هـي: كَتْـم العِلْـم. وقوله ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بدَل الهـدى، فجعلوا الهدى هـو الثمن المدفوع المبذول الذي تخلَّصوا منه، وكذلك يفعل البائع.

وقولـه ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: اختاروا العذاب على المغفرة؛ فكان العذاب جزاءً لكِتمانهم الحقَّ.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: استِفهام بمعنى التوبيخ لهم، والتعجُّب من حالهم، فما هو الـشيء الذي أصبرَهم على النَّار يا تُرى؟! وأيُّ شيء جعل عندهم الجسـارة لاقتحامها؟ فما أجرأهم على العمل الذي يقرِّبهم إلى النَّار، وما أطول حبسَهم فيها!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ نشر العِلْم من أسباب المغفرة والنجاة من النَّار.

وفيها: أنَّ من عذاب كاتمي الحقِّ في جهنم: أن تكون النَّار في بطونهم على الحقيقة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾:

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشـارة إلى ما تقدَّم ذِكرُه من جزائهم وعذابهم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بسبَبِ أنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، أو: كلّ الكتب المنـزَّلة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي:

ببيـان الحـقِّ وتحقيقه، ومنه: صِفةُ محمَّـد ﷺ ونبوَّته وبِعْثته؛ لذلك فـإنَّ كَتمه جريمةٌ يستحقُّ صاحبها العذاب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اختلفـوا في معانيـه، فحرَّفوهـا وبدَّلوهـا. وقيل: اختلفـوا في أصلـه، فمنهـم مَـن آمن، ومنهـم مَن كفـرَ. ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ أي: خـلاف ومُنازَعة ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ والصواب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّناء على كتب الله المُنَزَّلة، وأنَّها نزلت بالحقِّ.

وفيها: إثبات العِلَل والأسباب.

وفيهـا: أنَّ المختلِفـين بالباطل لا يجتمعون على شيء واحـد ولا يلتقون؛ بل لا يزالون في مُنازَعة.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾:

ولـمَّا نَزَلَ تحويل القِبلة، وكان بعضُ الناس يظنُّ أنَّ مِن البرِّ لزوم التوجُّه إلى جهة معيَّنة في قِبلـة العِبـادة، وعدم تغييرهـا، وكان النصارى يتوجَّهـون شرق بيت المقـدِس، واليهود يسـتقبلون غـرب بيت المقدِس؛ بيَّن الله تعـالى أنَّ البِرَّ ليس لزوم جهة معيَّنـة شرقًا أو غربًا، ولكن البرَّ هو طاعة الله وامتِثال أوامره، والتوجُّه حيث وُجِّه المسلِم، والعمل بأركان الإيمان وشُعَبِه.

فقـال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ (البِرُّ): هو الخير الكثير، وهو: اسم جامع لكلِّ الطاعات وأعمال الخير المُقَرِّبةِ إلى الله، والمؤدية إلى الجنَّة.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وهذا أساس البِرِّ، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي: صدَّق بالبَعْث وما بعدَه من الجزاء. وسُمي باليوم الآخر؛ لأنَّه ليس بعدَه يوم.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: وصدَّق أيضًا بذلك العالَمِ الغَيبيّ، الذي خلقه الله من نور، ووكَّلَهُم بوظائفَ وأعمالِ السِّفارة بينه وبين خَلْقه.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: اسم جِنس، يشمل كلَّ الكتب التي أنزلها الله. فمن البِرِّ: الإيمان بها كلِّها.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: صدَّق بنبوَّتهم، وصِحَّة ما جاءوا به من عند الله، واقتدى بهم. ويدخل فيهم الرُّسل.

ولـمَّا ذكر أساس البِرِّ؛ أتبعَه بذِكر بعض فروعه وأركانه العمليَّة؛ فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: أنَّ هذا البارَّ -بالإضافة إلى ما تقدَّم من إيمانه بالأركان- فهو يعطى المال لمستحقِّيه، مع تعلُّق نفسه بالمال وحُبِّه له، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وحبُّ الله في قَلْبه أعظم من حبِّ المال، وهو من الذين يُطعِمون الطعام على حُبِّه والرغبةِ فيه، ويحبُّ إيتاءَ المال في مرضاة الله.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم: قرابة المعطِي بسببِ الولادة -من جهة أبيه أو أمِّه-. وبدأ بهم؛ لأنَّ حقَّهم آكد، وإعطاءَهم أولى؛ كما قال النبي ﷺ: «الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»(١)، ولـمَّا أَعتقت ميمونةُ بنتُ الحارث رضي الله عنها جاريةً لها، قال لها النبيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ؛ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكِ»(٢).

ونصح النبيُّ ﷺ أبا طلحة عندما تصدَّق بِبستانِه بَيْرُحاء، أن يجعلَه في المحتاجين من أقاربه؛ فقال له: «وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فقسمَها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه(٣).

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَن مات أبوه قبل بلوغه -ذكَرًا كان أو أنثى- وسُمِّي

---

(١) رواه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٨٨٣).
(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).
(٣) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

يتيمًا لانفراده عن الأب، وينتهي اليُتْمُ بالاحتلام؛ كما صحَّ في الحديث: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»[(١)].

فيُعطَى هؤلاء الصِّغار الفقراء الذين لا والد لهم ولا كاسب؛ لِحفظهم من الضياع.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: جمع (مسكين)، وهو الذي أسكنه الفقر وأذلَّه، وليس عنده كفايته، فيُعطَى ما يسُدُّها.

وفي الحديث: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنِ المِسْكِينُ: الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»[(٢)].

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وآتى المالَ ابنَ السَّبيل، وهو: المسافر المنقطِع الذي انتهت به نفقتُه. فيُعطَى ما يُوصِله إلى بلده. و(السَّبيل) هو: الطريق. وسُمِّي ابن السَّبيل؛ لملازمته السَّبيلَ وبقائه فيه، ينتظر الفرج.

ويدخل في هذا أيضًا -من وجوه البِرِّ-: التكفُّل بنفقات مَن يسافر في طاعة ذهابًا ورجوعًا، ونفقة الضيف وإكرامه.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: الطالبين للإحسان، الذين اضطروا لمدِّ اليد لشِدَّة فقرهم. وقد يسأل بلسان المقال فيقول: «أعطني»، وقد يسأل بلسان الحال، فيأتي على هيئة رثَّة ذليلة تستدعي إعطاءَه.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: في عِتق الرقاب وتحريرها وفكِّها من الأَسْر. وهذا يشمل شراء العبيد والإماء ثم إعتاقهم، ومساعدة الأسرى على تحرير أنفُسِهم، وإعانة المُكاتَب -وهو العبد الذي اتفق مع سيدِه على أنْ يشتري نفسه منه بأقساط- فيُعانُ على تحرير نفسه.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتمَّ أفعالها وأقوالها، في أوقاتها، في خشوع وطُمأنينة، متأسيًا بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الفرض والنفل.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطى زكاة ماله لمستحِقِّيها، كاملةً، طيِّبة بها نفسُه. ويدخل في هذا أيضًا: تزكية النفس، وتخليصها من الرذائل والأخلاق الذميمة، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ أي: المتمِّمون للعهد إذا أعطَوه، المحترِمون له في حالة عَقده، فلا يَنكُثون ولا يغدِرون. ومَن أعطى عهد الله ثم نقضَه انتقمَ الله منه، ومَن أعطى ذِمَّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم غدر بها؛ فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَصْمُه يوم القيامة(١)، وفي الحديث: «قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»(٢).

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: كأنَّه قال: «وأخُصُّ الصابرين بالذِّكر»؛ لعُلُوِّ منزلتهم وشرَف عَمَلهم. وهذا التغيير في أسلوب الكلام أدعَى للانتباه. و(الصَّبر) ليس هو بذلَ شيءٍ، ولكنَّه تحمُّل شيءٍ ما. وما سبقَ من أعمال البِرِّ كان أفعالًا مبذولة، ولكن (الصَّبر) هو حَبْس النفس على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلِمة.

ثم ذكر ثلاثة مواطن عظيمة للصبر؛ لأنَّ مَن صبر فيها كان على غيرها وفي غيرها أصبر، وتَرقَّى فيها بذكر الشديد إلى الأشَدِّ؛ فقال:

﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: الفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض، وفَقد الأهل والولد والمال، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ أي: في وقت شِدَّة القتال في سبيل الله، وكثرة الضرب والطعن في حال الالتحامِ بالأعداء، واشتدادِ المعركة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: في دعواهم الإيمانَ، وصدَّقوا اعتقادهم وأقوالهم بالأفعال؛ لأنَّ (الصِّدق) هو: مطابَقة الشيء للواقع.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي: المجتَنِبون عذابَ الله وسَخَطَه، بفِعْل ما ذكره في هذه الآية، فجمَعوا بينَ البرِّ والتَّقوى، فمَن عَمِلَ بهذه الآية: فقد استكملَ الإيمان، ونال رضا الرحمن.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٤٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٧).

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسيع الآفاق والمدارك في فَهْم الكلمات ذات المدلول الواسع، وعدم قَصْرها على معنى معين؛ ولهذا فائدة عظيمة في تقدير كتاب الله وإجلاله وتعظيمه، وإثراء التفسير بالمعاني الكثيرة.

وفيها: فَضْل الصَّدَقة في حال قِلَّة المال وتعلُّق النفس به، وكذلك الصَّدَقة بالشيء النفيس الذي يَعِزُّ على الإنسان إخراجُه.

وفيها: أنَّ إعطاء ذوي القُربى أَولى من إعطاء اليتامى والمساكين، إلَّا إذا كان في اليتامى والمساكين ضرورةٌ أشدُّ، تُرجِّح إعطاءهم.

وفيها: أنَّ إعطاء السائل من البِرِّ، وإن كان غنيًّا، ويكون المعطِي ممدوحًا، والمُعطَى مذمومًا.

وفيها: الوفاء بالعَهْد عُمومًا، سواءً كان مع الله، أو مع الناس في المعاملات، وحتى مع الكفَّار في المعاهَدات.

وفيها: أهميَّة موافقة العمل للقول، والتدليل على صِحَّة القول بالعمل.

وفيها: تذكير أصحاب النِّعَم بنِعَم الله عليهم، ووصيَّتُهم بالمحرومين منها، فيعطي المستقرُّ بوطنِه وبلدِه مَن حُرِم نِعمة الاستقرار واحتاج في الأسفار، وهكذا.

وفيها: أنَّ البرَّ يشمل العِبادات القَلْبيَّة، والبدَنيَّة، والماليَّة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى المحرَّمات في المطاعم، وبعضَ المحرَّمات في أخذ المال بغير حقٍّ؛ ذكر تعالى هنا تحريم الدِّماء، وأنَّه شرع القِصاص للمحافظة عليها وصيانتها، وأنَّ من المال ما هو جائزٌ أخذُه لأولياء القتيل مُقابِلَ العَفو.

وكان بنو إسرائيل ممنوعين من أخذ الدِّية وليس لهم إلَّا القِصاص، فأنزل الله التخفيف على هذه الأُمَّة في إباحة أخذ الدِيَّة مُقابِلَ العفو في قَتْل العَمْد، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[(١)].

وكانت اليهود أيضًا لا تعدِل في قتلَى قبائلها، فإذا قتلَ شخصٌ من قبيلة أعلى عندهم شخصًا من قبيلة أدنى؛ لم يقيموا عليه القِصاص ويكتَفون بالمُفاداة، وإذا حصل العكس أقاموا عليه القِصاص، كُفرًا وبَغيًا؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على المؤمنين الأمرَ بالعَدْل في القِصاص، وألَّا يفعلوا فِعْل اليهود.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرِض وكُتِب في اللَّوح المحفوظ ﴿ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ أي: القيام به واستيفاؤه، والعَدْل فيه، في إزهاق النفس وما دونها. و(القِصاص): هو المساواة والمماثلة، ومُقابلة الفِعْل بمثله.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ أي: إذا قتلَ الحُرُّ حُرًّا قُتِل به. و(الحُرُّ): هو مَن ليس بمملوك. ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ أي: العبد يُقتَل بالعبد. و(العبد): هو المملوك. ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي: الأنثى تُقتَل بالأنثى. وقد كانوا في الجاهليَّة لا يقتُلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتُلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة؛ فجعل الله الأحرار في القِصاص سواءً في قَتْل العَمْد -رجالهم ونساءَهم-.

وذهب جمهور العلماء: إلى أنَّ الحرَّ لا يُقتَل بالعبد[(٢)]، كما ذهبوا إلى أنَّ المسلِم لا يُقتَل بالكافر، ولكن عليه إثمٌ عظيمٌ، وتلزمه الدِّيَة، يدفعها لأهل الكافر -إن كان من أهل الميثاق- واستدَلُّوا بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لا يُقتَل مُسْلِمٌ بكَافِرٍ»[(٣)].

كما ذهب سائر أهل العلم: إلى أنَّ الجماعة لو قتلُوا واحدًا فإنَّهم يُقتَلون به، كما فعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[(٤)].

ثم حثَّ تعالى على التراحُم والفَضْل؛ فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ أي: فأيُّ قاتل

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٨).

(٢) وذهب الإمام أبو حنيفة، وهو رواية عن الإمام أحمد، اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية: إلى أن الحرّ يُقتل بالعبد؛ لعموم قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» رواه أبو داود (٤٥٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وهذا القول هو الصواب. انظر: الشرح الممتع (١٤ / ٤٠).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٤) انظر: «الموسوعة الفقهية» (١٤/ ١١٣)

عُفِيَ له من دم أخيه شيءٌ؛ سقطَ القِصاص. وقوله ﴿شَيْءٌ﴾ يشمل القليل والكثير، فإذا تنازل أولياء القتيل عن القِصاص، ورَضُوا بمال يُدفَع إليهم، أو بالدِّية، أو بشيء منها، أو تنازَلوا بلا مُقابِل، أو تنازل بعضُهم دون البقيَّة؛ فكلُّ ذلك من العَفْو، ويَسْلم القاتل من القَتْل قِصاصًا.

ويكون الواجب حينئذٍ على أولياء القتيل إذا تنازَلوا عن القِصاص إلى مُقابِل، أن يُطالِبوا القاتل به بالمعروف، وهذا معنى قوله ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: يُطالِبونه على الوجه المعروف شرعًا، من غير تشديد عليه ولا عنف، وأن يستعملوا الإمهال والتسهيل.

وفي المُقابِل: يجب على القاتل أن يؤدِّي ما وقع الاتِّفاق عليه إلى أولياء القتيل بإحسان، أي: بسهولة، من غير مماطلة ولا تسويف، ولا بَخْس للحقوق، مع طيب النفس وطلاقة الوجه والقول الجميل، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

وقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جواز العَفو عن القاتل، والتنازُل عن القِصاص ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تسهيل ورُخصة من الله.

وقد فرَض الله على بعضِ مَن كان قبلَنا من الأُمَم السابقة القِصاص من غير أخذ العَفو، وأوجبَ على بعضِهم العَفو بلا مُقابِل، وكان التخفيف من الله على هذه الأُمَّة المحمَّديَّة، بجواز تخيير أهل القتيل بينَ القِصاص وبين العَفو أو الدِّيَة.

وقوله ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: بهذا القاتل، الذي ينفعه العَفو في بقائه حيًّا، فَيَسْلَم من القَتْل، ويستفيد أهلُ القتيل من الدِّيَة، إذا أرادوها.

وإذا تنازَلوا وقَبِلُوا؛ فلا يجوز لهم حينئذٍ الاعتداء على القاتل، وجاء التهديد على هذا بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ أي: من أولياء القتيل ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد عَفْوه، أو قبول الدِّيَة وأخذها؛ ﴿فَلَهُۥ﴾ أي: فللمُعتَدِي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد مُوجِع، في الدُّنيا بقَتْله، وفي الآخرة بعذاب النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تنفيذ القِصاص من مقتضى الإيمان، وأنَّ تَرْك تنفيذ القِصاص نقص في الإيمان.

وفيها: أنَّ تنازل بعض الوَرَثة يُسقِط القِصاص، ويكون للبقيَّة نصيبُهم من ديَة قَتْل العَمْد.

وفيها: أنَّ الحرَّ يُقتَل بالحُرِّ، والعبد يُقتَل بالعبد، والأنثى تُقتَل بالأنثى، ولو اختلفت الصِّفات؛ فلو أنَّ حُرًّا عاقلًا غنيًّا حسيبًا وجيهًا، قتلَ حُرًّا فقيرًا أعمى جاهلًا وَضيعًا؛ فإنه يُقتَل به؛ لعُموم الآية.

وقد فَهِمَ بعضُ العلماء من ذكر القِصاص في الآية: أنَّه يَدخل فيه التماثُل في أداة القَتْل؛ فإذا قتلَه بخشبة قُتِلَ بها، أو بحَجَر قُتِلَ به، أو خنقَه بحَبْل خُنِقَ به، وهكذا. واستدَلُّوا على هذا: بحديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، «فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُضَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ»[(١)].

وفيها: ردٌّ على مزاعم ما يُسَمَّى بـ«جماعات الرِّفق بالإنسان»، الذين يُطالِبون بإلغاء عقوبة القَتْل؛ فدعواهم مُصادِمَةٌ لشَرْع الله، ولا يجوز الاستجابة لهم ولا التأثُّر بمطالبهم؛ بل يجب التبرُّؤ منهم؛ فشَرْع الله فيه المصلحة والحِكْمة.

وفيها: أنَّ على المؤمنين تطبيق القِصاص، وعدم حماية القاتل، وأنَّ على أهله تسليمَه إلى أولياء القتيل؛ ليختاروا بينَ القِصاص، أو قبول الدية، أو العَفو.

وفيها: أنَّ القِصاص على القاتل أيًّا كان، ولا يجوز أن يُقتَل أحدٌ مكانه.

وفيها: أنَّ القَتْل بمجرَّده لا يُخرِج القاتل عن المِلَّة، ولا يُصيِّره كافرًا، وعلى هذا مذهبُ أهلِ السنة والجماعة، في عدم تكفير مرتكب الكبيرة بمجرَّد الذنب.

وفيها: أنَّه لا يُقتَل بالمقتول غيرُ قاتله، ولا يجوز التعدِّي على غيره بالثأر، وقَتْل الآخَرين معه من أقاربه أو قبيلته، كما كانت العرَب تفعل عُدوانًا وظُلمًا.

وفيها: تذكير القاتل وأهل القتيل بالعَلاقة العامَّة بينهم، وهي أُخُوَّة الإيمان والدِّين، وأنَّها لم تنتفِ بالقَتْل؛ بل هي باقية؛ كما قال تعالى: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ فيبقى التراحُم.

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٣)، ومسلم (١٦٧٢).

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾:

وبعد أن رغَّبَ تعالى في العفو، وتَوَعَّدَ على الغَدْر؛ بيَّن الحِكْمة من تشريع القِصاص؛ لترسيخِ الحُكمِ في نفوس العِباد، وترغيبِهم في العمل به؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ أي: في مشروعيَّته بقاءٌ لكم، وحِفظٌ لأرواحكم، وصيانةٌ من اعتداء بعضِكم على بعض؛ فبالقِصاص يرتدِع مَن أراد القَتْل ويخاف، ويكُفُّ مَن سوَّلت له نفسه الاعتداء؛ لأنَّ القاتل إذا عَرَفَ أنَّه يُقتَل، والجارح إذا عَلِم أنَّه يُجرَح؛ كان ذلك سببًا لمنعه ممَّا يريد الإقدامَ عليه.

ولـمَّا كانت حِكْمة هذا التشريع عظيمة، وإدراكها يحتاج إلى عَقل وبصيرة؛ خاطب الله تعالى أصحابَ العقول الراجحة؛ فقال: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ أي: تجتنبون الاعتداء، وتنتَهون عن القَتْل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

دَعْوة أصحاب العقول للتدبُّر والتأمُّل في أسرار وحِكَمِ التشريع، واستعمال عقولهم في فَهم عِلَل الأحكام.

وفيها: بيانُ فساد مذهب الذين يُنادون بإلغاء عقوبة الإعدام، ونظرة متأنية من أولي الألباب، إلى بلاد أولئك ومجتمعاتهم، وما انتشر فيها من الجريمة، وعمَّ فيها من الاعتداء؛ كفيلةٌ بمعرفة فَضْل هذه الشريعة وأحكامها، وقُدرتها على ضَبْط النفس وحماية الأبرياء.

وفيها: أنَّ مَن ارتاب في حُكم شرعيٍّ، ولم تطمئن إليه نفسُه، أنَّ عليه أن يعيد النظر والتأمُّل في أحكام الشريعة، حتى يهدي اللهُ قَلْبَه، ويُثَبِّته على الحقِّ.

وفيها: مثال واضح على إعجاز القرآن البلاغي والتشريعي؛ ففي موت القاتل حياة المجتمع، وبقَتْل هذا يحيا آخرون، وكان التعبير عن هذا عند العرب: «القَتْل أنفى للقَتْل»، فجاء التعبير القرآنيُّ عن ذلك بأبلَغ وأفصَح وأوجَز عبارة؛ فقال: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾:

وبعد أن ذكر الله تعالى حُكم القِصاص المتعلِّق بالموت؛ ذكر حُكمًا آخر متعلِّقًا به أيضًا، فقال:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي: فُرِضَ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي: إذا نزلت به أسبابُه ومقدِّماتُه وأعراضُه، ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ﴾ (الخير) يُطلَق على: المال الكثير.

﴿ٱلۡوَصِيَّةُ ﴾ وهي في الأصل: العَهْد إلى الغير بالأمر المهمّ، وهذا ما يُنصَح به مَن نزل به الموت، فيفعله لفظًا أو كتابة، ويُشهِد عليه.

فيكون وصيَّة شرعيَّة ﴿لِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ وهما: الأم والأب، ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾: مَن سواهم من الأقارب المقرَّبين، كالإخوة والأعمام ونحوهم. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ أي: بالعَدْل الذي عرفه الشَّرْعُ وأقرَّه.

﴿حَقًّا ﴾ مؤكَّدًا ﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾: الذين يتَّقون عذاب الله، بامتِثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والوصيَّة للوالدَين في هذه الآية منسوخة بآيات المواريث التي نزلت في سُورَة «النِّساء».

وإنَّما جرَت الوصيَّة للوالدَين والأقربين في أول الأمر؛ لأنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يُوصون للأبعَدين -طلبًا للفخر والرِّياء- ويتركون الأقربين الفقراء، فأمر الله تعالى بعدم نِسيان الوالدَين والأقربين، ثم أنزل حقوقًا مفروضة وأنصِبة معلومة، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا تجوز الوصيَّة للوَرَثة الذين نصَّت الشريعة على توريثهم. وبقيَت الوصيَّة للأقربين وغيرهم مستحبَّة من الثلُث.

وذهب جماعةٌ من أهل العِلْم إلى أنَّ الوصيَّة للوالدَين والأقربين في الآية مُحْكَمة؛ قالوا: وهي -وإن كانت عامَّة- فمعناها الخصوص، والمراد بها من الوالدَين: مَنْ لا يرِث، كالأبوَين الكافِرَين، ومَنْ هو في الرِّقّ، ومن الأقربين: مَن عدا الوَرَثة منهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الأقارب من غير الوَرَثة يُوصَى لهم من الثلُث، إذا كان المال كثيرًا، بحَسَب درجة قراباتهم وأحوالهم.

وفيها: أنَّ مَن حضره الموت وقد بَقِيَ عقلُه ووعيُه؛ فإنَّ وصيَّته تَصِحُّ بالثلُث فأقلّ، وهو المعروف الذي عَرَفَه الشَّرْع.

والوصية لا تجوز بأكثر من الثلث، ولا تصح لوارث، إلا أن يشاء الورثة المرشدون بنصيبهم.

ويجب على المُوصِي إذا عَرَفَ أنَّ وصيَّته مخالفة للشرع أن يغيِّرها؛ لتكون مطابَقة للشرع. ويجوز له أن يُحدِث فيها ما شاء من التغيير بحَسَب ما يتبيَّن له من الحِكْمة والمصلحة.

وتجب الوصيةُ في حالات، كما لو كان عندَه حقوق تضيع لو لم يُوصِ.

وفي الآية: تسمية (المال) خيرًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يجب أن يكون مجموعًا من حلال.

وفيها: أهميَّة صِلة الرَّحِم.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالوصيَّة؛ حذَّر الشُّهَداءَ عليها وغيرَهم من التلاعُب بها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: **﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾** أي: قول المُوصِي، أو ما أوصى به، فغيَّره بأيِّ نوع من التغيير، سواءً كان بإنكار الوصيَّة من أصلها، أو بالنقص فيها، أو بالزيادة عليها، أو بإدخال مَن لم يُوصِ إليهم المُوصِي، أو حَذْف بعض مَن أوصى إليهم، أو التقليل من نصيب البعض، ونحو ذلك.

﴿بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ وعَلِمَه، وتحقَّقه؛ **﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ﴾** أي: إثم التبديل والتغيير **﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾**، سواءً كانوا شُهَداء، أو أولياء، أو أوصياء؛ فالإثم عليهم، ويكون أَجْر الموصِي قد وقع على الله، ولا ذنب له بتغيير هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المُوصِين، والمبدِّلين **﴿عَلِيمٞ﴾** بنيَّاتهم، وما يفعلونه.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾:

ولـمَّا كان بعض المُوصِين قد يخالِف الشَّرْعَ في وصيَّته، خطأً أو عمدًا؛ فقد استثنى الله تعالى من إثم التبديل مَن يتدخَّل لإصلاحها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: **﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾** أي: مَن

خـشيَ أو ظنَّ من موصٍ مخالفةَ الـشَّرْع، أو عَلِمَ بأنَّه خالفَ الشَّرْع ﴿جَنَفًـا﴾ خطأً من غير قصـد، ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي: ظُلْمًا ومخالفة عـن قصد، ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: أمَر المُوصِي بالعَدْل، وأن يُصلِح وصيَّتـه قبل موتـه، أو يُعَدِّل فيها بعـد موت المُوصِي؛ لتكـون موافقة للشرع، جامعة بينَ مقصود المُوصِي وحُكم الشَّرْع.

وحيث إنَّه قد يقع تنازُعٌ بينَ المُوصِي والوَرَثة؛ فإنَّه يتدخَّل أيضًا ليُصلِح بينهم بما يوافِق الشريعة، ويتوسَّط بينَ الوَرَثة والمُوصَى إليهم، ليُصلِح بينهم إذا حدث تنازُع.

وهـو في كلِّ هـذا مأجور، ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: فلا حرج ولا ذنـب على هذا المُصلِح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمـن أخطأ، ولـكلِّ مذنب إذا تاب ﴿رَّحِيمٞ﴾: ذو الرحمة الكثيرة الواسـعة بخَلْقه.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ العِلْـم بالوصيَّـة يكون بالسـمع، لكن لا يُقتـصَر عليه؛ فقد يكـون بالكتابة أيضًا، أو بالإشارة، ونحوها.

وفيهـا: أنَّ مَـن فعلَ ما يقدِر عليـه من الخير؛ يُكتَب له أجرُه، ولا يـضرُّه مَن اعتدَى على عمله.

وفيها: أنَّ التبديل في الوصيَّة إذا وقع بطريق الخطإ؛ فلا إثم فيه.

وفيها: ضرورة مُراعاة الدِّقَّة والإتقان في نقل الوصيَّة وتنفيذها.

وفيها: أنَّ مَن عَلِمَ بالتبديل والتغيير في الوصيَّة؛ فلا بُدَّ أن يُنْكِر.

وفيها: أنَّه لا يجوز لمن ليس له حقٌّ في الوصيَّة أن يأخذه، إذا عَلِمَ أنَّه نتيجة التبديل، ولو لم يكن هو المبدِّل.

وفيها: أنَّ الوصيَّة إذا اشـتملت على منكَر -كما لو أوصى بعمارة معابِد الشِّرك وأضرحة الموتى، وطباعة كتب الكُفر والبِدعة، ودعم أنشـطة الفِسْـق والفجور-؛ فلا يجوز تنفيذُها، بل يجب تبديلها لتكون مُوافِقة للشرع.

وفيهـا: إشـارة إلى مغفرة الله ورحمته بمَن تنازل عن شيء مـن حقِّه، ليحصل الصُّلْح مع الآخَرين، سواءً كان من الوَرَثة، أو المُوصَى إليهم.

وفيهـا: فضيلـة الإصلاح، وما فيه من المصالح، مـن: دَرْء الإثم عن الموصِي، أو تخفيفه، وإزالة العداوة والشحناء بينَ الموصِي والوَرَثة، أو بينَ الوَرَثة والموصَى إليهم.

وفيهـا: أنَّـه على الـوليِّ -الذي يقـوم على الوصيَّـة- الرُّجوع لأهـل العِلْـم لمعرفة حكم الوصيَّة، وهل فيها جَنَف أم لا، وكيف يكون التبديل عند الحاجة إليه، وتعيين ما هو أقرب الأشـياء إلى قَصْد المـوصِي، وهل يجوز صَرْفها في وجهٍ أفضلَ مِـن الوجه المُوصَى به؟ ونحو ذلك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حُكم القِصاص، وما فيه من إسـلام القاتلِ نفسَـه للقَتْـل، وأتبعَه بذِكر الوصيَّـة، وما فيها من إخراج المال -وهو أمر شـاقٌّ على النفـس-؛ أتبع ذلك بذِكر الصيام، وهو أقلُّ مشقَّة ممَّا تقدَّم، وقد مضى أيضًا قبلَه في هذه السُّورَة ذِكرُ الإيمان والصَّلاة والزكاة؛ فنادى المؤمنين بهذا الرُّكن الرابع؛ فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ناداهـم بالإيـمان؛ تنبيهًـا لهـم عـلى اسـتماع مـا يُلقَـى إليهم من التكليف.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُـرِض عليكـم -والـذي فرضـه هـو الله عَزَّوَجَلَّ- ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ وهـو: التعبُّـد لله بـترك المُفَطِّرات، من طلـوع الفجر إلى غروب الشـمس. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: كما فُرض على الأُمَم السـابقة ممَّن قبلنا، كبني إسرائيل وغيرهم. والمقصود: تشبيه الفرضيَّة بالفرضيَّة، وليس الكيفيَّة بالكيفيَّة؛ فصيامنا قد يختلف عمَّن قبلنا في تفاصيله، ولكن المشابَهة في الوجوب والحُكم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله، وتخافون عقابه، وتجتنبون معصيته، وهذه هي الحِكْمة مـن الصيام. وفيه مصالح أخـرى تأتي تبَعًـا؛ كالفوائد الصِّحِّيَّة، والشـعور بحال الجوعَى،

وتوحيد الأُمَّة، وأجر تفطير الصائمين، والتضييق على الشَّيطان، وتقليل تسلُّطِه على الإنسان، وجعل الطاعة تجرُّ إلى طاعة، وإضعاف الشهوة، وغير ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة المنافسة عند هذه الأُمَّة؛ لتُحَصِّلَ جميع فضائل مَن سبقَها، وتَزيد عليها.

وفيها: أهميَّة الصيام؛ لأنَّ الله صدَّره بالنِّداء بالإيمان؛ فتَرْكُه مُخِلٌّ بالإيمان.

وفيها: تسلية المؤمنين بذِكر وجوب الصيام على مَن قبلهم؛ ليُهوِّنه عليهم؛ إذ إنَّ الاشتراك في الشيء الشاقِّ يخفِّفه.

وفيها: فَضْل هذه الأمة، وأنَّها جمعت إلى فضائلها فضائلَ مَن تقدَّمها.

وفيها: فَضْل التَّقوى، والأَخْذ بالأسباب الموصِلة إليها.

وفيها: أنَّ كلَّ سبَب يُوصِل إلى فضيلة؛ يأخذ حُكم تلك الفضيلة.

وفيها: أنَّ تشبيه صيامِنا بصيام مَن قبلنا، لا يلزم منه المشابَهة في التفاصيل، وقد قيل: إنَّ صيامهم كان ثلاثة أيَّام من كلِّ شهر، وصيامنا انتقل من الأخفِّ إلى الأثقل في عدد الأيَّام. وكان الله تعالى قد فرض على هذه الأُمَّة صيام يوم عاشوراء، ثم نُسِخ وجوبُه بصيام شهر رمضان.

وفي الآية: أنَّ علينا ألَّا نتلاعب بالصيام، كما تلاعب مَن قبلنا حين فُرِضَ عليهم. وقد قيل: إنَّ النصارى لـمَّا شقَّ عليهم الصوم في الصيف؛ نقلوه إلى الربيع، وزادوا عليه عشرة أيَّام! فعلينا أن نصومَ كما أمر الله، بلا تبديل ولا تغيير.

وفيها: أنَّ ذِكر عِلَّة الحكم والحِكْمة منه؛ يحُثُّ النفس على العمل به.

وفيها: أنَّ فائدة الصيام للعباد: هو رجاء تحصيل التَّقوى، وليس لله فيه حاجة؛ فالله غنيٌّ عن عباده، وعن أعمالهم.

وفيها: أنَّ معنى التَّقوى موجود في الصيام؛ لأنَّ معناها: رجاء ما عند الله، بفِعْل المأمور -وهو الإخلاص فيه- وتَرْك المحظور -وهي المفطِّرات- خَشية العقاب.

وفيها: أنَّ التَّقوى لُبُّ الأعمال وثمرتها. وهي مرتبطة بالبِرِّ، كما في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والقِصاص مرتبط بالتَّقوى، كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. والوصيَّة مرتبطة بالتَّقوى، كما في قوله فيها: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾:

ثم هَوَّنَ الله تعالى الصيام على نفوس المؤمنين، بقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهي أيَّام شهر رمضان، و﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: جمع قِلَّةٍ، وذلك لتقليله وبيان أنَّه ليس بأشهُر ولا سنوات؛ وإنَّما هي أيَّامٌ سَرْعان ما تنقضي.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ يا أمَّة الإسلام ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضًا يَشُقُّ به الصيام، أو يتأخَّر بالصيام الشفاءُ منه، أو يَفُوتُ به العلاج، أو يزيدُ به المرض، أو يحدُث به. أو كان ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بشرطِ أن يكون سفرَ طاعة، أو سفرًا مباحًا، لا سفرَ معصية؛ ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فواجبٌ عليه الصيامَ أيَّامًا أخرى، بعدد التي أفطرها من رمضان للعُذر، متتابعةً أو متفرِّقةً.

ويُلحَق بالمريض: الحامل، والمرضِع؛ فيجوز لهما الفِطر، وعليهما القضاء فقط -على الراجح- سواء لأجل نَفْسَيْهِمَا أو وَلَدَيْهِمَا؛ ففي الحديث: «إِنَّ الله تَعَالَى وَضَعَ عَنِ المُسَافِرِ الصَّوْمَ وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الحَامِلِ أَوِ المُرْضِعِ الصَّوْمَ»[1].

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يستطيعون الصوم ويقدِرون عليه: ﴿فِدْيَةٌ﴾ يَفدون بها أنفُسَهم من الصيام، مقدارَ ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: لكلِّ يوم، فيُغدِّيه أو يُعَشِّيه.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: زاد في الفِدْية على القَدْر الواجب، أو صام مع إخراج الصَّدَقة؛ ﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك التطوُّع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ بالثواب.

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٠٨)، والترمذي (٧١٥)، والنسائي (٢٢٧٤)، وابن ماجه (١٦٦٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٥).

﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ يا أيُّها القادرون ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الإفطار والفِدْية، ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ما في الصيام من الفضيلة والفائدة العظيمة.

وتخيير الصائم القادِر بينَ الصيام وبين الإفطار مع الإطعام، كان في أول الأمرِ، ثم صار منسوخًا؛ لحديث سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قال: «لـمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾؛ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فَنَسَخَتْهَا»[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ما لا يُخْرِجُ الشخصَّ عن حدِّ الصِّحَّة إلى المرض؛ لا يُبيح له الفِطر، كالصُّداع اليسير، والسُّعال الخفيف.

وفيها: رحمة الله بعباده في فَرْض ما يقدِرون عليه، دون أن يخرج عن وسعِهم.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير؛ لأنَّ المرض والسفر مَظِنَّة المشقَّة، لكن الفِطرَ متعلِّقٌ بالسفر لا بالمشقَّة؛ فلو كان سفرُه مريحًا، فله أن يترخَّص بالفِطر. أمَّا المريض: فإنْ ضرَّه الصوم فيَحرُم عليه، وإن شقَّ عليه كُرِه له الصوم.

وفيها: أنَّ العاجز عن الصيام، أو الذي يَشُقُّ عليه مشقَّةً كبيرة -لِكِبَر سِنِّه-؛ فإنه يُفطِر ويُخرج الفِدْية عن كلِّ يومٍ أفطرَه.

وفيها: تفاضُل الأعمال، وأنَّ بعضها أفضل من بعض.

وفيها: أنَّ مِن برَكة العِلْم معرفة الأفضل؛ ليفعلَه.

وفيها: أنَّ قضاء الصوم بصيام الأيَّام الباردة عن الأيَّام الحارة لا بأس به؛ لأنَّه داخلٌ في عُموم قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٧)، ومسلم (١١٤٥).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥﴾:

ثم بيَّن تعالى شيئًا من فضائل رمضان؛ فقال:

﴿شَهْرُ﴾: سُـمِّيَ الشهر بهذا؛ لاشتهاره وهو: مدَّة ما بينَ الهلالَين. ﴿رَمَضَانَ﴾: مشتق من (الرَّمَض)، وهو: شِدَّة الحرارة؛ لأنَّه صادفَ وقت حرٍّ شديد أولَ ما سُمِّيَ عند العرَب.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: تلك الأيَّام المعدودات المفروض صومُها، هي الشهر الـذي أُنـزِل فيه القـرآنُ جملةً واحدة، مـن اللَّوح المحفوظ إلى السـماء الدُّنيـا، أو ابتدأ نزول القرآن فيه.

وفي حديـث واثلة بن الأسْـقَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «أُنْزِلَتْ صُحُـفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِـتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ»(١).

فرمضان هو الشـهر العظيم الذي اختارَه الله لإنزال القرآن العظيم فيه، وكذلك الكتب الإلهيَّة المذكورة.

و(القرآن): مَصْدَر -مثل «الغُفران» و«الشُّكران»- بمعنى: المقروء.

﴿هُدًى﴾ أي: هاديًـا للنـاس، مـن الـشِّرك إلى التوحيـد، ومن الضلالـة إلى الهداية، ومـن الجهـل إلى العِلْم؛ فهو هداية ودلالة، يسـتَدِلُّون به على ما ينفعهـم في دينهم ودُنياهم. وقوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ يدلُّ على أنَّه يمكن أن يهتدي به الجميع -المؤمن والكافر- هداية عِلْميَّة وعَمَليَّة.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾: هذا مزيد مَدْحٍ للقرآن، وبيان أنَّ فيه دلائل وحُجَجًا وآياتٍ بيِّنات واضحة ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الدلالـة والإرشـاد ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾: مـا يفـرِّق بـه بينَ الحـقِّ والباطل، والحلال والحرام، والخير والشرِّ.

---

(١) رواه أحمـد (١٦٩٨٤)، والطـبراني في المعجـم الكبير (٢٢/ ٧٥)، وفي الأوسـط (٣٧٤٠)، وحسَّـنه الألباني في الصحيحة (١٥٧٥)، وضعفه محققو المسند، وهو الأقرب.

وقوله ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أي: حضرَ أو عَلِمَ، وقيل: شَهِد هلال الشهر، ويدخل فيه: من ثَبُتت عنده رؤيتُه بخبر الثقة. ﴿مِنكُمُ﴾ أيّها المؤمنون، هذا ﴿ٱلشَّهۡرَ﴾ أي: رمضان، وكان حاضرًا مقيمًا صحيحًا، ليس عندَه مانع ولا عذر يمنعه من الصوم: ﴿فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ أي: فليصُم نهارَه.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ في شهر رمضان -وإن كان مقيمًا- ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ أي: في أثناء سفرٍ، فأفطر؛ ﴿فَعِدَّةٞ﴾ أي: فعليه صيامُ قضاءٍ ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ أي: من غير رمضان، بعدَد الأيَّام التي أفطرها.

وهذه الآية ناسخةٌ لِمَا تقدَّم من تخيير المقيم الصحيح بينَ الصيام وعدَمه مع الفدية؛ فصار الصيام بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ واجبًا على كلِّ مُكلَّفٍ غيرِ معذور بتَرْك الصيام، ونُسِخ التخيير.

لكنَّه أعاد هنا ذِكرَ المريض والمسافر؛ ليبيِّن أنَّ عُذرَهما ليس بمنسوخ، وأنَّه يجوز لهما الفطر، ثم القضاء.

ولا بُدَّ من اعتقاد جواز الفِطر في السفر، وإن كان السفر ليس به مشقَّة؛ فالفِطر متعلِّق بالسفر، لا بالمشقَّة، ولا يجوز الإنكار على مَن أفطر في السفر، ولا يحقُّ لأحدٍ منعه من الأَخْذ برُخصة الله.

وقد اختلف العلماء: هل الأفضل الفِطْر في السفر، أم الصيام؟

والتحقيق: أن لذلك حالات:

الحال الأولى: إذا كان الصومُ والفطر سواء، بمعنى أن الصوم لا يؤثر عليه، ففي هذه الحالة يكون الصومُ أفضل.

الحال الثانية: أن يكون الفطرُ أرفق به، فهنا نقول: إن الفطرَ أفضل، وإذا شقّ عليه بعض الشيء صار الصومُ في حقه مكرُوهًا؛ لأن ارتكاب المشقّة مع وجود الرخصة يُشعر بالعدول عن رخصةِ الله عز وجل.

الحال الثالثة: أن يشق عليه مشقة شديدة غير محتملة، فهنا يكون الصومُ في حقّه حرامًا.

وقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾: فيه بيان سبَب التخفيف والرُّخصة، للمريض

والمسافر، وأنَّ الله يريد التسهيل على المسلمين، وتيسير عباداتهم عليهم. و(الإرادة) المذكورة هنا هي: الإرادة الشرعيَّة.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: لا يريد التشديد عليكم، ولو أراده لأوجبَ عليكم الصوم في السفر والمرض.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: ويريد الله منكم -أيُّها المؤمنون- إكمال عدَد أيَّام شهر رمضان، فأمركم بالقضاء؛ لاستدراك ما فات من عِدَّة رمضان.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ولتذكروا الله بالتكبير، فتقولوا: «الله أكبر» ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: تكبِّروه على هدايته إيَّاكم إلى هذه العِبادة، وتكبروه عند انقضاء الشهر، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال، إلى فراغ خطبة العيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقوموا بشُكر ربِّكم على نِعَمه. و(الشُّكر) هو: الثَّناء على المُنعِم.

وفيها: إرادةُ اليُسرِ لكم، وإكمال عِدَّة شهركم، وإباحة الرُّخصة لكم، وأنَّه علَّمكم أمرَ دينِكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ثبوت الشهر يكون بالرؤية الشرعيَّة؛ لقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ﴾، ولقوله ﷺ: «لاَ تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الهِلَالَ، وَلاَ تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ»[1]؛ فيثبت دخول الشهر بالرؤية البصريَّة للثقة، وبالسماع عن خبر الثقة.

وفيها: أنَّ تحديد فضائل الأيَّام والشهور هو من اختصاص ربِّ العالمين وحدَه، وليس لأحدٍ من البشر ادِّعاءُ فضيلة أو خاصيَّة شرعيَّة لأيِّ وقت بدون دليل.

وفيها: العَلاقة الوثيقة بينَ الصيام والقرآن، بما يدفع المسلِم إلى مزيد العِناية بالقرآن في شهر الصيام.

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠).

وفيها: مشروعيَّة تكبير الله عند نهاية العِبادات التي ثبتَ بالدليل التكبيرُ بعدها؛ كالتكبير في أدبار الصلوات، والتكبير بعد إكمال عدَّة رمضان.

واستحبَّ جمهور العلماء التكبير ليلة دخول عيد الفِطْر؛ لهذه الآية.

وفيها: أنَّ الهداية تشمل هداية العِلْم والعمل، فيهدينا الله بتعليمنا، ويهدينا ببيان كيفيَّة العمل بما شرع، وكيف نستدرك ما فات.

وفي تذكير النفس بأنَّ الله أكبر بعد الفراغ من العِبادة: لئلَّا تُصاب بالعُجْب، وفي التكبير إعلان لعظمة الله وكبريائه، وأنَّه الكبير ذاتًا وصفاتٍ.

وفيها: أنَّه لا يُصام الشهر قبل ثبوت دخوله، وأنَّ صيام يوم الشَّكّ -وهو اليوم الذي لا يُدرَى: هل هو الثلاثون من شعبان أو الأول من رمضان- هو عملٌ غير مشروع؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾، فإذا لم نَشْهَده لم نصمه. وقد قال عمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ صَامَ اليَوْمَ الذي يُشَكُّ فيهِ؛ فَقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

وفيها: أنَّ الشريعة مبنيَّة على اليُسْر، ورَفْع الحرَج.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير.

وفيها: أنَّ الله لا يُشَرِّع شيئًا إلَّا لحِكْمة.

وفيها: الاهتِمام بقضاء رمضان، والنِّيَّة له، وعدم تأخيره إلى رمضان الذي بعدَه؛ لأنَّ الله يريد منَّا المسارعة بإكمال العِدَّة.

وفيها: أنَّ التمكُّن من إتمام العِبادة نِعمة تستوجِب الشُّكر.

وفيها: أنَّ ابتداء التكبير في عيد الفطر يكون بنهاية آخر يوم من رمضان، وغروب شمسه، وبداية ليلة العيد.

---

(١) رواه البخاريُّ معلَّقًا (٣/ ٢٧)، ووصلَه: أبو داود (٢٣٣٤)، والترمذي (٦٨٦)، والنسائي (٢١٨٨) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٤٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٩٦١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

ولـمَّا كان الصيام مَظِنَّةً لاستجابة الدُّعاء؛ ذكر تعالى شأنَ الدُّعاء في ثنايا آيات الصيام؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عِبَادِى﴾ أي: المؤمنون ﴿عَنِّى﴾ أي: عن قُربي وبُعدي؛ ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: فُقل لهم: إنِّي قريب منهم، بالعِلْم والإحاطة، والإجابة والسمع لدعائهم. ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ أي: أسمعه، وأقبَل دعاءَه، وأُسرِع تلبيته ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ أي: صدقَ في دُعائه إيَّاي، ودعا بقَلْبٍ حاضرٍ، وتحقَّقت شروط الدُّعاء -كالإخلاص فيه- وانتفت موانع الإجابة -كأكل الحرام، والاعتداء في الدُّعاء-.

وقد بيَّن تعالى في آيةٍ أخرى ما يخصِّص هذه الآية؛ فقال مبيِّنًا تقييدَ إجابة الدُّعاء بمشيئته: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾.

وقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ أي: فليُجِيبُوا لي، وليَسْتَسْلِموا لأوامري، وينقادوا لشرعي. فـ (الإجابة) من العبد: الطاعة والانقياد، ومن الله: الإثابة والعطاء.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ أي: بقُربي وإجابتي. و(اللام) في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟﴾ وفي قوله ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟﴾ هي لام الأمر، فأمر تعالى عباده بالإيمان به وطاعته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يهتَدون. ومن معاني (الرُّشْد): حُسنُ التصرُّف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضلُ دعوة الصائم. وقد فَهِمَ بعضُهم من ذِكر الدُّعاء في آخر آيات الصيام: أنَّه ينبغي الاجتهاد في الدُّعاء في آخر الصيام عند الإفطار.

وفي الآية: أنَّ إجابة الدَّعوة أعَمُّ من إجابة مسألة الداعي المعيَّنة؛ لأنَّ الله لا بُدَّ أن يجيب دعوة الداعي بوجهٍ من الوجوه؛ فإمَّا أن يُعجِّل له مسألته. وإمَّا أن يؤخِّرها إلى حينٍ، ليزداد الداعي دعاءً وإلحاحًا، فيزداد أجرًا وثوابًا. وإمَّا أن يدفع عن الداعي من السُّوء ما هو أعظم فائدة له من مسألته المعيَّنة التي سألها؛ أو أن يدَّخِر له دعوته إلى يوم القيامة، فيعطيَه عليها

أجرًا وثوابًا، هو أعظم للداعي من إجابة مسألته المعيَّنة؛ ففي الحديث: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ولاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: «الله أكثرُ»(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوَّع الإجابة: فتارةً تقع بعين ما دعا به، وتارةً بِعِوَضه»(٢).

وفيها: أنَّ الدُّعاء سببٌ قويٌّ لحصول المطلوب. ومن سُنَن الله الجارية: أنَّ الأمور تقع بأسباب، ولو كان الدُّعاء لا يؤثِّر في حصول الشيء لَمَا أمر الله به؛ لأنَّ الله حكيم، لا يأمرُ عبادَه بشيءٍ لا فائدة فيه.

والدُّعاء إذا لم يُستَجَب للداعي؛ فإمَّا أن يكون ذلك بسببِ فَقْدِ شرطٍ في الدُّعاء -كحضور القَلْب، وعدم غفلته ولَهوه- أو يكون لوجود مانع -كأكل الحرام- أو لأنَّه لا مصلحة للداعي في إجابة مسألته المعيَّنة، فيُعطيه الله عِوَضها، وقد يكون التأخيرُ هو الأصلح له في الدُّنيا والآخرة.

والدعاء عبادةٌ في ذاته؛ فيؤجَر عليه الداعي، سواءً أُجيب أم لا، وهو دليلٌ على عبوديَّةِ العبد لربِّه، وإظهارِ حاجته إليه، وافتقارِه وذُلِّه بينَ يدَيه، ومَن لم يسألِ اللهَ يغضَبْ عليه.

وفي الآية: كَرَمُ الرَّبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعظيمُ عطائه.

وفيها: فَضْل الدُّعاء في حال الانكسار، كدَعوة الصائم، والمسافِر، والمظلوم، والمضطرّ.

وفيها: أثر الصِّدق في إجابة الدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

وفيها: أنَّ الإنابة والاستجابة لله سببٌ للهداية إلى الرشاد والصواب.

وفيها: تشريف الله لمن عَبده؛ حيث أضافه إلى نفسه؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، وأحمد (١١١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٠).
(٢) فتح الباري (١١/ ٩٦).

وفيهـا: قُرْب الله من أهل الدُّعاء، وأنَّـه معهم، وهذه هي المعيَّة الخاصة. أمَّا المعيَّة العامَّة -وهي معيَّة العِلْم والإحاطة-: فهي لجميع الخَلْق.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾:

ثـم ذكر ربُّنا الرَّؤوفُ بعباده، الرحيمُ بهم، العليمُ بحالهم، رُخصةً أخرى للمسـلمين في حال صيامهم؛ فرفعَ عنهم ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسـلام، فإنَّه كان إذا أفطرَ أحدُهم إنَّـما يَحِـلُّ لـه الأكل والـشُّرْب والجِماع إلى صلاة العِشـاء، أو ينـام قبل ذلك، فمتـى نام قبل الإفطار أو صلَّى العِشـاء: حرُم عليه الطعام والشراب والجِماع إلى اللَّيلة التي تليها، فوجدوا من ذلك مشقَّة كبيرة؛ فأنزل الله الرُّخصة والتخفيف(١).

وقولـه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي: مِـن الله تعـالى ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ وهـذه تشـمل جميـع ليالي رمضان ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ هو: الجِماع والإفضاء والمباشرة بشهوة ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يشمل: الزوجات والإماء.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: لا يسـتغني أحـدٌ مـن الطرَفَـين عـن الآخر؛ فهو بمنزلة اللِّباس له، يخالطهُ ويماسُّـه، ويسـتتر ويحتمي به، ويحفظه عن معصية الشهوة المؤذية، كما يحفظ الثوبُ لابسَه عمَّا يؤذيه من الحرِّ والبرد.

وكان سبَب نزول هذه الآية: ما حصلَ لبعض الصَّحابة من المشقَّة العظيمة، بعدم الأكل في اللَّيـل لأجـل نومِهم، وما حصل لبعضهم من معصية إتيان الزوجة في اللَّيل، وكان ذلك ممنوعًا عليهم إذا صلَّوا العشاء، أو ناموا قبل الإفطار.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٠).

فعَنِ البَرَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ؛ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ؛ كَانُوا لاَ يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾»(٢).

وقوله ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونون أنفسكم وتظلِمونها بالجِماع في ليالي رمضان، وأنتم ممنوعون منه، وتُنقِصون أَجْرَ أنفسِكم بما يحصل منكم، وتخادِعونها بإتيان ما مُنِعتم منه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسَّع لكم أمرًا كان -لولا توسعته- موجبًا للإثم، وكان النسخُ رحمةً؛ لأنَّه لولا النسخُ لوقع الكثيرون في فِعْل المحظور.

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: محا ذُنوبكم، وتجاوزَ عمَّا وقع منكم، ولم يعاقِبكم.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾: هذا الأمر للإباحة؛ لأنَّه جاء بعد التحريم، والمراد بـ (المباشرة): الجِماع؛ لما يحصل فيه من التقاء بَشرة الرجل ببَشرة المرأة.

﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: اطلبوا بالجِماع ما قدَّر الله لكم وقسَم من الولد، وابتغوا أيضًا الأجر والثواب بالحِرْص على العِبادة في ليالي الشهر الشريفة -وفيها ليلة القَدْر- ولا تشغلنَّكم الملذَّات عنها.

---

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٨).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

استحباب أن تكون نيَّة المُجامِع لزوجته ابتغاءَ الولد، لا مجرَّد قضاء الشهوة.

ويؤخَذ من الآية: كراهية العَزْل، ومَنْع الحمل.

وفيها: تعليم العِباد الأَخْذ بالأسباب؛ لأنَّه أمرَ بالجِماع لتحصيل الولد.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلِم ألَّا ينشغل بالملذَّات -ولو كانت مباحة- عن اكتساب الأجر والثواب بالعِبادات، وفِعْل الطاعات.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾: عطفٌ على ما تقدَّم، من إباحة مباشرة النِّساء، وإباحة الأكل والشرب؛ أي: لكم أن تأكلوا وتشربوا ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: يتضح ويظهر ظهورًا جليًّا، ويتميَّز ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ والمقصود: بياض النهار، وسواد اللَّيل ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: الصادِق، وسُمِّي (فجرًا)؛ لأنَّه يتفجَّر، وينتشر منه النُّور. ووَصْفُ كلٍّ منهما بـ(الخيط)؛ لأنَّه يبدو في الأفُق ممتدًّا كالخيط، فإذا تحقَّق طلوعُ الفجر الصادِق، المعترِض في الأُفُق، المنتشِر في جهة المشرق؛ فقد حَرُم على الصائم الطعام والشراب والجِماع، إلى غروب الشمس.

ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي: أكمِلوه من طلوع الفجر إلى دخول اللَّيل، وذلك بغروب الشمس.

وكانت هذه الآية قد نزلت دون قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، فلمَّا حصل اللَّبْس عند بعض الصَّحابة في فَهْم المقصود من الخَيْط الأبيض والخَيْط الأسود؛ أنزلَ الله تعالى قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ رفعًا للَّبس، وبيانًا للمقصود.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أُنْزِلَتْ ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾، وَلَمْ يُنْزَلْ: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالخَيْطَ الأَسْوَدَ، وَلاَ يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ الله بَعْدَهُ: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٥١١)، ومسلم (١٠٩١).

وعَـنْ عَـدِيِّ بْـنِ حَـاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَـالَ: لـمَّـا نزلـتْ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلاَ يَسْتَبِينُ لِي! فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

استحباب السُّحور؛ فالسُّحور أعون على الصيام، وفيه برَكة، ومخالفة لأهل الكتاب، ويُعين على القيام لصلاة الفجر، والله وملائكته يُصَلُّون على المتسحِّرين.

ويُؤخَذ من الآية: أنَّ مَن جامع قبل الفجر، فطلع عليه الفجرُ، فنزعَ مباشرةً، ودخل عليه يومُ الصيام وهو جُنُب؛ فصومه صحيح، وجنابته لا تضرُّ صيامَه؛ لأنَّ لازمَ إباحة الجِماع إلى طلوع الفجر: أن يُدْرِكَه الفجر وهو جُنُب، ولازم الحقِّ حقٌّ.

وقد ثبت في «الصحيحَين»[٢]، عن أُمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ كَانَ لَيُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جِمَاعٍ غَيْرِ احْتِلاَمٍ، ثُمَّ يَصُومُهُ».

ويُؤخَذ من قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾: عدم مواصلة الصوم إلى ما بعد المغرب، بل يُستحَبُّ تعجيل الفِطْر، وفي ذلك مخالفة لأهل الكتاب، والتقرُّب إلى الله. وفي الحديث: «لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ»[٣].

وفيها: حماية العِبادة من الزِّيادة، وما ورد من التعبُّد بالوصال فهو خاصٌّ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ ربَّه يُطْعِمه ويَسْقيه.

ولـمَّا أباح تعالى مباشرةَ النِّساء في اللَّيل في شهر الصيام؛ ذكر حالةً لا يجوز فيها المباشرة بشهوة، لا في اللَّيل، ولا في النهار، وهي حالة الاعتكاف؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ و(المباشرة): مَسّ البَشرة للبَشرة، وأعظمها: الجِماع. ﴿وَأَنتُمْ﴾ والحال أنَّكم ﴿عَٰكِفُونَ﴾

---

(١) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٩٣١)، ومسلم (١١٠٩).

(٣) رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

أي: مُلازِمون وماكِثون ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: بنيَّة الاعتكاف. و(الاعتكاف): لزوم المسجد لطاعة الله.

والمقصود هنا: ولا تقربوا النِّساء ما دُمتم مُعتكفين في المساجد، في اللَّيل والنهار، حتى تخرجوا من الاعتكاف، فلا يجوز للمعتكِف أن يباشر زوجته بشَهْوة، لا في المسجد ولا في غيره -كما لو ذهب إلى بيته لحاجةٍ لا بُدَّ منها أثناء الاعتكاف-.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما سبق ذِكرُه من الأحكام المتعلِّقة بالصيام والاعتكاف ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ (الحدود): جمع «حَدّ»، وهو في اللُّغة: المنع.

وحدود الله على نوعَين: حدود تمنع مَن كان خارجها من الدُّخول فيها، وهي المحرَّمات، وهي المقصودة بقوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها، وهي الواجبات، وهي المقصودة بقوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: الممنوعات والمحرَّمات، كالأكل والشرب، والجِماع في الصيام، ومباشرة النِّساء أثناء الاعتكاف.

والنهي عن الاقتراب من الحرام أبلَغ من النهي عن الوقوع فيه؛ لأنَّ معناه: سَدُّ الطرق والذرائع الموصِلة للحرام، فينبغي على المسلِم ألَّا يقع في الحرام، وألَّا يدخل فيما يؤدِّي إلى الحرام.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك البيان يُبيِّنُه الله. ﴿ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: معالم دينه، وأحكام شريعته. و(الآية): هي العلامة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتَّخذون من فِعْل الواجبات وتَرْك المحرمات وقايةً من عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده، بالنَّسْخ من الأثقل إلى الأخفّ.

وفيها: جواز الكلام بينَ الزوجَين في أمور الجِماع، بما يُستحيا مِن ذِكرِه عند الناس؛ لقوله

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾، ويدخل في الرفث: الكلام المتعلِّق بالجِماع والشهوة.

وفيها: جواز جميع أنواع وأشكال الاستمتاع بالزوجة والأَمة، إلَّا ما حرَّمته الشريعة -كالوَطء في الدُّبُر، والوَطء حال الحيض أو النفاس-.

وفيها: رَفْع هِمَّة المسلِم من مجرَّد فعل المباح، إلى طلب الأجر من الله؛ لقوله: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

وفيها: أنَّ مَن شكَّ في طلوع الفجر؛ فله أن يأكل ويشرب حتى يتأكَّد من طلوعه؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾.

وفيها: بُطلان بِدعة الاحتياط للصوم، بالإمساك قبلَ الفجر بدقائق، كما يفعله بعض الجهلَة، ويخصِّصون له خانة في التقاويم المطبوعة، ويحدِّدونها بعشر دقائق قبل طلوع الفجر!

وفيها: مشروعيَّة الاعتكاف، وهو عبادة عظيمة، وأنَّه لا يكون إلَّا في المسجد، وأنَّه يجوز أن يكون في أيِّ مسجد، ولا يختصُّ بالمساجد الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾، وحديث حذيفة: «لَا اعْتِكَافَ إلَّا في المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ»[1] -إنْ صَحَّ-؛ فالمقصود به: الاعتكاف الكامل.

ويُؤخذ من الآية: أنَّ الجِماع مُبطِل للاعتكاف.

وفيها: استحباب الصيام حالَ الاعتكاف؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَه في آيات الصيام.

وفيها: أنَّ العِلْم سببٌ للتقوى، وأنَّ بيانَ الأحكام للناس من أسباب إيصالهم إلى مرتبة التَّقوى.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾:

ولـمَّا كان الذي حبس نفسه عن المباحات ومنعها منها في الصيام، خليقًا وجديرًا أن يكون

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٥١٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٨٦).

مطعمُه ومشربُه ومكسبُه حلالًا، وألَّا يُدخِل جوفه الحرام، وهو بهذه المثابة من العِبادة؛ فإنَّ الله تعالى نهى عن أكلِ المال بالباطل، واستعمالِه في المحرَّم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، فذكر التحريم العامَّ في أخذ المال الحرام وإعطائه، بعد التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام والاعتكاف.

وقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مالَ بعض بطريق محرَّم، كالرِّبا والغَصْب والسَّرِقة والقِمار والرِّشوة والخِيانة، وأخذ الأُجْرة على المحرَّمات، أو أخذ ما لا يجوز أخذه من أموال الزكاة أو الصَّدَقات، أو أخذ الأُجْرة على العِبادات -كالذين يقرأون القرآن ويسألون به الناس-. وهذا النهي في الآية يشمل -أيضًا- أيَّ انتفاع بالمال المحرَّم، حتى ولو لم يكن أكلًا؛ فلا يجوز أن يفترش أو يسكن أو يركب أو يلبس محرَّمًا.

وفي قوله ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي على المسلِم أن يُنزِّل أموال إخوانه منزلة ماله، فإذا كان لا يرضى أن يأكل أحدٌ ماله بالباطل؛ فكيف يرضى هو أن يأكل مال أخيه المسلِم بالباطل؟!

وقوله ﴿بَيْنَكُم﴾: بيانٌ أنَّه لا يجوز أكل المال بالباطل، انتهاكًا للعقود والمعاملات المُبرمة بينَ الأطراف المختلفة، كالبيع والإجارة والرَّهْن ونحوها. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: كلّ ما يؤخذ ويُتوصَّل إليه بغير حقٍّ.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: تستميلوا بها الحُكَّام والقُضاة بالرِّشوة، ليحكموا لمصلحتكم. ومعنى الآية -أيضًا-: نهيُ مَن عليه الحقُّ عن المخاصمة إلى القاضي، والإدلاء بالحُجَج الباطلة، في أمرٍ ليس فيه بيِّنة لصاحب الحقِّ، ولذلك قال المفسِّرون: «لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم».

﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ أي: لتتوصَّلوا بالخُصُومة أو بالرِّشوة إلى أخذ حقِّ الآخرين. ﴿فَرِيقًا﴾ أي: قطعة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ممَّا ملكوه شرعًا، وهذا يدلُّ -بطريق الأَولى- على عدم جواز المخاصمة بالباطل لأكل جميع أموال الطرَف الآخر.

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بالظُّلْم والعدوان، كشهادة الزُّور، واليمين الكاذِبة. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا حقَّ لكم في هذا المال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الشارع على حفظ الأموال، وتحريم الرِّشوة.

وفيها: أنَّ قضاء القاضي لا يغيِّر حقيقة الأمر؛ فلو حكم القاضي بالمال المتنازَع عليه لغير صاحبه -بحَسَب ما ظهر له، أو نتيجة استعمال المدَّعِي بالباطل لشهود الزُّور أو اليمين الكاذِبة-؛ فإنَّ هذا الحكم لا يُصيِّر المال حلالًا للظالم.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ؛ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَتْرُكْهَا»(١).

وفيها: الحكم بالظاهر، وأنَّ الله لا يكلِّفنا ببواطن الأمور.

وفيها: تحريم أكل المال الحرام، ولو رضي به مَن دفعَه، مثل: أجرة الزانية، والهديَّة إلى الساحر والكاهن، وثمن الخمر، ونحو ذلك. فليس مناط حِلِّ المال هو رضا طرَفَي العقد فقط؛ بل لا بُدَّ من رضا ربِّ العالمين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾:

قيل في سبَب نزول الآية: أنَّ بعضَ الناس سألوا رسول الله ﷺ عن زيادة الأهِلَّة ونُقصانِها واختلافِ أحوالها، وما السِّرُّ في اختلاف حالها عن حال الشمس، التي هي دائمةٌ أبدًا على حالٍ واحدة، فلا تتغيَّر بزيادةٍ ولا نُقصان؟! فنزلت هذه الآية(٢).

و(الأهِلَّة): جمع «هلال»، وهو: اسمٌ للقمر في أول الشهر. وسُمِّي هلالًا من «الاستهلال»، وهو رفع الصوت؛ وذلك أنَّ الناس كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٥٣).

فلمَّا سألوا عن الأهِلَّة وزيادتها ونُقصانها؛ أوحى الله إلى نبيِّه ﷺ أن يجيبَهم: ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ أي: علامات ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: في أمورهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، كآجال دُيونهم، وأوقات زَرْعهم، وبَدء صومهم وفِطْرهم، ودخول وقت حَجِّهم، وعِدَد نسائهم.

﴿وَٱلۡحَجِّ﴾ أي: دخول وقت الحَجِّ وخروجه؛ لأنَّ الإحرام للحجِّ يكون في أشهرٍ معلوماتٍ، تبدأ بدخول شوال.

وأفرد (الحجَّ) بالذِّكر؛ اعتناءً بشأنه، ولأنَّه لا يَصِحُّ فِعْلُه أداءً ولا قضاءً إلَّا في وقتٍ معلومٍ.

وقد تقدَّم ذِكرُ الصيام وارتباطه بالهلال، في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ (البرُّ) هو: الخير الكثير ﴿بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ﴾ أي: في حال الإحرام. وقيل: كانت العرَب تفعل ذلك في الاعتكاف والعيد وعند إلغاء السفر أيضًا. فكانوا يعتقدون أنَّهم إذا أحرَموا؛ فلا يجوز لهم أن يدخلوا بيوتهم من أبوابها، ويزعمون أنَّ هذا من التقرُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ! فنفى الله هذا وأبطلَه، وبيَّن أنَّ ذلك ليس من البرِّ؛ وإنَّما هو تعسيرٌ وسَفَهٌ ومخالفةٌ للحِكْمة[1].

وقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ حقيقةً ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ فعرَّف (البرَّ) بأنَّه (التَّقوى)، وهي: أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، بفِعْلِ ما أوجبَه وتَرْكِ ما حرَّمه.

ثم أمر تعالى بذلك وأكَّده؛ فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في تنفيذ أحكامه، وغير ذلك؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تنالوا (الفلاح)، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الصَّحابة على السؤال عن أمور الدِّين، وعِناية الله بهم في الإجابة عمَّا سألوا عنه.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٥١٢)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٢).

وفيها: أنَّ الميقات العالَمي الصحيح للناس في أمورهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة هو الأشهر القمريَّة، لا الميلاديَّة ولا الشمسيَّة، وأنَّ التوقيت بالهلال سهلٌ يسيرٌ، يُناسِب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم؛ فهو آية بيِّنة يرونها في السماء، يعرِفون بها بدايات الشهور، ونهاياتها.

وفيها: تَرْك المعتقدات الخاطئة والعادات الجاهليَّة، والالتزام بالتعريفات الصحيحة للكلمات الشرعيَّة، وعدم إدخال ما ليس منها فيها، وعَرْض العادات على الشَّرْع؛ فما وافقه أُخِذَ به، وما خالفه نُبِذَ وتُرِكَ.

ويؤخذ منها: أنَّ التزام المُحْرِم بكشف رأسه للسماء طيلةَ فترة الإحرام -بلا سَقْف ولا مظلَّة- ليس من البرِّ، ولا من الدِّين في شيء، بل يجوز له التظلُّل بالمظلَّة وسقف السيارة، وليس هذا من محظورات الإحرام.

وفيها: اختيار الطريق الأسهل والأيسر للقيام بالأمور، ما لم يكن إثمًا.

وفيها: إجابة السائل بما يُفيده، ولو لم يكن قصَدَه بسؤاله؛ تنبيهًا على أنَّ ما صُرِف إليه هو المُهِمّ، لأنَّهم في مبدأ تشريع جديد، والمسئول هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان المُهِمّ لهم أن يسألوه عمَّا ينفعهم في صلاح دُنياهم وأخراهم، وهو معرفة كون الأهِلَّة ترتَّبت عليها آجال المعاملات والعِبادات -كالحج، والصيام، والعِدَّة-.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى بعضَ أركان الإسلام من العِبادات؛ أتبعَ ذلك بذِكر ذِرْوَة سَنامه، وهو: الجهاد في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ أي: جاهِدوا. و(المقاتلة) تكون من طرَفَين؛ أي: بينَ المسلمين والكفار. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعته وطلبِ رِضْوانه، ولأجْلِه، ولإعلاء كَلِمته وإعزاز دينه؛ ليكونَ القتال مبنيًّا على الإخلاص.

﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: القادرون على قتالكم، المستعِدُّون له، قاصدينَ صدَّكم عن دينكم. وهذا القيدُ ليس المقصود منه وجوبَ القتال في حال مقاتلة الكفَّار لنا فحسب، فإذا لم يُقاتلونا لم نُقاتِلْهم! وإنَّما هو للإغراء لقتال الكفَّار؛ لأنَّهم لا يزالون يُقاتلونَنا دائمًا وأبدًا؛ فكأنَّه يقول: أليسُوا يُقاتِلونكم، أليسُوا يعتَدون عليكم؟ وإن كفُّوا عنكم

اليـوم قاتَلوكم غـدًا، فالعُدوان من طَبعِهم، وقتال المسـلمين من غاياتِهـم. فلذلك أمر تعـالى بجهادهم، وأغرى عبادَه المؤمنين لقتالهم؛ لتقـوى العزائِمُ على القيام بأمر الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ أي: في القتـال، بعـدم مجـاوزة الحـدِّ الشرعـيِّ في قتـال الكفَّـار، بتَرْكِ التمثيل بجُثَثهم -بقَطْع أعضائها- وتَرْكِ قتال مَن لم يُشـارِك في القتال من الأطفال والنِّسـاء والشيوخ والرُّهبان، لكن إن بذل الشيوخُ رأيَهم وخبرتَهم قُوتِلوا، ولا نُقاتِل مَن رضيَ بدَفْع الجِزية، ولا نقطع شجرًا بغير مصلحة شرعيَّة.

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمَّر أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ من المسـلمينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِسْـمِ الله، فِي سَـبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[(١)].

وقولـه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: هـذه الجملة لتعليل الحُكـم، وهو النهي عن الاعتداء. و(الاعتداء): تجاوُز ما لا يَحِلُّ تجاوُزُه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الجهاد في سـبيل الله، وأنَّه لكسر شَـوكة الكفَّار، المعارِضين لتحكيم شَرْع الله في الأرض.

والكفَّـار يُعرض عليهم الإسـلام، فإن أَبَـوا: عُرِضَ عليهم دفعُ الجِزية -ليعيشـوا تحت حكم المسلمين- فإن أَبَوا: قُوتِلوا.

وفيها: تحريم الاعتداء، ولو على الكفَّار.

وفيهـا: ربـط الحُكـم بالحِكْمـة، كـما في قولـه: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾:

ثـم قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي: الكفَّـار ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: أينما وجدتموهم، في الحِلِّ أو الحَرَم.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مـن المكان الـذي أخرَجوكـم منه، فإذا أغـار الكفَّار على بلاد المسـلمين، وأخرجوا المسلمين منها؛ وجب على المسلمين قتالُهم وطرْدُهم من بلاد المسلمين؛ فإزالة الاحتلال واجب.

ولـمَّا كان الجهاد فيه إزهاق النفوس، وإتلاف الأمـوال، وحصول الضحايا والأضرار العظيمة؛ نبَّه تعالى أنَّه شرَعَه لَمَا يترتَّب عليه من دَرْء المفسدة الكبرى، وإزالة الضرر الأعظم من هذا كلِّه؛ وهو الشِّرك والكُفر بالله.

فقـال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (الفِتنة) هي الشِّرك والكُفر بالله. فالشِّرك بالله أشـدُّ من قَتْل النفوس، وصدُّ الناس عن دِينهم أشدُّ من قَتْلهم. والكفَّار لا يزالون يقاتلونَنا حتى يرُدُّونا عن ديننا إن اسـتطاعوا، وردُّنا عن دِيننا هـو الفِتنة؛ فوجبَ رَدُّ الفِتنة ولو بجهادهـم، مهما ترتَّب على ذلك من الأضرار، ولو كان القَتْل في الحَرَم.

ثـم نهى الله تعـالى عبادَه المؤمنين عن قتـال الكفَّار في منطقة الحَرَم الـذي حرَّمه الله، إلَّا إذا بـدأوا هم بالقتال، فحينئذٍ يجب قتالهم دفعًـا لعدوانهم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: لا تبـدأوا قتالَهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهذا يشـمل: مكَّـة، ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبدأوا قتالَكم في الحَرَم.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ في الحَـرَم؛ ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ ولا تُبالـوا؛ لأنَّهـم هـم الذيـن هتكـوا الحُرْمة؛ فاستحَقُّوا العذاب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: يُفعل بهم مِثل ما فَعَلوا.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: كفُّـوا عـن قتالكم، وعـن كُفرهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما سـلفَ من الكُفر. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، بقَبول توبتهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

وجوب قتال الكفَّار، وأنَّه مشروط بالقُدرة على ذلك، وأنَّه في كلِّ زمان ومكان.

وفيها: مبدأ المعامَلة بالمِثْل.

وفيها: أنَّ المسلمين أحقُّ بأرض الله؛ لأنَّهم يُقيمون فيها التوحيد والعَدْل، والكفَّار يُشرِكون فيها بالله تعالى، ويَظْلِمون، ويعتَدون على الحُرُمات.

وفيها: أنَّ الفِتنة بالكُفر أسوأ وأشدُّ من إراقةِ الدِّماء، وسَلْبِ الخيرات، وإتلافِ الأموال.

وفيها: دليلٌ على القاعدة الشرعيَّة: «ارتكاب أدنَى المفسدتَين».

وفيها: تعظيم حُرْمة المسجد الحرام.

وفيها: تمام عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بوجوب الكفِّ عن الكفَّار إذا انتهَوا عن الكُفر.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ أي: الكفَّار، في الحِلِّ والحَرَم؛ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شِرْكٌ، وصَدٌّ عن سبيل الله، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: حتى يكونَ دِين الله ظاهرًا وغالبًا على بقيَّة الأديان.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: كفُّوا، ورجعُوا عن الكُفر وقتال المسلمين؛ ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾ أي: فلا اعتداء ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المُصرِّين على الكُفر، أو المبتدِئين بالقتال.

وفيها: أنَّ الأمر بالقتال مُقيَّد بغايتَين:

الأولى: ألَّا توجد فِتنة، وهي الشِّرك، والصَدُّ عن سبيل الله.

والثانية: أن يكون الدِّين لله، أي: ظاهرًا، غالبًا، عاليًا على غيره.

وفيها: أنَّ الكفَّار إذا انتهَوا عن القتال؛ وَجب الكفُّ عنهم، فإمَّا أن يُسْلِموا، أو يدفعوا الجِزية.

وفيها: أنَّ الظالم يُجازَى بمِثل عُدوانه.

وفيها: أنَّ تسمية المجازاة (اعتداءً)؛ هو من باب مُقابلة الشيء بمثله، والجزاء من جِنس العمل.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حُكم انتهاك حُرمة المكان في قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾؛ ذكر حُكم انتهاك حُرمة الزمان؛ فقال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: إذا قاتلكم الكفَّار في الشهر الحرام فقاتِلوهم فيه.

ولذلك لـمَّا خرج النبيُّ ﷺ في ذي القَعدة -وهو شهر حرام- قاصدًا العمرةَ، ونزل في الحُديبيَة -قريبًا من الحَرَم- ولم يبدأ المشرِكين بقتالٍ، لكن لـمَّا أُشيعَ أنَّ أهل مكة قتلُوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان النبيُّ ﷺ قد أرسلَه ليُفاوِضَهم في دخول مكة؛ تجهَّز وأصحابُه للحَرْب والقتال في الشهر الحرام، وفي المكان الحرام؛ لأنَّ المشرِكين هم الذين انتهَكوا حُرْمَة الحَرَم.

وكذلك لـمَّا امتدَّ قِتال هَوازِن بعد معركة حُنَين إلى حِصار الطائِف؛ استمرَّ ﷺ في القتال في الشهر الحرام[1].

وقوله ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ﴾ (الحُرُمات): جمع حُرْمة -كـ(ظُلُمات) و(ظُلْمة)- وهي: كلُّ ما يجب احترامه، ولا يجوز انتهاكُه.

وفائدة جمع (الحُرُمات) هنا؛ لأنَّه أراد: الشهرَ الحرام، والبلدَ الحرام، وحُرمةَ الإحرام.

﴿قِصَاصٞ﴾ أي: يجرى فيها القِصاص والبدَل؛ فمَن انتهك حُرمة شيء فإنَّه تُنتهَك حُرمته؛ كمَن انتهك نفسًا معصومة؛ فتُنتهَك نفسُه بقَتْله، ومَن انتهك حُرمة الشهر الحرام بالقتال: قُوتِل.

ثم بيَّن ذلك تعالى، بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بالقتال في المكان الحرام، أو الزمان الحرام، وتجاوزَ الحدَّ في معاملتكم، بأخذ المال، أو بقَتْل النفس، أو الاعتداء على العِرْض، ونحو ذلك؛ ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾: سمَّاه (اعتداءً)؛ لأنَّه مسبَّب عن الاعتداء الأول، والبادئ أظلَم، والقِصاص عَدْل، فعاقِبوه وقابِلوه بمِثل الجناية التي اعتدى عليكم بها. ولذا قال:

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٧).

﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: ليكن انتقامُكم مماثِلًا ومطابِقًا للاعتداء الأول؛ في هيئته وكيفيَّته، وزمانه ومكانه.

ونظرًا لأنَّ ردَّ الاعتداء قد يحدُث فيه ظُلْمٌ وتجاوُزٌ؛ ذكَّر تعالى بالتَّقوى، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا عذابَه؛ فلا تَعْتَدُوا في القِصاص. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: بنَصره وحِفظه ورعايته لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدْل الله تعالى في التشريع.

وفيها: مشروعيَّة القِصاص في الحُرُمات.

وفيها: أنَّ رَدَّ العُدوان بمِثله إنَّما لأخذ الحقِّ، وليس للتشفِّي.

وفيها: أنَّ مُقابَلة الكفَّار والرَّدَّ على اعتداءاتهم، علامةُ قوَّة المسلمين وقُدرتهم، وأنَّ عدم الرَّدِّ علامةُ ذلٍّ وضَعفٍ ومهانةٍ.

وفيها: أنَّه يجب على المسلمين أن يُروا الكفَّار من أنفُسِهم قوَّة، حتى لا يفكِّروا في العدوان ولا يَسْتَمْرِئوه.

وفي الآية: معيَّة الله للمؤمنين وتأييده لهم؛ فإنَّ قُرَيشًا لـمَّا افتخرت بمَنْع النبيِّ ﷺ وأصحابِه من دخول مكة للعمرة في ذي القَعْدة من عام الحُديبيَة؛ مكَّنه الله تعالى من القِصاص منهم، فدخل مكة في السنة التي بعدها -في ذي القَعدة-؛ فقضى عُمرته.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾:

ولـمَّا كان القتال في سبيل الله يحتاج إلى بَذل المال فيه؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابذُلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله. ويُحتَملُ أن يكون المراد بالآية أيضًا: الأمر بالإنفاق في سائر وجوه القُرُبات والطاعات، كالحجِّ والعُمرة، وصِلَة الرَّحِم، والإنفاق على النفس والعيال، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: لا تُوقِعوا أنفسكم ﴿إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أي: الهلاك. وعبَّر بـ (الأيدي)

عن الأنفس؛ لأنَّها جزءٌ مُهمٌّ منها، وبها البطش والحركة. والمعنى: لا تُلْقوا أنفسكم فيما يُهلِكها، وهذا يشمل الإهلاك الحِسِّيّ -كإلقاء النفس في النَّار، أو من عُلُوٍّ شاهق، أو في ماء يَغرَق فيه، أو الخروج في السفر بغير زادٍ يحصل معه الهلاك من الجوع والعطش، ونحو ذلك- والإهلاك المعنويّ -مثل: البخل، والاستكثار من الذُّنوب مع عدم التوبة، والانشغال بالدُّنيا وتَرْك الجهاد في سبيل الله، وترك الإنفاق في سبيل الله-.

ويدلُّ على ذلك: ما جاء عن أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: غَزَوْنَا من المَدِينَةِ نُرِيدُ القُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَلَى الجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ المَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى العَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ مَهْ! لَا إِلَهَ إِلَّا الله! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!

فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا -مَعْشَرَ الأَنْصَارِ- لَـمَّا نَصَرَ الله نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَظْهَرَ الإِسْلَامَ، قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾، فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ: أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، وَنَدَعَ الجِهَادَ»[1].

ويتعلَّق بهذا الأثر مسألةٌ، وهي: أن يحملَ رجلٌ على العدُوِّ وحدَه، ويقتحم صفوفَهم، وينغمس فيهم، فما الحكم؟

فالجواب: إنْ غلب على ظنِّه أنَّه يَسْلم و يُنكِي فيهم نكاية كبيرة، ويقتُل منهم ويجرح قبل أن يقتُلوه؛ فهذه جُرأة محمودة وثوابها عظيم؛ لِـما في ذلك من إرهاب الأعداء، والفتِّ في عَضُدِهم، وتشجيع المسلمين على اقتحام صفوف العدُوِّ، وأن يرى العدُوّ شجاعة المسلِم؛ فتضعُف معنويَّاتُ الأعداء.

وأمَّا إذا غلب على ظنه أنَّ هذا الاقتحام والانغماس في صفوف العَدوِّ، سيكون بلا فائدةٍ مرجوَّة، وسيترتَّب عليه قَتْله بلا مصلحة؛ فلا يجوز؛ لِمَا فيه من إهلاكِ النفس بلا مُقابِل، واغترارِ الكفَّار بقوَّتهم، وسُرورهم بقَتْل المسلمين، ولِمَا فيه من إضعافِ معنويَّات المسلمين، وحُزنِهم على قتلاهم.

(١) رواه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٨٨).

وقولـه تعـالى ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ أي: في عبـادة الخالِق، ومعاملـة الخَلْق، وأحسِـنوا أعمالَكم، وأحسِنوا في الإنفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: هـذا تعليـلٌ للأمر بالإحسـان؛ فـإذا عَلِمَ العبـد أنَّ الله يحبُّه إذا أحسنَ؛ بادرَ إلى الإحسان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الإنفاق في سبيل الله، خاصَّةً في الجهاد.

وفيها: الإخلاص في العمل؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: تحريم ما يُهلِك الإنسانَ في دينه، ودُنياه.

وفيها: أنَّ كلَّ ما كان سببًا للضرَر فهو حرام، ويدخُل فيه: مسبِّبات الأمراض -كالتدخين وغيره-.

وفيها: الأمر بالإحسان في الواجب والمستحَبّ.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: أنَّ مَن وَلِيَ شـيئًا من أمور المسـلمين؛ فعليه ألَّا يُغامِر بهم، ولا يفعل ما يؤدِّي إلى هلاكهـم، فـلا يدخُل بهم في مفازة أو صحـراء مُهْلِكة، ولا يقتَحِم بهم في عـدُوٍّ يتمكَّن من تصفيتهـم، وإذا رأى أنَّ من المصلحة الشرعيَّة الانسـحابَ أو عَقْـدَ هُدْنة مع الكفَّار -إبقاءً على نفوس المسلمين، حتى لا يُقتَلوا بلا فائدة-؛ فله فِعْل ذلك.

وقـد تـركَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِصـار الطائف، لـمَّا كثـرت في المسـلمين الجِراحات، وأقرَّ خالدًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على انسحابِه بجيش المسلمين في مُؤْتة.

وفيها: أنَّ التفريط في الاسـتعداد للجهاد حرامٌ؛ لأنَّه إلقاءٌ بنفوس المسلمين إلى التهلُكة، ووبالٌ على دين الإسلام.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى

﴿ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى أحكام الصيام؛ أتْبعَها بذِكر أحكام الحجِّ؛ لأنَّ شهور الحجِّ بعد شهر الصيام مباشرة؛ فقال تعالى:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ أي: أدُّوهما تامَّين، بشُروطهما، وأركانهما، وواجباتهما، وإذا أحرمتُم بهما فلا بُدَّ من إتمامهما.

ومِن تمامهما: أن يخرج الرجل من أهله لا يريد إلَّا الحجَّ أو العُمرة، لا لتجارة ولا لحاجة.

ومن تمامهما: أن يُفرِدَ كلَّ واحد منهما من الآخر.

ومن تمامهما: أن يخرج الرجل من أهله لقَصْد الحجِّ أو العُمرة، ثم يمرّ بالميقات فيُحْرِم منه، وهذا أكمل ممَّن سافر لحاجة، ثم طرأ عليه قَصْدُ الحَجِّ أو العمرة؛ فأحرمَ من مكانه.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي: مُنِعتُم من إتمام الحجِّ أو العُمرة لأيِّ سبَبٍ قاهر، كالعدُوِّ، أو المرض، أو كَسْر عُضْوٍ من الأعضاء، أو السِّجن، أو الترحيل -كما في عصرنا-؛ ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ﴾ أي: فعليكم ذَبْح ما تيسَّر وسهُلَ عليكم ﴿مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ أي: من الإبل أو البقر أو الغنَم المُجْزِئة، فإن كان مُوسِرًا وذبح بَدَنةً فحَسَنٌ، وإن أهدى شاةً فهو كافٍ، وإن اشتركَ مع سبعة في بَدَنة أوبقرة فلا بأس بذلك.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ أي: لا تُزيلوا الشَّعْر ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي: يصل زمانَ حلولِه -وهو يوم العيد- ومكانَ حلولِه -وهو الحَرَم-. وقيل: حتى يذبح الهدي، وتكون الآية -حينئذٍ- فيمَن ساق الهدي.

وقوله ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: فاحتاج إلى حَلْق رأسه لمرضه، ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ مثل: القُمَّل أو غيره، فاحتاج إلى الحَلْق، أو إلى تغطية رأسه -مثلًا-؛ ﴿فَفِدۡيَةٞ﴾ أي: فعليه عند فِعْل المحظور فِدْية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ وهي: ثلاثة أيَّام، تجوز في الحَرَم، وفي غيره.

﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ (أو) هنا للتخيير؛ أي: إن شاء صامَ، وإن شاء أخرجَ الصَّدَقة. وهي: إطعام ستة مساكين، لكلِّ مسكين نصفُ صاع من الطعام -من القمح، أو الأرز، أو نحوهما-.

﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ أي: وإن شاء ذبحَ شاة، وتصدَّق بها، ولا يأكل منها شيئًا.

ويكون ذلك في مكة، أو في مكان فعل المحظور.

فما وَجب من الفدية بسبب ارتكاب محظور من محظورات الإحرام، يخيّر فيه الإنسانُ بين فِعله في الحرمِ، أو في محلِّ ارتكاب المحظور، إلا جزاء الصيد فإنه يكون في الحرم .

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ من العدُوِّ والمانع؛ فأتِـمُّوا الحجَّ والعُمرة.

ثم شرع تعالى في تفصيل المناسك؛ فقال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾، وهذا يشمل مَن أحرم بهما معًا -وهو «القارن»- أو أحرم بالعُمرة أولًا، ثم إذا فرغَ منها تمتَّع بما أحلَّه الله له ممَّا كان محظورًا عليه وقتَ الإحرام، ثم أحرمَ بالحجِّ -وهو «التمتُّع» المعروف في كلام الفقهاء-.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ أي: فعليه ذَبح ما تيسَّر وسهُل من بهيمة الأنعام المُجزِئة.

ويجب دمُ التمتُّع الخاصّ على مَن أتى بالعُمرة في أشهر الحجِّ، ثم حَجَّ من العام نفسِه، ولم يرجِع بينهما إلى بلده، بشَرْط ألَّا يكون من حَاضري المسجد الحرام.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ من المتمتِّعين الهديَ أو ثمنَه؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيَّام ﴿فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أي: في أثناء الحجِّ، أوحال إحرامه بالحجِّ.

والأفضـل أن يصومَها قبل يـوم عرفة، فإن فاتَتْه أو فاتَه بعضُهـا؛ صامَها أو أتمَّها في أيَّام التشريـق -وهـي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحِجَّة-؛ لحديث عائشـة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ، إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الهَدْيَ»[١].

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ أي: يصوم سـبعة أيَّام -تكملةَ العشرة- إذا رجعَ إلى وطنه؛ لحديث: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا؛ فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ»[٢].

﴿تِلۡكَ﴾ أي: الثلاثة والسـبعة ﴿عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ أي: أتِـمُّوا عددَها، فهي كاملةٌ في الثواب والأجر، قائمةٌ مقامَ الهدي. ويجوز أن تكون متتابعة، أو متفرِّقة.

---

(١) رواه البخاري (١٩٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من وجوب الهدي -أو بدله- على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ﴾ أي: مَسْكَنه، ومَن يسكن إليهم من زوجة وولد ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قِيل: مكة، وقيل: أهل منطقة الحَرَم، وقِيل: مَن كان دون المواقيت، وقِيل: مَن كان على مسافة من الحَرَم لا تُقصَر فيها الصَّلاة.

والأقرب: أن حاضري المسجد الحرام: هم أهل الحرم [1].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافُوا الله في هذه المناسك وغيرها، فافعَلوا ما أمر به، واجتنِبوا ما نهى عنه. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾لمن تركَ التَّقوى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إتمام الحجِّ والعُمرة، فرضًا ونفلًا؛ فمَن تلبَّس بالحجِّ أو العُمرة، وأحرمَ بأيٍّ منهما؛ صارَ فرضًا عليه إتمامُه، ولو كان نافلة.

وفيها: أنَّ الخروج من الإحرام بدون طواف ولا سعي، جهلٌ عظيمٌ، بل لا يمكنه الخروج أصلًا.

ويُكرَه قطع النفل في غيرهما، إلَّا لغَرَض صحيح.

وفيها: أنَّه لا تجوز الاستنابة في أفعال الحجِّ والعُمرة -كالإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة- ويجوز التوكيل في الرَّمي للضرورة.

وفيها: وجوب الإخلاص لله في المناسك؛ لقوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: له لا لغيره.

وظاهر الآية: أنَّ كلَّ إحصار يمنع من إتمام النُّسُك؛ فإنَّه يجوز التحلُّل به؛ لعُموم قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾. ومَن اشترط عند إحرامه فقال: «إن حبسَني حابسٌ؛ فمحلِّي حيث حبستَني»؛ ثم منعَه مانعٌ من إتمام النُّسُك؛ جاز له التحلُّل والرُّجوع، ولا شيءَ عليه، لا فِدْية، ولا هَدي، ولا حَلْق.

---

(١) وهو اختيار علماء اللجنة الدائمة، والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: فتاوى اللجنة (١١/ ٣٨٩)، مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢٢/ ٧١،٧٠).

وفيها: أنَّ المُحصَر لا يجب عليه القضاء؛ لأنَّ الله لم يكلِّفه بذلك.

وفيها: تحريم حَلْق الرأس على المُحرِم، وألحقَ أكثر أهل العِلْم به شعرَ بقيَّة البدَن.

وفيها: فضيلة حَلْق الشعر في النُّسُك، وهو إزالته إزالة تامَّة بالمُوسَى ونحوها، وهو أفضلُ من التقصير.

وفيها: رحمة الله بالعِباد؛ أنْ جعل لهم الفِدْية، كفارة عن فِعْل المحظور، إذا اضْطُرُّوا إليه.

وفيها: أنَّه لا يجب الاقتراض على مَن لم يجد الهدي؛ فمَن تعذَّر أو تعسَّر عليه الهديُ فلا يلزمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

وفيها: أنَّه لا يجوز صيام السبعة في الحجِّ، ولا يجوز تأخير صيام الثلاثة إلى ما بعد الحجِّ، دون عُذر.

وفيها: تيسير الله تعالى؛ أنْ جعل السبعة -وهي العدَد الأكبر- بعد رجوع الحاجِّ إلى بلدِه.

واستدلَّ بعضُ العلماء بالآية على: وجوب العُمرة.

وفي الآية: فَضْل التمتُّع.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾:

قوله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: الحجُّ ذو أشهرٍ معلومات، أي: معروفات بينَ الناس. وأشهر الحجِّ هي: شوال، وذو القَعْدة، وعشرٌ من ذي الحِجَّة؛ لأنَّ الحجَّ يفوت بطلوع فَجْر يوم النحر، فلا يجوز الإحرام بالحجِّ بعد فجر يوم العاشر.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يُحْرِمُ بِالحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الحَجِّ؛ فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الحَجِّ: أَنْ تُحْرِمَ بِالحَجِّ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ»[1].

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٥٩٦). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: «مِنَ السُّنَّةِ كَذَا» فِي حَكَمِ المَرْفُوعِ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ، وَلَا سِيَّمَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ تُرْجُمَانُهُ». تفسير ابن كثير (١/ ٥٤١).

وقد ثبتَ عن عمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّهما كانا يُحِبَّان الاعتمارَ في غير أشـهر الحجِّ، وينهيانِ عن ذلك في أشهر الحجِّ[١]. ولهذا كَرِهَ مَن كَرِهَ من العلماء الاعتمارَ في بقيَّة ذي الحِجَّة. ومعلومٌ أنَّ أعمال الحجِّ تنقضي بانقضاء أيَّام مِنى.

وقوله ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أحرمَ بالحجِّ، وهو ركن من أركانه. وتشـمل الآية العُمرة أيضًا.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: فعليه أن يجتنب الجِماع، ودواعيه -كاللَّمس بشهوة، والتقبيل، والكلام في شـأن الجِماع- والفُحْش من الكلام عُمومًا. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: وعلى المُحرِم اجتناب جميع المعاصي، ومن ذلك: الوقوع في محظورات الإحرام.

وقـد قـال النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أَجْر مَن تـرك الرَّفَث والفسـوق في الحجِّ: «مَـنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٢].

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي: لا منازَعـة، ولا خصومـة، ولا مِـراء، ولا فِعْـل ما يُغضِب الرِّفقـة ويُورِث الشـحناء. ومـن ذلك أيضًـا: التعصُّب لـلآراء وأقوال الرِّجـال، والجدال العقيـم مع الباعة ومَن يسـتأجرهم. ولا بأس بالزجر والتأديـب والضرب -لولد أو عَبْد- إذا احتاجَ إليه، وتَرْكُه أَوْلَى.

ولا يدخـل في النهـي عن الجِدال: المناقشـات المفيدة في مسـائل الحـجِّ العِلْميَّة، من غير تعصُّب، والجدال بالتي هي أحسن في مقام الدَّعوة.

ولـمَّا نهى الله تعالى عن الشَّرِّ؛ أرشدَ إلى فِعْل الخير، وأخبرَ أنَّه به عليم؛ فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي: بالخير، يقبَله، ويجازي عليه خيرًا، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا.

﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ أي: خُـذوا من الزاد ما يكفيكم في السـفر، حتـى لا تحتاجوا إلى الناس، وتـزوَّدوا -مـع غذاء الجسـم- غـذاءَ القَلْـب؛ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ﴾ أي: أفضله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي: اتِّقاء عذاب الله، بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).

ومِن خير زاد الدُّنيا للحاجِّ: مالٌ حلالٌ طيِّبٌ، يُعِفُّه عن سؤالِ الناس، والإثقالِ عليهم.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ! فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾»[1].

﴿وَاتَّقُونِ﴾ أي: خافوا عِقابي، بامتِثال ما أمرتُ واجتناب ما نهيتُ ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يا أصحاب العقول والأفهام.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم شأن الحجِّ، وأنَّ الله جعل له أشهرًا، مع أنَّ مناسكَه تتمُّ في أيَّام.

وفيها: أنَّه لا يجوز تأخير أيِّ عمل من أعمال الحجِّ إلى ما بعد أشهر الحجِّ.

وفيها: أنَّ الإحرام بالحجِّ قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ﴾.

وفيها: النهي عن الرَّفَث، وهو درجات: فمنه ما يُفسدُ الحجَّ ويُبطِله -وهو الجِماع قبل أعمال يوم النحر- ومنه ما لا يُبطِله ولكن يأثم به صاحبُه ويجب عليه فدية أذى -وهو المباشرة بشهوة- ومنه ما يأثم به صاحبه ويُنقِص أجرَه، لكن لا فدية عليه -كالكلام في أمور الجِماع ونحوه-.

وفيها: أنَّ محظورات الإحرام تبدأ بمجرَّد عقد نيَّة الإحرام، ولو بقيَ عليه شيءٌ من المخيط مثلًا.

وفي الآية: أنَّ على الحاجِّ الابتعاد عمَّا ينافي معنى الحجِّ، من التَّرَفُّه والتَّنَعُّم، ويدخل فيه: الطِّيب، والمخيط، وقصّ الشَّعر، ويبتعد كذلك عن الشهوة وأسبابها؛ فيغُضّ البصر، ويتحاشى الكلام في أمور الجِماع، ولا يمَسُّ امرأته بشهوة، ويجوز مسُّها بغير شهوة -كأن يقودها في الزحام-. وإذا كان يحرم عليه تعاطي الفسوق قبل الإحرام؛ فابتعاده عنه في حال الإحرام آكد وأوجَب.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣).

وفيها: أنَّ على الحاجِّ أن يبتعد عن كلِّ ما يُقسِّي القَلْب، ويُشَوِّش الفِكْر، كالجِدال والمِراء.

وفيها: الحثُّ على الزيادة من فِعْل الخير في مواسم الطاعة؛ فأجرُ العامل فيها يعظُم ويُضاعَف.

وفيها: تنبيه العِباد للأخذ بالأسباب.

وفيها: الأَخْذ بالأسباب في الدُّنيا، بما يُعين على طاعة الله.

وفيها: أنَّ العبد يُؤجَر على الأَخْذ من الدُّنيا بما يُعينه على الآخرة.

وفيها: أنَّ العِبادة لا تُنافي تحصيلَ ما يحتاجه الإنسان في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ زاد الآخرة أفضل من زاد الدُّنيا؛ لأنَّ زاد الدُّنيا فانٍ، ويحقِّق مراد النفس ويوافق شهواتها، أمَّا زاد الآخرة: فهو يُوصِل إلى النعيم المقيم في الجنَّة.

وفيها: أهميَّة التَّقوى في أداء العِبادات، وأنَّ التذكير بها ليس خاصًّا بمَن يفعل المحرَّمات.

وفيها: التذكير بالزاد الظاهر في سفر الدُّنيا، والزاد الباطن في سفر العبد إلى الدار الآخرة.

وفيها: العمل على الاستغناء عن الناس، وبَذْل الأسباب للتعفُّف عمَّا في أيديهم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾:

ولـمَّا نهى تعالى في مطلع الآية عن أمورٍ تُنافي الحجَّ -وهي الرَّفَث والفسوق والجدال- وأمر سبحانه بالتزوُّد في السفر، وعدم نسيان التَّقوى؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ حُكم التكسُّب -بالإجارة والبيع والشراء ونحوها- للحاجِّ في موسم الحجِّ، وأنَّها من الأمور التي لا تُنافي الحَجَّ، وإن كان تركُها والتفرُّغ للعبادة أولَى وأفضل.

فقد يسأل سائلٌ: هل يجوز عمل الدُّنيا في هذه العِبادة العظيمة؟ وهل تُقبَل عبادةُ مَن تعاطى أنواعَ المعاملات والتجارة في موسم الطاعة العظيم هذا؟

فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ تَأَثَّمُوا من التِّجَارَةِ فِيهَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ»[(١)].

فليس على المسلمين حَرجٌ من الاتِّجار في موسم الحجِّ، في الأسواق التي أنشأها المشرِكون لهذا الغرض.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ التَّيْمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُكْرِي[(٢)]، فَهَلْ لَنَا من حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالبَيْتِ، وَتَأْتُونَ المُعَرَّفَ[(٣)]، وَتَرْمُونَ الجِمَارَ، وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي، فَلَمْ يُجِبْهُ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»[(٤)].

وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يا عبادَ الله، من الحُجَّاج ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: حَرج وذنب ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رِزقًا، بالتجارة والإجارة ونحوه.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ أي دفعتُم، وذهبتُم، ورجعتُم. و(الإفاضة) هي: الاندفاع ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ وهو اسم للمكان المعروف، وهو عمدة أفعال الحجِّ؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٨).

(٢) أي: نؤجِّر دوابَّنا في عمل الحج، ونحُجُّ معهم تبعًا.

(٣) أي: تقفون عرفة.

(٤) رواه أحمد (٦٤٣٤)، وصحَّحه محقِّقو المسنَد.

(٥) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَفَه لـمَّا زاره مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد رآه قبل ذلك. وقيل: لأنَّ آدم تعارَفَ وزوجتُه فيه، بعد ما أُهبطا إلى الأرض. وقيل: لأنَّ الناس يتعارَفون فيه فيما بينهم. وقيل: لأنَّهم يعترِفون فيه بذُنوبهم. وقيل: لأنَّ عرفة مرتفعةٌ على غيرها.

ووقت الوقوف بعرفة -عند أكثر العلماء-: من بعد زوال الشمس يومَ التاسع، إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النَّحْر. واستدَلُّوا على ذلك بفِعْل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقوله: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»[١]، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ[٢]؛ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ»[٣].

وقال بعض العلماء: وقتُ الوقوف يبدأ من أول يوم عرفة؛ لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا؛ فَقَدْ أَتَمَّ حَجَّهُ وَقَضَى تَفَثَهُ»[٤].

وتُسَمَّى عرفة بـ«المشعر الحلال» -لأنَّها خارج الحَرَم- و«المشعر الأقصى» -لأنَّها أبعد ما يصل إليه الحُجَّاج في مناسكهم-. فيكون الحاجُّ بوقوفه فيها قد جمعَ في نُسكه بينَ الحِلِّ والحَرَم.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بالتلبية والدُّعاء والتهليل والتكبير، وأنواع الذِّكر، باللِّسان والقَلْب والجوارح. وصلاة المغرب والعشاء والفَجْر من ذكر الله. ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو: الجبل الصغير في آخر مُزْدَلِفة، الذي وقف عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفجر، يذكر الله ويَدعو، حتى أسفرَ جدًّا -أي: انتشر النُّور قبل طلوع الشمس-.

و﴿ٱلْمَشْعَرِ﴾: اسم للمكان الذي تؤدَّى فيه الشعيرة. وهو مَعْلَمُ العِبادة. وصفَه بـ (الحرام) لحُرْمته، ولأنَّه داخل حدود الحَرَم.

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) يعني: فجر يوم العاشر -يوم النحر-.

(٣) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٢٩٧٥)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

(٤) رواه أبو داود (١٩٥٠)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي (٣٠٤٢)، وابن ماجه (٣٠١٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٦).

ومُزْدَلِفة كلُّها مكانٌ للوقوف؛ فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بَطْنِ عُرَنَةَ[(١)]، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ[(٢)]، وَكُلُّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ»[(٣)].

قوله ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾: أَمَرَ بذكره مرَّة أخرى، وفيه دليل على مشروعية الإكثار من الذِّكر في الحج، وتعليلٌ بأنَّه هدانا لدينه، ودلَّنا على هذه المناسك العظيمة.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي: قبل هذه الهداية والبيان والإرشاد -عن طريق الكتاب والرسول- ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: لا تعرفون كيف تَذْكُرون، ولا كيف تَعْبُدون ربَّكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للمسلم في حال تكسُّبه أن يرقُب فضلَ الله، ولا يتَّكِلَ على قُدرته ومهارته.

وفيها: مِنَّة الله تعالى على عباده، بإباحته التكسُّبَ في موسم العِبادة العظيم هذا، ولا تزال التجارة في موسم الحجِّ من أعظم وسائل جنْي الأرباح، وعليها اعتمادُ كثيرٍ من الأفراد والأُسَر والشَّركات والهيئات والمؤسَّسات في دَخلِهم السنويّ.

وفيها: أنَّه يُشترَط للوقوف بمُزْدَلِفة أن يكون بعد عرفة. ولا يُشترَط أن يكون واقفًا على رِجْلَيه؛ فلو كان قاعدًا أو مضجعًا أجزأه ذلك. وهواء المناسك له حُكم أرضِها وقَرارها.

وفيها: أنَّ الصَّلاة من ذِكر الله.

وفيها: أنَّ مُزْدَلِفة من الحَرَم.

وفيها: مُقابَلة نِعمة هدايته بكثرة ذِكره عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الذِّكر المشروع هو ما وافق الشَّرْع، وهذا يُفهَم من قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾، إذا كانت (الكاف) للتشبيه.

---

(١) وهو وادٍ خارج عرفات.

(٢) وهو وادٍ بين مِنى ومُزدلفة.

(٣) رواه أحمد (١٦٧٥١)، وابن حبَّان (٣٨٥٤)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٣٨٤٣).

ومن أفضل الذِّكر في الحجِّ -وفي عرفة خصوصًا-: التلبية، وقول (لا إله إلَّا الله، وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير).

وفيها: أنَّ تذكير الإنسان بحاله قبل الهداية؛ مفيدٌ في تعريفه بقيمتها.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾:

قوله ﴿ ثُمَّ ﴾ أي: بعد وقوف الناس بعرفة ومُزْدَلِفة ﴿أَفِيضُوا۟﴾ -يا قُرَيش- ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي:عامَّة المسلمين، الذين حضروا موسم الحجِّ، وكان في قُرَيش أَنَفَة وكِبْر، فلا يتجاوزون مُزْدَلِفة، ولا يقفون مع الناس بعرفة، ويقولون: نحن أهل الحَرَم، فلا نخرج من حدود الحَرَم!

فقد جاء عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ[1]، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾»[2].

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يقتضي أنَّ المراد بـ(الإفاضة) هنا: الإفاضة من المُزْدَلِفة إلى مِنى، لرمي الجِمار[3].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة لذُنوبكم، وما وقعَ منكم من التقصير في أعمال الحجِّ.

وقد ورد الاستغفارُ بعد العِبادات في مواضع متعدِّدة -غير هذا الموضع-؛ ومنها: الاستغفار بعد السلام من الصَّلاة، والاستغفار في السَّحَر بعد قيام اللَّيل، وفي الذِّكر بعد الوضوء، وغير ذلك.

---

(١) سُمُّوا بذلك؛ لأنهَّم تحمَّسوا في دينهم، أي: تشدَّدوا بما كان عليه آباؤهم.

(٢) رواه البخاري (٤٥٢٠)، ومسلم (١٢١٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٢١).

ومـن فوائد الاسـتغفار بعد العِبـادة: ألَّا يدخل العُجْـبُ إلى النفس بعد أدائهـا العِبادة، والتنبيه على أنَّ العبد لا يخلو من تقصيرٍ في أداء العِبادات، مهما جوَّدها وأتقنها.

فعـلى الحاجِّ ألَّا ينسـى نصيبَه من الاسـتغفارِ والإكثـارِ منه، وأن يتخيَّر مـن ذلك أدعيَة الاستغفار الواردة في الكتاب والسُّنَّة، ومنها: سيِّد الاستغفار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: هـذا تعليلٌ للأمر بالاسـتغفار، بـأنَّ الله ﴿غَفُورٌ﴾ لذُنوب المستغفِرين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتقبَّل توبتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الناس في أحكام الله سواء.

وفيها: أنَّ الإفاضة تكون مع الناس دون إيذاءٍ لهم، وقد سُـئِل أسـامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف كان رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسـيرُ في حَجَّةِ الوَدَاعِ حينَ دَفَعَ (يعني: من عرفة)؟ قال: «كَانَ يَسِـيرُ العَنَقَ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ»[1].

والعَنَق: السير بينَ الإبطاء والإسراع، والنصُّ: سُرعة للإبل أعلى من العَنَق، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وجد مُتَّسعًا أسرع، وإلَّا سار كما يسير الناس، لا يُؤْذِيهم.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾:

قولـه تعـالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ أي: أنهيتُـم وأدَّيتُـم ﴿مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أي: أعـمالَ حجِّكـم، وفرغتُـم منها، وذبحتُم نسـائِكَكم، وتحلَّلتُم من نُسُـكِكم، بعد رَمْـي جمرة العقبة والاسـتقرار بمنـى؛ ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في أيَّـام التشريـق في مِنـى وغيرهـا. ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: كما كنتم تذكرون آباءكم -أيُّها العرَب- وتفاخرون بهم بعد الفراغ من

---

(١) رواه البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

موسم الحجِّ، وتنشغلون بذِكر مآثرهم. أو: أكثِروا أيُّها الحُجَّاج من ذكر الله، كما يُكثِر الولدُ من ذِكر أمِّه وأبيه، وهو لا يعرف غيرهما.

﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ أي: بل أشدّ ذكرًا من الآباء، أو: إن لم يَزِد، فلا ينقُص.

ثم أرشد تعالى إلى دُعائه بعد كثرة ذِكره. والدُّعاءُ في المشاعر في تلك الأيَّام عظيمٌ، وهو مَظِنَّة الاستجابة، جامعٌ بينَ شَرَف الزمان وشَرَف المكان.

وقد ذمَّ تعالى مَن لا يدعوه ويسأله إلَّا في أمور الدُّنيا، وينسى الآخرة؛ فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضهم ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ أي: أعطِنا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: من أمور الدُّنيا، كالمال، والصِّحَّة، والجاه، والدار، والمركَب ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي: ليس له حظٌّ ولا نصيب في الآخرة ألبتة؛ لأنَّه لم يكن يريد إلَّا الدُّنيا.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ أي: من الحُجَّاج وغيرهم من المسلمين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: ما يُستحسَن منها، من الصِّحَّة والعافية، والزوجة الحسنة، والدَّار الواسعة، والعِلْم النافع، والمركَب الهنيّء، وسَعَة الرِّزق، ونحو ذلك. وسؤاله يدلُّ على فِقهه، بخلاف الأول؛ فإنَّ الثاني يطلب من خير الدُّنيا ومتاعها ما لا حرام فيه، ولا مضرَّة عليه.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ أي: نعيمًا وفضلًا، كنُور الوَجْه، وإيتاء الكتاب باليمين، وتخفيف الحساب، والتظلُّل في ظلِّ العرش، وسُقيا الحَوض، وعلى رأس ذلك: الجنَّةُ ونعيمها -فهي الحَسَنة العُظمى في الآخرة- وأعظَم نعيمها: رؤية الله تعالى.

قال بعضُ السلف: «مَن أُعطيَ قَلْبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا؛ فقد أُوتيَ في الدُّنيا حَسَنة وفي الآخرة حَسَنة، ووُقِيَ عذاب النَّار»(١).

وقيل: «مَن آتاه الله الإسلام والقرآن، وأهلًا ومالًا؛ فقد أُوتيَ في الدُّنيا حَسَنة وفي الآخرة حَسَنة»(٢).

قوله ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ادفَعْه عنَّا، بعِصمتنا مِن عمل أهل النَّار، ومغفرة الذُّنوب التي تُوجِبُ دخول النَّار.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٩).
(٢) فتح الباري (١١/ ١٩٢).

وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الدَّاعون بالحسَنتَين ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ أي: حظٌّ وافرٌ ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: لأجلِ ما عَمِلوا من الحجِّ والدُّعاء. أو: بسبَب ما قاموا به من الأعمال الصالحة.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: سريع المحاسَبة للعباد، على كثرتهم وكثرة أعمالهم؛ فلا يَعْسُر عليه حسابُهم، ولا يَعْجِز عنهم. فيعرِضُ أعمالهم عليهم، ويَزِنها بميزانه العَدْل، ويُقرِّر المؤمنَ بذُنوبه إذا أدناه مِنه، ثم يغفرها له، ويُطيل وقوفَ الكافر والفاجر، ويُعامِله بما يستحقُّ، وحسابهم جميعًا كحساب الواحد منهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أهميَّة الذِّكر بعد قضاء العِبادة، وأنَّه يعوِّض التقصير فيها.

وفيها: تقديم ذِكر الله على ذِكر الوالدَين.

وفيها: انقسام هِمَم الناس إلى: دنيئةٍ لا تهتمُّ إلَّا بالدُّنيا الدَّنيَّة، وهِمَم عالية تطلُب خيرَ الدُّنيا والآخرة.

وفيها: مشروعيَّة سؤالِ الله حسناتِ الدُّنيا، وأنَّ الإنسان مُحتاج إليها.

وفيها: فَضْل هذا الدُّعاء العظيم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وقد قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وَكَانَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ[1]، وهو من جوامع الدُّعاء.

وروى مسلم عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ الله لَا تُطِيقُهُ -أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ- أَفَلَا قُلْتَ: اللهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ، فَشَفَاهُ[(١)].

وفيها: أنَّ الله قد يجيب دعوةَ الكافر والفاجر وطلبَه من الدُّنيا، ولكنَّها إجابةُ فِتنةٍ، لا إجابة تكريم.

وفيها: أنَّه تجب الغَيرة لله والحميَّة له ولدينه، أشدُّ من الغَيرة والحميَّة والدِّفاع عن الآباء.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾:

قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: يا أيُّها الحُجَّاج، بالتكبير المُطلَق والمقيَّد، والتحميد والتسبيح والتهليل. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ وهي: أيَّام التشريق الثلاثة، وقيل: معها يوم النحر.

وسُمِّيت ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ لقِلَّتهنَّ. ومن الذِّكر فيها: ما يكون عند رمي الجمرات، وخلفَ الصلوات، وذِكر الله بالتسمية والتكبير عند ذَبح الهدي والأضاحي، وذِكر الله على الأكل والشُّرب -بالتسمية في أوَّله، والحمد في آخره-.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لله»[(٢)].

وفي حديثٍ آخر: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»[(٣)].

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي: فمَن استعجلَ بالنَّفر من مِنى إلى مكة، في ثاني أيَّام التشريق (الثاني عشر من ذي الحِجَّة)، قبل الغروب، بعد رمي الجِمار؛ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لا حرج في تعجُّله.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨).

(٢) رواه مسلم (١١٤١).

(٣) رواه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤/ ١٣٠).

﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي: بات في مِنى ليلة ثالث التشريق، ورمى الجِمار بعد الزوال؛ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: في تأخُّره.

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي:المتعجِّل والمتأخِّر، فيأتي كلٌّ واحدٍ منهما بالمأمورات، ويجتنب المحظورات في حجِّه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المستقبَل بعد الانصراف من الحجِّ، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يومَ القيامة، بعد البَعْث من قبوركم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضل الذِّكر في أيَّام التشريق.

وفيها: رُخصة الله في التعجُّل بالنَّفْر من منى.

وفيها: فَضْل المتأخِّر على المتعجِّل؛ لأنَّ معه زيادةُ عمل، وهو زيادةُ رَمْي إحدى وعشرين حَصاة، والمبيت ليلةً بمِنى.

وفيها: أنَّ انتفاء الإثم لمن أخذ بالرُّخصة بالتعجُّل، مقيَّد بالتَّقوى.

وفيها: اقتران المواعظ بالتخويف من الآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾:

لـمَّا ذكر تعالى في الآيات السابقة قسمَين من الناس، وهما: مَن همُّهم الدُّنيا ولا رغبة لهم في الآخرة، ومَن يريد خيرَ الدُّنيا والآخرة؛ ذكرَ بعد ذلك نوعَين آخرَين من الناس، يناسبان ما تقدَّم: نوعٌ حُلْو المنطِق، لكنَّه أسودُ القَلْب، ونوعٌ تُطابِق سريرتُه علانيتَه، ويسعى لمرضاة الله؛ فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وقيل: هي عامَّة في المنافِقين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو الصحيح»(١).

وقوله ﴿يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: تَسْتَحْسِن قولَه في أمورِ الدُّنيا وأسبابِ المعاش، وهؤلاء قومٌ ألسِنَتُهم أحلَى مِن العَسَل، وقُلُوبهم أمرُّ مِن الصَّبِر، يلبسون للناس جُلودَ الضأن على قُلُوب الذئاب، وحالُهم كما قال الشاعر:

يُعْطيكَ مِن طَرَفِ اللِّسان حلاوةً ... ويَروغُ منكَ كما يَروغُ الثَّعْلَبُ

قوله ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أي: يحلف بالله أنَّ قَلْبه موافقٌ قولَه، وأنَّه على الإسلام، وهو في الحقيقة كاذِبٌ مستمرٌّ على النِّفاق، مبارِزٌ لله تعالى بما في قَلْبه من الكُفر. ولذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي: شديد الخُصُومة والعداوة، يكذِب ويفجُر.

وقد ذكر النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في علامات المنافِق: «إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٢)، وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله: الأَلَدُّ الخَصِمُ»(٣)، وهو شديد الخُصُومة بالباطل، بكَذِبه وزُوره، ومَيله عن الحقِّ.

وفي الحديث: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزِعَ»(٤).

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: انصرف وذهب. وقيل: تولَّى مقاليد الأمور؛ ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قَصَدَ وعَمَدَ ومشى حثيثًا ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾: بقطع الأرحام، وسَفك الدماء، وتفريق الكلمة، ونحو ذلك. ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾: يُتلِف الزرع، بالإحراق ونحوه. ﴿وَٱلنَّسۡلَ﴾: يقتُل أولاد البهائم وغيرها، ظُلْمًا وعدوانًا، فجمعَ إلى سيِّء المقال سيِّء الفِعال.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٤٨).

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: يكرَهُه ولا يرضى به، ويُعاقِب عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ في وَعْظه وتذكيره: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: اخشَ عقابه، واترُك الكُفر والفساد؛ ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾: الحميَّة والغضب ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بسببِ الإثم.

فكان جزاؤه: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه عذاب السعير، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: قبُحَت فِراشًا وعذابًا، يضطجع عليه.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أنَّ على المؤمنين ألَّا يغترُّوا بظواهر الأحوال، وأن يجتهدوا في تمييز حقائق الناس.

وفيها: أنَّ القول المجرَّد ليس دالًّا على صِدق الشخص، حتى يصدِّق فعلُه قولَه.

وفيها: أهميَّة اختبارِ الشهود، والنظرِ في أفعال الأشخاص عند إرادة الحُكمِ عليهم أو تزكيتهم.

وفيها: خطورة مخالفة الظاهر للباطن.

وفيها: ذَمُّ النِّفاق، والجدل الكاذِب، والخُصُومة الفاجرة.

وفيها: عِلم الله عَزَّوَجَلَّ بما في الصدور.

وفيها: أنَّ المعاصي سببٌ لهلاك الزرع والبهائم؛ لأنَّ المُفسِد في الأرض يكون فسادُه سببًا لمنع المطر، فيموت الزرع، وتَهلك الدواب.

ويؤخَذ منها: أنَّ الذين يعتَدون على زُروع الناس اليومَ بالمركَّبات الكيماويَّة المُفسِدة وغيرها، ويتلاعَبون بخَلْق الله في النَّسل، ويغيِّرون في الجينات الوراثيَّة، ليولَد مَسْخٌ ضارٌّ في أكله واستعماله؛ هم في الحقيقة مُفسِدون في الأرض، داخلون في هذه الآية.

وفيها: التحذير من معانَدة الناصِحين، وخطورة التعالي على الحقِّ، وأن يركبَ الإنسانُ رأسَه؛ بغيًا وعُدوانًا.

وفيها: خطورة الولاة الظَّلَمة؛ لأنَّهم يسعَون في الإفساد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أُنْمُوذجًا للمُفسِدين؛ أعقبه بذِكر أُنموذج الذي يُضَحِّي بما عنده في سبيل الله لإصلاح الناس؛ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس ﴿مَن يَشۡرِي﴾ أي: يبيع ﴿نَفۡسَهُ﴾ وما يَمْلِك؛ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: لأجل ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: رضوانه.

وجاء في رواياتٍ يتقَّوى بعضُها ببعضٍ: أنَّ هذه الآية نزلت في صُهَيب بن سنان الرُّومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ أنَّه لـمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الهِجْرَةَ، مَنَعَته قُرَيشٌ أَنْ يُهَاجِرَ بِمَالِهِ، وقالوا له: يَا صهيبُ، قَدِمتَ إِلَيْنَا وَلا مَالَ لك، وَتَخْرُجُ أَنْتَ وَمَالُكَ! وَالله لا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا! فقال لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ مَالِي تُخَلُّون عَنِّي؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قال صهيب: «فدفعتُ إِلَيْهِمْ مَالِي، فخلَّوا عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى قدمتُ المَدِينَةَ».

فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ، وقالوا: «رَبح البَيْعُ»، وأخبروه أنَّ الله تعالى أنزلَ فيه هذه الآية.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت في كلِّ مجاهد في سبيل الله[١].

ولـمَّا اقتحم رجلٌ في صفوف العدُوِّ، وقاتلَ حتى قُتِلَ، قال بعضُ المسلمين: ألقى هذا بيدَيه إلى التهْلُكة، فكتب إليهم عمر: «ليس كما قالوا، هو من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾»[٢].

وصَحَّ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال في المراد بالآية: «هم المهاجرون والأنصار»[٣].

وقيل في معناها: ومَن يبع ويبذُل نفسَه في طاعة الله -من صلاةٍ، وصيامٍ، وجهادٍ، وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن مُنكَر-؛ صارت نفسُه كالسِّلْعة، وهو كالبائع، والله هو المشتَرِي، والثمن مرضات الله.

وقوله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: ذو رَأْفة بالغة، و(الرأفة): هي أرقُّ الرَّحمة وألطفها، على الوَجْه اللَّائِق بالله تعالى، وبكماله وجلاله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٤٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٤-٥٦٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٩).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٣٠).

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل مَن باع نفسه لله.

وفيها: المكانة العظيمة للإخلاص؛ كما في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: تقديم مرضات الله على النفس.

وفيها -مع الآيات التي قبلَها-: بلاغة القرآن، بذِكر المثاني والصُّوَر المتقابلة، كما في النوعَين المذكورَين.

ويصلُح أن يكون الصِّنفان المذكوران في الآيات مثلًا لطرَفَي القتال في المعركة، وهم: الكفَّار المفسِدون، ومَن يجاهدهم من المسلمينَ الذين باعوا أنفُسَهم لله تعالى.

وفي قِصَّة صُهَيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التضحية بالمال لأجل الهجرة في سبيل الله.

وأنَّ الكفَّار لا يدَعون المسلمين، حتى يتسلَّطوا عليهم وعلى أموالهم، وينهَبوا خيراتهم.

وأنَّهم يتركون المبادئ لأجل الأموال.

وشجاعة صُهَيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثَّناء على مَن أحسن عملَه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام، ويعملوا بكلِّ ما وردَ فيه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عقيدةً وقولًا وعملًا ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أي: تلبَّسوا بالإسلام، وادخلوا في طاعة الله ﴿كَآفَّةٗ﴾ أي: جميعًا، واعملوا بجميع أعمال الخير ووجوه البرِّ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: اجتنبوا ما يأمركم به الشَّيطان،

ولا يغُرَّنَّكم تزيينه ولا وَسْوَسته، في أخذِ بعض الدِّين وتَرْك بعضه، أو العمل بغير ما في دين الإسلام. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر العداوة لبني آدم، وللمؤمنين خصوصًا.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: انحرفتُم عن الحقِّ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: أتَتْ وظهرَت الدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات؛ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: قويٌّ، منيع الجَناب، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعِه وقَدَرِه.

وفي الآيتَين من الفوائد:

دخول العمل في الإيمان.

وفيها: وجوب تطبيق الشَّرْع، جملة وتفصيلًا.

وفيها: أنَّ للشيطان خُطُوات، يستدرج بها المؤمنين.

وفيها: وجوب عداوة مَن يجعله الله عدُوًّا.

وفيها: خطورة الانحراف بعد العِلْم وتبيُّن الحقِّ.

وفيها: أثر أسماء الله وصفاته -كـ«العزيز» و«الحكيم»- في خَوفِ المؤمن من ذنبه، ووجوبِ عودته إلى ربِّه.

وفيها: أنَّ النهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ بعد الأمر ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾؛ يدلُّ على أنَّ اتِّباع خُطُوات الشَّيطان يخالِف الدُّخول في الإسلام كافَّة.

وفيها: الرَّدُّ على مَن قال بتجزئة الدِّين، والعمل بما يختص بالشعائر التعبُّديَّة -كالصَّلاة والصيام والحج- أو الأحوال الشخصيَّة -كالميراث والنِّكاح والطلاق- فقط!! بل الواجب تنفيذ أحكام الإسلام جميعًا، وعدم التفريط في شيء منها.

وفيها: أنَّ العمل بجميع الإسلام يستلزِم مخالفة سبيل الشَّيطان.

وفيها: أنَّ الإيمان لا يتمُّ إلَّا بالدُّخول فيه ظاهرًا وباطنًا، باللِّسان والقَلْب والجوارح، وقد وصف الله بعضَ أهل الكُفر أنَّهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

وفيها: أنَّ عقوبة العالِم بالذنب، أعظمُ من عقوبة الجاهل به.

وفيها: أنَّ الإسلام يُغني عمَّا سواه.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾:

ثـم قال تعـالى، مهدِّدًا الكافريـن بمجيئه لفَصْل القضـاء بينَ العِباد يـوم القيامة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظـرون. والمقصـود: هـؤلاء المكذِّبون، الذيـن كفَروا من بعـد ما جاءتهم البيِّنـات، واتَّبعـوا خُطُوات الشَّـيطان. والاستِفهام للنفي، والمعنى: مـا ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يجيء بنفسـه عَزَّ وَجَلَّ، مجيئًا وإتيانًـا حقيقيًّا، يليق بجلاله وعَظَمته ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ أي: مع ظُلَل ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ وهو: السَّـحاب الأبيض الرقيق، فيكون تشـقُّق السماء بالغَمام مقدِّمةً لمجيء الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تأتي صفوفًا، كما قال الله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: فُـرِغَ من إهلاك هـؤلاء، والفَصْل بينَ الخلائق. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غـيره ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: تُـردُّ أمور الخلائق وشُـؤونهم؛ ليقضي بينهـم، ويجازِي كلًّا على عمله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وعيدُ الظالمين يومَ القيامة.

وفيهـا: إثباتُ إتيان الرَّبِّ تعالى بنفسـه يـومَ القيامة، ليقضي بينَ عبـاده. ومن هنا يُعرَف ضلال الذين حرَّفوا الكَلِم عن مواضعه؛ فقالوا في إتيان الله ومجيئه: إتيان أمرِه، ومجيء أمرِه!

وفيها: تخويف العِباد، بثَوران الغَمام العظيم من كلِّ جانب، مقدّمةً لمجيء الجبَّار تعالى.

وفيها: إثباتُ أنَّ الملائكة أجسامٌ تأتي، خلافًا لمن قال: أرواح بلا أجسام.

وفيهـا: أنَّ الأمور الشرعيَّة والكونيَّة مرجِعهـا إلى الله وحدَه؛ فلا يجوز أخذُ التشريع من غيره.

وفيها: إثبات أفعال الله، ومنها: الإتيان والمجيء.

وفيها: زوال سُلطان البشر يومَ القيامة؛ لأنَّ مرجِع الأمورِ كلِّها إلى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۢ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾:

قوله تعالى ﴿سَلۡ﴾ أي: اسأل يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويا أيُّها المؤمنون الذين يجاوِرون اليهود ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهم كلُّ مَن ينتمي إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ أي: أعطيناهم ﴿مِّنۡ ءَايَةِۢ بَيِّنَةٖ﴾: مُعجِزة واضحة، وحُجَّة قاطعة، تدُلُّ على قُدرة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وصدقِ نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم كفَروا وجحدوا وأعرَضوا.

﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: يجعل بدلها كُفرًا، مع أنَّ الواجب عليه أن يؤمن بها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ أي: وصلَت إليه وعرَفها؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي: جزاء مَن فعلَ ذلك هو العذاب الشديد. وسُمِّي (العقاب) عقابًا؛ لأنَّه يقع عَقِب الذنب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسلية النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُفر اليهود به؛ فقد أخبره الله تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء اليهود قد كفَروا بالآيات الكثيرة التي أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا غرابة أن يكفروا بك.

وفيها: تقريع اليهود وتوبيخهم.

وفيها: أنَّ معجِزات الأنبياء من نِعَم الله تعالى على عبادِه.

وفيها: وجوب مُقابَلة الآيات بالشُّكر -وهو الإيمان بها- والتحذير من مُقابَلتها بالكُفر، وأعظم نِعمة هي الإسلام، وكُفرها: رفض الدُّخول فيه، وأسوأ منه: الارتداد والخروج منه.

وفيها: مُقابَلة الله لمن كفرَ نِعْمَته بالعقوبة الشديدة.

وفيها: أنَّ نِعمة الدِّين أخطر من نِعمة الدُّنيا، والكُفر بها أشنع وأقبح.

وفيها: أنَّ الكُفر بعد المعرفة والعِلْم والاطِّلاع، أشنع وأقبح؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾.

وفيها: وجوبُ شُكر نِعْمَة الله تعالى علينا في هذا العصر، في التقنيات الحديثة، ووسائل

التواصل المختلفة، والتقدُّم التقَني الكبير -في شبكات الإنترنت وغيرها- باستخدامها فيما يُرضي الله تعالى، لا في معصيته، ولا في تضييع الأوقات.

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾:

قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: جُعِلَت لهم بهيَّة جميلة جذَّابة، فرَضُوا بها، واطمأنوا إليها، وانشغلوا بجَمْعها. والذي باشر التزيين هو الشَّيطان، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٢٤]، والذي قدَّره هو الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤].

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالإضافة إلى افتتانهم بالدُّنيا، فحالهم أيضًا هو: السُّخرية من المؤمنين؛ لفَقْرهم، أو لاشتغالهم بدِينهم وعمل الصالحات، فهم يضحكون من المؤمنين، ويتغامَزون إذا مرُّوا بهم، ويَصِفونهم بأنَّهم من الضالِّين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطفِّفين: ٢٩-٣٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي: اجتنبوا غضب الله، بالاشتغال بعمل الصالحات وعدم الانهماك في الدُّنيا ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مرتبةً ومنزلةً، حِسِّيًّا ومعنويًّا؛ لأنَّ المؤمنين في عِلِّيِّين والكفَّار في أسفل سافلين، ولأنَّ المؤمنين مكرَّمون، والكفَّار في العذاب يُهانون، يسخر منهم المؤمنون ويَضْحَكون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفِّفين: ٣٤-٣٦].

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: يُعطي في الدُّنيا المؤمن والكافر، وفي الآخرة يرزق المؤمنين جنَّات النعيم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يُعطِي في الدُّنيا بغير محاسَبة، ويُعطِي المؤمنين في الآخرة بلا تحديد ولا عدَد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من فِتنة الدُّنيا؛ حتى لا يركن إليها المؤمن.

وفيها: الصَّبر على أذى الكفَّار وسخريَّتهم، وأنَّ العِبرة بكمال النهاية؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾.

وفيها: تثبيت الله للمؤمنين، وتصبيرهم على أذى الكافرين.

وفيها: البِشارة للمؤمنين، بعُلُوِّهم في الآخرة على الكافرين.

وفيها: إثبات أفعال الله ومشيئته.

وفيها: رِزق الله الوفير، الذي لا يستطيع الحاسبون عدَّه.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى ضلال الكافرين بسبَبِ الدُّنيا؛ ذكر بعدَه كيف كان دِين الخَلْق قبل الانحراف والضلال؛ فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ من وقت آدم عَلَيهِ السَّلَامُ إلى نوح عَلَيهِ السَّلَامُ ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: متَّفقين على التوحيد والحقِّ، واختلفوا بعد ذلك، فوقع فيهم الكُفر والشِّرك.

وقد قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ من الحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ الله النَّبِيِّينَ والمُرسلينَ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً»(١).

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾: أرسلَ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنَّة مَن أطاعه ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مُخوِّفين بالنَّار مَن كفرَ بالله وعصاه.

وقد سمَّى الله تعالى منهم جملةً -عددهم خمسة وعشرون- ولله تعالى سِواهم كثيرون، لا يعرِف أسماءَهم ولا أعدادَهم ولا أزمانَهم ولا تفاصيلَ حياتِهم وقَصَصهم مع أقوامهم؛ إلَّا خالِقُهم ومرسِلُهم سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٨٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٨٥٤).

وقد وردَ تعدادُهم في أحاديث متكلَّم في أسانيدها؛ فنؤمِن بهم إيمانًا مُجملا[1].

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: مع كلِّ واحد من الرُّسُل كتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: ببيان الحقِّ، وهي حقٌّ من عند الله، وما جاء فيها من الشرائع فهو حقٌّ وصِدقٌ أيضًا.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، أو: كلُّ واحد من الأنبياء، أو: ليكون هذا الكتاب حاكمًا ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: في كلِّ صغيرة وكبيرة من أمور الدِّين والدُّنيا، وفيما اختلفوا فيه من الحقِّ، واختصَموا فيه من القضايا.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الحقِّ والدِّين والكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وهم: الأُمَم والناس الذين أُعْطُوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات والحُجَج الواضحات.

فاختلفوا في الله عَزَّوَجَلَّ: فمنهم مَن وحَّدَه، ومنهم مَن كفرَ به وأشرك.

واختلفوا في الكتاب: فمنهم مَن تمسَّك به، ومنهم مَن حرَّفه وبدَّله. واختلفوا في نبوَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمنهم مَن آمن به، ومنهم مَن كفرَ.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: لأجل البغي. و(البغي): هو العدوان. فكان الباعث على الاختلاف الحَسَد والعدوان، وإرادة تغلُّب كلِّ فريق على الآخر.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: وهذه هداية التوفيق، المسبوقة بهداية العِلْم والإرشاد ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: فهدَى الله الذين آمنوا للحقِّ، الذي حصل الاختلاف فيه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بمشيئته وإرادته.

ومن أمثلة هذا: الاختلاف في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث قالت اليهود: كان يهوديًّا، وقالت النصارى: بل كان نصرانيًّا. والحقُّ أنَّه كان مسلمًا حنيفًا.

والاختلاف في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حيث كذَّبت به اليهود، وجعلته النصارى إلهًا، وهدَى الله أهلَ الحقِّ إلى أنَّه رسولُ الله وكَلِمتُه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٩)، الجواب الصَّحيح (٢/ ٢٣١)، البداية والنِّهاية (٣/ ٨٩)، لوامع الأنوار البهيَّة للسَّفَّاريني (٢/ ٢٥٨، ٢٦٤).

والاختلاف في عيد الأسبوع، حيث اتخذ اليهود يومَ السبت، والنصارى يومَ الأحد، فهدَى الله أمَّة محمَّد ﷺ ليوم الجمعة؛ وقد قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِن بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ من الحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللهُ لَهُ -قَالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ- فَاليَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»[1].

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ هداية الدلالة، وهداية التوفيق ﴿مَن يَشَآءُ﴾: مَن يستحقُّ، تبَعًا لمشيئته وحِكمته وعِلْمه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: طريق الحقِّ.

وكان من دُعاء النبيِّ ﷺ في استفتاح قيام اللَّيل: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ من الحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ دين الإسلام هو الفِطرة، وهو الأصل في البشريَّة.

وفيها: أنَّ التبشير والإنذار من الحِكْمة في إرسال الرُّسُل.

وفيها: أن على الدُّعاة أن يجمعوا بينَ هاتَين الطريقتَين للنجاح في الدَّعوة: (الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار).

وفيها: أنَّ من الخطإ والضلال أن يُطلَق على دعاة النصارى مبشِّرين.

وفيها: أنَّ النبوَّة لا تُنال بالكَسْب.

وفيها: أنَّ الشرائع تنقسم إلى أوامر ونواهي؛ لأنَّ الإنذار هو عن الوقوع في المخالَفة، والبِشارة لمن امتثل وأطاع.

---

(١) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

وفيها: أنَّ الواجب: الرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة عند النـزاع.

وفيها: أنَّ العقل بلا وحي لا يكفي في الاهتداء إلى الحقِّ بتفاصيله.

وفيها: أنَّ الرُّجوع إلى الكتاب سبَبُ التآلُف والاجتماع.

وفيها: خطورة الانحراف والاختلاف بعد قيام الحُجَّة.

وفيها: أن المخالِف للحقِّ باغٍ وضالٌّ.

وفيها: أنَّ إصابة الحقِّ تتناسب طردًا مع قوَّة الإيمان.

وفيها: الثبات على الحقِّ والاستمرار عليه عند حصول الاختلاف، والتمسُّك بما كان عليه الأمرُ قبل وقوع الاختلاف.

وفيها: أنَّ الله يُيَسِّر معرفةَ الحقِّ واتِّباعه والثبات عليه، لِمَن شاء من عباده.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾:

ثم خاطب الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بسُنَّة قديمة جديدة، وطريقة له في عباده، يُمَحِّصُهم بها ويختبرهم، كما فعل بالمؤمنين قبلهم؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ﴾: بل ﴿حَسِبْتُمْ﴾ أي: ظنَنْتم ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بمجرَّد دَعْوى الإيمان، دون ابتلاء واختبار. ولذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي: لم يحدُث فيكم بعد، ولكنَّه متوقَّع حصوله، فارتقِبوه واستعِدُّوا له ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: سُنَّتنا وطريقتنا في الذين مضَوا من قبلكم، عندما ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: أصابتهم مباشرةً ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ من: الفقر، والخوف، والبلايا، والشدائد، والمِحَن ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ من: الأمراض، والأوجاع، والمصائب البدَنيَّة. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي: زُلْزِلَت قُلُوبهم بالخوف من عدُوِّهم، فاجتمعَت عليهم المصائب في النفس والمال والبدَن.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ من شِدَّة هَوْل ما نزل بهم من البلاء، تساءلوا: ﴿مَتَىٰ﴾ يأتينا ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي وُعِدْنا به؟!

﴿أَلَآ﴾ وهي أداة تنبيه؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ﴾ لأوليائه ﴿قَرِيبٞ﴾؛ فلا تستبعِدوه.

وقد نزل بالصَّحابة من الشِّـدَّة في مكة ما جعل بعضَهم يأتي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو الله لَنَا؟»(١).

ونـزل بالصَّحابة مـن الكُربات في حصار الأحزاب، حتى بلـغ الأمر كما قال الله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ثم جاء الله بالفرَج، وكَشَفَ غُمَّة العدُوِّ عن المدينة النبويَّة، ونصَر عباده المؤمنين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسلية المؤمنين في المِحْنَة، بما وقع لغيرهم قبلَهم.

وفيها: أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، لكنَّه صبر ومثابرة.

وفيها: أنَّ من حِكْمة الله في الابتلاء: أن تقام الحُجَّة، لبيان الصادِق من الكاذِب.

وفيها: أنَّه لا يجوز طلب النصر إلَّا من الله.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين عدم اليأس والاستعجال.

وفيها: أنَّ الصَّبر على البلاء في ذات الله من أسباب دخول الجنَّة.

وفيها: تبشير المؤمنين بالنصر، ولو بعد حين.

وفيها: أنَّ الجنَّة حُفَّت بالمكاره.

وفيها: أنَّ تنويع المصائب على العِباد، فيه مزيدٌ من اختبار إيمانهم في الأحوال والمقامات المختلفة.

وفيها: أنَّ بعض الأذى النفسيِّ أشدُّ من البدَنيِّ.

وفيها: أنَّ العاقبة الحسَنة بالنصر والتمكين، لا تكون إلَّا بعد الابتلاء والصَّبر.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

وفيها: أهميَّة مصاحبة أُولي العَزْم والدِّين.

وفيها: نُصْرَة الله لعبادِه من الأنبياء والمرسَلين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾:

وقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ في نفقة التطوُّع، قدْرًا وجنسًا.

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ﴾: من قليل المال أو كثيره؛ ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: فأجابَهم عن قَدْر النَّفقة ولِمَن تُعطى. فأخبرَهم أنَّها تُصرَف للوالدَين -وهما الأبوَانِ وإن علَوْا-.

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: جمع (أقرب)، وهو: مَن كان أدنى إليك من غيره، وهم أخصُّ من الأرحام، ويدخل فيهم: الأولاد، والإخْوَة، والأعمام، والعمَّات، ونحوهم.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَن مات أبوه ولم يبلُغ، ذكرَهم لصِغَرِهم وعَجْزِهم عن التكسُّب في الغالب.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمع (مسكين)، وهو: مَن أسكنه الفقر وأذلَّه.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو: الغريب المسافِر المنقطع، نبَّه عليه لأنَّه قد يحتاج ولا يُحِسُّ أحدٌ بحاجته -لِغُربته-.

ثم جاء الإجمال بعد التفصيل؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ﴾ مع هؤلاء أو غيرهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾: بنيَّاتكم، وبما أنفقتم وفعلتُم، فهو محفوظ عنده، فيجازيكم ويُثيبكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الصَّحابة على معرفة أوجُه البِرِّ والخير.

وفيها: فائدةٌ للمُفتِين، في الجُود بالعِلْم، بجواب السائل جوابًا أشملَ أو أهمَّ من سؤاله.

وفيها: فَضْل البَدْء في النَّفقة بالأقرب فالأقرب.

وفيها: الحثُّ على فِعْل الخير من أيِّ نوع كان، وألَّا يَحْقِر الإنسانُ شيئًا من فِعْل الخير مهما قَلَّ.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾:

ثـم أخبر تعالى المؤمنين بإيجاب الجهاد عليهم؛ لينشروا دينَه، ويكفُّوا شرَّ الأعداء؛ فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرِض ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾ لأعداء الله الكفَّار ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ أي تكرَهُه النفس بطبيعتها البشريَّة؛ لِـما فيه من المشقَّة والخوف، وخَطَر تلف الجسد أو بعضه، وذهاب المال.

قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجهاد واجب على كلِّ أحدٍ، غزا أو قعد، القاعد علَيهِ إذا استُعين أن يُعين، وإذا استُغِيث أن يُغيث، وإذا استُنفِر أن ينفر، وإن لم يُحتج إليه قعد»(١).

ولهذا ثبتَ في الحديث: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ من نِفَاقٍ»(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»(٣).

قوله ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ أي: «وقد». ويمكن أن تكون (عسى) هنا للتوقُّع والترجية؛ فيرجو المسلِم الخير في الشيء الذي شرَعَه له ربُّه. ﴿أَن تَكۡرَهُواْ﴾ بطبيعة النفس، وليس كراهية حُكم الله ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الأمور المشروعة أو المباحة، ومن الأمور التعبُّديَّة أو العاديَّة ﴿وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: في عاقبته الحميدة ونتيجته الجميلة، في الدُّنيا والآخرة. وقد فسرتها الآية الأخرى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وفي الجهاد الذي تكرَهُه النفس نيلُ إحدى الحُسْنيَيْن: إمَّا النصر والغنيمة، وإمَّا الشَّهادة والجنَّة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا﴾ كالقعود عن الغزو، وغير ذلك من سائر الأمور ﴿وَهُوَ شَرّٞ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٣).
(٢) رواه مسلم (١٩١٠).
(٣) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

﴿لَكُمْ﴾ بما يترتَّب عليه من المفاسد والشرِّ، كاستيلاء العدُوِّ على بلاد المسلمين، وإلباسهم الذُّلَّ والفقر نتيجة القعود عن الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ عواقب الأمور، وما فيه صلاحكم، في دُنياكم وأخراكم. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ما هو الخير لكم، وما هو الشرُّ لكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الجهاد تكرهه النفوس لمشقَّته، ولكنَّ المؤمنين الصادِقين يُحِبُّونه؛ لِـما فيه من الفضل العظيم، وتقديم رضا الرَّبِّ على التعلُّق بالنفس والمال.

وفيها: أنَّ النفس البشريَّة تكره القتال؛ لِـما فيه من المخاطر والآلام، ولكن نفوس المؤمنين راضيةٌ بالحُكم الشرعيِّ الذي أوجبَه الله؛ فنفس المؤمن -وإن كَرِهت مشاقَّ الجهاد-؛ فإنَّها لا تكرَه حُكمه أبدًا.

وفيها: الرِّضا بما جرت به المقادير، ورُبَّما كَرِهَ الإنسان حدوث شيء من قضاء الله، ويكون له فيه خير عظيم.

وفيها: الرِّضا بأقدار الله تعالى، سواء كانت خيرًا أم شرًّا، ساءَتْنا أم سرَّتْنا.

وفيها: أنَّ البشر لا يعلمون الغَيب.

وفيها: أدب العبد مع الله تعالى، بألَّا يقترح على الله تعالى ما لا يعلمه؛ بل يقول -كما في دعاء الاستخارة-: «وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»، وذلك بعد اعترافِه بعَجْزِه في قوله: «فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ»[1].

ويؤخَذ من الآية: عدم الخجل أمام الآخَرين من الإقرار بما حَكَمَ الله به، كالجهاد في سبيله، فلا يجوز إنكاره، وإنَّما يُقَرُّ بفرضيَّته، ويبيَّن لغير المسلمين: متى يكون الجهاد؟ وما هو الهدف منه؟ وما هي شروطه؟ ونبذة من أحكامه.

وفيها: أنَّه يجب اعتقاد أنَّ كلَّ تشريع لله فيه الخير والصلاح.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الناس -ومنهم أصحاب محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ المراد به: الأشهر الحُرُم الأربعة، وهي: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن حُكم القتال فيه ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: وِزره عظيم، وهو كبيرة من الكبائر.

ولكن هناك ما هو أعظم منه وأخطر، بيَّنه تعالى في الرَّدِّ على الكفَّار؛ فقال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدُّ المشركين أنفُسَهم وغيرَهم عن سبيل الله، وطريقِه المُوصِل إليه، وهي شريعته التي أنزل. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: كُفر بالمسجد الحرام، بعدم احترامه وتعظيمه، عندما أشركوا بالله فيه، وكذلك صدُّهم المسلمينَ عن المسجد الحرام، ومنعُهم من دخوله. ولذا قال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم: النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمهاجرون. ﴿مِنْهُ﴾ أي: من المسجد الحرام، بسبَبِ الإيذاء والتضييق والاضطهاد.

كلُّ ما تَقدَّم من الجرائم ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعظم إثمًا وجُرمًا من القتال في الشهر الحرام.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ وهي: الشِّرك، وفِتنة المؤمنين عن دِينهم وإيذاؤهم، والصدُّ عن سبيل الله ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وِزرًا ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: من قَتْل المؤمنين للمشرِكين في الشهر الحرام.

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية: عن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَهْطًا، وبعثَ عليهم عبدَ الله بنَ جَحْشٍ، وكتبَ له كتابًا، وأمرَه ألَّا يقرأ الكتاب حتى يبلغَ كذا وكذا، ولا تُكرِهَنَّ أحدًا من أصحابِكَ على السير معك. فلمَّا قرأ عبدُ

الله الكتابَ استرجعَ، وقال: سمعًا وطاعة لأمر الله ورسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجعَ رجلان، ومضى بقيَّتهم. فلقُوا ابنَ الحَضْرَميِّ، فقتلُوه، ولم يَدْروا ذلك اليومَ من رجب أو من جُمَادى. فقال المشركون للمسلمين: فعلتُم كذا وكذا في الشهر الحرام؟! فأتَوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحَدَّثوه الحديث؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا خلاف بينَ أهل التأويل جميعًا أنَّ هذه الآية نزلَت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبَب قَتْل ابن الحَضْرَمِيِّ وقاتله»[1].

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أي: المشرِكون ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: يجتهدون في حَرْبكم، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾: يُرجِعُوكم عنه إلى الكُفر، ويُعيدُوكم إلى دِينهم الباطل ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: إن قَدَروا. ولن يستطيعوا ذلك مع أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد بيَّن عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى أنَّهم لن يستطيعوا صَرْفَ جميع المؤمنين عن دِينهم؛ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع من الإسلام إلى الكُفر، ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: على رِدَّتِه، لم يرجع إلى الإسلام؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المُصِرُّون على الكُفر ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: بطلَت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحة التي عمِلوها ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ حيث تذهب آثارُ طاعتهم، مثل: انشراح الصدر، ونور الوجه، والبرَكة في الرِّزق، وتيسير الأمور، والمحبَّة في قُلُوب الخَلْق، ويستحقُّون- مع ذلك- القَتْل، ولا يرِثون ولا يُوْرَثون، ولا يغسَّلون ولا يُكفَّنون، ولا يُدفَنون مع المسلمين.

وتحبَط أعمالُهم في الآخرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، وحُبوطها بضياعها، وذهاب أجرها وثوابها؛ لأنَّهم لقوا الله على الكُفر.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها الملازِمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: مُقيمون، لا يخرجون منها، ولا يموتون.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٠٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجِع الصَّحابة في العِلْم؛ لقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

وفيها: اهتِمام الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالسُّؤال عن أمور الدِّين.

وفيها: أنَّ القتال في الشهر الحرام من كبائر الذُّنوب. وأكثر العلماء على أنَّ هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وأنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل ثَقيفًا في شهر ذي القَعدة، وكانت غزوة تبوك في رجب، وكلاهما من الأشهر الحُرم.

وقد اتفق العلماء على أنَّ الكفَّار لو بدأوا القتال في الشهر الحرام؛ قاتلناهم فيه، ولو بدأ المسلمون القتالَ في غير الأشهر الحُرُم، ثم امتدَّ القتال إلى الأشهر الحُرُم؛ واصلَ المسلمون القتال بلا حرج.

وفي الآية: أنَّ الله يختصُّ ما يشاء من الزمان بفضائل وأحكام.

وفيها: تقسيم الذُّنوب إلى كبائر وصغائر.

وفيها: أنَّ الصدَّ عن سبيل الله وفِتنة عباد الله؛ أعظم من القتال في الأشهر الحُرُم، ومن الصدِّ عن سبيل الله: مَنْع الناس من أداء عبادةٍ ما بالقوَّة، أو إلهاؤهم وإشغالهم عنها -كما يحدث اليومَ في وسائل الإعلام المُفسِدة-.

وفيها: تولِّي الله عَزَّوَجَلَّ الرَّدَّ على شُبُهات الكفَّار، وهذا من نَصْره لعباده المؤمنين.

وفيها: أنَّ تفويت الدُّنيا على الناس بالقَتْل، أهون من تفويت الدِّين عليهم بالفِتنة.

وفيها: بيان حِرْص المشرِكين على ارتداد المؤمنين؛ فلذلك يجتهدون في غزو عقولهم وبلادهم.

وفيها: وجوب الحذَر من الكفَّار.

وفيها: أنَّ الرِّدَّة مُبطلة للأعمال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾:

سبَب نزول هذه الآية:

عن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَهْطًا، وبعثَ عليهم عبدَ الله بنَ جَحْشٍ، في قصَّة تقدَّمت في الآية السابقة، وفيها: أنَّهم قتلُوا ابنَ الحَضْرَميِّ، ولم يَدْروا ذلك اليومَ من رجب أو من جُمَادى؛ فقال المشرِكون للمسلمين: فعلتُم كذا وكذا في الشهر الحرام؟!، وقال بعضُهم: إن لم يكونوا أصابُوا وِزرًا فليس لهم أَجْرٌ؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية[1].

قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صدَّقوا بالله وعملوا الصالحات، ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾: فارقوا وطنَهم في بلد الكُفر إلى بلد الإسلام، لإقامة دين الله، وكذلك هجروا ما نهى الله عنه، ﴿وَجَٰهَدُواْ ﴾: بذلوا الجهد في قتال المشرِكين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المتَّصِفون بهذه الصِّفات. و(أولئك): اسم إشارة للبعيد، وفيه التنويه بفَضْلِهم، وعُلُوِّ هِمَّتهم ومنزِلَتِهم. ﴿يَرۡجُونَ ﴾ (الرجاء): هو الطمع في حصول ما هو قريب ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يطمعون في نيلها. وجنَّته من آثار رحمته.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ ﴾ لهم، إن كان حصل منهم تفريطٌ، أو تقصيرٌ. ﴿رَّحِيمٞ ﴾ بهم، يُجْزِل لهم الأجر والثواب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الأعمال الثلاثة، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد.

وفيها: تعزيةٌ للمُحْسِنين -وإن أخطأوا- بالثَّناء على ما فعَلوه.

وفيها: تثبيت نفوس المؤمنين، بالدِّفاع عنهم في مواجَهة هجماتِ الكفَّار وحَرْبِهم النفسيَّة.

وفيها: أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يَجْزِم بقَبول عمله؛ بل يكون راجيًا لرحمة ربِّه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٨٨).

وفيها: عدم الاغترار بالأعمال.

وفيها: حُسن الظنِّ بالله.

وفيها: فَضْل الله العظيم، بتوفيق عباده الصالحين، بأن بيَّن لهم ما هو العمل الصالح، ثم أقدَرَهم عليه، ثم أعطاهم عليه ثوابًا مُضاعَفًا.

وفيها: بيان نجاح المسلمين في أول عمل جهاديٍّ قاموا به؛ فسريَّة عبدِ الله بنِ جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُعَدُّ أول لواءٍ عُقِدَ في الإسلام، وغنيمتهم أولَ مغنم قُسِّم في الإسلام.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى من مصارف الإنفاق في الطاعات: الإنفاقَ على الأقارب في الجهاد وغير ذلك؛ ذكر حُكمَ بعضِ ما تُنفَق فيه الأموال في المحرَّمات؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الناس -ومنهم أصحاب محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ أي: عن حُكم تناوله وتعاطيه. و(الخمر): كلُّ ما أسكرَ وغطَّى العقل، على وجه اللَّذَّة والطرَب. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هو: كلُّ لَعِب، فيه مخاطرة بينَ رِبْح وخسارة.

وقد ورَدَ في سبَب نزول هذه الآية: عن عمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»؛ فنزلت الآيةُ التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1].

﴿قُلْ﴾ جوابًا لمن سأل: ﴿فِيهِمَآ﴾ أي: في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ضَرر عظيم كثير؛ لِـما يحصل بسببِهما من العداوةِ والبغضاءِ، وإتلافِ المال، وسَلْبِ العقل، وصدٍّ عن ذِكر الله وعن الصَّلاة، وسَلْبِ أموال الآخرين.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقولـه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: مصالـح، كأرباح التجارة، وإصابة المـال بلا تَعَب، وحَمل البخيل على الكَرَم، واللَّذَّة والطرَب، والدِّفء في البَرْد.

ولكـنَّ كلَّ هذه المصالـح مغمورةٌ في أضرارهما العظيمـة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي: المفاسد والعقوبات في الدُّنيا والآخرة؛ أكبر ممَّا يحصل من بعض المصالح.

وفي الآية: حِكْمة الشـارع في التدرُّج بالتشريع؛ فإنَّه أنزل في الخمر آية تُبيحه وتغمِز فيه؛ وهـي قولـه تعـالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ثـم أنزل آية تُنفِّـر منه؛ ليمتنع عنه أصحاب العقول السـليمة؛ وهي قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، ثـم أنـزلَ آية تمنعه في وقـتٍ دون وقت؛ وهـي قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزلَ آية تحرِّمه تحريمًا قطعيًّا؛ وهي آية المائدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ وهـذا هـو السـؤال الثـاني في الآيـات: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: أيّ شيءٍ يُنفِقون من أموالهم فيتصدَّقون به؟ يعني: ما مقدارُ ما يُنفِقون من أموالهم؟

﴿قُلِ﴾ يـا محمَّد ﷺ، في الجواب: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ أي: أنفِقـوا العفْو، وهو: ما زاد عن حاجة الإنسان ونفقاته الواجبة. و(العفو) أيضًا: ما سَهُل وتيسَّر ولم يشُقَّ على النفس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان والإظهار ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالَّة على الأحكام الشرعيَّـة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لكـي تتأمَّلـوا ﴿فِى﴾ شُـؤون وأحـوال ﴿ٱلدُّنْيَا﴾؛ فتعرِفوا أنَّها فانية، فتزهَدوا فيها. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ فتعرِفوا أنَّها باقية، فتُقبِلوا عليها. وتتفكَّروا أيضًا في أحكام شريعته، وما فيها من الأسرار العظيمة.

وفيهـا: أنَّـه لا يجوز التقتيرُ عـلى الأهل، ومَنعُهـم النَّفقةَ من أجل الصَّدَقـة، فإذا تعلَّقت حاجةُ الأهل بالمال؛ فلا يجوز الصَّدقةُ به.

ثم قال تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾:

وسبَب نـزول هذه الآيـة: ما جاء عن ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لـمَّا نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ عزَلُوا أموال اليتامى، حتى جعل الطعامُ يَفْسُد،

واللَّحم ينتِن؛ فذُكِر ذلك للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾، قال: فخالَطوهم»(١).

قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هذا هو السؤال الثالث في الآيات. وكانوا في الجاهليَّة يعتَدون على مال اليتيم، وربما تزوَّجوا باليتيمة طمعًا في مالها، فلـمَّا حذَّرهم الله من ذلك؛ عزَلوا مالَ اليتيم وطعامَه، فشقَّ ذلك عليهم، وسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فجاب الجواب: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: عَزْلُ أموال الأيتام، أو إصلاحُ أموالهم واستثمارها من غير مُقابِل، مع رعايتهم وتربيتهم دون مُقابِل؛ خيرٌ وأعظمُ أجرًا.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ في الطعام، والسَّكن، والمركَب، والنَّفقة؛ ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم؛ لأنَّ الإخوان يُعِين بعضهم بعضًا، وهم ليسوا أجانب منكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ أي: الخائن، الذي يريد بالمخالطة الاستيلاءَ على مال اليتيم وأخذَ أكثره. ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ الذي يَقصِد الإصلاحَ، وتلافي الحرَج والضيق والمشقَّة. فيُجازِي كلًّا على حَسَب قَصْده.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لأوقَعكم في الحرَج والمشقَّة، وشدَّد عليكم بتحريم المخالَطة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: منيع الجانب، لا يُغلَب ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعِه وقدَرِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإحسان لليتيم، وابتغاء الأصلح له، ورعايته ورعاية ماله.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير.

وفيها: أثر النِّـيَّة الحسَنَة والسيِّئة في الحُكم على العمل.

وفيها: التنبيه على ما يجمع اليتيم مع بقيَّة المسلمين، من رباط الأُخُوَّة الإيمانيَّة.

وفيها: بيان رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ في تجنيبِ عباده المشقَّة والحَرَج، ورفعِها عنهم.

وفيها: تحرُّج الصَّحابة من أموال اليتامى، وهذا دليلٌ على ورَعِهم، وصِدقِ إيمانهم، وخوفِهم من الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد (٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

وفيها: أنَّ مَن قصَد الإحسان في مال اليتيم؛ فلا يُلام.

وفيها: معاملة اليتيم معاملة الإخوان، والتحذير من إفساد أموالِهم والغِشِّ في مصالحهم، وتذكير القائمين على اليتامى بعِزَّة الله، وأنَّه يَقْهَر ويَغْلِب؛ حتى لا يقهروا الأيتام ولا يَغْلِبوهم على أموالهم.

وفيها: أهميَّة تربية اليتيم، وتخليقه بالأخلاق الحسَنَة، وتأديبه بالآداب الشرعيَّة، وأمره بواجبات الدِّين، ودَرْء المفاسد عنه، وموعظته، وتأهيله للكَسْب الحلال.

وفيها: أنَّ مخالطة الإخوان في الله، وإشراكهم في النَّفقة؛ مبنيٌّ على المسامَحة.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾:

ثم قال تعالى، محذِّرا من زواج المشركات: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ أي: ولا تتزوَّجوا وتَعْقِدوا النِّكاح -أيُّها المؤمنون- على ﴿ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ وهُنَّ: كلُّ مَن جعلَتْ مع الله شريكًا. ويُستثنى من هذا الحُكم: الكتابيَّات، الحرائر، العفيفات -مع كونهنَّ مُشرِكات-؛ فقد خُصِّص هذا الحُكمُ العامُّ بآية أخرى من كتاب الله، في إباحة نساء أهل الكتاب؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ [المائدة: ٥]؛ فجعل لهنَّ حُكمًا خاصًا في النِّكاح.

ونهى الله تعالى عن نكاح بقيَّة المشركات، ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ﴾ أي: يدخُلنَ في دِين الله، ويُصْبِحنَ من الموَحِّدات المسلِمات.

﴿وَلَأَمَةٞ﴾ أي: مملوكة ﴿مُّؤۡمِنَةٌ﴾ بالله ورسوله؛ فالزواج منها ﴿خَيۡرٞ﴾ أي: أفضل، وأنفع، وأصلح ﴿مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾ بالله، ولو كانت حُرَّة، ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾: لجمالها، أو حَسَبها، أو مالها، أو ذكائها، ونحو ذلك.

وقوله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: خطابٌ لأولياء النِّساء، بألَّا يُزَوِّجوا نساءَهم المؤمناتِ من الكفَّار والمشركين، ولو كانوا من أهل الكتاب، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ بالله.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ من الأرِّقاء المملوكين ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أصلَح لكم، وأفضل عند الله من تزويج المسلماتِ، ﴿مِّن مُّشْرِكٍ﴾ بالله، ولو كان حرّا ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: لحَسَبه، أو ماله، أو جاهه، أو غير ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفَّار والمشركين ﴿يَدْعُونَ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿إِلَى﴾ الشِّرك والكُفر، المؤدِّي إلى دخول ﴿ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة، فيتسلَّط على المسلِمة، ويحملها على الكُفر، فيؤدِّي بها إلى النَّار.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ العِباد ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: بتعريفِهم الأعمالَ الصالحة، وحثِّهم عليها، ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾: بدعوتهم إلى التوبة؛ ليغفر لهم ذُنوبهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتوفيقه ومشيئته وكرَمه. ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾: يُوَضِّح لهم الحُججَ والبراهين، في أحكامه وتشريعه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتَّعِظون ويعملون بها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ خير الدِّين مُقدَّم على خير الدُّنيا.

وفيها: حِكْمة الشريعة في التفريق بينَ جعل المسلِمة تحت المشرِك؛ لئلَّا يُجْبِرها على الكُفر، وبيان إباحة زواج المسلِم من الكتابيَّة الحرَّة العفيفة؛ لأنَّه الطرَف الأقوى.

وفيها: أنَّ الأَمَة المؤمنة خيرٌ من الحرَّة المشرِكة؛ لأنَّ المشرِكة تؤثِّر على أولاد المسلِم بالكُفر، وقد تفتِنه هو عن دِينه.

وفيها: أنَّ الزوج هو وليُّ نفسه، فلا يحتاج إلى وليٍّ؛ لأنَّه وجَّه الخِطاب إليه بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾.

وفيها: عدم الاغترار بالظاهر والصورَة والاعتبارات الدُّنيويَّة؛ بل ينبغي الرُّجوع إلى الحقائق الشرعيَّة، وأنَّ التفضيل والاختيار يكون بناءً عليها.

وفيها: الرَّدُّ على مَن يُنادِي بالمساواةِ بينَ أتباع الأديان، وإعطاءِ جميع السُّكَّان في البلد الواحد حقوقًا متساوية؛ لأنَّ الله فاوتَ بينهم، ولا يستوي عنده الكُفر والإسلام.

وفيها: أنَّ التعمُّق في دراسة الأحكام الشرعيَّة يقود إلى زيادة الإيمان والالتزام به.

وفيها: أنَّ الكفَّار لا يتوانَون عن الدَّعوةِ إلى كُفرهم، وجَذْبِ الناس إليهم، وحمِلِهم عليه بكلِّ وسيلة، كما تفعله اليومَ الكنائسُ بإمكاناتها الهائلة.

وفيها: أنَّ الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا، ولا يُجيز أن يتسلَّط الرجل الكافر -وهو الأقوى طرَفًا- على الزوجة المسلِمة -وهي الأضعف-.

وفيها: خَطْر جعلِ المسلِم أو المسلِمة تحت سلطان أو إدارة أو نفوذ كافر أو كافرة، والحذَر من مخالطة المشرِكين بدون مصلحة شرعيَّة راجحة.

وفيها: أنَّ أولياء المرأة هم الذين يُزَوِّجونها، وأنَّها لا تُزوِّج نفسها.

وفيها: أنَّ مسئوليَّة الأولياء خطيرة وعظيمة.

وفيها: أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته -وجودًا وعدمًا-؛ فحُكم غير المؤمن يتغيَّر إذا آمن.

وفيها: إرادة الله الخيرَ لعباده.

وفيها: التثريب على الذين يغترُّون بالمظاهر، دون اعتبار الحقائق.

وفيها: عَقد المقارنة بينَ الأضداد؛ ليزدادَ الأمر وضوحًا.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾:

جاء في سبَب نزول الآية: ما رواه مسلِم[1]، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ اليَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ المَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي البُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) صحيح مسلم (٣٠٢).

النَّبِـيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِـيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّـكَاحَ».

فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ من أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ!

وقولـه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: أصحابـك، أو الناس، أو المسـلمون ﴿عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: عن إتيان النِّساء في مكان الحَيض: أيحِلُّ ذلك أم يحرُم؟ وكان أهل الجاهليَّة يُشابهون اليهود في نَبْذ المرأة إذا حاضت، وكانت النصارى يطأون نساءَهم ولا يبالون بالحَيض.

فقـال تعـالى: ﴿قُلْ﴾ يـا محمَّـد ﷺ، في جـواب السـؤال: ﴿هُوَ أَذًى﴾ أي: قذِرٌ، ضـارٌّ بالزوج والزوجـة، ولذلك أمر الله عبادَه بـتَرْك وَطء الحائض؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: اجتنِبوا جِماعهنَّ ﴿فِى ٱلْمَحِـيضِ﴾ أي: في مكان الحَيض، وهو الفَرْج. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ أي: لا تقربـوا جِماعهنَّ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطـع الدم. وعلامة الطُّهْر: نـزول السائل الأبيض، أو الجفاف التامّ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسـلنَ من بعد الحيض؛ ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ أي: جامِعوهنَّ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في موضع خروج الدم، وهو القُبُل، لا الدُّبُر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ مـن الذُّنـوب والآثـام، التارِكين لهـا بالنَّـدَم، العازِمين على عدم العَوْد، ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ من الأحداث والنجاسـات الحِسِّيَّة، والمتنزِّهين عن المعاصي والفواحش، الجامِعين بينَ طهارة الباطن والظاهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وسَطيَّة هذه الشريعة، بينَ إفراط اليهود، وتفريط النصارى.

وفيهـا: جواز الاسـتمتاع بالمرأة الحائض (من زوجة وأَمَة)، فيما عـدا الفَرْج، وهذا قولُ أكثر العلماء؛ كما في الحديث المتقدِّم: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّـكَاحَ»[١]، وكما صحَّ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «له كلُّ شي إلَّا فَرْجها»[٢].

(١) مسلم (٣٠٢).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٨).

وقـال بعضُهـم: يجب تغطية ما حول مـكان خروج الدم أيضًا -بـإزار ونحوه- إذا أراد الاستمتاع بها؛ لقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَكَ مَا فَوْقَ الإِزَارِ»(١)؛ لئلاَّ تؤدِّي مباشرتهُا إلى الوقوع في المحظور -وهو الوَطء في الفَرْج-.

وفَهِـمَ بعضُ العلماء من قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾: تَرْكَ مباشرة الحائض فيما بينَ السُّرَّة والرُّكبة؛ خشية الوقوع في المحظور المؤكَّد -وهو إتيانها في مكان خروج الدم-.

وفي الآية: تحريم وَطء الحائض، وأنَّ مَن فعل ذلك فعليه التوبة.

وقال بعض العلمـاء: علـيه أن يتصـدَّق بدينارٍ إذا أتاها في فَورة الدم، أو نصف دينار إذا أتاها في آخرِه وقبل الغُسْل. وقد ورد في الباب حديثٌ مرفوع، وصحَّحه بعض العلماء(٢).

وقال آخرون من أهل العِلْم: ليس عليه إلَّا التوبة. ولم يصحِّحوا الحديث.

وفيها: أنَّ المرأة إذا انقطع حَيضها؛ لا يَحِلُّ وَطؤها حتى تغتسل بالماء، أو تتيمَّم عند تعذُّر الاغتسال.

وفيها: حِرْص الصَّحابة على السـؤال عن العِلْم، وعدم الاستحياء من السؤال عمَّا لا بُدَّ من معرفته.

وفيها: ذِكْر عِلَّة الحُكم؛ لتتهيَّأ النفوس لقَبوله.

وفيها: رحمة الله بالمرأة والرجل؛ لأنَّ إتيانها في الحَيض مؤذٍ لها ومُضِرٌّ به.

وفيها: أنَّ الله يُحِبُّ طهارة الباطن والظاهر.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٢٣﴾:

قولـه تعـالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: مزرعـة لأولادكم، فشَّـبه محلَّ الـوَطء بالأرض، والواطـئَ بالزارع، وماءَه بالحَـبِّ؛ فكما ينمو الزرعُ بالبذر والحرث والسُّـقيا؛ فكذلك ينمو ولدُ الواطئ.

(١) رواه أبو داود (٢١٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٤)، والترمذي (١٣٦)، والنسائي (٢٨٩)، وابن ماجه (٦٤٠)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٩٧).

﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: مـن أيِّ جهـة كان الواطئ، فلا حـرج عليه أن يأتي المرأة في الفَـرْج ومكان الولد، سـواءً كان الواطئ خلـف المرأة، أو أمامها، أو عـن جَنْبها. وأمَّا الـوَطء والإيلاج في فَتْحة الدُّبُر -مـكانَ خروج الغائط-؛ فقد وردَ في النصوص الشرعيَّة النهـيُ عنـه، ولَعْنُ مَن فعلَه، وأنَّ الله لا ينظر إليه، وهو مـن الكُفر الأصغر، وهو اللُّوطيَّة الصغـرى[1]؛ فهو عُـدوان وحرام، ويُنافي الحيـاء. وقيل: إنَّ ذلـك كان أولَ انحرافِ قوم لُوط.

وقـد وردَ في سـبَب نزول هذه الآيـة: عن جابر بن عبـد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَـتِ اليَهُودُ تَقُـولُ: إِذَا جَامَعَهَا من وَرَائِهَا[2]؛ جَاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ! فَنَزَلَـتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»[3]؛ فأبطل الله عَزَّ وَجَلَّ قولَ اليهود هذا.

وورَدَ في سـبَب نـزول الآية أيضًا: عن ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَلَكْتُ! قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟»، قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ[4]! قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَـيْئًا، قَالَ: فَأُوحِيَ إِلَى رَسُـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، «أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ»[5].

وقوله تعالى ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدِّموا إلى الآخرة الطاعاتِ والأعمالَ الصالحة، ولا تنشـغلوا بالنِّسـاء عنها، وليكُن لكم أيضًا في إتيان نسـائكم عملٌ صالح تتَّخذونَه للآخرة، وذلك بالنِّـيَّة الصالحة في الوَطء، من إعفافِ النفس، وإعفافِ الزوجة، ووَضْعِ الشـهوة في الحـلال، وقَبـول ما أباحه الله، وابتغـاءِ الولد من هذا الوَطء؛ لعلَّـه أن يكون صالحًا، ونحو ذلك من النيَّات الحسَنة.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾: بفِعْـل أوامره، واجتناب نواهيه، ومن هـذه النواهي: وَطء مَن لا تَحِلُّ،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٢)، بلوغ المرام (ص٣٠٩)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٢٤-٢٤٣٤).

(٢) يعني: من الخلف في الفَرْج.

(٣) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).

(٤) وهـذا أدب لطيـف، وكلام عفيـف، يريد منه الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه جامع امرأته في الفَـرْج، لكن كان من ورائها، فلأدبه ومراعاة مقام النُّبُوَّة استعمل هذه العبارة.

(٥) رواه الترمذي (٢٩٨٠)، وحسَّنه الألباني في آداب الزفاف (ص١٠٣).

والـوَطء في الحَيْضـة والدُّبُـر، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي: يـومَ القيامـة بعـد البَعْـث؛ فاستَعِدُّوا لهذا اللِّقاء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أخْبِرهُـم بما يسُّرهم، من الفوز العظيم، وجنَّات النعيم، إذا اتقَوا ربَّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُعاشرة الزوجة بالمعروف.

وفيها: الإشارة إلى الحثِّ على تكثير النَّسْل؛ لأنَّ الزارع يزرع أكبر ما يمكن من الأرض. ودعوة تحديد النَّسْل من دسائس أعداء الإسلام، ومن خُبث نواياهم.

وفيها: أنَّ العادات والمباحات تنقَلِب بالنِّـيَّة الطيِّبة إلى عبادات.

وفيها: أنَّ الإنسان مع الشهوة يبتغي ما فيه الحِكْمة والفائدة.

وفيهـا: أنَّه ينبغي على الزوج أن يحافظ على صِحَّة زوجته، وتقوية قُدرتها على الإنجاب، كما أنَّ صاحب الأرض يحافظ على حَرْثه ويتعاهَدُه.

وفيهـا: اجتناب المـرأة في الموضع الذي حرَّمـه الله، والأحوال التـي حرَّمها الله -كحال صيام الفريضة، والإحرام، والاعتكاف، والحَيض والنِّفاس-.

وفيها: الإشارة إلى ذِكر الله عند الجِماع؛ لقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾.

وفيها: تقوى الله في الأهل.

وفيها: وَعْظ المخالفين لأمر الله، بأنَّهم سيُلاقونه.

وفيها: فضيلة الإيمان؛ لأنَّ الله تعالى علَّق البُشرى عليه.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾﴾:

قولـه تعـالى ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي: لا تجعلـوا الحَلِف بـالله مانعًا

وحاجزًا لكم عن عمل الطاعات، وأن ﴿تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فلو حلف ألَّا يصنع خيرًا، أو ألَّا يَصِلَ رَحِمًا، أو ألَّا يدخُل بينَ اثنين في الصُّلْح؛ فإنَّ عليه أن يأتي الخير، ويُكَفِّر عن يمينه، كما قال ﷺ: «إِنِّي واللهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا»[(١)]؛ أي: جعلتُها حلالاً بالكفَّارة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع كلَّ شيء، وما تتلفَّظون به من الأيمان ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء، وبنيَّاتكم، وأحوالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِفظ اليمين، وعدم الإكثار من الحَلِف بالله؛ لأنَّه جُرأة على الله، ويدلُّ على قِلَّة التَّقوى، ويُعَرِّض الإنسان نفسَه فيه إلى مخالفة يمينه. ومن يُكثِر من الأيمان قلَّما يُخرِج الكفَّارة إذا حنث. ومَن أكثرَ الحَلِفَ في كلِّ حقٍّ وباطل، وعظيم وتافِه؛ ذهبَت هيبةُ اليمين من نفسه، فينتهكها لأدنى سبَبٍ -شعرَ أم لم يشعر- وهذا من أسباب ذهابِ تقوى الله من القَلْب، وقِلَّةِ فِعْل البرِّ.

وفيها: أنَّ مَن حلف على تَرْك واجب أوفِعْل محرَّم؛ فلا يجوز له العمل بمقتَضى يمينه.

وفيها: أنَّ التمادي في الباطل، والإصرارَ على الخطإ، بحُجَّة اليمين التي حلفَها؛ أشدُّ إثـمًا من مخالَفةِ اليمين وإعطاءِ الكفَّارة؛ كما في الحديث: «والله، لَأَنْ يَلَجَّ[(٣)] أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ؛ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ من أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللهُ»[(٤)].

والمعنى: «أنَّه إذا حلفَ يمينًا تتعلَّق بأهله، ويتضرَّرون بعدم حِنثه، ويكون الحِنث ليس بمعصية؛ فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء، ويكفِّر عن يمينه.

(١) رواه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٣) أي: يقيم على يمينه ولا يحنث بها.

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم (١٦٥٥).

فإن قال: لا أحنث، بل أتورَّع عن ارتكاب الحِنث، وأخاف الإثمَ فيه؛ فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحِنث وإدامة الضرَر على أهله، أكثر إثمًا من الحِنث»[1].

وفيها: الحثُّ على فِعْل البرِّ والتَّقوى.

وفيها: فضيلة الإصلاح بينَ الناس؛ لأنَّ الله أفردَه بالذِّكر -مع أنَّه داخلٌ في عُموم البرِّ- والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدلُّ على العِناية به.

ويُفهم منه أيضًا: تحريم كلِّ ما يؤدِّي إلى عكس الإصلاح، كالإفساد بينَ الناس -بالنميمة ونحوها-.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾:

قوله تعالى ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُعاقبكم، ولا يُلْزِمكم بالكفَّارة. ﴿بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وهو: ما جرى على اللِّسان، ودرجَ في الكلام، من غير قَصد اليمين وإرادة الحَلِف، كقول الشخص: «كلا والله»، «بلى والله».

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّه يدخل في اللَّغْو في اليمين: ما لو حلفَ على شيءٍ يظنُّ نفسَه فيه صادِقًا، ثم تبيَّن له خلاف ذلك؛ فلا كفَّارة عليه. وكذا لو حلفَ ألَّا يفعل شيئًا، ففعلَه ناسيًا؛ فلا كفَّارة عليه.

وقال بعضهم: يدخل فيه أيضًا: اليمين في حال الغَضَب.

أمَّا مَن عقد اليمين، وعزم عليه ونواه، وأرادَه وجزمَ به، أو أكَّده وكرَّره؛ فليس قولُه لَغوًا؛ بل يتحمَّل نتيجة ما تلفَّظ به؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي قَصَدَتْه وعقَدَتْه.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده، في لَغْوِ أيمانهم ﴿حَلِيمٞ﴾ لا يُعاجِلهم بالعقوبة؛ بل يؤخِّرهم ليتوبوا.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٢٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المدار على ما في القُلُوب.

وفيها: أنَّ للقُلُوب كَسْبًا، كما أنَّ للجوارح كَسْبًا.

وفيها: أنَّ مَن حنثَ في يمينه، كاذِبًا أو عامِدًا؛ فإنَّه يُؤاخَذ بذلك.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾:

قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ (الإيلاء): الحَلِف على تَرْك وَطء الزوجة. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: الزوجات الحرائر -كما قال بذلك أكثر العلماء- وليس الإماء، وقد عَلِمَ الله ما يكون بينَ الزوج والزوجة من المغاضَبة، وأنَّ بعض الأزواج يمتنع عن إتيان زوجته بالحَلِف؛ فجعل لذلك أمدًا -وهو أربعة أشهر- لا يجوز للزوج أن يزيد عليه؛ فلذلك قال: ﴿تَرَبُّصُ﴾ أي: انتظار ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ قمريَّة.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رَجَعوا إلى زوجاتهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما حصل من التقصير في حقِّ الزوجات، والتجرُّؤ على الحَلِف بحرمانهنَّ من حقهنَّ. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالأزواج: حيث بيَّن لهم الحُكم والكفَّارة، وبالزوجات: حين جعل أمدَ الإيلاء لا يزيدُ على أربعة أشهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم ظُلْم الزوجة. وقد كان الواحد من أهل الجاهليَّة إذا أغضبَته زوجته حلفَ ألَّا يطأها، وربما تركَها معلَّقة السنة والسنتَين؛ فأبطلَ الله هذه العادة، وجعلَ للممتنِع عن زوجته أمدًا، فإمَّا أن يَرْجع، وإمَّا أن يُطلِّق؛ حتى لا يقع عليها الضرَر.

وفيها: أنَّ الإيلاء ليس من المعاشَرة بالمعروف، لكنَّه قد يكون أحيانًا مطلوبًا للتأديب؛ كما فعلَه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لـمَّا آذَتْه زوجاتُه بطلب زيادة النَّفقة، ولِما حصل بينهنَّ بسبَبِ شِدَّة الغَيرة، كما في قِصَّة تحريم ماريَة وتحريم العَسَل، فامتنع عنهنَّ شهرًا؛ تأديبًا لهنَّ.

كما روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آلَى رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نِسائِهِ، وكانَت انفكَّتْ رِجْلُه، فَأَقَامَ

فِي مَشْرُبَةٍ[١] تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، آلَيْتَ شَهْرًا، فَقَالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»[٢].

وقد جاء عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان إيلاءُ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُقْسِمُ بالله، لا أقربُكُنَّ شهرًا»[٣].

وفيها: أنَّ الذي يَحْلِف ألَّا يقرب امرأته أقلَّ من أربعة أشهر، لا ينطبِق عليه حُكم الإيلاء، في تخييره بينَ العودة والطلاق.

وفيها: أنَّ رجوع الإنسان عن خطئه، سببٌ للمغفرة من الله.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾:

قوله ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي: قصَدوه. وهذا فِعْل الشَّرْط، وجوابه محذوف، تقديره: «فليوقِعوه».

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الطلاق لا يقع بمجرَّد مُضيِّ الأربعة أشهر، وهو قول الجمهور.

وقد ثبت عن عبدِ الله بنِ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «إذا مضَت أربعةُ أشهر: يُوقَف حتى يُطَلِّق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يُطَلِّق»[٤].

وفي لفظٍ عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أيُّما رجلٍ آلى من امرأته؛ فإنَّه إذا مضت الأربعة أشهر، وُقِف حتى يُطَلِّق أو يفيء، ولا يقع عليه طلاقٌ إذا مضَت الأربعة أشهر حتى يُوقَف»[٥].

فإن رفَض الرجلُ الطلاقَ؛ أجبرَه عليه القاضي، لأنَّه لا يجوز تعليق الزوجة، ولا يجوز ظُلْمها في الإسلام.

---

(١) أي: غُرفة عالية.

(٢) رواه البخاري (١٩١١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤١١).

(٤) رواه البخاري (٥٢٩٠)، معلَّقًا. وقال: «وَيُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ: عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَعَائِشَةَ، وَاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٥) موطأ مالك (١٨).

والطَّلْقة تكون رَجْعيَّة -عند جمهور العلماء-؛ فله أن يُراجِع زوجته في العِدَّة.

وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالهم، ومن ذلك: الإيلاء والطلاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنِيَّاتِهم وأحوالهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الطلاق بيد الزوج؛ لقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

وفيها: أنَّ حكم الإيلاء يقع على غير المدخول بها أيضًا -وهو مذهب جمهور العلماء-؛ لدخولها في عُموم قوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

وفيها: أنَّ الإيلاء بعد الأربعة أشهر حرامٌ.

وفيها: أنَّ الله لا يُحِبُّ الطلاق، والرُّجوع إلى الزوجة أحبُّ إلى الله من الطلاق؛ لأنَّه قدَّم الفَيءَ عليه.

وفيها: أنَّ المغفرة والرحمة للذي يرجع إلى زوجته هو الأحسن، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّه لا يجوز للزوج أن يتأخَّر عن وَطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، إلَّا برضاها، كالسفر لطلب الرِّزق، أو لحصول أمر طارئ، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾:

وقوله ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: جمع «مطلَّقة»، وهي: التي أوقعَ عليها زوجُها الطلاق. فما هي عِدَّتها؟ وكم تنتظر للنظَر ومراجعة الحال؟ فالمطلَّقة قد يُراجِعها زوجُها في العِدَّة، وقد لا يُراجِعها فتخرُج من عِصمَته.

فبيَّنت الآية حُكمَ المطلَّقات من الحرائر المدخول بهنَّ، غيرِ الحوامل، من اللَّائى يَحِضْن. وبقيَّة أنواع المطلَّقات بيَّنت عِدَّتَهن نصوصٌ أخرى.

فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن في العِدَّة، ويَحْبِسن أنفسَهُنَّ عن زواج جديد. ومُدَّة هذا الانتظار: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي: ثلاث حَيضات، وهو قول أبي حنيفة وأحمد وكثير من العلماء. وقال مالك والشافعي وآخرين: بل ثلاثة أطهار.

ويدلُّ على أنَّ الأَقْراء هي الحَيضات: قولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة بنت أبي حُبَيش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -لـمَّا شكت إليه كثرةَ الدَّم-: «إِنَّمَا ذَلِكَ عِرْقٌ، فَانْظُرِي إِذَا أَتَى قَرْؤُكِ، فَلَا تُصَلِّي، فَإِذَا مَرَّ قَرْؤُكِ فَتَطَهَّرِي، ثُمَّ صَلِّي مَا بَيْنَ القَرْءِ إِلَى القَرْءِ»[1].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي: للمطلَّقات ﴿أَن يَكْتُمْنَ﴾: يُخفين ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الحَمْل أو الحَيض، ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: وهذا إغراءٌ لهنَّ بالتزام الحُكم.

فلا يَحِلُّ للمطلَّقة أن تقول: إنِّي حائض، وهي ليست بحائض، أو العكس. ولا تقول: إني حُبلى، وهي ليست حبلى، أو العكس.

وفي الآية: تهديدٌ، أي: إن كنَّ صادِقات في الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فلا يكتُمْنَ أمرَ الحَمْل أو حقيقةَ الحَيض.

وقوله ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي: أزواج المطلَّقات. و(البَعْل): هو السيِّد المالك، أُطلِق على الزوج؛ لقيامه بأمر زوجته وسيادته عليها. ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أولَى، حتى من أنفسِهنَّ ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: بإرجاعهنَّ ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في زمن عِدَّة الطلاقِ الرَّجْعيِّ. ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟﴾ أي: الأزواج ﴿إِصْلَٰحًا﴾: معاشرة بالمعروف.

﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للزوجات من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ من حقوق الأزواج ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: الذي عرفه الشَّرْع، وتعارَفَ عليه الناس، من المَهْر والنَّفقة والكِسْوة وحُسن العِشرة.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: في قوَّة العقل، وقوَّة الخِلْقة، وعِظَم الحقِّ.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب، ذو عِزَّة، منتقِمٌ ممَّن عصاه. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو الحِكمة البالغة، في أمرِه وشَرْعِه وقَدَرِه، وفيما حكمَ في الزوجَين.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٠)، والنسائي (٢١١)، وابن ماجه (٦٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٣).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

أنَّ المطلَّقات مؤتَمنات على ما في أرحامهنَّ، وأنَّ المرجِع إليهنَّ في معرفة انقضاء العِدَّة، بالحَيضات أو الأطهار.

وفيها: التخويف باليوم الآخر، والتهديد به على قول خلافِ الحقِّ.

وفيها: أنَّ الواجب على المطلَّقة وغيرها الإخبار بالحقِّ، من غير زيادة ولا نقصان.

وفيها: أنَّه يجب التحرِّي في قول الحقِّ، خصوصًا إذا تعلَّقت به حقوق الآخَرين.

وفيها: مقاومة النفس في إجابة الأغراض الخبيثة؛ فقد تريد نفس المطلَّقة أن تتخلَّص من الزوج بسُرعة، فتكذِب عليه في مرور الحَيضات قبل أن تنقضيَ العِدَّة الحقيقيَّة، فتفوِّت عليه حقَّه الشرعيَّ في مُدَّة المراجعة. وقد تدعوها نفسُها إلى إطالة مُدَّة العِدَّة كَذِبًا، فيتضرَّر الزوج بالإنفاق عليها نفقةً لا تستحِقُّها. وقد تكتُم حَمْلَها؛ حتى تجعلَه لرجل آخر تتزوَّجه بعدَه. ونحو ذلك من الأغراض الخبيثة.

فأمرَهُنَّ الله تعالى بقول الحقِّ، وعدمِ كَتْمِه أو تغييره.

وفيها: تسمية المُطلِّق «بَعْلًا» و«زوجًا»؛ لأنَّ عَلاقة الزوجيَّة لا تزال قائمةً؛ حيث إنَّ الطلاق رَجْعيٌّ.

وفيها: إعطاء كلٍّ من الزوجَين الحقوقَ للآخر.

وفيها: بُطلان قول مَن يقول بالتساوي بينَ الزوج والزوجة في الدرجة والحقوق؛ لأنَّ الله جعل السيادة للرجل، وجعل له فَضْلًا على زوجته؛ ولذا فعليها الاحترام والتعظيم له، بسبَبِ عَقله وإنفاقه، ومُعاناته الهمومَ والغمومَ والشدائد والأهوال في سبيل ذلك. وفرَّق الشارع بينَ الذكر والأنثى في: الشَّهادة، والميراث، والدِّيَة، والإمامة، والقضاء، والتعدُّد، وجعل الطلاق بيدِه وحدَه، والرَّجْعة من حقِّه، وغير ذلك.

وفيها: ذِكر عِدَّة المطلَّقاتِ الحرائرِ المدخولِ بهنَّ، غيرِ الحوامل، من اللَّاتي يحِضْن. وخرجَت من الآية: المطلَّقة الأَمَة، والحامل، وغير المدخول بها، واليائسة التي لا تحيض؛ فبيَّنت أحكامَهُنَّ نصوصٌ أخرى.

وفي الآية: الحثُّ على حُسن معاشرة المرأة. وصحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «إنِّي أُحِبُّ أن أتزيَّن للمرأة، كما أحبُّ أن تتزيَّن لي؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»(١).

وفيها: أنَّ الدرجة التي للرجال على النِّساء هي: التفضيل الدُّنيوي، في الخِلْقة والطبيعة، وجَعْلِ الرجل أقدَرَ على الكَسْب للإنفاق على المرأة. وأمَّا في الآخرة: فالدرجات عند الله بحَسَب الإيمان والعمل الصالح.

وفيها: أنَّ حقَّ الرَّجْعة للزوج مشروطٌ بإرادة الإصلاح والائتلاف والالتئام مع زوجته، لا الإضرار، كتطويلِ المدَّة على المرأة وهو لا يريدها، أو إمساكِها لتدفعَ له المَهْر مُرْغَمة.

وفيها: وجوب العِدَّة بثلاث حَيضات على المطلَّقة، سواءً كانت بائنًا أم لا، فتعتدُّ بثلاث حَيضات بعد الطلقة الأولى، أو الثانية، أو الثالثة.

وفيها: أنَّ الطلاق لا يقع قبل النِّكاح؛ فلو قال: «إن تزوجتكِ فأنتِ طالق»؛ لم تَطْلُق إذا تزوَّجت؛ لأنَّه لا طلاق إلَّا بعد نكاح.

وفيها: الرُّجوع إلى قول المرأة في عِدَّتها، وأنَّها مؤتمَنة في الإخبار عن ذلك.

وفيها: أنَّ المطلَّقة الرجعيَّة لا تزال زوجةً، لها حقُّ النَّفقة والسُّكْنى؛ لقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾.

وفيها: أنَّ من تَشَّبه من الرِّجال بالنِّساء، وخالفَ فِطرة الله؛ فإنَّ ذلك يَطْعَن في رجولته، ودرجة تفضيله.

وقد تضمَّنت هذه الآية: الأمر في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، والنهي في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾، والجواز في قوله: ﴿أَحَقُّ﴾، والوجوب في قوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾.

وفيها: تذكير الرجل بأنَّ الله عزيزٌ غالبٌ، لئلَّا يطغى على زوجته.

وفيها: أنَّ على كلٍّ من الزوجَين أداءَ ما يجب عليه من الحقوق للآخر؛ فكما أنَّه يليق بالرجل أن يُنفِق، فيليق بالزوجة أن تَخْدِم وترعَى.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ١٩٦).

وفيها: أنَّه لا يلزم لإرجاع الزوج زوجته في عِدَّة الطلاق الرَّجْعيّ ما يلزم من الشروط في عَقد النِّكاح، فلا يُشترَط المَهْرُ، ولا الوليُّ، ولا رضا الطرَفين.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾:

كان الطلاقُ في ابتداءِ الإسلام غيرَ مقيَّدٍ بعدَدٍ معيَّن؛ وكان الرجلُ أحقَّ برَجْعة امرأته، فيحِقُّ له أن يُراجِعَها ما دامت في العِدَّة، وإن طلَّقها مائة مرَّة، فلـمَّا كان هذا فيه ضررٌ على الزوجات -وكان البعض يؤذي المرأة بتعليقها، فإذا دنَت عِدَّتُها راجعَها-؛ قصَرَ الله تعالى الطلاق إلى ثلاث طَلْقات، وأباحَ الرَّجْعَة في المرَّة والثنتَين، وأبانها بالكليَّة في الثالثة، بينونةً وفِراقًا لا رَجْعَة فيه.

فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ أي: الذي فيه الرَّجْعة ﴿مَرَّتَانِ﴾، لكلِّ واحدة من الطلقتَين عِدَّة. ولم يقل: «طلقتانِ»؛ إشارةً إلى عدم جواز إيقاعِها دُفعةً واحدةً.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: على الزوج إذا أراد الرَّجْعة أن يُمسِكها بما هو معروفٌ في الشَّرْع، وما تعارَفَ عليه الناس، من العِشرة الطيِّبة الحسنة. ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾: بترْك المرأة حتى تنقضيَ عِدَّتها، ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: يحسِن إليها، بأن يُمَتِّعها عند الفِراق بشيء يَجْبُر كَسْرها، ويُطَيِّب قَلْبها.

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: «إذا طلَّق الرجل امرأته تطليقتَين؛ فليتَّقِ الله في التطليقة الثالثة (يعني: قبل إيقاعِها)؛ فإمَّا أن يُمسِكها بمعروفٍ، فيُحْسِن صُحبَتها، أو يُسَرِّحها بإحسان؛ فلا يظلِمها من حقِّها شيئًا»[١].

قوله ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ يعني: يا أيُّها الأزواج ﴿أَن تَأۡخُذُواْ﴾ بغيرِ رضا الزوجات ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتُموهنَّ، ووَهَبتُموهنَّ ﴿شَيۡـًٔا﴾ قليلًا أو كثيرًا. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: يظنُّ الزوجان ويتوقَّعا ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: ألَّا يُعطيَ كلٌّ منهما الآخر حقَّه: فتخاف

(١) تفسير الطبري (٤/ ٥٤٣).

الزوجة أن تعصي الله في زوجها، فلا تطيع له أمرًا، وتُظهِر النشوزَ وسُوءَ الخُلق والكراهية للزوج. ويخاف الزوج إن لم تُطِعه زوجته أن يتعدَّى عليها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: خشيَ ذلك الزوج والزوجة، أو أقاربهما، أو مَن تدَّخل للإصلاح، أو الحاكم أو القاضي، ونحوهم ممَّن له صلة بالخِلاف بينَ الزوجين؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا إثم ولا حرَج في هذه الحالة على الرجل في الأَخْذ، ولا على المرأة في طلب الخُلع. ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ ودفعَتْه وبذلَتْه، ليرضى زوجُها بمفارقتها، كما قال النبيُّ ﷺ لامرأة ثابت بن قَيْس، لـمَّا أرادت الخُلع من زوجها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[1].

فأمَّا إذا طلبَت المرأة الطلاق أو الخُلع من غير سبَبٍ شرعيٍّ؛ فإنَّ ذلك حرامٌ عليها؛ لقوله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّة»[2]، وفي الحديث: «المُخْتَلِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ»[3].

﴿تِلْكَ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وهو: ما حدَّده وشرَعه لعباده. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوَزوها للمُخالفة إلى ما نهاكم عنه. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتجاوز أحكامَه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسِهم، المتعرِّضون لسَخَط ربِّهم.

مسألة:

اختلف العلماء في عِدَّة المختلِعة:

فقال جمهورُهم: إنَّها ثلاث حيضات، وبنَوا ذلك على أنَّ الخُلْع طلاقٌ.

وفي قول عن الإمام أحمد: إن عدَّتها حيضة، وهو المروي عن عثمان بن عفان، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٠٣٥).

(٣) رواه الترمذي (١١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٨١).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية (١٩/ ٢٥٢).

والراجح: أنَّ عِدَّة المختلِعة حَيضة واحدة -لأنَّ الخُلع فَسخ-؛ لِما ثبت أنَّ امرأة ثابت ابن قَيس اخْتَلَعَتْ من زَوْجِهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ[1]، وجاء ذلك أيضًا في قِصَّة الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ، أنها أُمِرَت أن تعتدَّ بحَيْضة[2]، وهو الذي قضى به عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، تَبَعًا لقضاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

وعلى هذا: فلا يَحِقُّ للزوج أن يُراجِع المختلِعة في عدَّتها، بعد أن بذلَت له الفِدية وافتدَت بنفسها -وإلَّا لَمَا صار في الخُلع فائدة- لكن إن انقضَت عِدَّتها وملكَت أمرَها؛ جاز له أن يَرْجِع إليها بعقد جديد، إذا رضيَت بذلك.

وهل يقع الطلاق إذا طلَّقها زوجُها في عِدَّة الخُلع؟ ذهب جمهور العلماء إلى أنَّه لا يقع.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بالزوجة؛ حيث حدَّ لزوجها ثلاث طلقات، لا يستطيع أن يتعدَّاها.

وفيها: أنَّه لا يجوز الإمساكُ مع الإضرار، ولا التسريحُ بإيذاء.

وفيها: جَبْر قَلْبِ المرأة المطلَّقة، إمَّا بردِّها، وإمَّا بالإحسان إليها إذا انتهَت عِدَّتها، بتمتيعها بمالٍ ونحوِه.

وفيها: الإحسان عند إنهاء العَلاقة الزوجيَّة.

وفيها: أنَّه لا يجوز للمرأة طلب الخُلع مع استقامة الحال بينها وبين زوجها.

وفيها: عِناية الشارع بالمحافظةِ على الأسرة، وعدمِ تفكيكها.

وفيها: دَفْع أشدِّ المفسدتَين، بارتكاب أهونِهما وأخفِّهما؛ فقد يكون إنهاء العَلاقة الزوجيَّة في بعض الأحيان أهونَ من الإبقاء عليها.

وفيها: جواز تصرُّف المرأة في مالِها بالمعروف.

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٢٩)، والترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) رواه النسائي (٣٤٩٨)، وابن ماجه (٢٠٥٨)، وحسَّن إسنادَه الألباني في صحيح أبي داود (٦/ ٤٣١).

وفيها: أنَّ الخُلع لا بُدَّ أن يكون برضا الزوجة، إذا كانت الفِدْية منها.

وفيها: ما استدلَّ به بعضُ العلماء على أنَّه يجوز لزوج المختلِعة أن يأخذَ منها أكثر ممَّا أعطاها؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

والأعدَل: ألَّا يأخذ منها إلَّا ما أعطاها؛ وعليه حديثُ النبيِّ ﷺ لامرأة ثابت ابن قَيس، لـمَّا أرادت الخُلع من زوجها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»(١).

وهذا الأَخْذ -على كلِّ حال- يُشترَط فيه عدمُ المضارَّة من الزوج.

وظاهر الآية: أنَّ الخُلع ليس بطلاق، بل هو فَسْخ؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَه بينَ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾:

قوله ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: التطليقة الثالثة؛ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ﴾ أي: من بعد الطَّلقة الثالثة، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: غيرَ المطلِّق لها، فيَنكِحها نكاحًا صحيحًا، ويدخُل بها ويُجامِعُها، ويُشترَط أن يكون هذا النِّكاح الثاني نكاحَ رغبةٍ، لا نكاحَ تحليلٍ.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني، بعد أن دخلَ بها وجامعَها، وانقضَت عِدَّتها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ يعني: على المرأة والزوج الأول ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يعني: بعقدٍ جديدٍ. بشَرْط ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: عَلِمَا ورَجَوَا أن يكون بينهما الصلاحُ وحُسن الصُّحبة، بعد نَدَمِهما على عِشرتِهما السابقة التي أوجبَت لهما الفِراق.

وقيل: إن عَلِمَا أنَّ نِكاحَهما على غير التحليل.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعُه، التي حَدَّدها وبيَّنها ووَضَّحها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما أمرَهم الله تعالى به؛ فهم المنتفِعون بها، النافِعون لغيرهم.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّـه يَصِحُّ رجوع الزوجـة المطلَّقة ثلاثًا إلى زوجهـا الأول، إذا توافرت الشروط، وهي: أن تنقـضيَ عِدَّتها من الزوج الأول، ويتزوَّجها زوجٌ آخر زواجًا صحيحًا شرعًا، وأن يكون نكاحُه لها نكاحَ رغبة، يَقصِد فيه اسـتدامةَ العِشرة، وأن يطأها وَطئًا مُباحًا في هذا النِّـكاح، ثـم إذا طلَّقهـا وانقضَـت عِدَّتها منه؛ جـاز أن تَرْجع إلى الأول بعَقد جديـد. وكذا لو فارقها الثاني بمَوت، أو خُلع، أو فَسْخ، بعد وَطئها.

وفيها: أنَّ نكاح الزوج الثاني إذا لم يكن صحيحًا؛ فلا يَصِحُّ أن تَرْجِع بعده إلى الأول.

ومـن أحكام الآية: بُطلان نكاح التحليل، وهو أن يتزوَّج المطلَّقة ثلاثًا شـخصٌ، بقَصدِ أن يُحلِّلهـا لزوجهـا الأول. وهـذا حرامٌ، سـواءً شرطوا عليه ذلك في صُلـب العَقد، أو قبل العَقد، أو تطوَّع بذلك من تلقاء نفسه، وقد لعنَه النبيُّ ﷺ بقوله: «**لَعَنَ الله المُحَلِّلَ، وَالمُحَلَّلَ لَهُ**»[(١)]، ووصفَ النبيُّ ﷺ المحلِّلَ بـ «التَّيْس المُسْتَعار»، كما في الحديث[(٢)].

ولـمَّا سُـئِل ابن عمـر رضي الله عنهما عن رجـلٍ أراد أن يتزوَّج مـن مُطلَّقة أخيـه ثلاثًا، من غير مؤامرةٍ منه، ليُحِلَّها لأخيه؛ فقال: «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سِفَاحًا على عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ»[(٣)].

وفيها: العمل بغلَبة الظنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ**﴾.

وفيهـا: أنَّ التراجُـع بغير هـذا الشَّرْط (وهـو غلبة الظَّـنِّ بإقامة حـدود الله) يكون إثمًا، وشقاءً ونكدًا، وخسارةً ماليَّة.

وفيها: تعظيم شأن النِّـكاح؛ لِـما ورد فيه من التفصيل والبيان.

وفيهـا: دلالـةٌ عـلى أنَّه ينبغـي للإنسـان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمـور، خصوصًا الولايـات -الصِّغار والكبار- أن ينظر في نفسـه، فإن رأى من نفسـه قـوَّة على ذلك، ووَثِق بها؛ أقدمَ، وإلَّا أحجمَ.

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥)، وهو في صحيح الجامع (٥١٠١).

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٣٦)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٦/ ٣١٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٣٩)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٩٨).

وفيها: فضيلةُ أهل العِلْم؛ لأنَّ الله تعالى جعل تبيينَه لحدوده خاصًّا بهم، وأنَّهم المقصودون بذلك دون غيرهم؛ فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الله تعالى يُحِبُّ من عباده معرفةَ حدودِ ما أنزل على رسوله، والتفقُّهَ فيها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يعني: طلاقًا رَجْعيًّا، في الطلقة الأولى والثانية. ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربنَ نهاية العِدَّة، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجِعوهنَّ إذا شئتُم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو: ما عُرِف من الشَّرْع من إرجاعها، كاللَّفظ الدالِّ على ذلك، مثل قوله: «راجعتُكِ»، والإشهاد على هذه الرَّجْعة، وبما هو معروفٌ في الشَّرْع وعند الناس من حُسن الصُّحبة والمعاشرة.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ يعني: اترُكوهنَّ بلا مُراجعة، حتى تنقضيَ العِدَّة تمامًا، فتخرج من عِصْمة زوجها، فيُفارِقها. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: فيُخرجها إلى بيت أهلها مُكرَّمة، ويُمَتِّعها بما يطيِّب خاطرها، من غير مخاصمةٍ ولا سُوءِ أدب.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: لا تُراجِعوهنَّ إذا لم يكن لكم بهنَّ رغبة، وإنَّما تريدونَ ﴿ضِرَارًا﴾ أي: الإضرارَ بالزوجة، بسوء عِشرة، أو تطويل العِدَّة، ومَنْعها من الزواج برجل آخر. ومضارَّة المسلِم حرامٌ، بأيِّ شكل كانت.

ولذ قال: ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي: لتقَعوا في العُدوان على الزوجات، بظُلْمِهنَّ، بتطويل العِدَّة، أو إلجائهنَّ إلى الافتداء بالمال وطَلب الخُلع.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ وهو: إمساك الإضرار، المؤدِّي للعُدوان؛ ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أضرَّ بنفسه في الحقيقة، بالإضافة إلى ظُلْم الزوجة؛ لأنَّه جلَبَ على نفسه الإثمَ وعقوبةَ الله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ أي: لا تجعلوا -أيُّها الأزواج- ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي يبيِّن فيها أحكامَه ﴿هُزُوٗا﴾ أي: مَوْضِعًا للاستهزاء والاستخفاف واللَّعِب، ولا تتهاوَنوا بها، أو تتركوا العمل بها.

ولا فرقَ في وقوع الطلاق بينَ الجادِّ والهازِل؛ كما قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ»(١).

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ -باللِّسان وبالقَلْب وبالجوارح- ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: بالإسلام، وببِعْثة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وببيان الأحكام، وما سوى ذلك. ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو: القرآن، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهي: السُّنَّة النبويَّة، وقيل: أسرار الشريعة. فالكتاب فيه الحُكم، والحِكْمة فيها بيان حِكْمة الله في أوامرِه ونواهيه. فاذكروهما بالعمل بهما. وأفردَ هذه النِّعَم بالذِّكر؛ تنبيهًا على شرفها.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يُذَكِّركم ويأمُركم وينهاكم بهذا الوحي الذي أنزلَه عليكم، قرآنًا وسُنَّة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا عقابَه، بامتِثال أوامره، وتَرْك نواهيه. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، من طاعةٍ ومعصيةٍ، سرًّا وإعلانًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ظُلْم الغير هو في الحقيقة ظُلْمٌ للنفس؛ لأنَّه يُعَرِّضها لعقاب الله.

وفيها: أنَّ المراجعة لا تجوز إذا كانت بقصد الإضرار.

وفيها: أنَّ الزوج إذا لم يجد ما يُنفِق على زوجته، ولم تصبِر عليه؛ فإنَّه يتأكَّد عليه أن يطلِّقها؛ لأنَّ إمساكَها -حينئذٍ- لا يكون إمساكًا بمعروف.

وفيها: أنَّ لكلِّ طلاق أجلًا، وأنَّ العِدَد أنواع، وقد جاء في آية أُخرى تفصيل العِدَّة والآجال المُجمَلة في هذه الآية.

---

(١) رواه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (١٨٢٦)، وضعفه غيره.

وفيها: جواز مُراجعة المُطَلِّق لزوجته.

وقد فَهِم بعضُ العلماء من ظاهر الآية: أنَّ للزوج أن يُراجِع زوجته إذا انقضَت الحَيضات الثلاث (وهي العِدَّة عندهم)، ما لم تغتسِل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، فإذا بلغت نهاية حَيضتها بنزول الطُّهْر بعد الحَيضة الثالثة، فإمَّا أن يراجِع قبل اغتسالها، أو أنَّها تخرج من عِصمته إذا اغتسلَت.

وفي الآية: أنَّ الإمساكَ بمعروف أو التسريحَ بإحسان واجبٌ؛ لأنَّه لا يجوز المُضارَّة بإمساك الزوجة، ولا يجوز تسريحُها بإيذاء.

وفيها: أنَّ مضارَّة المسلِم حرام وعُدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، وفي الحديث: «مَن ضَارَّ ضَارَّ اللهُ بِهِ، ومَن شَاقَّ شَقَّ اللهُ عَلَيْهِ»[1].

وفيها: أنَّ المعصية ظُلْمٌ للنفس، وفي هذا رَدٌّ على مَن يقول: «أنا حرٌّ، أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب»!

وفيها: تحريم الاستهزاء بآيات الله وشرائعه وأحكامه. والهُزْء درجات: فمخالفة الحُكم درجة، والمُزاح فيه درجة، والسُّخرية به درجة، والاستغفار مع الإصرار درجة.

وفيها: وجوب ذِكر نِعمة الله، وأنَّ ذلك يكون بالقَلْب واللِّسان والجوارح.

وفيها: أنَّه يجب على العِباد أن يُقدِّروا نِعمة الكتاب العزيز والسُّنَّة النبويَّة حقَّ قَدْرها، وذلك بالتعلُّم والعمل.

وفيها: أهميَّة فَهم حِكْمة التشريع وأسراره، وهو: فائدة الحُكم، ومعرفة لماذا شرَعَه الله، وهذا ممَّا يَزيد الإيمانَ والتمسُّكَ بالأحكام.

وفي الآية: أنَّ إفراد بعض النِّعَم بالذِّكر -بعد النِّعمة العامَّة- دليلٌ على شَرَف وأفضليَّة هذه النِّعَم، كما أفرد «الكتاب» و«الحِكْمة» بالذِّكر بعد النِّعمة العامَّة.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٣٥)، والترمذي (١٩٤٠)، وابن ماجه (٢٣٤٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٢).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ -أيُّها الأزواج- ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: الزوجات، ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدَّتهنَّ؛ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهنَّ -أيُّها الأولياء- من ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ بعَقدٍ جديدٍ، بشروطه، إذا كان الطلاق رَجْعيًّا.

وأيضًا، لا تمنعوهنَّ -أيُّها الأزواج السابِقين- من الزواج بأزواجٍ آخَرين بعد انتهاء عِدَّة الطلاق إذا أردنَ. وكانوا في الجاهليَّة إذا طلَّقَ الواحد زوجتَه يمنعُها من الزواج من بعده، غَيْرةً وأنَفَةً وحميَّة.

﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ﴾ أي: النِّساء والخُطَّاب ﴿بَيْنَهُم﴾، واتفقوا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: ما عرفه الشَّرْع، من العَقد والمَهْر.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾: «هذا في الرجل يُطلِّق امرأته تطيقةً أو تطليقتَين، فتنقَضي عِدَّتها، ثم يبدو له أن يتزوَّجها وأن يُراجِعَها، وتُريد المرأة ذلك، فيمنعُها أولياؤها من ذلك؛ فنهى الله سبحانه أن يمنَعوها»[١].

وفي هذا دليلٌ على: أنَّ المرأة لا تَملِك أن تُزوِّج نفسها، ولا بُدَّ لها من وليٍّ؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»[٢]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السُّلْطَانُ وَلِيُّ مَن لَا وَلِيَّ لَهُ»[٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا»[٤].

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا من الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً، ولَمْ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٣١).
(٢) رواه أبو داود (٢٠٨٥)، والترمذي (١١٠١)، وابن ماجه (١٨٨١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٣٩).
(٣) رواه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٤٠).
(٤) رواه ابن ماجه (١٨٨٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٤١).

يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ العِدَّةُ، فَهَوِيَهَا وَهَوِيَتْهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الخُطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا لُكَعُ[1]، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا، فَطَلَّقْتَهَا، والله لَا تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا، آخِر مَا عَلَيْكَ».

قَالَ: فَعَلِمَ الله حَاجَتَهُ إِلَيْهَا، وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا، فَأَنْزَلَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: «سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: «أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ»[2].

وفي هذه القِصَّة: امتِثالُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأمر الله تعالى، ومخالفةُ هوى النفس، والعملُ برضا المرأة في النِّكاح.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحُكم المذكور، من النهيِّ عن حَبس المرأة عن الزواج بمَن تريد ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يُؤمَر به ويُذَكَّر، فيمتثِل وينتفِع ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ لأنَّ أهل الإيمان هم الذين يُطيعون ويَسْتَسْلِمون.

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاتِّعاظ والعمل بهذا الحُكم ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أصلَحُ وأنفعُ، وأكثرُ خيرًا وبرَكةً في أعمالكم، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لكم من الذُّنوب، ولنفوس النِّساء، وأشفى لها من الحِقْد على الأولياء، والتألُّم من مَنعهنَّ من الزواج بمَن يُردن.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ما فيه صلاحُ أموركم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمُه الله من المصالح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بُطلان نكاح المرأة على زوج ثانٍ، إذا عقدَ عليها في عِدَّة طلاق الزوج الأول.

وفيها: أنَّ التراضي من قِبَل الزوجَين شرطٌ في صِحَّة عَقد النِّكاح.

وفيها: أنَّه لا يجوز للوليِّ أن يُزَوِّج مَن ولَّاه الله عليها، بغير رضاها.

وفيها: أنَّ المرأة لو رضيَت بزوج على خِلاف ما عرَفه الشَّرْع -كأن يكون فاسقًا أو فاجرًا-؛ فلوليِّها أن يمنعَها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

---

(١) يعني: يا لَئيم.

(٢) رواه البخاري (٥١٣٠)، وأبو داود (٢٠٨٧)، والترمذي (٢٩٨١)، والسِّياق له.

وفيها: مُراعاة ما يحدث من ندَم الزوجَين بعد الطلاق.

وفيها: أنَّ العمل بأحكام الله يُزَكِّي النفس، ويُنَمِّي الإيمان.

وفيها: الإشارة إلى قُصور الإنسان في عِلْمه، وأنَّ على العبدِ القاصرِ الاستِسلامَ لأحكام الله تعالى.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أمورًا من أحكام النِّكاح، والطلاق، والعِدَّة، والرَّجْعة، والعَضْل؛ ذكرَ بعض الأحكام المتعلِّقة بما يكون من نتيجة النِّكاح، من حقوق المواليد، إرضاعًا، ونفقةً، وكِسْوةً.

وحيث إنَّ الخلافاتِ الزوجيَّة والفِراق، قد ينتج عنها الرغبة في انتقام أحد الطرَفَين من الآخر، فيضرُّ ذلك بالأبرياء -كهؤلاء المواليد-؛ ندب الله عَزَّوَجَلَّ الوالدات المطلَّقات إلى رعاية الأطفال، والاهتمام بشُؤونهم، فقال تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾: الأُمَّهات، مطلَّقات، أو متزوِّجات ﴿يُرْضِعْنَ﴾: خبر بمعنى الأمر؛ فكأنَّه شيء مفروغ منه يُخْبِر عنه ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ ذكورًا، أو إناثًا ﴿حَوْلَيْنِ﴾: سنتَين، والسنة: اثنا عشر شهرًا هلاليًّا ﴿كَامِلَيْنِ﴾ دونَ نقصٍ؛ فالحَول يُطلَق على الكامل، وعلى مُعظَم السنة.

وهذا ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ من الآباء والأُمَّهات ﴿أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أي: لمن أرادها كاملةً -على وَجْه التمام- من الأبوين.

وقوله ﴿أَرَادَ﴾ يدلُّ على: عدم وجوب الإتمام إلى السنتَيْن، وأنَّه يجوز الاقتصار على ما دونَه، بما لا يضُرُّ بالولد.

والإخبار بأنَّ تمام الرَّضاعة سنتان، يدلُّ على أنَّ الرَّضاعة بعدهما غيرُ مؤثِّرة، ولا اعتبارَ بها، وأنَّ اللبن بعدَها صار بمنزلة سائر الأغذية، ولا يحرُم من الرَّضاعة إلَّا ما كان دونَ الحولَين؛ فلو ارتضعَ المولود وعُمرُه فوقَهما لم يحرُم. وهذا مذهب جمهورِ العلماء.

واستدلُّوا بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّما الرَّضاعَةُ من المَجاعَةِ»[١]، وبقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُحَرِّمُ من الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ»[٢].

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لا رَضاع بعد فِصالٍ، أو بعد حولَين»[٣]، وقال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لا رَضاع بعد فِصال السَّنتَين»[٤].

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ وهو الأب؛ لأنَّ الولد يُولَد بسببِه ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رِزق المُرضِعات، من الطعام ونحوه ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: اللِّباس والكِسوة، وهو: ما يكسو به الإنسانُ بدنَه. فإذا كانت المُرضِعة زوجةً فالرِّزق والكِسوة لأجل الزوجيَّة والإرضاع، وإن كانت مطلَّقة بائنًا؛ فالنَّفقة لأجل الإرضاع.

وهذه النَّفقة تكون ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما تعارَفَ عليه الناس بينهم، من غير إسراف ولا تقتير.

﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ (التكليف): الإلزام بما فيه مشقَّة ﴿نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: في النَّفقة والكِسوة، فلا تُلزَم إلَّا بما تقدِر عليه. ولا تُكلَّف الأُمُّ من الرَّضاع إلَّا بما تقدِر عليه أيضًا.

﴿لَا تُضَآرَّ﴾ (المضارَّة): فِعْل ما يضرُّ بالغير ﴿وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾: كأن يُؤخَذ ولدُها منها دون حقٍّ، أو يُعطَى لمُرْضِعة أخرى، مع أنَّ والدته رضيَت بمثل أُجْرَتها.

﴿وَلَا﴾ يُضارَّ ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾ أي: للأب ﴿بِوَلَدِهِۦ﴾: كأن يُلقَى عليه ليتورَّط به، أو: إذا ألِفَ ثديَ أُمِّه ولم يقبَل غيرَها؛ طرحَتْه على أبيه، أو اشترطَت إرضاعَه بأجرةٍ مُبالَغٍ فيها.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢١٥٠).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٣٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٧/ ٤٦٤).

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: على وارث المولود مثل ما على الأب، من الرِّزق والكِسوة وتَـرْك المضـارَّة. وقيل: المقصود بـ(الوارث): الصبيّ نفسـه؛ فينفَق عليه من ماله إنْ كان له مال؛ لأنَّه وارث أبيه. وقيل غير ذلك.

وقولـه ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الوالدانِ ﴿فِصَالًا﴾ أي: فِطامًـا للولد قبل تمام الحولَين، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: اتِّفـاق بـينَ الطرَفَين، لا مـن أحدهما فقـط. ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي تأمُّل وإمعان لاسـتخراج الـرأي الصواب. ويدخل في ذلك: مشـاورة أهل العِلْم بالـشَّرْع، وأهل الخِبرة بالطِّبِّ؛ لمعرفة الأصلَح للطِّفل.

فـإذا كان الأمـر عن تراضٍ وتشـاوُرٍ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرجَ ولا إثمَ في فِطامه -حينئذٍ-.

وقولـه ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ -أيُّهـا الآبـاء- ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: تطلُبـوا لأولادكـم مُرْضِعـاتٍ غـيرِ أُمَّهاتهم، لوجـود عُذر أو حاجـة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم ولا حرج في هـذا الاسـترضاع. بـشرط: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ أي: أعطيتُم المُرْضِعات المستأجَرات ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾: مـن الأُجْـرة المتفَق عليها ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بطيب نفس، وبما تعارَفَ عليه الناس، دون نقص، ولا تأخير.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافـوه وراقِبـوه في هـذه الحقـوق، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: محيطٌ بكم، ومُطَّلِعٌ عليكم، وعليمٌ بنيَّانكم، وأفعالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِفظ الشريعة لحقوق الطفل.

وفيها: أنَّ الأصلَ وجوبُ الإرضاع على الأُمِّ.

وفيها: أنَّ الله أرحمُ بالولد من والدته.

وفيهـا: أنَّ تمـام الرَّضاعة سـنتان، ويجوز النقـص منها والزيادة عليهـا إذا لم يوجد ضرَر بالطِّفل.

وفيها: أنَّه لا يجوز استبداد أحد الوالدَين برأيه دون الآخر، في فِطام الولد.

وفيها: أنَّ مَن قطعَتْ مصلحةُ ولدها في الرَّضاع، لمجرَّد مصلحةِ نفسها ولا ضررَ عليها -كرشاقة جِسْمِها-؛ فهي ظالمة.

وفيها: استعطاف المُخاطَب عند تبليغه بالأحكام.

وفيها: أنَّ من الرَّضاعة ما يكون واجبًا -كالذي تتعلَّق به حاجة الولد- ومنه ما يكون مستحبًّا يدخل في باب الكمال.

وفيها: أنَّ الولد هبةٌ للوالد.

وفيها: أنَّ الزوجة المُطلَّقة أو الناشز لها نفقةٌ إذا أرضعَت الولد؛ مراعاةً لحقِّ الطفل.

وفيها: جواز الاسترضاع عند وجود سبَب؛ كموت أُمِّ الولد، أو مَرَضِها، أوشُحِّ لَبَنها، أو كون لبن غيرها أغنى للطفل، أو انشغالها بحقِّ زوج آخر بعد طلاقها من والد الطِّفل، ونحو ذلك.

وفيها: اعتبار العُرف بينَ الناس، ما لم يُخالِف الشَّرْعَ.

وفيها: أنَّ المعتبَر في النَّفقة هو حال الزوجة وحاجتها.

وفيها: أنَّ أُمَّ الولد مُقدَّمة على غيرها في إرْضاعه؛ لأنَّها -في الغالب- أشفقُ على ولدها، ولبنها أطيب، ويجب تقديمُها على غيرها في الإرضاع، إلَّا إذا اشترطَت الإرضاع بنفقةٍ مُبالَغٍ فيها.

وليس لها أن تطلُب أجرةً وهي في عِصمة والد الطفل؛ اكتفاءً بنفقة الزوجيَّة. وقال بعضهم: يجوز. لكن إذا خرجَت من عِصمته؛ جاز لها أن تطلُبَ أجرةً على الرَّضاع.

وفيها: أنَّه يجب على الإنسان أن يُسلِّم العِوض -كالثمن والأُجْرة- بالمعروف.

وفيها: أنَّه لا يجوز للأجير طلبُ زيادةٍ على ما اتُّفِقَ عليه في العَقد، ولو تغيَّرت الأسعار في البلد؛ لقوله تعالى: ﴿**إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾.

وفيها: الاجتهاد في تقدير نفقة المرضِعة، على حَسَب المتعارَف عليه.

وفَهِمَ بعضُ العلماء من قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: أنَّ الغنيَّ المُقتدِر تجب عليه نفقةُ قريبه المحتاج الذي يَرِثه.

وفيها: التأكيد على تسليم الأُجرَة للمُرْضِعة؛ لأنَّ المماطَلة والنقص رُبَّما تؤدِّي إلى إهمالِ الرضيع ولُحُوقِ ضرَرٍ به.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾:

ولمَّا ذكر تعالى حُكمَ مَن فارقت زوجَها بالطلاق والخُلع؛ ذكر تعالى حُكمَ مَن فارقت زوجَها بالوفاة، وبيَّن عِدَّتها؛ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: يتوفَّاهم الله ويموتون، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾: زوجاتٍ، حرائرَ، غيرَ حوامل.

فالحُكْم في عِدَّتهنَّ أنَّهنَّ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتَظِرْن، ويَمْتَنِعْنَ من النِّكاح ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هلاليَّة ﴿وَعَشْرًا﴾، تبدأ من وقت وفاة الزوج، لا من وقت عِلْمِها بوفاته.

وهذا حكمٌ عامٌّ في الزوجات، إلَّا الحاملَ والأَمَة: فعِدَّة الحامل -الحرة والأمة- المُتَوفَّى عنها زوجُها تنتهي بوَضْع حَمْلها. والأَمَة المملوكة مِلْكَ اليمين تعتَدُّ لموت زوجها شهرَين وخمسَ ليالٍ.

وقوله ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدَّتهنَّ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثمَ ولا حرجَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -أيُّها الأولياء، والحكَّام، والقُضاة، والخاطبون- ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: من العودة إلى الزِّينة والطِّيب، والانتقال من المسكن، والظهور للخاطب، والنِّكاح، ونحو ذلك من المعروف شرعًا.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشرِّ ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عليمٌ ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العِدَّة على المرأة المتوفَّى عنها زوجُها.

وفيها: وجوب الإحْداد على المُتوفَّى عنها زوجُها، سواءً كانت صغيرة أو كبيرة، حُرَّة أو أَمَة، مُسلِمة أو كافرة.

والإحْـداد: هو تَرْك الزِّينة -من الحُليِّ والثياب الجميلـة والكُحْل والحِنَّاء، ونحوها من الأصبـاغ- وتَرْك الطِّيب وكلِّ ما يجذب الرِّجال، ولزوم بيت الزوج الميِّت في المبيت، وتَرْك عقدِ النِّـكاح.

فيلـزم المـرأة المبيت في بيت الزوجيَّة، ولا تخرج منه ولو لحجِّ الفريضة، ويُباح له الخروج للضرورة، والضرورة تُقَدَّر بقَدَرها.

والإحدادُ واجبٌ على مَن تُوفِّي عنها زوجُها، على أيِّ حال، سواءً كان قتيلًا، أو شهيدًا، أو مريضًا، أو مات حتفَ أنفه، أو غير ذلك.

وقـد رُوي أنَّـه لـمَّا جـاءت الفُرَيعة بنت مالـك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسـتفتيه في الانتقال إلى بيتِ أهلها بعد مقتلِ زوجها، ولم يكن بيتُ زوجها مِلْكًا له؛ قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ، حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ»(١).

وفي الآية: بيان مُدَّة حِداد المرأة على زوجها المتوفَّى عنها.

أمـا إذا مـات للمرأة ميِّتٌ غيرُ الـزوج؛ فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَحِلُّ لِامْـرَأَةٍ تُؤْمِنُ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ؛ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»(٢).

وفيها: أنَّ حُكم الحِدَاد يشـمل الزوجة المدخول بها وغير المدخول بها؛ وقد ثبت أنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وافق قضاءَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في امرأة مات زوجها، ولم يدخل بها، ولم يَفرِض لها الصَّداق؛ فقال: «إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ(٣)، وَإِنَّ لَهَا المِيرَاثَ، وَعَلَيْهَا العِدَّةُ»(٤).

وفيها: منع المُعتَدَّة من الزواج أثناء العِدَّة.

وفيها: رحمة الإسلام بالمرأة، بمُراعاة مقتضَى طبيعَتِها البشريَّة، من الحزن على وفاة الزوج.

---

(١) رواه أبـو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسـائي (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٠٣١)، وضعَّفه الألباني في الإرواء (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦).

(٣) أي: لا نقص ولا زيادة.

(٤) رواه أبو داود (٢١١٦)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٣٥٢٤)، وابن ماجه (١٨٩١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٩٣٩).

وفيها: تكريم الشريعة للمرأة ورحمتها، بهذا الإحداد، مقارنةً بما كانت عليه في الجاهليَّة، عندما كانت تُحبَس في بيت صغيرٍ قذِرٍ، سنةً كاملة، وعليها شرُّ ثيابها، لا تَمَسُّ طيبًا ولا شيئًا، ثم تؤتَى بدابَّةٍ -حمارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ- فتمسَح به فَرْجها، فيموت في الغالب من نَتْنها، فإذا خرجَتْ أُعطيَت بَعَرةً لترميَ بها أمامَها، أو تنتظر كلبًا يمرُّ لترميَه بها -إشارةً إلى أنَّ قُعودَها بعد زوجها أهوَنُ عليها من بَعَرةٍ رُمي بها كلبٌ!- وتخرُج بهذا من عِدَّتها!!

فهذا هو الفرق الكبير بينَ أحكام الحِداد في الإسلام، وبين ما كان عليه الأمرُ في الجاهليَّة.

وفي الآية: عِظَم حقِّ الزوج على زوجته، واحتباسُها لأجل وفاته عن الزِّينة والزواجِ بغيره هذه المدَّة، ولزومُها بيت الزوجيَّة.

وفيها: مسئوليَّة الأولياء عن النِّساء، وأنَّه يجب عليهم منعُهنَّ من المُنكَر، ولا يحقُّ لهم منعُهنَّ من المعروف.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾:

ولـمَّا كانت المتوفَّى عنها زوجُها كثيرًا ما تحتاجُ للزواج بعدَه، طلبًا للعِفَّة والإنفاق عليها، وطلبًا للنَّسْل، لكن التصريحَ بنِكاحها في العِدَّة لا يُناسِب حالَ الإحداد؛ فقد بيَّن الله تعالى أمرًا وَسَطًا في هذا؛ فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا حرجَ ولا إثمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -أيُّها الرِّجال- ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ بالإشارة والتلميح، دون التصريح ﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المُعْتَدَّاتِ من الوفاة، أو في عِدَّة الطلاق البائن -وهي المبتوتة ثلاثًا-. و(الخِطبة): الاستِلْطاف بالقول والفِعْل في طلب الزواج من المرأة.

وأمثلة التعريض بالخِطبة كثيرة؛ ومنها: أن يقول لها: «إنِّي أريد النِّكاح»، أو: «وَدِدتُ لو أنَّ الله رزقني امرأة صالحة»، أو: «إذا انتهَت عِدَّتُكِ فأخبرينا»، أو: «مثلُكِ صالحةٌ يُرغَب فيها»، ونحوها من الألفاظ التي فيها إشارةٌ مفهومةٌ غير صريحة.

وأمَّـا المطلَّقةُ الرَّجْعيَّـة في عِدَّة الطلاق الأول أو الثاني؛ فلا يجوز خِطبتُها، لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ لأنَّها لا تزال في عِصمة زوجها.

وقوله ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أخفيتُم وأضمرتُم في أنفسكم خِطْبتَهُنَّ، فهذا لا حرجَ عليكم فيه أيضًا، وهو من تخفيف الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، وترغبون في نكاحِهنَّ، ولا تصبرون، أو أنَّكم تذكرون لبعض خواصِّكم رغبتَكم في نكاحها.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تُصَرِّحُـوا بالنِّكاح، كقوله لها: «أريد نكاحَكِ»، أو بذِكـر حُبِّـه لها ورغبتِه فيهـا، أو بذِكر ما يُرَغِّبُهـا في النِّكاح -كقوَّة الجِماع- أو بأخذ العَهد والميثاق على المرأة ألَّا تتزوَّج غيره. و(السِّرُّ): من أسماء النِّكاح عند العرَب.

وقال كثيرٌ من المفسِّرين: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: للزِّنا، فكان الرجل يدخُل على المرأة يُعَرِّض بالنِّكاح، وهو يريد الفاحشة.

ولا يجوز للرجل أن يتزوَّج المعتدَّة سرًّا في عِدَّتها.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وهـو: التعريـض بالخِطْبة -كما تقـدَّم- وأن يعِدَها بالإحسانِ إليها والاهتمامِ بشأنها ورعايةِ مصلحتها، ونحو ذلك من القول المعروف.

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ﴾ (العَـزْم): إرادةُ فِعْل الشيء بـلا تردُّد. ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: عَقدَه. ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: حتى تنقضيَ العِدَّة. وسمَّاها (كتابًا)؛ لأنَّها مفروضة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ -أيُّها الرِّجال- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ما استقرَّ في أنفسكم ممَّا أخفيتُموه؛ ﴿فَٱحۡذَرُوهُ﴾ أي: خافوا عقابه، ولا تُضْمِرُوا ما يُغْضِبه.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمـن تاب، مِن ارتكاب ما نهـى الله عنه ﴿حَلِيمٞ﴾: لا يُعاجِلكم بالعقوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعطيل الوسائل الموصِلة إلى الحرام؛ فإنَّ التصريح للمرأة بالنِّكاح رُبَّما يؤدِّي إلى وقوعها في الكَذِب بانقضاء عِدَّتها، أو تقع في الفِتنة.

وفيها: إحصاء عِدَّة الوفاة، بضَبْطها، والدِّقَّة في معرفتها. ولو احتاجت المرأة إلى كتابة تاريخ الوفاة، أو الإشهاد عليه؛ فلتفعَل؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾.

وفيها: جواز ذِكر الإنسانِ المرأةَ المعتدَّة من الوفاة، في نفسه، ولغيره.

وفي الآية: أنَّ على المسلِم ألَّا يُضْمِر في نفسه ما لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾:

ثم بيَّن تعالى بعضَ أحكامِ الطلاق، وحقوقِ المطلَّقات، فيمَن عقدَ عليها زوجُها، ولم يدخُل بها، ولم يُسَمِّ لها مَهْرًا؛ فقال:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثمَ ولا تَبِعة ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ -أيُّها الأزواج- ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامِعُوهنَّ وتدخُلوا بهنَّ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيرُه: «المَسُّ: النِّكاح»(١)، وهو الوَطء. ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: لم تُحدِّدوا لهنَّ مَهْرًا.

والمعنى: لا حرجَ عليكم إذا طلَّقتُم النِّساء بعدَ العَقد، وقبل الدُّخول بهنَّ، ما دُمتُم لم تدخلوا بهنَّ ولم تُسَمُّوا لهنَّ مَهرًا.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: يجب تمتيعُ غيرِ المدخول بها في هذه الحالة؛ جبرًا لخاطرها، وتخفيفًا لوَحشة الطلاق.

و(المُتعة) أو (التمتيع): شيءٌ من المال، تُعطاه المطلَّقةُ غيرُ المدخول بها، وغيرُ المسمَّى لها مهرٌ معينٌ. ويجوز أن تُعطَى نقدًا، أو طعامًا، أو ثيابًا، ونحوه.

وليس لهذا التمتيع حدٌّ محدودٌ؛ بل هو على حَسَبِ حالِ الزوج المطلِّق، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ أي: الغنيِّ الذي في سَعَة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي: بقَدْر سَعَته. ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ أي: الفقير ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي: على قَدْر إمكانه وطاقته. ﴿مَتَٰعًۢا﴾ مؤكَّدًا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يقتضيه العُرْف، وتَسْتَحْسِنه الشريعةُ والمُروءةُ وأعرافُ الناس.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١١٨).

﴿حَقًّا﴾ أي: واجبًا، لا تفريط فيه ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يُحسنون إلى أنفُسِهم بطاعة الله، وإلى غيرِهم من خَلْق الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الطلاق قبل الدُّخول والمسيس.

وفيها: جواز النِّكاح بغير تحديد مَهْر، فإن دخلَ بها كان لها مَهْرُ مِثلِها، وإن طلَّقها قبل الدُّخول؛ كان تمتيعُها واجبًا -بحَسَب حاله وقُدرته-.

وفيها: مراعاة جانب الأدب في الألفاظ؛ فقد أطلق «المسيس» على «الجِماع»، في قوله: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾.

وفيها: مراعاة الشريعة لأحوال الأزواج الماليَّة.

وفيها: أنَّ الشريعة لا تُكلِّفُ بما لا يُطاق.

وفيها: أنَّ للعُرْف اعتبارًا شرعيًّا.

وظاهر الآية: أنَّ الزوجَ إذا لم يُسَمِّ لزوجته المَهْر، ولم يطأها؛ فليس لها إلَّا التمتيع -وإنْ خلا بها-.

لكن ألحقَ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الخَلْوة الكاملة بـ«المسيس»، في وجوب المَهْرِ والعِدَّة إذا طُلِّقت؛ فيجب إعطاؤها مَهْرُ مثلِها إذا لم يُحدِّد لها مَهْرًا؛ لِما جاء عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى قَالَ: «قَضَاءُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ أَنَّهُ: مَنْ أَغْلَقَ بَابًا وَأَرْخَى سِتْرًا؛ فَقَدْ وَجَبَ الصَّدَاقُ وَالعِدَّةُ»[1].

وفي الآية: جَبْر خاطر الزوجة الكسير، بالمُقابِل الماديِّ؛ فيكون التمتيعُ عِوَضًا عن خَيبةِ الأمل التي حصلت نتيجةَ الطلاق.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤١٧)، وقال: «مُرْسَل»، وقد صحَّحه الألبانيُّ عن عمر وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كما في الإرواء (١٩٣٧).

﴿يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾:

ثـم بيَّن تعالى حُكـما آخر للمطلَّقة، التي عقـدَ عليها زوجُها، ولم يدخُل بها، لكنَّه سـمَّى لها مَهْـرًا؛ فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: الزوجـات ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامِعُوهنَّ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: في حـال مـا إذا كنتم حدَّدتُم وسـمَّيتُم لهـنَّ مَهْرا معلومًا. فالحُكـم هو: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلهُنَّ -في هذه الحالة- نصفُ المهر المُسَـمَّى، ولا عِدَّة عليها -كما بيَّن في الآية الأخرى-.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: تتنـازل المطلَّقـات، ويُسـامِحْنَ بحقِّهنَّ في نصـف المَهْر، ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟﴾: يُسـامِح ويتنـازل ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهـو الزوج؛ لأنَّ بيدِه إبـرامَ عُقدة النِّـكاح -بقولـه: «قَبِلْتُ»- وبيـدِه حلَّها بالطلاق. فإذا أرسـل لها المهر كامـلًا، أو كان قد سلَّمها إيَّاه من قبلُ، فتَرَكَ المطالبة بنِصفه؛ فقد عفا.

وقيل في المراد بـ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: وليُّ المرأة، وأنَّ له أن يَعْفُوَ في هذه الحالة، وإن شَحَّتِ المرأة؛ لأنَّ له نَوعَ سُلطةٍ بالولاية، ولأنَّ العَفْوَ مرغوبٌ فيه في الشريعة.

لكن هذا يَرِدُ عليه: أنَّه لا يجوز له أن يتنازلَ عن حقِّ غيرِه، فيكون المراد بالآية: الزوج.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟﴾ -أيُّها الرِّجال والنِّساء- عن حقِّكم ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: إلى حصولها.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا تفضُّلَ بعضِكم على بعضٍ، بالتسامح والعَفْو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مـن خيرٍ وفَضْلٍ وإحسـانٍ، أو ضِدِّ ذلـك ﴿بَصِيرٌ﴾: عليمٌ، لا يُضيع فضلَكم، بل يُجازيكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جـواز الطلاق قبل المسـيس، مع تحديد المَهْر، أو مع عـدم تحديده -كما دلَّت عليه الآية السابقة-.

وفيها: أنَّ تعيين المَهْر موكولٌ إلى الزوج؛ لقوله: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، وللزوجة الموافَقةُ أو عدمُها.

وفيها: جوازُ إسقاطِ الزوجة ما وجب لها من المَهْر، ويُشترط لذلك أن تكون حُرَّةً بالغةً عاقلةً رشيدة؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾.

وفي الآية: جواز تبرُّع المرأة بمالها، أو ببعضه.

وفيها: الترغيب في العَفْو، والحثُّ على الإحسان ومكارم الأخلاق.

وفيها: أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لأنَّ العَفْو أقرب للتقوى من تَرْك العَفْو.

وفيها: الحثُّ على حُسن المعاملة، وألَّا ينسى المسلِم التفضُّلَ على إخوانه في معاملتهم.

وفيها: أنَّ الفَضْل أقربُ للتقوى من العَدْل؛ فالعَدْل: هو إعطاء الواجب فقط وأَخْذ الحقِّ، والفَضْل: إعطاء ما ليس بواجب والتنازل عن الحقوق.

والخُلاصة في حقوق المطلَّقات:

أنَّه إذا طلَّقها، وقد دخلَ بها وسمَّى لها مَهْرًا؛ فلها المَهْر كاملًا. وإن لم يُسمِّ لها مَهْرًا؛ فلها مَهْرُ مِثلِها.

وإن طلَّقها قبل الدُّخول بها: فإنْ سمَّى لها مَهْرًا؛ فلها نِصْف المَهْر. وإن لم يُسمِّ لها مَهْرًا؛ فعليه تمتيعها بما يَقْدِر عليه.

وإن خلا بها خَلْوة كاملة، يتمكَّن معها من الوَطْء -لو أراد-؛ فلها المَهْر كاملًا، وعليها العِدَّة -عند كثير من العلماء-.

وقد استحبَّ أهلُ العِلْم تمتيعَ جميع المطلَّقات، وهو من مكارِم الأخلاق، ومن التسريحِ بالإحسان.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا
أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أحكامًا كثيرة تتعلَّق بالمخلوقين -من الأزواج والزوجات- في النِّكاح، والوَطء، والطلاق، والرَّجْعة، والرَّضاع، والنَّفقة، والعِدَد، والتمتيع؛ أَمَرَ عباده بالمحافظة على الصلوات الخمس -وهي من أعظم حقوقه-؛ تنبيهًا للعِباد ألَّا ينشغلوا بحُقوق المخلوقين عن حقوق الخالِق، وألَّا ينشغل الرِّجالُ بالنِّساء والنِّساءُ بالرِّجال عن حقِّ هذه

الفريضة العظيمة -فريضة الصَّلاة- بل يُستعان بالصَّلاة على التقوِّي على هذه الأمور، فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ﴾ أي: واظِبوا، واعتَنوا، وداوِموا ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: بأدائها كما أمر الله، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنها، وآدابها.

وخصَّ من الأمر بالمحافظة على الصلوات: الصَّلاة الوُسطى؛ فقال: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي: الفُضلى، من «الوَسَط»، وهو الخيار والأفضل.

وقد اختلف العلماء في تعيين الصَّلاة الوُسْطى على أقوال متعدِّدة، أقواها: أنَّها صلاة العصر؛ لحديث عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: لـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَلَأَ الله بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»[(١)].

﴿وَقُومُواْ﴾ أي: على أقدامكم في الصَّلاة، محافِظين عليها ومواظبين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: مُخلِصين، تريدون وَجْهَه ﴿قَٰنِتِينَ﴾ أي: مُطيعين، خاشعين، ممتَنِعين عن كلام الناس.

وفي «الصحيحَين»، عن زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «إِنْ كُنَّا لَنَتَكَلَّمُ فِي الصَّلاَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِحَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ»[(٢)].

وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِن كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ»[(٣)].

وقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مكروهًا، كعدُوٍّ، أو حريق، أو سَيْل، أو حيوان مفترِس، ونحو ذلك، ولم تقدِروا على الصَّلاة قيامًا، مع إتمام الركوع والسجود؛ ﴿فَرِجَالًا﴾ أي: صَلُّوا ولو كنتُم ماشين على أرجُلِكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: أو كنتُم راكبين، على أيِّ حالٍ كنتُم -مُستقبِلي القِبلة أو غيرَ مُستقبِليها-.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ بزوال الخوف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

(٣) رواه مسلم (٥٣٧).

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا الصَّلاة تامَّة. وسمَّاها (ذِكرًا)؛ لاشتمالها على الأذكار. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كيفيَّة الصَّلاة، وعلَّمكم ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ من أحكامه وشرائعه.

وفي الآيتَين من الفوائد:

المحافظة على الصلوات: وجوبًا في الفرائض، واستحبابًا في النوافل.

وفيها: أنَّ كلَّ ما أشغلَ عن أداء الصَّلاة في أوقاتها فهو باطلٌ، كالانشِغال عنها بالإنترنت، والجوَّالات، وتصفُّح المواقع ووسائل التواصل، والهَوَس بالتقنيات الحديثة.

ومن المؤسِف أنَّ هذه الوسائل صارت سببًا في ضياع الصَّلاة، وتأخيرها عن أوقاتها المفروضة، والتعجُّل فيها وعدم الخشوع، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفيها: فَضْل صلاة العصر، وقد قال ﷺ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ العَصْرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»(١)، أي: سُلِبَ وتُرِكَ بلا أهلٍ ولا مالٍ.

ومَن حافظ عليها كان له أجرُها مرَّتين؛ ففي الحديث: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»(٢).

وفي صلاة العصر مع الفجر: اجتماعُ الملائكة، وارتفاعُ الأعمال إلى الله(٣).

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٤)، و«البَرَدان»: هما الصبح والعصر.

وفي حديثٍ آخر: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»، يَعْنِي: الفَجْرَ وَالعَصْرَ(٥).

وفي الآية: وجوب القيام في الصَّلاة، وهذا مع القُدرة في الفرائض، واستحبابًا في النوافل.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) رواه مسلم(٨٣٠).

(٣) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٥) رواه مسلم (٦٣٤).

وفيهـا: أنَّ الكلامَ في الصَّـلاة -لغير مَصْلَحتِها- والعَبَث فيهـا، يُنافي القنوت، وقد قال النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَـذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُـحُ فِيهَا شَيْءٌ من كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْـبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ»(١).

وفيها: تربية النفس بالمداومة على العِبادة.

وفيها: التيقُّظ والتحرُّز من النُّقصان في الصَّلاة.

وفيها: تعظيم الله، واستحضار أمره، عند القيام بينَ يدَيه.

وفيها: تيسير الله على عباده.

وفيها: جواز الحركة الكثيرة في الصَّلاة للضرورة.

وفيها: أنَّه يجب أداء العِبادة على التمام، متى زال العُذر.

وفيهـا: مُراعـاة شَرْط الوقـت في الصَّـلاة، وأنَّـه يُصَلِّي على حَسَـب حالـه، ولا يجوز أن يؤخِّرهـا حتـى يخرج وقتُها، ولو صلَّى ماشـيًا أو راكبًا أو مضطجعًـا، أو يومئ إيماءً، أو بغير إيماءٍ إذا لم يقدِر عليه، ولو كانت ثيابُه أو فِراشُـه مُتنَجِّسـة ولا يسـتطيع إزالة النجاسـة، ولو كان يخرج منه البول باسـتمرار، ولو كان على غير طهارة ولا يسـتطيع الوضوء ولا التيمُّم؛ فالصَّلاة لازمةٌ في وقتها في كلِّ الأحوال، وبحَسَب الإمكان.

وفيهـا: أنَّ الصَّلاة في الوقت مع الخوف -ولـو مع الإخلال ببعض شروطها وأركانها- أوجب من الصَّلاة خارج الوقت مُطمئنًا.

وفيها: مِنَّة الله على عباده بتعليمهم، وأنَّه لولا تعليمُ الله إيَّانا ما عرَفنا كيف نعبده.

وفيها: شُكر الله على نِعمته.

وفيها: أنَّ الأصل في الإنسان الجهل.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾﴾:

ثم عاد السياق مرَّةً أخرى إلى ذِكر حقوق الزوجات المتوفَّى عنهنَّ أزواجُهنَّ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ﴾ أي: يُقاربون الوفاة، ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي: لديهم زوجاتٌ في عِصْمتهم، فعليهم ﴿وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾ أي: عليهم أن يُوصوا الزوجاتهم ﴿مَّتَٰعًا﴾ بالنَّفقة، والكِسوة، والسُّكنى ﴿إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾ إلى تمام سنةٍ قمريَّة، تبدأ من موت الزوج. ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ أي: للزوجات الحقُّ في البقاء في بيت الزوجيَّة، ولا يَملِك الورَثة إخراجُهنَّ منه.

﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ﴾ من منازل أزواجهنَّ، باختيارهنَّ، قبلَ الحول؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لاحرجَ ولا إثمَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ -يا أولياء الزوج والزوجة- ﴿فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من الزِّينة، والاستعداد للخِطْبة، ونحو ذلك ﴿مِن مَّعۡرُوفٖ﴾ وهو ما عرَفه الشَّرْع ولم يُنكِره.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: ذو عِزَّةٍ، وغَلَبةٍ، وقوَّة ﴿حَكِيمٞ﴾: ذو حِكْمة وحُكْم.

وذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى: أنَّ هذه الآية منسوخة، وأنَّ حقَّ الزوجة في النَّفقة والسُكنى من مالِ زوجها سنةً كاملةً بعد وفاته، منسوخٌ بآية الميراث. وأنَّ اعتدادَها في بيت الزوج سنةً كاملةً، منسوخٌ بالآية التي سبقَتْها في ترتيب السُّورة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: «فنُسِخَ ذلك بآية الميراث، بما فرض لهنَّ من الرُّبُع والثُّمُن، ونُسِخَ أجَلُ الحَوْلِ بأنْ جُعِلَ أجلُها أربعة أشهرٍ وعشرًا»(١).

وأخرج البخاريُّ(٢)، عن عبدِ الله بنِ الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلتُ لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾، قد نسختْها الآية الأخرى، فلِمَ تكتبُها -أو تَدَعُها-؟ فقال: «يا ابن أخي، لا أُغيِّر شيئًا منه من مكانه».

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٩٨)، والنسائي (٣٥٤٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٠).

والمعنى: إذا كان حُكمُها قد نُسِخَ بالأربعة أشهر، فما الحِكْمة في إبقاء رَسْمها مع زوال حُكْمها، وهذا يُوهِم بقاءَ حُكْمِها؟ فأجابَه بأنَّ الأمر توقيفيٌّ، وأنَّه أثبتَها كما وجدَها.

وذهبَ بعضُ العلماء -منهم شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ- أنَّ الآية غير منسوخة، وللمرأة حقٌّ في البقاء في بيت الزوج بعد وفاته سنةً كاملةً[1]. فالله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرحمة بالزوجة.

وفيها: مسئوليَّة الأولياء من الرِّجال، وأنَّهم مؤاخَذون إذا لم يمنعوا مُوَلِّياتِهم من النِّساء من فِعْل المُنكَرات.

وفيها: أنَّ المرأة لا يجوز لها أن تخرج عن المعروف الذي عرَفه الشَّرْع، وتعارَفَ عليه أصحابُ العقول السليمة والفِطَر المستقيمة، لا في لباسها أو مِشيتها، أو صوتها، أو غير ذلك.

فلا يجوز لها الخِدمة في المطاعم، أو تنظيف الشوارع، أو تنظيم المرور، أو تمثيل البلاد في الرياضات العالميَّة، أو العمل في البناء في المقاولات العامَّة، أو التنقيب عن النِّفط في الصحاري، أو الدُّخول على الرِّجال في أماكنهم لتسويق السِّلَع وعَرْض المبيعات، أو العمل في الإرشاد السياحيِّ، أو صيانة إطارات السيارات، أو العمل في الحراسات العامَّة، ونحو ذلك ممَّا لا يليق بها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾: سُمِّيت (مطلَّقة)؛ لأنَّها أُطلِقت من قَيْد النِّكاح. و(اللام) في قوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ لبيان الاستِحقاق.

وظاهر هذا اللفظ عُمومُ المطلَّقات، سواءً سُمِّيَ لها مَهْر أم لا، وسواءً كانت مدخولًا بها أم لا.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٩).

فللجميع ﴿مَتَٰعُۢ﴾ وهو: ما تتمتَّع به، من نَقْدٍ، أو حُلِيٍّ، أو كِسوة، ونحو ذلك. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: ما عرَفه الشَّرْع، ويعرفه الناس، بحَسَب حال الزوجَين وما يليق بهما.

﴿حَقًّا﴾ أي: حتمًا لازمًا ثابتًا ﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: الذين يتقون عقاب الله، بفِعْلِ ما أمرَهم به، وترْكِ ما نهاهم عنه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن لم يُمَتِّع زوجته المطلَّقة؛ ففي تقواهُ نقصٌ.

وفيها: وجوب المُتعة لكلِّ مطلَّقة. وخصَّص بعضُ العلماء التمتيع في هذه الآية بمفهوم الآية السابقة؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، فقالوا: إنَّ المُتعة خاصَّةٌ بمَن لم يُدخَل بها، ولم يُسَمَّ لها مَهْرٌ.

وفي الآية: التأكيد على الحقوق؛ لئلَّا يتهاون بها الناس.

وفيها: الإغراء والحثُّ على أداءِ الحقوق، بوَصْف مَن يؤدِّيها بالصِّفات الحسَنة، مثل: «المحسنين» و«المتَّقين».

وفيها: تشريف وتعظيم أهلِ التَّقوى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾:

قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما تقدَّم من أحكام المطلَّقات والعِدَد في البيان السابق؛ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُظْهِرُ ويوَضِّح ما تحتاجون إليه، معاشًا ومعادًا، من الآيات في خَلْقه وفي شَرْعه. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لتكونوا من أصحاب العقول الرشيدة، وتفهَموا ما بيَّنه لكم؛ لِتعمَلوا به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده، ببيان ما يحتاجون إلى معرفته، من حدوده، وحلاله وحرامه، والأحكام النافعة لهم.

وفيها: أنَّ مَن عَلِمَ أحكام الله تعالى في خَلْقه وشَرْعه؛ فهذا دليلٌ على كمال عقله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى -فيما مضى- طائفةً من آياته الشرعيَّة، الدالَّة على حِكْمته؛ أَتْبَعَ ذلك بذِكر بعضِ الآيات الكونيَّة، الدالَّةِ على قُدرته؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمَّد ﷺ، ويشمل أيضًا: كلَّ مخاطَب بهذا القرآن. وهذا استِفهامٌ للتعجُّب والتشويق إلى سماع قِصَّتهم. ومعناه: ألم تعلم وتنظر في حالِ ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: من بيوتهم وأحيائهم وأوطانهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرة؛ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوفًا منه وفِرارًا. قيل: لوَباءٍ نزل بأرضهم، وقيل: هربًا من القتال. ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾؛ فماتوا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدَّةٍ ﴿أَحْيَٰهُمْ﴾ أي: ردَّهم إلى الحياة؛ لطفًا بهم، وليُرِيَ العِبادَ آياتِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ عظيمٍ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعًا، فيما يُريهم من آياته الباهرة، والحُجَج القاطعة، والدِلالات الواضحة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشُكره، مع تفضُّلِه عليهم، بل يكفُرونه ويَعْصُونه.

وثبت عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «كانوا أربعة آلافٍ، خرجوا فِرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بمَوْضع كذا وكذا؛ قال الله لهم: ﴿مُوتُواْ﴾؛ فماتوا، فمرَّ عليهم نبيٌّ من الأنبياء، فدعا ربَّه أن يحيِيَهم، فأحياهم؛ فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها عِبرةً ودليلًا قاطعًا على قُدرة الله على بعْثِ الأجساد، يومَ القيامة.

وفيها: أنَّه لا يُغنِي حَذَرٌ من قَدَرٍ، وأنَّه لا ملجأ من الله إلَّا إليه. وهذا يُشَجِّع العبدَ على الإقدام على طاعة الله تعالى كيفما كانت، ويُزيل الذُّعْر من الموت عن قُلُوب المجاهِدين في سبيل الله.

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٦٦).

وفيها: نِعمة الله وفَضْله حتى على الكفَّار.

وفيها: أنَّه لا يقوم بشُكر الله إلَّا القليلُ من الناس.

وفيها: أنَّه لا يخرج أحدٌ عن أمر الله.

وفيها: أنَّ الله تعالى يأمُر بالكلام، كقوله: ﴿**كُن**﴾، وقوله: ﴿**مُوتُواْ**﴾.

وفيها: أنَّ مِن طبيعة البشر الفِرارَ من الموت.

وفيها: أنَّ البلاء إذا نزلَ والقدَر إذا حصل؛ فإنَّه لا ينفع الفِرار منه؛ ولذا صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال في نزول الطاعون: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[1].

لكنَّ هذا لا يُنافي الاحترازَ من المخاوف والمُهلِكات، والتوقِّي من المكروهات، والأَخْذَ بأسباب النجاة، لكنَّ هذه الأسباب لا تنفع إذا قضى الله بنزول قدَرِه، وقد يموت الإنسان وهو آخذٌ بسبَبٍ يظنُّ أنَّه ينجو به من الموت، وكم من شخصٍ مات وهو في طريق هَرَبِه من الموت!

وفي الآية: قَصُّ القَصَص للاعتبار، وأهميَّة نَشْر هذه القِصَّة وأمثالها بينَ الناس؛ ليتَّعظوا بها.

ويُؤخَذ من الآية: شُكر النِّعمة، بمعرِفتها ونِسْبتها إلى المُنْعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإقرارِ بذلك، واستعمالِها في طاعته.

وفيها: الحثُّ على النظر في أخبار السابقين.

وفيها: تَرْك بعض التفاصيل في بعض القَصَص، لمصلحة السامعين؛ لئلَّا ينشَغِلوا عن المقصود الأساسيِّ من إيراد القِصَّة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾:

ولـمَّا بيَّن تعالى أنَّ الفِرار من الموت لا يُنجي منه؛ أمَرَ عباده بالجهاد في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ عدُوَّ الله وعدُوَّكم، ولا تهرُبوا كما هَرَبَ أولئك.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

وأمـر أن يكـون هذا القتالُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء دِينـه، لا لغنيمةٍ، ولا لعصبيَّةٍ، ولا لإظهار شجاعة. والعِبادات -ومنها الجهاد- سبيلٌ وطريقٌ إلى الله، يسلُكها صاحبُها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلامِكم ﴿عَلِيمٞ﴾ بنيَّاتكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الأمر بقتال الكافرين. وقد يكون فرضَ عَينٍ، أو فرضَ كفايةٍ، أو مستحبًّا غيرَ واجبٍ، بحَسَب اختلاف الأحوال.

وفيها: التذكير بالإخلاص في الأعمال.

وفيهـا: أنَّ سـبيل الله -وهـي الطريـق الموصِلـة إلى الله- لا بُـدَّ فيهـا مـن صِحَّـة النِّـيَّـة -بالإخلاص- وصِحَّة العمل -بأن يأتيَ به على الوجه المشروع-.

وفيهـا: وجوب موافقـة الشريعة في الجهـاد؛ كطاعة الأمير، والصَّبر عنـد اللِّقاء، وعدم التولِّي عند الزحف، وحُسن معاملة الأسرى، وطريقة قِسمة الغنائم، وغير ذلك.

وفيها: تحذير المُثبِّطين عن الجهاد، بأنَّ الله سميعٌ لأقوالهم، وسيُجازيهم عليها.

وفيهـا -مـع الآية التـي قبلها-: التمهيـد للنفوس قبـل ذكِر الأمور الكبـيرة؛ فكما أنَّ الفِـرار مـن الموت لا يُغني، فكذلـك الفِرار من الجهاد والامتناع عنـه ليس بالضرورة أن يُنجـي فاعلَـه من المـوت، وفي هذا رَدٌّ عـلى المنافِقين الذين قالـوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾:

ولـمَّا كان الجهاد بالمال رَديفَ الجهاد بالنفس؛ حثَّ الله تعالى عليه بعدَه؛ فقال:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾: هذا الاستِفهام للتشويق والإغراء؛ ومعناه: أين الذي يُقرِض الله، فليتقدَّم؟ و(القَرْض): هو القطع، فالمُقْرِض يقتطع للمقترِض جزءًا من ماله.

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: طيِّبًا، مقرونًا بالإخلاص، فيكون من مالٍ طيِّبٍ حلالٍ، بِلا منٍّ ولا أذى.

فمن فعلَ ذلك فجزاؤه المُضاعفة؛ ولذا قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالأجر والجزاء ﴿لَهُۥٓ﴾ للمنفِق والمتصدِّق ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ لا يعلمها إلَّا الله، قد تبلُغ السَّبعَمائة وتزيد عليها، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ﴾ أي: يُمسِك ويُضيِّق على بعض العِباد؛ ابتلاءً لهم. ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يُوَسِّع على مَن يشاء؛ اختبارًا وامتحانًا. كما أنَّه يَقْبِض بعضَ القُلُوب فلا تُقْدِم على الطاعة، ويَبْسُط أخرى فتُسارِع إلى الخير.

﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة، للحساب والجزاء، فيُثيب المنفِق، ويعذِّب البخيلَ المُمْسِك -إن شاءَ-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد، وفي غيره.

وفيها: تشريفُ أهل الإنفاق، بمعاملة صدَقاتهم على أنَّها قُروضٌ، وأنَّ الله تعالى يرُدُّها بلا ريب، ويضاعفها لأصحابها، مع استغنائه عنهم، وعن أموالهم.

وفيها: نَدْب العِباد إلى القَرْض الحَسَن، وهو: ما يكون خالصًا لله، من مالٍ حلالٍ، يُخرِجه المتصدِّق بنَفْسٍ طيِّبة، ويَضَعُه في محلِّه الشرعيِّ، مراعيًا المصلحةَ الشرعيَّة، ولا يُتبِع ذلك منًّا ولا أذًى.

وفيها: كَرْم الله تعالى بالمضاعَفة أضعافًا كثيرة، وأنَّه إذا قبضَ الصَّدَقة بسطَ في الأجر والجزاء.

وفيها: إشارةٌ إلى تمام رُبوبيَّة الله تعالى، بأنَّه يقبِض ويبسُط، وله في ذلك الحِكْمة البالغة.

وفيها: نَدْب العِباد إلى الصَّدَقة، كلٌّ على حَسَب حاله وماله.

وفيها: أنَّ على العبد ألَّا يترك الصَّدَقة خشيةَ النقص والفقر؛ فإنَّ الله يَزيده ويُعَوِّضه، ويَبسُط له، وتَرْك الصَّدَقة لا يُبقِي الغنيَّ على غِناه؛ فقد ينقُص مالُه نقصًا حقيقيًّا بأسباب أخرى، وكم من مُمْسِكٍ بخيلٍ احترقَ مالُه أو ضاع أو سُرِق.

وفي تسمية الصَّدَقة (قرضًا): تأنيسٌ للناس، ومخاطبتهم بما يفهمونه.

وفي الآية: أنَّ مَن لم يستطع الجهاد بنفسه؛ فإنَّه يتأكَّد عليه الجهاد بماله، ويا لسعادةَ مَن جمعَ بينهما.

وفيها: أنَّ ابتغاءَ الآجِل بالعمل العاجل، يفعله الذين يؤمنون بالرُّجوع إلى الله، ويوقِنون بحُسن جزائه.

وفيها: تذكير العِباد بالمعاد إلى الله؛ كي يرغبوا في الإنفاق، ويَحْذَروا من البُخل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾:

ولـمَّا أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال في سبيله؛ أخبرهم بأنَّ هذا التشريع قديمٌ، وأنَّ الجهاد كان مطلوبًا في الأُمَم السابقة؛ تشجيعًا وتثبيتًا للمؤمنين؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم عِلْمَ اليقين كأنَّك تراه. والخِطاب للنبيِّ ﷺ، ولكلِّ مَن نزل القرآن من أجْلِه. وهذا الاستِفهام للتعجُّبِ والتشويقِ وتقريرِ القِصَّة، والحثِّ على الاعتبار منها.

﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ من الأشراف والوُجَهاء ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم أفضل الأُمَم في ذلك الوقت. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان هذا بعدَ موسى بدهرٍ طويلٍ، وكان في زمن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة، فكانوا منصورين فاتحين، ثم كفَروا وعصَوا،

وخالَفوا وتولَّوا، فسلَّط الله عليهم أعداءَهم، فاحتلُّوا بلادَهم، وأخرَجوهم منها، وسلَبوهم التابوت، فاستيقظَت في نفوس بني إسرائيل الرغبةُ في العودة لِما كانوا عليه.

فلو رأيتَهم ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ من أنبيائهم الكثيرين، الذين كانوا يَسُوسونَهم، ولو كان في معرفة اسمه فائدةٌ لبيَّنه الله لنا.

فقالوا له: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا﴾ أي: أقِم وعَيِّن ﴿مَلِكٗا﴾ يتولَّى علينا، ونرجع إليه، ويقودنا، ﴿نُّقَٰتِلۡ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِتكون كلمةُ الله هي العُليا. وقد قالوا ذلك لنبيِّهم؛ إغراءً له، وتشجيعًا.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيُّهم، مختبِرًا عزيمتَهم وحقيقةَ ادِّعائهم: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ أي: هل يُتوقَّع منكم ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرِض ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾ في سبيل الله ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ وتجبُنوا، وتتولَّوا؟!

فأجابوه: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما الذي يمنعنا من ذلك، ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا﴾ طردًا وإبعادًا ﴿مِن دِيَٰرِنَا﴾ وأوطاننا، ﴿وَأَبۡنَآئِنَا﴾، فاستولى الكفَّار على بلادنا، وأخذوا أبناءنا في السَّبي؟!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ وفُرِض؛ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرَضوا عن ذلك، ولم يقوموا به، ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾، فعصمهم الله وثبتهم وقوّى قلوبهم، فالتزموا أمرَ الله، ووطّنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم: الذين تركُوا ما أوجبَ الله عليهم، وظلَموا أنفُسَهم، وظلَموا المستضعَفين؛ فسيُجازيهم العليمُ بهم، الخبيرُ بما عَمِلوه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريمُ تَرْك الجهاد في سبيل الله.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ للجيوش من قائدٍ يقودها.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من طاعة القائد.

وفيها: أنَّ مرتبة النبوَّة أعلى من مرتبة المُلك؛ لأنَّهم طلبوا من نبيِّهم أن يبعثَ لهم مَلِكًا.

وفيها: امتحان المدَّعِي للشيء؛ لتستبينَ حقيقةُ دَعواه.

وفيها: استنهاض الهِمَم للجهاد في سبيل الله، بِذكر حال المظلومين من المسلمين.

وفيها: أنَّ بعض مَن يدَّعي فِعْلَ الخير، لا يثبُت عليه إذا جاء وقتُ الجِدِّ.

وفيها: أنَّ من مُبيحات القتال: رفعَ الظُّلْم عن المظلومين، وإعادتَهم إلى ديارهم، واستنقاذَ ذُرِّيَّاتهم من أيدي الظالمين.

وفيها: ابتلاء الله لعباده بفِعْل الواجبات، وتَرْك المحرَّمات.

وفيها: أنَّ على العِباد الثباتَ عند الابتلاء.

وفيها: الإشارة إلى أنَّه لا يَصِحُّ الاستهانةُ بالأعداء، وتمنيِّ مُقابَلتهم؛ لأنَّ كثيرًا ممَّن يدَّعي الشجاعةَ والثباتَ أمامَهم، رُبَّما يَفِرُّ إذا لاقاهم! ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[1].

وفيها: أنَّ تَرْك القيام بما أوجبه الله ظُلْمٌ.

وفيها: أنَّ الأَخْذَ بالأسباب لملاقاةِ الأعداء، والإعدادِ لجهادهم، من أَجْلِ تحرير بلاد المسلمين، وإنقاذِ أَسْراهم؛ واجبٌ، وهذا يختلف عن التمنيَّات والادِّعاءات الفارغة، القائمة على الاستهانةِ بالعدُوِّ، والاغترارِ بالنفس.

وفي الآية: الحذَر من تغيُّر النِّيَّات، وانحلال الهِمَم والعزائِم في فِعْل الخير.

وفيها: أنَّ سَلْبَ الأبناء أشدُّ على النفس؛ لأجل الحاجة إليهم، حالًا ومستقبَلًا.

وفيها: أنَّ العلماء يَضْبِطون حماس العامَّة ويُوَجِّهونه.

وفيها: إيقاف المدَّعِي على حقيقة نفسه.

وفيها: أنَّ الحياة تهون في نظر المظلوم المقهور المسلوب، فيكون أكثر استعدادًا للقتال.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

وفيهـا: أنَّـه لا تنـافي بينَ الجهاد في سـبيل الله، وبين اسـترجاع الدِّيـار المسـلوبة والذُّرِّيَّة المأخوذة؛ بل يُستثمَر الثاني لتعزيز الاندفاع إلى الأول.

وفيها: تشديد العهود والمواثيق على مَن يُخْشَى نُكوصُه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾:

قولـه تعـالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ أي: بـما أُوحِـي إليـه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾ واختـارَ واصطفـى ﴿لَكُمْ﴾ أي: مـن أجْلِكـم ومصلحتِكـم ﴿طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ لتكونوا تحت إمرَته.

ولأنَّـه لم يكـن من بيـت مُلْكٍ، فقـد اعترضوا عليـه، وقالـوا: ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: كيف. وهذا استِفهامٌ للإنـكار والاعـتراض ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ والإمـرة، وليس مـن ذُرِّيَّـة مُلوكِنا؟! ثُمَّ زادوا في الإسـاءة والاعـتراض، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ وأولَى، وقد تقرَّر عندهم ألَّا يرث المُلكَ إلَّا كابرٌ عن كابرٍ، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: فليس صاحبَ حَسَبٍ، ولا مالٍ واسع.

فأجابهـم نبيُّهـم على هـذا الاعـتراض: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، فأكَّـد لهم أنَّ اختيـارَه بوحيٍ مـن الله، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يعنـي: عِلْمَ الدِّيـن وعِلْمَ الحروب، ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ وطُـولِ القامـة؛ فاجتمعـت له القوَّتان الحِسِّـيَّة والمعنويَّة؛ فهـو أعلَمُ منكم، وأشَدُّ قوةً وصبرًا في الحَرْب، ومعرفةً بها.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ بعِلْمـه وكَلِمَتـه، فـلا يُسـأل عـمَّا يَفعـل، ولا يجوز الاعتراض عليه سبحانه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في فَضْله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يستَحِقُّ المُلك، ويصلُح حالُ الناس به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ السمع والطاعة لله ورُسُله.

وفيها: تعظيمُ الأنبياء لربِّهم، وحُسنُ أدبهم معه، وسَعيُهم في طاعةِ الناس له، وإقناعِهم بتنفيذ أمره.

وفي الآية: مراعاة الدِّين والبدَن في اختيار القائد.

وفيها: أنَّه كلَّما كان الخليفة والمَلِك ذا صفاتٍ ومزايا أعلى؛ كان أعونَ له على الحُكمِ، وانقيادِ الرَّعيَّةِ له.

وفيها: أنَّ فضائل النفس مُقَدَّمة على المال.

وفيها: أنَّ مُلك العِباد هو في الحقيقة مُلكٌ لله، وأنَّ الله يؤتيهم إيَّاه؛ ابتلاءً واختبارًا.

وفيها: أنَّ من الناس مَن ينخدِع بالأمور الماديَّة الدُّنيويَّة المحسوسة، ويغفُل عن الحقائق والفضائل النفسيَّة والمعنويَّة.

وفيها: أنَّ العِلْم أفضل من قوَّة البدَن؛ لأنَّه قدَّمه بِالذِكر في الآية.

وفيها: أنَّ الإمامة لا تُستحَقُّ بالإرث ولا الغِنَى.

وفيها: أنَّه لا يُشترَط في ولاة الأمر أن يكونوا أغنياء.

وفيها: أنَّ قوَّة الرأي اللازمة للقيادة تنبُع من العِلْم.

وفيها: حُسن الإجابة عن الاعتراضات، وإزالة الشُّبُهات؛ فإنَّهم لـمَّا اعترَضوا على نبيِّهم وألقَوا بشُبُهاتهم؛ ردَّ عليهم وفنَّد كلامَهم؛ فأخبرَهم أولًا أنَّ القضيَّة اصطفاءٌ من الله -الذي تجب له الطاعة والتسليم والانقياد لحُكمه-. ثم لفتَ نظرَهم إلى أنَّ هذا الرجل الصالح فيه من المميِّزات ما هو أَولَى من نَسَب المُلكِ وسَعَة المال. ثم بيَّن لهم أنَّ الله أعلَمُ بمَن يصلُح للمُلك، وأنَّ اصطفاءَه عَزَّوَجَلَّ لحِكْمة. ثُمَّ ذكرَ لهم مِن صفات الله ما يُناسِب الحالَ والمقالَ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾:

ولـمَّا كان بنو إسرائيل قومًا فيهم جِدالٌ ومُنازَعةٌ واعتراضٌ على الحقِّ؛ زادَهم الله آيةً ومعجِزةً، تدلُّهم على صِحَّة ما أُخبِروا به من مُلك طالوت.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ -بوَحْي من الله-: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ والعلامةَ الدالَّةَ على أنَّه حقٌّ، هي ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو: الصُّندوق الخشبيُّ الذي كان يحتفظ به بنو إسرائيل، ويَصْطحِبونه في المعارِك، حتى استولى عليه أعداؤهم، ففَقدوه وعزَّ عليهم فَقْده. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رحمة ووقار، وجلال، وطُمأنينة لنفوسِكم. ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ أي: بقايا ورُضاض الألواح (يعني: فُتاتها) التي كانت التوراة مكتوبة فيها، مع عصا موسى، وغير ذلك من الآثار ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ والمراد: موسى وهارون أنفُسهما. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتحرُسه وتنقُله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحمِلُه، حتى تضعَه في بيت طالوت»[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في رجوع التابوت بهذه الطريقة المعجزة ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ﴾، دالَّةً على صِدق نبيِّكم فيما أخبرَكم به، من تعيين طالوتَ مَلِكًا. هذا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورُسُلِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده؛ حيث يبعث من الآيات ويُقيم من المعجِزات ما تطمئن به النفوس، ويؤمِن عليه البشر.

وفيها: انتفاع أهلِ الإيمان بآيات الرحمان.

وفيها: أثر السكينة في النفوس.

وفيها: أنَّ الملائكة أجسامٌ تطير، وتحمِل وتضع الأشياء.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٣٦).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾:

ولـمَّا جاء التابوت، وأقرَّ بنو إسرائيل بالمُلْك لطالوت رَحِمَهُ اللَّهُ، واستلمَ زِمام القيادة؛ جهَّز جيشَ بني إسرائيل لمُلاقاة الأعداء.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: خرجَ مع جيشه ومَن أطاعه من البلد؛ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أي: مختبِركم -وكان قد أصابهم حرٌّ وعَطَشٌ- ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو: الماء الجاري الكثير. وقيل: هو نهر الشريعة المشهور، الذي بينَ الأُرْدُن وفِلَسطين.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس على طريقتي، ولا من أتباعي، وأنا بريء منه.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يَذُقه؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي: على سُنَّتي ونهجي، لصِدقه وصبره.

﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ وهو: الشيء القليل، الذي يُغترَف في الكفِّ مرَّةً واحدةً، فمَن فعلَه فلا بأس عليه. وكان هذا الابتلاء من الله ليظهَر الذين يثبُتون من هؤلاء المتحمِّسين، المدَّعِين الاستعدادَ للقتال.

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: كَرَعُوا وشَرِبوا بأفواهِهم، كما اشتهَت نفوسُهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ فإنَّهم قد امتثلوا وأطاعوا، ولم يتجاوَزوا الغَرْفة.

وقد جاء عددُهم، كما قال البَرَاء بنُ عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا -أصحابَ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نتحدَّث: أنَّ عِدَّةَ أصحاب بَدْرٍ على عِدَّةِ أصحاب طالُوتَ، الذي جاوَزوا معه النهر، ولم يُجاوِزْ معه إلَّا مؤمنٌ: بضعة عشر وثلاث مائة»[1].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: تعدَّاه ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وهم الذين

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥٨).

اقتصروا على الغَرْفة، أو لم يذوقوا الماء أصلًا. ﴿قَالُواْ﴾ وهم: بعض مَن جاوز معه النهر، ممَّن ضعُفَت بصيرتُه، فليس كلُّ مَن صبر أمام الماء يصبِر أمام الأعـداء: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا قُـدرة، ولا قـوَّة لنا. قالوا ذلك لـمَّا رَأَوا قِلَّة عدَدِهم وكثـرةَ عدُوِّهم. ﴿بِجَالُوتَ﴾ وهو قائد جيش الكفَّار، قيل: كن جبَّارًا من العمالقة. ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ الكثيرين عددًا وعُدَّة.

﴿قَالَ﴾ العلماء الصادِقون في ردِّهم، وهـم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، العالمِون والموقِنون بأنَّ وَعْد الله حقٌّ، والمؤمنون بلقاء الله واليوم الآخر. و(الظَّنُّ) هنا بمعنى: اليقين.

قالـوا لهـم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ مـن المؤمنـين ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ مـن الكافريـن، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقـدَره ونَـصْرِه وإرادتـه. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: بالمعونـة، والنُصرة، والتأييد.

وقوله ﴿كَم﴾ في هذه الآية للتكثير؛ أي: ما أكثرَ ما تغلِب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للقائد أن يتفقَّد جنوده، ويتدبَّر أحوالهم، في خروجهم ومسيرهم.

وفيها: أنَّه يجب على القائـد أن يمنعَ من الخروج أو المواصَلة كلَّ مَن لا يصلُح للحَرْب، سـواء كان مخـزِّلا مُثبِّطًا، أو مرْجِفًا جبانًـا خائفًا، أو عاصيًـا متمرِّدًا؛ لِـما يُسَـبِّبه هؤلاء من إضعافِ عزيمة الجيش، وإلقاءِ الخوف في قُلُوبهم، أو إحداثِ الانشقاق بينهم.

وفي الآيـة: حُسـن اختيارِ الجنـود، وتدريبُهم، واختبـارُ قُدرتهـم عـلى التحمُّل والثبات والطاعة.

وفيهـا: تـوالى الاختبـارات؛ لمعرفـةِ حقائق الجنـود، وترويضِهـم وتمرينِهـم للصبر على المشاقِّ، والطاعةِ وامتِثالِ الأوامر.

وفيها: أنَّ أكثر العِباد لا يُنَفِّذ أمر الله.

وفيها: جواز الاختبار والامتحان، بما لا يترتب عليه مفسدةٌ أو مهلكةٌ.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجِب الصَّبر والتحمُّل، ويمنع الوَهْنَ والضَّعْفَ والجُبْنَ.

وفيها: أنَّ الله يبتلي عبادَه بالحِرمان من بعض المحبوباتِ أحيانًا.

وفيها: رحمة الله تعالى بعباده، بالإذن بغَرفة اليد، للإبقاء على الحياة.

وفيها: أنَّ اليقين بوَعد الله ولقائه، يُقَوِّي الأمل والرجاء، ويبعث على التفاؤل.

وفيها: عدم الاغتِرار بالكثرة، وأنَّها كثيرًا ما تنهزِم.

وفيها: الحثُّ على الصَّبر، وأهميَّته في الجهاد.

وفيها: أنَّ بعض الناس يصبِر على أمورٍ دون أمور.

وفيها: تفاوت المؤمنين في العِلْم والبصيرة.

وفيها: فَضْل أصحاب العِلْم في تثبيت الناس.

وفيها: أنَّ القِلَّة رُبَّما تُنقِذ الموقف.

وفيها: أنَّ المؤمنين يُقاتِلون بأعمالهم أولًا، قبل العِدَّة والعدَد.

وفيها: أثر التأييدِ الإلهيِّ في جَلب النصر، ومعيَّةِ النُصرة والتأييدِ للمؤمنين.

وفيها: تمحيص الحماس الظاهر، والادِّعاءات.

وفيها: أنَّ الله يكشِف حقائق العِباد، بأقداره من الحوادث، والأوامر والنواهي.

وفيها: سُنَّة الله في دَفعِ الكافرين بالمؤمنين، والمواجَهةِ بينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل.

وفيها: وجوب طاعة القائد في غير معصية الله.

وفيها: تشابُه أحوال المؤمنين على مرِّ العصور وكرِّ الدهور، حتى شابَه أهلُ بَدْرٍ أصحابَ طالوتَ في العدَد -وإن كانَ أهل بَدْرٍ أفضل منهم-.

وفيها: أهميَّة كلام المؤمنين الصادِقين، في تثبيت النفوس في المواقف الخطيرة الحاسمة، وتقوية القُلُوب عند المواجَهة.

وفيها: أنَّ القليل من زاد الدُّنيا يكفي الزاهدين، ويكسِر حِدَّة الحاجة.

وفيها: مباركة الله في القليل، إذا أُخِذَ بحقٍّ.

وفيها: أنَّ ذَوْق الماء يُسـمَّى طُعمًا، وقد قال النبيُّ ﷺ عن ماء زمزم: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»(١).

وفيها: أنَّه لا تنفع الكثرةُ مع خِذلان الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مع توفيق الله.

وفيها: أنَّ الجيش يُهزَم بالمعاصي، وإنَّما يُقاتِل المؤمنون بأعمالهم الصالحة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟﴾ أي: طالوت وجنوده المؤمنون، وظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ الكافرين، ودنَوا منهم لِلِّقاء.

﴿قَالُوا۟﴾ متضرِّعين إلى الله، مستعينين به: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: املأ قُلُوبَنا بالصَّبر، وأجسادَنا، حتى نثبُتَ. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى لا نَفِرَّ ولا نهرُب. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أعِنَّا عليهم، حتى نَغْلِبَهم.

ولـمَّا صدَقوا، وصبَروا، ولجأوا إلى الله تعالى بالدُّعاء؛ استجاب الله لهم، لـمَّا التحَموا مع القوم الكافرين؛ ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: كَسَرَ المؤمنون الكافرين، وغلَبوهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمره، وإرادته، وتقديره.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ وكان جُنديًّا من جنودِ طالوت، شُجاعًا، مؤمنًا، وقد كتب الله على يدَيه هلاكَ ﴿جَالُوتَ﴾ الجبَّار، قائد الكفَّار. وبقَتْلِ القائد ينهزِم الجنود.

ثُـمَّ أتـمَّ الله نِعمتـه عـلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ فصـار مَلِـكًا من بعد طالـوت، وآتـاه الحِكْمَة أيضًا؛ ولذا قال: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبـوَّة بعد النبيِّ الذي عيَّن طالوتَ؛ فاجتمع لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ المُلكُ والنبوَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٣).

وقيل: لم يجتمعا في بني إسرائيل لأحدٍ قبلَه.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: آتى الله داودَ من علوم الدِّين وعلومِ الدُّنيا، كصَنعة الحديد، وكيفيَّة القضاء، والصوتِ الجميل، وغير ذلك، ممَّا شاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا دَفْعُ شرِّ الطُّغاة بجهاد المؤمنين لهم؛ ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: لعمَّها الكُفر، والخراب، والإثم، والفساد. و(الفساد): ضِدُّ الصلاح. ومن ذلك: تخريب بيوت العِبادة، وإزالتها، وذهاب الخير والدِّين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾: صاحب النِّعَم، والعطاء الواسع الكثير ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهم: جميع الخَلْق.

وفي الآيتَين من الفوائد:

اللُّجوء إلى الله تعالى في الشدائد، والتوكُّل عليه، وأنَّه سبَبٌ عظيمٌ للإجابة، وعدَم الاعتماد على النفس والاغترار بها.

وفيها: حاجة المؤمن إلى ربِّه، واضطرارُه إليه.

وفيها: أنَّ ثباتَ القَلْب أساسُ ثبات القدَم.

وفيها: الحاجة إلى الصَّبر الكثير في المعركة؛ لقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾، و(إفراغ) الشيء على الشيء يدلُّ على تعميمه به.

وفيها: أنَّ القتال يكون للعداوة في الدِّين، لا للعداوة الشخصيَّة.

وفيها: حُسن الدُّعاء، والترتيب الجيِّد فيه؛ إذ إنَّهم سألوا أولًا الصَّبرَ في القَلْب والبدَن، ثم ثباتَ القدَم المترتِّب عليه؛ فسألوا التثبيتَ الظاهر والباطن، ثم النصرَ المترتِّب عليهما.

وفيها: أنَّ النصر يُنال مع الصَّبر، وأنَّ الصَّبر مجلبة لمعونة الله.

وفيها: أنَّ من أوقات إجابة الدُّعاء: ما يكون عند لقاء الأعداء؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ -أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ-: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ البَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: أنَّ التصبير لا يكون إلَّا من الله؛ ولذلك أثنى الله على هؤلاء المؤمنين الذين سألوه أن يصبِّرهم.

وفيها: أنَّ مَن لجأ إلى الله بصِدْق، وأحسنَ الظنَّ به؛ أجابَ دُعاءه.

وفيها: أنَّ النصر من الله حقيقةً؛ فهو الذي يأذَنُ به ويُرِيدُه.

وفيها: شجاعة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الله إذا أرادَ شيئًا مَهَّد له، وهيَّأ له أسبابه؛ فكان قَتْلُ داودَ لجالوت تمهيدًا لظهورِ أَمْرِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإيتائِه النبوَّةَ والقيادةَ والمُلكَ.

وفيها: أنَّ الأنبياء ليس عندهم من العِلْم إلَّا ما علَّمهم الله.

وفيها: بيان أهميَّة الجهاد في إنقاذِ المؤمنين، وحِفظِ دينهم، ودَرْءِ الشرِّ والكُفرِ وإزالتِه من الأرض، أو محاصرتِه وإضعافِه، ورَفْعِ الظلمِ عن المظلومين.

وفيها: أنَّ الله قد يدفَعُ البلاءَ عن الناس بوجود الصالحين والمُصلِحين فيهم.

وفيها: إثبات فَضْلِ الله على جميع خَلْقه، وفَضْلِه في الدُّنيا على المؤمن والكافر، وفَضْلِه في الآخرة على المؤمنين فقط.

ويؤخَذ من الآيات المتقدِّمة:

الإعـراضُ عـن التفاصيل التي لا حاجة إليها؛ فإنَّ الله تعالى لم يذكُر لنا اسـمَ ذلك النبيِّ الذي بعثَ طالوتَ، ولا تفصيلَ ما في التابوت، ولا اسمَ النهر، ولا كيفيَّة قَتْلِ داودَ لجالوت، وغير هذا ممَّا لا يتعلَّق بذِكره فائدة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات التي قَصَصْناها عليك، أو: القرآن كله ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المنـزَّلة، التي فيها التوحيد، والتشريع، والأخبار، والقَصَص.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنَّها حقٌّ، وما جاءت به حقٌّ، وقد اشتملَت على الحقِّ، وهو: الصِّدق في الأخبار، والعَدْل في الأحكام.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس كافَّةً.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ القرآن نزلَ من عند الله حقًّا، وأنَّه مشتمِلٌ على الحقِّ.

وفيها: إثبات رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ هناك مُرسَلون غيره.

وفيها: تثبيت الإيمان بِقَصِّ القَصص.

وفيها: أنَّ قصَصَ الحقِّ تُطابِق الواقع.

وفيها: أنَّ تفاصيلَ القِصَّة المتقدِّمة لا يعلَمُها إلَّا نبيٌّ مُرسَل، وفي هذا إثباتٌ لنبوَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿تِلْكَ﴾ أي: جماعة ﴿ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: جعَلْنا بعضَهم أفضل من بعض، في الوحي، والكتب، والمعجِزات، والأتباع، والمراتب عند الله.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلَّمه عَزَّوَجَلَّ بلا واسطة، كموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الطُّور، ومحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة المعراج.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على بعض ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في الجنَّة، والفضائل، ويدخل في ذلك: المنازل في السماوات، التي لقيَهم فيها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لـمَّا عُرِجَ به.

وأعلى الأنبياء درجةً في الجنَّة: هو نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودرجته هي الوسيلة -وهي أعلى درجات الجنَّة-.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أعطيناه المعجِزات الظاهرة، الدالَّة على صِدقه

ونبوَّته -كإحياء الموتى، وإبراء أصحاب العاهات- ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قوَّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: بالنَّفْخةِ التي كانت سببَ وجود عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالوحي والعِلْم الذي نقلَه إليه، ثُمَّ حمْلِه ورَفْعِه إلى السماء.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أرادَ ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: لم يحصُل الاختلاف في الأُمَم بعد الرُّسُل، اختلافًا يؤدِّي إلى قتالهم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: المعجِزات، والدلائل الواضحات.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدِّين، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بنبيِّه، وبما أُنزِلَ عليه، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وجحدَ، وأعرضَ، وتولَّى.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ -بالرغم من الاختلاف- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ فلا رادَّ لحُكْمه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الفَضْل بيدِ الله وحدَه، يؤتيه مَن يشاء.

وفيها: إثباتُ التفاضُل بينَ الأنبياء.

وأمَّا النهي الوارد في السُّنَّة عن التفضيل بينهم، في حديث: «لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله»[1]؛ فمحمولٌ على إذا ما كان التفضيل بمجرَّد الرأي والهوى والتشهِّي والعصبيَّة -بغير دليل- أو إذا كان على سبيل التعالي والافتخار، أو إذا أدَّى إلى توهُّم انتقاص المفضول أو الغضِّ منه أو الإزراء به، ويزداد النَّهي إذا كان في مقام المجادَلة أو الخُصُومة، أو أدَّى إلى التخاصُم والشِّجار.

وفي الآية: أنَّ مرجِع التفضيل إلى الله وحدَه، لا إلى آراء البشر.

وفيها: إثبات صِفة الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: فَضْل الله على الرُّسُل، بتأييدهم وتقويتهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

وفيها: الرَّدُّ على النصارى، الذين زعموا أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهٌ.

وفيها: أنَّ قتال الكفَّار للمؤمنين، إنَّما هو عن عنادٍ واستكبارٍ، وليس عن جهلٍ؛ لقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

وفيها: أنَّه لا يقع شيءٌ من الاقتتال في الدُّنيا إلَّا بقضاءِ الله وقدَرِه ومشيئتِه، وله في ذلك الحِكْمة البالغة جلَّ وعلا.

وفيها: ذمُّ الاختلاف في الدِّين، وأسوأ ذلك: ما يكون بعد تبيُّنِ الحقِّ وقيامِ الحُجَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾:

ولـمَّا كان الجهاد في سبيل الله من الاقتتال المذكور في الآية السابقة، وكان الجهاد يحتاج إلى مال؛ أمر تعالى بالإنفاق؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ للحثِّ والإغراء: ﴿أَنفِقُواْ﴾ أي: أُبذُلوا المال في طاعة الله، وتصدَّقوا في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾: من بعض ما أعطيناكم وأنعَمنا عليكم. والإنفاق في الآية يَعُمُّ الواجبَ والمستحَبَّ.

وبادِروا إلى الإنفاق، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ وهو يومُ القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ أي: لا يؤخَذ فيه بَدَلٌ، ولا يستطيع الإنسان أن يفتدي نفسَه من عذاب الله، ويشتريها من الهلاك.

﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ ولا أعلى المودَّة والمحبَّة والصداقة تنفعُه يومئذٍ.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ وهي: الوَساطة لدَفْعِ الضرَر وجَلْبِ المنفعة، فلا تفيد أيضًا.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفُسِهم. وأعظم (الظُّلْم): هو الشِّرك والكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإنفاق في سبيل الله من مُقتَضيات الإيمان.

وفيها: رحمة الله بخَلْقه؛ حيث لم يأمرهم أن يُنفِقوا كلَّ أموالهم؛ وإنَّما بعضها.

وفيها: أنَّ مانع الإنفاق الواجب -كالزكاة وغيرها- ظالمٌ لنفسه.

وفيها: أنَّه لا مِنَّة للعبد على الله في الإنفاق من ماله؛ لأنَّه هو الذي رزقَه إيَّاه.

وفيها: أنَّ الكفَّار لا تنفعهم يومَ القيامة شفاعةُ الشافعين.

وفيها: أنَّ المال لا ينفع صاحبَه بعد الموت، إلَّا ما خصَّه الدليل؛ مثل: مالِ الوصيَّة، والصَّدَقةِ الجارية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾:

هذه آيةُ الكُرْسِيِّ، وهي أعظمُ آيةٍ في كتاب الله تعالى؛ كما دلَّ عليه حديثُ أُبَيِّ بن كَعْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد سأله النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أَبَا المنذِر، أَتَدرِي أيَّ آيةٍ من كِتابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، فضَرَبَ في صَدْرِه، وَقَالَ: «والله، لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المنْذِر»[1].

وهذه الآية حِرْزٌ لنفوسنا وأموالنا من الشياطين، كما جاء في قِصَّة أُبَيِّ بن كَعْبٍ، أنَّه سأل الشَّيطان الذي كان يسرِق من تمره: فَمَا الَّذِي يُجِيرُنَا مِنْكُمْ؟ قَالَ: هَذِهِ الآيَةُ آيَةُ الكُرْسِيِّ، ثُمَّ غَدَا أُبَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ الخَبِيثُ»[2].

وإذا قُرِئَت قبل النوم، فلا يزال على صاحبها من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يُصبح، كما جاء في قصَّة أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهورة، عندما كان يأتيه الشَّيطان ويحثو الطعامَ، وقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[3].

وفي آية الكُرْسِيِّ أيضًا اسمُ الله الأعظم، الذي إذا دُعيَ به أجاب؛ ففي الحديث: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفاتحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»[4].

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٣٠)، وابن حبَّان (٧٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٢٣١١) معلقا مجزوما، وابن خزيمة (٢٤٢٤).

(٤) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ لَمْ يَمْنَعْهُ من دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»(١).

وهذه الآية عشرُ جُمَلٍ مستقلَّة، جمعَت أصولًا عظيمة في الأسماء والصِّفات، من: الإلهيَّة، والحياة، والقيوميَّة، والعِلْم، والمُلك، والقُدرة، والإرادة، والإحاطة، والحِفظ، والعُلُوّ، والعظَمة؛ ولذلك كانت أعظمَ آية في كتاب الله، فقراءتها وتدبُّرها أعظمُ في الأجر ممَّا سواها من الآيات.

وقوله ﴿ٱللَّهُ﴾ علَم على الذات الإلهية. ومعناه: المألوه المعبود، المحبوب، المعظَّم، ولا يستَحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾: ذو الحياة الكاملة، لم يزل ولا يزال حيًّا، لم يسبِق حياتَه موتٌ، ولا يَلْحَقها موتٌ، فهو الأول والآخِر، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: القائم بذاته، لا يحتاج إلى أحد، والقائِم على غيره، يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، يقوم بأمور السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ أي: لا تعتَريه ﴿سِنَةٞ﴾ أي: نُعاس، وهو مقدِّمة النوم. ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾؛ لأنَّ هذا نقصٌ لا يليقُ بالله تعالى؛ لأنَّ النائم يغيب عمَّا حولَه، ولا يغيب على الله شيء، والنوم غفلة، والله لا يغفُل عن شيء سبحانه. وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»(٢).

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: مُلكًا وخَلْقًا، يتصرَّف فيه كما يشاء.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا أحدَ يشفَعُ عنده، من أهل السماوات والأرض يوم القيامة ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ وأمره، وإرادته، وذلك لكمال سُلطانه وهَيبته عَزَّوَجَلَّ. و(الشفاعة): التوسُّط عند الغير، لجَلْب منفعةٍ، أو دَفْع مضرَّة. و(الإذن): هو الأمر.

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩٨٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٩٥).
(٢) رواه مسلم (١٧٩).

والنبي ﷺ لا يشفع يومَ القيامة حتى يستأذِنَ ويَسْجُدَ تحت العرش، ويسأل ربَّه، حتى يقولَ له: «اشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١).

وقوله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما هو حاضرٌ أمامَهم وشاهِدٌ، وما يكون في المستقبَل. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: عِلم الماضي.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ أي: لا يُدرِكون، ولا يطَّلِعون ﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ أي: من عِلْم نفسه وذاته، وأسمائه وصفاته، وما يعلمُه في السماوات والأرض، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يُطْلِعَهم عليه.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: شَمِلَ وأحاط. والكُرْسِيُّ أكبرُ من السماوات والأرض، و«الكُرْسِيُّ موضِع القدمَين»، كما قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، وهو ممَّا لا يُقال بمجرَّد الرَّأي؛ فله حُكْم الرفع.

والعَرْش أكبرُ من الكُرْسِيِّ، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا السَّمواتُ السَّبعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ»(٣).

والعَرْش والكُرْسِيّ حقيقيَّان، ومَن فسَّرهما بالعِلم فقد أخطأ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يُثْقِله، ولا يُجْهِده، ولا يُتْعِبه، ولا يشُقُّ عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي: حِفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾: الذي علا وارتفع فوقَ كلّ الأشياء، وله عُلُوُّ القَهْر والغلَبة، وعُلُوُّ صفات الكمال والجلال، وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد.

وهو سبحانه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: ذو العَظَمة، في ذاته، وسُلطانه، وصفاته.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٣١٠)، وصحَّحه الألباني موقوفًا في مختصر العُلُوّ (٤٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في العرش (ص٤٣٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩)، وضعفه غيره.

وفي هذه الآية العظيمة من الفوائد:

إثباتُ خمسة أسماء لله عَزَّوَجَلَّ؛ وهي: الله، والحيُّ، والقيُّوم، والعليُّ، والعظيم.

وفيها: إثباتُ انفراد الله تعالى بالألوهيَّة.

وفيها: إثبات صفة (الحياة) لله. فعلى هذا؛ يجوز الحلِف بـ «حياة الله».

وفيها: حاجة المخلوق إلى الخالِق؛ لقيوميَّة الله على خَلْقه، وهو القائم على كلِّ نفسٍ، والمخلوق لا يقوم بنفسه؛ بل هو مُحتاج إلى غيره، فالله غنيٌّ عمَّا سِواه، وكلُّ شيء يحتاج إلى الله.

وفيها: عُموم مُلك الله؛ لقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وعلى هذا؛ فلا يجوز التصرُّف في مُلْك الله إلَّا بما يرضاه.

وفيها: عدمُ إعجاب الإنسان بعمله وما حصل بفِعْله؛ لأنَّ هذا من الله، والمُلْك له وحدَه.

وفيها: إثبات الشفاعة بإذن الله، يعني: بأمرِه.

وفي الآية: عَظَمة الكُرْسِيّ، وعظمة المخلوق تدلُّ على عَظَمة الخالِق سبحانه.

وفيها: إثبات قوَّة الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

وفيها: أنَّ السماوات والأرض تحتاجان إلى حِفظ الله، ولولا حِفظه لفسدَتا.

وفيها: موعظةٌ لأهل الظُّلْم والطُّغيان، بأنَّ الله عليٌّ عظيم، قادرٌ على الانتقام منهم.

وفيها: الرَّدُّ على مَن يلجأون إلى المقبورين والأموات، ويسألونهم الحاجات، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وما أدراهم أنَّ لهم شفاعةً عندَه؟ ولو كانت لهم شفاعة: فما أدراهم أنَّهم سيؤذَن لهم فيهم؟

ففيها: تحذيرُ مَن يتَّكِل في نجاته يومَ القيامة على شفاعةِ غيره.

وفيها: إثباتُ عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾:

قوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تُكرِهُوا النَّاس على الدُّخول في الإسلام؛ فإنَّ دلائلَ الحقِّ فيه وبراهينَه واضحةٌ، وكافيةٌ للإقناع، والدُّخول في الإسلام إنَّما يكون لمن أراد الله به خيرًا، ولا يُحتاج إلى إكراهِه، ثُمَّ إنَّه لو دخلَ في الإسلام مُكْرَهًا فإنَّ هذا لا يُفيده.

وقد قال بعض العلماء: إنَّ هذه الآية منسوخةٌ بآيات الأمر بقتال الكفَّار -كآية السَّيف ونحوها-.

وقال بعضهم: هذه الآية خاصَّة بأهل الكتاب ومَن في حُكْمهم؛ فلا يُكرَهون على الإسلام، ولو أرادوا دَفع الجِزْية مع تَرْكهم على دِينهم؛ جازَ ذلك.

وقد استدلَّ بعضُ العلماء بهذه الآية على جواز أَخْذ الجِزْية من غير أهل الكتاب أيضًا، إذا أرادوا البقاء على دِينهم.

وقال طائفةٌ كثيرةٌ من العلماء: بل الذين تُقبَل منهم الجِزْية، ولا يُكرَهون على الإسلام، هم أهل الكتاب خاصَّة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قاتلَ العرَب والمشرِكين، ولم يرضَ منهم إلَّا الإسلام.

ولا تعارُضَ بينَ هذه الآية ومشروعيَّة الجهاد في الإسلام؛ فإنَّ المسلمين لا يُقاتِلون النَّاس لإكراهِهم على الدُّخول في الإسلام بالقوَّة؛ وإنَّما يُقاتِلون مَن أبى أن يكون الحُكْمُ في الأرض لله، ولذلك لو خلَّى الكفَّارُ بيننا وبين بلادِهم لنحكُمَها بالشريعة، ونَعْمُرَ فيها المساجد، ونُرتِّبَ فيها القُضاة، ونُقيمَ فيها الدُّعاة؛ فإنَّنا لا نُقاتِلهم، بل يجوز لنا أن نقبلَ منهم الجِزْية -إذا كانوا من أهل الكتاب أو مَن في حُكْمهم- في مُقابِل الأمان الذي سينَالونَه في عَيشهم تحت سُلطان دولة الإسلام، ويكون القتالُ لإزالة حُكم الجاهليَّة وسُلطان الكُفر، وإخراج الناس من عبادة العِباد إلى عبادة ربِّ العِباد.

وليس من الإكراه في الدِّين: أن نحُثَّ الكافر ونُناصِحَه على الدُّخول في الإسلام، ولو كانت نفسُه تكرَه ذلك وتأباه، وهذا معنى قولِ النبيِّ ﷺ لرجلٍ قال له: «أسلِمْ»،

فقال: أجِدُني كارهًا! فقال: «أَسْلِمْ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا»[(١)]، والمعنى: أسْلِم وإن كنتَ كارِهًا؛ فإنَّ الله تعالى سيرزُقُكَ حُسن النِّيَّة والإخلاص.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتِ المرأةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا[(٢)]، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِن أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾»[(٣)].

ويُؤخَذُ من هذا الحديث: أنَّ مَن انتقلَ من كُفرٍ وشِركٍ إلى يهوديَّة أو نصرانيَّة قبل مجيء دين الإسلام؛ جاز إقرارُه على ما كان قد انتقلَ إليه، ويُعامَل معاملةَ أهل الكتاب في الجِزْية والذَّبيحة والمناكَحة ونحوها.

وأمَّا مَن انتقلَ من كُفرٍ وشِركٍ إلى يهوديَّة أو نصرانيَّة بعد مجيء دين الإسلام؛ فلا يُقَرُّ على ذلك.

وقوله ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: قد تميَّز الإسلامُ من الكُفر، والحقُّ من الباطل، والهُدى من الضلال، وذلك لكثرة الدلائل والبراهين.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: يُنكِره ويتبرَّأ منه. و(الطاغوت): هو الشَّيطان، أو: الأصنام، أو: أحبار السُّوء ورهبانهم، و: كلُّ مَن عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ.

﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: بربوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته؛ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: ثبتَ على الإسلام، واستقام على الصِّراط المستقيم، وتمسَّك واعتصمَ وتعلَّق بالعَقْد الوثيق المُحكَم في الدِّين، والمربوط ربطًا شديدًا، فـ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انفكاك، ولا انقطاع من هذا العَقد الوثيق، الذي سيُدخِله الجنَّة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَن يتكلم بالحقِّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في القُلُوب من الاعتقادات.

---

(١) رواه أحمد (١٢٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٧٤).

(٢) أي: التي لا يعيش لها ولد.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٨٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز أَخْذ الجِزْية من أهل الكتاب، ومَن في حُكْمهم، مع بقائهم على دِينهم.

وفيها: أنَّ التوحيد لا يَتِمُّ إلَّا بالتخلُّص من جميع الشِّرك.

وفيها: وجوب خَلْعِ الأنداد، التي تُتَّخَذ من دون الله، والتبرُّؤ منها، والكُفرِ بها.

وفيها: التَّخْلية قبل التَّحْلية.

وفيها: أهميَّة عَرْض الدلائل والبراهين على الكفَّار؛ لإقناعهم.

وفيها: تثبيت الأقدام على طريق الإسلام، والاستمساك بـ (لا إله إلَّا الله)، وهي: العُرْوة الوثقَى.

وفيها: أنَّ المُسْتَمسِك بـ (لا إله إلَّا الله) يكون ثابتًا، مُطمئنَ النفس، رابطَ الجَأْش، لا يضطرب ولا يتزَلْزَل.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾:

قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُحِبُّهم ويُعينهم، ويتولَّى أمورَهم، ويهديهم، و﴿يُخْرِجُهُم﴾ بنِعمته وتوفيقه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: من ظُلُمات الكُفر والضلال، والبِدعة، والفِسْق، والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: نورِ الإيمان، والهداية، والطاعة.

وجَمَعَ (الظُّلُمات)؛ لاختلاف أنواعها، ولأنَّها أجناسٌ كلُّها باطلة. ووَحَّد (النُّور)؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بما يجب الإيمان به، وأصرُّوا على كُفرهم. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: الذين يتولَّون أمورَهم هم ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الشياطين، والمُضِلُّون.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوَساوِس، والتزيين، وغيرها ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي: نورِ الإيمان ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظُلُماتِ الكُفر والنِّفاق والضلال.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الكفَّار، وأولياؤهم من الطواغيت ﴿أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الملازِمون لها، ﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي: ماكِثون، لا يخرُجون، ولا يموتون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان بالله يؤدِّي إلى تولِّ الله للمؤمنين.

وولاية الله نوعان: ولايةٌ عامَّةٌ، بمعنى: أنَّ الله يتولَّى شُؤون عبادِه. وولايةٌ خاصَّة بالمؤمنين، ومنها: النُّصرة والتأييد، وهي المذكورة هنا. والله يتولَّى المؤمنين في الدُّنيا والآخرة.

وأمَّا الطواغيت -وإن تولَّوا الكفَّار في الدُّنيا-: فإنَّهم يتخلَّون عنهم في الآخرة. ثم شتَّانَ بينَ تولِّي الخالِق للمخلوق، وتولِّ المخلوق للمخلوق.

وفيها: أنَّ الله لا يتولَّى الكفَّار.

وفيها: أنَّ أهل النُّور في الدُّنيا هم أهل نور القبر، ونور الصِّراط، ونور الجنَّة في الآخرة. وفي المُقابِل؛ فإنَّ أهل الظُّلُمات في الدُّنيا هم أهل ظُلُمات القبر، والحَشْر، والنَّار.

وفيها: أنَّ الخلود في النَّار خاصٌّ بالكافرين.

وفيها: أنَّ إخراج الطواغيت للكفَّار من النُّور يشمل المرتَدِّين، الذين كانوا في نور الإسلام ثم كفَروا، ويشمل الذين كانوا في نور الفِطرة ثم اجتالَتْهم الشياطين، وأخرَجَتْه عنها إلى الكُفر.

وفيها: عِظَم جريمة رؤوس الشرِّ والطواغيت، الذين لا يكتَفون بضلال أنفُسِهم، حتى يُضِيفوا إلى ذلك إضلالَ غيرهم.

وفيها: أنَّ التابعَ بالباطل ومتبوعَه في النَّار.

وفيها: استمرار هداية الله وزيادتها، واستمرار عمل الطواغيت في الإخراج من النُّور إلى الظُّلُمات، وزيادتهم للكفَّار كُفرًا، وهذا ما يقتضيه التعبير بصيغة الفِعْل المضارع: ﴿يُخۡرِجُهُم﴾، و﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى تولِّيه لعبادِه المؤمنين؛ أتبعَ ذلك بذِكر مثال على ذلك؛ وهو تولِّيه وتأييدُه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقَلْبك -لأنَّه لم يُدرِك زمنَه حتى يراه بعينه- ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وهو المَلِك الكافر النُّمْرُوذ ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: في ربو بيَّته وإلهيَّته. وقد حملَه على هذا: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ فحمَلَه مُلْكُه على الكِبْرِ والطُّغيانِ، وادِّعاءِ الرُّبوبيَّة.

فكأنَّه قال في المُناظَرة والمجادَلة: مَن ربُّك؟ فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فيجعل الجماد حيًّا، ويمُيت ما فيه حياة. ففي ذلك إشارةٌ من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للمَلِك: بأنَّ الله تعالى هو الذي أحياك، وهو القادِر على أنَّ يمُيتَك.

﴿قَالَ﴾ النُّمروذ في جواب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فادَّعى ذلك مكابرةً وعِنادًا. وقيل: إنَّه أتى برجل فقتلَه، وبآخر قد استحقَّ القَتْل فعفا عنه، فقال: أنا أُحيي وأميت! فادَّعى النُّمْرُوذ لنفسه الرُّبوبيَّة، بحُجَّة أنَّه يُحيي ويُميت، فيقتُل مَن يُريد، ويستبقي مَن يريد! وليس هذا في الحقيقة جوابًا على ما قاله إبراهيم؛ وإنَّما هو تلبيسٌ وادِّعاءٌ فارغ.

ولذلك جاءَه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدليل الآخر الدامِغ، والحُجَّة القويَّة الباهرة، فكأنَّه قال له: إن كنتَ تدَّعي أنَّك تحُيي وتُميت، وأنَّك على كلِّ شيء قدير، فتصَرَّفْ فيما يتصرَّف فيه الله عَزَّ وَجَلَّ، واعمَل عكسَه.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: سخَّرها خالقُها ومسيِّرُها، لتطلُعَ كلَّ يوم من المشرِق، فإن كنتَ كما زعمتَ أنَّك الذي تُحيي وتميت؛ ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ -يا أيُّها النُّمْرُوذ- ولو يومًا واحدًا، وتصرَّفْ في حركتها من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إن كنتَ صادِقًا فيما تدَّعيه من الرُّبوبيَّة، وإن كنتَ صادِقًا في أنَّك ساويتَ الله في الإحياء والإماتة.

وقـد كان النُّمْرُوذ من قومٍ يعبُـدون الكواكب، ويَعْرِفون حرَكتهـا جيِّدًا؛ ولذلك اختارَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له هذا المثال الواضح.

ولـمَّا كان في جـواب الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إثبـاتٌ لرُبوبيَّة الله، وتزييفُ ادِّعـاء النُّمْرُوذ، وبيانُ تـصرُّف الله في الكواكـب المخلوقة، التي يعبُدهـا هؤلاء القوم، وجاء هـذا الطلَبُ المُعجِزُ للنُّمْـرُوذ، وهو لا يَقْدِر عليه قطعًا؛ أصابَتْه الحَيرة والدَّهشـة؛ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ وانقطعَ وسكتَ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يُلْهِمُهـم الحُجَّة، ولا يُوَفِّقهم للهداية، بخلاف أوليائه المتَّقين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ أخبار السابقين؛ لأَخذِ العِبرة منها، والاستفادةِ ممَّا جرى لهم.

وفيها: أنَّ الصراع بينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل طويلٌ قديمٌ.

وفيها: أهميَّة مُناظَرة أهل الباطل.

وفيهـا: جُـرأة الخليـل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الحقِّ، وذكاؤه وفِطْنته، وحُسـن تدليلـه، ودِقَّته، وجمال اختياره، وجَودة مَدْخَلِه في المُناظَرة، واسـتدراجُه لخَصْمه؛ فإنَّه بدأ بذِكر الإحياء والإماتة -وهمـا أخصُّ خصائص الرُّبوبيَّـة- وأنَّ الله متصرِّفٌ في الحياة خَلْقًـا وإيجادًا، ومتصرِّفٌ في الموت نزولًا وقضاءً.

ولـمَّا ادَّعـى النُّمْرُوذ أنَّه يفعل ذلك، وأنَّه عـلى كلِّ شيء قدير؛ طلبَ منه إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك الطلَب، الذي جعلَه ينقطع خائبًا خاسئًا وهو حسيرٌ.

وقـد تضمَّـن كلامُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إثبات وجود البارئ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ الأَحياءَ لا بُدَّ لهم من مُحيٍ، والشمس المتحرِّكة لا بُدَّ لها من محرِّك ومتصرِّف يتصرَّف فيها.

وفي المُناظَـرة أيضًا: إبطالُ رُبوبيَّة الكواكب التـي كان يعتقِدها قومُه، وأنَّ الله هو الذي يُصرِّفُها ويحرِّكها.

وفي الآية: أنَّ المكابرة في المُناظَرة لا تأتي بالأجوبة الصحيحة؛ فإنَّ النُّمْرُوذ قد كذبَ في قوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فأين خَلْقُه للحياة في شيءٍ ميِّت، وبَعْثُه له؟ وأين نَفْخُ الرُّوحِ فيه إن كان صادِقًا؟!

وفيها: أنَّ المحاجَّة في الله كُفر.

وفيها: مُفاجأة الخَصْم في المُناظَرة بما لا يتوقَّعه، ونَقلُه من قضيَّة إلى أخرى، لتستمرَّ المُناظَرة، ويحصُل الإفهام.

وفيها: أنَّ على المجادِل بالحقِّ أن يأتيَ المُجادِل بالباطل بما يُسْكِته، وأن يديرَ الحوار بحيثُ يزداد المُبْطِل ضَعْفًا، وتوريطًا في موقفه.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية تعلُّمَ أصول المحاوَرة والمُناظَرة؛ لمواجَهة أعداء الله وأهل الباطل؛ لأنَّ ذلك من وسائل إحقاق الحقِّ.

وفيها: أنَّ مُناظَرة أهلِ الباطل من سُنَن المرسَلين.

وفيها: أنَّ النِّعَم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ فإنَّ الذي أوصل المَلِك إلى الكُفر هو المُلْك، كما قال تعالى: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾.

وفيها: أنَّ مُلْك البشر ليس ذاتيًّا؛ وإنَّما هو إيتاءٌ من الله تعالى.

وفيها: الافتخار والاعتزاز بالله تعالى، كما قال إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّيَ﴾.

وفيها: تفريع الحُجَّة على الحُجَّة، وبناؤها عليها في المُناظَرة.

وفيها: أنَّ المحاجَّة بالباطل قد تؤدِّي إلى الكُفر.

وفيها: أنَّ الذين كفروا يجادِلون بالباطل؛ ليُدْحِضوا به الحقَّ.

وفيها: الحِرْص على استمرار المُناظَرة إلى النهاية؛ ليحصُل المقصود.

وفيها: الإعراض عن بعض المجادَلة بالحقِّ؛ لأجل مصلحةٍ أكبر؛ فإنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يجادِل النُّمْرُوذ في أنَّ العَفو عن القاتل ليس من الإحياء؛ وإنَّما انتقلَ معه إلى ما يقطَعُه ويُفْحِمُه، بإلزامِه بطَرْد حُجَّته إن كانت صحيحةً كما يَزْعُم.

وفيها: أنَّ الظُّلْم مُعاكِسٌ لأسباب الهداية.

وفيها: إحكام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للمُناظَرة؛ فإنَّه قد فَنَّدَ عِدَّة أباطيلَ في وقتٍ واحدٍ وردٍّ واحدٍ؛ فبيَّن بُطلانَ رُبوبيَّة النُّمْروذ، وبُطلانَ عبادة الكواكب، وأثبتَ قُدرةَ الله تعالى، وعَجْزَ النُّمْروذ.

وفيها: أنَّ تحرِّي العَدْل من أسباب الهداية، كما أنَّ الظُّلْم سبَبُ عدَمِ هداية الظالمين.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾:

ثم ضربَ الله تعالى مَثَلًا آخر، على رُبوبيَّته وقُدرته على إحياء الموتى؛ فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِى﴾ أي: ألم ترَ إلى الذي، والمشهور أنَّه: عزيرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ والمشهور أنَّها: بيت المقدِس، وكان ذلك بعد تخريبها، ولذا قال: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطةٌ جُدرانُها، وسقوفُها على الأرض.

فوقفَ متفكِّرًا فيها، ثُمَّ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ﴾ أي: كيف يُحيي ﴿هَٰذِهِ﴾ القريةَ الخاوية ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: قال ذلك متعجِّبًا من قُدرة الله. وهذا اعترافٌ بالعَجْز عن تصوُّر كيفيَّة الإحياء، وليس شكًّا ولا استبعادًا؛ فإرادة الله آيةٌ في نفسها.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾، وقبَضه في ذلك المكان، حتى مرَّت هذه المدَّة الطويلة التي تغيَّرت فيها الأحوال. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وأحياه.

﴿قَالَ﴾ بواسطة الملَك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: بعد الموت؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ واحدًا، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ -لأنَّه مات في الصباح، وبُعِث في آخر النهار-.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾ ميِّتًا ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ بتمامِها وكمالِها.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ الذي كان معك قبل الموت؛ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغيَّر ويَفْسَد ويتعفَّن؛ بل بقيَ على حاله على تطاوُلِ السِّنين واختلافِ الأوقات عليه؛ ففيه أكبرُ دليلٍ على قُدرة الله، حيث أبقاه وحَفِظَه عن التغيُّر والفساد، مع أنَّ الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ -وكان قد ماتَ وتمزَّق لحمُه-: كيف بَلِيَ الجَسَدُ، ولم يبقَ إلَّا العظام؟!

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ وعلامةً دالَّة لهم ولك على قُدرة الله على إحياء الموتى، ولرُبَّما رأى هذا الرجلُ ولدَه أو ولدَ ولدِه، وقد صارَ أكبرَ منه!

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ قيل: عظام حمارِه، وقيل غير ذلك. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفَعُ بعضَها على بعض، ونُركِّبها، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ يَنبُت عليها ويَسْتُرها.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وتحقَّق لديه قُدرة الله على إحياء الموتى؛ ﴿قَالَ﴾ معترِفًا: ﴿أَعْلَمُ﴾ أي: أزدادُ إيمانًا وعِلْمًا، بعدما رأيتُ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الإحياء والإماتة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾؛ فلا يُعجِزه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَعداد ذِكر الأمثلة؛ للتأكيد على الحقائق العظيمة، كالبعث وإحياء الموتى.

وفيها: تَرْك التفصيلات التي لا يحتاج إليها السامع، في القِصَّة المعتبَر بها.

وفيها: قصور نظَرِ الإنسان، وضَعْف تصوُّرِه، كما يدلُّ عليه قولُ الرجل: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا تعجَّب لوقوع الشيء من أمر الله، فاستغربَه، مع عدم شكِّه في قُدرة الله؛ فلا يكفُر بهذا.

وفيها: أنَّ إخبار الشخص بما يغلب على ظنِّه، لا يُعَدُّ كذِبًا، ولو خالفَ الحقيقة.

وفيها: قُدرة الله العظيمة.

وفيها: مِنَّة الله على بعض عباده، بأن يريَهم ما يَزيد به إيمانهم.

وفيها: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ قوانين الطبيعة لا يمكن أن تتغيَّر! والحقُّ أنَّ الله يَخْرِقها متى شاء، وكيف شاء.

وفيها: جواز تملُّك الحمار؛ فإنْ بِيعَ الحمارُ الأهليُّ للانتفاع به فثمنُه حلال، وإن بِيعَ لأكلِ لَحْمِه فثمنُه حرام.

وفيها: أنَّ الله قد يُحدِث لبعض عباده ما فيه عِبرةٌ للآخرين.

وفيها: التأكيد على النظرِ في آيات الله، والحوادث التي يُجريها عَزَّوَجَلَّ، كما أمرَ بالنظر في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان بالتفكُّر والتدبُّر يتبيَّن له ما كان غافلًا عنه، ويزداد به إيمانُه ويقينُه.

وفيها: إثبات كرامات الأولياء، أو مُعْجِزات الأنبياء، بحَسَب حال ذلك الرجل -فقد قيل: إنَّه نبيٌّ، وقيل غير ذلك-.

وفيها: اصطحاب الزاد في السفر.

وفيها: امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمۡ لَبِثۡتَ﴾.

وفيها: إخبار الآخرين بقَصَص الأوَّلين.

وفيها: أنَّ من آيات الله في قُدرته: إبقاء الأشياء على ما هي عليه، رَغْم مرور المدَّة الطويلة التي تفنَى بها، كما أنَّ من قُدرته: إعادة الأشياء إلى ما كانت عليه، ولو مرَّت عليها المدَّة الطويلة.

وفيها: أنَّ الله يحفظ ما يريد ومَن يريد بحِفظه، كما قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾:

ثم ذكر تعالى قِصَّةً ثالثةً في إحياء الموتى؛ فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر -يا محمَّد

صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قِصَّـة إبراهيـم الخليل، لـمَّا سـأل ربَّه فقـال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فسـأله عن الكيفيَّة، مع إيمانه الجازِم بالقُدرة الرَّبانيَّة، وأراد الخليلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يرتقيَ بإيمانه، من درجة عِلْم اليقين إلى درجة عَين اليقين، وهذا من عُلُّو الهِمَّة في طلب زيادة الإيمان.

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: ألسـتَ قد آمنتَ؟ وهذا الاسـتِفهام للتقرير، وليس للإنكار ولا للنفي؛ فهو كقولـه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ أي: قـد شرَحْنا لك صَدْرَك.

﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ: ﴿بَلَىٰ﴾ قد صدَّقتُ وآمنتُ، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: ليزدادَ يقينًا.

قـال ابـن عبَّـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أعلـم أنَّـك تُجيبُنـي إذا دعوتُك، وتُعطينـي إذا سـألتُك»(١). و(الطُّمأنينة): هي الاستقرار.

فأجـابَ الله طلبَـه؛ فقـال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾، ولم يبـيِّن تعـالى أنواعَهـا، ولو كان تعيينُها مفيدًا لبيَّنه لنا.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: اضمُمْهُنَّ، واجمَعْهُنَّ عندك، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: فرِّقْهـنَّ عـلى رؤوس الجبـال بعـد الذبـح، والخَلْـط، والتجزئـة، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أي: نادِهنَّ بأسـمائهنَّ وقُل لهنَّ: تعالَيْنَ بإذنِ الله؛ ﴿يَأْتِينَكَ﴾ -مشـيًا أو طيرانًا- ﴿سَعْيًا﴾ أي: مُسْرِعات.

فأخذَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أربعةً من الطير مختلفة -الله أعلم بأنواعها- فذبَحَهُنَّ، ثم قطَّعَهُنَّ ومزَّقَهـنَّ، وخلـطَ بعضَهُنَّ في بعض، ثُمَّ جزَّأَهُنَّ أجـزاءً، وجعلَ على كلِّ جبل منهنَّ جزءًا، ثُمَّ دعا كلَّ واحدةٍ -كما أمرَه الله-؛ فجعلَ ينظر إلى الرِّيش يطير إلى الرِّيش، والدَّم إلى الدَّم، واللَّحْم إلى اللَّحْم، والأجزاء لكلِّ طائر يتصل بعضها ببعض، حتى قام كلُّ طائر على حِدَة، ثـمَّ أتاه يسـعَى! فـرأى الخليلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قُـدرةَ الله العظيمة على إحيـاء الموتى؛ فاطمئـنَّ قَلْبُه، وازدادَ يقينًا.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالـبٌ، لا يُعجِـزه شيء، ولا يَسـتَعصِي عليـه إحيـاءُ الموتـى. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو حِكْمة بالغة، في أمرِه وتدبيرِه، فلا يفعل شيئًا عَبَثًا.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٤٩٤).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مـن آداب الدُّعـاء: التوسُّـل إلى الله بالرُّبوبيَّـة، ومُناداته بذلك. وأكثـر أدعية القرآن مُصدّرة بهذا: (ربِّ)، (ربَّنا).

وفيها: أنَّه لا حرجَ على الإنسان أن يطلُبَ ما يزداد به يقينُه.

وفيهـا: أنَّ عَـين اليقين أقـوى من عِلْمِ وخـبرِ اليقين، وقد قال النبـيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ»(١).

ومراتب اليقين ثلاثة: عِلْم اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وعَين اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وحقُّ اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وفي الآية: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى.

وفيها: إثبات أنَّ الإيمان يزيد.

وفيهـا: أنَّ الاختصـارَ بكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ في الجـواب كافٍ، فلو قيل لرجلٍ عـالمٍ بالنَّحْوِ: ألم تُطلِّق زوجتَكَ؟ فقال: «بلى»؛ فقد طَلَقَتْ.

وفيهـا: الكـفُّ عن البحث فيـما لا فائدة منه، ولا طائـل من ورائـه، وفي الحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرء: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٢).

وفيهـا: امتنان الله عـلى عَبده الخليل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بـما زادَ إيمانَه، وليكون مـن الموقِنين. ولمنزلةِ الخليل عند ربِّه، وحُسـنِ أدبِه في السـؤال؛ أراه الله الآيةَ في الحال، وأمَّا الذي مرَّ على القرية؛ فقد أراه ما أراه بعدَ مائة عام.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾:

ولـمَّا ذكـرَ تعالى قُدرته عـلى إحياء الموتى، الدالَّة عـلى البَعْث؛ ذكرَ ما ينفـع يومَ البَعْث،

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وهو في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٢٢٩).

ومنه: النَّفقة في سبيل الله. ومَن كان قادرًا على إحياء المبعوث؛ فهو قادر على إخراج سَبْعِمائة حبَّةٍ من حبَّةٍ واحدة.

فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ﴾ أي: شَبَهُ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾: يَبْذُلون ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يشمل كلَّ ما يتموَّله الإنسان من أعيان، كالدراهم، والدُّور، والملابس، فالإنفاق يشمل جميع الأنواع.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعةِ الله، والجهادِ في سبيله، وكلِّ ما يوصل إليه. و(السَّبيل): هو الطريق.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي: نَفقتُهم التي بذَلوها تُضاعَف، كما تُضاعَف الحبَّة التي زرعَها الفلَّاح. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: خرجَتْ ونشأتْ منها. ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾؛ لجودَةِ الحبَّة، وجودَةِ مَنبَتِها، وجودَةِ رعايتِها؛ أخرجَتْ كلَّ هذا العدَد.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثرَ من سَبْعِمائة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا بحَسَب إخلاصه في عمله، ويزيده ثوابًا بحَسَب ما تقتضيه حِكمتُه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: ذو سَعَة، في الفَضْل، والعِلْم، والقُدرة، والرحمة، وغيرها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّات المُنفِقين، وبمَن يستحِقُّ المضاعَفة.

وقد وردَت المضاعَفة إلى سَبعِمائة ضِعْفٍ، كما في حديث أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ[1]، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله؛ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[2].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ الله؛ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ»[3].

وتصل المضاعَفة إلى أكثرِ من سَبْعِمائة، كما في الحديث: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ من أَجْلِي»[4].

---

(١) أي: لها خِطام تُقاد به.

(٢) رواه مسلم (١٨٩٢)

(٣) رواه الترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (٣١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٩٢٧) -مختصرًا- ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ضَرْب الأمثال؛ للتقريب للأفهام.

وفيها: الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، بذِكر فَضْلِه، ومضاعَفةِ أجره.

وفيها: التنبيهُ على الإخلاص في الإنفاق، وتحرِّي موافقة الشَّرْع، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ ثواب الله أكثر من عمل العامل، وفَضْل الله أعظم من حسنات العِباد.

وفيها: إثبات مشيئة الله، ومشيئته بحَسَب ما تقتضيه حِكمته.

وفيها: فَضْل القيام بالزَّرْع؛ لأنَّ الله ضرب به المَثَل.

وفي الآية: ذِكْر جَمْع الكثرة في قوله: ﴿سَنَابِلَ﴾؛ لأنَّه يُناسِب كثرة الأجر والفَضْل، بخلاف قوله: ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ -في قِصَّة الرُّؤيا في سُورَة «يوسف»-؛ فـ(سُنبُلات) من جموع القِلَّة؛ لأنَّ المقام لا يقتضي التكثير.

وفيها: أنَّ الأجر يُضاعَف للعامل بحَسَب عمله وحاله، وما يكون في قَلْبه من الإخلاص.

وفيها: أنَّ على العبد ألَّا يَستبْعِد المضاعَفات العظيمة في الأجر؛ لأنَّ فَضْلَ الله تعالى عظيمٌ.

وفيها: أنَّ أَجْر العمل المضاعَف لا يحصُل لكلِّ عامل؛ فعلى المسلم أن يسعى لتحصيل الفَضْل والأجر، ويرجو ويدعو ربَّه أن يُدْخِلَه فيمَن يُضاعَف لهم أجرُهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾:

ثُمَّ مدحَ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخيرات، الواجبة والمستحَبَّة، ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا﴾ بعد الصَّدَقة. و(المَنُّ): أن يُعدِّد إحسانَه على مَن أحسن إليه، ترفُّعًا عليه، فيؤذيه ويُنَغِّص عليه ما أخذ.

والمنَّان بما أعطى من الثلاثة الذين لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يُزَكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم -وهم: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[1]- وقال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمُدْمِنُ عَلَى الخَمْرِ، والمنَّان بِمَا أَعْطَى»[2].

﴿وَلَآ أَذًى﴾ يشمل كلَّ إيذاءٍ، بالقول أو الفِعْل.

ثم بيَّن الله تعالى عظيمَ أجورِ هؤلاء المُنفِقين من غير مَنٍّ ولا أذى؛ فقال: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ثوابهم عند الله محفوظ. ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في المستقبَل، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى، وعلى فِراق ما تركوه من الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المَنَّ والأذى يُبْطِلان الصَّدَقة. وإذا كان من الشروط السابقة لِصِحَّة الصَّدَقة: الإخلاص لله والمتابعة؛ فإنَّ من المُبْطِلات اللَّاحقة: المَنَّ والأذى.

وفيها: التحذير من أنواع المَنِّ والأذى -قولًا وفعلًا- كأن يقول: «ألم أُعْطِكَ كذا وكذا»، ويعدِّد عليه ما أعطاه، وكقوله: «أنتَ فقيرٌ دائمًا، وقد بُليتُ بك»، و «أراحني الله منك». أو بالعُبُوس في وَجْهه، أو بنَهْرِه. أو بأن يذكرَ أمامَ الناس أنَّه أعطى فلانًا؛ فهذا فيه إهانةٌ للآخِذ وإحراجٌ له أمام الناس.

وقد قال بعض العلماء: الأفضل لآخِذ الصَّدَقة أن يَرُدَّها إلى المُعْطِي، إذا مَنَّ عليه أو آذاه؛ تأديبًا له، ودَفعًا لـمِنَّته.

وفيها: تقديم المَنِّ على الأذى؛ لكثرة وقوعه.

وفيها: أنَّ المَنَّ والأذى يضُرُّ صاحب الصَّدَقة، ولو حصلَ بعد الصَّدَقة بسنين.

وفيها: أنَّ على المتصدِّق أن يَشْهَد مِنَّة الله عليه؛ فقد رزقَه، ثم وفَّقه للصدَقة، ولا يَمُنَّ ولو بقَلْبه، فبعض الناس رُبَّما لا يَمُنُّ بلسانه، لكن يشعُر عند العطاء بالفَخْر والخُيلاء، وهذا محرَّمٌ أيضًا.

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢) رواه النسائي (٢٥٦٢)، وهو في الصحيحة (٦٧٤).

وفي الآيـة: تشريف المُخلِصين في الصَّدَقة عنـد أدائها، والحافظين لعَمَلِهم، بأنَّ أجرهم عند الله.

وهذه الآية نافعةٌ في تسكين خَوْفِ بعض المتصدِّقين، ممَّا قد يحصُل لهم من الإيذاء من أهل الباطل، نتيجة الصَّدَقة؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾:

ثُمَّ رغَّب تعالى بالإحسان بالكلام، مع الإحسـان بالمال، وبيَّنَ أنَّ الإحسان بالكلام مع عدم المال، خيرٌ من إعطاء المال مع الإساءة بالكلام؛ فقال تعالى:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: كلام طيِّـب، ودُعـاء جميـل، يُرَدُّ به السـائل، في حالة عـدَم إعطائه شـيئًا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: تجاوُز، وعَفْو عن ظُلْم السـائل واعتدائه؛ ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ أي: من المَنِّ والتعيير مع إعطائه.

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن غيره، لا يحتاج إلى أحد. ﴿حَلِيمٌ﴾؛ فلا يُعاجِل بالعقوبة مَن استحَقَّها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضيلة القول المعروف، الذي عرَفه الشَّرْع وعرَفته القُلُوب.

وفيها: أنَّ بعض الناس قد ينتَفِع بالكلمة الطيِّبة، أكثر ممَّا ينتَفِع بالمال.

وفيها: فَضْل التجاوُز عن إيذاء السـائلين، كإلحاحهم، وإزعاجهم، واتهامهم للمسـئول بالبُخل، ونحو ذلك.

وفيها: فَضْل المغفرة، ويشمل: سَتْر حالة المحتاج السيِّئة.

وفيهـا: أنَّ المسئول إذا لم يجـد ما يُعطيه السـائل؛ فلا أقلَّ مـن كلمةٍ طيِّبةٍ، ووَعْدٍ حَسَـنٍ جميل، وأن يدعوَ له بالفَرَج، ويُحسِنَ إليه، رجاءَ ما عند الله.

وفيهـا: تذكـير الأغنياء بغِنَى الله؛ كـي يجودوا بأموالهم؛ لأنَّهم هـم المنتَفِعون في الحقيقة، وتذكيرهم بحِلْم الله؛ كي يُعامِلوا السائلين بالحِلْم والصَّفْح، ويتجاوزوا عنهم.

وفيها: أنَّ المعروف يكتَمِل، إذا أُضيفَ إلى الإحسان للغير: التجاوُز عن إيذائه.

وفي الآيـة: أنَّ حسـنتَين خيرٌ من حسَـنةٍ مقرونةٍ بـما يُبطِلها؛ وذلك أنَّ قول المعروف للسـائل حسَنة، ومغفرة إيذائه حسَنة أخرى، وأمَّا الصَّدَقة المتبوعة بالأذى؛ فهي حسَنة مقرونة بما يُبطِلها.

ويُؤخَذ من الآية: أنَّ الصَّدَقة التي لا يَتْبَعُها أذى، خيرٌ من قول معروفٍ بلا صدَقة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾:

قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نـداءٌ لأهل الإيمان، يحـثُّ على الاهتِـمام بموضوع الخِطاب.

﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي: لا تُحبِطـوا أجورَهـا، ولا تُفسِـدوها. والمعنـى: لا تُحبِطـوا أجـورَ صدَقاتكم، ولا تُفسِـدوها. و(إبطال) الـشيء يكون بعدَ وجوده، وبعـد تمامه غالبًا. و(الصَّدَقة): ما يبذُله الإنسان تقرُّبًا إلى الله.

فلا تُبْطِلوها ﴿بِٱلۡمَنِّ﴾ على الفقير، ﴿وَٱلۡأَذَىٰ﴾ له، سواءً بهما أو بأحدهما.

وهـذا المَـنُّ والأذى ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مَثَـلُ إبطـالِ الصَّدَقـة بالمـنِّ والأذى، كمَثَل إبطالها بالرِّياء.

وقوله ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليرَوا نَفَقَته ويمدَحوه، وليُقال عنه: فلان جوَاد كريم.

﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وهـذا يدلُّ على نِفاقِه؛ فإنَّه يُخرِج مالَه ابتغاءَ مَدْح الناس، فلا يرجو ثوابًا عليه في اليوم الآخر؛ لعدَم إيمانه به.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: هـذا المُرائـي، والمنافِـق، وحالتُـه ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ -وهـو الصَّخـر الأَمْلَـس- ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾: طبقة رقيقة، لا تصلُح للزَّرْع، ولا تُنْبِت، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾: مطرٌ شـديدٌ أزالَ الـتُّراب، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ أي: أجـردَ أملـسَ يابسًـا، لا شيءَ عليه من هذا التُّراب، بل قد ذهبَ كلُّه.

ومعنى هذا المَثَل: أنَّ مَن رأى المُنافِق في ظاهر حالِه؛ ظنَّ أنَّ عملَه سينفَعُه، فإذا كان يومَ القيامة أحبطَ الله عملَه، وأبطلَ أجرَه؛ فلا يجد عند الله شيئًا، كمَثَلِ هذه الطبقة الرقيقة من التُّراب على الصَّخر الأمْلَس، يَحْسِبُها بعضُ الناس تصلُح للزَّرْع، فإذا جاء المطر الشديد أذهب ذلك التراب، وتبيَّن أنَّه لا أمل في النبات.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: لا يقدِر هؤلاء المُراؤون والمُنافِقون على ثواب شيء في الآخرة، نتيجةَ ما أنفَقوه في الدُّنيا، فكما أزالَ المطرُ الشديدُ التُّرابَ عن الصَّخر الأمْلَس، فكذلك أزالَ المَنُّ والأذى أَجْرَ صدَقة هذا المُرائي والمنافِق.

وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يُوَفِّقهم للهداية، ولا يفتح قُلُوبَهم للحقِّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة المنِّ والأذى في الصَّدَقة، وأنَّهما يُبطِلان ثوابَها. وهذا يدلُّ على أنَّهما من كبائر الذُّنوب؛ لأنَّ ترتيب عقوبة خاصَّة -وهي هنا: الإحباط- على ذنب، يدلُّ على أنَّه من الكبائر.

وفي أول الآية: أنَّ المَنَّ والأذى يُنافيان الإيمان، وآخرها يدلُّ على أنَّهما من صفات الكفَّار.

وفيها: تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لتقريبه إلى الذِّهن، كما في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾.

وفي الآية: تحريم المُراءاة، ومِثلها التسميع. و(المُراءاة): أن يعمل العمل بحَضْرَة الناس، ليرَوه فيمدَحوه. و(التسميع): أن يُخْبِرَهم بما عَمِلَ ليمدَحوه.

وفيها: أنَّ إخفاء الأعمال الصالحة من كمال الإيمان. ويُستثنَى من ذلك: ما لا يُمكِن إخفاؤه -كالأذان- وما ترجَّحت مصلحةُ إظهاره -كافتتاح التصدُّق بشيء كثير يُشَجِّع الآخَرين، ونحو ذلك-.

وفيها: أنَّ الرِّياء يُبطِل العمل، وقد جاء في الحديث القُدْسِيّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وفيها: تحسُّر المنافِق والمُرائي يومَ القيامة، عند العَجْز عن تحصيل شيء من ثواب أعمال الخير والبرِّ.

وفيها: أنَّ مَن قضى الله عليه بالكُفر؛ لا يمكِن هدايته.

وفيها: أَخْذ الحَذَر والحَيْطة من المَنِّ والأذى، وأنَّ المتصدِّق إذا خشيَ أن يقع منه ذلك، فليُوكِل غيرَه بتفريقها وإيصالها.

وفيها: التعريض بقساوة قَلْب المُنافِق والمُرائِي، وأنَّه كالصَّخْر الصلب الشديد.

وفيها: أنَّ أعمال الخير التي يفعلها المُرائِي والمُنافِق، لا تزكو بها نفسُه، ولا تُثبِّته على طريق الحقِّ، كما أنَّ البِذْر لا ينبت على الصفا، ولا يَثْبُت عليه.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾:

ثم ضربَ تعالى مَثَلًا للمُخْلِصين في صدَقاتهم، في مُقابِل المُرائِين -الذي تقدَّم ذِكرُهم-؛ فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ أي: يبذُلونها ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: طلبًا لرضوان الله عنهم، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يقينًا بثواب الله، وتصديقًا بوَعده؛ ولذلك لا تتردَّد أنفُسُهم بالإنفاق، ولا تشُكُّ في الثواب، وتثبُت على عمل الخير. فحالُهم وصفتُهم: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ أي: بستان كثير الشجر، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: على مرتفَعٍ ظاهرٍ ومستوٍ، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: مطر كثير، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أعطَت صاحبَها ثمرَها مُضاعَفًا، وقد تحمِل في السنة مرتَين، من جودَة شجرِها وموقعِها، وغزارةِ ما يَسقيها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: يكفيها المطرُ الخفيفُ اللَّيِّنُ، والرَّذاذُ والندَى، فتُؤتي أُكُلَها أيضًا.

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للمؤمن المُخْلِص في صدَقته، بأنَّ عمله لا يَبُور، ولا يَذهَب أجرُه ولا ينقَطِع، بل يكتبه الله له ويتقبَّله منه، ويُكثِّره ويُنمِّيه ويُضاعِفه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه الحقائقُ، والبواعثُ على الأعمال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الصَّدَقة لا تكون إلَّا من المال الذي يملِكُه الإنسان؛ لقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾. وأمَّا الصَّدَقة من مال الغير؛ فلا بُدَّ لها من إذنه.

وأمَّا الصَّدَقة بمالٍ حرامٍ، فتكون للتخلُّصِ من تَبِعَته والسلامةِ من إثمه، لا ليؤجَر عليها صاحبُها؛ فإنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلَّا طيِّبًا.

وفيها: أثر النِّيَّة الصالحة في قَبول العمل، وأنَّ الإخلاص شرطٌ في ذلك.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: أنَّ على المسلِم أن يُثَبِّت نفسَه في فِعْل الخيرات، بأن تكون مُطْمَئِنَّة لا تشُكُّ في الثواب، فتُنفِق وهي راضية. بخلاف المنافِقين الذين لا يُنفِقون إلَّا وهم كارِهون.

وفيها: تدريب النفس على الإنفاق، ابتغاءَ رضوان الله.

وفيها: أنَّ الله يُبارِك في القليل، إذا كان طيِّبًا.

وفيها: اختيار المتصدِّق المكانَ الصحيح لصدَقته، والتثبُّت من مكان وَضعها، مع اليقين بوَعْد الله عند إخراجها.

وفيها: أنَّ نفقة المُخلِصين -في تضاعُف أجرِها- كمَثَل البُستان الذي يُضاعَف ثمرُه، نتيجة جودَةِ مَوْقِعِه، وما أصابَه من برَكَة المطر.

وفيها: فَضْل الصَّدَقة التي تخرُج من نفسٍ سخيَّة طيِّبة مُوقِنة، بلا مُمانَعة ولا خَوَر ولا تردُّد.

وفيها: أنَّ معالجة الرِّياء والسُّمعة، تكون بالإخلاصِ وابتغاءِ مرضات الله.

وأنَّ معالجة ضَعْفِ النفس وتقاعُسِها وتردُّدِها في الإنفاق، يكون بتشجيعها وتقويتها بوَعْدِ الله وثوابه، والإقدامِ بها على البَذْل.

وفيها: تشبيه نفس المتصدِّق الطيِّبة، بالجنَّة في المكان المرتفِع الظاهِر المستوي، الذي يكون عُرضةً للهواءِ والرياحِ والشمسِ في وقت طلوعها واستوائها وغروبها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾:

ولـمَّا ضربَ الله تعالى مَثَلًا للمُنافِق المُرائي الذي لم ينبُت له شيء من عمله؛ ضربَ عَزَّوَجَلَّ بعدَه مَثَلًا لِمن عَمِلَ بطاعة الله، وتصدَّق، وأنفقَ مُخلِصًا، فلمَّا نبتَ زرعُ أجرِه انحرفَ وانتكسَ، وعَمِلَ أعمالًا تُفْسِده، فأبطلَ عملَه، وأذهبَ أجرَه!

فقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾: أيُحِبُّ. و(الوُدّ): المحبَّة العظيمة للشيء. وهذا استِفهام بليغٌ في الإنكار؛ لأنَّ محبَّة هذه الحالة المذكورة وتمنِّيها، أقبحُ وأشنعُ من مجرَّد إرادتها. فقوله ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغُ من قولِه «أيريد».

﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ وهي: البُستان، عظيم الشجَر. ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصَّهما بالذِكر؛ لأنَّهما أشرَفُ الفواكه وأفضلُها وأكرمُها، وأكثرُها نفعًا، فمنهما: القُوت والغذاء، والشراب، والفاكهة، والدواء، والحُلْو والحامض، ويؤكلان رَطْبًا ويابسًا.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهي: السَّواقي. فهي منتَشِرة ومتفرِّقة في ذلك البستان العظيم، تسقيها بغير مُؤنة ولا كُلفة.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والأنواعِ المشتهاة، من الفواكه وغيرها، ممَّا يَفيض عن حاجته ويزيد. وهذا هو المشهَد الأول من الآية.

والمشهد الثاني: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: تقدَّم به السِّنُّ، فأضعفَه عن العمل، ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي: صغار، أو: عاجِزون لا يقدِرون على الكَسْب.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو: الريح الشديدة القويَّة، التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في الجوِّ كالعمود. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: مع هذا الإعصار المتحرِّك. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ الجنَّةُ كلُّها بما فيها، وأبادَت الريحُ أشجارَها، وسيَّرتها رمادًا!

فهذا الرجل قد تعلَّق قَلْبُه بهذه الجنَّـة من وجوه كثيرة؛ منها: أنَّها مِلْكٌ لـه لا لغيره، وأنَّها بسـتان عظيم يُخفي ما بداخله من كثرة شـجره، وأنَّ أشجاره نفيسة، من ثمارٍ في غاية النفع، والصِّنف الواحد فيها يتنوَّع، كما في قوله: ﴿نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، بالإضافة إلى تنوُّع الثمرات، وماؤها يجري على أرضها، لا يحتاج إلى تَعَب ونَفَقة في استخراجه.

وقد كبُرَت سِـنُّ الرجل، وضَعُف عن الكَسْـب والتجارة، واشـتدَّ حِرْصُه -كما يحصُل عادةً مع كِبَر السِّـنِّ- ولـه ذُرِّيَّةٌ لا ينتَفِع بقوَّتهـم، ولا يُعينونَـه لعَجْزِهم، بل هم عالةٌ عليه، وهـو مُشـفِقٌ عليهم من بعـده، فأمَلُه في هـذه الجنَّة أن تُقيتَـه وذُرِّيَّته؛ فهي مصدر الكَسْـب والعيش الوحيد لهم.

وبينـما هو في غاية التعلُّق والأمَل؛ هبَّ عليها فجأة ما أحرقَها وأتلفَها بالكليَّة؛ فذهبَت، وليس عندَه قوَّة أن يُعيدَ زَرْعها، ويَغْرِسَ مِثْلها، لا هو ولا أولاده، وانقطع مصدرُ عَيْشِـهم جميعًـا، فكيف يكون حالُه وبُؤْسُـه وحَسْرَته؟ وانظر إلى مـا لقيَ ذلك الذي أصابه الكِبَر من الهَمِّ والغَمِّ والحُزن، فلو قُدِّر أنَّ الحُزن يقتُل صاحبَه لقتلَه الحُزْن!

فهـذا مِثْل مَن تصدَّق بالصَّدَقات الكثيرة، ثم أذهـبَ أجرَه بالمَنِّ والأذى، والنُّـكوصِ عـلى العَقِبَـين، والتغيـير والتبديل، فسـاءَت خاتمتُـه، فيأتي يـومَ القيامة أحوجَ مـا يكون إلى الحسَـنة الواحدة، فلا يجد أجرًا ولا ثوابًا، ولا شـيئًا قدَّمه لنفسه، فيُغني عنه في مقام الشدائد والكُرُبات يومَ القيامة بينَ يدي الله.

كذلـك مَـن عَمِلَ عمـلًا لوجه الله، فـإنَّ أعماله بمنزلة البَـذر للزروع والثِّـمار، ولا يزال كذلك حتى يحصُل له من عمله جنَّة موصوفة بغاية الحُسن والبهاء.

وتلك المُفْسِدات التي تُفْسِد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار.

والعبـدُ أحوَج مـا يكون لعمَله إذا مـات، وكان بحالةٍ لا يقدِر معها عـلى العمل، فيجد عمَلَـه الـذي يؤمِّل نفعَه هبـاءً منثورًا، كـما قال تعـالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فلـو عَلِـمَ الإنسـانُ وتصوَّر هذه الحـال، وكان له أدنى ذرَّة من عقـل؛ لم يُقْدِم على ما فيه

مضرَّتُـه ونهايةُ حَسْرَتـه، ولكن ضَعْف الإيمان والعقل وقلَّة البصـيرة يُصَيِّر صاحبَه إلى هذه الحالة، التي لو صدرَت من مجنون لا يَعْقِل؛ لكان ذلك عظيمًا وخطرُه جسيمًا!

فلهـذا أمرَ الله تعـالى بالتفكُّر وحثَّ عليه؛ فقـال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ويَضْرِب الأمثال؛ لبيان الصَّدَقة المقبولة والمردودة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الأمثال، وتفهَمُونها، وتتَّعِظُون بها.

ولـذا قال الحسـنُ البَـصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا مَثَلٌ قلَّ والله مَن يَعْقِله من الناس: شـيخٌ كبير، ضَعُـف جسـمُه وكثُر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنَّتـه، وإنَّ أحدكم -والله- أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعَت عنه الدنيا»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن، في ضَرْب الأمثال العظيمة المؤثِّرة في النَّفْس، المُوَضِّحة للمقصود.

وفيهـا: أنَّ المَـنَّ والأذى إعصـارٌ يَذهَـب بالأَجْـر كلِّه فجـأة، ويَعْقُبُه الحَـسْرة والخيبة والنَّدامة.

وفيها: أنَّ الرِّزق الوفير عند كِبَر السِّنِّ وضَعْفِ الذُّرِّيَّة، نِعمة عظيمة.

وفيها: أنَّ غمَّ القَلْب وحَسْرَته يوم القيامة، بذَهاب أجور الأعمال وثوابها؛ أعظمُ من هَمِّه وحَسْرَته بذَهاب مصدَرِ العَيش في الدُّنيا وتلَفِه.

وفيهـا: أنَّ حاجة العبد يومَ القيامة إلى الحسـنات، أعظم مـن حاجته في الدُّنيا إلى الطعام والشراب.

وفيها: أنَّ المقصود بالمَثَلِ التشبيه والتقريب، وليس مطابَقة الحالَين.

وفيهـا: رحمـة الله بالعِبـاد؛ حيـث بيَّن لهـم الآيات، وضربَ لهـم الأمثـال؛ ليمكِّنهم من التفكُّر.

وفيها: أنَّ التفكُّر غاية، والبيان وضَرْب الأمثال وسيلة.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص٣٧٠).

وفي الآية: الاقتصار على ذِكر المشبَّه به، وتَرْك ذِكْر المشبَّه؛ لإعمال الفِكْر في الاستنباط والمقارَنة، التي تؤدِّي إلى الاعتبارِ، وزيادةِ الإيمان وتثبيته.

وفيها: التحذير من التبديل والتغيير من الحسَن إلى السيِّء.

وفيها: أنَّ الذي يعمل المعاصي بعد الطاعات، قد يُغْرِق أعمالَه الصالحة كلَّها، وهذا من سُوء الخاتمة -والعياذ بالله-.

وثبتَ في الحديث أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟ قَالُوا: الله أَعْلَمُ! فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ -يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ- قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ»، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لِعَمَلٍ».

قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ، يَعْمَلُ بِطَاعَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ الله لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بالمعاصِي، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»(١).

وفيها: التحذير من سُوء الخاتمة.

وفيها: أهميَّة ادِّخار الحسَنات للدار الآخرة.

وفيها: التحذير من إفساد الأعمال الصالحة وتخريبها.

وفيها: أنَّ صاحب العقل والبصيرة لا يُقْدِم على ما فيه مضَرَّته.

وفيها: أنَّ تقوية العقل والبصيرة يحدُث بالتفكُّر الذي أمرَ الله به.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالإنفاق ابتغاءَ وَجْهِه، وحذَّر ممَّا يُفسِد الصَّدَقة؛ بيَّن بعد ذلك ما هي صِفَة المُنفَق، ومن أيِّ شيء تُخرَج الصَّدَقات؟ فقال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: هـذا النِّداء بالإيمان؛ للإغراء والحـثِّ على فِعْل المأمور به، وهو دليلٌ على أنَّ المأمور به هنا من مُقتَضيات الإيمان، ومخالفته نقصٌ في الإيمان.

﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: مـن خـيرِ المال، ونفيسِـه، وحلالِه، من مصادر الكَسْب المختلفة -كالتجارة والزراعة وغيرها-. و(الكَسْب): كلُّ مالٍ حصلَ بعمل.

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: فـكلُّ ما أخرجَه الله لنـا من الأرض طيِّبٌ، مأمورٌ مَن مَلَكَه أن يتصدَّق منه. وهذا الخارج يشمل: الزُّروعَ، والثِّمارَ، والمعادنَ، وغيرَها.

وتشمل الآية: الإنفاقَ الواجبَ والمُستَحَبَّ، في وجوه الخير.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصِـدوا الـرديء ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: تُزَكُّـون، وتتصدَّقـون. ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو أعطاهُ أحدٌ لكم؛ ما أخذتُموه إلَّا عن إغماضٍ وحَياءٍ، وتساهُلٍ وتنازُلٍ عن بعض حقِّه.

وقـد وردَ في سـبَب نزول هذه الآية: أنَّ الأنصـارَ كانت إذا كان أيَّامُ جُـذاذ النَّخْل (أي: قَطْـع ثَمَـره)، أخرَجَتْ من بسـاتينها أَقْنَاء البُسْر (وهي العراجـين أو العناقيد التي فيها ثمر النخل)، فعلَّقوه على حَبْلٍ بينَ الأُسْـطوانَتَيْنِ في مَسْـجِدِ رسول الله ﷺ، فيأكل فقراءُ المهاجرين منه، فيَعْمِد الرجلُ منهم إلى الحَشَـف (وهو: التمر الرديء، الذي يَجِفُّ من غير أن ينضُـج)، فيُدْخِله مع أقنَاء البُسْر، يظُـنُّ أنَّ ذلك جائز؛ فأنزل الله فيمَن فعلَ ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾.

وفي رواية: «كان أناسٌ ممَّن لا يَرْغَبون في الخير، يأتي بالقِنْوِ فيه الحَشَفُ والشِّيصُ (وهما نوعان رَديئان من التمر)، ويأتي بالقِنْوِ قد انكسرَ فيُعَلِّقه؛ فنزلت الآية».

وفي رواية: «كان الناس يتيمَّمون شِرارَ ثمارِهم، ثم يُخْرِجونها في الصَّدَقة، فنزلت الآية»(١).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عـن نَفَقَاتكـم وصدَقاتِكم، فلا يحتـاج إليها. ﴿حَمِيدٌ﴾: محمودٌ عـلى كلِّ حال، ومسـتحِقٌّ للحَمْـد، ويَحْمَد أصحابَ الأعمال الصالحة عـلى أعمالهم، فيقبَلُها ويُثيبُهم عليها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٩٧-٦٩٨)

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات العَلاقة الكبيرة بين الإيمان والصَّدَقة.

وفيها: وجوب الإنفاق من طيِّبات الكَسْب.

وفي الآية: دليلٌ عل وجوب الزكاة في عُروض التجارة؛ لأنَّها كَسْبٌ بالمعامَلة.

وفيها: أنَّ الله لا يقبل الصَّدَقة من المال الحرام؛ وإنَّما يُخرِجها صاحبُها على سبيل التخلُّص، لا الصَّدَقة.

وفيها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض، من الزُّروع والثِّمار، وقد فصَّلت السُّنَّة ذلك.

وفيها: وجوب الزكاة في المعادن والرِّكاز -وهو الكنز المدفون من أيَّام الجاهليَّة-.

وفيها: تحريم تقصُّدِ الرَّديء في إخراج الزكاة.

وفيها: أنَّ ما لا ترضاه لنفسِك؛ فلا تَرضَهُ لأخيك المسلِم.

وفيها: فَضْل الإنفاق من خِيار المال ونفيسه وجيِّده، وأنَّه إذا أنفقَ من الأدنى بغير قَصْدٍ وتعمُّدٍ -كأن يكون كلُّ ماله كذلك- فلا بأس، ولا حرج.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾:

ثم بيَّن تعالى مَكْرَ الشَّيطان، الذي يحمِل على البُخلِ والإمساكِ وإنفاقِ الرديء؛ فقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ أي: يُخوِّفكم، ويُذكِّركم عند الصَّدَقة بـ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ يعني: سُوءَ الحال، وقِلَّةَ ذات اليد، وذلك لِتُمْسِكُوا ولا تُنفِقُوا.

﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: يُوَسْوِس لكم بالبُخلِ ومَنْعِ الإنفاق، ويُغْرِيكم بذلك، ويُحسِّنه لكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ﴾ أي: في مُقابِل ما يأمرُكم به الشَّيطان؛ فإنَّ الله يَعِدُكم بسَتر الذُّنوب إذا أنفقتُم، ﴿وَفَضۡلٗا﴾ أي: خَلَفًا وزيادةً في الدُّنيا، وأجرًا وثوابًا في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: وَسِعَ العالمين بفَضْله وإحسانه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم وصدَقاتكم، فيُجازيكم على ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات تأثير الشَّيطان في إحجام العبد عن عمل الخير.

وفيها: أنَّ مَن نقصَ إيمانُه رُبَّما يستجيب لتخويف الشَّيطان بالفقر، أكثر ممَّا يستجيب لوَعْد الله بالخَلَف.

وفيها: أنَّ البُخل من الفواحش.

وفيها: أنَّ مَن ثبَّطَ غيرَه عن الإنفاق؛ فهو يعمل بعَمَل الشَّيطان.

وفيها: كَرَم الله تعالى، بالجَمْع بينَ المغفرة والفَضْل لمن أنفق.

وفيها: أنَّه ينبغي التفاؤل بوَعْد الله بالخَلَف على الإنفاق، وقد يكون برَكَةً في مال المُنفِق، أو وقايةً لِما بقيَ من ماله من الآفات، أو فَتْحَ بابِ رِزقٍ آخر -فيزداد المال- أو انشراحَ صدرٍ ورضا، يُسْعِده في دنياه قَبْل آخرتِه، أوْ كُلَّ ذلك.

وفيها: حثُّ العبد على أن يكون بما في يدي الله، أوثق ممَّا في يده.

وفيها: أنَّ تخويف الشَّيطان للعبد بالفقر ليس شفقةً عليه؛ وإنَّما لحِرْمانه من الأجر والثواب.

وفيها: أنَّ وَسْوَسَة الشَّيطان للعبد تدور بينَ الخبر والطلَب؛ ففي الخبر يَعِدُه الفقرَ، وفي الطلَب يأمرُه بالفَحْشاء.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى جزاء الصَّدَقة، ومُضاعفتَها، ونهى عمَّا يُبْطِلها، وأمر بالتقرُّب بأطيبِها، وحذَّر من الاستجابة لداعي البُخل؛ أخبرَ أنَّ هذا كلَّه من الحِكمة، وذكَّر بأنَّ الحِكمة خيرٌ كثير، وأنَّها أفضل من متاع الدُّنيا القليل؛ فقال تعالى:

﴿يُؤْتِي﴾: يُعطي ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وهي: القرآن، والسُّنة، ومعانيها، والعِلْم النافع، والفِقه، والنبوَّة، والوحي، والفَهْم، والإتقان، ووضع الأشياء في مواضعها اللَّائِقة بها. فكلُّ ذلك من الحِكْمة التي يؤتيها الله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده.

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ والإصابةَ، في القول والفِعْل والرأي؛ ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ في الدارَين، وهذا من فَضْل الله.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: وما يتَّعِظ ويتفكَّر بالحِكمة ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم: أصحابُ العقولِ الوافرةِ الرُّشد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الحِكمة فضلٌ وإيتاءٌ من الله. ومنها ما يكون غريزة موهوبة مع الخِلْقة، ومنها ما يكون مُكتسَبًا، يحصُل بالمِرانِ والمُمارسَةِ والتجارِبِ ومُخالطَةِ العقلاء.

وفيها: فَضْل النبوَّة -وهي أعلى الحِكمة- ويليها: الفِقه بالكتاب والسُّنَّة، وهو ما عند العلماء.

وفيها: أنَّ عدم التفكُّر والتذكُّر والتدبُّر، نقصٌ في العقل.

وفيها: أنَّ إيتاء الله الحِكمة للعبد تَكمُل به القوَّة العِلْميَّة، والقوَّة العمليَّة.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى عِلْمَه بجميع النُّذور والنَّفقات؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾ أي: أخرجتُم وبذَلتُم ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلةٍ أو كثيرةٍ، سِرًّا أو علانية، في خيرٍ أو غيره، من مالٍ حلال أو حرام.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ طاعةٍ أو معصيةٍ، مشروطًا أو غيرَ مشروط، متعلِّقًا بالمال أو بالأفعال. و(النَّذْر): إلزام المُكلَّفِ نفسَه بها لم تُلْزِمه به الشريعة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: يُحْصيه، فيُجازيكم عليه.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَنْعِ النَّفقات الواجبة، أو الإنفاقِ في المعاصي، أو الرِّياءِ والسُّمعةِ، أو المَنِّ والأذى. أو الناذِرين نُذورَ الشِّرك والمعصية، أو التارِكينَ الوفاءَ بنُذور الطاعة.

﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: أعوان، يَدْفَعون عنهم عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يُجازِي على النَّفقة أيًّا كانت، قليلها أو كثيرها.

وفيها: أنَّ اليقينَ بعِلْم الله بالنَّفقة، هو من احتساب الأجر، الذي يُضاعَف به عملُ المُنفِق.

وفيها: أنَّ الله لا ينصُر الظالمين، وإذا انتصَروا: فإمَّا أن يكون استِدراجًا لهم لِيَمحَقَهم، أو عقوبةً لمن انتصَروا عليهم.

وفيها: موعظةٌ لمن نذرَ نَذْرَ معصية، وأنَّه لا يجوز الوفاء به؛ ففي الحديث: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ»[1].

وفيها: أنَّ الله ينصُر المتصدِّقين في سبيله، ويَخذُل المُمْسِكين القابِضين أهلَ البُخل.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾:

ثُمَّ حثَّ تعالى المُنفِقين على إخفاء صدَقاتهم؛ فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟﴾ أي: تُظْهِرُوا ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبَّة؛ ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ وهي كلمة مَدْحٍ لمن فعلَ ذلك.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: تتصدَّقوا بها عليهم سرًّا؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إظهارِها وإبدائِها.

وقد قال بعض العلماء: إنَّ الفضيلة في الإخفاء هي لصدَقة التطوُّع، دون صدَقة الفريضة -كالزكاة-. واتَّفقوا على أنَّ كِتمانَ صدَقة التطوُّع وإخفاءَها؛ أفضل وخيرٌ من إظهارها، إلا إذا كان في الإظهار مصلحة راجحة.

(١) رواه البخاري (٦٦٩٦).

وقالوا: السُّـنَّة في الصدقة الواجبة والأفضل إظهارُها؛ لدَفْع المتصدِّقِ الملامةَ عن نفسه وسوءَ الظَّنِّ إذا أخفاها.

والكلُّ مقبولٌ -على كلِّ حال- إذا كانت النِّـيَّة صادِقة.

وقد قال النبي ﷺ في السَّبعة الَّذين يُظِلهم الله في ظلِّ عَرْشه، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه: «وَرَجُـلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِـمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»[١]، وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»[٢].

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (التكفير): هو السَّـتر. و(السيِّئة): كلُّ ما يَسُوء المرءَ عملُه أو جزاؤه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإظهار والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾: عليمٌ ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ إخفاء الصَّدَقات أفضل من إظهارها؛ لأنَّه أبعَدُ عن الرِّياء وهوى النفس، وأبعَدُ عن إحـراج الفقـير، إلَّا إذا كانت هناك مصلحةٌ في إظهارها -كأن يَقتـديَ به غيرُه، أو يكون في إظهارها إظهارٌ لشعائر الدِّين-؛ فالإظهار -حينئذٍ- أفضل، إذا أمِنَ على نفسه الرِّياء.

وفيها: أنَّ الصَّدَقة لا تُعتبَرُ إلَّا إذا وصلَت إلى الفقير؛ لقوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾.

وفي الآية: تفاضُل الأعمال عند ربِّ العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ الصَّدَقة سببٌ لتكفير السيِّئات.

وفي الآية: تحرِّي المحتاج والفقير، والبحث عنه لإعطائه.

وفيها: أنَّ إعطاء المُتصدِّق الفقيرَ مباشرةً بنفسه، أفضلُ من توكيل غيرِه بإيصالها، إلَّا إذا ترَجَّح التوكيلُ لمصلحة -كتأذِّي الفقير من رؤية المتصدِّق، لقرابةٍ أو معرِفةٍ-.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في صحيح الترغيب (٨٨٩).

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾:

ولـمَّا كانت الحاجة تدعو إلى الصَّدَقة على الكافر أحيانًا -لقرابتِه، أو تأليفِ قَلْبه-؛ سأل بعضُ المسلمين عن حُكم ذلك، وماذا لو لم يهتدِ هؤلاء المتصدَّق عليهم؟

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان المسلِمون لا يرضَخون لقراباتهم من المُشرِكين (أي: كانوا يكرَهون أن يُعطوهم شيئًا من أموالهم صدَقة)؛ فنزلَت هذه الآية، فرُخِّصَ لهم»(١).

فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ والمقصود: هداية التوفيق إلى الحقِّ، لا هداية البيان والإرشاد، فليس عليك -يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا على أُمَّتك- هداية هؤلاء الكفَّار إلى الإسلام، بل أعطِهم الصَّدَقة بشروطها وآدابها، إذا كانت هناك مصلحة مرجُوَّة، وإذا لم يكونوا محارِبين للمسلمين؛ فالله تعالى يهدِي مَن يشاء إلى الحقِّ، ويهدي مَن يشاء للصدَقة ابتغاءَ وَجْهِه.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟﴾ كما أمرَ الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أنواعِ المال والمنفعةِ؛ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: فثوابُ هذا الخير والنفع لكم لا لغيركم، فلا تُفسِدوه، ولا يضُرُّكم كُفْر مَن تصدَّقتُم عليه لأجل المصلحة الشرعيَّة.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾: وهكذا عَمَل المؤمن ينبغي أن يبتغيَ به وَجْهَ الله وحدَه، وإذا تصدَّق مُخْلِصًا مجتهدًا؛ فقد وقعَ أجرُه على الله.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلًا أو كثيرًا؛ ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُعْطَونَ ثوابه وافيًا، وافرًا غيرَ منقوص، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تُنقَصون شيئًا منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ذِمَّة الدَّاعية تبرأ إذا بلَّغ وبيَّن، ولو لم يهتدِ مَن دَعاهم.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٨٧).

وفيها: أنَّ هدايةَ التوفيق، ودخولَ نورِ الإيمان إلى القَلْب؛ هي من اختصاص الله تعالى ومحضِ فَضْلِه.

وفيها: أنَّ أعمال الإنسان لا ينصرِف جزاؤها إلى غيره، ولكن قد ينتفع الغيرُ بعَمَله.

وفيها: أنَّ الإنفاقَ لغير وَجْه الله لا ينفَع صاحبَه.

وفيها: إثبات صفة (الوَجْه) لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الإنفاق من الحرام لا يُقبَل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، والحرام ليس بخير.

وفيها: حثُّ المسلمين على الصَّدَقة، بوصول أجورِهم عليها كاملةً موفورةً.

وفيها: صِلَةُ القريب الكافر، وتأليفُ قَلْبِه بالمال، وأنَّ إعطاءه لا يُنافي البراءة من شِركِه.

ويُستنبَط من الآية: جواز إعطاء العاصي من الصَّدَقة، ما لم يَستَعِن بها على المعصية. وأمَّا الكافر: فلا يُعطَى من الزكاة إلَّا من أَسْهُمِ المؤلَّفة قُلُوبُهم.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾:

ثم بيَّن تعالى مصارِف الصَّدَقات، ومَن هم الأَولى بها؛ فقال تعالى:

﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ أي: الإنفاق وإيتاء الصَّدَقات للفقراء. و(الفقير): هو المُعْدَم، والخالي ذاتِ اليد، أو مَن لا يجدُ إلَّا أقلَّ من نصف حاجته.

﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: حَبسوا أنفُسَهم في طاعة الله، من جهادٍ وغيره، وكذلك الذين حَبسَهم العدُوُّ والمرضُ.

وقد بيَّن تعالى في سُورَة «الحشر»، أنَّ سببَ فقرِهم هو إخراجُ الكفَّار لهم من ديارهم، واستيلاؤهم على أموالهم؛ فقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ الآية [الحشر: ٨].

فهؤلاء ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لا يقدِرون على السفر لطلَب المعاش، إمَّا لاشتغالهم بصلاح الدِّين، أو لخوفِهم من الأعداء، أو لِما أصابهم من الجِراح والمرض، ونحو ذلك.

﴿يَحۡسَبُهُمُ﴾ أي: يظنُّهم ﴿ٱلۡجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغۡنِيَآءَ﴾ غيرَ محتاجِين؛ ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: لِتَرْكهم المسألةَ، وإظهارِهم الغنى.

﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ أي: بالفِراسة والتأمُّل في أحوالهم وعلاماتهم. ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ أي: لا يُلِحُّون في السؤال، ولا يُثقِلون على النَّاس، بل لا يسألون أصلًا؛ لأنَّ مَن كان متعفِّفًا، ويظنُّه الجاهل غنيًّا، ولا يُعرَف حاله إلَّا بالتأمُّل؛ فإنَّه لا يمُدُّ يدَه ولا يسأل، وإلَّا لصارَ أمرُه واضحًا.

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»[(١)].

وقوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: هذا وَعْدٌ منه سبحانه بأنَّه يُجازِي المتصدِّق على الإنفاق في كلِّ الأحوال، سواء تصدَّق على المُلحِف أو على غير المُلحِف، وعلى المُتيقَّن من فَقْره وعلى المشكوك في فَقْره، وعلى مَن اشتدَّت حاجتُه وعلى مَن لم تشتدَّ؛ فإنَّ عِلْمَ الله المحيطَ ببواطن المُنفِقين، وحقائقَ السائلين، سيترتَّب عليه الجزاءُ يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن كان قادرًا على التكسُّب؛ فلا يُعطَى من الصَّدَقة؛ حتى لا يُشجَّع على البَطالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وبعض الناس يشترِط عند البحث عن وظيفة شروطًا صعبة، ولا يقبَل بالمتيسِّر له، ولا أن يتدرَّج في الوظائف، ويرضَى -مع ذلك- أن يكون عالةً على الناس المدَّة الطويلة! وهذا فَهْمٌ مغلوطٌ.

(١) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

وأمَّـا مَـن لم يجد وظيفة أصلًا، ولا يسـتطيع مزاولـة مهنة ولا تجـارة، أو كان له عَمَلٌ لا يكفي حاجاته وحاجات أهله؛ فإنَّه يُعطَى، ولو من الزكاة.

وفي الآية: فضيلة التعفُّف والصَّبر.

وفيهـا: الحثُّ على دِقَّة النظر، والتفـرُّس والتفطُّن لأحوال الناس، والتمعُّن في الأحوال والقرائن؛ لاكتشاف المُحتاج العفيف الذي لا يسأل.

وفيها: إشـارةٌ إلى النهي عن إيذاء الناس، في الإلحاح في السـؤال، وإحراجهم، والإثقال عليهم.

وفيها: أنَّ المضطر إذا سأل؛ فليتلطَّف.

وفيها: أنَّه كلَّما اشـتدَّت حاجةُ الشـخص، وعظُمَت مناقبُه وفضائلُـه؛ كان إعطاؤه أكثرَ أجـرًا؛ وذلـك أنَّ الله ذكرَ لمسـتحِقِّي الصَّدَقة في الآية سِـتَّ خصالٍ وصفـاتٍ، عزيزٌ أهلُها، ومَن يعرِفهم أقلُّ وأندَر، ولكنَّ الله يختصُّ بتوفيقه مَن يشاء.

وفيها: إشارةٌ إلى تحريم السؤال لمن عنده ما يُغنيه، وفي الحديث: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ؛ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ: خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ»(١).

يعني: جاء أثرُ مسألته جُروحًا تظهر على الجلد واللَّحم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾:

قولـه تعـالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم﴾ يعنـي: كلَّهـا أو بعضَهـا ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أي: في جميـع الأحوال والأوقـات؛ لحِرْصهم على الخير، وينتَهِزون اللَّيل لإخفاء صدَقاتهـم، وإذا جاءَهم صاحبُ حاجةٍ بالنهار لم يُؤَخِّروه، وبادَروا بالصَّدَقة عليه؛ لئلَّا تفوتَ المصلحة والأجر.

---

(١) رواه أبـو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسـائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٩).

فهـؤلاء جزاؤهـم كما قال الله تعـالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله يوم القيامة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبَل والآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتَهم من الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعميم اليوم واللَّيلة بالأعمال الصالحة، والاشتغال بطاعة الله على مدار اليوم.

وفيها: أنَّ الإنفاق في سبيل الله سبَبٌ لانشراح الصدر، وطَرْد الهمِّ والغمِّ.

وفيها: أمانٌ من الله للمتصَدِّقين، وأنَّه يُذْهِب عنهم الخوف من كلام المُرْجِفين، فينبغي عدم الالتفات إلى تخويفهم، والإقدام على الصَّدَقة والاستمرار فيها.

وفيها: فَضْل صدَقة السِّرِّ على صدَقة العلانية؛ ولذلك قدَّمها بالذِّكر في الآية.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾:

ولـمَّا حثَّ الله تعالى على الصَّدَقة من الكَسْـب الطيِّب؛ نبَّه على بعض الكَسْـب الخبيث؛ للتحذير منه، ومِن التصدّق به.

ولـمَّا ذكرَ تعالى حالَ المُحْسِنين في الأموال؛ ذكرَ طَرَفًا من حال المُسـيئين في الأموال، وهُم أَكَلَة الرِّبا؛ فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذونـه، فينتَفِعون به، بأيِّ وَجْه -كالأكل والشرب، أو اللِّباس، أو السَّكَن، أو المركَب، أو الوقود، وغير ذلك-. و(الرِّبا): زيادة في شيئَين، منعَ الشارعُ من التفاضُل بينهما.

فهـؤلاء ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: لا يُبعَثـون مـن قبورهـم يـومَ القيامـة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: كالمصروع، الذي تلَّبس به الشَّيطانُ، فجعلَ يتخبَّط ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: من الجُنون والصَّرع.

ومِشـية المصروع علامةٌ يَعْـرِف الناسُ بها آكلَ الرِّبا يومَ القيامـة، فتكون فضيحته وأول عذابه عند البَعْث.

وأمَّا في القبر: فقد أخبرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه رأى آكلَ الرِّبا يسـبَحُ في نهرٍ من دَمٍ، وعليه رجلٌ بين يدَيه حِجارة، فإذا أراد أن يخرجَ رمَاه بحَجَرٍ في فِيهِ، فرَدَّه حيثُ كان[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عذابهـم بقيامِهـم من قُبورهم كهيئة المجانـين المصروعين ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾ أي: بسبَب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

وهـذه مُكابـرةٌ وتَعـامٍ عن الفرق بـينَ البيـع والرِّبا، لدرجة أنَّهم عكَسـوا التشـبيه، فلم يقولوا: «إنَّما الرِّبا مِثْلُ البيع»؛ وإنَّما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فالرِّبا عندهم هو الأصل الذي يبُيحُونَه، ويقيسون البيعَ عليه في الحُكم! فكان عذابُهم بسبَبِ أنَّهم جعلوا الرِّبا والبيعَ كلاهما حلالًا.

فكذَّبهـم الله تعالى، وردَّ عليهـم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: أباح الله تعالى أربـاحَ التجارة بالبيع والشراء، وحرَّم الرِّبا -الـذي من أنواعه: زيادة في المال، لأجل تأخير الأجَل في القَرْض-. والله يحْكُم ما يشاء.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بلَغَـه حُكـمُ الرِّبا والتخويف من فِعْلـه، بعد أن تعاملَ بـه ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي: كفَّ عن الرِّبـا بالتوبةِ منه، والتوقُّفِ عن أَخْـذِ الزيادة؛ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما أخذَه قبل العِلْم بالحُكم، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: شـأنه في الآخرة راجعٌ إلى مشـيئة الله تعالى.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليـلِ الرِّبـا وأخـذِه، بعد أن تبيَّن له حُكمـه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العائدون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلُهـا المُلازِمـون لها، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكِثون فيها أبدًا، باستحلالهم الذي جعلَهم كُفَّارًا.

أمَّـا إن اعتقـدوا التحريم، وأصرُّوا عـلى التعامل بالرِّبا؛ فيسـتَحِقُّون العقوبة الطويلة في النَّار.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من الرِّبا، وشناعة مصير صاحبه.

وفيها: إثبات صَرَعِ الشَّيطانِ للإنسان.

وفيها: مُبالغة أهل الباطل في ترويج باطلهم.

وفيها: أنَّ الحرام يبقى حرامًا، سواءً عَلِمنا بعِلَّة التحريم، أم لم نعلَم.

وفيها: أنَّ ما أخذه الإنسان من الرِّبا قبل العِلْم؛ فهو له، بشَرْط أن يتوب وينتهي.

وفيها: أنَّ المُرابي لو بقيَ له شيء من الزيادة؛ فإنَّه إذا تابَ يجب عليه إسقاطُها.

وفيها: التحذير من العودة إلى المعصية بعد الموعظة.

وفيها: أنَّ التائب يبقى خائفًا من ذنبه؛ لقوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن يرجو رحمة ربِّه.

وفيها: عقاب ومصير مَن يأكلونَ أموالَ الناس عن طريق الرِّبا، بالحِيَلِ والوسائل المختلفة، والتفنُّن في طُرُق الكَسْب الحرام والاحتيال -معتَقِدين أنَّ هذا من الذَّكاء- وأنَّهم سيُعاقَبون بقيامِهم من القبر كهيئة المجانين المصروعي، الَّذين ذَهَبَت عقولُهم، وهذا مصير مَن استعملَ ذكاءَه في تحصيل الأموال بالرِّبا.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾:

قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يُذهِبه، أو يُذهِب برَكته، ويُعاقِب عليه. وكثيرًا ما يَذهب الرِّبا بالتدريج. و(المَحْق): هو الإزالة.

وهذه الإزالة يُحتمَل أن تكون إزالةً حِسِّيَّة، أو إزالة معنويَّة: فالإزالة الحِسِّيَّة بأن يُسَلِّط الله على مال المُرابي ما يُتْلِفه، والمعنويَّة بأن يَنزِع منه البركة.

وقد قال النبي ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِن الرِّبَا؛ إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ»، وفي رواية: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»[١]، أي: قلَّة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وأحمد (٣٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٦٣).

أمَّا الصَّدَقات؛ فالله تعالى يُنَمِّيها ويبارِك فيها؛ ولذا قال: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يَزيدها ويُنَمِّيها، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[1]، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[2]؛ فتصير اللُّقمة والتمرة من الصدقة مِثل الجبل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ وهو: كثير الكُفر أو عظيمُه، كَفور القَلْب. وكُفره قد يكون كُفرًا أكبر باستحلال الرِّبا، وإلَّا فهو واقعٌ في كبيرةٍ من الكبائر، بالإصرار على الرِّبا.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الوقوع في الإِثْم، ظلومٌ لأخذِه المالَ بالباطل. فهو أثيم القول والفِعْل.

فالمُرابي لا يرضى بما قسمَ الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرَعَ له من التكسُّب المباح؛ فهو يسعى في أكلِ أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لِما عليه من النِّعمة، ظلومٌ آثِمٌ بأكل أموال الناس بالباطل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَحْق الرِّبا قد يكون حِسِّيًّا أو معنويًّا.

وفيها: أنَّ زيادة المال بالصَّدَقة قد تكون زيادةً حِسِّيَّة -بأن يُخْلِف الله على صاحبها من المال أكثر- أو معنويَّة -بأن يُبارِك له فيما بقيَ من المال- أو بهما معًا.

وفيها: أنَّ الرِّبا من شعار أهل الكُفر.

وفيها: أنَّ المُرابي كافرٌ بنِعمة الله، ولو شكرَ لأقرضَ بغير زيادة، يرجو ثواب الله تعالى.

وفيها: تنبيه العِباد على عدم الاغتِرار بالظاهر؛ فإنَّ الرِّبا يَزيد المالَ في الظاهر، والصَّدَقة تُنقِصه في الظاهر، ولكنَّ الحقيقة هي عكس ذلك.

وفي التفريق بينَ محق الرِّبا ونماء الصَّدَقة: إشارةٌ إلى أنَّ الله لا يقبل الصَّدَقة من مال الرِّبا، وإنَّما يتقبَّلها من الكَسْب الطيِّب.

---

(١) وهو: الصغير من الخيل.

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾:

ثم قال تعالى مادحًا المؤمنين، الذين يقومون بحقِّه وحقِّ عباده:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقُلُوبهم، بالله وأحكامه، ومنها: تحريم الرِّبا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارِحهم ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتمُّوها قويمةً، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنِها ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستَحِقِّيها.

هؤلاء جزاؤهم كما أخبر الله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ أي: ثوابُ أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في الآخرة، وهذه (العِنديَّة) تفيد شَرَفًا وضمانًا.

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من مكروهٍ في المستقبَل، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على محبوبٍ فاتَ في الماضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اقتران العمل بالإيمان.

وفيها: أنَّ العمل الذي ينفع صاحبَه هو ما كان صالحًا، أي: خالِصًا صوابًا.

وفيها: أهميَّة هذَين الرُّكنَين العظيمَين العمليَّيْن من أركان الإسلام، وهما: الصَّلاة والزكاة.

وفيها: حصول الأمنِ التامِّ للمتَّصِفين بهذه الصِّفات في الآية.

وفيها: أنَّ النفس تطمئنُّ إذا انتفى عنها الحُزن على الماضي، والخوف من المستقبَل.

وفيها: أنَّ الإيمان والأعمال الصالحة -وعلى رأسها الصَّلاة والزكاة- تجلِب الراحة النفسيَّة لمن قام بها.

وفي الآية: فَضْل عمل الخير، بالأبدان والأموال.

وفيها: أنَّ المُرابي مختَلُّ الإيمان، وإن صلَّى وزكَّى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾:

ولـمَّا بيَّنت آيةٌ سابقةٌ أنَّ ما أخذه المُرابي من الزيادة قبل العِلْم بالتحريم هو له؛ جاءت هـذه الآية لتبيِّن أنَّ الزيادة التي يقبِضها المُرابي بعد عِلْمه بالتحريم، لا يجوز المطالَبة بها، ولا أَخْذُها.

فأمرَ تعالى عبادَه بتقواه، ونهاهم عن الرِّبا الذي يُسْخِطه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخِذوا وقايةً من عذابه، بِفِعْل ما أمرَكم به، وتَرْكِ ما نهاكم عنه، ﴿وَذَرُواْ﴾: اُتْرُكوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ عندَ مَن أقرضتُموه، واقتصِروا على المطالَبة بـرؤوس أموالِكم فقط.

هذا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالله، الذي حرَّم الرِّبا. وهذا أسلوبُ إغراءٍ وإثارةٍ، وحثٍّ على الامتِثال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مِن بلاغة القرآن: الإشارة إلى أهميَّة الأمر بالكلمات التي تجعل النفوس قابلةً له، والتنبيه عليه بالنِّداء وغيره.

وفيها: وجوب تَرْكِ الرِّبا، وإن جرى التعاقُدُ عليه.

وفيها: إبطال العقود بالرِّبا، وأنَّه لا يجوز تنفيذ العقود المحرَّمة.

وفيها: تحريم الرِّبا، وإن كان مأخوذًا من الكفَّار، أو كان بينَ غنيٍّ وغنيٍّ -كالتاجر صاحب المصنَع، والبنك والمصرِف-.

وفيها: عدم جواز المطالبة بالرِّبا، أو أخذ ما زادَ على رأس المال من الرِّبا؛ لأيِّ غرضٍ كان، ولو بنيَّة التصدُّقِ به، أو صَرْفه في وجوه البِرِّ تخلُّصًا منه؛ لأنَّ الله تعالى أمرَ بتَرْكه؛ ولو كان هناك طريق يمكن صَرْفُه فيه؛ لبيَّنه الله تعالى.

وفيها: أنَّه لا يضُرُّ المُودِعين في مصارف الرِّبا، أن يتركوا الرِّبا لأصحاب المصارِف، ولو استعملوها في حَرْب المسلمين.

وفيها: أنَّ الرِّبا ليس مِلْكًا للمُرابي، ولا أحقيَّة له فيه.

وفيها: أنَّ التعامل بالرِّبا يُنافي الإيمان.

وفيها: ابتلاء الله تعالى لدعاوى العِباد -أمرًا أو نهيًا-؛ لتمحيصِهم.

وفيها: التمهيد قبل النهي بالأحكام العظيمة، بالأمر بالتَّقوى؛ لموعظة النفوس، وتهيئتها للعمل بالحُكم.

فعلى الدُّعاة وَعْظ الناسِ قبل أمرِهم ونهيِهم بالأحكام.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾:

ولـمَّا كان تَرْكُ الرِّبا شاقًّا على النفس؛ لتعلُّقها بالمال، وأموال الرِّبا كثيرًا ما تكون طائلة؛ جاء إعدادُ النفوس لذلك بأسلوبِ التنبيه والنِّداء، والموعظةِ، والإغراءِ بالإيمان، ثم التخويف بالعقوبة العظيمة؛ فلذلك قال بعدها:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي: ما أُمِرتُم به من تَرْكِ الرِّبا؛ ﴿فَأْذَنُواْ﴾ أي: اعلَموا واستيقِنوا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الدُّنيا: بالقتال والسَّيْف، وفي الآخرة: بالعذاب والنَّار.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «مَن كان مُقيمًا على الرِّبا لا يَنزِع عنه، فحقٌّ على إمام المسلمين أن يستتيبَه، فإن نزعَ وإلَّا ضربَ عُنقَه»(١).

وقال: «يُقال يومَ القيامة لآكِلِ الرِّبا: خُذْ سِلاحَكَ للحَرْب»(٢).

قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتُم إلى طاعة الله بعد معصيته، وتركتُم الرِّبا بشروط التوبة؛ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: أصولًا دون الزيادة، فـ ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بإلزامكم بالتخلِّي عن رأس المال.

ولذلك قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في خُطْبة الوداع: «أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ،

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٥)، تفسير ابن المنذر (١/ ٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٩).

لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، غَيْرَ رِبَا العَبَّاسِ ابنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»(١).

وجاء في حديث جابر في حَجَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه قال: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ... وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المُصِرَّ على الرِّبا مُعلِنٌ الحَرْبَ على الله ورسوله.

وقد جاء في الوَعيد على الرِّبا ما لم يأتِ مثلُه على ذنبٍ آخر -غير الشِّرك-؛ فإنَّ الله تعالى لم يأذَن بمُحاربةِ أحدٍ إلَّا آكل الرِّبا؛ لشِدَّة ظُلْمِه، وما يترتَّب على الرِّبا من المفاسد الكثيرة؛ ومنها:

- أنَّه أخذُ مالِ الغير بغير عِوَضٍ ولا مُقابِلِ عملٍ يقوم به المُرابي.

- أنَّ أكل الرِّبا يمنع من الاشتغال بالتجارة؛ فإنَّه إذا رأى شيئًا مضمونًا يأتيه بغير تَعَب؛ فلماذا يدخُل في مخاطر التجارة والزراعة والصناعة وسائر الأعمال؟!

- ومن مفاسده: أنَّه سبَبٌ لانقطاعِ المعروف بينَ الناس، واندثارِ القَرْض الحسَن.

- وفيه ظُلْمٌ عظيمٌ -خاصَّةً في الفوائد المُركَّبة-؛ فيزداد آكلُ الرِّبا ثراءً فاحشًا، ويزداد الفقيرُ -دافعُ الرِّبا- فقرًا مُدْقِعًا.

وفي الآية: تحذير أَكَلَة الرِّبا بحَرْب الله لهم، وما يسلِّطه عليهم من البلاء والعذاب، وحَرْب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائه من الأئمَّة والولاة الذين من وظائفهم: محاربة أَكَلَة الرِّبا.

وفيها: رحمة الله تعالى بعباده، ومُراعاة حالهم؛ حيث لم يَحْرِم المُرابين من رؤوس أموالهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٣٣٤)، والترمذي (٣٠٨٧)، وابن ماجه (٣٠٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾:

ولَمَّا بيَّن تعالى تحريم الرِّبا؛ أمرَ الدائنَ بالصَّبر على المُعسِر؛ فقال:

﴿وَإِن كَانَ﴾ مِن غُرمائكم غريمٌ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: عاجزٌ عن أداء الحقِّ الذي عليه؛ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: فعليكم إنظارُه وإمهالُه إلى وقت يَسارِه، وقُدرتِه على الوفاء، لا كما كان أهل الجاهليَّة يفعلون، فيقول أحدُهم لِمَن عجزَ عن السَّداد له إذا حلَّ الدَّيْن: «إمَّا أن تقضيَ، وإمَّا أن تُرْبِيَ»، فكلَّما تأخَّر زادَه في الرِّبا!

ثم حثَّ تعالى الدائنينَ على التسامُح في الدَّيْن، والوَضْع منه، أو إلغائِه بإبراء المُعْسِر، ووعدَ على ذلك الخيرَ والثوابَ الجزيل؛ فقال:

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ على المُعْسِر بإبرائه؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إنظارِه وتأخيره ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتُم من ذوي العِلْم، فتصدَّقوا وتنازَلُوا.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ؛ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»[(١)].

وفي حديثٍ آخر: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ؛ كَانَ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٢)].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»[(٣)].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ[(٤)]، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ»[(٥)].

وفي روايةٍ للحديث: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ المَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ من خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي

(١) رواه مسلم (٣٠٠٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢٥٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٦).

(٣) رواه أحمد (٢٣٠٤٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٤٣٨).

(٤) أي: يبيعهم بالأجل.

(٥) رواه البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢).

كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأُنْظِرُ المُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ المُعْسِرِ. فَأَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إنظار المُعْسِر، وعدم جواز مُطالبتِه بالدَّيْن إذا كان لا يستطيع الوفاء.

وفيها: فضيلة الإبراء من الدَّيْن، وأنَّه صدَقة وَسُنَّة. وأمَّا الإنظار والتأخير للعاجز: فهو واجبٌ.

وفيها: أنَّ جهالة الأجَل في إنظار المُعْسِر إلى حين الميسَرة، لا تَضُر.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾:

ثـم وعظَ تعالى عبادَه، وذكَّرهـم بزوالِ الدُّنيا وفناءِ ما فيها مـن الأموال، وإتيانِ الآخرة وما فيها من المُحاسبة على الأعمال؛ فقال تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ أي: احذَروا عذابَ يوم. والمراد به: يوم القيامة **﴿تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾** أي: تُرَدُّون إليه للحساب.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾: تُعطَى وتُستوفى **﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾** من ثواب الحسنات، وعقوبة السيِّئات، **﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾** أي: لا يُنقَصون شيئًا من ثواب حسناتهم، ولا يُزاد عليهم شيء في عقوبة سيِّئاتهم.

وهـذه الآية هي آخـر وصيَّةٍ نزلَت على نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من السَّماء، وآخِرُ القرآن عهدًا بالعَرش وربِّه تعالى، بعد استقرارِ نزول الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار والقَصَص.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، وسعيدُ بنُ جُبَير، وعَطيَّةُ العَوْفي، وغيرُهم: «آخر آية نزلت على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥١)، ومسلم (١٥٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤٠-٤١)، تفسير ابن المنذر (١/ ٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٥٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٧٢١).

حتى قيل: إنَّها نزلَت قبلَ موته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتسع ليالٍ، وقيل: بثلاثٍ، وقيل غير ذلك، ولم ينزِل بعدها شيءٌ(١).

وجاء في «صحيح البخاري»(٢) عن ابن عبَّاس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: آيَةُ الرِّبَا».

وجمعَ العلماءُ بين القولَين: بأنَّ هذه الآية هي خِتام الآيات المنـزَّلة في الرِّبا؛ إذْ هي معطوفة عليهنَّ؛ فتكون آيات الرِّبا مختومة بهذه الآية، وهي آخر ما نزل على النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اتِّقاء عذاب يوم القيامة يكون بفِعْل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وفيها: أنَّ مرجِع الخلائقِ كلِّهم إلى الله، حُكمًا وقَدَرًا وجزاءً.

وفيها: أنَّ الصغير يُكتَب له ثواب ما عَمِلَ؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

وفيها: فائدة في دعوة أَكَلَةِ الرِّبا، بتذكيرهم بتقوى الله، واتِّقاءِ عذابه في اليوم الآخر، وتذكُّرِ الحساب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: توجيه الدُّعاة بوَعْظ المُرابين بهذه الآية.

وفيها: استحباب ختام الوصايا بالأمر بتقوى الله؛ فإنَّ هذه الآية هي آخر وصيَّة من الله للبشريَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٧٥)، فتح الباري (٨/ ٢٠٥).
(٢) صحيح البخاري (٤٥٤٤).
(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾:

هـذه هي آية الدَّيْن. وقد أرشـدَ الله تعالى عبادَه المؤمنين فيهـا إلى الكتابة، إذا تعامَلوا فيما بينهـم بمعامـلاتٍ مؤجَّلة؛ ليكون ذلـك أحفظَ لها وأضبطَ، وأعونَ عـلى الوفاءِ بها، وحِفظِ حقوق أطرافها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بـالله وأحكامـه ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ (الدَّيْـن): كلُّ مـا ثبـت في الذِّمـة من حقٍّ لشـخص آخر. والمعنـى: إذا عاملَ بعضُكم بعضًا معاملـةً فيها دَيْن -كالبَيع الآجِـل، والقَـرْض، ومؤخَّـر صـداق الزوجة، وغـير ذلـك- ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معلوم؛ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: اكتُبوا الدَّيْن بأَجَلِه؛ لأنَّ الكتابة مَرجِعٌ لحَسْم الخلاف.

ويدخل في الآية: «بَيعُ السَّلَم»، وهو: بَيع شيءٍ مؤجَّل موصوف في الذمّة، بثمن معجَّل، يعنـي: البيع الذي يكون فيـه تقديم الثمن كاملًا في مجلس العقـد، وتأجيل المبيع الموصوفِ -المتعلِّق بذِمَّة البائع- إلى أجلٍ معيَّن.

قـال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أشـهَد أنَّ السَّـلَف المضمونَ إلى أجلٍ مسـمًّى، قد أحلَّه الله في الكتاب، وأذِنَ فيه»، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾»(١).

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ أي: بـينَ الدائـن والمدين، والبائع والمشـتري، ونحوهم. و«البينيَّة» تقتضي ألَّا ينفرِدَ أحدُ المتعامِلَيْن بالكتابة؛ بل تكون باطِّلاع الطرَفَين.

﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالحقِّ والإنصاف والاستقامة، فلا يميل قلمُه لأحدِ الطرَفَين على الآخر.

---

(١) رواه الحاكم (٣١٣٠)، والبيهقي (١١٠٨١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٣٦٩).

﴿وَلَا يَأۡبَ﴾ أي: لا يمتَنِع ﴿كَاتِبٌ﴾ يَعْرِف الكتابة ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ إذا طُلِبَ منه ذلك، ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾، فليكتُب على أصول الكتابة وطريقة التوثيق، وشُكرًا لِنعمة الله الذي مكَّنه من تعلُّم الكتابة.

﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ فورًا إذا طُلِبَت منه الكتابة، ولا يمتَنِع، ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾ أي: لِيُملِ -و(الإملال) و(الإملاء) بمعنى واحد- ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو المديون. ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: هذا المديون، الذي يمُلي ويبيِّن ما في ذِمَّته. ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: لا يُنقِص شيئًا من الدَّيْن الذي عليه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: ناقص العقل، لا يُحسِن التصرُّف، ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ في بدنه، أو رأيه، كأن يكون صبيًّا أو مجنونًا أو هَرِمًا، ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لعَجْزٍ -من خَرَس، أو جهل باللُّغة، أو حبس، ونحو ذلك-؛ ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ الذي يتولَّى شُؤونه -من والد، أو وصيٍّ، أو مترجِم، أو وكيل، ونحوهم- ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: بالصدق والحقِّ، دون زيادة أو نقصان، أو محاباة.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ أي: اُطلُبوا شهادتَهما على الحقوق مع الكتابة. وهذا الأمر للاستحباب.

﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ يعني: الأحرار البالغين المسلمين. ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾ أي: فإن لم يكن الشاهدانِ رجلَين؛ ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ يشهدون. وشهادة النِّساء هنا في قضايا الأموال، أمَّا في غيرها من القضايا -كالحدود والنِّكاح وغيرها- فلا تُقبل إلَّا شهادة الرِّجال.

واشترطَ في الشُّهودِ أن يكونوا ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: ممَّن عُرِفَ عند عُموم الناس أنَّهم مَرْضِيُّون في ديانتهم وأمانتهم.

واشترطَ امرأتَين في الشَّهادة؛ بسَبَب ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ أي: إذا نسيَت ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ الذَّاكرة، الضابطة ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ الناسية.

﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ أي: يجب عليهم تلبيةُ الدَّعوة للشهادة، ويكون مجيئُهم

ليشهَدوا فرضَ كفايةٍ، ومجيئُهم للإدلاء بشهادتهم التي تحمَّلوها فرضَ عَيْنٍ عليهم، إذا لم يكن الحقُّ يَثْبُت إلَّا بذلك.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي: لا تمَلُّوا من ذلك، مهما كثُرَت المُداينات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: إلى وقت حُلوله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرناكم به من الكتابة ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أعدل، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبَت وأحفَظ لها، وأعوَن للشاهد على إقامتها إذا نسيَ أو شَكَّ، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي: أقرب إلى انتفاء الشَّكِّ؛ لأنَّه إذا تمَّ الرُّجوع إلى الكتابة زال الشَّكُّ.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد، وليس بالآجِل؛ فلا بأس بتَرْك الكتابة. و(التجارة): كلُّ صَفْقة يُراد بها الرِّبح، فتشمل: البيع والشراء والإجارة. وأعلى من ذلك كلِّه: ما ذكرَه الله بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١٠-١١].

﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتعاطَونها، وتتعامَلون بها.

فإذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: لا إثمَ عليكم بتَرْك الكتابة في هذه الحالة؛ لأَمْنِ النِّسيان والتنازُع.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: وهذا الأمر للاستحباب. والإشهاد على البيع أقطَع للتنازُع، وأدفَعُ للخلاف.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي: لا يجوز إلحاقُ الضرَر بالكاتب، ولا الشاهد؛ لأنَّ هذا سيؤدِّي إلى الإحجام عن بَذْل الكتابة والشَّهادة، وسيدفَع إلى الوقوع في كتابةِ الزُّور وشهادَتِه.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ هذه المُضَّارة التي نُهيتم عنها؛ ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خروجٌ عن الطاعة، وإثمٌ عليكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافُوه وراقِبوه، واتَّبِعُوا أمرَه، واترُكوا ما نهى عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: إذا اتقيتُم؛ علَّمكم ما ينفعُكم.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من مصالح الدُّنيا والآخرة ﴿عَلِيمٞ﴾: واسع العِلْم بحقائِقِها وعواقِبِها.

وفي آية الدَّيْن من الفوائد:

عِناية الله بحقوق العِباد؛ فإنَّ هذه أطولُ آية في كتاب الله تعالى.

وفيها: أنَّ مِن شُكر نِعمة معرفة الكتابة: الصَّدَقة على مَن لا يُحسِنها، بالكتابة له مجانًا. ويجوز أَخْذ الأجرة على ذلك.

وفيها: قَبول شهادة المرأة في المال -دون الحدود والنِّكاح وغيرها-؛ لأنَّ قضايا المعاملات الماليَّة كثيرة، ويطَّلع عليها الرِّجال والنِّساء غالبًا؛ فوسَّع الشرعُ في كيفيَّة إثباتها.

وفيها: أنَّه لا يجوز إرغام الكاتب على الكتابة، والشاهد على الحضور بدون رضاهما، ولا يجوز تكليفُهما بما يشُقُّ عليهما -كالإتيان من بعيد، وتحمُّل تكلفة السفر-.

وفيها: تذكيرٌ بنِعمة الإسلام، الذي أخرجَهم من الجهالة إلى العِلْم بالشريعة، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك.

وفيها: أنَّ التَّقوى سببُ إفاضة العلوم.

وفيها: أنَّ تعليم الله للعبد يزداد بتقوى العبد لله؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وفيها: ردٌّ على مَن يقول: إن الدِّين خاصٌّ بالعِبادات، وإنَّ الله أوكَل إلى الخَلْق شُؤون المعاملات! وهذا ضلالٌ مبينٌ؛ فإنَّ الله تعالى قد بيَّن الحلال والحرام في كلِّ شيءٍ -بما فيها المعاملات- ووضعَ ضوابط لِما يكون بينَ الناس من العقود وأنواع التصرُّفات.

وفي الآية: الأمر بكتابة الدَّين المؤجَّل. ويتأكَّد ذلك فيمَن يُحتمَل ضياعُ حقِّه، كاليتيم؛ فيجب على وليِّ اليتيم أن يكتبَ الدَّين الذي له.

وفيها: إحسان الكتابة بالأسلوب والخطِّ.

وفيها: أنَّ الإنسان لا يتعلَّم إلَّا بتمكين الله له من ذلك، ولهذا لا بُدَّ له من شُكر النِّعمة.

وفيها: أنَّ الأفضل أن يكون الكاتب طَرَفًا ثالثًا. ويجوز لمن عليه الحقُّ أن يكتب.

وفيها: أنَّه يحرُم على المدين بَخْسُ الدائن في كميَّة الدَّيْن، أوصِفته، أو نوعه؛ لقوله: ﴿**وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا**﴾.

وفيها: أنَّ الوليَّ يقوم مقام المُولَّى عليه في الإملاء.

وفيها: أنَّ البيِّنة في القضايا الماليَّة هي شهادة رَجُلين، أو رَجُلٍ وامرأتين، وجاءت السُّنَّة ببيِّنة ثالثة، وهي: شهادة رجل مع يمين المُدَّعِي.

وفيها: أنَّ حِفظَ المرأة وضبطَها أقلُّ من حفظ الرجل وضبطه، وهذا على الأعمِّ والأغلب؛ وإلَّا فالنُّبوغ والحِفظ حاصلٌ في بعض النِّساء أكثر منه في بعض الرِّجال.

وفيها: جواز الشَّهادة على أمرٍ تذكَّره بعد النسيان.

وفيها: مجاهدة النفس في دَرْء المَلَل الحاصل بالتَّكرار؛ وذلك لإقامة المصالح.

وفيها: العمل بالكتابة، واعتبارها حُجَّة شرعية، إذا كانت من ثقةٍ معروفٍ خطُّه.

وفيها: العمل على كلِّ ما يدفع الرِّيبةَ والشَّكَّ.

وفيها: أنَّ الإشهاد يكون عند التبايُع، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: ﴿**إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾.

وفيها: أنَّ مُضارَّة الكَتَبَة والشّهود فِسْقٌ، يستحِقُّ صاحبُه الهَجْرَ، ويترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة.

وفيها: أنَّ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الفِسْق والطاعة، كما يجتمع فيه الإيمان والنِّفاق، فلا يكون فاسقًا خالصًا، ولا مؤمنًا خالصًا، فيوالَى ويُحَبُّ بحَسَب ما عنده من الإيمان والطاعة، ويُبغَض ويُتبرَّأ منه بحَسَب ما عنده من النِّفاق والفُسُوق.

وفيها: أنَّ الكتابة ليست تخوينًا للأطراف؛ ولكنها ضبطٌ للحقوق.

وفيها: أنَّ وثيقة العَدْل -صاحب الخطِّ المعروف- حُجَّة يُعمَل بما فيها، ولو ماتَ هو والشهود.

وفيها: أنَّ إقرار الإنسان على نفسه مقبولٌ.

وفيها: أنَّ تعلُّم الكتابة فرضُ كفاية؛ لكي يتحقَّقَ به تنفيذُ الأمر الإلهيِّ بكتابة الدَّيْن.

وفيها: أنَّ شهادة الصبيِّ غير مقبولة؛ لقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ شهادة النِّساء مُنفَرِدات في الأموال ونحوها غيرُ مقبولة؛ لقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين، وتعامَلتُم بالمُداينة إلى أجلٍ مسمًّى، ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في سفركم، أو لم تجدوا آلة الكتابة؛ ﴿فَرِهَانٌ﴾ تكون بدلًا من الكتابة. و(الرَّهْن): توثقة دَيْنٍ بعَيْنٍ، يمكن استيفاؤه منها، أو من بعضها.

﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ في يد صاحب الحقِّ. وكيفيَّة القبض يُرجَعُ فيه إلى العُرْف.

والرَّهْن مشروعٌ في السفر وغيره، وقد تُوفِّي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودِرْعُه مَرْهُونةٌ عند يهوديٍّ، بثلاثينَ صاعًا من شعير[1].

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: وَثِقَ كلُّ منكم بالآخر، واتخذَه أمينًا؛ فلا بأس ألَّا تكتبوا ولا تُشهدوا، ولا تَرْهَنوا. وإذا كان الأمرُ كذلك؛ ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ وهو: المقترِض، الذي اؤتمن على الدَّين ﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي: حقَّ صاحبه، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: ليخشَ المَدينُ ربَّه في أداءِ الدَّين، فيؤدِّيه تامًّا، بطريقة حسَنة، دون مماطَلة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: لا تُخْفوها، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: وقعَ قَلْبُه في الإثم، والقَلْب عليه مدار الصلاح والفساد.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إقامة الشَّهادة وبيانِها، أو كِتمانها -على وَجْه الخصوص- ومن الخير أو الشرِّ عُمومًا ﴿عَلِيمٌ﴾: محيط بكلِّ ذلك، فيُجازيكم به.

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله تعالى بحِفظ أموال عباده، حتى ذكرَ حُكم هذه الحالة الخاصَّة.

وفيها: احتياط الشريعة لقَطْعِ النِّزاع، ومَنْعِ حصول الشِّقاق في المستقبَل.

وفيها: عِناية الله بحِفظ حقوق العِباد؛ فدلَّهم على الكتابة والإشهاد والرَّهْن.

وفيها: أنَّه إذا وَثِقَ المتعامِلون بالمُداينة؛ لم يجب الرَّهْن ولا الإشهاد ولا الكتابة.

وفيها: وجوب أداء الأمانة، وتحريم الخِيانة.

وفيها: تحريم كِتمان الشَّهادة، وأنَّها من الكبائر. وقد أُضيفَ (الإثم) فيها إلى (القَلْب)، وهو أعظم من إثم الجوارح.

وفيها: أنَّ الإثم يكون بالتَّرْك، كما يكون بالفعل؛ فإنَّ كاتم الشَّهادة إثمُه بتَرْك أدائها، ومحلُّ هذه المعصية في الصدر والقَلْب.

وفيها: تعظيم قَدْر الدَّين، وتسمية الوفاء به (أمانة)؛ لما لهذه الكلمة من المهابة في النفوس.

وفيها: إثبات أعمال القُلُوب، ومنها أفعال حسَنة محمودة -كالإخلاص، والمحبَّة، والخَشية، والتوكُّل، وغيرها- ومنها أفعال مذمومة أثيمة -كالنِّفاق، والرِّياء، وسُوء الظَّنِّ، والعُجْب، والكِبْر، وكِتمان الشَّهادة، وغيرها-.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾:

ولـمَّا نهى تعالى عن كَتْم الشَّهادة، وهي ممَّا يخفَى في النفوس؛ أخبر عَزَّوَجَلَّ أنَّه يُحاسِب عبادَه على ما يُظهِرونه ويُخْفونه؛ فقال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهذا ذِكرٌ لسَعَة مُلكه سبحانه بعد سَعَة عِلمه، فله ما فيهما خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ﴾: تُظهِروا ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وقُلُوبِكم، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: تُسِرُّوا به وتكتُموه؛ ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يُؤاخِذْكم به ويُجازِكُم عليه إذا شاء.

ولذلك قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يتجاوز بفَضْله، فيعفو ولا يُعاقِب. و(المغفرة): سَتْر الذنب مع التجاوُز عنه. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعَدْله. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يُعجِزه شيء.

وفي خَتْم الآية بالقُدرة: إشارةٌ إلى البَعْث الذي ستحدُث بعدَه المُحاسَبة، وإشارةٌ إلى قُدرة الله على مُحاسَبة هؤلاء العِباد كلِّهم، على أعمالهم الظاهرة والخفيَّة.

ولـمَّا نزلَت هذه الآية شقَّ ذلك على أصحاب النبيِّ ﷺ، واشتدَّ عليهم؛ فأنزل الله تعالى التخفيفَ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لـمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾، قال: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا من الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ -الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ- وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ، وَلَا نُطِيقُهَا!

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ من قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ».

قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ.

فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القَوْمُ؛ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُموم مُلك الله تعالى، وسَعَة عِلْمه.

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

وفيها: تحذير العبد من أن يُخفِي في قَلْبه ما لا يرضاه الله.

وفيها: إثبات مُحاسَبة الرَّبِّ للعبد.

وفيها: أنَّه لا يلزَم من المُحاسَبة المؤاخَذة والمعاقَبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، بعد قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

وفيها: المُحاسَبة على ما في النفوس.

وقد بيَّنت نصوصٌ أخرى وفصَّلت أنواعَ هذه المُحاسَبة:

فمنها: أنَّ الله تعالى لا يؤاخِذ على حديث النَّفْس المجرَّد والخواطر؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أو حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»(١).

ومنها: ما جاء في «الصحيحَين»(٢)، أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

ومنها: أنَّ مَن نوى العملَ السيِّءَ، وجزمَ به، وأصرَّ عليه، وعَمِلَ بالأسباب الموصِلة إليه، لكنَّه عجزَ عنه؛ فعليه مثلُ إثمِ فاعِله؛ لحديث: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»(٣).

ولحديث: «وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦).

ثم ختمَ الله تعالى هذه السُّورَة العظيمة بآيتَين كريمتَين لهما خصائص جليلة وفضائل عظيمة؛ وهما قوله سبحانه:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾:

فمن فضائل هاتَين الآيتَين:

ما جاء في حديث النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ من آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ؛ كَفَتَاهُ»[١].

قِيلَ: مَعْنَاهُ: كَفَتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ مِنَ الآفَاتِ، وَيَحْتَمِلُ مِنَ الجميع[٢].

ومنها: أنَّه لم يُعطَها أحدٌ قبل نبيِّنا ﷺ؛ فقد قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ من بَيْتِ كَنْزٍ من تَحْتِ العَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»[٣].

ومنها: أنَّ النبي ﷺ أُعطيَ خواتيم سُورَة البقرة في السماء لـمَّا عُرِج به[٤].

ومنها: قوله ﷺ: «إِنَّ الله كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»[٥].

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٧).
(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ٩١).
(٣) رواه أحمد (٢١٣٤٤)، وصحَّحه محققو المسند.
(٤) رواه مسلم (١٧٣).
(٥) رواه الترمذي (٢٨٨٢)، وهو في صحيح الجامع (١٧٩٩).

ومنهـا: أَنَّهـما لما نزلتَا فُتِحَ بابٌ من السماء، فنـزل منـه مَلَـكٌ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَـوْمَ، فَسَـلَّمَ على النبيِّ ﷺ، وَقَالَ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُـمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»(١).

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾:

وقد أخبرَ الله تعالى عن نبيِّه ﷺ في هذه الآية، أنَّه قد آمنَ، وحُقَّ له أن يُؤمِن، كيف لا وهذه المعجِزات والآيات البيِّنات يسمَعُها ويراها تَتْرَى؟

فقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمَّـد ﷺ ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وهو: القرآن والسُّنَّة. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ كذلك تابعوه وآمَنوا.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: بربوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته، وأفعالِه، وأحكامِه.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الكـرام المُطَهَّريـن، المخلوقين من نور، الذين لا يَعصـون الله، القائمينَ بتنفيذ أوامرِه وما كلَّفهم من المهام، ومنهم السُّفراء بينَ الله ورُسُلِه.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المُنـزَّلةِ على الأنبياء، ومنها: التوراة، والإنجيل، والزَّبُور، وصُحُف إبراهيم، وخاتَـمها: القرآن الكريم.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: جَمْع «رسـول»، وهو: مَن أُوحِي إليه بـشَرْعٍ وأُمِرَ بتبليغه. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ في الإيـمان؛ بـل نؤمن بهـم كلِّهـم، ولا نَكْفُر ببعضٍ ونؤمـن ببعضٍ -كما فعلَت اليهود والنصارى-.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الصَّحابـة والمؤمنون: ﴿سَمِعۡنَا﴾مـا أمَرْتَنا به، ونهيتَنا عنه، ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ أي: امتثَلْنا، بِفِعْلِ المأمور، وتَرْكِ المحظور.

﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي: نسـألُك مغفـرة الذُّنـوب. ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجِع والمآب، يومَ يقوم الحساب.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات عُلُوِّ الله على خَلْقِه.

وفيها: أنَّ المؤمنين تَبَعٌ للنبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَ الإيمانُ؛ زادَ الاتِّباع.

وفيها: فَضْل أركان الإيمان المذكورة.

وفيها: أنَّه يجب أن نؤمِن بالرُّسُل والكُتُب على وجه الإجمال، وإن لم نعرِف كلَّ التفاصيل.

وفيها: أنَّ من صفات المؤمنين: السمع والطاعة، وأنَّ السمع طريق العِلْم، ولا بُدَّ منه قبل الطاعة والامتِثال. فمِن الناس مَن يسمع ولا يُطيع؛ فهو مُعْرِض. ومنهم مَن لا يسمع ولا يطيع؛ فهو مُستكبِر. ومنهم مَن يسمع ويُطيع؛ وهم المؤمنون حقًّا.

وفيها: أنَّ مِن أهمِّ أدعية المؤمنين: طلَب المغفرة، وهو من جوامِع الكَلِم، وهو قولُهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾.

وفيها: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، من السمع والطاعة، قبل سؤاله ودُعائه، وهذا أدعَى لقَبول الدُّعاء والإجابة.

وفيها: تواضُع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لله تعالى؛ لـمَّا ذلَّت ألسِنَتُهم بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وفيها: أنَّ استِسلامَ العبد لله من أسباب ثناء الله عليه، والتخفيف عنه؛ لأنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لـمَّا استسلموا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ ذكرَ الله حالهم في هذه الآية، وأنزلَ التخفيف في الآية التي بعدها.

وفيها: مخالفة الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لبني إسرائيل، الذين قالوا: «سَمِعْنا وعَصَينا».

وفيها: أنَّ النبيَّ ﷺ مُكَلَّفٌ بالإيمان بما أُنزِلَ إليه، وهذا يقتضي تحمُّلَه أعباءَ الرسالة، وقيامَه بالتبليغ والعمل.

وفيها: فَضْل هذه الأعمال العظيمة؛ وهي: الإيمان، والذُّل لله بالسمع والطاعة، والدُّعاء، وطلب المغفرة، والإقرار بالمصير إلى الله يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ المرجِع في الحُكم في الدُّنيا إلى الله تعالى وحدَه.

وفيها: أنَّ الإيمان بكلِّ رُكن من أركان الإيمان، يؤدِّي إلى الآخَر.

وفيها: أنَّ العبد مهما امتثلَ لأمر الله؛ فلا يخلو من تقصير، ولذلك يحتاج إلى سؤال المغفرة.

وفيها: أنَّه ينبغي أن يكون المؤمنون على قَلْبٍ واحدٍ، ونَهْجٍ واحدٍ.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾:

ولـمَّا تمَّت الاستجابةُ من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأقَرُّوا بالسمع والطاعة؛ أنزل الله تعالى التخفيف؛ فقال: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ أي: لا يُكلِّف أحدًا فوق طاقته. و(التكليف): الإلزام بما فيه مشقَّة.

فكلُّ نفسٍ ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ أي: ثواب ما عَمِلَته من خيرٍ، ﴿**وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ**﴾ أي: وِزْر ما عَمِلَته من شرٍّ؛ فليس للإنسان إلَّا سعيُه، لا يأخُذ أحدٌ أَجْرَ أحدٍ، ولا يُعذَّبُ أحدٌ عن أحدٍ.

ثم أرشدَ الله تعالى عبادَه إلى سؤاله، وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ**﴾ أي: لا تُعاقِبنا ﴿**إِن نَّسِينَآ**﴾: تَرَكْنا واجبًا أو فَعَلْنا مُحرَّمًا، نِسيانًا. و(النِّسيان): ذُهول القَلْب عن معلوم، فيغيب عنه ما كان يعْلَمه من قبل.

﴿**أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ بفِعْل ما خالفَ الصوابَ جهلًا. و(الخطأ): هو ارتكاب المخالَفة بغير قصدٍ لها ولا تعمُّدٍ، كما يحدث في قَتْل الخطأ -مثلًا-.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي: الخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا**﴾ أي: لا تُكلِّفنا بما يَشُقُّ علينا ويثقُل، ﴿**كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾ من بني إسرائيل وغيرِهم، الذين شدَّد الله عليهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٦).

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: ما لا قُدرة لنا على تحمُّله، من التكاليفِ، والمصائبِ والبلاءِ.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ فيما قصَّرنا فيه من حقِّك.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذُنوبَنا، واستُر مساوِئَنا.

﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ فيما يُستَقبَل؛ حتى لا نقع في فِعْل محظور، أو تَرْك واجب.

ولذا؛ فالمُذنِب يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

أن يعفوَ الله عنه فيما بينه وبينه.

وأن يستُرَه بين عباده، فلا يَفْضَحه بذنبه بينهم.

وأن يَعْصِمَه من الوقوع في الذنب مرة أخرى.

﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أي: ناصِرُنا، وحافِظُنا، ومتولِّي أُمُورنا؛ ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بتولِّيك لنا، انصُرْنا على مَن كفرَ بك، وأشركَ معك، وعادَى نبيَّك وأولياءَك، واكتُبْ لنا النصرَ التامَّ عليهم، بالحُجَّةِ واللِّسانِ، والسَّيف والسِّنَان.

وقد جاء في الحديث المتقدِّم: أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لـمَّا دَعوا الله بهذه الدَعوات؛ قال الله: «نَعَم»، وفي رواية: «قَدْ فَعَلْتُ»(١).

فلله الحَمْدُ على نِعمته وفَضْله، والحمد لله ربِّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التكاليف الشرعيَّة وإن كان في بعضها مشقَّةٌ -كالوضوء في البَرْد، والقيام من النوم لصلاة الفجر، والجهاد وما فيه من القَتْل والجِراح وذهاب المال-؛ إلَّا أنَّ هذه التكاليف تقع في حُدود قُدرة البشر وطاقتهم، ويمكنهم القيام بها، فإذا عجَزُوا لأيِّ سبَب شرعيٍّ معتبَر؛ سقط عنهم هذا التكليف.

وفيها: أنَّ ما لا طاقة للإنسان به؛ فهو غيرُ مكلَّفٍ به، ولا مُؤَاخَذٍ عليه، كهجوم خواطر الشَّر، أو الوساوس الشَّيطانيَّة؛ فإنَّه لا يَمْلِك منعَ وُرودِها، لكن عليه مُدافَعتُها.

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

وفيها: أنَّ كَسْبَ الإنسان للحسَنات وفِعْلَه الخيرَ، هو في الأصل سهلٌ وميسورٌ؛ لموافقته للشرع والفِطرة، ولِما يحصل للمُطيع من إعانة الله، ولكثرة طُرُقِ الخير، بل إنَّه يؤجَر حتى على نيِّته.

وأمَّا اكتساب المعصية: ففيه مُعالجة وتكلُّف؛ لأنَّه يَخْرِق الشريعة، ويُخالف الفِطرة، بل يترتَّب عليه أضرارٌ، وفيه فضيحته.

وفي الآية: أنَّ الله ينسَخ ما يشاء، ويفعل ما يُريد.

وفيها: أنَّ من رحمة الله بعباده: التخفيف، ونَسْخ حُكم الأثقل إلى الأخفِّ.

وفيها: أنَّه لا واجب مع العَجْز، ولا محرَّم مع القُدرة.

وفيها: استجابة الله لدُعاء المؤمنين، ورَفْع المؤاخذة عنهم بالنِّسيان والجَهْل والخطأ. لكن لا يلزم من ذلك سُقوط الطلَب. فلو نسيَ صلاةَ فريضةٍ مثلًا؛ فلا يسقُط عنه قضاؤها إذا تذكَّرها، مع كونه لا يأثَمُ على هذا النِّسيان.

وفيها: ضَعْف العبد وقصوره؛ فإنَّه ينسى ويجهل.

وفيها: رحمة الله بعباده المسلمين، بوَضْع الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلم يُقبَل ممَّن عبدَ العِجْلَ إلَّا أن تكون توبتُهم قَتْلَ النفس، ولم يجوِّز الله لهم أخذَ الغنائم، ولا كانت رُخصة التيمُّم مشروعة لهم؛ فالحمد لله على نِعمته.

وفيها: حاجة الإنسان إلى عَفْو ربِّه؛ لأنَّه لا يخلو من التقصير.

وفيها: أنَّ الله وليُّ الذين آمنوا.

وفيها: أنَّ من نِعمة الله على عباده المؤمنين: أن ينصرَهم على القوم الكافرين.

انتهى تفسيرُ سُورَة البقرة
والحمدُ لله ربِّ العالمين

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

وهي سُـورَة مدنيَّـة -بالإجماع-؛ لأنَّ صَدرَهـا إلى ثلاثٍ وثمانينَ آية منهـا نزلَت في وَفْد نصـارى نَجْران، وكان قُدومُهم المدينة في سـنة تِسْـعٍ من الهجـرة. ولأنَّ فيها بعضَ الآيات نزلَت في شأنِ غزوة أُحُد.

آياتها:

مائتا آية -عند جميع علماء العدَد-.

أسماؤها:

تُسمَّى «آل عمران»، و«الزَّهْراء».

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورَة: التوحيد.

من موضوعات السُّورَة:

توحيدُ الله.

وبيان ما أنزل من الكتب.

وبيان المُحكَم والمتشابِه.

وذَمُّ الكفَّار، واليهود.

وذَمُّ الدُّنيا، ومَدْح الآخرة، وبيان شرَفِها.

ومَدْح الصَّحابة.

ومُناظَرة أهل الكتاب من النصارى، وخبر المُباهَلَة.

وقِصَّـة ولادة مريـم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وكَفالـة نبـيِّ الله زكريّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لها، وولادة عيسـى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ومعجِزاته.

وفَضْل هذه الأُمَّة المحمَّديَّة.

والكلام عن غزوة أُحُد.

وفَضْل الشُّهَداء.

وفَضْل التفكُّر في خَلْق السماوات والأرض.

وأدعية المؤمنين.

والوصيَّة بالصَّبر والمرابطة.

وقـد تميَّزت سُـورَة آل عمـران بالرَّدِّ عـلى النصارى، كما تميَّزت سُـورَة البقـرة بالرَّدِّ على اليهود.

فضلها:

ثبتَ في الحديث أنَّها تُظِلُّ صاحبَها يومَ القيامة مع سُـورَة «البقرة»؛ فقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اقْـرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُـورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُما تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَـةِ كَأَنَّهُما غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُما غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»[1].

والمعنى: يأتي ثوابهما كأنَّه سَـحابتان تُظِلَّان صاحبَهما عـن حرِّ الموقف، أَوْ كَأَنَّهُما طائفتان مـن طَيْر واقفة على الصَّف، أو باسـطة أجنحتها متصلًا بعضُها ببعـض، تُدافِع وتُجادِل عن أصحابِهما.

وفي حديـثٍ آخـر: «يُؤْتَـى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَـةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِيـنَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِـهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَآل عمران»[2].

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾:

نزلَ مَطْلَع هذه السُّورَة إلى ثلاثٍ وثمانين آية منها في الرَّدِّ على نصارى نَجْران -كما تقدَّم- لـمَّا جاءوا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ، وأقامَ الحُجَّة عليهم، وناظَرهم.

وقوله تعالى في مَطْلَع السُّورَة ﴿الٓمٓ﴾: تقدَّم -في أول سُورَة «البقرة»- ذِكرُ الخلاف في هذه الأحرُف المقطَّعة في أوائل السُّوَر؛ فقيل: إنَّها ليست كلماتٍ، فلا معنى لها، لكن لها مَغْزَى؛ وهو: تَحدِّي كفَّار العرَب وغيرهم من المكذِّبين أنْ يأتوا بمِثل هذا القرآن -المركَّب من هذه الحروف- وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿ٱللَّهُ﴾ هو: المألوه المعبود حبًّا وتعظيمًا ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾: المتَّصف بالحياة الدائمة، الأول فليس قبلَه شيء، والآخِر فليس بعدَه شيء.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: القائِم بذاته فلا يحتاج إلى أحدٍ، والقائِم بتدبير خَلْقه فيحتاجُ إليه كلُّ أحدٍ، وهو المستغنِي عن غيره، يقوم بأمور السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.

وقد جاء في فَضْل هذه الآية عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُه: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفاتِحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»(١).

وفي الآيتَين من الفوائد:

التأكيد على حقيقة ألوهيَّة الله ووحدانيَّته سبحانه، المنافية لعقيدة التثليث عند النصارى.

وفيها: استغناء الله عن خَلْقه.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى في ادِّعائهم الولدَ له؛ إذ إنَّه لا يحتاجه عَزَّوَجَلَّ؛ فهو القيُّوم سبحانه، والكلُّ مفتقِرٌ إليه.

وفيها: أنَّ الخَلْق يفتَقِرون إلى الله في الإيجاد والإمداد.

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾:

ولـمَّا أثبتَ الله وحدانيَّته؛ أثبتَ نبوَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، مفرَّقًا بحَسَب الوقائع ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: فلا شكَّ فيه ولا رَيْبَ، عدلٌ في أحكامه، وصِدقٌ في أخباره، أنزلَه بالبراهين القاطعة والحُجَج الساطعة ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: مُوافِقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لِما تقدَّمه من الكتب الإلهيَّة، وهي تصدِّقه أيضًا؛ بما أخبرَت به، وبشَّرت بنزوله.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على الكليمِ موسى بن عِمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أنزلَه على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: يَهْديانِ من الضلالة في زمانِهما -زمانِ بني إسرائيل-.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو القرآن، الفارق بينَ الهدى والضلال، والحقِّ والباطل، المعجِز في ذاته. وأعاد ذِكرَه؛ تأكيدًا لنزوله من عنده، وبيانًا لصفة أخرى له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحَدوا، وكذَّبوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ السابقة في الكتب، واللاحقة في القرآن، وكذلك المعجِزات. جزاؤهم أنَّ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنَّار يومَ القيامة. والقَتْل، والأَسْر، والغَلَبة، والجِزْية، والقوارِع، في الدُّنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: مَنيع الجَناب، لا يُغلَب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممَّن كذَّب وتولَّى.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إثبات عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لأنَّ التنزيل لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: تأنيس النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي، وأنَّه كان يتغشَّاه، كما يُفيد قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾.

وفيها: فَضْل القرآن الكريم على الكتب السابقة؛ لأنَّ الله تعالى أنزلَه مفرَّقًا بحَسَب الوقائع والأحداث، وأنزل الكتب السابقة جملةً واحدةً، وفي هذا مزيدُ مُراعاةٍ وعِنايةٍ لمن كان في وقتِ التنزيل -وهم: النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه-.

وفيها: أنَّ مَن أراد الحقَّ؛ فسيَجِده في هذا الكتاب.

وفيها: أنَّ كتب الله تتشابَهُ، ويؤيِّد بعضُها بعضًا، وإن تفاوتَتْ في الرُّتبة والفَضْل.

وفيها: رحمة الله بالبشر، وإرادة الهداية للخَلْق.

وفيها: إنذار المكذِّبين، ووَعْظهم بقوَّة الله وانتقامه.

وفيها: أنَّ المكـذِّب ببعض الكتب -أو ببعض ما فيها- مكذِّب بالجميع، مهدَّد بالعقوبة في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: كَشْف تناقُض أهل الكتاب، وإلزامهم باتِّباع القرآن.

وفيها: الإشارة إلى نزول القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدُّنيا؛ كما يُفيد قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، ثم نزوله منجَّمًا مفرَّقًا بحَسَب الوقائع والأحداث؛ كما يُفيد قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾:

ثم ذكر الله تعالى سَعَة عِلْمه وإحاطته، وأنَّه يعلم كلَّ شيء، وهذا من مُقتضيات قيوميَّته؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ﴾: لا يَغيب ولا يَسْتَتِر ﴿شَيْءٌ﴾ صغير أو كبير، قليل أو كثير ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ونواحيها، ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأرجائها. وعِلمه تعالى أوسـع ممَّا في السماوات والأرض.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كمال عِلْمه عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ المخلوقين تخفَى عليهم أمورٌ كثيرة، لا تخفَى عليه سبحانه.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم ما يصلُح لخَلْقه، فينزِّل عليهم ما فيه صلاحُهم.

وفيها: أنَّ الله يَعلَم مَن آمن وكفرَ، ويَعْلَم خائنة الأعيُن وما تُخْفِي الصدور، ويَعْلَم ما في البرِّ والبحر، وما في ظُلُمات الأرض.

وفيها: رَدٌّ على النصارى؛ من جهة أنَّ هذا العِلْم الكامل ليس لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾:

ثم ذكرَ تعالى مثالًا لعِلْمه وقُدرته؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يخلُقكم في أرحام أُمَّهاتكم ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: على صُوَر مختلفة، وأطوار متعدِّدة، من نُطْفةٍ إلى عَلَقةٍ إلى مُضْغةٍ -فما فوق ذلك- ومن ذكورة إلى أنوثة، وطول وقِصَر، وبياض وسواد، وكمال ونُقصان، وحُسن وقُبح، وشقاء وسعادة.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلْكه، فلا يُغلَب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خَلْقه وشَرْعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشارة إلى بُطلان ما ادَّعته النصارى من ألوهيَّة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ الله صوَّره في رَحِم أُمِّه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وخلقَه من غير أب، وهذا دليل على قُدرته تعالى في خَلْقه، لا أنَّه ابنُ الله، بل هو عبدٌ -تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا-.

وفي الآية: كمال قُدرته وعِلْمه عَزَّ وَجَلَّ، وإحياؤه للأجِنَّة.

وفيها: أنَّ عِلْم عيسى ببعض الغيوب، وإحياءَه لبعض الموتى؛ لم يكن إلَّا عن تعليمٍ من الله ومشيئته، وإذْنٍ منه سبحانه بذلك وتمكين.

وفيها: رَدٌّ على الطَّبَعيِّين، الذين يقولون: إنَّ الطبيعة تفعل بنفسها وتُدَبِّر وتخلُق من دون الله! وهذا باطلٌ؛ فليست الطبيعة هي التي تُصَوِّر ما في الأرحام، ولكنَّ الله هو المُصَوِّر سبحانه.

وفيها: دليلٌ على عِلْم الله بالخفيَّات، ومن ذلك: ما يخفى في الرَّحِم، وأَجَلُ الجنين، وعَمَلُه، وشقيٌّ هو أم سعيد.

وفيها -مع التي قبلها-: بيانُ بعضِ مراتب القدَر، وهي: العِلْم، والمشيئة، والخَلْق، والرابعة هي: الكتابة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٧﴾:

ولـمَّا كان أهل الزَّيغ من النصارى وغيرهم، يُورِدون -في الاحتجاج على باطِلِهم- بعضَ آيات القرآن التي يخفَى معناها ويلتَبِس على الكثير؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ﴾ -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآنَ العظيمَ، منقسِمًا إلى قِسمَين:

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أي: واضِحات الدلالة، لا يخفى معناها على أحد. و(المُحكَم): ما عُرِفَ المراد منه، ولا يحتَمِل إلَّا وجهًا واحدًا، ولا يحتاج إلى بيان. فلا شُبهة فيه ولا إشكال، مثل: الحلال والحرام، والأحكام، والحدود، والفرائض، والوَعْد، والوَعيد، والقَصص، والأمثال، والناسخ، وكلُّ ما يجب العمل به.

وهذه الآيات المُحكَمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: فهُنَّ الأصل والعُمدة، يُرجَع إليها عند تفسير الكتاب. وقيل: مكتوبات من جميع الكتب، قد أجمعَ عليهنَّ أهلُ الأديان. وهذا القِسْم -وهو المُحكَمات- أكثر القرآن.

والقِسْم الثاني: ما ذكرَه الله تعالى بقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: تحتمل عِدَّة معانٍ، فيخفى على كثير من الناس: أيُّ المعاني هو المقصود، أو يلتَبِس معناها على كثير من الأذهان؛ لكون دلالتها مُجمَلة، أو يتبادر إلى بعض الأذهان غيرُ المراد منها.

وهي أيضًا: ما وقع الخلافُ فيه؛ لاشتباه معناه، وغموضِ المقصود منه.

وقيل: هي التي تحتاج إلى غيرها من المُحكَمات لبيانها.

وقيل: المُتشابِهات: هي المنسوخ، الذي لا يُعمَل به.

وقيل: ما استأثرَ الله بعِلْمه، فلا يعلمه غيرُه، مثل: وقت قيام الساعة، وكيفيَّة صفات الله، وحقيقة الرُّوح، ونحو ذلك.

وقيل: هو الذي تكرَّرت ألفاظُه.

وقيل: الذي يُشْبِه بعضُه بعضًا.

وأشهر الأقوال هو الأول، وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التشابُه أمرٌ نِسْبيٌّ؛ فقد يتشابَه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره»[1].

ثم بيَّن الله تعالى موقفَ أهلِ الزَّيغ وأهلِ الحقِّ من المُتشابِهات؛ فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: مَيْلٌ عن الحقِّ إلى الباطل، واتِّباعٌ للهوى؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي: يتركون المُحكَم، ويأخذون بالمُتشابِه، ليُنَزِّلوه على مقاصدهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، مستَغِلِّين جهلَ كثير من الناس بهذا المُتشابِهِ، والغموضِ الذي فيه، ويستَعمِلون المُتشابِه في تشكيك الناس في المُحْكمات؛ ولذا قال: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: لِيفتِنوا الناس عن دينهم، وليُزَيِّنوا لهم البِدعة، ولِيلْبِسوا الحقَّ بالباطل، ويَبْتغوا الشُّبُهات.

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: يريدون تفسيرَه على غير مُراد الله، بما يُوافِق أهواءَهم وعقائدَهم الفاسدة.

وقد حذَّرنا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، لـمَّا تلا هذه الآية؛ فقال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى جعل المُتشابِه في القرآن للابتلاء والامتحان. فلو قال قائل: ولماذا لم يكن القرآن كُلُّه مُحْكَمًا؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى يَبتلي عباده بهذا المُتشابِه؛ ليظهَر المؤمنُ ممَّن يَزيغ، ويظهر قدرُ العلماء ومنزلتُهم في معرفة المُتشابِه.

وفي الآية: التحذير من أهل البِدَع والمنافِقين، الذين في قُلُوبهم زَيغ، ويُريدون تفريقَ الأُمَّة، والتشويشَ على المسلمين، وتشتيتَ الأوضاع الحقَّة؛ فيتَّبِعون البِدعة، ويبحثون عمَّا يُؤَيِّدها من المُتشابِه من الكتاب والسُّنَّة، وينتَهِزون خفاءَه على كثير من الناس، واحتمالَ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٤).
(٢) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

ألفاظه لِعِدَّة وجوهٍ ومعانٍ؛ فيؤسِّسون بِدَعَهم؛ ابتغاءَ الفِتنةِ في الأُمَّة، وإضلالِ المسلمين عن الحقِّ، وتحريفِ معاني القرآن والسُّنَّة.

وفيها: التحذير من تفسير كلام الله على غير مُراده عَزَّوَجَلَّ.

ثـم قال تعـالى ﴿وَمَا يَعۡـلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: تأويل المُتشـابِه. و(التأويـل) يُطلَق على معنيَيْن:

الأول: حقيقـة الشيء وكُنْهه، وما يَؤول إليـه. مثل: كيفيَّة صفات الله تعالى، وكيفيَّة ما في الجنَّـة وما في النَّـار. وهذا النوع من التأويل هو المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].

والمعنـى الثاني: هو التفسـير والإيضاح، ومعرفة المعنى والتعبير عنـه. وهو المُراد بقوله تعـالى: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، والمذكـور في دُعـاء النبـيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لابـن عبَّـاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(١).

ويُكثِـر من اسـتعمالِه بهذا المعنى شـيخُ المفسِّرين الإمـامُ الطبَريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ؛ فيقـول كثيرًا في «تفسيره»: «القول في تأويل قوله تعالى...»، «اختلف أهلُ التأويل في كذا...».

والتأويل على المعنى الأول: لا يَعْلَمه إلَّا الله تعالى؛ فلا يعلَمه الراسِخون في العِلْم -فَضْلًا عـن غيرهـم من البشر-. وعـلى هذا المعنى؛ فيجـب الوقفُ في التلاوة عـلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا يَعۡـلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وتكون (الواو) في قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ابتدائيَّة على معنى الاستئناف، و(الراسِخون) مُبتدأ.

وعـلى المعنى الثاني؛ فـلا وَقْفَ إلَّا في آخر الآية، وتكون (الـواو) عاطفةً، والمعنى: «ولا يعلـم تأويلَـه إلَّا الله والراسِـخون في العِلْـم»؛ لأنَّ (الرَّاسِـخين) يَعْلَمون معنى المُتشـابِه، ويَرُدُّونه إلى المُحْكَم، ولا يكون ذلك ممَّا اختصَّ الله بعِلْمه.

فقولـه -على المعنى الثـاني- ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: يَعْلَمونه أيضًا. و(الراسِـخ): هو

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٨٩). وأصله في البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بدون الزِّيادة في آخره -التي هي محلُّ الشاهد-.

الـذي ثبتَ في العِلْم وتمكَّن منه. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمُتشـابِه، على مُراد الله به. وهذا على القولَين، سواءً عَلِمُوا التأويل ومعناه، أم لم يَعْلَموا حقيقتَه وكُنهَه.

﴿كُلٌّ﴾ من المُحكَم والمتشابِه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ نزلَ، وأُوتِيناه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتَّعِـظ، ويقبَـل، وينتَفِع ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهـم: أصحاب العقولِ السليمة والقُلُوبِ الحيَّة؛ فهم لُبُّ العِلْم، وخلاصة بني آدم.

وعـلى أحـد القولَـين في الآية يُفهَـم معنى قولِ ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التفسـير على أربعة أَوْجُـهٍ: وَجْـه تعرِفـه العرَب من كلامهـا، وتفسـير لا يُعذَر أحـدٌ بجهالته، وتفسـير يَعْلَمه العلماء، وتفسير لا يَعْلَمه إلَّا الله»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من مثيري الشُّبُهات، وأنَّ من طُرُقهم: أن يضرِبوا كلامَ الله بعضَه ببعض.

وفيهـا: أنَّ على طالب العِلْم العِناية بالمُحكَـمات، وهي: الأصول والثوابت التي يُرجع إليها عند التشابُه، فيُفَسَّر بها المُتشابِه، ويزول بها الغموض.

وفيها: أنَّ من صفات أهل البِدَع: تَرْك المُحكَم والإعراض عنه.

وفيها: أنَّ أهل العِلْم يؤمنون بالقرآن كلِّه، سواءً عرَفوا معناه، أو لم يعرِفوا.

وفيها: أنَّ أهل العِلْم درجات؛ فمنهم المبتدئ، ومنهم المتوسِّط، ومنهم الراسِخ.

وفيها: أنَّ قوَّة الإيمان تقود إلى الرُّسوخ في العِلْم.

وفيها: أنَّ بعض الناس لا ينتَفِع بكلام الله تعالى.

وفيها: إرشـادٌ إلى طريقة الرَّدِّ على النصارى وغيرِهم من أهل البِدَع، بالاحتجاج عليهم بالمُحكَم، إذا أوردوا الإشكالات من الشُّبُهات.

وفيها: أنَّ من الحِكَم في وجود المُتشابِهات في القرآن: امتحان الإيمان، وابتلاء الله لعباده؛

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

لينظر كيف يعمَلون، وهل يؤمنون، أو يتشكَّكون ويُزَيِّفون. وفيه مجالٌ لإعمال أهل العِلْم عقولَهم، في كَشْفِ وتجلية غامِضِه، ومعرفةِ معناه؛ فيتميَّزون عن غيرهم ممَّن لا يستطيع ذلك، وتظهَر أقدارُهم، ويَرْتَفِعون عند الله درجات.

وفيها: أنَّ كلام الله لا يمكن أن يتناقض، ولا أن يُخالِف بعضُه بعضًا؛ لأنَّه مِن عند الحكيم الخبير العليم. والتعارُض بين النصوص الشرعيَّة -قرآنًا وسُنَّة- إنَّما هو تعارُضٌ ظاهريٌّ، بحَسَب عقول البشر وما يبدو لها؛ وإلَّا، فليس هناك تعارُضٌ على الحقيقة.

وفي الآية: أنَّ أهل البِدعة يُفَسِّرون القرآن بما يُوافِق أهواءَهم؛ ليكثُر أتباعُهم، ويستَنِدوا على ذلك في دَعوتهم.

وفيها: أنَّه لا يجوز الكلام في التفسير بلا عِلْم، ولا ابتغاءُ تأويلِه وتفسيرِه ممَّن ليس أهلًا للتأويل؛ فلا يجوز أن يخوض في التفسير مَن لا يُحْسِنه.

وفيها: أنَّه لا يجوز الخوضُ في تفسير ما اختصَّ الله بعِلْمه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٨﴾:

ثم أخبرَ تعالى عن هؤلاء الراسخِين في العِلْم، أنَّهم -مع إيمانهم بكلامِه مُحكَمه ومُتشابِهه- فإنَّهم يَدْعُون ربَّهم بالثباتِ على دينه، وعدمِ الزَّيغ والانحراف عنه، فيقولون في دُعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ و(الزَّيغ): هو المَيل. أي: لا تُمِل قُلُوبَنا عن دينِك والحقِّ والهدى، ولا تجعَلْنا ممَّن يَضِلُّون بالمُتشابه، ممَّن في قُلُوبهم زَيغ.

وقوله ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: وفَّقتنا لاتِّباعِ دينك، والإيمانِ بالقرآن مُحكَمه ومُتشابِهه.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: أعطِنا من عندك، بفَضْلك وكرَمك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبِّت بها قُلُوبَنا على الحقِّ والإيمانِ بكتابك، وتَزيدنا بها إيمانًا وهُدى. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾: كثير الهِبات والعَطايا، بلا عِوَض ولا مُقابِل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الزَّيغ والهداية من عنده تعالى؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ

القُلُـوبِ؛ ثَبِّـتْ قَلْبِي عَلَى دِينِـكَ»، فقيل: يَا رَسُـولَ الله، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِـهِ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَـا؟ قَـالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُـوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِـعِ الله، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَـاءُ»[١]، ودعا ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[٢].

وفيها: سؤال الله التثبيتَ على الهداية، بعد سؤال الهداية نفسِها، كما يفعل المؤمنون.

وفيها: سؤالُ الله الخيرَ، والاستِعاذةُ به من ضِدِّه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾:

ولا يـزال هـؤلاء المؤمنون يَدْعُون ربَّهم، متوسِّـلين إليه بأفعاله -بعد أسـمائه- وربوبيَّته لهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ستَجْمَع بينَ خَلْقك يومَ مَعادهم.

قـال النبـي ﷺ: «إِنَّ الله يَجْمَعُ يَـوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِيـنَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيُنْفِذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ»[٣].

وهذا جمعٌ للجزاء والحسـاب، فيَحْمِل هذا الدُّعاء معنى: جازِنا في ذلك اليوم -يا رَبَّنا- بأحسنِ الجزاء، وحاسِبنا حسابًا يسيرًا.

﴿لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شـكَّ في وقوعـه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾؛ فالله تعالى سيَفي بما وعدَ، ولا بُدَّ.

وهـذا مـن بقيَّة كلام الراسِـخين في العِلْـم، فغايتُهم مـن عِلْمِهم ودُعائِهـم: النجاة يومَ القيامة ويومَ الجَمْع، والمُجازاة بأحسنِ الجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خشـية الراسِـخين في العِلْم لربِّهم، وقد قال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.
(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).
(٣) رواه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤).

وفيها: أنَّ العِلْم بالقرآن يدفَع صاحبَه إلى السعي للنَّجاة يوم القيامة.

وفيها: حُسن دُعاء أهل العِلْم.

وفيها -مع الآيات السابقة-: أنَّ من صفات الراسِخين في العِلْم: الاتِّصاف بالعِلْم المحقِّق، الذي قادَهم إلى الإيمانِ بجميع القرآن، وسؤالِ الله العافية من الزَّيغ، واعترافِهم بمِنَّة الله عليهم بالهداية، وسؤالِهم رحمتَه، ودُعائِهم بأسمائه وصفاته، وخَشيتِهم من يوم وعيدِه، وتيقُّنِهم بوقوعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى سببَ ثباتِ عباده الراسِخين في العِلْم -بإيمانهم ودُعائهم-؛ ذكرَ الكافرين وسببَ كُفرهم، وهو: اغترارُهم بهذه الحياة الدُّنيا، وما لهم من المال والبنين؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات الله، وكذَّبوا رُسُلَه، وخالَفوا كتابه. وهذا يشمل: كفَّار العرَب، وكفَّار أهل الكتاب، وكلَّ كافر. فهؤلاء جميعًا ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لن تدفعَ عنهم، ولن تُنَجِّيهم ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ التي يجمعونها، ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ الذين يتناصَرون ويتفاخَرون بهم، ويعتَمِدون عليهم في النوازل ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من بأسه وعذابه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكفَرة ﴿هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: حَطَبها الذي تُسعَّر وتُوقَد به. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقد أخبرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أُناسٍ من هذه الأُمَّة بأنَّهم سيكونون وقودَ النَّار؛ فقال: «لَيَظْهَرَنَّ الإِيمَانُ حَتَّى يَرُدَّ الكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ، وَلَيُخَاضُ البِحَارُ بِالإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ القُرْآنَ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ، وَعَلِمْنَا، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟».

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله. وَمَنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»(١).

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٠١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٠٣)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في صحيح الترغيب (١٣٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تفنيد دعوى الكافرين بأنَّ أموالهم وأولادهم تُقَرِّبهم عند الله، وتنفعهم في الآخرة، وتمنع عنهم العذاب.

وفيها: فساد عَقل الكفَّار وسُوء رأيهم، حيث قاسُوا الآخرةَ على الدُّنيا، وظنُّوا أنَّ الأموال والأولاد ستدفَع عنهم عذابَ الله، وتُنَجِّيهم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى أنَّ حال هؤلاء الكافرين، إذا استمرُّوا في كُفرهم، أنَّهم سيهلِكون كما أهلكَ الله الكفَّار من قبلهم، ثم يصيرون إلى عذاب النَّار يومَ القيامة؛ فقال تعالى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: شأن هؤلاء الكَفَرة في تكذيبهم محمَّدًا ﷺ كشأنِ آل فرعون، وحالِهم وصنيعِهم، وما جرى لهم من الهلاك، وكذلك الأُمَم الأخرى من قبلهم -كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشُعَيب- كلُّهم كذَّبوا فأهلكَهم الله في الدُّنيا، ثم يصيرون إلى عذاب النَّار يوم القيامة.

فهؤلاء ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي أنزلناها على أنبيائنا، ومعجزاتِنا الدالَّةِ على صِدقِ رُسُلنا. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكَهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسببها، وعلى رأسها: كُفرُهم، وتكذيبُهم، وارتكابُهم المُوبِقات -كفاحشة قوم لوط، وتطفيف المكيال والميزان في قوم شُعَيب، وغيرها-.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: أليم العذاب، شديد البَطْش، لا يفوته شيء، ولا يخشى أحدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاتِّعاظ بما حصل للأُمَم السابقة.

وفيها: ذِكْر هلاك الأشدِّ والأكثر قوَّة ومالًا ونفرًا؛ ليُعلَم أنَّ القُدرة على مَن بعدهم -ممَّن هو أقلُّ منهم- تكون من باب أولى.

وفيها: أنَّ الذُّنوب سَبَبٌ لبَطْشِ الله وأَخذِه.

وفيها: موعظةٌ للعُصاة والمكذِّبين، ببيان شِدَّة عقاب الله في الدُّنيا قبل الآخرة.

وفيها: حِلْم الله تعالى؛ فإنَّه لم يأخذ الكفَّار إلَّا بعد أن كان دَأْبهم ونشاطهم وعادتهم الكُفرَ والتكذيبَ، والوقوعَ في الذُّنوب والمُوبِقات.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾:

ثم تهدَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكفَّار، بالعقاب في الدُّنيا والآخرة؛ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: للكافرين، المُكَذِّبين لك، من اليهود ومُشرِكي مكة وغيرِهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: سيَغْلِبكم المسلمون عن قريب في الدُّنيا. وقد صدقَ الله وعدَه، وتحقَّقَت هذه الغَلبة في حياة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحقَّقَت للمؤمنين بعدَه.

وقال بعضُ المفسِّرين: هذا التهديد لليهود خاصَّة.

وقد قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لـمَّا أصابَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل بَدْر ما أصابَ، ورجعَ إلى المدينة، جمعَ اليهودَ في سُوق بني قَيْنُقاع، وقال: «يا معشر يهودَ، أسلِموا قبل أن يُصيبَكم الله بما أصابَ قُريشًا»، فقالوا: يا محمَّد، لا يَغُرَّنَّك من نفسِك أن قتلتَ نفرًا من قُريش، كانوا أغمارًا لا يعرِفون القتال! إنَّك -والله- لو قاتلْتَنا لعرَفتَ أنَّا نحن الناس، وأنَّك لم تلقَ مثلَنا! فأنزل الله في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، إلى قوله: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

ثم بيَّن الله تعالى عقابَهم في الآخرة؛ فقال: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون وتُساقون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ (المِهاد): هو الفِراش. فبئسَما مَهَّدتُم لأنفُسِكم، وبئسَما أوردتموها من العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

البِشارة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والمؤمنين في عَهْده وبعدَه- بغَلَبَتهم على الكافرين في الدُّنيا.

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي (١٨٦٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

وفيها: أنَّ انتقام الله من الكفَّار يشمل الدُّنيا والآخرة.

وفيها: أنَّ مِن عذاب النَّار أن يكون فِراشُ الكافر منها، بل وغِطاؤه أيضًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفيها: وَعْدٌ من الله تعالى للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

ووَعْده تعالى لا يتخلَّف؛ فقد انتصرَ المسلمون على اليهود من بني قُرَيظة، وبني قَيْنُقاع، وبني النَّضير، وفُتِحَت خيبر. وانتصروا على مُشركي العَرَب؛ كما حصلَ في بَدْرٍ وأُحُدٍ وغيرِها من الغَزَوات.

﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾:

ثم خاطبَ الله تعالى اليهودَ؛ ليعتَبِروا بما أصاب مُشركي قُرَيش من الهزيمة؛ فقال: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ﴾ -يا معشر اليهود- ﴿ءَايَةٞ﴾ أي: علامةٌ عظيمةٌ على صِدق الله في وَعْده لنبيِّه، بالنصر عليكم، وأنَّكم ستُغلَبون.

﴿فِي فِئَتَيۡنِ﴾ فِرْقتَين ﴿ٱلۡتَقَتَا﴾ أي: اجتمعتَا في يَوْم بَدْر للقتال:

﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم: النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فقد كانوا يُقاتِلون لإعلاء كلمة الله، وكان عدَدُهم ثلاثَمائة وثلاثة عشر رجلًا.

﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ بالله ورسوله، وهم: مُشرِكو قُرَيش، وكان عدَدُهم نحوًا من ألف.

﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ يعني: يرى المشركون المُسلِمين مثلَيْهم؛ ذلك أنَّ المُشركين عند التحامهم بالمسلمين رَأَوا عددَ المسلمين ضِعفَ عدَدِهم؛ فكثَّر الله المسلمين في أعيُن المشرِكين، فرأَوهم نحوًا من ألفين؛ فحصلَ الذُّعْرُ والهلَع في نفوسِهم، وكان هذا من أسباب هزيمتهم. وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية.

وقيل: كان المسلمون يرَون المُشرِكين مثلَي عدَدِ أنفُسِهم؛ فقلَّلهم الله تعالى في أعيُنهم

حتى رأَوهم ستَّمائة وستَّةً وعشرين، ثم قلَّلهم الله في أعيُنهم في حالةٍ أخرى، حتى رأَوهُم مثل عدَدِ أنفُسِهم.

فإن قيل: فما وَجه الجَمْع بينَ التأويل الأول، وقولِ الله تعالى في سُورَة «الأنفال» -في غزوة بَدْر-: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى قلَّل المسلمين في أعيُن المشرِكين قبل القتال، ليجترئ المشرِكون عليهم ولا ينصرِفوا، فلمَّا أخذوا في القتال كثَّرهم الله في أعيُن المشرِكين -ليَجْبُنوا- وقلَّلهم في أعيُن المؤمنين -ليجترِئوا-؛ فهُزِمَ المشرِكون بفَضْل الله وعَونه.

وقوله ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي: رؤية ظاهِرة محقَّقة، ليست وَهْمًا ولا خيالًا.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ ويقوِّي ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ وعَونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عبادِه وأهلِ طاعته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النصرِ لمحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه يومَ بدر -وهم قِلَّة- على المشرِكين -وهم كثرة- ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: عِظَة عظيمة وآية ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهم: أصحاب العقول السليمة، والأفهام المستقيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كَسْر غُرُور اليهود، بتذكيرهم بنَصْر النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه على المشرِكين.

وفيها: وَعظُ الكفَّار بمصائر أشباهِهم.

وفيها: النِّعمة العظيمة من الله تعالى على المسلمين، وأنَّه تعالى اصطفاهم وخصَّهم بالنصر.

وفيها: سبَبٌ عجيبٌ من أسباب النصر؛ وهو: التكثير والتقليل، وأنَّ الله تعالى يقدِّر هذا تارةً، ويقدِّر هذا أخرى، بحَسَب مصلحة أوليائه.

وفيها: عذاب الكفَّار في الدُّنيا قبل الآخرة.

وفيها: أنَّ عدَد الجيش ليس مِقياسًا للنصر والهزيمة؛ بل العِبرة بالإيمان والكُفر، واليقين والشَّكّ.

وفيها: أنَّ العاقل هو مَن اعتبرَ بغيره، ولا يعتَبِر إلَّا أصحابُ البصيرة.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾:

ولـمَّا كان اليهود قد اغترُّوا بالقوَّة والكثرة والمال والسِّلاح؛ وظنُّوا أنَّهم سينتَصِرون بهذا؛ بيَّن الله تعالى أنَّ هذه الأشياء من متاع الدُّنيا الزائلة، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ فقال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ أي: جُعِلَت هذه الأشياء السبعة -الآتية- مُزيَّنة في قُلُوبهم. والمُزيِّن هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ ابتلاءً واختبارًا للعباد. والمعنى: أنَّها جعلَت القُلُوب متعلِّقة بها.

وقوله ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وهي جمع «شَهْوة»، و(الشَّهْوة): تَوَقان النفس إلى الشيء، ومَيلُها إليه. والمراد: الأشياء المُشتهاة. وقد انهمَكَ الناس في محبة هذه السَّبعة المذكورة.

ثم بيَّن تعالى هذه الشَّهَوات؛ فقال: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وبدأ بالنِّساء؛ لأنَّ الفِتنة بهنَّ أشدُّ، وهُنَّ حبائلُ الشَّيطان؛ ففي الحديث: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاء»(١).

ويدخل فيهنَّ: الزوجات والإماء.

وليس في الآية ذمٌّ للنِّساء؛ فمَن اتخذ المرأة الصالحة إعفافًا لنفسه، وابتغاءً لكثرة الولد؛ كان مأجورًا، وهذا مطلوبٌ مرغَّبٌ فيه؛ كما في الحديث: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المرأةُ الصَّالِحَةُ»(٢).

أما إذا كان فيها شُغلٌ عن الطاعة وأمور الآخرة، أو كان بطريق الحرام؛ فهذا هو المذموم.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ خصَّهم بالذِّكر دون الإناث؛ لشِدَّة المَيل إليهم، والفِتنة بهم أشدُّ؛ فهم زينةٌ وفِتنة تؤدِّي إلى التفاخُر والبغي والتكبُّر. والأولاد عُمومًا فِتنة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).
(٢) رواه مسلم (١٤٦٧).

أمَّـا إذا كان حُبُّ البنين لأجل تكثيرِ النَّسْـل، وتكثيرِ أُمَّـة النبي ﷺ، ممَّن يعبد الله وحـدَه لا شريك له، ولأجل المنفعـة في الحياة وبعد الممات؛ فهذا ممدوح؛ ففي الحديث: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1].

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: الأمـوال الكثـيرة والكنـوز الوفيرة. و(القِنطـار): هو المال الجزيـل بعضُـه على بعض. وقيل: هو ألـف دينار من الذهب، وقيل: اثنـا عشر ألفًا، وقيل: أربعون ألفًا، وقيل غير ذلك.

ثم بيَّن نوعَين من الأموال المُشْـتهاة؛ فقال: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وخصَّ هذَين الجوهرَين؛ لتعلُّق القُلُوب بهما أكثر من غيرهما.

وحُـبُّ المـال إذا كان للنَّفقة في القُرُبات، وصِلَة الأرحام، ووجـوه البرِّ والطاعات؛ كان محمودًا يُثاب عليه. وإن كان للفخر والخُيلاء، والتكبُّر والتجبُّر على الضُّعفاء؛ كان مذمومًا؛ ففـي الحديـث: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَـةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا، فَهُـوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيـهِ رَحِمَـهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا؛ فَهَـذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ... وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَـالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ...» الحديثَ[2].

ثـم ذكرَ الله تعالى نوعًا آخر من الشَّـهوات؛ فقال: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: السَّـارِحة بالرَّعي، والمعلَّمة، الحِسـان. سُـمِّيت (خيلًا)؛ لأنها تختال في مِشـيتها، أو لأن صاحبها يُبتلَى بالخُيلاء بسببَها.

فمَـن اتخذَها ليُجاهِد عليها؛ فهو مأجور. ومـن اتخذَها فخرًا وخُيَلاء؛ فهو مأزور، ومَن اتخذَها لتتناسَـل عندَه، فيبيعها ويتعفَّف من كَسْبها، ولم ينسَ حقَّ الله في رقابها؛ فهو مستور؛ كما جاء معناه في الحديث[3].

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧).

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ هي المواشي، من الإبل، والبقر، والغنَم، وهي جمع «نَعَم». وفيها المركَب، والمطعَم، والزِّينة.

﴿وَٱلۡحَرۡثِ﴾: الأرض المتَّخذة للزِّراعة والغِراس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من الأصناف السبعة المتقدِّمة ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ما يتنعَّم به أهلُها، ثم يذهب ويفنَى. وسُمِّيت (دُنيا)؛ لدُنُوِّ مَرتبتِها بالنسبة للآخرة.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: المرجِع الحسَن الدائم في الآخرة، وهو الجنَّة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِكمة لله تعالى بابتلاء الناس، بتزيين حُبِّ الشَّهَوات في قُلُوبهم، ابتلاءً لهم. ولولا هذا لم تقُم الحُجَّة، ولم يتبيَّن للناس مَن يستجيب ويطيع ممَّن يأبَى ويعصِي.

وفيها: أنَّ هذه السبعة المذكورة في الآية، ليست مذمومةً بإطلاق؛ وإنَّما مَدْحُها وذَمُّها بحَسَب ما استُعمِلَت فيه، وبحَسَب مَوقِعها من القَلْب.

وفيها: تقديم الأشدِّ فالأشدّ من الفِتنة في الذِّكر.

وفيها: أنَّ الذهب والفِضَّة أشدُّ خطرًا من بقيَّة الأموال؛ لعِظَم الافتتان بهما، وتعلُّق القُلُوب بهما أكثر من غيرهما.

وفيها: أنَّ المال كلَّما كثُر، ازدادَت الفِتنة به.

وفيها: أنَّ الخيل أعظم المركوبات من الدوابِّ فخرًا، لاسيَّما إن كانت معلَّمة مزيَّنة.

وفيها: أنَّ من الناس مَن يُفتَن بالزِّراعة، فيصُدُّه ذلك عن طاعة الله.

وفيها: تزهيدُ النفوس عن التعلُّق بهذه الأصناف السبعة، والحثُّ على استعمالها في طاعة الله تعالى.

وفيها: تنقيص شأن هذه الدُّنيا، وبيان حقارتها بالنسبة للآخرة؛ لئلَّا تتعلَّق بمتاعها القُلُوب.

وفيها: أنَّه ينبغي أن تكون محبَّة الله في القَلْب، مقدَّمة على هذه الشَّهَوات.

وفيها: ابتغاء البيئة الحسَنة في استعمال هذه الأشياء في طاعة الله.

وفيها: ذَمُّ الافتخار بالبنين، وأنَّه ينبغي الحِرْص على أنْ يكونوا أعوانًا على طاعة الله.

وفيها: التنبيه على أنَّ نعيم الدُّنيا لا بُدَّ أن يُحرَم الإنسان منه، أو من بعضه، إمَّا بعدَم حصوله، أو بفنائه، أو بنَقصه، أو بمُفارقة صاحبه له.

وفيها: تهذيب النفوس، ومجاهدتها في عدم التعلُّق بهذه الشَّهَوات.

وفيها: أنَّه مهما كان متاع الدُّنيا مُزَيَّنًا في القُلُوب، جميلًا في الأعيُن، مرغوبًا إلى النفوس؛ فلا يجوز أن يُبْعِد عن ذكر الله، بل ينبغي أن يُستَعمل في طاعة الله.

وفيها: أنَّه ليس هناك دار ثالثة غير الدُّنيا والآخرة، والقبر أول منازل الآخرة.

وفيها: مُواساة الفقراء، الذين لا يمكنهم الحصول على هذه الشَّهَوات أو أكثرها؛ ببيان أنَّ متاع الدُّنيا قليل.

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾:

ثم استنهضَ الله تعالى هِمَم المؤمنين للعمل للآخرة، وزهَّدَهم في الدُّنيا الفانية؛ فقال:

﴿قُلۡ﴾ -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- للناس **﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾** أي: أَأُخبِرُكم بخبر عظيم **﴿بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾** أي: بما هو أفضل من زينة الدُّنيا وشَهَواتها؟ و(الميم) في قوله **﴿ذَٰلِكُمۡ﴾** علامة جمع الذكور، وهي إشارة إلى المذكور من الأصناف السبعة التي تقدَّم ذكرُها.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ﴾: هذا هو جواب الاستِفهام، وما تنتظره النفوس. والأصل في ترتيب الجملة هو «جناتٌ للذين اتقَوا»، فبدأ بالخبر وأخَّر المبتدأ؛ ليُفيد الحَصْر واختصاص المتَّقين بهذه الجنَّات، وهم الذين اتقَوا، فعَمِلوا بطاعته، على نورٍ منه، يَرْجون ثوابَه، وترَكوا ما نهاهم عنه -عن عِلْم- ولم تَشْغَلْهم زينة الدُّنيا وشَهَواتُها عن عبادة الله؛ خشيةَ عقابه.

وقولـه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يفيـد: أنَّ هذه الجنَّات مضمونـة؛ لأنَّها عند العَلِيِّ الذي لا يُخلِف الميعـاد. وتفيـد لفظـة «عنـد» أيضًـا: القُـرْبَ منـه عَزَّوَجَلَّ، ومعلـومٌ أنَّ عَرْش الرحمن سـقفُ الفِرْدَوس الأعلى في الجنَّة.

وجاءت ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بلَفظ الجمع؛ للإشارة إلى أنَّها كثيرة متنوِّعة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها، لا من تحت أرضها؛ لأنَّ من عجائب الجنَّة أنَّ أنهارها تجري فوق الأرض، بلا أخاديد، دون أن ينساحَ الماءُ ويُغرِق.

وجمعَ (الأنهار)؛ لأنَّها مختلفة متنوِّعة؛ فمنها: أنهار الماء، واللَّبَن، والخَمْر، والعَسَل.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقيمين، لا يموتون، ولا يَهْرَمون، ولا يَمْرضون، ولا يَبأَسُون؛ كما أخبر النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»(١).

ولـمَّا ذكر الله تعالى تلذُّذَ البطن؛ ذكرَ تلذُّذَ الفَرْج؛ فقال:

﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾ وهي تشـمل: زوجاتهم المسـلِمات اللَّاتي كنَّ معهـم في الدُّنيا، والحور العِين اللَّاتي يُعطِيهنَّ الله لهم في الجنَّة.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: نظيفـة، بريئـة مـن الأرجاس الحِسِّـيَّة -كالبول والغائـط، والمخاط، ونحـو ذلك- ومن الأرجـاس المعنويَّة -كالغِـلِّ، والحِقد، والفجور، والخِيانـة، والكَذِب، والمعانَدة، والاستِعصاء، ونحو ذلك-.

ولـمَّا ذكر تعالى أنواعًا من نعيم الجنَّة؛ نبَّه على ما هو أعلى وأعظم من جميع ما سبق؛ فقال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وإنَّـما كان رِضـوانُ الله أكـبر؛ لأنَّه نعيمُ رُوحٍ وقَلْـبٍ، وما قبلَه نعيمُ بَدَنٍ وجَسَـدٍ، ولهذا

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧).

عندما يَعْرِض الله على أهل الجنَّة المزيدَ، وأن يعطيَهم أفضلَ ممَّا أعطاهم؛ فيتساءلون: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ من ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

مجيء الكلام بصورَة الاستِفهام؛ لتشويقِ النفس، وتوجُّهِها إلى الجواب.

وفيها: أنَّ الجنَّة ليست واحدة؛ وإنَّما هي جنات، ومنها: الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَنَّتَانِ من فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ من ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[٢].

وفيها: فَضْل التَّقوى؛ لِما وردَ من نعيم أهلها، وما لهم من جِوار الله؛ كما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

وفيها: فَضْل الجنَّات.

وفيها: عِناية الله بالمؤمنين؛ حيث أضافَهم إليه بالرُّبوبيَّة الخاصَّة؛ فقال: ﴿رَبِّهِمۡ﴾.

وفيها: اكتمال نعيم الجنَّة، بالجَمْع بينَ لذَّات القَلْب، ولذَّات البدَن.

وفيها: فَضْل الأزواج في الجنَّة؛ بكونهنَّ مُطَهَّرات، حِسًّا ومعنًى.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: الوَعْد للمتَّقين.

وفيها: الوَعيد للمُخالفين، وهو مفهومٌ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

وفيها: أنَّ على الدُّعاة الإكثار من تذكير الناس بنعيم الجنَّة، في مُقابِل لذَّات الدُّنيا؛ لتنشطَ نفوسُهم لطلَب الآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

وفيها: أنَّ الشَّهوات السبعة -من لذَّات الدُّنيا- المذكورة في الآية السابقة، يمكن أن تكون خيرًا لصاحبها؛ كما يدُلُّ على ذلك قوله: ﴿بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾.

وفيها: أنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الله تعالى قد رضيَ عنه؛ كان ذلك أتمَّ لسُرورِه وفَرَحِه.

وفيها: أنَّ إحلالَ الله بِرضوانه على أهل الجنَّة، أعظم من سائر ما فيها من النعيم، ولا يزيد عليه إلَّا نعيمُ رؤيةِ وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ على العبد أن يحاسِب نفسَه على التَّقوى؛ لأنَّ الله بصير بالعِباد، فيعلَم المتَّقين الذين يُؤثِرون ما عند ربِّهم، وغيرهم الذين يُؤثِرون شَهَواتِ الدُّنيا وحظوظَ النفس.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾:

ثم بيَّن تعالى مَن هم هؤلاء المتَّقون، الذين اختُصُّوا بتلك الجنَّات؛ فذكرَ أنَّ أول صفاتهم الإيمان؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ متوسِّلين في دُعائهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ استجابةً لأمرك؛ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: استُرْها، وامحُ آثارَها.

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»[١].

ومن تمام دُعاء المتَّقين: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ادفع عنَّا عذابَها، بفَضْلك ورحمتك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسُّل المؤمنين إلى الله برُبوبيَّته.

وفيها: استجابة المؤمنين لأمر الله؛ لقوله: ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، وهذه الاستجابة تشمل: القَلْب واللِّسان والجوارح.

وفيها: أنَّ الإيمان سبَبٌ لمغفرة الذُّنوب، وأنَّه كلَّما قويَ قويَت المغفرة.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

وفيها: أنَّ المؤمنين يُذْنِبون، وأنَّهم غير معصومين، ولكنَّهم يتوبون ويستَغْفِرون.

وفيها: عدم اكتفاء المسلم بطلَب سَتْر الذُّنوب وتَرْك الفَضْح أمام الناس؛ بل يطلُب أيضًا النجاة من العذاب.

وفيها: حُسن المدخل في الدُّعاء، بالتوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة للدَّاعِي.

وفيها: أنَّ المؤمنين -مع إيمانهم- يخافون عذابَ الله، ولا يأمَنون مَكْرَه.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مَزيدًا من صفات أولئك المتَّقين؛ فثنَّى بالصَّبر بعد الإيمان؛ فقال:

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أقدار الله، وعلى طاعته، ويَحْبِسون أنفُسَهم عن معصيته.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: بالقول، والفِعْل، والنِّيَّة، مع الله ومع خَلْقه.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قومٌ صدَقَتْ أفواهُهم، واستقامَت قُلُوبُهم وألسِنَتُهم، وصدَقوا في السِّرِّ والعلانية»[1].

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: المُطيعين ربَّهم، المواظِبين على عبادته.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: الباذلين أموالَهم في وجوه الخير.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: السائلين ربَّهم المغفرةَ في وقت السَّحَر -وهو آخر اللَّيل، قُبَيل الفجر- وهو وقت النُّزول الإلهيّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الاتِّصاف بالصَّبر، والصِّدق، والقُنُوت، والإنفاق، والاستغفار في الأسحار. وهذا يتضمَّن أيضًا ذَمَّ أضدادها، من: الجَزَع، والكَذِب، والعِصيان، والبُخْل، والشُّح، وتَرْك الاستغفار.

وفيها: أنَّ سِلْعة الله غالية، لا ينالها إلَّا مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفات العظيمة، وكمَّل نفسه في كلِّ واحدة منها، ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٦٤).

وفيها: أنَّ المتَّقين مهما عَمِلوا من الطاعات؛ يَرَون أنفُسَهم مُقَصِّرين يحتاجون إلى الاستغفار.

وفيها: تحرِّي أوقات الإجابة في الدُّعاء، ومن ذلك: وقت السَّحَر، والإكثار من الاستغفار فيه؛ فهو وقت النُّزولِ الإلهيِّ، وقول الرَّبِّ تبارك وتعالى: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(١).

وفيها: أنَّ أهلَ الاستغفار بالأسحار هم من أهل الصَّلاة؛ فيُصَلُّون قبل السَّحَر، كما قال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَدُّوا الصَّلاة إلى السَّحَر، ثم استغفَروا»(٢).

ويُتْبِعون الاستغفار بصلاة الصُّبْح؛ كما قال زَيْد بن أسلَم: «هم الذين يُصَلُّون الصُّبح في الجماعة»(٣).

وفيها: فَضْل العِبادة في أوقات غَفْلَة الناس ونَوْمِهم، ومنها: وقت السَّحَر؛ فالعِبادة فيها أشقُّ، والنفس أصفَى، مع قُرْبِ الله تعالى.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾:

ولـمَّا ذَمَّ الله تعالى الكافرين، ومدحَ عباده المؤمنين؛ بيَّن أصل الإيمان والعُرْوة الوُثقى، وشَهِدَ لنفسه بالوحدانيَّة؛ فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: حكمَ وقضى، وبيَّن وأخبرَ. و(الشَّهادة) قائمةٌ على العِلْم والإعلام.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو سبحانه. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: شَهِدَت أيضًا، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ شَهِدوا كذلك بوحدانيَّته. والمراد بـ(العِلْم): العِلْم بالله عَزَّوَجَلَّ، وشرعه.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: مع تفرُّده سبحانه، فهو متَّصِفٌ بالعَدْل دائمًا في أفعاله، وأحكامه، وتدبير أمور خَلْقه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: حكمَ لنفسه أيضًا بعد أن شَهِد، فاجتمع في كلامه عَزَّوَجَلَّ الشَّهادة

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ١٧).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٦).

والحُكـمَ بألوهيَّتـه تعـالى. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: ذو العِزَّة والعَظَمـة والكبرياء. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: ذو الحُكم، والحِكمة، والإحكام، في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقدَرِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل التوحيد.

وفيها: وجوب الشَّهادة بالتوحيد.

وفيها: فَضْل الملائكة.

وفيها: إقامة الحُجَّة على الخَلْق، بشهادة هؤلاء الشُّهَداء.

وفيها: إشـارة إلى ما يلزم الذي يَشْهد أن (لا إله إلَّا الله)، من: العِلْم، واليقين، والتلفُّظ، والإخبار والإعلام.

وفيها: الإلزام للشاهِد بمُقتضَى ما شَهِدَ به.

وفيها: فَضْل العِلْم، وشَرَف العلماء وفَضْلهم؛ فإنَّه أشـهدَهم على أعظم حقيقة، وقرنَهم باسمه تعالى وبملائكته، ولو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنَهم الله باسمِه واسمِ ملائكته.

وفيها: أنَّ كلَّ ما عُبِدَ من دون الله فهو باطل، وإن سُمِّيَ إلهًا.

وفيها: ذِكر الشَّهادة بالقول، كما ذكر تعالى عن نفسه. وأمَّا شهادة الفِعْل؛ فقد أظهرَها الله تعالى في جميع الكائنات، والتي يدُلُّ خَلْقُها على وحدانيَّته بلسان الحال.

وفيها: التأكيد على الأمور المُهِمَّة، وإعادتها؛ لتثبت في النفوس.

وفيها: إثبات الله لنفسـه الوحدانيَّة المنافية للشِّرك، والعَدْل المنافي للظُّلْم، والعِزَّة المنافية للضَّعْف، والحِكمة المنافية للعَبَث.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾:

ولـمَّا بـينَ تعالى أنَّه لا معبود بحقٍّ إلَّا هو؛ بيَّن لعباده كيف يجب أن يعبُدوه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي: الشرعـيَّ، المرضيَّ المقبول ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، هو: ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ وهو بمعناه

العامُّ: الاستِسلام، والانقياد التامُّ، والتعبُّد له بما شرَعَ، خالصًا لوجهه. وأمَّا الإسلام بمعناه الخاصُّ: فهو التعبُّد لله بالشَّرْع الذي أنزلَه على محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ من اليهود والنصارى. وقد وقعَ الخِلافُ بينهم في دينهم، فصاروا فِرَقًا وشِيَعًا، واختلف النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلفوا أيضًا في موقفهم من نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: التوراة والإنجيل الأصليَّة، وعرَفوا الشريعة وفَهِموها، وكذلك جاءَهم العِلْم بحقيقة نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودينه.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ظُلْمًا لبعضهم البعض، حملَهم على التقاتُل والتفرُّق والتشتُّت، ثم حَسَدًا لنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبغيًا على المسلمين، ثم تفرَّقوا في مواقفهم: فمنهم مَن كفرَ بنبيِّنا وحاربَه، ومنهم مَن سالمَه ووادعَه، ومنهم مَن آمن به ودخلَ في دينه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ أي: يجْحَد ويُكَذِّب، أو يستكبر ويُعانِد ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة والشرعيَّة، فيُنكِر أنَّ الله هو الذي خلقَ الآيات الكونيَّة، أو يجْحَد أو يُعانِد آياته الشرعيَّة التي أنزلها في كتبه؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سيُحاسِبه على كُفره، ويُجازيه عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مَعرِفة الإسلام العامِّ، الذي هو دين جميع الرُّسُل، كما قال تعالى -حكايةً عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيَّته لبنيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد اتَّحدَت شرائعُ الأنبياء في الدلالة على التوحيد، وإصلاح القُلُوب، ومكارم الأخلاق، واختلفَت شرائعهم في بعض الأحكام؛ لِحِكَم يريدها الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: مَعرِفة الإسلام الخاصِّ، وهو شريعة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي قال الله عَزَّ وَجَلَّ في شأنها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفيها: أنَّ البغي والظُّلْم سبَبٌ عظيم لوقوع الاختلاف في الأُمَّة الواحدة. ومن أسباب ذلك أيضًا: الحَسَد، وحُبُّ الرئاسة.

وفيها: تحذير هذه الأُمَّة ممَّا وقع في الأُمَم قبلهم.

وفيها: بيان سبَب عداوة أهل الكتاب للمسلمين.

وفيها: أنَّه لم يبقَ إسلامٌ إلَّا الذي أنزلَه الله على نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ بقيَّة أديان الأنبياء وشرائعهم قد أصابَها التحريفُ والتبديلُ والتغييرُ.

وفيها: أنَّ المرجِع في الدِّين إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الاختلاف بعد العِلْم، أقبحُ من وقوعه عن جَهْل.

وفيها: سُرعة حساب الله، من جهة قُرْبه وتحقُّقه؛ فالدُّنيا لا تلبث أن تزول ويأتي الحساب، ومن جهة أنَّ الله سريعٌ في محاسَبة الخَلْق، فيُناقِشهم ويقرِّرهم بذُنوبهم جميعًا، كحِسابه لنفس واحدة.

وفيها: قُبح المخالَفة بعد مجيء العِلْم وقيام الحُجَّة.

وفيها: أنَّ مجيء العِلْم إذا لم يُقابَل بالانقياد والطاعة، والفَهْم والاستِسلام؛ فلا ينفع ولا يُنَجِّي صاحبَه.

وفيها: أنَّ سبَب الاختلاف بينَ أهل الكتاب، ليس هو البحث عن الحقِّ؛ وإنَّما الظُّلْم والبغي.

وفيها: أنَّ مَن اختلفوا في نبيِّهم، فجديرٌ بهم أن يختَلِفوا في نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد اختلفَ النصارى في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فمنهم مَن قال: هو الله، ومنهم مَن قال: هو ابن الله، ومنهم مَن قال: ثالث ثلاثة! واختلفوا في نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمنهم مَن كذَّبه وعاداه، ومنهم مَن قال: رجل حكيم، ومنهم مَن أقرَّ بنبوَّته ولم يلتزم اتِّباعَه، ومنهم مَن عرَفَه وجحدَه، ومنهم مَن منعَه حُبُّ الرئاسة من اتِّباعه -كقَيْصر مَلِك الرُّوم-.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾:

ثم بيَّن الله تعالى لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقوله في مُجادَلة أهل الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنْ

﴿حَآجُّوكَ﴾ أي: خاصَموك، وجادَلوك في التوحيدِ والدُّخولِ في الإسلام؛ ﴿فَقُلۡ﴾ -ردًّا عليهم ودعوةً لهم-: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أي: أخلَصتُ قَصْدي وعمَلي وعبادتي ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَه، لا أُشرِك به غيره، أنا ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾؛ فهم أيضًا أسلَموا وجوهَهم لله، وأخلَصوا دينَهم له.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم مُشركو العرَب، الذين لا كتاب لهم. وسُمُّوا (أُمِّيِّين)؛ نسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ عامَّتهم جهال. قُل لهم جميعًا: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾ وهذا استِفهام تقريري، معناه الأمر؛ أي: أسلِموا. وهو يَحْمِل معنى الحضِّ؛ أي: هلَّا أسلمتُم بعد أن أتَتْكم البراهين والبيِّنات؟!

وفيه: توبيخٌ للذين لا يُسْلِمون.

﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ أي: استَسْلموا لله، وانقادوا له ظاهرًا وباطنًا؛ ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ هدايةَ التوفيق للحقِّ، والفوزِ بخيرِ الدُّنيا والآخرة.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرَضوا عن قبول الحقِّ؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي: أدَّيتَ ما هو واجبٌ عليك؛ فلا تحزن عليهم، ولستَ بمَلوم؛ فليس عليك إلَّا هداية الدلالة والإرشاد فقط.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾: عليمٌ بأحوالهم، وبمَن يؤمن ومن لا يؤمن، والحساب عندَه تعالى؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

جِدال المشرِكين للمؤمنين.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين الاستعدادُ بحُسن الجواب في مجادَلة المشرِكين.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ اتِّباع النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من مقتَضيات الإسلام.

وفيها: أنَّ حقَّ جميعِ الأُمَّة أن يكونوا تابِعين للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وليس فيهم متبوع لذاته ولا لصِدق حُجَّته؛ فالاتِّباع للشَّرْع وحدَه.

وفيها: أنَّ العالِـمَ -مهما بلغ من الجلالة والمكانة- فلا يُتَّبع إلَّا لما عنده من الحقِّ، فإذا تبيَّن عكسُه: فلا يجوز اتِّباعه.

وفيها: مِنَّة الله على العرَب؛ لبَعْثه محمَّدًا ﷺ منهم.

وفيها: أنَّ مَن لم يُسْلِم؛ فهو ضالٌّ منحرِفٌ.

وفيها: أنَّ الله تعالى أعلَمُ بمَن هو أهلٌ للهداية، ومَن ليس أهلًا له، وهو أعلم بالدُّعاة: هل بلَّغوا، أم قصَّروا في التبليغ؟

وفيها: أنَّ على الدُّعاة هداية الدلالة والإرشاد -وهي البلاغ- وليس عليهم هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أنَّ الدَّاعية لا يُسأل عن عمل المدعُوِّ، إذا دعَاه فرفضَ الحقَّ.

وفيها: مُواساة الدُّعاة إذا أعرضَ المدعُوُّون عن دعوتهم.

وقد نُسِخَ الاكتفاءُ بالتبليغ والأمرُ بالتولِّي وتَرْكِ المُعرِضين -بآيات الجهاد والقتال- وأمَّا البلاغ: فليس بمَنسوخ.

وفيها: توبيخ المُعرِض عن الحقِّ، لعِناده وبلادته.

وفيها: أهميَّة الجدال بالحُسنى في الدَّعوة.

وفيها: أنَّ الحقَّ قد لا يتَّضِح لبعض الناس، إلَّا بعد الجِدال والمُناظَرة؛ لِما عندَهم من الشُّبَه، وإلَّا فالنفوس والفِطَر المستقيمة تقبلُ الحقَّ -في الأصل- بلا جِدال.

وفيها: عُموم بِعْثة النبيِّ ﷺ إلى جميع الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾، وأنَّه يجب عليهم الدُّخول في الإسلام الذي جاء به نبيُّنا ﷺ؛ كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفيها: الدَّعوة بالقول، والفِعْل، والأحوال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾:

ولـمَّا ذكـرَ الله تعالى مُعاقَبة أهل الكتاب والمشركين؛ ذكَّرهـم بجريمةٍ من أعظم الجرائم -أو أعظمها- ممَّا اقترفه بعضُهم، وهي: جَمْعُهم بينَ الكُفرِ بالله، وقَتْلِهم خيارَ الناس.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة -التي لا يستطيع البشر أن يخلُقوا مِثلَها- والشرعيَّة -التي لا يُمكِن للبشر أن يأتوا بمِثلها- فيُكَذِّبون ويَجْحَدون، استكبارًا أو عِنادًا.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ وهذا غاية الكِبْر؛ فإنَّهم يقتُلون الذين يُبَلِّغونهم شَرْعَ الله. ومـا أكثرَ حصولَ هـذا من اليهـود! ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من الآمِرين بالمعروف والناهين عن المعصية والمُنكَر. يفعلون هذا عُدوانًا وظُلْمًا.

ثم أخبرَ عن جزائهم؛ فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبِرْهم بالعقوبة الموجِعة المؤلِمة. و(البِشـارة): هي الإخبار بما يَسُرُّ -وهذا أكثر- أو بما يضُرُّ، سُمِّيت بذلك؛ بسبَبِ تغيُّر البَشَرة عند سماعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ قَتْل النبيِّين من جملة الكُفر، وإنَّما خصَّهم بالذِّكر لشناعته.

وفيها: خطورة جريمة القَتْل، وخصَّ قَتْل الأخيار بالذِّكر لشناعته.

وفيها: أنَّه ينبغي تبشير الكفَّار المُعرِضين بالنَّار.

وفيها: مُناسبة الجزاء للعمل؛ فقابلَ كِبْرَهم بإذلالهم بالعذاب المهين.

وفيها: فضيلة الثبات على الأمر بالعَدْل والخير والمعروف، ولو أدَّى ذلك إلى القَتْل، وهذا القَتْل من أعظم الشَّهادة عند ربِّ العالمين.

وفيها: مُواساة الأخيار المقتولين ظُلْمًا في سبيل دعوتهم، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بأنَّهم ساروا في رَكْب الأنبياء.

وفيها: أنَّ العِبرة بعُموم اللَّفظ، لا بخصوص السَّبَب؛ فاليهود هم أكثر الناس اشتهارًا بهذه الجريمة، وهي الجَمْع بينَ الكُفر وقَتْل الأنبياء والأخيار، لكن اللَّفظ عامٌّ، فيشمل جميعَ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات.

وفيها: أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر كان من عمل الأُمَم المتقدِّمة، وهو من وِراثة النبوَّة وخلافتها، وبه يتمُّ تبليغ الرِّسالة.

وفيها: أنَّه يجب على عُموم الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، ولو كانوا من أهل التقصير في حقِّ الله، وأنَّ هذه الوظيفة ليست مختصَّة بالأبرار.

وفيها: أنَّ حياة الكفَّار في الدُّنيا وتمتُّعَهم بزينتها، لم تَعُد عليهم بفائدةٍ تُنَجِّيهم من العذاب في الآخرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾:

قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المُجرِمون السابقُ ذِكرُهم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ (الحُبوط): ذَهاب الشيء وزواله، وعدم الاستفادة منه. فهتكَ الله أستارَهم، وأبدَى مخازيهم وسوآتهم، وأبقى لهم المذمَّة، ولم يَرْفَع لهم بهذه الأعمال ذِكرًا، ولم ينالوا عليها ثناءً من المؤمنين؛ بل أبغَضوهم ونالوا الثَّناءَ عليهم بالشرِّ، وعُومِلوا مُعاملَة أهل السيِّئات بالذِّلَّة والصَّغار، ولم تنفَعْهم أعمالهم في الدُّنيا بعِصمة دِمائهم وأموالهم؛ فصارَت مُستباحَةً للمسلمين.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: فلا ثواب لهم فيها؛ بل عقوبة وعذاب.

وهذا (الحُبوط) هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم مَن ينصُرهم من عذاب الله، أو يدفَع عنهم عقابَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الكافر لا يستفيد شيئًا من أعمال الخير التي يعملها في الدُّنيا.

وفيها: شُؤْم الكُفر، المانع من فائدة العمل في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: إذلال الله وخِذلانه لمن استعلَى على عباده المؤمنين في الدُّنيا.

وفيها: تعجيل العقوبات على الكافرين، إضافةً لِما سيحصل في الآخرة.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾:

ولـمَّا كان اليهود والنصارى يدَّعُون التمسُّك بما في أيديهم من التوراة والإنجيل؛ بيَّن الله كَذِبَهم في هذا الادِّعاء؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الاستِفهام للتعجُّب؛ أي: ألم تعلَمْ، وتتعجَّبْ، وتنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا﴾ أي: حظًّا، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا؛ فإنَّهم لم يتَّبِعوا ما فيه ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذي أنزلَه الله على نبيِّهم، وبقيَ بعضُه صحيحًا بينَ أيديهم -لم يَطْمِثه التحريف- ومنه: ما فيه وَصْفُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهؤلاءِ ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وخصوصًا هؤلاء اليهود، الذين دُعُوا لتحكيم التوراة الباقية في أيديهم. وقيل: (كتاب الله) هنا: هو القرآن.

﴿لِيَحۡكُمَ﴾ ذلك الكتابُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ في صِحَّة دينِ الإسلام ونبوَّةِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضِ الحدود التي وقعَ فيها بعضُهم -كحَدِّ الزِّنا-.

وقيل: بل التحكيم -المدعُوُّ له- كان في المُنازَعة في شأن إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: دخلَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتَ المدراس على جماعة من اليهود، فدعَاهم إلى الله، فقال له نُعَيم بن عمرو والحارث بن زيد -وهما من اليهود-: على أيِّ دين أنتَ يا محمَّد؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على مِلَّة إبراهيم ودينه»، فقالا: فإنَّ إبراهيم كان يهوديًّا! فقال لهما رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهَلُمُّوا إلى التوراة؛ فهي بيننَا وبينكم»، فأبَوا عليه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[1].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: يُدْبِر بعضُهم، وينصرِف من مجلس النبيِّ ﷺ. وقد اجتمع في هؤلاء اليهود المكذِّبين: التولِّي بالبدَن، والإعراض بالقَلْب، ولذا قال: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وهم قومٌ عادتهم الإعراض، فهذا حالُهم.

وقليلٌ منهم قد هدَاه الله، فلم يتولَّ -كابن سلَام وغيره-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ليس كلُّ عِلْم ينتَفِع به صاحبُه؛ بل بعض العِلْم قد يكون وَبالًا، وزيادةَ حُجَّة على أصحابه.

وفيها: قُبْح الإعراض بعد قيام الحُجَّة.

وفيها: وجوب التحاكم إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وكتاب الله الحاكمُ، الناسخُ لجميع ما سبق هو: القرآن، وإنَّما كانت دعوة اليهود للتحاكُم إلى التوراة؛ لإلزامِهم وإفحامِهم بما فيها ممَّا كفروا به؛ لأنَّهم يُكَذِّبون بالقرآن.

وفيها: أنَّ تحكيم الشَّرْع يجب أن يكون في كلِّ الأمور، من: العقائد، والمعاملات، والحدود، والجنايات، وغيرها.

وفيها: إنصاف الشَّرْع لليهود؛ حيث لم يُعَمِّم الحُكم عليهم بالتولِّي؛ لأنَّ بعضَهم قد أسلمَ ولم يتولَّ.

وفيها: موعظة لهذه الأُمَّة، بتحذيرها من التشبُّه بحال اليهود المُعرِضين.

وفيها: أنَّ على الجميع السمع والطاعة والانقياد للقرآن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ثم ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ سببَ التولِّي الحاصل من اليهود، وأنَّه بسبَب اغترارهم بما ادَّعوه لأنفُسهم من الأمانيِّ الباطلة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التولِّي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

أي: بسبَب قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي: لن تُصيبَنا في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ قلائل، ثم يخرجون منها بزَعْمهم، ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم﴾ أي: أبقاهم على دينهم الباطل، وخدعَهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: يختَلِقون من الكَذِب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من الاتِّكال على الأمانيِّ، وخصوصًا الباطلة، وأنَّ ذلك من صُنع أهل الكتاب. وكثيرٌ من المقصِّرين يتشبَّهون بهم في ذلك؛ فيقعون في المعاصي، اتِّكالًا على رحمة الله، ويُمَنُّون أنفُسَهم بالمغفرة!

قال الحسن البَصْريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ المؤمن جمعَ إحسانًا وشَفَقة، وإنَّ المنافِق جمعَ إساءةً وأمنًا»، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، «وقال المُنافِق: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القَصَص: ٧٨]»[١].

وفيها: أنَّ الإيمان بالبَعث وحدَه لا يُنَجِّي صاحبَه يوم القيامة.

وفيها: استخفاف اليهود بعقوبة الله، واغترارهم بما يفترون من أنَّ النَّار لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدودة، وبالانتساب إلى الأنبياء، واعتقادهم أنَّ هذا كافٍ في النجاة!

وفيها: أنَّ جَزْم الإنسان لنفسه بحصول المغفرة له، يؤدِّي إلى التهاونِ في الطاعات، وعدمِ المبالاة في انتهاك الحُرُمات.

وفي الآية: تحذير العُصاة -مُرتكبي الكبائر والآثام والفواحش- من جَزْمهم لأنفُسِهم بالنجاة من النَّار، بالشفاعات والكفَّارات، مُتناسِين أنَّ رحمة الله قريبٌ من المُحسِنين، لا المُسيئين المفرِّطين، وأنَّهم معرَّضون للعقوبة، وأنَّ الشفاعة لا تحصُل إلَّا بإذن الله، وقد لا يأذَن في الشفاعة لهم، وأنَّ الكفَّارات قد لا تفِي بجميع الذُّنوب، فيبقى على العاصي ما يُهْلِكه.

وفيها: أنَّ الإنسان قد يخدَع نفسَه ويضرُّها، بأن يُطْمِعَها فيما لا يحصُل.

---

(١) الزُّهْد لابن المبارك (٩٨٥)، تفسير الطبري (١٩/ ٤٥).

وفيها: ما كان عليه اليهود -ولا يزالون- من التمسُّك بدينهم الباطل، ومَدْحه، وادِّعاء الفضائل لأنفُسِهم.

ويؤخَذ منها: أنَّ الذين يكذِبون على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويختَلِقون أحاديثَ في عدم دخول أهل فِرْقَتهم أو طائفَتِهم النَّارَ؛ هم متشبِّهون باليهود في افترائهم.

وفيها: التحذير من تزكية النفس.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾:

ثم رَدَّ الله تعالى على اليهود، في ادِّعائهم النجاةَ يومَ الدِّين؛ فقال سبحانه: ﴿ **فَكَيْفَ** ﴾ أي: كيف يكون حالهم في ذلك الوقت. وهذا الاستِفهام لتعظيم ما سيَدْهَمُهم، وتهويل ما سيَحِيق بهم من العذاب. ﴿**إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ**﴾ أي: للحساب والجزاء، أي: لِما يحدث في يومٍ ﴿**لَّا رَيْبَ فِيهِ**﴾: لا شكَّ في مجيئه ووقوعه.

﴿**وَوُفِّيَتْ**﴾: أُعطيت ﴿**كُلُّ نَفْسٍ**﴾ بارَّة أو فاجرة، من الجنِّ أو الإنس من المكلَّفين ﴿**مَّا كَسَبَتْ**﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ في هذه المُجازاة والتوفية؛ فلا يُنقَص أحدٌ من حسناته بغير حقٍّ، ولا يُزاد في سيِّئاته بغير حقٍّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التوفية الكاملة على الأعمال هي في يوم القيامة، وأنَّ الإنسان قد يُوَفَّى شيئًا من عمله في الدُّنيا -بسَعَةٍ في رِزقه على حسَنة، أو بمُصيبةٍ على سيِّئة- لكن الجزاء التامَّ لا يكون إلَّا يومَ الدِّين.

وفيها: إثبات اليوم الآخر، وأنَّ مَن شكَّ فيه فهو مُكَذِّب بالله.

وفيها: ترغيبٌ للمُحسِنين في الازدياد من الطاعات، وموعظةٌ للمُسيئين في الكفِّ عن السيِّئات.

وفيها: عَدْل الله الكامل، وتنزيهه عن الظُّلْم، وقضاؤه الفاصل يومَ القيامة.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى دلائـلَ التوحيد، وصِحَّةَ دين الإسـلام، وحالَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المخاطَبـين بالدَّعـوة -من المشرِكين وأهل الكتـاب- وكان أهلُ الكتـاب يريدون أن تكون السيادةُ الدِّينيَّة لهم، ويُنكِرون أن تكون النبوَّة في غير بني إسرائيل: بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية أنَّه يجعلها فيمَن يشاء، وينقُلُها وينقُل المُلْكَ إلى مَن يشاء.

وقيـل: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـأل ربَّه عَزَّوَجَلَّ أن يَجْعل مُلْكَ فـارِسَ والرُّوم في أُمَّته، ووعدَ صحابتَـه بذلك؛ فقـال المُنافِقون واليهـود: هَيْهاتَ هَيْهَـات! من أين لمحمَّـد مُلْكُ فارِسَ والرُّوم؟! فأنزل الله هذه الآية(١).

وأمـر الله تعـالى نبيَّـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنـين أن يُعَظِّموه؛ فقال لهـم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: يا الله ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: لـه التصرُّف التامُّ، وتدبيرُ الأمور؛ فهو مالك المملوكات، ومالك تدبير الخلائق كلِّها.

ثـم فسَّر هذا التـصرُّفَ والتدبير في المُلْك بالإيتاء والنَّـزْع؛ فقال: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾ أي: تعطي السُّـلطان والغلَبة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد، فتُمَلِّكه وتُسَـلِّطه على مَن تشـاء. ومن الأنبياء مَـن جمـعَ الله له بينَ النبوَّة والمُلْك والسُّـلطان -كداودَ وسـليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- ومنهم مَن آتاه نبوَّةً ولم يؤتِه مُلكًا ولا سُلْطانًا.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: تمنعه وتَسْـلِبه ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾: بالموت، أو تسـليط غيره عليه، وقد يكون ابتلاءً أو عقوبة.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ (الإعـزاز): التقوية، وقد يكون بإعطائه المُلكَ والسُّـلطةَ، أو النصرَ والغنيمـة، أو الغِنـى، أو بإلقـاءِ الهَيبـة في قُلُوب النـاس. وأعظم من ذلك: الإعـزاز بالنبوَّة والرِّسالة، والإعزاز بالإيمان والعِلْم والطاعة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بسَـلْب مُلْكِـه، أو ضَرْبِ الجِزْيـة عليـه. وأسـوأ الإذلال: ما يكون بالكُفر والمعصية.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٥٢).

ثـم أثنـى الله تعالى على نفسـه؛ فقـال: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ أي: المصالـح والمنافـع، الدُّنيويَّة والأُخرويَّة. ولم يذكر (الشرَّ) ها هنا؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ثناء ومَدْح.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ فلا يمتنع عليك شيءٌ، ولا يُعجِزك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعليم العِباد شُكر النِّعمة.

وفيهـا: ذِكر نِعمة الله عـلى هذه الأُمَّة، بنقل النبوَّة من بني إسرائيـل إلى هذا النبيِّ العربيِّ القُـرَشيِّ المكـيِّ الأُمِّـيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، خاتَـمِ الأنبيـاء، وأفضـلِ الخَلْق، ورسـولِ الله إلى جميع الثقلَين الإنس والجن.

وفيهـا: تفويـض الأمور إلى الله، وأنَّه لا يجوز الاعتراض على الله في نَقْل المُلك أو النبوَّة إلى مَن يشاء.

وفيها: تمام مُلْك الله عَزَّوَجَلَّ، ونُقصان مُلكِ غيره؛ فإنَّ مُلكَ غيره ينتَقِل ويَزُول، ومُلْك الله دائمٌ لا يحول ولا يَزُول.

وفيها: أنَّ الله يُذِلُّ الجبابرة، ويُذْهِب مُلْكَهم، كما فعلَ بفِرعون والنُّمْرُوذ.

وفيها: الاستغناء بالثَّناء، عن الطلَب والسؤال في الدُّعاء.

وفيها: إثبات (اليد) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: أنَّ الخير بيد الله، لا بيد غيره؛ ولذلك ينبغي سؤالُه، لا سؤال المخلوقين.

ويؤخَذ منها: التحذير من ارتكاب الأسباب التي تُزيل النِّعَم.

وفيهـا: أنَّ انتقـال الخير إلى الغـير، لا يُجيز رفضَ الحقِّ، فيجب عـلى بني إسرائيل الإيمانُ بنبوَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، مع كونها قد انتقلَتْ منهم إلى غيرهم.

وفيها: أنَّ العِزَّ الباطن -من الإيمان والعِلْم- أقوى وأفضل من العِزِّ الظاهر -كالسُّلطان والمـال والأعوان-. وأيضًا؛ فـإنَّ ذُلَّ الباطن -من الكُفر والعصيان- أسـوأ بكثيرٍ من الذُّلِّ الظاهر -كالفَقر والمسكَنة والضَّعْف-.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾:

ثم علَّم الله تعالى نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ -وأُمَّته من بعده- التوسُّلَ إليه بأفعالِه في الدُّعاء؛ فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: تُدْخِله فيه، فيكون النهارُ أطولَ بقَدْر ما نقص من اللَّيل -كما يكون في الصَّيف-. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: تُدْخِل بعضَ النهار في اللَّيل -كما يكون في الشِّتاء-. ولا يَقدِر على هذا الإيلاج إلَّا الله.

وقيل: المراد بـ (الإيلاج) في الآية: تعاقُب اللَّيل والنهار، ومجيء هذا بعد هذا.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ويدخل في ذلك: الموت الحِسِّي والحياة الحِسِّيَّة، كإخراج النُّطْفة من الإنسان والإنسان من النُّطفة، والبَيضة من الدجاجة والدجاجة من البَيضة، والنواة من النخلة والنخلة من النواة.

ويدخل فيها أيضًا: الموت المعنويّ والحياة المعنويَّة، كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والعالِم من الجاهل والجاهل من العالِم.

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: تُعطيه الرِّزق الكثير الوفير، الذي يَعجِز عن عَدِّه وإحصائِه ومعرفةِ مقداره، على سبيل التفضُّل من غير استِحقاق، ومن غير تضييق ولا تقتير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله تعالى.

وفيها: إيلاج اللَّيل في النهار وعكسه، ويكون بالتدريج، وهذا من حِكمته تعالى ورحمته بعباده؛ لئَّلا يختَلَّ نظامُ العالَم، ولِتتابعَ فصولُ السنة الأربعة، ولو أنَّ الناس انتقلوا من شِدَّة الحرِّ إلى شِدَّة البرد فجأةً؛ لحصلَ عليهم ضررٌ عظيم.

وفيها: مِنَّة الله تعالى على العِباد، بتفاوت اللَّيل والنهار.

وفيها: أنَّ الرِّزق بيد الله؛ فينبغي طلبُه منه.

وفيها: أنَّ عطاء الله بلا عِوَض.

وفيها: أنَّ الله يرزق المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، بل والبهائم، كما أنَّه عَزَّوَجَلَّ يرزق ما تقوم به الأبدان، ويرزق ما فيه قَوام القَلْب والرُّوح -من العِلْم والإيمان-.

وفيها: أنَّ الله يرزق العبد بسبَبٍ وسعيٍ منه على رِزقه، وقد يرزقه بلا سبَب -كأن يموتَ قريبُه فيَرِثُه-.

وفيها: أنَّ الله قد يرزق العبد من حيث لا يَحْتَسِب، ولا يَكْتَسِب.

وفيها -مع التي قبلها-: أنَّ الله يتصرَّف في المُلْك والنبوَّة، كما يتصرَّف في اللَّيل والنهار، والحياة والموت.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ المُلْك بيده، يُعِزُّ مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء، فلا تُطلَب العِزَّة إلَّا منه؛ نهى عبادَه المؤمنين عن مُوالاة الكافرين، ابتغاءَ العِزِّ والنَّصر منهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يجعلون ولا يختارون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أنصارًا وأعوانًا ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: من غيرهم وسواهم.

فلا يجوز مُوالاة الكافرين، والرُّكون إليهم، والاعتمادُ عليهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]؛ فلا يجوز تولِّي الكافرين وتَرْكُ المؤمنين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: يرتكِب هذا النهي، بمُوالاة غير المؤمنين؛ ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فليس من ولاية الله ودينه في شيءٍ -قليل ولا كثير- والله بريء منه. وقال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: إلَّا مَن خاف -في بعض الأحوال، أو

الأوقات، أو البُلدان- من شرِّهم وتسلُّطهم وإضرارِهم له، فكان مُستضعَفًا؛ فله أن يتقيَهم ويُداريَهم، بظاهره لا بباطنه ونيَّته، ويتقيَهم بلسانه لا بعمَله -فلا يستَحِلُّ دمًا أو مالًا حرامًا- ما دام قَلْبُه مُطمئنًا بالإيمان، مُضمِرًا لبُغضهم في الباطن.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليست التَّقيَّة بالعمل؛ إنَّما التقيَّة بالقول»(١).

قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يُخَوِّفكم عقابَه ونِقمته، وسَطوته، وغضبَه، ووعيدَه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجِع والمُنقلَب والمآب، فيُجازِي كلَّ واحدٍ بعمَله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم اتِّخاذ الكفَّار أولياء.

وفيها: أنَّ مُوالاة الكفَّار تُنافي أصلَ الإيمان.

وفيها: أنَّه لا يجوز مُوالاة الكافرين، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا مع المؤمنين.

وفيها: تحريم مُوالاة الكفَّار بأنواعهم، ويدخل فيهم: المُرتَدُّون، والغُلاة من أصحاب البِدَع المكفِّرة.

وفيها: أنه لا يجوز نُصرة شيعة الشَّيطان وأوليائه، ولا الاستنصار بهم.

وفيها: أنَّه كلَّما كَمُل الإيمان؛ كمُلَت عداوة الكفَّار وبُغضهم.

وفيها: أنَّ الله تعالى يتخلَّى عمَّن تولَّى أعداءَه.

وفيها: مُوالاة أولياء الله تعالى، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥].

وفيها: أنَّه لا يجوز مُداهَنة أعداء الله، ولا إرضاؤهم؛ وإنَّما تجوز المُداراة عند الاضطرار أو الضرورة أو المصلحة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٩)، وإسناده ضعيف.

وفيها: أنَّ اتِّقاء الكفَّار بكلامٍ يُتقَى به شرُّهم، لا يكون إلَّا عند الاضطرار، ولا بُدَّ أن يكون الباطن سليمًا، والقَلْبُ مُطمِئنًا بالإيمان.

وفيها: أنَّ هذه التُّقاة إنَّما هي لدَفْع ضرَر الكفَّار وأذاهم، وليست رضًا بما يفعلونَه ولا اطمئنانًا إليهم.

وفيها: أنَّه إذا جاز التحالُف مع الكفَّار، فلا يكون إلَّا لمصلحة المسلمين، ويكونون هم الطرَفَ الأقوى، ويكون هذا بنيَّة شقِّ صفوف الكفَّار، كعَقْد حِلْفٍ مع بعض الكفَّار ضِدَّ بعضهم الآخر، كما فعل النبيُّ ﷺ في محالفَتِه خُزاعةَ -وفيهم مسلمون- ضدَّ بني بكر وحُلفائِهم من قُرَيش.

وفيها: تحريم مُوالاة الكفَّار ضدَّ المسلمين، بنقلِ أخبار المسلمين إليهم، أو إظهارِ عَورة المسلمين وضَعْفهم لهم، أو تفضيلِهم على المسلمين. ومَن رضيَ بكُفرهم وتولَّاهم لأجله؛ صار كافرًا.

وفيها: رحمة الله بعباده، بالترخيص بمُداراة الكفَّار في حال خوف الضرَر منهم، إذا كانوا غالِبين ولهم سُلطانٌ على المسلمين، أو كان يعيش بينهم ويخاف على نفسه القَتْلَ أو السِّجن ونحوَه.

وفيها: مُداراةُ الكَفَرة والفَسَقة والظَّلَمة، إذا صاروا أقوياء مُتسلِّطين، وإِلَانةُ الكلام لهم، وجواز التبسُّمِ في وجوهِهم، وبذلِ شيء من المال لهم؛ استجلابًا لقُلُوبهم، أو دَفعًا لأذاهم.

وفيها: الفَرْق بينَ تقيَّة أهل السُّنَّة والتقيَّة عند أهل البِدعة؛ فأهل البِدَع يُظْهِرون الحَقَّ والإيمان، ويُبْطِنون الباطل والبِدعة.

وفيها: أنَّ التقيَّة رُخْصة، فلو صبرَ على الحقِّ حتى قُتِلَ، أو تحمَّل الضرر ليُظْهِرَ الحَقَّ؛ فله أَجْرٌ عظيمٌ، كما فعله رسولُ الله ﷺ مع قُرَيش بمكة، وكما فعلَه بعضُ الصَّحابة معهم، والأمثلة كثيرة على مرِّ التاريخ، وفي حياة العلماء الرَّبَّانيِّين.

وفيها: أنَّه لا تقيَّة في عِزِّ المسلمين وقوَّتهم. ولذا قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت التقيَّة في جِدَّة

الإسلام (أي: بدايته) قبل قوَّة المسلمين، فأمَّا اليومَ: فقد أعزَّ الله الإسلام أن يتَّقوا من عدوِّهم»[(١)].

لكن هذا يختَلِف باختلاف البُلدان والأزمان والأشخاص والأحوال.

وفيها: أنَّ الموالاة المحرَّمة هي ما كانت في دينِ الكفَّار، وتعظيمِهم، ومحبَّتهم، ونُصرتِهم، وقد تصل إلى الكُفر.

ولا يدخُل فيها: مُلاطفتهم عند دعوتهم إلى الله، ولا التعاملُ معهم ببيع أو شراء، ولا نكاح المُحصنات من أهل الكتاب، ولا محبَّة الزوج لزوجته الكتابيَّة المحبَّة الطبيعية -كمحبَّة الجائع للطعام- مع بُغْضه لدينها، ولدين قومِها.

وفيها: عدم جواز تولية الكافر على شُؤون المسلمين ومصالحهم العامَّة.

وفيها: التحذير من مُصادِقة الكفَّار، ومُعاشرتهم، وشهود أعيادهم، والإقامة بينهم، والتقارُب معهم.

وفيها: الموعظة بالآخرةِ وعذابِ الله، لمن يرتكب ما نهى الله عنه.

وفيها: التحذير من غَضَب الله.

وفيها: وجوب رَدِّ الأحكام إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾:

ولـمَّا كانت الموالاة أمرًا قَلْبيًّا، وقد يخفى على العِباد؛ نبَّه الله تعالى أنَّه لا يخفى عليه شيء؛ فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ**﴾ أي: تُسِرُّوا مُوالاة الكفَّار ومَوَدَّتهم في قُلُوبكم -أيُّها المؤمنون-. أو: إن كنتُم تُسِرُّون البُغضَ والعداوة لمحمَّدٍ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابِه وأتباعِه -أيُّها المنافِقون واليهود- ﴿**أَوْ تُبْدُوهُ**﴾: تُظْهِروا ذلك.

والآية تشمل: كلَّ ما تُخفيه القُلُوب، من خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٥٧).

فكلُّ ما تُخفوه أو تُظهِروه ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾، ولا يخفى عليه، ويحفَظه فيُجازيكم به، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما، عُمومًا وتفصيلًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: ختمَ الآية ببيان قُدرته -بعد بيان عِلْمه-؛ فهو القادر على عقوبة مَن عَلِمَ عصيانَه ومُوالاتَه لأعدائه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أصل ومحلَّ الولاء والبراء هو القَلْبُ، ومحلُّه الصدر، كما قال تعالى: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفيها: التنبيه بالعِلْم العامِّ بعد العِلْم الخاصِّ، فمَن كان لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض؛ فكيف يخفى عليه ما في قُلُوب خَلْقه؟!

وفيها: أنَّه عَزَّوَجَلَّ عَلِمَ ما انطوَتْ عليه قُلُوبُ أوليائه من مُوالاة المؤمنين. ويَعْلَم اطمئنانَ قُلُوبهم بالإيمان في حال اضطرارهم إلى التَّقيَّة باللِّسان؛ فلا يُعاقِبهم على ذلك. وهو عليمٌ بما انطوَتْ عليه قُلُوبُ أعدائه من بُغض المؤمنين، وما انطوَتْ عليه قُلُوبُ المنافِقين من مُوالاة الكافرين؛ فيُعاقِبهم على ذلك ويُجازيهم عليه.

وفيها: أنَّ الله قادر على أهل السماوات والأرض، يفعل فيهم ما يشاء.

وفيها: تذكير أعداءِ الله وأهلِ المعاصي بعِلْم الله وقُدرته؛ لعلَّهم يَرْجِعون عن كُفرهم، ولا يجترِئون على معصية الله.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم أعمال العِباد قبل وقوعها وبعد وقوعها، لكنَّ عِلْمَه الأزليَّ قبل أن يخلُقَهم لا يترتَّب عليه ثواب ولا عقاب، وأمَّا عِلْمه بأعمالهم بعد وقوعها: فيترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ لقيام الحُجَّة على العِباد.

وفيها: التحذير من المعاصي، في السِّر والعلَن.

وفيها: إشارةٌ لطيفة إلى أنَّ الأعمال تكون خفيَّة في الضمائر أولًا، ثم تظهر في العلَن.

وفيها: أنَّ النِّيَّة تسبِق العمل؛ وهذا مأخوذٌ من تقديم (الإخفاء) على (الإبداء) في الآية.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾:

ثم وعظَ الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه، وذكَّرهم بيوم الحساب؛ فقال: ﴿يَوۡمَ﴾ أي: اذكُروا ذلك اليومَ، وذكِّروا به ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ من المكلَّفين -إنسًا وجنًّا- ﴿مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ أي: في صحائف الأعمال التي تُنشَر. ﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾ تجِده مُحضَرًا أيضًا، ولكنها ﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ وزمنًا طويلًا، ومسافة طويلة.

ثم أكَّد تعالى تهديدَه، وكرَّر وعيدَه؛ فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: يخوِّفكم عقابه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ﴾ (الرأفة) أشدُّ من الرحمة، فهي رحمةٌ مع لين. ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: رحيمٌ بخَلْقه. وهذه تَرْجيةٌ بعد التخويف؛ ليعيشَ المسلمُ بينَ الخوف والرجاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التذكيرُ المستمرُّ بيوم القيامة.

وفيها: إحضار الأعمال المكتوبة بينَ أيديهم في ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ١٠]، ليقرأ كلُّ واحدٍ ما عمِلَ، قال تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، ولِتقومَ الحُجَّة من نفسه على نفسه، كما قال في الآية التي بعدَها: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفيها: أنَّ العبد يُحِبّ ما عَمِلَ من الخير، ويَسُرُّه يومَ القيامة قُرْبُه منه. ويَسُوءُه ما عَمِلَ من الشرِّ وقُرْبُه منه، ويتمنَّى لو كان بعيدًا عنه غاية البُعد.

وفيها: التحذير من سَخَط الله وعذابه.

وفيها: أنَّ على العبد أن يُرَجِّح جانبَ الخيرِ وعملَه، على جانب السُّوءِ وعملِه.

وفيها: أنَّ تَكرار التحذير مفيدٌ في تَكرارِ التأثير، وتذكيرِ الغافل.

وفيها: الجَمْع بين الترغيب والترهيب في الدَّعوة.

وفيها: أهميَّة إلحاق التخويف بذِكر الرجاء؛ لئلَّا يَقْنَط العِباد من رحمة الله تعالى.

وفيها: أنَّ تحذير الله لعباده من عذابه، هو من الرَّأفة بهم.

وفيها: تودُّد الله إلى عباده، ورحمته بهم.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾:

ولـمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قُدرتَه، وانفرادَه في مُلكه، وأوجبَ مُوالاتَه، وحرَّم مُوالاة أعدائِه؛ ذكرَ محبَّته، وبيَّن طريقَ الوصول إليها، وأنَّ الدليل والبُرْهان على محبَّة الرحمن هو طاعةُ سيِّد ولدِ عدنان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وهذه الآية يُسَمِّيها بعضُ السَّلَف «آية المِحْنة» -أي: الاختبار والامتحان- وذلك أنَّ قومًا ادَّعَوا محبَّة الله، فأمرَ الله نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يُخبِرَهم بهذا الميزان، فقال:

﴿**قُلۡ**﴾ لهم -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- : ﴿**إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ**﴾ صِدقًا، وليس مجرَّد دعوى، وتريدون التقرُّب إليه؛ ﴿**فَٱتَّبِعُونِي**﴾ عقيدةً، وقولًا، وفِعْلًا وتَرْكًا، واقتَدوا بي، بامتِثال ما أُوحِيَ إليَّ. فإنْ فعلتُم؛ ﴿**يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ**﴾.

قال الحسن البَصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه من السلف: «زعمَ قومٌ أنَّهم يُحِبُّون الله؛ فابتلاهم الله بهذه الآية؛ فقال: ﴿**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ**﴾»[(١)].

ومحبَّة الله للعبد أعظَم من محبَّة العبد لله، كما قال بعض العلماء: «ليس الشأن أن تُحِب الله؛ ولكنّ الشأن أن يحبّك الله»[(٢)].

﴿**وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ**﴾ وهذه الفائدة الثانية للاتِّباع؛ فيتجاوز الله عمَّا فرَّطتُم فيه، ويمحو الذُّنوب، ويُيَسِّر لكم أسبابَ المغفرة. و(الذنب): هو المعصية.

﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ**﴾: بالغ المغفرة؛ لكثرة المغفور لهم وكثرة الذُّنوب المغفورة. فهو سبحانه يستر الذَّنب، ويتجاوز عنه، ويمحو أثرَه. ﴿**رَّحِيمٞ**﴾ بمَن تقرَّب إليه، باتِّباع نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

فجمعَ لهم بينَ الوقاية والعِناية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٢) روضة المحبين لابن القيم (ص٢٦٦)

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المحبَّة لله علامةٌ، ونتيجةٌ وثمرةٌ؛ فحبُّ المؤمنين لله يكون باتِّباع أمرِه، واتِّباع رسوله، وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته.

وفيها: ابتلاء الله لعباده، وامتحانه لهم بهذا الميزان؛ ليظهَر المُحِبُّ الصادِقُ من المُحِبِّ المُدَّعي.

وفيها: أنَّ الدعوى وحدَها لا تكفي؛ بل لا بُدَّ من إقامة البيِّنة على صِحَّتها؛ فقد ادَّعى اليهود أنَّهم أحبابُ الله، ويدَّعي كثيرٌ من الناس أنَّهم يُحِبُّون الله؛ فكان الاتِّباع ميزانًا حاكمًا في صِحَّة هذه الدعاوى.

وفيها: عَرْض حال مَن يدَّعي ولاية الله على هذا الميزان.

وفيها: وجوب اتِّباع النبي ﷺ، بلا زيادة ولا نقصان، وأنَّ هذا يشمل أعمال القَلْب والجوارح.

وفيها: بيان طريق نيل محبَّة الله.

وفيها: كَرْم الله تعالى؛ فإنَّه يُقابِل المحبَّة الصادِقة بمحبَّةٍ أعلى، وزيادةٍ -وهي مغفرة الذُّنوب-.

وفيها: أنَّ حسَنة الاتِّباع عظيمة؛ فهي تمحو الذنب، وتُوجِب عدم العقوبة.

وفيها: جواز مُخاطَبة المدَّعي بالتحدِّي، وطلب تقديم الدليل والبرهان.

وفيها: ادِّعاء الكفَّار محبَّةَ الرحمن، والرَّدُّ عليهم. وقد قيل: إنَّ المخاطَبين بهذه الآية هم اليهود والنصارى، أو المنافِقون، لكن العِبْرة بعُموم اللَّفظ؛ فهي لكلِّ مُدَّعٍ للمحبَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما اشتدَّ اتِّباع العبدِ للنبيِّ ﷺ؛ اشتدَّت محبَّة الله له.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله عَزَّ وَجَلَّ، على الوَجْه اللَّائِق به.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل.

وفيها: إثبات المحبَّة بينَ الخالِق والمخلوق، وأنَّها تكون من الخالِق ومن المخلوق، خلافًا لمن أثبتها من جانب العبد وحدَه.

وفيها: أنَّ الصادِق في محبَّته لله، يكون مهديًّا مُسَدَّدًا، مُتَّبِعًا للسُّنَّة، ذا قَبول في الأرض.

وفيها: تعظيم شأن السُّنَّة النبويَّة، والحِرْص على اتِّباعها في جميع الأمور.

وفيها: تقديم السُّنَّة على كلام كلِّ أحد.

وفيها: الارتِقاء بالنفس من مستوى التقليد إلى اتِّباع الدليل، لكنَّ هذا للمتأهِّلين، بضوابطه.

وفيها: رَدُّ الأعمال المخالِفة لِما عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: الإشارة إلى شرطَي قَبول العمل الصالح؛ وهما: الإخلاص والاتِّباع، والتزام الهدي النبوي في طريقة العمل. فالإسلام مبنيٌّ على أصلَين: ألَّا نعبدَ إلَّا الله وحدَه، ولا نعبده إلَّا بما شرَعَ.

وفيها: تفاوت العِباد في الاتِّباع والمحبَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَت محبَّة العبد لله ازدادَ اتباعُه لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فازدادت محبَّة الله له.

وفيها: التسليم وتَرْك الاعتراض على السُّنَّة النبويَّة.

ومضمون هذه الآية من القواعد الكُلِّيَّة والأُسُس العظيمة، التي ينبغي البَدْءُ بها في دَعوة الناس، وتربيتُهم عليها.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾:

ثم بيَّن تعالى أنَّ الاتِّباع إنَّما يحصل بالطاعة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ**﴾: بامتِثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه ﴿**وَٱلرَّسُولَ**﴾: باتِّباعِ سُنَّته، والتزامِ هَديه. و(الطاعة) هي: الانقياد والموافَقة.

﴿**فَإِن تَوَلَّوۡاْ**﴾ أي: أعرَضوا، وخالفوا أمرَك؛ ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ**﴾، ولا يرضى فِعْلَهم، ويَسْخَط عليهم. وهذا (الكُفر) قد يكون كُفرًا أكبرَ، مخرجًا من المِلَّة؛ إذا كان التولِّي والإعراضُ عن الطاعة كاملًا. وقد يكون كُفرًا أصغر، لا يُخرج من المِلَّة؛ إذا كان الإعراضُ والمعصيةُ ومخالفةُ الطاعة في أمورٍ دون أخرى، مع بقاء أصل الإيمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ طاعة الرسول ﷺ داخلةٌ في طاعة الله.

وفيها: أنَّ طاعة الله واجبة، وهي دليلٌ على المحبَّة.

وفيها: أنَّ من إعظام الله وإجلاله: إيثار طاعته، واتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعم العملَ بالقرآن وحدَه دون السُّـنَّة، وبيانُ ضلال الذين يُسَمُّون أنفُسَـهم بــ(القُرآنيِّين)، ويُنكِرون السُّـنَّة، ولو كانوا صادِقين في اتِّباع القـرآن لاتَّبعوا النبيَّ ﷺ وأخذوا بسُنَّته؛ فإنَّ هذا مأمورٌ به ومنصوصٌ عليه في القرآن!

بـل قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نظرتُ في المُصحَف، فوجدتُ فيه طاعةَ رسـول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا»[1].

وفيهـا: أنَّ طاعـة النبـيِّ ﷺ إنَّما هي لكونه رسـولًا من عنـد الله، لا لمجرَّد صِدقه وبشريَّته.

وفيها: وجوب طاعة الله ورسوله، وعُمومُ الطاعة في جميع الأمور؛ فالآية عامَّة، لم تذكر مجالًا للطاعة دون آخر.

وفيها: إظهارٌ في موضع الإضمار؛ فإنَّه لم يقل: «فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يحبُّهم»؛ وإنَّما صرَّح بتسميتهم فقال: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، **وفي هذا فوائد:**

منها: مراعاة فواصل الآيات.

وبيان حُكم هؤلاء، وأنَّهم كفَّار.

وتعميم الحُكم على غيرهم؛ وهو أن محبَّة الله مُنتفية عن كلِّ كافر.

وتعليل الحكم، ببيان أنَّ عدم محبَّة الله لهم إنَّما نشأت عن كُفرهم.

وليتبيَّن -بالمفهوم- أنَّ الله تعالى يُحِبُّ المؤمنين، وأنَّ محبَّته مخصوصةٌ بهم.

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطَّة (١/ ٢٦٠).

وفي الآية: التحذير من تقديس الأشخاص والعلماء، والغُلُوِّ فيهم، وتقليدهم في كلِّ ما يقولونه؛ لأنَّهم غير معصومين، وأنَّ مَن قلَّد أحدًا من الناس في كلِّ شيء؛ ففي طاعتِه لله ورسولِه نقصٌ.

وهذه الآية أيضًا من القواعد الأساسيَّة والأمور الكُلِّيَّة، التي ينبغي البَدْء بها في دعوة الناس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾:

ولـمَّا ذكر الله تعالى دينَ الحقِّ، واختلافَ أهلِ الكتاب، ووجوبَ طاعةِ الله واتِّباعِ نبيِّه ﷺ، وكان سياق الآيات في دعوة وَفد نصارى نَجْران؛ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ نفرًا من الذين أحبَّهم واصطفاهم ورفعَ درجاتهم؛ فبدأ بأبرزِ مَن في نسَب عيسى وأُمِّه عَلَيۡهِمَا السَّلَامُ من الأنبياء -وهم ثلاثةٌ كبار-؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارَ ﴿ءَادَمَ﴾، بأن خلقَه بيدِه، وأسجدَ له ملائكته. واصطفاؤه تابعٌ لمشيئته. و(آدم): هو أبو البشَر، علَّمه الله أسماءَ كلِّ شيء، وأسكنَه الجنَّة أولًا، وجعله نبيًّا.

﴿وَنُوحٗا﴾ وهو الأصل الثاني، والأب الثاني للبشريَّة، اختارَه الله واصطفاه، وفضَّله بالنبوَّة والرِّسالة؛ فهو أول رُسُل الله إلى أهل الأرض، وجعلَ الله ذُرِّيَّته هم الباقينَ بعد الطُّوفان.

﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ومنهم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط. وعلى رأس آل إبراهيم: إبراهيم نفسه عَلَيۡهِ السَّلَامُ؛ فاصطفاه الله بأنْ جعلَه نبيًّا رسولًا، وجعلَه خليلَه من أهل الأرض، وجعل النبوَّة من بعده في ذُرِّيَّته وحدَهم، ومنهم: آخر الأنبياء **محمَّد** ﷺ.

﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ يعني: أهلَه. و(عِمران): هو والد مريم أُمِّ عيسى عَلَيۡهِمَا السَّلَامُ.

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: في زمانهم. و(العالَم) يشمل كلَّ مَن سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ يعني: في الخِلْقة، ومُتناسِلون من بعضهم في النَّسَب، ومُتجانِسون في الدِّين والتُّقى والصلاح.

وصَحَّ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنَّه قال في تفسير هذه الآية: «في النِّيَّة، والعمل، والإخلاص والتوحيد له»(١).

و(الذُّرِّيَّة) مأخوذة من «ذرَأ» بمعنى: خلقَ. وعلى هذا فهي تشمل الأصولَ والفروعَ؛ لأنَّ الكلَّ مخلوق.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العِباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ من أفعال الله تعالى: الاصطفاء والاختيار؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القَصَص: ٦٨].

وفيها: أنَّ البشر جِنس واحد.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعم أنَّ البشر متطوِّرون من جِنس آخر، كالقِرَدَة أو فصيلة الثَّدْييات؛ فالآية صريحةٌ في أنَّ أولئك المصطفَين الأخيار بعضُهم من نَسْل بعض؛ فهم مُتَّصِلو النسَب؛ فنوحٌ من ذُرِّيَّة آدم، وآلُ إبراهيم من ذُرِّيَّة نوح، وآل عمران من ذُرِّيَّة آل إبراهيم؛ فهم جميعًا سِلْسِلَة متَّصلة الحَلْقات في النسَب والخصال الحميدة، وهم جِنس واحد، غير متطوِّر ولا متحوِّل من غيره.

وفيها: أنَّ الاصطفاء نِعمة من الله، ينبغي شُكرها. فالمسلم الحقُّ المستقيمُ يحمَد ربَّه أن جعلَه حيًّا لا جمادًا، وإنسانًا لا بهيمة، وجعلَه مسلمًا لا كافرًا، وجعلَه من أهل السُّنَّة لا من أهل البِدعة، وجعلَه مستقيمًا على طاعته غيرَ منحرِفٍ بالمعصية والفُسوق، وإذا كان يدعو إلى الله على بصيرة؛ فيحمَد ربَّه أن جعلَه صاحبَ عِلْمٍ وليس جاهلًا، وجعلَه داعيةً إلى الله غيرَ قاعدٍ ولا متكاسِلٍ.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٨).

وفي قولـه تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾: موعظةٌ للنصارى، بأنَّ الله يسـمع قولهم بأنَّ المسـيح ابنُه -تعالى الله عن ذلك- وأنَّه عليمٌ بعُقوبتهم على باطلهم.

وفيها: ذِكر أصفياء الله؛ لنتَّبِعَهم، ونقتديَ بهديهم.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، الذين يزعمون ألوهيَّة المسيح، وأنَّه ابن الله، وليس من البشر؛ فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ جدَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو عِمران، وهو من نَسْل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي هو من نَسْل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلُّهم من نَسْل أبي البشر وأصلِهم -وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم مَن يستحِقُّ الفَضْل والتفضيل، فيضع فَضْلَه حيث اقتضَت حِكمتُه سبحانه.

وفيها: فَضْل تَنشئة المسلِم لأهل بيته على الدِّين والتَّقوى والصلاح، وأنَّه سبَبٌ لثناءِ الله عليهم، واصطفائِهم على غيرهم.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: «ذكـرَ الله أهـلَ بيتَـيْنِ صالحَـينِ، ورَجُلَيْنِ صالِحَـينِ، ففَضَّلهم عـلى العالَمين؛ فـكان محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آل إبراهيم»[1].

وفيهـا: أنَّ الاصطفـاء ليـس خاصًّا بالنبوَّة؛ فـإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يصطفـى الصالحين والأخيار والأبرار، ويكون هذا سببًا لوِراثتهم العِلْمَ، وجَعْلِ الخيرِ والبرَكةِ فيهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢]، ومنهم العلماء.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾:

ولـمَّا كان أول هذه السُّـورَة للـرَّدِّ على النصارى، وبيانِ الحقِّ في عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ مَبدأ أمرِ عيسى، وقِصَّة ولادَتِه، ونَسَبِه، وذِكر خَبْر جَدِّه وجَدَّته؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ أي: واذكـر -يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هـؤلاء النصارى وغيرهـم،

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٥).

قِصَّـة المـرأةِ الصالحة امـرأةِ عِمران -وهـي أُمُّ مريـم عَلَيْهَاالسَّلَامُ- وكانت لا تَحْمِل، فاشـتهَت الولـد، فدَعَـت ربَّها أن يَرْزُقها إيَّاه، ونذرَت إنْ ولدَتْه أن تهبَه لِخدمة مسـجد بيت المقدِس، وتوقِفَه على خِدمته. وكان نَذْرُ الذُّكور من الأولاد لِخدمة بيوت الله من جملة عباداتهم، وكان مفروضًا على الأولاد طاعةُ آبائهم في هذه النُّذور.

لكن شاء الله أن تَحْمِل بابنتها مَرْيم، وكانت تتمنَّى الولدَ الذَّكَر.

فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أي: التزمتُ، وأوجبتُ على نفسي ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ من الولد -أيًّا كان- ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا من أمر الدُّنيا، خالصًا لطاعتك، ومفرَّغًا لخدمة بيتك. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ نَذْري وقُربتي. و(القَبول): هو التلقِّي على وَجْه الرضا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لدُعائي، فتستجيبَه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّتي وما في قَلْبي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم أمر هذه القِصَّة؛ لأنَّ الله تعالى أمر نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبيِّنها للناس.

وفيها: جواز النَّذْر بما في البطن -وإنْ كان مجهولًا- فلو قال: «لله عليَّ أن أتصدَّق بما في بطن ناقتي»؛ لزِمَه أن يتصدَّق به، سواءً كان ذكرًا أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

ويمكن أن يُفهَم من الآية: جواز تصدُّق المرأة بدون إذن زوجها.

وفيها: أنَّ الولد يخدِم أُمَّه وأباه؛ لأنَّها نذرَتْه محرَّرًا، بمعنى: أنَّها لا تستخدِمه في خِدمة نفسها ولا غيرها؛ وإنَّما تجعله موقوفًا على خِدمة مسجد بيت المقدِس.

وفيها: الدُّعاء بقَبول العمل، وأنَّ ذلك من وسائل طَرْد العُجْب من النفس.

وفيها: تفريغ النفس للعبادة.

وفيها: أنَّه كان من عبادات مَن سبقنا: الاعتكاف -أو العُكُوف- على خِدمة المساجد.

وفيها: فَضْل مسجد بيت المقدِس؛ لأنَّهم كانوا ينذُرون أولادَهم لِخدمته.

وفيها: اختيار ما يُناسِب من أسماء الله تعالى، للتوسُّل به في الدُّعاء.

وفيها: تخليص العِبادة من شوائب الدُّنيا.

وفيها: قَصْر بعض ما يَمْلِكه الإنسان على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا قريبٌ من معنى (الوَقْف).

وفيها: فضيلة ظاهرة للمرأة الصالحة امرأة عِمران (وكان رجلًا صالحًا)؛ فإنَّها آثَرت خِدمة بيت الله على حاجة نفسها، وكانت حَسَنَة الظنِّ بربِّها.

وفيها: توجيه الولد لطاعة الله من أولِ أمره، وحداثةِ سِنِّه.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾:

ولـمَّا لم تكن امرأة عِمران تَعْلَم جِنس الجنين الذي في بطنها -وكانت قد نذرَتْ ذلك النَّذر-؛ فُوجِئَت عند ولادتها بأنَّ المولودَ أنثى.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ وولدَت المنذورَ؛ ﴿قَالَتْ﴾ متحَسِّرةً، معتذِرة إلى ربِّها -لأجلِ عدم استطاعتها الوفاءَ بالنَّذْر-: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ النَّذر لخدمة المساجد كان قاصرًا على الأولاد الذُّكور.

قوله ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: أعلَم بالذي ولدَتْه، وأعلم بذلك من كلِّ أحد، وأنَّه سيجعل من ابنَتِها هذه أفضل نساء زمانها، وسيجعل منها ومن ابنِها آيةً للعالمين.

وقرأ ابنُ عامرٍ وغيرُه -وهي قراءة صحيحة-: (والله أعلَمُ بما وضعتُ) -برفع التاء- فيكون هذا من تمام كلامِ امرأة عِمران، ويكون هذا منها من باب كمالِ الأدب؛ احترازًا من أن يُظَنَّ بقولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أنَّها تخبر ربَّها عمَّا لا يَعْلَم؛ فيكون التقدير: «إني وضعتُها أنثى، والله أعلمُ بما وضعتُ؛ فلستُ أخبرُ الله بأمرٍ يخفى عليه؛ بل هو سبحانه أعلم منِّي بما وضعتُ».

قوله ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ يعني: فلا تماثل بينهما ولا مساواة؛ بل لكلٍّ منهما مِيزاته وخصائصه.

والنذر لخدمة المساجد يقع على الذُّكور؛ لأنَّ الذكر أقوى، وأدوم في العمل، وأكثر جلَدًا في العِبادة، والأنثى إذا حاضَتْ لا تستطيع أن تخدِم في المسجد؛ فليس الذَّكر كالأنثى.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت المرأة لا يُستطاع أن يُصنَع بها ذلك، يعني: أن تحرَّر للكنيسة، فتُجعَل فيها، تقوم عليها وتَكْنُسها، فلا تَبرَحُها؛ ممَّا يصيبها من الحَيْض والأذى؛ فعند ذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾»[1].

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: اختارَت لها هذا الاسم، وسمَّتها به يومَ ولادتها، وهو اسم أعْجَمِيّ، وقد يكون مشهورًا عندهم. قيل في معناه: العابدة، أو الخادمة، أو الجارية.

قوله تعالى ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: أُجيرُها وأولادَها، بحِفظك وعِصمتك. و(الاستِعاذة): الالتِجاء والاعتِصام.

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ وهو: إبليس، أبو الجنِّ، اللَّعين، وهو مشتقٌ مِن «شَطَنَ» إذا بَعُدَ؛ لأنَّه بعيدٌ مطرودٌ من رحمة الله؛ فهو ﴿الرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم المطرود.

وقد استجابَ الله دُعاءَ امرأة عِمران؛ ففي الحديث: «مَا مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا من مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إنْ شِئْتُم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2].

وفي حديثٍ آخر: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ، حِينَ يُولَدُ، غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»[3]، و(الحِجاب) هو «المَشيمة»، التي يكون فيها الولَد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيمُ حقِّ الأُمِّ، وكبيرُ فَضْلِها، ووجوبُ برِّها والإحسانِ إليها؛ لأنَّها تحمِل ولدَها في بطنها تسعة أشهر، قاعدةً وقائمةً، مستيقظةً ونائمةً، وعلى جميع أحوالِها، يصحبُها

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٥).
(٢) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).
(٣) رواه البخاري (٣٢٨٦).

حيث كانت، وتتكلَّف هذا الحَمْل وتُعاني فيه حتى تضعَه؛ كما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿وَضَعَتْهَا﴾.

وفيها: اعتذار الإنسان لربِّه، إذا وقع الأمرُ على خلاف ما أرادَه من الطاعة والقُرْبة، كما اعتذرت امرأةُ عِمران لربِّها.

وفيها: احتراز الإنسان عمَّا يُمكن أن يُوهِمَه كلامُه من المعاني الباطلة.

وفيها: إثبات الفروق العظيمة بينَ الذكور والإناث، وأنَّ هذين الجنسَين لا يستويان، لا في الطبيعة، ولا في الجِسْم والخِلْقة، ولا في الفَضْل والقُدرة، ولا في العاطفة والتحمُّل. ففيها رَدٌّ على دُعاة المساواةِ بينَ الجنسَين، وتوليةِ المرأة وظائف الرِّجال!

وفيها: أنَّ الرِّجال هم الأنسب والأفضل لِخدمة المساجد.

وفيها: تسمية المولود في يوم ولادته، وقد قال النبي ﷺ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»[١]، وسمَّى النبيُّ ﷺ أخا أنسِ بن مالك من أمِّه (عبدَ الله) بعد ولادته[٢]، وهو: عبد الله بن أبي طلحة.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السنة: أن يُسَمَّى المولودُ في اليوم السابع من ولادته، أو يوم الولادة»[٣].

وفيها: تعويذ الإنسانِ أولادَه بالله العظيم، من الشَّيطان الرجيم، ومن شرِّ الخَلْق.

وفيها: جواز الدُّعاء للمعدوم من الأولاد -الذي لم يُولَد بعد-؛ لقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ومعلومٌ أنَّ ذُرِّيَّة مريم لم تكن موجودةً عند الدُّعاء لها.

وفيها: أنَّ دعاء الوالدَين الصالحَين ينفع الولدَ، ولو كان لا يَعْقِل.

وفيها: التفاؤل، وحُسن الظنِّ بالله تعالى، بالدُّعاء لذُرِّيَّة الولد، بالسلامة واستمرار الحياة؛ ليُنجِبَ ويكونَ له أحفادٌ. وفيه تفاؤل وحُسنُ ظنٍّ لا يخفى.

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

(٣) الأذكار (ص٢٨٦).

وفيها: أنَّ تسلُّط الشَّيطان على المولود قويٌّ؛ فينبغي الإكثار له من الدُّعاء. وقد قيل: إنَّ العقيقة من أسباب فكِّ تسلُّط الشَّيطان على المولود؛ فالله أعلم.

وفيها: جواز تسمية الأُمِّ للمولود، بشرط موافقة الأب.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾: دليلٌ على عِظَمِ شأن المولودة مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وعُلُوِّ منزلتها، وأنَّها وإن لم تصلُح للسِّدانة وخِدمة المسجد؛ فإنَّ في طاعتِها وعبادتِها وسَبْقِها إلى الله ما يُعَوض عن ذلك.

وفي الحديث: «كَمَلَ من الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ من النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث[1].

وفي الآية: التسليم لقدَر الله، إذا جاءت النتيجة على غير ما يتمنَّى العبد، وهذا على قراءة (بما وضعتُ).

وفيها: أنَّ على العبد أن يُسَلِّم بأنَّ ما قضاه الله له خيرٌ ممَّا كان يتمنَّى وقوعَه.

وفيها: فضيلةٌ لمريمَ وابنِها عيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، في حِفظهما من طَعْن الشَّيطان عند الولادة.

وفيها: جواز اختصاص المفضول بخصائصَ لا ينالها الفاضِل؛ فمريم وابنها عيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ عُصِما من طعن الشَّيطان عند الولادة، ولا يعني هذا أنَّ مَن طعنَه الشَّيطانُ عند ولادته -من الأنبياء- أقلُّ درجةً أو فيه نقصٌ، أو أنَّ هذا يُنافي عِصْمته؛ بل الأنبياء معصومون من إغواء الشَّيطان لا من إيذائه، وإيذاؤه من جِنس الأمراض والآلام والمصائب التي لا يخلو منها بشرٌ.

وفي الآية: مشروعيَّة نذر البِرِّ والطاعة المجرَّد -بلا اشتراط، أو تعليقه على حصول شيء-. وأمَّا نذر المُعاوَضة -بتعليق الطاعة على حصول شيء أو دَفْعه، بحيث لو لم يحصل هذا الشيء لم يقُم بالطاعة-: فمكروه، وعليه تُحمَل النصوص الواردة في النهي عن النذر.

وفيها: التفاؤل بتسمية المولود باسم حَسَن، لعَمَلٍ يَعْمَلُه يكون مُطابِقًا لمعنى اسمه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

ثـم ذكرَ تعالى استجابتَه لدُعاء امرأة عمران؛ فقال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي: قَبِلَ النَّذْر، ورضيَ أن تكون مريمُ محرَّرةً للعبادةِ، وخِدمة بيته -على صِغَرها وأنوثتِها-. و(التقبُّل) أبلَغُ من (القَبول)؛ فيدُلُّ على مزيدٍ من الرعاية والعِنايـة. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: يسَّرها لليُسرى، وسهَّل لها أمرها، وحبَّب إليها الخير.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني: مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ. فأنبتَها الله تعالى نباتًا حسـنًا، فسوَّى خَلْقَها وجسَدَها من غير زيـادةٍ ولا نُقصان، حتى تمَّت وصارَت امرأة بالغة تامَّة، وجعلَ شكلها مليحًا، وجمَّلها بكمال الأدب والأخلاق، ويسَّر لها أسباب القَبـول، وقرنَها بالصالحين مِن عباده، تتعلَّم منهم الخيرَ والعِلْم والدِّين.

ولهـذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعلَـه كافلًا لها؛ لأنَّها كانت يتيمـة، وضمَّها إليه بعد القُرعـة، فـكان مُرَبِّيًا لها، وقائمًا على شُـؤونها، وكانت تقتَبِس منه عِلْمًا جمًّا، وعملًا صالحًا. و(زكريّا) عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنبياء الله، من ذُرِّيَّة سليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾ في أيِّ وقت ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو مكان العِبادة -أيًّا كان شَكلُه- سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ المتعبِّد فيه يُحارِب الشَّيطان. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾: طعامًا، لقيام بدَنها، يُعينها على العِبادة. فقيل: كان يجد عندها فاكهة الشِّتاء في الصَّيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «عِنبًا وجدَه زكريّا عند مريم في غير زمانه»[1].

وأيًّـا كان الأمـر؛ فوجود طعام -مـن أيِّ نوع- عند امرأةٍ مُنقطعةٍ للعبادة، لا تكتَسِـب؛ هو كرامةٌ لها.

﴿قَالَ﴾ زكريّـا: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ يعني: من أين لكِ هـذا الرِّزق، وكيف يجيئُكِ والأبواب مُغلقة عليكِ؟!

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٥)، تفسير ابن المنذر (١/ ١٨٢).

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لا من عند غيرِه، يأتي به الرَّزَّاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ (الرِّزق): هـو العَطـاء، وقد يكون رزقًا للبَـدَن، أو رِزقًا للرُّوح والقَلْـب. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزُق رزقًـا كثـيرًا وفيرًا، لغير سـبَب معلوم، ومن غير مُكافأة ولا اسـتِحقاق، ورُبَّما بغير مسـألة؛ تفضُّلًا منه ومِنَّة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات كرامات الأولياء، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يَخْرِق العادة لبعض أوليائه؛ تثبيتًا لهم، وترغيبًا للناس في مثلِ حالهم.

والفرق بينَ كرامات الأولياء الإلهيَّة وخوارق السَّـحرة والدَّجَّالين الشَّـيطانيَّة، هو حالُ صاحِـب كلٍّ منهما؛ فقد وصفَ الله الأولياء بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

والضابـط في هـذا: أن يُعرَض هذا الخارِق على الكتاب والسُّـنَّة، فـإن لم يكن مُخالفًا لهما، وتوفَّرت فيه شُروط الكرَامة -كصلاح صاحبها، وعدم استعانته بهذا الخارِق في المعصية أو ترك واجب، وغير ذلك-؛ كانت كرامةً، وإلَّا، فهو تلبيسٌ من الشَّيطان الرجيم.

وفيها: أنَّ صلاح الراعي وحُسن دُعائه، له أثرٌ في درجة الاستجابة وحُسن القَبول.

وفيهـا: أنَّ برَكة البنت الصالحة قد تفوق كثـيرًا من الذُّكور، وأنَّ البنت قد تكون أصلَح لوالدَيها من كلِّ أبنائها.

وفيها: أهميَّة تنشئة الأولاد على طاعة الله.

وفيهـا: أهميَّة اقتران الولد بمـربٍّ صالح، يعتَني به ويتعاهَـدُه، ويُعَلِّمه ويُؤَدِّبه، ويكون قُدوةً صالحة له.

وفيهـا: أنَّ مُصاحبـة الأخيـار والصالحين من الصِّغَـر، تؤدِّي إلى غَرْس معـاني التوحيد والأخلاق الفاضلة في النفس.

وفيها: أهميَّة التربية بالاقتداء.

وفيها: فَضْل كَفالة الأيتام، وأنَّ ذلك لا يقتصر على النَّفقة الماليَّة؛ بل يتعدَّاها إلى ما هو أهمُّ، وهو التربية والتعليم.

وفيها: فَضْل زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي سابقَ في الأعمال الصالحة وسارعَ؛ حِرْصًا على كَفالة اليتيمة. وقد قال الله تعالى عن هذا البيت المُبارَك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفيها: أنَّ الله قد يَرْزُق بغير سبَب ظاهر، وعلى خلاف ما يتوقَّعه العِباد.

وفيها: استحباب تخصيص مكان طاهر طيِّب للعبادة، والخَلوة بالرَّبِّ تعالى.

وفيها: أنَّ العِبادة قد تكون سببًا لجَلْب الرِّزق.

وفيها: فَضْل الله تعالى على مريم، بالرِّزقِ المستمِرّ والعطاءِ الواسع.

وفيها: جواز إظهار التعجُّب لحال أولياء الله وكراماتهم.

وفيها: حُسن اعتقاد مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ في الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث نسبَت الرِّزق إليه.

وفيها: أنَّ الرِّزق تَبَعٌ لمشيئة الله، ومشيئته تَبَعٌ لِحكمته.

وفيها: أنَّ صلاح الأبوَين سببٌ لِحفظ الأولاد ورِزقِهم.

وفيها: اعتناء الأخيار بأولاد الأخيار.

وفيها: أنَّ مَن تولَّى كَفالة يتيم أو ضعيف -كالمرأة-؛ فإنَّ عليه أن يتفقَّده ويصونه باستمرار، مع مُراعاة الضوابط الشرعيَّة.

وفيها: أنَّ النمُوَّ الحَسَن للطِّفل في بدنه نِعمة من الله، ويجب على الوالدَين الأَخْذ بأسبابها، ووقاية الطفل ممَّا يضُرُّه.

وفيها: أنَّ النبات الحَسَن في الدِّين والخُلُق نِعمة من الله، ويجب على الأبوَين -أو مَن يكفُل الطِّفل- بذلُ الأسباب لغَرْس ذلك في نفسه وتنميَته.

وفيها: أنَّ التربية الصالحة للصغير تقودُ -في العادة- إلى جَعْله طائعًا لله؛ فقد صارت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ من العابدات القانتات، بفضل حُسن تربيتها وهي صغيرة.

وفيها: أنَّ لكلِّ ضَعْف لُطفًا، وأنَّ الله لا يُضيع عباده.

وفيها: الاعتراف للمُنعِم بالنِّعمة، ونِسبتُها إليه، ورَدُّ الفَضْل لأهله؛ وذلك في قول مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: عدم احتقار البنات، والاستهانة بهنَّ؛ فقد يوجد منهنَّ مَن تكون قُدوةً للناس.

وفيها: أنَّ تسخير الله للرِّزق، لا يُشترَط أن يكون بنزولٍ من السماء، أو بإتيان الملائكة به؛ بل قد يَخْلُقُه الله عَزَّوَجَلَّ في مكانه.

وفيها: أنَّ توحيد العبد لربِّه، وحُسنَ عبادته له؛ يكون سببًا في استغنائه عن المخلوقين، وعدمِ الحاجة إليهم.

وفيها: أنَّ رعاية الله للمكفول، أعظَم من رعاية كفيله له.

وفيها: جواز اختصاص المفضول بخصائصَ لا ينالها الفاضِل، فالله عَزَّوَجَلَّ قد يَخُصُّ الأدنى بفضيلة لا يُعطيها لَمن هو أعلى منه، مع اختصاص الفاضِل بفضائل أكثرَ غيرِها، كما حصل مع مريم -وهي صِدِّيقة- مقارنةً بحال زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهو نبيٌّ- مع الاعتقاد بأنَّ معجِزات الأنبياء أعظَم من كرامات الأولياء.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾:

فلمَّا رأى زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ تلك الكرامة العظيمة التي حصلت لمريم بدون سببٍ ظاهر، وخلافًا للمتوقَّع؛ طَمِع -وهو الشيخ الكبير في السِّنِّ- أن يُولَد له ولدٌ، وكان قد أيسَ من الولد.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تلك الحال، وفي ذلك المكان ﴿دَعَا﴾ وطلبَ وسأَلَ ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ بنداءٍ خفيٍّ، قيل: في جوف اللَّيل.

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي﴾: أعطني. و(الهِبة) هي إحسانٌ بلا مُقابِل، وتبرُّعٌ يُقصَد به مجرَّد انتفاع الموهوب له ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: مباركة، نقيَّة، صالحة. و(الذُّرِّيَّة) تُطلَق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، وهي بمعنى «مَذْروءة» أي: مخلوقة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: تُجيب سائِليك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن ظنِّ زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بربِّه.

وفيها: أنَّ رؤية المؤمن لنِعَم الله على الآخَرين، تدفعه إلى سؤال ما يحتاجه هو؛ فإنَّ زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما رأى إتيانَ الرِّزق لمريم على وَجْهٍ غير معتاد؛ طَمِعَ أن يكون له ولدٌ في حالٍ غير معتاد؛ فقد كان شيخًا كبيرًا، وامرأته عاقرٌ لا تَلِد.

وفيها: أنَّ انغلاق أبواب الدُّنيا لا يمنَع العبد من سؤال الله حصولَ المقصود.

وفيها: أنَّه ليس من الاعتداء في الدُّعاء سؤالُ ما لا يحصُل عادةً، إذا كان جائزًا شرعًا.

وفيها: أنَّ الله يُعطِي العِباد بلا مقابِل.

وفيها: سؤال الله الذُّرِّيَّة الصالحة -بدَنًا ودِينًا-.

وفيها: خَتْم الدُّعاء بما يُناسِب من صفات الله.

وفيها: أنَّه ينبغي تقييد الدُّعاء بهِبة الولد من الله، بأن يكون طيِّبًا؛ لأنَّ الولد يمكن أن يَصير نكدًا وفِتنةً لوالده؛ كما في قِصَّة موسى والخَضِر عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٠].

وفيها: أنَّ الدُّعاء من أعظم أسباب صلاح الذُّرِّيَّة.

وفيها: أنَّ الذُّرِّيَّة الطيِّبة سببٌ لحصول خيرِ الدُّنيا والآخرة.

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى سُرعة إجابته لدُعاء عبده زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقال: ﴿**فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ يعني: جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو: جمعًا من الملائكة ﴿**وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي**﴾ أي: في حالِ قيامه في صلاته، وقيل: المراد بـ«الصَّلاة» هنا: الدُّعاء ﴿**فِي ٱلۡمِحۡرَابِ**﴾ وهو مكانُ عبادتِه، ومحلّ خلوته، ومجلسُ مناجاته وصلاته.

فنادَتـه الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بولادةِ وَلَد. و(البِشـارة): الإخبار بما يَسُرُّ. سُـمِّيت بذلك؛ بسببِ تغيُّر البَشَرَة عند سماعها، فيظهر عليها الفرحُ والسُّرور. وقد تُستعمَل في الشَّرِّ أيضًا، وقد تقدّم هذا.

فأخبروه أنَّ الله تعالى يُبَشِّره ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ وهو اسم الولَد، مشتَقٌّ من «الحياة»؛ إشارةً إلى أنَّه سيحيا ويَكبُر. وقيل: لأنَّ الله أحيا قَلْبَه بالإيمان، أو أحياه بالطاعة.

﴿مُصَدِّقًۢا﴾: مؤمنًا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي كلمة «كن»؛ إشارةً إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، المخلوقِ بالكلمة. فقيل: إنَّ يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول مَن صدَّق بعيسى ابن مريم، وكان على سُنَّته ومنهاجه، وكان يحيى وعيسى ابنَي خالَة، متقارِبَين في العمل. وقُتِلَ يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبلَ رَفْعِ عيسى إلى السماء بمُدَّة يسيرة.

﴿وَسَيِّدًا﴾ في العِلْم والعِبادة، حليمًا تقيًّا، وهو الذي لا يَغْلِبه الغضب، والفقيه العالِم، الكريم على الله عَزَّوَجَلَّ، سادَ قومَه في الدِّين والعِلْم والشرَف.

﴿وَحَصُورًا﴾: حاصِرًا ومانِعًا نفسَه عن الرذائل، ومعصومًا من الذُّنوب والشَّهوات المحرَّمة، والفواحِش، والقاذورات.

وأما تفسيرُ (الحصور) بأنَّه: كان لا يأتي النِّساء، ولا يستطيع ذلك؛ فمردود؛ لأنَّ هذا ليس من الكمال اللَّائِق بالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولا يُستبَعد أن يكون ليحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذُرِّيَّة.

وأبعَدُ منه: مَن زعمَ أنَّ الآية تدُلُّ على أنَّ تَرْك النِّكاح مُستحَبٌّ! وليس فيها ما يدُلُّ على ذلك، بل سُنَّة الأنبياء بخلافه.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: هذه بِشارة ثانية لزكريّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ولَده يحيى -وهي أعلى من الأولى- أنَّ ولدَه سيكون من الصالحين؛ لكونه من نَسْل الأنبياء، وهو داخلٌ أيضًا في جملة عبادِ الله الصالحين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من وظائف الملائكة: الإرسال بالبُشرى لعباد الله الصالحين.

وفيها: أنَّ الملائكة يتكلَّمون بصوت مسموع.

وفيها: مشروعيَّة تبشير الإنسان بما يسُرُّه.

وفيها: جواز تكليم المصلِّي، والأفضل تَرْكُه، إلَّا لحاجة مُلِحَّة؛ لئلَّا يُشَوِّش عليه.

وفيها: جواز اختيار اسم المولود قبل ولادته.

وفيها: أنَّ من أوصاف (السيِّد): أن يكون مُتباعِدًا عن الفواحش.

وفيها: فَضْل إطالة القيام في الصَّلاة.

وفيها: فَضْل يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعِفَّته، وقد جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «مَا من أَحَدٍ من وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا»[١].

وفيها: رَفْع الصوت بالبِشارة، وقد نادى أحدُ الصَّحابة كعبًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من فوق الجبل، يبشِّره بتوبة الله عليه[٢].

وفيها: جواز مَدْح الشخص بما يَستَحِقُّه -ما لم تكن هناك مفسدة من ذلك-؛ فإنَّ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ استحقَّ السِّيادة حقيقةً، ومن معاني (السيِّد): مَن فاق أقرانَه في خِصال الخَير. لكن لا يُسرَف في إطلاق المَدْح، وإعطائه مَن لا يستَحِقُّه.

وفيها: الحثُّ على تكميلِ النفس بالصِّفات الطيِّبة، وجَمْعِها في نواحي الكمال، من العِبادة والعِلْم والخُلُق الحسَن.

ويمكن أن يؤخَذ من الآية: أنَّ مَن يحمل نفسَه على الخير، ويُجاهِدها في الامتناع عن الشرِّ -كما هو حال يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ- أجدَرُ بالمدح ممَّن جُبِلَ على ذلك خِلْقة.

وفيها: أنَّ من أسباب السِّيادة على الآخَرين: بَذْل الندى، وكفّ الأذى، والحِلْم، وتحمُّل أذى الآخَرين.

وفيها: أنَّ من توفيق الله للعبد أن يُباعِد بينه وبين الشَّهَوات المحرَّمة.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وفيها: أنَّ الصلاح أعمُّ من النبوَّة، والنبيُّ لا يكون إلَّا صالحًا.

وفيها: أنَّ الدُّعاء سبَبٌ لتحقيق ما يتمنَّاه الإنسان، وسبَبٌ لنيل عطايا الرحمن.

وفيها: تأييد الله تعالى للأنبياء والدُّعاة والمُصلِحين.

وفيها: أنَّ الأصلَ تصديقُ صاحبِ الحقِّ في كلَّامه ودَعواه.

وفيها: الجَمْع بينَ القيام بحقوق الله، وحقوق المخلوقين.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾:

ولـمَّا بُشر زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالولَد؛ ﴿قَالَ﴾ متعَجِّبًا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾ أي: كيفَ. وهذا السؤال للاستعظام والاستِثْبات، وليس للاستِنكار والاستِبعاد ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: وهذا باعتبار ما سيكون -لأنَّه لم يُولَد بعد- ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ أي: وحالي أنَّني قد بلغتُ من الكِبَر عِتِيًّا، فأصابني الوَهْنُ والشَّيْبُ، ويُبْس المفاصل والعظام، فلا إنجاب ولا إخصاب؛ فكيف سيأتيني الآن، ولم أُرزَق به حال الشباب؟ كما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤].

﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾: عقيمٌ، لا تَحْمِل، ولا تَلِد.

فأجابَتْه الملائكة عن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر له ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن رزقكما الولدَ، وغيرِ ذلك، ولا يحول دون مشيئته شيء. فالأمر كما كان يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دُعائه إذا فرغَ من الصَّلاة: «اللهُمَّ لاَ مَانِعَ لِـما أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِـما مَنَعْتَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة طلَب الازدياد من الإيمان واليقين، وكان من شأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الارتقاء في مدارج الكمال، كما فعل إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

وفيها: شكوى الضعيفِ حالَه إلى ربِّه.

وفيها: أنَّ الله يَخْرِق العادة مُعجِزةً لنبيٍّ، أو كرامةً لوليٍّ. فإذا انخرقت لأهل الكُفر والعصيان كانت استِدراجًا وفِتنةً؛ ليزدادوا إثمًا.

وفيها: ضَعْفُ الإنسان، وعَجْزُه عن إدراك أفعال الله تعالى.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة؛ فإنَّ عدم الصلاحيَة للولد حاصلةٌ من الطرَفَين؛ فالزوج طاعنٌ في السِّنِّ، والزوجة عقيمٌ، ومع ذلك فقد رزقَ الله زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الولدَ دون أن يُرَدَّ إلى الشباب، ودون زواجٍ بامرأة أخرى غيرِ عقيم.

وفيها: مشروعيَّة طلَب ما يزداد به المؤمِن فرحًا واستبشارًا.

وفيها: جواز وصف الغَير بما يكره، إذا كان المقصودُ البيانَ للحاجة، وليس العَيب والإيذاء.

وفيها: أنَّ أفعال الله اختياريَّة، تابعةٌ لمشيئته؛ فمنها ما يتعلَّق به -ككلامِه، واستوائِه على العرش، ونزولِه إلى السماء الدُّنيا، ونحوها- ومنها ما يتعلَّق بعباده -كإحيائِهم ورِزْقهم وقَبْضِهم ونحو ذلك-.

وفيها: تطمين نفوس المؤمنين بالله ربِّ العالمين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾:

ولـمَّا كان بَدْء الحَمْل خفيًّا، لا تكاد تشعُر به المرأةُ ولا زوجُها؛ أرادَ زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علامةً على بَدْئه وحُصوله، وليكونَ أتمَّ لفَرَحه وسُروره، وليزدادَ ارتباطًا بالنِّعمة، ويقينًا بقُدرة رَبِّ العالمين.

فـ﴿**قَالَ**﴾ زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -فيما أخبرنا الله عنه-: ﴿**رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ**﴾ أي: علامة تدُلُّ على حَمْل امرأتي.

﴿**قَالَ ءَايَتُكَ**﴾ التي تدُلُّك على ذلك عند حصوله: ﴿**أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ**﴾ أي: لا تَقْدِر

على كلامهم، ولا تستطيع خطابَهم، من غير عِلَّةٍ ولا مرضٍ ولا خَرَس، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية، بلياليها ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أي: إيماءً وإشارةً، بالشفتَين والعينَين والحاجبَين ونحوها، وفي هذه الأيَّام الثلاثة يكون زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خالصًا مع رِّبه، ولربِّه، وهذا من إكرامِ الله تعالى له.

ولذلك أمرَه فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾: باللِّسان والقَلْب، عبادةً له، وشُكرًا على نِعمته.

﴿وَسَبِّحۡ﴾ (التسبيح): هو تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به، بقول: «سُبحان الله» ونحوِها. وقيل: بل المقصود بالتسبيح هنا: الصَّلاة. ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ وهو آخر النهار، ويبدأ من بعد الزوال. ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ وهو أول النهار، قيل: من طلوع الفجر إلى ارتفاع الشمس. والمعنى: أنَّه يستغرِق هذَين الوقتَين في التسبيح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز طلَب ما يزيد الإيمان.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة، بخَرْق العادة، آيةً لعبده زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام، وخصوصًا عند العَجْز عن الكلام.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا انقطَع عن الناس؛ فينبغي أن يشتَغِلَ بذِكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: تربيةُ النفس على الذِّكر الكثير، واستغراقُ الأوقات فيه.

وفيها: فَضْل التسبيح والذِّكر في هذَين الوقتَين العظيمَين، وهما: أول النهار وآخره؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وفيها: شُكر الله على النِّعَم، بعبادته وذِكره وتسبيحه.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾:

ثم عادَ السِّياق إلى قِصَّة مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ؛ لإكمالها، وليحصُل البيانُ في تبرئتها ممَّا رَماها به اليهود، وليكتَمِلَ الرَّدُّ على النصارى فيما ادَّعوه من أُلوهيَّة ولَدِها عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ ﴾ أي: واذكُر -يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خبرَ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، عندما ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ ﴾ مخاطِبةً إيَّاها مُشافَهةً، كما أمرَهم الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي: اختارَكِ له -لكثرة عبادَتِك- وجعلَ لكِ الخصال الحميدة، والمزايا العظيمة، ومنها: أنَّه تقبَّلكِ من أُمِّك استثناءً -فقد كان لا يُقبَل في نَذْر الأولاد للمساجد إلَّا الذكور- وأنبتَكِ نباتًا حسنًا، وجعلَكِ في كَفالة نبيِّه زكريَّا؛ ليُحْسِن تربيتَكِ، ورزَقكِ إكرامًا على وَجْهٍ غيرِ معتادٍ؛ لتتفرَّغي لعبادته، وأرسلَ لكِ ملائكتَه تُخاطِبُكِ مُشافَهةً.

﴿وَطَهَّرَكِ ﴾ يعني: من الأرجاس المعنويَّة، كالأفعال الذميمة، والأخلاق الرديئة، والوساوس، والمعاصي، ومن مسيس الرِّجال. وأمَّا الأرجاس الحِسِّيَّة -كالبول والغائط والحَيض-؛ فالظاهر أنَّها كانت كغَيرها من النِّساء.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ مرَّةً بعد مرَّة، وجعل لكِ مزيدًا من الفَضْل، كاختيارِكِ لتكوني أُمًّا لنبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومكانًا لنَفْخةِ رَسُوله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأيضًا، فضَّلَكِ ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في ذلك الوقت. فهذا التفضيل خاصٌّ بنساء زمانها دون الرِّجال؛ فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا: خَدِيجَةُ»[(١)].

وفي حديثٍ آخر: «حَسْبُكَ من نِسَاءِ العَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[(٢)].

وفي حديث آخر: «كَمَلَ من الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ من النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاعتناء بقِصَّة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ لتُذْكَر وتُنشَر، ولتكونَ قُدْوةً لنساء العالمين.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٤٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

وفيها: أنَّ من لُطف الله عَزَّوَجَلَّ: تهيئة الأمور قبل وُقوعها؛ فهيَّأ لنبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمًّا صالحة، اختارَها من بين النِّساء، وجعلَ لها المزايا العظيمة.

وفيها: نشر سِيَر النِّساء الفاضلات، والقُدوات في الخير؛ لطَمْس قُدواتِ النِّساء في الشرِّ والضلال.

وفيها: براءة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ممَّا رماها به اليهود، وافترَوا عليها، بوَصْفها بالبِغاء، وقالوا في نبيِّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّه ولَدُ زِنا -عياذًا بالله-؛ ففي الآية رَدٌّ بليغٌ على إخوان القِرَدَة والخنازير، كما قال الله عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

وفيها: كرامةٌ لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بسماعِها الخِطابَ المباشِر من الملائكة، وليس في هذا أنَّها نبيَّة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

وفيها: تفضيل مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ على نِساء العالَمِين في زمانها.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

ولـمَّا أخبرت الملائكةُ مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بنِعَم الله العظيمة عليها؛ أمرَتْها بكثرة العِبادة، شُكرًا لله على ذلك، وإعدادًا لها لِـما يُريده الله عَزَّوَجَلَّ من ولادتها نبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقالت الملائكة:

﴿يَا مَرْيَمُ﴾: إعادة النِّداء بالاسم تكريمًا وتنبيهًا ﴿اقْنُتِي﴾ (القُنوت): الطاعة ودوام العِبادة، وإطالة القيام في الصَّلاة.

قال مجاهد: «أطيلي الرُّكودَ في الصَّلاة -يعني: القُنُوت-»[(١)]، وقال قتادة في معنى الآية: «أطيعي ربَّكِ»[(٢)].

﴿لِرَبِّكِ﴾ (اللام) للاختصاص؛ أي: اجعلي قُنُوتَكِ خالصًا لله، بلا شِرْك ولا رياء. فقيل: أطالَت القيام حتى وَرِمَت قدَماها، وحطَّت الطير عليها؛ تظُنُّها جمادًا -لسُكونها، وطول قيامها-.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٤٠٢).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٩٣).

﴿وَٱسۡجُدِي﴾: قدَّم (السُّجودَ) على (الرُّكوع)؛ لفضله. وقيل: لأنَّ المقام مقام شُكر، والسُّجود يقتَضيه. وقيل: لأنَّ السُّجودَ في عبادتهم كان قبل الركوع. والسُّجود من أفضل الطاعات؛ ففي الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»(١).

﴿وَٱرۡكَعِي﴾ (الرُّكوع): انحناء الظهر عبادةً لله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: مع المُصَلِّين. فالمراد: أن تصلِّي مع المصلّين قرّاء بيت المقدس، أو تكون من جُملة الذين يَرْكَعون لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ نِعَم الله إذا زادَت؛ شُرِعَت مُقابَلتُها بمزيدٍ من العِبادة.

وفيها: أنَّ العِبادة بالخُشوع والخُضوع والسُّجود والرُّكوع هي من إعداد الله للعبد الصالح، وتهيئته لمواجَهاتِ المستقبَل، وأداءِ ما يُطلَب منه من المهامِّ الشاقَّة.

وفيها: الأمر بدوام العِبادة، وعدم الانقطاع.

وفيها: فَضْل الجَمْع بينَ العِبادات البدَنيَّة والعِبادات القَلْبيَّة؛ فالرُّكوع والسُّجود بالبدَن، والخُضوع والخُشوع بالقَلْب.

وفيها: أنَّ طولَ القيام في الصَّلاة كان دَأْب الصالحين قبلَنا.

وفيها: وجوب الامتِثالِ لأوامر الله، والإخلاصِ له في العِبادة.

وفيها: أنَّ العُبّاد من الرِّجال أكثرُ من العابدات من النِّساء؛ لقوله: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقُل: «واركعي مع الرَّاكعات».

وفيها: أنَّ الصَّلاة كانت من عبادات الأُمَم السابقة.

وفيها: أنَّ مُلازَمة الطاعة تحفَظ النِّعَم، وتَزيد العبدَ قُربًا من ربِّه.

وفيها: أنَّ جماعة الرِّجال في الصَّلاة، أفضلُ وأتمُّ من جماعة النِّساء.

وفيها: تواضُع العبد لربِّه بالرُّكوع والسُّجود؛ حفظًا له من العُجْب والغُرور.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

ثم قال تعالى لنبيِّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بعد أن أوحَى إليه هذا الأمرَ الغَيبيَّ، الذي لا يَعْلَمُه إلَّا الله:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الـذي كان مـن أخبـار زكريّا ومريـم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي غابَ عنك وعن قومِك، فلم تعلَموا به. و(النَّبأ): هو الخبر العظيم، أو الخفيّ.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (الوحـي): هو الإعلام بسُرعة وخَفاء. ويُطلَق على ما ينقله الملَك للنبيِّ مـن كلام الله، وعلى الإلهام، كما في قوله تعـالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القَصَص: ٧]، وعلى الإشارة، كقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حـاضرًا عنـد زكريـا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وقومِه المتنافِسين في كَفالة مريم، ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾: يَرْمُونها، وهي الأقلام المعروفة التي يُكتَب بها. وقيل: بل هي سِهامهم، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُشبِه القلَم. والأقرب الأول؛ لأنَّه ظاهر القرآن. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: يُرَبِّيها ويقوم بمصالحها.

فقيـل: إنَّهـم ألقَوها في المـاء، واتَّفقوا أنَّ مَن يثبُـت قَلَمُه في جَرْيَة المـاء؛ فهو الذي يكفُل مريم. فألقَوا أقلامَهم، فاحتملَها الماء وجرى بها، إلَّا قلمَ زكريّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ فقد ثبتَ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ شاهِدًا وحاضِرًا ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: يتنازَعون؛ تنافُسًا على كَفالتها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنافُس في الخيرات، ولو أدَّى ذلك إلى إجراء القُرعة بين المُتنافِسين.

وفيها: الوَفاء للصالحين، بتربية أبنائهم وبناتهم، وكَفالتهم من بعدهم.

وفيها: أنَّ الغَيبَ منه ما يكون مُطلَقًا لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ -كحوادث المسـتقبَل- ومنه مـا يكـون غيبًا نسـبيًّا، يخفـى على بعض النـاس دون بعـض، كقصَّة مريـم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ؛ فالنبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يُـدْرِك هـذه القِصَّة، لا هو ولا قومه، ولم يَجِدها في كتابٍ، ولا تلقَّاها عن أحد، لكنَّها ليست غَيبًا عمَّن عاش في زمن زكريّا ومريم، واطلعَ على تلك الأحداث.

وفيها: امتنان الله على نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وعلى هذه الأُمَّة، بإخبارها خبرَ مَن كان قبلنا؛ لنستفيد من ذلك في الاقتداءِ والاتِّعاظ والاعتبار.

وفيها: إكرام الله لزكريَّا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، بأن جعلَ بابَ الخير في كَفالة مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ من نصيبه.

وفيها: أنَّ الله يحفَظ أولاد العبد بصلاحه.

وفيها: مشروعيَّة استعمال القُرعة، عند المشاحَّة والاختِصام.

وفيها: اتِّخاذ الوسائل لإنهاء النِّزاع، ومنها القُرعة، وقد استعملَها ثلاثةٌ من أنبياء الله؛ وهم: يونس، وزكريَّا، ونبيُّنا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: آيةٌ من الآيات البيِّنات الدالَّة على نبوَّة نبيِّنا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فإنَّه أخبرَ الناس عن أمورٍ لا يعلمونها، ممَّا غاب في الماضي. وهذا كما أخبرَهم عن أمور في المستقبَل، فحدثَت كما أخبرَ، ومنها أمورٌ ستحدُث في آخر الزمان.

وفيها: أنَّ مِن وسائل دعوة النصارى: إخبارهم بهذه التفاصيل، في قِصَّة مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ؛ فإنَّ أول السُّورَة قد نزل في وَفْد نصارى نَجْران.

وفيها: أنَّ الخالة أحقُّ بحَضانة الطِّفل -بعد أُمِّه- من بقيَّة أقاربه -ما عدا الجدَّة-؛ فقد كانت خالة مريم تحت زكريَّا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

وفيها: رعاية الوَقْفِ المنذورِ لبيت الله.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ ﴾:

ثم جاءت الملائكة ببِشارةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ لمريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، بأنَّه سيُولَد لها ولدٌ عظيمٌ، سيكون له شأنٌ كبيرٌ؛ فقال تعالى:

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ ﴾ أي: اذكُر -يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قِصَّة الملائكة في قولها ونِدائها. قيل: إنَّهم جَمْعٌ من الملائكة، وقيل: إنَّه جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

فقالوا لها: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾** أي: يُخبِرُكِ بما يَسُرُّ، **﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾** أي: مُبتدأة وناشئة من

الله، صدرَت منه لا من غيره، وهي كلمة «كُن»؛ فيكون وجودُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمة، وليس عيسى هو الكلمة.

﴿ٱسۡمُهُ﴾ أي: اسمُ ذلك الولد ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ هذا لَقبه. قيل: لُقِّب بذلك؛ لأنَّه لا يمسَحُ بيدِه ذا عاهةٍ -من أبرص وأَكْمَه وغيره- إلَّا بَرأ بإذن الله. وقيل: لأنَّه كان سائحًا في الأرض والبُلدان، يَسيحُ فيها يدعُو إلى الله. وقيل: لأنَّه كان عليه مَسْحَة من جمال (أي: أثر ظاهِر منه).

واسمه: ﴿عِيسَى﴾ قيل: هو اسم أعجَميّ، مُعَرَّب من «يَشُوع» أو «يَسُوع» أو «إيشوع» -ومعناه بالعِبرانيَّة: السيِّد أو المبارَك-. وقيل: مُشتَقٌّ من «العِيس»، وهو بياضٌ يَعلوه حُمرة. وقيل: بل مشتَقٌّ من «ساسَ»، إذا قامَ على الشيء ورعاه.

﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: هذا نَسَبُه، وإنَّما نُسِبَ إلى أُمِّه؛ لأنَّه لا أب له.

﴿وَجِيهٗا﴾: شريفًا رفيعًا، ذا جاه وقَدْر وسيادة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: بالنبوَّة، وبالمُعجِزات التي تجري على يدَيه -مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرَص بإذن الله- وبرَفْعِه إلى السماء سالمًا، وبنزوله ليَحْكُم الأرض في آخر الزمان.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: بكونه شفيعًا لأُمَّته، ويكون له حَوضٌ خاصٌّ به، تَرِدُه أُمَّته -كما لبقيَّة الأنبياء-.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عندَ الله يومَ القيامة، مع أولي العَزْم من الرُّسُل، الذين هم في أعلى درجات الجنَّة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾:

قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ أي: زمن الطفولة. و(المَهْد): فِراش الطفولة، وهو الموضِع الذي يُهيَّأ للصبيِّ زمنَ الرَّضاعة.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَتكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلاثَةٌ: عِيسَى...» الحديث، وفيه كلام الصبيِّ في قِصَّة جُرَيْج، والصبيِّ الثالث في قِصَّة صاحب الشارَة[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

وقـد ثبتَ أيضًا نُطْـقُ الرضيع في قِصَّة أصحاب الأخدود، في المرأة التي قَالَ لَهَا غُلامُها: «يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ»[١].

وكلام عيسـى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لهـم في المَهْد، المُراد به غـيرُ التكليم المعتاد، بل المـراد: أنَّه يكلِّم الناس بما فيه صلاحُهم وفلاحُهم، وهو تكليم المُرْسَلين، ففي هذا: إرسالُه ودعوتُه الخَلْقَ إلى ربِّهم.

﴿وَكَهۡلٗا﴾ أي: بالغًـا كبيرًا. و(الكُهُولـة): مرحلةٌ في العمر، من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: معـدودٌ فيهـم. و(الصالـح): مَـن صَلَحَت سريرتُـه وعلانيتُه، بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

فختـمَ الله تعالى أوصافَ عيسـى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالصلاح، وهو رُتبة مِن أعظم المراتب وأشـهر المقامات.

والصلاح يقتضي المواظبةَ على الطاعات، حتى الممات.

وفي الآيتَين من الفوائد:

بيان شَرَف مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، في إرسال الملائكة لتكليمها وتبشيرها.

وفيها: استحباب تبشير المرء بما يَسُرُّه.

وفيها: أنَّ مَن لا أب له يُنسَـب إلى أُمِّه. ويُكتَب الاسـم -حينئذٍ- بإثبات الألف في كلمة (ابن) بين الاسم واسم الأُمِّ: (عيسى ابن مريم).

وفيها: جواز استعمال اللَّقب الغالب على الشخص، ما لم يكن فيه إيذاءٌ وتنقيص.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ وجيه في الدُّنيا عند الناس، يكون وجيهًا في الآخرة عند الله.

وفيها: بيان حقيقة الوَجاهة، وأنَّها ليسـت باللِّباس والمال والسُّلطان والنَّسَب، ونحوها من أمور الدُّنيا؛ وإنَّما الوَجاهة: بطاعةِ الله وعبادتِه، وتعلُّمِ دينه، والدَّعوة إلى سبيله.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

وفيها: أنَّ تقريب الله لعبدِه منه يوم القيامة، يُعَدُّ من أعظم المراتب.

وفيها: إظهار قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، بإنطاقِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلامِه في حال صِغَره -معجِزةً وآيةً- وفي حال كُهُولته -بالوَحي الذي أنزلَه عليه-.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، الذين ادَّعَوا أُلوهيَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأنَّ مَن كان طفلًا يرضَع، ثم يأكل ويَشْرَب، ويَمْرَض، ويتألَّم، ويبكي، ثم يكبُر فيصير كَهْلًا، كيف يُمكِن أن يكون إلهًا؟ وهذا التغيُّر في النُّمُوِّ والانتقال من سِنٍّ إلى سِنٍّ، يتنافى مع صفات الإله.

وفيها: التوطِئة للحوادِث العظيمة؛ لتتهيَّأ النفوسُ لاستقبالها، فقد مهَّدت الملائكةُ الأمرَ لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنَّه سيكون لها ابنٌ مِن غير زوجٍ.

وفيها: بِشارة الله لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنَّ ولدَها سيكبُر، ويَصِلُ حَدَّ الكُهُولة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾:

ولـمَّا أخبر الله تعالى مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بما سيكون منها، من ولدٍ بغير زوج؛ تعجَّبت من ذلك، و﴿**قَالَتْ رَبِّ**﴾ فخاطبت ربَّها تعالى، ولم تُخاطِب الملائكة الذين أخبَروها. ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ**﴾ أي: كيف يوجد هذا الولد مني؟

﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ أي: وحالي أنِّي لم يَطَأْني بشرٌ، ولستُ ذاتَ زوجٍ، ولا عَزَمتُ أن أتزوَّج، ولستُ بغيًّا، فلم يَمَسَّني رجلٌ، كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

وكلمة (بشر) تُطلَق على الواحد والجمع. وسُمِّي البَشَرُ (بَشَرًا)؛ لظهورهم، والبَشرة: ظاهر جلد الإنسان، وأبشرت الأرض: أخرجت نباتها.

فأجابها الله تعالى، بالوحي عن طريق ملائكته: ﴿**كَذَٰلِكِ**﴾ أي: الأمرُ كما أخبرتكِ ﴿**اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾، كيف يشاء، وعلى أيِّ هيئةٍ أرادَ، وَفق العادة، أو على خِلافها، كيفًا وكمًّا ونَوعًا، لا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

ويمكـن أن يكون المعنى أيضًا: مِثْل هذا الخَلْق العظيم، والإحداث البديع، يخلق الله ما يشاء.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: هذا هو القضاءُ الكونيُّ، الذي لا بُدَّ أن يقع ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ أي: لذلك الأمـر ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يُوجَـد بسُرعـة دون تأخير؛ كما قـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعجُّب المؤمن من أمر ربِّه، على سبيل الاستِثبات.

وفيها: جواز طلَب الزيادة في اليقين.

وفيها: أنَّ معرفة كيفيَّة حدوث الأشياء يَزيد الإيمانَ، ويُرسِّخ اليقينَ في قُدرة الرحمن.

وفيها: عدمُ اعتِراض المؤمن على أمر الله، وعدمُ الشَّكِّ في قُدرته.

وفيها: عِفَّة المرأة الصالحة، وأنَّها لا تَقْرَب الرِّجال الأجانب، ولا تسمَح لهم أن يَقْرَبوها.

وفيهـا: اسـتعمال الكلمـة الأقوى في الموضـع الذي يُناسِـبها؛ فإنَّه قال في خَلْق عيسـى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي خَلْـق يحيـى: ﴿يَفْعَـلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ لأنَّ خَلْـق عيسـى أعجبُ في إيجاد ولدٍ بلا أب -فاستعمل (الخَلْق)- وأمَّا يحيى: فهو من أبٍ وأُمٍّ، لكنَّهما لا يُنجِبان عادةً -فاستعملَ (الفِعْل)-.

وفيهـا: بيـان قضـاء الله الكـونيِّ، الذي لا بُدَّ أن يقـعَ وَفق مُراد الله تعـالى، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ الآيـة [سبأ: ١٤]، بخلاف القضاء الشرعيِّ؛ فإنَّه قد يقعُ، وقد لا يقعُ، على حَسَـب حال المقضيِّ بينهـم وإليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومـن جهـة أخرى: فالقضاء الشرعيُّ لا يكون إلَّا فيما يحبُّه الله، بخلاف القضاء الكونيِّ؛ فقد يكون بما لا يُحِبُّ -ابتلاءً وفِتنةً للعباد-؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ الآية [الإسراء: ٤].

وفيها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يخلُق أمورًا على غير الوَجْه المعروف والمُعتاد عند الناس؛ ليكون آيةً للكافر، وعِبرةً للناس، وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا مع إيمانهم.

وفيها: استِسلام مريم لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: جواز السؤال عن الأمور الغامِضة؛ لمعرفة أسرارِها وحِكْمتها.

وفيها: سُهُولة الخَلْق على الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ يخلُق ما يشاء بكلمةٍ واحدةٍ منه، وهي: «كُن».

وفيها: أنَّ الله يُعطِي الولدَ بغير وجود أسباب، ويمنع الولد مع وجود الأسباب.

وفيها: تنوُّع خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمنه ما يُخلَق بالتدريج، ومنه ما يُخلَق على الفور.

وفيها: نُفوذ أمرِ الله، بسُرعة دون تأخير.

وفيها: دليلٌ على قُدرة الله تعالى، بتنويع حالات وجود البشر؛ فمنهم مَن وُجدَ بلا ذكر ولا أنثى -وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ- ومنهم مَن وُجِدَ من ذكر بلا أنثى -وهي حواء- ومنهم مَن وُجِدَ من أنثى بلا ذكر -وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ- ومنهم مَن يوجد من ذكر وأنثى -كبقيَّة البشر-.

وفي الآية: طريقةٌ رائعةٌ في قَصِّ القَصَص على الناس؛ فإنَّه ذكرَ أولًا أمرًا عجيبًا، في خَلْق يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شيخ كبير وزوجة عاقر، ثم ذكرَ واقعةً أعجبَ، في خَلْق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثى بلا ذكر، وختمَ ذلك بذكر قُدرتِه، وأمرهِ النافذ.

وفيها: أنَّ غرائب المخلوقات وعجائب خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ، هي ممَّا يَزيد الإيمان بالله؛ ولذلك أمرَ تعالى بالنظر في خَلْقه؛ كما في قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وكما في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾:

ثم ذكر الله تعالى توالي نِعَمه على عبده ونبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومزيدًا من البِشارات لأُمِّه؛ فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: المكتوب، فيَفهَمه ويحفظه. أو: يعلِّمه الكتابةَ والخطَّ باليد.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: الشريعة، وتفصيل الدِّين. ويدخل في تعليم الحِكمة أيضًا: إصابة الحقِّ، والعِلْم المقترِن بالعمل، ووضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزلَه الله على موسى بن عِمران عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزلَه الله على عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان مكمِّلًا للتوراة. وكان عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يحفظ التوراة والإنجيل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يُعَلِّم البشر؛ ولذلك وردَ في الأدعية النبويَّة: «اللهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وارْزُقْنِي عِلْمًا تنفَعُني بِهِ»[1]، فينبغي الدُّعاء، وطلبُ التعليم من الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أهميَّة إتْباع القول بالعمل.

وفيها: مُوالاة تتابُع البشائر على المؤمن؛ ليزداد فرحًا وسرورًا، والارتقاء من البشارة الأدنى إلى الأعلى.

وفيها: أنَّ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يعلَم التوراةَ، التي أُنزِلَت على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أهميَّة تعلُّم الكتابة والخَطّ.

وفيها: أنَّ من نِعَم الله على العبد: أن يَرْزُقه الإصابة في القول والعمل، وهو أحد الأقوال في تعريف (الحِكْمة).

وفيها: تبشير الخائف، وإيراد الأنباء المُفرِحة عليه؛ ليطمئنَّ قَلْبُه؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ الملائكة أن تُخبِر مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ بما يطيِّب قَلْبَها، ويفرِّج همَّها، وكانت في قَلَقٍ عظيم من خوف الاتِّهام، فبشَّرها بأنَّ ابنها سيكون رسولًا، معلِّمًا، يؤتَى كتابًا من عند الله، ويؤتَى الحِكمة -بفَضْل الله-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ تعلُّم اللَّفظ والمعنى.

وفيها: تكميل النفس بحِيازةِ الفضائل، واجتماعِها فيها.

وفيها: ذكر البِشارة بـ(الإنجيل) قبل نُزُولِه على عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٦٩٠)، والطبراني في الدُّعاء (١٤٠٥)، وهو في الصحيحة (٣١٥١).

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾:

قوله تعالى ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونَجعل عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ رسولًا. و(الرَّسُول): هو الذي أُوحِيَ إليه بشَرْعٍ، وأُمِرَ بتبليغه. و(النبيُّ): مَن أُمِرَ بتبليغ وتقريرِ شرعِ مَن قبلَه من الرُّسُل؛ فهو تابعٌ لشريعة مَن سبقَه.

﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهم: القبيلة من أبناء يعقوب عَلَيهِ السَّلَامُ ومَن تناسل منهم. وهذا يعني أنَّ رسالة عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ خاصَّة ببني إسرائيل، وليست عامَّةً لجميع البشر -بخلاف رسالة نبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ-.

﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: يأتيهم قائلًا لهم: إنَّه مُرْسَل إليهم بعلامة تدُلُّ على صِدق رسالته، وهي: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أي: أصوِّر وأُشكِّل ﴿لَكُم﴾: من أجل هدايتكم، ولِتتَّبِعوني وتُصَدِّقوني ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾: على شكل طَيْر، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ قيل: ينفخ في فمِه، فيصير طيرًا يطير أمامهم.

ولا حاجة لنا لمعرفة نوع هذا الطير، ولو كان فيه فائدةٌ لبيَّنه لنا الله تعالى. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره وإحيائه؛ فهو الذي يحيي الموتى. ونسبَ الإحياءَ إلى الله تعالى؛ لئلَّا يظنُّوا أنَّ عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ هو الذي يُحييه.

﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ (البراءة) من الشيء: السلامة منه، و(الأَكْمَه): هو الذي لا يُبصِر ليلًا ويُبصِر نهارًا. وقيل العكس. وقيل: هو الذي لا يُبصِر إلَّا بمشقَّة. وقيل: هو الأعمى، وهذا أبلَغ في المعجِزة، وأقوى في التحدِّي.

﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ (البَرَص): عَيبٌ جِلديٌّ، يظهر بسبَبه بياضٌ شديدٌ في جِلْد صاحبه. فكان عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ يُزيل عِلَّة الأَكْمَه والأَبْرَص، بالمسح عليهما؛ فيبرَآن بإذن الله تعالى.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ (الميِّت): هو مَن فارق الحياة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمرِه ومشيئته؛ لأنَّه هو

المُحيي والمُميت عَزَّوَجَلَّ. فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعو بعضَ الأموات من قبورهم، فيقومون بينَ يديه أمامَ الناس، يكلِّمهم.

وقد جرَت السُّنَّة الإلهيَّة: أن تكون مُعجِزة كلِّ نبيٍّ من جِنس ما اشتهر في زمنِه، فلـمَّا كان الغالِبُ على زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّحر؛ بهرَت مُعجِزاتُه السَّحرَةَ، فانقادوا للإسلام.

وكان قومُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ معروفين بعلوم الطِّبِّ والطبيعة، بارعين فيها؛ فجاءَهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآيات التي حيَّرت الأطباء. فمِن أين للطَّبيب القُدرة على إحياء الجمادات، ومُداواة العاهات التي ليس لها علاج؟!

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾: أُخبِركم بطعامكم، ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، مع أنَّ ذلك خَفِيٌّ غائب، لكن يَعْلَمه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإخبارِ الله له، فيُخْبِرهم بما يأكلون اليومَ، وما يُمْسِكون لغَدِهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الإبراء، والإحياء، والإخبار بالمغيَّبات ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾: مُعجِزة قويَّة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بصِدقي ورسالتي؛ لأنَّ غير المؤمِن لا ينتَفِع بالآيات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله لنبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيان قُدرة الله العظيمة.

وفيها: ذِكر إذنِ الله تعالى. وهو نوعان: إذن شرعيّ، وإذن كونيّ.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج لإذن الله الشرعيّ في تصوير ذوات الأرواح؛ لأنَّ الأصل أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يُصوِّر على هيئة تصوير الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله في الحديث القُدْسِيّ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»[١].

ومن الإذن الشرعي: ما جاء في قولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

والإذن الكونيّ هو: ما لا بُدَّ من وقوعه؛ لأنَّ الله أذِنَ بذلك وشاءَه؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أنَّه قد يُباح للنبيِّ أو الرسول، ما لا يُباح لبقيَّة البشر.

وفيها: أنَّ الإذن الشرعيَّ -وهو الإباحة والترخيص- يتعلَّق بالشريعة والأحكام، والإذن الكوني -وهو ما لا بُدَّ من وقوعه- متعلِّق بالخَلْق.

وفيها: أنَّ (الخَلْق) يُطلَق على تصوير الأشياء وتشكيلها، كما يُطلَق على الإيجاد من العدَم.

وفيها: أنَّ ما صدر عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات والمعجِزات، لم يكن منه استقلالًا؛ وإنَّما بإذن الله وأمرِه؛ فلا يَمْلِك الإحياءَ ولا الشفاءَ ولا عِلْمَ الغَيب إلَّا هو سبحانه.

وفيها: أنَّ مِن حِكمة الله: أنَّه يُعطِي الأنبياء ما يَعجِز عنه مَن كان محلَّ تعظيم الناس في زمن نبوَّتهم؛ كالأطباء في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسَّحَرَة في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والشُّعراء في زمن محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، في ادِّعاء الرُّبوبية لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذكرَ في الآية أنَّ الإحياءَ والإبراءَ تمَّ بإذنه، وهذا من توحيد الرُّبوبيَّة، لكنَّه أراهُم إيَّاه على يد نبيِّه عيسى، فكان مجرَّد واسطةٍ لبيان الآيات والمُعجِزات.

وفيها: الاحتياط لَمنع تطرُّق الشُّبُهة إلى الأذهان، والاحتِراز بذِكر ما يَدفع ذلك؛ فإنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا ذكرَ الإحياء والإبراء؛ نسبَ ذلك إلى الله تعالى، فقال: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولم ينسِب إلى الله إخبارَه لهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم؛ لأنَّ الشُّبهة مُنتَفية هنا؛ فعِلْم ما في البيوت يمكن حصُوله للبشر ببعض الوسائل.

وفيها: أنَّه لولا تمكينُ الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يُريَهم تلك الآيات؛ ما استطاع أن يفعل ذلك.

وفيها: محبَّة الله لعبدِه ونبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بتأييده، وإعانته في دَعوته، وهداية قومِه.

وفيها: أنَّ الإيمان يَحمِل صاحبَه على قَبول الآيات، والانتفاع برؤية المعجِزات.

وفيها: أنَّه ينبغي التَّكرار في مقام عَرْض الأمور المُهِمَّة؛ فتكرَّر هنا لفظ (الآية) ولفظ (الإذن)؛ اعتناءً بترْسيخ الحقائق، وإبعاد الشُّبَه عنها.

وفي إطْلاع الله عَزَّوَجَلَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما يخبِّئه قومُه في بيوتهم: تخويفٌ لهم من إخفاءِ شيء لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، أو تدبيرِ أمر سُوءٍ خِفيةً ضدَّ نبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ إجراء الآيات على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم يكن لرُبوبيَّته؛ وإنَّما هو من نِعمة الله عليه؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقد أثبتَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّبوبيَّة لربِّه، بغاية البيان؛ فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٥١].

وفيها: أنَّ اجتماع الحُجَج، وتوالي الدلائل والبراهين؛ أجدَى وأنفع في إقناع المدعوِّين.

﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾**﴾:

ثم قال تعالى في نِعمته على بني إسرائيل، بإرسال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حاكيًا قولَه: ﴿**وَمُصَدِّقًا**﴾ أي: وجئتُكم مؤكِّدًا ومقرِّرًا ﴿**لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ أي: لِما سبقَني من الكتاب الذي أنزلَه الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأكونَ شاهِدًا على صِدقِ ما جاء في التوراة من بِعْثتي ونبوَّتي.

وقد جاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤكِّدًا على شريعة التوراة، وعاملًا بها، إلَّا في أحكامٍ معيَّنةٍ كانت حرامًا في التوراة، فخفَّف الله عن بني إسرائيل؛ فأحلَّها لهم في الإنجيل، وهي المذكورة بقوله: ﴿**وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾.

أي: ولأبيِّن لكم نَسْخَ الحُكم السابق، وإباحةَ بعضِ الطيِّبات التي حُرِّمت عليكم في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -بسبَب ظُلْمكم وكثرةِ سؤالكم- مثل: الإبل، والشُّحوم، وأشياء من الطَّيْر، والحيتان، وبعض المشروبات، والعمل في يوم السَّبْت، وغيرها.

وقد جاء تفصيلُ بعضِ هذه الأمور المحرَّمة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وفي قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠].

قوله ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: دلائل وبيِّنات متوالية، شاهدة على صِحَّة رسالتي.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا عذابَه، واجعَلوا بينكم وبينه وِقاية، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: امتَثِلوا أمري ونهيي؛ فإنَّما أُخبِركم عن الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾:

(الرَّبُّ) هو: الخالِق، المالِك، المتصرِّف.

فبيَّن لهم عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه مربوبٌ -مثلُهم- وليس ربًّا، وأنَّ الله ربُّ الجميع؛ ولذلك طالبَ قومَه بعبادة الله وحدَه؛ فقال: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: وَحِدُّوه، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأطيعوه فيما يأمُرُكم وينهاكم.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الجَمع بينَ التوحيد والعِبادة ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾: دين قويم، وطريق مستقيم، يؤدِّي إلى مرضاةِ الله عَزَّوَجَلَّ ودخولِ جنَّته.

وفي الآيتَين من الفوائد:

التأكيد على الحقِّ؛ لحَمْل الناس على اتِّباعه.

وفيها: نِعمة الله على بني إسرائيل ورحمته بهم، بنَسْخ بعض الأحكام من الأثقل إلى الأخفِّ.

وفيها: أنَّ العقوبة لم تستمرَّ على بني إسرائيل، بما فعل أجدادُهم؛ بل خفَّف الله عنهم، وأباحَ لهم بعضَ ما حُرِّم على مَن قبلَهم.

وفيها: أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة يقود إلى توحيد الأُلوهيَّة، وأنَّ الإقرار بالرُّبوبيَّة مستلزِمٌ للإقرار بالعبوديَّة.

وفيها: أنَّ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ مبنيَّة على أنَّه هو: الرَّبُّ، الخالِق، المالِك، المتصرِّف.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى، الذين ادَّعَوا أُلُوهيَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبيَّن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم أنَّه مربوبٌ -مثلُهم- وليس ربًّا، والله ربُّ العالمين.

وفيها: إصلاحُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بني إسرائيل؛ فبيَّن لهم التوراة والإنجيل، وأزالَ التحريف الذي حصلَ من بني إسرائيل، ونقضَ ما حرَّمه الأحبارُ على الناس، وبيَّن فَصْلَ النِّزاع فيما اختلفَ فيه بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهكذا المُصلِح يبيِّن الحقَّ، وينقُض الباطل، ويُنهي النزاع، ويَحْمِل الناس على الصِّراط المستقيم.

وفيها: أنَّ ما جاء به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من التخفيف، كان في طيِّباتٍ حُرِّمت على بني إسرائيل عقوبةً لهم، وليس تحليلًا لأمورٍ محرَّمة في الأصل -كالزِّنا، والرِّبا، والقَتْل، والسَّرِقة، ونحوها-.

وفيها: أنَّ الإنجيل أَلْيَن من التوراة.

وفيها: بَدْء الدَّاعية بنفسه؛ ليكون أولَ مُذْعِنٍ للرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، قبل أن يأمرَ غيرَه، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، فبدأ بنفسه قبلَ الآخرين.

وفيها: أنَّ الجَمْع بينَ التوحيد والعِبادة هو الطريق الواسع المستقيم المعتَدِل، الذي يُوصِل مَن سلكَه بسُرعة إلى الجنَّة ورِضوان الله.

وفيها: أنَّ كلامَ أهلِ الحقِّ -كالأنبياء وغيرهم- يُشبِه بعضُه بعضًا، ويؤكِّد بعضُه بعضًا، بخلاف كلام أهل الباطل؛ فإنَّه مُتضارِبٌ ومُتناقِضٌ.

وفيها: إظهار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الخضوعَ لربِّه.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

لـمَّا ذكر الله تعالى بِشارة الملائكة لمريم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنزلته، وشيئًا من آياته؛ ذكرَ بعد ذلك خَبَرَه مع قومه، وما لقِيَه منهم من الصَّدِّ والإعراض؛ فقال تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي: استشعرَ وأدركَ ﴿مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾؛ فاستشعرَ تصميمَ قومِه على الكُفر، واستمرارَهم على الضلال والعِناد. ولقيَ من بني إسرائيل السُّخرية والاستهزاء، بالرَّغْم من الآيات التي أراهم إيَّاها.

فلجأ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -حينئذٍ- إلى اختيار الأصفياء، وانتخاب الأَكْفاء للدَّعْوة؛ فـ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إذا لم تُؤمِنوا جميعًا؛ فمَن منكم يتَّبعني إلى الله، وينصُرني لأبلِّغ دين ربِّي.

وحالُه كحالِ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كان يَعْرِض نفسَه على الناس في الموقف قبل الهجرة، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[1]، وفي رواية: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي المواسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي، حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الجَنَّةُ؟»[2].

فانتُدِب لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ طائفةٌ من أصحابة، ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ الأصفياء مِن أتباعِه وخواصِّهم. و(الحواريّ): مأخوذٌ من الحَور، وهو البياض. سُمُّوا بذلك؛ لبياض قُلُوبهم، وسلامتها من أثر المعاصي. والحواريّ: الناصر.

فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: ننصُر دينَه، وننُصُرك -يا عيسى- لتُبَلِّغه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: بتصديقٍ وإقرارٍ، وقيامٍ بما يلزَمه هذا الإيمان، من نُصرةِ دين الله، والذَّبِّ عن أوليائه، والمحاربةِ لأعدائه.

﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ -يا نبيَّنا عيسى- ﴿بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُنقادُون لأوامر الله، مُخلِصون له. واشهَدْ لنا يوم القيامة حين تَشْهَد الرُّسُلُ لأقوامهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أهميَّة استشعار الدَّاعية لمواقف المدعوِّين وأحوالهم وكلامهم؛ ليتَّخِذَ الموقفَ المناسبَ لكلِّ واحدٍ منهم ولكلِّ حالةٍ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٤٧).
(٢) رواه أحمد (١٤٠٤٧)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٦٢٤١).

وفيها: تمييز الصفوف، بالدَّعوة إلى نُصرةِ الحقِّ، والتفريقِ بينَ الذين يَقِفون مع الحقِّ، والذين يُعادُونَه.

وفيها: أهميَّة الجنود والأتباع في نُصرة الدَّعوة.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية: اتِّخاذَ السُّبُل الكفيلة بتمكينه من تبليغ دين الله.

وفيها: الاستعانة بعد الله بالمُخلِصين في الحماية والنُّصرة.

وفيها: أنَّ المواقف الصعبة تميِّز الأشخاص، وتُظْهِر الحقائق.

وفيها: أهميَّة الأصحاب المُقَرَّبين، والأصفياء والخواصِّ المُخلِصين؛ لأنَّهم أفقَهُ وأفهَمُ وأعلَمُ في نقل الدِّين، وأصبَرُ وأثبَتُ وأقوَى في الدِّفاع عنه.

وفيها: أنَّ على مُريد القيام بأمر الله، أن يُبَيِّن ذلك لمن ينتَدِبُه، كما قال الحواريُّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. ومِثْل هذا البيان في مثل تلك المواقف العصيبة، ليس من الرِّياء ولا السُّمْعة؛ بل هو محمودٌ، ممدوحٌ صاحبُه.

وفيها: الجَمْع بينَ حُسن الباطن وحُسن الظاهر؛ فقد قيل: إنَّ سبَبَ تسمية (الحواريِّين) بهذا الاسم: بياضُ قُلُوبهم ونقاؤها، وبياضُ ثيابهم وطهارتُها.

وفيها: طلَب النجاة في الآخرة؛ أجرًا على العَمَل للدِّين في الدُّنيا.

وفيها: استِشهاد مَن تُعتبَر شهادَته عند ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ الرُّسُل كانوا يَدعُون إلى الله، لا إلى أنفُسِهم، كما قال عيسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يُوَجِّه مَن يتَّبعه لِخدمة دين الله، لا لخدمته هو.

وفيها: أنَّ الرُّسُل -مع عُلُوِّ مقامهم وتأييدِهم من الله- يحتاجون إلى مَن ينصُرُهم من الناس، وبهذا جرَت سُنَّة الله، مع استغنائِه عن هؤلاء الناصِرين؛ ليظهَرَ فَضْلُهم، ويَعْظُمَ أجرُهم، وتَعلوَ مكانتُهم عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: ذِكر الإسلام العامِّ، الذي كان عليه جميع الرُّسُل وأتباعهم.

وفيها: أنَّ الرُّسُل لا يعلمون الغَيب.

وفيها: جواز قول الإنسان: «أنا مسلِم»، إذا كان صادِقًا.

وفيها: أنَّه ينبغي -عند الحاجة- أن يُعْلِن المسلم نُصرته للدِّين والرُّسُل، كما فعلَ الحواريُّون، وكما فعل مؤمِن آل ياسين، والمؤمِن الذي كان يكتُم إيمانَه -في قِصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وفيها: فَضْل الجماعة في المعاونة على البرِّ والتَّقوى.

وفيها: أنَّ المسلِم قويٌّ بإخوانه وأنصاره.

وفيها: أنَّ مِن سُنَن الله في الدَّعوة: مُرور الأنبياء ودعوتهم بمراحلِ الاستضعافِ، والخوفِ من بَطْش العدُوِّ، وعدمِ القُدرة على الجَهْر بالدَّعوة.

وفيها: مَكْر اليهود، وخُبثهم، حتى ألجأوا نبيَّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واضطروه إلى طلَب النُّصرة والحماية، بعدما أظهَروا التكذيب، بل سعَوا في قَتْله، حتى قيل: إنَّه اختفى عنهم، وخرجَ هو وأُمُّه يسيحانِ في الأرض، يَعبُدانِ الله، ويَدْعُوان إليه.

وفيها: أنَّ طلبَ الأنبياء النُّصرة والأنصار، هو من باب اتِّخاذ الوسائل لتحصيل المقصود، وهو التبليغ.

وفيها: حُسن تربية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحابه؛ فقد تبيَّن -من كلامهم- تعلُّقُهم بالله، لا بشخص نبيِّهم؛ فقالوا: ﴿**نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ**﴾.

وفيها: تجرُّد الدَّاعية عن المآرِب الشخصيَّة، والأغراض والأطماع الدُّنيويَّة، وألَّا يجعل نفسَه المِحْورَ الذي يدور حولَه المدعُوُّون؛ وإنَّما يجعل التفافَهم حولَ الدِّين، وعملَهم في نُصرة ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ نُصرة الحقِّ في وقت الخطَر وشِدَّة الحاجة، يعظُم بها الأجر، ويتمحَّص بها المُخلِصون من المنافِقين.

وفيها: أنَّ الدَّاعية إلى الحقِّ إذا طلبَ النُّصرة؛ تجب إجابتُه.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾:

ولـمَّا أشهد الحواريُّون نبيَّهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على إيمانهم وإسلامهم؛ تضرَّعوا إلى الله تعالى، قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ على نبيِّنا، مِن كتابك الإنجيل، وما سبقَ من الكتب.

﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: امتثَلْنا، وأطَعْنا ما جاءَ به نبيُّنا؛ ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: اجْعَلْنا في جُملَتهم، واكتُبْ أسماءَنا مع أسمائِهم.

ويدخُل في الشاهِدين: كلُّ مَن شَهِدَ للرُّسل بالحقِّ، ومنهم: أهلُ العِلْم؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله ﴿مَعَ﴾ للمُصاحَبة، ولا تقتضي المُخالَطة ولا المُوافَقة في الزمن؛ ولذلك صحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، قال: «مع أُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التوسُّل إلى الله سبحانه بالأعمال التي يُحِبُّها، كما توسَّل الحواريُّون بالإيمان بكُتُبِه، واتِّباعِهم نبيَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّه يجب الإيمان بجميع ما أنزلَ الله من الكتب.

وفيها: الاحتراز عن الكتب المُحَرَّفة؛ لأنَّ الحواريِّين قالوا: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾.

وفيها: أنَّ اتِّباع الرسول المُرسَل من الله، هو ثمرة الإيمان.

وفيها: أنَّه كلَّما قويَ الإيمان قويَ الاتِّباع، وكلَّما نقصَ الإيمانُ نقصَ الاتِّباع؛ لأنَّ المؤمن حقًّا لا بُدَّ أن يتعرَّف على ما آمنَ به، ويعمَل به، وهذا لا يمكن إلَّا بمعرفة عمَلِ النبيِّ، الذي يبيِّن ما أنزلَه الله إليه.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من العمل الصالح مع الإيمان، والعمل الصالح لا يُمكِن معرفتُه إلَّا بالاتِّباع.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦).

وفيها: الحِرْص على صُحبة الأخيار.

وفيها: فَضْل أُمَّة النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم شُهَداء على الناس، يشهَدون يومَ القيامة لكلِّ نبيٍّ على قومِه أنَّه بلَّغ الرِّسالة وأدَّاها.

وفيها: فَضْل مَن يشهد للرُّسُل بالحقِّ.

وفيها: الاقتداء بالصالحين، واتِّباع منهجِهم في الإيمان.

وفيها: أنَّ مَن أرادَ مَقام الشاهدين؛ فإنَّه لا يُبالي بما ينالُه من أذًى ومشقَّة في سبيل نُصرة الدِّين.

وفيها: فَضْل الشَّهادة بالحقِّ، وهذا يقتضي العِلْمَ بالمشهود به، واعتقادَه، وإعلانَه، والقيامَ بما يقتضيه من العمل.

وفيها: الطمع بالدُّخول مع أهل الفَضْل؛ لنيل ما يُعطيهم الله من الثوابِ وحُسنِ الجزاء يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ توسُّلَ الحواريِّين إلى ربِّهم بالدُّعاء، يُنافي أن يكون قولُهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ مجرَّد ادِّعاء.

وفيها: توسُّل المؤمن بعملِه الصالح، والمواقفِ العظيمةِ التي شَهِدَها، وحُسنِ البلاء الذي أبلاه.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

ثم أخبرَ الله تعالى عن مَكْرِ المُجرمين من بني إسرائيل، بعَبده ونبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال:

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: بما همُّوا به من الفَتْك بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، على عادتهم في قَتْل النبيِّين، فتمالَؤوا على ذلك، واستعمَلوا الحيلةَ والخِداع والوِشاية، وحاكَوا المؤامرة، واستثاروا مَن عاونهم، وأحاطُوا بمنزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقَتْله. و(المَكْر): الانتقام من الخَصْم بأسبابٍ خفيَّةٍ، من حيث لا يَشْعُر.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: وهذا مَكْرٌ يليق بجلاله وعَظَمته؛ فإنَّه في مُقابَلة مَكْرِهم، والله تعالى

لا يَمكُر بالبريء؛ وإنَّما يمكُر بالخبيث المخادِع، ويمكُر بأعدائه، وبمَن يمكُر برُسُله ودِينه.

وكان مِن مكر الله بهم: أنَّه أبطَل عملَهم، وأفشَل مَكْرَهم وكيدَهم، ونجَّى عبدَه ونبيَّه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن بينِهم، ورفعَه إلى السماء، وألقى شبهَه على رجلٍ آخر، فأخَذوه وقتَلوه وصَلَبُوه، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

ولذا قال ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: لا يمكُر أحدٌ إلَّا ومَكْرُ الله فوقَه، وخيرٌ منه، والله أقوى وأقدَر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جُرْم بني إسرائيل في قَتْل الأنبياء، واستعمالُهم الحيلةَ والخديعةَ والمَكْرَ لتحقيق هذه الغايةِ الخبيثةِ.

وفيها: إثبات صِفة (المَكْر) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته. وهي صفة كمال في حقّ الله تعالى؛ لأنَّه يمكُر بأعدائه الماكِرين. لكن لا يجوز أن نشتقَّ من هذه الصِّفة اسمًا لله؛ فلا يُقال عن الله: «ماكر»؛ لأنَّه لم يُسَمِّ نفسَه بذلك، ولأنَّ المَكْر ليس صفةَ كمالٍ بإطلاق؛ فلا بُدَّ من تقييدِها؛ فيُقال -مَثَلًا-: «الله يمكُر بِمَن مكرَ بالمؤمنين».

وفيها: أنَّ مُقابَلة المسيِّء بما يَسُوؤه عَدْلٌ ومَحْمَدة وكمالٌ، دالٌّ على القُدرة والقوَّة.

وفي الآية: أنَّ المَكْر من أفعال الله تعالى، يُجازِي به أعداءَه، ويُدافِع به عن أوليائه؛ ولذلك جاء في الحديث، أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: «وَامْكُرْ لِي، وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ»[1].

وفيها: قُدرة الله وقوَّته، في إبطالِ مَكْر أعدائه، ودفاعِه عن أوليائه، وقد يكون هذا بالاستدراجِ، وإتيانِهم من حيث لا يحتَسِبون، ومخادَعتِهم، وإلحاقِ الضَّرَر بهم من حيثُ لا يشعرون، والانتقام منهم بطريق خفيّ، والإيقاعِ بهم وهم غافِلون، ومعاقبتِهم بنقيض مقصودِهم وهم في ضلالهم يَعْمَهون.

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٨٥).

فقد نجَّى الله تعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أيدي اليهود، وهم يظنُّون أنَّهم ظفِروا بمطلوبهم، وحقَّقوا غرضَهم، ولكنَّ الله رفعَه إليه، ليَنزِل بإذن الله في آخر الزمان، فيُقاتِلهم، ويُرغِم أنوفَهم، فلا يقبَل منهم الجِزْية؛ وإنَّما الإسلام، أو القَتْل.

فأبقاه الله تعالى ليُعَذِّب به اليهود في آخر الزمان.

وفيها: أنَّ الله خير الماكِرين: يمكُر بالحقِّ والعَدْل، والمكذِّبون المعانِدون يمكرون بالباطل. ومَكْرُ الكفَّار يكون سعيًا في إبطال دينه، ومَكْره عَزَّ وَجَلَّ لإعلاءِ ونَصْرِ دِينه وشَرْعِه. ومَكْر العِباد ظُلْمٌ، ومَكْر الله تعالى عَدْل.

وفيها: أنَّ تدبير الله مُحكَم؛ فلا يُفلِت منه أحد، وأمَّا مَكْرُ المخلوقين وتدبيرهم: فيَعتريه القصورُ والخلَلُ والفشَلُ.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى كيف مَكْرَ بهؤلاء اليهود، ونجَّى عبدَه ونبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ قال بعض المفسِّرين: قابِضك. تقول العرَب: «توفَّى» فلانٌ دَينه من فلان، أي: حازَه وقبضَه.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ الوفاة هنا هي: وفاة النوم، وهي المَوتة الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وليست الوفاةَ الكبرى بالموت. والمعنى: يُلْقِي عليه النوم.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي: في حال نومه، ليمكُث في السماء حيًّا، حتى ينزل في آخر الزمان قبل قيام الساعة.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مبرِّئك ممَّا اتهموك به وافتَرَوا عليك بالباطل، كقولهم: إنَّ أُمَّه زانية، وأنَّه ابن زنا -والعياذ بالله- فبيَّن الله براءتَه من ذلك فيما أنزلَ عَزَّ وَجَلَّ. وطهَّره أيضًا من الذين كفروا، بأن نجّاه منهم، وخلَّصه من شرِّهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ وآمنوا أنَّك عبدُ الله ورسوله، واتَّبعوا شريعتَك ﴿فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ -من اليهود وغيرهم- ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، والمراد: أنَّ هذه الفَوقيَّة والاستِعلاء والغَلَبة مستمرَّة إلى أن يرثَ الله الأرض ومَن عليها. وهذه الفَوقيَّة تشمل: فَوقية الحُجَّة والبيان، وفَوقيَّة القَهْر بالسَّيف والسِّنان والسُّلطان.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هم أهل الإسلام، الذينَ اتَّبَعوه على فِطرته ومِلَّته وسُنَّته، فلا يزالونَ ظاهرين على مَن ناوَأَهُم إلى يوم القيامة»(١).

وقد تحقَّق ذلك وحصلَ وَعْدُ الله؛ فانتصرَ أتباعُ المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على مَن نَاوَأَهُم من اليهود، فذهب مُلك اليهود. وحصلَ التحريفُ في دين النصارى، ولكنَّهم -على كلِّ حال- أخفُّ كُفرًا من اليهود، حتى بعثَ الله نبيَّنا محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فكان صحابتُه هم أهلَ التوحيد صِدقًا، وأولَى بالمسيح عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عَدْلًا وحقًّا؛ فجعلَهم الله ظاهرين في الأرض، وأورثَهم بلادَ النصارى، ففتحوا الشام وغيرَها، ولا يزال الإسلامُ في الأرض، والطائفةُ المنصورة -أتباعُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- ظاهرين بالحُجَّة والبيان، أو القَهر والسُّلطان، حتى يخرجَ المهديُّ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فيُقاتِلون النصارى، وينتصرون عليهم، ويقتُلونهم قَتْلًا لم يُرَ مِثلُه، ويفتَحون القُسْطَنطينيَّة، ثم ينزل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فيُقاتِلون معه اليهود والدَّجَّال، ويُهلِك اللهُ الكفَّارَ على أيديهم، وتتمُّ الفَوقيَّة والظُّهور، إلى أنَّ يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء الدُّنيا وقيام الساعة ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ومصيركم، إلى الله لا إلى غيره، ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ -يومئذٍ- ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمور الدِّين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تطهير الله لعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وتخليصه من أذى الكفَّار -حِسِّيًّا ومعنويًّا- فنجَّاه من سُوء الجوار، ومن مُعاشرةِ مَن آذاه من الكفَّار.

وفيها: دليلٌ بيِّن على عُلُوِّ الله تعالى، كما في قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: من الأرض إلى السماء.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٤٦٢)، تفسير ابن المنذر (١/ ٢٢٣).

وفيها: أنَّ رَفْع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء كان ببدَنه ورُوحه، وأنَّه رُفِعَ وهو نائم.

وفيها: إيناس الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإخباره عَن رفعه إليه، وما سيقع له قبل أن يقعَ، وفي هذا إعداد نفسيٌّ له وطُمأنينة.

وفيها: شَرَفٌ عظيم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بخطاب الله له، وبرَفْعِه إليه، وحِفظه أثناءَ رَفعه، وتبرئته من البُهتان العظيم، وتقدير النصر لأتباعه.

وفيها: أنَّ الله ينتَصِر لأنبيائه، ويُدافِع عن أوليائه، ويحفظهم بحِفظه، ويُنَجِّيهم من أعدائهم.

وفيها: أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينتَهِ عُمرُه بعد، ولم يستوفِ أجلَه في هذه الدُّنيا؛ فقد كتبَ الله له عُمرًا طويلًا، وأنَّه لا يزال حيًّا -جسدًا ورُوحًا- وهو يعيش الآن في محلِّ كرامة الله، ومقرِّ ملائكته.

وفيها: شناعة فِعْل اليهود، فيما نسَبُوه لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولأُمِّه من التُّهَم الباطلة.

وفيها: أنَّ إيذاء الأنبياء كُفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وفيها: أنَّ الظُّهور لأهل الحقِّ باقٍ إلى قيام الساعة، سواءً بالحُجَّة والبيان، أو بالسَّيف والسِّنان.

وفيها: أنَّ الله كتب النصر لأتباع الأنبياء.

وفيها: أنَّ نُصرة الأتباع نُصرة للمتبوع.

وفيها: أنَّ أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد بِعْثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هم المُوَحِّدون المُستَجيبون من أُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: شَرَفٌ عظيمٌ للذين يُدافِعون عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُظهِرون براءته من التُّهَمِ الباطلة وقالةِ السُّوء؛ لأنَّ مَن تحقَّق وَعْدُ الله الحسَنُ على يدَيه -وهو مؤمن-؛ فهو صاحبُ منزلة رفيعة.

وفيها: مَكْرُ الله بأعداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد هَمُّوا بما لم ينالوا، فلم يُمَكِّنْهم الله ممَّا كانوا يُريدونَه، لا في جَسَده، ولا في نفسِه.

وفيها: إخبار الله تعالى عن ذُلِّ اليهود، وهم أعداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّهم لا يزالون مَغلوبين إلى قيام الساعة.

وفيها: أنَّ الغُلُوَّ الحاصلَ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليس هو من حقيقةِ اتِّباعه.

وفيها: أنَّ انتصار الكفَّار على المسلمين في الدُّنيا، لا يُنافي وَعْدَ الله بالغَلَبة للمؤمنين؛ لأنَّ انتصار الكفَّار لا يدوم، وما يَلْحَق بهم من الخسائر والهزائم والأذى أضعافُ ما يقع للمسلمين، ولا بُدَّ أن تعودَ الغَلَبَةُ لأهل الإيمان.

ثم إنَّ انتصارَهم ماديٌّ بالسِّلاح والطُّغيان، وليس انتصارَ منهجٍ وعقيدةٍ، والانتصارُ الحقيقيُّ هو عُلُوُّ المنهج والعقيدة -وهو انتصار أهل الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ- وغَلَبَة الحُجَّة والبيان تكون لأهل الإيمان، لا غيرهم على كلِّ حال.

وما يحصُل من انتصار الكفَّار في بعض الجَوْلات؛ فإنَّما هو استِدراجٌ ومَكْرٌ من الله بهم، ثم تأتيهم الهزيمة.

وما يحصُل من هزيمة المسلمين -إذا حصلَت- فإنَّما هو من التمحيص والابتلاء، ولرِفعةِ الدرجات، واتِّخاذِ الشُّهَداء، والتطهيرِ من العُجْب والغُرور وغيرِها من آفات القُلُوب، وليكونوا قُدوةً لغيرهم في الثبات.

وأخيرًا: فالنصر في الآخرة لا يكون إلَّا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفي الآية: أنَّ مرجِع الخلائق إلى الله يوم القيامة، وأنَّ الحُكم راجعٌ إليه، وأنَّه سبحانه الحَكَم في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: بِشارةٌ للمؤمنين، بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سيقضي بينهم وبين الكفَّار، ومَن قضى الله له فهو منصور، ومَن كان اللهُ خَصْمَه فهو مغلوبٌ مدحورٌ.

وفيها: أنَّ الخُصُومة تقع بينَ المؤمنين والكافرين يومَ القيامة، امتدادًا لخُصومة الدُّنيا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وفيها: أنَّ الخلاف بينَ المسلمين والكفَّار جوهريٌّ أساسيٌّ، وأنَّه خلاف تضادٍّ، وأنَّه لا

يُمكِن انتزاعُ العداوة من قُلُوب المؤمنين للذين كفروا، ولا يُمكِن اجتماعُهم جميعًا على شيءٍ واحد، إلَّا بدخولهم في الإسلام.

وفي الآية: وَعْدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾:

ثُمَّ فصَّل الله تعالى وَعدَه للمؤمنين، ووعيدَه للكافرين؛ فبدأ بجزاء الكافِرين؛ فقال:

﴿فَأَمَّا﴾ (الفاء) للاستئناف، و(أمَّا) حَرْف شرط وتفصيل، وما بعدها فَرعٌ عمَّا قبلها.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورُسُله. و(الكُفر) في اللُّغة: السَّتر، وسُمِّي الكافر بذلك؛ لتغطيتِه حقيقةَ الأُلوهيَّة والعبوديَّة، وجحدِها، وسَتْرِ نِعَم الله وعدمِ الاعتراف بها.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾: بالقَتْل، والسَّبي، والأَسْر، والجِزْية، والتسليط عليهم، وإيقاع الضِّيقِ والحَسْرة في قُلُوبهم، وما يحصل لهم من القلقِ والاضطراب والحيرة والمعيشة الضَّنْك؛ فيجتمع عليهم الألمُ القَلْبيُّ والألمُ البدَنيُّ. و(العذاب): هو وقوع المشقَّة، بذنب أو بغير ذنب، فإذا وقعَ بذنب فهو عذابُ عقوبةٍ، وهو المراد هنا.

فكذلك فعلَ الله تعالى بمَن كفرَ بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه من النصارى؛ فعَذَّبهم في الدُّنيا بالقَتْل، والسَّبي، وأخذِ الأموال، وإخراجِهم من بيوتهم، وإزالة أيديهم عن الممالك والدِّيار.

﴿وَٱلْأٓخِرَةِ﴾: يعذبهم فيها بالخلود في النَّار، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]. وظاهر الآية أنَّه يحصل لهم العذابُ في الدارَين.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: لا يَجدون مَن ينصرُهم ويَدفعُ عنهم عذاب الله.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾:

ثم بيَّن سبحانه حُسنَ جزائه للمؤمنين؛ فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورُسُله، وما

أنزلَه الله على رُسله، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خالصةً لله، صوابًا على السُّنَّة، وامتثَلوا الأوامرَ، واجتنَبوا النواهي؛ ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي: يُعطيهم جزاءَ أعمالهم موفَّرًا كاملًا غيرَ منقوص. وليس للعباد حقٌّ واجبٌ على الله، ولكن -بمَنِّه وكرَمِه- أوجبَ الأجرَ على نفسه.

وهذه (التوفية) تكون في الدُّنيا: بالنَّصرِ والإعزازِ والغَلَبةِ، والإكرام، والحياة الطيِّبة، وفي الآخرة: بأنواع النعيم، وقِسْمةِ منازلِ الجنَّةِ عليهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ظُلْم الإخلاص بالشِّرك والرِّياء، وظُلْم العمل بالنقص والبِدعة. ومَن وقع في ذلك؛ فالله لا يُحِبُّه، وهو مستَحِقٌّ للعذاب.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور، من خَبر عيسى وأُمِّه وأُمِّها وزكريّا ويحيى عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وخبر الحواريِّين، واليهود، والثواب والعقاب. كلُّ ذلك ﴿نَتۡلُوهُ﴾: نقرؤه متتاليًا، يتلو بعضُه بعضًا ﴿عَلَيۡكَ﴾ -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- بواسطة رسولِنا جبريل ﴿مِنَ﴾ وهي بيانيَّة -تُبيِّن المشار إليه في قوله (ذلك)- ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الدالَّة على نبوَّتك -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- وقُدرة ربِّك.

﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾: ما يحصُل به التذكير والانتفاع، والموعظة ذِكْرَى، وهو أيضًا الشَّرف العظيم. ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: المُحكَم المُتقَن، الذي لا خللَ فيه، والحاكم بينَ الناس.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أنَّ مِن حِكمة الله تعالى: تعجيلَ شيءٍ من العقوبة للكفَّار في الدُّنيا، وتعجيل شيء من المثوبة للمؤمنين فيها؛ رَدْعًا للكفَّار؛ لعلَّهم يَرجِعون، وتثبيتًا للمؤمنين؛ ليستمرُّوا على طريق الحقِّ.

وفيها: استعمال القرآن طريقةَ الوَعْد والوَعيد في الموعظة.

وفيها: شِدَّة الله تعالى في الخِطاب مع الكفَّار، كما في أسلوب المواجَهة وضمير المتكلِّم في قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمۡ﴾.

وفيهـا: تـودُّد الله تعـالى للمؤمنـين، وتلطُّفـه معهـم؛ كـما في ضمـير الغائـب في قولـه: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾.

وفيهـا: شِـدَّة عذاب الله للكفَّـار؛ فإنه جَمَع -في إخبـاره عن ذلك- بينَ قيامه به بنفسـه، ووَصْفِـه إيَّاه بالشِّـدَّة، وتأكيدِه له، فقال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾، وأنَّـه لا ناصر لهم يمنَعُه، ولا يَرْفعه، ولا يخَفِّفه.

وفيهـا: أنَّ عـذاب الله للكافرين في الدُّنيا عامٌّ وشـاملٌ، وهذا يدخـل فيه: ما كان بأيدي المؤمنـين مـن القَتْـل والأَسْر والجِزْية، وما يُرْسِـله الله عـلى الكافرين من الأوبئـة والزلازل والأعاصير والفيضانات ونحوها.

وفيها: أنَّ وفاءَ الأجرِ للمؤمنين مُرتبطٌ بوَصْفَين؛ هما: الإيمانُ والعملُ الصالح.

وفيها: عُلُوُّ منزلة الآخرة على منزلة الدُّنيا، وإنَّما سُمِّيت (دنيا)؛ لدُنُوِّ منزلتها عن الآخرة؛ فنعيـم الدُّنيا دانٍ نازلٌ عن مرتبة نعيم الآخرة، وهو مَشـوبٌ بالكَدَر، منغَّصٌ بالآفات، فَانٍ بالهَرَم والموت.

وسُمِّيت (الدُّنيا) بذلك أيضًا؛ لدُنُوِّها وقُرْبها، ووقوعِها قبل الآخرة في الترتيب الزمني.

وفيها: أنَّ عذاب الدُّنيا لا يُغنِي الكفَّار عن عذاب الآخرة.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار لا نـاصر لهم من عـذاب الله، ولا تنفعهم الشـفاعة، ولا يُؤذَن لأحدٍ بالشفاعة فيهم أصلًا.

وفيها: أنَّ الإيمان لا بُدَّ له من عمل يُغَذِّيه ويُنَمِّيه، ويَشهد بصِحَّته.

وفيهـا: كَـرَمُ الله تعـالى ومِنَّته على المؤمنـين؛ فقد أوجبَ على نفسـه الأجر للصالحين من عباده، مع أنَّه ليس للعباد حقٌّ واجبٌ عليه، كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَا للعِبادِ عَلَيْهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أوجَبَ الأَجْرَ العظيمَ الشانِ
كـلَّا ولا عَمَلٌ لَـدَيْـهِ ضائِعُ ... إنْ كانَ بالإِخْلاصِ والإِحْسَانِ
إنْ عُذِّبوا فبَعْدِله، أو نُعِّمُوا ... فبِفَـضْلِهِ، والحَمْدُ للمَنَّـانِ[1]

(١) النونية (ص٢٠٨).

وفيهـا: مِنَّـة الله تعالى على المؤمنين؛ حيـث جعل الجزاء كالأجر الـلازِم الوفاء، ولو قيل لهـم: إنَّ أعمالكـم الصالحة هي في مُقابِل نِعَم الله عليكم؛ لَبَقُـوا مَدينين مهما فعلوا. ولو قيل لهـم: مُـدَّة بقائكم في الجنَّة هي بحَسَـب مُدَّة عبادتكم في الدُّنيا، ثـم تُخرَجون؛ لكان في ذلك زيادةُ فَضْلٍ وإنعام، فكيف وهو يُعطيهم نعيمًا لا يفنى، وهم فيها خالدون؟! كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجْر: ٤٨].

وفيها: شُـؤم الظُّلْم على الإنسـان، وأنَّه سـبَبٌ لانتفاء محبَّة الله للظالم، فالله يكرَهُه، وهو من كبائر الذُّنوب.

وفيها: أنَّ الإخلال بالإخلاص والمتابعة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من الظُّلْم.

وفيهـا: إظهارُ السُّـلطة والعَظَمـة والعِزَّة في بـاب العقوبة، وإظهارُ الفَضْل والإحسـان واللِّين في باب المثوبة.

ويؤخَـذ مـن الآيات: الفَـرْق بينَ طريقة خطـاب الكافرين، وخطـاب المؤمنين، كما قال تعالى في وصف الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: تثبيت النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقَصص النبيِّين مِن قبله.

وفيهـا: أنَّ هذا القرآن شَرَفٌ عظيمٌ لهذه الأُمَّـة، وأنَّه أعظم الذِّكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وفيهـا: أنَّ القرآن ذِكرٌ باللِّسـان بتلاوته، وذِكرٌ للمسـلم وشَرَفٌ برِفعته، وذِكرٌ يتذكَّر به المؤمن بمَوعظته.

وفيهـا: وَصْف القرآن بـ (الذِّكْر الحكيم)؛ فهو جمعَ بـينَ الإحكام، والحِكمة، والحُكم: فهو مُتقَن ليس فيه اختلافٌ ولا اضطراب، وهو يضع الأمور في مواضعها اللَّائِقة بها، وهو الحاكِم والقاضي الذي يَفْصِل بينَ الناس، وإليه يَرْجعون في معرفة الأحكام.

وفيها: أنَّ هذا القرآن قد تلاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كاملًا، على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيهـا: أنَّ قَـصَّ القَصَصِ المُفَصَّلـةِ أحداثُها، المبيَّنةِ أشـخاصُها، الواضِحـةِ في السَّرد، المقرونـةِ بالعِـبَر؛ دليـلٌ على نبـوَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآيةٌ شـاهدةٌ على صِدقه فيـما يُخبِر به من الوحي عن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو الذي قدَّر تلك الأحداث وأجرى هذه الوقائع.

وأمَّـا كتب التاريخ وحكايـات الناس: فكثيرًا ما يَعتريها التضـارُب والتناقُض، وغيابُ التفاصيل، والجَهلُ ببعض الأحداث.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾:

ولـمَّا كانت هذه السُّـورَة العظيمة قد نزل أولها في شأن نصارى نَجْران، الذين جاءوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يعتَقِدون أنَّ عيسى ابن الله، وكانت شُبْهَتهم في هذا أنَّه وُلِدَ بلا أب: جاءت الآيات في هذه السُّـورَة تفنِّد شُـبْهَتَهم، وتبيِّن لهم أمرَ عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ خَلْقه بلا أب لا يُوجِـب أن يكـون ابنًـا لله، كما أنَّ خَلْق آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بـلا أبٍ ولا أمٍّ لا يُخرِجه عن كونه عبدًا مخلوقًا لله.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي: شـأنه وصِفته، في خَلْق الله له ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قُدرته؛ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كشـأنِ آدم ومبدإ أمره؛ فقد ﴿خَلَقَهُۥ﴾: أوجدَه الله وابتدأ خَلْقَه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ ميِّـتٍ جمادٍ، ثم صارَ طينًا لَزِجًا، وهيكلًا وجسـمًا بلا رُوح، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾؛ فخلقَه بالكلمـة، وجعلَه بهـا حيًّـا ذا رُوحٍ. ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فقام بينَ يدي الله بَـشَرًا ناطقًا مُتكلِّمًا، مستويَ الأعضاء والجوارح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله تعالى في الخَلْق.

وفيهـا: إثبات القياس الصحيح، واسـتعمال التشـبيه لبيـان الحقِّ وتوضيحـه للأذهان، والرُّجوع في المُناظَرة إلى ما يُسلِّم به الخَصْم للبناء عليه.

وفيها: أنَّ الله يخلُق بالكلمة والأمر.

وفيها: إفحام النصارى، وتفنيد شُبْهَتهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ مَن خَلقَ آدم بلا أبٍ ولا أمٍّ، يقدِر -من باب أولى- على خَلْق عيسى من أمٍّ بلا أب، وأنَّ مَن خلقَ آدم من تراب قادرٌ على أنَّ يخلُق عيسـى من دمِ مريم؛ بل تولُّد الإنسـان من الدم أقربُ إلى العقل من تولُّده من التراب اليابس. وخروجُ الحيِّ من الجامد الميِّت أعجَبُ من خروج الحيِّ من الحيِّ.

وفيها: تشبيهٌ للعجيب بالأعجب؛ ليكونَ أوقعَ في النفس، وأشدَّ إفحامًا للخَصْم، وأحسمَ للشُّبهة.

وفيها: حكايةُ ما حصل في الماضي بصيغة المضارع؛ فقال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولم يقل: «كُن فكان» -كما هو المتبادر-؛ وهذا تصويرٌ للحال، وعَرْضٌ له كأنَّه يحدُث الآن، وتنبيهٌ على أنَّ هذا هو الشأن دائمًا في خَلْق الله.

وفيها: إثباتُ بشريَّة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الله تعالى يخلُق من الأشياء ويُقَدِّر من الحوادث، ما فيه تمحيصٌ لإيمان البشر، فيَزيغ بعضُهم ويستجيب للشُّبهة، ويزداد إيمانُ بعضِهم ويصبح أشدَّ بصيرة؛ فيكون الحدَثُ الواحد نِعمةً وفائدةً لقوم، وفِتنةً وبلاءً لآخرين.

وفي الآية: مَثَلٌ للدُّعاة في تفنيد شُبُهات الكافرين والمكذِّبين.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾:

ثم أكَّد عَزَّوَجَلَّ ما أخبرَ به نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونهاه -بعدما جاءَه البيانُ- عن الشَّكِّ، مهما كانت شُبُهات هؤلاء النصارى.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ما قَصصناه عليك -في شأن عيسى وأُمِّه- هو الخبر الحقُّ، والقول الصِّدق، الذي لا شكَّ فيه. وأصل (الحقِّ): هو الشيء الثابت.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: مَصدَره من الله، فلا تطلب الحقَّ من غيره.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين فيه، فابقَ على يقينك، واطمئنَّ، ودعْ باطل الذين قالوا: إنَّ عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى لا يقول إلَّا الحقَّ.

وفيها: النهي عن الشَّكِّ فيما أخبر به الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: عدم جواز التأثُّر بشُبُهات أهل الباطل.

وفيها: أنَّ كثرة الشاكِّين لا تَفتِن مَن هو على الحقِّ، وهذا هو الواجب عليه.

وفيها: وجوب الثباتِ على الحقِّ، والاستمرارِ عليه.

وفيها: أنَّ النصارى واليهود ليسوا على حقٍّ في اعتقادهم بشأن عيسى وأُمِّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ صاحب اليقين العظيم محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا خُوطِب بالنهي عن الشَّكِّ -مع قوَّة إيمانه ورُسُوخه وعِصمته-؛ فغيره -من باب أولَى- عليه أن يحذَر.

وفيها: أثر كلام الله في طُمأنينة النفوس، وتثبيتها على الحقِّ.

وفيها: أنَّه يجب عند الاختلاف وحصول الشُّبهة، الرُّجوعُ إلى مصدر اليقين، والتسليمُ له، ومعالجةُ النفس به، وهو كلام الله تعالى وما أنزلَه في القرآن.

وفيها: أنَّ (الحقَّ) يُوصَف به الخبر، كما يوصَف به الحُكم؛ فالله يقصُّ الحقَّ ويقضي بالحقِّ، فتمَّت كلمتُه عدلًا وصِدقًا: عدلًا في الأحكام، وصِدقًا في الأخبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفيها: إرشادٌ للدُّعاة، لتحذير الناس من الشَّكِّ والشُّبهة، بعد عَرْض الحقِّ عليهم، وقَصِّ القَصَص من الوحي.

وفيها: إغلاقُ الباب أمامَ الوساوس، بعد تبيُّن الأمور واتِّضاح الحقائق.

وفي هذه الآية: دليلٌ على قاعدةٍ شريفةٍ؛ وهي: أنَّ ما قامت الأدلَّة على أنَّه حقٌّ، وجزمَ به العبد -من مسائل العقائد وغيرها-؛ فيجب أن يجزم في المُقابِل بأنَّ كلَّ ما عارض هذا الحقَّ فهو باطلٌ، وكلَّ شُبهة تُورَد عليه فهي فاسِدة، سواء عَلِمَ جوابَها وفَهِمَه، أم لا.

وفي هذه القاعدةِ الشرعيَّةِ حلٌّ لإشكالات كثيرة، وبها تَذهَبُ الوساوسُ والأباطيلُ عن المسلمين.

وفيها: إحسانُ الله إلى نبيِّه محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى أُمَّته، بتبيينِ ما اختَلفَ فيه غيرُهم، وتعريفِهم الحقَّ في ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز قَبولُ أخبارِ بني إسرائيل وروايَاتِهم، قبل عَرْضها على الوحي -قرآنًا وسُنَّة- فإذا عارضَت الوحي فهي باطلةٌ، ولا وزن لها.

وأخبار أهل الكتاب (الإسرائيليَّات) ثلاثة أقسام[١]:

الأول: ما عَلِمنا صِحَّته بما دلَّ عليه الدليل من الكتاب أو السُّنَّة، ممَّا يشهد له بالصِّدق. فهذا صحيح، وإن كان لا حاجة بنا إليه؛ استغناءً بما عندنا.

الثاني: ما عَلِمنا كَذِبَه وبطلانه، بما عندنا ممَّا يُخالِفه من الكتاب أو السُّنَّة. فهذا كَذِبٌ مردودٌ، لا تجوز حكايته إلَّا على سبيل الإنكار والإبطال.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، ليس عندنا ما يصدِّقه أو يكذِّبه. فهذا هو المأذون في روايته وحكايته؛ لحديث: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ»[٢]، لكن لا نُصَدِّقه ولا نُكَذِّبه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ»[٣]، وإن كان غالبُ هذا المسكوتِ عنه، ممَّا لا فائدة فيه تعود إلى أمرٍ دينيٍّ.

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾:

ثم أمرَ الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمُباهلةِ مَن عاند الحقَّ في أمر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والدُّعاء بالهلاكِ ولعنةِ الله على مَن كذبَ في هذا.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ أي: خاصمَك وجادلَك ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ اليقينيِّ والوحيِ، بالآيات البيِّنات.

﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ -أيُّها المخالِفون، من النصارى وغيرهم- ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الذُّكور -من الطرفَين- ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ﴾ للخروج إلى مكان المُباهَلة، ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ من الرِّجال البالغين العُقلاء، ونجتمع جميعًا في مكان واحد.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) رواه البخاري (٤٤٨٥).

﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ أي: نتضرَّع ونجتهد ونُبالغ في الدعاء. و(الابتهال): كلُّ دعاء يُجتهَد فيه. ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ أن تحلَّ وتنزل ﴿عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ المخالِفين الحقَّ، المعانِدين له، منَّا أو منكم.

ولـمَّا نزلت هذه الآية؛ دعا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد نصارى نَجْران إلى المباهَلة والمُلاعَنة؛ فكانوا بينَ ثلاثة أمور: إمَّا أن يُسلِموا ويتبعوا الحقَّ، أو يُعانِدوا ويُباهِلوا ويَدخلوا في المُلاعَنة، أو يَنسَحِبوا ويبقَوا على دينهم -مع دفع الجِزْية-.

فتشاوَروا فيما بينهم، ثم اتفقت كلمتُهم على الانسِحاب، ووقعَ في قُلُوبهم الخوفُ والهلعُ.

فعن حُذَيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ العَاقِبُ وَالسَّيِّدُ -صَاحِبَا نَجْرَانَ- إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرِيدَانِ أَنْ يُلاَعِنَاهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لاَ تَفْعَلْ؛ فوالله، لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاَعَنَّا؛ لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلاَ عَقِبُنَا مِن بَعْدِنَا!

قَالاَ: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ»، فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[(١)].

وعن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾؛ دَعَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: «اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»[(٢)].

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لو خرجَ الذين يُباهِلون رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لرَجَعُوا لا يجِدون مالًا ولا أهلًا»[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مواجَهة أهل الباطل لا تكون بالدَّعوة إلى المُباهَلة من أول الأمر؛ وإنَّما يُجادَلون

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠) -مختصرًا-.

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٣) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصححه محققو المسند.

بالتـي هي أحسـن، وتُقام عليهم الحُجَج والبراهين، وتُفنَّد شُـبُهاتهم، فـإذا أصرُّوا جازَت المُباهَلة.

وفيهـا: أنَّ مَن عاندَ الحقَّ بعد ظهورِه وإقامـةِ الحُجَّة عليه؛ ينبغي تَرْكُ الجِدال معه؛ لأنَّه لا فائدة منه، وتجوز دعوتُه إلى المُباهَلة؛ لإجباره على الاعتراف بالحقِّ.

وفيهـا: ثقةُ أهل الحقِّ بأنفُسِـهم، وتردُّد أهل الباطل وشـكُّهم في عقيدتهم، فالحقُّ أبلَجُ، والباطل لَـجْلَجٌ.

وفيهـا: ما عليه أهل الحقِّ من الثقة بالحقِّ، حتى أخرجوا أبناءَهم ونسـاءَهم، وضمُّوهم إليهم في المُباهَلة؛ ليقينِهم بالنصرِ والغَلَبةِ، وحِفظِ الله لهم، مع أنَّه ليس من شروط المُباهَلة إخراجُ الأبناء والنِّساء، لكنَّ هذا من كمالها وتمامها.

وإن لم يوجَد أبناءٌ لأحد الطرَفَين؛ فيخرُج بأقرب أقاربه وذُرِّيَّته، ويجوز أن يُباهِل وحدَه دون أحدٍ من أقاربه.

وفيها: تعلُّق أهلِ الباطل بالدُّنيا، وخشـيتُهم على نسـائِهم وأولادِهم أكثر من خشـيتهم عذابَ الآخرة.

وفيها: اختيار أحبِّ الأشياء إلى الخَصْم في المُباهَلة؛ لأنَّ هذا أبلغ في الزجر، وأقوى في تخويف الخَصْم.

وفيها: جواز اللَّعْن والدُّعاء بالهلاك، على مَن أصرَّ على كُفره وعِناده.

وفيهـا: أنَّ أهـل الحـقِّ يختـارون أعلمَهـم وأتقاهـم وأصلحَهـم للمُباهَلة؛ لأنَّـه أدعى لاستجابة دُعائه.

وفيهـا: أنَّ الأصـل في المُباهَلـة أن تكـون بينَ أهل الحـقِّ وأهل الباطـل، ولا تكون بينَ المسلمين إلَّا لضرورة، وقريب منها: المُلاعَنة بينَ الزوجَين.

وفيها: الاسـتعانة على اسـتخراج الحقِّ، بإحاطة المتخاصِمين بما أمكنَ من الهَيبة والحرَج النفسيِّ.

وفيها: أنَّ من كان في شكٍّ من الأمر؛ فلا يُعرِّض نفسَه للخطر.

وفيها: أنَّه لا تجوز المُباهَلة إلَّا بعِلْمٍ يقينيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

وفيها: أنَّ المُباهَلة لا تكون في الأمور الاجتهاديَّة؛ وإنَّما في الأمور الشرعيَّة العظيمة الواضحة، كقضايا الإسلام والكُفر، والتوحيد والشِّرك، والسُّنَّة والبدعة، والحقّ والباطل.

وفيها: أنَّ المُباهَلة لا تكون إلَّا بعد عِناد الخَصْم.

وفيها: أنَّ الدُّعاء في المُباهَلة على مَن خالف الحقَّ، يكون بالوَصف لا بالشخص.

وفي المُباهَلة: إثبات وإبراز دَور المرأة المسلِمة في إظهار الحقِّ.

وفي الآية: إعطاء المُهلة في التفكير، والتروِّي في الأمر، عند الاجتماع للمُباهَلة وقبل الدُّعاء، كما يفيده حرف ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، وهو يدُلُّ على التراخي. وفي ذلك موعظةٌ للنصارى وإمهالهم للتفكير، كأنَّه يقول لهم: تأنَّوا ولا تَعْجَلوا، وانظُروا في أمركم.

فوائد من الرِّوايات الواردة في قِصَّة المُباهَلَة:

فيها: أنَّ مَن باهلَ النبيَّ ﷺ؛ فهو هالِكٌ لا محالة.

وفيها: جواز مصالَحة أهل الكتاب -غيرِ المُحارِبين- وإقرارهم على دينهم على شروطٍ معيَّنة.

وفيها: اختيارُ الإمام للرجل العالم الأمين، وبَعْثُه إلى أهل الهُدْنة في مصلحة الإسلام.

وفيها: منقبة عظيمة للصحابيِّ أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه، في شهادة النبيِّ ﷺ له بالأمانة.

وفيها: حِرْص الصَّحابة على الفوز بهذه المنقبة.

وفيها: أنَّ إقرار الكافر بالنبوَّة في نفسه، لا يُدْخِله في الإسلام، حتى ينطقَ الشهادتَين.

وفي طلب وَفد نصارى نَجْران إرسالَ رجلٍ مسلِمٍ يحكم بينهم: دليلٌ على عدلِ المسلمين، وعدالتهم، ورضا أهل الكتاب بحُكمهم، وشهادتهم لهم بأنَّهم لا يَظْلِمون.

وفيها: أنَّ مِن مداخل الشَّيطان: إلباسَ الباطل لباسَ الحقِّ؛ فقد ادَّعى نصارى نَجْران الإسلام، مع أنَّهم يَدَّعون لله ولدًا، ويستَحِلُّون أكلَ الخنزير، ويعبدون الصليب!

وفيها: استشارة أهل العقل والحِكمة في الأمور العظيمة.

وفيها: أنَّ الاستشارة من وسائل تحصيل الصواب.

وفيها: أنَّ حُبَّ الرئاسة واتِّباع الهوى يَصُدُّ عن الحقِّ، ويُعمِي صاحبَه عن رؤيته.

وفيها: نَصرٌ عظيمٌ للمسلمين، بانسحاب النصارى من المُباهَلة؛ لأنَّهم خافوا على أنفُسِهم الهلاك، وقد عَلِمَ بهذا الانسحاب خُصومُ المسلمين الآخَرون -كاليهود والمنافِقين-.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿**إِنَّ هَٰذَا**﴾ أي: المذكور في القرآن، من شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿**لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ**﴾ أي: الخبر الصِّدق، والقول القاطع، حصرًا وتوكيدًا. و(القَصص) في اللُّغة: هو الكلام الذي يَتْبَع بعضُه بعضًا، وهو: تتبُّع الوقائع، بالإخبار عنها شيئًا بعد شيءٍ، على ترتيبها.

﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ**﴾ أي: مألوه، وهو: المعبود محبَّةً وتعظيمًا ﴿**إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا عيسى ولا غيره.

﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾: الذي يَغْلِب ولا يُمنَع ﴿**ٱلْحَكِيمُ**﴾: له الحِكمة البالغة، وله الحكم والفَصْل، يشرع ما يشاء، وقد أحكمَ كلَّ شيءٍ.

وإذا اقترنَت (العِزَّة) بـ(الحِكمة) فقد كمَلَت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإكثار من المؤكِّدات، عند عَرْض الحقائق التي وقع التكذيبُ بها، أو الشَّكُّ، وكثرةُ الجِدال.

وفيها: أنَّ كلَّ ما خالف قَصصَ القرآن عن عيسى وأُمِّه؛ فهو كَذِبٌ وباطلٌ.

وفيها: درسٌ للدُّعاة في استعمال أساليب التأكيد في الكلام، عند مواجَهة الدِّعايات الباطلة.

وفيها: أنَّ مِن القَصَص ما يكون حقًّا، ومنها ما يكون باطلًا.

وفيها: كَذِب النصارى، في ادِّعاء الشريك لله والولَد والزوجة.

وفيها: انفراد الله تعالى بصفات الرّبوبيَّة والألُوهيَّة، كالقُدرة على الإحياء، والإخبار بالغيوب، خلافًا لِما ادَّعته النصارى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الصِّفات.

وفيها: أنَّ (العِزَّة) إذا اقترنَت بـ(الحِكْمة) فقد كمَلت؛ لأنَّ العِزَّة -وهي القوَّة والمَنَعة- إذا كانت بغير حِكمةٍ؛ أدَّت إلى الطَّيْش.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾:

قوله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرَضوا عن اتِّباعِك وتصديقِك، ولم يقبَلوا التوحيد، ولم يجيبوك إلى المُباهَلة. فإن فعلوا ذلك؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الدِّين، وبنيَّاتهم وأغراضِهم الفاسدة، وسيُجازيهم على سرائرِهم الخبيثة وأعمالهم السيِّئة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن تولَّى عن دين الله، وعدلَ عن الحقِّ إلى الباطل؛ فهو مُفْسِدٌ.

وفيها: تهديدُ الله تعالى لهؤلاء المُفسِدين، بأنَّ حالهم لا يخفى عليه.

وفيها: أنَّ دينَ الله صلاحٌ، وما سواه فسادٌ وسبَبٌ للفساد.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤﴾:

ولـمَّا بيَّن الله تعالى حالَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعا الناسَ إلى التوحيد والإسلام، وأمر نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة أهل الكتاب إلى المُباهَلة -بعد ظهور عِنادهم-: أمر عَزَّ وَجَلَّ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدَعوتهم إلى أمرٍ عَدْلٍ، وسواءٍ بينَ الفريقَين؛ وهو العودة إلى أصل الدِّين.

فقـال تعـالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا الخِطاب يَعُـمُّ اليهود والنصـارى، ومَن جرى مجراهم ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ (الكلمة) تُطلَق على: كلِّ جملة مفيدة.

ثم وصفَها تعالى، فقال: ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كلمة عَدْل، نستوي فيها نحن وأنتم.

ثم فسَّرها، فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ فذكرَ التوحيد وضِدَّه -وهو الشِّرك-؛ ليكتمل الأسـاسُ من الجهتَين: من جهـة الدَّعوة إلى الشيء، ومن جهة النهي عن ضِدِّه.

ونفـيُ الـشِّرك في العِبادة يكون بعدَمِ اتِّخاذ الوثَن، أو الصَّنَم، أو الصَّليب، أو الطاغوت، أو النَّار -أو غيرِها ممَّا يُعبَد من دون الله- ندًّا من دون الله.

وقولـه ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يطيع أحدٌ أحدًا من الرُّؤسـاء وغيرِهم في معصية الله تعالى، وفيما خالَفوا فيه شَرْعَ الله، من التحليل والتحريم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عـن هـذه الدَّعـوة العادِلـة المُنصِفـة، وأعرَضوا عـن التوحيـد، وأَبَوا إلَّا الشِّرك؛ ﴿فَقُولُوا۟﴾ أنتُم -أيُّها المؤمنون- لأهلِ الكتاب المُصِرِّين على الباطل: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقـادون لأمـر الله، مخلِصـون لـه بالعِبـادة، مُقِـرُّون لـه بالشريعة، مُستَمِرُّون على الإسلام الذي شرَعَه.

وهذه الآية قد كتبَها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطابه إلى النصارى، يدعوهُم بها إلى الله، فقرأه هِرَقـل، فـإذا فيهِ: «بِسْـمِ الله الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ، من مُحَمَّدٍ عَبْـدِ الله وَرَسُـولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ الله أَجْـرَكَ مَرَّتَـيْنِ، فَـإِنْ تَوَلَّيْتَ فَـإِنَّ عَلَيْكَ إِثْـمَ الأَرِيسِـيِّينَ[1]، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[2].

وقـد بلغَ مـن عِنايةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهـذه الآية: أنَّـه كان يقرؤها أحيانًـا بمُفردها -بعد

(١) وهم: الأتباع من أهل مملكته، وهي جمع «أريسي» وهو: الحرَّاث والفلاَّح.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

الفاتحة- في إحدى ركعتي سُنَّة الفجر: فعن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «كان يقرأ في رَكْعَتَي الفَجْرِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾»[١].

وفي رواية: «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الفَجْرِ، فِي الأُولَى مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ الَّتِي فِي البَقَرَةِ، وَفِي الآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾»[٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إظهار العَدْل مع الخَصْم، والإنصاف عند المُناظَرة.

وفيها: أنَّ الإسلام العامَّ الذي جاءت به جميع الرُّسُل هو هذه الكلمة: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

وفيها: أنَّ هذه الكلمة يجب أن تكون أساسَ ما يُسَمَّى اليوم بـ «الحوار بينَ الأديان».

وفيها: أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يُشَرِّع للناس من دون الله، ولا يجوز لأحدٍ أن يُطيعَه في ذلك.

وفيها: أنَّ اتِّباع الحُكم والتشريع من صُلب العِبادة.

وفيها: أنَّه يجب دعوةُ الناس إلى أخذِ الحلال الذي أحلَّه الله، وتَرْكِ الحرام الذي حرَّمه الله.

وفيها: إعلان البَراءة من الخَصْم إذا تولَّى، بعد إقامة الحُجَّة عليه.

وفيها: إعلان الالتزامِ بالحقِّ، والثباتِ على الإسلام.

وفيها: أنَّه ينبغي للمسلم أن يعتزَّ بدينه، ويُعلِنَه ويُشْهِره، خلافًا لِما يفعله اليومَ بعضُ الضُّعَفاء المنهَزِمين نفسيًّا، من التواري والتخفِّي -بلا ضرورة- عند أدائهم لشعائرِ الدِّين العظيم!

وفيها: إشهاد الخَصْم على الالتزام بالحقِّ.

---

(١) رواه مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

وفيها: أنَّه لا يجوز طاعةُ أحدٍ من الرُّؤساء في المعصية.

وفيها: الإزراء على مَن قلَّد الرِّجال في مخالفة شَرْع الله.

وفيها: إبطال ما زعمَته اليهود والنصارى، من اتِّخاذ عيسى وعُزَيرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أربابًا من دون الله تعالى.

وفيها: إظهار مخالفة الكافِرين.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ ﴾:

ولـمَّا حصلَت المُجادَلةُ والمحاجَّةُ في شأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهو أبو الأنبياء- وحاول كلُّ فريقٍ من اليهود والنصارى أن يدَّعيه ويَنسِبَه إليه، وزعمَ أنَّه كان منهم، أو حاول أن ينتَسِبَ إليه في المِلَّة والدِّين: أنكرَ الله تعالى عليهم، وأبطلَ ادِّعاءاتِهم ومزاعِمَهم.

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «اجتمعَت نصارى نَجْران وأحبارُ يهودَ عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتنازَعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلَّا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ** ﴾»[1].

وقوله تعالى ﴿ **يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ** ﴾ أي: يا معشر اليهود والنصارى. ناداهم بذلك؛ لأنَّهم هم الذين بقيَت كتبُهم قائمةً إلى أن بَعث الله محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورَغْم التحريف الذي أصابها، إلَّا أنَّ صِفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيَت فيها.

﴿ **لِمَ تُحَآجُّونَ** ﴾ أي: لماذا تُجادِلون وتُنازِعون. وسُمِّيت (محاجَّة)؛ لأنَّ كلَّ فريق من المتخاصِمَين يُدْلي بحُجَّته.

﴿ **فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ** ﴾ أي: في شأنه ودينه، فيقول اليهود: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم، ويقول النصارى: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٤).

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: كيف تزعُمون أنَّه على دينِكم، ودينُكم هو اليهوديَّة والنصرانيَّة، وقد حدثَت اليهوديَّة بعد نزول التوراة، والنصرانيَّة بعد نزول الإنجيل، وإنَّما أُنزِلَت التوراةُ والإنجيل من بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بزمانٍ طويلٍ؛ فما كانت اليهوديَّة ولا النصرانيَّة إلَّا بعدَ زمنه بدَهْرٍ طويلٍ، وكان وجودُه قبل إنزال التوراة والإنجيل؛ فكيف يكون من أهلِها؟! وكيف يكون على دِين كتابٍ لم ينزل إلَّا بعد وفاته؟

وقد قيل: إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان قبل موسى بألف سنة، وكان بينه وبين عيسى ألفا سنة -على تقديرات بعض المؤرِّخين-.

ولذا قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بُطلانَ قولِكم؟ أي: أفلا يكون لكم عقلُ رُشْدٍ، تُدرِكون به فسادَ ادِّعائكم؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمالُ التاريخِ وترتيبِ الوجود الزمنيِّ في المُناظَرة.

وفيها: توبيخُ أهل الكتاب على مُجادَلتهم بالباطل.

وفيها: عُلُوُّ شأن الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومكانته بينَ جميع الطوائف.

وفيها: اعتبارُ العقل دليلًا، ما لم يخالِف الشَّرْع. والشَّرْعُ الصحيح لا يمكن أن يُخالِفَه العقلُ الصريح.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾:

ثم قال تعالى -مُوَبِّخًا أهلَ الكتاب على دخولهم فيما لا يُحسِنونه ولا يَعْلَمونه-:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ (الهاء) للتنبيه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مُنادَى، والتقدير: يا هؤلاء. أي: انتبهوا -يا معشر اليهود والنصارى-؛ فإنَّكم ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ وخاصَمْتُم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي: فيما وجدتُموه في كتبكم، في شأن أنبيائكم موسى وعيسى وغيرهما عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: أي ليس في كتبكم، مِن أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ حقيقةَ الدِّين الذي كان عليه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو بكلِّ شيءٍ عليم، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حقائقَ كثيرٍ من الأمور وما خفيَ عنكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المُحاجَّة التي يُراد بها إثباتُ الباطل وإبطالُ الحقِّ مذمومةٌ، وأمَّا المُحاجَّة لإظهار الحقِّ وإبطال الباطل: فمحمودةٌ مشروعةٌ مطلوبةٌ.

وفيها: أنَّ المُحاجَّة يجب أن تكون عن عِلْم.

وفيها: أنَّ العِلْم يجب أن يُستعمَل لنُصرة الحقِّ، فمِن الناس مَن يستعمل عِلْمَه في التلبيس والتدليس، ونُصرة الباطل.

وفيها: أنَّ نفي العِلْم لا يستلزِم رَفْعَ الإثم؛ فإنَّ الجاهل يأثَم على خَوْضِه في مسائل الدِّين بغير عِلْم، وعلى تقصيره وتفريطه في التعلُّم.

وفيها: ذَمُّ مُجادَلة الجاهل للعالِم، وأنَّه كان ينبغي عليه الاستماع له، والتعلُّم منه، وقَبول ما يتلقَّاه من الحقِّ.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من حُسن القَصْد والإخلاص وإرادة وَجْه الله في المُحاجَّة، إضافةً إلى كونها مبنيَّةً على العِلْم.

وفيها: استعمال أساليب التنبيه والنِّداء وغيرها في دعوة المخالِفين؛ لاجتلاب عقولهم وأفهامِهم وأنظارِهم.

وفيها: رَفْع الحرَج عن المتناظِرين بعِلْمٍ -مع أنَّ الصواب مع أحدهما-. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ -لـمَّا سُئل عن هذه الآية-: «يُعذَر مَن حاجَّ بعِلْم، ولا يُعذَر مَن حاجَّ بالجهل»[1].

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾:

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ أي: ما كان على دين اليهوديَّة؛ فإنَّها مِلَّة محرَّفة عن شَرْع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٧٢).

﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي: لم يكن أيضًا على دين النصرانيَّة؛ فإنَّها مِلَّة محرَّفة عن شَرْع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة وعن الشِّرك، إلى الدِّين الحقِّ القويم والتوحيد. ولذا بيَّن هذا فقال: ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: مُوَحِّدًا، مُنقادًا لأمر الله، ظاهرًا وباطنًا. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا شِرْكًا ظاهرًا، ولا خفيًّا؛ بل كان محارِبًا للشِّرك، صابرًا على التوحيد، وأُلقيَ في النَّار؛ دفاعًا عن التوحيد ومحاربةً للشِّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَبْرِئة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من دين اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ إذ كيف يتديَّن بدِين حدَثَ بعدَه، ثم هو دين محرَّفٌ؟!

وفيها: استِسلامُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للحقِّ، وبراءتُه من التعصُّب الذي وقعَ فيه اليهودُ والنصارى.

وفيها: تعريضٌ بأصحاب المِلَّتين، بأنَّهم كانوا مُشرِكين؛ بقول اليهود: «عُزَيرٌ ابن الله»، وقول النصارى: «المسيح ابن الله».

وفيها: أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على الإسلام العامِّ -كغيره من الأنبياء- والإسلام العامُّ هو التوحيد والاستِسلام لله -ظاهرًا وباطنًا- وهو دين جميع الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. والإسلام الخاصُّ هو شريعة نبيِّنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: التَّخْلية قبل التَّحْلية، والبَدْء بنفي الباطل قبل الوَصفِ بالحقِّ والثَّناءِ على البريء؛ لأنَّ تخلية الشيء ممَّا يُشينه أولًا، ثم إثبات حُسْنه؛ أولى في الكمال.

فقد قال تعالى في النفي أولًا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، ثم قال في الإثبات ثانيًا: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

وفي الآية: أنَّ التوحيد لا يكتَمِل إلَّا بنفي الشِّرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي: تارِكًا للشِّرك، قد عدلَ وانحرفَ عنه، ثم قال: ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: مُوَحِّدًا، ثم أكَّد نفيَ الشِّرك عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ فالتوحيد لا يتِمُّ إلَّا بإثباتٍ ونفيٍ.

وفيها: رَدٌّ على قُرَيش -ومَن وافقهم من مُشركي العرَب- في زعمهم أنَّهم على دين إبراهيم ومِلَّته؛ فإنَّ هؤلاء مُشرِكون، والله تعالى نفى أن يكون إبراهيمُ من المشرِكين.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾:

ثم حكمَ الله تعالى بينَ الخُصُوم الثلاثة -المسلمين واليهود والنصارى- في قضيَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقال:

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أقربهم وأحقَّهم ﴿بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: بالانتساب إليه ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وسلَكوا طريقَه، في حياته وبعد مماته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. وإفراده بالذِّكر تعظيمًا له، وكفى بها فخرًا، هذه الإشارة إليه من ربِّ العالمين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، من أصحابه المهاجِرين والأنصار، ومَن بعدَهم من هذه الأُمَّة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ناصِرهم وحافِظهم، وهو يتولَّاهم بالتأييد، والتوفيق والتسديد، والجزاء الحَسَن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسلمين أحقُّ من اليهود والنصارى وغيرهم من المشرِكين بمُتابَعةِ إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والانتسابِ إليه.

وفيها: استعمال المؤكِّدات في بيان الحُكم في قضايا الاختلاف والصِّراع، كما جرى التأكيد عليه في الآية بـ (إن) و(اللام).

وفيها: تشريف الله لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، بالإشارة إليه في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾، واستعمال اسم الإشارة للقريب، يدلُّ على قُرْب النبيِّ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، وهو -بلا شكٍّ- أقربُ الناس إلى الله منزلة.

وفيها: أنَّ طريق الإيمان واحد، يدخل فيه السابقون واللَّاحِقون، مِن أتباع إبراهيم

عَلَيْهِ السَّلَامُ في عَصْره -كإسماعيل وإسحاق ويعقوب- ومَن بعدهم من أولادِهم المؤمنين، وكذلك **محمَّد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وتابعوهم بإحسانٍ، ومَن سار على هَديهم إلى يوم الدِّين.

وفيها: أنَّ الإيمان يستَلزِم القَبولَ والإذعانَ، واتِّباعَ كلِّ الشريعة.

وفي الآية: بيان الولاية الخاصَّة من الله، التي تقتضي تيسيرَ الأمور، وإصلاحَ الشأن، والنُّصرةَ، والحِفظَ، والإكرام، وحُسنَ الثواب. وهذه الولاية لا تكون إلَّا للمؤمنين.

وفيها: تفاضُل الناس في الأولويَّة والولاية -فهي درجات-؛ فهناك مَن هو أشدُّ في الاتِّباع وأحقُّ بالولاية من غيره.

وفيها: أنَّ مَن كان أكملَ إيمانًا؛ فولاية الله له أكمل؛ لأنَّ الحُكم (وهو الولاية) المعلَّق بوَصْف -وهو الإيمان- يزداد قوَّة بقوَّة هذا الوَصف الذي عُلِّق عليه الحُكم، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيها: شَرَف النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن آمن معه؛ لكونهم أولى الناس بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تنازَعْته الأُمَم.

وفيها: أنَّ الإيمان بالله هو طريق ولاية الله؛ لأنَّ الله علَّق (ولايته) بالإيمان، وتعليق الحُكم بوَصْف ما، يُشْعِر أنَّ هذا الوصف عِلَّة لهذا الحُكم.

وفيها: أنَّ شريعة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرب إلى شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيره من الأنبياء. فشريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت -مثلًا- أسهل وأسمَح من شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد عاقبَ الله بني إسرائيل ببعضِ التكاليف الصعبة والآصار والأغلال؛ جزاءً لعِنادهم وتكذيبهم.

وفيها: أنَّ الاتِّباع هو الدليلُ على صِحَّة الموالاة.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٦٩﴾:

ثم بيَّن الله تعالى حُبَّ اليهود لنشرِ الشرِّ، وإضلالِ المسلمين، والدَّعوةَ إلى ذلك -حَسَدًا من عند أنفسهم-؛ فقال:

﴿وَدَّت﴾ أي: أحبَّت حُبًّا شديدًا، وتمنَّت **﴿طَّآئِفَةٌ﴾** جماعة **﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾** وهم:

اليهود والنصارى. وكان اليهود أكثرَ أهل الكتابَين مخالَطةً للمسلمين في المدينة، وقتَ نزول هذه الآيات.

فـوَدُّوا ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ أي: أن يُضِلُّوكـم عـن دينكـم، ويُخرِجوكـم منـه، ويُنَفِّروكم عنه، ويُوقِعوكم في الضلال، ويُعيدوكم إلى ظُلُمات الشِّرك والكُفر، بالدَّعوة إلى ديانتهم الباطلة، وإلقاء الشُّبُهات والتشكيك في دين الإسلام.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: أنَّ اشـتغالهم بإضلالكـم هـو في الحقيقـة صرفٌ لأنفُسِـهم عن الحقِّ؛ لأنَّ مَن اشـتغلَ بإضلال غيره؛ فقد انشـغلَ عن الهدى والحقِّ، وسلكَ السُّـبُل الضالَّة للدعوة إلى الباطل، فَضَلَّ عن الحقِّ -مَسْـلكًا ونتيجةً- وبهذا يكون قد أضلَّ نفسَه، وعرَّضها للهلاكِ والعقوبةِ في الآخرة.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: مـا يعلَمـون أنَّهم أضاعُـوا الوقت في محاولـة إضلالكم؛ لأنَّكم ثابِتون على الحقِّ، ولا يُدرِك هؤلاء أنَّهم قد ازدَادوا إثمًا بتمنِّيهم الباطلَ، وحِرْصِهم وسَعيهم على إفساد الآخَرين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين، وأنَّ هذه الحقيقة يجب ألَّا تغيب عن وَعي المسلمين.

وفيهـا: أنَّ الحَسَـد يدفـع إلى البَغـي، والسَّـعي في الإضـلال، وتمنِّـي زوال النِّعمـة عن الآخَرين -ومنها: نِعمة الهداية عن المهتَدِي-.

وفيها: التحذير من الطوائف الأخرى من الكفَّار، التي ستَسلُك مَسْلَك هذه الطائفة من أهل الكتاب، في السَّعْي إلى إضلال المسلمين.

وفيها: أنَّ صاحب الضلال يسعَى لإضلال الآخَرين؛ ليكونوا مِثلَه، فلا يتميَّزون عليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩].

وفيها: أنَّ العدُوَّ اللَّدود للمسلِم هو: مَن يسعى في سَلْب نِعمة الإسلام عنه؛ فيجب الحذَرُ منه، والمحافظةُ على نِعمة الإسلام.

وفيها: مجازاةُ الله تعالى للمعتَدِي بمِثل عُدوانه، ومُعاملتُه بنقيض قَصدِه، والمَكْرُ به؛ حيث يزداد ضلالًا وإثمًا وهلاكًا -وهو لا يشعر- حينما ينشَغِل بإضلال الآخَرين.

وفيها: تثبيتٌ للمسلمين؛ فكأنَّ الله يقول لهم: اثبُتوا على ما أنتم عليه من الحقِّ؛ فإنَّ هؤلاء لن يضرُّوكم شيئًا، وإنَّما يضرُّون أنفُسَهم، وسعيهم في إضلالكم سيذهب هَباءً منثورًا؛ لأنَّكم لن تتركوا الحقَّ، ولن تُتابِعوهم في الباطل، ولن تُحقِّقوا لهم أمنيَّتهم.

وفيها: أن الإنسان قد يعمَى عن الباطل، مع ممارَسته له.

وفيها: أنَّ الله قد أحاط بما في القُلُوب؛ فإنَّ (الوُدَّ) و(التمنِّي) محلّه القَلْب، وهو مخفيٌّ فيه، ومع هذا: أخبرَ الله المسلمين به.

وفي الآية: رَدٌّ على مَن يُحْسِن الظنَّ بأهل الكتاب، ويزعم أنَّهم يُريدون بالمسلمين خيرًا.

وفيها: مِنَّة الله على المؤمنين، بإخبارهم عن مؤامرات الأعداء، وما يُضمِرونه من الشرِّ، وما يُخَطِّطون له؛ ليكون المسلمون على حذَر منهم.

وفيها: قُبح جريمة اليهود، الذين تركُوا الإيمان بالنبيِّ ﷺ، المعلومِ عندَهم صِفتُه، ومكانُ هِجرته، وحالُه وأخبارُه، واشتغلوا -بدلًا من ذلك- بعداوته والتنفير عنه!

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾:

ثم وبَّخ الله تعالى أهلَ الكتاب على إصرارهم على الكُفر؛ فقال:

﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ من اليهود والنصارى -واليهود خاصَّةً- ﴿**لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ**﴾ أي: تجحَدونها وترْفُضونها، ومنها: الآيات الواردة عندكم في التوراة والإنجيل، في صفة النبيِّ ﷺ، والبِشارة به، ووجوب اتِّباعه. و(الآيات): جمع «آية»، وهي العلامة الدالَّة البيِّنة.

ولذا قال: ﴿**وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ**﴾ أي: تعلمون يقينًا بحواسِّكم وعقولكم، وتقرأون ما هو مكتوبٌ عندكم في كتُبكم، وترَون معجِزاتِ هذا النبيِّ ﷺ أمامَكم، وتَسمَعون هذا القرآن يُتلى عليكم، وتشهَدون إعجازَه بقُلُوبكم وعقولكم؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال أسلوب الاستِفهام التوبيخيّ، في دعوة المعانِدين.

وفيها: أنَّ الشَّهادة أقوى من العِلْم؛ لأنَّ العِلْم يكون بالقَلْب وحده، والشَّهادة تكون بالقَلْب والحِسِّ -كالرُّؤية بالعَين، مع يقين القَلْب-.

وفيها: نصٌّ واضحٌ، وحكمٌ صريحٌ، في كُفر أهل الكتاب. وبهذا يتبيَّن ضلالُ مَن يَصفهم -من أهل زماننا- بالمؤمنين، وأنَّ اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الدِّيانات السابقة على حقٍّ كالمسلمين! فهذا ضلالٌ وكفرٌ مبينٌ، مخالفٌ ومناقضٌ لِما حكمَ الله به على أهل الكتاب، وهو معلومٌ من الدِّين بالضرورة.

وفيها: أنَّ مَن يكفُر عن عِلْم وشهادة، أقبحُ بكثير ممَّن يكفُر عن جهلٍ وشُبهة.

وفي الآية: بيانُ تناقُضِ أهل الكتاب مع أنفُسهم؛ فإذا كانوا يدَّعون الإيمانَ بالتوراة والإنجيل؛ فكيف يكفُرون بما فيهما من وجوبِ الإيمان بمحمَّد ﷺ؟! كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾:

ثم وبَّخ الله تعالى أهلَ الكتاب على جريمةٍ أخرى من جرائمهم، ووسيلةٍ من وسائلِهم في إضلال الناس؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فتخلِطون ما أنزل الله تعالى بما كتبتُموه بأيديكم، وتُفسِّرون كلام الله على غير مُراده، وتُوقِنون في أنفسكم بأنَّ محمَّدًا ﷺ نبيٌّ مُرسَل، ثم تقولون: إنَّه ليس مُرسلًا إلينا، أو تجحَدون نبوَّته في الظاهر، أو تأتون بعباراتٍ مُجمَلة تحتَمِل حقًّا وباطلًا؛ بغرض التلبيس على الناس.

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ المذكورَ في كتُبكم، من صفة النبي ﷺ **﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾** أنَّه رسول الله حقًّا، وتعلمون عقوبة الكِتمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مَكْرُ أحبارِ ورُهبانِ أهلِ الكتاب، في التلبيس على الناس؛ لعِلْمهم أنَّهم لو جاءوا بالباطل صريحًا لـمَا تَبِعَهم أحد، ولانْكشفَ أمرُهم؛ فعمِدوا إلى التمويه والخداع.

وفيها: أنَّ أهل الباطل يستعمِلون شيئًا من الحقِّ في التلبيس والتضليل، كما يفعله بعضُ العرَّافين والسَّحَرة والمشعوِذين، مِن خَلْط رُقاهُم الشِّركيَّة ببعضِ الآياتِ القرآنيَّة، والتأكيد على الناس أنَّ الغَيبَ لا يعلمه إلَّا الله، تلبيسًا وإضلالًا للناس!

وفيها: وجوبُ الحذَر من المخادِعين، وعدم الاغتِرار بزُخْرُف القول، والتبصُّر عند سماع كلام أهل الباطل.

وفيها: ذكر جَريمةِ التلبيس والكِتمان، وأنَّهما من مَسالِك طائفةٍ من أهل الكتاب في إضلال الناس.

وفيها: أنَّ الواجب على أهل العِلْم والتوحيد حلُّ الشُّبه وإبطالُها وتفنيدُها، وبيانُ الحقِّ وإظهارُه ونَشْرُه.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾:

ثم بيَّن الله تعالى شيئًا من كَيد اليهود، وكشفَ للمؤمنين أمرًا من مَكْرهم وكَيدهم؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: جماعةٌ من أحبارهم ورؤسائهم، متآمِرين فيما بينهم: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: أظهِروا المتابَعة والتصديق ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو: القرآن والشريعة ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوَّله، وذلك بصلاتكم الفجرَ مع المسلمين جِهة الكعبة ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾ بما أُنزِل عليهم، أي: ارْجِعوا عنه، وارتدُّوا إلى دينكم ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: آخرَ النهار، وعُودوا لصلاتكم إلى بيت المقدِس.

وكان هذا التصرُّف منهم تضليلًا وتلبيسًا على عوامِّ الناس؛ ولذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: العامَّة وجَهلة الناس ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يَترُكون الإسلام ويَرتدُّون عنه، ويقولون: ما رجعَ أولئك الأحبار إلى دينهم وترَكُوا الإسلام، إلَّا لنقائصَ وعيوبٍ اطَّلعوا عليها، وأهل الكتاب أعلَمُ، وقد جرَّبوا دينَهم، وهذا الدِّين!

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله تعالى لعباده؛ بإطْلاعِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوليائه من المؤمنين على أسرارِ اليهود ومَكْرِهم.

وفيها: فَضْح أهل الباطل؛ ليكون أهلُ الحقِّ على بيِّنة، فيحذَروا منهم.

وفيها: عِلْم الله بالخفيَّات، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟**﴾ [المجادلة: ٧].

وفيها: سَعْي أهل الباطل إلى تشكيك أهل الحقِّ في دينهم، واستعمال أنواع المَكْر والحيلة لأجل ذلك، والتظاهُر بأمرٍ للتوصُّل إلى آخر.

وفي الآية: مُعجِزة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باطِّلاعه على أمورٍ من الخبايا والخفايا.

وفيها: تثبيت المؤمنين بهَتْك أستار مَن يتربَّص بهم مِن المجرِمين.

وفيها: رَدْعٌ لأولئك المجرِمين ووازِعٌ؛ حتى لا يعودوا إلى مِثل فِعلهم، إذا عَلِموا أنَّ عاقبتَهم: الفَضْحُ والانكِشاف.

وفيها: أنَّ أهل الكُفر الصُّرَحاء قد يسلُكون مَسالِك المنافِقين، ويستَعمِلون أساليبَهم.

وفيها: أنَّ على أهل الإيمان الحذَرَ من الموافَقة المفاجِئة من أعدائهم لهم؛ فقد يكون وراء ذلك ما وراءَه من الخُبث والدَّهاء؛ فقد يتظاهرُ اليومَ بعضُ الكفَّار بالدُّخول في دين الإسلام، ويُعلِنون ذلك، ثم يرتَدُّون بعد مُدَّة وجيزة، ويجهَرون بهذا في الناس، ويعلِّلون هذا بأنَّهم لم يَسْعدوا بهذا الدِّين، وأنَّهم جرَّبوه فوجَدوه مُرًّا نَكِدًا، لا يُناسب رُوح العصر... إلى آخر هذه الافتراءات! ثم تُستَغلُّ مثل هذه المواقف والأحداث من قِبَل الأعداء، فيُبرِزونها في إعلامِهم، ويُضَخِّمونها في حَرْبهم النفسيَّة على المسلمين!!

ولذا: جاء التشريعُ الإسلاميُّ بقَتْل المرتَدِّ؛ حمايةً لجَناب الدِّين، وحِفاظًا على هَيبته، وقطعًا لدابر أمثال هؤلاء المُفسِدين، الذين يُمكِن أن يلجأوا إلى الدُّخول فيه لمعرفة أسرار المسلمين وكَشف عوراتهم، ثم الرِّدَّة بعد ذلك، أو يفعلون هذا؛ خَلْخَلةً لصفوف المؤمنين، وهَدمًا لكيانهم، وإدخالًا للشُّكوك في قُلُوب البُسطاء تجاه هذا الدِّين؛ ففي الحديث: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

وقريبٌ من هذا: ما قد تفعله بعضُ الفاسِقات، من ارتداء الحِجاب مُدَّة من الزمن، واعتزال بعض المعاصي، وإظهار التوبة، ثم ما تَلبث أن تعودَ إلى سابق عهدها من الفِسْق والفُجور والتبرُّج؛ فيقع الشَّكُّ في قُلُوب عوامِّ المسلمين، ويعتقدون أنَّ حياة التديُّن صعبة لا تُطاق، ويُقطَع الطريق على مَن يريد العودةَ إلى الله. وفي هذا أيضًا حَرْبٌ نفسيَّةٌ للتائبات الصادِقات، اللَّاتي تركْنَ هذه الأوساط العَفِنة، أو اللَّاتي يَعْزِمنَ على هذا؛ فيحصُل لهن من التثبيط والتشكيك ما لا يخفى. والله المستعان على مَكْر هؤلاء.

وفيها: أنَّ أول النهار يُسَمَّى (وجهًا) لحُسْنه، وهو ما بعد طلوع الفجر، وهو أفضل أوقات النهار، وفي البُكور برَكة.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مزيدًا من كلام اليهود، الذي أسَرُّوه فيما بينهم، وتواصيهم على الكِتمان، بقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: لا تَطْمَئِنُّوا، وتُظْهِروا مَكْرَكم وحِيلتكم، ولا تُفشوا سِرَّكم، ولا تكشِفوا ما في أيديكم من كتُبكم للمسلمين -وفيها صفة النبيِّ ﷺ والبِشارة به- فيؤمِنوا به، ويحتَجُّوا به عليكم. فلا تفعلوا هذا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وتَطْمَئِنُّون إليه؛ فلا بأس أن يطَّلع على ذلك.

وقيل في معنى الآية: لا تُصَدِّقوا إلَّا مَن تَبعَ دينكم، ووافقَ ملَّتكم اليهوديَّة.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فيهدي مَن يشاء، وإن كَتمتُم ما في كتُبكم من الحقِّ، وامتنعتُم عن الإقرار بنبوَّة أحدٍ غيرِ نبيِّكم؛ فإنَّ ذلك لن يضُرَّ المهتَدين؛ فالله تعالى هو الذي يهدِي قُلُوبَ المؤمنين إلى أتمِّ الإيمان، بما ينزِّله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البيِّنات، والحُجَج القاطِعات.

ثم ذكرَ تعالى سبَبَ كِتمان اليهود وعدمِ إيمانهم، وهو: خَشيتهم أن يظهرَ ما عندَهم من العِلْم للمُسلمين، فيُساووهم فيه، أو يتَّخِذوا ذلك حُجَّة عليهم.

فتقدير الكلام: لا تؤمِنوا إلَّا لَمَن تَبِعَ دينكم، ولا تؤمِنوا ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أي: لئلَّا يؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم، من العِلْم والكتاب والحِكمة والمُعجِزات والآيات. فقد كان اليهود يمتَنِعون عن الإقرار بالنبوَّة لغير نبيِّهم، ويمتَنِعون عن الإيمان بفضائلَ ومعجِزاتٍ لغير نبيِّهم؛ حتى لا يكونَ ذلك إدانةً لهم، ولا يكونَ للمسلمين حُجَّةٌ عليهم من كلام أنفُسِهم، ولذا قالوا: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فتكونَ للمُسلمين الحُجَّةُ عليكم يومَ القيامة، إذا أقررتُم بنبوَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تدخُلوا في دينه.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ فالأمور كلُّها تحت تصريفه، وهو المُعطي المانِع، فمهما حاولتُم الإخفاءَ -حَسَدًا وبَغيًا- فلن تمنَعوا أمرَ الله الواقع، وإيتاءَه الفَضْلَ والنبوَّة لمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأييدَه بالمُعجِزات، وإكرامَ أُمَّته بهذه الفضائل والشرائع، التي تزيد وتربو كثيرًا على الفضائل التي آتاكم الله إياها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في فَضْله وإحسانه، وجميعِ صفاته، أي: واسع العِلْم، وواسع الرحمة، وواسع الحِكمة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يصلُح للإحسان، وإيتاء الفَضْل.

ولذا قال بعدَها: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤتي النبوَّة مَن يشاء، ويهَب الفَضْل والهداية مَن يشاء، ويؤتي الإسلام والقرآن مَن يشاء.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمِنَن الكثيرة، وقد اختصَّ المسلمين بالفضائل العظيمة الكثيرة.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

مَكْر اليهود، ولجوؤهم إلى كِتمان الحقِّ؛ لخشيتهم من الهزيمة في معركة المُحاجَّة.

وفيها: حَسَد اليهود، الذي يدفعهم إلى محاوَلة منع فَضْل الله من الوصول إلى عباده!

وفيها: تطمين المؤمنين إلى أنَّ محاولات اليهود ستَبوء بالفَشَل.

وفيها: شُحُّ اليهود بالعِلْم، وأنَّهم لا يريدون أن يتعلَّم أحدٌ شيئًا من العِلْم؛ لِئلَّا يُساويَهم أو يمتازَ عليهم.

وفيها: عصبيَّة اليهود البغيضة، التي يريدون بها حَصْر المزايا في دائرة (مَن تَبِعَ دينَهم) فقط!

وفيها: أنَّ هُدى الله يصل إلى مَن يريدُه عَزَّوَجَلَّ، مهما كانت الحُجُب وموانع البشر، ومحاولات التعتيم والدِّعايات المُضلِّلة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وفيها: حِرْص اليهود أن تبقى مؤامراتهم سِرِّيَّة، ومن ذلك: ما تمالَؤوا عليه من إظهار الإسلام في أول النهار، والكُفر به في آخره.

وفيها: أنَّ اليهود كفَّار، رَغْم إيمانهم بيوم القيامة، وما سيكون فيه من المُحاجَّة والمُجادَلة والمُخاصَمة.

وفيها: عِناية اليهود بتثبيت أشياعهم وجماعتهم، والسَّعْي في تشكيك عامَّة المسلمين.

وفيها: أنَّ الله تعالى لا يُخَصِّص الهدى لطائفة أو شعب أو جنس بعينه؛ وإنَّما يهدي مَن يشاء من الشُّعوب والأجناس والطوائف والأفراد.

وفيها: جَحْد اليهود لفضائل غيرهم، مهما كانت واضحة.

وفيها: أنَّ خُبْث النِّيَّة وسُوء القَصْد من أسباب حِرمان التوفيق والهداية.

وفيها: أنَّه ينبغي نشر الفضائل والمحاسِن، ونقلها إلى أهل الأرض.

وفيها: عدم البُخل بالعِلْم، وألَّا يحزنَ المرءُ إذا صار غيرُه أفضلَ وأعلمَ منه، بسببِ هذا العِلْم.

وفيها: أنَّه لا يجوز حسَدُ الغير على فَضْلٍ آتاه الله إيَّاه.

وفيها: إثبات صفة (اليد) لله تعالى، على الوَجْه اللَّائِق به.

وفي قوله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: إجمالٌ؛ ليبقى معه رجاءُ الراجي وخوفُ الخائف؛ فتتطلَّع النفوس إلى رجاء الفَضْل والدُّعاء به، وتخشى حِرمانه بالمعصية، فتتوب منها؛ لعلَّ الفَضْلَ يشمَلُها.

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ
إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى خِيانةَ اليهود في الدِّين والعِلْم، ومكرَهم وكِتمانَهم؛ ذَكرَ خيانتَهم في المال، وأنَّ منهم الخائن والأمين، وأنَّهم قسمان؛ فقال:

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا يشمل: اليهود والنصارى ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ﴾ أي: تُودِع عنده أمانة، وتجعله أمينًا عليها ﴿بِقِنطَارٖ﴾ وهو: المال الكثير الجزيل من الذهب ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: يَرُدّه إليك سالمًا من غير نقص ولا مُماطَلة، وهو على الأمانة فيما دون القِنطار، من باب أولى.

وليس في هذه الآية تعديلٌ لأهل الكتاب ولا لبعضِهم -كما قد يُتوَهَّم-؛ ففي فُسَّاق المسلمين مَن يؤدِّي الأمانة ويؤتمَن على المال الكثير، ومع هذا لا يكون عدلًا بمجرَّد هذا؛ فكيف باليهود الذين يعتقِدون استباحةَ أموالِنا وحريمِنا بغير حَرَجٍ؟! ولو كان ذلك كافيًا في عَدالتهم؛ لقُبلت شهادتُهم على المسلمين، لكن هذا لم ولن يحصُل.

﴿وَمِنۡهُم﴾ أي: من أهل الكتاب -واليهود خاصَّة- ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ﴾ أي: المال القليل، قيل: سُمِّيَ (دينارًا)؛ لأنَّه دَين ونار، فمَن أخذَه بحقِّه فهو دَينه، ومَن أخذَه بغير حقِّه فله النَّار(١).

فمِن هؤلاء اليهود مَن إذا استؤمِنَ على مالٍ قليلٍ؛ ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ ولا يَرُدّه سالمًا، بل يُنقِصه ويخون فيه، فهو على الخِيانة فيما فوقَ الدِّينار من باب أولى.

اللهُمَّ ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ أي: على رأسه، ملازِمًا له ومُلِحًّا عليه، ناظِرًا أحوالَه، غيرَ غافِلٍ عنه، مُبالِغًا في مُطالَبته. فإذا غَفَلْتَ عنه خانكَ، وأكلَ مالَك، ورُبَّما أنكرَه ولم يَرُدَّه.

قال بعض المفسِّرين: الأمانة التي في أهل الكتاب هي إلى النصارى أقرب، والخِيانة التي فيهم هي إلى اليهود أقرب.

---

(١) رُوي ذلك عن مالك بن دينار، انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٨٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: خيانتهم تلك بسَبَب أنَّهم ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا﴾ فيما أَخَذْنا ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ من أموالهم. و(الأُمِّيُّون): هم العرَب؛ لأنَّهم كانوا لا يقرَأون ولا يكتبون، فنُسِب (الأُمِّيُّ) إلى أُمِّه، التي ولدتَه على هذا الجَهْل.

وقال بعض المفسِّرين: المقصود بـ(الأُمِّيِّين): مَن سوى اليهود، أو: مَن سوى أهل الكتاب.

فقالوا: ليس فيما أخذنا من أموال هؤلاء ﴿سَبِيلٞ﴾ أي: إثمٌ وحَرَجٌ، ولا يتطرَّق إلينا لَوْمٌ. والمعنى: أنَّ هؤلاء اليهود يعتَقِدون أنَّه ليس عليهم -فيما يأخُذون ويجْحَدون ويَخْتَلِسون من أموال العرَب- مؤاخذةٌ ولا إثمٌ، وأنَّ أموال العرَب حلالٌ على اليهود؛ لأنَّهم ليسوا على دينهم، ولا حُرمة لهم، واليهود يعتَقِدون أنَّهم أبناء الله وأحباؤه؛ فليس عليهم حرجٌ -بزعمهم- إذا أكَلُوا أموالَ عباده!

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: يفتَرون ويدَّعون أنَّ هذا شَرْعٌ من الله، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ أكلَ أموال الناس بالباطل حرامٌ، وأنَّهم كاذِبون فيما نَسَبوه إلى شريعتهم.

ثم رَدَّ الله تعالى عليهم، وأبطَلَ مقولتَهم وزَعْمَهم؛ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا حرفُ إبطال -أي: لما قالوه-. والمعنى: بلى، عليهم سبيلٌ وإثمٌ وحَرَجٌ، هم، وكلُّ مَن خان الأمانة.

ثم قال تعالى -مبيِّنًا محبَّته الوفاءَ بالعَهْد، وحِفظَ حقوق الخَلْق-: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ﴾ وأتمَّ ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾ الذي بينَه وبين الله من الإيمان، وبينَه وبين الناس من أداء الأمانة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: فَعَل ما أُمِرَ به، واجتنبَ ما نُهِي عنه -من الكُفرَ والخِيانةِ ونَقْضِ العهد- وعَمِلَ بطاعة الله، يتَّقي عذابه ويخشى عقابه؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: وهذه محبَّةٌ حقيقيَّةٌ، تقتضي إكرامَ هؤلاء وإثابتَهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

العَدْل في الحُكم على الأعداء والخُصُوم.

وفيها: الحذَر في المعامَلة مع أهل الكتاب؛ فالخِيانة فيهم كثيرة، وخيانتهم قائمةٌ على اعتقادٍ باطلٍ عندَهم، بجواز أكلِ أموال الآخَرين!

وفيها: الحذَر من ائتمان اليهود والنصارى على مصالح المسلمين؛ لأنَّهم سيَسْعَون للإضرار والإفساد والخِيانة؛ ولذلك أنكر عمرُ على أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اتِّخاذَه رجلًا نصرانيًّا كاتبًا -رَغْم إتقانه الكتابةَ- وقال له: «لاَ تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلاَ تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلاَ تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وإذا كان اليهود والنصارى يخونون في الأموال؛ فخيانتهم بكَشف أسرار المسلمين أشدُّ وأكثرُ حصولًا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفيها: اغترار أهل الكتاب بأنفُسِهم، واحتقارهم لغيرهم، وهذا هو الكِبْر؛ ففي الحديث: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»(٢)، ومعنى (بَطَر الحَقِّ) أي: دَفْعه وإنكارُه -ترفُّعًا وتجبُّرًا- و(غَمْط الناس): احتِقارهم.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب يَظْلِمون ويعتَدون على أموال الناس، اتِّباعًا لهوى النفس، وينسِبون هذا -كَذِبًا- لشريعتهم ودينهم.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله الكَذِب في الفتوى؛ ففيه شَبَهٌ من أهل الكتاب.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله الكَذِبَ وهو يعلَم، أشدُّ إثمًا ممَّن فعل هذا وهو لا يَعْلَم.

وفيها: أنَّ التَّقوى والوفاء بالعَهد من أسباب محبَّة الله.

وفيها: تعظيم شأن العهود والعقود. و(العَقد): عَهدٌ بينَ المتعاقِدَيْن.

وفيها: تعظيم أمر الله، والشَّفقة على خَلْق الله، وأنَّ الوفاء بالعَهد يشتمل عليهما جميعًا، وأنَّ على المؤمن أن يفيَ بما التزمَ به لربِّه من العَهد، وما التزمَ به للخَلْق من العقود والأمانات.

وفيها: أنَّ الانتِساب إلى جنس أو شعب أو قبيلة معيَّنة، لايقدِّم ولا يؤخِّر في الاستثناء من الواجبات.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٢٧).

(٢) رواه مسلم (٩١).

وفيها: أنَّه ينبغي مُراقبةُ الخائِن والقيامُ عليه، إذا اضطُّر الإنسان إلى التعامل معه.

وفيها: أنَّ من التضييع: ائتمان الخائن.

وفيها: أنَّ الخَوَنة رُبَّما يبِّررون لأنفُسِهم ما يفعلون؛ ليرفعوا عنها تأنيب الضمير.

وفيها: أنَّ الخائن في الأموال لايؤتمَن على ما هو أخطر -كالأعراض والأسرار-.

وفيها: أنَّ احتِقار الآخَرين يؤدِّي إلى أكل حقوقهم، والاستهانة بها.

وفيها: قُبْح الخِيانة في جميع الشرائع.

وفيها: تعظيم الأمانة عند الله، ووجوب ردِّها إلى البرِّ والفاجر.

وفيها: أنَّ الاعتقاد الفاسد يجرُّ إلى العمل الفاسد.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته. ولا يجوز تأويلُها إلى: الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازِمها، وما يترتَّب عليها، فنُثبِت (المحبَّة) لله، ونُثبِت لوازِمَها -من الإثابة والإكرام وغيرها-.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾:

ولـمَّا مدحَ الله تعالى الذين يُوفون بعهودِهم؛ ذَمَّ خائني العهود؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ أي: يستَبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ فهم يتخلَّون عن عَهْد الله ويَبيعونه، فـ(الباء) تدخُل على المتروك.

و(عَهْد الله): هو ما أُخِذَ عليه ميثاق العِباد، مثل: عبادته وحدَه لا شريك له، والإيمان بالرُّسُل، ونَصرهم، وتبيين الحقِّ وعدم كِتمانه، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، وغيرها من العهود. ويدخل فيه أيضًا: العهود مع الخَلْق، كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: جمع «يمين»، وهو: القَسَم والحَلِف.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ يأخذونه من عُرُوض الدُّنيا الفانية الزائلة، مُقابِل خِيانة العَهد والحَلِف على الكَذِب، فلا يُوفون بما عاهَدوا الله عليه، ولا ما عاهَدوا عليه الخَلْق.

فتوعَّدهم الله تعالى بالحِرمان من النعيم، وبالعذاب الأليم؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ أي: لا حظَّ ولا نصيبَ من الخير ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: من نعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامَ رِضا؛ بل يُخاطِبهم خطابَ إهانةٍ وتقريع وتوبيخ؛ كقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقوله ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: نظرَ رحمة ورأفة وإحسان، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُطَهِّرهم من الذُّنوب والدَّنس، ولا يغفِر لهم؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للتزكية. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: نكالٌ، وعقوبةٌ مُوجِعةٌ.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

فَقَالَ الأَشْعَثُ بنُ قَيسٍ: فِيَّ -وَالله- كَانَ ذَلِكَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ من اليَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟»، قُلْتُ: لَا، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[(١)].

وفي هذا دليلٌ على: أنَّ قضاء القاضي وحُكم الحاكم لا يغيِّر حقيقة الأمر؛ فلو حكمَ القاضي بالمال المتنازَع عليه لغير صاحبه -بحَسَب ما ظهر له، أو نتيجة استعمال المدَّعِي بالباطل لشهود الزُّور أو اليمين الكاذِبة-؛ فإنَّ هذا الحكم لا يُصيِّر المال حلالًا للظالم.

وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَتْرُكْهَا»[(٢)].

وعن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بالله لَقَدْ

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا من المُسْلِمِينَ! فنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية[(١)].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مِرَارًا.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ: يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[(٢)].

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ: لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى، وَهُوَ كَاذِبٌ. وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ. وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ الله: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي، كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيمُ عَهدِ الله.

وفيها: تحريم اليمين الغَمُوس، الذي يُقتطَع به مالُ امرئ مسلم بغير حقٍّ.

وفيها: تقديم الآخرة على الدُّنيا.

وفيها: إثبات الكلام لله.

وفيها: أنَّ انتفاء النظَر الخاصِّ لله إلى بعض خَلْقه، لا ينفي نظَره العامَّ إليهم؛ لأنَّه يرى الجميع، ولا يَحْجُب شيءٌ أحدًا من خَلْقه عنه.

وفيها: تنوُّع العذاب على الخائِنين؛ فمنه: عذاب للنفس -كالسَّخَط والاحتِجاب- وعذابٌ للجسد -كالنَّار- والخائِنون درجات -من الكُفر، فما دونَه من نقض العهود، وأكل الحقوق- وكلُّ خائن يأخذ من وعيد الآية على قَدْرِ جريمته.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

(٣) رواه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

وفيها: أنَّ من العقوبات العظيمة: الحِرمان من التطهير؛ فيأتي المحرومُ يومَ القيامة وهو متدنِّسٌ متلطِّخٌ بالجرائم القبيحة، والذُّنوب العِظام.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

ثـم ذكرَ الله تعالى من جرائـم أهل الكتاب -واليهود على الأخصِّ- تحريفَهم لكلام الله؛ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾: يُغيِّرون ويَعْطِفون، بالتحريف والتغيير. وهذا يشمل اللَّيَّ اللَّفظيَّ، واللَّيَّ المعنويَّ:

فأمَّا اللَّيّ اللفظي: فتارةً يكون بكلام مختَرَع أنشأوه، يقرأونه ويُلَحِّنونه كما يقرأون التوراة، وتارةً بتحريف الكَلِم، بإضافة حرفٍ أو إنقاص حرف -مثلًا- ليحسَب مَن لا عِلْمَ عنده بالتوراة أنَّ هذا ممَّا أنزله الله فيها. وهذا معنى قوله تعالى ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: لِتَظُنُّوه من كتاب الله المنزَّل عليهم.

وأمَّا التحريف المعنوي: فهو تفسير كلام الله على غير مُراده؛ لِيظُنَّ السامع أنَّ هذا هو مراد الله.

وقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيه ردٌّ عليهم؛ فإنَّ هذا المحرَّف ليس منزَّلًا من عند الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: اليهود ﴿هُوَ﴾ أي: المحرَّف ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: من الكتب التي أنزلها على أنبيائه، كتوراة موسى، وزَبور داود، وإنجيل عيسى.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: تكرارٌ للنفي؛ تأكيدًا لكَذِبهم، وتشنيعًا عليهم وعلى جُرأتهم التي بلغَت حدَّ الافتراء على الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في أسمائه وصفاته، كقولهم: «يد الله مغلولة»، «إنَّ الله فقير»، «إنَّ الله تَعِبَ لـمَّا خلقَ السماوات والأرض، واستراح يوم السبت»، وقولهم: «عُزَيرٌ ابن الله»، وغيرها من الافتراءات والأكاذيب.

ويَكْذِبـون عـلى الله تعـالى أيضًـا في أحكامـه؛ كقولهـم: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾؛ فيستَحِلُّون أموال الناس، ويزعُمون أنَّه لا حرجَ عليهم ولا إثم في هذا!

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ هذا كَذِبٌ، ويعلمون حُكمَه، وأنَّه إثمٌ وحرامٌ، ومع ذلك يتعمَّدون فِعْلَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان جريمة الكَذِبِ على الله والافتراءِ عليه.

وفيها: التحذير من الانخداع بألاعيب وأكاذيب وافتراءات أهل الكتاب.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب يَسْعَون إلى إضلالِ المسلمين، والتلبيسِ على العامَّة.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب لا يؤتَمنون على كتُبهم.

وفيها: جُرأةُ اليهود، بالكَذِبِ على الله، ونِسْبةِ ما لم يَقُلْه إليه، ونفيِ المعنى الحقِّ، وإثباتِ المعنى الباطل.

وفيها: جَمْعُ اليهود بين الكَذِب في القول والفِعْل.

وفيها: سَعْي أعداء الله إلى تحريف اللَّفظ وإفساد المعنى، وأنَّهم يَعْطِفون ألسِنَتهم ويَلْوونها عن اللَّفظ المنزَّل إلى المحرَّف.

وفيها: أنَّ على هذه الأُمَّة أن تُحافِظ على كتاب الله، بحِفظِ ألفاظه ومعرفةِ مُراد الله تعالى من كلامه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾:

ولـمَّا بيَّن الله تعالى افتراءَ اليهود عليـه؛ أردفَ ذلك بذِكر افترائهم عـلى أنبيائه، وإثباتِ براءة الأنبياء؛ فقال:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: لا ينبغي ولا يَليق. وإنَّما سُمِّيَ (بَشَرًا)؛ لظهور بَشَرته وعدم استتارِها -بخلاف بَشَرة الدوابِّ-.

﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: يصطفيه نبيًّا، ويُعطيه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو: الوحي المنزَّل من عنده -كالتوراة والإنجيل والقرآن- ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: فَهْم الكتاب والعمل به ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: الرسالة والوحي.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾: يأمُرهم قائلًا: ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: اُعبُدوني بأيِّ نوع من أنواع العِبادة، من دون الله -أي: مع الله- مُشرِكين به.

وإنَّما اللَّائِق بهذا النبيِّ أن يقولَ لقومه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: حُكَماء، عُلَماء، حُلَماء، فُقَهاء، مُخلِصين، تجمَعون بينَ العِبادة والتَّقوى، وتُربُّون الناس على شريعة الله بالعِلْم والدَّعوة، وتُربون الخَلْق على ما تقتضيه الشريعة.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: بسبَب كونِكم مُعلِّمين الناسَ ما أنزله الله، ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ أي: تقرأون وتحفَظون وتفهَمون، فتتعلَّمون ثم تعلِّمون. و(الدِّراسة): هي تعلُّم الألفاظ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن علَّمه الله الكتاب والحِكمة، لا يمكن أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه.

وفيها: تذكير الدُّعاة بالإخلاص لله في دعوتهم، وأن يوجِّهوا الناسَ إلى الله، دون رَبْطِهم بأشخاصِهم أو جماعاتِهم.

وفيها: أنَّ الغُلُوَّ في طاعة الأشخاص نوعٌ من عبادتهم.

وفيها: أنَّ مَن ألزم الناس أو طلبَ منهم أن يتَّبعوا قولَه -مهما كان-؛ فهو إنَّما يدعوهم لعبادة نفسه، وقد قال تعالى عن شِرك الطاعة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد جاء في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هذه الآية، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[1].

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

فليست الدَّعوة لعبادة غير الله أن يقول الداعي للناس: اركَعوا لي، واسجُدوا لي؛ بل إذا ألزمَهم أيضًا بطاعته من دون الله؛ فقد دعاهم إلى عبادته مع الله.

وفيها: أنَّه ينبغي لمعلِّم الناسِ الخيرَ أن يكون ربَّانيًّا، يتأدَّب ويؤدِّب، ويتعلَّم ويُعلِّم، بالقُدوة.

وفيها: أهميَّة العمل بالعِلْم، ويدخل فيه: تعليمه الناسَ.

وفيها: أنَّ الله يرزق أنبياءَه فَهْمَ ما أنزله عليهم، والعملَ به.

وفيها: أنَّ العِلْم طريقُ العمل؛ فكيف يعمل مَن لا عِلْمَ عنده؟!

وفيها: استحالة كَذِبِ الأنبياء على الله تعالى، ودعوتِهم إلى الشِّرك.

وفيها: أنَّ العالِم الرَّبَّانيَّ هو: الذي يُرَبِّي الناس على ما أنزله الله، ويدعوهم إلى التعلُّم والعمل، ويتدرَّج بهم في مسائل العِلْم، ويبدأ بالقواعد والكُلِّيَّات وأصول العِلْم، قبل التفاصيل والجزئيَّات.

وفيها: أهميَّة (دِراسة) الكتاب الذي أنزلَه الله، وهذا يحتاج إلى مُذاكرة، وفَهْم، وتبصُّر، ومواظبة على القِراءة.

وفيها: أنَّ مَن تعلَّم ما أنزل الله وتمسَّك به؛ فهو ربَّانيٌّ.

وفيها: أنَّ الرَّبَّانيَّ لا بُدَّ أن ينفع الناس، ولا يقتَصِر نفعُه على نفسه.

وفي الآية: بيان الأسبابِ التي يؤدِّي الأَخْذُ بها إلى بلوغ مرتبة الرَّبَّانيَّة؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾.

وفيها: أنَّ التعليم النافع ليس مجرَّدَ حَشْوِ الأذهان بالمعلومات؛ وإنَّما لا بُدَّ من ظُهُور أثر العِلْم وثمَرته، بالأعمال الصالحة، والأخلاق والآداب الكريمة الطيِّبة.

وفيها: أهميَّة البَصَر بسياسة الناس، وقيادتهم للعمل بما أنزلَه الله، والالتزام بذلك والتمسُّك به.

وفيها: أنَّ من الرَّبَّانيَّة: تولِّي أمور الناس، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحُهم ونفعُهم في العاجل والآجل.

وفيها: أهميَّة النَّفْع المتعدِّي، والسَّعْي في إصلاحِ الخَلْق، وحملِهم على طاعة الله.

وفيها: أنَّ منهج الأنبياء: عِلْمٌ، وعَمَلٌ، وتربيةٌ.

وفيها: تفخيم شأن المنتَسِب إلى (الرَّبِّ)، بتعلُّمِ ما أنزلَه، والعملِ به.

وفيها: أنَّ من أسباب ترسيخ العِلْم في النفوس الرَّبَّانيَّة: العمل به بعد دَرْسِه.

وفيها: أنَّ النِّسبة بينَ العبد وربِّه مُنقَطِعة، إذا لم يحصُل العِلْم والعمل معًا.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ٨٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّ النبيَّ المُرسَل مِن عندِه، لا يمكن أن يدعوَ قومه إلى أن يعبدوه من دون الله؛ وإنَّما يدعوهم إلى أنْ يكونوا ربَّانيِّين، والوسيلة لذلك هي: دِراسة الكتاب والعمل به؛ ذكر تعالى أيضًا أنَّه لا يمكن للنبيِّ أن يأمُرَ الناس بعبادة أحدٍ مع الله؛ فقال:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ أي: وما كان له أن يأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المقرَّبين ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمرسَلين ﴿أَرْبَابًا﴾ تعبُدونهم من دون الله.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾: الاستِفهام للنفي؛ أي: لا يمكن أن يدعو إلى ذلك؛ لأنَّ مَن دعا إلى عبادةِ غيرِ الله فقد دعا إلى الكُفرِ، والأنبياء إنَّما يأمرون بالتوحيدِ وعبادةِ الله وحدَه لا شريك له.

﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: بعد أن ثبتَ إسلامُكم واستقرَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الـرَّدُّ عـلى أهل الكتـاب، وخصوصًا النصارى الذيـن عبدوا نبيَّهم، ثم قالـوا: هو أمرنا بذلك، والله تعالى يقول لنبيِّه عيسى يومَ القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وفيها: أنَّ الأنبياء لا يمكِن أن يُناقِضوا مبادئ الدَّعوة، التي يَدْعون الناس إليها.

وفيها: الرَّدُّ على ما اشتهر بينَ الكفَّار والمشركين، من عبادة الملائكة والنبيِّين، وقد عبدَ كفَّار العرَب الملائكة، وعبدَ اليهود عزيرًا، وعبدَ النصارى المسيح، وأشركوا بهم مع الله.

وفيها: رَدٌّ بليغ على الذين يَغْلُون في النبيِّ ﷺ، ويَصْرِفون له أنواعًا من العِبادة،

مثل: الاستغاثة به، ودعائه مع الله، واللُّجوء إليه في الشدائد بعد موته، والغُلُوّ في مَدْحه، بوَصْفه بأوصاف لا تليق إلَّا بالله -كمغفرة الذُّنوب، وشفاء الأمراض، ومعرفة الغَيب، ونحوها-.

وفيها: أنَّ الأنبياء تركوا أقوامهم على الإسلام، ثم حصلَ التحريفُ والتبديلُ مِن بعدهم. ونبيُّنا محمَّد ﷺ تركَنا على البَيضاء، ليلُها كنَهارها، ثم حدَث الكُفر والشِّرك بعد ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

ولـمَّا كان أهل الكتاب يُنكِرون نبوَّة النبيِّ ﷺ ووجوبَ اتِّباعِهم له؛ بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ وأخبرَ أنَّه أخذَ العَهد على جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -من آدم إلى عيسى- بأنَّه إذا بُعث محمَّد ﷺ وهم أحياء، أنَّهم سيتَّبعونه وينصُرونه؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ أي: اذكُر -يا محمَّد ﷺ- لمن أرسلناك إليهم، بأنَّ ربَّك قد أخذَ ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ و(الميثاق) هو: العهد المؤكَّد باليمين.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: مهما أعطيتُكم من كتاب -كالتوراة والإنجيل- وأنزلتُ عليكم من وَحي، ورزقتُكم من الحِكمةِ، والصوابِ والفَهمِ، والقضاءِ بينَ الناس، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ من عندي ﴿رَسُولٌ﴾ وهو محمَّد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: مُوافِق ومُطابِق ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ممَّا أنزلتُه عليكم، وأخبرتُكم عنه في كتبكم؛ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ أي: تُصَدِّقون به أنتُم ومَن معكم، وتعملون بما يأتي به.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: تُعينونه في نَشْر رسالته، وتجاهِدون معه أعداءه.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: الاستِفهام للتقرير؛ أي: هل اعترفتُم بذلك والتزَمتُم به، ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قَبِلْتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الإيمان والنُّصرة ﴿إِصْرِى﴾ (الإِصْر) هنا: العَهد الثقيل، والميثاق الشديد.

﴿قَالُوٓاْ﴾ -أي: الأنبياء-: ﴿أَقۡرَرۡنَا﴾ واعترَفْنا، وقَبِلْنا، والتزَمْنا.

﴿قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ أي: على أنفُسِكم بذلك، وعلى أتباعكم، وليشهَدْ بعضُكم على بعض به ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: شاهدٌ معكم؛ فشَهِدَ الله تعالى بنفسه على هذا العَهد، وكفى به شهيدًا.

وقد قيل: إنَّ الله أخذ الميثاق على الأنبياء مجتمعين، في عالم الذَّرِّ. وقيل: كلٌّ على حِدَة، في حياته ووقته -لـمَّا بعثَه وأوحى إليه-. ولا مانع من حصول الأمرَين جميعًا، والله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إلزام أهل الكتاب بالإيمانِ بالنبيِّ محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، واتِّباعِه.

وفيها: أنَّه لا يكفي الإيمان بنبوَّته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، دون اعتقادِ لزُومِ اتِّباعه، والدُّخولِ في دينه، ونُصرته؛ فإنَّ بعض طوائف أهل الكتاب كانوا يقولون: نؤمن به نبيًّا، لكن للعرَب، وليس لنا!

وفيها: أنَّ الله تعالى أخذَ العَهد على الأنبياء أن يُصَدِّق بعضُهم بعضًا، وأن يؤمِن الأولُ بما جاء به الآخِر، وينصُره، وأنَّهم جميعًا سيتَّبعون محمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لو ظهرَ فيهم، وقد حصلَت الإشارة إلى ذلك بإمامته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لهم في بيت المقدِس ليلةَ الإسراء؛ فهو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خير الخَلْق، وله المقام المحمود، والشفاعة العُظمَى يوم القيامة.

وفيها: أنَّ خبر نبيِّنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ موجودٌ في جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، ومنها: كتاب موسى وعيسى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: أنَّ الأنبياء صاروا أهلًا لهذا الميثاق العظيم، بما آتاهم الله من الكتاب والحِكمة.

وفيها: فَضْل نبيِّنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على جميع الأنبياء، وهو خاتَمهم وإمامهم.

وفيها: أنَّ ما كان واجبًا على النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فهو واجبٌ على أتْباعه؛ لأنَّ ما وجبَ على الإمام وجبَ على تابِعه.

وفيها: أنَّ مَن كفرَ بمحمَّد ﷺ؛ فقد كفرَ بنبيِّه الذي يزعُم اتِّباعه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وعلى هذا: فمَن أنكرَ ما جاء به ﷺ -من أهل الكتاب-؛ فقد كفرَ بموسى وعيسى، وبالتوراة والإنجيل.

وفيها: تَكرار أَخْذ العَهد، وتوثيقه، والحَلِف عليه، والإشهاد عليه، في الأمور الجليلة العظيمة.

وفيها: عِظَم مسئوليَّةِ المسلمين وواجبِهم نحو النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه يجب عليهم أن يقوموا بما كان سيقوم به الأنبياء -لو ظهرَ فيهم نبيُّنا ﷺ-.

وفيها: وجوبُ الجهادِ على المسلمين، ونشرِ السُّنَّة، ونصرِ الدِّين؛ نُصرةً للنبيِّ ﷺ.

وفيها: شَرَفٌ للمسلمين، بأنَّه صارَ من وظيفتهم ما كُلِّفَ به الأنبياء من قبلُ، ولَزِمَهم ما كانوا قد التزَموا به.

وفيها: كَشْف الحقيقة التي يُخفيها أهلُ الكتاب؛ إقامةً للحُجَّة عليهم، وإظهارًا لعِنادهم.

وفيها: أنَّ الشَّهادة تقتضي تحمُّلَ المشهودِ به، واعتقادَه، وأداءَه وتبليغَه.

وفيها: أنَّ كلَّ نبيٍّ قد أُمِرَ قومُه بنُصرة النبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ صفة نبيِّنا محمَّد ﷺ كانت معلومةً لدى جميع الأنبياء في حياتهم.

وفيها: أنّ أَخْذ الإقرار والاعتراف بعد الميثاق، ثم الإشهاد على ذلك؛ هو من باب التأكيد، وهذا يبيِّن شناعة جريمة أهل الكتاب وغيرهم ممَّن يرفض اتِّباع النبيِّ ﷺ؛ لأنَّهم كفَروا بالميثاقِ والإقرارِ والإشهادِ.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى حُكم المُعرِض عن هذا الميثاق؛ فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرضَ عن

الإيـمان بهـذا النبيِّ ﷺ ونُصرتـه ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما أخـذَ الله العَهد والميثاق؛ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الخارِجون عن طاعة الله، الجاحِدون لشَرْعه ودينه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إطلاق الفِسْـق عـلى الكُفر، وهـذا كقوله تعـالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]، والفِسْـق الأكبر منه يُوجِب الخلود في النَّار.

وفي الآيـة: أنَّ الشرائـع لا تَلـزَم قبل العِلْـم؛ فمَن كان في باديـةٍ أو بلادٍ نائيـةٍ، فلم تبلُغْه الدَّعوة والرِّسـالة؛ فلا يعذَّب على مُخالَفة ما لا يَعْلم، وأمره إلى الله تعالى يومَ القيامة، يُكَلِّفه ويمتَحِنه، وهو بصيرٌ به وبمَصيره. وكذلك المسـلم الذي لم يَبلُغه حُكمٌ شرعيٌّ -بلا تفريط منه-؛ فهو معذورٌ، حتى يبلُغَه الحُكم.

وفيها: أنَّ على الدُّعاة إلى الله إبلاغ حُجَّة الله إلى خَلْقه، ببيانٍ ووضوح، بلُغاتهم وألسِنَتهم؛ لأنَّ هذا ممَّا شرَعَه الله وأوجبَه وأحبَّه؛ كما قال في آية أخرى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾:

ثم قال تعالى، مُنكِرًا على مَن أراد دينًا سـوى دينه الذي أنزلَ به كتبه، وأرسـلَ به رُسُـله، وهو عبادته وحدَه لا شريك له:

﴿أَفَغَيۡرَ﴾: الاسـتِفهام للإنـكار والتوبيـخ ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ وشريعتِـه التـي شرَعَها لعباده ﴿يَبۡغُونَ﴾ أي: يطلُبون ويُريدون.

ومعنـى الآيـة -بالنظـر إلى ما سـبقها-: أيتولَّون ويُعرِضـون عن الحقِّ بعدمـا تبيَّن لهم، ويطلبون دينًا غيرَ دين الله -وهو الإسلام، والإخلاص لله في العِبادة-؟!

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ (الـواو) للحـال، أي: والحـال أنَّه أسـلمَ له سـبحانه، وخضـعَ، وانقادَ

لحُكمه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا﴾ وهذا هو الإسلام والانقياد الاختياري، ﴿وَكَرۡهٗا﴾ أي: انقادَ مُرْغمًا، انقيادًا كونيًّا، وهذا يشمل كلَّ ما في السماوات والأرض، من العُقلاءِ والجماداتِ، وغيرِها من المخلوقات.

و(الطَّوع): ما فُعِل اختيارًا، و(الكَرْه): ما فُعِل اضطرارًا.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ أي: تَرْجِع الخلائقُ كلُّها إليه سبحانه يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مخاطَبة الكفَّار بما يلزَمُهم.

وفيها: إقامة الحُجَّة على الكفَّار؛ بأنَّهم إذا كانوا مُنقادِين لله كَرْهًا -في مثل المرض، وقَسْم الرِّزق، والأجَل والموت-؛ فلماذا لا ينقادُون إليه طَوعًا، فيُسْلِمون له ويتَّبِعون شَرْعه؟!

وفيها: أنَّ الإعراض عن حُكم الله تعالى لا يَليق بالعُقلاء.

وفيها: أنَّ مَن ابتغى غير دين الله؛ فهو مستَحِقٌّ للتوبيخ العظيم.

وفيها: أنَّ مِن شرط صِحَّة العمل: أن يكون موافقًا لشَرْع الله، مبنيًّا على الإخلاص له وحدَه.

وفيها: عُموم مُلك الله وسُلطانه، وهَيمنته على مخلوقاته، وأنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يُخالَف، ولا يُمانَع.

وفي الآية: أنَّ المرجِع إلى الله في الدُّنيا: بالعِبادة والتشريع، وفي الآخرة: بالحساب والجزاء.

وفيها: تهديدٌ ووعيدٌ للمُمتَنِعين عن اتِّباع دين الله، بأنَّهم سيُرْجَعون إلى الله يومَ القيامة، ليُحاسِبهم ويُجازيهم.

وفيها: أنَّ الانقيادَ الاختياريَّ هو الذي ينفع العبدَ ويُثاب عليه، أمَّا مَن انقادَ إلى الدِّين بالقوَّة والسَّيف -دون انقياد القَلْب-: فلا ينتَفِع بهذا الانقياد يومَ القيامة.

لكن، قد ينقادُ بعضُ الناس في بداية أمرهم كَرها -بالسَّيف والسلاسِل والتهديد، كما حصلَ مع بني إسرائيل في رَفْع الجبل على رؤسهم- ثم يدخل الإيمانُ إلى القلوب، فينقادُون

طَوعًا، ويعبدُون الله اختيارًا؛ فيدخلون الجنَّة، كما في الحديث: «عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ»(١).

وفيها: أنَّ ممَّا يُعين على الانقياد طَوعًا: معرفة الثواب والعقاب.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

ثـم بـيَّن الله تعالى تصديقَ النبيِّ محمَّد ﷺ لمن قبله مـن الأنبياء؛ فقال: ﴿قُلْ﴾ -يا محمَّـد ﷺ- مبيِّنًـا اعتقادَك فيمَن سـبقَك مـن إخوانك من الرُّسُـل- ويدخل في هذا الخِطاب أُمَّته ﷺ أيضًا-.

فقولوا جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: برُبوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من الوحي والتنزيل، وهو القرآن والسُّنَّة التي تبيِّنه. وقدَّم (القرآن) بالذِّكر؛ لأنَّه أشرف الكتب المنزَّلة.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: من الصُّحُف، وما أُوتيَ أولادُه من الوحي. وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وهـو الولَد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ وهو الذي يلي أخاه إسـماعيل في الترتيب الزمني، وفي الفَضْل كذلك، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسـحق، الملقَّب بـ(إسرائيـل)، ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمـع (سِـبط)، وأصله في اللُّغـة: ابن البنـت، ويطلَق على الذيـن يَرْجِعـون إلى أب واحد. والمراد هنا: أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الاثنا عشر، ومَن تشـعَّب منهم من بطون بني إسرائيل.

و(الإنـزال) قد حصلَ على أنبياءِ شـعوب بنـي إسرائيل، لكن ما أُنزِلَ عـلى النبي فكأنَّما أُنزِلَ على أُمَّته وقومه.

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِـن كُتب الله -التوراة والإنجيل- ومِن الآيات والمعجِزات. وقـد أفردَهما عمَّن قبلهما؛ لِـما حصل بهما مـن التغيير الكبير والأثر العظيم في بني إسرائيل، ولأنَّ سياق الكلام في الآية مع اليهود والنصارى، وموسى وعيسى هما نبيَّا أهل الكتاب.

وقوله ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: ما أُعطِيَ النبيُّون ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وَحْيًا وفَضْلًا ومِنَّةً. ويدخل في (النبيِّين) هنا: داود وسليمان وأيوب وغيرهم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في الإيمان والتصديق؛ بل نؤمن بالجميع.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ﴾: الضمير يعود على الأصل في سياق الكلام، وهو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُستَسلِمون ظاهرًا وباطنًا، بالقَلْب واللِّسان والجوارح، شرعًا وقَدَرًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إجـلالُ الله لقَـدْر نبيِّه محمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فقد قدَّمه في الذِّكر عـلى الأنبياء، وقدَّم (ما أُنزِلَ عليه) على (ما أُنزِلَ عليهم).

وفيهـا: وجـوبُ الإيمان بما أُنزِلَ علينـا -وهو القرآن- وهذا يقتـضي التصديقَ بأخباره، وامتِثالَ أوامره، واجتنابَ نواهيه.

وفيها: الإيمان بالكتب المنزَّلة على الأنبياء السـابقين، وإن لم نعرِف أسماءَها وما اشتملَت عليه تفصيلًا.

وفيها: أنَّ ما أُنزِلَ على الأنبياء فقد أُنزِلَ على أقوامهم.

وفيها: وجوب الإيمان بمُعجِزات الأنبياء.

وفيهـا: الحذَر من الإيمان ببعض الأنبياء دون بعـض، بالتفريق بينهم في الإيمان، والحذَر مـن العصبيَّـة التي تؤدِّي إلى إنكار نبوَّة بعضهم -كما فعلَ اليهـودُ وغيرُهم، بالتكذيب بغير أنبيائهم-.

وفيها: أنَّ الاستِسـلامَ لله يقتضي تقديمَ طاعته على طاعة كلِّ أحد، والاستِسـلامَ بما جاء به نبيُّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والانقيادَ لشَرْعه، والرِّضا بقدَره.

وفيها: أنَّ الاستِسـلامَ لله يقتضي العملَ بما جاء منه، ناسـخًا لِـما قبله. وهذا لا يتعارَض

مع الإيمان بما أُنزِلَ على النبيِّين من قبلُ؛ فنحن نقتَدي بهم، ونؤمن بما أُنزِلَ عليهم، لكنْ؛ لكلٍّ شِرْعة ومِنهاجٌ، وما جاء شرعُنا به يلزَمنا الأَخذُ به دون غيرِه.

وفيها: أنَّ عطيَّة الدِّين والإيمان هي رأسُ العطايا، وسببُ السعادة في الآخرة؛ فيجب الاهتمامُ والفرَح بها أكثرُ من الاهتمام والفرح بعطايا الدُّنيا.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

يخبر الله تعالى في هذه الآية: أنَّ كلَّ دينٍ غيرِ الإسلام فهو باطلٌ ومرفوضٌ.

وقوله ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ أي: يطلُب ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ والتوحيدِ، والانقيادِ لحُكم الله، والطريقةِ في التعبُّد التي أنزلها الله على محمَّد ﷺ ﴿دِينًا﴾ يتعبَّد به، ويسلُكه منهجًا، ويعتَنِقه، ويَدين الله به يرجو الثواب.

و(الدِّين) يُطلَق على العمل، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويُطلَق على الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧] أي: يوم الجزاء.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: مرفوضٌ ومردودٌ، ولا يُثاب عليه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المحرومين من الثواب، الواقِعين في العقاب، النادِمين حيث لا ينفع النَّدَم؛ لأنَّهم تَعِبوا في الدُّنيا بالمسلك الباطل، وخَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإسلام في الآية هو الإسلام الخاصُّ، وهو شريعة النبيِّ ﷺ. وأمَّا الإسلام بالمعنى العامّ فهو: الاستِسلام لله تعالى، وهو دين جميع الأنبياء، كما قال تعالى -حكايةً عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيَّته لبَنيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكما قالت مَلِكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وفي الآية: أنَّه لا يجوز إقرارُ أحدٍ على دينٍ يُخالِف شريعةَ النبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغير الإسلام -في أصلٍ أو فرعٍ-؛ فلن يُقبَل منه، ولن يُعطَى ثوابًا في الآخرة؛ بل سيَخْسَر نفسَه في النَّار -عياذًا بالله-.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغير الإسلام؛ فإنَّ دينَه مرفوضٌ من قِبَل الله تعالى، ورسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤمنين؛ كما يدلُّ عليه بِناءُ الفِعْل للمجهول في قوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾.

وهذا يدلُّ على بُطلان مبدإ «احترام جميع الأديان»؛ إذ كيف تُحترَم الأديان الباطلة؟!

وفيها: بيانُ بُطلانِ قول مَن قال بصِحَّة جميع الأديان الموجودة على ظهر الأرض، ونادَى بعدَم الطعن فيها! وهذا ضلالٌ مبينٌ؛ فجميع الأديان -من النصرانيَّة، واليهوديَّة، والبوذيَّة، وغيرها- باطلةٌ، ولا دينَ إلَّا دينُ الإسلام.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغير الإسلام؛ يُتعِب نفسَه، ولا يُقبَل عملُه، ومهما أنفقَ في الخير فقد أضاعَ مالَه؛ لأنَّ الله تعالى قال عن هؤلاء: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفيها: بيانُ الغَبْن العظيم يومَ القيامة للكافِرين، عندما يَلْحَقُهم الخُسرانُ المبين.

وفيها: توفيرُ الوقت على مَن يبحث عن الدِّين الصحيح، وأنَّه الإسلامُ لا غير.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

سبَب نزول الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: سَلُوا لِي رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ لِي من تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ من تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ»(١).

وقيل: نزلَت الآية في أهل الكتاب -من اليهود والنصارى- الذين رَأَوا نَعْتَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِفتَه في كتابِهم، وأقرُّوا به، وشَهِدوا أنَّه حقٌّ، ثم كفَروا به بعد بِعْثته(٢).

---

(١) رواه النسائي (٤٠٦٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٦٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٧٤)، تفسير ابن المنذر (١/ ٢٨٠).

وقوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: الاستِفهام للإنكار. ويجوز أن يكون للتعجُّب من كُفرهم بعد إيمانهم، أو للتوبيخ والاستِبعاد.

والمعنى: مِن المستبعَد أن يهديَ الله قومًا ارتَدُّوا بعد أن آمنوا وعرَفوا الحقَّ؛ واختاروا الكُفر والضلال بعد الإيمان؛ فإنَّ هداية مثل هؤلاء بعيدة؛ لأنَّ مَن عرف الحقَّ ثم ارتدَّ عنه، أشدُّ جُرْمًا ممَّن لم يعرِف الحقَّ وبقيَ على كُفره. ولذلك كانت عقوبة المرتَدِّ هي القَتْل بكلِّ حال، إلَّا أن يُسْلم؛ لقوله ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

﴿وَشَهِدُوا﴾، وأقرُّوا بألسِنَتهم ﴿أَنَّ الرَّسُولَ﴾ محمَّدًا ﷺ ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ، وخبره صِدق، ولا مِرية في كونه مُرسَلًا مِن عِنْدِ الله، ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحُجَج والبراهين والمعجِزات، التي تبيِّن صِدقه ﷺ وتدلُّ على صِحَّة نُبُوَّته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلا يُوفِّقهم للهداية، ولا يُيسِّر لهم أسبابَها؛ لأنَّهم ظلَموا أنفُسَهم، بإصرارهم على الكُفر، بعدما تبيَّن لهم الحقُّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل الكتاب كانوا يُقِرُّون ببِعْثة النبيِّ ﷺ قبل أن يُبعَث، وأنَّ قُلُوبهم صدَّقت بذلك، ونطقَت به ألسِنَتُهم.

وفيها: استِبعاد هداية مَن جحدَ الحقَّ، بعدما تبيَّن له، وعرَفه بالأدلَّة والبراهين.

وفيها: أنَّ المرتَدَّ أعظمُ كُفرًا من الكافرِ الأصليِّ.

وفيها: أنَّ الهداية أقرب إلى الكافر الذي لم يعرف الحقَّ ثم عُرِضَ عليه، من الذي عرَفه وأصرَّ على الكُفر.

وفيها: أنَّ الهداية والإضلال بيد الله، وهي تابعة لِحكمته تعالى، فمنهم مَن يهديه فَضْلًا، ومنهم مَن حقَّت عليه الضلالة عَدْلًا.

وفيها: حِكمة الله تعالى ورحمته وعَدْله؛ حيث أقامَ للناس من البيِّنات الشرعيَّة والعقليَّة والحِسِّيَّة ما يدُلُّهم على الحقِّ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

وفيها: أنَّ مَن طلبَ الحقَّ، وتحرَّاه، وتشوَّف له؛ فإنَّه جديرٌ بالهداية.

وفيها: تسمية الكافر أو المشرِك (ظالمًا)؛ لأنَّه وضعَ العِبادة في غير موضِعها.

وفيها: شناعة الرِّدة، وأنَّ عقوبتها مُعَجَّلة في الدُّنيا -بالاستمرار في الضلالة- ومؤجَّلة في الآخرة -بالخلودِ في النَّار-.

وفيها: أنَّ مَن أضلَّه الله؛ فهو ظالمٌ لنفسه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى عاقبةَ هؤلاء الظالمين؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين ارتَدُّوا وكفروا بعد إيمانهم. وصيغة الإشارة للبعيد هنا؛ تدُلُّ على انحِطاط مرتَبتهم.

﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ أي: أنَّ مُكافأتهم على كُفرهم: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سَخَطه وغَضبه عليهم، وطَرْده لهم وإبعادهم عن رحمته ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يلعنُونهم أيضًا؛ لأنَّهم مطبوعون على الكُفر، مستحِقُّون للَّعْن.

وقوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة، أو: في عذاب النَّار. و(الخلود) يُطلَق على المُكث الطويل، والمراد به هنا: الدائم، ولذا قال: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: لا يُنقَص، فَضْلًا عن خروجهم منها، ولذلك يُنادُون الملائكة بقولهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخَّرون ويؤجَّلون؛ بل يُبادَرون بالعذاب مُبادَرةً، ويُوَفَّونه مباشرةً.

ثم استثنى الله تعالى من هذا كلِّه طائفةً واحدةً؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ ورجَعوا إلى ربِّهم، وآمنوا بعد كُفرهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد رِدَّتهم. وأشار إلى الكُفر بإشارة البعيد؛ لانحِطاط مرتَبته.

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسَدوه، وعملوا الصالحات، وأعلَنوا براءتهم من الكُفر الذي كانوا عليه، ودَعَوا مَن تَبِعَهم إلى أنَّ يتوب مثلَهم، وفَنَّدوا الباطل الذي نشَروه.

فإن فعلوا كلَّ ذلك؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾: مقتضَى هذين الاسمَين أنَّه سيَغفِر لهم ويرحمهم، ويستُر ذُنوبهم، ويتجاوَز عنهم عَزَّوَجَلَّ؛ فهو (غفورٌ) بإزالة العذاب وآثار الذُّنوب، و(رحيمٌ) بإعطاء الثواب.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

بيان استِحقاق الذي يموتون على الرِّدَّة للَعْنةِ الله، وملائكته، وعبادِه الصالحين، ولعنة الناس أجمَعين في الآخرة، حتى إنَّ الكفَّار يلعَنُ بعضُهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وكما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفيها: أنَّ هؤلاء لا يُمهَلون ليعتَذِروا؛ وإنَّما يسارَع لهم في العذاب دون تأجيل، بَدءًا من عذاب القبر، ثم يوم يقوم الأشهاد، ويستمرُّ أبدَ الآبِدين.

وفيها: أنَّ رحمة الله سبقَت غضبَه؛ ولذلك استثنى من الوَعيد: التائبين من الكُفر.

وفيها: فَتْحُ الباب لهؤلاء، وتذكيرهم بالفُرصة؛ ليعودوا عن ضلالهم، ويُصلِحوا ما أفسَدوه.

وفيها: أنَّ التوبة يجب أن تعظُم كلَّما عظُم الذنب.

وفيها: أنَّ المرتدَّ إذا تعدَّى شرُّه بدعوةِ غيره إلى الكُفر، وتزيينِه للآخرين؛ فإنَّ من شروط توبته: أن يُصلِح ما أفسدَه، ويبيِّنَ على الملأ ضلالَ ما كان عليه، ويرُدَّ على الباطل الذي كان قد اعتنقَه، ويدعوَ مَن أضلَّهم إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ التوبة إذا كانت في وقت القَبول -قبلَ حضور الأجل، وقبل طلوع الشمس من مغربها-؛ فإنها تنفع، ولو كانت توبةً من الرِّدَّة.

وفيها: سَعَةُ رحمة الله وكَرَمه وعَفْوه؛ فيجمعُ للتائب بينَ زوالِ المكروهِ -بمغفرةِ الذنب، وسَترِ أثَره- وحصولِ المطلوب -من الرحمةِ، والنِّعمة، والإحسان-.

وفيها: أنَّ مِن الكفَّار مَن يتوب توبةً صادِقةً تنفعه، ومنهم مَن توبته فاسدةٌ لا تنفعه، ومنهم مَن لا يتوب أصلًا.

وفيها: أنَّ التوبة التي لا أثرَ لها في العمل، لا تنفع صاحبَها.

وفيها: وجوب الاستقامة بعد التوبة، وألَّا تكون التوبة مؤقَّتة.

وفي الآية: جوازُ لَعْن الكفَّار والمرتَدِّين -على العُموم- لا على سبيل التعيين؛ فلا ندري بِمَ يُختَم لهم.

وفيها: أنَّ الخالدين في النَّار لا ينتَظِرون فَرَجًا، لا بالتخلُّص من العذاب، ولا بتخفيفِه.

وفيها: مُبادَرة الله تعالى للكفَّار بالعذاب، ومنهم مَن يُذيقه بعضَ العذاب في الدُّنيا، ثم عند الموت، وفي القبر، ثم يكون العذابُ الأكبرُ في الآخرة عند دخول النَّار، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وفيها: الثَّناء على المُصلِحين بعد توبتهم. ومن شروط المُصلِح: أن يكون صالحًا في نفسه، تائبًا إلى ربِّه، مُصلِحًا لغيرِه ما فسدَ بسببَه.

وفيها: قَبول توبة المرتدِّ، إذا رجعَ إلى الإسلام مخلِصًا.

وفيها: أنَّ الله يغفر أكبرَ ذنبٍ إذا تابَ منه صاحبُه توبةً نصوحًا، مخلِصةً صادِقةً.

وفيها: أنَّ فَتْح الباب للمُفسِد ليتوبَ؛ فيه كفٌّ لشرِّه، وإنقاذٌ للناس من إفسادِه؛ فالمصلحة له، وللآخرين.

وفيها: عدَم اليأس من توبة أسوإِ وأشدِّ الناس جُرْمًا.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل، والعذاب يعظُم كلَّما عظُم الذنب.

وفيها: أنَّ عقوبة المرتدِّ هي: الخلود الدائم في النَّار، ولا راحة له فيها، لا بتخفيفٍ، ولا تأجيلٍ.

وفيها: أنَّ المرتدَّ الذي فوَّت الفُرصة على نفسه بالتوبة، ولم يستَفِد من إمهال الله له في الدُّنيا؛ يُبادِره الله بالعذاب، ولا يؤجِّله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾:

ثـم ذكـرَ الله تعـالى أهـلَ التوبـة الفاسـدة؛ فقـال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ مـن المُرتَدِّين، واستمرُّوا على ذلك إلى المهات.

وقيل: هم أهل الكتاب، الذين كفروا بعيسى والإنجيل، وموسى والتوراة.

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾؛ فصـاروا ينحَـدِرون في دَرَكات الكُفـر. وقيل: هـم أهل الكتاب، الذين ازدادوا كُفرًا بجَحْد نبوَّة النبيِّ ﷺ، وما أنزلَ الله عليه من القرآن(١).

فهـؤلاء ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إذا غَرْغَـروا وماتـوا كفـارًا، يعنـي: إذا أخَّـروا التوبـة إلى حضور الموت، فتابُوا حينئذٍ.

وهـذا التفسـير يشـهَد له قولـه تعـالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾: الذين ضلُّوا عن سبيل الحقِّ، وتنكَّبوا طريقَه بعدما عرَفوه.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنَّ قومًا أسلَموا ثم ارتَدُّوا، ثم أسلَموا ثم ارتَدُّوا، فأرسَلوا إلى قومهم يسألون لهم؛ فذَكروا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾»(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المرتدَّ يزداد كُفرًا، كما أنَّ المؤمن يزداد إيمانًا.

وفيها: أنَّه كلَّما ازدادَ العبدُ كُفرًا؛ كان أبعدَ من التوبة.

وفيهـا: أنَّ كلَّ مَـن اجتنب طريقَ الحقِّ؛ فهو ضالٌّ؛ كما قـال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٧٨-٥٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).

وفيها: أنَّ المرتدَّ مُنتكِسُ الفِطرة؛ لأنَّه عرَفَ الحقَّ، وذاقَ حلاوة الإيمان، ثم رضيَ بأن يعودَ إلى ظُلُمات الكُفر، ويرتدَّ على عَقِبَيه.

وفيها: شناعة كُفر أهل الكتاب؛ فقد آمنوا بما رَأوه في كتُبهم أولًا من نعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِفته، ثم كفروا به بعد بِعْثته، ثم ازدادوا كُفرًا بإصرارهم وعِنادهم وحَرْبهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين، وصَدِّهم عن سبيل الله.

واليهود كفروا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وازدادوا كُفرًا بجَحْد نبوَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ النفس إذا توغَّل فيها الكُفر، وتمكَّن فيها الضلال، وأحاطَت بها الخطيئة؛ فيبعُد جدًّا أن تَرْجِع وتتوب؛ فلا يُوَفِّق الله صاحبَها للعودة إلى الحقِّ -في الغالب- بل يُعاقِبها بمزيدٍ من الضلال، ويصرِفها عمَّا انصرَفت عنه من الحقِّ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفيها: أنَّ مِن التوبة ما لا يقبَله الله، مثل: التوبة عند الموت ومعاينة المَلَك، وعند قيام الساعة، ومَن أظهر التوبة نِفاقًا، أو التوبة من كُفرٍ للدُّخول في كُفر آخر. والكافر لا تنفعُه توبتُه من بعض المعاصي -كالزِّنا والخمر- ما دام باقيًا على الكُفر.

وفيها: أنَّ مِن الناس مَن يسُدُّ على نفسه بابَ الخير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾:

ثم توعَّد اللهُ تعالى الكافرين المصرّين على الكفر؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: استَمرُّوا على الكُفر إلى الموت، ولم يتوبوا. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ لو تصدَّق في الدُّنيا، أو قدَّمه في الآخرة فِدْيةً من العذاب ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أي: بوزن جبالها وتلالها، وتُرابها ورمالها، وسَهْلها ووَعْرها، وبَرِّها وبَحْرها.

﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: قدَّمه تخليصًا له من عذابِ يومِ القيامةِ. ومعلوم أنَّ الكافر لا يملِك شيئًا في الآخرة، ولكن جرى الكلامُ في الآية على سبيل الفَرْضِ والتقدير.

والمعنى مذكورٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مُوجِع ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم، ويدفَعون عنهم عذاب الله.

وفي «الصحيحَين»، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ من شَيْءٍ، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ من هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ جميع أعمال البِرِّ التي يقدِّمها الكفَّار في الدُّنيا، ويبذُلون فيها أموالهم خدمةً للبَشَر -كمساعدة الفقراء والمحتاجين، وإطعام الطعام، وبناء المستشفيات والمؤسَّسات التعليميَّة، وتمويل الأبحاث الطبيَّة، والمساهَمة في الأعمال الخيريَّة- لن يقبلَها الله منهم يومَ القيامة، ولن يُثيبَهم عليها، بل سيجعلها هباءً منثورًا؛ لأنَّها لم تقُم على أساسٍ صحيحٍ من الإيمانِ بالله وتوحيده.

وقد سُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عَبْدِ الله بنِ جُدْعان، وقد كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[2].

فتكذيبُ هذا الكافر بيوم الدِّين وشِركُه بالله؛ منعَه من الانتفاع بعمَله يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ الكافر لا يُقبَل منه يومَ القيامة التزلُّف، بتقديم مِلْء الأرض ذَهَبًا لو كان معه، ولا يُقبَل منه إعطاؤه إيَّاه على سبيل المُعاوَضة والفِداء، لفكِّ نفسه من العذاب.

وفيها: أنَّ الكُفر يُحبِط الأعمال، ويَمحو الحسنات.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

وفيها: أنَّ المرتدَّ لا يُقبَل منه خيرٌ.

وفيها: رحمة الله بالناس، بأنَّه لم يطلب منهم تقديمَ ما لا يُطيقون دَفْعَه؛ بل كلَّفهم بأمر يستطيعونه، وهو: أن يعبدوه وحدَه، ولا يُشرِكوا به شيئًا.

وفيها: إذلال الله للكفَّار والمرتدِّين يومَ الدِّين، وإنزال الألم النفسيِّ بهم، حين لا يجدون أولياء ولا ناصرين يدفَعون عنهم العذاب، كما كانوا يجدون في الدُّنيا من الأقرباء والأصدقاء والأعوان.

وفيها: أنَّ الذَّهَب وكلَّ الأموال لا تنفع يوم القيامة؛ وإنَّما تنفع الحسنات.

وفيها: أنَّ مَن قام بالحقُّوق والواجبات الماليَّة عليه، مع الإيمان والاستقامة؛ فإنَّ الله يقبَل ما قدَّمه ولو كان يسيرًا، وليست العِبرة عند الله بكثرة الإنفاق؛ ولكن العِبرة بقيمة العمل، وما قام في القَلْب من الإيمان.

وفيها: أنَّ الذَّهَب أَنْفَس الأموال، ومع ذلك يهون على الكافر بذلُه لو كان يستطيع؛ افتداءً لنفسه ممَّا يرى من هَوْل العذاب.

وفيها: شِدَّة عذاب الآخرة، الذي يُنسِي هؤلاء الكفَّار تعلُّقَ نفوسِهم بالمال.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾:

ولـمَّا ذكر الله تعالى ما لا يُقبَل من الكَفَرة ولا ينفعهم؛ ذكرَ ما ينفع أهلَ الإيمان ويُقبَل منهم؛ فقال:

﴿لَن تَنَالُواْ﴾ أي: لن تُدرِكوا وتصيبوا **﴿ٱلۡبِرَّ﴾** وهو: اسم جامع لكلِّ خير. والمعنى: لن تبلُغوا شرَف الدِّين، ومرتبةَ البِرِّ ودرجته، فتكونوا أبرارًا. أو: لن تبلغوا الجنَّة. أو: لن تنالوا بِرَّ الله ورحمته وخيرَه: **﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾** وتُخرِجوا **﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** من أنواع المال.

وقد قال تعالى: **﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾** [الفجر: ٢٠]، والنفس إذا تعلَّقت بالشيء وأحبَّته؛ شَحَّت به وبَخِلَت.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ، طيّبٍ أو خبيثٍ، سواءً بإخلاص أو مِنَّة ورياء؛ **﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾**؛ فسيُجازيكم عليه بحَسَبه، وبحَسَب نيَّاتكم وإخلاصكم.

ولـمَّا نزلـت هـذه الآية؛ قـامَ أبـو طَلْحَـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وكَانَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مَالًا من نَخْلٍ- وقال: إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ (وهو اسم بُستان له)، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ».

فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[١].

وعن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنْ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»، فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ[٢].

ولأجلِ هـذه الآيـة؛ أعتقَ عددٌ مـن السَّـلَف جواريَهم، مع شِـدَّة تعلُّق نفوسِـهم بهنَّ؛ ومنهم: عمر وابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا من قوَّة امتِثالهم لِـما رَغَّب الله فيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحثُّ على الإنفاق ممَّا يحبه الإنسان.

وفيها: أنَّ درجة البِرِّ تكون بحَسَب الإنفاق من المحبوبات.

وفيها: شَرَف الأبرار، وعُلُوُّ مَن بلغ تلك المنزلة.

وفيها: أنَّ بِرَّ الله يُنال ببرِّ خَلْقه.

وفيها: تغليب مَرضاة الله على شَهَوات النفس.

وفيها: ذَمُّ مَن يُنفِق من أردإِ ما عنده من الأموال وغيرها.

وفيها: أنَّ من طُرُق مقاومة هوى النفوس: التصدُّق بكرائم الأموال، كما كان يفعل الصَّحابة والسَّلَف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

وفيها: سَعَة عِلْم الله، وأنَّه بصيرٌ بنيَّات عباده، عليمٌ بنفقاتهم.

وفي أول الآيـة ترغيـبٌ، وفي آخرهـا ترهيبٌ: لتُقْـدِمَ النفسُ على الإنفاق، وتحـذَر الرِّياء والإيذاء.

وفيهـا: جـواز إنفاق المرء جميعَ ماله، إذا كانت (مِـن) في قوله ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ**﴾ لبيان الجِنس، لكن هذا الإنفاق مشروطٌ باستطاعتِه الصَّبرَ هو وأهله، والأمانِ من سؤال الناس، وعدمِ النَّدَم في المستقبَل على هذا الإنفاق، وأن يكون عندَه من قوَّةِ التوكُّل على الله والأَخْذِ بالأسباب ما يُغنيه، كما كان هو حال أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وفي قوله ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ**﴾: دليلٌ على أنَّ الصَّدَقة لله تنفع صاحبها، مهما كانت قليلة.

وفيها: فَضْل الإنفاق في أوجه البِرِّ، من الصَّدَقات الواجبة والمستحبَّة.

وفيهـا: أنَّ الإنفاق من نفائِـس الأموال في حال تعلُّق النفس بها، وفي حال الحاجة إليها، وفي حال الصِّحَّة؛ يدلُّ على برِّ قَلْبِ المتصدِّق، وتَقوَى نفسِه.

وفيهـا: أنَّ الإنفاق من المحبوبات أعـمُّ من أن يكون بالأموال، فيدخل فيه: الإنفاق من أوقـات الراحة ومـن الصِّحَّة لقضاء حوائج النـاس، وإيثار التَّعـب في الطاعات على إجمام النفـس وتنزيهـا ومُتعتها، والإنفاق مـن الجاه، والعِلْم، والأخلاق، وقوَّة الجسـد، والرأي والخبرات -وهي تُقوَّم بالمبالغ الطائلة في عالم الاستِشارات-. فمَن فعلَ هذا؛ فقد نال درجةً عظيمةً من البِرِّ.

﴿**كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣**﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعـالى الإنفاقَ من محبوبات النفس ومُشـتَهياتها؛ ذكرَ مثـالًا من عبادةِ مَن قَبلَنا، في نذرِهم لله تركَ بعضَ المحبوبات، فقال تعالى:

﴿**كُلُّ ٱلطَّعَامِ**﴾ أي: مـن الطيِّبـات، ويدخـل فيـه الـشراب أيضًـا ﴿**كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ**﴾ أي: حـلالًا عـلى يعقـوبَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وأولادِه، وشَـعْبِ بنـي إسرائيـل. ومعنـى (إسرائيل): عبد الله.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ بالنَّذْر. وكان لذلك الامتِناع من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قِصَّة:

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ، واتَّبَعْناك.

فكان منها: قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وكَذَا -قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الإِبِلَ- فَحَرَّمَ لُحُومَهَا»، قَالُوا: صَدَقْتَ[1].

وفي رواية: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا: لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى من سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟»، قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم»[2].

﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فضيَّق الله على الذين هادوا بذُنوبهم، وحرَّم عليهم في التوراة أنواعًا من الطعام لم تكن محرَّمة عليهم في شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٠].

وعلى هذا: فشريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أوسَع من شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في باب الأطعِمة.

﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدِّيًا لليهود-: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ وأحضروها ﴿فَٱتۡلُوهَآ﴾ واقرأوها عليَّ، لتكون حاكمة بيني وبينكم؛ حتى يتبيَّن لكم أنَّ ما جئتُ به هو الحقُّ ﴿إِن كُنتُمۡ

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه أحمد (٢٥١٤)، وحسَّنه محقِّقو المسند.

﴿صَٰدِقِينَ﴾ فيما تدَّعونه بأنَّ التحريم قديمٌ، وأنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم خبرَ مَن قد سبق، وأنَّ الشرائع لا تتبدَّل، والأحكام لا تُنسَخ، ونحو ذلك من افتراءات اليهود.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز النَّسْخ في الشرائع.

وفيها: إقامة الحُجَّة على أهل الكتاب من كتُبهم.

وفيها: مواجَهة المفتَري بأدلَّة كَذِبه.

وفيها: أنَّ الله يُحِلُّ ما يشاء ويُحَرِّم ما يشاء، وأنَّه ينسَخ ما يشاء لِحكمة، وهو أعلم بمصالح العِباد، ومصالح العِباد تختلف من زمن إلى آخر.

وفيها: مُناظَرة الخَصْم، وإقامة الحُجَّة عليه بشيءٍ يعتَقِد صِحَّته.

وفيها: تحدِّي أهلِ الحقِّ للمُبطِلين.

وفيها: أنَّ كُتب الله المنزَّلة على أنبيائه يؤيِّد بعضُها بعضًا.

وفيها: إنصاف الخُصُوم، والاحتِجاج عليهم بكتُبهم.

وفيها: مُناظَرة أهل الكتاب، بأمور لا يعلمها إلَّا هُم.

وفيها: أنَّ الأصل في الأطعِمة الإباحة، إلَّا ما جاء النصُّ بتحريمِه.

وفيها: أنَّ المعاصي سبَبٌ لِمُعاقَبة العِباد -شَرْعًا وقَدَرًا-.

وفيها: أنَّ تَرْك بعض الطيِّبات والامتِناع عنها -تقرُّبًا إلى الله- كان سائغًا في شَرْع مَن قبلنا. بخلاف شَرْعِنا؛ فإنَّ كلَّ الطيِّبات حلالٌ لنا، ولا يَصِحُّ النَّذْر بالامتناع عن بعضِها، ولم يُحرِّم الله علينا إلَّا الخبائث، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: فَضْل الله على هذه الأُمَّة؛ حيث أحلَّ لها الطيِّبات، ولم يشرَع لها النَّذْرَ والتعبُّدَ بالامتِناعِ عنها، بل التعبُّدُ بالامتِناع عن الطيِّبات بِدعةٌ وضلالةٌ.

وفيها: أنَّ التحليل والتحريم في الشريعة والأحكام، حقٌّ خالصٌ لله تعالى.

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩٤﴾:

ثـم قال تعالى -في بيان ظُلْم اليهود وكَذِبهم-: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ أي: اختلق. و(الافتِراء): هو التقوُّل بغير حقٍّ، وأن تنسِب إلى شخصٍ ما لم يقُلْه.

﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بـأن شرَعَ أو أخـبرَ بخلاف ما أنزل الله، كادِّعاء اليهود أنَّ التوراة لا تُنسَخ، وأنَّه لا نبيَّ يقضي على شريعة موسى، ونحو هذا من أكاذيبِهم وافتراءاتِهم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ظهور الحقِّ واتِّضاحه، وقيام الحُجَّة وظهورها.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُـصِرُّون عـلى الافـتِراء ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفُسِـهم بإيرادهـا المهالِـكَ، ولغيرهم فيما يُضِلُّونهم به، ويُورِدونهم معهم العذابَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورةُ الكَذِب على الله.

وفيها: أنَّ المفترِين على الله كذَبوا في الأخبار والأحكام.

وفيها: بيان أنَّ اليهود قد افترَوا بعد عِلْمهم بالحقِّ.

وفيهـا: أنَّ الافـتِراء عـلى الأنبياء هو افـتراءٌ على الله؛ لأنَّهم رُسُـلُه، والواسـطةُ بينه وبين خَلْقه، والطريقُ إلى معرفة شَرْعِه والأنباءِ التي يُخبِر بها.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله تعالى؛ فافتراؤه على أنبيائه أسهلُ عليه عنده.

وفيهـا: أنَّ الافـتِراء عـلى الله هـو رأس الظُّلْـم؛ لأنَّ ﴿هُمُ﴾ في الآية ضمـير فَصْل، يُفيد الحَصْر والتوكيد.

وفيها: حِرْص اليهود على الرِّئاسة الدِّينيَّة، ولو باستعمال الكَذِب على الله.

وفيها: حِرْص أهل الباطل على التمسُّك بباطِلهم، الذي يميِّزون به أنفُسَهم عن غيرهم، كما افترَت اليهود على الله بأنَّه شرَع لهم السَّبت.

وفيها: أنَّ الإصرار على الباطل -بعد قيام الحُجَّة- ظُلْمٌ عظيمٌ.

وفي الآيـة -مـع التـي قبلها-: دليـلٌ عظيمٌ على صِحَّـة ما جاء به النبـي ﷺ، وأنَّه صادِقٌ فيما أخبرَ به.

وفيها: ظهورُ صِدق النبي ﷺ، مؤيَّدًا من كتُب خُصومه.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾:

﴿قُلْ﴾ يـا أيُّهـا النبـيُّ ﷺ: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيـما شرَعَـه وأخـبرَ به، ومـن ذلك: ما أخـبرَ به من حِلِّ الأطعمة على بني إسرائيـل، وأنَّ تحريمَ بعضِها كان جزاءَ أفعالهم القبيحة. و(الصِّدق) هو: مطابَقة الخبر للواقع.

﴿فَٱتَّبِعُواْ﴾: الخِطـاب لجميـع الناس -بما فيهم المسـلمون واليهـود- ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: ديـنَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو التوحيد والبراءة من الـشِّرك؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائِلًا عن كلِّ شِرك ودين باطل، إلى التوحيد ودين الحقِّ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: تأكيدٌ لبراءة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل الشِّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّنـاء على الله تعالى بالصِّدق؛ كما قال تعـالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيهـا: أنَّ الله تعـالى صادِقٌ في كلِّ شيء أخبرَ بـه، كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيها: أنَّ أساس دين النبيِّ ﷺ هو أساسُ دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفي الآية: الثَّناء على إبراهيم ﷺ، بأنَّه إمامٌ، وحنيفٌ.

وفيها: وجوب اتِّباع الحقِّ أينما كان.

وفيها: وجوب الإيمان بالرُّسُل السابقين.

وفيها: أنَّ النبي ﷺ عرَف كَذِبَ اليهود بواسطة ما أخبرَه الله به من الوحي، وميَّز صِدقَهم من كَذِبهم -فيما يُحَدِّثونه به عن أنبيائهم- بما أوحاه الله إليه في ذلك.

وفيها: أنَّ الأنبياء -وإن اختلفَت شرائعهم في بعض الأحكام، بحَسَب حاجات أُمَمِهم ومصالحها- فإنَّ أصل شرائعهم واحد، وهو التوحيد الذي بعثَهم الله به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفيها: ذَمُّ الذين يُدخِلون الشِّرك في عباداتهم، والتعريض بشِرك اليهود -وهم الذين قالوا: «عزير ابن الله»-.

وفيها: إيراد هذه الكلمة العظيمة: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في مُناظَرةِ الخُصُوم.

وفيها: الرَّدُّ على المكذِّبين، وفَضْحُ المفتَرين على الله.

وفيها: أنَّ أعظم الناس تصديقًا لله هم أكثرهم عِلمًا وعملًا، وتسليمًا بما جاء عن الله من الأخبار والأحكام.

وفي الآية: أنَّ اليهود ليسوا على مِلَّة إبراهيم، ولو ادَّعَوا ذلك.

وفيها: إلزامُ اليهود بالتوحيد، وأنَّهم إذا كانوا يعتَزُّون بإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ويدَّعون أنَّهم أولياؤه؛ فليتَّبعوا مِلَّته -إن كانوا صادِقين في ذلك-.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى باتِّباع مِلَّة إبراهيم؛ ذكر عَزَّ وَجَلَّ أنَّ من أعظم شعائر مِلَّة إبراهيم: الحَجَّ إلى الكعبة، وكان اليهود يدَّعُون أنَّ بيت المقدِس أفضلُ من الكعبة، وأحقُّ بالاستِقبال في الصَّلاة، وأنَّه قد بُنِيَ قبلَها؛ فرَدَّ الله عليهم بهذا، فقال:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ﴾ أي: بُنِيَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لعباداتهم ونُسُكهم، كالطواف، والصَّلاة، والاعتكاف ﴿لَلَّذِي﴾ البيت ﴿بِبَكَّةَ﴾ أي: بمكَّة. وسُمِّيت (بكَّة)؛ لأنَّه يبُكُّ بعضُهم فيها بعضًا، أي: يزدَحِمون فيها للطواف. وقيل: لأنَّها تبُكُّ أعناقَ الظَّلَمة، أي: تُهلِكهم.

وقيل: لأنَّ رقابهم تخضَع فيها وتَذِلُّ.

وقيل: (بكَّة) هي الكعبة والمسجد، و(مكة) هي ما وراء ذلك[١].

وقد سأَلَ أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المَسْجِدُ الأَقْصَى»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[٢].

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: وُضِعَ وفيه البرَكة. وبركاته متعدِّدة؛ فمنها: مغفرة ذُنوب مَن حجَّ إليه، وأنَّ الحسنات فيه مُضاعَفة، وأنَّ مَن دخله كان آمنًا، وفيه الماء المبارك ماءُ زَمْزَم، وغير ذلك من البركات.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: منارًا يهتَدي به العالَمُ؛ فهو قِبلَتهم، ويجتَمعون فيه للصلاة، وهو مأوى أفئدتهم للحَجِّ والعُمرة. فيحصُل فيه: هداية الضالِّ، وتعليم الجاهل، وإقامة العِبادات.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك البيت ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾: دلائل وعلامات ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ تدلُّ على حُرْمته وفَضْله. ويدخل في تلك العلامات: موضع المناسِك والمشاعر، كمِنى ومُزْدَلِفة، و﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو: الحَجَر الذي وقفَ عليه الخليلُ لبناء الكعبة، حينَ ارتفع البُنيان.

ومن المعجِزات: بقاءُ أثر قدمَيه في الصَّخرة الصَّمَّاء، وإلانةُ الصَّخرة لغَوصه فيها، وبقاء الأثر آلاف السنين!

وكان الحَجَر مُلتَصِقًا بالكعبة، فأخَّره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ناحية الشرق، لـمَّا كثُر المسلمون في الفتوحات؛ لئلَّا يتعارَض الطوافُ بالبيت مع الصَّلاة خلفَ المقام.

---

(١) انظر: الدرّ المنثور (٢/ ٢٦٧، ٢٦٦)، تفسير الطبري (٦/ ٢٥، ٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

وقال بعض المفسِّرين: المراد بـ (مقام إبراهيم): كلُّ مَقام قامَه الخليل في مناسِك الحج.

قولـه تعـالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ أي: هذا البيت، والمـراد: جميع الحَرَم؛ كـما دلَّت على ذلك السُّـنَّة ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: من السُّـوء والأذى. وقيل: من النَّار، -يعنـي: إذا دخله معظِّما له، عارفا بحقّه، متقرّبا إلى الله-.

ومن هذا الأمن: أنَّ الطَّير والصَّيد فيه لا يُنفَّر، ولا يجوز أخذُه، وأنَّ الشـجر والحشـيش فيه لا يُقطَع، ولا يجوز قلعُه؛ ففي الحديث: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا الله، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»[1]، يعني: يقطعها.

وهذا الأمن في الحَرَم كان استجابةً لدعوة إبراهيم الخليل، عندما قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقـد جعلَـه الله تعالى آمِنًا شَرْعًا -قطعًا- وقدَرًا -في الغالـب-؛ كما قال تعالى -ممتنًّا على قُريش-: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولـمَّا كان تأمينُ الحَرَم وسـيلةً لإقامة العِبادات فيه، ولـمَّا ادعى اليهود أنَّهم مسـلمون؛ أمـرَ الله تعـالى بالحَجِّ؛ إظهارًا لفائدة الأمن، وكَشـفًا لحقيقة مَن يدَّعي الإسـلام، ثم لا يأتي بيته للحَجِّ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (الـلام) للاستِحقاق، أي: يجب حقًّـا لله ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: أن يَقصِدوا بيتَه لأداء المناسك، على الوَجْه الذي شرَعَه.

وقـد خطبَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُـولَ الله؟ فَسَـكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ»[2].

وفي حديـثٍ آخر: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَـوْ وَجَبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا عُذِّبْتُمْ»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٨٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٧٧).

وقوله تعالى ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ وأطاقَ وقدَر ﴿إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي: بلوغَ البيت، بوجود راحلةٍ وزادٍ ونفقةٍ لعياله، مع أمن الطريق، حتى يَرْجِع.

وقوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بهذه الفريضة، سواء كُفرًا أكبر بجَحْدها، أو كُفرًا أصغر بتَرْك أدائها مع الاستطاعة والإقرار بوجوبها؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: مُستغنٍ ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن حَجِّهم وعبادتهم.

وقال صَحَّ عن عمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَن أطاقَ الحَجَّ، فلم يحُجَّ؛ فسواءٌ عليه يهوديًّا ماتَ أو نصرانيًّا»[1].

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ أول بَيت وُضِع للعبادةِ، وإتيانِ الناس إليه في الأرض، هو الكعبة.

ودلَّ الحديث على أنَّ آخر بيت وُضِعَ، يأتيه الناس للعبادة، هو المسجد النبويّ، وبينهما بيت المقدِس، وهذه هي المساجد الثلاثة التي يجوز السفر وشَدُّ الرِّحال إليها للعبادة.

وفيها: أنَّ المسجد الأسبَق في الإقامة أفضل، ما لم يتميَّز الآخَر بفضائل أخرى؛ فالأوَّليَّة أحدُ أسباب التفضيل في المساجد.

وفيها: رَدٌّ على اليهود، الذين قالوا: إنَّ بيت المقدِس أولى من غيره بأن يكون قِبلَة تُستقبَل في الصَّلاة.

وفيها: أنَّه ينبغي على أهل الحَرَم المكيِّ السَّعْيُ في هداية الناس، والأَخْذُ بالأسباب التي تجعل من الحَرَم هدايةً للعالمين.

وفيها: أنَّ إقامة الشعائِر في المسجد الحرام، والتوجُّه إلى الكعبة في الصَّلاة؛ من أسباب الهداية.

وفيها: أنَّه لا تصلُح قُلُوب الناس إلَّا ببيت يجتمِعون عليه، وتهوي أفئدتهم إليه.

وفيها: أنَّ البيت الحرام قد حلَّت فيه البرَكة قَدَرًا وشَرْعًا؛ فينبغي التماسُها وإصابتُها هناك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥).

وفيها: فضيلةٌ عظيمةٌ للمسجد الحرام؛ بما جعلَ الله فيه من الآيات البيِّنات، الظاهرة لكلِّ أحد، ومنها: الكعبة، ومَقام إبراهيم، وماء زمزم، وغيرها.

وفيها: فضيلة ظاهرة لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ مقاماتِه في المناسِك صارَت شعائرَ لجميع الناس.

وفيها: وجوب الحِرْص البالغ على تأمين منطقةِ الحَرَم، ومَن يدخلها.

وفيها: قوَّة ورَهْبة هذا الحَرَم المكيّ، الذي أذلَّ أعناق الجبابِرة.

وفيها: بيان حقِّ الله على عباده بالحجِّ، ورحمة الله بهم؛ حيث قيَّد الوجوب بالاستِطاعة.

وفيها: أنَّ إطلاق (الاستِطاعة) في الآية، يُفيد شمولها للبدَن والمال؛ فمَن استطاع بماله دون بدَنه؛ وجبَ عليه الحجُّ عن طريق الاستِنابة. ويدخل في الاستطاعة: الاستطاعة الشرعيَّة، كأن تجد المرأةُ القادرةُ على الحجّ مَحْرَمًا.

وفيها: أنَّ تارك الحجِّ يكفر كُفرًا أكبر أو أصغر، بحَسَب حاله.

وفيها: أنَّ الله لم يأمُر عباده بالحجِّ لينتَفِع بذلك؛ فهو سبحانه غنيٌّ عن العِباد وعبادتهم، كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[١].

وفيها: أنَّ استِغناء الله عن العالَم، يلزَم منه أن يكونوا جميعًا فقراءَ إليه.

وفي الآيتين: قِدَمُ الصَّلاة والحجِّ، وأنَّهما في شرائع الأنبياء السابقين.

وفيها: فَضْل الكعبة، فالآمِر ببنائها هو: المولى الجليل، بواسطة الأمين جبريل، والقائم بالبُنيان: إبراهيم الخليل، والمساعد له: ولده إسماعيل.

وفيها: أنَّ إتيانَ البيت للعبادة من أسباب الأمن من الذُّنوب، والخروج منها، وإتيانه للنُّسُك سبَبٌ للأمن من النَّار.

وفيها: أنَّ الغالِب -واقعًا- على حال الحَرَم هو الأمن، حتى إنَّ أهل الجاهليَّة

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

-وهم أرباب شِرك- كان أحدهم لو وجدَ قاتِلَ أبيه أو أخيه في الحَرَم؛ لم يتعرَّض له بأذى(١).

وفيها: عِظَم جُرْم مَن خرق أمنَ الحَرَم، وخالفَ شَرْع الله، كالقرامِطة، والحجَّاج بن يُوسُف الثقفيّ الظالم.

وفيها: أنَّ الأشخاص يتفاوَتون في الاستطاعة، بُعدًا وقُربًا، غنىً وفقرًا، صِحَّةً ومَرَضًا، خَوفًا وأمنًا.

وفيها: فضيلة عظيمة للحَرَم؛ حيث اختُصَّ بعباداتٍ لا تؤدَّى في غيره، وأجرٍ وفَضْلٍ فيه لا يُكتسَب إلَّا فيه؛ كالطواف، وتقبيل الحَجَر الأسود، والصَّلاة فيه بمائة ألف صلاة.

وفيها: أنَّ مِن وسائل تحبيب الناس في العِبادة: الابتداء بذِكْرِ فَضْلها، وشَرَفِ مكانها؛ لتتشوَّق النفوسُ إليها، وتُسارِع إلى أدائها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

ثم أمرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن كُفرهم، توبيخًا؛ فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ أي: لأيِّ سبَب تُعانِدون وتُنكِرون وتجحَدون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي دلَّتكم على صِدق النبيِّ ﷺ فيما جاء به، من وجوب الحجِّ وغيره.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: هذا تهديدٌ من الله تعالى، بأنَّه شاهدٌ على كُفرهم، ومطَّلعٌ على أعمالهم السيِّئة، وسيُجازيهم عليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن كفرَ بآيات الله؛ فهو مستَحِقٌّ للتوبيخ.

وفيها: خطورةُ الكُفر بآيات الله، وهذا يشمل: آياته الكونيَّة، والكُفر بها يكون: بإنكارِ أنَّ الله خالقُها، أو اعتقادِ أنَّ له شريكًا في إيجادِها، أو مُعينًا له فيها.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤١٣)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٢٦).

وآياتـه الشرعيَّـة، والكُفـر بها يكـون: بتكذيبِ مجيئها من عنـد الله، أو رَدِّهـا ومخالفتها. والمخالفةُ التامَّة لجميع الآيات الشرعيَّة كُفرٌ أكبر، وإذا خالفَ بعضَها -لهوًى ونحوه- فهو كُفر أصغر.

وفي الآية: إثبات شهادة الله تعالى على أعمال بني آدم، وأنَّه يُحصيها.

وفيها: أنَّ حديث النفس بالشرِّ لا يُؤاخَذ عليه الإنسان، إلَّا إذا عَمِلَ به بقَلْبِه اعتقادًا، أو بلسانِه وجوارحه.

وفيهـا: إقامـة الحُجَّة على أهل الكتاب، وإظهار عَجْزهم عـن إقامة العُذر على كُفرهم؛ لأنَّ من معنى الآية: هاتوا عُذرَكم بعدَم اتِّباعكم لآيات الله. فلم يأتوا بشيء.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾:

ولـمَّا أمرَ الله نبيَّه ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كُفرهم -القاصرِ على أنفُسِـهم-؛ أمرَه -ثانيةً- بتوبيخهم على شرِّهم المتعدِّي إلى غيرهم؛ فقال تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ أي: لأيِّ شيء وبـأيِّ حُجَّـة تمنَعون وتَصرِفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينـه وشَرْعه -وهو الإسـلام-. وأُضيف (السَّـبيل) إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي وضعَـه للخَلْـق ليسـلُكوه، وهو الـذي يُوصِلهم إليه سبحانه، فـ(سـبيل الله): هو الطريق المُوصِل إليه، وإلى جنَّته وثوابه.

﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ بالإسلام، من الرِّجال والنساء، فتَفتِنوهم عن دينهم ليكفروا، أو تُغروهم وتستَميلوا قلوبَهم ليتركوا دينَهم الحقَّ.

وقوله ﴿تَبۡغُونَهَا﴾ أي: تطلبونها ﴿عِوَجٗا﴾ يعني: مائلةً عن الحقِّ ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُ﴾ أي: والحال أنكم شُـهَداء على ما تفعلون، وشُهَداء تَرَون وتسمَعون معجِزات النبيِّ ﷺ، التي تدُلُّ على صِدقه، وشُهَداء على الحقِّ، بما تشاهِدون من علاماته وآياته.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: ليـس بتاركٍ ولا سـاهٍ ولا ناسٍ ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من الكُفر والصَّدِّ، فيحصي عليكم أعمالكم، ثم يُجازيكم عليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أقبحِ الأمور ألَّا يكتفي الكافر بالكُفر في نفسه، حتى يجرَّ غيرَه إليه، ويُوقِعَه فيه.

وفيها: خطورةُ الصدِّ عن سبيل الله، والعُدوان على الغير.

وفيها: أنَّ مَن ثبَّط غيرَه عن الخير ورغَّبه في الشرِّ؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى.

وفيها: خطورة الصدِّ عن سبيل الله بأيِّ وسيلة، سواءً كان بإعلان الجَحْد والإنكار، أو التشكيك وإلقاء الشُّبُهات، أو بفِتنة ضَعَفة المسلمين -بالسُّخرية منهم، أو اضطهادهم، أو استِمالتهم، أو إغرائهم ليهجُروا دينَهم- أو بتأليب بعضِ الأعداء على هذا الدِّين، أو بمَنْع مَن يريد الدُّخولَ فيه من الدخولِ فيه، أو القيام بتشويه سُمعة أهله، أو تنفير الآخَرين عنه بالدِّعايات الباطلة -بالمقالات والكتب والأفلام ونحوها-.

وفيها: خطورة الاعوِجاج عن الصِّراط المستقيم، بتَرْك ما أمرَ الله به، أو فِعْل ما نهى عنه: فالاعوِجاج في الأوامر يكون بالتهاون فيها والتفريط، أو الإفراط والغُلُوّ. والاعوِجاج في النواهي يكون بانتهاكها وارتكابها.

وفيها: الحثُّ على لزومِ الشَّرْع والتمسُّكِ به، ولو تكالبَ الأعداءُ على المسلمين.

وفيها: أنَّ رَفْع الخير أشدُّ قُبحًا وضَرَرًا من مَنعه.

وفيها: أنَّ التسبُّب في رِدَّة المسلم، أسوأُ من التسبُّب في بقاء الكافر على كُفره. وأنَّ رَفع الخير عن الغَير، أسوأُ من مَنع وصولِه إليه.

وفيها: أنَّ رؤساء أهل الكتاب يميِّزون الحقَّ من الباطل، ويعلمون صِحَّة دين الإسلام.

وفيها: توبيخُ أهل الكتاب جميعًا؛ لأنَّ عوامَّهم تَبَعٌ لكُبَرائهم وعُلمائهم ومُجرِميهم، المعانِدين والصادِّين عن سبيل الله.

وفيها: أنَّ أحبار أهل الكتاب أشدُّ جُرمًا من عوامِّهم؛ لأنَّهم مِن أكبر الشُّهَداء على الحقِّ، وأكثرِ الناس معرفةً به، ولأنَّهم مُوثوقون ومرضيُّون ومتَّبَعون عند عوامِّهم.

وفيها: قُبح جريمة مَن يكفر بالحقِّ وهو يَعقِل ويفَهم، ويشهَد دلائلَه وآياتِه.

وفيها: كمالُ مُراقبة الله تعالى لخَلْقه؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وفيها: انتِفاءُ الغَفلة عن الله تعالى، وتنزيهُه عن تَرْك مُجازاة المُجرِمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾:

ولـمَّا كان أهل الكتاب بهذه الخطورة، وهذا القَدْر من الشرِّ؛ حذَّر الله تعالى عبادَه المؤمنين من طاعتهم؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: النِّداء بالإيمان إغراءٌ لقَبول ما يأتي من خبرٍ للتصديق به، أو أمرٍ ونهيٍ لامتِثاله.

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾ أي: تُوافِقوا وتتَّبِعوا ﴿فَرِيقٗا﴾ جماعة وطائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهم: اليهود والنصارى، والمقصود: رؤساؤهم وأحبارهم، ورؤوس الشرِّ منهم؛ ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ بما يَسْعَون إليه من تشكيكِكم، وإلقاءِ الشُّبُهات بينكم، أو جرِّكم إلى تقديم تنازُلات تُخرِجكم عن الإسلام، أو بما يُريدون من إشعالِ الفِتنة بينكم وإغرائِكم بالاقتِتال.

وقد رُوي أنَّ شاسَ بنَ قَيْس اليهوديَّ -وكان عظيمَ الكُفر، شديدَ الطَّعْن في الإسلام- قد تمالأَ مع بعض مَن معه، لتذكير الأَوْس والخَزْرَج بما كان بينَهم من الحروب والثارات أيَّام الجاهليَّة؛ تهييجًا لهم على الاقتِتال أو الفِتنة عن الدِّين؛ فنزلَت هذه الآية[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحذير المؤمنين من مَكْر اليهود والنصارى، وأنَّهم يسعَون في إخراجنا عن دينِنا، بل يَوَدُّون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ومَن ودَّ شيئًا سعَى في تحقيقه بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ طائفةً من أهل الكتاب يَسْعَون لتحقيق أسوإ ما يُمكِن فِعْله بالمسلمين، وهو الرِّدَّة، بإخراجِهم من الإيمان إلى الكُفر.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٦)، تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيها: التحذير من طاعة الكفَّار، وأنَّ الاستجابة لهم ستؤدِّي إلى الهلاك، إمَّا في الدُّنيا -كالاقتِتال بين طوائف المسلمين- أو في الآخرة -بالعذاب على الرِّدَّة-.

وفيها: تحذير المسلمين من سَعْي أهل الكتاب لإخراجهم عن دينهم، وإن أظهَروا المُسالَمة والمُداهَنة، والصَّداقة والولاية؛ لأنَّهم يستَعمِلون سائر الوسائل لاستِدراج المسلمين إلى الكُفر، بالتمويهِ والتلبيسِ بالشِّعارات الكاذِبة، والطعْنِ والتشكيكِ في التشريعات، والتدرُّج في ذلك.

وفيها: أنَّ حِرْص أهل الكتاب على إخراج المسلمين من دينهم، إنَّما هو لأجل ما يَرَون من تمسُّك المؤمنين بإيمانهم ووَحدَتهم.

وفيها: بيان أنَّه قد يوجد في أهل الكتاب مَن لا يشتَغِل بالسَّعْي في رِدَّة المسلمين، لكن كثيرًا منهم يعمَلون على ذلك؛ بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وهم مستَتِرون يخفَون علينا؛ فوجبَ الحَذرُ من الجميع.

وفيها: أنَّ هؤلاء المفسِدين لا يرضَون منَّا بما دون الكُفر. ولو أظهروا القَبول بشيءٍ دونه؛ فإنَّما يفعلون ذلك استِدراجًا للمسلمين، لإيقاعهم في الرِّدَّة، وهي أعظمُ غاياتِهم ومَطالِبهم.

وفيها: الحذَر من التبعيَّة لليهود والنصارى، والتشبُّه بهم، ووجوب ممانعتِهم وعدم طاعتهم.

وفيها: الحذَرُ من أساليب أهل الكتاب الخبيثة في إضلال المسلمين وإغوائهم؛ ومنها: الدَّعوة إلى دينهم في قالب النُّصح والترغيب والترهيب، والتنوُّع في الدعوة إلى القَبول بمبادِئهم وأفكارِهم؛ كالدعوة إلى الدِّيمقراطيَّة والحريَّة المُطلقة، ومُساواة المرأة بالرجل، والدَّعوة إلى التبرُّج والسفور والاختِلاط، واعتِماد القوانين الجاهليَّة الوضعيَّة الأرضيَّة المُصادِمة للشريعة، والدَّعوة إلى حُريَّة الاعتِقاد، والتقارُب بينَ الأديان، وإزالة الفوارِق بينَ المسلم وغيره، وفَصْل الدِّين عن الحياة العمليَّة، وتَرْك بعض التشريعات -كالحجاب، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، والجهاد- والحدّ من التعليم الدِّينيّ الشرعيّ، واعتماد التفسير الماديّ في الأحداث والحياة.

ومـن ذلـك: إطلاق حريَّة التجـارة من جِهَتهم، بـما يمكِّنهم من السَّـيطرة والهَيمنة على اقتصاد المسـلمين، وإيقاعهـم في الرِّبا، والدَّعـوة إلى البَعْثات الخارجيَّـة -خاصَّة للطُّلاب، وللنِّساء من غير مَحْرَم-؛ ليتشبَّعوا بأفكارِهم وثقافاتِهم ومعتقداتِهم، ثم يعودوا لبَثِّ السُّموم ونشر الأفكار الهدَّامة في المجتمعات المسلمة.

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى استِبعادَ وقوع الكُفر من أصحاب نبيِّه ﷺ، وهم يُعاينون تنزيلَه ويتعلَّمون تأويلَه؛ فقال:

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ﴾: الاستِفهام للاستِبعاد والتعجُّب، يعني: أنَّ الكُفر بعيدٌ منكم -يا أصحاب النبيِّ ﷺ- وحاشاكم منه.

﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزِل ليلًا ونهارًا، فيتلوها عليكم نبيُّكم ﷺ، ويبلِّغكـم إيَّاها غضَّةً طريَّـةً، فيها البيان والهدى. ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥ﴾ أي: معكم، يعلِّمكم الكتاب والحِكمة.

وقد قـال النبيُّ ﷺ يومًا لأصحابه: «أَيُّ الخَلْقِ أَعْجَبُ إِيمَانًا؟»، قَالُوا: الملائِكَةُ، قَالَ: «المَلائِكَةُ كَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قَالَ: النَّبِيُّونَ، قَالَ: «النَّبِيُّونَ يُوحَى إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قَالُوا: الصَّحَابَةُ، قَالَ: «الصَّحَابَـةُ يَكُونُونَ مَعَ الأَنْبِيَـاءِ، فَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ؟! وَلكن أَعْجَبَ النَّاسِ إِيمَانًا: قَوْمٌ يجيؤون من بَعْدِكُمْ، فَيَجِدُونَ كِتَابًا من الوَحْيِ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَهُ، فَهُمْ أَعْجَبُ النَّاسِ -أَوِ الخَلْقِ- إِيمَانًا»[1].

فمـن أيـن يَتطرَّق الكُفر إلى الصَّحابـة رضي الله عنهم، والحال أنَّ آيات الله تُتـلَى عليهم، ونبيُّهم ﷺ يسير بها فيهم، ويمتثِلها، ويبيِّنها لهم؟!

﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يتوكَّلْ عليه، ويستَعِنْ به، ويلجأْ إليه، ويَسْتَمسِكْ بدينه وكتابه؛ ﴿فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: طريق واسعٍ غيرِ مُعْوَجٍّ، وهو الإسلام المؤدِّي إلى الجنَّة.

---

(١) رواه البزار (٧٢٩٤)، وهو في الصحيحة (٣٢١٥).

وقـد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تيئيس أهل الكتاب -مَهما حاولوا- من نَيل مُرادهم في ارتِداد أصحابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كانت الرِّدَّة في عَهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نادرةً، وإنَّما ارتدَّ بعضُ الناسِ بعد موته.

وفيها: رَدٌّ على بعض المبتدِعة، الذين يقولون: إنَّ أصحابَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدُّوا بعدَه وكفـروا -إلَّا أربعـة، أو سـبعة-! وهـذا من أعظـم الظُّلْم للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسِـه؛ لأنَّ فيه اتِّهامًا له بالفَشَـل في تربية أصحابه -وحاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بل فيه اتِّهام لله تعالى بأنَّه اصطفى لنبيِّـه وخـير خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابًا، يعلَـم أنَّهم لن يثبُتوا على الدِّين، وسـيقعوا في الرِّدَّة! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّا يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا.

وفيها: أنَّ الاعتِصامَ بكتاب الله، والإقبالَ على حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أعظمُ مانعٍ يمنع من الكُفر.

وفيهـا: فَضْل الله تعـالى على الصَّحابة، بأن جعلَ نبيَّـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم وبينهم، وقد قال عبدُ الله بنُ رَوَاحَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه النِّعمة:

وفينا رَسُـولُ اللهِ يَتْلُو كتابَهُ ... إذا انشَقَّ مَعْروفٌ منَ الفِجْرِ ساطِعُ
أرَانا الهُدَى بعدَ العَمَى، فقُلُوبُنا ... بـهِ مُوقِنـاتٌ أنَّ ما قـالَ واقِـعُ
يَبِيتُ يُجَـافِي جَنْبَهُ عَـنْ فِـرَاشِـهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ(٢)

وفيها: أنَّ العيش والمُخالَطة للقُدوات العظيمة، من أسباب الثَّبات على الدِّين.

وفيها: أثرُ أهل العِلْم والقُدوة في دفعِ الشُّبَه، وتثبيتِ الناس على الدِّين.

وفيها: أنَّ بقاء أنوار الكتاب والسُّنَّة بينَ الناس -ببيان تفسير القرآن، وشروح الحديث- يُثبِّتهم، ويُبْعِدهم عن الرِّدَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (١١٥٥).

وفيها: أنَّ اللُّجوءَ إلى الله واللِّياذَ به، من أعظم وسائل الثَّبات على الدِّين.

وفيها: أنَّ مَن لجأ إلى الله عند الشُّبُهات، وفَزِعَ إليه عند وَسْوَسة شياطين الإنس والجنِّ؛ فإنَّ الله يَعْصِمه ويُثَبِّته.

وفيها: ضمانُ الهداية وتأكيدُ وُقوعِها لمن يعتَصِم بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى ثباتَ أصحاب نبيِّه ﷺ على الدِّين؛ أمرَهم بالتَّقوى، وأوصاهم بالاستِمرار على الثَّبات حتى الممات؛ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فسَّر ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّقوى بقوله: «أن يُطاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر»[1].

وقوله **﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾** أي: أبلَغ التَّقوى وأدوَمُها وأكمَلُها، باستِفراغ الوُسْعِ في اتِّخاذ وقاية من عذاب الله، بِفِعْل أوامره، واجتِناب نواهيه.

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى **﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾**: «أن يُجاهِدوا في سبيله حقَّ جِهاده، ولا تأخذهم في الله لومةَ لائِم، ويقوموا لله بالقِسْط ولو على أنفُسِهم وآبائهم وأبنائهم»[2].

وقد قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ قوله تعالى: **﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾** منسوخٌ بقوله تعالى: **﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾** [التغابن: ١٦].

وقال آخرون: ليست منسوخة؛ بل هي مقيَّدة ومفسَّرة بهذه الآية، يعني: **﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾**.

قوله تعالى **﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾** أي: حافِظوا على الإسلام في حال صِحَّتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه؛ فإنَّ الكريم سبحانه قد أجرَى عادته أنَّ مَن عاش على شيءٍ مات عليه، ومَن مات على شيءٍ بُعِث عليه؛ ولذا قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٢٩٧)، والحاكم في المستدرك (٣١٥٩)، وإسناده صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

وقال ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»(٢).

وذكرَ الله تعالى من أدعية الصالحين: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ [يوسف: ١٠١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العِناية والاهتِمام بالتَّقوى، وأنَّها من مُقتَضيات الإيمان.

وفيها: وجوب المبادَرة إلى الإسلام، والبقاء عليه.

وفيها: أنَّ مَدار المصير على الخاتمة، وأنَّ على المسلِم ألَّا يُغَيِّر ولا يبدِّل. وبهذا تظهر العَلاقة بينَ هذه الآية، وقولِه تعالى في آيةٍ قبلَها: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وفيها: الاستِعداد للموت بعمل الصالحات؛ ليحصُلَ التوفيق، للثَّبات على الإسلام حتى المات.

وفيها: إشارةٌ وتحذيرٌ ممَّا بعد الموت.

وفيها: أنَّ التَّقوى في القُلُوب تتفاوَت.

وفيها: بيان العَلاقة بينَ التَّقوى وحُسن الخاتمة.

وفيها: أنَّ مَن كان في حال صِحَّته ونشاطه مُداوِمًا على تقوى الله وطاعته والإنابة إليه؛ ثبَّته الله عند موته، ورزقَه حُسنَ الخاتمة.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾:

ثم بيَّن الله تعالى وسيلةَ الثَّبات على الدِّين حتى المات؛ فقال:

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: تمسَّكوا بدينه الذي شرَعه -وهو الإسلام- وبكتابه -وهو القرآن-. و(حَبْل الله): هو عَهده وكتابه وشَرْعه، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه المُوصِل إليه، وأُضيف إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي أنزلَه.

وقوله ﴿جَمِيعٗا﴾ أي: كلُّكم، فكونوا مجتَمِعين على التمسُّك به. وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث[1].

وفي روايةٍ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ من الآخَرِ: كِتَابُ الله، حَبْلٌ مَمْدُودٌ من السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي...»[2].

قال عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «حَبْل الله: القرآن»[3]، وقال أبو العالية رحمه الله: «اعتَصِموا بالإخلاص لله وحدَه»[4].

وقوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: كما تفرَّق الذين من قبلِكم شِيَعًا وأحزابًا، ولا تختَلِفوا اختِلافَ أهل الجاهليَّة -يقتُل بعضهم بعضًا-. والنهيُ عن التفرُّق هنا يتضمَّن الأمر بالاجتِماع. فالمعنى: لا تفرَّقوا، وعليكم بالجماعة.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ»[5].

ومن مزايا هذه الأُمَّة: أنَّها لا تجتَمِع على ضلالةٍ، وإجماعها معصومٌ؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي -أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ- عَلَى ضَلَالَةٍ»[6].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٣) رواه الدارمي في سننه (٣٣١٧)، بإسناد صحيح.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٤).

(٥) رواه مسلم (١٧١٥).

(٦) رواه الترمذي (٢١٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨).

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنَتكم وقُلُوبكم، وتذكَّروا ما كنتُم فيه في الجاهليَّة من العداوة والتفرُّق، وما أصبحتُم عليه في الإسلام من الأُلْفة والاجتِماع. وهذه هي ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ومِنَّته وفَضْله ﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ تتقاتَلون بينكم، في حروبٍ وفِتَن وثارات.

وقد قال النبيُّ ﷺ للأنصار -وهم الأَوْس والخَزْرَج-: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟»[(١)].

وهذا معنى قوله ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: جمَعَها على المحبَّة؛ ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ صِرْتم ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ وهي: نِعمة الإسلام، الذي أنعمَ اللهُ به عليكم ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ في الدِّين، متحابِّين مجتَمِعين.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِن الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ...» الحديث[(٢)].

﴿وَكُنتُمۡ﴾ -يا معشر الأَوْس والخَزْرَج- قبل الإسلام ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ أي: طَرَف وحَرْف ﴿حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ من جهنَّم، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلَّا أن تموتوا على كُفركم؛ ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ ونجَّاكم.

قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: يُظهِر ويُفصِّل ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وهي: العلاماتُ الدالَّة على رُبوبيَّته ووحدانيَّته وحِكمته، سواءً في ذلك الآيات الكونيَّة، أو الشرعيَّة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ هدايةَ الدّلالة والإرشاد، وهدايةَ التوفيق إلى الحقِّ، فتخرُجوا من الضَّلالة، وتسلُكوا سبيل الاستِقامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ الاجتِماع على طاعة الله.

وفيها: وجوب التحاكُم إلى شَرْع الله.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) -واللفظ له-.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨).

وفيهـا: أنَّ اجتِـماع الأُمَّة عِصمةٌ لهـا من الباطل، وعِصمةٌ لها من الأعـداء، وإذا تفرَّقت: وقعَت في البِدعة والضلالة، وتسلَّط عليها أعداؤها.

وفي الآيـة: تحريم تفرُّق القُلُوب، أما تفرُّق الأبدان والاجتِهادات: فلا بأس به، لكن بلا هِجران، ولا تعصُّب.

وفيها: استِحضار نِعَم الله على العبد، والتحدُّث بها.

وفيها: أنَّ التفرُّق سبَبٌ لسَلْب النِّعمة.

وفيها: فَضْل الله تعالى على الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ النَّارَ فيها حُفَرٌ للعذاب.

وفيها: تحريم الابتِداع في الدِّين.

وفيها: النهي عن كلِّ سبَب يؤدِّي إلى التفرُّق، كالتعصُّب للقبيلة، أو البلد، أو الجنسيَّة.

وفيها: خطورة الموت على الكُفر.

وفيها: أنَّ الاختِلاف في الرأي لا بأس به، إذا كان لا يؤدِّي إلى تنافُر القُلُوب.

وفيها: أنَّ الجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذاب.

وفيها: أنَّ الجماعة من أعظم نِعَم الله على العبد، بعد الهداية إلى الإسلام.

وفيها: أنَّ الاعتِصام بشَرْع الله، وشُكر نِعمته؛ من أسباب الهداية.

وفيهـا: مِنَّـة الله تعـالى على المؤمنـين، بالتأليفِ بـينَ قُلُوبهم، والإنقـاذِ من النَّـار، وتبيينِ الآيات.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعـالى مِنَّته عـلى الصَّحابةِ والمُؤمنـين؛ ذكَّرهم بما يجب عليهـم تجاه دينهِ؛ فقال:

﴿وَلْتَكُن﴾ (اللام) للأمر، أي: ولْتوجد ﴿مِّنكُمْ﴾ يا معشر المُؤمنين. والمعنى: بعضكم، أو: ولتكونوا أنتم جميعًا ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ﴾ أي: جماعةٌ قائمةٌ ومُنتَصِبةٌ يَدْعُون الناس ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾: يشمل خيرَ الدُّنيا والآخرة، وما فيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم.

﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (المعروف): كلُّ ما استحسنه الشَّرْع وأقرَّه، وهو معروفٌ عند العُقلاء وأصحاب الفِطَر السليمة.

﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ (النهي): طلَب الكفِّ عن الشيء، أي: يطلبون من الناس أن يكُفُّوا ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. و(المُنكَر): ما أنكرهُ الشَّرْع، وعرَفَ قُبحَه العُقلاءُ، وأصحابُ الفِطَر السليمة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدَّاعون إلى الخير، الآمِرون بالمعروف، الناهُون عن المُنكَر ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدرَكوا ما طلَبوا، ونجَوا من شرِّ ما منه هرَبوا؛ فجمَعوا بينَ السَّلامة والغنيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يجب أن يكون في الأُمَّة مَن يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، فإن لم يحصُل الاكتفاءُ ببعضِهم؛ وجبَ على جميع الأُمَّة القيام بذلك، وإلَّا أثِمُوا جميعًا، وكان الجزاء كما قال النبيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْه، ثُمَّ تَدْعُونَه فَلَا يُسْتجابُ لَكُمْ»[١].

وفيها: فضيلةُ الدَّعوة إلى الخير، والترغيبُ فيه، والحثُّ عليه، وأنَّ هذا من صفات أهل الفلاح.

وفيها: أنَّه يجب إعداد مَن يقوم بفريضة الدَّعوة، والأمر، والنهي، ويُحسِن ذلك.

وفيها: أنَّه يجب الاستِمرار في العمل بهذه الواجبات الثلاثة -الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، و النهي عن المُنكَر-؛ حتى يتحقَّق البلاغُ والمقصودُ الشرعيُّ.

وفيها: أنَّ فضيلة هذه الأُمَّة وشَرَفها؛ نابعٌ من القيام بهذه الواجبات الثلاثة.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وفيهـا: أنَّ هـذه الأمور الثلاثة فـرضٌ على الكفاية؛ بدليل: (لام الأمـر) في قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن﴾.

وفيهـا: أهميَّـة الإخلاص في الدَّعـوة؛ لأنَّ هؤلاء الدُّعاة يَدْعون النـاس إلى الخير، لا إلى أنفُسِهم.

وفيهـا: وجـوب تعلُّم الخير -لأجـل الدَّعوة إليه-؛ فـلا بُدَّ للداعية مـن العِلْم بالشَّرْع، والعِلْـم بالحال، وهذا يشـمل: معرفة شُـؤونِ المدْعُوِّين، ولُغَتِهم، والوسـائلِ والأسـاليبِ الناجِحة، والمُناسِبة في دعوتهم.

وفيها: أنَّ الدَّعوة الصحيحة هي الدَّعوة إلى الكتاب والسُّنَّة، لا إلى آراء الرِّجال، ولا إلى مُوافَقة الدَّاعي على ما هو عليه.

وفيهـا: نُصرة الدُّعـاة والآمِرين بالمعـروف والناهين عن المُنكَـر، وتأييدهم وإعانتهم، وإكرامهم؛ لأنَّهم من أهل الفلاح، القائِمين بأمر الله.

وفيها: الدَّعوة إلى الخير بالقول والعمَل، والكَلِمة والقُدْوة.

وفيهـا: أنَّ هـذه الأمـور الثلاثة المأمـور بها، تُبـيِّن هُويَّة هـذه الأُمَّة، وتُجَلِّي شـخصيَّتها، وتميُّزَها.

وفيها: فضيلة الأمر بالمعروف، سواءً كان المعروف واجبًا أو مُستحبًّا، وأمَّا المُنكَر: فإنَّه كلَّه محرَّم.

وفيهـا: أنَّ أولى النـاس بهذه الآية هـم: أصحاب العِلْم، وأصحاب السُّـلطان؛ لقُدرتهم على القيام بهذا الواجب العظيم.

وفيها: أهميَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر؛ فمع أنَّهما يدخلان في الدَّعوة إلى الخير، لكن خصَّهما الله تعالى بالذِّكر؛ لخطورةِ شأنهما.

وفيهـا: أنَّه لا تعـارُض في الجَمْع بينَ خيرِ الدُّنيا -كالبيع والـشِّراء والنِّـكاح- والآخرة -كالصَّلاة والصيام والحَجِّ-.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى عبادَه بالاجتماع، وإقامةِ الدِّين بالدَّعوة إليه؛ حذَّرهم من التفرُّق والاختِلاف؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ -يا معشرَ المؤمنين- ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ وتنافَرت قُلُوبهم بالعداوة، كاليهود والنصارى ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدِّين، وكانوا شِيَعًا وأحزابًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات الواضِحات، الدالَّة على الحقِّ.

وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ من أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»[1].

وفي رواية: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[2].

ثم ذكرَ تعالى عاقبةَ المختَلِفين؛ فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ دلالةً على انحِطاط مرتَبتهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدُّنيا: بالاقتِتال والضَّعْف والذُّلِّ، وفي الآخرة: بالعذاب الأليم في النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن التشبُّه بأهل الكتاب.

وفيها: التحذير من الوقوع فيما وقعَت فيه الأُمَم قبلَنا، من التفرُّق والاختِلاف.

وفيها: إقامة الله الحُجَّةَ على الناس، ببيان الآيات لهم.

وفيها: أنَّ التفرُّق لم يحصُل فيمَن قبلنا بسبَب الجهل؛ وإنَّما حصلَ بسبَب اتِّباعِ الهوى، وإعجابِ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، وبسببِه نشأت البِدَع.

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وفيها: أنَّ التفرُّق في المناهِج والمسالِك يؤدِّي إلى اختلاف القُلُوب، والشَّحناء والبغضاء، والاقتِتال.

وفيها: خطورة الابتِداع في الدِّين، ثم التعصُّب للبِدعة.

وفيها: أنَّ البِدَع من أسباب تفرُّقِ الأُمَّة وهزيمتِها، وإراقةِ دمائها، وطَمَعِ الأُمَم الأخرى فيها.

وفيها: التحذير من الاختِلاف في أصل الدِّين. وأمَّا المسائل الاجتهاديَّة: فإنَّ اختِلاف آراء العلماء فيها ليس عيبًا، ولا مذمومًا؛ لأنَّ الله تعالى فاوتَ بينَ عقول العِباد، فلا يُمكن اتِّفاقُهم على رأيٍ واحد في كلِّ الأمور.

وفيها: أنَّ التفرُّق بعد بيان الحقِّ، أشدُّ قبحًا من التفرُّق بسبَب خفائه.

وفيها: وَعيدٌ من الله للمُبتدِعة في الأُمَم السابقة، وفي هذه الأُمَّة، بالعذاب العظيم.

ويؤخَذ من هذه الآية -مع التي قبلها-: أنَّ تَرْك الدَّعوةِ إلى الخير والأمرِ بالمعروف والنهي عن المُنكَر، من أسباب التفرُّق؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الخير تمنَع نُشوء البِدَع، وإنكار المُنكَر يقضي عليها إذا نشأت.

وفيهما: أنَّ تَرْك البِدَع، والتمسُّك بالكتاب والسُّنَّة؛ سبَبٌ للوقاية من العذاب، وإنقاذ الغير منه.

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾:

ثم بيَّن الله تعالى زمانَ وقوع هذا العذاب؛ فقال: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ﴾ أي: فاذْكُروا يومَ القيامة، الذي تستنير فيه وتتلألأ ﴿وُجُوهٞ﴾ وهي: وجوه المؤمنين، ممَّا يرونَه من الفرَح والسُّرور بحسَناتهم.

﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ وهي: وجوه الكفَّار، وأهل البِدَع المكفِّرة، بسبَبِ ما تراه من الكآبة والغَمِّ بسيِّئاتها.

وقـد قـرأ أبـو أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هـذه الآية، حينـما رأى رؤوسَ الخـوارج منصوبـةً على دَرَج مسجدِ دمشق، بعد قَتْلِهم(١).

وهذا البياض والسَّواد الذي يقع للوجوه على حقيقته؛ وهو بسبَبِ ما يُبَشَّر به هؤلاء، وهؤلاء.

﴿فَأَمَّا﴾ (أمَّـا) للتفريـع والتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ مـن المرتدِّين والمنافِقين والمبتَدِعة -أصحاب البِدَع المكفِّرة- ومَن كان مؤمنًا من أهل الكتاب ثم ارتدَّ بعد بِعْثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ كافر بعد الإيمان: فيُلقَون في النَّار، ويقول لهم الله تعالى وملائكتُه الزَّبانيَة: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: استِفهام توبيخـي؛ أي: هل كان كُفركـم إلَّا بعد إيمانِكم وظهورِ ما يوجب الإيمان -من دلائل التوحيد والنبوَّة-؟!

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ وادخُلوه. وفي هذا جَمْعٌ لهم بينَ الألم البدَنيِّ بالإحراق، والألم القَلْبيِّ النفسيِّ بالتوبيخ والإهانة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله، ورسوله، وما أُنزِلَ عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقِسام الناس في الآخرة، كما انقسَموا في الدُّنيا.

وفيها: الجَمْع بينَ العذاب البدَنيِّ والنفسيِّ للكفَّار في الآخرة.

وفيها: أنَّ ما يقع يومَ القيامة للكفَّار بعضه أشدُّ وَطْأَة من بعض؛ فمِن الشَّدائد والأهوال التي تصيبُهم: رؤية الأهوال بعد القيام من القبر، وعند قراءة الصُّحُف، وعند وزن الأعمال، وعند فتح أبواب النَّار.

وفيها: المُقابَلة بذِكر حال أهل الجنَّة وأهل النَّار، والمقارَنة بينهما؛ ليعظُم في نفس المؤمن رجاءُ رحمة الله، والخوفُ من عذابه.

وفيها: أنَّ نور الحقِّ الذي كان عليه صاحبُه في الدُّنيا، يُكْسِـبه يومَ القيامة نورًا في وَجْهه، ونورًا على الصِّراط، ونورًا في الجنَّة. كما أنَّ ظُلْمة الباطل تُكْسِـب صاحبَها ظُلْمةَ الوجه يومَ البَعْث، وظلمةً في النَّار.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٠)، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي: «حسن صحيح».

وفي هذه الآية: أنَّ سبَب سواد الوَجه هو الكُفر والبِدعة.

وفي آيةٍ أخرى: أنَّ سببَه الكَذِب على الله، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي آيـة أخـرى: أنَّهـا السـيِّئات، كـما في قولـه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧].

وفي آيـة أخرى: أنَّ سـببَه الفُجور أيضًا، كما في قولـه تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢]، و(القَتَرة) هي: السَّواد.

وفي الآية: أنَّ الجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ تبديل اللَّون يحصُل تبَعًا لتبديل الاعتقاد؛ فالتحوُّل من حال الإيمان إلى الكُفر في الدُّنيا، سيُقابِله تحوُّلٌ إلى السَّواد والعذاب يومَ القيامة، ولو كان صاحبُه في الدُّنيا أبيضَ مُنعَّمًا.

وفيهـا: أنَّ النـاس يومَ القيامـة يُعرَفون ويُميَّزون في السـعادة والشَّـقاء بألوانهم، خلافًا لحالهم في الدُّنيا؛ فلا فَضْل لأبيض على أسود ولا غيره، إلَّا بالتَّقوى.

وفيها: انكِشاف المجرِمين وافتِضاحهم يومَ القيامة.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١٠٧ ﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ الذين اسـودَّت وجوهُهم من أهل الكُفـر والبِدعة، وابتدأ بهم للتحذير من حالهم؛ عقَّب ذلك بذِكر حال أهل الإيمان؛ فقال:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾: وهذا البياض حقيقيٌّ، وهو من استنارتها بالفَرَح والسُّرور؛ لِـما يرَون من حسـناتهم وثوابها. وهذا البياض عامٌّ لأهل الإيمان، من هذه الأُمَّة ومَن سـبقها، ولكن لمؤمني هذه الأُمَّة زيادة بياضٍ خاصٍّ ونورٍ في أعضائهم؛ من أثَر الوُضوء.

ثـم قال تعالى عـن مصير المؤمنـين جميعًـا: ﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ والمراد بهـا: الجنَّة ﴿ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ أي: دائِمون، لا يموتون، ولا يتحوَّلون ولا يُخرَجون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمنين لا يدخلون الجنَّة إلَّا برحمة الله، وأنَّ مِن رحمة الله: نجاتَهم من النَّار.

وفيها: فَضْل اتِّباع السُّنَّة.

وفيها: أنَّ خُلُود المؤمنين في الجنَّة يُراد به هنا: التأبيد؛ فهو خلودٌ أبديٌّ.

وفيها: إطلاق (الرحمة) على الجنَّة، والجنَّة أثر من آثار رحمة الله تعالى؛ فالرحمة رحمتان: رحمة مخلوقة، ومنها: الجنَّة، والرحمة التي أنزلها الله إلى الأرض يتراحَمُ بها العِباد والبهائم، والرَّحَمَات التِّسع والتسعون التي أمسَكها الله عنده، والرحمة بالمطر.

ورحمة غير مخلوقة، وهي الرَّحمة التي هي صفة من صفات الله تعالى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾:

قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: حُجَجه وبيِّناته التي أنزلها، وهي: الآيات الشرعيَّة في كتابه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: نقرؤها عليك -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بواسطة جبريل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نازلةً ومصحوبةً به، صِدقًا في الأخبار، وعَدْلًا في الأحكام، فهي من عند الله حقًّا بلا شكٍّ، ومتضمِّنة للحقِّ فيما اشتملَت عليه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فلا يظلِم الذين ابيضَّت وجوهُهم ولا الذين اسودَّت وجوهُهم من عباده، ولا يأخذ أحدًا بغير جُرْم منه، ولا يزيد في عقابِ أحدٍ بغير ذنب، ولا يُنقِص من ثواب المُحسِن. وهو سبحانه ما أرادَ بما أنزلَه عليهم إلَّا هدايتهم. و(الظُّلْم): وضع الشيء في غير موضعه.

و(العالَمون): كلُّ شيء سوى الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إضافة (الآيات) إلى الله، والمقصود: آيات القرآن -وهي غير مخلوقة- وهذا من باب إضافة الصِّفة إلى الموصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلى خالِقه.

وفيها: أنَّ القرآن حقٌّ، نزل من الحقِّ تعالى، فلا شُبهة فيه، ولا باطلَ، ولا تناقُضَ، ولا اختلافَ.

وفيها: مَدحٌ عظيمٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وبيان فَضْلِه على عباده؛ بأن حرَّم الظُّلْم على نفسه، ونفى إرادةَ الظُّلْم بعباده، ولو أرادَ سبحانه أن يُعَذِّب خَلْقه جميعًا؛ لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم؛ لأنَّه مالِكهم، يفعل فيهم ما يشاء.

وفي الآية: أنَّه إذا انتفَت إرادةُ الظُّلْم منه تعالى؛ انتفى الظُّلْم؛ لأنَّ الله لا مُكْرِه له، وما أرادَه فلا بُدَّ أن يكون.

وفيها: أنَّ تنعيمَ الأبرار وتعذيبَ الكفَّار لا ظُلْمَ فيه؛ بل هو من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ وعَدْله.

وفيها: إرشاد العِباد إلى مُجازاة المُحْسِن والمسيء، بما يستوجبُه عملُ كلٍّ منهما.

وفيها: إيماءٌ إلى أنَّ الكَفَرة هم الذين يظلِمون أنفُسَهم، بتعريضها للعذاب.

وفيها: نفي الظُّلْم القليل والكثير عن الله تعالى؛ لقوله في الآية: ﴿**ظُلۡمٗا**﴾، والنَّكِرة في سياق النفي تُفيد العُموم.

وفيها: أنَّ الله لا يُريد ظُلْمًا بالعِباد، لا فيما شرَعَه لهم من الأوامر والنواهي، ولا فيما يَصيرون إليه من الثواب والعقاب.

وفيها: أنَّ بيان الوَعْد والوَعيد قبل إقامة دار الثواب والعقاب؛ يدلُّ على تمامِ عَدْل الله، وعدمِ إرادته الظُّلْمَ بعباده.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه لا يُريد ظلمًا للعالَمين؛ بيَّن سَعَة مُلكه واستغناءَه عنهم. والظالم إنَّما يظلِم غيرَه، ويُنقِصه حقَّه أو يعتَدي عليه؛ ليزدادَ هو مالًا أو سُلطانًا، والله مُستَغنٍ عن ذلك؛ لأنَّ له مُلك السماوات والأرض.

فقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾: تقديم الخبر على المبتدأ هنا يُفيد الحَصْر؛ أي: أنَّها له لا لغيره. وهذا يشمل ما فيهما من: الملائكة، والجنّ والإنس، وجميع المخلوقات. فهي له مُلكًا، وخَلْقًا وإيجادًا، وتدبيرًا، ومصيرًا.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: تصير إليه أمورُ الخلائق وشُؤونها، فيحكُم فيها بما يشاء، ولا مفرَّ لأحدٍ من حُكمه، ولا مُعقِّب له، وإليه يُرْجَعون يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُمومُ مُلك الله تعالى لِـما في السماوات وما في الأرض، وانفرادُه عَزَّوَجَلَّ بذلك.

وفيها: أنَّ مرجع شُـؤون الخَلْق إلى الله؛ لأنَّه هو الـذي خلقَهم، ومِن حقِّه أن يُشَرِّع لهم ما يشاء، ومَن حاولَ التشريع للخلق بخلافِ ما شرَعَه الله؛ فقد جعلَ نفسَه شريكًا مع الله، فويلٌ له!

فالحُكم والتشريع فَرْعٌ عن الإيجاد والخَلْق؛ إذ إنَّ الذي خلقَ أعلمُ وأبصرُ بخَلْقه؛ فهو أحقُّ وأجدَر بأن يُشَرِّع لهم من الأحكام ما يُنَظِّم أمورَهم، ويكون فيه صلاحُهم وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

وفي الآيـة: سَـعَة عِلْـم الله، وعظيـم قُدرتـه؛ فكلُّ الأمـور -دقيقِهـا وجليلِهـا- لجميع المخلوقات -صغيرِها وكبيرِها- تَرْجع إليه عَزَّوَجَلَّ؛ فيدبِّر أمورَها، ويُجْري فيها قدَرَه.

وفيهـا: أنَّ عـلى العِباد أن يسـألوا ربَّهم ويَعبُدوه، ما دام هو الـذي يملِكهم، وإليه تَرْجِع أمورُهم.

وفيها: أنَّ لله الحُكم المطلَق في عباده، فتصدُر عنه الأحكام الشرعيَّة، والقدَريَّة، والجزائيَّة -من الثواب والعقاب-.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بالاعتِصام بحَبله، وذكرَ مِنَّته على المؤمنين بتأليف قُلوبهم، وحذَّر من التفرُّق في الدِّين، وذكرَ فسادَ أهلِ الكتاب الذين ادَّعوا أنَّهم خيرُ الناس؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ مزيدًا من فَضْله على هذه الأُمَّة، وأنَّهم خيرُ الأُمَم، لا غيرهم؛ فقال:

﴿كُنتُمۡ﴾ أي: في عِلْم الله السابق، وفي اللَّوح المحفوظ، وهذا مذكورٌ أيضًا في كتب الأُمَم السابقة ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أفضل جماعة وطائفة ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾: أظهرَها الله وأبرزَها ﴿لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «خير النَّاس للنَّاس»(١).

وقد قيل: إنَّ المقصود بهذه الآية هم أصحابُ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وقيل: الذين هاجَروا معه.

والصحيح: أنَّ هذه الآية عامَّة في جميع الأُمَّة، كلُّ قَرْنٍ وزمانٍ منها بحَسَبه، وخيرُ القرون مَن بُعِثَ فيهم رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم أولى الناس بهذه الآية.

ثم ذكر عَزَّوَجَلَّ أسبابَ خيريَّة الأُمَّة؛ فقال: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: ما عرفَه الشَّرْع، وعلى رأسه: توحيد الله ﴿وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهو: ما أنكرَه الشَّرْع، وعلى رأسه: الشِّرك بالله.

﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ربًّا واحدًا، لا تعبُدون غيره، وتُصدِّقون بشَرْعه وما أنزلَه، فتعمَلون بذلك.

وقدَّم (الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر) على (الإيمان) -مع أنَّه داخلٌ فيه ومن شُعَبه-؛ للدلالة على أهميَّته وفَضْله، وأنَّه من أسباب تفضيل هذه الأُمَّة.

وقد ورَدَت عن النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أحاديثُ كثيرة صحيحة، في فَضْل هذه الأُمَّة على غيرها من الأُمَم؛ ومنها: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ -وفي رواية: تُتِمُّون- سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ»(٢).

ومن مزايا هذه الأُمَّة وفضائِلها: أنَّهم أول الأُمَم في الحساب، وأول مَن يجوز الصِّراط، وأول الأُمَم دخولًا الجنَّة، وهم ثُلُثا أهل الجنَّة، وأعظم الأُمَم شفاعةً، ويدخل الجنَّة منهم سبعون ألفًا بلا حساب ولا عذاب، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفًا، وثلاثُ حَثَيات من حَثَيات الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

وأنَّهم شُهَداء الله في الأرض، ويشهَدون على الأُمَم الأخرى يومَ القيامة، وصفوفهم كصفوف الملائكة في الصَّلاة، ولا يجتَمِعون على ضلالة، وهم الأقصر عُمرًا، والأكثر أَجْرًا.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وتميَّزوا بوقت صلاة العِشاء، وبالسُّحُور، والتيمُّم، وبيوم الجمعة، ويُعذَرون بالإكراه، وسياحتهم الجهاد، وأُحِلَّت لهم الغنائم.

ولا يُحاسَبون على الوَسْوَسة، ولهم أسهل توبَة، وأكثر عقوبتهم مُعَجَّلةٌ في الدُّنيا، وقد وضعَ الله عنهم الآصارَ والأغلالَ التي كانت على غيرهم.

وهم أُمَّة الإسناد، وليس لبقيَّة الأُمَم أسانيد معروفة، وقد تكفَّل الله لهم بحِفظ كتابهم، وحِفظ سُنَّة نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -التي تبيِّن الكتاب-.

ونبيُّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخَلْق وخير الأنبياء؛ له المقام المحمود، والشفاعة العُظمَى يوم القيامة، إلى غير ذلك من الفضائل.

وكلُّ هذه الفضائل وهذه الخيريَّة؛ لأنَّهم كمَّلوا أنفُسَهم بالإيمان، وكمَّلوا نقصَ غيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر.

ولـمَّا مدحَهم الله تعالى بذلك؛ ذمَّ مَن خالفَهم في الإيمان والأمر والنهي -من أهل الكتاب-؛ فقال:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بنبوَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء به من شريعة الإسلام؛ ﴿لَكَانَ﴾ إيمانُهم ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ من بقائهم على الكُفر واليهوديَّة والنصرانيَّة، ولكن حملَهم حبُّ الرِّئاسة والهوى والحَسَدُ والكِبرُ على البقاء على الكُفر، ولم يُسلِم منهم إلَّا القليل.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين آمنوا بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كعبدِ الله بنِ سلَام، وعديِّ بن حاتم، والنجاشيّ- ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المراد بـ(الفِسْق) هنا: الخروج الكُلِّيّ عن طاعة الله، وهو الكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل أُمَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ الفاضِل عليه أن يسعَى في المحافظةِ على الخيريَّة، والأَخْذِ بأسبابها؛ لتستمرَّ له هذه المنزِلة.

وفيها: السَّعْي في إصلاح الغير، بعد إصلاح النفس.

وفيها: أنَّ خيرَ الناس أنفعُهم للناس.

وفيها: تميُّز هذه الأُمَّة على الأُمَم السابقة، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر.

وفيها: أنَّ مَن زالَ عنه الوَصف الذي فُضِّلت به هذه الأُمَّة -وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر-؛ خرجَ من الخيريَّة.

وفيها: أنَّه متى قامَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المُنكَر؛ قامَ الخير واشتدَّ، وإذا ضَعُفَ ضَعُفَ.

وفيها: أنَّ مَن كان أشدَّ سَعيًا في الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر؛ كان أكثرَ فَضْلًا وخيرًا.

وفيها: الرَّدُّ على أهل الكتاب، الذين زعَموا أنَّهم خيرُ الناس، مع العَدْل فيهم، والثَّناء على مَن آمنَ منهم.

وفيها: تيئيس أهل الكتاب من إضلال هذه الأُمَّة.

وفيها: تثبيت أهل الإيمان من هذه الأُمَّة، بذِكر فَضْلهم وشرَفهم؛ ليزدادوا طاعةً وشُكرًا للنِّعمة.

وفيها: الإشادة بالفاضِل، وإبراز خبره؛ وفاءً بحقِّه، وتشجيعًا للغير على الاقتِداء به.

وفيها: أنَّ المؤمن من أهل الكتاب يجمَع بينَ خيرِ الدُّنيا والآخرة، ويؤتَى أجرَه مرتين؛ ففي الحديث: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»(١).

وفيها: دعوة المعانِد، بأسلوب يجمَع بينَ التوبيخ والنُّصح؛ فالشِّدَّة والتوبيخ لأجل عِناده، والإغراء والنُّصح لأجل ترغيبه في الحقِّ.

وفيها: عدمُ الاغترارِ بالأكثريَّة، والحضُّ على اتِّباع الحقِّ -وإن كان أقلَّ أتْباعًا-. قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: «ذمَّ الله أكثرَ الناس»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) -واللفظ له-.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٠٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٤).

وفيها: ذَمُّ مَن منعَتْه الدُّنيا من الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ.

وفيها: أنَّ الخيريَّة لا تتوقَّف على الأسبقيَّة في الزمن؛ فقد يفوق المتأخِّرُ بما كتبَ الله له من الفَضْل.

وفيها: أنَّ خيريَّة هذه الأُمَّة تعُمُّ جميعَ طبقاتها وقُرونها، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ، أَمْ آخِرُهُ»(١).

وفيها: عِلْم الله بالغَيب، وأنَّ هذه الأُمَّة تستَحِقُّ التفضيلَ على سائر الأُمَم، بقيامها بما أمرَها الله به.

وفيها: عدم الاغترار بالانتِساب إلى الشيء اسمًا، أو الوجودِ فيه زمنًا؛ لأنَّ العِبرة بالاختِصاص بالأوصاف، والالتِزام بأسباب التفضيل.

وفيها: أنَّ الخيريَّة المذكورة لهذه الأُمَّة تزداد بإيمانِ أفرادها وعمَلِهم، وهذا يعني أنَّ المؤمن يزداد فَضْلًا وشَرَفًا بانضِمام أمثاله إليه، وأنَّ الاجتماع على الخير يُكْسِب كلَّ واحد منهم أجرًا لا يَكْسِبه لو انفردَ بنفسه، ولو قام بنفس العمل. فأجر المُصَلِّين في جماعة -مثلًا- يزيد عن مجموعِ أجورِهم مُنفَرِدين.

وفيها: أهميَّة الاجتِماع والاشتِراك والتعاون في إقامة فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، خاصَّةً إذا قلَّ المعروفُ، وكثُر المُنكَرُ.

وفيها: تلمُّس أسبابِ الفَضْل والخيريَّة، والعمل بها.

وفيها: أهميَّة البَدء بالخير، والاستِمرار عليه؛ كما تدلُّ عليه صيغة الفِعْل المضارع: (تُؤمِنون)، و(تأمُرون)، و(تَنهَون).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾:

ولـمَّا كانت مخالَفة الأكثريَّة الفاسِقة جالبةً للضَّرَر؛ خفَّف الله ذلك عن عباده المؤمنين؛ فقال:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ أي: هؤلاء اليهود وأهل الكتاب **﴿إِلَّآ أَذًى﴾** بألسِنَتهم، كالطَّعْن

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤).

في دين الإسلام، وإثارة الشُّبُهات، وبالسِّباب والشَّتْم، والتخويف والإرهاب، وهذا كلُّه يمكن للمسلمين أن يتحمَّلوه بالصَّبر والتَّقوى.

لكن لن يستطيعَ هؤلاء الكفَّارُ الوصولَ إلى ما يُريدون، من استِئصالِ المسلمين والقضاءِ عليهم، أو إخراجِهم عن دينهم، أو إلحاقِ الضَّرَرِ التامِّ بهم، ما داموا مُسْتَمسِكين بحَبْل الله.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ويُقابِلوكم في مَيْدان المعركة؛ ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ مُنَهزِمين، جاعِلين ظهورَهم إليكم، ﴿ثُمَّ﴾ بعد تولِّيهم وانهزامِهم ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم أبدًا، ولا يجدون قوَّةً ولا منَعَةً تُمكِّنهم منكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بِشارة للنبيِّ ﷺ، وأصحابِه، والمؤمنين مِن بعدهم، ومَن التحقَ بهم ممَّن أسلمَ من أهل الكتاب، بأنَّ الكَفَرة الفَسَقة لن يستطيعوا استئصالَهم ولا القضاءَ عليهم، وإنَّما غايةُ ما يمكن أن يصِلوا إليه هو (شيءٌ) من الإيذاء.

وفيها: أنَّه لا يلزَم من الإيذاء وقوعُ ضَرَرٍ؛ وهذا كما جاء في الحديث القُدْسِيّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ»[(١)]، مع قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله تعالى في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[(٢)].

وفي الآية: أنَّ وَعْدَ الله لهذه الأُمَّة بألَّا ينالها ضرَرٌ من أعدائها، مشروطٌ بقيامِ صفات الخيريَّة فيها وتحقُّقِها، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، والإيمان بالله، فإذا تخلَّفت عن تحقيق الشَّرط؛ تسلَّط عليها الأعداءُ وأضرُّوا بها.

وفيها: أنَّ المواجَهة القتاليَّة إذا حصلَت بينَ المسلمين الصادِقين، وأعدائهم من أهل الكتاب؛ فلا بُدَّ أن يولِّي الكفَّارُ أدبارَهم مُنهَزِمين.

وفيها: نفيُ وقوع الانتصار للكفَّار، إذا صدقَ المؤمنون.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أنَّ الكُفر من أسباب الخِذلان والهزيمة.

وفيها: تبشيرُ المسلمين بالنَّصْر والظَّفَر، وبثُّ الثقة في نفوسِهم.

وفيها: انحِطاط وخِسَّة مَن يُولِّي دُبُرَه منهزِمًا عند القتال.

وفيها: تأييد الله للمؤمنين، وعدم تخلِّيه عن أوليائه، عند مواجَهتهم الكفَّارَ.

وفيها: إعداد المؤمنين لمواجَهة إيذاء الكفَّار، اللِّساني والنفسيّ.

وفيها: حَنَق الكفَّار وغَيظهم من المسلمين؛ حيث لم يستطيعوا الإضرارَ ولا إيقاعَ النِّكاية بهم، وغاية ما استطاعوا أن يظفَروا به هو مجرَّد الإيذاء -بالهجو القبيح، والطَّعن في دين المسلمين، والخوض في أعراضهم، ونحو ذلك-.

وفيها: أنَّ وَعْدَ الله باقٍ إلى قيام الساعة، ما دام المؤمنون على إيمانِهم وخَيرهم، والكفَّار على فِسْقهم.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾:

ثم زادَ الله تعالى في بِشارة المؤمنين بهزيمة أعدائِهم الكافرين من أهل الكتاب، وذكَر سبَب انهزامِهم؛ فقال:

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ أي: جُعِلَت عليهم مطبوعةً مستمرَّةً ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ وهو: الصَّغار والهوان، فلا تخرج هذه الذِّلَّة من قُلوبهم -لأنَّ الله ألزمَهم إيَّاها- ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾: حيثما وُجِدوا في جميع البلاد ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بذِمَّةٍ وعَهدٍ منه، وهو عَقْد الذّمّة لهم، وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة. و(الحَبْل): هو السَّبَب، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُوصَل به إلى المقصود. وهو هنا: الأمن وزوال الخوف.

وقيل: المقصود بقوله تعالى ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: الإسلام، أي: أنَّ هؤلاء الكفَّار سيبقون أذِلَّاء، إلَّا أن يُسْلِموا، فتزولَ عنهم الذِّلَّة.

﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعَهدٍ من المؤمنين وأمانٍ، كما في المُعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحدٌ من المسلمين، ودخولهم في عَقدٍ مع المسلمين يَحميهم.

وقال ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله، وعهد من الناس».

وهكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وعَطَاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع ابن أنس(١).

﴿وَبَآءُو﴾ أي: استوجَبوا واستحقُّوا، وانصرَفوا ورجَعوا ﴿بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولَعْنَته وعقوبته، ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي: الفَقر والخضوع، فصار عليهم كالبَيت الذي ضُرِب على أهله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما باءُوا ورجَعوا به، من غَضَب الله والذِّلَّة والمَسْكنة ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ أي: بسبَبِ كونهم ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحَدون هذه البيِّنات ويُنكِرونها، ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي: عمدًا وإجرامًا، بلا سبَبٍ ارتكبَه الأنبياء. وهذا ممَّا يُرجِّح أنَّ المقصود بالآية: اليهود؛ فإنَّهم المعروفون عبر التاريخ بقَتْل الأنبياء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكُفر والقَتْل ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ أي: بسبَبِ تمرُّدهم ومخالفتهم أمرَ الله ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾: يتجاوَزون حدودَ الله، ويَغْشَون معاصيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود في أكثر الأوقات، وعلى مرِّ الأزمان -في عَهد هذه الأُمَّة المباركة- كانوا أذِلَّاء صاغِرين، فقراء مساكين، مُشرَّدين، ومغلوبين، وما حصلَ لهم في هذا الزمن المتأخِّر من قيام دولة مغتصَبة، وجَوْلةٍ وصَوْلةٍ، وغنًى وثَرْوة، وهيمنةٍ اقتصاديَّة وعسكريَّة وإعلاميَّة؛ إنَّما هو استثناءٌ من الأصل، وما حصلَ إلَّا بسبَبِ ما أصاب المسلمين من الضَّعْف والبُعد عن شَرْع الله.

وهذه القوَّة والغَلَبة -المؤقَّتة- مستَمَدَّةٌ من حبلِ الناس، المذكورِ في الآية: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فبينَهـم وبين الناس حبلٌ، بواسـطة المُعاهَـدات والاتفاقيَّات التي قامـت بـينَ اليهود والصَّليبيِّـين الذين نصَروهم؛ فاسـتمدَّ منهم اليهودُ أسـبابَ القوَّة -من سلاحٍ، ومالٍ، ومُساندات سياسيَّة وإعلاميَّة، وغيرها-.

ولأنَّ وَعْدَ الله لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، والله لا يُخلِف الميعاد؛ فسيعود هؤلاء اليهودُ إلى الذِّلَّة والصَّغار، ولن يطولَ أمدُ دولتهم، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

هـذا مـع أنَّ الذِّلَّة لا تزال موجـودةً في قُلوبهم، ظاهرةٌ لِمَن تأمَّلها، وبينهم وبينَ أنفسِـهم عداوات واختلافات، أخبارُها بارِزةٌ للعِيان، ولايزالون جُبَناء، يَبنون الأسوار، ولا يعيشون إلَّا في المستوطَنات المحُصَّنة -ولو كانوا أقوى سلاحًا- ولو صارَت مواجَهة حقيقيَّة لفرُّوا؛ من ذُلِّهم وجُبْنهم وهوانهم عند أنفُسِهم.

وفيها: انتقام الله من اليهود؛ لاجترِائهم عليه؛ فجعلَ الذِّلَّة في بواطنهم هَوانًا، والمَسْكنة في ظواهرهم فَقرًا، وكتبَ عليهم الهزيمة والتشريد.

وفيها: أنَّ عَهد المسلمين متينٌ، فإذا أَعطَوه لأحدٍ صار في حمايةٍ وأمنٍ.

وفيها: أنَّ المعصيةَ والاعتداءَ سببٌ لعقوبات الله.

وفيهـا: ترغيـبُ الكافر في الإسـلام، بأنَّه إذا أسـلمَ حُقِنَ دمُه، وصارَ له ما للمسـلمين، وعليه ما عليهم.

وفيها: إثبات صفة (الغضَب) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيهـا: عظيـمُ مكانـة الأنبياء عنـد ربِّ العالمين؛ حيث انتقـمَ الله لهم مـن أعدائهم هذا الانتقامَ الطويلَ الأليمَ.

وفيهـا: جواز تعليل حُكم واحد بعِلَل متعـدِّدة؛ فالعقوبات التي ذُكِرت متعدِّدة؛ وهي: (الذِّلَّـة)، و(الغَضَـب)، و(المَسْكَنة)، والسَّـبَب أو الحُكم واحد، وهـو المعصية، لكن له أنواع وصُوَر متعدِّدة؛ منها: الاعتِداء، والكفر، وقَتْل الأنبياء. ويجوز أن تكون العِلَّة واحدة، والأسباب أو الأحكام متعدِّدة.

وفيها: أنَّ الاعتِداء على الغير، قد يكون أشدَّ من المعصية التي تقتصِر على النفس.

وفيها: أنَّ ضَرْب الجِزْية على اليهود وغيرهم من الكفَّار، هو لَونٌ من الذِّلَّة والهَوان، الذي يُعاقَبون به في الدُّنيا على كُفرهم، وقد يَدفَعُهم إلى الدُّخول في الإسلام؛ ابتغاءَ الحُصولِ على العِزَّة، والتخلُّصِ من الألم النفسيِّ للذُّلِّ والمَهانة.

وفيها: أنَّ اليهود المتأخِّرين ينالهم نصيبٌ من عقوبة آبائهم المتقدِّمين، ما داموا راضينَ بأفعالهم، متَّبعين لسيرَتهم، مقلِّدين لمن سبقَهم.

وفيها: أنَّه كلَّما عظُمَ الجُرْم؛ عَظُمَت العقوبة، وأنَّ قَتْل أنبياء الله ليس كقَتْل أحدٍ من الناس، وانتقامُ الله فيه أشدُّ.

وفيها: شُؤْم المعصية، وأنَّ أثرَها يكون في الظاهر والباطن.

وفيها: أنَّ اليهود قد باءُوا بنصيبٍ كبيرٍ من غَضَب الله، وقد وصفَهم في كتابه بـ (المغضوب عليهم)، كما في سُورَة «الفاتحة»: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وفي الحديث: «إِنَّ (المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ) اليَهُودُ، وإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»[1].

وفيها: أنَّ أهل الباطل ينصُر بعضُهم بعضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإنه يدخُل فيه تحالُف اليهود مع دُوَل الكُفر القويَّة، وما يستَمِدُّونه منهم من أسباب القوَّة والمنَعَة، التي يستَعينون بها على العُدوان على الناس.

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾:

ولـمَّا ذمَّ الله تعالى أهلَ الكتاب عُمومًا على كُفرهم ومعصيتهم واعتدائهم، أثنى على طائفةٍ منهم؛ لِـما فيهم من الخير والدِّين، كالقلائل الذين كانوا قبل بِعْثة النبيِّ ﷺ، أو الذين آمنوا من أهل الكتاب بالنبيِّ ﷺ بعد بِعْثته؛ فقال تعالى:

---

(١) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي: ليس جميعُ أهل الكتاب مُستَوين؛ بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسِقون. هذا هو المشهور عند كثيرٍ من المفسِّرين.

واستَدلُّوا بما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لـمَّا أسلمَ عبدُ الله بن سلَام، وثَعْلَبة بن سَعْيَة، وأُسَيْد بن سَعْيَة، وغيرهم ممَّن أسلمَ مِن اليهود معهم، فآمَنوا وصدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام؛ فقالت أحبارُ يهودَ وأهلُ الكُفر منهم: ما آمن بمحمَّد وتَبِعَه إلَّا أشرارُنا، ولو كانوا من خِيارنا ما تركُوا دينَ آبائهم وذهبوا إلى غيره! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾»(١).

أي: لا يستَوي مَن تقدَّم ذِكرُهم بالذَّمِّ من أهل الكتاب -في الآيات السابقة- وهؤلاء الذين أسلَموا؛ فليسوا كلُّهم على حدٍّ سواء؛ بل منهم المؤمِن ومنهم المُجرِم، ولذا قال بعدَها: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: منهم جماعة مستقيمة على الحقِّ، قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعِه، آمَنت بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا بُعِث، ومنهم أُمَّةٌ مذمومةٌ كافرةٌ، مُصِرَّةٌ على الكُفر.

وقال بعضُ المفسِّرين -منهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في معنى المقارَنة المذكورة في الآية: «ليس أهلُ الكتاب وأُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -القائمة بحقِّ الله- سواءً عند الله»(٢).

واستَدلُّوا بما رواه ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَخَّرَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاة العِشَاء ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِد، فَإِذَا النَّاس يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاة؛ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ من أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُر الله هَذِهِ السَّاعَة غَيْرُكُمْ»، قَالَ: وأُنزلت هذه الآيات: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، حتَّى بلغ: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وقد ذكرَ الله تعالى في هذه الآية وما بعدَها ثمانيةَ صفات وأوصاف للأُمَّة المؤمِنة:

أولها: أنَّها ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: ثابتة، مُستقيمة على أمر الله.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٣٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٢٢)، تفسير القرطبي (٤/ ١٧٥).

(٣) رواه أحمد (٣٧٦٠)، وحسَّنه محققو المسند.

وثانيها: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقرأون القرآن، ويقومون به ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: في أوقاته وساعاته.

والصِّفة الثالثة: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يُصَلُّون، وهذا من باب تسمية الشيء ببعَضِ أجزائه وأفضلِ ما فيه. وخَصَّ (السُّجود) بالذِّكر؛ لفَضْله من بينَ أركان الصَّلاة، ولدلالته على كمال الخُضوع والخُشوع.

أو يكون المعنى: أنَّهم جمَعوا بينَ التلاوة -حال القيام- والسجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]؛ فوفَّقهم الله لتلاوةِ أفضلِ الذِّكر، ووصفَهم بأفضل الحالات.

والصِّفة الرابعة: قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بوجوده ورُبوبيَّته، وأُلُوهيَّته، وأسمائه وصفاته، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه لا يومَ بعده، وهو منتهَى الخلائق، وهو يومٌ واحدٌ، لا ليل فيه ولا نهار، ولا شمس ولا قمر، فهو مستقرُّ العِباد، وآخِرُ ما يكونون فيه، إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النَّار.

والصِّفة الخامسة: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ويُرْشِدون غيرَهم إلى ما ينبغي عليهم فِعلُه ممَّا عرَفه الشَّرْع، فهم لـمَّا كمَّلوا أنفُسَهم عِلمًا وعملًا؛ سعوَا في تكميل غيرهم.

والصِّفة السادسة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ فيَزْجُرون ويمنَعون غيرَهم من الوقوع فيما أنكرَه الشَّرْع، بعد أن كفُّوا أنفُسَهم ومنَعوها من معصية الله.

والصِّفة السابعة: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يُبادِرون فيها ويعمَلون، غيرَ مُتثاقِلين، وهذا مِن رغبتهم في الحسَنات، وحُبِّهم لِـما يُرضي الله عنهم. و(الخيرات): كلُّ ما يحبُّه الله من الأقوال والأفعال.

ولفظ (المسارَعة) في الآية أبلَغُ من (العَجَلة)؛ لأنَّ (المسارَعة) هي: التقدُّم فيما ينبغي تقديمُه، وضِدُّها الإبطاء، أمَّا (العَجَلة) فهي: التقدُّم فيما لا ينبغي التقدُّم فيه، وضِدُّها التأنِّي، فالمسارعة محمودةٌ، والعَجَلة مذمومةٌ.

وقوله ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أبلغ من (ويُسارِعون إلى الخيرات)؛ لأنَّ استعمال

حرف الجرِّ (في) يُفيد المسارَعة إليها وإتمامها -وكأنَّ (الخيرات) طريقٌ يُسارِعون في قطعه- والسَّعْي إلى غيرِها من الخيرات أيضًا أثناءَ القيام بها، لا أن يُسارِعَ إليها ثم إذا وصلَ توقَّف؛ فهم ينتقِلون من طاعة إلى طاعة، فيُسارِعون إلى الطاعة، وهم متلبِّسون بطاعة أخرى.

والصِّفة الثامنة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الذين صَلَحَت أحوالهم، وحسُنَت أعمالهم، وقاموا بحقِّ الله، وحقِّ عباده.

ثم ذكرَ الله تعالى جزاءَهم وثوابهم؛ فقال: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ إيمانًا وطاعة. و(الخير): كلُّ ما يقرِّب إلى الله ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يُحرَموا ثوابَه، ولن يُمنَعوا جزاءَه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ فيُجازيهم على تقواهم، ويُثيبهم بحَسَب ما يَعْلَمُ من أحوالِهم وسرائرِهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

العَدْل والإنصاف مع أهل الكتاب، والثَّناء على أهل الخير منهم.

وفيها: الإشادة بمَن يقوم بطاعة الله؛ ترغيبًا في الاقتداء به.

وفيها: أنَّ تلاوة الآيات تذكِّر باليوم الآخر، وتُثبِّت الإيمان به، ولذلك جاء ذِكر (الإيمان) بعد ذكر (التِّلاوة).

وفيها: فَضْل المسارَعة في أنواع الطاعات، والتسابُق إليها، والشُّروع فيها وإكمالها، والانتقال إلى غيرها؛ فمِن طاعة إلى طاعة، فيُسارِع إلى طاعة وهو متلبِّس بطاعة أخرى.

وفيها: فَضْل الصَّلاح، وهو يدور على العِلْم والعمل، وضِدُّه: الجهل والكُفر والتمرُّد. وأصلُ الصَّلاح فِطريٌّ، ولكنَّه يُكتسَب أيضًا.

وفيها: أنَّ مِن أسباب الصلاح: تلاوةَ آيات الله، وكثرةَ الصَّلاة، والإيمانَ بالله واليوم الآخر، والقيامَ بفريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر.

وفيها: ثبوت الثواب على عمل الخير -قليلًا كان أو كثيرًا-؛ لقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾.

وفيها: أنَّ عَقْد المقارنة بينَ الحَسَن والقبيح، يَزيد بيانَ هذا وهذا؛ فبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياء.

وفيها: ذِكر خبر الصالحين مِن قبلنا؛ للاقتداءِ بهم، وقيامِ رابطة المحبَّة الإيمانيَّة بينَ الإخْوة في الله من جميع الأُمَم.

وفيها: أنَّ للإيمان ثمراتٍ وأعمالًا صالحة، تدُلُّ على وجوده وقوَّته.

وفيها: أنَّ الصلاح منه ما يقوم بالقَلْب، ومنه ما يقوم بالبدَن.

وفيها: أنَّ الصالحين لا يتثاقَلون ولا يتباطَؤون في عمل الخير.

وفيها: الارتباط بينَ الإيمان باليوم الآخر، وحصول الثواب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: أنَّ ذِكر أحد طرَفَي المقارَنة يُغنِي عن ذِكر الآخر، وهذا على أحد الأقوال في تفسير قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾.

وفيها: انتِهازُ الفُرصة لعملِ الخير، والقيامُ به في أول وَقته.

وفيها: الثَّناء على أصحاب الهِمَم العالية في عمل الخير؛ ليكونوا قُدوةً ومِثالًا لغيرهم.

وفيها: تحفيز نفوس المؤمنين إلى العمَل، بذكر سِيَر أسلافهم؛ كي يتشبَّهوا بهم، ويسيروا على مِنوالهم.

وفيها: أنَّ معرفةَ فوائدِ الشيء وحُسنِ عوائده؛ يدفَع إلى فِعْله.

وفيها: أنَّ الله تعالى شكورٌ، لا يَكْفُر أعمالَ الصالحين، ويستُرها؛ بل يُظْهِرها يومَ الدِّين، ويجزيهم بها الجزاءَ الأَوْفى.

وفيها: أنَّ ثواب الأعمال لا يتوقَّف على الظاهر؛ وإنَّما لا بُدَّ من أساسٍ من التَّقوى يقوم عليه، وحيث إنَّ أصل التَّقوى باطنٌ لا يعلمه إلَّا الله؛ قال في الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وفيها: برَكة الاشتِراك في الطاعة.

وفيها: التنافُس في الخيرات مع الصالحين، والاشتِراك في ذلك بينَ المؤمنين؛ كما تدلُّ عليه لفظة ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾، التي تفيد وقوعَ الاشتراك في الفِعْل بينَ جماعةٍ.

وفيها: أنَّه لا يكفي أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه، بل لا بُدَّ أن يسعَى في إصلاح غيره؛ لأنَّ الصالحين الذين أثنى الله عليهم في الآية يأمرون بالمعروف وينهَون عن المُنكَر، وهذا معناه: أنَّ خيرهم يتعدَّى إلى غيرهم، ولا يقتصِر على أنفسِهم.

وفيها: فَضيلة الكتابيِّ إذا أسلمَ وحَسُن إسلامُه، وقد قال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ من أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»(١).

وفيها: أنَّ المسارَعة في الخيرات أشدُّ مرضاةً للربّ، وأكثر أجرًا في ميزان العبد.

وفيها: تحفيز الغير إلى فعل الخير.

وفيها: القيام بالعمَل قبل حضور الأجل، ونزول ما يقطَعه -من مرض أو شُغْل-.

وفيها: إشغال النفس بالطاعة عن المعاصي.

وفيها: حُسن الثواب في البَرْزخ؛ فإنَّ العملَ الصالحَ -كما في الحديث- يأتي العبدَ في قبره، في صورة رجلٍ حَسَنِ الوَجْه، طيِّب الرِّيح، حَسَنِ الثِّياب، ويقول: «أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ»، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ؛ مَنْ أَنْتَ؟ فيقول: «أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ -واللهِ- سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا»(٢).

وفيها: الجَمْع بينَ حُسن القول وحُسن الفعل؛ لِما ورد في صفة الصالحين من الجَمْع بينَ التلاوة والسُّجود.

وفيها: الحثُّ على إخفاء العمل، وأنَّه من شواهد الإخلاص؛ كما في قوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ فهم يستَتِرون بظُلْمة اللَّيل عن عيون الخَلْق.

وفيها: أنَّ أعمال الصالحين تتنوَّع وتتعدَّد، ضارِبين في كلِّ وادٍ من الخير بسَهْم ونَصيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ مؤمني أهل الكتاب وجزاءَهم؛ عقَّب بذِكر حال الكفَّار وعاقبتهم؛ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) -واللفظ له-.

(٢) رواه أحمد (١٨٦١٤)، وصحَّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٥٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذا يشمل كلَّ كافرٍ، كتابيٍّ وغيرِ كتابيٍّ ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تدفَع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ مهما كثُرت. وقد جرَت عادة الناس أن يفتَدوا بالأموال أنفُسَهم في مواطن الحَرَج.

﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ من الذُّكور والإناث. وخصَّهم بالذِّكر؛ لأنَّهم أشـدُّ الناس قرابةً، وقد جرَت العادة أنَّهم أشدُّ الناس دفاعًا عن آبائهم وأُمَّهاتهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذابه وبَطْشه. وهذا الرَّدُّ والبيان لنفي ما زَعَموه فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ثـم أكَّد الله تعالى وقوعَ العذاب عليهـم؛ فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: مُلازِموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: دائِمون وماكِثون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله إذا أراد بقوم سوءًا؛ فلا مَردَّ له.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار لا ينتَفِعون بشيء من أموالهم وأولادهم يـومَ القيامة، وكما أنَّها لا ترُدُّ عنهـم عذابَ الله؛ فهي لا تقرِّبهم إليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

وفيها: عدم الاغتِرار بقوَّة وغِنى الكفَّار، مهما بلغَت.

وفيها: تمام قُدرة الله على عباده.

وفيهـا: التحذير من الاغـتِرار بالنِّعَم، ومن الظنِّ بأنَّ متاع الدُّنيا ينفع ويقرِّب في الآخرة من الله.

وفيهـا: أنَّ من أنواع العذاب في الآخـرة: أن يزول عن الكافر فائدةُ كلِّ ما كان منتَفِعًا به في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ متاع الدُّنيا قد يكون سببًا للعذابِ ودخولِ النَّار.

وفيها: خلودُ الكفَّار في النَّار، وتيئيسُهم من أن يَجِدوا شيئًا يدفَع عنهم العذاب يوم القيامة.

وفيهـا -مع ما قبلها-: الجَمع بينَ الوَعْـد والوَعيد، والترغيب والترهيب، بذِكر ما أعدَّ الله للمؤمنين، وما أعدَّ للكافرين.

وفيها: تسخير الأموال والأولاد في طاعة الله؛ لتكون سبَبًا للنَّجاة يوم القيامة.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

ولـمَّا كان الكفَّـار يُنفِقون أموالهم ليصُدُّوا عن سـبيل الله، وبعضهم يُنفِق ماله في بعض وجوه الخير؛ ضربَ الله تعالى مَثَلًا لمصير هذه النَّفَقات بقوله:

﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ**﴾ مـن الأموال والجهـود والأوقـات ﴿**فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ أي: في وجـوه الخير والصَّدَقات، ككَفالـةِ الأيتام والأرامل، والقيامِ على أمور العَجَزة والمُسِـنِّين، وعلاجِ الأمراض والأوبئة، والإحسانِ إلى الحيوانات، ونحو ذلك.

أو ما يُنفِقونه في الصَّدِّ عن سـبيل الله تعالى، في مُحاربة الإسـلام والمسـلمين، كالحملات الصَّليبيَّـة -قديـمًا وحديثًـا- وفي حملاتِهـم العسـكريَّة والإعلاميَّة، ومُسـاندةً لأعوانهم من المنافِقـين الطاعِنـين في ظهـور المسـلمين، ونحو ذلـك، وبعضهم يفعـل ذلك تقرُّبًـا وتعبُّدًا بحَسَب معتقداتهم.

فـإنَّ إنفاقَهم في كلِّ هـذه الأمور، مَثَله ﴿**كَمَثَلِ رِيحٍ**﴾ شـديدةٍ عاتيةٍ ﴿**فِيهَا صِرٌّ**﴾ أي: بـردٌ شـديدٌ وجليـدٌ، أو: فيها نـارٌ مُحرِقـة، أو: لها صريرٌ وصـوتٌ مُزعِجٌ مخيفٌ، مِن شِـدَّتها ﴿**أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ**﴾ أي: زُروعَهم وبساتينَهم وثمارَهم ﴿**ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ بأنواع المعاصي ومَنْعِ حقِّ الله ﴿**فَأَهْلَكَتْهُ**﴾: أحرقَتْه ودمَّرَتْه وأفسدَتْه، وأعدمَت زُروعَه وثمارَه، مع عِظَم حاجة أصحابِه إليه.

فهـذا مَثَل خَيبة الكفَّـار في الدُّنيا، عندما يُنفِقون أموالهم للصدِّ عن سـبيل الله، ثم ينتَشِر الإسـلام ويَعْلُـو، ويَتِمُّ نـورُ الله رغمًا عنهم، وتفشَـل مُخطَّطاتُهم، وتذهـب جهودُهم أدراج الرِّياح.

وفي الآخـرة تزداد الحَسْرة والخَيبة، إذا وجَـدوا أنَّ ثواب أعمالهم الخيريَّة -من الإطعام

والإيـواء والعـلاج ونحوها- قد ذهبَـت هَبَاءً منثورًا، وليس لهم عليها حسَـنةٌ واحدةٌ؛ لأنَّ الله محَقَ ثوابَ أعمالهم الخيريَّة، بسـبَبِ كُفرهم وشِركِهـم؛ لأنَّهم لم يَبنُوها على أصلٍ صحيحٍ وأساسٍ سليمٍ، وهو الإيمان بالله وتوحيده.

وقـد سُـئِلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عَبْدِ الله بنِ جُدْعان، وقـد كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِـمُ المِسْـكِينَ، فَهَـلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُـهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًـا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَـوْمَ الدِّينِ»[1]؛ فتكذيـبُ هذا الكافر بيوم الدِّين وشِركُه بالله؛ منعَـه من الانتفاع بعمَله يومَ القيامة.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حـين أذهبَ ثمرةَ أعمالهم، ولم يَبْخَسْـهم ويُنقِصْهم حقَّهم؛ ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشِّرك والكُفر، والذُّنوب والمعاصي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استِعمال التشبيه البليغ في بيانِ المعنى، وإيصالِه للأذهان.

وفيها: بلاغة القرآن العظيمة، بإيراد التشبيه التمثيليِّ أو المركَّب؛ حيث شبَّه إنفاقَ الكفَّار بالـزَّرْع الذي أصابَتْـه الرِّيح العاصفـة البارِدة، فدمَّرتـه وجعلَتْه حُطامًا؛ لبيـان عدمِ انتفاع الكفَّار بثَمَرة أعمالهم.

وفيهـا: عِـبرةٌ للمُرائي، وعِظةٌ لمَـن أرادَ بعمله الدُّنيـا؛ فما يتمُّ إنفاقُـه في المفاخِر والمكارِم وكَسْبِ الثَّناء، يَذْهَب هَبَاءً مَنثورًا؛ لأنَّه فقدَ الإخلاصَ وإرادةَ وَجْه الله.

وفيهـا: أنَّ الكُفر مُحبِطٌ لجميـع أعمال البرِّ، وأنَّ زَمْهَريرَ الشِّرْك ونارَ الكُفر مُهلِكةٌ ومُحرِقة لثمرَات النَّفقات والصَّدَقات.

وفيها: خَيبة الكافر عندما تذهب حسناتُه، أحوَج ما يكون إليها.

وفيهـا: أنَّ الجوائِـح قد تنزِل بأموال النـاس، وتُهْلِك حرثَهم ونَسْـلَهم؛ عقوبةً على ظُلْم أنفُسِهم، بما يقترِفونه من الذُّنوب.

---

(١) رواه مسلم (٢١٤).

وفيها: انتصارٌ للنبيِّ ﷺ، وخِزيٌ لأعدائه، حيث ذهبَت نفقاتُهم في عداوَتِه هَباءً منثورًا، كنَفَقات مُشرِكي مكة واليهود والمنافِقين، في التآمر وشَنِّ الحَرْب على النبيِّ ﷺ وأصحابه، ثم كان للمسلمين النصرُ والتمكين والسِّيادة عليهم.

وفيها: أنَّ ما بُنِيَ على فاسِدٍ وباطلٍ؛ فهو فاسِد.

وفيها: حِفظ الله لحسناتِ أهل التوحيد وأُجورِ أعمالهم.

وفيها: تسبيحُ الله وتنزيهُه، ونفيُ النقائص عنه.

وفيها: أنَّ مَن بذل الأسبابَ الشرعيَّة؛ جاءته النتائج على ما يُحِبُّ، ومَن خالفَ ذلك خابَ أملُه.

وفيها: مُعاقبة النفوس بظُلْمِها، بأنواع المعاصي ومَنْعِ حق الله.

وفيها: أنَّ انتفاعَ الكفَّار بأعمالهم الخيريَّة في الدُّنيا، لا يمنع عنهم عذابَ الله يومَ القيامة.

وفيها: الفَرْق بينَ المؤمن والكافر في مصائب الدُّنيا؛ فإنَّ المؤمن يصبِر فيؤجَر، والكافر لا يرجُو عند الله شيئًا؛ بل يكون ما أصابَه عقوبةً، بخلاف ما يُصيب المؤمنَ؛ فهو له تطهيرٌ وكفَّارة.

وفي قوله تعالى ﴿**وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ**﴾: بيان أنَّ للعبد الحريَّة والاختيار في عمَله، وعليه تكون المُجازاة يومَ الدِّين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾:

ثم حذَّر الله تعالى عبادَه المؤمنين من شرِّ الكفَّار والمنافِقين، ونهاهم عن ائتِمانهم وإقامة الأحلاف معهم؛ فقال تعالى:

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾: النِّداء بالإيمان للدَّلالة على أهميَّة الخِطاب، ولإغراءِ المؤمنين بالامتِثال ﴿**لَا تَتَّخِذُواْ**﴾ وتجعَلوا لأنفُسكم ﴿**بِطَانَةٗ**﴾ أي: خواصًّا وأصفياءَ، يَسْتَبْطِنون

أمورَكم، وتُطْلِعونهم على أسرار المسلمين، وتستشيرونهم في خاصَّة شُؤونكم. و(البِطانة): مأخوذة من «بِطانة» الثوب؛ لأنَّها أقرب إلى البدَن من ظاهره.

﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: من غيركم، من الكفَّار والمنافِقين.

سبَب نزول هذه الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان رجالٌ من المسلمين يُواصِلون رجالًا من اليهود؛ لِما كان بينهم من الجِوار والحِلْف في الجاهليَّة؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيهم -ينهاهُم عن مُباطَنَتِهم تخوُّفَ الفِتنة عليهم منهم-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾، إلى قوله ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾»[١].

وقال مجاهد: «نزلَت في المنافِقين من أهل المدينة، نهى الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين أن يتولَّوهم»[٢].

ثم وصفَ الله تعالى هذه البِطانة الخبيثة بأربع صفات:

الأولى: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ أي: لا يقصِّرون، بل يجتَهدون في مضرَّتِكم وعداوتِكم وإفسادِ أموركم، وهذا شأنهم ودَيْدَنهم. و(الألْو): التقصير، يُقال: «لا آلو جُهدًا» يعني: لا أقصِّر بحَسَب الجهد. و(الخَبال): هو الفساد في الرأي والعقل.

والصفة الثانية: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: أحبُّوا وتمنَّوا المشقَّة عليكم، والإضرار بكم.

الصفة الثالثة: ﴿قَدۡ بَدَتِ﴾: ظهرَت ﴿ٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ العداوةُ لكم ﴿مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وألسِنَتهم، بالوقيعةِ فيكم، وشَتْمِكم، وتكذيبِ نبيِّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتقاصِ دينِكم.

وقد ظهرَت هذه البغضاءُ أيضًا من أفواه المنافِقين إلى إخوانهم من الكفَّار، يُخبِرونهم بغِشِّهم الإسلامَ وأهلَه، وبُغْضِهم المسلمين.

الصفة الرابعة: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ﴾ أي: ما تشتَمِل عليه وتُضْمِره من الحِقْد والغَيظ ﴿أَكۡبَرُ﴾: أعظمُ وأشدُّ ممَّا يظهر على اللِّسان.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٨)، تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

ثم بيَّن الله تعالى أنَّه قد امتنَّ على عباده المؤمنين، بأن أنزلَ عليهم في كتابه التحذيرَ الواضحَ من هؤلاء؛ فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي: أظهرنا لكم العلاماتِ الدَّالَّة على عداوتهم وحَسَدهم، وحُكمَ موالاتهم، وعرَّفناكم الحقَّ والصواب في هذه الأمور.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لن يظهَر هذا البيانُ إلَّا لأصحاب العقول وذوي الألباب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اجتِنابَ اتِّخاذ الكفَّار بِطانةً هو من مقتَضيات الإيمان، والإخلالَ به نقصٌ في الإيمان.

وفيها: أنَّ بِطانة الخير إذا قُيِّضَت لشخص؛ فإنَّها من توفيق الله له، وبِطانة الشرِّ إذا قُيِّضت لشخص فهو من مَكْر الله به. وقد تجتمع على الشخص بِطانتان من الأخيار والأشرار؛ ففي الحديث: «مَا بَعَثَ الله من نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ من خَلِيفَةٍ؛ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالمعْصُومُ مَنْ عَصَمَ الله تعالى»[١].

وفيها: أنَّه لا يجوز ائتمانُ الكافر على أسرار المسلمين ومصالحهم العامَّة مهما كان فيه من المِيزات الشخصيَّة والمؤهِّلات الدُّنيويَّة.

وقد قيلَ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ هاهنا رجلًا من نصارى الحِيرَة، لا أحدَ أكتبَ منه ولا أخطَّ بقلمٍ، أفلا يكتُب عنك؟ فقال: لا آخُذُ بطانةً من دون المؤمنين[٢].

وقد أنكر عمرُ على أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اتِّخاذَه رجلًا نصرانيًّا كاتبًا -رَغْم إتقانه الكتابةَ- وقال له: «لاَ تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلاَ تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلاَ تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

ولذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو عَلِمَ ملوكُ الإسلام بخِيانةِ النصارى الكُتَّاب، ومكاتبتِهم الفِرنج أعداء الإسلام، وتمنِّيهم أن يستأصِلوا الإسلامَ وأهلَه، وسعيِهم في ذلك بجَهد الإمكان؛ لثَناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٧٩).

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٢٧).

(٤) أحكام أهل الذِّمَّة (١/ ٤٩٩).

وفيها: أنَّ التغايُر في الدِّين يدفع إلى العداوة.

وفيها: أنَّ اتِّخاذ البِطانة من الأعداء مُخالِفٌ للعقل والحِكمة.

وفيها: أنَّ عداوة أهل الكتاب والمنافِقين للمسلمين في الباطن، أشدُّ من الظاهر، ولو تمكَّنوا منهم لأظهَروا أضعافَ ما كانوا يُظْهِرونه من قبلُ من العداوة، كما شَهِدَ بذلك التاريخ:

فقد قام اليهودُ بظُلْم المسلمين، لـمَّا تولَّت الدولة الفاطميَّة الباطنيَّة الحاقدة، وصار العِزُّ فيها لليهود على المسلمين!

وكان هؤلاء الكَفَرة يحرِّضون إخوانَهم والمُشرِكين على غزو المسلمين، كما فعلت يهودُ المدينة في تحريض قُرَيش على قتال المسلمين.

وكان لخِيانة الوزير ابن العَلْقَميّ سنة ٦٥٦هـ دورٌ كبير في تمكين التتار من دمار بغداد والمشرق الإسلامي والعربي، فسقَطَت الخلافة العبَّاسيَّة، وقُتِلَ أكثر من ثمانمائة ألف من المسلمين، بما فيهم الخليفة المستعصِم بالله وأركان دولته[(١)]!

وعندما غزا التتارُ دِمشقَ سنة ٦٥٨هـ؛ استطالَ النصارى على المسلمين فيها، واستخرَجوا من هولاكو قانونًا بإظهار دينهم، فشَرِبوا الخمر عَلَنًا في نهار رمضان، وكان يرُشُّونها على ثياب المسلمين في الطُّرُقات، وصبُّوها على أبواب المساجد! وألزَموا المسلمين بالقيام لهم إذا مرُّوا بصليبهم في الشوارع! وكانوا يقولون جهرًا: «ظهر الدِّين الصحيح، دينُ المسيح»[(٢)]!

وكان النصارى في بلاد الشام يدُلُّون إخوانهم الغُزاة في الحملات الصَّليبيَّة على عَوْرات المسلمين؛ ليدخُلوا من خلالها، وعلى أموال المسلمين لينهَبوها، وشارَكوا في القَتْل والأَسْر والسَّبي والنَّهْب والإحراق!

وفي الآية: أنَّ مَن يُغايرك في الدُّنيا، أسهلُ ممَّن يُغايرك في الدِّين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٧/ ٣٥٦).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤٨/ ٥٩)، البداية والنهاية (١٧/ ٣٩٨)، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (١/ ٥١٢).

وفيها: أنَّ الكفَّار يتمنَّون للمسلمين التعَب والإرهاق، ويعملون على إنهاكِهم -فكريًّا وبدنيًّا وماليًّا-.

وفيها: أنَّ الكفَّار يحرِصون على كَتْم بُغْضهم وعداوتهم، إذا كان في المسلمين قوَّة، ولكن الله تعالى يكشِف حالهم للمسلمين من فَلَتات ألسِنَتهم؛ كما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿**قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ**﴾.

وفي الآية: عِناية الله بعباده المؤمنين، حيث حذَّرهم ممَّا قد يخفَى عليهم.

وفيها: أنَّ أعداءنا يعملون على إلحاق الضرَر بديننا ودُنيانا، ويُريدون تدميرَ عقيدتنا، كما يسعَون لتدمير قوَّتنا الاقتصاديَّة والعسكريَّة والبشريَّة، ويعملون على بثِّ الهزيمة النفسيَّة في نفوسنا، بما يُشيعونَه فينا من أجواء الإحباط واليأس والاستِسلام؛ ليُصاب المسلمون بالكآبة والحزن.

وفيها: أنَّ آيات الكتاب العزيز تُعين على التفريق بينَ النافع والضارِّ، والوليِّ الحميم والعدُوِّ المبين.

وفيها: أنَّ استشارة الكفَّار في أمور المسلمين العامَّة، وإطْلاعهم على الأسرار، أخطر بكثير من استشارتهم في الأمور الشخصيَّة والفرديَّة، كاستشارة الطبيب الكافر في العلاج والدواء، واستشارة الخبير الاستشاريّ الكافر في التجارة والصناعة والزراعة والبناء، ونحوها من الخَدمات الاستشاريَّة التي تقدِّمها بعض الشَّرِكات والخبراء لأفراد المسلمين ومؤسَّساتهم الشخصيَّة.

وفيها: التعاون بينَ المنافِقين والكفَّار، واجتماعهم على حَرْبِ المسلمين والإضرارِ بهم.

وفيها: أن التأكُّد من خُلُوِّ بعض الكفَّار من هذه الصِّفات أمرٌ صعب جدًّا؛ لوجود بعضها في الباطن، وهو ما لا يطَّلِع عليه إلَّا الله؛ ولذا فالاستعانة بأهل الذِّمَّة وغيرهم من الكفَّار ينبغي أن تقيَّد بالقيود والحذَر.

فمن شروط جواز الاستعانة: ألَّا يترتَّب عليها تولِّي الكافرين في ولاية على المسلمين فلا يُجعل الكافر رئيسًا أو مديرًا على مسلمين تحتَه.

وأن يكون حسن الرأي في المسلمين، كبعض من خالطنا من الكفَّار أو درس ديننا وتبين له من محاسنه ما غَيَّر رأيه في هذه الشريعة.

وكذلك ألا يستعان بهم إلَّا عند الحاجة إليهم، وقد استأجر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الهجرة دليلًا مشرِكًا خبيرًا بالطرق، ولكنه كان مأمونًا.

وفيها: أنَّ بُغض الكافرين لنا بلغَ مبلغًا عظيمًا، كما يظهر في التعبير بـ ﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بدلًا من «ألسِنَتهم»، والتعبير بـ ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ بدلًا من «قُلُوبهم»؛ وذلك لبيان امتلائهم بُغضًا وغَيظًا على المسلمين.

وفيها: الحِرْص على تولية الأمور واتِّخاذ المستشارين، من الأتقياء المُخلِصين، الخبراء، الأُمناء، الثِّقات.

وفيها: أنَّه لا يجوز أن تَدفَع المصالِحُ الشخصيَّةُ المسلمَ إلى فِعْل ما يضرُّ بإخوانه المسلمين؛ لأنَّ الله نهى المسلمين في المدينة عن اتِّخاذ اليهود والمنافِقين أولياءَ، تحت تأثير القَرابة والصَّداقة والحِلْف والجوار والرَّضاع -الذي حصلَ بينهم في السابق-.

وفيها: الحِرْص على مصلحة المسلمين، وتسهيل أمورهم، وإزالة ما يشقُّ عليهم، وابتغاء الخير لهم، وتقديم النصيحة الخالِصة المفيدة لتحسينِ أحوالهم، ودفعِ الضرَر عنهم.

وفيها: سُفولُ منزلة الكفَّار وانحطاطها؛ لقوله تعالى في الآية: ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾.

وفيها: أنَّ العداوة الدِّينيَّة تدفَع إلى الاجتهادِ في الإضرار بالخَصْم، وعدم التقصيرِ في ذلك بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ التحذير من الشيء ينبغي أن يقتَرِن بالعِلَّة؛ حتى يكتَمِل الاقتِناع.

وفيها: أنَّ كلَّ بِطانة مُفسِدة لها نصيبٌ من الذمِّ الوارد في هذه الآية، بحَسَب درجة الإفساد.

وفيها: أنَّ صاحب النِّيَّة الحسَنة الصافية، ينبغي ألَّا يغفُل عن عداوةِ الأعداء وكيدِ الكائدين.

وفيها: دليلٌ على عدم قَبول شهادة أصحاب العداوة على بعضهمُ البعض، فإذا تبيَّن للقاضي وجودُ عداوة بينَ الشاهد والمشهود عليه؛ وجبَ عليه أن يمتَنِع عن قَبول شهادته.

وفيها: أنَّ اطِّلاع صاحب العداوة على الأسرار، يُفضِي إلى ضرَر بالغ.

وفيها: أنَّ استِشارةَ الكفَّار والأَخْذَ بآرائهم، دون تمحيص؛ فيه ضررٌ بالغٌ على المجتمع المسلِم، وإن أخلصَ بعضُهم فيها؛ فإنَّ مقصودَه -في الغالب- هو كَسْب الثِّقة لأجل الرِّبح وتحصيل المال، وقد يُخلِص بعضُهم في الدراسة المبدئيَّة والمشورة الأوليَّة، ليحصُل على ما بعدها من العقود الكبيرة والمصالح المُرْبِحة، فإذا تمكَّن غشَّ وخدعَ، وألحق الضرَر البالغ بالمسلمين.

ولا يَقْلِب هذا الميزانَ النوادرُ من الكفَّار، الذين يُخْلِصون في النصيحة حقيقةً دون مُقابِل؛ فالشاذُّ لا حُكمَ له.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾:

ثم استمرَّ تحذيرُ ربِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ عبادَه المؤمنين، من اليهود والمنافِقين؛ فنهى عن محبَّتهم -بعد أن نهى عن اتِّخاذهم بِطانة-؛ فقال تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ﴾ -يا معشر المؤمنين- ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾، وكان ذلك في أول الأمرِ قبل انكِشافِ الحقائق، وظهورِ خيانات اليهود والمنافِقين، وكانت المحبَّة مبنيَّة على حُسن الظن؛ لِـما كان يُظهِره المنافِقون من الإسلام، واليهودُ من المهادَنة، وكان ذلك أيضًا لأسباب القرابة والمُصاهَرة والحِلْف والمُشارَكات ونحوها.

وقيل: (المحبَّة) هنا بمعنى: الرحمة لهم؛ لِـما يفعَلون من المعاصي التي يُقابِلها العذابُ الشديد.

وقيل: إنَّ (المحبَّة) هنا بمعنى: إرادة الإسلام لهم، وهم يُريدون المسلمين على الكُفر.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ أي: لا باطنًا ولا ظاهرًا، بسبَبِ اختلافِ الدِّين، واستقرارِ الكُفر في بواطنهم، والحَسَد.

﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: مع أنَّكم -يا معشر المؤمنين، تؤمِنون بكتابِهم وكتابِكم، ونبيِّهم ونبيِّكم، بينما هم يكفُرون بكتابِكم ونبيِّكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ﴾، واجتمعَ معكم هؤلاء اليهود والمنافِقون في المجالِس؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ نِفاقًا ومُداهنةً: ﴿ءَامَنَّا﴾ بما أنزل الله من القرآن، وبما بَعث به محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ أي: انفردَ بعضُهم ببعض، ورجَعوا إلى حيث لا يَراهم المؤمنون؛ ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ أي: أظهروا شِدَّة العداوة، حتى بلغ الأمرُ أنْ عَضُّوا أطرافَ أصابِعهم من شِدَّة الغيظ عليكم؛ لِما رَأَوا من ائتلافِكم، واجتماعِ كلمتِكم، ونصرِ الله لكم.

﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ مؤمن. والانتِقال من صيغة الجمع إلى صيغة المفرَد؛ للتفنُّنِ في الخِطاب، واستِجلاب الانتباه.

فقولوا لهم جميعًا: ﴿مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾، وهذا دُعاءٌ عليهم بالموت في حال الغَيظ والحَنَق، قبل بلوغ ما يتمنَّونه، ورُبَّما يموتون غمًّا من ازديادِ الخيرِ والنصرِ للمسلمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلَم ما في القَلْب من خيرٍ أو شرٍّ، وما انطوى عليه من الأمور المضمَرة والخواطِر، والله يُجازِي على ما في القَلْب من الاعتقاد، وما يقوم بالقَلْب من الأعمال، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

و(ذات الصُّدور): صاحبة الصُّدور، وهي: النوايا والخواطِر والأحوال القائمة بالقَلْب، من الدَّواعِي والصوارِف الموجودة فيه. سُمِّيت بذلك؛ لملازَمتِها القَلْبَ وعدمِ انفِكاكها عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِنايةُ الله بالمؤمنين في كَشْف ما خفيَ عنهم من كَيد عدوهم، سواءً في مجالس الأعداء الخاصَّة، أو في نفوس الأعداء وقُلُوبهم.

وفيها: شَفَقة المؤمن، ومحبَّته الخيرَ لأعدائه -مع كُرْههم له-.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: «فوالله، إنَّ المؤمن ليُحِبُّ المنافِقَ، ويأوي إليه ويَرْحمه، ولو أنَّ المنافِق يَقْدِر على ما يقدِر عليه المؤمن منه؛ لأبادَ خَضراءَه»(١).

والمراد بكلامه: محبَّة الهدايةِ والخيرِ للمنافِق.

وفيها: أنَّ خوف المنافِقين على دمائهم وأموالهم، يدفَعُهم إلى المصانَعة ومجامَلة المؤمنين بإظهار الإيمان.

وفيها: أنَّ على المؤمن ألَّا يغترَّ بما يُظْهِره الأعداءُ من الموافَقة والمداهَنة؛ بل عليه أن يكون حَذِرًا فَطِنًا.

وفيها: أنَّ العداوة الدِّينيَّة لا تحمل المؤمن على التكذيب بشيء من الحقِّ، وأنَّ مُقابَلة إيذاء الأعداء لا تكون بجَحْد ما أُوتيَ أجدادُهم من الكتاب. ولذا، فمن أركان الإيمان: الإيمان بكتب الله المنزَّلة جميعًا.

وفيها: أنَّ بُغضَ المسلِم لكُفر أهل الكتاب، لا يحمِله على جَحْد ما أنزل الله على أنبيائهم.

وفيها: أخذ الحَيطة من خَلْوة الكفَّار ببعضهم.

وفيها: الدُّعاء على الأعداء ببقاء الغَيظ إلى الموت، والتعجيل بموتهم بسببِ الغَيظ. ومِن المُشاهَد المعروف: أنَّ اشتداد بعض الحالات النفسيَّة على الإنسان قد يقتُله؛ كشِدَّة الحزن والكَمَد، وشِدَّة الغَيظ والحَنَق، وشِدَّة الغَضَب والانفعال، وشِدَّة الخوف والفزَع، بل ربَّما مات من شِدَّة الفرَح والدهشة!

وفيها: أهميَّة القَلْب، وأنَّه محلُّ العقل والإدراك والتدبير للجَسَد.

وفيها: النظر إلى الأفعال، وعدم الاكتِفاء بالأقوال، عند الحُكم على شخص ما.

وفيها: أنَّ هذه الأُمَّة أولى بالحقِّ؛ لإيمانها بما كفرَ به غيرُها ممَّا أنزله الله.

وفيها: القوَّة والحَزْم مع الأعداء، والتجلُّد لهم، وعدم إظهار الخوف منهم، ومواجَهة المعانِدين والمنافِقين بمثل عبارة: ﴿مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾.

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١).

وفيهـا: تنبيه المؤمنين بأنَّه: لا يَصِحُّ أن يكـون الكفَّارُ أصلبَ في الباطل، من أهل الإيمان في الحقِّ.

وفيها: أنَّ من أعظم ما يَغيظ المنافِقين: ازديادَ قوَّة المسلمين.

وفيها: بِشارة للمؤمنين، بأنَّ هؤلاء الذين يَقصِدون الإضرارَ بهم لن يضرُّوا إلَّا أنفُسَهم.

وفيهـا: الفَرْق بـينَ راحةِ المؤمن في انشِراح صدره، ومحبَّةِ الخـير للآخَرين، وخُبثِ نَفْس الكافر والمنافِق، وتعاسةِ قَلْبه، ونَكَدِ نفسه، وتألُّمه بالغَيظ والحَسَد.

وفيها: أنَّ في قُلُوب الكفَّار غيظًا ما هم ببالغيه، ولا يقدِرون على إنفاذه.

وفيها: أنَّ مَن اغتاظ من المؤمنين لأجلِ إيمانهم واتِّباعهم للسُّنَّة؛ فهو من جِنس المنافِقين والكفَّـار، وقـد وقع مثـلُ هذا من بعـضِ أصحاب البِـدَع الكُفريَّة، في عداوتهـم وحِقدهم وغَيظهم على أهل السُّنَّة، كالخوارِج.

قال ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الصِّفة قد تترتَّب في أهل بِدَع من الناس، إلى يوم القيامة»[1].

وفي هـذه الآيـة: ردٌّ عظيـم على أرباب مبـدإ «التقريب بينَ الأديان»، ومـا زعَموه من أنَّ طوائف البشريَّة يمكن أن تعيش مع بعضها في سلام ومحبَّة، وتقارُب وإخاء! فكيف يمكن أن نعيـشَ مع أعدائنـا، وقد أخبرنا الله تعالى عنهم بما أخبر، من الكَيْـد والمَكْر وإرادة الشرِّ لنا؟!

وفيها: مُعاتَبة الله المؤمنين، بعقد المقارنة بينهم وبين عدُوِّهم؛ ليتَّخذوا الموقف الصحيح منهم، ويُبغِضوهم في الله، وتزول محبَّتُهم من قُلُوبهم.

وفيها: أنَّ الغَيظ من قوَّة المسلمين من صفات الكفَّار.

وفيها: أنَّ اليهود والمنافِقين جُبَناء، لا يجرُؤون على المواجَهة.

وفيها: أنَّ النِّفاق كان من صفات بعض اليهود.

---

(١) المحرَّر الوجيز (١/ ٤٩٨).

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مزيدًا من عداوة أهلِ الكتاب وغَيظهم من المسلمين؛ فقال:

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ أي: إن يصِلكم -أيُّها المؤمنون- ﴿حَسَنَةٞ﴾ سواء كانت حسَنة دينيَّة أو دُنيويَّة، مثل: نزول الوحي، واجتماعكم على العِبادات العظيمة، والنصر من الله، والغنيمة من العدُوّ، وتتابُع دخول الناس في الإسلام، وحصول الخِصْب، وصِحَّة الأبدان، والقوَّة الماليَّة، ونحو ذلك. وكلمة ﴿حَسَنَةٞ﴾ نَكِرة في سياق الشَّرْط، تفيد العُموم.

فإن حصلَ هذا؛ ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ أي: تُحْزِنهم.

﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ كمرضٍ، أو فقرٍ، أو حدوثِ اختلافٍ، أو هزيمة من عدُوٍّ، أو حصول جَدْب وقَحْط؛ ﴿يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ أي: اليهود والمنافِقون، فيُسَرُّون بذلك ويبتَهِجون.

فالمقصود: أنَّ مِثل هؤلاء لا يُمكِن أن يُتَّخذوا بِطانةً.

ثم أرشدَ الله تعالى المؤمنين إلى طريقة مواجَهة هؤلاء؛ فقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على عداوتهم وأذيَّتهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربَّكم فيما نهاكم عنه -من اتِّخاذهم أولياءَ وبِطانةً- وتجتَنِبوا أسباب سَخَطه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾ ومَكْرُهم وحِيَلهم. و(الكَيْد): هو التوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم، بالأسباب الخفيَّة.

وقوله ﴿شَيۡـًٔا﴾ يعني: قليلًا، أو كثيرًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من العداوة والمَكْر ﴿مُحِيطٞ﴾: عليمٌ به، لا يَغيب عنه من ذلك شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله بالمؤمنين، في دَلالتهم على ما يُنجيهم من كَيْد أعدائهم.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلمين ألَّا يتسبَّبُوا في حُصول ما يبتهج به الكفَّار، ويكون سببًا لشماتتهم في المسلمين، كإظهار الخلافات فيما بينهم، وكثرة الشِّقاق والنِّزاع.

وفيها: أنَّ تَرْك مُوالاة الكفَّار هو من التكاليف الشاقَّة، التي تحتاج إلى صَبر.

وفيها: أنَّ مَن وفَّى لله بالعبوديَّة، فاتقى وصبر؛ فإنَّ الله يحفظه من الضرَر.

وفيها: ذَمُّ الكَيد الخبيث -وهو: الاحتيال لإيقاع الغير في مكروه- وأنَّه من أعمال الكفَّار.

وفيها: أنَّ مَن أراد أن يكْبِت عدُوَّه؛ فليجتهد في اكتِساب الفضائل.

وفيها: أنَّ من تربية النفوس: ذِكْرَ الصَّبر في كلِّ مقام يشُقُّ عليها احتمالُه.

وفيها: أنَّ الحذَر من الأعداء الذين يخالطهم المؤمِن ويعاشِرهم أمرٌ صعبٌ، يحتاج إلى مجاهَدة، خصوصًا إذا كانوا من عشيرته وأقاربه.

وفيها: أنَّ الله لم يأمُر بمُقابَلة الشرِّ بمثله؛ بل أمرَ بمُقابَلته بالصَّبر والتَّقوى.

وفيها: أنَّ اتِّقاء شرِّ العدُوِّ يكون بالأحسن، فإذا تعذَّر دَفْعه بالأحسن؛ جاز دفعُ السيِّئة بمثلها، من غير بَغْي.

وفيها: أنَّ صاحب الصَّبر والتَّقوى ينجِّيه ربُّه من كيد عدُوِّه.

ويؤخَذ من الآية: تعريف العدُوِّ، وهو: مَن سرَّه مَسَاءتُك، وغمَّه فرَحُك. ويذكر العلماءُ هذا التعريف في باب «الشهادات» من كتب الفقه[1].

وفيها: أنَّ الكفَّار مهما أظهَروا لنا من الصَّداقة فهم كاذِبون؛ لأنَّ الذي تَسُوءه حسنَتُنا وتسُرُّه مُصيبتُنا لا يمكن أن يكون صديقًا؛ فكيف يُوَلَّى على شيء من أمور المسلمين؟!

وفيها: أنَّ المؤمن مُطالَبٌ في معاملة أعدائه بأمرَين: الصَّبر على ما فعَلوا، وأن يتقيَ الله فيما يَفْعَل بهم.

وفيها: أنَّ المتدرِّع بالصَّبر والتَّقوى لا يُبالي بكَيد عدوِّه، وهذا يُكسِبه القوَّة في مواجَهته.

وفيها: أنَّ العدوَّ الذي تُفرِحه مُصيبتُنا، إذا ولَّيناه شيئًا من أمورنا؛ سيسعَى لإيذائنا، ثم يفرح بذلك!

---

(١) انظر: الإنصاف للمَرداوي (١٢/ ٧٤)، كشَّاف القناع للبُهُوتي (٦/ ٤٣٢)، روضة الطالبين للنَّووي (١١/ ٢٣٧).

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين أن يتجلَّدوا ويتماسَكوا إذا نزلَت بهم مُصيبة؛ لئلَّا يُعطوا لعدُوِّهم فرصةَ الشماتة بهم.

وفيها: أنَّ أدنى حسنَة تحصُل للمسلمين فهي تسُوء الكفَّار؛ كما يدُلُّ عليه التعبير بـ ﴿تَمۡسَسۡكُمۡ﴾، فإنَّ (المَسَّ): أدنى درجات الإصابة.

وفي المقابل: فهم يفرحون بتمكُّن المصائب من المسلمين؛ كما يدُلُّ على ذلك التعبير بـ ﴿تُصِبۡكُمۡ﴾.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى كَيْدَ الكفَّار وعداوتَهم، وفرحَهم بما يصيب المسلمين من مصائب؛ أعقبَ ذلك بمِثالٍ عمليٍّ ومُصيبةٍ كبيرةٍ ألـمَّت بالمسلمين، نتيجةَ كَيْدِ الكفَّار وعداوتِهم.

وذكرَ سبحانه مثالًا للالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في مواجَهتهم، وكيف كانت عاقبتُه النصر، كما حصلَ في غزوة بدر.

ومثالًا آخر لعدم الالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في المواجَهة؛ فكانت نتيجته المُصيبة والهزيمة، كما حصلَ في غزوة أُحُد.

فبدأ سبحانه بذِكر أمر الهزيمة في غزوة أُحُد؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذۡ﴾ أي: واذكر -يا أيُّها النبيُّ ﷺ- إذْ ﴿غَدَوۡتَ﴾ أي: خرجتَ في أول النهار ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾: من بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، خارِجًا إلى غزوة أُحُد، وكان ذلك صباح يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة خلَتْ من شهر شوال، سنة ثلاثٍ للهجرة.

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: تُنزِلهم وتُهيِّئ لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ أي: أماكن ومراكز، يثبُتون فيها لقتال عدُوِّهم، فعيَّن ﷺ مراكزَ للرُّماة، وللفُرْسان، ولسائرِ جيش المسلمين.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِ المؤمنين، وهم يقدِّمون مشورتَهم لنبيِّه ﷺ، ويَدْعُون ربَّهم سبحانه. وسميعٌ لأقوال المنافِقين، وهم يُشيرون بما يُشيرون به جُبْنًا وهَلَعًا، ويتآمَرون، ويُعِدُّون للنُّكوص والانسحاب. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنِّيَّات والأحوال.

وكانت قريشٌ قد اغتاظَت من انتِصار المسلمين في بَدْرٍ، وما غَنِموه من أموالهم، ورجَعَت جيوشُهم مقهورةً إلى مكة. فعقَدوا العَزْمَ وتعاهَدوا على أن يجتمعوا لحَرْب المسلمين، فلمَّا استعَدُّوا وتكاملَ جَمْعُهم في ثلاثة آلاف، خرَجوا حتى نزلوا أُحُدًا يومَ الأربعاء.

وانتهزَ النبيُّ ﷺ فُرصةَ اجتِماع أصحابه يومَ الجمعة، فشاورَهم، وقصَّ عليهم رؤيا رآها، فأشارَ بعضُهم بالمُقام في المدينة والتحصُّن بها للقتال، ورأى بقيَّتهم الخروج؛ فأخذَ النبيُّ ﷺ برأيهم، ولَبِسَ لأْمَته (دِرْعَه)، وظاهرَ بينَ دِرْعَين (يعني: لبسَ أحدَهما فوق الآخر).

فلمَّا رَأَوه لَبِسها نَدِموا، وقالوا: يا رسولَ الله، أقِمْ، فالرَّأي رأيُك! فَقَالَ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَع أَدَاته بَعْد أَنْ لَبِسَهَا، حَتَّى يَحْكُم اللهُ بَيْنه وَبَيْن عَدُوِّهُ»[1].

واستعرضَ النبيُّ ﷺ أصحابَه، فرَدَّ مَن استصغرَه منهم -مثل: ابن عمر، والبراء- وأجازَ مَن رآهم مُطيقين للقتال -كرافِع بن خَدِيج، وسَمُرَة بن جُنْدُب-.

وخرجَ ﷺ في نحوٍ من ألف مقاتل.

فلمَّا بلغ ثَنيَّة الوَداع؛ لحِقَت به كتيبةٌ من اليهود للقتال معه؛ فردَّهم ﷺ، وقال: «إنا لا نَسْتَعينُ بالمُشرِكينَ على المُشرِكين»[2].

ولـمَّا بلغ ﷺ الشَّوْط -وهو موضعٌ بينَ المدينة وأُحُد-؛ رجعَ رأسُ النِّفاق عبدُ الله ابن أُبَيٍّ بثُلُث الجيش، وانسحبَ مُغضَبًا، يزعُم أنَّه لم يُؤخَذ برأيه.

وتهيَّأ النبيُّ ﷺ للقتال في سَبْعِمائة من أصحابه، وجعلَ خمسين رجلًا من الرُّماة فوقَ الجبل، وأمَّر عليهم عبدَ الله بنَ جُبَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال لهم: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا»[3].

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن تدبير النبيِّ ﷺ في الحَرْب، وبراعته في ذلك.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٤١)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم (٩/ ١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في فقه السيرة (ص٢٥٧).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٤٨)، والحاكم (٢/ ١٣٣)، وانظر: الصحيحة (١١٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٠٤٣).

وفيهـا: أنَّه ينبغي على القائد تعيينُ أماكن المقاتِلين، وترتيبُ الجيش، وتعريفُ كلِّ واحد بمهامه، وأنَّ الأفضل أن يتولَّى ذلك بنفسه.

وفيها: شهادة الله بالإيمان لمن شهد أُحُدًا؛ لأنَّ المنافِقين انخذَلوا قبل أن يَصِلوا إلى مكان القتال.

وفيهـا: فَضْل عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنَّ الله تعالى نصَّ على أنَّها من أهـل نبيِّه، وقد خرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عندها للقتال.

وفيها: استحباب الخروج للقتال من أول النهار؛ لقوله: ﴿غَدَوْتَ﴾.

وفيهـا: حـثُّ المقاتِلين المسـلمين على الثبات في الأماكـن التي عيَّنها الإمـام لهم للقتال، وعدم تغييرها إلَّا بإذنه، فَضْلًا عن التولِّي والانسحاب. ومعلومٌ أنَّ المقاتِل يحتاج إلى الحركة والتقدُّم والتأخر عند القتال؛ فكان المقصود بـ(المقاعد): ثبات المقاتِلين ولزومهم أماكنهم.

وفيها: معيَّة الله تعالى للمؤمنين؛ فهو سبحانه يَسْمَع كلامهم، ويعلَم حالهم، ويُثَبِّتهم، ويجيب دعاءَهم.

وفيهـا: أنَّ محبَّـة الأهـل ينبغي ألَّا تمنع من الخـروج للقتال في سـبيل الله، ولا تَحُول دون التضحية.

وفيهـا: تذكيرُ النبـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بهذا الموقف العظيم، وقصُّهُ على مَن بعدَهم في الكتاب العزيز؛ لأخذ العِبرة والعِظة منه.

وفيها: إطلاق (الأهل) على الزوجة.

وفيها: اتِّخاذ الأسباب لملاقاة العدو.

وفيهـا: أنَّ الجهـاد يلزَم بالشروع فيـه، وأنَّ الأصل فيمَن تهيَّأ وخرجَ أنَّـه لا يَرْجِع، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن لَبِسَ دِرْعَه: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَع أَدَاته بَعْد أَنْ لَبِسَـهَا، حَتَّى يَحْكُم الله بَيْنه وَبَيْن عَدُوِّه»(١).

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٤١)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم (٩/ ١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في فقه السيرة (ص٢٥٧).

وفيهـا: أنَّ الله مُطَّلِـعٌ عـلى قُلُـوب المنافِقين، عليمٌ بما فيها، يَسْـمَع كلامهـم وما يُحيكونَه ويدبِّرونه من مؤامرات. كما أنَّه عليمٌ بما في نفوس المؤمنين، وسيُجازِي هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ بنيَّته وعمَله.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾:

لـمَّا انخـذلَ رأسُ النِّفاق عبدُ الله بنُ أبيٍّ ومَن معـه، ورجعَ بثُلُث الجيش؛ همَّت جماعتان من المسلمين أن يتخلَّفوا ويَرْجِعوا معه، ولكنَّ الله عصمَهم من ذلك، وثبَّتهم، وامتنَّ عليهم وعلى نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين بهذا؛ فقال تعالى:

﴿إِذۡ هَمَّت﴾ أي: واذكـر -يـا أيُّهـا النبـيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- إذْ قصـدَتْ وأرادَتْ ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ وهـم: بنـو حارِثـة من الأَوْس، وبنو سـلِمَة مـن الخَزْرج، وكانا جنَاحَي عسـكر رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾ أي: تَضعُفا وتجْبُنا، وتَرْجِعا عن القتال. و(الفَشَـل): هو الكَسَـل والضَّعْـف، والتراخي، والخَـوَرُ والجُبْن. و(الهمُّ): يُطلَق عـلى مجرَّد حديث النفس، ويُطلَق كذلك على العَزْم والتصميم. ولعلَّ المقصود هنا الأول؛ لأنَّه لم يصِل إلى حَدِّ العِصيان.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: يَعْصِمهما، ويتـولَّى أمورهما. وهذه الولاية خاصَّة بالمؤمنين، تقتضي العِناية والحماية والنُّصرة.

ولـذا قال جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾: بَنِي سَلِمَةَ وبَنِي حارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ، والله يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: فليعتَمِـدوا عليـه، وليَثِقوا بـه في أمورهم، لا بحَولهم ولا بقوَّتهـم. و(التوكُّل) عـلى الله: هو تفويض الأمر إليه، ثقةً بحُسْـن تدبيره، مع الأخذ في الأسباب المشروعة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمن قد يعتَريه الضَّعْف في بعض الأحوال؛ فينبغي عليه أن يعتَصِم بالله.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥).

وفيها: أنَّ المثبِّطين والمتخاذِلين لهم تأثيرٌ سيءٌ في نفوس غيرهم؛ فينبغي عدمُ الاغترِار بمواقِفهم، وتَرْكُ تقليدِهم واتِّباعِهم.

وفيها: لُطف الله بالمؤمنين، في تثبيتهم على الحقِّ.

وفيها: أنَّ من مقتَضيات ولاية الله للمؤمن: أن يَعْصِمَه ربُّه من الشرِّ والوقوعِ في الحرام.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يتوكَّل على الله، خاصَّة في أحوال الشِّدَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما قويَ الإيمانُ؛ قويَ التوكُّل.

وفيها: تحريم تقليد الغير في المعصية.

وفيها: إعانة الله للمؤمنين على إتمام العِبادة والقيام بالطاعة.

وفيها: أنَّ صِدق الاعتِماد على الله والتوكُّل عليه، يقتضي الأَخْذ بالأسباب.

وفيها: أنَّ مجرّد حديث النفس بالمعصية، لا يُخرج صاحبَه عن ولاية الله تعالى.

وفيها: أنَّ مَن عرض له عارضُ نَقْصٍ أو نُكوص؛ فإنَّه ينبغي عليه أن يُقاوِمَه بالتوكُّل على الله.

وفيها: إطلاق (الفَشَل) على مَن تولَّى عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وهذا هو المثال الذي ذكرَه الله تعالى للالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في مواجَهة الأعداء، وكيف كانت عاقبتُه النصر.

فلـمَّا ذكر تعالى مَطْلَع غزوة أُحُد، وكان فيها ما كان من التنازُع والعِصيان، وإرادة الدُّنيا، والمُصيبة الكبيرة التي حصلَت بسبَبِ ذلك؛ ذكَّر المؤمنين بغزوة بَدْرٍ، وما كان فيها من التوكُّل عليه والصَّبر والتَّقوى، فكان النصرُ.

فذكَّرهم بمِنَّته عليهم فيها؛ ليُخَفِّف عنهم ما وقعَ عليهم في أُحُد؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ -أيُّها المؤمنون- بصبركم وتوكُّلكم ﴿بِبَدْرٍ﴾.

و(بَـدْر): اسـم موضع بينَ مكة والمدينة، سُـمِّيت على اسم بئـرٍ فيها، تُنسَـب إلى رجلٍ حفرَها، يُقال له: «بدر بن قُرَيش»[١].

وكانـت عندَهـا الموقعـة العظيمـة، التي خرجَ فيها رسـولُ الله ﷺ، مـع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا من المسـلمين، فيهم فَرَسـانِ وسـبعون بعيرًا، وأكثرهم مُشاة، حتى لقُوا كفَّار قريش في السـابع عشر من رمضان، سنة اثنتين من الهجرة، وكان العدُوُّ بينَ التِّسْعمائة إلى الألـف، مـع عُـدَّة كاملة، مـن الحديـد والأَدْرَاع والخيل المسـوَّمة، والحُلِـيّ، والفَخْر والخُيَلاء.

لكـن الله تعـالى أعَزَّ نبيَّـه ﷺ، وأظهرَ دينَـه، وأخزى الشَّـيطانَ وجنـدَه، فنكَصَ الشَّيطانُ على عَقِبَيه، وولَّى الكفَّار مُنهَزِمين، والمسلمون يقتُلون فيهم ويَأْسِرون.

هذا مع أنَّ المسلمين كانوا ضُعَفاء أذِلَّاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: ضُعَفاء بقِلَّة الحـال والمال، والسِّـلاح والعدَد، فلم يتجاوز عدَدُ المسـلمين ثُلُث عـدَد المشركين؛ لتعلَموا أنَّ النـصر إنَّما هـو من عند الله، لا بكثرة العدَد ولا العُدَد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفِعْـل مـا أمرَكم به عنـد القتال، من: الصَّـبر، والتـوكُّل، وطاعة الأمير، والثَّبات، وعدم التولِّي، وإرادة الآخرة، لا إرادة الدُّنيا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقومون بشُكر نِعمة النصر، التي حصلَت لكم بالتَّقوى والأَخْذِ بالأسباب، ولا تُصابون بالأَشَر والبَطَر إذا انتصرتُم.

ولـذا: لـمَّا جاءَ عُمرَ بـنَ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطـابٌ من بعضِ أمرائـه في معركة اليرموك، يطلُب منه المدَدَ؛ قال: «إنَّه قد جاءَني كتابُكم تستَمِدُّوني، وإنِّي أدُلُّكم على مَن هو أعزُّ نصرًا وأحـضرُ جُندًا: الله عَزَّ وَجَلَّ، فاسـتَنْصِروه؛ فـإنَّ محمَّدًا ﷺ قد نُصِرَ يومَ بَـدْرٍ في أقلَّ من عِدَّتكم، فإذا أتاكُم كتابي هذا فقاتِلوهم، ولا تُراجِعوني». فقاتَلوهم فهزَمُوهم[٢].

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ٣٥٤)، البداية والنهاية (٣/ ٢٢٤).

(٢) رواه أحمد (٣٤٤)، وصحَّح إسنادَه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير (٢/ ١١١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَقد المقارَنات، وإجراء التعقيبات على الأحداث؛ لتربية النفوس.

وفيها: تذكير الله لعباده بمِنَّته؛ ليشكروه عليها.

وفيها: أنَّ النصرَ في بَدْرٍ نِعمةٌ على جميع الأُمَّة؛ لأنَّه كان من أسباب بقاء دِينها.

وفيها: أنَّ النصر من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد.

وفيها: أنَّ الضعيف إذا توكَّل على الله نصرَه؛ فاستعمال جمع القِلَّة في قوله: ﴿أَذِلَّةٌ﴾، يدلُّ على ما كان عليه المسلمون في بَدْرٍ من ضَعف الحال، وأنَّه كلَّما كان الإنسانُ أذلَّ لله؛ كان أقربَ إلى نَصْر الله، وإذا شعرَ أنَّه مستغنٍ عن ربِّه؛ عاقبَه وأذلَّه.

وفيها: أنَّ تقوى الله من شُكره سبحانه.

وفيها: استخراج عبوديَّة نفوس المؤمنين في السَّرَّاء والضَّرَّاء، بما يتوالى عليهم من الانتصار، والانكسار.

وفيها: أنَّ العِبرة بعِزَّة التَّقوى والإيمان، لا بقلَّة المال وذِلَّة الحال.

وفيها: تحقيق ولاية الله تعالى، والافتِقار إليه، قبل إعداد السلاح والعَدَد والعُدَّة.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى عن نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه وعدَ المؤمنين بمَدَد من الله يأتيهم، وهو ثلاثة آلاف من الملائكة، وإذا صبَروا واتقَوا وجاء الكفَّار من فَوْرِهم؛ يزيد العدد إلى خمسة آلاف؛ كَبْتًا للكفَّار وخِزيًا لهم.

وقد اختلفَ المفسِّرون في هذا الوَعد: هل كان في غزوة بَدْر أم في أُحُد؟

فقيل: كان هذا في غزوة بَدْرٍ؛ ويدلُّ على هذا أنَّ قول الله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وهي الغزوة التي قطعَ الله فيها طَرَفًا من الكفَّار، وقتلَ منهم سبعين، وأخزاهم وردَّهم خائبين.

فإن قيل: فما وَجْه الجَمْع بين قول الله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وبين هذه الآية؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى أمدَّ المؤمنين يومَ بَدْرٍ بألفٍ من الملائكة، بمقدار جيش المشركين، وكان المسلمون قد سَمِعوا أنَّ المشركين سيمُدُّون إخوانَهم بزيادةٍ عن الألف، فشقَّ عليهم؛ فوعدَهم الله تعالى -في آية «آل عمران» هذه- بالمَدَد إن فعلوا إلى ثلاثة آلاف، ثم إلى خمسة آلاف؛ بِشارةً من الله وتثبيتًا للمؤمنين.

وقوله تعالى في آية «الأنفال» ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ يدُلُّ عليه أيضًا؛ لأنَّ معناه: أنَّه يُرْدِفهم غيرَهم، ويُتبِعهم ألوفًا مثلَهم.

والقول الثاني: أنَّ هذا الوَعْدَ كان في غزوة أُحُدٍ، واحتَجُّوا على هذا بأنَّ سِياق الآياتِ في سُورَة «آل عمران» إنَّما هو عن غزوة أُحُد، وجاء ذِكرُ يوم بدرٍ عَرَضًا، ثم رجعَ السِّياق إلى غزوة أُحُد؛ فقوله تعالى ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾.

قالوا: وقد وعدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين بأنَّ الله سيُمِدُّهم بثلاثة آلاف من الملائكة -على عدد الكفَّار الذين كانوا في أُحُد- وأنَّ العدد سيزيد إلى خمسة آلاف إذا صبَروا واتقَوا؛ فهو وَعْدٌ مشروط.

فلمَّا وقعت المعصيةُ وحصلَ الفِرارُ من المسلمين، وتخلَّف الشَّرْطُ؛ لم يحصُل الإمداد، فلم يُمَدُّوا بملَكٍ واحدٍ.

قالوا: والطَّرَف الذي قُطِعَ من الكفَّار هو قتلاهُم في أُحُد، وخَيْبتُهم بعدَم قَتْلِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدَمِ استئصال المسلمين.

واحتَجُّوا على هذا القول أيضًا: بأنَّ إنزالَ الملائكة في بَدْرٍ كانَ غير مشروط -كما في آية «الأنفال»- بينما هو هنا -في سُورَة «آل عمران»- مشروط، وكان الوَعْد هناك من الله مباشرةً، وهُنا من نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين، وأنَّ المشركين في بَدْر لم يأتُوا من فَوْرِهم.

وأكثر المفسِّرين على القول الأول -أنَّ هذه الآيات نزلَت في بَدْرٍ-. وعلى هذا؛ فيكون

ابتـداءُ عَوْد السِّـياق القرآني إلى غـزوة أُحُد هو من قوله تعـالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] -كما سيأتي-.

وقولـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذۡ تَقُولُ﴾ -أيُّها النبـيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهـم: الصَّحابة ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ (الكِفايـة): سَـدُّ الخَلَّـة، والقيام بالأمـر. والاسـتِفهام للإنـكار؛ أي: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنكِر عليهم عدمَ اكتِفائهم بذلك المَدَد من الملائكة.

وقيل: الاستِفهام للتقرير بما استقرَّ في نفوسِهم واعتَقدوه، من كِفاية المَدَد بهؤلاء الملائكة.

﴿أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم﴾ ويُعينكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السـماء لنُصرتكم. والله هو المُنْزِل؛ لأنَّهم لا ينزِلون إلَّا بأمره.

﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف إثبات؛ أي: بلى، يكفيكم الإمداد بهم.

ثـم وعدَهم الله تعالى بزيـادةٍ، لكنَّها معلَّقة على شَرْط، فقـال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ مع نبيِّـكم عـلى لقـاء العدُوِّ، وتثبُتـوا، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معصية الله، بعدمِ مخالفة أمـرِ نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدمِ التولِّي يومَ الزحف.

﴿وَيَأۡتُوكُم﴾ أي: المشرِكـون ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: مـن سـاعَتهم هـذه، أو من جِهَتهم التي جاءوا منها، أو من الغَضْبة التي غَضِبوها.

﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم﴾ فـورًا وحالًا، من غير تـراخٍ ولا تأخير ﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مـدَدًا مـن عِنـده ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلَّمـين بعلامات القتـال، إمَّا في خيولهـم -في نواصيها وأعرافها، أو أذنابها- وإمَّا أن تكون العلامة للملَك نفسِـه -بصُفرةٍ في اللَّون مثلًا- وهكذا الشُّجعان يجعَلون لهم علامات في الحَرْب ليُعرَفوا بها.

وفي الآيتَين من الفوائد:

حِرصُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعزيز نفوس المؤمنين، بنقل البِشارة إليهم من الله.

وفيها: حِرْص القائد على بَعْث الأمل والتفاؤل، في نفوس جنوده.

وفيها: تذكير الخارجين إلى الجهاد في سبيل الله بوَعد الله بالنصر؛ ليزدادوا إقدامًا.

وفيها: شاهدٌ لقوله تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفيها: خطورة المعصية على الجيش.

وفيها: أنَّ تقوى الله من شروط النصر.

وفيها: أنَّ المَعونة من الله على قَدْر المَئُونة؛ لقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، فإذا زادَ الخطرُ بسُرعة قدومِ الكفَّار؛ زادَ المَدَدُ للمسلمين من الله.

وفيها: تأييد الله للمجاهِدين في سبيله بالملائكة -ولهم وظائفُ في هذا-.

وفيها: تثبيت المؤمنين، وتكثير عدَدهم، ومباشرة القتال ضد الكفَّار، وزَلْزَلة قُلُوب الكافرين، وهذا التأييد مستمرٌّ إلى قيام الساعة.

وفيها: عدم الاكتِفاء بالأسباب الظاهرة من العَدد والعُدد، وعدم اليأس بسببِ القِلَّة والذِّلة.

وفيها: أنَّ الملائكة أجسامٌ، ويُحصَوْن بالعَدَد.

وفيها: أنَّ مَوْطِن الملائكة في السماء.

وفيها: أنَّ المدَد الأعظم والمُرجِّح للنصر، قد لا يكون مرئيًّا، كما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وفيها: استِعمال الشارَة والعلامة؛ لتمييز المقاتِلين وكتائبِهم.

وفيها: أنَّ قوَّة الملائكة أكبر من قوَّة البشر.

فإن قيل: إذا كان الملَك الواحدُ كافيًا لقَلْبِ موازين المعركة؛ فلماذا أنزلَ الله ألفًا، ووعد بثلاثة آلاف وخمسة آلاف؟

فالجواب: أنَّ ذِكر العدَد الكثير أعظمُ في التأييد، وأمكنُ في التثبيت، ويكون الملائكة كالمدَد، بينما يتولَّى المجاهِدون مباشرة القتال بأنفُسهم.

وفيها: أنَّ التوكُّل على الله لا يُنافي الأَخْذَ بالأسباب. ومع أنَّ الأصل هو الاعتِماد الكامل على الله؛ إلَّا أن اتِّخاذ الأسباب يَزيد نفوسَ المؤمنين طُمأنينة، ويوافِق سُنَّة الله القدَريَّة والكونيَّة

في ارتباط النتائج بالأسباب، ولذلك فالمطلوب من العبد: اتِّخاذ ما أمكنَه من الأسباب -ولو كانت ضعيفة- والسَّبَب الضعيف يكون له نتيجةٌ وأثرٌ كبيرٌ بالتوكُّل على الله.

وفيها: أنَّ الأقوياء والضُّعَفاء مطالَبون جميعًا بالأَخْذ بالأسباب.

وفيها: أنَّ بَعْثَ المدَد شيئًا بعد شيءٍ، أبلغُ من إرساله جميعًا في وقت واحد.

وفيها: أنَّ النصر مع الصَّبر، وأنَّ مع العُسر يُسرًا، وأنّ الفَرْج بعد الشِّدَّة.

وفيها: أنَّ البِشارةَ المشروطة -بتعليقَ المدَد والنصر على شروطٍ-؛ لا تتحقَّق إلَّا بتحقيق هذه الشُّروط.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾:

ثم قال تعالى عن الحِكمة من البِشارة، وإخبار المؤمنين بها:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: الإمداد بالملائكة، والوَعْد بذلك، والإخبار من نبيِّه ﷺ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وتطييبًا لقُلُوبكم، وتطمينًا، ولتكونوا أنشطَ وأقوى في قتال العدُوِّ. و(البُشرى): هي الخبر بما يَسُرُّ.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: تثبُت وتَسْكُن، ويزول عنها الخوف.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ على الأعداء ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، لا من عند غيره ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: القويّ، الذي لا يُغلَب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذو الحِكمة والإحكام، في قدَرِه وشَرْعِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إدخال السُّرور على قُلُوب المؤمنين.

وفيها: لُطف الله بأوليائه، في تثبيت قُلُوبهم.

وفيها: أنَّ إمداد المؤمن بما يُعينه على الطاعةِ وتحقيقِ مُراد الله، هو مِن أسباب طُمأنينتِه وسُرورِه.

وفيها: أنَّ رجاء النصر مِنَ الله، لا مِن غيره.

وفيها: نَقل الأخبار السارَّة إلى المقاتِلين في سبيل الله، وعدم التشويش عليهم وتكدير خواطرهم بالأخبار المُحزِنة والمُقلِقة، وهذا من التعبئة النفسيَّة للمُجاهِدين في سبيل الله.

وفيها: أنَّ الله لا ينصُر إلَّا مَن اقتضَت حِكمتُه نصرَه.

وفيها: أنَّ القوَّة بلا حِكمة قد تكون طَيشًا وسَفَهًا، والحِكمة بلا قوَّة ضَعفٌ ونقصٌ، والسَّفيه الضعيف أسوأ المراتب. وأمَّا أفعال الله تعالى: فهي مبنيَّة على حِكْمته وقوَّته.

وفيها: أنَّ تخلُّف النصر عن المسلمين -أحيانًا- فيه حِكمةٌ بالغةٌ؛ كالتمحيص، والابتلاء، واتِّخاذ الشُّهَداء.

وفيها: عدم الاعتِماد على الأسباب مع اتِّخاذها، وجَعْل التوكُّل والتفويض الكُلِّي والاعتِماد التامّ: على الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

وفيها: عدم اليأس من النصر، ولو فُقِدت أسبابُه الدُّنيويَّة.

وفيها: أنَّ المؤمنين لا يعتَمِدون في النصر على المَدَد -ولو كان نزولَ الملائكة-؛ وإنَّما يعتَمِدون على الله عَزَّوَجَلَّ، القادِر على نصرِهم بأمرِه، وقد قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وفيها: مجاهَدة النفوس لتجريد التوحيد؛ فإنَّ أكثر الناس كلَّما اشتدَّ اتِّخاذُهم للأسباب، وإعدادُهم وإحكامُهم لها؛ ازدادوا اعتِمادًا عليها.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى المقصودَ والعِلَّة من فَرْضِ الجهادِ، والإمدادِ بالملائكة، وإنزالِ النصر؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (الطَّرَف): هو منتهى الشيء، من أسفله أو من أعلاه. والمراد هنا: المحارِبون من الكفَّار، أو: طرَف المشركين القريب من المسلمين، أو: هم الذين يبدأ الجهادُ والقتالُ معهم.

والمعنى: إنَّما أمَركم اللهُ بالجهاد ومقاتَلَة الأعداء؛ ليُهلِك طائفةً من الكفَّار.

فـإنْ كانت الآية في غزوة بَـدْر؛ فالأمر واضحٌ بما حصل من قَتْل صناديدهم. وإن كانت الآية في غزوة أُحُد؛ فالمقصود: الثمانية عشر من الكفَّار الذين قُتلوا يومَها.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يُخـزي، ويُحـزِن، ويَغيـظ هـؤلاء الكَفَـرة؛ ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ أي: يَرْجِعـوا إلى بلادهـم ﴿خَآئِبِينَ﴾: لم ينالـوا خـيرًا، كـما حصلَ يوم بَـدْرٍ مِن عودتهم فارِّيـن منهَزِمين، وكـما حصلَ يـوم أُحُد مِن عودتهم دونَ حصولِ مقصودِهم الـذي خرَجوا من أجلِه -وهو استئصال المسـلمين والقضاء التامّ عليهم- وكما حصلَ يوم الخَنْدَق من رجوعِهم دونَ أن ينالوا شيئًا من مقصودِهم، ودون أن يتحقَّق شيءٌ ممَّا أمَّلُوه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أحـكام الله وتشريعاتـه إنَّما فرضَها لحِكَم عظيمة، ومن أسـمائه سـبحانه: (الحكيم)، ومن صِفاتـه: (الحكمة)، و(اللَّام) في قوله ﴿لِيَقْطَعَ﴾ للتعليل، والتعليل: هو بيان الحِكْمة من الشيء.

وفيهـا: أنَّ القضـاءَ بالهلاك لن يكـون على جميع الكفَّار، ولكن على طَـرَفٍ منهم، ويُبقي الله منهـم مَن يُبقـي لإبقاء سُـنَّة التدافُعِ بينَ الإيـمان والكُفر، والصراعِ بينَ الحـقِّ والباطل. وفي ذلك حِكَم عظيمة؛ منها: تبيينُ أهل الإيمان، وكَشْـفُ أهل النِّفاق، والتمحيصُ، واتِّخاذُ الشُّهَداء، وغير ذلك.

وفيها: أنَّ الله ينتَقِم من أعدائه: إمَّا بإهلاكهم، أو إذلالهم وخِذلانهم.

وفيها: أنَّ إهلاكَ أعداء الله وكَبْتَهم، هو عادةٌ لربِّ العالمين معهم؛ كما يدلُّ عليه استعمال الفِعْل المضارع (يَقْطَع) و(يـكْبِت).

وفيها: البَدْء بقتال الذين يَلُون المسـلمين من الكفَّار قبل غيرهم؛ لأنَّهم الأخطرُ والعدُوُّ الأقـرب، ولأنَّ المسـلمين مُطالَبون بفَتْح بلاد الكفَّـار بلدًا بلدًا، مبتَدِئـين بأقربِها إليهم، ثمَّ تتوسَّع الفتوحات.

وفيها: شِـدَّة وَقع الخَيبة على نفوس الكفَّـار؛ لأنَّ الخَيبة لا تكون إلَّا بعد أملٍ، فتذهَب آمالُهم، وتخيب مساعيهم.

وفيها: أنَّ الحزن الشديدَ يُصيب الكَبِدَ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، وأصلُه -عند كثيرٍ من أهل العلم-: «يَكْبِدَهم»، أي: يُصيبهم بالحُزن والغَيظ في أكبادِهم، فأُبْدِلَت (الدال) تاءً[١].

وفيها: أنَّ الله تعالى يقضي على الكفَّار بتجرُّع الآلام النفسيَّة، كما يصيبُهم بالآلام الجسديَّة أيضًا.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾:

وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[٢] يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٣].

وقد ورد سببٌ آخر في نزول هذه الآية: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ من الرُّكُوعِ مِن الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ من الفَجْرِ يَقُولُ: «اللهُمَّ العَنْ فُلانًا وَفُلانًا وَفُلانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[٤].

وقد جاء في بعض الرِّوايات ذكرُ أسماء مَن وردَ لعنُهم، وقد أسلَموا يومَ الفَتْح؛ فقد كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهُمَّ العَنْ أَبَا سُفْيَانَ، اللهُمَّ العَنِ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللهُمَّ العَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ»... فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِم، فأَسْلَمُوا، فَحَسُنَ إسلامُهم.

وفي رواية: «فتيبَ علَيْهِم كُلِّهم»[٥].

ولعلَّ هذا هو السَّبَب في مُعاتبة الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، يعني: إنَّ أمرَ هؤلاء كلَّه بيدِ الله وحدَه.

---

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن للقيسي (١/ ١٧٤)، تفسير البغوي (٢/ ١٠١)، تفسير القرطبي (٤/ ١٩٨).

(٢) وهي: السِّنّ التي تلي الثنيَّة من كل جانب، وللإنسان أربع رباعيَات.

(٣) رواه مسلم (١٧٩١).

(٤) رواه البخاري (٤٠٦٩).

(٥) رواه الترمذي (٣٠٠٤)، وأحمد (٥٦٧٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

ويمكن الجَمْع بين روايات سبَب النزول: بأنَّ النبي ﷺ لـمَّا أُوذيَ في أُحُد، دعا عليهم في صلاته؛ فنزلَت الآية في الأمرَين معًا.

وقوله تعالى ﴿لَيۡسَ لَكَ﴾ -أيُّها النبيُّ ﷺ- ﴿مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ أي: من حُكمِ هؤلاء في الدُّنيا والآخرة، وحسابِهم وتدبيرِ أمرِهم، وليس لك أن تدعوَ عليهم بالهلاك؛ فرُبَّما يهديهم الله، ويتجاوَز عنهم.

فلذلك قال: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بإسلامهم بعد الكُفر.

﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ إذا أصرُّوا على الكُفر؛ ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: من أجل بَغيهم وعُدوانهم سيَحيق بهم العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مصيرَ الأشخاص بيَد الله وحدَه، وليس لأحدٍ من الناس -كائنًا مَن كان- الحُكم في ذلك.

وفيها: أنَّ النبي ﷺ لا يملِك شيئًا من الأمر الكونيِّ، ومن ذلك: هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أنَّ الله قد يتوب على أعتَى الناس وأشدِّهم كُفرًا، ويهديه.

وفيها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعذِّب إلَّا بذنب.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية البلاغ والدَّعوة، وأمَّا تدبير أمور العِباد وحسابهم: فعَلَى الله تعالى، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفيها: عدَم لَعن الكافر الحيِّ المُعيَّن؛ لأنَّه قد يُسْلِم، ولا ندري بِمَ يُختَم له. لكن يجوز لَعْنُ جِنس أصحاب الكُفر والمعصية، فنقول: «لعنة الله على الكافرين»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ المُصِرَّ على الكُفر ظالمٌ لنفسه، مستَحِقٌّ للعذاب.

وفيها: أنَّ العبد قد يختار شيئًا، والمصلحة في غيره.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلَم الغَيب.

وفيها: أنَّ على صاحب الدَّعوة المستَجابة أن يجعل دعاءَه فيما ينفع الخَلْق، كالدُّعاء بهدايتهم.

وفيها: عدم استِبعاد هداية صناديد الكُفر.

وفيها: أنَّه مهما اشتدَّ أذى الكفَّار؛ فإنَّ المسلم لا يدعو على أعيانهم باللَّعْن، ولا يقطع بعدَم فلاحهم؛ فقد يُسلِمون ويهتَدون، ولكن له أن يدعوَ الله بأن يكُفَّ شرَّهم وبأسَهم، وأن يَرُدَّ كيدَهم في نَحْرهم.

وفي الآية: سَعَة رحمة الله، وأنَّها يمكِن أن تُدرِك صناديد الكُفر، فيدخلون في دين الإسلام، ويتوب اللهُ عليهم من أذيَّتِهم لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَتْلِهم المؤمنين.

وفيها: أنَّ هدايةَ الله لهؤلاء وتوبتهم إليه، هو فَضْلٌ خالصٌ منه تعالى، ومِنَّةٌ وكرمٌ، ولذلك أسندَ الفِعْل إليه فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُسْنِده إليهم بقوله: «يتوبوا».

وأيضًا: فيمكن أن يعذِّب هؤلاء الكافرين عذابًا مباشرًا من عنده، لا بأيدي المؤمنين، كما قال: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، بخلاف ما جاء في آيةٍ أخرى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يقع منه ما هو خلاف الأولى والأفضَل، ولكن الله -مِن محبَّته له- يُرْشِده إلى الأفضل والأكمل؛ ليصيرَ دائمًا في الكمال اللَّائِق به، ولبيانِ بشريَّته، وليكون قُدوةً لمن بعده. وفي هذا: ردٌّ على الغُلاة، الذين يرفَعون الأنبياء والأولياء فوق منزلتهم التي أنزلَهم الله إيَّاها.

وفيها: ردٌّ على كلِّ مَن أعطى أحدًا من البشر الحقَّ في التشريع في الدِّين -بالنقص، أو الإضافة، أو النَّسخ، أو التغيير- كما فعل الغُلاة بالأئمة الاثني عشَر، وغيرهم.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يَعْلَم أنَّه يدعو إلى الله، لا إلى نفسه؛ فمهما اشتدَّت عداوةُ المدعُوِّين وإيذاؤهم له؛ فلا ينبغي أن يدعوَ عليهم بالهلاك والاستِئصال واللَّعن؛ فقد يهديهم الله.

ولا يدعو على أعيانهم باللَّعْن، ويقطَع بعدم فلاحهم، ولو كانوا كُفَّارًا؛ فقد يأذَن الله بإسلامهم، أو يُخرِج من أصلابهم مَن يعبُده لا يُشرِك به شيئًا؛ فليدعُ لهم بالهداية والصلاح، وله أن يدعوَ على مَن آذى المسلمين منهم، بأن يكُفَّ الله شرَّه وبأسَه، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ مستَحِقٍّ للعقوبة يُعاقَب فورًا، وقد يكون في تأخيرها أو عدم إيقاعها صلاحٌ له، ورجوعٌ عن الباطل.

وفيها: أنَّ النِّعمة قد تحصُل للعبد من غير سبَب منه؛ رحمةً من الله، لكن العذابَ لا يحصُل إلَّا بظلمٍ من العبد.

وفيها: أنَّ ولاية الله للعبد، لا تمنَع حصولَ الأذى له.

وفيها: أنَّ قَبول توبة التائب خاصٌّ بالله تعالى وحدَه، وليس لأحدٍ من البشر قَبولُ ذلك أو ردُّه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾:

ثم أكَّد الله تعالى أنَّ بيدِه الأمرَ كلَّه، وأنَّ جميع ما في السماوات وما في الأرض هو تحتَ حُكمه وتصرُّفه، ليس لأحدٍ نصيبٌ في ذلك؛ فقال:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) هنا للاستِحقاق والمُلك والاختِصاص ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الأملاك، والجنِّ والإنس، والجمادات، وجميع المخلوقات، يتصرَّف فيها كما يشاء، ويقضي في خَلْقه بما يشاء.

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بفَضْله ورحمته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعَدْله وحِكمته.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٞ﴾ يَعْفو ويَصْفَح سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يتصرَّف في خَلْقه كيف يشاء، ولا مُعَقِّب لحُكمه.

وفيها: أنَّ مغفرة الذُّنوب حقٌّ لله تعالى، لا يُشارِكه فيه غيرُه.

وفيها: إثبات تعدُّد السَّماوات.

وفيها: إثباتُ تمامِ سُلطانِ الله تعالى في مُلكه، وأنَّ له الأمر في التعذيب والمغفرة، وهذا مقرون بالحِكمة.

وفي تقديم ذِكر (المغفرة) على (العذاب) في الآية: دليلٌ على أنَّ رحمته تسبِق غضَبه.

وفيها: أنَّ مغفرة الله على سبيل التفضُّل، لا على سبيل الوجوب، ولا يجب على الله إلَّا ما أوجبَه سبحانه على نفسه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾:

ثم نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن أَكْلِ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، كما كانت عادةُ المشرِكين في هذا الوقت.

وقد اختلف المفسِّرون في مُناسبة ذِكر تحريم الرِّبا، في سياق آيات غزوة أُحُدٍ، أو بَدْر.

فقيل: لا يلزَم وجود مُناسَبة؛ وإنَّما هو انتِقال من موضوع لآخر، ثم رجوع له، بحَسَب نزول الآيات، ثم كتابتها في المصحَف.

وقيل: لـمَّا كان سياق الآيات السابقة هو في الجهاد ومحاربَة الكفَّار؛ نهى الله تعالى عن الرِّبا، الذي فيه مُحارَبة الله ورسوله لَمن أصرَّ عليه.

وقيل: لـمَّا كان الجهاد يحتاج إلى نفقات، وكان المشرِكون قد أنفَقوا على جيوشهم أموالًا جمَعوها من الرِّبا؛ نهى الله تعالى المؤمنين عن اتِّباع سبيلهم -وسبيل اليهود- ولو في تجهيز الجيش للجهاد.

وقيل: لـمَّا أرشدَ الله تعالى المؤمنين إلى الأصلح في أمر الدِّين والجهاد؛ أتْبعَ ذلك بشيءٍ من الأمر والنهي والتكاليف الشرعيَّة؛ فنهى عبادَه عن الرِّبا.

وقيل: لـمَّا كرَّر الله تعالى الأمرَ بالتَّقوى -فيما سبق- وبيَّن أثرَ التَّقوى في حصول النصر في الجهاد؛ نهى عن بعضِ ما يُخالِف التَّقوى من الذُّنوب التي هي سبَبٌ للهزيمة في المعركة، ومن أعظمها: الرِّبا.

وقيل: إنَّه لـمَّا أمرَ عبادَه بالجهاد، الذي فيه إنفاقُ المال في سبيله؛ نهاهم عن الرِّبا، الذي فيه أكلُ المال بالباطل.

وقيل غير ذلك.

ومن لطائف ما يُذكَر هنا: ما رواه أبو هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ عَمْرَو بْنَ أُقَيْشٍ، كَانَ لَهُ رِبًا فِي الجَاهِلِيَّـةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُسْـلِمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ، فَجَـاءَ يَوْمُ أُحُدٍ، فَقَالَ: أَيْنَ بَنُـو عَمِّي؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَـالَ: أَيْنَ فُـلَانٌ؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَالَ: فَأَيْنَ فُـلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، وَرَكِبَ فَرَسَـهُ، ثُـمَّ تَوَجَّـهَ قِبَلَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ المُسْـلِمُونَ، قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو! قَـالَ: إِنِّي قَدْ آمَنْتُ، فَقَاتَلَ حَتَّى جُرِحَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ لِأُخْتِهِ: سَلِيهِ: حَمِيَّةً لِقَوْمِكَ، أَوْ غَضَبًـا لَهُمْ، أَمْ غَضَبًا لله؟ فَقَالَ: بَلْ غَضَبًا لله وَلِرَسُـولِهِ، فَـمَاتَ فَدَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَا صَلَّى لله صَلَاةً»[١].

وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: النِّداء لإيقاظ المخاطَب وتنبيهِه. وتوجيه النِّداء إلى المؤمنين فيه إغراءٌ وحثٌّ لهم، على الالتزام بما سيأتي من الأحكام.

﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ (الرِّبا) في اللُّغة: الزِّيادة، وشرعًا: هو ربا نسيئة وربا فَضْل، وربا النَّسيئة: الزِّيادة في الدَّيْن نظير الأَجَل أو الزِّيادة فيه، بأن يُقرِضه إلى أَجَل، فإذا جاء الأَجَل يقول له: «إمَّا أن تقضيَ ما عليك، أو أؤجِّلك وأزيد عليك».

وربـا الفَضْل: هو التفاضُـل في الجِنس الواحد من الأصناف الرِّبويَّة -الذَّهَب بالذَّهَب، والفِضَّة بالفِضَّة، وغيرها- كبَيْع دِرْهَم بدِرْهَمَين، أو صاع قَمْحٍ بصاعَين.

فإنْ كان بغير تقابُض فهو ربا نسيئة -وإن كان متماثِلًا في الوَزْن والكيل-.

وقد يجتمع نوعا الرِّبا في بعض العقود.

﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ أي: زيـادات مكرَّرة، بسبَبِ تأجيل القضاء، مُـدَّة بعد مُدَّة، كلَّما زاد في الأجل زادَه في النقد.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٣٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).

وليس قوله تعالى ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ قَيْدًا في التحريم؛ بل كلُّ زيادة على القَرْض فهي ربًـا -قلَّت أو كثُرَت- وإنَّـما خرج الكلامُ هنا مخرجَ الغالِب، وما كان يجري عليه عملُ أهل الجاهليَّة، من استِمرار المضاعفات كلَّما طالت المُدَّة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتِناب الرِّبا، وغيره من أسباب عذاب الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتظفَرون بثواب الله، وتنجون من عقابه. و(الفلاح): كلمة جامعة لحصول المطلوب، وزوال المكروه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه كلَّما قويَ الإيمان؛ كان أعونَ لصاحبه على تَرْك ما حرَّم الله.

وفيها: أنَّ أَكْلَ الرِّبا يضادُّ الإيمان ويُنقِصه، وقد دلَّت النصوص على تحريمِه.

وفيها: أنَّ الرِّبا من الكبائر؛ لأنَّ الله توعَّد عليه بالنَّار.

وفيها: أنَّ أَكَلَة الرِّبا متوعَّدون بالنَّار.

وفيها: أنَّ الكلامَ إذا خرجَ مخرجَ الواقِع والغالِب؛ فالقَيدُ لا مفهوم له.

وفيها: تخويف المُرابين بعذاب الله.

وفيها: أنَّ تَرْك الحرام من أسباب الفلاح.

وفيها: شناعة الإضرار بالغير، وأكل المال بالباطِل دون تَعَب.

وفيها: أنَّ الرِّبا كلَّما زادَ؛ كان أفحَش، وما يُسَـمَّى بـ«الفوائد المركَّبة» أشدُّ فُحْشًا وسوءًا من النسبة القليلة الثابتة، وكلاهما حرام.

وفيهـا: التدرُّج في التشريع؛ فقد جاءت الإشـارةُ -قبل نـزول هذه الآية- إلى أنَّ الرِّبا لا ينفع عند الله، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩].

ثـم نزل النهيُ عـن أكل الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة -بهذه الآية- ثم نـزلَ تحريمُ الرِّبا بالكليَّة -مهما كان مقـدارُه- في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وفيها: أنَّ الانتِفاع بالرِّبا حرامٌ، سواءً كان أكلًا، أو لُبسًا، أو مسكنًا، أو مركبًا، أو غيرَ ذلك، لكن في الآية عبَّر بـ (الأكل)؛ لأنَّه أشدُّ أنواع الانتِفاع وأسوؤها، والجسَد إذا نبتَ منه؛ فالنَّار أولى به.

وفيها: أنَّ المعصية التي يتعدَّى ضررُها، أشدُّ -غالبًا- من المعصية التي يقتصِر ضررُها على مُرتكِبها، وهذا الرِّبا -خاصَّة في الفوائد المركَّبة والأضعاف المضاعفة- يتعذَّر سدادُه في النهاية، ويصل ضررُه إلى الأفراد والمؤسَّسات والدوُل، فتصبِح مَدينة للأطراف المُرابية الجَشِعَة.

وفيها: بَذل المال في سبيل الله، والإحسان إلى عباد الله دون مُراباة.

وفيها: أنَّ الفلاح يتوقَّف على التَّقوى.

وفيها: أنَّ الرِّبا محرَّم بجميع أنواعه، وقد يجتمع نوعا ربا الفَضْل والنسيئة في عَقد واحد، مثل: بيع الشيك المؤجَّل بأقلَّ من القيمة المدوَّنة فيه.

وفيها: أنَّ مَن استحلَّ الرِّبا يكفُر، ويكون مصيره التخليد في النَّار التي أُعِدَّت للكافرين.

وأمَّا آكِل الرِّبا غيرُ المستَحِلِّ: فإنَّه مستَحِقٌّ للنار، وإذا ماتَ على التوحيد؛ فهو في مشيئة الله: إن شاء الله عذَّبه بمقدار ذَنبه، ثم يكون مصيرُه الجنَّة، وإن شاء غفرَ له. وعذابه -على كلِّ حال- يختَلِف عن عذاب المستَحِلّ؛ فالنَّار -وإن كانت واحدة- لكنَّ العذاب يُخَفَّف ويُثقَّل، وينقَطِع ويستمرُّ، بحَسَب عملِ مَن دخلَ النَّار.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بتقواه -التي معناها: فِعْل الأوامر تعبُّدًا لله، وتَرْك النواهي تذلُّلًا له، وخوفًا منه-؛ أمرَ عَزَّوَجَلَّ بتقوى داخلةٍ في التَّقوى الأولى، ومؤكِّدة لها؛ وهي: اتقاء النَّار -التي هي عذاب الله الأكبر-؛ فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي: اتَّخِذوا ما يَقيكم منها. والفَرْق بينَ هذه التَّقوى وتقوى الله: أنَّ تقوى الله فيها تذلُّلٌ وتعبُّدٌ، بخلاف تقوى النَّار.

وهـذه النَّار هي ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾ وهيِّئـت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجاحِدين المكذِّبين. فاتقُوها بتَرْك مُتابَعتِهم، والابتعادِ عن أفعالهم.

قـال الإمـام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه أخـوَف آيةٍ في القرآن؛ لأنَّ الله أوعـدَ المؤمنين بالنَّار المعدَّة للكافرين، إن لم يتَّقوه في اجتِناب محارمه»[١].

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى التخويفَ؛ أتْبعَه بفَتْحِ باب الرَّجاء، وذكرِ سبيل الرحمة؛ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: امتَثِلـوا أمرَه، واترُكـوا ما نهى عنه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ طاعتـه داخلـةٌ في طاعة الله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (لعلَّ) هنـا: وَعْدٌ من الله واجبٌ؛ أي: إذا حصلَـت التَّقـوى منكم؛ فلا بُـدَّ أن تحصُل لكم الرحمـة؛ لأنَّ الله تعالى وعدَ بذلك، وهو لا يُخلِف الميعاد.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ مَن تركَ مأمورًا به أو فعل منهيًّا عنه؛ فليس بطائعٍ لله ولا رسوله.

وفيها: أنَّ الانقياد من علامات الإيمان.

وفيهـا: أنَّ النَّـار مخلوقة وموجـودة الآن؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾، والـذي أعدَّها هو الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا فيه: ردٌّ على الجهميَّة الذين يقولون: إن النَّار لم تُخلَق بعد، وأهل السُّـنَّة يقولون: قد خُلِقَت قبل خَلْق العِباد.

وفي إخبارنا بأنَّ النَّار مخلوقة: زيادةُ تخويفٍ؛ ليتَّقيَها العِباد.

وفيها: جواز اقتِران اسم الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسـم الله تعالى، في الأمر المشـترَك -وهو الأمر الشرعيّ- ويجوز العطف بـ (الواو) في هذه الحالة، فتقول مثلًا: «الله ورسوله أعلم».

وأمَّا في الأمور الكونيَّة القدَريَّة، المتعلِّقة بمشـيئة الله تعالى؛ فلا يجوز العطف بـ (الواو)؛ فالأمر لله وحدَه. فإذا سـأل شـخصٌ عن مكان إنسـان، أو عن أمرٍ غيبيٍّ: متى يحدث كذا؟ فلا يجوز أن نقول: «الله ورسوله أعلم»؛ لأنَّ هذا في باب القَدَر والمشيئة، ولا يمكن أن يُجعَل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشارِكًا لله في ذلك، خاصَّة بعد وفاته.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٣/ ٥٨).

ولـذا: لـمَّا قال رجـل للنبيِّ ﷺ: مَا شَـاءَ الله وَشِـئْتَ! قَالَ لَـهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا -وفي رواية: ندًّا-؟ بَلْ: مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»[١].

وفيها: أنَّ طاعة الله ورسوله سبَبٌ للرحمة، والمقصود بها: الرحمة الخاصَّة، التي بها سعادة الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ الرحمة العامَّة تشمل الجميع.

وفي هاتين الآيتين: ردٌّ على طوائف من أهل البِدَع، كالمرجئة الذين يقولون: «لا يضرُّ مع الإيمان ذنب»، والمعتزلة الذين يقولون: «لم تخلَق النَّار بعد»، والممتَنِعين عن الأَخْذ بالسُّنَّة الذين يقولون: «لا نأخذ إلَّا بما في القرآن، ولا يعنينا الحديث».

وفيها: رَدٌّ على الملاحِدة، الذين يقولون بعدَم وجود النَّار أصلًا!

وفيها: تهديدٌ للمُرابين وتخويفٌ؛ لضبط شَهْوة المال.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه أعـدَّ النَّار للكافرين؛ ذكرَ أنَّه أعدَّ الجنَّة للمتَّقين، وذكرَ شـيئًا من أوصافِهـم؛ فقـال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: وهو معطوف على قوله ﴿وَأَطِيعُواْ﴾. أي: سـابِقوا وبادِروا. و(المسارَعة) مُفاعلَة، تقتضي اشتراكًا بين اثنين فأكثر، بخلاف «أسرِعوا».

﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ (المغفرة): سَـتْر الذنب، ومَحْو آثاره؛ بالتجـاوُز عنه وعدم العقوبة عليه. وتنكـير كلمة ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾؛ لبيان أنَّها عظيمـة. فندَبَهم إلى المبادرة إلى الأعمال التي تحصُل بها المغفرة.

فقيل في هذه الأعمال: الإسلام؛ لأنَّه يمحو ما قبلَه. وقيل: التوبة؛ لأنَّها تُوجِب المغفرة.

وقيـل: تكبيرة الإحرام، وقيل: الإخلاص في الأعـمال. وقيل: الهجرة أو الجهاد. وقيل: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وقيل غير ذلك.

والمقصود بالآية: عموم الطاعات والأعمال الصالحة، التي تشمل هذا كلَّه وغيرَه[٢].

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٣).

فالمسارَعة إلى مَغفرة الله وجنَّته تكون بالسَّعي إلى أسباب المغفرة؛ من: التوبة النَّصوح، والاستِغفار النافع، والبُعد عن الذُّنوب ومظانِّها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحِرص على ما يُرضي الله على الدوام، من: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخَلْق بجميع وجوه النَّفع.

ولهذا ذكرَ الله تعالى الأعمالَ الموجبة لذلك في آيةٍ أخرى؛ فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، والإيمان بالله ورُسُله يدخُل فيه أصول الدِّين وفروعه.

وقوله ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ لا من غيره، وهذا يبيِّن شرَف المغفرة، وأنَّها صادرةٌ من الله تعالى مباشرة.

﴿وَجَنَّةٍ﴾: ذكَر إيصالَ الثواب بعد إزالة العقاب. و(الجنَّة): هي البُستان كثير الشجر، والمقصود: جنَّة الآخرة، وهي الدَّار التي أعدَّها الله لأوليائه وعباده المؤمنين.

﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وهو كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]؛ فليس المعنى أنَّ الجنَّة تحوي السماء والأرض؛ بل هي كعَرْضِهما، وإن كانت في محلٍّ آخر: فوقَ السماوات والأرض.

والمقصود: بيان عِظَم سَعَتها، وقد ذكرَ العَرْضَ على المُبالَغَة؛ لأنَّ طولَ كلِّ شيء -في الأغلَب- أكثر من عَرْضه، وكأنَّه يقول: هذه صِفة عرضِها، فكيف طولُها؟ فلو جُعِلَت السموات والأرض بعضُها إلى بعض، كما تُبسَط الثِّياب ويُوصَل بعضها ببعض؛ لكانت مثلَ عَرْض الجنَّة؛ فكيف بطولها؟!

ولذلك لـمَّا أثار بعضُ أهل الكتاب شُبهةً حول هذا الآية، فسألوا: إن كان عَرْضُ الجنَّة هو السماوات والأرض؛ فأين النَّار؟ كان الجواب: «سبحان الله! فأين اللَّيل إذا جاء النهار؟!» وقد رُوي هذا مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(١) رواه أحمد (١٥٦٥٥)، وضعفه محققو المسند. وروى ابن حبان (١٠٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ قد كان، ثُمَّ لَيْسَ شَيْءٌ، أَيْنَ جُعِلَ؟» قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٩٢) على شرط مسلم.

وجاء موقوفًا عن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ ناسًا من اليهود سألوه عن ذلك؛ فأجاب بهذا[١].

والمعنى: أنَّه لا يلزَم من عدَم مُشاهدتنا اللَّيل أثناء النهار، ألَّا يكون للَّيل مكان. وإذا كانت الجنَّة في أعلى علِّيِّين؛ فإنَّ النَّار في أسفَل سافِلين.

ثم قال تعالى عن الجنَّة: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: هُيِّئت، وهذا معناه أنَّها مخلوقةٌ موجودةٌ الآن.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يتَّقون عذاب الله، بامتِثال المأمورات واجتِناب المنهيَّات.

والنِّداء في الآية يشمل جميعَ المؤمنين؛ لتنهضَ هِمَمُهم، ويتسابقوا في الخيرات التي تحصُل بها المغفرة.

وتشمل الآيةُ العُصاةَ أيضًا؛ فيكون المعنى: سارِعوا إلى توبةٍ، تحصُل بها مغفرة الذُّنوب والخطايا.

ويدخل في الأمر أيضًا: الكفَّار؛ فيكون المعنى: وسارِعوا إلى الدُّخول في الإسلام، الذي يمحو ما سبَق، وتُغفَر بدخوله الذُّنوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة التنافُس بينَ المؤمنين في عمل الخيرات؛ وفي هذا استفراغٌ لقواهم وهِمَمهم؛ للازدياد من الطاعات.

وفيها: ترغيبٌ للعباد في السَّعْي إلى الجنة، بذِكر وَصْفِها وطولها واتِّساعها؛ فإنَّ النفوس إذا عرَفت الوَصف الجميل للجائزة تاقتْ واشتاقتْ؛ فعَمِلَت.

وفيها: أنَّ مَن نافسك في الآخرة فنافِسْه، فإذا بكَّر إلى الصَّلاة: بكِّر قبلَه، وإذا أطعمَ مسكينًا: أطعِم اثنَين، وإذا حفظ سُورَة: فاحفَظ أكثر. أمَّا مَن نافسَك في الدُّنيا: فألقِها في وَجْهه؛ لأنَّ مجال التنافُس في الآية هو في أعمال الآخرة، المؤديَة للمغفرة.

وفيها: الحثُّ على الاستِغفار؛ لأنَّه مِن أولى ما تحصُل به المغفرة.

وفيها: شَرَفٌ عظيمٌ للمؤمنين؛ بحصول المغفرة من ربِّهم. وبيان مصدر المغفرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يحثُّ على المزيد من العمل، ويقوِّي التوحيد.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦/ ٣٩١).

وفيها: ازدياد محبَّة الله في نفس المؤمن، وهو يُوقِن أنَّ المغفرة من ربِّه، وأنَّه يحقِّق له ما هو محبوبٌ ومرغوبٌ ومطلوبٌ.

وفيها: المبادَرة إلى الأعمال قبل الموت، وقبل نزول المانع، كما قال الشاعر:

لَيْسَ في كلِّ ساعَةٍ وأوانِ تتهيأ صَنائِعُ الإِحْسانِ

فإذا أمكَنَتْ فبادِر إلَيْها حَذَرًا مِن تَعَذُّرِ الإمكانِ[1]

وفيها: مخالَطة الأخيار، ومصاحَبة الصالحين؛ ليتمكَّن من مُنافَستهم.

وفيها: أنَّ السعادة لا تتِمُّ إلَّا بأمرَين: زوال المكروه -وهو هنا بالمغفرة- وحصول المطلوب -وهو جنَّة الخُلد-.

وفي الآية: بيانُ سَعَة الجنَّة. وقد فَهِمَ بعضُ العلماء أنَّ طولها أكثرُ من عَرْضها. وقال آخرون: بل عَرْضها وطولها واحد؛ لأنَّها مستَديرة، والفِرْدَوس أوسَط الجنَّة وأعلى الجنَّة، وفوقَه عَرْشُ الرحمن عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: كَرْم الله تعالى، الذي أعطى عبادَه هذه الجنَّة العظيمة -على سَعَتها- بأعمالٍ لا تُكافِئها، ولا توفِّي ثمنَها.

وفيها: ذِكر السَّبَب الموصِل إلى الشيء، قبل ذِكر الشيء نفسِه؛ لأنَّه ذكرَ (المغفرة) قبل (الجنَّة).

وفيها: أنَّ سَعَة الدار من أسباب السعادة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّ الجنَّة أُعِدَّت للمتَّقين؛ شرع في تفصيلِ حالهم، وبعضِ أوصافِهم؛ فقال:

---

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر (ص٧٥).

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ أموالهـم في وجـوه البرِّ والخير. وفي ذكر (الإنفاق) هنا بعد ما تقدَّم من تحريم أكل الرِّبا: إشارةٌ إلى أنَّه يجب إعانة المحتاج، لا استغلال حاجته. و(الإنفاق) هنا ضِدُّ الرِّبـا، فلـمَّا ذمَّ آكِل الرِّبا؛ مدحَ المنفِق والمتصدِّق، وشـتَّانَ بينَ المعطِـي في الخير، والآخِذ من الحرام والشرِّ.

﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾: السَّعة والرَّخاء، والصِّحَّة والمنْشَط.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الفقر والضِّيق، والحُزن، والشِدَّة، والمرض، ونحوه.

ولـمَّا مـدحَ الله تعـالى هـؤلاء المتَّقـين، بتطهـير باطنهم من الشُّـحِّ -وهو مـن الأخلاق الذميمة-؛ ذكرَ مِن أخلاقهم الحسَنة: كَظْمَ الغَيظ؛ فقال:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾ (الكَظْم): هو المنع والكفُّ، وحَبْس الشيء عند امتلائه. ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ وهو: أشدُّ الغَضَب. فيرُدُّ هؤلاء المتَّقون غيظَهم في أجوافِهم، ولا يُظْهِرونه بقول ولا فِعْل؛ بل يصبِرون، ويكتُمون ويكفُّون شرَّهم، ويحتَسِبونَ الأجر في كلِّ هذا.

وقد وردَ في فَضْل كَظْم الغَيظ عن النبيِّ ﷺ أحاديثُ كثيرة؛ فمنها:

قوله ﷺ: «مَـنْ كَظَـمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَـلَى أَنْ يُنْفِذَهُ؛ دَعَـاهُ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ الله من الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ»(١).

وحديث: «مَا من جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ الله، من جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله»(٢).

وقـد حـثَّ النبيُّ ﷺ عـلى عدم الغضَـب؛ فقال: «لَيْـسَ الشَّـدِيدُ بِالصُّرَعَـةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»(٣).

وفي وصيَّتـه ﷺ للرجُـل الذي قال له: أَوْصِنِي، قَالَ: «لاَ تَغْضَـبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لاَ تَغْضَبْ»(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٤١٤٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٥٢) لغيره.

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) رواه البخاري (٦١١٦).

وورد أيضًا توجيهُ مَن غَضِبَ إلى أنَّ يكون في أسكَن حال؛ فقال ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»[١].

قولـه تعالى ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يُسامحونهم، ويَعفون عمَّن ظلمَهم، ولا يبقى في نفوسهم شيءٌ عليهم. و(العَفْو): هو تَرْك المُؤاخَذة على الإساءة. وأعلاه: ما يكون مع القُدرة على الانتِقام.

ثم هم لا يكتَفون بذلك؛ بل يُحسِنون إلى مَن أساء إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: إلى الناس عُمومًا، فيتفضَّلون على الخَلْق مُخلِصين لله.

وقد رُوي أنَّ جاريةً لعليِّ بن الحُسَين رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلَت تسكُب عليه الماء، ليتهيَّأ للصلاة، فسقطَ الإبريقُ من يدِها، فشجَّه، فرفعَ عليٌّ رأسَه إليها، فقالت: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾؛ فقال لها: قد كظمتُ غَيظي. قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فقال لها: قد عفا الله عنكِ. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ فقال: اذهبي فأنتِ حُرَّة[٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ذِكرَ صفات المُجاوِرين الطيِّبة، ممَّا يُرَغِّب في السَّعْي لسُكنى الدار.

وفي الآية: أن الصَّدَقة من صفات المتَّقين، وأنَّ مِن علامات التَّقوى: بَذْل المال.

وفيها: المداوَمة على الصَّدَقة؛ كما يفيده الفعل المضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾.

وفيها: عُموم الإنفاق؛ كما دلَّ عليه حذفُ المفعول به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾؛ فلم يذكر ما يُنفِقون، وهذا يدلُّ على أنَّهم ينفِقون من كلِّ شيء يُنتفَع به -كالمال، والطعام، والثِّياب، والوقت، والجاه، والراحة-.

وعُموم الإنفاق يشمل القليل والكثير، كما وردَ عن بعض السَّلَف التصدُّق بحبَّة عِنَب، وبالتمرة، وبالبَصلة، ونحو ذلك ممَّا تيسَّر لهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) شُعَب الإيمان للبيهقي (١٠/ ٥٤٥).

وفيها: ذِكر ما يُعانيه كاظِم الغَيظ من الشِّدَّة، ولهذا يكون أجرُه كبيرًا.

وفيها: فَضْل كَظْم الغيظ؛ لأنَّه يَدْرأ شرًّا كثيرًا، ويمنع الآثامَ والمصائب، مثل: اللَّعْن، والقذف، والضرب والاعتداء، والإتلاف، والطلاق.

وفيها: عدم مُقابَلة الإساءة بالإساءة.

وفيها: الرحمة بالخَلْق.

وفيها: الإحسان إلى الكافر -غير الحَرْبيِّ-؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وفيها: الترقِّي في الأحوال من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنَّه لـمَّا ذكر (العَفو) -وهو إسقاط الإنسانِ حقَّه-؛ ذكرَ حالًا أخرى أكملَ منها، وهي (الإحسان).

وفيها: أنَّ الإحسان سببٌ لمحبَّة الله.

وفيها: أنَّ كَظْم الغَيظ والعَفو، من الإحسان.

وفيها: إيصال النفع إلى الغير، ودَفْع الضرَر عنه، وهذا من تعريفات (الإحسان).

وفيها: مُقاوَمة ما يُلهِي عن طاعة الله، ومن ذلك: الإنفاق في السَّرَّاء؛ لأنَّ السَّرَّاء مَدعاةٌ للَّهْو والانشِغال عن الطاعات.

وفيها: الاستِمرار في الطاعات، مهما اشتدت الأحوال؛ فإنَّ الغُموم والهُموم والأحزان -وغيرها من أحوال الضَّرَّاء- قد تُقْعِد العبدَ عن الطاعة وتُشغِله عنها.

وفيها: أنَّ على ابن آدم أن يغلِب الشرَّ بالخير.

وفيها: أنَّ الإنفاق، وكَظم الغيظ، والعَفو، والإحسان -مع التَّقوى- كلّها من أسباب دخولِ الجنَّة، التي عرضُها السماوات والأرض.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى صفاتِ المتَّقين، ومعاملتَهم الحسَنة للخَلْق؛ أتْبعَهم بصِنف آخر دونهم، لكنَّهم يَلْحَقون بهم في المأوى إلى الجنَّة العريضة؛ وهم: التائبون من ذُنوبهم.

وقيل: بل هم أنفُسُهم المتَّقون، المذكورون في الآية التي قبلَها؛ فهم بشرٌ يُذْنِبون ويُخطِئون، لكنَّهم سَرْعان ما يعودون إلى ربِّهم ويتوبون، فذكرَ الله تعالى حالَهم عند وقوع الذنب منهم.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾ أي: وقَعوا واقترفوا ﴿فَٰحِشَةً﴾ أي: ذنبًا قبيحًا، وهو: ما يُستَفْحَش شرعًا، ويتعدَّى أثرُه للغير -كالزِّنا والغِيبة-.

﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بذُنوبٍ يقتَصِر أثرُها عليهم.

وقيل: المراد بـ (الفاحشة): الكبائر، و(ظُلْم النفس): هو الصغائر.

فهؤلاء إذا وقعوا في الذُّنوب؛ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بقُلُوبهم، وألسِنَتهم، وجوارحهم، وتذكَّروا عظمتَه ووَعده ووَعيده؛ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: سألوا ربَّهم أن يغفِرَها، ويتجاوزَ عنها، ويستُرَها.

﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ ولذلك رجَعوا إليه لا إلى غيره، وسألوه وحدَه.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ ويُقيموا ويُداوِموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ وارتكبوا، من الفواحِش والآثام ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الإصرار يَحْرِم من المغفرة.

أو: يعلَمون أنَّها معصية؛ فالمعنى: أنَّهم لا يُصِرُّون على ذنوبهم عامِدين للمُقام عليها، وهم يعلَمون أنَّ الله نهى عنها وأوعدَ عليها العقوبة.

وقيل: وهم يعلَمون أنَّ لهم ربًّا يغفِر الذُّنوب، وأنَّ الله لا يتعاظَمُه العفو عن الذُّنوب، وإن كثُرَت.

وقد ثبتَ في الحديث، أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[1].

وفي الحديث: «مَا من رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ؛ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾[2].

---

(١) رواه أحمد (٦٥٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٨٠).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِظَم شأنِ الاستغفار ومنزلتِه عند ربِّ العالمين، ودلالته على التوحيد؛ لأنَّ فيه لجوء العبد إلى الرَّبِّ في طلَب مغفرة الذنب. ولذلك جاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١).

وفيها: أنَّه لا بُدَّ أن يكون لأسماء الله تعالى أثرٌ ومعنى في الخَلْق؛ فلو لم يكن مِن خَلْق الله مَن يُذْنِب، فكيف سيظهَر أثرُ أسمائه: (الغفور)، و(التوَّاب)، و(السِّتِّير)، و(العَفُوّ)، ونحوها؟

وفيها: أنَّه ليس من شرط المتَّقي أن يكون معصومًا.

وفيها: تفاوت الذُّنوب، وأنَّ منها كبائر وصغائر، والكبائر بعضها أشدُّ من بعض، والصغائر بعضها أهون من بعض.

والكبيرة: كلُّ ذنبٍ وردَت عليه عقوبةٌ خاصَّة -دُنيويَّة أو أُخرويَّة-. وقيل: كلُّ ذنبٍ تُوُعِّد عليه بلَعْن، أو غضب، أو نار، أو عذاب، أو حدٍّ في الدّنيا، أو أيِّ وعيدٍ في الآخرة.

وفي الآية: سُرعة انتباه المتَّقين عند فِعْل الذنب، وأنَّ من المُذنِبين مَن تتيقَّظ قُلُوبُهم سريعًا.

وفيها: أنَّ على المُذنِب أن يستغفِر لذنبه مباشرةً، بعد وقوعه في الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾، و(الفاء) تُفيد التعقيب بلا تراخٍ.

وفيها: أنَّ ذِكر الله سبَبٌ للتوبة.

وفيها: أنَّ العِلْم يمنَع صاحبَه من فِعْل الذنب، أو الإصرار عليه.

وفيها: أنَّ معرفة ما حرَّم الله، ومعرفة الوَعيد المترتِّب على ذلك؛ يُعين كثيرًا في اجتِناب المحرَّمات.

وفيها: أنَّ المُصِرَّ على الذنب مع العِلْم، أسوأ ممَّن ارتكبَ الذنب وهو لا يَعْلَم حُكمه.

وفيها: خطورة الإصرار على الذنب، وهذا معنى ما يُروى عن ابن عبَّاس رَضِّيَاللَّهُعَنْهُمَا: «لا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

كبيرةَ مع استغفار، ولا صغيرةَ مع إصرار»[1]، وقد عنون البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الآية: «باب: خوفُ المؤمن مِن أن يحبَط عملُه وهو لا يَشْعُر»[2].

وفيها: أنَّ النفس عند الإنسان أمانةٌ، يجب عليه رعايتها، ولا يجوز له أن يَظْلِمَها.

وفيها: أنَّ ذِكر القَلْب، يُورِث استغفارَ اللِّسان.

وفيها: أنَّ التوبة إلى الله واجبةٌ، ولو كان الذنبُ متعلِّقًا بمخلوق، ولو سامحَ أو عفا عمَّن ظلمَه؛ لأنَّ المعاصي المتعدِّية فيها حقَّان: حقُّ الله -ويخرج منه بالتوبة- وحقُّ المخلوق -ويخرج منه بأداء الحقوق، أو العَفو والمسامَحَة-.

وفيها: أنَّه لا مَفْزَع للمذنِبين إلَّا إلى الله ورحمته وعَفوه؛ ولذلك يَفِرُّون إليه من ذُنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وفيها: أنَّ مَن عصى الله جاهِلًا بحُكمِ ما فعلَ؛ يُعذَر، إلَّا إذا كان مقصِّرًا في التعلُّم، فيأثَم على تجهيله لنفسه.

وفيها: أنَّه قد ينجو مُرتكِب الكبيرة بحُسن توبته، ويَهْلِك مُرتكِب الصغيرة بإصرارِه واستهانتِه.

وفيها: أنَّ الإصرارَ على فِعْل المعصية، والعزمَ التامَّ عليها، مع العمل بالأسباب الموصِلَة إليها؛ يأثم به صاحبُه، ولو لم يَفْعَلْها؛ لحديث: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[3].

ولحديث: «... وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[4].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٤٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦) لغيره.

وفيها: أثر الجملة الاعتراضيَّة في التنبيه على المعاني العظيمة؛ كما جاءت جملة: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معترِضةً في سياق وَصْف حال المذنِبين التائبين، وأفادَت معنى عظيمًا.

وفيها: أنَّ ذِكرَ الله، ومعرفةَ وَعده ووَعيده؛ هو الباعث القويُّ على التوبة.

وفيها: أن الجَمْع بينَ هذه الآية وقوله تعالى في سُورَة «الحديد»: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، يفيد بأنَّ: الإيمان يستلزِم العمل الصالح.

وفيها: أنَّ مَن تكرَّرت ذُنوبُه، وتكرَّرت توبتُه بعد كلِّ ذنب، وكانت توبةً صحيحةً بشروطها؛ فإنَّه لا يعتبَر من المُصرِّين على الذنب.

وفيها: أنَّ الإصرار ذنبٌ، يجب الاستغفارُ والتوبةُ منه.

وفيها: أهميَّة استحضار الذنب، عند الاستغفار منه.

وللتوبة من الذنب أحوال:

فمنها: أن يتوبَ بعد فِعْل الذنب مباشرةً.

ومنها: أن يبقى مُدَّة لا يتوب، ثم يهديه الله، فيتذكَّر ذنبَه الماضي، ويتوب منه.

ومنها: ألَّا يتذكَّر الذنبَ أصلًا، لكنَّه يعلم أنَّه أذنبَ. فهذا يفزَع إلى التوبة العامَّة من جميع الذُّنوب، وعليه بجوامع أدْعية الاستغفار والتوبة؛ كدُعاء النبيِّ ﷺ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

وكان ﷺ يقول في سُجودِه: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

(٢) رواه مسلم (٤٨٣).

وعلى المسلم كلَّما تذكَّر ذنبَه أن يستغفِر منه -ولو تذكَّره مِرارًا- وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن كلامِه الذي اعترضَ به على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الحُدَيبيَة: «فَعَمِلتُ لذلكَ أعمالا»(١).

وفي الآية: أنَّ العلاجَ النفسيَّ بجَعْل المذنِب ينسى الماضي -وفيه ذُنوبه-؛ منعًا للاكتئاب؛ هو علاجٌ فاسدٌ، مُصادِمٌ لقوله تعالى: ﴿**ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ**﴾.

والواجب على المسلم: أن يذكُر ذنبَه، ويذكُر ربَّه، وأن يُقِرَّ بالذنب، كما جاء في حديث سيِّد الاستغفار: «وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي»(٢).

وأمَّا الحالة التي تحتاج إلى علاج؛ فهي حالة مَن يصل إلى اليأس من رحمة الله -والعياذ بالله- عند التفكير في ذُنوبه؛ فهذا لا يُنصح بنِسيان الذُّنوب، لكنَّه يُنصَح بأن يرجوَ رحمة الله وعَفوه، ويؤمِّل في مَغفرته، ويستحضِرَ وَعْدَ الله بمغفرة الذُّنوب جميعًا لِمَن تاب منها، لا أن يتجاهلَ ما مضى ويتناساه؛ فإنَّ الله تعالى قال عن أهل الغفلة، الذين يغفُلون عن ذُنوبِهم: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي هذه الآية -مع التي قبلها-: ذِكر حال المؤمنين مع الله، بعد ذِكر حالهم مع الخَلْق؛ تذكيرًا بالحقَّين: حقّ الله وحقّ العِباد.

وفيها: أنَّه لا يَصِحُّ الاستغفار مع الإصرار، وهذا معنى قول بعض السلف: «استِغفارنا يحتاجُ إلى استِغفار»(٣).

وفيها: أنَّ ذِكر الله عند الذنب، يكون بالقَلْب واللِّسان والجوارح:

فبالقَلْب: بتذكُّر عَظَمته، وحقوقه، ووَعده ووَعيده.

و باللِّسان: كالاستِغفار، والتهليل، ونحوه.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) في أثناء حديث الحديبية عن الزهري قال: قال عمر ... فذكره. قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٤٦) : «وهو منقطع بين الزهري وعمر ... والمراد به: الأعمالُ الصالحةُ ليكفّر عنه ما مضى من التوقّف في الامتثال ابتداءً».

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) الأذكار للنووي (ص٤٠٥)، جامع العلوم والحِكَم لابن رجب (٢/ ٤١٠).

وذِكر الله بالفِعْل وأعمال الجوارح: كالقيام بالأعمال التي تكفِّر الذُّنوب والخطايا، مثل: الصَّدَقة التي تُطفئ الخطيئة، والوضوء الذي يُخرِج الخطايا من الأعضاء، وصلاة ركعتَين لا يُحدِّث فيهما نفسَه بعد إسباغِ الوضوء، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ النفي بصيغة الاستِفهام -كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾- أبلغ من النفي المجرَّد، فالأول يحمِل معنى التحدِّي؛ كأنَّه يقول: «ائتِ لي بأحدٍ غيرِ الله يغفر الذُّنوب»؛ فلو اجتمعَ أهل الأرض ما استطاعوا أن يغفِروا ذنبًا لإنسان، ولو سامَحوه في حقوقِهم فيبقى حقُّ الله تعالى.

﴿**أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ١٣٦**﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى المتَّقين وثوابهم وصفاتهم؛ ثم ذكر التائبين الذين لا يُصِرُّون؛ ذكر جزاءَهم جميعًا؛ فقال:

﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾ أي: الموصوفون بالصِّفات السابقة ﴿**جَزَآؤُهُم**﴾ ثوابهم ومكافآتهم على أعمالهم: ﴿**مَّغْفِرَةٞ**﴾ أي: عَفْوٌ وتجاوزٌ عن الذُّنوب، وسَترٌ لها عن الخَلْق ﴿**مِّن رَّبِّهِمْ**﴾: وفي هذا زيادةُ ثقةٍ وتأكيدِ حصولِ المغفرة؛ لأنَّها صادرةٌ من الله تعالى.

﴿**وَجَنَّٰتٞ**﴾: جاءت هنا بصيغة الجمع -مع أن الجنَّة في الأصل واحدة-؛ لأنَّها درجات كثيرة، ومنازل متنوِّعة.

﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ**﴾ أي: من تحت أشجارها وقُصورها ومساكِنها، على وَجْه الأرض، من غير أخاديد، وهي أنهارٌ متعدِّدةٌ، وقد جاء في القرآن ذِكرُ بعض أنواعها، من الماء العَذب، واللَّبن، والخَمْر، والعَسَلِ.

﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَا**﴾ فلا يموتون، ولا يُخرَجون.

﴿**وَنِعْمَ**﴾ هذا مدحٌ للجنَّة ﴿**أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ**﴾: أعطاهم الله إيَّاها في مُقابَلة أعمالهم، وجزاءً وثوابًا على طاعاتهم، فَضْلًا منه سبحانه ونِعْمة؛ فالأعمال ليست ثمنًا للجنَّة، لكنَّها شرطٌ لدخولها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحفيز العِباد للارتِقاء بالطاعات، والازدياد في الخيرات؛ وذلك بتنبيهِهم على أنَّ الجنَّة مراتب ودرجات -بصيغة الجمع- كما في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾.

وفيها: تحفيز هِمَم العِباد؛ بحيث لا يقتَصِر مطلوبُهم على دخول الجنَّة، بل على تحصيل الدرجات العُلى منها.

وفيها: ذِكر الثواب والأجر؛ ليطمئنَّ العاملون، ويزدادوا عملًا وسَعيًا لنَيْل الأجر العظيم.

وفيها: الجَمْع في المكافأة بينَ زوال المكروه وحصول المطلوب، كما في قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، وقوله ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾.

وفيها: أنَّ المغفرة من أعظم الثواب.

وفيها: أنَّ الجنَّة عظيمة؛ لأنَّ الله تعالى إذا أثنى على شيءٍ ومدحَه؛ فلا بُدَّ أن يكون عظيمًا. بخلاف البشر؛ فرُبَّما مدَحُوا ما ليس بعظيم -كما يصنع كثيرٌ من الشُّعراء-.

وفيها: فَضْل الله العظيم على عباده التائِبين؛ حيث جعل هذه الجنَّات جزاءهم، مع أنَّ أعمالهم لا تُكافئ الجنَّة، لكنَّه جعلَ هذه الأعمال سببًا لنَيْلها، ثم مِن كرمِه عَزَّوَجَلَّ: أنَّه أعطاهم أضعافَ أضعافِ ما يُقابِل أعمالهم.

وفيها: عِظَم وفخامة ثوابِ الله وفَضْله، وما يأتي مِن عنده؛ كما يدلُّ عليه قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

وفيها: أنَّ نعيم الجنَّة لا يَحُول ولا يَزُول، وأنَّه شيءٌ كثيرٌ في مُقابِل عملٍ قليلٍ.

وفيها: أنَّ دخول الجنَّة لا بُدَّ له من عَمَل؛ كما يدُلُّ عليه التعبير بـ ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾؛ فالأجر لا يُستحَقُّ إلَّا بعد عمَل، ولكنَّ الكريم يُضاعِف الأجرَ ويُنَمِّيه، ويدَّخِره لصاحبه.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾:

ثم رجعَ السِّياق لبيان ما حصلَ في غزوة أُحُد؛ فقال تعالى -مخاطِبًا عبادَه المؤمنين، الذين أُصيبوا بمُصيبة عظيمة في تلك الموقِعة-:

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: مضَـتْ. وهـذه جملة محقَّقة؛ لأنَّ (قد) إذا دخلَـت على الفِعْل الماضي؛ أفـادَت التحقيـق ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ في الأُمَـم الماضية ﴿سُنَنٞ﴾: جمع «سُـنَّة»، وهـي: الطريقة. والمراد: عادةُ الله الجارية في الناس.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (السَّير): هو المشي، ويشمل سير الأقدام بالتنقُّل، وسَير القُلُوب بالفَهم والتفكُّر.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بعَين البصر والبصيرة، وتأمَّلوا وتفكَّروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: مآلهم، ونتيجة أعمالهم، لـمَّا كذّبوا الرُّسُل؛ فجرى عليهم من الله الهلاك والدَّمار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعالَجَة النفسيَّة للمُصيبة العظيمة، التي كان حصولها مفيدًا في تربية المسلمين -مع شِدَّة ألمِهـا-؛ فجاء التأكيدُ من الله تعالى بأنَّ له سُـننًا في الأُمَم وفيمَن مضى من عباده، وأنَّها تجري على السابِقين واللَّاحِقين، وأنَّ أتباع الأنبياء يُبتَلَون ويُصابون بالمصائب العظيمة، ثم تكون لهم العاقبةُ والنصر على أعدائهم.

ولذا لـمَّا سُئِل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيهما أفضل للعبدِ: أن يُمكَّن أو يُبتلَى؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُمكَّن حتى يُبتلَى»[1].

وفيها: الاسـتفادة من الأحـداث -خاصَّة الكبار والعظام منها- بذِكـر ما يتعلَّق بها من الدُّروس والعِبَر.

وفيهـا: السَّـير في الأرض لأخذ العِـبَر؛ كما قال تعالى في آيـة أخرى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

ومن وظيفة الإعلام الإسـلامي: أن تتنقِلَ العدَسـاتُ ليرى المشـاهِدون والمشاهِدات ما حصل للسابِقين، مع ذكرِ الآيات المناسِبة لتلك الأيام الماضية.

وفيهـا: أهميَّة عِلْـم التاريخ، ومعرفة أخبار الأوائل، وأسـباب صلاح الأُمَم وفسـادها، وهذا من التنقُّل المعنويُّ -وهو النظر في كتب التاريخ-.

---

(١) زاد المعاد لابن القيِّم (٣/ ١٣).

وفيها: الإرشاد إلى العِلْم الصحيح، المبنيّ على المُشاهَدة.

وفيها: أنَّ الصراع بينَ الحقِّ والباطل قد حصلَ في الأُمَم السالفة.

وفيها: أنَّ العاقبة والغَلَبة تكون دائمًا لأهل الحقِّ على أهل الباطل.

وفيها: أنَّ الاستفادة من آثار الأُمَم الماضية لا يكون ببَيْعِها كُنوزًا، وجَعْلِها في المتاحف للتسلية؛ وإنَّما هي للعِظَة والاعتِبار.

وفيها: تسلية المؤمنين إذا أُصيبوا على يدِ أعدائهم، بما حصل لأمثال هؤلاء الأعداء في الماضي، من الأَخْذ والإهلاك.

وفيها: أنَّ السَّيْر بالقدَم في مواقع مَن بادُوا واندَثروا، قد يكون أشدُّ وقعًا من السَّير بالقَلْب؛ لأنَّه يجتمع فيه عَينُ اليقين وحقُّ اليقين.

وفيها: أنَّ السَّير في الأرض ينبغي أن يكون لأغراضٍ شرعيَّة، لا لأغراضٍ محرَّمة، أو لإضاعة الوقت والمال، أو لمجرَّد التسلية والسِّياحة -كحال كثيرٍ ممَّن يضيِّعون أوقاتَهم وأموالَهم وأعمارَهم في السفر إلى بلاد الكفَّار، ولا يسلمون من الحرام-.

وفيها: أنَّ الأمر بالسَّير والنظَر للاستحباب، لا للوجوب؛ فلو حصلَ بالوَصف أو القراءة أو النَّقل والسَّماع، على سبيل التفكُّر والاتِّعاظ؛ فقد حصلَ المقصود، ولكن يبقى لمن شاهد فَضْلٌ ومِيزة.

وفيها: أنَّ تحويل أماكن العذاب والاتِّعاظ والاعتِبار إلى مناطق سياحيَّة، تشمل: فنادق ومطاعم وملاعب وملاهي؛ يُنافي مُرادَ الله تعالى من عباده.

وفيها: أنَّ الخِطاب بالسير للاتِّعاظ -وإن كان موجَّهًا للمؤمنين- لكنَّه يشمل غيرَهم؛ ليتَّعظوا بما أصاب أسلافَهم، بل حاجة المكذِّبين الجُدُد للاتِّعاظ بما أصاب أسلافهم، ربما تكون أشدَّ وأولى.

وفيها: خطورة التكذيب بآيات الله، وما أنزله تعالى على المكذِّبين، وأنَّ عاقبة ذلك الهلاك.

وفيها: لَفْت أنظار المكذِّبين الجُدُد -عند دعوتهم- إلى ما حصلَ من أسلافهم، وأنَّ العِلَّة المشترَكة التي أدَّت إلى إهلاك أولئك، حاصلةٌ وقائمةٌ في هؤلاء؛ فليحذَروا، وليتوبوا، وليرجعوا إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ نزول العقوبات الدّنيويَّة، وخَواء الدِّيار، وحصول الهلاك، كلّها شواهد على صِدق ما أخبر الله به، وهذا ممَّا يَزيد الإيمان -أن تجد الواقعَ مطابِقًا للخبر-.

وفيها: الجَمْع بين التسلية والتحذير، والجَمْع بينَ الخبر والنظَر.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى من شواهد النظَر، ما يدلُّ على صِدق الخبر الذي جاء من عنده؛ قال عن مصدَر الخبر:

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزلَه الله على النبيِّ ﷺ، بخبرِه، وأمرِه ونهيِه، ووَعدِه ووَعيدِه ﴿بَيَانٌ﴾ إيضاحٌ وجلاءٌ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عامَّة؛ فهو دلالة ظاهرة، تبيِّن للناس الحقَّ من الباطل، بما فيه من الحُجَج والبراهين الساطعة.

وهو أيضًا (بيانٌ) للمؤمنين، يبيِّن لهم دينَهم: عقيدةً، وأحكامًا، وتفصيلًا في الحلال والحرام.

﴿وَهُدًى﴾ ودلالةٌ وإرشادٌ، ومُنقِذٌ من الضلالة والغَواية، ومُخرِجٌ من الظُّلُمات إلى النُّور.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ تَلين به القُلُوب، فتحصُل الطاعة والامتِثال ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّهم هم الذين يستَفيدون منه، ويعملون به، امتِثالًا لأمره واجتِنابًا لنهيه؛ ليَدْرَءُوا عن أنفُسِهم عذابَ الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ القرآن صالحٌ لهداية المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر.

وفيها: أنَّ القرآن عِلْمٌ، لكن لا ينتَفِع به إلَّا المتَّقون؛ فمَن لم يتَّعِظ بالقرآن فليَتَّهِم نفسَه.

وفيها: فضيلة التَّقوى، وأنَّها سبَب للاتِّعاظ بالقرآن، وكلَّما زادت زادَ الانتِفاع بكتاب الله.

وفيها: أنَّ القرآن بيانٌ لجميع الناس -على اختلاف ألسِنَتهم-. وأولو العِلْم من العرَب

يَعْقِلونـه قبـلَ غيرهم، وأمَّـا ترجمة معانيه للأعاجـم -للُغاتهم المختلفة- ففيـه البيان الكافي لقيام الحُجَّة عليهم، وعليهم أن يتعلَّموا لغة القرآن؛ ليتدبَّروا آياته.

وفيهـا: اشـتِمال القـرآن على التخويـف والتذكرة، التي تحيـا بها القُلُـوب؛ فالقرآن ليس مصدرًا للمعرفة فحسبُ؛ بل هو هدايةٌ للقُلُوب، وفيه ما يُعين على استقامة النفوس، وينير الطريقَ في كلِّ الأحوال، وينقل الناس من حال إلى حال.

وفيها: إشعار الناس بأهميَّة القرآن، ولَفْت الانتِباه إلى عَظَمَتِه، والتدبُّرِ في معانيه.

وفيها: أنَّ القرآن عامٌّ ببيانه للناس جميعًا، وخاصٌّ بهُداه وموعظته للمتَّقين.

وفيها: أنَّ القرآن تقوم به الحُجَّة، ويُهتدَى به إلى المَحجَّة.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾:

ولـمَّا مدحَ الله كتابَه، وبيَّن ما فيه من البيان والهدى؛ قال -مسلِّيًا عبادَه المؤمنين، الذين نزلَت بهم المُصيبة العظيمة في معركة أُحُد-:

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تَضْعُفـوا عـن جهـاد عدوِّكم، لأجل مـا أصابكم **﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾** وتغتَمُّـوا لِـما وقعَ بكم مـن القَتْل والجِراح، وما فاتكم من الغنيمة. فـلا تَضْعُف أبدانُـكم، ولا تحـزَن قُلُوبكـم **﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾** أي: الغالِبون، المنتَصِرون عـلى عدوِّكم في آخر الأمر **﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾** أي: مُصَدِّقين ومُوقِنين بوَعْد الله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «يُعزِّي أصحابَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -كما تسمَعون- ويحثُّهم على قتالِ عدُوِّهم، وينهاهم عن العَجْز والوَهْن في طلَب عدُوِّهم في سبيل الله»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسـلم إذا حصلَـت له مُصيبةٌ في الماضي، أو فاتَه خيرٌ؛ فـلا ينبغي أن يمنَعَه حُزنُه من العملِ والاجتهادِ في المستقبَل.

وفيها: بِشارة من الله للمؤمنين، بأنَّ العاقبة والغَلَبة والنصر ستكون لهم.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

وفيها: نهيُ المؤمنين في حال إقدامهم في الجهاد عن الضَّعْف، وفي حال إدبارهم عن الحُزن.

وفيها: الإعراض عمَّا مضى من الغُموم، والالتِفات إلى استِدراكِ الأمر، وتحصيلِ ما ينفع.

وفيها: أنَّ الأعلى لا يَليق به أن ينخَفِضَ ويذِلَّ.

وفيها: إعادة شَحْذِ هِمَم المحزونين.

وفيها: تشجيعُ الأُمَّة، وبثُّ روح الأمل.

وفيها: أنَّ العِبرة بغَلَبة النهاية، والنصر الحاسم.

وفيها: أنَّ الإيمان شَرْطٌ للعُلُوِّ.

وفيها: أنَّ العلاج النفسيّ لا يقِلُّ أهميَّة عن العلاج البدَنيِّ، هذا إذا لم يكن مقدَّمًا عليه.

وفيها: أنَّ الاستِسلامَ للحُزن والقُعودَ عن العمل خلافُ العقل؛ لأنَّه لا يرُدُّ الفائِت، بل يُضعِف العزيمة، ويجلِب التَّعب، وينغِّص العَيش.

وفيها: أنَّ الوَهْن يمنع من مُقابَلة الأمور بجِدٍّ وحَزْم؛ فلا بُدَّ من تَرْك الاستِسلام له.

وفيها: أثر الإيمان في تقوية العزائِم.

وفيها: صَرْف المؤمنين عمَّا لا يليق بهم.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجِب قوَّةَ القَلْب، والثقةَ بنصر الله، وعدمَ التهيُّب من الأعداء.

وفيها: أهميَّةُ التدبيرِ للقتال، ووضعِ الخُطَط للمستقبَل، وأثرُ التصديق بوَعد الله في إنجاز ذلك.

وفيها: معالَجَة النفس بالمجاهَدة، والتكلُّف والتناسي، وإخراجها من نَفَق الإحباط.

وفيها: الحثُّ على تعويض الخسائِر، واستِدراك ما فات، والإفاقة بعد المُصيبة.

وفيها: أهميَّة سلامة القَلْب والبدَن، في مواجَهة الأعداء.

وفيها: النهي عن الاستِسلام لليأس، والاستِسلام للأعداء.

وفيها: أنَّ المؤمنين أولى بالعَودة إلى مُغالَبة العدُوِّ بعد مُصيبة أُحُد، من قريشٍ الذين عادُوا إلى مهاجَمة المسلمين بعد هزيمة بَدْرٍ.

وفيها: أنَّ عُلُوَّ الغَلَبة المؤقَّتة يشترِك فيه المؤمن والكافر، وأمَّا عُلُوُّ الإيمان: فهو خاصٌّ بالمؤمنين، باقٍ لهم، سواءً غَلَبوا، أو غُلِبوا.

وفيها: البِشارة للمُصاب، بما يخفِّف عنه أثَرَ المُصيبة، ويدفَعه للعَمَل؛ كما في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾:

ولـمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ له سُننًا ماضيةً في ابتلاءِ المؤمنين، وإهلاكِ المُكذِّبين، ولَفَتَ النظرَ إلى ما في كتابه من البيان والهدى، ونهى المُصابين في أُحُد عن الضَّعْف والحُزن، وبشَّرهم بالعُلُوِّ والغَلَبة: أتى بمزيدٍ من المُواساة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فقال:

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ﴾ أي: يُصِبكم ﴿قَرۡحٞ﴾ قال مُجاهد: «جِراحٌ وقَتْلٌ»[1]؛ ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ وهم كفَّار مكة ﴿قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ كما حصلَ في بَدْرٍ من قَتْل سبعينَ، وأَسْرِ سبعين، وما حصلَ في أول معركة أُحُد مِن قَتْل نَحْوِ عشرين منهم، وجَرْح كثيرين.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾ أي: أيَّام الغَلَبة والنصر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نُصرِّفها ونُناوِبها ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ المؤمنين والكفَّار، والقُدَماء والجُدد؛ فيومٌ لهم، ويومٌ عليهم.

وقد قال أبو سُفيان يومَ أُحُد -وكان مُشرِكًا-: «يومٌ بيَومِ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجَالٌ»[2].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليظهَر عِلمُه في الواقع، ظهورًا تقوم به الحُجَّة،

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٩).

ويترتَّب عليه الجزاء في الآخرة، ويظهَر إيمانُ المؤمنين، ويُعرَف فَضْلُهم، ويقتَدِي بهم مَن بعدهم.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾: وهذا من حِكَمه تعالى أيضًا؛ فإنَّه يُقدِّر القَتْل والجِراح في المسلمين؛ لينالَ بعضُهم مرتبة الشَّهادة، ويفوز الجريح بثواب الكَلْم، وسيلان الدَّم في سبيل الله.

و(الشُّهَداء): جمع «شهيد»، وهو: مَنْ مَاتَ مِنَ المسْلِمِينَ فِي قِتَال الكُفَّارِ، وَبِسَبَبه. وسُمي بذلك؛ لكونه مشهودًا له بالجنَّة، أو: لكونه كالمشاهِد للجنَّة، أو: لأنَّ قَتْلَه شاهدٌ على إيمانه وصِدقه، وقيل غير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين نَقَصوا حقَّه وحقَّ عِباده.

وقوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: معطوفٌ على قوله ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾؛ أي: أنَّ مِن حِكمة الإصابة بالقَتْل والجِراح أيضًا: التمحيص. وهو التطهير والتصفية، وتخليص الشيء من كلِّ عيب. وهذا يكون من الذُّنوب والدواخِل الرَّديئة في النفس، وتنقيتها من الشوائِب؛ لتكون خالصةً لله تعالى.

﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: يُهلِكهم ويستأصِلهم؛ لأنَّهم إذا انتصَروا بغَوا واستكبَروا وبَطِروا؛ فيكون ذلك سبَب دمارِهم وهلاكِهم، ومَحْقِهم وفَنائِهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ وقوع المُصيبة على المؤمنين والكافرين معًا، لا يعني أنَّ النتيجة والأثر واحدٌ؛ لأنَّ ذلك يكون عقوبةً للكافرين، ورَفْعًا وتطهيرًا للمؤمنين.

وفيها: تناول المُصيبة بالجَمْع بينَ علاجِ آثارها النفسيَّة، وأخذِ العِبَر والعِظات والدُّروس منها. وهذا نهجٌ فريدٌ.

وفيها: أنَّ المسلم المُصاب إذا عَلِمَ أنَّ عدُوَّه قد أصابَه مثلُ الذي أصابَه، هانَتْ عليه المُصيبة.

وفيهـا: حِكمة الله العظيمة، في تنقُّل الغَلَبَة بـينَ الناس –مؤمنهم وكافرهم–؛ فلو بقيَت دائمًا للمؤمنين؛ لأصابَهم العُجْب والغُرور، وحُرِموا من منزلة الشَّهادة العظيمة. ولو بقيَت الغَلَبـة للكافريـن؛ لأصبحَ ديـنُ الله مقهورًا مغلوبًا، وصـارَ أتباعُه في هـوان، ولا تقوم لهم قائمة، ورُبَّما أدَّى ذلك إلى عدمِ انتشار الدِّين في الأرض، أو زوالِه وانقراضِه.

وفي الآية: بيان شيءٍ من حِكمة الله البالغة، في تقدير هذه المُصيبة.

وفي ذكر الظالمين في الآية: إشـارةٌ للمنافِقين، الذين ظلَموا أنفُسَـهم بالتخلُّف عن غزوة أُحُد، والانسـحِاب منها. وفيها أيضًا إشـارةٌ إلى الكافرين، الذين ظلَموا المؤمنين الشُّهَداء، فقتلُوهم بغيًا وعُدوانًا بغير حقٍّ.

وفي الآيتَين: أنَّ الابتلاء طريق التمكين.

وفيهـا: أنَّه لا ينبغي للمسـلمين أن تُقعِدَهم المصائب عن مواصلـة الطريق، لإقامة دينِ الله في الأرض.

وفيهـا: أنَّ الأعـداء إذا كانـوا يعمَلـون رَغْم ما يُصيبهـم من جَهد ونفقـات –وهم على باطِلِهـم–؛ فالمؤمنون أجدَر بمواصلـة العمل بقوَّة وعزيمة منهم؛ ليقينِهم بحُسـن العاقبة، وإيمانِهم بوَعْد الله تعالى.

وفيها: أنَّ مِن حال الدُّنيا: ألَّا تدوم أفراحُها، ولا أحزانُها.

وفيها: أنَّ الناس لا يبقَون على حال واحدة، وأنَّ النصر لا يسـتمرُّ مُلازِمًا أحدَ الفريقَين دون الآخر؛ فالنصر منصبٌ شريفٌ، لا يَليق أن يكون للكافر دائمًا وأبدًا، ولا يدوم للمؤمنين أيضًا؛ لئلَّا تفوتَ حِكمةُ الابتلاءِ والتمحيصِ وامتحانِ الثبات، واصطِفاء الشُّهَداء.

وفيها: أنَّ مُداوَلة الغَلَبَة بينَ المُحِقِّ والمُبطِل، من سُـنَن الله في البشر. وأنَّ رجوعَها إلى أهل الحقِّ يكون بسـبَب بَذْلهـم وتضحيتهم، وأنَّهم أهلٌ لها. وذهابهـا إلى أهل الباطل يكون بسبَب معصية أهل الحقِّ، وتنازُعِهم، وعدَم رعايتهم لِـما أمرَهم الله به.

وفيها: أنَّه لا مُحاباة في السُّنَن الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ الابتلاء له جانبُ إكرام، كاتِّخاذِ الله الشُّهَداءَ.

وفيها: أنَّ الظالم ليس أهلًا لمقام الشَّهادة، ولا لدوام السُّلطة وثبات الدولة؛ بل قوَّته سريعة الزوال، قريبة الانحِلال.

وفيها: تعزية المُصابين، بذِكر شيءٍ من فوائد المُصيبة، وما انطوَت عليه من الحِكَم الإلهيَّة، وأنَّ أثرها يضعُف بالنظَر إلى ما أصاب الأعداءَ منها.

وفيها: أنَّ استِعادة النصر والغَلَبة من الأعداء، لا بُدَّ له من عملٍ دَؤوب وتضحيات، ولو دام النصرُ للمؤمنين؛ لرَكنوا إلى الدُّنيا، وأصابَهم الكَسَل والدَّعَة.

وفيها: أنَّ عِلْم الله يشمل: عِلْمَه بما مضى، وعِلْمَه السابق بما سيحدُث مستقبَلًا، وعِلْمَه بالشيء حين حصولِه ووقوعِه.

وفيها: أنَّ الله يُقدِّر من الحوادث، ما يظهَر بسبَبِه عِلْمُه السابق، ويراه الناس واقعًا حاضرًا.

وفيها: أنَّ الله لا يُقدِّر المكروهَ ولا غيرَه عبثًا؛ وإنَّما لحِكَم بالغة.

وفيها: فَضْل الشُّهَداء؛ لقوله ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ**﴾؛ أي: يتَّخِذهم ويختارهم لنفسه.

وفيها: فَضْل شُهَداء أُحُد.

وفيها: أنَّ الله لا يُوَفِّق الظالمين للثبات، ولا لعمل الطاعات.

وفيها: أنَّ الله قد يستَدْرِج بالنِّعم، ويحرِّك النفوس بالمصائب.

وفيها: أنَّ مُداوَلة الأيَّام والغَلَبة بينَ الناس لها فوائد كثيرة؛ منها: إحداث حَراك بين المسلمين، ودَفْعُهم للعمل، واستنهاضُ الهِمَم، والإحساس بالتحَدِّي، والعمل للإعداد، وحشد الطاقات، وبذل الجهود والتضحيات، وطَرْد الكسَل، والعَزْم على التفوُّق، وتطوير القُدرات، وحصول البرَكات، ومُراغمة الأعداء، ومعالَجة أدواء النفوس، وحصول المواجَهة بين المسلمين والكافرين؛ فيكون بها النصرُ والأجر العظيم.

وفيها: إثارة الانتِباه إلى أهميَّة الشيء، بأسلوب الالتِفات البلاغيّ، بالانتقال من الحاضر في قوله: ﴿**نُدَاوِلُهَا**﴾، إلى الغَيبة في قوله: ﴿**وَلِيَعْلَمَ**﴾، و﴿**وَيَتَّخِذَ**﴾.

ومن الأساليب البلاغيَّة أيضًا: ذِكر الشيءِ وضِدِّه، كما وقع في ﴿شُهَدَآءَ﴾، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا يَزيد في البيان.

وفيها: أنَّه شتَّانَ بينَ مَن يصيبه القَرْحُ في طاعة الله ورسوله، ومَن يصيبه القَرْحُ في عداوة الله ورسوله.

وفيها: أنَّ الله ينتَقِم لعباده المؤمنين، في نهاية الصِّراع بينهم وبينَ الكافرين.

وفيها: أنَّ تصفية النفوس من شوائِب الرِّياء والنِّفاق، والعُجْب والغُرور، وحُبِّ الدُّنيا، وحُظوظ النفس، وذُنوبها، لا بُدَّ منه؛ ليكون أهلُ الإيمان مؤهَّلين للنصر.

وفيها: أنَّ الإنسان كثيرًا ما يشتَبِه عليه أمرُ نفسه، ولا تتجلَّى له الحقيقة، إلَّا بالامتِحان بالشدائد العِظام.

وفيها: أنَّ الكافرين لا يثبُت لهم حالٌ، ولا تستقرُّ لهم الأمور، إلَّا في حال غياب مَن يواجههم ويُقاوِمهم -من أهل الحقِّ والعَدْل والإيمان-.

وفيها: أنَّ الكفَّار إذا انتصَروا في أول الأمر؛ أصابَهم الفَخْر والكِبْر، فيُغريهم هذا بإعادة الكرَّة لقتال المسلمين، فيكون في ذلك هلاكُهم ودمارُهم.

وفيها: أنَّ الابتِلاء إذا أصابَ أهلَ الإيمان؛ كان ذلك كفَّارةً لذُنوبهم، فإن لم يكن لهم ذُنوبٌ؛ رُفِعَت درجاتهم، بحَسَب شِدَّة ابتلائِهم وما أصابَهم.

وفيها: أنَّ نِعمة التغلُّب، قد تكون سببًا لنِقمةٍ قاصِمة الظَّهْر.

وفيها: أنَّ مَحْق الكافرين يكون بعد تمحيص المؤمنين.

وفيها: حِكمة الله تعالى، في تخليصِ صفوف المؤمنين من المنافِقين المختلِطين بهم، وتمحيصِ مواقف أهل الإيمان، واختبارِ صَبْرهم على مُناجَزة الأعداء.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾:

ثم خاطبَ الله تعالى المؤمنين، الذين انهزَموا وعصَوا في غزوة أُحُد:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ أي: هل ظننتم. والاستفهام للإنكار والتقريع والعَتْب ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بنعيمها، دون اختبارٍ وابتلاءٍ.

ولذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: لم يظهر عِلْمُه في الواقع بعدُ. فهذا عِلْم الوقوع والظُّهور ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ بالقتال في سبيله ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعته بالخروج للجهاد، وعن معصيته بعدَمِ التولِّي والفِرار، وعلى أقداره من القَتْل والجِراح والشِّدَّة.

والمعنى: أظننتُم -يا معشر المؤمنين- أن تنالُوا كرامةَ ربِّكم، دون ابتلاءٍ يظهَر به في الواقع عِلْمُ الله السابق بالمجاهدين حقًّا، والصابرين على البأساء والضرَّاء وحين البأس؟! وهل ظنَنتُم -أيُّها المنهَزِمون- أن تدخلوا الجنَّة، كما دخلَها الذين قُتِلوا في سبيل الله، وبذَلوا نفوسَهم لأجله، وصبَروا على ما أصابَهم، إلَّا بعد أن تُقَدِّموا كما قدَّموا، وتبذُلوا أنفُسَكم لله؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ محبَّة الله للمؤمنين لا تمنَع من مُعاتَبتِهم، وبيانِ تقصيرهم، وتوضيحِ معصيَتِهم.

وفيها: أنَّ دخول الجنَّة لا يتمُّ إلَّا بالجهاد والصَّبر.

وفيها: الصَّبر على عواقِب الجهاد، من الجِراح، والألم والشِدَّة، والخوف، وكلِّ المكروهات.

وفيها: تربية النفوس على مواجَهة شدائِدِ الحَرْب.

وفيها: وجوب سُلُوك طريق أهل الإيمانِ والصَّبرِ، من السابقين والحاضرين.

وفيها: أنَّ سِلْعة الله غالية، فلا تُنال إلَّا باقتِحام المكارِه؛ ولذلك حُفَّت الجنَّة بها؛ كما في الحديث: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[1].

وفيها: تحمُّل ما يحدُث في ذات الله وسبيله، من الآلام والمكارِه.

وفيها: أنَّ عِلْمَ الله الأزليَّ السابقَ لا يترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ وإنَّما يترتَّب الثواب

---

(١) رواه مسلم (٢٨٢٢).

والعقـاب على عِلْـم الظُّهور -وهو عِلْم الشيء عند حصوله ووجـوده- وهو الذي تقوم به الحُجَّـة عـلى العِباد؛ لأنَّ الله سـبحانه لو حاسـبَهم بحَسَـب عِلْمه السـابقِ الأزليِّ لقالوا: ما عَمِلنا، فلِمَ نُعاقَب ونؤاخَذ؟

وفيهـا: أنَّ الصَّـبر مطلـوبٌ قبـل القِتـال وبعدَه، وهـو بعد القتـال أصعبُ وأشـقُّ على النفوس؛ فقد يظنُّ البعضُ من نفسه صبرًا، فإذا رأى بارقةَ السُّيوف فرَّ وأصابَه الفَزَع.

وفيها: أنَّ الله تعالى يمتَحِن عبادَه؛ ليظهَر صبرُهم أو ضَجَرُهم.

وفيها: أنَّ راحة الآخرة لا تُدرَك إلَّا بتَرْك شيء من راحة الدُّنيا، وأنَّ نعيم الآخرة لا يُنال إلَّا بتَرْك نعيم الدُّنيا، المُشغِل عن العمل للآخرة.

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾:

ولـمَّا كان الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الذين لم يخرُجوا في بَدْرٍ، قد رَأَوا ما فاتهم من المشاهِد العظيمةِ والمناقـبِ الشريفةِ لمن حضرَ بدرًا، من رضوان الله تعالى، والمغفرة، وقتال الملائكة، والنصر، ورَأَوا الغنائِمَ وأَسْرَى قُرَيش مع العائدين من بَدْر، وسَمِعوا أخبار مَن قُتِل من الكفَّار؛ صار ذلك دافعًا عظيمًا لهم ليلقَوا العدُوَّ، وينالُوا مثل تلك المناقِب والفضائِل.

ولم يكن ذلك ليتمَّ إلَّا بمعركةٍ ولقاءٍ آخر معهم، فلمَّا حصل ذلك في أُحُد، وهم يترقَّبونه، وقد تشوَّقوا إليه، وأصرُّوا على الخروج من المدينة لأجلِه، ثم حصلَ ما حصلَ من العِصيان والتنازُع والتولِّي؛ قال الله لهم:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي: كنتُـم -أيها المؤمنون- تتمنَّون لقاءَ العدُوِّ قبل هذا اليوم، وتوَدُّون مُنازلته ومُصابَرته، وكنتُم تطلبون القَتْلَ والشَّهادةَ في سبيل الله.

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ وأبصرتُم أسبابَه، في لَـمَعانِ السُّيوف وحدِّ الرِّماح واشتباكِ الصُّفوف، ورأيتُم مِن إخوانكم مَن يُقتَل أمامَكم ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك حقيقةً لا خيالًا.

فما دامت قد حصلَت لكم الفُرصة لنَيْل الشَّـهادة في سـبيل الله؛ فلماذا لم تصبِروا وتثبُتوا وتُقاتِلوا لنَيل ذلك؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحِرْص على استِدراك ما فات.

وفيها: السَّعْي لنَيل الشَّهادة في سبيل الله، وأنَّ تمنِّي ملاقاةِ العدُوّ لأجل هذه الغاية أمرٌ حسنٌ محمودٌ. لكن إذا كان التمنِّي باستِهانة واستِخفاف، واغترار بالنفس؛ فيكون -حينئذٍ- مذمومًا؛ ولذلك نهى النبيُّ ﷺ عنه بقوله: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[1].

وفيها: تنبيه المؤمنين إلى اتِّقاء الغُرور، بمجرَّد حديث النفس، والأمانيِّ الكاذِبة والتشهِّي، بلا إعدادٍ ولا صبرٍ.

وفيها: أنَّ الله يبتلي النفوسَ بالمواقِف الصعبة والأعمال الشاقَّة؛ لتظهر حقيقةُ الأمنيَّات.

وفيها: أنَّ مَن تمنَّى الشيء وسعى إليه؛ لا ينبغي أن يُحْزِنَه وقوعُه، أو أن يسوءَه لقاؤه.

وفيها: أنَّ شِدَّة الأهوال تُري المرءَ الشيء المعنويَّ الغائبَ، محسوسًا حاضِرًا.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمن أن يفيَ بما عاهدَ اللهَ عليه.

وفي الآية: تربية عظيمةٌ لمن ظنَّ بنفسه خيرًا، واتَّخذَ لها مكانًا عاليًا، وزعمَ ما لا يقدِر عليه، بأنَّ ذلك كلَّه سيتكشَّف ويتجلَّى إذا حقَّت الحقائِق.

وفيها: أنَّ تمنِّي الشَّهادة في سبيل الله أمرٌ محمودٌ؛ ولذلك أقرَّ الله عليه الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ -كما في الآية- وإنَّما المذموم عدمُ العمل بمقتَضيات هذه الأمنيَّة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

ولـمَّا كانت الغَلَبةُ للمُسلمين في أول المعركة، وفرَّ المشركون، وسقطَ لِواؤهم؛ خالفَ بعضُ الرُّماة أمرَ رسول الله ﷺ، فنزَلوا وجعَلوا يأخُذون الغنائِمَ، والتقَت صفوفُ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

المسـلمين بعضُهم مع بعض والتبَسـوا، ففاجأتهم خيلُ المشركين من الخَلْف، فوقعوا فيهم قَتْلًا، واضطـربَ أمرُ المسـلمين، حتى جعـلَ بعضُهم يـضرِب بعضًا، وقُتِلَ من المسـلمين كثيرون!

فعند ذلك صاح الشَّيطانُ: قُتِل محمَّد!

فوقع ذلك الخبر في قُلُوب كثير من المؤمنين، ولم يشُكُّوا فيه أنَّه حقٌّ، واضطرب أمرُهم، فصاروا ثلاثَ فِرَق: ثُلُثٌ جريح، وثُلُثٌ مقتولٌ، وثُلُثٌ مُنهَزِم.

فعاتـبَ الله تعـالى المؤمنين على ما حصلَ منهم من الوَهن والضَّعْف، والتأخُّر عن القتال بسبَبِ تلك الإشاعة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ بـشرٌ، مُرْسَـلٌ إلى الناس كافَّة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: مضَـتْ وانقرضَـتْ، فماتُـوا أو قتلَهم أقوامُهم وأعداؤهم، فهو سـيموت كما ماتوا قبلَه، وسيخلو كما خلَوا.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ كـما ماتَ نـوحٌ وإبراهيمُ وموسـى وغيرُهم ﴿أَوْ قُتِـلَ﴾ كـما قُتِلَ زكريّا ويحيـى وغيرُهما؛ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ رجعتُم ونكَصتُـم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ وأدبارِكم، وارتدَدتُم عن الدِّيـن، وتولَّيتُم عـن نُصرته؟! أفلا تقتَدون بأتباعِ الأنبياء السـابقين، الذين بَقوا على دينِهم بعد رحيلِ أنبيائهم؟

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ويَرْجِـع إلى الـشِّرك، ويتـولَّى عن نُصرة الله ورسـوله؛ ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّ الله لا ينتَفِع بطاعة الطائعين، ولا يتضرَّر بمعصية العاصين، وإنَّما يضرُّ المنقلِبُ نفسَه، ويتعرَّض لسَخَط الله وعذابِه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: سـيُكافئهم عـلى شُـكرهم نِعمَه، وعلى رأسـها: الهداية لدين الإسلام، بثباتهم عليه، وعمَلهم به، وبَذْلهم من أجله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرٌ، يَلْحَقه الموت، كما لَـحِق جميعَ الرُّسُل من قبله.

وفيها: إمكان مَوْت النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدًا بالقَتْل.

وفيها: رَدٌّ على مَن زعم أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمُت.

وفيها: انتِفاء الضرَر عن الله تعالى.

وفيها: الحثُّ على شُكر النِّعَم.

وفيها: تربية الله لعباده المؤمنين، على التعلُّق به، وبدينه، وأن يستمرَّ عمَلُهم بعد موت نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكون مقتَصِرًا على وجوده بينَهم، ولو مات النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّ الله -المعبودَ بحقٍّ- حيٌّ لا يموت.

وفيها: التأسِّي بمَن سلفَ من الأنبياءِ وأتباعِهم.

وفيها: قياس الحاضر على الماضي، في السُنَن الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ الرسول ليس مقصودًا لذاته؛ ولكنَّه مقصودٌ لِما أُرسِلَ به من الدِّين والهداية، وأنَّه مُبلِّغٌ لا معبود، والمُبلِّغ يموت، والمعبود حيٌّ باقٍ لا يموت.

وفيها: التحذير من الرُّجوع عن الدِّين، إذا مات المُبلِّغ أو الدَّاعية، وأنَّ مَن اهتدى على يدَيه فعليه أن يُكْمِلَ الطريق.

وفيها: أنَّه يجب أن ترتَبِطَ الاستقامة والثبات بالدِّين، لا بالأشخاص.

وفيها: إرشادٌ من الله تعالى، بأن يكون عبادُه المؤمنون على حالةٍ، لا يُزَعْزِعهم فيها عن إيمانهم فقْدُ كبيرٍ أو قُدوةٍ -مهما علَتْ منزلتُه- وذلك بالاستعداد في كلِّ أمرٍ من أمور الدِّين بعدَدٍ من أهل الكفاءات، بحيث إذا فُقِدَ أحدُهم قامَ بالأمر مَن بعدَه.

وفي هذا: أهميَّة إعداد الصف الثاني في العِلْم والدَّعوة، بحيث يكون لكلِّ عمل مُهِمٍّ وخطيرٍ رجالٌ كثيرون مُجرَّبون للقيام به، فإذا فُقِدَ مَن يتولَّاه قامَ غيرُه مقامَه. وبهذا لا تنفَرط الأمور، ولا تحدُث الثَّغْرات.

وفيها: الثبات على الحقِّ.

وفيها: وجوب الاستِمرار في مُناجَزة الأعداء.

وفيها: عدم المبالاة بارتدِاد الضُّعفاء والمنافِقين.

وفيها: أنَّ المصائِب التي تحلُّ بالإنسان، لا عَلاقة لها بكونه على الحقِّ أو الباطل؛ فأهل الحقِّ أصحاب مصائب وابتلاءات.

وفيها: أنَّه لا يُعتمَد في معرفة الحقِّ على غَلَبة أهلِه الماديَّة؛ فقد يكونون على حقٍّ لكنَّهم مُستضعَفون.

وفيها: أنَّ الحِكمة من إرسال الرُّسُل هي تبليغ الدِّين، فإذا تمَّ البلاغ فقد حصلَ المقصود من الإرسال.

وفيها: أنَّ القتال في الجهاد لا يَصِحُّ أن يرتَبِطَ ببقاء القائد أو حياته؛ فيجب إكمالُ المعركة، ولو قُتِلَ أو أُصيبَ القائد.

وفيها: أنَّ جميع الرُّسُل قد ماتوا؛ فليس منهم أحدٌ حيٌّ على الأرض، لا الخَضِر ولا النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيرهما. أما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فقد رُفِعَ إلى السماء، وهو حيٌّ، وسينزل في آخر الزمان.

وفيها: أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتَم المُرسَلين؛ لقوله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ**﴾؛ أي جميعًا.

وفيها: أنَّ رسالة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنقَطِع بموته.

وفيها: أنَّ المنتَكِس يسير إلى غير هُدًى؛ بل يسقط على قفاه، ولا يتقدَّم ولا يستقيم؛ فقد شُبِّه في الآية بـ(المنقلِب على عَقِبَيه)، و(العَقِب): هو العُرقوب في مؤخّرة القدَم، ومَن ينقَلِب على عَقِبَيه فهو كالذي يمشي مُكِبًّا على وَجْهه، يسير بغير هُدًى، وعلى غير الهيئة المعتادة، فيسقط، أو لا يستقيم في مِشيته.

وفيها: أنَّه ينبغي أن تكون المصالح العامَّة جاريةً على نظام ثابت، ومصيرُها غيرَ مرتَبِط بأشخاص.

وفيها: أنَّ الحُزن على المُصيبة العظيمة، لا يَصِحُّ أن يمنَع من مواصلة الطريق في نُصرة الدِّين.

وفي الآية: إعدادُ الأُمَّة لِما سيأتي من الأحداث العِظام، ومنها: وفاة النبيِّ ﷺ؛ ولذلك استشهدَ أبو بكر رضي الله عنه بالآية في هذا المقام العظيم؛ فقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾».

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «واللهِ، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا، حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا»[1].

وكذلك جرى إعدادُ الأُمَّة بهذه الآية، لمواجَهة رِدَّة العرَب بعدَ وفاة النبيِّ ﷺ؛ فثبتَ الصَّحابةُ الذين تلَوا هذه الآية، وعرَفوا حقيقتَها.

وفي الآية مع سبَب نزولها:

الحذَر من الإشاعات المثبِّطة؛ لأنَّها تفُتُّ في العَضُد، وتُقعِد عن العمَل.

وفيها: أنَّ الشَّيطان يُشيع الإشاعات.

وفيها: الحذَر من أخبار المجاهيل.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى أنَّ وفاة نبيِّه ﷺ -أو غيره من الناس- إنَّما هي بأمرِ الله وإذنِه وقدَرِه عزَّ وجلَّ، وأنَّه إذا بقيَ من عُمره ﷺ بقيَّة -لإكمال إبلاغِ الدِّين-؛ فلا يمكن أن يموتَ قبل ذلك؛ لأنَّ آجال النفوس مكتوبة، ولا بُدَّ أن تُستوفَى، والله تعالى هو الذي قضى بذلك.

فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: يُمتنَع غايةَ الامتناع، وليس من شأن النفوس ولا من سُنَّة الله فيها ﴿أَن تَمُوتَ﴾ مهما حاولَ الناس ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمرِه،

---

(١) رواه البخاري (١٢٤١).

وقضائِـه وقدَرِه، وعِلْمِه، وإرادته ومشـيئته. والمقصود بـ (الإذن) هنا: الإذن الكونيُّ، لا الشرعيُّ.

﴿كِتَٰبٗا﴾ كتبَه الله ﴿مُّؤَجَّلٗا﴾ أي: لأجَل معيَّن، فلا يزيد ولا ينقُص.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يكـون عمُلـه لهـا ومـن أجلهـا، ولِـحَظِّهـا ومنفعَتِها؛ ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي: نُعطِـه جـزاءَ عمَله مـا قدَّرنا له مـن الدُّنيا، قليلًا أو كثـيرًا، وليس له في الآخرة من نصيب.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ويَقصِـد بعمَلـه الصالـح أَجْـرَ الله ونعيـمَ الآخرة؛ ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ الأضعافَ المضاعَفة.

وهذه القاعدة -وإن كانت قد نزلَت في سياق آياتِ الجهاد-؛ لكنَّها تعُمُّ سائرَ الأعمال.

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ونثيب الثَّابِتين، المقرِّين له بفَضْله، الشاكرينَ لنِعَمه، المستعمِلين لها في طاعته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكْر قضاءِ الله في الموت، وقَبْضِ أرواح العِباد.

وفيها: أنَّه مهما اجتمعَ الناسُ على قَتْلِ أو إماتةِ أحدٍ لم يأذَن الله بموته؛ فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

وفيها: تشـجيع المقاتِلين في سبيل الله على خَوض غِمار الحروب، واقتِحام الأهوال، وأنَّ هـذا لن يـؤدِّي بالضرورة إلى المـوت؛ فقد يعيش الشّـجاع ويُقتَل الجبَان، ويموت الشـابُّ ويمتَدُّ العمر بالشيخ الضعيف؛ فللأعمار آجالٌ، وللآجالِ أقدارٌ.

وفيها: أنَّه لا عُذرَ في الوَهْن والضَّعْف.

وفيهـا: تشـجيع المؤمنين على لقاء العدُوِّ، وأنَّ آجالهم لـن تنتهيَ قبل الوقت المعلوم عند الله، والعمر مقدَّرٌ مكتوبٌ.

وفي الآية: إشارةٌ إلى حِفظ الله لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع غَلَبَةِ العدو، والتفافِهم عليه في غزوة

أُحُد، وقَتْلِ مَن قُتِلَ من المسلمين، وهزيمةِ مَن انهزم، وجُرْحِ مَن جُرِحَ، ولم يبقَ إلَّا القِلَّة من المؤمنين، والكافرون كثرة، ولكنَّ الله إذا حَفِظَ أحدًا فلن يضرَّه شيءٌ.

وفيها: أنَّ الله إذا أراد حِفظَ أحدٍ من الموت؛ هيَّأ لذلك أسبابًا.

ومن أسباب حفظ نبيِّه ﷺ في معركة أُحُد:

أنَّـه أخفـى مكانَه عـن أعيُن الكفَّار وصرفَهم عنـه تارةً، وجعلَ مِـن الصَّحابة مَن يقاتل دونَه تارةً أخرى، وجعلَ منهم مَن اتَّخذ من جسَـدِه دِرْعًا يقيه سـهامَ العدُوِّ، حتى وقعَت في ظهور بعضهم -وقد شَلَّت يدُ طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمَّا وقاه سَهمًا- وتارةً كان الحِفظُ بإنزال جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يقاتِلان عن نبيِّه ﷺ -وهو بينهما-.

فهذه كلُّها أسبابٌ في حِفظ الله نبيَّه ﷺ، وكِلائته له.

وفيها: أنَّ العِبرة بالأعمال هو نيَّة العبد. فمَن أرادَ بعمَله الدُّنيا؛ أعطاه تعالى منها ما شاء، ومَن أراد بعمَله الآخرة؛ جعلَ غِناه في قَلْبه، وآتاه من الدُّنيا ما يكفيه، وأوفى له أجرَه في الآخرة.

وفيهـا: أنَّ المؤثِّـر في جَلْب الثواب والعقاب هـو: الدواعي والنيَّـات والمقاصِد، وليس ظواهرَ الأعمال فقط.

وفيهـا: أنَّ مُبتَغِي الدُّنيا لا يُشـترَط أن يحدُث لـه كلُّ ما يريد؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ فقد لا يحصُل له إلَّا النزْرُ اليسيرُ، والشيءُ التافِه.

وفيها: أنَّ مَن أراد الآخرة؛ فهو من الشاكِرين.

وفيها: أنَّه يجب الاستِسلام لِـما قدَّره الله من الآجال.

وفيها: أنَّ الناس لهم مشارِب ومسالِك مختلفة في الدوافِع.

وفيها: تحذير مَن انشـغل بالغنائمِ ومتاعِ الدُّنيا عن طاعة الله ورسـوله، والتعريض به في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

وفيها: عظيم جزاء الشـاكرين؛ لأنَّ الله تعالى لم يذكُر له مقدارًا ولا حدًّا، وهذا يدُلُّ على عِظَمه.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾:

ثـم ضربَ الله تعـالى مَثَـلًا للمؤمنين المُصابـين في أُحُد، بحال المؤمنـين الذين كانوا مع الأنبياء الماضين؛ ليتأسَّـى اللَّاحِقون بالسـابقين، ويقتَدوا بهم، ويصـبِروا كصبرهم، ويثبُتوا كثباتهم، ويكون في ذلك أيضًا تسليةٌ لهم عمَّا أصابهم.

فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبيٍّ. والمقصود: أنَّهم كثير ﴿قَٰتَلَ﴾ لإعلاء كلمـة الله، وفي سـبيل الله ﴿مَعَهُۥ﴾ مـن أصحابه وأنصاره ﴿رِبِّيُّونَ﴾ يعبُـدون الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، ومنهم الفقهاء والعلماء، وقد ربَّاهم الأنبياء وتعاهَدوهم ﴿كَثِيرٌ﴾ ألوفٌ، وجموعٌ كثيرة.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: مـا جَبُن ولا فتَر هؤلاء الرَّبَّانيُّون ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ ولا عجَـزُوا عـن قتـال عدُوِّهـم بسـبَب ما أصبَهـم من جـراح، أو وَصَـب ونَصَب، ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ أي: ما ذَلُّوا ولا خضَعوا، ولا استَسْلموا لعدُوِّهم، ولا ارتدُّوا.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقِّ الجهاد، وشدائدِ التكاليف، وعلى ما أمرَهم به ربُّهم عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد -مع ما قبلها وما بعدها-:

الجَمْع بينَ المواساةِ في المُصيبة، واللَّومِ على التقصير.

وفيها: تسلية اللَّاحِقين بما أصاب السابِقين، وتصبير المتأخِّرين بمصائب المتقدِّمين.

وفيهـا: ضَرْب المثَـل للحاضِرين بثبـات مَن مضى من أهل الإيـمان؛ ليفعلوا فِعْلَهم، ولا ينهَزِموا أو يفِرُّوا.

وفيهـا: عِتـابٌ من الله لمن انهـزمَ في أُحُد، وتَرَكَ القتال لـمَّا سَـمِعَ الصائِح: «إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ»؛ فقيل لهم: إنَّ أصحاب الأنبياء السـابِقين قـد ثبَتوا رَغْم قَتْلِ أنبيائهم، ولم يَضْعُفوا ولم يجبُنوا؛ بل واصَلوا الطريق واستمرُّوا في العمل.

وفيها: أنَّ العِلْم والفِقه والتربية، هي السَّبَب العظيم في الصَّبر والتثبيت.

وفيها: اجتماع أهل الإيمان على نُصرةِ الأنبياء، والمواصلةِ في تحقيق ما أمرَ به الرحمن.

وفيها: أنَّ البصيرة تمنَع من الارتِداد.

وفيها: أنَّ صاحب الإيمان لا يَذِلُّ ولا يستَكين.

وفيها: أنَّ عبادة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ تُورِث الصَّبرَ عند اللِّقاء، والاستمرارَ في العطاء.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ يقدِّمون التضحيات الكبيرة، والشُّهَداء، في سبيل نصر الحقِّ والدِّين.

وفيها: أنَّ الجهادَ والاستمرارَ فيه من وسائل إعزازِ الدِّين.

وفيها: مُعاتَبة قِصار النَفَس، الذين تقعُد بهم المصاعِب والمصائِب.

وفيها: النهي عن الذُّلِّ والخُنوع.

وفيها: إثراء هذه الأُمَّة بخِبرات وتجارِب مَن سبقَها.

وفيها: أنَّ الجهاد كان مشروعًا لِمَن كان قبلَنا.

وفيها: أنَّ ذِكر النماذج العظيمة يُشَجِّع الإنسانَ على الاقتِداء بمَن سلفَ من الرَّبَّانيِّين، ويُغريه للَّحاق بهم.

وفيها: انحِطاط مرتبة الذين يَذِلُّون لأعداء الله، كما يؤخَذ من قوله: ﴿**وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ**﴾، وأنَّه لا ينبغي للمسلِم أن يَذِلَّ أمام عدُوِّه.

وفيها: أن أتْباع الأنبياء يبقَون أوفياء.

وفيها: أنَّ المؤمن عزيزٌ بدينه.

وفيها: أنَّ نُصرة الدِّين تحتاج إلى قوَّة القَلْب، بالإضافة إلى قوَّة البدَن والسِّلاح.

وفيها: كَثْرَة مَن قُتِلَ من الأنبياء في سبيل الحقِّ، وذلك على قراءة مَن قرأ: (وَكَأَيِّن من نَّبيٍّ قُتِل).

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى بعضَ كلام هؤلاء، الذين ثبَتوا عند لقاء العدُوِّ -ممَّن سبقونا في الإيمان-؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ في تلك الشَّدائد والأهوال، وساحات القتال، أو عندما قُتِلَ أنبياؤهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ -وهذا شأنهم، ودَأْبهم وعادتهم-: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استُرْ وتجاوَز ﴿ذُنُوبَنَا﴾ كبيرَها وصغيرَها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوُزَنا الحدَّ في أمرِ دينِنا وشأنِنا، بغُلُوٍّ أو تقصير.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند مُلاقاة الأعداء، وأفرِغ علينا صبرًا، واربط على قُلُوبنا؛ حتى لا نفرَّ منهم ﴿وَٱنصُرْنَا﴾ أي: واجعَل لنا الغَلَبَة ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بك، وبمَن أرسلتَه، وبما أنزلتَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تواضُع المؤمنين بذِكر ذُنوبهم.

وفيها: أهميَّة التوبة والاعتِراف بالذنب، في وقتِ الشِّدَّة وقيامِ المعركة.

وفيها: اللُّجوء إلى الله عند القتال.

وفيها: اعتياد الدُّعاء عند مواجَهة الأعداء.

وفيها: طلَب النصر بالاعتِراف بالذنب.

وفيها: هَضْم النفس، بالاعترافِ بتقصيرها وتجاوزِها، وإضافة الذُّنوب والإسراف إليها، مع أنَّ أصحابها من الرَّبَّانيِّين.

وفيها: اقتِران الدُّعاء بالمُصابَرة والمُجاهَدة.

وفيها: المواظَبة على اللُّجوء إلى الله، وعدم الجَزَع والتزَلْزُل، وأنَّ ذلك يَحْمِي من الفَشَل والهزيمة.

وفيها: أنَّ الذُّنوبَ والإسرافَ من عوامل الخِذلان والفِرار.

وفيها: أهميَّة الدُّعاء المذكور عند القتال.

وفيها: أهميَّة طلَب الثبات عند مواجَهة الأعداء، وعند الشُّبُهات والشَّهوات.

وفيها -مع التي قبلها-:

اقتِران كمال الأقوال، بكمال الأفعال والأحوال.

وفيها: إشارةٌ إلى أنَّ الرُّعْبَ من نتائج الذنب، والثباتَ من ثمرات الطاعة.

وفيها: أنَّ الدُّعاء عند التِقاء الصفوف لا يُرَدُّ؛ كما قال النبي ﷺ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ -أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ-: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ البَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

وفي طلب (المغفرة) قبل طلَب (تثبيت الأقدام): تقديمٌ لطلَب التَّخْلية على طلَب التَّحْلية.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾:

ولـمَّا حسُنَت النوايا، وصدَقَت الأقوال، وصحَّت الأفعال من هؤلاء المؤمنين الرَّبَّانيِّين؛ كان جزاؤهم في الدَّارَين كاملًا مَوفورًا؛ ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: بالنصر على الأعداء، والظَّفَر بالغنيمة، والتمكين في الأرض، والعِزَّة والكرامة، والأمن، والثَّناء الجميل.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: بِرِفعة الدَّرجات في جنَّات النعيم، والنجاة من عذاب الجحيم.

وإنَّما خصَّ (ثواب الآخرة) بـ(الحُسن)؛ إعلامًا بشرَفه وفَضْله، وأنَّه خالصٌ نقيٌّ من كلِّ شائبة، لا يُخالِطه عَناءٌ ولا يَلْحَقه فَناء، وهو ثواب مُضاعَفة. فجَمَعَ ثوابُ الآخرة بينَ الحُسن والفَضْل.

بخلاف (ثواب الدُّنيا)؛ فهو لا يخلو من عَناءٍ وكدَر، وهو ثواب مُكافأة لا مُضاعَفة.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادتهم لربِّهم، ونُصرتهم لأنبيائه، وإقامةِ دين الله في الأرض، ومعاملتِهم للخَلْق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إجابةُ الله دعاءَ المؤمنين، وإعطاؤهم أكثرَ ممَّا سألوا.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: الجَمْع للمؤمنين بينَ الحسَـنتَيْن، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى عن دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفيها: رَدٌّ على الغالين المتنطِّعين، الذين يُحَرِّمون طيباتِ ما أحلَّ الله لهم، ويظنُّون أنَّ هذا منافٍ للتقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وفيها: تسمية حسَنة الدُّنيا بـ (الثواب)؛ لأنَّه جزاءٌ مُعَجَّل على الطاعةِ وامتِثالِ أوامر الله تعالى.

وفيها: صفاء ثواب الآخرة، وأنَّه لا يشـوبه أذًى ولا تنغيصٌ، بخلاف ثواب الدُّنيا؛ فإنَّه مهما كَثُر يُعَدُّ قليلًا سريعَ الزوال.

وفيها: أنَّ الاستِمتاع بما أفاء الله على المؤمنين من ثواب الدُّنيا -كالمغانم وغيرها- لا يُنافي الزُّهْدَ فيها، ولا يتعارَض مع رِضوانِ الله، ومضاعَفةِ ثواب الآخرة.

وفيها: أنَّ من صفات المُحسِـنين: الاعتِراف بالإسـاءةِ والتقصيرِ، فقد كان من دُعائهم -كما في الآية السابقة-: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾.

وفيها: أنَّ الإحسان سبيلٌ إلى محبَّة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

وفيهـا: أنَّ ثـواب الدُّنيا لهذه الأُمَّة أعلَى من ثواب غيرهـا؛ لأنَّ المغانِم أُحِلَّت لنا ولم تُحَلَّ لمن قبلَنا، وإنَّما كان ثواب الدُّنيا لهم بالنصر والأمن والتمكين، دون غنائم المعركة.

وفيها: سَـعَة رحمةِ الله وكَرْمِه؛ فإنه يُثيب المطيـعَ بثوابَيْن في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا العاصي إذا أُقيمَ عليه الحدُّ في الدُّنيا؛ فلا يُعاقَب به في الآخرة.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله، وأنَّها حقيقيَّة، وهي من الصِّفات الاختياريَّة لله عَزَّوَجَلَّ المتعلِّقة بمشيئته، ولا يجوز تأويلُها إلى: الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازِمها وما يترتَّب عليها، فنُثبِت (المحبَّة) لله، ونُثبِت لوازِمَها -من الإثابة والإكرام وغيرها-.

ففيها رَدٌّ على المُنكِرين لهذه الصِّفة، الذين قالوا: إنَّ الحُبَّ لا يكون إلَّا بينَ المتجانِسَـيْن -كالبشر مع بعضهم البعض-!

والجواب: أنَّ الحُبَّ متُبادَلٌ بين الأجناس المختلفة، كالحبِّ بين المؤمنين والملائكة، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جَبَل أُحُدٍ -وهو جماد-: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[1].

فما يفعلُه نُفاة الصِّفات من تأويل المحبَّة وغيرها، بحُجَّة تنزيهِ الله عمَّا لا يليق به؛ هو في الحقيقة تعطيلٌ للصِّفات، وتحريفٌ لها عن معانيها، وجَحْدٌ لِما أثبتَه الله تعالى لنفسه.

وفيها: دليلٌ لمن قال: إن المَغنمَ الدُّنيويَّ لا يؤثِّر على الثواب الأُخرويّ، إذا خلَصَت النِّيَّة، ولم تتعلَّق قُلُوب المقاتِلين بالدُّنيا، فما يحصل لهم دونَ إرادةٍ منهم لا يُنقِص شيئًا من أجورِهم الأُخرويَّة. بخلاف مَن كان قصدُه السعيَ إلى تلك الغنائِم، وتعلَّقَ قلبُه بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المقتَدِين بالأنبياء؛ حذَّر -الصحابة والمؤمنين- من اتِّباع سبيل الكفَّار والأعداء -وهم مصادِر الخطر الخارجيّ على الدِّين- في مسيرة جهادِهم المبارَك؛ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداءٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، تنبيهًا لهم على الاعتِناء بما سيُحَذِّرهم منه. وناداهم بوَصْف الإيمان؛ إغراءً لهم على الالتِزام بذلك.

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾ وتُتابِعوا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أنزلتُ وبمَن أرسلتُ ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ عن الإيمان ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وأدبارِكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ أي: ترْجِعوا. و(الانقِلاب): هو التحوُّل من حال إلى حال ﴿خَٰسِرِينَ﴾: مَغبونين في الدُّنيا والآخرة؛ فأمَّا خُسران الدُّنيا: فبخُضوعكم لسُلطانهم، وذِلَّتكم لهم، وحِرمانكم من السعادة والتمكين. وأمَّا خُسران الآخرة: فبالحِرمان من الثواب، والوقوع في العذاب.

ولا يبعُد أن يكون الخُسرانُ الأول واقعًا في زماننا، والله المستعان، ونسأل الله تعالى التوبة والإنابة وإصلاحَ الأحوال.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي: لا تُطيعوهم؛ فإنَّ لكم مَن هو خيرٌ منهم، يتولَّاكم إذا تولَّيتُموه، وينصُركم إذا أطعتُموه؛ وهو ربُّكم سبحانه.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وأقواهم وأفضَلهم؛ فلا حاجة معه إلى نُصرة أحدٍ، كائنًا مَن كان.

وفي الآيتَين من الفوائد:

التنبيه بالنِّداء، للعِناية بالشيء والاهتِمام به، والنِّداء بصفة الإيمان فيه إغراءٌ للمؤمِنين وتشجيعٌ لهم، على الالتزامِ بما يأمرهم الله به، وتَرْكِ ما ينهاهم عنه.

وفيها: أنَّ طاعة الكفَّار تخالِف مقتَضيات الإيمان.

وفيها: التحذير من مُتابَعةِ اليهود والنصارى والمشرِكين، والرُّكونِ إليهم، سواءً كان خوفًا منهم، أو إعجابًا بهم، أو انجِذابًا لِما زيَّنوه من الكلام والآراء.

وفيها: أنَّ التحذير من متابعة المشرِكين إنَّما هو في أمور الدِّين والعِبادة، وأمَّا الانتِفاع بهم في أمور الدُّنيا المحضة -كالصِّناعات، وأسباب القوَّة الدُّنيويَّة، والتقدُّم التكنولوجي، ونحو ذلك-: فلا حرجَ فيه؛ بل هو مطلوبٌ، وهو من الأَخْذ بالأسباب، ويُستعان به على جِهادِهم ومُواجَهتهم.

وفيها: التحذير من الرِّدةِ، والتحوُّلِ من الإسلام إلى الكُفر.

وفيها: تحذير المؤمنين من طاعة المنافِقين، الذين قالوا لهم يوم أُحُد: «ارْجِعوا إلى دين آبائكم، واترُكوا دينَ محمَّد»!

وفيها: أنَّ الله تعالى يتولَّى المؤمِنين، ويخذُل الكافرين.

وفيها: أنَّ مَن نصرَه الله وتولَّاه؛ فلا يُخذَل، ولا يُغلَب.

وفيها: أنَّ طاعة الكافرين وسيلةٌ إلى الكُفر والرِّدَّة.

وفيها: أنَّ الكُفر خسارةٌ، والإيمان رِبحٌ.

وفيها: تكريم المؤمنين بالولاية الخاصَّة من ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ نصر المؤمنين في الدُّنيا، قد يكون بالغَلَبة في معارك السِّلاح والقتال، أو في المناظَرات بظهور الحُجَّة والبيان. وقد يكون في حياة بعض المؤمِنين ممَّن شاركَ في القتال، أو بعدَ موتهم -فيراه مَن بعدَهم مِن إخوانهم-. والنصر يومَ القيامة لهم، لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفيها: ذِلَّة مَن استنصر بالأعداء، وأنَّ الخِذلان عاقبتُه -ولو بعد حين-.

وفيها: أنَّ الثبات على الدِّين ومخالَفة الكافرين، هو انتصارٌ بحَدِّ ذاته.

وفيها: التحذير من شُبُهات الكافرين. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «لا تستَنْصِحوا اليهود والنصارى، وتَقْبلوا منهم؛ لأنَّهم كانوا يستغوون المؤمنين، ويُوقِعون لهم الشُّبَه في الدِّين، ويقولون: لو كان نبيًّا حقًّا لـمَا غُلِبَ، ولـمَا أصابَه وأصحابُه ما أصابَهم، وإنَّما هو رجلٌ حاله كحال غيره من الناس: يومًا له، ويومًا عليه»(١).

وفيها: عدَم الاستكانةِ للكفَّار، أو النزول على حُكْمِهم، أو استشارتهم، والحذَر من استئمانِهم؛ فالغِشُّ طبعُهم، وخِيانة الأمانة من صفاتهم.

وفيها: تَرْكُ الاستِنصار بغير الله، وطلَبُ النصرِ منه وحدَه سبحانه.

وفيها: أنَّ المؤمنين لا يحتاجون إلى نصر أحدٍ مع نصر الله. وأنَّ ما يقيِّضه الله لهم من نُصرة بعض الخَلْق لهم، أو دفاعهم عنهم، أو إعانتهم -بأيِّ وجه من الوجوه-؛ فهو سبَبٌ من الله، وتوفيقٌ منه.

وفيها: دَفْع توهُّم نَيْل العِزَّة بالدُّخول مع الكفَّار الأقوياء؛ لأنَّ هؤلاء الكفَّار لن يُسلِّموا مقاليدَ الأمور للمؤمنين، ولن يتركوا لهم القيادة؛ بل سيُدخِلونهم معهم في تحالُفاتِ ذُلٍّ وصَغارٍ وتبعيَّةٍ، يُلْزِمونَهم فيها بما يرَونه، ويأمرونَهم بما يريدونَه، ويُذِلُّونهم ويتسلَّطون عليهم، ويتحكَّمون فيهم. وهذا واقعٌ، فالكفَّار يُذِلُّون إخوانَهم الكفَّار (وهم على دينهم) ممَّن هم أقلُّ قوَّة -إذا دخلوا معهم في تحالُفات سياسيَّة-؛ فإذلالهم للمسلمين من باب أولى.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ٨٢).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾:

ولـمَّا انصرفَ المشرِكون من أُحُد؛ راجعَ بعضُهم بعضًا في طريق العودة: لماذا لم يستأصِلوا المسلمين؟ ويُجهِزوا على مَن بقيَ منهم، وأرادوا الرُّجوع لهذا الغرَض، وسَمِعَ المسلمون بالأمر، فأصابَهم الخوفُ؛ فطَمْأنَهم الله تعالى بأنَّ قُرَيشًا لن يَرْجِعوا، وأنَّه سيُلقِي في قلوبِهم الرُّعْب؛ لئلَّا يفعَلوا ما أرادُوا.

فقال تعالى ﴿سَنُلْقِي﴾: ذَكَرَ الفِعْل هنا بصيغة الجَمْع للتعظيم، و(السين) تدُلُّ على قُرْبِ وقوع الإلقاء، وتأكيدِه وتحقيقِه.

﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: في تقديم ذِكْر مكان الإلقاء -وهو القَلْب- على المُلقَى؛ اهتمامٌ بالمحلِّ ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ وهو أشدُّ الخوف. والقَلْب إذا دخلَه الرُّعب؛ فلا يمكن للبدَن أن يثبُت.

وقد ثبتَ في «الصحيحَين»[1]، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...» الحديث.

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ (الباء) للسَّبَبيَّة، أي: بسبَبِ شِرْكهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ولا بُرهانًا، ولا حُجَّة.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مَرْجِعهم، والدَّار التي أُعِدَّت لتعذيبهم ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المثوى): هو مكان الإقامة الطويلة. وذِكْرُ (المثوى) بعد (المأوى) للترتيب؛ لأنَّ الإنسان يأوي إلى المكان، ثم يَثْوي فيه؛ فالنَّار مصيرُهم ومقرُّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

نُصرة الله لنبيِّه ﷺ والمؤمنين، بإلقاء الرُّعْب في قُلُوب أعدائهم.

وفيها: أنَّه إذا نزلَ الرُّعْب في القُلُوب؛ حصلَت الهزيمة.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وفيها: حَيلولة الله تعالى بينَ المشرِكين، وبين الوصول إلى تحقيق مآرِبهم.

وفيها: أنَّ الإشراك بالله سببٌ لحصول الرُّعْب.

وفيها: أنَّ الكفَّار أشدُّ تأثُّرًا بالرُّعْب من غيرهم؛ لأنَّهم يكرَهون الموت، ويؤْثِرون الحياة الدُّنيا، ولا آمال لهم في الآخرة.

وفيها: فساد مذهب المشرِكين، الفاقِد للحُجَّة والبرهان، وأنَّه تقليدٌ أعمى.

وفيها: إلقاء الله هيبةَ المؤمنين في نفوس أعدائهم؛ لتُصبِحَ مضطربةً، ممتلئةً بالهَلَع.

وفيها: أنَّ القَلْب هو أشدُّ الأعضاء تأثُّرًا وتأثيرًا.

وفي ذِكْر إلقاء الرُّعْب، بعد قوله ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: بيانٌ بأنَّ الرُّعْب أقوى أسباب النصر، وهو تأييدٌ من الله تعالى، يعُمُّ المؤمنين في وقت النبي ﷺ، وبعدَه.

ومفهوم الآية يدلُّ على: أنَّ الأمن يُلقَى في قُلُوب المؤمنين -لتوحيدِهم-؛ لأنَّ ما ثبتَ لشيءٍ، ثبتَ ضِدُّه لضدِّه.

وفيها: بُطلان الشِّرك -عقلًا وحِسًّا-.

وفيها: قُبح وبُؤْس مساكِن المشرِكين يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ النصر الذي وقعَ للمسلمين في بداية المعركة، ثم أعقبَتْه الهزيمة؛ قد أعقبه نصرٌ آخر من الله تعالى؛ فكانت الهزيمة بينَ نصرَين -سابقٍ ولاحقٍ-. وفي هذا: تخفيفٌ لوقوع الهزيمة، ومداواةٌ للنفوس، وفيه شيءٌ من التعويض.

وفيها: تسميةُ الحُجَّة (سُلْطانًا)، وفي ذلك دليلٌ على قوَّتِها ونفوذِها وسُطوعِها.

وفيها: أنَّ الكفَّار لـمَّا عطَّلوا عقولَهم عن استعمالها في الحقِّ؛ أصابَها الله بالرُّعْب.

وفيها: أهميَّة الحَرْب النفسيَّة.

وفيها: أنَّ العِبرة بالحُجَّة هو البُرهانُ الإلهيُّ، النازل من عنده سبحانه، دون آراء البشر المجرَّدة؛ فما لم يعتبِره الشَّرْع من الحُجَج: فلا قيمة له.

وفيها: أنَّ إلقاء الرُّعْب في نفوس الكفَّار نصرٌ للمؤمنين، بلا كُلْفة، ولا خسائر.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾:

ثـم ذكـرَ الله تعالى كيف بـدأت معرَكةُ أُحُـد، وما حصلَ بعـد ذلك من التغيير، بسـبَب تقصيرِ المؤمنين ومعصيتهم، وما نتجَ عن ذلك من الهزيمة، ثم ذكرَ صَرْفَه الكفَّارَ عن العودة لاستِئْصال المؤمنين، ثم ذكر مِنَّته وفَضْلَه على عباده؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ﴾: تأكيدٌ بالقَسَم و(اللَّام) و(قد)؛ فالتقدير: «وعزَّتي وجلالي، لقد صدقَ الله المؤمنين وعدَه».

﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ أي: أنجزَه وحقَّقه، بنصركم على عدُوِّكم في أول المعركة؛ ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتُلونهـم قَتْـلًا شـديدًا ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾: بإرادته، ومعونته، وتسـليطه إياكم عليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾: جَبُنْتُـم وعجَزتُـم ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ اختلفتُـم ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ أمْـرَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالثَّبات في مواقعكم، وعصيتُم ربَّـكم بالتولِّي والفِرار ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ في أول النهـار وأول المعركة، رأيَ عَيْنٍ ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظَّفَر، وانهِزام العدُوِّ، وتَرْكِه المغانِم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بقتالـه -حينئـذٍ- ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ والمقصـود: الغنائم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجِهاده ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: ثوابها.

قال ابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُريد الدُّنيـا، حتـى نزلَ فينـا ما نزل يـوم أُحُـد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾»(١).

ولـمَّا غابَ أنسُ بنُ النَّضر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن غزوة بَدْرٍ؛ عاهدَ الله قائلًا: لَئِنِ اللهُ أَشْـهَدَنِي قِتَالَ

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٨).

المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ! فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ؛ قال: الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ!

فقاتَلَ وقُتِل، وضحَّى بنفسه، حتى إنَّهم وجدوا به بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، ومثَّل به المشركون، فما عرفته إلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ!

يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»(١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بالهزيمة، التي حصلَت لكم، فردَّكم عن الكفَّار؛ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم، ويمتحن صبرَكم في المصائب، وثباتَكم على الإيمان.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وتجاوزَ، مع قُدرته على العقوبة، ومنعَ الكفَّار من العودة لاستئصالكم، وأبقى مَن أبقى منكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: في مغفرةِ ذُنوبهم، وحِفظِ نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبقاء دولتهم، وتربيتهم بالأحداث.

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا من الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله بنَ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا».

فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الله: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لاَ تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا.

وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ»، فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ»، فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا!

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

فَلَـمْ يَمْلِـكْ عُمَرُ نَفْسَـهُ، فَقَـالَ: كَذَبْتَ يَا عَـدُوَّ الله، أَبْقَى الله عَلَيْكَ مَا يُخْزِيـكَ! قَالَ أَبُو سُـفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: الله أَعْلَى وَأَجَلُّ».

قَـالَ أَبُو سُـفْيَانَ: لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ! فَقَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»، قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: الله مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى لا يُخلِف الميعاد، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ قد صدقَ وعدَه المؤمنين.

وفيها: أنَّ انتصار المسلمين في أول معركة أُحُد، كان قويًّا وكاسحًا، وأنَّه قُتِلَ من الكفَّار عددٌ لا بأس به.

وفيها: الحثُّ على اجتِماع الكَلِمة، وخصوصًا في المعارك، وخطورة تنازُع الجيش في وقت الحَرْب.

وفيها: شُؤْم معصية الأمير، ووجوب التِزام المواقِع التي حدَّدها لأفراد الجيش.

وفيها: خطورة إرادة الدُّنيا، وتأثير ذلك في الهزيمة، وأنَّه يُضْعِف الرأي والعمل.

وفيها: أنَّ بعض المسلمين لم يستَطِع حبسَ نفسِه عن إغراء الدُّنيا، رَغْم أنَّه في قتالٍ وجهادٍ.

وفيها: أنَّ المعصية تقلِب النصر إلى هزيمة.

وفيها: أنَّ النِّزاع والمعصية سببٌ للخِذلان.

وفيها: أنَّ المعصية بعد النِّعمة، أشدُّ من المعصية قبل النِّعمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣).

وفيها: أنَّ الله يبتلي؛ ليميِّزَ الصادِقَ من المنافِق، وأهلَ الصَّبر من أهل الجَزَع.

وفيها: أنَّ المؤمن قد يرتَكِب الكبيرة.

وفيها: بُعْدُ نظَرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُسنُ معرفتِه بإدارة المعارِك.

وفيها: الاجتِهاد في سَدِّ الثَّغْرة، التي يُمكِن أن يأتي منها العدُوُّ.

وفيها: أنَّ المؤمنين رَأَوا النصرَ بأعيُنهم.

وفيها: أنَّ إغراءات الدُّنيا تُحدِث الانقِسامَ في صفوف المؤمنين.

وفيها: فَضْل الله تعالى على المؤمنين؛ حيث عفا عن جميع المؤمنين، الذين عصَوا أو فرُّوا من معركة أُحُد، وأنَّه لا يجوز التثريبُ عليهم، ولا تعييرُ أحدٍ منهم بذلك.

وفيها: شِدَّة الصَّحابة على أعداء الله؛ كما حدثَ في أول المعركة، من إيقاعهم القَتْلَ الشديد فيهم، وقد وصفَهم الله تعالى في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: ضرَر النِّيَّات المختلَطة بإرادة الدُّنيا مع الآخرة.

وفيها: سَتْر العاصي؛ لأنَّ الله تعالى خاطبَ الصَّحابة جميعًا بمعصيةِ بعضهم، فقال: ﴿فَشِلْتُمْ﴾، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾، ﴿وَعَصَيْتُم﴾.

وفيها: أنَّ الواجب على مَن أنعمَ الله عليه، أعظمُ ممَّا يجب على غيره.

وفيها: الاستِفادة من المُصيبة، في أخذ الدُّروس والعِبَر والفوائِد.

وفيها: تربية المؤمِنين من خلال الأحداث التي تقع لهم.

وفيها: أنَّ معصية بعض المسلمين تكون سببًا لوقوع القَتْل فيهم، ولكن لا يلزَم أن يكون المقتول مُقَصِّرًا، أو أن يكون القَتْل عقوبةً؛ فقد قُتِلَ عبدُ الله بنُ جُبَير أميرُ الرُّماة -مع ثباته- بسبَبِ تولِّي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ الله يتفَضَّل على المؤمنين، ولو في المُصيبة؛ بتكفير الذُّنوب، والرحمة في الابتلاء، وتطهير النفوس من المعايب، وأن يجعلَها تذكرةً لهم، وآيةً وعِبرة في المستقبَل.

وفيها: أنَّ الفَضْل لا يمنَع العُقوبة.

وفيها: التحذير البليغ من الاستِهانة بالمعصية؛ فقد أصابَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما أصابَهم من البلاء والغَمِّ والقَتْل والجِراح والهزيمة بسبَبها، وهم أصحاب النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا معه، وخرجوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله. فما بالُ بعض العُصاة والفاسِقين اليومَ، يرتكب الذُّنوبَ والجناياتِ، ويُصِرُّ عليها، ولا يخشى آثارَها، ويحتَجُّ بعفو الله وسَتره؟! وهذه استهانةٌ وجُرأة على الله.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

ثُم قالَ الله تعالى، في وَصْف الهزيمة التي حصلَت يومَ أُحُد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي تَهرُبون سِراعًا في الصَّعيد -وهو الأرض المستوية- وهذا هو (الإِصْعاد).

والمقصود بالآية: مَنْ وَلَّى من المُسلمين مُنهزِمًا، ثُم رجَعوا وتابَ الله عليهم. فالتقدير: ولقد عفا الله عنكم، إذْ تُصْعِدون هارِبين. أو: صرفَكم عنهم إذ تُصْعِدون هارِبين.

وقيلَ: إنَّ بعض المُسلمين لـمَّا ضيَّقَ عليهُم الكُفار في الوادي؛ صعَدوا الجبل.

وقوله ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لا تلتفِتون وراءكُم -هَرَبًا وفِرارًا- ولا يلتفِت بعضُكم إلى بعض، ولا يقف الواحد منكم للآخر، من شِدَّة الدَّهشة والخوف.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ قائلًا: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله»، ويُنادِيكم لِتَرْجِعوا ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ من ورائِكم، وهو واقِفٌ في جماعَتِكم المُتأخِّرة، وفي ساقة الجيش. وهذا موقف الأبطال في أعقاب الناس.

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصَّة أُحُد، قال: «فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ الله بْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ، أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ، فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: والله، لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ من الغَنِيمَةِ! فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ،

فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ...»(١).

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ (ثاب) أي: رجعَ، و(الثواب): كلُّ ما يعود على الفاعل من جزاء فِعْله -خيرًا أو شرًّا-.

فإذا كانَت (الإثابة) هنا بمعنى: العقاب على الهرَب والفِرار: فالغَمُّ الأول: هو: الهزيمة وما فاتَهم من الظَّفَر والغنيمة، والغَمُّ الثاني هو: ما نالَهم من القَتْل والجِراح والهزيمة.

وإذا كان المقصود بـ(الإثابة): المِنْحة، والمُواساة على المصيبة؛ فيكون الغَمُّ الأول هو: الهزيمة وما أصابَهم من القَتْل والجِراح وفوات الغنيمة، والغمُّ الثاني هو: صَدمَتهم بإشاعة مقتَل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنساهُم الغمُّ الثاني الغمَّ الأول! فلَمَّا تبيَّن لهم عدمُ صِحَّة الإشاعة؛ انكشفَ الغمُّ الثاني، وكان الغمُّ الأول قد هانَ!

﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي: من أجل ألَّا تحزَنوا وتتأسَّفوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من النصر والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من القَتْل والجِراح والهزيمة.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: عليمٌ ببواطن الأمور، وبمقاصدِكم، ونيَّاتكم، ومُطَّلِعٌ على أعمالكم -من خيرٍ أو شرٍّ-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تذكيرُ الله المؤمنين بنِعَمه عليهم في أوقات الشِّدَّة؛ ليشكروه، وتذكيرُه لهم بعقوبته إيَّاهم على تقصيرهم؛ ليستَدْرِكوا ولا يعودوا لمثله أبدًا.

وفيها: ثبات النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المعركة، وتذكيرُ المؤمنين بذلك؛ ليقتَدوا به.

وقد ثبتَ في الصحيحَين(٢)، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ»، يَعْنِي: جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

وفيها: تذكير الذين ولَّوا مُدبِرين بهيئتهم المذمومة؛ تنفيرًا منها، وحتى يستحيي المنهزِم؛ فلا يعود لمثلها أبدًا.

وفيها: أنَّ خيار الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يعتَريهم ما يعتَري بقيَّة البشر، من الخوف ونحوه، لكنَّهم سَرْعان ما يَؤوبون، ويتوبون، ولا يعودونَ لمثله.

وفيها: حِكمة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، في اللُّجوء إلى الجبل، في مكانٍ يجتَمع فيه مَنْ رجعَ من جنوده.

وفيها: أنَّ الغُموم يُنسِي بعضُها بعضًا، وأنَّها من طبيعة هذه الدُّنيا؛ لئلَّا يتعلَّق بها الإنسان.

وفيها: أنَّ المسلمين في أُحُدٍ قد اجتمعَت عليهم مصائبُ متعدِّدة؛ منها: القَتْل، والجِراح، والهزيمة، وفَوات الغنيمة، وإشاعة مَقتل النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما حصلَ من إصابته وجَرْحه.

وفيها: تواضُع النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قيادته للجيش؛ حيث كان يسيرُ خلفَهم أحيانًا.

وفيها: تَسلية المؤمنين، والمعالَجة النفسيَّة لِما أصابَهم.

وفيها: نداء القائد جنودَه الشارِدين؛ ليَفيؤوا إليه، ويقاتِلوا معه.

وفيها: تمرينٌ للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ على المصائِب، واحتمالِ الشَّدائد.

وفيها: منقبةٌ عظيمةٌ لمن استجابَ لدُعاء النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقاتَلَ دونه، كطَلْحةَ، وسَعْدٍ، والأنصارِ السَّبعةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ التذكير بعِلْم الله ببواطن الأمور، موعظةٌ تمنعُ أهلَ الإيمان من الوقوع في العِصيان.

وفيها: تربية النفوس على عدَم التأسُّفِ على ما فاتَ من الدُنيا.

وفيها: تجاوز أثرِ المُصيبة؛ استعدادًا للعمَل في المستقبَل.

وفيها: اغتِمام الصَّحابة بعُلُوِّ المشرِكين عليهم فوقَ الجبل، وهذا من إبائِهم، وحَميَّةِ نفوسِهم للإسلام، وبُغْضِهم للكُفر وأهله.

وفيها: أنَّ لله أسرارًا وحِكَمًا في ثنايا البلايا والمِحَن.

وفيها: شِدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى كان خبرُ قَتْلِه أشدَّ عندهم من كلِّ مُصيبة، وكانوا يَفدونَه بأنفُسِهم.

وفي إشاعة قَتْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

تربيةٌ لهم على تقبُّلِ خبر موته، واستمرارِهم للعمَل لدين الله بعد وفاته.

وفي تلك الإشاعة أيضًا: إرجافُ الشَّيطان، والمشرِكين بالمؤمنين.

وفي الآية: أنَّ ظهور كَذِب إشاعة مَقتل النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان علاجًا عظيمًا لمصائِب الصَّحابة في تلك المعركة؛ فقد كان فَرَحُهم بكَذِب الإشاعة طاغيًا على ما أصابهم من الأحزان.

وفيها: أنَّ المُصيبةَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنسي المؤمنين جميعَ مصائبِهم.

وفيها: أنَّ اختِفاء القائد سببٌ لظهور الإشاعات.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

ولـمَّا نزلَت بالمسلمين المُصيبةُ العظيمةُ، بالقَتْلِ والجِراحِ وعُلُوِّ الأعداء عليهم؛ أصابهم غمٌّ كبيرٌ بسبَبِ ذلك، وكانوا يخافون أيضًا أن يتوجَّه المشرِكون إلى المدينة بعد انصِرافهم من المعركة؛ فكان من رحمة الله تعالى بهم: أن خفَّف عنهم هذا الغمَّ ونَفَّسه، بنُعاسٍ غشيَهم في آخر المعركة، كان سببًا في إراحة أجسادِهم المُنهكةِ، وطَمْأنةِ نفوسِهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾** أي: طُمأنينة في القَلْب.

ومن الفروق بينَ (الأمن) و(الأَمَنَة): أنَّ (الأمن) يكون مع زوال أسباب الخوف، و(الأَمَنَة) طُمأنينة مع بقاء أسباب الخوف. وكان سبَبُ الخوف لا يزال باقيًا؛ لأنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يخشَون من عودةِ المشرِكين لاستِئصالهم، أو ذهابِهم لاجتياح المدينة.

﴿نُّعَاسًا﴾ أي: غشـيَهم نُعاسٌ؛ ليسـتَرِدُّوا ما فقَدوا من القـوَّة، ويذهَب عنهم الإرهاقُ والتعبُ الذي أصابهم بالقتال.

وقولـه تعـالى: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾: هم المؤمنـون الذين بقُوا واجتمَعـوا في مَيْدان المعركة -من المهاجرين والأنصار-.

وقد قال أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّـاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَـقَطَ سَيْفِي من يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ»[١].

وفي روايـة عنـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ[٢] من النُّعَاسِ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾[٣].

﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ أي: جماعـة من المنافِقين، أو مـن ضِعاف الإيمان ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: كلُّ همِّهـم في خَـلاص أنفُسِـهم، ونجاتها مـن القَتْـل، فأذْهَلَهم الخـوفُ، حتى صاروا مشغولين عمَّا سواهم.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ويعتَقِـدون اعتقادًا سـيِّئًا وفاسـدًا ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: مـن الباطل، بأنَّ الله لا ينـصر نبيَّـه محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ونحو ذلك- وظنُّهم هـذا ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: قول أهل الجَهْل، كقولهم: لو كان محمَّدٌ نبيًّا حقًّا؛ ما سلَّط الله عليه الكفَّار!

﴿يَقُولُونَ﴾ بنـاءً عـلى ظنِّهـم الجاهـليّ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: هـل لنا من نصر أو فتح، ممَّا وعدنا به محمَّد؟ أي: لا نصيبَ لنا من ذلك.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهؤلاء المنافِقين: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ﴾ مـن النـصر والغَلَبة، أو الهزيمـة والمُصيبة، وغيرها من الأمور التـي هي من قَدَر الله ﴿لِلَّهِ﴾: يقضي به كما يشاء، ويُدَبِّره ويُصَرِّفه كيف يشاء.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٢) أي: يتحرَّك ويميل من جانب إلى جانب، تحت تُرْسه.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٠٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ يعنـي اعتقادَهـم الباطـل، وما سـبق من كلامهـم ﴿مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ أي: ما لا يجرؤون على إظهاره لك.

﴿يَقُولُونَ﴾ أيضًـا في الخَفـاء: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ مـن التدبـير والـرأي والاختيـار؛ ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ أي: في أرض المعركة. والمعنى: لـو أنَّ محمَّدًا جعلَ لنا منزلةً، وأعطانـا نصيبًا في اتِّخـاذ القرار، وأخذَ برأينا عندما أشرنَا عليه بعدم الخروج من المدينة؛ لـمَّا حصلَت هذه المقتلة الكبيرة في أرض أُحُد!

فقـال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُل﴾ لهم -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ﴾ بقيتُم ﴿فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: في المدينـة، ولم تخرُجـوا إلى أُحُـد؛ ﴿لَبَرَزَ﴾ أي: ظهـرَ وخرجَ ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ -في اللَّـوح المحفـوظ- من بيوتهـم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ أي: المواضع التي قدَّر الله تعالى أن يُقتَلوا فيها.

والمعنى: أنَّ مَن قدَّر الله موتَه وقَتْلَه بموضعٍ؛ فسيُهيِّئ، ويقدِّر له سببًا يخرج به من بيته، إلى هذا المكان الذي قدَّره الله عليه. و(المضاجع) أيضًا: القبور؛ لأنَّ الأموات يُضجَعون فيها.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّما قدَّر الله هذه الأقدارَ والأحداثَ؛ ليختبر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي: القُلُوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والمقصـود بـ(ابتـلاء القُلُوب): إظهار ما فيها مـن السَّرائِر والاعتِقـادات، وما انطوَتْ عليه من الإخلاص أو النِّفاق.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ أي: يُصَفِّـي ويُطَهِّـر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ مـن وسـاوس الشَّـيطان، والشَّكِّ والارتياب.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مُطَّلعٌ على السرائر والضمائر، وما فيها من الخفايا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقِـلاب الموازيـن عند المنافِقـين، فيظنُّون أنَّ المنتَـصِر دائمًا على حقٍّ، والمهـزومَ دائمًا على باطـل! وهـذا باطـلٌ؛ فقد يبتـلي الله أهلَ الحـقِّ بمُصيبةٍ في معركة، ويسـتَدْرِج أهـلَ الباطل بانتِصارهم فيها.

وفي الآيـة: كَشْـفُ الله خبيئـات نفـوس المنافِقِين؛ بإظهـار ما أخفَـوه في صدورهم، وما أسرُّوه فيما بينَهم من الكلام، كقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

وفيها: أنَّ إساءة الظنِّ بالله من خِصال المنافِقين.

وفيها: أنَّ إساءة الظنِّ بالله من الجاهليَّة. فمَن ظنَّ بأنَّ الله لا يُعلِي دينَه، ولا ينصُر عبادَه المؤمنين؛ ففيه لَوْثَة من لَوْثات الجاهليَّة؛ أي: أنَّه جاهلٌ بالله، جاهلٌ بسُنَنه في العِباد.

وفيها: أنَّ صاحب الجَزَع لا يهنأ بنوم ولا راحة. وأمَّا المؤمن بقدَر الله، المُطمَئِنَّ لوَعده؛ فيُكافئه الله براحةِ نفسِه، وينام قريرَ العَين.

وفيها: أنَّ مصير دين الإسلام لا تُحَدِّده معركة واحدة.

وفيها: أنَّ من سُنَّة الله: إظهارَ أقوالِ المنافِقين، وأفعالِهم، وكَشْفَها للمؤمنين.

وفيهـا: أنَّ الله يبتـلي عبادَه؛ لاسـتخراج مـا في صدورهم من الإيـمان أو الكُفر والنِّفاق، وليتبيَّن للناس ما انطوَتْ عليه من حُسن الظنِّ أو سوء الظنِّ بالله.

وفيها: أنَّ الله لا يدَعُ أهلَ الأخلاط؛ حتى يُميِّز الخبيث من الطَّيِّب.

وفي الآيـة: أنَّ شَرَف منزِلـة النُّبـوَّة، لا يُنافي ابتـلاءَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذًى في جسَـدِه، أو نفسِه.

وفيها: أنَّ الحذَر لا يدفَع القدَر، والتدبير لا يمنع التقدير.

وفيهـا: أنَّ الأسـباب -مهـما عظُمَـت- إنَّما تنفـع إذا لم يُعارِضهـا القدَر والقضـاء، فإذا عارَضَهـا القدَر لم تنفَع شـيئًا، بل لا بُدَّ أن يمضيَ الله ما كتـبَ في اللَّوح المحفوظ، من الموت أو الحياة.

وفي الآية: رحمة الله بالمؤمنين، في إذهابِ غُموم نفوسِـهم وإراحةِ أبدانهم، بإلقاء النُّعاس عليهـم. وقـد قال ابـن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «النُّعـاس في القتال أمَنَـة مـن الله، وفي الصَّلاة من الشَّيطان»(١).

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٤٩٩)، والطبري في تفسيره (٧/ ٣١٩).

وفيها: أنَّ شديد الخوفِ والغَمِّ لا يكاد ينام.

وفيها: إثبات الكرامات لأهل الإيمان.

وفيها: تقديم مصلحة الإسلام على مصلحة النفس، وأنَّ المنافِقين قد خالَفوا ذلك.

وفيها: وجوب الوثوق بوَعد الله، وأنَّ المنافِقين قد شكُّوا في ذلك.

وفيها: تمييز الصفِّ بالابتِلاء.

وفيها: استِخراج ما في نفوس المنافِقين من الباطل، ولِيظهَر أمرُهم وينكشفَ؛ فيحذَرهم المؤمنون.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ قد لا ينتَصِرون في بعض المعارك؛ اختبارًا من الله لهم ولأعدائِهم.

وفيها: أنَّ النصر بيَد الله، يؤتيه مَن يشاء.

وفيها: أنَّ الغَلَبة للحقِّ في النهاية، وإن صار للباطل قبلَ ذلك صَوْلات وجَوْلات.

وفيها: جُبْن المنافِقين، وعدم تصريحهم عَلَنًا بما في نفوسهم.

وفيها: انتهاز أهلِ النِّفاق للمُصيبة؛ ليطعَنوا في الدِّين.

وفيها: عِلْم الله بما لم يكن، لو كان كيف كان يكون.

وفيها: أنَّ اختِبارَ القَلْب وتنقيتَه، من أعظم المقاصِد الرَّبَّانيَّة في الابتِلاءات.

وفيها: ترهيب الله لعباده، بأنَّه يَعْلَم ما يُخفونَه.

وفيها: أنَّ الأمر الشرعيَّ والأمر الكونيَّ لله.

وفيها: إشارةٌ إلى دَفْن الشُّهَداء في مكان قَتْلِهم؛ في قوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾، وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ بردِّ الشُّهَداء من المدينة إلى أُحُد ليُدفَنوا فيه.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم ما في نفوس العِباد، دون حاجةٍ إلى ابتلائِهم واختبارِهم، ولكن الابتلاء لفائدةِ عبادِه ومصلحتِهم.

وفيها: أنَّ لفظة (لو) بعد حصول المكتوب والمقدَّر، لا تفيد شيئًا.

وفيها: أنَّ استعمال (لو) الشرطيَّة إذا كان للاعتراض على الشَّرع، أو على أقدار الله تعالى، أو للاحتجاج بالقدَر على المعصية؛ فاستعمالها على هذا الوَجْه محرَّمٌ أشدّ التحريم.

ومنها قولُ المنافِقين هنا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ومثله قولُهم فيما يأتي: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ فهذا اعتِراضٌ على أقدار الله تعالى.

ومثله: قول المشرِكين احتِجاجًا بالقدَر على المعصية: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزُّخرُف: ٢٠].

وأيضًا، إذا كانت (لو) للنَّدم والتحسُّر على شيءٍ فاتَ -كأن يقولَ على سبيل النَّدَم: «لو بعتُ هذا السِّلعة لربحتُ»-؛ فاستعمالها محرَّم؛ لأنَّها تفتح بابَ الحُزن والنَّدَم وعملَ الشَّيطان؛ كما في الحديث: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

أما استعمال (لو) لمجرَّد الخبر -كقول: «لو زُرتَني لأكرمتُك»-؛ فلا حرجَ فيه، فإن كان الخبر صِدقًا فهو صدق، وإن كان كَذِبًا فهو حرامٌ.

وكذا استعمالها لتمنِّي أمرٍ مُباحٍ -كأن يقولَ: «لو رَزَقني الله عِلمًا؛ لنفعتُ به الناس»- فلا حرجَ فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المنافِقين؛ أعقبَه بتوجيه الخِطاب إلى المسلمين؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أدبَروا وهرَبوا، وانسَحبوا من مواقعهم ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المسلمون. وقد انهزمَ أكثرُ جيش المسلمين، حتى لم يبقَ مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلَّا نحو ثلاثة عشر رجلًا ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهما: جَمْع المسلمين وجَمْع الكفَّار، في غزوة أُحُد.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

إنَّ هـؤلاء الذيـن تولَّـوا وهرَبـوا ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أوقعَهـم في الزَّلَـل والخطيئـة ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: بسـبَبِ بعـضِ ما وقـعَ منهم من الذُّنـوب، والعِصيان والمخالَفة لأمر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾: سـامحَ وتجـاوزَ. وأعادَ ذِكرَ (العَفْو) هنا -مـع ما تقدَّم قريبًا من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾-؛ لتأكيد العَفْو.

و(العَفْو): تَرْك المؤاخَذة على الذنب، ويكون غالبًا في تَرْك الواجبات. و(المغفرة) تكون لمن وقعَ في المحرَّمات.

فعفـا الله تعالى عن عقوبة المسـلمين الأُخرويَّـة، وجعلَها مقتَصِرةً على مـا وقعَ فيهم من القَتْل والجِراح، والمُصيبة، والتمحيص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة، وستر للذنب، وتجاوُز عنه وعن أثره. ﴿حَلِيمٌ﴾: يُمْهِل عِبادَه، ولا يُعاجِلهم بعقوبته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مغفرة الله لجميع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذي فرُّوا يوم أُحُد؛ فلا يجوز الطَّعْن فيهم بهذا الأمر.

وفيها: أنَّ الشَّـيطان يسـتَجِرُّ المسـلمَ لإيقاعه في الخطيئة، ويوالي عليـه الذُّنوب والخطايا الواحدة بعد الأخرى.

وفيها: أنَّ المصائِب التي تقع للناس، إنَّما هي آثارٌ طبيعيَّة لمعاصيهم.

وفيهـا: أنَّ الإنسـان قد يُعاقَب بوقوعـه في معصية، لأجل معصية أخـرى ارتكبَها، وأنَّ الذنب يتولَّد من الذنب؛ فالرُّماة الذين عصَوا انهزَموا أيضًا، وتولَّوا يوم التقى الجَمْعان.

وفيهـا: أنَّ العقوبـة لا تختَصُّ بألم البدَن، أو خسـارة المال والولد، ونحـو ذلك؛ وإنَّما قد تكـون بخِذلانٍ عن الطاعات، كما قال الحسـن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الرجل ليُذنِب الذنب، فيُحرَم به قيام الليل»(١).

---

(١) المجالَسة وجواهر العلم (٢/ ٢٦٢) للدِّينَوَري.

وفيها: حِلْم الله تعالى، بعَفوه عن عُقوبة مَن يستَحِقُّ العُقوبة.

وفيها: أنَّ الشَّيطان ليس له مَدْخلٌ على مَن اعتصم بالله، ولا يستطيع أن يتسلَّط عليه إلَّا إذا أدخلَه العبد على نفسه بنفسه، وفتح له الثَّغْرة، بتَرْك واجبٍ، أو فِعْلِ محرَّم.

وفيها: أنَّ مَن صدق في توبته، ونَدِمَ على تفريطه؛ فإنَّ الله يُحْسِن إليه، ويفتَح له باب التوبة والأَوْبَة.

وفيها: أنَّ المعاصي تقع من الصالحين ومن الفاسقين، ولكنَّها تختَلِف من جِهة: الإكثار، والإصرار، والدرَجة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾:

ثم نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن مُشابهة الكافرين، الذين أفسدَ الشَّيطانُ قُلُوبهم بالوَساوس والمعتَقدات الباطلة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا تتشبَّهوا بالكافرين، أو المنافقين في اعتقادِهم الفاسد **﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾** أي: عن إخوانهم -في الكُفر أو النَّسَب- **﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾** أي: سافَروا فيها للتجارة والكَسْب، فماتوا **﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾** أي: خرجوا في الغَزْو، فقُتِلوا.

قالوا: **﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾** أي: مُقيمين لم يخرُجوا؛ **﴿مَا مَاتُواْ﴾** في سفرهم **﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾** في غَزوهم.

﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: اعتقادَهم وقولَهم وظنَّهم الباطل **﴿حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾** أي: ندَمًا وحُزنًا، وغمًّا وأسَفًا، يتعذَّبون به على موتِ إخوانهم وقَتْلِهم.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم: **﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾** أي: بيده الأمر والخَلْق، فلا يحيا أحدٌ، ولا يموت إلَّا بمشيئتِه وقدَرِه، ولا يُزاد في عُمر أحدٍ، ولا يُنقَص منه إلَّا بقضائِه وقدَرِه.

فاعتِقـاد أنَّ «القِتال يقطَع الآجال» اعتقادٌ باطلٌ؛ فقـد يُحيي الله الغازي، ويُميت القاعِد في البلد.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مُطَّلعٌ عليه، فيُجازيكم به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم التشبُّه بالكفَّار.

وفيها: أنَّ المسلم يتميَّز عن غير المسلم بقولِه، وعمَلِه، واعتقادِه.

وفيهـا: أنَّ الإيمان بالله وقضائِه وقدَرِه يمنَع الحَسْرة، ويُعين على مواجَهة المصائِب؛ لأنَّ مَن يُؤمِن بالله يهدِ قَلْبَه، فيَثْبُت، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أنَّ الاعتِقادات الباطلة سبَبٌ للشَّقاء النَّفسيِّ، والألم والحَسْرة.

وفيهـا: معالَجة نفسـيَّة للمُصابين في أُحُد، بـما يمنَع من زيادة آلامهـم، وبما يُخَفِّف عنهم المُصيبة، بالأمر بالرِّضا بالقضاء، والتسليم بأنَّ الحياة والموت قدَرٌ من الله، لا بُدَّ أن يقع كما يريد عَزَّوَجَلَّ، فلا تَبْتَئِسـوا -أيُّها المؤمنون- بما حصلَ من موت أقارِبكم؛ فإنَّ أجَل الله إذا جاء لا يؤخَّر، والموت مكتوبٌ مقدَّرٌ، وليس السبَبُ في حصوله الخروجَ من المدينة.

وفيها: تعذيب الله للكافرين في الدُّنيا قبل الآخرة، بالغَمِّ، والحَسْرة، والندامة على فوت المحبوب.

وفيها: أنَّ قِلَّة اليقين بالله سبَبٌ للحَسْرة.

وفي الآيـة: النهي عن القول الباطل، وأنَّه ينشـأ عن اعتقاد باطـل؛ فمقولات أهل البِدَع -مثلًا- ناشِئة عمَّا وقرَ في قُلُوبهم من اعتقاداتهم الفاسدة.

وفيها: أنَّ الإقامة والسفر ليستا مؤثِّرتَين في الحياة والموت؛ فقد يُحيي الله المسافِر، ويُميت المقيم، ويُحيي الغازي، ويُميت القاعد.

وفيها: اطِّلاع الله على العقائد المُخبَّأة في الصدور.

وفيهـا: سُـوء مقصد المنافِقـين وخُبثهم، في إرادتهـم تنفيرَ المؤمنين عن الجهـاد، بمقولة: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، فكأنَّهـم يقولون لهـم: لا تخرُجوا للغزوات القادمة حتى لا تموتوا!

وفيها: أنَّ مَن يموت في الجهاد، ويستوجِب الثواب؛ خيرٌ ممَّن يموت في بيته موتةَ البعير.

وفيهـا: أنَّ النَّـدَمَ على ما وقع من القضاء، لا يُغَيِّر الواقِع، ولا ينفع النادِم، بخلاف النَّدَم على التفريط؛ فهو موجِبٌ للتوبةِ، واستِدراكِ ما فاتَ.

وفيها: ذَمُّ استِعمال (لو)، في الاعتراض على الشَّرع، أو على أقدار الله تعالى، أو للاحتجاج بالقدَر على المعصية، أو التحسُّر والتَّندُّم على أمرٍ قد فاتَ.

وفي الآية: توجيهٌ بعدَم النَّدَم على ما لم يفرِّط فيه الإنسان.

وفيها: تحفيز المؤمنين للجهاد في سبيل الله، وتشجيعهم على قتال أعداء الله، والنهي عن التأثُّر بكلامِ مَن يثبِّطهم عن ذلك.

وفيهـا: أنَّ الموعظة باطِّلاع الله على الأعمال، تتضمَّن تهديدًا لمن يُشـابِه الكفَّار والمنافِقين في أقوالهم واعتقاداتهم الباطلة.

وفيهـا: أنَّ الأَجَـل المكتـوب إذا لم ينتَهِ بسـبَبٍ معيَّن؛ فلا بُـدَّ أن ينتهيَ بسـبَبٍ آخر، كما قيل: «تعدَّدت الأسبابُ، والموت واحد». لكن شَرَف المِيتات ومواقعها يتفاوَت، فما دام الموت سيأتي بكلِّ حال؛ فليحرِص الإنسان أن تأتيَه مَنيَّته على عمل صالح، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾:

ثم بشَّر الله تعالى مَن يُقتَل من المؤمنين أو يموت في سـبيل الله، بحُسـن الجزاء والعاقبة؛ فقـال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ﴾: هذا يحمِل معنى القَسَـم، وتقدير الـكلام: «وعِزَّتي وجلالي، لئن قُتِلتم» ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد. أو خرجتُم مُهاجِرين، أو حُجَّاجًا، أو معتَمِرين، أو دعاةً في سبيله، فقُتِلتُم.

﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾ في بيوتكـم، أو في أيِّ مـكان آخر، وكنتُم على التوحيـد مخلِصين لله، عامِلين بطاعته.

﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يسـتُر بها ذُنوبكم، ويتجاوز بها عنكم ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ منه يشـمَلُكم بها؛ ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من الأموال وحُطام الدُّنيا الفاني.

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾ في حَضَرٍ أو سَـفَرٍ ﴿أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾ في الجهاد أو في غيره؛ ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون، فتُلاقونه ليُجازيَكم على أعمالكم.

وتقديم ذِكر (القَتْل) في الآية الأولى على ذِكر (الموت)؛ بيانًا لشرَفه ومنزلته؛ لأنَّه شـهادةٌ في سبيل الله.

وتقديم ذِكر (الموت) على (القَتْل) في الآية الثانية؛ إشارةً إلى أنَّه أكثر وقوعًا من القَتْل.

وفي الآيتَين من الفوائد:

الموعظـة بعـد الترغيب؛ فإنَّه قـال في الآيـة الأولى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ﴾، وقال في الثانية: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ المنافِقين والكفَّار حريصون على جَمْع الأموال.

وفيها: فَضل القَتْل في سـبيل الله -وعلى رأسـه: الجهاد-. ويدخل فيه: مَن قُتِلَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، وفي بيان الحقِّ، وفي الدَّعوة إلى الله، وفي طريقه لطلَب العِلْم، وكلُّ مَن قُتِلَ في مصلحة الدِّين.

وفيها: فَضل مَن مات في سبيل الله في سَفَر الجهاد، ولو كان مِمَّنْ مَاتَ بغير أيدي الكفَّار، كمَن ماتَ من مرضٍ أو سقوطٍ عن دابَّة، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ انقِضاء الأجل في سبيل الله، ينتَقِل به الإنسانُ إلى ما هو خيرٌ من الدُّنيا.

وفيهـا: تسـلية الله للمؤمنـين المُصابـين، والجَمْع بينَ المغفـرة والرحمة لتكتَمِلَ سـعادةُ الشُّهَداء.

وفيها: أنَّ المرجِع إلى الله، مهما طالَتْ حياةُ الإنسان.

وفيها: تحقير أمر الدُّنيا؛ ليسهُلَ على طلَّاب الشَّهادة التنافسُ لنَيل الشَّهادة، والخروجُ من الدُّنيا.

وفي ذِكْر (المغفرة) قبل (الرحمة): التَّخْلية قبل التَّحْلية، وفيها إشارةٌ إلى الجَمْع بينَ: الخوف من العقاب، وطلَب الثواب.

وفي الآيتين: فَضْل الصَّحابة الذين قدَّموا أرواحهم في سبيل الله، والبِشارة لقتلى أُحُد من المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ القَتْل والموت في سبيل الله ليس ممَّا يُحذَر؛ وإنَّما هو ممَّا يُطلَب، ويُحرَص عليه.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾:

ولـمَّا كان ما حصلَ في أُحُد من الهزيمة: مُصيبةً عظيمةً، خالفَ فيها الجنودُ أمرَ قائدهم، وانهزمَ أكثرُهم، فثبتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاهم إلى الرُّجوع؛ ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ هنا مكانةَ هذا القائد، وفَضْلَه، وحُسنَ خُلُقه، وما ينبغي عليه تجاه جنودِهِ، الَّذين تسبَّبوا في الهزيمة؛ فقال سبحانه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (الباء) سببيَّة، أي: بسبَبِ رحمة الله العظيمة؛ صارَ اللِّين من طبعك، والسُّهُولة من أخلاقك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: في قولك، ومُعاملتك، وتحمَّلتَ ما جرى منهم.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: جافيًا في كلامك، عنيفًا شديدًا ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ وقاسيًا؛ ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: ما تحمَّلوك، ولتفرَّقوا عنك، وتباعَدوا.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: سامِحْهم، وتجاوَزْ عن زلَّاتهم وما قصَّروا فيه من حقِّك.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: ادعُ لهم بالمغفرة، عن تقصيرهم في حقِّ الله تعالى.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: استَطْلِع رأيهم في أمور الدِّين والدُّنيا، التي تَرِدُ عليك، ممَّا ليس لله فيه حُكمٌ، مثل: أمور الحَرْب ولقاء العدو، وإرسال البُعوث، ونحوها.

وقد عَمِلَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الوصيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ فشاورَ أصحابَه في بَدْرٍ، وأُحُد، والخندَق، والحُديبيَة، واستشار عليًّا وأسامة رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ في حادثة الإفك[1]، وعلى رأس مَن كان يستشيرهم: وزيراه: أبو بكر وعمرُ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ.

وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»[2].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وجزمتَ على فِعْل شيءٍ -بعد المشاورة- وقصدتَ إمضاءَه؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ واعتَمِد عليه، وثِق به سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والمعتَمِدين عليه، في جميع أمورهم، فيُرشِدهم إلى ما فيه الخير والصلاح لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ لِين جانب النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو من توفيق الله له، ومن إكرامه تعالى لأصحابه رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ.

وفي الآية: الثَّناء على قيادة النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه في معركة أُحُد وغيرها.

ويؤخَذ منها: براءته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أيِّ سبَب في الهزيمة.

وفيها: أنَّه كان في المسلمين مَن يستَحِقُّ المَلامة والتعنيف على ما صدرَ منه من المُخالَفة والهزيمة، ومع ذلك أُمِرَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمعاملتهم جميعًا بالحُسنى.

وفيها: العَفو عن الأصحاب، وعدم مؤاخذتهم؛ حتى لا ينفِروا، ولا ينفَضُّوا عن الصاحب.

وفيها: أنَّ الفظَّ: غليظَ القَلْب، لا يجتمع حولَه أحدٌ.

وفيها: أنَّ سُوء الخُلُق من أسباب انفِراط عَقْد الجماعة.

وفيها: استِغفار الإمام والعالِم لأصحابه.

وفيها: أهميَّة الشُّورى وفضلها؛ حيث أُمِرَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمُشاوَرة أصحابه، مع استغنائه بالوحي، وكمالِ العقل الذي وهبَه الله إيَّاه، ولو استغنى أحدٌ عن الشُّورَى، لكان النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أغنى الناس عنها.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٠).

وفيهـا: أهميَّـة معرفة مقادير العُقـول والأفهام، وصالح الآراء؛ لانتخـاب أصلَحِها، أو الجَمْع بينها.

وفيهـا: أنَّ مـن فوائد الشُّـورى: عدم الاسـتِبداد بالـرأي، واجتِماع القُلُـوب، وحصول المطلوب، ودَفْع لَوم النَّفس والغير عن المستَشير.

وفيهـا: تحصيل الأجر والثـواب، بامتِثال الأمر، وإزالة ما يقـع في القُلُوب عند حدوث المكروب.

وفيها: تواضُع المستَشير، وتطييب خواطر المستَشارين، وظهور منزلتهم عند المستَشير.

وفي الآية: أنَّ السَّيِّد ينبغي أن يكون ليِّنًا.

وفيها: تدريب الأفراد على اسـتِنباط الصواب، وتنشـيط النفوس واسـتِجلاب الحماس للمُشاركة في الأمر؛ لأنَّهم صاروا شُرَكاء فيه لـمَّا بذَلوا رأيَهم.

وفيها: مُحارَبة التَّردُّد والتَّذبذُب، وأنَّ على القائد أن يَجْمَع بينَ الحَزْم والعَزْم واللِّين.

وفيهـا: أنَّ الرئيـس والقائد إذا شرَعَ في العمل -تنفيذًا للشـورى-؛ فلا يَصِحُّ أن ينقُضَ عزيمتَه، ما لم يتبيَّنْ وُجودُ مُعارِضٍ راجحٍ؛ لأنَّ التَّراجُع ضررٌ، وضَعْفٌ، وفَشَلٌ.

وفيها: فَضْل التوكُّل على الله، ومحبَّة الله لأهل التَّوكُّل.

وفيهـا: أنَّ تفويـض الأمـر إلى الله لا يُنـافي الأَخْذَ بالأسـباب، والاستِشـارة سـبَبٌ من الأسباب.

وفيها: أنَّ أَمْرَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمشاوَرة هو دعوةٌ لمن دونه -من الأئِمَّة والقادة- إليها؛ لأنَّ صُدورَ الأمر إلى الأعلى شأنًا -مع استغنائه عنه- يدلُّ على أنَّ الأدنى مقصودٌ بذلك من باب أولى.

وفيها: عَفو الله عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنَّه أمرَ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعَفو عنهم، والآمِر أولى بفِعْل ما أمرَ به.

وفيها: استِشـارة مَنْ هو أهلٌ للاستِشـارة؛ فإنَّ الله تعالى أمرَ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستِشـارة

أصحابه -وهم العُدول الثِّقات-؛ فينبغي عند الاستِشارة في المسائل الشرعيَّة الدِّينيَّة أن يكون المستَشار عالِمًا، ثقةً، صاحبَ دين، وفي أمور الدُّنيا عليه أن يستَشير عاقِلًا مجرِّبًا. فيستشير -مثلًا- قادة الجيش فيما يتعلَّق بالحَرْب، وأعيان النَّاس فيما يتعلَّق بالمصالح العامَّة.

وفي الآية: النَّهي عن الفَظاظة في الأقوال، وغِلَظ القَلْب في الأفعال.

وفيها: الجَمْع بينَ الأَخْذ بالأسباب، والاعتِصام بمُسَبِّبها وخالِقها.

وفيها: أنَّ القَلْب إذا شردَ عن الله؛ فإنَّه قد يُعيده إليه بمُصيبة، أو بهداية، أو يتخلَّى عنه -والعياذ بالله-.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

ولـمَّا حصلَت الهزيمةُ في أُحُد؛ بسبَبِ تقصير بعض المسلمين ومعصيتهم؛ حذَّرهم الله تعالى من فِعْل أسباب الخِذلان، وبيَّن لهم أنَّهم إذا عادُوا إليه نصرَهم، وإذا تولَّوا عنه خذلهم؛ فقال تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَهَبْ لكم النَّصرَ، ويُعِنْكم عليه؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولا يَقْهَرْكم أحدٌ، مهما كانت قوَّته.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي: يتخلَّ عنكم، ويَتْرُكْ نُصرتكم. و(الخِذلان): ضِدّ النصر. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: استِفهام بمعنى النَّفي؛ أي: لا أحدَ ينصُركم من بعد خِذلانه لكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ الغالِب القاهِر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ويخصُّوه بالاعتِماد، ولا يصرِفوا شيئًا من التوكُّل إلى غيره.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب تعليق القَلْب بالله وحدَه في طلَب الانتِصار.

وفيها: وجوب الأَخْذ بأسباب النصر، وقد جاء ذكرُها في الآيتَين ٥٥، ٥٦ من سورة النُّور والآيتَين ٤٠، ٤١ من سورة الحَجِّ. ومجمَلُها: الإخلاص لله، وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر.

وفيها: التحذير من فِعْل أسباب الخِذلان، وقد جاء ذكرُها في آياتٍ أخرى؛ ومنها: تولِّي الكفَّار ومُناصَرتهم.

وفي الآية: إفراد الله تعالى بالتوكُّل عليه، ووجوب ذلك؛ كما في قوله: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصْر، بخلاف ما لو قيل: «فليتوكَّل المؤمنون على الله».

وفيها: خطورة الخِذلان على المؤمنين؛ لأنَّ (الخِذلان) هو: التخلِّي والتَرْك في مواطِن الاحتياج. ولذا فالتوكُّل أعظم ما يكون في مقام الحاجة؛ كما يظهر جليًّا في طلب النصر، والرِّزق، والشِّفاء، كما قيل في تعريف (التوكُّل): «ألَّا تطلُب لنفسك ناصِرًا غير الله، ولا لرِزقك خازِنًا غير الله، ولا لعمَلِك شاهِدًا غير الله»، وطلب الرِّزق بمعصية الله مُنافٍ للتوكُّل، كما فعل الرُّماة في تَرْك مواقِعهم، طلبًا للغنائِم؛ فكانت الهزيمة.

وفيها: بلاغة القرآن. ومن أمثلته في الآية: إيرادُ الاستِفهام بمعنى النفي؛ ليكون أبلغ في النفي؛ كقوله: ﴿**فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ أي: لا أحدَ ينصركم.

ومنها: استعمال النفي المقتَضِي للعُموم، في قوله: ﴿**فَلَا غَالِبَ لَكُمْ**﴾، و(لا) نافية للجنس، و(غالِب) نكِرة، والنَّكِرة في سياق النفي تُفيد العُموم.

ومنها: تقديم ما حقُّه التأخير؛ ليُفيد الاختِصاص والحَصْر، كما في قوله: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾.

ومنها: استِعمال المُقابِل وذِكُر الضِّدِّ؛ لأنَّ الكلمة تزداد ظهورًا في المعنى إذا قُرِنَ معها ضِدُّها، كما جاء في ذِكر (الخِذلان) مُقابِل (النصر).

ومنها: استِعمال الالتِفات، وهو: الانتقال من الخِطاب إلى الغَيبة، أي: من أسلوب المخاطَب إلى الغائِب، أو العكس؛ للتنبيه. فقد خاطبَهم في أول الآية بقوله: ﴿**يَنصُرْكُمُ**﴾،

وبقولـه: ﴿يَخۡذُلۡكُمۡ﴾، ثـم انتقل إلى الغائب في آخر الآية فقـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾، ولم يقل: «فتوكَّلوا».

ومنها: استِعمال أسلوب النفي الأشـدِّ، في قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ﴾؛ ليطمئنُّوا. واستِعمال أسلوب النفي بالاستِفهام -وهو أقل شِـدَّة- في قولـه: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم﴾؛ وذلك تلطُّفًا بالمؤمنين.

وفي الآية -مع التي قبلها-: التأكيد على التوكُّل، والحثُّ عليه؛ فإنَّه قد أمرَ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ به فقال: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثم أمرَ المؤمنين عُمومًا به فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولبيان أنَّه من أعظم أسباب النصر.

وفيهـا: أنَّ التَّـوكُّل على الله من مقتَضيـات الإيمان، وكما يزيد الإيـمان وينقُص؛ فكذلك يزيد التوكُّل وينقُص -تبَعًا له-.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حُسنَ خُلُقِ نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ ذكرَ هنا براءتَه ممَّا اتهمَه به بعضُ المنافِقين، من أنَّه غلَّ من غنيمةٍ قبل قِسْمَتها؛ فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي: لا يَليـق ذلـك بمَقامه الشريـف ﴿أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخون، لا بالأَخْذِ من غنائم المعركة خِفيةً لنفسه، ولا بإخفاء شيءٍ من الوَحي المنزَّل عليه.

وأيضًا، فلا يجوز أن يُغَلَّ، بأن يخونَه أحدٌ.

﴿وَمَن يَغۡلُلۡ﴾ أي: يَـخُـن، بالأَخْـذِ مـن الغنيمة؛ ﴿يَأۡتِ بِمَا غَلَّ﴾ كما هـو، يَحْمِله على عُنُقه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ ليكونَ له فضيحةً على رؤوس الأشهاد.

و(الغُلـول) لغـةً: أَخْذُ الشيء خِفيـةً، والخِيانة فيه. وشرعًا: الخِيانـة في الغنيمة. ويدخل فيه: الاختِلاس من بيت مال المسلمين.

وهـو من كبائـر الذُّنوب، قد جاء الوَعيدُ الشـديدُ في عقوبة الغالِّ يـومَ القيامة؛ فعن أبي

هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَـرَ الغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْـرَهُ، ثُـمَّ قَـالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِـيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَـلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَـهُ رُغَاءٌ (وهو صوت البعير)، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أُلْفِيَـنَّ أَحَدَكُـمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ (صوت الفرس)، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ (صوت الشاة)، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!...»، ثم ذكرَ الشاة، والنَّفس، والثِّياب، والذَّهب والفِضَّة[١].

وفي الحديـث: «مَـنِ اقْتَطَعَ شِـبْرًا مِـنَ الأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَـهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٢].

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ أي: تُجـازَى وتُعطَـى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ سـواءً كانـت غالَّـةً أو غير ذلك ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: ما اقترفَت وفعلَت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا بنَقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشـارة إلى مُعاتَبـة الرُّماة؛ فكأنَّه يقول لهم: لماذا تركتُـم مواقِعكم لتصيبوا من الغنائِم؟ أكنتُم تخشَـون أن تُحرَموا من نصيبكم منها؟ أوَ ما علِمتُم أنَّ نبيَّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخون، ولا يأخذ منها شيئًا، وسيعطيكم نصيبكم؟ فلماذا عصيتُموه وتركتُم مواقِعكم؟

وفيهـا: أنَّ النبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَليق به غُلول المال، ولا غُلول العِلْـم، وأنَّ الغُلول دناءَة وخِسَّـة؛ فـلا يليق هـذا بمقام الأنبيـاء، وليس من شِـيَمهم الخِيانة بجميع أنواعهـا؛ فالنُّبوَّة والخِيانة لا تجتمِعان.

وفيهـا: تحريـم الغُلـول، وأنَّه مـن الكبائِـر، وأنَّ الفضيحةَ يـومَ القيامة زيـادةٌ في عذاب صاحبه.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) -واللفظ له-.

(٢) رواه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) -واللفظ له-.

وفيها: أنَّ الأَخْذ من غنائِم المعركة قبل قِسْمَتها خِيانةٌ للمسلمين، سواءً لأفراد الجيش، أو لجميع المسلمين -بالخُمُس الذي يذهب لبيت المال- وتزداد إثمًا إذا أُخِذَت وهي عند نبيٍّ يُشرِف على قِسْمتها.

وفيها: أنَّ الغُلول يزداد قُبحًا في حقِّ أصحاب المناصب الدِّينيَّة. وليس الغُلول خاصًّا بغنائِم المعركة؛ فكلُّ مَن أخذَ من مالٍ عامٍّ بغير حقٍّ؛ فهو داخلٌ فيه. ويدخل فيه أيضًا: غُلول الكتُب، باستعارتها ثم مَنعِ رَدِّها إلى أصحابها.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل؛ لقوله: ﴿**وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ**﴾.

وفيها: إثبات قُدرة الله تعالى؛ فإنَّ المغلول يكون قد فنيَ في الدُّنيا؛ فيأتي به الله عَزَّوَجَلَّ يومَ الدِّين.

وفيها: أنَّ الإنسان لا ينتَفِع بثواب ما لم يَكْسِبه؛ فلا فائدة من إهداء ثواب الطاعات للأموات أو الأحياء. ويُستثنَى من هذا: ما دلَّ الدليل على وصوله، كالحجِّ والعُمرة عن الميِّت، والدُّعاء، وصيام النَّذْر عنه، والصَّدَقة، وغيرها.

وفيها: تعظيم حقِّ المسلم على المسلم، وحُرْمة أموال المسلمين.

وفيها: أنَّ بعض مَن يذهب للجهاد يقع في الخِيانة والمعصية؛ كالانتِحار، وشقِّ عصا الطاعة على أميره، والتولِّي يومَ الزَّحْف، أو الرِّياء بالقتال -ليُقال: شُجاعٌ- أو القتال عصبيَّة، لا بنيَّة إعلاء كلمة الله، ونحو ذلك من المعاصي والكبائر، الَّتي تحدُث حتى في الأحوال العصيبة الخطيرة.

﴿**أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢**﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى توفيتَه كلَّ نفس ما كسبَت -على وجه العُموم-؛ أردفَ ذلك بالتفصيل والمقارَنة، وأنَّ جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين؛ فقال تعالى:

﴿**أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: سعى في تحصيل رِضاه، بفِعلِ الطاعات وتَرْكِ المعاصي -ومنها الغُلول- ﴿**كَمَنۢ بَآءَ**﴾ ورجعَ ﴿**بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ (السَّخَط): هو الغضب الشديد

﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ مَرْجِعه ومَسكنه ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهو اسمٌ من أسماء النَّار. قيل: مشتقٌّ من (الجَهْم)، وهو الكراهة، يُقال: «جَهَمَه» إذا عبسَ في وَجْهِه وقطَّبَه، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تلقى مَن يدخُلها بوَجه عابس متجَهِّم -والعياذ بالله-.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: قَبُح، وساءَ هذا المرجِع والمُنقلَب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدْل الله تعالى، وأنَّه لا يُساوِي بينَ أوليائه وأعدائه.

وفيها: وجوب السَّعْي لتحصيل مرضاة الله، بفِعْل ما أمرَ به، وتَرْكِ ما نهى عنه.

وفيها: الموعظة والتحذير من أسباب دخول النَّار، ومنها الغُلول المذكور في الآية السابقة.

وفيها: إثبات صفةِ (الرِّضا)، وصفةِ(السَّخَط) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته. وهما من الصِّفات الفعليَّة الاختياريَّة الثابتة لله تعالى، فلا يجوز نفيُها، أو تحريفُها، أو تأويلها.

وفي الآية: دليلٌ على خطأ قول بعضِ الناس، إذا مات الميِّت ودُفِنَ في قبره: «شُيِّعَ إلى مثواه الأخير»؛ فالمثوى الأخير هو المنقلَب والمصير، وهو إمَّا الجنة أو النَّار، أما القبر فهو مزارٌ، ودار ممرٍّ لا دار مقرٍّ.

وفيها: أنَّ التفصيل في المصير، وعَقد المقارنة بين مصيرَين؛ أبلغ في الزَّجْرِ عن المعاصي، والتحريضِ على الطاعات.

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾:

ثم قال تعالى في الفريقَين -مَن اتبَع رِضوان الله، ومَن باءَ بسَخَطه-:

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني: أهلَ الخير وأهلَ الشرِّ درجاتٌ، أي: أصحاب طَبَقات ومراتب مختلفة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي حُكمه، يتفاوتون في درجات الثواب والعقاب، بحَسَب درجاتهم في الطاعات والمعاصي، من الرَّفيق الأعلى إلى الدَّرْك الأسفل.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وهذا بحَسَب عِلْمه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: عليمٌ بأعمالهم، وسيُوَفِّيهم إيَّاها، ويُجازيهم عليها، لا يظلِمهم خيرًا ولا يَزيدهم شرًّا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وأنَّ الأقوال والأفعال تتفاضَل.

وفيها: أنَّ أهل الخير كما هم درجاتٌ فيه، فأهل الشرِّ دَرَكاتٌ فيه.

وفيها: إحاطة الله تعالى بأعمال العِباد.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾:

ولـمَّا نفى الله تعالى الغُلول والخِيانة عن نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مدحَه وبيَّن منَّة الله به على المؤمنين؛ فقال سبحانه:

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: أنعمَ وتفضَّل عليهم، وأحسنَ إليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ﴾ وأرسلَ إليهم. وأصل (البَعْث): الإنشاء، وسُمِّيت (الرِّسالة) بَعْثًا؛ لأنَّها تُخرِج الناس من حال إلى حال، فكأنَّهم بُعِثوا، وأُنشِئوا خَلْقًا جديدًا ﴿رَسُولٗا﴾ مُرسلًا من عنده.

وقوله ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: من جِنسِهم، عربيًّا مثلهم، نشأ بينهم، يعرِفون حالَه، ويتمكَّنون من مخاطَبته وسؤاله، ومجالَسته، والانتفاع به.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: كتابه وقرآنه ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: يُربِّيهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكَر؛ لتزكوَ نفوسُهم، وتتخلَّص من النَّجاسات المعنويَّة، ودَنَس الشِّرك، وخَبَث الجاهليَّة. ويُطَهِّرهم أيضًا من النَّجاسات الحِسِّيَّة، بما أمرَهم به من الاستِنجاء والوضوء والغُسْل.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: معاني القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهي: السُّنَّة والحديث، وهي بيانٌ للكتاب.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل بِعْثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ وغَيٍّ وجهلٍ، يُحيط بهم ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ، جليٍّ لكلِّ أحد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التأكيد على بِعْثة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالقَسَم المقدَّر، و(لام) التأكيد، و(قد) التي تفيد التحقيق، في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وتقدير الكلام: «والله، لقد مَنَّ الله على المؤمنين»، وفي هذا بيانٌ لقَدْر النِّعمة وأهميَّتها؛ ليرعَوها، ويتعلَّقوا بها، ويستَفيدوا منها، ويحرِصوا عليها، لا لشكٍّ أو إنكارٍ منهم.

وفيها: أنَّ أهل الإيمان تتبيَّن لهم مِنَّةُ الله، بينما الكفَّار يُنكِرونها، ويُعرِضون عنها، ولا يرفَعون بها رأسًا، فيُحرَموا خيرَها.

وفيها: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرٌ للعرَب، وشَرَفٌ لهم. وإذا كان إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد اشتركَ فيه اليهود والنصارى والعرَب، وموسى قد افتخرَ به اليهود، وعيسى قد افتخرَ به النصارى؛ فإنَّ أعظَمَ شَرَفٍ للعرَب: أن بُعِثَ فيهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنفَسُ العرَب -نسَبًا وحَسَبًا- وما خلقَ الله نفسًا هي أكرَمُ عليه من النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ معروفَ الحال، قد استبانَ أمرُه لمن حولَه؛ ولذا قال: ﴿بَعَثَ فِيهِمۡ﴾؛ فلم يكن أمرُه ليخفى عليهم، والشخص المعروف عند قوم إذا جاءَهم بشيءٍ؛ كانت معرفتُهم السابقة له سببًا في تصديقِه وقَبولِ ما جاءِ به.

وفيها: أنَّه ينبغي التأكيد على اختيار الدُّعاة المعروفين في أقوامِهم وقبائِلهم، والاهتِمام بتعليمهم وتدريبهم وتربيتهم؛ ليقوموا بالواجب المطلوب، ويكونوا أقدرَ على تحقيقه، وأنَّ قيام المعروفين في الأقاليم والقبائل بدعوة مَن حولهم؛ يختصِر الوقتَ والجهدَ.

وفيها: أنَّ اختيار الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرًا من جِنس العرَب، أدعَى إلى مُتابعتِه والإيمانِ به؛ لأنَّه لو كان من الملائكة أو الجنِّ؛ ما ألِفَه الناس، ولا استطاعوا الاقتِداء به، وإنَّما كان

ﷺ مِثلَهم يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وجعلَه عربيًّا؛ لأنَّه لو كان أعجميًّا لـمَا فَقِه قومُه منه، وما فَهِموا عنه.

وفيها: أهميَّة التِّلاوة اللَّفظيَّة للقرآن -بإقامة حروفه وتجويده- والتلاوة الحُكميَّة -بالعمل بأحكامه-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ الطهارة الحِسِّيَّة -من النجاسات والأخباث- والطهارة المعنويَّة -من الشِّرْك، والنِّفاق، وسُوء الأخلاق-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ قراءة القرآن والسُّنَّة النبويَّة، والعمل بهما.

وفيها: أنَّ من وظائف الرسول ﷺ، ووَرَثَته من أهل العِلْم: الجَمْع بينَ تلاوةِ القرآن على الناس، وتعليمِهم إيَّاه. والتعليم أخصُّ من التلاوة؛ فإنَّ مَن قرأه ولُقِّنه يكون تاليًا له، أما التعليم فيشمل: تعليم اللَّفظ، وتعليم المعنى، وتعليم الحُكم والعمَل.

وفيها: أنَّ تعليم القرآن سببٌ لفُشُوِّ الكتابة. والقرآن مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، وفي صحائف الملائكة -بأيدي السَّفَرة- ومكتوبٌ في المصاحف التي بينَ أيدي المسلمين.

وفيها: تعليم الناسِ وضعَ الأشياء في مواضِعها، وأسرارَ التشريع، ومصالِحَه، وعِلَل الأحكام. وكلُّ هذا من معاني (الحِكمة).

وفي الآية: وجوب شُكر نِعْمة إرسال النبيِّ ﷺ؛ بالإيمان به، واتِّباعه، والاقتداء به، ونشر سُنَّته، ونُصرته.

وفيها: أنَّ شَرَف الرَّسول بحَسَب مَن أرسلَه.

وفيها: أنَّ مماثَلة النَّبيِّ ﷺ لمن بُعِثَ فيهم، إنَّما هي في الجوانب البشريَّة، والطبَعيَّة؛ كالنَّسَبِ، واللُّغة والوطن، ويَفوقهم بالوحي، وما خصَّه الله تعالى به من الخصائص العظيمة الشريفة.

وفيها: تخفيفُ مُصيبة وَقعة أُحُدٍ على الصَّحابة رضي الله عنهم، بذِكر مكانة النَّبيِّ العظيم ﷺ، الَّذي سلَّمه الله من المشرِكين، فرجعَ مع المؤمنين إلى المدينة.

وفيها: أنَّ ذِكْر شَرَفِ وفَضْلِ المتَّهم البريء، يُعين على إبعاد التُّهْمة عنه.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾:

ثـم عادَت الآياتُ إلى أَخْذِ العِظَة والعِبرةِ منْ هزيمة أُحُد، وبيانِ سـبَب حصولها، وكان في الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دَهشةٌ لِـما وقع، ويتساءلون عن سبَبه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ﴾ يعني: أوَحين، و(الهمزة) للاستِفهام، وهو استِفهامُ إنكار وتقريع.

﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ وهـي هزيمـة المسـلمين، وغَلَبة المشرِكـين، وقَتْل السَّـبعين، وما حصلَ من الجِراح يوم أُحُد ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يومَ بَدْرٍ، حينما قتلتُم منهم سبعين، وأَسَرْتُم سبعين -وهم في حكم المقتولين؛ لقُدرتكم على قَتْلهم-.

لـمَّا حصـلَ هذا تسـاءلتُم و﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: تتسـاءَلون مُتعَجِّبين: كيـف حصلَ لنا القَتْـل والهزيمـة، ولعدُوِّنا الغلَبة، ونحن مُسـلمون على الحقِّ، وأعداؤنـا كفَّار على الباطل، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معنا، أفلَسْنا أحقَّ بالنصر؟!

﴿قُلۡ﴾ -يـا أيُّهـا النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جوابًا عـن هذا التسـاؤل وهذه الشُّـبهة: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾. وقـد جـاء تفصيلُـه في قولـه تعـالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

فالمعنـى الإجمـاليُّ: إذَن، لا ينبغي لكم أن تتعجَّبوا مـمَّا حلَّ بكم؛ فأنتُم السَّـبَب في ذلك، بمعصيتِكم وفِرارِكم.

ثـم هـل نسـيتُم فَضْـل الله عليكم في بَـدْرٍ، وقد كان نصرُه لكـم أعظمَ مـن الهزيمة التي حلَّت بكم في أُحُد؟ فإنَّكم يومَ بَدْرٍ قد قتلتُم سبعين وأَسَرْتُم سبعين، بينما في أُحُد قُتِلَ منكم سبعون فقط.

وهل نسيتُم أنَّكم اخترتُم أخذَ الفِداء في بَدْرٍ، فقُتِلَ منكم سبعون رجلًا بعِدَّتهم؟

وقولـه تعـالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: أنَّ الله تعـالى قـادرٌ أن يهـزِم هـؤلاء المشرِكـين، وينصرَكـم عليهم، ولكنَّه قضى وقـدَّر ما جرى لِحكمة يُريدهـا عَزَّوَجَلَّ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمَّد: ٤].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ سببَ مُصيبة أُحُدٍ مُركَّبٌ من أمرَين: اختيار الصَّحابةِ أخذَ الفِداء في بَدْرٍ -وما يترتَّب عليه- ومعصية مَن عصى في أُحُدٍ.

وفيها: أنَّ الأَسْرَ قد يكون مِثلَ القَتْل في الذُلِّ، أو أشَدّ.

وفيها: أنَّ أمور الدُّنيا لا تدوم على حالٍ واحدٍ؛ حتى أهل الإسلام ينتَصِرون تارةً، وينهَزِمون أخرى.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ لا يُشترَط أن ينتَصِروا في كلِّ المعارك.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ إذا حقَّقوا شروط النصر؛ فلا بُدَّ أن ينتَصِروا، ولا يتخلَّف النصر عنهم إلَّا بذنبٍ عَمِلوه، والعُقوبات آثارٌ لازمة للأعمال، والله تعالى إنَّما وعدَ بالنصر بشَرْطِ تَرْك المعصية؛ كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وفيها: التَّحذير من شُؤْم المعصية، وأنَّ شُؤْمَها قد يَطال الأبرياء الذين لا ذنبَ لهم، ويكون ما أصابهم رِفعةً لهم عند الله؛ فالنبيُّ ﷺ قد ابتُلِيَ بسبَبِ معصيةِ بعض أصحابه؛ فقد كُسِرَت رَباعِيَتُهُ، وهُشِمَت البَيْضة على رأسه، وسال الدمُ على وَجْهِه الشريف ﷺ.

وفيها: أنَّ الحِرْص على الدُّنيا يؤثِّر في الأمر المستقبَليّ، وليس في الحاليّ وحدَه؛ فقد كان أخذُ الفِدْية في بدرٍ سببًا من أسباب مُصيبة أُحُد.

وفيها: أنَّ مجرَّد وجود النبيِّ ﷺ بينَ الناس، لا يمنع عنهم المُصيبة، كما حصلَ في أُحُد، ولكنَّه يمنع عنهم العذابَ العامَّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أصابَتْه مُصيبةٌ؛ فعلَيه أن يُعزِّي نفسَه بما نالَه من النِّعمة من قبل.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أصابَتْه مُصيبةٌ؛ فعلَيه أن يبحث عن السَّبَب أولًا فيما كَسَبتْه يداه.

وفيها: أنَّ من فوائد البلاء: التَّنبيهَ على الأخطاء؛ للحذَر من الوقوع فيها مستقبَلًا، ولإصلاح مكامِن الخلَل وهوى النُّفوس.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾:

ثم ذكَّر الله تعالى عبادَه المؤمنين، بأنَّ كلَّ ما حصلَ يوم أُحُد من المصائب إنَّما هو بتقديره وقضائه، وإذنه ومشيئته؛ فقال سبحانه:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من الهزيمة والقَتْل والجِراح ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: تقابَل جَمْعُ المسلمين وجَمْعُ المشركين ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإذن القدَريّ، والله هو الذي قدَّره.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (اللَّام) للتعليل، أي: أنَّ الله تعالى قدَّر هذه المُصيبة؛ ليظهَر عِلْمُه بأهل الإيمان، ويتبيَّن رِضاهم بقضائه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

السَّعْي في تخفيف المُصيبة. ومِن رحمة الله تعالى بالمؤمنين: أنَّه أنزلَ عليهم ما يُعالِج أثرَ المُصيبة في نفوسهم.

وفيها: الإيمان بقضاءِ الله وقدَرِه، وأنَّه لا يحصُل شيءٌ في العالم إلَّا بإذنه ومشيئته، وهذا من أعظم ما يخفِّف وَقْع المصائِب.

وفيها: ذِكْرُ إذن الله القدَريِّ، وهو المتعلِّق بالتكوين والخَلْق. ومما ورد بشأنه في القرآن أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وأمَّا الإذن الآخر، فهو الإذن الشرعيُّ، المتعلِّق بما شرَعه الله لعباده، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والإذن الكونيُّ لا بُدَّ أن يقع، ويكون فيما يحبُّه الله، وفيما لا يحبُّه. بخلاف الإذن الشرعيِّ؛ فلا يكون إلَّا فيما يحبُّه الله، ويرضاه، وقد يقع أو لا يقع -على حَسَب أحوالِ العباد واستِجابتِهم أو إعراضِهم-.

وفيهـا: أنَّ عِلْـمَ الله الأزليَّ السـابقَ -ومنـه عِلْمـه بالمؤمنـين- لا يترتَّـب عليـه الثـواب والعقـاب؛ وإنَّما يترتَّب الثواب والعقاب على عِلْـم الظُّهور -وهو عِلْم الشيء عند حصوله ووجوده- وهو المذكور في الآية. وهو الذي تقوم به الحُجَّة على العِباد؛ لأنَّ الله سبحانه لو حاسبَهم بحَسَب عِلْمه السابقِ الأزليِّ، لقالوا: ما عَمِلنا، فلِمَ نُعاقَب ونؤاخَذ؟

وفيها: تربيةُ أهل الإيمان، من خلال المصائِب.

وفي الآية: الرَّدُّ على القدَريَّة، الذين يقولون: إنَّ الله تعالى لا يخلُق الشرَّ، ولا يُقدِّره! فكلُّ ما يجري في العالَم -من خير أو شرٍّ-؛ فإنَّما هو بتقدير الله ومشيئته.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

ثـم ذكَـرَ الله تعالى من حِكمة تقديره لُمصيبة أُحُدٍ أيضًا: أنْ يظهَر أهلُ النِّفاق، وينكَشِـفَ حالهم؛ فقال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أي: ليَظهَـر عِلْمُـه بهم، وتتبـيَّن أحوالهم للمؤمنـين، فيحذَروهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قـال بعـضُ المسـلمين -كعبد الله بـن عمرو بن حَـرَام، والد جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره- للمنافِقين، يُحرِّضونهم على الرُّجوع بعدما انسحبوا:

﴿تَعَالَوْا۟﴾ معنا إلى أُحُد ﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ المشرِكين ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته، ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ حميَّة عن أنفسِكم، وأهليكم، وأموالِكم، وبلدِكم. أو: ادفعوا المشرِكين بتكثير سواد المسلمين -وإن لم تقاتلوا-؛ فإنَّ السَّواد إذا كَثُر كان أرهبَ للعدُوِّ.

﴿قَالُوا۟﴾ -أي: المنافِقين- في جواب مَن دعاهم لمواصلة المسير: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي: لـو نعلَم أنَّكم سـتلقَون العدُوَّ وتُقاتِلونهم، أو: لو كنَّا نعرف القتال ونُحْسِـنه، ونقدِر عليه؛ ﴿لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾ أي: ذهبنا معكم.

﴿هُمْ﴾ أي: المنافِقـون ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي

انخذَلوا ورجَعوا فيه، كانوا للكُفر أقرب -وإن كان معهم شيءٌ من الإيمان- بما يُشاهَد من أحوالهم، ويُستَدَلُّ به على أنَّهم يُبْطِنون الكُفر، فأعذارُهم ظاهرة الكَذِب.

وقيل: هم لأهل الكُفر -يومئذٍ- أقرب نُصرةً منهم لأهل الإيمان.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ كلامًا -كالنُّطْق بالشهادتَين- ويُظهرون من الإيمان ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حقيقةً؛ لأنَّ قُلُوبهم قد خالطَها الكُفر.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: أعلَم من غيره سبحانه، وهو عليمٌ بما يُخفون في أنفُسهم من: الكُفرِ، وتوقُّعِ القتال، والعداوةِ للمؤمنين.

وفي هذه الآية من الفوائد -مع التي قبلها-:

أنَّ الإيمان هو الأصل في النُّفوس، والنِّفاق طارئ على مَن نافقَ؛ ولذلك عبَّر عن أهل الإيمان بالوَصف؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وعبَّر عن أهل النِّفاق بالفِعْل؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

وفيها: تمييز الخبيث من الطَّيِّب، وتمييز أهل النِّفاق من أهل الإيمان؛ وممَّا يدُلُّ على ذلك: إعادة الفِعْل وتكريره؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾؛ لئلَّا يَرْجِعَ نفسُ الفِعْل (وليعلم) إلى المنافِقين والمؤمنين معًا؛ ليكتَمِلَ التمييزُ بينَ هؤلاء وهؤلاء، وتنزيهًا وتشريفًا وتكريمًا للمؤمنين من الانتِظام في سِلْك المُنافِقين.

وهكذا حصل في الواقع؛ فقد انفصلَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بمَن معه من المنافِقين، عن جيش أهل الإيمان!

وفيها: أهميَّة العوامل النَّفسيَّة في القتال؛ فإنَّ كثرة عدَد الجيش في نظَر عَيْنِ العدُوِّ يُرْهِبه، ويكون أبلَغ في دَفْعه وصَدِّه.

ومثلها: المُرابطة على الخيل مع الجيش؛ فهي تُرْهِب الأعداء -ولو بغير قتال-؛ لأنَّ المرابِطَ مُدافِع.

وفيها: استِعمال المنافِقين للأعذار الواهية في التَّخلُّف عن الجهاد، ومن ذلك: زَعْمهم أنَّ

الحَرْب غير متوقَّعة، أو أنَّهم لا يُحْسِـنون القتـال -فيكون خروجُهم بزَعمهم من باب إلقاء النفس إلى التَّهلُكة-.

وقد عَلِموا في أنفُسِهم أنَّهم يَكْذِبون؛ فإنَّ كلَّ الدلائل كانت تُشير إلى وقوع حَرْب؛ لأنَّ قريشًـا قد خرجَـت في جيشٍ كبيرٍ، تريد الثأر ممَّـا أصابهم يومَ بَدْرٍ، وقد نصبوا عَسْـكرَهم، ونزلوا قُربَ المدينة، أفَبَعْد هذا كلِّه لا يكون القتال متوقَّعًا؟!

ثم إنَّ عامَّة رجال العرَب كانوا يعرِفون فنون القتال، ويستَعمِلونه في الغارات فيما بينهم، وفي الدِّفاع عن أنفُسِهم، ونحو ذلك!

ثـم لو كانوا صادِقين؛ لخرَجوا مع المسـلمين، فإن حصل قتـالٌ قاتَلوا، وإلَّا فلن يكلِّفَهم الرُّجوعُ شيئًا.

وفي الآية: أنَّ الشخص قد تتقلَّب به الأحوال، فيكون في حالٍ أقربَ إلى الكُفر، وفي حالٍ أقربَ إلى الإيمان.

وفيهـا: أنَّ المنافِقـين أنـواع؛ فمنهم: مَن نفاقه خالـصٌ ليس معه إيمانٌ ألبتـة، ومنهم مَن يكون معه شيءٌ من الإيمان يُخالِطه بعضُ النِّفاق -يقِلُّ ويكثُر بحَسَب حاله-.

وفيهـا: أنَّ المنافِقـين يقومـون بالأعمال التـي هي في صالح أهـل الكُفر، وأنَّهـم يَخذُلون المسلمين في المواقف الحَرِجة؛ لأنَّ انسِحابهم بعد الخروج أسوأ من عدَم خُروجِهم أصلًا.

وفيها: أنَّ الأحداث والمِحَن تكشِف المنافِقين.

وفيها: وجوب مُواطأة الظاهِر للباطِن، والقَلْب للِّسان، في الإيمان.

وفيهـا: أنَّ العليـم بمَكنونـات قُلُـوب المنافِقين، قـادرٌ عـلى أنَّ يَهْتِك أسـتارَهم، ويُظهر أسرارَهم، ويفضَح بواطِنَهم، ويكشف أمرَهم للمؤمنين.

وفيها: أنَّ الكَذِبَ منْ صفات المنافِقين الملازِمة لهم.

وفيهـا: أنَّ خـروج الكفَّار مـنْ بلدهـم، وجَمْعهم لعسـكرهم، ونزولهم قُربَ المسـلمين بجيشهم؛ دليلٌ واضحٌ على رغبتهم وعَزْمهم على القتال.

وفيها: أنَّ القول المعتبَر هو ما كان له في القَلْب أساسٌ، وأنَّ مَن نطق بقولٍ دون قَصْدِ قَلْبه؛ فيعتبَر قولُه لَغْوًا.

وفيها: أنَّ المنافِق لا يُفيد المسلمين، في قليل ولا كثير.

وفيها: أنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وكذلك الكُفر يزيد وينقُص.

وفيها: أنَّ الإيمان والكُفر يجتَمِعان في قَلْبٍ واحدٍ -مع أنَّهما ضِدَّان- ولكن إيمانٌ جزئيٌّ وكفرٌ جزئيٌّ، فأمَّا الإيمان المطلَق، والكُفر المطلَق فلا يجتَمِعان معًا في قَلْبٍ واحدٍ أبدًا.

وفيها: أنَّ للإيمان خِصالًا، وللكُفر خصالًا، وقد يجمع الشخصُ الواحد بينَ شيءٍ من خصال الإيمان وشيءٍ من خصال الكُفر.

وفيها: الدِّقَّة والعَدْل في إطلاق الحُكم على الأشخاص.

وفيها: أنَّ قوله ﴿أَعۡلَمُ﴾ -وإنْ كان يعني الاشتِراك في بعض العِلْم بينَ الخالق والمخلوق- لكن المُماثَلة ممتنعة، فأين هذا من ذاك؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال الخَضِر لموسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ -وقد جاء عُصفورٌ فنقرَ في البحر نَقْرَة-: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ»(١).

وفيها: فِعْل أدنى المصلحتَينِ عند العَجْز عن أعلاهما؛ فمَن لم يستطِع القتال -مثلًا- فليخرُج لتكثير عدَد الجيش.

ولا يؤخَذ من الآية: جوازُ الاستِعانة بالكفَّار في القتال؛ لأنَّ طلَب القتال ممَّن انسحَب إنَّما كان لإظهارِهم الإسلام، والمعامَلة تكون بناءً على الظاهر.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مقولةَ أهلِ النِّفاق: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهم: عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: الذين هم على شاكِلَتهم في النِّفاق ﴿وَقَعَدُواْ﴾ عن القتال، وتخلَّفوا عن الجهاد.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

ثـم أضافوا لإثـم القُعود إثـمًا آخر، وهو: إلقـاء الشُّـبُهات، فكانوا يتباهَون بسـلامتهم وقُعودهـم، ويَشْـمَتون بمَن خالفَهم من المؤمنين وقُتِـلَ، ويقولون عنهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في عدمِ الخروج، والانسِحاب كما انسحَبْنا ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ يومئذٍ، ولَسلِموا كما سَلِمنا.

ويحتمَـل أن يكـون المعنـى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: المنافِقيـن ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: عن إخوانهم في النَّسـب مـن الخزرَج، من الشُّـهَداء الذيـن قُتلوا في أُحُـد، يتحسَّرون عـلى فَقْدهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في عدَم الخروج مع النَّبيِّ ﷺ؛ ﴿مَا قُتِلُواْ﴾.

فدحـضَ الله حُجَّتهـم، وأبـانَ كَذِبهـم؛ فقال لنبيِّـه ﷺ ليرُدَّ عليهـم: ﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّهـا النبـيُّ ﷺ- في جواب هـذه الشُّـبهة: ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ أي: ادفَعُوا ﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: إنْ كان القعـود يُنجِّـي مـن المـوت -كما زعمتُـم- فينبغـي ألَّا تموتوا! ولكن الواقع أنَّ الموت يأتيكم حتى في حال القُعود؛ فادْفَعوه إذا جاءكم!

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ الحذَر يُغني من القدَر، وأنَّ القاعِد سالـمٌ، وممتنِعٌ عن الموت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقيـن لا يكتَفـون بالتَّبطِئة والتَّعويـق عـن الجهاد قبـل الخروج؛ بل يَشْـمَتون في المُسْلِمين، ويُلْقون الشُّبُهات بعد الرُّجوع.

وفيها: أنَّ المنافِقين يتناجَون فيما بينهم -في مجالسـهم السِّرِّيَّة والخاصَّة- بشـأن ما حصلَ للمؤمنين، لكنَّ الله تعالى لهم بالمِرْصاد؛ فيَهْتِك أستارَهم، ويكشِف للمؤمنين أسرارَهم.

وفيها: أنَّ المنافِق لا يخلُو من شماتةٍ بالمؤمنين عند مُصيبتهم، أو حَسْرةٍ عند مُصيبة نفسِه.

وفيها: أنَّ الإثم يجُرُّ إلى الإثم؛ فقعود المنافِقين جَرَّهم إلى إلقاء الشُّبُهات. وهكذا العاصي تجـرُّه معصيتُه إلى معصية أخرى، كالكَذِب سـترًا لنفسـه وتسـويغًا لمعصيتـه -وهكذا فعلَ المنافِقون، تسويغًا لقعودهم عن القتال-.

وفيها: تلقين المؤمنين الحُجَج في الرَّدِّ على شُبُهات المنافِقين.

وفيها: أنَّ القعود عن الجهاد لا يعني بالضرورة السلامة؛ فإنَّ للموت أسبابًا كثيرة، ومَن

يموتون من غير قتالٍ في حال الأمن -لمرض أو حادث- قد يكونون أكثرَ ممَّن يُقتَلون مع الجيش إذا خرجَ لجهادٍ وغَزْوٍ.

وفيها: أنَّ المنافِقين يَجْمَعون بينَ قُبح الفِعْل وقُبح القول.

وفيها: اعتِراض المنافِقين على القدَر، في قولهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، وفيه مخالَفة صريحةٌ لحديثِ النبي ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[١].

وفيها: قَهْر الله لعباده بالموت، وتحدِّيه للمنافِقين أن يدْرَءُوه عن أنفُسِهم.

وفيها: أنَّه لا يُمكن دَرْءُ الموت؛ لأنَّ ما جاء التحدِّي به في القرآن لا يُمكِن وقوعه، وإلَّا لم يكن للتحَدِّي به فائدةٌ، ولدلَّ ذلك على عَجْز المتحدِّي -وحاشاه سبحانه-.

وفيها: أنَّ الحذَر -مع أهميَّته- لا يمنَع القدَر.

وفيها: أهمِّيَّة تصدِّي الدُّعاة لشُبُهات المنافِقين، خاصَّةً التي ينشرونها في وسائل الإعلام؛ حتى لا تنطلي على العامَّة.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾:

ثم عزَّى الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه ﷺ وأولياءَه المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحسنَ تعزية، عمَّن قُتِلَ من المسلمين في المعركة، وبيَّن حالَ الذين تحسَّر المنافِقون أو شَمِتوا بمقتَلِهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ أي: لا تظُنَّنَّ -يا أيُّها النبيُّ ﷺ- ويدخل غيرُه في هذا الخِطاب تبَعًا ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمل: شُهَداء أُحُد، وبئر مَعُونَة، وغيرهم ممَّن قُتِلَ في المعركة مع الكفَّار، سواءً بيد العدُوِّ، أو مَن قُتِلَ متحرِّفًا -كمَن ارتدَّ عليه سهمُه فقتلَه- ﴿أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ أي: لا تظُنَّ أنَّهم لا يُحِسُّون، ولا يتنعَّمون.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ حياةَ الأرواح، يُحِسُّون ويتنعَّمون ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فهم قد فارَقوا الدُّنيا، فصاروا عند الله، وهذه (العِنديَّة) شرَفٌ وتكريمٌ لهم ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ أي: يُعطَون من النَّعيم. وأصل (الرِّزق): العطاء.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلَت في حمزة وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من قتلى أُحُد.

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لـمَّا أُصِيبَ إخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ؛ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِن ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ من ذَهَبٍ مُعلَّقةٍ فِي ظِلِّ العَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ وَمَقيلِهم؛ قَالُوا: مَن يُبَلِّغُ إخْوانَنا عنَّا، أنَّا أحياءٌ في الجَنَّة نُرْزَقُ؛ لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الجِهَادِ، وَلا يَنْكُلُوا عِندَ الحَرْبِ (أي: يجبُنوا ويتأخَّروا)! فَقَالَ اللهُ سبحانه: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنزلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية»[1].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهم سألوا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية؛ فَقالَ: «أَرْواحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ القَنادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاعَةً، فقالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قالُوا: يا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرواحَنا فِي أَجْسادِنا، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لهم حاجَةٌ تُرِكُوا»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد:

التعزية بعد المُصيبة، وهي: تخفيفُ أثرِها على المُصاب.

وفيها: فَضْل الشُّهَداء في سبيل الله، ومن كرامَتِهم: أنَّهم أحياءٌ، ولله بهم عِنايةٌ خاصَّةٌ؛ فهم عندَه يتنعَّمون.

وفيها: الترغيب في الجهاد؛ للحصول على الشَّهادة.

وفيها: إثبات نعيم البَرْزَخ، ومنزلة الشُّهَداء العالية فيه.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧).

وفيها: ثبوت نعيم الشُّـهَداء في البَرْزخ، وهو دون نعيمهم بعد قيام السـاعة؛ لأنَّ النعيمَ بعد عودة الأرواح إلى أجسادها -بلا مفارقةٍ بعد ذلك- أكملُ من النَّعيم الذي يقع للجَسَد إذا فارَقَتْه الرُّوحُ بعد الموت.

وفيها: أنَّ الشُّهَداء يُرزقون وهم أمواتٌ، بلا أسبابٍ يبذُلونها.

وفيها: شَرَف (العِنديَّة) الخاصَّة، وهي أن يكون أَحدٌ من أهل الإيمان عند الله.

وفيها: استِمرار رِزق الشُّهَداء، وأنَّه يبدأ من حين القَتْل.

وفيها: أنَّ فَناء الجسَـد لا يلزَم منه فناء الرُّوح. وقد تأكل الأرضُ أجسـادَ الشُّهَداء، وقد لا تأكل بعضَهم. أمَّا الأنبياء فالأرض لا تأكُل أجسادُهم أبدًا.

وفيها: إكمالٌ للرَّدِّ على المنافِقين، الذين شَـمِتوا بمقتل شُهَداء المسلمين، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هؤلاء -الذين هم في مَوضِع الشماتة أو التَّحسُّر- في حالٍ عظيمٍ من النعيم.

وفيها: أنَّ الرِّزق المذكور للشُّـهَداء رِزقٌ حقيقيٌّ، وليس أمرًا نفسـيًّا أو معنويًّا فقط؛ وقد ثبـتَ في الحديـث الصحيح: «الشُّـهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ -نَهْـرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ- فِي قُبَّةٍ خَـضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[1].

وفيها: أنَّ التَّعزية تُقَوِّي الرِّضا بالقضاء.

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى أنَّ للشُّهَداء نعيمًا نفسيًّا -بالإضافة إلى النعيم المحسوس المتقدِّم-؛ فقال عن حالهم:

﴿فَرِحِينَ﴾ (الفَرَح): ضِدُّ الحُزن، وهو قريبٌ من معنى السُّرور، ومنه المحمود والمذموم ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: بالـذي أعطاهـم وتفَضَّـل عليهـم، مـن الكرامة وألوان النعيم. و(الفَضْل) في اللُّغة: الزِّيادة.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبَّان (٤٦٥٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشِّر بعضهم بعضًا مسرورين. و(البُشرى): الخبر السارّ ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ في القَتْل والشَّهادة من إخوانهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: ممَّن بقيَ في الدُّنيا بعدَهم، ثابتين على الدِّين، يُريدون اللَّحاق بإخوانهم الذين سبَقوهم.

أو يكون المقصود بقوله ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: الذين لم يُدرِكوا فضْلَهم ومَنزلتهم.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يَسْتَبْشِرون بعدَم الخوف والحُزن على إخوانهم الأحياء؛ لثباتِهم على الإيمان، ورغبتِهم في الشَّهادة.

أو: لا يخافون ممَّا أمامَهم -من المصير- ولا يحزَنون على ما تركوه وراءَهم.

والفَرْق بينَ (الخوف) و(الحُزن): أنَّ (الخوف): غمٌّ بما يتوقَّعه الإنسان من السُّوء في المستقبَل، و(الحُزن): غمٌّ نتيجة فَوْت منفعةٍ، أو حصول مضرَّة، في الماضي أو الحاضر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اجتِماع الفَرَح والاستِبشار للشُّهَداء.

وفيها: اجتِماع الأمن بزوال المحذور، والنِّعمة بحصول المأمول، لمن سلكَ سبيل الشُّهَداء.

وفيها: ظهور فَضْل الله على الشُّهَداء؛ لأنَّ الاستِبشار والفَرَح كلاهما تظهَر آثارُه على الوَجْه والبَشَرة.

وفيها: أنَّ من مقتَضيات الأُخُوَّة الإيمانيَّة: محبَّة شمول الفَضْل والنِّعمة لأهل الإيمان الآخَرين، وتمنِّي السابق حصولَ الشَّهادة للَّاحِق؛ ليحصُل له من النعيم مثلُ ما حصلَ للأول.

وفيها: احتِمال أن يُعرِّف اللهُ الشُّهَداءَ بمَن سيقدُم عليهم، من نُظرائِهم وأشباهِهم.

وفيها: تمنِّي الخير لأهل الإيمان.

وفيها: استِحباب تبشير المؤمن لأخيه المؤمن.

وفيها: أنَّ غير الشُّهَداء لو عرَفوا ما حصل للشُّهَداء؛ لأقدَموا على بَذْلِ نفوسِهم في سبيل الله.

وفيها: أنَّ العَلاقة بينَ الأحياء والأموات من أهل الإيمان، لا تنقَطِع بالموت؛ فالأحياء يَدْعُون الله للأموات: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، والأموات يستَبْشِرون للأحياء بالنِّعمة والفَضْل.

وفيها: أنَّ الشُّهَداء والمؤمنين في البَرْزخ؛ لهم لقاءٌ ببعضهم، وحديثٌ متبادَلٌ.

وفيها: أنَّ سرورَ المؤمنين يكتَمِل باجتِماعهم بإخوانهم.

وفَهِـمَ بعضُ المفسِّرين من الآية: أنَّ فيها بِشـارة لمن بقـيَ حيًّا في غزوة أُحُد، أنَّه لا تُصيبه نكبةٌ بعدَ ذلك اليوم.

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى استِبشـارَ الشُّـهَداء بإخوانهم؛ أكَّد استِبشـارَهم بما حصلَ لأنفُسِهم، فقال: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بما وعدَهم الله به من دار الخُلد، وبما سيُبشَّرون به من الخُلود الذي لا موتَ بعده. ومعنى (استبشَرَ) أي: بشَّر غيره -فهم يُهَنِّي بعضُهم بعضًا بأعظَم مُهنًّأ به- أو: دخلَت عليه البُشرى بتبشير غيرِه له.

﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ قيـل: ثواب أعمالهم، وقيل: الجنَّـة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بيانٌ لمصدر النِّعمة ﴿وَفَضۡلٖ﴾ قيـل: (الفَضْل) داخلٌ في (النِّعمة)، بمعنى: الزيـادة فيها. وقيل: كرامةٌ زائدةٌ عليها، وقيل: النظَر إلى وَجْه الله.

وقـال بعـض المفسِّرين في المـراد بـ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: هـم الأحياء، الذيـن نصرَهم الله في الجهـاد، فيُبَشِّر بعضُهم بعضًا بما حصلَ لهم مـن (النِّعمة) وهي: النصر والغَلَبة، و(الفَضْل) وهو: الغنيمة، وما وقعَ بأيديهم من أموال العدُوِّ وأسراهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لا يتركهـم هَمَلًا وسُـدًى؛ بل لا بُـدَّ أن يُثيبَهم على أعمالهـم، فيفرَحـون أنَّ الله لم يَبْخَسْـهم أجرَهـم، ولم يُضَيِّـع جُهدَهم وعملَهـم؛ بل كافأهم بالنِّعمةِ، والفوزِ المبين، وحُسنِ الخاتمة، وجنَّاتِ النعيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اجتِماع البِشـارات للشُّـهَداء، وأنَّهم يستَبشِرون لأنفُسِهم، ويسـتَبشِرون لغيرِهم، وأنَّهم فَرِحون بما حصلَ، ويستَبشِرون بالذي سيحصُل.

وفيها: الترغيب في الجهاد في سبيل الله؛ للحصول على الشَّهادة.

وفيها: أنَّ ثواب الشَّهادة عظيم؛ لأنَّه من الله، والثواب يعظُم بعِظَم المُثيب.

وفيها: الفَضْل لله في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: سلامة الشُّهَداء من الحُزْن على ما مضى، ومن الغَمِّ بما يحصُل، ومن الخوف من المستقبَل.

وفيها: نِسبة النِّعمة إلى خالِقها، وإسنادُها إلى مصدَرِها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: البِشارة لأهل الإيمان عُمومًا، بالإضافة إلى الشُّهَداء.

وفيها -مع التي قبلها-: تقديمُ الاستِبشار للغير على الاستِبشار للنَّفس، وهذا من كمال الأُخُوَّة. وأين هذا ممَّن يتمنَّى زوالَ النِّعمة عن الغير، بل ويفرَح إذا زالَتْ عنه؟! نعوذ بالله من الحَسَد، ومن شرِّ الحاسِدين.

وفي الآية: حُبوط أعمالِ فاقدِ الإيمان، وأنَّه لا ثواب له عليها عند الله تعالى.

وفيها: أنَّ المِحْنة التي أصابَت المسلمين في أُحُد، هي مِنْحةٌ لمن قُتِلَ منهم في سبيل الله.

وفيها: أنَّ الشَّهادةَ أعظَمُ من الغنيمة.

وفيها -مع الآيتَين قبلها-: مجموعة من مزايا الشُّهَداء؛ ومنها: الحياة الدَّائمة، والقُرب من الله، والكرامة بأنَّهم عِندَه، وجَريان الرِّزق المستمرّ عليهم، وفَرَحهم واستِبشارهم.

ومن فوائد آيات التَّعزية:

من قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، إلى قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أنَّ الله تعالى ذكَّر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعظيم نِعمته عليهم، في إرسال هذا الرسول، الذي كان من أنفُسِهم، يُعلِّمهم، ويُزَكِّيهم، ويُخرِجهم من الضلالة إلى الهداية، ومن الظُّلْمة إلى النُّور، فتَهُون كلُّ بليَّة ومِحْنة بجانب هذه النِّعمة.

ثم أخبرَهم سبحانه عن سبَبِ المُصيبة -ليحذَروا أنفُسَهم- وأنَّ المُصيبة بقضائِه وقدَرِه؛ ليُوَحِّدوه، ويتوكَّلوا عليه، ولا يخافوا غيره.

وأخبرَهـم ببعـض ما فيها مـن الحِكَم؛ لئلَّا يقـع في النُّفوس شيءٌ -مـن اتِّهامه في قضائِه وقدَرِه- وأنَّه أعطاهم أعظمَ ممَّا فاتَهم.

وعزَّاهم عن قتلاهم، بذِكر ما نالَه الشُّـهَداء من ثوابه وكرامَته؛ ليُنافِسـوهم، ولا يحزَنوا عليهم؛ فله الحمدُ سبحانه، وله الحِكمة البالغة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى ما أعَدَّه للشُّـهَداء، وحُسْـنَ مآبِ شُـهَداء أُحُدٍ؛ أثنى على الذين بقُوا أحيـاءً يُواصِلـون الجهادَ بعـد تلك الغزوة، رغـمَ ما أصابَهم مـن جِراحٍ وتَعَـبٍ -طاعةً لله ورسوله-؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ أي: أطاعُوا وانقادُوا ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ في الأمر بالخروج إلى الغَزْو، في اليوم التالي ليوم أُحُد، جهةَ حَمْراء الأَسَد؛ مطاردةً للمشرِكين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ ووقعَ بالمسلمين ما وقعَ، من الجِراح، والألَم، والقَتْل. فلبُّوا النِّداء، بلا توانٍ ولا تباطُؤ.

و(القَرْح): أثر السِّلاح في البدَن، والجُرْح الذي اجتمع فيه القَيْح.

وقد نَدبَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسـلمين إلى النُّهوض في طلَـب العدُوِّ؛ إرهابًا لهم، وليريَهم أنَّ بهم قوَّة وجلَدًا -رغم ما أصاب المسلمين في أُحُد من جِراح وإصابات- وأمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألَّا يخرج معه إلَّا مَن حضرَ أُحُدًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بالإجابـة والخـروج، عـلى الرَّغْـم ممّـا بهم من إصابـات وجِراح ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ العـذاب، بعدَمِ تخلُّفِهم وقُعودِهم -وأتـمُّوا العملَ على أكملِ وَجْهٍ؛ فهؤلاء لهم ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ كبيرٌ، وأجرٌ جزيلٌ.

وروى البخـاري في صحيحه[1]، عن عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، قالَـتْ لِعُـرْوَةَ: يا ابنَ أُخْتِي، كَانَ

(١) برقم (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨) مختصرًا.

أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، لـمَّا أَصَابَ رَسُولَ الله ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ المُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟»، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ثناء الله على الصَّحابة رضي الله عنهم.

وفيها: فَضْل مَن خرجَ إلى غزوة حَمْراء الأَسَد.

وفيها: أنَّ الخروج إلى حَمْراء الأسد كان بأمرٍ من الله.

وفيها: الاستجابة لله ورسوله، مهما كان التعَب البدَنيُّ والنفسيُّ.

وفيها: عدم القعود بعد المُصيبة، والعمَل على تلافي آثارِها، والتَّغلُّبِ على نتائجها.

وفيها: تحدِّي المشرِكين بمواصَلة العمل والجهاد؛ حتى لا تهنأ نفوسُهم بأيِّ إنجاز.

وفيها: خِذلان الله للمشرِكين، الذين انسَحبوا بعد غزوة أُحُد، دون أن يستأصِلوا المسلمين، ويكَرُّوا على المدينة -كما كانوا يتمنَّون-.

وفيها: استِعمال أساليب الحَرْب النَّفسيَّة مع الكفَّار، والقيام بالأعمال التي تُرْعِبهم، وتُبيِّن أنَّ المسلمين لا يزالون على استِعدادٍ كبيرٍ لمواجَهتهم.

وفيها: أنَّ القيام بالأعمال عند المُصيبة يمنَع من الاستِسلام لها، ويخفِّف من آثارِها.

وفيها: فضيلة الجَمْع بينَ الإحسان والتَّقوى، وأنَّ مَن اجتمعا فيه كان له أَجْرٌ عظيمٌ عند الله.

وفيها: أنَّ المصائِب مِحَكُّ الرِّجال.

وفيها: أنَّ الطَّاعة في وقت الشِّدَّة لها أَجْرٌ خاصٌّ.

وفيها: أنَّ المُصيبة البدَنيَّة والنفسيَّة لا تَحُول بينَ العبد وبين قيامه بمواصلة العمَل في نُصرة الدِّين.

وفيها: أنَّ الإحسان والتَّقوى يُعينانِ العبدَ على تحمُّل التكليف في وقت الشِّدَّة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾:

ولـمَّا كان أبو سُفيان -وكان مُشرِكًا- قد أغرَى رَكْبًا لقيَهم في الطريق -بعد الرجوع من أُحُد- بإبلاغ المسلمين، أنَّه ومَن معه قد عزَموا على الرُّجوع إلى المسلمين لاستِئصالهم، وأنَّه يجمع الجموع ليَكُرَّ عليهم، ووصلَ الخبرُ إلى النبيِّ ﷺ؛ فقد ذكرَ الله تعالى ما جرى من النبيِّ ﷺ وأصحابه لـمَّا سمعوا الخبر.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أهل الإيمان ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وهم مَن بلَّغوا خبرَ أبي سفيان: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفَّار قريش ﴿قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ الجموعَ والجيوشَ، لقتالِكم واستئِصالكم؛ ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي: خافُوهم واحذَروهم، وارْجِعوا؛ لأنَّه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمۡ﴾ أي: زادَ المؤمنين ذلك الخبرُ والقولُ المنقولُ ﴿إِيمَٰنٗا﴾ وتصديقًا بوَعد الله، وثقةً به، فلم يلتَفِتوا إلى التَّخويف، وثبَتوا.

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: كافينا أمرَ هؤلاء المشرِكين، وهو قادرٌ على رَدِّ شَرِّهم، وبَغيهم، وكَيدهم.

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾: نتوكَّل عليه في أمورِنا كلِّها، ونلجأ إليه بالنصر على أعدائنا.

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثِّقة بالله تعالى، واليقين بوَعده عَزَّوَجَلَّ، وهذا يدعو إلى الثَّبات، ويدفَع نفوسَ المؤمنين إلى العَزْم والتصميم.

وفيها: فَضْل التَّوكُّل على الله، واللُّجوء إليه في الشَّدائِد.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

وفيها: قوَّة إيمان النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بربِّهم، وحُسن ظنِّهم فيه، وأنَّه يكفيهم جميعَ الشُّرور.

وفيها: أنَّ الكفَّار يستَعمِلون الحروب النَّفسيَّة في تخويفِ المسلمين، وتسريبِ الأخبار المُرعِبة إليهم، وأنَّ طريقة مُواجهة ذلك تكون بالتَّوكُّل على الله.

وفيها: أنَّ الإيمان يزيد، وينقُص.

وفيها: العَلاقة بينَ التَّوكُّل والإيمان.

وفيها: فَضْل الذِّكر العظيم «حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل»، واستعماله في وقت الشِّدَّة، وعند سماع الأخبار المُخيفة.

ولـمَّا أخبرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه عنِ النَّفْخ في الصُّور، فقال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ، مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا»[(١)].

وفيها: أنَّ المؤمنين إذا قويَ إيمانهم؛ لم تُرْهِبْهم جموعُ الكفَّار مهما كانت قوَّتهم.

وفيها: أنَّ الله وكيلُ عباده، وإليه يلجأون في الشَّدائدِ والمُلِـمَّات.

وفيها: إثبات (الوكيل) من أسماء الله تعالى، ومعناه: المتكفِّل بشُؤون عباده، وليس معناه: أنَّه يقوم بالأمرِ نيابةً عنهم.

وفيها: أنَّ (حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوكيل) أمانٌ لكلِّ خائفٍ؛ فهي تُذْهِب الرَّوع، وتُزيل الخَوفَ.

﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾:

ولـمَّا قال المؤمنون ذلك، وصدَقوا مع الله، وتوكَّلوا عليه، وفوَّضوا أمرَهم إليه سبحانه؛ كفاهم ما أهمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أرادَ كَيْدَهم؛ فقال تعالى:

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: رجعَ الذين استجابوا لله ورسوله إلى بلدِهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سلامة وعافية، لم يلقَوا عدُوًّا ﴿وَفَضۡلٖ﴾ أَجْر وثواب، وما حصل من ربح التجارة.

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «النِّعمة: أنَّهم سَلِموا، والفَضْل: أنَّ عِيرًا مرَّت -وكان في أيَّام الموسِم- فاشتراها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فربِحَ فيها مالًا، فقسَمه بينَ أصحابه»[1].

وقوله تعالى ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ أي: لم يُصِبْهم ما يَسُوؤهم، لا في ذهابهم ولا في عودتهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: امتثلوا أمرَه، فنالوا رِضاه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب مِنَّة كبيرة، فتفضَّل على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ برُجوعهم سالِمين مأجُورين.

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآيات نزلَت في غَزْوة حَمْراء الأَسَد.

وقال بعضُهم: بل نزلَت في غزوة بَدْر الصُّغرى -التي تُسَمَّى (بَدْر المَوْعِد)، أو (بَدْر الثانية)- ذلك أنَّ أبا سفيان قال للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أُحُد: مَوْعِدك مَوْسِم بدر، حيث قتلتُم أصحابَنا، فأخذ المسلمون أُهْبة القتال، ورجع جيش قُرَيش! وأتى المسلمون مَوْسِمَ بَدْرٍ -حسَبَ الموعِد- فلم يجدوا به أحدًا، فابتاعُوا؛ فذلك قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من عاقبة التَّوكُّل على الله: السلامة والعافية.

وفيها: فَضْل الاستجابة لله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: اجتماع خيرِ الدُّنيا والآخرة، لمن استجابَ لله، وتوكَّلَ عليه.

وفيها: أنَّ الله يُوَفِّق العبدَ للعمل الصالح، ثم يُثيبه عليه، وهذا محضُ فَضْلٍ منه عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: أنَّ أَجْرَ الغَزو يحصُل لأصحابه، ولو لم يلقَوا عدوَّهم.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١٨). قال المحقق: وإسناده صحيح، تفسير ابن كثير، طبعة أولاد الشيخ.

وفيها: أنَّ المشركين جُبَناء؛ فحينما لَحِقَهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه ولَّوا الأدبار هارِبين!

وفيها: أنَّ الله قد يجعل خيرًا كثيرًا فيما تَكرَهُه النَّفسُ، ويشُقُّ عليها.

وفيها: أنَّ المسلمين لـمَّا أطاعوا الله ورسولَه في حَمْراءِ الأسد؛ غَنِموا وسَلِموا، ولـمَّا عصَوا في غزوة أُحُد؛ أُصيبوا وهُزِمُوا.

وفيها: أنَّ رِبح التجارة إذا حصلَ في سفر الجهاد تَبَعًا؛ فإنه لا يُذْهِب أجرَه.

وفيها: أنَّ حصول النِّعمة والفَضْل يكون بالإيمان، والتوكُّل على الله، واتِّباع مرضاته.

وفي الآية: تحسيرُ مَنْ تخلَّف عن الغزو من المنافِقين، بأنَّهم لم ينالوا خيرًا، وقد فاتَتْهم النِّعمة والفَضْل.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾:

ثم بيَّن الله تعالى أنَّ أخبار التخويف التي نقلَها المشرِكون، إنَّما هي من كَيْد الشَّيطان؛ لتخذيلِ المسلمين.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ**﴾ أي: المثبِّط الذي نقلَ الخبرَ، وما نشأ عنه من التخويف ﴿**ٱلشَّيۡطَٰنُ**﴾ أي: مِن فِعْل الشَّيطان وكَيْده ووَسْوَسته ﴿**يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ**﴾ أي: يخوِّفكم بأوليائه ويعظمهم في أعينكم؛ لتتركوا الخروجَ إليهم، وتجْبُنوا عن مُقاتَلتهم.

﴿**فَلَا تَخَافُوهُمۡ**﴾ أي: لا تتأثَّروا بهم، ولا تقعُدوا عن قتالهم، ولا تكترِثوا بالأقوال المنقولة لتخويفكم.

﴿**وَخَافُونِ**﴾ أي: ليكن خَوفُ الله دافِعًا لكم للجهادِ في سبيله، وعدمِ القعود عن مُقاتَلة أعدائه.

وقوله ﴿**إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ**﴾ أي: مُصَدِّقين بالله، ووَعْدِه بالنصر، وتأمينِه عبادَه وحِفظِه لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من كيد الشَّيطان: تعظيم الأعداء في صُدور المؤمنين؛ ليخافوهم، ويترُكوا الجهاد.

وفيها: أنَّ كلَّ عدُوٍّ للمؤمنين، ومُـخَذِّلٍ لهم، ومثبِّطٍ لِهِمَمهم، وناقلٍ لِـما يُخيفهم؛ هو من أولياءِ الشَّيطان وأعوانه.

وفيها: أنَّ من وسائل الشَّيطان: إرعابَ المؤمنين.

وفيها: أنَّ الشَّيطان يُهاجِم بأوليائه، ويستَعمِلهم في التخويف.

وفيها: أنَّ مَنْ يُثَبِّط المسلمين عن الجهاد؛ إنَّما هو من أتباع الشياطين.

وفيها: أنَّه لا يجوز تَرْك الجهاد لأجل الشائعات المُخيفة.

وفي قولـه تعـالى ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: دليلٌ عـلى أنَّه كلَّما قويَ إيمانُ الإنسـان بالله؛ قويَ خوفُه منه، وضَعُفَ خوفُه من أعدائه.

وفي الآيـة: النَّهـي عن الخـوف الطبيعي، إذا كان يـؤدِّي إلى تَرْك واجـب، أو فِعْل محرَّم؛ فالخوف قسمان:

الأول: خـوف عِبـادة، وهو خوف السِّرِّ. فهذا لا يجوز صرفُه إلَّا لله؛ فلو خافَ شـخصٌ من ميِّتٍ -مثلًا- لكان شِرْكًا.

والخـوف الثـاني: الخوفُ الطَّبيعـيُّ الجِبِلِّيُّ. وهو الذي يعتَري الإنسـانَ بسـبَبِ وجودِ ما يُخيف حقيقةً -كسَبْعٍ وعدُوٍّ-؛ فهذا لا يُلام عليه العبدُ، إلَّا إذا أدَّى إلى تَرْك واجب أو فِعْل محرَّم.

وهناك خوفٌ ثالث، وهو خوف الجُبناء، الذين رُبَّما يخاف الواحدُ منهم من ظِلِّه! وهذا أقرب إلى المرض، فيحتاج إلى علاجٍ.

وفي الآية: أنَّ مَن تولَّى الله؛ فإنَّه سيُجاهِد في سبيله، ويكون له من الله نصرٌ وحِفظٌ.

وفيها: أنَّ التصديق بوَعد الله يثبِّت في الجهاد.

وفيهـا: أنَّ أسـباب الخوف إذا قامَت؛ فعـلى العبد أن يُواجِهَها بالإيـمان بقوَّة الله وقُدرته -التي لا يقف أمامها شيء-.

وفيها: أنَّه لا يخاف الشيطانَ إلا وليُّ الشيطانِ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾:

ولـمَّا نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن الخوف من أولياء الشَّيطان؛ نهى رسوله ﷺ عن الحُزن على حالِ مَن سارع في الكُفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ولا يُهِمَّنَّك ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يُبادِرونه، ويدخلون فيه بسُرعة، ويجمعون الجُموع لمحاربَتك ومَن معك؛ فـ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: مهما فعَلُوا، وجمَعُوا، وكادُوا؛ فلن يُلحِقوا ضرَرًا بالله تعالى، ولن يُبطِلوا دينَه، ولن يكْبِتوا نبيَّه ﷺ وأصحابَه؛ بل إنهم لا يضُرُّون إلَّا أنفُسَهم.

قيل: المقصود كفار قريش، وقيل: المنافقون، ويؤيده آية المائدة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي: نصيبًا. و(الحظُّ) في اللُّغة: هو النَّصيبُ، من شيءٍ نافع ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الجنَّة، وذلك لأجل كُفرهم وطُغيانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عقوبةٌ شديدةٌ في النَّار، وبئس المصير.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هم المُنافِقون»[١]، وكذا قال في الآية التي تليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

شَفَقة النَّبيِّ ﷺ على الكفَّار، وحِرْصه على هدايتهم.

وفيها: أنَّ الدَّاعية لا ينبغي أن يقعُد به الحزنُ، وتتسلَّط عليه الغُموم؛ بسبَب مخالفَةِ الآخَرين للحَقّ، وعِصيانِهم، وتمرُّدِهم.

وفيها: أنَّ حِكمة الله اقتضَت حِرمانَ الكفَّار من الخير في الآخرة، ودخولَهم في العذاب الأليم؛ إذا عانَدوا وأصرُّوا على الكُفر، وماتوا على ذلك.

وفيها: أنَّ التَّأمُّل في حِكمة الله، يُعين على علاج الغَمِّ الذي يُصيب نُفوسَ الدُّعاة؛ بسبَب مُسارعة كثير من الناس في الكُفر.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٥٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٢).

وفيها: اجتِهاد كثير من الكفَّار في حَرْبهم للإسلام، ومُسارعتهم في ذلك، وحِرْصهم على التَّمسُّك بالكُفر، والمقاتَلة من أجله.

وفيها: أنَّ الإيمان بتعذيب الكفَّار في الآخرة، يخفِّف على نفوس المؤمنين ما يلقَونه من كَيدهم.

وفيها: محبَّة الدَّاعيةِ المسلمِ الخيرَ لجميع الخَلْق.

وفيها: أنَّ بعض سُفَهاء بني آدم يُسارِعون فيما يضُرُّهم، ويُهْلِكهم.

وفيها: أنَّ الله تعالى لا تضُرُّه معصيةُ العاصين ولا كُفرُ الكافرين، كما لا تنفعُه طاعةُ الطائعين؛ كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(١).

وفيها: أنَّ مَن يُسارِع مع الغير، أشدُّ اجتهادًا ممَّن يُسْرِع وحدَه. ولذا يتعاونُ الكفَّار، ويتناصَرونَ، ويجتَمِعونَ لنَشْرِ كُفرهم، والقتالِ من أجله.

وفيها: أنَّ الكُفر أعظمُ سبَبٍ للحِرمان من الخير.

وفيها: أنَّ الكافر قد يكون له حظٌّ في الدُّنيا، ولكن لا يُمكِن أن يكون له حظٌّ في الآخرة؛ بل ليس له إلَّا العذاب الأليم.

وفيها: تسلية الله لنبيِّه وسيِّد المؤمنين صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والاعتِناء بشُؤونه، وتبشيره، وإلقاء الطُّمأنينة في نفسه، بأنَّ دينه باقٍ لا يزول -مهما كادَ الكفَّار-.

وفيها: أنَّ بعض الناس يقع في الكُفر سريعًا؛ لافتِتانه به، وحِرْصه عليه؛ ولذا جاء التعبيرُ في الآية بـ(المسارَعة في الكُفر)، وهو أبلَغُ من (المسارعة إلى الكُفر)؛ من جهة الانغِماسِ التامِّ، والتَّلبُّسِ الكاملِ.

وفيها: ذِكرُ الإرادة الكونيَّة لله تعالى. وأما النوع الآخر من نوعَي الإرادة هو: الإرادة الشرعيَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وقد تجتَمِع الإرادتان -كوقوع هداية مؤمِن وطاعة مُطيع- وقد تقع الإرادة الكونيَّة دون الشرعيَّة -كإرادته كُفرَ كافرٍ ومعصيةَ عاصٍ-.

وقد تنفرِد الإرادة الشرعيَّة، كإرادة الله إيمانَ الكافر أو طاعةَ العاصي، مع أنَّ الكفر والمعصية واقعٌ ولا بُدَّ؛ فكونها محبوبة لله فهي شرعيَّة، وكونها لم تقع -مع أمرِ الله بها ومحبَّتِه لها- دليلٌ على أنَّها شرعيَّة فحسب؛ فهي مُرادة محبوبة لم تقع.

وقد تنتَفِي الإرادتان، ككُفر المؤمِن الذي ماتَ على الإيمان؛ فهذا لا يحبُّه الله، ولم يقع لهذا المؤمن.

وفيها: أنَّ النفوس الكامِلة قد يعتَريها ما يعتَري النَّفسَ البشريَّة، من الحُزن، والهَمِّ، والغَمِّ.

وفيها: تسلية الدُّعاة، بألَّا تذهبَ أنفُسُهم حسراتٍ على مَن ضلَّ وكفرَ، ولا يَبْتَئِسوا بما يصنَعه هؤلاء من إيذائِهم وحَرْبهم؛ فإنَّ المؤمن إذا ثبتَ سينجُو، والكافر -مهما كادَ- سيَهْلِك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى عاقبةَ المُسارِعينَ؛ ذكرَ بعدَها عذابَ مَنِ اختارَ الكُفر، وقدَّمه، وآثرَه؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: قدَّموه عليه، واختارُوه، وتركُوا الإيمان؛ فشبَّه الكُفر بالسِّلْعة، والكافر بالمشتري الذي يُفضِّل، ويختار.

و(الإيمان) لغةً: هو التصديق، وشرعًا: هو الإقرار، المستلزِم للقَبول والإذعان، ويشمل: اعتقاد القَلْب، وقول اللِّسان، وعمل الجوارح؛ فالإيمان قول وعمل واعتقاد.

فكان جزاء هؤلاء الكفَّار، أنَّهم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ بتَفضيلهم الكُفرَ على الإيمان الذي يُحِبُّه الله، وتكرار ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ في الآية التي قبلها عن المنافقين وهذه عن الكفار، وقيل التكرار للتأكيد، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ موجِع، يخلُص إلى قُلُوبهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الذي يشتري الكُفر بالإيمان؛ راغبٌ فيما أخذَ، مُعرِضٌ عمَّا تركَ.

وفيها: أنَّ الكافر لا يقدِر على أن يضُرَّ الله مِثقال ذرَّةٍ؛ لأنَّ قوله ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةٌ في سياق النفي بـ (لن)؛ فهي تفيد العُموم، يعني: لا يضُرُّ اللهَ قليلًا، ولا كثيرًا.

وفي الآية: غَباء الكفَّار، وحماقَتهم؛ لأنَّهم سيَرَون في الآخرة أنَّهم كانوا مَغبونينَ في اشترائِهم الكُفرَ في الدُّنيا، ومن عادة المغبون أن يتألَّم؛ ولذلك ناسبَ أن يكون لهم في الآخرة عذابٌ أليمٌ.

وفيها: شِدَّة عذاب الراغِب في الكُفر.

وفيها: أنَّ أخذ الكُفر بدلًا عن الإيمان، أخسرُ صفقة على وَجْه الأرض.

وفيها: أنَّ تقديم الكُفر على الإيمان انتِكاسٌ للفِطرة؛ لأنَّ الأصل في البشر أنَّ الله فطرَهم على الإيمان، فإذا كفرَ أحدُهم؛ فقد قدَّم الكُفر -الذي زيَّنه له إبليس- واختارَه على الإيمانِ الذي فطرَه الله عليه.

وفي الآية -مع التي قبلها والتي بعدها-: تكريرٌ للتأكيد.

وفيها جميعًا: أنَّه لـمَّا تعدَّدت صفاتُ الكفَّار، وتنوَّعت أعمالهم؛ جعلَ الله تعالى لهم أنواعًا مختلفةً من العذاب:

فجعل للَّذين (يُسارِعون في الكُفر) عذابًا (عظيمًا).

وللَّذين (اختارُوا الكُفر وقدَّموه) عذابًا (أليمًا).

وللَّذين (كفَروا، واستحبُّوا الحياة الدُّنيا، وازدادُوا من عمل الكُفر) عذابًا (مُهينًا).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حُكمَ المُسارِعين إلى نُصرةِ الكُفر والدِّفاعِ عنه، ومُقاتلةِ المؤمنين لأجله، وأرشد أنَّه لا يُؤْبَه بهم؛ لأنَّهم يحارِبون الله، والله غالبٌ.

وذكـرَ عاقبـةَ تقديم الكُفر على الإيمان؛ بيَّن بعد ذلك أنَّ رغبة الكافرين في الحياة ليسـت خيرًا لهم، إذا استمرُّوا على الكُفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: ينهى الله الكفَّار أن يظنُّوا ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أنَّ إمهالَنا لهم، بتأخيرِ الأَجَل وإطالـة العمر، وعـدمِ مُعاجَلتهم بالعقوبـة في الدُّنيا ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ وفي مصلحتهم.

كلَّا؛ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ونؤخِّرهـم، ونُمَتِّعهـم برَغَـد العيـش؛ ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ وذنبًـا وطُغيانًـا في أنفُسِـهم، وإضلالًا لغيرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُذِلُّـهم الله به، كما اسـتكبَروا في الأرض، وعلَو فيها.

وقـد ذَكـرَ الله تعالى في آيـات أخرى، أنَّـه يأخذ الكفَّـار أولًا بالبأسـاء والـضَّرَّاء لعلَّهم يتضرَّعـون. فـإذا لم يُؤْمِنـوا يفتح عليهـم من السَّرَّاءِ وأبـوابِ كلِّ شيء؛ حتـى إذا فَرِحوا بما أُوتُـوا؛ أخذَهـم بغتـةً وهـم لا يَشْـعُرون، كـما قـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٥].

وهـذا الإمهال والاستِدراج من كَيْدِ الله المتين؛ كما قـال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقد قال عبدُ الله بنُ مسـعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما من نَفْسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ، إلَّا والموتُ خيرٌ لها»، وقـرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، وقرأ: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تأخير الله للكافر ليس عِنايةً به؛ بل ليزدادَ إثمًا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٩)، والطبري في تفسيره (٧/ ٤٢٣).

وفيها: أنَّ إمهال الكفَّار من أسباب غُرورهم، واستِرسالهم في فُجورهم.

وفيها: أنَّ من الناس مَن يزداد كُفرًا بطول العُمر.

ويؤخَذ من مفهوم الآية: أنَّ زيادة عُمر المؤمن خيرٌ له؛ ليزدادَ من الطاعات، وتزكوَ نفسُه بالاستِمرار في عمل الصالحات، فتكثُرَ حسناتُه، ويتضاعفَ أجرُه عند ربِّه، وقد سُئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قيل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[(١)].

وفي الآية: أنَّ إمهال الكافرين والفاسِقين ليس عَبَثًا؛ وإنَّما هو لِحِكمة من الله.

وفيها: أنَّ على الإنسان أن يعتَبِر في عُمره: هل أمضاه في طاعةٍ؟ وهل تزوَّد فيه من الخير؟ وليحذَر من الانشِغال بالمعاصي.

وفيها: أنَّ الإنسان قد يغترُّ بظاهر الحال، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل؛ فالله تعالى يُهين ويُذِلُّ في الآخرة مَن تكبَّر وعلا في الدُّنيا.

وفيها: تقريع الكفَّار العائِدين من أُحُد، بأنَّ سلامتهم وعودتهم إلى مكة ليست في صالحهم -كما ظنُّوا-؛ بل هي شرٌّ لهم، إذا ازدادوا كُفرًا، بمُعاندةِ الحقِّ والاستِمرارِ في محُارَبة أهله.

وفيها: تنبيه مَنْ عاش من الكفَّار، وسَلِمَ في رَغَد العيش، أنَّ هذا ليس إكرامًا من الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾.

وفيها: أنَّ العطاء في الدُّنيا لا يدُلُّ على رِضا الله عن صاحبه.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾:

ثُمَّ بيَّن اللهُ تعالى حِكَمًا عظيمةً أخرى، لِـمَا حصلَ للمسلمين في أُحُدٍ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يتركهم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾: مِنَ اختلاطِ المنافِقين بهم، ووجودِ الكُفر في بعضِ القُلُوب ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾، أي: يُفرِّقَ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: المنافِق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: المؤمن؛ فيزول الالتِباسُ، وتظهرُ الحقائقُ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَيَمِيزُ أهلَ السَّعادةِ منْ أهلِ الشَّقاءِ»[1]، وقال قتادةَ: «يُمَيِّز بينهم بالجهادِ والهِجرةِ»[2].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّه استأثَرَ بعِلْمه؛ فلا يكْشِفه لكم سَلَفًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ أي: يختار ويستخلص ويختصُّ ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فيُطْلِعه بالوحي على بعضِ الغَيب الذي يشاؤه، ومنْ ذلك: أسماءُ المنافِقينَ.

وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: بوجوده، ورُبوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: تصديقًا بالوحي الذي أخبَروا به عن الله، وعملًا بما جاءُوا به من شَرْع الله.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بما جاء من الغَيب بقُلُوبكم، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ بجوارحكم، فتمتَثِلوا أوامِرَ الله، وتجتَنِبوا نواهيه؛ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثوابٌ جزيلٌ على ذلك.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائِدِ -(وهي من كنوز القرآن)-:

أنَّ الشَّدائِدَ مِحَكُّ صِدقِ الإيمان.

وفيها: أنَّ اللهَ لا يترُكُ المنافِقين المندَسِّين وسْط المؤمنين، دونَ كَشْف أحوالهم، وأنَّ

---

(١) دلائل النبوة -للبيهقي (٣/ ٧٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٥).

حِكمته تعالى تمنَع بقاءَ الأمور مختَلِطة؛ بل إنَّه يُجري من الأحداث ما يَكْشِـفُ الخفايا، ويبيِّنُ المنافِق منَ المؤمن.

وفيهـا: أنَّ الله تعـالى قـد يُبقِي الأمورَ مُلتَبِسـةً بعضَ الوقت؛ لحِكمـة جليلةٍ، كتمحيصِ الأمورِ، وإجراءِ الأحداثِ التي يحصُل بها امتحانُ العِباد.

وفي الآية: أنَّ الله تعالى يَعْقِد أسبابًا من المِحْنة؛ ليُظْهِر أولياءَه، ويَفْضَحَ أعداءَه.

وفيها: أنَّ المِحَن تكشِفُ الصَّابرينَ، وتُميِّزُهم عن المنافِقينَ.

وفيها: فَضْلُ الصَّحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، الَّذين ظهرَ إيمانُهم وثباتُهم وطاعتُهم يومَ أُحُدٍ. وهُتِكَت فيه أستارُ المنافِقين؛ فظهرَت مخالفتُهم ونُـكوصُهم وخيانتُهم.

وفي الآيـة: الرَّدُّ على المنافِقين، الذين قالوا: «إنْ كانَ محمَّدٌ صادِقًا؛ فليُخبِرنا بمَن يؤمن به منَّا ممَّن يكفُر به»؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآية. وفي هذا: إثباتُ نبوَّة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ الحقائق تُعرَف بالقرائِن، والمواقِف، وأفعالِ الأشخاص عند الشَّدائِد.

وفيها: أنَّ الشَّـدائِد تُبيِّنُ للمؤمنينَ حقائقَ أنفُسِهم، فيطمئنَّ المؤمنُ لسلامةِ حالِه وصِحَّةِ عمَلـه، وتُظهِـر أيضًـا حالَ المنافِق؛ فيحـذَرُه أهلُ الإيـمانِ، ولا يُوَلُّونه عمـلًا، ولا يأخذونَ بكلامِه، ولا يعتَمِدون على رأيه؛ لأنَّه عدُوٌّ.

وفيها: أنَّ الله لا يُطْلِع عامَّة الناس على الغَيب، وليس من طبيعة البَشَر معرفةُ الغَيب.

وفيها: أنَّ انكِشاف الحقائقِ، لا يكون إلَّا بشدائِد الامتِحاناتِ.

وفيها: أنَّ معرفةَ بعض الغَيب مَنصِبٌ جليلٌ، لا يُؤتاه إلَّا مَن شرَّفه الله تعالى بذلك.

وفي الآيـة: قَطْع أملِ النفوس من المعرفـة اليقينيَّة بالغَيب، إلَّا ما جاء عن طريق الوحي؛ وبذلـك يوفِّـرُ المؤمنُ جُهـدَه، ووقتَه، ومالَه مـنْ أن يُـصرَفَ في الدَّجَلِ والشَّـعوذةِ، وإتيانِ الكُهَّانِ، ويدَعُ الاشتغالَ بما يستحيلُ معرِفتُه.

وفيها: التنبيه على احترامِ الرُّسُل، وإنزالِهم منازِلَهم؛ لأنَّنا ما عَلِمنا الشَّرْعَ وبعضَ الغيب إلَّا من طريقهم.

وفيها: الارتباطُ بينَ الإيمانِ والتَّقوى، واستِلزام كلٍّ منهما للآخر.

وفيها: أنَّ الله تعالى يُبيِّنُ لأهلِ الإيمانِ ما تدعُو حاجتُهم إلى بيانه؛ فالمؤمن معروف والكافر معروف، لكنَّ العدُوَّ الخفيَّ المشتبِه أمرُه هو مَن يحتاجون إلى معرفته وتبيينه.

وفيها: أنَّ بواطنَ القُلُوب وحقائقَ ما في الصُّدور؛ مِنْ الغَيب الذي لا يعلمه إلَّا الله.

وفيها: أنَّ الله يبتلي عبادَه؛ ليستَخرِجَ ما في صُدورهم، ويُظْهِره للعلَنِ.

وفيها: أنَّ الله راضٍ عن أنبيائه ورُسُله.

وفيها: أهميَّة تحقيق الإيمان، والانقياد لله، والإذعان، وعدَم الاعتراض على القدَر والشَّرْع، وأنَّه إذا نزل الابتلاءُ بالعِباد؛ فالواجب على المسلم الثبات والانقياد لأمر الله، وأن يُريَ ربَّه من نفسه خيرًا.

وفيها: أنَّ أعيانَ المنافِقينَ إذا كانوا يُعلَمون بالوحي يقينًا -في زمن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فإنَّهم ينكَشِفون بعد انقطاعِ الوحي بالقرائن، ولَحْن القول، ومواقف الأشخاص.

وفيها: انقِسامُ النَّاس إلى خبيثٍ، وطيِّبٍ، -والخُبْثُ والطِّيبُ في النُّفوسِ متفاوتٌ-؛ فالبَعض يغلِب عليه الخُبث، وآخَرون يغلِب عليهم الطِّيب.

وفيها: أنَّ الله يفضَح ما يقوله المنافِقون، إذا غابوا عن الناس.

وفيها: أنَّ الله يعذِّبُ المنافِقين في الدُّنيا -بالفضيحة وغيرها- وعذاب الآخرة أشَدُّ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾:

ولـمَّا حرَّضَ الله تعالى المؤمنين على بَذْل النُّفوس في سبيله؛ أعقبَ ذلك بالتحريض على بَذْل الأموال في ذلك، وذَمَّ مَن أملَى لهم -ليزدادوا إثمًا- والمنافِقين في بُخلهم، وذكرَ عاقبتَهم في الآخرة؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يَظُنَّنَّ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ويمنَعون حقَّ الله -عُمومًا-. و(البُخل): هو منع الحقِّ الواجب ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وخيره. و(الفَضْل)

في الأصـل: هـو الزِّيادة ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: ليـس جمعهُم المالَ، واسـتمتاعُهم به، وادِّخارُه، ومَنْعُهم حقَّ الله فيه؛ خيرًا من إخراجِ الحقِّ والبَذْلِ والعطاءِ.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ وضررٌ عليهم في الحقيقة؛ لأنَّ أموالهم ستَزول عنهم، وهم سيزولون عنها، ويبقى وَبالُ البُخْل عليهم.

فالجزاء: أنَّهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: سـتُجعَل أموالهم التي منَعوها طَوقًا يُحيط بأعناقِهم، ويُلازِمهم، فيُعَذَّبون بها يومَ الحساب.

كـما جـاء في الحديث: «مَنْ آتَاهُ الله مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُـجَاعًا أَقْـرَعَ، لَـهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُـهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُـمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي: بِشِـدْقَيْهِ- ثُـمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية[1].

وقولـه تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لـه ما فيهـما، ممَّا يتوارثـه أهلُها، من مـالٍ وغـيره، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠].

و(الميراثُ): انتِقال المال من سابقٍ إلى لاحِقٍ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مُطَّلـعٌ عـلى أعمالِكـم، ونيَّاتِكـم وضمائرِكـم، ومَنْعِكـم وعطائِكم، فيُجازيكم على كلِّ ذلك.

وفي هذه الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

مضرَّة البُخل في الدِّين والدُّنيا والآخرة: ففي الدِّين بنَقْصه، وفي الدُّنيا بالسُّـمعة السيِّئة ونحوها، وفي الآخرة بالعذاب.

وفيها: عدمُ الاغتِرارِ بتكثيرِ المالِ، وحَبْسِه، وزيادتِه.

وفيهـا: مُعاقبة البخيل يومَ القيامة بجزاءٍ من جِنس عملـه؛ فالثُّعبانُ -الذي يتحوَّل إليه مالُه- يبدأ بقَضْم يدِه المغلولة التي بَخِلَت!

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣).

وفي الآية: تحريم مَنْعِ الواجبات الماليَّة، سواءً كانت زكاةً، أو نفقةً، أو ضيافةً، أو إطعامَ جائع مُشرِفٍ على الموت، أو صدًّا لعدُوٍّ يجتاح البلد، أو إنفاقًا على أمرٍ ضروريٍّ لا يقدِر على إزالته إلَّا صاحبُ المال، أو أيَّ بَذْلٍ واجبٍ للمال.

وفيها: انفراد الله تعالى بالسَّماواتِ، والأرض، بعد فَناء الخَلْق.

وفيها: أنَّ إنفاقَ المال في سبيل الله؛ خيرٌ من التمتُّعِ به في اللَّذَّات، وادِّخارِه لدفعِ الغوائِل والمصائِب والآفات.

وفيها: أنَّ ما هو ميسورٌ في الدُّنيا -كبذل المال- سيكون معسورًا في الآخرة؛ فلْيُبادِر العبد.

وفيها: أنَّ سُوء العمل يُحيط بصاحبه يومَ القيامة، ويُهلِكه، وأنَّ التطويق في التعذيب حقيقيٌّ.

وفيها: وجوب بَذْلِ ما أفاء الله على العبد من فَضْلٍ؛ كمالٍ، وجاهٍ، وعِلْمٍ، وقوَّة، وراحةٍ، ونحوها.

وفيها: أنَّ كلَّ مالٍ وفَضْلٍ في السماء والأرض لا يستَقِرُّ في يد أحد، ولا ينفَرِدُ به إلَّا ربُّ العالمين.

وفيها: بقاء المُلك لله وحدَه، وتحوُّل جميع الممتلكات إليه.

وفيها: تحفيز الناس للإنفاق، بكون المال عاريةً مستَرَدَّةً، خارجةً عن مُلكهم، وراجعةً لله.

وفيها: أنَّ العاقل لا يَسْتَبْقي ما يفنَى.

وفيها: أنَّ العطاء خيرٌ، والمنع شرٌّ.

وفيها: مُعاقبة البخيل بنقيضِ مقصوده؛ فإنه يظُنُّ أنَّ ما يبخَل به سيبقَى له، وهو في الحقيقة سيخرج منه.

وفيها: أنَّ أسرارَ الناس -بما فيها: ممتلكاتهم وأرصدتهم الماليَّة- معلومةٌ عند الله، وهو مطَّلِع عليها.

وفيها: عدم الاستجابة لداعِي الشَّيطان، الذي يقول للعبد: لا تُنفِق حتى لا يفنَى المال!

وفيهـا: عـدم الاغترار بما يحصُل للإنسـان من مـالٍ أو مَتـاعٍ؛ لأنَّه من إيتـاء الله له؛ فهو مَصدَرُه ومالِكُه على الحقيقة.

وفيها: أنَّ كَنز المالِ: سبَبٌ للعذابِ، وقد يضطر البخيلُ للإنفاقِ منه ببلايا يبتَليه الله بها.

وفيها: أنَّ الرَّصيدَ الحقيقيَّ للإنسانِ، هو: ما أنفقَه في سبيل الله.

وفيها: حماقة البخيل، الذي يظُنُّ أنَّ كَنز المال سيُبقي المالَ، ولو أرادَ بقاءَه حقيقةً لأقرضَه ربَّه.

وفيها: أنَّ ادِّخار المال وكَنزَه ليس مذمومًا، إذا أخرجَ حقَّ الله فيه.

وفيهـا: أنَّـه ينبغـي على مَـن يتـولَّى أمـورَ النـاس أن يُلْزِمَهـم بالواجبـاتِ، ويُرَغِّبَهم في المستحَبَّاتِ، ولا يُلزِمهم بما لا يجب عليهم شرعًا.

وفيها: تحريضُ العبدِ على الإنفاقِ؛ لكونِه سيُفارِق مالَه.

وفيها: أنَّ إيتاءَ الله للعبد لا يدلُّ على رِضاه عنه.

وفيها: أنَّه لا أمرَ وسَطٌ بينَ الخَيرِ والشرِّ؛ فإمَّا أنْ يكونَ الشَّيءُ خيرًا، أو شرًّا.

وفيها: فضيحة البخيل بحقِّ الله في أرض المَحْشر، حينما يرى عذابَه الأولون والآخِرون، وهو يَفِرُّ من كَنزه.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى كَيْد المشركين في مُحارَبة المسـلمين بالسِّـلاح؛ أتبعَه بذِكر شيءٍ من كَيد اليهود في مُحارَبة المسلمين، بالتشكيك وإلقاء الشُّبُهات.

وذَكَرَهـم الله عَزَّوَجَلَّ بعـد ذَمِّ البُخـل؛ لأنَّهم هم أهـلُ البُخْل بالمال، وأهـلُ البُخْل بالعِلْم؛ فكتموا صِفة نبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسَعَوا في قَتْله -كما قتلُوا الأنبياء من قبل-.

فلـمَّا تحبَّب الله تعالى إلى عباده المؤمنين، بتسـميته صَدَقاتهم (قَرْضًا)؛ استغلَّ اليهودُ ذلك في سَبِّ الله تعالى ووَصْفِه بالفَقر؛ فقال عَزَّوَجَلَّ -حاكيًا قولهم ورادًّا عليهم-:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ وعَلِـمَ، وأحصى ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ﴾ -وهم أحبار اليهود- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ومُحتاجٌ إلينا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لا نحتاجُ إليه!

سبَبُ نزولِ الآيةِ:

قـالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ قالتِ اليهودُ: يا مُحمَّدُ، افتقرَ ربُّك، يَسـألُ عبادَه القَرْضَ؟! فأنزلَ الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية»[1].

ويـروى عن ابن عباس أنه قال: دخـل أبوبكرٍ الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيت المدارس، فوجد من يهود ناسًـا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فنحاصٌ، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبرٌ يقال له أشـيع فقال أبوبكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفنحاصٍ: ويحك يا فنحاص، اتّق الله وأسـلم، فوالله إنّك لتعلم أنّ محمّدًا رسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التّـوراة والإنجيـل، قال فنحـاصٌ: والله يا أبا بكرٍ ما بنا إلى الله من فقـرٍ، وإنّه إلينا لفقيرٌ، ومـا نتـضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنّا عنـه لأغنياء، ولو كان عنّا غنيًّا ما اسـتقرضنا أموالنا كـما يزعـم صاحبكم، ينهاكم عن الرّبا ويعطيناه، ولـو كان غنيًّا عنّا ما أعطانا الرّبا، فغضب أبوبكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فضرب وجه فنحاصٍ ضربةً شـديدةً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدوّ الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاصٌ إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا محمّد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكـرٍ: مـا حملـك على مـا صنعت؟ فقال: يا رسـول الله إنّ عـدوّ الله قال قـولاً عظيـمًا، زعم أنّ الله فقيرٌ، وأنّهم عنه أغنياء، فلمّا قال ذلك غضبت لله ممّا قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاصٌ، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاصٌ ردًّا عليـه وتصديقًا لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، وفي قـول

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٦٠).

أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[1].

وقولُه تعالى ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي: منْ هذه المقالةِ الشَّنيعةِ، ونُثْبِته في صُحُف ملائكتِنا ونَحفظُه؛ لنُقَرِّرَهم به يومَ القيامة، ونعاقبَهم عليه، وعلى جريمتهم الأخرى، وهي: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾؛ فقد اعتدَوا على حقِّ الله، وعلى حقِّ أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم يعلَمون شناعةَ جريمةِ قَتْلِ الأنبياءِ، فسنُعاقِبُهم على أقوالِهم وأفعالِهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وباشِروه، وادخُلوا أبواب جهنَّم، في العذابِ الأليمِ الشَّديدِ، المُحْرِقِ. و(الحَريقُ) في اللُّغة: هو النَّار المُضطَرِمة ذات اللهب.

وفي هذهِ الآيةِ منَ الفوائدِ:

تهديدُ الله لليهودِ، بأنَّه سَمِعَ كلامَهم، وكتَبَتْه ملائكتُه.

وفيها: أنَّ الله يُدْرِك الأصواتَ مهما خفيَتْ.

وفي الآية: مثالٌ لسَمْع التَّهديدِ، بخلافِ سَمْع التأييد؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وفيها: جُرأة اليهود على الله، مع تكبُّرهم؛ فهم يَصِفون الله بالنَّقْص وأنفُسَهم بالكمال! ويجمَعون في أفعالهم بينَ الاعتِداء على مقامِ التوحيد ومقامِ الرِّسالة.

وفيها: أنَّ دَأْبَ اليهودِ، هو: انتِهازُ ما يظُنُّونه فُرصةً؛ لإلقاء الشُّبُهاتِ بينَ المسلمين، وأنَّ معرفةَ أهلِ الإسلامِ بمعاني ما أنزلَ اللهُ؛ يُفوِّت على اليهودِ غرضَهم هذا.

وفي الآية: استعمالُ الكتابةِ للإثباتِ.

وفيها: أنَّ الكتابةَ تُقيمُ الحُجَّةَ عند المُحاسَبةِ.

وفيها: أنَّه يجوزُ نِسبةُ الفِعْل لجماعةٍ، ولو كانَ الفاعلُ بعضَهم، إذا كانوا مُقِرِّين به،

---

(١) رواه الطبري (٧/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧)، وإسناده ضعيف.

وراضينَ عنه، أو مشـارِكين ومُعينين؛ كما دلَّ عَليه حديثُ: «إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ؛ مَنْ شَـهِدَهَا فَكَرِهَهَا -وفي رواية: أَنْكَرَهَا- كَانَ كَمَنْ غَـابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَـهِدَهَا»(١)، وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن العلاء بن بدر أنه سُـئِل عن قولـه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهـم لم يدركوا ذلك (أي اليهـود في العهد النبوي) فقال: بموالاتهم مَن قَتلَ الأنبياء.

وفيهـا: مُقابَلـة المجرِمِ بـما يُماثِل جريمتَه؛ فكـما أنَّ اليهودَ جمَعـوا في جريمَتِهم بينَ القولِ والفِعْل؛ فقد جمعَ الله عليهم في العذابِ بينَ القولِ والفِعْل.

وفيها: شَـناعةُ جَريمةِ عُلماءِ اليهودِ، مع أنَّ الأصلَ في عالمِ الدِّينِ: أنْ يكونَ أشـدَّ توقيرًا وتعظيمًا وخشـيةً لله منْ سـائرِ النَّـاسِ، ولكِنَّ عُلماءَ اليهـودِ وأحبارَهم كانوا أشـدَّ كُفرًا منْ عامَّتهم، وأكثرَ استهزاءً بالله تعالى منهم!

وفيهـا: أنَّ اليهودَ مترسِّـخٌ فيهم الكُفـرَ، وأنَّ مَنْ قتلَ الأنبياءَ؛ فليس بمُسـتَغْرَبٍ منه أنْ يفتريَ على الله، ويَشْتُمَه.

وفيهـا: أنَّ كُفرَ اليهـودِ، كانَ بالقولِ، والفِعْل؛ فسـبُّوا الله تعالى واتَّهمُـوه بالفَقرِ، وقتلوا أنبياءَه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد حاولوا قَتلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من مرَّة؛ كما في قِصَّة الشَّاةِ المسمومةِ، وفي قِصَّـةِ خـروجِ ثلاثةٍ منَ اليهودِ قد اشـتمَلوا على الخَناجِرِ، وأرادُوا الفَتْكَ بهِ -في سـبَب غزوة بني النَّضير-.

وفيها: أنَّ التَّعذيبَ بالإحراقِ بالنَّار حقيقيٌّ؛ ولذلك فإنَّهم يذوقونَه، وهذا أشدُّ منْ مجرَّد الإحساسِ.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾:

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى سبَب هذا العذابِ الشَّديدِ لهؤلاء اليهودِ؛ فقال:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحريـق ﴿بِمَا﴾ بسـببِ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: مـا عَمِلْتُمـوه، والآثـامُ

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩).

والجرائِمُ، تُكتسَب باليد -كالقَتْل والبطش- وبالرِّجلِ، واللِّسان، والفَرْجِ، والعين، وغيرها. وإنَّما ذكر (الأيدي) تغليبًا؛ لأنَّ أكثرَ الجرائمِ تُرتكَب بها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذي ظُلْمٍ لخَلْقِه، لا في قليلٍ، ولا كثيرٍ، كما قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

نَفْيُ الصِّفاتِ المذمومةِ عنِ الله، فكما نُثبت الكمالَ لله تعالى؛ فإنَّنا نُنَزِّه عَنْه ما لا يَليقُ به.

وفي نَفْيِ الظُّلْم عنِ الله: تَطمينٌ للخَلْقِ، الَّذينَ يذوقونَ ظُلْمَ بعضِهم لبعضٍ في الدُّنيا.

وفي الآية: إطلاقُ (البعضِ) على (الكُلِّ)؛ كما في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: بسبَبِ ما اقترَفتموه، وعَمِلتُموه بكلِّيتكم، و(الأيدي) منْ وسائلِ العمَل.

وفيها: أنَّ تَرْك الظُّلْمِ اختيارًا -مع القُدرةِ عليه- هو نوعٌ منَ المَدْحِ، ونفيُ الظُّلْم عنِ الله؛ ليس لعدَمِ قُدرتِه عليه -حاشا وكلا-؛ بل لعدَمِ رضاهُ بِه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾:

ولـمَّا ذَكَرَ الله تعالى موقفَ اليهودِ مِنْ ربِّهم في شَتْمِهم له، وموقفَهم من أنبيائه في قَتْلِهم لهم؛ أتْبعَ ذلك بِذِكرِ موقِفِهم منْ رَفضِ اتِّباعِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإبائِهم عليه؛ فقالَ تَعالى:

﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهُمْ جَماعةٌ منَ اليهودِ: منْ زُعَمائِهم، وأحبارِهم، قِيلَ: منهم كَعْبُ بنُ الأَشْرَفِ، وحُيَيُّ بنُ الأَخْطَبِ.

قالوا للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي: أمرَنا وأوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ ولا نُصدِّق ﴿لِرَسُولٍ﴾ في دعواه الرِّسالة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: بنارٍ، تأكُل ما نقرِّبه إلى الله. وكان أنبياءُ بني إسرائيل إذا جمَعوا صدَقاتِ القوم، وغنائِمَ المعاركِ؛ تنزلُ نارٌ مِنَ السَّماءِ فتأكُلها.

﴿قُلْ﴾ -يا أيُّها النَّبيُّ- في جوابهم: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ كزكريّا ويحيى وغيرهما ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الآياتِ الواضِحات على صِدقِهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ مِنَ النَّارِ الَّتي تأكُلُ القَرابينَ.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، والقَتْلُ يتضمَّن التَّكذيبَ، وزِيادةً ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتِكم، أنَّكم تُؤمنونَ بالرَّسُولِ، الَّذي يأتيكم بما اقترَحْتُموه؟!

فما أنتُم -يا مَعشر يهود- إلَّا كأسلافِكم، في التعنُّتِ، ورَفْضِ الحقِّ!

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

استِمرارُ مُسَلْسَلِ التَّكذيبِ لدى اليهود، منْ عهدِ أنبيائِهم إلى عَهْد نَبيِّنا.

وفيها: أنَّه ينبغي في الرَّدِّ على الخَصْم دَحْضُ حُجَّته التي أتى بها؛ لأنَّه إذا خُوصِم بما يقوله لا يبقى له حُجَّة.

وفيها: أنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد أُعطُوا من الآيات ما آمَن على مِثله البَشَر؛ كما قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وفيها: أنَّ معرفة تاريخ الكفَّار يُعين في الرَّدِّ عليهم.

وفيها: أنَّ من جُرأة الكفَّار على الله وأنبيائه، أنَّهم يقترِحون المعجِزات ويُطالِبون بها، وكان الواجب عليهم الانتِظار، وأن يرضَوا بما يأتيهم به نبيُّهم من المعجِزات -من عند الله- إذا شاءَ اللهُ، وأرادَ.

وفي الآية: إشارةٌ إلى الفَرْق بينَ طلَب المعجِزة استِرشادًا وتثبيتًا، وبين طلَبها تعنُّتًا وعِنادًا.

وفيها: نِسْبة الفِعْل إلى اللَّاحِقين، مع أنَّ الذي اقترفَه هم السابقون؛ وذلك لإقرارِهم ورِضاهم به.

وفيها: أنَّ من الإفحام في المُناظَرة -أحيانًا-: العُدول عن مُناقَشة الخَصْم في صِحَّة ما

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

يقولُه، إلى مُناقَشته في مُخالَفته لِما يقوله، ويكون هذا من باب التنزُّل معه، والانتقال للأهمِّ المُفحِم. وهذا إلزامٌ لهم بعدَم صِدقهم في قولهم بشيءٍ يَعْرِفونه.

وفيها: أنَّ المعجِزات ضروريَّة للرسول -الذي يأتي بشريعة جديدة مستقلَّة- ولكنَّها ليست ضروريَّة للنبيِّ -الذي يأتي لتقرير شريعة رسولٍ قبلَه-.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾:

ثم قالَ اللهُ تعالى، مُسَلِّيًا نَبيَّه ﷺ فيما يُواجِهه منْ تكذيبِ اليهودِ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في نُبوَّتك، وشريعتِك، وما جئتَهم به منَ المعجِزاتِ الواضِحاتِ -وعلى رأسها: القرآنُ، الهادِي إلى سواءِ السَّبيلِ-؛ فلا تحزَنْ ولا تفزَعْ منْ هذا التَّكذيبِ، ولا تحزنْ وتأسَ عليهم.

ولك أُسْوَةٌ فيمَنْ مضى؛ ﴿فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾، فجحدَت أقوامُهم ما أُوحيَ إليهم، منَ الشَّرْعِ الَّذي أُمِروا بتبليغه.

وقد ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والآياتِ الشَّرعيَّةِ، والحِسِّيَّة الواضِحةِ.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ قال قتادة: كتب الأنبياء.

(الزُّبُر) في اللُّغةِ: الكلام والكتاب، و(الزَّبُور) بمعنى: المزبور، أي: المكتوب. وهو الصُّحُف المشتَمِلة على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والمواعِظ والزواجِر. وسُمِّي الكتاب (زَبورًا)؛ لأنَّه يَزْبرُ عنِ الباطل، ويَدْعُو إلى الحقِّ.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للظُّلُماتِ، المُزيلِ للجَهْلِ والضَّلالِ، والمنيرِ لطريقِ الحقِّ سبيلَ النجاة.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ بمَن مضى قبلَه من الأنبياء، الذين جاءُوا بالمعجِزاتِ، والآيات البيِّنات، ومع ذلك كُذِّبوا منْ أقوامهم، وجحَدوا رسالتَهم، فصبَروا على ما نالَهم مِنَ الأذى.

وفيها: بِشارة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأنَّ الله تعالى سينصُرُه على كلِّ مَن يكذِّبه ويؤذيه، كما نصرَ مَنْ قبلَه مِنَ الأنبياء.

وفيها: مواجَهةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصنافٍ كثيرةٍ مِنَ المكذِّبينَ، مِنْ مُشرِكي قُريش، واليهود والنصارى وغيرهم.

وفيها: أنَّ الإنسانَ إذا علِمَ أنَّ غيره أُصيبَ بما أُصيبَ به؛ كانَ في ذلك تخفيفٌ عنه، وتسليةٌ له.

وفيها: أنَّ مِنْ أشَقِّ الأمورِ على الرُّسُل: الإيذاءُ بالتَّكذيبِ؛ لأنَّهم أصدَقُ البشرِ.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية المسلمِ أنْ يصبرَ على ما يُلاقيه منْ أذًى في سبيلِ دعوته؛ اقتداءً بنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأنبياءِ قبلَه.

وفيها: أنَّه ما منْ رسولٍ إلَّا نزلَ عليه كتابٌ مِنَ الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فنؤمِنُ بجميعِ هذه الكتبِ إجمالًا، سواءً عرفنا بعضَ تفاصيلِها، أمْ لم نعرِفْ.

وفيها: أنَّ كُتُبَ الله تعالى تُنيرُ السَّبيل لمن أراد المسير، وتهدي إلى الحقِّ بإذن الله.

وفيها: أنَّه ينبغي على مَنْ يُواجِه الظُّلُماتِ، والاضطرابَ، والحَيرةَ، والتَّشكيكَ، والتَّشويشَ، وعدمَ الوضوحِ في الآراءِ والمواقفِ؛ أنْ يعودَ إلى القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه يُنيرُ له الطَّريقَ، ويهديه سواءَ السَّبيل، ويقضي على كلِّ شكٍّ وشُبْهةٍ، ويُضيءُ له طَريقَ الحقِّ، بينَ ظُلُماتِ الجهلِ والضَّلالةِ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾:

ثُمَّ أخبرَ اللهُ تعالى عنِ الخليقة عُمومًا، بأنَّه حكمَ عليهم بالفَناءِ، وهدَّدَ المُسيءَ، وبشَّر المُحسِنَ، ووعظَهم بزوالِ الدُّنيا؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كُلُّ رُوحٍ ستَذوقُ طعمَ الموتِ، بخروجها مِنْ جسَدها، وكذلك البدَن يذوقُه، ولكنَّ الرُّوحَ لا تفنَى. و(كُلُّ) منْ ألفاظ العُموم؛ فيدخل في هذا: كلُّ ذات رُوحٍ من الأحياء، جنًّا وإنسًا وغيرهم، حتى الملائكةَ يموتون.

ويُستثنَى من ذلك: كلُّ مَن خُلِقَ للبقاء؛ كالوِلدانِ المُخلَّدون، والحُور العينِ في الجنَّة، وخَزَنةِ الجنَّة والنَّارِ -فإنَّهم لا يموتون-.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ أي: تُعطَون جزاءَ أعمالِكم كاملًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: وهو اليوم الذي يَبتدئُ بعد النَّفخةِ الثَّانية، بقيامِ النَّاسِ مِنَ القبورِ.

والمرادُ بِـ(التَّوفيةِ) هنا: توفيةُ الكمالِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُوَفَّى بعضَ أَجْرِه في الدُّنيا، أو في البرزخ.

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أي: أُبْعِدَ وأُزِيلَ. و(الزَّحْزَحة) في اللُّغة: الإبعادُ ببُطءٍ، ومشقَّةٍ ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ لأنَّه نجا مِنَ المرهوبِ، وحصلَ على المطلوبِ، وظَفِر بالمحبوبِ.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ سُمِّيت بـ(الدُّنيا)؛ لدُنُوِّها زمنًا وقَدْرًا؛ فهي قبل الآخرة، ولا نِسبة بينها وبين الآخرة ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ فمُتعة الدُّنيا مُتعةٌ عابرةٌ، تَغُرُّ صاحبَها وتخدَعه، والمتاع ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى.

وفي الحديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ؛ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَأوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٠١٣)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٩٧٨).

والحديث ثابتٌ في صحيح البخاري[١] -من حديث سَهْل بن سَعْد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- بدون زيادةِ الآية.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَعزيةُ المؤمنينَ، الَّذينَ نالَتْهم مُصيبةٌ في أُحُدٍ، بأنَّ الموتَ مصيرُ الجميعِ.

وفيها: تسليةٌ للنَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بِأنَّ الله سيُعاقِب كلَّ مَنْ عانده مِنْ كفَّارِ اليهودِ وغيرِهم.

وفيها: أنَّ الرُّوح تذوق طَعْمَ مُفارَقةِ البدَنِ، وتُحِسُّ به.

وفيها: أَنَّ كلَّ نفسٍ ستموتُ. ويُستثنَى مِنْ ذلك: كلُّ مَنْ خُلِقَ للبقاءِ؛ كالوِلدانِ المُخلَّدون، والحُور العين في الجنَّة، وخَزَنة الجنَّة والنَّار -فإنَّهم لا يموتون-.

وفيها: أنَّ الذَّوقَ يَحصُل بِه درجةٌ منْ درجاتِ اليقينِ، وينتَقِلُ الذَّائقُ مِنَ عِلْم اليقينِ إلى حَقِّ اليقينِ، بعد مروره بعَينِ اليقينِ.

وفيها: أنَّ بعضَ الجزاءِ قد يَحصُل في الدُّنيا والبَرْزَخِ -وهو القيامة الصُّغرى- وأمَّا التوفية الكاملة فتُدَّخرُ إلى القيامةِ الكُبرى.

وفيها: أنَّ النُّفوسَ تَميلُ، وتندَفِعُ إلى الشَّهَواتِ، الَّتي حُفَّتْ بِها النَّارُ، وتنجَذِبُ إليها؛ فلا تَكادُ تنصَرِفُ عنها إلَّا بزَحْزَحةٍ مشتَمِلَةٍ على الشِّدَّة والمشقَّةِ.

وفيها: أنَّ الفوزَ الحقيقيَّ لا يكونُ إلَّا بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، ودخولِ الجنَّة.

وفيها: أنَّ متاعَ الدُّنيا زَائلٌ لا يَبْقى؛ فلا يَصِحُّ أن يُشْغِلَ الإنسانَ عنِ العملِ للآخرةِ.

قالَ قتادةُ في قوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: «هي متاعٌ متروكٌ، أوشَكَتْ -والله الَّذي لا إله إلَّا هُو- أن تَضْمَحِلَّ عنْ أهلِها، فخُذُوا من هذا المتاع طاعةَ الله -إنْ استطعتُم- ولا قوَّة إلَّا بالله»[٢].

وفيها: تهديد ووعيد لمن قال: إن الله فقير، وسائر المكذبين.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٣٣).

وفيها: وعد حسن للمؤمنين.

وفيها: أنَّ الدُّنيا تخدَع أهلَها، بما تُـمَنِّيهم بهِ مِنْ طُولِ الدَّوامِ، والبقاءِ، وبِما تُلْهيهم بِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ العَاجِلةِ.

وفيها: تَصْغيرٌ لشأنِ الدُّنيا، وتَحقيرٌ لأَمْرِها، وأنَّهَا دَنِيئةٌ زَائِلةٌ.

﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾:

ثُـمَّ زَادَ اللهُ تعالى في تَسـليةِ المؤمنينِ، عمَّا أصابهم في أُحُـدٍ، ودَعَاهُمْ إلى الصَّبرِ على الأذى الَّـذِي يَلقَونَـه مِنْ أهلِ الكتـابِ، وأخبرَهـم -وأخبرَ المؤمنينَ منْ بعدِهم- أنَّهم سـيُبتَلَونَ في أموالِهِم وأنفُسِهم.

فقـالَ تعـالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾: منَ النَّفقـاتِ الواجبةِ، والمُسـتحبَّة، ومنَ التعرُّضِ لإتلافها في سبيلِ الله، وتعرُّضِها للجوائحِ، والفَقدِ، والسَّرِقةِ، ونحوِ ذلك.

و(الـلَّامُ) في قولِـه ﴿لَتُبۡلَوُنَّ﴾ للتأكيـدِ، وفيـه معنى القَسَـم، و(النُّـونُ) لتأكيدِ القَسَمِ.

﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾: بأعباءِ التَّكاليفِ الثَّقيلةِ على كثيرٍ من النَّاسِ؛ كالجهادِ في سـبيلِ الله، والتَّعـرُّضِ فيـه للتَّعبِ، والقَتْلِ، والأَسْرِ، والجِراحِ- وبالأمـراضِ الَّتِي تُصيبكم في النَّفسِ، وفيمَنْ تُحِبُّونَ، وبالمصائِبِ.

وهـذا كقولِـه تعـالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قولُـه تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾: مِنَ الطَّعنِ فيكم، وفي دِينِكم، وكتابِكم، ورسولِكم .

وقدْ سـلَّى اللهُ تعالى المؤمنـينَ بهذهِ الآيةِ -عند مَقْدَمِهم المدينةَ، قَبـل وقعة بَدْرٍ- عمَّا نالهم

مِـنَ الأذى مِنْ أهلِ الكتـابِ، والمشرِكينَ، وأمرَهم بالصَّبرِ والصَّفْحِ والعفْوِ؛ حتَّى يفرِّجَ اللهُ عَنْهُمْ.

وقـد روى البخاري[(١)]، عنْ أُسـامةَ بـنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّبِـيُّ وَأَصْحَابُـهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗا﴾... وَكَانَ النَّبِـيُّ يَتَـأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُـولُ اللهِ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ».

وقـد أخبرَهم ربُّنا بهذا قبل وقوعه؛ ليُوَطِّنوا أنفسَـهم على وقـوعِ ذلك، والصَّبرِ عليه إذا وقعَ، فيهونَ في أنفُسِهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾: أي: إن تصبِروا على ما نالَكم في أموالِكـم وأنْفسِـكم، مِـنَ الابتلاءِ، والامتحـانِ، وعلى أذيَّةِ الظَّالمـينَ، وتتقُوا اللهَ في ذلك الصَّبرِ، بأنْ تنووا به وَجه الله، والتقرُّبَ إليه، ولم تتعَدَّوا في صَبركم الحدَّ الشَّرعيَّ مِنَ الصَّبرِ، في موضعٍ لا يَحِلُّ لكم فيه الاحتِمالُ؛ بلْ وظيفتُكم فيهِ: الانتِقامُ مِنْ أعداءِ الله.

إن فعلتُم هذا؛ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: مِنَ الأمورِ الَّتي يُعزَم عليها، ويُنافَس فيهـا، ولا يُوفَّـق لها إلَّا أهـلُ العزائِم والهِمَـمِ العاليةِ؛ كما قالَ تعـالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فُصِّلَت: ٣٥]، وعزم الأمر: أي شدَّه وأصلحه.

وعن كَعْبِ بْنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ كَعْبَ بنَ الأَشْرَفِ اليَهُودِيَّ كانَ شـاعِرًا، وكانَ يَهْجُو رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي شِـعْرِهِ، وَكانَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ المَدِينَةَ، وَأَهْلُها أَخْلاطٌ، مِنْهُمُ المُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَعْوَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمُ المُشْـرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَوْثانَ، وَمِنْهُمُ اليَهُودُ، وَهُمْ أَهْلُ الحَلْقَةِ والحُصُونِ، وَهُـمْ حُلَفـاءُ لِلْحَيَّـيْنِ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، فَأَرادَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَـدِمَ المَدِينَةَ اسْتِصْلاحَهُمْ كُلَّهُـمْ، وَكانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْـلِمًا وَأَبُـوهُ مُشْرِكٌ، والرَّجُلُ يَكُونُ مُسْـلِمًا وَأَخُوهُ مُشْرِكٌ، وَكانَ المُشْرِكُونَ واليَهُودُ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْذُونَ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحابَهُ أَشَـدَّ الأَذَى، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ والمُسْلِمِينَ بِالصَّبرِ

(١) برقم (٤٥٦٦).

عَلَى ذَلِكَ، والعَفْوِ عَنْهُمْ، فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] إِلَى آخِرِ الآيَـةِ، وَفِيهِـمْ أَنْـزَلَ اللهُ جَـلَّ ثَنـاؤُهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، فَلَـمّا أَبَـى كَعْبُ بـنُ الأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَأَذَى المُسْلِمِينَ، أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا لِيَقْتُلُوهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ سَـعْدُ بْنُ مُعاذٍ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ الأَنْصارِيَّ، وَأَبا عَبْسٍ الأَنْصارِيَّ، والحارِثَ ابْنَ أَخِي سَـعْدِ بْنِ مُعاذٍ، فِي خَمْسَـةِ رَهْـطٍ، وَذَكَرَ الحَدِيـثَ فِي قَتْلِهِ. قـالَ: فَلَمّا قَتَلُوهُ فَزِعَـتِ اليَهُودُ وَمَنْ كانَ مَعَهُمْ مِنَ المُشْـرِكِينَ، فَغَدَوْا عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ حِـينَ أَصْبَحُوا فَقالُوا: إِنَّـهُ طُـرِقَ صاحِبُنـا اللَّيْلَةَ، وَهُوَ سَـيِّدٌ مِنْ سـادَتِنا، فَقُتِلَ. فَذَكَرَ لَهُمْ رَسُـولُ اللهِ ﷺ الَّذِي كانَ يَقُولُ فِي أَشْـعارِهِ، وَيَنْهاهُمْ بِهِ، وَدَعاهُـمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُـمْ وَبَيْنَ المُسْـلِمِينَ كِتابًا، يَنْتَهُوا إِلَى ما فِيـهِ، فَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُـمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ عامَّةً صَحِيفَةً[1].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

أنَّه لا بُدَّ أن يُبتلَى المؤمنُ في شيءٍ منْ مالِهِ، أو نفسِه، أو ولدِه، أو أهلِه.

وفيها: أنَّ المؤمن يبْتلَى على قَدْر دينِهِ؛ وأن الصلاح لا يمنع البلاء، فعن سَعْدٍ قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُـولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَـدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِياءُ، ثُمَّ الأَمْثَـلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[2].

وفيها: أنَّ مَنْ قام بحقٍّ، أو أمرَ بمعروفٍ، أو نهى عنْ مُنكَرٍ؛ فلا بُدَّ أنْ يؤذَى؛ فما له دواءٌ إلَّا الصَّبرُ في الله، والاستعانةُ بالله، والرُّجوعُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) رواه أبـوداود (٣٠٠٠)، والطـبراني في الكبير (١٥٤)، والبيهقي في سـننه (١٨٦٢٨) -واللفظ له-، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٣).

وفيها: أنَّ من حِكمة الله تعالى في عبادِه: أن يبتليَهم في أموالهم وأنفُسِهم، وبأذيَّة المشرِكين لهم؛ ليتميَّز المؤمن الصادِق من غيره، وليكون في ذلك رفعة لدرجاتهم.

وفي إخبار الله تعالى المسلمينَ بأذيَّة الكفَّار لهم قبل وقوعها: زيادةٌ لإيمانهم ويقينهم؛ فإنَّه إذا أخبرَهم بذلك ووقعَ كما أخبر ﴿**قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا**﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧**﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بالصَّبر على إيذاء أهل الكتاب؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ أنَّه أمرَهم ببيانِ الحقِّ، وعدمِ كَتْم العِلْم، فكتموا الحقَّ، وزادوا على ذلك أذيَّة أهله!

فقال سبحانه: ﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ**﴾ أي: واذكُر -يا أيُّها النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- لأُمَّتك قِصَّة هؤلاء.

﴿**مِيثَٰقَ**﴾ (الميثاق): هو العَهد الثقيل، المؤكَّد باليمين ﴿**ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ وهم: أحبارهم ورهبانهم ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ**﴾ أي: لتُظهِرُنَّ للناس جميعَ ما فيه مِنَ الأحكامِ، والأخبارِ ـ الَّتي مِنْ جملتها: نُبوَّة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-.

﴿**وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ**﴾: ولا تُخفونَه، سواء بكِتمانِ بعضه، أو بتحريفِ معانيه.

قال الحسن البَصْرِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «لَيَتَكَلَّمُنَّ بالحقِّ، ولَيُصَدِّقُنَّه بالعَمَل»(١).

وقالَ قتادةُ رَحِمَهُٱللَّهُ: «هذا ميثاقٌ أخذَه الله على أهلِ العِلْم، فمن عَلِم شيئًا فلْيُعَلِّمْه، وإيَّاكم وكِتمانَ العِلْم؛ فإنَّ كِتمان العِلْم هَلَكةٌ، ولا يتكلَّفَنَّ رجلٌ ما لا عِلْمَ له به، فيخرُج من دين الله، فيكون من المتكلِّفينَ.

كان يُقال: مَثَلُ عِلْمٍ لا يُقال به؛ كمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنفَقُ منه. ومَثَلُ حِكْمةٍ لا تخرُجُ، كمَثَلِ صَنَمٍ قائمٍ لا يأكُل ولا يشرَب.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٦٢).

وكان يُقـال: طُوبـى لعالِـمٍ ناطِقٍ، وطوبى لمستَمِعٍ واعٍ؛ هـذا رجلٌ عَلِم عِلْـمًا فعلَّمَه، وبذَلَه، ودعَا إليه، ورجلٌ سَمِعَ خيرًا فحَفِظَه، ووعَاه، وانتفعَ به»[١].

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي: طرَحوه وألقوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ زيادةً في الإعراض؛ فإنَّهم لم يُلقُوه أمامَهم؛ وإنَّما ألقَوه خلفَهم؛ دلالةً على أنَّهم كَرِهوه، واستكبَروا عنه، وأهمَلوه، ولم يبالوا به.

قالَ الشَّعبيُّ: «إنَّهم قد كانوا يقرأونه، إنَّما نَبَذُوا العملَ به»[٢].

﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: اسـتبدَلوا به متاعًا دُنيويًّا زائلًا منْ حُطامِ الدُّنيا، وأموالها، وشَـهَواتها؛ كالرِّئاسـةِ، والجـاهِ، وأيضًا فعلـوا ذلك؛ حتى لا تذهـبَ أُعْطِيَاتُهُـم، ومنزلتُهم ومناصبُهم عند قومِهم.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي: قَبُحَ هذا الثَّمنُ، وهذا الشِّراءُ.

قالَ مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: تبديلُ اليهودِ التوراةَ»[٣].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

خَطرُ تَأثيرِ العُلماءِ، وأنَّ زَلَّتَهم مُضِلَّةٌ للنَّاسِ.

وفيها: وجوبُ إظهار العِلْم، وتحريمُ كِتمانه، وأنَّه يدخلُ في إظهارِه: تَوضيحُ معانيه -لا تبليغَ ألفاظه فحسبُ- ويدخل في كِتمانه: تحريفُ معانيه.

وفيها: بيانُ الكتابِ للنَّاسِ -مؤمنهم وكافرهم-؛ فتبيينُه للمؤمنين لهدايتِهم وإرشادِهم، وتبيينه لغير المؤمنينَ بدَعوتِهم إليه.

وفيهـا: أنَّ منْ أهـلِ الكتابِ مَنْ يَبِيعُه بثَمنٍ بَخْسٍ، ويسـتهينُ به، ويُعْـرِضُ عنه؛ كما أنَّ منهم مَنْ يُحَرِّفه عنْ مواضعِه، ولا يَعْلَمُ مِنْهُ إلَّا أمانيَّ يتمنَّاها، ومَنْهم مَن لا يستفيدُ منه شيئًا، فهو كالحِمارِ يحمِلُ أسفارًا.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٦١)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧).

وفي الآية: تحذيرٌ لعلماءِ السُّوء في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد قال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

وفيها: التَّحذيرُ منَ الأسباب الباعِثة على كِتمانِ الوحي وتحريفِ معناه؛ طمعًا في اللَّذَّاتِ الفانيةِ، والشَّهَواتِ الفاسدةِ، والمالِ والجاهِ، أو خوفًا مِنَ الحُكَّامِ، وسعيًا في إرضائهم، أو موافقةً لأهواء النَّاسِ، ونحوَ ذلك.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَ عِلْم الإنسانِ؛ ازدادَ ثِقَلُ العَهْدِ المأخوذِ عليهِ.

وفيها: أنَّه يجبُ على أهلِ العِلْم توضيحُه، ببيانٍ، لا لبسَ فيه.

وفيها: شَرَفُ الصَّفقةِ، والعَهدِ، الَّذي بينَ الله والعالِـمينَ بِهِ، وبشَرْعه.

وفيها: أنَّ شرَفَ العِلْم لا بُدَّ أن يُقابِلَه التَّكليفُ؛ ببَذْلِه وتعليمِه.

وفيها: خَطرُ الرِّئاسةِ والجاهِ، وأنَّ خوفَ زوالهما رُبَّما دفعَ صاحبَهما إلى كِتمانِ العِلْمِ، وإخفاءِ الحقِّ.

وفيها: أنَّه يجب الأَخْذُ بكلِّ وسيلة لتبليغ العِلْم، سواءً بالقول، أو الكتابة، أو عَقد المجالس، وباغتِنام واستِثمار الوسائل التقنيَّة الحديثة -التي تُسَهِّل إبلاغَه للقريب والبعيد-.

وفيها: أنَّ الهِمَم الدَّنيئةَ، والنُّفوسَ الخسيسةَ، ترضَى بالأدنى، بدلًا من الأعلى.

وفيها: تحريم مُحاباة الرُّؤساء والوجَهاء والأغنياء، على حساب الحقِّ وبيانِه. وفي الحديث: «أَفْضَلُ الجِهَادِ: كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ -أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ-»[2].

وفيها: أنَّ مجرَّد إيتاءِ الله العِلْمَ للعالِـم، يتضمَّن ميثاقًا غليظًا مؤكَّدًا بالبيانِ، وعدَمِ الكِتمان.

وفيها: أنَّه يحرُم على أهل العِلْـم كِتمانُ ألفاظ الوحي، أو كِتمانُ معانيه، كالامتِناع عن تفسيره، أو تحريفِ معناه، وتفسيرِه على غير مُراد الله، كقول بعض النصارى: إنَّ الذي بشَّر به عيسى مِن بعدِه اسمه أحمد، وهذا محمَّد؛ فليس هو! مع أنَّه معلومٌ أنَّ (أحمد) و(محمَّد) اسمان للنبيِّ ﷺ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وحسَّنه، وابن ماجه (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٠١١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٩).

وفيها: أنَّ تَرْك العمل بالوحي هو مِن نَبْذِه، والإعراضِ عنه.

وفيها: احتِساب الأجر في تعليمِ العِلْم، والنَّشاطِ في تبليغه.

قال أبو هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَاللهِ لَوْلا آيَتانِ فِي كِتابِ اللهِ، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]»[1].

وفيها: أنَّه يجب على العالِـم بذلُ العِلْم للناس، سواءً سألوا عنه، أم لم يسألوا.

وفيها: أنَّ ما لا يتِمُّ الواجبُ إلَّا به؛ فهو واجبٌ.

المسلمين؛ لاتِّحاد جِنس الحُكم، والعِلَّة فيه.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾:

ثُمَّ ذَمَّ الله تعالى اليهودَ -ومَنْ وافقهم- في فَرَحِهم بالمعاصي، ومُراءاتِهم، وتشبُّعِهم بما ليس عندَهم، وتوعَّدهم على ذلك؛ فقال تعالى:

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ أي: لا تَظُنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنَ اليهودِ، وغيرهم ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ يُسَرُّون بما فعَلوه من تحريف ألفاظ التوراة ومعانيها، وبالأعمال الفاسدة التي يتقرَّبون بها إلى الله -على زَعْمهم- ويفرَحون فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، ومِنَّةٍ على الله ورسولِه!

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ﴾ أي: يُوصَفوا ويُذكَروا ويُمدَحوا ﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ وما ليس فيهم، كالصِّدق والفَضْل والدِّين، وكقول الناس عنهم: «علماء»، وليسوا هم أهلَ عِلْم.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ﴾ أي: ناجين. و(المفازة): مكان الفوز والنجاة من المكروه ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في الدُّنيا: بالحَرْب، والقَتْل، والأَسْر، وضَرْب الجِزْية، والذِّلَّة والصَّغار، ونحو ذلك.

أمَّا في الآخرةِ؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي مؤلِمٌ موجِع. والمعنى: لا يحسبنَّ هؤلاء أنَّ فرَحهم مُنجٍ لهم من العذاب.

(١) رواه البخاري (٢٣٥٠).

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية:

عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ الكِتَابِ»، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الآيَةَ، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا من كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ»[1].

وجاء أيضًا أنَّ هذهِ الآيَةَ نَزلتْ في المنافِقينَ:

فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رِجَالًا من المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الآية[2].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

التَّحذيرُ من فَرَح اليهود بكِتمان العِلْم وتحريفِه، والتقرُّب إلى الله بعِصيانه، وفَرَح المنافِقين بالغَدْرِ والخِيانة، والتخلُّف عن الجهاد.

وفيها: أنَّ بعض الناس لا يكتَفِي بالمعصية، حتى يُضيفَ إليها معصيةً أعظمَ منها؛ وهي الفَرَح بها.

وفيها: تحذيرُ الإنسانِ مِنْ محبَّةِ حَمْدِ النَّاس له على شيءٍ لم يَفْعَلْه، كالتَّظاهُر بالصَّلاحِ، أوِ إيهامِ السامعِ أنَّه فعلَ خيرًا لم يفعَلْه؛ ليُقال عَنْهُ: مُؤْمنٌ، وصَاحِبُ دِينٍ! أو التَّصريح كاذِبًا بأنَّه عَمِلَ عملًا صالحًا؛ ليمدَحه النَّاسُ! وهذا مِنْ أعظمِ التَّسميعِ، وقد قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ»[3]، أي: فضحَه يومَ القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

ولا يدخل في الذَّمِّ: مَنْ أحبَّ أن يُحْمَد على خيرٍ فعلَه، ولكنَّه لم يتظاهَر بشيءٍ، ولم يتكلَّم بـه. وكذا مَنْ فعلَ خـيرًا، وأخفاهُ، ثُمَّ أظهرَهُ اللهُ؛ فإنَّ فَرَحه منْ عاجِل بُشْرى المؤمن؛ كما في الحديـث، أنَّـه قِيلَ لِرَسُـولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُـلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَـيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ»(١).

وفي الآية: التَّحذيرُ مِنْ تَشبُّعِ الإنسـانِ بما ليسَ لَهُ، ولم يُعطَه، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(٢).

ويدخلُ في هذا: مَن يتظاهَر بالتديُّن لإقناعِ أهل المخطوبة بتزويجه، ومَنْ يُسَمِّع بعملٍ لم يَعْمَلْه.

ويدخـل فيـه أيضًا: مَن يَسْرِق عملَ غيره، وينتَحِله لينالَ بـه مغنمًا من الدُّنيا، كمَنْ يدفع مالًا لَمن يكتُب له رسالةَ ماجستيرٍ، أو دكتوراه؛ لينالَ بها شهادةَ زُورٍ، يفتخِر بها على الناس، ويزيدُ بها منصِبُه ومالُه!

ومثله: مَنْ يَسْرِق مؤلَّفًا أو بَحثًا علميًّا، فينسِبه إلى نفسه، ليشتَهِر به بينَ الناس! أو يسرق إنجـازًا أو اختراعًـا لغـيره؛ لينالَ عليه ترقيةً، أو جائزةً! أو ينسِـب إلى نفسِـه أعمالًا بطوليَّةً، ومواقفَ رجولةٍ، لم يقُم بها، ابتغاءَ الشُّهرةِ والرِّفعةِ بين النَّاسِ!

ومنَ العجيبِ السَّيِّءِ: أنَّ البعضَ يقعُ في البِدَع والشِّركيَّاتِ، ثُم يُحِبُّ أن يُحْمَدَ، ويُوصَفَ بأنَّه منْ أهل السُّنَّة والجماعة!

وفي الآيـة: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَـن لا يكتفي بالمُراءاة فيما يفعلُه؛ حتَّى يرائي بما لم يَفْعَلْه. وإذا كان الأول يُحْبِط العملَ؛ فهذا عذابُه أعظَمُ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾:

ثُـمَّ ذَكَـرَ الله تعالى عُمومَ مُلكِه، وقُدرتِه المُطلَقة، التي لو شـاء أن يُعذِّب بها مَنْ تقدَّمت أقوالهم وأفعالهم -منْ أعداءِ الدِّينِ- لفعلَ ذلكَ؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

﴿وَلِلَّهِ﴾ أَيْ: لهُ، وليس لغيرِهِ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتدبيرُهما، وخزائنُهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فلا يُعجِزه شيء، فخافُوه ولا تُخالِفوه، واحذَروا غضبَه ولا تَعْصُوه. و(القُدرة): هي التمكُّن من الفِعْل بلا عَجْزٍ، كما أنَّ (القوَّة): هي التمكُّن من الفِعْل بلا ضَعْفٍ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

ردٌّ على اليهودِ، الَّذين قالوا: إنَّ الله فقير.

وفيها: قُدرة الله تعالى على عِقاب هؤلاء الكفَّار والمنافِقين -الَّذين تقدَّم ذِكرُهم-.

وفيها: تقويةٌ للمؤمنين، في الصَّدْعِ بالحقِّ، وبيانِ العِلْم، وعدمِ الخوف مِنَ الخَلْق؛ فإنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء؛ فهو يكفيهم ويُغنيهم، ومِنَ اليسيرِ عليه: التَّعجيلُ بعذابِ خُصومِهم -من أهل الكتاب والمشركين-.

وفيها: أنَّ المُلك المطلَق لله وحدَه؛ كما أفاده تقديم الخبر على المبتدأ، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصْر.

وفيها: كمال قُدرة الله؛ فإنَّه يتصرَّف فيما يملِك. بخلاف البشر؛ فالبعض يملِك ولا يستطيع التصرُّف في مُلكه؛ بسبَب حَجْرٍ، أو حَبْسٍ، أو مرَضٍ، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يتصرَّف في مُلك الله، إلَّا بإذنه وشَرْعه تعالى.

وفيها: أنَّ مُلك المخلوق للأشياء ناقصٌ ومحدودٌ، والله تعالى هو الذي له المُلك التامُّ والمطلَق لكلِّ شيء.

وفي الآية: علاجٌ لليأس؛ فإنَّ مَن آمن بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير؛ فلا يقعُد عن العمل، ولا يُصيبه يأسٌ من حصول المأمول؛ لأنَّه يُوقِن أنَّ ربَّه قادرٌ على تحقيق ذلك.

وفيها: علاجٌ عظيمٌ للوَسْوَسةِ، والشُّبُهاتِ، الَّتي تثورُ في نفْسِ الإنسانِ، والاستِشكالاتِ، الَّتي تَعْرِض لمنْ يبتَدِئُ في طلبِ العِلْم، وقراءةِ النُّصوص؛ فقد يُخَيَّل إليه -مثلًا- استحالة بعضِ المُعجِزاتِ، وبعضِ الكراماتِ، وبعضِ الأخبارِ، الَّتي لا تُدْرِكها العقولُ -مِنْ أُمورِ الغَيبِ- وبعضِ أفعالِ الله تعالى.

فالجوابُ عَنْهَا دائمًا: «إنَّ اللهَ على كلِّ شيء قدير».

وفي الآية: الرَّغبةُ فيما عند الله؛ لأنَّه يملِك السَّماوات والأرضِ، والخوفُ منه؛ لأنَّه قادرٌ على العذابِ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه مَالِكُ السَّماوات والأرض؛ ذكر أنَّ في خَلْقهما دلالاتٍ واضحةً لذوي العقولِ.

ولـمَّا كانَ في بدايةِ هذهِ السُّورَةِ: الرَّدُّ على شُبُهات نصارى وَفْد نَجْرانَ -وغيرِهم منْ أهلِ الباطلِ- في شِرْكهم وكُفرِهم؛ ختَمَها عَزَّوَجَلَّ بذِكرِ ما يدلُّ على التَّوحيدِ والألُوهيَّة.

وقد روى ابنُ حِبَّانَ[1]، عنْ عطاءٍ، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فقَالَ ابن عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لـمَّا كَانَ لَيْلَةٌ من اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ.

قَالَتْ: فَقَامَ فَتطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ.

فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾».

وقد ثبت أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ، فَجلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِمَ من سُورَةِ آل عمران، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي...[2]، و(الشَّنُّ): الوِعاء والقِربة[3].

(١) برقم (٦٢٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) ينظر: فتح الباري (١/ ٢٨٨).

وقولـه تعـالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: في إيجادِهمـا وإنشـائِهما عـلى هذه الصِّفات، منَ الإبداعِ، والإحكامِ:

فالسَّماوات: في ارتفاعها واتِّساعها، وما فيها منَ الشَّمسِ، والقمرِ، والنُّجومِ، والكواكبِ السَّيَّارةِ، والثَّابتة، والزِّينةِ.

والأرض: في انخِفاضهـا، وبَسْـطها، وتَذليلها، وما فيها مِنَ البحـارِ، والجبالِ، والقِفارِ، والنَّباتِ، والأشجارِ، والثِّمارِ، وأنواعِ المعادنِ، والحيوانِ، وغيرِ ذلك.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: تعاقُبهما، وتفاوتُهما، في الظُّلْمة والنُّور، والطُّول والقِصَر، واختلافهما: حرًّا وبردًا، ورخاءً وشِدَّةً، وعِزًّا وذُلًّا، وهزيمةً ونصرًا، وسَعةً وضيقًا، وصِحَّةً ومَرَضًا.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾ واضحةٍ، وبراهينَ قاطعةٍ ساطعةٍ، على قُدرته ورُبوبيَّته سبحانه.

واللَّيـل والنهـار هما مُسـتودعا الأعمال، وخزائن ما يُفعَل فيهما مـن خيرٍ أو شرٍّ. ويقصُر النهار، فيُعين على الصيام، ويطول اللَّيل فيُتَلذَّذ بالقيام.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾: لأصحـاب العقـول الصافيـة النقيَّـة. وسُـمِّي (العقـل) لُبًّـا؛ لأنَّه خالِصُ الإنسانِ؛ كما أنَّ اللُّبَّ خالصُ الحبَّة.

وأولو الألباب: هم الذين يعلَمون الحقَّ فيتَّبِعونه، فلا يكونُ للرَّجُلِ لُبٌّ؛ حتَّى يستجيبَ للحقِّ، ويتَّبِعه؛ وإلَّا فلو عرَفَه، وعصاه لم يكن ذا لُبٍّ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

الاستِدلالُ بالصَّنعةِ على عَظَمةِ الصَّانِع، وأنَّ خَلْقه تعالى هو ابتِداعٌ على غير مثالٍ سابقٍ.

وفيهـا: أنَّ السَّـماوات آيةٌ، مـنْ وجوهٍ متعـدِّدة؛ منها: «عُلُوُّها، وسَـعَتُها، واسـتدارتُها، وعِظَمُ خلقها، وحُسنُ بنائها، وعجائِبُ شمسِها وقمرِها وكواكبِها، ومقاديرُها، وأشكالُهَا، وتفاوتُ مشارقِها ومغارِبها، فلا ذرَّةَ فيها تنفكُّ عَن حِكْمَةٍ.

بَلْ هِيَ أَحْكَمُ خَلْقًا، وأتقنُ صُنعًا، وأَجْمَعُ للعجائبِ مِنْ بدَنِ الإنسانِ، بل لا نِسبةَ لجميعِ

مـا في الأرضِ إلى عجائـبِ السَّـمَوَاتِ، قـالَ اللهُ تعـالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

فالأرضُ، والبحارُ، والهواءُ، وكلُّ ما تحتَ السَّماواتِ، بالإضافةِ إلى السَّماواتِ؛ كقطرةٍ في بحرٍ.

ولهـذا قلَّ أنْ تجيءَ سُـورَةٌ في القـرآن إلَّا وفيها ذِكرُها، إمَّا إخبارًا عن عِظَمها وسَـعَتها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظر فيها، وإمَّا إرشادًا للعباد أن يستَدِلُّوا بها على عِظَم بانيها ورافِعها سبحانه، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقها على ما أخبرَ به منَ المعادِ، والقيامةِ.

وإمَّا استِدلالًا منه بربوبيَّتِه لها على وحدانِيَّتِهِ، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إله إلَّا هُو، وإمَّا استِدلالًا منه بحُسْنها، واستوائِها، والتئامِ أجزائِها، وعدَمِ الفُطورِ فيها، على تمامِ حِكمتِه وقُدرتِه.

وكذلـك مـا فيها مِنَ الكواكبِ، والشَّـمسِ، والقمـرِ، والعَجائبِ، الَّتـي تتقاصَر عُقولُ البشرِ عنْ قليلها»[1].

وفيهـا: أنَّ في الأرض آيـاتٍ؛ في تنـوُّع قِطَعهـا -مـع تجاورِهـا- ومـا سـلكَ الله فيها مِنَ الأنهـارِ، وبَثَّ فيها مِـنَ الدَّوابِّ، وما أحاطَها مِـنَ البحارِ، وأعدَّها للسُّـكنى، وما فيها مِنَ المنافعِ العظيمةِ، وما أَودعَ اللهُ فيها مِنْ مصادرِ الرِّزقِ، والمالِ، وطعامِ النَّاسِ.

وفيهـا: أنَّـه لا يسـتفيدُ، ويعتبرُ مِـنْ آيـاتِ الله الكَونيَّة إلَّا أولـو العقولِ الخالِصـةِ -مِنْ أصحابِ عُقولِ الرُّشْدِ- وهم أيضًا الَّذين ينتَفِعونَ بآياتِ الله الشَّرعيَّةِ.

والعقلُ عقلانِ: عَقلُ إدراكٍ، وتدبيرِ المعيشـةِ، وعقلُ رُشْدٍ، يُهتدَى بِهِ للحقِّ. وقدْ يكونُ الرَّجُلُ منَ الأذكياءِ، لكنْ ليس عِنْدَهُ عَقْلُ رُشْـدٍ، يهتدي بِه للحقِّ، ويقبَلُه، ويسـتجيبُ له، وينتَفِعُ به مِنَ الآياتِ.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾:

ثُـمَّ ذَكـرَ اللهُ تعـالى أنَّ أُولي الألبـاب يعبُدونـه: فِكرًا، وذِكـرًا، قيامًا، وقعودًا، وعلى سـائر أحوالهـم؛ فقـال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فـلا يقطَعـون لـه ذِكـرًا، بسرائِرهـم، وضمائرهـم،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦) لابن القيِّم، باختصار وتصرُّف.

وبقلوبهم: باستحضارِ خَشيتِه، وعَظَمتِه سبحانه، وألسِنَتهم: بِالتَّهليلِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ، ونحوِه، وبِالجوارِحِ: بالعملِ على طاعتِه، واجتِنابِ معصيتِه، فيذكُرونَ أمرَه، ونهيَه.

وأَفضلُ الذِّكر: ما تَواطأَ عليهِ القَلْبُ واللِّسان معًا.

وهم يذكُرون اللهَ تعالى ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي: حالَ كونِهم مُضطجِعينَ، ومُستَلقِيَن؛ فلا يغفُلونَ عَنْ ذكرِهِ.

قالَ قتادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه حالاتُك كلُّها -يا ابنَ آدمَ- اذكُر اللهَ وأنتَ قائمٌ، فإنْ لم تَسْتَطِعْ فاذكُره وأنتَ قاعدٌ، فإنْ لم تَسْتَطِع فاذكُره وأنتَ على جنبِك، يُسْرٌ من الله وتخفيفٌ»[(١)].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ (الفِكْر): هو نظرُ العقلِ، وتردُّد القلبِ، بالنَّظرِ، والتَّدبُّر لطلب المعاني، وترتيبِ أمورٍ في الذِّهنِ، يُتوَصَّلُ بها إلى مطلوبٍ، يكونُ علمًا، أو ظنًّا.

﴿فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استِدلالًا واعتِبارًا، في صُنعهما وإتقانِهما، وما أبدعَ اللهُ فيهما، فيقودهم هذا إلى تَعظيمِ خالقِهما، وليدُلَّهم على كمالِ قُدرتِه، فيُعَظِّموه ويخشَوه.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا﴾ الذي نُشاهِده في السماء والأرض ﴿بَٰطِلٗا﴾ أي: عَبَثًا ضائِعًا بلا حِكمة؛ بل خلقتَه لأمرٍ عظيمٍ جليلٍ، وخلقتَه بالحقِّ؛ لتجزيَ الذين أساءُوا بما عَمِلوا، وتجزيَ مَن عَمِلَ صالحًا بالحُسنى.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: نُنَزِّهك عنْ هذا العَبَث والباطِل، وأن تخلُقَ شيئًا باطلًا، ونُنَزِّهُك عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ. وأصلُ (التَّسبيحِ): هو التَّنزيهُ، والتَّقديسُ، والتَّبرِئَةُ مِنَ النَّقائِصِ والعُيوبِ.

وتسبيحُ هؤلاء المتفكِّرينَ: فيه طلَبُ التوفيق للعمل الصالح، والهداية إليه، ليهديَهم في النِّهايةِ إلى جنَّاتِ النَّعيم، ويقيَهم عذابَ الجحيم؛ ولذا قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: حتَّى يكون ما وفَّقتنا إليه واقيًا وحاميًا، ودافِعًا عنَّا عذابَ النَّار.

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **أنَّه بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مِنْ آخِرِ اللَّيلِ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ فِي آلِ عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ**

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٧٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتَّى بلَغ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ثُمَّ رجَع إلى البيْتِ فتسوَّكَ وتوضَّأَ، ثُمَّ قام فصلَّى ثُمَّ اضْطجَع ثُمَّ قام، فخرَج فنظَر إلى السَّماءِ فتلا هذِه الآيَة، ثُمَّ رجَع فتسوَّكَ فتوضَّأَ، ثُمَّ قام فصلَّى»(١).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾:

ولـمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى دُعاءَ المؤمنينَ بالوقايةِ مِنَ النَّارِ؛ أتْبعَه بذِكرِ التَّعليلِ لهذا الدُّعاءِ؛ فحكى عن دُعائهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادًى، أي: يا ربَّنا ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أي: أهَنْتَه وأذلَلْتَه غايةَ الإذلال.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يمنَعون عنهم عذاب الله.

وفي الآيتَينِ مِنَ الفَوائدِ:

بيانُ السَّبَب الذي حمَلَ المؤمنين على الدُّعاءِ بالوقاية من النَّار.

وفيها: أنَّ الظُّلْم سببٌ لدخول النَّار.

وفيها: أنَّ خالقَ الأكوانِ لا يُمكِن لأحدٍ أن ينتَصِر عليه.

وفيها: أنَّ ظُلْمَ النَّفسِ، وظُلْمَ الغيرِ، عاقبتُه وخيمةٌ.

وفيها: أنَّ أهلَ النَّار لا يجِدون أعوانًا يُجيرونَهم منها، ولا يصرِفون عنهم عذابها، ولا يُخرِجونهم إذا سقطوا فيها.

وفيها: شيءٌ من آداب الدُّعاء وفقهِه؛ مثل: التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه، وصفاته الحُسنى، وبالعملِ الصَّالحِ الَّذِي يَعملُه العبدُ، والاستِعاذةِ بالله تعالى مِنَ النَّارِ، وعدَم الاعتداءِ في الدُّعاءِ.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾:

ولـمَّا سألوا اللهَ الوقايةَ منَ النَّار؛ أتْبَعوا ذلك بسؤال مغفرةِ الذُّنوب وتكفيرِ السَّيِّئاتِ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦).

متوسِّلين في دُعائهم بإيمانهم؛ فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ يدعُو إلى الله، وبلَّغَنا ما نادى به. و(النِّداء): هو رَفْع الصوت. ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾: هذا تفسيرٌ لنداء المُنادِي.

و(اللَّام) في قوله ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ للإلصاق. والتعبير بـ(اللَّام) بدلًا من (إلى)؛ دلالةً على قُرْب الإيمان، و(إلى) تدُلُّ على البُعد.

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ (أن) تفسيريَّة، يعني: صدِّقوا به ووَحِّدوه. والإيمانُ بالله هو: الإقرارُ، المتضمِّنُ للقَبُولِ والإذعانِ، وهُوَ: قولٌ، وعملٌ، واعتقادٌ.

قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: استَجَبْنا للنِّداءِ، واتَّبَعْنا المُنادِي، فيما أمرَنا به مِنَ التوحيد والطاعة، وأقرَرْنا مع الانقياد.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ المنادِي هو: رسول الله ﷺ، وقد سمَّاه الله تعالى في القرآن (داعيًا) في قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

ولـمَّا اكتملَ التَّوسُّل بالإيمانِ؛ جَاءَ الطلَبُ في الدُّعاء؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: اعفُ عنها، وتجاوَز، وامحُ آثارَها. و(الذُّنوب): هي المعاصي، وتشمل الكبائر.

﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: استُرْها.

و(الغَفر) و(الكَفر) مُتقارِبان، وهما يدُلَّان على: السَّتر والتغطية.

وقيل في الفرقِ بين (الذُّنوب) و(السيِّئات):

أن (الذُّنوب): هي الكبائرُ، و(السَّيِّئات): هي الصغائر.

وقيل: (الذُّنوب) ما تقدَّم في الماضي، و(السيِّئات) ما سيكونُ في المستقبَل.

وقيل: (الذُّنوب) ما كان في حقِّ الله، و(السَّيِّئات) ما كانَ في حقِّ العِبادِ.

وقيل: (الذَّنبُ) ما يفعلُه العبدُ مع عِلْمه بتحريمِه، و(السَّيِّئة): ما يفعلها مع الجهلِ بحُكمها.

وقيلَ: بلِ (الذُّنوب) و(السَّيِّئاتُ) واحدةٌ؛ والتَّكرارُ للمُبالغة والتَّأكيد.

وقدْ طلَبُوا مِنْ ربِّهم مَغفرةَ الذُّنوبِ؛ لأنَّه لا بُدَّ فيها مِنَ التَّوبةِ، وتكفيرِ السَّيِّئات؛ لأنَّها تزول بالحَسَناتِ الماحيةِ، والمصائبِ المكفِّرةِ، ودعاءِ المؤمنينَ، ونحوِ ذلك.

ولـمَّا كانتِ الوفاةُ على الدِّينِ، والسُّنَّةِ، وعَمَلِ الخير أمرًا عظيمًا؛ فإنَّهم سألُوها ربَّهم؛

فقالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أي: اقبِضنا إليك ﴿مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: اجْعَلْنا في حُكمهم، وجُملَتهم، وعلى أعمالهم، ومُصاحِبين لهم.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

تَصدير الدُّعاء بالنِّداءِ؛ دلالةً على كمالِ التَّوجُّه إلى الله.

وفيها: التَّحدُّث بنِعمةِ الله تعالى في مُقدِّمة الدُّعاءِ.

وفيها: دليلٌ على نوعٍ من أنواع التَّوسُّل المشروع في الدُّعاء، وهو التوسُّل إلى الله بالعمل الصالح، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومِنْ التوسُّل المشروع أيضًا: التوسُّل إليه تعالى بدعاء الصالحين الأحياء، والتوسُّل إلى الله بحال الداعي؛ كذِكر الافتقارِ إلى الله تعالى، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القَصَص: ٢٤]، وكقولِ أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفيها: أهميَّة النِّداء بالخير؛ لِما يترتَّب عليه من استِجابة المدعُوِّين وهدايتهم.

وإذا كان المقصود بالمنادِي في قولهم ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾: رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ قول أولِي الألباب ﴿سَمِعۡنَا﴾ يشمَل: السَّماع المباشر -كما حصل للصحابة والجِنِّ- والسَّماع غير المباشر -كالسماع من وَرَثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم العلماء والدُّعاة إلى سبيله-.

وفيها: أنَّ الإيمانَ ليس هو: الإقرارَ فقط؛ بل لا بُدَّ فيه من الانقياد والإذعان.

وفيها: أنَّ تكفيرَ السَّيِّئةِ يَشملُ: الكفَّارةَ العامَّةَ -كالتَّكفيرِ بالصَّلاةِ، والوضوءِ، والجمعةِ إلى الجمعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ- والكفَّارةَ الخاصَّةَ -ككفَّارةِ الظِّهارِ، والجماعِ في نهارِ رمضانَ، وصيدِ المُحْرِم، وإلقاءِ النُّخامةِ في المسجدِ (وكفَّارتها دفنها)، ونحوِ ذلك-.

وفي الآية: فَضْل صُحبة الأخيار بعد الموت؛ كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وفيها: فَضْل الموت على مِثل أعمال الصالحين، وقد قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وفيها: أنَّ الاستِجابة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتِّباع سُنَّته؛ سبَبٌ لمغفرة الذُّنوب وتكفير السيِّئات.

وفيها: حذَر المؤمنين الشديد منَ الفضيحةِ في الآخرة.

وفيها: بَذْل الجُهدِ في الدَّعوةِ إلى الله، ومنْ ذلكَ: رفعُ الصَّوتِ لإسماعِ النَّاسِ.

وفيها: أنَّ الكلماتِ الجامِعةَ يُستغنَى بمَضمونها عنْ تفصيلها؛ فإنَّ قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ يتضمَّن: كلَّ أركانِ الإيمانِ الأخرى، ويتضمَّنَ أيضًا: قولَ القَلْب وعملَه، وقولَ اللِّسان، وعملَ الجوارح.

وفيها: أنَّ سؤالَ الموتِ على عَمَل الأخيار؛ ليس استِعجالًا بطلَب الموت.

وفيها: فَضْل المبادَرةِ والسَّبقِ إلى الإيمان؛ كما تدُلُّ عليه الفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾.

وفيها: العَلاقة بينَ التفكُّر والخوف من الله؛ لذلك قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وفيها: أنَّ المؤمنين يذكُرون الله، ويتفكَّرون في خَلْقه، ويُسَبِّحون له، ويَدْعُونه.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾:

ولـمَّا سأل أُولو الألباب غُفران الذُّنوب المتقدِّمة، وتكفير السيِّئات المُستقبَلة، وأنْ تكونَ وفاتهم مع الأبرار؛ سألوا ربَّهم المزيدَ من فَضْله؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ -يتلذَّذون بتَكرار ندائه- ﴿وَءَاتِنَا﴾: أعطِنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ أي: ما تعهَّدتَ به من حُسن الجزاء، كالنَّصرِ في الدُّنيا، والنَّعيمِ في الآخرةِ ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: الذين نقَلوا وَعْدَك إلينا، ونحن صدَّقناهم وتيقَّنَّا بالوَعْد.

﴿وَلَا تُخۡزِنَا﴾ أي: لا تَفْضَحْنا على رؤوس الخلائق، ولا تُذِلَّنا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: الذي يقوم فيه النَّاسُ مِنْ قبورِهم، ويقومُ فيه الأشهادُ، ويُقام فيه بالعَدْل.

﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ الَّذي وعدتَ به عبادكَ المؤمنينَ، سواءً بالسِّيادةِ في الدُّنيا، أو بسعادةِ الآخرةِ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

تَكرارُ لفظةِ ﴿رَبَّنَا﴾ أو (رَبِّ) عندَ السؤالِ؛ مبالغةً في التَّضرُّع.

وفيها: كمالُ إيمانِ المؤمنينَ بوَعْد الله.

وفيها: الإيمانُ بالرُّسُل، وتصديقُهم جميعًا فيما جاءُوا به، وأنَّهم قد اشتركوا في أشياء كثيرة ممَّا أخبروا به، ومنها: وَعْد الله للمؤمنين بحُسن الجزاء والعاقبة في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: شَناعةُ موقفِ الفضيحةِ، والخِزيِ يَومَ القيامةِ؛ حَتَّى رُبَّما يتمنَّى بعضُ المفضوحينَ أن يُؤمَر به إلى النَّار، ولا يطول مقامُه في الخِزي!

وفيها: كمال وَعْد الله وصِدقه، مع كمال قُدرته؛ فإنَّ الواعِد يُخلِف إمَّا لكَذِبه أو لعَجْزِه، وهما منتفيان في حقِّ الله.

وفي الآية: تصديق المؤمنين بوَعد الله؛ فإنَّهم لو لم يُصَدِّقوا بذلك ما سألوه.

وفيها: ثقة المؤمنين بربِّهم، وبكمال قُدرته.

وفيها: التعلُّم من أدعية الصالِحين، التي قصَّها الله تعالى علينا في كتابه.

وفيها: استِنجاز وَعْد الله، وسؤالُه التعجيلَ به.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾:

ولـمَّا جمعَ أُولو الألباب شُروطَ الاستِجابة في دُعائهم لربِّهم، مِنَ الإقبالِ على الله بالعِبادةِ، والتَّفكُّرِ، وطَلَبِ الوقايةِ مِنْ عذابِه، وتوسَّلوا في دُعائهم بإيمانهم بربِّهم، وسألوه مغفرةَ الذُّنوبِ، وتكفيرَ السَّيِّئات، والوفَاةَ مع الأبرارِ، وسألوه إنجازَ وَعْدِه، والنَّجاةَ مِنْ خِزيِ يومِ القيامةِ، وجمَعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ استجابَ الله تعالى دُعاءَهم.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: أجابهم ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ لا أُبطِل ولا أُحبِط ﴿عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، سواءً كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: الذُّكورُ والإناثُ في الثَّواب سواءٌ؛ فهم يشتَرِكون في الدِّينِ، والنُّصرةِ، والموالاةِ، والأَصْلِ.

ثُمَّ ذكرَ اللهُ تعالى لهم خمسةَ أوصافٍ:

الوصف الأول: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وتركوا دار الشِّرك إلى دار الإيمانِ، وفارَقُوا الأموال والأحباب، والخِلَّانَ، والجيرانَ، في مرضاة الله.

الوصـف الثاني: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾، بمضايقةِ الكفَّار، وقَهْرِهم لهم؛ حتَّى ألجأوهم للخروجِ منها.

الوصف الثالث: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بأنواعِ الإيذاءِ، بسبَبِ الإيمانِ.

الوصف الرابع: ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أعداءَ الله، جهادًا في سبيلِه، وإعلاءً لكلِمته.

الوصـف الخامـس: ﴿وَقُتِلُواْ﴾، وفي قراءةٍ أُخـرى بفَتح القاف (قَتَلُـوا). وكلُّ ذلك في المعركةِ، وكانوا صابرينَ.

فكانَ جزاؤُهم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ وأَمْـحُـوَنَّ ذُنوبهم، وأستُرَها ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: خلالها، وتحتَ أشجارها، وقصورها، ومساكنها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بأنواعِ المشارِب، مِنَ الماءِ، واللَّبَنِ، والعَسَلِ، والخَمْرِ.

﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِنْ فَضْلِه، وإحسانه.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: الجزاءُ الموفورُ في الجنَّةِ. و(الثواب): هو ما يُعْطاه الإنسانُ.

سببُ نُزولِ الآيةِ:

عن أمِّ سَـلَمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْها، قالت: يَا رَسُـولَ الله، لَا أَسْـمَعُ الله ذكرَ النِّسَـاءَ فِي الهِجْرَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَـالَى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾[1]، وكانـت أُمُّ سلمةَ، أَوَّلَ ظَعِينَةٍ (امرأة)، قَدِمَتِ المَدِينَةَ مُهَاجِرَةً[2].

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

سُرعة استِجابة الرَّبِّ تعالى للدُّعاء.

وفيها: كَرَم الله، وسَـعَة عطائه، بإيتاء المؤمنينَ كلَّ ما سـألوه -على كَثْرة مطلوباتهم-؛ كما تدُلُّ عليه لفظة (استَجاب)، التي تَزيد في حروفها ومبناها على لفظة (أجابَ).

وفيها: أنَّه لا يَضيع عملُ عاملٍ عند الله، وأنَّه تعالى يضمَن الأجور.

وفي الآيةِ: فَضْلُ الهِجرة؛ لِـما فيها مِنَ الألمِ، والمشقَّةِ، والتَّضحيةِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٣)، وصحَّحه لغيره الألبانيُّ في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٢).

والهِجـرة الشرعيَّـة تَشـملُ: هَجْرَ ما حرَّم اللهُ، والهِجـرةَ مِنْ بلدِ الكُفرِ إلى بلدِ الإسـلامِ، والهجرةَ مِنْ بلدِ الفِسْقِ إلى بلدِ الطَّاعةِ.

فـالأول: واجـبٌ على الجميع، والثاني: واجبٌ على مَن عجَـزَ عن إظهار دينه، والثَّالث: واجبٌ على مَنْ خشيَ على نفسه الفِتنة.

وفيهـا: أنَّ مُفارَقـة الإنسـانِ دارَه -بإيـذاء الغير- سـواءً طُـرِد منها مبـاشرةً، أو ضايقَه الأعداء حتى خرجَ منها؛ فيه تجرُّعُ مرارةِ الظُّلْم، وألـمُ تَرْك ما يألفه ويُحِبُّه.

وفي الآية: أنَّ الهِجرةَ مِنْ دارِ الكُفر إلى دار الإسلام أجرُها عظيمٌ، سواءً حصلَت اختيارًا أو اضطرارًا.

وفيها: احتِساب أَجْرِ الإيذاءِ في سبيل الله؛ فإنَّه مهما تنوَّع، واشتدَّ فلا يَضيع أجرُه عند الله.

وفيها: فَضْلُ الجهادِ، والثَّباتُ في المعركةِ، ومُقاتَلةُ الكفَّار، سواءً قتلَ منهم، أو قتَلوه.

وفيها: أنَّ الأعمالَ العظيمةَ تُكفِّر السَّيِّئات بأنواعها.

وإذا اجتمعَ ذِكْرُ (مغفرةِ الذُّنوبِ)، و(تكفيرِ السَّـيِّئات) في سِـياقٍ واحدٍ؛ فإنَّ (المغفرةَ) تَكونُ في الكبائرِ، و(التَّكفيرَ) يكونُ في الصَّغائرِ.

وإذا أُفرِدَ ذِكر (السـيِّئات) في السِّـياق، ولم تُقرَن بها (الذُّنوب)؛ فيُحتمَل أنْ يُرادَ بها: كلّ أنواع السيِّئات.

وفيها: أنَّ الجنَّاتِ أنواعٌ، وكذلك الأنهار.

وفيها: تفخيمُ الثَّوابِ وتعظيمُه؛ إذا كان من عند الله.

وفيها: استواءُ الذَّكرِ والأنثى في الجزاءِ والحسناتِ، وفي إجابةِ الدَّعَواتِ.

وفيها: أنَّ الذَّكرَ لا يَزيدُ على الأنثى في الثَّوابِ، إذا كانَ عملُهما واحدًا.

وفيها: أنَّ لكلِّ واحدٍ مِنَ الأعمالِ الخمسةِ الشَّريفةِ المذكورةِ في الآيةِ -وهي: الهجرةُ، والإخراجُ مِنَ الدِّيارِ، والإيذاءُ، والقِتالُ، والقَتْلُ- تأثيرًا في حُصولِ الأجرِ العظيمِ المرتَّبِ عليها.

وفيهـا: أنَّ معرفةَ الأجر وذِكـرَه، يَزيد المؤمن صبرًا وإقدامًا عـلى الأعمال الصالحة، ولو كانت شاقَّة.

وفيها: فَضْلُ القَتْل والقِتال في سبيل الله.

وفي الآية: التَّشويقُ إلى الجنَّة، بذِكر الدَّرجات والأنواع.

وفيها: أنَّ العطيَّةَ تعظُم بحَسَب مُعطِيها.

وفيها: أنَّ على الرجل ألَّا يغتَرَّ بقوَّتِهِ، ورئاسته على المرأة.

وفي قوله ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾: بيانُ نَوعٍ من المساواة بين الرجل والمرأة، وأنَّ الجنسَين لا فرقَ بينهما في البشريَّة، وبعضهما من بعضٍ؛ فالرَّجلُ مولودٌ مِنَ المرأة، والمرأةُ مولودةٌ مِنَ الرَّجلِ.

وفيها: رَفْعُ قَدْرِ النِّساءِ المسلماتِ، في أنفُسِهنَّ، وفي نُفوسِ الرِّجال.

وفيها: أنَّ تفوُّق الرِّجالِ على النِّساءِ، في العَقلِ، وقوَّةِ الجسدِ، والميراثِ، ونحوِ ذلك؛ لا دخلَ له في التَّفاضُل عند الله في الثواب.

وفيها: أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يقتَرِن بالعملِ الصَّالحِ.

وفيها: فَضْلُ المهاجِرينَ الأوَّلينَ، والمهاجِراتِ مِنَ الصَّحابةِ.

وفيها: فَضْلُ مَن جمعَ بينَ الهِجرةِ، والجِهادِ، والشَّهادةِ -كمُصعَبِ بنِ عُمير-.

وفيها: أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِنْ أعظَمِ أسبابِ استِجابةِ الدُّعاءِ.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾:

ولـمَّا ذكرَ اللهُ تعالى إيذاءَ الكفَّار للمسلمينَ، وإخراجَهم من ديارهم، وقتالَهم إيَّاهم، وكان كفَّار مكة في الحَرَمِ الذي تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، وكان فقراءُ المهاجِرين في المدينة -ليس عندهم شيء- وذَكَرَ اللهُ تعالى أيضًا ما أعدَّ للمؤمنينَ مِنَ الثَّوابِ؛ كانَ مِنَ المناسِبِ أن يُتْبِعَ ذلك بذِكْرِ ما أعدَّ للكافرينَ في الآخرةِ مِنَ العذابِ.

فقال عَزَّوَجَلَّ، مُسَلِّيًا نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمؤمنين عمَّا هم فيه مِنَ الشِّدَّةِ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ أي: لا يَخْدَعَنَّك -وأنتَ ترى حالَ الفريقَينِ- ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: تنقُّلُهم فيها للمكاسِبِ والتجاراتِ، وحُسنِ المعايشِ واللَّذَّاتِ. ولا تنظُروا -أيُّها المؤمنونَ- إلى تَرَفِ هؤلاء الكفَّارِ، ولا يخدَعَنَّكم ألوانُ النَّعيمِ، والغِبطة والسُّرور التي

فيها يتقلَّبونَ؛ فاللهُ الذي مكَّنهم مِنْ هذا التَّقلُّبِ، والتنقُّلِ في عالَمِ الصِّناعاتِ، والماديَّات؛ قادرٌ على إفقارِهم وسَلْبِهم إيَّاه، وأَخْذِهم وما يملِكون، وإذهابِ نعيمِهم، ومَحْقِ ثَرْواتِهم.

ثُمَّ وصفَ الله تعالى ما هم فيه منْ نعيم الدُّنيا، بقوله: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ (المتاع): ما تحصُل به المُتعة واللَّذَّة والانبساط، سواء كان مُتعةً نفسيَّة، أو جسديَّة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

ووَصْفه عَزَّوَجَلَّ لـ (متاع الدُّنيا) بأنَّه (قليل)؛ يعني: أنَّه زائلٌ لا يدوم، وهو قليلٌ في قَدْره، قليلٌ في وقته، مُقارَنةً بما أعدَّه الله تعالى لأصحابِه في الآخرةِ مِنَ العذابِ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: مَرْجِعهم ومَنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ ينتَقِلون إليها بعد تقلُّبهم في الدُّنيا، ويستَقِرُّون فيها.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: الفِراش، و(المِهاد) أيضًا هو: مكان الاستِقرار، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾.

وفي الآيتَينِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيان النظرة الصحيحة لمتاع الدُّنيا؛ لئلَّا يحصُل به الاغتِرار، ولا يُعطَى حجمًا أكبر من حَجمه، ولا ينشَغِل به الإنسان عن العمل للآخرة.

وفيها: جوابٌ عن بعض الشُّبهات، وشفاءٌ للصدور.

كقول بعضهم: لقد أنعمَ الله على الكفَّار بالمال، والثَّرْوات، والتقدُّم، والازدِهار، ورَغَد العيش، والبيئة الصِّحِّيَّة، والتطوُّرِ التكنولوجيِّ، والاختراعاتِ الحديثةِ، مع أنَّهم يُشرِكون بالله، ويجعلونَ له الولدَ، ويُكذِّبونَ نبيَّه، ويسُبُّونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ!

وأهل الإسلام يؤمِنون بالله تعالى وبنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويُصلُّون، ويُقيمونَ شعائرَ الإسلامِ، ومع هذا؛ فهم يعيشونَ في فقرٍ، وجوعٍ، وتخلُّفٍ، ومصائبَ، وابتلاءاتٍ عظيمةٍ، وأوضاعٍ مَعيشيَّة صعبةٍ! فأينَ الحِكْمة في هذا؟

والجوابُ عنْ هَذهِ الشُّبهةِ في هاتَينِ الآيتَينِ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ فاللهُ تعالى ما أعطاهم إلَّا استِدراجًا لهم؛ ليغتَرُّوا بما هم

فيه، ولِيكونَ مِنْهم العُلُوُّ والفسادُ في الأرضِ، وهذا يُؤذِنُ بهلاكِهم وزوالِهم، وأَخْذِ الله لهم، وبَطْشِه وانتقامِه منهم. وليشتَغِلوا بما هم فيه من نعيم الدُّنيا عن أمور الآخرة؛ فيكون عذابُهم يومَ القيامة موفورًا، وبئس المِهاد! وأيُّ نعيمٍ من نعيم الدُّنيا سيبقَى بعد عذابِ الآخرةِ، وغَمْسةٌ واحدةٌ في النَّار تُنسِي كلَّ نعيمٍ كانَ للكفَّارِ؟! وما قيمة التقلُّبِ في البلادِ، والتَّرفِ، والنَّعيمِ الدُّنيويِّ، بجانبِ هذا العذابِ المُهينِ، المقيمِ، العظيمِ، الأليمِ؟! فما هم فيه الآن ما هو إلَّا متاع قليلٌ زائلٌ.

أضِفْ إلى ذلك: أنَّ الكفَّار في الدُّنيا لا يخلو أمرُهم من شِدَّةٍ تصيبهم، وقارِعةٍ تَحُلُّ بهم، وقَحْطٍ، ومرَضٍ، وأَعاصيرَ، وأنَّ ما يتمتَّعون به مِنَ الأموالِ، والأولادِ، لَيسَ خالصًا لهم؛ وإنَّما يكونُ أحيانًا وبالًا عليهم في الدُّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

كما أنَّ أهل الإيمان -في المُقابِل- لا يخلو أمرُهم في الدُّنيا من: التمكين والنصر، والعُلُوِّ، والغِنى، والفَتح، والحياة السعيدة الهانئة.

والإسلامُ مع بلاءِ الدُّنيا، ثُمَّ النَّعيمُ في الآخرةِ؛ خيرٌ من الكُفر مع النَّعيم الزَّائلِ، ثُمَّ العذابُ الأبديُّ في الآخرةِ.

وهذه الشُّبهة فيها اعتراضٌ على قضاءِ الله، وقدَرِه، وقِسمَتِه، واتِّهامٌ له تعالى بالظُّلْم؛ فنعوذُ بالله منَ الخِذلان، ولله سبحانه الحِكمةُ البالغةُ، والحُجَّةُ الواضحةُ.

وفي الآيتَينِ: أنَّ عطاءَ الله للعبدِ في الدُّنيا -مِنَ الرَّخاءِ، وسَعَة الرِّزقِ، ونحوِه- لَيسَ دليلًا على رِضاه عَنْهُ؛ فَقدْ يَستَدْرِجُ اللهُ المرءَ بإغداقِ النَّعيم عَليهِ؛ فِتنةً لَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفيهما: أنَّه مهما أُعطيَ الإنسانُ مِنَ الدُّنيا؛ فإنَّه قليلٌ.

وفيهما: أنَّ «الابتلاءَ قبلَ التَّمكينِ» مِن سُنَّة الله تعالى في المؤمنينَ، والله تعالى قد يُعطي الكافر في الدُّنيا الأمنَ، والرَّخاء، والصِّحَّة، والمال؛ زيادةً له في الإثم، ويُقدِّر على المؤمنينَ التضييقَ، والخوفَ، والابتلاءاتِ؛ تمحيصًا لهم، ورِفعة لدرجاتهم، وتكفيرًا عنْ سيِّئاتهم، ثُمَّ تكونُ الغَلَبةُ لهم.

وفيها: أنَّ الدُّنيا سِـجنُ المؤمـنِ، وجنَّةُ الكَافرِ؛ فالكافرُ ينتقِل مـنْ نعيمِ الدُّنيا إلى عذابِ النَّارِ، والمؤمِنُ ينتقلُ منْ ضيقِ الدُّنيا، وشِدَّتها إلى سَعَة الجنَّة ونعيمِها.

وفيها: أنَّ التَّحذيرَ للنبيِّ ﷺ هو تحذيرٌ لغيره -منْ باب أولى-.

وفيها: أنَّ تحذيرَه ﷺ منَ الاغترار بالدُّنيا، لا يعني أنَّه وقعَ فيه، ولا أنَّه سيقعُ فيه؛ وإنَّما هو تربيةٌ منَ الله لنبيِّه ﷺ وتأكيد.

وفيها: أنَّ مَنْ ظنَّ الشيءَ الضارَّ نافعًا؛ فهو مغرورٌ.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾:

ولـمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مـآلَ الكفَّار، وأنَّه إلى النَّار؛ ذكرَ بعدَه مـآلَ المؤمنين، وأنَّه إلى الجنَّة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ﴾ (لكن) تأتي في اللُّغة للاستِدراكِ، ودَفْعِ التوهُّم. والمعنى: أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لو حصلَ لهم في الدُّنيا مِثلَ ما حصلَ للكفَّارِ، منَ التَّقلُّبِ في البلادِ، والسَّفَرِ للتِّجاراتِ، والتَّمكينِ في الأرضِ؛ فـإنَّ ذلـكَ لا يضُرُّ أجرَهـم في الآخرةِ؛ بلْ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ وبسـاتين ﴿تَجۡرِي﴾ أي: تَسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بأنواعها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ فلا يموتون، ولا يُخرَجون منها.

﴿نُزُلٗا﴾ أي: ضِيافةً، وعطاءً، وإكرامًا ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كرمًا، وفَضْلًا منه سبحانه؛ لأنَّ النَّازلينَ في الجنَّاتِ: هم ضُيوفُه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِـنَ الكرامـة -فوقَ ما تقدَّم، كرؤيـة وَجْهِه عَزَّوَجَلَّ- ﴿خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ الذين يُكثِرون فِعْلَ الخيراتِ، ويبَرُّونَ غيرَهم -كالآباءِ والأبناءِ- ولا يُؤذُونَ حَتَّى صِغارَ الحيواناتِ.

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ مـا يَكتُـبُ اللهُ للمؤمنـين مِنَ النَّـصرِ، والمكاسـب في الدُّنيا، لا يضُرُّهـم، ولا يُنقِصُ أجرَهم وثوابَهم، ما داموا برَرَة أتقياءَ.

وفيها: فَضْلُ الجَمْعِ بينَ البرِّ والتَّقوى، وأنَّهما سببُ اكتمالِ الأجرِ، ونفاسَتِه.

وفيها: أنَّ البارَّ يتعدَّى خيرُه إلى غيرِه، مِنَ القريبينَ، والبعيدينَ، حتَّى الدَّوابِّ.

وفيها: أنَّ الموتَ خيرٌ للبارِّ، مِنْ جهة أنَّ ما عند الله له -من الأجر والثواب- أفضلُ ممَّا في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ سيرةَ المؤمنين في الأرضِ تُخالِف سيرةَ الكفَّار فيها تمامَ المخالفةِ؛ لأنَّ المؤمنينَ إذا حكَموا وتمكَّنوا؛ صاروا خيرًا، ورحمةً على العِبادِ والبلاد.

وفي الآية: أنَّ الجنَّة عاليةٌ؛ لأنَّ الأنهارَ تجري منْ تحتِها؛ وهذا يدُلُّ على عُلُوِّ قُصورِها وأشجارِها.

وفي الآية: إكرامُ الضَّيْفِ، بتعجيلِ شيءٍ لَهُ عند قُدومِه؛ لأنَّ (النُّزُل) في اللُّغةِ: يُطلَق على: أول ما يقُدَّم للضيفِ منَ الطَّعامِ.

وفيها: إكرامُ الله تعالى لمنْ جاورَه في دار كرامته، ونزلَ به في محلِّ ضِيافته، وهو سبحانه أكرَم الأكرَمينَ، وأجوَد الأجوَدين.

وفيها: أنَّ نعيم الجنَّة أعظمُ وأفضلُ من أرباحِ الدُّنيا، وتجاراتِها، ومكاسِبها، ومن التسلُّطِ والعُلُوِّ فيها.

وفيها: أنَّ مَنِ اتقى، وخافَ عِقابَ ربِّه، بفِعْلِ المأموراتِ، واجتِناب المنهيَّاتِ؛ ستَحْسُنُ سيرتُه في التِّجارةِ، وابتِغاء المكاسِب.

وفيها: أنَّ مَنْ حصلَ لهم سَعَةٌ في الدُّنيا، بما لا يُخالِف الشَّرْعَ؛ فليسَ بمذموم، كما قالَ الشَّاعِرُ:

ما أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيا إذا اجتمَعَا ... وأقبحَ الكُفرَ والإفلاسَ بالرَّجُلِ(١)

وفيها: إعدادُ الكرامةِ والضِّيافةِ، وتهيئةُ النُّزُلِ للضَّيف قبل قدومه.

وفيها: الحثُّ على حُسن العملِ، وهذا معنى (البِرِّ)، وهو ضِدُّ (الفُجُور).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى ما أعدَّ للمتَّقينَ من الثَّوابِ؛ بيَّنَ أنَّ بعض أهل الكتاب لهم نصيبٌ من هذا الثواب؛ لأجل إيمانهم.

---

(١) هذا البيت منسوب لأبي دلامة الأسدي. ينظر: ديوان أبي دلامة الأسدي (ص٣٣)، إعداد: رشدي علي حسن.

ولـمَّا كانـت بدايـةُ هـذه السُّـورَة موجَّهـةً لدَعْوَة أهـل الكتـاب -من نصـارى نَجْران وغيرهم-؛ فقد بيَّنت خاتِـمَتُها أنَّ بعضَهم قد استجابَ لذلك؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: طائفةٌ مِنَ اليهود والنصارى -كعبدِ الله بنِ سلَامٍ، والنَّجاشيِّ- ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ حـقَّ الإيمان ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِـنَ القرآنِ، وهذا لا يَتِـمُّ إلَّا بالإيمانِ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ التَّوراةِ، والإنجيلِ، وما فيهما مِنْ صِفةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّته.

وحالهم أنَّهم: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مُطيعين له، خاضِعين، متذَلِّلين بينَ يديه.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا يأخـذونَ، ولا يطلُبـونَ بـدَلًا عـنْ آياتِ الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا كثيرًا مِنَ الدُّنيا، مِنْ جاهٍ، أو رئاسةٍ، أو مالٍ؛ فهم لا يُحرِّفونَ كتُبهم، ولا يكتُمونَ شَأنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجلِ رِشْوَةٍ، أَوْ محافظةٍ على رِئاسةٍ. و(الشِّراءُ) هُنا بمعنى: الأَخْذُ.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كامـلًا موفـورًا؛ لأنَّهم لم يأخذوا مـن الدُّنيا بدَلًا عنْ طاعةِ الله، والإيمانِ به، وآثَروا ما عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُوصِل الأجرَ والثَّوابَ إلى صاحبِه بسُرعةٍ، ويُحاسِب الناس جميعًا يومَ القيامة في وقتٍ قصيرٍ؛ حتى إنَّه عَزَّوَجَلَّ ليُحاسِبُ الخلائِقَ كلَّهم في نِصْف يومٍ؛ فتكونُ قيلولةُ أهلِ الجنَّة في الجنَّة، وأهلِ النَّار في النَّار، و(القيلولة) إنَّما تكون في نِصْف النَّهار، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

سبَب نُزولِ الآيةِ:

عَـنْ جَابِـرِ بنِ عَبْـدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اخْرُجُوا فَصَلُّـوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ» فَصَلَّى بِنَـا، فَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِـيرَاتٍ، فَقَالَ: «هَذَا النَّجَاشِيُّ أَصْحَمَةُ»، فَقَالَ المُنَافِقُـونَ: انْظُرُوا هَذَا يُصَلِّي عَلَى عِلْجٍ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾(١) [آل عمران: ١٩٩].

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

الثَّناءُ على مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ، والإشادةِ بهم؛ لأنَّهم آثَروا ما عند الله على الدُّنيا وما

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٧)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على التفسير.

فيها. وقد وردَ مدْحُهم في آياتٍ أخرى مِنَ القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ الآية [القصص: ٥٢-٥٤].

وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة ١٢١]، وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وغيرها مِنَ الآياتِ، الَّتي يُناسِبُ ذِكرُها؛ كمَدْخَل مُهِمٍّ في دعوةِ أهلِ الكتابِ.

وفي الآيةِ: عِظَمُ أجرِ مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ بالنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي الحديثِ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ من أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ...»[(١)].

وفي الآية: أنَّ مِنَ اليهودِ والنَّصارى مَنْ يدخلُ في دينِ الإسلامِ، ويُؤمنُ بالنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما أُنزِلَ عليه، لكِنْ مَنْ يدخلُ الإسلامَ مِنَ النَّصارى أكثرُ ممَّن يدخلُه مِنَ اليهودِ؛ حتَّى إنَّه لم يُؤمِنْ بالنبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منْ أحبارِ اليهود ورؤسائهم إلَّا أقلُّ مِنْ عَشرةٍ؛ كما في الحديث: «لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ؛ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ»[(٢)].

وفي الآيةِ: أنَّ الإيمانَ يَقودُ إلى الخُشُوعِ. وقدْ ثَبتَ في الحديثِ، أنَّ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لـمَّا قرأ سُورَة مَريمَ بحَضْرَةِ النَّجاشيِّ، مَلِكَ الحَبَشةِ، وعندَه البطارِكةُ والقَساوِسَةُ؛ بكى وبكَوا معه، حتى أخضَلوا لِحاهم[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وذلك لِـما رَأوا أنَّ ما في القرآن مُصَدِّقٌ لِـما معهم؛ ففَرِحوا بالوحي الجديد.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣) - واللفظ له -.

(٣) رواه أحمد (١٧٤٠)، وحسَّن إسنادَه الألبانيُّ في صحيح السيرة (ص ١٨٠).

فمِثل هؤلاء جديرٌ أن يُشادَ بهم، ويُذكَر فَضْلُهم -وقد كادَ النَّجاشيُّ أن يَفْقِدَ مُلكه من أجل الإسلام-.

ولذا ثبتَ في الصحيحَين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا[١].

وفي الآية: أنَّ أهل العِلْم الصادِقين لا يأخُذون على تبليغ العِلْم شيئًا مِنَ الدُّنيا؛ بِلْ يبذُلونه مجانًا، ولا يكتُمون ما عندَهم مِنَ العِلْم؛ بل يُبَيِّنونه للنَّاسِ.

وفيها: أنَّ مُسلِمة أهل الكتاب هُم إخواننا في الدِّين، يهتَدون بهدي الأنبياء، ويُضيفون إلى الهداية بالكُتب السابقة -ممَّا لم يُحرَّف منها- الاهتداءَ بهذا القرآن.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ أهل الكتاب -بعد بِعْثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المؤمنين، وأنَّهم سيدخلون الجنَّة، ولو بقَوا على دينهم المحرَّف!

فقد شَهِدَ القرآن بعدم إيمانهم حتى يؤمنوا بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أُنزِلَ عليه، وقد أقسمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا؛ فقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ من أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

وفيها: سُرعة حساب الله تعالى للبَشَر، مع كَثْرة عددِهم، ومع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلو بكلِّ واحدٍ منهم، وذلك على الله يسيرٌ.

وفيها: أنَّ العِلْم بما في كُتب الله ينفع صاحبَه، إذا كان عندَه خشيةٌ لله.

وفيها: تعريضٌ بمَن تركَ اتِّباع الحقِّ من أجل الدُّنيا، كما فعلَتْه الطائفة المرذولة من أهل الكتاب، الذين كتَموا ما عندَهم من العِلْم؛ لئلَّا يخسَروا بعضَ متاعِ الدُّنيا الزائِل! وقد ذَمَّهم الله تعالى في آيةٍ سبقَت، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المؤمنين، وحالَ الكافرين، وما كان من قتالِ أعداء الله لأهل الإيمان، وعداوتهم الشديدة لهم، وصدِّهم عن سبيل الله؛ ختمَ الله عَزَّوَجَلَّ هذه السُّورَة بوصايا عظيمةٍ جامعةٍ، فيها: الأمر بالصَّبرِ على الدِّين، والمُصابَرة عند لقاء الكفَّار، وحِراسةُ ثُغورِ المسلمينَ في سبيلِ الله؛ فقال عَزَّوَجَلَّ -مستَنْهِضًا هِمَمَ المؤمنينَ، وباعِثًا للحماسِ في نفوسهم-:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: النِّداءُ للتنبيهِ، ولبيانِ أمورٍ منْ مقتَضياتِ الإيمانِ، ولإغراءِ مَن يُناديهم بالمحافَظة عليها.

﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على أداءِ ما أوجبَه الله عليكم، والقيامِ بتكاليف دينِكم، وعلى تَرْكِ ما نهاكم الله عنه، وعلى قضاءِ الله وقدَرِه، وآلامِ الدُّنيا ومصائِبها -كالمرض والفقر والخوف-. والصَّبر إنَّما يكون في كلِّ ما يخالِف هوى النفس.

﴿وَصَابِرُواْ﴾ (المُصابَرة) مُفاعَلة، تقتضي اشتراكًا بين اثنين فأكثر. وعلى هذا؛ فالمُراد بها: الصَّبرُ على الأذى الذي يحصُل من الغير، وتَرْكُ الانتقامِ؛ فـ(المصابرة) تكون مع شخص يُضادُّك.

﴿وَرَابِطُواْ﴾ أي: أقيموا على الطاعاتِ، ومنْ ذلك: انتِظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ.

وأعظمُ الرِّباطِ: ما يكونُ في الجهادِ، في سبيلِ الله، برَبْطِ الخيلِ في الثُّغورِ والحدودِ مع الأعداءِ، والأماكنِ المشترَكةِ مع الكفَّارِ، وفي السَّواحلِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ، والأَخْذِ بالأسبابِ لمَنْعِ العدُوِّ مِنَ المُباغتَةِ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ واحذَروا مخالفةَ أمرِه ونهيِه. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: تظفرون بالسَّعادة الأبديَّة في الدُّنيا والآخرة.

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

أنَّ الصَّبر، والمُرابَطة، والتَّقوى مِنْ صفات المؤمنين؛ ولذلك ناداهم بلَفْظ الإيمانِ، وأغراهم بهذه الأعمالِ.

وفيها: فَضْل مُخالَفةِ هوى النَّفسِ، وتحمُّلِ المشقَّة إرضاءً لله تعالى.

وفيها: مُغالَبةُ النَّفسِ، بالصَّبرِ عند لقاءِ الأعداءِ؛ لأنَّ المصابَرة (مُفاعلة)، فلا تكونُ إلَّا بين اثنَينِ. بخلافِ الصَّبرِ؛ فإنه يكونُ بحَبْس النَّفْسِ عَنِ الشَّيءِ.

وفي الآية: فَضْلُ الثَّباتِ أمامَ مَنْ يُضادُّ الدِّينَ، ويُعانِد الشَّريعةَ.

وفيها: فَضْل (الرِّباط).

ومعناه العامُّ: المداوَمةُ في مكانِ العِبادة والثَّباتُ. ويشمل: انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، والإقامة في نَحْر العدُوِّ -حِفظًا لثغور الإسلام، وصيانتها عن دخولِ الأعداء واقتحامِهم لها-.

وقد احتاج المسلمون إلى المرابَطة لـمَّا فُتِحَت الفتوحاتُ، أمَّا في عهد النبيِّ ﷺ فكانت المرابَطة قليلة؛ لأنَّه ﷺ كان يخرُج إلى العدُوِّ ويغزوه، ثم يَرْجِع.

وفيها: أنَّ العاقبةَ الحميدةَ -وهي الفلاحُ- تكون لمن قامَ بأوامر الله، من: الصَّبر، والمصابَرة، والمرابَطة، والتَّقوى.

وفيها: فَضْل الرِّباط وعِظَم أجره؛ لِما يشتمل عليه من تَعَبِ الحراسة، والخوف والقَلَق من هجوم العدُوِّ، والاحتِباس عن المصالح الدُّنيويَّة -كالتجارة وطلبِ الرِّزق ونحوها-، والبقاء مُنتبِهًا طيلةَ الوقت، ومُراغمة أعداء الله، والعمل الطويل الشاقّ.

وقد جاء في الحديثِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله؛ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»(١).

وإذا ماتَ المُرابِطُ في الرِّباطِ؛ جرى عليه عملُه، ويُكتَب له أَجْرُ الرِّباط إلى يومِ القيامةِ، ويُجرَى عليه رِزقُه، وهو في قبره، ويَأمنُ فِتنة القبرِ.

ففي الحديثِ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ خَيْرٌ من صِيَام شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ؛ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ»(٢).

و(الفَتَّان) يعني: فِتنة القبرِ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٩١٣).

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٦١).

وفي الآية: فَضْلُ الحراسةِ في سبيلِ الله، وقد جاءَ في الحديثِ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»[١].

وفيها: أنَّ مَن اتقى ربَّه؛ أفلحَ إذا لقيَه.

وفيها: التدرُّج مِنَ الأخفِّ إلى الأثقلِ؛ فـ(المصابَرةُ) أشدُّ مِنَ (الصَّبرِ)، و(المرابَطةُ) تَشتملُ عليهما.

وفيها: أنَّ أفعالَ الترجِّي مِنَ الله -(لعلَّ) و(عسى) ونحوها- تُفيد التَّحقيقَ والوقوعَ -إذا تحقَّقَ الشَّرطُ-؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُخلِف الميعادُ.

وأمَّا الترجِّي مِنَ البشرِ؛ فقد يَقعُ الموعودُ بِه، وقد لا يقع.

وفيها: ذِكْرُ ما يلزَم لجهادِ الكفَّارِ، وشَياطينِ الإنسِ.

وأمَّا شيطان الجِنِّ؛ فإنَّ المصابَرة والمرابَطة معه تَقتضي حِراسةَ الثُّغورِ، التي يُمكن أنْ ينفُذَ منها؛ كالسَّمعِ، والبصرِ، وأنْ يحرُسَها صاحِبُها؛ لئلَّا يَنْفُذَ إليها شيءٌ؛ ممَّا حرَّمه الله، فيدخلَ الشَّيطانُ مِنْها للإفسادِ والخرابِ.

والله المستعانُ، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا به.

انتهى تفسيرُ سُورَة آل عمران

وبه تَـمَّ تفسير الزَّهْراوَين

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ

---

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢).

تفسيرٌ أثريٌّ تربويٌّ معاصرٌ
تسهيلاً للتدبرِ والعيشِ مع القرآنِ

مجموعة زاد
ZAD GROUP

تفسير سورة النساء الكبرى

تفسير أثري تربوي معاصر
تسهيلاً للتدبر والعيش مع القرآن

محمد صالح المنجد

مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

تفسير سورة النساء. / محمد صالح المنجد، ط١. - الرياض، ١٤٣٨هـ

٥٢٨ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥-٨٣-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. القرآن - تفسير أ. العنوان

ديوي: ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/٤٧٠٥

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

الناشر

المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشـهد أن لا إله إلَّا الله، وحدَه لا شريك له، وأشـهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

وبعد،

فـإنَّ شرفَ العِلْـم إنَّما يُنالُ بشَرَف ما يتعلَّـق به، وبموضوعه، وغايته، وشِـدَّة الاحتياج إليه.

ولـذا، فتفسـيرُ القرآن الكريـم، وتعلُّمه وتعليمـه؛ من أشرَفِ ما تُـصرَف فيه الأوقات، وتُبذَل فيه الأموال، وأصحابُه هم كالتاجِ على الرُّؤوس، وكالشمسِ للدُّنيا.

فالقرآن الكريم هو كلامُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ووحيُه إلى نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسالتُه إلى خلقه.

وهـو هدًى، ورحمةٌ، ونورٌ، وبلاغٌ، وبصائرُ، وذِكرٌ، وفرقانٌ، وموعظةٌ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وأهـلُ القـرآن -تعلُّمًا وتعليمًا- هم خير الناس؛ كما ثبتَ في الحديـث: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١).

ومـن المعلوم أنَّ كُتُب التفسـير قد كثُرَت، وبُسِـطَت، واختُصِرَت، وتنوَّعت مشـارِبُها، واختلفَت مناهِجُ أصحابِها.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

وقد جرت المحاولة في هذا التفسير أن يكون تفسيراً قرآنياً -يفسِّر القرآن بالقرآن-، أثريّاً، تَرْبويّاً، دَعَوياً، عَصْرياً، واقعيّاً، يُسَهِّل تدبُّرَ كتابِ الله، والانتفاعَ بآياتِه ومواعِظِه، والعيشَ مع القرآن، ويَرْبِط القرآن بواقع الناس، ويكون -مع كلِّ هذا- مُصاغًا بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّرٍ، يَجْمَع بين الأصالة والمُعاصَرة -أصالة القديم وجِدَّة الحديث-، ومناسِبًا لعُموم الراغبينَ من طبقات المجتمَع المختلفة.

أهدافُ هذا التَّفسير:

- رَبْط الناس بكلام ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.
- إبراز هدايات القرآن المختلفة للتي هي أقوَم، في جميع المجالات: العقائد، الأحكام، المعامَلات، الآداب، الرَّقائِق، ... إلخ.
- التربية على استِنباط الفوائد، والنُّكَت، والأحكام، واللَّطائِف، والإشارات القرآنيَّة من الآيات، ورَبْط القرآن بالواقع، بطريقةٍ سهلةٍ، من خلال مئات الفوائد والاستِنباطات واللَّطائف المبثوثة في ثنايا التفسير.
- الاهتِمام بأسباب النُّزول، واختيار أَصَحِّ الرِّوايات الوارِدة في الباب، واستِنباط الفوائد والعِبَر منها.
- الإشارة إلى كثيرٍ من المستَجَدَّات؛ كربط القرآن بحياة الناس، والرَّدّ على الشُّبُهات، ونحو ذلك.
- خِدمة الدُّعاة والتربويِّين من خلال ربط التفسير بالدعوة والتربية.

ونسأل الله تعالى التوفيق، والسَّداد، والقبول.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه.

سُورَةُ النِّساءِ الكُبْرَى

تمهيد

بَيْنَ يَدَي السُّورَةِ:

سُـورَةُ النِّساءِ مِنْ أَعْظَمِ سُـوَرِ القُرْآنِ، وَهِيَ مِنَ السَّـبْعِ الطِّوالِ، تَتَمَيَّزُ بِطُولِ الآياتِ؛ لِيُناسِـبَ ذَلِـكَ كافَّةَ ما تُعالِجُهُ مِنْ قَضايـا، وَما تَطْرَحُهُ مِنْ أَحْكام. وَقَدْ ناقَشَـتْ كَثِيرًا مِنَ الأَحْوالِ الاِجْتِماعِيَّةِ، وَأُمُورِ الأَمْوالِ، والمَوارِيثِ، وَحَثَّتْ عَلَى تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنِ الإِنابَةِ إِلَيْـهِ، والإِحْسـانِ إِلى النَّاسِ، وَنَهَتْ عَنِ الظُّلْـمِ، وَأَكْلِ أَمْوالِ النَّـاسِ بِالباطِلِ، وَتَضَمَّنَتْ أُنْمُوذَجًـا صالِحًا، لِلتَّعامُلِ بِالحِكْمَةِ مَعَ المَشـاكِلِ الأُسَرِيَّةِ، في حِرْصٍ تامٍّ عَلَى لَمِّ الشَّـمْلِ، وَجَمْـعِ الكَلِمَـةِ، وَعَـدَمِ الاِخْتِـلافِ، والسَّـعْيِ الحَكِيمِ في الحِفـاظِ عَلَى البُنْيـانِ الأُسَرِيِّ، والمُجْتَمَعِ الإِسْـلامِيِّ الصَّغِيرِ، الَّذِي يهمُّ كُلَّ مُسْـلِمٍ في خاصَّةِ نَفْسِهِ، وَفِيمَنْ يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِ، وَفي هَـذا: الحِـرْصُ التَّامُّ عَـلَى البُنْيـانِ المُتكامِـلِ لِلْمُجْتَمَعِ الكَبِـيرِ، وَمُعالَجَةِ مُشْـكِلاتِهِ، وَتَصَدُّعاتِهِ.

وَتَحَدَّثَـتِ السُّـورَةُ عَـنْ أَرْكانِ الإِيـمانِ، وَأُصُولِهِ، مِنَ: الإِيـمانِ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِـهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، والإِيمانِ بِالقَدَرِ، وَذَلِكَ في أَخْصَرِ عِبارَةٍ، بِأَتَمِّ بَيانٍ.

كَـما تَعَرَّضَـتْ لِلـرَّدِّ عَـلَى أَهْـلِ الكِتـابِ، وَبَيـانِ مَخازِيهِـمْ، والتَّحْذِيـرِ مِـنْ ضَلالاتِهِمْ، وانْحِرافاتِهِمْ عَنْ صِراطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ.

وَحَثَّـتْ عَـلَى طاعَـةِ اللهِ وَرسـولِهِ، وَطاعَـةِ أُولِي الأَمْرِ، وَوَجَّهَـتْ بِكَلِمَةٍ سَـواءٍ، وَخُطَّةِ فَصْـلٍ، عِنْـدَ حُصُـولِ الاِخْتِـلافِ، والنِّـزاعِ: أَنْ يُـرَدَّ ذَلِـكَ إِلى حُكْـمِ اللهِ وَرسـولِهِ، مُحَذِّرَةً

-أَشَدَّ التَّحْذِيرِ- مِنَ التَّحاكُمِ إلى الطَّاغُوتِ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ مِنْ أَوَّلِ مَنْ يَصُدُّ عَنِ التَّحاكُمِ إلى اللهِ وَرسولِهِ، وَيُعْرِضُ عَنْهُ: أَهْلَ النِّفاقِ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ إعْراضًا، وَيَصُدُّونَ صُدُودًا، فَفَضَحَتْهُمْ، وكَشَفَتْ حالَهُمْ، وَعَوَّلَتْ عَلَى أَهْلِ الاِسْتِقامَةِ، والطَّاعَةِ، في الهِدايَةِ، والفَضْلِ، والأَجْرِ، وَحُسْنِ المَآلِ.

ثُمَّ تَحَدَّثَتِ السُّورَةُ عَنِ الجِهادِ في سَبِيلِ اللهِ، وَفَضْلِ المُجاهِدِينَ.

وَتَحَدَّثَتْ عَنِ الوُضُوءِ، والتَّيَمُّمِ، وَقَصْرِ الصَّلاةِ، وَصَلاةِ الخَوْفِ.

وَبَيَّنَتْ عِظَمَ الشِّرْكِ بِاللهِ، وَأَنَّهُ ضَلالٌ مُبِينٌ، وَأَنَّ مَنْ ماتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ، وَقَدْ أَسْلَفَتِ السُّورَةُ الحَضَّ عَلَى التَّوْبَةِ، وَأَعْقَبَتْ بَعْدَ ذِكْرِ الشِّرْكِ بِبَيانِ دُخُولِ عُصاةِ المُوَحِّدِينَ في مَشِيئَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ.

ثُمَّ حَذَّرَتْ مِنْ وِلايَةِ الشَّيْطانِ، وَبَيَّنَتْ أَنْ وِلايَتَهُ أَخْسَرُ الخُسْرانِ، وَنَهَتْ عَنِ اتِّخاذِ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ اللهَ يَفْتَحُ أَبْوابَ رَحْمَتِهِ لِمَنْ تابَ مِنْ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ -وَلَوْ كانَ مُشْرِكًا، أَوْ مُنافِقًا-.

ثُمَّ تَحَبَّبَ عَزَّوَجَلَّ إلى عِبادِهِ، بِتَنَزُّهِهِ عَنِ التَّشَفِّي، وَمُؤاخَذَةِ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، لِمُجَرَّدِ إرادَةِ التَّعْذِيبِ، والمَهانَةِ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِعبدِهِ مِنَ الأُمِّ بِوَلَدِها، فَلا يُعَذِّبُ مِنْ عِبادِهِ إِلَّا مَنْ جَحَدَ نِعْمَتَهُ، وَكَفَرَ مِنَّتَهُ، وَلَمْ يُؤَدِّ شُكْرَهُ، وَسَعَى في مَعْصِيَتِهِ، وَتَرَكَ أَمْرَهُ، وَماتَ شارِدًا عَلَى رَبِّهِ، غَيْرَ مُنِيبٍ إِلَيْهِ، وَقَدْ فَتَحَ لَهُ أَبْوابَ رَحْمَتِهِ، وَحَثَّهُ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَنَهاهُ عَنْ وِلايَةِ عَدُوِّهِ، فَعادَى في وِلايَتِهِ مُحِبَّهُ، وَوالَى في عَداوَتِهِ بَغِيضَهُ.

ثُمَّ عادَتِ السُّورَةُ إلى بَيانِ أَنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بِالعِصْيانِ، هُوَ سَبَبُ الخُسْرانِ، والحِرْمانِ، وَأَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ، والإِيمانِ، هُمْ أَهْلُ الفَضْلِ، والأَجْرِ، والإِحْسانِ.

ثُمَّ تَحَدَّثَتْ في خَواتِيمِها عَنْ تَمامِ الإِعْذارِ، بِقِيامِ حُجَّةِ البُرْهانِ الرَّبَّانِيِّ، وَنُزُولِ الهِدايَةِ، والنُّورِ المُبِينِ، فانْفَصَلَ النَّاسُ عَلَى فَرِيقَيْنِ، وانْفَضَّ الجَمْعُ إلى مَآلَيْنِ.

ثُمَّ اخْتُتِمَتِ السُّورَةُ بِحُكْمٍ مِنَ الأَحْكامِ الفَرضِيَّةِ، بُثَّ فِيهِ البَيانُ بِقِيامِ الحُجَّةِ، في سِياقِ تَرْغِيبٍ، وَمَحَبَّةٍ؛ فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾، «أَيْ: يُبَيِّنُ لَكُمْ أَحْكامَهُ الَّتِي

تَحْتاجُونَها، وَيُوَضِّحُها، وَيَشْرَحُها لَكُمْ، فَضْلًا مِنْهُ، وَإِحْسانًا؛ لِكَيْ تَهْتَدُوا بِبَيانِهِ، وَتَعْمَلُوا بِأَحْكامِهِ، وَلِئَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ؛ بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ، وَعَدَمِ عِلْمِكُمْ»(١).

فَما أَوْسَعَ رَحْمَةَ اللهِ! وَما أَعْظَمَ فَضْلَهُ عَلَى عِبادِهِ -جَلَّ وَعَلا-! لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّناءُ الحَسَنُ كُلُّهُ، لا نُحْصِي ثَناءً عَلَيْهِ، هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَما أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ.

قالَ الحافِظُ جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَضَمَّنَتْ سُورَةُ النِّساءِ أَحْكامَ الأَسْبابِ الَّتِي بَيْنَ النَّاسِ، وَهِيَ نَوْعانِ: مَخْلُوقَةٌ للهِ، وَمَقْدُورَةٌ لَهُمْ، كالنَّسَبِ، والصِّهْرِ؛ وَلِهَذا افْتُتِحَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾، فانْظُرْ هَذِهِ المُناسَبَةَ العَجِيبَةَ فِي الافْتِتاحِ، وَبَراعَةِ الاسْتِهْلالِ؛ حَيْثُ تَضَمَّنَتِ الآيَةُ المُفْتَتَحُ بِها ما أَكْثَرُ السُّورَةِ فِي أَحْكامِهِ، مِنْ: نِكاحِ النِّساءِ، وَمُحَرَّماتِهِ، والمَوارِيثِ المُتَعَلِّقَةِ بالأَرْحامِ، وَأَنَّ ابْتِداءَ هَذا الأَمْرِ كانَ بِخَلْقِ آدَمَ، ثُمَّ خَلْقِ زَوْجِهِ مِنْهُ، ثُمَّ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا، وَنِساءً، فِي غايَةِ الكَثْرَةِ»(٢).

وَقالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغِرْناطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَضَمَّنَتِ السُّورَةُ ابْتِداءَ الأَمْرِ، وانْتِهاءَهُ، فَأَعْلَمَنا بِكَيْفِيَّةِ النِّكاحِ، وَصُورَةِ الاعْتِصامِ، وَكَيْفِيَّةِ تَناوُلِ الإِصْلاحِ فِيما بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، عِنْدَ التَّشاجُرِ، والشِّقاقِ، وَبَيَّنَ لَنا ما يُنْكَحُ، وَما لا يُنْكَحُ، وَما أُبِيحَ مِنَ العَدَدِ، وَحُكْمَ مَنْ لَمْ يَجِدِ الطَّوْلَ، وَما يَتَعَلَّقُ بِهَذا، إِلَى المَوارِيثِ، فَصَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ، إِلَّا الطَّلاقَ؛ لِأَنَّ أَحْكامَهُ قَدْ تَقَدَّمَتْ، وَلِأَنَّ بِناءَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى التَّواصُلِ، والائْتِلافِ، وَرَعْيِ حُقُوقِ ذَوِي الأَرْحامِ، وَحِفْظِ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى حالَةِ المَوْتِ المَكْتُوبِ عَلَيْنا.

وَناسَبَ هَذا المَقْصُودُ مِنَ التَّواصُلِ، والإِلْفَةِ، ما افْتُتِحَتْ بِهِ السُّورَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ بالالْتِئامِ، والوَصْلَةِ؛ وَلِهَذا خَصَّتْ حُكْمَ تَشاجُرِ الزَّوْجَيْنِ بِالإِعْلامِ بِصُورَةِ الإِصْلاحِ، والعَدْلِ؛ إِبْقاءً لِذَلِكَ التَّواصُلِ، فَلَمْ يَكُنِ الطَّلاقُ لِيُناسِبَ هَذا، فَلَمْ يَقَعْ لَهُ هُنا ذِكْرٌ، وَلا إِيماءٌ.

وَلِكَثْرَةِ ما يَعْرِضُ مِنْ رَعْيِ حُظُوظِ النُّفُوسِ عِنْدَ الزَّوْجةِ، وَمَعَ القَرابَةِ، وَيَدِقُّ ذَلِكَ وَيَغْمُضُ؛ لِذَلِكَ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي هَذِهِ السُّورَةِ الأَمْرُ بالاتِّقاءِ، وَبِهِ افْتُتِحَتْ.

---

(١) تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ (ص٢١٧).

(٢) الإِتْقانُ فِي عُلُومِ القُرْآنِ (٣/ ٣٨٢).

ثُمَّ حَذَّرَتِ السُّورَةُ مِنْ حالِ مَنْ صَمَّمَ عَلَى الكُفْرِ، وَحالِ اليَهُودِ، والنَّصارَى، والمُنافِقِينَ، وَذَوِي التَّقَلُّبِ في الأَدْيانِ؛ بُعْدًا عَنِ اليَقِينِ، كُلُّ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ لِما أُمِرُوا بِهِ مِنَ الاِتِّقاءِ. والتَحَمَتِ الآيَاتُ إِلى الخَتْمِ بِالكَلالَةِ مِنَ المَوارِيثِ المُتَقَدِّمَةِ»(١).

وَقالَ ابْنُ عاشُورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُعْظَمُ ما في سُورَةِ النِّساءِ شَرائِعُ تَفْصِيلِيَّةٌ، في مُعْظَمِ نَواحِي حَياةِ المُسْلِمِينَ الاِجْتِماعِيَّةِ، مِنْ نُظُمِ الأَمْوالِ، والمُعاشَرَةِ، والحُكْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَى أَغْراضٍ، وَأَحْكامٍ كَثِيرَةٍ، أَكْثَرُها تَشْرِيعُ مُعامَلاتِ الأَقْرِباءِ، وَحُقُوقِهِمْ، فَكانَتْ فاتِحَتُها مُناسِبَةً لِذَلِكَ، بِالتَّذْكِيرِ بِنِعْمَةِ خَلْقِ اللهِ، وَأَنَّهُمْ مَحْقُوقُونَ بِأَنْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ يُراعُوا حُقُوقَ النَّوْعِ الَّذِي خُلِقُوا مِنْهُ، بِأَنْ يَصِلُوا أَرْحامَهُمُ القَرِيبَةَ، والبَعِيدَةَ، وَبِالرِّفْقِ بِضُعَفاءِ النَّوْعِ مِنَ اليَتامَى، وَيُراعُوا حُقُوقَ صِنْفِ النِّساءِ مِنْ نَوْعِهِمْ، بِإِقامَةِ العَدْلِ في مُعامَلاتِهِنَّ، والإِشارَةِ إِلى عُقُودِ النِّكاحِ، والصَّداقِ، وَشَرْعِ قَوانِينِ المُعامَلَةِ مَعَ النِّساءِ، في حالَتَيِ الاِسْتِقامَةِ، والاِنْحِرافِ، مِنْ كِلا الزَّوْجَيْنِ، وَمُعاشَرَتِهِنَّ، والمُصالَحَةِ مَعَهُنَّ، وَبَيانِ ما يَحِلُّ لِلتَّزَوُّجِ مِنْهُنَّ، والمُحَرَّماتِ بِالقَرابَةِ، أَوِ الصِّهْرِ، وَأَحْكامِ الجَوارِي بِمِلْكِ اليَمِينِ. وَكَذَلِكَ حُقُوقُ مَصِيرِ المالِ إِلى القَرابَةِ، وَتَقْسِيمِ ذَلِكَ، وَحُقُوقُ حِفْظِ اليَتامَى في أَمْوالِهِمْ، وَحِفْظِها لَهُمْ، والوِصايَةِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَحْكامُ المُعامَلاتِ بَيْنَ جَماعَةِ المُسْلِمِينَ في الأَمْوالِ، والدِّماءِ، وَأَحْكامُ القَتْلِ عَمْدًا، وَخَطَأً، وَتَأْصِيلُ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، في الحُقُوقِ، والدِّفاعِ عَنِ المُعْتَدَى عَلَيْهِ، والأَمْرُ بِإِقامَةِ العَدْلِ بِدُونِ مُصانَعَةٍ، والتَّحْذِيرُ مِنَ اتِّباعِ الهَوَى، والأَمْرُ بِالبِرِّ، والمُواساةِ، وَأَداءِ الأَماناتِ، والتَّمْهِيدُ لِتَحْرِيمِ شُرْبِ الخَمْرِ.

وَطائِفَةٌ مِنْ أَحْكامِ الصَّلاةِ، والطَّهارَةِ، وَصَلاةِ الخَوْفِ. ثُمَّ أَحْوالُ اليَهُودِ؛ لِكَثْرَتِهِمْ بِالمَدِينَةِ، وَأَحْوالُ المُنافِقِينَ، وَفَضائِحُهُمْ، وَأَحْكامُ الجِهادِ؛ لِدَفْعِ شَوْكَةِ المُشْرِكِينَ. وَأَحْكامُ مُعامَلَةِ المُشْرِكِينَ، وَمَساوِيهِمْ، وَوُجُوبُ هِجْرَةِ المُؤْمِنِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَإِبْطالُ مَآثِرِ الجاهِلِيَّةِ.

---

(١) البُرْهانُ في تَناسُبِ سُوَرِ القُرْآنِ (ص١٩٩-٢٠٠)، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.

وَقَدْ تَخَلَّلَ ذَلِكَ مَواعِظُ، وَتَرْغِيبٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الحَسَدِ، وَعَنْ تَمَنِّي ما لِلْغَيْرِ مِنَ المَزايا الَّتِي حُرِمَ مِنْها مَنْ حُرِمَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ، أَوْ بِحُكْمِ الفِطْرَةِ. والتَّرْغِيبُ في التَّوَسُّطِ في الخَيْرِ، والإِصْلاحِ، وَبَثِّ المَحَبَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ»(١).

وَقالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابْتُدِئَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِذِكْرِ أَصْلِ خِلْقَةِ بَنِي آدَمَ، مِنْ ماذا خُلِقُوا؟ ثُمَّ ذَكَرَتِ الأَرْحامَ، وَما يَتَّصِلُ بِها مِنَ المَوارِيثِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَتْ ما يَتَعَلَّقُ بِالنِّكاحِ؛ لِأَنَّ النِّكاحَ صِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، كَما أَنَّ القَرابَةَ صِلَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، كَما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤]، ثُمَّ ما يَتَعَلَّقُ بِمُخاطَبَةِ اليَهُودِ، والمُنافِقِينَ، ثُمَّ ما يَتَعَلَّقُ بِأَحْوالِ النِّزاعِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ بَعْدَ الفاتِحَةِ، والبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرانَ، وَقَدْ وَرَدَ في صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ البَقَرَةَ، ثُمَّ النِّساءَ، ثُمَّ آلَ عِمْرانَ(٢)، وَهَذا التَّرْتِيبُ كانَ في أَوَّلِ الأَمْرِ، ثُمَّ رُتِّبَتْ في الأَخِيرِ هَكَذا: البَقَرَةُ، ثُمَّ آلُ عِمْرانَ، ثُمَّ النِّساءُ، واسْتَقَرَّ عَلَى ذَلِكَ المُصْحَفُ، الَّذِي جَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ عُثْمانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(٣).

ذِكْرُ ما وَرَدَ في فَضائِلِ سُورَةِ النِّساءِ:

عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَلَ؛ فَهُوَ حَبْرٌ**»(٤).

الحَبْرُ -وَكَذا: الحِبْرُ-: العالِمُ، والجَمْعُ: أَحْبارٌ، وَحُبُورٌ(٥).

وَعَنْ واثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**أُعْطِيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكانَ الزَّبُورِ المِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكانَ الإِنْجِيلِ المَثانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ**»(٦).

---

(١) التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ (٤/ ٢١٢-٢١٤).

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ (٧٧٢).

(٣) تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّساءِ (١/ ٧-٨).

(٤) رَواهُ أَحْمَدُ (٢٤٤٤٣)، والحاكِمُ (٢٠٧٠)، وَصَحَّحَهُ، وَوافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٥).

(٥) لِسانُ العَرَبِ (٤/ ١٥٧)، تَهْذِيبُ اللُّغَةِ (٥/ ٢٣)، مُجْمَلُ اللُّغَةِ (ص ٢٦٠).

(٦) رَواهُ أَحْمَدُ (١٦٩٨٢)، والطَّبَرانِيُّ في الكَبِيرِ (٨٠٠٣)، والبَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ (٢١٩٢)، والطَّبَرِيُّ في تَفْسِيرِهِ (١/ ١٠٠)، وَحَسَّنَهُ مُحَقِّقُو المُسْنَدِ.

قالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّبْعُ الطُّوَلُ: البَقَرةُ، وَآلُ عِمْرانَ، والنِّساءُ، والمائِدَةُ، والأَنْعامُ، والأَعْرافُ، وَيُونُسُ، في قَوْلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَإِنَّما سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّوَرُ السَّبْعَ الطُّوَلَ؛ لِطُولِها عَلَى سائِرِ سُوَرِ القُرْآنِ.

وَأَمَّا «المِئُونَ»: فَهِيَ ما كانَ مِنْ سُوَرِ القُرْآنِ عَدَدُ آيِهِ مِئَةُ آيَةٍ، أَوْ تَزِيدُ عَلَيْها شَيْئًا، أَوْ تَنْقُصُ مِنْها شَيْئًا يَسِيرًا.

وَأَمَّا «المَثانِيَ»: فَإِنَّها ما ثَنَّى المِئِينَ فَتَلاها، وَكانَ المِئُونَ لَها أَوائِلَ، وَكانَ المَثانِي لَها ثَوانِي. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ المَثانِيَ سُمِّيَتْ مَثانِيَ؛ لِتَثْنِيَةِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ فِيها الأَمْثالَ، والخَبَرَ، والعِبَرَ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ»[(١)].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ لَيْلَةٍ، فافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِها في رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِها، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّساءَ، فقَرَأَها، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرانَ، فَقَرَأَها، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذا مَرَّ بِآيَةٍ فِيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذا مَرَّ بِسُؤالٍ سَأَلَ، وَإِذا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**»، فَكانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيامِهِ، ثُمَّ قالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثُمَّ قامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقالَ: «**سُبْحانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»، فَكانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيامِهِ»[(٢)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «أُوتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعًا مِنَ المَثانِي: السَّبْعَ الطُّوَلَ»[(٣)].

وَقَدْ رَوَى البُخارِيُّ[(٤)] عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ **هِيَ السَّبْعُ المَثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**».

قالَ الحافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَهَذا نَصٌّ في أَنَّ الفاتِحَةَ السَّبْعُ المَثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ، وَلَكِنْ لا يُنافِي وَصْفَ غَيْرِها مِنَ السَّبْعِ الطُّوَلِ بِذَلِكَ؛ لِما فِيها مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، كَما لا يُنافِي

---

(١) تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ (١/ ١٠٣).

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ (٧٧٢).

(٣) رَواهُ النَّسائِيُّ (٩١٥)، والطَّبَرِيُّ (١٧/ ١٢٩)، وَإِسْنادُهُ صَحِيحٌ.

(٤) صَحِيحُ البُخارِيِّ (٤٤٧٤).

وَصْفَ القُرْآنِ بِكَمالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا، كَما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فَهُوَ مَثانِي مِنْ وَجْهٍ، وَمُتَشابِهٌ مِنْ وَجْهٍ، وَهُوَ القُرْآنُ العَظِيمُ»[١].

وَعَنِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، وَسُورَةَ النِّساءِ، وَسُورَةَ المائِدَةِ، وَسُورَةَ الحَجِّ، وَسُورَةَ النُّورِ، فَإِنَّ فِيهِنَّ الفَرائِضَ»[٢].

وَعَنْ عبدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «إِنَّ في سُورَةِ النِّساءِ لَخَمْسَ آياتٍ، ما يَسُرُّنِي أَنَّ لِيَ بِها الدُّنْيا، وَما فِيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

قالَ عبدُاللهِ: «ما يَسُرُّنِي أَنَّ لِيَ بِها الدُّنْيا وَما فِيها»[٣].

وَعَنْهُ -أَيْضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لا يَقْرَأَ أَحَدُهُمْ هَذِهِ الآياتِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ، إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾»[٤].

---

(١) تفسير ابن كَثِير (٤/ ٥٤٧).

(٢) رَواهُ الحاكِمُ في المُسْتَدْرَكِ (٣٤٩٣)، والبَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ (٢٢٢٦)، وَقالَ الحاكِمُ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ»، وَوافَقَهُ الذَّهَبِيُّ. وَقَوْلُهُ: «فَإِنَّ فِيهِنَّ الفَرائِضَ» يَقْصِدُ: ما فَرَضَ اللهُ عَلَى عِبادِهِ، مِنَ: الصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصَّوْمِ، والحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ العِباداتِ.

(٣) رَواهُ الحاكِمُ (٣١٩٤)، وَقالَ: «هَذا إِسْنادٌ صَحِيحٌ، إِنْ كانَ عبدُالرَّحْمَنِ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَدِ اخْتُلِفَ في ذَلِكَ». وَوافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَلَهُ شاهِدٌ، رَواهُ البَيْهَقِيُّ في شُعَبِ الإِيمانِ (٩/ ٣٤٣) وَهَنادُ في الزُّهْدِ (٢/ ٤٥٤)، عَنْ بَشِيرٍ الأَزْدِيِّ، قالَ: قالَ عبدُاللهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «أَرْبَعُ آياتٍ في كِتابِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»، قالَ: قالُوا لَهُ: وَأَيْنَ هِيَ؟، قالَ: «إِذا مَرَّ بِهِنَّ العُلَماءُ عَرَفُوهُنَّ»، قالَ: قالُوا: في أَيِّ سُورَةٍ؟، قالَ: «في سُورَةِ النِّساءِ»... فَذَكَرَهُنَّ إِلَّا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿﴾. وَإِسْنادُهُ ضَعِيفٌ؛ لِجَهالَةِ بَشِيرٍ الأَزْدِيِّ، وَلَكِنْ لا بَأْسَ بِهِ في الشَّواهِدِ.

(٤) رَواهُ البَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ (١٩٢٦)، وَإِسْنادُهُ ضَعِيفٌ، وَلَهُ شاهِدٌ رَواهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ في التَّفْسِيرِ (٥٢٦)،=

وَعَنْـهُ -أَيْضًـا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتاهُ بَـيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَـرَ، وَعبدُاللهِ يُصَلِّي، وافْتَتَحَ النِّساءَ فَسَجَلَها[١]، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ غَضًّا كما أُنْزِلَ؛ فَلْيَقْـرَأْ قِـراءَةَ ابْنِ أُمِّ عبـدٍ**»، ثُمَّ قَعَدَ، ثُمَّ سَـأَلَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**سَـلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ**»فقالَ -فِيما سَأَلَ-: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمانًا لا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وَمُرافَقَةَ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جَنَّةِ الخُلْدِ. فَأَتَى عُمَرُ عبدَاللهِ بْنَ مَسْعُودٍ يُبَشِّرُهُ فَوَجَدَ أَبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خارِجًا، وَقَدْ سَبَقَهُ، فَقالَ: «إِنْ فَعَلْتَ، لَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا بِالخَيْراتِ»[٢].

وَعَنْهُ -أَيْضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «مَنْ قَرَأَ آلَ عِمْرانَ فَهُوَ غَنِيٌّ، والنِّساءُ مَحْبَرَةٌ»[٣].

وَعَنْـهُ -أَيْضًـا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـالَ: «ما خَيَّـبَ اللهُ بَيْتًـا أَوَى إِلَيْهِ امْرُؤٌ بِسُـورَةِ البَقَـرَةِ، أَوْ آلِ عِمْرانَ، أو النِّساءِ، أَوْ بَعْضِ صَواحِبِهِنَّ»[٤].

وَعَنْـهُ -أَيْضًا- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يا رسـولَ اللهِ، آقْـرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قالَ: «**نَعَمْ**». فَقَرَأْتُ سُـورَةَ النِّسـاءِ، حَتَّـى أَتَيْتُ إِلى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، قـالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**»، فالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذا عَيْناهُ تَذْرِفانِ»[٥].

والَّذِي يَبْدُو مِنْ هَذِهِ الأَخْبارِ المَرْوِيَّةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كانَتْ لَهُ عِنايَةٌ خاصَّةٌ بِهَذِهِ السُّورَةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَلالَةِ قَدْرِها عِنْدَهُ، وَمَحَبَّتِهِ الشَّدِيدَةِ لِتِلاوَتِها، وَحَثِّ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ.

= بِلَفْـظِ: «إِنَّ في كِتـابِ اللهِ لَآيَتَيْنِ ما أَذْنَبَ عبدٌ ذَنْبًا فَقَرَأَهُما، فاسْـتَغْفَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ»فَذَكَرَهُما، وَإِسْـنادُهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا. وَشاهِدٌ ثالِثٌ رَواهُ أَبُو عُبَيْدٍ في فضائِلِ القُرْآنِ (ص٢٧٧)، وَلَفْظُهُ: «في القُرْآنِ آيَتانِ ما قَرَأَهُما عبدٌ مُسْلِمٌ عِنْدَ ذَنْبٍ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ»فَذَكَرَهُما، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ أَيْضًا. فالأَثَرُ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الطُّرُقِ يَزْدادُ قُوَّةً.

(١) أَيْ: قَرَأَها قِراءَةً مُتَّصِلَةً، مِنَ السَّجْلِ: وَهُوَ الصَّبُّ. النِّهايَةُ (٢/ ٣٤٤).

(٢) رَواهُ أَحْمَـدُ (٤٢٥٥)، والتِّرْمِـذِيُّ (٥٩٣)، وَصَحَّحَهُ، وابْنُ خُزَيْمَـةَ (١١٥٦)، وابْنُ حِبَّانٍ (١٩٧٠)، وَأَبُو يَعْلَى (١٦)، والطَّـبَرانِيُّ في الكَبِـيرِ (٨٤١٧)، وَعِنْدَ ابْنِ حِبَّانٍ: «فَلَمَّا بَلَغَ رَأْسَ المِئَةِ مِنَ النِّسـاءِ أَخَذَ يَدْعُو»، وَإِسْـنادُهُ جَيِّدٌ، قالَ البُوصِيرِيُّ في إِتْحافِ الخِيَرَةِ (٧/ ٢٨٩): «رُواتُهُ ثِقاتٌ».

(٣) رَواهُ الدَّارِمِـيُّ في سُـنَنِهِ (٣٤٣٨)، والمُسْـتَغْفِرِيُّ في فَضائِلِ القُرْآنِ (٧٠٢)، وَإِسْـنادُهُ لا بَأْسَ بِـهِ. وَمَحْبَرَةٌ: أَيْ: مَظِنَّةُ الحُبُورِ والسُّرُورِ. النِّهايَةُ (١/ ٣٢٧).

(٤) رَواهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ في التَّفْسِيرِ (٤٩)، والمُسْتَغْفِرِيُّ في فَضائِلِ القُرْآنِ (٧٠٣)، وَإِسْنادُهُ ضَعِيفٌ؛ لِانْقِطاعِهِ.

(٥) رَواهُ البُخارِيُّ (٥٠٥٠)، وَمُسْلِمٌ (٨٠٠).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «مَنْ قَرَأَ البَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرانَ، والنِّساءَ، في لَيْلَةٍ، كانَ -أَوْ كُتِبَ- مِنَ القانِتِينَ»[١].

وَمِنْ فَضائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ الكَرِيمَةِ:

أَنَّها اشْتَمَلَتْ عَلَى آيَةٍ مِنْ أَعْظَمِ آياتِ الرَّجاءِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «ما في القُرْآنِ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»[٢].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «كُنَّا نَقُولُ لِقاتِلِ المُؤْمِنِ إِذا ماتَ: إِنَّهُ في النَّارِ، وَنَقُولُ لِمَنْ أَصابَ كَبِيرَةً ماتَ عَلَيْها: إِنَّهُ في النَّارِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فَلَمْ نُوجِبْ لَهُمْ، كُنَّا نَرْجُو لَهُمْ، وَنَخافُ عَلَيْهِمْ»[٣].

وَرَوَى أَبو الحَسَنِ الواحِدِيُّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ، قالَ: «أَرْجَى آيَةٍ في القُرْآنِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾»[٤].

حَدِيثُ: «لا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النِّساءِ».

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ النِّساءِ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النِّساءِ**»، وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ[٥].

قالَ ابْنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرادَ أَنَّهُ لا يُوقَفُ مالٌ، وَلا يُزْوَى عَنْ وارِثِهِ، وَكَأَنَّهُ إِشارَةٌ

---

(١) رَواهُ أَبو عُبَيْدٍ في فَضائِلِ القُرْآنِ (ص٢٣٧)، والبَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ (٢٢٠١)، وَإِسْنادُهُ ضَعِيفٌ؛ لِانْقِطاعِهِ.

(٢) رَواهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٠٣٧)، وَقالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَضَعَّفَهُ الالبانيُّ في ضَعِيفِ التِّرْمِذِيِّ.

(٣) رَواهُ الطَّبَرِيُّ (٨/ ٤٥٠)، وابْنُ أَبِي حاتِمٍ (٣/ ٩٢٩)، والطَّبَرانِيُّ في الكَبِيرِ (١٤٠٢٨)، وَأَبُو نُعَيْمٍ في الحِلْيَةِ (٦/ ١٨٧)، واللَّالَكائِيُّ في شَرْحِ اعْتِقادِ أَهْلِ السُّنَّةِ (١٥٨٨)، مِنْ طُرُقٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ بِهِ، وَهُوَ أَثَرٌ ثابِتٌ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ.

(٤) أَسْبابُ النُّزُولِ (ص١٦).

(٥) رَواهُ الطَّبَرانِيُّ في الكَبِيرِ (١٢٠٣٣)، والبَيْهَقِيُّ في سُنَنِهِ (١١٩٠٦)، وَضَعَّفَهُ الهَيْثَمِيُّ في المَجْمَعِ (٧/ ٢)، والألباني في ضعيف الجامع (٦٤٢٩).

إِلى ما كانُوا يَفْعَلُونَهُ في الجاهِلِيَّةِ، مِنْ حَبْسِ مالِ المَيِّتِ، وَنِسائِهِ، كانُوا إِذا كَرِهُوا النِّساءَ؛ لِقُبْحٍ، أَوْ قِلَّةِ مالٍ؛ حَبَسُوهُنَّ عَنِ الأَزْواجِ؛ لِأَنَّ أَوْلِياءَ المَيِّتِ كانُوا أَوْلَى بِهِنَّ عِنْدَهُمْ. والحاءُ في قَوْلِهِ: «لا حَبْسَ»: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَضْمُومَةً، وَمَفْتُوحَةً، عَلَى الإِسْمِ، والمَصْدَرِ»[١].

نُزُولُ سُورَةِ النِّساءِ بِالمَدِينَةِ:

فَعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالَتْ: «ما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ، والنِّساءِ، إِلَّا وَأَنا عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٢]. يَعْنِي: بِالمَدِينَةِ.

وَقالَ الحافِظُ جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَخْرَجَ ابْنُ الضَّرِيسِ في فَضائِلِهِ، والنَّحَّاسُ في ناسِخِهِ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، والبَيْهَقِيُّ في الدَّلائِلِ مِنْ طُرُقٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قالَ: «نَزَلَتْ سُورَةُ النِّساءِ بِالمَدِينَةِ»[٣].

وَقالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوَّلُ ما نَزَلَ في المَدِينَةِ: سُورَةُ البَقَرَةِ، ثُمَّ الأَنْفالِ، ثُمَّ آلِ عِمْرانَ، ثُمَّ الأَحْزابِ، ثُمَّ المُمْتَحِنَةِ، ثُمَّ النِّساءِ، ثُمَّ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»[٤].

وَقالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُورَةُ النِّساءِ مَدَنِيَّةٌ، إِلَّا آيَةً واحِدَةً، نَزَلَتْ بِمَكَّةَ عامَ الفَتْحِ في عُثْمانَ بْنِ طَلْحَةَ الحَجَبِيِّ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾»[٥].

وَقالَ أَبو المُظَفَّرِ السَّمْعانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تُسَمَّى: سُورَةَ النِّساءِ، وَتُسَمَّى سُورَةَ الأَحْكامِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِ المُفَسِّرِينَ، إِلَّا قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ في مَفاتِيحِ الكَعْبَةِ»[٦].

وَقالَ العِزُّ بْنُ عبدِ السَّلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُورَةُ النِّساءِ مَدَنِيَّةٌ، إِلَّا آيَةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟

(١) النِّهايَةُ (١/ ٣٢٩).
(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٩٩٣).
(٣) الدُّرُّ المَنْثُورُ (٢/ ٤٢٢).
(٤) البُرْهانُ في عُلُومِ القُرْآنِ (١/ ١٩٤).
(٥) تَفْسِيرُ القُرْطُبِيِّ (٥/ ١).
(٦) تَفْسِيرُ السَّمْعانِيِّ (١/ ٣٩٢).

﴿ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، فَإِنَّها نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، لَمَّا أَرادَ الرسولُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مَفاتِيحَ الكَعْبَةِ مِنْ عُثْمانَ بْنِ طَلْحَةَ، فَيُسَلِّمَها إِلى العَبَّاسِ»[١].

وَقالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في شَأْنِ عُثْمانَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، حاجِبِ الكَعْبَةِ المُعَظَّمَةِ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ شَيْبَةَ بْنِ عُثْمانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، الَّذِي صارَتِ الحِجابَةُ في نَسْلِهِ إِلى اليَوْمِ، أَسْلَمَ عُثْمانُ هَذا في الهُدْنَةِ بَيْنَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، وَفَتْحِ مَكَّةَ، هُوَ، وَخالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَعَمْرُو بْنُ العاصِ، وَأَمَّا عَمُّهُ عُثْمانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: فَكانَ مَعَهُ لِواءُ المُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ كافِرًا.

وَإِنَّما نَبَّهْنا عَلَى هَذا النَّسَبِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ المُفَسِّرِينَ قَدْ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ هَذا بِهَذا، وَسَبَبُ نُزُولِها فِيهِ: لَمَّا أَخَذَ مِنْهُ رسولُ اللهِ ﷺ مِفْتاحَ الكَعْبَةِ يَوْمَ الفَتْحِ، ثُمَّ رَدَّهُ عَلَيْهِ».

ثُمَّ ذَكَرَ ما وَرَدَ في ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ: «وَهَذا مِنَ المَشْهُوراتِ: أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ، وَسَواءٌ كانَتْ نَزَلَتْ في ذَلِكَ أَوْ لا، فَحَكَمُها عامٌّ؛ وَلِهَذا قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الحَنَفِيَّةِ: «هِيَ لِلْبَرِّ، والفاجِرِ»، أَيْ: هِيَ أَمْرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ»[٢].

وَقالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُورَةُ النِّساءِ سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، والمَدَنِيُّ عِنْدَ الجُمْهُورِ: ما نَزَلَ بَعْدَ الهِجْرَةِ، والمَكِّيُّ: ما نَزَلَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، فالمَدَنِيُّ: ما نَزَلَ بَعْدَ الهِجْرَةِ، وَلَوْ في غَيْرِ المَدِينَةِ، والمَكِيُّ: ما نَزَلَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَلَوْ في غَيْرِ مَكَّةَ، وَعَلَى هَذا: فالمَدارُ في تَعْيِينِ المَكِّيِّ، والمَدَنِيِّ، عَلَى الزَّمانِ، لا عَلَى المَكانِ، وَقَدْ ذَكَرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ ضَوابِطَ، وَمُمَيِّزاتٍ لِلْمَكِّيِّ، والمَدَنِيِّ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ في عِلْمِ أُصُولِ التَّفْسِيرِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الغالِبَ في الآياتِ المَكِّيَّةِ: القِصَرُ، وَقُوَّةُ الأُسْلُوبِ، وَمَوْضُوعُها في الغالِبِ: التَّوْحِيدُ، وَما يَتَعَلَّقُ بِهِ. وَأَمَّا الآياتُ المَدَنِيَّةُ: فالغالِبُ عَلَيْها: السُّهُولَةُ، وَطُولُ الآياتِ، وَمَوْضُوعُها في الأُمُورِ الفَرْعِيَّةِ؛ كالبُيُوعِ، وَآدابِ المَجالِسِ، وَآدابِ الاِسْتِئْذانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

والغالِبُ أَنَّ النِّداءَ في المَكِيِّ يَكُونُ لِعُمُومِ النَّاسِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ المُخاطَبِينَ

---

(١) تَفْسِيرُ العِزِّ بْنِ عبدِالسَّلام (١/ ٣٠١).
(٢) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٣٤٠-٣٤١).

بِها لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، والمَدَنِيُّ يَكُونُ الخِطابُ فِيهِ بِـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هَذا هُوَ الغالِبُ؛ لِأَنَّ المُخاطَبِينَ فِيها مُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ، أَوْ أَكْثَرُهُمْ»(١).

وَعَنِ البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ: ﴿بَرَآءَةٌ﴾، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾»(٢).

مَتَى نَزَلَتْ سُورَةُ النِّساءِ؟

قالَ ابْنُ جُزيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَزَلَتْ بَعْدَ المُمْتَحَنَةِ»(٣).

وَقالَ ابْنُ عاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانَ ابْتِداءُ نُزُولِها بِالمَدِينَةِ؛ لِما صَحَّ عَنْ عائِشَةَ أَنَّها قالَتْ: «ما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ النِّساءِ، إِلَّا وَأَنا عِنْدَهُ»(٤). وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنَى بِعائِشَةَ في المَدِينَةِ، في شَوَّالٍ، لِثَمانِ أَشْهُرٍ خَلَتْ مِنَ الهِجْرَةِ. واتَّفَقَ العُلَماءُ عَلَى أَنَّ سُورَةَ النِّساءِ نَزَلَتْ بَعْدَ البَقَرَةِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ نُزُولُها مُتَأَخِّرًا عَنِ الهِجْرَةِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

والجُمْهُورُ قالُوا: نَزَلَتْ بَعْدَ آلِ عِمْرانَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ آلَ عِمْرانَ نَزَلَتْ في خِلالِ سَنَةِ ثَلاثٍ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: «أَوَّلُ ما نَزَلَ بِالمَدِينَةِ: سُورَةُ البَقَرَةِ، ثُمَّ الأَنْفالِ، ثُمَّ آلِ عِمْرانَ، ثُمَّ سُورَةُ الأَحْزابِ، ثُمَّ المُمْتَحَنَةِ، ثُمَّ النِّساءِ»(٥).

فَإِذا كانَ كَذَلِكَ: تَكُونُ سُورَةُ النِّساءِ نازِلَةً بَعْدَ وَقْعَةِ الأَحْزابِ، الَّتِي هِيَ في أَواخِرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ، أَوْ أَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الهِجْرَةِ، وَبَعْدَ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، الَّذِي هُوَ في سَنَةِ سِتٍّ؛ حَيْثُ تَضَمَّنَتْ سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ شَرْطَ إِرْجاعِ مَنْ يَأْتِي المُشْرِكِينَ هارِبًا إِلى المُسْلِمِينَ، عَدا النِّساءِ، وَهِيَ آيَةُ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ الآيَةَ [الممتحنة: ١٠].

وَمِنَ العُلَماءِ مَنْ قالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ النِّساءِ عِنْدَ الهِجْرَةِ، وَهُوَ بَعِيدٌ. وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ قالَ: إِنَّها نَزَلَتْ بِمَكَّةَ.

---

(١) تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّساءِ (١/ ٧).

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٦٠٥)، وَمُسْلِمٌ (١٦١٨).

(٣) تَفْسِيرُ ابْنِ جِزِّيٍّ (١/ ١٧٦).

(٤) رَواهُ البُخارِيُّ (٤٩٩٣)، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

(٥) رَواهُ ابْنُ الضِّرَّيسِ في فَضائِلِ القُرْآنِ (١٧)، وَلا يَصِحُّ سَنَدُهُ.

وَلا شَكَّ في أَنَّها نَزَلَتْ بَعْدَ آلِ عِمْرانَ؛ لِأَنَّ في سُورَةِ النِّساءِ مِنْ تَفاصِيلِ الأَحْكامِ: ما شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ اسْتِقْرارِ المُسْلِمِينَ بِالمَدِينَةِ، وانْتِظامِ أَحْوالِهِمْ، وَأَمْنِهِمْ مِنْ أَعْدائِهِمْ. وفِيها: آيَةُ التَّيَمُّمِ، والتَّيَمُّمُ شُرِعَ يَوْمَ غَزاةِ المُرَيْسِيعِ سَنَةَ خَمْسٍ، وَقِيلَ: سَنَةَ سِتٍّ.

فالَّذِي يَظْهَرُ: أَنَّ نُزُولَ سُورَةِ النِّساءِ كانَ في حُدُودِ سَنَةِ سَبْعٍ، وَطالَتْ مُدَّةُ نُزُولِها، وَيؤَيِّدُ ذَلِكَ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْكامِ الَّتِي جاءَتْ فِيها مُفَصَّلَة، تَقَدَّمَتْ مُجْمَلَةً في سُورَةِ البَقَرَةِ، مِنْ أَحْكامِ الأَيْتامِ، والنِّساءِ، والمَوارِيثِ.

وَيَتَعَيَّنُ ابْتِداءُ نُزُولِها قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾ [النساء: ٧٥] يَعْنِي: مَكَّةَ.

وَقَدْ عُدَّتِ الثَّالِثَةَ والتِّسْعِينَ مِنَ السُّوَرِ. نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ المُمْتَحَنَةِ، وَقَبْلَ سُورَةِ: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ**﴾»[١].

مُناسَبَةُ مَجِيئِها في تَرْتِيبِ المُصْحَفِ بَعْدَ البَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرانَ:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هِدايَةَ الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ في سُورَةِ الفاتِحَةِ، وَهُوَ صِراطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْلِيائِهِ، وَأَصْفِيائِهِ، مِنْ عِبادِهِ؛ بَيَّنَ أَنَّهُ غَيْرُ صِراطِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ -وَهُمُ اليَهُودُ-، والضَّالِينَ -وَهُمُ النَّصارَى-.

ثُمَّ رَدَّ عَلَى اليَهُودِ في البَقَرَةِ، وَرَدَّ عَلَى النَّصارَى في آلِ عِمْرانَ، ثُمَّ دَعا جَمِيعَ خَلْقِهِ إِلى الاِجْتِماعِ عَلَى دِينِ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى تَقْواهُ؛ فَقالَ في مَطْلَعِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ**﴾.

وَقالَ البِقاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَقْصُودُها: الاِجْتِماعُ عَلَى التَّوْحِيدِ، الَّذِي هَدَتْ إِلَيْهِ آلُ عِمْرانَ، والكِتابِ الَّذِي حَثَّتْ عَلَيْهِ البَقَرَةُ؛ لِأَجْلِ الدِّينِ الَّذِي جَمَعَتْهُ الفاتِحَةُ»[٢].

وَقالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغِرْناطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا تَضَمَّنَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ ابْتِداءَ الخَلْقِ، وَإِيجادَ آدَمَ

---

(١) التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ (٤/ ٢١١-٢١٣)، بِاخْتِصارٍ.

(٢) نَظْمُ الدُّرَرِ (٥/ ١٦٩).

عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، وَلا أُمٍّ، وَأَعْقَبَتْ بِسُورَةِ آلِ عِمْرانَ؛ لِتَضَمُّنِها أَمْرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ كَمَثَلِ آدَمَ في عَدَمِ الِافْتِقارِ إِلى أَبٍ، وَعَلِمَ المُوقِنُونَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَوْ شاءَ لَكانَتْ سُنَّةً فِيمَنْ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكانَ سائِرُ الحَيَوانِ لا يَتَوَقَّفُ عَلَى أَبَوَيْنِ، أَوْ كانَ يَكُونُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يَتَوَقَّفُ إِلَّا عَلَى أُمٍّ فَقَط، أَعْلَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ مَنْ عَدا المَذْكُورِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ سَبِيلُهُمْ سَبِيلُ الأَبَوَيْنِ؛ فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً**﴾.

ثُمَّ أَعْلَمَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكَيْفِيَّةِ النِّكاحِ المَجْعُولِ سَبَبًا في التَّناسُلِ، وَما يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَبَيَّنَ حُكْمَ الأَرْحامِ، والمَوارِيثِ»[١].

وَقالَ الأَلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجْهُ مُناسَبَتِها لِآلِ عِمْرانَ أُمُورٌ، مِنْها: أَنَّ آلَ عِمْرانَ خُتِمَتْ بِالأَمْرِ بِالتَّقْوَى، وافْتُتِحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِهِ، وَذَلِكَ مِنْ آكَدِ وُجُوهِ المُناسَباتِ في تَرْتِيبِ السُّوَرِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ البَدِيعِ، يُسَمَّى في الشِّعْرِ (تَشابُه الأَطْرافِ)، وَقَوْمٌ يُسَمُّونَهُ بِـ (التَّسْبِيغِ).

وَمَنْ أَمْعَنَ نَظَرَهُ؛ وَجَدَ كَثِيرًا مِمَّا ذُكِرَ في هَذِهِ السُّورَةِ مُفَصَّلًا لِما ذُكِرَ فِيما قَبْلَها، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ مَزِيدُ الِارْتِباطِ، وَغايَةُ الِاحْتِباكِ»[٢].

لِماذا سُمِّيَتْ سُورَةُ النِّساءِ بِهَذا الاسْمِ؟

سُمِّيَتْ سُورَةُ النِّساءِ بِهَذا الِاسْمِ؛ لِكَثْرَةِ ما وَرَدَ فِيها مِنْ أَحْكامٍ تَتَعَلَّقُ بِالنِّساءِ، لَمْ تُوجَدْ في غَيْرِها مِنَ السُّوَرِ الأُخْرَى، لِذَلِكَ أُطْلِقَ عَلَيْها -أَيْضًا-: (سُورَةُ النِّساءِ الكُبْرَى).

قالَ البِقاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَمَّا كانَ مَقْصُودُها: الِاجْتِماعَ عَلَى ما دَعَتْ إِلَيْهِ السُّورَتانِ قَبْلَها مِنَ التَّوْحِيدِ، وَكانَ السَّبَبُ الأَعْظَمُ في الاجْتِماعِ، والتَّواصُلِ -عادَةً-: الأَرْحامَ العاطِفَةَ، الَّتِي مَدارُها النِّساءُ؛ سُمِّيَتْ «النِّساءُ» لِذَلِكَ، وَلِأَنَّ بِالاتِّقاءِ فِيهِمْ تَتَحَقَّقُ العِفَّةُ، والعَدْلُ، الَّذِي لُبابُهُ التَّوْحِيدُ»[٣].

---

(١) البُرْهانُ في تَناسُبِ سُوَرِ القُرْآنِ (ص١٩٨-١٩٩).
(٢) تَفْسِيرُ الأَلُوسِيِّ (٢/ ٣٨٩-٣٩٠).
(٣) نَظْمُ الدُّرَرِ (٥/ ١٧٠-١٧١).

وَقالَ **ابْنُ عاشُورٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ في كَلامِ السَّلَفِ: سُورَةَ النِّساءِ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَتْ في المَصاحِفِ، وَفي كُتُبِ السُّنَّةِ، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ، وَلا يُعْرَفُ لَها اسْمٌ آخَر، لَكِنْ يُؤْخَذُ مِمَّا رُوِيَ في «صَحِيحِ البُخارِيِّ» عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ قَوْلِهِ: «نَزَلَتْ سُورَةُ النِّساءِ القُصْرَى» -يَعْنِي: سُورَةَ الطَّلاقِ- أَنَّها شارَكَتْ هَذِهِ السُّورَةَ في التَّسْمِيَةِ بِسُورَةِ النِّساءِ، وَأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَتَمَيَّزُ عَنْ سُورَةِ الطَّلاقِ بِاسْمِ سُورَةِ النِّساءِ الطُّولَى، وَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ صَرِيحًا. وَوَقَعَ في كِتابِ «بَصائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ»[(١)] لِلْفَيْرُوزَآبادِيِّ، أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تُسَمَّى: سُورَةَ النِّساءِ الكُبْرَى، واسْمُ سُورَةِ الطَّلاقِ: سُورَةُ النِّساءِ الصُّغْرَى. وَلَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ[(٢)].

وَوَجْهُ تَسْمِيَتِها بِإِضافَةٍ إِلى النِّساءِ: أَنَّها افْتُتِحَتْ بِأَحْكامِ صِلَةِ الرَّحِمِ، ثُمَّ بِأَحْكامٍ تَخُصُّ النِّساءَ، وَأَنَّ فِيها أَحْكامًا كَثِيرَةً مِنْ أَحْكامِ النِّساءِ: الأَزْواجُ، والبَناتُ، وَخُتِمَتْ بِأَحْكامٍ تَخُصُّ النِّساءَ»[(٣)].

مَعْنَى كَلِمَةِ النِّساءِ:

لا يَخْتَلِفُ عاقِلانِ في أَنَّ النِّساءَ هُمُ الإِناثُ، الَّذِينَ هُمْ شَقائِقُ الرِّجالِ، وَ«النِّساءُ» اسْمُ جَمْعٍ، لا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ.

قالَ **الجَوْهَرِيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النِّسْوَةُ والنُّسْوَةُ، بِالكَسْرِ، والضَّمِّ، والنِّساءُ، والنِّسْوانُ: جَمْعُ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ لَفْظِها. وَتَصْغِيرُ نِسْوَةٍ: نُسَيَّةٌ، وَيُقالُ نُسَيَّاتٌ، وَهُوَ تَصْغِيرُ الجَمْعِ»[(٤)].

وَقالَ **ابْنُ سِيدَه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النِّسْوَةُ، والنُّسْوَةُ، والنُّسْوانُ، والنِّسْوانُ: جَمْعُ المَرْأَةِ عَلَى غَيْرِ لَفْظِهِ، والنِّسُونَ، والنِّساءُ: جَمْعُ نِسْوَةٍ؛ وَلِذَلِكَ قالَ سِيبَوَيْه في الإِضافَةِ إِلى نِساءٍ: نِسْوِيٌّ، فَرَدَّهُ إِلى واحِدِهِ»[(٥)].

وَقَدْ مَرَقَتْ طائِفَةٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَهْلِ الضَّلالَةِ، مِنَ الدِّينِ، والعَقْلِ، والعُرْفِ، واللُّغَةِ،

---

(١) بَصائِرُ ذَوِي التَّمْيِيزِ (١/ ١٦٩).

(٢) الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ تَسْمِيَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لِسُورَةِ الطَّلاقِ: «سُورَةِ النِّساءِ القُصْرَى» فَسَمَّى سُورَةَ الطَّلاقِ: سُورَةَ النِّساءِ الصُّغْرَى، وَسَمَّى سُورَةَ النِّساءِ: سُورَةَ النِّساءِ الكُبْرَى.

(٣) التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ (٤/ ٢١١).

(٤) الصِّحاحُ (٦/ ٢٥٠٨).

(٥) المُحْكَمُ (٨/ ٦١٥). وانْظُرْ: المُخَصَّصَ (١/ ٣٣٥)، تاجَ العَرُوسِ (٤٠/ ٦٩).

فَزَعَمُوا أَنَّ كَلِمَةَ «النِّساءِ» الوارِدَةَ في القُرْآنِ لا تَعْنِي الإناثَ، وَإِنَّما تُفَسَّرُ بِالتَّأْخِيرِ -مِنْ نَسَأَ الشَّيْءَ إِذا أَخَّرَهُ- أَوِ الزِّيادَةِ، كَما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: ٣٧]، وَكَما يُقالُ: نَسَأَ اللهُ في أَجَلِكَ، أَيْ: زادَهُ، وَنَسَأَ اللَّبَنَ: إِذا خَلَطَهُ بِالماءِ، يُكَثِّرُهُ بِهِ.

وَلا شَكَّ أَنَّ هَذا مِنْ تَحْرِيفِ الكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَشاقَّةٌ للهِ وَرَسُولِهِ، واتِّباعٌ لِغَيْرِ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ.

وَهَذا شَأْنُ هَؤُلاءِ: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ، وَيَسْعَوْنَ في تَحْرِيفِهِ؛ حَتَّى قالَ بَعْضُهُمْ في آخِرِ ما كَتَبَ في هَذا الشَّأْنِ: «وَخِتامًا: نَرَى أَنَّهُ دُونَ هَذا الفَهْمِ: «النِّساءُ لَيْسُوا إِناثًا»، يَبْقَى السُّؤالُ مَطْرُوحًا: هَلْ يَدْعُو القُرْآنُ لِلارْتِباطِ المِثْلِيِّ، وَبِالتَّالِي لِلْعَلاقاتِ الجِنْسِيَّةِ المِثْلِيَّةِ، كالسِّحاقِ؟»!!

وَبِسَبَبِ هَذا الانْحِرافِ جاءُوا بِالطَّوامِّ؛ فَفَسَّرُوا المُشْرِكِينَ بِكُفَّارِ مَكَّةَ فَقَط، وَفَسَّرُوا المُؤْمِنَ بِأَنَّهُ كُلُّ مَنْ تَعايَشَ مَعَ النَّاسِ في سَلامٍ، وَأَنَّ اتِّباعَ السَّلَفِ بِدُونِ إِعْمالِ العَقْلِ، مِنِ اتِّباعِ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا، إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضَلالاتِهِمْ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَنا عَلَى دِينِهِ.

عَدَدُ آيِ وَكَلِماتِ وَأَحْرُفِ السُّورَةِ:

قالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُورَةُ النِّساءِ مَدَنِيَّةٌ، وَلا نَظِيرَ لَها في عَدَدِها، وَكَلِمُها: ثَلاثَةُ آلافٍ وَتِسْعُ مِائَةٍ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَحُرُوفُها: سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ حَرْفٍ وَثَلاثُونَ حَرْفًا، وَهِيَ مِئَةٌ وَسَبْعُونَ وَخَمْسُ آياتٍ في المَدَنِيِّينَ، والمَكِّيِّ، والبَصْرِيِّ، وَسِتٌّ في الكُوفِيِّ، وَسَبْعٌ في الشَّامِيِّ.

اخْتِلافُها آيَتانِ: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾: عَدَّها الكُوفِيُّ، والشَّامِيُّ، وَلَمْ يَعُدَّها الباقُونَ. ﴿فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: عَدَّها الشَّامِيُّ، وَلَمْ يَعُدَّها الباقُونَ».

وَقالَ العَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُورَةُ النِّساءِ: مِائَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، وَثَلاثُ آلافٍ وَسَبْعُمائَةٍ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَسِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا وَثَلاثُونَ حَرْفًا»[1].

وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ في عَدَدِ كَلِماتِها، وَعَدَدِ أَحْرُفِها.

---

(١) عُمْدَةُ القارِي (٦/ ٢٤).

لِماذا يَخْتَلِفُونَ في عَدِّ كَلِماتِ السُّوَرِ، وَأَحْرُفِها؟

يَخْتَلِفُونَ في ذَلِكَ؛ لِعِدَّةِ أَسْبابٍ، **مِنْ أَهَمِّها**: اخْتِلافُهُمْ في طَرِيقَةِ العَدِّ:

فَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُ الحَرْفَ المُشَدَّدَ حَرْفَيْنِ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ حَرْفًا واحِدًا.

وَبَعْضُهُمْ لا يَعُدُّ الحُرُوفَ الَّتِي لا تُنْطَقُ: كاللَّامِ الشَّمْسِيَّةِ، وَأَلِفِ واوِ الجَماعَةِ، وَنَحْوِهِما، وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّها.

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ المَدَّ حَرْفَيْنِ، وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّهُ حَرْفًا واحِدًا.

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ التَّنْوِينَ حَرْفًا، وَبَعْضُهُمْ لا يَعُدُّهُ.

هَلْ لِلانْشِغالِ بِعَدِّ الآيِ، والأَحْرُفِ فائِدَةٌ؟

قالَ السَّخاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أَعْلَمُ لِعَدَدِ الكَلِماتِ، والحُرُوفِ، مِنْ فائِدَةٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ -إِنْ أَفادَ- فَإِنَّما يُفِيدُ في كِتابٍ، يُمْكِنُ فِيهِ الزِّيادَةُ، والنُّقْصانُ، والقُرْآنُ لا يُمْكِنُ فِيهِ ذَلِكَ»[1].

أَمَّا الكَلامُ عَنِ «الإِعْجازِ العَدَدِيِّ في القُرْآنِ»: فَبِدْعَةٌ مُحْدَثَةٌ، تَبِعَتْها أُمُورٌ وَأَحْوالٌ مُنْكَرَةٌ.

هَلْ يُكْرَهُ أَنْ يُقالَ: سُورَةُ النِّساءِ؟

كَرَّهَ ذَلِكَ قَوْمٌ، وَقالُوا: لا يُقالُ: سُورَةُ النِّساءِ، إِنَّما يُقالُ: السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها النِّساءُ، وَهَكَذا في البَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرانَ، والعَنْكَبُوتِ، وَغَيْرِها، وَلَكِنِ انْعَقَدَ الإِجْماعُ عَلَى جَوازِ ذَلِكَ، وَقَدْ جاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ.

عَنِ الأَعْمَشِ، قالَ: سَمِعْتُ الحَجَّاجَ، يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ: السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها البَقَرَةُ، والسُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها آلُ عِمْرانَ، والسُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها النِّساءُ، قالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِإِبْراهِيمَ، فَقالَ: حَدَّثَنِي عبدُالرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ أَنَّهُ كانَ مَعَ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ، فاسْتَبْطَنَ الوادِيَ؛ حَتَّى إِذا حاذَى بِالشَّجَرَةِ؛ اعْتَرَضَها، فَرَمَى بِسَبْعِ حَصَياتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصاةٍ، ثُمَّ قالَ: «مِنْ ها هُنا -والَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ- قامَ الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ البَقَرَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

---

(١) الإِتْقانُ في عُلُومِ القُرْآنِ (١/ ٢٤٢).

(٢) رَواهُ البُخارِيُّ (١٧٥٠)، وَمُسْلِمٌ (١٢٩٦).

وَقالَ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في صَحِيحِهِ (٦/ ١٩٤): «بابُ مَنْ لَمْ يَرَ بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ كَذا، وَكَذا».

ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الآيَتانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهِما في لَيْلَةٍ كَفَتاهُ**»[١].

قالَ الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَشارَ بِذَلِكَ إِلى الرَّدِّ عَلَى مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ، وَقالَ: لا يُقالُ إِلَّا السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها كَذا»[٢].

قالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: سُورَةَ البَقَرَةِ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرانَ، وَسُورَةَ النِّساءِ، وَسُورَةَ العَنْكَبُوتِ، وَكَذَلِكَ الباقِي، وَلا كَراهَةَ في ذَلِكَ، وَقالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يُكْرَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّما يُقالُ: السُّورَةُ الَّتِي تُذْكَرُ فِيها البَقَرَةُ، والَّتِي يُذْكَرُ فِيها النِّساءُ، وَكَذَلِكَ الباقِي، والصَّوابُ الأَوَّلُ، وَهُوَ قَوْلُ جَماهِيرِ عُلَماءِ المُسْلِمِينَ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ، وَخَلَفِها، والأَحادِيثُ فِيهِ عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَكَذَلِكَ عَنِ الصَّحابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، وَكَذَلِكَ لا يُكْرَهُ أَنْ يُقالَ: هَذِهِ قِراءَةُ أَبِي عَمْرٍو، وَقِراءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَغَيْرِهما، هَذا هُوَ المَذْهَبُ الصَّحِيحُ المُخْتارُ، الَّذِي عَلَيْهِ عَمَلُ السَّلَفِ، والخَلَفِ، مِنْ غَيْرِ إِنْكارٍ»[٣].

قالَ الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ جاءَ -فِيما يُوافِقُ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ البَعْضُ المُشارُ إِلَيْهِ- حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ: «**لا تَقُولُوا: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَلا سُورَةُ آلِ عِمْرانَ، وَلا سُورَةُ النِّساءِ، وَكَذَلِكَ القُرْآنُ كُلُّهُ**» أَخْرَجَهُ أَبوالحُسَيْنِ بْنُ قانِعٍ في فَوائِدِهِ، والطَّبَرانِيُّ في الأَوْسَطِ، وَفي سَنَدِهِ عُبَيْسُ بْنُ مَيْمُون العَطَّارُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَأَوْرَدَهُ ابْنُ الجَوْزِيِّ في المَوْضُوعاتِ، وَنَقَلَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قالَ: هُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ.

قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ في بابِ تَأْلِيفِ القُرْآنِ حَدِيثُ يَزِيدَ الفارِسِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَقُولُ: «**ضَعُوها في السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها كَذا**»[٤]، قالَ ابْنُ كَثِيرٍ في

(١) رَواهُ البُخارِيُّ (٥٠٤٠)، وَمُسْلِمٌ (٨٠٧).

(٢) فَتْحُ البارِيِّ (٩/ ٨٧).

(٣) الأَذْكارُ (ص١٠٩).

(٤) رَواهُ أَبُو داوُدَ (٧٨٦)، والتِّرْمِذِيُّ (٣٠٨٦)، وَأَحْمَدُ (٣٩٩)، وَضَعَّفَهُ الالبانِيُّ في ضَعِيفِ التِّرْمِذِيِّ، وَكَذا ضَعَّفَهُ مُحَقِّقُو المُسْنَدِ.

تَفْسِيرِهِ: «وَلا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ أَحْوَطُ[1]، وَلَكِنِ اسْتَقَرَّ الإِجْماعُ عَلَى الجَوازِ في المَصاحِفِ، والتَّفاسِيرِ».

قُلْتُ: وَقَدْ تَمَسَّكَ بِالاِحْتِياطِ المَذْكُورِ جَماعَةٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حاتِمٍ، وَمِنَ المُتَقَدِّمِينَ: الكَلْبِيُّ، وَعبدُالرَّزَّاقِ، وَنَقَلَهُ القُرْطُبِيُّ في تَفْسِيرِهِ، عَنِ الحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ: أَنَّ مِنْ حُرْمَةِ القُرْآنِ: أَنْ لا يُقالَ سُورَةُ كَذا، كَقَوْلِكَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ النَّحْلِ، وَسُورَةُ النِّساءِ، وَإِنَّما يُقالُ السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها كَذا، وَتَعَقَّبَهُ القُرْطُبِيُّ بِأَنَّ حَدِيثَ أَبِي مَسْعُودٍ يُعارِضُهُ»[2].

وَقالَ الحافِظُ -أَيْضًا-: «في كِتابِ فَضائِلِ القُرْآنِ لِخَلَفٍ، عَنْ حَزْمِ بْنِ أَبِي حَزْمٍ، قالَ: سَمِعْتُ الحَسَنَ يَقُولُ: ذُكِرَ لَنا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «**تَدْرُونَ أَيَّ القُرْآنِ أَعْظَمُ؟**» قالُوا: اللهُ وَرسولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: «**السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها البَقَرَةُ**»»[3].

قالَ الشَّيْخُ الالبانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذا مُرْسَلٌ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ مَراسِيلَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ كالرِّياحِ، عَلَى أَنَّ الرَّاوِي عَنْهُ: حَزْمُ بْنُ أَبِي حَزْمٍ يَهِمُ، وَإِنْ كانَ صَدُوقًا -كَما في التَّقْرِيبِ-»[4].

وَأَصَحُّ ما وَرَدَ في النَّهْيِ: ما رَواهُ البَيْهَقِيُّ في الشُّعَبِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «لا تَقُولُوا: سُورَةَ البَقَرَةِ، وَلَكِنْ قُولُوا: السُّورَةَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها البَقَرَةُ»[5].

وَلا نَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تابَعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى هَذا، والأَحادِيثُ الصَّحِيحَةُ المَرْفُوعَةُ، والمَوْقُوفَةُ، عَلَى خِلافِهِ.

وَتَقَدَّمَ في كَلامِ ابْنِ كَثِيرٍ أَنَّ الإِجْماعَ قَدِ اسْتَقَرَّ عَلَى القَوْلِ بِالجَوازِ.

وَقَدْ قِيلَ: كانَ ذَلِكَ مَكْرُوهًا، ثُمَّ نُسِخَ:

---

(١) قالَ الشَّيْخُ الألبانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في الضَّعِيفَةِ (١٤/ ٢٦٠): «لا أَرَى وَجْهًا لِمِثْلِ هَذا الاِحْتِياطِ -مَهْما كانَ شَأْنُ القائِلِينَ بِهِ- بَعْدَ تَتابُعِ الأَحادِيثِ، والآثارِ، عَلَى الجَوازِ».

(٢) فَتْحُ البارِيِّ (٩/ ٨٨).

(٣) نَتائِجُ الأَفْكارِ (٣/ ٢٣٢).

(٤) الضَّعِيفَةُ (١٤/ ٢٥٩)، بِبَعْضِ تَصَرُّفٍ.

(٥) شُعَبُ الإِيمانِ (٢٣٤٧)، وَصَحَّحَهُ السُّيُوطِيُّ في مُعْتَرَكِ الأَقْرانِ (٢/ ٢٧٦)، والشَّوْكانِيُّ في فَتْحِ القَدِيرِ (١/ ٣٤).

قالَ السُّــيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قالَ: كانَ المُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: سُــورَةُ البَقَرَةِ، وَسُــورَةُ العَنْكَبُوتِ، يَسْــتَهْزِئُونَ بِهـا، فَنَـزَلَ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]»[١].

قالَ ابْنُ عاشُــورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأَوَّلُوا قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَنَّ ذَلِكَ كانَ فِي مَكَّةَ، حِينَ كانَ المُسـلِمُونَ إِذا قالُوا: سُورَةَ الفِيلِ، وَسُورَةَ العَنْكَبُوتِ مَثَلًا، هَزَأَ بِهِمُ المُشْرِكُونَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذا سَبَبُ نُزُولِ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾، فَلَمَّا هاجَرَ المُسْلِمُونَ إِلَى المَدِينَةِ؛ زالَ سَبَبُ النَّهْيِ فَنُسِخَ، وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ»[٢].

وَخُلاصَةُ ما وَرَدَ مِنْ أَقْوالٍ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ:

قِيلَ: يُكْرَهُ أَنْ يُقالَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ آلِ عِمْرانَ، وَسُورَةُ النِّساءِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَإِنَّما يُقالُ: السُّورَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيها البَقَرَةُ... إِلَخ.

وَقِيلَ: كانَ مَكْرُوهًا، ثُمَّ نُسِخَ.

وَقِيلَ: يَجُوزُ بِلا كَراهَةٍ، والأَوْلَى تَرْكُهُ.

وَقِيلَ: يَجُوزُ مُطْلَقًا، وَهُوَ الصَّوابُ.

واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

---

(١) مُعْتَرَكُ الأَقْرانِ (٢/ ٢٧٦).

(٢) التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ (١/ ٩٠).

التَّفسيرُ:

بَدأَتْ هَذهِ السُّورةُ بِما خُتِمتْ به سُورةُ آلِ عِمرانَ الَّتِي قَبْلها، مِنَ الأَمْرِ بالتَّقْوى، وافتتحَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سُورةَ النِّساءِ بِخطابِ النَّاسِ جَمِيعًا، ودَعْوتِهم إلى تَقْواهُ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ①﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: خافُوا عِقابَه، بامتثالِ أَوامِره، واجْتِنابِ نَواهِيه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي: خَلقَكُمْ مَعَ اخْتِلافِ أَجْناسِكُمْ، وَأَصْنافِكُمْ، وَألسِنَتِكُمْ، وَألوانِكُمْ ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ وهُو آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ وهِي حَوَّاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ.

قِيلَ: سُمِّيت بِهذا الاسْمِ؛ لأَنَّها خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ(٢)، وهو ضِلَعُ آدمَ(٣)، وقِيلَ: لأَنَّها أُمُّ

---

(١) قال ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ فيها قولان:

الأولُ: أنّ المرادَ بالنفسِ الواحدةِ: العينُ الواحدةُ: أي: مِن شخصٍ مُعَيّنٍ، وهوَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقولُه: «وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها»، أي: حَوَّاءُ؛ لأنّ حَوَّاء خُلقت مِن ضِلَعِ آدَم.

الثَّاني: أنّ المرادَ بالنّفسِ: الجِنس، وجَعلَ مِن هذا الجِنسِ زَوجَه، ولمْ يَجعلْ زوجَه مِن جِنسٍ آخَر، والنّفسُ قد يُرادُ بها الجنسُ: كما في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: أي: مِن جِنسِهِم». القولُ المفيد (٢/ ٢٩٩).

(٢) تفسير الطّبري (١/ ٥١٣).

(٣) وهذا قولُ جُمهورِ المُفسرينَ: أنّها خُلقتْ مِن ضِلع آدمَ، وخالفَ في ذلكَ بَعضُ المُتأخّرين، كالشّيخِ الألبانيِّ وغيرِه، وحَملُوا قولَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ» مُتفقٌ عليهِ، علَى التّمثيلِ والتّشبيهِ، كَما هُو مُصَرّحٌ به في الروايةِ الثانيةِ: «المَرأةُ كالضّلَع» متفقٌ عليه.

وذَهبَ عُلماءُ اللّجنةِ الدَّائمةِ إلى الجمعِ بَينَ الحَديثَيْن، فَقالوا: «ظاهرُ الحَديثِ: أنّ المرأةَ -والمُرادُ بها حَوَّاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ- خُلقتْ مِن ضِلَعِ آدمَ، وهَذا لا يُخالِفُ الحديثَ الآخرَ الذي فِيه تَشبيهُ المرأةِ بالضّلعِ، بلْ يُستفادُ مِن هذا نُكتةُ التّشبيهِ، وأنّها عَوجاءُ مِثلُه، لِكونِ أصلِها مِنه. والمَعنَى: أنّ المرأةَ خُلِقت مِن ضِلعٍ أعْوجَ، فَلا يُنكَر اعوِجاجُها، فإنْ أرادَ الزوجُ إقامَتَها على الجادّة، وعدمَ اعوجاجِها أدّى ذلِك إلى الشّقاقِ والفراقِ، وهُو كَسرُها، وإنْ صَبرَ عَلى سُوءِ حالِها، وضَعفِ عقلِها، ونحوِ ذلكَ مِن عِوَجِها: دامَ الأمرُ، واستمرّتْ العِشرةُ، كَما أوْضَحَ ذلكَ شُرَّاحُ الحَديثِ، ومِنهُم الحافظُ ابنُ حجرٍ في الفتْح (٦/ ٣٦٨) رحمَ اللهُ الجميعَ. وبِهذا يَتبيّنُ أنّ إنكارَ خلْقِ حواءَ مِن ضِلَعِ آدمَ غيرُ صحيحٍ «فتاوَى الّلجنة الدائمة (١٧/ ١٠). =

كُلِّ حَـيٍّ[(١)]. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ خَلقَ مِنْ آدمَ وحوَّاءَ ذُكورًا كَثيرينَ، وإناثًا كثيراتٍ، ونَشَرَهُـمْ في أَقْطارِ العـالَمِ عَلى اخْتِلافِ ألوانِهم وألسنتِهم وصِفاتِهِـمْ. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كَرَّر الأَمرَ بالتَّقْـوى؛ تأْكِيدًا عَلى أَهمِّيتِها، ولأنَّ الأمرَ الأوَّلَ كانَ عامًّا، والثَّاني يرتبطُ به تكليفٌ مَخصوصٌ، وهُـو صِلةُ الرَّحـم. ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تَتَحالَفـونَ، وتَتَناشَـدُونَ به، وتَتَعاقـدونَ، وتَتَعاهَدونَ باسْـمِه. ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ أي: اتَّقُـوا قَطيعتَهـا، وخافُـوا عُقوبَة ذَلكَ، وقَـدْ جَرَتْ عـادةُ العَربِ بِأَنَّ أَحدهُـمْ إذا أَرادَ أنْ يَسْـتعطِفَ غَيرَه، يَقولُ: أَسْـأَلُك بِاللهِ والرَّحِم. أي: صِلـةَ القَرابةِ الَّتِي بَينِي وبَيْنَك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَهيدٌ مُطَّلعٌ عَلى جَميعِ أَعْمالِكم، وأَحْوالِكم؛ فَراقِبُوه؛ فَهُو جَدِيرٌ بالتَّقْوى، والمَخافةِ، كما قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ...»[(٢)].

فَوائِدُ الآيةِ:

فيهـا: اسْـتِحقاقُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَتقيَه عِبـادُه؛ لأنَّهُ ربُّهُم، وهُوَ خَلَقَهُـم، ولأَنَّ عِقابَه أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

وفِيها: ذِكرُ قُدْرتِه عَزَّوَجَلَّ في خَلْقِ النَّاسِ جَميعًا مِنْ نَفسٍ واحِدةٍ.

وفِيها: أَنَّ الزَّوجةَ لَيسـتْ خَصمًا لِزَوْجِها، ولا عَدُوَّةً لَه، ولكِنّها مُحِبَّةٌ وَدُودةٌ، فَيَنْبغِي أَنْ يَكونَ بَيْنَهما تَآلفٌ، ورَحْمةٌ.

وفِيها: أَنَّ إِثارةَ العَداواتِ بَيْنَ جِنسِ الرِّجالِ وجِنسِ النِّساءِ مُضادٌّ لِحكمةِ اللهِ في خَلْقِه.

وفِيهـا: أَنَّ خَلْـقَ أُمِّنا حَوَّاءَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ بِتوليدٍ، وقَدْ خُلِقتْ حَوَّاءُ في السَّـماءِ، وكانتْ مَـع آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجنَّةِ، والبَشرُ عَـلَى أَرْبعةِ أَنْواعٍ في الإِيجادِ: فَمِنْهُم مَنْ أَوْجدَهُ اللهُ بِلا ذَكرٍ، ولا أُنْثَى، وهُو آدمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومِنْهُم مَنْ أَوْجَده مِنْ ذَكرٍ بِلا أُنْثى، وهِي حَوَّاءُ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، ومِنْهُم مَـنْ أَوْجَده مِنْ أُنْثَى بِلا ذَكرٍ، وهُو عِيسَـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومِنْهُم مَـنْ أَوْجَده مِنْ ذَكرٍ وأُنْثَى، وهُمْ سائِرُ الخَلائقِ.

= وقـدْ ذَكـرَ الألـوسِيّ في تَفسـيرِه (٢/ ٣٩٣): «أنّ حواءَ لَوْ لَمْ تُخلَـقْ مِن آدمَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ لكانَ النَّـاسُ مَخلُوقِينَ مِن نَفْسَيْنِ اثْنيْن، لا مِن نفْسٍ واحدةٍ، وهُو خلافُ النّصِّ».

(١) تاريخُ دمشق (٦٩/ ١٠٢).

(٢) رواه أحمد (٦١٥٦)، والنسائي في الكبرى (١١٨٠٣)، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند.

وفِيهـا: أنَّ اللَّائِقَ بِحالِ الرِّجالِ: الظُّهورُ، والاشْـتِهارُ، واللَّائِقَ بِحالِ النِّسـاءِ: السِّـتْرُ، والاخْتفاءُ.

وفِيها: أَنَّ حَـوَّاءَ خُلِقـتْ مِنْ آدمَ، قـال العلماءُ: خُلِقتْ مِـنْ ضِلَع قَصيرٍ مِـنَ الأَضْلاعِ اليُسْرَى لِصدرِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَعْلومٌ أَنَّ عَظمَ الضِّلَعِ فِيهِ رِقَّةٌ، ونُعومةٌ، وفِيهِ مُرونةٌ، ويَتَثَنَّى، ولكنْ إذا زادَ الانْثناءُ؛ فَإِنَّهُ يَنْكسرُ، وكَسْرهُ سَـهلٌ، وهُوَ مُسـتقيمٌ، إلا أنَّ أَعْلاهُ مُعْوجٌّ، وكُلُّ هَذا واضِحٌ في طبيعةِ المَرأةِ.

وفي كَونِ مَوقعِ الضِّلَعِ المذكورِ في آخرِ الأَضْلاعِ مِن عِظامِ الصَّدرِ: إِشـارةٌ إِلى أَنَّ المَرأةَ لا تُصدَّرُ؛ بِحيثُ تَكونُ أَمامَ النَّاسِ، بَلْ تَكُونُ تابعةً مَحْمِيَّةً، والرَّجلُ قائِدٌ مَتبوعٌ.

وفي الآيـةِ: جَوازُ السُّـؤالِ باللهِ في غَيرِ الأُمورِ المُحرَّمةِ، وجـوازُ تَوثيقِ العُقودِ، والعُهودِ بِذكْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَأَنْ يُقالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدا، وكَفَى بِاللهِ وكيلًا.

وفي الآيةِ: أَنَّ التَّقْوى تَكُونُ بِمُراعاةِ حُقوقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومُراعاةِ حُقوقِ عِبادِه.

وفِيها: أنَّ البَشرَ جَمِيعًا مِنْ أَصْلٍ واحدٍ؛ فَلا يَصِحُّ أَنْ يَظْلمَ بَعْضُهم بَعْضًا.

وفي الإِخبـارِ بِـأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلقَهُم مِنْ نَفْسٍ واحِدةٍ، وأَنَّـهُ بَثَّهُمْ في أَقْطارِ الأَرْضِ، مَعْ رُجوعِهم إلى أَصْلٍ واحِدٍ: دَعْوتُهم لِيعطفَ بَعضُهُم عَلَى بَعْضٍ، ويَتعاونَ بَعْضُهُمْ مَع بَعْضٍ، ويَتَّفِقُوا، ولا يَخْتلِفُوا، ولا يَكُونُ ذَلكَ إِلا بِتوحيدِه، والإِيمانِ بِهِ.

وفِيها: الأمرُ بِصلةِ الرَّحمِ، والتَّحذيرُ مِنَ القَطيعةِ.

وفِيهـا: إِثباتُ اسْـمِ اللهِ «الرَّقيـب»، ومَعْناه: الحافِظُ الَّـذِي لا يَغِيبُ عَنْـهُ شَيْءٌ مِنْ أُمورِ خَلْقِهِ.

وقَدِ اسْتنبطَ بَعْضُ العِلماءِ مِنَ الآيةِ: أنَّ الخُنْثَى لا بُدَّ أَنْ يَكونَ رَجُلًا، أَوِ امْرأةً، وقَدْ يُبيِّنُ هَذا بَعْضُ الإِجْراءاتِ العِلاجِيَّةِ، والعَملياتِ الجِراحِيَّةِ، الَّتِي تُظْهِرُ حَقِيقتَه، وتَسْتخرِجُها.

وفي الآيةِ: تَكْريرُ الأَمْرِ؛ لِتنبيهِ المَأْمُورينَ، والتَّأكيدِ عَليهِ في نُفوسِهِمْ.

وفِيهـا: أَنَّ اقترانَ التَّقْوى بِالرَّبِّ في الأَمْرِ الأَوَّلِ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ يُناسِـبُه قَضِيةٌ مِنْ قضايا

الرُّبوبيَّـةِ، وهِـيَ: «الخَلْقُ، والإِيجادُ»، وارتبـاطُ الأُلُوهِيَّةِ بالتَّقْـوى في الأَمْرِ الثَّانِي: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يُناسِبُه قَضِيةٌ مِنْ القَضايا التَّعبُّديَّةِ، والأَوامِرِ الشَّرعِيَّةِ، وهِيَ: «صِلةُ الرَّحمِ».

وفِيها: أَنَّهُ يَنْبغِي صِيانَةُ الأَرْحامِ مِنْ أَدْنَى سُوءٍ، فَلا تُخْدشُ، ولا تُمسُّ بِأَذًى.

وفِيها: أنَّ التَّفرُّعَ في الجِنسِ البَشرِيِّ يَحْتاجُ إلى صِيانتِه بِصلةِ الرَّحمِ.

وفِيها: تَخْويفٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُشِـيرُ إِليهِ قَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾؛ فَإِنَّهُ يَتضمَّنُ تَهْدِيدًا وَوَعِيدًا لِمَنْ خالفَه، وعَصَى أَمْرَهُ.

ولَمَّا ذَكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِيجادَ الأحياءِ، وكانَ لا بُدَّ لَهُمْ مِنَ المَوْتِ، وكثيرًا ما يُخلِّفُ المَوتُ أيتامًـا، ولَمَّـا ذَكَرَ الأَقاربَ، وصِلةَ الرَّحـمِ، وكثيرًا ما يَكونُ الأيتامُ بَـينَ أَقارِبِهم، ولَمَّا كانَ الأَيتـامُ مِـنْ أَعْظـمِ ما يُراعَـى بَعْدَ الأَرْحـامِ: أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحفـظِ حُقوقِ اليَتامَـى بَعْدَ حِفظِ الأَرحامِ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾.

﴿وَءَاتُواْ﴾ أَعْطُـوا ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ جَمعُ يَتيـمٍ، وهُو مِنَ النَّاسِ مَنْ ماتَ أَبُـوهُ قَبلَ البُلوغِ، ومِنَ الدَّوابِّ مَنْ فَقدَ أُمَّهُ صَغِيرًا ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ وَحُقوقَهم الَّتِي بَينَ أَيْدِيكم مِمَّا اؤْتُمِنْتُم عَليهِ، والخِطابُ للأَولياءِ والأَوْصياءِ، وهذا الإيتاءُ لهُ شُروطٌ، سَتَأْتي بإذنِ اللهِ جَلَّ وَعَلا.

فائِدةٌ:

قالَ ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأَصلُ حَمْلُ اللَّفظِ عَلَى ظاهرِه، ولا يُمْكنُ أَنْ نَقولَ: بِاعتبارِ ما كانَ، أَوْ باعتبـارِ ما يَكُونُ، إِلَّا بِدليلٍ، قـالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [النساء: ٢] ولا يُمْكنُ أَنْ نُؤتِيَه مالَهُ إِلَّا إِذا بَلَغَ، وسَمَّاهُمُ اللهُ أَيْتامًا بِاعتبارِ ما كانَ.

وفي سُـورةِ يُوسـفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قـالَ أَحَـدُ صاحِبـي السِّـجنِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٣٦]، وهُوَ يَعْصِرُ عنبًا، لكِنَّهُ خَمْرٌ بِاعتبارِ ما يَكُونُ»[1].

---

(١) الشرح الممتع لابن عثيمين (١١/ ٣١١).

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا تَسْتبدِلُوا الحَرامَ المُغْتصبَ مِنْ أَمْوالِ اليَتامى، وتَأْخُذوهُ بِالحلالِ المُكْتسبِ مِنْ أَمْوالِكم، وَتَتْرُكُوه، فَلا تَأْخُذوا هَذِه، وتَتْرُكوا تِلكَ.

ولا تَأْخُذوا مِنْ أَموالِ الأَيتامِ ما كانَ نَفِيسًا سمِينًا، وتَجْعَلُوا مَكانَه رَدِيئًا هَزِيلًا مِنْ أَمْوالِكُمْ.

ولا تُبذِّروا أَمْوالَكُمْ، ثُمَّ تَأكُلوا أَمْوالَ الأَيتامِ.

ولا تَتْرُكوا كَسْبَ المالِ الطَّيِّبِ مُتكاسِلينَ، وتَأْخُذوا مِنْ أموالِ اليَتامَى مُتْلِفينَ لَها، ومُبذِّرِينَ.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓا۟ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ أي: لا تَنْهبُوها، ولا تَسْتَولُوا عَلَيْها، وتَضُمُّوها إلى أَمْوالِكم، ولا تَخْلِطُوها بِأَمْوالِكُمْ خَلْطًا؛ بِحيثُ تَضِيعُ، وتَتَفرَّقُ، فلا يُمْكنُ إِعادَتُها إِليهِمْ كاملةً، وقَدْ نَهى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَكْلِها وهُوَ الأَشدُّ، ويَدْخُل في ذَلكَ ما هُوَ أَدْنى مِنْهُ مِنَ التَّضْييعِ، وقِلةِ المُبالاةِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: إِثْمًا عَظِيمًا.

قالَ ابنُ مَنظورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحَوْبُ والحُوبُ والحابُ: الإِثْمُ، فالحَوْبُ -بِالفَتْحِ- لأَهْلِ الحِجازِ، والحُوبُ -بِالضَّمِّ- لتَميمٍ، والحَوْبةُ: المَرَّة الواحِدَةُ مِنْهُ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: الحُوبُ الإِثْمُ، والحَوْبُ فِعْلُ الرَّجُلِ؛ تقولُ: حابَ حَوْبًا، كَقَوْلِكَ: قَدْ خانَ خَونًا»[١].

وقالَ الرَّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقالَ البَصْرِيُّونَ: الحَوْبُ -بِفَتْحِ الحاءِ- مَصْدَرٌ، والحُوبُ -بِالضَّمِّ- الِاسْمُ، ثُمَّ يَدْخُلُ بَعْضُها فِي البَعْضِ، كالكَلامِ؛ فَإِنَّهُ اسْمٌ، ثُمَّ يُقالُ: قَدْ كَلَّمْتُهُ كَلامًا؛ فَيَصِيرُ مَصْدَرًا»[٢].

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: وُجوبُ رِعايةِ أَموالِ الضُّعفاءِ والصِّغارِ، وحِفظُ الشَّريعةِ لِمالِ الَّذي لا يَسْتطيعُ الدِّفاعَ عَنْ مالِه.

---

(١) لسان العرب (١/ ٣٤٠).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٤٨٤).

وفِيها: عَدمُ جَوازِ التَّعرُّضِ لأَمْوالِ الأَيتامِ بِسوءٍ.

وفِيها: صَونُ مالِ المُسلمِ عَنْ المَكاسِبِ المُحرَّمةِ.

وفِيها: النَّهيُ عَنْ أَخْذِ الأَجودِ مُقابلِ الأَسْوأِ، والأَردَإِ، والأَقلِ، وعَدمُ جَوازِ التَّسويةِ بَينَ الحَلالِ والحَرامِ، وأَنَّ ظُلمَ الضَّعيفِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ، وأَشدُّ إِثمًا.

وفِيها: أَنَّ الاحْتيالَ الباطِلَ لا يَنفعُ الإِنسانَ، وقَدْ كانَ بَعْضُ القائِمينَ عَلَى أَمْوالِ الأَيْتامِ يَأْخذُ الشَّاةَ السَّمِينةَ مِنْ غَنمِ اليَتِيمِ، ويَجْعلُ مَكانَها شاةً مَهْزُولةً، ويَقولُ: شاةٌ بِشاةٍ، ويَأْخُذُ الدِّرهمَ الجَيِّدَ مِنْهُ، وَيضَعُ مَكانَهُ المَغْشوشَ الزَّائِفَ، ويقولُ: دِرهٌم بِدرهمٍ.

وفِيها: وُجوبُ عَدِّ أَمْوالِ الأَيْتامِ، وإِحْصائِها قَبْلَ خَلْطِها بِأَمْوالِ الأَوْصياءِ والأَولياءِ، حَتَّى يَسْهُلَ إِعادَتُها إِليهِمْ.

ويَنْبغِي عَلَى وَلِيِّ اليَتيمِ أَنْ يَسْلُكَ ما فِيهِ الأَصْلَحُ لِليتيمِ، فَإِنْ كانَ الأَصْلحُ لَهُ إِدْخالَ مالِه في شَراكةٍ أَدْخَلَهُ، وإِنْ كانَ الأَصْلَحُ فَصْلَ مالِه مَعَ حِفْظِه، وتَنْمِيتِه فَعَلَ ذَلِكَ.

وفِيها: أَنَّهُ لا يَجُوزُ الانْتفاعُ بِمالِ اليَتيمِ بِغيرِ وَجْهِ حَقٍّ، ومِنَ الحَقِّ: أُجْرةُ تَنميةِ مالِه إِذا أَخَذَها بِالعدلِ، والمَعروفِ، وإِنْ لَمْ يَأْخُذْ مُقابلًا عَلَى حِفظِ المالِ وتَنميتِه فَهُو مُحْسِنٌ، وأَجْرهُ عَلَى اللهِ.

وفِيها: أَنَّ اسْتِزادةَ الغَنيِّ بِمالِ يتيمٍ يَغْتِصبُه مِنْهُ، هُوَ: مِنْ أَقْبحِ القَبائحِ.

وفِيها: ذَمُّ أَهْلِ الجاهِليَّةِ الَّذِينَ كانُوا لا يُورِّثونَ الصِّغارَ، ولا النِّساءَ.

وفِيها: أَنَّ إِيتاءَ اليَتِيمِ مالَهُ، يَشْملُ: حِفْظَه لَهُ، وإِصْلاحَهُ، والعِنايَةَ بِه، وعَدمَ تَعْريضِه للمَخاطِرِ، وحِمايَتَه، وليسَ مُجرَّدَ تَركِ التَّعرُّضِ لَه.

وفِيها: أَنَّ على الإِنسانِ أَنْ لا يَتعجّلَ الحرامَ؛ فَيأْخُذَه، ويَأْكُلَه، قَبلَ أَنْ يَأتِيَه الرِّزقُ الحَلالُ الَّذِي قَدّرَه اللهُ لَه.

ولـمَّا كانَ بعضُ الأولياءِ والأوصياءِ تَكُونُ عِنْدَهُ اليَتيمةُ صَغِيرةً، ثُمَّ تَكبرُ، وتَبْلغُ، وقَدْ تُعْجِبُه؛ فَيُريدُ الزَّواجَ مِنْها، ولكِنَّهُ لَنْ يُعْطِيَها مَهْرَ مَثِيلاتِها، أَوْ يَكُونُ لها مالٌ؛ فَيُريدُ نِكاحَها

لأَجْلِ مالِهـا، دُونَ رَغبةٍ فيها: أَرشَـدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هَذهِ الحالَةِ إِلى تَرْكِ الـزَّواجِ مِنْها؛ لِئلا يَقعَ عَليها ظُلْمٌ؛ فَقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يـا أولـيـاءَ يَتامَى النِّسـاءِ، اللَّاتِي تَحتَ وِلايتِكـم ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي: ألا تَعْدلُـوا ﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾ إذا نَكحْتُموهُـنَّ، وخِفْتُـم أَنْ لا تَقُومُـوا بِحقِّهـنَّ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ فاتْركُوهُنَّ، وتَزوَّجُوا بِغيرِهنَّ، مِمَّنْ اسْـتطبْتُموهُنَّ مِنَ النِّسـاءِ الأُخْرياتِ، وما وقعَ عَليهنَّ اخْتيارُكُمْ مِنهنَّ ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: اثنتينِ، أَوْ ثَلاثًا، أَوْ أَرْبعًا؛ وذَلكَ لأَنَّ الرَّجلَ قَدْ لا تَنْدفعُ شَهْوتُه بِالواحدةِ، فأُبِيحَ لَهُ واحِدةٌ بَعْدَ واحِدةٍ، حَتَّى يَبلغَ أربعًا؛ لأنَّ في الأربعِ غُنيةً غالبًا، ولا زِيادةَ عَلَى الأَربعِ، بِالنَّصِّ، والإجماعِ.

أَمَّا النَّصُّ: فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ غَيْلانَ بْنَ سَـلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْـلَمَ وَلَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ فِي الجاهِلِيَّةِ، فَأَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَخَيَّرَ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ»(١).

وأَمَّـا الإِجمـاعُ: فَقـالَ ابـنُ قدامـةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «(وَلَيْس لِلْحُـرِّ أَنْ يَجْمَـعَ بَـيْنَ أَكْثَرِ مِـنْ أَرْبَعِ زَوْجاتٍ) أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ عَلَى هَذا، وَلا نَعْلَمُ أَحَدًا خالَفَهُ مِنْهُمْ، إِلَّا شَيْئًا يُحْكَى عَنْ القاسِمِ ابـنِ إِبْراهِيمَ، أَنَّهُ أَباحَ تِسْـعًا؛ لِقَـوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ والواوُ لِلْجَمْعِ؛ وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتَ عَنْ تِسْعٍ. وَهَذا لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ خَرْقٌ لِلْإِجْماعِ، وَتَرْكٌ لِلسُّنَّةِ»(٢).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي: إنْ خَشـيتُم مِـنْ عَـدمِ العدلِ بَـينَ الزَّوجاتِ في القِسـمةِ، والنَّفقةِ. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ أي: اقْتَصِرُوا عَلَى زَوْجةٍ واحِدةٍ، ولا تَزِيدُوا عَلَيْها ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: اتَّخِذُوا مِنْ الإِماءِ ما شِئْتُم، إذا خَشِيتُمْ عَدمَ العَدلِ بَينَ النِّساءِ الحَرائِرِ. (ذَلِكَ) أي: الاقْتِصارُ عَلَى واحِدةٍ حُرَّةٍ، أَوْ ما شاءَ مِنَ الإماءِ ﴿أَدْنَىٰ﴾ أَقْربُ إِلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: لا تَجُورُوا، ولا تَمِيلُوا.

---

(١) رواه الترمذي (١١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) المغني (٧/ ٨٥).

سَببُ النُّزُولِ:

عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَجُلًا كانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فنكَحَها، وَكانَ لَها عَذْقٌ(١)، وَكانَ يُمْسِكُها عَلَيْهِ(٢)، وَلَمْ يَكُنْ لَها مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾»(٣).

وعن عُرْوَة، أَنَّهُ سَأَلَ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، قالَتْ: «يا ابْنَ أُخْتِي، هِيَ اليَتِيمَةُ تَكُونُ في حَجْرِ(٤) وَلِيِّها تُشارِكُهُ في مالِهِ، فَيُعْجِبُهُ مالُها وَجَمالُها، فَيُرِيدُ وَلِيُّها أَنْ يَتَزَوَّجَها بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ في صَداقِها، فَيُعْطِيَها مِثْلَ ما يُعْطِيها غَيْرُهُ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّداقِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا ما طابَ لَهُمْ مِنَ النِّساءِ، سِواهُنَّ».

قالَ عُرْوَةُ: قالَتْ عائِشَةُ: «ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

والَّذِي ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْكُمْ في الكِتابِ: الآيَةُ الأُولَى الَّتِي قالَ اللهُ فِيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾» قالَتْ عائِشَةُ: «وَقَوْلُ اللهِ في الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رَغْبَةَ أَحَدِكُمْ عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتِي تَكُونُ في حَجْرِهِ، حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المالِ والجَمالِ، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا ما رَغِبُوا في مالِها وَجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ، إِلَّا بِالقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ»(٥).

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: العِنايةُ البالِغةُ بِاليَتِيمةِ؛ وذَلكَ لأَنَّها ضَعيفةٌ مِنْ وَجْهينِ: الأَوَّلِ: ذَهابُ أَبِيها،

(١) أي: نَخْلةٌ.

(٢) أي: مِنْ أَجلِه.

(٣) رواه البخاري (٤٥٧٣).

(٤) حَجْرُ الإِنسان وحِجْرُه -بالفَتْحِ والكَسرِ-: حِضْنُه.

(٥) رواه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

وسَـنَدِها وعائِلِها. والثَّـانِي: أَنَّها أُنْثَى، وهِيَ أَضْعَفُ مِنَ الذَّكرِ، فَإِذا كانَ عِنْدَ إِنسـانٍ يَتِيمةٌ، وخافَ أَلَّا يُعْطِيَها مَهْرَ مِثْلِها إِذا أَرادَ أَنْ يَتزوَّجَها، أَوْ يُزَوِّجَها أَحدَ أَوْلادِه -مَثَلًا- فَلا يَفْعلْ ذَلكَ، وَلْيَعْدلْ عَنْهُ إِلى الزَّواجِ مِمَّنْ سِواها مِنَ النِّساءِ.

وفي الآيـةِ: نَصٌّ قاطِعٌ في إِباحةِ تَعدُّدِ الزَّوْجاتِ، وأَنَّهُ يَجُوزُ للإِنْسـانِ أَنْ يَجْمعَ عِنْدَه أَربعَ نِسْـوةٍ مِنَ الحَرائرِ في وقتٍ واحِدٍ، ويَحْرمُ عَليهِ الزِّيادةُ عَلَى ذَلكَ، وأَمَّا اجْتِماعُ أكثرَ مِنْ أَرْبعٍ عِنْـدَ النَّبِـيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فَـإِنَّ ذَلكَ مِـنَ الخَصائِـصِ النَّبَوِيَّةِ، وقَدْ تَـزوَّجَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِخمسِ عَـشرةَ امْرأة، دَخَلَ مِنْهُنَّ بثلاثِ عشرةَ، واجْتَمـعَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ إِحْدى عشرةَ في وَقْتٍ واحِدٍ، وماتَ عَنْ تِسـعٍ، وكانَ مِنْ نِسـائِه بِالإِضافةِ إِلى الحَرائرِ: مارِيـةُ، وَرَيحانَةُ، وهُما مِنَ الإِماءِ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ جَمِيعًا.

وفي الآيةِ: أَنَّ مِلكَ اليمينِ لا يَتَقيَّدُ بَأَرْبعٍ.

وفِيها: أَنَّ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَعْملَ بِما غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ مِمَّا يَعْلمُه مِنْ حالِ نَفْسِه.

وفي الآيةِ: عَدْلُ الشَّريعةِ، واتِّخاذُها الأَسْبابَ الَّتِي تَمْنَعُ الظُّلْمَ، وتَسُدُّ الطُّرقَ المُؤَدِّيَةَ إِليهِ.

وفِيها: أَنَّ العَدْلَ المَذْكُورَ في الآيةِ إِنَّما هُوَ فِيما يَدْخلُ تَحتَ طاقَةِ الإِنْسـانِ؛ كالتَّسْـويةِ في المَبِيـتِ، والنَّفقـةِ، فَيُعْطِي كُلَّ واحِدةٍ مِنَ المَسْـكنِ، والمَلْبسِ، وَغيرِه، بِحسَـبِ حاجَتِها، وحاجةِ أَوْلادِها، وأَمَّا ما لا يَمْلِكُه كَمحبةِ القَلْبِ: فَلا يَجِبُ عَلَيهِ العَدْلُ فِيهِ.

وقَـدْ حـاولَ بَعْضُهم أَنْ يَستدِلَّ بالآيةِ عَـلَى أَنَّهُ يُـشْرعَ الاقتصارُ عَلَى واحِـدةٍ إِذا خَشِيَ مِـنَ الفَقـرِ، والعَيلةِ؛ بِكَثْـرةِ الأَوْلادِ منْ جَرَّاءِ تَعـدُّد الزَّوجاتِ، وَلكِنَّ هَـذا القَوْلَ ضَعِيفٌ مَرْجُوحٌ، والصَّحِيحُ في تَفْسيرِ قَوْلِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أَي: أَلَّا تَمِيلُوا، وتَجُورُوا.

وفِيها: جَوازُ مُتابعةِ هَوى النَّفْسِ فِيما أَباحَه اللهُ.

وفِيها: مُراعاةُ نَفْسِ الزَّوجةِ، وأَداءُ حُقُوقِها، وأَنَّ مَنْ خافَ الإِخْلالَ بِحُقوقِ الزَّوْجاتِ عِنْدَ التَّعدُّدِ؛ فَإِنَّهُ لا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُقْدِمَ عَليهِ.

وفِيها: تَقْديمُ الشَّريعةِ لِلبدائِلِ المُباحةِ عِنْدما تُحَرِّمُ شَيْئًا، أَوْ تَمْنَعُه.

وفِيها: أَنَّهُ لا يَلْزمُ العَدْلُ بَينَ الإِماءِ، كَما يَلْزَمُ بَينَ الحَرائِرِ.

وفيها: أَنَّ قُوَّةَ شَهوةِ الرَّجُلِ أَكبرُ مِنْ قُوَّةِ شَهْوةِ المرأةِ في العُمومِ الغالبِ؛ ولِذلكَ أُبيحَ للرجُلِ تُعدُّدُ الزَّوجاتِ.

وبَعْدما أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بحفظِ حقِّ اليَتيمةِ في مالِها، ومَهْرِها، أَمَرَ الأَزْواجَ بإيتاءِ مُهورِ الزَّوجاتِ عُمومًا؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾.

﴿وَءَاتُواْ﴾ أَعْطُوا يا أَيُّها الأَزواجُ، وقِيلَ: الخِطابُ لِلأَوْلياءِ، وكانَ أَهلُ الجاهِليَّةِ إذا زَوَّجَ الرَّجُلُ مِنْهُم امرأةً أَخذَ مَهْرها دُونَها. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ اللَّاتِي تَعْقِدُونَ عَليهِنَّ. ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ جَمْعُ صَداقٍ، وهُوَ المَهْرُ ﴿نِحۡلَةٗ﴾ أي: فَريضةً مِنَ اللهِ، وعَطِيَّةً عَنْ طِيبِ نَفسٍ ﴿فَإِن طِبۡنَ﴾ أي: الزَّوجاتُ. ﴿لَكُمۡ﴾ يا أَيُّها الأَزْواجُ ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾ أي: مِنَ الصَّداقِ، فَوَهَبْنَه لَكُمْ ﴿نَفۡسٗا﴾ أي: بِطِيبِ نَفْسٍ، دُونَ إِحْراجٍ، ولا تَضْييقٍ، ولا إِضْرارٍ، ولا خَديعةٍ ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي: خُذُوه، وانْتَفِعُوا بِهِ ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ حَلالًا، بِلا إِثْمٍ ﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾ طَيِّبًا، بِلا عُقوبةٍ في الآخِرةِ.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: أَنَّ مَهْرَ الزَّوجةِ حَقٌّ فَرضَهَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفيها: أَنَّهُ لَيسَ مُقدَّرًا في الشَّريعةِ، وإِنَّما هُو عَلَى ما تَراضَى بِهِ الزَّوْجُ، والزَّوجةُ، وأَهْلُ كلٍّ منهُما.

وفيها: حثُّ الأَزْواجِ عَلَى الإِيتاءِ الجَميلِ، وقَدْ جَرتِ العادةُ أَنْ يُردِفَ المَهرَ بأصنافِ الهَدايا والتُّحفِ، مِنْ مَلْبوسٍ، ومَصوغٍ، وغَيرِهِ؛ دَليلًا عَلَى المَحبَّةِ، والرَّغبةِ، وطِيبِ النَّفْسِ.

وفيها: أَنَّهُ لا يَجُوزُ للزَّوجِ أَنْ يُسِيءَ مُعامَلةَ زَوْجتِه، ويُشاكِسَها؛ لِيذْهبَ بِمَهْرِها، أَوْ بِبعضِه.

وفي الآيةِ: أَنَّ ما وَهَبَتْه المَرأةُ لِزوْجِها عِنْ طِيبِ نَفْسٍ، هُوَ مِنْ أَحلِّ الحَلالِ، وقد جاءَ عَنْ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: «إِذا اشْتكى أَحدُكُمْ شَيْئًا: فَلْيَسْأَلِ امْرَأَتَهُ ثَلاثَةَ دَراهِمَ مِنْ صَداقِها، فَلْيَشْتَرِ بِها عَسَلًا، فَيَشْرَبهُ بِماءِ السَّماءِ، فَيَجْمَعُ اللهُ الهَنِيءَ المَرِيءَ، والماءَ المُبارَكَ، والشِّفاءَ»[1].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٥٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٦٢)، بإسناد ضعيف.

وفي الآيـةِ: أَنَّهُ لا يَجُوزُ للوليِّ أَنْ يَسْـتولِيَ عَلَى مَهْرِ مَـنْ وَلَّاهُ اللهُ عَليْها مِنْ بنتٍ، أَوْ أختٍ، ونَحوِ ذَلكَ؛ لأَنَّ المَهرَ حَقُّها.

وفِيهـا: أَنَّـهُ لا يَجُوزُ أَخْـذُ شَيءٍ مِنْ مَهرِ الزَّوجةِ، وَلَـوْ تَلفَّظَتْ بِالهبـةِ، أَوِ التَّنازُلِ، ونَحْوِ ذَلكَ، ما لَمْ تَكُنْ راضيةً، وَقالَ الأَوْزاعِيّ: «لا تَجُوزُ عَطِيَّةُ المَرْأَةِ حَتَّى تَلِدَ، أَوْ تكُونَ في بَيتِ زَوْجها سَنة»[(١)].

وفِيها: أنَّ لِلمرأةِ أَنْ تَتَصرَّفَ في مَهْرِها كَيفَ شـاءَتَ، وَلها أَنْ تَتَنازلَ عَنْهُ، أَوْ عَنْ بَعْضِه، قَبْلَ قَبْضِه، أَوْ تُؤَجِّلَ مِنْهُ للزَّوْجِ ما شاءَتْ.

وفي الآيـةِ: أنَّ الصَّـداقَ الَّـذِي يُعْطَى لِلمـرأةِ لَيْسَ مُقابِلَ عِـوضٍ ماليٍّ تَدْفَعُـه، وَإِنَّما هُو تَقرُّبٌ مِنَ الزَّوجِ، ودَلِيلٌ عَلَى وَثِيقِ الصِّلةِ، وَلَيْسَ في مُقابِلِه إِلَّا الاسـتمتاعُ بِالمرأةِ، وتَمْكِينُها زوجَها مِنْ نَفْسِها.

وفِيهـا: أَنَّ المَـرأَةَ إِذا تَنازَلتْ عَنْ شَيْءٍ مِـنْ مَهْرِها لِزَوْجِها، تَحتَ الضَّغْـطِ، أَوِ الإِكْراهِ، أَوْ خَوْفًـا، أَوْ خَجَـلًا: فلا يَحِلُّ لَـهُ أَنْ يَأْخُذَه، وقَدْ تَرْضَخُ المَرأةُ بَأَيـسرِ تَرغيبٍ، أَوْ تَرهيبٍ، وتَضْعفُ أَمامَ أَيِّ ضَغْطٍ، ويَسْـهُلُ خِداعُها، فَإِذا ظَهَرَ مِنْها ما يَدلُّ عَلَى عَدمِ طِيبِ نَفْسِـها، فَلا يَحِلُّ للزَّوجِ، ولا لِلوليِّ أَخْذُ شَيءٍ مِنَ المَهرِ.

ويُؤْخذُ مِنَ الآيةِ أَيْضًا: تَحْرِيمُ نِكاحِ الشِّغارِ، وَهُوَ نِكاحٌ مَعروفٌ في الجاهِلِيَّةِ، كانَ يَقُولُ الرَّجُـلُ للرَّجُـلِ: شـاغِرْنِي: أَيْ زَوِّجْني أُخْتَـك، أَوْ بِنتَك، أَوْ مَن تَلِي أمْرَهـا، حَتَّى أُزَوِّجَك أَخْتـي، أَوْ بِنْتِـي، أَوْ مَن أَلِي أمْرَهـا، وَلا يكونُ بَيْنَهُما مَهْرٌ، وَيَكُونُ بُضْـعُ كُلِّ واحدةٍ مِنْهُما في مُقابَلة بُضْعِ الأُخْرَى[(٢)].

ولـمَّـا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِإِيتاءِ اليَتِيمِ والزَّوجةِ حُقوقَهُما، أَرْشـدَ إِلى عَدمِ إِعْطاءِ المالِ للسُّـفَهاءِ، مِـنْ صَغيرٍ، أَوْ ذَكرٍ، أَوْ أُنْثَى؛ لِما في ذَلكَ مِنَ المَفاسِـدِ؛ وحتَّـى لا يَضِيعَ المالُ مِنْ غَيرِ فائدةٍ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) مختصر اختلاف العلماء للطحاوي (٢/ ٣٤١).

(٢) النهاية (٢/ ٤٨٢).

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾ أي: لا تُعْطُوا ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ جَمْعُ سَفِيهٍ، وهُوَ ناقِصُ العَقْلِ، المُتلِفُ لِلمالِ، الَّذِي يَضَعُه في غيرِ مَوْضِعه، ولا يُحْسِنُ التَّصرُّفَ فِيهِ. ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ هَذا يَشْمَلُ كُلَّ ما يُتَموَّلُ، مِنْ نقدٍ، ولباسٍ، وحُلِيٍّ، وأَثاثٍ، وطَعامٍ، وَآنيةٍ، وغيرِ ذَلكَ. ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي: تَقُومُ بِها مَعِيشتُكم، وتَمْنَعُ عَنْكُم الفَقرَ، وتَكُفُّكم عَنِ السُّؤال. ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أَنفِقُوا عَليَهِمْ مِنْها، ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ أَلْبِسُوهُمْ مِنْها.

وقالَ ابنُ عاشُور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَدَلَ عَنْ تَعْدِيَةِ ارْزُقُوهُمْ واكْسُوهُمْ بِـ(مِنْ) إلى تَعْدِيَتِها بِـ(فِي) الدَّالَّةِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ، عَلَى طَرِيقَةِ الاِسْتِعْمالِ في أَمْثالِهِ، حِينَ لا يَقْصِدُ التَّبْعِيضَ المُوهِمَ لِلْإِنْقاصِ مِنْ ذاتِ الشَّيْءِ، بَلْ يُرادُ أَنَّ في جُمْلَةِ الشَّيْءِ ما يَحْصُلُ بِهِ الفِعْلُ: تارَةً مِنْ عَيْنِهِ، وَتارَةً مِنْ ثَمَنِهِ، وَتارَةً مِنْ نِتاجِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ مُكَرَّرًا مُسْتَمِرًّا»[1].

﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: لِلأَيتامِ، والسُّفَهاءِ. ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ جَمِيلًا حَسَنًا.

فَوائِدُ الآيةِ:

وفي الآيةِ: أَنَّ الحِكْمةَ تَقْتَضِي عَدمَ تَسليمِ المالِ إِلى السَّفِيهِ، وقَدْ يَكُونُ ذَلكَ لِصغرِه، أَوْ جُنُونِه، أَوْ نَقْصِ عَقْلِه، وسُوءِ تَصرُّفِه، وحَماقتِه.

وفِيها: إِعْطاءُ النِّساءِ والصِّبيانِ بِحَسبِ حالِهِمْ، فَإِذا كانَ يُناسِبُ الصَّغيرَ أَنْ يُعْطَى ريالًا -مثلًا- فَليسَ مِنَ الحِكْمةِ أَن يُعْطَى عَشرةً.

وفِيها: الإِنْفاقُ عَلَى الأَهْلِ، والأَوْلادِ، وعَدمُ إِمساكِ المالِ عَنْهُم بُخْلًا؛ بِحُجَّةِ أَنَّهُم سُفَهاءُ لا يُعْطَونَ، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قولِه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾:

«يقولُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: لا تَعْمِدْ إِلى مالِكَ وَما خَوَّلَكَ اللهُ، وَجَعَلَهُ لَكَ مَعِيشَةً، فَتُعْطِيَهُ

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٦).

امْرَأَتَكَ، أَوْ بَنِيكَ، ثُمَّ تَنْظُرَ إِلى ما في أَيْدِيهِمْ، وَلَكِنْ أَمْسِكْ مالَكَ، وَأَصْلِحْهُ، وَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ فِي كِسْوَتِهِمْ، وَرِزْقِهِمْ، وَمُؤْنَتِهِمْ»(١).

وفِيهـا: أَنَّ مَنْ أَعْطَى سَفِيهًا مالَه؛ فَقَدْ جَنَى عَلَى نَفْسِه، وجَنَى عَلَى السَّفِيهِ، وهَذا ممَّا يَمْنَعُ إجابَةَ دُعائِه، فَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «ثَلاثَةٌ يَدْعُونَ فَلا يُسْتَجابُ لَهُمْ: رَجُلٌ أَعْطَى سَفِيهًا مالَهُ، وَقالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ وَرَجُلٌ كانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْها، أَوْ لَمْ يُفارِقْها، وَرَجُلٌ كانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ»(٢).

وفِيها: أَنَّ الرِّزقَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَفْعالِ العِبادِ، فَأَمَّا الرِّزقُ مِنَ اللهِ: فَهُو العَطِيَّةُ مِنْ غيرِ حدٍّ، ولا مُقابِلٍ، وأَمَّا الرِّزقُ مِنَ العِبادِ: فَهُوَ الأَجرُ المُوظَّفُ المَعلومُ، لوقتٍ مُعَيَّنٍ محدودٍ.

وفي الآيةِ: أَنَّهُ لا يَجُوزُ إِعطاءُ اليَتِيمِ مالَه إِذا كانَ لا يَزالُ سَفِيهًا.

وفِيهـا: أَنَّ مَـنْ كانَ ضَعِيفَ العَقـلِ مُبذِّرًا، يَصْرِفُ الأَمْوالَ في غَـيرِ مَواضِعِها، لا يُعْطَى مالًا في يَدِه، ولا يُجْعلُ تَحْتَ تَصرُّفِه.

وفِيهـا: نِعْمَـةُ اللهِ عَلَى عِبـادِه بِالأَموالِ الَّتِـي جَعَلَها لِمنافِعِهِـمُ العامَّةِ، تَقُـومُ حَياتُهُمْ بِها، وتَنْتَعِشُ مَعِيشَتُهُمْ.

وفِيهـا: حثٌّ عظيمٌ عَلَى الاقْتصادِ، وتَنْفيرٌ مِنَ الإِسْرافِ، والتَّبْذيرِ، وقَدْ قِيلَ: «الاقْتِصادُ في النَّفقةِ نِصْفُ المَعِيشةِ»(٣).

وفِيها: أَنَّ الرِّجالَ -غالبًا- أَقْدرُ عَلَى التَّدْبيرِ المالِيِّ مِنَ النِّساءِ، والأَطْفالِ.

وفِيهـا: أَنَّ عاطِفَةَ الأَبِ أَوِ الزَّوْجِ لا يَصِـحُّ أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى وَضْعِ المالِ في يَدِ مَنْ تَحْتَه، مِمَّنْ لا يُحْسِنُ التَّصرُّفَ فِيهِ.

وفِيهـا: أَنَّـهُ لا بَأْسَ بِالاتِّجـارِ في أَمْـوالِ اليَتامَى، وتَثْمِيرِها لَهُـمْ، بِحيثُ يَكُـونُ طَعامُهُمْ وكِسْوتُهُمْ مِنَ الأَرْباحِ، لا مِنَ الأَصْلِ، كَما فَهِمَ ذَلِكَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: «وارْزُقُوهُمْ مِنْها».

(١) تفسير الطبري (٧/ ٥٧٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٦٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٥٥٩)، وإسناده صحيح، كما في الصحيحة (١٨٠٥).

(٣) وقد رُوي مرفوعا، ولا يصح.

وفِيها: أَنَّ اسْتِثْمارَ أَموالِ الأَيْتامِ والسُّفهاءِ مَطْلوبٌ؛ حَتَّى لا تَأْكُلَها الزَّكاةُ، والنَّفقاتُ.

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «ابْتَغُوا في أَمْوالِ اليَتامَى؛ لا تَأْكُلُها الصَّدَقَةُ»[١].

وفِيها: أَنَّ القولَ الجَمِيلَ يُؤَثِّرُ في النَّفْسِ، ويَكُونُ سَببًا في ارتقاءِ الصَّغِيرِ؛ لِيَرْشُدَ، كَأَنْ يَقولَ وَلِيُّ الصَّغِيرِ لَهُ: «المالُ مالُك، وأَنا أَمِينٌ عَلَيهِ، وإِذا كَبِرتَ ورَشَدتَ سَلَّمتُه إِليكَ».

وكَذا لَوْ قالَ للسَّفيهِ المُبذِّرِ: «إِذا تُبْتَ إِلى اللهِ، واسْتقمتَ، وَراقبتَ اللهَ في مواضِعِ الإِنْفاقِ؛ فَسَيُعادُ إِليكَ مالُك»، ونَحْو ذَلكَ: كانَ أَدْعَى إِلى تَوْبتِه، وعَوْدتِه إِلى رُشدِه.

والسَّفَهُ قَدْ يَكُونُ عارِضًا؛ لِصِغرٍ،أَوْ فِسْقٍ، وقَدْ يَكُونُ أَصْليًّا؛ كالمَجْنونِ، فالأَوَّلُ يُرْجَى زَوالُه بِالتَّربيةِ، بِخِلافِ الثَّانِي، وقَدْ يَزُولُ بِالعلاجِ.

وفِيها: أَنَّهُ لا يَجُوزُ أَكْلُ أَمْوالِ السُّفهاءِ، والاحْتِجاجُ بسَفَهِهِمْ عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ حَقِّهِمْ.

وفِيها: أَنَّ عَلَى الزَّوْجِ والأَبِ أَنْ يُراعِيَ مَنْ تَحْتَه مِنَ النِّساءِ، والأَوْلادِ، فَإِذا كانَ فِيهِمْ سَفهٌ، أَوْ إِفسادٌ، فَلا يُسلِّمْ لَهُمْ مالَه، ولا يُولِّيهِمُ الإنفاقَ، وفي هذِهِ الحالةِ يَكُونُ قَوْلُه: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ على ظاهِرها، وحَقِيقتِها.

وأَمَّا إِذا كانَ الخِطابُ في الآيةِ مُوجَّهًا إِلى أَوْلياءِ اليَتامَى، والمَجانِينِ، ونَحْوِهِمْ: فَإِنَّ الإِضافةَ في قَوْلِه: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ تُشِيرُ إِلى الوِلايةِ بَينَ المُسْلِمينَ، وأَنَّ الوَلِيَّ يُراعِي مالَ غَيرِه كَأَنَّهُ مالُه؛ فَيُحافِظُ عَلَيهِ، ويَسْتثمِرُه، كَما يَفْعلُ في مالِه، والمُؤْمِنونَ بَعْضُهمْ أَولياءُ بَعْضٍ.

وفِيها: أَنَّ بَيعَ وشِراءَ الصَّغِيرِ مَوقوفٌ عَلَى إِذْنِ وَليِّه، وأَنَّ ما يجوزُ منهُ مُقتصرٌ عَلَى ما جَرَتْ بِه العادةُ مِنْ شِراءِ الأَشْياءِ اليَسيرةِ، كَطعامٍ في المَدْرسةِ.

وفِيها: أَنَّ إعطاءَ الصَّغيرِ المالَ الكثيرَ يُفْسدُه، ويَمْنعُه مِنْ مَعْرفةِ قِيمةِ المالِ، ويَكُونُ سَببًا في كَسْرِ نَفْسِ غَيرِهِ مِنَ أَوْلادِ الفُقراءِ.

---

(١) رواه البيهقي في سننه (٧٣٤٠)، وصححه.

وفيها: مُراعاةُ نُفوسِ الآخِرينَ عِنْدَ مَنْعِهم؛ بجَبْرِ ذَلكَ بِالقولِ المَعْروفِ، ويَشْمَلُ الدُّعاءَ لَهُمْ.

وفيها: أَنَّ على وَليِّ اليَتيمِ، ونَحْوِه: أَنْ يُقدِّمَ إِليهِ طَعامَه، وكِسْوتَه بِوجْهٍ طَلقٍ، وقَوْلٍ جَميلٍ، دُونَ مَنٍّ، ولا أَذًى، فَقَدْ جَرَتْ عادةُ مَنْ تَحتَه المالُ أَنْ تَسْتَثقلَ نَفْسُه إِخراجَه لِمَنْ سَألَه إِيَّاه.

وفي الآيةِ: الحَجْرُ عَلَى السَّفِيهِ البالغِ.

وبَعْدَ أَنْ أَمرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -أَمْرًا مُجْمَلًا- بِإيتاءِ اليتامَى أَمْوالَهُمْ، فَصَّلَ كَيْفِيَّةَ ذَلكَ الإِيتاءِ، ومَتَى يَكُونُ، وماذا يُشْترطُ فِيهِ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اخْتبِرُوهُمْ في دِينِهِمْ، وعُقُولِهِمْ، وتَصرُّفِهِمْ في الأَمْوالِ، ومِنْ ذَلكَ: تَجْرِبتُهُمْ في البَيعِ، والشِّراءِ، واليَتِيمُ الَّذِي لَهُ أَرْضٌ زِراعِيَّةٌ، والَّذِي لَهُ ثَروةٌ حَيَوانِيَّةٌ، يُخْتبَرُ بِالقِيامِ عَلَى الزِّراعَةِ، وتَرْبيةِ الحَيَواناتِ، وتُخْتبَرُ الأُنْثَى في حِفْظِ المالِ، والطَّعامِ، ومَتاعِ البَيتِ، ونَحْوِ ذَلكَ، وَهَذا الاخْتِبارُ لِعقولِ الأَيْتامِ، وتَجْربتِهِمْ في تَصرُّفاتِهِمْ، إِنَّما يَكُونُ قُبيلَ البُلوغِ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ بِالاحْتلامِ، أَوِ اسْتِكمالِ خَمسِ عَشرةَ سَنةً، وبَلغُوا مَبْلغَ الوَطْءِ. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ وَجدتُمْ، وأَحْسَستُمْ، وأَبْصرتُمْ، وتَبيَّنتُمْ ﴿مِّنْهُمْ﴾ بَعْدَ بُلوغِ صلاحِيةِ النِّكاحِ ﴿رُشْدًا﴾ أي: صَلاحًا في الدِّينِ، واسْتقامةً في التَّصرُّفاتِ، وأَمانةً في المُعامَلاتِ، وحِفْظًا لِلأَمْوال ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟﴾ وسَلِّمُوا ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الَّتِي عِنْدَكُم ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ يا أَيُّها الأَولياءُ، والأَوصياءُ. ﴿إِسْرَافًا﴾ مُتَجاوِزينَ بِها الحَدَّ الشَّرعِيَّ في الإِنْفاقِ، ولَوْ عَلَى اليَتِيمِ نَفْسِه. ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أي: مُبادِرينَ، ومُسْرِعينَ إِلى إِنْفاقِها، قَبلَ أَنْ يَكبرَ اليَتِيمُ، ويَلْزَمَ دَفْعُها إِليهِ. ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا﴾ عَنْ مالِ اليَتِيمِ، غَيرَ مُحْتاجٍ إِليهِ. ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فَليَتنزَّهْ، وَلْيبتَعدْ عَنِ الأَكْلِ مِنْ مالِه؛ إِشْفاقًا عَلَيْه، وحتَّى لا يُنْقِص مِنْهُ. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ مُحْتاجًا،

ويُشْغِلُ بَعْضَ وقْتِه في اسْتِثمارِ مالِ اليَتِيم، وحِفْظِه ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ مِنْهُ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الذي يَعْرفُه أَهْلُ العِلْمِ، ويُقرِّرُه أَهْلُ الخِبْرةِ، ولا يَعُدُّونَه خِيانةً، وطَمَعًا، قالتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في هذهِ الآيةِ: «أُنْزِلَتْ في والِي اليَتِيمِ الَّذِي يُقِيمُ عَلَيْه، وَيُصْلِحُ فِي مالِهِ، إِنْ كانَ فَقِيرًا أَكَلَ مِنْهُ بِالمَعْرُوفِ»[1].

قِيلَ: يَأْكلُ بِقدرِ أُجرةِ الحِفْظِ والاسْتِثمار، وقِيلَ: يَأْكلُ بِقدرِ حاجتِه، وقالَ بَعْضُ العِلماءِ: يَعْتبرُ ما يَأْخذُه مِنْ اليَتِيمِ قَرْضًا، يَرُدُّه إِذا أَيْسرَ.

ومِنْ ضَوابطِ أَخْذِ الوَلِيِّ المُحتاجِ مِنْ مالَ اليَتِيمِ: ما جاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَجُلًا أتاه فَقالَ: إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ، وَلِي يَتِيمٌ. قالَ: فَقالَ: «**كُلْ مِنْ مالِ يَتِيمِكَ، غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلا مُبادِرٍ**[2]**، وَلا مُتَأَثِّلٍ**[3]»[4].

وعن القاسِمِ بْنَ مُحَمَّدٍ قال: جاءَ رَجُلٌ إِلى عبدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَقالَ لَهُ: إِنَّ لِي يَتِيمًا، وَلَهُ إِبِلٌ. أَفَأَشْرَبُ مِنْ لَبَنِ إِبِلِهِ؟ قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِنْ كُنْتَ تَبْغِي ضالَّةَ إِبِلِهِ[5]، وَتَهْنَأُ جَرْباها[6]، وَتَلُوطُ حَوْضَها[7]، وَتَسقِيها يَوْمَ وِرْدِها، فاشْرَبْ غَيْرَ مُضرٍّ بِنَسْلٍ، وَلَا ناهِكٍ في الحَلْبِ[8]»[9].

ومَعْنَى كَلامِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِوليِّ اليَتِيمِ الشُّربُ مِنْ أَلبانِ إِبلِ اليَتِيمِ، مُقابلَ عَمَلِه عَلَى حِفْظِها ورِعايتِها. وقالَ بَعْضُ العُلماءِ: لا يَأْكُلْ مِنْهُ إِلَّا عِنْدَ الاضْطرارِ، قالَ الشَّعبيُّ: «كَما يُضطرُّ إِلى المَيتةِ»[10].

---

(١) رواه البُخاريّ (٢٢١٢)، ومُسلمٌ (٣٠١٩).

(٢) أي: وَلا مُبادرٍ بُلُوغَ اليَتِيم بإنفاقِ مالِه. وفي روايَة: (ولا مُباذِر)، أي: وَلا مبذِّر.

(٣) أَيْ: غَيْرَ مُجُمِّعٍ لِنَفْسِهِ مِنْهُ رَأْسَ مالٍ.

(٤) رواه أبو داود (٢٨٧٢)، والنسائي (٣٦٦٨)، وابن ماجة (٢٧١٨)، وأحمد (٧٠٢٢). وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٥) أي: تتبعُ ما شَرَدَ مِنها، لتَرُدَّه؛ محُافظةً عليْها.

(٦) أي: تَطلي بالقطِرانِ ما أُصيبَ مِن الإبلِ بالجَرَبِ؛ علاجًا لها.

(٧) أي: تبنِي حَوْضًا لِسقْيِ الإبِلِ، وتلوطُه بالطِّين.

(٨) أي: غَير مبالِغٍ فِيه.

(٩) رواه الإمامُ مالك في الموطأ (٣٤٤٦)، وإسنادُه صحيحٌ.

(١٠) انظر: تفسير ابن كَثِير (٢/ ٢١٨).

وقالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مالِ اللهِ بِمَنْزِلَةِ والِي اليَتِيمِ: إِنِ احْتَجْتُ أَخَذْتُ مِنْهُ، فَإِذا أَيْسَرْتُ رَدَدْتُهُ، وَإِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ»[١].

ثُمَّ قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ وسَلَّمْتُمْ أَيُّها الأَوْلياءُ والأَوْصِياءُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: اليَتامَى ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بَعْدَ البُلوغِ والرُّشْدِ ﴿فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ عِنْدَ اسْتِلامِهِمْ إِيَّاها، وقَبْضِهِمْ لَها؛ إبراءً لِذِمَّتِكُم، وإبعادًا للتُّهْمةِ، ولِئَلَّا يَقَع جُحودٌ، أَوْ إِنْكارٌ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: مُحاسِبًا، وشَهِيدًا، وَرَقِيبًا، يُحاسِبُ، ويُجازِي المُحْسِنينَ، والمُسِيئِينَ.

سَببُ نُزولِ الآيَةِ:

قالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَزَلَتْ في ثابِتِ بْنِ رِفاعَةَ وَفي عَمِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّ رِفاعَةَ تُوُفِّيَ، وَتَرَكَ ابْنَهُ ثابِتًا وَهُوَ صَغِيرٌ، فَجاءَ عَمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقالَ: إِنَّ ابْنَ أَخِي يَتِيمٌ في حِجْرِي، فَما يَحِلُّ لِي مِنْ مالِهِ؟ وَمَتَى أَدْفَعُ إِلَيْهِ مالَهُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذه الآية: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾»[٢].

فَوائِدُ الآيَةِ:

فيها: وُجوبُ اخْتبارِ الأَيْتامِ قَبْلَ دَفعِ الأَمْوالِ إليهِم، وقالَ بَعْضُ العُلَماءِ: يُخْتبرُ اليَتِيمُ سَنةً عَلَى الأَقَلِ، وتُعْرفُ تَصرُّفاتُه في الفُصولِ الأَرْبعةِ، فَإِذا لَمْ يَظْهرْ رُشْدُه لا يُدْفَع إِليهِ المالُ، ولَوْ بَلَغَ النِّكاحَ.

واخْتِبارُ اليَتيمِ في مالِه يَكُونُ بِحسبِ هَذا المالِ: فَإِنْ كانَ لَهُ أَرْضٌ زِراعِيَّةٌ: فَإِنَّ اخْتِبارَه يَكُونُ بِالقيامِ عَلَيْها، وَزِراعَتِها، والَّذِي لَهُ ثَروةٌ حَيَوانِيَّةٌ: يَكُونُ اخْتبارُهُ في رَعايتِها، وتَنْمِيتِها، وإِذا كانَتْ لَهُ عَقاراتٌ: فَبِالقِيامِ عَلَيْها، وتَحْصِيلِ أُجورِها، وصِيانَتِها، وهَكَذا.

وفي الآيةِ: ذِكْرُ مَسَألةِ البُلوغِ، وهَذا يَحْصُلُ بِخَمسةِ أَشْياءَ: ثَلاثٌ يَشْتركُ فِيها الذُّكورُ، والإِناثُ، واثْنانِ يَخْتَصَّانِ بِالإِناثِ، فَأَمَّا المُشْتركةُ:

---

(١) رواه البيهقي في سُننه (١١٠٠١)، وابنُ أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٦٠)، وصححه ابنُ كثير في تفسيره (٢/ ١٩١).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٥٦٧).

فَأَوَّلُها: السِّـنُّ، فَإِذا اسْـتكملَ خَمسَ عَشرةَ سَـنةً حَكَمْنـا بِبُلوغِه؛ لما روى نافِـعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قالَ:

«عَرَضَنِي رسولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ في القِتالِ، وَأَنا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمْ يُجِزْنِي، وَعَرَضَنِي يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَأَنا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَجازَنِي».

قـالَ نافِـعٌ: فَقَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ عبدِالعَزِيزِ، وَهُوَ يَوْمَئِـذٍ خَلِيفَةٌ، فَحَدَّثْتُهُ هَذا الحَدِيثَ، فَقـالَ: «إِنَّ هَـذا لَحَدٌّ بَيْنَ الصَّغِـيرِ والكَبِيرِ» فَكَتَبَ إِلى عُمَّالِهِ: «أَنْ يَفْرِضُـوا لِمَنْ كانَ ابْنَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَمَنْ كانَ دُونَ ذَلِكَ، فاجْعَلُوهُ في العِيالِ»[1].

والثَّـاني: الاحْتلامُ، وهُو: إنزالُ المَنيِّ الدَّافِقِ، يقظةً، أَوْ مَنامًا؛ لِحديثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِـيِّ ﷺ قالَ: «**رُفِـعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْـتَيْقِظَ، وَعَـنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ**»[2].

والثَّالثُ: نَباتُ الشَّعرِ الخَشنِ حَولَ الفَرْجِ؛ فَعنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ رضي الله عنه، قالَ: «كُنْتُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فكانُوا يَنْظُرُونَ: فَمَنْ أَنْبتَ الشَّعْرَ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ لَمْ يُقْتَلْ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ»[3].

وأَمَّـا العلامتـانِ اللَّتانِ تَنْفـردُ بِهِا الإِنـاثُ، فَهُما: الحَيْـضُ، والحَبَلُ، وهُنـاكَ عَلاماتٌ أُخْرى تَدلُّ عَلَى قُرْبِ البُلوغِ؛ كنباتِ شَعْرِ الشَّارِبِ، واللِّحيةِ، والإبطِ، وغِلظِ الصَّوتِ عِنْدَ الذُّكورِ، وكِبَرِ الثَّدْيِ في الإِناثِ.

وفِيها: أَنَّ البُلوغَ يَتفاوتُ بِتفاوتِ الأَشْخاصِ، والبُلْدانِ، والأَحْوالِ، والأَجْسامِ.

وفِيها: مُعالجةُ مَواطنِ الضَّعفِ في نُفوسِ الأَولياءِ، سواء بِإسرافِهِمْ في الإِنْفاقِ مِنْ أَمْوالِ الأَيْتامِ، أَوِ الإسراعِ بِالإِنفاقِ قَبْلَ أَنْ يَكبُروا، ويَنْتزعُوها مِنْهُمْ.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨) -واللفظ له-.

(٢) رواه أبو داود (٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٢٣)، وصححه النووي في المجموع (٤/ ٢٥٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٨٤)، وصححه، والنسائي (٣٤٣٠)، وابن ماجة (٢٥٤١)، وصححه النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٥).

وفِيها: العَملُ بِالعُرْفِ.

وفِيها: أَنَّ جَزاءَ الإِحسانِ بِالإحْسانِ.

وفِيها: تَحْريمُ الإِضْرارِ بِمالِ اليَتِيمِ.

وفِيها: جَوازُ الاسْتِقراضِ مِنْ مالِ اليَتِيمِ عِنْدَ الحاجةِ.

وفِيها: جَوازُ مُخالَطةِ اليَتِيمِ، إِذا كانَ فِي ذَلِكَ مَصْلحةٌ لَهُ.

وفِيها: عَدمُ جَوازِ أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ صُلبِ مالِ اليَتِيمِ، فَلا يَجُوزُ لِلولِيِّ أَنْ يَتَّخذَ مِنْهُ عَقارًا، أَوْ مَزْرعةً لِنفسِه.

وفِيها: فِعْلُ كُلِّ ما يَقْطعُ التَّخاصُمَ، والتَّقاضِي، ومِنْ ذَلكَ الإِشهادُ المَذْكورُ فِي الآيةِ.

وفِيها: أَنَّ اليَتِيمَ قَدْ يَبْلغُ، ولا يَرْشُدُ.

وفِيها: العِنايةُ بِالمُلاحظةِ، والتَفرُّسِ؛ لاسْتِكْشافِ الرُّشْدِ فِي التَّصرُّفاتِ.

وفِيها: تَدريبُ الصِّغارِ عَلَى تَحمُّلِ المَسْؤُولِيَّاتِ، وإِيصالُهُمْ إِلى مَرْحلةِ النُّضْجِ فِيما يَحْتاجُونَ إِليهِ مِنَ الأَحْوالِ المَعِيشِيَّةِ، والتَّصرُّفاتِ المالِيَّةِ، وهَذا يَحْتاجُ إِلى تَكْليفٍ، ومُتابعةٍ، ومُلاحَظةٍ، وتَصْويبٍ، وتَسْديدٍ، وتَعْليمٍ بِالتَّجربةِ.

وفِيها: أَنَّهُ يَنْبغِي عَلَى وَلِيِّ اليَتِيمِ أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِه مَصْدرَ كَسْبٍ يَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الأَخْذِ مِنْ مالِ اليَتِيمِ.

وفِيها: أَنَّهُ لا يُشْترطُ فِي إِيتاءِ اليَتِيمِ مالَه أَنْ يَكْتَملَ رُشْدُه تَمامًا، بَلْ يَجُوزُ تَسْلِيمُه مالَه إِذا ظَهَرَ مِنْهُ أَوائِلُ الرُّشْدِ، ومَبادِئُه.

ويُؤْخَذُ مِنَ الآيةِ: أَنَّ مَنْ طَرَأَ عَلَيهِ السَّفهُ وهُوَ بالِغٌ يُحْجرُ عَلَيهِ.

وفِيها: الأَجْرُ العَظِيمُ لِلأَوْلياءِ والأَوْصِياءِ إِذا عَمِلُوا فِي مالِ اليَتِيمِ بِطاعةِ اللهِ، كَما جاءَ فِي آخرِ الآيةِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ فَيُجازِي المُحْسِنِينَ، كَما يُعاقِبُ المُسِيئِينَ.

وفِي قولِه: ﴿حَسِيبًا﴾ مَوْعظةٌ للأَوْلياءِ بِإِيتاءِ مالِ اليَتِيمِ كامِلًا، وعَدَمِ النَّقْصِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ اللهَ شهيدٌ، رقيبٌ، يَعْلَمُ: هَل هُوَ كامِلٌ موفورٌ؟ أَوْ مَبْخُوسٌ مَنْقُوصٌ؟

وفيها: أَنَّ مَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسِه عدمَ القُدرةِ عَلَى إدارةِ أَمْوالِ اليَتامَى فَلا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتولَّى عَلَيْها، وقَدْ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا أَبا ذَرٍّ، إِنِّي أَراكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفْسِي: لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مالَ يَتِيمٍ**»[1].

وفيها: مَوْعِظةٌ لِكُلِّ جاحِدِ حَقٍّ: بِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ خِيانَتَهُ، وسَيُحاسِبُه عَلَيْها.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكْمَ أَمْوالِ اليَتامَى، أَتْبَعَه بِذكرِ أَحْكامِ المَوارِيثِ، وكَيْفِيَّةِ قِسْمَتِها بَيْنَ الوَرَثةِ، ولَمَّا كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يظْلِمُونَ اليَتِيمَ، والمَرأَةَ، بَيَّنَ حُقُوقَ الجَمِيعِ؛ فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾.

﴿**لِّلرِّجَالِ**﴾ أي: الذُّكورِ ﴿**نَصِيبٌ**﴾ أي: حَظٌّ ﴿**مِّمَّا تَرَكَ**﴾ أي: مِنْ مِيراثٍ، وتَرِكَةِ ﴿**ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ**﴾ بَعْدَ وَفاتِهِمْ. ﴿**وَلِلنِّسَآءِ**﴾ أي: الإِناثِ مِنْ بَناتِ المَيِّتِ، وقَرِيباتِهِ ﴿**نَصِيبٌ**﴾ حَظٌّ ﴿**مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ**﴾ مِنَ المِيراثِ ﴿**مِمَّا قَلَّ مِنْهُ**﴾ أي: المالِ المُخلَّفِ ﴿**أَوْ كَثُرَ**﴾ وبَلَغَ ما بَلَغَ ﴿**نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ أي: حَظًّا مُقدَّرًا، واجِبًا، لا يَسْقُطُ.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: بَيانُ ظُلمِ ما كانَ عَلَيهِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ، فاليونانُ -وغَيرُهُمْ- كانُوا يُعطُون جَمِيعَ المالِ لِلبناتِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّ الرِّجالَ لا يَعْجَزُونَ عَنِ الكَسْبِ، وكانتِ العَرَبُ لا تُعْطِي الإِناثَ شَيْئًا؛ احْتِقارا لَهُنَّ.

وفيها: أَصالةُ النِّساءِ في الحُكْمِ، وقَدْ ذَكَرهُنَّ في الآيةِ مُسْتقِلَّاتٍ، فَلَمْ يَقُلْ: «للرِّجالِ وللنِّساءِ نَصِيبٌ»، وَإِنَّما قالَ: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ**﴾ ثُمَّ قالَ: ﴿**وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ**﴾.

وفيها: أَنَّ أَصْحابَ الحُقوقِ الشَّرْعِيَّةِ في المِيراثِ لا يُمْكِنُ إِسْقاطُهُمْ، ولا بُدَّ مِنْ إِعْطائِهِمْ حُقُوقَهُمْ، ولا يُمْكِنُ حِرمانُهُمْ: لا بِنَصٍّ مِنَ المَيِّتِ، ولا بِوَصِيَّةٍ، ولا بِغَيرِها.

وفيها: أَنَّهُ لا يَجُوزُ أَنْ يُخْتَصَّ بَعْضُ الوَرَثةِ بِبَعْضِ الأَمْوالِ، بَلْ يَأْخُذُ الجَمِيعُ مِنْ جَمِيعِ

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٦).

التَّركـةِ، فَـلا يَجُوزُ -عَلَى سَـبِيلِ المِثالِ- أَنْ يُخْتَـصَّ الوَرثَةُ الذُّكـورُ بِالنَّقْـدِ، ويُخْتَصَّ الإِناثُ بِالحُـلِيِّ، ولا أَنْ يُخْتَـصَّ الذُّكـورُ بِالخَيلِ، والعَقارِ، ويُخْتَصَّ النِّسـاءُ بِالمَلابِـسِ، والذَّهبِ، والفِضَّةِ، ونَحْوِ ذَلكَ مِنَ التَّقْسِيماتِ الظَّالِمَةِ.

وفي الآيـةِ: دَلِيـلٌ عَلَى أَنَّ الوارِثَ لَوْ أَعْرَضَ عَنْ نَصِيبِه لَمْ يَسْـقُطْ حَقُّه بِالإِعْراضِ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُسلَّم إِلَيْهِ.

وفِيهـا: أَنَّ الكِبـارَ والصِّغـارَ في حُكْمِ اللهِ في المِيراثِ سَـواءٌ، فَما دامتْ دَرَجـةُ القُرْبِ مِنَ المَيِّتِ واحدةً؛ فَإِنَّهُمْ يَتَساوَوْنَ إِذا كانُوا ذُكُورًا، وكَذَلكَ يَتَساوَيْنَ إِذا كُنَّ إِناثًا.

وفِيهـا: رِعايـةُ الشَّريعـةِ لِحُقُوقِ الضُّعفاءِ مِـنَ الإِناثِ والصِّغارِ، قالَ سَـعِيدُ بْـنُ جُبَيْرٍ، وَقَتـادَةُ: «كانَ المُشْرِكُـونَ يَجْعَلُـونَ المالَ لِلرِّجالِ الكِبـارِ، وَلا يُورِّثُونَ النِّسـاءَ وَلا الأَطْفالَ شَيْئًا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الآيَةَ».

قـالَ ابـنُ كَثـيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَي الجَمِيعُ فِيهِ سَـواءٌ في حُكْـمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يَسْـتَوُونَ في أَصْلِ الوِراثَـةِ، وَإِنْ تَفاوَتُوا بَحَسـبِ ما فَـرَضَ اللهُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ، بِما يُدْلِي بِـهِ إِلى المَيِّتِ مِنْ قَرابَةٍ، أَوْ زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وَلاءٍ؛ فَإِنَّهُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ»[1].

وفِيها: إِشارةٌ إِلى وُجُودِ فَرقٍ بَيْنَ مِيراثِ الذُّكورِ، والإِناثِ.

وَلمَّا كانَتْ مَجالِسُ قِسْـمةَ التَّرِكاتِ يَحْضُرها -بِالإِضافةِ إِلى الوَرَثةِ- أَقارِبُ، ومَساكِينُ، ويَـرَوْنَ هَـذا يَأْخُـذُ، وهَذا يَأْخُذُ، مِـنَ الوَرَثةِ؛ فَإِنَّ نُفُوسَـهُمْ تَتُوقُ إِلى المـالِ، وخُصُوصًا إِذا كانَ كَثِـيرًا؛ ولِذَلكَ أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُعطَوا مِنَ المالِ شَـيْئًا؛ بِرًّا بِهِـمْ، وصَدَقةً عَلَيْهِمْ، وجَبْرًا لِخَواطِرِهِمْ؛ فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أَيْ: مَجْلِسَ قِسْـمةِ التَّرِكـةِ بَيْنَ الوَرَثةِ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مِنْ غَيرِ

---

(١) تفسير ابنِ كَثير (٢/ ٢١٩).

الوَرَثةِ. ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ مِنَ الأَجانِبِ ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي: أَعْطُوهُمْ شَيْئًا مِنَ المالِ المَقْسُومِ بِرِضاكُمْ، ولا تَبْخَلُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَقُولُواْ﴾ يا أَيُّها الوَرَثَةُ. ﴿لَهُمۡ﴾ لأَصْنافِ الحاضِرِينَ ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ لَيِّنًا، جَمِيلًا، تَطِيبُ بِهِ نُفُوسُهُمْ، ويَدْخُلُ في ذَلِكَ الدُّعاءُ بِالخَيْرِ.

وقَدْ قالَ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ: إنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُحْكَمةٌ غَيرُ مَنْسُوخةٍ، وأنّ هذا الإِعْطاءَ حَقٌّ واجِبٌ بِما طابَتْ بِه نُفُوسُ الوَرَثةِ، وقِيلَ: إنَّ الإِعْطاءَ مُسْتَحبٌّ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ مَنْسُوخةٌ، نَسَخَها ما بَعْدَها مِنْ آياتِ المَوارِيثِ، وقالَ آخَرُونَ: المَقصودُ بِالآيةِ: الحثُّ عَلَى الوَصِيَّةِ للأَقارِبِ غَيرِ الوَرَثةِ، والأَيْتامَ، والمَساكِينِ[(١)].

فَوائِدُ الآيةِ:

وفي الآيةِ: مُراعاةُ نُفُوسِ الَّذِينَ يَحْضُرونَ مَجالِسَ تَوْزِيعِ الأَمْوالِ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْها نَصِيبٌ، ومِنْ هَذِهِ المُراعاةِ: قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقَوْلُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِبِلِ: «**وَمِنْ حَقِّها: حَلَبُها يَوْمَ وِرْدِها**»[(٢)]؛ لأَنَّ المَساكِينَ كانُوا يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ المِياهِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَصْحابُ الإِبلِ لِسقْيِها، فَيَرجُونَ أَنْ يَحْلِبوا لَهُمْ مِنْها.

قالَ العِراقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُرادُ: حَلْبُها لِسَقْيِ الفُقَراءِ مِنْها، وَإِنَّما خَصَّ حالَةَ وِرْدِها؛ لِأَنَّهُ حالَةُ كَثْرَةِ لَبَنِها، وَلِأَنَّ الفُقَراءَ يَحْضُرُونَ هُناكَ طَلَبًا لِذَلِكَ، وَهَذا دَلِيلٌ لِمَنْ يَرَى فِي المالِ حُقُوقًا غَيْرَ الزَّكاةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي ذَرٍّ، وَغَيْرِ واحِدٍ مِنْ التَّابِعِينَ»[(٣)].

وفِيها: ذَمُّ إِخْفاءِ المالِ؛ خَشْيةَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيه المَحاوِيجِ، كَما فَعَلَ أَصْحابُ الجَنَّةِ: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

وفِيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي اسْتِعْمالُ القَوْلِ الحَسَنِ الجَمِيلِ معَ مَنْ يَحْضُرُ مَجْلِسَ تَوْزِيعِ الأَمْوالِ، ولا يُعْطَى مَنْهُ شَيْءٌ، كَما لَوْ كانَتْ التَّرِكَةُ أَرْضًا، أَوْ عَقارًا يَصْعُبُ إِعطاءُ هَؤُلاءِ الحاضِرِينَ شَيْئًا مِنْهُ، أَوْ كانَ الوَرَثَةُ كُلُّهُمْ أَيْتامًا، ولا يَحِقُّ لِوَلِيِّهِمُ التَّصدُّقُ مِنْ مالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَجْبرُ نُفُوسَ

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٣٧٥)، تفسير ابن كَثِير (٢/ ٢١٩)، التحرير والتنوير (٤/ ٢٥١).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) طرح التثريب (٤/ ١١).

مَـنْ حَضَرَ بِالـكَلامِ الطَّيِّبِ، كأنْ يقولَ: «هَذا المالَ لهؤُلاءِ الضُّعَفاءِ، وهُمْ لا يَعْقِلُونَ، ولَيْسَ لِي فِيهِ حَقٌّ فأُعْطِيكُمْ، ولكِنْ لَعلَّهُمْ إذا كَبروا أَعْطَوكُمْ»، ونَحْوِ ذَلكَ.

وفي الآيةِ: سَدُّ الطُّرقِ؛ لِمَنْعِ سَرَيانِ الحَسَدِ إلى النُّفُوسِ؛ فَإِنَّ العُيونَ إذا رَأَتْ نِعْمَةً -وهِيَ مَحْرُومةٌ مِنْها- رُبَّما أَصابَتْ أَصْحابَ النِّعْمةِ.

وفِيها: فَضْلُ الهِبَةِ، والهَدِيةِ، وخُصُوصًا عِنْدَما تَكُونُ لِقَريبٍ، أَوْ فَقِيرٍ.

وفي الآيةِ: تَعْوِيضُ نَقْصِ الإعْطاءِ، أَوْ عَدَمِه، بِطَيِّبِ الكَلامِ، وجَمِيلِه، وهَذا كَقَولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، وأَنَّ الأَكْمَلَ في البِرِّ: الجَمْعُ بينَ إعْطاءِ المالِ، وحُسْنِ الكَلامِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ: فَبَذْلُ أَحَدِهِما عَلَى الأَقَلِّ.

واسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ مِنْ عَدَمِ التَّحْدِيدِ في هَذِهِ الآيةِ عَلَى اسْتِحبابِ الإعْطاءِ.

ثُـمَّ ذَكَـرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَوْعَظَـةً لأَوْليـاءِ اليَتامَى، وكَذَلِـكَ الَّذِينَ يَحْضُرونَ في مَجالِسِ تَوْزِيعِ التَّرِكاتِ: بِأَنْ لا يَظْلِمُوا، ولا يَتَسبَّبُوا في الظُّلْمِ، ولَمَّا كانَ لِلمُحِيطِينَ بالمَرِيضِ، والمُجالِسِينَ لِلمُـودِّعِ الدُّنْيـا، أَثَرٌ كَبِيرٌ عَلَيْهِ فِيما يُوصِي بِه، ويُقَسِّـمُ مَـنْ مالِه -ورُبَّما زَيَّنُوا لَـهُ تَوْزِيعَ المالِ بِطَرِيقـةٍ تَضُرُّ بِالوَرَثَةِ؛ بِحُجَّـةِ أَنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْ صاحِبِ المالِ شَـيْئًا، ونَحْوِ ذَلِكَ-: أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَـؤُلاءِ المُؤَثِّرِيـنَ عَلَى صاحِبِ المالِ أَنْ لا يُجْحِفُوا بِحـقِّ وَرَثَتِه، وأَنْ يَتفكَّرُوا فِيما لَوْ كانَ لَهُمْ وَرَثةٌ صِغارٌ: ماذا سَيَكُونُ حالُهُمْ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ أي: لِيَخـفِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مِـن بعدهـم ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ أَوْلادًا صِغارًا، سَـيُصْبِحُونَ بَعْدَهُـمْ يَتامَى ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ الضَّياعِ، والفَقْرِ ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تَوجِيهِ ذَلِكَ المَرِيضِ ﴿وَلْيَقُولُواْ﴾ لَهُ ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ عَدْلًا صوابًا، كَأَنْ يَنْصَحُـوه بِقَوْلِهِـمْ: «إِنَّكَ أَنْ تَـذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِياءَ، خَـيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُـمْ عالَـةً يَتكَفَّفُونَ النَّاسَ».

قـالَ ابنُ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هَذِهِ الآيةِ: «هَـذا في الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ المَوْتُ، فَيَسْـمَعُهُ يُوصِي

بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بِوَرَثَتِهِ، فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ، وَيُوَفِّقَهُ، وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوابِ، وَلْيَنْظُرْ لِوَرَثَتِهِ، كما كانَ يُحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ لِوَرَثَتِهِ إذا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ»[١].

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الآيَةُ خِطابًا لأَوْلياءِ اليَتامَى، والمَعْنَى: ولْيَخْشَ مَنْ خافَ عَلَى وَلَدِهِ بَعْدَ مَوْتِه مِنْ تَضْيِيعِ مالِ اليَتِيمِ الضَّعِيفِ الَّذِي هُوَ المُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ غَيرِه.

وقالَ مُجاهِدٌ: «هَذا عِنْدَ تَفْرِيقِ المالِ حِينَ يُقَسَّمُ، فَيَقولُ الَّذِينَ يَحْضُرونَ: أَقْلَلتَ، فَزِدْ فُلانًا، فَيَقُولُ: وَلْيَخْشَ أُولئِكَ، ولْيَقُولُوا فِيهِمْ ما يُحِبُّ أَنْ يُقالَ فِي وَلَدِهِ»[٢].

فَوائِدُ الآيةِ:

فِي الآيةِ: أَنَّهُ لا يَجُوزُ لِمَنْ يَنْصَحُ المَرِيضَ، ويُوجِّهُه، أَنْ يَأْمُرَه بِالزِّيادةِ فِي الوَصِيَّةِ عَنِ الثُّلُثِ.

وفِيها: أَنَّ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه، وأَنَّهُ كَما يَكْرَهُ بَقاءَ أَوْلادِهِ الصِّغارِ بَعْدَه ضُعَفاءَ مِنْ غَيرِ مالٍ، فَلْيَتّقِ اللهَ، ولا يَحْمِلِ المَرِيضَ عَلَى حِرْمانِ صِغارِه مِنْ مالِه.

وفِيها: أَنَّ مَنْ كانَ فِي حِجْرِه يَتِيمٌ يَقُومُ عَلَيهِ، وعَلَى مالِه: فَلْيَتَّقِ اللهَ فِيهِ، ولا يَأْكُلْ مالَهُ، ويَتْرُكهُ بِلا مالٍ، كَما يَكْرَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ أَحدٌ آخَرُ بِأَوْلادِهِ الصِّغارِ، هُوَ، لَوْ ماتَ.

وفِيها: أَنَّ عَلَى أَوْلياءِ اليَتامَى أَنْ يَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا سَدِيدًا مَعْرُوفًا، وأَنْ يُعامِلُوهُمْ بالشَّفقةِ، ويَتَعاهَدُوهُمْ بِالتَّأْدِيبِ، والتَّعْليمِ، كَما يَفْعَلُونَ لأَوْلادِهِمْ.

والمَقْصُودُ: أَنَّكَ تُعامِلُ اليَتِيمَ بِما تُحِبُّ أَنْ يُعامَلَ بِه أَوْلادُكَ مِنْ بَعْدِكَ، لَوْ صارُوا أَيْتامًا.

وفِيها: أَنَّهُ يَنْبَغِي النَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ فِي المَجالِسِ.

وفِيها: النَّهْيُ عَنِ الإِسْرافِ فِي الوَصِيَّةِ.

وفِيها: أَنَّ مَنْ قَصَدَ بتَرَكِ مالِه لأَوْلادِه الصِّغارِ بَعْدَ مَوْتِه الإِحْسانَ إِلَيْهِمْ، وأَنْ يَنْتَفِعُوا بِه، ويَكُونَ لَهُمْ سَنَدًا بَعْدَ اللهِ، وجابِرًا لِضَعْفِهِمْ، ومُعِينًا لَهُمْ عَلَى حاجاتِ الدُّنْيا، ويَكُفَّهُمْ عَنْ سُؤالِ النَّاسِ: أَنَّ لَهُ فِي ذَلكَ أَجْرًا عَظِيمًا.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٩).

(٢) تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٨٥).

وفِيهـا: أَنَّ مَـنْ أَرادَ أَنْ يَحْفـظَ اللهُ أَوْلادَه مِنْ بَعدِهِ: فَلْيتّقِ رَبَّهُ في سـائِرِ أُمُورِه؛ فَإِنَّ تَقْوى الأَبِ للهِ مِنْ أَسْبابِ حِفْظِ أَوْلادِه، وأَنَّ صَلاحَ الآباءِ، والأُصُولِ، يَنْفَعُ الأَوْلادَ، والفُرُوعَ.

وصَلاحُ الآباءِ يَنْفَعُ أَوْلادَهُمْ في الدُّنْيا: بِحِفْظِهِمْ في الدِّينِ، والمالِ، والصِّحةِ، والوَلدِ، وغَيْرِ ذَلِـكَ، وفي الآخِـرةِ: بِرَفْعِ دَرَجةِ الأَوْلادِ إلى دَرَجةِ الآباءِ؛ لِتقرَّ عَـيْنُ الأَبِ بِذَلكَ في الجَنَّةِ، كَما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١].

وكَذِلكَ: فَإِنَّ صَلاحَ الأَوْلادِ يَنْفَعُ الآباءَ في بِرِّهِمْ، والإِحْسانِ إِلَيْهِمْ في الدُّنْيا، وفي زِيادَةِ الدَّرَجاتِ، وتَكْفِيرِ السَّيِّئاتِ، وغَيْرِها مِنْ مَنافِعِ الآخِرةِ، كَما قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذا ماتَ الإِنْسانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُـو لَهُ**»[١]. وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ في الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَّى هَذا؟ فَيُقالُ: بِاسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكَ**»[٢].

وفي الآيـةِ: فَضْلُ الخَشْـيةِ، وهِيَ -لغـةً-: الخَوْفُ، وشَرْعًـا: الاحْتِرازُ بِنُـورِ العِلْمِ؛ مِمَّا يُغْضِبُ اللهَ.

وقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخَشْـيةُ أَخصُّ مِنَ الخَوْفِ؛ فَإِنَّ الخَشْـيةَ لِلْعُلَماءِ بِاللهِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فَهِيَ خَوْفٌ، مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ»[٣].

وفِيها: أَنَّ الإِنسانَ قَدْ يُجازَى في أَوْلادِهِ إِذا عَصَى اللهَ في أَوْلادِ غَيْرِه.

وفِيها: تَهْيِيجُ النُّفُوسِ بِذِكرِ الأَمْثلةِ في الأَشْخاصِ القَرِيبِينَ مِنْها؛ كَيْ تَتَّعِظَ.

وفي الآيـةِ: أَنَّ عَـلَى المُحِيطِينَ بِالمَرِيضِ، المُـودِّعِ للدُّنْيا، أَنْ يُذَكِّرُوه بِـأداءِ حُقُوقِ اللهِ، وحُقُوقِ العِبادِ، كالدُّيُونِ، مَعْ رِعايةِ مُسْتقبَلِ أَهْلِه وَأَوْلادِه مِنْ بَعْدِه.

وفي هذه الآية: وَعْظُ اللهِ أَصْنافًا مِنَ البَشرِ في حُقُوقِ اليَتامَى.

وفِيها: أَنَّ القَراراتِ المُؤَثِّرةَ في المُسْتَقبلِ يَجِبُ أَنْ تُبْنَى عَلَى آراءِ مَنْ يَخافُ اللهَ وَيَخْشاهُ.

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه ابن ماجة (٣٦٦٠)، وأحمد (١٠٦١٠)، وحسنه محققو المسند.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠٨).

وفِيهـا: خُطـورةُ الإِشـارةِ بِالرَّأْيِ، وأَنَّهـا أَمانَةٌ، وقَدْ يَترَتَّـبُ عَلَى الرَّأْيِ فَسـادٌ عَظِيمٌ، أَوْ صَلاحٌ عَظِيمٌ، يَدُومُ طَوِيلًا.

وفِيها: أَنَّ الشَّرِيعةَ تُراعِي الأَحْوالَ، وتَحْتاطُ لِلْمُسْتَقبلِ.

ثُمَّ تَوعَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكَلَةَ أَمْوالِ الأَيْتامِ، فَقالَ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وَهَذا يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ انْتَفَعَ بِه، بِأَيِّ طَرِيقةٍ ﴿ظُلۡمًا﴾ أَي: تَعَدِّيًا، وعَلَى سَبِيلِ هَضْمِ حَقِّ اليَتِيم، والأَخْذِ مِنْ مالِه دُونَ مُسَوِّغٍ شَرْعِيٍّ؛ كالحاجَةِ، أَوْ أُجْرةٍ عَلَى عَمَلٍ يَقُومُ بِه لِليَتِيم. ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ في الحَقِيقَةِ، ومُسْتَقبلِ الأَمْرِ بَعْدَ المَوْتِ. ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ يَدْخُلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ ﴿سَعِيرٗا﴾ نارًا مُتَّقِدةً، ذاتَ لَهَبٍ.

يُقالُ: صَلَى اللَّحْمَ وغيرَهُ بِالنَّارِ، يَصْلِيه صَلْيًا: إِذا شَواهُ، فَهُوَ مَصْلِيٌّ[١].

والسَّعِيرُ: النَّارُ المُسْتَعِرةُ[٢].

وسَعَّرْتها، يَعْنِي: أَوْقَدْتَها.

وعَـنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «لَمَّا أَنْـزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ١٠]، الآيـةَ، انْطَلَـقَ مَـنْ كانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ، فَعزَلَ طَعامَهُ مِـنْ طَعامِهِ، وَشَرابَهُ مِنْ شَرابِه، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعامِهِ، فَيُحْبَسُ لَه، حَتَّى يَأْكُلَهُ، أَوْ يَفْسُدَ، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فَخَلَطُوا طَعامَهُمْ بِطَعامِهِ، وَشَرابَهُمْ بِشَرابِهِ»[٣].

---

(١) تاج العروس (٣٨/ ٤٣٢).

(٢) زاد المسير (١/ ٣٧٧).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

فَوائِدُ الآيةِ:

فيها: أَنَّ الجَسَدَ يُعذَّبُ في مَواضِعِ المَعْصِيةِ مِنْهُ.

وفِيها: تَغْلِيظُ أَكْلِ أَمْوالِ اليَتامَى، وأَنَّهُ مِنَ الكَبائِرِ المُوبِقاتِ.

وفِيها: فَسادُ نَفْسِ آكِلِ مالِ اليَتِيمِ؛ لأَنَّهُ لا شَفَقةَ، ولا رَحْمَةَ عِنْدَهُ، فَكانَ جَدِيرًا أَنْ لا يَرحَمَه اللهُ، وأَنْ يُورِدَهُ عَذابَ السَّعِيرِ، فَمَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ.

وفِيها: أَنَّ الوَعِيدَ لا يَخْتَصُّ بالأَكْلِ، وإِنَّما يَشْمَلُ أَخْذَ مالِ اليَتِيمِ ظُلْمًا بِأَيِّ وَجْهٍ، سَواءٌ كانَ طَعامًا، أَوْ شَرابًا، أَوْ مَرْكُوبًا، أَوْ زَرْعًا، أَوْ عقارًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وكَذَلِكَ يَشْمَلُ الانْتِفاعَ بِمالِه بغَيرِ وَجْهِ حَقٍّ، كَسُكْنَى عَقارِهِ ظُلْمًا، ويَشْمَلُ أَيْضًا الإِتْلافَ، فَيَدْخُلُ في الوَعِيدِ مَنْ أَتْلفَ مالَ اليَتِيمِ، ولَوْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِه.

وفِيها: أَنَّ اللهَ يَجْمَعُ عَلَى آكِلِ مالِ اليَتِيمِ نارًا في بَطْنِه، واصْطِلاءً بِالسَّعِيرِ، وهُوَ الحَرْقُ في نارِ جَهَنَّمَ.

وفِيها: اخْتِصاصُ البَطْنِ بِالتَّعْذِيبِ، في أَكْلِ مالِ اليَتِيمِ؛ لأَنَّها مَحَلُّ المَأْكُولاتِ، ولأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَأْكُلُ أَمْوالَ اليَتامَى يَؤُولُ ذَلِكَ إِلى ما يُدْخِلُه في بَطْنِه.

وفِيها: خِسَّةُ نُفُوسِ أَكَلَةِ أَمْوالِ الأَيْتامِ، وسُقُوطِ هِمَمِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلى الضُّعَفاءِ الَّذِينَ لا يَسْتَطِيعُونَ الدِّفاعَ عَنْ أَمْوالِهِمْ، والصِّغارِ الَّذِينَ لا يَعْرِفُونَ قِيمَتَها، فَأَكَلُوا أَمْوالَهُمْ بِغَيرِ حَقٍّ، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُمْ بِهِمْ رَحْمَةٌ، ورَأْفَةٌ.

وفِيها: عِنايَةُ الشَّرِيعةِ بِالضُّعَفاءِ، ورِعايَةِ أَمْوالِهِمْ، وقَدْ قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمِ، والمَرْأَةِ**»(١).

وفِيها: بَقاءُ أَجْسادِ أَهْلِ النَّارِ، مَعْ اسْتِمرارِها في العَذابِ.

وفِيها: اخْتِصاصُ بَطْنِ آكِلِ مالِ اليَتِيمِ بِمَزِيدِ التَّعْذِيبِ، مَعْ شُمُولِ التَّعْذِيبِ لِبَدنِهِ كُلِّه.

وفِيها: أَنَّ تَقْيِيدَ الأَكْلِ بِالظُّلْمِ يُفِيدُ أَنَّ هُنالِكَ أَكْلًا بِغيرِ ظُلْمٍ، وهُوَ أَكْلُ الوَلِيِّ الفَقِيرِ بِقَدْرِ الحاجَةِ، وأَخْذُهُ أُجْرةَ المِثْلِ عَلَى العَمَلِ بِمالِ اليَتِيمِ -عِندَ مَن يُجِيزُ ذلِك-.

---

(١) رواه ابن ماجة (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٦)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٠٣).

ولَمَّا أَوْصَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الآياتِ السَّابقةِ بالأَيْتام، وذَكَرَ ضِمْنَها حَقَّ الأَقارِبِ بالإِجْمالِ، وأَنَّ لِلرِّجالِ نَصِيبًا، وللنِّساءِ نَصِيبًا مِنَ الإرثِ، أَعْقبَ ذَلكَ بِذكرِ أَحكامِ المَواريثِ بالتَّفْصِيلِ؛ تَوْضِيحًا لِلإجْمالِ، فَذَكَرَ نَصِيبَ الأَوْلادِ: بَنِينَ، وبَناتٍ، ثُمَّ الآباءِ، والأُمَّهاتِ، ثُمَّ الأَزْواجِ، والزَّوْجاتِ، ثُمَّ نَصِيبَ الإِخْوةِ، والأَخَواتِ، فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾.

وهَذِهِ الآيةُ، والَّتِي تَلِيها، وثالِثَتُهُما الَّتِي في آخِرِ السُّورةِ، هِيَ آياتُ عِلْمِ الفَرائِضِ، ومَسائِلُه مُسْتَنْبطَةٌ مِنْ هَذِهِ الآياتِ الثَّلاثِ، ومِنْ الأَحاديثِ الَّتِي تُفَسِّرُها.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ بَدأَ بِالأَوْلادِ؛ لأَنَّهُمْ أَقْربُ الوَرَثةِ إلى المَيِّتِ، فَأَمَرَ اللهُ بِتَوْرِيثِ الذَّكَرِ والأُنْثَى، وفاوَتَ بَيْنَهُما. ﴿لِلذَّكَرِ﴾ الواحِدِ ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ قَدْرِ نَصِيبِهِما؛ وذَلِكَ أَنَّ الذَّكَرَ يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّفَقَةِ، ما لا يَجِبُ عَلَى الأُنْثَى، ويَدْفَعُ لَها المَهْرَ في النِّكاحِ، ويَحْتاجُ إلى رَأْسِ مالٍ للتِّجارةِ، والتَّكَسُّبِ، أَكْثَرَ مِنْ حاجَتِها، ووَلَدُ الوَلدِ يَقُومُ مَقامَ الوَلَدِ عِنْدَ عَدمِه، وإِذا كانَ مَعَ الأَوْلادِ أَبَوانِ، وأَحَدُ الزَّوْجينِ -مَثلًا- يُعْطَى هَؤُلاءِ فُروضَهُمْ، ويُقَسَّمُ الباقِي عَلَى الأَوْلادِ: للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيينِ. ﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي: بَناتُ المَيِّتِ ﴿نِسَآءً﴾ إِناثًا خالِصاتٍ ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ثلاثًا فأكْثر، مَهْما بَلَغَ عَدَدُهُنَّ ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ويَدْخُلُ في هَذا: البِنْتانِ، فَلَهُما الثُّلثانِ أَيْضًا. ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوارِثةُ لِلمَيِّتِ بِنْتًا ﴿وَٰحِدَةً﴾ مُنْفَردةً، لَيْسَ مَعَها أَخٌ، ولا أُخْتٌ: ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مِنْ تَركةِ أَبِيها، أَوْ أُمِّها، والباقِي لِلْوَرَثةِ.

ولَمَّا فَرَغَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ ذِكرِ الفُروعِ، ومِقْدارِ ما يَرِثُونَ، أَعْقبَ ذَلِكَ بِذكرِ الأُصُولِ، ومِقْدارِ ما يَرِثُونَ، فَقالَ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لأَبَوَيِّ المَيِّتِ ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ فَيَأْخُذانِ بِالتَّساوِي في هَذِهِ الحالةِ ﴿إِن كَانَ لَهُۥ﴾ للمَيِّتِ ﴿وَلَدٌ﴾ ذَكَرٌ، أَوْ أُنْثى، فَأَكْثَرُ،

وهَؤُلاءِ يَتقاسَـمُونَ الباقِي بَعْدَ إِعْطاءِ جَدَّيْهِمْ ما مَجْمُوعُه الثُّلثُ. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ لِلْمَيِّتِ ﴿وَلَدٌ﴾ لا ذَكَـرَ، ولا أُنْثَـى، ولا وَلَدَ وَلَدٍ ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: تَأْخُذُ الأُمُّ الثُّلثَ فَرْضًا، والباقِي للأَبِ، فَإِذا انْفَردَ الأَبُ أَخَذَ كُلَّ المالِ.

ولَمْ يَقُلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُنا: «مِمَّا تَرَكَ» كَما ذَكَرَ في المَسْأَلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ الأُمَّ لا تَأْخُذُ ثُلثَ التَّرِكَةِ إِذا وُجِدَ زَوْجٌ، أَوْ زَوْجَةٌ، وإِنَّما تَأْخُذُ ثُلثَ الباقِي.

ثُـمَّ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ لِلْمَيِّـتِ ﴿إِخْوَةٌ﴾ اثْنانِ، فَصاعِدًا، ذُكُورًا، أَوْ إِناثًا، أَشِـقَّاءَ، أَوْ لأَبٍ، أَوْ لأُمٍّ، وارِثِينَ، أَوْ مَحْجُوبِينَ، وَوَرِثَهُ أَبَواهُ: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ مِنَ التَّرِكَةِ، والباقِـي لِـلأَبِ، ولا شَيْءَ لِلإِخْـوةِ، فَيَكُونُ وُجُودُ الإِخوةِ سـبَبًا في انتِقـالِ نَصِيبِ الأُمِّ مِنَ الثُّلـثِ إِلى السُّـدسِ، مَعْ أَنَّهُمْ لا يرِثُونَ شَـيْئًا، وسَـيَزِيدُ نَصِيـبُ الأَبِ في هَـذِهِ الحالَةِ، ومِنَ الحِكْمَةِ في هَذا: أَنَّ الأَبَ هُوَ الَّذِي سَيُنْفِقُ عَلَى هَذا الجَمْعِ مِنَ الإِخْوةِ -غالِبًا-.

وقَـدِ اخْتَلـفَ العُلَماءُ في الجَـدِّ: هَلْ يُنزَّلُ مَنْزِلَةَ الأَبِ؛ فَيَسْـقُطُ بِه الإِخْـوةُ، أَمْ لا؟ فَقالَ بَعْضُهُمْ في المَيِّتِ إِذا تَرَكَ جَدًّا وإِخوةً: أَنَّ الجَدَّ مِثْلُ الأَبِ، يَحْجُبُ الإِخْوةَ، وهَذا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ، وابنِ عَبَّاسٍ، وعائِشَةَ، وغَيرِهِمْ مِنَ الصَّحابِةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وذَهَـبَ إِلى تَوْرِيـثِ الإِخْوةِ مَعَ الجَـدِّ -بِشَرْطِ أَنْ لا يَنْقُصَ نَصِيـبُ الجَدِّ عَنِ الثُّلثِ-: عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ، وزيدُ بنُ ثابِتٍ، وابنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1].

وهَـذِهِ الأَنْصِبةُ المَذْكُـورةُ في الآيَةِ إِنَّما تُعْطَى لِلْوَرَثـةِ ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ تَنْفِيذِ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ﴾ المَيِّـتُ فتُخْـرَجُ مِـنْ مالِه، بِـشَرْطِ أَنْ لا تَزِيدَ عَـنِ الثُّلثِ. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ يُسـدَّدُ مِنْ مالِ المَيِّتِ قَبْلَ الوَصِيَّةِ، فَصارَ أَوَّلَ ما يَخْرُجُ مِنْ تَرِكَةِ المَيِّتِ مؤُونَةُ تَجْهِيزِه، ثُمَّ دُيُونُ اللهِ، ودُيُونُ العِبادِ، ثُمَّ الوَصِيَّةُ، ثُمَّ يُقسَّمُ الباقِي، كَما أَمَرَ اللهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ جَهْلِ النَّاسِ بِعَواقِبِ الأُمُورِ، وما يَكُونُ في الغَيْبِ، والمُسْتَقْبلِ، فَقـالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ يـا أَصْحابَ الأَمْـوالِ، والـتَّرِكاتِ ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ولا تَعْرِفُـونَ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وأَكْثـرُ لَكُـمْ فائِـدةً في الدُّنْيـا بِالـبِرِّ، والإِحْسـانِ، وفي

(١) ينظر: فتح الباري (١٢/ ١٩ -٢٠)

الآخِرةِ بِصَلاحِهِ النَّافِعِ لَكُمْ، ودُعائِه، والصَّدقةِ عَنْكُمْ، فَلَوْ جَعَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ قِسْمةَ تَرِكاتِكُمْ لأَعْطَيْتُمْ فُلانًا أَكْثَرَ مِنْ فُلانٍ، وَحَرَمْتُمْ فُلانًا، وخَصَّصْتُمْ فُلانًا؛ ظَنًّا مِنْكُمْ أَنَّ مَنْ تُعْطُونَهُ أَوْ تَزِيدُونَهُ أَنْفَعُ لَكُمْ، بيْنَما في حَقِيقةِ الأَمْرِ لا يَكُونُ كَذلِكَ؛ ولِذَلكَ تَوَلَّى رَبُّكم قِسْمَةَ المَوارِيثِ. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُلْزِمةً، يَجِبُ الانْقِيادُ لَها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِالأَنْفعِ، وبِالمَصالِحِ، وما يَكُونُ في المُسْتقبلِ ﴿حَكِيمًا﴾ في شَرْعِهِ، وقضائِه، وقدرِه.

سببُ النُّزولِ:

عَنْ جابِرِ بنِ عبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: «عادَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ في بَنِي سَلِمَةَ ماشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أَعْقِلُ شَيْئًا، فَدَعا بِماءٍ، فتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: ما تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ في مالِي يا رسولَ اللهِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾»(١).

وعَنْ جابِرٍ -أَيْضًا- قالَ: جاءَتْ امْرَأَةُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِابْنَتَيْها مِنْ سَعْدٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَتْ: يا رسولَ اللهِ، هاتانِ ابْنَتا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُما مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنَّ عَمَّهُما أَخذَ مالَهُما، فَلَمْ يَدَعْ لَهُما مالًا، وَلا تُنْكَحانِ إِلَّا وَلَهُما مالٌ، قالَ: «**يَقْضِي اللهُ في ذَلِكَ**»، فَنَزَلَتْ: آيَةُ المِيراثِ، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عَمِّهِما، فَقالَ: «**أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُما الثُّمُنَ، وَما بَقِيَ فَهُوَ لَكَ**»(٢).

قالَ الحافِظُ ابنْ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظَّاهِرُ: أَنَّ حَدِيثَ جابِرٍ الأَوَّلَ إِنَّما نَزَلَ بِسَبَبِهِ الآيَةُ الأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ -كَما سَيَأْتِي-؛ فَإِنَّهُ إِنَّما كانَ لَهُ إِذْ ذاكَ أَخَواتٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَناتٌ، وَإِنَّما كانَ يُورَثُ كَلالَةً، وَلَكِنْ ذَكَرْنا الحَدِيثَ هاهُنا تَبَعًا لِلْبُخارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ ذَكَرَهُ هاهُنا. والحَدِيثُ الثَّانِي عَنْ جابِرٍ أَشْبَهُ بِنُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ، واللهُ أَعْلَمُ»(٣).

فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُ قَوْلُهُ في الحَدِيثِ الأَوَّلِ: «فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾» أَرادَ بِهِ الإِشارَةَ إِلى آياتِ المَوارِيثِ عُمُومًا، وأَمَّا ما يَنْطَبِقُ عَلَى حالَتِه: فَهِيَ الآيَةُ الأَخِيرَةُ مِنَ السُّورَةِ تَحْدِيدًا، كَما سَيَأْتِي إِنْ شاءَ اللهُ.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧)، ومسلم (١٦١٦).

(٢) رواه أبو داود (٢٨٩١)، والترمذي (٢٠٩٢)، وصححه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، وغيره.

(٣) تفسير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٢٢٥).

فَوائِدُ الآيةِ:

فِي **الآيةِ**: ذِكْرُ قَواعِدَ مِنْ عِلْمِ الفَرائِضِ، وهُوَ: عِلْمٌ عَظِيمٌ، رَفِيعُ القَدْرِ، شَرِيفُ المَنْزِلةِ، ورُكْنٌ مِنْ أَرْكانِ الشَّرِيعَةِ، حَتَّى عَدَّهُ بَعْضُ السَّلَفِ نِصْفَ العِلْمِ، وَوَجْهُ كَونِهِ نِصفَ العِلمِ: أنّ أحكامَ المُكلَّفينَ نَوعانِ: نوعٌ يَتعلّقُ بالحياةِ، ونَوعٌ يتعلّقُ بِما بَعدَ المَوتِ، وهَذا الثَّانِي هُو: الفرائِضُ.

قالَ سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّما قِيلَ: الفَرائِضُ نِصْفُ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يُبْتَلَى بِهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ»، وجاءَ عَنْ طاوُسٍ، وَقَتادَةَ: «الفَرِيضَةُ: ثُلُثُ العِلْمِ»[(١)].

فَعِلْمُ المَوارِيثِ يَحْتاجُهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ؛ لأَنَّهُمْ بَيْنَ وارِثٍ ومُورِّثٍ، ويَنْبَغِي الاهْتِمامُ بِه، وقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ أَوَّلُ عِلْمٍ يُنْسَى، وأَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ[(٢)]، ومِنْ قَواعِدِهِ: أَنَّهُ إِذا ماتَ المَيِّتُ يُؤْخَذُ مِنْ مالِهِ نَفَقَةُ غُسْلِهِ، وتَكْفِينِه، ودَفْنِه، ثُمَّ تُقْضَى دُيُونُهُ -دُيُونُ اللهِ، ودُيُونُ العِبادِ-، ثُمَّ تُنَفَّذُ وَصِيَّتُه، إِنْ كانَ لَهُ وَصِيَّةٌ، وما زادَ بَعْدَ ذَلِكَ يُقَسَّمُ بَيْنَ الوَرَثةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالفَرْضِ فَقَطْ، وهُوَ نَصِيبٌ مُقَدَّرٌ مِنَ الشَّرعِ، ولا يَخْرُجُ عَنْ سِتَّةِ أَنْواعٍ: النِّصْفُ، والرُّبْعُ، والثُّمُنُ، والثُّلُثانِ، والثُّلُثُ، والسُّدُسُ.

ومِمَّنْ يَرِثُ بِالفَرْضِ فَقَطْ: الزَّوْجانِ، والبَناتُ، والأَخَواتُ، والأُمَّهاتُ، والجَدَّاتُ، وَأَوْلادُ الأُمِّ، وما زادَ عَنِ الفَرائِضِ يُعْطَى لأَقْرَبِ ذَكَرٍ مِنْ أَقارِبِ المَيِّتِ، وهَذا هُوَ التَّعْصِيبُ، ويَرِثُ بِهِ فَقَطْ: البَنُونَ، والإِخوةُ الأَشِقَّاءُ، أَوْ الإِخْوَةُ لأَبٍ، وبَنُوهُمْ، والأَعْمامُ، وبَنُوهُمْ.

وصِنْفٌ ثالِثٌ مِنَ الوَرَثةِ، يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ تارةً، وبِالفَرْضِ أُخْرَى، وهُما: الأَبُ، والجَدُّ.

والعَصَبةُ: هُوَ مَنْ يَأْخُذُ جَمِيعَ المالِ إِذا انْفَرَدَ، ويَأْخُذُ ما زادَ عَنْ أَصْحابِ الفُرُوضِ إِذا كانَ مَعَهُمْ.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٣٤٥).

(٢) روى ابن ماجة (٢٧١٩)، والبيهقي (١٢١٧٥)، والدارقطني (٤٠٥٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «**تَعَلَّمُوا الفَرائِضَ، وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ العِلْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْتَزَعُ مِنْ أُمَّتِي**». وضعفه البيهقي، وغيره.

وأَسْبابُ الإِرْثِ ثَلاثةٌ، لا يُمكِنُ لِوارِثٍ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا إلا بِواسِطَتِها، وهِيَ: النَّسَبُ، والنِّكاحُ، والوَلاءُ -وَيَكُونُ نَتِيجَةَ العِتْقِ، وحَقٌّ لِلمُعْتِقِ-.

وأَمَّا ما يَمْنَعُ التَّوارُثَ، فَأَرْبَعَةُ أَسْبابٍ: اخْتِلافُ الدِّينِ بَيْنَ الوارِثِ والمُورِّثِ، والرِّقُّ، والقَتْلُ عَمْدًا، أَوْ خَطأً(١)، وإِبْهامُ المَوْتِ، وهُوَ: عَدَمُ مَعْرِفةِ مَنْ ماتَ أَوَّلاً.

ومِنْ قَواعِدِ المِيراثِ: أَنَّ الأَقْرَبَ يَحْجُبُ الأبعدَ.

وفي الآيةِ: عَهْدٌ مِنَ اللهِ لِلبَشرِ، وأَمْرٌ لَهُمْ، بِالعَمَلِ بِأَحْكامِ المَوارِيثِ المَذْكُورةِ.

وفِيها: تَقْرِيرُ حَقِّ الأُنْثَى في المِيراثِ؛ وذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: «لِلأُنْثَى نِصْفُ حَظِّ الذَّكَرِ»، وإِنَّما قالَ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ومَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ نَصِيبَ الأُنْثَى مُتقرِّرٌ، ومَفْرُوغٌ مِنْهُ.

وفِيها: إِبْطالُ ما كانَتْ عَلَيْهِ العَرَبُ في الجاهِلِيَّةِ مِنْ مَنْعِ تَوْرِيثِ مَنْ لا يُقاتِلُ، ولا يَحُوزُ غَنِيمةً، مِنَ النِّساءِ، والغِلْمانِ.

وفِيها: أَنَّ حاجَةَ الذَّكَرِ إِلى المالِ أَكْثرُ مِنَ الأُنْثَى؛ وذَلِكَ أَنَّ عَلَيْهِ واجِبَ النَّفَقةِ لِمَنْ يَلُوذُ بِه مِنْ زَوْجةٍ، وأَوْلادٍ، وأَبَوَيْنِ مُحْتاجَيْنِ، ونحوِ ذَلِكَ، ويَحْتاجُ -أَيْضًا- إِلى رَأْسِ مالٍ يَبْدَأُ مِنْهُ تِجارةً، أَوْ لِيَشْتَرِيَ آلاتِ حِرْفةٍ يَتَكَسَّبُ بِها، ونَحْوِ ذَلِكَ.

وفي الآيةِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِه مِنَ الوالِدِ بِوَلَدِهِ؛ حَيْثُ أَوْصَى الوالِدَيْنِ بِأَوْلادِهِمْ، مَعْ كَمالِ شَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وفِيها: اسْتِحْقاقُ الذَّكَرِ والأُنْثَى مِنَ الأَوْلادِ لِلْمِيراثِ، ولَوْ كانَ دُونَ البُلُوغِ.

وفِيها: رَدٌّ عَلَى مَنِ اتَّهَمَ الإِسْلامَ بِظُلْمِ الأُنْثَى؛ وذَلِكَ أَنَّ الشَّرِيعةَ وَرَّثَتْها، ولَمْ تَحْرِمْها، ولكِنَّها راعَتِ الفَرْقَ بَيْنَها وبَيْنَ الذَّكَرِ.

---

(١) أجْمَعَ أهلُ العِلمِ على أنّ قاتلَ العَمدِ لا يَرثُ مِن المَقتولِ شيئًا، أمَّا القاتلُ خطأً: فذَهَبَ جمهورُ أهلِ العِلمِ إلى أنّه لا يرثُ أيضًا؛ لِحديثِ عمرِو بنِ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جدّه قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَرِثُ القاتِلُ شَيْئًا**» رواهُ أبو داوُدَ (٤٥٦٤) وحسَّنه الألبانيّ في صحيحِ أبي داوُد. وذهبَ الإمامُ مالكٌ إلى توريثِ القاتلِ خطأً. واختارَ الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ وابنُ باز قولَ الجُمهورِ، واختارَ ابنُ عثيمينَ قولَ مالكٍ.

ويُنظر: المُغني (٦/ ٢٤٥)، شرحُ مختصرِ خليل للخرشي (٨/ ٢٢٣)، فتاوى محمد بن إبراهيم (١١/ ٢٠٨)، فَتاوى ابن باز (٢٠/ ٢٦١)، الشرحُ المُمتع (١١/ ١٤٣)، وقال: «ولكنْ، هلْ يرثُ مِن الدّيةِ التي سيبذُلُها؟ لا يَرثُ؛ لأنّ الدّيةَ غُرمٌ عَليه، فيرثُ مِن المالِ، لا مِن الدّيةِ».

وفِيهـا: أَنَّ الرَّقِيـقَ لا يَـرِثُ؛ لأَنَّ التَّوْرِيثَ تَمْلِيـكٌ، والعبدُ لا مِلكَ لَهُ؛ لأَنَّـهُ ومالَه مِلْكٌ لِسَيِّدِه.

وفِيها: أَنَّ الشَّرِيعةَ جاءَتْ بِالعَدْلِ، ولا يَلْزَمُ مِنَ العَدْلِ المُساواةُ؛ لِذا فَرَّقَتْ بَيْنَ المُسْلمِ والكافِرِ، والذَّكَرِ والأُنْثَى، وهَكَذا.

وفِيهـا: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي تولَّى قِسْـمةَ المِيراثِ بِنَفْسِـه، ولَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ إِلى أَهْواءِ البَشَرِ.

وفِيهـا: أَنَّ الوَصِيَّةَ أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ الأَمْـرِ؛ لأَنَّها تَقْتَضِي -بِالإِضافةِ إِلى التَّنْفِيذِ-: العِنايةَ، والحِرْصَ، والتَّمَسُّكَ بِالمُوصَى بِهِ.

ويُؤْخَـذُ مِـنَ الآيةِ: مِيراثُ البِنْتَيْنِ، وهُـوَ الثُّلُثانِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ الجَمْـعَ يُطْلَقُ عَلَى الاثْنَيْنِ، كَـما في قَوْلِـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، ولأَنَّ النَّـصَّ قَـدْ جـاءَ بِتَوْرِيثِ الأُخْتَـيْنِ الثُّلُثَـيْنِ عِنْدَ انْفِرادِهِمـا، فَتَوْرِيثُ البِنْتَـيْنِ الثُّلُثَيْنِ مِنْ بابِ أَوْلَى، وقَدْ جاءَتِ السُّـنَّةُ بِذَلكَ أَيْضًا، وعَلَيْهِ إِجْماعُ الأُمَّةِ[1].

وفِيهـا: أَنَّ المَيِّـتَ إِذا تَـرَكَ بِنْتًا، أَوِ اثْنَتَـيْنِ، أَوْ أَكْثَرَ، فَإِنَّهُنَّ لا يَسْـتَغْرِقْنَ التَّرِكةَ -أي: لا يَأْخُذْنَهـا كُلَّها- بلْ يَكُـونُ لِلبِنْتِ النِّصْفُ، ولِما فَوْقَها الثُّلُثانِ، والباقِـي يَذْهَبُ لِبَقِيَّةِ الوَرَثةِ، بَيْنَما إِذا تَرَكَ المَيِّتُ ابْنًا واحِدًا، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ التَّرِكةَ كُلَّها، وإِذا كانَ مَعَهُ ذَكَرٌ آخَرُ فَأَكْثَرُ، شارَكُوهُ بِالمُساواةِ.

وفي الآيـةِ: أَنَّ المَيِّـتَ لَوْ تَرَكَ أَبًا، وأُمًّا، وأَوْلادًا، أَخَذَ الأَبُ السُّـدُسَ، والأُمُّ السُّـدُسَ، والباقِـي يُقَسَّـمُ بَيْنَ الأَوْلادِ: لِلذَّكَـرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَـيْنِ، وكذَلِكَ إِنْ تَرَكَ المَيِّـتُ أَبًا، وأُمًّا، وابْنًا، أَخَذَ الأَبَوانِ الثُّلُثَ (وهُوَ مَجْمُوعُ سُدُسٍ كُلٍّ مِنْهُما)، وَأَخَذَ الابْنُ الباقِي.

فَـإِنْ كانَ لِلمَيِّتِ أَبٌ، وأُمٌّ، وبِنْتٌ، أَخَذَ الأَبَوانِ الثُّلُثَ، والبِنْتُ النِّصْفَ، والباقِي يُعْطَى

---

(١) قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اسْـتُفِيدَ كَوْنُ الثُّلُثَيْنِ لِلْبِنْتَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأُخْتَيْنِ فِي الآيةِ الأَخِيرَةِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حَكَمَ فِيها لِلأُخْتَـيْنِ بِالثُّلُثَـيْنِ، وَإِذا وَرِثَ الأُخْتـانِ الثُّلُثَيْنِ، فَلَأَنْ يَـرِثَ البِنْتانِ الثُّلُثَيْنِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى. وَقَـدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جابِرٍ أَنَّ رسـولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَـعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثُّلُثَيْنِ. فَدَلَّ الكِتابُ والسُّـنَّةُ عَلَى ذَلِكَ». تفسـير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٢٢٦).

لـلأَبِ تَعْصِيبًا؛ لأَنَّهُ أَقْـرَبُ رَجُلٍ ذَكَرٍ إلى المَيِّتِ، فَيَكُـونُ الأَبُ -في هَذِهِ الحالَةِ- قَدْ وَرِثَ سُدُسَ التَّرِكةِ بِالفَرْضِ، والباقِي بِالتَّعْصِيبِ.

وإِنْ كانَ لِلمَيِّـتِ بِنْتـانِ، فَأَكْثـرُ، وأَبٌ، وأُمٌّ، أَعْطَيْنا البَناتِ الثُّلُثَـيْنِ -كَما تَقَدَّم في الآيةِ- وأَعْطَيْنا كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأَبَوَيْنِ السُّدُسَ، فَتَنْتَهِي التَّرِكَةُ.

وإِنْ تَرَكَ المَيِّتُ أَبًا وأُمًّا فَقَطْ، فَلِلأُمِّ الثُّلُثُ، والباقِي لِلأَبِ.

وفِيها: أَنَّ المُساواةَ بَيْنَ مَنْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِمْ مِنَ المَيِّتِ واحِدةٌ تَسْتَجْلِبُ إِحْسانَهُمْ وبِرَّهُمْ بِـه جَمِيعًـا بَعْدَ مَوْتِه، بَيْنَما لَوْ وَرَّثَ أَحدَ الأَبْناءِ -مَثَلًا- أَكْثَرَ مِـنْ إِخْوانِه، أَوْ أَعْطاهُ كُلَّ المالِ، فَلَرُبَّما أَساءَ الباقُونَ إلى المَيِّتِ بَعْدَ مَوْتِه.

وفِيهـا: تَقْدِيمُ سَـدادِ دُيُـونِ المَيِّتِ عَلَى وَصِيَّتِـه، وإِنَّما قَدَّمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذِكْـرَ الوَصِيَّةِ عَلَى الدَّيْـنِ في قَوْلِـه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾؛ لأَجْـلِ التَّأْكِيـدِ عَـلَى تَنْفِيـذِ الوَصِيَّةِ؛ وذَلِـكَ لأَنَّ الدَّيْـنَ لَـهُ مَنْ يُطالِبُ بِـهِ، فَلا يَضِيعُ غالِبًا، أَمَّـا وَصِيَّةُ المَيِّتِ: فَلَيْسَ هُناكَ مَنْ يُطالِـبُ بِهـا غالِبًا، فَـإِذا لَمْ يُخْرِجْها الوَرَثَةُ ضاعَـتْ، ويَنْبَغِي عَلَى الوَرَثَةِ أَنْ لا يَسْـتَثْقِلُوا، ولا يُؤَخِّـروا تَنْفِيـذَ الوَصِيَّـةِ، إِذا بَقِيَ مالٌ بَعْدَ سَـدادِ الدُّيُونِ، وهُـمْ يُؤْجَرُونَ عَـلَى تَنْفِيذِ وَصِيَّةِ مَيِّتِهِمْ، ويَكُونُ إِنْفاذُهُمْ لَها مِنَ البِرِّ بِه.

وفِيها: الانْقِيادُ للشَّرْعِ، وإِنْ تَعارَضَ مَعْ مَيْلِ الطَّبْعِ.

وفِيها: تَقْدِيمُ الأَوْلادِ عَلَى الوالِدَيْنِ في النَّفَقَةِ، وبَدَأَ بِهِمْ في قِسْـمَةِ المِيراثِ؛ لأَنَّهُمْ أَقْرَبُ، وأَضْعَفُ، ولِلأَبَوانِ ما يُغْنِيهِما -غالِبًا- بِخِلافِ الأَوْلادِ الصِّغارِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصِيبَ الأَزْواجِ، والزَّوْجاتِ، والإِخْوةِ، والأَخَواتِ، فَقالَ:

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ

رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ﴾ أيُّها الرِّجالُ ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ نِصْفُ ما تَرَكَتْهُ زَوْجاتُكُمْ مِنَ المالِ. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ سَواء أكانَ الوَلَدُ مِنْكُمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ، وسَواء أكانَ ذَكَرًا، أَوْ أُنْثَى، وسَواء أكانَ واحِدًا، أَوْ أَكْثَر، وسَواء أكانَ وَلَدًا شَرعِيًّا، أَوْ غَيْرَ شَرْعِيٍّ، وحُكْمُ أَوْلادِ البَنِينَ -وإِنْ نَزَلُوا- كَحُكْمِ أَوْلادِ الصُّلْبِ. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ حسَبَ التفصِيل السابِقِ ﴿فَلَكُمُ﴾ أيُّها الأَزْواجُ ﴿ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ أي: مِمَّا تَرَكَتْهُ زَوْجاتُكُمْ مِنَ المالِ، والباقِي لِلأَقْربِ مِنْ ذَوِي الفُرُوضِ، ثُمَّ العَصَباتِ، ثُمَّ ذَوِي الأَرْحامِ، ثُمَّ بَيْتِ المالِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ وارِثٌ. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: يُعْطَى الزَّوْجُ نَصِيبَه مِنْ تَرِكَةِ زَوْجَتِه، بَعْدَ قَضاءِ ما عَلَيْها مِنْ دَيْنٍ، وبَعْدَ تَنْفِيذِ وَصِيَّتِها. ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: لِلزَّوْجاتِ ﴿ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ مِنْ مالِ الأَزْواجِ إِذا ماتُوا ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ ذَكَرٌ، أَوْ أُنْثَى، واحِدٌ، أَوْ أَكْثَرُ، وأَوْلادُ الابْنِ يَقُومُونَ مَقامَ أَوْلادِ الصُّلْبِ. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيُّها الأَزْواجُ ﴿وَلَدٌ﴾ ذَكَرٌ، أَوْ أُنْثَى، أَوْ وَلَدُ ابْنٍ، وإِنْ نَزَلَ ﴿فَلَهُنَّ﴾ أي: لِزَوْجاتِكُمْ اللَّاتِي في عِصْمَتِكُمْ ﴿ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ مِنَ الأَمْوالِ، فَإِنْ كانَ لِلزَّوْجِ أَكْثَرُ مِنْ زَوْجَةٍ تَقاسَمْنَ الثُّمُنَ. ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: تَأْخُذُ الزَّوْجاتُ نَصِيبَهُنَّ، بَعْدَ قَضاءِ دُيُونِ الأَزْواجِ، وتَنْفِيذِ وَصاياهُمْ.

وبَعْدَ أَنَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُكْمَ مِيراثِ الأَوْلادِ، والوالِدَيْنِ، والأَزْواجِ، مِمَّنْ يَتَّصِلُ بِالمَيِّتِ مُباشَرةً، شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بَيانِ حُكْمِ مِيراثِ مَنْ يَتَّصِلُ بِالمَيِّتِ بِواسِطَةٍ، وهُوَ: «الكَلالَةُ»، فَقالَ:

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ أي: إِذا كانَ المَيِّتُ لا وَلَدَ لَهُ، ولا والِدَ، وإِنَّما هُوَ مُكلَّلٌ، ومُكتَنَفٌ، ومُحاطٌ بِحَواشِي النَّسَبِ، كالإِخْوةِ، خالِيًا عَنِ الأُصُولِ، والفُرُوعِ ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ تُورَثُ كَلالَةً أَيْضًا ﴿وَلَهُۥٓ﴾ أي: المَيِّتِ، أَوِ المَيِّتَةِ ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: مِنَ الأُمِّ، كَما ثَبَتَ ذَلِكَ في تَفْسِيرِ الصَّحابةِ، ولأَنَّ الإِخْوةَ الأَشِقَّاءَ، والإِخْوةَ لأَبٍ هُم مِنَ العَصَبةِ،

وَلَيْسُوا مِنْ أَصْحابِ الفُرُوضِ، وسَيَأْتِي ذِكْرُهُمْ في الآيةِ الأَخِيرَةِ مِنَ السُّورةِ: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ أي: الأخِ لأُمٍّ، أَوِ الأُخْتِ لأُمٍّ ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مِنْ غَيْرِ تَفْضِيلِ لِلذَّكَرِ عَلَى الأُنْثَى؛ لأَنَّهُما لا يَرِثانِ تَعْصِيبًا، وإِنَّما مِنْ جِهَةِ الأُمِّ. ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أَكْثرَ مِنْ واحِدٍ ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ يَقْتَسِمُونَهُ بالتَّساوِي: الذَّكَرُ والأُنْثَى فِيهِ سَواءٌ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾ أي: هَذِهِ الأَنْصِبةُ المَذْكُورةُ، إِنَّما تُدْفَعُ لَهُمْ بَعْدَ تَنْفِيذِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها المَيِّتُ، بِشَرْطِ أَنْ لا تُخالِفَ الشَّرْعَ، ولا يَكُونَ فِيها ما يَضُرُّ بِالوَرَثةِ، كَأَنْ يُوصِيَ بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ، أَوْ يُوصِيَ بِالثُّلُثِ فَما دُونَ؛ لِمُجَرَّدِ تَنْقِيصِ حَقِّ الوَرَثةِ، لا لأَجْلِ التَّقرُّبِ إِلى اللهِ، وقَدْ قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «الإِضْرارُ في الوَصِيَّةِ مِنَ الكَبائِرِ»(١).

﴿أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ أي: يَأْخُذُ هَؤُلاءِ الوَرَثةُ ما تَبَقَّى بَعْدَ قَضاءِ دُيُونِ المَيِّتِ، إذا كانَتْ دُيُونًا صَحِيحةً، لَيسَ فِيها إِضْرارٌ، كَأَنْ يُقِرَّ علَى نفسِه بَدَيْنٍ غَيرِ حَقيقِيٍّ، لطَرفٍ، أَوْ أَطْرافٍ أُخْرى؛ بِقصدِ تَنْقيصِ حَقِّ الوَرثةِ، أَوْ حِرمانِهِمْ، أَوْ يَبِيعَ شيئًا بِثمنٍ بَخسٍ، أَوْ يَشتريَ شَيْئًا بِثمنٍ غالٍ، ونَحْوِ ذَلكَ مِنَ الحِيلِ؛ بِقصدِ المُضارَّةِ بِالورثةِ.

وما صَدرَ مِنْهُ مِنْ إِقراراتٍ بِدُيُونٍ وَهْمِيَّةٍ، أَوْ وَصايا ضارَّةٍ، فإِنَّها لا تُنفَّذُ، ولا يُعتمدُ مِنْها شَيءٌ ﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هَذهِ الأَحْكامُ في المَوارِيثِ، وهَذِهِ الضَّوابِطُ، وصِيَّةٌ إِليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ؛ فاعْتَنُوا بِها. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِنِيَّاتِكُمْ، وما يَنْفَعُكُمْ ﴿حَلِيمٞ﴾ لا يُعَجِّلُ العُقوبةَ لِلمُخالِفِينَ والعاصِينَ؛ لَعلَّهم يَتُوبونَ.

وهَذِهِ الآيةُ -والَّتِي قَبْلَها- أَبْطلتْ ما كانَ سائِدًا عِنْدَ العَربِ مِنْ عَدمِ تَوْرِيثِ النِّساءِ، والصِّغارِ، وكَذَلكَ نَسختْ قَولَه سُبْحانَهُ وَتَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «كانَ المالُ لِلْوَلَدِ، وكانَتِ الوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ ما أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ والرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ والرُّبُعَ»(٢).

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٠٢٦)، والبيهقي (١٢٥٨٧)، وإسناده صحيح، وقد رُوي مرفوعا، ولا يصح. انظر: الضعيفة (٥٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٢٧٤٧).

وعَنـه أيضًـا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قَوْلِـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قال: «فكانَتِ الوَصِيَّةُ كَذَلِكَ، حَتَّى نَسَخَتْها آيَةُ المِيراثِ»(١).

وعَنْهُ أَيْضًا في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قـال: «نُسِـخَ ذَلِـكَ بِآيَةِ المِيراثِ مِمَّا فُـرِضَ لَها مِنَ الرُّبُـعِ والثُّمُنِ، وَنَسَخَ أَجَلَ الحَوْلِ، أَنْ جُعِلَ أَجَلُها أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»(٢).

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيـةِ: أَنَّ الزَّوجَ يَرِثُ مِنْ زَوجتِه، والزَّوجـةَ تَرِثُ مِنْ زَوْجِها، بِمُجَرَّدِ العَقدِ؛ وذَلكَ لأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَشترطِ الدُّخولَ للتَّوريثِ.

وفِيهـا: تَعْظِيمُ العَلاقةِ الزَّوجِيَّةِ، والَّتِي بِسـببِها يَحْصلُ هَذا التَّوريـثُ، الَّذِي يَتراوحُ مِنَ النَّصفِ، إلى الرُّبعِ، إلى الثُّمنِ.

وفِيهـا: مُراعاةُ الشَّريعـةِ لِحالِ الأَولادِ، وحـالِ الزَّوْجِينِ، وبَقيَّةِ الوَرَثـةِ؛ فَجاءتْ بِما فيهِ العَدلُ والمَصلحةُ في الأَحوالِ المُختلفةِ.

وفِيها: عِظمُ حَقِّ الأُمِّ، وأَنَّ المُشتركينَ في بَطْنٍ واحِدٍ لهُمْ حُقوقٌ في الشَّريعةِ.

وفِيها: بَيانُ مَكانةِ الأُمِّ في الإِسْلامِ؛ حَتَّى جَعلَ الإِخْوة لأُمٍّ يَرثُونَ بِسببِ أُمِّهِمْ، والإِخْوةُ لأُمٍّ لَهُمْ اسْتِثناءاتٌ:

أحدُها: أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ واسِطتِهِمْ الَّتِي أَدلَوا بِها، وهِيَ الأُمُّ.

والثاني: أَنَّ ذَكَرهُمْ، وأُنْثاهُمْ سَواءٌ.

والثالث: أَنَّ نَصِيبَهُمْ لا يَزِيدُ عَلَى الثُّلُثِ، مَهْما كانَ عَدَدُهُمْ.

والرابع: أَنَّهُمْ لا يَرِثُونَ إِلَّا في حالِ الكَلالَةِ، وهِيَ إِذا كانَ المَيِّتُ لا وَلَدَ لَهُ، ولا والِدَ.

وفي الآيةِ: أَنَّ الوصِيَّةَ يَجِبُ أَنْ تُبْنَى عَلَى العَدلِ، ولا يَجوزُ فِيها الحَيْفُ والجَورُ، كَأَنْ يحرمَ

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٦٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه أبو داود (٢٢٩٨)، والنسائي (٣٥٤٣)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

بَعضَ الوَرثةِ، أو يُنقِصَهم، أو يُنقصَ بَعضَهم حقَّه، أو يَزيدَ آخَرينَ، أو يُقرَّ عَلَى نَفْسِه بِدُيونٍ وَهْمِيَّةٍ للإِضْرارِ بِهم.

وفي الآيـةِ: مُراعـاةُ إبـراءِ ذِمَّةِ المَيِّتِ مِنْ حُقـوقِ الآخرينَ قَبلَ تَوزيعِ التَّرِكـةِ، وأَنَّه يَلزمُ أَولياءُ المَيِّتِ وورثَتُه أَنْ يَقُومُوا بِقضاءِ ما عَليهِ.

وفيها: أَنَّ أَقربَ النَّاسِ إلى المَيِّتِ -بَعْدَ أُصولِه وفُروعِه- هُمْ إِخْوانُه.

وفيهـا: أَنَّـهُ لا يَجـوزُ أَنْ يَحمِـلَ بُغضُ شَـخصٍ لِورثتِـه، أَوْ بَعضِهـم، عَـلَى حِرمانِهم، أَوْ إِنْقاصِهم حُقُوقَهُمْ.

وفيها: إِبطالُ الحِيلِ المُحَرَّمةِ.

وفيهـا: أَنَّ عَـلَى الإِنسـانِ: أَنْ يُراعِـيَ في وصِيَّتِهِ حـالَ الوَرثةِ، والمـالَ الَّذي عِنـدهُ؛ فَإِنْ كانَ كَثـيرًا، أو كانُوا غَيرَ مُحْتاجِينَ تَوسَّـعَ في الوَصِيَّةِ إِلى الثُّلـثِ، وإِنْ كانَ بِخلافِ ذَلكَ تَركَ الوَصِيَّةَ، أو خَفَّفَها.

وفيها: الإِذْعانُ لِوصِيَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ووجُوبُ العَملِ بِمُوجبِها.

وفيهـا: أَنَّ تَمتُّـعَ بَعضِ الظَّلمـةِ بِما أَكَلُوه مِنَ الباطـلِ إِنَّما هُوَ: إِمهالٌ، واسْـتدراجٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولَيسَ إِهْمالًا، ولا عَجْزًا، ولا جَهْلًا بِما يَفْعلُونَهُ.

وفيهـا: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لَمْ يُفـرِّقْ في حُكـمِ الزَّوجةِ الواحِدةِ، والزَّوجـاتِ، كَما فَرَّقَ بَينَ حُكمِ الواحدةِ مِنَ البناتِ، فَأكثرَ، والواحدةِ مِنَ الأَخَواتِ، فَأكثرَ.

وفيها: تَكرارُ ذِكْرِ الوَصِيَّةِ والدَّينِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ لِيعتنيَ بِذلكَ أَولياءُ المَيِّتِ.

وفيها: تَحْريمُ الإِضرارِ بِالغَيرِ في الحَياةِ، وبَعْدَ المَماتِ.

وفي الآيـةِ: ذِكْـرُ تَحريـمِ الإِضْرارِ بالوَرثةِ مِـنَ الأَزْواجِ، والإِخْـوةِ، ولَمْ يَذْكرِ الإِضْرارَ في الآيـةِ الَّتي قَبْلها، المُشْـتملةِ عَـلَى ذِكْرِ مِيراثِ الآبـاءِ، والأَولادِ؛ وذَلـكَ أَنَّ المَيِّتَ قَدْ يَضرُّ زَوجتَه، وإِخْوتَه، ولا يَكادُ يَضُرُّ والِديْه، ووَلَدَه.

وفيهـا: أَنَّ تَقْديـمَ ذِكْرِ المِيراثِ عَلَى الوَصِيَّةِ والدَّينِ، لا لأَنَّه يُبْدأُ بِه قَبلَهما في تَوْزيعِ المالِ،

ولكِنْ؛ اعتناءً بِه؛ لِكثرةِ تَفاصِيلِه، وأَحْكامِه.

وفي الآيتينِ السَّابِقتينِ: تَعْظيمُ حَقِّ وصِيَّةِ اللهِ؛ فإنَّهُ بَدأ الأُولى مِنْهُما بقولِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، وختمَ الثَّانيةَ بِقولِه: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والوَصِيَّةُ مِنَ اللهِ أَمرٌ، وإيجابٌ، ويَتأَكَّدُ الأَمْرُ -أَيْضًا- بِقولِه -في خِتامِ الآيةِ الأُولى-: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والفَرِيضةُ: الشَّيْءُ الواجِبُ.

وفيهما: اقْتِصارُ أَسْبابِ الإِرْثِ عَلَى النَّسَبِ، والنِّكاحِ -وأَضافتِ السُّنَّةُ العِتْقَ- وَهذا يُفِيدُ نَسْخَ الأَسْبابِ الأُخْرَى الَّتِي كانَتْ مِنْ قَبْلُ، كالتَّبَنِّي، والحِلْفِ، والهِجْرةِ، والمُؤاخاةِ، وما كانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ أَنْواعِ التَّوْرِيثِ الباطِلِ.

ولمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَحْوالَ المَوارِيثِ بَعْدَ أَحْكامِ اليَتامَى، والأَنْكحةِ، وَعظَ عِبادَه في اتِّباعِ ذَلكَ، والتَّمسُّكِ بِه؛ تَرْغِيبًا، وتَرْهِيبًا، فَقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٣﴾.

﴿تِلْكَ﴾ أي: أَحْكامُ الفَرائضِ، والمَقاديرُ المُحدَّدةُ للورثةِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ أَحْكامُه الَّتِي حَدَّها، وبَيَّنَها، وشَرَعَها، فَلا تَعْتدُوها، ولا تَجاوَزُوها. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأَوامرِ، والنَّواهِي -ومِنْ أَوامرِهِ: أَحْكامُه هَذِهِ- ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تَسيلُ أَنْهارُ الماءِ، واللَّبنِ، والخَمرِ، والعَسلِ، مِنْ تَحتِ قُصورِها، وأَشْجارِها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يَمُوتُونَ، ولا يُخْرَجُونَ مِنْها. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الخُلودُ والنَّعِيمُ، هُوَ ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الَّذي لا فَوزَ وراءَه، ولا يُدانِيه شَيْءٌ مِنَ الفَوزِ بِحُظوظِ الدُّنيا.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: إِرفاقُ الأَحكامِ بِالمَواعظِ؛ لِتكُونَ أَرْسخَ في النَّفسِ، وأَلْزمَ في الاتِّباعِ، وأَبْعدَ عَنِ العِصيانِ والتَّغيِيرِ.

وفيها: أنّ مِنْ طاعةِ اللهِ، ورسولِه: الالتزامَ بِالحُدودِ الَّتِي حَدَّها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيها: أنَّ الالتزامَ بِحُدودِ اللهِ في المَواريثِ يَقْتَضِي أَنْ لا يُزادَ وارثٌ ولا يُنقصَ مِنْ نَصِيبه الشَّرعِيِّ، ولا يُسقطَ بأيِّ حيلةٍ، أَوْ وَسِيلةٍ.

وفيها: الرِّضَى بحُكمِ اللهِ، وقِسْمتِه في الأَمْوالِ بَيْنَ البَشرِ.

ثُمَّ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -مُتَوعِّدًا مَنْ عَصاهُ في المَوارِيثِ، وفي غَيْرِها مِنَ الأَحْكامِ-:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويُخالِفْهُما، ولَوْ في بَعضِ الأحكامِ ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ يَتَجاوزُ ما شَرعَه، فالعِصيانُ بِتركِ المَأموراتِ، والتَّعدِّي بِفعلِ المَنْهِيَّاتِ ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ عَظِيمةً، هائِلةً. ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ لا يَمُوتُ، ولا يَخْرجُ، وبِالنِّسبةِ لِعُصاةِ المُوحِّدينَ: يَكُونُ المَقصودُ بِالخُلودِ: طُولَ المُكثِ، وأمَّا الجاحِدُونَ: فالبَقاءُ الأبديُّ في النَّارِ. ﴿وَلَهُۥ﴾ ذَلكَ العاصِي المُتَعدِّي ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ شَدِيدٌ، ذُو إِذلالٍ.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: وعِيدٌ للمُخالِفينَ للهِ في الأَحْكامِ، وأَنَّ الإِنْسانَ لا يَسْتَغْنِي بِعقلِه عَنِ الوَحْيِ، وإذا زَيَّنتْ لَه نَفْسُه مُخالفةَ أَوامرِ اللهِ، فَإِنَّ المَوعظةَ بِالعقوبةِ رادعةٌ، وزاجِرةٌ.

وفيها: تَحْذِيرُ مَنْ لَمْ يَرضَ بِما قَسَّمَ اللهُ في المَوارِيثِ، وغَيْرِها.

وفيها: ذِكْرُ العِصْيانِ، والتَّعدِّي، فالعِصْيانُ: تَرْكُ المَأْمُورِ به، كالعُدُولِ عَنِ القِسْمةِ الشَّرْعِيَّةِ لِلمَوارِيثِ، والتَّعدِّي: فِعْلُ المَنْهِيِّ عَنْهُ، كالظُّلمِ.

وفيها: أنَّ عَذابَ جَهنَّمَ يَشْمَلُ: تَعْذِيبَ الجَسَدِ، كالحَرْقِ، وتَعْذِيبَ الرُّوحِ، كالإِذْلالِ، والإِهانةِ.

وفيها: التَّحْذِيرُ مِنْ فِتنةِ المالِ، وأَنَّ شَهْوتَه تَحْملُ عَلى العِصيانِ، وتَعدِّي حُدودِ اللهِ في المَوارِيثِ.

وفِيها: مُعالجةُ مَنْ غَلبَتْهُ شَهْوةُ المالِ؛ بِتَذكُّرِ الوَعيدِ، وعَذابِ النَّارِ.

وفي الآيةِ: ذِكْرُ الخُلُودِ في النَّارِ، وهُوَ نَوْعانِ: خُلُودٌ دائِمٌ، وذَلكَ لِمَنْ جَحدَ أَحْكامَ اللهِ في المَوارِيثِ -مثلًا- أَوِ اسْتَحلَّ مُخالفَتَها، فَهَذا لا يَخْرجُ مِنَ النَّار أَبدًا، وأَمَّا مَنْ خالفَ حُكمَ اللهِ فِيها؛ لِهوى نَفْسِه، أو ظُلمِه، ورغبتِه في الانتقامِ، أَوْ مَيْلًا، ومُحاباةً لِبعضِ الوَرثةِ: فَإِنَّهُ تَحْتَ مَشيئةِ اللهِ: إِنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإِنْ شاءَ غَفرَ لَهُ، وإِذا دَخلَ النَّارَ يَكُونُ خُلودُه فِيها مُؤَقَّتًا، ويَكُونُ طُولُ مُكْثِه بِحسَبِ دَرجةِ ظُلْمِه، وتَعدِّيهِ.

وفِيها: أَنَّ الجَورَ في الوَصِيَّةِ، ومُخالفةَ أَحْكامِ اللهِ في المَوارِيثِ، مِنَ الكَبائرِ المُوجبةِ لِلعذابِ، ولا يَنْجُو صاحِبُ ذَلكَ إِلَّا بِالتَّوبةِ.

وفي هَذِهِ الآيَةِ -مَعَ التِي قَبْلَها-: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ المُطِيعَ في الجَنَّةِ قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ولَمَّا ذَكَرَ العاصِي في النَّارِ قال: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾، وفي هَذا إِشارةٌ إِلى أَنَّ المُؤمنَ في الجَنَّةِ يَتنعَّمُ بِالاستِئناسِ، والاجْتماعِ بِإخوانِه المُؤمنينَ فِيها، وأَمَّا العاصِي في النَّارِ: فَإِنَّهُ -بِالإضافةِ إِلى عَذابِ الحَريقِ- يَتعذَّبُ بِالغُربةِ والوَحشةِ، ولا يَسْتأنِسُ بِاجتماعِه بِالمُعَذَّبِينَ فِيها، بَلْ يَسبُّ بَعْضُهم بَعْضًا، ويَلعنُ بَعْضُهم بَعْضًا، وقالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

وفي الآيتينِ -مِنْ ذِكْرِ ثَوابِ المُطِيعِ، وعَذابِ العاصِي- ما يَحْمِلُ عَلَى تَعلُّمِ أَحْكامِ المَوارِيثِ، وأَحْكامِ اللهِ، والتَّفقُّهِ فِيها؛ لِئَلا يَقعَ في العِصْيانِ، والمُخالفةِ.

وفيهما: أَنَّ الشَّرعَ إِذا جاءَ بِما يُخالفُ ما كانَ عَليهِ النَّاسُ، وما اعْتادُوهُ، وأَلِفُوهُ، وما جَرَوْا عَليهِ الزَّمنَ الطَّويلَ -كفِعلِ العَربِ في عَدمِ تَوريثِ النِّساءِ والصِّغارِ- فَإِنَّهُ يُقرِنُ الحُكْمَ بِما يُرسِّخُه ويُقوِّيهِ؛ بِبيانِ فَضلِ طاعتِه، وشُؤْمِ، وعقوبةِ مُخالفتِه، وأَنَّ التَّغْييراتِ الجَذْرِيَّةَ في الواقِعِ تَحْتاجُ إِلى تَدْعيمٍ، بِما يُسهِّلُ عَلَى النُّفُوسِ اتِّباعَها، ويَمْنعُها مِنَ العَودةِ لِما كانَ عليه الآباءُ، والأَجْدادُ.

وفيهما: تَقْديمُ التَّرغيبِ عَلَى التَّرهيبِ، عِنْدَ ذِكرِ ما خالفَ بِه الشَّرعُ عاداتِ النَّاسِ؛ لِتكُونَ النُّفُوسُ أَسْمحَ في قَبُولِ الحُكْمِ، مَعَ بَيانِ عُقُوبةِ مَنْ يَعْصِيه.

ولَمَّا أَمرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإِحْسانِ إلى النِّساءِ في إيتائِهِنَّ مُهُورَهُنَّ، وحَقِّهُنَّ في المِيراثِ، ذَكَرَ التَّغْلِيظَ عَلَى مَنِ انْحَرفَ مِنْهُنَّ، بِالوُقُوعِ في الفاحِشةِ؛ فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ أي: النِّسوةُ ﴿يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ ويَقَعْنَ في الزِّنا، والفاحِشةُ في اللُّغةِ: القَبِيحُ مِنَ القَوْلِ، والفِعْلِ[1]، والمُرادُ بِها هُنا: الزِّنا. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ المُسْلِماتِ عُمُومًا، وقِيلَ: الحَرائِرُ، وقِيلَ: المُتَزوِّجاتُ، وغَيرُ المُتَزوِّجاتِ، وقِيلَ: الثَّيِّباتُ فَقَطْ. ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ أي: فاطْلُبُوا عَلَى فِعْلِهِنَّ شَهادةً ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ مِنَ الرِّجالِ الأَحْرارِ، العُدُولِ، يَشْهَدُونَ عَلَى زِناهُنَّ ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عَلَى الزِّنا، بِرُؤْيةِ الفَرْجِ يَدْخُلُ في الفَرْجِ. ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي: فاحْبِسُوهُنَّ فِيها، وامْنَعُوهُنَّ مِنَ الخُروجِ. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: يَقْبِضُ مَلَكُ المَوْتِ أَرْواحَهُنّ ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ يُبيِّنُ لَهُنَّ طَرِيقًا، وحُكْمًا آخرَ، وعُقُوبةً أُخْرَى.

وقَدْ كانَ هَذا الحُكْمُ في أَوَّلِ الإِسْلامِ: إذا زَنَتِ المَرْأةُ تُحْبَسُ في البَيْتِ؛ حَتَّى تَمُوتَ، ثُمَّ نَسَخَ اللهُ ذَلِكَ بِما جاءَ في كِتابِه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢]، وبقولِه: ﴿**والشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذا زَنَيا فارْجُمُوهُما البَتَّةَ**﴾، وهِيَ مَنْسُوخةٌ لفْظًا، باقِيةٌ حُكْمًا، في حَقِّ الثَّيِّبِ المُحْصَنِ. وعَنْ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: كانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُرِبَ لِذَلِكَ، وتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ[2]، قالَ: فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ، فَلُقِيَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قالَ: «**خُذُوا عَنِّي، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلًا: الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، والبِكْرُ بِالبِكْرِ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ، ثُمَّ رَجْمٌ بِالحِجارَةِ، والبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ، ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ**»[3].

---

(١) لسان العرب (٦/ ٣٢٥).

(٢) أَيْ: عَلَتْهُ غَبَرَةٌ. والتَّرَبُّدُ: تَغَيُّرُ البَياضِ إلى السَّوادِ، وَإِنَّما حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ؛ لِعِظَمِ مَوْقِعِ الوَحْيِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾. شرح النووي على مسلم (١١/ ١٩٠).

(٣) رواه مسلم (١٦٩٠).

وفي هَـذا الحَدِيثِ: الجَمْعُ بَيْنَ الجَلدِ والرَّجْمِ للـزَّانِي المُحْصَنِ، وهُوَ رِوايةٌ عَنِ الإِمامِ أَحْمَدَ[١]، وذَهَبَ الجُمْهُورُ إلى أَنَّ الثَّيِّبَ الزَّانِي إِنَّما يُرْجَمُ فَقَطْ، مِنْ غَيرِ جَلْدٍ، كَما في قِصَّةِ ماعزٍ والغامِديَّةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، وكَذلِكَ رَجْمُ اليَهودِيِّينِ، فاسْتدَلُّوا بِذلكَ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ نَسَخَتْ جَلْدَ المُحْصَنَيْنِ، وأَبْقتْ عليهما الرَّجْمَ فَقطْ[٢].

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: سُوءُ وُقُوعِ الفاحِشةِ مِنَ الأُنْثَى؛ ولِذَلكَ نَصَّ عَلَيْها في هَذِه الآيةِ، وشَمَلَها مَعَ الذَّكَرِ في الآيةِ التِي بَعْدَها: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا﴾. وأيضًا: قَدَّم ذِكرَ الزَّانيةِ عَلَى الزَّانِي في قَوْلِه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢]، مَعْ أَنَّ الزِّنا قَبِيحٌ مِنَ الجِنْسينِ كليهِما.

وفِيها: أَنَّ ما مَرَّ مِنَ الإِحسانِ إِلى النِّساءِ في هَذِه السُّورةِ لا يَعْنِي إِهمالَهنّ، وتركَهنّ، وتضييعَهنّ، بِما يُؤَدِّي إلى وُقُوعِهنَّ في الفاحشةِ، وأَنَّ مَنْ وَقَعَتْ في ذَلكَ مِنْهُنَّ تُعاقَبُ، وأَنَّ مِنْ تَمامِ الإِحْسانِ إِلى المَرأةِ: مُعاقَبَتَها إِذا وَقَعَتْ في الحَرامِ.

وفِيها: أَنَّ مِنْ شُروطِ الشَّهادةِ في الزِّنا: الذُّكورةَ، والعَدالةَ، وقالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَضَتِ السُّنَّةُ مِنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ: أَلَّا تَجُوزَ شَهادَةُ النِّساءِ في الحُدُودِ»[٣].

وفِيها: إبعادُ النِّساءِ عَنْ مَواقِعِ الفَواحشِ، والفُجورِ.

وفِيها: أَنَّهُ يَنْبغِي عَلَى المَرأةِ المُسْلمةِ أَنْ تَكُونَ غافلةً عَنِ القَبائحِ، ولا تُفكِّرَ في الفَواحِشِ، ولا تَأْتِيَ مَواطِنَ الرِّيبةِ، ولا ما يُذَكِّر بِالفاحِشةِ، أَوْ يَدعُو إليها.

---

(١) والثانية: يُرجم، ولا يُجلد. انظر: المغني (٩/ ٣٧).

(٢) وقال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ -كما في فتاويه (١٢/ ٢٢)-: «لا يُجمع في إقامة الحدّ بين الجلدِ والرجم، بل يُكتفي بالرجمِ وحدَه، وإنْ كانَ قد جاءَ في بعضِ الأحاديثِ الصحيحةِ الجمعُ بينَهما، إلا أنّ ذلك كانَ في أوّلِ الأمرِ، ثم نُسخ بالاكتفاءِ بالرجمِ فقط» انتهى.

وقال ابنُ جبرين رَحِمَهُ اللهُ: «هذا هُو الذي عليه العملُ: أنّ الثيبَ يُرجمُ فقط. إذا عُرف بأنّه سيموتُ بالرجم؛ فما الفائدةُ مِن جَلده؟» انتهى من موقعِ الشيخ.

(٣) رواه ابنُ أبي شيبةَ في المصنّف (٥/ ٥٣٣).

وفِيها: أَنَّهُ يَجوزُ طَلَبُ الشُّهودِ لِمُعاينةِ الزِّنا إِذا وَقَعَ، وأَنَّ تَعمُّدَ نَظرِ الشُّهودِ إلى مَنْ يُواقِعُ الفاحشةَ للتَّأكُّدِ مِنْ فِعْلتِه، والشَّهادةِ عَلَى ذَلكَ، لا يَقْدَحُ في العَدالةِ، مَعْ أَنَّ فِيهِ نَظَرًا إِلى العوراتِ؛ وذَلكَ للضَّرورةِ.

وفِيها: أَنَّ الزِّنا مِنَ المَرأةِ يَقَعُ عِنْدَ الخُروجِ، والظُّهورِ إِلى الرِّجالِ، فَإِذا جَلَسَتْ في البَيتِ، لا تَخْرُجُ إِلى رَجُلٍ، ولا يَدْخُلُ عَلَيْها رَجُلٌ، لَمْ تَقَعْ في الزِّنا.

وفِيها: أَنَّ المَرأَةَ إِذا خَرجَتْ بِالشُّروطِ الشَّرعيَّةِ في غَيرِ رِيبةٍ؛ فَإِنَّها لا تُمْنَعُ مِنَ الخُرُوجِ.

وفِيها: تَهْويلُ المَوتِ، والإِشارةُ إِلى مَلائكةِ المَوتِ.

وفِيها: أَنَّ القُرآنَ يَأْتِي -أَحيانًا- بِالإجمالِ، ويُنَزِّلُ اللهُ في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ بيانَ ذَلكَ، وتَفْصِيلَه، كَما حَدَثَ في السَّبيلِ المَذْكُورِ في الآيةِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ بَيَّنَتْهُ بِحَديثِ: «**خُذُوا عَنِّي**»المُتَقدِّمِ.

وفِيها: الاحْتِياطُ لِحَدِّ الزِّنا؛ بِجَعْلِ عَددِ الشُّهودِ أَرْبعةً.

وفي الآيةِ: مُحارَبةُ الجرائِمِ العَلَنِيَّةِ؛ فَإِنَّ الزِّنا إِذا اطَّلعَ عَلَيهِ أَرْبعةٌ مِنَ الشُّهُودِ، فَمَعْنَى ذَلكَ: أَنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ في السِّرِّ -غالِبًا-.

وفِيها: التَّدَرُّجُ في حَدِّ الزِّنا؛ فَإِنَّهُ أَمَرَ بِالحَبْسِ أَوَّلًا، ثُمَّ شَرَعَ الجَلْدَ، والرَّجْمَ.

وفِيها: أَنَّ الحَبْسَ عُقُوبةٌ، يُعزَّرُ بِها مَنْ يَسْتحِقُّها.

وفِيها: ارْتباطُ تَنْفِيذِ الحُكْمِ بِأَداءِ الشَّهادةِ؛ لِقَوْله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾.

وفِيها: عَزْلُ مَنْ يَقعُ في الحَرامِ؛ حَتَّى لا يُفْسِدَ غَيرَه.

وفِيها: أَنَّ الفاحشةَ مِنَ النِّساءِ أَقْبحُ؛ لأَنَّ الفَضِيحةَ فِيها أَشَدُّ، ولأَنَّ الدَّاعِي إِلَيْها أَضْعفُ، ومَعْ ذَلكَ وَقعَتْ فِيها، ولأَنَّها تُدْخِلُ عَلَى زَوْجِها مَنْ لَيسَ مِنْ أَوْلادِه، وتُلَوِّثُ فِراشَه، ونَسَبَه، وتَكُونُ سَببًا في إِنْقاصِ نَصِيبِ الوَرَثةِ، وإِعْطاءِ مَنْ لَيسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ.

وفِيها: كَفُّ الزَّانِيةِ، وحَبْسُها؛ حَتَّى يُسهِّلَ اللهُ لَها قَضاءَ الشَّهوةِ بِطريقِ النِّكاحِ.

ولـمَّا كانَ الزِّنا مِنْ المرأةِ أَقْبحَ -مَعْ قُبحِه مِنْ كِلا الجِنْسينِ- مِنْ جِهةِ أَنَّها مَأْمُورةٌ بِالقَرارِ، والسِّترِ، وأَنَّ شَهْوتَها أَضْعفُ مِنَ الرَّجُلِ في الغالبِ، وأَنَّ الزَّانِيةَ تُلْحِقُ العارَ بِأَهْلِها أَكْثرَ مِمَّا

يُلْحِقُه الزَّانِي: نَصَّ عَلَى ذِكْرِها في الآيةِ السَّابِقةِ، بِقَوْلِه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، ثُمَّ شَمَلَها بِالحُكْمِ مَعَ الزَّانِي، فقالَ:

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾ أي: الذَّكرُ، والأُنْثى، اللَّذانِ يَفْعلانِ الفاحشةَ، وقِيلَ: المَقْصودُ: الذَّكَرانِ إِذا وَقَعا في اللِّواطِ، وقِيلَ: الأُنْثَيانِ إذا وقَعَتا في السِّحاقِ، وقِيلَ: البِكْرانِ اللَّذانِ لَمْ يُحْصَنا، وقِيلَ: تَشْمَلُ المُحْصنَ، وغَيرَ المُحْصنِ. ﴿مِنكُمۡ﴾ يا أَيُّها المُسْلِمُونَ ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بِالتَّعزيرِ، والتَّوبيخِ، والسَّبِّ بِاللِّسانِ، والضَّربِ بِالنِّعالِ، والتَّهديدِ، والوَعِيدِ، وقَدْ كانَ هَذا قَبْلَ نُزُولِ حَدِّ الزِّنا في آيةِ النُّورِ، وبَيانِه في السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ. ﴿فَإِن تَابَا﴾ أي: أَقْلَعا، ورَجَعا عَنْ فِعْلِ الفاحِشةِ، ونَزَعا عَمَّا كانا عَلَيْهِ، ونَدِما عَلَى ما فَعَلاهُ ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ صَلَحَتْ أَعْمالُهُما، وحَسُنَتْ، وأَصْلَحا ما بَيْنَهُما وبَيْنَ اللهِ، وما بَيْنَهُما وبَيْنَ النَّاسِ ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ أي: اتْرُكُوا إِيذاءَهُما، ولا تُعَيِّرُوهُما؛ لأَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا﴾ كَثِيرَ القَبُولِ للتَّوْبةِ ﴿رَّحِيمًا﴾ كَثِيرَ الرَّحْمةِ، واسِعَ المَغْفرةِ، يَتَجاوَزُ، ولا يُعاقِبُ التَّائِبَ.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: مُعاقبةُ الطَّرفَينِ في الفِعْلِ المُحرَّمِ، إذا كانَ بِرِضاهُما.

وفِيها: تَحْرِيمُ الفاحِشةِ بِأَنْواعِها، سواءً كانَتْ زِنًا، أَوْ لِواطًا، أو مُساحَقةً.

وفِيها: الجَمْعُ في التَّعزيرِ بَيْنَ الأَذَى بِالقَولِ، والفِعْلِ.

وفِيها: التَّعزيرُ بِما يَحْصُلُ بِه الزَّجْرُ.

وفِيها: تَشجيعُ التَّائِبِ عَلَى التَّوبةِ، بِكفِّ الأَذَى عَنْهُ.

وفِيها: أَنَّ التَّوبةِ عَمَّا مَضَى مِنَ الحَرامِ لا تَكْفِي، حَتَّى يَحْصُلَ إِصْلاحُ الأَعْمالِ المُستقبلةِ، وإِصْلاحُ فَسادِ ما مَضَى، بِما يُمْكِنُ.

وفيها: أَنَّ الكَفَّ عَنِ الحَرامِ قَبْلَ وُقُوعِه أَسْهلُ بِكثيرٍ مِنْ تَحمُّل نَتائِجِ ما بَعْدهُ؛ لأَنَّ للمَعْصيةِ شُؤْمًا، وآثارًا، لا يُمْكِنُ تَدارُكُها، وإِصْلاحُها -أحيانًا-.

وفيها: تَحْريمُ إِيذاءِ التَّائِبينَ، وقَدْ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ، فتَبَيَّنَ زِناها، فَلْيَجْلِدْها الحَدَّ، ولا يُثَرِّبْ عَلَيْها**»(١) أي: لا يُعَيِّرْها بِما فَعَلَتْ، بَعْدَ الحَدِّ الذِي هُوَ كَفَّارةٌ لَها، وتَطْهيرٌ.

وفِيها: تَذكيرُ العِبادِ بِصفةِ الرَّحمةِ للهِ؛ كَيْ يَرْحَمُوا التَّائِبينَ، ويُحْسِنُوا إِليهِمْ، بَعْدَ تَوْبتِهِمْ.

وفِيها: التَّفريقُ في مُعاملةِ المُذنبِ، قَبْلَ التَّوبةِ، وبَعْدها؛ تَشْجِيعًا لَهُ ولِغيرِهِ عَلَى الرُّجوعِ إِلى الحَقِّ.

وفيها: أَنَّ تَذكيرَ التَّائِبِ بِذنبِه، ونَبْشَ الماضِي يُسِيءُ إِليهِ، وقَدْ يُعِيدُه لِما كانَ فِيهِ.

وفِيها: أَنَّ تَعيِيرَ التَّائِبِ بِذنبِه بَعْدَ تَوبتِه خَطِيئةٌ تُوجِبُ التَّوبةَ، وقَدْ يُبْتَلَى مَنْ عَيَّرَ أَخاهُ بِذنبٍ بِوُقوعِه فِيهِ.

وفِيها: حُسْنُ اسْتقبالِ التَّائِبينَ المُصْلِحِينَ، والفَرحُ بِتَوبتِهِمْ، وفي ذَلكَ حِمايةٌ لَهُمْ، وتَثْبِيتٌ.

وَلَمَّا كانَ داعِي الشَّهوةِ قَوِيًّا، والوُقوعُ في الحَرامِ يَكْثُرُ، دَعا اللهُ إِلى التَّوبةِ، وفَتَحَ بابَها، ورَغَّبَ فِيها، فَقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ الصَّحِيحةُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المَقْبُولةُ عِنْدَهُ بِمُقتضَى وَعْدِه، ووَعْدُه لا يَتخلَّفُ. ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ الذُّنُوبَ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ وسَفَهٍ، يَجْهَلُونَ حَقَّ اللهِ، وقَدْرَهُ، وعَظَمَتَهُ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ يَنْدمُونَ، ويَرْجعونَ إِلى طاعتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مِن قَرِيبٖ﴾ قَبْلَ نُزُولِ المَوْتِ، أَوْ بَعْدَ المَعْصِيةِ، وسُكُونِ ثُورةِ الشَّهْوةِ، وانْكِسارِ حِدَّةِ الغَضبِ، ولا يُؤَخِّرُ

---

(١) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣).

التَّوبـةَ، حَتَّـى لا يُعَـدَّ في المُصِرِّينَ، وقَدْ قـالَ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَـلُ تَوْبَةَ العبدِ ما لَمْ يُغرْغِـرْ**»(١). ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَقْبَـلُ توبتَهُـمْ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُـصِرُّوا علَى ما فَعَلُوا، وهُـمْ يَعْلَمُونَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِمَنْ يُطِيـعُ، ويَعْصِي، ويَتُوبُ، ويُعْرِضُ ﴿حَكِيمًا﴾ في تَدْبيرِه لِخَلْقِه.

فَوائِدُ الآيةِ:

في الآيةِ: التَّوبةُ مِنَ الشَّهَواتِ والأفعالِ المُحرَّمةِ.

وفِيها: أَنَّ اللهَ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِه التَّوبةَ عَلَى مَنْ تابَ تَوْبةً نَصُوحًا، وهَذا وُجُوبُ تَفَضُّلٍ، وإِحْسانٍ، ولَيسَ وُجُوبَ إِلزامٍ؛ فَإِنَّهُ لا أَحَدَ يُوجِبُ عَلَى اللهِ شَيْئًا.

وفِيها: مُؤاخَذةُ الذِي يَعْصِي وهُوَ لا يَعْلَمُ أَنَّها مَعْصيةٌ، مَعْ إِمكانِه العِلْمَ بِذَلكَ.

وفِيها: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى المُذْنبِ أَنْ يَتُوبَ مُباشرةً، وأَنَّ تَأْخِيرَ التَّوبةِ ذَنْبٌ يَحْتاجُ إِلى تَوْبةٍ.

وفِيها: أَنَّ المُذْنِبَ -وهوَ في سُكْرِ الشَّهْوةِ- يَجِبُ عَلَيهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلى دِينِه، وعَقْلِه.

وفِيها: أَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جاهِلٌ، كما قالَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ -إِخْبارًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِالسَّلَامُ-: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقـالَ قَتـادةُ: «أَجْمَـعَ أَصْحـابُ رسـولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَـلَى أَنَّ كُلَّ ما عُـصِيَ بِهِ اللهُ فَهُـوَ جهالَةٌ -عَمْـدًا كانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ- وَكُلَّ مَنْ عَصَى اللهَ فَهُوَ جاهِلٌ»(٢).

وفِيهـا: أَنَّ العـاصِيَ لِربِّهِ، لَوِ اسْـتعملَ ما مَعَهُ مِـنَ العِلْمِ بِالثَّوابِ والعِقـابِ لَمَا أَقْدَمَ عَلَى المَعْصِيةِ.

وفِيهـا: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى العـاصِي أَنْ يَتُوبَ في صِحَّتِه، قَبْلَ مَرضِ مَوْتِه، وأَنَّهُ لا تَنْفَعُه التَّوْبةُ إذا عايَنَ أَهْوالَ المَوْتِ، ونَزَلَ بِهِ مَلَكُ المَوْتِ.

وفِيها: أَنَّ كُلَّ ما هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وأَنَّ الدُّنْيا سَرِيعةُ الانْقِضاءِ.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٣٥٣٧)، وصححه أحمد شاكر في التعليق على المسند.

(٢) تفسير البغوي (١/ ٥٨٦).

وفِيهـا: أَنَّ التَّائِبِـينَ دَرَجاتٌ: فَمِنْهُـمُ التَّائِبُ بَعْـدَ الإِصْرارِ، ومِنْهُمُ التَّائِـبُ بَعْدَ الذَّنْبِ مُبـاشَرةً، ومِنْهُـمُ الَّـذِي يَتكَرَّرُ مِنْهُ الذَّنْبُ كَثِـيرًا، ومِنْهُمْ مَنْ لا يَقَعُ فِيـهِ إلا لِمامًا، ومِنْهُمْ مَنْ يَتُوبُ بَعْدَ كُلِّ مَرَّةٍ، ومِنْهُمْ مَنْ يَقَعُ فِيهِ مِرارًا، ثُمَّ يَتُوبُ.

وفي الآيةِ: رَجاءُ رحمةِ اللهِ.

وفِيها: وَصْفُ عَملِ السُّوءِ بِأَنَّهُ جَهْلٌ.

وفِيها: أَنَّ الجَهْلَ بِحَقِّ اللهِ يَصُدُّ عَنِ التَّوبةِ.

وفِيها: أَنَّ مَنْ نَزَلَتْ بِه سَكْرَةُ المَوْتِ، فَغُلِبَ عَلَى عَقْلِه، لا تُقْبَلُ تَوْبتُه.

وفِيها: أَنَّ فِعْلَ المَعْصِيةِ بِسَفَهٍ يُخْرِجُ فاعِلَها عَنِ الحَقِّ، والعِلْمِ.

وبَعد أن ذَكَر عَزَّوَجَلَّ حالَ مَنْ تُقبَل توبتُهم، ذَكَر حالَ مَنْ لا تُقبَلُ توبتُهم، فقالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾.

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ﴾ أي: ليـسَ قَبولُ التَّوبةِ مِـنَ الله ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَرتكِبونَ المعاصِيَ، والذُّنوبَ، ويَسْـتمِرُّونَ عليهـا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أوائِلُـه، وعلامتُـه، فنَزَل به، وأَيِسَ مِنَ الحيـاةِ ﴿قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ورَجَعْتُ إِلَى طاعةِ اللهِ، وهذا كَتَوْبةِ فِرْعونَ، حينَ أدْركَهُ الغرقُ ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي: يموتونَ علَى الكُفرِ، والشِّركِ، فلا يَنفَعُهم نَدمٌ، ولا توبةٌ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: المُسَـوِّفُون، والمُشركُونَ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ هيَّأنا ﴿لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ مُوجِعًا في الآخرةِ؛ جزاءً وِفاقًا علَى إصْرارِهِم.

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ مَـنْ تابَ إِلَى اللهِ، وهُو يَرْجو الحياةَ، فـإِنَّ توبتَه مقبولةٌ، بخلافِ ما إذا يَئِسَ مِنْها، وعايَـنَ المَلَـكَ، وحَشْرجَـتِ الـرُّوحُ في الحَلـقِ، وتـردَّدتْ، واضْطَرَبَـتْ، وضاقَ بها

الصَّـدرُ، وبَلغَـتِ الحُلقومَ، صاعـدةً في الغَلاصِمِ[١] ما بَـينَ الرَّأْسِ والعُنُـقِ: فَلا تُقبلُ التوبةُ حِينئذٍ.

وفِيهـا: أنَّ التَّوبـةَ لا تُقبلُ حينَ نُزولِ الهَلاكِ، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وفِيهـا: أنَّ التَّوبـةَ لا تُقبـلُ إذا قامَتِ السَّـاعةُ الصُّغـرَى -وقِيامةُ كلِّ إنسـانٍ: إذا نَزَل به المَوتُ- ولا حِينَ قيامِ السَّـاعةِ الكُبرَى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلـك حـينَ طُلوعِ الشَّمسِ مِنْ مَغربِها.

وفِيها: خَطَرُ الشِّركِ، وأنَّه مُحْبِطٌ للتَّوبةِ.

وفِيها: أنَّ بعضَ مَنْ يَنزِلُ به المَوتُ، يَتكلَّم -حقيقةً- بالتوبةِ، ولَكنْ لا يَنفعُه ذلك.

وفِيهـا: خُطُـورةُ المعاصِي، والاسـتمرارُ علَيهـا؛ لأنَّ الخَطِيئاتِ إذا أحاطَـتْ بصاحِبِها، صَرَفَتْه عنِ التوبةِ.

وفِيهـا: أنَّ توبةَ أصحابِ الأمراضِ القاتِلـةِ المُميتةِ: «كالسَّرطانِ، والإيدْز»لَو تابُوا قَبْلَ الغَرْغَـرةِ، فإنَّـه تُقْبلُ توبتُهم، ولَو كانُوا في حالِ المَرضِ، وكَذلِك تُقْبلُ توبةُ المَحْكومِ علَيه بالقَتلِ، قَبْلَ أَنْ يَنزِلَ السَّيفُ علَى رَقبتِه.

وفي الآيةِ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سَوّى في عَدَمِ قبولِ التَّوبةِ، بَيْن الذين سَوَّفوا توبتَهم إلَى أَنْ حَضَرَ المَوتُ، وبَيْن الذينَ ماتُوا علَى الكُفرِ، ولَكنَّ المُسـلِمَ المُصِرَّ تحتَ مشيئةِ اللهِ في الآخرةِ، إنْ شـاءَ عذَّبَه، وإنْ شـاءَ غَفَرَ لَهُ، بخلافِ مَنْ ماتَ علَى الكُفرِ؛ فإنَّه سَـيدْخُلُ النَّارَ حَتْمًا، ويُخلَّدُ فيها.

وفِيها: وُجُوبُ إدراكِ المُذنبِ لِقُبحِ السَّيِّئاتِ، والسَّعْيِ لإزالةِ محَبَّتِها مِنْ نفسِهِ، والنَّدمِ، والعَزمِ علَى أنْ لا يعودَ إليها، والحَذَرِ مِنَ الإصْرارِ علَى المعصيةِ، والاسْتِئناسِ بها.

---

(١) الغَلاصِـمُ جَمْـعٌ، ومُفـرده: (الغَلْصَمَةُ)، وهـي: رَأْسُ الحُلْقُومِ، وَهُـوَ المَوْضِعُ النَّاتِئُ في الحَلْـقِ. المصباح المنير للفيومي (٢/ ٤٥٠).

وفيها: أنَّ مَنْ كانَ حَريصًا علَى فِعلِ المعصيةِ، مُشتَهيًا ومُتمنيًّا بقلبِهِ لها؛ فإنَّه آثمٌ، مُستَحِقٌّ للعُقوبَـةِ، ولَـو لَمْ يَفعَلْها؛ وذلكَ لأجْـلِ عَمَلِ قلبِه، كالعاجِزِ عَنِ الـوَطْءِ وهُو يَتَمنَّى الزِّنَى، بحَيْـث لَـو كانَ قادِرًا لَفَعَلَـه، والذي يُقاتِـلُ صاحِبَه وهو حَريـصٌ علَى قَتلِه، ولَـو لم يَقْتُلْه، فيَأْثـمانِ عـلَى عَمَلِ القلبِ، وهـو: العَزمُ والحِرْصُ عـلَى المعصيةِ، وأمَّا مَـنْ خَطَرَتِ المعصيةُ بقلبِهِ فقَط، فَلا يَأثَمُ علَيها، ومَنْ هَمَّ بِفِعلِ سيِّئةٍ؛ وتَرَكَها للهِ، فإنَّه يُؤْجَرُ علَى ذلك.

وفي الآيةِ: أنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنسِ العَملِ؛ فكما تلذَّذَ بالمعصيةِ في الدُّنيا، كانَ له عذابٌ مُؤلِمٌ، مُوجِعٌ، في الآخرةِ.

وفِيهـا: أنَّ وُجـودَ التوبـةِ كعَدَمِهـا عندَ انْكشـافِ الغِطـاءِ، ومُعايَنةِ الآخرةِ، ومُشـاهَدةِ المَلائكةِ، قال ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «التوبةُ مَبْسُوطةٌ ما لَمْ يَنزِلْ سُلطانُ المَوتِ»(١).

وفِيها: أنَّ توبةَ الاختيارِ تَنفعُ، بخلافِ توبَةِ الاضطِرارِ.

وفِيهـا: أنَّ مَـنِ اسـتَمَرَّ علَى ذُنوبِـهِ، وأصرَّ عـلَى عُيوبِهِ؛ تَصِيرُ سـيئاتُه صِفاتٍ راسـخةً، وعاداتٍ ثابتةً؛ فيَعْسُر عليه التوبةُ منها.

وفِيها: زَوالُ التَّكليفِ بنُزُولِ المَوتِ.

ثُمَّ عادَتِ الآياتُ إلَى ذِكْرِ أُمورٍ تتعلَّقُ بالنِّسـاءِ والزَّوْجاتِ، ورَفْعِ الظُّلمِ عَنْهنَّ، وإبْطالِ سَيِّئاتِ الجاهليَّةِ المُضرَّةِ بحقوقِهنّ، فقالَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُخاطبًا الأولِياءَ، والأزواجَ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بـاللهِ، ورسـولِهِ ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ يَحرُمُ، ولا يَجُوزُ ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ فتجعلُوهُـنَّ مِيراثًا، كالأموالِ، والعَبيـدِ، وتَتَصرَّفُوا فِيهنَّ ﴿كَرْهًا﴾ وهُنَّ كارهاتٌ لِذلـك، وعَـنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كانُوا إذا ماتَ الرجـلُ كانَ أولياؤُه أحَقَّ بامرأَتِه، إنْ

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٣٧).

شاءَ بعضُهم تَزَوَّجَها، وإنْ شاءُوا زوَّجُوها، وإنْ شاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوها، فَهُم أحَقُّ بها مِنْ أهلِها، فنَزَلتْ هذه الآيةُ في ذلك»[١]. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تَحْبِسُوهُنَّ -يا أيها الأزواجُ- ولا تُضَيِّقوا علَيهنَّ بِسُوءِ العِشْرةِ ﴿لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لِتأخُذُوا، وتَسْترجِعوا مِنْهنَّ بعضَ المَهْرِ، الذي أَعْطيتُمُوهنَّ إيَّاه مِنْ قَبْلُ.

ومِنْ ظُلْمِ الجاهِليَّة الذي يَدْخُلُ في هذا البابِ: ما رواهُ عبدُالرحمنِ بنُ زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كانَ العَضْلُ في قُريشٍ بمكةَ، يَنْكِحُ الرجلُ المرأةَ الشَّريفةَ، فَلَعَلَّها لا تُوافِقُه، فَيُفارِقها على أنْ لا تُزَوَّجَ إلا بإذْنِه، فيَأتِي بالشُّهودِ، فيَكتب ذلك علَيها ويُشْهِد، فإذا خَطَبَها الخاطِبُ فإنْ أعطَتْه، (أي: الزوجَ الأولَ) وأرْضَته، أذِنَ لها، وإلا عَضَلَها».

قال: «فهذا قولُ الله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾»[٢].

وقيلَ: المُرادُ بهذا الخِطابِ: الأولياءُ، الذين يَحْبِسونَ المرأةَ؛ لِيَذْهبوا ببعضِ ما أُوتِيَتْه مِنْ ميراثِها. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ يَقْترِفْنَ، ويَرْتكبْنَ ﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: ظاهرةٍ في ذاتِها، قال كثيرٌ من المُفسِّرين: «هِيَ الزِّنا»، وقَرأَ بعضُهم: ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ بفتحِ الياءِ، أي: يُقدِّمُ مَنْ يَدَّعِيها البَيِّنةَ علَيها: فلا حَرَجَ علَيْكم حِينئذٍ أنْ تُضَيِّقوا عليهنَّ؛ لِتَسْترجِعوا بعضَ المَهْرِ؛ لأنَّ الزوجةَ تكونُ قدْ ظَلَمَتْ زوجَها في هذهِ الحالةِ، ولَوَّثتْ فِراشَه، وانْتهكَتْ عِرْضَه، وجَلَبَتْ علَيه الفَضيحةَ، والعارَ، فجازَ له أنْ يَسترْجِعَ مَهْرَه، أو بَعضَه، وقد ذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلَى أنَّ الفاحشةَ المُبيِّنةَ تَشملُ: النُّشوزَ، والعِصيانَ، وتَمرُّدَ المرأةِ، فيجوزُ تأديبُها بعَضْلِها، وإضْجارِها؛ حتَّى تعودَ إلى رشدِها، أو تُخالِعَ زوجَها، بإعادةِ مالِهِ، أو بعضِه.

ولمَّا نَهَى عَنْ ظُلْمِ المرأةِ، أمَرَ بالإحْسانِ إليها، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ خالِطوهُنَّ، وصاحِبوهُنَّ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما عَرفَه الشَّرعُ، وتَعارفَ عليهِ الناسُ، مِنْ جميلِ الأخلاقِ، والأفعالِ الحَسَنةِ، والأقوالِ الطَّيِّبةِ، فلا يُضَيِّقُ علَيها في النفَقةِ، ولا يُؤذِيها بقولٍ، أو فِعلٍ، ولا يُقابلُها بوَجهٍ عَبُوسٍ، وجَبينٍ مُقَطَّبٍ، وقد كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميلَ العِشرةِ، دائمَ البِشْرِ، يُداعبُ أهلَه، ويَتلطَّفُ بهم، ويُضاحِكُهم،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٥٧٩).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ١١٣).

ويُسامِرُهم، ويُؤانِسُهم، ويُسابِقُهم، ويُشارِكُهم في الخِدمةِ، ومِهْنةِ البَيتِ، ويُوسِّعُ علَيهم في النَّفقةِ، وقالَ: «**خَيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خَيرُكم لأهلي**»(١).

﴿**فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ**﴾ لِعَيبٍ في أخلاقِهِنَّ، أو دَمامةٍ في خِلْقتِهِنَّ، أو تَقصيرٍ في خِدمَتِهِنَّ، وعَمَلِهِنَّ: فاصْبِروا، ولا تَعجَلُوا بِمضارَّتِهِنَّ، ومُفارَقَتِهِنَّ ﴿**فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا**﴾ وتتغيَّرَ الأحوالُ؛ فتذهبَ الكَراهةُ، وتحِلَّ المحبةُ ﴿**وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ**﴾ في المكروهِ الذي صَبَرتُم علَيه ﴿**خَيۡرٗا كَثِيرٗا**﴾ ونَفعًا عَظيمًا في الدنيا والآخِرة.

وقد قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الآيةِ: «**هُو أن يَعْطِفَ علَيها، فيُرزقَ مِنْها وَلدًا، ويكونَ في ذلك الولدِ خيرٌ كثيرٌ**»(٢)، وفي الحديثِ الصحيحِ: «**لا يَفْرَك**(٣) **مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِهَ مِنْها خُلُقًا، رَضِيَ مِنْها آخرَ**»(٤).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

قُبْحُ ما كان يَفعلُه أهلُ الجاهِليَّةِ، مِنْ توريثِ النِّساءِ، كما تُورَثُ الأموالُ.

وفِيها: أنَّ المرأةَ ليْستْ مِلْكًا لزوجِها، بمعنى: أنَّه لا يَمْلِكُ عَيْنَها، وذاتَها؛ ولذلك فهِيَ ليستْ مِنْ ميراثِه، بخلافِ الأَمَةِ.

وفِيها: إبْطالُ قانونِ أهلِ الجاهِليَّةِ في الاستيلاءِ علَى نساءِ الميِّتِ: فقد كانَ الرجلُ إذا ماتَ، وترَكَ امرأةً، ألْقَى قريبُه علَيها ثَوْبًا، فمَنَعَها مِنَ الناسِ، فإنْ كانت جميلةً تَزَوَّجَها، وإنْ كانتْ غيرَ ذلك حَبَسَها حتَّى تموتَ؛ ليرثَها، أو حَبَسَها؛ لتفتَديَ مِنْه بفِديَة. وإذا كانتْ صغيرةً حَبَسَها؛ ليتزوّجَها هو، أو أحدُ أولادِه، وكان مِنْ قوانينِهم السَّخيفةِ: أنَّها إذا استَطاعتِ الهَرَبَ قَبْلَ أن يُلْقَى علَيها ثوبٌ، ووصلَتْ إلى أهلِها: نَجَتْ، ومَلَكَتْ نفسَها، فأبطلَ اللهُ ذلك كلَّه بهذهِ الآيةِ.

وفِيها: أنَّ الحُرَّةَ تَمْلِكُ نفسَها، والمَهْرِ مِنْ حقِّها عندَ الزَّواجِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وصححه، وابن حبان في صحيحه (٤١٧٧)، وهو حديث صحيح.

(٢) تفسير الطبري (٨/ ١٢٣)، تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٢٤٣).

(٣) أي: لا يبغض.

(٤) رواه مسلم (١٤٦٩).

وفِيهـا: المسـؤوليةُ العظيمةُ لأولياءِ النِّسـاءِ أمامَ اللهِ، وأنَّه يَجِبُ علَيهـم رِعايةُ مَنْ ولَّاهمُ اللهُ علَيهِنَّ.

وفِيهـا: أنَّ التَّخْصيصَ بالكُرهِ في الآيةِ، لا يدلُّ علَى إباحـةِ تَمَلُّكِ المرأةِ الحُرَّةِ عندَ عَدَمِه، كـما لَـو رَضِيَت؛ لأنَّ تخصيصَ الشيءِ بالذِّكْرِ لا يَنْفي ما عداه، كقولِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، فلا يجوزُ قتلُ الولدِ، لا مِنْ أجْلِ الفقرِ، ولا غيرِه.

وفِيها: أنَّه لا يجوزُ للرجلِ أن يَسـتوليَ علَى ميراثِ المرأةِ ظُلْمًا، فلا يجوزُ -مَثلًا- أنْ يَحْبِسَ زوجَتَـه الغنيَّـةَ عندَه، وهو لا يُريدُها؛ طَمَعًا في الاسـتيلاءِ علَى مالِها بَعـدَ موتِها، وكذلكَ لا يجـوزُ أنْ يتـزوّجَ اليَتيمةَ، وليْسَ لهُ فيهـا رَغبةٌ، إلا التوصُّل إلى الاسـتيلاءِ على مالِها، بَعدَ أن تُصبِـحَ عنـدَه. وكذلك لا يجوزُ للوليِّ أنْ يَحبِـسَ ابنتَه، أو أختَه عنِ الـزَّواجِ؛ حتَّى لا يَذهبَ المالُ إلى زوجِها، وأولادِها.

وفِيها: إلغاءُ الإسـلامِ لِتسـلُّطِ الرجالِ -ظُلْمًا-علَى المرأةِ، كتَسـلُّطِ الزوجِ السَّابقِ، الذي يَصِـلُ إلى درجةِ مَنعِ زوجتِهِ المُطلَّقةِ مِنَ الزواجِ بغـيرِه، إلا إذا أعْطَتْه، وهذا ظُلْمٌ. وكذلك ظُلْـمُ الـوليِّ، والقريـبِ، الذي يَحْتالُ بكلِّ وسـيلةٍ علَى المـرأةِ التي تحتَ وِلايتِـه، كمِنعِها مِنَ النِّـكاحِ؛ لِيأخـذَ مِنْ مالِها ظلمًا. ويُقابلُ هذا -اليومَ- ظلمٌ آخـر مِنَ المنافقينَ والمُنحرِفينَ في عصرِنا، الذين يُرِيدُونَ إلغاءَ رِعايةِ الرجلِ وولايتِه علَى المرأةِ بالكُلِّيَّةِ، والإسلامُ دينٌ وَسَطٌ، جاءَ بوِلايةِ الرجلِ علَى المرأةِ؛ لِحاجتِها إلَى الحِمايةِ، والرِّعايةِ، ومَنَعَهُ مِنْ ظُلمِها، والاسـتيلاءِ علَى حقِّها.

وفي الآيةِ: جوازُ تأديبِ الزوجةِ عندَ وُقوعِ المعصيةِ الواضحةِ مِنْها، وهذا يشـملُ: الزِّنا، والسَّرِقَةَ، وبَذاءةَ اللِّسانِ، وشَكاسَةَ الخُلُقِ.

وفِيهـا: أنَّـه لا يجوزُ إيذاءُ الزوجةِ بالهَفْوةِ الصَّغيرةِ، ومُجردِ سُـوءِ الظَّـنِّ، ويَحرُم مُعاقبتُها علَى أتْفَهِ الأمورِ.

وفِيها: أنَّه لا يُجمَعُ للمرأةِ الفاجرةِ، بَيْن مَهْرِ زوجِها، واستمتاعِها المُحَرَّمِ بغيرِه.

وفي الآيةِ: أنَّ العَضْلَ، والتَّضْييقَ، بِيَدِ الرِّجالِ، ولكنْ بالشُّروطِ الشَّرعيَّة.

وفِيها: عَطْفُ ﴿تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ علَى ﴿تَرِثُواْ﴾، بجامِعِ الإكْراهِ في كُلٍّ مِنْهما.

وفي الآيةِ: تكميلُ النَّهيِ عَنْ أخذِ إرثِ المرأةِ بالإكراهِ، وحَبسِها ظُلْمًا، بالأمرِ بالمُعاشَرةِ بالمعروفِ.

وفِيها: تحريمُ إساءةِ المرأةِ خُلُقها معَ زوجِها، وأهلِه، وكذلك الزَّوجُ، لا يجوزُ له ذلك.

وفِيها: أنَّ سوءَ الخُلُقِ، والنُّشوزَ، ومُعاندةَ الزوجِ، والتَّمردَ علَيه، فُحشٌ ظاهرٌ.

وفي الآيةِ: التوازنُ بَيْن وعْظِ الرجالِ، ووعْظِ النِّساءِ، وإنَّما خصَّ الرجالَ بِمَزيدٍ مِنَ التذْكيرِ؛ لقوَّتِهم، وعُلُوِّهم.

وفِيها: أنَّ المالَ الذي يأخذُه الرجلُ مِنْ زوجتِه بواسطةِ الاعتداءِ، والظلمِ، والعَضْلِ الباطِلِ، هو مالٌ مُحَرَّمٌ، وسُحتٌ، لا يجوزُ له أخذُه.

وفي الآيةِ: أنَّ كلَّ ما يُؤدِّي إلَى تعطيلِ الزوجةِ، وإهمالِها، وتعليقِها، ومَنعِ حقِّها، هو نَوعٌ مِنَ العَضْلِ المُحرَّم، **ومِنْ ذلك**: الاستِمناءُ، كما فَهِمَه بعضُ المفسِّرينَ مِنَ الآيةِ، قالَ الزُّبيرُ بنُ أحمدَ بنُ سليمانَ الزبيريّ: «الاستِمناءُ مِنَ العَضْل»[1].

ولَعلَّ مقصودَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ فِعلَه مِنَ الزَّوجِ، يُؤدِّي إلَى إفْراغِ شَهوتِه بَعيدًا عَن زوجتِه؛ فيُفوِّت مِنْ حقِّها في الفِراشِ، والوطْءِ، ما يُفوِّت، وكذلك يُؤدِّي إلى إضعافِ قدرةِ الرجلِ علَى الوَطءِ؛ فيتسبَّب في تفويتِ شيءٍ مِنْ حقِّ المرأة، وهذا مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ دقائقِ الفَهْمِ، والفِقْهِ، والتفسيرِ. ويقعُ فيهِ بعضُ الأزواجِ اليومَ، بتأثيرِ الأفلامِ، والمَواقعِ الخَبيثةِ؛ مِمَّا يؤدِّي إلَى الإضرارِ بعلاقاتِهم الزوجيَّةِ.

وفِيها: أنَّ الشَّرعَ إذا نَهى عَنْ شيءٍ، فإنَّه يتضمَّنُ الأمرَ بضدِّه، وقد يَنصُّ علَيه صَراحةً، كالأمرِ بالمُعاشَرَةِ بالمَعروفِ في هذِه الآيةِ.

وفِيها: أنَّ الزَّوجَ إذا كَرِهَ زوجتَه بغيرِ ذَنبٍ مِنْها، فإنَّه لا يجوزُ أن يقهَرَها، ويَضُرَّها؛ لِتفتَدِيَ نفسَها مِنْه بالخُلْعِ.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٣/ ١١٥٢).

وفِيها: أنَّ المُعاشَرَةَ مُشاركةٌ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، وكلٌّ مِنْهما يَتَلطَّفُ بالآخَرِ، ويَسْعَى أنْ يكونَ سببًا في هَناءَتِه، وسَعادتِه، في معيشَتِه.

وفِيها: أنَّ كُلَّ مَنْ طالَتْ مُخالطَتُه وصُحبَتُه لشَخصٍ، فإنَّه يَنبغِي علَيه أنْ يزيدَ في الحِرصِ علَى حُسنِ مُعاملتِه.

وفِيها: استحبابُ تَزَيّنِ الرجلِ لزوجتِهِ، كما يُحِبُّ أنْ تَتَزَينَ لَه، وهذا داخلٌ في المُعاشَرَةِ بالمَعروفِ.

وقد فَهِم بعضُ العلماءِ مِنَ الآيةِ: أنَّ المرأةَ إذا كانَ يُخدَمُ مِثلُها، فإنَّه يَأتِيها بِمَنْ يَخدِمُها -إنِ استَطاع-.

وفِيها: أنَّ مَنْ تَأتِي بالفاحشةِ المُبيِّنةِ، فلا تَستحِقُّ المعاشرةَ بالمَعروفِ، وقد يكونُ التَّأديبُ في بعضِ الأحوالِ مِنَ المعاشَرَةِ بالمَعروفِ.

وفِيها: أنَّ مُعاشرةَ النِّساءِ أصعبُ مِنْ مُعاشرةِ الرجالِ؛ لضَعْفِ نُفُوسِهِنَّ، ورِقَّتِها، وسُرعةِ انفعالِهِنَّ، وتَأَثُّرِهِنَّ؛ فلذلك يَنبغِي أنْ يكونَ الحَذَرُ في مُعامَلَتِهِنَّ أشدَّ؛ حتَّى لا يُؤذِيَها مِنْ حيثُ لا يَشعُرُ.

وفِيها: أنَّ المُعاشرةَ بالمَعروفِ تتضمَّنُ أداءَ الحُقُوقِ.

وفِيها: أنَّ الصَّبرَ علَى الزَّوجةِ المؤمنةِ -ولَو كانَ فيها بعضُ العُيوبِ- قد يُكافَأُ علَيه صاحبُه بعاقبةٍ حَسَنةٍ، كأنْ تلِدَ له ولدًا نَجِيبًا، تَقَرُّ به عينُه، أوْ أنْ يَصلُحَ حالُها، بصبرِه علَيها، وحُسنِ معاشرتِه؛ فيزولَ عيبُها، وتَحسُنَ خدمتُها، وقد يُصيبُه مرضٌ، أو شيخوخةٌ، فتكون نِعْمَ العونُ له.

وفي الآيةِ: أنَّ الصُّحبةَ لا تطُولُ إلا بصبرِ كلٍّ مِنَ الطَّرفَيْنِ على عُيُوبِ الآخَرِ، وأنَّ مَنْ لَمْ يصبِرْ علَى عيبِ صاحبِهِ، فلَن يَجِدَ لَه صاحبًا، ولا يَزالُ يَتنقَّلُ في عَلاقاتِه، كما قال الشَّاعرُ:

ومَنْ لا يُغمِّضْ عَيْنَه عَنْ صدِيقِه
وعَنْ بعضِ ما فِيه يَمُتْ وهْوَ عاتِبُ
وَمَنْ يَتَتبَّعْ جاهِدًا كلَّ عَثْرةٍ
يَجِدْها ولا يَسْلَمْ لهُ الدَّهرَ صاحبُ[1]

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢١).

وفِيهـا: أنَّ بعضَ ما تَكرهُه النُّفوسُ، يكونُ لها فيهِ صلاحٌ، مِنْ وجوهٍ أُخْرى، كالقِتالِ في سبيلِ اللهِ؛ فإنَّ فيهِ المَشقَّةَ، والجُرْحَ، وهَلاكَ النفسِ، وتَلَفَ المالِ، ولكنْ فيهِ -في المُقابلِ- حِمايةُ الدِّينِ، والدَّفعُ عنه، وإظهارُ الحقِّ، ونُصرتُه، وخِذلانُ الباطلِ، وحِزْبه.

وفِيها: الحَثُّ علَى الصبرِ علَى الزَّوجاتِ، إلا ما لا يجوزُ الاستمرارُ مَعَهُنَّ فيهِ، كالكُفرِ، وتَركِ الواجباتِ، كالصَّلاةِ، والإصرارِ علَى المُحرَّماتِ، كالفاحشةِ، وكذلكَ لَو كانَ دِينُ الزَّوْجِ يَنْحلُّ، ويضعُفُ بسببِها.

وفِيها: عدمُ الاستعجالِ في اتِّخاذِ القَرارِ -وخُصوصًا في المُفارقَةِ، والانفِصالِ- والإرشادُ إلَى إعمالِ النَّظَرِ، وتَغَلْغُلِ الرَّأي في عواقبِ الأمورِ.

وفِيهـا: أنَّـه يُحتَمَلُ مِنْ صاحِبةِ الدِّينِ، ما لا يُحتمَلُ مِـنْ غيرِها، بَيْنما لا يُصبَرُ علَى صاحبةِ نقصِ الدِّينِ، والعِفَّةِ، إذا كانَ أمرُها يزدادُ، وقد يَصلُ الأمرُ إلَى حالٍ، تَجِبُ عندَه مفارقتُها.

وفِيها: أنَّ ملذَّاتِ الدنيا، ومحبُوباتِها، لا تَخلُو مِنَ المُنغِّصاتِ.

ولَمَّا ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ السَّابقةِ الفِراقَ، الذي سببُه الزَّوجةُ، أتْبعَه بالفِراقِ، الذي سببُه الزَّوج، فإنْ وصلَتِ الأمورُ بَيْنَ الزَّوجيْنِ إلَى طريقٍ مَسدُودٍ، ولَم يجِدِ الزَّوج مَناصًا مِنْ مُفارقَةِ الزَّوجةِ، وطلاقِها، واستبْدالِها بأُخرَى، فإنَّه لابُدَّ أنْ يُعطِيَ هذه التّي يُريدُ تَركَها -ولَم تأتِ بفاحشةٍ- حُقُوقَها كامِلةً، ولا يأخذَ مِنْ مَهرِها شيئًا، لا بالعَضْلِ الذي سَبَقَ ذِكْرُه، ولا بأيِّ وسيلةٍ أُخرَى، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ يا أيُّها الأزواجُ ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ أي: نكاحَ زوجةٍ جديدةٍ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ بـدلًا مِـنَ الزَّوجةِ التي قَبْلهـا، فيُطلِّقُ الأولَى؛ لعـدمِ صبرِه عـلَى مُعاشَرتِها، ويتزوَّجُ ثانيةً ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أعطيتُم السَّابقةَ ﴿قِنطَارًا﴾ مالًا كثيرًا، وصَداقًا مُرتَفِعًا ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ لا قليلًا، ولا كثيرًا ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهامٌ إنكاريٌ؛ لتوبيخِ مَنْ يأكُلُ شـيئًا مِـنْ مَهْرِ زوجتِه ﴿بُهْتَٰنًا﴾ فِعلًا باطلًا، وظلمًا. والبُهْـتُ في اللُّغةِ: الكَذِبُ المُفترَى، والباطلُ المُحيّرُ. ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهرًا واضحًا.

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

تحريمُ بُهْتِ الزَّوجةِ، برَمْيِها بالفاحشةِ كَذبًا؛ ليضطرَّها أنْ تَفتَدِيَ مِنْه بمالٍ تدفعُه إليه، أوْ تُعيدَ إليهِ المَهرَ؛ ليتزوَّجَ به أُخرَى، فهذا ظلمٌ عظيمٌ.

وفِيها: أنَّ إلصاقَ تُهمةِ الفاحشةِ بالمرأةِ -كَذِبًا-: افتراءٌ، وظلمٌ، ومِنْ أشنَعِ الكَذِب عندَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ جَحْدَ الزَّوجِ للمَهْرِ الذي علَيهِ، أو الادِّعاءَ الكاذبَ بأنَّه سلَّمَها إيَّاه، أوْ أنَّها أبْرَأتْهُ مِنْه، وأَسقَطَتْه، هُو ظلمٌ عظيمٌ للزوجةِ، وأكلٌ لحقِّها، وإثمُه مُبينٌ عندَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ تَخويفَ المرأةِ بالباطلِ؛ لدفْعِها إلَى افتداءِ نفسِها بمالٍ: ظلمٌ، وسَعيٌ لأكلِ الحرامِ.

وفي الآيةِ: أنَّ المَهرَ -مهما كان كثيرًا-؛ فإنَّه يَجبُ علَى الزَّوجِ أداؤُه، ما دامَ قَد رَضِيَ بِهِ.

وفِيها: جوازُ إعطاءِ المَهرِ الكثيرِ، والمالِ الجَزيلِ، وإنْ كانَ تيسيرُ المَهرِ أفضلَ وأوْلَى، وقد قال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلا لا تُغْلُوا صُدُقَ النِّساءِ، أَلا لا تُغْلُوا صُدُقَ النِّساءِ؛ فإنَّها لَو كانتْ مَكْرُمَةً في الدُّنيا، أو تَقْوَى عندَ الله، كانَ أوْلاكم بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما أصْدَقَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأةً مِنْ نِسائِه، ولا أُصدِقَتِ امرأةٌ مِنْ بَناتِهِ، أكثرَ مِن اثنَتَي عَشرةَ أُوقِيَّةً، وإنْ كانَ الرَّجلُ لَيُبْتَلَى بصَدُقَةِ امرأتِه، حتَّى يكونَ لها عداوةٌ في نفسِه، وحتَّى يقولَ: كُلِّفْتُ إليك عَلَقَ القِرْبةِ[1]»[2].

وقد حاولَ بعضُهم الاستدلالَ بهذه الآيةِ، على جوازِ المُغالاةِ في المُهورِ، ولا شكَّ أنَّ هذا مِنْ عَقَباتِ النِّكاحِ، التي يَجبُ تذليلُها، وليس في الآيةِ ما يُشجِّع علَى المُغالاةِ في المُهورِ، وغايةُ ما فيها: أنَّ علَى الزَّوجِ أداءَ المهرِ لزوجتِه كامِلًا، مهما كان كثيرًا.

وفِيها: أنَّ حاجةَ الزَّوجِ إلَى زوجةٍ ثانيةٍ، لا يُبيحُ له أخذَ شيءٍ مِنْ مالِ الزَّوجةِ الأولَى؛ لِيتزوَّجَ بِهِ. ومِنَ الكَذِبِ القبيحِ، والخِداعِ، وأكلِ المالِ بالباطِلِ: أنْ يأخذَ الزَّوجُ مالًا مِنْ

---

(١) أَيْ: تَحَمَّلْتُ لأجْلِكِ كُلَّ شْيَءٍ، حَتَّى عَلَق القِرْبة. وَهُوَ حَبْلُها الَّذِي تُعَلَّق بِهِ. النهاية (٣/ ٢٩٠).

(٢) رواه أحمد (٢٨٥)، وصحّحه محقّقو المسند.

زوجتِه المُوظَّفةِ، مُوهِمًا إيَّاها أنَّه يُريدُ بناءَ مَسكنٍ لهما، ونحوَ ذلك، ثُمَّ يتزوّج به أُخْرى، وهذا مِنْ دناءةِ النفسِ، وخِسَّتِها، وقِلَّةِ مُرُوءَتِها.

وفِيها: أنَّ القَيْدَ المذكورَ بقولِه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ هو قَيدٌ أغلَبيٌّ؛ ولذلكَ فإنَّه لا يجوزُ أنْ يأكلَ مالَ زوجتِه الأُولَى، حتَّى ولو لَم يتزوجْ علَيها، وحتَّى لو لَم يطلِقْها، ومِن ذلك: مُماطَلَتُه في تسليمِ مُعَجَّلِ المَهرِ.

وفِيها: أنَّه يجوزُ للرجلِ أنْ يُفارقَ زوجتَه الأُولَى، ويتزوَّجَ بثانيةٍ، حتَّى لَو لَم يَكنْ بالأُولَى عَيبٌ، أو خِيانةٌ، بشرطِ أنْ يُعطيَها حقَّها كامِلًا.

وفي هذِه الآيةِ -مَعَ التي قَبْلها-: أنَّ مَنْعَ المرأةِ مِنْ مَهْرِها، أو استرجاعَه مِنْها، إنَّما كانَ بسببِها، لمَّا أَتَتْ بالفاحشةِ المُبَيِّنةِ، فلَمَّا زالَ السَّببُ مِنْها، حَرُم أخذُ شيءٍ مِنْه؛ لأنَّه حقُّها، ولَم يَحصُلْ مِنْها ما يُوجِبُ مَنْعَه.

ولِشَناعةِ الاعتِداءِ علَى مُهورِ الزَّوجاتِ، تكرَّرَ الإنكارُ؛ لزيادةِ التنفيرِ مِنْ ذلك، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ أي: الصَّداقَ، بأيِّ وجهٍ تأكُلونَه؟ ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وَصَلَ، والتَصَقَ، والمرادُ: الجماعُ، وقيلَ: الخَلْوةُ الكامِلَةُ ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا مُؤكَّدًا، وهو عَقْدُ النِّكاح، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا اللهَ في النِّساءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمانِ اللهِ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ**»(١).

قال بعضُهم: «كلمةُ اللهِ: هي التَّشهّدُ»، وقال بعضُهم: «هي كلمةُ النِّكاح، مِنَ الإيجابِ والقَبُولِ، التي تُستَحَلُّ بها الفُرُوجُ»، وقال بعضُهم: «هي العَهدُ الذي أَخَذَهُ اللهُ علَى الأزواجِ، في قولِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]»، وقيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ١٨٣)، كشف المشكل (٣/ ٦٦)، مرقاة المفاتيح (٥/ ١٧٧٢).

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

الزِّيادةُ في الإنْكارِ، والمُبالغةُ في التنفِيرِ، مِنْ أَكْلِ مَهْرِ المرأةِ ظُلْمًا.

وفِيها: أنَّ المرأةَ إذا بَذَلَتْ نفسَها لزوجِها، واجتَمَعَ معَها في لِحافٍ واحدٍ، فأتاها، ووطِئَها، وصارَتْ مَلاذَه، ومُتعَتَه: فكَيف يَليقُ بِهِ أنْ يَستَرِدَّ مِنْها شيئًا مِنْ مَهرِها، ويَتركَها مظلومةً ضعيفةً؟

وفِيها: أنَّ الرَّجلَ صاحبَ الطَّبعِ السَّليمِ، والذَّوْقِ المُستقِيمِ، لا يُمكنُ أنْ يَستَولِيَ علَى مالِ المرأةِ الضعيفةِ المَغْلوبةِ، وهو الرجلُ القويُّ، القادرُ علَى اكْتِسابِ المالِ بالوسائلِ المُتعدِّدةِ، وشهامةُ الرُّجولةِ ومُروءتُها تَأبَى أَكلَ حقِّ المرأةِ.

وفِيها: أنَّ النِّكاحَ عَهدٌ غَليظٌ، ومِيثاقٌ شديدٌ -وإنْ كانَ كَلامًا ولفظًا-؛ فإنَّه تُستَحلُّ بِهِ الفُرُوجُ، وهو مَعقودٌ علَى صَداقٍ، لا يَجوزُ انتهاكُه، ولا انْتقاصُه.

وفِيها: أنَّ مُلامَسةَ الزَّوجِ لزوجتِهِ، واجتماعَه معَها، ومُباشَرَتَه لَهَا، وما يَنشأُ عَن ذلك مِنَ المَوَدَّةِ، والرَّحمةِ، هو رِباطٌ قويٌّ، لا يجوزُ التساهلُ فيهِ، ومِيثاقٌ غليظٌ، لا تَجوز خِيانتُه.

وفي الآيةِ -مَعَ التي قَبْلَها-: أنَّ الشريعةَ لَمْ تُحدِّدْ مقدارَ الصَّداقِ، بَلْ تَركَتْهُ لِتفاوُتِ الناسِ في الغِنَى، والفَقْرِ، فكُلُّ واحدٍ يُعطِي علَى حَسَبِ حالِه، وإنَّ مِنْ بَرَكَةِ المرأةِ: تيسيرَ صَداقِها، والمُغالاةُ في المُهورِ، مِنْ أسبابِ قِلَّةِ الزَّواجِ، المُؤَدِّي إلَى كَثرةِ الزِّنا، والفسادِ. ومِنَ الخطأِ الشَّنيعِ: تَزويجُ البنتِ لِمَنْ يَدفَعُ أكثرَ، وإنَّما الواجبُ علَى الوليِّ: اختيارُ الأمْثَلِ في الدِّينِ، والخُلُقِ؛ مُراعاةً للأمانةِ، التي ولَّاهُ اللهُ إيَّاها.

واستنبَطَ بعضُ العلماءِ مِنْ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: أنَّ المَهرَ يَجبُ كامِلًا، عِندَ الخَلْوةِ التامَّةِ بالزَّوجةِ، والمُرادُ بالخَلْوةِ التامَّةِ: إغلاقُ البابِ، بحيثُ لا يُخْشَى مِنْ دُخولِ أحدٍ عليهما، وبحيثُ لَو أرادَ أنْ يُجامِعَها، فَعَلَ ذَلك، فإذا طلَّقَها بَعدَ الخَلْوةِ الكامِلَةِ: وَجَبَ إعطاؤُها المَهرَ كامِلًا، ولَو لَم يَطَأْها.

وفِيها: تعليمٌ مِنَ اللهِ لعبادِه، لِسلوكِ طريقِ الأدبِ، في التعبيرِ عمَّا يُستَحيا مِنْ ذِكْرِه، ولا يَلِيقُ التصريحُ بِه؛ وذلكَ باستعمالِ الكِنايةِ، والتَّعريضِ، كما عَبَّرَ عَنِ الجِماعِ هنا بالإفضاءِ، وهوَ الوُصُولُ إلَى الشيءِ بغيرِ حائلٍ.

وفيها: أنَّ تعظيمَ قَدْرِ مَهرِ المرأةِ، وعدمَ جوازِ الاعتداءِ علَيهِ، هو أصلٌ مِنَ الأصُولِ في المُعامَلاتِ بَيْنَ العِبادِ، وهذِه قضيةٌ مُحكَمةٌ؛ ولذلكَ كان القولُ بأنَّ الآيةَ منسوخَةٌ قولًا ضعيفًا، ووجودُ بعضِ الحالاتِ التي يجوزُ فيها أخذُ المهرِ، واستردادُه -كأنْ تأتِيَ بفاحشةٍ مُبيّنةٍ، أوْ أنْ تصيرَ ناشِزًا، أوْ أنْ تَخافَ أنْ تَعْصِيَ اللهَ في زوجِها، ولا تقيمَ حدودَ الله فيهِ-: إنّما هي استثناءاتٌ مِنَ الأصلِ لا تُلْغِيه، ولا تَجعلُه مَنسوخًا.

ولَمَّا ذَكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في أوائلِ السُّورةِ: حُكمَ نكاحِ اليتامَى، وعَدَدَ الزَّوجاتِ، اللاتِي يَحِلُّ الجَمْعُ بَيْنهُنَّ، وحُكمَ استبدالِ الزَّوجةِ، أتبَعَ ذلك ببيانِ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ، سواءٌ بسببِ القرابةِ، أو المُصاهَرة، أو الرَّضاعِ؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ يا أيُّها الأبناءُ ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ يشملُ: الأجدادَ -وإنْ عَلَوْا، ويَشمَلُ الآباءَ مِنَ النَّسبِ، والرضاعةِ ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الزَّوجاتِ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسَبقَ في الجاهِليَّةِ، قَبْلَ نُزولِ آيةِ التحريمِ، فلا إثْمَ علَيْكم فيهِ، ولا فيما تَرتَّبَ علَيْه، وأمَّا بعد تحريمِ هذا النِّكاحِ: فلا يجوزُ ابتداؤُه، ولا الاستمرارُ فيه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: نِكاحَ زوجةِ الأبِ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ قَبيحًا، تَقشعرُّ مِنْه النُّفوسُ السليمةُ ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: مَمْقوتًا، مَبْغُوضًا عندَ اللهِ، والمَقْتُ: أشدُّ الكُرهِ، وهو بُغْضٌ مَعَ احتقارٍ، وكانتْ العربُ تقولُ لولدِ الرجلِ مِن امرأةِ أبيه: مَقِيتٌ، أو مَقتِيٌّ؛ نِسبةً إلى المَقْتِ[1].

﴿وَسَآءَ﴾ ذلك النِّكاح، وقَبُحَ ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا، ومَسْلكًا؛ وذلك لأنَّه اعتداءٌ علَى مَقامِ الأبِ، وعُقوقٌ له؛ ولأنَّ زوجةَ الأبِ بمَقامِ الأمِّ لابْنِ زوجِها، فكَيْف يطؤُها؟! وتَستبشِعُ الفِطَرُ السليمةُ، أنْ يَطَأَ ابنٌ امرأةً، وَطِئَها أبُوه مِنْ قَبْل.

وهذه الآيةُ فيها: إبطالٌ لِما كانَ علَيه أهلُ الجاهِليَّةِ منْ أمورِ النِّكاحِ الفاسدةِ، وكما تقدَّم إبطالُ أخذِ زوجةِ الميِّتِ معَ إرثِه، فيستَوْلي علَيها قريبُه: فَقَد جاءَ في هذه الآيةِ -أيضًا- إبطالُ

(١) تفسير القرطبي (٥/ ١٠٥).

نكاحِ الابنِ لزوجةِ أبيهِ -وكانَ فاشِيًا في الجاهِليَّةِ-؛ فعَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانَ أهلُ الجاهِليَّـةِ يُحرِّمُونَ ما يَحرُم، إلا امْرأة الأبِ، والجمع بَيْن الأُخْتَين، فأنزلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قولِـه: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾»(١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تعظيمُ مَنزلةِ الآباءِ، وتكريمُهم، واحترامُهم.

وفِيها: تحريمُ نكاحِ زوجةِ الأبِ، بَلْ إنَّها تَحرُم علَى الابنِ، بِمُجرَّدِ عَقْد أبِيه علَيْها، وكذلكَ تَحرُم جاريةُ الأَبِ علَى ابنِهِ -ولَو لَمْ يَطَأْها- إذا باشَرَها بِشهوةٍ، أو نَظَر إلَى ما لا يحلُّ له النظرُ إليهِ مِنْها، لَو كانتْ أجنَبيَّةً، كالنظرِ إلَى عَوْرتِها.

وفِيها: أنَّ نكاحَ زوجةِ الأبِ مِنْ أكبرِ الكبائرِ، وهو أبْشعُ مِنَ الزِّنا؛ لأنَّ اللهَ قال في الزِّنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وأمَّا نكاحُ زوجةِ الأبِ: فقد قالَ عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، فزادَ المَقْتَ، وهو البُغْضُ الشَّنِيعُ.

وفِيها: سَدُّ الشَّرعِ لِكلِّ طَريقٍ يُؤدِّي إلَى مَقْتِ الابنِ لأبيهِ، ونكاحُ زوجةِ الأبِ يؤدِّي إلَى ذلك؛ فإنَّ الغالبَ أنَّه ما مِنْ رجلٍ تزوَّجَ امرأةً، كان لها زوجٌ سابقٌ، إلا أبْغضَه، ولمَّا كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابةِ الأبِ للصحابةِ، وجميعِ الأُمَّةِ: كان حَرامًا علَيهم أنْ يَنكِحوا أزواجَه مِنْ بَعْدِه، وزوجاتُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَقامِ الأمَّهاتِ لجميعِ المسلمينَ؛ ولِذلك يُقالُ لَهُنَّ: أمَّهاتُ المؤمنينَ.

وفِيها: مُحاربةُ ما كان فاشيًا في الجاهِليَّةِ مِنَ المُنْكرِ.

وقدْ أفْرَدَتِ الآيةُ هذا التَّحريمَ، عَنْ بقيَّةِ المُحرَّماتِ في الآيةِ التي تلِيها؛ لأنَّ أَهْلَ الجاهليَّةِ كانُوا يُصِرُّونَ علَيه، وكانَ في أنْكِحَتِهِم كثيرٌ مِنَ الظُّلمِ، فتتمُّ بالقهرِ، والاستيلاءِ -وأيضًا-: بغيرِ وليٍّ، ولا شُهُودٍ، وبعضُها مُؤقَّتٌ.

وفِيها: أنَّ النُّفوسَ الطَّيِّبةَ، والعقولَ السَّليمةَ، تَستقْبِحُ ما اسْتقبَحَهُ الشَّرعُ، وقد كانَ بعضُ ذوِي المُروءاتِ مِنْ أهلِ الجاهليَّةِ، يُبْغِضونَ هذا النَّوعَ مِنَ النِّكاحِ، ويَمتَنِعونَ عنْهُ.

---

(١) رواه ابن جَرير في تفسيره (٨/ ١٣٢)، وسنده صحيح.

وفِيهـا: أنَّ زوجةَ الأبِ بمَنزلـةِ الأمِّ، ومُباشرَتُها كمُباشرةِ الأمِّ، فتزداد إثمًا، مقارنةً بالزِّنا بأجنبيَّـةٍ. بلْ قد ذَهَبَ بعضُ العلـماءِ -كأبي حنيفةَ، والثّوريّ، والأوزاعيّ- إلَى أنَّه يَحرُمُ علَى الرَّجلِ أنْ يتزوَّجَ بامرأةٍ، زَنا بها أبُوه[1].

وفِيهـا: أنَّ الإسـلامَ يَجُبُّ ما قَبْلَـه، وأنَّ العِبـادَ لا يُؤاخَذونَ، قَبلَ العِلـمِ بالتحريمِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وفِيها: الحرصُ على صِيانةِ العَلاقةِ بَيْنَ الآباءِ، والأبناءِ، ومنعِ ما يُكدِّرُها.

وفِيها: أنَّ الشَّهوةَ البَهيميَّةَ تَدْفَعُ إلَى فِعْلِ ما يُستَقبَحُ في الشَّرعِ، والعقلِ، والعادةِ. والكفَّارُ المُعاصرونَ لَدَيْهِم كثيرٌ مِنْ هذا، في بابِ: وَطْءِ المَحارم، ووطْءِ البهائِمِ، واللّواطِ، وغيرِها، فحَصَلَ انسِلاخُ استقباحِ هذه القاذوراتِ، مِنْ نفوسِ كثيرٍ مِنْهم.

وفي الآيةِ: استعمالُ الأوصافِ المُنفِّرةِ؛ لصَرفِ النُّفوسِ عَنِ الفَواحِشِ.

وفِيهـا: أنَّ الشَّريعـةَ -وإنْ لَم تُؤاخِذْ علَى نكاحِ زوجـةِ الأبِ، والجَمعِ بَيْنَ الأخْتَينِ، قبلَ نُـزُولِ الحُكـمِ الشَّرعـيِّ- لكنَّها لَم تُقِرَّ اسـتمرارَ ذلك، كما قال السَّرخَسيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسـير ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ قال: «معناهُ: أنَّ ما قد سـلَف في الجاهليَّةِ، فإنَّكم لا تُؤاخَذون بذلك، إذا خَلَّيْتم سبيلَهنَّ، بعدَ العِلم بالحُرمةِ»[2].

وهذا يَختلفُ عَن مَسألةِ إقرارِ الإسلامِ أهلَ الجاهليَّةِ الذينَ أسْلَموا، علَى أنكِحَتِهم التي عَقَدُوها في الجاهليَّةِ، علَى نساءٍ غيرِ مُحرَّماتٍ، لكنْ لَم يكنْ في النِّكاح وليٌّ، أو شهودٌ -مَثلًا- ولَم يأمُرْهم بتجديدِ عُقودِ أنكحتِهم لَمَّا أسـلَموا، وبِناءً علَيهِ: فإنَّنا لا نأمرُ الزَّوج والزَّوجةَ الكافِرَيْنِ -إذا أسلَما اليومَ- أنْ يُجدِّدا عَقد النِّكاح، ولا أنْ يُفسَخَ، ما دامتِ الزَّوجةُ ليستْ مِنَ المُحرَّماتِ.

ثُمَّ والَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذِكْرَ المُحرَّماتِ مِنَ النِّساءِ، وهُنَّ خَمْسةَ عشرَ، بنصِّ كتابِه، أربعة عشرَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ، وواحدةٌ في سُورةِ الأحزابِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) انظر: بداية المجتهد (٣/ ٥٩).

(٢) المبسوط (٤/ ١٩٨).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وهي: كلُّ امرأةٍ، يَنتسِبُ إليها الرجلُ بولادةٍ، سَواء مِنْ جِهةِ الأمِّ، أو مِنْ جِهة الأبِ -وإنْ عَلَوْن- وهذا يَشمَلُ الجدَّاتِ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمعُ بِنْتٍ: وهي كلُّ أنثى، يَرجعُ نسبُها إليك بالولادةِ -وإنْ نَزَلْنَ- وهذا يَشمَلُ بناتِ البناتِ، وبناتِ الأبناءِ، ويَدخلُ في هذا: تحريمُ بنتِ الزِّنا، فإنَّها تَحرُم على الزَّانِي، عندَ جمهورِ العلماءِ؛ لدخولِها في عُمُومِ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ جمعُ أختٍ: وهي كلُّ أُنثى، شارَكَتْكَ في أحدِ أصْلَيْكَ، أوْ فيهما، فتدخلُ فيها: الأخواتُ الشَّقيقاتُ، والأخواتُ لأبٍ، والأخواتُ لأمٍّ ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ جمعُ عمَّةٍ: وهي كلُّ أختٍ لأبيك، أو لجِدِّك -وإنْ علا- ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ جمعُ خالةٍ: وهي كلُّ امرأةٍ، شارَكَتْ أمَّكَ في أصلِها، فيدخلُ فيها: أخواتُ الأمِّ الشَّقيقاتُ، وأخواتُها لأبيها، وأخواتُها لأمِّها، وأخواتُ الجدَّة أمِّ الأمِّ، وأخواتُ الجدَّة أمِّ الأبِ -وإنْ عَلَوْنَ-.

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ﴾ وهذا يَشملُ كلَّ أُنثَى، يَرجِع نسبُها لأخيك بولادةٍ، وهذا يَشملُ جميعَ بناتِ أولادِ الأخِ -وإنْ نَزَلْن- ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾: وهي كلُّ أُنثَى، يَرجِع نسبُها إلى أختِك بولادةٍ، وهذا يَشمَلُ جميعَ بناتِ أولادِ الأختِ -وإن نَزَلْن-.

فهذه الأصنافُ السَّبعةُ مِنَ المُحرَّماتِ بالنَّسَبِ، بنصِّ كتابِ الله.

ثُمَّ ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ المُحرَّماتِ بالرَّضاعِ أوَّلَهنَّ، وهي الأمُّ المُرضِعةُ، فقالَ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أي: يحرُمنَ عليكُم كذلكَ، وهذا يَشملُ كلَّ امرأةٍ أرضَعَتْك، أوْ أرضَعتْ مَنْ أرضَعَتْك، أو وَلَدَتْها، وكذلك يَشملُ أمَّ صاحبِ اللَّبنِ، وهو زوج مُرضِعَتِك الذي درَّ اللبنُ بسببِه.

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾: وهي كلُّ امرأةٍ أرضعَتها أمُّك، أو ارتضَعَتْ بلبنِ أبيكَ، وكذلك بناتُ المرضِعَة، وبناتُ صاحبِ اللَّبنِ.

ولَم يذْكُرْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ المحرَّماتِ بالرَّضاعِ بَعدَ المحرَّمات بالنَّسَبِ، إلا هاتَيْنِ المرأَتَيْنِ؛ تنبيهًا علَى أنَّ الرَّضاعَ يجرِي مجرَى النَّسب في التحريمِ، كما بيَّنت ذلك السُّنةُ، بقول النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحرُمُ مِنَ الرَّضاعِ ما يَحرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»(١)، فبقيَّةُ المحرَّماتِ بالرَّضاع علىَ هذا، هُنَّ: العمَّةُ بالرَّضاعِ: وهي أختُ صاحبِ اللَّبنِ، والخالةُ بالرَّضاعِ: وهي أختُ المرضِعَة، والبنتُ بالرَّضاعِ: وهي كلُّ أنثَى، ارتضعَتْ بلبنٍ درّ بسببِك، وكذلك بنتُ الأخِ مِنَ الرَّضاعِ، وبنتُ الأختِ مِنَ الرَّضاعِ، وما تفرَّع مِنهنَّ.

وإنَّما يكونُ الرَّضاعُ مُؤثِّرًا، إذا كانَ خَمْسَ رضعاتٍ معلوماتٍ فأكثر في الحَوْلَينِ، أي: السَّنتَيْنِ الأُولَيَيْنِ مِنْ حياةِ المولودِ، علَى الرَّاجحِ مِنْ أقوالِ أهلِ العِلْم.

ثم ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُحرَّماتِ بالمُصاهرةِ، فقالَ:

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: يَحرُمُ عليكُم أُمَّهاتُ زوجاتِكم، سواء كُنَّ أمهاتٍ مِنَ النَّسبِ، أو أُمَّهاتٍ مِنَ الرَّضاعِ -وإنْ عَلَون- فإنَّهنَّ يحرُمنَ، سواء دخلَ أزواجُهنَّ بهنَّ، أمْ لا ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ أي: بناتُ نسائِكُم، والرَّبائِبُ جمعُ رَبيبةٍ: وهي بنتُ المرأةِ مِنْ رجلٍ آخرَ ﴿ٱلَّٰتِي﴾ ربيتُموهُنَّ، وأدَّبتُموهنَّ ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ وبيوتِكُم، وهذا هو الغالبُ، وإلا فَقَدْ تكونُ الربيبةُ عندَ أبيها، أو قريبٍ لها، وليس عندَ زوجِ أمِّها؛ ولهذا قال العلماءُ في هذا الوصفِ -وهو ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾-: «إنَّه أغلَبيٌّ»، وليس مُرادًا لذاتِه، فتَحرُم بنتُ الزَّوجةِ على زوجِ أمِّها، ولو لم تكُن تَسكُنُ عندَه ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: جامَعتُموهُنَّ ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: كانَ مُجرّدَ عقدٍ على الأُمِّ التي لَها بنتٌ، دونَ دُخول ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا حَرَجَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في نكاحِ الرَّبائبِ، وبناتِ الزَّوجاتِ، بَعد مُفارقةِ أمَّهاتِهنَّ.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي: زوجاتُ أولادِكُم يحرُمنَ عليكم كذلك، بمجرَّدِ العَقْد،

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧).

والحلائلُ جمعُ حَليلةٍ: وهي الزَّوجةُ، ويقالُ للزَّوجِ: حَلِيلٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهما يَحِلُّ لصاحِبِه ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أَيْ: دُونَ مَـنْ تبَنَّيْتُـمْ مِنْ أَوْلادِ غَيْرِكُـمْ. وأما زوجاتُ الأبناءِ مِنَ الرَّضاعِ: فقد جاءَ تحريمُهُنَّ في السُّنة، في قولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحرُم مِنَ الرَّضاعِ ما يَحرُم مِنَ النَّسَبِ**»(١).

وكلُّ ما تقدَّمَ مِنَ المحرَّماتِ المَذكوراتِ في الآيتَيْنِ السَّابقتَيْنِ، هُنّ مُحرَّماتٌ إلَى الأبَدِ، سَواء بسببِ النَّسـبِ، أو المُصاهرةِ، أو الرَّضاعِ، ويُضافُ إليهِنَّ: ما جاءَ في سُـورةِ الأحزابِ، مِنْ تحريمِ زوجاتِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاءَ في السُّنةِ، مِنْ تحريمِ الزَّوجةِ بَعد اللِّعانِ، تحريمًا أبدِيًّا.

ثـم ذَكَـر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيةِ صِنفًا مِـنَ المُحرَّمات مُؤقتًا، وهُنَّ اللاتِي لَو زالَ سـببُ تحريمِهِـنَّ، جـازَ نكاحُهُـنَّ، فقـال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ أي: يَحـرُمُ عليكُـم -كذلـك- أنْ تجمَعُـوا بَـيْن أُختَيْنِ، في وقـتٍ واحدٍ، سَـواء كانَتا أُختَيْنِ بنَسَـبٍ، أو رضـاعٍ، وقد ثَبَتَ في السُّـنةِ -أيضًا- قولُ النبـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُجْمَعُ بَـيْنَ المَرأةِ وعمَّتِها، ولا بَيْنَ المَرأةِ وخالَتِها**»(٢).

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ أي: ما مَضَى، ووقَعَ الجمعُ مِنْكم فيهِ، قَبْل نُزولِ التحريمِ. وانتفاءُ الإثْمِ-هنـا- لا يَعنِي تـركَ العملِ بالحُكْمِ، كما وردَ عنْ فـيْروز الدَّيلَمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ يا رسولَ اللهِ: إنِّي أَسْلَمتُ وتحتِي أُختانِ، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لي: «**طلِّقْ أيَّتَهُما شِئتَ**». وفي رواية: «**اخْتَرْ أيَّتَهُما شِئتَ**»(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِما وَقَعَ مِنْكم فيما سَبَق ﴿رَّحِيمًا﴾ حيثُ سـامحَكُم، وعَفا عَنكم، ولم يُؤاخِذْكم علَى ما سَلَف.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

شَرفُ مَنزلةِ الأمِّ؛ حيثُ قدَّمَها في التَّحريمِ على غيرِها.

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٢٤٣)، والترمذي (١١٣٠)، وحسنه، وابن ماجة (١٩٥١)، وصححه ابن حبان، والدارقطني، والبيهقي.

وفِيها: أنَّ المحرَّماتِ بالمُصاهرةِ أربعةٌ: زَوْجةُ الأبِ، وزوجةُ الابنِ، وبنتُ الزَّوجةِ المدخولِ بها، وأمُّ الزَّوجةِ، فهؤلاءِ مُحرَّماتٌ إلى الأبَدِ.

وفِيها: حِرصُ الشَّريعةِ علَى صيانةِ صلَةِ الرَّحِمِ، ومِنْ ذَلِكَ: تحريمُ الجمعِ بَيْنَ المرأةِ وأُخْتِها، وبَيْنها وبَيْن خالتِها، أوْ عمَّتِها؛ وذَلكَ لأنَّ الغَيْرةَ بَيْنَ الضَّرائرِ لا تَخْلو مِنَ التباغُضِ، والتحاسُدِ.

وفِيها: أنَّ أسبابَ التحريمِ هي: النَّسبُ، والصِّهرُ، والرَّضاعُ، وهناك مُحرّماتٌ أُخرَى بأسبابٍ أخرَى، مِنْها: الاحترامُ، فَتحرُم أمَّهاتُ المؤمنين، والمُلاعنةُ، فتحرُم الزَّوجةُ بعدَ اللّعانِ.

وتَحرُم -أيضًا- زوجةُ الغَيْرِ حتَّى يفارِقَها، والمعتدَّةُ حتّى تنقَضي عِدّتُها، والكافرةُ مِنْ غيرِ أهلِ الكِتابِ.

وفِيها: إشارةٌ إلى احتِضانِ بنتِ الزَّوجةِ، وتربيتِها، والإحسانِ إليها، وأنْ يعامِلَها كابْنَتِه.

وفِيها: تنزيهُ القرابةِ القريبةِ عَنِ الشَّهوةِ، والتلذُّذِ.

وفِيها: أنَّ نكاحَ المحارمِ مِنْ أكبرِ الكبائِرِ.

وفِيها: نَفْيُ الإثمِ عمَّا تَمَّ ارتكابُه، قَبْل العِلْم بتحريمِه، مَعَ وُجوبِ التوقُّفِ عَنْه، والخروجِ مِنْه، بَعْدَ العِلمِ بالتَّحْريمِ.

وفِيها: تنزيلُ المُرضِعَةِ مَنزلةَ الأمِّ؛ لِما في لَبَنِها مِنْ حُصولِ تغذيةِ الولدِ؛ فينبغِي أن يكونَ لها حقٌّ في التوقيرِ، والاحترامِ، والبرِّ، وإنْ كانَ دُونَ برِّ الوالدةِ.

وفِيها: أنَّ الرَّضاعَ المُحرّمَ هُوَ: الرَّضاعُ الطبيعِيُّ، فلا تُحرِّمُ أنواعُ اللَّبَنِ الأخرَى، كالألبانِ الصِّناعِيَّةِ.

وفِيها: أهمِّيَّةُ الرَّضاعةِ الطَّبيعيَّةِ، وما ينشأُ عَنْها مِنَ التَّغذيةِ، والعَلاقةِ، بخلافِ الصِّناعيَّةِ.

وفِيها: أنَّ شريعةَ الإسلامِ قد اخْتُصَّت بأحكامٍ عَن سائرِ الشرائعِ السَّابقةِ، فقد كان في شريعةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تزويجُ الأخِ مِنْ أختِه، وقيل: إنَّه كانَ في شَريعةِ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جوازُ الجَمعِ بَيْن الأختَيْن، ونَحو ذلك، وهذا كلُّه مُحرَّمٌ في هذه الشريعةِ.

وفِيها: التَّنبيهُ علَى الاهتمامِ بأحكامِ الرَّضاعِ، ومَعرفةِ وقتِ الرَّضعةِ، وعددِ الرَّضَعاتِ، وأولادِ المُرضِعةِ، وأنَّ إهمالَ ذَلكَ يُؤدِّي إلَى نِكاحِ مَنْ لا يَحِلُّ نِكاحُهُنَّ، وفي المقابِلِ: ينبغِي التَّحقُّقُ مِنْ ثُبوتِ الرَّضاعِ؛ فإنَّ التَّساهُلَ في هذا يُؤدِّي إلَى دُخولِ مَنْ لا يَحِلُّ دُخولُه علَى المرأةِ. قالَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدِي رَجُلٌ قاعِدٌ، فاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ الغَضَبَ في وَجْهِهِ، قالَتْ: فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرَّضاعَةِ، قالَتْ: فَقالَ: «**انْظُرْنَ إِخْوَتَكُنَّ مِنَ الرَّضاعَةِ، فَإِنَّما الرَّضاعَةُ مِنَ المَجاعَةِ**»(١).

ومعنى: «**الرَّضاعَةُ مِنَ المَجاعَةِ**»: أي: الرَّضاعَةُ الَّتِي تَثْبُتُ بِها الحُرْمَةُ، وَتَحِلُّ بِها الخَلْوَةُ: هِيَ حَيْثُ يَكُونُ الرَّضِيعُ طِفْلًا، يسُدُّ اللَّبَنُ جَوْعَتَهُ.

وفِيها: تحريمُ بنوكِ الحَليبِ الموجودةِ اليومَ، التي يتمُّ فيها خَلْطُ الحليبِ مِنْ أمَّهاتٍ شتَّى، ثُمَّ لا يُعرَفُ صاحبةُ اللَّبنِ، وتضيعُ العَلاقةُ بَيْنها، وبَيْن المرتَضِع.

وفِيها: رَفْعُ الحَرَجِ في الشَّريعةِ، وعدمُ التَّضييقِ علَى الناسِ؛ فإنَّ تحريمَ هؤلاءِ المُحرَّماتِ، فيهِ: دُخولُ أقاربِهنَّ عَلَيهنَّ، واختلاطُهم بهنَّ، ولولا هذا لَضاقَ عيشُ النَّاسِ جِدًّا، وصارَتْ المرأةُ -في كثيرٍ مِنَ الأحيانِ- مَحْبوسَةً، ولَتَعطَّلَتْ مَصالِحُ، وتعسَّرتْ عَلَى النَّاسِ الأحوالُ.

وفِيها: أنَّ التَّحريمَ يُقصَدُ به في الآيةِ: منعُ النِّكاحِ، وما يَتعلَّقُ به، لا تحريمَ النَّظرِ، والدُّخولِ، والخَلْوةِ.

وفِيها: أنَّ ذِكْرَ التَّحريمِ في أشدِّ حالاتِهِ، لا يعنِي -بالضَّرورةِ- إباحةَ ما هو دُونَه؛ فإنَّ تحريمَ بنتِ الزَّوجةِ، التي تَربَّتْ في حِجْرِ زوجِ أمِّها، لا يعنِي إباحةَ مَنْ لَمْ تكُنْ في حِجْرِه، بل هي مُحَرَّمةٌ عليه -أيضًا- ما دامَ قد دَخَل بأمِّها.

وفِيها: تقديمُ مُحرَّماتِ النَّسَبِ، علَى مُحرَّماتِ الرَّضاعِ، والصِّهرِ؛ إشارةً إلى عُلُوِّ مَنزلةِ صلَةِ الرَّحِمِ، وأنَّها أعظمُ مِنْ عَلاقةِ الصِّهرِ، والرَّضاعِ.

ثُمَّ ذَكَر تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ المُحرَّماتِ مُؤقَّتًا زوجةَ الغَيْرِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

---

(١) رواه البخاريّ (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾.

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ المقصودُ: الأجنبياتُ المتزوجاتُ، فإنَّهن يَحرُمنَ أيضًا ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فإنَّه يَحِلُّ لكم وَطؤُهُنَّ بَعد استِبراءِ الرَّحِمِ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ، ويدلُّ علَى ذلك سببُ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فقد رَوَى الإمامُ أحمدُ وغيرُه، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أَصَبْنا نساءً مِنْ سَبْيِ أَوْطاسٍ، ولَهُنَّ أزواجٌ، فكَرِهْنا أنْ نَقَعَ عليهِنَّ، ولَهُنَّ أزواجٌ، فسَأَلْنا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزَلَت هَذه الآيةُ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ فاسْتَحلَلْنا بِها فُرُوجَهُنَّ»[1].

وقد رَواهُ مسلمٌ[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إلى أَوْطاسَ، فَلَقُوا عَدُوًّا، فقاتَلُوهُمْ فظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصابُوا لَهُمْ سَبايا، فكَأَنَّ ناسًا مِنْ أَصْحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيانِهِنَّ، مِنْ أَجْلِ أَزْواجِهِنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في ذَلِكَ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾».

وذَهَب بعضُ المُفسِّرين إلَى أنَّ المُرادَ بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: العفائفُ، حرامٌ عليكم، حتَّى تَمْلِكوا عِصْمَتَهُنَّ بنكاحٍ، وشُهودٍ، ومُهورٍ، ووليٍّ.

وقولُه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: هذه الأحكامُ، وهذا التَّحريمُ مكتوبٌ، ومفروضٌ عَلَيْكُم، فالزَمُوه، واعمَلوا به، ولا تخرُجوا عَنْ حُدُودِه، وشرعِهِ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: مِنَ النِّساءِ، غير ما تقدَّم ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾ وتُحصِّلوا ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ مهورَ الزَّوجاتِ، وثَمنَ ملكِ اليمينِ ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: تتَّخذُوا بالطَّريقِ الشَّرعِيِّ، ما شِئتُم مِنَ النِّساءِ، إلى أربعِ زوجاتٍ مِنَ الحرائرِ، وما شِئتُم من مِلكِ اليمينِ ﴿فَمَا

(١) رواه أحمد (١١٦٩١)، وصححه محققو المسند.

(٢) صحيح مسلم (١٤٥٦).

﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ أي: في مقابِلِ الاستمتاعِ بالزَّوجاتِ الحرائرِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مُهورَهنَّ ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: لِزامًا في مقابِلِ ذلك.

وقد استدلَّ بعضُهم بعُمومِ هذه الآيةِ علَى نكاحِ المُتعَةِ، ولا شكَّ أنَّ هذا كان جائزًا، ثُمَّ نُسِخَ، قال بعضُ العلماءِ -ومِنْهم الشافعيُّ-: «إنه أُبيحَ، ثُمَّ نَسِخَ، ثُمَّ أُبيحَ، ثُمَّ نُسِخَ»، وكانَ ذلك رُخْصةً للصَّحابةِ، لَمَّا ابتعَدوا عَنْ نِسائِهم في الغَزواتِ، ثُمَّ استقرَّتِ الشَّريعةُ علَى التَّحريمِ.

وقد ثَبَتَ في الصحيحينِ، عَن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «نَهَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نِكاحِ المُتعَةِ، وعنِ الحُمُرِ الأهليَّةِ يَوْمَ خَيْبرَ»[1]. وفي صحيح مسلمٍ عَنْ سبْرةَ بن معبدٍ الجُهنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه غَزا مَعَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ فتحِ مكَّةَ، فقال: «**يا أيُّها الناسُ: إنِّي كنتُ أذِنْتُ لكُم في الاسْتمتاعِ مِنَ النِّساءِ، وإنَّ اللهَ قدْ حَرَّمَ ذلكَ إلى يومِ القِيامةِ، فمَنْ كانَ عِندَه مِنْهُنَّ شَيءٌ[2] فليُخلِّ سَبيلَه، ولا تأخُذوا مِمَّا آتيتُموهُنَّ شيئًا**»[3].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: لا حَرجَ علَيْكُمْ، ولا إثمَ ﴿فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾ بَيْنكم وبَيْنَ زَوْجاتِكم، مِنَ التَّنازُلِ عَنْ شيءٍ مِنَ المَهرِ، أو تأخيرِ تَسليمِه، أو زيادَتِهِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾ أي: مِن بَعدِ الاتِّفاقِ علَى المَهرِ، وتحديدِه. وسمَّاه اللهُ فريضةً؛ لأهمِّيَّتِهِ، ووُجوبِ إيتائِهِ.

وقد رَوَى ابنُ جَريرٍ عَنِ المُعتَمرِ بنِ سُليمانَ عَنْ أبيهِ، قال: «زَعَم الحَضْرَميُّ أنَّ رجالًا كانوا يَفرِضونَ المَهرَ، ثُمَّ عَسَى أنْ تُدرِكَ أحدَهم العُسْرةُ، فقال اللهُ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾»[4].

يعني: إنْ وضَعَتْ لك شيئًا فهو لَكَ سائغٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ فيما شَرَع، وقَضَى بَيْن عبادِهِ، فأحكامُه مَبْنيَّةٌ علَى العِلْمِ والحِكمَةِ.

---

(١) رواه البخاري (٥١١٥)، ومسلم (١٤٠٧).

(٢) أي: المنكوحات نكاحَ متعةٍ.

(٣) صحيح مسلم (١٤٠٦).

(٤) تفسير ابنِ جَرير (٨/ ١٨٠).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

إثباتُ الرِّقِّ في الإسلامِ؛ لقولِه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وفِيها: إطلاقُ البعضِ علَى الكُلِّ؛ لأنَّ ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ جمعُ يمينٍ، وهي: اليدُ، فيجوزُ التعبيرُ بالبعضِ عن الكُلِّ.

وفِيها: أنَّ مِنْ فِضْلِ الله: أنْ جَعَلَ المُحلَّلاتِ مِنَ النِّساءِ في النِّكاح أكثرَ مِنَ المُحرَّماتِ بكثيرٍ.

وفِيها -مع ما قبلها-: أنَّ المُحرَّمَ هُوَ الذي يُحصَرُ، وأمَّا المُباحُ: فلا يُحْصَرُ؛ لأنَّه أكثرُ.

وفي الآيةِ: أنَّ الأصلَ هُوَ: الحِلُّ، وأنَّ مَنِ ادَّعَى تحريمَ امرأةٍ، فعلَيه الدَّليلُ.

وفِيها: وُجوبُ بَذلِ المالِ في النِّكاح، فلا نكاحَ بِلا مالٍ؛ لقولِهِ: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾، فإذا اشتُرِطَ في العَقدِ عدمُ المَهرِ، فقد قال بعضُ العلماءِ: «لها مَهرُ المِثلِ، ويصحُّ العقدُ»، وقال بعضُهم: «النِّكاح غيرُ صحيحٍ»، وكذلك إذا جَرَى العَقدُ بغيرِ تعيينٍ للمهرِ، فإنَّ لها مهرَ مِثْلِها.

وفِيها: تسميةُ المَهرِ أجرًا؛ لأنَّه عِوَضٌ في مقابَلَةِ منفعةٍ، وهِيَ الاسْتمتاعُ.

وفِيها: أنَّ صاحبَ الحقِّ له أنْ يُبرِئَ مَنْ عليه الحقُّ، أو يضعَ عَنْهُ، أو يُؤجِّلَه، وأنه لا حَرَجَ علَى الآخَرِ مِنَ الاستفادةِ مِنَ التَّنازلِ، والتَّأجيلِ، ما دام بِرِضا الطَّرَفَيْنِ.

وفِيها: اشْتراطُ التَّراضِي في التَّنازلِ، وأنَّ عدمَه مانعٌ مِنْ أكلِ المالِ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ في طلبِ النِّكاح أنْ يكونَ مِنْ جِهة الزَّوجِ؛ لقولِه: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾، ويجوزُ للمرأةِ، أوْ وليِّها، عرضُ النِّكاح علَى الرجلِ الكُفءِ.

وفِيها: أنَّه لا يجوزُ النِّكاح بمقابلٍ محرّمٍ، كالمَغصوبِ، والخَمرِ؛ لأنَّه لا يُسمَّى مالًا أصلًا، وقد قال اللهُ في الآيةِ: ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ فليسَ بمالِ الغيرِ، ولا بشيءٍ غيرِ مُحتَرَمٍ.

وفِيها: أنَّ المَهرَ يَثْبُتُ باستمتاعِ الزَّوجِ بزوجتِهِ، سواء بنظرٍ إلَى عَوْرةٍ، أوْ مُباشَرةٍ بشَهوةٍ؛ ولِذلك قالُوا: «يَثْبُتُ المَهرُ كامِلًا بالخَلْوةِ التامَّة».

وفِيها: أنَّ المَهرَ الذي يَدْفَعُه الرجلُ برضاهُ، لا يتقيَّدُ بحدٍّ مُعيَّنٍ؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾.

وفِيها: جوازُ زيادةِ المَهْرِ مِنْ طَرَفِ الزَّوجِ، أوِ الحَطِّ مِنْه مِنْ طَرَفِ الزَّوجةِ، بَعد استقْرارِه، وثُبُوتِه، إذا حَصَل ذلك بالتَّراضِي.

وفِيها: أنَّ المَهْرَ مِنْ بابِ الواجبِ المَفروضِ، وليسَ مِنْ بابِ التَّبرُّعاتِ.

وفِيها: أنَّ المَرجِعَ في الأحكامِ الشَّرعيةِ هو ما فَرَضَهُ اللهُ، وليسَ عاداتِ الناسِ، وتقاليدَهم؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شُروطَ نكاحِ الأَمَةِ، ومِنْها: العجزُ عنْ نكاحِ الحُرَّةِ، وأنْ تكونَ الأَمَةُ مُؤمِنةً، وأنْ يَنكِحَها بإذْنِ أهلِها، وأنْ يُؤتِيَها مَهْرَها، وأنْ تكونَ عَفيفةً، وأنْ يَخْشَى علَى نفسِه الحرامَ، لَو لَمْ ينكِحِ الأَمَةَ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾.

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ﴾ يا أيُّها الأحرارُ ﴿طَوۡلًا﴾ أي: قُدرةً، وسَعةً، ومالًا ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: الحرائرَ، كأنْ لَمْ يَجِد ما يُعطِيها مَهرًا، أوْ لَمْ ترْضَ به النِّساءُ الحرائرُ؛ لعَيْبٍ فيهِ، أو عَجْزٍ عَن حُقُوقِ الحُرَّةِ، وقَدَرَ علَى نكاحِ الأَمَةِ، فقد أجازَ اللهُ لهُ ذلك ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ أي: تَزوَّجوا الإماءَ ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: المسلماتِ، غيرِ الكافراتِ. والفَتَياتُ جمعُ فتاةٍ، وهي -لُغةً-: المرأةُ، الشَّابَّةُ، الحديثةُ السِّنِّ.

ولَمَّا كانَ الإيمانُ خَفيًّا في القلبِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ بحقيقَتِه، ودرجَتِه، ومراتِبِكُم فيه، ورُبَّما فاقَتِ الأَمَةُ الحُرَّةَ في الإيمانِ ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي:

المؤمنونَ والمؤمناتُ متَّصلُونَ في النَّسَبِ بآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومتَّصلُون في الدِّينِ بالأُخُوَّةِ الإيمانِيَّة ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ وهذا يدلُّ علَى أنَّ السيِّد هو وليُّ أَمَتِه، لا تُزوَّج إلا بإذْنِه ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ادفعُوا إليهِنَّ مُهورَهنَّ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْكُم دُونَ بَخْسٍ، ولا مُماطلَةٍ، ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ أي: انكحُوهُنَّ في حالِ كونِهِنَّ عفيفاتٍ ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ مُعلِناتٍ بالزِّنا، والمُسافِحَةُ: هي التي لا تَمْتنِعُ عمَّنْ أرادَها بالفاحشةِ. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ﴾ أي: أخِلَّاءَ، يزنُون بِهِنَّ سرًّا ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ أي: بالنِّكاحِ، وذلك أنَّه يُحصِّنُ الفَرْجَ، وقِيل: أسلَمْنَ، والراجِحُ الأوَّل؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ وصَفَهنَّ قَبْل ذلك في الآيةِ بالمؤمناتِ، فكيفَ يُقالُ في المُؤمناتِ: فإذا أسْلَمْنَ؟! ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي: وَقَعْنَ في الزِّنا ﴿فَعَلَيۡهِنَّ﴾ أي: الإماءِ الزانياتِ ﴿نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: نصفُ ما علَى الحرائرِ الأبْكارِ مِنْ الجَلْدِ. وقد ذَهَب جُمهورُ العلماءِ، إلى أنَّ الأَمَةَ تُجلَدُ خمسينَ جلدةً، سواءً كانتْ مُتزوجةً، أوْ غيرَ متزوجةً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أَبَحْناهُ لكم، مِنْ نكاحِ الإماءِ عندَ العَجْزِ مِنَ الحرائرِ جائزٌ ﴿لِمَنۡ خَشِيَ﴾ وخافَ ﴿ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ أي: الوُقُوعَ في الزِّنا، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الجِماعِ ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ﴾ فلا تَنكِحُوا الإماءَ، وتُجاهِدُوا أنفسَكُم في البَقاءِ علَى العفافِ، وتَستَعِينُوا بالمُجاهدةِ، والصِّيامِ، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مِنْ نكاحِ الإماءِ؛ لِما في ذلك مِنْ تعريضِ الأولادِ للرِّقِّ؛ لأنَّهم في هذه الحالةِ، سيكونُونَ مِلْكًا لسيِّد الأَمَةِ، ولِما في نكاحِ الحُرِّ للأَمَةِ مِنَ الإزراءِ علَى نفسِه، بالعُدُولِ إلَى مَنْ دَنَتْ مرتَبَتُها، ولِما يكونُ مِنَ الذِّلةِ والمَهانةِ للأولادِ، بسببِ ذلك، ولانتقالِ بعضِ الطبائِعِ الرَّدِيئَةِ بسببِ ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لِمَنْ تابَ إليهِ مِن التقصِيرِ في نكاحِ الحرائرِ، أو المَيْلِ بشهوتِهِ إلَى الحَرامِ، أو احتِقارِ الإماءِ المؤمناتِ، والطَّعنِ فيهِنَّ، أو عدمِ الصَّبرِ علَى الشهوةِ، ونحوِ ذلك. ﴿رَّحِيمٞ﴾ بعبادِهِ، حيثُ أباحَ لهم ما أباحَه؛ تَوْسِعةً علَيْهم.

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ نكاحَ الحُرِّ للأَمَةِ لا يكونُ إلَّا في حالِ الاضْطِرارِ، وأنَّ حقوقَ الأَمَةِ في النِّكاحِ، دُونَ حُقوقِ الحُرّةِ؛ ولذلك قد يَستطِيعُه الحرُّ، ولا يَستطيعُ الآخَرُ.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ نِكاحُ الأَمَةِ الكافِرةِ.

وفِيهـا: أنَّ الأدبَ في نِـداءِ الأَمَـةِ: أنْ يُقـالَ: فتـاتِي؛ لِما ثَبَتَ عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عبدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسائِكُمْ إِماءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلامِي، وَجارِيَتِي، وَفَتايَ، وَفَتاتي**»[(١)].

وفِيهـا: أنَّـه ليسَ لناكِحِ المؤمنةِ إلا الظَّاهرُ في الإيمانِ؛ لأنَّنـا غيرُ مكلَّفينَ ببواطِنِ الأمورِ، والحقائِقِ، فإنَّه لا يَطَّلِع عليها إلا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وفِيهـا: أنَّ الأَمَـةَ المؤمنةَ خيرٌ مِنَ الحُرَّة الكافرةِ؛ لأنَّ اللهَ رَفَعَ شـأنَ أهلِ الإيمانِ، ذُكورًا، وإناثًا.

وفِيها: أنَّ نِكاحَ الأَمَةِ بغيرِ إذْنِ سيِّدِها باطلٌ، وقد تكونُ الأَمَةُ في مِلْكِ يَتيمٍ، فيقومُ وليُّه -سواءً كانَ جَدًّا، أو قاضيًا، أو وصيًّا- مَقامَه في التزويجِ، وإنْ كانَ مالكُ الأَمَةِ امرأةً، زوَّج الأَمَةَ وليُّ سيِّدتِها، بإذنِ سيِّدتِها.

وفِيها: إعطاءُ المَهرِ للأَمَةِ، وتسليمُه إليها، وجمهورُ العلماءِ علَى أنَّه مِلكٌ لسيِّدِها.

وفِيها: تحريمُ الزِّنا، سِرًّا، وجَهرًا، وذمُّ المُومِسـاتِ، والتشْـنِيعُ عـلَى مَنْ يتَّخذُ الخَلائِل، والخليلاتِ. وكانَ الزِّنا في الجاهليَّةِ علانيَةً، وهوَ: السِّـفاحُ، وسرًّا، باتِّخاذِ العَشـيقِ؛ ولِذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقد قال في هـذه الآيـةِ عـنِ الإمـاءِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، وقالَ عنِ الرِّجالِ الحرائرِ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾.

وفِيها: أنَّه لا يَجِبُ علَى مُستطِيعِ نكاحِ الأَمَةِ، الاستدانةُ لأجلِ نكاحِ الحُرَّةِ.

وفِيها: أنَّ الأَمَةَ المُؤمنةَ خيرٌ مِنَ الحُرَّةِ الكِتابيَّةِ.

وفِيها: أنَّ المرأةَ لا تُزوِّجُ نَفْسَها، ولابُدَّ لَها مِنْ وَلِيٍّ.

وفِيها: إطلاقُ الإحصانِ علَى العِفَّةِ.

وفِيهـا: أنَّ اتِّخـاذَ الصَّداقـاتِ بَيْن الجِنسَـيْنِ، وإقامَةَ العَلاقـاتِ بَيْنَهما، يُـؤدِّي إلَى الحرامِ؛ لقولِهِ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

وفِيها: الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ إعفافِ الإماءِ؛ حتَّى لا يَقَعْنَ في الحَرامِ.

وفِيها: أنَّ كلَّ إنسانٍ أدْرَى بقُدرَةِ نفسِهِ.

وفِيها: أنَّ الواجباتِ الشَّرعيةَ مَنوطةٌ بالاسْتِطاعَةِ.

وفِيها: الإشارةُ إلَى عدَمِ تزكيةِ النَّفسِ في الإيمانِ.

وفِيها: تذكيرٌ لِمُريدِ الزَّواجِ، بأنْ يكونَ إيمانُ المخطوبةِ هو غايتَه، ومُرادَه الأوَّل.

وفِيها: أنَّ الميزانَ عندَ اللهِ في تفاوُتِ أقدارِ البَشَرِ إنَّما هو تَفاوُتُهُم في الإيمانِ، والتَّقوى، وأمَّا مِنْ جِهَةِ البشريَّةِ: فإنَّهم سواءٌ؛ وقدْ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ**»[١].

وفِيها: أنَّ كَسْبَ الأَمَةِ، والعبدِ، لسيِّدِهما، ومَهرُ الأَمَةِ يدخُلُ في ذلك.

وفِيها: أنَّ النِّكاحَ يُحصِّنُ النَّفسَ مِنَ الحَرامِ، وسببٌ للمناعَةِ مِنْه، ويَقِي الفَرْجَ الوطءَ المُحرَّمَ، ويُقوِّي النفسَ في الصُّمودِ أمامَ الفاحشةِ، ويَمنَعُها مِنْ ذَلكَ.

وفِيها: أنَّ عقوبةَ الأَمَةِ الزَّانيةِ، أدنَى مِنْ عقوبَةِ الحُرَّة إذا زَنَتْ؛ وذلك لأنَّ الزِّنا مِنَ الحُرَّةِ أقبحُ، والحاجزَ بَيْنها وبَيْن الزِّنا أقوَى، بخلافِ الأَمَةِ، التي يكونُ الحاجزُ بَيْنها وبَيْن الزِّنا أضعفَ؛ لِدُنوِّ مرتبَتِها، وهوانِها في نَظَرِ النَّاسِ، وضَعْفِ مقاومَتِها. فلَمَّا رَفَعَتِ الشَّريعةُ مَنزلةَ الحُرَّةِ، اشتدَّتْ عقوبَتُها، ولَمَّا نَزَلَتْ دَرجةُ الأَمَةِ، صارَت عقوبَتُها أخفَّ.

وفِيها: إطلاقُ العَنَتِ على الزِّنا؛ وذلك لِما يَنتُجُ عنه مِنَ الإثْمِ، والحَرَجِ، وعُقوبَةِ الدُّنيا، وعُقوبَةِ الآخرة، والفضِيحةِ، وأولادِ الحرامِ، والأمراضِ، وغيرِ ذلك.

وفِيها: أنَّ نِكاحَ الحُرِّ للأَمَةِ يترتَّبُ عليه بعضُ المفاسِدِ؛ ولذلك لا يُلْجأُ إليهِ إلَّا عندَ الاضطِرارِ. وقد قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّما حُرٍّ تَزَوَّجَ أَمَةً فَقَدْ أَرَقَّ نِصْفَهُ، وَأَيُّما عبدٍ تَزَوَّجَ حُرَّةً فَقَدْ أَعْتَقَ نِصْفَهُ»[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٣٩٥٦)، وصححه.

(٢) رواه الدارمي في سننه (٣١٧٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٤٦٦)، وسنده صحيح.

وتكونُ الأَمَةُ في هذه الحالةِ غيرَ متفرِّغةٍ لزوجِها؛ بسببِ استمرارِ سُلطانِ سيِّدها علَيها في خِدمَتِه.

وفِيها: أنَّ أحكامَ الدُّنيا مَبْنِيَّةٌ علَى الظَّاهِرِ.

وفِيها: أنَّه لا يَنْبَغِي للأبِ أنْ يُلْحِقَ النَّقصَ بولَدِه.

وفِيها: أنَّ مَنْ تَناقلَتْها الأيدِي، وصارَتْ في المِهنةِ، والخِدمةِ، هي أكثرُ تعرُّضًا للحَرامِ، وأقلُّ مقاومةً له، بخلافِ الحُرّةِ، المستقرّةِ في البيتِ، المَكفيَّةِ بنفقةِ زوجِها، وأبِيها، وهُنا يَتبيَّنُ أنَّ تعريضَ الحرائرِ المسلماتِ -اليومَ- للابتِذالِ، والامْتِهانِ، بإدخالِهنَّ في الوظائفِ المُختلَطةِ، وعملِهنَّ لَدى الرِّجالِ الأجانبِ، وكثرةِ دخولِهنَّ عليهم، والخَلْوةِ بهم: سيُؤدِّي إلى انتشارِ الفَسادِ، والوقوعِ في الحَرامِ، وتفكُّكِ المُجتمعِ.

وفِيها: أنَّه لا يجوزُ للزَّوجِ، أنْ يَجْعلَ علَى نفسِه في زوجَتِه نَقصيْن، أحدهما أشدُّ مِن الآخَرِ، وهُما: الكفرُ، والرِّقُّ.

وفي الآيةِ: أنَّ الأخذَ بالعَزيمةِ، أفضلُ مِنَ الأخذِ بالرُّخْصةِ(١)؛ لأنَّ الصَّبرَ أشدُّ مِنْ نكاحِ الأَمَةِ.

وفِيها: أنَّ الصَّبرَ يَرتقِي بالعبدِ في مَراتبِ الخيرِ عندَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ كانتْ نعمةُ اللهِ علَيها أَعْظَمَ، فلَمْ تَشكُرْ، كان حسابُها أشدَّ، كما في عقوبةِ الحُرَّةِ، والأَمَةِ، في الزِّنا، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وفِيها: أنَّ الزَّوجةَ إذا كانتْ رقيقةً، تَبِعَها أولادُها في الرِّقِّ، وكذلك إذا تزَّوجَ العبدُ حُرّةً، فإنَّ أولادَها يكونونَ أحرارًا.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ الظَّاهرَ للمرأةِ، يكفي لصحّةِ نكاحِها.

---

(١) هذا محلّ خِلافٍ بيَن أهلِ العلمِ، والراجحُ: التفصيلُ؛ فقد يكونُ الأخذُ بالرُّخصة أفضلَ، وقد يكونُ الأخذُ بالعزيمةِ أفضَل.

وفِيها: عدمُ جوازِ الطَّعنِ في الإيمانِ الظَّاهرِ، إلا بِحُجَّةٍ ودليلٍ.

وفِيهـا: أنَّ الأَمَـةَ المتزوِّجـةَ إذا زَنَـتْ لا تُقتـلُ؛ لأن الرَّجـمَ لا يَتنصَّـفُ؛ ولأنَّ قتلَها فيه تفويتٌ لحقِّ سيِّدِها فيها، وإتلافٌ لبعضِ مالِه.

وبَعـد أن ذَكَـر اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النِّـكاحَ، وأحـكامَ تعدُّدِ الزَّوجـاتِ، والفاحشـةَ، وما يَترتَّبُ علَيها، والأمرَ بالتَّوبةِ مِنْها، والمُعاشرةَ بالمَعروفِ، والانتقالَ مِنْ زوجةٍ إلى زوجةٍ، وأحكامَ المُحرَّماتِ، وإباحةَ نكاحِ الأَمَةِ بِشروطِه، وتحريمَ السِّـفاحِ، واتِّخاذِ الخَلائلِ بالحرامِ، وحَدَّ الأَمَـةِ إذا زَنَـت: ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ سـببَ تشريعِ هذه الأحـكامِ، وهلْ كانتْ في الأُممِ السَّـالفةِ مِنْ قَبْلِنا؟ والحكمةَ مِنْ وراءِ ذلك، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بما شَرَعَه مِنَ الأحكامِ بمصالِحِها، ومنافِعِها ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ يُرشِـدَكم ﴿سُنَنَ﴾ وطرائـقَ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مَـنْ تقدَّمُوكم مِنَ الأمـمِ والأنبياءِ؛ لِتقتـدُوا بِهِمْ، وتقتَفُوا آثارَهم. وشرائعُ الأنبياءِ السَّـابقينَ -وإنْ كانَ بَيْنَها اختلافٌ في بعضِ الأحكامِ- فإنَّها مُتَّفِقةٌ في كثيرٍ مِنْها، وتدورُ كلُّها علَى مُراعاةِ المصالحِ العامَّةِ للبَشَرِ ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُريدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ تعودُوا إلى طاعتِه، وتُقلِعوا عَنْ معصيتِه، وأنَّ هذه الآياتِ، والأحكامَ، تُؤدِّي بِمَنْ عَمِلَ بها إلى الاستقامةِ، والتوبةِ، وسلوكِ سبيلِ الحقِّ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالِحِ عبادِه ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما شَرَعَه لَهُم.

ثُـمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويُطهِّرَكـم مِنَ الذُّنُوبِ، ويُزكِّيَكمْ مِنَ الأَدْناسِ، ويَدُلَّكُم علَى طريقِ التوبةِ. وقيل: إنَّ تكرارَ إرادةِ التوبةِ هُنا؛ لتقويةِ هذا الأمرِ، والتأكيدِ علَيه، وقيل: إنَّ الموضِعَ الأوَّلَ: فيهِ إرشادُ اللهِ لعبادِه، إلى ما يكونُ سببًا لتوبتِهم، مِنَ الطَّاعاتِ، والأعمالِ الصالحِةِ، والموضع الثانِي: توفيقُهُم لِفعل ما يتوبُ به علَيهم، ويُكفِّر بِهِ عنهم تلكَ الآثامِ، والفواحشِ، مِنَ الإقلاعِ، والنَّدَمِ، ونحوِه.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وهم: أتباعُ الشَّياطينِ مِنَ اليهودِ، والنَّصارَى، والزُّناةِ، وكلِّ مَنْ يَعتقدُ بنكاحِ المَحارِمِ، أو بعضِهم، كالمجوسِ، والهِندوسِ، وغيرِهم. والشَّهواتُ جمعُ شهوةٍ، والمُرادُ بها هنا: المُستلذَّاتُ المُحرَّمةُ ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ وتَعدِلوا عنِ الحقِّ إلَى الباطِلِ ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ باتِّباعِ الشَّهواتِ، واستحلالِ المُحرَّماتِ، وتَرتكِبوا الخَطايا العظيمةَ، بفِعْلِ الفواحشِ، ونكاحِ المَحارمِ.

ثُمَّ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ يا أيَّتُها الأُمَّةُ المحمديَّةُ، ويأتيكُم بالتَّسهيلِ، والرُّخصةِ الصَّحيحةِ، كإباحةِ نكاحِ الأَمَةِ عندَ الضَّرورةِ، ولا يُريدُ الإثقالَ علَيكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أمامَ الشَّهوةِ، والهَوَى، ضعيفًا في أمرِ النِّساءِ، يَذهبُ عقلُه عندَ فتنَتِهِنَّ.

وفي هَذهِ الآياتِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيانُ الحِكْمةِ في بَعضِ الأحكامِ، وأنَّ أحكامَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليستْ عبثًا.

وفِيها: أنَّ علَى المسلِمِ أنْ يَتَلَمَّسَ ذلك، وأنْ يَتعرَّفَ علَى أسبابِ التشريعِ، ومُرادِ اللهِ مِنْ وراءِ فَرضِ الأحكامِ -ما أمْكنَه-، وأنَّ هذا يزيدُ الإيمانَ، ويَرتقي بعِلمِ العبدِ؛ فيزدادُ يقينُه بالحُكْمِ، إذا عَرَفَ سببَه، وحِكمَتَه، وينفتحُ له بابُ الاقتباسِ مِنَ الشَّريعةِ في أقوالِه، وأفعالِه، فلا تكونُ تصرفاتُه عَبَثيَّةً، ولا كلامُه فارغًا ضائعًا. وأنَّ التأمّلَ في أحكامِ التشريعِ، يَبْتعدُ بالعبدِ عَنِ العَشوائيَّةِ.

وفِيها: اعتناءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعبادِه، والشَّفقةُ علَيهم، والرَّحمةُ بِهِم، وإرادةُ الخيرِ لهم، بالبيانِ لَهُمْ، وهدايتِهم، والتَّوبةِ عَلَيْهِمْ، والتَّخفيفِ عَنْهُمْ.

وفِيها: إرشادُ العبادِ إلى الاحتياطِ، والحَذَرِ، مِنْ فِتنةِ الشهواتِ؛ لأنَّ الإنسانَ العاقلَ إذا عَلِمَ أنَّ نفسَه ضعيفةٌ أمامَ الشَّهواتِ، لَم يُوردْها مَواردَ الهَلَكةِ، ولا أماكنَ الفسادِ، ولم يُطْلِقْ بصرَه في الصُّورِ، وتجنَّبَ الخَلْوةَ، وسماعَ الخُضُوعِ بالقولِ مِنَ النِّساءِ، ومخالطةَ المُتبرِّجاتِ، ونحوَ ذلك.

وفِيها: أنَّ اللهَ شَرَعَ مِنَ الأحكامِ ما فيهِ مُراعاةٌ لضعفِ البَشَرِ، سواءٌ في الاحتياطاتِ، وسدِّ الذَرائعِ، أو في الرُّخَصِ، والتسهيلاتِ، فقد مَنَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنَ النَّظرِ إلَى الأجنبيَّةِ، والخَلْوةِ بها، ومَنَعَ تبرُّجَها، ومُباشرتَها، وفي الجانِبِ المُقابِلِ: أباحَ تعدُّدَ الزَّوجاتِ، واتِّخاذَ الإماءِ، ومِلكَ اليمينِ، ونكاحَ الأَمَةِ عندَ الضَّرورةِ.

وفِيها: الضَّلالُ البعيدُ، والانحرافُ العظيمُ، لمستَحِلِّي نكاحِ المَحارِمِ، كالمَجوسِ، الذينَ يُبيحونَ نِكاحَ الأختِ، وبنتِ الأخِ، وكالهندوسِ، الذين يُبيحونَ اشْتراكَ أخَوَيْنِ في امرأةٍ واحدةٍ، بالإضافةِ إلى زُناةِ النَّصارَى، والإباحِيِّين، الذين اشتُهِروا في واقعِهم، وأفلامِهم، ومواقعِهم، بِوطءِ الأُمَّهاتِ، والأَخواتِ، والبناتِ، والبهائمِ -والعياذُ باللهِ-.

وفِيها: إثباتُ الإرادةِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهي: إرادةٌ كونيَّةٌ، وإرادةٌ شرعيَّةٌ.

وفِيها: أنَّه لا يُوجدُ شَيءٌ مجهولٌ في الشَّرعِ، ولا يُوجدُ حُكمٌ، يخفَى علَى الجميعِ، وقد يعلَمُه بعضُ النَّاسِ دونَ بعضٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

وفِيها: كمالُ هذهِ الأُمَّةِ، وكمالُ شريعتِها، بالنِّسبةِ لِما مَضَى مِنَ الأممِ.

وفِيها: انحِطاطُ مَرتبةِ أتباعِ الشَّهواتِ.

وفِيها: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَكتفي بِضلالِ نفسِه، بل يَعمدُ إلى إِضْلالِ غيرِه.

وفِيها: أنَّ اليُسرَ أحبُّ إلى اللهِ مِنَ العُسْرِ.

وفِيها: دَليلٌ لِمَنْ قالَ بأنَّ الرَّأيَيْنِ إذا تساوَيا، والقولَيْنِ إذا تكافَآ: يُقدَّمُ الأيْسرُ.

وفِيها: عِلاجُ شُمُوخِ النَّفْسِ، بِتذكيرِها بضعفِها، وعِصيانِها.

وفِيها: التَّحْذيرُ مِنْ خُططِ أتباعِ الشَّهواتِ -وما أكثرَهم اليومَ- وهم يَسْعَوْنَ إلَى تفكُّكِ الأُسَرِ، ونشرِ الانْحلالِ، والتَّرويجِ للزِّنا بِجميعِ الوسائلِ، مِنَ الرِّواياتِ، والمُسلسلاتِ، والأفلامِ، ومواقِعِ الشّبَكاتِ، ونشرِ الصُّورِ الخبيثةِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ إذا اهتدَى، صارَ مِنْ خَيرِ البَريَّةِ، وإذا انْتكَسَ في البهيميَّةِ، صارَ مِنْ شرِّ البَليَّةِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ خُلِق ضعيفًا، مِنْ ماءٍ مهينٍ، وله جَوفٌ، فتُسرع إليه الآفاتُ، فَهُوَ: ضعيفٌ في جسدِه، ضعيفٌ في صَبرِه، ضعيفٌ في عِلمِه، ضعيفٌ في قوَّته، ضعيفٌ في بِنْيَتِه، وهو أضْعفُ مِنْ كثيرٍ مِن خَلْقِ اللهِ، كالملائكةِ والجِنّ.

وفِيها: أنَّه يَجبُ علَى الإنسانِ أنْ يكونَ حازِمًا عندَ حُضورِ الشَّهواتِ.

وفي الآيةِ: أنَّ شريعتَنا تُشابِهُ شرائعَ مَنْ قَبْلنا، خُصوصًا في: أمورِ التوحيدِ، والقواعدِ العامَّةِ للدِّينِ، وكثيرٌ مِنَ المُحرَّماتِ لَدَينا كانتْ مُحَرَّمةً علَى مَنْ قَبْلنا أيضًا، كالزِّنا، والرِّبا، والظُّلمِ، ونكاحِ المحارِمِ، عَدا فروقاتٍ مُعيّنةٍ، فالأصولُ واحدةٌ، وإن وقَعَ اختلافٌ في بعضِ الفُرُوعِ.

وفِيها: ابتلاءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبادِه بالشَّهواتِ، وما تَميلُ إليهِ أنفُسُهم، وترغَبُ فيهِ رغبةً شديدةً، وتَجمَحُ إليهِ، وبهذا يَظْهرُ أهلُ الصَّبرِ مِنْ غيرِهم، وتتفاوتُ الأجورُ والدَّرَجاتُ، كما تتفاوتُ الآثامُ والدَّرَكاتُ.

وفِيها: أنَّ أهلَ الفسادِ، والشَّهواتِ، يُريدونَ أنْ يوافقَهم غيرُهم في فِعْلِهم؛ لِئَلَّا يَستَوْحِشوا؛ وكَيْ لا يُلامُوا؛ ولِيهوِيَ الجميعُ في الهَوَى المحرَّم.

وفِيها: أنَّ ذِكْرَ الهِدايةِ بَعدَ البيانِ، وعطفَها عليه، فيهِ إشارةٌ إلَى أنَّ الهدايةَ لا تكونُ إلا بَعدَ العِلمِ، وأنَّ العِلمَ والهدايةَ يقودانِ إلى التَّوبةِ.

وفِيها: وُجوبُ الاستجابةِ لمُرادِ اللهِ، ومُخالفةِ مُرادِ أتباعِ الشَّهواتِ.

وفِيها: الاعتناءُ بما يؤدِّي إلى التَّوبةِ، معَ إرادةِ التَّوبةِ نفسِها.

وفِيها: أنَّ إرادةَ اللهِ مُضادّةٌ لإرادةِ أتباعِ الشَّهواتِ.

ولَمَّا أمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في صَدرِ هذه السُّورةِ، بإيتاءِ أصحابِ الحقوقِ الماليَّةِ حقوقَهم مِنَ الأيتامِ، والورثةِ، والزَّوجاتِ، نَهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ أكلِ المالِ بالباطلِ، علَى وجهِ العُمومِ، ولَمَّا ذَكَرَ المُحرَّماتِ المتعلِّقةَ بالأبضاعِ، ذَكَرَ المُحرَّماتِ المتعلِّقةَ بالأموالِ، ولَمَّا ذَكَرَ طُغيانَ شهوةِ الجَسَدِ، حَذَّرَ مِن طُغيانِ شهوةِ المالِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم ﴾ استثارَ نفوسَهم بنداءِ الإيمانِ؛ ليكفُّوا، ويتورَّعوا عَنْ أكلِ أموالِ بعضِهم بعضًا، وهذا يشمَلُ أكْلَه كلَّه، أو بعضَه ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بأيِّ طريقٍ مُحرَّمٍ: كالغَصبِ، والسَّرقةِ، والقِمارِ، والرِّبا، وجَحدِ الحقِّ، وشَهادةِ الزُّورِ، والحَلِفِ الكاذِبِ، ويشملُ: أكْلَ مالِ الغَيرِ، وأكلَ مالِ النَّفسِ بالباطِلِ، وذلك بإنفاقِه في المعاصِي ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ أي: لكنْ إذا كانتْ تِجارةً مباحةً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ صادرةً عن رِضَى الطَّرفَيْنِ، فلا حَرَجَ عليكم حِينئذٍ، مِنَ اكتسابِ الأموالِ عنْ طريقِها، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّما البيعُ عَنْ تَراضٍ**»[١]، ومِنْ تمامِ التَّراضِي: إثباتُ خِيارِ المَجلسِ للبائِعِ، والمُشتري، وقد قالَ ﷺ: «**إذا تَبايَعَ الرَّجُلانِ فكُلُّ واحِدٍ مِنْهما بالخِيارِ، ما لَمْ يَتفَرَّقا**»[٢].

ولَمَّا كانَ المالُ عَدِيلَ الرُّوحِ -وقد نُهِيَ عَن إتلافِه- جاءَ النَّهيُ عنْ إزهاقِ الرُّوحِ أيضًا، وكَثيرًا ما يقعُ إتلافُ النَّفْسِ؛ لِنهبِ الأموالِ؛ ولذلك قَرَنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا بهذا، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتُل بعضُكم بعضًا، وأنتُم أهلُ دِينٍ واحدٍ، فمَنْ قَتَلَ أخاهُ المسلمَ، فكأنَّما قَتَلَ نفسَه، ويَدخُلُ في قَتلِ النَّفسِ -أيضًا-: فعلُ ما يستحقُّ به القتلَ، كقتلِ المؤمنِ بغيرِ حقٍّ، أو الزِّنا بعدَ الإحصانِ، أو الرِّدةِ، ونحوِ ذلك، ولا يجوزُ -أيضًا- للإنسانِ أنْ يقتُلَ نفسَه؛ لِيتخلَّصَ مِنَ الغمِّ، والشَّقاءِ، الذِي أصابَه؛ لأنَّ شقاءَ الآخِرةِ أعظَمُ، والألَمَ الذي سيأتِي أشَدُّ، وقدْ قالَ ﷺ: «**مَنْ قتَلَ نفسَه بِشيءٍ في الدُّنْيا، عُذِّبَ بِهِ يومَ القيامَةِ**»[٣].

وقالَ ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِها في بَطْنِهِ في نارِ جَهَنَّمَ، خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ في نارِ جَهَنَّمَ، خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى في نارِ جَهَنَّمَ، خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا**»[٤].

(١) رواه ابن ماجة (٢١٨٥)، وصححه البوصيري في الزوائد (٣/ ١٧).
(٢) رواه البخاريّ (٢١١٢)، ومسلم (١٥٣١).
(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠).
(٤) رواه البخاريّ (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

وفي الرَّجلِ الذي قتَل نفسَه بِسِكِّينٍ جاءَ الحديثُ القدسيُّ: «**بادَرَنِي عبدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجنَّةَ**»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيثُ نهاكُم عمَّا يُشقِيكُم، وحفظَ بَيْنَكُم أموالَكم، ودماءَكم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِد:

أنَّ مالَ المسلمِ علَى المسلمِ حرامٌ، لا يجوزُ أن يأخذَ مِنه شيئًا، إلا بِرِضاه، والمالُ: هو كلُّ ما يُتموَّل، مِن نَقدٍ، وطعامٍ، وثيابٍ، ونحوِها، وقد جاءَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «لَمَّا أنزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فقالَ المسلمونَ: إنَّ اللهَ قد نَهانا أنْ نأكُلَ أموالَنا بَيْنَنا بالباطلِ، والطَّعامُ مِنْ أفضلِ الأموالِ، فَلا يَحِلُّ لأحَدٍ مِنَّا أنْ يأكلَ عندَ أحَدٍ، فكَفَّ الناسُ عنْ ذلك، فأنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -بَعْدَ ذلكَ-: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]»[٢].

وفيها: أنَّ التِّجارة مِنْ أعظمِ أبوابِ الرِّزقِ، بل أكثرُ الرِّزق عنْ طريقِها، قال قتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التِّجارة رِزْقٌ مِنْ رِزْقِ اللهِ، حلالٌ مِنْ حلالِ اللهِ، لِمَنْ طَلَبَها بِصدْقِها، وبرِّها»[٣].

والتِّجارةُ أعلَى رُتبةً في كسبِ الأموالِ، مِنْ كسبِها عَن طريقِ الهِبَةِ، والصَّدَقةِ، والوَصيَّةِ، ونحوِها، وهي أرْفقُ، وأنْسَبُ، لذَوِي المُروءاتِ، والتِّجارةُ أعْلَى مِنَ الإجارَةِ.

وفي الآيةِ: وُجوبُ التَّراضِي في البَيعِ، ويكونُ ذَلكَ بكلِّ ما دلَّ عَلَيْهِ، مِنْ قَولٍ: كبِعْتُك، واشتَريتُ، أو فِعلٍ: كالمُعاطاةِ، فيُعطِي البائعُ السلعةَ للمُشتري، ويناولُه الآخرُ الثَّمنَ، والأفضلُ أنْ يُعقدَ البيعُ بالألْسِنةِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٣٤٦٣)، ومسلم (١١٣).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢١٩).

(٣) رواه البيهقي في سننه (٥/ ٤٣٢)، والطبري في تفسيره (٨/ ٢٢١)، وسنده صحيح.

وفِيها: تحريمُ أخذِ مالِ الغَيْرِ بغيرِ حقٍّ، بأيِّ طريقةٍ كانَ. وفي قوله: ﴿بَيْنَكُم﴾ دليلٌ على تكافُلِ الأُمَّةِ فيما بَيْنها، وحِفْظِ بعضِها لحقوقِ بعضٍ، وعدمِ استباحَةِ بعضِها أموالَ بعضٍ.

وفِيها: نَهيُ الإنسانِ أنْ يأكلَ مالَ نفسِه بالباطلِ، كإنفاقِه في المعاصِي، فضلًا عنْ أنْ يأكلَ مالَ غيرِه.

وفِيها: ردٌّ علَى أهلِ الغُلُوّ مِنَ الصوفيةِ، وغيرِهم، الذينَ يَمنعونَ اكتسابَ الأموالِ، وتعاطِيَ التِّجاراتِ؛ لأنَّها مِنْ حُطامِ الدُّنيا -بِزَعْمِهم-.

وفِيها: تحريمُ الغِشِّ، والتَّدليسِ، والحَلِفِ الكاذبِ في التِّجارةِ؛ لأنَّها لا تكونُ -حينئذٍ- عَنْ تَراضٍ.

وفِيها: أنَّ إباحةَ التِّجارةِ مِنْ مَحاسِنِ الشَّريعةِ؛ لشدَّةِ حاجةِ النَّاسِ إليها، وهذا مِنْ رحمةِ اللهِ ربِّ العالَمِينَ.

وفِيها: أنَّ أرباحَ التِّجارةِ المشروعةِ مُباحةٌ، مَهْما بَلَغَتْ.

وفِيها: أنَّه لا يجوزُ أخذُ أموالِ النَّاسِ دُون مقابِلٍ، مِنْ سِلعةٍ، أو مَنفعَةٍ، اللهمَّ إلا ما كانَ مِنْ بابِ الهبةِ، والصَّدقةِ، والإرثِ، ونحوِه، فمَنْ أوْهَمَ النَّاسَ في مُعاملةٍ أنَّهم يستفيدُون، وأخذَ أموالَهم علَى ذَلكَ، ولَم يكنْ لَهُمْ في الحقيقةِ فائدةٌ تُذكَر: فإنَّ ذلك المالَ عَلَيْهِ حرامٌ.

وفِيها: أنَّ أَكْلَ المالِ بالباطلِ يُنافي الإيمانَ.

وفِيها: تحريمُ استنزالِ أموالِ النَّاسِ، وأخذِ ما في أيدِيهِم بالخِداعِ.

وفِيها: أنَّ التِّجارةَ بابٌ عظيمٌ لِكسبِ المالِ، ولكنْ لا يقْتصرُ الكسبُ علَيها، فيجوزُ الحصولُ على المالِ، مِنْ كُلِّ مُعاملةٍ مباحةٍ، كأنْ يُؤجِّرَ نفسَه، وأنْ يقْتَرِضَ، وكذلك بالإرثِ، ونحوِه.

وفِيها: تحريمُ الاعتداءِ علَى أرواحِ الآخَرينَ، والاعتداءِ علَى النَّفسِ بالانْتِحارِ.

وفِيها: أنَّ جِنايةَ الإنسانِ علَى أخيهِ المسلمِ، هي جِنايةٌ علَى نفسِهِ في الحقيقةِ.

وفِيها: أنَّه لا يجوزُ قتلُ النَّفسِ؛ لإراحَتِها مِنْ بلاءِ الدُّنيا، وإنَّما يجبُ الصَّبرُ، والاحتسابُ، وانتظارُ الفَرَجِ.

وفِيها: بُطلانُ ما يُسمِّيهِ الكُفَّارُ بـ«القتلِ الرَّحيمِ»، وقَتْلِ أَصْحابِ العاهاتِ والبلاءِ، ولَوْ طَلَبَ ذلكَ المُبْتَلى.

وفِيها: أنَّ المؤمنَ يعرِفُ قيمةَ نفسِه، ويُقدِّرُ قَدْرَ نِعمةِ الحياةِ.

وفِيها: وُجوبُ التعاوُنِ بَيْنَ المسلمينَ في حِفظِ النُّفوسِ، والأموالِ.

وفي الآيةِ: تقديمُ ذِكْرِ حُرمةِ الأموالِ علَى حُرمةِ النُّفوسِ؛ لأنَّ الاعتداءَ علَى الأموالِ، كثيرًا ما يكونُ سببًا لِهلاكِ النفوسِ. وأيضًا: قدَّمَه؛ لِتساهُلِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ، في أكلِ أموالِ بعضِهم بعضًا، أكثرَ مِنْ تَساهُلِهِم في دِماءِ بعضِهِمُ البعضِ.

وفِيها: أنَّ التَّراضِي في المعاوَضاتِ المُحرَّمةِ لا يَكفِي؛ ولهذا قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾، فإذا تَراضَى طرفانِ علَى الرِّبا، أو المَيْسِرِ، أو الغَرَرِ والجَهالةِ -مثلًا-: فإنَّ تلك المعاملةَ لا تَحِلُّ، والمُعتبَرُ: هو رِضَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفِيها: عدمُ جوازِ تعريضِ النَّفسِ لِخَطَرِ المَوتِ، كرُكوبِ البحْرِ، وهو هائجٌ، وتعاطِي ما يَقتُل مِنَ السُّمُومِ، كالمُخدِّراتِ، والألْعابِ الخَطِرةِ، والتَّحدِّياتِ المُمِيتةِ، وغيرِها، ودخولِ بلادِ الحَربِ، دُون مَصلحةٍ راجحةٍ، هذا بخلافِ تعريضِها للقتلِ في سبيلِ اللهِ، فإنَّه مشروعٌ مأمورٌ به.

وفِيها: نهيُ المسلمِ عنْ إتلافِه مالَ نفسِه بالإسرافِ، والتبذيرِ، والمَيْسر، وتضيِيعِه سَفَهًا، ونحوِ ذلك.

وفِيها: تخفيفُ اللهِ علَى هذه الأمَّةِ، بعدمِ قتلِهم أنفسَهم في التوبةِ، كما كانَ الأمرُ في بَنِي إسرائيلَ، الذين قِيل لهم: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ولَمَّا حرَّم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكلَ المالِ بالباطلِ، وقَتْلَ النفسِ المعصومةِ، ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ عقوبةَ فاعِلِ ذلك في الآخِرة، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: أكْلَ الأموالِ بالباطلِ، وقتْلَ النَّفسِ، وقيل: كلّ ما سَبَق ذِكْرُه مِنَ المُحرَّماتِ ﴿عُدْوَٰنًا﴾ علَى الغَيرِ، عالِمًا بالتحريم، عامِدًا، غيرَ مُخطِئٍ، ﴿وَظُلْمًا﴾ لنفسِه، بفِعل ما حرَّم اللهُ علَيه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ نُدخلُه، ونُذِيقه، والصِّليُّ: هو الشِّواءُ، والإحْراقُ، وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ.

﴿نَارًا﴾ والتَّنْكِيرُ -هُنا-؛ لتفخيم شأنِ النَّارِ، وتعظيمِ عذابِها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ التَّعذيبُ بالنَّار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ سَهلًا هيِّنًا.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ كلَّ ظالِمٍ للغَيرِ هُوَ: ظالمٌ لنفسِه.

وفِيها: شِدَّةُ تحريمِ الاعتداءِ على الآخَرينَ.

وفِيها: أنَّ عقوبةَ فاعِلِ الذَّنْبِ عَمدًا، عالِمًا بالتحريمِ، أعظمُ مِنْ فِعله سَفَهًا، وجَهْلًا.

وفِيها: خُطورةُ الجَمعِ بَيْنَ الظُّلمِ، والعُدْوانِ، وقد يَقَعُ أحدُهما دُونَ الآخرِ، كقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فَهذا العُدوانَ صحيحٌ؛ لأنَّه وقَعَ بغيرِ ظُلمٍ، وقد يَظلِم، ولا يَعتدِي على غيْرِه، كمَنْ يَعصِي، فيظلِم نفسَه، والشَّيءُ قد يكونُ محرَّمًا أصلًا، فيكونُ فِعلُهُ ظُلمًا، وقد يكونُ مُباحًا أصلًا، فتكونُ مُجاوزةُ الحدِّ فيهِ عُدوانًا.

وفِيها: أنَّ مَنْ قَضَى اللهُ علَيه بالعذابِ، لمْ يَمنعْه عنهُ مانعٌ، ولمْ يَدفعْه عنه دافعٌ.

وفِيها: عَدمُ الاغترارِ بحِلْم اللهِ علَى العُصاةِ في الدُّنيا، فإنَّه قدْ يدَّخِرُ لهم العقوبةَ في الآخِرةِ.

وفِيها: تمامُ سُلْطانِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علَى عبادِه، وتحكُّمِه فِيهِمْ.

وفِيها: أنَّ التَّعذيبَ: إحْراقًا، وسجْنًا، وتبديلًا للجُلودِ، وإنضاجًا، وسَلْكًا في السَّلاسِلِ،

وتقييدًا بالأَغْلالِ، وسَحبًا علَى الوجهِ، وضَربًا بمقامِعِ الحَدِيدِ، وإذاقةً للبَرْدِ، والزَّمْهريرِ الشَّديدِ، وتضخيمًا للأجسادِ، وإلقاءً في أماكنِ الضِّيقِ، وتسْليطًا للبُكاءِ، والصُّراخِ، والعَويلِ، وباللَّفْحِ بألسنةِ اللهبِ، ووصولِها إلى القلبِ، وتقطيعِ الأمعاءِ، وتسويدِ الوُجوهِ -كلُّ ذلك وغيرُه-: يسيرٌ هيّنٌ علَى اللهِ.

ولَمَّا ذكَر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -فيما تَقدَّم مِنَ السُّورةِ، في آياتِها الثَّلاثينَ السابقةِ- طائفةً مِنَ الكبائِرِ: كأكلِ مالِ اليتيمِ، وارتكابِ الفاحشةِ، والجَوْرِ في الميراثِ، ونكاحِ المحارِمِ، وأكلِ مالِ الغَيرِ، وقتلِ النَّفسِ، وذكَرَ ما أعدَّ لفاعلِ ذلك مِنَ العذابِ: رغَّبَ عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك في اجتنابِ الكبائرِ، وبشَّرَ مَنْ يَتباعدُ عنْها، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ﴾ تَتركُوا، وتَدَعُوا جانبًا ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ﴾ عظائمَ الذُّنوبِ، التي نُهيتُم عنها، وقد جاءتْ نُصوصٌ كثيرةٌ في تَعدادِ الكبائرِ، ومِمَّا ورَدَ فيها:

الشِّركُ باللهِ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ، والسِّحْرُ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والفِرارُ مِنَ الزَّحفِ، وقَذْفُ المُحصَناتِ، واستحلالُ البيتِ الحرامِ، وعُقوقُ الوالدينِ، وشَهادةُ الزُّورِ، وشُربُ الخَمرِ، واليمينُ الغَمُوسُ، وقتالُ المسلمِ لأخيهِ المسلمِ، والجَمعُ بَيْنَ الصَّلاتَيْنِ بغيرِ عُذْرٍ، واليأسُ والقُنوطُ مِنْ رحمةِ اللهِ، والأمنُ مِنْ مَكرِ اللهِ، وقتلُ الولدِ، والإضرارُ بالوصِيَّةِ، والزِّنا بحَليلةِ الجارِ، ونِكاحُ المحارِمِ، والزِّنا عُمومًا، وفاحشةُ اللّواطِ، وإتيانُ البهائِمِ، والتَّسبُّبُ في شَتمِ الوالدينِ، والسَّرِقةُ، والنُّهبةُ، ومُفارقةُ جماعةِ المُسلمينَ، ومَنْعُ فضلِ الماءِ، والكَلأِ، وسَبُّ الصَّحابةِ، والإفطارُ في رمضانَ بِلا عُذرٍ، والتَّطفيفُ في المِكيالِ، والمِيزانِ، والكذبُ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْدًا، ومَنْعُ الزَّكاةِ، وأكلُ لَحمِ الخِنزيرِ والميتةِ بِلا ضَرورةٍ.

والكبيرةُ: كُلُّ ذنبٍ وَرَد فيهِ حَدٌّ، أو وعيدٌ بالنَّارِ، أو حِرمانُ الجنَّةِ، أو لعنةٌ، أو غضبٌ، أو أنَّ صاحبَه لا ينظُرُ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ، ولا يُزكِّيه، أو لا يَقبلُ مِنه صَرفًا، ولا عَدْلًا، أو نُفِيَ الإيمانِ

عَنْهُ، ونحوُ ذلك مِنَ الوعيدِ الشَّديدِ. ويَدخُلُ فيها: ما فَعَلَه صاحبُه مِنَ المعصيةِ؛ اجتراءً علَى اللهِ، واستهتارًا، واستهانةً، وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: «كلُّ ذَنْبٍ نَسَبَه اللهُ إلى النَّارِ فهو مِنَ الكبائِرِ»(١).

ومِنَ الكبائرِ ما يكونُ مِنْ بابِ الفِعلِ، كالزّنا، ومِنْه ما يكونُ مِنْ بابِ التَّرْكِ، كترك الصلاةِ، والزَّكاةِ.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ نغفِرْ لكُم الصغائرَ، ونمحُها، فلا نُؤاخِذكُم بها ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾ في الآخِرة ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ موضعًا، ومَنزِلًا حسَنًا، وهو دارُ الكرامةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

بشارةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَنْ تَرَكَ الكبائرَ.

وفِيها: أنَّ الصَّغائرَ تُكفَّرُ باجتنابِ الكبائرِ، وفِعلِ المأموراتِ، وأمَّا الكبائرُ: فلا تُكفَّرُ إلا بالتَّوبةِ.

وفِيها: تقسيمُ الذُّنوبِ إلى: صغائرَ، كالنَّظرةِ المُحرَّمةِ، وكبائرَ، كالزِّنا، ولكنَّ الإصرارَ علَى الصغيرةِ قدْ يُصيِّرُها كبيرةً، وكذلك فِعلُ الصَّغيرةِ عن استهانةٍ بأمرِ الله، ونهيِه، قدْ يجعلُها كبيرةً، ومعنَى هذا: التَّفريقُ بَيْن مَنْ يَفعَلُ المعصيةَ، وهو نادمٌ مُتألِّمٌ، وقد ارتكبَها لِعارضٍ، مِن استِشاطَةِ غَضَبٍ، أوْ ثَورةِ شهوةٍ، ونحوِ ذلك، وبَيْن مَن يَفعلُها مُتهاوِنًا، بِلا مُبالاةٍ، مَعَ ضعفِ الدَّاعِي لذلك، وتَكْرارِ الوقوعِ فيها، وعدمِ التَحرُّجِ.

وفِيها: أنَّ الكبائرَ كثيرةٌ مُتعدِّدةٌ، وقد قيلَ لابن عبَّاسٍ: الكبائرُ سبعٌ؟ فقال: «هِي إلى السَّبعينَ أقربُ»(٢).

وفِيها: أنَّ شأنَ الكبائرِ عظيمٌ عندَ اللهِ، وأنَّ الوعيدَ علَيها شديدٌ، حتَّى إنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختبأَ شفاعتَه إلى يومِ القيامةِ؛ إشفاقًا علَى أصحابِ الكبائرِ، فقال: «**شفاعَتِي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أُمَّتِي**»(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٤٧)، ويُنظر: تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٢٨٤-٢٨٦)، فتح الباري (١٢/ ١٨٤).

(٢) رواه معمر في جامعه (١٠/ ٤٦٠)، ومن طريقه رواه البيهقي في الشعب (١/ ٤٦٣)، وسنده صحيح.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥)، وصححه، وصححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨٤).

وفِيها: بيانُ سَعةِ فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بتكفيرِ سَيِّئاتِ الذينَ يجتَنِبونَ الكبائرَ، ولَو عامَلَهم بالعدلِ، لعاقَبَهم علَى الكبائرِ، والصَّغائرِ.

وفِيها: أنَّ الكريمَ مِنْ كلِّ شيءٍ بحسَبِه، فكما يُقال: رجلٌ كريمٌ، ونسَبٌ كريمٌ، ومالٌ كريمٌ، فكذلكَ يُقالُ: المُدخَلُ الكريمُ، والمقصودُ به في الآيةِ: الجنَّةُ.

وفِيها: أنَّ فاعِلَ الكبائرِ يُؤاخَذُ بالصغائرِ، والكبائرِ، ما لَم تُدرِكْه المشيئةُ.

وفِيها: أنَّ مِنْ شرطِ تكفيرِ الصَّغائرِ: الإتيانَ بالمأموراتِ التي تَرْكُها كبيرةٌ، وكذلك فإنَّ فِعلَ الواجباتِ الكِبارِ سببٌ في تكفيرِ الصَّغائرِ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلواتُ الخَمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ: مُكفِّراتٌ لِما بَيْنَهنَّ، إذا اجتُنِبتِ الكبائرُ**»[(١)].

وفِيها: أنَّ المسلمينَ كلَّهم في الجنَّةِ، وأنَّ مُرتكبَ الكبيرةِ يَدخُلُ الجنَّةَ -وإنْ أصابَه قَبْلَ ذلك ما أصابَه- وهذا معنى حديث: «**شفاعتِي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أُمَّتي**»؛ فإنَّه لا يَزال يشفَعُ لهم يومَ القيامةِ، حتَّى يخرُجوا مِنَ النَّارِ، ويَدخلُوا الجنَّةَ.

وفِيها: أنَّ تركَ الكبائرِ سببٌ عظيمٌ لتكفيرِ الصَّغائرِ، وهنالك أسبابٌ أخرَى: كفِعْلِ الحسناتِ عُمومًا، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وكذلكَ المصائبُ يُكفِّرُ اللهُ بِها، وكذلك التَّوبةُ، وأهوالُ القيامةِ، ودعاءُ المؤمنينَ لبعضِهم. ومِنْ رحمةِ اللهِ: أنَّه جَعَلَ للعبدِ مُكفِّراتٍ، ليستْ مِنْ عملِ يدِه، كسَكَراتِ المَوتِ، وضغْطَةِ القبرِ.

وفِيها: أنَّه لابُدَّ لتكفيرِ الكبائرِ مِنَ التوبةِ، وتُكفَّرُ -أيضًا- بتحقيقِ التَّوحيدِ، وتركِ الشِّركِ كلِّه؛ لِلحديثِ القُدسيِّ: «**مَنْ لَقِيَنِي بِقُرابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً، لا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِها مَغْفِرَةً**»[(٢)]. فشرطُ هذا: تركُ الشِّركِ بكلِّ أنواعِه: الأكبرِ، والأصغرِ، والخَفِيِّ، وقد ذَكَر ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ الصَّغائرَ إذا كانتْ تُكفَّرُ باجتنابِ الكبائرِ، فإنَّ الكبائرَ تُكفَّرُ باجتنابِ الشِّركِ، ومَحْوُ التَّوحيدِ المُحقَّقِ للكبائرِ، أعظمُ مِنْ محوِ اجتنابِ الكبائرِ للصغائرِ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٧٣).

وفيها: تعظيمُ شأنِ الكبائرِ، وعدمُ جوازِ الاستهانةِ بها. والذنوبُ تتفاوتُ، فيكونُ الذنبُ أكبرَ بالنِّسبةِ لِما هو دُونه، وأيضًا: فإنَّ الذُّنوبَ تتفاوتُ بتفاوتِ الأشخاصِ، والأحوالِ، فقد يكونُ الذَّنبُ الواحدُ في حقِّ شخصٍ كبيرةً، وفي حقِّ آخَر صغيرةً، بحَسَبِ حالِ هذا وهذا، مِنَ الإصرارِ، والاستهانَةِ، واللامبالاةِ، والجرأةِ، والاستخفافِ، أو الوقوعِ فيه مَعَ الخوفِ، وشدَّةِ الشَّهوةِ، والغَضَبِ، ونحوِ ذلك، وأنَّ الكبائرَ نفسَها تتفاوتُ، فمِنْها: ما هو أكبرُ الكبائرِ، ومِنْها: ما هو قريبٌ مِنَ الصغائرِ، وأنَّه ينبغِي للعبدِ النَّظرُ في حقِّ الآمِرِ النَّاهِي، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَبلَ النَّظرِ في درجةِ المعصيةِ، ورُتبَتِها، وقد قالَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال بعضُ السَّلَف: «لا تَنظرْ إلَى صِغَرِ المعصيةِ، ولكنِ انظُرْ: مَنْ عَصَيتَ»(١).

ولَمَّا نَهَى تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن التَّعدِّي علَى نفوسِ الآخَرينَ، وأموالِهم، أتْبَع ذلك بالنَّهْيِ عَن تَمَنِّي ما للغَيْرِ مِنَ الفضلِ، والنِّعمةِ؛ لأنَّه سببٌ للتحاسُدِ المؤدِّي إلَى العُدوانِ. ولَمَّا ذَكَرَ الاعتداءَ بالجوارِحِ، أتبعَه بالنَّهيِ عنِ الاعتداءِ بالقلبِ؛ لأنَّه أصلُ اعتداءِ الجوارحِ، ومَنْشؤُهُ، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ٣٢﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ﴾ التَّمنِّي: تعلُّقُ النَّفسِ بحصولِ أمرٍ مطلوبٍ في المُستقبلِ، واشتِهاءُ النَّفسِ الحصولَ علَى ما يعسُرُ الوصولُ إليه ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مِنَ النِّعمِ الدِّينيَّةِ، والدُّنيويةِ، التي خصَّ اللهُ بها بعضَكم، ورفعَه بها علَى البعضِ الآخَر: كالجاهِ، والمالِ، والعِلمِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ في الآيةِ: «لا يَتمنَّى الرَّجلُ، فيقولُ: ليتَ أنَّ لِي مالَ فلانٍ، وأهلَه، فنَهَى اللهُ عنْ ذلك، ولكنْ لِيسألِ اللهَ مِن فَضلِه»(٢).

---

(١) رواه الخطيب في تاريخه (٤/ ٤٥١) عن بلال بن سعد.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٦١).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ في الفضلِ، والنِّعمةِ، والأجرِ ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أصابُوا، وأحرَزوا، وعَمِلوا مِنَ الخيراتِ، كالجهادِ، والجُمُعةِ، والجماعةِ، والنَّفقةِ على النِّساءِ، والجُهدِ، والتَّعبِ في طلبِ الرِّزقِ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ مِنَ الأعمالِ: مِن حفظِ فُرُوجِهِنَّ، وطاعةِ أزواجِهِنَّ، وحَملِ ورَضاعِ أولادِهِنَّ، فينبغِي أن يرضَى كلُّ جنسٍ بما قَسَمَ اللهُ له، ولا يتعدَّى أحدُهما على الآخرِ فيما اختصَّ به، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وإحسانِه، وإنعامِه، وخزائِنِه، التي لا تَنفدُ، واسألُوه الإعانةَ، والقُوَّةَ، على ما أناطَ بكم مِنَ الأعمالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيَعلمُ مَنْ يَستحِقُّ، وماذا يَستحِقُّ، وكم يَستحقُّ، ففاوتَ بَيْنهم في النِّعمِ، والدَّرجاتِ، بحَسَبِ عِلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يُصلِحُهم.

سَببُ النُّزولِ:

عنْ أمّ سلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، يَغزُو الرِّجالُ، ولا نَغزُو، ولنا نصفُ الميراثِ؟ فَأنْزلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾»[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

أنَّ عدمَ الرِّضا بالقضاءِ، وقسمةِ الله في خَلْقِه، يُؤدِّي إلى بَغْيِ بعضِ النَّاسِ على بعضٍ، وظُلمِهم لهم، وعُدوانِهم عَلَيْهِمْ، وكذلك يؤدِّي إِلَى الفَسادِ، بتشبُّهِ الرِّجالِ بالنِّساءِ، والنِّساءِ بالرِّجالِ، وإنفاقِ الأموالِ؛ لتغييرِ خلقِ اللهِ في عملياتٍ جراحيةٍ للتَّجميلِ، أو تغييرِ الجِنسِ بزَعمِهم، ونحوِ ذلك.

وفي هذهِ الآيةِ: علاجٌ لفسادٍ عظيمٍ حلَّ بالعالَمِ، ومُعالجةٌ نفسيةٌ للساخِطِين، والمُحبَطينَ، والمتأزِّمينَ نفسيًّا؛ بِسببِ عدمِ التَّسليمِ، والقناعةِ، والرِّضا بما قسَمَ اللهُ بَيْن عبادِه: في الخَلْقِ، والجِنسِ، والرِّزقِ، وغيرِ ذلك.

وفي الآيةِ: عَزاءٌ لكلِّ مَنْ فاتتْهُ ميزةٌ دينيةٌ، أو دنيويةٌ، كالمرأةِ التي تَتَحسَّرُ على عدمِ تكليفِها بالجهادِ، وعلَى إعطائِها نصفَ ما يأخذُه الرِّجالُ مِنَ الميراثِ، ونحوِ ذلك.

وفي الآيةِ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَرَعَ لكلٍّ مِنَ الجنسَيْنِ عباداتٍ لائقةً به، وساوَى بَيْنهم في

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٢)، وأحمد (٢٦٧٣٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

عبـاداتٍ كثـيرةٍ، ومِنَ الأعمالِ ما هو مَنـوطٌ بالرِّجالِ، ولهم أجرُ القيامِ بهِ، ولا يجوزُ للنِّسـاءِ تولِّيه، ولا يُؤْجَرنَ عليه، بلْ تأثَمُ المرأةُ إذا قامَت بهِ، كالخلافةِ، والقضاءِ، والولايةِ في النِّكاحِ، وخُطبةِ الجُمُعةِ، ونحوِ ذلك.

وهنالك أعمالٌ هِيَ في الأصلِ للرِّجالِ، لكنْ يجوزُ للنِّساءِ القيامُ بها، معَ بقاءِ أجرِ الرجلِ فيها أعلَى، كالغَزْو، والجهادِ عندَ الحاجةِ، وصلاةِ الجماعةِ في المساجدِ.

ومِنَ الأعمالِ ما هو مُختصٌّ بالنِّسـاءِ، وتُؤجَرُ عليه المرأةُ؛ لاختصاصِها بِه قَدَرًا، وشَرْعًا، كالحمـلِ، والرَّضاعِ، والحضانةِ، والحِجـابِ، والقرارِ في البيتِ، وطاعةِ الزَّوجِ، واسـتئذانِه للخروجِ، والإحدادِ عليه، ونحوِ ذلِك.

وفِيهـا: أنَّـه لا يَحـرُم أنْ يتمنَّى الإنسـانُ نعمةً، مثلَ التـي عندَ غيرِه، وإنَّما الـذي يَحرُم أن يَحسُدَه عليْها.

وفي الآيةِ: نهيُ المرأةِ أنْ تتمنَّى أنْ تكونَ رجلًا، ولو لأجْلِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

وفي الآيـةِ: النَّهْيُ عـن تمنِّي ما لا يُمْكنُ قَدَرًا، أوْ شَرعًا، وأنَّ ذلك مِن إشـغالِ النَّفسِ بما لا يُفيـدُ، وإضاعـةِ الوقتِ في غيرِ طائلٍ، والتألُّمِ بالتَّحسُّرِ والتأسُّـفِ، عـلى فواتِ شيءٍ مُحالٍ حُصولُه.

وفِيها: أنَّ ما يَليقُ بالإنسـانِ مِنَ الفضائلِ الدينيةِ، والدنيويةِ، يجوزُ له أن يتمنَّى أنْ يكونَ له مثلُ ما حصَلَ لغَيرِه مِنْه، دُونَ أن يتمنَّى زوالَ النِّعمةِ عن صاحِبِها.

وفِيها: سؤالُ الكريمِ الوهَّابِ مِنْ فضلِه، وهذا يَشملُ خَيرَيِ الدُّنيا، والآخِرة.

وفِيهـا: الحكمةُ البالغـةُ لربِّ العالمينَ، في إعطاءِ كلِّ واحدٍ ما يصلُحُ له، بحيثُ لَو أُعطِي غير ذلك لفَسَد.

وفِيها: تحريمُ الحَسَـدِ، سـواء بِتمنِّي زوالِ النِّعمةِ عنِ المحسـودِ، وانتقالِها إليه، أو بتمنِّي زوالِ النِّعمةِ عنه، ولَو لَم تنتَقِلْ إليهِ.

وفِيها: أنَّ تمنِّي مثلِ ما للغَيرِ، معَ بقاءِ نعمتِه عَليْه: إن كانَ في دِينٍ، وطاعةٍ، فهو مُستحَبٌّ، وإن كانَ في دُنيـا مُباحـةٍ، فهو جائزٌ. وأنَّ مَنْ تمنَّى شـيئًا مِنَ الدُّنيا لِعملِ الآخِرَة، أعلَى درجةً

مِمَّنْ يتمنَّى شيئًا مِنَ الدُّنيا لأجْلِ الاستمتاعِ به، دُون أنْ يَنْوِيَ الاستعانةَ به علَى الطَّاعةِ، أوْ أنْ يكونَ وسيلةً إليها.

وفِيها: أنَّ تحصيلَ الفضائلِ يَحتاجُ إلَى جُهدٍ، وعَملٍ، معَ الاستعانةِ باللهِ، ودعائِه.

وفِيها: توجيهُ أنظارِ العبادِ إلَى ما يُمكنُ كسبُه، وتحصيلُه، ويجوزُ الوصولُ إليه، دُونَ ما لا يُمكنُ، وما لا يجوزُ.

وفِيها: أنَّ الحاسِدَ مُعارِضٌ لعِلمِ اللهِ بما يصلُح لخلقِه، وحكمتِه في قِسمَةِ الدِّينِ والدُّنيا فيهم.

وفِيها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّف الجنسَيْنِ مِنَ الذُّكُورِ، والإناثِ، أعمالًا ووظائفَ خاصَّةً بكلٍّ مِنْهما، وأنَّ الحياةَ لا تَصلُح إلا بقيامِهم جميعًا بما كُلِّفُوا بِه، وتكميلِ كلِّ جنسٍ للآخَر، وعدمِ التَّداخُلِ، والاشتراكِ، في الخصائِصِ.

وفي الآيةِ: سدٌّ لِذريعةِ الاعتداءِ علَى الآخَرينَ، وذلك بتحريمِ الحَسَدِ.

وفِيها: عنايةُ الشَّريعةِ بأعمالِ القُلُوبِ؛ لأنَّها أساسُ صلاحِ أعمالِ الجوارِحِ.

وفِيها: أنَّ مِمَّا يُعينُ علَى علاجِ الحَسَدِ، وإذهابِه مِنَ النَّفسِ: الدُّعاءَ، وسُؤالَ اللهِ مِنْ فضلِه.

ثُمَّ أكَّد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علَى أحقيَّةِ القرابةِ في الإرثِ مِنْ أقارِبِهم، وأنَّ مَنْ جرَى التَّحالفُ، والتعاقدُ، معَه علَى الإرثِ -كما حَصَلَ بَيْنَ المُهاجرينَ والأنصارِ- يُعطَى نَصيبَه، بموجبِ هذا الحِلْفِ، قَبْل نَسْخِ هذا الحُكمِ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ أي: ورثةً، وعَصَبةً، وأولياءَ، يرثُون ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ مِنَ التركةِ، والأموالِ ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ تحالفتُم معَهم بالأيْمانِ المؤكَّدةِ، وعَقدتُّم معهم الحِلْف، والنُّصرةَ ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ وحظَّهم، وقِسمتَهم.

وكانوا في الجاهليَّةِ يُعطُون الحَليفَ السدُسَ مِنْ مالِ حليفِه، فأقرَّ الإسلامُ ذلك في أوّلِ الأمرِ، ثُمَّ نسخَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقولِه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]. وقيل: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: مِنَ النُّصرةِ، والنَّصيحةِ، وحُسْنِ العِشرةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أعمالِكم، وتحالُفاتِكم، وتعاقُداتِكم، وقسمتِكم، وإعطائِكم ﴿شَهِيدًا﴾ مطّلعًا، وعالمًا، ورقيبًا، ومُهيمنًا.

سببُ النُّزولِ:

رَوى البُخارِيُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ قال: «ورثةً» ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ قال: «كان المهاجرونَ لَمَّا قدِموا المدينةَ يرِث المهاجريُّ الأنصاريَّ، دُون ذَوِي رَحِمِه؛ للأُخوَّةِ التي آخى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنهم، فلَمَّا نَزَلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نُسخَتْ، ثُمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ مِنَ النَّصرِ، والرِّفادَةِ، والنَّصيحةِ، وقد ذَهَب الميراثُ، ويُوصِي له»[1].

وعنه -أيضًا- قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: كانَ الرجلُ قَبْلَ الإسلامِ، يُعاقِدُ الرجلَ، يقول: تَرِثُني، وأَرِثُك، وكان الأحياءُ يتحالفونَ، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ حِلْفٍ كان في الجاهليةِ، أو عَقْدٍ أدْرَكه الإسلامُ، فلا يَزيدُه الإسلامُ إلا شِدَّةً، ولا عَقْدَ ولا حِلْفَ في الإسلامِ**». فنَسَختَها هذه الآيةُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾»[2].

وفي رِوايَةٍ: «كانَ الرَّجُلُ يُحالِفُ الرَّجُلَ، لَيْسَ بَيْنَهُما نَسَبٌ، فَيَرِثُ أَحَدُهُما الآخَرَ، فَنَسَخَ ذَلِكَ الأَنْفالُ، فَقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾»[3].

---

(١) رواه البخاريّ (٤٥٨٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٣٧)، وروى مسلم (٢٥٣٠) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حِلْفَ في الإِسْلامِ، وَأَيُّما حِلْفٍ كانَ في الجاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلَّا شِدَّةً**». وروى أحمد (٦٩١٧) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامَ الفَتْحِ يَقُولُ: «**كُلُّ حِلْفٍ كانَ في الجاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلا حِلْفَ في الإِسْلامِ**» وصححه محققو المسند.

(٣) رواه أبو داود (٢٩٢١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ أقاربَ الميِّتِ أولَى بإرثِه، وأنَّه لا يجوزُ توريثُ الحَلِيفِ، ولا الولدِ بالتَّبنِّي، ونحوِ ذلك، وإنَّما يجوزُ أنْ يُوصَى لهم، فيأْخُذوا بالوصيةِ مِنَ الثُّلُثِ فأقلَّ، ولا يأْخُذوا شيئًا بالإرثِ.

وفِيها: تأكيدُ حقِّ القرابةِ في مالِ قريبِهم.

وفِيها: إثباتُ الإرثِ بالنَّسَبِ في قولِه: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وبالسببِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهذا قَبْل النَّسخِ.

وفِيها: أنَّ الأقربَ مُقدمٌ علَى الأبْعدِ.

وفِيها: إيجابُ الشَّريعةِ للوفاءِ بالعُهودِ، والمواثِيق.

وفِيها: أنَّ الإسلامَ أغنَى بمحاسِنِه النَّاسَ عَن فائِدةِ التَّحالفِ.

وفِيها: أنَّ المَواليَ هُمْ: جميعُ الوَرَثةِ مِنَ الأصولِ، والفروعِ، والحواشِي، والأزواجِ، وإذا كان القرابةُ يرِثونَ بالنَّسَبِ، والتَّعصيبِ، فإنَّ الأزواجَ يرِثُ بعضُهم بعضًا بعقدِ النِّكاحِ.

وفِيها: إقرارُ الإسلامِ لحَسَناتِ الجاهِليَّةِ.

وفِيها: مُعالجَةُ الشَّريعةِ للأوضاعِ التي كانتْ سائدةً قَبْل نُزولِها.

وفِيها: تفاوتُ الأقاربِ في الدَّرجاتِ، وتفاوتُهم -بالتَّالي- في أنصِبائِهم، واستِحقاقاتِهم، وهذا مِنْ محاسنِ الشَّريعةِ في مُراعاةِ الأقربِ فالأقربِ.

وفِيها: أنَّ عَلاقةَ النُّصرةِ والنَّصيحةِ والمُصافاةِ في العِشرةِ بَيْن المسلمينَ باقيةٌ، معَ إلغاءِ التحالفِ ذِي التوارُثِ.

وفِيها: أنَّ عقدَ الأُخوّةِ بَيْن المسلمينَ عظيمٌ، ولكنَّه لا يُنازِعُ علاقةَ الأرحامِ، ولا يَضرُّها.

وفي الآيةِ: اطِّلاعُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الكامِلُ علَى خَلْقه، وأنه رقيبٌ عليهِم في تصرُّفاتِهم الماليَّةِ، وفي هذا موعظةٌ لهم: أنْ لا يَجُورُوا في عطائِهم، فلا يَحرِمُوا وارثًا، أو يُنقِصُوا مِنْ نَصيبِه.

وفِيها: نَسْخُ الميراثِ بالحِلْفِ، وكانَ مِنَ الإرثِ بالسَّببِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وأنَّه شهيدٌ علَى الخَلْقِ يومَ القيامةِ بكلِّ ما عَمِلُوه، وسيُنبِّئُهم بما عَمِلُوا يومَ القيامةِ.

وفِيها: فضلُ اليدِ اليُمنَى، وأنَّ التعاقدَ كان يتمُّ بأنْ يضعَ كلُّ واحدٍ مِنَ المتعاقدَيْنِ يمينَه في يمينِ الآخَرِ.

وفِيها: إعطاءُ ما يترتَّبُ علَى العقودِ مِنَ الاستحقاقاتِ، وتسليمُه كامِلًا لأصحابِهِ.

وفِيها: وُجوبُ مُطابقةِ العُقودِ للشَّريعةِ، وأنَّ كلَّ عَقدٍ مُخالفٍ للشَّريعةِ فهو لاغٍ، وباطلٌ، ولا يجوزُ العملُ بمُوجَبِهِ.

وفِيها: تقديمُ الوالدينِ علَى بقيَّةِ الأقاربِ.

وفِيها: أنَّ حِلْفَ الإسلامِ أقوَى مِنْ أحْلافِ الجاهليَّةِ، وقد كانُوا يقولُون فيها: دَمِي دَمُك، وثأْرِي ثأْرُك، وحرْبِي حَرْبُك، وسِلْمِي سِلْمُك، وترثُنِي وأرثُك؛ فيكونُ للحَليفِ السُّدُسُ.

وفِيها: أنَّ المُؤاخاةَ بَيْن المسلمينَ -كَما حَدَثَ بَيْن المهاجِرينَ والأنصارِ- هي أرْقَى، وأعظَمُ، مِنْ أحلافِ الجاهليَّةِ، ومُؤاخاةُ المسلمينَ لبعضِهم ثابتةٌ، وتحالفاتُ أهلِ الجاهليَّةِ تتغيَّرُ.

وفِيها: أنَّ الاجتماعَ يَحصُلُ به مِنَ الحسناتِ، ما لا يحصُلُ بالانفِرادِ.

وفِيها: أنَّ منزلةَ المالِ عَظِيمةٌ في النَّفسِ، حتَّى صارَ إعطاؤُه دليلًا علَى قُوَّةِ العَلاقةِ.

وفِيها: أنَّ المُحالَفةَ، والمُناصَرةَ، والمُعاوَنةَ، مقيَّدةٌ بِرضا اللهِ، وعدمِ مُخالفةِ شريعتِه.

وفِيها: المُخالَصةُ في المُخالَطةِ، وتنقيةُ العَلاقاتِ بَيْن المسلمينَ.

ولَمَّا نَهى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن تمنِّي الرِّجالِ، والنِّساءِ، ما فضَّل اللهُ به بعضَهم علَى بعضٍ، وكان مِنْ جُملةِ ذلك: تفضيلُ الرِّجالِ في الميراثِ، ذَكَر بَعدَه عَزَّوَجَلَّ بعضَ التَّعليلِ لذلك. ولَمَّا كانتْ هذِه السُّورةُ المدنيةُ، تُنظِّمُ العَلاقاتِ في المجتمعِ الإسلامِيّ، وتُبيِّنُ أُسُسَ قيامِ الأسرةِ، والعائلةِ المسلمةِ، والحُقوقَ، والاستحقاقاتِ فيها، وتَوزيعَ الاختصاصاتِ، وتَحديدَ الواجباتِ فيها: قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾.

المقطعُ الأوَّلُ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ أُمراءُ، مُطاعونَ، فالرَّجلُ قيّمٌ علَى المرأةِ، وهو رئيسُها، وكبيرُها، والحاكمُ علَيها، ومؤدِّبُها إذا اعوجَّت ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: سلَّطَ اللهُ الرِّجالَ علَى النِّساءِ، تَسليطَ الوالي علَى الرعيةِ ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ مِنَ الأمورِ الوَهْبيَّةِ، والخَلْقيةِ، مِنْ كمالِ العقلِ، ورَزانَةِ الرَّأيِ، وحُسْنِ التدبيرِ، ومَزيدِ القوَّةِ، والفضلِ، والزيادةِ، والدَّرجةِ ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وهذا مِنَ الأمورِ الكَسْبيَّةِ، أي: إنَّ مِنْ أسبابِ القِوامةِ، والتَّسليطِ: إنفاقَ الرِّجالِ مِنْ أموالِهم علَى النِّساءِ، وذلك بما يُعطِيها مِنَ المَهرِ، والنَّفقةِ، والمَؤُونَةِ، وما يُوفِّره لها مِنَ الكُسوةِ، والمَسكنِ، وسدِّ الحاجةِ؛ ولذلك كانَ قوَّامًا بالمصالِحِ، والتَّدبيرِ، والتَّأديبِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ تفضيلَ جِنسِ الرِّجالِ علَى جنسِ النِّساءِ، لا يعنِي تفضيلَ جميعِ أفرادِ الرِّجالِ علَى جميعِ أفرادِ النِّساءِ، وأنَّ كمالَ الرِّجالِ علَى النِّساءِ، ليس معناهُ: أنَّ كلَّ رجلٍ أفضلُ مِنْ كلِّ امرأةٍ عندَ اللهِ بميزانِ التَّقوَى، والمرتبةِ في الجنَّةِ، وإنَّما المقصودُ: بيانُ تفوّقِ الرُّجولةِ علَى الأنوثةِ، وعُلوِّها علَيها: مِنْ جِهةِ الجِنسِ، والخِلْقةِ، والقُدرةِ، والطَّبيعةِ، وأنَّه يجبُ علَى المرأةِ أنْ تُسلِّمَ بهذا، وتَرْضَى بما قَسَمَ اللهُ بَيْن عبادِه فِيهِ، كما يجبُ علَى الرَّجلِ أنْ يَقومَ بمُقتضَى هذه القِوامةِ، ويُؤدِّي حقَّها.

وفِيها: أنَّه يجبُ علَى المرأةِ أنْ تكونَ سامِعةً، مطيعةً، مُذعِنةً لأمرِ الرجلِ؛ فتطيعَ زوجَها فيما أمرَها به مِنَ المعروفِ، وتُحسنَ إليه، وإلى أهلِهِ، وتحفظَ بيتَه، ومالَه، وولدَه.

وفِيها: فضلُ الرُّجولةِ؛ ولذلك كانَ الأنبياءُ مِنَ الرِّجالِ، والوظائفُ الكبيرةُ مختصّةً بهم، كالخلافـةِ، والإمارةِ، والقضاءِ، والتَّزويجِ، والخَطابةِ، وقـد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُفلحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهمُ امرأةً**»(١).

وفِيها: أنَّه لا وِلايةَ للنِّساءِ علَى الرِّجالِ.

وفِيها: أنَّ التَّشريفَ يتبَعُه التَّكليفُ.

وفِيهـا: أنَّ المُكلَّفَ يُعانُ بما يُمكِّنُه مِنَ القيامِ بالتَّكليفِ، فلمَّا كلَّفَ اللهُ الرِّجالَ بالنَّفقةِ، جَعَـلَ حظَّهـم في المـيراثِ أكثـرَ مِنْ حـظِّ النِّسـاءِ، ولَمَّـا كان فَقْدُ الرجـلِ -وهـو المُعِيلُ، والمُنفـقُ- أعظمَ في الـضررِ الماديّ علَى الأسرةِ، كانت دِيَتُه أعلَى مِنْ دِيةِ المرأةِ، ولَمَّا أناطَ به الجهادَ، وكلّفه به جَعَلَه أقوى بِنيةً وجِسمًا مِنَ المرأة.

وفِيهـا: أنَّـه ينبغِي علَى الرجـلِ أنْ يَحـترِم عقلَه الذي فضَّلـه اللهُ به، وقُوّةَ نفسِـه؛ فيرعَى المرأةَ، ولا ينزلَ في خلافِه معها إلى مُعاندةٍ، ومُناكَفةٍ، ومُناكَدةٍ، وأنْ يتَّبعَ سبيلَ الحِكمةِ، عندَ اختلافِه معَها.

وفِيها: أنَّ مِنْ كمالِ دينِ الرَّجلِ: اختصاصَه بمزيدٍ مِنَ العباداتِ، والطَّاعاتِ، عَنِ المرأةِ، كالجُمُعـةِ، والجِهادِ، والصَّـلاةِ، والصِّيامِ، في كلِّ الأحوالِ، وهي لا تُصلِّي، ولا تصومُ، عند حَيْضِها، ولها مِنَ الرُّخَصِ ما ليسَ له.

وفِيهـا: أنَّه لِكَمالِ عَقلِ الرجلِ أُسـندَ إليهِ مِنَ المَهامِّ، والحقـوقِ، ما ليس للمرأةِ، فجُعِلَ بيدِه النِّكاحُ، والطَّلاقُ، والرَّجعةُ، كما يُضافُ إليه ولدُه في الانتسابِ، لا إلَى أُمِّه.

وفِيهـا: أنَّ سـيادةَ الرَّجلِ، وحمايتَه، وكفايتَـه للمرأةِ، تُمكِّنُها مِنَ القيـامِ بوظائِفِ الأسرةِ الفِطريَّةِ المَنوطَةِ بها، كالحَملِ، والولادةِ، والتَّربيةِ، وهي آمِنةٌ مَكفيَّةٌ.

وفي الآيةِ: دليلٌ لِما ذَهَب إليه بعضُ العلماءِ مِنْ فَسْخِ النِّكاحِ، إذا عَجَزَ الرَّجلُ عنْ الإنفاقِ علَى زوجتِه، وعنِ القيامِ بأمرِها.

---

(١) رواه البخاريّ (٤٤٢٥).

وفِيها: أنَّ أحكامَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ الكونِيَّةَ، والشَّرْعِيَّةَ، مُعلَّلةٌ بعللٍ صادرةٍ عنْ حكمتِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وفِيها: أنَّ للمُنفِقِ فضلًا علَى المُنفَقِ علَيهِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ رحمةِ الله بالمرأةِ، أنْ سخَّرَ لها الرجلَ؛ كَيْ يقومَ بأمرِها، ويَكفِيَها.

وفِيها: أنَّ إنفاقَ المرأةِ علَى الأسرةِ، يُضعِفُ قِوامَةَ الرجلِ، فمَنْ أرادَ مِنَ الرجالِ كَمالَ قِوامَتِه، فلا يَطْلُبُ مِنْ زوجتِه شيئًا مِنْ ذلك.

وفِيها: أنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ في قولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ تحملُ معنَى الأمرِ، أي: «لِيكُنِ الرِّجالُ كذلك».

وفِيها: أنَّ صيغةَ المُبالغةِ في قولِه: ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ -وهي أبْلغُ مِنْ (قائِمُون)- تَعنِي أنَّ علَى الرجلِ إتمامَ هذا، والعنايةَ بهِ عنايةً زائِدةً، وأنَّ عَلَيْهِ أنْ يأتِيَ بمَزيدٍ مِنَ الرِّعايةِ، والكَفالةِ، والنَّفقةِ، والحِمايةِ، وعلَى المرأةِ أنْ تأتِيَ بمَزيدٍ مِنَ الطَّاعةِ، والإذعانِ، والاستِجابةِ، والخِدمةِ، والانقِيادِ للرجُلِ.

وفِيها: أنَّ الإنشاءَ في الجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾، يدلُّ علَى الثباتِ، والاستقرارِ، وأنَّ هذا هو الأصلُ، الذي فَطَرَ اللهُ البَشَرَ عَلَيْهِ، ولا تَستقيمُ حَياتُهم إلا بِه، وأنَّ الإخْلالَ بهذه القِوامَةِ سببٌ: لشَقاءِ المجتمعِ، وانحِرافِ النَّاسِ، وضياعِ المَصالِحِ، وشُيوعِ الفَوضَى، ووقُوعِ الانحِلالِ.

وفِيها: أنَّ مِن انتكاسِ الفِطرةِ، وقلبِ الحُكمِ الشرعيِّ: تكليفَ المرأةِ بإعطاءِ المَهرِ للرجُلِ، والإنفاقِ علَيه، كما يَحدثُ في بعضِ المجتمعاتِ البشريَّةِ المتخلِّفةِ.

وفِيها: أنَّ الأفضليَّةَ الوَهْبِيَّةَ للرجلِ، لا تعنِي أنَّه لا يُوجدُ مِنَ النِّساءِ كامِلاتٌ، فاضلاتٌ، بل وُجدَ مِنْهنَّ -علَى مرِّ العصورِ- الكاملاتُ، الفاضِلاتُ؛ كخديجةَ بنتِ خُويلِد، وفاطمةَ بنتِ محمدٍ، وعائشةَ بنتِ الصِّدِّيقِ، ومريمَ بنتِ عِمرانَ، وآسِيةَ بنتِ مُزاحم، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُنَّ.

وفِيها: أنَّ علَى الرجلِ أنْ يكسِبَ مِنَ المالِ، ما يُنفِق به علَى أهلِه، وأنْ يأخُذَ بأسبابِ ذلك.

وفِيها: أنَّ الحُكمَ للأعمِّ الأغلَبِ، فإذا وُجدتِ امرأةٌ أقوَى جَسديًّا مِنْ زوجِها، أو أعْقلُ مِنْه، فإنَّ ذلك لا يَخْرِمُ القاعدةَ.

وفِيها: استئذانُ المرأةِ زوجَها في خروجِها مِنْ بيتِه، أو إدخالِها أحدًا بيتَه، وكذلك في التَّصرُّفِ في مالِه، ونحوِه، ممَّا لابُدَّ فيه مِن استئذانِ المَسُودِ من السيِّد.

والآيةُ: أصلٌ في وِلايةِ الرجلِ علَى المرأةِ بجميعِ أنواعِها، كولايةِ الزَّوج علَى زوجتِه، والأبِ علَى بناتِه، والقاضِي وليُّ مَنْ لا وليَّ لها، ونحوِ ذلك.

المَقْطعُ الثَّانِي: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وظائفَ الرِّجالِ، والمطلوبَ مِنْهم تجاهَ النِّساءِ، ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المطلوبَ مِنَ المرأةِ، بَعد أنْ كَفاها الرَّجلُ، وحَماها، وذَكَر عَزَّ وَجَلَّ أنَّ النِّساءَ على قِسمَيْنِ: صالحاتٍ، مُطيعاتٍ، وعاصياتٍ، مُتمرِّداتٍ، وأثنَى علَى القسمِ الأوَّل، فقال:

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ العاملاتُ بالخيرِ، اللاتِي يُراعينَ حقوقَ اللهِ، وحقوقَ العبادِ، ويَقمْنَ بحقِّ الأزواجِ، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مُطيعاتٌ لله، ثُمَّ لأزواجِهنَّ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ للسِّرِّ الذي بَيْنهنَّ وبَيْن أزواجِهنَّ، لا يُطْلِعنَ أحدًا علَيه، كأمورِ الجِماعِ، والاستمتاعِ، ويَحفظْنَ العِرضَ -أيضًا- في غيابِ أزواجِهنَّ، كما يَحفظْنَ أموالَهم، وبيوتَهم، ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: بسببِ ما أمَرهنَّ اللهُ به، وبتوفيقٍ مِنْه، وتسديدٍ، ومَعونةٍ لهنَّ، مُراعياتٍ لِما استودَعهنَّ اللهُ مِنَ الأماناتِ، وما حَفِظه لهنَّ مِنَ الحقوقِ، كالمهرِ، والنَّفقةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ المهمَّاتِ المطلوبةَ مِنَ المرأةِ محدودةٌ، وما يجبُ عليها أقلُّ مِمَّا يجبُ علَى الرِّجالِ، وهذا مِنْ رحمةِ اللهِ بها، وأنَّه كلَّفَها ما يُناسِبُ حالَها، ولم يُكلِفْها ما لا تُطِيقُ.

وعَنْ عبدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَها، وَصامَتْ شَهْرَها، وَحَفِظَتْ فَرْجَها، وَأَطاعَتْ زَوْجَها، قِيلَ لَها: ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوابِ الجَنَّةِ شِئْت**»(١).

وفِيها: بَركةُ الصَّلاحِ العظيمةُ.

---

(١) رواه أحمد (١٦٦١)، وحسّنه محققو المسند، وله شواهد.

وفِيها: أنَّ علَى الرَّجلِ ابتغاءَ الصَّالحةِ؛ لتحفظَ بيتَه، وسِرَّه، ومالَه.

وفِيها: تحريمُ إفشاءِ أسرارِ الاستمتاعِ بَيْن الزَّوجيْنِ، ولَو لأقربِ النَّاسِ.

وفِيها: أنَّه يَجبُ علَى المرأةِ أنْ تتَّخِذَ مِنَ الوسائلِ ما تَحفظُ به نفسَها وعِرضَها، مِنْ مُلامسةِ أيادِي العابِثينَ، ونَظرِ أبصارِ أهلِ الشَّهواتِ، وأنْ تمنعَهم مِنْ أنْ ينالُوا مِنْها.

وفِيها: أنَّ غيابَ الرَّقيبِ عنِ المرأةِ الصالحةِ، لا يَجعلُها تنزلِقُ فيما حرَّمَ اللهُ.

وفِيها: حُرْمةُ الزَّوجِ -حاضرًا، وغائبًا-.

وفِيها: مُراعاةُ أمرِ اللهِ، وأنَّ المرأةَ لا يُمكنُها القيامُ بالواجباتِ، وتَرْكُ المحرَّماتِ، إلا بعونٍ مِنَ اللهِ، وتوفيقٍ.

وفِيها: حفظُ مالِ الزَّوجِ مِنَ الضَّياعِ، وتحريمُ الأخذِ مِنْه، إلا بإذنِه.

وفِيها: وفاءُ المَرأةِ لزوجِها، فكما أعطاها مَهرَها، ونفقتَها، فإنَّها تَحفظُ مالَه، وتقومُ علَى بيتِه.

وفِيها: عدمُ الاغترارِ بالنَّفسِ، والاستعانةُ بحِفظِ اللهِ، على حِفظِ حُدودِه.

وفِيها: أنَّ الخَبرَ عنِ الصالحاتِ، معناهُ: الأمرُ أنْ يكونَ النِّساءُ كذلك.

وفِيها: الثَّناءُ علَى الأخيارِ، وذِكرُ صفاتِهم؛ لأجلِ الاقتداءِ بهِم.

وفِيها: فضلُ الطَّاعةِ الاختياريَّةِ، وهذا مِنْ معانِي القُنُوتِ، وأنَّ التي تُطِيعُ ربَّها، ثُمَّ زوجَها، طواعيةً، خَيرٌ مِنَ التي لا تُطيعُ، إلا قَسْرًا، وإكْراهًا، وإرْغامًا.

وفِيها: أنَّ المحافظةَ علَى التَّكاليفِ -في حالِ غيابِ الرَّقيبِ- دليلٌ علَى الصَّلاحِ، وقُوَّةِ الإيمانِ.

وفِيها: التَّعريضُ، والكِنايةُ، فيما يُستحْيا مِنَ التصريحِ به، حتى إنَّ العذْراءَ لَتتلُو هذه الآيةَ جهرًا، وهي تعلمُ ما ترمِي إليه.

وفِيها: أنَّ المرأةَ إذا كُفِيتْ في النَّفقةِ، لا تحتاجُ إلَى اختلاسِ المالِ مِنْ زوجِها.

وفِيهـا: أنَّ صفاتِ الحُسـنِ الشرعيِّ، مُقدَّمةٌ في المرأةِ علَى صفاتِ الحُسـنِ الشَّـكْليِّ، أو الدُّنيويِّ، وأنَّ الصَّلاحَ، والقُنُوتَ، وحِفظَ حدودِ اللهِ، أعلَى مِنَ المالِ، والجَمالِ، والحَسَبِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ حَفِظَتْ أماناتِ اللهِ، حَفِظَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المَقْطعُ الثَّالِثُ: ولَمَّـا أثنَـى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علَى الصَّالحـاتِ، القانتاتِ، الحافظـاتِ، ذَكَر مُقابِلَهـنَّ: النَّاشـزاتِ، المُتمرِّداتِ، وكيفَ تَتـمُّ معالجَتُهنَّ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا**﴾.

﴿**وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾ أي: تَتخوَّفـون مِـن تمرُّدِهـنَّ، برؤيةِ الأمـاراتِ الدَّالَّةِ علَى ذلـك، وقيلَ: تَعلمونَ نُشـوزهنَّ. والنُّشـوزُ: هـو الارتفاعُ، والمـرأةُ النَّاشـزُ: العاصيةُ لأمرِ زوجِها، الرَّافعةُ نفسَـها علَيه؛ تكبُّرًا، المتعاليةُ علَيه، التارِكةُ لأمرِه، المُعرِضَةُ عنه، المُبغِضَةُ لـه، فـإذا دعاها -مثلًا- لمْ تُجِـبْ، وإذا خاطبَها لمْ تَخضعْ، وتَرفعُ صوتَهـا علَيه، ويَدعُوها إلى فراشِـه، فتأبَـى بغيرِ عُـذرٍ، فإذا ظَهرتْ هـذه العلامـاتُ، أو بعضُها، فقد قـالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**فَعِظُوهُنَّ**﴾ أي: انصَحُوهـنَّ؛ ترهيبًـا، وترغيبًا، وخوِّفوهنَّ عقـابَ اللهِ، وأعلموهُنّ بما أوجَبَ مِنْ طاعةِ الزَّوجِ، وحرَّم مِنْ معصيتِه.

فـإنْ أصرَّتِ المـرأةُ علَى ذلـك، انتقـلَ الـزَّوجُ إلَى عـلاجٍ أشـدّ، فقـالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ**﴾ أي: أعرِضـوا عنهنَّ في المَراقِدِ، والمفارِشِ، وحوِّلوا عنهنَّ وجوهَكـم، فلا يُدْخِلُها الزَّوج تحتَ لحِافِه، قال ابنُ عبَّاسٍ: «الهِجْرانُ: ألا يُجامِعَها، ويُولِّيَها ظهـرَه»(١) وقال أيضًـا: «يهجُرها في المضجَع، ولا يكلّمها، مِن غـيرِ أن يَذَر نكاحَها، وذلك عَليها شَديدٌ»(٢).

فإذا لَمْ تَرتدِعْ بالمَوعظةِ، ولا بالهِجْرانِ، انتقلَ إلى الأشدِّ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَٱضۡرِبُوهُنَّ**﴾ أي: ضَربًـا غـيرَ مُـبرِّحٍ، كما ثبتَ تفسـيرُه في السُّـنةِ، بقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا اللهَ في النِّسـاءِ؛ فَإِنَّكُـمْ أَخَذْتُمُوهُـنَّ بِأَمانِ اللهِ، واسْـتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُـمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ**

---

(١) تفسير ابنِ كَثير (٢/ ٢٩٤).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٣٠٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٦٩٠).

فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُم رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»[١].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تهجُرُها في المضْجَعِ، فإنْ أقبلتْ، وإلا فقدْ أذِنَ اللهُ لكَ أنْ تضرِبَها ضربًا غيرَ مُبرِّحٍ، ولا تكسِرْ لها عَظْمًا، فإنْ أقبلتْ، وإلا فقدْ حلَّ لكَ مِنْها الفِديةُ»[٢].

وقال الحسنُ البصريّ: «غَير مبرِّح: غَير مؤثِّرٍ»[٣]. أي: في جسَدِها وجِلدِها.

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَجلِدُ أحدُكم امرأتَه جلدَ العبدِ، ثُمَّ يجامِعُها في آخِرِ اليومِ**»[٤]. وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لِمَنْ سألَه عنْ حقِّ الزَّوجةِ علَى الزَّوجِ-: «**أنْ تُطعِمَها إذا طَعِمتَ، وتكْسُوَها إذا اكْتَسَيتَ، ولا تضرِبِ الوجهَ، ولا تُقبِّحْ**[٥]**، ولا تَهجرْ إلاَّ في البيتِ**»[٦].

وسألَ عطاءٌ ابنَ عبَّاسٍ: ما الضَّربُ غيرُ المُبرِّحِ؟ قال: «بالسِّواكِ، ونحوِه»[٧].

ولا يجوزُ للزَّوجِ أن يطغَى؛ ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي: رجعْنَ عَنِ النُّشوزِ إلى طاعتِكم ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تَطلُبُوا عليهنَّ طريقًا إلى الضَّربِ، والهِجْرانِ، علَى سبيلِ التعنُّتِ، والانتقام، واجعلُوا ما كان مِنهنَّ كأنْ لمْ يكنْ، قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قولُه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ تلكَ المرأةُ تنشزُ، وتَستخِفُّ بحقِّ زوجِها، ولا تُطيع أمرَه، فأمرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يَعِظَها، ويذكِّرَها بالله، ويعظِّمَ حقَّه عليها، فإن قَبِلَتْ، وإلا هَجَرَها في المضْجَعِ، ولا يكلمُها مِنْ غيرِ أنْ يَذَرَ نكاحَها -وذلك عليها شديدٌ- فإنْ رجعتْ، وإلا ضربَها ضربًا غيرَ مبرِّحٍ، ولا يكسِرُ لها عَظْمًا، ولا يَجرَح بها جرْحًا، قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ يقول: «إذا أطاعَتْكَ، فلا تَتَجنَّى عليها العِلَلَ»[٨].

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٣١٤).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٥٢٠٤)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٥) أي: لا تَقُلْ قبَّحكِ اللهُ، أو: قبَّحَ اللهُ وجهَكِ.

(٦) أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٧) تفسير الطبري (٨/ ٣١٥).

(٨) تفسير الطبري (٨/ ٣٠٠)، (٨/ ٣١٤)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٦٩٢)، (٢/ ٦٩٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٤١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا﴾ سلطانُه فوقَ سلطانِكم، كما أنَّ ذاتَه فوقَ ذواتِكم، مع عُلُوِّ صفاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿كَبِيرًا﴾ في ذاتِه، وصفاتِه، فلا أحدَ أكبرُ مِنْه، وله الكبرياءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا تهديدٌ للرِّجالِ إذا بَغَوْا على النِّساءِ، بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ علَى الانتقامِ مِنَ الظَّالِمِ الباغِي.

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ الضَّربَ المحمودَ، يكونُ بَعد استنفادِ ما هو أسهلُ مِنْه، وأنْ يكونَ مؤثِّرًا في نفسِها، لا مؤثِّرًا في بَدَنِها.

وفي الآيةِ: تحريمُ النُّشوزِ، ومِنه: الامتناعُ عَنْ فراشِ الزَّوجِ، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا دَعا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلى فِراشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، فَباتَ غَضْبانَ عَلَيْها: لَعَنَتْها المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ**»(١).

وفيها: عِظَمُ حقِّ الزَّوجِ، قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ النِّساءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْواجِهِنَّ؛ لِما جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ**»(٢).

وفيها: البَدْءُ بالموعظةِ، قَبْل العُقوبةِ النَّفسِيَّةِ، والبدنِيَّةِ.

وفيها: إيقاعُ العقوبةِ النَّفسِيَّةِ، قَبْل البدنِيَّةِ.

وفيها: أنَّ طاعةَ الزَّوجِ واجبةٌ بالمعروفِ؛ لِما له مِنَ الفَضلِ والإفْضالِ.

وفيها: البِناءُ على القرائِنِ، والإشاراتِ، والأماراتِ.

وفيها: الترقِّي في العُقوباتِ، مِنَ الأسهلِ، إلَى الأشدِّ.

وفيها: أنَّه لا يجوزُ البَدءُ بالأشدِّ، مَع تأثيرِ الأخفِّ.

وفيها: أنَّ الضَّربَ المؤدِّي إلى الكسرِ، والجُرحِ، أو تغييرِ لَونِ الجِلْدِ -خُضرةً، أو زُرقةً، ونَحْوَها- هو مِنَ التَّعدِّي، والبَغْي.

وفيها: أنَّ الهَجرَ يكونُ في المَضجعِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

(٢) رواه أبو داود (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وفِيها: أنَّ العقوبةَ ليستْ للانتقامِ، ولا للتَّشفِّي، وإنَّما هي للإصْلاحِ.

وفِيها: حُسْنُ السِّياسةِ مَع الزَّوجةِ، فيكون البَدْءُ بتعليمِ الحقوقِ، وتَبْيينِ الأحكامِ، ثُمَّ الوعظ عندَ التقصيرِ، فإنْ لَمْ يُفِدْ، فالهجرُ، ثُمَّ الضَّربُ، فإنْ لم يَنجَعْ، فالتَّحكيمُ.

وفِيها: موعِظةُ الزَّوجِ كذلك، وتخويفُه باللهِ، وأنَّه إذا كانَ قَدَرَ على الزَّوجةِ، فإنَّ اللهَ أقْدَرُ عَليهِ مِنْه عليها.

وفِيها: أنَّه يَجِبُ علَى العبادِ أنْ يَخافوا اللهَ، ويحذَرُوا عقوبتَه.

وفِيها: تحريمُ ظلمِ الزَّوجةِ، وسوءُ عاقبةِ البَغْيِ.

وفِيها: أنَّ للزوجِ علَى زوجتِه ولايةَ التَّأديبِ.

وفِيها: مناسبةُ العقوبةِ للذَّنبِ، والتقصيرِ، فالوعظُ عندَ خوفِ النُّشوزِ، والهَجرُ عند وقوعِه، والضربُ عندَ تكرُّرِه.

وفِيها: تركُ العقوبةِ، والتَّوبيخِ عمَّا مَضَى مِنْ تقصيرِ الزَّوجةِ، وعِصيانِها، إذا تابتْ، وأقْلَعَتْ، وعادتْ إلى الطَّاعةِ.

وفِيها: مُراعاةُ تغيّرِ الحالِ، برفعِ العقابِ، وإيقافِه، وأنَّ الزَّوجَ إذا عادَتْ زوجتُه إلَى الحقِّ، عادَ إلَى البَشاشَةِ، والمُلاطَفةِ، وأنواعِ الإحسانِ.

وفِيها: ترغيبُ الأزواجِ في العَفوِ عنِ الزَّوجاتِ، وأنْ يتذكَّرَ الزَّوجُ أنَّه يعصِي ربَّه إذا بغَى على زوجَتِه، وهو أكبرُ، وأعلَى، وأنَّه محتاجٌ إلى عفْوِه ومغْفِرتِه.

وفِيها: أنَّه يُكتفَى بِرُجوعِ المرأةِ إلى طاعةِ زوجِها، ولا يُبحثُ في سرائِرِها عنِ الحُبِّ، والبُغضِ.

وفِيها: أنَّ الواجِبَ على الزَّوجةِ: بذلُ الطَّاعةِ في الظَّاهِرِ، وإنْ لَمْ تتحقَّقِ المحبةُ في الباطِنِ.

وفِيها: الجمعُ بَيْن الوعظِ، والهِجْرانِ، والضَّربِ، إن احتِيجَ إلى ذَلكَ.

وفِيها: موعظةُ صاحبِ القوةِ، والسُّلطانِ؛ لأنَّ ما عندَه مِنْ أسبابِ القوةِ والبطشِ قدْ يَبْعثُ على الطُّغيانِ.

وفِيهـا: مُحـاصرةُ آثـارِ الخِلافاتِ الزَّوجيَّـةِ داخلَ البيـتِ، وعدمُ إخراجِها، كـما في قولِه: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾، وأنَّ الإجراءاتِ العقابيَّةَ للزَّوجةِ، لا تكونُ أمامَ الآخرينَ، وكذلك ينبغِي أن يُسِرَّ بالوعظِ، والتَّوبيخِ، علَى تقصيرِها.

وفِيهـا: أنَّ الهَجـرَ لمصلحـةِ الدِّيـنِ، واسـتصلاحِ الزَّوجـةِ، تكـونُ مُدّتُه بقَـدْرِ الحاجةِ، ويُسـتثنَى مِنْ تحريمِ هَجْرِ المُسـلمِ لأخِيه فوقَ الثلاثِ، وقد هَجَرَ النبيُّ ﷺ أزواجَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ شهرًا[1]؛ تأديبًا لهنَّ؛ لِما بدَرَ منهُنّ في حقِّه ﷺ.

وفِيها: الردُّ علَى مَنْ زَعَمَ أنَّ التَّربيةَ لا تَحصُلُ بالضَّربِ، وأنَّ الضَّربَ طريقةٌ غيرُ تربويةٍ، وغيرُ حضاريةٍ.

وفِيها: أنَّ فِراشَ الزَّوجِ والزَّوجةِ واحدٌ.

وفِيها: ذمُّ الترفُّعِ، والتَّعالِي، وخصوصًا على صاحبِ الفضلِ، والإحسانِ.

وفِيها: تنوّعُ وسـائلِ التأديبِ، ويدخُلُ في ذلِكَ: الحِرمانُ مِـنْ بعضِ الرَّغباتِ، كالحُلِيِّ، وبعضِ الثِّيابِ.

وفِيها: استعمالُ العلاجِ المُرِّ، عندَ الحاجةِ إليهِ.

وفِيها: الرِّفقُ بالنِّساءِ، حتَّى في العقابِ.

وفِيها: أنَّ مفسـدةَ نشـوزِ المرأةِ أعظمُ مِنْ مفسـدةِ الهَجْرِ، والـضَّربِ؛ ولذلك تَمَّ تقديمُ أدنَى المفسدَتَيْنِ.

وفي الآيـةِ: رَدٌّ عـلَى مَنْ طعَـنَ في الشَّريعةِ، والدِّيـنِ، وقال: بأنَّ الإسـلامَ يضْطَهِدُ المرأةَ، ويُهينُها، ويأمُرُ بضَربِها، فيُقالُ لَهُ:

- **أولا**: هل تَراه أمَرَ بضَربِها دُونَ سبَبٍ، أمْ تراه بيّنه بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؟
- **ثانيًا**: هلْ تراه أذِنَ بضَربِها علَى سببٍ تافهٍ، أمْ علَى ذنبٍ خطيرٍ، يُؤدِّي إلى انهيارِ الأسرةِ، وهو التمرُّدُ على الزَّوجِ؟

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

- **ثالثًا**: هل تَراه أمَرَ بالـضَّربِ في أوَّلِ الأمرِ، أمْ جعلَـه في آخِرِ المراتِـبِ، وجَعَلَ قَبْلَـه معالجاتٍ؟ فالوعظ أولًا، والهَجْر ثانيًـا، فإذا لَم يكنْ إلا الضربُ: فهو آخرُ الدواءِ.
- **رابعًا**: هل تَراه أذِنَ بالضَّربِ بأيِّ طريقـةٍ، وفي أيِّ مكانٍ، أمْ أنَّه قيَّده، وحدَّده، ومنَعَ فيه إصابةَ الوجهِ، والمَقاتِلِ، أو ما يكسِرُ، ويَجرَحُ، أو يغيِّرُ لَونَ الجِلدِ؟
وكذلك لا يُوالِي الضَّربَ في مكانٍ واحدٍ، ولا يضرِبُها أكثرَ مِن عَشرِ ضَرباتٍ، ويكونُ علَى قدرِ الحاجةِ، لا يتعدَّى فيه.
- **خامسًا**: الأمـرُ بـه أمـرُ إذنٍ، لا أمْر إيجابٍ، قـال الشـافعيُّ: «الضَّربُ مُبـاحٌ، وتَرْكُه أفضلُ»[١].
- **سادسًا**: الـضّربُ ليس عِقابًا مُسـتمرًّا، بل ينتهِـي برجوعِها إلَى الطاعـةِ، ويَحرُمُ علَى الزَّوجِ ظلمُها، والطُّغيانُ في عقابِها.
- **سابعًا**: لَم يتركِ الشَّرعُ الزَّوجَ، وإنَّما وَعَظَه، وذَكَّره، وخَوَّفه، وتوعَّده بالعقابِ يومَ الحسـابِ، إنْ هـو طغَـى، وبغَى، وإليه الإشـارةُ بقولـهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾، قـالَ ابنُ كَثـيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فِيهِ تَهْدِيدٌ لِلرِّجالِ إذا بَغَوْا عَلَى النِّسـاءِ مِـنْ غَـيْرِ سَـبَبٍ؛ فَـإِنَّ اللهَ العَلِيَّ الكَبِـيرَ وَلِيُّهُنَّ، وَهُـوَ مُنْتَقِـمٌ مِمَّنْ ظَلَمَهُـنَّ، وَبَغَى عَلَيْهِنَّ»[٢].

ولَم يَذكُرْ في هذه الآيةِ نُشـوزَ الرجلِ، وما يُعمَلُ بشـأنِه، ولكنْ ذَكَرَتْه آيةٌ أخرَى في هذه السُّـورةِ، وهـي قولُـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ...﴾ الآيـة [النِّساء: ١٢٨].

فإذا لم يَنْفعِ التَّعليمُ مِنْ جهلٍ، ثُمَّ التذكيرُ مِنْ نِسيانٍ، ثُمَّ الموعظةُ مِنَ المعْصيةِ، ثُمَّ الهَجرُ، ثُـمَّ الضَّربُ، وتطوَّر الأمرُ إلى نُفـورِ الزَّوجينِ مِنْ بَعْضِهما: فإنَّ القضيـةَ تنتقلُ بَعد ذلكَ إلى التحكيمِ، وهذا ما بَيَّنه عَزَّوَجَلَّ بقوله:

---

(١) نظم الدّرر (٥/ ٢٧١).

(٢) تفسير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٢٩٦).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يـا أيُّهـا الحُكَّامُ والأولياءُ، أو: يا أيُّهـا المؤمنونَ ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ شرًّا، وعـداوةً، وتَباعـدًا، ونُفـورًا، واختلافًا تامًّا، ونزاعًا مُسـتمرًّا ﴿فَٱبْعَثُواْ﴾ أرْسِـلوا، والأمرُ للوجـوبِ، والخِطـابُ للحُـكَّامِ، وولاةِ الأحـكامِ، وقِيلَ: للأوليـاءِ، الذينَ يَلُـونَ العُقودَ، والفسـوخَ، وقيل: للزوجَيْنِ، وقيـل: خِطابٌ للمؤمنينَ، وكلِّ أحَدٍ مِـنْ صالِحِي الأمَّة، مِمَّنْ يُمْكنُه القيامُ بهذا العملِ. ﴿حَكَمًا﴾ رجلًا، حُرًّا، ثِقةً، عَدْلًا، خَبيرًا بدقائقِ الأمورِ، وطَرائقِ الإصلاحِ، عارفًا بالأحكامِ ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ مِنْ أقاربِ الزَّوجِ؛ لأنَّهم أعرَفُ بحالِهِ، وأحْرَصُ عـلى الإصلاحِ، وتَحْصُل به طُمأنينةٌ أكثرُ مـن جِهةِ الزَّوج ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ مِنْ أقاربِ الزَّوجةِ، يَستكشـفانِ الحالَ، ويَتعرَّفـانِ على الظَّالِمِ، والمظلومِ، ثُمَّ يَجتمعانِ، ويَتَشـاورانِ فيما هو الأصْلحُ للزَّوجينِ، مِنَ المُوافقةِ، أوِ المُفارقةِ، فإنْ كانَ الاستمرارُ، فبأيِّ طريقةٍ يكونُ؟ ومـاذا يُلزَمُ به الطَّرَفـانِ؟ وإنْ كانَ الفِراقُ، فبأيِّ طريقةٍ يكونُ؟ بالطَّـلاقِ، أو المُخالَعةِ، أوِ الفَسخِ، وبالعِوَضِ، أوْ بغيرِهِ؟

والأصلُ في الحَكَمَيْنِ: أنْ يكونا مِنْ أقاربِ الزَّوجيْن -كما ذَكَرَ اللهُ- فإنْ تَعذَّرَ فَلا بَأْسَ أنْ يكونا مِنَ الأجانِبِ.

﴿إِن يُرِيدَآ﴾ أيِّ: الحَكَـمانِ، بحُسْـنِ نيّـةٍ، وقـولٍ، وفِعـلٍ. وقيـلَ: الضّمـيرُ يعودُ علَى الزَّوجـيْنِ ﴿إِصْلَٰحًا﴾ توفيقًـا بَيْن الزَّوجينِ، وجَمعًا للشَّـمْلِ، وقَطعًا للخُصومةِ ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ أي: يَجمـعْ بَـيْن الزَّوجـيْنِ؛ فتَسـتقيمَ أمورُهمـا، وهذا ببركةِ حُسْـنِ نيّـةِ الحَكَمينِ، وسَـعْيِهما في الخيرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَصلُـحُ، ويُصلِحُ، ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطنِ الزَّوجيْنِ، وسرائِرِهما، وجَدْوَى الجَمعِ بَيْنهما، وحقيقةِ المَصلحةِ أو المَفسدةِ في ذلك.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ الأصلَ في حلِّ الخِلافاتِ الزَّوجيَّةِ: أنْ يكونَ الأمرُ محْصورًا بَيْنَ الزَّوجيْنِ، فإذا احتيجَ إلى طرفٍ خارجيٍّ، فيكون تدخُّله بشروطٍ.

وفِيها: أنَّ مُرِيدَ الإصلاحِ بصِدقٍ، يُوفِّقُه اللهُ للحقِّ، والصَّوابِ.

وفي الآيـةِ: تَطَلُّـعُ الشَّرعِ للإصـلاحِ، وجَمعِ الكَلِمـةِ، وأنَّ مَقْصِـدَ الشَّـارعِ: التَّوفيقُ، لا التَّفريقُ، وفي عدمِ ذِكْرِ التَّفريقِ والطَّلاقِ في الآيةِ، إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ يُبْغِضُه.

وفِيهـا: مَجِيءُ الشَّرعِ بالأوْفقِ لكلِّ حالةٍ؛ فذَكَرَ الخُطواتِ العمليَّةَ، عندما يكونُ النُّفورُ، والنُّشوزُ، مِنَ الزَّوجةِ، ثُمَّ ذَكَر الإجراءَ العَمَليّ، عندما يكونُ النُّفورُ مِنَ الزَّوجيْنِ.

وفِيهـا: فِعْـلُ ما يُمكِـنُ؛ للمُحافظةِ على الأسرةِ المُسْـلمةِ، حتَّى قالَ الفقهـاءُ: «إذا وقَعَ الشِّـقاقُ بَيْنَ الزَّوجيْنِ، أَسْـكَنَهُما الحاكمُ إلى جَنْبِ ثِقةٍ، يَنظُرُ في أمرِهِمـا، ويَمْنعُ الظالمَ مِنْهُما منَ الظّلمِ، فإنْ تَفاقَمَ أمرُهما، وطالَتْ خُصومَتُهما: بَعَثَ الحاكمُ الحَكَمينِ»[(١)].

وفِيها: أنَّ سبيلَ الحَكَمَيْنِ، ومُبْتغاهُما، هو الإصلاحُ، ومِنْ وظيفتِهما: تَبيّنُ حقيقةِ الأمرِ، وسـببِ الخِـلافِ بَيْن الزَّوجيْن، ومنعُ الظَّـالمِ مِنَ الظُّلمِ، ونُصرةُ المظلـومِ، والعَملُ على رَتْقِ الفَتْـقِ، وإزالةِ أسـبابِ الخِـلافِ، وتَرْضيـةِ الطَّرفَيْنِ، وإصـلاحِ ذاتِ البَـيْنِ، والتَّقريبِ بَيْن الزَّوجيْنِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ أسبابِ تعيينِ الحَكَمَيْنِ: غُموضَ القضيَّةِ عندَ الحاكِمِ، وتعارُضَ الحُجَجِ لديْه، وقيامَ الشُّبهةِ؛ فيُرسِل الحَكَمينِ؛ لاسْتِجلاءِ الحقيقةِ. فأمَّا إذا عَلِمَ القاضِي مَنِ الظَّالمُ، والمُسيءُ: فإنَّه يَحْكُم عليه، ويُؤدِّبُه، ويُلزِمُه.

وفي الآيةِ: أنَّ الحَكَمَيْنِ إذا كانا بتعيينٍ مِنَ القاضِي، فقد قال بعضُ العلماءِ: «إنَّ حُكمَهما نافذٌ في الجَمْعِ، والتفريقِ»، وقال بعضُهم: «يَنفُذ حكمُ الحَكَمَيْنِ في الجمعِ، دونَ التَّفريقِ».

وأمَّـا إذا كانَ تعيـينُ الحَكَمينِ من طَرَفِ الزَّوجيْنِ، وَكِيلَـيْنِ عنهُما؛ فإنه ينْفُذُ حكمُهما في الجَمعِ، والتَّفرقةِ، بلا خِلافٍ.

وفي الآيـةِ: أنَّ الحَكَمَـيْنِ اللذَيـنِ بَعَثَهـا الحاكمُ، قد يَحْكـانِ بِما لا يُـرضِي الزَّوجيْنِ، أوْ أحدَهُما، ومِنْ شـأنِ الحَكَمِ أنْ يَحْكُمَ، سواءٌ رضِيَ المحكومُ عَلَيْهِ، أمْ لمْ يَرْضَ. وأجمَعَ العلماءُ على أنَّ الحَكَمَيْنِ إذا اختلفَ قولُهما، فلا عِبْرةَ بقولِ أحدِهما.

---

(١) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٢٩٦).

وفِيها: تعاونُ الحَكَمَيْنِ مَعَ الحاكمِ، فيَرْفَعانِ إليه ما خَرَجا بِه، وقد يُشيرانِ عليه بأن يَأْمرَ الزَّوجيْنِ بالاستمرارِ في العَلاقةِ الزَّوجيَّةِ، وقد يَرَيانِ العكسَ، ويَطلبُ الحاكمُ مِنَ الزَّوجيْنِ تنفيذَ ما رآه الحَكَمانِ، ويُلزمُهما بذلك.

وفِيها: شَفقةُ المسلمينَ عَلَى بعضِهم، والنُّصحُ بَيْنهم، وأنَّهم يدٌ واحدةٌ، يَسعَى بعضُهم في إصلاحِ بعضٍ.

وفِيها: أنَّ عَلَى وُلاةِ الأمورِ: السَّعْيَ في مصالِحِ الرعيَّةِ، وعملَ ما يُمكنُ لإصلاحِ العلاقاتِ الزَّوجيَّةِ.

وفِيها: أنَّ الإصلاحَ إذا تَعذّرَ مِنْ داخلِ الأسرةِ؛ فإنه يُلتمَسُ مِنَ الخارجِ.

وفِيها: حَصْرُ الخِلافاتِ الزَّوجيَّةِ في أضيَقِ نِطاقٍ مُمْكنٍ.

وفِيها: تهيئةُ الأسبابِ المُعِينةِ على إنجاحِ المُهمّةِ، ومِنْ ذَلكَ: حُسْنُ اختيارِ مَنْ يَقومُ بها، وأنَّ مِنْ فوائدِ كوْنِ الحَكَمِ مِنَ الأهلِ: أنّه أَعْلمُ بباطنِ الحالِ، وداخليَّةِ الزَّوجيْنِ، والقريبُ أَحْرَصُ -عادةً- علَى الإصلاحِ مِنَ الأجنبيِّ.

ومِنْ صفاتِ الحَكَمَيْنِ التي تُلتمَسُ: البصيرةُ، والخِبرةُ، والثِّقةُ، والأمانةُ، وكَتْمُ السِّرِّ، والعَدالةُ.

وفِيها: أنَّ صالِحِي الأمَّةِ، وعُقلاءَها، وأشرافَ البلدِ، والوُجهاءَ، وشُيوخَ القبائلِ، وأُمراءَ الأجْنادِ، والعلماءَ، والدُّعاةَ، وكلَّ قادرٍ على الإصلاحِ، يقومُونَ مقامَ الحاكِمِ عند عَدَمِه، أو عَجْزِه، وتَقصِيرِه.

وفِيها: تسميةُ المُصلحِ حَكَمًا.

وفِيها: عَدلُ الشَّريعةِ؛ بإرسالِ حَكَمٍ مِنْ أهلِ الزَّوجِ، وحَكَمٍ مِنْ أهلِ الزَّوجةِ.

وفِيها: أنَّ التَّوفيقَ بِيَدِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ الإصلاحَ قد يكونُ بالتَّفريقِ؛ وذلك إذا كانتْ مَفْسدةُ الاستِمرارِ، تَرْبُو على مَفْسدةِ الانفصالِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أصلَحَ نِيّتَه فيما يتحرَّاهُ، أصلَحَ اللهُ سعيَه، ومُبتغاه، وآتت ثِمارُ عملِه أُكُلَها، وأنَّ توفيقَ اللهِ للعبدِ، مرتبطٌ بصلاحِ نيةِ العبدِ.

وفِيها: التعبيرُ بالخَوْفِ عمَّا يَسوءُ وقوعُه، وأنَّ الشِّقاقَ بين الزَّوجيْنِ أمرٌ مخيفٌ؛ لِما يَترتَّبُ عليه مِنَ السُّوءِ، والبَلاءِ الاجتماعيّ، وتَعدُّدِ الأطْرافِ المُتضرِّرةِ.

وفِيها: سَعْيُ الشّريعةِ لإزالةِ العَداواتِ، ومُعالجةِ أُصولِ الخِلافاتِ.

وفِيها: أنَّه يَنْبغِي على كلٍّ مِنَ الزَّوجينِ، الامتناعُ عَنْ فِعلِ ما يَشقُّ على الآخَرِ، ويُؤذِيهِ، وأنْ لا يَتَباعَدا؛ فيكون أحدُهُما في شِقٍّ، والآخرُ في شِقٍّ، وهذا مِنْ معانِي الشِّقاقِ.

وفِيها: أنَّه يَنبغِي أن يكونَ في أُسُسِ اختيارِ الحَكَمينِ ما يُعينُ الزَّوجيْنِ علَى الإفْضاءِ بما يَلْزَمُ؛ لتتبيّنَ أسْبابُ الخَللِ، ومِنْ ثَمَّ عِلاجُه.

وفِيها: حِرصُ الشَّريعةِ علَى أنْ يكونَ الحَلُّ مقبولًا عندَ الطَّرفَيْنِ، مُلزمًا لهُما، يدومُ ويستمِرُّ أطولَ ما يُمكِنُ. وأنَّ حِرصَ الزَّوجيْنِ على إنجاحِ الاتِّفاقِ، الذي سَعَى الأقاربُ في إنْجازِه، أشدُّ مِنْ حِرصِهما، فيما لو كانَ الحَكَمانِ مِنَ الأجانِبِ.

وفِيها: حِرصُ الشَّريعةِ علَى ما يُثبّتُ القُوَّةَ الإلزاميَّةَ للحَلِّ، وأنَّ اجتماعَ سُلطةِ القاضِي مَعَ الالتزامِ الأدبيِّ أمامَ الأقاربِ؛ يُنشِئُ قُوَّةً إلزاميةً، تُساعدُ عَلَى استمرارِ الحَلِّ، لأطولِ مُدَّةٍ مُمْكنةٍ.

وفِيها: سَعْيُ الشَّريعةِ لإبعادِ الأطرافِ المُسبِّبةِ لِتفاقُمِ الأزمةِ بَيْنَ الزَّوجيْنِ، ومِنْ أمثِلةِ هذا في زمانِنا: توكيلُ كلٍّ مِنَ الزَّوجين مُحاميًا مِنْ طَرفِه في حالِ الشِّقاقِ، وهذا مِمَّا يُعقِّدُ القضيَّةَ، ويُطِيلُها؛ لأنّ مصلحةَ المُحامِينَ الماديةَ، قَدْ تمْنَعُ الوصولَ إلى صُلحٍ سريعٍ.

وفِيها: مشروعيةُ لجانِ الإصلاحِ؛ لتسويةِ النِّزاعاتِ الأُسَريَّةِ.

وفِيها: جوازُ حُكْمِ القريبِ لقريبِه، أو عَلَيْهِ، إذا انْتفَتِ التُّهمةُ.

وفِيها: أنَّ العبدَ لا يَتمكَّنُ مِنْ فِعلِ الخَيرِ، إلا بمَعُونةٍ مِنَ اللهِ، وتوفيقٍ، وحَوْلِ اللهِ، وقوتِه.

وفِيها: سَعيُ الشَّريعةِ لمنعِ تفاقمِ الأمورِ، وازْديادِ الشّرّ.

وفِيها: عمَلُ الشَّريعةِ علَى قَطعِ أسبابِ العَداوةِ، وإطفاءِ نارِ الشرِّ، وتسكينِ الثائِرةِ بَيْن المسلِمينَ.

وفِيها: جوازُ التَّحكيمِ في النِّزاعاتِ بَيْن المُسلِمينَ.

وفِيها: أنَّ الاحتقانَ والتأزُّمَ النَّفسيَّ بَيْن الطَّرَفَيْنِ، كثيرًا ما يَمنعُ التَّوصّلَ إلى اتّفاقٍ، فيكونُ مِنَ الحكمةِ الخروجُ مِنْ هذِه الدائرةِ، ببَعْثِ مُمَثِّلَيْنِ للطَّرفَيْنِ، ليس بَيْنهما عداوةٌ ومناوشاتٌ مِنْ قَبْلُ؛ لِيكونا أحْرَى بالتَّوصُّلِ إلى اتِّفاقٍ.

وفِيها: تذكيرٌ للحَكَمَيْنِ بعلمِ اللهِ بخفايا الصُّدورِ، وبواطنِ الأمورِ؛ حتى لا يَنْحرفَ قَصْدُهما، ولا يُسيئا التَّدَخُّلَ.

وفِيها: أنَّه إذا لم يُمكنْ تحقيقُ الإصلاحِ الكلّيِّ، فإن الإصلاحَ الجُزئيَّ يبقى مطلوبًا، وأيُّ درجةٍ مِنْ درجاتِ الإصلاحِ، يُمكنُ تحقيقُها على يدِ الحَكَمَيْنِ، فإنَّهما يَفعلانِ ذلك، وهذا ما يُفيدُه تنكيرُ لفظةِ: ﴿إِصۡلَٰحٗا﴾ في الآيةِ.

ولَمَّا ذكَر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -فيما تقدَّم مِنَ السُّورةِ- وصايا، وأحكامًا، متعلِّقةً بالحياةِ الزوجيَّةِ، والأُسرةِ المُسلمةِ، أتْبَعَ ذلك بالتنبيهِ علَى عَلاقاتٍ أوسعَ، ومجالٍ للإحسانِ أفْسحَ، وتذكيرٍ بحقوقٍ أُخرَى للعبادِ، وقدَّم عليها حقَّه في إفرادِه بالعبادةِ، فقالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعتِه فيما أمَرَ، واجتنابِ ما نَهَى عنه، وامتثالِ ذلك بقلوبِكُم، وجوارِحِكُم، مُخلِصينَ له الدِّينَ. والعبادةُ: الخُضوعُ، والهَيْبةُ، والتعظيمُ، والخشوعُ، والطاعةُ، مع كمالِ الحبّ ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ حيًّا، أوْ جمادًا، شِركًا جليًّا، أوْ خفيًّا ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ أي: أحسِنوا إليْهما، بِرًّا، وعَطفًا، وقيامًا بخدمتِهما، وتحصيلًا لمطالبِهما، وإنفاقًا عليهما ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: أحسِنوا إليهم -أيضًا- وصِلُوا أرحامَكم

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ أي: أحسِنوا إليهم، بحُسْنِ تربيتِهم، وحفظِ أموالِهم، والرِّفقِ بهم؛ لأنَّهم فَقَدوا مَـنْ يقومُ بمصالِحِهـم ﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾ أي: المحاويجِ، الذين لا يَجِدُونَ كفايتَهم، فأحسِـنوا إليهـم، بمُسـاعدَتِهم، والصَّدقةِ عليهم، وإزالـةِ ضرورتِهم، وإعطائِهم كفايتَهم، والسَّـاعِي علَى الأرملةِ، والمسـكينِ، كالمجاهدِ في سبيلِ الله ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُـرۡبَىٰ﴾ وهو الجارُ القريبُ الـذي له حقَّـانِ: حقُّ الجوارِ، وحـقُّ القرابةِ، أحسِـنوا إليهِ -أيضًا-؛ لجـوارِه، وقُربِ دارِه، بالإضافةِ إلى اتِّصالِ نَسَـبِهِ بكم ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ أي: المُجانِبِ عنكُم، الذي دارُه أبعدُ، أو: الـذي لا قرابةَ بَيْنَكم وبَيْنَه، فأحسِـنوا إليه -أيضًا- ولو كانَ كافـرًا؛ لأجلِ حقِّ الجِوارِ. وقيل: هو الرَّفيقُ في السَّفرِ.

وقد وردَ في وجوبِ الإحسانِ إلى الجارِ، وحقِّه، نصوصٌ كثيرةٌ، مِنْها:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قالَ: قالَ رسـولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما زالَ جبريلُ يُوصينِي بالجارِ، حتَّى ظَنَنتُ أنَّه سيوِّرِثُه**»(١).

وعَـنْ عبدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ: قالَ رسـولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خيرُ الجيرانِ عندَ اللهِ، خيرُهم لجارِه**»(٢).

وعَنْ عائِشَـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالَت: قُلْتُ: يا رسـولَ اللهِ، إنَّ لِي جارَيْنِ، فَـإِلَى أَيِّهِما أُهْدِي؟ قال: «**إلَى أقربِهما مِنْكِ بابًا**»(٣).

وَوَردَ الوعيدُ -أيضًا- علَى مَنْ آذَى جارَه، ومِنْ ذلك:

عنِ ابنِ مسـعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: سَـأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قالَ: «**أَنْ تَجْعَـلَ للهِ نِـدًّا، وَهُـوَ خَلَقَكَ**». قُلْـتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيـمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قـالَ: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ، تَخافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قالَ: «**أَنْ تُزانِيَ حَلِيلَةَ جارِكَ**»(٤).

---

(١) رواه البخاريّ (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) رواه الترمـذي (١٩٤٤)، وحسـنه، وأحمـد (٦٥٦٦)، والحاكـم (٢٤٩٠)، وصححـه، ووافقـه الذهبي، وقال محققو المسند: «إسناده قوي».

(٣) رواه البخاريّ (٢٢٥٩).

(٤) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، واللهِ لاَ يُؤْمِنُ، واللهِ لاَ يُؤْمِنُ**»قِيلَ: وَمَنْ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جارُهُ بَوائقَهُ**»[(١)].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ أي: أحْسِنوا إليه، قيل: هو الرفيقُ في السفرِ، وقيل: الشريكُ في التعلُّمِ، والحِرفةِ، وقيل: هي الزَّوجةُ؛ لأنَّها تكونُ إلى جَنبِ زوجِها، وقيل: هو الرَّفيقُ الصالحُ، وقد قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خيرُ الأصحابِ عندَ الله، خيرُهم لصاحِبِه**»[(٢)].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافِرِ المُنقطعِ، وقيل: هو الضَّيفُ المجتازُ، والمارُّ عليك، ولو كان في الأصلِ غنيًّا، أي: أحسِنوا إليه -أيضًا- بإعانَتِه، وضيافتِه، وإكرامِه ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ أي: الرَّقيقِ مِنَ العبيدِ، والإماءِ، فأحسِنوا إليهِم -أيضًا- بتعليمِهِمُ الدِّينِ، وأمرِهم بالصَّلاةِ، وإطعامِهم، وإلباسِهم، وعدمِ تكليفِهم ما لا يُطيقُون، وإعانَتِهم. وعلى رأسِ الإحسانِ إليهِم: عِتقُهم، وتحريرُهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾ في مِشيتِه، متكبِّرًا على النَّاس ﴿فَخُورًا﴾ مُعجَبًا بنفسِه، وبما أُوتِي مِنَ النِّعمِ، يمنُّ بما أعطَى، قليلَ الشُّكرِ، فهو مذمومٌ، مبغوضٌ عند الله. وقيل: هوَ المُختالُ في هيئَتِه، وشكلِه، والفخورُ بقولِه، وفِعلِه.

وقد ذَكَر الحافظُ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في جامِع العلومِ والحِكَم: أن أقسامَ العبادِ -الذين أمَرَ اللهُ بالإحسانِ إليهِم في الآيةِ- خمسةٌ، وهم:

١. مَنْ بَيْنه وبَيْن الإنسانِ قَرابةٌ، وخَصَّ مِنْهم الوالدَيْن بالذِّكرِ؛ لامتيازِهما.
٢. مَنْ هو ضعيفٌ ومُحتاجٌ إلى الإحسانِ، سواء ضَعْفُ بدنٍ، وهو اليتيمُ، أو ضَعفُ حالٍ، كالمِسكينِ.
٣. مَنْ له حقُّ القرابةِ، والمُخالطةِ، وهم ثلاثةٌ: جارُ قربَى، وجارُ جُنُب، وصاحبٌ بالجَنْبِ.
٤. مَنْ هو واردٌ علَى الإنسانِ، غيرُ مقيمٍ، وهو ابنُ السَّبيلِ.
٥. مِلْكُ اليمينِ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦). وبوائقه: غوائله، وشره.

(٢) رواه الترمذيّ (١٩٤٤)، وحسنه، وأحمد (٦٥٦٦)، والحاكم (٢٤٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٩-٣٨٣).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

الأمرُ بعبادةِ اللهِ، والعِبادةُ: قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العِبادَةُ: اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضاهُ، مِنْ الأَقْوالِ والأَعْمالِ، الباطِنَةِ والظَّاهِرَةِ»[1].

وفِيها: الإحسانُ إلى ما يملِكُه الإنسانُ مِنَ الرَّقيقِ، والدَّوابِّ، ويؤخَذُ هذا مِنَ إشارةِ العُمومِ في قولِه: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وفِيها: الإحسانُ إلى الجليسِ، ومَنْ كان بجوارِكَ في المُناسباتِ، والأحوالِ المُختلفةِ، كالقاعِدِ بِجانِبِك في المسجِدِ، ومجلسِ العِلمِ، وكالزميلِ في مقعَدِ الدِّراسةِ، ومكتبِ الوظيفةِ المجاوِرِ، وكالجالِسِ بِجانِبك في الطائِرةِ، والحافلةِ، وكالمُنتظِرِ بِجانبِك في عيادةِ الطَّبيبِ، ومَنْ ينامُ بجانبِكَ في رِحلةِ الحَجِّ، وغيرِها.

وفِيها: أنَّ المُجاورةَ مراتبٌ، بعضُها ألصقُ مِنْ بعضٍ، وأقربُها: مُجاورةُ الزوجةِ.

وفِيها: تقديمُ حقِّ اللهِ علَى حقوقِ العبادِ.

وفِيها: عِظَمُ حقِّ الوالدَيْنِ؛ لاقترانِهِ بحقِّ اللهِ.

وفِيها: ترتيبُ حقوقِ العبادِ، وإنزالُ النَّاس منازلَهم.

وفِيها: مُراعاةُ حقِّ الضعفاءِ مِنَ اليتامَى، والمساكينِ، والمماليكِ.

وفِيها: أنَّ حقوقَ المَخاليقِ تَنْشأُ بأسبابٍ، منها: الإسلامُ، والقَرابةُ، والجِوارُ، والمُصاحبةُ، والحاجةُ.

وفِيها: أنَّ حقوقَ العبادِ تَبَعٌ لحقِّ الخالِقِ.

وفِيها: أنَّ الحقَّ يَعظُمُ باجتماعِ أكثرِ مِنْ سببٍ له، فمثلًا: الجيرانُ ثلاثةٌ: جارٌ له حقٌّ واحدٌ: وهو المُشرِكُ، الذي لا قَرابةَ له، له حقّ الجوارِ، وجارٌ له حقَّانِ: وهو المسلمُ، له حقُّ الإسلامِ، وحقُّ الجِوارِ، وجارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ: وهو المسلمُ، ذُو الرَّحِمِ، له حقُّ الجِوارِ، وحقُّ الإسلامِ، وحقُّ الرَّحِمِ، وكذلك الرَّفيقُ الصالحُ له حقَّان؛ لمرافقتِه، ولصلاحِه، وهكذا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

وفِيها: أنَّه كلَّما طالتِ المُصاحبةُ عَظُمَ الحَقُّ، فجارُ الحَضَرِ أعظمُ حقًّا مِنْ جارِ السَّفَرِ، وجارِ الباديةِ، والزوجةُ، أعظمُ حقًّا مِنْ رفيقِ السفرِ، وهكذا. وإذا تعلَّقَ الحُكمُ بوصفٍ، فإنَّه يَشتدُّ كلَّما قَوِيَ ذلك الوصْفُ.

وفي الآيةِ: مُراعاةُ العَلاقةِ الدائمةِ، كعلاقةِ الولدِ بوالديهِ، والعلاقة الطارئةِ المؤقتةِ، كعلاقةِ المُضيفِ بضيفهِ.

وفِيها: ذمُّ مَنْ يحتقِرُ النَّاس، وهو عندَ الله حقيرٌ، ويَستصغِرُهم، وهو عند الله صغيرٌ.

وفِيها: ذمُّ المتكبِّرِ في هيئتِه، والمتعالِي بكلامِه، والمؤذِي لعبادِ اللهِ، سيِّءِ المعاملةِ للضُّعفاءِ.

وفِيها: ذمُّ الخُيلاءِ، ومنه: إسبالُ الإزارِ. عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الهُجَيْمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، مِنْ قَوْمِهِ، قالَ: لَقِيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في بَعْضِ طُرُقِ المَدِينَةِ، فسألْتُه عَنِ الإزارِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ أَتَّزِرُ؟ فَأَقْنَعَ ظَهْرَهُ بِعَظْمِ ساقِهِ، وَقالَ: «**هاهُنا اتَّزِرْ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَهاهُنا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَهاهُنا فَوْقَ الكَعْبَيْنِ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ**»[1].

وفِيها: أنَّ مِنْ طريقةِ الشَّريعةِ: أنَّها إذا أمَرَت بشيءٍ، نَهَتْ عَنْ ضدِّه، كما قال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ وفي هذا تكميلٌ للحُكمِ، وتقويةٌ له.

وفِيها: الجَمعُ بَيْن القيامِ بحقِّ الخالقِ، والإحسانِ للخَلْقِ، وأنَّ الدِّينَ لا يكمُل إلا بهذا.

وفِيها: أنَّه كلَّما اشتدَّ القُربُ في الجِوارِ، عَظُم الحقُّ.

وفِيها: أنَّ المعانِي الشَّرعيةَ لا تَحكُمها الاصطلاحاتُ الحادثةُ، فمَرجعُ الجِوارِ -مثلًا- إلى ما جاء في الشَّرعِ، واللُّغةِ، والعُرفِ، وليس إلى التقسيماتِ الرسميَّة للأحياءِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ اتَّصفَ بالخُيلاءِ، والفخرِ، يأنَفُ مِنَ الإحسانِ إلى الخَلْقِ، ويقصِّرُ في حقوقِهم.

وفِيها: أنَّه يَنبغي على المُحسِنِ ألَّا يَتفاخرَ بإحسانِه، ولا يَعدَّ أُعطياتِه؛ فيكونَ منَّانًا، مُؤذيًا.

---

(١) رواه أحمد (١٥٩٥٥)، وصححه محققو المسند.

وفِيها: مُقابلةُ المَسكَنةِ بالإحسانِ، ومَنْ كانَ أشدَّ مَسكَنةٍ كانت الوصيةُ به أوْكدَ، فإعانةُ المسكينِ، العاجزِ، الضعيفِ، أوكدُ مِنْ إعانَةِ المسكينِ، القادرِ علَى الكسبِ، فيُرتَّب للأوَّلِ مِنَ المالِ ما يَسدُّ حاجتَه، ويُعطَى الثانِي مِنَ الدَّلالةِ، وآلاتِ الحِرفةِ، ورأسِ المالِ، ما يُخرجُه عن مسكَنَتِه، ويستعينُ به علَى الكَسبِ.

وفِيها: تحريمُ الإزراء علَى الفقراءِ.

وفِيها: الأمرُ بالبرِّ، مَع تركِ الإساءةِ.

وفِيها: إطلاقُ البعضِ علَى الكلِّ؛ لقولِه: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، والمرادُ ما مَلكتُم، وإنَّما عبَّر باليمينِ؛ لأنَّها جارحةُ القُوَّةِ، والأخذِ -عادةً-.

وفِيها: إثباتُ محبةِ اللهِ عمومًا، ومحبتِه للمتواضِعين خُصوصًا؛ كما يؤخذُ ذلك مِنْ نفيِها عَنِ المُختالِ الفَخُورِ.

وفِيها: العنايةُ بمَنْ فَقَدَ أباهُ صَغيرًا، ويدخُلُ في ذلك: اللَّقيطُ.

ولَمَّا أمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالإحسانِ في الآيةِ السابقةِ نَهى عَنْ ضِدِّه، وهو البخلُ، ولَمَّا كان المُختالُ الفَخُورُ يبخلُ بحقوقِ النَّاس، حذَّرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ هذِه الصفةِ، وذمَّها، فقالَ:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ٣٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ فلا يُنفقونَ أموالَهم فيما أمَرَهم اللهُ به، ويَمنعونَ أصحابَ الحقوقِ حقوقَهم ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ فلا يَكتفُونَ بفِعْلِ المُنكرِ، والشرِّ، والاتِّصافِ بداءِ البُخلِ العُضالِ؛ حتَّى يَنقلُوا ذلك إلَى غيرِهم، ويأمُروا النَّاس بالبُخلِ، قيل: المقصودُ بهمُ اليهودُ، الذينَ كانوا يقولونَ للأنصارِ: لا تُنفِقوا أموالَكم، فإنَّا نَخشَى عليكُم الفقرَ ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: يُخفُون إحسانَ اللهِ إليهِم بالمالِ، ويكتُمون ما أَعْطاهُم اللهُ مِنَ العِلمِ، وهذا يشملُ اليهودَ، الذين كَتموا صفةَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

ولَمَّـا كانَ الفقراءُ، والمَحاويجُ، يعرِفونَ الأغنياءَ بالقرائنِ، ويسـتدلُّونَ عليهِم بما يَظْهَرُ عليهِـم مِـنَ الحالِ، فقد أرشـدَ النبـيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ آتاهُ اللهُ نعمـةً إلى إظهارِهـا؛ لِيعرِفَه مَنْ يحتاجُها؛ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عبدِهِ**»(١).

والبُخـلُ عواقبُه وخيمةٌ في الدنيا، والآخِـرة، وهو داءٌ قبيحٌ، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأيُّ داءٍ أدْوَأُ مِنَ البُخلِ**»(٢).

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ الكاتِمِين لنعمةِ اللهِ، الجاحِدينَ لها ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ نُذِلُّهم به، كما أهانُوا النِّعمةَ بالبُخلِ، والإخفاءِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ مِـنَ النَّـاس مَـنْ يَكفـرُ بالنعمةِ كُفـرًا أكـبرَ، ككُفرِ اليهـود، الذيـن كَتَمُوا أمـرَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبَخِلوا بالإخبارِ عنه، ومنهُم مَنْ يَكفرُ بالنعمةِ كفرًا أصغرَ، وهو كُفرُ النّعمةِ في حقِّ مَنْ بَخِلَ مِنَ المسلمينَ.

وفي الآيةِ: ذمُّ منعِ الحقوقِ، والبخلِ علَى النَّاس بأدائِها، وهذا هو الشُّـحُّ، وقَد أهَلَكَ مَن كانْ قَبْلَنا، فقَطَعُوا، وفَجَرُوا.

وفِيها: أنَّ البخيلَ لا يُظهِر أثَرَ نعمةِ اللهِ علَيه، في مَطعَمِه، ومَلبَسِه، وسِيرتِه، وغيرِ ذلك؛ حتَّى لا يَقصدَه النَّاس بالسُّؤالِ.

وفِيها: أنَّ البخيلَ يَسعَى لسترِ نِعمةِ اللهِ عليهِ، وكَفرِها، وتغطِيتِها.

وفِيها: أنَّ بعضَ النَّاس لا يَكتفي بفِعلِ الشَّرِّ؛ حتَّى يُعدّيَه إلَى غيرِه.

وفِيها: سوءُ عاقبةِ الذينَ يَأمرونَ بالمُنكرِ، وينْهَوْنَ عنِ المَعروفِ.

وفِيها: أنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العَمَلِ.

وفِيهـا: ذمُّ اليهـودِ، الذين جَمَعُوا بين البخـلِ بالمالِ، والبخلِ بالعِلـمِ، والعملِ على تَثْبيطِ الصَّحابةِ عنِ الإنفاقِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨١٩)، وحسنه، وأحمد (٦٧٠٨)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

وفِيهـا -مع الّتي قبلَها-: أنَّ الاختيالَ، والفخرَ، يُوصلانِ إلى منعِ حقوقِ الآخَرينَ، وأنَّ الكِبرَ يُؤدِّي إلى البُخلِ.

وفِيها: الجمعُ لأهلِ النارِ بَيْن العذابِ والألَمِ الحِسِّي، والمَعنويِّ.

وفِيهـا: أنَّ مِـنْ صفاتِ الكافريـنَ: مَنعَ العِلمِ، الـذي يهتدِي به الضالُّون، ويَستَرشِـدُ به الجاهِلُون، وكتمَه، مَعَ إظهارِ الباطلِ؛ لتضليلِ النَّاس، والسَّعيِ في خسارَةِ النَّفسِ، وخسارةِ الغَيْر.

وفِيها: خُطورةُ منْعِ الخيرِ عنِ الغَيرِ، وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلكم بالشُّحِّ، أمَرَهم بالبُخلِ، فبخِلُوا، وأمرَهم بالقطيعةِ، فقطعُوا، وأمرَهم بالفُجورِ، ففجَرُوا**»(١).

وفِيهـا: ذمُّ الذيـن يَأمُرونَ النَّاس بالبُخلِ بلسـانِ المَقـالِ، كالتصريحِ بذلـكَ كلامًا، أو بلسانِ الحالِ، كأنْ يكونُوا قدوةً سيِّئةً في المَنعِ، والإمساكِ.

وفِيها: ذمُّ البُخلِ عُمومًا سـواءً كان بُخلًا بالمالِ، أو الجاهِ، أو العِلمِ، أو أنواعِ الإحسـانِ الأخرَى، كالبُخل بالسَّلام، ودلالةِ المستدلِّ، والبُخلِ بالنصيحةِ، ونحوِ ذلك.

ولَمَّـا كان بعـضُ النَّاس يُعطِي، ويُنفِقُ، لكنـه لا يَكتُم ذلك، بَلْ يُذِيعُـه، ويَنْشُرُه؛ ابتغاءَ مَـدْحِ الخَلْقِ، والمَكانـةِ عندَهم، فقد حذَّرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ هذا الصِّنـفِ -أيضًا- بَعد التحذيرِ مِنَ البُخَلاءِ، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ يَبذلُونَهـا، ويَصرِفونَهـا في المُفيدِ، وغـيرِ المُفيدِ، وفيما يصـحُّ الإنفاقُ فيـه، وما لا يصحُّ، وكثيرًا مـا لا يَتوخَّوْن مواقعَ الحاجةِ، فقـد يُعطِي الغنيَّ، ويَمنعُ الفقيرَ، وهؤلاءِ مِنَ المُشركينَ، والمُنافقينَ، الذين يُنفقونَ في سـبيلِ الشَّـيطانِ، لا في

(١) رواه أبو داود (١٦٩٨)، وصحَّحه الألبانّي في صحيح أبي داود.

سبيلِ طاعةِ الرحمَنِ ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لِيراهُم النَّاس، ويَمدحُوهم، ويقولوا فيهم: ما أسخاهم! وما أجودَهم! ولِيتطاولُوا على مَنْ يتسامعُ بهم ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ لا يقرُّونَ بوحدانِيَّةِ اللهِ، ولا يُريدونَ وجهَه بالإنفاقِ، ولا يؤمِنونَ بيومِ الحِسابِ، فلا يقبلُ اللهُ عَمَلهُم، ولا يَغفرُ لهُم، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القدسيِّ: «**أنا أغنَى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا، أشْرَكَ فيهِ مَعِي غيرِي، تَركتُه وشركَه**»(١).

وفي حديثِ الثلاثةِ، الذين هُم أوَّل مَنْ تُسعَّرُ بهِمُ النارُ: يقولُ صاحبُ المالِ: «**ما تَركْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيها إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هُوَ جَوادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ**»(٢).

وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعَدِيِّ بنِ حاتِمِ الطائيِّ، لَمَّا سألَه عن أبيه فقالَ: يا رسولَ اللهِ إِنَّ أَبِي كانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَفْعَلُ كَذا وَكَذا؟ قالَ: «**إِنَّ أَباكَ أَرادَ أَمْرًا، فَأَدْرَكَهُ**» يَعْنِي الذِّكْرَ(٣).

ولَمَّا سُئِلَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ابنِ جُدعانَ: كانَ في الجاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذاكَ نافِعُهُ؟ قالَ: «**لا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(٤).

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾ أي: صاحبًا، ومُعِينًا، يوسوِسُ له ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ أي: بِئسَ الصاحبُ له، يقترِن به في النَّارِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يجمعُ في إنفاقِه الشرَّ مِنْ طَرَفَيْنِ: فهو يُنفِقُ مالَه في غيرِ مَرضاةِ اللهِ، معَ ريائِه، وقصدِه السُّمعةَ.

وفيها: شاهدٌ لقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٣) رواه أحمد (١٨٢٦٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٩): «رجاله ثقات»، وحسنه محققو المسند.

(٤) رواه مسلم (٢١٤).

وفِيهـا: أنَّ مَنْ أنفَقَ مالَـه في طاعةِ اللهِ، قاصدًا وجهَ اللهِ، مؤمنًا باللهِ، يَبتغِي بنفقَتِهِ الثوابَ في اليومِ الآخِرِ؛ فإنَّه عَدوٌّ للشيطانِ، مُراغمٌ له، يُعادِيه، ويُنابِذُه.

وفِيها: ذمُّ قرينِ السُّوءِ، المُصاحبِ للإنسانِ، وأنَّ الشيطانَ يُلازِمُ أولياءَه.

وفِيها: سوءُ حالِ مَنْ كانَ الشيطانُ مُقارِنًا له.

وفِيها: الاستدلالُ علَى مَسلَكِ القرينِ، ومصيرِه، بنوعِ قرينِه.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يُحسِّنُ الرِّياءَ للإنسانِ، ويُزيِّنُ له إرادةَ السُّمعةِ، والمَدحِ، عندَ النَّاس.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَمنعُ العبدَ مِن الاستفادةِ مِنْ أعمالِه الصالحةِ.

وفِيهـا: أنَّ الكُفـرَ بـاللهِ، والـشِّركَ بـهِ، يَحرِمُ العبـدَ مِـنَ التوفيـقِ في مواضِـعِ الإنفـاقِ، والإخلاصِ فيه.

وفِيهـا: أنَّ الشَّـيطانَ يَخْدَعُ العبدَ ببذلِ المـالِ في غيرِ وجهِ اللهِ، فيُحرَمُ العبدُ مِنْ حسَـناتِ صَدَقتِه، فيكُونُ عِند نفسِه باذلًا، وعند اللهِ خائبًا.

وفِيهـا -**مـع التي قبلهـا**-: أنَّ مَنْ لَمْ يُوقِعْه الشَّـيطانُ -مِـنْ أهلِ الخُـسْرانِ- في البُخلِ، والشُّحِّ، أوقعَه في الرِّياءِ، والسُّمعةِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يتلاعبُ بالإنسانِ في الإقدامِ، والإحجامِ.

وفِيهـا: الوعيـدُ لِمَنْ قدَّم ثوابَ الخَلْـقِ علَى ثوابِ اللهِ، وراعَى نَظَرَ المخلُـوقِ، ونَسِيَ نَظَرَ الخالقِ.

وفِيها: أنَّ ابتغاءَ تعظيمِ النَّاس، وإطرائِهم، وثنائِهم، ومدحِهم، مُفسِدٌ للعملِ.

وفِيها: تأثيرُ الكُفرِ في عَدَمِ الثقةِ بما أعدَّ اللهُ لعبادِهِ مِنَ الثوابِ، والجزاءِ، وأنَّ عدمَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ، يُفقِدُ العبدَ صحةَ العَمَلِ.

وفِيها: الحثُّ علَى اختيارِ القَرينِ الصالِحِ.

وفِيها: تَعريـضٌ بتنفيـرِ الأنصارِ مِـنْ مُعاشَرَةِ اليهـودِ، وأولياءِ الشَّـيطانِ، الذيـنَ كانُوا ينْهَوْنَهم عن الإنفاقِ.

وفِيها: ذمُّ استعجالِ ثوابِ الأعمالِ، وعدمِ الصَّبرِ، حتَّى يَلْقَى اللهَ بها.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ تحرَّى مَواطِـنَ تعظِيمِ الخَلْـقِ، ومَدْحِهم له، يُصبِح إنفاقُـه ضارًّا، وبذلُه في غـيرِ المواضعِ الصحيحةِ، وقد يَبخَلُ على أربابِ الحقـوقِ، كالزوجةِ، والولدِ، والقريبِ، ويُنفِقُ في المواضعِ العَلنيّةِ، الجالبةِ للمدْحِ، ولو لَم تكنْ ذاتَ نفعٍ.

وفِيها: أنَّ مُقارنةَ الشَّيطانِ بالأفعالِ، تُؤدِّي إلى الاقترانِ به في النارِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ المشروعِ، ابتُلِي بالمَمنوعِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ علاماتِ مقارنةِ الشيطانِ للعبدِ: الاندفاعَ في المعصيةِ.

وفِيها: أنَّ علَى العبدِالتفقُّهَ في مواضِعِ الإنفاقِ، وأجرِه، ومواطنِ المنفعةِ، قَبْلَ أنْ يقومَ بالعملِ.

وفِيهـا: أنَّ مِـنَ النَّـاس مَنْ يجتمِـعُ عنده البُخـلُ في موضعِ الحاجةِ، والإنفـاقُ في موضعِ الرِّياءِ، وهذا مِنْ أسوأ الخَلْقِ.

وفِيهـا: أنَّ المُرائِـي لا يُوفِّقُـه الله لنَفْـع الخَلْـقِ، وغالـبُ مَـنْ يسـتفيدُ مِـن نَفَقاتِه: غيرُ المُحتاجِينَ، ولا يباركُ الله فيها، فلا يتعدَّى نفعُها، ولا يستمِرّ.

ثُمَّ وَعَظَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى البُخلاءَ، والمُرائينَ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾.

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: مـا الذي يُصيبُهم مِنَ الضررِ؟ ﴿لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه لا شريكَ له ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وأنَّه واقعٌ، وحقٌّ آتٍ، لا ريبَ فيه، وسيكونُ فيه جزاءُ الأعمالِ ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في وجـوهِ الخيرِ، والمصـارِفِ الصحيحةِ ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الحلالِ، والكسـبِ الطيِّبِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ عليـمٌ بنيَّاتِهـم، عليمٌ بمَنْ يسـتحقُّ التوفيقَ مِنْهم، فيُلهِمه رشـدَه، عليمٌ بمَنْ يستحقُّ الخِذلانَ، فيَحرِمه الخيرَ، ويُخيِّب سعيَه.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ المؤمنَ باليومِ الآخرِ حقًّا يرجُو موعودَ اللهِ على عَمَلِه.

وفِيها: التّعجُّبُ مِنَ الكافرِ باللهِ، الجاحدِ لليومِ الآخِرِ، البخيلِ بالخيرِ، المنفِقِ في المعصيةِ.

وفِيها: الحضُّ على كسبِ الحلالِ؛ للإنفاقِ مِنْه.

وفِيها: أنَّ الثِّقةَ بوعدِ اللهِ تدفعُ للإنفاقِ، وأنَّ الإيمانَ سلْوَى مِنْ كلِّ فائتٍ، ووعْدَ اللهِ تعويضٌ لكلِّ مبذولٍ، ومفقودٍ.

وفِيها: أنَّ حلاوةَ الإيمانِ تُنسِي مرارةَ مفارقةِ المالِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عليمٌ بنوايا المُنْفِقِينَ، ومَنْ يُريدُ الرِّياءَ والسُّمعةَ مِنْهم، ومَنْ يريدُ الأجرَ، والثَّوابَ.

وفِيها: أنَّ على العبدِ أنْ يكتفي بعِلم اللهِ، ولا يُبالِي بعِلم النَّاس بعَمَلِه.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَنسَى عملَ العامِلِينَ، ولا يَغفُل عنه، بل هو بَصيرٌ به.

وفِيها: حِفظُ الله للمؤمنِ المُنفقِ ابتغاءَ وجهِه، وصرفُه الضّررَ عنهُ.

وفِيها: موعظةُ الكُفَّارِ والمنافقينَ.

وفِيها: أنَّ مَنْ حَسُنَ إيمانُه، حَسُنَ عملُه.

وفِيها: إلزامُ الخُصومِ، والأعداءِ، بالحُجَّةِ الدَّامغةِ، واستخدامُ أسلوبِ التعجّبِ، والاستفهامِ التوبيخيِّ، في ذلك.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ، والتوحيدَ، أساسُ الأعمالِ.

وفِيها: دليلٌ على أنَّ العملَ مِنْ مقتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ الإيمانَ باللهِ، واليومِ الآخرِ، يُشجِّعُ على الإنفاقِ، والبَذْلِ.

وفِيها: محاربةُ البُخلِ، والرِّياءِ، بتصحيحِ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ أساليبِ الموعظةِ: (ماذا عليكَ لَوْ فعلْتَ كذا؟)، كوعظِ العاصِي: ماذا عليك لَوْ أطعتَ ربَّك؟ ووعظِ العاقِّ: ماذا عليكَ لَوْ بَررتَ بأبِيك؟ ووعظِ القاطِعِ: ماذا عليكَ لَوْ وصلتَ رَحِمَك؟ ونحوِ ذلك.

ولَمَّا أمرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإحسانِ، والبرِّ، ونهى عن البُخلِ، والرياءِ، ذكَّرَ بِعَدْلِه -وَعدًا لأولئكَ المحسنينَ، ووعيدًا لهؤلاء البخلاءِ المُرائِينَ- فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ﴾ أحدًا ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ قيل: رأسُ نملةٍ حمراءَ، وقيل: كلُّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ الهَباء، وهذا مَثَلٌ ضربَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأقلِّ الأشياءِ، والمعنى: أنَّه لا يَظلِمُ قليلًا، ولا كثيرًا. ﴿وَإِن تَكُ﴾ أي: مثقالُ الذَّرَّةِ ﴿حَسَنَةٗ﴾ مِنْ أيِّ نوعٍ ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾ إلى عشرةِ أمْثالِها، إلى أضعافٍ كثيرةٍ ﴿وَيُؤۡتِ﴾ أي: يُعطِي صاحبَ الحَسَنةِ ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾ مِنْ عندِه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ ثوابًا جزيلًا، قيل: هو الجنَّةُ.

وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وفي حديثِ الشفاعةِ، مِن حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... **فَأَقُولُ: يا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ. فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ**»(١).

وفي حديثِ الشفاعةِ، مِن حديثِ أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا**» قالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي، فاقْرَءُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(٢).

وعن عبدِالله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «يُؤْتَى بالعبدِ والأمَةِ يومَ القيامةِ، فيُنادِي منادٍ على رؤوسِ الأوَّلينَ، والآخِرينَ: هذا فلانُ بنُ فلانٍ، مَنْ كانَ له حقٌّ، فليأتِ إلى حقِّه. فتفرحُ المرأةُ أن يكونَ لها الحقُّ على أبيها، أو أخيها، أو زوجِها. ثُمَّ قرأ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيغفرُ اللهُ مِنْ حقهِ ما يشاءُ، ولا يَغفرُ مِنْ حقوقِ النَّاس شيئًا، فيُنصَبُ للناسِ، فيُنادَى: هذا فلانُ بنُ فلانٍ، مَنْ كانَ له حقٌّ، فليأتِ إلى حقِّه. فيقول:

(١) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).
(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

رَبِّ، فَنِيَت الدُّنيا، مِنْ أينَ أُوتِيهْم حقوقَهم؟ قال: خُذوا مِن أعمالِه الصالحِةِ، فأَعْطُوا كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه، بقَدْر مظلَمَتِه، فإنْ كانَ وليًّا لله، ففَضَلَ له مثقالُ ذرةٍ، ضاعَفَها الله له حتى يُدخلَه بها الجَنةَ، ثُمَّ قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ قال: ادخلِ الجَنةَ.

وإنْ كانَ عبدًا شقيًّا قال المَلَكُ: ربِّ فَنِيَتْ حسناتُه، وبقِيَ طالبونَ كثيرٌ؟ فيقول: خُذوا مِنْ سيئاتِهم، فأضيفُوها إلى سيئاتِه، ثُمَّ صُكُّوا له صَكًّا إلى النارِ»[١].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِها في الدُّنْيا، وَيُجْزَى بِها في الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكافِرُ: فَيُطْعَمُ بِحَسَناتِ ما عَمِلَ بِها للهِ في الدُّنْيا، حَتَّى إذا أَفْضَى إلى الآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِها**»[٢].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تنزيهُ اللهِ عَنِ الظلمِ، وأنَّه كريمٌ يُضاعِفُ الحسناتِ.

وفِيها: أنَّه يُحاسِبُ العبادَ على أعمالِهم، مهما تناهَتْ في الصِّغَرِ.

وفي الآيةِ: أنَّ عَدْلَ اللهِ يشملُ المسلمَ، والكافرَ، فأمَّا المُسلمُ: فإنَّه يُضاعِفُ له حسناتِه، وأمَّا الكافرُ: فإنَّه يُعطِيه في الدنيا مُقابِلًا عليها صحةً، وولدًا، ومالًا، وشهرةً، ونحوَ ذلك، فإذا جاءَ يومُ القيامةِ، لَم تكنْ له حسنةٌ. وقيل: إنَّ حسناتِ الكُفارِ، قدْ تخفِّفُ عنهم العذابَ يومَ القيامةِ، مَع بقائِهم في النار، وخلودِهم فيها.

وفي الآيةِ: ضربُ المَثَلِ بما يعرِفُه النَّاس.

وفي الآيةِ: امتناعُ الظُّلمِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع قدرتِهِ عليه؛ لأنَّه حَرَّمَه على نفسِه.

وفِيها: تأييدُ الأوامرِ، والنَّواهِي، بالوَعدِ، والوعيدِ.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٦٣)، تفسير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٣٠٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري، وقال: «أراه من المرفوع حكمًا؛ فإن ما ذكره ابن مسعود مما لا يعرف بالرأي، وما كان ابن مسعود ليقول هذا من عند نفسه، وليس هو ممن يَنقل عن أهل الكتاب، ولا يقبل الإسرائيليات».

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٨).

وفِيها: أنَّ مضاعفةَ الحسناتِ، لا تختصُّ بعددٍ معينٍ، فمِنْها ما يُضاعفُه إلى عشرٍ، ومِنْها ما يكونُ إلى سَبعمائةٍ، ومِنْها ما يكونُ أكثرَ مِنْ ذلك، ثُمَّ يُعطِي أصحابَ الحسناتِ فوقَ المضاعفةِ، أجرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا، لا يُقْدَرُ قَدْرُه.

وفِيها: أنَّ ما ذُكِرَ -على سبيلِ المبالغةِ- لا مفهومَ له، فقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: ولا أدنَى مِنْ ذلك، وليس المقصودُ تحديدَ عدمِ الظُّلمِ بالذَّرَّةِ.

وفِيها: رحمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعبادِهِ، وأنَّها سبقتْ غضَبَه؛ وذلك أنَّ الحَسَناتِ تُضاعَفُ، والسَّيِّئاتِ لا تُضاعَفُ.

وفِيها: أنَّ الحَسَنةَ تدلّ علَى الحَسَنةِ؛ لأنَّ هذا الأجرَ قد يكونُ سببُه زيادةَ الحسناتِ؛ بسببِ الحسنةِ الأولى، وقد ذَكَروا في تفسيرِ قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾ أنَّ العبدَ إذا عَمِل عَملًا صالحًا، يُوفِّقهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعَملٍ صالحٍ آخَر، وهذا مِنْ كَرَمِ الربِّ؛ فإنَّه يُوفِّقُ المحسنينَ لمزيدٍ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ، ثُمَّ يُؤتِيهم عليها أجرًا مُضاعَفًا بلا تقديرٍ، ثُمَّ يُدخلُهم الجَنَّةَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُحصِي على عبادِه مثاقيلَ الذَّرِّ، ولكنَّ كثيرًا مِنْهم عنْ هذا غافِلُون.

وفِيها: أنَّ الإضافةَ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُفيدُ التعظيمَ، كما في قوله: ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾.

وفِيها: أنَّ مِنْ عدلِ اللهِ: القصاصَ يومَ القيامةِ.

وفِيها: تشريفُ اللهِ يومَ القيامةِ للمُحسِنينَ، بإيتائِهم مِنْ عندِه، لا مِنْ عندِ غيرِه.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَدْلَه في حسابِ خَلقِهِ، والاستقصاءَ في ذلك يومَ القيامةِ، بَيَّن أنَّ هذا يكونُ بشهادةِ الرُّسلِ، وبمحضرٍ مِنَ الجميعِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾.

﴿فَكَيۡفَ﴾ استفهامُ توبيخٍ، وتبكيتٍ، وتهديدٍ لأهلِ السَّيِّئاتِ، والمُعذَّبينَ، والمعنى: فكيفَ يكونُ الأمرُ، والحالُ، يومَ القيامةِ ﴿إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ أي: نَبيٍّ، يشهدُ على أعمالِ قومِه، حين تُعرَض في ذَلكَ اليوم ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا مُحمّد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أمَّتِك ﴿شَهِيدٗا﴾ تَشهَدُ على مَنْ آمَنَ، وعلى مَنْ كَفَر، ونافَق، فتكونُ شهادتُك

حُجّةً للمُحسنينَ، وحُجّةً على المُسِيئِين، وتشهدُ على صدقِ جميعِ الأنبياءِ مِنْ قَبْلك، وأنَّهم بلَّغوا أقوامَهم. وعن عبدِالله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لِي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأْ عليَّ**». فقلتُ: يا رسول الله، آقْرَأُ عليك، وعليك أُنزِل؟! قال: «**نَعَم**»، فقرأتُ عليه سورةَ النِّساءِ، حتَّى أتيتُ إلى هذه الآيةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، قال: «**حَسْبُكَ الآنَ**»، فالتفتُ إليه، فإذا عيناه تذرِفانِ[١].

وفي روايةٍ: «غَمَزَني رجلٌ إلى جنبي، فرفَعْتُ رأسِي، فرأيتُ دموعَه تَسيلُ»[٢].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تأكيدُ العَدلِ في الثوابِ، والعقابِ، وعدمِ الظلمِ، وذلك بحضورِ الشُّهداءِ.

وفِيها: أنَّ حضورَ الأنبياءِ للشَّهادةِ على الأعمالِ تشريفٌ للمؤمنينَ، وفضيحةٌ للكفارِ، والمنافِقِينَ.

وفِيها: عَرْضُ أعمالِ الأممِ على أنبيائِهم، وبذلك يتبيَّنُ مَنْ تابَعَهم مِمَّنْ عصاهم، وأنَّ الأنبياءَ يَشْهَدون على إيمانِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ، وكُفرِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ، ويتبرَّؤونَ مِمَّنْ خالَفَهُم.

وفِيها: شرفُ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينَ يَشْهدُ لجميعِ الأنبياءِ، وأنَّهم بلَّغُوا، وصَدَقُوا فيما بلَّغوا؛ وذلك لعلمِه بما جاؤوا بِه، واستجماعِ شرعِه لجميعِ حسناتِ ما جاؤوا بِه.

وفِيها: تحضيرُ الشُّهودِ؛ لِمَنْعِ الجاحِدينَ مِنَ الجُحودِ.

وفِيها: هولُ يومِ القيامةِ، وشدّةُ أمرِه، واجتماعُ الأوّلينَ والآخرينَ فِيهِ.

وفِيها: أنَّ الأنبياءَ يشهَدُونَ لِمَنْ رأوهُ، ولِمَنْ لَمْ يَروهُ، وذلك بإخبارِ اللهِ لهُم بحَقائقِ مَنْ جاءَ بَعدَهم، وأنَّ الأنبياءَ يعرِفونَ أقوامَهم بِسيماهُم، وأعْمالِهم.

وفِيها: بيانُ عَظَمةِ مَقامِ الشَّهادةِ، وتعظيمِ قدْرِ العلماءِ؛ لأنَّهم شهداءُ الأنبياءِ، وَوَرَثَتُهُمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ الكفرةِ، والعُصاةِ، وندَمَهم أشدّ النَّدمِ في ذلك اليومِ العصيبِ، والمشهدِ المَهيبِ، عندما تأتِي كلُّ أمَّةٍ مع نبيِّها؛ ليشهدَ على أعمالِها، فقال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٢) رواه مسلم (٨٠٠).

﴿يَوْمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يومَ يأتِي اللهُ مِنْ كلِّ أمةٍ بشهيدٍ ﴿يَوَدُّ﴾ يَتمنَّى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ، ورسولِهِ، ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ فَخالفوا أَمْرَه ونَهْيَهُ، ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ويُهالُ عليهِم الترابُ، كما يُسوَّى على الموتَى، فيُدفنون فيها، بلْ يتمنَّوْن لو لَم يُخلَقوا، وأنَّهم كانوا والأرْضَ سَواء، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، وذلك ممَّا يرونَه مِنْ أهوالِ الموقفِ، وما يحِلُّ بهم مِنَ الخزيِ، والفضيحةِ، والتَّوبيخِ، وما يستقبلُهم مِنَ العذابِ، ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ لا يقْدِرونَ أن يُخفُوا شيئًا عَن ربِّهِم، فيَعترِفون بجميعِ ما فَعَلوه، وهذا يكونُ بعدَ محاولتِهم للكذبِ، والإخفاءِ؛ لأنَّهم -أوَّلًا- يَلجؤونَ إلى الإنكارِ، ويقولونَ -كاذبينَ- ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فيَختمُ اللهُ على أفواهِهم، وتنطِقُ أيدِيهم، وأرجلُهم، بما فَعَلوا، فيُضطرُّون للاعترافِ، ويَيْأسُونَ مِنَ الإنكارِ، ويُخبِرونَ بكلِّ ما عَمِلوه، لا يَكتمُون مِنْه شيئًا.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

شِدَّةُ وطأةِ يومِ القيامةِ عَلَى الكافِرينَ، وأنَّهم يتمنَّوْنَ فيهِ الهَلاكَ، أو أنْ يَسيخُوا في الأرضِ، أو يَكونُوا كالبهائمِ، عندَما يُقال لها يومئذٍ: كونِي تُرابًا.

وفِيها: أنَّ الكفارَ يومَ القيامةِ يُريدون إخفاءَ أعمالِهم؛ لقُبْحِها.

وفِيها: اضطرارُ الكفَّارِ إلى الاعترافِ بأعمالِهمُ القبيحةِ؛ وذلك لِشهادَةِ أعضائِهم عَلَيْهِمْ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ للمشرِكينَ.

وفِيها: تمنِّي الكفَّارِ يومَ القيامةِ أنْ لَمْ يَكونُوا بُعِثوا.

وفِيها: أثرُ الفضيحةِ في تمنِّي الهَلاكِ.

وفِيها: شناعةُ فعلِ المَعْصِيةِ، وقالَ بعضُ المُفسِّرينَ: «إنَّ العُصاةَ مِنْ غيرِ الكفَّارِ، يتمنَّوْنَ الهلاكَ أيضًا».

وفي الآيةِ: ردٌّ على مُنكِري السُّنةِ النبويَّةِ، والقائلينَ بعدَم وُجوبِ الأخذِ بها.

وفِيها: قُـوَّةُ الدَّاعِي للكفَّـارِ لِتمنِّي الهلاكِ، وذلـك عندَما يخرُجون مِنَ القبـورِ فَزِعينَ، ويُحشَرونَ في الزِّحـامِ، والعَرَقِ، تحتَ حرِّ الشَّـمسِ، وحصارِ الملائكـةِ، وانخلاعِ القلوبِ، بمجـيءِ اللهِ؛ لفَصْلِ القضاءِ، وشـدَّةِ الحسـابِ، والتفتيـشِ عَنِ الأعمالِ، وشـهادةِ الأنبياءِ، والفضيحةِ العامَّةِ على رؤوسِ الخَلْق، والإهانةِ، والتَّوبيخِ، والإذلالِ، وغيرِ ذلك، ممَّا يكونُ قَبْل دخولِ النارِ.

وفِيهـا: أنَّ كَذِبَ الكفَّارِ يـومَ القيامةِ بقولِهـم: ﴿**وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٣]، أو قولِهـم: ﴿**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ**﴾ [النحل: ٢٨]، ونحـوِ ذلـك: ليـس بنافِعِهم عند اللهِ؛ ولذلك يُضْطَرُّون للاعترافِ.

وفِيها: أنَّ يومَ القيامةِ مَواطِنُ، وأحوالٌ، وهو يومٌ طويلٌ عسيرٌ على الكفَّارِ: ففي حالٍ لا يُسـمَعُ فيه إلا همسُـهم، وفي حالٍ تاليةٍ يُخفُون، ويَكذِبونَ، وفي حالٍ أخرى يَسـألونَ الرَّجعةَ إلى الدنيـا؛ لِيَعمَلوا صالحًا، وبَعـد ذلك يُضطَرُّون إلى الاعترافِ، بَعد أنْ يُختَم على أفواهِهم، وتَنطِقَ جوارحُهم، فيَشهدُوا على أنفسِهم أنَّهم كانوا كاذِبينَ، عصاةً، مُجرِمينَ.

وفِيهـا: أنَّ أحاديـثَ الكُفـرِ، والمعصيةِ، التـي دارتْ بَيْن أهلِهـا في الدُّنيا، تتكشَّـفُ يومَ القيامةِ.

وفِيها: أنَّ الشَّاهدَ إذا قامَ على الإنسانِ مِنْ نفسِه، فلا مناصَ لَهُ مِنَ الاعترافِ.

وفِيها: أنَّ المُشركَ العاصِي يومَ القيامةِ، يُريدُ أن يَسلُكَ كلَّ سبيلٍ للفرارِ مِنْ عذابِ اللهِ، وأنَّه لا يتمكَّنُ مِنَ الاستمرارِ في الجَحدِ، والكَذِبِ.

وفي الآيـةِ مأخذٌ، لِمَنْ قالَ مِنَ العلماءِ: بأنَّ الكفَّارَ مُؤاخَذونَ بمخالفتِهم لفروعِ الشَّريعةِ، وليـس لأصلِها فقـط، وذلك في قولِـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ**﴾. وفَهِم بعضُ المفسِّريـنَ مِـنَ الآيـةِ -أيضًـا-: أنَّ المُـرادَ بكتـمانِ الحديثِ: هو كتـمانُ الحقِّ، وصفـةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعرفتِهـم لـه، فيكونُ قولُـه: ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ**﴾ متعلِّقًا بقولِـه: ﴿**يَوَدُّ**﴾ ومعطوفًا على قولِه: ﴿**تُسَوَّىٰ**﴾: أي يتمنَّوْن المَوتَ، ويتمنَّون أنْ لَمْ يكونُوا قد كَتَموا الحَقَّ.

وفِيها: فشلُ جميعِ محاولاتِ الكفارِ؛ للنَّجاةِ مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ، سَواءٌ الكِتمانُ، أو الجَحدُ، أو الهروبُ، أو إلقاءُ التَّبِعةِ على الرؤساءِ، وأئمةِ الإضلالِ، أو سؤالُ الرَّجعةِ إلى الدنيا، أو محاولةُ تقديمِ الفِديةِ، أو الدُّعاءُ على أنفسِهم بالمَوتِ، أو محاولةُ التعلُّقِ بالمؤمنينَ.

وفِيها: أنَّ الاعترافَ أساسُ الإدانةِ، وأنَّ إقرارَ الكفَّارِ حُجةٌ عليهم، يَدخلون بها النارَ.

ولَمَّا ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ الوقوفِ بَيْن يديْهِ في الآخِرة، أتبَعَ ذلك بذِكْر ما ينبَغِي أن يكونَ عليه حالُ الواقفِ بَيْن يديْه في الصَّلاةِ، في هذه الدُّنيا، وأنَّه يجبُ أنْ يكونَ حاضرَ العقلِ، والقلبِ، غيرَ مُغيَّبٍ لِما يُدرِك به صلاتَه، ويدرِي به ما يقولُ، طاهرًا مِنَ النَّجاساتِ، والخبائثِ، رافعًا للحَدَثِ، والجنابةِ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

المقطعُ الأوَّلُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناداهم بلفظِ الإيمانِ؛ ليستثِيرَ هِمَّتَهُم للامتثالِ للنَّهيِ ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لا تُؤدُّوها، ولا تُقيمُوها، ﴿وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: حالَ كونِكم تحتَ تأثيرِ السُّكْرِ، والسُّكْرُ في اللُّغة: هُوَ السَّدُّ، وسُمِّي تعاطِي الخمرِ سُكْرًا؛ لأنَّ السَّكْرانَ يَسُدُّ ما بَيْنه وبَيْن عقلِه، والسَّكَرُ -بفتحتيْنِ-: هو المَشروبُ المُسْكِر، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧]، ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ وذلِك بعدَ الإفاقَةِ، وزوالِ أثرِ الخمرِ، وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ نَسَخَتْها التي في المائدةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾»(١).

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٢)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

سَببُ النُّزولِ:

عــن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قــال: «لَمَّا نَزَل تَحريمُ الخَمـرِ، قال عمرُ: اللهم بَيِّنْ لنــا في الخَمْرِ بيانَ شِـفاءٍ. فنزلَت هـذه الآيةُ التـي في البقـرةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فدُعِي عمرُ، فقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فقالَ: اللهم بَيِّنْ لنا في الخَمرِ بَيانَ شِفاءٍ. فنزلت الآيةُ التي في سورةِ النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، فكان مُنادِي رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أقيمتِ الصَّلاةُ ينادِي: «ألا يَقْرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكْرانُ»فدُعِي عمرُ، فقُرِئَتْ عليه، فقال: اللهم بَيِّنْ لنا في الخَمر بَيانَ شِفاءٍ، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَّ قالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنا»[١].

وعــن عــليِّ بنِ أبي طالــبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صَنعَ لنــا عبدُالرحمن بنُ عَـوْفٍ طَعامًا، فدعانا، وسـقانا مِنَ الخَمرِ، فأخذَتِ الخَمرُ مِنَّا، وحَـضَرتِ الصَّلاةُ، فقدَّمُوني، فقرأتُ: «قُل يا أيُّها الكافـرونَ، لا أعبدُ ما تَعبُدُون، ونحْنُ نعبدُ ما تَعبُدُون». فأنزلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾»[٢].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

عِظَمُ قدرِ الصَّلاةِ، وأنَّ المُصلِّي لابُدَّ أنْ يكونَ حاضرَ العقلِ في صلاتِه.

وفِيها: أَنَّ الخِطابَ للأُمَّةِ، ولا يَتوجَّهُ الخِطابُ للسَّكْرانِ الذِي لا يَفْهمُ الكَلامَ.

وفِيها: بيانُ مَرتبةٍ مِنَ المراتبِ في تحريمِ الخَمرِ.

وفِيها: تدريبُ الأمَّةِ -في ذلك الوقتِ- وترويضُ نفوسِـهم على تَركِ المُسـكِرِ، فإنَّه إذا كان سـيجتَنِبُها عنـد الصَّلـواتِ، -وهي موزعةٌ على اليـومِ والليلةِ- فلنْ يبقَـى له إلا وقتٌ قليلٌ، يسكَرُ فيه.

وفيهـا: أنَّ مَنْ غلَبَه سُـكرُ النَّـومِ، والنُّعاسِ، فلا يُصلِّي، وقد قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا نَعَسَ أَحَدُكُمْ في الصَّلاةِ فَلْيَنَمْ؛ حَتَّى يَعْلَمَ ما يَقْرَأُ**»[٣].

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، وأحمد (٣٧٨)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٦)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) رواه البخاريّ (٢١٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في الصحيحين بمعناه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفِيها: التحذيرُ مِنَ التَّخليطِ في قراءةِ القرآنِ.

وفِيها: أهميةُ التدبُّرِ، والخُشوعِ، في الصلاةِ، والتلاوةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ يُصلِّي وهو سَكْرانُ، قد ينطِقُ بالكفرِ، كما أنَّ الذي يُصلِّي وهو نعسانُ، قد يدعو على نفسِه، كما جاء في الحديثِ: «... **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذا صَلَّى وَهُوَ ناعِسٌ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسُبُّ نَفْسَهُ**»(١).

وفِيها: أهميةُ معرفةِ المصلِّي معنى ما يقرَؤُه مِنَ القرآنِ.

وفِيها: المُبالغةُ في الابتعادِ عنِ الشَّيءِ المُحرَّمِ، وذلك بالتَّعبيرِ بالنَّهيِ عنِ القُربانِ، فلَمْ يَقُلْ: «لا تُصلُّوا وأنتم سُكارَى»، وإنَّما قال: ﴿**لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ**﴾.

وفِيها: النَّهيُ عن اقترابِ السُّكارَى مِنَ المساجِدِ.

وفِيها: تلافي كلِّ ما يُعيقُ عن فَهْمِ أذكارِ الصَّلاةِ، والقراءةِ فيها.

وفِيها: حكمةُ التَّشريعِ في التَّدرُّجِ في إخراجِ النَّاسِ عمَّا ألِفُوه.

وفِيها: الحَدُّ مِنَ الشَّرِّ، والتقليلُ مِنَ المُنكَرِ.

وفِيها: أنَّه يَنبَغِي على المُصلِّي أنْ يَقطعَ كلَّ شاغلٍ يشغَلُ فِكرَه، ويشوِّشُ عليه صلاتَه.

وفِيها: أنَّ الحدَّ الفاصلَ بَيْن السُّكرِ، وعدمِه: العِلمُ بما يقولُ.

وفِيها: أنَّ الالتزامَ بالعباداتِ يُقلِّلُ مِنَ الوقوعِ في المُحرَّماتِ، فكان الذي يُريدُ شُرْبَ الخَمرِ بَعدَ نُزولِ هذه الآيةِ، وقَبْل نزولِ آيةِ التَّحريمِ، لا يجدُ وقتًا لشُربِها إلا بعد العِشاءِ؛ لأنَّ الصَّلواتِ مُفرَّقةٌ، ومتقاربةٌ، وما بَعد الفَجْرِ للاكتسابِ، والعملِ، فلَمْ يَبْقَ إلا اللَّيلُ، الذي يُزاحِم فيه النَّومُ الشرابَ.

ولَمَّا نَهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قُربانِ الصَّلاةِ على هيئةٍ ناقصةٍ تُناقضُ مقصودَ الصلاةِ -وهي السُّكرُ-، نَهَى عنِ الدُّخولِ إلى مَكانِ أدائِها في المساجِدِ على هيئةٍ ناقصةٍ، وهي الجنابَةُ، فقال:

---

(١) رواه البخاريّ (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

المقطعُ الثَّانِي: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾.

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: لا تقربُوا الصلاةَ، ولا المساجدَ، حالَ كونِكم جنبًا ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: مجتازينَ، وقيل: مُسافِرين ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي: مِنَ الجَنابَةِ، قال ابنُ عبَّاسٍ: «لا تَدخلُوا المَسجدَ وأنتم جنبٌ، إلا عابِري سبيلٍ» قال: «تمرُّ به مَرًّا، ولا تجلسُ»[١].

وقال يزيدُ بنُ أبِي حبيبٍ: «إنَّ رجالًا مِنَ الأنصارِ كانتْ أبوابُهم في المَسجِدِ، فكانتْ تُصيبُهم جَنابةٌ، ولا ماءَ عندَهم، فيُريدُونَ الماءَ، ولا يَجِدونَ مَمَرًّا إلا في المسجِدِ، فأنزلَ الله ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾»[٢].

وقد أمَرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسدِّ الأبوابِ الشَّارعةِ إلى مسجدِه، إلا بابَ أبي بكرٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣].

وقد احتجَّ كثيرٌ مِنَ الأئمَّةِ بهذه الآيةِ على أنَّه يحرُمُ على الجُنُبِ اللَّبثُ في المسجدِ، ويجوزُ له المرورُ، وكذلك الحائضُ، والنَّفساءُ، إلا أنَّ بعضَهم اشترطَ لجوازِ مرورِهما أمنَ التلويثِ، ومِمَّا يدلُّ على جوازِ مرورِ الحائضِ في المسجدِ: حديثُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ناوِلِيني الخُمرةَ**[٤] **مِنَ المَسْجِدِ**» **فقلتُ: إنِّي حائِضٌ، فقال:** «**إنَّ حيضتَك ليستْ في يدِك**»[٥].

وقد أخرجَ أبو داود، وغيرُه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنِّي لا أُحلّ المسجدَ لحائضٍ، ولا جُنُبٍ**»[٦]، وهذا حديثٌ مختلَفٌ في صحَّتِه.

وذهبَ الأئمَّةُ الثلاثةُ -أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ- إلى أنَّه يَحرُم على الجُنُب المُكثُ في المسجدِ، حتى يغتسِلَ، أو يتيمَّمَ -إنْ عَدِم الماءَ، أو لَم يقدِرْ على استعمالِه-. وذهب الإمامُ أحمدُ إلى أنه يجوزُ للجُنُب المُكثُ في المسجدِ إذا توضَّأ؛ لأن الوضوءَ يُخفِّفُ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٠)، تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٣١١).

(٢) تفسير الطبريّ (٨/ ٣٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٤) أي: السّجادة.

(٥) رواه مسلم (٢٩٨).

(٦) رواه أبو داود (٢٣٢)، وابن ماجة (٦٤٥)، وابن خزيمة (١٣٢٧) في صحيحه، والأكثرون على تضعيفه.

الجَنابَةَ، واستدلَّ بما رواه هو، وسعيدُ بنُ منصورٍ، بإسنادٍ جيّد: أنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يفعلُون ذلك(١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

ذِكرُ غُسلِ الجَنابةِ، وقد وردتْ صفتُه في السُّنةِ:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اغتسلَ مِنَ الجنابةِ، بدأَ فغسلَ يدَيْه، ثُمَّ يتوضَّأ، كما يتوضَّأ للصلاةِ، ثُمَّ يُدخِلُ أصابِعَه في الماءِ، فيُخلِّل بها أصولَ شعرِه، ثُمَّ يَصُبُّ على رأسِه ثلاثَ غُرَفٍ بيديْه، ثُمَّ يُفيضُ الماءَ على جِلدِه كلِّه»(٢).

وعن مَيمونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالَت: «توضأ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضوءَه للصلاةِ غيرَ رجليْه، وغسلَ فرجَه، وما أصابَه مِنَ الأذَى، ثُمَّ أفاضَ عليه الماءَ، ثُمَّ نحَّى رجلَيْه، فغسلَهما، هذه غُسلُه مِنَ الجنابةِ»(٣).

وفِيها: أنَّ العُبورَ ليس كالمُكثِ في الأحكامِ، فيجوزُ العبورُ للجُنُب دونَ المُكثِ، وكذلك لا يصلّي المارُّ تحيةَ المسجدِ.

وفِيها: رعايةُ حُرمةِ بُيوتِ اللهِ، وفي آخرِ الزمانِ تُتَّخذُ المساجدُ طُرُقًا، ويمرُّ الرجلُ بالمسجدِ، لا يُصلِّي فيه؛ ولذلكَ ينبَغِي أن يَقتصِرَ المرورُ في المسجدِ على الحاجةِ.

وفِيها: الجمعُ في العِبادةِ بَيْن صِحةِ العقلِ، وطهارةِ الجسمِ، ونشاطِه.

وفِيها: اشتراطُ النيةِ في غُسلِ الجنابةِ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾(٤).

---

(١) روى سعيد بن منصور (٦٤٦) عَنْ عَطاءِ بْنِ يَسارٍ، قالَ: «رَأَيْتُ رِجالاً مِنْ أَصْحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِسُونَ في المَسْجِدِ وَهُمْ مُجْنِبُون؛ إذا تَوَضَّؤوا وُضُوءَ الصَّلاةِ» وسنده حسن، قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٣): «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٧٨)، إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٠).

(٢) رواه البخاريّ (٢٤٨)، ومسلم (٣١٦).

(٣) رواه البخاريّ (٢٤٩)، ومسلم (٣١٧). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٣٦٢): «قَوْلُهُ: «هَذِهِ غُسْلُهُ» الإشارَةُ إلى الأَفْعالِ المَذْكُورَةِ، أَوِ التَّقْدِيرُ: هَذِهِ صِفَةُ غُسْلِهِ».

(٤) قالَ القُرطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالَ عُلَماؤُنا: لا بُدَّ في غُسْلِ الجَنابَةِ مِنَ النِّيَّةِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾، وَذَلِكَ يَقْتَضِي النِّيَّةَ». تفسير القرطبي (٥/ ٢١٣).

المقطعُ الثالثُ: ولَمَّا كانَ الاغتسالُ مِنَ الجَنابةِ يتعذَّر في بعضِ الحالاتِ، أو يَتَعسَّر، رخَّصَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبادِه في الاستعاضةِ عنَ الماءِ بالتيمّم، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾.

﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ**﴾ مرَضًا يمنعُ استعمالَ الماءِ ﴿**أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ**﴾ طويلٍ، أو قصيرٍ ﴿**أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ**﴾ أي: جاء مِنْ موضعِ قضاءِ الحاجةِ، مُحدِثًا بخروجِ شيءٍ، مِنْ أحَدِ السَّبيلَيْنِ، وهذا هو الحَدَثُ الأصغَرُ، وأصلُ الغائِطِ: هو المكانُ المُنخفضُ مِنَ الأرضِ، كانوا يقْصِدونَه عندَ قضاءِ الحاجةِ؛ للسترِ، والاستخفاءِ عنِ النَّاسِ، فانتقلَ التعبيرُ مِن اسمِ المَكانِ، إلى الحَدَثِ نفسِه ﴿**أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ**﴾ اختلفَ المفسِّرونَ، والأئمةُ، في المُرادِ بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ**﴾، فقال بعضُهم: «اللَّمسُ هو الجماعُ»، جاء ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ، وغيرِه. وقالوا: إنَّ مجردَ مسِّ المرأةِ لا ينقضُ الوضوءَ، واحتجوا بحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أنَّ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كانَ يُقبِّلُ بعضَ أزواجِه، ثُمَّ يُصلي، ولا يتوضَّأُ**»[1].

وقال آخرونَ: «إنَّ المرادَ بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ**﴾ هو مجردُ اللَّمسِ، والمُباشرةِ»، وقد جاء معنى هذا عن ابنِ مسعودٍ وابنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو مذهبُ الشافعيِّ، وقال مالكٌ، وأحمدُ: «إذا كان اللَّمس بشهوةٍ، انتقضَ الوضوءُ وإنْ لمْ يكنْ بشهوةٍ، فلا»، وقال أبو حنيفةَ: «لا ينتَقضُ الوضوءُ باللَّمسِ، إلا أنْ يَحدثَ الانتشارُ»، وقال بعضُ العلماءِ: «إنَّ الوضوءَ لا ينتقضُ بالمُباشرةِ، إلا إذا خرجَ مِنْه شيءٌ، كالمَذي»[2].

﴿**فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً**﴾ بَعدَ البحثِ، والطلبِ، تتطهَّرونَ به للصلاة ﴿**فَتَيَمَّمُواْ**﴾ التَّيممُ في اللُّغةِ: القَصدُ، والمُرادُ هنا: ما فسَّره به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِه، وفِعْله، ففي حديثِ عمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**إنّما كان يكفيكَ هكذا**» فضربَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكفَّيْه الأرضَ، ونفَخَ فيهما، ثُمَّ مَسَحَ بهما وجهَه، وكفَّيْه[3].

---

(١) رواه أبو داود (١٧٩)، والترمذي (٨٦)، والنسائي (١٧٠)، وابن ماجة (٥٠٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وغيره.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٢٤)، (٦/ ١٠٤)، المغني (١/ ١٤١-١٤٢).

(٣) رواه البخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

﴿صَعِيدًا﴾ ما صَعِدَ على وجهِ الأرضِ، فيجوزُ التيممُ بكلّ ما هُوَ مِن جِنسِ الأرضِ، وهذا مذهبُ أبي حَنيفةَ ومالكٍ، فيصحّ التيمّمُ عندهُما بالتُّرابِ، والرملِ، والحَصَى. وجوّز أبو حَنيفةَ التيمّمَ بالحَجرِ الأملَسِ، والحائطِ المُطيّنِ، والخَزفِ المصنوعِ مِن الطينِ الخالِصِ، وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ والحَنابِلَةُ: إلى أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ التَّيَمُّمُ إِلاَّ بِتُرابٍ، طاهِرٍ، ذِي غُبارٍ، يَعْلَقُ بِاليَدِ، غَيْرِ مُحْتَرِقٍ.

وَفي المَسأَلَةِ خِلافٌ وتَفصيلٌ في المَذاهبِ ليسَ هَذا مَوضِعَ ذِكْرِه.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: طاهرًا، ليس بِنَجسٍ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورُ المُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الماءَ عَشْرَ سِنِينَ**»[1].

﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾ مِنْه ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾ بالضربةِ الأولى ﴿وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ بالضربةِ الثانيةِ -على قولٍ-، وقال آخرونَ مِنْ أهلِ العِلمِ: «ضربةٌ واحدةٌ تكفِي»، واحتجُّوا بحديثِ عمَّار المتقدِّمِ، وفي لفظٍ له عند أحمد: «**ضربةٌ للوجهِ والكفَّيْنِ**»[2]، وهوَ الرَّاجح.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة المائدة: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ وقد استدلَّ بذلك الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه على أنَّه لابُدَّ في التَّيممِ من ترابٍ طاهرٍ، له غُبارٌ، يعلَقُ بالوجهِ واليدَيْنِ مِنْه شيءٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي: كثيرَ العفوِ، والمَحْوِ لذنوبِ العبادِ ﴿غَفُورًا﴾ أي: كثيرَ الغَفر، والسترِ لها.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

التَّكنيةُ عمَّا يُستحيا مِنَ التَّصريحِ به، كما عبَّر بالغائِطِ، وهو اسمُ المكانِ عن فِعلِ الحَدَثِ، وكما عبَّرَ بالمُلامَسةِ عن الجِماعِ، وفي آياتٍ أخرى: بالمَسِيس عنِ الجِماعِ.

وفيها: أنَّ المَريضَ إذا كانَ يتأذَّى باستِعمالِ الماءِ، أو يَحصُلُ لهُ ضررٌ به، أو يتأخّر بُرؤُه باستِعمالِه، فإنّه يجوزُ له حِينئذٍ أن يتيمَّمَ.

(١) رواه أبو داود (٣٣٢)، والترمذي (١٢٤)، وصححه، والنسائي (٣٢٢)، وابن حبان في صحيحه (١٣١١)، والحاكم (٦٢٧)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند أحمد (١٨٣١٩)، وصححه محققو المسند.

وفي الآيةِ: ذِكْرُ الحَدَثَيْنِ الأصغرِ، والأكبرِ، ووجوبُ استعمالِ الماءِ لهما.

وفِيها: أنَّ التَّيمُّمَ بديلٌ عن الماءِ في الحَدَثَيْنِ، وأنه يَرفَعُهما -على قولٍ-، أو يُبيحُ الصلاةَ -على قولٍ آخرَ-.

وفِيها: أنَّ المَرَضَ، والسفرَ، مظِنَّةٌ لفَقْدِ الماءِ، أو عدمِ القُدرةِ على استعمالِه.

وفِيها: أنَّ المرضَ اليسيرَ الذي لا يمنَعُ مِنْ استعمالِ الماءِ، ليس بعُذْرٍ في التَّيمُّم.

وفِيها: وجوبُ البَحثِ عنِ الماءِ عندَ عدمِه؛ لقولِه: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ ولا يكونُ ذلكَ إلا بعدَ البَحثِ.

وفِيها: تطلُّبُ السترِ عند قضاءِ الحاجةِ، والتماسِ المكانِ المنخفضِ مِنَ الأرضِ لأجلِ ذلك.

وفِيها: أنَّ فاقدَ الماءِ لا يُمنَع مِنْ إتيانِ زوجتِه؛ لأن الله جعلَ له مَخرجًا.

وفِيها: أنَّ المَسَّ بغيرِ شهوةٍ، كمَسِّ المحارِمِ، لا يَنقُضُ الطَّهارةَ.

وفِيها: رحمةُ الله بعبادِه، وتوسِعتُه عليهِم، وإخراجُهم مِنَ الضِّيقِ، والحَرَجِ، وإيجادُ البديلِ لهم عمَّا فَقَدُوه.

وفِيها: العبادةُ في جميعِ الأحوالِ.

وفِيها: أنَّ ترْكَ الصَّلاةِ لا يجوزُ بحالٍ.

وفِيها: اشتراطُ الطَّهارةِ للصعيدِ، الذي يُتيمَّمُ به، فلا يَجوزُ أن يَضرِبَ على نَجاسةٍ.

وفِيها: تقديمُ الوجهِ على اليدينِ في التيمُّمِ، وقد فسَّرتِ السُّنَّةُ اليدَيْنِ بالكفَّيْنِ، وما وردَ في بعضِ الرِّواياتِ مِنَ المسحِ إلى مِرفَقِ الذِّراعِ، والإبطِ، فليس بقويٍّ.

وفِيها: إرادةُ اللهِ تطهيرَ العبادِ.

وفِيها: أنَّ التطهيرَ يَحصُلُ بالتيمّمِ.

وفِيها: نعمةُ اللهِ العظيمةُ على هذه الأمَّةِ، والتيمّمُ مِنْ خصائِصِها، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**جُعِلت لِي الأرضُ مَسجدًا وطَهورًا**»[1]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَتْ لَنا الأَرْضُ كُلُّها مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُها لَنا طَهُورًا، إِذا لَمْ نَجِدِ الماءَ**»[2]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّعيدُ الطيّبُ وَضوءُ المُسلمِ، ولَوْ إلى عشرِ سنينَ، فإذا وجدتَ الماءَ فأَمِسَّه جلدَك؛ فإن ذلك خيرٌ**»[3].

وفِيها: تنزيهُ الصَّلاةِ أنْ تُفعلَ على هيئةٍ ناقصةٍ، مِنْ جَنابةٍ، أو سُكرٍ، أو حَدَثٍ.

وفِيها: الاقتصارُ في الوضوءِ، والغُسلِ، على الماءِ، وعدمُ جوازِ رفعِه، بأيّ مائعٍ آخرَ.

وفِيها: أنَّ الله لا يُكلِّفُ العبادَ ما لا يُطِيقونَ.

وفِيها: عظيمُ كرَمِ اللهِ؛ فإنَّه لا يَترُكُ العُقوبةَ على الذنبِ فقط لِمَنْ تابَ، وأنابَ، بل يستُره أيضا.

وفِيها: أنَّ فاقِدَ الماءِ إذا تيمَّمَ مِنْ حَدَثٍ، فإنَّ تيمّمَه يَبطُل إذا وجَدَ الماءَ.

وفِيها: أنَّ مَنْ وجَدَ الماءَ بَعد فراغِه مِنَ الصَّلاةِ، وكان قد استَفْرغَ وُسعَه في البَحثِ عنه، وتيمَّمَ، فإنَّه لا إعادةَ عليه، ولو وجَدَ الماءَ قبل خروجِ الوقتِ؛ لأنَّه فعَل ما أمَرَه اللهُ به، فبَرِئَتْ ذمّتُه.

وفِيها: أنَّ الضَّربَ على ظاهِرِ الأرضِ يكفي في التَّيمُّمِ، وذهَبَ كثيرٌ مِنْ أهلِ العِلم إلى أنَّه يجوزُ التَّيمُّمُ بكلِّ ما على وجهِ الأرضِ مِنْ ترابٍ، ورملٍ، وحجرٍ، وصخرٍ، وجَصٍّ، وما هو مصنوعٌ مِنْ ذلك، كالجِدارِ المَبنِيّ مِنْ طينٍ، بخلافِ الفُرشِ، والجِدارِ المَطلي بالدّهاناتِ، إلَّا إذا كان عليْه غُبارٌ.

وفِيها: أنَّ فاقِدَ الماءِ يتيمَّمُ، ولو كان في الحَضَر.

وفِيها: أنَّ إسقاطَ وجوبِ الوضوءِ، والغُسلِ، في حالِ عدمِ الماءِ، أو عدمِ القدرةِ على استعمالِه، هو مِنَ العفوِ، والتَّيسيرِ، والتسهيلِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه مسلم (٥٢٢).

(٣) رواه أبو داود (٣٣٢)، والترمذي (١٢٤)، وصححه، والنسائي (٣٢٢)، وابن حبان في صحيحه (١٣١١)، والحاكم (٦٢٧)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وفِيها: إشـارةٌ إلى عفوِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، عن الذين خَلطُوا في صلاتِهم، بسـببِ السُّكرِ، قَبْل نزولِ التَّحريمِ.

وفِيها: أنَّ لمسَ المرأةِ يُحرِّكُ الشَّهوةَ، فلا يَجوزُ مَسُّ الأجنبيَّةِ.

وفِيها: أنَّ الطَّهارةَ بالتَّيمُّمِ -وإن اقتصَرتْ في التَّطهيرِ الحسِّي على الوجهِ، والكفَّيْنِ- فإنَّها مشتملةٌ -أيضًا- على التَّطهيرِ المَعنويّ.

وفِيهـا: أنَّ الخارجَ مِنَ السَّـبيلَيْنِ ينقضُ الطَّهارةَ، أيًّـا ما كانَ: بولًا، أو عَذِرةً، أو رِيحًا، أو دمًا، أو دُودًا، أوْ غيرَ ذلك.

وفي الآيةِ: مأخذٌ لبعضِ العلماءِ، الذين ذهَبُوا إلى عدمِ انتقاضِ الطَّهارةِ؛ لخروجِ شيءٍ مِنَ الجَسَدِ مِنْ غيرِ السبيلَيْنِ: كالرُّعافِ، والقَيءِ، والقَيْحِ، والصَّديدِ، والحِجامةِ، ونحوِ ذلك.

وفِيها: أنَّ تعذُّرَ استعمالِ الماءِ، كفُقدانِه في الحُكْمِ، كما لو حالَ عدوٌّ بَيْنه وبَيْن الماءِ.

وفِيهـا: التواضـعُ لله بتعفيرِ الوجهِ، والكفَّيْن، بالترابِ، وأنَّ ذلـك ليسَ قَذَرًا، يُتنزَّه عنه، وليـس المُـرادُ غَمْرَ الوجهِ بالترابِ، بـل قد وردَ نفضُ اليدَيْن بعـدَ ضربِهما بالأرضِ، وقَبْل مسحِ الوجهِ(١).

وفِيها: التَّيمُّمُ عندَ خشيةِ الضَّررِ مِنَ استعمالِ الماءِ، كما في بعضِ القُرُوحِ، وأمراضِ الجِلدِ، وكما يكونُ في البردِ الشَّـديدِ في السَّـفرِ، ولا يَقدِرُ على تَسـخينِ الماءِ، أو كانَ لا يُوجدُ مَعَه إلا ما يَكفِيهِ للشُّربِ، أو لَمْ يجدِ الماءَ، إلا بثمنٍ باهظٍ، ونَحْو ذلِك.

ولَـمَّـا ذَكَـر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بعضَ أحـوالِ الكفَّارِ في الآخـرةِ، وذَكَر تخفيفَه عنْ هـذه الأمَّةِ، في بعـضِ أحـكامِ الدنيا، أَتْبَعَ ذلـك عَزَّوَجَلَّ بذِكْرِ بعضِ أحـوالِ الكفَّارِ في الدُّنيـا، مِنْ أصحابِ

---

(١) في حديـثِ عـمارٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في التيممِ: «**إنَّما كانَ يَكْفِيكَ هَكَذا**» فَضَربَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِكَفَّيْهِ الأَرْضَ، وَنَفَخَ فِيهِما، ثُمَّ مَسَـحَ بِهِما وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ. رواه البخاري (٣٣٨)، ومسـلم (٣٦٨). وفي رواية للبخاري: «**إنَّما كانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذا**» فَضَرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَها، ثُمَّ مَسَحَ بِهِما ظَهْرَ كَفِّهِ بِشِمالِهِ، أَوْ ظَهْرَ شِمالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِما وَجْهَهُ. وجمعَ ابنُ خُزيمةَ في رِوايتِه بين النفضِ، والنفخِ، فجاءَ فيها (٢٦٩): «**إنَّما كانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذا، وَهَكَذا**» وَضَرَبَ بِيَدَيْهِ إلى التُّرابِ، ثُمَّ نَفَضَهُما، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِما وَمَسَـحَ بِهِما وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ. وبَوّبَ لَه: «بابُ نَفْضِ اليَدَيْنِ مِنَ التُّرابِ، بَعْدَ ضَرْبِهِما عَلَى الأَرْضِ، قَبْلَ النَّفْخِ فِيهِما، وَقَبْلَ مَسْحِ الوَجْهِ واليَدَيْنِ لِلتَّيَمُّمِ».

الآصارِ، والأغلالِ، وما كادُوا به المسلمينَ، وحسَدُوهم، وسلَكوا السُّبلَ في عَداوتِهم، فقال عَزَّوَجَلَّ -مُبيِّنًا حالَهم، ومحذِّرًا عبادَه المؤمنين مِنْهم-:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: استفهامُ تعجّبٍ، وتَنْبيهٍ، والمخاطبُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُؤمنون ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهمُ اليهودُ، الذين حرَّفوا كتابَهم، وتركوا أحكامَ دينِهم، والنَّصيبُ: هو الحَظُّ، والحِصَّةُ مِنَ الشيءِ ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يُحِبُّونَ ويَختارُونَ لأنفسِهم ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ البقاءَ على اليَهوديَّةِ، وعدمَ الإيمانِ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بالكِتمانِ، والمؤامراتِ، وإثارةِ الشُّبهاتِ، ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ، وتنحرِفوا، وتُخطِئُوا ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: طريقَ الحقِّ، فتكونُوا مثلَهم في الكفرِ، وهذا كقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مِنْكم يا أيُّها المؤمنون ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ مِنَ اليهودِ، والمنافِقِينَ، وغيرِهم، بصيرٌ بحالِهم، وكَيدِهم، ومَكرِهم، فيُبيِّنُ لكم ذلكَ؛ لِتَحذَروا مِنْهم، ولا تَتأثَّروا بمخالَطَتِهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ مُتصرِّفًا فيكم، ومُتولِّيًا لأمُورِكم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ يَنصُرُ مَنْ لَجَأَ إليه، ويُعِينُكم على أعدائِكم، فثِقُوا به.

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

حَسَدُ اليهودِ للمؤمنينَ على فضلِ دينِ الإسلامِ، وتيسيرِ العبادةِ والأحكامِ فيهِ، وذِكْرُ المقابلةِ بَيْن أحوالِ الكفارِ في الآخرةِ، وأحوالِهم في الدُّنيا.

وفيهما: توضيحُ حالِ أعداءِ المؤمنينَ مِنَ اليهودِ، وغيرِهم؛ لأخذِ الحَيطَةِ، والحَذَرِ، وعدمِ التشبُّه بهم، والسَّيرِ على مِنْوالِهم.

وفيهما: ذِكْرُ اللهِ لأحوالِ الأممِ؛ موعظةً لعبادِه المؤمنينَ، وتعليمًا، وعِبرةً، وتَفهيمًا.

وفيهما: اطِّلاعُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أحوالِ السَّابقينَ، واللَّاحقينَ، وعُقوبةُ اللهِ لِمَنْ أعرَضَ عنْ أحكامِ دينِه، وأَنَّ اطِّلاعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى أَعْداءِ المُسلمينَ يُريحُ أَهْلَ الإيمانِ؛ بِتوكُّلِهِمْ عَلَى اللهِ.

وفيهما: التَّحذيرُ مِنْ تولِّي الكُفَّارِ، وخُطورةُ تقديمِ الضَّلالةِ على الهِدايةِ، وشَناعةُ التَّكذيبِ بمحمدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكتمانِ أمرِه.

وفيهما: أنَّ الكفارَ لهم قصدٌ، وإرادةٌ، وعملٌ، وسعيٌ، في إضلالِ المسلمينَ، وحَرْفِهم عن سَواءِ السَّبيلِ، وطَريقِ الحقِّ.

وفيهما: التَّحذيرُ مِنَ الفَرَحِ بالشَّرِّ، وتقديمِ الباطِلِ على الحقِّ، كما يُفيدُه التعبيرُ بالشِّراءِ، الدالُّ على التَّفضيلِ، والاختِيارِ.

وفيهما: أنَّ اليهودَ ضيَّعوا كثيرًا مِنْ كتابِهم، وأحكامِ ربِّهم، كما يدلُّ عليه التعبيرُ بقولِه: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ فلمْ يحفَظُوا كتابَهم كلَّه؛ ففقَدُوا بعضَه، وحَرَّفوا بَعضَه، وزادُوا، ونَقَصُوا.

وفيهما: عدمُ الانخِداعِ بظاهِرِ الكفَّارِ.

وفيهما: رحمةُ اللهِ بالمؤمنينَ؛ بتولِّيهِ أمورَهم، ونُصرتِهم على أعدائِهم.

وفيهما: الاستِنْصارُ باللهِ، لا بغيرِه، وتركُ الاستِعانةِ بأعدائِه، واللُّجوءُ إليهِ وحدَه، وأنَّ نُصرةَ الله كافيةٌ، ومَنْ نالَها فليْسَ بحاجةٍ إلى غيرِ اللهِ.

وفيهما: أنَّ اللهَ لَمَّا ذَكَر لِهذِه الأُمَّةِ شيئًا مِنْ أحكامِ دينِه، أتبَعَ ذلك بذِكْرِ حالِ مَنْ قَصَّروا في الأحكامِ، والعملِ بها؛ لِئَلا يَسلُكُوا مَسْلَكَهم.

وفيهما: أنَّ أسوأَ النَّاس حالًا: مَنْ جَمَعَ بَيْن الضَّلالِ، والإضلالِ.

وفيهما: أنَّ كلَّ مَنْ أَضَلَّ عَنِ السَّبيلِ، فهو عدوٌّ.

وفيهما: التأكيدُ علَى حِمايةِ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لعبادِه، وإبعادِ الضَّررِ عَنْهم؛ كما دَلَّ عليهِ تَكْرارُ قولِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾.

وفيهما: قدرةُ اللهِ العظيمةُ في وقايةِ أوليائِه، والدِّفاعِ عنْهم.

وفيهما: أنَّه يَجبُ على المسلمينَ -في عالَمِ العَداواتِ المُتَشابِكَةِ- أنْ يترُكُوا الاستِنصارَ بأعدائِهم، واللُّجوءَ إليهِم، واستِرْضاءَهم، وأنْ يَكْتفُوا بالاستِنصارِ باللهِ، وتولِّيه، واللُّجوءِ إليهِ.

وفيهما: ذمُّ أحْبارِ اليهودِ، ومَنْ سارَ على طَريقَتِهم، في أخذِ المالِ للإفتاءِ، والقولِ بما يَهواه النَّاسُ، ويَشتَهونَه، وكَتمِ الحَقِّ، ومُمالأةِ الحُكَّامِ بِالباطِلِ.

وفيهما: إرشادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنينَ إلى ما فِيهِ خَيرُهم، وفلاحُهم، وقوَّتهم، وتفوُّقُهم على عدوِّهِم.

وفيهما: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤتَى الكتابَ والعِلمَ، ولكنَّه لا يَعملُ بِه.

وفيهما: أنَّ مَن لا يَنتفِعُ بعلمِه، فهو شبيهٌ بهؤلاءِ اليهودِ، ويَكونُ علمُه حُجَّةً عليه.

وفيهما: حبُّ اليَهودِ للضَّلالةِ، وسَعيُهم في تَحصِيلِها.

وفيهما: أنَّ اليهودَ -وكذلك النَّصارَى- لا يُريدونَ لنا الخَيرَ أبدًا.

وفيهما: أنَّ تاريخَ المسلمينَ لا يَخْلُو مِنْ أعداءٍ، واستِصحابُ هذِهِ الحقيقةِ، يؤدِّي إلى أخذِ الحَيْطَةِ والحَذَرِ، دائمًا.

ثُمَّ ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَزيدًا مِن حالِ اليَهودِ في تَضييعِ كتابِ ربِّهم، وأنَّهم أضافُوا إلى الكِتمانِ، والجَحْدِ: التَّحريفَ، والتَّبديلَ، وهو مِنْ شِراءِ الضَّلالةِ -أيضًا-، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: طائِفة مِنَ اليهودِ، ومعنى هادُوا: أي: رجَعُوا، وتابُوا، قيل: مِنْ عبادةِ العِجْلِ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يُبدِّلونَ، ويُغيِّرونَ، والتَّحرِيفُ نَوْعانِ: تَحريفُ لَفظٍ: وهو تَغييرُ الكَلامِ، والزِّيادةُ، والنَّقصُ فيه. وتحريفُ معنًى: وهو تفسيرُ كَلامِ اللهِ، على غيرِ مُرادِ اللهِ.

﴿ٱلْكَلِمَ﴾ أي: كلامَ اللهِ في التوراةِ، والكَلِمُ: جمعُ كَلِمةٍ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: هَيئتِه كما أنزلَه اللهُ، ومثالُ ذلك: تحريفُ الرَّجمِ في الزِّنا إلى الجَلْدِ، وتسويدِ الوَجهِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ خالَفْنا أمرَك؛ وذلِكَ عِنادًا، واستخفافًا، وقِيلَ: يَقولُون في الظَّاهِرِ ﴿سَمِعْنَا﴾ أي: أمرَك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أي: غيرَك، وقَصْدُهم في

الحَقيقـةِ: سَـمِعناكَ، وفَهِمنـاكَ، وعَصَيْنـاكَ، ورَفَضْناكَ ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسـمَعْ ما نَقولُ، لا سَـمِعْتَ، وهذا دعـاءٌ بالصَّمَمِ، أو المَوتِ، فيقولونَ كلامًـا ذا وَجهَيْنِ، يَحتمِلُ الخيرَ، والشرَّ، فظاهِرُه: اسْـمَعْ كلامَنا، ولَن تَسـمعَ مِنَّا مَكرُوهًا، وباطِنُه: اسـمَع كلامَنا، لا سَـمِعت جوابًا، ولا صوتًا، فهو دعاءٌ مِنْهم علَيه بالمَوتِ، أو بذَهابِ سَمْعِه- عليهِم لعائِنُ اللهِ المُتتابعةُ إلَى يَومِ القِيامةِ -.

ومِنْ أمثلةِ كلامِهم ذي الوجهَيْنِ -أيضًا-: قولُهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ مِنَ المُراعاةِ، أي: اصْرِفْ سَـمْعَكَ إلينـا، وأَنْصِتْ إلى حديثِنا، وهذا هو الظَّاهرُ الـذي لا يَقصِدونَه، وأمَّا مَحملُ الشَّرِّ، والذمِّ، الذي قَصَدوه: فهو السَّـبُّ بالرُّعُونـةِ، والحُمقِ، وكلُّ هذا يَفعلونَه ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ وفَتلًا لها، يَميلُونَ بها عنِ الحَقِّ، والمَدحِ، إلى الباطِلِ، والذمِّ، وأصلُ الكَلِمةِ لَوْيًا، فأُدغِمتِ الواوُ في الياءِ[1].

﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ بشَـتمِهمُ النبيَّ ﷺ، والاسـتِهزاءِ، والسُّـخريةِ به، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ بدلًا مِنْ كُفرِهم، وشَتمِهم ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرَك ﴿وَٱسْمَعْ﴾ مِنَّا ما نقولُ ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ أي: انظُرْ إلينا، وأمْهِلْنا، وانتظِرنا؛ حتَّى نَفهَم عنكَ ما تقولُ، واستعمَلُوا الألفاظَ الواضحـةَ، السَّـليمةَ، الصحيحـةَ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عنـدَ اللهِ ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: أصْـوبَ، وأعْدلَ، مِمَّا قالُوه مِنَ السَّـبِّ، والطَّعـنِ. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طَرَدَهم، وأبْعَدَهم، عن رحمتِه ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسـببِ كُفرِهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فصارَ إيمانُهم نادرًا، ويسيرًا، لا يُعتدُّ به، قيل: لا يُؤمنُ مِنْهم إلا القليلُ، كعبدِاللهِ بنِ سلامٍ رضي الله عنه، وقِيلَ: لا يُؤمنونَ إلا زَمنًا قليـلًا، وهـو زَمنُ الاحتِضارِ، وقيل: لا يُؤمنونَ إلا بِشيءٍ قليلٍ، مِمَّا جاءَ بِه النَّبيُّ ﷺ، كبعضِ محاسِنِ الأخلاقِ، والآدابِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ تحريفَ اليهودِ لكلامِ اللهِ، ليسَ عنْ جَهْلٍ، وسَهْوٍ، وإنَّما هو عَن قصدٍ، وعَمدٍ، وافتِراءٍ.

وفِيها: أنَّهم يُحرِّفون كلامَ اللهِ مِنْ بَعدِ ما عَقَلُوه، وفَهِمُوه، لا جَهلًا، ولا خَبطَ عَشْواءَ.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٤٣).

وفِيها: أنَّ الاستهزاءَ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرٌ؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بَعد ذِكرِ أعمالِهم، والتي منْها ذلِك.

وفِيها: أنَّ قلوبَ اليَهودِ مطرودةٌ عنِ الخيرِ، بعيدةٌ عنه، فلا يَدخُلُها شيءٌ مِنَ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ بعضَ الإيمانِ لا يَنفعُ صاحبَه، كالإيمانِ عندَ نزولِ المَوتِ.

وفِيها: أنَّه يَجبُ المُحافظَةُ على تَرتيبِ كلامِ اللهِ، ونَصِّه، ومَعناهُ.

وفِيها: خُطورةُ تَفسيرِ كلامِ اللهِ بغيرِ مُرادِه، وأن تَعمُّدَ ذلكَ يؤدِّي إلى الكُفرِ.

وفِيها: تأويلُ اليَهودِ لكلامِ اللهِ، بحَملِه على غيرِ ما وُضِعَ له، كتأويلِ البِشاراتِ بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحَملِها على شَخصٍ آخرَ، وزَعمِهم أنَّهم لا يزالونَ ينتظِرونَه إلى اليومِ، وهذا مِنْ تَحريفِ كلامِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ يسمَعونَ الحقَّ، ولا يقبَلونَه، وقد قيلَ في معنى قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمَعْ غيرَ مَقبولٍ مِنْك.

وفِيها: أنَّ الدُّعاءَ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرٌ عظيمٌ.

وفِيها: مَكرُ اليَهودِ، وخُبْثُهم، بإظهارِ ما لا يُريدونَ مِنَ المعروفِ، وإبطانِ الشَّرِّ، والمُنكرِ.

وفِيها: استِعمالُ اليَهودِ للألفاظِ المُوهِمةِ، والمُشكِلَةِ، والمُحتَملةِ، وما لا يَنتبِهُ له السامعُ أحيانًا، كقولِهم: «السَّامُ علَيكَ»أي: الموتُ، أو «السِّلام علَيكَ»بكسرِ السِّينِ، يعني: الحِجارةَ، وقيل: إنَّ المقصودَ بقولِه: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أي: كُنْ راعيًا لأغنامِنا، يَقصِدونَ الاحتقارَ، والازدِراءَ.

وفِيها: أنَّ اليهودَ لا يَزالُون يَطعَنونَ في دِينِ الإسلامِ صراحةً، وتَوريةً، وبإلقاءِ الشُّبهاتِ، مَعَ سيِّءِ المَقالاتِ.

وفِيها: خُبْثُ اليَهودِ في توجيهِ الشتائِمِ المُبطنةِ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قِيلَ: إنَّهم كانُوا يقولُون لأصحابِهم: «إنَّنا نَشتُمُه، وهو لا يُدرك ذلك، ولا يَفْهَمُه، ولو كانَ نبيًّا، لَعَرَفَ مُرادَنا، وأدْرَكَ قصدَنا»، فأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه على خُبثِ ضَمائِرِهم، وعَداوتِهم، وبُغْضِهم؛ كشفًا لِحالِهم، وردًّا عليهِم، وتَحذيرًا مِنْهم.

وفِيهـا: أنَّه ينبَغِي العُدولُ عـنِ الألفاظِ المُوهِمةِ، إلى الألفـاظِ الواضِحةِ، والاحتياطُ في انتقاءِ العبارةِ، ولو كانتْ النِّيَّةُ سَليمةً.

وفِيها: سَدُّ الذرائِعِ المؤدِّيةِ إلى الشَّرِّ، ومنعُ الكَلامِ الذي قد يُستعمَلُ في الباطِلِ، ولو كان له مَحمَلٌ صَحيحٌ.

وفِيها: أنَّ التواءَ اللِّسانِ يدلُّ على التواءِ القلْبِ.

وفِيها: أنَّ كلامَ اليهودِ يَنطَوِي علَى خُبثِ بَواطِنِهِم، وقد قيل: «إنَّهم كانُوا يُربُّونَ أولادَهم الصِّغارَ على ألفاظٍ يُخاطِبون بها المسلمينَ، ظاهرُها التَّوقيرُ، وحقيقتُها التَّحقيرُ».

وفِيهـا: وُجوبُ السَّـمعِ، والطاعةِ، لـربِّ العالَمِينَ، والجَمْـع بَيْن قَبولِ السَّـمعِ، وقَبولِ القلبِ.

وفِيها: طَلَبُ التَّمهّلِ مِنَ العالمِ في الإلقاءِ؛ حتى يحدُثَ الفَهْمُ، والاستيعابُ.

وفِيها: دِلالةُ اللهِ لعبادِه على الأصْوَبِ، والأعْدَلِ، والأحْوَطِ، والأحْسَنِ.

وفِيها: الحِرصُ على الأدَبِ في المَقالِ، واختيارِ الأَحْسَنِ مِنَ الألفاظِ، وتفكُّرِ الإنسانِ في الكلامِ، قَبْل أنْ يُخرجَه، والتَّروِّي فيه، قَبْل أنْ يَنطِقَه.

وفِيها: مُخالفةُ اليَهودِ لأمرِ اللهِ بالانقيادِ، والطَّاعةِ، وأنَّهم مَردوا على العِصيانِ، والمُخالَفةِ.

وفِيها: ذِكْرُ سـببٍ مِنْ أسـبابِ لَعنِ اليهودِ، وقد جَرَى لعنُهم في القرآنِ على أمورٍ كثيرةٍ، وبأسبابٍ متعدِّدةٍ.

وفِيهـا: أنَّ التَّصديـقَ ببعضِ ما جاءَ بـه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كالأمرِ بحُسـنِ الخُلُق، لا يُصـيِّرُ الإنسـانَ مُؤمِنًا، حتّـى يؤمِنَ بما جاءَ بهِ كلِّـه، وأن المُوافقةَ الجُزئِيَّـةَ لا تُنجِي مِنَ العذابِ.

وفِيها: نُدْرةُ مَنْ آمنَ مِنَ اليهودِ، وهذا مُشاهَدٌ عَبْر التَّاريخِ، مِنْ زمنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يومِنا هذا، فإنَّ عَدَدَ مَنْ آمنَ به مِنَ اليَهودِ في حَياتِه مِنْ أحبارِهم، وزعمائِهم، لمْ يبلُغْ عشرةً، مع أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنُ النَّاس دعوةً لهم، وتَبْيينًا، وإقناعًا.

وفِيها: أنَّ البَراعةَ في الشَّرِّ تُؤدِّي إلى مَزيدٍ مِنَ اللَّعنةِ، والعَذابِ.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ قد يُصرِّحونَ بالمعصيةِ العَلَنِيَّةِ، ولكنَّهم لا يَجترِئونَ على سبِّ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صراحةً؛ خشيةً مِنْ بَطْشِ المسلمينَ، وانتقامِهم، وإذا سبُّوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علانيةً، فإنَّما يَكونُ ذلك في حالِ قوَّتِهم، وضَعْفِ المُسلمينَ، كما وَقَعَ في زمانِنا هذا، بخلافِ ما كان عليه الأمرُ في المدينةِ، في العَهْدِ النبويِّ.

وفِيها: عدمُ حُسنِ الظَّنِّ باليَهودِ؛ لأنَّهم عدوٌّ يَكِيدُ.

وفِيها: سوءُ أدبِ اليَهودِ معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعِه.

وفِيها: خُطورةُ التَّحريفِ، وأنَّه يُؤدِّي إلى تضييعِ الحقِّ، وخفائِه، وتَضليلِ الأجيالِ القادِمةِ.

وفِيها: العَدلُ مَعَ الخُصومِ، والاقتِصارُ في نِسبةِ مُنكرِ بعضِهم إلى مَنْ فَعَلَه فقط، دونَ تعميمِه على الجَميعِ، وتَصِحُّ النسبةُ إلى الجميعِ، إذا رَضُوا بذلك.

وفِيها: دَعوةُ مُستكبِري الكفَّارِ؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ ...﴾.

وفِيها: الإرشادُ إلى البدائِلِ الطَّيِّبةِ عند تَحريمِ الخَبائِثِ.

وفِيها: أنَّ التَّعبيرَ بلفظةِ ﴿خَيْرًا﴾، ﴿وَأَقْوَمَ﴾ لا تعني -بالضرورةِ- وجودَ خيرٍ، واستقامةٍ، في الطَّرَفَيْنِ، أحدُهما أكثرُ مِنَ الآخرِ، فإنَّ قولَ اليَهودِ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ لا خيرَ فيهِ، ولا استقامةَ، البَتَّةَ، وهذا كقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤][(١)].

وفِيها: أنَّ الكفرَ سببٌ للَّعنِ، والطَّردِ، مِنْ رحمةِ اللهِ.

ثُمَّ دعا ربُّنا عَزَّ وَجَلَّ هؤلاءِ اليهودَ، وأهلَ الكتابِ، إلى الإيمانِ، والتَّصديقِ، بما أَنزلَ، وتهدَّدَهم، وتوعَّدَهم، إذا رفضُوا، بأنْ يُصيبَهم ما أصابَ أسلافَهم مِنَ اللَّعنِ، بالإضافةِ إلى عُقوبةِ طَمْسِ الوجهِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) وهذا مِن بابِ مجيءِ أفعل التّفضيل، للتّفضيلِ، لا للأفضليّة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كلَّم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤساءَ مِنْ أحبارِ يهودٍ، منهم: عبدُالله بنُ صُوريا، وكعبُ بنَ أسد، فقال لهم: «**يا معشرَ يهود، اتقوا اللهَ، وأسلِموا؛ فواللهِ إنَّكم لتعلَمونَ أنَّ الذي جئتُكم بهِ لَحقٌّ**»فقالوا: ما نَعرِف ذلك يا محمدُ. وجَحَدوا ما عَرَفوا، وأصَرُّوا على الكُفرِ، فأنزلَ اللهُ فيهم: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم** ...﴾ الآية»(١).

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ** ﴾: اليهودُ، والنصارى، الذين أوتوا التوراةَ، والإنجيلَ، ﴿**ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا**﴾ صدِّقوا، واتَّبِعوا القرآنَ الذي أنزلناه على محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم** ﴾ مُوافِقًا لِما في كُتبِكم مِنَ التَّوحيدِ، والوعدِ، والوعيدِ، والقَصَصِ، والأخبارِ، والأمرِ بمحاسنِ الأخلاقِ، والنَّهْيِ عنِ الفواحِشِ، والآثامِ، ومُوافقًا لِما في كُتبكم مِنَ التَّبشيرِ بمَبعثِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذِكرِ صِفاتِهِ ﴿**مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا** ﴾ نمحُوَ ما فيها مِنَ الحواسِّ، والمَعالِمِ، أو نُصيبَها بالعَمَى، كما قالَ اللهُ: ﴿ **وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ** ﴾ [يس: ٦٦]، أوْ نَصرفكم عنِ الحقِّ، ونَحُولَ بَيْنكم وبَيْنه. وقيل: نَسلبُ ما في وجوهِكم مِنَ الوجاهةِ، والإقبالِ، ونكسُوها الصَّغارَ، والإدبارَ، أو نجعلُ رؤساءَكم، ووجهاءَكم، أذنابًا، وسَفَلة.

وأصلُ الطَّمْسِ: المَحوُ، والإفسادُ، والتَّحويلُ، واستئصالُ أثَرِ الشيءِ. ﴿**فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ** ﴾ أي: فنجعلَ الوجهَ على هيئةِ القَفا، أو نُحوِّلَ الوجهَ إلى الخَلفِ، ونَجعلَ العَيْنَيْنِ في القَفا، فتمشُونَ القَهْقَرَى، أو تَرجِعونَ إلى الباطِلِ، فنَرُدّكم في الضَّلالةِ. وقيل: نُعيدكُم مِنْ أرضِ الحِجازِ إلى بلادِ الشامِ، التي جئتُم مِنْها، ونُجْلِيكم عنْ ديارِكم، وقيل: نَرُدّكم

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٤٦)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٧٣٦).

خاسرينَ إلى الوراءِ، بإظهارِ الإسلامِ عليكم. وقيل: إنَّ ذلك الطَّمْسَ، وتحويلَ الوجهِ إلى الخَلْف، يكونُ في الآخرةِ.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ فنطرُدَهم مِنْ رحمَتِنا ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾ وخذَلنا، وطَردنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ الذين اعتدَوْا، وخالفُوا ما نُهُوا عنه مِنْ صيدِ السَّمَكِ يومَ السبتِ؛ فمسخَهم اللهُ قردةً وخنازيرَ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: قضاؤُه نافذًا لا محالةَ، فلا رادَّ لحُكمِه، ولا ناقضَ لأمرِه.

وقد قيلَ: إنَّ كعبَ الأحبارِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أسلمَ حينَ سَمِع هذه الآيةَ، فروَى ابنُ جَريرٍ عن إبراهيمَ التّيميّ، قال: «أسلمَ كعبٌ في زمانِ عمرَ، أقبلَ وهو يريدُ بيتَ المقدسِ، فمرَّ على المدينةِ، فخرجَ إليه عمرُ، فقال: يا كعبُ، أسلِم، فقال: ألستُم تقرؤونَ في كتابِكم ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ وأنا قد حَمَلتُ التوراةَ، قال فتركَه عمرُ، ثُمَّ خرجَ -أي: كعبُ- حتَّى انتهى إلى حِمْص، فسَمِعَ رجلًا مِنْ أهلِها وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ...﴾ الآية، فقال كعبُ: يا ربِّ، آمنتُ، يا ربِّ، أسلَمْتُ؛ مخافةَ أن تصيبَه هذه الآية، ثُمَّ رجعَ، فأتى أهلَه في اليمنِ، ثُمَّ جاءَ بهم مسلمينَ»[١].

وفي روايةٍ من وجْهٍ آخر، قال: «فبادرتُ الماءَ، فاغتسلتُ، وإنِّي لأمسَحُ وجهِي؛ مخافةَ أنْ يُطمَسَ، ثُمَّ أسلَمْتُ»[٢].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وعيدُ اللهِ للمكذِّبينَ بالحقِّ بعَمَى البَصَرِ، وعَمَى البَصِيرة.

وفِيها: أنَّ تهديدَ اليهودِ بالطَّمسِ، واللَّعنِ، باقٍ، وقد يَحْدُثُ فيهم قَبْلَ قيامِ السَّاعةِ.

وفِيها: التَّعذيبُ، والوعيدُ، بقُبْحِ المنظَرِ، وانعِدامِ النَّظَرِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أعرَضَ عنِ الحقِّ، صَرَفَه اللهُ إلى الباطِلِ، فلا يَرَى طريقَ الهُدَى، ولا يُميِّزُه.

---

(١) تفسير الطبريّ (٨/ ٤٤٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٦٩).

وفِيها: أنَّ كُتُبَ اللهِ المُنزّلةَ يُصدِّقُ بعضُها بعضًا.

وفِيها: اشتراكُ كُتُبِ اللهِ في القواعِدِ، والأُصُولِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُعينُ عبادَه على اتّباعِ الحقِّ، بِذِكْر معالِمِه، والآياتِ الدَّالةِ عليهِ.

وفِيها: أنَّ المكانةَ العِلميَّةَ، والدِّينيةَ، والوجاهيَّةَ، يُمكنُ أنْ تُسلَبَ بسببِ الإعراضِ عنِ الحقِّ، وأنَّ الإصْرارَ على الضَّلالِ سببٌ لزوالِ النّعمِ، بَلْ وللجَلاءِ عنِ الدِّيارِ؛ فإنَّ يهودَ الحِجازِ لَمَّا رفضُوا الحَقَّ، وحاربُوا أهلَه، أخرَجَهُم اللهُ مِنْ ديارِهم، وقُراهُم، وتمَّ إجلاؤُهم عنْ جزيرةِ العربِ بالكُلِّيَّةِ.

وفِيها: وعْظُ اللهِ الآخِرينَ، بما أنزلَ مِنَ العَذابِ في الأوَّلينَ، وأنَّ اللهَ جعلَ اليَهودَ السَّابِقينَ -مِنْ أصحابِ السَّبتِ- نَكالًا لِمَنْ بَعدهم، وقد قيل: إنَّهم كانُوا سُكَّانَ بلدةِ «أيْلَة» على البَحرِ.

وفِيها: أنَّ الامتِناعَ عنْ قَبولِ الحَقِّ؛ يُؤدِّي إلى ذَهابِ العِزَّةِ، وحُلولِ الصَّغارِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ إذا أنزلَ بقومٍ قضاءً، فلا مَرَدَّ لَهُ.

وفِيها: جَرَيانُ عاداتِ اللهِ في عبادِه، وأنَّه لا يَتَعذَّرُ عليه شيءٌ يُريدُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفِيها: إلزامُ النَّاسِ بالعملِ بما عَرَفُوه مِنَ الحَقِّ.

وفِيها: دَعوةُ أهلِ الكتابِ إلى الإيمانِ، والجَمعُ في ذلك بَيْن الترغيبِ، والترهيبِ.

وفِيها: أنَّ صاحبَ العِلمِ أقربُ إلى الهدايةِ، فإذا عانَدَ صارَ عِلمُه وبالًا عليه.

وفِيها: قَطعُ حُجَّةِ الكفَّارِ، والمخالفينَ، وإفحامُهم.

وفِيها: وُجوبُ تعجيلِ التَّوبةِ، والعودةِ إلى الحقِّ، قبل نزولِ العَذابِ.

وفِيها: رَدْعُ العُصاةِ بِذِكْر العُقوباتِ.

وفِيها: أنَّ أمرَ اللهِ الكونيَّ لابُدَّ أنْ يقعَ، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ متى أرادَ أوْجَدَ، وأمَّا أمرُه الشَّرعيُّ: فيمتثِل له مَنْ يَهتَدِي، ويَتولَّى عنه، ويخالِفُه، مَنْ ضَلَّ.

وفِيهـا: تأكيـدُ التَّهديـدِ لأصحـابِ النُّفوسِ المُسـتعصِيةِ، فلمَّـا تَهدَّدَ بعقوبـةِ الطَّمْسِ، واللَّعـنِ، أَكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا**﴾ وهذا مُناسـبٌ لدعوةِ اليهودِ، أصحابِ النفوسِ المتمنّعةِ، والقلوبِ المغلَّفةِ.

وفي الآيةِ: أنَّ الجزاءَ مِنْ جِنسِ العَملِ، فمَنْ طَمَسَ الحَقَّ، وقَلَبَه، يوشِكُ اللهُ أنْ يَطمِسَ وجهَه، ويُحوِّلَه.

وفِيهـا: إثبـاتُ عُلـوِّ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأنَّ القرآنَ منزّلٌ مِنْ عندِه، غيرُ مخلـوقٍ، وأنَّ القرآنَ يشهدُ للكتبِ السابقةِ بالصِّدقِ.

وفِيهـا: تَحاشِي التَّعبـيرِ بالمُواجهةِ عندَ دَعوةِ الخُصومِ؛ تأليفًـا لقلُوبِهم، فقد قال: ﴿**مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا**﴾ ولَمْ يَقُلْ: وُجُوهَكم، وقال: ﴿**أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ**﴾ ولَمْ يَقُلْ: نَلْعَنَكم، مَعَ أنَّه خاطَبَهم في أوَّلِ الآيةِ مباشرةً، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾.

وفِيهـا: تعظيـمُ اللهِ لنفسِـه، بذِكْـرِ لفظِ صِيغـةِ الجَمْعِ الدَّالـةِ على العَظَمةِ، كـما في قولِه: «**نَطْمِسَ، نَرُدَّ، نَلْعَنَ**»، ومقامُ التهديدِ يقتضِي ذِكْرَ عَظَمةِ المُهدِّدِ.

وفِيها: لَفْتُ الانتباهِ بتغييرِ الأسلوبِ، مِنَ الخِطابِ، إلى الغَيْبةِ.

وفِيها: وُجوبُ استِجابةِ أتباعِ الأنبياءِ السَّابقينَ، لنبيِّنا محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفِيهـا: التَّنويـعُ في مخاطبةِ أهلِ الكتابِ، فكَما ذمَّهم على ما بدَّلـوا، وحرَّفوا، فقد دعاهُم للالتزامِ بما بَقِيَ مِمَّا عَرَفُوا.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ أَبْقَـى في كُتُبِ أهلِ الكتـابِ -مع تَحريفِهم لَهَا- إشـاراتٍ، يَهتدون بها إلى الحقِّ.

وفِيها: الجَمْعُ في دَعوةِ المُعانِدينَ بَيْن وَعيدِ الدُّنيا، ووعِيدِ الآخِرة، فقد قِيلَ: إنَّ الطَّمْسَ سيكونُ لهم عُقوبةً يومَ القيامةِ، بالإضافةِ لِما حصَلَ لهم مِن العُقُوبةِ في الدُّنيا.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ قـادرٌ على مَحوِ تَخطيطِ صُورةِ الوجهِ مِنْ عَيْنٍ، وحاجبٍ، وأنْفٍ، وفَمٍ، وأنَّ قلبَ الخِلقةِ شديدٌ على النَّفسِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ عذابِ النَّفسِ: أنْ تُخالِفَ المَألوفَ، وتَمشِيَ، وتَنظرَ، بالمعكوسِ، والمقلوبِ.

وفِيها: كَمالُ الخِلقةِ، التي خلقَ اللهُ الإنسانَ عليها، وأنَّ تغييرَ الخِلقةِ عن المُعتادِ، يُؤدِّي إلى عواقبَ وخيمةٍ، بما يُحدِثُ مِنَ الاضطرابِ، ومُخالفةِ عادةِ النَّاسِ.

وفِيها: أنَّ مُعاندةَ الحقِّ تُؤدِّي إلى القُبحِ الحِسيِّ، والمَعنويِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُخيِّبُ مساعِيَ الكُفَّارِ، بانعِكاسِ مقاصِدِهم.

وفِيها: الانطِلاقُ في دَعوةِ الكفَّارِ مِمَّا لديهم، ومِمَّا يَعرِفُونه.

ولَمَّا كان اليهودُ يُشرِكونَ باللهِ -باتِّخاذِهم عُزَيْرًا ابنًا له، وباتّباعِ أحْبارِهم، فيما يَأمُرونَهم بِه مِنْ شِركِ الطَّاعةِ، بتحليلِ الحَرامِ، وتَحريمِ الحَلالِ-: فقد وعَظَهمُ اللهُ، ووعَظَ غيرَهم، بأنَّه لا يَغْفِرُ الشِّركَ أبدًا، فقالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لعبدٍ لَقِيَه بالشِّركِ، ماتَ عليه بلا توبةٍ، ولا إيمانٍ ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ مِنَ الذُّنوبِ، والمعاصِي، الصَّغائرِ، والكبائرِ؛ تفضّلًا مِنْه، وإحسانًا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِنْ عبادِه المُذنِبينَ ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ بأيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الشِّركِ ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ افْتعَلَ، واخْتلَقَ ﴿إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ كبيرًا، عظيمَ الضَّررِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

خُطورةُ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ لا يَغفِرُه بلا توبةٍ، وأنَّ جَميعَ أنواعِ الشِّركِ عندَ اللهِ ظُلمٌ عظيمٌ، سَواءٌ كانَ شِركًا في الرُّبوبيَّةِ، أو شِركًا في الإلهيَّةِ، أو شِركًا في الأسماءِ، والصِّفاتِ، ويَدخُلُ في ذلكَ: جَحْدُ وجودِ اللهِ بالكُلِّيَّةِ، أو إثباتُ آلهةٍ غيرِ اللهِ، كشِركِ المَجوسِ، أو شِركِ التَّبعِيضِ، كزَعْمِ النَّصارَى أنَّ الإلهَ مُركَّبٌ مِنْ ثلاثةٍ، وكذلك شِركُ التَّقريبِ، الذي كان يَفعلُه أهلُ الجاهليَّةِ، بصَرفِ أنواعٍ مِنَ العبادةِ، لِمَنْ يزعمونَ أنَّهم يُقرِّبونَهم إلى اللهِ، وكذلك شِركُ التَّقليدِ، كعبادةِ غيرِ اللهِ تَبعًا للغيرِ، وشِركُ الحُكمِ، وطاعةِ غيرِ اللهِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ،

وشِرك الأسـباب، وهو مِنْ شِركِ الرُّبوبيَّةِ، وفيهِ إسنادُ التَّأثيرِ إلى الطَّبيعةِ، وما فيها، والزَّعمُ أنَّهـا تخلُقُ، وتُفنِي، وتنفَـعُ، وتضُرُّ، ونحو ذلك، وشِركُ الأغراضِ، الـذي يكونُ العَملُ فِيهِ لغيرِ وجهِ اللهِ؛ رياءً، وسُمعةً.

وفِيها: أنَّ الشِّركَ لا يَنفعُ معه أيُّ عَملٍ مِنْ أعمالِ البرِّ؛ وذلك أنَّ التوحيدَ أصلُ الأعمالِ، وأساسُها، فإذا زالَ: سَقَطَتِ الأعمالُ.

وفِيها: أنَّ المُوحِّدينَ لا تَهبِطُ بهم الذُّنوبُ إلى الحضِيضِ الذي تَهْوِي إليه أرواحُ المشرِكِينَ.

وفِيهـا: أنَّ جَميعَ أنواعِ المَعاصِي -القوليَّةِ، والفِعليَّـةِ -ما دُون الشِّركِ باللهِ- داخلةٌ تحتَ مشيئتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المغفرةِ.

وفِيها: أنَّ الشِّركَ يُفسِدُ النُّفوسَ إفسادًا كُلِّيًّا، يَستلزِمُ عقابَها.

وفِيهـا: فَضـلُ التَّوحيـدِ، وأنَّ صاحبَه لا يُخلَّـدُ في النَّارِ، بلْ يَكونُ مصـيرُه إلى الجنَّةِ، وإنْ أصابَـه قَبْل ذلك مـا أصابَه مِنَ العذابِ، كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِنْ عبدٍ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ثُـمَّ مـاتَ عَلَى ذَلكَ، إلا دَخَلَ الجنَّةَ، وإنْ زَنا، وإنْ سَرَقَ**»[١]، وفي روايةٍ: «**أنَّ جبريلَ أتى النَّبِـيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقـالَ: مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشرِك باللهِ شـيئًا، دَخَلَ الجنَّـةَ، وإنْ زَنا، وإنْ سَرَق**»[٢].

وفِيها: أنَّ نَفيَ الشِّركِ، وتَحقيقَ التوحيدِ، سببٌ لمغفرةِ الذُّنوبِ، وقد جاءَ رَجلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ما تركتُ حاجةً، ولا داجَّةً[٣] إلا قد أتَيْتُ، قال: «**تشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ؟**»قال: بَلَى، قال: «**فإنَّ هذا يَأتِي على ذلكَ**»[٤].

وفي الآيةِ: سَـعةُ مغفرةِ اللهِ، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفرُ لَمنْ يشاءُ، فمَنْ حَجرَها عنْ مُوحِّدٍ فويلٌ له، فعَنْ ضَمْضَم بْنِ جَوْسٍ اليَمامِيِّ، قالَ: قالَ لِي أَبوهُرَيرَةَ: يا يَمامِيُّ، لا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ أَبَدًا. قُلْتُ: يا أَبا هُرَيْرَةَ، إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُها أَحَدُنا

---

(١) رواه البخاريّ (٥٨٢٧)، مسلم (٩٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤).

(٣) أي: ما تَركْتُ شَيْئًا دَعَتْنِي نَفْسِي إِلَيْهِ مِنَ المَعاصِي إلاَّ وَقَد ركِبْتُه. النهاية (١/ ٤٥٧).

(٤) رواه البزار (٦٨٨٧)، وأبو يعلى (٣٤٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٣): «رجاله ثقات».

لِأَخِيهِ وَصاحِبِهِ إذا غَضِبَ. قالَ: فَلا تَقُلْها؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**كانَ في بَنِي إِسْرائِيلَ رَجُلانِ، كانَ أَحَدُهُما مُجْتَهِدًا في العِبادَةِ، وَكانَ الآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ، فَكانا مُتَآخِيَيْنِ، فَكانَ المُجْتَهِدُ لا يَزالُ يَرَى الآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ، فَيَقُولُ: يا هَذا، أَقْصِرْ. فَيَقُولُ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟**» قالَ: «**إِلى أَنْ رَآهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقالَ لَهُ: وَيْحَكَ، أَقْصِرْ! قالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟**» قالَ: «**فَقالَ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ**» أَوْ «**لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ أَبَدًا**» -قالَ أَحَدُهُما- قالَ: «**فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِما مَلَكًا، فَقَبَضَ أَرْواحَهُما، واجْتَمَعا عِنْدَهُ، فَقالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. وَقالَ لِلْآخَرِ: أَكُنْتَ بِي عالِمًا؟! أَكُنْتَ عَلَى ما في يَدِي قادِرًا؟! اذْهَبُوا بِهِ إِلى النَّارِ**».

قالَ: «**فَوَ الَّذِي نَفْسُ أَبِي القاسِمِ بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْياهُ وَآخِرَتَهُ**»[(١)].

وفي الآيةِ: أنَّ مَنْ لَقِيَ اللهَ كافرًا فهو محجوبٌ عَن رحمتِه، ومغفرتِه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كافِرًا، أَوِ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**»[(٢)].

وفِيها: أنَّ المُشرِكَ محرومٌ مِنَ الجنَّةِ، مقطوعٌ له بالنَّارِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢]، وكذلك قال في الرِّزقِ الحَسَنِ، والماءِ، في الآخرَةِ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٠].

وفِيها: أنَّ اجتِنابَ جَميعِ أنواعِ الشِّركِ الأكبرِ، والأصغرِ، والخَفيِّ، يَحصُل به نَيْلُ مَغفرةِ اللهِ العظيمةِ، كما قال في الحديثِ القدسيِّ: «**وَمَنْ لَقِيَنِي بقُرابِ الأرضِ[(٣)] خطيئةً، لا يُشرِكُ بي شيئًا، لقيتُه بمثلِها مَغفرةً**»[(٤)].

وفي الآيةِ: أنَّ أهلَ التَّوحيدِ لا يَيْأسُونَ مِنْ رحمةِ اللهِ ومغْفرتِه.

---

(١) رواه أحمد (٨٢٩٢)، وحسنه محققو المسند. وله شاهد بمعناه عند مسلم (٢٦٢١) من حديث جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمد (١٦٩٠٧)، وصححه محققو المسند.

(٣) أيْ: بما يُقارِب مِلأها.

(٤) رواه مسلم (٢٦٨٧).

وفِيها: أنَّ الشِّركَ تُستَصْغَرُ في جَنْبِ عَظَمتِه جَميعُ الذُّنوبِ والآثامِ.

وفِيها: إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِنْها: المَشيئةُ، وكلُّ أفعالِه صادرةٌ عن حِكمتِه عَزَّ وَجَلَّ.

وفِيها: ردٌّ على المُفرِّطينَ المُصِرِّينَ، الذين يَحتجُّونَ بمَغفرةِ اللهِ، فيُقالُ لهُمْ: إنَّها ليستْ لِكلِّ أحَدٍ، ولكنَّها لِمَنْ يَشاءُ اللهُ، وما أدْراكُم أنَّها ستَشْمَلُكُمْ؟

وفِيها: وُجوبُ التَّوحيدِ، وأنَّه أعظَمُ مَعروفٍ، وتَحريمُ الشِّركِ، وأنَّه أعظَمُ مُنكَرٍ.

وفِيها: أنَّ أعظَمَ الكَذِبِ، والافتراءِ على اللهِ، هو: الكفرُ، والشِّركُ به.

وفِيها: خُطورةُ الشِّركِ الأصغَرِ، والخفيِّ، وعدمُ الاستِهانةِ بِهِما، وقال كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ: «إنَّهما لا يُغفَرانِ إلا بتوبةٍ، ولا يدخُلانِ تحتَ المشيئةِ»، فهما أسوأُ مِنَ الكبائرِ، مِنْ هذه الجِهةِ.

وفِيها: تَعليقُ المُؤْمنِ بِما يُرْتَجَى مِنْ مَغفرةِ اللهِ، بَعد تَخويفِه مِنَ الشِّركِ؛ ليَحذَرَ هذا، ويَلتَمِسَ تِلك.

وفِيها: أنَّ المُشرِكَ لا يَستفيدُ مِنْ حَسَناتِه، ولا مِنْ دُعاءِ غيرِه، ولا مِنَ المَصائبِ التي تَنزِلُ به، بَيْنما يَستفيدُ المُوحِّدُ مِنْ ذلك كلِّه، في مَغفرةِ ذنُوبِه، وزيادةِ حسناتِه.

وفي الآيةِ: ردٌّ على المُعتزلةِ، والخوارجِ، القائِلينَ بِتَخليدِ أصحابِ الكَبائرِ في النَّارِ، ولو كانُوا موحِّدينَ؛ وذلك بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وفِيها: ردٌّ على المُرجِئَةِ، الذينَ يَقولونَ: لا يَضُرُّ مَعَ الإيمانِ ذَنبٌ، وأنَّ المُؤْمِنَ لا يُعذَّبُ؛ وذلك بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فالمَغفرةُ لِقَومٍ دونَ قَومٍ، فيَنْجو أُناسٌ، ويَهلَكُ آخرونَ.

وفِيها: الرَّدُّ على المُتساهِلينَ المُفرِّطِينَ، الذين يُطَمْئِنونَ النَّاسَ، بلا ذِكْرِ التَّخْويفِ مِنَ اللهِ، وعذابِه، ووعيدِه، فيَقْتَصِرونَ على التَّبشيرِ دونَ الإنذارِ، وعلى الوَعدِ دونَ الوعيدِ، وعلى التَّرغيبِ دون التَّرهيبِ، وهذا انحرافٌ في الدَّعوةِ، وتَملُّقٌ للعصاةِ، وسُكوتٌ عنْ أمورٍ مِنَ الدِّينِ؛ طَمَعًا في الجاهِ عندَ النَّاسِ، أو غيْرِ ذلِك.

وفي هذه الآيةِ: فَصْلُ النِّزاعِ في بَيانِ مَصائِرِ النَّاسِ:

فأمَّا مَنْ ماتَ على الشِّركِ، فلا يَغفِرُ اللهُ له، ومَنْ ماتَ تائبًا، غفَرَ اللهُ له، ومَنْ ماتَ مُذنبًا بغيرِ توبةٍ، فهو الذي وَقَعَ فيهِ النِّزاعُ بَيْن أهلِ السُّنةِ، وغيرِهم، فاستدلَّ أهلُ السُّنةِ بهذه الآيةِ على أنَّهم تحتَ مَشيئةِ اللهِ، وحاولَ الوَعيديةُ[1] أنْ يقولُوا: إنَّ هذهِ الآيةَ في المَغفرةِ لِمَنْ يَشاءُ للتَّائِبين، وهذا باطلٌ، فإنَّ التَّائبَ يغفِرُ اللهُ له -كما وَعَد-، فلا يُقالُ عنه: إنَّه يَدخلُ تحتَ المَشيئةِ، ثُمَّ إنَّ المَغفرةَ للتَّائِبِ قد وردَتْ في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: لِمَنْ تابَ، ويدخلُ في ذلك الشِّركُ، وغيرُه.

وفيها: أنَّ جانِبَ الاحتِمالِ في المَشيئةِ رادِعٌ، وزاجِرٌ، للمفرِّطينَ، والمُسرِفينَ.

وفيها: تَعديلُ جانِبِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ في نَفسِ المُسلمِ، بذِكرِ ما يُطمَعُ فيه دُون جَزْمٍ بحصولِه، فيَبقَى المُسلمُ بَيْن الخَوْفِ، والرجاءِ.

وفيها: أنَّ الشِّركَ بالقَولِ لا يكونُ إلا كَذِبًا، والشِّركَ بالفِعلِ لا يكونُ إلا باطِلًا.

ثُمَّ توالتِ الآياتُ في تَوبيخِ أهلِ الكتابِ بصفاتِهمُ المَذمومةِ، فلَمَّا ذَكَر ضَلالَهم، وإضلالَهم، وتَحريفَهم، وشِركَهم، أتبعَ ذلك بذِكْرِ تزكيتِهم لأنفسِهم بالباطِلِ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ استفهامُ تعجُّبٍ مِنْ حالِ هؤلاءِ، أي: انظُر، واعْجَبْ، يا محمدُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومَنْ تَبِعك، مِنْ حالِ هؤلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ يَمدحُونَها، ويَزعُمونَ الصِّلةَ باللهِ، وأنَّهم أبناءُ اللهِ، وأحِبَّاؤُه، ناجُون مِنَ النَّارِ، مَعَ ما هُم علَيهِ مِنَ الكُفرِ، والشِّركِ.

وقد قالَ بَعضُ أهلِ الكِتابِ: لا ذُنوبَ لنا، ونَحنُ كالأطفالِ، ولَنْ يَدخُلَ الجنَّةَ غيرُنا ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ فلا عبرةَ بتزكِيَتِهم أنفُسَهم؛ لأنَّ اللهَ يُطهِّرُ، ويُفضِّلُ مَنْ يشاءُ مِنْ

---

(١) الوعيديةُ: همُ الّذينَ يقولونَ: إنّ الوعيدَ الذي توعّدَ اللهُ به العُصاةَ حتميٌّ، فمَن ماتَ مُصرًّا علىَ كبيرةٍ فلا بُدّ له مِن دخولِ النارِ، وإذا دَخلَ النّارَ فلا بدّ له مِن الخُلودِ فِيها. ومِنهُمْ: الخوارجُ والمُعتزلةُ.

عبادِه، وهو العالِمُ بحقائِقِ الأمورِ، ومَنْ هو أهلٌ للتَّزكيةِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: مع أنَّهم يُعاقَبونَ على تزكِيَتِهم لأنفسِهم بالباطِلِ، لكنَّ اللهَ لا يَظلِمُهم، ولا بأدنى شيءٍ، والفَتيلُ: هو الخَيْطُ الذي في شِقِّ النَّواةِ، يُضرَبُ به المَثَلُ في القِلَّةِ، والحَقارةِ، وأصْلُ الفَتيلِ: الشَّيءُ المَفتولُ، وسُمِّي ما في شِقِّ النَّواةِ بذلك؛ لكونِهِ على هيئَتِه.

ثُمَّ أكَّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **التعجُّبَ مِنْ حالِهم، فقالَ:**

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ومَنْ تَبِعك، نظَرَ المُتعجِّبِ في حالِ هؤلاءِ، مِنَ اليهودِ، والنّصارَى ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بدَعْواهم أنَّهم أبناءُ اللهِ، وأحِبَّاؤُه، وأنَّه لَنْ يَدخُلَ جنَّتَه غيرُهم، وأنَّ اللهَ سيُعامِلُهم معاملةً خاصةً، فلا تَمَسُّهم النَّارُ إلا أيامًا مَعْدوداتٍ، وأنَّ اللهَ سيَغفِرُ لهم بصَلاحِ آبائِهم ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: بهذا الافتراءِ، والكَذِبِ على اللهِ ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ذنبًا، ظاهِرًا، عظيمًا، يَستحِقُّون عليه العُقوبةَ الأليمةَ.

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

ذمُّ المادِحينَ لأنفسِهم، وأنَّ أهلَ الباطِلِ، لا يَزالُونَ يُثْنُونَ على أنفسِهم، وأنَّ صاحِبَ الباطِلِ يَتَّخذُ مِنْ تزكيتِه لنفسِه طريقًا إلى تَرويجِ باطِلِه، وكذلك يَخدَعُ نفسَه، ويُطَمئِنُها بحُسْنِ المَصيرِ.

وفيهما: أنَّ المَرجِعَ في تزكيةِ النَّاسِ: إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّه العَليمُ بحَقائِقِهم.

وفيهما: ذمُّ الفَخْرِ بالآباءِ، والاعتمادُ في النَّجاةِ على العملِ.

وفيهما: أنَّ أعمالَ الآباءِ لا تَنفَعُ الأبناءَ، إذا كَفَروا، وأشركُوا.

وفيهما: أنَّ الكُفرَ، والطُّغيانَ، يَدفعُ إلى حبِّ المدحِ بالكَذِبِ، والتَّفاخرِ بالباطلِ.

وفيهما: الجَمعُ بَيْن سيِّئَتَيْنِ في الذّكرِ: الكَذِبِ على اللهِ، والكَذِبِ في تَزكيةِ النَّفسِ.

وفيهما: تَحذيرُ المَرءِ مِنْ إعجابِه بنفسِه، وعملِه.

وفيهما: أنَّ أهلَ الباطِلِ يُثني بعضُهم على بعضٍ.

وفيهما: أنَّ تزكيةَ النَّفسِ يَجِبُ أنْ تكونَ بالأعمالِ الصالحةِ؛ لِتنمُوَ فَضائِلُها، وتَرْتَقِيَ في

كَمالاتِها، وهذه هي التَّزكيةُ المحمودةُ، التي ذَكَرَها اللهُ بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وأمَّا مَدْحُ النَّفسِ بالباطِلِ: فإنَّها تزكيةٌ مَذمومةٌ، تُورِثُ الاستكبارَ عن قَبولِ الحَقِّ، وعدمِ الانتِفاعِ بالنَّصيحةِ.

وفيهما: الإشارةُ إلى أنَّ تَزكيةَ النَّفسِ لا تُقبَلُ في الشَّهادةِ، والقضاءِ.

وفيهما: أنَّ اللهَ لا يَظلِمُ النَّاس شيئًا، ولكنَّ النَّاسَ أنفسَهم يَظلِمونَ، وأنَّ اللهَ لا يَظلِمُ الكافِرَ، إذا عمِلَ خيرًا، فإنّه يُعطِيهِ عَلَيْهِ في الدُّنيا: صِحَّةً، ومالًا، وولدًا، وشُهرةً، ونحوَ ذلك.

وفيهما: أنَّ عَلَى أهلِ الإسلامِ أنْ لا يُشابِهوا اليَهودَ في تَزكِيةِ النَّفسِ، واحتقارِهم لغيرِهم.

وفيهما: أنَّ اللهَ لا يُحابِي أحدًا مِنْ خَلْقِهِ.

وفيهما: أنَّ المُغْترَّ بنفسِه يَتركُ العملَ الصالِحَ، ويتَّكِلُ على عملِ غيرِه.

وفيهما: الاحتياطُ في تَزكيةِ الآخَرينَ عندَ الحاجةِ، كأنْ يقولَ: أَحْسَبُه كَذا، واللهُ حسيبُه، ولا أُزكِّي على اللهِ أحدًا، ونحوَ ذلِك.

وفيهما: الفَرقُ العظيمُ بَيْن تَزكيةِ اللهِ للإنسانِ، وتَزكيةِ الإنسانِ لنفسِه.

وفيهما: أنَّ اللهَ يُزكِّي عبادَه الصَّالحينَ، بتوفِيقِهم للطَّاعاتِ، وتجنيبِهمُ المعاصِي؛ فتَسمُو نفوسُهم.

وفيهما: أنَّه يَجِبُ على المُسلمِ أنْ يَلْجأَ في طلبِ التَّزكيةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفيهما: أنَّ حالَ أهلِ الكِتابِ في كفرِهم، وتناقضِهم، تَدعُو إلى التَّعجُّبِ العظيمِ، وأخذِ العِبرةِ، والعِظَةِ.

وفيهما: أنَّ المُتواضِعَ الذي لا يُعظِّمُ نفسَه، يُعظَّمُ عندَ اللهِ.

وفيهما: أنَّه لا يَجوزُ الاغتِرارُ بمُجرَّدِ الانتِسابِ إلى الدِّينِ، ولو كانَ حقًّا، فكيفَ لو كان باطِلًا؟

وفيهما: أنَّ الاغترارَ والإعجابَ بالباطلِ، يَصُدُّ عنِ اتِّباعِ الحَقِّ.

وفيهما: إبطالُ دِينِ اليهودِ، بطريقِ التَّعجُّبِ مِنَ الثَّناءِ الكاذبِ على أنفسِهم، وادِّعائِهمُ

التَّميّز.

وفيهـا: كراهيـةُ تَزكيـةِ النَّفسِ بألفاظٍ مُضافـةٍ إلى الدِّين، كقـولِ: صلاحِ الدِّيـنِ، وعِزِّ الدِّيـنِ، ونَجْـمِ الدِّينِ، ومُحيي الدِّيـنِ، وتقيِّ الدِّينِ، ونحوِها، وكذلك تَزكيةُ النَّفسِ بأسْـماء دينيةٍ: كَتقِيٍّ، وعابدٍ، وفاضِلٍ، ونحوِ ذلِك.

وفيهـا: أنَّ التَّزكيـةَ الحقيقيَّةَ العظيمةَ الشَّريفـةَ: هي ثناءُ اللهِ على عبـدِه المُؤْمِنِ في المَلأِ الأعلَى، فهذه شهادةُ حقٍّ مِنَ الحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفيهـا: المُبالغـةُ في ذمِّ اليهـودِ في قولِـه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، مَـعَ أنَّ الافتراءَ لا يَكونُ إلا كَذِبًا، فأرادَ استِعظامَ ما قالُوه، وتَأكيدَ بُطلانِه.

وفيهـا: أنَّ اليهودَ غـيرُ ممدوحِين؛ لأنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قـالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، بعد ذِكْرِ تزكيتِهِم أنفُسَهُم، وهذا مِنَ الإضرابِ الإبطاليِّ[١].

وفيهما: أنَّ مَدْحَ النَّفسِ، وتَزكيتَها بالباطِلِ، يُؤدِّي إلى تركِ الطَّاعةِ، والعبادةِ.

وفيهما: أنَّ مَنْ أرادَ المَدْحَ فعلَيه الاحتِياطُ، وقد قالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكم والتَّمادُحَ؛ فإنَّه الذبحُ**»[٢].

ومِـنَ الاحتيـاطِ في المَـدحِ: أنْ لا يَمدحَ إلا لِحاجـةٍ، وأن يَكونَ صادقًـا في مَدحِه، وأن يَغلِبَ على الظَّنِّ أنَّ المَمْدوحَ لا يتضرَّرُ بذلك، وأنْ لا يُسرِفَ في المَدْحِ.

وفيهـا: ضَرْبُ الأمثـالِ بما يَعرِفُه القـومُ مِنْ لُغتِهم، فـكانَ التَّعبيرُ بالفَتيـلِ ضَرْبًا للمَثَلِ في الـشَّيءِ الحَقـيرِ، والفَتِيلُ: ما يكونُ في شِـقِّ نواةِ التَّمرِ، مثل الخَيْـطِ -كما تقدَّم- وكذلك النَّقـيرُ: وهي النُّقرةُ في ظَهْـرِ النَّواةِ، وأيضًا القِطْميرُ: وهو القِشْرُ الرَّقيـقُ فَوقَ النَّواةِ، وكلُّها مذكورةٌ في القرآنِ، على سبيلِ ضَرْبِ المَثَلِ في القِلَّة.

---

(١) (بـل) حـرفُ إضْراب، قدْ تأتِي للانتِقالِ، كما في قولِـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ [الكهف: ٤٨]، وقـد تأتِي للإبطـالِ، كما في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

(٢) رواه ابن ماجة (٣٧٤٣)، وأحمد (١٦٨٣٧)، وحسنه البوصيري في الزوائد (٤/ ١١٩).

والعَجَبُ لا يَنْقضِي مِنْ حالِ هؤلاءِ اليهودِ، فتَسْتمرُّ الآياتُ في ذِكْرِ مخازِيهم، وسيِّئاتِهم، فبالإضافةِ إلى ما تقدَّمَ: ذَمَّهمُ اللهُ على اشتِغالِهم بالسِّحْرِ، ووقُوعِهم في الشِّركِ، وتفضِيلِهم أهلَ الإشراكِ، والطُّغيانِ، على أهلِ التَّوحيدِ، والإيمانِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا قَدِمَ كَعبُ بنُ الأشرَفِ مكَّةَ، قالت قريشٌ: ألا تَرى هذا الصُّنبورَ المُنْبَتِرَ(١) مِنْ قومِه؟ يَزعُم أنَّه خيرٌ مِنَّا، ونَحنُ أهلُ الحَجِيجِ، وأهلُ السّدانةِ، وأهلُ السِّقايةِ، قال: أنتُم خيرٌ منه». قال: «فنزَلَت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ونزَلَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى ﴿نَصِيرًا﴾»(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألَمْ تنظرْ يا مُحمَّدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- متعجِّبًا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حَظًّا قليلًا مِنَ التوراةِ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الجِبتُ: السِّحرُ، وقيلَ: الشَّيطانُ، وقيلَ: الشِّركُ، وقيلَ: الأصنامُ، وقيلَ: الكاهنُ. والطَّاغوتُ: الشَّيطانُ، وقيلَ: كلُّ ما يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو طاغُوتٌ، وعَرَّفَ بعضُ العُلماءِ الطَّاغوتَ بأنَّه: «كلُّ ما تجاوزَ بهِ العبدُ حَدَّه مِنْ مَعبودٍ، أو مَتبوعٍ، أو مُطاعٍ»(٣)، وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الطَّاغوتُ هو الطَّاغِي مِنَ الأعيانِ، والجِبتُ هو مِنَ الأعمالِ، والأقوالِ»(٤).

---

(١) أيْ الأبْتَرُ، الذي لَا عَقِبَ لَهُ.

(٢) رواه البزار في مسنده (٢٢٩٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٤٣)، والطبري في تفسيره (٨/ ٤٦٧)، وابن حبان (٣٥٤) وصحَّحه، وصحَّحه الضياء المقدسي في المختارة (٣٨٩)، وكذا ابن كثير في تفسيره (٨/ ٥٠٤)، والألباني في صحيح السيرة (ص٢٥٥).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٠).

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ قريشٍ، وأهلِ مكَّةَ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفارُ مكَّةَ ﴿أَهۡدَىٰ﴾ أصوبُ دِينًا، وأقومُ نَهجًا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ محمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِه، وهذا الوصفُ بالإيمانِ هو مِنَ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ اليهودَ لَنْ يَصفُوا المُسلمينَ بالإيمانِ ﴿سَبِيلًا﴾ طَريقًا.

ثُمَّ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: اليهودُ المعتقِدونَ بالباطلِ، القائِلونَ بالجَورِ، والكَذِبِ ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طَرَدَهم، وأبْعَدَهم، عنْ رحمتِه ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ ينصُرُه، ويدفعُ عنه عذابَ الدنيا، والآخِرةِ.

وفي الآيتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

فَسادُ عقيدةِ اليهودِ، وأنَّهم يُؤمنونَ بالسِّحرِ، والشَّيطانِ، والشِّركِ، والأصنامِ، والكَهانةِ، والطَّواغيتِ.

وفيهما: ظُلمُ اليهودِ، وجَوْرُهم في تفضيلِ ملّةِ الشِّركِ لقريشٍ على ملّةِ التَّوحيدِ، وهي دِينُ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِه.

وفيهما: أنَّ اليهودَ قد حُرِموا هِدايةَ العقلِ، والفطرةِ؛ فإنَّ مَنْ يَعقِلُ لا يُؤمِنُ بالدَّجَلِ، والخُرافةِ.

وفيهما: أنَّ الكُفَّارَ -على اختلافِ مِلَلِهم- يَتَناصَرون فيما بَيْنَهم، ويجتَمِعُون على عداوةِ أهلِ الإسلامِ.

وفيهما: أنَّ النَّصِيبَ مِنَ العِلمِ لا يَنفَعُ صاحبَه، إذا فَسَدَ قلبُه، وصارَ مُتعدِّيًا على كلامِ اللهِ بتحريفِهِ، لَفظًا، ومَعْنًى.

وفيهما: لَعْنُ اللهِ لِمَنْ فضَّلَ عبادةَ الأوثانِ، والإشراكَ بها معَه، على عبادَتِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وحدَه، لا شَريكَ له.

وفيهما: أنَّ المَلعونَ المَطرودَ عن رحمةِ اللهِ لا يَنصُرُه أحدٌ.

وفيهما: أنَّه لا سَبيلَ إلى تَغييرِ سُنَنِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وفيهما: أنَّ اتِّباعَ الخُرافاتِ، والأوهامِ، والسِّحرِ، والشَّيطانِ، والشِّركِ، والأصنامِ، مَجْلَبَةٌ

لِلَعنةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وخِذلانِه.

وفيهما: أنَّ مَنْ فَسَدَتْ عقيدتُه، لا يصلُحُ أنْ يكونَ حَكَمًا بَيْنَ أصْحابِ العَقائِدِ.

وفيهما: أنَّ مَنِ انْحَرَفَ عنِ الحَقِّ، لا يَرَى طَرِيقَ الحَقِّ.

وفيهما: خَيبةُ وسوءُ حالِ المَلعونِ الذي لَعَنَه اللهُ، وأنَّه سيكونُ يومَ القيامةِ على شَرِّ حالٍ، لا يَجِدُ ناصرًا، ولا مُعِينًا، وهو أحْوَجُ ما يكونُ إلى ذلك.

وفيهما: استِعانةُ المُشرِكينَ بأهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم أعلمُ مِنْهم.

وفيهما: شنُّ الكفَّارِ الحَربَ النفسيَّةَ على المُسلمينَ.

وفيهما: كِبْرُ اليهودِ؛ لأنَّهم غَمَطُوا الحَقَّ، وظَلَموا أهلَه.

وفيهما: أنَّ وِلايةَ البَيْتِ، وسِقايةَ الحاجِّ، وإكرامَ الضَّيفِ، لا تُغنِي مِنَ الحَقِّ شيئًا، إذا كان أصحابُها مُشركينَ، ولا تَنفعُهم أعمالُ البرِّ هذه عندَ ربِّهم؛ لفُقدانِ التَّوحيدِ.

وفيهما: مُفاخرةُ الكفَّارِ، ومُراءاتُهم بأعمالٍ مِنَ البرِّ؛ لأجْلِ إظهارِ فَضلِهمُ الكاذِبِ على المُسلمينَ.

وفيهما: حِقدُ اليهودِ على المُؤمنينَ.

وفيهما: أنَّ اليهودَ أهلُ السّحرِ.

وفيهما: تَحريمُ تَفضيلِ الكفَّارِ على المُؤمنينَ، وبعضُ المُنهزِمين -اليومَ- يَفعلُه؛ افتِتانًا بما عليهِ الكفَّارُ مِنْ زينةِ الدُّنيا، وهذا خَطيرٌ جِدًّا.

وفيهما: التَّحذيرُ مِنَ التَّعرُّضِ لِما يَجلِبُ لَعنةَ اللهِ، ومِنْه: البُهتانُ، والجَوْرُ في الحُكمِ.

وفيهما: بِشارةٌ للنبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأصحابِه، بأنَّ قريشًا لَنْ يَستطيعُوا نُصرةَ اليهودِ.

وفيهما: أنَّ اليهودَ مخذُولونَ في الدُّنيا بهَزيمتِهم، وقَتلِهم، وإجْلائِهم، وضَربِ الجِزيةِ عليهِم.

ثُمَّ ذمَّ اللهُ اليهودَ على صفةٍ أخرى مِنَ الصِّفاتِ السَّيِّئةِ، التي اجتمعَتْ فيهِم، وهي:

البُخلُ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣﴾.

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ هـذا استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: ليسَ لَهم نَصيـبٌ مِنَ المُلْكِ، وقد كانَ اليهودُ يقولون: نَحنُ أحقُّ وأولَى بالمُلْكِ، والنُّبوَّةِ، فكيفَ نتَّبعُ العربَ؟ فأبطَلَ اللهُ زَعمَهـم وكَذِبَهم. ﴿فَإِذٗا﴾ أي: لأنَّهم لو كانَ لهم نَصيبٌ في المُلْكِ، والتصرُّفِ ﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ عـن ابنِ عبَّـاسٍ قال: «﴿نَقِيرًا﴾: النُّقطةُ التي في ظَهْرِ النَّواةِ»[1]، أي: أنهَّم لَن يُؤتـوا أحَدًا مِنَ النَّاسِ شـيئًا؛ لشـدَّةِ حِرصِهـم، وبُخلِهم، وخَوفِهم مِنْ ذَهـابِ ما بأيدِيهم، كـما قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ الأخـرَى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي: بخيلًا.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ اليهودَ لا يَستحقّونَ المُلْكَ، والنبوَّةَ؛ وذلك لكُفرِهم، ولبُخلِهم.

وفِيها: أنَّ البُخلَ، والطَّمَعَ، لا يَليقانِ بأصحابِ المَكانةِ العاليةِ.

وفِيها: أنَّ اليهودَ بُخلاءُ على عُمومِ الناسِ، فكيفَ سَيكونونَ معَ أعدائِهم؟

وفِيهـا: طَمـعُ اليهـودِ في المُلكِ، وهـم يَزعُمونَ أنَّه سَـيعودُ إليهم في آخِرِ الزَّمانِ، وأنَّه سَيخرُجُ مِنْهم مَنْ يُجدِّدُ مُلْكَهم، ودَوْلتَهم.

وفِيهـا: أنَّ مَنْ فَقَـدَ الشَّيءَ بظُلْمِه، وطُغيانِـه، فإنَّه أجدَرُ أنْ لا يَعـودَ إليهِ، وهكذا كانتِ النبـوَّةُ، والمُلكُ، في بنِي إسرائيلَ -فيما سَـبَقَ- فلَمَّا كَفَـروا، وظَلَموا، نَزَعَهُما اللهُ مِنْهم، فلا يَعـودان إليهِم، ودولـةُ اليهودِ -اليومَ- حالةٌ مؤقتةٌ، واضحٌ فيها عَدمُ الأمْنِ، والاسـتِقرارِ، والثَّباتِ، كما هو ظاهرٌ في خوفِهم، وهِجرتِهم.

وفِيها: سوءُ المُلْكِ مَعَ البُخلِ، وأنَّ مَنْ تولَّى على النَّاسِ، يجبُ أنْ يكونَ كريمًا مَعَهم.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٤٧٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٧) وقال ابن أبي حاتم عقبه: «وَرُوِيَ عَنِ أَبِي مالِكٍ، وَمُجاهِدٍ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ، نَحْوُ ذَلِكَ».

وفِيها: البَلاغةُ في التَّمثيلِ بالنَّقِيرِ في الشَّيءِ الحَقيرِ.

وفِيها: أنَّ اليهودَ يُريدونَ أنْ يَحُولُوا بَيْنَ فضلِ اللهِ، وعبادِ اللهِ.

وفِيها: إثباتُ كَذِبِ اليهودِ في تَزكيتِهم لأنفسِهم.

وفِيها: أنَّهم إذا بَخِلوا بالنَّقيرِ -وهو أدنَى شيءٍ- فلأنْ يَبْخلوا بما هُو أكثرُ مِنْه، مِنْ بابِ أولى.

وفِيها -مع ما قبلها-: جَمْعُ اليهودِ بَيْنَ البُخلِ بالعِلمِ، والبُخلِ بالمالِ.

وفِيها: تَكذيبُ اليهودِ في زَعمِهم أنَّهم شُركاءُ للهِ في مُلْكِه.

وفِيها: أنَّ مَنْ جادَ اللهُ عليه بالعِلْم، والجاهِ، والمالِ، فإنَّ عليه أنْ يَجودَ على النَّاسِ بذلكَ، وإلا كانَ مَنعُه لَهم سببًا لِحرمانِه نِعَمَ اللهِ عليهِ.

وفِيها: عِلمُ اللهِ بمَآلاتِ الأمُورِ الافتراضِيَّةِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلَمُ ما لَمْ يَكُنْ، لَوْ كانَ، كَيْفَ كانَ يَكُونُ.

وفِيها: رَحمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالبَشَرِ، أنْ لَمْ يَجعلْ شيئًا مِنْ مُلْكِه تحتَ أحَدٍ مِنْ خَلْقِه.

وفي الآيةِ: بيانُ النَّماذجِ السَّيِّئةِ في البَشريةِ؛ للتَّحذيرِ مِنْها.

وفِيها: سوءُ طِباعِ اليهودِ، وخِسَّةُ معدِنِهم.

وفِيها: أنَّ اليهودَ مَغرورونَ بِدِينِهم، مَخدوعُونَ بعُنصُرِهِم، يَظنُّونَ أنَّ فضلَ اللهِ لا يَتعدَّاهم، وأنَّ رَحمتَه مُقتصرةٌ عليهِم، وبهذا يَمنعونَ حُقوقَ الخَلْقِ.

ولَمَّا ذمَّهم بالجَهلِ، ثُمَّ ذمَّهم بالبُخلِ، أعقبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك بذمِّهِم بالحَسَدِ، الذي يُضافُ إلى ما سَبَقَ مِنْ صِفاتِهِمُ السَّيئةِ، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾ (أَمْ) هُنا مُنقطعةٌ، مُفِيدَةٌ لِلانْتِقالِ عَنْ تَوْبيخِهِمْ بِأَمْرٍ، إلى تَوْبيخِهِمْ

بِآخَر، أَيْ: بَلْ يَحْسُدُونَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أي: محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعه ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ما أعطاهُم مِنَ النبوّةِ، والكِتابِ، وارتفاع شأنِ دِينِهم، وازدِيادِه ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هذا تعليلٌ للإنكارِ المُتضمَّنِ في الاستفهامِ السَّابقِ، أي: لا يَنبغِي لهؤلاءِ اليهودِ أنْ يَحسُدُوا المُسلمينَ؛ لأنَّ السَّببَ الذي احتجُّوا به باطلٌ أشدّ البُطلانِ، ومِنَ الدليلِ على ذلكَ: أنَّا جعَلنا في أسْباطِ بني إسرائيلَ -الذينَ هُم مِنْ ذريةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ- النبوّةَ، وأنْزَلنا عليهِم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ، وغيرَها ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفِقهَ في الدِّينِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ بالإضافةِ إلى النبوَّةِ، ومع هذا ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: اليَهود ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ وصدَّق، واتَّبَع، هذا الإيتاءَ، والإنعامَ ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: أعرَضَ، وكَفَرَ، وسَعَى في الحَيلولَةِ بَيْنَ الناسِ وبَيْنه ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: تَكفِيهمُ النَّارُ عُقوبةً، توقَدُ وتُسعَّرُ عليهم يومَ القيامةِ.

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ اليهودَ يَشُقُّ عليهِم أنْ يكونَ لِغيرِهم مِيزةٌ عليهِم.

وفيهما -مع التي قَبْلَها-: أنَّ بَيْنَ البُخلِ، والحَسَدِ، تَلازُمًا، وتَجاذُبًا، وتَناسُبًا.

وفيهما: أنَّ اليهودَ يُضِيفونَ إلى إمساكِ ما في أيدِيهم، تَمنِّيَهم زوالَ ما في أيدِي النَّاسِ، فجَمعُوا السُّوءَ مِنَ الجِهتَيْنِ، وهُنا يَظهَرُ الفَرْقُ العظيمُ بَيْنَ اليهودِ في المدينةِ، والأنصارِ -مِنَ الأوسِ والخَزْرَجِ- فيها، فأمَّا اليهودُ: فقد بَخِلوا بما عِندَهم، وحَسَدوا غيرَهم، بخلافِ الأنصارِ رِضوانُ اللهِ عليهِم، فقد بَذَلُوا لإخوانِهمُ المُهاجِرينَ ممَّا عندَهم، ولَمْ يَجِدُوا في صُدورِهم حَسَدًا، ممَّا أُوتِيَ المُهاجرونَ مِنْ فضلِ السَّبقِ، والهجرةِ، كما قال الله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وفيهما: أنَّ اليهودَ لا يُريدونَ أنْ يَنتفعَ غيرُ اليهودِ بأيِّ شيءٍ، وهذا مِنِ احتِقارِهم للنَّاسِ، وبُغضِهم لغيرِ جِنسِهم؛ ولهذا لَمَّا استَوْلَوْا على بيتِ المقدسِ -في هذا الزَّمنِ المُتأخِّرِ- أرادوا أنْ يَطرُدُوا مِنْه غيرَهم مِنَ المُسلمينَ، والنَّصارَى.

وفيهما: أنَّ مَزايا دِينِ المُسلمينَ غَيظٌ على اليهودِ، وقد حَسَدونا على الصَّفِّ الأوَّلِ،

والنِّداءِ، والتَّأمينِ في الصَّلاةِ، وغيرِ ذلكَ.

وفيهما: إفحامُ اليهودِ، بذِكْرِ إعطاءِ بَعضِ آلِ إبراهيمَ مِنْ بَنِي يعقوبَ بنِ إسحاقَ النبوّةَ، فكيفَ يُنكِرونَ نُبوَّةَ محمدٍ ﷺ مِنَ العَرَبِ، وهُم مِنْ بَنِي إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ أيضًا؟ فالجَميعُ مِنْ آلِ إبراهيمَ، فلِماذا يُقِرّونَه في أولئكَ، ويَجْحَدونَه في هؤلاءِ؟ ولِماذا يَستَبْعِدونَ أنْ تكونَ النُّبوّةُ في ذريةِ إسماعيلَ، وولدِه، وهم مِن آلِ إبراهيمَ أيضًا؟

وفيهما: تقديمُ النُّبوَّةِ على المُلْكِ، وأنَّها أعلَى، وأجَلُّ، وأفضَلُ، وقد يَجتمِعانِ -كما حَصَل لداودَ وسُليمانَ، عليهما السَّلام-. وقد قيل: المُلكُ أنواعٌ: فمِنْه: مُلكٌ ظاهِرٌ وباطِنٌ، وهو مُلكُ الأنبياءِ، ومنه: مُلكٌ ظاهِرٌ فقط، وهو مُلكُ السَّلاطِينِ، ومنه: باطِنٌ فقط، وهو مُلكُ العُلماءِ، وقد كانتِ الثلاثةُ كلُّها مَوجودةً في بنِي إسرائيلَ، وهي في هذِه الأمَّةِ أعظمُ، وأجْلَى، ففي الآيةِ: بِشارةٌ للمُسلمينَ أنَّه سيَكونُ لهم مُلكٌ عظيمٌ، إذا اتَّبَعُوا النُّبوَّةَ، وأنَّ أمرَهم سيَقوَى، ونُفوذَهم سيَزدادُ، وعدَدَهم سيَتَعاظمُ. عَنْ ثَوْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها وَمَغارِبَها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لِي مِنْها**»(١).

وفيهما: أنَّ اليَهودَ يَجمعُون بَيْن صَدِّ أنفسِهم عنِ الحَقِّ، وصَدِّ غيرِهم عنْه.

وفيهما: أنَّ اليهودَ -ولَو صُرِفَ عنْهم بعضُ عذابِ الدُّنيا- فإنَّ عذابَ السَّعيرِ مُدَّخَرٌ لهم، يَنالونَه على أشدِّه.

وفيهما: أنَّ مَنْ آثَرَ اتِّباعَ الباطِلِ، وصَدَّ الناسَ عن طريقِ الحَقِّ، فإنَّ عاقِبتَه في دارِ الشَّقاءِ، والنَّكالِ، هي: عذابُ الحَريقِ؛ جزاءً وِفاقًا على كُفرِه، وعِنادِه.

وفي الآيتَيْنِ: تهديدٌ للحاسِدينَ، وأنَّ الحَسدَ مِنْ كبائرِ الذُّنوبِ.

وفيهما: أنَّ الحَسَدَ الدِّينيَّ أعظمُ مِنَ الحَسَدِ الدُّنيويِّ، وأنَّ عاقِبَتَه عَذابُ السَّعيرِ.

وفيهما: أنَّ الحاسِدَ مُعترِضٌ على اللهِ في حُكمِه، ويَعتدِي على مَنْ حَسَدَهم مِنْ عبادِه.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

وفيهما: أنَّ مَنْ لَمْ يَستَطِعْ نَيْلَ فضيلةٍ، فلا يَجوزُ له إيذاءُ مَنْ نالَها.

وفيهما: أنَّ الفَضلَ بِيدِ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يشاءُ.

وفيهما: فضلُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَنزلتُه العاليةُ عندَ ربِّه؛ حيثُ جَعلَ اللهُ في ذُرِيَّتِه أنبياءَ بني إسرائيلَ، ونبيَّ العربِ، عليهم جميعًا الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وفيهما: أنَّ حَسَدَ العُنصرِ للعُنْصرِ حِقدٌ تارِيخيٌّ، يَتوالَى، ويُتَوارَثُ؛ ولذلكَ فإنَّ عُنصرَ اليهودِ -اليومَ- يَكرَهُ، ويُعادِي، عُنصرَ العربِ أشدَّ المعاداةِ؛ لأنَّ النُّبوَّةَ المُحمدِيَّةَ وقعَتْ فيهم.

وفيهما: انقِسامُ الخَليقةِ إلى مُؤمنينَ بالحَقِّ، وصادِّينَ عَنْهُ.

وفيهما: أنَّ الحَسَدَ الدِّينيَّ لا يَحمِلُ صاحبَه على رَفضِ الحَقِّ فقط، وإنما يَدفَعُه -أيضًا- لصَدِّ النَّاسِ عنهُ.

وفيهما: أنَّ تَعيينَ استِحقاقِ النَّاسِ للفَضائلِ، وهِبَتَها لَهُمْ، وقِسْمَتَها بَيْنَهُمْ، هو مِنِ اختِصاصِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَه.

وفيهما: فضلُ الحِكمةِ، والسَّدادِ، في القَولِ، والعملِ، والفِقهِ، في أسرارِ التَّشريعِ الإلَهِيِّ.

وفيهما: إطلاقُ لفظةِ النَّاسِ على بَعضِهم، كما أُريدَ بها هُنا في الآيةِ: مُحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأتباعُه.

وفيهما: تَسْليةُ المُسلمينَ، وتَصبِيرُهم، على أذَى اليهودِ.

وفي الآيتَيْنِ: ردٌّ على اليهودِ، الذين حَسَدوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كَثرةِ نِسائِهِ، وقالوا: لَو كانَ محمدٌ نبيًّا لَشغَلَه أمرُ النُّبوّةِ عَنِ الاهتِمامِ بالنِّساءِ؛ فردَّ اللهُ عليهم بأنَّ مِنْ آلِ إبراهيمَ مَنْ كانَ لديْهِ نِساءٌ كثيرٌ، كسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولَم يشغَلْه ذلك عَن أمرِ النُّبوّةِ، والجِهادِ، والقيامِ بمصالِحِ المُلْكِ[1].

وفيهما: الجَمْعُ بَيْنَ مَصالِحِ الدِّينِ، والدُّنيا.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٧٨)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٧٥٤).

وفيهـا: أنَّ الجمعَ بَيْنَ السِّـيادةِ الدِّينيَّةِ، والدُّنيويَّةِ، نـادرٌ عزيزٌ، وقد حَصَلَ ذلك لِثلاثةٍ مِـنْ أنبيـاءِ بنِي إسرائيلَ، مِمَّن أخبَرَنا اللهُ عنْهُمْ، وهم: يوسُـفُ، وداودُ، وسُـليمانُ، وحَصَلَ لنبيِّنـا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِـن ذلكَ النَّصِيـبُ الأوفرُ، معَ أنَّه اختـارَ أنْ يكونَ عبدًا رسـولًا، وليس مَلِكًا نبيًّا.

وفيهـا: أنَّ مِـنْ نِعمـةِ اللهِ العظيمةِ: الجَمعَ بَـيْنَ مصالِـحِ الدِّينِ، ومصالِـحِ الدُّنيا، وقد كانَ سُـليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّـن آتاهُمُ اللهُ الكِتابَ، والحِكمةَ، والمُلْكَ العظيـمَ، فجَمعَ بَيْنَ النُّبوّةِ، والعِلمِ، والجِهادِ، والدَّعوةِ، والعِبادةِ، والمُلكِ، مع ما يقتَضِيهِ ذَلكَ مِنَ اسـتِعراضِ رعاياه، وجَيْشِـه، وتفقُّدِهم، والسَّـفرِ، وإعطاءِ الأوامرِ للجِـنِّ بالأعمالِ المتعـدِّدةِ، والرّقابةِ عَلَيْهِمْ، وإقامةِ المُنشآتِ العظيمةِ؛ لِخدمةِ الدِّينِ، والجِهادِ في سبيلِه.

وفيهـا: ذمُّ الحَسَـدِ، وأنَّ صاحبَـه لا يَسـتفيدُ مِنْـه شـيئًا، وفي أغلـبِ الأحيـانِ لا يَنتفِعُ الحاسِـدُ، ولا يَتضرَّرُ المَحْسودُ، فهؤلاءِ اليهودُ الحاسـدونَ لمحمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَنْ معَه، لَمْ تَنتقِلْ إليهِمُ النُّبوّةُ، ولم يَحصُلْ زوالُ دينِ المُسلمينَ.

وفيهما: أنَّ حَسَدَ صاحبِ النِّعمةِ لغيرِه، أشدُّ مِنْ حَسَدِ المَحرومِ مِنْها.

وفيهما: أنَّ اليهودَ -إذا كانُوا قد كَفَروا بأنبيائِهم-، فلأَنْ يَكفُروا بنبيِّنا مِنْ بابِ أوْلَى.

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شِـدَّةَ العَذابِ في النَّارِ لليهودِ، ومَنْ سَـلَكَ مَسـلَكَهم مِنَ الكُفَّارِ، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وجَحَـدُوا مـا أنـزَلَ اللهُ عـلى رسـولِه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ونُدخِلُهم ﴿نَارًا﴾ تشويهِم، وتُحيطُ بهِم، وَتحرِقُ أجسامَهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ واحتَرَقَتْ ﴿بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أُخرَى جديدةً ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ويُحِسُّوا بالألمِ الشَّديدِ، وهذا اسـتمرارٌ لِعَذابِهم، ودوامٌ لعُقوبَتِهم، وقد قالَ النبـيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضِرْسُ الكافِرِ مِثْلُ**

أُحُـدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِـيرَةُ ثَـلاَثٍ»[(١)]، وفي روايـة: «**ضِرسُ الكافِرِ مِثْلُ أُحُـدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ البَيْضـاءِ**[(٢)]**، وَمَقْعَـدُهُ مِنَ النَّـارِ كَما بَيْنَ قُدَيْدٍ**[(٣)]**، وَمَكَّـةَ، وَكَثافَةُ جِلْدِهِ اثْنـانِ وَأَرْبَعُونَ ذِراعًا بِذِراعِ الجَبَّارِ**[(٤)]»[(٥)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ قـادرًا غالبًـا، قـالَ أبـو العاليـةَ: «عَزيـزٌ في نِقمتِـه إذا انتقـمَ»[(٦)] ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعالِه، فهِي عَلَى وَفقِ حكمَتِه، ومِنْها: عذابُه.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

شِدَّةُ عذابِ الكفَّارِ في النَّارِ.

وفِيهـا: أنَّ إحـراقَ النَّارِ ينفُـذُ إلى الدَّاخلِ مِنَ القلبِ، والحَشـايا، والعِظـامِ، وأنَّه يُحرِقُ الجِلدَ كلَّه.

وفِيهـا: أنَّ شِـدَّةَ الاحتراقِ بالنَّارِ، وطُولَ مُدَّتِه، لا يُذهِبُ الإحسـاسَ بـالألَمِ، بل يُعطَى المعذَّبُ جِلْدًا جديدًا؛ لاستمرارِ العذابِ.

وفِيهـا: أنَّ الجِلـدَ الآخَرَ يَختلِفُ عَنِ الجِلدِ الأوَّلِ، النَّاضِـجِ، المُحتَرِقِ. والتَّعبيرُ بالذَّوقِ يُفيدُ الإحساسَ بكامِلِ الألَمِ، وأنَّهم يَتجرَّعونَه، ويعانُونَه طِيلةَ لُبثِهم في النَّارِ.

وفِيها: تمامُ قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: أنَّ عذابَ الكافِرِ في النَّارِ يَعمُّ جِسمَه كلَّه.

وفِيها: أنَّ إحسـاسَ أهلِ النَّارِ بالعَذابِ في كلِّ مرَّةٍ، كإحسـاسِ ذائِـقِ الطَّعامِ بالمَذوقِ، يُحسُّ به في كلِّ لُقمةٍ، وفي كلِّ شَربةٍ، فلا يَدخلُه نُقصانٌ، ولا زَوالٌ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥١).

(٢) اسم جبل.

(٣) موضع قرب مكة.

(٤) الجبار: الرجل العظيم الخِلقة.

(٥) رواه أحمد (٨٤١٠)، والبزار (٨٧١٣)، وصححه الحافظ في الفتح (١١/ ٤٢٣).

(٦) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٨٣)، وقال: «وَرُوِيَ عَنْ قَتادَةَ والرَّبيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ».

وفِيها: أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَتعوَّدونَ على عَذابِها، بل يَتَجدَّدُ عليهم باستِمرارٍ.

وفِيها -مع ما قَبْلها-: أنَّ أصحابَ الذُّنوبِ المُتجدِّدةِ، كالحَسَدِ، الذي لا يزالُ يثورُ في قلْبِ صاحبِهِ، فإنَّ العذابَ يومَ القيامةِ يتجدَّدُ عليهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وفِيها: التَّعبيرُ بالإصلاءِ، والإنضاجِ؛ بيانًا لشدَّةِ العذابِ.

ولَمَّا ذَكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ أهلِ النَّارِ، قابلَهم بذِكرِ حالِ أهلِ الجنَّةِ؛ ليَظْهَرَ التَّباينُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جاءَ به محمدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتِثالِ المَأْموراتِ، واجتِنابِ المَنهيَّاتِ ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ في الآخِرةِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وبَساتينَ عظيمةً ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تَسِيلُ مِن تَحتِ أشجارِها، وخِلالها، وفي جَميعِ فِجاجِها، وأرجائِها، وحيثُما شاؤوا، وأينَما أرادوا، أنهارٌ، مِنْ أنواعِ الماءِ، واللَّبنِ، والخَمرِ، والعَسَلِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ بلا نهايةِ أمَدٍ، ولا انقضاءٍ، ولا نَقْصٍ، ولا انْقِطاعٍ ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ مِنَ العُيوبِ، والأذَى الحِسِّيِّ: كالحَيْضِ، والنِّفاسِ، والقَذرِ، والنُّخامةِ، والبُزاقِ، والمَنِيِّ، والنَّجاسةِ. وبريئاتٌ -كذلكَ- مِنَ العُيوبِ الخُلُقيَّةِ، فهنَّ حِسانُ الخِلْقةِ، والأخلاقِ ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ عميقًا، مُمتدًّا، أنيقًا، طيِّبًا، باردًا، دائِمًا، لا يَتقلَّصُ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّه لا يَنجُو يومَ القيامةِ مِنَ النَّارِ، ويَدخلُ الجنَّةَ، إلا مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الإيمانِ، والعملِ الصالِحِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ نَعيمِ الجنَّةِ: الإيناسَ بالزَّوجاتِ، وهذا مِنْ تَمامِ السُّرورِ، وكَمالِ السَّعادةِ، فلا يَنالُهم استِيحاشٌ، ولا وَحدَةٌ.

وفِيها: أنَّ ظِلَّ الجنَّةِ لا تَنسَخُه شَمسٌ، وهو قائِمٌ مَعَ عدمِ وُجودِ الشَّمسِ، وهذا مِنَ

العجائِبِ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ في الجنَّةِ شـجرةً، يسـيرُ الراكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ، لا يَقطعُهـا**»(١)، وفي وُجـودِ الظـلِّ في الجنَّةِ -مـع كونِها لا حرَّ فيها، ولا بـردَ- مزيدُ رفاهيةٍ، وكَمالُ استمتاعٍ، ورغَدُ عَيشٍ.

وفِيها: أنَّ جَميعَ أسبابِ الرَّاحةِ، وأنواعِ اللَّذةِ، مهيَّأةٌ في الجنَّةِ.

وفِيها: أنَّ تَحقُّقَ وعْدِ اللهِ أسرعُ مِنْ تَحقُّقِ وَعيدِه؛ فإنَّه قال في آيةِ الجنَّةِ هذه: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾، وقال في آيةِ النَّارِ: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾؛ وفي التَّعبيرِ بـ«السّين»: إشعارٌ بقِصَرِ مُدَّةِ التَّنفيسِ، على سـبيلِ تقريبِ الخَيرِ مِنَ المُؤمِنِ، وتَبشيرِه بِه، وفي التَّعبيرِ بـ (سَوْفَ): إمهالُ العَبدِ؛ للتَّوبةِ، والإنابَةِ.

وفي الآيتَيْنِ: دَوامُ الجنَّةِ، والنَّارِ، وأنَّهما لا تَفنيانِ.

وفِيها: أنَّ الاعتدالَ مِنْ نَعيمِ الجنَّةِ، ومِنْ ذلكَ: الظِّلُّ، وأنَّه لا حَرَّ فيها، ولا قرَّ.

وفِيهـا: أنَّ ظلَّ الجنَّةِ ظليـلٌ، وليس كظِلِّ النَّارِ، الذي قال اللهُ عنه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

وفِيهـا: إشـارةٌ إلى سُرعةِ دُخـولِ المؤمنينَ الجنَّـةِ؛ إراحةً لهم مِـنْ دارِ الأكْـدارِ، وموقِفِ الحسـابِ يـومَ الدِّينِ، وأنَّ هذه الأمَّةَ -مَعَ كونِها آخرَ الأمَـمِ- فإنَّها أوَّلُهم وأسرَعُهم دخولًا الجنَّةِ يومَ القيامةِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في ما تقدَّمَ مِنَ السُّورةِ الأمرَ بالإحسانِ، والعَدلِ في النِّساءِ، واليتامَى، وذَكَـرَ أمـورًا متعلِّقةً بالدِّماءِ، والأموالِ، وذَكَرَ خِيانةَ أهلِ الكتابِ في كَتمِهمُ الحَقَّ، أَمَرَ بعد هـذا بأداءِ الأماناتِ؛ لتثبيتِ ما تقدَّمَ مِنَ الحُقـوقِ، ووَعْظِ أهلِ الكتابِ بإقامَةِ أمانَةِ الدِّينِ، والعِلـمِ، وبيـانِ الحَقِّ، والرُّجوعِ إليه. ولَمَّا ذَكَرَ قَبْلَ هذه الآيةِ مَصيرَ مَنْ أطاعَ، ومَصيرَ مَنْ عَـصَى، أَتْبَعَ ذلك بذِكْرِ عَملَـيْنِ عظيمَيْنِ يُدخِلانِ الجنَّةَ، والإخلالُ بهـما يُدخلُ النَّارَ، وهما: أداءُ الأماناتِ، والعَدلُ في الحُكْمِ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ يا أيُّها العِبادُ ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾ تُعطُوا، وتُسلِّموا ﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ التي ائتُمِنْتُم عليها مِنْ حُقوقِ اللهِ، وحُقوقِ عبادِه ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ ومستَحِقِّيها ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم﴾ وإذا أردتُّم يا أيُّها الحُكَّامُ، والأمراءُ، والقُضاةُ، أنْ تقضُوا، وتفصِلُوا، ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ في النِّزاعاتِ، والخُصوماتِ، ونحوِها ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بإقامةِ شَرْعِ اللهِ بَيْنهم، واعتمادِ أوامِره، وأحكامِه، العظيمةِ، الكاملةِ، الشاملةِ (﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نِعْمَ ما يعِظُكم به اللهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾ لأقوالِكم ﴿بَصِيرٗا﴾ بأفعالِكم؛ فيُجازيكم على ما يَصدُرُ مِنكم.

وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أَهْلِها يَوْمَ القِيامَةِ، حَتَّى يُقادَ لِلشَّاةِ الجَلْحاءِ**[1]**، مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ**»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدِّ الأَمانَةَ إلى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خانَكَ**»[3].

وقد ذَكَرَ كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَتْ في عُثمانَ بنِ طلحةَ العبدَليِّ، حاجبِ الكعبةِ، لَمَّا أعادَ إليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِفتاحَ الكعبةِ يومَ الفتحِ، وأنَّه تَلا هذه الآيةَ[4].

وعن سُلَيْم بْنِ جُبَيْرٍ مَوْلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، قالَ: سَمِعْتُ أَبا هُرَيْرَةَ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إلى قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، قالَ: «**رَأَيْتُ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَضَعُ إِبْهامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، والَّتِي تَلِيها عَلَى عَيْنِهِ**»، قالَ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**رَأَيْتُ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقْرَؤُها وَيَضَعُ إِصْبَعَيْهِ**»[5].

---

(١) هي التي لا قرنَ لها.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٣) رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وحسَّنه، وقوَّاه ابن القيم -بطرقه- في إغاثة اللهفان (٢/ ٧٧).

(٤) قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره (٢/ ٣٤١): «وَهَذا مِنَ المَشْهُوراتِ، أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ، وَسَواءٌ كانَتْ نَزَلَتْ في ذَلِكَ أَوْ لا: فَحَكَمُها عامٌّ؛ وَلِهَذا قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ الحَنَفِيَّةِ: «هِيَ لِلْبَرِّ والفاجِرِ» أَيْ: هِيَ أَمْرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ».

(٥) رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٧٣): «إسناده قوي على شرط مسلم».

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

عِظَمُ شأنِ الأمانةِ، وهي تشملُ:

أمانـةَ العبـدِ معَ ربِّه، بـأداءِ حُقوقِـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الصَّلَـواتِ، والزَّكَـواتِ، والكفَّاراتِ، والنُّذُورِ، والصِّيامِ، وغيرِ ذلك.

وأمانـةَ العبدِ معَ النـاسِ، بالمُحافظةِ على ما ائتَمَنُوه علَيه مِـنَ الودائعِ، وغيرِها، وأدائِها كامِلةً سليمةً.

وأمانةَ العبدِ معَ نفسِه، بأنْ يَختارَ لها الأصلَحَ، والأنفعَ في الدُّنيا، والآخِرةِ، وأن يَتوقَّى ما يَضرُّها في الدُّنيا، والآخرةِ.

ومِنْ عِظَمِ الأمانةِ: أنَّ الشَّهادةَ في سبيلِ اللهِ لا تُكفِّرُ خيانتَها، والإخلالَ بها، فعَنْ زاذانَ، عَـنْ عبـدِالله بْنِ مَسْـعُودٍ، قالَ: «القَتْلُ في سَـبِيلِ اللهِ يُكَفِّـرُ الذُّنُوبَ كُلَّهـا إِلَّا الأَمانَةَ»، قالَ: «يُؤْتَـى بِالعبـدِ يَـوْمَ القِيامَةِ -وَإِنْ قُتِلَ في سَـبِيلِ اللهِ- فَيُقـالُ: أَدِّ أَمانَتَكَ، فَيَقُـولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْـفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيا؟ قـالَ: فَيُقالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلى الهاوِيَةِ، فَيُنْطَلَـقُ بِهِ إِلى الهاوِيَةِ، وَيُمَثَّلُ لَـهُ أَمانَتُهُ كَهَيْئَتِها يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْـهِ، فَيَراها، فَيَعْرِفها، فَيَهْوِي في أَثَرِها حَتَّى يُدْرِكَها، فَيَحْمِلَها عَـلَى مَنْكِبَيْهِ، حَتَّى إِذا ظَـنَّ أَنَّهُ خارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَهُوَ يَهْـوِي في أَثَرِها أَبَدَ الآبِدِينَ» ثُمَّ قالَ: «الصَّلاةُ أَمانَةٌ، والوُضُوءُ أَمانَةٌ، والوَزْنُ أَمانَةٌ، والكَيْلُ أَمانَةٌ -وَأَشْياءُ عَدَّدَها- وَأَعْظَمُ ذَلِكَ: الوَدائِعُ».

قال زاذان: فَأَتَيْتُ البَراءَ بْنَ عازِبٍ، فَقُلْتُ: أَلا تَرَى إِلى ما قالَ ابْنُ مَسْـعُودٍ! قالَ: كَذا؟ قالَ: «صَدَقَ، أَما سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾؟»[١].

وفيها: أنَّ إطلاقَ الأماناتِ في الآيةِ يَشملُ كلَّ ما أمَرَ اللهُ به العبادَ، ونَهاهُم عنه، حتى جاءَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ في هذه الآيةِ، قال: «يدخُلُ فيهِ: وعظُ السُّلطانِ النِّساءَ» يعني: يومَ العيدِ[٢].

---

(١) رواه البيهقي في سننه (٦/ ٤٧١)، وفي شعب الإيمان (٧/ ٢٠٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤): «رَواهُ أَحْمد والبَيْهَقِيّ مَوْقُوفا، وَذكر عبدُالله بْنُ الإِمام أَحْمد في كتابِ الزّهْد أنه سَأَلَ أَباهُ عَنهُ فَقالَ: إِسْنادُه جيّد».

(٢) تفسير الطبريّ (٨/ ٤٩١)، تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٣٤٠).

وقال أُبَيُّ بنُ كعبٍ: «مِنَ الأمانةِ: أنَّ المرأةَ ائتُمِنتْ على فَرْجِها»(١).

وفي الآية: وُجوبُ الحُكمِ بَيْن النَّاسِ بالعَدْلِ، وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ مَعَ القاضِي ما لَمْ يَجُرْ، فَإذا جارَ وَكَلَهُ إلى نَفْسِهِ**»(٢).

وفيها: فَضلُ العَدْلِ بَيْن الناسِ في الحُكمِ، وتحقيقِه، ومِنْ ذلك: فَهْمُ دعَوى المُدَّعِي، ومعرفةُ موضِعِ التَّنازُعِ، وتجنُّبُ الحاكِمِ للتَّحيّزِ، ومَعرفتُه لِشرعِ اللهِ في المَسْألةِ، وتَوليةُ القادِرينَ على القِيامِ بذلِك.

وفيها: ثَناءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومَدحُه لأداءِ الأماناتِ، والحُكمِ بالعَدلِ بَيْن النَّاسِ، وهذا أعظمُ عندَ اللهِ مِنْ نوافِلِ العِباداتِ -مَهْما كَثُرَتْ-.

وفيها: وُجوبُ أداءِ الأمانةِ إلى أصحابِها، ولَو كانُوا كُفَّارًا، أو فُجَّارًا.

وفيها: مُراقبةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للأماناتِ، التي لا يَطَّلِعُ عليها إلا هُو.

وفيها: أنَّ الأمانةَ لا تُؤدَّى إلى غيرِ المُؤتَمَنِ، أو وكيلِه.

وفيها: أنَّ الأمْرَ بالعَدلِ في الحُكمِ بَيْن الناسِ عامٌّ، حتى إنَّه ليَشمَلُ حُكمَ الأبَوَيْنِ بَيْن أولادِهم.

وفيها: وعْظٌ، وتذكيرٌ، بما أمرَ اللهُ به، وأنَّه يعْلَمُ حالَ العبْدِ، ويَسمَعُه، ويَراه.

وفيها: تحذيرٌ، ووعيدٌ، لِمَنْ خالَفَ أمْرَ اللهِ.

وفيها: كَمالُ أحكامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكمالُ حِكمتِه.

وفيها: بِناءُ الأحكامِ، والفَصلِ في المنازعاتِ، علَى حَسَبِ ما وَرَدَ في الكتابِ، والسُّنةِ، وليسَ على حَسَبِ قوانينَ وضعيَّةٍ، أو مُيولٍ شَخصيَّةٍ، أو أهواءَ ذاتيَّةٍ.

وفيها: وُجوبُ المُحافظةِ، والرِّعايةِ، والعِنايةِ، بجميعِ الأماناتِ على تنوّعِها، كالوديعةِ، والعاريَّةِ، ومالِ الشَّركةِ، والقُرُوضِ، والإعلانِ عنِ المَفقوداتِ المَعثورِ علَيها، وتعريفِها،

---

(١) رواه الطبري (٢٠/ ٣٣٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٨٦)، وإسناده صحيح.

(٢) رواه ابن ماجة (٢٣١٢)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.

وما وُكِّلَ فيه مِنْ حُقوقِ الغَيْرِ، وكذلك الزَّوجةُ، والأولادُ، عنده أمانةٌ، ونَحو ذلك، بالإضافةِ إلى الأماناتِ التي بَيْنه وبَيْن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كأنواعِ العِباداتِ.

وفِيها: أهميّةُ العَدلِ في الحُكمِ، وهو داخلٌ ضِمنَ الأماناتِ، ولكنَّه أفرَدَه بالذِّكْرِ؛ لأهمِيتِه، فكانَ مِنْ بابِ النصِّ على الخاصِّ بعد العامِّ.

وفِيها: أنَّ الشَّرعَ أَمَرَ بالعَدلِ مُطلقًا، ولَمْ يأمُرْ بالمُساواةِ مُطلقًا، والعَدلُ قد يَقتَضِي التَّسويةَ، كما لو وزَّعْنا ميراثًا على إخوةٍ ذكورٍ أشقَّاءَ، وقد يَقتَضِي تفاوتًا، وعدمَ تسويةٍ، كما لو وَزَّعنا ميراثًا على إخوةٍ، وأخواتٍ، فللذَّكرِ مثلُ حظِّ الأُنْثَيَيْن.

ولَمَّا أمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحُكَّامَ أنْ يَحكُمُوا بالعَدلِ، أمَرَ الرَّعيَّةَ أنْ تُطِيعَهم؛ ليَلْتَئِمَ الشَّملُ، ويَتحقَّقَ العَدلُ، ويَنْفُذَ الحُكمُ. ولَمَّا أمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعَدْلِ في الأحكامِ، بَيَّنَ مَصدرَ ذلك، وأساسَه، وهو طاعةُ اللهِ، وطاعةُ رسولِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بالرّدِّ إليهِما عندَ التنازُعِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ اتَّبِعوا كتابَه، واعمَلُوا به، فيما أمَرَ بِهِ، ونَهى عنه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واعمَلوا بسُنَّتِهِ ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: أصحابَ أمرِ الأمَّةِ، والمُتوَلِّينَ لشؤونِها، مِنَ العُلماءِ أهلِ الفقهِ، والدِّينِ، والأمراءِ، وقال ابنُ عبَّاسٍ: «يعنِي: أهلَ الفِقهِ، والدِّينِ، وأهلَ طاعةِ اللهِ، الذين يُعلِّمونَ النَّاسَ معانِيَ دينِهم، ويَأمرونَهم بالمَعروفِ، ويَنْهَوْنَهم عَنِ المُنكَرِ، فأوجَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طاعتَهم على العِبادِ»[1].

وقال بعضُ المفسِّرينَ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: همُ الأئمةُ، والسَّلاطينُ، والقُضاةُ، وكذلكَ رؤساءُ الجُندِ، والزُّعماءُ، الذين يَرجِعُ إليهم النَّاسُ في المصالِحِ العامَّةِ، وكذلك أهلُ الحِلِّ، والعَقْدِ، مِنَ المؤمنينَ إذا أجمَعُوا على أمرٍ مِنْ مصالِحِ الأمَّةِ، وكلُّ مَنْ له وِلايةٌ شرعيةٌ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ١٨٥)، والبيهقي في المدخل (٢٦٦)، من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

قال العُلماءُ: طاعةُ الإمامِ واجبةٌ على الرَّعيَّةِ، ما دامَ على الحقِّ، فإذا خالَف الكتابَ، والسُّنةَ: فلا طاعةَ له.

وطاعةُ هؤلاءِ مقيَّدةٌ بطاعةِ اللهِ، ورسولِه، وقد تَكرَّرَ ذِكْرُ الطاعةِ للهِ، والرسولِ، ودخلَ أُولُو الأمرِ في طاعتِهما، فطاعتُهم لَيستْ مُستقلةً، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّما الطَّاعةُ في المَعروفِ**»[1]، وقال: «**السَّمعُ والطاعةُ على المَرْءِ المُسلمِ، فيما أحبَّ، وكَرِهَ، ما لَمْ يُؤمَرْ بمعصيةٍ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ: فلا سَمعَ، ولا طاعةَ**»[2].

وعن عبادةِ بنِ الصامتِ قال: «**بايَعْنا رسولَ الله** ﷺ **على السَّمعِ، والطَّاعةِ، في مَنشطِنا، ومَكرَهِنا، وعُسرِنا، ويُسرِنا، وأثَرةٍ علَينا، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه**»، قال: «**إلا أنْ تَروا كُفْرًا بَواحًا، عندَكُم مِنَ اللهِ فيهِ بُرهانٌ**»[3]. وقال ﷺ: «**ولوِ استُعمِلَ علَيكم عبدٌ، يقودُكم بكتابِ اللهِ، فاسمعُوا له، وأطِيعوا**»[4]، وفي رواية: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عبدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[5].

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآيةِ: «**أنَّها نَزَلتْ في عبدِاللهِ بنِ حُذافةَ بنِ قيسِ بنِ عَديّ، إذ بَعَثَه النبيُّ** ﷺ **في سَريةٍ**»[6].

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قالُوا: بَلَى، قالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيها. فَجَمَعُوا حطَبًا، فَأَوْقَدُوا نارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ، فَقامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ، قالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّما تَبِعْنا النَّبِيَّ ﷺ فِرارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُها؟! فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ

(١) رواه البخاريّ (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٢) رواه البخاريّ (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٣) رواه البخاريّ (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) رواه مسلم (١٨٣٨).

(٥) رواه البخاري (٧١٤٢).

(٦) رواه البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤).

غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ: «**لَوْ دَخَلُوها ما خَرَجُوا مِنْها أَبَدًا، إِنَّما الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»(١).

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ**﴾ أي: اختلفتُم يا أيُّها المؤمنونَ، فيما بَيْنكم في أيِّ أمْرٍ، وقيل: إذا اختلفتُم يا أيُّها المُجتهِدونَ، وقيل: إذا اختلفتُم يا أيُّها الرَّعيَّةُ معَ أُمرائِكم ﴿**فِي شَيۡءٖ**﴾ مِنْ أمورِ دينِكم، أُصولًا، أو فُروعًا، ﴿**فَرُدُّوهُ**﴾ أَرجِعوه، وعُودُوا به ﴿**إِلَى ٱللَّهِ**﴾ إلى كتابِه ﴿**وَٱلرَّسُولِ**﴾ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياتِه، وإلى سُنتِه بَعدَ مماتِه، وهذا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [الشورى: ١٠].

وقولُه: ﴿**إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ بوَحدانيتِه، ورُبوبيتِه، وألوهيَّتِه، وأسمائِه، وصِفاتِه ﴿**وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ**﴾ بمجيئِه، وقيامِه ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي: الرَّدُّ إلى اللهِ، والرسولِ، عندَ التنازُعِ ﴿**خَيۡرٞ**﴾ لكم مِنَ القَولِ بالآراءِ، والأهواءِ، والتَّفرُّقِ ﴿**وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا**﴾ أي: أحسنُ جَزاءً، وعاقِبةً، ومآلًا، وأجرًا، في الآخِرةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وُجوبُ طاعةِ اللهِ، ورسولِه، وأنَّ طاعةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طاعةِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ طاعةَ اللهِ، ورسولِه، أعلَى مِنْ طاعةِ أولِي الأمرِ، وأنَّ طاعةَ أولِي الأمرِ داخلةٌ فيهما، تابعةٌ لهما، مقيَّدةٌ بهما.

وفِيها: وُجوبُ العَملِ بسُنَّةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُجّيَّةُ هذه السُّنَّةِ، والردُّ على مَنْ أنكَرَها.

وفِيها: مكانَةُ العلماءِ، وأنَّ لهم نَصيبًا وافرًا مِنَ الطَّاعةِ؛ لأنَّهم يَدلُّونَ النَّاسَ على شَرعِ اللهِ، ويأمُرونَ به.

وفِيها: مكانةُ وُلاةِ الأمورِ في الإسلامِ، ووجوبُ الاجتماعِ عليهم، وعدمُ جوازِ الخُروجِ عليهِم، ولُزومُ طاعتِهم في غيرِ مَعصيةِ اللهِ، وأنَّ جَماعةَ المسلمينَ لا تَستقيمُ إلا بِهذا.

وفِيها: لُزومُ طاعةِ وُلاةِ الأمورِ؛ لأنَّهم ينفِّذونَ شرعَ اللهِ، ويُقيمونَه بقوَّةِ السُّلطانِ،

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

ويَحرسونَه، ويأمُرونَ بالجهادِ؛ لنشرِ دينِ اللهِ، والدَّفعِ عنه.

وفِيها: دليلٌ على وجوبِ الوفاءِ ببَيْعةِ وُلاةِ الأمورِ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طاعةٍ، لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ لا حُجَّةَ لَه**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومَنْ بايَعَ إمامًا، فأعطاهُ صَفقةَ يدِهِ، وثَمرةَ قلبِه**(٢)**، فليُطِعْهُ، إنِ استَطاعَ**»(٣).

وفِيها: أنَّ الأميرَ إذا أمَرَ بمعصيةٍ للهِ، فإنَّه لا يُطاعُ، كما قالَ عبدُاللهِ بنُ عمروِ بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أطِعْهُ في طاعةِ اللهِ، واعصِهِ في معصيةِ اللهِ**»(٤).

وفِيها: أنَّه لابُدَّ مِنَ اجتماعِ العلماءِ، والأمراءِ؛ لتصلُحَ الرَّعيَّةُ، فأولئكَ يَدلُّونَ على الشَّرْعِ، وهؤلاء يُنفِّذونَه.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُحِبُّ انتظامَ أمرِ الأمَّةِ، واجتماعَ شملِ المُسلمينَ.

وفي الآية: عدمُ جوازِ التَّحاكُمِ إلى غيرِ الكتابِ، والسُّنةِ.

وفِيها: دليلٌ علَى العملِ بالقياسِ، وأنَّ المُجتهدينَ إذا تنازَعُوا في حُكمِ شيءٍ، ليسَ فيه نصٌّ مِنَ الكتابِ، والسُّنةِ، فإنَّهم يَقيسُونَه على ما يُشبِهُه مِنَ الكتابِ، والسُّنّةِ، وهذه فائدةُ معرفَةِ الأشباهِ، والنَّظائرِ، وسمَّاهُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قياسَ الأشباهِ، ويُسمِّيه أكثرُ الفُقهاءِ: قياسَ الطَّرْدِ.

وفي هذه الآيةِ: إشارةٌ إلى أصولِ أدلَّةِ الفِقهِ الأربعةِ:

الكتابِ، بقولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾.

والسُّنةِ، بقولِه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

والإجماعِ، والإشارةُ إليه بقولِه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

والقياسِ، والإشارةُ إليه بقولِه ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨٥١).

(٢) أي: صِدْقَ النيَّةِ في البَيْعةِ.

(٣) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٤) رواه مسلم (١٨٤٤).

وفِيهـا: أنَّ أولِي الأمـرِ مِـنَ العُلماءِ، هُـمُ الذينَ يَنظُـرونَ في الكتابِ، والسُّـنةِ؛ لتحصيلِ أحكامِ الأشياءِ غيرِ المَنْصوصِ عليها فيهما.

وفي الآيةِ: وُجوبُ العَملِ بما أَجمَعتْ عليهِ الأمَّةُ، وعدمِ الخروجِ عنْه.

وفِيهـا: أنَّه يَجبُ على ما يُسـمَّى بالهيئاتِ التَّشريعيَّةِ: اسـتخراجُ الأحـكامِ، التي يَحتاجُها النَّـاسُ في حياتِهـم، وأمـرِ معاشِـهم، مِـنَ الكتـابِ، والسُّـنّةِ، وأنَّ على مـا يُسـمَّى بالهيئاتِ التَّنفيذيَّةِ: العملَ على تحقيقِ ذلكَ في الواقِعِ، ومراقبةَ تحكيمِهِ، وحِراسَته.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ لَمْ يُقـدِّمِ اتباعَ الكتابِ، والسُّـنةِ، على أهوائِهِ، وحُظوظِ نفسِـه، فلا يكونُ مؤمِنًا حقًّا.

وفِيهـا: أنَّ شرعَ اللهِ يُحقِّـقُ مصالحَ العِبادِ، ومنافِعَهم الدُّنيويةَ، وهو أحسـنُ عاقِبةً لهُم في هذِه العاجِلةِ، وكذلك هو في الآخرَةِ، وأنَّ أحكامَ اللهِ، ورسولِهِ، أحسنُ الأحكامِ، وأعدَلُها، وأصلَحُها للنَّاسِ في أمورِ دينِهم، ودنياهُم، وآخرتِهم، وأنَّه يَجتمِعُ فيها الخيريَّةُ، والحُسنُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ يَدَّعِي الإيمانَ باللهِ، واليومِ الآخِرِ، ولا يَردُّ المسـائلَ إلى اللهِ، ورسـولِه، فهو كاذبٌ في ادِّعائِه.

وفِيها: إثباتُ اليومِ الآخِرِ، وأنَّ الإيمانَ بالمَعادِ، يقوِّي العملَ بالشَّريعةِ.

وفِيها: إبطالُ الحُكمِ بالقوانينِ الوضعيةِ المخالِفةِ للوَحْيَيْن.

وفِيهـا: إبْطـالُ مَذهبِ مَنْ يُسـمُّونَ أنفسَـهم بالقُرآنيِّـين، ويَجْحَدونَ السُّـنةَ؛ إذْ لَو كانُوا قرآنِيِّين -حقًّا- لَعمِلوا بها.

وفِيها: أنَّ كلَّ الطَّاعاتِ مقيَّدةٌ، إلا طاعة اللهِ، ورسولِهِ.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يَدعُوَ إلى تَقليدِه في كلِّ شيءٍ.

وفِيها: أنَّه يَنبغِي لطالبِ العِلم أنْ يَطلبَ العِلمَ بأدلَّتِه.

وفِيها: أنَّ كلَّ شرٍّ، وسوءِ عاقبةٍ، تحدُثُ في العالَمِ، فإنَّما هي بمخالفةِ الوحْيَيْن.

وفِيها: وجوبُ ردِّ التّنازُعِ إِلَى حُكمِ الكِتابِ والسُّنةِ.

ولَمَّا أمرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطاعةِ الوَحْيِ، والتَّحاكُمِ إليهِ، استنكَرَ حالَ مَنْ يُعرِضُ عن ذلكَ، ويتَحاكَمُ إلى أهلِ الطُّغيانِ، وهو يَزعُمُ الإيمانَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ ألَمْ تنظُرْ إلى عجيبِ صُنعِ هؤلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهمْ أهلُ النِّفاقِ ﴿يَزْعُمُونَ﴾ يَدَّعونَ، ويقولونَ بأفواهِهِم كَذِبًا، والزَّعمُ: هو القولُ الذي يَخْلُو مِنَ التَّحقيقِ، وتَقْوَى فيهِ شُبهةُ الكَذِبِ ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الوَحيِ، والقُرآنِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ على الأنبياءِ مِنَ التوراةِ، والإنجيلِ، وغيرِهما ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ ويرجِعُوا، ويترافعُوا، ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو: كلّ مَنْ حَكَمَ بغيرِ شَرعِ اللهِ، وطَغَى، وتجاوَزَ الحدَّ، الذي حَدَّه اللهُ(١) ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الطَّاغوتِ، وقد قال اللهُ: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ ويُبعدَهم عنْ طريقِ الحقِّ، والهُدَى ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ بالِغًا النِّهايةِ.

ومِمَّا وَرَدَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ:

ما رَواهُ الطبرانيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: «كانَ أبو بُردةَ الأسلَمِيُّ كاهِنًا، يقضِي بَيْنَ اليهودِ فيما يتنافَرُون إليه، فتنافَرَ إليه ناسٌ مِنَ المسلمينَ، فأنزلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾»(٢).

وقال ابنُ إسحاق: «كانَ جُلاسُ بْنُ سُوَيْد بْنِ صامِتٍ -قَبْلَ تَوْبَتِهِ -فِيما بَلَغَنِي- ومُعتِّب بْنُ قُشَير، وَرافِعُ بْنُ زَيْدٍ، وَكانُوا يُدْعَوْن بِالإِسْلام، فَدَعاهُمْ رِجالٌ مِنْ المُسْلِمِينَ في خُصُومَةٍ كانَتْ بَيْنَهُمْ إِلَى رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الكُهَّانِ، حُكَّام أَهْلِ الجاهليةِ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ

---

(١) راجع تفسير الآية (٥١) من هذه السورة.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٠٤٥)، وجوّد إسناده الحافظ في الإصابة (٧/ ٣٢).

مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾»(١).

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

ذمُّ المنافقِينَ؛ لأنَّهم يُريدونَ أنْ يَتَحاكمُوا لأهلِ الطُّغيانِ، والباطِلِ، والكُهَّانِ.

وفِيها: التَّعجُّبُ مِنْ حالِ مَنْ يُكذِّبُ فعلُه زَعمَه، فهو يَدَّعِي الإيمانَ بلسانِهِ، وأفعالُه أفعالُ أهلِ الكُفرِ.

وفِيها: ذمُّ حالِ أهلِ الجاهليَّةِ الذين يَتَحاكمونَ إلى الدَّجَّالينَ، والعرَّافينَ، والكُهَّانِ، الذين كانوا يأخذونَ المالَ رِشوةً على القضاءِ بالباطِلِ، والحُكمِ بالهَوَى.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ للناسِ مِنْ مَراجِعَ، تفصِلُ في مُنازعاتِهم.

وفِيها: وصفُ الكفرِ بالضَّلالِ البعيدِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يريدُ أن يُضلَّ الناسَ ضلالًا بَعيدًا؛ ليَصعُبَ رجوعُهم إلى الحقِّ، ويَعسُرَ اهتداؤُهم.

وفِيها: شدّةُ عَداوةِ الشيطانِ للعِبادِ.

وفِيها: توحيدُ جِهةِ التَّحاكُمِ عندَ أهلِ الإيمانِ، وأنَّهم لا يقبَلونَ تعدُّدَ الجهةِ، وأنَّ الإيمانَ الصَّادقَ، يأبَى تعدُّدَ جهاتِ الحُكمِ، بحيثُ يكونُ بعضُه إلى الكتابِ، والسُّنةِ، وبعضُه إلى طاغوتِ القوانينِ الوضعيَّةِ، وغيرِها، المخالفةِ لهما.

وفِيها: شناعةُ نفاقِ، وكُفرِ، الذينَ يَتَحاكمونَ إلى مصدرٍ، قد أمَرَهمُ اللهُ بالكُفرِ بِهِ.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ جُعلَ مَصدرًا للحُكمِ، خارِجًا عنِ الكتابِ، والسُّنةِ، فهو طاغوتٌ، سَواء كانَ شَخصًا، أو هَيئةً، أو كِتابًا.

وفِيها: أنَّ إرادةَ التَّحاكمِ إلى غيرِ شرعِ اللهِ مِن الكُفر، بخلافِ مَنْ أُكرِه على التَّحاكُمِ إلى غيرِ شَرعِ اللهِ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٤).

وفِيها: أنَّ إرادةَ المُنافِقِ، وإرادةَ الشَّيطانِ، متَّفِقتانِ.

وفِيهـا: أنَّ الإرادةَ والمحبّـةَ تُنزَّلُ منزلةَ الفِعـلِ، وإذا كان الذمُّ قد ورَدَ على إرادةِ التَّحاكمِ إلى الطَّاغوتِ، فكيفَ بِمَنْ يَقومُ بهذا التَّحاكُمِ؟ وكيف بمَنْ يُنصِّبُ هذا الطَّاغوتَ؟

وفِيها: تَفضيلُ المُنافقينَ لحُكمِ الكاهِنِ على حُكمِ اللهِ، ورسولِه.

ثُمَّ ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إعراضَ المُنافقينَ عن الكتابِ والسُّنةِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ للزَّاعمـينَ للإيـمانِ، المريديـنَ التَّحاكـمَ إلى الطَّاغـوتِ ﴿تَعَالَوْاْ ﴾ وأقْبِلـوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ في القُـرآنِ ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ وحُكمِـه ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وأبْصَرتَهـم، حالَ العَـرْضِ عليهِم ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ ويُعرِضـون إعراضًا كُليًّا، مُتعمَّدًا.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ مَنْ دُعِيَ للعملِ بالقرآنِ، والسُّـنةِ، فأعرَضَ عن ذلـك، فهو مِنْ جُملةِ المُنافقينَ. وأنَّ الإعراضَ عن تحكيمِ الكتابِ، والسُّنةِ، علامةٌ واضحةٌ مِنْ علاماتِ النِّفاقِ الأكبَرِ.

وفِيها: دعوةُ الجَميعِ إلى تحكيمِ الكتابِ، والسُّنةِ.

وفِيها: استعمالُ كلمةِ: ﴿تَعَالَوْاْ ﴾ لدعوةِ غيرِ المُسلمينَ.

وفِيها: أنَّ المُنافقينَ يصُدُّونَ عنِ الدُّعاةِ إلى اللهِ، ويُعرِضونَ عنْهُم.

وفِيهـا: أنَّ المنافِقَ يجمَعُ بَيْن الصَّدِّ بالوجهِ، والبَدَنِ، وهذه مُجاهرةٌ، وتصريحٌ، وبَيْن الصَّدِّ بالقلبِ، وهو المَكرُ، والخُبثُ، والكُفرُ الخَفِيُّ.

وفِيهـا: أنَّ المُنافقـينَ لا يُعجِبُهـم حكـمَ اللهِ؛ فيَصدّونَ عنـه، ويَصُدّون عـن حكمِ نبيِّه كذلك؛ لأنَّهم يَعلمونَ أنَّه لا يُمكِنُ استمالتُه بالرِّشوَةِ.

وفِيها: أنَّ المُنافقينَ يُبعِدونَ أنفسَهم ويُبعِدون غيرَهم عَنِ الحقِّ.

وفِيها -معَ التي قَبْلَها-: ذِكْرُ الأوصافِ، ثُمَّ التَّصريحُ باسمِ صاحبِها؛ ليكونَ أثبتَ في النَّفسِ، فإنَّها تُريدُ أنْ تَعرِفَ مَنْ هؤلاءِ؛ وللدّلالةِ على أنَّه إذا وُجِدتْ أوصافُ النِّفاقِ، جازَ الحُكمُ على صاحبِها بالنِّفاقِ.

وفِيها: التَّسميةُ بَعد الوصفِ؛ لتثبيتِ الحُكمِ.

وفِيها: شناعةُ إعراضِ المُنافقينَ عن الحُكمِ النَّبويِّ، معَ أنَّه معصومٌ بالوحيِ، غيرُ معرَّضٍ للخَطأ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَستخرِجُ ما في قلوبِ المنافقينَ مِنَ الكُفرِ الخَفِيِّ، بدعوةِ المؤمنين لهم، فيَنبغِي دعوةُ المشْبُوهِين، والمتَّهَمينَ، إلى القضاءِ الشرعيِّ، عند الاختلافِ؛ لينكشِفَ حالُهم.

وفِيها: أنَّ مَنْ ردَّ شيئًا مِنْ حكمِ اللهِ، أو حكمِ رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواءً ردَّه مِنْ جِهةِ الشكِّ، أو مِنْ جهةِ التَّمرُّدِ، والعِنادِ: فهو خارجٌ عن مِلَّةِ الإسلامِ. وأمَّا إذا أقرَّ به، وخالَفَه للهَوَى، فهو عاصٍ، فاسقٌ، وليس بكافرٍ، منافِقٍ.

ولَمَّا كان مِنْ حِكمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنْ يُصيبَ المنافقينَ المُعرِضينَ عن حُكمِه، وحكمِ رسولِهِ، بالمَصائِبِ المُخيفةِ، المُحوجةِ لهم إلى المجيءِ، كانَ لا بُدَّ لهم مِن تقديمِ الأعذارِ على إعراضِهم السَّابقِ، فقال عَزَّ وَجَلَّ، يَصِفُ ذلك:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: فكيفَ بهم إذا ساقَتْهم أقدارُ اللهِ إليكَ في مصائِبَ تَطْرُقُهم؟ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسببِ ذُنوبِهم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ خوفًا مِنْ نتائِجِ المُصيبةِ، والقارِعةِ، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ في تَبريرِ إعراضِهم عن حُكمِك، وتولِّيهمُ السَّابقِ عن مجلسِ قضائِك، فيقولونَ -مُقسِمِين اليمينَ-: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي: ما أَردنا بتركِ التَّحاكمِ إليك ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ أي: إصلاحًا ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ أي: بَيْنَ الخُصومِ، ومُداراةً، ومُصانعةً؛ لِئَلا يَقَعَ شرٌّ أكبرُ.

وقد قيل: إنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في منافِقٍ، طَرَقَ بابَ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مُعترِضًا على حُكمٍ، حَكَم به النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فخَرَجَ إليه عمرُ بالسَّيفِ، فقتلَه، فخافَ المنافقونَ، فجاءوا يَطلُبونَ دَمَ صاحبِهم، ويَعتَذِرونَ بأنَّهم لَمْ يَقصدُوا تركَ حكمِ اللهِ، ورسولِه(١).

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

خَوفُ المنافقينَ، وخَشيَتُهم على أنفسِهم، حتَّى إنَّهم يَحتاجُونَ لتقديمِ الأعذارِ، والتبريراتِ، لِما يَقعُونَ فيه مِنَ الباطِلِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُحدِثُ للمنافِقينَ ما يُخضِعُهم به، ويُذِلُّهم.

وفِيها: أنَّ جَميعَ مَصائِبِ العبدِ تَقَعُ بسببِ ذُنوبِه.

وفِيها: استعمالُ المُنافقينَ للأَيْمانِ الكاذِبةِ، في الاعتذارِ عَن أفعالِهم الشَّنيعَةِ.

وفِيها: ادِّعاءُ المُنافقينَ للإحسانِ، والإصلاحِ، كَذِبًا، وزُورًا.

وفِيها: ادِّعاءُ المنافقينَ للإصلاحِ بَيْنَ الخُصومِ، والتوفِيقِ بَيْنَهم، وتبريرُ باطِلِهم، بدعوَى قصدِ الخَيرِ، والإحسانِ.

وفِيها: سوءُ عاقبةِ المنافِقينَ، وأنَّ اللهَ يُعاقِبُهم بالنَّدمِ على ما فَعَلُوه.

وفِيها: أنَّ الإحسانَ الحقِيقيَّ، هو في تحكيمِ شرعِ اللهِ، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠].

وفِيها: أنَّ الإصلاحَ بَيْنَ الخُصومِ، لا يجوزُ أنْ يكونَ بمُصادَمةِ الشَّريعةِ.

وفِيها: أنَّ حُسنَ القصدِ، لا يَجعلُ الوسيلةَ الفاسدَةَ صحيحةً، هذا إذا كانَ صاحبُه صادِقًا، فكيف إذا كان كاذبًا، كحالِ هؤلاءِ المُنافِقينَ؟

وفِيها: أنَّ المنافِقَ يَعيشُ في خَوفٍ دائمٍ، يحسَبُ كلَّ صيحةٍ عليهِ.

وفِيها: أنَّ تراكُمَ المَعاصِي سببٌ لنزولِ المَصائبِ؛ فباستِهزاءِ هؤلاءِ المُنافقينَ، وردِّهم

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٤٢٧)، تفسير ابن عطية (٢/ ٧٣)، روح البيان (٢/ ٢٣٠). ولم تصح هذه القصة، انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٣/ ١٩٦).

حكـمَ النبيِّ ﷺ، وبنائِهم مسـجدَ الضِّرارِ، وتولِّيهم عـن القِتالِ معَ النبيِّ ﷺ -بِذلك وغيرِه-: وقعَت بهِمُ المصائبُ.

وفِيهـا: عُلُوُّ مَرتبةِ الإحسـانِ، حتى تَسَـتَّرَ بها المنافقونَ، والإحسـانُ مَرتبةٌ فَـوْقَ العَدْلِ، فهـو تَفضّلٌ مِنْ صاحِـبِ الحَقِّ، وبَذلٌ، لا يَجِبُ عليه، وكذلـك التَّوفيقُ بَيْنَ الخُصومِ عملٌ شريفٌ، وسعيٌ مشكورٌ؛ ولذلك احتجَّ به المُنافقونَ، وتَسَتَّروا.

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ كانوا لا يَعتقِدونَ صِحَّةَ حكمِ اللهِ، ورسـولِه، ولا وجوبَ تحكيمِهما؛ ولذلك أعْرَضُوا، وتَوَلَّوْا.

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ يَسعَوْن إلى سَترِ عَوْراتِهم بالكَذِبِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ كانوا يَخشَوْن أنْ يُظهِرَ اللهُ مِنْ خَفايا قلوبِهم، ما يستحقُّون عليه القَتلَ.

وفِيهـا: أنَّ كلَّ مصلحـةٍ يدَّعِيها صاحبُها مخالفةٍ للشرعِ، فهي سـاقِطةٌ وموهُومةٌ، وأنَّه لا يُمكِن أنْ يكونَ هنالك خيرٌ في مخالفةِ الشَّريعةِ.

وفِيها: تَبشـيرُ اللهِ لنبيِّه ﷺ بأنَّ المَصائبَ ستَحيقُ بأعدائِه مِنَ المنافِقينَ، وتُلجِئُهم إليه، وتُحوجُهم إلى المَجيءِ مُعتذرينَ، أذلةً، صاغِرينَ.

وفِيها: أنَّ غايةَ ما هو مطلوبٌ مِنَ العبدِ: إحسانُ النيَّةِ، وموافقةُ أمرِ اللهِ في الفِعلِ.

ثُـمَّ بَـيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَـذِبَ هـؤلاءِ في دَعْواهُـمُ المُـداراةَ، وكفَّ الـشرِّ، وفَضَحَهم في تَبريراتِهمُ الكاذبةِ في الإعراضِ عن حكمِه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المُنافقـونَ ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ مِـنَ النِّفـاقِ، والكَـذِبِ، والحِقدِ، والكَيْدِ، والغَيْظِ، والعَداوةِ، والمعنى: قد بَلَغَتْ هذهِ الأمورُ في قلوبِهم حَدًّا، لا يعلمُه إلا عـلَّامُ الغيـوبِ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: لا تُعَنِّفْهـم، ولا تُعاقِبْهـم، ولا تَقْبَـلِ اعتذارَهـم، واصْرِفْ وجهَـكَ عنْهـم، ولا تُرِيهـمُ البَشاشَـةَ، والتَّكريـمَ، ﴿وَعِظۡهُمۡ ﴾ بـما يُليـِّنُ قلوبَهـم،

وازْجُرْهـم عنِ النِّفاقِ، وخَوِّفْهم بعذابِ الآخِـرَةِ، وذَكِّرْهم بما لهم مِنَ الخَيرِ، إذا تابُوا ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ خاليًـا بِهِـم، فيـما بَيْنكَ وبَيْنَهـم، مُسِرًّا إليهـم، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ نَصيحةً مُؤَثِّـرةً، قويَّـةً، فصيحةً، تبلُـغُ مبلَغَها إلى صَميمِ القَلبِ، مِنْ كَوْنِ هذا النِّفاقِ يؤدِّي إلى سَـفْكِ دِمائِهم، وسَبْيِ نِسائِهم، وسَلبِ أموالِهم، مع ما أعدَّ اللهُ لهم مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ الإعراضَ عَنِ المُنافقينَ شديدُ الأثرِ في نفوسِهم، مُخيفٌ لهم، يَجعلُهم -دائمًا- في قَلَقٍ، ووَجَلٍ.

وفِيها: استحبابُ المَوعِظَةِ، وأنَّها قد تأتِي بالنتيجةِ، حتَّى معَ أهلِ الكفرِ، والنِّفاقِ.

وفِيهـا: أهميةُ الفصاحةِ، والبلاغةِ، وأثرُهما في النُّفوسِ، وأنَّ مَنْ تعلَّمَهما ابتغاءَ وجهِ اللهِ، فإنَّه يُثابُ على ذلكَ.

وفِيها: أنَّ الوعظَ بالتَّرهيبِ، والتَّرغيبِ، يَهدفُ إلى فِعْلِ الخَيرِ، وتَركِ الشرِّ.

وفِيها: أنَّ الإعراضَ في الظاهِرِ، لا يُنافي الوَعظَ في السرِّ.

وفِيها: أنَّ وعظَ العاصِي في السرِّ، أنجعُ في حُصولِ المَقصودِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ خَفِيَ سَببُ جُرمِه، تُركَ الإعلانُ بعقابِه؛ حتى لا يُفتَتَنَ الناسُ.

وفِيها: تَهديدُ المنافقينَ، وزَجرُهم.

وفِيها: أنَّ الثَّوابَ، والعقابَ، يترتَّبُ على ما في قلوبِ النَّاسِ مِنَ الخيرِ، والشرِّ.

وفِيها: أنَّ النَّصيحةَ على المَلَأ تقريعٌ منفِّرٌ.

وفِيها: الاجتهادُ في نصحِ النُّفوسِ الخبيثةِ، بانتِقاءِ الكَلِماتِ، واختيارِ العِباراتِ.

وفِيها: الجَمعُ بَيْن التَّخويفِ بعذابِ الدنيا، وعذابِ الآخرةِ، في وَعْظِ المنافقينَ.

وفِيها: شهادةٌ للنبيِّ ﷺ بالقُدرةِ على بليغِ الكَلامِ، وما آتاهُ اللهُ مِنَ الحِكمةِ، وفَصْلِ الخِطابِ، وجوامِعِ الكَلِمِ.

وفِيها: أنَّ الكفرَ الباطِنَ يُناسِبُه الزَّجرُ الخَفِيّ.

وفِيها: زَجْرُ النَّاسِ عن إخفاءِ غيرِ الحقِّ في قلوبِهم.

وفِيها: أنَّنا نَقبلُ مِنَ النَّاس علانيَتَهم، ونكِلُ سَرائِرَهم إلى اللهِ.

وفِيها: أنَّ عِلْمَ جَميعِ ما في القلوبِ مُختصٌّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يُحيطُ به نبيٌّ، ولا وليٌّ.

وفِيها: تنويعُ الأساليبِ في مُعاملةِ المُنافِقِ، والجمعُ بَيْنها في معالَجتِه. ويُمكن أنْ يقالَ -أيضًا-:

إنَّ النِّفاقَ دَرَجاتٌ، وإنَّ مِنَ المنافقينَ مَنْ يُعالِجُه الإعراضُ، ومِنْهم: مَنْ تُعالِجُه الموعظةُ، ومِنْهم: مَن يَحتاجُ إلى قولٍ بليغٍ؛ ليؤثِّرَ في نفسِه، معَ الإسرارِ بهِ إليهِ.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ جُرمَ المنافقينَ في الإعراضِ عَن حُكمِه، وحكمِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرشَدَ رسولَه إلى كيفيَّةِ التعامُلِ مَعَهُم، ذَكَرَ مكانةَ هذا الرسولِ، وما يَجبُ له مِنَ الطَّاعةِ، وما يَجبُ على مَنْ خالفَه مِنَ الإتيانِ إليهِ؛ مستغفِرًا ربَّه، مُنيبًا تائبًا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ ﴾ هذا يَشملُ جَميعَ الرُّسلِ ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أي: قد فَرَضَ اللهُ طاعتَه على مَنْ أرسَلَه إليهِم ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ بمَشيئتِه، وعِلمِه، وقَضائِه، وتَوفيقِه، وهِدايتِه، فمَنْ عَصاه، ولَم يستَجِبْ لحُكمِه، فقد خالفَ أمرَ اللهِ، وما فَرضَه مِنْ طاعةِ هَذا النبيِّ.

ثُمَّ أرشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العُصاةَ والمُذنبينَ إلى الفِعلِ الصحيحِ الذي يَجبُ عليهم، مِنَ التَّوبةِ إلى اللهِ، والاعتِذارِ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا كانوا في عهدِه، وأن يَرغَبُوا في استغفارِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم؛ لأنَّه مُجابُ الدَّعوةِ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ﴾ أي: هؤلاءِ المنافقينَ المُعرِضِينَ عن حُكمِ اللهِ، ورسولِه، ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بإعراضِهم، وتحاكُمِهم إلى الطَّاغوتِ ﴿جَآءُوكَ ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حياتِك؛ تائبينَ، نادِمينَ، متبرِّئينَ مِنْ

فِعْلِهم، ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أعلَنوا توبَتَهم أمامَكَ، وسألُوا اللهَ أنْ يَغفِرَ لهم ذنُوبَهم، ومعصيتَهم، بالتَّحاكمِ إلى غيرِك ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: عفا عنْهم، ودعا لهم بالمغفرةِ؛ وذلك لأنَّ ذنبَهم العظيمَ قد تعلَّقَ به حقَّانِ: حقٌّ للهِ، وحقٌّ لرسولِه ﷺ، فلَو قامُوا بذلكَ، وفعَلُوه ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ﴾ ربًّا، رءوفًا، كريمًا ﴿تَوَّابًا﴾ يَقبَلُ توبتَهم ﴿رَّحِيمًا﴾ متفضِّلًا عليهِم بالرَّحمةِ، والغُفرانِ، والتَّجاوزِ عمَّا فَعَلوه، وسَترِ ذنْبِهمُ الذي أذْنَبُوه.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ طاعةَ النبيِّ ﷺ فرضٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنَّ مَنْ فَرَضَ اللهُ طاعتَه، لا يجوزُ الإعراضُ عنهُ.

وفِيها: أنَّ طاعةَ النبيِّ ﷺ، مِنْ توفيقِ اللهِ لعَبدِه، وهدايتِه، ونِعمتِه عليهِ.

وفِيها: أنَّ الشَّرائِعَ التي أنزلَها اللهُ، لا تُفيدُ العبدَ بدونِ امتثالِها، وأنَّ عِصيانَ الرسولِ، يُعطِّلُ السببَ الذي مِنْ أجلِه أُرسِلَ.

وفِيها: أنَّه لا رسولَ إلا ومعه شَريعةٌ، يَجِبُ أنْ يُطاعَ، ويُتَّبعَ فيها.

وفِيها: أنَّ مَنِ استكمَلَ شروطَ التوبةِ، فإنَّ اللهَ يَقبلُ توبَتَه.

وفِيها: تَعظيمُ النبيِّ ﷺ، وعصمتُه فيما يُبلِّغُه عنْ ربِّه؛ ولهذا جاءَ الأمرُ بطاعتِه مُطلقًا.

وفِيها: الإشارةُ إلى إذنِ اللهِ القَدَريِّ، والشرعيِّ؛ فإنَّ اللهَ -كما أنَّه يُطاعُ بما شَرَعَه، وأذِنَ فيه مِنَ الأحكامِ- فإنَّه لا تَحصُلُ الطَّاعةُ لإنسانٍ إلا بتوفيقِ اللهِ له، وهدايتِه، وإذنِه.

وفِيها: أنَّ قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَآءُوكَ﴾ مختَصٌّ بحياتِه ﷺ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ يَستغفِرَ لهم في قبرِه بَعد موتِه، وقد انقطعَ عنِ الدُّنيا، ومَنْ زَعَمَ أنَّ النبيَّ ﷺ يَعيشُ مَعَنا، ويَعلمُ ما يَدورُ في العالَمِ، ويَتدخَّلُ في ذلك، فقدِ افتَرَى إثمًا عَظيمًا، وقال بغيرِ عِلمٍ، وجاء بزَعمٍ دونَ دليلٍ، وأما قصةُ العُتبِيّ التي أورَدَها بعضُهم، ومُلخَّصُها: أنَّ أعرابيًّا جاء إلى قبرِ النبيِّ ﷺ، فسلَّم عليه، وتلا هذه الآيةَ، ثُمَّ قال -مُخاطبًا صاحبَ القبرِ ﷺ-: «جئتُكَ مُستغفِرًا لذنبِي، مُستشفِعًا بكَ إلى ربِّي»، ثُمَّ أنشأَ أبياتًا في مَدحِ القَبرِ،

وصاحبِه، وأنَّ رجلًا عُتبيًّا غَفَتْ عينُه في ذلك الحينِ، فرأى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النَّومِ، يقول له: «يا عُتبيّ، الحَقِ الأعرابيَّ، فبشِّرْهُ أنَّ اللهَ قد غفَرَ له».

ثُمَّ استدلَّ المُنحرِفونَ، وأهلُ الباطِلِ، بهذه القِصَّةِ على جوازِ اللُّجوءِ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعد موتِه، وسؤالِه الشَّفاعاتِ، وقَضاءَ الحاجاتِ، وفكَّ الكُرباتِ، وهذا باطِلٌ؛ لعدَّةِ أمورٍ، مِنْها:

- **أولا**: أنَّ القِصَّةَ مُنكرةٌ، لا تثبُتُ، وقد قال الحافظُ ابنُ عبد الهادِي رَحِمَهُ اللهُ: «إسنادُها مُظلِمٌ، ولا يصلُحُ الاحتجاجُ بمِثلِ هذه الحكايةِ، ولا الاعتمادُ على مِثلِها عند أهلِ العِلمِ»[1].
- **ثانيًا**: أنَّنا لا يُمكنُ أنْ نَدَعَ قواطِعَ الدِّينِ، وأدلَّتَه الصَّريحةَ؛ مِنْ أجلِ فِعْلِ أعرابيٍّ، لا نَعلَمُ شيئًا عن فِقهِه، وعِلمِه.
- **ثالثًا**: أنَّ قواطِعَ الدِّينِ، وأدلَّتَه الصحيحةَ، قد جاءتْ باللُّجوءِ إلى اللهِ وحدَه، كقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨]، وقولِ اللهِ عنْ نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا**﴾ [الجن: ٢١]، وقولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سَألتَ فاسألِ اللهَ**»[2].
- **رابعًا**: أنَّه لَمْ يُنقَلْ عنِ أحدٍ مِنَ الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ، ولا الصَّحابةِ المُكْرَمينَ، ولا الأفاضِلِ التَّابِعِينَ، أنَّه جاء إلى قبرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متوسّلا به بَعدَ وفاتِه، ولا يُمكِنُ أنْ يُعارَضَ ذلك بحكايةٍ عَن مجهولٍ، بسندٍ ضَعيفٍ.
- **خامسًا**: أنَّ أحكامَ الدِّينِ -وخُصوصًا أمورَ العقيدةِ- لا تُؤخَذُ مِنَ الحِكاياتِ، والمَناماتِ، وإنَّما العُمدَةُ فيها على الأدلَّةِ الصحيحةِ، مِنَ الكتابِ، والسُّنةِ.
- **سادسًا**: أنّ سياقَ الآيةِ واضحٌ، أنَّها نزَلت بشأنِ المنافِقينَ على عَهدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين رَفَضُوا حُكمَه، فرغَّبَهُم اللهُ في التَّوبةِ، وأنَّهم لو جاءوا إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) الصارم المنكي (ص٢٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه، وأحمد (٢٦٦٩)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «هو مِن أصحّ ما رُوي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢).

فاستغفَروا اللهَ، وسألُوا ربَّهم أنْ يَغفِرَ لهم، وتابُوا إليه، ودعا النبيُّ ﷺ بالمغفرةِ لهم: لغفَر اللهُ لهُم. وهذا يَدلُّ على أنَّه في حياتِه، فكيفَ يصِحُّ الاحتجاجُ بهذا على إتيانِ قبرِه، وسؤالِه بَعد مماتِه؟

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ النبيَّ ﷺ تَجبُ طاعتُه بمجرَّدِ إرسالِه.

وفِيها: أنَّ دُعاءَ النبيِّ ﷺ مُستجابٌ، وأنَّ مكانتَه عندَ ربِّه عظيمةٌ.

وفِيها: أنَّ للنبيِّ ﷺ حقًّا، يَجبُ طَلبُ السَّماحِ مِنْه في حَياتِه عندَ التفريطِ فيه، والاعتِذارُ إليهِ ﷺ في حياتِه لِمَنْ قَصَّرَ في حقِّه، وأمَّا بَعد مَماتِه: فلا يُوجدُ إلا التَّوبةُ إلى اللهِ، ومِنْ هُنا تَتبَيَّنُ حُجَّةُ مَنْ قال: إنَّ مَنْ سَبَّ النبيَّ ﷺ بَعد موتِه يُقتَلُ -ولا بُدَّ-؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ميّتٌ، فكيفَ سيُستَسمَحُ مِنْ حقِّه، ويُطلَبُ مِنْه التَّنازلُ عنْه؟ ولذلك يُطبَّقُ عليه الحَدُّ بقَتلِه، وإذا كان صادقًا في تَوبتِه نفعَتْه عندَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ التَّحاكمَ إلى غيرِ شرعِ اللهِ، يعنِي الإساءةَ إلى النبيِّ ﷺ.

وفِيها: أنَّ استغفارَ النبيِّ ﷺ لأصحابِه فيهِ تكميلٌ لتَوبتِهِم.

وفِيها: إكرامُ اللهِ لنبيِّه ﷺ، بالانتقالِ مِنْ أسلُوبِ المُخاطبةِ، إلى أسلُوبِ الغَيْبةِ، فإنَّه قال: ﴿جَآءُوكَ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولَمْ يقلْ: واستَغْفرتَ لهم.

وفِيها: فتْحُ بابِ التَّوبةِ أمامَ المُذنِبِينَ، مهما عَظُمتْ ذنوبُهم، والآيةُ تَدلُّ على أنَّ توبةَ المنافِقِ الحقيقيَّةَ الصحيحةَ مقبولةٌ عندَ اللهِ، وأنَّه ليسَ هناك ذَنبٌ لا يُمكنُ التَّوبةُ مِنْه.

وفِيها: أنَّ بابَ استغفارِ النبيِّ ﷺ للمُذنِبين قد أُغلِقَ بموتِه -ﷺ- ولكنَّ بابَ اللهِ بَقِيَ مفتوحًا.

وفِيها: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُوفِّقُ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِه لِطاعتِه، ويُيَسِّرُ له أسبابَها.

وفِيها: أنَّ الاستغفارَ مَعَ النَّدمِ يمحُو أثرَ الذَّنبِ، وأمَّا مجردُ تحريكِ اللِّسانِ بالاستغفارِ: فلا يأتِي بالمغفرةِ جَزمًا.

وفِيها: كَرَمُ اللهِ، وفضلُه الواسِعُ، ورحمتُه الشَّاملةُ.

وفِيها: أنَّ الرُّسلَ ليسوا مُجردَ دُعاةٍ، ووُعَّاظٍ، ولكنَّ اللهَ أرسلَهم؛ ليبلِّغوا أحكامَه وَشَرعَه للنَّاسِ، وأوجبَ على النَّاسِ طاعتَهم.

وفِيها: أنَّ التَّوبةَ الصحيحةَ الكاملةَ تكونَ عَقِبَ الذَّنبِ مُباشرةً؛ لقولِه: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ وكذلك الفاءُ في قولِه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ تَدلُّ على وجوبِ وقوعِ الاستغفارِ بَعد الذنبِ مُباشرةً، وأنَّ مَنْ أخَّرَ التَّوبةَ بعد الذَّنبِ، فإنَّ تأخيرَه ذنبٌ آخرُ، يَحتاجُ إلى توبةٍ.

وفي قولِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَوَّابٗا﴾ دَليلٌ على أنَّ مَنْ تكرَّرَ مِنْه الذَّنبُ فكرَّرَ التوبةَ، أنَّ اللهَ يتوبُ عليه في كلِّ مرَّةٍ تابَ فيها توبةً صحيحةً.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ادِّعاءَ المنافِقينَ للإيمانِ، ثُمَّ يَتَحاكمونَ إلى غيرِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويَصدُّون عَن حُكمِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ويَكْذبونَ بادِّعاءِ الإحسانِ، والتوفيقِ، ويمتنعُون عنِ المجيءِ تائبينَ: أقسَمَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بنفسِه الشَّريفةِ أنَّهم لَنْ يَكونوا مؤمِنينَ حقًّا، إلا بشروطٍ لا بُدَّ مِنْ تحقيقِها، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يقسِم الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بذاتِه المُقدّسةِ: أنّه لا يُؤمنُ هؤلاءِ المنافقونَ إيمانًا، صحيحًا، حقيقيًّا، ثابتًا ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ يا محمدُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، ويجعلوكَ فوْقَهم سيّدًا، حَكَمًا، قاضِيًا، مُسلَّطًا ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وقَعَ مِنَ المُخاصماتِ، والمنازعاتِ، وفيما اختلَطَ عليْهم، والتبَسَ، وأُشكِلَ، فتوضِّحَ لهم، وتُزيلَ اللَّبْسَ، وتقضِيَ، وتُبيِّنَ الحُكمَ، وتفصِّلَ في المَسائِلِ.

والتعبيرُ بشَجَرَ؛ لتداخُلِ كلامِ الخُصومِ في بعضِه البَعض، كتداخُلِ الشَّجَرةِ، والتفافِ أغصانِها ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ﴾ ولا يُحِسُّوا ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ ضِيقًا، وشكًّا ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ وحَكَمْتَ به ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ يَنقادُوا ظاهِرًا، وباطِنًا، ولا يُخالفُوكَ في شيءٍ.

سَببُ النُّزُولِ:

عَنْ عبدِالله بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ خاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شِراجِ[(١)] الحَرَّةِ[(٢)]، الَّتِي يَسْقُونَ بِها النَّخْلَ، فَقالَ الأَنْصارِيُّ: سَرِّحِ الماءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فاخْتَصَما عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلزُّبَيْرِ: «**اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلى جارِكَ**»، فَغَضِبَ الأَنْصارِيُّ، فَقالَ: أَنْ كانَ ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قالَ: «**اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلى الجَدْرِ**[(٣)]». فَقالَ الزُّبَيْرُ: واللهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾[(٤)].

وعَنْ أَبِي الأَسْوَدِ محمّدِ بنِ عبدِالرّحْمَن، قالَ: اخْتَصَمَ رَجُلانِ إِلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَضَى بَيْنَهُما، فَقالَ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِ: رُدَّنا إِلى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَعَمْ، انْطَلِقا إِلى عُمَرَ**»فَلَمَّا أَتَيا عُمَرَ، قالَ الرَّجُلُ: يا ابْنَ الخَطَّابِ، قَضَى لِي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذا، فَقالَ: رُدَّنا إِلى عُمَرَ، فَرَدَّنا إِلَيْكَ. قالَ: كَذَلِكَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ عُمَرُ: مَكانَكُما حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْكُما، فَأَقْضِيَ بَيْنَكُما، فَخَرَجَ إِلَيْهِما، مُشْتَمِلا عَلَى سَيْفِهِ، فَضَرَبَ الَّذِي قالَ: رُدَّنا إِلى عُمَرَ، فَقَتَلَهُ، وَأَدْبَرَ الآخَرُ، فارًّا إِلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا رسولَ الله، قَتَلَ عُمَرُ -واللهِ- صاحِبِي، وَلَوْ ما أَنِّي أَعْجَزْتُهُ لَقَتَلَنِي، فَقالَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما كُنْتُ أظنّ أَنْ يَجْتَرِئَ عُمَرُ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنَيْنِ**»فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾[(٥)].

---

(١) هوَ مسيلُ الماءِ، مِن المُرتفعِ إلى السّهلِ.

(٢) أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُودٍ.

(٣) أي: الجِدار، وقيل: المرادُ: الحَوابِسُ التي تحبِس الماءَ.

(٤) رواه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٩٤)، وابنُ بشران في أماليه (١٧)، وهو مرسلٌ، وله شواهدُ، وقال الشيخ سليمانُ بنُ عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه القصةُ مشهورةٌ متداوَلةٌ بين السلفِ والخلفِ، تداولًا يُغني عن الإسنادِ، ولها طرقٌ كثيرةٌ، ولا يضرُّها ضعفُ إسنادِها». تيسيرُ العزيزِ الحميد (ص٤٩٦).

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

تفنيدُ زَعمِ الذينَ يدّعونَ الإيمانَ، وإلزامُهم بالحُجَّةِ والبَيانِ.

وفِيها: بيانُ شَرطِ صِحةِ الإيمانِ، فيمَّا يتعلَّقُ بقَبولِ أحكامِ الوحيِ، والرُّضُوخِ لها.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ مِنَ الإذعانِ التامِّ، وانقيادِ النَّفسِ الكامِلِ، لحُكمِ اللهِ، ورسولِهِ، وأنَّ الامتِعاضَ مِنَ الحُكمِ الشَّرعيِّ حرامٌ.

وفِيها: أنَّ المُؤمِنَ الكاملَ ينشرحُ صدرُه لحُكمِ النبيِّ ﷺ لأوَّلِ وَهْلَةٍ.

وفِيها: أنَّ المُتردِّدَ في قَبولِ حُكمِ النبيِّ ﷺ ليس بمؤمنٍ حقيقةً، فضلًا عن الرَّادِّ، والمُعانِدِ.

وفِيها: أنَّ يقينَ القلبِ بصِحةِ حُكمِ النبيِّ ﷺ، وصدقِهِ، شرطٌ لصحةِ أصلِ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ التَّبرُّمَ، والتَّضايُقَ لا يُوجدُ في قلبِ مَنْ خَضعَ للحُكمِ الشَّرعيِّ.

وفِيها: إقسامُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بنفسِه الشَّريفةِ على الحقائِقِ العظيمةِ.

وفِيها: وجوبُ تحكيمِ النبيِّ ﷺ في جميعِ المُنازعاتِ والاختِلافاتِ.

وفِيها: وجوبُ الانقيادِ الظاهِرِ، والباطِنِ، للأحكامِ النبويَّةِ.

وفِيها: أنَّ التَّسليمَ الكُليَّ للحُكمِ النبويِّ لا بُدَّ مِنْه، وهذا يعنِي عدمَ وجودِ أيِّ مُمانعةٍ، ولا مُدافعةٍ، ولا مُنازعةٍ.

وفِيها: التَّرقِّي مِنَ التَّحكيمِ، إلى انتفاءِ الحَرَجِ، إلى التَّسليمِ.

وفِيها: تحريمُ معارضةِ النبيِّ ﷺ بأيِّ رأيٍ، أو هَوًى.

وفِيها: اشتراطُ الرِّضا الظَّاهِرِ، والرِّضا الباطِنِ، في الإيمانِ بأحكامِ الوَحْيِ.

وفِيها: أنَّ حُكمَ هذه الآيةِ باقٍ إلى يومِ القيامةِ، وقضاؤُه ﷺ وحكمُه، موجودٌ في السُّنةِ النبويةِ، وهذا الحُكمُ الذي في الآيةِ خاصٌّ بحُكمِه ﷺ، لا بحكمِ غيرِه، فإذا ظَنَّ أحدُ الخَصْمَيْنِ أنَّ حُكمَ القاضِي المَبْنِيّ على الاجتهادِ، ليسَ هو حُكمَ الشَّريعةِ، فلا يُعتبَرُ كافرًا، منافقًا. وكذلك مَنْ ردَّ حُكمًا شرعيًّا، ولمْ يكُنْ يعلَمُ بأنَّ هذا حُكمُ اللهِ، ورسولِه،

أو استَغرَبَه، واستَنْكَرَه، ثُمَّ تَبيَّنَ له أنَّه حُكمُ اللهِ، ورسولِه، فلا يُعتَبَرُ منافقًا، أو كافِرًا، إذا رضِيَ بَعد ذلك، وسَلَّم. وبهذا يَتبَيَّنُ الفَرْقُ بَيْن تَبْيِينِ القاضِي لحُكمِ اللهِ، ورسولِهِ، وبَيْن اجتهادِ القاضِي، ورأيِهِ الخاصِّ في المَسأَلَةِ.

وفِيها: عصمةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبليغِ الوحْيِ الإلهِيِّ، وفي الأحكامِ القضائيَّةِ.

وفي الآيةِ: وجوبُ التَّحاكمِ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياتِهِ، وإلى شريعتِهِ بَعد مماتِه.

وفِيها: وُجوبُ تَقَبُّلِ الحُكمِ الشَّرعيِّ بالرِّضا، وطِيبِ النَّفسِ، وانشِراحِ الصَّدرِ، وطُمأنِينةِ القلبِ، معَ اليقينِ التامِّ أنَّ هذا هو الحَقُّ، والعَدلُ.

وفِيها: أنَّه يكفي لإثباتِ الإسلامِ التَّحاكمُ إلى شريعةِ اللهِ، ورسولِه، وأمَّا الرِّضا النَّفسيُّ، والقَبولُ القلبيُّ: فإنَّه خَفِيٌّ، لا يُدرَكُ في الظاهِرِ؛ ولهذا كانَ متعلِّقًا بالإيمانِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ خالَفَ الحُكمَ الشَّرعيَّ، مع إيمانِه به، فهو عاصٍ، وأمَّا إذا خالَفَه، وهُو جاحدٌ له، فهو كافرٌ.

وفِيها: بيانُ الغايةِ التي يكونُ قبلها الإيمانُ منتفِيًا، ثُمَّ يَتحقَّقُ عندَ حصولِها، كما تُفيدُ كَلِمةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في الآيةِ.

ولَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا مِنْ عِنادِ اليهودِ، والمنافقينَ، ومعصِيَتِهم، ذكَّرَهم بأنَّه لَو فَرَضَ عليهِم أثقَلَ مِمَّا فَرَضَ -كقَتلِ أنفسِهم، والخُروجِ عَن أوطانِهم- ما فَعَلُوه، إلا قليلٌ مِنْهم، فلْيَرْضَوْا بالأخفِّ الذي فَرَضَه، والأسهلِ الذي شَرَعَه، ولْيقوموا به، ويَمْتثِلوا، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فَرَضْنا، وأوجَبْنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قيل: على يهودِ المَدينةِ، وقيلَ: على المنافِقينَ، وقيل: عُمُومِ النَّاسِ ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أنْ يَقتُلَ كلُّ واحدٍ نفسَه، أو

يَقتُلَ بعضُهم بعضًا ﴿أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ وفارِقُوا أوطانَكم بالهجرةِ إلى دارٍ أُخرَى، كما كَتَبْنا على بني إسرائيلَ القتلَ، لَمَّا عَبَدوا العِجلَ، وكَتَبْنا عليهم الخُروجَ، والجلاءَ، مِنْ مِصرَ: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: هؤلاءِ اليهودُ، أو المنافقون، أو عُمُومُ النَّاسِ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ ويُكلَّفُون، ويُؤمَرُون ﴿لَكَانَ﴾ فِعْلُهم، وامتثالُهم، ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ وأنفعَ في الدُّنيا، والآخِرةِ، ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ لأنفسِهم على الحَقِّ، وأكثرَ تصديقًا، وتحقيقًا لإيمانِهم ﴿وَإِذٗا﴾ في حالِ إيمانِهم، وامتثالِهم ﴿لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ أعطَيْناهم مِنْ عندِنا ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وثوابًا جزيلًا، في العاجِلِ، والآجِلِ ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ وأرشدناهم ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ لا عِوَجَ فيه، يُوَصِّلُ إلى السَّعادةِ.

وفي الآياتِ مِنَ الفوائِدِ:

رحمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنَّاسِ، وبهذه الأمَّةِ؛ فإنَّه لَمْ يَفرِضْ عليها آصارًا، وأغلالًا، كقتلِ الإنسانِ نفسَه، وتركِه لدارِه، ووطنِه.

وفيها: أنَّ التَّوبةَ في هذِه الأمَّةِ أخفُّ مِنَ التوبةِ في بني إسرائيلَ، والتي كانتْ تَتَضمَّنُ قتلَ النُّفوسِ، وإخراجَها.

وفيها: أنَّ أصحابَ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكملُ إيمانًا مِنْ أصحابِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ بني إسرائيلَ كثيرًا ما تَوَلَّوْا، وعَصَوْا، وأمَّا أصحابُ نبيِّنا: فقالوا: سمِعنا، وأطَعنا، وقد جاءَ في بعضِ الرِّواياتِ: أنَّهم قالوا عندَ نزولِ هذه الآيةِ: «واللهِ لو كتبَه اللهُ علينا لَقَبِلْنا، الحمدُ للهِ الذي عافانا، ثُمَّ الحمدُ للهِ الذي عافانا». فَقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمانُ أَثْبَتُ في قُلُوبِ رجالٍ مِنَ الأنصارِ، مِنَ الجبالِ الرَّواسِي**»(١).

وفي الآياتِ -أيضًا-: امتحانُ أهلِ النِّفاقِ؛ لإظهارِ حَقيقتِهم.

وفيها: أنَّ صادقَ الإيمانِ يُطيعُ في السَّهلِ، والصَّعبِ، والمَحبوبِ، والمَكروهِ.

وفيها: أنَّ مِنْ عذابِ الدُّنيا: إخراجَ الرُّوحِ مِنَ الجَسَدِ، وإخْراجَ الجَسَدِ مِنَ الدَّارِ.

---

(١) رواه الطبريُّ في تفسيره (٨/ ٥٢٦)، وابنُ المنذر (٢/ ٧٧٩)، وابنُ أبي حاتم (٣/ ٩٩٥)، وغيرُهم، من طُرق، كلُّها مُرسلات. وانظر: تَفْسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٣٥٢).

وفِيها: تبليغُ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ بالموعِظةِ؛ وذلك بذِكْرِها مقرونةً بالوعدِ، والوعيدِ، والثَّوابِ، والعِقابِ.

وفِيها: أنَّ طاعةَ العبدِ لربِّه خيرٌ مِنَ الدنيا، وما فيها.

وفي الآيات: أنَّ توالِي الطَّاعاتِ يُثبِّتُ صاحبَها على طريقِ الحقِّ.

وفِيها: أنَّ القيامَ بالأعمالِ دليلٌ على صِحَّةِ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ امتثالَ الأوامرِ والنَّواهي الإلهيَّةِ، يؤدِّي إلى مَزيدٍ مِنَ الهدايةِ الربَّانيَّةِ.

وفِيها: حَمْدُ اللهِ على العافيةِ، وعلى عَدَمِ تكليفِه ما لا يُطاقُ.

وفِيها: انتفاءُ الحَرَجِ في دينِ هذه الأمَّةِ.

وفي الآياتِ: تهيئةٌ لِذِكْرِ الجِهادِ، والهِجرةِ، كما في الآياتِ التي ستأتِي بَعدَها.

وفِيها: أنَّ اللهَ قد يُكلِّفُ عبادَه بالمَشاقِّ، لكنْ لا يُكلِّفُهم بما لا يُطاقُ.

وفِيها: أنَّ بعضَ المنافقينَ قد يَفعلونَ المَأموراتِ، ويَمتثِلونَ في الظاهِرِ؛ سُمعةً، ورياءً، حتى لا ينكشفَ كُفرُهم.

وفِيها: أنَّ العبدَ إذا لاحظَ جانِبَ الأجرِ، والثَّوابِ، وتأمَّلَ فيما يكونُ عليه الحالُ، لو كانتِ التكاليفُ أشقَّ، وأعسَرَ، ورأى الوعدَ بالهدايةِ: فإنَّه ستخِفُّ عليه مَشقَّةُ ما هو فيه مِنَ العِباداتِ، والتَّكاليفِ.

وفِيها: أنَّ الامتِثالَ للأمرِ الشّرعيِّ يترتَّبُ عليه أربعةُ أمورٍ: الخَيريَّةُ، والتَثبيتُ، والأجرُ العاجلُ، والآجلُ، والهِدايةُ، وهذا مِنْ كَرَمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفي الآيات: دليلٌ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطَّاعةِ، ويَنقُصُ بالمَعصيةِ.

وفِيها: جزالةُ الأجرِ على الطَّاعةِ، وذلك مِنْ وجوهٍ، مِنْها:

أنَّه مِنْ عندِ اللهِ، كما في قولِه: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾.

وأنَّه عَظَّمه، فقال: ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

وأنَّ المُعطِي هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والتأكيدُ في قوله: ﴿لَآتَيْنَاهُم﴾.

وأنَّه وعدٌ، واللهُ لا يُخلِفُ المِيعادَ.

وفِيها: توفيقُ اللهِ لعبادِه، بتيسيرِ إيصالِ الحقِّ لهم، وتَسهيلِ فِعْلِ الأعمالِ الصالحةِ عليهم.

وفِيها: أنَّ فِعْلَ الطَّاعاتِ يَزيدُ الإيمانَ ثباتًا، ويُبْعِدُ العبدَ عن الوَساوسِ والشُّكوكِ.

وفِيها: الرِّضا بما قدَّره اللهُ وقضاهُ، مِنَ الشَّرعِ، والأحكامِ.

وفِيها: أنَّ بعضَ مَنْ يفعلُ الطَّاعاتِ لا يُؤجرُ؛ لأنَّـه لَمْ يقصِدْ وجهَ اللهِ، وإنَّما عَمِلَ رياءً، وسُمعةً، ودفعًا لتُهمةِ النِّفاقِ عنْ نفسِه.

ثُمَّ بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أنَّ الصِراطَ المستقيمَ، الذي يَهدِي إليه مَنِ امتَثَلَ أمرَه، ويَرزقُه سلوكَه، إنَّما هو صراطُ الذينَ أنعمَ عليهم، مِنَ النَّبيِّينَ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءِ، والصَّالِحِينَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -في ذِكْرِ جزاءِ مَنْ أطاعَه-:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بفِعْلِ ما أمَرَ به اللهُ، ورسولُه، واجتنابِ ما نَهى عنه اللهُ، ورسولُه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الصالِحونَ، المُطيعونَ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الدُّنيا: بالهدايةِ، والتَّوفيقِ، وفي الآخرةِ: بدخولِ جنَّاتِ النعيمِ ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وعلى رأسِهِمُ: الرُّسُل ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الذينَ سبَقوا إلى تصديقِ الرُّسلِ ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ القتلَى في سبيلِ اللهِ، وكذلك العُلماءِ الذينَ يَشهدونَ لصحةِ دينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالحُجَّةِ والبيانِ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ القائمينَ بحقوقِ اللهِ، وحقوقِ عبادِه ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: ما أحسَنَ هؤلاءِ في زيارتِهم، ولِقائِهم، والاجتماعِ بِهِم، والأُنْسِ بقُربِهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المُرافقةُ للأخيارِ الأبرارِ ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضُّلٌ مِنه، ومِنَّةٌ، وعَطاءٌ، فهو الذي وفَّقَهم للطَّاعةِ،

وأدخلَهُـمُ جنَّتَـه، ورزقَهَـم هـذه المُرافقةَ برحمتِـه، لا بأعْمالِهِـم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيـمًا ﴾ بمَنْ يستحقُّ الهِدايةَ، والتَّوفيقَ، والفَضلَ.

وقد ورَدَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ:

عـن عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «جـاءَ رجلٌ إلى النبـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسـولَ اللهِ، إنَّك لأحـبُّ إليَّ مِـنْ نَفسِي، وأحبُّ إليَّ مِنْ أهـلِي، وأحبُّ إليَّ مِنْ ولَـدِي، وإنِّي لأكونُ في البيتِ، فأذكُـرُكَ، فـما أصبِرُ حتَّـى آتِيَكَ، فأنظرَ إليـكَ، وإذا ذَكَرْتُ موتِي، وموتَـك، عَرَفْتُ أنَّك إذا دخلتَ الجنَّةَ رُفِعْتَ معَ النَّبيِّينَ، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّةَ خَشِيتُ أنْ لا أراكَ. فلَمْ يَردّ عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتـى نَزَلَتْ عليـه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾»[(١)].

وفي الآيتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

فضـلُ طاعةِ اللهِ، ورسـولِه، والتَّـدرجُ في ذِكْرِ الأخيـارِ مِنَ الأعلَى إلى الأدنَى، وسـلوكُ مَسلكِ التَّدلِّي في العَرْضِ، والبَدءُ بالأفضلِ في الذِّكرِ.

وفيهـا: فَضـلُ الرِّسـالةِ، والنُّبـوَّةِ، وصَحابةِ الأنبيـاءِ، والشَّـهادةِ في سـبيلِ اللهِ، ومَنزلةِ العلماءِ، وفَضلِ الصَّلاحِ.

وفيها: صَرْفُ الأعمارِ في طاعةِ اللهِ، وهو ممَّا قيلَ في تعريفِ الصَّلاحِ.

وفيها: أنَّ المَرْءَ مَعَ مَنْ أحَبَّ.

وفيها: أنَّ المَعيَّةَ لا يلزَمُ أنْ يكونَ أهلُها في درجةٍ واحدةٍ، وقد يَحصُلُ اللِّقاءُ والرِّفقةُ بيْن أهلِ الدَّرجاتِ المُتفاوتةِ.

وفيها: أنَّ الأدنَى في الجنَّةِ، لا يُحرَم مِنْ رؤيةِ الأعلَى.

وفيها: الإجابةُ عمَّا تاقَتْ إليهِ نُفوسُ الصَّحابةِ، مِنَ الرَّغبةِ في الاجتماعِ بنبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ الموتِ، ودخولِ الجنَّةِ.

---

(١) رواه الطبرانيّ في الأوسط (٤٧٧)، وفي الصغير (٥٢)، والضياء المقدسي في صفة الجنة (٢٠)، وقال الضياء: «لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا» وله طرق، انظر: تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٣٥٤).

وفيهما: أنَّ أهلَ الإيمانِ لا يصبرونَ عن رؤيةِ نبيِّهم، وأئمَّتِهم.

وفيهما: أنَّ مُرافقةَ الأخيارِ في الدُّنيا، تُورِثُ مرافقتَهم في الآخِرةِ.

وفيهما: الاستعانةُ بالأعمالِ الصَّالحةِ على لقاءِ الأخيارِ، وتحصيلِ مُرافقتِهم.

وفيهما: فضلُ الأصنافِ الأربعةِ المَذكورِينَ في الآيةِ؛ ولذلك اختارَهم النبيُّ ﷺ، لَمَّا خُيِّرَ عندَ موتِه؛ كما رَوَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالتْ: «كنتُ أَسمعُ أنَّه لَن يَموتَ نبيٌّ، حتى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنيا، والآخرةِ». قالت: «فسمعْتُ النَّبِيَّ ﷺ في مرضِه الذي ماتَ فيه، وأخذَتْه بُحَّةٌ[1]، يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾»، قالتْ: «فظننتُه خُيِّرَ حِينئذٍ»[2].

وفي الآيتَيْنِ: أنَّ فضلَ اللهِ عظيمٌ، وأنَّ فضلَه مبنِيٌّ على عِلْمِه، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ المستَحِقَّ لفضلِه؛ فيوفِّقُه للأسبابِ المؤدِّيةِ إلى تحصيلِ ذلك الفَضلِ.

وفيهما: مُقابلةُ ذِكْرِ المنافِقِينَ، واليهودِ، ومعصيتِهم، بذِكْرِ أهلِ الإيمانِ، والخيرِ، وطاعتِهم.

وفيهما: أنَّ أهلَ الجنَّةِ درجاتٌ، وأرفعُهم فيها درجةً، أقربُهم إلى اللهِ في الدُّنيا.

وفيهما: فضلُ طاعةِ الأنبياءِ، ومُناصَرتِهم، والدَّعوةِ إلى ما جاءوا به.

وفيهما: فضلُ أصحابِ نُصرةِ الدِّين بالسَّيفِ، والسِّنانِ، وفضلُ أصحابِ نُصرتِهِ بالحُجَّةِ، والبيانِ.

وفيهما: فضلُ مَنْ صَلُحَ سِرُّهُ، وعلانيتُه، وفضلُ صلاحِ السِّيرةِ، والسَّريرَةِ.

ولَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طاعتَه، وطاعةَ رسولِه، وكانَ الجهادُ مِنْ أعظَمِ الطَّاعاتِ، وأشقِّها على النُّفوسِ، نادَى المؤمنينَ إليهِ. ولَمَّا ذَكَرَ مَنزلةَ الشَّهادةِ في سبيلِه، كان في ذلك تمهيدٌ، وتوطئةٌ، للأمرِ بالجهادِ في سبيلِه؛ فقال -آمِرًا عبادَه المؤمنينَ، بأخذِ الحَذَرِ مِنْ عدوِّهم، والتَّأهُّبِ للقائِه، والنَّفيرِ على كلِّ حالٍ-:

---

(١) شيء يَعترض في مجاري التنفس، فيتغير به الصوت، ويغلُظ.

(٢) رواه البخاريّ (٤٤٣٥)، ومسلم (٢٤٤٤)، وهذا لفظه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ باللهِ، ورسولِه ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ أي: احترازَكم مِنْ عدوِّكم، ولا تُمكِّنوهم مِنْ أنفسِكم، والحَذَرُ: هو تَوقِّي المَكروهِ، وهذا يَشملُ: إعدادَ السِّلاحِ، وتكثيرَ العَدَدِ بالنَّفيرِ في سبيلِ اللهِ، والاستعدادَ النَّفسيَّ لمُلاقاةِ العدوِّ، ومعرفةَ حالِه، والحَذَرَ مِنْ تثبيطِ المُنافِقينَ ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ اخرُجوا لقتالِ عدوِّكم، والنَّفْرُ: الانزعاجُ، والفَزَعُ، ﴿ثُبَاتٍ﴾ جَماعةً بَعدَ جَماعةٍ، وفِرقةً بَعدَ فِرقةٍ، وسَريَّةً بَعدَ سَريةٍ، وثُباتٌ: جمعُ ثُبةٍ، قيل: مُشتقَّةٌ مِنْ ثبا يثبُو، إذا اجتمَعَ، وقيل: مشتقةٌ مِنْ ثَبَيْتُ على الرجلِ، إذا أثنَيْتَ عليه، وجَمَعْتَ محاسِنَه[١] ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ اخرجوا لمُلاقاةِ عدوِّكم مجتمعِينَ في جيشٍ واحدٍ، وذلك بِحسَبِ حالِ العدوِّ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أَخْذُ الأُهبَةِ للقاءِ الأعداءِ، وعدمُ الاقتحامِ على جَهالةٍ.

وفِيها: الأخذُ بأسبابِ القوَّةِ في الجِهادِ.

وفِيها: أنَّ كلَّ ما يُعينُ على الواجِبِ في الجِهادِ فهو واجبٌ، مِنْ معرفةِ طبيعةِ أرضِ العدوِّ، وحالِه، وسلاحِه، وبثِّ العُيونِ لجَمعِ الأخبارِ، وغيرِ ذلِك.

وفِيها: العملُ بالأسبابِ، والعَملُ على حَسَبِ الإمكانِ، واجتهادُ وُلاةِ الأمورِ، والقائمينَ بشأنِ الجهادِ، في كيفيَّةِ خروجِ المسلمينَ: جماعاتٍ، أو جماعةً واحدةً.

وفِيها: تعلُّمُ فُنونِ الحَربِ، وأنْ تستغنِيَ الأمَّةُ في ذلكَ عَنْ غيرِها.

وفِيها: أهمِّيَّةُ التَّيَقّظِ، وأخذِ الحَذَرِ، وأنَّ التَّفريطَ في ذلك مِنْ أسبابِ الهَلاكِ، وتسلُّطِ الأعداءِ.

وفِيها: غَزْوُ العَدُوِّ، وعدمُ انتظارِ إتيانِه.

وفِيها: أنَّ الأعداءَ يَتربَّصونَ الدوائرَ بالمؤمنينَ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٤)، الدر المصون (٤/ ٢٨)، أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٨١).

وفِيها: أنَّ مِنَ الجهادِ: ما يكونُ فَرْضَ عَيْنٍ على الجميعِ، ومِنْه: ما يكونُ فَرْضَ كِفايةٍ، فيجِبُ على البعضِ، دونَ الآخَرينَ.

وفِيها: تعلُّمُ الصِّناعاتِ الحَربيَّةِ، والخُطَطِ العَسكريَّةِ.

وفِيها: اجتماعُ كلمةِ المُسلمينَ، والسَّمعُ، والطَّاعةُ، وتركُ الشذوذِ، والمخالفةِ، والعِصيانِ.

وفِيها: أنَّ الأعداءَ يَخدعُون، ويَغدرُونَ.

وفِيها: وِقايةُ نُفوسِ المسلمينَ مِنْ أسبابِ الهَلاكِ.

وفِيها: ارتفاعُ حِسِّ اليقظةِ في النَّفسِ المؤمنةِ.

وفِيها: عدمُ الانفراد بالخُروجِ في سبيلِ اللهِ، إلا إذا دَعَتْ مصلحةٌ لذلك، والأصل: أنْ يخرجوا جماعةً؛ ليُعِينَ بعضُهم بعضًا.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحَذَرَ مِنَ العَدوِّ الخارِجيِّ، نبَّه إلى خَطَرِ العَدوِّ الداخِليِّ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المنافقينَ، وتَخلُّفِهم عن الجِهادِ، وتعويقِهم لِغيرِهم، وفَرَحِهم بفواتِ الأجرِ:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أي: فيكُم، والخِطابُ لجماعةِ المؤمنينَ بِحَسَبِ الظاهِرِ؛ لأنَّ المنافِقينَ مُندسُّونَ فيهم، متظاهِرونَ بدعوتِهم، وقيل: المقصودُ عبدُاللهِ بنُ أُبَيّ، ومَنْ على شاكِلَتِه ﴿لَمَن﴾ اللامُ للتأكيدِ ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يَتَخلَّفُ عنِ الجهادِ ضَعفًا، وخَورًا، وجُبنًا؛ لنفاقِه، وقلَّةِ إيمانِه، وقد جمَعَ بَيْنَ التأخّرِ عنِ الجهادِ، وتَثبيطِ غيره عن الخُروجِ فيهِ، واللام للقَسَمِ، والتَّقديرُ: وإنَّ مِنكم لَمَنْ -واللهِ- لَيُبطّئنَّ[1] ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ مِنْ قتلٍ، أو جِراحٍ، أو هَزيمةٍ ﴿قَالَ﴾ -فرحًا بما فَعَل، حامدًا رأيه، وموقِفَه-: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقُعُودِ، والسَّلامَةِ ﴿شَهِيدًا﴾ حاضرًا المعركةَ، فأُقتَل.

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش (١/ ٢٦١)، البحر المحيط (٣/ ٧٠٤)، زاد المسير (١/ ٤٣١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

سعْيُ المُنافقينَ في تخذِيلِ المؤمنينَ.

وفِيها: أنَّ المُنافِقَ يتأخَّرُ عنِ الخَيْرِ، ويُعوِّقُ غيرَه عنه.

وفِيها: أنَّ أهلَ النِّفاقِ لا يُريدونَ بقاءَ الإسلامِ، ولا الدِّفاعَ عنه، وحمايةَ بَيْضَتِه.

وفِيها: ذمُّ الجُبناءِ الذين يتأخَّرونَ عَنِ الجهادِ؛ خوفًا مِنْ صليلِ السُّيوفِ، ومقابلةِ العدوِّ، والكَرِّ، والفَرِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُصيبُ المؤمنينَ بالمصائِبِ؛ لِحكمةٍ يُريدُها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِنْ ذلك: إظهارُ ما في صدورِ المنافقينَ مِنَ النِّفاقِ، والتَّمحيصُ، والتَّمييزُ.

وفِيها: استهزاءُ المنافقينَ بمقامِ الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ.

وفِيها: ذمُّ التَّثاقُلِ عَنِ الخُروجِ للجهادِ بلا عُذْرٍ.

وفِيها: أنَّ المعصيةَ تَجُرُّ إلى المعصيةِ، فإبطاءُ هؤلاءِ عَنِ الجهادِ، قد جَرَّهم للابتهاجِ بالسَّلامةِ، وفواتِ الشَّهادةِ.

وفِيها: أنَّ النَّاجِي الحقيقيَّ ليسَ مَنْ سَلِمَ مِنَ القتلِ، والجَرْحِ، في الدُّنيا، وإنَّما مَنْ سَلِمَ مِنَ النَّارِ يومَ القيامةِ، وابتهاجُ المنافقينَ بالسَّلامةِ سَيَجرُّ عليهم يومَ القيامةِ الحَسْرةَ، والنَّدامةَ.

وفِيها: أنَّ المنافقينَ يَرَوْنَ الشَّهادةَ مصيبةً محَضَةً، ولا يَرَوْنَ فيها ثوابًا.

وفِيها: خُطورةُ تغليبِ الدَّاعِي الجِبِلِّيِّ، وهَوَى النَّفسِ، على الدَّاعِي الشَّرعيِّ.

وفِيها: عدمُ التفاتِ المؤمنينَ إلى القاعِدينَ، والمُثبِّطِينَ، وتركُ الاستجابةِ لهم، وتحريمُ التشبُّهِ بهم.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنْ توهِينِ العزائِمِ في الطَّاعةِ.

وفِيها: أنَّ مِنِ انطِماسِ البَصيرةِ: أنْ يَرَى المُنتكِسُ فواتَ الطَّاعةِ نِعمةً.

وفِيها: أنَّ مِنَ المنافقينَ مَنْ يُقِرُّ بأنَّ له ربًّا، وخالِقًا.

وفِيها: أنَّ مَنْ نالَ الشَّهادةَ في سبيلِ اللهِ، فقد حَصَلَ له التَّوفيقُ العظيمُ، والنِّعمةُ الجليلةُ.

وفِيها: أنَّ المنافِقَ جَمَعَ بَيْن سيِّئَتَيْنِ: تأخُّره، وتَثاقُله، وجُبنِه عن الخُروجِ في سبيلِ اللهِ، وتثبيطِه لغيره عن تأييدِ الحقِّ، والدِّفاعِ عن بَيْضةِ أهلِ الإسلامِ، فهو يَتمنَّى أنْ يستبيحَ الكفارُ أهلَ الإسلامِ.

وفِيها: أنَّ الموتَ -فما دُونَه مِنَ الضَّرَرِ- مصيبةٌ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ يَعتبرونَ السَّلامَةَ مِنْ مَسِّ القَرْحِ في سبيلِ اللهِ كِياسَةً، وحُسْنَ تدبيرٍ، كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

وفِيها: أنَّه يَنبغِي على المؤمنينَ عدمُ التأثُّرِ بتَحزِينِ المنافِقينَ، وتعليقاتِهمُ السَّيِّئَةِ، بَعدَ الإصابَةِ بالمُصيبَةِ؛ فإنَّ المنافقَ لا يَحتسِبُ الأجرَ، في الأذَى في سبيلِ اللهِ، ولا يَراهُ قُربةً إلى اللهِ، ولا خَيرًا، وإنَّما يَرى أنَّه حَصَلَ بسببِ التَّهوُّرِ، والحِساباتِ الخاطئَةِ، ونحوِ ذلك؛ ولهذا إذا رأى المنافِقُ أن ضررًا قد نالَ آمِرًا بالمعروفِ، أوْ ناهيًا عَنِ المُنكرِ، فإنَّه يَغبطُ نفسَه على سُكوتِهِ، وسلامَتِهِ، ويَعيبُ المحتسِبَ الصابرَ، ويُعيِّرُه بما أصابَه في سبيلِ اللهِ، فيَجمعُ بَيْن تركِ الواجبِ الشَّرعيِّ، وبَيْن الشَّماتَةِ في أهلِ الدِّين، بينَما يُعاتِبُ صاحبُ الإيمانِ نفسَه، ويوبِّخُها، إذا تقاعَسَتْ عن حُضورِ مواقِعِ الحقِّ، ويتحسَّرُ على ما فاتَه مِنَ الأجرِ، ويَغبِطُ مَنْ سَبَقه إلى الخَيرِ، ويُواسِيه إذا حَصَلَ له ضررٌ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موقفَ المنافقينَ عندما تُصيبُ المسلمينَ مصيبةٌ، أو هزيمةٌ، ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ بَعدها مَوقِفَهم، وحَسَدَهُم، وحَسْرَتَهم، عندما يُصيبُ المسلمينَ فضلٌ مِنَ اللهِ، ونَصرٌ، فقال:

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ﴾ اللامُ لامُ القَسَمِ، أي: وعزَّتِي وجلالِي، لَئِنْ حَصَلَ لكم ﴿فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتحٌ، ونصرٌ، وظَفرٌ، وغَنيمةٌ، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ذلك المنافِقُ المُبطِّئُ -نادمًا، مُتحسِّرًا،

حاسِـدًا، مُتهالِكًا على حُطامِ الدُّنيا ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ أي: صِلةٌ، ومحبةٌ في الدِّيـن، وصُحبـةٌ، ومُخالطةٌ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾ يتمنَّـى أنْ يكونَ خارجًا، غازِيًا، مع المسلمينَ ﴿فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ فأحْظَى بسهمٍ وافرٍ مِنَ السَّبْيِ، والغَنيمةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ التَّخلـفَ عـنِ الجهادِ في سـبيلِ اللهِ، يؤدِّي إلى النَّـدمِ، والحَسرةِ، ويفـوِّتُ الفضلَ في الدُّنيا، والأجرَ في الآخرةِ.

وفيها: حُسْنُ الأدبِ معَ اللهِ؛ فإنَّه قال في الآيةِ التي قَبْلها: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾، وقال في هذه الآيةِ: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، معَ أنَّ المصيبةَ أيضًا مِنَ اللهِ، وهذا مِثلُ قولِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٠]، فلَمْ يَنْسِبْ إبراهيمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ المرضَ إلى ربِّه، مع أنَّه مِنْ تقديرِه، وفِعْلِه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك تأدُّبًا معـهُ، وكما قـال صالِحُـو الجِـنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]، معَ أنَّ حصولَهما جميعًا بإرادةٍ مِنَ اللهِ.

وفيهـا: أنَّه لا عَلاقةَ حقيقيَّةَ بَيْنَ المنافِقِ، والمجتمعِ الإسـلاميِّ، الذي يعيشُ فيه، فإنَّه قد قَطَعَهـا بنفاقِـه، فلا يَرَى نَصرَهم نصرًا له، ولا يَرَى هَزيمتَهـم مصيبةً عليه، بل أَمْرُه كما قال اللهُ: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢١]، فـلا أُخوَّةَ دينٍ قائمةٌ، ولا صُحبةَ دنيا صادقةٌ.

وفيهـا: أنَّ نظـرةَ المنافقِ ماديَّةٌ بَحْتةٌ، وأنَّ حِرْصَه على المالِ، لا على شيءٍ آخرَ، وهَلَعَه كلَّه على حُطامِ الدنيا الفانيةِ.

وفيهـا: ضَحالـةُ فِكـرِ المنافقِ؛ فإنَّه لا يَـرَى الفوزَ إلا في مغانِـمِ الدُّنيا، ولا يَـرَى المِحْنةَ، والمصيبـةَ، إلا ألَمًا، وشرًّا، بينما يَـرَى المؤمنُ المصيبةَ كفَّارةً، وأجرًا، وشَـهادةً، ورِفعةً، ويَرَى الغنيمةَ فضلًا معجَّلًا، ونِعمةً مِنَ اللهِ.

وفيها: أنَّ بقاءَ المنافقينَ وسـطَ المؤمنينَ، إنَّما هو لمصالِحِهمُ الشَّـخصيَّةِ، وللكَيْدِ، والطَّعْنِ في ديـنِ اللهِ، فـإذا خَرَجَ المنافِقُ معَ المؤمنينَ في الجهادِ، فإنَّما يَقصدُ الغنيمةَ، ومتاعَ الدّنيا، وإذا

تخلَّفَ عنِ الجهادِ -وما أكثرَ ذلك مِنْه- فإنَّما هو جُبنٌ، وتخذِيلٌ، وتربُّصُ الدوائرِ بالمؤمنينَ، فإذا خَرَجُوا لا يَرْجُونَ مِنَ اللهِ ثوابًا، وإذا تَخلَّفوا لا يَخْشَوْنَ مِنَ اللهِ عِقابًا.

وفِيها: أنَّ المنافقَ يُظهِرُ الحسَدَ، كما قال الله عنه في هذه الآيةِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾.

وفِيها: أنَّ المَقولةَ الواحدةَ قد يَقولُها المؤمنُ، وقد يَقولُها المنافقُ، ولكنْ شتَّانَ بَيْن باعِثِ هذا، وباعِثِ هذا، فقد يقولُ المؤمنُ إذا فاتَتْه المعركةُ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ فيكونُ قصدُه: الفوزَ الأُخرويَّ، ويكونُ مَبعثُه في الكلامِ: التَّحسُّرَ، والتندُّمَ؛ لفواتِ الطَّاعةِ. وأمَّا المنافقُ: فيكونُ قصدُه بالفوْزِ: الغنيمةَ الدنيويَّةَ، ويكونُ مَبعثُه في الكلامِ: الحَسَدَ، والتَّحسُّرَ، على فواتِ الدنيا.

وفِيها: أنَّ الأصلَ في العَلاقةِ بَيْن المؤمنينَ: قِيامُها علَى المودَّةِ القلبيَّةِ، والمحبةِ في اللهِ، وليسَ على المصالحِ الشخصيَّةِ، والعَلاقاتِ الماديَّةِ الدُّنيويَّةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ قد قَطَعَ المودَّةَ بَيْن المؤمنينَ، والمنافقينَ.

ولَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تخذيلَ المنافِقينَ عنِ الجهادِ، وخروجَهم مِنْ أجلِ مغانمِ الدُّنيا، أمَرَ عبادَه المؤمنينَ بالخُروجِ في سبيلِه؛ عزْمًا بِلا تَثاقُلٍ، وقصدًا لوجهِه، لا لمغانِمِ الدُّنيا. ولَمَّا كان قد أمَرَهم -أولًا- بأخْذِ الحَذَرِ مِنَ الكُفَّارِ، كلَّفَهم -ثانيًا- بالخُروجِ بأنفسِهم إلى قتالِهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾.

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾ اللَّامُ: لامُ الأمرِ، وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهلِ الإيمانِ بالجهادِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قصدًا لوجهِه، وإعلاءً لكَلِمتِه ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ﴾ أي: يَبيعُون ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيتنازَلونَ عن بهجَتِها الزائلةِ، وما فيها ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مُريدِينَها لنعيمِها الدائمِ، وهذا كقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، أي: يَبيعُها.

وقولُه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ أي: كلُّ مَنْ حصَلَ له أحدُ الأمرَيْنِ، سواء قُتِلَ، أو غلَبَ، وسلَبَ، وغنِمَ، وسلِمَ، ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أي: في كِلا الحالتَيْنِ، سنُعطِيه ثوابًا جزيلًا مِنْ عِندنا في الآخِرَةِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جاهَدَ في سَبِيلِهِ -لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهادُ في سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِماتِهِ- بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ ما نالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ**»(١).

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أمْرُ المؤمنينَ بمباشرةِ قتالِ الكفَّارِ.

وفِيها: تذكيرُهم بحُسْنِ القَصْدِ، والإخلاصِ.

وفِيها: أنَّ المُجاهدَ في سبيلِ اللهِ مأجورٌ على كلِّ حالٍ.

وفِيها: إيثارُ الباقِي على الفانِي.

وفِيها: أنَّ المؤمنينَ إذا غَلَبُوا، وسَلَبُوا، لا يَفوتُهم الأجرُ العظيمُ.

وفي الآية: ذِكْرُ حالتَيْنِ: الاستشهادُ، والنَّصرُ، وهناك حالاتٌ أخرى، كالإصابةِ بالجِراحِ، أو الأسْرِ، أو غلبَةِ العَدوِّ، ونحوِ ذلك، فهو مأجورٌ في هذا كلِّه، وَذِكْرُ الاحتمالَيْن في الآيةِ، إنَّما هو على وجهِ العُمومِ الغالِبِ، لا على وجهِ الحَصْرِ.

وفِيها: مخالفةُ حالِ المؤمنينَ، أهلِ العَزْمِ، والإخلاصِ، لحالِ المنافقينَ، المُبطِّئينَ، القاعِدينَ.

وفِيها: أنَّ هَمَّ المُقاتِلِ المُسلمِ يَجِبُ أنْ يكونَ الظَّفَرَ، أو الشَّهادةَ، وليس الهَرَبَ، والنَّجاةَ.

وفِيها: أنَّ الذي يُقتَلُ في سبيلِ اللهِ أفضلُ مِمَّنْ بَقِيَ حيًّا، ولو تغلَّبَ على عدوِّه؛ ولذلك قدَّمَه بالذِّكْرِ -وهَذا في الغالِبِ-.

وفِيها: تذكيرُ المُجاهدينَ بالهَدَفِ مِنَ الجهادِ، وهو: إعلاءُ كَلمةِ الدِّينِ، فليسَ القِتالُ

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

لفَخْرٍ، بأنْ يُقالَ فلانٌ شُجاعٌ، أو قَصْدِ غَنيمةِ الدُّنيا، أوْ أخذِ أموالِ الآخَرينَ، أوْ لُمجرَّدِ القتلِ، وشَهوةِ سَفكِ الدِّماءِ.

وفِيها: تذكيرُ الخارجِ للجهادِ بأنْ يَقصدَ إحدَى الحُسْنَيَيْن: النصرَ، أو الشَّهادةَ، فإذا وَقَعَ شيءٌ آخرُ بخلافِهما -كأنْ يُؤخَذَ أسيرًا- فإنَّما وَقَعَ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ، لحكمةِ الابتلاءِ، وليس هو مَقصودَ الخارجِ في سبيلِ اللهِ ابتداءً.

وكذلك: فإنَّ مقصودَ الغازِي في سبيلِ اللهِ نُصرةُ الدِّينِ، وليسَ الغنيمةَ، فإنْ حَصَلتِ الغَنيمةُ، فهو رزقٌ مِنَ اللهِ ساقَه إليهِ، وليس هو مقصودَ الخارِجِ في سبيلِ اللهِ ابتداءً.

وفِيها: أنَّ القَتْلَ، والشهادةَ، أو النصرَ، والغَلَبَةَ -كلاهُما- إعزازٌ للنَّفسِ، ورِفعةٌ لها، وكرامةٌ.

وفِيها: أنَّ الدُّنيا لَمَّا هانَتْ في نُفوسِ المؤمنينَ باعُوها؛ ليفوزُوا بالآخِرةِ، وأنَّ هَوانَ الدُّنيا، وتعظيمَ نَعيمِ الآخرةِ في نفسِ المؤمنِ، يَدفعُه إلى إعطاءِ الأُولَى لشراءِ الثَّانيةِ.

ثُمَّ حَرَّضَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبادَه المؤمنينَ على الجهادِ في سبيلِه، بذِكْرِ مَزيدٍ مِنَ الفوائدِ، والمصالحِ، لهذا الجهادِ، ومِنْ ذلك: إنقاذُ المُستضعَفينَ مِنْ إخوانِهمُ المسلمينَ، وكان المُهاجرونَ إلى المدينةِ قد تَرَكُوا خَلْفَهم بمكَّةَ، مِنَ الرِّجالِ، والنِّساءِ، والصِّبيانِ، تحتَ قَهْرِ قُريشٍ، وظلمِهم، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ، والتَّحريضِ، والمرادُ به: الأمرُ، أي: قاتِلُوهم، والمعنى: وأيُّ عُذرٍ لكم -أيُّها المؤمنونَ- يَمنعُكم مِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ؟ ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: قاتِلُوا لأجْلِ فكِّ المستضعَفينَ مِنْ إخوانِكم في الدِّينِ؛ لإنقاذِهم مِنْ أيدِي المشركينَ، والمستضعَفُ: مَنْ عَدَّه النَّاسُ ضعيفًا ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ البالغينَ مِنَ المؤمنينَ، وكان مِنْهم بمكَّةَ: الوليدُ بنُ الوليدِ، وسلمةُ بنُ هشامٍ، وعيَّاشُ بنُ أبي ربيعةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ أي: المستضعَفاتُ، سَواءٌ المتزوِّجاتُ، أو مَن كانَ منهُنّ تحتَ أولياءَ مِنْ أهلِ الشِّركِ، وكان أزواجُهُنَّ

وأولياؤُهُـنَّ المشركـونَ يمنعونَهنَّ مِنَ الهجرةِ، ومِنْ هـؤلاءِ: أمُّ كُلثوم بنتُ عقبةَ بـنِ أبِي مُعَيْط، وأمُّ الفَضـلِ لُبابـةُ بنـتُ الحارثِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ جمـعُ ولَدٍ، أو جمعُ وليدٍ، وهُـمُ الصِّبيانُ، وقيل: المُرادُ: العبيدُ والإماءُ، قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ أَنا وَأُمِّي مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ، أَنا مِنَ الوِلْدانِ، وَأُمِّي مِنَ النِّساءِ»(١)، وفي روايةٍ: قال: «كنتُ أنا وأمِّي مِمَّن عَذَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وكان جماعـةٌ مِنَ المسـلمينَ بمكَّةَ عاجِزينَ عـنِ الهجرةِ، يَلقَوْنَ مِنَ الكفَّارِ أذىً شـديدًا، ويُذَلُّون، ويُهانُونَ.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في حـالِ اسـتِضعافِهم، وقـد فَقَـدُوا النَّـاصِرَ، والمُعـينَ، مِـنَ البَـشَرِ، وتقطَّعتْ بِهِمُ الأسبابُ، يَستغِيثونَ بربِّهم لتفريجِ كُربتِهم، ويَدعونَه قائلينَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ وانقِلنا، وأنقِذْنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعنُون: مكَّةَ ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ قد تَسلَّطُوا على مَنْ فيها مِنَ المستضعَفِينَ، يسومُونَهم سـوءَ العذابِ، ويَصدُّونَ عنْ سبيلِ اللهِ ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِنْ عندِكَ يا ربَّنا ﴿وَلِيًّا﴾ مِنْ إخوانِنا المسـلمينَ، يَتولَّى أمورَنا، ويقومُ بمصالحِنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يَنصرُنا على أعدائِنا.

وقد استجابَ اللهُ دعاءَهم، فأمْكَنَ بعضَهم مِنَ الخروجِ، والهربِ، وبَقِيَ آخرونَ، إلى أنْ جاءَهُم فَرَجُ اللهِ بفتحِ مكَّةَ، وولَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها عتَّابَ بنَ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكانَ يَنصرُ المظلومِينَ على الظَّالمِينَ.

والوَلِيُّ: هو القائِمُ على الشَّيءِ، الحافظُ له في كلِّ حالٍ، وحينٍ. والنَّصيرُ: هو الذي يَنصُرُه إذا نَزَلَ به كَرْبٌ، وشدَّةٌ. فكلُّ وليٍّ نصيرٌ، ولا عَكسَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ فيهِ دفعٌ للمفاسِدِ، كما أنَّ فيهِ جَلْبًا للمصالِحِ.

وفِيهـا: أنَّـه لا يُقبَـلُ في دِيـنِ اللهِ أنْ يكونَ هنالِك مسـتضعَفونَ مِنَ المسـلمينَ، تَحْتَ قَهْرِ الكُفَّارِ، وحُكمِهم.

---

(١) رواه البخاريّ (١٣٥٧).

(٢) رواه البخاريّ (٤٥٨٨).

وفِيها: أنَّ مَنْ عَجَزَ عنِ الهجرةِ، يُنقِذُه الجهادُ في سبيلِ اللهِ، ومَنْ لَمْ يَتَيسَّرْ له ذلكَ، فعليهِ بالصَّبرِ، حتَّى يأتِيَ فَرَجُ اللهِ، وأنَّ على المستضعَفينَ اللُّجوءَ إلى اللهِ بالدُّعاءِ.

وفِيها: أنَّ فَرَجَ اللهِ، وإجابَةَ دعاءِ عبادِه، يأتِي -ولو بَعدَ حينٍ-.

وفِيها: عِظَمُ أمْرِ الولايةِ والأُخوَّةِ بَيْن المؤمنينَ، ووجوبُ نُصرةِ بعضِهم لبعضٍ، وقد قالَ ﷺ: «**كُونُوا عِبادَ اللهِ إِخْوانًا، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ**»(١).

وفِيها: تعبُّدُ المستَضْعَفينَ لربِّ العالَمينَ بانتِظارِ الفَرَجِ.

وفِيها: إثارةُ شَفقةِ المؤمنينَ على الضُّعَفاءِ مِنْ إخوانِهم مِنَ الرِّجالِ، والنِّساءِ، والأطفالِ.

وفِيها: أنَّ الجهادَ: عَدلٌ، ورحمةٌ، ورَفْعٌ للظُّلمِ، وإزالةٌ للاضطِهادِ، وقَصْمٌ للجبابِرَةِ، وإنقاذٌ للضُّعَفاءِ والمساكِينِ.

وفِيها: ما كانَ عليه كُفَّارُ مكَّةَ مِنَ الطُّغيانِ، والجَبَروتِ، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ**﴾ [محمد: ١٣].

وفِيها: أنَّ مِنْ مَكرِ الكفَّارِ: الحَيْلولةَ بَيْن المسلمينَ، واللِّحاقِ بإخْوانِهم.

وفِيها: أنَّ البقاءَ تحتَ حُكمِ الكفَّارِ، والإقامةَ بَيْنهم، فتنةٌ وخَطرٌ على دينِ المُسلمِ.

وفِيها: خُطورةُ أنْ يَشِبَّ صِغارُ المسلمينَ في بلادِ الكُفَّارِ، وأنْ يَنْشَئوا بَيْن أصحابِ المِلَّةِ الفاسدةِ، والدِّينِ المُنحرِفِ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ عَدمُ جوازِ الإقامةِ في بلادِ الكفار اختيارًا، ويُستَثنَى مِنْ ذلك حالاتٌ، بشروطٍ.

وفِيها: استثارةُ هِمَمِ أهلِ الإيمانِ، بأنواعِ الأساليبِ في الخِطابِ، مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ، وأسلوبِ التَّحريضِ، وأسلوبِ الالتِفاتِ مِنَ الغائِبِ، إلى الحاضِرِ المُخاطَبِ.

وفِيها: أنَّ جُملةَ: ﴿**فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ عامَّةٌ في أبوابِ الخيرِ، ووجوهِ البرِّ، وأنواعِ الطَّاعةِ، وتَرِدُ في النُّصوصِ -أيضًا- مُختصَّةً بالجهادِ في سبيلِ اللهِ، وهو الأغْلَبُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وفي الآيةِ: أنَّ استنقاذَ أسْرَى المُسلمينَ مِنْ أيدِي الكفَّارِ واجبٌ، سَواء بالقتالِ، أو بالمالِ، أو بالمُبادَلةِ، وغيرِ ذلك.

وفِيها: وجوبُ الجهادِ؛ لنُصرةِ الحقِّ، وإنقاذِ المُستضعَفينَ.

وفي الآيةِ: أنَّ الصغيرَ يتْبَعُ خيرَ أبوَيْهِ دِينًا، وأنَّ إسلامَ الوَليدِ صحيحٌ، فيُحكَمُ بإسلامِه، ولَوْ كان أحَدُ أبوَيْه مُسلِمًا فقط، وعلى ذلك تَتَرتَّبُ الأحكامُ، واستدلَّ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآيةِ على ذلكَ؛ لأنَّ اللهَ جعَلَ الوليدَ مِنْ جُمْلَةِ القائِلِينَ قَوْلَ مَنْ يَطْلُبُ الهِجْرَةَ، وَطَلَبُ الهِجْرَةِ لا يَصِحُّ إلَّا بَعْدَ الإيمانِ، وَإذا كانَ لَهُ قَوْلٌ في ذَلِكَ مُعْتَبَرٌ كانَ أَصْلًا في ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ تابِعًا، بِخِلافِ الطِّفْلِ الَّذِي لا تَمْيِيزَ لَهُ، فَإِنَّهُ تابِعٌ، لا قَوْلَ لَهُ[1].

وفِيها: أنَّ المُؤمنَ لا يجوزُ لهُ أنْ يُذِلَّ نفسَه، بأن يَرْضى أنْ يكونَ مُستضْعَفًا تحتَ سُلطانِ الكُفَّارِ، وأنَّ عليهِ السَّعيَ في تخليصِ نفسِه مِنْ ذلكَ.

وفي الآيةِ: وصفٌ لأهلِ مكَّةَ -في ذلكَ الوقتِ- بالظُّلمِ، وإنَّما قال: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، ولَمْ يقُلْ: القريةِ الظَّالمَةِ؛ تشريفًا لمكَّةَ، وتكريمًا.

وفِيها: شدَّةُ ظلمِ كفَّارِ قُريشٍ، حتَّى بَلَغَ أذاهُم الوِلْدانَ.

وفِيها: أنَّ دُعاءَ المُستضعَفينَ تُستَجْلَبُ به الرَّحماتُ، وتُستَدْفَعُ به البَلايا. وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قالَ: رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفائِكُمْ؟**»[2].

وفي روايةٍ: «**إِنَّما يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِها: بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلاتِهِمْ، وَإِخْلاصِهِمْ**»[3].

وفِيها: أنَّ كفَّارَ مكَّةَ لَمْ يَكتفُوا بظُلمِ أنفُسِهم بالشِّركِ، حتَّى أضافُوا إلى ذلكَ ظُلمَ المُوحِّدينَ، والضُّعفاءِ مِنَ الأطفالِ، والنِّساءِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفَرقَ بَيْن قَصدِ أوليائِه مِنَ القِتالِ، وقَصدِ أعدائِه، وحَضَّ أولياءَه على قِتالِ أولياءِ الشَّيطانِ، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٦).

(٣) رواه النسائي (٣١٧٨).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللهِ، وحُكمِهِ، وثوابِه ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاءِ كلمتِهِ، ونُصرةِ دينِه، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باللهِ، ورسولِه، وما أُنزِلَ عليهِ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ لنُصرةِ دينِ الشَّيطانِ، وكلمةِ الباطِلِ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وأنصارَه؛ حتَّى لا يَعُمَّ الكفرُ الأرضَ، ولا يَستَوْلِيَ أهلُ الطُّغيانِ.

ثُمَّ هَيَّجَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عبادَه المؤمنينَ لقتالِ عدوِّهِم، وأغْراهُم بهم، فقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وأصحابَه، وأتباعَه، وأنصارَه ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ ومكْرَه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ بالنسبةِ إلى مَكْرِ اللهِ، فلا يَصمُدُ أتباعُ الشَّيطانِ أمامَ عَسْكَرِ أهلِ الإيمانِ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ القِتالَ لَمَّا كانَ مَكروهًا للنُّفوسِ، بَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ عِظَمَ القَصدِ مِنْ شرعِهِ له في دينِه، وأهمِّيَّةَ إقامتِهِ؛ لنَشرِ الحقِّ، ومَنْعِ الباطلِ مِنَ الهَيْمنةِ.

وفيها: أنَّ أحكامَ الأمورِ بحَسَبِ مقاصِدِها، وغاياتِها.

وفيها: تَشجيعُ المؤمنينَ، وتهييجُهم، وإثارةُ عَزمِهِم؛ للقيامِ بهذهِ العِبادةِ الشَّاقَّةِ على النّفوسِ.

وفيها: أنَّ للشَّيطانِ أعوانًا، وأنَّه يَتَّخذُ جنودًا مِنَ البَشَرِ، وأنَّه يَحشُدُ عسكَرَه، ويَجمَعُ أتباعَه، ويَؤُزُّهم، ويَنفُخُ فيهِم، ويُثيرُهُم للقِتالِ، ويُريدُ أنْ يَغلِبَ بهِم أهلَ الإيمانِ.

وفيها: أنَّ على الإنسانِ أنْ يَختارَ أفضلَ الفَريقَيْنِ، وأنْ ينْضَمَّ إلى خَيرِ المُعَسكرَيْنِ.

وفيها: أنَّ دَفعَ اللهِ الكفَّارَ بالمؤمنينَ مِنْ سُنَنِه العظيمةِ في الأرضِ، ولَوْلا ذلك لتَغَلَّبَ الكفَّارُ في عُمُومِ الأرضِ، ومَنَعُوا الحقَّ، وهَدَمُوا بُيوتَ اللهِ، وأزالُوا الحُكمَ بشَرعِهِ؛ فيَعُمّ الظُّلمُ، والبلاءُ، وترتفع البَركةُ، والخيرُ، ويَحلّ الشَّقاءُ.

وفيها: تشريفُ المُجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، وتكليفُهم مِنْ ربِّ العالَمينَ بهذا الدَّوْرِ العظِيمِ، والمُهِمَّةِ الفاضلةِ، التي يقومُون بها.

وفِيها: البِشارةُ لأهلِ الإسلامِ بضَعفِ عدوِّهم، وخِذلانِ اللهِ لهُم.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ -مهما أحْكَمَ كَيْدَه، وأتقَنَ مَكْرَه، ووالَى عمَلَه-، فإنَّ كلَّ ذلك لا يَصمُدُ أمامَ قوَّةِ الإيمانِ، والتعلُّقِ باللهِ، والتوكُّلِ عليهِ، والالتِجاءِ إليهِ، والاستِمدادِ مِنْهُ.

وفِيها: أنَّ عاقبةَ الشَّيطانِ، وأتباعِه: الهزيمةُ، والخِذْلانُ، أمامَ أهلِ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ العاقبةَ الحميدةَ، والذِّكْرَ الجميلَ، لأولياءِ الرَّحمنِ.

وفِيها: أنَّ الحقَّ يَعْلُو، والباطِلَ يسْفُلُ، وأنَّ البقاءَ للأصلَحِ، والأمْثَلِ.

وفِيها: أنَّ المؤمنينَ أوْلَى بالنَّصرِ، وأجْدَرُ بالثَّباتِ، والصَّبرِ.

وفِيها: أنَّ وضوحَ الغايةِ، والقَصدَ مِنَ العملِ الصَّالِحِ، لابُدَّ أنْ يكونَ قائمًا في نفوسِ المؤمنينَ، وعقولِهم.

وفِيها: أنَّه بحَسَبِ الإيمانِ يكونُ القيامُ بأمْرِ الجهادِ، فإنْ قَوِيَ قَوِيَ، وإنْ ضَعُفَ ضَعُفَ.

وفِيها: أنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ مِنْ آثارِ الإيمانِ، ومقتضَياتِهِ، ولوازِمِه.

وفِيها: أنَّ أولياءَ الرَّحمنِ لا يَهابُونَ أولياءَ الشَّيطانِ، ولا يَخافونَهم.

وفِيها: أنَّ استجابَةَ اللهِ لأدعيةِ المؤمنينَ، كثيرًا ما تكونُ بأسبابٍ يُهيِّؤُها، ومِنْ ذلك: استجابتُه لدعاءِ المُستَضْعَفِينَ بتهيئةِ أهلِ الإيمانِ، لنُصرتِهم، وأمرِهم بالجهادِ؛ مِنْ أجلِ إنقاذِ إخوانِهم.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وهوَ راضٍ، فإنَّه طاغوتٌ، تجِبُ محاربتُه، وإبليسُ رأسُ الطَّواغِيتِ.

وفِيها: أنَّ أهلَ الباطِلِ إذا كانوا يَصْبرونَ عَلَيْهِ، ويقاتِلُونَ مِنْ أجلِه، فإنَّ أهلَ الإيمانِ أوْلَى بالقتالِ، والصّبرِ، مِنْ أجلِ الحقِّ.

وفِيها: أنَّ مَنْ يقاتِلُ في سبيلِ اللهِ، فإنَّه يَأوِي إلى رُكنٍ شديدٍ، ويَعتمِدُ على ربٍّ غالبٍ، ووَعدٍ وَثيقٍ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَسعَى للإضرارِ بالطُّرُقِ الخَفيَّةِ، وهو تعريفُ الكَيْدِ، فعلَى أهلِ الإيمانِ أنْ يأخُذُوا حِذْرَهم، وينْتَبِهوا.

وفِيها: أنَّ قُوَّةَ الكفَّارِ مُستمَدّةٌ مِنَ الشَّيطانِ، وقوَّةَ المؤمنينَ مُستمَدّةٌ مِنَ الرَّحمنِ.

وفِيها: التأكيدُ على ضَعْفِ كَيْدِ الشَّيطانِ، بالتعبيرِ بالفِعْلِ: (كانَ)، المُشعِرِ بأنّ هذا الوصفَ سابقٌ لكَيدِ الشيطانِ، وأنه لم يَزلْ ضَعيفًا(١).

وفِيها: أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ لا يُقاتِلونَ رجاءَ ثَوابٍ، ولا خَوْفَ عقابٍ، وإنَّما لِنَفخِ إبليسَ فيهِم، وحَمِيَّةً، وحَسَدًا للمؤمنينَ، وعداوةً لهم في الدِّينِ.

كلُّ العَداواتِ قَدْ تُرجَى مَوَدَّتُها إلا عَداوَةَ مَنْ عاداك في الدِّينِ

وفِيها: أنَّ الكافرَ يُقاتِلُ على حَذَرٍ مِنَ القتلِ، وإياسٍ مِنَ المَعادِ، فهو إلى الضَّعْفِ والخَوْفِ أقربُ، والمؤمنَ يُقاتِلُ على بَصيرةٍ، ووعدٍ بالأجرِ مِنَ اللهِ في الآخِرَةِ، إنْ قُتِلَ، وبما لَه مِنَ الغنيمةِ، والظَّفَرِ، إن سَلِمَ، فيكونَ أشجَعَ، وأرسَخَ قَدَمًا في القِتالِ.

وفِيها: تقويةُ قلوبِ المؤمنينَ، وتَجرِئَتُهم على قتالِ الشَّيطانِ، وأعوانِه، بما جَعَلَ اللهُ في قلوبِهم مِنَ العَزْمِ، والحَزْمِ، على قواعِدِ الإيمانِ المَبْنِيَّةِ في قلوبِهم.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَنْكسِرُ، ويفرُّ، عندَ ثباتِ أهلِ الإيمانِ في المعركةِ، كما قال اللهُ عنه في غزوةِ بدْرٍ: ﴿**فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ**﴾ [الأنفال: ٤٨]، فيتخلَّى عن أوليائِهِ في ساحةِ القِتالِ.

ولَمَّا أمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عبادَه المؤمنينَ بالاستِعدادِ للجهادِ، وأخْذِ الحَذَرِ، وكَشَفَ حالَ المُبطِّئِينَ، وأنْهَضَ عَزائمَ المؤمنينَ، وشَوَّقَهُم إلى القِتالِ في سبيلِه، وأمَرَهُم بذلِك، عَجِبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ حالِ مَنْ كانَ يتمنَّى أنْ يَنزِلَ الأمرُ بالجهادِ في مَرحلةِ كفِّ الأيدِي، فلَمَّا نَزَلَ الأمرُ بذلك تقاعَسَ مِنْ أجلِ متاعِ الحياةِ الدّنيا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ **مُحذِّرًا مِنْ ذلكَ**:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا

---

(١) وقِيل: (كان) بمعنَى صارَ، أي: صارَ ضَعيفًا بالإسلامِ. انظُر: البحر المحيط (٣/ ٧١٢).

ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ الاستفهامُ للتعجُّبِ، قيل: المُرادُ بذلِك: طائفةٌ مِنَ المنافقينَ، أظهَرُوا الإسلامَ قَبْلَ نزولِ فَرْضِ الجِهادِ، فلَمَّا فُرِضَ القِتالُ لَمْ يُعجِبْهم ذلك، وخافُوا، وجَبُنُوا.

وقيل: إنَّ المُرادَ بالآيةِ: بعضُ بنِي إسرائيلَ، مِمَّنْ كان قَبْلَنا، لَمْ يُؤذَنْ لهم بالجِهادِ في مَرحَلةٍ مِنَ المَراحِلِ، فطلبُوه، واستعجَلُوه، فلَمَّا فُرِضَ عليهِم، تَوَلَّوا.

وقيل: إنَّ المُرادَ بذلك: بعضُ مَنْ كان معَ النبيِّ ﷺ بمكَّةَ، لَمَّا رَأَوْا اضطهادَ قُرَيشٍ تَسرَّعوا، وأتَوْه، فقالوا: «يا نبيَّ اللهِ، كُنَّا في عِزٍّ ونحنُ مشركونَ، فلَمَّا آمَنَّا صِرْنا أذلَّةً!». فقال النبيُّ ﷺ: «**إنِّي أُمِرتُ بالعفوِ، فلا تقاتِلُوا القومَ**»، فلَمَّا حَوَّلَه اللهُ إلى المدينةِ، أَمَرَه بالقِتالِ، فكفُّوا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ الآية»[1].

وهذا -لَوْ كان وقَعَ مِنْ بعضِ الصَّحابةِ- فإنَّما هو مِنْ نَفَرٍ قليلٍ، لا شكًّا في الدِّينِ، ولا تمرُّدًا على أمرِ اللهِ، ولكنْ خوفًا مِنَ المَوْتِ، وفَرَقًا مِنْ هَوْلِ القتلِ، والمُخاطرةِ بالأرواحِ، فلَمَّا عاتبَهم اللهُ استجابُوا، واستقامُوا، وانقادُوا.

﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ ولا تبسُطُوها للعَدوِّ بالقِتالِ؛ لأنَّ القِتالَ لَمْ يكنْ في العهدِ المَكِّيِّ مُناسِبًا، فلو قامُوا به لاستأْصَلَتْهم قُرَيْشٌ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اشتَغِلوا بإقامَتِها -كما أمَرَ اللهُ- والخُشوعِ فيها ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على حَسَبِ ما كانَ مفروضًا في ذلكَ الوقتِ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ أي: فُرِضَ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ والجهادُ في سبيلِ اللهِ، وكان ذلك في السَّنةِ الثَّانيةِ مِنَ الهجرةِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ ناسٌ، وجماعةٌ، مِنَ الذينَ استعْجَلوا فَرْضَ الجهادِ ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ يخافُونَ أنْ يَقتلَهم الكفَّارُ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: كالخَوْفِ مِنْه، أو مِنْ بأسِه ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وأقْوَى؛ وذلك لِما في طبْعِ البَشَرِ مِنَ المَخافةِ، والجُبْنِ ﴿وَقَالُواْ﴾ -خوفًا مِنَ الموتِ؛ لِما فيه مِنْ سَيَلانِ الدِّماءِ، وتَيْتِيمِ الأبناءِ، وتَرميلِ النِّساءِ-: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ وفَرَضتَه في هذا الوقتِ؟ ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هَلَّا أجَّلْتَنا إلى مُدَّةٍ، نموتُ فيها بالحَتْفِ، لا

---

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والحاكم (٢٣٧٧)، وقال: «صحيح على شرط البخاري»، ووافقه الذهبي.

بأيـدِي أعدائِنا؛ لِئَـلا يفرَحُوا بذلك ﴿قُلۡ﴾ يا محمـدُ -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- جوابًا على طلبِهم، وردًّا على شـبهتِهم-: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولذَّاتُهـا ﴿قَلِيلٞ﴾ سريعُ الزَّوالِ، وشـيكُ الانقضاءِ، مُنغَّصٌ، ومحـدودٌ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بثوابِها الباقِـي، ومتاعِها الأبدِيِّ ﴿خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ربَّـه، وامتثَلَ أمرَه، وجاهَدَ في سبيلِه.

وقرأَ الحَسَـنُ رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ فقال: «رَحِمَ اللهُ عبدًا صَحِبَها على حَسَـبِ ذلك، ما الدنيا كلُّها -أوَّلُها، وآخرُها- إلا كرجلٍ نامَ نَوْمةً، فرَأَى في منامِه بعضَ ما يُحِبُّ، ثُمَّ انْتبَهَ»[١].

قال أبو مُسْهِر:

ولا خَيْرَ في الدُّنيا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَه   مِـنَ الله في دارِ المُـقـام نَصِيبُ
فـإنْ تُعْجِبِ الدُّنيا رجـالًا فإنَّه   مـتـاعٌ قَليلٌ والـــزَّوالُ قريبُ[٢]

وقولُـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا تُنقَصُـونَ مِنْ أجورِ أعمالِكم شـيئًا، ولا حتَّى كَقَدْرِ الخَيْطِ الذي في شِـقِّ النَّواةِ، وهو الفَتِيلُ، بل نُوفِّي لكُم أعمالَكم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ اللهَ يَبتلِي بالأحكامِ، ما يَستخرِجُ به خَفايا النُّفوسِ.

وفِيها: ظهورُ الحقائِقِ بالابتلاءِ بالأحكامِ.

وفِيهـا: التعجُّـبُ مِنْ حالِ مَنْ كان راغِبًا في الخـيرِ، حَريصًا عليه قَبْلَ التَّكليفِ بِهِ، ثُمَّ إذا فُرِضَ عليه كَعَّ، وتقاعَسَ.

وفِيها: أنَّ فَرْضَ الصَّلاةِ، والزَّكاةِ، كانَ قَبْلَ فَرْضِ الجهادِ.

وفِيهـا: أنَّ المؤمـنَ لا يَتمنَّى لقاءَ العدوِّ، ولكنْ: إذا حَصَلَ قَـدَرُ اللهِ باللِّقاءِ صَبَرَ، وثَبَتَ، واحْتَسَبَ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٠٦)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٧٩٥). وسنده صحيح.
(٢) الزهد للبيهقي (ص٢٥٥)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٣/ ٤٤١).

وفِيها: وجوبُ خَشيةِ اللهِ، وتعظيمِه، وعدمِ الخَشيةِ مِنَ المَخالِيقِ الضُّعفاءِ.

وفِيها: أنَّ السُّؤالَ عَن الحِكمةِ يصحُّ، إذا لَمْ يكنْ على سبيلِ الاعتِراضِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ أعلمُ بالوقتِ المُناسِبِ لفَرْضِ الحُكمِ.

وفِيها: أنَّ المَوتَ يَقطَعُ عن الاستمتاعِ بالدُّنيا، فصاحِبُ الدُّنيا يَدْفَعُه، ويَتَولَّى عن الجهادِ؛ خوفًا مِنْه، وصاحبُ الآخرةِ يُؤثِرُ الباقِي على الفانِي، ويَبيعُ الدُّنيا؛ لنيلِ الآخرةِ.

وفِيها: أنَّه لا يَصبِرُ على الجهادِ إلا المتَّقونَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عنِ الظّلمِ كلِّه، دِقِّه، وجِلِّه.

وفِيها: أنَّ على المُؤمنِ أنْ يَدورَ مع الشَّرعِ حيثُ ما دارَ، وأنْ يَقومَ بالتَّكاليفِ الشَّرعيةِ، مهما كانتْ درجتُها في السُّهولةِ، أوِ المَشقَّةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لَمْ يأمُرْ بالجهادِ بمكَّةَ؛ مراعاةً لحالِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه، مِنْ جهةِ: قلَّةِ عدَدِهم، وكَثْرَةِ عدوِّهم، وهيْمَنتِه؛ ولِئَلَّا يَحصُلَ لهم الاستِئصالُ، والفَناءُ. وكذلك: فإنَّ الجهادَ يلزَمُ له دارٌ، ومَنَعةٌ، وأنصارٌ، وعُدَّةٌ، وعَددٌ، وعَتادٌ، وهذا وَقتَئِذٍ لَمْ يَكُنْ بمكَّةَ. وأنَّ الجهادَ يَسبِقُه تربيةٌ للنَّفسِ، لابُدَّ أنْ تأخُذَ حَظَّها مِنْها، فكانَ العهدُ المكِّيُّ فيه تهيئَةٌ للمؤمنينَ، وكذلك في أوَّلِ العهدِ المدنِيِّ.

وفِيها: تفويتُ الدُّنيا كلِّها لمصلحةِ حكمٍ شرعيٍّ واحدٍ، لكنَّ منافِعَه العظيمةَ، ومصالِحَه الجليلةَ، تَرْبُو على ذلك الفَواتِ.

وفِيها: أنَّ أحكامَ اللهِ لا تُنزَّلُ على حَسَبَ رَغَباتِ البَشَرِ، لا توقيتًا، ولا كيفيَّةً.

وفِيها: أنَّ آخرةَ المُتَّقِي خيرٌ مِنْ دُنياهُ.

وفِيها: أنَّ الزَّكاةَ كانتْ بمكَّةَ مواساةً للفُقراءِ، وليستْ كالزَّكاةِ في المدينةِ، ذاتِ الأنصِبَةِ، والشُّروطِ.

وفِيها: التدرُّجُ في فَرْضِ الأحكامِ، وتربيةُ النُّفوسِ على المحافظةِ علَى الصَّلاةِ، والخشُوعِ فِيها، وتَطهيرُ النَّفسِ مِنَ الشُّحِّ؛ بإخراجِ الزَّكاةِ قَبْل مُلاقاةِ العدوِّ، وضَرْبِ الرِّقابِ.

وفيها: دليلٌ على ذمِّ الاستعجالِ، وقُبْحِ الجُبنِ، وأنَّ مَنْ يَستعجِلُ المُواجهةَ قد يكونُ أوَّلَ الفارِّينَ.

وفيها: أنَّ الجَبانَ يُفاجَأ بما لم يكنْ يترقَّبُ، كما تدلُّ عليهِ (إذا) الفُجائيَّةُ، في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية.

وفيها: أنَّ الخَوْفَ مِنَ البَشَرِ لا يجوزُ أن يصُدَّ عن تنفيذِ الحُكمِ الشَّرعيِّ.

وفيها: تحريمُ استواءِ الخَشيةِ مِنَ الناسِ والخَشيةِ مِنَ اللهِ، فضْلًا عنْ أنْ تكونَ الخشْيةُ مِنَ النَّاسِ أشدّ!.

وفيها: أنَّ الحماسَ الزَّائدَ قد يَنقلِبُ ضَعفًا، وخَورًا، وفزَعًا، وارتِعادًا، وضِيقًا، وهَلَعًا.

وفيها: أنَّ الشُّجعانَ العُقلاءَ لا يَستعجِلون لقاءَ الأعداءِ، ويُقدِّرون الأمورَ حقَّ قَدْرِها، ويَضعُون الأشياءَ في مواضِعِها، بخلافِ المُندَفِعينَ الذين لا يُقدِّرون الأمورَ حقَّ قَدْرِها، فيكُونونَ أوَّلَ الفارِّينَ، والناكِصينَ على أعقابِهم.

وفيها: أنَّ ساعاتِ الشِّدَّةِ، ولحَظاتِ المواجهةِ، تكشِفُ معادِنَ الرِّجالِ.

وفيها: تَشكيكُ المنافقِينَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ.

وفيها: أخْذُ هذه الأمَّةِ العِبْرةَ ممَّا حَصَلَ للأمَمِ السابقةِ، وما وقَعُوا فيه مِنَ العِصيانِ، والتَّمرُّدِ.

وفيها: أنَّ المنافِقَ قد يتظاهَرُ بالشَّجاعةِ، ويدَّعِي الاستعدادَ للمواجهةِ، ثُمَّ يَهْرُبُ، إذا جَدَّ الجِدُّ.

وفيها: أنَّ ضعيفَ الإيمانِ بالآخرةِ لا يَجرُؤُ على القِتالِ؛ لأنَّ الوعْدَ، والأجرَ، يحتاجانِ إلى إيمانٍ قويٍّ، أعْظَم مِنْ حُبِّ الدُّنيا.

وفيها: أنَّ على المؤمنِ أنْ يُجاهِدَ نفسَه في إيثارِها الرَّاحةَ، ورَفْضِها ركوبَ المَشاقِّ، وتحمُّلِ الصُّعوباتِ، ويجاهِدَها في حُبِّها الدُّنيا، وكراهيةِ المَوتِ، وإيثارِها السَّلامةَ على القتلِ، والجِراحِ، ورغبتِها في الاستمتاعِ العاجلِ.

وفيها: أنَّ أداءَ العبـاداتِ يُعِـدُّ النَّفـسَ للجِهـادِ، فمَنْ تأمَّلَ في مشـقَّةِ صـلاةِ الفَجْرِ، وقيـامِ الأقـدام، ومَنْعِ النَّفسِ مِنْ شَـهوةِ الطَّعامِ، والشَّرابِ، والنِّـكاحِ، في الصِّيام، ثُمَّ في أداءِ الحَجِّ، وما فيه مِنَ التَّعبِ، والسَّـهرِ، والإعياءِ، والزِّحامِ، وخَطَرِ الطَّريقِ، والنَّومِ في العَـراءِ، وقلَّةِ الزَّادِ: عَرَفَ عَظَمَةَ هذِه الشَّريعـةِ، في إعدادِ المُكلَّفِ، وتربيتِه؛ حتى يكونَ مُهيَّأً لطاعَةِ اللهِ.

ولَـمَّـا كان الخائِفـونَ مِنَ الأمرِ بالقِتالِ قد جَبُنُوا عنْه، واسـتَثْقلُوه؛ لِما يؤدِّي إليه مِنْ تَلَفِ النَّفسِ، وذَهابِها، وظنُّوا أنَّهم بلا جهادٍ سيَعيشـونَ، ويَسـلَمونَ، كما في قولِهم: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾: ردَّ اللهُ عليهم بأنَّه لا يُغنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وأنَّ القاعِدَ لا يُنْجِيهِ قعودُه، وأنَّ المَوتَ آتِيه -لا مَحالةَ-، كما ردّ بعضَ مَقولاتِ المنافِقِينَ السَّيِّئةِ، فقال:

﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨ ﴾.

﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ ﴾ في أيِّ مكانٍ: في البرِّ، أو البَحْرِ، أو الجوِّ، سَـفَرًا، أو حَضَرًا ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يأخُذْكم، وينزِلْ بكم -لا مَحالةَ- ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ﴾ مُتَحصِّنينَ مِنْه ﴿فِي بُرُوجٖ﴾ جَمْعُ بُرْجٍ، وهو البناءُ، القويُّ، العالي ﴿مُّشَيَّدَةٖ﴾ مرتفعةٍ، مُزيَّنةٍ، فَسَـواء كنتُم في شـواهِقِ القُصُورِ، أو في القِلاعِ والحُصُونِ المحميَّةِ، فسيأتِيكم المَوتُ، الذي لا مفرَّ مِنْهُ.

وقولُـه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾ أي: اليهودَ، والمنافقينَ ﴿حَسَنَةٞ﴾ غيثٌ، وخِصْبٌ، ونتـاجُ خَيـلٍ، وأنعـامٍ، ورُخْصُ أسـعارٍ، وغِلمانٌ، تَلِدُهم نسـاؤُهم، ونحوُ ذلك مِـنَ النِّعم ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ عطـاءٌ مِنْـه لنـا؛ لِما عَلِمَ فينا مِنْ الخَـيرِ، ولا يَدَ لَك فيه يا محمدُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ جَـدْبٌ، وشِـدَّةٌ، وغَـلاءُ سِـعرٍ، وضَررٌ، ﴿يَقُولُواْ﴾ -تشـاؤُمًا بالنَّبِـيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- ﴿هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ بسـبَبِك، وبسـبَبِ اتِّبـاعِ دينِـك ﴿قُلۡ﴾ أمَـرَ اللهُ نبيَّـه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالـردِّ عليهم، بأنْ يقـولَ لهُـم: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بقضائِه، وقَدَرِه، وخَلْقِه، وإيجادِه، يأتِي بالحَسنةِ -تفضُّلًا-، وبالسَّيِّئةِ -عُقوبةً-، وهذا نافذٌ في البَرِّ، والفاجِرِ، والمُؤمـنِ، والكافِـرِ. ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ماذا دَهاهُم في عقولِهـم؟ وأيُّ شيءٍ حَصَلَ لهم؟

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: بعيدونَ كلَّ البُعدِ عنِ الفِقهِ، لا يفهمونَ القرآنَ، ولا بَصيرةَ لهم في الواقِعِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّه لا يَحُولُ شيءٌ بيْن الإنسانِ، وبيْن المَوتِ، وأنَّ المَوتَ لا يستَعْصِي عليه حِصنٌ مَنيعٌ، ولا قَصرٌ مَشِيدٌ.

وفيها: أنَّ أمْرَ اللهِ إذا جاءَ فإنَّه لا يُردُّ.

وفيها: أنَّ الفِرارَ لا يَنفَعُ مِنَ الموتِ، أو القَتْلِ.

وفيها: أنَّه لا يُخلَّدُ أحدٌ في هذه الدُّنيا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفيها: أنَّ المَوتَ أجَلٌ محتومٌ، يُدرِكُ المُجاهِدَ، وغيرَ المُجاهِدِ.

وفيها: أنَّ التَّخلُّفَ عَنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ لا يُنْجِي الإنسانَ مِن المَوْتِ، فكم نجا مِمَّنْ خاضَ المعارِكَ، وكَم ماتَ مِمَّنْ هَرَبَ مِنْها.

وفيها: أنَّه لا عُذرَ للمُثبِّطينَ، والمُبطِّئينَ، والجُبناءِ، الخائِفينَ.

وفيها: أنَّ المَنِيَّةَ -ما دامَتْ ستأتِي-، فلتَكُنْ على عَمَلٍ صالِحٍ، مِنْ جهادٍ، وغيرِه.

وفيها: أنَّ الهاربَ مِنْ أسبابِ المنِيَّةِ، تأتِيه منِيَّتُه مِنْ وجهٍ آخرَ، لم يَحتَسِبْه، قال زُهير:

ومَنْ هابَ أسبابَ المَنايا يَنَلْنَه ... ولَوْ رامَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وفيها: أنَّ المَوتَ طالبٌ لا يفوتُه هاربٌ، وأنَّ المُبالغةَ في التحرُّزِ، لا تُنجي مِنَ القَدَرِ، وأنَّ مواقِعَ القِتالِ، لا تُقرِّبُ الآجالَ، وأنَّ السَّعادةَ الأبديَّةَ بنَيْلِ شَرَفِ الشَّهادةِ، أوْلَى بالحِرْصِ عليها مِنْ غيرِها.

وفيها: التشجيعُ على الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، وتفنيدُ الشُّبُهاتِ المُعترِضةِ في طريقِ مَنْ يَخْشاه.

وفيها: الردُّ على القَدَرِيَّةِ، والمُعتزلَةِ، الذين يَقولُون: «إنَّ المَقتولَ لَوْ لَمْ يقتُلْه القاتِلُ لَعاشَ»، وقدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الرَّدِّ على المنافقينَ، الذينَ قالُوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]: بأنَّ مَنْ قَضَى اللهُ عليه بالمَوتِ، لَوْ لَمْ يَخرُجْ إلى المَعركةِ، فسوفَ يُقيِّضُ اللهُ له سببًا، يُخرِجُه إلى المَكانِ الذي قُدِّرَ له أنْ يَموتَ فيهِ؛ لِيموتَ فيهِ.

وفيها: أنَّ المَوتَ ليسَ له سِنٌّ معلومٌ، ولا مَرَضٌ معيَّنٌ.

وفيها: أنَّ اللهَ أخفَى على العِبادِ مواقيتَ موتِهم، ومقادِيرَ آجالِهم؛ ليستَعِدُّوا لذلك دائمًا.

وفيها: أنَّ الموتَ يَتبعُ الإنسانَ، ويُدرِكُه، ويَلحقُ به، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وأنَّ الموتَ يُلاحِقُ الرُّوحَ، حتَّى يَسلِبَها مِنَ الجَسَدِ.

وفيها: تَرْكُ الجُبنِ عنِ القِتالِ، وعدمُ الخَوفِ مِنَ العدوِّ، وعدمُ الفِرارِ مِنْ ملاقاتِهِ.

وفيها: تشجيعُ المؤمنينَ على ابتِغاءِ العَدوِّ، وأنَّه ليسَ بالضرورةِ أنْ يأتِيَ الموتُ في ساحَةِ المعركةِ، وبالتَّتبُّعِ: فإنَّ أكثرَ المقاتِلينَ في سبيلِ اللهِ، يَسلَمونَ مِنَ القتلِ في المعارِكِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الردِّ عليهِم، أنَّ كلَّ ما يَقعُ مِنْ خيرٍ، أو شرٍّ، فبتقديرِه، وخَلْقِه، وإيجادِه، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -أيضًا- بيانًا مِنْ وجهٍ آخرَ، فقال:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ نعمةً مِنْه، ومكافأةً مُعجَّلةً في الدُّنيا، وتفضُّلًا، وإحسانًا، ولا أحدَ يُوجِبُ ذَلكَ عَلَيْهِ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ بَلِيَّةٍ، وضَررٍ ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: بسببِ اقترافِكَ للمعاصِي، وما عَمِلتَه مِنَ الذُّنوبِ.

والخِطابُ -وإنْ كانَ في الأصلِ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لكنَّ المرادَ به هُنا عُمومُ النَّاسِ.

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ تُبلِّغُ كافَّةَ الخَلْقِ شرائعَ اللهِ، وما يحبُّه، ويَرضاه، وما يَكرهُه، ويَأباه.

وفائدةُ قوْلِه: ﴿رَسُولًا﴾ بعدْ قولِه: ﴿وَأَرْسَلْنَكَ﴾: التَّأكيدُ، والتَّعميمُ، ونفيُ ما ذَكَرَه الكفَّارُ مِنْ ربْطِ وقوعِ الشرِّ بِهِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: يَشهدُ بأنَّه أرسلَكَ بالحقِّ مِنْ عِندِه، وشاهدٌ على أدائِكَ للرِّسالةِ، وتبليغِكَ للوَحيِ، وردِّ مَنْ أُرْسِلْتَ إليهِم علَيكَ، وما عامَلُوكَ بِهِ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ اللهَ يُنْعِمُ على المُسلمِ، والكافِرِ.

وفِيها: أنَّ إنعامَ اللهِ على الكافِرِ هو: استدراجٌ، وليسَ رضًا عنهُ.

وفِيها: تشاؤُمُ الكفَّارِ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِه، وربطُ المَصائِبِ التي تقَعُ، بدينِه الذي جاءَ بِهِ، وقد فَعَلَ هذا قومُ فِرعونَ مِنْ قَبْل، كما قال اللهُ عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وفِيها: بُطلانُ الاستدلالِ بحصولِ النِّعمةِ على صحَّةِ الدِّينِ، وبحلُولِ المُصيبةِ على أنَّه باطلٌ، وقدْ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وفِيها: كُرْهُ المنافقينَ، واليهودِ، لدينِ اللهِ، وقصورُ نظرِهم في اقتصارِهم على محبَّةِ الدُّنيا.

وفِيها: أنَّ هؤلاءِ لا يَحتَسِبونَ الأجرَ في الصَّبرِ على المُصيبَةِ، ولا يَرَوْنَ فيها تكفيرًا لسيِّئةٍ، أو رَفْعًا لدَرجةٍ.

وفِيها: أنَّ الخيرَ، والشرَّ، كلَّه مِنَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ السَّيِّئاتِ مِنَ اللهِ، باعتبارِ التَّقديرِ، والخَلْقِ، والإيجادِ، ومِنَ العبدِ، باعتبارِ تسبُّبِه في وقوعِها، بعِصيانِه، وذنوبِهِ.

وفِيها: أنَّ ما يُصيبُ الإنسانَ مِنْ خَدشِ عُودٍ، أو عَثْرَةِ قدَمٍ، أو اختلاجِ عِرقٍ، أوْ غيرِ ذلِك، فإنَّما هو بذنبِه، وما يَعفو اللهُ عنْهُ أكثرُ.

وفِيها: أنَّه لا مُنافاةَ بَيْن تقديرِ اللهِ للمُصيبةِ، وبَيْن وقوعِها مِنْ جَرَّاءِ ذنبِ العبدِ، عقوبةً له عليه.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ لَمْ يُـوكِلِ القَـدَرَ إلى العِبـادِ، وإنَّما أمَرَهـم، ونهاهَم، وهـم لا يَخرُجونَ عنْ قضائِهِ، وقَدَرِه.

وفِيهـا: حُمقُ أهلِ الباطـلِ في تعليلاتِهم للأُمورِ، وضَعفُ عُقولِهم، وضَحالَةُ أفهامِهم، في تفسيرِ ما يقعُ مِنَ الأحداثِ.

وفِيهـا: أنَّ تغـيُّرَ حالِ الإنسـانِ مِـنَ النِّعمةِ إلى المُصيبـةِ، ليس دليلًا على بُطـلانِ اعتقادِهِ، ودينِه، بل قد يكونُ ابتلاءً محضًا، يَستفيدُ مِنْه العبدُ في الآخرةِ: أجرًا، وثوابًا، ورِفعةً، وتكفيرًا.

وفِيها: الرَّدُّ على الكُفارِ في مزاعِمِهم الباطلةِ، والجوابُ على شُبَهِهم، وإيراداتِهم.

وفِيهـا: أنَّـه لا مدخلَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا لغـيرِه مِنَ المَخلوقِينَ، في خَلْـقِ ما يَقَعُ مِنَ الأقدارِ.

وفِيها: أنَّ الذَّكاءَ -وحدَهُ- لا يَقودُ -بالضَّرورةِ- إلى تفسيرِ الأحداثِ تفسيرًا صحيحًا، إذا لَمْ يكنْ هناك إيمانٌ، وتوفيقٌ، وعِلمٌ، وفَهمٌ، على أساسٍ صحيحٍ.

وفِيها: أهمِّيَّةُ الفِقهِ عنِ اللهِ ورسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفِيها: شُؤمُ المَعصيةِ، والذُّنوبِ، وتعجيلُ المُجازاةِ والعُقوبةِ عَلَيْها في الدُّنيا.

وفِيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسَ عَلَيْهِ إلَّا البلاغُ، وليس له دخلٌ فيما يُصيبُ النَّاسَ.

وفِيها: شَهادةُ اللهِ لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجِدِّه، وعدمِ تقصيرِه في تبليغِ الوَحيِ.

وفِيها: إرشـادُ العبدِ إلى محاسـبةِ نفسِـه، والنَّظرِ في أمرِه، فإذا أصابَتْه مصيبةٌ تأمَّلَ سيرتَه، وعملَـه، فـإنْ وَجَدَ أنَّه قائـمٌ بالواجباتِ، تـاركٌ للمُحرَّماتِ، عاملٌ بأمـرِ اللهِ، فإنَّ ما أصابَه يكونُ رفعةً في درجاتِه، وزيادةً في حسناتِه، «**وإذا أحبَّ اللهُ قومًا ابتلاهُم**»[1].

وأمَّـا إذا وَجَدَ نفسَـه واقعًا في الذنوبِ، مُرتكِبًا للمعاصِي، مُفرِّطًـا في الواجباتِ: فإنَّ ما أصابَه هو عُقوبةٌ مِنَ اللهِ، يذكِّرُه بها؛ لِيردَّه إلى الصَّوابِ، ويُوقظُه بها؛ لِيتوبَ.

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٦٣٣) بسند جيد، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٩١): «رجاله ثقات».

وفِيها: أنَّ الخيرَ كلَّه في متابعةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشُّؤمَ في مخالفتِهِ.

وفِيها: أنَّ الذُّنوبَ تمنَعُ نزولَ فضلِ اللهِ على العبدِ.

وفِيها: الأخذُ بالأسبابِ، والعملُ بها.

وفِيها: أنَّ أفعالَ العِبادِ اختياريةٌ، وأنَّ اللهَ أعطاهُم إرادةً؛ ولذلك كلَّفَهم؛ لأنَّ مَسلوبَ الإرادةِ، والمُكرَه، لا يُكلَّفُ.

وفِيها: أنَّ المِنَّةَ في حُصولِ الخيرِ للهِ وحدَه.

وفِيها: فضلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعدلُه.

وفِيها: الذَّبُّ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيانُ مكانتِهِ عندَ ربِّه، وبُطلانُ ما نَسَبَه إليه المنافقونَ، واليهودُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ بَعَثَ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغًا، وهادِيًا، وليسَ مؤثِّرًا في الحوادِثِ، ومُجرِيًا للأقدارِ.

وفِيها: الرَّدُّ على منافِقِي هذا العَصرِ، الذين يَصفونَ أهلَ الإسلامِ بالتّخَلّفِ، وأنّ ذلكَ بسببِ تمسُّكِهم بدينِهم.

وفِيها: الحثُّ على فَهمِ كَلامِ اللهِ، وكَلامِ رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحثُّ على الأسبابِ المُعِينةِ على ذلك، ومِنْها: التدبُّرُ فيه، وطلبُ العِلْمِ؛ لتحصيلِهِ.

وفِيها: مَنعُ التَّطَيُّرِ، والتشاؤُمِ.

وفِيها: أنَّ الرُّسلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليسُوا سببًا لشرٍّ يحدُثُ في الأرض -لا هُم، ولا ما جاءُوا به- بَلْ بَعْثُهم رحمةٌ، وخيرٌ لأهلِ الأرضِ.

وفي هـذِه الآيـةِ -والتـي قبلها-: فائـدةٌ في الفَرقِ بَيْن قولِـه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كما في الآيـةِ الأولَى، وقولِـه: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ كما في الثانيةِ، فقـال بعضُهم: «إنَّ قولَه: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يكـونُ في الخيرِ، والشرِّ، ومـا يُحبُّه، وما لا يُحبُّه، وما يَرضاه، وما يسْـخطُه، وأمَّا قولُه: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يَكونُ إلا فيما يُحبُّه، ويرضاه»(١).

---

(١) انظر: شفاء العليل (ص١٦٦).

ثُمَّ عـزَّزَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ مكانةِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزادَ في تأييـدِه؛ دلالةً على عصمتِه، وحُجِّيةِ سنَّتِه، ووجوبِ طاعتِه، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ محمـدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيـما أمـرَ بـهِ، ونهـى عنْـه ﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّـه هـو الذي أرسـلَ رسـولَه بذلـكَ، وأوحَى بـهِ إليهِ، وقـد اقتضَـتْ حكمتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يجعلَ بَيْنه وبَيْن خلقِهِ واسـطةً مِنْهم، يُبلِّغونَهم ما شَرَعَه عَزَّوَجَلَّ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أطاعَنِي فقد أطاعَ اللهَ، ومَنْ عصانِي فقدْ عَصا اللهَ»(١).

ثُمَّ تهدَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ عَصا، فقال: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعْرَضَ عَن طاعةِ اللهِ، ورسولِهِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ فلا عليكَ مِنْهم، ولَسْـتَ مُسَـيْطِرًا، ولا رَقيبًـا عليهم، ولا مُكلَّفًا بإحصاءِ أعمالِهم، وإنَّما عليكَ البلاغُ، والبيانُ، وعلينا الحِسـابُ، فمَنْ تبِعَكَ نَجا، ومَنْ تَوَلَّى عنكَ خابَ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

وجوبُ طاعةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّه لا يَنْطِقُ عنِ الهَوَى.

وفِيهـا: أنَّ الآمِـرَ النَّاهِـي في الأحاديـثِ النبويَّـةِ هُـو: اللهُ عَزَّوَجَلَّ، في الأصـلِ، والحقيقةِ، والرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلِّغٌ.

وفِيهـا: حِكمـةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في إيصـالِ شَرْعِه للنَّـاسِ، عنْ طريـقِ واحِدٍ مِنْهـم، يُبلِّغُهم بلِسانِه، ويُريهِم -قولًا وعَملًا- امتثالَ وَحْيِ اللهِ بأفعالِهِ، وسيرتِهِ.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ مِنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لتبليغِ الدِّينِ، وبيانِ القُرآنِ.

وفِيها: أنَّ طاعةَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلِّ شيءٍ جاءَ به، ليسَ غُلُوًّا، وإنَّما هو عينُ التَّوحيدِ؛ فإنَّ هذه الطَّاعةَ المُطلقَةَ للنَّبِيِّ، هي طاعةٌ للهِ.

وفِيهـا: أنَّـه لا طاعةَ مطلقةً لأحَدٍ سِـوَى اللهِ، ورسـولِهِ، ومَـنِ اتَّخذَ أحـدًا، يُطيعُه طاعةً

---

(١) رواه البخاريّ (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

مُطلقـةً، فقـد أشْـرَكَ باللهِ، ومِنْ ذلكَ قولُـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ وذلـك أنَّهـم أطاعُوهُـم في كلِّ شيءٍ، مِـنَ التَّحليـلِ، والتَّحريمِ.

وفِيها: أنَّ المُسلمَ لا يَرضَى أنْ يَستعبِدَه ظالمٌ، ويُخضِعَه لأمرِه، إخضاعًا تامًّا.

وفِيها: عدمُ التَّأسُّفِ، وإتلافِ النفسِ، والمُبالغةِ في الحُزنِ، على العُصاةِ، والمُتمرِّدينَ.

وفِيهـا: أنَّ الدَّاعيـةَ إلى اللهِ، ليـسَ مُكلَّفًـا بمُحاسـبةِ النـاسِ عـلى أعمالِهـم، ولا إحصاءِ حَرَكاتِهم، وسَكَناتِهم، ولكن عليه أنْ يُقيمَ الحُجَّةَ عليهِم.

وفِيها: خُطورَةُ التَّوَلِّي عَنْ طاعةِ اللهِ، ورسولِه، وحقيقةُ التَّولِّي: الانْصِرافُ، والإدبارُ.

وفِيها: أنَّ السُّـنةَ الصَّحيحةَ يُحتَجُّ بها مِثلُ القرآنِ؛ فهي مبيِّنةٌ له، ومؤكِّدةٌ عَلَيْهِ، وشارحةٌ ومُفصِّلةٌ له، وقدْ تأتِي مُقيِّدةً لمُطلَقِه، ومُخصِّصةً لعُمومِه.

وفِيهـا: أنَّ النبـيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصومٌ في كلِّ ما يُبلِّغُه عـنِ اللهِ؛ ولذلك جاءَ الأمرُ بطاعتِهِ مُطلَقًا.

وفِيها: أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُطاعُ لذاتِه، ولكن يُطاعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنَّه أَوحَى إليهِ.

وفِيها: تَهديدُ عُصاةِ السُّنةِ النبويَّةِ بعقابٍ مِنَ اللهِ، والجاحِدُ لها كافرٌ، خالدٌ في النَّارِ.

وفِيها: تَسليةُ الدُّعاةِ إذا أعرَضَ النَّاسُ عنهُم، ولَمْ يَستجِيبُوا لهم.

وفِيهـا: أنَّ الدَّاعيةَ ليس حافِظًا للنَّاسِ مِـنَ المعاصِي، بحيثُ لا يَقعونَ فيها، فإنَّه لا يَقْدِرُ على ذلكَ، لكن عليه أنْ يُعلِّمَهم، ويَعِظَهم.

وفِيها: أنَّه لا يَقْدِرُ على حِفظِ أعمالِ الناسِ، وحَرَكاتِهم، وسَكَناتِهم، إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وحتَّى في عصرِ التَّصويرِ، والتَّسـجيلِ، لا يُمكِنُ إحصاءُ أعمالِ القلوبِ، ولا تسـجيلُها، فضلًا عَن مَعرِفةِ خفايا الصُّدورِ.

وفِيهـا: أنَّ النَّـاسَ في طاعةِ النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِنفـانِ: صِنفٌ آمَنَ بـه، وصَدَّقه، واتَّبعَه، وأجابَ دعوتَه، وصِنفٌ كذَّبَه، وأعرَضَ عنهُ، وعَصاهُ، وخالَفَه.

وفِيهـا: أنَّ توقـيرَ النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتعظيمَـه، وحفظَ قَدْرِه، وشَرَفِـه، لا يعنِي رفعَه إلى مرتبـةِ الألُوهيَّةِ، والرُّبوبيَّـةِ، أو صَرْفَ نوعٍ مِنْ أنواعِ العِبادةِ لَهُ، بـلِ الواجبُ إنزالُه مَنزلَته، التي أَنزَلَه اللهُ إيَّاها، ومَحبتُه، وطاعتُه، والتأسِّي به.

وفِيهـا: أنَّ بعـضَ مَـنْ يدَّعِي محبَّةَ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مِـنْ أصحابِ الغُلُـوِّ، ومجاوزةِ الحدِّ الشرعيِّ، هم في الحقيقةِ عصاةٌ لَهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإنَّه قال: «**لا تُطْرُونِي كما أطْرَتِ النَّصارَى ابنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أنا عبدٌ، فقولُوا: عبدُاللهِ ورسولُه**»(١).

وفِي الآيةِ: ردٌّ على المفرِّطِينَ في السُّـنن، والذين يُهوِّنونَ مِنْ شـأنِها، ويُسـمُّونَها -أحيانًا- قُشورًا، وجُزئياتٍ غيرَ مُهمَّةٍ، ولَوْ عَلِمُوا حقَّها، لَحَرِصُوا عليها، وأَخَذُوا بها، ونَشَروها.

وفِي الآيـةِ: إبطـالٌ لمَذهـبِ مَـنْ يُسَـمُّونَ أنفسَـهم بالقُرآنِيِّـينَ، ويَرفُضُـون السُّـنةَ؛ لأنَّها -بزعْمِهـم- غـيرُ ثابتةٍ، وأنَّ القـرآنَ يَكفي وحدَه، ولَـو كانُوا صادِقِـينَ في اتِّباعِهم للقرآنِ، لَعَمِلـوا بهذه الآيـةِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فأخَذُوا بالسُّـنَّةِ النَّبويَّةِ الصَّحيحةِ، واتَّبَعُوها. والسُّنَنُ سِياجُ الواجباتِ، ومكمِّلَةٌ لها، وحامِيةٌ، وحافِظةٌ لها، ومُتِمَّةٌ لنَقْصِها يومَ الحسابِ.

ولَمَّا بيّنَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنّ طاعةَ نبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ طاعَتِه، كَشَفَ حالَ طائِفةٍ مِنَ المنافِقينَ، يدَّعُونَ الطَّاعةَ ظاهِرًا، ويُخْفُونَ خِلافَها في الباطِنِ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاءِ المنافقونَ، الجُبناءُ، عَنِ القِتالِ، إذا أَمَرهم النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأمـرٍ، قالُوا: ﴿طَاعَةٞ﴾ أي: أمرُكَ مُجابٌ، وأنتَ مُطاعٌ، مقبولٌ عندنا، فيُظهِرونَ له الانقيادَ، والمُوافقَـةَ ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ وخَرَجُـوا، وتَوارَوْا عنـك، والبَرازُ: هو الفَضاءُ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ أي: أَسَرُّوا لَيْـلًا فيما بَيْنَهم، غيرَ ما أظهَرُوه نَهارًا مِنَ السَّـمْعِ، والطَّاعـةِ، وتَمالَـؤُوا فيـما بَيْنَهـم عـلى المعصيـةِ، والمُخالفةِ، والإبـاءِ، والتَّمـرُّدِ، فقال عَزَّوَجَلَّ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

-مُهـدِّدًا، مُتوعِّـدًا-: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يعلَمُه، ويأمُرُ الملائكةَ الحفظةَ بكتابةِ ما يُدبِّرونَه لَيْلًا، وسيَجزِيهم على ذلكَ، وقولُه: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ إمَّا أنْ يكونَ المعنَى: غيرَ الـذِي تقـولُ لك هذه الطَّائفةُ في الظَّاهِرِ، أَوْ غيرَ الذِي تقولُه لَهُم أنتَ، وتأمُرُهم بِهِ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ اصْفَـحْ، واحلِمْ عليهِم، ولا تقتُلْهم، ولا تؤاخِذْهم بما أسَرُّوا ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ لا تَخَـفْ مِنْهـم، واعتَمِدْ عـلى ربِّكَ عَزَّوَجَلَّ، وفَوِّضِ الأمرَ إليهِ، فَبِـهِ الثِّقةُ، وعليه التُّـكلانُ، فسَـيَكفِيكَ شرَّهم، وينتقِمُ لك مِنْهم، وكفَى بِهِ وليًّا، ونـاصِرًا، ومُعِينًا، لِمَنْ توكَّلَ عليهِ، وأنابَ إليهِ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ المنافِقـينَ الجُبَنـاءَ لا يَسـتطيعونَ إظهـارَ ما في صُدورِهـم، وأنَّهم يَتَّخـذُونَ مِنَ الليلِ سِتارًا؛ للتَواطُؤِ على الشَّرِّ.

وفِيها: أنَّه يستعِينُ بعضُهم ببعضٍ في ذلكَ، ويَجتمِعُون على الخِيانةِ، ويتَّفقونَ على معصيةِ اللهِ، ورسولِهِ.

وفِيها: أنَّ طاعةَ الرسولِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واجبةٌ، ظاهِرًا، وباطِنًا، حاضِرًا، وغائِبًا.

وفِيها: تأييدُ اللهِ لنبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإخبارُه إيَّاهُ بحالِ أعدائِهِ، وكَشْفُه أمورَهم لَه.

وفِيها: أنَّ اللَّيلَ وقتُ المَبيتِ، ووقتُ البُيُوتِ، فيَتَّخِذُ هؤلاءِ المنافقونَ مِنْ بُيُوتِهم سِتارًا، ومِنَ اللَّيلِ غِطاءً؛ للكَيْدِ، والتَّخذيلِ، والعِصيانِ.

وفِيهـا: اغتِنـامُ صَفاءِ الفِكْـرِ باللَّيلِ في طاعـةِ اللهِ، والعملِ لدينِهِ، وتدبُّـرِ كتابِهِ، وإنفاذِ أمرِهِ.

وفِيها: أنَّ المنافقينَ يَخرُجونَ مِنْ عندِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بغيرِ الوجهِ الذي دَخَلُوا بِهِ، وأنَّهم لا يَسـتفِيدونَ مِنْ كلامِه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا ينتَفِعونَ مِنْ مَجلِسِه، ولا يتأثَّرونَ بموعِظَتِه، مع أنَّه أحسنُ المُعلِّمِينَ، وأبْلَغُ القائلينَ.

وفِيها: أنَّ مُجرَّدَ تقديمِ التَّعهُّداتِ الظاهِرِيَّةِ، ليسَ كافِيًا لِأَنْ يَملأَ الإنسـانُ يَدَه مِنْ هؤلاءِ الذيـنَ تَعَهَّـدوا، وعاهَدُوا على الطَّاعَةِ، فلا بُـدَّ أنْ يُصدِّقَ الباطِنُ الظَّاهِـرَ، وأنْ يُوافِقَ السِّرُّ

العلانِيةَ، وأنْ يتواطَأَ القلبُ واللِّسانُ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ خشيَتَكَ في الغَيْبِ والشَّهادَةِ**»(١).

وفِيها: أنَّ مُجرَّدَ ادّعاءِ الطَّاعةِ لا يَنْفَعُ صاحبَه، حتّى يُطيعَ فعْلًا.

وفِيها: أنَّ وقتَ الليلِ أصلَحُ الأوقاتِ للفِكْرِ، والتدبُّرِ؛ لصفاءِ الخَواطِرِ، وقلَّةِ الشَّواغِلِ، فينبَغِي اغتنامُه بالعبادةِ، وتحصيلِ العِلمِ.

وفِيها: كَشْفُ الأحوالِ الخفيَّةِ لأعداءِ الدِّينِ، وفَضْحُ ما يدبِّرونَ، وأنَّ هذا في غايةِ الأهميةِ للمُسلمينَ؛ ليأخُذُوا الحَذَرَ مِنْهم، ويعرِفُوا كيفَ يتعامَلُون مَعَهُم.

وفِيها: أنَّ اللهَ يفضَحُ المنافِقينَ في الدُّنيا، ويُعذِّبُهُم يومَ القيامةِ.

وفِيها: ضَبْطُ الأعمالِ بكتابَتِها، وجَعْلُ الكتابِ أساسًا للعِقابِ، وفي الكتابَةِ: إقامةٌ للحُجَّةِ، وقَطْعٌ للعُذْرِ، عندَ إنزالِ العُقوبةِ.

وفِيها: تثبيتُ قلبِ النبيِّ ﷺ، والمؤمنينَ، بإتيانِهم بأخبارِ عدوِّهم، وتذكيرِهم بالتوكُّلِ على ربِّهم، وأنَّ اللهَ هو ناصِرُهُم، ومُعِينُهم.

وفِيها: بيانُ كيفيَّةِ التعامُلِ مع المنافقينَ، ومِنْ ذلكَ: الإعراضُ عَنْهم، وعدمُ مؤاخَذَتِهم، إذا كانتِ المصلحةُ الشَّرعيَّةُ تَقتضِي ذلكَ، وخصوصًا إذا لَمْ يَنكَشِفْ حالُهم للنَّاسِ.

وفِيها: أنَّ بعضَ المنافقينَ أشدُّ مِنْ بعضٍ على أهلِ الإسلامِ، وأنَّ مِنْهم مَنْ لا يكتَفي بنِفاقِهِ، ومعصيَتِهِ، حتى يَضُمَّ إلى ذلكَ التآمرَ معَ غيرِه مِنَ المنافقينَ؛ للكَيْدِ بأهلِ الإسلامِ، وتنسِيقِ العِصيانِ الجَماعيِّ، ومِنْهم رؤوسٌ، وقادةٌ، يَتَمالَؤُونَ، ويُخطِّطونَ، والبقيَّةُ أتباعٌ يأتَمِرونَ، ويُنفِّذُونَ.

ولَمَّا جَحَدَ المُنافقونَ الرِّسالةَ النبويَّةَ، وكذَّبُوا بالنبيِّ ﷺ، وعادوْه، دعاهُم اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى ما يستَبِينونَ بِهِ الحقَّ، ويَعرِفونَ بِهِ حقيقةَ الرِّسالةِ، وتحصُلُ لهم بِهِ الهدايةُ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٢٥)، والحاكم (١٩٢٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا صححه محققو المسند، والألباني في صحيح النسائي.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ أي: أفَـلا يَنظُرُ هؤلاءِ المنافقونَ في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ويَقرؤُونه، ويُعِيدونَه المرَّةَ بَعدَ المرَّةِ، ويتفكَّرونَ فيه، ويَتأمَّلونَ معانِيَه، وما جاءَ فيهِ مِنَ الإخْبارِ عنْ خَفايا أمورِهم، التِي لا يَعلمُها إلا هُم؛ فيؤدِّي بهم ذلك إلَى التأكُّدِ مِنْ صِدْقِ أخبارِه، ووجوبِ الانقيادِ لأوامِرِه، والإيمانِ بما أخبَرَ بِهِ؟

وفي هذا أمرٌ للعِبادِ -جميعًا- بتفَهُّمِ معانِي القرآنِ المُحكمَةِ، وألفاظِهِ البليغةِ، التي جاءَت بلا اختلافٍ، ولا اضطِرابٍ، ولا تَضادٍّ، ولا تعارضٍ، ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مُفتَعَلًا مُختَلَقًا، أو كانَ مِنْ عندِك -كما زَعَموا- ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ وتناقضًا كبيرًا، وتفاوتًا مِنْ جِهةِ البلاغةِ، ولأمْكَنَ معارضَتُه، والمجيءُ بمثلِهِ.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**إنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَما عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فاعْمَلُوا بِهِ، وَما جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إلى عالِمِهِ**»(١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

الأمرُ بتدبُّرِ القرآنِ، والتأمُّلِ في معانِيهِ، وما اشتَمَلَ عَلَيْهِ، مِنَ الأمرِ، والنَّهيِ، والخَبَرِ، والمواعِظِ، والأحكامِ.

وفيها: أنَّ تدبُّرَ القرآنِ يُداوِي شُكوكَ القلبِ، ووساوسَه، ويَشفِيهِ مِنَ النِّفاقِ.

وفيها: أنَّ القُرآنَ يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، ولا اختلافَ فيهِ، ولا اضطِرابَ، ولا تَضادَّ، ولا تعارُضَ.

وفيها: أنَّ تنزيلَ العليمِ، الخَبيرِ، الحَكيمِ، البَصيرِ، لا يُمكِنُ أن يَتَناقَضَ؛ لأنَّه حقٌّ، خَرَجَ مِنَ الحقِّ.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦٧٠٢)، وصححه محققو المسند، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في درء التعارض (١/ ٤٩): «حديث مشهور».

وفِيها: أنَّ كلامَ غيرِ اللهِ يَقَعُ فيهِ: التَّضادُّ، والاختِلافُ، والاضطِرابُ.

وفِيها: تَحريمُ التَّنازُعِ في القرآنِ، والكَلامِ فيهِ بغَيرِ عِلمٍ.

وفِيها: اليَأسُ مِنْ خُلُوِّ مُؤلَّفاتِ البَشَرِ مِنَ الخَطَأِ.

وفِيها: البَحثُ عَن إعجازِ القرآنِ، في: عُلومِهِ، وغاياتِهِ، ومَقاصِدِه، ومُوافَقَتِهِ للواقِعِ، وإخبارِهِ عنِ الأمُورِ الغَيْبِيَّةِ، والمُسْتَقْبَلِيَّة.

وفِيها: وُجوبُ تَعلُّمِ معانِي القرآنِ، وتَفسِيرِه.

وفِيها: أنَّ تدبُّرَ القرآنِ يَقُودُ إلى الهِدايةِ، وسُلوكِ الصِّراطِ المُستَقِيم.

وفِيها: أنَّه لَيْسَ في القُرآنِ اختلافٌ كَثيرٌ، ولا قَليلٌ.

وفِيها: أنَّ اللهَ أَوْدَعَ كِتابَه بَراهِينَ صِحَّتِهِ، وصِدْقِهِ، وأنَّه مِنْ عِنْدِه، لا مِنْ عِنْدِ غَيرِه.

وفِيها: أنَّه لا يُمكِنُ لِبشَرٍ أنْ يَأتِيَ بِمِثلِ القرآنِ، ولا أنْ يُصَوِّرَ حقائِقَه، كما صَوَّرَها القرآنُ، ولا أنْ يَبْلُغَ بكَلامِهِ مُستَوى بلاغَةِ القُرآنِ.

وفِيها: أنَّ القرآنَ مُشتَمِلٌ على البَراهِينِ القاطِعَةِ، التي تُؤَسِّسُ اليقِينَ في النَّفسِ، وتزِيدُ الإيمانَ، مِثل: إخبارِه عَنْ أشياءَ وَقَعَتْ في السَّابِقِ، لا يَعرِفُها إلا القليلُ مِنَ النَّاسِ، أو لا يَعرِفُها أحَدٌ.

ومنها: أنَّه أخْبرَ عَنْ أمُورٍ بأنَّها ستَقَعُ، فوقَعَتْ كما أخْبَرَ.

ومنها: أنَّه أخبرَ عن خَبايا نُفوسٍ، ومَكنُوناتِ ضَمائِر، يَعلَمُ أصحابُها أنَّها مُطابِقةٌ لِما عِندَهم.

ومنها: اشتِمالُه على إجاباتٍ مُفْحِمةٍ، ورُدودٍ مُقْنِعةٍ، ونِهاياتٍ تَقْطَعُ الخُصُومةَ.

ومنها: إخبارُه عَنْ دَقائِقَ في الكَوْنِ، والسَّماواتِ، والأرضِ، والخَلْقِ، والكائِناتِ، يَتوصَّلُ إلى بعضِها الخُبراءُ والمُخْتَصُّونَ بَعدَ مُدَّةٍ طويلَةٍ مِنَ البَحثِ، والتَّنقِيبِ.

ومنها: أنَّه أخبرَ عن أمورٍ مِنَ الحِسابِ، والجَزاءِ، في الآخِرَةِ، يَعرِفُ بها العُقَلاءُ عَدْلَ الذي أنزَلَه.

وفِيها: فَشَلُ كلِّ المُحاولاتِ التي قامَتْ لاكتِشافِ خَلَلٍ في القُرآنِ، أو تَناقُضٍ، وهذا مِنْ أعظَمِ التَّحَدِّي، والبَراهِينِ الدَّالَةِ على أنَّه مِنْ عِندِ اللهِ، فلا يُمكِنُ الإتيانُ بمِثْلِه، ولا إيجادُ خَلَلٍ فيهِ.

ونُزولُه مُفَرَّقًا بِحَسَبِ الوقائِعِ، والأحوالِ، مِنَ الأدلَّةِ الدَّالَةِ على صِدقِهِ، وقد جَرَتِ العادَةُ بأنَّ مَنْ يأتِي بكلامٍ مِنْ عِندِه في مُناسَباتٍ مُختَلِفةٍ، لا يَتَذَكَّرُ جميعَ ما قالَه عَبْرَ السِّنِينَ؛ حتَّى يَسْلَمَ مِنَ التَّناقُضِ، ويَجْعَلَ كلامَه الآخِرَ مُوافِقًا للأوَّلِ، ومَعَ نُزولِ القرآنِ على مَدَى ثلاثٍ وعِشرِينَ سَنَةً، إلا أنَّه لا يُوجَدُ فيه تَعارُضٌ، بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، وما اسْتَشْكلَه بَعضُ النَّاسِ مِنْه -فيما ظَهَرَ لَهُم- قد أجابَ عَنْه الرَّاسِخُونَ في العِلمِ، بِما يُزِيلُ التَّعارُضَ، وكُلَّما تَقَدَّمَ الزَّمَنُ، واتَّسَعَتْ دائِرَةُ العُلُومِ، والمَعارِفِ، وتَوالَتْ الأجيالُ على كَرِّ العُصُورِ، والدُّهورِ، فإنَّ ذلكَ لا يَزِيدُ القرآنَ إلا ثَراءً، وغِنًى.

ومِنْ ذلِكَ: أنَّ قارِئَه لا يَمَلُّ مِنْه، مَهْما كَثُرَتْ عَدَدُ خَتماتِه، بخِلافِ بَقِيَّةِ الكُتُبِ، والقَصَصِ مِنْ غَيرِ الوَحيِ.

وفِيها: أنَّ كلامَ البَشَرِ يَتَفاوتُ في البلاغَةِ، ويَحصُلُ فيهِ البَدِيعُ البَلِيغُ، والمَعِيبُ المَرذُولُ، بخِلافِ كلامِ اللهِ، فإنَّه بليغٌ كلُّه.

وفِيها: كَراهَةُ هَذِّ القرآنِ، كَهَذِّ الشِّعرِ، والاستِعْجالِ بقِراءَتِه، والمُبالَغةِ في السُّرعَةِ؛ لأنَّ ذلكَ يُفوِّتُ التَّدبُّرَ.

وفِيها: تَحصِيلُ الأسبابِ المُؤدِّيَةِ للتَّدبُّرِ، مِنَ القِراءَةِ، والتَّعلُّمِ، والسُّؤالِ، والتَّأمُّلِ، والإعادَةِ.

وفِيها: جَمعُ الفِكرِ على مَعانِي الآياتِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ، واليَقينَ، يَزدادُ بتدبُّرِ القرآنِ.

وفِيها: قَطْعُ أعذارِ المنافِقِينَ في استِمرارِهم على كُفْرِهم.

وفِيها: أنَّ أقوالَ المَخاليقِ ناقِصَةٌ.

وفِيها: أنَّ كُتُبَ الأديانِ الأخرَى بَعدَ تَحرِيفِها يَقَعُ فيها التَّناقُضُ، والاختِلافُ؛ لأنَّها لَمْ تَعُدْ مِنْ عِندِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ تَدبُّرَ القرآنِ لِمَنْ يَعرِفُ مَعناهُ، قاطِعٌ في إقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وفِيها: دَعوَةُ الكُفَّارِ إلى تدبُّرِ الكِتابِ العَزِيزِ، وتَمكِينُهم مِنْ ذلكَ -دونَ أنْ يَمَسُّوه- كما قال اللهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ لهذِه الأمَّةِ أنْ تَختَلِفَ في القرآنِ، وتَخُوضَ فيهِ بغَيرِ عِلْمٍ، وتَضرِبَ بعضَه ببعضٍ، وأنَّ هذا مِنْ أسبابِ الضَّلالِ، ومِمَّا أهلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَنا، قال ﷺ -لَمَّا خَرَجَ على أصحابِهِ، وقَد اختَلَفَ اثنانِ مِنْهُم في آيةٍ، فارْتَفَعَتْ أصواتُهُما-: «**إنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، باخْتِلافِهِمْ في الكِتابِ**»(١).

وفِيها: إنكارُ اللهِ على كُفَّارِ العَرَبِ عدمَ تَدَبُّرِهم القُرآنَ، مَعَ قُدرَتِهم على ذلكَ.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ لهُ قُدرَةٌ مِنَ المُسلمينَ على تَعلُّمِ القرآنِ، وتَفَهُّمِه، وإدراكِ مَعانِي الكِتابِ، والسُّنَّةِ، فإنَّه ينْبَغِي عليه تَعَلُّمُهما، والعَمَلُ بما عَلِمَ مِنْهُما.

وفي الآيةِ: رَدٌّ على مَنْ قالَ: إنَّ القرآنَ لا يَعْلَمُ معناهُ إلا النَّبِيُّ، والإمامُ المَعصُومُ.

وفي الآيةِ: أنَّ وجودَ الاختِلافِ، والتَّناقُضِ، والخَطَأِ، في كُتُبِ المؤلِّفينَ مِنَ البَشَرِ، أمرٌ طبيعِيٌّ، ومُتَوقَّعٌ، ولا بُدَّ مِنْه.

ولَمَّا ذَكَرَ إعراضَ المنافِقينَ عَن كِتابِهِ، ووحْيِه، ذَكَرَ إقبالَهُم على كَلامِ النَّاسِ، وإذاعَتِه، وشَتَّانَ بَيْن صِدقِ الأوَّلِ، وما يَقَعُ في الثَّانِي مِنَ الكَذِبِ، والأوهامِ. ولَمَّا ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ تَبييتَ المنافِقينَ لِمَكرِهم باللَّيلِ، ذَكَرَ سَعيَهُم لِتخذِيلِ المسلمينَ، والتَّشويشَ علَيهِم في النَّهارِ، بإذاعَةِ الإشاعاتِ، والأخبارِ، وأرشَدَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المسلمينَ إلى الرُّجوعِ إلى أهلِ العِلمِ، والبَصِيرةِ، الذينَ يَعرِفونَ حقائِقَ الأمورِ، ويَتدبَّرونَ القرآنَ، ثُمَّ يَستَنْبِطونَ مِنه الفوائِدَ، والأحكامَ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٦).

أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ﴾ أي: المنافقينَ، وقيل: ضُعفاءُ الخِبرَةِ، والبَصِيرةِ، مِنَ المسلمينَ ﴿أَمۡرٞ﴾ في أيِّ شأنٍ مِنْ شُؤونِهِم ﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾ والأخبارِ السَّارةِ، والبَشائِرِ، والخَيرِ، كالنَّصرِ، والغَنيمةِ ﴿أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ والحُزْنِ، والشَّرِّ، كالقتلِ، والهزيمة ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ وأفْشَوْه، وتحدَّثُوا به بَيْن النَّاسِ ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: لَو أنَّ هؤلاءِ المُذِيعينَ مِنْ ضَعَفةِ الإيمانِ، والمُنافِقِينَ، رَدُّوا الأمورَ العامَّةَ، والكبيرةَ، وفَوَّضُوا الكلامَ فيها ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ مِنْ أصحابِ العِلمِ، والرَّأيِ، والعَقلِ، والخِبرَةِ، والشُّورَى، والحَلِّ، والعَقدِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي: مِنَ المؤمنينَ، وكِبارِ الصَّحابةِ، والعُلماءِ مِنْ بَعْدِهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾ فَهِمَه على وَجْهِهِ، وعَرَفَه على حقِيقَتِه ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ يَبْغُونَه، ويَطلُبُونَه، ويَستَخْرِجُونَ حقِيقَتَه، كما تُستَنْبَطُ المعادِنُ مِنْ مَكامِنِها، وكما يُستَخْرَجُ الماءُ مِنْ قَعْرِ العَيْنِ.

ولَمَّا اعْتزَلَ نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِساءَهُ، وقالَ النَّاسُ: طَلَّقَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِساءَهُ، لَمْ يَخُضْ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيما خاضُوا فِيهِ، وَذَهبَ يَسْتعلِمُ مِن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى أخْبرَه أنّه لَمْ يُطلّقْهنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، قالَ عُمرُ: «فَقُمْتُ عَلَى بابِ المَسْجِدِ، فَنادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِساءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾، فَكُنْتُ أَنا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الأَمْرَ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ»(١).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ وتوفيقُه، وإحسانُه ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أيُّها المؤمنونَ ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ ببَعْثةِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنزالِ القرآنِ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ فيما يأمُرُ بِهِ مِنَ الكُفرِ، والإثْمِ، والفَواحِشِ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلا قليلًا مِنْكم لَمْ يَتَّبِعُوهُ، وقيلَ: إلا قليلًا مِنكم لَم يُذِيعُوا الإشاعاتِ، وقيل: لاتَّبَعْتُمُ الشَّيطانَ إلا إتباعًا قليلًا، وقيل: لاتَّبعتُمُوه كُلُّكم، أو لاتَّبعتُمُوه في كلِّ ما يُوَسْوِسُ بِهِ، ويَدعُو إليه، وقيلَ: إلا قليلًا مِنْ ذَوِي الآراءِ الصَّائِبةِ، لا يَتَأَثَّرونَ بالدَّعاوَى، والإشاعاتِ(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٤٧٩).

(٢) انظر: زاد المسير (١/ ٤٤٠)، تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ تدبُّرَ القرآنِ يؤدِّي إلى: التَّثبّتِ، وتكوينِ المِيزانِ، الذي بِهِ تُقبَلُ الأخبارُ، أو تُرَدُّ.

وأنَّ الإعراضَ عَنِ الوَحْيِ يُؤدِّي إلى: قَبُولِ الإشاعاتِ، وتَلَقِّي الأخبارِ المكذُوبَةِ، وعَدَمِ التَّحقُّقِ، والتَّبَصُّرِ في الأمُورِ.

وفِيها: الإنكارُ على مَنْ يُبادِرُ إلى الأخبارِ، ويُفْشِيها قَبْلَ التَّحقُّقِ مِنْ صِحَّتِها، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «**كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا، أنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ**»(١)، وفي الحديثِ الآخَرِ: «**بِئسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا**»(٢).

وفِيها: أنَّ أمورَ المسلمينَ الكِبارَ: كالحَرْبِ، والقِتالِ، والسِّلمِ، والمُوادَعةِ، ونحوِها، لا يَصِحُّ أنْ يَخُوضَ فيها عامَّةُ النَّاسِ.

وفِيها: أنَّ العامَّةَ الذينَ لا خِبرَةَ لهُم بالشُّؤونِ العامَّةِ، لا يَجوزُ لهم أنْ يَخُوضُوا فيما لا عِلمَ لهم بِهِ، ولا قُدرَةَ لهم على إدراكِهِ، واكتِشافِ حقيقَتِهِ.

وفِيها: التَّحذِيرُ مِنْ إشاعَةِ الأخبارِ، وإفشاءِ الأسرارِ، ونَشْرِ أيِّ خَبَرٍ، يَكْشِفُ عَوْرَةً للمسلمينَ، ويدُلُّ الأعداءَ علَيها.

وفي الآيةِ: بيانُ خَطَأِ، وانحِرافِ، أكثرِ وسائِلِ الإعلامِ في زمَنِنا هذا، التِي تَجعَلُ الخَوْضَ في القَضايا الكِبارِ بأيدِي العامَّةِ، وتَفتَحُ لهم بابَ المُشارَكَةِ -زَعَمُوا- بما يُسمُّونَه بالإعلامِ التَّفاعُلِيِّ، وهذا الإعلامُ المُعاصِرُ يُمكِّنُ أتْفَهَ الأشخاصِ مِنَ الكَلامِ في أخطَرِ القَضايا، ولعلَّ هذا -والعِلْمُ عِنْدَ اللهِ- يَدْخلُ فِيما تَنَبَّأَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ مِنْ علاماتٍ تَكُونُ بينَ يَدَي السَّاعةِ، وظُهورِ الدَّجالِ -أعاذنا اللهُ مِنْ فِتْنتهِ-؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ أمامَ الدَّجّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً، يُكَذَّبُ فِيها الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيها الكاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيها الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيها الخائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيها الرُّوَيْبِضَةُ**». قِيلَ: وَما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قالَ: «**الفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ في أَمْرِ العامَّةِ**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٥).

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٧٢)، وأحمد (١٧٠٧٥)، وصححه النووي في الأذكار (ص٣٧٩)، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٥١): «رجاله ثقات، إلا أن فيه انقطاعا».

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٣٢٩٨)، وجوَّدَ إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ٨٤)، وحسَّن إسناده محققو المسند.

وفي لفظٍ آخرَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَدَّاعَةً...**»(١).

وباسمِ السَّبْقِ الصَّحَفِيِّ: تَنْشُرُ وسائِلُ الإعلامِ البَلبَلَةَ، وتُشوِّهُ السُّمعَةَ، وتهْتِكُ المَستُورَ، وتُذيعُ الفاحِشَةَ.

وفِيها: وُجوبُ رُجوعِ الجاهِلِ إلَى العالِمِ، والصَّغيرِ إلى الكَبيرِ، وعَديمِ الخِبرَةِ إلى الخَبيرِ، والمُتَعجِّلِ إلى البَصِيرِ.

وفِيها: إيصالُ الأخبارِ إلى أهلِ العِلمِ، وانتِظارُ تعليقِهم عليها، والرُّجوعُ إليهِم في المسائِلِ، وانتظارُ فَتْواهُم فيها، والاحتِكامُ إليهِم في الأحداثِ، وانتِظارُ معْرِفةِ مَوقِفِهم مِنْها، والاستماعُ إلَى توجِيهِهِم، ونُصْحِهم، وإرشادِهِم.

وفِيها: مَكانةُ كِبارِ الصَّحابةِ في العَصْرِ الأوَّلِ، وبيانُ القرآنِ لقَدْرِهِم، ورِفعَةِ مَنزِلَتِهم، وأنَّهم مَرجِعُ النَّاسِ.

وفِيها: فَضلُ التَّحقِيقِ، والتَّدقِيقِ، والرُّجوعِ إلى أصلِ الخَبَرِ، ومصدَرِ الإشاعَةِ، والتَّأكُّدِ، والمُوازَنةِ، والتَّحليلِ، واستِقراءِ الأمورِ.

والآيةُ: أصلٌ في الاجتِهادِ، والقِياسِ، والاستِنْباطِ، والتَّرجِيحِ.

وفِيها: فَضْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مَنْ أنْعَمَ عليهِم بدقَّةِ النَّظَرِ، والعِلمِ، والبَصِيرَةِ، والخِبْرَةِ، وأنَّ عليهِم أنْ يَشكُرُوا نعمةَ اللهِ، فيُبيِّنُوا للعامَّةِ ماذا يَجِبُ عليهِم، ويَنْصَحُوا لعامَّةِ المُسلمينَ.

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ يَسْعَوْنَ في نَشْرِ الخَوْفِ، والبَلْبَلَةِ، في أوساطِ الأمَّةِ؛ لإسقاطِها، وهزِيمَتِها، حتَّى يَعُمَّ فيها الذُّعْرُ، وتَوَلِّي الأدبارِ.

وفِيها: فَضلُ الصَّحابةِ، الذينَ عُرِفُوا بالاقتِباسِ مِنْ مِشكاةِ النُّبوّةِ، والتَّوصُّلِ إلى حقائِقِ الأمورِ، وعلَى رأسِهم: الخُلفاءُ الأربعةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفي الآيةِ: أنَّه لَوْلا فضلُ اللهِ ورحمتُه، ما استَنارَتْ عُقولُ المؤمنينَ بنُورِ الإيمانِ، ولَما عَرَفُوا الأحكامَ، ومعانِي السُّنةِ، والقرآنِ.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٣٢٩٩)، وحسَّن إسناده محققو المسند.

وفِيها: أهمِّيَّةُ تَمرينِ طالبِ العِلمِ عقلَه على الاستِنْباطِ، واستِعمالِ المُقارَنةِ، والمُوازَنَةِ، والقِياسِ، والرُّجوعِ إلى أهلِ العِلمِ؛ للتَّأكُّدِ مِنْ صِحَّةِ ما خَرَجَ بِهِ.

وفِيها: أنَّ نَشْرَ الإشاعاتِ تَتَرَتَّبُ عليهِ أضرارٌ كثيرةٌ، مِنْ: تَشويهِ سُمْعَةِ الأبرياءِ، ونَشْرِ الذُّعرِ بينَ المسلمينَ، والتَّسَبُّبِ في تَخَلِّيهم عَنِ الحَذَرِ الواجِبِ، وتَشكيكِ بَعضِهم في نَوايا بَعضٍ، والهزيمَةِ النَّفسِيَّةِ، والمَعنَويَّةِ، وحُدُوثِ الاضطِرابِ والقَلاقِلِ في مُجتَمَعِهِم. وكلُّ هذا يَتَمنَّاهُ المنافِقونَ، ويَسْعَوْنَ إليهِ، وبعضُ ضَعَفَةِ المسلمينَ قَد يُستَخدَمونَ أدواتٍ في تَحقيقِ ذلك، مِنْ حيثُ لا يَشعُرونَ، وكثيرٌ مِنْ وسائِلِ الإعلامِ الفَضائِيِّ، والشَّبَكِيِّ، والوَرَقِيِّ، والاتِّصالِيِّ، -اليومَ- تعمَلُ على ذلكَ.

وفِيها: أنَّ التَّحقُّقَ، والرُّجوعَ، إلى أهلِ العِلمِ، والخِبرَةِ، فيه سلامةُ الأمَّةِ مِنْ كَيْدِ الكفَّارِ، ومَكْرِ المنافقينَ.

وفي الآيةِ: تَحريمُ إفشاءِ السِّرِّ، وقد قيلَ: «صُدُورُ الأحْرارِ قُبُورُ الأسْرارِ».

وفِيها: أخذُ الأخبارِ مِنْ مَصادِرِها الأصليَّةِ؛ لأنَّ الخَبَرَ إذا انتَقَلَ مِنْ شخصٍ إلى آخَر، كثيرًا ما يَتَغَيَّرُ.

وفِيها: أنَّ الاستِنْباطَ يَحتاجُ إلى تعَبٍ، وكَدِّ ذِهنٍ؛ ولذلك فإنَّه يُلتَمَسُ عندَ أهلِ العِلمِ، والعَقلِ، والخِبرةِ. ومَعْنَى «يَسْتَنبِطُونَهُ» في اللُّغةِ: يَستَخرِجُونَه، وأَصلُه مِنَ النَّبَط، وَهُوَ الماءُ الَّذي يَخرجُ مِنَ البِئرِ أَوّلَ ما تُحْفَرُ، واسْتنبط الفَقِيهُ: إذا استَخْرَجَ الفِقَه الباطِنَ، بِاجْتِهادِهِ وفَهْمِه. وسُمِّي النَّبَطُ بذلك؛ لأنَّهم يَستَخرِجونَ ما في الأرضِ مِنَ المَعادِنِ، وغيرِها[1].

وفِيها: أهمِّيَّةُ حِفظِ الأمْنِ في المُجتمعِ المُسلمِ، وتَحريمُ الإرجافِ، ونَشْرِ الخَوفِ فيهِ.

وفِيها: التَّنبيهُ إلى علاجِ التَّشويشِ، والحَيْرَةِ، والاضطِرابِ، وخُصُوصًا عند ضُعفاءِ المسلمينَ.

وفِيها: الاجتِهادُ لمصلحةِ المسلمينَ العامَّةِ، بالبَحثِ الشَّديدِ، والاستِقصاءِ التَّامِّ.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٣/ ٢٥٠)، لسان العرب (٧/ ٤١٠)، تفسير القرطبي (٥/ ٢٩١).

وفيها: النَّهيُ عَن العَجَلةِ، والتَّسرُّعِ.

وفي الآيةِ: دليلٌ على جوازِ القِياسِ، فإنَّ مِنَ العِلمِ ما يُدرَكُ بتلاوةِ النَّصِّ، وروايَتِهِ، ومِنْه ما يُدرَكُ بالاستِنْباطِ، وهو القِياسُ على المَعاني المُودَعَةِ في النُّصوصِ.

وفي الآيةِ: الاجتهادُ عندَ عدمِ وجودِ النَّصِّ.

وفيها: التَّحذِيرُ مِنْ تَسريبِ أخبارِ المسلمينَ إلى الكُفَّارِ؛ لأنَّه: إمَّا أنْ يؤدِّي إلى تجرِئَةِ الكفَّارِ، للهُجومِ على المسلمينَ إذا جاءَتْهم أخبارُ ضَعفِهم، أو يؤدِّي إلى تحصُّنِ الكفَّارِ، وحَذَرِهم، ثمّ استِعصائِهم على المسلمينَ، ونحْوِ ذلِك.

ولَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِصيانَ المنافِقِينَ في الجِهادِ، وكَيْدَهم، أمَرَ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يقاتِلَ بنفسِهِ، غيرَ مُكترِثٍ بما فَعَلوا، وأنْ يَتَقدَّمَ بمَنْ مَعَه مِنَ المسلمينَ، للقِتالِ في سبيلِ اللهِ؛ نُصرةً للمُستضعَفينَ، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾.

﴿فَقَٰتِلۡ﴾ هذه الفاءُ هي «الفاءُ الفَصيحةِ»؛ لأنَّها أفصَحَتْ عن جَوابِ شَرطٍ محذُوف، تقديرُه: إذا أردتَّ -يا محمد- الفوزَ، والظَّفَرَ، على الأعداءِ، أوْ: إذا كانَ الأمْرُ ما ذُكرَ مِن عَدمِ طاعةِ المُنافقِين: فقاتل.

وقيل: الفاءُ للاستِئنافِ المُقرِّرِ لِما قبلَه، وقِيلَ غيرُ ذَلك[1].

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طاعةً له، وامتِثالًا لأمرِه، وإعلاءً لكَلِمتِه، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ أي: مَنْ تولَّى، وأدبَرَ، فلا عليكَ مِنْه، ولا تُطالَب، ولا تُحاسَب، بأفعالِ غيرِكَ.

وقد رَوَى ابنُ أبي حاتمٍ، عن أبي إسحاقَ قال: سألتُ البراءَ بنَ عازبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرجلِ يَلْقى مائةً مِنَ العَدُوِّ فيقاتِلُ، أيكونُ ممَّن يقولُ الله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾؟ قال:

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ٨٤)، البحر المحيط (٣/ ٧٣١)، تفسير الرازي (١٠/ ١٥٧)، التحرير والتنوير (٥/ ١٤٢)، فتح القدير (١/ ٥٦٨).

«قد قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»(١).

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: على القِتالِ، ورَغِّبْهُم فيه، وشَجِّعْهُم عندَه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم يومَ بدرٍ: «**قُومُوا إلى جَنَّةٍ، عَرضُها السَّموات والأرضُ**»(٢).

﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ و«عسى» مِنَ اللهِ واجبةٌ، ومتحقِّقةُ الوقُوعِ ﴿أَن يَكُفَّ﴾ يَمنعَ، ويَصرِفَ ﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شدَّتَهم، وشَوْكتَهم، وصَوْلَتَهم؛ وذلكَ بانبعاثِ هِمَمِ المؤمنينَ لِقتالِهِم، وخُروجِهم بَعدَ تَحرِيضِكَ إيَّاهُم، فيُلقِي اللهُ الرُّعبَ في قلوبِ العدُوِّ؛ فينهزِمونَ، ويَنصرِفونَ، أو يَتخلَّفونَ عنِ الخُروجِ، كما حَصَلَ في غزْوةِ «بَدْر المَوعِدِ»، وهي غَزْوةُ بدرٍ الصُّغرَى، بعد مَوقعةِ أُحُدٍ، فخرَجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعدما حرَّضَ المؤمنينَ، ولكنَّ أبا سُفيانَ بنَ حَربٍ، ومشرِكِي قُريشٍ، ثَبَّطَهم اللهُ، فلَمْ يَخرُجوا(٣).

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أقوى أخذًا، وشدَّةً ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أقوى عُقوبةً، وتعذِيبًا، وهو قادرٌ عليهِم في الدُّنيا، والآخِرَةِ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

وجُوبُ الجهادِ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخُروجِ إلى الأعداءِ بنفسِهِ، وأما خُروجُ الأئمَّةِ مِنْ بَعدِه: فهو راجِعٌ إلى المَصلَحةِ.

وفِيها: أنَّ القِتالَ في سبيلِ اللهِ هُو السَّببُ العظيمُ في النَّصرِ على الأعداءِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ امتَثَلَ أمرَ اللهِ بنفسِهِ، فلا يُكلَّفُ بأفعالِ الآخَرِينَ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ١٠١٧)، ورواه الإمام أحمد في المسند (١٨٤٧٧)، ولفظه: عَنْ أَبِي إِسْحاقَ، قالَ: قُلْتُ لِلْبَراءِ: الرَّجُلُ يَحْمِلُ عَلَى المُشْرِكِينَ، أَهُوَ مِمَّنْ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلى التَّهْلُكَةِ؟ قالَ: «لا؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بَعَثَ رسولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنَّما ذاكَ في النَّفَقَةِ». وقال محققُ المسند: «سببُ نُزولِ الآيةِ صَحيحٌ مِن حديثِ حذيفة، وهذا إسناد اخْتُلف في متنِه على أبِي إسحاقَ السَّبيعي».

(٢) رواه مسلم (١٩٠١).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (/ ٤٥)، سيرة ابن إسحاق (ص٣١٦)، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٠)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٤٩).

وفِيها: أنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا تَضُرُّهُ معصيةُ الآخَرِينَ.

وفِيها: عدمُ النَّظرِ إلى الكُسالَى، ومَنعُ النَّفسِ مِنَ التَّأثُّرِ بالمُثبِّطِينَ، والمُبطِّئِينَ، وأنَّ على المسلمِ أنْ يَعمَلَ بأمْرِ اللهِ، وشِعارُه في الطَّاعةِ، والامتِثالِ: نَفْسِي، نَفْسِي.

وفِيها: عدمُ التَّهيُّبِ مِنَ الأعداءِ، وقد كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَخافُ مِنْ مُلاقاتِهم، ولا يَتغيَّرُ وجهُه، بلْ رُبَّما تَبَسَّمَ[(١)].

وفِيها: مَسؤوليَّةُ القائِدِ عنْ جُندِه، والإمامِ عنْ رعيَتِه، وتَحرِيضُهم على الجهادِ في سبيلِ اللهِ، والخُروجِ لمُلاقاةِ أعداءِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ المُتخلِّفِينَ عنْ فريضَةِ الجهادِ، لا يَضُرُّونَ إلا أنفسَهم، فالوَبالُ عليهِم، والإثمُ يَحِيقُ بهم، ومَنْ نَصَحَهم، وأدَّى ما عَلَيْهِ، فلا يَضُرُّه تخلُّفُهُم.

وفِيها: مُواجهةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأعداءِ كافَّةً، وأنَّه مُستَعِدٌّ لِقتالِهم، ولو كان وحدَه. ولَمَّا انهزَمَ جيشُ المسلمينَ في أُحُدٍ، بَقِيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابتًا في أرضِ المعركةِ، وكذلك في حُنَينٍ.

وفِيها: عدمُ رَهبةِ المسلمينَ وخوفِهم مِنْ بأسِ الكفَّارِ، وتقديمُ طاعةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاستجابةِ لتحريضِه على تهويلِ الكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ كان اللهُ مَعَه، فلا خَوْفَ عليهِ، ولا حُزْنَ، ولا يَغْلِبُه أحدٌ.

وفِيها: أنَّ العاقبةَ للمتقينَ، وأنَّ نصرَ اللهِ يَتنزَّلُ على المؤمنينَ، وأنَّ مَنْ أعدَّ العُدَّةَ، وصَبَرَ، وثَبَتَ، فهو منصورٌ غيرُ مَخذولٍ، ومأجورٌ غيرُ مأزورٍ.

وفِيها: جوازُ انغِماسِ المسلمِ في العدُوِّ الكثيرِ، وحَملِ الرجلِ المسلمِ الواحدِ على العددِ الكثيرِ مِنَ الأعداءِ، كما دلَّ عليه حديثُ البَراءِ.

---

(١) روى أبو داود (٢٥٠١) عن سَهْلِ ابنِ الحَنْظَلِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُمْ سارُوا مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ، حَتَّى كانَتْ عَشِيَّةً فَحَضَرْتُ الصَّلاةَ عِنْدَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجاءَ رَجُلٌ فارِسٌ، فَقالَ: يا رسولَ اللهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذا وَكَذا، فَإِذا أَنا بِهَوازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ، وَنَعَمِهِمْ، وَشائِهِمْ، اجْتَمَعُوا إِلى حُنَيْنٍ، فتبَسَّمَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقالَ: «**تِلْكَ غَنِيمَةُ المُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شاءَ اللهُ**». وحسّنه الحافظُ في الفتحِ (٨/ ٢٧).

وفِيها: العمـلُ بالتَّحرِيضِ، وهذا يَشـمَلُ الأمـرَ بالقِتـالِ، وذِكْرَ أجـرِه، والتَّرهيبَ مِنَ الامتِناعِ عَنِ الخُروجِ، وتَوْلِيَةِ الأدبارِ، وذِكْرَ ما أعدَّ اللهُ للمؤمنينَ، إذا أطاعُوا، وصَبَروا.

وفِيهـا: قِيـامُ الصَّالِحِينَ، وأئمَّـةِ العِلـمِ، والهُـدَى، ببَثِّ الحَـماسِ في جيشِ المسـلمينَ، وتحريضِهـم على الخُروجِ، وعـلى القِتالِ، وعلى الثَّبـاتِ، ومُرافَقَتِهم، واستِعمالِ التَّرغِيبِ، والتَّرهيبِ، وتلاوَةِ آياتِ الصَّبرِ، والسَّكينةِ، والوَعدِ بالنَّصرِ.

وفِيها: قُوَّةُ اللهِ العظيمةُ، وبأسُهُ الشَّديدُ، وأخذُهُ الأليمُ، وانتقامُه العاجلُ، والآجلُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُعاقِبُ المُجرِمَ بما يكونُ فيهِ عِبرَةٌ لِغيرِه، وهذا معنَى التَّنكِيلِ في اللُّغةِ(١).

وفِيها: مَسؤولِيَّةُ المسلمينَ في الدِّفاعِ عَنْ حَوْزَةِ الدِّينِ، ونُصرَةِ المُستضعَفِينَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُدافِعُ عنِ الذينَ آمَنُوا، ويَكفي المؤمنينَ شُرورَ الكفَّارِ، والمشرِكينَ.

وفِيهـا: إظهارُ مكانِ القُدوَةِ، وأنَّه يُبادِرُ بالأمرِ، ويَستَجِيبُ قَبْـل غَيرِه، ويَبْدَأُ بالامتِثالِ؛ دعوةً للآخَرينَ.

وفِيها: البِشارةُ للنبيِّ ﷺ، وللمؤمِنينَ، بكَلِمةِ: (عَسَى) في الآيةِ، و«عَسَى» مِنَ اللهِ واجِبةٌ، ومُتحقِّقةُ الوقُوعِ.

وفِيها: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ أشجَعَ الخَلْقِ، وأعْرَفَهم بالقِتالِ.

وفِيها: مسؤولِيَّةُ الإنسانِ عن نفسِهِ بالعَمَلِ بالأمْرِ، وعنْ غيرِه بدَعوَتِهِ، وحثِّه، وتَحرِيضِه، ولكنْ ليسَ عليهِ استجابةُ الغَيرِ، ولا يُكلَّفُ بهِدايَتِهِ.

وفِيهـا: أنَّ النبـيَّ ﷺ لَوْ قاتَـلَ الأعداءَ وحدَهُ، فإنَّه منصـورٌ، ولا بُدَّ، كما هو وَعْدُ اللهِ.

وفِيها: تَقوِيةُ قُلوبِ المؤمنينَ بالبِشارةِ والوَعدِ الحَسَنِ مِنَ اللهِ، وهذا ممَّا يُعِينُ على الثَّباتِ في المعركَةِ.

وفِيها: أنَّ البَأسَ، والعَذابَ، والتَّنكِيلَ، بعضُه أشدُّ مِنْ بَعضٍ.

---

(١) انظر: النهاية (٥/ ١١٧)، تفسير القرطبي (١/ ٤٤٣).

وفيها: أنَّ الأصلَ في خروجِ أهلِ الإسلامِ للقِتالِ في سبيلِ اللهِ، ألَّا يكونَ بالإكْراهِ، والتَّجنيدِ الإجبارِيِّ، وإنَّما هو بالحَثِّ، والتَّرغِيبِ، والتَّزيينِ.

وفيها: أنَّه يَجِبُ بَقاءُ لواءِ الحقِّ مَرفوعًا، وإنْ لَمْ يحمِلْهُ إلا واحدٌ، وعدمُ خَفْضِه مَهْما كانَ حالُ النَّاسِ مِنَ الخِذلانِ، والتبطِئةِ، والتَّثبيطِ، والقُعودِ؛ فإنَّ اللهَ يُعيدُ بهذا اللِّواءِ المَرفوعِ فِئامًا إلى الحَقِّ، ويُذكِّرُ الغافِلَ، وينبِّهُ العاصِي.

وفيها: أنَّ بأسَ اللهِ، وتنكيلَه بالكفَّارِ، يَقَعُ في الآخرةِ، ويَقَعُ -أيضًا- في الدُّنيا، وأنَّ أخذَه، وسَطوَتَه، أشدُّ في الدُّنيا، وفي الآخرَةِ.

ولَمَّا كانَ الجهادُ في سبيلِ اللهِ يَحتاجُ إلى إعانَةٍ، وأعوانٍ، وكانتِ الدَّعوةُ إليهِ، والتَّحرِيضُ عليهِ، مِنْ بابِ الإعانَةِ، فيكونُ فيها أجرٌ للشَّافِعِ، المُحَرِّضِ، الدَّاعِي. ولَمَّا كانتِ الإعانَةُ على الشَّيءِ شَفاعةً، وكانَ مَنِ انضَمَّ إلى غَيرِه، في إنجازِ أمرٍ، والإعانةِ عليهِ، يُعتبر شفيعًا -وهذا يكونُ في الخَيرِ، والشَّرِّ-؛ فقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -تَرغِيبًا في الشَّفاعَةِ الحَسَنةِ، وتَرهِيبًا مِنَ الشَّفاعَةِ السَّيئةِ-:

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿مَّن يَشْفَعْ﴾ أيْ: مَن يَتوسَّطْ، ويُعِن ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ في الخَيرِ، ومِنْ ذلكَ: الانضِمامُ للجِهادِ، والإعانَةُ على قَضاءِ حوائِجِ الخَلْقِ، فتكونُ شفاعتُه موافقةً للشَّرعِ ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾ أي: للشَّافِعِ ﴿نَصِيبٌ﴾ حَظٌّ مِنَ الأجرِ ﴿مِّنْهَا﴾ بسببِها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ مُخالِفَةً للشَّرعِ، ومِنْ ذلكَ: التَّحرِيضُ على المؤمنينَ، والانضِمامُ للكفَّارِ، شافِعًا لهم، ومُعِينًا، على أهلِ الإسلامِ ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نَصيبٌ مِنَ الوِزْرِ، بسبَبِ ما عَمِلَ.

والشَّفاعةُ: هي التَّوسُّطُ بالقَوْلِ، أو الفِعْلِ، في إيصالِ مَنْفعةٍ إلى شَخصٍ، أو دفعِ المَضَرَّةِ عنهُ، والأصلُ أنَّها في الخَيرِ، واشتُقَّتْ مِنَ الشَّفعِ، فكانَ المشفُوعَ له واحدًا فردًا، فصارَ بالشَّفِيعِ اثنَيْنِ زوجًا.

وقيل: الشَّفاعةُ الحَسَنةُ: الدُّعاءُ للمؤمنينَ، والشَّفاعةُ السَّيِّئةُ: الدُّعاءُ عليهِم، وكانتِ اليهودُ تفعَلُه.

وقيل: الشَّـفاعةُ الحَسَـنَةُ: الإصلاحُ بَيْنَ المسـلمينَ، والتَّوسُـطُ في ذلك، والسَّـعْيُ فيهِ، والشَّفاعةُ السَّيِّئةُ: الإفسادُ بَيْنهم، والتَّفرِيقُ، والمَشيُ بالغِيبَةِ والنَّميمةِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ حافِظًا للأشـياءِ، شـاهِدًا عليها، مقتَدِرًا، فلا يُعجِزُه أنْ يُوصِلَ الأجرَ، والثَّوابَ، للشَّـافِعِ بالخَيرِ، وأنْ يُوقِعَ العِقابَ على الشَّـافِعِ بالشَّرِّ، ويُجازِي كُلًا بـما يَستَحقُّهُ. وقيـلَ: هـو الحَسِيبُ، وقيلَ: الـرزَّاقُ، وقيـلَ: الواصِبُ، وهـو القَيِّمُ بالأمُورِ(١).

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

الأجرُ العظيمُ للنبيِّ ﷺ بشَفاعتِه في الخَيرِ، ودَعوتِهِ المسلمينَ للجِهادِ، وتَحريضِهم عَلَيْهِ، فكُلُّ مَنِ استَجابَ لأمرِهِ، وخَرَجَ في سبيلِ اللهِ، فإنَّ للنبيِّ ﷺ أجرًا على ذلكَ.

وفِيهـا: أنَّ على المسـلمِ أنْ يَشْـفَعَ وِترَ أهلِ الإسـلامِ بالانضِمامِ إليهِم، وأنْ يَحْذَرَ -أشـدَّ الحَذَرِ- مِنَ الشَّفْعِ السَّيِّئِ، وهو: تَخذِيلُهم، والانضِمامُ إلى أعدائِهم.

وفي الآيةِ: شاهدٌ لحديثِ النبيِّ ﷺ: «**اشفَعُوا تُؤجَرُوا**»(٢).

وذُكِرَ في الشَّـفاعةِ الحسـنَةِ النَّصيبُ، وهو أخذٌ، وحَظٌّ، وذُكِرَ في الشَّفاعةِ السَّيِّئةِ الكِفْلُ، وهُوَ: شِدَّةٌ، وثِقَلٌ؛ لأنَّه وِزرٌ يَحمِلُه.

وفِيها: أنَّ مَنْ حَرَّضَ على خيرٍ، ودَعا إليه، فإنَّه مأجورٌ، ولَو لَمْ يُقبَلْ قولُهُ.

وفِيها: فَضلُ تأييدِ الحَقِّ، ونُصرَتِه.

وفِيها: المُعاوَنةُ على البرِّ، والتَّقوَى.

وفِيها: سُوءُ عاقِبةِ تخذِيلِ المسلمينَ، والانضِمامِ إلى أعدائِهم.

وفِيها: أنّ الشَّافِعَ الذي يَسعَى بالخَيرِ مأجورٌ، ولَو لَمْ تَنْجَحْ مَساعِيهِ.

وفِيها: أنّ الشَّافِعَ يُؤجَرُ علَى الشّفاعةِ الحَسنةِ، وإنْ لمْ يُشَفَّعْ، صَحّ عنِ الحَسَنِ قالَ: «مَنْ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥٨٣)، تفسير ابن عطية (٢/ ٨٦)، تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

يَشفَعْ شفاعةً حَسنةً كانَ لهُ أجرُها، وإنْ لمْ يُشفَّعْ؛ لأنّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقُولُ: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾، ولمْ يقُلْ: مَنْ يُشفَّع»[1].

وقالَ القُرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشَّافِعُ يُؤْجَرُ فِيما يَجُوزُ، وَإِنْ لَمْ يُشَفَّعْ؛ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قالَ: ﴿ مَّن يَشْفَعْ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: يُشَفَّعْ»[2].

وفِيها: خِذلانُ مَنْ أعانَ على السُّوءِ، والمُنكَرِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ انضَمَّ إلى غَيرِه في الشَّرِّ، يَنالُه -بسببه- سُوءٌ، وشِدَّةٌ.

وفِيها: فضلُ السَّعيِ لإزالَةِ الضَّررِ، ورَفْعِ الظُّلمِ عنِ المظلُومِ، وإيصالِ الخَيرِ إلى المسلمِ، والحَقِّ إلى أهلِه.

وفِيها: مَحَبَّةُ المسلمينَ لبعضِهم، وأنْ يُحِبَّ المرءُ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

وفِيها: العاقِبةُ الوَخيمةُ لِمَنْ شَفَعَ في هَضْمِ حَقِّ مظلومٍ، أو إيصالِ شيءٍ لغيرِ مُستَحِقِّه، أو مُحاباةِ شخصٍ على حسابِ الآخَرينَ، أو الاعتِداءِ على حقِّ الغَيرِ، أو تقديمِ شَخصٍ على آخَر أكْفَأَ مِنْه في عملِ المسلمينَ. فهذه شَفاعاتٌ سَيِّئةٌ، على صاحبِها الوِزْرُ العظيمُ.

ومِنْ أسْوأ صُورِها: الشَّفاعةُ في إسقاطِ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، قدْ بَلَغَ السُّلطانَ[3]، هذا بخِلافِ السَّعيِ للتَّجاوزِ عن ذَنبِ التَّائِبِ، في ما ليسَ بِحدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، فهذه شَفاعةٌ حسَنَةٌ.

وفِيها: استِحسانُ ما استَحْسنَهُ الشَّرعُ، وبُغضُ ما حَرَّمَهُ، واستِقباحُ ما استَقْبَحَه.

وفِيها: شَهادةُ اللهِ على أفعالِ العِبادِ، وحِفظُه لأعمالِهم، ورزقُهُ إيَّاهم، وقِيامُه بأمُورِهم.

وفِيها: مُعاتَبَةٌ لبعضِ المسلمينَ، الذين كانوا يَشْفَعُونَ لأقارِبِهم مِنَ المنافِقينَ، في تَخَلُّفِهم عنِ الغَزْوِ، ويُساعِدونَهم بالمُبَرِّراتِ، والأعذارِ، ويُرِيدونَ دَرْءَ العُقوبَةِ عَنْهم.

---

(١) رواه الطبري (٨/ ٥٨١)، وابن المنذر (٢/ ٨١٢).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٦).

(٣) روى أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٥٣٨٥)، عن ابْنِ عُمَرَ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ حالَتْ شَفاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **فَقَدْ ضادَّ اللهَ أَمْرَهُ**». قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رَواهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، بِإِسْنادٍ جَيِّدٍ» إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٧). وصح عَنِ الزُّهْرِيِّ قالَ: «إذا بَلَغَتِ الحُدُودُ السُّلْطانَ، فَلا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْفُوَ عَنْها»، رواه عبد الرزاق (٧/ ٤٤٠).

وهذِهِ الآيةُ أصلٌ في الشَّفاعاتِ الدُّنيويَّةِ، بخِلافِ قولِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ونحوِهِ، فإنَّها في الشَّفاعاتِ الأُخرَويَّةِ.

وفِيها: إدخالُ السُّرورِ على المسلمينَ بقَضاءِ حَوائِجِهم.

وفِيها: أنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنسِ العَمَلِ.

وفِيها: تَدبيرُ اللهِ لِشُؤونِ عِبادِه، ومِنْ مَعاني المُقِيتِ: المُطْعِمُ، والرَّازِقُ[1].

وفِيها: الحِملُ الثَّقيلُ مِنَ الإثمِ على ظَهْرِ مَنْ يُؤَيِّدُ قومَه بالباطِلِ، ويُعِينُهم، ويَنْضمُّ إليهِم، ويَنصُرُهُم، وَهُمْ على غَيرِ الحقِّ.

وفي الآيةِ: ذَمُّ السِّعايةِ بالسُّوءِ عندَ السُّلطانِ؛ للإيقاعِ بمسلمٍ، والإضرارِ بِهِ، وهذِهِ مِنَ الكبائِرِ، ومِنَ الشَّفاعَةِ السَّيِّئَةِ.

وفِيها: تَعظيمُ أمْرِ الشَّفاعةِ السَّيِّئةِ؛ لقولِه: ﴿كِفْلٌ﴾ ولَمْ يَقُلْ نَصِيبٌ؛ وذلك لأنَّ دَرْءَ المَفاسِدِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ المَصالِحِ.

وفي الآيةِ: وصفُ الشَّفاعةِ الصالحةِ بالحَسَنةِ، وهي ما كانتْ خالِصةً لوجهِ اللهِ، لا يُرِيدُ الشَّافِعُ مِنْها مَنفعةً لنفسِهِ، ولا أُجرَةً، ولا يُتبِعُها بمَنٍّ، ولا أذًى، ولا يَشفَعُ إلا بعدما يَتحقَّقُ مِنْ صحَّةِ شفاعَتِهِ شَرْعًا، ونَحو ذلكَ، وفي الحديثِ: «**مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفاعَةٍ، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْها، فَقَبِلَها، فَقَدْ أَتَى بابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوابِ الرِّبا**»[2].

وفِيها: التَّرغيبُ في الشَّفاعةِ الحسنةِ، وأنَّها مِنْ زَكاةِ الجاهِ، فمَنْ أعطاهُ اللهُ نِعمةً بِمَكانَةٍ بَيْنَ الخَلْقِ، فعلَيهِ أنْ يستعْمِلَها في نَفْعِ عبادِهِ.

وفِيها: فَضلُ حُسنِ القَوْلِ في النَّاسِ؛ لِيُنالَ بِهِ الثَّوابُ، والخَيْرُ، وذَمُّ إساءةِ القَوْلِ في النَّاسِ؛ فيُنالُ بِهِ الشَّرُّ.

وبَعدَ أنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للمؤمنينَ الشَّفاعَةَ الحَسَنةَ -وهي مِنْ أسبابِ التَّواصُلِ فيما بَيْنهم-، علَّمَهُم أدبًا آخرَ، وسَنَّ لهم التَّحيَّةَ الحَسَنةَ، وردَّها؛ لِتقويةِ الصِّلاتِ، وغَرْسِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥٨٥)، النهاية (٤/ ١١٨)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٧٤).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٥١)، وأبو داود (٣٥٤١)، وقال الحافظ في بلوغ المرام (٢/ ٢٤): «في إسناده مقال».

أسبابِ المَحبَّةِ فيما بَيْنهم. ولَمَّا رَغَّبَ في الشَّفاعةِ الحَسَنةِ، وهي مِنَ الفِعْلِ الحَسَنِ، رغَّبَ في القَوْلِ الحَسَنِ في التَّحيةِ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ حَيَّاكُم أحدٌ ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ التحيّةُ في اللُّغةِ: الدُّعاءُ بالحياةِ، وهي: اللّفظُ الصادرُ مِنْ أحدِ المُتلاقِيَيْنِ على وَجهِ الإكرامِ، والدُّعاءِ، وما يَقترنُ بِذلكَ اللَّفظِ مِن البَشاشَةِ ونَحوِها. وأمَّا في الشَّرعِ: فإنَّ تحيَّةَ الإسلامِ: السَّلامُ.

وقيل: الآيةُ تشمَلُ أيَّ تحيَّةٍ مِنَ الكَلامِ الطَّيبِ، كقولِه: حَيَّاكَ اللهُ، أو مَرحَبًا، ونحوِ ذلكَ.

﴿فَحَيُّوا﴾ أجيبُوا الذي سلَّم ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ لفظًا، وبَشاشةً. وهذا إذا كانَ الذي سلَّمَ مسلِمًا، فإذا قال: السَّلامُ عليكُم، فيُرَدُّ علَيهِ: وعليكُم السَّلامُ ورحمةُ اللهِ، وإذا قال: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ، فيُرَدُّ علَيهِ: وعليكُم السَّلامُ ورحمةُ اللهِ وبَركاتُه ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي: بمِثلِ ما سلَّم، مُقتَصِرينَ على ذلكَ، ومعنَى هذا: أنَّه إذا رَدَّ بأقلّ، فإنَّه لا يَكفي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ مُحاسِبًا لكم على أعمالِكم، ومُجازيكُم علَيْها، فراقِبُوهُ، واحذَرُوهُ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

إرشادُ المسلمينَ إلى إشاعَةِ السَّلامِ فيما بَيْنهم، إلقاءً، وردًّا، وأنَّه يُستَحَبُّ أنْ يكونَ الردُّ أكمَلَ مِنَ الابتِداءِ.

وفيها: وجوبُ ردِّ السَّلامِ على مَنْ سَلَّمَ، فإذا تَركَه المُسلَّم علَيه فإنَّه يَأثَمُ؛ لأنَّه خالَفَ أمْرَ اللهِ في قولِهِ: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

وفي الآيةِ: أنَّ غيرَ المسلمينَ تُردُّ عليهم تَحِيَّتُهم، إذا سلَّموا سلامًا واضِحًا، لا لَبْسَ فيهِ، ولكنْ لا يُبدَؤُونَ بالسَّلامِ؛ لأنَّ السَّلامَ تحيَّةُ المسلمينَ فيما بَيْنهم، ومِنْ حقِّ المُسْلمِ على المُسْلمِ، وهؤلاءِ لَيْسُوا بمُسلِمينَ، ولِقوْلِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَبْدَؤُوا اليهودَ ولا النَّصارَى بالسَّلامِ**»(١).

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٧).

وفِيها: أنَّ الزِّيادةَ مندوبةٌ، والمماثَلةَ مَفروضَةٌ.

وفي الآيةِ: دُعاءُ المسلمينَ لبعضِهِم بعضًا بالسَّلامةِ مِنَ الآفاتِ.

وفِيها: موعظةُ المسلمينَ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليهِم.

وفِيها -مع التي قبلها-: نَفْعُ المسلمِ لأخِيهِ المسلمِ بالفِعلِ الحَسَنِ، كالشَّفاعَةِ، والقولِ الحَسَنِ، وهو الدُّعاءُ له بالسَّلامةِ، والتَّحبُّبُ إليهِ، وتقويةُ الصِّلةِ معَهُ، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفَلا أدلُّكُم على شَيءٍ إذا فَعَلتُمُوهُ تَحابَبْتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بَيْنَكم**»(١).

وفِيها: كَمالُ التَّحيَّةِ في الإسلامِ؛ فإنَّها تَجمعُ بَيْنَ السَّلامِ، والرَّحمةِ، والبَرَكةِ.

وفِيها: الإتيانُ بالأحسَنِ، والأكمَلِ، مِنْ أنواعِ التَّحايا، فإنَّ أصلَ التَّحيَّةِ عندَ العَرَبِ قولُهُم: «حيَّاكَ اللهُ»، يعنِي: جَعَلَ اللهُ لكَ حياةً، وهذا إخبارٌ بمعنَى الدُّعاءِ، فلَمَّا جاءَ الإسلامُ زادَهُم ما هو أفضَلُ، وأكمَلُ، وأتَمُّ، وهو السَّلامُ؛ لأنَّه يَتَضمَّنُ الدُّعاءَ بالسَّلامةِ مِنَ الآفاتِ، وليسَ مجردَ الدُّعاءِ بالحياةِ؛ لأنَّها قد تَحصُلُ مذمومةً مُنغَّصةً، بخلافِ ما لَوْ سَلِمَتْ مِنَ الآفاتِ.

والدُّعاءُ بالسَّلامةِ في السَّلامِ، يشمَلُ السَّلامَةَ مِنْ آفاتِ الدُّنيا، ومِنْ عذابِ الآخِرَةِ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ ردُّ السَّلامِ، ما لَمْ يَكُنْ هناك مانِعٌ، كمَنْ كانَ في الخَلاءِ، فلا يَستطيعُ الرَّدَّ، فيُؤجِّلُهُ حتَّى يَخرُجَ، وكمَنْ كان في الصَّلاةِ، فيقتَصرُ في الرَّدِّ على الإشارَةِ.

ولا بأسَ بتَرْكِ ردِّ السَّلامِ، وإلقائِهِ؛ تَعزيرًا للعاصِي، والفاسِقِ، وخُصوصًا المُجاهِرِ.

وفِيها: حِفظُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأعمالِ عبادِهِ دونَ تغييرٍ، ولا زِيادةٍ، ولا نُقصانٍ؛ ليكونَ الحِفظُ أصلًا للجَزاءِ.

وفي الآيةِ: تعليمٌ للتَّواضُعِ بَيْنَ المسلمينَ، وإكرامُ المسلمِ لأخِيهِ المسلِمِ.

وفِيها: أنَّ تَرْكَ رَدِّ السَّلامِ إهانةٌ، وإهمالٌ يُؤذِي؛ ولذلك فإنَّه لا يَجوزُ.

وفِيها: أنَّ إشاعةَ السَّلامِ بَيْنَ المسلمينَ، لا تُنافي الامتناعَ عنهُ لأسبابٍ، مِنْها ما تقدَّمَ،

---

(١) رواه مسلم (٥٤).

ومنها: تَركُ إلقاءِ السَّلامِ على المرأةِ الشَّابَّةِ، ولا تردُّ هي عليه؛ وذلك دَرْءًا للفِتنَةِ، ولا بأسَ بالسَّلامِ على جماعةِ النِّساءِ إذا لَمْ يَخَفْ على نفسِهِ، أو عليهِنَّ الفِتنَةَ[١].

وفي الآيةِ: أنَّ الأصلَ فيمَنْ أُلقِي عليهِ السلامُ أنْ يَرُدَّ، وهذا لا يُنافي تركَ الرَّدِّ في حالاتٍ، مِنْها ما تَقَدَّمَ، ومِنْها: في حالِ الخُطبَةِ؛ لأنَّ الجالِسِينَ مأمُورُونَ بالإنصاتِ، وعلى المُبْتدِعِ؛ لأنَّه تُشرَعُ مقاطَعَتُه، ونحوِ ذلك.

وفِيها: أنَّ الأصلَ إلقاءُ السَّلامِ على المسلمينَ، وردُّ سلامِهم، ولو كانَ فيهم كُفَّارٌ، فإنَّه يَقْصدُ بتسليمِهِ المسلمينَ؛ وذلكَ لحديثِ أُسامةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ رسولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مرَّ على مجلسٍ فيهِ أخلاطٌ مِنَ المسلمينَ، والمشركينَ، واليهودِ، فسلَّمَ عليهِم**»[٢].

وفِيها: الانتباهُ لمَكرِ أهلِ الكتابِ، والكفَّارِ، في دُعاءِ بعضِهم على المسلمينَ بالشَّرِّ، متظاهِرينَ بأنَّه تحيَّةٌ وسلامٌ، ولذلكَ يقولُ المسلمونَ في الرَّدِّ: «وعلَيْكُم»، ولا حاجةَ للردِّ المُقذعِ؛ لأنَّه يُستجابُ لنا فِيهِم، ولا يُستجابُ لهم فِينا.

وفِيها: أنَّه لا حَرَجَ مِنَ الجَمعِ بَيْنَ أنواعِ التَّحايا المُباحَةِ، وبَيْنَ التَّحيةِ، والسَّلامِ[٣]، وقد جَمَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنهما بقولِه: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥][٤].

وفِيها: تأمينُ المُسلِمِ لأخِيهِ المُسلِمِ؛ فإنَّ قولَه له: «السَّلامُ علَيْكم» يعنِي: أنَّك سالِمٌ مِنْ شَرِّي، وأذايَ، فلا يَجِيئُكَ مِنِّي مَكرُوهٌ، قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «أتدْرِي ما السَّلامُ؟ تقول: أنتَ مِنِّي آمِنٌ»[٥]، وقد ذَكَرَ العلماءُ في أحكامِ الأمانِ: أنَّ المُسلِمَ إذا قالَ لكافِرٍ: السَّلامُ

---

(١) انظر: الأذكار للنووي (ص٢٥٢).

(٢) رواه البخاريّ (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٣) قال أبو هِلال العسكريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرق بَين السلام والتحية: أَن التَّحِيَّة أَعم من السَّلام، وَقَالَ المبرد: يدْخل فِي التَّحِيَّة: حياك الله، وَلَك البُشْرَى، وَلَقِيت الخَيْر» قَالَ أَبُو هِلال: «وَلا يُقال لذَلِك سَلام، إِنَّما السَّلام قَوْلك: سَلام عَلَيْك»، الفروق اللغوية (ص٥٩).

(٤) المَعْنَى: أَنَّهُ يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالسَّلام، وقِيلَ: التَّحِيَّةُ: البَقاءُ الدَّائِمُ، والمُلْكُ العَظِيمُ، وَقِيلَ: هِيَ بِمَعْنَى السَّلام، وَقِيلَ: إِنَّ المَلائِكَةَ تُحَيِّيهِمْ وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ. والظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ التَّحِيَّةَ والسَّلامَ هِيَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ وَقِيلَ مَعْنَى التَّحِيَّةِ: الدُّعاءُ لَهُمْ بِطُولِ الحَياةِ، وَمَعْنَى السَّلام: الدُّعاءُ لَهُمْ بِالسَّلامَةِ مِنَ الآفاتِ. فتح القدير (٤/ ١٠٥).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٥٩٢).

عليكُم، أو رَدَّ عليهِ السَّلامَ بقولِه: وعليكُم السَّلامُ، فإنَّه أمانٌ؛ وعليه: فلا يَجوزُ له قَتلُه بَعدَ ذلكَ.

وفِيها: أنَّ رَدَّ السَّلامِ كُلَّما كانَ أتمَّ، وأكمَلَ، كان أحسَنَ، وأفضَلَ؛ ولذلك لَو ألقَى شخصٌ السَّلامَ عليكَ بصِيغةِ الإفرادِ، فرَدَدتَ عليه بصِيغةِ الجَمعِ: «وعليكُم السَّلامُ»، كانَ أتمَّ، وأفضَلَ، وخاصّة أنَّ مَعَه غيرَه، وهُم ملائِكَةُ اللهِ[(١)].

وفِيها -مع التي قبلها-: أنَّ مَنْ مالَ مِنَ الكفَّارِ إلى السِّلمِ، فإنه يُعطَى ذلكَ، فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذَكَرَ أمرَ التَّحيةِ -ورأسُها السَّلامُ- بَعدَ آياتِ القِتالِ، المُختَتمةِ بالبأسِ، والتَّنكيلِ، ومجيءُ ذِكْرِ الشَّفاعةِ، وآيةِ التَّحيةِ بَعدَ ذلك، فيه إرشادٌ إلى تَركِ قِتالِ مَنْ بَذَلَ السَّلامَ، ومالَ إلى السِّلمِ، وأرادَ الصُّلحَ.

وفِيها: أنَّ ردَّ التَّحيةِ بالأحسَنِ، يشمَلُ إرفاقَها بفِعلٍ حَسَنٍ، كالابتِسامَةِ، وأيضًا: البِشارَة بالخَيرِ، ولَمَّا جاءَ صفوانُ بنُ عَسَّالٍ المُرادِي إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال له: يا رسولَ اللهِ، إنِّي جِئتُ أطلُبُ العِلمَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرحَبًا بطالِبِ العِلمِ، إنَّ طالِبَ العِلمِ لَتَحُفُّهُ المَلائِكَةُ، وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِها...**»الحديثُ[(٢)].

وكذلكَ قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوفدِ عبدِالقَيْسِ: «**مَرحَبًا بالقَومِ غيرِ خَزايا، ولا نَدامَى**»[(٣)].

وكذلك قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنَتِهِ فاطمةَ، لَمَّا دخلَتْ عليه: «**مَرْحَبًا بابْنَتي**»[(٤)].

وقد يُرافِقُ التَّحيَّةَ ثناءٌ -أيضًا- فتكونُ مِنَ الردِّ الأحسَنِ، كقولِ الأنبياءِ لنبيِّنا -عليهِمُ الصّلاةُ السّلام- في قصَّةِ المِعراجِ: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، والأَخِ الصَّالِحِ**»[(٥)].

وفِيها: ابتداءُ مقابلةِ المُسلِمِ لأخِيهِ المُسلِمِ بذِكرِ اللهِ، وذلكَ بقولِهِ: السَّلامُ عليكُم.

---

(١) روى ابنُ أبي شيبة (٥/ ٢٤٣) بسندٍ صَحيحٍ عَنْ إبراهِيمَ النَّخعِيِّ، قالَ: «إِذا رَدَّ الرَّجُلُ فَلْيَقُلْ: وَعَلَيْكُمْ - يَعْنِي: مَعَهُ المَلائِكَةُ».

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧٣٤٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٢): «إسناده جيد».

(٣) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٥) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وفِيها: وجوبُ ردِّ التَّحيةِ على الفَوْرِ؛ لقوله: ﴿فَحَيُّواْ﴾ والفاءُ للتَّعقِيبِ.

وفِيها: تقديمُ الأتمِّ الأحسَنِ على المُجْزِئِ، والجائِزِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ حَيَّا بتحيَّةٍ مباحةٍ غيرِ السَّلامِ، فإنَّه يُستَحبُ -أيضًا- أنْ يُردَّ عليهِ بأحسَنَ مِنْها، فلَوْ قال: مَرحَبًا، قلتَ له: أهلًا، وسَهلًا مرحبًا، ونَحو ذلك[١].

وفِيها: عُمومُ التَّحيَّةِ والسَّلامِ، على مَنْ تَعرِفُ، ومَنْ لا تَعرِفُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَحسبُ أعمالَ العبادِ، ويُحصِيها، ويُحاسِبُهم عليها.

وفِيها: إشاعةُ الاستِئناسِ بَيْن المؤمنينَ، وتقريبُ النُّفوسِ بعضِها مِنْ بعضٍ، والتآلفُ فيما بَيْنها.

وفِيها: أنَّ التَّخييرَ المذكورَ في قولِه: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ فيه مُراعاةٌ لأصحابِ الكَمالاتِ، والسَّابقِينَ، ومُراعاةٌ للمُقتَصِدينَ، والمُقْتصِرينَ على الجائِزِ والمُجزِئِ؛ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُريدُ الاقتصارَ على فِعلِ الواجِبِ، وتَركِ المُحرَّمِ.

ومِنْ حُسنِ التَّحيةِ في الرَّدِّ: تعليمُ الذي سَلَّمَ، وتنبِيهُهُ، كما رَوَى أبو داودَ: أنَّ جابرَ بنَ سُليم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سلَّمَ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَ: عليكَ السَّلامُ يا رسولَ اللهِ، فقال له: «**لا تَقُلْ: عَلَيْكَ السَّلامُ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلامُ تَحِيَّةُ المَيِّتِ، قُلْ: السَّلامُ عَلَيْكَ**»[٢].

وكانتِ العربُ لا يُقدِّمونَ اسمَ المُسلَّم عليه، المجرورِ بِعلَى، في ابتداءِ السَّلامِ إلا في الرِّثاءِ، يعنِي: الثَّناءَ على الأمواتِ، كقولِ الشَّاعِرِ:

عليكَ سَلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ ... ورحمَتُه ما شاءَ أنْ يَتَرَحَّما

وقولِ الشَّمَّاخِ في رِثاءِ عثمانَ أو عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بَعدَ القَتلِ:

---

(١) وانظُر: الآداب الشرعية لابنِ مفلح (١/ ٣٨٠) «فَصْلٌ في قَوْلِ: كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ بَدَلاً مِنَ السَّلامِ».

(٢) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، والترمذي (٢٧٢١)، وصححه، وأحمد (١٥٩٥٥)، والحاكم (٧٣٨٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه ابن القيم في الزاد (٢/ ٣٨٣).

عليكَ سَـلامٌ مِنْ أميرٍ وباركَتْ يَـدُ اللهِ في ذاكَ الأدِيـمِ المُمَزَّقِ(١)

وفِيها: تعليمُ اللهِ لعبادِهِ حُسْنَ العِشرةِ، وآدابَ الصُّحبةِ.

وفِيهـا: أنَّ مَنْ حَمّلكَ فَضلًا، صارَ ذلـك في ذِمَّتِكَ له قَرْضًا، فإمَّا زِدتَّ في رَدِّهِ، وإلا، فَلا تَنْقُصْ عَنْ مِثْلِه(٢).

وفِيها: حِسابُ السَّلامِ بالحسناتِ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقد جاءَ في حديثِ عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـالَ: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقالَ: السَّـلامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ جلَسَ، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَشْرٌ**».

ثُمَّ جاءَ آخَرُ فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقالَ: «**عِشْرُونَ**».

ثُـمَّ جـاءَ آخَـرُ فَقالَ: السَّـلامُ عَلَيْكُـمْ وَرَحْمَـةُ اللهِ وَبَرَكاتُـهُ، فَرَدَّ عَلَيْـهِ، فَجَلَـسَ، فَقالَ: «**ثَلاثُونَ**»(٣).

وفِيهـا: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحاسِـبُ على كلِّ شيءٍ، سـواءً كانَ كَبِـيرًا، أو صَغِيرًا، عظيمًا، أو يَسِيرًا.

وفِيهـا: أنَّه ليسَ مِنْ حُسـنِ التَّحيةِ الاقتصارُ على الإشـارةِ، كفِعْلِ اليهـودِ، والنَّصارَى، بالسَّـلامِ بالأكُفِّ، والرُّؤُوسِ، والأصابعِ، والمَجـوسِ، والبُوذِيِّينَ، بالانحِناءِ، وإنَّما التَّحيةُ الحَسَنةُ: ما كانَ فيهِ الدُّعاءُ بالخَيرِ، وإلقاءُ ذلكَ على مَنْ تَلْقاهُ، وتُقابِلُه.

وفِيهـا: عِظَـمُ شـأنِ التَّحيَّـةِ عنـدَ اللهِ؛ ولذلـكَ فـإنَّ «التَّحيَّاتِ» الدَّالَّـةَ عـلَى العُمـومِ، والاستِغراقِ، لا تَكونُ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ، كما في قولِ المُصَلِّي في التَّشهدِ: «التَّحياتُ للهِ».

ولَـمَّـا أمَـرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نبيَّـه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجِهادِ، وبتحرِيـضِ المؤمنينَ عليـه، وحَثَّهم على بَذْلِ الشَّـفاعةِ الحَسَـنةِ، وتَجنُّبِ سيِّئِها، وأمَرَهُم بإظهارِ المَودَّةِ بالسَّلامِ: بيّنَ لهُم عَزَّوَجَلَّ بأنَّهم مجزِيُّـونَ على ذلكَ كلِّه، في يـومٍ آتٍ لا رَيْبَ فِيهِ. ولَمَّا ذَكَرَ العَدْلَ، والإحصاءَ، في قولِهِ ﴿إِنَّ

---

(١) انظر: معالم السنن (٤/ ١٩٥).

(٢) البحر المحيط (٣/ ٧٣٤).

(٣) رواه أبو داود (٥١٩٥)، والترمذي (٢٦٨٩)، وحسّنه، وأحمد (١٩٩٤٨)، وقواه الحافظ في الفتح (١١/ ٦).

ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ أتبَعَهُ بذِكْرِ اليومِ، الذي يكونُ فيهِ الجَزاءُ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبودَ بحقٍّ سِواهُ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ اللَّامُ لامُ القَسَمِ، فهو يُقسِمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خَبَرٍ، وهو حَشْرُ العبادِ مِنْ قُبُورِهم، ثُمَّ أكَّدَ الخَبَرَ مَرَّةً أخرَى بنونِ التوكيدِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لِيُحاسِبَهم ويُجازِيَهم فيه، بَعدَ قيامِهم مِنْ قُبُورِهم، يقومونَ للهِ ربِّ العالمينَ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ في وقوعِهِ، وأنَّه كائنٌ ولا بُدَّ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا أحَدَ أصدَقُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ في إخبارِه، ووَعْدِهِ، ووعيدِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

إثباتُ البَعْثِ بعدَ الموتِ.

وفيها: تعدُّدُ المؤكِّداتِ على الشَّيءِ، إذا كَثُرَ التَّكذيبُ بِهِ، والغَفْلَةُ عنْهُ، وفي هذا ردٌّ على مَنْ أنكرَ البَعْثَ.

وفيها: الجَمْعُ بَيْنَ التَّوحيدِ، والإيمانِ بالبَعْثِ والجَزاءِ في الآخِرَةِ.

وفيها: إثباتُ الوَحدانيَّةِ للهِ، وتفرُّدِهِ بالألوهيَّةِ، وهذا يَعني استحقاقَهُ للعبادَةِ وحدَهُ، فمُؤَدَّى الكلامِ في الآيةِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تُقصِّروا في عبادَتِهِ، ولا تَصْرِفوا مِنْها شَيئًا لغَيرِهِ، واخضَعُوا لأمرِهِ، ونَهيِهِ، وهو سيَبْعَثُكُم يومَ القِيامَةِ؛ ليُحاسِبَكم على ذلكَ.

وفي الآيةِ: تَهديدٌ للظَّالمِينَ.

وفيها: التَّذكيرُ بمَقامِ العبادِ بَيْنَ يَدَي اللهِ للحِسابِ، ومشهدِ قيامِهِم مِنَ القُبُورِ، يومَ يقومُ الأشهادُ.

وفيها: عدمُ جوازِ الشَّكِّ في يومِ الدِّينِ، فالإيمانُ بهِ مِنْ أركانِ الإيمانِ السِّتةِ.

وفيها: أنَّ الكَذِبَ مُحالٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه نَقْصٌ وعيْبٌ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقصِ والعَيْبِ، والذي يَكذِبُ -عادةً- إنَّما يَكذِبُ؛ خَوفًا لِدَفعِ مَضَرَّةٍ، أو رجاءً لجَلبِ

منفعةٍ، أو لجهلِهِ بقُبْحِ الكَذِبِ، وكلُّ هذا مَنفِيٌّ عن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفيها: أنَّ كلَّ ما يُناقِضُ خَبرَ اللهِ مِنَ العقائِدِ، والأخبارِ، وأقوالِ النَّاسِ، فإنَّه كَذِبٌ قَطْعًا، وباطِلٌ جَزْمًا.

وفيها: عِظَمُ شأنِ الصِّدقِ، وهو: مُطابَقةُ الخَبَرِ للواقِعِ، وبناءً عليه: فإنَّ ما أخبرَ اللهُ بِهِ في كتابِهِ، وما أوحاهُ إلى نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنَّتِهِ، لا يُمكِنُ أنْ يُخالِفَ الواقِعَ، فيما حَصَلَ ويَحْصُلُ، ولا بُدَّ أنْ يَقَعَ ما أخبرَ عَن وقوعِه في المُستقبَلِ، كما أخبرَ تمامًا.

وفيها: إثباتُ صفةِ الكلامِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: إثباتُ اليومِ الآخِرِ بالدَّليلِ السَّمعِيِّ، ويوجدُ مِنَ الأدلَّةِ العقليَّةِ ما يؤيِّدُ ذلكَ، وهي كثيرةٌ، منها: أنَّ الظَّالِمَ إذا ماتَ في طُغيانِهِ، وقد ارتكَبَ كلَّ المُوبقاتِ، فإنَّه لا بُدَّ مِنْ يومٍ يُعاقَبُ فيهِ، وتُعادُ فيهِ الحُقوقُ إلى أصحابِها.

وفيها: أنَّ أخبارَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أعلَى مَراتِبِ الصِّدقِ.

وفي الآيةِ: ردٌّ على المَفتونِينَ بكفَّارِ علماءِ الشَّرقِ، والغَربِ، الذينَ يقدِّمونَ كلامَ هؤلاءِ على كلامِ اللهِ، ورسولِهِ.

ولَمَّا تقدَّمَ الأمرُ بالجهادِ في سبيلِ اللهِ، والخروجِ لقتالِ أعداءِ اللهِ، وذِكْرُ حالِ المُثبِّطِينَ مِنَ المنافِقِينَ، ذَكَرَ -أيضًا- خِذلانَهم للمؤمنينَ، ووجوبَ الاتِّفاقِ على الرَّأيِ فيهِم، وفي كُفرِهِم، ما دام أمرُهُم واضِحًا، وأنَّ المؤمنينَ لا يَصِحُّ أنْ يَختَلِفوا في ذلكَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ، والمعنى: ما لَكُم -يا أيُّها المؤمنونَ- قد اختلفتُم في الحُكمِ على هؤلاءِ المنافِقِينَ، وصِرتُم فريقَيْنِ في ذلكَ، مع أنَّ أمرَهُم واضِحٌ، وحُكمَهُم جَلِيٌّ؟ ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردَّهم، ونكَسَهم، وأضلَّهم، وصَرَفَهم عن الإيمانِ، والجهادِ ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ بما اقترَفُوا مِنَ الشِّركِ، والنِّفاقِ، والمعاصِي ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ يا أيُّها

المؤمنونَ ﴿أَن تَهۡدُواْ﴾ إلى الحقِّ ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وأغْواهُ، فهو مَفتونٌ، صادٌّ عنِ الحقِّ، فلا بُدَّ مِنْ مواجَهَتِهِ، ولا يَجوزُ الاختلافُ في حُكْمِهِ، والموقِفِ مِنْه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي: لَنْ تَجِدَ لذلكَ الضَّالِّ الذي أضلَّهُ اللهُ أيَّ طريقٍ تَهدِيهِ إلى الحقِّ، ولَنْ تَجِدَ وسيلةً لتغييرِ حالِهِ.

سببُ النُّزولِ:

جاءَ في الصَّحيحَيْن عن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إلى أُحُدٍ، فرجَعَ ناسٌ خَرَجُوا مَعَه، فكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِم فرقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ، وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لاَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّها طَيْبَةُ، تَنْفي الخَبَثَ، كَما تَنْفي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**»(١).

ولعلَّ هؤلاءِ الذينَ انسَحَبُوا، هُم مِنَ المنافقينَ الموجودِينَ خارِجَ المدينةِ، المذكورينَ في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، فرجَعُوا إلى قومِهِم، وإلى هذا أشارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقولِه: «**إنَّها طيِّبةٌ، تَنْفي الخَبَثَ...**».

وليسَ هؤلاءِ مِنْ منافِقِي المدينةِ، الذينَ يَسكنونَ داخِلَ المدينةِ، كعبدِاللهِ بنِ أُبَيٍّ؛ لأنَّه قِيلَ في شأنِهِم: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ كما في الآيةِ التي بَعدَها.

وأيضًا: فإنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوحِي إليهِ بأنْ لا يَقْتُلَهم؛ حتَّى لا يَتحدَّثَ النَّاسُ أنَّ محمدًا يَقتُلُ أصحابَهُ(٢)، وأمَّا المنافقونَ الآخَرُونَ في الخارِجِ: فيُقتلونَ -كما سيأتِي في الآياتِ-، ما لَمْ يُهاجِروا.

وقيلَ: إنَّ المُرادَ بقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ...﴾ هُم ناسٌ بمكَّةَ أظهَرُوا الإسلامَ؛ محافظةً على أنفسِهِم، وقوافِلِهِمُ التّجاريَّةِ، التي تمرُّ بقُربِ المسلمينَ، وفي الحقيقةِ هُم مَعَ كفَّارِ قُرَيشٍ، يُظاهِرونَهُم على المسلمينَ.

وسيأتِي في الآياتِ ذِكْرُ أقسامٍ أُخرَى للكفَّارِ، والمنافقينَ، ومِنْهم: طائفتانِ مِنَ الكفَّارِ، استثناهُمُ اللهُ مِنَ القتلِ، وهُمُ الذينَ انضمُّوا إلى قومٍ مِنَ الكفَّارِ -أيضًا- بَيْنَهم وبَيْنَ المسلمينَ

---

(١) رواه البخاريّ (٤٥٨٩)، ومسلم (١٣٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

عهدٌ، فصارَ حُكْمُهم حُكْمَهم، وكفَّارٌ آخرونَ، لا يُريدونَ قتالَ المسلمينَ، ولا قِتالَ قومِهِم، ويَطلُبونَ السَّلامَةَ، فمَنَعَ اللهُ المؤمنينَ مِنْ قَتْلِهِم -أيضًا-، إذا بَقُوا على الحِيادِ.

ويوجدُ طائفةٌ أخرَى مِنَ المنافقينَ، سيأتِي ذِكْرُهُم في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]، وهؤلاءِ ماكِرونَ، مُخادِعونَ، كانوا يَأتُونَ المدينةَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، ويَطلبُونَ الأمانَ، ثُمَّ يَرجِعونَ إلى قومِهِم، فيُظاهِرونَهم على المسلمينَ.

ومِنْهُم منافقونَ سَكَنُوا المدينةَ بُرهَةً، ولعلَّهم لَمْ يَتَحمَّلُوا الحياةَ الإسلاميةَ في المدينةِ، مِنْ صَلاتَي العِشاءِ، والفَجْرِ، والخُروجِ للجهادِ، وتَرْكِ المُحرَّماتِ، فخَرجُوا مِنْها بزَعمِ أنَّهم أُصِيبوا بالمَرَضِ، ولا بُدَّ أنْ يَخرُجُوا استِشفاءً، وكانوا يَغدِرونَ بالمسلمينَ، فحُكْمُهم المُقاتَلَةُ، إنْ لَمْ يَرجِعوا مهاجرينَ تائِبينَ إلى المَدينةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وجوبُ اتِّحادِ مواقِفِ المؤمنينَ مِنْ أعداءِ اللهِ، وأنَّ اختلافَ المؤمنينَ فيهِم يُعطِي أولئكَ الأعداءَ قُوَّةً، ومَزِيدًا مِنَ التَّمرُّدِ، والعُتُوِّ، والنُّفورِ.

وفِيها: أنَّ حَسْمَ المواقِفِ مِنَ الأعداءِ ضَروريٌّ في مُواجَهَتِهِم، وكَبْتِهِم.

وفِيها: أنَّه يَنبغِي على الفِئَةِ التي تَبَيَّنَ لها خطأُ رأيِها، أنْ تَرجِعَ إلى رَأيِ الفِئَةِ التي نَطَقَتْ بالحَقِّ، والصَّوابِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ، وأعداءَ الدِّينِ، يَستفيدُونَ مِنَ الخِلافِ بَيْنَ المسلمينَ، بل يَسعَوْنَ إلى إنشائِهِ، وقِيامِهِ، أصلًا.

وفِيها: أنَّ مَوقِفَ المسلمينَ مِنْ أعدائِهم يَجِبُ أنْ يكونَ قائِمًا على الحَذَرِ، وسُوءِ الظَّنِّ بِهِم.

وفِيها: تَحذيرُ المؤمنِ مِنَ التَّعاطُفِ مَعَ الكافِرِ، أو المنافِقِ؛ لأجْلِ قَرابَةٍ، أو مَصلحةٍ.

وفِيها: أنَّ الانصِرافَ عَنِ الحقِّ هلاكٌ، وتَرْكَ القِيامِ بالواجباتِ الشَّرعيةِ ضَلالٌ.

وفِيها: عدمُ إضاعةِ الوقتِ، مَعَ مَنْ تَبَيَّنَ إصرارُهُ على الباطِلِ.

وفِيها: أنَّ الهِدايةَ والإضْلالَ بيدِ اللهِ، يَكتُبُ ويَقسِمُ مِن ذلك كيفَ يشاءُ بحِكمَتِهِ.

وفِيها: تعليمُ اللهِ لعبادِه كيفيَّةَ التَّعاملِ مع المنافِقِينَ.

وفِيها: أنَّ مِنْ خِذلانِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمنافِقِ: أنْ يَصرِفَه عَنِ اتِّباعِ الحقِّ، والقيامِ بالطَّاعةِ.

وفِيها: عدمُ جوازِ التِماسِ الأعذارِ للمنافِقِينَ، فضْلًا عَنْ مَدحِهِم.

وفِيها: أنَّ هدايةَ التَّوفيقِ إلى الحقِّ، وانشِراحِ القلبِ له، لا يَملِكُها إلا ربُّ العالَمِينَ، أمَّا هِدايةُ الدّلالةِ عليه، والإرشادِ إليه: فإنَّها بمقدُورِ مَنْ أرادَ أنْ يَقومَ بِها، ممّن كانَ مِنْ أهلِها.

وفِيها: أنَّ الجزاءَ مِنْ جِنسِ العَمَلِ، وأنَّ الذي يَختارُ الغِوايةَ، هوَ الذِي يُغوِيه اللهُ؛ لأنَّ اللهَ أعدَلُ وأرحَمُ مِنْ أنْ يُغْوِيَ قومًا يُريدونَ الهِدايةَ.

وفِيها: أنَّ الأعمالَ الصَّالحِةَ تُولِّدُ جِنسَها، والأعمالَ السَّيِّئَةَ تُولِّدُ جِنسَها.

وفِيها: أنَّ قضاءَ اللهِ لا يَتبدَّلُ، وقَدَرَهُ لا يَتخلَّفُ.

وفِيها: سؤالُ الهدايةِ مِنَ اللهِ وحدَهُ.

وفي الآيةِ: أنَّ مَنْ قَضَى اللهُ عليهِ بالضَّلالِ، فلَنْ يُوجَدَ له طَرِيقٌ للهِدايةِ، ولا مُرشِدٌ يَهدِيهِ.

وفِيها: ردٌّ على القَدَرِيَّةِ، الذينَ نَفَوْا أنْ يكونَ الإضلالُ بتقدِيرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا مَردودٌ بقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم﴾، لكنَّ السببَ مِنْهم؛ كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيةِ الأخرَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ مَدْحُ الكفَّارِ، والمنافِقِينَ، وتزكِيَتُهم، ولا حُسنُ الظَّنِّ بهم.

ثُمَّ ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيئًا مِمَّا يَجُولُ في صُدورِ أولئكَ المنافِقينَ مِنَ الأمانِيّ، ونَهى المؤمنينَ عنْ مُوالاتِهم، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾.

﴿وَدُّواْ﴾ تمنَّى هؤلاءِ المنافِقونَ ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ كما كَفَرُوا بمحمدٍ ﷺ، وبما أُنزِلَ عليه ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتُم، وهُم ﴿سَوَآءٗ﴾ مُستَوِينَ في الكُفرِ، وهذا مِنْ شِدَّةِ عداوَتِهم، وبُغضِهم لَكُم، فيَطمَعُونَ أنْ تكُونُوا مِثْلَهم، وتَحْذوا حَذْوَهُم؛ حتَّى يُقضَى على الإسلامِ؛ ولذلِكَ حَذَّرَ اللهُ المؤمنينَ تَحذِيرًا شديدًا مِنْ مُوالاةِ هؤلاءِ المنافِقِينَ، فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وتَجعَلُوا ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أعوانًا، وأنصارًا، وإخوانًا، وأصدِقاءَ ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ أوطانِهم إلى المدينةِ النبويَّةِ، فيُجاهِدُوا مَعَ النبيِّ ﷺ، فتكونُ الهجرةُ دَلِيلًا على صِدقِهِم، ويكونُ الاستقرارُ في المدينةِ دَلِيلًا على مَحبَّتِهِم للإسلامِ، ورَغبَتِهِم فِيهِ، وفي العَيْشِ تَحتَ سُلطانِهِ، وأحكامِهِ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرَضُوا عَنِ الهِجرَةِ، والبقاءِ في المدينةِ، وبَقُوا على النِّفاقِ، ولَزِمُوا مواضِعَهُم خارِجَ المدينةِ، يُعِينونَ على المسلمينَ: ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ بالأسرِ إذا قَدَرْتُم ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ في الحِلِّ، أو في الحَرَمِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ يَتَوَلَّى شيئًا مِنْ أمورِكُم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَنصُرُكُم على أعدائِكُم، ويُساعِدُكُم عليهِم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

قُوَّةُ إيمانِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم، حتَّى يَئِسَ المنافقونَ مِنْ إعادَتِهِم إلى الكُفرِ بَعدَ الإسلامِ، فصارَ قُصارَى ما عِند المنافِقِينَ هو التَّمنِّي فقط، بأنْ يَكفُرَ المسلمونَ.

وفِيها: مَحبَّةُ المنافِقِينَ للكُفرِ، كما دَلَّ عليه قولُه: ﴿وَدُّواْ﴾.

وفِيها: أنَّ بعضَ الأشرارِ لا يَكتَفِي بأنْ يَضِلَّ هُوَ، حتَّى يَضُمَّ إليهِ آخَرِينَ يُضِلُّهم مَعَهُ.

وفِيها: أنَّ أهلَ الانحرافِ لا يُحِبُّون استِقامَةَ النَّاسِ علَى الهُدى.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ لَمْ يَقْنَعُوا بما هُم علَيهِ مِنَ الضَّلالِ، والغِوايةِ، فطَمِعُوا أنْ يكونَ النَّاسُ مَعَهُم في ذلكَ، وهذا مُنتَهَى التَّمادِي في الكُفرِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ وَدَّ الكُفرَ لغَيرِهِ فهوَ كافِرٌ، وأنَّ الوِدادَ مِنْ عَمَلِ القَلْبِ.

وفِيها: حِرصُ أهلِ الكُفرِ، والفِسْقِ، على إضلالِ الصَّالِحِينَ.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ مُوالاةُ المنافِقِينَ، والمُشرِكينَ، والمشتَهِرينَ بالزَّندَقَةِ، والإلحادِ، كما قالَ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وفِيها: تَحذِيرُ المؤمنينَ مِنْ طَلَبِ المَحبَّةِ، والوِلايةِ، مِنْ شَخصٍ عَدُوٍّ للهِ.

وفِيها: فَضْحُ اللهِ للمنافِقينَ، وإعلامُ المسلِمينَ بحَقِيقَتِهِم.

وفي الآيـةِ: وجوبُ الهجـرةِ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ هَذا الوُجـوبُ قَبلَ الفَتحِ، قالَ الخَطَّـابِيُّ وَغَـيْرُهُ: «كانَتِ الهِجْرَةُ فَرْضًا في أَوَّلِ الإِسْـلامِ عَلَى مَنْ أَسْـلَمَ؛ لِقِلَّةِ المُسْـلِمِينَ بِالمَدِينَـةِ، وَحاجَتِهِـمْ إِلى الاِجْتِـماعِ، فَلَمَّـا فَتَحَ اللهُ مَكَّـةَ دَخَلَ النَّاسُ في دِيـنِ اللهِ أَفْواجًا، فَسَـقَطَ فَـرْضُ الهِجْـرَةِ إِلى المَدِينَةِ، وَبَقِـيَ فَرْضُ الجِهادِ والنِّيَّـةِ عَلَى مَنْ قامَ بِـهِ، أَوْ نَزَلَ بِهِ عَدُوٌّ»(١).

وفِيها: حَسْمُ الأمرِ مَعَ المنافِقينَ، وعدمُ التَّهاوُنِ مَعَهُم، إذا قامَ الدَّليلُ على نِفاقِهِم.

وفي الآيةِ: دَليلٌ على نَسْخِ تَحريمِ القِتالِ في الأشهُرِ الحُرُمِ، بقولِه: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٢).

وفِيهـا: وجوبُ تقديـمِ الأدلَّةِ العَمَليَّةِ عـلى صِدقِ الإيمانِ، ووجـوبُ الانضِمامِ إلى أهلِ الإيمانِ، والقِتالِ مَعَهُم.

وفِيهـا: حَصْرُ النِّفاقِ، وتَضييقُ رُقْعَتِهِ؛ إذْ بامتِحانِ المنافِقينَ بالهِجرَةِ تَنْكشِـفُ حقائِقُهُم، فلا يَبْقَى إلا مُنافِقُو المدينةِ، وانكِشافُ حقيقةِ مَنْ يَدَّعِي الإسلامَ، وهو مِنْ أعدائِهِ، مَكسَبٌ لأهلِ الإسـلامِ؛ لأنَّهم إذا عَدُّوهُ مِنْهُم أَمِنُوهُ، فأضَرَّ بِهِم غايةَ الضَّرَرِ، أمَّا إذا انكشَـفَ أمرُهُ، وصارَتْ مُواجَهَتُه حاسِمَةً، وذلكَ بقَتْلِهِ أينَما وُجِدَ: فإنَّ ذلكَ سيُصَفِّي السَّاحَةَ.

وفِيها: تَحريمُ مَحبَّةِ المنافِقِ، ووجوبُ بُغْضِهِ، كما هُوَ مُقتَضَى النَّهيِ عَنِ اتِّخاذِهِم أولياءَ.

ولَمَّا نَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خَطَرِ هؤلاءِ المنافِقينَ، وأمَرَ بِقِتالِ مَنْ لَمْ يُهاجِرْ، اسـتَثْنَى عَزَّوَجَلَّ طائِفَتَـيْنِ مِـنَ الكفَّـارِ؛ لأمْـنِ غائِلَتِهِم، وانْكِفـافِ شَرِّهِم، لأحَدِ سَـبَبَيْنِ: إمَّـا لِدُخُولِهِم مَعَ مُشرِكينَ، مُعاهِدِينَ في عَهدِهِم، وإمَّا لِوقُوفِهِم على الحِيادِ، وامتِناعِهِم عَن مُقاتَلَةِ المسـلِمينَ، مَعَ رَفْضِهِم مُقاتَلَةَ قومِهِم أيضًا، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨).
(٢) وهوُ قولُ جُمهورِ العُلماءِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾.

﴿إِلَّا﴾ استثناءٌ مِنَ الأخذِ، والقَتلِ، فقَط، وأمَّا المُوالاةُ: فباقِيةٌ على التَّحريمِ؛ لأجلِ الكُفرِ ﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ أي: يَتَّصلُونَ، ويَدخُلونَ ﴿إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: بَيْنكم وبَيْنهم مُهادَنَةٌ، أو عَقدُ ذِمَّةٍ، فدَخَلَ هؤلاءِ في عَهدِهِم، فصارَ حُكمُهم كحُكْمِهم، فيَمتَنِعُ قَتلُهُم وأسْرُهُم حينئذٍ؛ لأنَّهم صاروا في أمانِكُم؛ لأجْلِ العَهْدِ، وفي قِصَّةِ صُلْحِ الحُدَيْبِيةِ: «... وَكانَ في شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الكِتابَ: أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ»[1].

وقد جاءَ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخَةٌ بقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ التَّوبَةِ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥][2].

ويُسْتَثْنَى -أيضًا- مِنْ حُكمِ القَتلِ، والأسرِ، طائفَةٌ أُخرَى مِنَ الكفَّارِ، قالَ اللهُ عنها: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾ أتُوكُم ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ وهُم في حالِ ضِيقِ صُدُورِهم، وخَوْفِ قُلُوبِهم ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ فلَمْ تَنشَرِحْ صُدُورُهم لأحَدِ الأمرَيْنِ، فجاؤُوا إلى المسلمينَ مُسالِمِينَ، يُريدونَ الوُقوفَ على الحِيادِ، ويَطلُبونَ العَهدَ، والأمانَ، فهؤلاءِ لا يَجوزُ قتلُهُم -أيضًا- ولا أسرُهُم؛ حِفظًا للعَهْدِ، وهذا مِنْ نِعمةِ اللهِ على المسلمينَ: أنْ خَذَّلَ طائفةً مِنَ الكفَّارِ، وأقعَدَهُم عَن مُقاتَلَةِ المسلمينَ، وقد بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَّتَهُ هذِهِ، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ﴾ أي سَلَّطَ هؤلاءِ المُحايِدِينَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡ﴾ وحارَبُوكُم، واجتَمَعَ شَرُّهُم إلى شَرِّ غَيرِهم، فاشتَدَّ عليكُمُ الوَطْءُ ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ وكَفُّوا أيدِيَهُم عنكُم ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ انقادُوا للصُّلْحِ، والأمانِ، والتَزَمُوا بالمُسالَمَةِ ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ ليسَ لكم طَريقٌ عليهِم تَسلُكُونَها بأسرِهِم،

---

(١) رواه أحمد (١٨٩١٠)، وإسناده حسن.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ١٠٢٧)، وقال: «وَرُوِيَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، وَعِكْرِمَةَ، والحَسَنِ، وَقَتادَةَ، نَحْوُ ذَلِكَ».

أو قَتْلِهم، ومِنْ هؤلاءِ: بعضُ بنِي هاشِمٍ، الذينَ خَرَجُوا مَعَ قُرَيْشٍ في بَدْرٍ، وهم كارِهونَ، فحَضَرُوا القِتالَ، ولَمْ يُقاتِلُوا المسلمينَ، وأُخِذُوا أسرَى، فنَهَى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِهِم، ثُمَّ مَنَّ عليهِم، وأطْلَقَهُم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

احترامُ العُهُودِ، والمَواثِيقِ، مَعَ الكفَّارِ، مَعَ الاستِمرارِ في بُغضِهِم، والحَذَرِ مِنْهم.

وفِيها: أنَّ مَنْ دَخَلَ مِنَ الكفَّارِ في عَهدِ قومٍ كفَّارٍ، عاهَدُوا المسلمينَ، فإنَّه يَأخُذُ حُكمَهُم، فلا يَجوزُ أخذُهُ أسِيرًا، ولا قتلُهُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ دَخَلَ في عَهدِ قومٍ أخَذَ حُكمَهُم.

وفِيها: تَخذيلُ اللهِ للكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ بعضَ الكفَّارِ مسالِمُونَ، لا يَرغَبُونَ في قِتالِ أحَدٍ.

وفِيها: أنَّ بقاءَ بعضِ الكفَّارِ على الحِيادِ نِعمةٌ على المسلِمينَ؛ إذْ إنَّ اجتماعَ جميعِ الكفَّارِ على المسلِمينَ طامَّةٌ كَبيرةٌ.

وفِيها: أنَّ مَنْ لَحِقَ بالمعاهَدِينَ، أو كفَّ عن قِتالِ المؤمنينَ، فلا يَجوزُ أسرُهُ، ولا قَتلُهُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُلقِي الرُّعبَ في قُلُوبِ بعضِ الكفَّارِ، فلا يَجْتَرِئونَ على المسلمينَ، وإنْ كانُوا لا يَريدُونَ قتالَ قومِهِم أيضًا.

وفِيها: شاهِدٌ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٨٤].

وفِيها: أنَّ الكفَّارَ مَراتِبُ في عَداوةِ المؤمنينَ.

وفِيها: تحريمُ الاعتِداءِ، حتَّى على بعضِ الكفَّارِ.

وفِيها: لُطفُ اللهِ بالمؤمنينَ، ورعايَتُهُ لهم، وتخفِيفُهُ عنهُم. ويُؤخَذُ مِنْها: أنَّ اللهَ إذا سَلَّطَ الكفَّارَ على المسلمينَ، فإنَّما هِيَ عُقوبةٌ، أو ابتِلاءٌ، وتَمحِيصٌ.

وفِيها: أنَّ الصَّدرَ يَحصِرُ، ويَضِيقُ.

وفيها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجعلُ بعضَ الكفَّارِ يَرضَخُونَ للمسلمينَ، كما يُشعِرُهُ قولُه: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾.

وفيها: إباحةُ المُوادَعَةِ إذا كانتْ في مَصلحَةِ المسلمينَ، وأمَّا إذا كانَ بالمسلمينَ قوَّةٌ، فقد قالَ بعضُ العلماءِ: لا يجوزُ حينئذٍ مُهادَنَةُ الكفَّارِ مِنْ غيرِ جزيَةٍ.

وفيها: سياسَةٌ شرعيَّةٌ عظيمةٌ باستِدراجِ بعضِ الكفَّارِ إلى الحِيادِ، وترغِيبِهم في كفِّ أيدِيهم، وهذا مِنْ مَصلَحةِ المسلمينَ؛ لِئَلا يجتَمِعَ جميعُ الأعداءِ عليهِم، وقد قيلَ: إنَّه دَخَلَ في حُكمِ هذِهِ الآيةِ: بنُو خُزاعَةَ، وبنُو بَكْرِ بنِ زَيْدٍ، وبنُو مُدلِجٍ، وبنُو هِلالِ بنِ عُوَيْمِر.

وفيها: أنَّ مَنِ انتَسَبَ إلى قومٍ مِنْ أهلِ العَهدِ، أو انتَمَى إليهِم، أو دَخَلَ معهم بالحِلْفِ، والجِوارِ، فإنَّ حُكْمَه حُكْمُهم في المُعاهَدَةِ، ما لَمْ يَخْرِقْها.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَوعًا مِنَ المنافقينَ يأتُونَ لِطلَبِ الأمانِ، ثُمَّ يَغدِرُونَ، ويُعِينونَ قومَهُمُ الكفَّارَ على المؤمنينَ، وهؤلاءِ ليسُوا مِمَّنِ استَثنَى اللهُ؛ ولذلكَ قالَ في حالِهم، وحُكْمِهم:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ٩١﴾.

﴿سَتَجِدُونَ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ، عَمَّا قريبٍ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ مِنَ المنافِقينَ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ أي: يأمَنُوا قِتالَكم بإظهارِ إسلامِهم عندَكُم ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: يأمَنُوا بَطْشَ قومِهم بِهِم؛ وذلكَ بإظهارِ الكُفرِ عندَهُم إذا رَجَعُوا إليهِم، فَهُم في الظَّاهِرِ معكُم، وفي الباطِنِ مَعَ قومِهم المشركِينَ، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وهؤلاءِ مُذَبْذَبُونَ، أرواحُهُم عندَهم غالِيةٌ، ولكنَّ عقولَهُم عندَ أنفسِهم رخيصةٌ ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ﴾ كلَّما دعاهُم قومُهم ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ إلى الشِّركِ، وقِتالِ المؤمنينَ ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ وانتَكَسُوا، ورجَعُوا إلى قومِهم يُقاتِلونكم مَعَهُم، وانْهَمَكُوا في ذلكَ، وهكذا يَفعلُونَ المرَّةَ بَعدَ المرَّةِ، وقد بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكمَهُم، وحَسَمَ الموقِفَ مِنْهم، فقالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ ويَتْرُكُوا قِتالَكُم ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ويطلُبُوا مِنكم الصُّلحَ،

والمُهادَنَةَ ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ عنْ حَرِبكُم ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ بالأسْرِ ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أيْنَما وجدتُّموهم، والثَّقِفُ: هو الحاذِقُ، الخفيفُ، الفَطِنُ، وثَقِفَهُ: ظَفِرَ بِهِ، وأدرَكَهُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ: عَلَى أَخْذِهِمْ، وَقَتْلِهِمْ ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ حُجَّةً واضِحةً، وبُرهانًا ظاهِرًا؛ وذلك لِظُهورِ عداوَتِهم، وانكِشافِ أمرِهم، وإضرارِهم بأهلِ الإسلامِ.

وصحّ عن مُجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قولِه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ قال: «ناسٌ كانُوا يأتُونَ إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فيُسلِمُونَ رِياءً، ثُمَّ يرجِعونَ إلى قُرَيْشٍ، فيَرتَكِسونَ في الأوثانِ، يَبتَغُونَ بذلكَ أنْ يَأمَنُوا هاهُنا، وهاهُنا، فأمَرَ بقِتالِهِم، إنْ لَمْ يَعتزِلُوا، ويُصلِحُوا»[(١)].

وأخْرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ بسندٍ صحيحٍ عن قَتادَةَ في قَوْلِه: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ﴾ قالَ: «حيًّا كانوا بتِهامَةَ، قالوا: يا نَبيَّ اللهِ، إنَّا لا نُقاتِلُكَ، ولا نُقاتِلُ قومَنا، فأرادُوا أنْ يأمَنُوا رسولَ اللهِ، ويأمَنُوا قومَهُم، فأبَى اللهُ ذلكَ عليهِم»[(٢)].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تأييدُ اللهِ للمؤمنينَ، بإخبارِهِم بالأمورِ قَبْلَ وقُوعِها، وكَشْفِ بعضِ بواطِنِ أعدائِهِم لَهُم.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ يَحرِصُونَ على السَّلامَةِ، ويُريدُونَ الحياةَ، ويَكرَهونَ المَوْتَ.

وفِيها: أنَّ مِنْ سِماتِ المنافِقينَ: مُحاولَةَ إرضاءِ جَميعِ الأطرافِ.

وفِيها: وصْفُ حالِ التَّذَبْذُبِ والقَلَقِ، التي يَعِيشُها المنافِقُ.

وفِيها: كَشفُ مَكرِ المنافِقِينَ، وخِداعِهِم، بتَظاهُرِهِم بالإيمانِ أمامَ المسلِمينَ، وانغِماسِهِم في الكُفرِ، إذا رَجَعُوا إلى قومِهِم.

وفِيها: شِدَّةُ فِتنَةِ المنافِقِينَ؛ وذلكَ لوقُوعِهِم مَنكُوسِينَ ومُنْهَمِكينَ فيها.

وفِيها: أنَّ الكفَّارَ يَفْتِنُ بعضُهُم بعضًا.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٧)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٨٢٧).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٩).

وفِيها: أنَّ مَرَدَةَ المنافِقِينَ يُعاهِدونَ، ويَغدِرُونَ، المرَّةَ بَعدَ المرَّةِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ يُظهِرُونَ الإسلامَ للمسلمينَ، ويُظهِرُونَ الكُفرَ إذا رَجَعُوا لِقَومِهِم، حتى كانَ الرجلُ مِنْهم يقولُ له قومُهُ -إذا رَجَعَ مِنْ عِندِ المسلمينَ-: بماذا أسلَمْتَ؟ فيقولُ -مُستَهزِئًا-: «آمَنْتُ بهذا القِردِ، وبِهذا العَقرَبِ، والخُنْفُساءِ»(١).

وفِيها: اختِبارُ المنافقينَ، وكَشفُ حقائِقِهم، بالنَّظَرِ في سيرتِهم، وواقِعِهم. وامتِحانُهُم، بالنَّظَرِ في سُلُوكِهِم، كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾.

وفِيها: أنَّ هذا النَّوعَ مِنَ المنافِقينَ، إذا ثَبَتَتْ خِيانَتُهُم، فإنَّهم يُقتَلُونَ في كلِّ مكانٍ، في حِلٍّ، أو حَرَمٍ، ولا عِلاجَ لهم، ولا حَلَّ يَنفَعُ معهُم، إلا هذا.

وفِيها: تَسمِيةُ الدَّليلِ الدَّامِغِ بالسُّلطانِ المُبينِ، والمقصودُ بِهِ في الآيةِ: ظُهُورُ العَداوةِ، وانكِشافُ الكُفرِ، وظهورُ الغَدْرِ، والإضرارِ بأهلِ الإسلامِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُسَلِّطُ المؤمنينَ على المنافِقِينَ: شَرْعًا بالإذنِ في قَتْلِهِم، وأخذِهِم، وقَدَرًا بتأييدِ المؤمنينَ، بإنزالِ السَّكينةِ، وجنودٍ مِنْ عِندِه، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِ أعدائِهِم.

وفِيها: اختِصاصُ هذا النَّوعِ مِنَ المنافقينَ بمَزِيدٍ مِنَ التَّتَبُّعِ، والتَّفتِيشِ، والتَّنقِيبِ، عن أحوالِهِم، وأماكِنِهِم، مَعَ الفطانَةِ بهم، والحَذاقَةِ فيهِم، بالمقارنَةِ بِجِنسِ المنافِقِينَ الذينَ قَبْلَهم.

وفِيها: تَنوِيعُ الخُطَّةِ الحكيمةِ في معامَلةِ المنافِقِينَ، بحَسَبِ الظُّروفِ، والأحوالِ.

وفِيها: الحِرصُ على تَمييزِ المنافِقِينَ، ومعرفَتِهِم بعلاماتِهِم، وآياتِهِم.

وفِيها: أنَّه لا مَجالَ للِّينِ، والرَّخاوَةِ، مع المنافِقِينَ الغادِرِينَ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنَ المنافِقِينَ، والسَّعيُ في كَشفِ حالِهِم، والبحثُ في أمرِهِم، وتَتَبُّعُ خَفاياهُم، وعلاقاتِهِم، بالكفَّارِ.

وفِيها: أنَّه ليسَ كلُّ مَنْ طَلَبَ الأمانَ فهو مُسالِمٌ، وليسَ كلُّ مَنْ طَلَبَ الأمانَ يُعطاهُ، وليسَ كلُّ مَنْ أُعطَى الأمانَ، يُترَكُ دونَ حَذَرٍ.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قتلَ المنافِقِينَ -وكانَ مِنَ المُحتَمَلِ أنْ يُقتلَ مؤمِنٌ بَريءٌ التِباسًا

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٦١).

بالخطأ؛ وذلك لخفاءِ حالِ المنافقين- فقد بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكمَ قتلِ الخطأ. ولَمَّا ذَكَرَ حُكمَ قَتلِ الكفَّارِ، والمنافِقينَ، فيما سَبَقَ، ناسَبَ أنْ يَذكُرَ حُكمَ قتلِ المؤمنينَ. ولَمَّا ذَكَرَ علاقةَ المسلمينَ بغيرِهِم، ذَكَرَ علاقتَهُم ببعضِهِمُ البعض، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ ما ينبَغِي له، ولا يَليقُ به، ولا يَصِحُّ ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ معصُومَ الدَّمِ ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ إلا حالةَ كونِهِ مُخطِئًا في قتلِه، والقتلُ ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: قَتلُ العَمْدِ: وهو قَصدُ القَتلِ بما يَقتُلُ غالِبًا، كالسِّكينِ، والمُسدَّسِ.

الثَّاني: قتلُ الخطَأ: وهو القتلُ بغيرِ قَصْدٍ، كقَتلِهِ أثناءَ صَيْدٍ، أو في حوادِثِ السَّياراتِ.

الثَّالثُ: شِبهُ العَمْدِ: وهو أنْ يَقصِدَ إيذاءَهُ بما لا يَقتُلُ غالبًا، كالعَصا الخفيفةِ، والصَّفعِ، واللَّطمِ، فيموتَ.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ فقصَدَ قتلَ مُشرِكٍ -مَثَلًا-، فأصابَ مُسلِمًا، أو ظنَّ الشَّخصَ مُشرِكًا، فقَتَلَه، فبانَ مسلِمًا ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لأجْلِ حقِّ اللهِ، فإنه يُعتِقُ عبدًا، مسلِمًا، صغيرًا، أو كبيرًا، ذكَرًا، أو أنثى، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ هذا حقُّ أولياءِ القَتيلِ فيما فاتَهم مِنْ قَريبِهِم، فيَجِبُ أنْ يُؤدِّيَ إليهم ديةَ قتلِ الخطَأِ، قال بعضُ العلماءِ: إنَّها تَجِبُ أخماسًا؛ لحديثِ أحمدَ، وأهلِ السُّننِ، عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَضى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دِيَةِ الخطَأِ عشرينَ بنتَ مَخاضٍ، وعِشرينَ بَنِي مَخاضٍ ذُكُورًا، وعشرينَ بنتَ لَبُونٍ، وعِشرينَ جَذَعةً، وعِشرينَ حِقّةً»(١).

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٤٥)، والترمذي (١٣٨٦)، والنسائي (٤٨٠٢)، وابن ماجة (٢٦٣١)، وأحمد (٤٣٠٣)، وأعله أبو داود، والدارقطني، والبيهقي، وغيرهم، بالوقف، انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ١٣٢).

وبِنتُ المَخاضِ وابنُ المَخاضِ منَ الإبلِ: ما دَخلَ في السَّنَةِ الثانيةِ، وبنتُ اللَّبُون، وابنُ اللَّبُون: ما أتى عليه=

وقيل: تَجِبُ أرباعًا.

وأمَّا قَتلُ شِبهِ العَمدِ -ويُسمَّى: عَمدَ الخطَأ-: فإنَّ الدِّيَةَ فيه أثلاثٌ على العاقِلَةِ؛ وذلك لحديثِ الصَّحيحَيْنِ عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اقتَتَلَتِ امرَأتانِ مِنْ هُذَيلٍ، فرَمَتْ إحداهُما الأخرَى بحَجَرٍ، فقتَلَتْها، وما في بطنِها، فاختَصَمُوا إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**فقضَى أنَّ دِيَةَ جَنينِها غُرَّةٌ: عبدٌ، أو وليدَةٌ، وقَضَى أنّ دِيَةَ المرأةِ على عاقِلَتِها**»[١].

فإذا كانَ المُخطِئُ في القَتلِ: الإمامَ، أو نائِبَه، كأميرِ الجيشِ، فإنَّ بَيْتَ المالِ يَتَحمَّلُ الدِّيةَ. وقولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: إلا أنْ يَتنازَلَ أهلُ الميِّتِ، ويَتصدَّقُوا بالدِّيَةِ، فإنَّها تَسقُطُ، ولا يَجِبُ أداؤُها إليهِم حِينئِذٍ ﴿فَإِن كَانَ﴾ أي: المقتولُ خطَأً ﴿مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ يَعيشُ مع كفَّارٍ في دارِ الحَرْبِ، ولَمْ يُفارِقْهُم، ولَمْ يُهاجِرْ ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أي: هذا المقتولُ، ولَمْ يَعلَمْ قاتِلُه المسلمُ بذلكَ ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ يَجِبُ على القاتِلِ أداؤُها؛ أداءً لِحقِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمَّا الدِّيَةُ: فتَسقُطُ؛ لأنَّه لا وراثةَ بَيْنَ المقتولِ المسلمِ، وأهلِهِ الكفَّارِ؛ ولأنَّ أهلَه كفَّارٌ محارِبونَ، فكيفَ نُعطِيهم ما يَستَعِينونَ بهِ على حَرْبِنا؟ ﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: المقتولُ خطَأً ﴿مِن قَوۡمِۭ﴾ كفَّارٍ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ ﴿وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ أي: عَهْدٌ على تَركِ القِتالِ، ومُوادَعةٌ، ومِيثاقٌ ﴿فَدِيَةٞ﴾ أي: فالواجِبُ على قاتِلِهِ حينئِذٍ دِيَةٌ ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾ مؤدَّاةٌ تُعطَى ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: أهلِ المقتولِ مِنَ الكفَّارِ المُعاهَدينَ.

والمقتولُ إذا كانَ كافرًا، مِنْ قومٍ بينَنا وبَيْنَهم عهدٌ، فقد بَيَّنَتِ السُّنةُ دِيتَه، كما جاءَ عند أحمدَ، والترمذيِّ، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دِيَةُ الكافِرِ نِصفُ دِيَةِ المسلِمِ**»[٢].

وذَهَبَ الحَنَفِيَّةُ إِلى تَساوِي المُسْلِمِ والذِّمِّيِّ في الأُرُوشِ والدِّياتِ، وَكَذَلِكَ المُسْتَأْمَنُ.

= سنتانِ، ودخل في الثالثة، والحِقَّةُ: ما دخَلَتْ في السَّنَةِ الرابعةِ، والجَذَعة: ما اسْتكْملت أربعة أعوام، ودخلت في السَّنةِ الخامسة. انظر: النهاية (٤/ ٢٢٨، ٣٠٦)، المعجم الوسيط (١/ ١١٣)، فتح الباري (١/ ١٨٢)، كشف المشكل (١/ ٣٩)، مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٢٩٤)

(١) رواه البخاريّ (٦٩١٠)، ومسلم (١٦٨١).

(٢) رواه الترمذي (١٤١٣)، وأحمد (٦٦٩٢)، وصححه محققو المسند.

وَقـال المالِكِيَّـةُ: دِيَـةُ الذِّمِّيِّ عَـلَى النِّصْفِ مِـنْ دِيَةِ المُسْـلِمِ. أَمَّـا المَجُـوسِيُّ والمُعاهَدُ والمُرْتَدُّ: فَفِيهِ ثُلُثُ خُمُسِ دِيَةِ المُسْلِمِ.

وَقـال الحَنابِلَـةُ: كُل هَـؤُلاَءِ عَلَى النِّصْـفِ مِنْ دِيَةِ المُسْـلِمِ. وَقال الشَّـافِعِيَّةُ: كُلُّهُمْ عَلَى الثُّلُثِ مِنْ دِيَةِ المُسْلِمِ[1].

﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ عـلى القاتِـلِ أيضًا لِحـقِّ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رقبَـةً يُعتِقُها في الكفَّـارَةِ ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ أي: عليه صيامُ شـهرَيْنِ قمريَّيْنِ مُتواليَـيْنِ وجوبًـا، لا يُفطِرُ فيهـما بغـيرِ عُـذرٍ ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذِه الكفَّـاراتُ التِي أوْجَبَها اللهُ على القاتلِ: تَوبَةٌ مِن اللهِ علَى عِبادِه، ورَحمةٌ بِهم، وتَكفيرٌ لِما عَساهُ أنْ يَحصُلَ مِنهُم، مِـن إهمالٍ، وتقصيرٍ، وعدمِ احـترازٍ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالِ النَّاسِ، والتَّعويضاتِ، والكفَّاراتِ ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يُشَرِّعُه لِعبادِهِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تحريمُ قَتلِ المسلمِ أخاهُ المسلِم. والمسلمُ إذا فعلَ ما يُوجِبُ قتلَه -كالنَّفسِ بالنَّفسِ، والثَّيبِ الزَّانِي، والتَّارِكِ لدينِهِ- فليس لأحَدٍ مِنْ آحادِ الرَّعيةِ أنْ يقتُلَه، وإنَّما ذلك إلى الإمامِ، أو نائبِهِ.

وفِيها: رَفْعُ الإثمِ عمَّنْ قَتَلَ مُسلِمًا، وهو يَظُنُّه كافِرًا، وقد رُوِي أنَّ ذلك كانَ سببَ نزولِ هـذِهِ الآيةِ، كما قال مُجاهدٌ وغيرُه: «نَزَلَـتْ في عيَّاشِ بنِ أبي رَبيعةَ، قَتَلَ رجلًا كانَ يُعذِّبُهُ على الإسـلامِ، فَأَضْمَرَ لَهُ عَيَّاشٌ السُّـوءَ، فَأَسْـلَمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَهاجَرَ، وَعِياشٌ لا يَشْـعُرُ، فَلَمَّا كانَ يَوْمُ الفَتْحِ رَآهُ، فَظَنَّ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فَحَمَلَ عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآيَةِ»[2].

وفِيها: أنَّه لا يُجزِئُ عِتقُ الرَّقبةِ الكافِرَةِ في الكفَّارَةِ.

وفِيها: أنَّ قتلَ المؤمِنِ -وإنْ كانَ خَطَأً- فإنَّه عظيمٌ؛ ولذلكَ جُعِلَتْ فِيهِ هذهِ الكفَّارَةُ المُغلَّظةُ.

وفِيها: الإشارةُ إلَى أنَّ مَنْ أتلَفَ شَيئًا، فإنَّه يَضمَنُهُ، ولَوْ لَمْ يكُنْ قَصدَ الاعتداءَ، والسُّوءَ.

وفِيهـا: نَـدْبُ أهلِ القَتِيلِ إلى التَّنازُلِ عَنِ الدِّيَةِ؛ لأنَّ اللهَ سـمَّى ذلكَ تَصَدُّقًا، ومعلومٌ أنَّ الصَّدقةَ مُستَحَبةٌ.

---

(١) الموسوعة الفقهية (٣/ ١٠٥).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٣٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ١٠٣١)، تفسير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٣٧٣).

وفِيهـا: عدمُ جوازِ إعانَةِ الكفَّارِ المحارِبـينَ، ويُؤخَذُ هذا مِنْ قولِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ولَمْ يَذْكُـرِ الدِّيَـةَ؛ وذلـك أنَّـه لا يُعطاها أقارِبُهُ الكفَّارُ المحارِبونَ، فيَستَعينونَ بِها علَى قِتالِ أهلِ الإسْلامِ.

وفي الآيـةِ: احـترامُ المواثِيقِ، والمُعاهَداتِ، مـع الكفَّارِ؛ وذلكَ أنَّ قتيلَهم لَهُ دِيَةٌ، تُسـلَّمُ إليهِم، سَواءٌ كانَ مسلِمًا، أو كافِرًا.

وفِيهـا: رحمـةُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بغيرِ القادِرينَ عـلى العِتْقِ في الكفَّارَةِ، حيـثُ جَعَلَ لهم مَخْرَجًا، وهو صيامُ شـهرَيْنِ متتابِعَيْنِ، وقد اختلفَ العلماءُ فيمَنْ لا يَسـتطيعُ الصِّيامَ: هل يَجِبُ عليهِ إطعامُ سـتِّينَ مِسـكينًا، كما في كفَّارَةِ الظِّهارِ؟ فقالَ بعضُهُم: يَجِـبُ، وقال بعضُهُم: لا يَجِبُ؛ لأنَّ اللهَ لَمْ يَذْكُرْهُ، ولو كانَ واجِبًا لَذَكَرَهُ(١).

وفِيهـا: عِظَمُ شـأنِ الإيمانِ، وأنَّـه يَعْصِمُ دَمَ صاحِبِـهِ، وكذلِك يَمنَعُ مِـنِ ارتِكابِ كَبيرةِ القَتلِ عَمْدًا.

وفِيها: مُراعاةُ حقوقِ اللهِ، وحقوقِ العبادِ.

وفِيهـا: أنَّ قتـلَ الخطَـأِ -وإنْ خَلا عَـنِ الإثمِ- لا يَخْلُـو مِنَ التَّهـاوُنِ، والإهمالِ، وعدمِ العِنايَةِ.

وفِيهـا: أنَّ الدِّيَةَ يَذهَبُ بها عاقِلَةُ القاتِـلِ إلى أهلِ القَتِيلِ، ويَعقِلونَها في دارِهِم، ولا يقالُ لهم: تَعالَوُا استَلِمُوها.

وفِيها: تَطييبُ القُلوبِ الحزينةِ.

وفِيها: التَّعويضُ بالمالِ عمَّا فاتَ مِنَ النَّفسِ.

وفِيها: نَزْعُ الشَّريعةِ للبَغْضاءِ، والعَداواتِ، بتسليمِ التَّعويضِ، والدِّياتِ.

وفِيهـا: عِظَـمُ قِيمةِ النَّفـسِ في الشَّريعةِ، وقد جاءَ تقديرُهـا بمائةٍ مِنَ الإبِـلِ، ومِنَ النَّقدِ:

(١) قالَ الشـيخُ ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كانَ لا يَسـتطيعُ أنْ يصومَ فلا شيءَ عَليه؛ لأنّ كفارةَ القتلِ ليسَ فيها إلاَّ عتقُ رَقبةٍ، أوْ صيامُ شهْريْنِ مُتتابِعيْنِ» لقاء الباب المفتوح (١٠٧/ ٢٥) بترقيم الشاملة.

ألفُ دينارٍ، وفي هذا مُراعاةُ الشَّريعةِ لأهلِ الباديَةِ، الذينَ جُلُّ أموالِهم مِنَ الإبِلِ، وأهلِ الحاضِرَةِ، الذينَ جُلُّ أموالِهم مِنَ النَّقدِ، وقد جاءَ عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّه لَمَّا ارتَفعَتْ أثمانُ الإبِلِ، فَرَضَ الدِّيَةَ على أهلِ الذَّهَبِ ألفَ دِينارٍ، وعلى أهلِ الفِضَّةِ اثني عشرَ ألفَ دِرْهَمٍ، وعلى أهلِ البَقَرِ مائتَي بقرَةٍ، وعلى أهلِ الشَّاءِ ألفَي شاةٍ، وعلى أهلِ الحُلَلِ مائتَي حُلَّةٍ»[1].

ودِيَةُ المرأةِ نِصفُ دِيَةِ الذَّكَرِ الحُرِّ، ودِيَةُ أهلِ الذِّمةِ، والعَهدِ، نصفُ دِيَةِ المسلِمِ.

وأما البَدَلُ عنِ الكفَّارةِ عندَ عدمِ القدرةِ عليها: فهُو صِيامُ شهرَيْنِ مُتَتابعَيْنِ.

وفِيها: تَضامُنُ الأقارِبِ مَعَ قريبِهِم، وأنَّهم يَتحمَّلونَ في أموالِهِم الدِّيَةَ الواجِبَةَ على صاحبِهِم.

وفي الآيةِ: صلاحيةُ الشَّريعةِ لكلِّ زمانٍ، ومكانٍ، فإنَّ قولَه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: رقبةً يُعتِقُها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ يَشمَلُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مالًا يَشتَرِيها بِهِ، ومَنْ لَمْ يكنْ يَملِكُ رَقبةً، ويشمَلُ حالةَ عدمٍ، أو نُدرَةٍ، وجودِ رِقابٍ في الأرضِ، كما في زمانِنا هذا، وبهذا يَظهَرُ -أيضًا- كَمالُ عِلمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في إحاطَتِهِ بالمُستقبلِ، وعِلْمِه بما سيَمُرُّ بالأمَّةِ مِنَ الأحوالِ.

وفِيها: مُرونةُ الشَّريعةِ، وسِعَتُها، في تقديمِها للبَدائِلِ.

وفِيها: أنَّ الشَّهرَيْنِ في الكفَّارةِ هما قَمَرِيَّانِ، وهي الأشهُرُ عندَ اللهِ، وصيامُهُما يَجِبُ أنْ يكونَ مُتَوالِيًا، بحيثُ لا يَفصِلُ بَيْن أيِّ يومَيْنِ مِنْهما إفطارٌ بغيرِ عُذرٍ شَرعِيٍّ، فمَنْ فَعَلَ: استَأْنَفَ، وأعادَ مِنَ البِدايَةِ.

وفِيها: حَثُّ المؤمنينَ على الاحتِياطِ، والانتِباهِ، والتَّدقِيقِ؛ حتَّى لا يَقَعَ قتلُ الخَطَأ.

وفِيها: أنَّ قتلَ المسلمِ عنْ عمْدٍ يُنافي الإيمانَ.

وفِيها: سَعْيُ الشَّريعةِ إلى إعتاقِ الرِّقابِ، حتَّى صارَ واجِبًا في بعضِ الحالاتِ، كهذِهِ الحالةِ؛ لِيتَحرَّرَ أكبرُ عَدَدٍ مِنْها.

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٤٢)، وقال ابنُ القيم في الزاد (٥/ ٢٥): «ثبتَ عن عُمر».

وفِيها: التَّعبيرُ عَنِ الكُلِّ بالجزءِ، كما عبَّرَ عنِ النَّفسِ بالرَّقَبةِ.

وفِيها: نَدْبُ الشَّريعةِ إلى حُسنِ الأداءِ، وتسليمِ الدِّيةِ بسَماحةٍ، ولُطفٍ؛ جَبرًا لخاطِرِ المُصابِينَ.

وفِيها: أنَّ المُتبرِّعَ والمُتنازِلَ عن الدِّيةِ مُتصدِّقٌ، له ثَوابٌ جزِيلٌ، وخُصوصًا عندما يكونُ أولياءُ القاتِلِ، وعَصَبَتُه، مِنَ الفُقراءِ.

وفِيها: تَسمِيةُ العَفوِ بالصَّدقةِ، وهوَ مِنْ مكارِمِ الأخلاقِ.

وفِيها: التَّجانُسُ في الجزاءِ، فكما أنَّه قَتَلَ رقبةً، فإنَّه يُحرِّرُ رَقبةً.

والآيةُ لَمْ تَذكُرْ مَنِ الذي يُسلِّمُ الدِّيةَ إلى أهلِ القَتيلِ، وقد بَيَّنَتِ السُّنةُ أنَّ الدِّيةَ على العاقِلَةِ، وهُم عَصَبةُ القاتِلِ، وقرابَتُهُ مِنْ جِهةِ أبِيهِ؛ سُمُّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يَتعاقَلونَ، ويَتَناصَرونَ، فيما بَيْنَهم، ويُعِينُ بعضُهم بعضًا، ولذلكَ فإنَّ جَعْلَ الدِّيةِ عليهِم، ليسَ مِنْ بابِ تحمِيلِهم وِزرَ ما لَمْ يَفعَلُوهُ، وإنَّما هو مِنْ بابِ المُعاوَنةِ، والتَّكافُلِ.

فإنْ لَمْ يُوجَدْ للقاتِلِ عاقلةٌ، فالدِّيةُ على بيتِ المالِ؛ لأنَّ المسلمينَ -في هذه الحالةِ- هُم عاقلتُهُ، وبعضُهم أولياءُ بعضٍ، فإذا اختلَّ بيتُ المالِ، ولَمْ يُمكِنْ أخذُ الدِّيةِ مِنْه، فإنَّها تَرجِعُ على القاتِلِ، فإنْ لَمْ يَستَطِعْ كانتْ دَيْنًا عليه(١).

ويَقْتَسِمُ وَرثَةُ المَقتولِ الدِّيةَ كالمِيراثِ، ويُقضَى مِنْها دَيْنُ المَيِّتِ، وتُنفَّذُ مِنْها وَصيَّتُه، إنْ كانتْ له وَصِيَّةٌ.

وفي شأنِ أهلِ القَتيلِ مِنَ الكفَّارِ المُعاهَدينَ لَمْ يَذْكرْ عَزَّوَجَلَّ أمْرَ الصَّدَقةِ، كما قال في أولياءِ القَتيلِ المؤمنينَ ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ الكفَّارَ أهلُ دُنيا، حرِيصُونَ كلَّ الحِرصِ على الدِّينارِ، والدِّرهَمِ، ثُمَّ إنَّ صَدَقاتِهم لا تُقبَلُ لِكفرِهم، فليسُوا أهلَ عبادةٍ.

ولَمْ يَذْكُرْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -أيضًا- في الدِّيةِ التي تُعطَى لأهلِ القَتيلِ مِنَ الكفَّارِ المُعاهَدِينَ أنَّها ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾ إليهِم، فلا يُعامَلُونَ مِثلَ المسلمينَ في هذا الشَّأنِ، ثُمَّ إنَّه قد يَصْعُبُ على عاقِلةِ

(١) يُنظر لِمعرفةِ كلامِ الفُقهاءِ في ذلِك، واخْتِلافهم فيه: المَوسوعةُ الفِقهيةُ (٢١/ ٩١-٩٣).

القاتِلِ المسلمِ، أنْ يَذهَبُوا بها إليهِم؛ فلذلك تُرسَلُ وتُسلَّمُ بأيِّ طريقةٍ، تُحقِّقُ المقصودَ، وهو أداءُ الحقِّ.

وفي قولِهِ: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ هذِهِ التَّوبةُ ليسَتْ مِنْ إثمِ القتلِ الخَطَأِ؛ لأنَّ الإثمَ مرفوعٌ فِيهِ، كما دلَّ عليه قولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وكَما دلَّ عليه قولُه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لي عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ، والنِّسْيانَ، وَما اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[1]، وإنَّما التَّوبةُ هُنا مِنَ: التَّقصيرِ، وضَعْفِ الاحترازِ، وقِلَّةِ التَثَبُّتِ، والتَّحقُّقِ، ولكَيْ يكونَ المسلمُ بَعدَ ذلكَ يَقِظًا، مُتذكِّرًا.

وفي الآيةِ: تَربيةُ النُّفوسِ على الاحتِياطِ، وتَعويضِ المُصابِ، والمُشارَكَةِ، والتَّعاوُنِ في أداءِ الحُقوقِ.

وفِيها: التَّضامُنُ بَيْنَ الأقارِبِ في أداءِ الدِّيةِ؛ حتَّى لا تَذْهَبَ الدِّيةُ بمالِ قاتِلِ الخَطَأِ كلِّه، أو يَتَحمَّلَ ما لا يُطِيقُ.

وفِيها: أنَّ الكفَّاراتِ لَمَّا كانتْ ثقيلةً على النُّفوسِ، خَتَمَ اللهُ الآيةَ بقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بما يُصلِحُ نُفُوسَ عبادِهِ ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما أمَرَ بِهِ مِنَ الكفَّاراتِ، والزَّواجِرِ، فأطِيعُوهُ.

وفِيها: أنَّ أهلَ القَتيلِ إذا عَفَوْا تَسقطُ الدِّيةُ عَنِ القاتِلِ، ولا تَسقُطُ الكفَّارةُ؛ لأنَّها حقُّ **اللهِ** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وقدَّمَ اللهُ في أولِ الآيةِ ذِكْرَ الكفَّارَةِ، التي هِيَ حقُّه، على الدِّيَةِ، التي هي حقُّ العبادِ، وبَعدَ ذلكَ قدَّمَ ذِكرَ الدِّيةِ على ذِكْرِ الكفَّارةِ، ولَعَلَّ المقصودَ -واللهُ أعلَمُ- أنْ لا يَتَردَّدَ القاتِلُ في دَفعِها -في الحالةِ الثانيةِ- لأنَّها ستُدفَعُ إلى قومٍ غيرِ مسلمينَ، وهم الذينَ بَيْنَهم وبَيْنَ المسلمينَ عَهْدٌ، ومِيثاقٌ، وفي هذا التَّقديمِ، والتَّأخيرِ -أيضًا- تأكيدٌ على حُرمةِ العَهدِ، والمِيثاقِ، ولو كانَ مَعَ الكفَّارِ، وفي هذا ترغيبٌ لهم في الإسلامِ، وتَبْيينٌ لمحاسِنِه.

---

(١) رواه ابن ماجة (٢٠٤٥)، والحاكم (٢٨٠١)، والبيهقي (١٥٠٩٤)، وهو حديث مشهور، صححه ابن حزم والعيني وغيرهما، وحسنه النووي وابن تيمية وغيرهما.

ولَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكمَ قَتلِ الخطَأ، وما فيهِ مِنَ الكفَّارةِ الغليظةِ، والدِّيةِ العظيمَةِ، مَعَ أنَّه غيرُ مقصودٍ، توَعَّدَ عَزَّوَجَلَّ مَنْ يَتعمَّدُ إزهاقَ أرواحِ النُّفوسِ المعصومةِ، وينتَهِكُ حُرمَتَها، ويَسفِكُ دَمَ المؤمِنِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ باللهِ، ورسولِهِ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ قاصِدًا قتلَه بما يَقتُلُ غالبًا، كالسَّيْفِ، والمُسدَّسِ -مَثَلًا-، وعالِمًا بكونِهِ مؤمِنًا، ولو ظَنًّا ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ أي: القاتلُ ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ مُؤبَّدًا إنِ استَحَلَّ قتلَهُ، وماكِثًا مُكثًا طَويلًا إنْ لَمْ يَستَحِلَّ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وسَخِطَ سَخطًا شديدًا، وهذا غَضَبٌ يَليقُ بجلالِهِ، وعَظَمَتِهِ ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طَرَدَهُ مِنْ رحمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ وهَيَّأَ لَهُ في جهَنَّمَ ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ شديدًا، جزاءً على عَمَلِهِ الشَّنيعِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

التَّحريمُ الشَّديدُ، والوعيدُ الأكيدُ، لِمَنْ يَقتُلُ مؤمِنًا، قال ابنُ العربيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثَبَتَ النَّهيُ عنْ قتلِ البَهيمَةِ بغيرِ حقٍّ، والوعيدُ في ذلك، فكيف بقتلِ الآدَمِيِّ؟ فكيف بِالمُسلمِ؟ فكيفَ بالتَّقِيِّ الصَّالِحِ»[1].

وفيها: أنَّ القتلَ العمدَ إثمُهُ أعظمُ مِنْ أنْ يُكفَّرَ بكفَّارةٍ غيرِ التَّوبةِ؛ ولذلكَ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ له كفَّارةَ عِتقٍ، أو صِيامٍ، وأمَّا قتلُ شِبهِ العَمدِ -وهو أنْ يَعتَدِيَ على إنسانٍ بما لا يَقتُلُ غالبًا، كالعَصا الخفيفةِ، والحَجَرِ الصَّغيرِ، والوَكْزَةِ، فيمُوت المَجْني عَلَيْهِ[2]- فإنَّ الدِّيةَ فيهِ مغلَّظةٌ على العاقِلَةِ، مؤجَّلةٌ إلى ثلاثِ سنينَ لجَمْعِها، وهي في قتلِ العَمدِ، وشِبهِ العَمدِ سواءٌ: ثلاثونَ حِقَّةً، وثلاثونَ جَذَعةً، وأربعونَ خَلِفةً، في بطونِها أولادُها[3].

(١) فتح الباري (١٢/ ١٨٩).
(٢) فالضربُ مقصود، والقتلُ غيرُ مقصود، فسُمي شِبه عَمد.
(٣) المغني (٨/ ٣٧٣).

وفي الآيةِ: شناعةُ قتلِ العمدِ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَزالُ المؤمِنُ مُعنِقًا**[١]**، صالحًا، ما لَمْ يُصِبْ دمًا حرامًا، فإذا أصابَ دَمًا حرامًا بَلَّح**[٢]»[٣].

وعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوَّلُ ما يُقضى بَيْنَ النَّاسِ يومَ القِيامةِ في الدِّماءِ**»[٤].

وعن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، هَذا قَتَلَنِي، فيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنَّها لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: إِنَّ هَذا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلانٍ، فَيَقُولُ: إِنَّها لَيْسَتْ لِفُلانٍ، فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ**»[٥].

وكان ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يَرى أنَّ لقاتلِ المؤمِنِ عَمْدًا توبةً، والذي عليه جُمهورُ الأمَّةِ -مِنْ سَلَفٍ، وخَلَفٍ- أنَّ له تَوبةً، إذا أنابَ، وخَشَعَ، وخَضَعَ، وعَمِلَ صالحًا، واحتَجُّوا بقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وحَمَلَ بعضُهُم هذه الآيةَ على أنَّ جزاءَ القاتِلِ -إنْ جازاهُ-، فهو هذا المذكورُ في الآيةِ، ولكنَّه تحتَ المَشيئَةِ، واللهُ فِيهِ بالخِيارِ.

وقال بعضُ العلماءِ: تُوزَنُ سيِّئاتُ القاتِلِ -ومِنْها: القَتلُ- مع حَسَناتِهِ، وللمَقتولِ حقُّه يومَ القيامةِ، ولا يَسقُطُ بالتَّوبةِ، وقد يكونُ للقاتِلِ حسناتٌ كثيرةٌ، يَفضلُ له مِنْها ما يَدخُلُ بِهِ الجنَّةَ، وقد يُعوِّضُ اللهُ المقتولَ مِنْ عندِهِ، فيَكُفُّ عن مُطالبَةِ القاتِلِ، وهذا يُبيِّنُ أهمِّيَّةَ التَّوبةِ

---

(١) أيْ: مُسرِعًا في طاعَتِهِ، مُنْبَسِطًا في عَمَلِهِ.

(٢) أيْ: أَعْيا وانْقَطَعَ عَنْهُ ذَلِكَ؛ لِشُؤْمِ ما ارْتَكَبَهُ مِنَ الإِثْمِ.

(٣) رواه أبو داود (٤٢٧٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٤) رواه البخاري (٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨).

(٥) رواه النسائي (٣٩٩٧)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

النَّصوحِ للقاتِلِ، وقد قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ قتلَ العَمدِ أعظَمُ مِنْ أنْ يُكفَّرَ بالكفَّارةِ، كما في قتلِ الخَطَأِ، فلا سبيلَ إلا التَّوبةُ. وقال بعضُهُم: تَجِبُ على قاتِلِ العَمدِ الكفارةُ، وأنَّها أوْلَى هُنا مِنْ قتلِ الخَطَأِ.

وأمَّا أولياءُ المقتولِ عَمدًا: فهُم مُخيَّرونَ بَينَ القِصاصِ، أو العَفْوِ، أو أنْ يأخُذُوا الدِّيةَ المغلَّظةَ أثلاثًا: ثلاثونَ حِقَّةً، وثلاثونَ جَذَعةً، وأربعونَ خَلِفةً، وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ العاقلةَ لا تَحمِلُ ديةَ العَمدِ، وأنَّها في مالِ الجانِي.

وفِيها: ذِكْرُ حُكمِ القاتِلِ في الآخرةِ، بعدما تقدَّمَ ذِكْرُ حُكمِهِ في الدُّنيا في سُورةِ البقرةِ.

وفِيها: شَناعةُ وعيدِ قاتِلِ العَمدِ، فإنَّه جُمِعَ عليه خمسةُ أمورٍ: جَهنَّمُ، وطولُ المُكثِ فيها، والإعدادُ المُسبقُ للعذابِ، مَعَ الغَضَبِ، واللَّعنةِ.

وفي الآيةِ: وجوبُ الاحتِياطِ في الدِّماءِ، والنَّظرِ قَبْلَ الإقدامِ على إزهاقِ الأرواحِ.

وفِيها: أنَّ دَعوَى الإكراهِ لا تُقبَلُ في قتلِ المؤمِنِ، والأصلُ أنَّ الأرواحَ في الشَّريعةِ مُتَساويةٌ، فكيفَ يَفْدِي نفسَه بقَتلِ غيرِه؟

وفِيها: أنَّ القتلَ يَتَنافَى مَعَ الإيمانِ، ولكنَّه لا يَنفي الإيمانَ بالكُليَّةِ، بمعنَى: أنَّ المسلِمَ لا يلزَمُ أن يَصيرَ كافِرًا إذا قَتَلَ، لكن يكفُر إذا استَحَلَّ قتلَ أخيه المسلِمِ، ومِنْ أدلَّةِ قَبُولِ توبةِ المسلمِ إذا قَتَلَ: حديثُ الإسرائِيليِّ الذي قَتَلَ مائةَ نفسٍ، ثُمَّ تابَ اللهُ عليهِ[1].

وقدْ كان على بَنِي إسرائيلَ مِنَ الآصارِ، والأغلالِ، ما رفَعَهُ اللهُ عنْ هذِهِ الأمَّةِ؛ ولذلكَ فهي أوْلَى بالتَّخفِيفِ، وقَبُولِ التَّوبةِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّغلِيظَ في شأنِ دَمِ المسلِمِ، وتحريمَ سَفْكِهِ، أمَرَ عَزَّوَجَلَّ بالتَّبيُّنِ، والتَّثبُّتِ، في قتالِ الكفَّارِ، وذلكَ أنَّ الإسلامَ كانَ قد انتَشَرَ، ويوجَدُ في بعضِ قبائِلِ المُشركينَ مَنْ قد آمَنَ، فقد يَحدُثُ أن يقتُلَه بعضُ المسلمينَ، وهُم لا يَشعُرُونَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -مُحذِّرًا عبادَهُ الخارِجينَ للجِهادِ في سبيلِ اللهِ-:

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤ ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانَ رجلٌ في غُنَيمةٍ له، فلَحِقَه المسلمونَ، فقالَ: السَّلامُ عليكُم، فقتَلُوه، وأخذُوا غُنيمَتَهُ، فنزَلَـتْ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾»[1].

وفي روايةٍ: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْم عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، قالُوا: ما سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنكُمْ، فَقامُوا فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِها رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾»[2].

وعَنْ عبدِاللهِ بْنِ أَبِي حَدْرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «بَعَثَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إِضَمَ[3]، فَخَرَجْتُ في نَفَرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فِيهِمْ أَبُو قَتادَةَ الحارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ، وَمُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنا حَتَّى إذا كُنَّا بِبَطْنِ إِضَمَ، مَرَّ بِنا عامِرٌ الأَشْجَعِيُّ، فَسَلَّمَ عَلَيْنا، فَأَمْسَكْنا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ، فَقَتَلَهُ بِشَيْءٍ كانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَيِّعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنا عَلَى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرْناهُ الخَبَرَ، نَزَلَ فِينا القُرْآنُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾»[4].

---

(١) رواه البخاريّ (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٣٠)، وحسّنه، وأحمد (٢٠٢٣)، وإسناده جيد.

(٣) اسمُ موضِع شمال المَدينةِ.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨٨١)، وقال محقّقو المسند: «إسناده محتمِلٌ للتّحسين».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وصَدَّقُوا بـالله، ورسـولِه، وعَمِلُوا بها أُنـزِلَ ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وسافَرْتُم لجِهادِ أعداءِ الله، وإعلاءِ كَلِمَتِه، ودِينِه ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أي: اطلُبُوا البَيانَ، والتَّحقِيـقَ، واليقِـينَ، وتَثَبَّتُـوا، ولا تَعْجَلُـوا، واحتاطُـوا، ولا تَتَسَرَّعُـوا ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ وحيَّاكُـم بتحيَّـةِ الإسـلام، وأظهَرَ أنَّه مَعَكُـم. وفي قراءةٍ: (أَلقَى إِليكُمُ السَّـلَمَ) أي: استَسْـلَمَ، وانقادَ لَكُم، ولَمْ يُقاتِلْكُم ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنًا﴾ فتَحكُمُونَ عليهِ بزَيفِ إسـلامِه، وأنَّه ألقَى السَّـلامَ، أو ذَكَرَ الشَّـهادتَيْنِ؛ خَوفًا مِنَ القتـلِ، وتَقيَّةً، ومُخادَعَةً ﴿تَبۡتَغُونَ﴾ وتَطلُبُـونَ بقتلِـه ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مِـنَ الغنائـمِ، والأمـوالِ، والمَتاعِ الفانِي، سريعِ الزَّوالِ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ وأرزاقٌ وفيرةٌ، وثوابٌ جزيلٌ، لا يُعَـدُّ، ولا يُحْصَى، فاطلُبُوها عِنـدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والمغانِمُ جمعُ مَغْنَمٍ: وهو ما يُؤخَذُ مِنْ مالِ العَـدُوِّ. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ في أوَّلِ الإسـلامِ، تُخفُـونَ دِينكُـم، وإيمانَكُـم، وقيـل: كذلك كنتُم مِنْ قَبْلُ: مُشرِكينَ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ وتَفَضَّلَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ بالإسـلامِ، والهِدايـةِ، وإظهارِ الدِّينِ، وعدمِ الخَوفِ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ كُونُوا على بيانٍ، ويَقينٍ، فيما تُقدِمُونَ عليـه، ولا تأخُذُوا بالظَّـنِّ، واحذَرُوا التَّسرُّعَ في القَتـلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ أي: بَصيرًا، وعليمًا، بأعمالِكُم الظَّاهِرَةِ، والباطِنَةِ، وخَفاياكُم، ونَواياكُم، وفي هذا تَهديدٌ، ووعيدٌ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وصيَّةُ المُجاهِدِينَ في سبيلِ اللهِ قَبْلَ خُروجِهِم، واحتياطُ المُجاهِدِينَ قَبْلَ إراقَةِ الدِّماءِ، ووجوبُ التبَيُّنِ قَبْلَ القتلِ.

وفِيهـا: إجراءُ أحكامِ النَّاسِ على الظَّاهِرِ، وعـدمُ الطَّعنِ في نِيَّاتِهِم بلا دَليلٍ، وتحريمُ نَفْيِ الإيـمانِ عَمَّنْ ظاهِرُهُ الإيمانُ، وتحريمُ الحُكمِ على النَّاسِ بالتَّشـهِّي، وتحريمُ اسـتِحلالِ دِماءِ النَّاسِ، وأموالِهِم، بلا مُبيحٍ شرعيٍّ.

وفِيها: تقديمُ ما عندَ اللهِ، على ما في الدُّنيا.

وفِيها: تَذكِيرُ المؤمنينَ بماضِيهِم؛ حتَّى لا يُصابوا بالعُجْبِ.

وفِيها: مُعالَجَةُ بَغْيِ النَّفسِ، بتذكِيرِها بما كانتْ علَيْهِ مِنَ الضَّلالةِ، وما فِيها مِنَ النَّقصِ.

وفِيها: امتِنانُ اللهِ على المؤمنينَ بالهِدايةِ، والأمنِ.

وفِيها: تَرْكُ الانسِياقِ وراءَ العَداواتِ الشَّخصِيَّةِ القدِيمَةِ، وأنَّ الأحقادَ تحمِلُ على مُجاوَزَةِ حُدودِ اللهِ.

وفِيها: عِظَمُ شأنِ الدِّماءِ عندَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ الطَّمَعَ في الدُّنيا يَقودُ إلى البَغْيِ.

وفِيها: جوازُ إخفاءِ الإيمانِ، لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ على إظهارِهِ.

وفِيها: الاحتِياطُ للمؤمنينَ المُستضعَفِينَ، الذينَ يَعيشُونَ بَيْنَ قومٍ كفَّارٍ، وهذا مِنْ أسبابِ مَنْعِ القِتالِ بالحُدَيْبِيَةِ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

وفِيها: أنَّ المَغانِمَ الحلالَ، تُغنِي عنِ الاستِيلاءِ على أموالِ النَّاسِ بسُوءِ الظَّنِّ، والاتِّهامِ.

وفِيها: تَعظيمُ شأنِ السَّلامِ.

وفِيها: أنَّه ليسَ كلُّ مَنْ وُجِدَ بأرضِ الكُفرِ فهُوَ كافِرٌ.

وفِيها: مقاومةُ رغبةِ النَّفسِ المُلحَّةِ، وحِرصِها على مَتاعِ الحَياةِ الدُّنيا.

وفِيها: أنَّ مَتاعَ الدُّنيا زائلٌ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاهُ عَرَضًا، والعارِضُ يَزُولُ، ولا يَثْبُتُ.

وفِيها: تأدِيبُ المجاهِدِينَ بإصلاحِ نِيَّاتِهِم.

وفِيها: مُعالَجَةُ الاشتِباهِ بالتَّبيُّنِ، والتَّثبُّتِ.

وفِيها: أنَّ الأحكامَ على النَّاسِ تُناطُ بالظَّواهِرِ، لا بالتَّفتيشِ عنِ السَّرائِرِ.

وفِيها: تَحريمُ سَفْكِ الدِّماءِ، والاستيلاءِ على الأموالِ بالتَّأوِيلاتِ الضَّعِيفةِ، قالَ العُلماءُ: «الخَطأُ في تَرْكِ ألْفِ كافِرٍ، أهْون مِن الخَطإِ في سَفْك مَحْجَمَةٍ مِن دم مُسْلِمٍ واحِدٍ»[١].

---

(١) كتاب الشفا للقاضي عياض (٢/ ٢٧٧).

وفِيها: أهمِّيَّةُ شعائِرِ الإسلامِ الظَّاهرةِ في حِفْظِ الدِّماءِ؛ ولذلكَ كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا غَزا قَوْمًا انتَظَرَ: فإنْ سَمِعَ أذانًا، وإلا أغارَ عَلَيْهِم(١).

وفِيها: إفسادُ الحِرصِ على المالِ لِنِيَّةِ الجِهادِ.

وفِيها: اللُّجوءُ إلى اللهِ في طَلَبِ الرِّزْقِ.

وفِيها: اطِّلاعُ اللهِ على السَّرائِرِ، والضَّمائِرِ.

وفِيها: مَشرُوعِيةُ السَّيرِ في الأرضِ، غَزْوًا في سبيلِ اللهِ.

وفِيها: الرَّدُّ على بِدْعَةِ «التَّوقُّفِ، والتَّبيُّنِ»، التي يجعلُ أصحابُها عامَّةَ المسلمينَ في مَوْضِعِ شكٍّ، لا يَحكُمُونَ عليهِم بإيمانٍ، ولا بِكُفرٍ، مَعَ أنَّ التَّبيُّنَ، والتَّحقُّقَ الشَّرعِيَّ، لا يَعنِي ذلكَ إطلاقًا، وقد جاءَتِ الشَّريعَةُ بالحُكمِ على النَّاسِ بالظَّاهِرِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ وَضَعَ نفسَهُ مَوْضِعَ خَصْمِهِ، كثيرًا ما يَعذُرُهُ، وتَطِيبُ نفسُهُ له، أو يَخِفُّ كثيرٌ مِمَّا فيها مِنَ اللَّوْمِ تجاهَه.

وفِيها: بَثُّ الثِّقةِ، والأمانِ، بَيْن أفرادِ الأُمَّةِ المسلمةِ.

وفِيها: أنَّ العبدَ إذا رَأَى نفسَهُ مائِلةً إلى هَوًى، فعليْهِ أنْ يُذَكِّرَها بما أعدَّ اللهُ لعبادِه المتَّقين.

وفِيها: إعادةُ الأمرِ بالواجِب المتعيِّنِ؛ تأكيدًا عليهِ، كما كَرَّرَ الأمرَ في قولِهِ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مرَّتَيْنِ في الآيةِ.

وفِيها: أنَّ الكافِرَ إذا نَطَقَ بالشَّهادَتَيْنِ حَرُمَ دَمُهُ، ومالُهُ، وأهلُهُ.

وفِيها: تَحريمُ القتلِ على الشُّبهةِ.

وفِيها: أنَّ التَّبيُّنَ يَقُودُ إلى الرُّشدِ، والصَّوابِ، واتِّضاحِ الأمورِ.

وفِيها: أنَّ الكافِرَ المُحارِبَ إذا تَبيَّنَ أمرُهُ، فإنَّه لا يُتَرَدَّدُ في قَتلِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠)، ومسلم (٣٨٢)، ولفظه عند البخاري: عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ إِذا غَزا بِنا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ: فَإِنْ سَمِعَ أَذانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذانًا أَغارَ عَلَيْهِمْ».

وفِيها: أنَّ مَنْ أظهَرَ شيئًا مِنْ علاماتِ الإسلامِ، كالسَّلامِ، والشَّهادَتَيْنِ، يَجِبُ الكفُّ عنه، إلى أنْ يَتبيَّنَ مِنْه ما يُناقِضُ ذلكَ.

وفِيها: تَحريمُ الاستِعجالِ في إصدارِ الأحكامِ.

وفِيها: صَرْفُ هِمَمِ المؤمنينَ، عمَّا في أيدِي النَّاسِ، إلى ما عِندَ اللهِ.

وفِيها: مُعاتَبَةُ اللهِ للصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مَعَ حُبِّهِ لَهُم.

ولَمَّا أوصَى اللهُ الخارِجينَ للجِهادِ في سبيلِهِ، بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فضلَهُم على القاعِدِينَ، الذينَ لَمْ يَخرُجُوا، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ في الفَضْلِ، والأجرِ، والثَّوابِ ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيثارًا للرَّاحةِ، والسَّلامةِ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ بذَهابِ أبْصارِهم، وكذلِكَ أصحابُ العُذْرِ، مِنْ مَرَضٍ، أو عاهَةٍ، أو كِبَرِ سِنٍّ، ونحوِ ذلك، قالَ العُلَماءُ: «أَهْلُ الضَّرَرِ: هُمْ أَهْلُ الأَعْذارِ؛ إِذْ قَدْ أَضَرَّتْ بِهِمْ، حَتَّى مَنَعَتْهُمُ الجِهادَ»[1].

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فهؤلاءِ الجامِعُونَ بَيْنَ الجِهادِ بالمالِ، والنَّفسِ، يَفوقُونَ أولئكَ بلا رَيْبٍ، وفي الصّحيحيْنِ عن البَراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَمَّا نَزَلَت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدًا، فكتَبَها، فجاءَ ابنُ أمِّ مكتومٍ فشَكا ضَرارَتَهُ[2]، فأنزَلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾»[3].

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٤٢).

(٢) أي: فَقْدَ بَصَرِه.

(٣) رواه البخاري (٤٥٩٣)، ومسلم (١٨٩٨).

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عنْ بَدْرٍ، والخارِجُونَ إلى بدرٍ»(١).

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الذينَ خَرَجُوا يُجاهِدونَ بأمْوالِهِم وأنفُسِهِم في سبيل اللهِ ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ مِنْ أُولِي الضَّرَرِ، وأهلِ الأعذارِ ﴿دَرَجَةً﴾ ومنزِلَةً، لا يَقدُرُ قَدْرَها، ولا يَعلَمُ حقيقَتَها، إلا هوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك لأنَّ الخارِجِينَ باشَرُوا الجهادَ بأنفُسِهِم مَعَ نِيَّتِهِم الصَّالحَةِ، وأمَّا أُولُو الضَّررِ: فإنَّهم -وإنْ كانتْ لَهُم نِيَّةٌ حَسَنةٌ-، لكنَّهُم لَمْ يُباشِرُوا الجِهادَ بأنفُسِهِم؛ فلذلكَ صارُوا أقلَّ مَرتَبَةً، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبِي سعيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وأُخْرَى، يُرفَعُ بِها العبدُ مائةَ درجةٍ في الجنَّةِ، ما بَيْن كلِّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ**»قال: وما هِيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**الجهادُ في سبيلِ اللهِ، الجهادُ في سبيلِ اللهِ**»(٢).

﴿وَكُلًّا﴾ مِنَ المُجاهِدِينَ، والقاعِدِينَ المَعذُورِينَ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وَعَدَهُم بالجنَّةِ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أَقْوامًا بِالمَدِينَةِ خَلْفَنا، ما سَلَكْنا شِعْبًا ولاَ وادِيًا، إلَّا وَهُمْ مَعَنا فِيهِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**»(٣).

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ في سبيلِهِ بأموالِهِم، وأنفُسِهِم ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ بلا عُذْرٍ، ولا ضَرَرٍ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وافِرًا، وثوابًا جزيلًا، ثُمَّ فَسَّرَه بقولِه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ ومنازِلَ بعضُها فَوْقَ بعضٍ، مِنْ مَنازِلِ الكرامَةِ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ في الجنَّةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهِدِينَ في سبيلِ اللهِ، ما بَيْنَ الدَّرجتَيْنِ كما بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ**»(٤).

وقالَ قَتادَةُ: «كانَ يُقالُ: الإسلامُ درجةٌ، والهجرةُ في الإسلامِ درجةٌ، والجهادُ في الهِجرة دَرجة، والقتلُ في الجهادِ درجةٌ»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٣٩٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٨٨٤).

(٣) رواه البخاريّ (٢٨٣٨).

(٤) رواه البخاري (٢٧٩٠).

(٥) رواه الطبريّ (٩/ ٩٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٥).

﴿وَمَغۡفِرَةٗ﴾ لذُنُوبِهِم ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لهم بنعيمِ الجنَّةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ لذُنوبِ المؤمنين ﴿رَّحِيمًا﴾ بِهِم.

وفي الآيَتَيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيانُ التَّفاضُلِ في مَراتِبِ أهلِ الإيمانِ.

وفيهما: فضلُ منزلةِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

وفيهما: فضلُ الجَمْعِ في الجهادِ بَيْن النَّفسِ، والمالِ.

وفيهما: رَحمةُ اللهِ بأهلِ الأعذارِ، وتخفيفُ الأحكامِ عنْهُم.

وفيهما: إكرامُ اللهِ لأهلِ طاعَتِهِ، وأنَّه جَمَعَ لهم بَيْنَ المغفِرةِ، والرَّحمةِ، والمنازِلِ الكريمةِ.

وفيهما: الإشارةُ بفتحِ البابِ أمامَ المُقصِّرينَ في الواجِباتِ الشَّرعيَّةِ، بتذكيرِهِم بمغفرةِ اللهِ، ورحمتِهِ، كما خَتَمَ بذلكَ الآيتَيْنِ.

وفيهما: وَعْدُ اللهِ العظيمِ لأهلِ الإيمانِ بجنَّةِ النَّعيمِ.

وفيهما -مع التي قبلهما-: أنَّ خَطأَ مَنْ يَعملُ الصَّالحاتِ أثناءَ تأدِيَتِها لا يُلغِي فضلَهُ.

وفيهما: أنَّ الضَّررَ الدائِمَ، كالعاهَةِ، أو المُؤقَّتَ، كالمَرَضِ الذي يُرجَى شِفاؤُه، كلاهُما عُذرٌ في عدمِ الخُروجِ للجِهادِ.

وفيهما: أنَّ أعلَى مَراتِبِ الجِهادِ، هو: الخُروجُ بالنَّفسِ؛ لِقتالِ أعداءِ اللهِ، وصاحبُها هو: المجاهِدُ في الأصلِ؛ ولذلكَ لا يُسمَّى مَنْ حَبَسَه العُذرُ مُجاهِدًا، كما لا يُسمَّى مَنْ أعانَ الغُزاةَ بمالِه مُجاهِدًا، إذا لَمْ يَخرُجْ للجِهادِ.

وفيهما: فضلُ عبدِاللهِ بنِ أمِّ مكتومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فبسبَبِهِ نَزَلَ عُذْرُ اللهِ في الآيةِ لأُولِي الضَّرَرِ.

وفيهما: نُزُولُ بعضِ الآيةِ بَعدَها، وأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُخبِرُهُم أينَ يَضَعُونَ ما تأخَّرَ نُزُولُه مِنْها.

وفيهما: الإشادةُ بالفاضِلِ مَعَ عَدَمِ حِرمانِ المَفضُولِ.

وفيهما: أنَّ زيادةَ العَمَلِ الصَّالِحِ تَقْتَضِي مَزِيدًا مِنَ الثَّوابِ.

وفيهما: أنَّ الدَّرجاتِ عندَ اللهِ حقيقيَّةٌ، والدَّرَجَةُ: المِرْقاةُ، والدَّرَجَةُ واحدةُ الدَّرَجات، وَهِيَ الطَّبَقاتُ مِنَ المَراتِبِ، ودرجاتُ الجنَّةِ لا يَعلَمُ قدرَها إلا اللهُ، فعن كعبِ بنِ مُرَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ بَلَغَ العَدُوَّ بِسَهْمٍ رَفَعَهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً**» قالَ ابْنُ النَّحَّامِ: يا رسولَ اللهِ، وَما الدَّرَجَةُ؟ قالَ: «**أَما إِنَّها لَيْسَتْ بِعَتَبَةِ أُمِّكَ، وَلَكِنْ ما بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عامٍ**»[1].

وفي الآيتَيْنِ: التَّنكِيرُ للتَّعظِيمِ، كما في قولِهِ: (**دَرَجَةً**) و(**دَرَجاتٍ**).

وفيهما: حَضُّ الأدنَى على عَدَمِ التَّفرِيطِ، والزُّهدِ في الخَيرِ، والاقتِداءِ بِمَنْ سَبَقَه؛ ولِيَتَرَفَّعَ عَنِ انحِطاطِ منزِلتِهِ، ولِيَهتزَّ للجِهادِ، ويرْغَبَ فيهِ، وفي ذلِكَ: تَحرِيكُ النُّفوسِ لِطلَبِ المنازِلِ العالِيةِ.

وفيهما: أنَّ العاجِزَ عنِ الطَّاعةِ لا يُحرَم أجرَها، وأنَّ مَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ، وتَعلَّقَ قلبُهُ بالجِهادِ، كانَ مَعَ الخارِجينَ في الأجْرِ.

وفيهما: التَّفريقُ بَيْنَ مَنْ قَعَدَ عَنْ الجِهادِ لِنفاقٍ، ومَنْ قَعَدَ عنهُ تراخِيًا، وتَسوِيفًا، أو اشتِغالًا بما هُوَ أدنَى.

وفيهما: أنَّ الجِهادَ المَذكورَ هو ما كانَ فَرْضَ كِفايَةٍ؛ ولذلكَ لا يَأثَمُ القاعِدُ عنْهُ، أمَّا إذا صارَ فَرْضَ عَيْنٍ، فإنَّ القاعِدَ بلا عُذرٍ آثِمٌ بلا رَيْبٍ، وبِهذا يظْهَرُ الفَرْقُ بَيْن حُكم الخروجِ إلى بَدْرٍ، وبَيْن حُكمِ الخروجِ إلَى غَزْوةِ تَبُوكٍ -مَثَلًا-؛ فإنَّه كانَ استِنفارًا عامًّا، يأثَمُ كُلُّ قاعِدٍ عنْهُ بِغَيرِ عُذْرٍ، بخِلافِ الخُروجِ يومَ بَدرٍ.

وفيهما: أنَّ تَساوِي المُجاهدينَ في الرُّتبَةِ في الدُّنيا، لا يَعنِي تَساوِيهم في الآخِرَةِ؛ فإنَّ المجاهِدِينَ -أيضًا- دَرَجاتٌ، وقد قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

(١) رواه النسائي (٣١٤٤)، وأحمد (١٨٠٦٣)، وصحَّحه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٠٤).

وفيهما: تَسمِيةُ العُذرِ المانِعِ ضَرَرًا، سواءً كانَ: مَرَضًا، أو عاهةً، أو شَيخوخَةً؛ وذلكَ لأنَّه يَضُرُّ بصاحِبِهِ، ويُنْقِصُهُ، حتَّى يمنعَهُ مِنَ الجِهادِ.

وفيهما: أنَّه يَنبَغِي على المَعذُورِ في الخُرُوجِ أن يَتمنَّى الخُرُوجَ، وأنْ يُحَدِّثَ نفسَهُ بالغَزْوِ، وأنْ لا يكونَ فَرِحًا بِعُذرِهِ، وقُعُودِهِ.

وفيهما: أنَّ النِّيَّةَ الجازِمَةَ إذا اقترَنَ بها مَقدُورُها مِنَ القَوْلِ، أو الفِعْلِ، يُنزَّلُ صاحِبُها مَنزِلةَ الفاعِلِ.

وفيهما: أنَّ اشتراكَ الفاعِلِ، والمعذُورِ، في أصلِ الأجرِ، لا يَمنَعُ مِنْ تَفوُّقِ الفاعِلِ، كنَيْلِهِ المُضاعَفَةَ في الأجرِ دونَ الآخَرِ، وأنَّ مَنْ باشَرَ الطَّاعَةَ يَفُوقُ مَنْ قَصدَها بالنِّيَّةِ فقَط.

وفيهما: عُلُوُّ فضلِ الآخِرَةِ على فضلِ الدُّنيا؛ فإنَّ الجهادَ في الدُّنيا له ثَوابٌ مُعجَّلٌ مِنَ النَّصرِ، والغَنيمةِ، والذِّكرِ الحَسَنِ، ونحوِ ذلكَ، ولكنَّ ثوابَه في الآخِرَةِ في: الدَّرَجاتِ، والمَنازِلِ، والنَّعيمِ، والرَّحمةِ، والمغفِرَةِ، أعلَى، وأعْظَمُ.

وفيهما: أهمِّيَّةُ بَذْلِ المالِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه لا يَتِمُّ إلا بِهِ.

وفيهما: فضلُ المالِ الصَّالِحِ للعبدِالصَّالِحِ؛ لأنَّه يَستَعِينُ بِهِ على الأعمالِ الصَّالِحَةِ.

وفيهما: أنَّ المنازِلَ الرَّفِيعةَ تَليقُ بأصحابِ الأعمالِ العظيمةِ، والمقرَّبينَ الأبرارِ.

وفيهما: التَّدرُّجُ في الانتِقالِ عندَ التَّفضِيلِ، والمَدْحِ؛ فإنَّه نَفَى التَّسوِيَةَ أوَّلًا، ثُمَّ صَرَّحَ بتفضِيلِ الدَّرجةِ، ثُمَّ انتقَلَ إلى التَّفضِيلِ بالمغْفِرَةِ، والرَّحمةِ، والدَّرجاتِ.

وفيهما: أنَّ صاحِبَ الأعمالِ الصَّالِحةِ -مَهْما اجتَهَدَ في العَمَلِ- فهو مُحتاجٌ إلى مغفرةِ ربِّه تَبارَكَ وتَعالَى.

وفيهما: أنَّ الجنَّةَ لا تُنالُ إلا برحمةِ اللهِ، وأنَّ الأعمالَ سببٌ لدخُولِها، وليسَتْ ثَمَنًا لها.

وفي الآيتَيْنِ: إجمالُ الضَّرَرِ، وقد وردَ ذِكرُ أمثِلَةٍ لـه في مواضِعَ أُخرَى، كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [الفتح: ١٧].

وفيهما: تذكيرُ المجاهِدِينَ بصحَّةِ القَصْدِ، وحُسنِ النِّيَّةِ، وأنْ يكونَ جِهادُهُم وَفْقَ

الشَّريعةِ، كما يَدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّها تَشمَلُ الأمرَيْنِ.

وفي الآيتَيْنِ: تقديمُ المالِ على النَّفسِ؛ وذلكَ لأهمِّيَّتِهِ في الجِهادِ -كما تقدَّم- ولأنَّه أهونُ على الإنسانِ في الغالِبِ، ولأنَّ نَفْعَ المالِ في بعضِ المعارِكِ قد يَكونُ أكثرَ مِنَ الإمدادِ بالأشخاصِ.

وفي قولِه: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ بيانُ أنَّ الإسلامَ دِينُ العَدْلِ، فيُعطِي كلَّ واحدٍ ما يَستَحقُّهُ.

وفيهما: أنَّه لا فضلَ أعظمُ مِنَ الجنَّةِ، كما يُفيدُهُ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لأنَّه اسمُ تفضِيلٍ، مُؤَنَّثُ: الأحْسَن، أي: لا أحَسنَ مِنْها.

وفيهما: تكريمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأصحابِ الأعمالِ الصَّالحِةِ؛ حيثُ جَعَلَ إثابَتَهُم على الأعمالِ مِثلَ الأُجرَةِ التي يَستحقُّها العامِلُ، مَعَ أنَّ الفضلَ له عَزَّوَجَلَّ أوَّلًا، وآخِرًا، وهو الذي فتَحَ بابَ الخَيرِ، ودلَّ عليهِ، ووَفَّقَ إليهِ، وأمكنَ مِنْه، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِهِ.

وفيهما: شَرَفُ درجاتِ المجاهِدِينَ؛ لأنَّ اللهَ أضافَها إلى نفسِهِ، فقال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رِفعةَ أهلِ الجِهادِ، وذَكَرَ حالَ القاعِدِينَ عنهُ بعُذرٍ، وبغيرِ عُذرٍ. ولَمَّا كانَ الباقُونَ مِنَ المُسلمينَ في بلادِ الكفَّارِ متخلِّفينَ عنِ الجِهادِ، ورُبَّما يَستفيدُ مِنْهم الكفَّارُ، ويَكونُونَ عائِقًا أمامَ المجاهِدِينَ في غَزْوِهِم للكفَّارِ؛ لاختِلاطِ هؤلاءِ المسلمينَ بِهِم: فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توعَّدَ هؤلاءِ القاعِدِينَ عنِ الهِجرَةِ، فقالَ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾ وتَقبِضُ أرواحَهُم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: مَلَكُ الموتِ، وأعوانُهُ، والملائكةُ: واحِدُها مَلَكٌ. قالَ ابْنُ كَيْسانَ وَغَيْرُهُ: «وَزْنُ مَلَكٍ: فَعَلٌ، مِنَ المُلْكِ». وَقالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: «هُوَ مَفْعَلٌ مِنْ لَأَكَ إذا أَرْسَلَ». والأَلُوكَةُ، والمَأْلَكَةُ، والمَأْلُكَةُ: الرِّسالَةُ، فَأَصْلُهُ عَلَى هَذا: مَأْلَكٌ، ثمّ قَلَبُوها فقالُوا: مَلْأَكٌ، ثُمَّ سَهَّلُوهُ فقالُوا: مَلَكَ[1].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٦٢)، الصحاح (٤/ ١٦١١)، لسان العرب (١٠/ ٣٩٤).

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبقاءِ في ديارِ الكُفرِ، وعدمِ الهجرةِ إلى دارِ الإسلامِ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكةُ -مُوبِّخِينَ لهُم عندَ قَبْضِ أرواحِهِم-: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أيِّ شيءٍ كنتُم مِنْ أمرِ دِينِكُم؟ أو لِماذا كنتُم في هذا المَكانِ؟ وماذا كنتُم تصنَعونَ في دِيارِ الكُفرِ؟ ﴿قَالُوا۟﴾ -مُعتَذِرينَ اعتِذارًا باطِلًا-: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مقهورِينَ مَغلُوبِينَ في أيدِي الكفَّارِ، لا نَقدِرُ علَى الهِجرةِ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: المَلائِكةُ -ردًّا عليهِم-: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: قد كانَ هنالِكَ أراضٍ أُخرَى تَستَطِيعونَ فيها إقامةَ دِينِكُم، فلِماذا لَمْ تُهاجِرُوا إليها؟

والهِجرَةُ في اللُّغةِ: التَّرْكُ، وفي الشَّرعِ: الانتِقالُ مِنْ بلدِ الكُفرِ إلى بلدِ الإسلامِ.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: العُصاةُ ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ ومنزِلُهُم في الآخِرَةِ، الذي يأْوُونَ إليهِ ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: النَّارُ، مَرجِعٌ قَبِيحٌ، ومَرَدٌّ مُخزٍ، والعِياذُ باللهِ.

سببُ النُّزولِ:

عن محمدِ بنِ عبدِالرَّحمنِ أبي الأسْوَدِ، قالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ، فاكْتُتِبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَّ ناسًا مِنَ المُسْلِمِينَ كانُوا مَعَ المُشْرِكِينَ، يُكَثِّرُونَ سَوادَ المُشْرِكِينَ، عَلَى عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾»(١).

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ -أيضًا- قال: «كانَ قومٌ مِنْ أهلِ مكَّةَ أسلَمُوا، وكانُوا يَستَخفونَ بالإسلامِ، فأَخْرَجَهُم المشرِكونَ يومَ بَدْرٍ مَعَهُم، فأُصِيبَ بَعضُهُم، فقال المسلمونَ: كانَ أصحابُنا هؤلاءِ مسلِمينَ، وأُكرِهُوا، فاستَغْفَرُوا لهُم، فنزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾»(٢).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تَحريمُ تكثِيرِ سَوادِ المشرِكينَ، ووجوبُ هِجرةِ القادِرينَ مِنَ المسلمينَ، مِنْ بلادِ الكُفرِ، إلى

(١) رواه البخاريّ (٤٥٩٦).

(٢) رواه الطبري (٩/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٤٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨/ ٤٥٠).

بِلادِ الإسـلامِ، وفي ذلكَ حِرمانٌ للمشرِكينَ مِنَ الاسـتِفادَةِ مِنْ طاقاتِ المسلِمينَ، واستفادةٌ للمسلمينَ مِنْ طاقاتِ إخوانِهِمُ المهاجرينَ إليهِم، وإزالةٌ للحَرَجِ عنِ المُجاهدينَ في إغارَتِهِم عـلى دِيارِ المشرِكينَ؛ لأنَّها تُصبِحُ دارَ كُفرٍ خالصَة، ويَنْتَفِـعُ المهاجرونَ -أيضًا- بالثَّباتِ على دِينِهِم، وإقامَتِهِم لشَعائِرِ الإسلامِ الظَّاهِرَةِ، ونَجاتِهِم مِنَ الفِتنَةِ في الدِّينِ.

وفي الآيـةِ: أنَّ الهِجـرةَ مِنْ أعظَـمِ الواجباتِ الشَّرعيـةِ، وأنَّ تَركَها -مَعَ القُـدرَةِ علَيها- مَعصِيةٌ، وظُلْمٌ للنَّفسِ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنْ سُوءِ الخاتِمَةِ.

وفِيها: أنَّ مَلَكَ المَوتِ لَهُ أعوانٌ مُوكَّلونَ بقَبْضِ الأرواحِ.

وفِيهـا: حِوارٌ بَـيْنَ مَلائِكةِ المَوتِ، والعُصاةِ عندَ مَوتِهِم، وتوبيـخٌ لهُم، ومِنْ ذلكَ: قَوْلُ الملائِكةِ: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣]، مَعَ ضَرْبِهِم للوجُوهِ، والأدبارِ.

وفِيها: أنَّ الاحتِجاجَ الباطِلَ لا يُغنِي عَنْ صاحِبِه شيئًا، عِندَما تَحِقُّ الحقائِقُ.

وفِيها: أنَّه يَجِبُ على المسلمِ الخُروجُ مِنْ حالِ الاستِضعافِ -إنْ أمْكَنَهُ-، وأنَّه لا يَجُوزُ له أنْ يَبقَى ذَلِيلًا مَقْهُورًا تَحتَ حُكمِ الكفَّارِ، وهو يَستَطِيعُ الخُرُوجَ.

وفِيها: رحمةُ اللهِ بالمؤمنينَ، حيثُ لَمْ يَجْعَلِ الأرضَ كلَّها تَحتَ حُكمِ الكفَّارِ، وأنَّه يُبقِي فيها ما يكونُ مَلْجَأً لعبادِهِ، ومَنْجاةً، وملاذًا.

وفِيها: أنَّ الأرضَ لا تَضِيقُ بالبَشَرِ، مَهْما كَثُرَ عددُهُم، بَلْ فيها مُتَّسَـعٌ للمَزيدِ، وأقواتٌ، وأرزاقٌ.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ ضاقَتْ عليـهِ الأمـورُ، فَعَلَيْهِ بتغيـيرِ المَكانِ؛ فـإنَّ اللهَ جاعِلٌ لـه فَرَجًا، ومَخْرَجًا.

وفِيها: وَعيدُ تارِكِي الهِجرةِ القادرينَ، بالنَّارِ يومَ القِيامةِ.

وفِيهـا: إعانةُ المُجاهِدينَ برَفْعِ الحَرَجِ عنهُم، بإخراجِ إخوانِهِم مِنْ بَيْنِ الكفَّارِ؛ حتَّى لا يكـونَ في ذلـكَ حَرَجٌ عليهِم إذا أغـارُوا، ولا يَحتاجُوا إلى احتِياطاتٍ شـاقَّة، وتَوَقٍّ مُكْلِفٍ؛

وحتَّى لا يكونَ عليهِم تَثرِيبٌ مِنَ الكفَّارِ، وتَعييرٌ، إذا قُتِلَ بعضُ المسلِمينَ بأيدِي إخوانِهم، وهُم لا يَعلمُونَ.

وفِيها: إبعادُ النَّفسِ، والأهلِ، عنِ المَضَرَّةِ.

وفِيها: أنَّ كِتمانَ الإسلامِ حالُ اضطِرارٍ، لا اختِيارٍ، والأصلُ: أنْ يَعتَزَّ المسلمُ بدِينِهِ، ويَجْهَرَ بِهِ.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ مِنْ مُراعاةِ مصلحَةِ الدِّينِ -أوَّلًا- في اختِيارِ مكانِ الإقامَةِ.

وفِيها: تَقديمُ محبَّةِ اللهِ، ورسولِهِ، على محبَّةِ الأهلِ، والأرضِ، والوطنِ.

وفِيها: أنَّ الحِرصَ على المالِ، والمصلَحَةِ الدُّنيويَّةِ، يُفْضِي إلى المعصيةِ، وتَرْكِ ما أوجَبَهُ اللهُ.

وفِيها: النَّجاةُ مِنَ الذُّلِّ، والهَوانِ.

وفِيها: سُوءُ خاتِمَةِ تارِكِ الهجرةِ، وهو قادِرٌ عليها، **وفِي حُكمِهِ تفصِيلٌ**:

فمَنْ لَحِقَ بدارِ الكُفرِ مُختارًا، مُحارِبًا للمسلمينَ، فهو مُرتَدٌّ، حلالُ الدَّمِ، والمالِ.

ومَنْ بَقِيَ فيها مُكْرَهًا، لا يُحارِبُ المسلمينَ، ولا يُعِينُ عليهِم، فلا شيءَ عليهِ، فإنْ حارَبَ المسلمينَ فهُوَ كافِرٌ(١).

ومَنِ اختارَ البقاءَ في دِيارِ الكُفرِ، مَعَ قُدرَتِهِ على الهِجرَةِ، وأخفَى إسلامَه، فهُو عاصٍ، ظالِمٌ لنفسِهِ، وفي كُفْرِه خِلافٌ.

ولَمْ يَذكُرْ علماءُ الإسلامِ أمثالَ هؤلاءِ في عِدادِ الصَّحابَةِ(٢).

فأمَّا المُرتَدُّ مِنْ هؤلاءِ -إذا ماتَ على ذلك-: فهو خالِدٌ في النَّارِ، لا يَخْرُجُ مِنْها، وأمَّا العاصِي مِنْ هَذِهِ الأقسامِ: فهُوَ مُتوعَّدٌ بالنَّارِ، دونَ الخُلُودِ فيها.

(١) قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أجمعَ عُلماءُ الإسلامِ على أنّ مَن ظاهرَ الكفارَ علىَ المُسلمِين، وساعدَهُم عليهِم بأيِّ نوعٍ مِن المساعدةِ، فهُو كافرٌ مثلُهم». مجموع فتاوى ابن باز (١/ ٢٦٩).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّما أُضْربَ عَنْ ذِكْرِهِمْ في الصَّحابَةِ؛ لِشِدَّةِ ما واقَعُوهُ، وَلِعَدَمِ تَعَينُ أَحَدِهِمْ بِالإِيمانِ، واحْتِمالِ رِدَّتِهِ». تفسير القرطبي (٥/ ٣٤٦).

وفِيها: تَبشيرُ الملائكةِ للعُصاةِ بالعَذابِ عندَ الموتِ.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ ماتَ فَقَدِ استكمَلَ رِزقَهُ، وأجَلَهُ، وعَمَلَهُ، كما يُفيدُ ذلكَ قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ في الآيةِ[(١)].

وفِيها: أنَّ إظهارَ الكُفرِ، والاستِخفاءَ، جائزٌ تَقيّةً، إنْ لَمْ يكنْ للإسلامِ دولةٌ، ولَمْ تُمكن الهِجرةُ[(٢)].

وفِيها: أنَّه يَحرُمُ على المسلمِ أنْ يقاتِلَ مَعَ جيشِ الكفَّارِ، ولو كانَ مِنْ أبنائِهم، وبَني جِلدَتِهم.

وفِيها: أنَّ للملائِكةِ أجسامًا، وأنَّها تَقبِضُ، وتَتكلَّمُ، وتُخاطَبُ، كما أنَّها تَصْعَدُ، وتَنْزِلُ، وتَكتُبُ، وتَسُوقُ، خِلافًا لمَنْ قالَ: إنَّ الملائِكةَ هي قُوَى الخَيرِ، والشَّياطِين هي قُوَى الشَّرِّ.

وفِيها: أنَّ النَّارَ مُظْلِمَةٌ، وقد سمَّاها في الآيةِ: ﴿جَهَنَّمُ﴾ مأخوذةٌ مِنَ الجُهْمَةِ، وهي الظُّلْمَةُ[(٣)].

وفِيها: إطلاقُ لفظِ الأرضِ بمُرادٍ خاصٍّ، وبمُرادٍ عامٍّ، فأمَّا قولُه: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالمقصودُ بها مكَّةُ، وأمَّا قولُه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ فالمقصودُ الأرضُ كلُّها، والهجرةُ مِنْ دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ باقيةٌ إلى قيامِ السَّاعةِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجوبَ الهجرةِ، وتَوعَّدَ الذينَ لَمْ يُهاجِرُوا، ذَكَرَ حُكمَ العاجِزينَ عَنْها، واستَثْنَى مِنَ الوعيدِ المستضعَفِينَ الذينَ لا يَقدِرُونَ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

---

(١) وبيانُ ذلك أن يُقال: إن الملائكةَ لا تَأتي لِقبضِ أرواحِهم، حتى يَستكمِلوا آجالَهم وأرزاقَهم، وأعمالَهم، حينئذٍ يتوفّونَهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، قال ابنُ زيد وغيرُه: «(أُولَئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الكِتابِ): مِنَ الأعمالِ، والأرزاقِ، والأعمارِ، فإذا فَنِيَ هذا جاءَتْهُم رسلُنا يتوفّونهم، وقد فرغوا مِن هذِه الأشياءِ كلِّها» ورجّحه الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١٢/ ٤١٤).

(٢) كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، قال الطبري: «إلا أنْ تكُونوا في سُلطانِهم، فتخافوهُم على أنفسِكم، فتُظهِروا لهمُ الولايةَ بألسنتِكم، وتُضمروا لهم العداوةَ، ولا تُشايعوهُم على ما هُم عليه مِن الكفرِ، ولا تُعينوهُم على مُسلم بِفِعلٍ». تفسير الطبري (٦/ ٣١٣).

(٣) هذا على قول، والمشهورُ: أنها سُميت جهنّم؛ لبُعد قعرِها، مِن قولهِم: «رَكِيّة جَهَنَّام» أي: بعيدة القعر. انظر: النهاية (١/ ٣٢٣)، البحر المحيط (٢/ ٣١٧)، زاد المسير (١/ ١٧٢).

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ حقيقةً؛ لعَجْزِهم عنِ الخروجِ مِنْ مكَّةَ، وصِدقِ انطباقِ لفظِ الاستِضعافِ عليهِم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ العَجَزَةِ، ومِنْهم الذينَ دَعا لَهُم النبيُّ ﷺ بقولِهِ: «**اللهمَّ أَنْجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهمَّ أَنْجِ سَلَمةَ بنَ هِشامٍ، اللهمَّ أَنْجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهمَّ أَنْجِ المُستضعَفِينَ مِنَ المؤمنينَ**»(١).

﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ كأمِّ الفضلِ لبابةَ، أمِّ عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ كعبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ، وقد قالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كُنْتُ أَنا وَأُمِّي مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ: أَنا مِنَ الوِلْدانِ، وَأُمِّي مِنَ النِّساءِ»(٢).

والرِّجالُ: جَمْعُ رجلٍ، وهو الذَّكَرُ البالِغُ، والنِّساءُ: جَمْعُ امرَأَةٍ -على غيْرِ اللَّفْظِ- وهي الأنثَى البالِغةُ، والوِلدانُ: غيرُ البالِغينَ مِنَ الذُّكورِ، والإناثِ. ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ قال عِكرِمةُ: «نُهوضًا إلى المدينةِ»(٣)، ولا يَقدِرونَ على الخُرُوجِ لمَرَضٍ، أو قَهْرِ عدوٍّ، أو عدمِ نفقةٍ، ونحوِ ذلكَ. والحيلةُ مِنَ الحَوْلِ، وهو القُدرةُ، والطَّاقةُ. ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ قال عِكرِمةُ ومجاهِد: «طَريقًا إلى المدينةِ»(٤). فلا يَعرِفونَ الطَّريقَ، ولا يجِدونَ مَنْ يَدلُّهُم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العاجِزونَ المُستضعَفونَ ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وعَسَى مِنَ اللهِ واجبةٌ، ووعدُهُ بها مُتحقِّقٌ، بمقتَضَى مَنِّهِ، وكَرَمِهِ(٥). ﴿أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ ويتجاوزَ، فلا يُؤاخِذُهُم ببقائِهِم في دارِ الكُفرِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾ كثيرَ العَفوِ، والمَحْوِ للذُّنوبِ ﴿غَفُورٗا﴾ كثيرَ الغَفرِ، والسَّترِ، فلا يفضَحُ مَنْ غَفَرَ له يومَ القيامةِ.

وفي الآيتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيانُ عُذرِ المَعذُورِ.

وفيهما: أنَّ الواجبَ يَسقُطُ مَعَ التَّعذُّرِ.

---

(١) رواه البخاريّ (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٧).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ١١١).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ١١١).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/ ٧٣١): «عَسَى مِنَ اللهِ واجِبَةٌ، وَمِنَ البَشَرِ مُتَوَقَّعَةٌ مَرْجُوَّةٌ».

وفيهما: رحمةُ اللهِ بالعاجزِ.

وفيهما: ذِكرُ الوِلدانِ، مَعَ عدمِ تكليفِهِم شَرعًا؛ قَصْدَ المُبالغةِ في شـأنِ الهِجرةِ، وإذا كانَ هذا شأنَ غيرِ المُكلَّفِ، فكيفَ بالمُكلَّفِ القادِرِ على الهِجرَةِ؟

وفيهما: أنَّ مَنْ وَجَدَ حِيلةً للهَرَبِ مِنَ الكفَّارِ، والهجرةِ مِنْ دارِهِم، فَعَلَيه أنْ يَفعلَ ذلك، والاحتيالُ يكونُ في الخيرِ، والشَّرِّ، وسُمِّي المُحتالُ بذلكَ؛ لأنَّه يَتَحوَّلُ مِنْ حالٍ إلى أخرَى، دونَ أن يَشعُرَ به الغَيْرُ.

وفيهما: أنَّ ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا بِهِ، فهو واجبٌ.

وفيهما: أنَّ اسـتضعافَ الرِّجالِ يكونُ بالعِلَلِ، واستضعافَ النِّساءِ، والوِلدانِ، يكفي فيه الضَعْفُ المُلازِمُ لَهُم.

وفيهما: أنَّ العاجِزَ عنِ المأمورِ مَعذورٌ، إذا بذَلَ جُهدَه، وانسَدَّتْ عليهِ الأبوابُ.

وفيهما: سُقوطِ الوعيدِ بسبَبِ العَجْزِ.

وفيهـما: أنَّ العِباداتِ التي تَحتاجُ إلى سَـفَرٍ، لا تَجِبُ إذا عُدِمتْ القُدرةُ على السَّـفرِ؛ لِغلبَةِ عَدوٍ، أو جهلِ طريقٍ، أو عدمِ نفقةٍ، ونحوِ ذلك.

وفيهما: العذرُ بالإكراهِ؛ وذلكَ بِمنْعِ الكفَّارِ بعضَ المسلمينَ مِنَ الهجرةِ بالقوَّةِ.

وفيهما: أنَّ القائمينَ على الأولادِ الصِّغارِ، يَجِبُ عليهِم أنْ يُهاجِرُوا بِهِم -إذا استَطاعُوا-.

وفي: ذِكْـرِ ﴿عَسَى﴾ قَبْل العفوِ، والمغفرةِ، إشـارةٌ إلى أنَّ بعضَ النَّـاسِ، قد يقومُ بالعملِ الصَّالِحِ، دونَ الوجهِ المطلوبِ اللائِقِ، ولا يُوفِّيهِ حقَّ تَوفِيَتِه.

وفي الآيتَيْنِ: أنَّ تَوَفُّرَ دليلٍ في طريقِ الحَجِّ، والعمرةِ، مِنْ شروطِ الاستِطاعةِ، في حقِّ مَنْ لا يَعرِفُ الطَّريقَ.

ولَمَّـا كانتِ الهجرةُ ثقيلةً عـلى النَّفسِ، وفِيها مُفارقةُ الوَطنِ، والمألوفِ، وفِيها مصاعبُ، ومَشـاقٌّ، قد يُهوِّلُها الشَّـيطانُ، فإنَّـه عَزَّوَجَلَّ رغَّبَ فيها، وحثَّ عليها، وذَكَـرَ فائدتَها في الدُّنيا، والآخرةِ، فقالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾ في الأرضِ، ويرتَحلْ عن بلدِ المشركينَ إلى بلدِ المسلمينَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيلِ طاعتِهِ، وطلبِ مَرضاتِهِ ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: التي هاجرَ إليها ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: أمنًا، وملجأً، يَتحصَّنُ فيه، ويُرغِمُ به أنُوفَ أعدائِهِ، والرَّغامُ: هو التُّرابُ. ﴿وَسَعَةً﴾ أي: في الرِّزقِ، وغِنًى، وفضلًا مِنَ اللهِ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ في دارِ الكُفرِ ﴿مُهَاجِرًا﴾ تاركًا، ومتحوِّلًا ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ طاعةً لهما ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ أثناءَ الطَّريقِ، قَبْلَ أنْ يَصِلَ مَقصدَهُ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ وثبَتَ، وكُتِبَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ عندَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوجَبَهُ على نفسِهِ تفضُّلًا مِنْه، وكَرَمًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما حصَلَ مِنَ التَّقصيرِ في الخُروجِ ﴿رَّحِيمًا﴾ بإكمالِ أجرِ الهجرةِ لصاحِبِها، وتَتْميمِها.

سَببُ النُّزولِ:

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَرَجَ ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا، فَقالَ لِأَهْلِهِ: احْمِلُوني، فَأَخْرِجُوني مِنْ أَرْضِ المُشْرِكِينَ، إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَماتَ في الطَّريقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَ الوَحْيُ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ الآية»(١).

وعنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «هاجَرَ خالِدُ بْنُ حِزامٍ إلى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَنَهشَتْهُ حَيَّةٌ في الطَّريقِ، فَماتَ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ الآية»(٢).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ مَنْ تَرَكَ شيئًا للهِ عوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنْهُ.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١٧٠٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢٦٧٩)، وقال الهيثميّ في المجمع (٧/ ١٠): «رجالُه ثقاتٌ» وله طرق.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ١٠٥٠)، وأبو نعيم في المعرفة (٢٤٦٥)، وقال الألباني: «إسناده حسن، رجاله ثقات، ولا تعارض بين هذا الحديث، وحديث ابن عباس؛ لأنه من الممكن أن تتعدد أسباب النزول» انتهى باختصار من الصحيحة (٧/ ٦٦٧).

وفِيها: أنَّ للحَسَناتِ ثوابًا مُعجَّلًا في الدُّنيا.

وفِيها: الجَمْعُ للمُهاجِرِ بَيْن الأمنِ، وسَعَةِ الرِّزقِ.

وفِيها: إغاظَةُ المشركينَ بالهجرةِ، وندمُهُم، إذا رَأَوْا مَنْ خَرَجَ مِن بَيْنِ أظهُرِهِم، وقد صارَ له شأنٌ، وعَيْشٌ حَسَنٌ.

وفِيها: حِمايةُ اللهِ لأولِيائِه، وإغناؤُهُم مِنْ فضلِه.

وفِيها: أنَّ العبدَ يُدرِكُ أجرَهُ كامِلًا، إذا صَدَقتْ نيَّتُه، ولَوْ لَمْ يكتَمِلْ عملُهُ، وأنَّ المَوتَ لا يُنقِصُ ثوابَ العملِ الصَّالِحِ، الذي قُبِضَ عليه صاحِبُهُ.

وفِيها: أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، وأنَّ لكُلِّ امرئٍ ما نَوَى.

وفِيها: أنَّ ثوابَ السَّفرِ الصَّالِحِ يَثبُتُ لصاحِبِهِ، حتى لو كانَ في غَيرِ الهجرةِ، كسفرِ الحَجِّ، والعمرَةِ، والجهادِ، وسفَرِ التَّوبةِ، كما في حديثِ قاتِلِ المائةِ[1].

وفِيها: تَنشيطُ المُستضعَفينَ، والمُحْبَطِينَ.

وفِيها: مُعالجَةُ قعودِ الشَّيطانِ للعبدِ في طريقِ الهجرةِ، وصدِّه عنها، وتهويلِهِ لمصاعِبِها.

وفِيها: أنَّ بعدَ العُسرِ يُسرًا.

وفِيها: أنَّ اللهَ إذا ضَمِنَ شيئًا، فإنَّه لا يَضِيعُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عَمِلَ لمرضاةِ اللهِ، أفلَحَ في الدُّنيا، والآخرةِ.

وفِيها: أنَّ فِعلَ الشَّرطِ إذا حَصَلَ مِنَ العبدِ، تَحقَّقَ له مِنَ اللهِ جوابُ الشَّرطِ.

وفي قوله: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سيَجتَمِعُ للنبيِّ ﷺ مِنْ أصحابِهِ الكثيرونَ في دارِ الهجرةِ، وسيكونُ مِنْ وراءِ ذلكَ عِزٌّ، ومَنَعَةٌ.

وفِيها: صعوبةُ أنْ يترُكَ الإنسانُ بيتَهُ، ويَهجُرَهُ، ولكنْ مَنْ فَعَلَ ذلكَ للهِ، هوَّنَهُ عليهِ، وسهَّلَه، وعوَّضَهُ أفضلَ مِنْهُ.

---

(١) لأنّ هؤلاءِ وأمثالَهم خَرجوا في سبيلِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ الموتَ يَلحَقُ الإنسانَ فيدرِكُهُ، وينزِلُ بِهِ.

وفِيها: أنَّ الأجرَ مِنَ اللهِ فقط؛ فإنَّه لمَّا قالَ: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال بَعْدَها: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولَمْ يَقُلْ: على اللهِ، ورسولِهِ.

وفِيها: أنَّ فضلَ اللهِ على العبدِ أكثرُ مِنْ عَمَلِ العبدِ، ولمَّا بَذَلَ العبدُ عَمَلًا واحِدًا، وهو الهجرةُ، جعلَ اللهُ له في الدُّنيا ثوابَيْنِ، وليسَ واحِدًا، وهما المُراغَمُ، والسَّعَةُ، فضلًا عن ثوابِ الآخرةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ تَحَمَّلَ الذُّلَّ، وغُربَةَ السَّفرِ، ووحشَةَ الطَّريقِ، في سبيلِ اللهِ، عَوَّضَهُ اللهُ بالعِزِّ، والقوَّةِ والمَنَعةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ شَرَعَ في عملٍ صالحٍ، ثُمَّ أدركَهُ الموتُ، يُكتَبُ له ما نَوَى، فلو كانَ خارِجًا للصَّلاةِ، فماتَ في الطَّريقِ، أو ذاهبًا لطلبِ العلمِ، فأدرَكَهُ الموتُ، تَمَّ له أجرُ صلاتِهِ، وطلبِهِ.

وفِيها: فضلُ تركِ ما يَملِكُه الإنسانُ، والتَّخلِّي عنه، للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: مأخذٌ لبعضِ أهلِ العِلمِ، الذينَ قالوا: إنَّ مَنْ خَرَجَ للجهادِ في سبيلِ اللهِ، فماتَ في الطَّريقِ، يُعطَى نصيبُهُ مِنَ الغَنيمةِ، قياسًا على الأجرِ.

وفِيها: تَرْكُ البيتِ، والبلدِ؛ فرارًا من بيئةِ المعصيةِ جِهارًا، إلى أماكنِ الطَّاعةِ للهِ، ورسولِهِ.

وفِيها: حثُّ المسلمينَ على مُفارقةِ المشركِينَ.

وفِيها: أنَّ البدائِلَ في أماكنِ الهجرةِ كثيرةٌ؛ لقولِهِ: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾.

وفي: تَنكيرِ لفظةِ ﴿وَسَعَةً﴾ في الآيةِ دليلٌ على عُمُومِها، أي: سيَجِدُ سَعَةً في العَيْشِ، والمَسكنِ، وسَعَةً، ورحابَةَ صدرٍ، عند مَنْ يهاجِرُ إليهم، وسَعَةً في إظهارِ الدِّينِ، وفي مجالاتِ البَذْلِ، والعَطاءِ للإسلامِ، وغيرِ ذلك.

وتقتضِي الآيةُ: لُزومَ الهجرةِ، ولو ببذلِ مالٍ، أو التَّنازلِ عنه للكفَّارِ، كما فَعَلَ صُهَيْبٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٧٠٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في التعليق على فقه السيرة (ص١٦٧).

وفِيهـا: اشـتمالُ الهجرةِ على مصالِحَ كثـيرةٍ، خلافًا لِما يوهِمهُ ويُضخِّمُه الشَّـيطانُ في نفسِ المهاجِرِ مِنَ المفاسِدِ.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ هاجَرَ فسـاءَتْ حالُه، فإنَّ ذلك قد يكونُ مِنْ فسـادِ نيَّتِهِ؛ لأنَّ وعدَ اللهِ لا يتخلَّفُ، فيجِبُ تصحيحُ النيَّةِ، وأنْ لا يُهاجرَ للنُّزهَةِ، أو لتحصِيلِ نفْعٍ دنيَويٍّ، ونحوِ ذلكَ.

وفِيهـا: مـا نَقَلَه القرطُبيُّ عن الإمامِ مالـكٍ أنَّه قال: «هذه الآيةُ دالّـةٌ على أنَّه ليسَ لأحدٍ المُقامُ بأرضٍ يُسَبُّ فيها السَّلفُ، ويُعمَلُ فيها بغيرِ الحقِّ»[(١)].

ومِـنَ القواعِـدِ: أنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نَهْيٌ عن ضِـدِّهِ، فيؤخَذُ مِنْها: تحريـمُ الانتقالِ مِنْ بلادِ الإسلامِ، والطَّاعةِ، إلى بلادِ الكُفرِ، والمعصيةِ[(٢)].

ولَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَـفَرَ الجهادِ، والهجرةِ، أتبَعَ ذلكَ ببيانِ حُكمِ الصَّلاةِ في السَّـفرِ. ولَمَّا كانتِ الأسـفارُ لا تَخْلُو مِنَ المَشـاقِّ، ذَكَـرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تخفيفَه على عبادِهِ بقَـصْرِ الصَّلاةِ فيها، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُم فيها للغزوِ، أو التِّجارةِ، أو غيرِهما، ويُطلَقُ على السَّفرِ ضربٌ في الأرضِ؛ لأنَّ المسـافِرَ يَـضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلَيْـهِ وَعَصـاهُ، أَوْ بِقَوائِـمِ راحِلَتِهِ، كَما يُقالُ: طَرَقَ الأَرْضَ: إذا مَرَّ بِها، كَأَنَّهُ ضَرَبَها بِالمِطْرَقَةِ، وَمِنْهُ: الطَّرِيقُ، أَيْ: السَّبِيلُ المَطْرُوقُ.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: لا إثـمَ، ولا حَـرَجَ ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ القَـصْرُ: ضـدُّ المَدِّ، ويُقالُ: قَصَرْتُ الشَّيءَ، أي: جعلتُهُ قَصِيرًا، والمعنَى: أنْ تُصَلُّوا الرباعيَّةَ ركعتَيْنِ، وهي صلاةُ الظُّهرِ، والعَصْرِ، والعِشاءِ. ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وخَشِيتُم ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يَتعرَّضُوا لكم بما تكرَهُونَه مِنْ قِتالٍ، وغيرِه، يَصدُّونكم به عن دِينِكُم.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٤٨).

(٢) هذا هو الأصلُ، وقد يتخلّفُ الحُكمُ بِه في بعضِ الأحْوالِ؛ للحاجةِ، أوِ الضرورةِ.

وهذه الجملةُ -وإنْ كانتْ شَرطيَّةً- فإنَّ الخوفَ ليسَ شَرطًا لِقَصْرِ الصَّلاةِ، وإنَّما خَرَجَ مَخرَجَ الغالِبِ حينَ نُزولِ الآيةِ، فإنَّ أسفارَ المؤمنينَ بَعدَ الهجرةِ، كانَت في الغالِبِ مخوفةً، وقد تقرَّرَ بالسُّنةِ النبويَّةِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَرَ في حالِ الأمنِ؛ فعَن حارثةَ بنِ وهبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**صَلَّى بِنا النَّبِيُّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **-آمَنَ ما كانَ- بِمِنًى رَكْعَتَيْنِ**»(١)، والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ.

وَعَنْ يَعْلَى بنِ أُمَيَّةَ، قال: سألتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ، قلت: ﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا**﴾، فقد أمِنَ النَّاسُ؟ فقال لي عمرُ: عَجِبتُ ممَّا عَجِبتَ مِنْه، فسألتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلكَ، فقال: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عليكُم، فاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**»(٢).

﴿**إِنَّ الْكَٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ أي: أصحابَ عداوةٍ ظاهرةٍ، وكراهيةٍ شديدةٍ للمؤمنينَ، وهذا التعليلُ لتأكيدِ أخذِ الحَذَرِ، والتَّحرُّزِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

إباحةُ قَصْرِ الصَّلاةِ في كلِّ سَفَرٍ، وخصَّه بعضُ العلماءِ بأسفارِ الطَّاعةِ، وأضافَ بعضُهُم السَّفَرَ المباحَ، وقال بعضُهم: في كلِّ سَفَرٍ، حتى سَفَرَ المعصيةِ، واستثنَى جمهورُ العلماءِ سَفَرَ المعصيةِ مِنَ الرُّخصَةِ، وقالُوا: كيفَ يَقْصُرُ، ويَترَخَّصُ برُخصةِ اللهِ، مَنْ يُسافِرُ في معصِيتِهِ؟

وفي الآيةِ: أنَّ ما خَرَجَ مَخرَجَ الغالِبِ على حادثةٍ معينةٍ، فإنَّه لا مفهومَ له، أي: ليسَ الخوفُ شَرْطًا للقَصْرِ في السَّفرِ، وقد تواتَرَتِ السُّنةُ النبويَّةُ بالقَصْرِ في حالِ الأمنِ أيضًا.

وفي الآيةِ: قَبُولُ رُخَصِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ صدقاتِ ربِّ العالمينَ علينا لا تُردُّ.

وفِيها: أنَّ الكفَّارَ لا يزالونَ يَسْعَوْنَ في إنزالِ الأذَى بالمؤمنينَ، وصدِّهم عنْ دِينِهِم.

وفِيها: إقامةُ الصَّلاةِ على اطمئنانٍ، ما أمْكَنَ.

---

(١) رواه البخاري (١٠٨٣)، ومسلم (٦٩٦).

(٢) رواه مسلم (٦٨٦).

وفِيهـا: أنَّ قَصْرَ الصَّلاةِ في السَّـفرِ جائزٌ، وهذا بإجماعِ الأمَّـةِ، واختَلَفُوا في جوازِ الإتمامِ، فذهـبَ بعضُهُـم إلى أنَّ القَـصْرَ واجبٌ، وقال الجمهـورُ: إنَّ القَصْرَ مُسـتحَبٌّ، وهذا ظاهرُ الآيـةِ؛ لقولِـهِ في مطلَعِهـا: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ وهذا يُسـتَعمَلُ في الرُّخَـصِ لا فيما يكونُ حَتْمًا، كما قالَ البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وفِيها: أنّ إزالةَ الحَرَجِ عنْ قَصْرِ الصَّلاةِ في السَّـفرِ، وملازمةَ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لذلكَ في جميعِ أسـفارِه، يـدلُّ على أنَّه أفضـلُ، واللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يُحِبُّ أنْ تُؤتَى رُخَصُهُ، كـما يُحِبُّ أنْ تُؤتَى عَزائِمُهُ.

وفي الآيـةِ: أنَّ لفظـةَ ﴿مِنَ﴾ تفيـدُ التَّبعيضَ؛ ليُعلَـمَ بذلكَ أنَّ القَصْرَ لبعـضِ الصَّلواتِ المفروضاتِ، لا لجَمِيعِها، فلا تُقصَرُ الصُّبحُ؛ حتى لا تَصِيرَ ركعةً واحدِةً، ولا تُقصَرُ المغربُ؛ لِئلا تَصِيرَ شَفعًا؛ فإنها وِترُ النَّهارِ.

وفي الآيةِ: أنَّ القصرَ في الصَّلاةِ عندَ الضَّربِ في الأرضِ، وهو السَّفَرُ، وهذا يَشْمَلُ السَّفرَ في البَحْرِ والجوِّ أيضًا.

وفِيها: أنَّ المشقَّةَ، والخَوفَ، مناسِبٌ للرُّخصَةِ.

وفِيها: أنَّ الصَّلاةَ لا تُترَكُ أبدًا، مهما كانَ الحالُ.

وفِيهـا: أنَّ عـداوةَ الكفَّارِ للمؤمنـينَ ظاهِرةٌ، وليسَـتْ بِخفيَّةٍ، فمتى قَـدَرُوا على أذيَّتِهم فَعَلُوا.

وفي الآيةِ: دليلٌ على تأكيدِ صلاةِ الجماعةِ.

وفِيهـا: دليلٌ على قَصْرِ الصَّلاةِ في كلِّ سَـفَرٍ، مهما كانتْ مسـافَتُهُ، فـما دامَ يُطلَقُ عليه أنَّه سَـفَرٌ، فيجـوزُ فيـهِ القَصْرُ، وقد اختلـفَ العلماءُ في أقلِّـهِ، فقال بعضُهُم: مَسـيرة يومٍ، وقال بعضُهُم مسـيرة أربعةِ بُرُدٍ، وهي سـتَّة عشرَ فرسَـخًا، وتقدِيرُها بالمقايِيـسِ الحاليَّةِ بنحوٍ مِنْ ثمانِينَ كيلو مترًا، ويُرجَعُ إلى التَّحديدِ إذا اضطَرَبَ العُرْفُ.

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٧٥).

وفَهِمَ بعضُ العلماءِ: أنَّ القَصْرَ قَصرانِ: قَصْرُ عَدَدٍ، وقَصْرُ صفةٍ، فقَصْرُ العَدَدِ معروفٌ، وقَصْرُ الصِّفَةِ: أن يُخفِّفَ في هَيئتِها، وكيفِيَّتِها، وقَصْرُ العَددِ لا يُشترطُ فيهِ الخَوفُ، وأمَّا قَصْرُ الصِّفةِ: فيُشترطُ فيهِ الخَوفُ. فالقَصرُ -إذَنْ- يكونُ مِنْ عددِ الرَّكعاتِ، ويكونُ مِنْ هيئاتِ الصَّلاةِ، كما دلَّ عليه قولُهُ: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وفِيها: أنَّ السُّنَّةَ الفِعْليَّةَ تُبيِّنُ القرآنَ، وتُفصِّلُ مُجمَلَهُ، فقد بيَّنَتْ كيفَ يكونُ القَصْرُ، وفي أيِّ صَلَواتٍ يكونُ، وأنَّ الخَوفَ ليسَ بشرطٍ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بما يُبْدِيه الكفَّارُ مِنَ المُوالاةِ.

وفِيها: عدمُ إعطاءِ الفُرصةِ للكفَّارِ للمفاجأةِ، والانقِضاضِ، وعدمُ تطويلِ العبادةِ؛ مُراعاةً لذلكَ.

وفِيها: أنَّه إذا زالَ السَّفرُ، والخَوفُ، فإنَّ الصَّلاةَ تُقامُ على أكملِ الهيئاتِ، وأتمِّها، عَدَدًا، وكيفيَّةً.

وفِيها: أنَّ اسمَ الفاعِلِ أبلغُ في الدّلالةِ على المعنَى، والتَّشبُّعِ مِنْه، والعَراقَةِ فيهِ، مِنْ إضافَةِ الفِعْلِ إلى الاسمِ الموصولِ، فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشدُّ في بيانِ الكُفرِ مِنْ: (إنَّ الذينَ كفرُوا).

وفِيها: أنَّ عداوةَ الكفَّارِ للمسلمينَ تؤدِّي إلى قِتالِهم.

ومِنْ فوائدِ الآيةِ: بيانُ عِظَمِ قَدْرِ الصّلاةِ، ولَوْ جازَ إسقاطُها في حالٍ، لكانَ الحالُ المذكورُ في الآيةِ أَوْلَى الأحوالِ بأنْ تَسقُطَ فيها؛ إذ إنَّ الكفَّارَ يَتربَّصونَ بالمسلمينَ، فقد يُغِيرونَ عليهِم حالَ الصَّلاةِ، ولِذلكَ أمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأخذِ الحَذَرِ مِنْ الكفَّارِ أثناءَ الصَّلاةِ؛ لِئَلا يَجِدُوا فرصةً، فيأخُذوا المسلمينَ على حينِ غِرَّةٍ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾.

﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكُلّ أميرٍ للجيشِ مِنْ بَعدِه ﴿فِيهِمْ﴾ في أصحابِكَ، وجماعةِ المؤمنينَ، شُهودًا تخافونَ العَدُوَّ ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أردتَ أنْ تُقيمَ بهم الصَّلاةَ جماعةً، إمامًا لهم ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ فاجعلْهم طائفتَيْنِ، ولتَقِفِ الطَّائفةُ الأولَى وراءَكَ؛ لِيُصلُّوا ﴿مَّعَكَ﴾ الرَّكعةَ الأولَى، وتَكونُ الطَّائفةُ الأُخرى بإزاءِ العدوِّ؛ ليَحرسوا إخوانَهُم. وهذه الكيفيَّةُ فيما إذا كانَ العَدوُّ في غيرِ جهةِ القِبلَةِ ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ يَحمِلُوها احتياطًا، وإرهابًا للعَدوِّ، ولاستِعمالِها عندَ الحاجَةِ ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: الطَّائفةُ الأولَى القائمةُ معكَ، إذا أتمُّوا ركعتَهُم بسَجْدَتَيْها -وقيل: إذا أكمَلُوا صلاتَهُم- فارِقُوكَ، وتقومُ أنتَ مُنتظِرًا. ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ ويأخُذُوا مواقِعَ الطَّائفةِ التي كانتْ تَحرُسُ، ويقومُوا مكانَهُم مُقابِلَ العَدوِّ ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ وهي الطَّائفةُ التي كانَتْ تَحرُسُ ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾ أي: ركعتَهُم الأولَى ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ في ركعَتِكَ الثانيةِ، ثُمَّ تجلِسُ أنت مُنتظِرًا لَهُم؛ لِتُسلِّم بِهِم ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾ احتياطَهم، وانتِباهَهُم، ويَقظَتَهُم ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: مَعَهُم في الصَّلاةِ، مِمَّا يُمكِنُ حَملُهُ فيها ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تمنَّى أعداؤُكم ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ تَنْشغِلونَ ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ التي تقاتِلُونَهم بها ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ ما تَحتاجُونَهُ في السَّفرِ، والقِتالِ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يَحمِلُونَ عليكُم، ويَهجمُونَ، وأنتم مشغُولونَ بالصَّلاةِ، فيُصيبونَ مِنْكم مَقتَلَةً. والمَيْلُ: هو العُدُولُ عنِ الوَسَطِ إلى الطَّرَفِ، والمُرادُ هنا: عَنْ معسكَرِهم إلى جيشِكُم. ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا حَرَجَ، ولا إثمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ، والمجاهِدونَ ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ لأنَّه يَبلُّ الثِّيابَ، والسِّلاحَ ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ فيَثقُلُ عليكُم الحَمْلُ ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ وتَترُكُوا حَملَها في هذه الحالةِ للعُذرِ ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ احترسوا مِنْ عدوِّكم، أن يميلوا عليكم، وأنْتم عنهُم غافلُونَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ وهيَّأ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ شديدًا، يُهانونَ بِهِ، ويُذَلُّونَ.

سَببُ النُّزولِ:

عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كُنَّا مَعَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُسْفانَ، فاسْتَقْبَلَنا المُشْرِكُونَ، عَلَيْهِمْ خالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، وَهُمْ بَيْنَنا وَبَيْنَ القِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ، فَقالُوا: قَدْ كانُوا عَلَى حالٍ لَوْ أَصَبْنا غِرَّتَهُمْ، ثُمَّ قالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الآنَ صَلاةٌ، هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الآياتِ بَيْنَ الظُّهْرِ والعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فَحَضَرَتْ، فَأَمَرَهُمْ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخَذُوا السِّلاحَ، فَصَفَفْنا خَلْفَهُ صَفَّيْنِ، ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعْنا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، والآخَرُونَ قِيامٌ يَحْرسونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا وَقامُوا جَلَسَ الآخَرُونَ فَسَجَدُوا في مَكانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلاءِ إِلى مَصافِّ هَؤُلاءِ، وَجاءَ هَؤُلاءِ إِلى مَصافِّ هَؤُلاءِ، ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، والآخَرُونَ قِيامٌ يَحْرسونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسَ جَلَسَ الآخَرُونَ، فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

فَصَلَّاها رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِعُسْفانَ، وَمَرَّةً بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ»(١).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «صَلَّى رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الخَوْفِ بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ رَكْعَةً، والطَّائِفَةُ الأُخْرَى مُواجِهَةُ العَدُوِّ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَقامُوا في مَقامِ أَصْحابِهِمْ، مُقْبِلِينَ عَلَى العَدُوِّ، وَجاءَ أُولَئِكَ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَةً، ثُمَّ سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَضَى هَؤُلاءِ رَكْعَةً، وَهَؤُلاءِ رَكْعَةً»(٢).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ اللهَ يُعذِّبُ الكفَّارَ في الدُّنيا بأيدِي المؤمنينَ.

وفيها: ذِكرُ اللهِ على كُلِّ حالٍ.

---

(١) رواه أبو داود (١٢٣٦)، والإمام أحمد (١٦٥٨٠)، وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠١)، وجوّد الحافظ إسناده في الإصابة (٧/ ٢٤٥).

(٢) رواه البخاريّ (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩) -واللفظُ له-.

وفِيها: عدمُ تَركِ الصَّلاةِ، حتَّى في أشدِّ الأحوالِ.

وفِيها: وجوبُ صلاةِ الجماعةِ عندَ الإمكانِ، وأنَّ صلاةَ الجماعةِ في الحَضَرِ أوْلَى بالوُجوبِ.

وفيها: وُجوبُ صلاةِ الجَماعةِ علَى الأعيانِ؛ لقولِهِ: ﴿**فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ**﴾، وقَولِهِ: ﴿**وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ**﴾؛ لأنّها لَوْ كانتْ فرضَ كفايةٍ لاكْتُفِيَ بالطائفةِ الأُولَى، فلَمَّا أُمِرَت الطائفةُ الثانيةُ بالصلاةِ جَماعةً، دَلّ هذا علَى أنّها واجبةٌ علَى الأعْيانِ.

وفِيها: اهتِمامُ أميرِ الجَيشِ بإقامَةِ الصَّلاةِ.

وفِيها: الجَمْعُ بَيْنَ مصالِحِ العباداتِ، فراعَى هُنا مصلحةَ الصَّلاةِ، ومصلحةَ الجِهادِ.

وفِيها: حُسنُ التَّدبيرِ في تقسِيمِ الجَيشِ، وتوزِيعِهِ.

وفِيها: العَدْلُ بَيْنَ طائِفَتَيِ الجَيشِ في شَرَفِ العبادةِ، والجماعةِ، والائتِمامِ بالإمامِ.

وفِيها: الحَذَرُ مِنَ الكفَّارِ باستِمرارٍ.

وفِيها: أنَّ حَمْلَ السِّلاحِ في حالِ الخَطَرِ أوْلَى وأوجبُ مِنْ وَضعِهِ.

وفِيها: حِراسةُ المؤمنينَ لإخوانِهِم في الصَّلاةِ.

وفِيها: توزِيعُ شَرَفِ الحِراسةِ على الطَّائفَتَيْنِ.

وفِيها: أنَّ شَرَفَ التَّكبيرِ في افتتاحِ الصَّلاةِ إذا نالتْهُ الطَّائفةُ الأولَى وراءَ الإمامِ، فقد نالَتْ الطَّائفةُ الثانيةُ شَرَفَ اختتامِها بالتَّسلِيمِ وراءَهُ.

وفِيها: حِرصُ الكفَّارِ على اقتِناصِ الفُرصةِ؛ للنَّيْلِ مِنَ المسلمينَ.

وفِيها: التَّحذِيرُ مِنَ الغَفْلةِ عنِ السِّلاحِ.

وفِيها: الأخذُ بالأسبابِ في تجهيزِ المَتاعِ للجِهادِ، والسَّفَرِ.

وفِيها: خُطورةُ الانقِضاضِ، والمُباغتةِ، وعُنصُرِ المَفاجأةِ.

وفِيها: الإعدادُ لجميعِ الاحتِمالاتِ.

وفِيها: إغلاقُ الثّغراتِ التي يُمكِنُ أنْ يأتِيَ مِنْها العَدُوُّ.

وفِيها: تفويتُ الفُرصةِ على الكفَّارِ، والحَيْلولةُ بَيْنهم وبَيْن ما يَشتَهُونَ، ويَتَمَنَّوْنَ.

وفِيها: أنَّ المَطَرَ كما يكونُ مِنْه رَحمةٌ، كذلك قد يكونُ مِنْه أذًى.

وفِيها: رحمةُ اللهِ بالمؤمنينَ في حالِ المرضِ، والمشقَّةِ.

وفِيها: تخفيفُ ربِّ العالمينَ، وترخِيصُه لعبادِهِ في حالِ العُذرِ.

وفِيها: أنَّ وضعَ السِّلاحِ للعُذرِ، لا يُسقِطُ وجوبَ الحَذَرِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُهِينُ الكفَّارَ في الدُّنيا، بتسليطِ عبادِهِ عليهِم لجِهادِهِم، وفي الآخرةِ يُهينُهُم أشدَّ الهَوانِ بعذابِ النَّارِ.

وفِيها: ذِكْرُ نوعٍ مِنْ صلاةِ الخَوْفِ، وهي هيئاتٌ متعدِّدةٌ، تُناسِبُ اختلافَ الأحوالِ، يَختارُ مِنْها الإمامُ ما يُناسِبُ الظَّرفَ والوَضْعَ الذي عليهِ المسلمينَ.

وفِيها: مُرُونةُ الشَّريعةِ في أحكامِها، ومُلاءَمَتُها لجميعِ الأحوالِ، فحتَّى في حالِ الالتِحامِ، والمُسايَفَةِ، ودخولِ بعضِهِم في بعضٍ، تكونُ الصَّلاةُ بالإيماءِ، ولو إلى غيرِ القِبلَةِ، ولو مَعَ العَمَلِ الكثيرِ.

وفِيها: أنَّ الصَّلاةَ تَصِحُّ مع انشِغالِ الذِّهنِ في حالِ العُذرِ.

وفِيها: اغتِفارُ المَشْيِ، والحركةِ، وتبديلِ المواقِعِ، والفصلِ بَيْنَ الرَّكعَتَيْنِ بوقتٍ، في صلاةِ الخَوفِ.

وفي سببِ نزولِ الآيةِ:

معرفةُ الكفَّارِ بعباداتِ المسلمينَ، وسعيُهم للنَّيْلِ مِنْهم أثناءَ قيامِهِم بالعبادَةِ، ومعرفتُهم بمَنْزِلةِ صلاةِ العَصْرِ عندَهُم، وقد كانوا يُريدونَ الانقِضاضَ على المسلمينَ في صلاةِ الظُّهرِ، فلمَّا فاتَهُم ذلِك أجَّلُوه إلى صلاةِ العَصرِ، ففوَّتَ اللهُ على الكفَّارِ غَرَضَهم، ونَزَلَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بآيةِ صلاةِ الخَوفِ هذِهِ بَيْنَ الظُّهرِ، والعَصْرِ، وقد دلَّتِ الرِّواياتُ على أنَّها نَزَلَتْ

في غَـزْوَةِ ذاتِ الرِّقاعِ في عُسْـفانَ جِهةَ نَجْدٍ، وذلكَ بَعدَ غَـزوةِ الخَندقِ -في قَولِ البُخاريِّ، وغيرِه- وأنَّ أوَّلَ صلاةٍ صُلِّيَتْ فيها هِيَ صَلاة العَصْرِ.

وفي الآيـةِ: اجتـماعُ المسـلمينَ على إمامٍ واحِدٍ في صـلاةِ الخوفِ، مع ما في ذلـكَ مِنْ كَثْرَةِ الحركةِ؛ وذلكَ لأنَّه أوقَعُ للهَيْبَةِ في قلوبِ أعدائِهم.

وفِيهـا: بيانُ عَظَمةِ التَّشريعِ الإسـلامِيِّ أمـامَ الكفَّارِ، وعلى مَـرْأًى مِنْهم، وفي هذا دعوةٌ عظيمةٌ لهم بالأفعالِ مَعَ الأقوالِ.

وفِيهـا: التَّنبيـهُ للجَمْعِ بَيْنَ عُنـصُرَيِ: القُوَّةِ، والسُّرعـةِ، في القتالِ، كما يَـدلُّ عليه قولُه: ﴿مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

وفِيها: ذِكْرُ الخاصِّ بَعدَ العامِّ، وقد قدَّمَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أخذَ الحَذَرِ على أخذِ السِّلاحِ، والثانِي داخلٌ في الأوَّلِ، فإنَّ أخذَ السِّلاحِ نَوْعٌ مِنَ الحَذَرِ.

وفِيها: تَحريمُ تَرْكِ الفُرصةِ للكفَّارِ، لِمُباغَتَةِ المسلمينَ.

وفِيها: أنَّه لا وَهْنَ، ولا ضَعْفَ، أمامَ الأعداءِ.

وفِيها: العِنايةُ بقوَّةِ الظُّهورِ، وجودةِ المظْهَرِ، أمامَ العَدُوِّ في المعركةِ.

وفِيهـا: فضيلةُ الصَّلاةِ خَلْفِ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنَّ إمامةَ غيرِهِ -في تلكَ الحالِ- لَمْ تكُنْ لِتَقُومَ مَقامَ إمامَتِهِ.

وفِيها: التَّعبيرُ عن الصَّلاةِ بالسُّجودِ؛ لأنَّه أفضلُ أركانِها.

وفِيهـا: أنَّ عـلى الإمامِ أنْ يَختارَ مِـنْ كيفيَّاتِ صـلاةِ الخَوفِ، ما هو أبلـغُ في الاحتِياطِ، والحِراسةِ، والتَّحفُّظِ مِنَ العَدُوِّ.

وفِيها: أنَّ صلاةَ الخَوفِ صحيحةٌ، ولا يَجِبُ قضاؤُها في حالِ الأمنِ.

وفِيهـا: أنَّ عـلى المُصَـلِّي أنْ يأخُذَ بـما يزيدُ مِـنْ طُمَأنِينتِـهِ في الصَّلاةِ، ومِنْ ذلـك: حَمْلُهُ للسِّلاحِ فيها عِندَ الخَوفِ.

وفِيها: جوازُ القِتالِ للمُصلِّي.

وفِيهـا: زيادةُ الحَـذَرِ في الأوقاتِ الحَرِجةِ، كما يكـونُ وقتَ تبدِيلِ الفريقَـيْنِ لِمَواقِعِهما، وقد ذَكَرَ اللهُ السِّـلاحَ في أوَّلِ الآيةِ، والحَذَرَ، والسِّلاحَ، في آخِرِها؛ تَنبيهًا على استمرارِ أخذِ الحَذَرِ، وعدمِ الكَسَلِ عنه إلى نِهايةِ المَعرَكَةِ.

وفِيها: التَّثبيتُ النَّفسِيُّ والتَّطمِينُ القلبيُّ للمؤمنينَ، بأنَّ اللهَ قد كَتَبَ الهَوانَ على أعدائِهم، وفي هذا بِشارةٌ عظيمةٌ لهُم.

وفِيهـا: إقامةُ الصَّلاةِ: قولًا بالألفاظِ المعروفةِ، وفِعْلًا بإقامَةِ أركانِها، وواجِباتِها، وتَحقِيقِ شُرُوطِها.

وفِيهـا: تَعظيمُ العِنايـةِ بالمأمُورِ بِهِ، وقد تَكَـرَّرَت «لامُ» الأمرِ في هذه الآيةِ سـتَّ مرَّاتٍ؛ دَلالةً على منزلةِ أوامِرِ اللهِ، ومُراعاتِها.

وفِيها: مَسؤوليَّةُ الإمامِ عن المُصلِّينَ، وجوازُ انفِرادِ المأمُومينَ عَنِ الإمامِ للحاجَةِ، وهذا مِمَّـا خالفَـتْ فيهِ صـلاةُ الخَوفِ المألوفَ في الصَّـلاةِ، ومِنْ ذلكَ -أيضًـا-: أنَّ الرَّكعَةَ الثانِيةَ أطولُ مِنَ الأولَى، وإتيانَ المأمومِ بما بَقِيَ مِنْ صلاتِهِ قَبْل تسليمِ الإمامِ.

وفِيها: حِمايةُ ظُهورِ المسلمينَ، وأنَّ الموقِعَ الصحيحَ للحِراسةِ في صلاةِ الخَوفِ: أنْ يكونَ الحُرَّاسُ خَلْفَ المُصلِّينَ؛ وذلك حتَّى لا يُشَوِّشوا عليهِم.

وفِيها: جوازُ إقامَةِ جماعَتَيْنِ في مكانٍ واحدٍ؛ للحاجةِ.

وفِيها: أنَّ أقلَّ ما يُتَصوَّرُ به صلاةُ الخوفِ جماعةً، هو ثلاثةُ أشخاصٍ، على الكيفيَّةِ الواردَةِ في الآيةِ، ومعنى الطَّائفةِ في اللُّغةِ يشمَلُ الواحِدَ فأكثَر(١).

ولَمَّا كانَ ذِكْرُ اللهِ عُقيبَ الصَّلاةِ أمرًا مشروعًا، والخوفُ لا يَمنَعُ مِنْه، أوصَى به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحـالاتِ المختلِفَـةِ. ولَمَّـا كانَ الخَوفُ في مواجهةِ العَـدُوِّ في المعركةِ حالـةً مؤقتَةً، تزُولُ بانقِضاءِ المعركَةِ، وهزيمةِ العدُوِّ، أو ذَهابِهِ، وأوقاتِ السِّلمِ الأخرَى، نبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عودةِ الصَّلاةِ إلى حالِها المعروفِ، بَعدَ زَوالِ الخَوفِ العارِضِ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

(١) قـالَ الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والطَّائِفَةُ تُطلَـقُ علَى الكَثِيرِ والقَلِيلِ، حَتَّى علَى الواحِدِ، فَلَوْ كانُوا ثَلاثَةً وَوَقَعَ لَهُمُ الخَوْفُ، جـازَ لِأَحَدِهِـمْ أَنْ يُصَلِّيَ بِواحِدٍ، وَيَحْرُسَ واحِدٌ، ثُمَّ يُصَلِّيَ الآخَرُ، وَهُوَ أَقَلُّ ما يُتَصَوَّرُ في صَلاةِ الخَوْفِ جَماعَةً». فتح الباري (٢/ ٤٣١).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فإذا أدَّيتُم صلاةَ الخوفِ على كيفيَّتِها، وفرَغتُم مِنْها. ويأتي القَضاءُ في القرآنِ واللُّغةِ بمعنى الإتمامِ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تَنْسَوْا ذِكرَهُ بالألفاظِ التي شَرَعها لكم بَعْدَ الصَّلاةِ، تكميلًا لها، وزيادةً في الثَّوابِ ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ في الحالاتِ المختلفةِ، في حالِ قِيامِكُم، وحالِ قُعُودِكُم ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: مُضطجِعِينَ، سواءً كانَ باللَّيلِ، أو النَّهارِ، في البَرِّ، أو البَحرِ، في السَّفرِ، أو الحَضَرِ، في الصِّحَّةِ، أو الجِراحِ، والمرضِ، في السِّرِّ، أو العلانِيةِ ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ وذهَبَ الخوفُ عنكُم، وأمِنْتُم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: على هيئَتِها المُعتادَةِ، وقُومُوا بأركانِها، وواجباتِها، وشُرُوطِها، كاملةً ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ﴾ في حُكمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فَرضًا مُؤكَّدًا عليهم، ومؤقَّتًا بأوقاتٍ مُعيَّنةٍ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

المُداومةُ على ذِكرِ اللهِ، وأنَّه يُقوِّي القلبَ، ويُعلِي الهِمَمَ، ويحتاجُهُ المجاهِدُونَ.

وفِيها: عدمُ تَركِ الذِّكرِ بَعدَ الصَّلاةِ.

وفِيها: أنَّ المجاهِدَ يحتاجُ إلى ما يُقوِّي قلبَه، وجسدَه، وهذا مِمَّا يفْعَلُهُ الذِّكرُ.

وفِيها: أنَّ الذِّكْرَ إذا أُمِرَ بِهِ في حالِ الحَربِ، ففي حالِ السِّلمِ أَوْلَى، ولا يُوجَدُ عُذرٌ يَمنعُ العبدَ مِن ذِكرِ اللهِ.

وفِيها: توزيعُ الصَّلواتِ على أوقاتِ اليومِ، واللَّيلةِ، بحيثُ يكونُ المُسلِمُ مُتَّصلًا بربِّه في الأوقاتِ المختلفةِ، على مَدارِ اللَّيلِ، والنَّهارِ.

وفِيها: الدَّليلُ على فرضيَّةِ الصَّلواتِ الخَمْسِ، وأنَّها لا تُقبَلُ في غَيرِ أوقاتِها.

وفِيها: مُقاومةُ الغَفْلةِ التي تَحمِلُ على الشَّرِّ، والتَّقصِيرِ في الخَيرِ.

وفِيها: أنَّ في القرآنِ مُجمَلاتٌ تُفصِّلُها السُّنَّةُ؛ فإنَّه لَمْ يَذْكُرْ في هذه الآيةِ -ولا في غيرِها- تَحديدَ أوقاتِ الصَّلواتِ الخَمسِ، بدايةً، ونِهايةً، وإنَّما وَرَدَ تحديدُها في السُّنَّةِ.

وفِيها: أنَّه لا يُشترطُ لإنهاءِ أذكارِ ما بَعدَ الصَّلاةِ أنْ يَبقَى جالِسًا، وخصوصًا عندَ الحاجةِ.

وفِيها: أنَّ الصَّلاةَ لا تُطلَبُ مِنْ غَيرِ المؤمنينَ، فالكافِرُ -مَثَلًا- لا بُدَّ أن يُسْلِمَ أوَّلًا، ثُمَّ يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، وهُم -مَعَ كونِهِم مُخاطَبونَ بفُرُوعِ الإسلامِ- لكنَّهُم لا يُؤمَرونَ ويُلزَمُونَ بِها حالَ كُفرِهِم، بَلْ يؤمَرونَ بالدُّخولِ في الإسلامِ أوَّلًا، ثُمَّ يُؤمَرونَ بِالقيامِ بالواجِباتِ.

وفِيها: مَظهرٌ لوَحْدةِ المسلمينَ في صلاتِهِم، في وقتٍ واحدٍ، في الإقليمِ الواحِدِ.

وفِيها: أنَّ أسبابَ الرُّخَصِ إذا زالَتْ، عادَتِ العباداتُ إلى صفاتِها الأصليَّةِ.

وفِيها: أنَّ الذِّكرَ يَجبُرُ انشغالَ القلبِ، والبَدَنِ، بمُراغَمَةِ الكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ في حالةِ الخَوفِ، أحوجُ ما يكونُ إلى تَثبيتِ قلبِهِ، بذِكْرِ ربِّهِ.

وفِيها: عِظَمُ قَدْرِ الصَّلاةِ.

وفِيها: أنَّ ذِكْرَ اللهِ حِصنٌ حَصينٌ مِنَ الأعداءِ.

وفِيها: تعميمُ أحوالِ الإنسانِ بالصِّلةِ باللهِ.

وفِيها: بيانُ مَراتِبِ الأحوالِ في إقامَةِ العبادَةِ.

وفِيها: إبعادُ المسلمِ عنِ الغَفلَةِ، والإهمالِ، ونِسيانِ العِباداتِ، بفَرْضِها عليهِ مُوزَّعةً على الأوقاتِ، كُلَّما خَرَجَ وقتٌ، دَخَلَ وقْتٌ.

وفِيها: أنَّ الخَوفَ يُوجِبُ قلقًا في القلبِ، لا يُسكِّنُهُ إلا الصَّلاةُ، والذِّكرُ.

وفِيها: حِمايةُ المسلمِ مِنْ كُلِّ ما يُضعِفُهُ عن مُقاومةِ عَدُوِّهِ.

وفي الآيةِ: رَدٌّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ الصَّلاةَ مجرَّدُ رياضةٍ بدنيَّةٍ، وأعمالٍ صُوريَّةٍ، فيُقالُ له: بَلْ هِيَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، وصِلةٌ بَيْنَ العبدِ وربِّه، مَعَ كونِها تُؤدَّى بالجَسَدِ، والأعضاءِ.

وفي وصفِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للصَّلاةِ بقولِه: ﴿كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾: دليلٌ على وجوبِ التَّرتيبِ في قضاءِ الفَوائِتِ.

وفِيها: إشارةٌ إلَى أنَّ الأعمالَ إذا لَمْ يُعيَّنْ لها أوقاتٌ معلومةٌ تُؤدَّى فيها، فإنَّها تَضِيعُ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعضَ الأحكامِ، التي يَحتاجُها المجاهدونَ في سبيلِهِ، وشَحَذَ هِمَّتَهُم

بِذِكرِهِ بَعدَ الصَّلاةِ له في حالِ الخَوفِ، حثَّ المؤمنينَ على مُواصَلةِ جهادِهِم، وطَلَبِ أعدائِهِم، فإنَّ أولئكَ الأعداءَ أجدرُ بالخَوْفِ، ولا مَولَى لَهُم يَتوكَّلُونَ عليه، بَيْنَما يَتحمَّلُ المؤمنونَ آلامَهُم؛ رَجاءَ ثوابِ مَوْلاهُم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ لا تَضْعُفُوا، ولا تَقْعُدُوا، وتكسَلوا ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ في طلَبِ عدوِّكُم، واللَّحاقِ بِهِ، والعُثُورِ عليهِ، والقُعُودِ له، والتَّرصُّدِ ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ وتَتوجَّعونَ مِنْ جِراحِكُم ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: يَتوجَّعونَ مِنْ جِراحِهِم هُم أيضًا، ومَعَ ذلكَ يَطلُبُونكُم، فلا تَتَوانَوْا أنتُم في طَلَبِهِم، والفَرْقُ كبيرٌ بَيْنكم وبَيْنهم؛ فإنَّكم تُطِيعونَ ربَّكُم في ابتِغاءِ عدوِّكُم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وتَحتَسِبونَ الأجرَ والثَّوابَ عندَه، على هذا الجِهادِ والتَّحمُّلِ، وتَنتَظِرونَ مِنْ ربِّكم موعُودَه بالنَّصرِ، أوِ الشَّهادةِ، فيَجِبُ أنْ تكونُوا أرغَبَ مِنْهُم في الحَرْبِ، وأصبرَ عليها، وأكثَرَ إقدامًا، وجُرأةً، وأنتُم تَرَوْنَ الموتَ مَغنَمًا، وهُم يَرَوْنَهُ مَغْرَمًا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالماضِي، والمُستقبَلِ، والخَفيِّ، والجَلِيِّ، ودقائقِ الأمورِ، في سائرِ الأحوالِ، واسِعَ العِلمِ بكلِّ شيءٍ ﴿حَكِيمًا﴾ قد أحْكَمَ خلقَهُ، وشَرْعَه، وله الحِكمةُ البالِغةُ في قَضائِهِ، وقَدَرِهِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَشجيعُ المسلمينَ على جِهادِ الكفَّارِ، ومطارَدَتِهِم، ومُلاحقَتِهِم.

وفِيها: بَذْلُ القُوَّةِ، والمُتابعةِ، في الجهادِ، ومَنْ جَعَلَ هِمَّتَهُ المُهاجَمَةَ، والمُطارَدَةَ، تَشتَدُّ عزيمتُهُ، وأمَّا الذي يَلتزِمُ الدِّفاعَ فحَسْب: فكَثيرًا ما تَخُورُ قُواهُ، وتَضعُفُ هِمَّتُهُ.

وفِيها: أنَّ استِواءَ النَّاسِ في الحالةِ الظَّاهرةِ، لا يَعني استواءَهُم في الحالةِ الباطِنَةِ، فقد يُصابُ شخصانِ بمُصيبةٍ واحدةٍ، والفارقُ بَيْن ما في قَلْبَيْهما مِنَ الإيمانِ، والكُفرِ، والرِّضا، والسَّخَطِ، والصَّبرِ، والجَزَعِ، ورجاءِ الآخرةِ، والتَّكذيبِ بالبَعْثِ، والطَّمعِ في ثوابِ اللهِ، والحِرْصِ على الدُّنيا، أعظمُ مِمَّا بَيْنَ السَّماءِ، والأرضِ.

وفِيها: تَحمُّلُ الألَمِ في إكمالِ الجهادِ.

وفِيها: الظُّهورُ أمامَ الكفَّارِ بمَظهَرِ القُوَّةِ، والعِزَّةِ، والتَّجلُّدِ، وشِدَّةِ التَّحمُّلِ، والمُصابَرَةِ، وقُوَّةِ البأسِ، والاستِعدادِ، والنَّفيرِ، وطولِ النَّفَسِ، والقُدرةِ على البَذْلِ، والمُواصَلةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ يَرجُو ثوابَ اللهِ، والدَّارَ الآخرةَ، أقدرُ على الصَّبرِ، والتَّحمُّلِ، مِمَّنْ يَكْفُرُ بذلكَ.

وفِيها: العَلاقةُ بَيْنَ التَّوحيدِ، وبَيْنَ رجاءِ الثَّوابِ، والقدرةِ، على الاحتِسابِ، وأنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ فهو أصبرُ في الحَرْبِ، وأثبَتُ فيها، وأكثرُ قدرةً على مُواصَلَتِها.

وفِيها: أنَّ رجاءَ الثَّوابِ، ومَوعُودِ اللهِ بالنَّصرِ، وأجرِ الشَّهادَةِ، يَدْفَعُ إلى المَزِيدِ مِنَ الصَّبرِ، والثَّباتِ، بخلافِ اليأسِ مِن هَذا، والتَّكذيبِ بِهِ.

وفِيها: اقتِرانُ العَمَلِ الصَّالِحِ عندَ المُؤمِنِ بالرَّجاءِ، وقد ذَكَرَ العلماءُ: أنَّ مَنْ فَعَلَ الحَسَنَةَ، يُغَلِّبُ جانِبَ الرَّجاءِ، ومَنْ فَعَل السَّيِّئةِ يُغلِّبُ جانِبَ الخَوفِ.

وفِيها: عدمُ الجَزمِ لأحدٍ مِنْ قتلَى المسلمينَ بالجنَّةِ، والشَّهادةِ له بذلك، وإنَّما يُرجَى له الثَّوابُ، وحُسْنُ العاقِبَةِ، ولا يُقْطَعُ لَهُ(١).

وفِيها: أنَّ الكافرَ إذا كانَ يَصبِرُ على العملِ، وهو على الباطِلِ، فإنَّ أهلَ الإيمانِ أَوْلَى بالصَّبرِ، وهُمْ على الحَقِّ.

وفِيها: أنَّ البادِئَ بالغَزْوِ، والمُستَمِرَّ في طَلَبِ العَدُوِّ، تَحصُلُ بِهِ رَهبَةٌ عظيمةٌ في قُلُوبِهِم.

وفِيها: تَشجيعُ نفوسِ المؤمنينَ على مُطاردةِ الأعداءِ، وتَعَقُّبِ آثارِهِم.

وفِيها: أنَّه لا راحةَ للمجاهِدينَ في سبيلِ اللهِ، ما دامَ عدوُّهم قائمًا بالحَرْبِ.

وفِيها: أنَّ المسلمينَ ليسَ مِنْ شأنِهِم الاقتصارُ على الصَّدِّ، والدِّفاعِ، بَل الهُجُومُ والتَّتَبُّعُ -أيضًا- مِن شأنِهِم.

وفِيها: النَّشاطُ في متابعةِ الأعمالِ العسكريَّةِ ضِدَّ الكفَّارِ.

---

(١) يُستثنَى مِن ذلك: مَن شَهِدَ لَه الشرعُ بالجنّة.

وفِيها: أنَّ نفسَ المؤمنِ مُتوجِّهةٌ إلى اللهِ، وأمَّا الكفَّارُ: فَهُم ضائِعونَ، لا مَولَى لَهُم، ولا يَرتَقِبونَ شيئًا بَعدَ المَماتِ.

وفِيها: تَنشِيطُ النُّفوسِ، باستِحضارِ الأجرِ، والثَّوابِ.

وفِيها: الأمرُ بجهادِ الطَّلبِ، خِلافًا لِمَنْ قَصَرَ جهادَ المسلمينَ على الدَّفعِ؛ جُبْنًا، وإرضاءً للكفار.

وفِيها: وعدُ اللهِ للمسلمينَ بالنَّصرِ، وهذا مِمَّا يَرجُونَهُ.

وفِيها: أنَّ المسلمينَ لا يُقاتِلونَ مِنْ أجلِ الدُّنيا.

وفِيها: إشاعةُ الأملِ في نفوسِ المجاهِدِينَ.

وفِيها: اقترانُ عِلمِ اللهِ بحِكْمَتِهِ.

وفِيها: تَتَبُّعُ مجهوداتِ المشركينَ؛ لإبطالِها، وقد تكونُ شُبُهاتٍ، فيَتِمُّ تفنِيدُها، أو ادِّعاءاتٍ، فيَتِمُّ الرَّدُّ عليْها، أو جهودًا إعلاميَّةً، فيَتِمُّ التَّصدِّي لها، أو أبواقًا دعائيَّةً، فيَتِمُّ إسكاتُها، وإغلاقُها، أو هجماتٍ، واعتداءاتٍ، فيَتِمُّ صدُّها، وأنَّ ما تَحمَّلَ الكفارُ مِنْ أجلِ ذلكَ، مِنْ كَدِّ الأذهانِ، وجَمعِ الأموالِ، ووضعِ الخُطَطِ، وإقامةِ المشارِيعِ، وسَهَرِهِم مِنْ أجلِ ذلكَ، وصَبْرِهم، ومتابَعَتِهِم: لا بُدَّ أنْ يُقابَلَ بأكثرَ مِنه مِنْ أهلِ الإيمانِ.

وفِيها: حِرصُ المؤمنينَ علَى أنْ يَعيشَ أعداؤُهُم في قَلَقٍ دائِمٍ، وخَوْفٍ مُستمرٍّ، بحيثُ يَحسَبونَ كلَّ صيحةٍ عليهِم.

وفِيها: وجوبُ الجهادِ، وأنَّه لا يَسقُطُ بِحصُولِ مَضرَّةٍ مِنْ جِراحٍ، ونَحوِها.

ولَمَّا صرَّحَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجهادِ الكفَّارِ، والمنافقينَ، وما يلزَمُ لذلكَ مِنْ بيانِ الأحوالِ، عادَ للتَّذكيرِ بخُطورةِ المنافقينَ، وخيانَتِهِم؛ تأكيدًا على خطَرِهم، وعظيمِ شَرِّهِم. وحيثُ إنَّ الكفَّارَ، والمنافِقِينَ، يَسعَوْنَ لِطَمْسِ الحقِّ، فقد أمَرَ اللهُ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيانِ الحقِّ، ومَنْعِ المنافقينَ مِنْ طَمْسِهِ، وتغييرِهِ، بَعدَما أمَرَ بمَنْعِ الكفَّارِ مِنْ استِئْصالِهِ، والقَضاءِ عليهِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن عاصمِ بنِ عُمَرَ بنِ قتادَةَ، عن أبيه، عَنْ جَدِّهِ قَتادةَ بنِ النُّعمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقالُ لَهُمْ: بَنُو أُبَيْرِقٍ: بِشْرٌ، وَبُشَيْرٌ، وَمُبَشِّرٌ، وكانَ بُشَيْرٌ رَجُلًا مُنافِقًا، يَقُولُ الشِّعْرَ، يَهْجُو بِهِ أَصْحابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ العَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قالَ فُلانٌ كَذا وَكَذا، فَإِذا سَمِعَ أَصْحابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ الشِّعْرَ، قالُوا: واللهِ ما يَقُولُ هَذا الشِّعْرَ إِلَّا هَذا الخَبِيثُ، أَوْ كَما قالَ الرَّجُلُ، وَقالُوا: ابْنُ الأُبَيْرِقِ قالَها، قالَ: وَكانُوا أَهْلَ بَيْتِ حاجَةٍ وَفاقَةٍ، في الجاهِلِيَّةِ والإِسْلامِ، وَكانَ النَّاسُ إِنَّما طَعامُهُمْ بِالمَدِينَةِ التَّمْرُ والشَّعِيرُ، وَكانَ الرَّجُلُ إذا كانَ لَهُ يَسارٌ فَقَدِمَتْ ضافِطَةٌ(١) مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ(٢)، ابْتاعَ الرَّجُلُ مِنْها، فَخَصَّ بِها نَفْسَهُ، وَأَمَّا العِيالُ: فَإِنَّما طَعامُهُمُ التَّمْرُ والشَّعِيرُ، فَقَدِمَتْ ضافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ، فابْتاعَ عَمِّي رِفاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ، فَجَعَلَهُ في مَشْرَبَةٍ(٣) لَهُ، وَفي المَشْرَبَةِ سِلاحٌ، وَدِرْعٌ، وَسَيْفٌ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ البَيْتِ، فَنُقِبَتْ المَشْرَبَةُ، وَأُخِذَ الطَّعامُ والسِّلاحُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتانِي عَمِّي رِفاعَةُ، فَقالَ: يا ابْنَ أَخِي إِنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنا في لَيْلَتِنا هَذِهِ، فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنا، فَذُهِبَ بِطَعامِنا وَسِلاحِنا. قالَ: فَتَحَسَّسْنا في الدَّارِ وَسَأَلْنا، فَقِيلَ لَنا: قَدْ رَأَيْنا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا في هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلا نَرَى -فِيما نَرَى- إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعامِكُمْ. قالَ: وَكانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قالُوا -وَنَحْنُ نَسْأَلُ في الدَّارِ-: واللهِ ما نُرَى صاحِبَكُمْ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ -رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلاحٌ وَإِسْلامٌ-، فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقالَ: أَنا أَسْرِقُ؟! فَواللهِ لَيُخالِطَنَّكُمْ هَذا السَّيْفُ، أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ، قالُوا: إِلَيْكَ عَنْها أَيُّها الرَّجُلُ، فَما أَنْتَ بِصاحِبِها، فَسَأَلْنا في الدَّارِ، حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحابُها، فَقالَ لِي عَمِّي: يا ابْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ، قالَ قَتادَةُ: فَأَتَيْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ

---

(١) أي: قافلة.

(٢) هو الدّقيق النقيّ.

(٣) أي: غُرفة.

جفاءٍ، عَمَدُوا إلى عَمِّي رِفاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَنَقبُوا مَشْرَبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلاحَهُ وَطَعامَهُ، فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنا سِلاحَنا، فَأَمَّا الطَّعامُ: فَلا حاجَةَ لَنا فِيهِ. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَآمُرُ في ذَلِكَ**».

فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ: أُسَيْرُ بْنُ عُرْوَةَ، فَكَلَّمُوهُ في ذَلِكَ، فاجْتَمَعَ في ذَلِكَ ناسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقالُوا: يا رسولَ اللهِ إِنَّ قَتادَةَ بْنَ النُّعْمانِ وَعَمَّهُ عَمَدا إلى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا، أَهْلِ إِسْلامٍ وَصَلاحٍ، يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلا ثَبَتٍ، قالَ قَتادَةُ: فَأَتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقالَ: «**عَمَدْتَ إلى أَهْلِ بَيْتٍ، ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلامٌ وَصَلاحٌ، تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَبَيِّنَةٍ؟!**». قالَ: فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مالِي، وَلَمْ أُكَلِّمْ رسولَ اللهِ ﷺ في ذَلِكَ، فَأَتانِي عَمِّي رِفاعَةُ، فَقالَ: يا ابْنَ أَخِي ما صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِما قالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ، فَقالَ: اللهُ المُسْتَعانُ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ القُرْآنُ: ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا**﴾ بني أُبَيْرِق ﴿**وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ**﴾ أي: مِمَّا قلتَ لقتادةَ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ إلى قولِهِ: ﴿**رَّحِيمًا**﴾ أي: لَوِ استغفَرُوا اللهَ لَغَفَرَ لهم ﴿**وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ**﴾ إلى قولِهِ: ﴿...﴾ قولَهُم للَبِيدٍ ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ**﴾ إلى قولِهِ: ﴿**فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

فلمَّا نَزَلَ القرآنُ، أَتى رسولُ اللهِ ﷺ بالسِّلاحِ فردَّه إلى رِفاعَةَ. فقال قتادةُ: لَمَّا أَتَيْتُ عمِّي بالسِّلاحِ، وكان شَيخًا، قد عَشا -أو عَسا- في الجاهِلِيَّةِ، وكنتُ أُرَى إسلامَه مَدخُولًا، فلمَّا أَتَيْتُهُ بالسِّلاحِ، قال: يا ابنَ أخِي، هو في سَبيلِ اللهِ. فعَرَفْتُ أنَّ إسلامَهُ كان صَحِيحًا، فلمَّا نَزلَ القرآنُ لَحِقَ بُشَيرٌ بالمشركينَ، فنزَلَ على سُلافَةَ بنتِ سعدٍ، فأنْزلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١١٦**﴾ فلمَّا نَزلَ على سُلافَةَ، رَماها حَسَّانُ بنُ ثابتٍ بأبياتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فأخذَتْ رَحْلَهُ، فوَضَعَتْهُ على رأسِها، ثُمَّ خرَجَتْ بِهِ،

فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قالتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانَ؟! ما كُنْتَ تَأْتِينِي بِخيرٍ»[1].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾ هذا التَّعظيمُ بأسلوبِ الجَمعِ؛ لِعظَمةِ المُنزِّلِ، والمُنزَّلِ ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو القرآنُ، سُمِّيَ بذلكَ؛ لأنَّه مكتوبٌ، ومجموعٌ في اللَّوْحِ المحفوظِ، وكذلك؛ لأنَّه مكتوبٌ بأيدِي الملائكةِ، كما في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٢-١٦]، وكذلك؛ فإنَّ البَشَرَ يكتبُونَهُ، وأصلُ الكَتْبِ: الجَمْعُ؛ لاجتماعِ الحُروفِ والكَلِماتِ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حقًّا مِنْ عندِ اللهِ، مُتضمِّنًا للحقِّ في أخبارِهِ، وأحكامِهِ ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأجلِ أنْ تفصِلَ بَيْنَهم في خُصُوماتِهم، ولبيانِ أحكامِ أعمالِهم ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ بما أَوْحَى بِهِ إليكَ، وعلَّمَكَ، وبما أدَّى إليهِ اجتهادُكَ، واستِنْباطُكَ ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تكُنْ مُدافِعًا عنهُم، ومُجادِلًا، ومِنْ هؤلاءِ الخائنِينَ: طُعْمَةُ بنُ أُبَيْرِق، وبُشَيْرٌ، ومَنْ مَعَهُ، فلا تُدافِعْ عن هؤلاءِ المُتَّهمِينَ بالذَّنبِ، والسَّرقةِ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ اطلُبْ مَغفرتَه، وسَتْرَ الذَّنبِ، والتَّجاوزَ عنهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: كثيرَ المغفِرةِ لِمَنِ استغفَرَهُ، وكثيرَ الرَّحمةِ لِمَنِ استَرْحَمَهُ.

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ القرآنَ حَقٌّ، نَزَلَ مِنَ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفيهما: أنَّ القرآنَ يُعِينُ الحُكَّامَ، والقُضاةَ؛ للفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وللحُكمِ على الأعمالِ بالصِّحَّةِ، والبُطلانِ.

وفيهما: أنَّه يجوزُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يجتَهِدَ في فَصلِ القَضاءِ، والنِّزاعِ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّما أَنا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ ما أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلا يَأْخُذْ، فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٣٦)، والحاكم (٨١٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

وفيهـا: عدمُ جـوازِ الدِّفاعِ عنِ الخائِنـينَ، وتحريمُ التِماسِ الأعذارِ للسَّـارقِينَ، وموعظةٌ وتذكيرٌ للمُحامِينَ.

وفيهـا: عـدمُ التَّهاونِ في تَحرِّي الحقِّ؛ اغترارًا بفصاحَـةِ المُدَّعِي، أو المُدَّعَى عليه، وأنَّ على القاضِي أنْ يَحْذَرَ مِنْ أنْ تَأخُذَهُ قُوَّةُ جَدَلِ أحدِ الخَصْمَيْنِ.

وفيها: عُلُوُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على خَلْقِهِ؛ لأنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِنْ عُلُوٍّ.

وفيها: جوازُ كتابةِ القرآنِ، ويَجِبُ أنْ يكونَ بالرّسمِ العُثْمانِيِّ، الذي أجمَعَ عليهِ الصَّحابَةُ.

وفيها: أنَّه لا يَجوزُ للمُحامِي توَلِّي قضايا المُبطِلِينَ، والدِّفاعُ عنِ المُجرِمِينَ.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَعْلَمُ الغَيْبَ.

وفيها: أنَّه يَجِبُ على الحاكِمِ أنْ يَتحرَّى، ويَتأنَّى، في حُكْمِهِ.

وفيهـا: جـوازُ وقوعِ الذَّنبِ مِنَ الأنبياءِ، ولكنْ بما لا يُخالِفُ مُقتَضَى تبليغِ الرِّسـالةِ، فلا يُمكِنُ لنبيٍّ أنْ يَكْذِبَ -مَثَلًا-.

واستَنْبَطَ بعضُ العلماءِ مِنَ الآيةِ: أنَّه ينبَغِي على المُفتِي أنْ يقدِّمَ بَيْنَ يَدَي فَتْواه الاستِغفارَ؛ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَحۡكُمَ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ ولأنَّ الذُّنوبَ تَحُولُ بَيْنَ الإنسانِ، وبَيْن معرفةِ الصَّوابِ، والتَّوفيقِ للحَقِّ.

وفيها: تأثيرُ الكلامِ على النُّفوسِ، بما يَقْلِبُ الحقَّ باطِلًا والباطِلَ حقًّا عندها.

وفيها: أنَّه لا يَجوزُ للمُحامِينَ أنْ يَتَوَلَّوْا قضيةَ شخصٍ، إلا بَعدَ التَّأكُّدِ مِنْ أنَّه صاحبُ حقٍّ.

وفيها: ذمُّ الخيانةِ، ومِنْها: السَّرقةُ، وجَحْدُ العارِيَّةِ.

وفيها: تَفْويضٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأهلِ العِلمِ بالحُكمِ بَيْنَ النَّاسِ، وتوَلِّي القَضاءِ.

وفيها: دليلٌ على إثباتِ النَّظرِ والقِياسِ للمُجتَهِدِ.

وفيها: وجوبُ الاستِغفارِ مِنَ الدِّفاعِ عنِ الظَّلَمَـةِ، وقال مالكُ بنُ دِينارٍ: «كَفَى بالمَرْءِ خيانةً أنْ يكونَ أمينًا للخَوَنةِ»(١).

وفيها: تسميةُ العِلمِ بالرُّؤيةِ، بجامِعِ القُوَّةِ، والظُّهورِ، بَيْنَهُما.

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص٢٦٢)، والبيهقي في الشعب (٨٩٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٣).

وفيهـا: أنَّـه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يقولَ: «قَضَيْتُ بما أراني اللهُ»؛ فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ ذلكَ إلا لنَبِيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيهما: أنَّ الدِّفاعَ عنِ الباطلِ مِنْ علاماتِ المنافِقينَ.

ولَـمَّـا نَهَـى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنِ الدِّفـاعِ عَمَّنْ وَقَعَتْ مِنْـهُ خيانةٌ عُمُومًا، أَتْبَعَ ذلـكَ بالنَّهيِ عَنِ المَحاجَّـةِ، والمُجادَلَـةِ، عَمَّـنْ تَعَمَّـدَ الخيانةَ، وتكرَّرَتْ مِنْه -وهذا أسْـوَأُ، وأشَـدُّ-؛ فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ يـا محمـدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا يَشـمَلُ كلَّ مؤمِنٍ، والمُجادَلَـةُ: على وَزْنِ مُفاعَلـةٍ، مِـنَ الجَدَلِ، وهـو يَقْتَضِي الاشـتِراكَ بَيْنَ طَرَفَـيْنِ، فأكثرَ، والمعنَـى: لا تُنازِعْ، ولا تُخاصِـمْ، ولا تُدافِـعْ ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: يَخُونُونَهـا، والاختِيـانُ: هـو المُبالَغَـةُ في الخيانـةِ، وتَحْمِـلُ هذِهِ الصِّيغَـةُ معنَى التَّكَلُّـفِ، والتقصُّدِ للخيانـةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يَخُونُونَ أنفسَـهُم بشـدَّةٍ، وإصرارٍ. وخيانةُ النَّفسِ: ارتكابُ ما يَضُرُّ بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ ونَفْيُ المحبَّةِ يَقْتَضِي البُغْض ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ كثيرَ الخِيانةِ، يَتعمَّدُها، ويُكَرِّرُها ﴿أَثِيمًا﴾ كثيرَ الوقوعِ في الإثمِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

التَّحذيـرُ مِنَ خيانـةِ النَّفسِ، وخيانةِ الغَيرِ، وأنَّ المعصيةَ -ولَـوْ كانتِ اعتداءً على الغَيرِ- فيها خيانَةُ المُعتَدي لنفسِهِ أوَّلًا.

وفيها: بُغضُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنِ اعتادَ الخيانةَ، ووَلَغَ في الآثامِ؛ فإنَّ (خوَّانًا)، و(أثيمًا)، مِنْ صِيَغِ المُبالغَةِ، ويُؤخَذُ بالمفهومِ: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ أهلَ الأمانةِ، والاستقامةِ.

وفي الآية: أنَّ الأصلَ في نَهْيِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الشَّيءِ، أنَّه نَهْيٌ للأُمَّةِ كلِّها.

وفيها: أنَّه لا يجوزُ الدِّفاعُ عنِ الظَّلَمةِ، ومحاولةُ إقناعِ النَّاسِ ببراءَتِهِم.

وفِيها: أنَّ نَهْيَ النبيِّ ﷺ عنْ شيءٍ، لا يَستلزِمُ وقوعَهُ مِنْه، وقد يكونُ المقصودُ: تحذِيرَهُ، وتحذِيرَ غيرِه.

وفِيها: بيانُ خَطِيئةِ الإصرارِ على الذَّنبِ.

وفِيها: أنَّ خيانةَ الغَيْرِ هِيَ في الحقيقةِ خيانةٌ للنَّفسِ؛ لأنَّ سوءَ العاقبةِ سيَعودُ عليها، وما خانَ مسلِمٌ أخاه، إلا كانَ قد خانَ نفسَه؛ لأنَّ الأمَّةَ كالجَسَدِ الواحِدِ.

وفِيها: أنَّ خيانةَ المسلمينَ بَوارٌ، ومَهْلَكةٌ.

وفِيها: تحريمُ ارتكابِ ما يَضُرُّ بالغَيرِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ افتَضَحَ بسيِّئةٍ، فإنَّ لها عندَه أخواتٍ؛ لأنَّ اللهَ لا يَفْضَحُ عبدَهُ مِنْ أوَّلِ مرَّةٍ. عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ: أُتِيَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بِسارِقٍ، فَقالَ: واَللهِ ما سَرَقْتُ قَبْلَها؟ فَقالَ لَهُ عُمَرُ: «كَذَبْت، وَرَبِّ عُمَرَ، ما أَخَذَ اللهُ عبدًا عِنْدَ أَوَّلِ ذَنْبٍ»(١).

وفِيها: استعمالُ صِيغةِ المُبالغةِ في التَّنفِيرِ مِنَ المُصِرِّ على الخِيانةِ، والإثمِ، الذي تَكَرَّرَ وقوعُهُما مِنْهُ، فأمَّا مَنْ وَقَعَ مِنْه ذلكَ على سبيلِ الغَفْلَةِ، وعدمِ القَصْدِ: فلا يُسمَّى خائِنًا، ولا آثِمًا.

وفِيها: جوازُ المُجادلَةِ عنْ صاحِبِ الحَقِّ، والبَرِيءِ، ويُؤخَذُ هذا بالمفهومِ.

وفِيها: تَعليلُ النَّهيِ الواردِ في الآيةِ بنَفْيِ المَحبَّةِ، والذي يُؤخَذُ مِنْه إثباتُ الضِّدِّ، وهو البُغْضُ، والسَّخَطُ.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ إعانةُ المذنبِ، والآثِمِ، والمُعتَدِي.

وفِيها: أنَّ الدِّفاعَ عنِ الخائِنِ يُؤدِّي إلى تجرِئتِهِ، وتَكْرارِ وقوعِ الخيانةِ مِنْه.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ للمُحامِي التَّرافُعُ عَمَّنْ وَقَعَ مِنْه ذنبٌ، يَستوجِبُ عقوبةً، مِنْ حَدٍّ، أو تعزِيرٍ.

---

(١) رواه ابنُ حزم في المُحلىّ (١٢/ ٦٤)، وصححه، وقال الحافظُ ابنُ حجر في إتحاف المهرة (١٢/ ١١٢): «رواه ابنُ وهب في جامعه، وهو موقوفٌ، حكمُه الرفعُ، كتبتُه لصحة سنده».

وفِيها: أنَّ مُنازعةَ الغَيرِ بالقولِ لإقناعِهِ: إنْ كانتْ في الحقِّ فهي خيرٌ، وإنْ كانتْ في الباطِلِ فهِيَ شَرٌّ.

وفِيها: أنَّه قد يَبلُغُ الشَّرُّ ببعضِ النَّاسِ إلى أنْ يَتكلَّفَ الإثمَ، ويَحمِلَ نفسَهُ عليهِ حَمْلًا.

وفِيها: أنَّ مَضَرَّةَ الخيانةِ ترجِعُ على صاحِبِها.

وفِيها: أنَّ الخيانةَ مِنَ الآثامِ التي تُغْري صاحبَها؛ لِيَقَعَ فيها مِرارًا، وأنَّها مراتِبُ متفاوتةٌ، وأنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تكونُ الخيانةُ صِفةً مُلازِمةً له.

وفِيها: أنَّ مَنْ أعانَ الخائِنَ، أوْ جادَلَ عنهُ، فقدِ اشتركَ معهُ في الإثمِ.

وفِيها: أنَّ الخيانةَ سببٌ للوقوعِ في الإثمِ، كما أنَّها نوعٌ مِنْه، فالإثمُ أعمُّ مِنَ الخِيانةِ.

وفِيها: التَّنبيهُ على شَهوةِ مُماراةِ الخَصْمِ، لِمجرَّدِ حُبِّ الظُّهورِ عليهِ، فإنَّ الجِدالَ يُقَسِّي القلبَ، ويُوقِعُ في الإثمِ؛ ولذلك لا يُؤتَى مِنْه إلا ما كانَ محمودًا، كالجِدالِ المشروطِ بالأدبِ، بِنيَّةِ التَّوصُّلِ إلى الحقِّ والأرجَحِ، في مسائِلِ العِلمِ.

وفِيها: أنَّ المنافقينَ يتحالَفُ بعضُهُم مَعَ بعضٍ، ويُدافِعُ بعضُهُم عنْ بَعضٍ، كما تَدلُّ عليهِ الآيةُ، وسببُ نُزُولِها.

وفِيها: شاهدٌ لقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وفِيها: أنَّ الخيانةَ مِنْ كبائِرِ الذُّنوبِ، ومِنْ علاماتِ الكبيرةِ: مجيءُ النُّصوصِ بنَفْيِ محبَّةِ اللهِ عنْ صاحِبِها، وهذا كاللَّعنةِ، والغَضَبِ، وحِرمانِ الجنَّةِ، والتَّوعُّدِ بالنَّارِ، والتَّبرُّؤِ مِنَ الفاعِلِ، ونَفْيِ الإيمانِ عنهُ، ونحوِ ذلكَ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيانةَ بعضِ المنافقينَ، لَمَّا سَرَقُوا، ووضَعُوا المَسرُوقَ في بيتِ بَرِيءٍ، وَبَّخَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على فِعْلِهِم، ووَعَظَهُم، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يَسْتَتِرونَ مِنَ النَّاسِ، ويُخفُونَ عملَهُم عنْهُم؛ لِئَلا

يَلْحَقَ بِهِمُ الضَّررُ ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يَستَتِرونَ ولا يَستَحْيُونَ مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ مُطَّلِعٌ عليهِم، عليمٌ بِهِم، يَراهُم، ويَقْدِرُ عليهِم، ومَعَ ذلكَ لا يَخافُونَهُ ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يتآمَرونَ، ويُدبِّرونَ في اللَّيلِ ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: ما يُغضِبُهُ، ويُبْغِضُهُ، مِنَ السَّرِقةِ، واتِّهامِ الأبرياءِ، وغيرِ ذلِك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ حافظًا لأعمالِهِم، سميعًا لأقوالِهِم، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنْ شأنِهِم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

بيانُ بعضِ ما كانَ عليهِ المنافقونَ مِنْ قَبيحِ الأفعالِ، وبيانُ مَكْرِهِم باللَّيلِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ شأنِ المُفسِدِينَ: التَّواطُؤَ باللَّيلِ، على ما يُنشَرُ في النَّهارِ مِنَ الإفسادِ.

وفِيها: استعانةُ الأشرارِ بالظَّلامِ، على التَّخطِيطِ لِفعْلِ السُّوءِ؛ لِيُمْعِنوا فيهِ فِكرَهُم، ويَستَعمِلُوا وقتَ صَفاءِ الأذهانِ في طاعةِ الشَّيطانِ، بعيدًا عَنْ أنظارِ النَّاسِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ شأنِ المنافِقِ: الاستخفاءَ، والتَّوارِي.

وفِيها: فسادُ حياءِ مَنْ يَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ، ولا يَستَحِي مِنَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ ضعفَ اليقينِ برقابةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يؤدِّي إلى ارتكابِ الآثامِ، وأنَّ مَنْ قَوِيَتْ مُراقَبَتُهُ لربِّه، وإيمانُهُ باطِّلاعِ اللهِ عليهِ، يَمْتَنِعُ عنِ المعصيةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ أحقُّ أنْ يُستَحْيا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ.

وفِيها: مَعيَّةُ اللهِ للعبادِ عُمُومًا، وهي مَعيَّةُ العِلمِ، والإحاطَةِ، أمَّا مَعيَّةُ النُّصرةِ، والتَّأييدِ: فهِيَ خاصَّةٌ بالمؤمنينَ.

وفِيها: أنَّ المَعيَّةَ لا تَسْتَلزِمُ الالتِصاقَ، فيُقالُ: القَمَرُ مَعَ المُسافِرِ، وهو في السَّماءِ، وهذا في الأرضِ، فرَبُّنا عَزَّوَجَلَّ -ولَهُ المَثَلُ الأعلَى- هو مَعَنا، مَعَ استِوائِهِ على عرشِهِ، فَوْقَ سَماواتِهِ، غيرُ متَّصلٍ بالخَلقِ، بائنٌ عنْهُم، وهذا كقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

ولا مُنافاةَ بَيْن العُلُوِّ، والمَعِيَّةِ، فهو مَعَنا حَقيقةً، يَسمَعُ ما نقولُ، ويَرَى ما نَفْعَلُ، لكنَّه فَوْقَنا، وهو العَلِيُّ الأعلَى.

وفي الآيةِ: حِرصُ المنافقينَ على عدمِ افتِضاحِ أمرِهِم، وأنَّهم مُستعِدُّونَ -في سبيلِ ذلكَ- لارتكابِ أنواعِ الظُّلمِ، ومِنْها: اتِّهامُ الأبرِياءِ.

وفِيها: أنَّه يَجِبُ على العبدِ التَّقيُّدُ بما يَرضاهُ اللهُ مِنَ الأقوالِ، وأنْ لا يَتَلفَّظَ بما يُسْخِطُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليْه.

وفِيها: تهديدُ العبادِ، بإخبارِهم بإحاطَتِهِ عَزَّوَجَلَّ بأعمالِهِم.

وفِيها: أنَّ الأحوالَ القبيحةَ مَحَلُّ غَضَبِ الربِّ جَلَّ وعَلا.

وفِيها: أنَّ قوَّةَ المُجتمعِ المُسلِمِ، تَحمِلُ المُفسِدِينَ على تَرْكِ المُجاهَرَةِ.

وفِيها: أنَّ قولَ اللِّسانِ يُسمَّى عَمَلًا.

وفِيها: ذمُّ مَنْ تكونُ مخافةُ الخَلْقِ عندَهُ، أعظَمَ مِنْ مخافةِ اللهِ.

وفِيها: حِلْمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه كثيرًا ما يُؤجِّلُ العاصِي، ولا يُعاجِلُهُ بالعُقُوبةِ، بَلْ يَعِظُه، ويَعرِضُ عليهِ التَّوبةَ، ويَدْعُوهُ إلى الحقِّ.

وفِيها: إثباتُ صِفةِ الرِّضا للهِ.

وفِيها: شدَّةُ إثمِ المعصيةِ المُتعدِّيةِ إلى الغَيْرِ، كخيانَتِهِ، وبُهتانِهِ، وشهادَةِ الزُّورِ ضِدَّه.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جريمةَ المنافقينَ، وكانَ بعضُ أقارِبِهِم، وقومِهِم، مِنَ المسلمينَ يُنافِحُ عنْهُم، قالَ عَزَّوَجَلَّ -داعِيًا المؤمنينَ إلَى الكَفِّ عَنْ هذا الدِّفاعِ-:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ها: حرفُ تنبيهٍ، والخطابُ لقومٍ خاصِّينَ مِنَ المؤمنينَ، والمعنى: انتَبِهُوا يا مَنْ تَذُبُّونَ، وتُدافِعونَ، عنِ المنافِقينَ، فقد ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ خاصَمتُم، ودافَعْتُم ﴿عَنۡهُمۡ﴾ عن هؤلاءِ الخَونَةِ، وحاوَلْتُم تَبرِئَتَهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ والتي يُمكِنُ أنْ يَروجَ فيها الباطِلُ، ويَقْبلَه بعضُ النَّاسِ، بزُخرُفِ القولِ، والبيانِ، والفصاحةِ ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾ وهو العليمُ بأحوالِ الخَلْقِ كافَّةً ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عندَما تَظهَرُ السَّرائِرُ

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: مَنْ هو الذي يَتَولاهُم، ويُدافِعُ عنْهُم، ويَنْصُرُهُم حينئِذٍ؟ وهذا استفهامٌ إنكارِيٌّ، جوابُهُ: لا أحَدَ سيُجادِلُ، ويكونُ وَكيلًا عَنْهُم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَنبيهُ المؤمنِينَ إِلَى عدمِ جوازِ التَّعصُّبِ، لِمَنْ هُوَ مِنْهُم، أو لِصاحِبِهم، إذا كانَ مُجرِمًا.

وفِيها: نُصرةُ الظَّالِمِ بكَفِّهِ عنْ ظُلمِهِ، وعدمِ جوازِ الدِّفاعِ عنهُ؛ لِئَلا يَتَمادَى.

وفِيها: أنَّ المُجادِلَ بالباطِلِ قد يَغْلِبُ فِي الحياةِ الدُّنيا، ويكونُ صاحبَ إقناعٍ، وفصاحةٍ، تَستَميلُ النُّفوسَ، ويلحنُ بحُجَّتِهِ؛ لِيُوهِمَ خلافَ الحقيقةِ، ولكنَّه يومَ القيامةِ يَفقِدُ كلَّ قدرةٍ على ذلكَ.

وفِيها: أنَّ كلَّ إنسانٍ -يومَ القيامةِ- مشغولٌ بنفسِهِ، فلا يَستطِيعُ الدِّفاعَ عنْ غيرِهِ.

وفِيها: أنَّ كَشفَ المَستُورِ يومَ الدِّينِ، وظهورَ الحقائِقِ، يَمنَعُ مِنَ التَّلاعُبِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا تَخفَى عليهِ خافِيةٌ.

وفِيها: تَحريمُ نَصرِ الظَّالِمِ بالباطِلِ.

وفِيها: تَحريمُ الوِكالَةِ إذا كانَ فيها تَدبِيرُ أمورِ الظَّالِمِ، والقيامُ بِشؤونِهِ.

وفِيها: إيماءٌ إلى أنَّ حُكمَ الحاكِمِ في الدُّنيا، لا يُجيزُ للمحكومِ له أنْ يأخُذَ بِهِ، إذا كانَ خِلافًا للحقِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ وكيلُ المظلومِ، يَنصُرُهُ، ولَوْ يومَ الدِّينِ.

وفِيها: الحَثُّ على التَّوكُلِ على اللهِ، والثِّقةُ في حِفْظِهِ، وكِفايَتِهِ، وحِمايَتِهِ.

وفِيها: تَحريمُ الجِدالِ، للتَّعميةِ على القُضاةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ نِعمَ الوكيلِ، و«الوكيلُ» مِنْ أسمائِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهوَ الكافِي، والمُتَولِّي لجميعِ الأمورِ، المفوَّضُ إليه تدبيرُ أمورِ عبادِه، فالخَلْقُ والأمرُ كُلُّه لَهُ.

وفِيها: أنَّ وِكالةَ البَشَرِ ناقصةٌ، أمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ: فإنَّه -كما قالَ في كتابِهِ-: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فهو رَقِيبٌ على كلِّ شيءٍ، وحافِظٌ على كلِّ أحدٍ.

وفِيها: أنَّ مُراعاةَ الآخِرةِ مُقدَّمةٌ على مُراعاةِ الدُّنيا.

وفِيها: الوعظُ والتَّذكيرُ بيومِ القيامةِ.

وفِيها: ذمُّ الجَدَلِ بالباطِلِ، وهو في اللُّغةِ: بمعنَى الفَتْلِ، ويُقالُ: رجلٌ مَجْدولٌ، أي: قويُّ البِنْيَةِ. فمعنى الجِدالِ: تَقويةُ الحُجَّةِ، التي يُدافِعُ بها الإنسانُ عن نفسِهِ، أو عنْ غيرِهِ. وقيل: الجَدالةُ: هي وجهُ الأرضِ، وسُمِّيَ ما بَيْنَ الخَصْمَيْنِ مجادلةً؛ لأنّ كلَّ واحدٍ مِنْهُما يُرِيدُ أنْ يُلقِيَ صاحبَهُ عليها. ويُقالُ: تركتُهُ مُجدَّلًا، أي: مَطرُوحًا على الجَدالةِ، وهيَ الأرضُ.

وفِيها: أنَّ موقِفَ الظَّالِمِ يكونُ مُخْزِيًا يومَ القيامةِ، ولَنْ يَجِدَ أحدًا يُدافِعُ عنْهُ.

وفِيها: الفَرقُ بَيْنَ الوِكالةِ المُمْكِنةِ بَيْنَ العبادِ، والمُستَحيلةِ، فأمَّا المُمكِنةُ: فهِيَ الاعتِمادُ على الغَيرِ في قَضاءِ الحاجاتِ، وتَحصيلِ المصالِحِ، والدِّفاعِ، والمُناصَرةِ، فيما يَستطِيعُ البَشَرُ القيامَ بِهِ، وهي جائزةٌ في الحقِّ، مُحَرَّمةٌ في الباطِلِ. وأمَّا الوِكالةُ المُستحيلَةُ في حقِّ البَشَرِ: فهي التي يكونُ فيها الوكيلُ بمعنى الكافي مِنْ كلِّ شيءٍ، والكافِلِ لكلِّ شيءٍ، والرَّقيبِ على كلِّ شيءٍ، والحافِظِ لجميعِ الأمورِ، والقائمِ بكلِّ المخلوقاتِ، وليسَ هذا إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: أنَّ الوكيلَ بالباطِلِ سيَتَبَرَّأُ مِمَّنْ وكَّلَهُ يومَ القيامةِ، ويكونُ -هُوَ ومُوَكِّلُهُ- في مَوقِفِ العاجِزِ.

ولَمَّا وَعَظَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ العبادَ، بذِكْرِ المَعادِ، وعَجْزِهِم التَّامِّ يومَ القيامةِ، رغَّبَهُم في التَّوبةِ مِنَ الذُّنوبِ، وحثَّهُم على ذلكَ، فقالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١١٠﴾.

﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا**﴾ عَملًا سيِّئًا، وسُمِّيَ سوءًا؛ لأنّ عامِلَه يَسوؤهُ ما يَلقاهُ مِنَ العقوبةِ، ولكَوْنِ العَملِ في نفسِهِ سيِّئًا، غيرَ حَسَنٍ. ﴿**أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ**﴾ بمعصيةٍ، تَختصُّ بِهِ، بَيْنَه وبَيْنَ ربِّهِ، وقيلَ: السُّوءُ: هو الذَّنبُ دونَ الشِّركِ، وظُلمُ النَّفسِ بالشِّركِ. ﴿**ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ**﴾ يَطلُبُ مغفرتَهُ بتوبةٍ صادقةٍ مِنَ السُّوءِ، والظُّلمِ ﴿**يَجِدِ ٱللَّهَ**﴾ حقيقةُ الفِعلِ: «وَجَدَ»: الظَّفرُ بالشَّيءِ، ومُشاهدتُهُ، والمُرادُ: سيتحقَّقُ، ويتأكَّدُ، مِن كَوْنِ ربِّه ﴿**غَفُورٗا**﴾ كثيرَ

المغفرةِ، والغَفْرُ: سَـتْرُ الذَّنبِ، مَعَ التَّجاوُزِ عَنْه، وكلُّ شَيْء سـترتَه فقد غفرتَه، ومنْه: المِغْفرُ، الذي يَلْبَسُـهُ المُقاتِـلُ، فيَحصُلُ بِهِ السَّـتْرُ، والوِقايةُ. ﴿رَّحِيمًا﴾ عظيـمَ الرَّحمةِ، ورحمةُ اللهِ عامَّةٌ بجميعِ الخَلقِ، وخاصّة بالمؤمِنينَ.

قـال ابـنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذِهِ الآيةِ: «أخـبَرَ اللهُ عبادَهُ بحِلْمِهِ، وعَفْوِهِ، وكَرَمِهِ، وسَـعَةِ رحمتِـهِ، ومغفرتِهِ، فمَـنْ أذنَبَ ذنبًا -صغيرًا كان، أو كبـيرًا-، ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولَوْ كانتْ ذنوبُه أعظمَ مِنَ السَّماواتِ، والأرضِ، والجبالِ»[١].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

دعوةُ جميعِ العُصاةِ إلى التَّوبةِ، حتى الكفَّارِ، والمنافِقينَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يغفِرُ الذَّنبَ، مَهْما عَظُمَ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ يغفِـرُ الذَّنبَ اللازمَ، والمُتعدِّي، سـواءٌ ظَلَمَ العاصِي فيهِ نفسَـهُ فَقَط، أو أساءَ إلى غيرِهِ[٢].

وفِيهـا: الحـثُّ علَى تَحديثِ العاصِي بأحاديثِ الرَّجاءِ في التَّوبـةِ، مَعَ تخويفِهِ بعاقبَةِ عملِهِ، كـما في هـذِهِ الآيةِ، والآيةِ التـي تلِيها، وكما في الجَمْـعِ بَيْنَ هذه الآيةِ، وبَـيْن قولِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وفِيهـا: أنَّ التَّائـبَ، النَّادِمَ، الصَّادِقَ، لَنْ يعدِمَ ربًّا، غفـورًا، رحيمًا، وقد جاءتِ امرأةٌ إلى عبـدِاللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فسـألَتْهُ عنِ امـرأةٍ فَجَرَتْ فحبلَـتْ، فلَمَّا وَلَدَتْ قتَلَـتْ وَلَدَها! قـال عبـدُاللهِ بنُ مُغَفَّـلٍ: «ما لَها؟ لَهـا النَّارُ!»فانصَرفَتْ، وهـي تَبْكِي، فدعاها، ثُـمَّ قالَ: «ما أَرَى أمـرَكِ إلا أَحَدَ أمْرَينِ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾»، فمَسَحَتْ عينَها، ثُمَّ مَضَتْ[٣].

---

(١) رواه الطبريّ (٩/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٢)، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٢٤).

(٢) قـالَ ابنُ عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسـيرِ الآيةِ: «﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ أي: ما يَسـوءُ غـيَره ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ يَعني: بالمعاصِي؛ لأنّ المَعاصِي ظُلمٌ للنّفس». تفسير سورة النّساء (٢/ ١٩٤).

(٣) رواه الطبري (٩/ ١٥٩).

وفِيها: أنَّ اللهَ يغفِرُ الذَّنبَ، ولَوْ تأخَّرت توبةُ العبدِ، ولَوْ تابَ في آخِرِ عُمرِه، ولكنَّ التَّأخِيرَ خطيرٌ؛ لأنَّه قد يَموتُ قَبْلَ أنْ يَتمكَّنَ مِنَ التَّوبةِ، وتأخيرُ التَّوبةِ هو بذاتِهِ ذنبٌ، يَستحقُّ التَّوبةَ مِنْه، ولذلكَ وَرَدَ التَّرغيبُ في إتْباعِ الذَّنبِ بوُضُوءٍ سابغٍ، وركعَتَيْنِ، يَستغفِرُ اللهَ فيهما مِنْ ذنبِهِ، فعنْ أبي بَكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتوَضَّأُ، فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غَفَرَ لَهُ**»وقَرَأَ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٣٥](١).

وفِيها: أنَّ التَّائبَ الصَّادِقَ، يَجِدُ أثَرَ التَّوبةِ في نفسِهِ، مِنْ كَراهيتِهِ للذَّنبِ، وذَهابِ داعِيهِ، ويَجِدُ أثَرَ الرَّحمةِ، بالرَّغبةِ في الأعمالِ الصَّالحةِ، والتَّشوُّقِ لِعمَلِها.

وفِيها: بيانُ المَخرَجِ مِنَ الوَرطاتِ.

وفِيها: وَعْدُ اللهِ المؤكَّدُ بقَبُولِ التَّوبةِ الصَّادقةِ.

وفِيها: كَرَمُ اللهِ بإعطاءِ التَّائبِ أكثرَ مِنْ مجرَّدِ التَّجاوزِ عَنْ ذنبِهِ، وأنه يُؤتِيهِ مِنْ رحمَتِهِ بَعدَ مغفِرَتِهِ.

وفِيها: أنَّه لا يَنفَعُ الاستغفارُ مَعَ الإصرارِ؛ وذلكَ لأنَّ التَّعبيرَ بقولِهِ: ﴿**ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ**﴾ يَدلُّ على فاصلٍ تامٍّ، أي: أنَّه تَرَكَ الذنبَ، وأقلَعَ عنه بالكُلِّيَّةِ.

وفِيها: أنَّ نفسَ العبدِ ليستْ مِلْكًا له، لِيتصرَّفَ فيها بما يَشاءُ، وإنَّما هي مِلكٌ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، جَعَلَها أمانةً عندَ العبدِ، وأمَرَهُ فيها بأوامِرَ، ونَهاهُ عَن نَواهٍ، لا بُدَّ له مِنَ الاستِجابةِ فيها لخالِقِها، ومالِكِها.

وفِيها: إعدادُ اللهِ للمغفرةِ، والرَّحمةِ، وتَهيئَتُهما للمُستغفِرينَ التَّائبِينَ، وأنَّ نَيْلَهُما قريبٌ لِمَنْ تابَ.

---

(١) رواه أحمد (٤٧) -واللفظ له- وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وحسنه، وكذا حسنه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٢٤)، والحافظ في الفتح (١١/ ٩٨).

وفِيها: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَزالُ غفورًا للذُّنوبِ، رحيمًا بالعِبادِ، ويقابِلُ السُّوءَ بالمغفرةِ، والظُّلمَ بالرَّحمةِ، لِمَنِ استغْفَرَهُ، وإليه أنابَ.

وفِيها: نِعمةُ اللهِ على هذِهِ الأمَّةِ، بسَتْرِ ذنوبِ تائِبيها، وعدمِ فَضْحِهم، وقد كان بَنُو إسرائيلَ إذا أذنَبَ أحدُهُم في المَساءِ، حَصَلَتْ له الفَضِيحةُ في الصَّباحِ، كما رَوَى ابنُ جَريرٍ عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كانَ بنُو إسرائيلَ إذا أصابَ أحدُهُم ذنبًا، أصبحَ قد كُتِبَ كفارةُ ذلكَ الذنبِ على بابِهِ، وإذا أصاب البولُ شيئًا منه، قَرَضه بالمِقراضِ»فقالَ رجلٌ: لقد آتَى اللهُ بنِي إسرائيلَ خيرًا، فقال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما آتاكُمُ اللهُ خيرٌ مِمَّا آتاهُم»ثُمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾[(١)].

وفِيها: التَّفاوتُ الشَّاسِعُ بَيْن المعصِيةِ، والاستغفارِ، وما يؤدِّي إليه كلٌّ مِنْهما، كما يَدُلُّ عليه التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾.

وفِيها: إمكانُ استدراكِ المذنِبِ لِما فاتَ، وترقِّيهِ في الكَمالِ بَعدَ تَقصيرِهِ، وظُلمِهِ لنفسِهِ.

وفِيها: أنَّ التَّائبَ الصادقَ ينعمُ بِمغفِرةِ اللهِ، ورحمَتِه.

وفِيها: أنَّ لأسماءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاتِهِ، مَعانٍ وآثارًا.

وفِيها: الدَّعوةُ إلى التَّوبةِ مِنْ ظُلمِ الغَيرِ، ولا يَتحقَّقُ هذا إلا بإعادَةِ الحقِّ له، أو التَّحلُّلِ مِنْه.

وفِيها: أنَّ التوبةَ تَصِحُّ مِنَ الذَّنبِ، ولو تَكرَّرَ؛ لقولِهِ: ﴿يَعْمَلْ﴾ و﴿يَظْلِمْ﴾ فكُلَّما أساءَ، وتابَ، تابَ اللهُ عليْهِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ قد يكونُ عدُوًّا لنفسِهِ.

وفِيها: أنَّ الاستغفارَ لا يكونُ باللِّسانِ فقط، بل لا بُدَّ من تَحقُّقِ شُرُوطِه، قال الحافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الِاسْتِغْفارُ بِاللِّسانِ مَعَ التَّلَبُّسِ بِالذَّنْبِ كالتَّلاعُبِ»[(٢)].

---

(١) رواه الطبريّ في تفسيره (٩/ ١٩٥)، وإسنادُه صحيح. وقال الماورديّ في تفسيره (١/ ٤٢٤): «سهّل اللهُ على هذِه الأمةِ ما شَدّد على بَني إسرائيلَ، إذْ كانوا إذا أذنَبَ الواحدُ منهُم أصبحَ مَكتوبًا علَى بابِه مِن كفارَةِ ذنبِه: اجدَعْ أنفَك، اجدعْ أُذنَك، ونَحو ذَلك، فجُعل الاستغفارُ. وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ، وعطاءِ بنِ أبي رَباح».

(٢) فتح الباري (١١/ ٩٩).

وفِيها: تَذكيرُ مَنْ سَرَقَ ورَمَى بَريئًا بهذِهِ الآيةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ جمَعَ بَينَ ظُلمِهِ لنفسِهِ، وظُلمِهِ لِغيرِهِ، فَعَلَيْهِ الاستزادةُ مِنَ التَّوبةِ، والاستغفارِ.

وفي قوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تعجيلُ وقوعِ المأمولِ، وتحقُّقُهُ.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التَّرغيبَ أتبعَهُ بذِكْرِ التَّرهِيبِ؛ لتكتَمِلَ الموعظةُ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ أي: يَعمَلْ، والكَسْبُ: هو ما يَتَحرَّى فِيهِ العامِلُ جَلْبَ منفَعَةٍ، وقد يُستعمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يَنفعُهُ، وهو في الحقيقةِ مَضَرَّةٌ عليه ﴿إِثْمًا﴾ أي: ذنبًا، ويَشمَلُ الكبائِرَ، والصَّغائِرَ، ويَشمَلُ ما فَعَلَهُ مُباشَرَةً مِنَ الإثمِ، وما يَتَسبَّبُ فيهِ، كأنْ يكونَ دالًّا أو مُعِينًا عليهِ ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لا على غيرِهِ، والمعنى: أنَّه -بارتكابِهِ للذَّنبِ- يَضُرُّ نفسَهُ وحدَها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بما في قُلوبِ النَّاسِ، وبما يَكسِبونَهُ مِنْ أقوالٍ، وأفعالٍ، وبما لَدَيْهم مِنَ التَّوبةِ، أو الإصرارِ ﴿حَكِيمًا﴾ بالِغَ الحِكمَةِ، ومِنْ ذلكَ: أنَّ حِكمَتَهُ اقتَضَتْ أنْ لا تَحْمِلَ نفسٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرَى، ولا يَضُرَّ المذنبُ إلا نفسَهُ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وبالُ الآثامِ على نُفوسِ كاسِبِيها.

وفِيها: حِكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القضاءِ بَيْنَ عبادِهِ.

وفِيها: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكْتَسِبُ السَّيئاتِ، ويَزرَعُ، ويَحصُدُ، شَرًّا.

وفِيها: أنَّ النَّفسَ تُحاسَبُ على ما عَمِلَتْ، لا على ما عَمِلَهُ الآخرونَ.

وفِيها: أنَّ الكَسْبَ -كما يكونُ في الخيرِ، كما في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]- فكَذلِكَ يكونُ في الشَّرِّ، كما في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وكما في هذِهِ الآيةِ.

وفِيها: عِلمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأحوالِ العبادِ عندَ اكتِسابِ الذُّنوبِ، مِنَ العَمدِ، والخَطَأِ،

والعِلْـمِ، والجَهْـلِ، والخَـوْفِ، وغَلَبَةِ النَّفـسِ الأمَّارةِ بالسُّـوءِ، والجُرأةِ، والاستِخفافِ، والاستِهانَةِ، وغيرِ ذلِك.

وفِيهـا: أنَّ ضَـرَرَ الذَّنـبِ -صغيـرًا كانَ، أو كبيـرًا- يَعودُ على فاعِلِـهِ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، ومِمَّـا يَغْفُـلُ عنه كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: أنَّ السُّـكوتَ عَنْ ذُنوبِ الغَيْرِ، وعدَمَ الإنـكارِ عليْهِم، مِن الذّنوب، وأنَّ الذُّنوبَ كما تكونُ في الفِعلِ، كذلك تكونُ في التَرْكِ.

وفِيها: عِلمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بجميعِ ما يَكسِبُ العبادُ.

وفِيها: وَضْعُهُ عَزَّوَجَلَّ الأشـياءَ في مواضِعِها اللائِقةِ بِها، فلا يُعاقِبُ بَريئًا، ولا يُؤاخِذُ أحدًا بذَنْبِ غيرِهِ، فلَوْ قالَ قائلٌ: فما بالُ مَنْ ضَـرَبَ، وشَتَمَ، وسَرَقَ، إذا لَمْ تَكْفِ حَسَناتُه، لإعطاءِ مَنْ ظَلَمَهُم يومَ القيامَةِ، فإنَّه يُحمَلُ عليهِ مِنْ سـيِّئاتِهِم، وهو لَمْ يَكْسِـبْها؟ فالجوابُ: أنَّه حَمَلَها بعَمَلِـهِ، وحَمَـلَ إثمَ غيرِهِ بحقٍّ، لا بغيرِ حقٍّ، فليسَ في هذا تَحمِيلًا لـبَرِيءٍ إثمَ غيرِهِ، وإنَّما هُوَ تَحميلُ الظَّالِمِ آثامَ المَظلُومِينَ، مِنْ بابِ المُقاصَّةِ، والمُجازاةِ؛ ولذلك لا يَحمِلُ مِنْ سـيِّئاتِهِم إلا بقَدْرِ ما بَقِيَ عليهِ مِنْ أداءِ حُقُوقِهِم.

وفِيها: أنَّ الكَسـبَ: عَمَلُ ما يَجْلِبُ منفعةً، أو يَدفَعُ مَضَرَّةً؛ ولذلك لا يَجوزُ التَّعبيرُ بِهِ في حقِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفِيها: أنَّ بعضَ النَّاسِ يَرَى أنَّه يَنتَفِعُ بالسَّيِّئاتِ، ويَستفِيدُ مِنْها، وهذا ظاهِرُ الأمرِ لَهُم في الدُّنيا، ككَسْـبِ تجارةِ الخَمرِ، والمالِ الذي يُحَصِّلُهُ السَّـارِقُ، والغاصِبُ، واللَّذةِ التي يَجِدُها الـزَّانِي، ولكنَّهـا في حقيقةِ الأمرِ وبالٌ على العبـدِ في دُنياهُ -وإنْ لَمْ يَشـعُرْ بذلكَ- وفي آخِرَتِهِ -وإنْ لَمْ يُؤمِنْ بذلكَ-.

وفِيهـا: عاقبـةُ مَنْ جَهِلَ عواقبَ الآثامِ في الدُّنيا والآخرةِ، مِـنَ الفَضِيحةِ، والمَهانةِ، بَيْنَ النَّـاسِ، أو الحَـدِّ، والتَّعزِيـرِ، والعُقوبةِ المُعَجَّلَـةِ في الدُّنيا، والحِرمانِ مِـنَ التَّوفِيقِ، وضِيقِ الصَّدرِ، ونحوِ ذلكَ، أو العُقُوباتِ المُؤجَّلَةِ في البَرْزَخِ، ثُمَّ بَعدَ قيامِ السَّاعةِ.

وفِيها: أنَّ العاصِي لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، كما أنَّ الطَّائِعَ لا ينفَعُ اللهَ شيئًا.

وفِيها: أنَّ للذُّنوبِ عُقُوباتٍ مُعيَّنةً عندَ ربِّ العالَمِينَ، ومِنْ عدلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أنْ لا يُعاقِبَ أحدًا أكثرَ مِنَ العقوبةِ النَّاشئةِ عنْ ذَنْبِهِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ عِلْمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وحِكمَتِهِ: التَّفاوُتَ في عقوباتِ المُذنِبينَ، بِحَسَبِ ذُنُوبِهِم وأحوالِهِم عندَ ارتِكابِها.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإثمَ اللازِمَ للنَّفسِ، أتبَعَهُ بِذِكْرِ الإثمِ المُتَعدِّي إلى الغَيرِ، مَعَ بيانِ حُكمِهِ، وعاقِبَتِهِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ يَقْتَرِفْ، ويَعْمَلْ ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾ قيل: هيَ الصَّغيرةُ، وقيل: ما كانَ عنْ خَطَأٍ، وقيلَ: ما يَفْعَلُهُ العاصِي باستِخفافٍ، واستِهانةٍ، وقيلَ: الذَّنبُ المتعدّي إلى الغَيرِ، وقيلَ بالعكْسِ ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ قيلَ: هُوَ الكَبيرةُ، وقيلَ: ما كانَ عنْ عمْدٍ، وقيلَ: هو الفِعلُ المُبطِّئُ عنِ الثَّوابِ، وقيلَ: الذَّنبُ المُتَعدِّي، وقيلَ بالعكْسِ. وقيلَ: الخَطيئةُ والإثمُ بمعنى واحدٍ، لكنْ إذا اجتَمَعا في سِياقٍ واحدٍ، فيكونُ التَّفريقُ بَيْنَهما بنحْوِ ما تَقدَّمَ؛ لأنَّه ليسَ في القرآنِ تَكرارٌ لا فائِدَةَ مِنْهُ، والأصلُ في العَطْفِ: أنّه يَقتَضِي المُغايرةَ ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي: يَبْهَتْ، ويَتَّهِمْ، والرَّميُ: هو القَذْفُ، وفي الأمثالِ: «رَمَتْنِي بدائِها وانْسَلَّت»(١)، وفي التَّنزيلِ الحكيمِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤]، فكأنَّ الفاعِلَ هُنا يَنزِعُ الإثمَ عَنْ نفسِهِ، ويَرْمِي بِهِ ﴿بَرِيٓـًٔا﴾ أي: سالِمًا مِنْ تلكَ الخَطِيئةِ، وذلك الإثمِ، والبَرِيءُ: المُتَّهَمُ بالذَّنبِ، ولَمْ يُذْنِبْ ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ أي: كَلَّفَ نفسَهُ بحَمْلِ وِزرٍ ﴿بُهْتَٰنًا﴾ وهو الكَذِبُ على الأبرياءِ، واتِّهامُهُم بما لَمْ يَفعَلُوه، والبُهتانُ: مأخُوذٌ مِنَ البَهتِ، وهو: الدَّهَشُ، والتَّحيُّرُ، مِنْ فَظاعةِ ما يُرمَى بِهِ كَذِبًا، وقد قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَديثِ الغِيبةِ: «**إنْ كانَ فِيهِ ما تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(٢).

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنبًا واضِحًا، لا خَفاءَ فِيهِ، والتَّنكِيرُ هنا؛ لِتهويلِ الأمرِ، وتَفظِيعِهِ.

---

(١) هوَ مَثَلٌ يُضربُ في تَعييرِ الرّجلِ صاحِبَه بِعيْبٍ هُو فِيه. انظُر: كتاب الأمثال لابن سَلام (ص١٠).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

شناعةُ الجَمعِ بَيْنَ ارتكابِ الذَّنبِ، واتِّهامِ الأبرياءِ بِهِ.

وفيها: سُوءُ ما فَعَلَهُ بَنُو أُبَيْرِق، مِنَ الجَمعِ بَيْنَ السَّرِقَةِ، واليمينِ الكاذِبَةِ، أو جَعْلِ المَسرُوقِ في بَيتِ بَرِيءٍ؛ لِيُتَّهَمَ بِهِ.

وفيها: ثِقَلُ الأوزارِ، والآثامِ، على ظُهُورِ فاعِلِيها، وشناعةُ وسُوءُ عاقبةِ أصحابِ الخَطايا، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَحَطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وفيها: أنَّ تَعَمُّدَ الذَّنبِ، والإصرارَ عليهِ، يُبَطِّئُ عَنِ التَّوجُّهِ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالاستغفارِ، والتَّوبةِ.

وفيها: خُطورةُ التَّعوُّدِ على ارتكابِ السَّيِّئاتِ.

وفيها: احتيالُ الظَّالمينَ، والمنافِقِينَ؛ لترويجِ الكَذِبِ، وإلصاقِ التُّهمَةِ بالأبرياءِ.

وفيها: وجوبُ نُصرةِ الأبرياءِ، وخُصوصًا عندَما يَقَعُونَ في الحَيْرَةِ، والدَّهشَةِ، مِمَّا رُمُوا بِهِ.

وفيها: شناعةُ البُهتانِ؛ لأنَّه ارتكابُ إثمٍ، ورمْيُ البريءِ بفِعْلِهِ، وتَبرِئَةُ النَّفسِ الكاذِبَةِ الخاطِئَةِ، والتَّسبُّبُ في ظُلمِ الغَيرِ، ورُبَّما إيقاعُ عقوبةٍ عليهِ، أوْ وقوعُ النَّاسِ فيهِ، وتلويثُ سُمْعَتِهِ.

وفيها: الجُرمُ العظِيمُ باتِّهامِ الصَّادِقِ بالكَذِبِ، والأمينِ بالخِيانةِ، والمُوحِّدِ بالشِّركِ، والعَفِيفِ بالفاحِشَةِ، والمُخلِصِ بالنِّفاقِ، والمُراءاةِ، ورَمي المُستَمْسِكِ بدِينِهِ بالغُلُوِّ، والتَّشَدُّدِ.

وفيها -مع الآيتين قبلها-: ذِكْرُ أحوالِ العُصاةِ، وأنواعِ الذُّنوبِ.

وفيها: أنَّ السَّيِّئاتِ تَتَضاعَفُ بحَسَبِ إيذائِها، ومَدَى بُلُوغِها في الإساءَةِ، والتَّعمُّدِ، وبحَسَبَ حالِ المُؤذِي، والمُؤذَى.

وفِيها: تَهويلُ أفعالِ المُجرمينَ؛ وعظًا لهُم، ولعلَّهُم يَشعُرُونَ بجُرمِ ما فَعَلُوهُ.

وفِيها: ذمُّ الكَذِبِ، ودخولُهُ في الآثامِ المُرَكَّبَةِ.

وفِيها: تَبْرِئَةُ القرآنِ لِمَنِ اتُّهِمَ ظُلمًا، وبُهتانًا، مِنَ الصَّحابةِ، كلَبيدِ بنِ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذِهِ القِصَّةِ، وعائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قِصَّةِ الإفكِ.

ولَمَّا وَعَظَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذِكْرِ الخيانةِ، وحذَّرَ، ونَهى، وأمَرَ، بَيَّنَ نعمتَهَ على نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في عِصمَتِهِ لـه مِنْ مُخالفَةِ الحقِّ، ومُجانبَةِ الصَّوابِ، بالرَّغمِ مِنْ مُحاولةِ مَنْ أرادَ ذلكَ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الفضلُ: العطاءُ الواسِعُ، فلولا فضلُ اللهِ، وإحسانُهُ، ونعمتُه ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالنُّبوَّةِ، والتَّأييدِ بالعِصمةِ، وإحاطتِكَ عِلمًا، بما يُبيِّتُونَه مِنْ سُوءٍ ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بكَ، ببيانِ حقيقةِ الواقِعِ، وما عليهِ القَوْمُ: ﴿لَهَمَّت﴾ وقَصَدَتْ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ أي: جماعةٌ ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: مِنَ الخائِنينَ ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عنِ الحُكمِ العادِلِ، والمخاصمةُ عنِ المُبطِلِ مِن الضَّلالِ، فإنَّ الضّلالَ نَوعانِ: ضَلالٌ في العِلمِ، وهو الجَهلُ بالحَقِّ، وضلالٌ في العَملِ، وهُو العَملُ بغيرِ ما شرَعَ اللهُ، وقدْ حَفظَ اللهُ رسولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الضّلالِ كلِّه ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بسبَبِ تعاوُنِهم على الإثمِ، والعُدْوانِ، وشَهادةِ الزُّورِ، والبُهتانِ، وبمُحاولَتِهم إخفاءَ الحقِّ، والدِّفاعِ عنِ الخائِنِ، والتَّحايُلِ لاتِّهامِ الغَيْرِ، والسَّعيِ في إخفاءِ الحقيقةِ، وإرادةِ التَّلبيسِ والتَّدليسِ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوِزْرُ هذا كلِّه عليهِم، ولهُم سُوءُ العاقِبَةِ. ويُقالُ: ضَلَّ الطَّريقَ، أي: تاهَ، ولَمْ يكنْ سَيْرُه على بيِّنةٍ.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنَّ اللهَ عَصَمَكَ مِنْ ذلكَ، وكُنتَ قد عَمِلْتَ بالظَّاهِرِ في أوَّلِ الأمرِ، ثُمَّ نَزَلَ الوَحْيُ ببيانِ الحقيقةِ، فلا يَضُرُّكَ اجتهادُكَ أوَّلًا، و (مِنْ) زائدةٌ؛ لتأكيدِ النَّفيِ،

فقولُه: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يفيد العُمومَ، فالمعنَى: لا يَضُرُّونَكَ شيئًا مُطلقًا[1]. ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآنَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السُّنَّةَ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ مِنْ أمورِ الدِّينِ، وأخبارِ الأوَّلينَ، والآخِرينَ، وخَفيَّاتِ الأمورِ، وهذا كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وكقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وكقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وهذا يَشْمَلُ: إرسالَه للنَّاسِ كافَّةً، وخَتْمَ النَّبيِّينَ بِهِ، وخصائِصَهُ، وشَمائِلَهُ، وكلَّ ما آتاهُ اللهُ مِنْ أنواعِ الفضلِ والنِّعمةِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

مِنَّةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على نبيِّهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ التَّسديدَ للحقِّ، والفَهْمَ للمَسائِلِ، والقَضايا، والعِلمَ بالأحكامِ، هو مِنَّةٌ مِنْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تَستلزِمُ شُكرًا مِنْ أهلِ العِلمِ، والقضاءِ، فلا يُصابُونَ بِعُجْبٍ، أوْ غُرُورٌ.

وفِيها: اللُّجوءُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ للعِصمةِ مِنَ الضَّلالِ، والظُّلمِ.

وفِيها: أنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ الإضرارَ بالنبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معرِفةِ الحقِّ، والصَّوابِ.

وفِيها: أثَرُ القرآنِ، والوَحْيِ، على النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنَّقلةُ العظيمةُ التي حَصَلَتْ له بإنزالِهِ عليه.

وفِيها: أنَّه لا يَهَبُ النبوَّةَ إلا اللهُ، فلا تُكتَسَبُ برياضةٍ، ولا تعليمٍ.

وفِيها: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ الكتابَ، والسُّنةَ، فلا يَضِلُّ عنِ الحقِّ، ولا يَزيغُ عنهُ.

---

(١) قالَ ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(مِنْ) هذه: زائدةٌ إعرابًا، وزائدةٌ للمعنَى، والزيادةُ في الإعْرابِ: هُو أنّه لَو حُذفت لاستقامَ الكلامُ، فلَو كانَ في غَيرِ القرآنِ وقِيل: ما يَضرّونَكَ شَيئًا: لَصحّ الكلامُ، وهي زائدةٌ مِن حيثُ المعنَى، يَعني: تَزيدُ في المَعنَى؛ لأنّ الحروفَ الزائدةَ مِن أدواتِ التوكيدِ، فهِي تؤكدُ المعنَى، ولِهذا نَقولُ: إنّ قولَه: (شَيْئًا) هنا: نَكرةٌ في سِياقِ النفيِ، فتُفيد العمومَ، فإذا دَخلَت عليها: (مِنْ) كانَت نَصًّا في العُمومِ، كـ (لا) النَّافية للجِنس». تفسير سورة النساء (٢/ ٢٠٧ -٢٠٨).

وفيها: إفشالُ اللهِ لمؤامَراتِ المنافِقينَ، وكَيْدِ مَنْ تَعَصَّبَ لَهُم.

وفيها: أنَّ الجِدالَ بالباطِلِ، واستعمالَ زُخرُفِ القَوْلِ، قد يُضِلُّ الحاكِمَ عنْ معرِفةِ الصَّوابِ، والقضاءِ بالحقِّ.

وفيها: أنَّ المنافِقينَ يَسْعَوْنَ للتَّلبيسِ، والتَّدلِيسِ، والتَّشوِيشِ، على أهلِ العِلمِ، كما قال في الآيةِ الأُخرَى: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨].

وفيها: التَّحذيرُ مِنَ الضَّلالِ في العِلمِ، وهو الجَهْلُ بالحقِّ، ومِنَ الضَّلالِ في العَمَلِ، وهو الإتيانُ بما لا يُحِبُّهُ اللهُ مِنْهُ.

وفيها: أنَّ الكَيْدَ بالباطِلِ يَحِيقُ بصاحِبِهِ.

وفيها: التَّحذيرُ مِنَ التَّعاوُنِ على الإثمِ، والعُدوانِ، بمُحاولةِ الدِّفاعِ عنْ الخائِنِينَ، واتِّهامِ الأبرياءِ.

وفيها: التَّنويهُ بمكانَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنزِلَتِهِ العالِيةِ.

وفيها: أنَّ الحاكِمَ إذا قَضَى باجتِهادِهِ -وهو أهلٌ للاجتهادِ- وأخَذَ بالظَّاهِرِ، فإنَّهُ غيرُ مَلُومٍ، ولا آثِمٍ.

وفيها: انفِرادُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعِلمِ خَفايا الأمورِ.

وفيها: أنَّ البَشَرَ -مَهْما أُوتُوا مِنَ القُوّةِ، والعِلمِ- فإنَّهم يَزيغُونَ، ويَضِلُّونَ، إذا لَمْ يأتِهِم مِنَ اللهِ تَسدِيدٌ، وتوفِيقٌ، وتفهِيمٌ، وتعليمٌ.

وفيها: أنَّ وَبالَ الشَّرِّ يَعودُ على صاحِبِهِ.

وفيها: أنَّ العِلمَ أشرفُ الفضائِلِ.

وفيها: أنَّ التَّوفيقَ لِفِعلِ ما يحبُّه اللهُ، والعِصمَةَ منَ الوقوعِ فِي المُحرَّمِ، هو فضلٌ عظيمٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفيها: سَعيُ المنافِقينَ لاستِصدارِ الأحكامِ لِصالِحِهم.

وفيها: تَسميةُ السُّنَّةِ النبويَّةِ بالحِكمةِ.

وفِيها: أنَّ السُّنَّةَ وَحيٌ كالقرآنِ.

وفِيها: تَذكيرُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأُمَّتِهِ، بفضلِ اللهِ عليهِم؛ لِيشْكُرُوه.

وفِيها: عِنايةُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى بنبيِّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ إذْ تولَّاهُ بفضلِهِ، وكَفاهُ غائلةَ عدوِّهِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ صاحبُ الفضلِ على كلِّ الخَلْقِ.

وفِيها: أهمِّيَّةُ مَعرفةِ حقيقةِ الواقعِ، والسَّعْي في إدراكِ خَبايا الأمورِ، قَبْل إصدارِ الأحكامِ.

وفِيها: أهمِّيَّةُ فِقهِ مَقاصِدِ الدِّينِ، وعِلَلِ الأحكامِ.

وفِيها: أن فضلَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ، والفَضْلُ: هو العَطاءُ الزَّائدُ، وليسَ مجرَّدَ العَطاءِ فقط.

وفي الآيةِ: إثباتُ الرَّحمةِ الخاصَّةِ.

وفِيها: أنَّ النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُحتاجٌ لفضلِ اللهِ، ورحمَتِهِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَتفضَّلُ على مَنْ يشاءُ مِنْ أهلِ العِلمِ، والحُكمِ، فيُبيِّنُ لهم الحقَّ بعدَ أنْ كانوا يَرَوْن غيرَه، وقد يكونُ ذلكَ بأمرٍ يُقدِّرُ انكِشافَهُ لَهُم، أو يُلقِيهِ في أنفُسِهِم، ويُلْهِمُهُم إيَّاهُ، أو أنْ يُيَسِّرَ لهم مَنْ يَدُلُّهُم عليهِ، ونحوِ ذلكَ.

وفِيها: أنَّ على الإنسانِ -وخُصوصًا في مَوقِعِ القَضاءِ، والحُكمِ- أنْ لا يَغْتَرَّ بظاهِرِ الحالِ.

وفِيها: تَسمِيةُ القرآنِ بالكتابِ؛ وذلكَ لأنَّه مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي صُحُفِ الملائكةِ، وفي المصاحِفِ التي بأيدِينا.

وفِيها: أنَّ مصدرَ عِلمِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو مِنَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى، فقد علَّمَهُ ما لَمْ يَكُنْ يَعلَمُه مِنْ قَبْلُ، ولا يَلزَمُ أنْ يكونَ قد علَّمَهُ كلَّ شيءٍ، كغَيْبِ المُستقبَلِ مُفصّلًا.

وفِيها: عِصمةُ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ كلِّ كَيْدٍ، ومَكْرٍ.

ولَمَّا فَضَحَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى المنافِقينَ في هذِهِ الآياتِ، وذَكَرَ تَبْييتَهُم باللَّيلِ ما لا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ، واستِسْرارَهُم فيما بَيْنَهم بالباطِلِ، حذَّرَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مِنَ التَّناجِي بالشَّرِّ، وحَثَّ عبادَه المؤمنينَ على التَّناجِي بالخَيرِ، والإخلاصِ في ذلك، ووَعَدَهم عليهِ أجرًا عظيمًا، فقالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قولُـهُ ﴿لَّا خَيْرَ﴾ لا: نافيـةٌ للجِنْسِ[1]، وإذا لم يَكُن فِيه خيرٌ، فإمَّـا لا فائدةَ فيه، وإمَّا شرٌّ ومَـضرّةٌ مَحضـةٌ. ﴿فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ مـا يُسِرُّونَ بِـهِ مِنَ الحديـثِ. والنَّجوَى: هي الإسرارُ بالحديـثِ، أو هي الإسرارُ في التَّدبيرِ، وقيـلَ: النّجوَى: مِنَ النَّجوَةُ: وهيَ ما ارتَفعَ مِـن الأرْضِ، سُـمِّيتْ بذلكَ؛ لانفِرادِها عـمَّا حَوْلَـها، فالمُتناجُونَ يَنفَـرِدونَ بالحدِيثِ دونَ مَـن سِـواهُم، ومعنى الآيةِ: لا خَـيْرَ في كَثيرٍ ممَّا يَتَناجَى بِهِ هؤلاءِ، وهـذا احترازٌ عنِ القَليلِ، الذي قدْ يُوجَدُ فيهِ خَيْرٌ ﴿إِلَّا﴾ تَناجِي ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ التَّنكيرُ للتَّعمِيمِ، والمعنى: صَدَقةٍ واجبـةٍ، أو مندوبـةٍ، قليلةٍ، أو كثيرةٍ، ونحوِ ذلكَ ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ مـا عَرَفَهُ الشَّرعُ، وتَعارَفَ عليـهِ النَّاسُ، مِنْ أصنافِ البرِّ، وأنـواعِ الخيرِ، فَهُوَ أعمُّ مِنَ الصَّدقةِ، والإصلاحِ، فَهُوَ مَعَ ما قَبْله مِنْ بابِ عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، ومعَ ما بَعدَه مِنْ بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ﴾ إزالةِ الفسادِ، والعَداوةِ ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ عندَ وقوعِ المُشاحنةِ، والمُعاداةِ بَيْنَهم، ولفظةُ: (النَّاسِ) عامَّةٌ، تشـمَلُ المسـلمينَ، والكفَّـارَ، وقالَ بعضُهُم: إنَّ المُرادَ: المسـلمونَ خاصَّـة، كقولِـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقولِـهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقـد وَرَدَ في موضـوعِ هذِهِ الآيةِ -أيضًـا- قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩].

ثُـمَّ نَـدَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى الإخـلاصِ في هـذِهِ الأعـمالِ الصالحـةِ، فقـالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ما سَبَقَ مِنَ الأمرِ بالصَّدقةِ، والمعروفِ، والإصلاحِ، وفي استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبَعيـدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بيانٌ لِرفعةِ منزلةِ هذِهِ الأعمالِ ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلبًا لِرضوانِه، لا رِيـاءً، وسُـمعةً ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ نُعطِيهِ في الآخـرةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثوابًا جزيلًا على عَمَلِه.

---

(١) وتُسـمّى -أيضًا- لا التّبرئة؛ لتَبرئةِ أفرادِ الجنسِ عنْ حُكم الخَبرِ. وهِي تختصّ بهذه التّسـميةِ؛ لقوةِ دِلالتِها على النفيِ المُؤكدِ، أكثَر مِن غيرِها مِن أدواتِ النّفيِ الأُخرى.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

بيانُ الشَّرعِ للخَيْرِ، والشَّرِّ.

وفِيها: الحَثُّ على الأمرِ بالخَيْرِ، وتَشجِيعُ النَّاسِ عليه.

وفِيها: فضلُ الإخلاصِ، وما يؤدِّي إليهِ مِنْ حُصُولِ صاحبِهِ على الأجرِ العظيمِ.

وفِيها: أنَّ التَّناجِي بالشَّرِّ مِنْ طبيعةِ المنافقينَ، وقد قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهُم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨]، وقد حَصَلَ ذلكَ مِنَ اليهودِ، والمنافقينَ؛ لإدخالِ الحُزْنِ على المؤمنينَ، وحيثُ إنَّ النَّجوَى تَبعَثُ على الرِّيبةِ في مقاصِدِ المُتَناجِينَ؛ فهي -لذلكَ- غالبةٌ على أهلِ الرِّيَبِ، والشُّبهاتِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ يَتَناجَى بالسُّوءِ لا خَيْرَ فِيهِ.

وفِيها: الأمرُ بجميعِ أنواعِ الصَّدقةِ، ومِنْها: الصَّدَقةُ على النَّفسِ، بحِفْظِها حقوقَ اللهِ، ومَنْعِها مِنْ مُخالفةِ أمرِهِ، والصَّدقةُ على الغَيْرِ، بالبَدَنِ بالخِدْمَةِ، وبالنِّعمةِ بالمالِ، وبالقلبِ بِحُسْنِ الظَّنِّ، وإرادةِ الخَيْرِ، وكذلكَ الصَّدقةُ بالعِلمِ، والجاهِ، ونَحوِ ذلكَ.

وفِيها: الحَثُّ على المُبادرةِ إلى عملِ الخَيرِ؛ خَشيةَ فواتِهِ، أو العَجزِ عنهُ.

وفِيها: فضلُ الإصلاحِ بَيْنَ النَّاسِ، والأعمالِ المُتعدِّيةِ النَّفعِ عُمُومًا.

وفِيها: أنَّه يَنبغِي على العبدِ أنْ يَقصِدَ وجهَ اللهِ في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ عملٍ مِنْ أعمالِ البرِّ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أمَرَ بخيرٍ مُحتَسِبًا يؤجَرُ، سَواءٌ ظَهرتْ نتيجةُ عملِهِ، أم لا.

وفِيها: فضلُ بَذْلِ المالِ، وإزالةِ فَسادِ ذاتِ البَيْنِ، والاعْتناءُ بِهِما مِنْ بَيْنِ أعمالِ البرِّ عُمُومًا.

وفِيها: فضلُ بَذْلِ المحبوبِ، كالمالِ في الصَّدَقةِ.

وفِيها: الحَثُّ على دَعوةِ النَّاسِ لِفعلِ الخيرِ، وتَرغِيبُهم فِيهِ، وحَمْلُهم عليهِ.

وفِيها: شَرَفُ العَمَلِ بالعِلْمِ.

وفِيها: رعايةُ أحوالِ القلبِ في الأعمالِ، وتصفيةُ النُّفوسِ عنِ الالتِفاتِ إلى ما سِوَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عندَ عملِ الخيرِ.

وفِيها: الحَذَرُ مِمَّا يكونُ في الاجتِماعاتِ السِّرِّيَّةِ؛ لِما يَشتَمِلُ عليهِ كثيرٌ مِنْها مِنَ السُّوءِ، وأنَّها تكونُ محمودةً إذا صارَ فيها التَّواصِي بالحَقِّ، وبالصَّبرِ.

وفِيها: الحثُّ على عَدَمِ إظهارِ العِباداتِ، التي يُشرَعُ الإسرارُ بِها، كالإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، وعدمِ التَّصريحِ بها، كقولِهِم: تَصَدَّقْنا، وساعَدْنا، ومَنَحْنا.

وفِيها: فضلُ المصلحةِ المُتعدِّيةِ بجَلْبِ المنفعةِ للمُسلمينَ، كالصَّدقةِ، ودَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُم، كالإصلاحِ بَيْنَ المُتخاصِمَيْنِ.

وفِيها: أخْذُ الحَيْطةِ، والحَذَرِ، مِنَ المُتَسارِّينَ؛ إذْ إنَّ نجواهُم كثيرا ما يَغلِبُ عليها الشَّرُّ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وكَرِهتَ أنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ**»[١].

وفِيها: فضلُ الإصلاحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِما يؤدِّي إليهِ مِنْ حِفظِ الدِّماءِ، والأعراضِ، والأموالِ.

وفِيها: التَّقرُّبُ إلى اللهِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وابتِغاءُ الوسيلةِ إليهِ بِها، كما جاءَ في الآيةِ الأخرَى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وفِيها: أنَّ العملَ الجليلَ لا يَنتَفِعُ بِهِ صاحِبُهُ، إلا إذا كانَ خالِصًا لله.

وفِيها: تشاوُرُ المؤمنِ مَعَ خاصَّتِهِ في عملِ الخيرِ، وأنَّ كثيرًا مِنْ أعمالِ البرِّ تَحتاجُ إلى تَعاوُنٍ، ولا يَستطِيعُ الواحِدُ أنْ يَقومَ بها بمُفرَدِهِ.

وفِيها: مُراعاةُ أحوالِ الباطِنِ، عندَ أعمالِ الظَّاهِرِ.

وفِيها: حَثُّ مَنْ له قُوَّةٌ، أو سُلطانٌ، على استعمالِ مكانتِهِ في الأمرِ بالخَيرِ، وحَمْلِ النَّاسِ عليهِ.

وفِيها: خَيْرِيَّةُ مَنْ يَتَسبَّبُ بِفِعلِ الغَيرِ للخَيرِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

وفِيهـا: فضلُ الجَمعِ بَيْن هـذِهِ الأعمالِ الثَّلاثةِ المذكورةِ في الآيـةِ، ويَحصُلُ الأجرُ لَوْ أمَرَ بواحِدَةٍ مِنْها، ولكنَّ أجرَ الجامِعِ بَيْنَها أعظَمُ.

وفِيها: حِمايةُ المُجتَمعِ الإسلاميِّ مِنْ تدبيرِ الخِياناتِ، وإخفاءِ الشُّرورِ، وإيقاعِ الحُزنِ في نُفوسِ أفرادِهِ، وذلك بمَنْعِ النَّجوَى وتحريمِها، إلا في الخَيرِ.

وفِيهـا: الحَذَرُ مِمَّـا لا فائدةَ فيهِ، كبعـضِ التَّناجِي، وفُضُولِ الكلامِ المُبـاحِ، فإنَّ الأمورَ ثلاثةٌ: إمَّا خَيرٌ، وإمَّا شَرٌّ، وإمَّا لا لَهُ ولا عليهِ، وهِمَّةُ المؤمنِ تَسعَى إلى فِعْلِ ما فِيهِ خَيرٌ، وتَرْكِ ما سِوَى ذلكَ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ: الإعلانُ، والإفصاحُ، والمُصارحةُ، بالخيرِ، فلا يُلجَأُ فيهِ إلى التَّناجِي، إلا إذا غَلَبَتِ المصلحةُ.

وفِيها: أنَّ الخُلطَةَ بالخيرِ مُقدَّمةٌ على العُزلَةِ.

وفِيها: الإشـارةُ إلى مفهومِ المُخالفةِ، وأنَّ نَفْيَ الشَّيءِ إثباتٌ لضِدِّهِ، والأمرَ بالشَّيءِ نَهْيٌ عنْ ضِدِّهِ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ.

وفِيهـا: فضلُ الصَّدقةِ؛ لأنَّها سـببٌ في: تَزكيةِ المالِ، ونَفْعِ الآخَريـنَ، وتَطهيرِ النَّفسِ مِنَ الشُّحِّ.

وفِيها: أنَّ الأمرَ بالمعروفِ، إذا لَمْ يُقرَنْ بِهِ النَّهيُ عَنِ المُنكَرِ، دَخَلَ فِيهِ النَّهيُ عنِ المُنكَرِ؛ لأنَّ تَركَ المَنهيَّاتِ مِنَ المعروفِ، ولا يَتِمُّ فِعلُ الخيرِ، إلا بتَرْكِ الشَّرِّ.

وفِيها: فضلُ التَّواصِي بالحقِّ.

وفِيها: تَقديمُ الصَّدقةِ على الإصلاحِ؛ لأنَّها أشقُّ مِنْ جِهةِ ما فِيها مِنْ بَذْلِ المحبوبِ الذي تَتَعلَّقُ بِهِ النَّفسُ.

وفِيهـا: السَّـعيُ في التَّأليـفِ بَيْن قُلوبِ المسـلمينَ بالمـودَّةِ، والحِرصُ عـلى الإصلاحِ بَيْنَ المُتخاصِمَيْن.

وفِيها: الجَمعُ بَيْن إيصالِ المنفعةِ، وإزالةِ المَضَرَّةِ.

وفِيها: الثَّناءُ على الآمِرِ بالخَيرِ، والفاعِلِ له، والمنزلةُ الأعلى لِمَنْ جمَعَ بَيْنَهُما.

وفِيها: فضيلةُ الاستِجابةِ للأمرِ بفِعْلِ الخَيراتِ، وأنَّ الذي يَفعَلُها ويُوقِعُها له أجرٌ عظيمٌ، والآمرُ بالخيرِ إذا دَخَلَ في زُمرَةِ الخَيِّرينَ، فإنَّ الفاعِلَ أحْرَى بالدُّخولِ.

وفِيها: أنَّ جزاءَ الدُّنيا إذا حَصَلَ لفاعِلِ الخيرِ، فإنَّه لا يُنقِصُ مِنْ أجرِهِ في الآخرَةِ شيئًا، ما دامَ قدِ ابتَغَى مَرضاةَ اللهِ.

وفِيها: حَثُّ المؤمنينَ على طَلَبِ الجزاءِ في الآخرةِ؛ لأنَّ الدُّنيا أحقرُ مِنْ أنْ يكونَ جزاءُ اللهِ محصورًا فِيها.

ولَمَّا بَيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العاقبةَ الحَسَنةَ لِمَنْ وافَقَ الشَّرعَ، وفَعَلَ الخَيراتِ، أتبَعَهُ عَزَّوَجَلَّ بذِكْرِ العقابِ الشَّديدِ لِمَنْ خالفَ الشَّرعَ، وخَرَجَ عنْ سبيلِ المؤمنينَ. ولَمَّا وَعَدَ أهلَ الخيرِ، تَوَعَّدَ أهلَ الشَّرِّ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الشِّقاقُ: هو الخِلافُ مَعَ العداوةِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الشِّقِّ وهُوَ الجانِبُ، فكأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المختلفيْنِ في شِقٍّ، غَيْرِ شِقِّ صاحِبِه، والمعنى: أنَّ مَنْ يُخالِف النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُظهِرْ له العَداوةَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ واتَّضَحَ له الحقُّ، وقامَتْ عليه الحُجَّةُ، وظَهَرَ له طَريقُ الهِدايةِ ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهُو طَريقُهُم، في عَقائِدِهم وأعمالِهم: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعلْهُ واليًا، ومُباشِرًا، للضَّلالِ الذي اختارَهُ، بأنْ نُخلِّيَ بَيْنَه وبَيْنَه، ونُعرِضَ عَنْه، ونَترُكَه ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي: نُدْخِلْه النَّارَ في الآخرةِ؛ فيَحترِق فِيها ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي: قَبُحَتْ مأوًى لَهُ، ومَرْجِعًا.

وقد تقدَّم أنَّ الآيةَ نزلَتْ في ابنِ أُبَيْرِق، لَمَّا ارتدَّ عنِ الإسلامِ بَعدَما نافَقَ، وسَرَقَ، والتَحَقَ بالمشركينَ في مكَّةَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

خُطورةُ تعمُّدِ المُخالَفةِ لشريعةِ اللهِ، وأنَّ مَنِ اختارَ شِقًّا يكونُ فيهِ غيرَ شِقِّ الشَّريعةِ، وطريقِها، فالويلُ لَهُ.

وفيها: وجوبُ اتِّباعِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدمِ الخُروجِ عنْ هَدْيِهِ.

وفيها: أنَّ المُخالَفةَ والمُعاداةَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رِدَّةٌ عنِ الإسلامِ، وأنَّ المُفارَقةَ الكاملةَ للشَّريعةِ، وسلوكَ طريقٍ غيرِ طَريقِها، كُفرٌ أكبرُ، وخروجٌ عنِ المِلَّةِ.

وفيها: شَناعةُ المُخالَفةِ بَعدَ اتِّضاحِ الحقِّ.

وفيها: سُوءُ عاقبةِ مَنْ عانَدَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وناوَأَهُ، بَعدَما ظَهَرَتْ له المعجزاتُ، والآياتُ الدالّةُ على صِدقِهِ.

وفيها: التَّحذيرُ مِنَ الخروجِ عنْ جماعةِ المسلمينَ، وأنَّ الطَّريقَ التي سارَ فيها المؤمنونَ، واعتَقَدُوا صحَّتَها، وسلامَتَها مِنْ كلِّ سُوءٍ، هي حُجَّةٌ، وحقٌّ.

وفيها: إطلاقُ السَّبيلِ على الاعتِقاداتِ، والأفعالِ، وسبيلُ كلِّ قَوْمٍ: طَريقَتُهُم التي يَسلُكُونَها

وفيها: مُلازمةُ طريقةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعَدمُ التَّحوُّلِ عنها؛ لأنَّ السَّبيلَ: هُوَ الطريقُ الّذي يُلازِمُهُ السَّالِكُ؛ لِيَبلُغَ إلى قَصدِهِ.

وفيها: أنَّ مَنْ خالَفَ سبيلَ المؤمنينَ، فقدِ اتَّبَعَ سبيلَ الكافِرينَ.

وفيها: دليلٌ على حُجيَّةِ الإجماعِ، وأنَّ ما اجتمعَتْ عليهِ الأمَّةُ المحمديَّةُ، واتَّفقَ علماؤُها عليهِ، فإنَّ العِصمةَ له مضمونَةٌ، فمن خالَفَه بَعدَ ذلكَ، فهو ضالٌّ، شاذٌّ، خارجٌ عن سبيلِ أهلِ الإسلامِ، وقد قيلَ: إنَّ أوَّلَ مَنِ احتَجَّ بهذِهِ الآيةِ على حُجيَّةِ الإجماعِ، هو الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنَّه استَعرَضَ القرآنَ مِرارًا؛ لِيَصِلَ إلى دليلِ ذلكَ في هذه الآيةِ[1].

---

(١) انظر: التبصرة للشيرازي (ص٣٤٩)، البرهان لإمام الحرمين (١/ ٢٦١)، التقرير والتحرير لابن الموقت (٣/ ٨٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٣).

وفِيها: إعراضُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمَّنْ خالَفَ سبيلَ المؤمنينَ، ومُجازاتُهُ على عملِهِ مِنْ جِنسِهِ، فكما تَوَلَّى عنِ الحقِّ، يَتَولَّى اللهُ عنه، ومن تَوَلَّى عنه خَذَلَهُ فَهَلَكَ، وهذا كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وفِيها: أنَّ مَنْ خَرَجَ عنِ الهُدَى، لَمْ يكنْ له طريقٌ يومَ القيامةِ، إلا إلى النَّارِ، لا يَجِدُ عنها مَصْرِفًا، وسيُحْبِطُ اللهُ عملَهُ، كما في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢].

وفي هذه الآيةِ: خُطورةُ المُخالَفةِ الكلِّيَّةِ لدِينِ الإسلامِ، فأمَّا مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مُخالفةٌ بمعصيةٍ؛ لغَلَبَةِ شَهوةٍ، أو هَوًى، مع اعتِقادِهِ بوجوبِ سُلُوكِ سبيلِ المؤمنينَ، ووجوبِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإنَّه لا يَكْفُرُ، وذنبُهُ تحتَ مشيئةِ اللهِ.

وفِيها: وجوبُ مُوالاةِ جماعةِ المسلمينَ، وعدمُ الانشقاقِ عَنْهم؛ لأنَّ مَنْ شَذَّ شَذَّ في النَّارِ، ومَنْ فارَقَ الجماعةَ شبرًا فماتَ، فمِيتَتُهُ جاهليَّةٌ، كما جاءَ في النُّصُوصِ(١).

وفِيها: أنَّ الجماعةَ رحمةٌ، والفُرقةَ عذابٌ، والجماعةُ: هي ما كانَ عليهِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابُهُ، والتَّابِعونَ لَهُم بإحسانٍ.

وفِيها: أنَّه لا نَجاة مِنَ النَّارِ إلا باتِّباعِ الفِرقةِ النَّاجيةِ، والطَّائفةِ المنصورةِ، أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، قولًا، وعملًا، واعتقادًا، وعدمِ الشُّذُوذِ عَنْهُم.

وفي الآيةِ: وعيدٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ خالَفَ أصحابَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونابَذَهُم، وتَرَكَ الاقتِداءَ بِهِم.

وفي الآيةِ: تحريمُ مُخالفةِ الإجماعِ في مَسائِلِ الحلالِ، والحَرامِ، وغيرِها.

وفِيها: أنَّ الابتِعادَ عنِ الحقِّ يُقرِّبُ مِن الباطِلِ، وقولُهُ في الآيةِ: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ أصلُهُ مِنَ الوَلْيِ، وهو القُربُ.

---

(١) روى البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفارِقُ الجَماعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا ماتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً**».

وفِيها: أنَّ مِنْ عقوباتِ الآخرةِ: الصَّلْيَ بالنَّارِ، وهو: الشَّيُّ، تقولُ: صَلَيْتَ الشّيءَ: شَوَيْته، والشَّاةُ المَصْلِيَّةُ: هِيَ المَشْوِيَّةُ.

وفِيها: الوعيدُ لِمَنْ خالَفَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياتِهِ، أو بَعدَ مَوْتِهِ، كما يُفيدُهُ الفعلُ المضارعُ: ﴿يُشَاقِقِ﴾.

وفِيها: أنَّ التَّهديدَ بالوعيدِ لا يَتَناوَلُ مَنْ لَمْ تُقَمْ عليهِ الحُجَّةُ، ومَنْ لَمْ يَبلُغْهُ البيانُ.

وفِيها: وضوحُ الدِّينِ، وعدمُ التِباسِهِ، وأنَّه ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ، لِمَنْ أرادَ اتِّباعَهُ، وتعلُّمَهُ، والعمَلَ بِهِ.

وفِيها: كرامةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للأمَّةِ المُحمديَّةِ، بأنَّها لا تَجتَمِعُ على ضَلالَةٍ.

وفِيها: أنَّ مَنْ خالَفَ إجماعَ الأمَّةِ، يُزَيِّنُ له الشَّيطانُ عَمَلَهُ، فيلْزَمُ الباطِلَ، ويُقارِنُهُ؛ لِيَستَمِرَّ عليهِ، فيَصْلَى النَّارَ يومَ القيامَةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عادَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤمنينَ، فَقَدَ وَلايةَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عَرَفَ الحقَّ، وأعرَضَ عَنْه، أعظَمُ ذنبًا مِنَ الجاهِلِ بِهِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ في مصالِحِ الدُّنيا المُباحةِ ليسَ بمذمُومٍ، كمَنِ اتَّبَعَ مِنَ المسلمينَ سبيلَ يهودِ خَيْبَر في غِراسَةِ النَّخيلِ، أو بناءِ الحُصُونِ، وطريقةَ الفُرسِ في الحُرُوبِ بِحَفْرِ الخنادِقِ، واستِعمالِ المَنْجَنِيقِ، وكَمَنِ اتَّبَعَ طريقةَ الكفَّارِ اليومَ في المِلاحةِ الجَويَّةِ، أو تَنظيمِ السَّيرِ، وطُرُقِ البَرْمجَةِ الحاسُوبيَّةِ، وأساليبِ الإحصاءِ، ونحوِ ذلكَ.

وفِيها: تَحريمُ التَّشبُّهِ بالكفَّارِ، واتِّباعِهِم في طرائِقِهِمُ الدِّينيَّةِ.

وفِيها: بيانُ ضلالِ المرتدِّينَ عَنِ الإسلامِ، وأنَّ ما فَعَلَهُ بعضُ العربِ مِنْ مُفارقةِ سبيلِ المؤمنينَ جريمةٌ عظيمةٌ، اقتَضَتْ مُنابَذَتَهُم.

وفِيها: أنَّ اكتِمالَ الدِّينِ لا يكونُ إلا بالعِلْمِ بِهِ، والعَمَلِ، وقد تَمَّ هذا بما جاءَ بِهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحيِ، وبَلَّغَهُ، وامتَثَلَهُ، وقد سارَ على ذلكَ المؤمنونَ في نقلِهِ، والعملِ بهِ.

وفي الآيةِ: أنَّ الجاهِلَ بالحُكمِ يُعذَرُ في مُخالَفَتِهِ، لكنَّه لا يُعذَرُ في التَّقصيرِ في تَعَلُّمِهِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ كُلَّما كانَ أقوَى إيمانًا، كانَ أقوَى اتِّباعًا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفِيها: فضلُ اتِّباعِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في أقْوالِه، وأفْعالِه.

وفِيها: أنَّ الإجماعَ دليلٌ، كنصُوصِ الكتابِ، والسُّنَّةِ.

وفِيها: أنَّ اتِّباعَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسبيلِ المؤمنينَ، يُنَجِّي مِنَ النَّارِ.

ولَمَّا كانَ المنافِقُ الذي نَزَلَتْ بشأنِهِ الآياتُ، قد ارتَدَّ، ولَحِقَ بالمشركينَ، وماتَ على الشِّركِ، بَيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ أنَّه لا يُغفَرُ له، ولا لأمثالِهِ، وأنّ المُشركَ أضَلُّ الخَلقِ، لا يَغفرُ اللهُ لَهُ، إنْ ماتَ عَلَى شِركِه، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وهَذا يَشملُ: الإشراكَ في الرُّبوبيةِ، والإشراكَ في الأُلوهيةِ، والإشراكَ في الأسماءِ والصِّفاتِ، وإذا أصَرَّ المُشرِكُ على شِرْكِهِ، وماتَ عليه، ولَمْ يَتُبْ مِنْهُ، فإنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ لَهُ البتَّةَ. ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِنَ الذُّنوبِ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ فهو عَزَّ وَجَلَّ بالخِيارِ، فإنْ شاءَ تجاوَزَ عَمّا دونَ الشِّركِ، وإنْ شاءَ عذَّبَ عليهِ ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ بأيِّ نَوْعٍ مِنْ أنواعِ الشِّركِ: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾ عنِ الحَقِّ، وتاهَ، وابتَعَدَ، وسَلَكَ غيرَ سبيلِ الرُّشدِ ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي: ابتَعَدَ عنِ الصَّوابِ ابتِعادًا كبيرًا، وأهلَكَ نفسَهُ، وخَسِرَها في الدُّنيا، والآخرَةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

خُطورةُ الشِّركِ باللهِ، وقد حذَّرَ مِنْهُ في هذِهِ السُّورةِ مرَّتَيْنِ، وكَرَّرَ الوعيدَ بعدمِ المغفرةِ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنْ جميعِ أنواعِ الشِّركِ، سَواء كانَ شِركَ الأندادِ، أو شِركَ المحبَّةِ، أو شِركَ الدُّعاءِ، أو غيرَ ذلِك، وكذلكَ الشِّركُ الأصغرُ، والخَفِيّ، لا بُدَّ مِنَ التَّوبةِ مِنْهُما؛ لِتَحصُلَ المغفرَةُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ وَحَّدَ اللهَ، ولَمْ يُشرِكْ بِهِ، فقدِ اهتَدَى.

وفِيها: تَكْرارُ التَّحذِيرِ مِنَ الشِّركِ؛ لِيكونَ أرسَخَ في نُفُوسِ السَّامِعينَ، وتأكِيدًا على خُطُورَتِهِ.

وفِيها: أنَّ الشِّركَ جهلٌ عظيمٌ باللهِ، وكَذِبٌ عليهِ.

وفِيها: أنَّ غيرَ الشِّركِ مِنَ المعاصِي أقربُ أنْ يُراجِعَ أصحابُها الحقَّ؛ لأنَّ عندَهُم شيئًا مِنْ رأسِ مالٍ يَرجِعونَ إليهِ، وهو التَّوحيدُ، بخِلافِ المُشرِك، فإنَّه مُفلِسٌ بالكُلِّيَّةِ.

وفِيها: ذَمُّ ما كانَ عليهِ مُشرِكُو العربِ مِنْ دُعاءِ غيرِ اللهِ، وسيأتِي -في الآيةِ التَّاليةِ- ذِكْرُ تفسيرِ الشِّركِ في هذِهِ الآيةِ، وضربُ المَثَلِ عليهِ، بشِركِ الدُّعاءِ في العِبادةِ.

وفِيها: أنَّ ادِّعاءَ الشَّريكِ للهِ -كما أنَّه افتراءٌ عظيمٌ -كما في آيةِ النِّساءِ الأولَى- فهُوَ كذلكَ ضلالٌ بعيدٌ -كما في هذِهِ الآيةِ- والشِّركُ في اللُّغةِ: لفظٌ يَدُلُّ على اقتِسامِ الشَّيءِ بَيْنَ اثنَيْنِ فأكثَرَ، دونَ أنْ ينفَرِدَ بِهِ واحدٌ، وقد عرَّفَهُ شيخُ الإسلامِ، فقالَ: «وأصلُ الشِّركِ: أنْ تَعْدِلَ باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخلوقاتِهِ في بعضِ ما يَستَحقُّه وحدَهُ»[1]. وقال ابنُ القيِّمِ في تعريفه: «هو أنْ يُجْعَلَ للهِ عِدْلًا بغيرِهِ، في اللَّفظِ، أوِ القَصْدِ، أو الاعتِقادِ»[2].

والشِّركُ بعضُهُ أشدُّ مِنْ بعضٍ، ومِنه ما يَتعلَّقُ بذاتِ المعبودِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وهذا شركٌ في الرُّبوبيَّةِ، ومنهُ ما يَتعلَّقُ بعبادَتِهِ، ومُعامَلَتِهِ، وهذا شِرْكٌ في العِبادَةِ، والألوهيَّةِ.

ومِنْ صُوَرِ الشِّركِ: الاعتقادُ بأنَّ للكَوْنِ أقطابًا، يَتَصرَّفونَ فِيهِ، أو الاعتقادُ بأنَّ أرواحَ الأولياءِ تَتَصرَّفُ في العبادِ، وكذلكَ: طاعةُ أحَدٍ مِنْ دونِ اللهِ في التَّحليلِ، والتَّحريمِ، والأحكامِ، وأيضًا: دُعاءُ غيرِ اللهِ، والاستغاثَةُ بِهِ في طَلَبِ نَفْعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ.

وفي الآيةِ: أنَّ مغفرةَ الذّنوبِ مقيَّدةٌ بمشيئةِ اللهِ، فيما عَدا الشِّركِ.

وفِيها: أنَّه كُلَّما كانَ الضَّلالُ أبْعَدَ، كانَ الرُّجوعُ إلى الحقِّ أصْعَبَ.

وفِيها: أنَّه يُرجَى للعاصِي مِنَ التَّوبةِ، ما لا يُرجَى للمُشرِكِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ ماتَ على الكُفرِ، فقدِ استحقَّ الوعيدَ بالخُلُودِ المُؤبَّدِ في النَّارِ.

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٤٤).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٥٢).

وفِيها: أنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، ومَرتَعٌ وَخِيمٌ، لا يَنْجُو مِنْهُ صاحِبُهُ إلا بالإقلاعِ الكامِلِ، والتَّوبةِ المُؤكَّدَةِ، والتَّوحِيدِ الخالِصِ.

وفِيها: أنَّ الشِّركَ لا يُمكِنُ الخلاصُ مِنْ تَبِعَتِهِ، وعاقِبَتِهِ، بغَيرِ تَوبَةٍ، وتَوحِيدٍ.

وفِيها: أنَّ على العبدِ أنْ يَجتَهِدَ في معرفةِ الشِّركِ وأنواعِهِ؛ حتَّى لا يَقَعَ فِيهِ.

وفِيها: أنَّ هلاكَ المُشرِكِ أبَدِيٌّ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

وفِيها: أنَّ التَّوحيدَ أعظَمُ معروفٍ، وأعظَمُ عِبادةٍ، كما أنَّ الشِّركَ أعظَمُ ذَنْبٍ.

وفِيها: أنَّ الغُفرانَ المُعَلَّقَ بالمشيئَةِ في النُّصوصِ الأخرَى، مقيَّدٌ بما في هذِهِ الآيةِ مِنْ غُفرانِ الذُّنوبِ سِوَى الشِّركِ باللهِ.

وفِيها: أنَّ مِنَ المَغفرةِ ما هو جائزٌ، ومِنْها ما هو مُمْتَنِعٌ، وهِيَ مِلكٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، يمُنّ بها علَى مَنْ يَشاءُ، ويَمْنَعُها عَمَّنْ يَشاءُ.

وفي هذه الآيةِ: رجاءٌ عظيمٌ للمُقَصِّرينَ، حتَّى قالَ عنها عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما في القُرآنِ آيةٌ أحبُّ إليَّ مِنْ هذِهِ الآيةِ»(١).

وفِيها: الضَّلالُ البعيدُ، والقُبحُ الشَّديدُ، لِمَنْ يُسَوِّي المخلوقَ -الذي لا يَمْلِكُ ضَرًّا، ولا نَفعًا- بالخالِقِ -الذي هُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ- وكيفَ يُسوَّى مَنْ لَهُ الكمالُ المُطلَقُ، والغِنَى التَّامُّ، بِمَنْ هُوَ ضَعيفٌ، جَهُولٌ، عَجُولٌ؟!

وفِيها: أنَّ اللهَ قد يَغفِرُ بعضَ الذّنوبِ دونَ الشِّركِ مِنْ غيرِ توبَةٍ، وقد استدَلَّ بهذِهِ الآيةِ مَنْ ذَهَبَ إلى أنَّ قَتْلَ النَّفسِ قدْ يَغفِرُهُ اللهُ؛ وذلكَ لأنَّه -مَعَ أنّه كبيرةٌ- لكنَّهُ دونَ الشِّركِ، لقولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾.

وفِيها: أنَّ على الدُّعاةِ إلى اللهِ أنْ يَجتَهِدُوا في تحذيرِ الأمَّةِ مِنْ خَطَرِ الشِّركِ؛ فإنَّ كَثيرًا مِنَ العامَّةِ يُشرِكونَ، دونَ إدراكِ معنَى هذِهِ الآيةِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٣٧)، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

وفِيها: سَدُّ الشَّريعةِ للأبـوابِ المؤدِّيَةِ للكُفرِ، والشِّركِ، وذلكَ بتَغلِيظِ عُقُوبَتِهِ بالتَّخلِيدِ الأبديِّ في النَّارِ، ولو كانَتِ المغفرةُ تجوزُ بلا إيمانٍ، لكانَ ذلكَ مِمَّا يَفتَحُ بابَ الشِّركِ.

وفِيها: أنَّ المغفرةَ مقيَّدةٌ بالمشيئةِ، وعدمِ الشِّركِ، فإذا فُقِدَ أحدُهُما انْتَفَتِ المغفرةُ.

وفي الآيةِ: إثباتُ مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ: أنَّ عُصاةَ الموحِّدينَ لا يُخلَّدونَ في النَّارِ.

وفِيها: الردُّ على الخوارِجِ، والمُعتزِلةِ، الذين قالُوا بتخلِيدِ أصحابِ الكبائرِ في النَّارِ.

وفي الآيـةِ: الردُّ على المُرجِئةِ، الذين جَعَلُوا آياتِ الوعيدِ مخصوصةً بالكفَّارِ، فيُقالُ لهم: إنَّـه إذا لَمْ يَشَـأِ المغفرةَ لصاحِبِ الذَّنبِ، فسيُعذِّبُ ولَـوْ كانَ موحِّدًا، وأمَّا أهلُ السُّـنَّةِ: فقد خَصُّوا آياتِ الوعيدِ بالكَفَرَةِ، وبِمَنْ سَبَقَ في عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه يُعذِّبُ مِنَ المؤمنينَ العُصاةِ، وخَصُّوا آياتِ الوعدِ بالمؤمِنِ التَّقِيِّ، وبِمَنْ سَـبَقَ في عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنَّه يَعْفُو عَنْهُ مِنْ عُصاةِ المؤمنينَ.

وفِيها: أنَّه لا يَنْفَعُ مَعَ الشِّركِ حَسَناتٌ.

وفي إظهـارِ اسـمِ الجَلالَـةِ في قولِـهِ: ﴿**يُشْرِكْ بِٱللَّهِ**﴾: زيادةُ تَقبِيـحٍ، وتَفظِيـعٍ، للمشرِكِ، وإظهارُ المهابَةِ، والتَّرهيبِ.

وفِيها: أنَّ تَسويةَ الخالِقِ بالمخلوقِ قَدْحٌ في رَبِّ العالمينَ؛ ولذلكَ لا يَغْفِرُهُ اللهُ.

ولَمَّا حَذَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحذيرًا شديدًا مِنَ الشِّركِ، وكانَ المنافقونَ الذينَ نَزَلَتْ فِيهِم الآياتُ السَّابِقةُ مِنْ مُشرِكِي العربِ، ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ ماذا كانُوا يَفعَلُونَ في شِركِهِم، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾.

﴿**إِن**﴾ نافيـةٌ بمعنَـى «مـا» ﴿**يَدۡعُونَ**﴾ يَعبـدونَ؛ وذلـكَ لأنَّـهم كانـوا في عبادتِهِم للأوثـانِ يَدعُونَهـا عنـدَ الحاجـةِ، والدُّعاءُ هـو الطَّلـبُ ﴿**مِن دُونِهِۦٓ**﴾ أي: مِـنْ دونِ اللهِ، والمعنَى: ما يَعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ﴿**إِلَّآ إِنَٰثٗا**﴾ أي: أصنامًا، وأوثانًا؛ وذلكَ لأنَّهم جعلُوها على صورةِ الملائكةِ، وكانوا يَعتقِدونَ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، ويُزيِّنونَ تلكَ الأصنامِ بالحُلِيِّ كالنِّسـاءِ، وكانوا يُسـمُّونَها بأسـماءِ الإناثِ، فيقولونَ: اللاتَ، والعُزَّى، ومَناةَ، ويقولونَ:

نَعبدُهُـم لِيقرِّبُونـا إلى اللهِ زُلفَـى، وثَبَـتَ عن أُبَيِّ بـنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَـعَ كلِّ صَنَمٍ جِنِّيَّةٌ»(١).

وقيـلَ: المعنَـى: ما يَعبدونَ إلا شـيئًا مِثلَ الإناثِ، لا يَدفَعُ عنْ نفسِـهِ، فكيـفَ يَدفَعُ عنْ غَـيرِهِ؟ ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾ أي: مـا يَدعُـونَ ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنًا﴾ وهُـو عدُوُّهـم الّـذي يُريـدُ إهلاكَهم، ويَسـعَى في ذَلك بكُلِّ ما يَقدِرُ عليْهِ ﴿مَّرِيدًا﴾ أي: عاتِيًا، مُتمرِّدًا، بالِغًا الغايةَ في الشَّرِّ والفسادِ، وهو مشتقٌّ مِنَ المَرْدِ، وهو المَلاسَةُ، والتَّجرُّدُ؛ وذلكَ لأنَّ الشَّيطانَ مُتجرِّدٌ عن كلِّ خَيْرٍ، وقد جَرَّدَ نفسَـهُ للشَّرِّ، والأمْرَدُ في اللُّغةِ: الذي لا شَـعْرَ على وجهِه، والشَّجرةُ المَـرْداءُ: التـي بـلا وَرَقٍ، والرَّملَـةُ المَـرْداءُ: التـي لم تُنبِتْ شـيئًا، وإنَّـما وَصَفَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعبـادةِ الشَّـيطانِ؛ لأنَّ إبليسَ أَمَرَهُم بالشِّركِ فأشرَكُوا، وزَيَّنَ لهـم عِبادةَ الأصنامِ فأطاعُوهُ، وعَبَدُوهـا، فيكـونُ شِركُهُم بالأصنامِ شِركَ طاعـةٍ، وفي زمانِنا هذا صارَتْ عِبادةُ الشَّـيطانِ عِبـادةً مُبـاشرةً، فيَعبُدُونَه، ويدْعونَه باسـمِهِ صراحةً، فصـارَتْ ديانةً لها طُقُـوسٌ، ومعابِدُ، وأفعالٌ، ورمُوزٌ، وألوانٌ، وموسيقَى خاصَّةٌ، يأتِي بها عُبَّادُ الشَّيطانِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

بيانُ حقيقةِ الأصنامِ، وأنَّها جَماداتٌ لا تَدْفَعُ عنْ نفسِها.

وفِيهـا: ذمُّ عِبـادةِ الشَّـيطانِ، وأنَّ الطَّاعةَ تَصِلُ لدرجـةِ العِبادةِ، وكذلـك الدُّعاءُ يكونُ عبادةً أيضًا.

وفِيها: فَسـادُ عقيـدةِ عَرَبِ الجاهِليَّةِ، الذينَ كانوا يَجعَلُـونَ في كلِّ حيٍّ مِنْ أحيائِهِم صَنَمًا يَعبُدُونَه، ويسمُّونَه: «أُنْثَى بنِي فلانٍ».

وفِيها: تَبكِيتُ اللهِ لمُشرِكِي العربِ، وتوبِيخُهُم على ما اتَّخَذُوهُ مِنْ هذِهِ الجَماداتِ، التي لا تَسمَعُ، ولا تُبصِرُ، ولا تُغْنِي عنْهُم شيئًا.

وفِيها: أنَّ مَنْ أطاعَ الشَّيطانَ في الشِّركِ، والكُفرِ، كان عابدًا لَهُ.

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٢١٢٣١)، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٥٧): «رواته ثقات»، وحسنه محققو المسند.

وفيها: أنَّ الشَّياطينَ مَرَدَةٌ، وقد جاءَ في الحديثِ، في فضْلِ رمضانَ: «**وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّياطِينِ**»(١)، ويُقالُ في المَرِيدِ: هو البالغُ في العُدوانِ والعُتوِّ غايَتَهُ، فإذا قُلنا: إنَّ ﴿**مَّرِيدًا**﴾ صفةٌ كاشِفةٌ، فيكونُ المعنى: أنَّ كلَّ شيطانٍ مَرِيدٌ، وإذا قُلنا: إنَّها صفةٌ مقيَّدةٌ، فينقَسِمُ الشَّياطِينُ -حينَئِذٍ- إلى مرَدَةٍ، وغيرِ مَرَدَةٍ، ويكونُ المَرَدَةُ هُم الشَّياطِينَ، العُتاةَ، الأقوِياءَ، ولا شكَّ أنَّ إبليسَ شيطانٌ مَرِيدٌ؛ لأنَّه رأسُهُم.

وفِيها: الإشارةُ إلَى ضَعفِ الإناثِ، وأنَّهنَّ بحاجةٍ إلى مَنْ يُدافِعُ عنهنَّ، وفي هذا وَصاةٌ للرِّجالِ بِهنَّ، وفي الحديثِ: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمِ، والمَرْأَةِ**»(٢).

وفي الآيةِ: ضَعفُ عُقُولِ المُشرِكينَ.

وفِيها: إشارةٌ إلى تلاعُبِ أهلِ الجاهِليَّةِ بأسماءِ اللهِ، وفسادِ اعتِقادِهِم في ملائِكةِ اللهِ، فقيلَ: إنَّهم اشتقُّوا لأصنامِهِم أسماءَ مؤنَّثةً مِنْ أسماءِ اللهِ -تعالى اللهُ عمَّا قالُوه عُلُوًّا كبيرًا- فقيل: إنَّهم اشتقُّوا اللَّاتَ مِنْ لَفظِ الجَلالَةِ: «اللهِ»، والعُزَّى مُؤنَّثُ: «العزيزِ»، ومَناةُ مؤنَّثُ: «مَنَّانٍ».

وفِيها: أنَّ الجَماداتِ تُؤنَّثُ، وقال الحَسَنُ: «الإناثُ: كلُّ شيءٍ ميِّتٍ، ليسَ فيهِ روحٌ، خشبةٌ يابسةٌ، أو حجَرٌ يابِسٌ»(٣).

وفِيها: أنَّ عبادةَ الشَّيطانِ قد تكونُ بطاعتِهِ فيما أَمَرَ مِنَ الشِّركِ، والكُفرِ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وكقولِ إبراهيمَ لأبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]، أي: لا تُطِعْهُ.

وقد تكونُ عبادةُ الشَّيطانِ بصَرْفِ نَوْعٍ مِنْ أنواعِ العبادةِ له مُباشَرَةً، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ عن مُشرِكِي العربِ: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]، ومِنْ ذلكَ: استعاذَتُهُم واستِجارَتُهُم بِهِم عندَ النُّزولِ في الوادِي، وكما وَقَعَ في زمانِنا هذا مِنْ طُقُوسِ عبادةِ الشَّيطانِ.

---

(١) رواه النسائي (٢١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(٢) رواه ابن ماجة (٣٦٧٨)، وأحمد (٩٦٦٦)، وصححه البوصيري في الزوائد (٤/ ١٠٣).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٨).

ثُـمَّ بيَّنَ عَزَّوَجَلَّ ماذا أنزَلَ بإبليسَ مِنْ غَضَبِهِ، ومـاذا عَزَمَ عليهِ إبليسُ مِنَ الشَّرِّ، والإغواءِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨﴾.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ هـذا خَـبَرٌ مِنْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّه طَرَدَ إبليسَ، وأبعَدَهُ عنْ رحمَتِهِ، وأبعَدَهُ عن كلِّ خَـيرٍ، كما قـالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، وأخبَرَ -أيضًا- بأنَّ عليْهِ لعنةَ اللاعِنِينَ له مِنَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ، فَقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥][1]، ﴿وَقَالَ﴾ أي: إبليسُ -بعدَما لَعَنَهُ اللهُ-: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ الاتِّخاذُ: هـو أخْذُ شيءٍ عـلى جِهةِ الاختِصاصِ، أي: يجعَلُهُم له، ومِـنْ أتباعِهِ خاصَّةً ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ الذيـنَ خَلَقْتَهُم ﴿نَصِيبًا﴾ أي: حَظًّا، وقَسْـمًا ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أي: معلُومًا مُقدَّرًا، ومُعيَّنًا، قيلَ: مِنْ كلِّ ألفٍ تِسْعُمائةٌ وتِسعٌ وتِسعونَ للشَّيطانِ، وواحدٌ للهِ[2]، والفَرْضُ في اللُّغةِ: هُوَ الحَزُّ، والقَطْعُ، والمعنى: أنَّ إبليسَ سيَسْتَهوِي ويُغوِي طائفةً مِنَ الثَّقَلَيْنِ، ويُسيْطِرُ على نُفُوسِهِم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

سَخَطُ اللهِ على إبليسَ.

وفِيها: قَسَمُ إبليسَ المؤكَّدُ، أنَّه سيتَّخِذُ أتباعًا مِنْ خلقِ اللهِ.

وفِيها: التَّشـنِيعُ على عُبَّادِ إبليسَ، الذينَ يَعبدونَهُ، وهو عدوٌّ لَهُم، يسـعَى في إغوائِهِم، قد أَخَذَ العَهْدَ على نفسِهِ بإضلالِهِم، وإيقاعِهِم في الشَّرِّ، فكيفَ يَعبدونَهُ؟! وكيفَ يُطِيعونَهُ؟!

وفِيهـا: إذلالُ اللهِ لإبليسَ بلَعْنِهِ، وقد قـالَ في الآيةِ الأخرَى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وفِيهـا: أنَّ إبليـسَ -لمَّـا أصبَحَ مَلعُونًا-، صـارَ يُريدُ المَزيدَ مِنَ الـشَّرِّ، كما جاءَ في الآيةِ الأخرَى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

---

(١) قـال ابـنُ الجـوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال المفسّرون: معناه: يَلعنُكَ أهلُ السـماءِ والأرضِ إلى يومِ الحِسـابِ». زاد المسير (٢/ ٥٣٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٩)، تفسير القرطبي (٥/ ٣٨٨).

وفِيها: كُرهُ إبليسَ لآدَمَ، وذرِّيَّتِهِ، وسعيُه في صدِّهِم عن سبيلِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ لإبليسَ القُدرةَ على فِتنَةِ البَشَرِ، وتسخِيرِهِم، ولكنَّ البشرَ عندَهُم إرادَةٌ، وقُدرةٌ، على مُجاهَدَتِهِ -لَوْ أرادُوا-.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ أطاعَ الشَّيطانَ مِنْ بَنِي آدمَ، فهوَ مِنْ نَصِيبِ إبليسَ المعلومِ، وحظِّهِ المقسُومِ.

وفي الآيةِ: دليلٌ على أنَّ الشَّيطانَ قدِ استَحَقَّ اللَّعنةَ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ الرَّجيمَ لا يَستَطِيعُ إغواءَ جميعِ النَّاسِ، وأنَّ هنالِكَ عِبادًا مُخلَصِينَ للهِ، لا سُلطانَ لإبليسَ عليهِم.

وفِيها: جوازُ لَعْنِ إبليسَ، ولمَّا جاءَ إبليسُ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشِهابٍ مِنْ نارٍ؛ لِيجعلَه في وجهِهِ، وهو يُصلِّي، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قالَ: «**أَلْعَنُكَ بِلعنَةِ اللهِ التَّامَّةِ**» ثَلاثَ مَرَّاتٍ[1]. وقد شُرِعَ لنا الاستعاذَةُ باللهِ مِنْ شرِّهِ، والتَّحصُّنُ منْه، بالإكثارِ مِنْ ذِكرِ ربِّنا.

وفِيها: أنَّ عدَدَ أتباعِ إبليسَ كثيرٌ جدًّا، وقد جاءَ في آيةٍ أُخرَى عنِ الشَّيطانِ قولُهُ: ﴿**لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٦٢]، وأيضًا قولُهُ: ﴿**وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

وفِيها: انهماكُ إبليسَ بنَشْرِ الشَّرِّ، والفِتنةِ، والفسادِ؛ لإهلاكِ العِبادِ، وإضلالِهِم، وليس هذا مُقتَصِرًا على بني آدمَ، بل يَعُمُّ الجنَّ أيضًا؛ لأنَّه قال: ﴿**مِنْ عِبَادِكَ**﴾، ولم يقُلْ: مِنْ بنِي آدَمَ.

وفِيها: إثباتُ أنَّ الشَّيطانَ يَقُولُ، ويَفْعَلُ.

وفِيها: أنَّ إبليسَ -لَمَّا نالَ مِنْ آدمَ ما نالَ-؛ طَمِعَ في إغواءِ ذُرِّيَّتِهِ.

ولَمَّا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ ماذا أرادَ إبليسُ أنْ يَفعلَهُ في البَشَرِ على وجهِ العُمُومِ، باتِّخاذِ نَصيبٍ عظيمٍ

(١) رواه مسلم (٥٤٢).

مِنْهم، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعدَ ذلكَ ماذا سَيَفْعَلُ إبليسُ في العِبادِ على وجهِ التَّفصِيلِ، فقال -على لِسانِهِ-:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن طَريقِ الهِدايةِ، فيَحرِفُهُم عنِ الصِّراطِ المُستقِيم، ويَفتَحُ عليهِم أبـوابَ البِدَعِ، والعقائِدِ الباطِلَةِ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي: سـأَعِدُهُم بالأمـانِيِّ الكاذِبَةِ، وأُلقِيها في قُلُوبِهِـم؛ لِيكونَ مِنْها الحِـرْصُ، وطولُ الأملِ، وهما خُلُقانِ مَذْمُومـانِ، مَنِ اتَّصَفَ بِهِما نَسِيَ الآخـرَةَ، وغرِقَ في الدُّنيا، وتَركَ التَّوبةَ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بالتَّزيينِ، والإيحاءِ ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ البَتْـكُ: هو القَطْعُ، والشَّـقُّ ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كالبَحائِرِ مِنَ الإبِلِ، التـي كانُوا يَقطَعُونَ آذانَها، أو يَشُـقُّونَها شَـقًّا واسِـعًا؛ تَمييزًا لَها، لِتُترَكَ، فلا تُركَب، ولا تُحلَب، ولا تُحمَّل، ونَحو ذلـكَ، وهذا مِنْ سَـخِيفِ أعـمالِ الجاهِليَّةِ ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ سـواءٌ تغييرُ صـورةٍ أو تغيـيرُ صفةٍ لِخَلْـقِ اللهِ، كخِصاءِ العَبيـدِ، وقَطْعِ الآذانِ، ووَشْـمِ الجُلُـودِ، ووشْرِ الأسـنانِ، وسـواءٌ بإضافَةٍ، أو إزالةٍ، فالإضافَةُ كوَصْلِ الشَّـعرِ، والإزالةُ كنَمَصِ الحاجِبِ. ﴿وَمَن يَتَّخِذِ﴾ أي: يَجْعَـل ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ أي: نـاصِرًا له يَتـولَّاهُ، ويَرضَى بأنْ يكونَ مُتولِّيًا عليـهِ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ﴾ الخُسرانُ: ضدُّ الرِّبحِ ﴿خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ظاهِرًا في الدُّنيا، والآخرَةِ، بتَضييعِ رأسِ مالِهِ، وهو الفِطرَةُ التي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، وغيرِ ذلكَ مِنْ أحكامِ الدِّينِ، التي يَضِيعُ بتَضْييعِها الأجرُ، والثَّوابُ، عندَ ربِّ العالمينَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ لإبليسَ خُطَّةً، ومنهَجًا مَرسومًا، ذا أعمالٍ، ومهامّ، في إضلالِ البَشَرِ.

وفيها: أنَّ الشَّيطانَ يَتلاعَبُ بأتباعِهِ، فيُضِلُّهُم، ويُزيِّنُ لهم قبائِحَ الأفعالِ.

وفيهـا: أنَّ الشَّـيطانَ يَصرِفُ أولياءَهُ عنِ الأعـمالِ الصَّالحةِ، وطُرُقِ الخَيرِ، بالتَّسـويفِ، والأمانِيِّ الكاذِبَةِ، مِنْ طُولِ عُمُرٍ، وبُلُوغِ وَطَرٍ، ونحوِ ذلك.

وفِيهـا: أنَّ شرَّ إبليـسَ لا يَقتَصِرُ على تشـويهِ البَشَرِ لخِلْقَةِ أنفُسـهِم، بَلْ يَتَعـدَّى إلى خِلْقَةِ المخلوقاتِ الأُخرَى.

وفِيهـا: صَرْفُ إبليـسَ للنَّاسِ عنِ التَّوبـةِ، والنَّدَمِ، والرُّجوعِ إلى الحقِّ، بحيثُ لا يَشـكُرُ أكثرُهُم ربَّهُم.

وفِيها: تكميلُ إبليسَ لشـعائِرِ الشِّركِ، بجَعْـلِ دوابّ معيَّنةٍ مُحرَّرَةً للأصنامِ، لها علاماتٌ تُعرَفُ بها، ويُتَقَرَّبُ بها إلى غيرِ اللهِ، وتُسيَّبُ للطَّواغيتِ.

وفِيها: الحَذَرُ مِنْ مَكائِدِ إبليسَ في تَغييرِ خَلْقِ اللهِ -وما أكثَرَها في هذِهِ الأيامِ- كالجِراحاتِ التَّجميليَّةِ، والعمليَّاتِ اللِّيزَرِيَّةِ، التي فيها تَصغيرٌ، وتكبيرٌ، ونَفْخٌ، وتَبييضٌ، وتَسمِيرٌ.

وفِيهـا: سَـعيُ إبليسَ لتغيـيرِ دِيـنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والتَّوحيدِ الذي أمَرَ بـهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإيقاعِ النَّاسِ في البِدَعِ، والشِّرْكيَّاتِ.

وفِيها: النَّهيُ عن تشويهِ الدَّوابِّ، كوَسْمِها في وجهِها.

وفِيها: أنَّ الأخذَ مِنَ الخِلْقَةِ لا يجوزُ إلا بإذنِ الشَّرعِ، كالخِتانِ، وثَقْبِ آذانِ النِّساءِ؛ لِوَضْعِ الحُلِيِّ، والتَّزيُّنِ، وإخصاءِ الغَنَمِ؛ لِيَطِيبَ لَحْمُها، ونحوِ ذلكَ، وما لا فائدةَ فيهِ، ولا مصلَحَةَ، فإنَّه اعتداءٌ في الأخذِ، والقَطْعِ، وتَشويهٌ للخِلقَةِ الأصليَّةِ.

وفِيها: أنَّ خَسارةَ الآخرةِ لا جَبْرَ لها، ولا استدراكَ لفائِتِها.

وفِيها: اجتهادُ إبليسَ في إغواءِ بَنِي آدَمَ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَجتَهِدُ في إيقاعِ العِبادِ في الكبائِرِ، والصَّغائِرِ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ قـد أحسَـنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَـهُ، وجَعَلَـه كامِـلًا بفِطرَتِـهِ، ثُـمَّ أهـلُ الضَّلالِ يُفسِـدُونَ ما خَلَـقَ اللهُ، ويُدخِلُونَ عليهِ النَّقصَ بسُـوءِ تَدبيرِهِم، وطاعَتِهِم للشَّـيطانِ، ومِنْ ذلـكَ: حَلْـقُ شَـعرِ رأسِ المرأةِ، وإزالـةُ حاجِبَيْها، والوَشْـمُ عـلى الجِلْدِ، وغيرُه مِـنَ الأمورِ الخارِجيَّةِ، كتَصغِيرِ الثَّديَيْنِ، أو تَكبيرِهِما، وعمليَّاتِ شـدِّ الوجهِ، ونفخِ الشَّفتَيْنِ، والخَدَّيْنِ، والأجفـانِ، والجَبْهةِ، ونحوِ ذلـكَ، وأيضًا: التَّلاعُبِ بالهرمُوناتِ، ونَحـو ذلكَ مِنَ التَّغييرِ الدَّاخِلِيِّ، الذي يَنْعكِسُ على الخارِجِ.

وفِيها: أنَّ لَعْنَ اللهِ للشَّيطانِ يَسْرِي إلى لَعْنِ مَنْ أطاعَهُ، وفي الصَّحيحينِ عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: «**لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ، والمُسْتَوْشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتَفَلِّجاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى» مالِي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ في كِتابِ اللهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧](١).

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ لا يَزالُ بالإنسانِ حتَّى تَختَلَّ لَدَيهِ القناعةُ، ولا يَرْضَى بخِلقَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيُريدُ أنْ يُدخِلَ التَّحسِينَ -بِزَعْمِهِ- على خِلقَتِهِ، فيَقومُ بهذِهِ التَّغييراتِ للخِلْقَةِ.

ولا يَدْخُلُ في ذلكَ: أصباغُ الزِّينةِ، كالكُحلِ، والحنَّاءِ، وليسَ مِنْ ذلكَ: عملياتُ إزالةِ العَيْبِ، والضَّرَرِ، والتَّشويهِ، نتيجةَ حادثٍ، أو حُرُوقٍ، أو إزالةُ تَشويهٍ مِنْ جَرَّاءِ الوِلادَةِ، أو خَلَلٍ هرمُونِيٍّ، ونحوُ ذلكَ، كإزالةِ الإصبَعِ الزَّائِدةِ، أو شَقِّ الإصبَعَيْنِ المُلتَحِمَيْنِ، أو فَصْلِ الجَنِينَيْنِ المُلتَصِقَيْنِ، أو رَتْقِ الشَّفَةِ الأَرْنَبِيَّةِ، ونحوِ ذلكَ مِنَ العُيُوبِ التي تُسَبِّبُ ضَرَرًا جَسَدِيًّا، أو نفسِيًّا.

وفِيها: أنَّ مِنْ سُبُلِ الشَّيطانِ: إيقاعَ العِبادِ في التَّدليسِ، والخِداعِ للغَيرِ، وتَشَبُّعَ مَنْ يَتَّبِعُهُ بما لَمْ يُعطِهِ اللهُ، يَفْعَلُهُ زُورًا، وغُرورًا.

وفِيها: أنَّ تغييرَ خَلْقِ اللهِ مُحَرَّمٌ، مُوجِبٌ للَّعنِ، وأنَّه مِنَ الكبائرِ.

وفِيها: أنَّ عملياتِ ما يُسمَّى بتغييرِ الجِنْسِ: إنْ كانَ المَقصودُ بِهِ القلبَ الكامِلَ مِنْ ذَكَرٍ واضِحِ الذُّكورَةِ، إلى أُنثَى واضحةِ الأُنوثةِ، أوِ العكْسِ: فهو حرامٌ، وكبيرةٌ، وملعونٌ مَنْ فَعَلَهُ.

وأمَّا مُعالجةُ الخُنْثَى بما يُظهِرُ نَوعَه، ويُبيِّنُه: فإنَّه جائزٌ، لا يدخُلُ في التَّحريمِ.

وفِيها: أنَّ تَزيينَ الشَّيطانِ للعَمَلِ، يَقلِبُهُ -في نَظَرِ صاحِبِهِ- مِنْ سيءٍ إلى حَسَنٍ، كما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، ولِذلكَ فإنَّ الشَّيطانَ يُفسِدُ الفِطرَةَ، والذَّوقَ السَّليمَ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنَ الأمانِيِّ الكاذِبَةِ، والخَيالاتِ التي لا تكونُ، والاستِغراقِ في التَّفكيرِ فيما لا يُمكِنُ وقُوعُه؛ لأنَّه مَضيَعَةٌ للوقتِ، والأمانِيّ رأسُ أموالِ المَفالِيسِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٥٩٣١) -واللفظ له-، ومسلم (٢١٢٥).

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَصرِفُ النَّاسَ عَنِ العِباداتِ المَشروعةِ، كالهَدْيِ إلى البيتِ الحرامِ، وإشعارِه، وتمييزِه، إلى أعمالٍ شِرْكيَّةٍ باطلةٍ، كتَسييبِ السَّوائِبِ للأصنامِ، والتَّقرُّبِ إلى الأوثانِ، بتَعطِيلِ الدَّوابِّ، فلا تُركَبُ، ولا تُؤكَلُ، ولا تُحلَبُ، ولا يُجَزُّ صُوفُها.

وفِيها: أنَّ مِنَ النَّاسِ أولياءَ للشَّيطانِ، يَلُونَهُ، ويَقترِبونَ مِنْه، ويُطِيعُونَه، ويَنصُرُونَه، وهؤلاءِ الذينَ يَتَبرَّؤونَ مِنْه ويَتَبرَّأُ مِنْهم يومَ الدِّينِ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ في كتابِه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وفِيها: أنَّ أخسَرَ الخُسْرانِ: اتباعُ الشيْطانِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ طريقةِ الشَّيطانِ: الوَسْوَسَةَ بالأباطِيلِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ النَّاسَ بالأمانِيِّ الكاذِبَةِ، كما قال لآدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾، ومِنْ ذلكَ: ما يُمنِّي بِهِ العُصاةَ، مِنْ أنَّهم سيدخُلُونَ في الشَّفاعَةِ، والمَشِيئةِ، وأنَّ لَهُمُ المغفرةَ، والجنَّةَ.

وفِيها: سَعْيُ الشَّيطانِ لِتغييرِ فِطرَةِ النَّاسِ التي فَطَرَهُمُ اللهُ عليها، مِنَ التَّوحِيدِ إلى الشِّركِ، ومِنَ اليَقينِ إلى الشَّكِّ.

وبَعدَ أنْ أخبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا عَزَمَ عليهِ إبليسُ مِنْ خُطُواتِهِ في إضلالِ البَشَرِ، أخبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ إبليسَ قد فعَلَ ذلكَ حقًّا، ولا زالَ يَفْعَلُهُ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾.

﴿يَعِدُهُمۡ﴾ أي: بالمالِ، والجاهِ، والرِّياسةِ، وَأَنْ لا بَعْثَ، وَلا عِقابَ، ونَحوِ ذلِك مِنْ أباطِيلِه، ويَعِدُهُم -أيْضًا- بالفَقْرِ، إذا أنفقُوا، وبالقَتْلِ، ويُتْمِ أولادِهِم، وتَرَمُّلِ نِسائِهِم، إذا جاهَدُوا، وبألَمِ الغُربةِ والمُعاناةِ، إذا هاجَرُوا، ونحوِ ذلكَ، مِنْ قُعُودِه في طريقِ كلِّ مَنْ يُريدُ خيرًا، كما أخبَرَ عنه عَزَّوَجَلَّ بقولِهِ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وذلكَ بوَسْوَسَتِهِ إليهِم، وتَحايُلِه عليْهِم.

﴿وَيُمَنِّيهِمۡ﴾ بأنْ يُلقِيَ في قُلُوبِهم أنَّه سَتطُولُ أعمارُهُم، ويَنالُونَ مِنَ الدُّنيا مَقاصِدَهُم. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطِلًا، يَغترُّونَ بِهِ، ولا يَملِكونَهُ، فيَخدَعُهُم، ويُغرِيهِم؛ لِيُرْدِيَهم، والغُرُورُ: ما رأيتَ له ظاهِرًا تُحِبُّهُ، وفِيهِ باطِنٌ مكروهٌ، أوْ مجهولٌ، ومِنْ أسماءِ الشَّيطانِ: الغَرُورُ.

وفي الآية مِنَ الفوائِدِ:

بيانُ طريقةِ الشَّيطانِ في الجَمْعِ بَيْنَ الوُعُودِ الباطِلَةِ، والأمانِيّ الكاذِبَةِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ لا يَزالُ يقومُ بذلكَ، دونَ فُتورٍ، أوْ مَلَلٍ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يُمنِّي أولياءَهُ، بأنَّه ستكونُ لَهُم الغَلَبَةُ، والعُلُوُّ في الأرضِ، وتَحصِيلُ المالِ، والمَناصِبِ.

وفِيها: تنبيهُ العِبادِ إلى المُفاجَأَةِ المُؤلِمَةِ، والخَطِيرةِ، التي يُمكِنُ أنْ تَحصُلَ لَهُم، إذا اتَّبَعُوا الشَّيطانَ في أمانِيِّهِ، ووعودِهِ، فإنَّه لا يَزالُ يُزيِّنُ لَهُم بها، ما يَجعَلُهُم يَستَمِرُّونَ على طاعتِهِ، وهم يَحلُمُونَ بالوُصولِ إلى متاعِ الدُّنيا الموعودِ، فبَيْنَما هُم في الغَفلَةِ، إذْ جاءَهُم المَوْتُ، فَذَهَبَ السَّرابُ، وانْكَشفَ الحالُ.

وفِيها: استِغلالُ الشَّيطانِ لَمحبُوباتِ النَّفسِ في إغواءِ صاحِبِها، فلا يَزالُ يُلقِي في قلبِ العبدِ: أنَّك إذا فَعَلْتَ كذا -مِنَ المُحرَّماتِ-، حَصَلَ لكَ كذا -مِنَ المحبوباتِ، والمَرغُوباتِ-، وأوَّلُ ذلكَ: وَسْوَسَتُهُ للأبَوَيْنِ، بما وَعَدَهُم بِهِ ومنَّاهُم مِنَ الخُلْدِ، ومُلْكٍ لا يَبْلَى.

وفِيها: حَشدُ إبليسَ للنَّاسِ في مُعسكَرِهِ؛ لِيقومُوا بنُصرَةِ حِزْبِ الشَّيطانِ، وهوَ يعِدُهُم بالقوَّةِ، والجاهِ، والمناصِبِ.

وفِيها: التَّنبيهُ على ما يَحصُلُ للعبدِ مِنَ الغَمِّ، والحَسْرَةِ، إذا فارَقَتْهُ وعودُ إبليسَ، سَواء بِهزيمةِ الباطِلِ في الدُّنيا، أو بإفضائِهِ إلى ربِّهِ للحسابِ في الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ يُزيِّنُ للنَّاسِ الشَّرَّ، ويَعِدُهُم بالمنفعةِ إذا فَعَلُوهُ، ويَصرِفُ النَّاسَ عنِ الخيرِ، ويَعِدُهُم بوقُوعِ المكرُوهِ إذا فَعَلُوهُ.

وفِيها: تَثْبِيطُ الشَّـيطانِ للعبادِ عنِ العملِ الصَّالحِ، بالتَّخويفِ مِنْ نتائِجِهِ، وبالتَّسـويفِ، والكَسَلِ.

وفِيهـا: إجمـالٌ لِوسـائِلِ إبليسَ التـي يَسـتَعمِلُها مَعَ البَـشَرِ، وما يُريـدُ أنْ يُوقِعَهُـم فِيهِ، مِثْـل: اليَأسِ، والقُنُـوطِ، والأشَرِ، والبَطَرِ، والفَرَحِ، والعُجْـبِ، والفَخْرِ، والظُّلمِ، والبَغْيِ، والجُحُـودِ، والعَجَلةِ، والطَّيْشِ، والسَّـفَه، والبُخلِ، والشُّـحِّ، والجَدَلِ، والمِراءِ، والشَّـكِّ، والنِّفاقِ، والجَهْلِ، والغَفْلَةِ، والهَلَعِ، والجَزَعِ، والطُّغيانِ، والافتِتانِ، وغيرِها.

وفِيها: أنَّ على العبدِالتَّوقِّيَ مِنَ الشَّـيطانِ بطاعةِ ربِّهِ، والالتِجاءِ إليهِ، والاستِعاذةِ بِهِ مِنْه، وبمُخالفةِ الشَّـيطانِ، وكَشْـفِ مُخطَّطاتِـهِ، والحَذَرِ مِـنْ مصائِدِهِ. ومِنْ مصنَّفـاتِ العلماءِ في ذلكَ: «تلبيسُ إبليسَ» لابنِ الجَوْزِيِّ، و«إغاثَةُ اللّهفانِ» لابنِ القيِّمِ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

وفِيهـا: أنَّ الغَـرورَ -بفَتحِ الغَـيْنِ- وهو الشَّـيطانُ -يقومُ بالغُرورِ -بضَـمِّ الغَيْنِ- وهو تَصويرُ الوَهْمِ على أنَّه حقيقةٌ، فهو ظاهِرٌ يُغرِي، وباطِلٌ يُردِي.

وفِيهـا: أنَّ الشَّـيطانَ لا يَملِكُ المَصائِرَ، والأقدارَ، ولا يَتَحكَّمُ فيـما يَنالُهُ العِبادُ في الدُّنيا مِنَ المحبوبِ، أو ما يَحدُثُ لَهُم مِنَ المَكْرُوهِ.

وفِيها: أنَّ على العبدِ أنْ يَستَحضِرَ ذِكْرَ المَوتِ، وإمكانَ وقوعِهِ في كلِّ حينٍ، ويَسـأَلَ اللهَ مِنْ فضلِهِ، ويُعلِّقَ قلبَهُ بربِّهِ؛ حتَّى يَقطَعَ على الشَّيطانِ مُرادَهُ، باستِعمالِ الوُعُودِ، والأمانِيّ.

وفِيهـا: التَّحذيـرُ مِنَ الخواطِـرِ الفاسِـدَةِ، ووعودِ أولياءِ الشَّـيطانِ؛ فإنَّهـما طريقا إبليسَ لِوصولِ التَّزيينِ إلى الإنسانِ.

وفِيها: أنَّ الشَّيطانَ كثيرًا ما يَعِدُ أولياءَه أمورًا لا ينالُونَها، ولا تَحْصُلُ لَهُم، وأنَّ ما يَحصُلُ لَهُـم مِمَّا وَعَدَهُـم بِهِ فَهُوَ -أوَّلًا-: قَدَرٌ مِنَ اللهِ، لا مِنَ الشَّـيطانِ، وثانيًا: أنَّه وَبالٌ عليهِم، مِنْ جِهَةِ كونِهِ مَكْرًا واستِدْراجًا مِنَ اللهِ لهؤلاءِ الأشرارِ.

وفِيها: أنَّ مَنِ اغتَرَّ بوَعْدِ الشَّيطانِ، وأمانِيّهِ، طالَ أملُهُ في الدُّنيا، فنَسِيَ الآخرَةَ، واستَغْرَقَ في تَحصِيلِ هذِهِ الفانيةِ، فلا يَكادُ تُؤثِّرُ فِيهِ الزَّواجِرُ، أوْ تَنفَعُهُ المَواعِظُ، فيأتِيهِ أجلُهُ على حِينِ بَغْتَةٍ، وغَفْلَةٍ، فَيَلْقَى الهلاكَ، والبوارَ، والخَسارَ.

ثُمَّ ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالَ الأشقِياءِ الذينَ يَتَّبِعونَ الشَّيطانَ، وحالَ السُّعداءِ الذينَ يَعصُونَهُ، ويُطِيعونَ اللهَ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذينَ انقادُوا للشَّيطانِ، واتَّبَعُوا خُطُواتِهِ ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ مَسكَنُهُم، ومَنزِلُهُم، ومَرجِعُهُم، ومَصِيرُهُم ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهو مِنْ أسماءِ النَّارِ، مُشتقٌّ مِنَ الجُهْمَةِ، وهو السَّوادُ المُظلِمُ، سُمِّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها قَعِيرةٌ سوداءُ[1]. ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يَجِدونَ مَعدِلًا، ولا مَهْرَبًا، يَفِرُّونَ إليهِ مِنْها، بَلْ يَتَساقَطُونَ فيها، ويَتَهافَتُونَ، بلا خَلاصٍ، ولا مَناصٍ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللهِ، ورسولِهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ففَعَلُوا المأموراتِ، واجْتنَبوا المَنْهيَّاتِ ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ يومَ القيامةِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وبساتينَ عظيمةً ﴿تَجْرِى﴾ تَسِيلُ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ مِنْ تحتِ أشجارِها، وقُصُورِها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِنَ الماءِ، واللَّبَنِ، والخَمرِ، والعَسَلِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ ماكِثِينَ، لا يُخرَجُونَ مِنْها ﴿أَبَدًا﴾ بلا نِهايةٍ، ولا انقِضاءٍ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ذكَرَ هذا في مُقابلِ وَعدِ إبليسَ، ولكنَّ وَعدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صِدقٌ لا يَتخلَّفُ ﴿حَقًّا﴾ مؤكَّدًا ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ الاستفهامُ تقريرِيٌّ، والمعنى: لا أحدَ أصدقُ قولًا مِنَ اللهِ، ولا أحدَ أصدقُ مِنهُ خَبَرًا، ووفاءً بالوَعدِ.

وفي الآيتَيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

مُقابلةُ سوءِ المصيرِ لِمَنْ أطاعَ الشَّيطانَ، بحُسنِ المَآبِ لِمَنْ عَصاهُ.

وفيهما: تهديدُ أولياءِ الشَّيطانِ.

وفيهما: إشارةٌ إلى ما عَلَيهِ أولياءُ الشَّيطانِ مِنَ البُعدِ عنِ الحقِّ والخَيرِ، كما يُفهَمُ مِنْ وُرودِ اسمِ الإشارةِ للبَعيدِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

---

(١) هذا علىَ قول، والمشهورُ: أنهّا سُميت جَهنّمَ؛ لِبُعد قعرِها، وقدْ تقدّم ذلك.

وفيهما: أنَّه لا مَهرَبَ، ولا مَلجأَ، لِمَنْ دَخَلَ النَّارَ، والمَحِيصُ: مِنْ حاصَ يَحِيص حَيْصًا وحُيوصًا، أي: عَدَلَ، وحادَ.

وفيهما: طريقةُ القرآنِ في تَعقِيبِ الإنذارِ بالبِشارَةِ، والوَعِيدِ بالوَعْدِ.

وفيهما: أنَّ الجَزاءَ في الآخرَةِ مبنيٌّ على ما تكونُ عليهِ النَّفسُ في الدُّنيا.

وفيهما: أنَّ القرآنَ مَثانِي، تُثنَّى فِيهِ المعانِي، فيأتِي الوعدُ، والوعيدُ، وذِكْرُ المؤمنينَ، وذِكْرُ الكفَّارِ، وذِكْرُ الجنَّةِ، وذِكْرُ النَّارِ، والتَّبشِيرُ، والإنذارُ، والتَّرغِيبُ، والتَّرهِيبُ، وهكذا.

وفيهما: أنَّه لا يَكفي الإيمانُ بالقلبِ، حتَّى يُضافَ إليهِ العَمَلُ.

وفيهما: أنَّه لا يَكفي العَمَلُ ولا يُنْجِي، إلا إذا كانَ صالحًا، وهو الخالِصُ للهِ، صوابًا على سنَّةِ رسولِ اللهِ.

وفيهما: أنَّ تَنوُّعَ الأعمالِ الصَّالحةِ، وكَثرتَها، سببٌ عظيمٌ لدُخولِ الجنَّةِ.

وفيهما: التَّحذيرُ مِنَ الإشراكِ، والبِدعةِ؛ ولذلك لا بُدَّ أنْ تُوافِقَ العبادةُ الشَّرعَ في أمورٍ ستَّةٍ، وهِيَ:

١. **السَّببُ**: فلو قَصَرَ الصَّلاةَ في الحَضَرِ، لَمْ تُقبَلْ.

٢. **الجِنسُ**: فلا تُجزِئُ -مَثَلًا- التَّضحيةُ بالفَرَسِ، مَعَ أنَّه حلالُ الأكلِ؛ لأنَّه ليسَ مِنْ بهيمَةِ الأنعامِ.

٣. **القَدْرُ**: فلَوْ صلَّى خَمسًا في الظُّهرِ عَمدًا، لَمْ تُقبَلْ.

٤. **الهيئةُ**: فلَوْ سَجَدَ قَبْلَ أنْ يركَعَ في الصَّلاةِ، لم تُقبَلْ.

٥. **الزَّمانُ**: فلَوْ صلَّى قَبْلَ الوقتِ، لَمْ تُقبَلْ.

٦. **المكانُ**: فلَو اعتكَفَ في غيرِ المسجِدِ، لم يُقبَلْ.

فلا يكونُ العَمَلُ صالحًا إلا إذا وافَقَ الشَّرعَ.

وفي الآيتَيْنِ: التَّحقيقُ والتَّقريبُ لوَعدِ اللهِ، كما يُفهَمُ مِنَ الإتيانِ بـ«السِّينِ» في قولِهِ: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾.

وفيهما: إثباتُ القَوْلِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهُو عَزَّوَجَلَّ يَتكلَّمُ بِحرفٍ، وصَوْتٍ، بلا مُماثَلَةٍ للمخلوقِينَ.

وفيهما: وصفُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالصِّدقِ.

وفيهما: جزاءُ مَنْ عَصى الشَّيطانَ، واتَّبَعَ الرَّحمنَ.

وفيهما: الصِّدقُ في الوَعدِ.

وفيهما: مُعارَضةُ المواعِيدِ الشَّيطانِيَّةِ الكاذِبَةِ لقُرَنائِهِ، بوَعدِ اللهِ الصَّادِقِ لأوليائِهِ.

وفيهما: أنَّ وَعدَ اللهِ واقِعٌ -لا محَالةَ-.

وفيهما: أنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ، والعَمَلَ الصَّالِحَ، هما مِفتاحُ الجنَّةِ، وسببُ دُخولِها.

وفيهما: وجوبُ الصِّدقِ في القَوْلِ، والحديثِ، والوَعدِ.

وفيهما: استعمالُ المؤكِّداتِ لِزيادةِ يَقينِ العبادِ؛ فإنَّه لَمَّا أضافَ الوَعدَ إلى نفسِهِ فقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ صارَ تأكِيدًا، ثُمَّ أكَّدَه بـ ﴿حَقّٗا﴾ وهذا تأكِيدٌ ثانٍ، ثُمَّ أتَى بالاستِفهامِ التَّقريرِيِّ، وهذا تأكِيدٌ ثالثٌ.

وفيهما: مَسرَّةُ الأحِبَّاءِ، ومَساءَةُ الأعداءِ، بذِكْرِ الوَعدِ، والوَعِيدِ.

وفيهما: الردُّ على مَنْ قالَ بأنَّ المعصِيةَ لا تَضُرُّ مَعَ الإيمانِ.

وفيهما: سَعادَةُ المؤمنينَ الأبدِيَّةُ في الجنَّةِ.

وفيهما: أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهو قادِرٌ على أنْ يُعطِيَ ما وَعَدَ بِهِ، بخِلافِ الشَّيطانِ الذي يَعِدُ فيُخْلِف.

وفيهما: أنَّ الإخبارَ عن إيصالِ المنافِعِ قَبْلَ وقُوعِها -وهذا تعريفُ الوَعدِ- يَزيدُ الحَماسَ للأعمالِ الصَّالحِةِ.

وفيهما: أنَّ مُواجهةَ العبدِ لِوُعودِ الشَّيطانِ الموافِقةِ لِهَوَى النَّفسِ، يكونُ بالإيمانِ الجازِمِ بِوَعدِ اللهِ.

ولَمَّا ذكَرَ جزاءَ الفريقَيْنِ، بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الفوْزَ، والنَّجاةَ، ليسَ بالتَّحلِّي، ولا بالتَّمنِّي. ولَمَّا تَفاخَرَ بعضُ أهلِ الكِتابِ فيما بيْنَهم، وادَّعى كلٌّ مِنْهم أنَّه على الحقِّ، بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه ليسَ كلُّ مَنِ ادَّعى الحقَّ مُصِيبًا، وأنَّ المسألَةَ ليسَتْ دَعوَى بِلا بُرهانٍ، وإنَّما هي قولٌ طيّبٌ، وعَمَلٌ صالِحٌ، يُثِيبُ اللهُ فاعِلَهُ، وأنَّ صاحِبَ السُّوءِ سيُعاقِبُهُ ربُّهُ، ويُجازِيهِ عليهِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾ أيْ: ليسَ الأمرُ، والفوزُ، والتزكيةُ ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ جَمعُ أُمنِيَّةٍ، وهيَ ما يَرغَبُ بِهِ الإنسانُ، ويَشتَهِيهِ، ويَتَخيَّلُهُ واقِعًا، وهو ليسَ بواقِعٍ ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنَ اليهودِ، والنَّصارَى، قال قتادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذُكِرَ لنا: أنَّ المسلمينَ وأهلَ الكِتابِ افتَخَرُوا، فقال أهلُ الكِتابِ: نَبِيُّنا قَبْلَ نَبِيِّكُم، وكِتابُنا قَبْلَ كِتابِكُم، فنحنُ أَوْلَى باللهِ مِنْكُم. وقالَ المُسلمونَ: نحنُ أَوْلَى باللهِ مِنْكُم، نبيُّنا خاتَمُ النَّبيِّينَ، وكتابُنا يَقْضِي على الكُتُبِ التي كانَتْ قَبْلَه، فأنزلَ اللهُ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، فأفلَجَ اللهُ حُجَّةَ المسلمينَ، على مَنْ ناوَأَهُم مِنْ أهلِ الأديانِ»[1].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أيْ: يرتَكِبْ ذنبًا -أيًّا كانَ-. وقيلَ: السُّوءُ: الشِّركُ، قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «مَنْ يُشْرِكْ يُجْزَ بِهِ، وهو السُّوءُ»[2]. ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾ يُجازَ عليهِ، إذا لَمْ يَتُبْ مِنْه، إمَّا بمُصيبةٍ في الدُّنيا، أو بما يُصِيبُهُ بَعدَ المَوتِ، سواءً كانَ مِنْ هذِهِ الأمَّةِ، أو مِنْ أهلِ الكِتابِ، وقد رَوَى مُسلِمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قالَ: «لمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ شَقَّ ذلكَ على المُسلِمينَ، وبَلَغَتْ مِنْهُم مَبْلَغًا شَدِيدًا، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قارِبُوا، وسَدِّدُوا، فَفي كلِّ ما يُصابُ بِهِ المسلِمُ كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبةَ يُنكَبُها، أو الشَّوكَةَ يُشاكُها**»[3].

---

(١) تفسير الطبريّ (٩/ ٢٢٩). وقال ابنُ كَثير: «وَكَذا رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ، وَمَسْرُوقٍ، والضَّحَّاكِ، وَأَبِي صالِحٍ، وَغَيْرِهِمْ» تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤١٧).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٣٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٤).

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ﴾ أي: عاملُ السُّـوءِ ﴿لَهُۥ﴾ أي: لنفسـهِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِمّنْ سِواهُ ﴿وَلِيّٗا﴾ يتولَّى أمرَهُ، ومَصالحَهُ ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ يَنْصُرُهُ، ويَدْفَعُ عنهُ المساوئ، قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إلا أنْ يَتُوبَ قَبْل موتِه، فيَتُوبَ اللهُ عليهِ»[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

ذمُّ أهلِ الكتابِ مِنْ أصحابِ الأمانيِّ الباطِلَةِ، الذينَ وصَفَهُم اللهُ بقولِهِ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ومِـنْ أمانِيِّهِمُ الباطلَةِ التي أخبَرَنـا اللهُ عنْهـا: قولُهُـم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وقولُهُـم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولُهُـم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: ٨٠].

وفيها: أنَّ مِنْ رحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنْ جَعَلَ المَصائِبَ النَّفسيَّةَ، والجَسَديَّةَ، كفَّارةً للذُّنوبِ، وعَمَلِ السُّوءِ.

وفيها: أنَّ الجزاءَ على السَّيِّئاتِ يكونُ في الدُّنيا، أو في الآخِرَةِ، وقدْ يكونُ فيهما معًا.

وفيها: أنَّ كلَّ مَنْ عُجِّلَتْ له عُقوبةُ سيِّئاتِهِ في الدُّنيا، فهُوَ ذُو حظٍّ عظيمٍ.

وفيها: قضاءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ المُتنازِعِينَ في الحقِّ.

وفيها: أنَّ الجزاءَ يومَ القيامةِ ليسَ تابِعًا لأمانِيِّ النَّاسِ، ومُشتَهَياتِهِم، بَلْ هو مُقدَّرٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بحَسَبِ أعمالِهِم.

وفيها: تَوضِيحُ الشَّأنِ، والأمرِ، في مسألةِ الجزاءِ، والثَّوابِ، والحقِّ، عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفيها: ذَمُّ الأمانِيِّ الباطلَةِ.

وفيها: أنَّ الخَلْقَ يومَ القيامةِ يكونُونَ أشدَّ ما يكونُونَ حاجَةً إلى المَوْلَى، والنَّصيرِ.

وفيها: أنّ العبدَ إنّما يَنفعُه -يومَ القِيامةِ- إيمانُهُ، وعمَلُهُ الصَّالِحُ.

وفيها: أنَّ اللهَ يُحقِّقُ أمانِيَّ المؤمنينَ إذا عَبَدُوهُ، وأطاعُوهُ، ويُخيِّبُ أمانِيَّ الكفَّارِ، والمشرِكِينَ.

---

(١) رواه الطبريّ (٩/ ٢٣٩).

وفِيها: أنَّ الدَّعاوَى المجرَّدَةَ لا تُقبَلُ بغَيرِ تَصدِيقٍ بالأفعالِ.

وبهـذِهِ الآيـةِ: يَتَبيَّنُ الفَرقُ بَيْنَ الرَّجاءِ، والتَّمنِّي، فإنَّ الرَّجـاءَ يكونُ مَعَهُ خَوْفٌ، وعَمَلٌ، وأمَّا التَّمنِّي: فهو طَمَعٌ، وتَخييلُ نَفْسٍ، بلا خَوفٍ، ولا عَمَلٍ(١).

وفِيها: ردٌّ على المُرجِئَةِ الذينَ يَقولُونَ: لا يَضُرُّ مَعَ الإيمانِ ذَنْبٌ.

وفِيها: أنَّ سِلعَةَ اللهِ الغالِيةَ، لا تُنالُ بمجَرَّدِ الأمانِيِّ.

وفِيها: أنَّ مُجرَّدَ الانتِسابِ إلى دِينِ الإسلامِ لا يَكفِي، إذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ أعمالٌ تُصدِّقُهُ.

وفِيها: تفاوتُ عامِلِي السُّوءِ، وأنَّ جزاءَهُم يَتَفاوَتُ بحَسَبِ السُّوءِ الذي عَمِلُوهُ.

وفِيها: كَفُّ النُّفوسِ عن الاستِرسـالِ في الأمـانِيِّ الباطِلَةِ، والأوهامِ، والخيالاتِ التي لا تُفِيدُ.

وفِيها: العَدْلُ في الحُكْمِ بَيْنَ المسلِمينَ، وأهلِ الكِتابِ.

وفِيها: أنَّه ليسَ كلُّ مَنِ ادَّعَى شيئًا، حَصَلَ له بمجرَّدِ دَعْواهُ.

وفِيهـا: أنَّـه لا يَنْصُرُ أحدٌ أحدًا، إذا جاءَ بأسُ اللهِ، ولا يُجِيرُ أحدٌ أحدًا مِنْ عذابِ اللهِ إذا نَزَلَ.

وفِيهـا: الـردُّ عـلى مَنْ زَعَـمَ حصـولَ النَّجـاةِ بمجـرَّدِ التَّوحيـدِ في القَلْـبِ، دونَ القِيامِ بالتَّكالِيفِ، والواجِباتِ، والانتهاءِ عنِ المُحرَّماتِ.

وفِيها: تهديدُ اللهِ لِمَنْ عَمِلَ السُّوءَ.

وفِيهـا: أنَّ العُقُوبـاتِ في الدُّنيـا مُكفِّراتٌ، فإذا كانَـتْ عُقُوبةً شرعيَّةً كالحَـدِّ، فالحُدودُ كفَّارةٌ لِأصحابِها، وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَصْحابِهِ: «**بايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ**

---

(١) قـالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّمَنِّي يَكُونُ مَعَ الكَسَـلِ، وَلا يَسْـلُكُ بِصاحِبِهِ طَرِيقَ الجِـدِّ، والاِجْتِهادِ. والرَّجاءُ يَكُونُ مَعَ بَذْلِ الجُهْدِ، وَحُسْنِ التَّوَكُّلِ. فالأَوَّلُ: كَحالِ مَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَرْضٌ، يَبْذُرُها، وَيَأْخُذُ زَرْعَها، والثّانِي: كَحالِ مَنْ يَشُـقُّ أَرْضَـهُ، وَيَفْلَحُها، وَيَبْذُرُها، وَيَرْجُو طُلُوعَ الزَّرْعِ، وَلِهَذا أَجْمَعُـوا عَلَى أَنَّ الرَّجاءَ لا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ العَمَلِ». مدارج السالكين (٢/ ٣٧).

تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ...» الحديث(١).

وإذا كانَتْ عُقُوبةً قَدَرِيَّةً كالمَرَضِ، والفَقْرِ، والألَمِ النَّفسِيِّ مِنَ الهُمُومِ، والغُمُومِ، والأحزانِ، فقد يَكْفي هذا لِتكفِيرِ السَّيئاتِ، وقد لا يَكفِي، فينالُه ما ينالُه في الآخرةِ، إلا أنْ يَعْفُوَ اللهُ عنهُ بِرحمتِه.

وفيها: عَدْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإنَّه لا يُجازِي أحدًا بأكثرَ مِمَّا عَمِلَ مِنَ السُّوءِ؛ فالسَّيئةُ لا تُضاعَفُ، وتَبْقَى واحدَةً، ولكنْ تُضاعَفُ الحَسَنَةُ بعَشرِ أمثالِها، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فويلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ آحادُهُ عَشَراتِهِ.

ولَمَّا ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ جزاءَ المُسِيءِ تَحْذِيرًا، أعقَبَهُ بذِكْرِ جزاءِ المُحسِنِ تَبْشِيرًا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿**وَمَن يَعْمَلْ**﴾ أداةُ شرطٍ، وفِعْلُ شرطٍ؛ لِبيانِ أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ شَرطٌ لِدُخُولِ الجَنَّةِ ﴿**مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ قيلَ: ﴿**مِنَ**﴾ للتَّبعِيضِ، أي: بعضَ الصَّالِحاتِ، وهذا البعضُ داخلٌ فيهِ الواجباتُ، ولا يَستَطِيعُ كلُّ مكلَّفٍ أنْ يَعمَلَ كلَّ الصَّالحاتِ؛ ولِذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ**»(٢).

وقيلَ: ﴿**مِنَ**﴾ بيانِيَّةٌ، أي: لِبيانِ جِنْسِ العَمَلِ المُبهمِ في قولِهِ: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ**﴾، فشَرطُ دُخولِ الجَنَّةِ: أنْ يَقُومَ العامِلُ بفِعْلِ الصَّالحاتِ.

والمَقصُودُ بالصَّالحاتِ: الأعمالُ الصَّالحةُ، فحَذَفَ المَوْصوفَ، وأبْقَى الصِّفَةَ؛ لأنَّها تَدُلُّ عليهِ. والعَمَلُ الصَّالِحُ: هُوَ كلُّ عملٍ جَمَعَ شَرْطَيْنِ: الإخلاصُ للهِ، والمُتابَعَةُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿**مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**﴾ تفصيلٌ بَعدَ إجمالٍ؛ لأنَّ ﴿**مِن**﴾ بيانِيَّةٌ، تُبيِّنُ العامِلَ،

---

(١) رواه البخاريّ (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

ولِبيانِ أنَّه يَشتَرِكُ في الثَّوابِ الرِّجالُ، والنِّساءُ. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملةُ حاليَّةٌ، والمُرادُ: بيانُ حالِ العامِلِ عندَ العَمَلِ، وهُوَ أنْ يكونَ مُصدِّقًا باللهِ، ورسولِهِ، وشَرعِهِ، وثوابِهِ، موقِنًا بذلِكَ، قائِمةٌ في قلبِهِ أركانُ الإيمانِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العامِلُونَ، والعامِلاتُ ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جزاءً، وثوابًا ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ ولا يُنقَصُونَ ﴿نَقِيرًا﴾ النُّقرَةُ: هِيَ النُّقطَةُ في ظَهْرِ نَواةِ التَّمرِ، وفي الآيةِ الأخرَى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]، وهو الخَيْطُ الذي في شِقِّ النَّواةِ مِنْ جِهَةِ بطنِها. وأمَّا القِطمِيرُ: فَهُوَ الغِشاءُ الرَّقِيقُ الذي يَكُونُ عليها، وبكلِّ واحدٍ مِنْ هذِهِ الثَّلاثةِ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا في القُرآنِ، والمعنى المقصودُ بالتَّمثِيلِ في هذِهِ الآيةِ: أنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أصحابَ الأعمالِ الصَّالحِةِ شيئًا، قليلًا، ولا كثيرًا، ولَوْ قَدْرَ نُقرَةِ النَّواةِ.

وفي هذه الآيةِ مِنَ الفوائد:

الثَّوابُ الكامِلُ على الأعمالِ الصَّالحِةِ بالجنَّةِ لِكلا الجِنْسَيْنِ.

وفِيها: اشتِراطُ الإيمانِ والصَّلاحِ في العَمَلِ؛ لِدخُولِ الجنَّةِ.

وفِيها: أنَّ الإنسانَ لا يَستطِيعُ أنْ يَعمَلَ جميعَ الصَّالحِاتِ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ في الثَّوابِ: أنَّ الرِّجالَ، والنِّساءَ، فيهِ سَواءٌ.

وفِيها: أنَّ الكافِرَ لا يَستَفيدُ مِنْ أعمالِ الخَيْرِ والبِرِّ شيئًا في الآخرَةِ، فلَنْ يَدخُلَ الجنَّةَ كافِرٌ غيرُ مؤمِنٍ.

وفِيها: تَعظِيمُ شأنِ أهلِ الإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ، كما يَدُلُّ عليهِ الإتيانُ باسْمِ الإشارةِ للبَعيدِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهذا إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ لأنَّ اسمَ الإشارَةِ مِنْ بابِ الأسماءِ الظَّاهِرَةِ، والمَقصُودُ: بيانُ عُلُوِّ مَرتَبَةِ هؤلاءِ.

وفِيها: رَحمةُ اللهِ بعبادِهِ؛ حيثُ عَلِمَ أنَّهم لَنْ يُطِيقُوا أنْ يَعمَلُوا جميعَ الصَّالحِاتِ، فأوجَبَ وَعدَهُ لِمَنْ عَمِلَ ما أطاقَ مِنْها، ولَمْ يَحرِمْهُ مِنَ الفضلِ بسبَبِ عَجزِهِ.

وفِيها: أنَّ مِنَ الصَّالحاتِ مُستحبَّاتٍ، ليسَتْ بِواجبَةٍ.

وفِيها: ذِكْرُ دُخُولِ الجنَّةِ؛ ثوابًا، وجزاءً، وفي الآيةِ الأخرَى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا

﴿يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، وفي سورةِ النَّحلِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وفي سورةِ آلِ عِمرانَ قال: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وفي الآيةِ: أنَّ المرأةَ غيرُ محرومةٍ مِنَ الفضلِ، والأجرِ، وأنَّ الذَّكَرَ، والأنثَى، إذا استوَيا في العَمَلِ، استوَيا في الأجرِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُكلِّفُ نفسًا إلا وُسْعَها.

وفِيها: الحثُّ على تَنويعِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وتعدّدِها، وأنَّ مَنْ لَمْ تَتيسَّرْ له طاعةٌ، تَيسَّرَتْ لَهُ أخرَى، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.

وفِيها: أنَّ النِّساءَ شَقائِقُ الرِّجالِ في التَّكاليفِ، وفي الأجرِ، إلا ما دَلَّ عليهِ الدَّليلُ مِنْ تَخصِيصِ أعمالٍ مُعيَّنةٍ بالرِّجالِ.

وفِيها: عَدْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، وفضلُهُ عليهِما، وأنَّه لا يَبْخسُ أحدًا شيئًا، بل يزِيدُهُ مِنْ عندِهِ بالمُضاعَفَةِ.

وفِيها -مع التي قبلها-: أنَّ اللهَ لا يَظلِمُ العبدَ، لا في زِيادَةِ العِقابِ، ولا في نَقصِ الثَّوابِ.

وفِيها: فضلُ الإيمانِ، والإخلاصِ للهِ، والمُتابَعةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيثُ جُعِلَتِ الجنَّةُ جزاءً لِمَنْ جَمعَ هذِهِ الثَّلاثَةَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ أوجَبَ على نفسِهِ عدمَ الظُّلمِ، لا لأنَّه غيرُ قادِرٍ عليهِ، ولكِنْ لأنَّ هذا ما شاءَهُ بحِكمَتِهِ، وعَدْلِهِ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أنَّ اللهَ عَذَّبَ أهلَ سماواتِهِ، وأهلَ أرْضِهِ، لَعَذَّبَهُم وهُوَ غيرُ ظالِمٍ لَهُم**»(١).

وفِيها: الإتيانُ بما يَعرِفُهُ المُخاطَبونَ مِنَ الأمورِ المَحسُوسَةِ لَهُم، عندَ ضَرْبِ الأمثالِ لَهُم.

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجة (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وصححه ابن القيم في شفاء العليل (ص١١٣).

وفِيها: أنَّ الجـزاءَ الأُخرَويَّ هو الأصـلُ في ثوابِ الأعمالِ الصَّالحِـةِ، وأمَّا الخيرُ المعجَّلُ في الدُّنيا: فيَشـتَرِكُ فيـهِ المؤمنُ، والكافِرُ، والبَرُّ، والفاجِرُ، ويُعطِـي اللهُ الكفَّارَ ثوابَ أعمالِهِمُ الخَيْرِيَّةِ في الدُّنيا، حتَّى إذا وافَوْهُ يومَ القيامةِ لَمْ يَجِدُوا شيئًا، بَلْ يجعَلُ اللهُ أعمالَهُم هباءً مَنْثُورًا.

وفِيها: تَوبِيخٌ ضِمنِيٌّ للعَرَبِ، فيما كانُوا يَفعلُونَهُ مِنْ إهلاكِ إناثِهِم بالوَأْدِ.

ولَمَّـا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فضلَ العمـلِ الصَّالِحِ مَعَ الإيمانِ، أتْبَعَهُ بذِكْرِ فضـلِ إتقانِ العَمَلِ مَعَ الإخلاصِ؛ ارتِقاءً بِهِمَمِ العبادِ، وحثًّا لهم على بُلُوغِ مَرتَبَةِ الإحسانِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أي: لا أحَـدَ أحسَـنُ مَنهجًـا، وطريقـةً ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: أخلَـصَ في تَوَجُّهِـهِ، وعِبادَتِهِ. وأخبَرَ بالوجهِ عنِ النَّفْسِ؛ لأنَّه أشرفُ الأعضاءِ ﴿لِلَّهِ﴾ وحـدَهُ، ولَمْ يَقْصِدْ أحدًا غيرَه مَعَهُ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوافِقٌ للشَّريعةِ، مُتابعٌ للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكـون قد جَمَعَ بَيْنَ الإخلاصِ، والصَّوابِ في أعمالِهِ. ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ معطوفٌ على أسـلَمَ ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ طريقَتَهُ، ودِينَهُ ﴿حَنِيفًا﴾ الحنِيفُ في اللُّغةِ: المائِلُ، والمعنى هنا: مائِلًا عنِ الوَثَنيَّةِ، والأديانِ الباطلةِ، إلى التَّوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ، وعلى رأسِ هؤلاءِ الذينَ أخلَصُوا، واتَّبَعوا ملَّةَ إبراهيمَ: محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَنْ مَعَهُ. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: صَفيًّا له بالرِّسـالةِ، والنُّبوَّةِ، والخَلِيلُ: ذُو المَحبَّةِ الخالِصَةِ، والخُلَّةُ أعلَى دَرَجاتِ المحبَّةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

تَصحيـحُ الظَّاهِرِ بمُتابَعَةِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصحيـحُ الباطِنِ بالإخلاصِ، وأنَّ مَنْ قامَ بذلكَ فقد نالَ محبَّةَ اللهِ.

وفِيها: فضلُ الإحسانِ، وإتقانِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ.

وفِيهـا: فضـلُ النبـيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعِـهِ؛ باتِّباعِهِـم لدَعـوَةِ إبراهيـمَ الخليـلِ، كـما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

وفِيهـا: فَضلُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان مَقبُـولًا عندَ جميعِ الأُمَمِ، حتَّى اليهود، والنَّصارَى، وكانَ مُشرِكُو العربِ يَفتَخِرونَ بالانتِسـابِ إليهِ؛ ولذلكَ فإنَّ إيرادَ ذِكْرِ إبراهيمَ الخليلِ مُهِمٌّ في دعوةِ أصحابِ المِلَلِ الأخرَى.

وفِيها: وجوبُ الإسلامِ بإخلاصِ الوجهِ للهِ، وعدمِ ابتِغاءِ أحدٍ في العملِ غيرَ اللهِ.

وفِيها: التَّحلِّي بأحسنِ الأخلاقِ، والفَضائِلِ.

وفِيها: التَّعبيرُ عن تَوَجُّهِ القَلبِ بإسلامِ الوَجْهِ.

وفِيها: أنَّ المَيْلَ عنِ الشِّركِ استقامةٌ.

وفِيها: اتِّباعُ مَنْ سَلَفَ في الحقِّ.

وفِيها: تأكيدُ شرائِعِ الأنبياءِ على بعضِها البعضِ.

وفِيها: أنَّ أعظَمَ ما كانَ عندَ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو التَّوحيدُ، والإحسانُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَصطَفي مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يشاءُ، ويَجْعَلُ لَهُم مِنَ المَنزِلَةِ في المحبَّةِ ما يَشاءُ.

وفِيهـا: المَنزلةُ الرَّفِيعةُ التي كانَ عليها الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عنْد ربِّهِ جلَّ وعَلا، وكذلِكَ نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القائِلُ: «**إنَّ اللهَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **قَدِ اتَّخَذَني خَليلا، كَما اتَّخذَ إبراهيمَ خَلِيلا**»[(١)].

وفِيهـا: إخلاصُ الدِّينِ للهِ وحدَهُ، وكانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: «اللهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي صالِحًا، واجْعَلْهُ لَكَ خالِصًا، وَلا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»[(٢)].

وفِيها -مع التي قبلها-: ذِكْرُ المَراتِبِ الثَّلاثةِ العظيمةِ: الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ.

وفِيها: فضلُ الحَنِيفيَّةِ، والحَنَفُ في اللُّغةِ: هو المَيْلُ، وفي الإسلامِ: المَيْلُ إِلَيْهِ، والإِقامةُ عَلَى عَقْدِه. والحَنِيف: الصَّحِيحُ المَيْلِ إلى الإسلامِ، الثابتُ عَلَيْهِ.

وفِيهـا: عُلُوُّ مرتَبَةِ الخُلَّةِ: وهيَ صَفاءُ المَوَدَّةِ، والخَليـلُ: هُوَ الصَّاحِبُ المُلازِمُ، الذي تَخَلَّلَتْ نفسَهُ محبَّةُ صاحِبِهِ، وخالَطَتْها مُخالَطَةً تامَّةً.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد (ص٩٧).

وفِيها: فَضلُ الإسلامِ على سائرِ الأديانِ.

وفِيها: أنَّ الإسـلامَ مَبْنِيٌّ على صحَّةِ الاعتِقادِ، وصحَّةِ العَمَلِ، فإلَى الأوَّلِ الإشارةُ بقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، وإلى الثَّانِي الإشارةُ بقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وفِيها: وجوبُ الانقِيادِ والاستِسلام والخُضُوعِ للهِ.

وفِيها: ذَمُّ مَنْ كانَ وَجْهُهُ وقصدُهُ لِغيرِ اللهِ.

وفِيها: الجَمعُ بَيْنَ إسلامِ الوَجهِ، وإحسانِ العَمَلِ.

وفِيها: ذِكرُ الإسلامِ العامِّ، الذي هو دِينُ جميعِ الأنبِياءِ.

وفِيها: الإشارةُ إلَى أنَّ شريعةَ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُشبِهُ شريعَةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كانَ مِنْ شريعةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الصَّلاةُ إلى الكعبَةِ، والطَّوافُ بِها، ومناسِكُ الحَجِّ.

وفِيها: الإشارةُ إلَى مُنتَهَى ما تَبلُغُهُ النفسُ البَشَرِيَّةُ مِنَ الكَمالِ.

وفِيها: التَّوجُّهُ إلى اللهِ وحدَهُ في طَلَبِ الحاجاتِ.

وفِيها: إثباتُ صِفةِ المَحبَّةِ للهِ، والردُّ على مَنْ نَفَى ذلكَ.

ولَمَّـا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذِهِ السُّـورةِ أنواعًـا مِنَ الأمرِ، والنَّهيِ، والوَعـدِ، والوَعِيدِ، بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَـمالَ قُدرَتِـهِ، وكمالَ عِلْمِـهِ؛ لِيَدُلَّ على وجـوبِ طاعَتِهِ، وأنَّ اللهَ قـادِرٌ على تَحقِيقِ الوَعدِ، وإنفاذِ الوَعِيدِ. ولَمَّا ذَكَرَ اتِّخاذَهُ إبراهيمَ خَلِيلًا، بَيَّنَ أنَّ ذلكَ لِطاعَتِهِ، لا لِحاجَتِهِ إليهِ، وأنَّه مُستَغْنٍ عنْ جَمِيعِ الخَلْقِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ الـلامُ لامُ المِلْكِ، والاختِصاصِ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملْكُهُما خـاصٌّ بِـهِ، وهذا يُبَـيِّنُ قدرَتَهُ، وغِناهُ، ويَشـمَلُ كلَّ مَنْ يَعقِلُ، وما لا يَعقِلُ، في السَّـمواتِ، والأرضِ، فالجَميـعُ مِلْكُـهُ، وعَبيـدُهُ، وخَلْقُهُ، وهـو المُتَصرِّفُ فِيهِـم، لا رادَّ لِما قَضَى، ولا يُسـأَلُ عَمَّا يَفعَلُ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يَشـمَلُ الماضِي، والحاضِرَ، والمُسـتقبَلَ، فالفِعلُ (كانَ) هُنـا مَنـزُوعُ الدَّلالـةِ عـلى الزَّمـانِ. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطـةَ العِلْـمِ، والقُدرَةِ،

والقَهْرِ، فعِلمُهُ نافِذٌ في جميعِ المخلُوقاتِ، لا تَخْفَى عليهِ خافِيَةٌ مِنْ شُؤُونِ العبادِ، ولا يَعزُبُ ولا يَغِيبُ عَنْ عِلمِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ، ولا في السَّماواتِ، ونَفذتْ مَشيئتُه وقُدرتُه بجميعِ الموجوداتِ، ووسِعتْ رحمتُه أهلَ الأرضِ والسماواتِ، وقَهرَ بِعزِّه وقَهرِه كلَّ مَخلوق، ودانتْ له جميعُ الأشياءِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

أنَّ كلَّ ما في السَّماواتِ، وما في الأرضِ، مِلكٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مُختَصٌّ بِهِ، ليسَ لِغَيرِه فيهِ شِركٌ، ولا نَصِيبٌ.

وفِيها: شُمُولُ مُلكِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للعاقِلِ، وغيرِ العاقِلِ، وللأشخاصِ، والأعيانِ، والأوصافِ.

وفِيها: أنَّ للهِ إحاطةَ القَهرِ، والتَّسخِيرِ، وإحاطَةَ العِلمِ، والتَّدبِيرِ.

وفِيها: أنَّ إحاطَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سابِقَةٌ، وحاضِرَةٌ، ومُستقبَلَةٌ، وأنَّ اللهَ لا يَتَجدَّدُ لَهُ شيءٌ في العِلْمِ، كما يَحدُثُ للنَّاسِ، الذينَ يَعلَمُونَ بَعدَ جَهلٍ، وتَتَجدَّدُ لَهُم أمورٌ، لَمْ يَكُونُوا يَعرِفُونَها.

وفِيها: أنَّ السَّمواتِ ذواتُ عَددٍ، وأمَّا الأرضُ: فَقَدْ أفرَدَها في الآيةِ؛ لأنَّ المُرادَ بها الجِنْسُ، وأمَّا عَدَدُها: فهِيَ سَبْعُ أرضِينَ، كالسَّماواتِ، لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي الحديثِ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[(١)].

وفِيها: دَعوةُ العبادِ إلى الخَوْفِ مِنْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخَشْيَتِهِ؛ لأنَّه إذا كانَ مُحِيطًا بكلِّ شيءٍ، ولا تَخْفَى عليهِ خافِيَةٌ، فكيفَ يُعصَى؟ فَعَلَى العبدِ أنْ يُراقِبَ ربَّهُ، ولا يَخرُجَ عَنْ حُكمِهِ.

وفِيها -مع التي قبلها-: أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُستَحِقٌّ وحدَهُ لإسلامِ الوَجْهِ لَهُ، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَ اتِّخاذِهِ أولياءَ مِنْ خَلْقِهِ، وأخِلَّاءَ، فإنَّه غنِيٌّ عَنْهم، غيرُ مُحتاجٍ إليهِم، وأنَّ أولياءَهُ لا يَخرُجُونَ عن عبودِيَّتِهِ، ومُلْكِهِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠).

وفِيها: هَيْمنةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على الكَوْنِ.

وفِيها: أنَّ عِلمَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُحِيطٌ بالأشـياءِ مِنْ جَميعِ جِهاتِها، وأمَّا البَشَرُ: فلا يَسـتَطِيعونَ الإحاطةَ بالأشياءِ، لا عِلْمًا، ولا رُؤيَةً، وكَمْ خَفِيَتْ -وتَخْفَى- عليهم كثيرٌ مِنَ الأمورِ.

وفِيها: أنَّ مُلْكَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للأشياءِ تامٌّ، مع عَدَمِ حاجَتِهِ إليها، واستِغنائِهِ التامِّ عنها، وأنَّ إحاطَتَهُ بكلِّ شيءٍ لا تُنافي فَوْقِيَّتَهُ، وعُلُوَّهُ على خَلْقِهِ[1].

وفِيها -مع التي قبلها-: أنَّ اللهَ لَمَّا دَعا الخَلْقَ إلى طاعتِهِ، فيما فَرَضَ مِنَ الأحكامِ، وعِبادَتِهِ، والانقِيادِ لَهُ، بَيَّنَ سَعَةَ مُلكِهِ؛ ليَرْغَبَ الخَلْقُ إليهِ، ويُطِيعُوهُ، ويُذعِنوا لأمْرِهِ.

وفِيها: أنَّ المخلوقاتِ مُحتاجَةٌ إليهِ، مُستمِدَّةٌ وجُودَها مِنْه.

وفِيها: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَمْلِكُ، ويُحِيطُ، فجَمَعَ بَيْنَ الغِنَى، والعِلمِ، والقُدرةِ.

ولَمَّا تقدَّمَ في مَطلَعِ السُّورةِ ذِكْرُ عَدَدٍ مِنَ الأحكامِ المُتعلِّقةِ بالأيتامِ، والنِّساءِ، والمواريثِ، وغيرِها، فقد وَقَعَ بَعدَها للصَّحابَةِ إشـكالاتٌ، وأقضِيَةٌ، سـألُوا عنهـا، فنزَلَ جوابُها مُواكِبًا لِوُقُوعِهـا، كـما جاءَ في استِفتائِهِم في بعـضِ أمورِ النِّسـاءِ. ولَمَّا كانَ تَخَلُّـلُ المَواعِظِ لآياتِ الأحـكامِ أوقَـعَ في النُّفوسِ، فقد جـاءَتْ طائِفةٌ مِنَ الأحكامِ مُتأخِّرةً في سُـورةِ النِّسـاءِ عَنْ أوَّلِها، مَقرونَةً بذِكْرِ مَزِيدٍ مِنَ المَواعِظِ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧ ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عـن عائِشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في هذِهِ الآيـةِ، قالت: «هُوَ الرَّجُـلُ تَكُونُ عِنـدَهُ اليَتِيمَةُ، هُـوَ وَلِيُّها

(١) وروى الطبري في تفسيره (٢١/ ٣٢٤) عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبعُ والأرضونَ السبعُ في يد الله، إلا كخردلةٍ في يد أحدِكم».

وَوارِثُها، فَأَشْرَكَتْهُ في مالِهِ، حَتَّى في العَذْقِ[١]، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَها، وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَها رَجُلاً، فَيَشْرَكُهُ في مالِهِ بِما شَرِكَتْهُ، فَيَعْضُلُها، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ»[٢].

وعَنْ عُروةَ، أَنَّه سَأَلَ عائشةَ عن قولِ اللهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، قالَتْ: «يا ابنَ أختِي هِيَ اليَتِيمَةُ تكونُ في حِجْرِ وَلِيِّها، تُشارِكُهُ في مالِهِ، فيُعجِبهُ مالُها، وجَمالُها، فيُرِيدُ وَلِيُّها أنْ يَتزَوَّجَها بغيرِ أنْ يُقْسِطَ في صَداقِها، فيُعطِيها مِثلَ ما يُعطِيها غيرُهُ، فنُهُوا أنْ يَنكِحُوهُنَّ إلا أنْ يُقسِطُوا لَهُنَّ، ويَبْلُغُوا بِهِنَّ أعلى سُنَّتِهِنَّ مِنَ الصَّداقِ، وأُمِرُوا أنْ يَنْكِحُوا ما طابَ لَهُم مِنَ النِّساءِ سِواهُنَّ». قال عُروةُ: قالت عائشةُ: «ثُمَّ إنَّ النَّاسَ استَفْتَوْا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعدَ هذِهِ الآيةِ، فأَنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾»، قالَتْ: «والذي ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنَّه يُتلَى عليكُم في الكِتابِ: الآيةُ الأولَى التي قالَ اللهُ فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾»، قالَتْ عائِشةُ: «وقولُ اللهِ في الآيةِ الأخرَى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبةَ أحدِكُم ليتيمتِه التي تكونُ في حِجْرِه، حينَ تكونُ قليلةَ المالِ، والجَمالِ، فنُهُوا أنْ يَنْكِحُوا ما رَغِبُوا في مالِها، وجَمالِها، مِنْ يتامَى النِّساءِ، إلا بالقِسْطِ، مِنْ أجلِ رَغبَتِهِم عنهُنَّ»[٣].

وعن عليِّ بنِ أبي طَلْحَةَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ في قولِهِ: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ...﴾ الآية، قال: «كانَ الرجلُ في الجاهِلِيَّةِ تكونُ عندَهُ اليَتِيمةُ، فيُلْقِي عليها ثَوْبَهُ، فإذا فَعَلَ بها ذلكَ، لَمْ يَقْدِرْ أحدٌ أنْ يَتزَوَّجَها أبدًا، فإنْ كانَتْ جَمِيلَةً، وهَوِيَها، تَزَوَّجَها، وأكَلَ مالَها، وإن كانَتْ دَمِيمةً، مَنَعَها الرِّجالَ أبدًا، حتَّى تَمُوتَ، فإذا ماتَتْ وَرِثَها، فَحَرَّمَ اللهُ ذلكَ، ونَهَى عَنْهُ»[٤].

وقولُه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي: يَسألُونَكَ، والمُرادُ: سُؤالُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما أُشكِلَ عليهِم، والاستِفتاءُ: طَلَبُ الفَتْوَى، والإفتاءُ: هو الإخبارُ

(١) أي: النّخلة.

(٢) رواه البخاريّ (٤٦٠٠)، ومسلم (٣٠١٨).

(٣) رواه البخاريّ (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٤) تفسير الطبريّ (٩/ ٢٦٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٠٧٧).

عَنْ حُكمٍ شَرْعيٍّ، والقَضاءُ: هُو الإلزامُ بِهِ، وكانَ الصَّحابةُ قد سَأَلُوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مِيراثِ النِّساءِ، والصِّغارِ، فلَمَّا أنزَلَ اللهُ حقَّهُم في المِيراثِ في آيةِ المَوارِيثِ، استَشْكَلَ بعضُ الصَّحابَةِ أمورًا، فسَأَلُوا عنها، ووَقَعَتْ لَهُم حالاتٌ في حُقُوقِ الزَّوجاتِ، فنزَلَتِ الآياتُ بشأنِها.

وقال اللهُ: ﴿قُلِ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في جوابِ استِفتائِهِم، فكانَ المُستَفْتَى هُوَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُفتِي هُوَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فالمصدَرُ واحِدٌ، وهو الوَحيُ ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويُبيِّنُ لكُم حُكمَهُ، ويُجِيبُكُم عمَّا سأَلْتُم عنْهُ ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في حُقُوقِهِنَّ مِنَ المِيراثِ، وشُؤُونِهِنَّ، ومُعاشَرَتِهِنَّ ﴿وَمَا يُتْلَىٰ﴾ يُقْرَأُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المؤمنونَ ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ في القُرآنِ، ممَّا نَزَلَ في أوَّلِ هذِهِ السُّورةِ ﴿فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ في بيانِ حُقُوقِهِنَّ، قالتْ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «والذِي ذَكَرَ اللهُ أنَّه يُتلَى عليهِم في الكِتابِ: الآيةُ الأولَى التي قالَ اللهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾»(١).

وقولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ لا تُعطُونَهُنَّ ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ ما وَجَبَ لَهُنَّ مِنَ الميراثِ، أو الصَّداقِ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ تُرِيدُونَ، وتَطْمَعُونَ ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ تتزَوَّجُوهُنَّ لمالِهِنَّ، وجَمالِهِنَّ، وقد كانَ الرجلُ يَضُمُّ اليَتِيمةَ، ومالَها، إلى نفسِهِ، فإنْ كانَتْ جميلةً تَزَوَّجَها، وأكَلَ المالَ، وإنْ كانَتْ دَمِيمةً حَبَسَها عنِ الزَّواجِ؛ حتى تَمُوتَ، فيَرِثَها. ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ معطوفٌ على يتامَى النِّساءِ، أي: ويُبَيِّنُ اللهُ لَكُم -أيضًا- أحكامَهُ في شأنِ المُستضعَفِينَ مِنَ الوِلدانِ الصِّغارِ، الذينَ كُنتُم لا تُعطُونَهُم نَصِيبَهُم مِنَ الميراثِ، وأحكامَهُم الأُخرَى، كحُكْمِ هِجرَتِهِم ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: ويُبيِّنُ لكُم -أيضًا- وجوبَ القِسْطِ، والعَدْلِ في اليتامَى، وحُكمَ مُخالَطَتِهِم في الطَّعامِ، ووجوبَ حِفظِ أموالِهِم، والقِسْطُ: هُوَ العَدْلُ، وأَقْسَطَ في اللُّغةِ أي: عَدَلَ، وقَسَطَ أي: جارَ، فمِنَ الأوَّلِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ومِنَ الثَّانِي قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فيما يَتعلَّقُ بهؤلاءِ المُستضعَفِينَ، وغيرِهِم. ولفظةُ: ﴿خَيْرٍ﴾

---

(١) تقدّم تخريجه آنفا.

نَكِرَةٌ، تُفِيدُ العُمُومَ، أي: سواءٌ كانَ هذا الخَيرُ ماليًّا، أو عِلْمِيًّا، أو بَدَنِيًّا، أو بالجاهِ، والمنزِلَةِ، وغيرِ ذلكَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ فيُجازِيكُم عليهِ، ولا يَضِيع أجْرُكُم عِندَهُ، وهذا تَهيِيجٌ للعِبادِ على فِعْلِ الخَيراتِ، والأعمالِ الصَّالِحاتِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

حِرصُ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على مَعرِفَةِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ.

وفِيها: تأكِيدُ القرآنِ على ما تقدَّم مِنَ الأحكامِ.

وفِيها: تَقديمُ حُكمِ اللهِ على هَوَى النَّفسِ.

وفِيها: رعايةُ حُقوقِ المُستضعَفينَ.

وفِيها: إتْباعُ الأحكامِ بالتَّرغِيبِ.

وفِيها: خُطورةُ منزلةِ الإفتاءِ، وأهميتُهُ؛ ولذلكَ تولَّاهُ اللهُ بنفسِهِ، ثُمَّ كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفتِي، ويُبيِّنُ للنَّاسِ ما خَفِيَ عليهِم.

وفِيها: حُسْنُ تلقِّي المُستفتِي، وتَبشِيرُهُ بوجودِ الجَوابِ.

وفِيها: تَبْيِينُ المُشكلِ مِنَ الأحكامِ.

وفِيها: السَّعيُ في تغييرِ العاداتِ الاجتماعيَّةِ السَّيِّئةِ، وملاحَقَةِ ذلكَ، وتَتَبُّعِهِ، والتَّأكِيدِ عليهِ.

وفِيها: أنَّ عَدْلَ الشَّريعةِ قد يَأتِي على خِلافِ ما يَظُنُّهُ بعضُ النَّاسِ أنَّه عَدْلٌ، فقد كانُوا في الجاهليَّةِ لا يُوَرِّثونَ النِّساءَ، والأطفالَ؛ لأنَّهم لا يَحمِلونَ سِلاحًا، ولا يُدافِعُونَ، ولا يَذهَبونَ في طَلَبِ الرِّزقِ، ونحوِ ذلكَ، فَلا يَستَحقّونَ أنْ يَرثُوا.

وفِيها: مُراعاةُ مصلحةِ المرأةِ -وخُصوصًا اليَتِيمة- وحِفظُ حقِّها في شأنِ الزَّواجِ، فإنْ أرادَ نكاحَها لجمالِها، فلا بُدَّ مِنْ إعطائِها حقَّها كامِلًا، وإنْ رَغِبَ عَنْها لدمامَتِها، فلا يَجوزُ حَبْسُها؛ لِيَستَولِيَ على مالِها، إذا ماتَتْ.

وفي الآيةِ: جوازُ تَزويجِ الصَّغيرةِ، وذلكَ بإذنِ وَلِيِّها.

وفِيها: عِلمُ اللهِ المُحِيطُ بأفعالِ البَشَرِ، وفضلُ الإحسانِ إلى النِّساءِ، والوِلْدانِ.

وفِيها: الحِرْصُ على تنميةِ أموالِ الأيتامِ، وفِعْلِ الأصلَحِ لهُم، وعدمِ مُحاباةِ النَّفسِ والغَيْرِ على حِسابِ اليَتِيمِ. وقد فَهِمَ بعضُ العلماءِ مِنْ هذِهِ الآيةِ جوازَ تَصَرُّفِ وليِّ اليَتِيمِ في مالِ اليَتِيمِ لنفسِهِ، كإجراءِ البَيْعِ، والشِّراءِ، بَيْنَه وبَيْنَ اليَتِيمِ، وكذلكَ جوازُ أنْ يُنكِحَ وليُّ اليَتِيمةِ نفسَهُ مِنْها، فيكونُ هو النَّاكِحُ، والمُنْكِحُ (أي: هو الزَّوجُ، والوَليُّ)، وذهبَ آخرونَ مِنْ أهلِ العِلمِ إلى أنَّ ذلكَ لا يَجوزُ؛ خَشيةَ الحَيْفِ، والمُحاباةِ، واشترَطَ بعضُهُم إذنَ السُّلطانِ، أو القاضِي؛ لِما تقدَّمَ، وقال أحمدُ -في إحدَى الرِّوايتَيْنِ-: «يوكِّلُ رجلًا غيرَهُ فيُزوِّجها مِنْه»[1] مَعَ مُراعاةِ مصلَحَتِها، والمحافظةِ على صَداقِ المِثْلِ، ويُعرَفُ هذا بقِياسِها على قَرِيباتِها، وأتْرابِها، اللاتِي في طبقَتِها.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: ردٌّ على مَنْ مَنَعَ زواجَ اليَتِيمةِ حتَّى تَبْلُغَ.

وفِيها: العِنايةُ بأمورِ النِّساءِ، فالمُستفْتِي هُمُ الصَّحابَةُ، والمُستَفْتَى هُوَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمُفْتِي هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا ردٌّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ الدِّينَ هَضَمَ حقَّ المرأةِ.

وفِيها: الرُّجوعُ إلى الكِتابِ العزيزِ؛ لِمعرفَةِ الأحكامِ، والفَتْوَى؛ وذلك لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وفِيها: إبطالُ الإسلامِ لِجَبَروتِ أهلِ الجاهليَّةِ، وظُلمِهِم للصِّغارِ، والضُّعفاءِ.

وفِيها: أنَّ مَهْرَ المرأةِ واجبٌ؛ لِقولِهِ: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، وأنَّها هي التِي تَأخُذُهُ، لا ولِيُّها، ولا غيرُهُ.

وفِيها: مُراعاةُ العَدْلِ فيما تَحتَ يَدِ الإنسانِ مِنَ الوِلاياتِ.

وفِيها: الحثُّ على فِعْلِ الخَيرِ، وبَذْلِ المَزِيدِ في ذلكَ في حَقِّ الضُّعفاءِ، كالمرأةِ، والصَّغيرِ، والمريضِ، واليَتِيمِ، والمجنونِ، وأنَّ مَنْ قامَ بذلِكَ فلَهُ عندَ اللهِ أجرٌ عظيمٌ.

وفِيها: أنَّه لا يَجوزُ التَّخلِّي عن هؤلاءِ، ويَجِبُ أنْ يكونُ في الأمَّةِ مَنْ يَقومُ على مصالِحِهم.

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٢١).

وفِيها: جوازُ أن يُقالَ: أفتَى اللهُ بكَذا.

وفِيها: تَعظيمُ شأنِ الإفتاءِ في أمورِ النِّساءِ، كما جَرَى التَّنويهُ إليهِ في الآيةِ، بتقدِيمِ لَفظِ الجلالَةِ على الفِعْلِ في قولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾.

وفِيها: وجوبُ مُراعاةِ مصلَحَةِ وحُقُوقِ الصَّغِيراتِ، سَواء كانَتْ جميلَةً فقيرةً، أو دَمِيمةً غَنِيَّةً.

ولَمَّا كانَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد ذَكَرَ مَشروعيةَ تَعدُّدِ الزَّوجاتِ في أوَّلِ السُّورةِ، وقد يَنْشَأُ عنْهُ تَشاحٌّ، واختلافٌ، ومُنازَعَةٌ في الحُقُوقِ، جاءَتْ التَّوجِيهاتُ الشرعيّةُ في هذا الموضُوعِ مِنَ السُّورةِ؛ لِمُعالَجَةِ هذه الأمورِ. ولَمَّا ذَكَرَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ السَّابِقةِ حَقَّ المرأةِ في المَهْرِ، والإرثِ، ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ بَعدَه جوازَ تَنازُلِها عنْ حقِّها -أو بعضِهِ- لزوجِها؛ لِتَبْقَى عِندَه إذا رَغِبَ عَنْها، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ قالَتْ: «الرَّجُلُ تكونُ عندَهُ المرأةُ، ليسَ بمُستكثِرٍ مِنْها[(١)]، يُرِيدُ أنْ يُفارِقَها، فتقولُ: أجْعَلُكَ مِنْ شأنِي في حِلٍّ[(٢)]، فنزَلَت هذِهِ الآيةُ في ذَلك»[(٣)].

وفي روايةٍ لابنِ جَريرٍ: أنّ عائشةَ، قالَتْ في هذِهِ الآيةِ: «هُوَ الرَّجُلُ يكونَ لَهُ امرأتانِ، إحداهُما قد عَجزتْ، أو هِيَ دَمِيمةٌ، وهو لا يَستَكْثِرُ مِنْها، فتقولُ: لا تُطَلِّقْنِي، وأنتَ في حِلٍّ مِنْ شأنِي»[(٤)].

---

(١) أي: في المحبَّةِ، والمُعاشَرَةِ، والمُلازَمَةِ.

(٢) أي: أُسقِط عنك ما لِي من حُقوق.

(٣) رواه البخاريّ (٢٤٥٠) -وهذا لفظه- ومسلم (٣٠٢١)، ولفظه: «نَزَلَتْ في المَرْأَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ لا يَسْتَكْثِرَ مِنْها، وَتَكُونُ لَها صُحْبَةٌ وَوَلَدٌ، فتَكرَهُ أَنْ يُفارِقَها، فَتَقُولُ لَهُ: أَنْتَ في حِلٍّ مِنْ شَأْنِي».

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٢٧١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «خَشِيَتْ سَوْدَةُ أنْ يُطَلِّقَها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالَتْ: لا تُطَلِّقْنِي، وَأَمْسِكْنِي، واجْعَلْ يَوْمِي لِعائِشَةَ، فَفَعَلَ، فنزلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾»، قال ابنُ عبَّاسٍ: «فما اصطلَحا عليهِ مِنْ شيءٍ فهُوَ جائِزٌ»(١).

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ زوجةٌ ﴿خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ خَشِيَتْ مِنْ زوجِها، والبَعْلُ: هُوَ الزَّوجُ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. ﴿نُشُوزًا﴾ تَرَفُّعًا عليها، واستِعلاءً، أو إيذاءً لها، وتَجافِيًا عنها، أو سُوءًا في المُعاملةِ ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ مَيْلًا عَنْها، بتَرْكِ المُلاطفَةِ، والمُؤانَسَةِ، أو بقِلَّةِ جُلُوسِهِ عِندَها، ونُدْرَةِ مُحادَثَتِها، ونحوِ ذلكَ، وقد يَكُونُ هذا لِكِبَرِها، أو دمامَتِها، أو مَلالَةٍ مِنْها، أو طُمُوحِهِ إلى غَيرِها، أو انقِطاعِ ولدِها، أو سُوءِ خُلُقِها، ونحوِ ذلكَ، فإذا تَبَيَّنَ لها هذا بالقَرائِنِ، والعلاماتِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ لا حَرَجَ، ولا إثمَ ﴿أَن يُصْلِحَا﴾ يَصْطَلِحا، ويَتَوافَقا ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ كأنْ تَنْزِلَ لَهُ وتَسْمَحَ عَنْ حقِّها، أو بعضِهِ، في النَّفَقَةِ، أو المَبِيتِ، مقابِلَ أنْ يُمْسِكَها في عِصمَتِهِ، ولا يُطَلِّقَها ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾ المُسامَحَةُ، والاتِّفاقُ ﴿خَيْرٌ﴾ مِنْ سُوءِ العِشرَةِ، وكَثرَةِ الخُصُومةِ، والطَّلاقِ، واللهُ يُحِبُّ الوِفاقَ، ويَكْرَهُ الفِراقَ ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي: أنَّ الشُّحَّ حاضِرٌ في النَّفسِ، لا يَغِيبُ عنها، ولا يَنْفَكُّ منها، فقد جُبِلَتْ عليهِ، وطُبِعَتْ، والشُّحُّ: الإفراطُ في الحِرصِ على الشَّيءِ، فالزَّوجةُ -مِنْ جِهةٍ- حريصَةٌ على حقِّها في القَسْمِ، والنَّفَقةِ، والزَّوجُ -كذلكَ- حريصٌ على مالِهِ، واستِمتاعِهِ. ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ يا أيُّها الأزواجُ في عِشرةِ نِسائِكُم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الأذى، والخُصُومةَ، وسُوءَ العِشرةِ، والنُّشوزَ، والإعراضَ، وكذلكَ المرأةُ تُحسِنُ بالتَّنازُلِ عنْ حَقِّها، أو بعضِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الإحسانِ، أو ضِدِّهِ ﴿خَبِيرًا﴾ مُحصِيًا، عليمًا، بَصِيرًا، وسيُجازِيكُم على ذلك، والخَبِيرُ أخصُّ مِنَ العليمِ؛ لأنَّ الخَبيرَ هُوَ العليمُ ببواطِنِ الأمورِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

كَمالُ دِينِ الإسلامِ، فَهُوَ يَضَعُ التَّشريعاتِ، والأحكامَ، ويُنَظِّمُ العَلاقاتِ، ويُعالِجُ المُشكِلاتِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٠)، وصححه، والطيالسي (٢٨٠٥)، والبيهقي (١٤٧٣٥)، وحسّن إسناده ابنُ حَجَر في الإصابة (٨/ ١٩٦)، وله شاهدٌ في الصحيحَيْنِ من حديثِ عائشةَ، بدونِ ذِكرِ نُزولِ الآية.

وفِيها: أنَّ خالقَ النُّفوسِ أعلَمُ بما يُصلِحُها، وقد فَتَحَ بابَ الصُّلحِ، والمُعالَجَةِ.

وفِيها: عِنايةُ الشَّرعِ بمعالجَةِ ما يَنْشَأُ عن تَقدُّمِ السِّنِّ عندَ الزَّوجَيْنِ، والتَّشاحِّ في الحُقُوقِ، والمُنازعةِ فيها.

وفِيها: حُسْنُ تَدارُكِ الأمورِ، قَبْلَ وقوعِ المَحذُورِ.

وفِيها: أنَّ القُلُوبَ بِيَدِ اللهِ، وأنَّ المَشاعِرَ، والأحاسِيسَ، تتغيَّرُ.

وفِيها: دَرْءُ المفسَدَةِ الأشدِّ بارتكابِ المفسَدَةِ الأدنَى، فتتنازَلُ المرأةُ عن بعضِ حقِّها، وتَتَحمَّلُ ألَمَ ذلكَ، في مقابِلِ دَفْعِ الأشدِّ، والأسوَأِ، وهو الطَّلاقُ، والفِراقُ.

وفِيها: حِرصُ الشَّريعةِ على جَمعِ النُّفوسِ، ولَمِّ الشَّملِ.

وفِيها: أنَّ النُّشوزَ أشدُّ مِنَ الإعراضِ[1].

وفِيها: أنَّ الصُّلحَ، والاجتماعَ، خيرٌ مِنَ الشِّقاقِ، والفِراقِ.

وفِيها: تَحَسُّسُ الأمورِ قَبْلَ خُروجِ الأوضاعِ عَنِ السَّيطَرَةِ.

وفِيها: مُراقبةُ الأماراتِ، والعلاماتِ، المُنذِرةِ بسُوءٍ قريبٍ.

وفِيها: إشارةُ إلَى أنَّ حاجةَ الرَّجُلِ إلى الفِراشِ -في الغالِبِ- أشدُّ مِنْ حاجةِ المرأةِ، وخاصّةً عندَ تَقَدُّمِ السِّنِّ.

وفِيها: الحِرْصُ على عدمِ كَسْرِ نَفْسِ المرأةِ بالطَّلاقِ، والمُحافظة على السِّياجِ الذي يَحْمِي مكانَتَها الاجتماعيَّةَ.

وفِيها: الصَّبرُ على قَضاءِ اللهِ، وحُسْنُ التَّعامُلِ مَعَ ما يَقَعُ مِنَ المَكرُوهاتِ.

وفِيها: التَّذكيرُ بالإحسانِ، وحُسْنِ معامَلَةِ الخَلْقِ لبَعضِهِم.

وفِيها: البَحثُ عنْ مَخارِجَ تُنجِّي مِنَ الإثمِ.

وفِيها: أنَّه لا حَرَجَ على الزَّوجِ، ولا إثمَ، في قَبُولِ تنازُلِ زوجتِهِ عنْ حَقِّها، أو بعضِهِ.

---

(١) الإعْراضُ: أَمارَةٌ مِنْ أَماراتِ النُّشُوزِ.

وفِيها: أنَّ تحمُّلَ الزَّوجِ مَشقَّةَ الصَّبرِ على ما يَكْرَهُ مِنْ زوجَتِهِ، فيهِ أجرٌ عظيمٌ عندَ اللهِ.

وفِيها: الاستِدلالُ على الأحوالِ بالقرائِنِ.

وفِيها: أنَّ عَيْشَ المرأةِ في ظِلِّ زَوْجٍ، أمانٌ واستِقرارٌ لها.

وفِيها: تَعظيمُ شأنِ الرَّابطةِ الزَّوجيَّةِ، والمحافظةُ على بقائِها، وبَذلُ الجُهدِ في استدامَتِها، فهِيَ ميثاقٌ غَليظٌ، ومِنْ أحقِّ الرَّوابطِ بالحِفظِ.

وفِيها: محُاسبةُ النَّفسِ على الشُّحِّ، وحَمْلُها على بَذْلِ الحُقُوقِ، ومُجاهَدَتُها في التَّنازُلِ للطَّرفِ الآخَرِ.

وفِيها: أنَّ للزَّوجِ نُشُوزًا، كما أنَّ للزَّوجةِ نُشُوزًا.

وفِيها: أنَّ التَّنكِيرَ في قولِهِ: ﴿صُلْحًا﴾ يَدُلُّ على العُمُومِ، فكُلُّ ما تَراضَيا عليهِ فلا بَأْسَ بِهِ، ممَّا لا يُخالِفُ شَرعَ اللهِ.

وفِيها: أنَّ التَّنازُلَ عنِ الحقِّ للمصلحةِ، أحسَنُ عاقبةً عندَ اللهِ.

وفِيها: مُعالجةُ ما تَشْعُرُ بهِ النَّفسُ مِنَ الغَضاضَةِ؛ نَتيجةَ التَّنازُلِ في الصُّلحِ، بالثَّناءِ على المُتَنازِلِ في الدُّنيا، والإشارةِ إلى أجرِهِ العظيمِ في الآخِرَةِ.

وفِيها: أنَّ التَّغاضِي عنِ الحقِّ ثَقِيلٌ على النَّفسِ؛ وذلِكَ لِما جُبِلَتْ عليهِ مِنَ الشُّحِّ.

وفِيها: فضلُ الجمعِ بَيْنَ الإحسانِ، والتَّقوَى.

وفِيها: تَذكيرُ الزَّوجَيْنِ بالإحسانِ بِفِعْلِ الأوامِرِ، والتَّقوَى بِتَرْكِ النَّواهِي.

وفِيها: حِرصُ الزَّوجةِ على استِرضاءِ زَوْجِها، وإزالةِ ما في نفسِهِ، مِنْ استِعلاءٍ، أو انصرافٍ عنها.

وفِيها: الحِرصُ على أنْ يكونَ الصُّلحُ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ حقيقيًّا، لا شكلِيًّا، كما يَدُلُّ عليهِ المفعولُ المُطلَقُ في قولِهِ: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

وفِيها: الحِرصُ على قَطعِ المُنازَعَةِ، وتأليفِ القُلُوبِ.

وفيها: سَعيُ الشَّريعةِ للصُّلحِ، وغَرَضُهُ: إصلاحُ النُّفوسِ، وتَصفِيةُ القُلُوبِ، سَواء بِعِوَضٍ، أو تنازُلٍ، أو اعتِذارٍ، ونحوِ ذلكَ.

وفيها: أنَّ الزَّوجَ إذا تَعَمَّدَ المَضارَّةَ بالزَّوجةِ، ونَشَزَ، وأعرَضَ؛ كَيْ يُجْبِرَها على التَّنازُلِ عن بعضِ حُقُوقِها، فإنَّه يكونُ آثِمًا، وعلَيْهِ جُناحٌ، وحَرَجٌ.

وفيها -مَعَ ما مَضَى مِنْ آيةِ النُّشوزِ في هذِهِ السُّورةِ-: بيانُ الفَرقِ في الحُكمِ بَيْنَ نُشُوزِ الزَّوجِ، ونُشُوزِ الزَّوجةِ، وذلكَ راجعٌ إلى قِوامَةِ الرَّجلِ على المرأةِ، وأنَّه سيِّدُها، ولِفارِقِ الطَّبيعةِ، والخِلْقَةِ بَيْنَهُما، وحَقُّ المرأةِ محفوظٌ كاملًا، إنْ لَمْ تأخُذْهُ في الدُّنيا، ستَنالُهُ يومَ القِيامَةِ.

وفيها: مُجاهدةُ الإنسانِ ما جُبِلَتْ عليهِ نفسُهُ مِنَ الأخلاقِ الرَّديئَةِ، ومِنْها: الشُّحُّ.

وفيها: أنَّ الأَوْلَى في الصُّلحِ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ أنْ يكونَ سِرًّا، لا يطَّلِعُ عليهِ أحدٌ غيرُهُما، ويُؤخَذُ ذلكَ مِنْ قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾.

وفيها: تَعظِيمُ منزلةِ الصُّلحِ في الشَّريعةِ، ويُبَيِّنُ ذلكَ تَكْرارُ ذِكْرِهِ في الآيةِ ثلاثَ مرَّاتٍ.

وفيها: فَضلُ التَّنازُلِ عن بعضِ الحُقُوقِ، وأنَّه خيرٌ مِنَ الاستِقصاءِ فِيها.

وفيها: إقامةُ الرَّجلِ مَعَ زَوجتِهِ -وإنْ كَرِهَها، وأحَبَّ غيرَها- والصَّبرُ على ذلكَ؛ مُراعاةً لِحَقِّ الصُّحبةِ.

وفيها: ذَمُّ مَنعِ الخَيرِ عنِ الغَيْرِ، والتَّقصِيرِ في حُقُوقِ الآخَرينَ، وهذا مِنَ الشُّحِّ، ومِنْهُ -أيضًا-: الحِرصُ على المُطالَبَةِ بالحُقُوقِ، واستِيفائِها، وجَشَعُ النَّفسِ عليْها.

ثُمَّ أمَرَ اللهُ الرِّجالَ في العَدْلِ بَيْنَ الزَّوجاتِ بما يَستَطِيعُونَهُ مَعَ الإصلاحِ، والتَّقوى، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾ يا مَعْشَرَ الأزواجِ ﴿أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العَدْلَ التَّامّ، في الحُبِّ، ومَيْلِ القلبِ، والشَّهوةِ، والجِماعِ، ونحوِ ذلكَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وَجهدتُّم، وتَحَرَّيْتُم،

وكلَّفتُم أنفسَكُم التَّسويةَ. ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ إلى مَنْ تُحِبُّونَها، وتُعرِضُوا عنِ الزَّوجةِ الأخرَى ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ ليستْ بذاتِ زَوجٍ، ولا مُطلَّقةٍ.

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَتْ لَهُ امْرَأتانِ فَمالَ إلى إحْداهُما، جاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وَشِقُّهُ مائِلٌ**»[1]. ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ أعمالَكُم، فتعدِلُوا بَيْنَ زوجاتِكُم، وتَقُومُوا بما فَرَضَ اللهُ لهُنَّ ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربَّكُم في معاملةِ نِسائِكُم، واجتنابِ ظُلمِهِنَّ، وعدمِ تَفضِيلِ بعضِهِنَّ على بعضٍ فيما تَقْدِرُونَ عليهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِما يَقَعُ بغيرِ اختيارِكُم، ولا استِطاعَتِكُم، كالحُبِّ، وزيادَةِ الإقبالِ، فيَغْفِرُ لكُم ذلكَ ﴿رَّحِيمًا﴾ بِكُم، كما عَطفْتُم علَى زوجاتِكُم ورَحِمتُموهُنّ، وبزوجاتِكُم، فيما شَرَعَ لَهُنَّ، لِحفظِ حُقُوقِهِنَّ، ودَفعِ الظُّلمِ عنْهُنَّ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

التَّفريقُ في التَّكليفِ بَيْنَ ما يَستَطِيعُهُ الإنسانُ، وما لا يَستَطِيعُهُ.

وفِيها: أنَّ الرَّجلَ لا يَستَطِيعُ العَدْلَ بَيْنَ النِّساءِ في أمورِ القلب، وانجِذابِ النَّفسِ، وما يَتعلَّقُ بالمحبَّةِ، والشَّهوةِ، والجِماعِ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهمَّ هذا قَسْمِي فيما أملِكُ، فلا تَلُمْنِي فيما تَملِكُ، ولا أمْلِكُ**»[2].

وفِيها: أنَّ تَحقيقَ العَدالةِ الكامِلَةِ لِمَنْ عِندَهُ أكثرُ مِنْ زَوجةٍ غيرُ مُمكِنٍ.

وفِيها: وجوبُ التَّسويةِ بَيْنَ الزَّوجاتِ في القَسْمِ، والنَّفقةِ، والكُسْوةِ، والسُّكنَى، مَعَ إعطاءِ كلِّ واحدةٍ ما تَحتاجُهُ، وقال مُجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ حَتَّى في الطِّيبِ، يَتَطَيَّبُ لِهَذِهِ، كَما يَتَطَيَّبُ لِهَذِهِ». وقالَ ابنُ سيرينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُكْرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ في بَيْتِ إِحْداهُما دُونَ الأُخْرَى»[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢١٢٣)، والترمذي (١١٤١)، والنسائي (٣٩٤٢)، وابن ماجة (١٩٦٩)، وصححه الحافظ في بلوغ المرام (٢/ ٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذيّ (١١٤٠)، ورجّحَ إرسالَه، وكذا أعلّه بالإرسال غيرُ واحد مِن الأئمّة.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٣٧).

وقال الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القولُ الصحيحُ في العَدلِ بينَ الزّوجاتِ: أنّه يَجبُ على الزّوجِ أنْ يَعدلَ بينهُنّ في كلِّ ما يُمكنُه العَدْل فِيه، سَواءٌ مِن الهدايا، أوِ النّفقاتِ، بَل وحتّى الجِماعِ، إنْ قدرَ، يَجبُ عليه أنْ يعدِلَ فِيهِ»(١).

وفِيها: مُجاهَدَةُ هَوَى النَّفسِ.

وفِيها: أنَّ المرأةَ مَحبوسَةٌ على زَوْجِها.

وفِيها: صَفْحُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عمَّا لا يُطِيقُهُ العِبادُ.

وفِيها: أنَّ القُلُوبَ بِيَدِ اللهِ، وأنَّها سَريعةُ التَّقلُّبِ، شديدةُ المَيلانِ، في المحبَّةِ، والهَوَى.

وفِيها: اتِّقاءُ ظُلمِ الزَّوجةِ، والتَّوبةُ إلى اللهِ مِنْ ذلكَ.

وفِيها: أنَّ مَبْنَى التَّكليفِ الشَّرعِيِّ على الوُسْعِ والطَّاقَةِ.

وفِيها: تَحريمُ إهمالِ الزَّوجاتِ، وهجرِهِنَّ، والإعراضِ عنهُنَّ بالكُليَّةِ.

وفِيها: ردٌّ على مَنْ مَنَعَ تعدُّدَ الزَّوجاتِ بحُجَّةِ عدمِ استِطاعةِ الرِّجالِ للعَدْلِ، وهذا فيهِ جَهْلٌ، وتَعطِيلٌ لأحكامِ الشَّرعِ، واتِّهامٌ للتَّشريعِ بالعَبَثِ؛ فإنَّ العَدْلَ في قولِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ يَختلِفُ عَنِ العَدْلِ في قولِهِ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ فإنَّ العَدْلَ الأوَّلَ: هُوَ العَدْلُ في المُمْكِنِ مِنَ المَبيتِ، والنَّفقةِ، ونحوِ ذلكَ، والعَدْل الثَّانِي: هُوَ في ما لا يُمكِنُ مِنَ المحبَّةِ، ومَيْلِ القلبِ، ونحوِ ذلكَ، وأما حالاتُ التَّعدُّدِ الفاشلةُ: فلَيْسَتْ دلِيلًا على بُطلانِ الحُكمِ، كما أنَّ حالاتِ الزَّواجِ الفاشِلةَ ليْسَتْ دَلِيلًا على مَنْعِ النِّكاحِ بالكُلِّيةِ، والعِلاجُ: هُوَ وعظُ النَّاسِ في أداءِ الحُقُوقِ، وتعريفُهم بِها.

وفِيها: المُبالغةُ في النَّفيِ، باستِعمالِ (لَنْ)، النَّافيةِ للحالِ، والاستِقبالِ.

وفِيها: عِلْمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وخِبرَتُهُ بنُفُوسِ العبادِ وأحوالِهم.

وفِيها: تَحريمُ المَيلِ الكلِّيِّ لإحدَى الزَّوجاتِ.

وفي قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ ما يُوجِبُ العَطفَ، والرَّأفَةَ، والرَّحمَةَ، بهذِهِ المِسكِينةِ، المَسجُونةِ.

---

(١) فتاوى نور على الدرب (١٩/ ٢) بترقيم الشاملة.

ولَمَّـا كانتِ العَلاقـةُ الزَّوجِيَّةُ لا تَخلُـو مِنْ ثلاثةِ أحـوالٍ: الاتِّفاقُ، والنُّفُـورُ، والفِراقُ، فقـد ذكَرَهـا عَزَّوَجَلَّ في ثـلاثِ آياتٍ مُتوالِيـةٍ، مَضَى مِنْها حالَتـانِ في الآيتَيْنِ السَّـابقَتَيْنِ، وجاءَ ذِكْـرُ الحالـةِ الثَّالثةِ في الآيةِ التي بَعدَهُما، فبَعدَ أنْ دَعا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الصُّلحِ بَيْنَ الزَّوجَيْنِ، والحِرصِ على استِدامَةِ العِشرَةِ، وأمَرَ الأزواجَ بالعَدْلِ فيما يَستَطِيعُونَه، وكانَ عَزَّوَجَلَّ -وهو العَليـمُ الخَبـيرُ- يعلمُ بأنَّ الصُّلحَ قد لا يَسـتَمِرُّ، فيكونَ الأصلَحُ للطَّرفَـيْنِ الافتِراقَ: أباحَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفِـراقَ، مَـعَ أداءِ الحُقُوقِ كامِلةً، وأخـبَرَ أنَّه يُغنِي الطَّرفَيْنِ مِـنْ فضلِهِ إذا افترَقا، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: الزَّوجـانِ، وذلـك إذا كانَ الصُّلـحُ بلا جَدْوَى، فاختـارا الفِراقَ؛ خَوْفًـا مِنْ تَـرْكِ حُقُوقِ اللهِ التي أوجَبَها، إذا اسـتَمَرَّا في العَلاقَةِ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾ -وهو الغَنِيُّ- فَيكفِـي، ويُعطِـي، ويُعـوِّضُ، ﴿كُلًّا﴾ مِنْهُـما ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ عَزَّوَجَلَّ وفضلِـهِ، ورِزْقِـهِ، وجُودِهِ، ووافِرِ إحسـانِهِ، فقد يُسـخِّرُ للمرأةِ رجلًا خَيْرًا مِنْ زوجِهـا الأوَّلِ، ويَرزُقُهُ -هُوَ- امـرأةً خَـيرًا له مِنْ زَوْجَتِهِ الأولَى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ في الغِنَى، والفضلِ، والرَّحمةِ، والعِلْمِ، والقُدرَةِ ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعالِهِ، وشَرْعِهِ، وقَدَرِهِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائد:

فيها -مع الآيتين قبلها-: التَّدرُّجُ في السّعيِ لحلِّ المُشكلاتِ الزَّوجيَّةِ.

وفِيها: أنَّ مَفسَدَةَ الاستِمرارِ في العَلاقَةِ، قد تَفُوقُ في بعضِ الحالاتِ مَفسَدَةَ الفِراقِ.

وفِيهـا: أنَّ التَّفـرُّقَ لا يُلْجَأُ إليهِ، إلا إذا تَعَذَّرَ الصُّلحُ، وتَعـذَّرَ القِيامُ بِحُقُوقِ اللهِ، مِنْ أيٍّ مِنَ الطَّرفَيْنِ تِجاهَ الآخَرِ.

وفِيها: أنَّ التَّسرِيحَ بإحسانٍ خَيرٌ مِنَ المُعاشَرةِ بالسُّوءِ.

وفِيها: سَعَةُ فَضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتَعوِيضُهُ مَنْ فَقَدَ شيئًا بِخَيرٍ مِنْهُ.

وفِيها: عِلمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالغَيْبِ، وما يَؤُولُ إليهِ حالُ الزَّوجَيْنِ في المُستَقبَلِ.

وفيها: التِماسُ الكِفايةِ، وسَدِّ الحاجَةِ، والعِوَضِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ عطاءَهُ واسِعٌ، وجُودَهُ عظيمٌ.

وفيها: تَسكِينُ قَلقِ الزَّوجةِ، والزَّوجِ، مِنْ خَشيَةِ ما يكونُ في المُستقبَلِ بَعدَ الفِراقِ، فَعَلَى الزَّوجَيْنِ -إذا افترَقا- أنْ يَثِقَ كلٌّ مِنْهُما بوَعْدِ اللهِ، وأن يَلتَمِسَ فضلَهُ بالأسبابِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّه وَعَدَ في الآيةِ إذا حَصَلَ الفِراقُ، أن يُغنِيَ الطَّرَفَيْنِ مِنْ فضلِهِ.

وفيها: بيانُ معنَى اسمِ اللهِ «الواسِعِ»، وشاهدٌ لَه، ومِثالٌ له في الواقِعِ.

وقد اقترَنَ اسمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «الواسِعُ» بـ«الحكيمِ» في هذِه الآيةِ، وبـ«العلِيمِ» في عدّةِ مَواضِعَ مِنْ كِتابِهِ، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وأخبرَ أنّ رحمته وَسِعتْ كلّ شَيءٍ، في قولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقولِهِ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأخبرَ أنّه واسعُ المَغفِرَةِ، في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في قصَّةِ المُجادِلَةِ: «الحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ»[(١)].

وفيها: أنَّ مِنْ أسماءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «الحَكيم»، وهذا يَتضمَّنُ حِكمَتَهُ في شرعِهِ، وجزائِهِ، وقَدَرِهِ، وأفعالِهِ، ويَشمَلُ انفرادَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحَقِّ الحُكمِ، سَواء الشَّرعيِّ، أو الكَونِيِّ، وقد قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]. ويَشمَلُ هذا الاسمُ -أيضًا-: الإحكامَ، والإتقانَ، في صُنعِهِ، وخَلْقِهِ، وأحكامِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفيها: إيعازٌ للزَّوجَيْنِ بعدَمِ التَّجريحِ في بعضِهِما بَعدَ الافتِراقِ؛ لأنَّ اللهَ يَرزُقُ كُلًّا مِنْهُما ما يُغنيهِ، فعليهِما تَرْكُ التَّجنِّي، والذَّمِّ.

وفيها: تَيْسِيرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عبادِهِ أحوالَهُم، وقد يكونُ مِما يُرزَقُ الزَّوجانِ المُفترِقانِ: الصَّبرُ، والسُّلوانُ، والنِّسيانُ، فلا تَستَمرُّ المُعاناةُ مِنْ أَلَمِ الفِراقِ، وآثارِهِ.

وفيها: أنَّ إغناءَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنواعٌ منوَّعةٌ، فقدْ يُغنِي بزَواجٍ أفضلَ مِنَ الذي كانَ، وقد

---

(١) رواه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجة (١٨٨)، وأحمد (٢٤١٩٥)، والحاكم (٣٧٩١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره البخاري في صحيحه تعليقا (٩/ ١١٧).

يُغنِي بالمالِ، وقد يُغنِي بالصَّبرِ، والسُّلوانِ، وغيرِ ذلكَ، وأعظَمُ إغنائِهِ: ما يرزُقُهما مِنَ الثَّوابِ على المُصِيبَةِ، والصَّبرِ، والعِوَضِ في الآخِرَةِ، بما يكونُ مِنَ التَّزوِيجِ في الجنَّةِ.

وفِيها -مع الآيتين قبلها-: أَنَّ إِغْناءَ اللهِ كُلًّا مِن سَعتِه، إِنَّما يَكُونُ عَنِ الفِراقِ المَسْبُوقِ بِالسَّعْيِ في الصُّلْحِ.

وفِيها: شاهِدٌ لقولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقولِهِ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

وفِيها: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتكفِّلٌ بأرزاقِ الخَلْقِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجبُرُ كَسْرَ الفِراقِ.

وفِيها: حثُّ العِبادِ علَى الرِّضا بالقَضاءِ، بَعدَ وُقُوعِ المَكرُوهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى سُخْفِ عُقُولِ بَعضِ أهلِ هذا الزَّمانِ، الذينَ يُقيمُونَ حَفلاتٍ للطَّلاقِ!!

ولَمَّا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ إغناءَهُ لكلٍّ مِنَ الزَّوجَيْنِ بَعدَ الفِراقِ، وأعقَبَهُ بذِكرِ اسمِهِ «الواسِع»، أَتْبَعَ ذلكَ ببيانِ مُلكِهِ للسَّماواتِ، والأرضِ. ولَمَّا أمَرَ بإعطاءِ الحُقُوقِ للأزواجِ، واليتامَى، ذَكَّرَ عبادَهُ بالتَّقوَى؛ لِيقُومُوا بذلكَ، وحذَّرَهُم مِنَ الكُفرِ بِه وبِنعمَتِه، وبيّن لهُم أنَّه غيرُ مُحتاجٍ إليهِم، بَلْ هُوَ مُستغنٍ عَنْهُم، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُلْكُهُما، وهو الحاكِمُ فيهِما، قد دانَ ما فيهِما مِنَ المخلُوقاتِ لَهُ عُبُودِيَّةً، وقَهْرًا، وانْقادَتْ لَهُ، وذَلَّتْ، فَهُوَ مُدبِّرُ الأكوانِ، لا يَعجزُ عنِ الإغناءِ بَعدَ الفَقرِ، والإيناسِ بَعدَ الوَحشَةِ ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾ الوَصِيَّةُ: هِيَ العَهدُ بالشَّيءِ، مَعَ التَّأكِيدِ عليْه، فأمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ مِنَ اليهودِ، والنَّصارَى، وسالِفِ الأُمَمِ، مِمَّنْ أنزَلَ اللهُ عليهِم كُتُبًا ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ أي: أمَرناكُم كذلك يا أهلَ القرآنِ،

وأتبـاعَ محمـدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفِعـلِ أوامِـرِهِ، واجتِنـابِ نَواهِيـهِ؛ لِلوِقايةِ مِنْ عَذابِـهِ. وتَقْـوَى اللهِ فيها عبادةٌ، وتَذَلُّلٌ، وأمَّا اتِّقاءُ النَّـارِ، واتِّقاءُ اليومِ الآخِرِ: فهو خَوْفُ ما فيهما مِنَ الأهوالِ والعَذابِ. ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ بنعمَةِ اللهِ عليكُم، وتَجْحَدُوا فضْلَهُ، وإحسانَهُ، وتَعْصُـوا أمـرَهَ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ -مُلْكًا مُختصًّـا بِهِ وحـدَهُ- ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِنَ المخلُوقـاتِ، والخَزائـنِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ غيرَ مُحتاجٍ لأحَدٍ، مُسـتَغْنٍ عَن جَمِيـعِ الخَلْقِ، ولا يُمْكِنُهُم الاستِغناءُ عنه ﴿حَمِيدًا﴾ مُستَحِقًّا للحَمْدِ؛ لِصفاتِهِ الجليلةِ، ونِعَمِهِ الوافِرَةِ.

وحَمِيـدٌ بمعنَى مَحْمُـودٍ، أي: يَحْمَدُهُ الخَلْـقُ، وبمعنَى حامِدٍ، أي: يَشـكُرُ لِخَلْقِهِ عبادَتَهُم، ويُثِيبُهُم عليها.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ اللهَ الذي له ما في السَّماواتِ، وما في الأرضِ، قادِرٌ على أن يُغنِيَ مَنْ يَشاءُ مِنْ سَعَتِهِ.

وفِيها: تَمجيدُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفِيها: عَظَمَةُ سُلطانِهِ، واستِحقاقُهُ للتَّقوَى.

وفِيها: أنَّ اللهَ مُستَغنٍ عن عبادَةِ العِبادِ.

وفِيها: أنَّ وصيَّةَ اللهِ لِعبادِهِ بالتَّقوَى، للأوَّلِينَ والآخِرين.

وفِيها: ذِكْرُ الكُتُبِ الإلهيَّةِ على وَجهِ الإجمالِ، والإيمانُ بذلكَ واجِبٌ.

وفِيها: مُراقبةُ اللهِ، وخَشيَتُهُ، وتَنفِيذُ أمرِهِ، واجتِنابُ نَهيِهِ.

وفِيها: أنّ إيجازَ القولِ بأمرٍ نافِعٍ، جامِعٍ، فيهِ خيرٌ كثيرٌ، وهذِهِ هي الوصِيَّةُ الجامِعة.

وفِيهـا: أنَّ أعظَمَ الوَصايا الوصيَّةُ بالتَّقوَى، وما تَكَرَّرَ أمرٌ بشَيءٍ في القرآنِ، كتكرُّرِ الأمرِ بها.

وفِيها: أنَّ اللهَ مُستَحِقٌّ لحَمْدِ الحامِدِينَ، وشُكرِ الشَّاكِرينَ، مع استِغنائِهِ عنْ ذلكَ.

وفِيها: افتِقارُ العالَمِ العُلويِّ، والسُّفلِيِّ، إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفِيها: أنَّ للهِ كَمالَ الغِنَى، وكَمالَ الحَمدِ.

وفِيها: افتِقارُ الخَلقِ جَمِيعًا إلى إنعامِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإحسانِهِ.

وفِيها: أنَّ غِنَى العبادِ نِسْبِيٌّ مقيَّدٌ، وغِنَى اللهِ كامِلٌ مُطلَقٌ، وأنَّ المخلوقَ مهما بَلَغَ مِنَ الغِنَى، فهو فَقِيرٌ مُحتاجٌ إلى ربِّهِ.

وفِيها: موعظةُ الآخِرِينَ، بما أمَرَ اللهُ بِهِ الأوَّلِينَ.

وفِيها: اختِصاصُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالمُلكِ العامِّ، الشَّامِلِ، للأعيانِ، والأفعالِ.

وفِيها: أنَّ مُخالَفَةَ بعضِ العبادِ لِتَقواهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تَضُرُّهُ شيئًا، كما أنَّ طاعَتَهُم جميعًا له لا تُفِيدُهُ شيئًا.

وفِيها: أنَّ اقترانَ بعضِ الأسماءِ أوِ الصِّفاتِ ببعضٍ، يُفِيدُ كَمالًا أعلَى مِنْ ذِكرِها مُنفَرِدَةً، فكمالُ الغِنَى -مَثَلًا- مَعَ كَمالِ الحَمدِ، يُفِيدُ كَمالًا أعلى[1].

ولَمَّا كانَ التَّأكيدُ على حقائِقِ الإيمانِ، يُقرِّرُها في النُّفوسِ، ويَزِيدُها عُمقًا، وكانَ تنويعُها بحَسَبِ المقاماتِ، يَزِيدُ العُقُولَ فِقْهًا في ارتباطاتِها، ويَدفعُها للتَّدبُّرِ في أغراضِ إيرادِها، فقد جاءَ تكريرُ حقيقةِ مِلكيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِما في السَّماواتِ، وما في الأرضِ، أربعَ مرَّاتٍ في هذا الموضِعِ مِنَ السُّورةِ، ثلاثٌ مِنْها مُتوالِياتٌ، فأمَّا الموضِعُ الأوَّلُ: فكانَ في مَقامِ التَّذكِيرِ بالإخلاصِ، والإحسانِ؛ لتَتوجَّهَ القُلُوبُ لِمَنْ له مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ وحدَهُ، مَعَ استِغنائِهِ عن عبادةِ العِبادِ، وكانَ الثَّانِي في مَقامِ تذكِيرِ الزَّوجَيْنِ -إذا تَفرَّقا- بغِناهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِتَطمِينِ النُّفوسِ القلِقَةِ، وصَرْفِها إلى الطَّلَبِ مِنهُ، لا مِنْ غَيرِهِ، وأمَّا الموضِعُ الثَّالثُ: فكانَ في مقامِ تذكِيرِ أهلِ الكِتابِ، والمسلِمِينَ، بتَقواهُ، فمَنْ له مُلكُ السَّماواتِ، والأرضِ، لا بُدَّ أنْ يُطاعَ، وأيضًا: لتَحذِيرِ الكافِرِينَ، وأنَّ مالِكَ السَّماواتِ، والأرضِ، مُستَغنٍ عن العِبادةِ، فإنْ تَوَلَّوْا فلنْ يَضُرُّوهُ شيئًا، وفي الموضِعِ الرَّابِعِ مِنْ هذِهِ المواضِعِ كرَّرَ حقيقةَ اختِصاصِهِ بمُلكِ

---

(١) قالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: «قرنَ بيَن المُلك والحمدِ على عادتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كَلامِه؛ فإنّ اقترانَ أحدِهما بالآخَرِ لهُ كمالٌ زائدٌ على الكمالِ بكلّ واحدٍ منهُما، فلَهُ كمالٌ مِن مُلكِه، وكمالٌ مِن حمدِه، وكمالٌ مِن اقترانِ أحدِهما بالآخَرِ؛ فإنّ المُلكَ بلا حمدٍ يَستلزِمُ نَقصًا، والحَمدَ بلا مُلكٍ يَستلزِمُ عَجْزًا، والحمدَ معَ المُلكِ غايةُ الكَمالِ». بدائعُ الفوائد (١/ ٧٩).

السَّماواتِ، والأرضِ، في مقامِ تَذكِيرِ العِبادِ بالتَّوكُّلِ عليهِ، وأنَّهُم مُحتاجُونَ إليهِ، مُفتَقِرُونَ في وُجودِهِم، ورِزقِهِم إليهِ، ولو شاءَ لَذَهَبَ بِهِم جميعًا، وأتى بخَلقٍ آخَرِينَ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خَلقًا، ومُلكًا، إحياءً، وإفناءً، يَتَصرَّفُ في ذلكَ كيفَ يَشاءُ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يَتوكَّلُ العبادُ عليهِ، ويُفوِّضُونَ أمورَهُم إليهِ، وهو شَهيدٌ عليهِمْ، رِقِيبٌ على كلِّ شيءٍ، قائِمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، والوكيلُ: هو الكَفِيلُ، القائِمُ بالأُمُورِ، وحقيقةُ الوكيلِ: أنّه يَستَقلُّ بأمرِ المَوْكُولِ إليهِ، ويَضمَنُ القيامَ بِهِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكيلٌ لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وفي الحديثِ: «**تَوَكَّلَ اللهُ لِلْمُجاهِدِ في سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سالِمًا، مَعَ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ**»[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تَنبيهُ الأذهانِ إلَى التَّفكُّرِ في خَلْقِ السَّماواتِ، والأرضِ؛ للاستِدلالِ على عَظَمَةِ خالِقِهما، واختِصاصِهِ بملكِ ما فيهما؛ للاستِدلالِ على سَعَةِ مُلْكِهِ، وغناهُ العظيمِ.

وفِيها: أنَّ التَّكرارَ في القرآنِ، يكونُ تأكيدًا على الحقائِقِ، وتَنوِيعًا في الأغراضِ، وتجديدًا للعهدِ، وزيادةً في التّنبيهِ[2].

وفِيها: تَدبُّرُ مواضِعِ التَّكرارِ؛ لاستِخراجِ فائِدَتِهِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ وكيلٌ على العِبادِ، بمعنَى الشَّهيدِ، والرَّقِيبِ، وهذا عامٌّ للمسلِمِ، والكافِرِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ هو العالِمُ القائِمُ بتدبيرِ الأشياءِ على وجهِ الحِكْمَةِ، مَعَ كَمالِ القُدرَةِ، والقُوَّةِ، فلا بُدَّ أنْ تَتوكَّلَ عليهِ النُّفُوسُ، وحدَهُ بِلا شَريكٍ.

وفِيها: تَكفُّلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأرزاقِ العِبادِ.

---

(١) رواه البخاريّ (٢٧٨٧) -واللفظُ له- ومسلم (١٨٧٦).

(٢) قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ في القُرْآنِ تَكْرارٌ مَحْضٌ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ فَوائِدَ في كُلِّ خِطابٍ». مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٠٨).

وفِيها: وُجوبُ ثِقةِ العِبادِ بربِّهم، واستِغنائِهم به عَمّن سواهُ.

وفِيها: وجوبُ الاعتِمادِ على اللهِ في التَّدبيرِ، وأنَّ العبدَ لو وُكِلَ إلى نفسِهِ فإنّه يَصِيرُ إلى ضَعفٍ، وعَجزٍ، وعَورَةٍ.

وفِيها: ارتباطُ أسماءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاتِه بَعضِها ببَعض، فإنَّ الوِكالةَ -مَثَلًا- تستَلزِمُ عِلمَ الوَكِيلِ بما هو وكيلٌ عليهِ، والقُوَّةَ، والقُدرةَ، على تَنفِيذِهِ، والحِكمَةَ، ومُراعاةَ مصلحةِ المُوَكِّلِ، وبهذا يَتبيَّنُ الارتِباطُ بَيْنَ أسماءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الوَكيلِ، والعلِيمِ، والقدِيرِ، والقويِّ، والحكِيمِ، وغيرِها.

وفِيها: تَسليمُ المخلُوقِ لِربِّهِ، ورِضاهُ بما يُقَدِّرُهُ، ويَختارُ له، وهذا مِنْ فوائِدِ التَّوكُّلِ، ويُفيدُ -أيضًا-: تَسكِينَ القلبِ عندَ نُزُولِ البَلاءِ.

وفِيها: التَّوكُّلُ على اللهِ في أُمُورِ الدُّنيا، وأمورِ الآخرَةِ.

وفِيها: رُبوبِيَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومُلكُهُ، لِمَنْ يَعقِلُ، ولِمَنْ لا يَعقِلُ، مِمَّا اشتَمَلَتْ عليهِ السَّماواتُ، والأرضُ، مِنَ المخلُوقاتِ.

ثُمَّ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى -مُبيِّنًا استِغناءَهُ عنِ المُعرِضِينَ مِنْ خَلْقِهِ-:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ استِئصالًا، وإعدامًا ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المُشركُونَ في الأرضِ، والجاحِدُونَ، المُعانِدُونَ لَهُ ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ بِخَلْقٍ مُوحِّدِينَ لهُ، يحِلُّونَ محَلَّكُم، ويَشتَغِلُونَ بعُبُودِيَّتِهِ، فيكونُونَ خَيرًا مِنكُم، وأطْوَعَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الإهلاكِ، والإذهابِ، والإخلافِ ﴿قَدِيرًا﴾ يَتمكَّنُ مِنَ الفِعْلِ بلا عَجْزٍ، وله تَمامُ القُدرَةِ، والقُوَّةِ، وقد وَرَدَ بمعنَى هذِهِ الآيةِ آياتٌ أُخرَى في كتابِ اللهِ، كقولِهِ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

وعَنْ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قالَ: لَمَّا فُتِحَتْ مَدائِنُ قُبْرُسَ، وَقَعَ النَّاسُ يَقْتَسِمُونَ السَّبْيَ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَبْكِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَنَحَّى أَبو الدَّرْداءِ، ثُمَّ احْتَبَى بِحَمائِلِ سَيْفِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي، فَأَتاهُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، فَقالَ: ما يُبْكِيكَ يا أَبا الدَّرْداءِ؟ أَتَبْكِي في يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ، وَأَذَلَّ فِيهِ الكُفْرَ وَأَهْلَهُ؟! فَضَرَبَ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ قالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، ما أَهْوَنَ الخَلْقَ عَلَى اللهِ إِذا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنا هِيَ أُمَّةٌ قاهِرَةٌ، ظاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ، لَهُمُ المُلْكُ، حَتَّى تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصارُوا إِلى ما تَرَى، وَإِنَّهُ إِذا سُلِّطَ السِّباءُ عَلَى قَوْمٍ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَيْنِ اللهِ، لَيْسَ للهِ بِهِمْ حاجَةٌ»[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

قُدرةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الإعدامِ بَعدَ الإيجادِ، والإفناءِ بَعْدَ الإحياءِ.

وفِيها: هَوانُ الكفَّارِ على اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفِيها: تَهديدٌ للكفَّارِ، والعُصاةِ، وتَخويفٌ لَهُم.

وفِيها: أنَّ إبقاءَ اللهِ للمُعانِدينَ، والجاحِدينَ، والكفَّارِ، والمُشرِكينَ، والعُصاةِ الفاسِقِينَ، ليسَ لعَجْزٍ، وإنَّما لِحكمةٍ، اقتَضَتْها مشيئَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلا، فلَوْ أرادَ: لَما أبقَى على الأرضِ مِنْهُم أحدًا.

وفِيها: أنَّ مَشيئَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تابِعَةٌ لِحكمَتِهِ.

وفِيها: أنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وفِيها: إطلاقُ النَّاسِ على الكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَخْلُقَ أجناسًا أُخرَى مِنَ المخلوقاتِ التي تعبُدُه، غَيرَ الإنْسِ، وغيرَ الجِنِّ؛ لِقولِهِ: ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾[2].

---

(١) رواه سعيدُ بنُ منصور في سننه (٢٦٦٠) -والسياقُ له- والإمامُ أحمدُ في الزهد (٧٦٣)، وأبو نُعيم في الحلية (١/ ٢١٦)، وإسنادُه صحيحٌ.

(٢) على قولِ من جوّز أن يكونَ الآخرونَ مِن غيرِ البشرِ، قال ابنُ عطيةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: (بِآخَرِينَ) يريد مِن نوعِكم، وتحتملُ ألفاظُ الآيةِ أن تكونَ وعيدًا لجميعِ بني آدم، ويكونَ الآخرونَ مِن غيرِ نوعِهم، وقدرةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على ما ذُكر تقضي بها العقولُ ببدائها» تفسير ابن عطية (٢/ ١٢٢).

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

وفِيها: أنَّ إبقاءَ اللهِ للكافِرِ، والعاصِي، في الأرضِ، لا يَدُلُّ على رضاه عنْهُ، ومَحَبَّتِهِ لِما يَفْعَلُهُ.

وفي الآيةِ: تَهديدٌ لِمُشرِكي العَرَبِ، مِنْ أعداءِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفِيها: ذِكرُ اسمِ اللهِ «القديرِ» بصيغةِ المُبالَغَةِ، الدَّالةِ على تَمامِ القُدرَةِ، وكَمالِ تَنفِيذِ المُقدَّرِ، وأنَّهُ لا يَمتنِعُ عليهِ شيءٌ، ولا يَحُولُ بَيْنَه وبَيْنَ ما يُرِيدُهُ شيءٌ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ومِنَ الأسماءِ المُتَعلِّقَةِ بهذا الاسمِ: «العلِيمُ». قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

وفِيها: أنَّ القَضاءَ، والقَدَرَ، حقٌّ واقِعٌ، ويُؤخَذُ هذا مِن اسمِ اللهِ: «القديرِ»، قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ: «القَدَرُ: قُدرَةُ اللهِ»، وقد استَحْسَنَ الأئمَّةُ -كابنِ عَقِيلٍ، وابنِ القيّمِ- هذا الكلامَ مِنَ الإمامِ أحمدَ غايَةَ الاستِحسانِ[1]. ومعنَى اسمِ «القديرِ» يَستَلْزِمُ العِلْمَ، والكتابَةَ، والمَشِيئَةَ.

وفي الآيةِ: بِشارةٌ للمؤمنِينَ، بأنَّ اللهَ سيُخْلفُ مِنَ المُشركينَ قومًا آخَرِينَ، يعبُدُونَهُ، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ، مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[2].

وفِيها: أنَّ اللهَ يُمهِلُ، ويُملِي، ولا يُهمِلُ، ولا يَنْسَى.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَعبَأُ بِمَنْ عَصاهُ، ولكنَّه حليمٌ -سبحانَه-، لا يُؤاخِذُ العُصاةَ على العَجَلَةِ، صَبورٌ على أذَى الخَلْقِ، ولو آخَذَهُم بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهرِها مِنْ دابَّةٍ.

وفِيها: استِقدارُ العِبادِ بقُدرَةِ اللهِ، وقد وَرَدَ هذا في دُعاءِ الاستِخارةِ: «**وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدرَتِكَ**»[3]؛ لأنَّ العبدَ إذا عَلِمَ أنَّ للهِ تَمامَ القُدرَةِ تَوَجَّهَ إليهِ، يَستَعِينُ بِحَوْلِهِ، وقُوَّتِهِ.

---

(١) انظُر: شفاء العَليل (ص٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٣) رواه البخاري (٦٣٨٢).

وفِيهـا: أنَّ الفِعـلَ الماضِي (كانَ) مَنزُوعُ الدّلالةِ علَى الزّمنِ في حقِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بمعنَى: أنَّ قدرَتَهُ ليستْ مُقتَصِرةً على الماضِي فَقَط، بَلْ هو قادِرٌ في الماضِي، والحاضِرِ، والمُستقبَلِ.

ثُـمَّ نَدَبَ اللهُ عبادَهُ إلى السّـعي في طلبِ الآخِرةِ، وألَّا تكـونَ هِمّةُ أحدِهم في طلبِ الدّنيا وَحدَهـا، ورغَّبَهـم في طَلَبِ خَـيرَيِ الدُّنيا والآخرَةِ منـه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنّ عندَهُ -وبِيَـدِهِ- ثوابَهُما جميعًا، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ﴾ مِنكُم يا أيُّها النَّاسُ ﴿يُرِيدُ﴾ بسَعْيِهِ، وكَدْحِهِ، وتَعَبِهِ، وجُهدِهِ ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ نَعيمَهـا، ومتاعَهـا، فلا يَقتَصِرُ على طلَبِـهِ، والمعنَى: يا مَنْ ليسَ لَهُ هـمٌّ إلا الدُّنيا، ولا يَعملُ إلا لَهـا: ارفَـعْ هِمَّتَكَ، واعمَـلْ لِتَحصِيلِ المَطالِبِ العاليِـةِ في الدَّارَيْنِ جَمِيعًـا ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ وبيدِهِ، وتَصَرُّفِـهِ، ومُلْكِـهِ ﴿ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ خيرُهُمـا، وسـعادتُهما جَمِيعًـا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لأقوالِ عبادِهِ ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالِهم، وأحوالِهم، ونيَّاتِهم، عليمًا بمَنْ يَستَحِقُّ الفضلَ في الدَّارَيْنِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

ذمُّ الذي لا يَعمَلُ إلا للدُّنيا.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ يَعمَـلُ للدُّنيا قد يَحصُلُ له ما يُريـدُ، وقد لا يَحصُلُ، ثُمَّ لَـوْ حَصَلَ له فإنَّه سيَفْنَى، أو سيُفارِقُهُ.

وفِيهـا: الحَذَرُ مِنَ الاقتِصارِ على طلبِ الفوائِدِ الدُّنيويَّـةِ للعِباداتِ، والتَّحذِيرُ مِنْ إرادَةِ الإنسانِ بعَمَلِهِ الدُّنيا، والتَّخوِيفُ مِنَ الرِّياءِ، والسُّمعَةِ.

وفِيهـا: كَـرَمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه يُثِيبُ العامِلَ للآخرَةِ عـلى عملِهِ، بثوابٍ مُعجَّلٍ في الدُّنيا، وثوابٍ مؤجَّلٍ في الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ حسناتِ الدُّنيا تَحصُلُ لِمَنْ عَمِلَ لِوجهِ اللهِ، والدَّارِ الآخرَةِ، وإنْ لَمْ يَقصدِ الفائدةَ المعجَّلَةَ للعَملِ في الدُّنيا.

وفِيها: تَوبِيخُ المنافِقِينَ الذينَ لا يُجاهِدُونَ إلا للغنائِمِ، ومَنْ شابَهَهُم.

وفيها: فضلُ الهِمَّةِ السَّامِيَةِ التي تَتَطَلَّعُ لِنَيْلِ فضلِ اللهِ في الدُّنيا، والآخرةِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وفي الآيةِ: طَلَبُ خَيْرَيِ الدُّنيا، والآخرَةِ، مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ فضلَهُ واسعٌ، ومُلكَهُ عظِيمٌ، وبِيدِهِ النَّفعَ، والضُّرَّ.

وفي الآيةِ: ذمُّ أصحابِ الهِمَمِ الدَّنِيئَةِ، الذينَ لا يَرجُونَ إلا الدُّنيا، فتَرَى الواحِدَ مِنْهم جِيفَةً بالليلِ، حِمارًا بالنَّهارِ، عالِمًا بأمرِ الدُّنيا، جاهِلًا بأمرِ الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ آتى العِبادَ مِنَ العَقلِ، والحواسِّ، ما يَستَطِيعونَ بهِ طَلَبَ خَيْرَيِ الدَّارَيْنِ، وأنَّه لا يَلْزَمُ لِطالِبِ الآخرَةِ، أن يُعرِضَ عنِ الدُّنيا بالكُلِّيَّةِ، كما أنَّه لا يَجوزُ الاقتِصارُ على الدُّنيا الدَّنِيَّةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عمِلَ للهِ، وسَعَى فيما أمَرَ اللهُ بِهِ، لَوْ فاتَهُ شيءٌ مِنْ ثوابِ الدُّنيا، فإنَّه لا يَفُوتُهُ شيءٌ مِنْ ثَوابِ الآخرةِ، بَلْ سيَجِدُهُ كامِلًا، مَوْفُورًا.

وفي الآيةِ: تَعرِيضٌ بالكفَّارِ الذينَ لا يُؤمنونَ بالبَعْثِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أرادَ الدُّنيا فَقَط، تفوتُهُ الآخرَةُ، وقد لا ينالُ ما يُرِيدُهُ مِنَ الدُّنيا أيضًا، بَيْنَما مَنْ أرادَ الآخِرَةَ، وجَعَلَ هَمَّهُ فيها، أَتَتْهُ الدُّنيا، وهِيَ راغِمَةٌ.

وفِيها: أنَّ الآخرةَ وَعْدها مَضمُونٌ لأهلِها، وأمَّا الدُّنيا: فإنَّه يَحصُلُ لطالِبِها مِنْها بِحَسَبِ ما يُرِيدُهُ اللهُ، كما قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، وعلى هذا: يكونُ قولُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ مُقيَّدًا، ومُبَيَّنًا، بقولِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

وفي الآيةِ: تَرتِيبُ الثَّوابِ والجَزاءِ على النِّيَّةِ؛ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾.

وفِيها: الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ، الذينَ يَقولُونَ: إنَّ العبدَ ليسَ لَهُ إرادةٌ.

وفِيها: انحِطاطُ رُتبَةِ الدُّنيا عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولِذلِكَ سمَّاها دُنْيا.

وفِيها: أنَّ الذِي يُعطِي الثَّوابَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا غيرُهُ، فيَجِبُ على العِبادِ أنْ يَسألُوهُ وحدَهُ، ولا يَسألُوا غيرَهُ.

وفِيها: كَمالُ السَّمعِ، والبَصَرِ، للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ولِذلكَ جاءَ ذِكْرُهُما بصِيغةِ المُبالَغةِ، وأمَّا في المخلُوقاتِ: فإنَّه يَعتَوِرُهُما ما يَعْتَوِرُهُما مِنَ النَّقصِ، والذَّهابِ.

والبَصَرُ يُتلَذَّذُ بِهِ في الدُّنيا أكثَرَ مِنَ السَّمعِ، ولِذلكَ جاءَ الوَعدُ بالجنَّةِ، لِمَنْ صَبرَ على فَقْدِهِ، وأمَّا في الأمورِ الدِّينيَّةِ: فإنَّ السَّمعَ أهمُّ مِنَ البَصَرِ، ولِذلكَ جاءَ تقديمُ السَّمعِ في الآياتِ التي سِيقَتْ مَساقَ الامتِنانِ؛ لأنَّ المِنَّةَ بِهِ أعظمُ مِنْ مِنَّةِ البَصَرِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقالَ: ﴿أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وفي الآيةِ: مُراعاةُ قَصدِ وجهِ اللهِ بالأعمالِ.

وفِيها: شَرَفُ الآخرَةِ؛ لأنَّ ثوابَها لا يَحصُلُ إلا لِلمؤمِنِ، وأمَّا الدُّنيا: فإنَّها تَحصُلُ للمُسلِمِ، والكافِرِ، والبَرِّ، والفاجِرِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ، والإسلامَ، لا يَمنَعانِ مِنْ طَلَبِ ثَوابِ الدُّنيا.

وفِيها: إشارةٌ إلى تَرْكِ طَلَبِ الدُّنيا بالطُّرُقِ المُحرَّمةِ، وما عندَ اللهِ مِنَ الحَلالِ، يَكْفي العِبادَ، ويُغْنِيهِم.

وفِيها: ذَمُّ مَنْ يَطلُبُ الدُّنيا بعَمَلِ الآخرَةِ.

وفِيها: كَرَمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وواسِعُ فضلِهِ، وعَطائِهِ.

وفِيها: دَناءَةُ الذي يَطلُبُ الخَسِيسَ، ويترُكُ النَّفِيسَ.

وفِيها: أنَّه لا يُنالُ ما عِندَ اللهِ إلا بطاعَتِهِ.

وفِيها: مُراعاةُ العبدِ لاسْمَيْ ربِّهِ: «السَّميعِ» و«البَصِيرِ»؛ فإنَّه إذا فَعَلَ ذلكَ حازَ مَقامَ

الإحسانِ؛ لأنَّه سيَعبُدُ ربَّهُ، وهو مُستَحضِرٌ أنَّه يَسمَعُهُ، ويُبْصِرُهُ.

وفِيها: إخلاصُ العبدِ في الأقوالِ، والأفعالِ؛ لأنَّهما مَحَطُّ سَمْعِ الرَّبِّ، وبَصَرِهِ.

وفِيها: تَهديدٌ للمنافِقِينَ، والمُرائِينَ، وأنَّ اللهَ علِيمٌ بأعمالِهِم، مُطَّلِعٌ عليها، وسيُجازِيهِم بها.

ولَمَّا أمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقِسْطِ في اليتامَى، والعَدْلِ في النِّساءِ، جاءَ أمرُهُ بَعدَ ذلكَ بالعَدْلِ مَعَ النَّاسِ عُمُومًا، وفي جَمِيعِ المُناسَباتِ، والأحوالِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللهِ، ورسولِهِ، والمؤمنونَ أهلٌ لِتوجِيهِ هذا الخِطابِ إليهِم ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ جَمْعُ قَوَّامٍ: وهِيَ صِيغةُ مُبالَغَةٍ مِنْ قائِمٍ، وهُوَ كثيرُ المُلازَمَةِ للشَّيءِ، لا يُخِلُّ بِهِ. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العَدْلِ، والمقصودُ: اعدِلُوا دائِمًا، واجعَلُوا العَدْلَ صفةً ثابِتَةً لكُم، راسِخَةً في نُفُوسِكُم، فهذا أمرٌ بتَحصِيلِ الصِّفةِ، وليسَ مُجرَّدَ العَدْلِ مرَّةً، أو مرَّتَيْنِ. ﴿شُهَدَآءَ﴾ تَشهدونَ بالصِّدقِ، والعَدْلِ، وتُؤدُّونَ الشَّهادَةَ على وجهِها ﴿لِلَّهِ﴾ لأجلِهِ، وإخلاصًا لِوجهِهِ، بلا رِياءٍ، ولا سُمعَةٍ، ولا مُقابِلِ دُنْيا ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فاشهَدُوا عليها إذا كانَ الحقُّ عليْكُم، وأقِرُّوا بِهِ، ولا تكْتُمُوهُ، والشَّهادةُ إظهارُ الحقِّ، وإعلانُهُ. ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولَوْ كانَت الشَّهادَةُ على والِدِيكُم، وأقربِ النَّاسِ إليكُم، وذَكَرَ الأقربِينَ؛ لأنَّهم مَظِنَّةُ التَّعصُّبِ، والمُحاباةِ ﴿إِن يَكُنْ﴾ المَشهودُ عليْهِ، أي: ولَوْ كانَ حالُهُ ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تَمتَنِعُوا مِنَ الشَّهادَةِ؛ طَلَبًا لِمالِهِ، وغِناهُ، أو شَفَقَةً عليهِ؛ لِفَقْرِهِ ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ مِنكُم، وأعلَمُ، وأحَقُّ، بِرعايةِ مَصالِحِهِما، وما يُصلِحُ شُؤُونَهُما، فلا تُحابُوهُما ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ومَيْلَ النَّفسِ المذمُومَ إلى ما يُخالِفُ الشَّرعَ ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي: فَلا يَحْمِلنَّكُمُ الهَوَى والعَصَبِيَّةُ وبِغْضَةُ النَّاسِ، عَلَى تَرْكِ العَدلِ في أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُم، بَلِ الزَمُوا العَدْلَ عَلَى أَيِّ حالٍ كانَ. والعَدْلُ: هو الاستِقامَةُ، والحُكْمُ، بما دلَّ عليهِ الكِتابُ، والسُّنَّةُ. ﴿وَإِن

﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ اللَّيُّ: هو الفَتْلُ، والثَّنْيُ، والمعنى: لَيُّ اللِّسانِ بتحريفِ الشَّهادةِ، والكَذِبِ فيها ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ بكِتمانِ الشَّهادةِ، وتركِها، وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَداءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَها**»[1] ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ قد أحاطَ بالظَّواهِرِ، والبَواطِنِ، وسيُجازِيكُم بِذلكَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ المؤمنينَ يُنفِّذُونَ أمرَ اللهِ؛ فلذلِكَ كانُوا أهلًا لِتوجيهِ الخِطابِ إليهِم، وكَفَى شَرَفًا بالإيمانِ، أنْ يُوجِّهَ اللهُ الخِطابَ إلى المتَّصِفِينَ بِهِ.

وفيها: أنَّ القِسطَ والعَدلَ مِنْ مُقتَضياتِ زِيادَةِ الإيمانِ، والمُخالَفَة في ذلكَ تُنقِصُ الإيمانَ.

وفيها: أنَّ رِضا اللهِ مُقدَّمٌ على رِضا الوالِدَيْنِ.

وفيها: ذمُّ الشَّفقَةِ في غَيرِ مَوضِعِها.

وفيها: أنَّ اللهَ يَتولَّى الفقيرَ، فلا حاجةَ لِشهادةِ الزُّورِ مِنْ أجلِهِ.

وفيها: أنَّ الغايةَ النَّبيلَةَ لا تُبرِّرُ الوسيلةَ المُحرَّمَةَ.

وفيها: أنَّ القِيامَ بالعَدْلِ يُنافي اتِّباعَ الهَوَى.

وفيها: أداءُ الشَّهادةِ بلا زِيادةٍ، ولا نُقصانٍ.

وفيها: الإقرارُ بالحقِّ، ولَوْ كانَ مُرًّا على النَّفسِ.

وفيها: أنّ الأصلَ: قَبُولُ شهادَةِ الوَلَدِ على والِدَيْهِ، وأمَّا شهادَةُ الوَلَدِ لِوالِدِهِ -أي: في مصلحَتِهِ: فأكثرُ العُلماءِ على ردِّها؛ دَفعًا للتُّهمةِ، وسدًّا لبابِ المُحاباةِ.

وفيها: الرَّدُّ على الاشتِراكيَّةِ التي تأخُذُ مالَ الغَنِيِّ، وتُؤَمِّمُهُ، وتُعطِيهِ الفقيرَ.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩). وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ شَهادَةٌ لِإِنْسانٍ بِحَقٍّ، وَلا يَعْلَمُ ذَلِكَ الإِنْسانُ أَنَّهُ شاهِدٌ، فَيَأْتِي إِلَيْهِ، فَيُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ شاهِدٌ لَهُ». شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٧).

وفِيها: العَدْلُ في الحُكْمِ، والعَدْلُ في القِيامِ بالواجِبِ، كالنَّفقةِ على الزَّوجةِ، والأولادِ.

وفِيها: تَحرِّي الحقِّ، والشَّهادةُ بِهِ، مِنْ غيرِ مُحاباةٍ لأحدٍ.

وفِيها: أنَّ الشَّهادَةَ تَقتَضِي العِلْمَ، والإظهارَ.

وفِيها: أنَّه ليسَ مِنْ برِّ الوالِدَيْنِ، ولا مِنْ صِلةِ الرَّحِمِ، معاوَنَتُهُم على ما ليسَ بحقٍّ لَهُم، وأنَّ شَهادَةَ الولدِ على والِدَيْهِ بالحقِّ ليسَتْ عُقُوقًا.

وفِيها: أنَّ المُحاباةَ مِنْ أسبابِ فُشُوِّ الظُّلمِ، والعُدوانِ.

وفِيها: التَّسويةُ بَيْنَ القريبِ، والغَرِيبِ، والغَنِيِّ، والفقِيرِ، في الشَّهادَةِ.

وفِيها: تَحريمُ الإعراضِ عنِ الشَّهادةِ، إذا وَجَبَ ذلكَ على الشَّاهِدِ، كما إذا تَوَقَّفَ على هذِهِ الشَّهادةِ تَحصِيلُ الحقِّ لِصاحِبِ الحقِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عليمٌ بدقائِقِ الأمورِ، وخَفاياها.

وفِيها: مَوعظةُ الحُكَّامِ، والقُضاةِ، وقد جاءَ في قراءةِ ابنِ عامرٍ، وحمزةَ: **(وإنْ تَلُوْا)** بلامٍ مَضمومَةٍ، وواوٍ ساكنَةٍ، مِنَ الوِلايةِ[1]، ومباشَرَةِ القَضايا، وتَوَلِّي القضاءِ بَيْنَ الخُصُومِ.

وفِيها: تَحريمُ تَضييعِ الحُكَّامِ لأمُورِ المُسلِمينَ.

وفِيها: أمْرُ النَّفسِ بالمَعروفِ، ونَهيُها عنِ المُنكَرِ.

وفِيها: اتِّباعُ الحقِّ في الأقوالِ، والأفعالِ؛ فإنَّ القِيامَ بالقِسْطِ فِعْلٌ، والشَّهادَةَ قَوْلٌ.

وفِيها: الحَذَرُ مِنَ التَّأثُّرِ بالأحوالِ التِي قدْ تُفضِي إلى لَبْسِ الحقِّ بالباطِلِ.

وفِيها: وُجوبُ حِراسَةِ العَدالةِ، وإقامةِ المَصالِحِ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنَ النَّفسِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ، والحَذَرُ مِنَ الخُضُوعِ للشَّهوةِ، والمَيْلِ مَعَ نَزَعاتِ النَّفسِ.

---

(١) ينظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص٢٣٩)، حجة القراءات لابن زنجلة (ص/ ٢١٥)، معاني القراءات للأزهري (١/ ٣١٩).

وفِيها: شاهدٌ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنِ الشَّهادَةِ: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وفِيها: تَحرِيمُ أخذِ الأُجرَةِ على تأدِيَةِ الشَّهادَةِ؛ لأنَّه مُخالِفٌ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ ومَنْ أخَذَ المالَ لِتأدِيَةِ الشَّهادَةِ، فإنَّه لَمْ يُقِمْها للهِ.

وفِيها: أنَّ مَرْضاةَ اللهِ مُقدَّمةٌ على مَرضاةِ المَشهودِ عليهِ.

وفِيها: مُراعاةُ القِسْطِ في حُقُوقِ اللهِ، بالاستِعانَةِ بنِعَمِهِ على شُكْرِهِ، لا على مَعصِيَتِهِ، ومُراعاةُ القِسْطِ في حُقُوقِ الآدمِيِّينَ، بأدائِها، وحُسْنِ المُعامَلَةِ مَعَهُم.

وفِيها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ عبادَهُ شُهداءَ في الأرضِ، تُؤدَّى بواسِطَتِهِمُ الحُقُوقُ إلى أهلِها، فعلى العِبادِ أنْ يُراعُوا ذلكَ، ويُقدِّرُوهُ حقَّ قَدْرِهِ.

وفِيها: أنَّ القِيامَ بالعَدْلِ، والقِسْطِ، أعمُّ، وأشمَلُ، وأثقَلُ، وأرفَعُ، درجةً مِنَ الشَّهادةِ، والشَّهادَةُ تابِعةٌ لَهُ، داخِلَةٌ فِيهِ. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يكونَ شهِيدًا له، مَع القيامِ بالقِسطِ، وهذا يتضمّنُ أنْ تكونَ الشهادةُ بالقِسطِ، وأنْ تكونَ للهِ، لا لِغَيرِه»(١).

وفِيها: أنَّ الشَّهادَةَ للهِ، ولَيْسَتْ للنَّاسِ.

وفِيها: أنَّه لا يَنبَغِي الامتناعُ عنِ الشَّهادَةِ؛ خَوْفَ الضَّرَرِ مِنَ الإدلاءِ بِها.

وفِيها: تَخْلِيصُ الأقارِبِ مِنَ الباطِلِ، ونُصرَةُ الظَّالِمِ، بِمَنْعِهِ مِنْ ظُلمِهِ.

وفِيها: الحَذَرُ مِن الانحِرافِ، الذي تُؤدِّي إليهِ الحَمِيَّةُ، والعَصَبِيَّةُ.

ولَمَّا كانَ الإيمانُ لا بُدَّ مِنهُ؛ للعَمَلِ بالأحكامِ، ومُجانَبَةِ سبيلِ المنافِقينَ -الذينَ تقدَّمَ ذِكْرُهُم وسيأتِي- فإنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دعا عبادَهُ المؤمنينَ للثَّباتِ على الإيمانِ، والاعتِقادِ، والتَّصدِيقِ، بالكِتابِ الذي أنزَلَهُ، وفيهِ شَرْعُهُ، وأحكامُهُ، وبالكُتُبِ الَّتي أنزَلَ مِنْ قَبْلُ، وفَصَّلَ أركانَ الإيمانِ، وتَوَعَّدَ مَنْ يَكْفُرُ بها، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٣٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أي: تَبَصَّرُوا بالإيمانِ، وازدادُوا مِنْهُ، وداوِمُوا عليهِ، وادخُلُوا في جميعِ شُعَبِهِ، واستَمْسِكُوا بأركانِهِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ في ربوبيَّتِهِ، وأُلوهيَّتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، واطمَئِنُّوا، وارْضَوْا بِهِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ، خاتَمِ النَّبيِّينَ، وامتثِلُوا ما أمَرَ بِهِ، واجتَنِبُوا ما نَهَى عَنْهُ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: هذا القرآنِ، آمِنُوا بما فِيهِ، واقبَلُوهُ، واعمَلُوا بما جاءَ بِهِ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ لَفظَةُ «الكتابِ» هُنا: اسمُ جِنسٍ، يَشمَلُ جميعَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ التي أنزَلَها اللهُ، كصُحُفِ إبراهيمَ، وتَوراةِ مُوسَى، وزَبُورِ داودَ، وإنجيلِ عيسَى، وغيرِها، فيَجِبُ الإيمانُ بأنَّها حقٌّ، نَزَلَ مِنْ عندِ اللهِ، وأوحَى اللهُ بها إلى أنبيائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولَوْ لَمْ نَعلَمْ تفاصِيلَها.

ثُمَّ توعَّدَ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ كَفَرَ بذلكَ، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ أي: يُنكِرْهُ، ويَجحَدْهُ، فلا يَرضَى بِهِ ربًّا، أو يُشرِكْ مَعَهُ غيرَهُ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ فيُكذِّبُ بوجودِهِم، أو يَجحَدُ بعضَهُم، أو يُعادِيهِم، كفِعْلِ اليهودِ مَعَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المُنزَّلَةِ مِنْ عندِهِ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ الذينَ أرْسَلَهُم إلى خلقِهِ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وما فِيهِ مِنَ البَعْثِ، والحسابِ، والمِيزانِ، والحَوْضِ، والصِّراطِ، والجزاءِ، والجنَّةِ، والنَّارِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: تاهَ عَنِ الحَقِّ، وسَلَكَ غيرَ طَريقِه.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

ذِكْرُ الإيمانِ، وأركانِهِ، والتَّأكيدُ على أساسِ الأعمالِ، وما لا تَصِحُّ إلا بِهِ.

وفِيها: وجوبُ التَّصدِيقِ بجميعِ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ، وإنْ لَمْ نعلَمْها كلَّها، ولمْ نعلمْ تفْصِيلَ ما فِيها.

وفِيها: وجوبُ الإيمانِ بالملائِكةِ، والإيمانُ بالملائكةِ يتضمّنُ أربَعةَ أُمورٍ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بوُجودِهِم.

الثَّاني: الإيمانُ بِمَنْ عَلِمنا اسمَه مِنهُم، كَجبْرِيلَ، ومِيكائِيلَ.

الثالثُ: الإيمانُ بما علِمنا مِنْ صِفاتِهم.

الرابعُ: الإيمانُ بما علِمنا مِن أعمالِهِمُ الّتي يَقُومونَ بها، بِأمْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفِيها: الإيمانُ بجميعِ الرُّسلِ، سَواء الذينَ قصَّ اللهُ خَبَرَهُم علينا، أو الذينَ لَمْ يَذْكُرْهُم.

وفِيها: الأمرُ بالإيمانِ الإجماليِّ، والتَّفصِيليِّ.

وفِيها: وَعيدُ الكَفَرَةِ، والمُرتَدِّينَ.

وفِيها: أنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ كُتُبِ اللهِ، ورُسُلِهِ، فآمَنَ ببعضٍ، وجَحَدَ بعضًا، كاليهودِ، والنَّصارَى، فإنَّه كافِرٌ، لا يُعتَدُّ بإيمانِهِ.

وفِيها: الإيمانُ بالرسولِ المَلَكِيِّ، والرسولِ البَشَرِيِّ.

وفِيها: أنَّ القرآنَ خِتامُ الكُتُبِ السماويّة.

وفِيها: أنَّ الضَّلالَ يَتَفاوَتُ، وأنَّ بعضَهُ أشدُّ مِنْ بَعْضٍ.

وفِيها: أنَّ مَنْ كَفَرَ بالإيمانِ فقَد ضلَّ، وبَطَلَ عملُهُ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥].

وفِيها: أنَّ الكُتُبَ السَّابِقَةَ نَزَلَ كلُّ كتابٍ مِنْها جملةً، ودُفعَةً واحدةً، كما يدُلُّ عليهِ لفظُ: ﴿أَنزَلَ﴾، وأمَّا القرآنُ: فقد نَزَلَ مُفرَّقًا بحَسَبِ الوَقائِعِ، والأحداثِ، كما تَدُلُّ عليهِ لَفظةُ: ﴿نَزَّلَ﴾ المُفِيدةُ للتَّفريقِ، وهذا مِنْ فَضلِ القرآنِ، وإنزالُهُ هكذا أدعَى للتَّدبُّرِ، والفَهْمِ، والعَمَلِ.

وفِيها: وجوبُ القَبُولِ، والإقرارِ، والإذْعانِ، بأركانِ الإيمانِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ يَزِيدُ؛ وذلكَ لأنَّه أمَرَ المؤمنينَ بالإيمانِ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[1]، وفي هذا ردٌّ على المُرْجِئَةِ.

---

(١) قال أبو عُبيد القاسم بنُ سلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَوْلا أَنَّ هُناكَ مَوْضِعَ مَزِيدٍ ما كانَ لِأَمْرِهِ بِالإيمانِ مَعْنًى» الإيمان (ص١٩).
وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَأْمُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبادَهُ المُؤْمِنِينَ بِالدُّخُولِ في جَمِيعِ شَرائِعِ الإيمانِ، وَشُعَبِهِ، وَأَرْكانِهِ، وَدَعائِمِهِ، وَلَيْسَ هَذا مِنْ بابِ تَحْصِيلِ الحاصِلِ، بَلْ مِنْ بابِ تَكْمِيلِ الكامِلِ، وَتَقْرِيرِه، وَتَثْبِيتِهِ، والاِسْتِمْرارِ عَلَيْهِ. كَما يَقُولُ المُؤْمِنُ في كُلِّ صَلاةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيْ: بَصِّرنا فِيهِ، وَزِدْنا هُدًى، وَثَبِّتْنا عَلَيْهِ» تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٣٤).

وفِيها: دَعوةُ المنافقينَ، الذين آمَنُوا ظاهِرًا، إلى الإيمانِ الحقيقِيِّ، بأنْ يكونُوا مؤمِنينَ، ظاهِرًا، وباطِنًا.

وفِيها: دَعوةُ أهلِ الكتابِ، الذينَ يَزعُمُونَ الإيمانَ بأنبيائِهِم، وكُتُبِهِم، إلى الإيمانِ الصَّحيحِ، الذي يَتضمَّنُ الإيمانَ بجميعِ الكُتُبِ، والرُّسُلِ.

وفِيها: التَّأكيدُ على الإيمانِ بالقرآنِ؛ لأنَّه ذَكَرَهُ مُستقلًّا خاصًّا، وذَكَرَهُ مَعَ غيرِهِ إجمالًا، والإيمانُ بالقرآنِ يشمَلُ: الإيمانَ بأنَّه كلامُ اللهِ، مُنزَّلٌ غيرُ مَخلوُقٍ، وأنَّه حقٌّ لا باطِلَ فِيهِ، وأنَّه ناسِخٌ لِما قَبْلَهُ، مع وُجوبُ الاستِسلامِ لِما فِيهِ، والعَمَلِ بِهِ.

وفِيها: ذِكْرُ الإيمانِ الواجِبِ، والإيمانِ المُستحبِّ.

وفِيها: تَحذِيرُ العِبادِ مِنَ البُعدِ عنِ الحقِّ، والصَّوابِ.

وبَعدَ أنْ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالإيمانِ، وحذَّرَ مِنَ الكُفْرِ، تَوعَّدَ المُرتَدِّينَ المُتردِّدِينَ بَيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ، ثُمَّ يَموتُونَ على الكُفرِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ١٣٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ فحَصَلَ مِنهُم الإيمانُ مرَّتَينِ، والكفرُ مرَّتَيْنِ، ثم ازْدادوا كُفرًا؛ وذلكَ لأنَّ الإيمانَ لَمْ يَثْبُتْ في قُلُوبِهِم، قيلَ: المُرادُ بِهِم: اليهودُ الذينَ آمَنُوا بموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ كفَرُوا؛ بعِبادَتِهِمُ العِجلَ، ثُمَّ آمَنُوا بالتَّوراةِ، ثُمَّ كَفَرُوا بعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ ازدادُوا كُفْرًا بمحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: هُم أهلُ الكتابِ، الذينَ آمَنُوا بنَبيِّهِم، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ، وآمَنُوا بالكِتابِ الذي نَزَلَ عليهِ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ، ثُمَّ ازدادُوا كُفرًا بمحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيلَ: إنَّهم قومٌ مِنَ العَرَبِ، كانُوا يَتَردَّدونَ بَيْنَ مكَّةَ، والمدينةَ، فإذا جاؤوا المدينةَ آمَنُوا، وإذا جاؤوا مكَّة كَفَرُوا. وقيل: نزلَتْ في المنافِقينَ، آمَنُوا بألسِنَتِهِم، ثُمَّ ارتدُّوا، ثُمَّ آمَنُوا، ثُمَّ ارتدُّوا، وماتُوا على الكُفرِ، وذَكَرَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الآيةَ فِيمَنْ دَخَلَ في الإيمانِ، ثُمَّ رَجَعَ عنهُ، ثُمَّ عادَ إلى الإيمانِ، ثُمَّ رَجَعَ، واستَمَرَّ على ضَلالِهِ، وازدادَ حتَّى ماتَ على الكُفرِ[1].

(١) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٣٤).

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: لا يَعفُـو عَنْهُـم، ولا توبـةَ لهُم؛ وذلـك لِبقائِهِم على الكُفرِ حتَّى ماتُوا ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا إلى الجنَّةِ، ولا إلى الخَيرِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ مَـنِ اسـتقرَّ الإيمانُ في قلبِهِ ثَبَتَ عَليْه، ومَنْ تَردَّدَ فِيـهِ، وتَذَبْذَبَ، كانَ عُرضةً للانتِقالِ عنهُ، والتَّلاعُبِ بِهِ.

وفِيها: أنَّ أصحابَ الإيمانِ الصَّحِيحِ لا يَرجِعُونَ عَنْهُ.

وفِيهـا: أنَّ مَنْ تَكَرَّرَتْ مِنهُ الرِّدَّةُ، فإنَّه يُسـتَبْعَدُ مِنهُ أنْ يَموتَ على الإيمانِ، وأنَّ مَنْ تَعوَّدَ الكُفرَ، وتَمَرَّنَ على الرِّدَّةِ، هانَ عليهِ أمرُ الإيمانِ، فلا يَثْبُتُ عليهِ.

وفِيهـا: أنَّ مَنْ كانتْ هذه حالَهُ، فهُوَ جَديرٌ بالحِرمانِ مِنْ رحمةِ اللهِ، ورِضوانِهِ، ومغفرتِهِ، وإحسانِهِ.

وفِيهـا: أنَّ مَـنْ تكرَّرتْ رِدَّتُهُ يَجِبُ التَّأنِّي في قَبُولِ تَوبَتِـهِ؛ حتَّى نَعرِفَ صِدقَهُ، وصلاحَهُ، واستقامَتَهُ، ورُوِي عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه أخذَ مِنْ هذِهِ الآيةِ: استِتابَةَ المُرتَدِّ -ثلاثًا-[1].

وفِيها: أنَّ الهِدايَةَ بِيَدِ اللهِ، وليسَ العبدُ مستقِلًا بِها، واللهُ أعلَمُ بِمَنْ يَستَحِقُّها.

وفِيها: الحَذَرُ البالِغُ مِنَ التَّقلُّبِ، والتَّذبْذُبِ؛ ولِذلكَ كانَ مِنْ أعظَمِ الأدعيةِ: «يا مُقلِّبَ القُلُوبِ: ثَبِّتْ قلبِي على دينِكَ».

وفِيهـا: الحِرصُ على الثَّباتِ على الإيمانِ، والاسـتِزادَةِ مِنْهُ، وتَرسِـيخِهِ في النَّفسِ بالعَمَلِ بشُعَبِهِ.

وفِيهـا: أنَّ النُّفـوسَ المُرتكِسـةَ بالـرِّدَّةِ المُتكرِّرةِ، ليسَـتْ أهلًا للمَغفِرَةِ، وليسَـتْ مَحَلًا للخَيْرِ، والثَّوابِ.

وفِيها: أنَّ الكافِرَ إذا أسلَمَ، يُغفَرُ لَهُ كُفرُهُ السَّابِقُ، فإذا كَفَرَ، ثُمَّ أسلَمَ، ثُمَّ كَفَرَ: عادَ عليهِ وِزْرُ كُفْرِهِ الأوَّلِ، بالإضافَةِ لِما بَعدَهُ.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣١٧)، سنن البيهقي (٨/ ٣٦٠).

وفِيها: أنَّ الكُفرَ يَزِيدُ، ويَنقُصُ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ يَغفِرُ لِصاحِبِ الإيمانِ، إذا استمرَّ عليهِ إلى المَـماتِ، حتَّى لَوْ تكرَّرَتْ مِنْهُ الرِّدَّةُ مِنْ قَبْل.

وقـد مَضَى في سـورةِ آلِ عمرانَ ذِكْرُ عقوبَةِ المُرتَدِّ الذي يَكفُـرُ، ثُمَّ يَزدادُ كُفرًا، ويموتُ عـلى ذلكَ[١]، وأمَّا في هذا الموضِعِ مِنْ سُـورةِ النِّسـاءِ: فإنَّه ذَكَرَ تردُّدَهُ بَـيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ، ثُـمَّ استمرارَهُ على الكُفـرِ، وازديادَه مِنهُ، ولعلَّ هـذا -واللهُ أعلَمُ-؛ لأنَّ آيةَ الرِّدَّةِ في سُـورةِ النِّسـاءِ جاءتْ في سِياقِ ذِكْرِ المنافِقِينَ، والمُنافِقُ مِنْ طَبيعتِهِ التَّذبْذُبُ، والتَّردُّدُ، في الإيمانِ؛ ولذلـك قال الله بعدهـا: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَعْنِي: أَنَّ المُنافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ»[٢].

وقد اختلفَ العلماءُ في توبَةِ المُرتَدِّ، هل تُقبَلُ؟ والرَّاجِحُ: أنَّها تُقبَلُ، وهو قولُ أكثَرِ أهلِ العِلمِ؛ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وكذلـكَ اختلـفَ أهلُ العِلمِ في توبةِ مَنْ تكرَّرتْ رِدَّتُهُ، فقـال بعضُهُم: لا تُقبلُ، ويُقتَلُ؛ لأنَّـه لا يُوثَـقُ بتَوبَتِـهِ، وإنَّ تعدُّدَ رِدَّتِهِ دليلٌ عـلى كَذِبِهِ في تَوبَتِهِ، فيُقتَلُ، وأمـرُهُ إلى اللهِ. وقالَ جمهورُ العلماءِ: إنَّ توبَتَهُ تُقبَلُ ظاهِرًا، وتَجري عليهِ أحكامُ الإسلامِ، وهَذا هُوَ الراجِحِ.

والخـلافُ بـين العلماءِ، في قَبولِ توبَتِـهِ في الظاهِرِ مِن أحكامِ الدّنيا، وتَـرْكِ قتلِه، وثبوتِ أحـكامِ الإسْـلامِ في حقِّـه، وأمَّا قَبـولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَها في الباطِـنِ، وغُفرانُه لِمَنْ تـابَ، وأقلَعَ -باطِنًا وظاهِرًا-: فَلا خِلافَ فِيهِ[٣].

وفي الآيـةِ: أنَّ الإيمانَ الخالِـصَ الثَّابِتَ، الذي ذاقَ صاحِبُهُ طعمَهُ، لا يَتَخلَّى صاحبُه عنْهُ، بخِلافِ مَنْ كانَ أمْرُ الإيمانِ هيِّنًا عندَهُ، فإنَّه سُرعانَ ما يَترُكُهُ.

---

(١) في قولِـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١].

(٢) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٣٥).

(٣) انظر: المُغني (٩/ ٨)، مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠).

وفِيها: أنَّ مِنْ شُرُوطِ صحَّةِ إيمانِ المَرءِ: أنْ يَمُوتَ عليهِ.

وفِيها: التَّأكيدُ على الثَّباتِ على الإيمانِ حتَّى المَماتِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صِنفَ المُرتدِّينَ، أتبعَهُ بذِكْرِ المنافِقينَ؛ تَهديدًا، ووعِيدًا، وبيانًا لصفاتِهِم، وأعمالِهِم، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿ بَشِّرِ ﴾ يا محمدُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والأصلُ في البِشارَةِ أنَّها للأخبارِ السَّارَّةِ، وذلك أنَّ النَّفسَ إذا بُشِّرتْ، انبَسَطَتْ بَشرَتُها سُرُورًا، وتُستَعْمَلُ البِشارَةُ في الإخبارِ بالأمرِ السَّيِّئِ أحيانًا، أو على سَبيلِ التَّهكُّمِ، والاستِهزاءِ[1] ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الذينَ يُبطِنُونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، ويَتهكَّمُونَ بالمسلمينَ، ويَخدَعونَهُم. والنِّفاقُ: مِنْهُ ما هُوَ نِفاقُ اعتِقادٍ، ومِنْهُ ما هو نِفاقُ عَمَلٍ، والمَقصودُ بالنّفاقِ في هذِه الآيةِ: الأوَّلُ. ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي: مُوجِعًا ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ﴾ ويجعَلُونَ ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المُعادِينَ للمؤمِنينَ ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ أنصارًا لهُم، وحُلفاءَ ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيَقتَصِرونَ على الكفَّارِ في المُوالاةِ، ويُعرِضُونَ عنِ المؤمنينَ، ويُمالِئُونَ الكفَّارَ عليهِم ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ أي: أيطلُبُ هؤلاءِ المنافقونَ -بمُوالاةِ الكفَّارِ- الغَلَبَةَ، والقوَّةَ، عندَهُم؟! ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ كلَّها له عَزَّ وَجَلَّ في الدُّنيا، والآخِرَةِ، يُؤتِيها مَنْ يَشاءُ.

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّ المنافِقَ، والمُرتدَّ، يَجمَعُهُما التَّذبْذُبُ في الإيمانِ.

وفيهما: استهزاءُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأهلِ النِّفاقِ -جزاءً وِفاقًا-؛ لاستِهزائِهِم بالإيمانِ، وبالمؤمنينَ.

---

(١) قيل: البشارة: كلُّ خبرٍ تتغيَّرُ به بشَرةُ الوجْهِ، سارًّا كان، أو غَيْرَ سارٍّ. وقيل: إذا جاءتْ مُطلَقة فإنّما عُرفُها في المَحبوبِ، وإذا أُريد استعمالُها في المكروهِ جاءت مُقيَّدة. انظر: تفسير ابن عطية (٢/ ١٢٥)، اللباب (٧/ ٧٥).

وفيهـا: أنَّ للمنافِقِـينَ عذابًا في الدنيا بأيـدِي المؤمنينَ، وبما يُصِيبُ نُفُوسَـهم مِنَ القَلَقِ، والاضطـرابِ، والكآبـةِ، وخَوفِهِـم مِنِ انكشـافِ أمرِهِم، وأمَّـا في الآخرةِ: فَهُـم في الدَّركِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ.

وفيها: بيانُ التَّحالُفِ بَيْنَ كفَّارِ الباطِنِ، وكفَّارِ الظاهِرِ.

وفيها: تَحذِيرُ المؤمنينَ مِنْ صِلاتِ المنافِقِينَ بالكافِرينَ، وعلاقاتِهِمُ الخَفيَّةِ.

وفيهـا: أنَّ المنافِقِـينَ يَظنُّـونَ بـأنَّ العاقِبَـةَ، والغَلَبَـةَ -دائمًا- للكفَّـارِ؛ ولذلـكَ يَعقِدُونَ الأحلافَ مَعَهُم.

وفيها: أنَّه لا عِزَّةَ للكفَّارِ، فكيفَ تُبتَغَى عندهم؟ وأنَّ تغلُّبَهُم -لَو حَصَلَ- فهو مؤقَّتٌ، وسيَبُوؤُونَ بالهزيمةِ، هُمْ وأعوانُهُم، وحلفاؤُهُم.

وفيها: أنَّه يَجِبُ على أهلِ الإيمانِ طَلَبُ العِزَّةِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، واستِمدادُها مِنْهُ.

وفيها: أنَّ العزَّةَ الحقيقيَّةَ تكونُ في الإيمانِ باللهِ، والعَمَلِ بكتابِهِ.

وفيها: أنَّ الإعراضَ عنِ الهدايةِ هو سببُ الذُّلِّ، والخُضُوعِ للأعداءِ.

وفيها: تَهييجُ المؤمنينَ على طَلَبِ العِزَّةِ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ.

وفيها: المُحاربةُ النَّفسيَّةُ لأهلِ النِّفاقِ.

وفيهـا: أنَّ البَـشَرةَ -كـما تَتَغـيَّرُ بالإخبارِ بما يَسُرُّ، فتَنْبَسِـطُ، وتَسـتَنِير-، فكذلِـكَ تتغيَّرُ بالإخبارِ بما يَسُوءُ، ويَضُرُّ، فتُظلِمُ، وتَكْفَهِرُّ.

وفيها: مُصارحةُ المنافقينَ بما أعدَّ اللهُ لَهُم.

وفيها: بيانُ استِحقاقِهِم للعذابِ المؤلِمِ المُوجِعِ، وأنَّهُم في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ.

وفيهـا: أنَّ ابتِغاءَ المنافِقينَ العزَّةَ عندَ الكافِرينَ: هو طَلَبُها ممَّنْ لا يَملِكُها، بِمثابَةِ اللُّجوءِ إلى المُفْلِسِ؛ للاستِمدادِ مِنْهُ.

وفيها: أنَّ وعيدَ اللهِ للمنافقينَ بالعذابِ حاصِلٌ، لَنْ يَتَخلَّفَ.

وفيهما: أنَّ تأسِيسَ التَّحالُفاتِ على الحساباتِ الخاطِئةِ المُنطَلِقَةِ مِنْ حُبِّ الدُّنيا، وسُوءِ الظَّنِّ باللهِ، سيُؤدِّي بأصحابِها إلى الخَسارَةِ، والمنافِقونَ كانوا يَظُنُّونَ زَوالَ دَوْلَةِ النبيِّ ﷺ في المدينةِ، وأنَّ أمرَهُ مؤقَّتٌ؛ ولذلِكَ عَقَدوا حِلْفَهُم مَعَ اليهودِ، والمُشرِكينَ.

وفيهما: وجوبُ موالاةِ أهلِ الإيمانِ.

وفيهما: أنَّ المنافِقينَ يَشعُرونَ بالضَّعفِ، فيطلُبُونَ الاعتِزازَ.

وفيهما: أنَّ مَنِ اعتزَّ بغَيرِ اللهِ هانَ، ومُعاقبةُ المنافِقينَ بنَقِيضِ قَصْدِهِم؛ فإنَّهم لمَّا أرادُوا الاستِقواءَ بالكفَّارِ أذلَّهُمُ اللهُ، وأخزَى الكفَّارَ.

وفيهما: أنَّ مِنْ صفاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: العزَّةَ، ومِنْ أسمائِهِ: العزيزَ.

وفيهما: تَثبيتُ المؤمنينَ ببيانِ وَهْنِ أعدائِهِم، واضمِحلالِ تحالُفاتِهِم.

وفيهما: أنَّ عاقبةَ العزَّةِ، والغَلَبةَ، تكونُ لأولياءِ اللهِ؛ كما قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفيهما: أنَّ الاعتزازَ باللهِ يُثمِرُ التَّعالي على الباطِلِ.

وفيهما: أنَّ أنواعَ الاعتِزازِ بالدُّنيا عاقبَتُها الخِزيُ في الدنيا، والعذابُ في الآخرةِ، كَمَنِ انتَسَبَ إلى آباءٍ كفَّارٍ، يُريدَ بِهِم عزًّا، وفَخْرًا، فهو مَعَهُم في النَّارِ.

وفيهما: أنَّ اللهَ قد تكفَّلَ بنصرِ دِينِهِ، وعبادِهِ المؤمنينَ.

وفيهما: تَحرِيمُ مُوالاةِ الكفَّارِ.

وفيهما: أنَّ بعضَ الكفَّارِ قد يُوالِي بعضًا، لا لأجْلِ المُماثلَةِ في الدِّينِ، والعقيدةِ، ولكِنْ تَجْمَعُهُم عداوةُ المؤمنينَ.

وفيهما: هَيبةُ أهلِ الإيمانِ، لِدرجةِ أنَّ أصنافَ الكفَّارِ يَشعُرُونَ بحاجةِ بعضِهِم إلى بَعضٍ، في مُواجَهَةِ مُعسكَرِ أهلِ الإيمانِ.

وفيهما: استعمالُ أسلوبِ الإنكارِ، والتَّوبِيخِ، والذَّمِّ، والتَّجهيلِ، مَعَ الأعداءِ.

وفيهما: أنَّ تَرْكَ مُوالاةِ أهلِ الإيمانِ، والسَّعْىَ في مُوالاةِ أهلِ الكُفرِ، والطُّغيانِ، مِن صِفاتِ المُنافِقينَ.

وفيهما: أنَّ المنافِقَ يطلُبُ العزَّةَ عندَ المشركينَ، ثُمَّ إنَّ المُشركينَ يَطلبونَ العزَّةَ مِنْ أصنامٍ لا تُبصِرُ، ولا تَسْمَعُ، ولا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وفيهما: أنَّه لا يكونُ الإنسانُ قادِرًا، إلا بإقدارِ اللهِ لَهُ، ولا يَكونُ عزيزًا، إلا بإعزازِ اللهُ لَهُ.

وفيهما: أنَّ العِزَّةَ -كُلَّها- للهِ وَحْدَهُ، ولِمَنْ جعَلَها لَهُ، كَما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وفيهما: المُواجهةُ القويَّةُ، والمُصارحةُ الحاسِمةُ، مَعَ المنافِقينَ، وإنذارُهُم بعذابِ اللهِ.

وفيهما: الاستِغناءُ عمَّا يَضُرُّ مِنَ العَلائِقِ مع الخلائِقِ، وتَعليقُ القلبِ بالقَوِيِّ الخالِقِ.

ولَمَّا نَهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مُخالَفتِهم -أي: الكفَّارِ- نَهى عَنْ مُجالَستِهِم، يعني: في حالِ كلامِهِم بالكُفرِ، واستِهزائِهم بآياتِ اللهِ، وبَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ العَلاقةَ بَيْنَ المُنافِقينَ والكفَّارِ، في حُضورِ مجالِسِ الكُفرِ في الدُّنيا، واشتِراكهم -بَعدَ ذلكَ- في عذابِ الآخرةِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ العليُّ الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا مَنْ يُظهِرُ الإيمانَ مِنْ صادِقٍ، ومنافِقٍ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: قولَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقالَ هنا: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ يا أيُّها الجُلوسُ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشَّرعيَّةَ، التي أنزلَها في كِتابِهِ ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ جَحْدًا، وانتِقاصًا، ونحوَ ذلكَ ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ تهكُّمًا، وسُخريةً: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ لا ترضَوْا بالبَقاءِ مَعَ المستهزِئِينَ، بَلْ غادِرُوا المَجلِسَ، واترُكُوهُ؛ غَضبًا للهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي: غَيرِ الحديثِ الذي يَكفُرُونَ فِيهِ بآياتِ اللهِ، ويَستَهزِئُونَ بها ﴿إِنَّكُمْ﴾ في حالِ استِمرارِكُم،

وقُعُودِكُم ﴿إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثـمِ، وقالَ القرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَـدَلَّ بِهَذا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنابِ أَصْحـابِ المَعـاصِي إِذا ظَهَرَ مِنْهُـمْ مُنْكَرٌ؛ لِأَنَّ مَـنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُـمْ فَقَـدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ، والرِّضا بِالكُفْرِ: كُفْرٌ»[1].

وكَـما نَهَـى اللهُ المؤمنـينَ بمكَّةَ عنِ الجُلُوسِ مَـعَ المشركينَ حالَ خَوْضِهِـم في الكُفرِ، فقد نَهاهُـم -أيضًـا- في المدينةِ، ونَهَى كلَّ مَنْ يُظهِرُ الإيمانَ عنِ الجُلُوسِ في مَجالِسِ الكُفرِ، وكانَ بعـضُ يهـودِ المدينةِ يَفعلُـونَ في ذلك فِعْـلَ مُشرِكِي مَكَّةَ، وقـد كانَ بعضُ المسـلمينَ بمكَّةَ، يُضطَـرُّ للجلـوسِ مَعَ بعضِ الكفَّارِ المُسـتهزِئِينَ؛ اتقـاءً لضُرِّهِم وأذاهُم، وقـد زالَ هذا في المدينَـةِ، بـما أعزَّ اللهُ بِهِ المؤمنينَ، فكانَ الذينَ يَجلِسُـونَ إلى اليهودِ، هُم مِـنَ المنافِقينَ؛ ولِذلكَ توعَّدَهُمُ اللهُ بالجَمعِ بَيْنَهم في النَّارِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مُنافِقِي أهلِ المدينةِ، وغيرِهـا ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كفَّـارِ أهلِ مكَّةَ مِنَ المشركينَ، وكفَّارِ أهـلِ المدينةِ مِنَ اليهودِ، وغيرِهم ﴿فِي﴾ نارِ ﴿جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

التَّحذيـرُ البلِيـغُ مِنْ مَجالِسِ الاستِهزاءِ بالدِّينِ، وبيـانُ خطَرِها، وأنَّها قـد تُخرِجُ الجالِسَ فيها عنِ المِلَّةِ، والدِّينِ، فإذا كانَ راضيًا بما قيلَ فيها، فهو وأصحابُها في الكُفرِ سواءٌ؛ لأنَّ مَنْ رَضِيَ بالكُفـرِ فهو كافِرٌ، ومَنْ جالَسَـهُم مُجاملةً، وهو يَعتقِدُ بُطلانَ ما يقولُونَ، فهو فاسِـقٌ؛ لاختيـارِهِ الجُلوسَ، وعدمَ الإنكارِ، وتَرْكِ المُغادَرَةِ، ومَـنْ جَلَسَ فيها مُكرَهًا، أو لِينقِلَ ما يُقالُ فِيها إلى المسلمينَ؛ لِيحذَرُوا، ونحوِ ذلكَ، فليس عليه شيءٌ.

وفي الآيةِ: خُطورةُ شأنِ الجليسِ، وتأثُّرُ مُجالِسِهِ بِهِ.

وفِيها: وجوبُ تَجنُّبِ أهلِ المعاصِي.

وفِيها: تَواصِي أهلِ الكُفرِ بِعداوَةِ الدِّينِ، والاستِهزاءِ بآياتِ ربِّ العالمينَ.

وفِيها: أنَّ عَدْوَى مُخالَطَةِ الكفَّارِ تَسرِي إلى القلبِ، فتُفْسِدُهُ.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٤١٨).

وفِيهـا: أنَّ مَنْ حَضَرَ مُنكَرًا، فَعَلَيهِ أنْ يُنكِرَهُ، ويسـعَى في إزالَتِهِ، فإنْ عَجزَ: وَجَبَتْ عليهِ المُغادَرَةُ.

وفِيها: تَأكيدُ القرآنِ المَدَنِيِّ على حقائِقِ القرآنِ المَكِّيِّ، وهذا مِنْ معانِي أنَّ القرآنَ مَثانِي.

وفِيها: أنَّه يَجوزُ الجلوسُ مَعَ الكافِرِ إذا خَلا المَجْلِسُ مِنَ المُنكَرِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ كانُوا يَرکَنُونَ إلى المشركينَ، واليهودِ، ولَمَّا تَشـابَهتْ قُلُوبُهُم اشـتَرَكُوا في المَجالِسِ.

وفِيهـا: غَيظُ المنافِقينَ، والكفَّارِ، مِنْ أهلِ الإيمانِ؛ ولِذلكَ اجتَمَعُوا على الطَّعنِ في كتابِ اللهِ.

وفِيها: وجوبُ تَعظِيمِ وتوقِيرِ آياتِ اللهِ.

وفِيها: مَنعُ المؤمنينَ مِنْ حُضُورِ مَجالِسِ الكُفرِ؛ لإظهارِ التَّمايُزِ بَيْنَهم، وبَيْنَ المنافِقينَ.

وفِيهـا: أنَّ البقـاءَ في مَجلِسِ المُنكَرِ، يُضعِفُ الإيـمانَ، ويُنافِيهِ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللهِ، واليومِ الآخِرِ، فلا يَجلِسْ على مائِدَةٍ يُدارُ عليها بالخَمْرِ**»(١).

وفِيهـا -مـع التي قبلهـا-: الإشـارةُ إلى العَلاقةِ بَـيْنَ المُجالَسَـةِ، والمُـوالاةِ، وأنَّ كَثرةَ المُجالَسَـةِ تـؤدِّي إلى المُـوالاةِ، وكَـمْ مِـنْ أُنـاسٍ كانوا مِـنْ أهلِ الاستِقامَةِ، فلَمَّـا كَثُرتْ مُجالَسَتُهُم لأهلِ الفِسقِ، والنِّفاقِ، انحَرَفُوا، وزاغُوا.

وفِيها: أنَّ الرِّضا بالمَعصيةِ: مَعصيةٌ، وإنْ لمْ يَفعلْها.

وفِيها: أنَّ أوَّلَ الشَّرِّ: سَماعُ الشَّرِّ، وبَعضُ النُّفُوسِ ضعيفةٌ، تَتَخطَّفُها الشُّبُهاتُ، ويَسرِي إليها حبُّ المُشارَكَةِ في المحرَّماتِ.

وفِيها: ردٌّ على مَنْ أجازَ مُجالَسَةَ أهلِ الكُفرِ، والفُسُوقِ، والعِصيانِ، وسمَّى ذلكَ تسامُحًا، ومُرونَةً، وحِيادِيَّةً، وحُسنَ مُعامَلَةٍ، ونحوَ ذلكَ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٠١)، وقال: «حسنٌ غريب»، وأحمد (١٤٦٥١)، وقال الحافظُ في الفتحِ (٩/ ٢٥٠): «إسنادُه جيد».

وفِيها: وُجوبُ إظهارِ المُخالَفَةِ للمُشرِكِينَ، والفاسِقِينَ.

وفِيها: أنَّ الحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ، وُجودًا، وعَدَمًا.

وفِيها: أنَّ الرَّاضِي شَرِيكٌ.

وفِيها: تَحرِيمُ تَهيئَةِ المَجالِسِ لأصحابِ الإثمِ، والعُدوانِ؛ لأنَّ ذلكَ مِن إعانَتِهم، وإعانَتُهم أشدُّ منَ القُعُودِ معهُم.

وفِيها: أنَّه يَحرُمُ الوُقُوفُ مَعَ أهلِ المُنْكَرِ، أو الاضطِجاعُ؛ إذْ ليسَ المقصودُ مِنَ الآيةِ: القُعُودَ نفسَهُ، وإنَّما المُرادُ: المُكثُ، والبقاءُ، على أيِّ حالٍ كانَ، وإنَّما عبَّرَ بالقُعُودِ؛ لأنَّه هو الغالِبُ في المَجالِسِ.

وفِيها: تَأييدُ الإعراضِ المَذكورِ في آيةِ الأنعامِ، بالنَّهيِ عنِ القُعُودِ في آيةِ النِّساءِ.

وفِيها: تقديمُ ذِكْرِ المُنافِقِينَ على الكفَّارِ؛ تَنْبِيهًا على العدوِّ الأخفَى.

وفِيها: أنَّ إنكارَ المُنكَرِ يَمنَعُ انتشارَهُ بَيْنَ النَّاسِ، والتَّهاوُنَ في الإنكارِ يُؤدِّي إلى الانتِشارِ.

وفِيها: التَّنبيهُ على خُطُورَةِ كُفرِ الاستِهزاءِ، والاستِهزاءُ بالشَّرعِ مِنْ أبرَزِ صفاتِ المنافِقِينَ.

وفِيها: أنَّ الجزاءَ مِنْ جِنسِ العَمَلِ؛ فكما اجتَمَعَ الكُفَّارُ والمنافقونَ في الدُّنيا على الطَّعنِ في آياتِ اللهِ، فكذلِكَ يَجمَعُهُم اللهُ في جهنَّمَ يومَ القِيامةِ.

وفِيها: تَحريمُ الاجتِماعِ على أيِّ باطِلٍ كانَ.

وفِيها: التَّحذيرُ مِنْ جُلساءِ السُّوءِ، ومَفهومُهُ: الحِرْصُ على مُجالَسَةِ الصَّالِحِينَ.

وفِيها: إظهارُ الغَضَبِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفِيها: أنَّ كلَّ مَنْ يَحمِلُهُ هَواهُ، وتَعَصُّبُهُ، لِبدعَتِهِ، أو مَذهَبِهِ، أو مَنهَجِهِ، على الاستِهزاءِ بآيةٍ، أو حديثٍ، فإنَّه داخِلٌ في هذِهِ الآيةِ.

ثُمَّ زادَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في بيانِ أعمالِ هؤلاءِ المنافِقِينَ، وصفاتِهم؛ ليَزدادَ حَذَرُ المؤمنينَ مِنْهم، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ أي: يَنتَظِرونَ، ويَتَرَقَّبُونَ الأحداثَ، مُتمنِّينَ زوالَ دولةِ المُسلِمِينَ، والتَّربُّصُ: تَرَقُّبٌ مَعَ مُلاحَظةٍ. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ﴾ أيُّها المؤمنونَ ﴿فَتۡحٞ﴾ نصرٌ، وظَفرٌ، وغَنيمةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقِهِ، وقُدرتِهِ، ونِعمَتِهِ ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ جعَلُوا يَتَودَّدونَ إلى المؤمنينَ، ويقولونَ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُم؟ -أي: في الظَّاهِرِ- أَلَسْنا مِنْكُم، ومِنْ مُعَسكَرِكُم؟ فلا تَحرِمُونا مِنَ الغَنيمةِ ﴿وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ﴾ أي: غَلَبةٌ، وفَوْزٌ في القِتالِ، كما وَقَعَ يومَ أُحُدٍ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال المنافِقونَ للكفَّارِ: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ساعَدْناكُم في الباطِنِ حتَّى انْتَصَرتُم، والاستِحواذُ في اللُّغةِ: الإحاطَةُ بالشَّيءِ، فالمعنَى أيضًا: أَلَمْ نَتولَّ شُؤونَكُم، ونُحِطْكُمْ بالعِنايةِ، والنُّصرةِ، وإمدادِكُم بأخبارِ المسلمينَ، وحَمَيْناكُم مِنْهُم، وخَذَلناهُم؟ ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ يا أيُّها المؤمنونَ، ويا أيُّها المنافِقونَ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالثَّوابِ، والعِقابِ، والنَّعيمِ، والعَذابِ ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا مِنْ سُننِهِ، وعادَتِهِ في خَلقِهِ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يُمكِنُ أنْ يجعَلَ الغلَبَةَ، والتَّسلُّطَ، والظُّهورَ، للكفَّارِ على المؤمنينَ مُستمرًّا، ولا دائِمًا، وإنَّما هِيَ أيامٌ يُداوِلُها بَيْنَ هؤلاءِ، وهؤلاءِ، حتَّى يأتِيَ وَعدُهُ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تمنِّي المنافِقينَ زَوالَ الإسلامِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ علاماتِ المنافِقِ: أنّه يُحاوِلَ البَقاءَ مَعَ الفَريقَيْنِ.

وفِيها: أنَّ الرُّسُلَ تُبتَلَى، ثُمَّ يكونُ لها العاقِبةُ.

وفِيها: أنَّ المنافِقينَ مَعَ المؤمنينَ في الظَّاهِرِ، ومَعَ الكفَّارِ بالباطِنِ.

وفِيها: دَناءَةُ نُفُوسِ المُنافِقِينَ، فإنَّهم يَتَودَّدونَ إلى المؤمنينَ في حالِ انتِصارِهِم، فإذا جَرَتْ عليهِم مُصيبَةٌ، سَلَقُوهُم بألسنَةٍ حِدادٍ.

وفِيهـا: أنَّ المنافِـقَ يُصانِعُ، ويُدارِي، لأجلِ البقـاءِ، ونَيْلِ الغَنيمَةِ، والدُّنيـا، والنَّجاةِ مِنَ الأذَى.

وفِيها: بِشارَةٌ للمؤمِنينَ بأنَّ تَسلِيطَ الكُفَّارِ لا يَدُومُ، وأنَّ دولةَ الإسلامِ باقيةٌ إلى قِيامِ السَّاعةِ.

وفِيها: تَحرِيمُ تَسلِيطِ الكافِرِ على المؤمِنِ في الدُّنيا.

وفِيها: أنَّ انتصارَ الكافِرِ في الدُّنيا لا يُسـمَّى فَتْحًا؛ ولِذلك سمَّاهُ اللهُ: (نَصِيبًا)؛ دِلالَةً على أنَّه أمرٌ دُنيوِيٌّ وضِيعٌ، وسمَّى انتصارَ المُسلِمينَ: (فَتْحًا)؛ لأنَّه شيءٌ عظيمٌ، ونِعمةٌ كُبرَى.

وفِيها: تَلوُّنُ المُنافِقِ، وتَقَلُّبُهُ.

وفِيها: أنَّ ما فاتَ المسلمينَ مِنْ نَصرٍ، ومَغْنَمٍ، في الدُّنيا، فإنَّ اللهَ سيُعوِّضُهم خيرًا منْهُ يومَ القِيامَةِ، يومَ يَحكُمُ بَيْنَهم، وبَيْنَ خُصُومِهِم.

وفِيهـا: أنَّ غَلَبَةَ الحُجَّـةِ، والبيانِ، مُسـتمرةٌ للمؤمِنينَ على الكافِرِيـنَ في الدُّنيا، بخِلافِ الغَلَبَةِ الماديَّةِ بالسَّيفِ، والسِّنانِ.

وفِيها: أنَّ المؤمنينَ لا يَحصُلُ لهم في الدُّنيا استِئصالٌ كُلِّيٌّ.

وفِيهـا: أنَّ الكفَّـارَ يَنتَـصِرُونَ في الدُّنيا -أحيانًـا-، بَيْنَما نَصرُ المُسـلِمِينَ يَقَـعُ في الدُّنيا، ويَسـتَمِرُّ في الآخرَةِ، كما قـالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفِيها: تَثبِيتُ المؤمنينَ بالبَشائِرِ.

وفِيها: تَحذِيرُهُم مِنَ العَدُوِّ المُجاهِرِ الظَّاهِرِ، والعَدُوِّ المُصانِعِ الخَفِيِّ.

وفِيها: الوَعدُ بحُسْنِ العاقِبَةِ.

وفِيها: أنَّ المُسلِمَ عَزيزٌ بدِينِهِ، ولَوْ أُصِيبَ.

وفِيها: أنَّ المنافِقَ مُضطرِبٌ، مُتذَبْذِبٌ، يَدورُ مَعَ مصلَحَتِهِ الدُّنيويَّةِ.

وفِيها: أنَّ البقاءَ مَعَ المسلِمينَ في الظَّاهِرِ، لا يَعنِي إسلامًا بالضَّرورَةِ؛ فإنَّ المنافِقينَ كفَّارٌ، بالرَّغمِ مِنْ بَقائِهِم مَعَ المسلِمينَ في الظَّاهِرِ.

وفِيها: وُجوبُ محبَّةِ انتصارِ المُسلِمينَ، وكراهَةِ هَزِيمَتِهِم.

وفِيها: وُجوبُ البقاءِ مَعَ أهلِ الإيمانِ، وعَدَمِ التَّخلِّي عَنْهُم في العُسْرِ، واليُسرِ، والشِّـدَّةِ، والرَّخاءِ.

وفِيها: الرَّدُّ على مَنْ يَظُنُّ أنَّ المَيلانَ مَعَ الرِّيحِ حيثُ مالَتْ، والتَّقلُّبَ، والتَّلوُّنَ، بحَسَبِ مُجرَياتِ الأحداثِ، أنَّه حِكمَةٌ، وذَكاءٌ، بَيْنَما هُوَ في الغالِبِ نِفاقٌ، وخِداعٌ، ودناءَةٌ.

وفِيهـا: أنَّه لا يُقتلُ مُسـلِمٌ بكافِـرٍ، ولا يجُوزُ تَمكينُ الكافِرِ مِنْ نِكاحِ مُسـلِمَةٍ؛ لأنَّ الزَّوجَ فَوقَ الزَّوجةِ.

وفِيها: عَدَمُ جوازِ تَولِيةِ الكافِرِ نِكاحَ امرأةٍ مُسلمةٍ، حتَّى ولَوْ كانَت ابنَتَهُ، أو أُختَهُ.

وفِيهـا: أنَّ مـا يُعطاهُ الكفَّـارُ مِنْ نَصِيبٍ في الدُّنيا، هُوَ: ابتـلاءٌ، ومِحنَةٌ، وليسَ فَضلًا، ولا خَيْرًا.

وفِيها: أنَّ المنافِقَ له حَظٌّ مِنَ الغَنيمةِ؛ لأنَّه يُعامَلُ بالظَّاهِرِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقَ مَنَّانٌ، كما في قولِهم ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، وهذا مِنْ أخلاقِهِ الذَّميمةِ.

وفِيهـا: الاجتِهادُ عندَ حُدوثِ النَّصرِ، أو الهزيمةِ، بتَوضِيحِ حقائِقِ الأمُورِ؛ لأنَّ المنافِقِينَ يَنشَطُونَ عندَ ذلكَ، ويَحدُثُ التِباسٌ عِندَ كَثيرٍ مِنَ العامَّةِ.

وفِيها: تكريمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لجِهادِ المؤمنِينَ، وتَسمِيَتُهُ فَتْحًا، فهُوَ يَفتَحُ الطَّريقَ لهُم إلى الجنَّةِ، ويَفتَحُ الطَّريقَ للنَّاسِ للهِدايةِ، ويَفتَحُ أبوابَ الخيرِ للعالَمِ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ يَنـصُرُ دِينَـهُ، ويُعلِي كَلِمتَهُ، وأنَّ فَتحَهُ على المُسـلِمينَ أثَرُهُ بـاقٍ، بَيْنَما حَظُّ الكافرينَ دُنيوِيٌّ، سَرِيعُ الزَّوالِ.

وفِيهـا: أنَّ المنافِقـينَ يَعملُـونَ لِمصلحةِ الكفَّارِ باستِمرارٍ، فيَجتَهِـدونَ في حِمايةِ أَسْراهُم، وإبقائِهِـم سـالِمينَ، ويُوهِنـونَ عَزائِمَ المؤمِنينَ، ويَتَجسَّسُـونَ عليهِـم، ويُقوُّونَ أمـرَ الكفَّارِ، ويُراسِلُونَهم، ويُسَرِّبُونَ إليهِم أخبارَ المُسلِمينَ.

وفِيها: مَيلانُ المنافِقِ مَعَ صاحِبِ الحَظِّ في الدُّنيا، وتَملُّقُهُ، والذِّلَّةُ لَهُ.

وفيها: إخبارُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنينَ بدواخِلِ الأعداءِ.

وفيها: تَعزِيَةُ المُسلمينَ بما يُصيبُهُم في الدُّنيا مِنْ أذًى مُؤَقَّتٍ، بما يكونُ لَهُم مِنْ حُسنِ العاقبةِ.

وفيها: أنَّ الكافِرَ لا يَرِثُ المُسلِمَ(١).

ويُؤخَذُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ ...﴾ الآية: أنَّ وَعدَ اللهِ صادِقٌ، ولا يُخلِفُ اللهُ المِيعادَ، ومعلومٌ أنَّ (لَنْ) نفيٌ لِحدوثِ الأمرِ في المُستقبلِ، فإنْ كانَ في الدُّنيا، فإنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ لا يَستَمِرَّ تَسَلُّطُ الكفَّارِ على المُسلمينَ، وإذا حَدَثَتْ غَلَبةٌ للكفَّارِ، فإنَّها تَزُولُ، ويَعقُبُها نَصرٌ للمسلمينَ، وهكذا أيامُ الدُّنيا يُداوِلُها بَيْنَ الفريقَيْنِ، وأمَّا في الآخرَةِ: فَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِكافِرٍ على مُؤمِنٍ سَبيلًا قَطْعًا، بأيِّ وجهٍ، وكذلكَ: فإنَّ اللهَ لَنْ يَجْعَلَ في الدُّنيا غَلَبَةَ الحُجَّةِ للكفَّارِ أبدًا، بَلْ هي باقيةٌ للمؤمنينَ دائمًا، وأيضًا: فإنَّ تَسَلُّطَ الكفَّارِ على المؤمنينَ في الدُّنيا لَنْ يَحدُثَ مِنْ جرَّائِهِ استئِصالٌ كُلِّيٌّ، بَلْ سيَبْقَى للمؤمنينَ وجودُهُم، ودِينُهُم(٢).

---

(١) قال ابن رشد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الكافِرَ لا يَرِثُ المُسْلِمَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، ولِما ثَبَتَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكافِرَ، ولا الكافِرُ المُسْلِمَ». بداية المجتهد (٤/ ١٣٦).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ ظَنَّ بِأَنَّ اللهَ لا يَنْصُرُ رسولَهُ، وَلا يُتِمُّ أَمْرَهُ، وَلا يُؤَيِّدُهُ وَيُؤَيِّدُ حِزْبَهُ، وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدائِهِ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، والباطِلَ عَلَى الحَقِّ إدالَةً مُسْتَقِرَّةً، يَضْمَحِلُّ مَعَها التَّوْحِيدُ والحَقُّ اضْمِحْلالًا لا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَنَسَبَهُ إِلى خِلافِ ما يَلِيقُ بِكَمالِهِ وَجَلالِهِ وَصِفاتِهِ وَنُعُوتِهِ؛ فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يُذَلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النُّصْرَةُ المُسْتَقِرَّةُ والظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعْدائِهِ المُشْرِكِينَ بِهِ، العادِلِينَ بِهِ، فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ فَما عَرَفَهُ، وَلا عَرَفَ أَسماءَهُ، وَلا عَرَفَ صِفاتَهُ وَكَمالَهُ». زادُ المعاد (٣/ ٢٠٥).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُبطلونَ لا سَبيلَ لَهُم على أتْباعِ الرسولِ البتّة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، قِيلَ: بالحُجّة والبُرهانِ؛ فإنّ حُجّتَهم داحضةٌ عندَ رَبّهم، وقيلَ: هذا في الآخرةِ، وأمَّا في الدّنيا: فقدْ يتَسلّطونَ عليهم بالضّررِ لَهم والأذى، وقيلَ: لا يَجعَلُ لهُم عليهم سَبيلًا مُستقِرّة، بلْ -وإنْ نُصروا عليهم في وقتٍ- فإنّ الدّائرةَ تكونُ عليهم، ويَستقِرّ النّصرُ لأتْباعِ الرسولِ، وقيلَ: بَلِ الآيةُ على ظاهِرِها وعُمومِها، ولا إشكالَ فيها بِحمدِ اللهِ؛ فإنّ اللهَ سبحانَه ضَمِنَ أن لا يَجعلَ للكافرينَ على المُؤمنينَ سبيلًا، فَحيثُ كانت لَهُمْ سبيلٌ ما عليهِم فَهُم الذينَ جعلوها؛ بِتَسبُّبِهِمْ تَرْكَ بعضِ ما أقرّوا به، أوِ ارْتكابِ بعضِ ما نُهُوا عنهُ، فهُم جَعلوا لهُم السّبيلَ عليهم؛ بِخروجِهِم عنْ طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، فيما أوْجَبَ تَسلُّطَ عَدوِّهِم عليهِم، مِنْ هذِهِ الثّغرةِ الّتي أخْلَوْها، كَما أخلَى الصّحابةُ يومَ أُحُدٍ الثّغرَةَ التِي أَمَرَهُم رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلُزومِها وحِفظِها،=

ولَمَّـا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلاقـةَ المنافِقِينَ بالكفَّارِ في مُوالاتِهِم لَهُم، ذكَرَ عَزَّوَجَلَّ سُـوءَ عَلاقَتِهِم باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الخِـداعُ في اللُّغةِ: أنْ يُظهِـرَ المُخادِعُ مِنَ الأفعالِ ما يُخفي أمـرَهُ، ويَسـتُرُ حقيقَتَـهُ، فيُظهِرَ خِلافَ مـا يُبْطِنُ، ومعلـومٌ أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُمكِـنُ خِداعُهُ، وإنَّـما يَظُنُّ هـؤلاءِ المنافقونَ -بِجَهْلِهِم- أنَّ أمرَهُم في الآخرَةِ سـيَرُوجُ عنـدَ اللهِ، كما راجَ في الدُّنيا بخِداعِهِم لبَعضِ عبادِ اللهِ؛ لِيَسلَمُوا مِنَ القَتْلِ، والعُقُوبَةِ. وأيضًا: فإنَّ مُخادَعَتَهُم لنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِـهِ، وأوليائِـهِ، هي مُخادعَةٌ لَـهُ عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ هذا الخِداعُ مِنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَليـقُ بجلالِـهِ، وعَظَمَتِهِ، وهو كَمالٌ، ودليلُ قوَّةٍ، في مُقابِـلِ مُخادعَتِهِم، ويَدخُلُ في مَعنـاهُ: اسـتدراجُهُم في طُغيانِهِـم، وضَلالِهِم، حتَّـى يَلْقَوُا العذابَ الأليـمَ في الآخرَةِ، وقال السُّـدِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُعْطِيهِـم يـومَ القيامةِ نُورًا، يَمْشُـونَ بِهِ مَعَ المسـلِمينَ، كما كانُـوا مَعَهُم في الدُّنيا، ثُمَّ يَسلُبُهُم ذلكَ النُّورَ، فيُطْفِئهُ، فيقومُونَ في ظُلْمَتِهِم، ويُضْرَبُ بَيْنَهم بالسُّورِ»(١).

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ هـذِهِ حالُهُـم في أشرَفِ الأعمالِ، وأفضَلِها، وهي الصَّـلاةُ؛ وذلـكَ أنَّه لا نيَّـةَ لَهُم فيها، ولا إيـمانَ لَهُم بها، وهـذِه صِفةُ ظواهِرِهِم، والكَسَـلُ: هو الفُتُورُ في الأفعالِ؛ لِسـآمةٍ، أو كَراهِيَةٍ. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وهذِهِ صفةُ بَواطِنِهِم الفاسِدَةِ، فَيُرُونَهُـم أنَّهم يُصلُّـونَ مَعَهُـم، ويَتَظاهَرُونَ بالدِّيـنِ، والحِرْصِ عليـهِ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

= فَوَجَـدَ العَـدوُّ مِنهـا طَرِيقًا إليهِم، فدَخَلُـوا مِنها، قـالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فَذَكَـرَ السَّـبَبَ الـذي أُصيبُوا بِهِ، وذَكَرَ القُدرَةَ الَّتي هِيَ مَناطُ الجَزاءِ، فَذَكَرَ عَدلَه فِيهِم بِما ارْتَكَبُوه مِنَ السَّـبَبِ، وقُدْرَتَه عليهِم بِما نالَهُم بِهِ مِنَ المَكرُوهِ، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وفي الحَديـثِ الصَّحِيـحِ الإلَهِيِّ: «يا عِبادِي، إنَّما هِـيَ أَعمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُـمْ إيَّاها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ». الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٩٣).

(١) رواه الطبري (٩/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٩٥)، وعنِ الحَسنِ بنَحوِهِ، وقالَ الحَسنُ: «فَتِلْكَ خَدِيعَةُ اللهِ إيَّاهُمْ».

قَلِيلًا ﴾ في حقيقةِ الأمرِ، لا يَخْشَعُونَ في الصَّلاةِ، ولا يَدرُونَ ما يَقولُونَ، فَهُم ساهُونَ، لاهُونَ، وذِكرُهُم للهِ فيها قليلٌ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تِلْكَ صَلاةُ المُنافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إذا كانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطانِ، قامَ فَنَقَرَها أَرْبَعًا، لا يَذْكُرُ اللهَ فِيها إلَّا قَلِيلا**»(١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أَنَّه يَنبَغِي على العبدِ أنْ تكونَ له نيَّةٌ حَسَنةٌ في العملِ الصَّالِحِ، واحتِسابٌ للأجرِ فِيهِ، حتى يَنبَعِثَ إليهِ بهمَّةٍ، وقوَّةٍ، ونَشاطٍ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ قد جَمَعُوا بَيْنَ سُوءِ الظَّاهِرِ، بالكَسَلِ في القِيامِ إلى الصَّلاةِ، وسُوءِ الباطِنِ، بالمُراءاةِ، وفُقدانِ الإخلاصِ.

وفي الآيةِ: إثباتُ «الخِداعِ» للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولكنّه ليسَ صفةً مُطلقةً في حقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يُشتَقُّ له مِنْه اسمٌ، وإنَّما خِداعُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خِداعُ مُقابلَةٍ، يعنِي: أنَّه يَخدَعُ مَنْ يُخادِعُهُ، فهي صِفَةٌ مقيَّدةٌ، لا مُطلَقةٌ، وبِناءً على هذا: فهي صِفةُ كَمالٍ في حقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّها دالَّةٌ على القُدرةِ، والقوَّةِ، وأنَّه يَغلِبُ، ولا يُغْلَبُ، ومِثْلُ هذا يُقالُ في المَكْرِ -أيضًا-، فإنَّه عَزَّ وَجَلَّ يَمكُرُ بالماكِرين، كما قالَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقالَ: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، ومثلُ ذلكَ يُقالُ في الكَيْدِ، والاستِهزاءِ، فيَكِيدُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ كادَهُ، ويَستَهزِئُ بِمَنِ استَهزَأَ بِهِ، وبأولِيائِهِ، ودِينِهِ، فهذِهِ صفاتٌ، مقيَّدةٌ، دالَّةٌ على القوَّةِ والقُدرَةِ في المُقابلَةِ، وهذا مِنَ الكَمالِ في حقِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى(٢).

---

(١) رواه مسلم (٦٢٢).

(٢) قال الشيخُ ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوزُ أن تصفَ اللهَ بالمكرِ على سبيلِ الإطلاقِ فتقول: إن اللهَ ماكرٌ، فهذا حرامٌ؛ لأنه يُفهم من ذلك النقصُ والعيبُ، فإن المكرَ عند الإطلاقِ صفةُ قدحٍ وذمٍّ، لكنه عندَ المقابلةِ يكون صفةَ مدحٍ، فتقول: إنّ الله يمكرُ بمن يمكرُ به وبرسلِه، وهنا صار المكرُ صفةَ كمالٍ ومدحٍ، أي إنه أعلى مِن مكرِ أعدائه. وكذلك الخداعُ، لا يجوزُ أن تصفَ اللهَ بأنه خادع، أو مِن صفاته الخداع على سبيلِ الإطلاق، لكن يجوزُ أن تصفه به على سبيلِ المقابلةِ، فتقول: إن اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَخدع المنافقين، أو خادِع المُنافقين، أو خادع مَن يَخدَعُه، أو ما أشبهَ ذلك». شرحُ العقيدة السفارينية (١/ ١٦٠).

وفِيها: تَطمِينُ قُلُوبِ المؤمنينَ بانكِشافِ أمرِ أعدائِهِمُ المنافِقينَ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: أنّ المنافِقينَ يُسيئُون الظنَّ باللهِ.

وفِيها: عاقبةُ الخِداعِ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المَكْرُ والخِداعُ في النَّارِ**»[(١)]. وهذا في حقِّ الأبرياءِ، والمَعصومِينَ، أمَّا الكفَّارُ المحارِبونَ: فقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَقِّهِم: «**الحَربُ خُدعَةٌ**»[(٢)].

وفِيها: أنَّ سُوءَ النيَّةِ، وخُبثَ الطَّويَّةِ، هو سببُ المُخادعةِ في الفِعلِ الظَّاهِرِ.

وفِيها: أنَّ خِداعَ المنافِقينَ قصيرُ الأجَلِ، وهوَ إنْ نَفَعَهُم في الدُّنيا بِعصمَةِ دِمائِهِم، فإنَّهُم في الآخرَةِ في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ.

وفِيها: أنَّ الجزاءَ مِنْ جِنسِ العَمَلِ، والمُقابلَة بالمِثلِ؛ جَزاءً وِفاقًا.

وفِيها: كَمالُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقد جاءَ التَّعبيرُ في الخِداعِ بِصيغةِ الفِعلِ مِنَ المنافِقينَ: ﴿**يُخَٰدِعُونَ**﴾ وبِصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ**﴾، والتَّعبيرُ باسمِ الفاعِلِ أبلَغُ وأقوَى؛ للدِّلالةِ على غَلَبَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقَهْرِهِ.

وفِيها: قِلَّةُ اكتِراثِ المنافِقينَ بالصَّلاةِ، وزُهدُهُم فِيها.

وفي الآيةِ: الحثُّ على النَّشاطِ في العِبادةِ؛ ولِذلكَ نَهَتِ الشَّريعةُ عَنْ مُجاوَزَةِ الحَدِّ في النَّوافِلِ، كالتَّعلُّقِ بالحَبْلِ مِنْ طُولِ القِيامِ؛ وذلكَ خَشيَةَ السَّآمَةِ، وقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيُّها النَّاسُ عليكُم مِنَ الأعمالِ ما تُطِيقُونَ؛ فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا**»[(٣)].

وفِيها: المُحافظةُ على الخُشُوعِ في الصَّلاةِ؛ ولِذلكَ نُهِينا عنِ الصَّلاةِ بِحَضْرَةِ الطَّعامِ، وعنِ الصَّلاةِ والإنسانُ يُريدُ أن يَقضيَ حاجَتَهُ.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٥٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٥٩): «إسناده جيد». وله طرق.

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩).

(٣) رواه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).

وفِيهـا: ذمُّ المُـراءاةِ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَـنْ راءَى: راءَى اللهُ بِهِ»(١)؛ ولهذا كانَ المنافِقونَ يَتخلَّفونَ عَنْ صلاةِ العِشاءِ، والفَجرِ، مُتَستِّرينَ بالظَّلامِ؛ لأنَّهم لا يُرَوْنَ -غالبًا-، وقـد همَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عَهدِهِ أن يُحرِّقَ على هؤلاءِ المنافِقينَ الذينَ لا يَشـهَدُونَ الصَّلاةَ مَعَهُ بُيُوتَهُم بالنَّارِ(٢).

وفِيهـا: الحـثُّ على الإكثـارِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، واستِحضارِ معانِي الذِّكْرِ في القلـبِ، عندَ نُطقِ اللِّسـانِ بِهِ؛ لِئَلَّا يَصيرَ ذِكْرًا قلِيلًا بارِدًا، وصحَّ عَن قَتادةَ قال: «إنّما قَلَّ ذكرُ المُنافقِ؛ لأنَّ اللهَ لم يقبلْهُ. وكلُّ ما رَدَّ اللهُ قليلٌ، وكلُّ ما قَبِلَ اللهُ كثيرٌ»(٣).

وفِيهـا: أنَّ صـلاةَ المنافِقـينَ غـيرُ مقبولَةٍ، وكذلِـكَ أعمالهُم التـي يُراؤُونَ بِهـا؛ لفُقدانِها الإيمانَ، والإخلاصَ.

وفِيها: التَّحذِيرُ مِنَ التَّشبُّهِ بالمنافِقينَ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أدَّى الصَّلاةَ على وَجهٍ فيهِ كَسَـلٌ، أو مُراءاةٌ، وقلَّ ذِكْرُهُ لربِّهِ، ففِيهِ شَـبَهٌ مِنَ المنافِقينَ.

وفِيها: قوَّةُ خِداعِ اللهِ للمنافِقينَ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَتْرُكُهم، ويُمْهِلُهُم؛ حتَّى يَبُوؤُوا بالذُّلِّ، والهَـوانِ، والخُـسرانِ، وسـيكونُ لَهُم مِـنَ اللهِ يومَ القِيامَـةِ خُدعَـةٌ، تَسـتَدْرِجُهُم إلى النَّارِ، وتُوقِعُهُم فيها.

وفِيها: عَوْدُ الخِداعِ على صاحبِهِ بالمَضَرَّةِ.

وفِيهـا: إثبـاتُ الصِّفاتِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على الوجـهِ اللائِقِ بِهِ، فإنْ كانَـتْ مُطلَقَةً أطلَقْناها، وإنْ كانَـتْ مُقيَّدَةً قيَّدناها، وأمَّا التَّحَرُّجُ في غـيرِ مَوضِعِ التَّحرُّجِ الشَّرعيِّ، وتَصوُّرُ النَّقصِ في الصِّفـةِ، فإنَّـه يَدْفَـعُ إلى نَفْـيِ صفـاتِ اللهِ، ويُوقِعُ في التَّأويـلِ الباطِلِ، ونَفْيِ مـا أثْبَتَهُ اللهُ لنفسِهِ.

(١) رواه مسلم (٢٩٨٦).

(٢) يُنظر: صحيح البخاري (٦٤٤)، صحيح مسلم (٦٥١).

(٣) رواه الطبري (٩/ ٣٣٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٠٦٩).

وفِيها: أنَّه ليسَ كلُّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجوزُ أنْ يُشتَقَّ لَهُ مِنْهُ اسمٌ، وهذا مِنَ الفَرْقِ في التَّعبيرِ عنِ اللهِ بالفِعلِ، والتَّعبيرِ عنِ اللهِ بالاسمِ، ومُراعاةُ جَنابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ تَوقِيرِه، وتَعظِيمِهِ[(١)].

وفِيها: أنَّ العِباداتِ المُتكرِّرةَ تَكشِفُ المُنافِقينَ، وضُعفاءَ الإيمانِ.

وفِيها: الفَرْقُ بَيْنَ حالِ أهلِ الإيمانِ، الذينَ يَأْتُونَ الصَّلاةَ شَوْقًا لِلِقاءِ اللهِ، والوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ويُطِيلُونَها، ويُكثِرونَ الذِّكْرَ فِيها، وبَيْنَ المنافقينَ، الذينَ يُؤَدُّونَها تَقيَّةً، ومُصانَعَةً، ومُخادَعَةً، فهِيَ ثَقيلةٌ عليهِم، مَيِّتةٌ بِلا خُشُوعٍ، وقد رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «يُكْرَهُ أنْ يَقومَ الرَّجلُ إلى الصَّلاةِ وهو كَسْلانُ، ولكِنْ يَقُومُ إليها طَلْقَ الوَجهِ، عَظِيمَ الرَّغبةِ، شدِيدَ الفَرَحِ؛ فإنَّه يُناجِي اللهَ، وإنَّ اللهَ أمامَهُ، يَغفِرُ له، ويُجِيبُه إذا دَعاهُ». ثُمَّ تلا ابنُ عبَّاسٍ هذِهِ الآيةَ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[(٢)].

وفِيها: أنَّ مِنْ علاماتِ النِّفاقِ: استِثقالَ عمَلِ الجَهْرِ، وتَرْكَ عَمَلِ السِّرِّ، والنَّشاطَ في المَعاصِي، والكَسَلَ في الطَّاعاتِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ ضَعُفَ إيمانُ قلبِهِ، قَلَّ ذِكْرُ لِسانِهِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقَ ضَعِيفُ العقلِ؛ فهؤلاءِ المنافِقونَ يُراؤُونَ مَنْ لا يَنْفَعُهُم، ولا يَضُرُّهُم، وَهُمُ النَّاسُ، ويَترُكُونَ العَمَلَ لِمَنْ بيدِهِ النَّفعُ، والضُّرُّ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: أنَّ مَنْ قَلَّ عِلمُهُ بالمُطَّلِعِ على السَّرائِرِ، والضَّمائِرِ، ربَّما اعتَقَدَ أنَّه يمكِنُه خِداعُهُ.

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفعلُ أوسعُ من الاسمِ؛ ولهذا أَطلقَ اللهُ على نفسِهِ أفعالاً لم يتسمَّ منها بأسماء الفاعل، كأراد، وشاء، وأحدث، ولم يُسمَّ بـ(المريد) (و) الشائي (و) (المُحدِث) كما لم يسمِّ نفسَه بـ(الصَّانع)، و(الفاعل)، و(المتقِن)، وغيرِ ذلك مِن الأسماءِ التي أطلقَ على نفسِه، فبابُ الأفعالِ أوسعُ مِن بابِ الأسماءِ.
وقد أخطأَ خطأً كبيرًا مَنِ اشتقّ له مِن كل فِعلٍ اسمًا، وبلغَ بأسمائِه زيادةً على الألفِ، فسمَّاه: (الماكر)، و(المخادع)، و(الفاتن)، و(الكائد)، ونحوَ ذلك.
وكذلك بابُ الإخبارِ عنه بالاسم أوسعُ من تسميته به؛ فإنَّه يُخبَر عنه بأنه شيء، وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد، ولا يُسمَّى بذلك». مدارج السالكين (٣/ ٣٨٣).

(٢) رواه أبو القاسم الأصبهانيّ في الترغيب والترهيب (١٩٠٤)، وسنده ضعيف.

وفِيها: أنَّ مِنْ علاماتِ الصَّلاةِ الخاشِعَةِ: كَثْرةَ الذِّكرِ والدُّعاءِ فِيها، مَعَ استِحضارِ المعانِي، وأمَّا الذينَ يُصَلُّونَ بلا خُشُوعٍ كالمنافِقِينَ، فإنَّهم لا يَدرُونَ ما يَقولُونَ، بَلْ هُمْ في صلاتِهم ساهُونَ، لاهُونَ، وعنِ الخَيرِ والأجرِ مُعرِضُونَ.

وفي الآيةِ: التَّرغِيبُ في عبادةِ السِّرِّ، والحَثُّ على إتقانِها، وتَحسِينِها؛ مُخَالَفَةً للمنافِقِينَ.

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حالَ المنافِقينَ في تَحيُّرِهم، واضطِرابِهم، وتَردُّدِهم بَيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الذَّبْذَبَةُ: شِدَّةُ الاضطِرابِ مِنْ خَوْفٍ، أو خَجَلٍ، وكذا مَنْ يَفْعَلُ الأشياءَ على غيرِ صَوابٍ، ولا تَوفِيقٍ، فهُو مُذَبذَب، وهؤلاءِ المنافقونَ يُردّدُهُم الشَّيطانُ، فهُم ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال مجاهِدٌ: «لا إلَى أصحابِ مُحمدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا إلَى هؤلاءِ اليهودِ»، وقال قَتادَةُ: «لَيْسُوا بمؤمِنينَ مُخلِصينَ، ولا مُشرِكينَ مُصرِّحِينَ بالشِّركِ»[1]، وقال ابنُ كَثِيرٍ: «فَلا هُمْ مَعَ المؤمنينَ ظاهِرًا وباطِنًا، ولا مَعَ الكافِرينَ ظاهِرًا وباطِنًا، بَلْ ظَواهِرُهُم مَعَ المؤمنينَ، وبَواطِنُهُم مَعَ الكافِرينَ، ومِنْهُم مَنْ يَعتَرِيهِ الشَّكُّ، فتارَةً يَمِيلُ إلى هؤلاءِ، وتارَةً يَمِيلُ إلى أولئِكَ»[2].

وقد قالَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَثَلُ المُنافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ**[3] **بَيْنَ الغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إلى هَذِهِ مَرَّةً، وَإلى هَذِهِ مَرَّةً، لا تَدْرِي أَهَذِهِ تَتْبَعُ، أَمْ هَذِهِ**»[4].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَصرِفهُ عن طريقِ الهُدَى، والحَقِّ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لا هادِيَ لَهُ، ولا طريقَ لَهُ إلى النَّجاةِ.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٣٣٥،٣٣٤).

(٢) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٣٩).

(٣) المتردِّدة الحائرة.

(٤) رواه مسلم (٢٧٨٤)، وأحمد (٥٠٧٩) -واللفظ له-.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَحذيرُ المؤمنينَ مِنْ اضطِرابِ المُنافِقِينَ.

وفِيها: ذَمُّ المُنافِقِينَ على تَحيُّرِهم، وإضاعَتِهم للإيمانِ، وتَرْكِهم الانتِماءَ للمسلِمينَ.

وفِيها: تَحقِيرُ المنافِقِينَ، وأنَّه لا قرارَ لَهُم، ولا ثَباتَ.

وفِيها: قَلَقُ نُفُوسِ المنافِقينَ، الذينَ لا يَثْبُتُونَ على حالٍ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ لا يَستَقِرُّ في نَفْسِ المنافِقِ، ولا تَقَرُّ عَينُهُ بِهِ.

وفِيها: حِرمانُ المنافِقِ مِنْ طَرِيقِ الحقِّ، والصَّوابِ، وكذلكَ حِرمانُهُ مِنْ سَبيلِ النَّجاةِ في الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَصرِفُ المنافِقَ عنِ الحَقِّ، والهُدَى، ويَحْرِمُهُ مِنَ السَّدادِ، والرَّشادِ، ويُبْعِدُهُ عنِ الخَيْرِ، والثَّباتِ.

وفِيها: تَعذِيبُ نُفُوسِ المنافِقينَ في الدُّنيا بالقَلَقِ.

وفِيها: خُطُورَةُ الشَّكِّ على إيمانِ الإنسانِ، ومَواقِفِهِ.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ مِنْ ثَباتِ المؤمنينَ على الحَقِّ، وصِحَّةِ العقيدَةِ؛ لتَستَقِرَّ نُفُوسُهُم في الدُّنيا، وتَكُونَ لَهُمُ النَّجاةُ يومَ القِيامَةِ.

وفِيها: أنَّ المُتردِّدَ بَيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ، ليسَ بمؤمِنٍ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ، يَخافُونَ على أنفُسِهِم دائِمًا، ويُكثِرُونَ التَّنقُّلَ؛ طَلَبًا للسَّلامَةِ.

وفِيها: أنَّ المُنافِقَ مُترَدِّدٌ بَيْنَ كُفرِ السِّرِّ، وإيمانِ العَلانِيَةِ.

وفِيها: أنَّ المُنافِقينَ طُلَّابُ مَنافِعٍ.

وفِيها: إرشادُ المؤمنينَ إلى مُواجهةِ المُنافِقِينَ، ومُصارَحَتِهِم، واتِّخاذِ مَوقِفٍ حاسِمٍ مَعَهُم.

وفِيها: تَحرِيمُ التَّلوُّنِ في دِينِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ أضلَّهُ اللهُ فهو مَخذُولٌ.

وفِيها: نَجاةُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ المؤمنِينَ.

وفِيها: أنَّ المُنافِقِينَ -وإنْ عُومِلُوا مُعامَلَةَ المُسلِمينَ في الأحكامِ الظَّاهِرَةِ في الدُّنيا- فإنَّهم في أحكامِ الآخرَةِ يُحكَمُ فِيهِم ببواطِنِهِم، ويُعامَلُونَ مُعامَلَةَ الكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ تَرَدَّدَ في أحكامِ اللهِ بَيْنَ القَبُولِ، والإنكارِ، فهو مُنافِقٌ.

وفِيها: سَعادةُ المؤمنِينَ بِطُمَأنِينةِ قُلُوبِهِم.

وفِيها: اللُّجوءُ إلى اللهِ في طَلَبِ الهِدايةِ.

ثُمَّ نَهى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنِينَ عَنِ التَّشبُّهِ بالمُنافِقِينَ في مُوالاةِ الكافِرِينَ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناداهُم باسْمِ الإيمانِ، وهي الصِّفةُ التي تُمَيِّزُهُم، عنِ الكفَّارِ، والمُنافِقِينَ؛ وذلِكَ لإيمانِهِم ظاهِرًا، وباطِنًا ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ لا تَجْعَلُوا ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أعداءَكُم المُعلِنِينَ بكُفرِهِم ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في المُصادَقَةِ، والمُناصَحَةِ، والمَودَّةِ، والنُّصرةِ، وإفشاءِ الأسرارِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وتَتْرُكُونَ وِلايةَ إخوانِكُم المؤمنِينَ، ونُصرَتَهُم، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيةِ الأخرَى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقولِهِ: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ الاستفهامُ بمعنَى الإنكارِ، يَعنِي: أتُرِيدُونَ يا مَعْشَرَ المؤمنِينَ باتِّخاذِكُمُ الكافِرِينَ أولياءَ ﴿أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي: حُجَّةً واضِحَةً عليكُم في عُقُوبَتِهِ إيَّاكُم، وهل تُرِيدُونَ أنْ تَفعَلُوا ما تَستَحِقُّونَ بِهِ عُقوبَةَ اللهِ؛ فَتَستَوْجِبُوا بذلِكَ النَّارَ؟

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَحرِيمُ مُناصَرَةِ الكفَّارِ بالقَوْلِ، والفِعْلِ، ومِنْ ذَلِكَ: إفشاءُ أسرارِ المُسلِمينَ إليهِم.

وفِيها: تَحرِيمُ مُوالاةِ المَحبَّةِ والنُّصرَةِ للكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ مُوالاةَ الكافِرينَ تُنافي أصلَ الإيمانِ.

وفِيها: أنّ مُناداةَ اللهِ لِعبادِهِ بما يُميِّزُهُم عَنْ غَيرِهِم مُناداةُ تَشريفٍ ومَدْحٍ.

وفِيها: تَحرِيمُ خِذلانِ المُسلِمِ لإخوانِهِ المُسلِمِينَ، وتَخلِّيه عنهُم.

وفِيها: وُجُوبُ حِمايةِ المُسلِمِ لِجماعَةِ المُسلِمِينَ، وحِفظِ أسرارِهِم، وأنْ يَحُوطَهُم مِنْ وَرائِهِم.

وفِيها: تَنبيهُ المؤمِنينَ على عدمِ التأثُّرِ بقُوَّةِ الكفَّارِ، وألَّا يَكونُوا كالمُنافِقِينَ، الذينَ والَوا الكفَّارَ بحُجَّةِ: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ [المائدة: ٥٢].

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مَنْ عَصاهُ -إذا عذّبَه- وإنَّما يَستَوْجِبُ العاصِي -بِمعصِيَتِهِ- عذابَ اللهِ.

وفِيها: وُجُوبُ نُصرَةِ المُسلِمِينَ بالقَوْلِ، والفِعْلِ.

وفِيها: أنَّ الحُجَّةَ للهِ على مَنْ خالَفَهُ، وعَصاهُ.

وفِيها: قَطْعُ حُجَّةِ مَنْ يُوالِي الكفَّارَ.

وفِيها: أنَّ المُعاهَداتِ، والاتِّفاقِيَّاتِ، المَعقُودَةَ بَيْنَ المُسلِمينَ، والكفَّارِ، إذا اشتَمَلَتْ على شُرُوطٍ، فيها ما يَستَلْزِمُ مُوالاةَ أهلِ الكُفرِ، فإنَّها مُعاهَداتٌ واتِّفاقِيَّاتٌ باطِلَةٌ شَرْعًا.

وفِيها: إرشادُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المؤمِنينَ إلى ما يُعزِّهُم، واجتِنابِ ما يُذِلُّهُم.

وفِيها: نَهْيُ المؤمِنِينَ عن اتِّخاذِ الكفَّار أصدِقاءَ، يُلازِمُونهُم، ويُصاحِبُونهُم.

وفِيها: أنَّ اتِّخاذَ الكافِرينَ أولياءَ، هزيمةٌ نفسيَّةٌ، وقلَّةُ ثِقَةٍ باللهِ.

وفي هذِهِ الآيةِ -مَعَ غيرِها مِنَ الآياتِ-: بيانُ الفَرقِ بَيْنَ المُوالاةِ المُحرَّمةِ للكفَّارِ، وبَيْنَ التَّعامُلِ مَعَهُم في أمورٍ حياتِيَّةٍ: كالبَيْعِ، والشِّراءِ، والعِلاجِ، ونحوِها، وكذلِكَ حُسْنِ المُعامَلَةِ مَعَ غيرِ المُحارِبِينَ مِنْهُم.

وفِيها: أنَّ الكُفرَ مِلَّةٌ واحِدَةٌ، مَهْما اختَلَفَتْ أديانُ الكَفَرَةِ.

وفِيها: أنَّ مُوالاةَ الكافِرِينَ تَزِيدُهُم قوَّةً، وتَسَلُّطًا على المُسلِمِينَ.

وفِيها: تَسمِيةُ الحُجَّةِ سُلطانًا، وقد صَحَّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «كلُّ سُلطانٍ في القُرآنِ حُجَّةٌ»[(١)].

وفِيها: تَحبُّبُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عِبادِهِ المؤمِنينَ، وتَحْذِيرُهُم مِمَّا يَضُرُّهُم، بخِلافِ الشِّدَّةِ على الكفَّارِ والمنافِقِينَ في الخِطابِ.

وفِيها: عَدْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنَّه لا يُعَذِّبُ أحدًا قَبْلَ قِيامِ الحُجَّةِ عليهِ؛ ولذلكَ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ؛ لِتكونَ له الحُجَّةُ على النَّاسِ.

وفِيها: أنَّه لا يُمكِنُ الجَمعُ بَيْنَ مُوالاةِ الكافِرِينَ، ومُوالاةِ المؤمِنينَ.

ثُمَّ عادَ السِّياقُ إلى ذِكْرِ المنافِقِينَ، فلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سُوءَ صَنِيعِهِم، وقُبْحَ أفعالِهِم، بيَّنَ سُوءَ مَصِيرِهِم، وشَناعَةَ جَزائِهِم؛ تَهدِيدًا لَهُم، وتَحذِيرًا مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِم، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يومَ القِيامةِ ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أقصَى قَعْرِ جَهَنَّمَ، وهِيَ طِباقٌ سَبْعٌ، سُمِّيَتْ دَرَكاتٌ؛ لأنَّها مُتدارِكَةٌ، مُتَتابِعَةٌ، بعضُها تَحتَ بَعضٍ، وتَدارَكَتْ يَعنِي: تَلاحَقَتْ، واتَّصَلَتْ، يَتْلُو بعضُها بَعضًا، وقد ثبتَ عنْ أبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الدَّرْكُ الأَسْفَلُ: بُيُوتٌ لَها أَبْوابٌ تُطْبَقُ عَلَيْها، فيُوقَدُ مِنْ تَحْتِهِمُ النَّارُ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ»[(٢)].

وإنَّما كانَ المُنافِقونَ أسفَلَ مِنَ الكافِرِينَ في النَّارِ، وأشدَّ عذابًا؛ لأنَّهُم جَمَعُوا إلَى الشِّركِ، والكُفرِ: الاستِهزاءَ بالمُسلِمينَ، وخِداعَهُم، والدُّخُولَ بَيْنَهم لِنَقْلِ أسرارِهِم إلى المُشرِكِينَ، فَتَعْظُم المِحنَةُ، ولَمَّا كانَ العَدُوُّ الدَّاخِلُ أشَدَّ مِنَ العَدُوِّ الخارِجِ، كانَ عذابُهُ يومَ القِيامَةِ أنْكَى مِنْهُ، وأسْوأَ.

---

(١) رواه عبدُالرزاق في تفسيره (٢/ ٣٢٨)، وصحّحه ابنُ كثيرٍ في تفسيره (٢/ ٤٤١) وقال: «وَكَذا قالَ مُجاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظي، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والنَّضْرُ بْنُ عَرَبِيّ».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٠٩٨).

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ يَنْصُرُهم، ويَمْنَعُ عَنْهُم العَذابَ، فيُنْقِذُهم مِنْهُ، أو يُخَفِّفهُ عَنْهُم، ولَمَّا كانَ العَرَبُ قد أَلِفُوا الشَّفاعاتِ، والنَّجداتِ، في المَضائِقِ، فقد كَثُرَ في القرآنِ تَذييلُ الوَعِيدِ بقَطْعِ الطَّمَعِ في الشَّفِيعِ والنَّصِيرِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ المُنافِقينَ يومَ القِيامةِ في أَشَدِّ العَذابِ، وهو الدَّرْكُ الأسفَلُ مِنَ النَّارِ، ولا يَعنِي هذا أنَّه لا يَدخُلُ مَعَهُم غيرُهم، فقد ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ في عذابِ فِرْعونَ، وآلِ فرعونَ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وذَكَرَ فِيمَنْ يَكْفُرُ بالمائِدَةِ -وهي آيةٌ مِنَ آياتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وفي الآيةِ: شِدَّةُ عَذابِ أهلِ نِفاقِ الاعتِقادِ، فإنَّ النِّفاقَ قِسْمانِ: نِفاقُ الاعتِقادِ، الذِي يُخَلَّدُ صاحِبُهُ في النَّارِ؛ لإبْطانِهِ الكُفْرَ، وخِداعِهِ بإظهارِ الإيمانِ، والقِسمُ الثَّانِي: نِفاقُ العَمَلِ، كما في حديثِ: «**آيَةُ المُنافِقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ**»(١)، ومِنْ هذا البابِ: مُناصَرَةُ الظَّالِمِ، والسُّكوتُ عَنْ قَوْلِ كَلِمةِ الحَقِّ، والمُداهَنَةُ، والمُجامَلَةُ بالنُّطقِ بالباطِلِ، وهذا النَّوعُ يُلْحَقُ بالمَعاصِي، والآثامِ، ولا يُخَلَّدُ صاحِبُهُ في النَّارِ.

ولِلنِّفاقِ الاعتِقادِيِّ علاماتٌ، مِنْها: تَكذِيبُ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَكْذِيبُ ما جاءَ بِهِ، أو تَكْذِيبُ بَعضِهِ، ومِنْها: بُغْضُ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبُغْضُ ما جاءَ بِهِ، أو بُغْضُ بَعْضِهِ، ومِنْها: المَسَرَّةُ بكُلِّ أَذًى يُصيبُ المُسلِمِينَ، ومِنْها: كَراهِيةُ انتِصارِ المُسلِمينَ، ومَحَبَّةُ انتِصارِ الكافِرِينَ عليهِم.

وفي الآيةِ: أنَّ النَّارَ دَرَكاتٌ، كما أنَّ الجنَّةَ دَرَجاتٌ، وفي اللُّغةِ: الدَّرَجُ باعتِبارِ الصُّعودِ، والدَّرَكُ باعتِبارِ الهُبُوطِ، والدَّرَجاتُ: هِيَ التِي بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ، والدَّرَكاتُ: هِيَ التي بَعضُها أسفَلَ مِنْ بَعضٍ، والفضيلةُ دَرَجاتٌ، والرَّذيلة دركاتٌ(٢) فجَهَنَّمُ دَرَكاتٌ، بعضُها أسفَلَ مِنْ بعضٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) انظر: مشارق الأنوار (١/ ٢٥٦)، لسان العرب (١٠/ ٤٢٢)، المعجم الوسيط (١/ ٢٨١).

وفِيها: قَطْعُ رَجاءِ المَنافِقِينَ في الشَّفِيعِ، والنَّصِيرِ.

وفي الآيـةِ: أنَّ عـذابَ النَّـارِ يَتَفـاوَتُ مِـنْ حَيْـثُ الشِّـدَةِ، والغِلْظَـةِ، فأبو طالِـبٍ أهْوَنُ المُخلَّدِيـنَ في النَّارِ عَذابًا، يكونُ في ضِحْضاحٍ مِنْها، يَلْبَسُ نَعْلَيْنِ مِنْ نارٍ، يَغْلِي مِنْهُما دِماغُهُ، والمُنافِقُونَ في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ، في تَوابِيتَ مِنْ حَدِيدٍ، مُطْبَقَةٍ عليهِم.

وفِيها: أنَّ بَعضَ الكفَّارِ لا يُعذَّبُونَ في الدُّنيا بأيدِي المُؤمنينَ، كما يَقَعُ في الجِهادِ، ولكنَّهُم يُعذَّبُونَ في الآخرَةِ، مِثل أهلِ الذِّمَّةِ المُقِرِّينَ بالجِزْيَةِ، والمُنافِقِينَ المُتَظاهِرِينَ بالإسلامِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ إذا نَجَوْا في الدُّنيا، بالتَّمْوِيهِ، والخِداعِ، فإنَّهُم لا نَجاةَ لَهُم في الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ المنافِقِينَ أشدُّ كُفرًا مِنَ الكفَّارِ الأصليِّينَ، وكُفْرُهُم أخْبَثُ، وأغلَظُ.

وفي هذِهِ الآيةِ: إثباتُ الشَّفاعَةِ لِعُصاةِ المُسلِمِينَ؛ بِمفهُومِ المُخالَفَةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ حَضَرَ مِنَ المنافِقِينَ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهُوَ أشدُّ عذابًا؛ لأنَّهُ شاهَدَ مِنَ المُعجِزاتِ، ما لَمْ يُشاهِدْهُ المُنافِقُونَ مِنْ بَعْدِهِ، وإنْ كانُوا يُشارِكُونَهُ العَذابَ في دَرَكَتِهِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَصِيرَ المُنافِقِينَ بالتَّعذِيبِ في الدَّرْكِ الأسـفَلِ مِنَ النَّارِ، اسـتَثْنَى مِنْ هَذا الوَعيدِ الشَّـدِيدِ مَنْ تابَ مِنْهُم، وأخْلَصَ في توبَتِهِ، وأصْلَحَ عَمَلَهُ، واعْتَصَمَ بربِّهِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -داعِيًا المنافِقِينَ للتَّوبَةِ، ومبيِّنًا لَهُم شُرُوطَها-:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مِـنَ النِّفاقِ، ورَجَعُوا إلى صَرِيـحِ الإيمانِ، وخالِصِهِ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسَـدُوهُ، وقد قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنِ المنافِقِـينَ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، وهَذا الإصـلاحُ يَشْـمَلُ إصـلاحَ نيَّاتِهِـم، وأعمالِهِم، وإصلاحَ ما أفسَـدُوهُ، أوْ تَسـبَّبُوا في إفسـادِهِ. ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وتَوكَّلُوا عليهِ، ولَجَؤُوا إليهِ، وتَمَسَّـكُوا بعَهْدِهِ، ومِيثاقِهِ، ودِينِهِ، وشَرْعِهِ، وتَرَكُـوا مُـوالاةَ الكفَّـارِ ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ أيْ: أخلَصُـوا عِبادَتَهُـم للهِ، وبَدَّلُـوا الرِّيـاءَ بِالإخْـلاصِ، فَيَنْفَعُهُـمُ العَمَـلُ الصَّالِحُ -وإنَّ قَـلَّ-. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ التَّائِبُـونَ المَوْصُوفُونَ

بالصِّفاتِ المَذكُورَةِ ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَهُم أحكامُهُم في الدُّنيا، ويكونُونَ مَعَهُم يومَ القِيامَةِ، والإتْيانُ باسمِ الإشارَةِ للبَعِيدِ؛ لِلدَّلالةِ على عُلُوِّ مرتَبَتِهِم، وارتِفاعِ دَرَجَتِهِم ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثوابًا جَزِيلًا، فَضْلًا مِنْهُ، ورَحمَةً.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

فَتْحُ بابِ التَّوبةِ للمنافِقينَ.

وفِيها: الشُّرُوطُ الأربَعَةُ لِتحقِيقِ ذلكَ، وهي:

أوَّلا: التَّوبَةُ مِنَ النِّفاقِ.

ثانيًا: الإصلاحُ.

ثالثًا: الاعتِصامُ باللهِ.

رابعًا: إخلاصُ الدِّينِ للهِ.

وفِيها: أنَّ إفسادَ المنافِقِ عظيمٌ؛ ولِذلِكَ احتاجَ في تَوبَتِهِ إلى مَجموعةٍ مِنَ الشُّروطِ، تَتَضمَّنُ اجتِهادًا، ومُتابَعَةً في الحَقِّ، والتِزامًا بِهِ، وثَباتًا عليهِ.

وفِيها: الحثُّ على إخلاصِ القلْبِ.

وفِيها: إتيانُ التَّائِبِ مِنَ الصَّالِحاتِ بِضِدِّ ما كانَ يَعمَلُهُ مِنَ المُحرَّماتِ، فالإصلاحُ مُقابِلُ الإفسادِ، والإخلاصُ مُقابِلُ الرِّياءِ، والتَّوبَةُ مُقابِلُ النِّفاقِ، والاعتِصامُ باللهِ مُقابِلُ الوَلاءِ للكفَّارِ.

وفِيها: أنَّ زَوالَ كُفرِ القَلبِ يَكونُ بإخلاصِهِ العَمَلَ لربِّهِ.

وفِيها: التَّشرِيفُ بمَعِيَّةِ المؤمنِينَ، والدُّخولِ في زُمْرَتِهِم في الدُّنيا، والآخِرَةِ.

وفِيها: أنَّ توبَةَ المُنافِقِينَ -إنْ صحّتْ- فهي مَقْبُولَةٌ.

وفِيها: أنَّ إيتاءَ المُؤمِنِينَ أجرَهُم في الآخرَةِ، لا يُنافي أنْ يَحصُلَ لَهُم في الدُّنيا أجرٌ مُعجَّلٌ: كالنَّصرِ، والرِّزقِ، والتَّمكِينِ، والذِّكرِ الحَسَنِ، وحُسْنِ العاقِبَةِ.

وفي الآيةِ: أنَّ مِنْ شُرُوطِ التَّوبَةِ: تَرْكَ القَبِيحِ، وفِعْلَ الحَسَنِ.

وفِيهـا: أنَّ مَنْ لَمْ تُعرَفْ لَهُ توبةٌ صحيحةٌ مِنَ المنافِقِينَ، فإنَّ مُعامَلَتَهُ تَستَمِرُّ على ما كانَتْ عليهِ مِنْ قَبْلُ، مِنَ الإغلاظِ عليهِ، وجِهادِهِ.

وفِيها: سَعَةُ رَحمَةِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ آمَنَ، واستَمَرَّ على إيمانِهِ، أفضلُ مِمَّنْ نافَقَ، ثُمَّ تابَ وآمَنَ؛ ولِذلكَ لَمْ يَقُلْ: «فأولَئِكَ مِنَ المُؤمِنينَ»، وإنَّما قالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وفِيها: أنَّ المؤمِنينَ مَتبُوعُونَ، والمنافِقِينَ -بَعدَ التَّوبَةِ- تابِعُونَ.

وفِيها: أنَّ كلَّ ذَنْبٍ يُمكِنُ التَّوبَةُ مِنْهُ -مَهْما عَظُمَ-، كالنِّفاقِ الأكبَرِ، والشِّرْكِ والكُفرِ الأكبَرِ.

وفِيها: أنَّ التَّوبَةَ يَجِبُ أنْ تكونَ لِوجهِ اللهِ، وابتِغاءَ مَرضاتِهِ، وليسَ لِجَلْبِ مَنفعَةٍ، أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ دُنيَوِيَّةٍ.

وفِيها: أنَّ تَوبَةَ اللِّسانِ -وَحْدَها- لا تَكْفِي.

وفِيها: أنَّ الالتِجاءَ إلى الكفَّارِ، والاعتصامَ بِهِم، لا يَزِيدُ صاحِبَه إلا ذُلًّا، وأنَّ المَنَعَةَ القويَّةَ، والعِزَّةَ الحقيقيَّةَ، في الاعتِصامِ باللهِ.

وفِيها: الوَعْدُ الجَميلُ والثَّوابُ الجَزِيلُ للمُؤمِنينَ.

وفِيها: وُجُوبُ تَثبيتِ التَّائِبِ نفسَه على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، ولا يَكونُ ذلكَ إلَّا باللهِ.

وفِيها: تَبْشِيرُ مَنْ تابَ مِنَ المُنافِقِينَ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عذابَ المُنافِقِينَ، بَيَّنَ أنَّ تَعذِيبَهُم إنَّما كانَ لِكُفرِهِم، وذُنُوبِهِم، لا لِشَيءٍ آخَرَ، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ -كما لا يَستَفِيدُ مِنْ طاعَةِ العِبادِ-، فإنَّه لا يَنْتَفِعُ -أيضًا- بتَعذِيبِهِم، فهُوَ مُستَغْنٍ عمَّا سِواهُ، قالَ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَشارَ إِلَيْهِم بِأَنَّهُمْ مَعَ المُؤْمِنِينَ، ولَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمُ المُؤْمِنُونَ، ولا مِنَ المؤمنين، وإن كانوا قَدْ صارُوا مُؤْمِنِينَ؛ تَنْفِيرًا مِمَّا كانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِظَمِ كُفْرِ النِّفاقِ، وتَعْظِيمًا لِحالِ مَنْ كانَ مُتَلَبِّسًا بِهِ. ومَعْنَى: مَعَ المُؤْمِنِينَ: رُفَقاؤُهُمْ ومُصاحِبُوهُمْ فِي الدَّارَيْنِ». البحر المحيط (٤/ ١١٤).

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ «ما» استِفهامِيَّةٌ، والمُرادُ بها هُنا النَّفيُ، والإنكارُ؛ لتأكِيدِ الحَقِيقَةِ، والمعنَى: أيُّ مَنفعَةٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ في عذابِكُم -يا أيُّها النَّاسُ-، إنْ شَكَرتُمْ، وآمَنْتُمْ؟ فهذا لا يَزِيدُ في مُلْكِهِ، كما أنَّ تَرْكَ عذابِكُم لا يُنقِصُ مِنْ سُلطانِهِ، فهُوَ لا يُعذِّبُ لأَجْلِ التَّشفِّي مِنَ الغَيْظِ، كما يَفعَلُ كُبَراءُ الدُّنيا، وإنَّما يُعذِّبُ مَنِ استَوجَبَ العَذابَ بكُفرِهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ يَشكُرُ لِعبادِهِ أعمالَهُم، فيُثِيبُهُم عليها، ويُوفِّيهم أجُورَهُم، ويَتقَبَّلُ مِنْهُم القلِيلَ، ويُنمِّيهِ ﴿عَلِيمًا﴾ بِشُكرِ عبادِهِ، وإيمانِ قلوبِهِم، فيُجازِيهِمْ على ذلكَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

رحمةُ اللهِ بعبادِهِ، وفضلُهُ عليهِم.

وفِيها: تَرتِيبُ الجَزاءِ على الأعمالِ.

وفِيها: أنَّ وَعيدَ اللهِ للمُنافِقِينَ، إنَّما هو على كُفْرِهِم، ونفاقِهِم، لا تَشَفِّيًا، ولا يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً، ولا يَدفَعُ بِهِ مَضَرَّةً، وهو الغنيُّ الحَميدُ.

وفِيها: أنَّ حِكمَتَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اقتَضَتْ مُعاقَبَةَ الكافِرِ.

وفِيها: نَدْبُ العِبادِ إلى الشُّكرِ، وهُوَ: تَوحِيدُ المُنْعِمِ، واعتِرافُ القَلبِ بنِعمَتِهِ، وثَناءُ اللِّسانِ عليهِ، وعَمَلُ الجَوارِحِ بِطاعَتِهِ، وتَرْكُ الاستِعانَةِ بنِعمَتِهِ على مَعصِيَتِهِ.

وفِيها: تَقدِيمُ الشُّكرِ على الإيمانِ؛ لِبيانِ أهمِيَّتِهِ، ولأنَّ الشُّكرَ سببٌ في الإيمانِ، وهو نِصفُهُ، والصَّبرُ نِصفُهُ الآخَرُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ المُؤمِنَ الشَّاكِرَ.

وفِيها: أنَّ مَنْ تَفكَّرَ في نِعَمِ اللهِ، وقَدَرَها حقَّ قَدْرِها، فإنَّ ذلكَ يَقُودُهُ إلى الإيمانِ.

وفِيها: أنّ مِنْ أسماءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: (الشَّاكِرُ)، وقد وَرَدَ في القرآنِ -أيضًا-: (الشَّكُورُ)، فَهُوَ كَثِيرُ الشُّكرِ لِعبادِهِ المُطِيعِينَ، يُجازِيهم بالثَّوابِ الجَزِيلِ على قَلِيلِ العَمَلِ، وقال البَغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشُّكرُ مِنَ العبدِ: الطَّاعَةُ، ومِنَ اللهِ: الثَّوابُ»[1].

(١) تفسير البغوي (٢/ ٣٠٣).

وفي الآيةِ: كَمالُ غِناهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وكَمالُ عِلْمِهِ.

وفِيها: الجَمْعُ في العِبادَةِ بَيْنَ القَوْلِ، والفِعْلِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ، والشُّكرَ، أمانُ الإنسانِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ أحدًا مِنْ خَلْقِهِ، طلبًا لِنَفْعٍ، ولا دَفْعًا لمَضَرَّةٍ؛ لاستِغنائِهِ عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما اقتَضَتْ حِكْمَتُهُ تعذِيبَ مَنْ كَفَرَ وتَوَلّى.

وفِيها: أنَّ الشُّكرَ لا يَقَعُ مِنَ الكافِرِ.

وفِيها: تعظيمُ شأنِ الطَّاعَةِ، وتَشْرِيفُ المُطِيعِ؛ لأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سمَّى ثَوابَ الطَّائِعِينَ شُكْرًا مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحسِنِ، ولا يُعَذِّبُ غيرَ المُسِيءِ، وهذا مِمَّا يَتَضَمَّنُهُ اسمُهُ: (الشَّاكِرُ)، وقد جاءَ هُنا على وَزنِ اسمِ الفاعِلِ، وليسَ بِصِيغةِ المُبالَغَةِ: (الشَّكُورُ)؛ وذلكَ لأنَّه يَتَقبَّلُ أقلَّ شيءٍ مِنَ العَمَلِ، ويُنَمِّيهِ[1].

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُجازِي الشَّاكِرِينَ المؤمنينَ بأكثَرِ مِمَّا يَستَحِقُّونَهُ، فيُعْطِيهِمُ الخَيْرَ العَمِيمَ، والنَّعِيمَ المُقِيمَ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سُوءَ أخلاقِ المُنافِقِينَ، وذَكَرَ مَحَبَّتَهُ للشُّكرِ، أَتْبَعَ ذلكَ ببيانِ أنَّه يَكْرَهُ القَوْلَ السُّوءَ، وإعلانَهُ، ويُبْغِضُ الخُلُقَ السَّيِّئَ. ولَمَّا كانَ المُنافِقونَ يَظلِمُونَ المؤمنينَ بمَكْرِهِم، وخُبْثِهِم، أباحَ اللهُ لأهلِ الإيمانِ ذَمَّ المُنافِقِينَ، وإظهارَ فَضائِحِهِم، دُونَ تَعَدٍّ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ ولا يَرْضَى مِنْ أحدٍ ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ الإظهارَ، والتَّصريحَ ﴿بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهُوَ ما يَسُوءُ مَنْ قِيلَ فِيهِ، ويُؤذِيهِ، ويَشمَلُ ذلكَ: جَميعَ الأقوالِ السَّيِّئةِ الّتي تَسوءُ، وتُحزِنُ، كالشَّتمِ، والقَذفِ، والسَّبِّ، ونحوِ ذلِك؛ فإنّ ذلكَ كُلَّه مِنَ المَنهِيِّ عَنْهُ، الذِي

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ١١٥).

يُبغِضه اللهُ، قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا يُحِبُّ اللهُ أنْ يَدْعُوَ أحَدٌ على أحَدٍ، إلا أنْ يكونَ مَظلُومًا، فإنَّه قد أرْخصَ لَهُ، أنْ يَدْعُوَ على مَنْ ظَلَمَهُ**»(١).

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فإنَّه يُرخَّصُ للمظلُومِ أنْ يَتَحدَّثَ عَنِ الظُّلمِ الذي لَحِقَهُ، وما وَقَعَ عليهِ مِنَ الظَّالِمِ، دُونَ افتِراءٍ، أو زِيادَةٍ، ويَجُوزُ لَهُ أنْ يَدْعُوَ عليهِ دُونَ اعتِداءٍ، قالَ الحَسَنُ البَصرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَدْعُو عليهِ، وليَقُلْ: اللهمَّ أعنِّي عليهِ، واستَخْرِجْ حقِّي مِنْهُ»(٢)، وقالَ مُجاهِد: «هُوَ الرَّجُلُ يَنْزِلُ بالرَّجلِ فلا يُحسِنُ ضِيافَتَهُ، فَيَخْرُجُ مِن عِندِه، فيَقُولَ: أساءَ ضِيافَتِي، ولَمْ يُحسِنْ»(٣).

وقد جاءَ في حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: قُلنا: يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ تَبعَثُنا فنَنْزِلُ بقومٍ فلا يَقرُونَنا فما تَرَى؟ فقالَ لَنا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنْ نَزَلتُمْ بِقَومٍ فأَمَرُوا لَكُم بما يَنبَغِي للضَّيفِ فاقْبَلُوا، فإنْ لَمْ يَفعَلُوا، فخُذُوا مِنْهُم حقَّ الضَّيْفِ الذي يَنبَغِي لَهُم**»(٤).

وعن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْكُو جارَهُ، فَقالَ: «**اذْهَبْ فاصْبِرْ**» فَأَتاهُ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا، فَقالَ: «**اذْهَبْ فاطْرَحْ مَتاعَكَ في الطَّرِيقِ**» فَطَرَحَ مَتاعَهُ في الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ، فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ، فَجاءَ إِلَيْهِ جارُهُ فَقالَ لَهُ: ارْجِعْ، لا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ(٥).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لِدُعاءِ المظلُومِ، وما تَجهَرُونَ بِهِ مِنَ القَولِ، وما تُسِرُّونَ ﴿عَلِيمًا﴾ بالإساءَةِ، والإحسانِ، وَهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

شِفاءُ صُدُورِ المُؤمنِينَ، بإباحَةِ الكَلامِ عَنْ إيذاءِ المُنافِقِينَ لَهُم.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُبغِضُ الفُحْشَ، والتَّفَحُّشَ.

وفِيها: أنَّ الاعتِداءَ في الدُّعاءِ سُوءٌ مِنَ القَوْلِ.

---

(١) رواه الطبري (٩/ ٣٤٤).

(٢) تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٤٣).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ٣٤٥).

(٤) رواه البخاريّ (٦١٣٧)، ومسلم (١٧٢٧).

(٥) رواه أبو داود (٥١٥٣)، وله شواهد، وحسّنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٤١).

وفِيهـا: جَوازُ الدُّعاءِ عـلى الظَّالِمِ، والأفضَلُ تَركُهُ؛ لأنّ العَفوَ عَنـهُ أفْضَلُ، ولأنَّ الدَّاعِي قَـد يَتَجـاوَزُ في الدُّعاءِ، فيكون مِنَ المُعتَدِينَ فِيهِ، ولأنَّه يكـونُ في الدُّعاءِ على الظَّالِمِ رَغبَةٌ في التَّشَفِّي، والانتِقام، وفِيها حَظُّ نَفْسٍ، قد يَزِيدُ عَنِ الحَدِّ.

وفِيهـا: أنَّـه يَجوزُ للمَحرُومِ مِـنْ حقِّهِ أنْ يَبُثَّ شَـكْواهُ، ويَجوزُ للمُعتَدَى عليهِ أنْ يَشـكُوَ حالَهُ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ، ولا الإسرارَ، وإنْ كانَ الأوَّلُ أشنَعَ.

وفِيها: أنَّ السُّوءَ مِنَ الفِعْلِ يَحرُمُ أيضًا، كما يَحرُمُ السُّوءُ مِنَ القَوْلِ.

وفِيها: شاهِدٌ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وفِيهـا: عدمُ جَوازِ ارتِكابِ المُحـرَّمِ في الاقتِصاصِ، قالَ عبدُالكَرِيم بنُ مالِكٍ الجَزرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في هـذِهِ الآيـةِ: «هُوَ الرَّجُلُ يَشْـتُمُكَ، فتَشْـتُمهُ، ولكِـنْ إنِ افتَرَى علَيْـكَ، فلا تَفْتَرِي علَيْهِ»(١).

وفِيها: أنَّ اللهَ سَمِيعٌ لِكلامِ العِبادِ، وجَهْرِهِم، عَلِيمٌ بِسِرِّهِم، ونِيَّاتِهِم، وما يُخْفُونَهُ، وعَلِيمٌ بالأقوالِ الصَّادِرَةِ، ومَقاصِدِ أصحابِها.

وفي الآيةِ: إثباتُ صفةِ الحُبِّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وضِدّه أيضًا، وهو البُغْضُ.

وفِيها: مَحَبَّةُ اللهِ للسَّتْرِ على عِبادِهِ.

وفِيها: التَّرغِيبُ في القَوْلِ الحَسَنِ.

وفِيهـا: أنَّ الأصلَ: الكَفُّ عَنْ ذِكْرِ عُيُوبِ وسـيِّئاتِ الآخَرينَ؛ فإنَّ الجَهْرَ بذلكَ يَجْلِبُ العَـداوَةَ، والبَغْضـاءَ، ويُـؤدِّي إلى تَفَشِّي الجَهْر بالسُّـوءِ، فيَضْعُـفَ في النُّفُوسِ اسـتِقباحُهُ، واستِبْشاعُهُ، فالجَهْرُ بالسُّوءِ أشدُّ ضَرَرًا مِنَ الإسرارِ بِهِ.

وفِيها: أنَّ بَعضَ النَّاسِ يَظْلِمُ مَنْ ظَلَمَهُ، ويَستَطِيلُ عليهِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَفُوتُهُ شيءٌ مِنْ أقوالِ العِبادِ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٠١).

وفِيها: تَحرِيمُ إساءَةِ المُسلِمِ لأخِيهِ المُسلِمِ: بالشَّتْمِ، والقَذْفِ، والإيذاءِ في الشَّرَفِ، والعِرْضِ، وغيرِ ذلِك.

وفِيها: أنَّ السُّكُوتَ على الظُّلمِ: إذا كانَ يُؤدِّي إلى تَمادِي الظَّالِمِ في بَغْيِهِ، فإنَّ كَشفَ ظُلمِه والجَهْرَ بِهِ أوْلَى؛ وذلك لِكَفِّهِ عنِ الظُّلمِ، وتَحذِيرِ النَّاسِ مِنْهُ.

وفِيها: تَحقِيقُ العَدْلِ، بالانتِصارِ مِنَ الظَّالِمِ على قَدْرِ المَظْلَمَةِ.

وفِيها: التَّرغِيبُ في عِفَّةِ اللِّسانِ، والكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ.

وفِيها: أنَّ على عبادِ اللهِ المُؤمِنينَ أنْ يَفعَلُوا ما يُحِبُّه اللهُ، ويَكُفُّوا عمَّا لا يُحِبُّهُ.

وفِيها: صِيانَةُ سُمعَةِ المُسلِمِ، وعِرْضِهِ.

وفِيها: الزَّجرُ عنِ الظُّلمِ، ورَدْعُ الظَّالِمِ.

وفِيها: جوازُ جَهرِ المَظلومِ بِما وقعَ عَليهِ مِن ظُلمٍ، والتّعبِير عنْهُ بكلِّ وَجْهٍ مُباحٍ، كالدُّعاءِ على مَنْ ظَلَمَه، أوْ أنْ يُصرِّحَ باسمِهِ، فيقُولَ: فلانٌ ظَلَمَنِي، أو هُوَ ظالِمٌ، أو يَرُدَّ عليهِ قولَهُ بمِثلِهِ، ونحوِ ذلكَ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ، وَعُقُوبَتَهُ**»(١).

والمقصودُ بِحلّ عِرضِه: أن يقولَ صاحِبُ الحقِّ: مَطَلَنِي فُلانٌ، أو: يا ظالِمُ، يا مُعتَدي، ونحو ذلِك. وعقوبتُه: حَبسُه.

وفِيها: هَتْكُ أستارِ المُنافِقينَ، والظَّالمينَ، والتَّحذِيرُ مِنَ الظلمِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ عَظُمَ ضَرَرُهُ، وكَثُرَ كَيْدُهُ، ومَكرُهُ، جازَ إظهارُ فَضائِحِهِ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ: عَدَمُ كَشفِ الأحوالِ المَستُورَةِ؛ لِئَلا يَصِيرَ ذلكَ سببًا لِوُقُوعِ النَّاسِ في الغِيبَةِ.

وفِيها: الاقتِصادُ في الكلامِ.

وبَعْدَ أنْ أذِنَ اللهُ للمَظلُومِ بالجَهْرِ بالسُّوءِ مِن القولِ على ظالمِهِ، نَدَبَهُ إلى العَفْوِ، ورغَّبَهُ في قَوْلِ الخيرِ، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) رواه أبو داود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٦٨٩)، وصححه الحافظُ العراقي في تخريج الإحياء (ص١٠٤٥).

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩﴾.

﴿إِن تُبۡدُواْ﴾ تُظهِرُوا ﴿خَيۡرًا﴾ حَسَنَةً، وبِرًّا، وقِيلَ: المُرادُ الصَّدَقَةُ. والرَّاجِحُ أنَّه يَشمَلُ كلَّ خيرٍ قَوْلِيٍّ، وفِعْلِيٍّ، ظاهِرٍ، وباطِنٍ، مِنْ واجِبٍ، ومُستَحَبٍّ. ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ فلا تُظهِرُوه ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾ وتُسامِحُوا مَنْ ظَلَمَكُم، وتَتَجاوَزُوا عَنهُ، وتُقابِلُوهُ بالإبراءِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا﴾ يَصفَحُ، ويَتَجاوَزُ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «... **وما زادَ اللهُ عبدًا بِعَفْوٍ، إلا عِزًّا**»[1]، والعَفْوُ: هُوَ التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنبِ، وتَرْكُ العِقابِ علَيهِ، و (العَفُوُّ): مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسنَى، وهو يُحِبُّ العَفْوَ، ويَصْفَحُ عَنِ الذُّنوبِ، ويَسْتُرُ العُيُوبَ ﴿قَدِيرًا﴾ له القدرةُ التامّةُ علَى كلِّ شَيءٍ؛ فَبِقدرتِهِ أَوْجَدَ المَوجوداتِ، وبِقدرتِهِ دبَّرها، وبِقدرتِهِ سوَّاها، وأحْكَمَها، وبِقدرتِهِ يُحيِي ويُميتُ، ويَبعَثُ العبادَ لِلْجزاءِ، ويُجازِي المُحسنَ بإحْسانِه، والمُسيءَ بإساءَتِه، الّذي إذا أرادَ شَيئًا قالَ لَه: (كُنْ) فيكونُ، وبِقدرتِهِ يُقلِّبُ القُلوبَ، ويُصرِّفُها عَلى ما يَشاءُ، ويُريدُ.

ومِنْ أسمائِهِ عَزَّوَجَلَّ: (القادِرُ)، و (المُقتَدِرُ)، و (القَدِيرُ).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

الحَثُّ على إظهارِ الخَيرِ بَيْنَ النَّاسِ، ومُعامَلَتِهم بِهِ.

وفِيها: إخفاءُ الأعمالِ؛ تقرُّبًا إلى اللهِ، والإخفاءُ أفضلُ، إلا ما لا يُمكِنُ إخفاؤُهُ، أو كانَ في إظهارِهِ مَصلَحةٌ شَرعِيَّةٌ، كاقتِداءِ النَّاسِ بفاعِلِ الخَيرِ، وحثِّهم عليْهِ.

وفِيها: التَّرغيبُ في كلِّ خَيرٍ قَولِيٍّ، وفِعْلِيٍّ.

وفِيها: فَضلُ التَّجاوُزِ عنْ مَظالِمِ العِبادِ، ومُقابَلَةِ الإساءَةِ بالصَّفْحِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ أَوْلَى بالعَفْوِ مِنَ المَخلُوقِينَ، وأنَّه يَعفُو عَمَّنْ يَعفُو عَنِ النَّاسِ.

وفِيها: أنَّ العافِينَ عنِ النَّاسِ قَرِيبُونَ مِنَ اللهِ، وثَوابُهُم عندَهُ جَزِيلٌ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

وفِيها: العَفْوُ عندَ القُدرَةِ(١).

وفِيها: إيصالُ النَّفعِ إلى الخَلْقِ، وكَفُّ الشَّرِّ عَنْهُم.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَعفُو عنِ المُسِيءِ؛ كَرَمًا، وإحسانًا، وأنَّه يَنبَغِي على العِبادِ أنْ يَتحلَّوْا بالعَفوِ والصّفحِ؛ ليَعفُوَ اللهُ عنهُم.

وفِيها: أنَّ عَفْوَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ مِنْ عَجْزٍ، وضَعْفٍ، وإنَّما يعفُو، ولَهُ تمامُ القُدرَةِ.

وفِيها: أنَّ فِعْلَ الخَيراتِ، والعَفوَ عنِ العِبادِ، مِنْ مُوجِباتِ عَفْوِ اللهِ عن السَّيِّئاتِ.

وفِيها: أنَّ العَفوَ أحبُّ إلى اللهِ مِنَ الانتِصارِ، إلا ما كانَ مِنْ حَقِّ اللهِ، ولَيْسَ حقًّا شخصِيًّا، فإنَّ الغَضَبَ لِحُرُماتِ اللهِ والانتِقامَ لها واجِبٌ(٢).

وفِيها: أنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

وفِيها: الإرشادُ إلى التَّفَقُّهِ في معانِي أسماءِ اللهِ، وصِفاتِهِ.

وفِيها: مُقابَلَةُ الإساءةِ بالإحسانِ.

ولَمَّا كَشَفَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى للمؤمنِينَ في المدينةِ مِنْ حالِ أعدائِهم المنافِقينَ ما كَشَفَ، ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ بعضَ رَذائِلِ العَدُوِّ الآخرِ للمؤمنِينَ في المدينةِ، وهُم أهلُ الكِتابِ، وبَيَّنَ شيئًا مِنْ أباطِيلِهم، وذكرَ سُوءَ مَصِيرِهم، وحيثُ إنَّهم لا يُؤمِنُونَ برسولِهِ محمدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقد كانَ التَّمهيدُ لذِكْرِهم بالتَّأكِيدِ على وُجُوبِ الإيمانِ بِهِ سُبحانَه، والإيمانِ بِرُسُلِهِ جميعًا، وإبطالِ التَّفريقِ بَيْنَهم في الإيمانِ، فقالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

---

(١) وهُو أفضلُ العفوِ، روَى أبُو نُعيم في الحِليةِ (٥/ ٢٦١) عن عمرَ بنِ عبدِالعزيزِ قال: «أَفْضَلُ العَفْوِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ»، وروَى الخَطيبُ في التّلخيصِ (ص٣٥٣) عن أَكْثَم بْنِ صَيْفِيٍّ قال: «خَيْرُ السَّخاءِ ما وافَقَ الحاجَةَ، وَخَيْرُ العَفْوِ ما كانَ مَعَ المَقْدِرَةِ».

(٢) وقال ابنُ عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: «العفوُ عندَ المقدرةِ مِن سِماتِ أهلِ السنّةِ والجَماعة، لكنْ بشرطِ أنْ يكونَ العفوُ إصلاحًا، فإنْ تَضمّنَ العفوُ إساءةً، فإنهم لا يَندبونَ إلى ذلكَ؛ لأنّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اشترطَ فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]، أي: كان في عَفوِه إصلاح، أما مَن كانَ في عَفوِهِ إساءةٌ، أوْ كانَ سَببًا للإساءةِ، فهُنا نقول: لا تَعفُ». مجموع فتاوى ابن عثيمين (٨/ ٦٧٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ قالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أولَئكَ أعداءُ اللهِ اليهودُ، والنَّصارَى، آمَنَتِ اليهودُ بالتَّوراةِ، ومُوسَى، وكَفَرُوا بالإنجيلِ، وعِيسَى، وآمَنَتِ النَّصارَى بالإنجيلِ، وعِيسَى، وكَفَرُوا بالقرآنِ، وبمحمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فاتَّخَذُوا اليهوديَّةَ، والنَّصرانِيَّةَ، وهُما بِدعَتانِ، لَيْسَتا مِنَ اللهِ، وتَركُوا الإسلامَ، وهُوَ دِينُ اللهِ الذي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ»(١).

وقولُهُ: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ سَواء بسبِّهِ، كما قالتِ اليَهودُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾، وقالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾. أو بادِّعائِهِم عُزَيْرًا وَلَدًا لَهُ، وكَما فَعلَتِ النَّصارَى في ادِّعائِهِم عيسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وَلَدًا له، أو بقَوْلِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، أوْ بقولِهِم: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾، وغيرِ ذلكَ.

وقولُهُ: ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ مَعلُومٌ أنَّ أهلَ الكتابِ لَمْ يَكفُرُوا بجَمِيعِ الرُّسُلِ، ولكنَّ كُفْرَهُم ببَعضِهِم هُوَ كُفرٌ باللهِ، وبجَمِيعِ رُسُلِهِ. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: في الإيمانِ، وقد كانَ تَفريقُ أهلِ الكتابِ بَيْنَ الرُّسُلِ في الإيمانِ بالهَوَى، والحَسَدِ، والعَصَبِيَّةِ، وما وَجَدُوا عليهِ آباءَهُم ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ كقَوْلِ اليَهودِ: نُؤمِنُ بِمُوسَى، ويَكفُرُونَ بِعِيسَى ومُحَمَّدٍ، وقَوْلِ النَّصارَى: نُؤمِنُ بعِيسَى، ويَكفُرُونَ بمُحمّد، وكذا السَّامِرةُ الذينَ لا يُؤمِنُونَ بِنَبيٍّ بَعدَ يُوشَعَ، والمَجُوس الذينَ يُقالُ بأنَّه كانَ لَهُم نَبِيٌّ، ولَمْ يُؤمِنُوا بغَيرِهِ(٢).

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ يَقصِدُونَ ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ يَجعَلُوا ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ بَيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ ﴿سَبِيلًا﴾ دِينًا مُتَوسِّطًا بَيْنَهما، يَجْمَعُ بَيْنَ الإيمانِ، والكُفرِ، وقولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكافِرونَ باللهِ، المُفرِّقُونَ بَيْنَ رُسُلِهِ ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ أي: كُفْرُهُم صَرِيحٌ ثابِتٌ، لا شكَّ فِيهِ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ أَعْدَدْنا، وهيَّأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذينَ أُقِيمَتْ عليهِم الحُجَّةُ ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي: عَذابًا نُذِلُّهُم بِهِ، ونُهِينُهُم، كما استَهانُوا بِرُسُلِنا مِنْ قَبْلُ.

(١) رواه الطبريّ (٩/ ٣٥٤).

(٢) انظر: تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٤٥).

وفي الآيَتيْنِ مِنَ الفَوائِدِ:

أنَّه لا يَجوزُ بِناءُ أمرِ الإيمانِ على الهَوَى، والعَصَبيَّةِ، والعادَةِ.

وفيهما: أنَّ كُفرَ اليهودِ، والنَّصارَى، كُفرٌ صَريحٌ مُؤكَّدٌ.

وفيهما: وُجُوبُ الإيمانِ بالرُّسُلِ جميعًا، وتَصدِيقِهِم فيما جاؤوا بِهِ مِنْ عندِ اللهِ إجمالًا، وتَفْصِيلًا، ومُوالاتِهِم جميعًا، واعتِقادِ فَضْلِهِم على غَيرِهِم مِنَ النَّاسِ.

وفيهما: ذِكْرُ ناقضٍ مِنْ نَواقِضِ الإيمانِ، وهو الكُفرُ ببَعضِ الرُّسُلِ.

وفيهما: أنَّ الكُفرَ ببَعضِ الرُّسُلِ كُفرٌ بجَمِيعِهِم.

وفيهما: أنَّ الكُفرَ بأحَدِ رُسُلِ اللهِ يُؤدِّي إلى الكُفرِ بالذي أرْسَلَهُ.

وفيهما: ذَمُّ اليهودِ، والنَّصارَى، على عَصَبِيَّتِهِم، واتِّباعِهِمُ الهَوَى، والتَّشهِّي، والحَسَدِ، الذي أدَّى بِهِم إلى الكُفْرِ ببَعضِ أنبياءِ اللهِ، وعلى رأسِهِم: أشْرَفُهُم وخاتَمُهُم: محمدٌ ﷺ، وقد جَرَتْ عادَةُ هؤلاءِ بأنَّهم لا يُؤمِنُونَ بنَبِيٍّ بَعدَ نَبِيِّهِم.

وفيهما: أنَّ اقتِصارَ أهلِ الكتابِ على الإيمانِ باللهِ وبِنَبِيِّهِم الذي أتاهُم، لَيْسَ إيمانًا شرعيًّا؛ وذلكَ لأنَّ كُفرَهُم ببعضِ الأنبياءِ، يَعودُ على إيمانِهِم بالإبطالِ.

وفيهما: أنَّ ضِدَّ الكُفرِ -وهُوَ الإيمانُ- يَقتَضِي التَّصدِيقَ والإقرارَ بِجميعِ الرُّسُلِ والأنبياءِ، الذينَ أرسَلَهُمُ اللهُ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ في مَوضِعَيْنِ مُتَماثِلَيْنِ مِنْ كِتابِهِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وذلكَ في سورةِ البقرةِ، التي تَدْعُو اليَهُودَ، وسورةِ آلِ عِمرانَ، التي تَدعُو النَّصارَى.

وفيهما: التَّأكيدُ على كُفرِ مَنْ يُؤمِنُ بِبَعضِ الأنبياءِ، ويكفُرُ ببعضٍ؛ لِئَلا يَتوهَّمَ مُتَوهِّمٌ بأنَّ الإيمانَ ببعضِ الرُّسُلِ دونَ بعضٍ، يُزِيلُ اسمَ الكُفرِ عَنْ صاحِبِه.

وفيهما: إهانَةُ اللهِ لأعدائِهِ.

وفيهما: العَذابُ الشَّديدُ لِلكفَّارِ مِنْ أهلِ الكِتابِ يومَ القِيامَةِ.

وفيهما: أنَّه كما لا يَجُوزُ التَّفريقُ بَيْنَ الرُّسُلِ، فكذلِكَ لا يَجُوزُ التَّفريقُ بَيْنَ ما جاءَ بِهِ الرسولُ الواحِدُ؛ لِعُمُومِ قولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

وفيهما: أنَّ اتِّخاذَ طَرِيقٍ وَسَطٍ بَيْنَ الإيمانِ، والكُفْرِ، أمرٌ مُحالٌ غيرُ مُمْكِنٍ.

وفيهما: ذِكْرُ كُفرِ المُعاداةِ، والبُغْضِ، وكُفرِ الإباءِ، والاستِكبارِ.

وفيهما: أنَّ التَّفرِيقَ بَيْنَ الرُّسُلِ لَيْسَ المُرادُ بِهِ التَّفضِيلَ بَيْنَهُم؛ لأنَّ التَّفضِيلَ حقٌّ، كما قالَ اللهُ: ﴿**تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولكِنَّ المَقصُودَ بالتَّفرِيقِ الباطِلِ: الإيمانُ بِبَعضِهِم دُونَ بعضٍ.

وفيهما: أنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعضِ الرُّسُلِ؛ لِيَسلَمَ مِنْ أيدِي المُؤمِنِينَ، فقد تَهيَّأَ للانتِقالِ مِنَ الكُفرِ الظَّاهِرِ إلى النِّفاقِ.

وفيهما: تَحريمُ التَّلاعُبِ، والاستِهزاءِ، بوَحْيِ اللهِ.

وفيهما: أنَّ أصلَ الإيمانِ الذي يَنْفَعُ صاحِبَهُ، كُلٌّ لا يَقبَلُ التَّجزِئَةَ.

وفيهما: أنَّ زَعْمَ الإيمانِ باللهِ لا يَكفِي، حتَّى يَأتِيَ صاحِبُهُ ببقيَّةِ أركانِ الإيمانِ، ومِنْها: الإيمانُ بالرُّسُلِ.

وفيهما: أنَّ دَعوَةَ الرُّسُلِ واحدةٌ في أصلِها، وهِيَ التَّوحِيدُ، وعِبادَةُ اللهِ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ.

وفيهما: أنَّ الكُفرَ بِبَعضِ الحَقِّ كُفرٌ بِجَمِيعِ الحَقِّ.

وفيهما: أنَّ بَعضَ الكُفَّارِ أسوَأُ مِنْ بَعضٍ، فمِنْهُم: مَنْ يَكفُرُ باللهِ، ورُسُلِهِ جَميعًا، ومِنْهُم: مَنْ يَزْعُمُ الإيمانَ باللهِ، ويَكفُرُ بالرُّسُلِ، ومِنْهُم: مَنْ يُؤمِنُ بِبَعضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعضٍ، ومِنْهُم: المُنافِقونَ، الذينَ يُظهِرُونَ الإيمانَ باللهِ ورُسُلِهِ، وهُمْ في الباطِنِ كافِرُونَ بذلكَ.

وفيهما: التَّأكِيدُ على كُفرِ الكافِرِ، فقد حَكَمَ اللهُ بالكُفرِ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ على الكفَّارِ ثلاثَ مرَّاتٍ، كما في قولِهِ: ﴿يَكْفُرُونَ﴾، وقولِهِ: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقولِهِ: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وأظهَرَ في مَوْضِعِ الإضمارِ[1]؛ لَأجْلِ التَّأكِيدِ على هذِهِ الحقيقَةِ، ثُمَّ جاءَ التَّعبِيرُ بكَلِمَةِ ﴿حَقًّا﴾؛ تأكِيدًا على ذلكَ.

---

(١) حيثُ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ولم يقل: «وأعتدْنا لهم».

وفيهما: أنَّ كُلَّ نبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إلى قومٍ، فإنَّه قد أمَرَهُم بالإيمانِ بِجَمِيعِ أنبياءِ اللهِ، وعلى رَأسِهِم: خاتَمُهُم محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيهما: أنَّ الكُفرَ باللهِ لا يَقتَصِرُ على جَحْدِهِ، وإنكارِ وُجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنَّما يَشمَلُ -أيضًا- عدمَ الإيمانِ بِكُتُبِه ورُسُلِه.

وفيهما: بُطلانُ قَولِ مَنْ يَقُولُ: إنَّ الإيمانَ بِبَعضِ الرُّسُلِ يُنَجِّي مِنْ عَذابِ اللهِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الوَعِيدَ لِمَنْ كَفَرَ، أتبَعَهُ بِذِكْرِ الوَعدِ لِمَنْ آمَنَ، فقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مِنْ هذِهِ الأمَّةِ، وغيرِها ﴿بِٱللَّهِ﴾ وَوَحدانِيَّتِهِ، ورُبُوبِيَّتِهِ، وأُلُوهِيَّتِهِ، وأسمائِهِ، وصِفاتِهِ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ جَميعًا ﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ في الإيمانِ، كما قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهلُ الإيمانِ المَذكُورونَ ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ وهذا وَعْدُ اللهِ بالجَزاءِ الجَزيلِ، والثَّوابِ الجَليلِ، والعَطاءِ الجَمِيلِ، ووعْدُ اللهِ لا يتخلَّف ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ يَغفِرُ السَّيِّئاتِ، ويَتَقبَّلُ الحَسَناتِ، ويَهدِي إلى الحَقِّ، ويُوَفِّقُ للإيمانِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

فضلُ المؤمِنينَ بجميعِ الأنبياءِ.

وفيها: البِشارَةُ لِمَنْ آمَنَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ مِنْ هذِهِ الأمَّةِ، وغَيرِها، ولِمَنِ انتَقَلَ مِنْ دِينِهِ إلى دِينِ الإسلامِ؛ لأجْلِ ذلكَ، كعبدِاللهِ بنِ سَلامٍ، وغيرِهِ.

وفيها: أنَّ أهلَ الإيمانِ طَرِيقَتُهُم واحدَةٌ، بَيْنَما أهلُ الكُفرِ شُعبٌ مختلِفَةٌ، فمِنْهُم: مَنْ يَجْحَدُ جَمِيعَ الرُّسُلِ، ومِنْهُم: مَنْ يُؤمِنُ برسولٍ دُونَ رسولٍ، ومِنْهُم: مَنْ يدَّعِي النُّبوَّةَ، والرِّسالةَ، ومِنْهُم: مَنْ يَتَّبِعُهُ، إلى غيرِ ذلكَ.

وفِيها: فَضلُ مَنْ آمَنَ بنبيِّهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، ثُمَّ آمَنَ بنَبِيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ إيمانِهِ بجَميعِ الأنبياءِ، وهُم مَنْ أسلَمَ مِنَ اليَهودِ، والنَّصارَى.

وفِيها: الإيمانُ بجَمِيعِ الأنبياءِ، مَنْ سَمَّى اللهُ مِنْهُم، ومَنْ لَمْ يُسَمِّ، مِنْ أوَّلِهِم آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى خاتَمِهِم محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ بالرُّسُلِ يَشمَلُ الإيمانَ بما جاءُوا بِهِ مِنْ عِندِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ عَمَلَ القَلْبِ أخْطَرُ، وأهمُّ، وأكثَرُ أجرًا، مِنْ عَمَلِ الجَوارِحِ، وأنَّ الثَّانِي نَتِيجةٌ للأوَّلِ.

وفِيها: كَرَمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنَّه جَعَلَ على الإيمانِ الواجِبِ على عِبادِهِ أجرًا عظيمًا، وقَطَعَ بأنَّهُ سَوفَ يُؤتِيهِم إيَّاهُ.

وفِيها: أنَّ اختِلافَ شَرائِعِ الأنبياءِ لا يُنافي الإيمانَ بِهِم، بَلْ إنَّ الشَّريعَةَ الواحِدَةَ، كشَريعَةِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَيْسَتْ في آخِرِها، مِثلَما كانَتْ في أوَّلِها، فقد ازْدادَت التَّكاليفُ، ووَقَعَ النَّسخُ، كما يُرِيدُهُ اللهُ، وحَصَلَ تَخفِيفٌ، ولكنَّ أصلَ الشَّرائِعِ واحِدٌ، وهُوَ الإيمانُ باللهِ، وعِبادَتُهُ، وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ.

وفِيها: محَبَّةُ الرُّسُلِ، وتَوقِيرُهُم؛ لِما قامُوا بِهِ مِنْ تَبليغِ الرِّسالَةِ، والنُّصحِ للخَلْقِ، والصَّبرِ على أذاهُم.

وفِيها: الإتيانُ بالبِشارَةِ بَعدَ النِّذارَةِ؛ لِتَقوِيَةِ الرَّجاءِ بَعدَ الخَوْفِ، فَتَعظُم الرَّغبَةُ في الإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالِحِ، وتَتَحمَّس النُّفوسُ للعَمَلِ؛ لِنَيْلِ الأجرِ، والثَّوابِ.

وفِيها: ذِكْرُ المَثُوبَةِ بَعدَ ذِكْرِ العُقُوبَةِ، وهذا أَوْقَعُ في النَّفْسِ.

وفِيها: مُوالاةُ جميعِ الأنبياءِ، والانتِصارُ لَهُم.

وفِيها: عِنايَةُ اللهِ بِرُسُلِهِ، وعظيمُ مَنزِلَتِهِم عِندَهُ.

وفِيها: تَسمِيةُ الثَّوابِ أجرًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه مُستَحَقٌّ، وهذا مِنْ كَرَمِ اللهِ.

وفِيها: إضافَةُ الأُجُورِ إلى المؤمنينَ؛ لِبيانِ أنَّها جَزاءُ إيمانِهِم، وما تَرَتَّبَ عليهِ مِنَ الأعمالِ الصَّالِحَةِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ يَجِبُ أنْ يكونَ حَقِيقيًّا، يقينِيًّا، مَبنِيًّا على العِلمِ، والبُرهانِ.

وفِيها: جَمعُ اللهِ للمؤمِنينَ بَيْنَ وَعْدَيْنِ حسَنيْنِ: الثَّوابِ على حَسَناتِهم، والمَغفِرةِ لسيِّئاتِهِم.

وفِيها -مَعَ التي قَبْلَها-: دَعوَةُ أهلِ الكتابِ والمُكَذِّبِينَ بالرُّسُلِ إلى الإيمانِ بالتَّرغِيبِ، والتَّرهِيبِ، والوَعدِ، والوَعِيدِ.

ولَمَّا ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ كُفْرَ أهلِ الكتابِ ببعضِ رُسُلِهِ، ومِنْ ذلكَ: اجتِماعُهُم على الكُفرِ برسولِهِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشارَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى ما فَعَلَهُ بَعضُهُم على عَهْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إظهارِ المُعانَدَةِ، والتَّعنُّتِ، وسُؤالِهِم آياتٍ، واقتِراحِهِم لِمعجِزاتٍ، يأتِي بها على وَفْقِ مَطالِبِهِم، فقالَ سُبْحانه:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا محمدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أحبارُ اليهودِ. ومَجِيءُ الفِعلِ المُضارِعِ يَجْعَلُ القِصَّةَ كأنَّها حاضِرَةٌ، وكأنَّ السَّامِعَ يراهُم، وهُم يَطلُبُونَ، ويَشتَرِطُونَ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أُنْزِلَتِ التَّوراةُ على مُوسَى مَكتُوبَةً؛ لِيكُونَ هذا -بِزَعمِهِم- دَلِيلًا على صِدقِ نُبوَّتِكَ. قال ابنُ جُرَيْج: «سَأَلُوهُ أن يُنَزِّلَ عليهِم صُحُفًا مِنَ اللهِ، مَكتُوبَةً إلى فُلانٍ وفُلانٍ وفُلانٍ، بتَصدِيقِهِ فيما جاءَهُم بِهِ»(١).

ولا شَكَّ أنَّ هذا تَعَنُّتٌ، وعِنادٌ، وكُفْرٌ، وإلحادٌ، وهو يُشبِهُ ما سَأَلَهُ كفَّارُ قُرَيْشٍ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الآياتِ التي اقتَرَحُوها، كأنْ يَفْجُرَ لَهُم مِنَ الأرضِ يَنْبُوعًا، أو يُسقِطَ السَّماءَ عليهِم قِطَعًا، أو يأتِيَ باللهِ، وجَماعَةِ المَلائِكَةِ، أو يكونَ لَهُ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ، أو يَرْقَى أمامَهُم إلى السَّماءِ بسُلَّمٍ، ثُمَّ يَنزِلَ عليهِم بكِتابٍ يَقرَؤُونَهُ، وغَير ذلكِ.

ثُمَّ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ هؤلاءِ اليَهودِ؛ مُذكِّرًا بِما فَعلُوهُ مَعَ نبيِّهِم: ﴿فَقَدْ

---

(١) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٣٩٥).

﴿سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ وأغْـرَبَ، وأعْجَبَ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لَـهُ ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ أي: عِيانًا، وأظْهِـرْهُ لَنـا، بِحيثُ نَـراهُ بأعيُنِنا، وهذا مِنْ جَهْلِهِـم بربِّهِم، وعِنادِهِم لنبيِّهِـم، فإنَّ أبصارَهُم لا تَقْـوَى عـلى رُؤْيَـةِ اللهِ في الدُّنيا؛ ولِذلـكَ عاقَبَهُـمُ اللهُ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ وأَحرَقَتْهُم نـارٌ نَزَلَـتْ مِنَ السَّـماءِ، والصَّاعِقَةُ: صَوْتٌ شَـدِيدٌ في الجَوِّ، مُجَلْجِـلٌ، مُزَلْزِلٌ، مَعَ نـارٍ هائِلَةٍ. ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ بعِنادِهِم، واستِكبارِهِم، ورَفضِهِم للإيمانِ، بعدَما تبَيَّنَ لَهُم الأمرُ، فلَمْ يَتُوبُوا، ولَمْ يَكُفُّـوا، رَغْـمَ أنَّ اللهَ أحياهُم بَعدَ الصَّاعِقَةِ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ الذي صاغَهُ لَهُمُ السَّـامِرِيُّ، وعَبَـدُوهُ مِـنْ دُونِ اللهِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيـاتُ الظَّاهِـرَةُ الدَّالَّةُ على ربِّهِم، وصِـدقِ نَبيِّهِـم ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: الذَّنبِ العَظِيـمِ، وتُبْنا على مَنْ تـابَ، ولَمْ نَأْخُذِ البَقيَّةَ بالإهلاكِ ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أعْطَيْناهُ حُجَّةً قَوِيَّةً، وبَراهِينَ ساطِعَةً، وآياتٍ باهِرَةً.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

مُشـابَهَةُ الكفَّارِ بعضِهِـم بعضًا في سُـؤالِ الآياتِ، والمُعانَـدَةِ، والتَّكذِيـبِ، والتَّهرُّبِ، والرَّوَغانِ عَنِ الحقِّ.

وفِيهـا: أنَّ الآياتِ، والنُّذُرَ، لا تُغنِي عَنْ قـومٍ لا يُؤمِنونَ، وقد قالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ -مبيِّنًا هذا بمثـالٍ-: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧].

وفِيهـا: اسـتِهانَةُ الكفَّارِ بـاللهِ، وسُـوءُ أدَبِهِم مَعَـهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فيَقتَرِحُونَ عليـهِ الآياتِ، ويَطلُبُونَ رُؤيَتَهُ بلا خَوفٍ، ولا وَجَلٍ.

وفِيها: أنَّ شَنْشَنَةَ كفَّارِ اليومَ، تُشبِهُ شَنْشَنَةَ أسلافِهِم، فتَشابَهَتْ قلوبُهُم.

وفِيهـا: تَشـابُهُ الكفَّارِ في طُرُقِ التَّكذِيبِ، ودَفْعِ الحقِّ، وهكذا اشـتَرَكَ كُفَّـارُ قُرَيْشٍ، مَعَ اليهـودِ في عَهْـدِ مُوسَـى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واليهـودِ في عَهـدِ محمـدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، في الجَـراءَةِ على اللهِ، وسُؤالِ الآياتِ.

وفِيها: أنَّ مِنَ الصَّواعِقِ ما يكونُ عذابًا، كما في هذِهِ الآيةِ، وكما في قولِهِ: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وقد تَكونُ رحمةً، ينزِل بعدَها المطَرُ.

وفِيها: أنَّ المُصرَّ على الكُفرِ، يَأتِي بطَلَباتٍ وأسئِلَةٍ تَتَوالَى؛ دفعًا للحقِّ، وإصرارًا على الكُفْرِ.

وفِيها: الحثُّ على التَّوبةِ إلى اللهِ، وعدمِ القُنُوطِ مِنْ رَحمَتِهِ.

وفِيها: سَعَةُ عَفْوِ اللهِ، ورحمَتِهِ؛ فإنَّه يَعفُو، ويرحَمُ، بالرَّغمِ مِنَ وقوعِ الذُّنُوبِ العَظِيمةِ مِن عبادِه.

وفِيها: أنَّ المُعرِضَ عنِ الحَقِّ ظالِمٌ لِنفسِهِ، قَبْلَ أنْ يَظْلِمَ غيرَهُ.

وفِيها: تَذكِيرُ الأخلافِ بذُنُوبِ الأسلافِ؛ لِنَهْيِهِم عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِم، وأنَّ الأحفادَ المُكذِّبِينَ يَسِيرُونَ على طَرِيقِ الأجدادِ في التَّكذِيبِ، وهذا مِنْ تَسَلْسُلِ الكُفرِ في بَعضِ أجيالِ البَشَرِيَّةِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ رَضِيَ بِمَذْهَبِ أسلافِهِ الكَفَرَةِ فَهُوَ كافِرٌ مِثْلُهُم، ويَأخُذُ حُكْمَهُم، ويَدخُلُ مَعَهُم في عذابِهِم، ومَصِيرِهِم.

وفِيها: الاستِدلالُ على سُلُوكِ المُتأَخِّرِينَ الضالِّينَ، بِسِيرَةِ أجدادِهِم المتقَدِّمِينَ، وأنَّ النَّتِيجةَ والنِّهايَةَ مَعَهُم واحِدَةٌ.

وفِيها: تَأيِيدُ اللهِ لأنبيائِهِ.

وفِيها: أنَّ الرسولَ بَشَرٌ، لَيسَ بِيدِهِ مُعجِزاتٌ يَستَطِيعُ أنْ يَأتِيَ بها مِنْ دُونِ اللهِ.

وفِيها: تَسلِيةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بما حَصَلَ مِنْ تكذِيبِ اليَهودِ لأخِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفِيها: شَناعَةُ جَرِيمةِ اليَهودِ، في الجَمْعِ بَيْنَ تكذِيبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتَكذِيبِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفِيها: أنَّ الآياتِ، والمُعجِزاتِ، لا تَأتِي إجابةً لِمُقتَرَحاتِ الكفَّارِ، وإنَّما تَأتِي بإرادةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ تَحَدِّيًا لَهُم، وإثباتًا لِصدقِ أنبيائِه.

وفِيها: فَسادُ عُقُولِ المُشرِكِينَ، فمَنْ ذا الذِي يَكُونُ حَسَنَ الإدراكِ، صَحِيحَ العَقْلِ، يُقدِمُ على عِبادَةِ عِجْلٍ مَصنُوعٍ، لا يَملِكُ ضَرًّا، ولا نَفْعًا؟!

وفِيها: أنَّ حُصولَ الآياتِ نِعمةٌ تَستَوجِبُ الانقيادَ، وليسَ المَزيدَ مِنَ التَّعنُّتِ، بِسُؤالِ آياتٍ أُخرَى.

وفِيها: الإعْراضُ عَنِ المُجادِلِ بالباطِلِ.

وفِيها: تَحريمُ سُؤالِ ما يَستَحِيلُ وُقُوعُهُ.

وفِيها: أنَّ رُؤْيَةَ اللهِ في الدُّنيا مُمتَنِعَةٌ؛ وقَد جعَلَها اللهُ نَعِيمًا لِعبادِهِ المؤمنِينَ في الآخرَةِ.

وفِيها: أنَّ آياتِ الرُّسُلِ البيِّناتِ، تَدُلُّ على فَسادِ خَوارِقِ الدَّجَّالِينَ، فشَتَّانَ ما بَيْنَ آياتِ مُوسَى، وعِجْلِ السَّامِرِيِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يُسلِّطُ أولياءَهُ على أعدائِهِ بالحُجَّةِ القاهِرَةِ، والبَراهِينِ الدَّامِغَةِ.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ أسْوَأُ وأشدُّ كُفرًا مِنَ النَّصارَى.

وفِيها: وَقاحَةُ الكفَّارِ.

وفي الآيةِ: إثباتُ العَلاقَةِ بَيْنَ المَعصِيَةِ، والعُقُوبَةِ؛ وذلكَ أنَّ الباءَ في قولِهِ: ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ هِيَ باءُ السَّبَبِيَّةِ.

وفِيها: أنَّ الذَّنبَ كُلَّما عَظُمَ، كانَت العُقُوبَةُ عليهِ أسرَعَ؛ لِقولِهِ: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ والفاءُ تَدُلُّ على التَّرتِيبِ، والتَّعقِيبِ.

وفِيها: قُدرَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه أهلَكَ بَنِي إسرائِيلَ، وأماتَهُم، ثُمَّ بَعَثَهُم، وأحياهُم.

وفِيها: خُطُورَةُ المَعصِيَةِ عَنْ عِلمٍ، والوقُوعِ في الكُفرِ بَعدَ قِيامِ الحُجَّةِ، كما في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ لَمْ يَطلُبُوا رُؤيَةَ اللهِ تبرُّكًا، وتَنَعُّمًا، وإنَّما لِمَحضِ العِنادِ، واللَّجاجِ، بخِلافِ سُؤالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فقد سَأَلَهُ شَوْقًا إليْهِ، ورَغْبَةً في النَّعِيمِ.

وفِيها: تَحريمُ الاستِخفافِ بالمُعجِزاتِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ طَمَسَ اللهُ بَصِيرَتَهُ، لا يَرتَدِعُ بالعُقُوبَةِ، بَلْ يَتَمادَى في الطُّغيانِ، والضَّلالِ.

وفِيها: بِشارَةٌ للنَّبيِّ ﷺ بظُهُورِهِ على اليهودِ، كما أظْهَرَ اللهُ مُوسَى على بنِي إسرائيلَ.

وفِيها: أنَّ أَخْذَ اللهِ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، يَدُلُّ على قَهْرِهِ، وغَلَبَتِهِ.

وفِيها: دَعوَةُ الكفَّارِ للتَّوبَةِ، مَهْما عَظُمَتْ ذُنُوبُهُم.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استِعصاءَ اليَهودِ، ومُعانَدَتَهم لأوامِرِ اللهِ، ونَواهِيهِ، فقال:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أيْ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَخَذَ على اليَهودِ العَهْدَ المُؤكَّدَ، بالالتِزامِ بأحكامِ التَّوراةِ، ثُمَّ أجْمَعُوا على نَكْثِهِ، والامتِناعِ عَنِ الالتِزامِ بكِتابِ اللهِ، قَلَعَ اللهُ جَبَلَ الطُّورِ المَعرُوفِ، وحَبَسَهُ في السَّماءِ فَوْقَ رُؤُوسِهِم، حتَّى ظَنُّوا أنَّه واقِعٌ بِهِم؛ وذلكَ تَخوِيفًا لَهُم، وإرغامًا؛ لِيَعمَلُوا بشَرِيعَةِ التَّوراةِ، ويُوفُوا بالعَهْدِ، والمِيثاقِ. وقيلَ في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: الباءُ للمُصاحَبَةِ، أي: رَفْعًا مَصحُوبًا بالمِيثاقِ، والمعنَى: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمَرَهُم عندَ رَفْعِ جَبَلِ الطُّورِ فَوْقَهُم، أنْ يَأخُذُوا الكِتابَ بِقوَّةٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لِسانِ نبيِّنا ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ بابَ قَريةِ بَيْتِ المَقْدِسِ ﴿سُجَّدًا﴾ للهِ راكِعِينَ، خاضِعِينَ، مُطَأْطِئِينَ رُؤُوسَكُم، ذُلًّا لَهُ، وانكِسارًا، شاكِرِينَ لَهُ فَضلَهُ، فخالَفُوا، ودَخلُوا يَزحَفُونَ على أدبارِهِم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ أيضًا، وقِيلَ: كانَ ذلكَ على لِسانِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَعْدُوا۟﴾ لا تَتَجاوَزُوا حُدُودَ اللهِ ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أيْ: بالصَّيْدِ فِيهِ، وقد حُرِّمَ عليكُم، وقيلَ: المُرادُ: النَّهيُ عَنِ العَمَلِ، والكَسْبِ في يومِ السَّبتِ، ويَدخُلُ فِيهِ الصَّيدُ، فخالَفُوا ذلكَ، واصْطادُوا فِيهِ. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أيْ: عَهْدًا مُؤكَّدًا، شَدِيدًا، مُلزِمًا، بأنْ يُطِيعُوا ربَّهُم، ويَلتَزِمُوا بما آتاهُم مِنَ التَّوراةِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

مُناسَبَةُ العُقُوبَةِ للمَعصِيةِ، فلَمَّا كادُوا أنْ يَنقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وعَزَمُوا على ذلكَ، رَفَعَ اللهُ الجَبَلَ فَوْقَهُم، حتَّى كادَ أنْ يَقَعَ عليهِم، كما قالَ اللهُ في الآيةِ الأخرَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وفي الآيةِ: أنَّ العَزْمَ على المَعصِيةِ مَعصِيةٌ.

وفِيها: تَربيةُ اللهِ لبَنِي إسرائِيلَ، ولِعبادِهِ، بالأوامِرِ، والنَّواهِي، والتَّكالِيفِ، التي تَحمِلُهُم على مُخالَفَةِ داعِي الهَوَى؛ لتُسْلِمَ النُّفُوسُ للهِ، وتَنْقادَ.

وفِيها: شُكرُ نِعمةِ الفَتْحِ بالقَوْلِ، والفِعْلِ، والتَّواضُعِ للهِ.

وفِيها: وُجُوبُ الالتِزامِ بحُدُودِ اللهِ، مَهْما كانَتِ المُغْرِياتُ، وبَنُو إسرائِيلَ لَمْ يُجاهِدُوا أنفُسَهُم في تَرْكِ صَيْدِ يَومِ السَّبتِ، وهُمْ يَرَوْنَ الحِيتانَ شُرَّعًا، ظاهِرةً أمامَهُم على الماءِ.

وفي الآيةِ: أنَّ العَهدَ الذي أخَذَهُ اللهُ على بَنِي إسرائِيلَ كانَ قَوِيًّا.

وفِيها: الاستِعانَةُ بأخذِ العَهدِ على العَمَلِ، ولَمَّا كانَ التَّكلِيفُ قَوِيًّا، ناسَبَهُ أخذُ مِيثاقٍ قَوِيٍّ، يُثمِرُ قُوَّةَ العَمَلِ.

وفِيها: الإجبارُ على العَمَلِ بالحَقِّ.

وفِيها: مُعاقَبَةُ المُتَقاعِسِينَ عَنْ تَنْفِيذِ الأوامِرِ.

وفِيها: أنَّ حقيقةَ السُّجُودِ: الذُّلُّ، والخُضُوعُ، والانقِيادُ.

وفِيها: تَحرِيمُ الاعتِداءِ على حُدُودِ اللهِ، وأوامِرِهِ، ونَواهِيهِ.

وفِيها: أنَّ بَعضَ النُّفُوسِ لا تَنْقادُ إلا تَحتَ التَّهدِيدِ المادِيِّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ حَدَّ حُدُودًا، لا يَجُوزُ تَعدِّيها، فيَكُونُ تَرْكُ أمرِه وفِعلُ نَهْيِهِ اعتِداءً.

وفِيها: أنَّه كانَ في شَرعِ بَنِي إسرائِيلَ الامتِناعُ عنِ الأعمالِ الدُّنيويَّةِ تَفرُّغًا للعِبادَةِ، كما في تَحريمِ العَمَلِ يومَ السَّبتِ، وقد قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِهذِهِ الأمَّةِ: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]، ثُمّ قالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وفِيها: أنَّ العِصيانَ يَجْلِبُ الخَوْفَ، ويُزِيلُ الأمنَ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ عَدَدًا مِنْ جرائِمِ اليَهودِ، فقالَ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: بسَبَبِ نَكْثِهِم عَهدَ اللهِ، وتَراجُعِهِم عن الالتِزام بما أخَذَهُ عليهِم ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جَحْدِهِم حُجَجَهُ، وبَراهِينَه، ومُعجِزاتِ أنبيائِهِ التي شاهَدُوها ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ الذينَ أُرْسِلُوا لهِدايَتِهِم، وتَعليمِهِم، وتَزكِيَتِهِم، كزكَرِيَّا ويَحيَى عليهِما السَّلامُ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: دُونَ مُوجِبٍ للقَتلِ، أو مُسوِّغٍ يُسوِّغُ ذلك، ومُحالٌ أصلًا أنْ يَجُوزَ قَتلُ نَبِيٍّ، فيكونُ معنَى قولِه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: بالباطِلِ المَحْضِ، فهذه صفةٌ كاشِفةٌ لِبيانِ الواقِعِ، وللتّشنِيعِ عليهِم بِفعلِهِم؛ لأنّه لا يُمكِن قَتْلُ نبيٍّ بحقٍّ أبدًا. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: وبسَبَبِ قولِهِم: قُلُوبُنا مُغلَّفةٌ في غِطاءٍ، لا تَفْقَهُ ما تَقولُهُ يا محمدُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وعليها غِشاءٌ، وحِجابٌ، فلا يَصِلُ إليها شَيءٌ مِنْ تَذكِيرِكَ، ومَوعِظَتِكَ. وقِيلَ معنَى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: أوعِيةٌ للعِلْمِ، قد حَوَتْهُ، وحَصَّلَتْهُ، فلا حاجَةَ بِنا إلى عِلمِكَ يا مُحمدُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَرَدَّ اللهُ عليهِم ذلكَ بقولِهِ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: إنَّ إعراضَها بسَبَبِ خَتْمِ اللهِ عليها؛ عُقُوبَةً لَهُم على كُفْرِهِم، وإعراضِهِم، كما قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقولُهُ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لَمَّا اعتادُوا الكُفرَ، والطُّغيانَ، صارَ فِيهِم قلَّةُ إيمانٍ، فلا يُسلِمُ مِنْهُم إلا القَليلُ، كعبدِاللهِ بنِ سَلامٍ، وغَيرِهِ، مِمَّنْ أرادَ اللهُ بِهِم خيرًا.

وقِيلَ: المَعنَى: لا يُؤمنُونَ أبدًا، وقِيلَ: لا يؤمنونَ إلَّا إيمانًا ضعيفًا، ليس براسخٍ في قلوبِهِم. والآيةُ صالحةٌ لِجميعِ هذِه الاحتِمالاتِ.

وقد ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ في هذِهِ الآيةِ أسبابًا مِن أسبابِ عُقُوبةِ اليَهودِ، ولم يَرِدْ في الآيةِ ما هِيَ العُقُوبَةُ، وهِيَ مَحذُوفَةٌ بَلاغَةً، وتَقديرُ الكلامِ: بسبَبِ ما تَقَدَّمَ -وغَيره- لَعنَّاهُم، وغَضِبْنا عليهِم، ويَدُلُّ على المَحذُوفِ قولُهُ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ بعضَ الخَلْقِ قد يَرتَكِبُ مِنَ الذُّنُوبِ العِظامِ، ما يُوجِبُ لَعنَةَ اللهِ عليْهِ، وإبعادَهُ عَنِ الهُدَى.

وفِيها: عاقِبَةُ نَقْضِ المَواثيقِ الإلهيَّةِ.

وفِيها: سُوءُ الكُفرِ بَعدَ قِيامِ الحُجَّةِ والبُرهانِ.

وفِيها: إجرامُ اليَهودِ بقَتلِ أنبياءِ اللهِ، وقد قَتَلُوا جَمًّا غَفِيرًا مِنْهُم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وفِيها: إعراضُ اليَهودِ البالِغ عنِ الحقِّ، وعَنْ سَماعِهِ، حتَّى أرادُوا أنْ يُؤَيِّسُوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُم، فقالُوا لَهُ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ وكأنَّهُم يقُولُونَ: لا فائِدَةَ مِنْ دَعْوَتِكَ، وتَذْكِيرِكَ؛ فإنّ قُلُوبَنا لا تَتَأَثَّرُ.

وفِيها: اغتِرارُ اليَهودِ بما عِندَهُم مِنَ العِلْمِ، وهذا وَبالٌ عليهِم؛ لأَنَّه -في الحَقِيقةِ- يَعنِي قِيامَ حُجَّةِ اللهِ عليهِم.

وفِيها: أنَّ قُلُوبَ اليَهودِ قد تَعَوَّدَتِ الكُفرَ، ومرَدَتْ عليهِ، فلا يُؤمِنُ مِنْهُم إلا القلِيلُ.

وفِيها: أنَّ نَقضَ اليَهودِ للعُهُودِ قد صارَ طَبْعًا، لا يُفارِقُهُم.

وفِيها: اجتِراءُ اليهودِ على أنبياءِ اللهِ، حتَّى وَصَلَ إيذاؤُهُم إلى دَرَجَةِ القَتلِ، وبَلَغُوا النِّهايَةَ في الاعتِداءِ.

وفِيها: التِماسُ اليَهودِ لأنفُسِهِم الأعذارَ في الكُفرِ.

وفِيها: استِعمالُ اليَهودِ لمَذْهَبِ الجَبْرِيَّةِ؛ فَهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ قُلُوبَنا قد خَلَقَها اللهُ بهذِهِ الطَّرِيقَةِ، ولا ذَنْبَ لَنا إذا لَمْ تَسْتَجِبْ، ولَمْ تَتَّعِظْ.

وفِيها: تَشابُهُ الكفَّارِ في الإعراضِ عَنِ الحقِّ، فإنَّ قَوْلَ اليَهودِ هذا يُشبِهُ قَوْلَ المُشرِكِينَ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

وفِيها: أنَّ مَنْ أعرَضَ أَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ، ومَنْ زاغَ أَزاغَ اللهُ قَلبَهُ، وطَبَعَ علَيْهِ.

وفِيها: أنَّ الطَّبْعَ على القَلْبِ عُقُوبَةٌ إلهيَّةٌ شدِيدَةٌ؛ لأنَّه سَدٌّ كامِلٌ، وغَلْقٌ مُحكَمٌ، بحَيْثُ لا يَنفُذُ إلى الشَّيءِ المَطْبُوعِ عليهِ أيُّ حَقٍّ، أو خَيْرٍ.

وفِيها: أنَّ الذينَ مَرَدُوا على الكُفْرِ هِدايَتُهُم نادِرَةٌ.

وفِيها: أنَّ اليهودَ لَمْ يَستَوْجِبُوا لَعْنَةَ اللهِ، وغَضَبَهُ، إلا بِجَرائِمَ عَدِيدَةٍ، بالِغَةِ القُبْحِ.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ رَأَوْا مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ، ما يُوجِبُ اليقِينَ، وإضافَةُ (آياتِ) إلى لَفْظِ الجَلالَةِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَدُلُّ على عَظَمَةِ الآياتِ، وبالتَّالِي: فإنَّ الكُفرَ بِها كُفْرٌ عَظِيمٌ، والعُقُوبَةَ على ذلكَ عُقُوبَةٌ عظيمَةٌ.

وفِيها: أنَّ مُنْتَهى الإعراضِ: جَحْدُ الحقِّ، وقَتلُ مَنْ يُبلِّغُهُ.

وفِيها: جَمعُ اليَهودِ بَيْنَ إثمَيْنِ عَظِيمَيْنِ، وهُما: الإعراضُ، والكَذِبُ، فَقَدِ ادَّعَوْا أنَّهُم لا يَفْهَمُونَ، وهُم في الحَقِيقةِ يَفهَمُونَ، ويعلَمونَ.

وفِيها: مُعانَدَةُ بَنِي إسرائِيلَ لِربِّهِم؛ فإنَّهُم -بالرَّغمِ مِنْ رَفْعِ الجَبَلِ فَوْقَهُم، حتَّى كادَ أنْ يَنْهَدَّ عليهِم، وأطاعُوا رَغْمًا عَنْهُم-، لكنَّهُم بَعدَ ذلكَ نَقَضُوا المِيثاقَ، وعَصَوُا اللهَ.

وفِيها: بيانٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ الذينَ نَقَضُوا المِيثاقَ الغَلِيظَ، وفَعَلُوا ما فعَلُوا، لَيْسَ بِغَرِيبٍ عليهِم أنْ يُكَذِّبُوكَ، ويَعْصُوكَ، ويَكفُرُوا بنُبوَّتِكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إثمًا عَظِيمًا مِنْ آثامِ اليَهودِ، وهو افتِراؤُهُم على الطَّاهِرَةِ العَفِيفَةِ مَرْيَمَ البَتُولِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذا مِنْ طَبْعِهِم؛ لأنَّهُم قَومٌ بُهْتٌ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ١٥٦﴾.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ تكَرَّرَ وَصْفُهُم بالكُفرِ؛ لأنَّهُم كَفَرُوا بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَعَطَفَ بَعضَ كُفرِهِم على بَعضٍ. ويُمكِنُ أنْ يَكونَ الكُفرُ المَعطُوفُ هُنا هُوَ الكُفرَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكُفرُ المَذكُورُ سابِقًا، إمَّا الكُفرُ المُطلَقُ، وإمَّا الكُفرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، كما دلَّ عليهِ قولُهُم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وكانَ التَّمهِيدُ لِكُفرِهِم بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ قَذْفَ أُمِّهِ؛ ولِذلكَ قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ والبُهتانُ: هو الكَذِبُ الشَّنِيعُ الذي يُبْهِتُ مَنْ يُقالُ فِيهِ، ويُدْهِشُهُ، ويُحيِّرُهُ، وقد جاءَ في هذِهِ الآيةِ مُجْمَلًا، وجاءَ بيانُهُ في موضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتابِ اللهِ في سُورَةِ مَرْيَمَ، في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، فَرَمَوْها بارتِكابِ الفاحِشَةِ، وأنَّها حَمَلَتْ بِوَلَدِها مِنَ الفُجُورِ، بَلْ قِيلَ: إنَّهُم زادُوا بأنَّها زنَتْ وهِيَ حائِضٌ، فَعَلَيهِم لَعائِنُ اللهِ المُتَتابِعَة إلى يومِ القِيامَةِ.

وفي الآيةِ: أنَّ مِنْ جَرائِمِ اليَهودِ: القَذْفَ.

وفِيها: جُرْمُهُم المُضاعَفُ بِقَذْفِهِم مَرْيَمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وهِيَ أعبَدُ وأصْلَحُ نِساءِ زَمانِها، وهِيَ مِنَ النِّساءِ الكامِلاتِ القَليلاتِ في العالَمِ.

وفِيها: سَبُّهُم وقَذْفُهُم لنبيِّ اللهِ عِيسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، بأنَّهُ وَلَدُ زِنا، فَعَلَيهِم لَعْنَةُ اللهِ.

وفِيها: تكذِيبُهُم بِقدرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، بِخَلْقِ الوَلَدِ مِنْ أُنْثَى بِلا ذَكَرٍ، ومُنْكِرُ قُدرَةِ اللهِ كافِرٌ.

وفِيها: أنَّ البُهتانَ الذي اقتَرَفَهُ اليهودُ، كانَ بُهتانًا عظِيمًا؛ وذَلكَ لِشُمُولِهِ لَعَدَدٍ مِنَ الصَّالِحِينَ، ولكونِه طَعْنًا في نَسَبِ نَبِيٍّ مِنْ أُولِي العَزْمِ؛ ولِذلكَ وَصَفَهُ اللهُ بأنَّهُ عَظِيمٌ، كما وَصَفَ الافتِراءَ على عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بقولِهِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]. فالذينَ يَطعَنُونَ في عائِشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا هُم بِمَنزِلَةِ اليَهودِ، الذينَ يَطْعَنُونَ في مَرْيَمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ.

وفِيها: أنَّه بَلَغَ مِنْ سُوءِ بُهتانِهِم، أنَّهم أصرُّوا عليهِ، بَعدَ أنْ رَأَوُا الآياتِ، وكلَّمَهُم عِيسَى في المَهْدِ.

وفِيها: الإشارةُ إلى كَرامَةِ مَريَمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، مِنْ خَلْقِ وَلَدِها مِنها بلا زَوْجٍ، ومُعجِزَةٌ لِعِيسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، مِنْ خَلْقِهِ وَلَدًا بلا أبٍ.

ثُمَّ عَطَفَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على جرائِمِ اليهودِ المتقدِّمَةِ، وكُفرِيَّاتِهِم السَّابِقَةِ، ادِّعاءَهُم قَتلَ عِيسَى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكذَّبَهُم سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في ذلكَ، فقالَ:

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾.

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا﴾ قالَتْها اليَهودُ جُرْأَةً، وافتِخارًا بالجَريمَةِ ﴿ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ ذَكَرُوهُ بلَقَبِهِ، واسمِهِ، وكُنيَتِهِ، مِنْ بابِ التَّوكِيدِ، وأنَّهُم قَصَدُوهُ عِيانًا ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وَصْفُهُم لَهُ بالرِّسالَةِ استِهزاءٌ بِهِ، كَقَولِ المُشْرِكِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحِجْر: ٦]. وقالَ بَعضُ المُفسِّرينَ: هذا مِنْ وَصْفِ اللهِ لنَبِيِّهِ عِيسَى، ولَيْسَ مِنْ قَولِ اليَهودِ. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ نَفيٌ قَطعِيٌّ لِقتلِهِ مِنْ أَصدَقِ القائِلِينَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ نَفْيٌ قطعِيٌّ لِصَلبِهِ، والصَّلْبُ: أنْ تُوضَعَ خَشَبَةٌ على طُولِ جَسَدِ المَصْلُوبِ، وتُشدُّ يَداهُ بَعَضُدَيْها على

خَشَبَةٍ أخرَى عارِضَةٍ، تَتَعامَدُ مَعَها على مُستَوَى يَدَيِ المَصْلُوبِ المَعرُوضَتَيْنِ. ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ أي: أُلقِي شَبَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ على شَخْصٍ غَيرِهِ، فأَخَذَهُ اليَهودُ، وقَتَلُوهُ، وصَلَبُوهُ، يَظُنُّونَهُ عِيسَى، ثُمَّ قامَتْ ثائِرَةُ الشَّكِّ فِيهِم، فقالُوا: إذا كانَ المَقتُولُ عِيسَى، فأَيْنَ الشَّخصُ الآخَرُ؟ وإذا كانَ المَقتُولُ هُوَ الشَّخصُ الآخَرُ، فأَيْنَ عِيسَى؟ ووَقَعُوا في الحَيْرَةِ، والاضطِرابِ العَظِيمِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبيِّنًا الحَقِيقةَ: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ أي: أُلقِيَ شَبَهُ عِيسَى على حَوارِيِّهِ، فأُخِذَ بَدَلًا مِنْهُ، أوِ التبَسَ علَيهِم الأمرُ، واختَلَطَ، فلَمْ يَعُودُوا يَدرُونَ ماذا حَصَلَ؟

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: هَلْ هُوَ عِيسَى، أم لا؟ وذلك لأنَّ الشَّبَهَ لَمْ يَكُنْ تامًّا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ في تَردُّدٍ: هل قَتَلُوه، أو قَتَلُوا غَيْرَهُ؟ حتَّى قِيلَ: إنَّ بعضَهُم قالُوا: الوَجهُ وَجْهُ عِيسَى، والجَسَدُ جَسَدُ غَيرِهِ، وقالَ بعضُهُم: إنْ كانَ هذا عِيسَى، فأينَ صاحِبُنا؟ وإنْ كانَ صاحِبَنا، فأينَ عِيسَى؟ وقولُهُ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ أي: لَيْسَ لليَهودِ يَقِينٌ بقَتلِهِ ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ أي: لَيْسَ لَهُم إلَّا ذلكَ التَّرجِيحُ الذي ذَهَبُوا إليهِ، والتَّخيُّلُ الذي بَنَوْا عليهِ؛ بسَبَبِ الشَّبَهِ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ إعادةُ نَفْيِ قَتلِهِم عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تأكِيدًا على ما تَقَدَّمَ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

بُغْضُ اليَهودِ لنبيِّ اللهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفِيها: سَعْيُهُم في قَتلِ الأنبِياءِ.

وفِيها: أنَّهُم يَقتُلُونَ مُخالِفَهُم، ولَوْ كانَ على الحَقِّ.

وفِيها: أنَّ الإقرارَ شَهادَةٌ.

وفِيها: نَفْيُ قَتلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطْعًا.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ باءُوا بإِثْمِ القَتلِ لِعَزْمِهِم، وإصرارِهِم، وسَعْيِهِم؛ ولأنَّ القَتلَ حَصَلَ مِنْهُم بلا شَكٍّ، ولكنَّهُم قَتَلُوا شَخصًا آخَرَ، غيرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفِيها: مَدْحُ اللهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرِّسالَةِ، ووَصْفُهُ بذَلِكَ.

وفِيهـا: حَسَـدُ اليَهـودِ للأنبيـاءِ، وتَكذِيبُهُـم بمُعجِزاتِهِـم؛ فإنَّهُم قـد رَأَوا آياتِ عِيسَـى الباهِـراتِ، ومُعجِزاتِـهِ البيِّنـاتِ، مِنَ الإخبـارِ بالمُغيَّبـاتِ، والإبراءِ، والإحيـاءِ، بإذنِ ربِّ البَرِيَّاتِ، ومَعَ ذلِك كَذَّبوه ولَم يُؤمِنُوا بِه.

وفِيها: سَعيُ اليَهودِ في الوِشايَةِ بخَيْرِ خَلْقِ اللهِ في ذلكَ الوَقتِ، كما وردَ في الآثارِ.

وفِيهـا: إيذاءُ اليَهودِ لِعِيسَـى عَلَيهِ السَّلامُ، ومُطارَدَتُهُم لَهُ، وسَـعْيُهُم في قَتلِـهِ، وقدْ قِيلَ: إنَّهم قالُـوا عَنْـهُ: الزَّانِي ابـنُ الزَّانِيةِ، والسَّـاحِرُ ابـنُ السَّـاحِرَةِ، وأنَّهُم لَمَّـا صَلَبُوهُ بَصَقُـوا عليهِ، ووَضَعُوا الشَّوكَ فَوْقَ رأسِهِ.

وفِيها: عَدَمُ جَوازِ الحُكْمِ بالشَّكِّ، وأنَّه لا بُدَّ مِنَ اليَقِينِ لإقامَةِ الحُدودِ.

وفِيها: تَحرِيمُ القَتلِ بالشُّبهَةِ.

وفِيها: التِباسُ الحَقِّ على اليَهودِ، والنَّصارَى.

وفِيها: مُتابَعَةُ النَّصارَى لِمَزاعِمِ اليَهودِ الكاذِبَةِ.

وفِيها: استِهزاءُ اليهودِ بِرسالَةِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ، وجَحْدُهُم نُبوَّتَه.

وفِيها: اختِلاطُ الأمُورِ على أهلِ الكِتابِ.

وفِيها: فَسادُ دِينِ النَّصارَى بتَعظِيمِ الصَّلِيبِ، الذي هُوَ سَبَبُ الإيلامِ، والتَّعذِيبِ.

وفِيها: أنَّ تَعظِيمَ الصَّلِيبِ خُرافَةٌ.

وفِيها: حِفْظُ اللهِ لأنبيائِهِ.

وفِيها: فَضْحُ الدَّعاوَى الباطِلَةِ، ورَدُّ المَزاعِمِ الفاسِدَةِ.

وفِيها: كَذِبُ النَّصارَى في كلِّ ما يَصنَعُونَهُ مِنَ الصُّوَرِ على هَيْئَةِ صَلْبِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ.

وفِيها: أهمِيةُ العِلْمِ في مَسائِلِ الاعتِقادِ، وأنَّه لا يَجوزُ أنْ تُبنَى العَقِيدَةُ على الظُّنُونِ.

وفِيهـا: تَعرِيـفُ اللهِ للبَشَرِ بحَقِيقـةِ ما حَصَلَ في هذا الأمـرِ، الذي كَثُرَ فيـهِ الاضطِرابُ والاختِلافُ بَيْنَهُم.

وفِيها: مُعانَدَةُ اليَهودِ للهِ، بإيذاءِ مَنْ يُحِبُّهُ، والاستِهزاءِ بِهِ.

وفِيها: فَسادُ نَقلِ النَّصارَى عَنْ أسلافِهِم: أنَّهُم شاهَدُوا المَسِيحَ مَقْتُولًا، وفَسادُ ما يَزْعُمُونَ مِنَ التَّواتُرِ، وأنَّ حَقِيقَتَهُ الكَذِبُ.

وفِيها: أنَّ شَكَّهُم لَيْسَ في حُصُولِ القَتلِ، وإنَّما في كَوْنِ المَقتُولِ، هَلْ هُوَ عِيسَى، أمْ لا؟

وفِيها: نِسبَةُ مَنْ لَيْسَ لَهُ أبٌ إلى أُمِّهِ.

وفِيها: شَناعَةُ التَّبجُّحِ بالكُفرِ، واقتِرافِ الكبائِرِ.

وفِيها: تَمامُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومِنْ ذلكَ: إلقاؤُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَبَهَ عِيسَى على رَجُلٍ آخَرَ.

وفِيها: تَكْرارُ التَّأكِيدِ على الحَقائِقِ المُهِمَّةِ.

وفِيها: أنَّ الذينَ قَتَلُوا شَبِيهَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُونُوا مُتأكِّدِينَ مِمَّا فعَلوا.

وفِيها: الرَّدُّ على النَّصارَى بإثباتِ بَشَرِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورِسالَتِهِ.

وفِيها: بَيانُ أنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْلُودٌ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَلِدْ، ولَمْ يُولَدْ.

وفِيها: إبطالُ زَعْمِ النَّصارَى بأنَّ عِيسَى ابنُ اللهِ.

وفِيها: أنَّ عَدَمَ العِلمِ، واليَقِينِ، يُوقِعُ في الاختِلافِ، والتَّفرُّقِ.

ولَمَّا قطَعَ عَزَّوَجَلَّ بأنَّ نبيَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُقْتَلْ، ذَكَرَ ماذا حَدَثَ لَهُ بَعدَ أنْ ألْقَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَبَهَه على غَيرِه، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨﴾.

﴿بَل﴾ حَرْفُ إضرابٍ، جِيءَ بها هنا؛ لإبطالِ ما ذُكِرَ قَبْلَها[1]، والمَقصُودُ: إبطالُ قَوْلِ اليَهودِ أنَّهُم قَتَلُوا عِيسَى ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: رَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا بِجَسَدِهِ، ورُوحِهِ ﴿إِلَيۡهِ﴾

(١) قال بدرُ الدين العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلمة: بل، حرف إضراب، فإن تلاها جملة: كانَ معنى الإضراب: إمَّا الإِبْطال، وَإِمَّا الِانْتِقال عَن غَرَض إِلى غَرَض، وَإِن تَلاها مُفْرد: فَهِيَ عاطفة». عمدة القاري (٢/ ٦).

إلى السَّماءِ، وقد لَقِيَهُ محمدٌ ﷺ في السَّماءِ الثَّانيةِ، في حَديثِ المِعراجِ[(١)]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي: ذُو عِزَّةٍ عظيمَةٍ ﴿حَكِيمًا﴾ له الحِكْمَةُ البالِغَةُ، والحِكْمَةُ: هِيَ إحكامُ الشَّيءِ، وإتقانُهُ، وَوَضْعُهُ في مَوْضِعِهِ، وأيضًا: له الحُكْمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَشْرَعُ ما يَشاءُ، ويَحْكُمُ ما يُرِيدُ.

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: «لَمَّا أَرادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السَّماءِ، خَرَجَ عَلَى أَصْحابِهِ وَهُمْ في بَيْتٍ، اثْنا عَشَرَ رَجُلًا، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ ماءً، فَقالَ: أَيُّكُمْ يُلْقَى شَبَهِي عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مَكانِي فيَكُونُ مَعِي في دَرَجَتِي؟ فَقامَ شابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فقالَ: أنا، فقالَ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعادَ عَلَيْهِمْ، فَقامَ الشَّابُّ، فَقالَ: أنا، فَقالَ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعادَ عَلَيْهِمُ الثَّالِثَةَ، فَقالَ الشَّابُّ: أَنا، فَقالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ أَنْتَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ رُفِعَ عِيسَى مِنْ رَوْزَنَةٍ كانَتْ في البَيْتِ إلى السَّماءِ، وَجاءَ الطَّلَبُ مِنَ اليَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّابَّ لِلشَّبِهِ، فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَتَفَرَّقُوا ثَلاثَ فِرَقٍ، فَقالَتْ فِرْقَةٌ: كانَ فِينا اللهُ عَزَّوَجَلَّ ما شاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إلى السَّماءِ، وَهَؤُلاءِ اليَعْقُوبِيَّةُ، وَقالَتْ فِرْقَةٌ: كانَ فِينا ابْنُ اللهِ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلاءِ النَّسْطُورِيَّةُ، وَقالَتْ طائِفَةٌ: كانَ فِينا عبدُاللهِ وَرسولُهُ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ، فَهَؤُلاءِ المُسْلِمُونَ، فَتَظاهَرَتِ الكافِرَتانِ عَلَى المُسْلِمَةِ فَقَتَلُوها، فَلَمْ يَزَلِ الإسْلامُ طامِسًا، حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، يَعْنِي الطَّائِفَةَ الَّتِي كَفَرَتْ في زَمانِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ في زَمانِ عِيسَى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بِإِظْهارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الكُفَّارِ ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾»[(٢)].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

إِنْجاءُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نبيَّه عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أيدِي اليَهودِ.

وفيها: رَفْعُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَرَجَةَ نبيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِسًّا، ومَعْنًى، مَكانًا، ومَنزِلَةً.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٥٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٨٧٦)، وصححه ابن كثير، وقال: «وَكَذا ذَكَرَ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّهُ قالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فيقتلُ مَكانِي، وَهُوَ رَفِيقِي في الجَنَّةِ؟». تفسير ابن كَثيرٍ (٢/ ٤٥٠).

وفِيهـا: إثبـاتُ عُلُـوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عـلى خَلْقِـهِ؛ لأنَّ رَفْـعَ عِيسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ إلى أعلَى، وهو مُقْتَضَى الرَّفعِ -لُغَةً-.

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَكِيمٌ في شَرْعِهِ، وقَدَرِهِ.

وفِيها: نَصرُ اللهِ لأنبيائِهِ، وإعزازُهُ لَهُم، فصارَ عِيسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَكانٍ لا يَصِلُ إليهِ حُكمُ آدَمِيٍّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزِيزٌ، لا يُغلَبُ.

وفِيها: مُناسَـبَةُ خَتْمِ الآيةِ لَموضُوعِها؛ لأنَّ اليهودَ جـاءُوا مُغالِبِينَ، يُرِيدُونَ قَتلَ نبيِّ اللهِ، فغلَبَهمُ اللهُ، فلَمْ يَستَطِيعُوا ذلكَ، ولَمَّا كانَ لَهُ الحُكْمُ عليهِم مَنَعَهُم مِمَّا يُرِيدُونَ، فَخَتَمَ الآيَةَ بِذِكرِ عِزَّتِهِ، وحُكْمِهِ.

وفِيهـا: أنَّ للهِ العزَّةَ بأنواعِها: عِزَّةُ القَهرِ، وعِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ الامتِناعِ، فَهُوَ عَزِيزٌ يَغلِبُ، ولا يُغلَبُ، ولَهُ القَدْرُ العظِيمُ، ويمتَنعُ عليهِ النَّقصُ، ويُقالُ في اللُّغةِ: أرضٌ عَزازٌ، أي: صَلبَةٌ قَوِيَّةٌ.

وفي الآيـةِ: أنَّ عِيسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ حـيٌّ الآنَ، وأنَّـه لَمْ يَمُـتْ، وأمَّـا قولُـهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فيعنِـي: مُنِيمُـكَ، فالمقصُـودُ الوفـاةُ الصُّغـرَى، أو المعنَـى: إنِّي قابِضُكَ وَرافِعُكَ إلى السَّماءِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ.

وفِيها: وُجُوبُ ثِقَةِ المُسـلِمِ بعِـزَّةِ ربِّهِ، وقُوَّتِهِ، وغَلَبَتِهِ، واقتِناعِـهِ بحُكْمِهِ، والانقِيادِ له، ورِضاهُ بقَدَرِهِ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَتَـبَ على كلِّ إنسـانٍ مَوْتَةً واحِـدَةً، ولَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسـتَوْفِيَ أجَلَها، وسَيَنْزِلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًّا؛ لاستِيفاءِ أجَلِهِ، ثُمَّ يَمُوتُ.

وفِيها: ما لَقِيَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَناءِ إيذاءِ بَنِي إسرائِيلَ، وقد أراحَهُ اللهُ مِنْ ذَلكَ، ورَفَعَهُ إليهِ رَحمَةً بِهِ، وتَكْرِيمًا لَهُ، وتَشرِيفًا، وقُربَى وزُلْفَى عِندَه سبحانَهُ.

وفِيها: مُعجِزَةٌ باهِرَةٌ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ في رَفْعِهِ، وبَقائِهِ في السَّماءِ إلى قُرْبِ قِيامِ السَّاعَةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَدَّخِرُ أنبياءَهُ للمُهِمَّاتِ العَظِيمَةِ، فإنَّه يُبقِي عِيسَى عِندَهُ لِيَنْزِلَ آخِرَ الزَّمانِ؛ لِقَتلِ الدَّجَّالِ، ولِيَمْلأَ الأرضَ توحِيدًا، وعَدْلًا.

وفِيها: الإشارَةُ إلى تَفرُّقِ بَنِي إسرائِيلَ بَعدَ رَفْعِ نبيِّهِم، وأنَّهُم لَمَّا خَذَلُوهُ عاقَبَهُم اللهُ بأنْ أغْرَى بَيْنَهُمُ العَداوَةَ، والبَغْضاءَ، وقد صارُوا فِرَقًا، حتَّى في اعتِقادِهِم في نبيِّهِم، فمِنْهُم مَنْ قالَ: هُوَ اللهُ، ومِنْهُم مَنْ قالَ: هُوَ ابْنُ اللهِ، ومِنْهُم مُسلِمُونَ مُوحِّدُونَ، قالُوا: هُوَ رسولُ اللهِ، وقد ذَكَرَ اللهُ مَقالاتِهم في كِتابِهِ.

وفِيها: أنَّ آخِرَ آياتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَرحَلَتِهِ الأولَى في الأرضِ، كانَتِ الرَّفْعَ إلى السَّماءِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختِلافَ اليَهودِ، والنَّصارَى، في عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَطَعَ بَعدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّ الشَّكَّ فِيهِ سَيَزُولُ عَنْ كُلِّ كِتابِيٍّ، وذلِكَ حِينَما يَنزِلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرضِ، ويَمُوتُ فِيها، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وما مِنْ أحَدٍ مِنْ أهلِ الكِتابِ ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: بعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبأنَّه عبدُاللهِ ورسولُهُ، وقيلَ: بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: قَبْلَ مَوتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقِيلَ: قَبْلَ مَوتِ ذلكَ الكِتابِيِّ الذي يُؤمِنُ، وقد قالَ بَعضُ المُفسِّرِينَ: إنَّ المُرادَ أنَّ الكِتابِيَّ إذا نَزَلَ بِهِ المَوتُ، وعايَنَ مَلَكَ المَوْتِ، آمَنَ بعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبدًا، ورسولًا، وقالَ بَعضُ المُفسِّرِينَ: إنَّ المُرادَ أنَّ مِنْ أهلِ الكِتابِ مَنْ سَيُضطَرُّ إلى الإيمانِ بعِيسَى، إذا نَزَلَ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّه لَنْ يَقْبَلَ مِنْ أهلِ الأرضِ إلا الإسلامَ، ومَنْ لَمْ يَتَّبِعْ ذلك يُقتَلْ، فيَدْخُلُونَهُ راغِمِينَ، وفي الصَّحيحَيْنِ عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، ويَقتُلَ الخِنزِيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ، ويَفِيضَ المالُ، حتَّى لا يَقْبَلَهُ أحدٌ، حتَّى تَكُونَ السَّجدَةُ الواحِدةُ خَيرًا مِنَ الدُّنيا وما فِيها**». ثُمَّ يقولُ أبوهُرَيرَةَ: واقرَؤُوا إنْ شِئْتُم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

---

(١) رواه البخاريّ (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

وعـن أبي هُرَيـرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: «**الأَنْبياءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شَـتَّى وَدِينُهُمْ واحِدٌ**(١)، **وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نازِلٌ، فَإِذا رَأَيْتُمُوهُ فاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلى الحُمْرَةِ والبَياضِ، عَلَيْهِ ثَوْبانِ مُمَصَّرانِ**(٢)، **كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَـدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَـعُ الجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلى الإِسْـلامِ، فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمانِهِ المِلَلَ كُلَّها إِلَّا الإِسْـلامَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، ثُـمَّ تَقَـعُ الأَمَنَةُ عَـلَى الأَرْضِ، حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُـودُ مَعَ الإِبِـلِ، والنِّمارُ مَعَ البَقَـرِ، والذِّئابُ مَعَ الغَنَمِ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيانُ بِالحَيَّاتِ، لا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَـنَةً، ثُمَّ يُتَوَفى، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ**»(٣).

ورَوَى مُسـلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، فِي حَدِيثِ الدَّجَّالِ، وقَتلِهِ الشَّـابَّ، قالَ: «**فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللهُ المَسِـيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنارَةِ البَيْضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْـقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ**(٤)، **واضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمانٌ كاللُّؤْلُؤِ، فَلا يَحِـلُّ لِكافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِـهِ إِلَّا ماتَ، وَنَفَسُـهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُـهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَـحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الجَنَّةِ**»(٥).

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ -عنِ الأَحادِيثِ السَّابِقَةِ، وغَيرِها-: «وفِيها دَلالَةٌ على صِفَةِ نُزُولِهِ، ومَكانِهِ، مِنْ أَنَّه بالشَّـامِ، بَلْ بِدِمَشْـقَ عِندَ المَنارَةِ الشَّرقيَّةِ، وأَنَّ ذلكَ يَكونُ عندَ إقامَةِ صَلاةِ الصُّبـحِ... فيَقْتُـلُ الخِنْزِيـرَ، ويَكْسِرُ الصَّلِيـبَ، ويَضَعُ الجِزْيَـةَ، فلا يُقبَلُ إلا الإسـلامُ، كما تَقَـدَّمَ في الصَّحيحَـيْنِ، وهذا إخبارٌ مِنَ النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلِكَ، وتَقرِيرٌ، وتَشْرِيعٌ، وتَسْـوِيغٌ

---

(١) قـالَ النّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «قـالَ العُلَماءُ: أَوْلادُ العَلاَّتِ: هُمُ الإِخْوَةُ لِأَبٍ مِنْ أُمَّهاتٍ شَـتَّى، وَأَمَّا الإِخْوَةُ مِنَ الأَبَوَيْنِ فَيُقـالُ لَهُمْ: أَوْلادُ الأَعْيـانِ. قالَ جُمْهُورُ العُلَماءِ: مَعْنَـى الحَدِيثِ: أَصْلُ إِيمانِهِمْ واحِدٌ، وَشَرائِعُهُـمْ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُـونَ فِي أُصُـولِ التَّوْحِيدِ، وأما فروع الشرائع: فوقع فيها الاختلاف» شرح النووي على مسـلم (١٥/ ١١٩، ١٢٠)

(٢) المُمَصَّرَةُ مِنَ الثِّيابِ: الَّتِي فِيها صُفْرَةٌ خَفِيفَةٌ. النهاية (٤/ ٣٣٦).

(٣) رواه أحمد (٩٢٧٠)، وصححه الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٣).

(٤) أَيْ: فِي شُقَّتَينِ، أَوْ حُلَّتَيْنِ. وَقِيلَ: الثَّوبُ المَهْرُودُ: الَّذِي يُصْبَغ بالوَرْسِ، ثُمَّ بالزَّعْفَران. النهاية (٥/ ٢٥٨).

(٥) رواه مسلم (٢٩٣٧).

لَـهُ عـلى ذلكَ، في ذلكَ الزَّمـانِ، حَيثُ تَنْزاحُ عِلَلُهُـم -أي: النَّصارَى- وتَرتَفِعُ شُبَهُهُم مِنْ أنفُسِـهِم؛ ولِهَذا كُلُّهُم يَدخُلُونَ في دِينِ الإسـلامِ؛ مُتابَعَةً لِعِيسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى يَدَيْهِ، ولِهَذا قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ...﴾ الآية»(١).

وقولُـهُ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: يكـونُ عِيسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ شـاهِدًا عَلَيهِم، بتكذِيـبِ مَـنْ كَذَّبَهُ مِنْهُـم، وتَصْدِيقِ مَنْ صَدَّقَهُ مِنْهُم، كما جاءَ في آخِرِ سـورة المائِدَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وقـد قيلَ: الشَّـهِيدُ: الشَّـاهِدُ الذي يَشْـهَدُ بأنَّـهُ بَلَّغَهُم دَعْـوَةَ رَبِّهِم، فأَعْـرَضَ النَّصارَى وبَدَّلُوا، وقِيلَ: شَهِيدًا على نَفْسِـهِ بالعُبُودِيَّةِ، وتَبلِيغِ الرِّسالَةِ، وتَكْذِيبِ المُكَذِّبِ، وتَصدِيقِ المُصَـدِّقِ، قالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَشْـهَدُ عليهِم أنَّه قَدْ بَلَّغَهُم الرِّسـالَةَ مِـنَ اللهِ، وأَقَرَّ بالعُبُودِيَّةِ للهِ»(٢). وقِيلَ: يَشْهَدُ عليهم بأعمالِهِم، هَلْ هِيَ مُوافِقَةٌ لِشرَعِ اللهِ، أمْ لا؟ قالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بأعمالِهِم التي شـاهَدَها مِنْهُم قَبْلَ رَفْعِهِ إلى السَّـماءِ، وبَعْدَ نُزُولِهِ إلى الأرضِ»(٣).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

وَعِيدُ أهلِ الكِتابِ، وتَحرِيضُهُم على الإيمانِ الاختِيارِيِّ بعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَبْلَ أنْ يُضطَرُّوا إلى ذلكَ، ويُجبَرُوا علَيهِ.

وفِيها: تَأييدٌ لِما جاءَ قَبْلَها مِنْ إبطالِ قَوْلِ اليَهُودِ، ومَنْ صَدَّقَهُم مِنْ جَهَلَةِ النَّصارَى، بأنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قُتِلَ؛ وذلكَ أنَّ هذِهِ الآيَةَ فِيها الإشارَةُ إلى نُزُولِهِ في آخِرِ الزَّمانِ، واضطِرارِ

---

(١) تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٦٤).

(٢) تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٦٦).

(٣) تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٥٤).

أهلِ الكِتابِ للإيمانِ بِهِ بَعدَ نُزُولِهِ، ثُمَّ يَمُوتُ حَقِيقَةً، وهذا يُبطِلُ القولَ بمَوْتِهِ قَبْلَ ذلكَ.
واتِّحادُ الضَّمائِرِ في عَوْدِها إلَى شَيءٍ واحِدٍ، أولَى مِنَ القَوْلِ باختِلافِها، فقولُهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الضّميرُ فِيها كلِّها يَعُودُ إلَى شَيءٍ واحِدٍ، وهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلكَ الضَّميرُ المُستَتِرُ في قولِهِ: ﴿يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

وفِيها: إثباتُ نُزُولِ عيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ الزَّمانِ، وأنَّه يُقِيمُ في الأرضِ شَرِيعَةَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومِنْ ذلكَ: قِيامُهُ بالحَجِّ، والعُمرَةِ، وإهلالُهُ بالتَّلبِيَةِ فِيهِما، كما جاءَ في حديثِ أبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحاءِ، حاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُما**»[2].

وفي الآيةِ: أنَّه لا يَبْقَى أحَدٌ مِنْ أهلِ الكِتابِ في آخِرِ الزَّمانِ على دِينِهِ.

وفِيها: أنَّ عَدَمَ الإكراهِ في الدِّينِ بقَبُولِ أَخْذِ الجِزْيَةِ، لِمَنْ أرادَ البَقاءَ على دِينِهِ مِنْ أهلِ الكِتابِ، يُسْتَثْنَى مِنْه هذِهِ الحالةُ الخاصَّةُ، التي تَكونُ في زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفِيها: رُجُوعُ الكفَّارِ إلى الحقِّ إذا رَأَوُا اليَقِينَ، وهُوَ المَوْتُ.

وفِيها: تَحْطِيمُ شِعاراتِ الكُفرِ، ورُمُوزِ الشِّركِ، كما يَفْعَلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصَّلِيبِ.

وفِيها: تَطهِيرُ الأرضِ مِنَ الكُفرِ في عَهْدِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَطُوبَى لِعَيْشٍ في ذلكَ الزَّمانِ.

---

(١) قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ ما ملخصه: «رُجوعُ الضّميرِ في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إلى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يترجّحُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: منها: أَنَّهُ هُوَ ظاهِرُ القُرْآنِ المُتَبادَرُ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ تَنْسَجِمُ الضَّمائِرُ بَعْضُها مَعَ بَعْضٍ. وَإِيضاحُ هَذا: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أَيْ: عِيسَى، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أَيْ يَكُونُ هُوَ -أَيْ: عِيسَى- عَلَيْهِمْ شَهِيدًا.
فَهَذا السِّياقُ القُرْآنِيُّ الَّذِي تَرَى ظاهِرٌ ظُهُورًا لا يَنْبَغِي العُدُولُ عَنْهُ، في أَنَّ الضَّمِيرَ في قَوْلِهِ: (قَبْلَ مَوْتِهِ) راجِعٌ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ» أضواء البيان (٧/ ١٢٩، ١٣٠)

(٢) رواه مسلم (١٢٥٢).

وفِيها: مُناسَبَةُ نُزُولِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ، دُونَ غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، فإنَّ أهلَ الكِتابِ لَمْ يَختَلِفُوا في نبيٍّ كما اختَلَفُوا فِيهِ؛ ولِذلكَ يَنزِلُ قاضِيًا بَيْنَهُم، حاكِمًا عليهِم، حامِلًا لَهُم على الإسلامِ، ونُزُولُهُ آيةٌ عَظِيمةٌ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، وهُوَ مِنْ أشراطِ السَّاعَةِ الكُبرَى.

وفِيها: إشارةٌ إلَى تَحقُّقِ السَّلامِ العالَمِيِّ في عَهْدِ عيسَى عَلَيهِ السَّلامُ، ولَنْ يَكونَ قَبْلَ ذلكَ، ما دامَ في الأرضِ إسلامٌ، وكُفرٌ، وتَوحِيدٌ، وشِركٌ؛ لأنَّ سُنَّةَ المُدافَعَةِ بَيْنَ الحَقِّ، والباطِلِ، سُنَّةٌ ربَّانِيَّةٌ، مُستَمِرَّةٌ.

وفِيها: أنَّ عيسَى عَلَيهِ السَّلامُ آيَةٌ عظِيمَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ عيسَى عَلَيهِ السَّلامُ لا يَعلَمُ الغَيْبَ، ولا يَشْهَدُ إلا على ما حَضَرَهُ.

وفِيها: شَهادَةُ الأنبياءِ على البَلاغِ، وعلى مَنِ اتَّبَعَهُم ومَنْ كَذَّبَهُم مِنَ النَّاسِ.

وفِيها: فَضلُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ؛ وذلكَ لِنُزُولِ عيسَى عَلَيهِ السَّلامُ حاكِمًا بشَرعِهِ.

وفِيها: المُفاجَأَةُ الكُبرَى لأهلِ الكِتابِ، مِمَّنْ عادَى عِيسَى، أو غَلا فِيهِ، عندَما يُفاجِئُهُم بنفسِهِ، فيَرَوْنَهُ أمامَهُم، عبدًا، رسولًا، لا كاذِبًا، فاجِرًا، قد ماتَ، كما قالَتِ اليَهودُ، ولا إلَهًا، أو ابنًا لَهُ، كما قالَتِ النَّصارَى -تَعالَى اللهُ عمَّا يقولُ الظَّالِمُون-.

وفِيها: إقامَةُ اللهِ الحُجَّةَ على البَشَرِيَّةِ بِطَرائِقَ شَتَّى، فَهَذا وَحْيٌ نازِلٌ، وهذا نَبِيٌّ يُبْعَثُ فِيهِم، وهذا نَبِيٌّ يَنزِلُ عليهِم، وهذِهِ آياتٌ، ومُعجِزاتٌ، يَرَونَها أمامَهُم، وغيرُ ذلكَ، حتَّى لا يكونَ لأحَدٍ حُجَّةٌ على اللهِ.

وفِيها: أنَّ الشَّهادَةَ لا تَكونُ إلا بالعِلْمِ، والحَقِّ.

وفِيها: أنَّ التَّوبَةَ عندَ مُعايَنَةِ المَوتِ لا تَنْفَعُ، وهذِهِ تَذْكِرَةٌ للنَّاسِ لِيُعَجِّلُوا بها.

وفِيها -مَعَ ما قَبْلَها-: تَوالِي الضَّمائِرِ الرَّاجِعَةِ إلى عيسَى عَلَيهِ السَّلامُ في كَلِماتٍ، وجُمَلٍ، مَعطُوفٍ بَعضها على بَعضٍ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

وفيها: انْجِلاءُ الباطِلِ وإزاحَتُهُ بالحَقِّ الدَّامِغِ، والآياتِ النَّازِلَةِ.

وفِيها: أنَّ مَصِيرَ الأديانِ في الأرضِ كلِّها إلى الزَّوالِ، إلا دِينَ الإسلامِ.

وفِيها: إيمانُ أهلِ الكِتابِ بنُبوَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخِرِ الزَّمانِ، عندما يَحكُمُ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَرْعِهِ.

وتستمرُّ الآياتُ في تَعْدادِ جَرائِمِ اليَهودِ ومُنْكَراتِهِم، التي كانَتْ سبَبَ غَضَبِ اللهِ عليهِم، فقالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: بِسببِ ظُلمِ اليهودِ، لا بِسببٍ آخَرَ، وبِما ارتكَبُوهُ مِنَ الذُّنوبِ العظيمةِ، فالباءُ سببِيَّةٌ، والتَّنكيرُ، والتَّنوينُ، في قولِهِ: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ للتَّعظِيمِ، أي: بسببِ ظُلمِهِم العَظِيمِ، كنَقْضِهِم المِيثاقَ، وقولِهِم: «اجْعَلْ لَنا إلهًا»، وقولِهِم: «أَرِنا اللهَ جَهْرَةً»، وعِبادَتِهِم العِجْلَ، ومعنَى ﴿هَادُواْ﴾: تابوا، سَمَّاهُم بذلكَ؛ لأنَّهُم قالُوا يومًا ما: «إنَّا هُدْنا إليكَ»، يَعنِي: تُبْنا، وأَنَبْنا، ورَجَعْنا، ولكنَّهُم نَكَثُوا، وكَذَبُوا في توبَتِهِم. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وهذا تَحرِيمُ عُقُوبَةٍ؛ لَعَلَّهُم يرجِعُونَ عَنْ ظُلْمِهِم ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾ مُستَلذَّاتٍ مِنَ الأطعِمَةِ ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: كانَتْ حَلالًا لَهُم قَبْلَ ظُلْمِهِم، قيلَ: كانُوا كُلَّما ارتكَبوا كبيرةً حُرِّمَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ الطَّيِّباتِ الَّتِي كانَتْ حَلالًا لَهُمْ، وقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقرأَ ابنُ عبَّاسٍ: «طَيِّباتٍ كانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ»(١). ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ أي: صَرفِهِم لأنفُسِهِم، ولِغَيرِهِم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودِينِهِ، وشَرْعِهِ ﴿كَثِيرًا﴾ أي: صَدًّا كَثِيرًا، أو ناسًا كَثِيرًا صَدُّوهُم، ومِنْ هذا الصَدِّ: تكذِيبُهُم بعِيسَى، ومُحمَّدٍ، صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِما، وتَحرِيفُهُم لِكُتُبِ اللهِ، وقَتلِهِم الأنبِياءَ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١١٤).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ ظُلمَ بَنِي إسرائِيلَ كانَ عَظِيمًا.

وفِيها: شُـؤمُ الذُّنُوبِ والمَعاصِي، وأنَّها سَبَبُ تَحرِيمِ الحَلالِ، والحِرمانِ، وتَضْيِيقِ الأمرِ الواسِعِ، والتَّشدِيدِ مِنَ اللهِ.

وفِيهـا: تكذِيـبُ اليَهودِ في ادِّعائِهم أنَّ سـبَبَ التَّحرِيم هو مُجَرَّدُ الاقتِـداءِ، وذلكَ عندَما زَعَمُوا أنَّها كانَتْ مُحَرَّمَةً على أنبياءَ مِنْ قَبْلِهِم فتابَعُوهُم، فأَكذَبَهُمُ اللهُ، وبَيَّنَ أنَّها لَمْ تكُنْ حَرامًا مِنْ قَبْلُ، وإنَّما حُرِّمَتْ على بَنِي إسرائِيلَ؛ بما كَسَبَتْ أيدِيهِم.

وفي الآيةِ: أنَّ مِنْ جَرائِمِ اليَهودِ: صَرْفَ النَّاسِ عَنِ الحَقِّ، وعَنْ دِينِ اللهِ، فإنَّهُم لَمْ يَكتَفُوا بِتَرْكِ الحقِّ، حتَّى أضافُوا إلى ذلكَ صَرْفَ غيرِهِم عَنهُ.

وفِيها: الإشارَةُ إلى أنَّ هؤلاءِ اليَهودِ، الذينَ زَعَمُوا التَّوبَةَ مِنْ عِبادَةِ العِجلِ، يَجِبُ عليهِم أنْ يَتُوبُـوا مِـنْ كُلِّ هذِهِ الذُّنُوبِ، فتَسـمِيَتُهُم بالذينَ هادُوا في مَعرِضِ سِـياقِ جَرائِمِهِم، فِيهِ دَعوةٌ لَهُم إلى التَّوبَةِ مِنها كُلِّها.

وفِيهـا: أنَّ الطَّيِّبـاتِ كانَتْ حَلالًا على اليَهودِ عُمُومًا، كما جاءَ ذلكَ في غيرِ ما مَوْضِعٍ مِنْ كتابِ اللهِ، كقولِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ**﴾ [آل عمران: ٩٣].

وفِيها: أنَّ عُقُوباتِ المَعاصِي لا تَقْتَصِرُ على عذابِ الآخِرَةِ، بَلْ يُوجَدُ مِنْها ما هُوَ مُعجَّلٌ في الدُّنيا، كَهَذا التَّشدِيدِ.

وفِيهـا: التَّحذِيـرُ مِنَ الصَّدِّ عنْ سَـبيلِ اللهِ، وقـد يَكونُ هذا الصَّدُّ بتَقدِيم نَمُوذَجٍ سـيِّئٍ، وإعـلانِ الكُفـرِ، والمَعصِيَةِ، وجَـذْبِ الغَيْرِ إليهـا، أو التَّنفِيرِ عنِ الحقِّ، بإطـلاقِ الصِّفاتِ المَكرُوهـةِ عليـهِ، أو اسـتِعمالِ التَّرغِيـبِ، والتَّرهِيـبِ، في مَنْعِ النَّـاسِ مِنْ سُـلُوكِ الصِّراطِ المُستَقِيمِ، ونحوِ ذلكَ.

وفِيها: أنَّ الظُّلمَ سَجِيَّةٌ مُتأصِّلَةٌ في بَنِي إسرائِيلَ، اتَّصَفُوا بها في قَدِيمِ الدَّهرِ، وحَدِيثِهِ.

وفِيها: أنَّ العِبادَ إذا أطاعُوا اللهَ فإنَّهُ يرزُقهُم مِن الطَّيِّباتِ.

وفِيها: أنَّ صدَّ اليهودِ النَّاسَ عنِ الحقِّ كثيرٌ، متنوِّعٌ.

وفِيهـا: أنَّ رِضا المُتأَخِّرينَ بما فَعَلَهُ المُتقدِّمُـونَ، ومُتابَعَتَهُم على الباطِلِ، تُبقِي العُقُوبَةَ؛ فإنَّ أجيالَ بَنِي إسرائِيلَ التِي شَمِلَها التَّحرِيمُ، كانَتْ راضِيَةً بما فَعَلَهُ الجِيلُ الذي ظَلَمَ أوَّلًا، والَّذِي كانَ سببَ العُقُوبةِ.

وفِيهـا: تَلبِيسُ اليهودِ بادِّعائِهِم أنَّهم مُتابِعُونَ في التَّحرِيمِ لِشَرعِ الأنبياءِ مِنْ قبلِهِم، وهذا تَدْلِيسٌ خَبِيثٌ؛ فإنَّ الطَّيِّباتِ كانَتْ حَلالًا لَهُم إلا شَيْئًا يَسيرًا، حرّمَه يَعقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهُوَ إسرائِيلُ- على نفسِه، فقالَ سبحانَهُ وتَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾، والَّذِي حرّمه يَعقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على نفسِه: لُحُومُ الإبِلِ، وألبانُها -كما تقدّم معنا في تفسِير سورةِ آل عِمران-، وأَيْنَ هذا مِنْ تَحرِيمِ كُلِّ ذِي ظُفُرٍ، وتَحرِيمِ شُحُومِ البَقَرِ، والغَنَمِ، وغيرِ ذلكَ؟ وبِهَذا يَظهَرُ كَذِبُهُم، وسَعْيُهُمُ الفاشِلُ في تَبرِئَةِ أنفُسِهِم.

وفي الآيـةِ: نِعمـةُ اللهِ علـى هـذِهِ الأُمَّـةِ، حيـثُ لَمْ يُعامِلْهُـم مُعامَلَـةَ اليَهـودِ في التَّحرِيمِ، والتَّشـدِيدِ، بَـلْ رَفَعَ عنهُمُ الآصـارَ، والأغلالَ، والتَّحرِيـمُ الَّذِي وَقَعَ في شَرْعِ هـذِهِ الأُمَّةِ، هـو تَحرِيـمُ صِيانَةٍ وحِمايَةٍ، بخِلافِ التَّحرِيمِ الواقِعِ على بَنِـي إسرائِيلَ، فإنَّ مِنهُ ما كانَ تَحرِيمَ عُقُوبَةٍ.

وفِيها: أنَّ ما أَحَلَّهُ اللهُ لعِبادِهِ مِنَ الطَّيِّباتِ، أكثَرُ مِمَّا حرَّمَهُ عليهِم.

وفِيها: أنَّ التَّنعُّمَ، والاستِمتاعَ، لا يَجوزُ أنْ يكونَ بالحَرامِ.

وفِيها: أنَّ اليهودَ لَمَّا مَنَعُوا أنفُسَهُم وغَيرَهُم لذَّةَ الإيمانِ، بصدِّهِم عنْ سَبيلِ اللهِ، مَنَعَهُمُ اللهُ مِنْ لَذَّةِ الطَّيِّباتِ.

وفِيها: أنَّ القُدوَةَ السَّيِّئَةَ تُنفِّرُ النَّاسَ مِنَ الدِّينِ.

وفِيها: أنَّ بَعضَ العُقُوباتِ تَتَعدَّى لِغَيرِ الظَّالِمِ، وهذا مِنْ شُؤْمِ المَعصِيَةِ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ هُـوَ الذي وَضَعَ الدِّينَ للعِبادِ، وشَرَعَهُ لَهُم، فلا يَجوزُ لأحدٍ غيرِهِ أنْ يَشْرَعَ لَهُم مِنَ الدِّينِ، ما لَمْ يَأذَنْ بِهِ اللهُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَ اللهِ، فإنَّه يَنالُ رِضاهُ.

ثُمَّ أضافَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى جَرائِمِ بَنِي إسرائِيلَ السَّابِقَةِ في حَقِّهِ، وحَقِّ دِينِهِ، جَرائِمَهُمُ التِي فَعَلُوها في حقِّ العِبادِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: عاقَبْناهُم -أيضًا- بسبَبِ أخذِهُمُ الرِّبا، والأخذُ أعمُّ مِنَ الأكلِ؛ إذْ إنَّ آخذَ الرِّبا قَد يَأكُلُهُ، وقد يَنْتَفِعُ بِهِ بوجُوهٍ أُخرَى، والأكلُ أشدُّها. ﴿وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: في التَّوراةِ، وقامَتْ عليهِم الحُجَّةُ بِذَلكَ ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: أَخْذِها مِنْهُم بالرِّشوَةِ، والخِيانَةِ، والغِشِّ، ونحوِ ذلِك، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الآيةِ الأُخرَى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وأَخْذُ الرِّبا داخِلٌ في أَكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ، فيَكُونُ هذا مِنْ بابِ عَطْفِ العامِ عَلَى الخاصِّ، وإنَّما أفرَدَ الرِّبا؛ لِشَناعَتِهِ، وكَثْرَةِ وُقُوعِهِ مِنَ اليهودِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: هيَّأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: لِمَنْ كَفَرَ مِنَ اليهودِ في أيِّ زَمَنٍ كانَ، ومِنْهُمُ الذِينَ كَفرُوا بمُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فَظِيعًا، مُوجِعًا.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ الرِّبا كانَ حَرامًا في شَريعَةِ مَنْ قَبْلَنا، وأنَّ إتيانَ المُحرَّماتِ في الأموالِ مِنْ أسبابِ العُقُوباتِ الدُّنيويَّةِ قَبْلَ الأُخرَويَّةِ.

وفي الآيةِ: أنَّه لا يَجوزُ الانتِفاعُ بالرِّبا بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، سَواءٌ كانَ طَعامًا، أو لِباسًا، أو بِناءً، أو وَقُودًا، أو غيرَ ذلِك.

وفِيها: الرَّدُّ على اليَهودِ، الذينَ يَزعُمونَ أنَّ التَّوراةَ حَرَّمَت عليهِم أَخْذَ الرِّبا مِنْ إخوانِهِم، وشَعْبِهِم، ولَيسَ مِنْ باقِي النَّاسِ، وهذا كَذِبٌ.

وفِيها: تَحرِيمُ أكلِ أموالِ النَّاسِ بأنواعِ الحِيَلِ.

وفِيها: أنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فكَما أَخَذُوا ما لا يَحِلُّ، حرَّمَ اللهُ عليهِم مِمَّا أَحَلَّ،

وقابَلَهُم على لَذَّةِ أَخْذِ المالِ الحَرامِ، وإيلامِهِم النَّاسَ بأكلِ أموالِهِم، وأَخْذِ حُقُوقِهِم، بأَلَمِ العَذابِ المُوجِعِ الدَّائِمِ يومَ القِيامَةِ.

وفِيها: أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبُونَ بفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ.

وفِيها: حِرْصُ اليَهودِ على جَمْعِ المالِ مِنْ أيِّ طَرِيقٍ كانَ.

وفِيها: الإشارةُ إلى ما كانُوا يَأخُذُونَهُ مِنَ الرِّشوَةِ على تَحرِيفِ الأحكامِ، وأثمانِ الكُتُبِ التي كانُوا يَكتُبُونَها بأيدِيهِم، ويقولُونَ: هذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ مَنْ كانَ مُؤمِنًا مِنَ اليَهودِ قَبْلَ النبيِّ ﷺ، أو في عَهْدِهِ، أو بَعدَهُ، خارِجُونَ عن هذا الوَعِيدِ.

وفِيها -مَعَ التِي قَبْلَها-: الإشارَةُ إلى أصلِ الذُّنُوبِ: وهُوَ ظُلْمُ الخَلْقِ، والإعراضُ عنِ الحَقِّ، وأنَّ هذا سَبَبُ التَّشدِيدِ، والعَذابِ الشَّدِيدِ في الدنيا، والآخِرَةِ.

وفِيها: أنَّ ارتكابَ المَحظُوراتِ يُؤدِّي إلى الحِرمانِ مِنَ المُباحاتِ.

وفِيها: أنَّ الظُّلمَ سببٌ لِحرمانِ الخَيرِ الشَّرعِيِّ، والقَدَرِيِّ.

وفِيها: أنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ صُلَحاءَ مُسلِمينَ.

وفِيها: أنَّ الأصلَ في النَّهي أنَّه يَقتَضِي التَّحرِيمَ.

وفِيها: أنَّ المُتَعاطِينَ للرِّبا مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ مُتَشبِّهُونَ باليَهودِ.

وفِيها: أنَّ الحُجَّةَ لا تَقُومُ إلا بَعدَ بُلُوغِها للنَّاسِ، وأنَّ مَنْ لَمْ يَبلُغْهُ تَحريمُ أمرٍ، فَفَعَلَهُ، فَهُوَ غيرُ مُؤاخَذٍ؛ لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، وقولِهِ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفِيها: تَحرِيمُ أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ، كَمالِ المُسلِمِ، والذِّمِّيِّ، والمُعاهَدِ، والمُستَأْمَنِ، فإنَّ أموالَهُم مَعصُومَةٌ مُحتَرَمَةٌ، فلا يَجوزُ الاعتِداءُ على حُرمَتِها، وأمَّا الكافِرُ الحَربِيُّ: فإنَّ مالَه لَيسَ بِمَعصُومٍ، فيَجوزُ لِلمُسلِمِينَ أكلُهُ، وأَخْذُهُ؛ حَيثُ إنَّه مُباحُ الدَّمِ، والمالِ.

وفي الآيةِ: شاهِدٌ لِقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ولَمَّا ذَمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآثِمِينَ الفُجَّارَ مِنْ أهلِ الكِتابِ، وذَكَرَ عِقابَهُم، أثْنَى على أهلِ العِلْمِ الأخيارِ مِنْهُم، وذَكَرَ ثوابَهُم، فقالَ سبحانَهُ:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾.

﴿لَّٰكِنِ﴾ حَرْفُ استِدراكٍ، جاءَ لاستِثناءِ قَومٍ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الثَّابِتُونَ المُتَمَكِّنُونَ ﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ العِلْمِ بالتَّوراةِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من أهلِ الكِتابِ: كعبدِالله بنِ سَلام، وثعلبةَ بنِ سَعية، وزيدِ بنِ سَعية، وأسدِ بنِ عُبيد. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مِنْ أهلِ الكِتابِ، ومِنْ هذِهِ الأمَّةِ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: القرآنِ المُنزَّلِ على مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ مِنَ الكُتُبِ السَّابقَةِ، كصُحُفِ إبراهِيمَ، وتَوراةِ مُوسَى، وزَبُورِ داودَ، وإنجيلِ عِيسَى ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يُؤمِنُونَ بفَرضِيَّتِها، ويُقِيمُونَها بشُرُوطِها، وأركانِها، وواجِباتِها، ويُكمِّلُونَها بالمُستَحَبَّاتِ.

ولَفْظَةُ: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ قيلَ: هيَ مَنْصُوبَةٌ على الاختِصاصِ بالمَدْحِ؛ لبيانِ أهميَّةِ الصَّلاةِ، والعِنايَةِ بِها، والتَّنبيهِ إليها، فكانَ نَصْبُها بَيْنَ مَرفُوعاتٍ لأَجْلِ ذلكَ. وقِيلَ: هِيَ مَجرُورَةٌ عَطْفًا على قولِهِ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: يُؤمِنُونَ بما أُنْزِلَ إليكَ، ويُؤمِنُونَ بما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، ويُؤمِنُونَ بالمُقِيمِينَ الصَّلاةَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَبِإِقامَةِ الصَّلاةِ، أَيْ: يَعْتَرِفُونَ بِوُجُوبِها، وَكِتابَتِها عَلَيْهِمْ.

وقِيلَ: المُرادُ بِالمُقِيمِينَ الصَّلاةَ: المَلائِكَةُ، وَهَذا اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ، يَعْنِي: يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِالمَلائِكَةِ. قال ابن كثير: «وَفِي هَذا نَظَرٌ»[(١)]. وقيلَ غيرُ ذلكَ[(٢)].

﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ﴾ أي: المُعْطُونَ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: النَّصِيبَ الشَّرعِيَّ المُقَدَّرَ في الأموالِ الزَّكَوِيَّةِ، وقِيلَ: المُرادُ زَكاةُ النَّفسِ، وقِيلَ: زَكاةُ البَدَنِ، والجاهِ، وقيلَ: لا مانِعَ أنْ يكونَ

---

(١) تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٦٨).

(٢) راجع: البحر المحيط (٤/ ١٣٥)، تفسير القرطبي (٦/ ١٣)، زاد المسير (١/ ٤٩٨)، تفسير ابنِ كَثِير (٢/ ٤٦٨).

الجَمِيعُ مُرادًا. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: المُصدِّقُونَ المُوقِنُونَ ﴿بِٱللَّهِ﴾ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: بالبَعثِ بَعدَ المَوْتِ، وما يَكونُ فِيهِ مِنْ جَزاءِ الأعمالِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المَوصُوفُونَ بالصِّفاتِ السَّابِقَةِ ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أي: سنُعْطِيهِم ثَوابًا جَزِيلًا، وهو الجنَّةُ.

وصحَّ عنْ قَتادَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولِهِ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ قالَ: «اسْتَثْنَى اللهُ ثَنِيَّةً مِنْ أَهْلِ الكِتابِ، وَكانَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَما أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ، وَما أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّ اللهِ، يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيُصَدِّقُونَ بِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

العَدْلُ في الحُكمِ على أهلِ الكتابِ، والتَّفريقُ في الحُكمِ بَيْنَ المُؤمِنِينَ، وغَيرِهِم.

وفِيها: فَضلُ أهلِ الإيمانِ، وذِكْرُ أركانِهِ.

وفِيها: عَدَمُ التَّفريقِ في الإيمانِ بَيْنَ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ قَوْلٌ، وعَمَلٌ.

وفِيها: فَضلُ أهلِ العِلْمِ المُتقِنِينَ لَهُ، الثَّابِتِينَ، الذينَ لا يَتَزَعزَعُونَ.

وفِيها: أنَّ الرسوخَ في العِلمِ يُثَبِّتُ صاحِبَهُ، فلا يَمِيلُ عندَ شَهوَةٍ، ولا يَهتَزُّ بِسبَبِ شُبْهَةٍ.

وفِيها: فَضلُ العِلمِ الشَّرعيِّ على غَيرِهِ مِنَ العُلُومِ.

وفِيها: فَضلُ مَنْ آمَنَ مِنَ اليَهودِ.

وفِيها: الإشادَةُ بإقامَةِ الصَّلاةِ، وهِيَ آكَدُ أفعالِ البَدَنِ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ لَيسَ هُوَ مُجَرَّدَ التَّصدِيقِ، بَلْ مَعَهُ إقرارٌ، وإذعانٌ، وعَمَلٌ.

وفِيها: وَصْفُ يومِ القِيامَةِ باليومِ الآخِرِ؛ لأنَّه لا يَومَ بَعدَهُ، والإنسانُ يَنتَقِلُ مِنْ بَطنِ أُمِّهِ، إلى الدُّنيا، ثُمَّ إلى البَرْزَخِ، ثُمَّ إلى يومِ القِيامَةِ.

---

(١) رواه الطبري (٩/ ٣٩٤)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١١٦).

وفيها: التَّنبيهُ بالالتِفاتِ؛ فإنَّ الأسلُوبَ في أوَّلِ الآيةِ، هُوَ أسلُوبُ الغائِبِ، ثُمَّ انتقَلَ إلى أُسلُوبِ المُخاطَبِ، ثمّ عادَ إلى أسلُوبِ الغائِبِ، وتَغييرُ نَسَقِ الكَلامِ يُفِيدُ التَّنبِيهَ.

وفِيها: ذِكْرُ الشَّرِّ والخَيْرِ في الطَّائِفَةِ الواحِدَةِ، ومحَاسِنِ أهلِها، ومَساوِئِهم.

وفِيها: أنَّ العِلْمَ سَبَبٌ للإيمانِ، وزِيادَةِ البَصِيرَةِ، وقِلَّةِ الجَدَلِ.

وفِيها: أنَّهُ يُوجَدُ في أهلِ الكِتابِ عُلماءُ كِبارٌ.

وفِيها: أنَّه لا نَبِيَّ بَعدَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِقولِهِ: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ ولَمْ يَذْكُرْ: (مِنْ بَعْدِكَ).

وفِيها: عُلُوُّ مَرتَبَةِ الجامِعِ بَيْنَ الأوصافِ المَذكُورَةِ في الآيةِ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفِيها: أنَّ التَّمكُّنَ في العِلْمِ يَمنَعُ مِنَ الاشتِراءِ بآياتِ اللهِ ثَمَنًا قليلًا، ويَمنَعُ كَتْمَ الحقِّ، فَهَذا مِنَ الفَرْقِ بَيْنَ أحبارِ اليَهودِ، والرَّاسِخِينَ في العِلْمِ مِنْهُم.

وفِيها: أنَّه لا تَعَصُّبَ، ولا حَمِيَّةَ، ولا تَفْرِيقَ، في الإيمانِ بالرُّسُلِ.

وفِيها -مَعَ الآيتيْنِ قَبْلَها-: ذِكْرُ صِفاتِ أهلِ الوَعدِ، بَعدَ ذِكرِ صِفاتِ أهلِ الوَعِيدِ.

وفِيها: أنَّه لَيسَ كلُّ مَنْ عَرَفَ الحَقَّ اتَّبَعَهُ.

وفِيها: أنَّ أهلَ العِلمِ أعرَفُ النَّاسِ بالحَقِّ، وأسرَعُهُم إيمانًا بِهِ، وانقِيادًا لَهُ.

وفِيها: أنَّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ أوصافِ الإيمانِ القلبِيَّةِ الاعتِقادِيَّةِ، والفِعْلِيَّةِ البَدَنِيَّةِ، فَقَدِ استَكْمَلَ الإيمانَ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ الصَّحِيحَ بالخالِقِ، يَدْفَعُ إلى الإحسانِ إلى الخَلْقِ.

وفِيها: عُلُوُّ دَرَجَةِ المَذكُورِينَ في الآيةِ، وارتِفاعُ مَنزِلَتِهم في الفَضلِ، ويُشيرُ إلى ذلكَ استِعمالُ اسمِ الإشارَةِ للبَعِيدِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

ولَمَّا كانَ اليهودُ لا يُؤمِنُونَ بجَمِيعِ الأنبياءِ، ويَجحَدُونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ رَدَّ اللهُ عليهِم ببيانِ أنَّ الوَحيَ جِنسٌ واحِدٌ، وأنَّ شأنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيما يُوحَى إليهِ، كَشَأنِ باقِي الأنبياءِ مِنْ قَبْلِهِ، فقالَ سُبْحانه:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾.

﴿إِنَّآ﴾ الضميرُ يعودُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وجاءَ بصيغةِ الجمعِ؛ للتَّعظيمِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الوَحْيُ لُغَةً: الإعلامُ بسُرعَةٍ، وخَفاءٍ، وشَرعًا: هُوَ إعلامُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنبياءَهُ، ورُسُلَهُ، بشَرعِهِ الذي يَتَعبَّدُ بِهِ عبادَهُ ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أي: كالذي أوحَيْناهُ، أو كإيحائِنا ﴿إِلَىٰ نُوحٖ﴾ وهُوَ أوَّلُ رُسُلِ اللهِ إلى أهلِ الأرضِ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: أوحَيْنا إليهم أيضًا، وقد قِيلَ: إنَّ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ جَوابًا على سُؤالِ أهلِ الكِتابِ المُتقدِّمِ في قولِهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: ١٥٣].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذِه الآيَةُ رَدٌّ عَلَيْهِمْ، لَمَّا سَأَلُوا النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابًا مِنَ السَّماءِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ فَضائِحَهُمْ، وَمَعايِبَهُمْ، وَما كانُوا عَلَيْهِ، وَما هُمْ عَلَيْهِ الآنَ مِنَ الكَذِبِ والافْتِراءِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ أَوْحَى إلى عبدِهِ ورسولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كَما أَوْحَى إلى غَيْرِهِ مِنَ الأَنْبِياءِ المُتَقَدِّمِينَ»(١).

والمعنى: يا أيُّها اليَهودُ إذا كُنتُم تُقِرُّونَ بنُبُوَّةِ نُوحٍ، والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعدِهِ، فلِماذا تُنكِرُونَ نُبوَّةَ مُحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقدْ أوْحَيْنا إليهِ، كَما أوْحينا إليهِم؟

ثُمَّ خَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -بالذِّكْرِ- جَماعَةً مِنَ الأنبياءِ؛ لِشَرَفِهِم، وفَضْلِهِم، فقالَ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أعادَ ذِكْرَ الوَحيِ؛ لأنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جعَلَ النُّبوَّةَ، والكِتابَ، في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ، ونُوحٍ، كما قالَ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ثُمَّ ذَكَرَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنبياءَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ الخَليلِ، فقالَ: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ وهُوَ ابنُ إبراهيمَ الأكبَرُ، وقدْ ماتَ بمكَّةَ ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ وهُوَ ابنُ إبراهيمَ الثَّاني، وقدْ ماتَ بالشَّامِ ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ وهو ابنُ إسحاقَ، وأنبياءُ بَني إسرائيلَ كلُّهُم مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعقوبَ ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ هُم ذُرِّيَّةُ يَعقُوبَ، مِنْ أولادِهِ الاثني عَشَرَ، وهُمْ أُصُولُ قَبائِلِ بَني

---

(١) تفسير ابنِ كَثيرٍ (٢/ ٤٦٩).

إسرائِيلَ، والسَّبْطُ: هُوَ وَلَدُ الوَلَدِ، والأسباطُ: هُمْ أحفادُ يَعقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانَ مِنْهُم أنبياءُ بَنِـي إسرائِيلَ، فأَجْمَلَهُم هُنـا، ثُمَّ خَصَّ بعضَهُم بالذِّكرِ؛ لِشَرَفِهِـم، فقال: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ قدَّمَهُ بالذِّكـرِ على أنبيـاءَ بُعِثُوا قَبْلَهُ؛ لِفَضلِـهِ، ولِجَحْدِ اليَهودِ لنُبوَّتِهِ، والخِطـابُ في الآيةِ لَهُم، وهُوَ آخِـرُ أنبياءِ بَنِـي إسرائِيلَ ﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ وكُلُّ هـؤلاءِ مِنْ أنبياءِ بَنِي إسرائِيـلَ ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ﴾ أعطَيْنـاهُ ﴿زَبُورٗا﴾ وهُوَ اسـمُ الكِتابِ الذِي أُنـزِلَ عليهِ، وفِيهِ مَواعِـظُ مُرَقِّقَةٌ لِلقُلُـوبِ، كانَ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَرَنَّمُ بها، فَتُرَدِّدُ مَعَهُ الطَّيرُ، والجِبالُ، ويُسـبِّحْنَ مَعَهُ، والزَّبُورُ بمعنَى المَزْبُورِ، أي: المَكتُوبِ[1].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُـلِ، وإنَّما بَعَثَ اللهُ قَبْلَهُ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُـلِ جَمًّا غَفِيرًا.

وفِيها: أنَّ أصلَ ومَصْدَرَ الوَحيِ واحِدٌ، وإنِ اختَلَفَتْ أنواعُهُ.

وفِيهـا: كَثْرَةُ أنبياءِ بَنِي إسرائِيلَ بالنِّسـبَةِ لِغَيرِهِم، وأمَّا العَـرَبُ القُدامَى، والمُتأخِّرُونَ: فَقَدْ كانَ مِنْهُم أنبياءُ، كَهُودٍ، وصالِحٍ، وإسماعِيلَ، ومُحمَّدٍ، صلَّى اللهُ عليهِم وسلَّم.

وفِيها: عُلُوُّ مَنزِلَةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ جَميعَ الأنبياءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، ويُسـتَثْنَى مِنْ ذلكَ -مِمَّن ذَكَرَهُمُ اللهُ- نُوحٌ، وهودٌ، وصالِحٌ، ولُوطٌ.

وفِيها: فَضلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهُوَ أبو البَشَرِيَّةِ الثَّانِي، وكلُّ الأنبياءِ والمُرسَلِينَ الذينَ بَعدَهُ، هُـمْ مِـنْ ذُرِّيَّتِهِ، وقالَ غيرُ واحِدٍ مِـنْ أهلِ العِلْمِ: أَخْطَـأَ مَنْ قالَ: إنَّ إدرِيـسَ كانَ قَبْلَ نُوحٍ عليهِما السَّلامُ[2].

---

(١) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٦/ ١٧): «الزَّبُورُ: كِتابُ داوُدَ، وَكانَ مِائَةً وَخَمْسِينَ سُورَةً، لَيْسَ فِيها حُكْمٌ، وَلا حَلالٌ، وَلا حَرامٌ، وَإِنَّما هِيَ حِكَمٌ، وَمَواعِظُ. والزَّبُورُ بِمَعْنَى المَزْبُورِ، أَيِ المَكْتُوبِ. وَقَرَأَ حَمْزَةُ: (زُبُورًا) بِضَمِّ الزَّايِ. والأَصْلُ فِي الكَلِمَةِ التَّوْثِيقُ، يُقالُ: بِئْرٌ مَزْبُورَةٌ أَيْ: مَطْوِيَّةٌ بِالحِجارَةِ، والكِتابُ يُسَمَّى زَبُورًا؛ لِقُوَّةِ الوَثِيقَةِ بِهِ. وَكانَ داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسَنَ الصَّوْتِ، فَإِذا أَخَذَ فِي قِراءَةِ الزَّبُورِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ الإِنْسُ، والجِنُّ، والطَّيْرُ، والوَحْشُ؛ لِحُسْنِ صَوْتِهِ، وَكانَ مُتَواضِعًا، يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» انتهى مختصرًا.

(٢) قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «نُوحٌ أَوَّلُ رسولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ، وَمَنْ قالَ مِنَ المُؤَرِّخِينَ: إنَّ=

وفي الآيـةِ: دَمْـغُ اليهـودِ بالـحُجَّةِ على مـا أَنْكَـرُوهُ بقولِهِـم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفِيها: أنَّ الرَّدَّ على أهلِ العِنادِ يَختَلِفُ أسلُوبُهُ، مُقارَنَةً بجوابِ أهلِ الاسترِشادِ.

وفِيها: إنزالُ الأنبياءِ مَنازِلَهُم.

وفِيها: إقامَةُ الحُجَّةِ على أجيالِ البَشَرِيَّةِ، بِبَعْثِ الأنبياءِ في كلِّ أُمَّةٍ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَخُصُّ مِنْ أنبيائِهِ مَنْ شاءَ، بِكُتُبٍ يُنزِّلُها عليهِم.

وفِيها: أنَّ طُولَ العُمُرِ في الدَّعوَةِ، والصَّبرَ عليها، سَبَبٌ لِلشَّرَفِ، والتَّنوِيهِ بالذِّكْرِ.

وفِيها: تَخليدُ ذِكْرِ، وسِيَرِ، عُظَماءِ البَشَرِيَّةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لَمْ يُنزِّلْ على كلِّ رسولٍ كِتابًا مِنَ السَّماءِ، فلا داعِيَ -يا أيُّها اليهودُ- لأسئِلَةِ التَّعجِيزِ، والعِنادِ.

وفِيها: أنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أوَّلُ نبيٍّ بُعثَ بشَرِيعةٍ، وأوَّلُ رُسُلِ اللهِ إلى أهلِ الأرضِ.

وفِيها: عُبوديَّةُ الأنبياءِ لربِّهِم في جَميعِ الأحوالِ، سَواء في حالِ القوَّةِ، أو الاستِضعافِ، أو في حالِ البَلاءِ، أو المُلْكِ، أو في حالِ تَعظِيمِ قَومِهِم لَهُم، أو نَبْذِهِم إيَّاهُم.

وفي الآيةِ: ذِكْرُ الأنبياءِ المَشهُورِينَ عندَ بَنِي إسرائِيلَ؛ لأنَّ المقصودَ مُحاجَّتُهُم.

ولَـمَّـا ذَكَـرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَدَدًا مِنَ الأنبياءِ بأسـمائِهِم، أَجْمَـلَ البَقِيَّةَ، وذَكَرَ فَضلَ نبيِّهِ مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالَ:

= إدْرِيسَ كانَ قَبْلَهُ فَقَدْ وَهِمَ. والدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ وَهْمِهِ في اتِّباعِهِ صُحُفَ اليَهُودِ، وَكُتُبَ الإسرائيليات: الحَدِيثُ الصَّحِيـحُ في الإِسْراءِ، حِـينَ لَقِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَمَ وَإِدْرِيـسَ، فَقالَ لَهُ آدَم: (مَرْحَبًا بِالنَّبِـيِّ الصَّالِحِ، والِابْنِ الصَّالِحِ). وَقالَ لَهُ إدْرِيسُ: (مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، والأَخِ الصَّالِحِ). وَلَوْ كانَ إدْرِيسُ أَبًا لِنُوحٍ عَلَى صُلْبِ مُحَمَّدٍ لَقالَ لَهُ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ والِابْنِ الصَّالِحِ. فَلَمَّا قالَ لَهُ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، والأَخِ الصَّالِحِ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَجْتَمِعُ مَعَهُ في أَبِيهِمْ نُوحٍ، وَلا كَلامَ لِمُنْصِفٍ بَعْدَ هَذا». أحكام القرآن (٢/ ٣١٥).

وانظر: تفسير سورة النساء لابن عثيمين (٢/ ٤٧٨).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَرُسُلًا﴾ مَعطُوفٌ على ما قَبْلَهُ بالمعنَى، أي: كما أَرْسَلناكَ، وأَرْسَلْنا نُوحًا، فقد أَرْسَلْنا رُسُلًا آخَرينَ ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ وأَخْبَرناكَ بخَبَرِهِم يا مُحمَّدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ نُزُولِ هذِهِ السُّورةِ (المَدَنيَّةِ) كالأنبياءِ المَذكُورينَ في سُورَةِ الأنعامِ (المَكيَّةِ)، وَهُمْ: يُوسُفُ، وزَكَرِيَّا، ويَحْيَى، وإلياسُ، واليَسَعُ، ولُوطٌ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي غَيرِهِما مِنَ السُّوَرِ، وهُمْ: آدَمُ، وإدرِيسُ، وهُودٌ، وصالِحٌ، وشُعَيبٌ، وذُو الكِفلِ، والخَضِرُ -على الراجِحِ- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ كالذينَ أُرسِلُوا إلى أُمَمٍ بَعيدَةٍ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مُوسَىٰ﴾ ابنَ عِمرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿تَكْلِيمًا﴾ مُباشَرَةً، ومُخاطَبَةً، بلا واسِطَةِ مَلَكٍ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ اللهَ سمَّى رُسُلًا في القرآنِ، وذَكَرَ قَصَصَهُم، وسمَّى رُسُلًا دُونَ ذِكرِ قَصَصِهِم، وكَثِيرُونَ جِدًّا لَمْ يَذْكُرْ أسماءَهُم، ولا قَصَصَهُم، ولَمْ يُخبِرْ عَنْهُم شيئًا، وفي هذا أنَّ رُسُلَ اللهِ، وأنبياءَهُ كثيرُون جِدًّا، وقد جاءَ في عِدَّةِ الأنبياءِ والرُّسلِ أحادِيثُ، كلُّها ضعيفةٌ. قال الشَّيخُ عبدُالعزيزِ بنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وجاءَ في حديثِ أبي ذَرٍّ عندَ أبي حاتِمِ ابنِ حبَّانٍ وغَيرِهِ، أنَّه سَأَلَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرُّسُلِ، وعَنِ الأنبياءِ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنبياءُ مائةٌ وأربَعَةٌ وعِشرونَ ألفًا، والرُّسُلُ ثلاثُمائةٍ وثلاثة عَشَرَ**» وفي روايةِ أبي أُمامَةَ: «**ثلاثُمائةٍ وخَمسَة عَشَرَ**»، ولكنَّهُما حديثانِ ضَعِيفانِ عندَ أهلِ العِلمِ، ولَهُما شَواهِدُ، ولكنَّها ضعيفَةٌ أيضًا، وفي بعضِها أنَّهُ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألفُ نبيٍّ، فأكثَرَ**»، وفي بعضِها: **أنَّ الأنبياءَ ثلاثةُ آلافٍ**. وجَميعُ الأحاديثِ في هذا البابِ ضَعِيفةٌ، بَلْ عدَّ ابنُ الجَوْزِيِّ حديثَ أبي ذَرٍّ مِنَ المَوْضُوعاتِ.

والمَقصُودُ: أنَّه لَيْسَ في عَدَدِ الأنبياءِ، والرُّسُلِ، خَبَرٌ يُعتَمَدُ عليهِ، فلا يَعلَمُ عَدَدَهُم إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنَّهُم جَمٌّ غَفِيرٌ، قصَّ اللهُ علَيْنا أخبارَ بَعضِهِم، ولَمْ يَقُصَّ عَلَينا أخبارَ البَعضِ الآخَرِ؛ لِحِكْمَتِهِ البالِغَةِ، جلَّ وعَلا»[1].

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢/ ٦٦ -٦٧).

وفِيهـا: أنَّ أنبيـاءَ اللهِ كانُـوا مَبثُوثِـينَ في الأرضِ كلِّهـا؛ وقـدْ قـالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقـالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقـالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وإنَّـما قَصَّ اللهُ على نبيِّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبارَ الأنبياءِ في بِلادِ العَرَبِ، وما جاوَرَها مِنَ البُلدانِ القَرِيبَةِ، كالعِراقِ، والشَّـامِ، ومِـصْرَ؛ لأنَّ المَقصُودَ الاعتِبارُ، ولَمْ يَقْصُصْ عليـهِ أخبارَ أنبياءِ البُلدانِ البَعِيدَةِ، والأُمَمِ المُنقَرِضَةِ؛ لِعَدَمِ الحاجَةِ إلى ذلكَ، ولأنَّ في أخبارِ الأنبياءِ القَرِيبِينَ مَكانًا ما يُغنِي، ويَكفِي، وهُوَ أَدْعَى لإقامَةِ الحُجَّةِ.

وفِيها: أنَّ اللهُ قد بَعَثَ الرُّسُلَ إلى جَميعِ أُمَمِ الأرضِ، على اختِلافِ ألسِنَتِهِم، وألوانِهِم، وبُلدانِهِم.

وفِيها: فَضلُ مُوسَـى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وأنَّ اللهَ كلَّمَهُ صَوْتًا، وحَرْفًا، بلا واسِطَةٍ، ولكنَّه لَمْ يَرَ ربَّهُ، وقـد قـالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وفي الآيـةِ: إثباتُ صفةِ الكلامِ للهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، عـلى ما يَلِيقُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه بِحَرْفٍ، وصَوْتٍ، وقـد تَكلَّـمَ اللهُ بالقرآنِ بالعَرَبِيَّـةِ، وتَكلَّمَ بالتَـوْراةِ بالعِبرانِيَّةِ، وتَكلَّمَ بالإنجِيـلِ بالسُّريانِيَّةِ، وهَكَذا، وكَلامُهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصَوتُهُ، لا يُشبِهُ كلامَ البَشَرِ، ولا أصواتَهُم.

وفِيها: أنَّ التَّكلِيمَ بغيرِ واسِطَةٍ أعلَى مَراتِبِ الوَحْيِ.

وفِيها: التَّأكِيدُ على كَلامِ اللهِ، وأنَّه حَقِيقِيٌّ مَسمُوعٌ، وليسَ مجازًا؛ وذلِكَ لِمَجِيءِ المَفعُولِ المُطلَقِ: ﴿تَكۡلِيمًا﴾ بَعدَ الفِعْلِ: ﴿وَكَلَّمَ﴾.

وفِيهـا: الرَّدُّ على مَنْ حَـرَّفَ كَلامَ اللهِ، ونَفاهُ، وقالَ: إنَّ معنَى: (كَلَّمَ): جَرَّحَ، وأنَّه جَرَّحَ مُوسَى بأظافِيرِ الحِكمَةِ، فما أَبْطَلَ هذا التَّأوِيل! وما أَسْخَفَهُ! وكذلكَ قولُ مَنْ قالَ: إنَّ كَلامَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نَفْسِيٌّ، قائِمٌ بذاتِهِ، يُرِيدُ أنْ يَنْفِيَ حَقِيقةَ الكَلامِ عنِ اللهِ، ويَنْفِيَ الحَرْفَ، والصَوْتَ، كلُّ ذلكَ؛ خَشْـيَةَ المُشـابَهَةِ للبَـشَرِ -بزَعْمِه-، وكانَ الواجِبُ عليـهِ أنْ يُثْبِتَ ما أثبَتَهُ اللهُ مِنَ الكَلامِ لنَفْسِـهِ، كما يَلِيقُ بجَلالِهِ، وعَظَمَتِهِ، وأنَّ كلامَهُ، وصَوْتَهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يُشْـبِهُ شيئًا مِنْ أصواتِ المَخلُوقاتِ، لا الصَّواعِقَ، ولا غيرَها، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفِيها: وُجُوبُ الإيمانِ بِمَنْ سَمَّى اللهُ، ورسولُهُ، مِنَ الأنبياءِ بالتَّفصِيلِ، والإيمانِ بِبَقيَّتِهِم إجمالًا.

وفي الآيةِ: أنَّ الوَحيَ جِنْسٌ واحِدٌ، فمَنَ آمَنَ بالنُّبوَّاتِ، أو آمَنَ بنَبيٍّ، وَجَبَ عليهِ الإيمانُ بباقِي الأنبياءِ.

وفِيها: أنَّ الأنبياءَ لا يَعلَمُهُم -على التّفصيلِ- إلا اللهُ، قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...**﴾ [إبراهيم: ٩].

وفِيها: الاقتِصارُ على ذِكْرِ ما يُفِيدُ، ويَكفِي، والإعراضُ عَنْ ذِكرِ غَيْرِه؛ لِعَدَمِ تَشتِيتِ الأذهانِ.

ولَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه أرسَلَ رُسُلًا كَثِيرينَ، مِنْهُم مَنْ قَصَّ خَبَرَهُ، ومِنْهُم مَنْ لَمْ يُخبِرْنا بِهِ، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعدَها الغايَةَ مِنْ إرسالِ الجَمِيعِ، وهِيَ: البِشارَةُ، والنّذارَةُ، وإقامَةُ الحُجَّةِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ**﴾ يُبَشِّرونَ مَنْ أطاعَ اللهَ، واتَّبَعَ رِضوانَهُ، بِخَيْرَي الدُّنيا، والآخِرَةِ، والبِشارَةُ في اللُّغةِ: الخَبَرُ السَّارُّ -غالِبًا-؛ وذلكَ لأنَّ أثَرَهُ يَظْهَرُ على بَشَرَةِ سامِعِهِ نُورًا، وانبِساطًا، وقولُهُ: ﴿**وَمُنذِرِينَ**﴾ يُخوِّفُونَ مَنْ خالَفَ أمرَ اللهِ بعِقابِ الدَّارَيْنِ، وعَذابِهِما، والإنذارُ: هُوَ الإعلامُ بالمَكْرُوهِ تَحذِيرًا ﴿**لِئَلَّا**﴾ أي: لكَيْ لا ﴿**يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ**﴾ أي: حتَّى لا يَحتَجُّوا على ربِّهِم بِعَدَمِ العِلْمِ بِما يُرِيدُهُ مِنْهُم، وحتَّى لا يَقُولُوا: ما أَرْسَلْتَ إلينا رسولًا، وما أخبَرْتَنا بما يَجِبُ علينا، ولِذلكَ لَمْ يَبْقَ بَعدَ إرسالِ الرُّسُلِ حُجَّةٌ لأحدٍ بَلَغَتْهُ رِسالَتُهُم، والحُجَّةُ تأتِي بمعنى البَيِّنةِ، والإثباتِ، وتأتِي بمعنى العُذْرِ، وهو المُرادُ هُنا. ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ أي: عَزِيزًا في مُلْكِهِ، مَنِيعَ الجَنابِ، لا يَغْلِبُهُ شيءٌ، حَكِيمًا في تَدبِيرِهِ، وشَرْعِهِ، وقَضائِهِ، وقَدَرِهِ، وجَزائِهِ.

وقد ثَبَتَ في الصَّحِيحَيْنِ عنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا أَحَدَ أَحبُّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ والمُنْذِرِينَ**»(١).

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ قَبلَ الإنذارِ، وقَبْلَ بُلُوغِ الرِّسالَةِ، والذِي لَمْ تَبْلُغْهُ الحُجَّةُ الرِّساليَّةُ في الدُّنيا، فقد جاءَتِ الأخبارُ بامتِحانِهِ يومَ القِيامَةِ.

وفِيها: إزاحَةُ عِلَلِ المُعانِدِينَ، والمُبْطِلِينَ.

وفِيها: أنَّه لَيسَ للكافِرِينَ عُذرٌ -لا في الدُّنيا، ولا في الآخِرَةِ- بَعدَ إرسالِ الرُّسُلِ، فَما يُعاقِبُهُم اللهُ بِهِ في الدُّنيا على كُفْرِهم، هُوَ أيضًا بعدَ قِيامِ الحجَّةِ عليهِم؛ ولِذلكَ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، وقالَ أيضًا: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وفِيها: إثباتُ عَدْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنَّه لا يَظْلِمُ أحَدًا.

وفِيها: الواجِبُ العَظِيمُ على رُسُلِ اللهِ، ومَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُم في الدَّعوَةِ إلى اللهِ، مِنْ تَبلِيغِ الحَقِّ بوضُوحٍ، وإقامَةِ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، وفي ذلك شَرَفٌ عَظِيمٌ، وأجرٌ جَزِيلٌ.

وفِيها: العَمَلُ بِمَحبُوبِ اللهِ، وإنفاذُ إرادَتِهِ الشَّرعيَّةِ، بتَبْلِيغِ النَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِم مِنْ رَبِّهِم.

وفِيها: أنَّ الاقتِصارَ على التَّبشِيرِ فَقَط انحِرافٌ، يُؤدِّي إلى التَّساهُلِ، والتَّواكُلِ، والاقتِصارَ على الإنذارِ فقط انحِرافٌ، يؤدِّي إلى اليَأْسِ، والإحباطِ، والتَّنفِيرِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ يَقْبَلُ العُذْرَ الصَّحِيحَ.

وفِيها: أنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ -وَحدَهُ- لَيسَ كافِيًا لإقامَةِ الحُجَّةِ على النَّاسِ، وأنَّ العَقلَ -وحدَهُ- لا يَستَطِيعُ التَّوصُّلَ إلى تَفاصِيلِ الشَّرِيعَةِ، فلا بُدَّ مِنَ الوَحْيِ.

(١) رواه البخاريّ (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

وفِيها: أنَّ اللهَ عَزِيزٌ، يَنْتَقِمُ مِمَّنْ خالَفَ رُسُلَهُ، حَكِيمٌ، لا يُعذِّبُ قَبْلَ بُلُوغِ الحُجَّةِ.

وفي الآيةِ: بيانُ وَظِيفةِ الرُّسُلِ، ومَنِ اتَّبعَهُم.

وفِيها: أنَّ بَعثَةَ الأنبياءِ ضَرُورَةٌ.

وفي الآيةِ: دَلِيلٌ لِقاعِدَةِ العُذْرِ بالجَهْلِ.

وفِيها: أنَّ للهِ الحِكْمَةَ البالِغَةَ، والحُجَّةَ الدَّامِغَةَ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لَمْ يَترُكْ خَلقَهُ سُدًى، بَلْ أَرْسَلَ إليهِم مَنْ يُبيِّنُ لَهُمُ الغايَةَ، التِي خَلقَهُم مِنْ أَجْلِها.

وفِيها: استِعمالُ التَّرغِيبِ، والتَّرهِيبِ، في الدَّعوَةِ إلى اللهِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ حِكمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: اتِّخاذَهُ سُفَراءَ بَيْنَه وبَيْنَ خَلْقِهِ.

وفِيها -مَعَ ما قَبْلَها-: أنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تَفرِيقَ الرُّسُلِ، زَمانًا، ومَكانًا؛ لِشُمُولِيَّةِ قِيامِ الحُجَّةِ، وبَقاءِ نُورِ النُّبوَّةِ في الأرضِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ حِكمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إثابَةَ المُحْسِنِ على إحسانِهِ، ومُعاقَبَةَ المُسِيءِ على إساءَتِهِ.

وفِيها: أَهَمِيةُ اتِّصافِ مَنْ يَدعُو إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالبِشارَةِ، والنِّذارَةِ؛ فإنَّ اللهَ وَصَفَ بِهِما النَّبيِّينَ عُمُومًا، فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ثُمَّ وَصَفَ بِهِما الرُّسُلَ خاصَّةً، فقالَ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، ثُمَّ وَصَفَ بِهِما نَبِيَّنا مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصَّةً، فقالَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وفي الآيةِ: رَدٌّ على الجَبْرِيَّةِ، الذينَ يَقولُونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِهِ؛ لأنَّه لَوْ كانَ مُجبَرًا، لَكانَ مَعذُورًا، سَواءٌ بُعِثَ إليهِ رسولٌ أمْ لا، لكنَّهُ لَيسَ مُجبَرًا؛ ولِذلِكَ كانَ بَعْثُ الرُّسُلِ يَقطَعُ الحُجَّةَ.

وفي الآيةِ: رَدٌّ على الإمامِيَّةِ، الذينَ يَقولُونَ: إنَّ البَشَرَ حاجَتهُم عامَّةٌ إلى الأئِمَّةِ الاثني عَشَرَ، ورَدٌّ على الفلاسِفَةِ، والمُتكلِّمِينَ، الذينَ يَقولُونَ: إنَّ العَقلَ يَكفي في إقامَةِ

الحُجَّةِ، فيُقالُ للطَّائِفَةِ الأولَى: إنَّ حاجَةَ البَشَرِ العامَّةَ في مَعرِفَةِ الحقِّ مَردُّها للأنبياءِ والمُرسَلِينَ فقَط.

ويُقالُ للطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ: إنَّ الرُّسُلَ هُمُ الذينَ يُقِيمُونَ الحُجَّةَ على البَشَرِ، ولا يُقِيمُها العَقلُ وحدَهُ.

ولَمَّا أَخبرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه أَوْحَى إلى نَبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَما أَوْحَى إلى إخوانِهِ مِنَ الأنبياءِ، والمُرسَلِينَ، مِنْ قَبْلِهِ، ذَكَرَ بعدَها شَهادَتَهُ، وشَهادَةَ مَلائِكَتِهِ، بِصِدْقِ نبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما جاءَ به عنهُ؛ وذلكَ رَدًّا على مَنْ جَحَدَ نُبوَّتَهُ مِنَ اليَهودِ، ومُشرِكِي العَرَبِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: وإنْ كَفَرَ بكَ مَنْ كفَرَ، وكَذَّبَ بكَ مَنْ كَذَّبَ، فإنَّ اللهَ يَشهَدُ بأنَّهُ حَقٌّ، وأنَّكَ صادِقٌ في تَبليغِهِ، وفائِدَةُ الشَّهادَةِ على الشَّيءِ: إثباتُ صحَّتِهِ، وشَهادَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤَيَّدَةٌ بالمُعجِزاتِ. ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: مُشتَمِلًا على عِلْمِهِ، مِنَ الأحكامِ الشَّرعِيَّةِ، والأخبارِ الغَيْبِيَّةِ، التي لا يَعلَمُها إلا هُوَ، ويُمْكِنُ أنْ يكونَ المعنَى أيضًا: أنزَلَهُ وهُوَ يَعلَمُهُ، ويَعلَمُ حالَ الذي أَنزَلَهُ عليهِ، وحالَ الواسِطَةِ الذي نَزَلَ بِهِ، ويَعلَمُ حالَ المُخاطَبِينَ بِهِ، ومَواقِفَهُم مِنْ ذلكَ. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أي: بِصِدْقِ ذَلكَ أيضًا. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وكَفَى بِشَهادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ شَهادَةِ غَيرِهِ، وكَفَى بِهِ مُصدِّقًا لَكَ، وإنْ لَمْ يَشْهَدْ لَكَ أحدٌ، فلا حاجَةَ لِشَهادَةِ أَحَدٍ مَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

سَعَةُ عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفيها: ذِكْرُ أعظَمِ شَهادَةٍ؛ وذَلكَ لجِلالَةِ الشَّاهِدِ، والمَشهُودِ بِهِ، والمَشهُودِ لَهُ، وقد قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٩].

وفيها: تَأييدُ اللهِ لنبيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعنَوِيًّا، وحِسِّيًّا.

وفِيها: أنَّه لا حاجَةَ لِشَهادَةِ أحَدٍ مَعَ شَهادَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفِيها: أنَّ مَنْ شَهِدَ اللهُ له بالصِّدقِ، فَلا يَضُرُّهُ مَنْ كَذَّبَهُ.

وفِيها: تَوبِيخُ الذينَ يَجْحَدُونَ بالقُرآنِ، والوَحْيِ، والرَّدُّ على اليهودِ وأهلِ مَكَّةَ في تكذِيبِهِم.

وفِيها: بَيانُ مَكانَةِ القرآنِ؛ لاشتِمالِهِ على عِلْمِ اللهِ، قالَ عَطاءُ بنُ السَّائِبِ: «أَقْرَأَنِي أبو عبدِالرَّحمَنِ السُّلمِيّ القُرآنَ، وكانَ إذا قَرَأَ عليهِ أحَدُنا القُرآنَ قالَ: قَد أَخَذْتَ عِلْمَ اللهِ، فلَيْسَ أَحَدٌ اليومَ أفْضَلَ مِنكَ إلا بِعَمَلٍ. ثُمَّ يَقْرَأُ قولَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾»(١).

وفي الآيةِ: تَسلِيَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتَّخفِيفُ عَنْهُ فيما أصابَهُ مِنْ تكذِيبِ المُعانِدِينَ لَهُ.

وفِيها: إدخالُ الطُّمَأنِينَةِ على قلبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذِهِ الشَّهادَةِ العَظِيمَةِ.

وفِيها: فَضلُ الملائِكَةِ؛ لِمُوافَقَتِهِم رَبَّهم فيما شَهِدَ بِهِ.

وفِيها: تَأييدُ الحَقِّ بالمُعجِزاتِ، والبيِّناتِ.

وفِيها: الرَّدُّ على مَنْ قالَ: إنَّ القُرآنَ مِنْ عِندِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو هُوَ مِنْ عِندِ جِبرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفِيها: دَلِيلٌ على عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِهِ، ورَدٌّ عَلَى مَنْ قالَ بِحُصُولِ تَحرِيفٍ في القُرآنِ، أو نَقْصٍ فِيهِ.

وفي الآيةِ: أنَّ الأُمُورَ العَظِيمَةَ لا يُستَشْهَدُ عليها إلا الخَواصُّ.

وفِيها: أنَّ الشَّهادَةَ تَكونُ بالقَولِ، كما في هذِهِ الآيةِ، وتَكونُ بالفِعلِ، كما في تَأييدِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمُعجِزاتِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَلَ نفسَهُ حَكَمًا بَيْنَ نبيِّهِ، وبَيْنَ مُخالِفِيهِ.

وفِيها: رَدٌّ على المُعتَزِلَةِ وغيرِهِم، مِمَّنْ نَفَى عِلمَ اللهِ، وقالُوا: عَلِيمٌ بِلا عِلْمٍ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٢١).

وفِيها: أنَّ شَهادَةَ المَلائِكَةِ تَبَعٌ لِشَهادَةِ اللهِ، ولَيْسَتْ تَعزيزًا لَها.

وفِيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلٌ لإنزالِ القُرآنِ عَلَيهِ.

وفِيها: أنَّ المَلائِكةَ تَشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ.

ولَمَّا رَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المُكذِّبينَ بوَحْيِهِ، ورسولِهِ، تَوعَّدَهُم بالعَذابِ، فقالَ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِمُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبِما أُنزِلَ علَيهِ ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرَهُم، وصَرَفُوهُم عنِ اتِّباعِ الحَقِّ، والصَّدُّ: الإعراضُ، والصَّرفُ، والمَنْعُ عَنْ قَصدِ الشَّيءِ. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: طَريقِهِ، وهُوَ الإسلامُ، والصِّراطُ المُستَقِيمُ ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ عنِ الحَقِّ، والصَّوابِ، وخَرَجُوا عَنْهُ، وابتَعَدُوا بَوْنًا شاسِعًا. ثُمَّ زادَ في وَصْفِ طُغيانِهِم، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أُنزِلَ إليكَ ﴿وَظَلَمُواْ﴾ أنفُسَهُم بالإعراضِ عنِ الحَقِّ، وظَلَمُوا غيْرَهُم بِمَنْعِهِم مِن اتِّباعِهِ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أي: لَمْ يَكُنْ مِنْ فِعْلِهِ، وسُنَّتِهِ، أنْ يَعْفُوَ عَنْ ذُنُوبِهِم، ويَسْتُرَها، بَلْ يُعاقِبُهُم عليها، ويَفْضَحهُم بِها ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ مِنْ طُرُقِ الخَيرِ، والثَّوابِ، والجَزاءِ الحَسَنِ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي: سَبِيلًا يُؤدِّي إليها، فلا يُوَفِّقُهُم لِفِعْلِ خَيرٍ يَصِلُونَ بِهِ إلى الجَنَّةِ، بَلْ يَتَخَلَّى عَنْهُم بما كَفَرُوا، وصَدُّوا؛ لِيَسلُكُوا طَرِيقَ جَهَنَّمَ، فَيَدْخُلُوها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ ماكِثِينَ فيها بلا انقِطاعٍ، دائِمِينَ فيها بلا خُرُوجٍ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: التَّعذِيبُ، والتَّخليدُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ أي: هَيِّنًا سَهْلًا، لا يَصْعُبُ عليهِ.

وفي الآياتِ مِنَ الفوائِدِ:

أنَّ صَنادِيدَ الكُفرِ لَمْ يَكْتَفُوا بِكُفرِهِم، بَلْ صَدُّوا النَّاسَ عَنِ الحَقِّ؛ لِيكُونُوا كافِرينَ مِثلَهُم، فَجَمَعُوا بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ العَظِيمَتَيْنِ.

وفِيهـا: أنَّ أعظَـمَ الضَّلالِ: هو ضَلالُ مَنْ يَضِلُّ بنفسِـهِ، ويُضِلُّ غَـيرَهُ، فَيَبُوءُ بالإثمَيْنِ، ويَرْجِعُ بالخَسارَتَيْنِ، وهذا شَأْنُ أئمَّةِ الكُفرِ.

وفِيهـا: الجَمعُ بَيْنَ الظُّلمَيْنِ: بالإصرارِ على الكُفرِ، والاستِغْراقِ فِيـه، مِنْ جِهَةٍ، وإبقاءِ النَّـاسِ عَلَيـهِ، ودَعوَتِهِم إليـهِ، وتَزيينِهِ لهُم، والصَّدِّ عـنِ الحقِّ، وتَنفِيرِ النَّاسِ عَنْـهُ، مِنْ جِهَةٍ أخرَى.

وفِيها: أنَّ مَنْ هذا شَأْنُهُ فهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الخَيرِ، بَعِيدٌ مِنَ المَغفِرَةِ، والهِدايَةِ.

وفِيهـا: حِكمَـةُ اللهِ البالِغَةُ في هؤلاءِ الكافِرِينَ، وأنَّ مَنْ طَبَعَ اللهُ على قَلْبِهِ، انسَـدَّتْ عليهِ طُرُقُ الهِدايَةِ.

وفِيهـا: أنَّ اللهَ لا يَظلِمُ النَّاسَ شـيئًا، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَـصرِفُ أحَدًا عَنِ الخَيرِ، إلا مَنْ عانَدَ، وطَغَى، وصَدَّ عن سَبِيلِهِ، وبَغَى.

وفِيهـا: أنَّ النَّـارَ لا تَفْنَـى، وأنَّ الكفَّارَ خالِدُونَ فيهـا لا يُمُوتُـونَ، وأنَّ مُكْثَهَم فِيها دائِمٌ أبدِيٌّ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَعْبَأُ بهؤلاءِ الظالِمِين.

وفِيها: خُطُورَةُ التَّنفِيرِ عنِ الحَقِّ، وكِتمانِهِ، والسَّعيِ في تَشوِيهِ صُورَتِهِ، وإلقاءِ الشُّبهاتِ، والطَّعنِ فِيهِ.

وفِيها: أنَّ شِدَّةَ الضَّلالِ تُؤدِّي إلَى الإضلالِ.

وفِيها: أنَّ المُضلِّينَ يُرِيدُونَ إضلالَ غيرِهِم.

وفِيهـا: أنَّ الكُفرَ، والظُّلمِ، يُعمِي القَلبَ، ويَجْعَلُ صاحِبَهُ يَستَمْرِئُ قَبِيحَ الأفعالِ، حتَّى تَتَّجِهَ نفسُهُ إلى طَرِيقٍ واحِدٍ، وهُوَ طَرِيقُ جَهَنَّمَ.

وفِيهـا: تَأكِيـدُ خُلُودِ الكافِرِينَ في النَّارِ بأنَّهُ أبـدِيٌّ؛ لأنَّ الخُلُودَ -وَحدَهُ- قد يَأتِي بمعنَى بَقـاءِ الشَّيءِ مُـدَّةً طَوِيلَةً، وأمَّا الأبَدُ: فَهُوَ الزَّمَنُ المُمتَدُّ الـذِي لا نِهايَةَ لَهُ، ولا انقِضاءَ، وَقَد صرَّحَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بتَأبِيـدِ خُلُـودِ الكفَّـارِ في النَّـارِ، في ثَلاثَـةِ مَواضِـعَ مِـنْ كِتابِهِ: هـذا أَحَدُها،

والآخَرُ: في سُورَةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ...﴾ الآية [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، والثَّالِثُ: في سُورةِ الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وفِيها: أنَّ الجَبابِرَةَ المُعانِدِينَ لا يَنْتَفِعُونَ، ولا يَنفَعُونَ، ولا يَتْرُكُونَ غيرَهُم يَنتَفِعُ.

وفِيها: تَهدِيدُ رُؤَساءِ الكُفْرِ، وأئمَّتِهِ، ودُعاتِهِ، بعذابَيْنِ: عذابٍ على كُفرِهِم، وعذابٍ على صَدِّهِم.

وفِيها: أنَّ مَنْ أَبْعَدَ في الضَّلالِ، وتَوغَّلَ في الشَّرِّ، والفَسادِ، لا يَتُوبُ -غالِبًا-، ولا يَرجِعُ عنْ غَيِّهِ.

وفِيها: أنَّ قُطَّاعَ طُرُقِ الهُدَى المُؤدِّيَةِ للرَّحمَةِ، والمَغفِرَةِ، لا يَستَحقُّونَ إلا الخِذلانَ، وسُلُوكَ طَرِيقِ النَّارِ، وأنَّ مَنْ أَوْغَلَ في الشَّرِّ طِيلَةَ عُمُرِهِ، وطالَ سَعيُهُ في ذلكَ، تُسَدُّ عنهُ أبوابُ الخَيرِ، والجنَّةِ، فكَما قَطَعَ طَرِيقَ الحقِّ علَى النَّاسِ، قَطَعَ اللهُ عليهِ طَرِيقَ الرَّحمَةِ.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يُبالِي بأمثالِ هؤلاءِ المُكَذِّبِينَ، ولا يُقِيمُ لَهُم وَزْنًا.

وفِيها: أنَّ اللهَ لَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ ماتَ على الكُفرِ.

وفِيها: أنَّ اليَهودَ أوَّلُ مَنْ تَنْطَبِقُ عليهِم هذِهِ الآياتُ؛ لأنَّهُم كَفَرُوا باللهِ، وبنَبيِّهِ، وكَتَمُوا نَعْتَهُ، وصِفَتَهُ، وصَدُّوا غيرَهُم عَنِ الحَقِّ، ومالَؤُوا كفَّارَ قُرَيشٍ على الكُفرِ، وَهُمُ الذينَ كانُوا يَقُولُونَ لِكفَّارِ قُرَيشٍ: أنتُم أَهدَى سَبِيلًا مِنْ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذِهِ الآياتُ تَعُمُّ كلَّ مَنْ شابَهَهُم، وتَشْمَلُ كلَّ كافِرٍ، يَصُدُّ عنْ سَبِيلِ اللهِ.

وفِيها: أنَّ الضَّلالَ، والكُفرَ، دَرَجاتٌ، قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلَمْ أنَّ الكُفرَ بَعضهُ أغلَظُ مِنْ بَعضٍ، فالكافِرُ المُكَذِّبُ أعظَمُ جُرْمًا مِنَ الكافِرِ غيرِ المُكذِّبِ؛ فإنَّه جَمَعَ بَيْنَ تَرْكِ الإيمانِ المَأمُورِ بِهِ، وبَيْنَ التَّكذِيبِ المَنْهِيِّ عنْهُ، ومَنْ كَفَرَ، وكَذَّبَ، وحارَبَ اللهَ، ورسولَهُ، والمُؤمِنِينَ، بِيدِهِ، أو لِسانِهِ، أَعظَمُ جُرمًا مِمَّنِ اقتصَرَ على مُجرَّدِ الكُفرِ، والتَّكذِيبِ، ومَنْ كَفَرَ، وقتَلَ، وزَنَى، وسَرَقَ، وصَدَّ، وحارَبَ، كانَ أعظَمَ جُرمًا»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٧).

وفِيها: أنَّ طَرِيقَ الشَّرِّ في الدُّنيا يُوَصِّلُ إلى النَّارِ في الآخِرَةِ، كما أنَّ طَرِيقَ الخَيرِ يُوَصِّلُ إلى طَرِيقِ الجنَّةِ في الآخِرَةِ.

وفي الآياتِ: شِدَّةُ جُرْمِ وعذابِ اليَهودِ، ومَنْ شابَهَهُم؛ لأنَّهُم عَرَفُوا سَبِيلَ اللهِ، ثُمَّ صَدُّوا أنفُسَهُم وغَيرَهُم عَنهُ.

وفِيها: شَناعَةُ الصَّدِّ عَنِ الحَقِّ بِنوعَيْهِ، فالأوَّلُ: الإعراضُ، والانصِرافُ عَنِ الشَّيءِ، والامتِناعُ عَنهُ، كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، والثَّانِي: صَرْفُ الغَيْرِ عَنِ الخَيرِ، ومَنْعُهُ مِنْهُ، كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وآيَةُ النِّساءِ هذِهِ تَشْمَلُ النَّوعَيْنِ جَمِيعًا.

وفِيها: أنَّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الضَّلالِ، والإضلالِ، فَقَد أَبْعَدَ، وأَمْعَنَ في الشَّرِّ.

وفِيها: أنَّ شِدَّةَ العَذابِ تُناسِبُ دَرَجَةَ الجُرْمِ، فَقَد حُرِمَ هؤلاءِ مِنَ المَغفِرَةِ، وجُعِلَ طَرِيقُهُم إلى جَهَنَّمَ، وحُكِمَ عليهِم بالخُلُودِ المُؤَبَّدِ فِيها.

ولَمَّا أقامَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الحُجَّةَ على أهلِ الكِتابِ، ورَدَّ شُبهاتِهِم، خاطَبَ جَمِيعَ النَّاسِ بالأمْرِ بالإيمانِ، ولَمَّا شَهِدَ لنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصِّدقِ، أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُوا بِهِ، وبَعدما ذَكَرَ القَوارِعَ التِي تَلِينُ لَها القُلُوبُ، وتَتَهَيَّأُ عِندَها النُّفُوسُ لِتَلَقِّي الحقِّ، أَمَرَهُم بِهِ، وَوَعَظَ المُعرِضِينَ بأنَّه مُستَغْنٍ عَنْهُم، لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ إليهِ، فقالَ سُبْحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخِطابُ للجَمِيعِ، وقِيلَ: لِمُشرِكي قُرَيْشٍ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ﴾ أسلُوبُ تَوْكِيدٍ، وهذا ما تُفِيدُهُ: (قد) إذا دَخَلَتْ على الفِعْلِ الماضِي ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَصَفَهُ بالرسولِ؛ لِحَثِّهِم على مَعرِفَةِ رِسالَتِهِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذِي لا مِرْيَةَ فِيهِ، ولا شَكَّ، وهو هذا القُرآنُ، وهذِهِ الشَّرِيعَةُ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بيانُ مَصدَرِ الرِّسالَةِ، وأنَّها لَيْسَتْ مِنَ النبيِّ مِنْ تِلْقاءِ نَفسِهِ، وإنَّما هِيَ وَحْيٌ يُوحَى إليهِ ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ صَدِّقُوا، وأَيْقِنُوا، واعمَلُوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ مِنَ الكُفرِ الذِي أنتُم عليهِ، وأيضًا: آمِنُوا، يَكُنْ إيمانُكُم خيرًا لَكُم في العاقِبَةِ،

والمَصِـيرِ ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ وتَجْحَـدُوا، وتُعرِضُـوا، وتُكذِّبُـوا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُلْـكًا، وخَلْقًا، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنكُم، لا يَتَضَرَّرُ بكُفْرِكُم، ولا يُنْقِصُهُ شَـيئًا مِنْ مُلْكِهِ، وهُوَ غَنِيٌّ عنْ إيمانِكُم، لا يَنْتَفِعُ بِهِ، وقادِرٌ على جَزائِكُم، وقَد خَضَعَ لَهُ ما في السَّماواتِ، وما في الأرضِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحَقِيقَتِكُم، ومَصِيرِكُم، وبِمَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَةَ أوِ الغِوايَةَ منكُم ﴿حَكِيمًا﴾ في أقوالِـهِ، وأفعالِهِ، وخَلْقِـهِ، وأمرِهِ، وشَرْعِهِ، وقَدَرِهِ، فلا يُسـوِّي بَيْنَ المُؤمِنِ، والكافِرِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

شُمُولُ الخِطابِ القُرآنِيّ، وأنَّه يُخاطِبُ المُؤمِنَ، والكافِرَ، والبَرَّ، والفاجِرَ.

والمُؤمِنُ إذا مَرَّ بِخِطابٍ في القُرآنِ، لَيْسَ مُوَجَّهًا إليهِ، فإنَّه يَستَفِيدُ مِنْهُ عَدَّةَ أُمُورٍ، مِنها:

١. أنْ يَحْمَدَ اللهَ أنَّهُ لَيْسَ مِنْ أهلِه، ويَعرِفَ فَضلَ اللهِ عليهِ، ونِعْمَتَه.

٢. أنْ يَحذَرَ أنْ يكونَ مِنْ أهلِه مُستَقْبَلًا.

٣. أنْ يَحذَرَ أنْ يَكُونَ فِيهِ شُعبَةٌ مِنْ شُعَبِ الكُفرِ.

٤. أن يُبلِّغَهُ إلى أهلِه المُوَجَّه إليهِم.

٥. أنّ يَتَعَرَّفَ مِنْ خِلالِه على طَرِيقَةِ دَعوَةِ مَنْ وُجِّهَ إليهِ، وطَرِيقَةِ الخِطابِ الإلهِيِّ لِهؤلاءِ.

٦. الأجرُ على التِّلاوَةِ.

وفي الآيةِ: أنَّ الرسولَ ﷺ جاءَ بالحَقِّ، مُتكلِّمًا بِهِ، مُبَلِّغًا إيَّاهُ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ يُزَكِّي صاحِبَهُ، ويُطَهِّرُهُ، ويُؤَهِّلُهُ للسَّعادَةِ الأبدِيَّةِ.

وفِيهـا: عُبودِيَّـةُ الخُضُوعِ، والـذُّلِّ، وأنَّها عامَّةٌ في جَمِيعِ الخَلْقِ، وفي هـذا تَنبِيهُ النَّاسِ إلى عِبادَةِ الاختيارِ بذِكْرِ عِبادَةِ الاضطِرارِ.

وفِيها: أنَّ طاعَةَ النَّاسِ لا تَزِيدُ اللهَ شَيْئًا.

وفِيهـا: أنَّ الإيـمانَ خَـيرٌ عَظِيـمٌ للعِبـادِ في أبدانِهِـم، وقُلُوبِهِـم، وأرواحِهِـم، ودُنياهُـم، وأُخْراهُم، ويَتَرتَّبُ عليهِ مِنَ المَصالِحِ، والفَوائِدِ، ما لا يَعلَمُهُ إلا اللهُ.

وفي الآيةِ: عُمُومُ رِسالَةِ النبيِّ ﷺ لِجَمِيعِ أهلِ الأرضِ.

وفِيها: أنَّه يَجِبُ الانقِيادُ إلى الحَقِّ، واتِّباعُهُ، والإيمانُ بِهِ.

وفِيها: أنَّ القُلُوبَ إذا لانَتْ بالقَوارِعِ، والنُّفُوسَ إذا تَهَيَّأَتْ، وأقبلَتْ، فإنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُتْبَعَ ذلِكَ بذِكْرِ التَّكليفِ، والأمرِ، والنَّهي، وتَبيِينِ ما يَجِبُ عَمَلُهُ، وفي هذا دَرْسٌ للدَّاعِيَةِ بانتِهازِ الفُرصَةِ لِبَيانِ الحقِّ، والأمرِ بِهِ، إذا تَهَيَّأَتِ الأسماعُ، ولانَتِ الطِّباعُ، وأنَّ المَقدِّماتِ لا بُدَّ أنْ يَتبَعَها ذِكرُ المَقصُودِ مِنَ الخِطابِ.

وفِيها: حِكْمَةُ اللهِ البالِغَةُ في إرسالِ الرسولِ؛ لِتَعرِيفِ النَّاسِ ماذا يُرِيدُ ربُّهُم مِنْهُم.

وفِيها: الأمرُ بالازدِيادِ مِنَ الإيمانِ لِمَنْ آمَنَ، والحِرْصُ على طاعَةِ النبيِّ ﷺ في الصَّغِيرَةِ، والكَبِيرَةِ.

وفِيها: أنَّ الحقَّ مَحْصُورٌ فيما جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ.

وفِيها: مَوعِظَةٌ للإنسانِ، بأنَّه إذا كانَت السَّماواتُ، والأرضُ -مَعَ عِظَمِهِما- قَد خَضَعَتا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَوْنًا، وقَدَرًا، فإنَّ عليهِ -وهُوَ الأَضْعَفُ، والأَصْغَرُ- أنْ يَسْتَسْلِمَ، ويَخضَعَ للهِ.

وفِيها: التَّحلِيَةُ بَعدَ التَّخْلِيَةِ؛ فَقَد تَمَّ عَرْضُ الحقِّ بَعدَ دَحْضِ مُفتَرَياتِ أهلِ الكِتابِ، وكَشْفِ شُبهاتِهِم.

وفِيها: تَهدِيدُ مَنْ كَفَرَ، بأنَّه لا يَستَطِيعُ الإفلاتَ مِنْ عِقابِ اللهِ، ولا الهُرُوبَ مِنْ أقطارِ السَّماواتِ والأرضِ، وهُما مِلْكٌ للهِ، خاضِعَتانِ لَهُ.

وفِيها: قُوَّةُ القُرآنِ في مُخاطَبَةِ جَمِيعِ الكفَّارِ؛ فإنَّه إذا رَدَّ على أهلِ الكِتابِ، وأَفْحَمَهُم، وكَشَفَ باطِلَهُم، وأَقامَ عليهِم الحُجَّةَ، فإنَّ غيرَ أهلِ الكِتابِ مِنْ بابِ أَوْلَى، فلَيْسَ لَدَيْهِم شَيءٌ يَستَنِدُونَ عليهِ، ولا يَحتَجُّونَ بِهِ.

وفِيها: نَسخُ رِسالَةِ النبيِّ ﷺ للرِّسالاتِ السَّابِقَةِ، ونَسْخُ كِتابِهِ لِجَمِيعِ الكُتُبِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِخَلْقِهِ: إرسالَ رسولِهِ؛ لِتَعلِيمِهِم، وتَرْبِيَتِهِم.

وفِيها: أنَّ الواجِبَ قَبُولُ نِعمَةِ اللهِ بِشُكرِها، والاستِفادَةِ مِنْها.

ولَمَّا رَدَّ اللهُ على اليهودِ في طَعنِهم في عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأُمِّه، وبَيَّنَ مَكانَتَهُ، وأبطَلَ قَوْلَهُم في قَتْلِهِ، وصَلْبِهِ، وذَكَرَ رَفْعَهُ إليهِ، وأشارَ إلى نُزُولِهِ في آخِرِ الزَّمانِ، وقد كانَ اليَهودُ يَكفُرُونَ بِهِ، ويَسُبّونَهُ، ثُمَّ أمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإيمانِ بأنبيائِهِ جميعًا، انتقَلَتِ الآياتُ بَعدَ ذلكَ للرَّدِّ على الفِرْقَةِ الثَّانيَةِ مِنْ أهلِ الكِتابِ، الغالِيَةِ، المُقابِلَةِ للجافِيَةِ، في شَأنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهُمُ النَّصارَى، الذينَ غَلَوْا فِيهِ، ورَفَعُوهُ فَوْقَ مَنزِلَتِهِ التي أَنْزَلَهُ اللهُ، حتَّى قالَ بَعضُهُم: إنَّهُ اللهُ، وقالَ بَعضُهُم: إنَّهُ ابنُ اللهِ، وقالَ بعضُهُم: هُوَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ، فَقالَ عَزَّوَجَلَّ في مُحاجَّةِ النَّصارَى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يا أهلَ الإنجيلِ، وهذا مِنَ العامِّ الذي أُرِيدَ بِهِ الخاصّ ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾ لا تَتجاوَزُوا الحَدَّ في تَعظِيمِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا تَبْتَدِعُوا ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ الذي شَرَعَهُ اللهُ لَكُم وطالَبَكُم بِهِ ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وتَعْتَقِدُوا فِيهِ ﴿إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ أي: الصَّوابَ الثَّابِتَ بالبُرْهانِ القاطِعِ، كَتَوحِيدِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونَفْيِ الوَلَدِ والصَّاحِبَةِ عنْهُ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ﴾[1] مُبتَدَأٌ ﴿عِيسَى﴾ بَدَلٌ ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ صِفَةٌ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُ المُبْتَدَأ، أي: لَيْسَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا رسولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ إلى بَنِي إسرائِيلَ، فلا هُوَ شَرِيكٌ للهِ، ولا هُوَ ابنٌ لَهُ، ولَيْسَ هُوَ اللهَ، ولا ثالِث ثَلاثَةٍ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي: مَخلُوقٌ بكَلِمَةِ اللهِ، وهِيَ: (كُنْ) مِنْ غَيرِ أبٍ، ولا نُطْفَةٍ، فلَيْسَ

(١) اخْتُلِفَ في اسْمِ المَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ مِمَّاذا أُخِذَ: فَقِيلَ: لِأَنَّهُ مَسَحَ الأَرْضَ، أَيْ ذَهَبَ فِيها فَلَمْ يَسْتَكِنَّ بِكِنٍّ. وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كانَ لا يَمْسَحُ ذا عاهَةٍ إِلَّا بَرِئَ، فَكَأَنَّهُ سُمِّيَ مَسِيحًا لِذَلِكَ، فَهُوَ عَلَى هَذا فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كانَ مَمْسُوحَ الأَخْمَصَيْنِ. وَقِيلَ: لِأَنَّ الجَمالَ مَسَحَهُ، أَيْ أَصابَهُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: إِنَّما سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسِحَ بِالطُّهْرِ مِنَ الذُّنُوبِ. وَقالَ أَبو الهَيْثَمِ: المَسِيحُ ضِدُّ المَسِيخِ، يُقالُ: مَسَحَهُ اللهُ أَيْ: خَلَقَهُ خَلْقًا حَسَنًا مُبارَكًا، وَمَسَخَهُ أَيْ: خَلَقَهُ خَلْقًا مَلْعُونًا قَبِيحًا. وَقالَ ابْنُ الأَعْرابِيِّ: المَسِيحُ الصِّدِّيقُ، والمَسِيخُ الأَعْوَرُ، وَبِهِ سُمِّيَ الدَّجَّالُ. وَقالَ أَبُو عُبَيْدٍ: المَسِيحُ أَصْلُهُ بِالعِبْرانِيَّةِ: مَشِيحا -بِالشِّينِ- فَعُرِّبَ كَما عُرِّبَ مُوشَى بِمُوسَى. تفسير القرطبي (٤/ ٨٩).

عِيسَى هُوَ الكَلِمَة، ولكنْ صارَ عِيسَى بالكَلِمَةِ، وخُلِقَ بها، والعَرَبُ قدْ تُسمِّي الشَّيءَ باسْمِ الشَّيءِ إذا كانَ صادِرًا عَنْهُ، واللهُ يَخْلُقُ بكَلامِهِ ما يَشاءُ، ويُوجِدُهُ مِنَ العَدَمِ ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: جاءَ بها جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَوْصَلَها إلى مَرْيَمَ، لَمَّا نَفَخَ في جيبِ دِرْعِها، فَوَلَجَتْ النَّفخَةُ، وَوَصَلَتْ إلى الرَّحِمِ، فَحَمَلَتْ بِهِ، كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، أي: بواسِطَةِ المَلَك، وَهُوَ جِبرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَضافَهُ إليهِ إضافَةَ تَشْرِيفٍ. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أَيْ: مِنْ خَلْقه وَمِنْ عِنْدِهِ، وَلَيْسَتْ (مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، كَما تفتَرِيه النَّصارَى، بَلْ هِيَ لِابْتِداءِ الغايَةِ، وَسُمِّيَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُوحًا؛ لأَنَّه مِنَ الأَرْواحِ التِي خَلَقَها اللهُ، ولأنَّها حَصَلَتْ مِنَ الرِّيحِ والنَّفخَةِ التي كانَتْ مِنْ جِبرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكُلُّ هذا حَصَلَ بأمرِ اللهِ، وخَلقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخْلُقُ بالكَلامِ، كَما قالَ: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ واحِدًا أَحَدًا، لا صاحِبَةَ لَهُ ولا وَلَدَ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ وأَنَّهُم عَبيدٌ للهِ، ولا تُفرِّقُوا بَيْنَهُم في الإيمانِ ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ يا أَيُّها النَّصارَى ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: آلِهَتُنا ثَلاثَةٌ: الأَبُ، والابْنُ، ورُوحُ القُدُسِ، وبَعضُهُم يقُولُ: اللهُ، ومَرْيَمُ، والمَسِيحُ، وبَعضُهُم يَقُولُ: اللهُ ثَلاثَةُ أَقانِيمَ: أُقنُومُ الوُجُودِ، وأُقنُومُ الحَياةِ، وأُقنُومُ العِلْمِ -والأُقنُومُ: الأَصْلُ-، وبَعضُهُم يَقُولُ: إنَّ كلًّا مِنْها إلَهٌ، وبعضُهُم يَقُولُ: مَجْمُوعُها إلَهٌ واحِدٌ، وكلُّ هذا تَناقُضٌ باطِلٌ؛ ولِذلِكَ نَهاهُمُ اللهُ عنهُ، فقالَ: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ أي: امتَنِعُوا، وكُفُّوا، وانْزَجِرُوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: إذا انتَهَيْتُم عَنْ هَذِهِ المَقولاتِ الباطِلَةِ، والاعتِقاداتِ الفاسِدَةِ، فإنَّ هذا الانتِهاءَ سيكونُ خيرًا لَكُم في الدُّنيا والآخِرَةِ، ويُنَجِّيكُم مِنَ الهَلاكِ.

ثُمَّ قَرَّرَ سبحانَهُ العَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ، فقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾ أي: المُستَحِقُّ للعِبادَةِ دُونَ سِواهُ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بذاتِهِ، مُنْفَرِدٌ في أُلُوهِيَّتِهِ، مَنزَّهٌ عَنِ التَّعدُّدِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: تَعالَى، وتَقَدَّسَ، وتنزَّه ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لا ذَكَرَ، ولا أُنثَى ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجَمِيعُ مُلْكُهُ، وخَلقُهُ، كَما قالَ في الآيةِ الأخرَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُعجِزُهُ شَيءٌ، فَيَخْلُقُ مِنْ غَيرِ أبٍ ولا أمٍّ، كآدَمَ، والمَلائِكَةِ، والحُورِ

العِينِ، والوُلدانِ المُخَلَّدِينَ، غِلْمانِ أهلِ الجنَّةِ، وكذلكَ إبليس، ويَخلُقُ مِنْ أَصْلٍ واحِدٍ، كحَوَّاءَ مِنْ آدَمَ، وعِيسَى مِنْ مَرْيَمَ، ويَخْلُقُ مِنْ أصلَيْنِ، كسائرِ الجِنِّ، والإنسِ، وكلُّهُم عَبيدُهُ، وخَلْقُهُ، يَتَصرَّفُ فِيهِم كَيْفَ يَشاءُ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافِظًا، تَكِلُ الخَلائِقُ أمورَها إليهِ، وهُوَ مُستَقِلٌّ بتَدبيرِ أُمُورِهِم، لا يَحتاجُ إلَى أحَدٍ مِنْهُم.

وهذِهِ الآيَةُ كقولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

رَدٌّ على مَنِ احتَجَّ مِنَ النَّصارَى بالقُرآنِ على أنَّ المَسِيحَ ابنُ اللهِ، فَزَعَمَ في قولِهِ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أنَّ (مِنْ) للتَّبعيضِ، وهذا ضَلالٌ مُبِينٌ؛ فإنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ جُزءًا مِنَ اللهِ، ولا بَعضًا مِنْهُ -تَعالَى اللهُ عن ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا- وإنَّما المَقصُودُ بقولِهِ: (مِنْ) هُنا بَيانُ مَصْدَرِ الرُّوحِ، وأنَّها مَخلُوقةٌ مِنَ اللهِ، لا مِنْ غَيْرِهِ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. أي: أنَّ هذا الخَلْقَ صادِرٌ مِنْهُ، لا أنَّ السَّماواتِ والأرضَ جُزءٌ مِنَ اللهِ -تَعالَى اللهُ- وأمَّا الإضافَةُ في قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -في وَصْفِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فإنَّها إضافَةُ تَشْرِيفٍ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكما قالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، ولَيْسَ هذا مِنْ بابِ إضافَةِ الشَّيءِ إلى بعضِهِ، أو إلى صِفَةٍ مِنْ صِفاتِهِ، فعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسٌ مَخْلُوقةٌ.

وفي الآيةِ: أنَّ الزِّيادَةَ في الدِّينِ، كالنَّقصِ مِنهُ.

وفيها: أنَّ تَعدِيَةَ الفِعلِ (قالَ) بِحَرْفِ الجَرِّ (عَلَى) يُضمِّنُهُ معنَى الافتِراءِ، والكَذِبِ، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقالَ: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وفيها: رَدٌّ على اليَهودِ في قولِهِ: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهم كذَّبُوهُ، ونَفَوْا رِسالَتَهُ، ورَدٌّ على النَّصارَى في قولِهِ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ وذلكَ لأنَّهُم رَفَعُوهُ فَوْقَ منزِلَتِهِ، وغَلَوْا فِيهِ، وفي أتباعِهِ، وادَّعَوْا لَهُم العِصْمَةَ.

وفِيهـا: أنَّ المَـدْحَ والتَّعظِيمَ الزَّائِدَ عَنِ الحَدِّ الشَّرعيِّ يُفْـضِي إلى البِدْعَةِ، وقدْ يُفضِي إلى الشِّركِ، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُطْرُونِي كَما أَطرَتِ النَّصارَى ابنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أنا عبدُه، فَقُولُوا عبدُاللهِ، ورسولُه**»[1].

وفِيها: رَدٌّ على النَّصارَى في تَألِيهِهم عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذَلكَ عندَما نَسَبَهُ، فقال: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُولَدْ، ونِسبةُ عيسَى إلى أُمِّهِ تُبيِّنُ وِلادَتَه مِنْها، وأنَّه بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ.

وفي الآيـةِ: تَناقُـضُ النَّصـارَى، واضطِرابُهُـم في عَقِيدَتِهِـم، وأقوالِهِـم في دِينِهِـم، فَتـارَةً يَقُولُونَ: إنَّ عِيسَـى هُوَ اللهُ، وتارَةً يَقُولُونَ: هُوَ ابنُـهُ، وتارَةً يَقُولُونَ: ثالِثُ ثلاثَةٍ، واختـرَعُوا القَوْلَ باللاهُوتِ، والنَّاسُوتِ[2]، ويَختَلِفُونَ فِيهِما، هَلْ اتَّحَدا؟ أوِ امتَزَجا؟ أو حَلَّ أحدُهُما في الآخرِ؟ ويُكفِّرُ بعضُهُم بعضًا، وبَيْنَهم عَداوَةٌ، وبَغْضاءُ، فنَهاهُمُ اللهُ عن كلِّ ذلكَ.

وفِيها: ذَمُّ التَّفرِيطِ والإفراطِ، وأنَّ الحَسَنَةَ وَسَطٌ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ.

وفِيهـا: تَحذِيـرُ الأمَّةِ مِـنَ الوُقُوعِ في جَفـاءِ اليهودِ، أو غُلُـوِّ النَّصارَى، وأنَّ الغُلُوَّ سـبَبٌ للهَلاكِ.

وفِيها: مُناظَرَةُ أهلِ الكتابِ.

وفِيها: استِعمالُ الأسـالِيبِ القَوِيَّةِ في تَقْرِيرِ العَقِيدَةِ، كدُخُولِ ﴿إِنَّمَا﴾ المُفِيدَةِ لِلحَصْرِ على الجُملَةِ الاسـمِيَّةِ، كما في قولِـهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وكذلكَ استِعمالُ النَّفْـيِ، والإثبـاتِ، المُكمّلـيْن لِبَعضِهـما، كـما في قولِـهِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فَنَفَى الباطِلَ، وأَمَرَ بِقَوْلِ الحقِّ.

وفِيها: فَسـادُ القَـولِ بالتَّثلِيثِ، وهُوَ شِـعارُ النَّصـارَى، وكانَ مِنْ عاداتِهِم الإشـارةُ إليهِ بالأصابِـعِ الثَّلاثَـةِ: الإبهامِ، والخِنْصَرِ، والبِنْصَرِ، ثمّ يُشـارُ بهذِه الأصابِـعِ إلى الجَبْهَةِ، ثم إلى الأسْفلِ، ثمّ إلى يَمِينِ الجَسَدِ، ثمّ إلى شِمالِهِ.

وفِيها: تَحرِيمُ القَولِ على اللهِ بلا عِلْمٍ.

---

(١) رواه البخاريّ (٣٤٤٥).

(٢) اللاَّهوت: الأُلُوهية، والنَّاسوت: الطَّبيعةُ البشريةُ. وعلمُ اللاهوت -عندهم-: علم يبْحَث عَن العقائد المُتَعَلّقَة بِالله.

وفيها: تَحريمُ الغُلُوِّ، ومِنْهُ: التَّشَدُّدُ، كَتَحريمِ ما أَحلَّهُ اللهُ بزَعمِ الحَيْطَةِ، والحَذَرِ، والتَّسَرُّعُ في تكفيرِ الجاهِلِ، وعَدَمُ عُذرِهِ بالجَهْلِ في الدِّينِ، والإسرافُ في الوُضُوءِ، والغُسْلِ، والتَّشنيعُ على المُخالِفِ في مَسائِلِ الاجتِهادِ، والتَّأثِيمُ في تَرْكِ النَّوافِلِ، والتَّبديعُ والتَّفسِيقُ بِمُجرَّدِ الظَّنِّ، ونحوُ ذلكَ.

ولَمَّا نَهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّصارَى عَنِ اعتِقادِ الباطِلِ، وقولِهِ، وعنِ الغُلُوِّ في عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ عيسى عبدٌ لَهُ، خاضِعٌ مُحِبٌّ، وكأنَّ بعضَ النَّصارَى ظَنُّوا أنَّ عُبُودِيَّةَ المَسِيحِ للهِ تَعْييبٌ لَهُ، وانتِقاصٌ مِنْ قَدْرِهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ تَنْفي ذلكَ، وتُبيِّنُ أنَّ مَنزِلَةَ العُبُودِيَّةِ شَرَفٌ، ولَيْسَتْ بِعَيْبٍ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ أي: لَنْ يأنَفَ، ولَنْ يَتكبَّرَ، ولَنْ يَترَفَّعَ، والاستِنْكافُ: هُوَ التَّكبُّرُ، والامتِناعُ عَنِ الشَّيءِ بأَنَفَةٍ، وانقِباضٍ، وهُوَ أشدُّ مِنَ الاستِكبارِ، والنَّكفُ: هُوَ العَيْبُ. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: طائِعًا خاضِعًا، والمعنَى: أنَّ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يمتَنِعُ عنِ العُبُودِيَّةِ لربِّهِ، وطاعَتِهِ، وعِبادَتِهِ؛ وذلكَ أنَّها ذُخْرٌ عَظِيمٌ، وشَرَفٌ لَهُ، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنهُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]. ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: لا يستكبِرُونَ ولا يأنَفُونَ مِنْ ذَلكَ أيضًا ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الذينَ رَفَعَ اللهُ مَنزِلَتَهُم، وقرَّبَهُم إليهِ، وأَسكَنَهُم سَماواتِهِ، وعلى رَأْسِهِم: جِبرِيلُ، ومِيكائِيلُ، وإسرافِيلُ، وحَمَلَةُ العَرْشِ.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُهَدِّدًا المُستَنْكِفِينَ عنْ عِبادَتِهِ: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ أي: يَحمِلهُ الكِبرُ، والأَنَفَةُ على تَرْكِ عِبادَةِ ربِّه ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: يَحشُرُ المُستَنْكِفِينَ، والمُستكبِرِينَ، مَعَ الخَلْقِ جَميعًا، وفِيهِم المُقِرُّونَ بعِبادَتِهِ أيضًا، والصَّادِقُونَ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهم بالعَدْلِ، ويَفْصِلَ بَيْنَهُم بالقِسْطِ.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

ذَمُّ الاستِكبارِ عَن قَبُولِ الحقِّ، وتَبرِئَةُ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ والملائِكَةِ مِنْ ذَلكَ.

وفِيها: ذِكْرُ تَواضُعِهِم جَمِيعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعُبُودِيَّتِهِم لله، وشَهادَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُم بِذلِكَ.

وفِيها: شَرَفُ العُبُوديَّةِ لله، والتَّنكِيرُ في قولِهِ: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أظهَرُ في العُبُوديَّةِ، والمعنَى: أنَّه عَبدٌ مربوبٌ، مِنْ جُمْلَةِ العَبِيدِ، وفي ذلكَ استِحبابُ المُبالَغَةِ في التَّواضُعِ لله.

وفِيها: الرَّدُّ على مُشرِكِي العَرَبِ، الذينَ زَعَمُوا أنَّ المَلائِكةَ بَناتُ الله، فبَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ عُبُودِيَّتَهم لرَبِّهِم أيضًا، وكانَتِ العَرَبُ تَتَشَبَّهُ بالنَّصارَى في ادِّعائِهِم الوَلَدَ لله، فيَقُولُونَ: إنَّ المَلائِكَةَ بَناتُ الله، أنْجَبَهُنَّ مِنْ سَرَواتِ الجِنِّ، -تَعالَى اللهُ عنْ ذَلكَ عُلُوًّا كبِيرًا-.

وفِيها: فَضلُ المَلائِكَةِ، وأنَّهُم قَرِيبُونَ مِنَ الله، وقَد خاضَ النَّاسُ في مسألةِ تَفضِيلِ المَلائِكَةِ على الأنبِياءِ، وصالِحِي المُؤمِنِينَ، وجُمهُورِ عُلَماءِ أهلِ السُّنةِ على أنَّ الأنبياءَ أفْضَلُ مِنَ الملائِكَةِ مُطْلَقًا، وقالَ البَعضُ بالتَّفصِيلِ في التَّفضِيلِ، وهذِهِ مَسألَةٌ لا يَنْبَنِي عليها عَمَلٌ، ولا طائِلَةَ مِنَ وراءِ الخَوْضِ فِيها، وقَد نَهانا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ البَحثِ فيما لا يَعنِي.

وفِيها: أنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ، يَجْمَعُ العِبادَ يومَ القِيامَةِ، ويَفْصِلُ بَيْنَهُم.

وفِيها: أنَّ العُبُودِيَّةَ مَرتَبَةٌ، سامِيَةٌ، عَظِيمَةٌ، وأنَّ عِبادَ اللهِ مِنْ أنبيائِهِ، هُمْ أعلَى البَشَرِ في المَراتِبِ.

وفِيها: أنَّ بَعضَ المَلائِكَةِ أقْرَبُ إلى اللهِ مِنْ بَعْضٍ، وذلكَ إذا كانَ الوَصْفُ في الآيةِ للتَّقيِيدِ، وأمَّا إذا كانَ وَصْفًا كاشِفًا، فيكُونَ المُرادُ جَمِيعَ المَلائِكَةِ[1]، وقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُم: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

وفِيها: تَبْرِئَةُ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أقوالِ النَّصارَى، وتَخْلِيصُهُ مِمَّا غَلَوْا به فِيهِ.

وفِيها: تَقرِيرُ وَحدانِيَّةِ الله، وإفرادِه بالعِبادَةِ، واستِحقاقِه عَزَّوَجَلَّ لَها وَحدَهُ.

وفِيها: أنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أعلَمِ خَلْقِ اللهِ باللهِ، وأقرَبِهِم إليهِ.

---

(١) قال ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هلْ هِي صِفةٌ كاشِفةٌ، أوْ صفةُ قَيد؟ الجوابُ: يحتَمِلُ أنْ تكونَ صِفةً كاشِفةً؛ لأنَّ الملائكةَ مُقرّبونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويحتَمِلُ أنْ تكونَ قيدًا، وعلَى هذا الاحتِمالِ يكونُ الملائكةُ فِيهِمُ المُقرَّبونَ، وفيهِمْ مَن ليسَ بمُقرّب». تفسير سُورة النساء (٢/ ٥٢٠).

وفِيها: الاستِطْرادُ الحَسَنُ، وذِكْرُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، كما قَصَدَ في الآيةِ الرَّدَّ على مُشرِكِي العَرَبِ، مَعَ أنَّها -أصلًا- في الرَّدِّ على النَّصارَى.

وفِيها: أنَّ العِبادَةَ المُستَمِرَّةَ للهِ تَجْعَلُ صاحِبَها قَرِيبًا مِنَ اللهِ، ومُقَرَّبًا مَحْبُوبًا عِندَه، كما صارَتِ المَلائِكَةُ بِتِلكَ المَنزِلَةِ العَظِيمَةِ؛ بِسَبَبِ عِبادَتِهِم، وتَسْبيحِهِم المُستَمِرِّ.

ولَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَمْعَهُ للخَلائِقِ للحُكْمِ بَيْنَهُم، ذَكَرَ تَفْصِيلَ ذَلكَ الحُكمِ، فقالَ:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَمَعُوا بَيْنَ الإيمانِ المَأْمُورِ بِهِ، وعَمَلِ الصَّالحاتِ، مِن واجباتٍ، ومُستَحَبَّاتٍ، مِنْ حُقُوقِ اللهِ، وحُقُوقِ عِبادِهِ ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: فَيُعْطِيهِم مِنَ الثَّوابِ، والأجُورُ، كلٌّ على قَدْرِ إيمانِهِ، وأعمالِهِ الصَّالِحَةِ. والتَّوفِيَةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وافِيًا تامًّا مِنْ غيرِ نَقْصٍ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانِهِ، وسَعَةِ رَحمَتِهِ، ومِنَّتِهِ، فَيُعطِيهِم ثَوابَ ما لَمْ تَصِلُ إليهِ أفعالُهُم، ولَمْ يَخْطُرْ بقُلُوبِهِم، فيُضاعِفُ لَهُمُ الأجرَ، ويَرْزُقُهُم ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾ وامتَنَعُوا مِنْ طاعَةِ اللهِ، ولَمْ يُقِرُّوا بِوَحدانِيَّتِهِ، ورُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي: تَعاظَمُوا عنِ الانقِيادِ لَهُ، فَحَمَلَهُم كِبْرُهُم على المَعانَدَةِ، والعِصيانِ: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: مُوجِعًا مُؤْلِمًا، مَعَ سَخَطِهِ، وغَضَبِهِ، في نارِهِ المُوقَدَةِ، التي تَطَّلِعُ على الأفئِدَةِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أحَدًا يَنْصُرُهُم، ويَمْنَعُ عَنْهُمُ العَذابَ، ويُخرِجُهُم مِنْهُ. وقيلَ: وَلِيًّا مِنَ الأقارِبِ، ونَصِيرًا مِنْ غَيرِهِم. وقيلَ: وَلِيًّا يُنْقِذُهُم، ونَصِيرًا يَدْفَعُ عَنْهُم. وقيل: وليًّا يَتولاهُم في تَحصِيلِ المَطلُوبِ، ونَصِيرًا يَدْفَعُ عنهُم المَرهُوبَ. وقيل: وليًّا يَلِي أمُورَهُم، ويُدَبِّرُ مَصالِحَهُم، ونَصِيرًا يُنَجِّيهِم، ويَحفَظُهُم.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

البيانُ المُسبَقُ مِنَ اللهِ لعبادِهِ، بما سَيَكُونُ عليهِ الحالُ يومَ القِيامَةِ، مِنْ تَفْصِيلِ الجَزاءِ.

وفِيها: فَضلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه لا يُعطِي المُعادِلَ، والمِقدارَ المُساوِيَ فَقَط، وإنَّما يَزِيدُ، ويُضاعِفُ.

وفِيها: الحثُّ علَى مُراعاةِ التَّوفِيَةِ في المُعامَلَةِ، وتَرْكِ الغَبْنِ والإخْسارِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١].

وفِيها: عِلْمُ اللهِ الدَّقِيقُ بأحوالِ النَّاسِ، وبِناءً عَلَيْهِ تَكُونُ التَّوفِيةُ، ويكُونُ الجَزاءُ.

وفِيها: أنَّ الإيمانَ، والعَمَلَ الصَّالِحَ، شَرطانِ لِنَيْلِ الجَزاءِ الحَسَنِ، والنَّجاةِ يومَ القِيامَةِ.

وفِيها: أنَّ المُضاعَفَةَ للمؤمِنِينَ غيرُ محدُودَةٍ؛ لأنَّ فَضلَ اللهِ واسِعٌ غيرُ محدُودٍ.

وفِيها: خَطَرُ أمراضِ القُلوبِ، ومِنْها: الاستِكبارُ، والأَنَفَةُ عَنِ العُبُودِيَّةِ.

وفِيها: أنَّ الكفَّارَ الذينَ يَتَناصَرُونَ في الدُّنيا، لا يَستَطِيعُونَ ذَلكَ في الآخرَةِ، بَلْ يَتَخلَّى بعضُهُم عَنْ بَعضٍ مُرغَمِينَ، كلٌّ مَشغُولٌ بنفسِهِ.

وفِيها: طَرِيقَةُ القرآنِ في عَرضِ الوَعدِ، والوَعِيدِ، والتَّبشِيرِ، والإنذارِ، والتَّرغِيبِ، والتَّرهِيبِ.

وفِيها: مُجازاةُ الكافِرِ بنَقِيضِ قَصْدِهِ، فلمَّا استكبَرَ في الدُّنيا قاصِدًا التَّعاظُمَ، والتَّعالِي، أذَلَّهُ اللهُ في الآخِرَةِ، وجَعَلَهُ صَغِيرًا حَقِيرًا، وهذِهِ عاقِبَةُ الأنَفَةِ مِنَ العُبُودِيَّةِ للهِ، قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفِيها: أنَّ أصحابَ عَقِيدةِ التَّثلِيثِ مُستَنكِفُونَ عَنْ عِبادَةِ ربِّهِم، مُعرِضونَ عنْ تَوحِيدِهِ.

وفِيها: أنَّ مِنْ عَذابِ المُعرِضِينَ المُستَكْبِرِينَ يَومَ القِيامَةِ: الحَسْرَةَ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ نَعِيمِ العابِدِينَ المُطِيعِينَ، وهذا مِنْ فوائِدِ ذِكْرِ تَقدِيمِ الثَّوابِ على العَذابِ هُنا.

وفِيها: أنَّ اللهَ لا يَبْخَسُ أَحَدًا ثَوابَهُ، بَلْ هو كَرِيمٌ، منَّانٌ، يُعطِي العامِلَ أكثَرَ مِنْ عَمَلِهِ.

وفِيها: نُزُولُ القرآنِ على حَسَبِ حالِ المُخاطَبِينَ، والتَّوجُّهُ إليهِم بالكَلامِ بِحَسَبِ ذَلكَ، فلَمَّا كانَ مَعرُوفًا عَنِ العَربِ الاعتِمادُ عِندَ الضِّيقِ، والشِّدَّةِ، على الأولِياءِ، والنُّصراءِ، كَثُرَ في القَرآنِ نَفْيُ الوَلِيِّ، والنَّصِيرِ، والفِداءِ، عِندَ ذِكْرِ يومِ القِيامَةِ.

وفيها: نَفْيُ كلِّ ما يُمكِنُ الاستِعانَةُ بِهِ مِنَ الوَلِيِّ والنَّصِيرِ يومَ القِيامَةِ، وأنَّه لا يَنْصُرُ ولا يَدْفَعُ يومَئذٍ إلا اللهُ.

وفي الآيةِ: قَطْعُ رَجاءِ الكفَّارِ في الشَّفاعَةِ.

ولَمَّا أزاحَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -فيما مَضَى مِنْ آياتِ هذِهِ السُّورَةِ- شُبَهَ جَمِيعِ الفِرَقِ مِنَ المُنافِقِينَ، واليهودِ، والنَّصارَى، وأقامَ الحُجَّةَ عليهِم، وأثبَتَ نُبُوَّةَ خاتَمِ أنبيائِهِ **مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **عَمَّمَ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **بِخِطابٍ** إلى النَّاسِ كافَّةً، يَدْعُوهُم إلى اتِّباعِ وَحْيِهِ الذِي أنزَلَهُ، والتَّمسُّكِ بِدِينِهِ الذي أنارَ بِهِ أرضَهُ، وسَماواتِهِ، فقال سبحانَهُ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ النِّداءُ لِلَفْتِ الانتِباهِ، وبَيانِ عَظَمَةِ مَوضُوعِ الخِطابِ، وشَرَفِ ما يَدْعُوهُم إليهِ ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حُجَجٌ قاطِعَةٌ على الحَقِّ، تُبيِّنُه، وتُوضِّحُه، وتُبيِّنُ ضِدَّه، وهَذا يَشملُ الأدلّةَ العقليّةَ، والنَّقليّةَ. وفي قولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يَدلُّ على شَرَفِ هَذا البُرهانِ وعَظَمتِه؛ حيثُ كانَ مِن رَبِّكُم، الّذِي خَلقَكُم. ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾ وهذا يُؤكِّدُ فضلَ المُنَزَّلِ؛ لأنَّه جاءَ مِنْ عُلُوٍّ، ونَزَلَ على النَّاسِ، مِن عندِ ربِّهِم ﴿إِلَيْكُمْ﴾ عِنايَةً بِكُم، ولأجلِكُم، ولِمَصلَحَتِكُم ﴿نُورًا﴾ لِجَمالِهِ، وبَهائِهِ، وهو هذا القرآنُ العَظِيمُ، سَمَّاهُ بذلكَ؛ لأنَّه يُنيرُ القَلبَ، ويُضِيءُ الدَّربَ ﴿مُّبِينًا﴾ بيِّنٌ في ذاتِهِ، ومُبيِّنٌ وكاشِفٌ لِغَيرِهِ؛ لأنَّه يُوضِّحُ الحَقَّ، وسَبِيلَ الرَّشادِ، ويَكشِفُ الظُّلُماتِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ربًّا، مَعبُودًا، وآمَنُوا بأسمائِهِ، وصفاتِهِ ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ لَجَأُوا إليهِ، واستَعانُوا بِهِ، وتَوكَّلُوا عليهِ، واستَمْسَكُوا بكِتابِهِ ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني: جنَّتَهُ، وثَوابَهُ، ويَتَغمَّدُهُم برحمَتِهِ الخاصَّةِ ﴿وَفَضْلٍ﴾ يُزِيدُهُم بِهِ ثَوابًا، ويُضاعِفُ بِهِ أُجُورَهُم، ويَرْفَعُ بِهِ دَرَجاتِهِم، ويَأتِيهِم بالمَرغُوباتِ المَطلُوباتِ، ويَدْفَعُ عَنْهُم البَلِيَّاتِ، والمَكرُوهاتِ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ بما يَقذِفُهُ في نُفُوسِهِم، ويَجْعَلُهُ في قُلُوبِهِم، مِنَ النُّورِ، والعِلْمِ ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ واضِحًا، لا عِوَجَ فِيهِ، ولا انحِرافَ، مُؤدِّيًا إلى الجنَّةِ، وهو طَرِيقُ الإسلامِ والهِدايَةِ.

وفي الآيتين من الفوائد:

شُمُولُ دَعوَةِ اللهِ لجَميعِ النَّاسِ، وتَنوِيعُ أساليبِها بالنِّداءِ، وغَيرِهِ.

وفيهما: وُجُوبُ العِنايَةِ بما أنْزَلَهُ اللهُ إلينا، وشَرَّفَنا بِهِ.

وفيهما: فَضلُ اللهِ وكَرَمُهُ بإنزالِ المُعجِزاتِ، التي تُؤكِّدُ الإيمانَ، وتُثَبِّتُهُ، وتُوَضِّحُ الحقَّ، وتُبَيِّنُهُ.

وفيهما: بيانُ عاقِبَةِ مَنِ اتَّبَعَ ما أنزَلَ اللهُ، وأمَّا مَنْ أعرَضَ عنِ الحَقِّ، وكذَّبَ، وعَصَى: فلَمْ يَذْكُرْهُم هُنا بالنَّصِّ، ولكِنْ ذِكْرُ أحَدِ الفَرِيقَيْنِ، وما لَهُ، يُشيرُ إلى عاقِبَةِ الفَريقِ الآخَرِ، ومَصِيرِهِ.

وفيهما: الجَمعُ بَيْنَ مَقامَيِ العِبادَةِ والتَّوكُّلِ على اللهِ.

وفيهما: اشتِمالُ القرآنِ على الأدلَّةِ العَقليَّةِ، والنَّقليَّةِ، والآياتِ الآفاقِيَّةِ، والنَّفسِيَّةِ، وعُلُومِ الأوَّلينَ، والآخِرينَ.

وفيهما: أنَّ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكِتابَهُ، كافِيانِ في هِدايَةِ النَّاسِ.

وفيهما: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُرهانٌ على الحقِّ بقولِهِ، وفِعْلِهِ، وكَلامِهِ، وسِيرَتِهِ.

وفيهما: نُزُولُ القرآنِ لِكَشفِ ظُلُماتِ الشِّرْكِ، واكتِساحِ الكُفرِ، وإزالَتِهِ، وتَأسِيسِ قَواعِدِ الهِدايَةِ، والتَّوحِيدِ.

وفيهما: أنَّ مَنِ التَمَسَ مَعرِفَةَ الحقِّ مِنَ الكتابِ، والسُّنَّةِ، فسَيَجِدُهُ قَطْعًا.

وفيهما: قِيامُ الحُجَّةِ على النَّاسِ.

وفيهما: بَلاغَةُ القُرآنِ العَظِيمِ.

وفيهما: أنَّه لا تَوفِيقَ، ولا هِدايَةَ، إلا بالاعتِصامِ باللهِ، وكِتابِهِ، وأنَّ الاعتِصامَ ثَمَرَةٌ للإيمانِ، ويَزيدُ الإيمانَ.

وفيهما: الجَمعُ للمؤمِنينَ بَيْنَ الرَّحمَةِ، والفَضلِ، والهِدايَةِ.

وفيهما: ذِكْرُ الهِدايَةِ العامَّةِ، والخاصَّةِ: للنَّاسِ بِهِدايَةِ الإرشادِ والبلاغِ، وللمُؤمِنينَ بهِدايَةِ التَّوفِيقِ للحَقِّ.

وفيها: رَدٌّ على مَنْ مَنَعَ مِنَ الأخذِ بظاهِرِ الآياتِ، والأحاديثِ، وقالَ: إنَّه سَبَبٌ للضَلالِ، وكَلامُهُ هذا باطِلٌ، بَلْ هُوَ الضَّلالُ حَقًّا، فكَيْفَ يُمنعُ مِنَ الأخذِ بالبُرهانِ، والنُّورِ؟! وإنَّما يَنبَغِي أنْ يُقالَ: إنَّ البُرهانَ، والنُّورَ، يَظْهَرُ للعالِمِ بكِتابِ اللهِ، وسُنَّةِ النبيِّ ﷺ، أكثَرَ مِمَّا يَظهَرُ لِغَيرِه، ويَنبَغِي على مَنْ خَفِيَ عليهِ شَيءٌ مِنْ مَعانِي الكِتابِ، والسُّنَّةِ، أنْ يَرجِعَ إلى أهلِ العِلمِ لِمَعرِفَتِهِ، لا أنْ يُقالَ للنَّاسِ: لا تَأخُذُوا بِظاهِرِ الكِتابِ، والسُّنَّةِ.

ولَمَّا ابتَدَأَت هذِهِ السُّورَةُ بذِكْرِ أحكامِ الأموالِ، ومِنْها: المَوارِيثُ، خَتَمَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يُتمُّ ذلكَ، ويُكمِلُهُ مِنْ أحكامِها، خُصُوصًا وأنَّ سَبَبَ نُزُولِ هذِهِ الآيةِ الأخِيرَةِ قد تَأَخَّرَ عن نُزُولِ ما قبْلَها، فتَأَخَّرَ ذِكرُها هُنا، والقُرآنُ يَنزِلُ على حَسَبِ الوَقائعِ. ولَمَّا كانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد ذَكَرَ في آيةِ الكَلالَةِ الأولَى، كَيفَ يُورَثُ مَنْ ماتَ ولَيسَ لَهُ أصلٌ، ولا فَرْعٌ، ولَهُ أخٌ، أو أختٌ أو أكثَرُ مِنْ جِهَةِ الأمِّ، فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ في آيةِ الكَلالَةِ الثَّانِيَةِ في آخرِ هذِهِ السُّورَةِ، كَيفَ يُورَثُ مَنْ كانَ كَلالَةً، ولَهُ أخٌ، أو أختٌ، أو أكثَرُ، مِنَ الأشقَّاءِ، أو مِنَ الأبِ، فقالَ سبحانَهُ:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

سبَبُ نُزُولِ الآيةِ:

عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «قُلْتُ يا رسولَ اللهِ: لا يَرِثُنِي إلا كَلالَةٌ، فكيفَ المِيراثُ؟ فنزَلَتْ آيَةُ الفَرائِضِ»(١)، وفي لفظٍ: «فنَزَلَتْ آيةُ المِيراثِ»(٢).

وعن البَراءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ: (براءةٌ)، وآخِرُ آيةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾»(٣).

---

(١) رواه البخاريّ (٥٦٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٦١٦).

(٣) رواه البخاريّ (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

قالَ العلماءُ: أَنزَلَ اللهُ في الكَلالَةِ آيتَيْنِ: إحداهُما في الشِّتاءِ، وهي الآيَةُ التِي في أَوَّلِ سُورةِ النِّسـاءِ في قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ...﴾، ثُمَّ أنزَلَ الآيَةَ الأخرَى في الصَّيْفِ، وهِيَ التِي في آخِرِ سُـورةِ النِّسـاءِ، وفِيها زِيادَةُ البَيانِ، وتَتِمَّةُ الحُكمِ، ويَدُلُّ على هذا: حدِيثُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّه خَطَبَ، فقالَ: «إنِّي لا أَدَعُ بَعْدِي شيئًا أهمَّ عِندِي مِنَ الكَلالَةِ، ما راجَعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شَيءٍ ما راجَعتُهُ في الكَلالَةِ، وما أَغْلَظَ لي في شَيءٍ ما أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حتَّى طَعَنَ بإصْبَعِهِ في صَدْرِي، وقالَ: «**يا عُمَرُ! ألا تَكفِيكَ آيةُ الصَّيفِ التي في آخِرِ سُورةِ النِّساءِ؟**»...» الحديث[1].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يَطلُبُـونَ مِنـكَ الفَتْـوَى، ولَمْ يَذْكُرْ مَوضُوعَ الاسـتِفتاءِ في السُّـؤالِ، لكنَّهُ ذَكَرَهُ في الجَوابِ، وهُوَ الكَلالَةُ، فأغنَى المَذْكُورُ عَنِ المَترُوكِ، وهذا مِنْ بَلاغَةِ القرآنِ. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ أي: يُجِيبُكُم، والإفتاءُ: بيانُ حُكمِ المسـألَة. ﴿فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ هو مَنْ يَمُوتُ، ولَيْسَ لَهُ وَلَدٌ، ولا والِدٌ، والكَلالَةُ: قِيلَ: مَأخُوذَةٌ مِنْ كَلَّ، إذا ضَعُفَ وتَعبَ، وبِناءً عليهِ: تكُونُ الكَلالَةُ اسـمًا للمَيِّـتِ المَورُوثِ؛ لأنَّ عَمُودَ نَسَـبِهِ قد ضَعُفَ بسَـبَبِ عَدَمِ وجودِ الوالِـدِ، والوَلَدِ. وقيلَ: الكَلالَـةُ: اسـمٌ لأقارِبِ هـذا المَيِّتِ، الذيـنَ يَرِثُونَهُ مِنْ عَصَبَتِهِ، وحَواشِـيهِ، كإخوَتِـهِ، وأَخَواتِهِ، وأبناءِ عَمِّهِ، ونحوِهِم مِنَ المُحِيطِينَ بِهِ، مأخُوذَةٌ مِنَ الإكليلِ: وهُوَ ما يُوضَعُ علَى الرَّأسِ، ويُحِيطُ بِـهِ، وَوَسَـطُهُ فارِغٌ، وذلكَ أنَّ هذا المَيِّـتَ لا أصلَ لَهُ باقٍ مِنْ أعلَى، ولا فَرْعَ لَهُ مِنْ أسـفَلَ. ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ أي: إذا مـاتَ شَـخصٌ ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: لا ذَكَـرَ، ولا أُنثَى، ولا وَلَدَ ابنٍ، ولَيسَ لَـهُ والِدٌ أيضًا -كما تَقَدَّمَ- ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: شَـقِيقَةٌ، أو أختٌ لأبٍ؛ لأنَّ الأختَ لأمٍّ قد تَقدَّمَ حُكمُهـا في آيـةِ الكَلالَـةِ الأولَى ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: نِصفُ مَـترُوكاتِ أخِيها، مِنْ نُقُودٍ، وعَقارٍ، ولِباسٍ، وعَبِيدٍ، ودوابّ، وغيرِ ذلكَ، فهُوَ شامِلٌ لكلِّ أنواعِ المالِ التي تَرَكَها المَيِّتُ.

ومِمَّـا وَرَدَ مِـنَ الأحادِيـثِ في هذا: ما جاءَ عن زَيْدِ بنِ ثابتٍ، أنَّه سُـئِلَ عنْ زَوجٍ، وأختٍ لأمٍّ وأبٍ، فأَعطَـى الـزَّوجَ النِّصـفَ، والأختَ النِّصـفَ، فكُلِّم في ذلكَ، فقـالَ: «**حَضَرْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بذلِكَ**»[2].

---

(١) رواه مسلم (٥٦٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٦٣٩)، وضعفه الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٢٨)، والحافظ في إتحاف المهرة (٤/ ٦٥٦).

وعن الأَسْوَدِ بنِ يَزِيدَ، قالَ: «قَضَى فِينا مُعاذُ بنُ جَبَلٍ على عَهْدِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النِّصفُ للابنَةِ، والنِّصفُ للأُختِ»(١).

وعن هُزَيلِ بنِ شُرَحْبِيلَ، قالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى عَنْ بِنْتٍ، وابْنَةِ ابْنٍ، وَأُخْتٍ، فَقالَ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَيُتابِعُنِي، فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فقالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَما أَنا مِنَ المُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيها بِما قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِلابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِابْنَةِ الِابْنِ السُّدُسُ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَما بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ**» فَأَتَيْنا أَبا مُوسَى، فَأَخْبَرْناهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقالَ: «لاَ تَسْأَلُونِي ما دامَ هَذا الحَبْرُ فِيكُمْ»(٢).

وقولُهُ: ﴿**وَهُوَ**﴾ أي: أخُوها الشَّقِيقُ، أو الذِي للأبِ ﴿**يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ**﴾ أي: إذا كانَتْ أُختُهُ كَلالَةً، يَأْخذ جَمِيعَ ما تَرَكَتْ تعصِيبًا، قالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنْ فُرِضَ أنَّ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرْضٌ، صُرِفَ إليهِ فَرْضُهُ، كزَوْجٍ، أو أَخٍ مِنْ أُمٍّ، وصُرِفَ الباقِي إلى الأَخِ؛ لِما ثَبَتَ في الصَّحِيحَيْنِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «**أَلْحِقُوا الفرائِضَ بأهلِها، فما أَبْقَتِ الفرائِضُ فلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**»(٣)»(٤).

وقولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ**﴾ أي: إذا كانَ لِمَنْ ماتَ كَلالَةً أُختانِ ﴿**فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**﴾ وكذلكَ ما زادَ عَنِ الأختَيْنِ، وقولُهُ: ﴿**وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً**﴾ أي: في حالِ الكَلالَةِ تَرَكَ مَنْ هَلَكَ مَجْمُوعَةً مِنَ الإخوَةِ، والأخَواتِ: ﴿**فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ**﴾ أي: يُعطَى ذَكَرُهُم ضِعْفَ أُنثاهُم، ويَسْقُطُ مِيراثُ الإناثِ بالفَرْضِ، ويَرِثْنَ -تَعصِيبًا- مَعَ إخوَتِهِنَّ.

ثُمَّ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعدَ هذا التَّفصِيلِ: ﴿**يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ**﴾ أي: يَفرِضُ فَرائِضَهُ، ويُوضِّحُ شَرائِعَهُ، ويُبيِّنُ الحُدُودَ، والحَلالَ، والحَرامَ ﴿**أَن تَضِلُّواْ**﴾ أي: لِئَلا تَضِلُّوا عنِ الحَقِّ بَعدَ هذا البَيانِ ﴿**وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ يَعلَمُ عَواقِبَ الأُمُورِ، ومَصالِحَها، وما

---

(١) رواه البخاريّ (٦٧٤١).

(٢) رواه البخاريّ (٦٧٣٦).

(٣) رواه البخاريّ (٦٧٤٦)، ومسلم (١٦١٥).

(٤) تفسير ابنِ كَثِيرٍ (٢/ ٤٨٤).

فِيهِ الخَيْرُ لِعبادِهِ، وما يَستَحِقُّهُ كلُّ واحِدٍ مِنْهُم، ومَنْ هُوَ الأوْلَى بالمَيِّتِ مِنَ القَراباتِ، وقد أَحصَى كلَّ شيءٍ عِلْمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

عَظِيمُ مَنزِلَةِ الفَرائِضِ، وإفتاءُ اللهِ فِيها.

وفِيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَنطِقُ إلَّا عنْ وَحْيٍ، فإذا سَأَلُوهُ عَن حُكْمٍ لا يَعلَمُهُ، انتَظَرَ وَحْيَ اللهِ.

وفِيها: عَدْلُ هذِهِ الشَّريعَةِ، ومُراعاتُها للنُّفُوسِ، في تَورِيثِ حَواشِي المَيِّتِ، وعَصَبَتِهِ، عندَ عَدَمِ الأصلِ، والفَرْعِ، مِنَ الوالِدِ، والوَلَدِ؛ وذلكَ أنَّ هؤلاءِ العَصَبَةَ أولَى بِهِ مِنْ غَيرِهِم، كما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخِرِ سُورةِ الأنفالِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وفِيها: أنَّ كَلِمَةَ ﴿هَلَكَ﴾ ليسَتْ خاصَّةً بمِيتاتِ السُّوءِ، وإنَّما تَعُمُّ كلَّ مَوْتٍ، قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

وفي الآيةِ: مَأخَذُ أهلِ العِلْمِ لِحُكمِ البِنْتَيْنِ إذا انفَرَدَتا بالمَيِّتِ: أنَّ لَهُما الثُّلُثَينِ، وذلكَ مِنْ قولِهِ في الأُختَيْنِ: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، ويُشبِهُ هذا: الحالَةُ المُقابِلَةُ التي استُفِيدَ فيها حُكمُ الأخَواتِ مِنْ حُكْمِ البَناتِ، في قولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]، فظَهَرَ حُكمُ ما فَوْقَ الاثنَتَيْنِ، سَواءٌ في الأخَواتِ، أو في البَناتِ.

وفِيها: أنَّ مُخالَفَةَ فَرائِضِ اللهِ في قِسْمَةِ المِيراثِ ضَلالٌ مُبِينٌ.

وفي الآيةِ: نُزُولُ القرآنِ على حَسَبِ الوَقائِعِ، وهذا أَوْقَعُ في النُّفُوسِ، وأَعْوَنُ على فَهْمِ المَقصُودِ، وخُصُوصًا بَعدَ مَعرِفَةِ سببِ نُزُولِ الآيَةِ، ومُناسَبَتِها.

وفِيها: عِنايَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بإيصالِ الحُقُوقِ إلى أهلِها.

وفِيها: شُمُولُ الشَّرعِ للأحكامِ المالِيَّةِ، وبَيانُ الأحَقِّ بالمِيراثِ، والأقرَبِ إلى المَيِّتِ، وفي هذا -أيضًا- تَحقِيقٌ لِصِلَةِ الرَّحِمِ.

وفِيهـا: جَلالَـةُ مَنْصِبِ الإفتاءِ، حتَّى تَوَلَّاهُ اللهُ بِنَفْسِـهِ في هذِهِ المَسـأَلَةِ، فقالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾.

وفِيها: تَوَجُّهُ الصَّحابَةِ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأَسـئِلَتِهِم، وعِنايَةُ اللهِ بالإجابَةِ عنها، وإمسـاكُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا لا يَعْلَمُهُ.

وفِيها: إثباتُ الشَّريعَةِ لِحَقِّ الإناثِ، بخِلافِ ما كانَ علَيهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ.

وفِيها: الوَصِيَّةُ بالإخوَةِ، والأَخَواتِ، في الحَياةِ، والمَماتِ.

وفِيهـا: مُراعـاةُ الشَّريعَةِ لِحاجَـةِ الذَّكَرِ إلى المالِ، أكثَرَ مِنَ الأُنثَـى، وإذا فاقَها في مَصدَرِهِ، فإنَّه يَفُوقُها -أيضًا- في إنفاقِهِ.

وفِيها: أنَّ أحكامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صادِرَةٌ عَنْ عِلمِهِ، كما هُوَ واضِحٌ في خِتامِ الآيةِ.

وفِيها: أنَّه لا بُدَّ للعالِمِ مِنْ بَيانِ العِلْمِ للنَّاسِ، ولا يَكفِيهِ التَّعلُّمُ فَقطْ.

وفِيها: أنَّ بَيانَ العِلْمِ، والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، يعصِمُ مِن الضَّلالِ.

وفِيها: فَضلُ جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِنُزُولِ آيةِ الفَرائِضِ في شأنِهِ.

وفِيها: نُزُولُ القرآنِ على مَدارِ العامِ، ومِنْهُ: الصَّيفِيُّ، والشِّتائِيُّ، والحَضَرِيُّ، والسَّفَرِيُّ.

وفِيها: نِعمةُ الأصلِ، والفَرْعِ، وحاجَةُ الإنسانِ لَهُما، وأنَّ الإخوَةَ، والأَخَواتِ، يُعوِّضُونَ -شَيئًا- بفَقْدِهما.

وفِيها: إكمالُ أبوابِ العِلْمِ؛ فإنَّ بابَ المَوارِيثِ فِيهِ أربَعُ آياتٍ: ثَلاثٌ مِنْها في هذِهِ السُّورَةِ، الأولَى: في الوالِدِ، والوَلَدِ، والثَّانِيَةُ: في الزَّوجِ، والزَّوجَةِ، والإخوَةِ لأُمٍّ، والثَّالِثَةُ: هذِهِ التي في مِيراثِ الإخوَةِ، والأَخَواتِ، الأشقَّاءِ، أو لأَبٍ، والرَّابِعَةُ: آخِرُ آيةٍ في سُورةِ الأنفالِ.

وفِيها: بَيانُ أحقيَّةِ ذَوِي الأرحامِ، وأنَّ بعضَهُم أولَى بِبَعضٍ.

وفِيها: خَتْمُ السُّورَةِ بكَمالِ العِلْمِ، كما بَدَأَها بكَمالِ القُدرَةِ.

وفِيهـا: الاهتِمامُ بالفَصـلِ في الأمُورِ المالِيَّةِ؛ لأنَّها مَدْعاةٌ لِلمُشـاحَّةِ، والمُنازَعَةِ، وفي هذا قَطْعٌ للخُصُومَةِ بَيْنَ البَشَرِ.

وفِيهـا: أنَّ هذِهِ الآيـةَ آخِرُ ما نَزَلَ مِنَ الأحكامِ[1]، وفي تَعَلُّقِها بالمَوْتِ اتِّفاقٌ ظاهِرٌ، فَقَد تَعَلَّقَ آخِرُ حُكمٍ نزَلَ في القُرآنِ، بآخِرِ حَياةِ الإنسانِ.

وفِيها: أنَّ الكِبارَ والصِّغارَ في المِيراثِ سَواءٌ.

وفِيها: بَيانُ تَورِيثِ الأصنافِ الثَّلاثَةِ:

١. ذُكُورٍ خُلَّصٍ، ويَرِثُونَ بالسَّوِيَّةِ بِلا تَقْدِيرٍ.

٢. إناثٍ خُلَّصٍ، ويَرِثْنَ بالتَّقدِيرِ: للواحِدَةِ النِّصفُ، وللثِّنْتَيْنِ -فما فَوْقَ- الثُّلُثانِ.

٣. مُختَلطٍ مِنَ الجِنْسَيْنِ، ويَرِثُونَ بِلا تَقْدِيرٍ: للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.

وفِيها: شُـمُولُ لَفظَةِ الأخِ، والأُختِ، للأشـقَّاءِ ولأبٍ؛ لأنَّهُما لَفظَتانِ نَكِرَتانِ، وقَعَتا في سِـياقِ الشَّرطِ، فعَمَّتـا النَّوعَيْنِ، وإنَّما لَمْ تَشْـمَلا الإخوةَ، والأخَواتِ لأُمٍّ؛ لِـوُرُودِ نَصٍّ آخَرَ فِيهِم، يُبيِّنُ فَرضَهُمُ المُقَدَّرَ.

وظاهِـرُ الآيـةِ: يُفِيدُ أنَّهُ لا فَـرْقَ بَيْنَ الإخوةِ الأشـقَّاءِ، والإخوَةِ لأبٍ، في اشـتِراكِهِم في المِيراثِ، إذا اجتَمَعُوا، ولكِن خَصَّصَتِ السُّـنَّةُ هذا الظَّاهِرَ، وهذا العُمُومَ، وقَدَّمَتِ الإخوَةَ الأشقَّاءَ على الإخوَةِ لأبٍ، على قاعِدَةِ الأقرَبِ يَحجبُ الأَبْعَدَ.

وقَدِ اشـتَمَلَتْ هذِهِ السُّـورَةُ على العِنايَةِ بأوضاعِ المُسـلِمِينَ الدَّاخليَّةِ: كأحكامِ الأيتامِ، والمِيراثِ، والمَحارِمِ، والعِشْرَةِ الزَّوجِيَّةِ، والعَدْلِ بَيْنَ أفرادِ المُجتَمَعِ، وغيرِ ذلِكَ.

واشتَمَلَتْ -أيضًا- على ما يَتَعَلَّقُ بالأوضاعِ الخارِجِيَّةِ: كَكَشْفِ حَقِيقَةِ المُنافِقِينَ، والرَّدِّ على اليَهودِ، والنَّصارَى، والتَّرغِيبِ في الجِهادِ في سبيلِ اللهِ، وغيرِ ذلِكَ.

واللهُ تعالى أعلمُ.

انتهى تفسيرُ سُورَةِ النِّساءِ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ

(١) هذا على قولٍ، وقِيل غيرُ ذلِك، انظُر: فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

المحتويات

المقدمة ٥

تمهيد ٧

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...... ﴿١﴾﴾ ٢٧

﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ...... ﴿٢﴾﴾ ٣٠

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ...... ﴿٣﴾﴾ ٣٣

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ ٣٦

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ...... ﴿٥﴾﴾ ٣٨

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ...... ﴿٦﴾﴾ ٤١

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ ...... ﴿٧﴾﴾ ٤٦

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ...... ﴿٨﴾﴾ ٤٧

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ...... ﴿٩﴾﴾ ٤٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ ٦٦

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ...... ﴿١١﴾﴾ ٦٨

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ...... ﴿١٢﴾﴾ ٧٤

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ...... ﴿١٣﴾﴾ ٧٩

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا ...... ﴿١٤﴾﴾ ٨٠

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ ...... ﴿١٥﴾﴾ ٨٢

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ...... ﴿١٦﴾﴾ ٨٥

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ...... ﴿١٧﴾﴾ ٨٦

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ ...... ﴿١٨﴾﴾ ٨٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ...... ﴿١٩﴾﴾ ٩٠

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ...... ﴿٢٠﴾﴾ ٩٦

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ...... ﴿٢١﴾﴾ ٩٨

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ...... ﴿٢٢﴾﴾ ١٠٠

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ ...... ﴿٢٣﴾﴾ ١٠٣

﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...... ﴿٢٤﴾﴾ ١٠٨

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ...... ﴿٢٥﴾﴾ ١١١

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...... ﴿٢٦﴾﴾ ١١٦

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ...... ﴿٢٧﴾﴾ ١١٦

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ ١١٦

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ...... ﴿٢٩﴾﴾ ١٢٠

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ ...... ﴿٣٠﴾﴾ ١٢٤

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ...... ﴿٣١﴾﴾ ١٢٥

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ...... ﴿٣٢﴾﴾ ١٢٨

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ...... ﴿٣٣﴾﴾ ١٣١

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...... ﴿٣٤﴾﴾ ١٣٥

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ...... ﴿٣٥﴾﴾ ١٤٦

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...... ﴿٣٦﴾﴾ ١٥٠

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ...... ﴿٣٧﴾﴾ ١٥٥

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ...... ﴿٣٨﴾﴾.. ١٥٧

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾... ١٦٠

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾... ١٦٢

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾............ ١٦٤

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴿٤٢﴾﴾............ ١٦٦

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ...... ﴿٤٣﴾﴾............ ١٦٨

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ ...... ﴿٤٤﴾﴾............ ١٧٨

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾............ ١٧٨

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ...... ﴿٤٦﴾﴾............ ١٨٠

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن ...... ﴿٤٧﴾﴾............ ١٨٥

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ ...... (٤٨)﴾ ١٨٩

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)﴾ ١٩٣

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا (٥٠)﴾ ١٩٣

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...... (٥١)﴾ ١٩٧

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (٥٢)﴾ ١٩٧

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)﴾ ٢٠٠

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ...... (٥٤)﴾ ٢٠١

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾ ٢٠١

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا ...... (٥٦)﴾ ٢٠٥

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ...... (٥٧)﴾ ٢٠٧

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ...... (٥٨)﴾ ٢٠٩

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ...... (٥٩)﴾ ٢١٢

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ...... (٦٠)﴾ ٢١٧

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ...... (٦١)﴾ ٢١٩

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ ...... (٦٢)﴾ ٢٢٠

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ ...... (٦٣)﴾ ٢٢٢

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ...... (٦٤)﴾ ... ٢٢٤

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ...... (٦٥)﴾ ٢٢٨

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ...... (٦٦)﴾ ٢٣١

﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا (٦٧)﴾ ٢٣١

﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا (٦٨)﴾ ٢٣١

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ...... (٦٩)﴾ ٢٣٤

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا (٧٠)﴾ ٢٣٤

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا (٧١)﴾ ٢٣٧

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ...... (٧٢)﴾ ٢٣٨

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ ...... (٧٣)﴾ ٢٤٠

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ...... ﴿٧٤﴾ ٢٤٢
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ...... ﴿٧٥﴾ ٢٤٤
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ...... ﴿٧٦﴾ ٢٤٨
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ...... ﴿٧٧﴾ .. ٢٥٠
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ...... ﴿٧٨﴾ ٢٥٥
﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ...... ﴿٧٩﴾ ٢٥٧
﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ٢٦١
﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ...... ﴿٨١﴾ ٢٦٣
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ٢٦٦
﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ ...... ﴿٨٣﴾ ٢٦٩
﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ ...... ﴿٨٤﴾ ٢٧٤
﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ...... ﴿٨٥﴾ ٢٧٨
﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٢٨٢
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ ...... ﴿٨٧﴾ ٢٨٨
﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ...... ﴿٨٨﴾ ٢٨٩
﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ...... ﴿٨٩﴾ ٢٩٢
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ...... ﴿٩٠﴾ ٢٩٥
﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ ...... ﴿٩١﴾ ٢٩٧
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا ...... ﴿٩٢﴾ ٣٠٠
﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ...... ﴿٩٣﴾ ٣٠٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ ...... ﴿٩٤﴾ ٣١٠
﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...... ﴿٩٥﴾ ٣١٤
﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ٣١٤
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ...... ﴿٩٧﴾ ٣١٩
﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ٣٢٤
﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ٣٢٤

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ ...... ﴿١٠٠﴾﴾ ٣٢٦
﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ...... ﴿١٠١﴾﴾ ٣٢٩
﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ...... ﴿١٠٢﴾﴾ ٣٣٢
﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ...... ﴿١٠٣﴾﴾ ٣٣٩
﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ...... ﴿١٠٤﴾﴾ ٣٤١
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ...... ﴿١٠٥﴾﴾ ٣٤٤
﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ ٣٤٤
﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ ٣٤٨
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ...... ﴿١٠٨﴾﴾ ٣٥٠
﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ ...... ﴿١٠٩﴾﴾ ٣٥٢
﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ ٣٥٤
﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ ٣٥٨
﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ ٣٦٠
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ...... ﴿١١٣﴾﴾ ٣٦٢
﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ ...... ﴿١١٤﴾﴾ ٣٦٦
﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ ...... ﴿١١٥﴾﴾ ٣٧٠
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ...... ﴿١١٦﴾﴾ ٣٧٤
﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ ٣٧٧
﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ ٣٨٠
﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ...... ﴿١١٩﴾﴾ ٣٨٢
﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ ٣٨٥
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ ٣٨٨
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ ...... ﴿١٢٢﴾﴾ ٣٨٨
﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ...... ﴿١٢٣﴾﴾ ٣٩١
﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ...... ﴿١٢٤﴾﴾ ٣٩٤
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ...... ﴿١٢٥﴾﴾ ٣٩٧

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)﴾ ٣٩٩

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ...... (١٢٧)﴾ ... ٤٠١

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا ...... (١٢٨)﴾ ٤٠٦

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ...... (١٢٩)﴾ ... ٤١٠

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾ ٤١٣

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ...... (١٣١)﴾ ٤١٥

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢)﴾ ٤١٨

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)﴾ ٤١٩

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)﴾ ٤٢٢

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ...... (١٣٥)﴾ ٤٢٥

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ...... (١٣٦)﴾ ٤٢٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ...... (١٣٧)﴾ ٤٣١

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)﴾ ٤٣٤

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ...... (١٣٩)﴾ ٤٣٤

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ...... (١٤٠)﴾ ٤٣٧

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...... (١٤١)﴾ ٤٤١

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ...... (١٤٢)﴾ ٤٤٥

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾ ٤٥٠

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...... (١٤٤)﴾ ٤٥٢

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ ٤٥٤

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ...... (١٤٦)﴾ ٤٥٦

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ ٤٥٩

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)﴾ ٤٦٠

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾ ٤٦٤

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ...... (١٥٠)﴾ ٤٦٦

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)﴾ ٤٦٦

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ...... (١٥٢)﴾ ٤٦٩
﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ ...... (١٥٣)﴾ ٤٧١
﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ...... (١٥٤)﴾ .. ٤٧٥
﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ...... (١٥٥)﴾ ٤٧٧
﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا (١٥٦)﴾ ٤٧٩
﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ...... (١٥٧)﴾ ٤٨٠
﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾ ٤٨٣
﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ ٤٨٦
﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾ ٤٩١
﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾ ٤٩٤
﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...... (١٦٢)﴾ ٤٩٦
﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ...... (١٦٣)﴾ .. ٤٩٩
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ...... (١٦٤)﴾ ٥٠٢
﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ...... (١٦٥)﴾ ٥٠٤
﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ...... (١٦٦)﴾ ٥٠٧
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا (١٦٧)﴾ ٥٠٩
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)﴾ ٥٠٩
﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ ٥٠٩
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ...... (١٧٠)﴾ ٥١٢
﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ...... (١٧١)﴾ ٥١٥
﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ...... (١٧٢)﴾ ٥١٩
﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ...... (١٧٣)﴾ ٥٢١
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾ ٥٢٣
﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ...... (١٧٥)﴾ ٥٢٣
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ...... (١٧٦)﴾ ٥٢٥

تَفْسِيرٌ أَثَرِيٌّ تَرْبَوِيٌّ مُعَاصِرٌ

تَسْهِيلًا لِلتَّدَبُّرِ وَالعَيْشِ مَعَ القُرْآنِ

مجموعة زاد
ZAD GROUP